الدكتور علي الوردي

استاذ علم الاجتماع

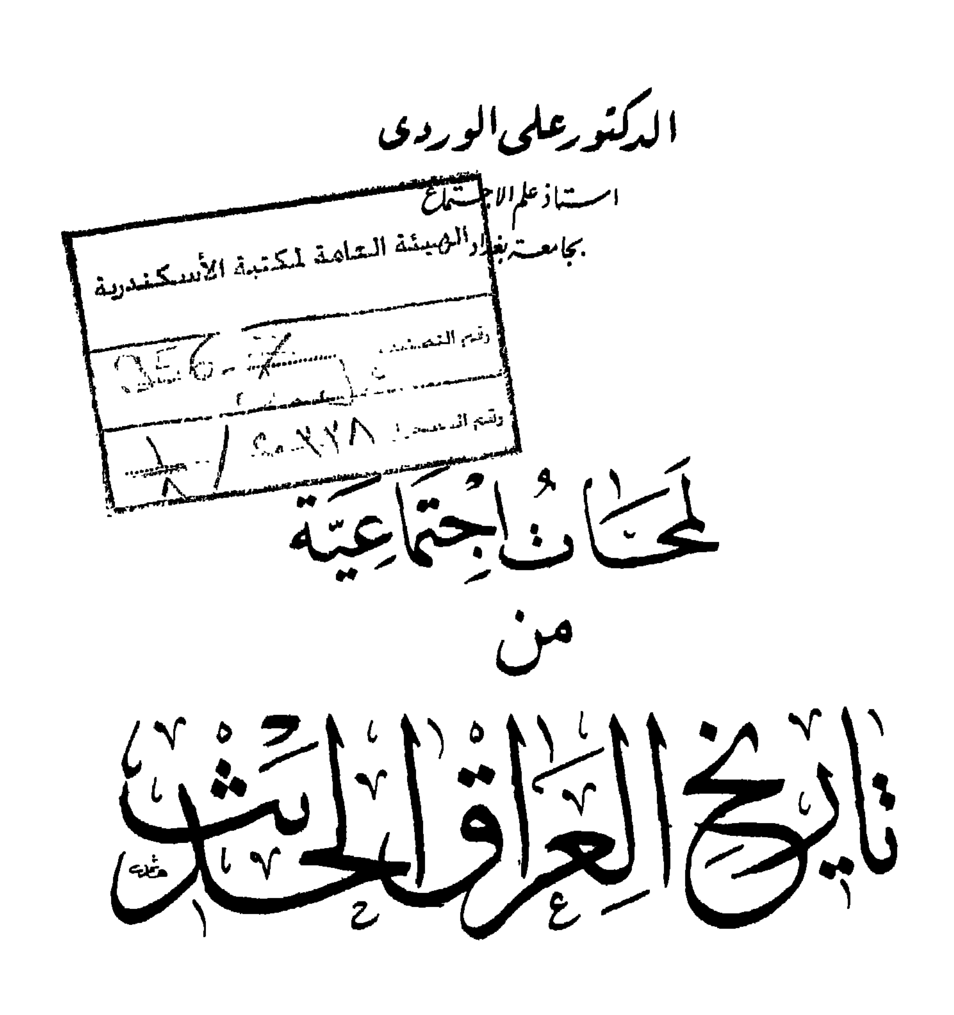
بجامعة بغداد



الجزء الاول

من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر

الدكتور علي الوردي
استاذ علم الاجتماع
بجامعة بغداد



لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الاول

من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر

هوية الكتاب :

الكتاب : .. . . لمحات اجتماعيه من تاريخ العراق

المؤلف : .. . . الدكتور علي الوردي

الناشر : . . . . .انتشارات الشريف الرضي

عدد الصفحات : .. .. ١٢٤٤ صفحه وزيري

سنة الطبع : . ... ١٣٧١ ـ ١٤١٣

عدد المطبوع : .... ١٠٠٠ دوره

المطبعة : . . ..امير ـ قم

الطبعة : .. . .الاولى في ايران

السعر : . ... ٢٥٠٠٠ ريال

مقدمة الكتاب

عند دراستي للمجتمع العراقي ـ وهو الموضوع الذي أولعت به زمناً غير قصير ـ أدركت أني لا أستطيع أن أفهم المجتمع في وضعه الراهن ما لم أفهم الأحداث التي مرت به في عهوده الماضية ، فكل حدث من تلك الاحداث لابد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حالياً وفي تفكيرهم .

من الممكن تشبيه المجتمع في هذا الشأن بشخصية الانسان البالغ إذ هي في حاضرها تتأثر بما حدث لها في ماضيها ، وهذا التأثير قد يكون لا شعورياً انما هو موجود على أي حال وهو قد يظهر بمظهر العقدة النفسية التي تدفع الانسان نحو بعض الافعال « السخيفة » إذ هو يفعلها مرغماً بتأثير حافز لا إرادي يسيطر عليه . أكاد أعتقد أن المجتمع لا يختلف عن الفرد في هذا ، فكثيراً ما تخلق الأحداث الماضية في المجتمع عقدة كالعقدة النفسية حيث نرى الناس يندفعون ببعض العادات والافكار الموروثة اندفاعاً لا شعوريا ، وقد يؤدي ذلك بهم الى المهالك بينما هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . وسوف نرى في هذا الكتاب نماذج واقعية من هذا الطراز .

اقتصرت في هذا الكتاب على دراسة الاحداث التاريخية منذ بداية العهد العثماني ، وكنت أود أن أدرس ما قبل ذلك لان عهود التاريخ في الواقع مترابطة ومتشابكة ، وان كل عهد منها يصعب فهمه بغير الرجوع الى دراسة ما قبله ، ولكني وجدت أن ذلك يشبه أن يكون مستحيلا من الناحية العملية إذ هو يضطرنا الى استقراء الاحداث الماضية خطوة وراء خطوة حتى نصل بها الى أبينا آدم ...

قد يصح القول إن دراسة العهد العثماني هي أشد الدراسات

علاقة بواقع مجتمعنا الراهن ، فنحن لا نزال نعيش في تراثه الاجتماعي ولا يزال الكثيرون منا يفكّرون على نمط ما كانوا يفكرون عليه في ذلك العهد ، وقد أدركت في صباي أناساً يحنّون اليه ويترنمون بأمجاده ويتمنّون أن يعود اليهم .

الاجتماع والتاريخ :

كنت قد حاولت في كتابي السابق[١] دراسة ما كان عليه العراق في العهد العثماني من وضع اجتماعي عام ، وسأحاول الآن دراسة الاحداث التاريخية التي وقعت في ذلك العهد . ولا حاجة بي الى القول إن هذين الأمرين مترابطان ترابطاً وثيقاً يصعب الفصل بينهما ولهذا سوف يجد القارىء في الكتاب الحالي كثيراً من التحليل الاجتماعي كمثل ما وجد في الكتاب السابق كثيراً من السرد التاريخي .

ان هذا الكتاب على أي حال يشبه أن يكون كتاب تاريخ بيد أنه يختلف عن كتب التاريخ المعتادة بكونه لا يهتم بالاحداث الماضية لذاتها على منوال ما يفعل المؤرخون بل هو يهتم في الدرجة الأولى بما تنطوي عليه الاحداث من دلالة فكرية واجتماعية ، أما الاستقراء التاريخي فيأتي في أهميته بالدرجة الثانية .

اني لست مؤرخاً انما أعتمد فيما أكتبه على المؤرخين ، وقد عانيت في ذلك صعوبة غير قليلة إذ أن تاريخ العراق في العهد العثماني لا يزال يكتنفه الغموض من بعض نواحيه ، ولابد للباحث من التحري في الكثير من المراجع لكي يعثر على حادثة لها دلالتها الاجتماعية أو الفكرية .

وهناك صعوبة أخرى تواجهنا في هذا الشأن هو أن تاريخ العراق متشابك مع تواريخ البلاد المجاورة وهذا يقتضي البحث في تلك

(١) وهو الكتاب الذي عنوانه « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » بغداد ١٩٦٥ .

التواريخ علاوة على بحث التاريخ الخاص بالعراق • سيجد القارىء انـي أطنبت أحياناً في سرد الأحداث التي وقعت في ايران وتركيا ، ثم في نجـد ومصر وبلاد الشام ، وهذا أمر أحسبه ضرورياً لفهم احداث العراق • وقد يصح القول إن كثيراً من أحداث العراق لم يكن سوى صدى لما حدث في الاقطار المجاورة •

مشكلة الموضوعية :

إن هذا الكتاب قد يجوز أن أعدّه « كتاب العمر » بالنسبة لي ، فقد بذلت فيه من الجهد والوقت اكثر مما بذلت في أي كتاب آخر سـبق له • وقد جعلته عدة اجزاء أكملت منها حتى الآن أربعة ، والمأمول أن أتابع البحث في تاريخ العراق الحديث حتى أصل به الى الوقت الحاضر الـذي نعيش فيه ، وهذا ما استمد العون عليه منه تعالى !

ولابد لي في هذه المقدمة العامة أن أشير الى مشكلة طالما عانيت منها في كتبي السابقة وهي مشكلة الموضوعية والحياد في الدراسة • فسوف نأتي في بعض فصول هذا الكتاب على أمور تعتبر حساسة جداً في نظـر الكثيرين من العراق ، وقد اعتاد هؤلاء أن ينظروا في أحداث التاريخ كمثل ما ينظرون نحو هرم (له عدة أوجه) فكل فريق منهم يركز نظره على وجه واحد منه بينما هو يهمل الأوجه الأخرى •

حين نشهد معركة من معارك النساء في أحد ازقة بغداد القديمة نستطيع أن نفهم طبيعة تلك النظرة « الجزئية » التي اعتاد عليهـا الكثيرون منا ، فان المعركة تبدأ عادة بحدوث شجار بين طفلين فيؤذى كل منهمـا الآخر ، وعند هذا تخرج أم كل واحد منهما صائحة نادبة حيث نراهـا تبالغ في تقدير الاذى الذي وقع على طفلها بينما هي تتناسى ما أوقع طفلهـا على خصمه من الأذى ، والأم الأخرى تفعل مثلها طبعاً ، وبذا قد تتضـخم المعركة تدريجاً وتمتد الى الرجال وسائر الأقارب • وبمرور الأيام قد تتطور

المعركة فتصبح تراثاً عائلياً مليئاً بالأحقاد والثارات • ومن يستمع الى احدى العائلتين وهي تقص قصتها يجد بوناً شاسعاً بينها وبين قصة العائلة الأخرى ، فكل عائلة تصوّر الأحداث من الوجهة التي تلائمها وتنسى الوجهات الأخرى •

لعلني لا أغالي اذا قلت إن أكثر المنازعات الطائفية والسياسية والقبلية التي يزخر بها تاريخنا هي في أساسها الاجتماعي لا تختلف عن معركة النساء الآنفة الذكر • وهذا هو الذي جعل مهمة الباحث المحايد ـ أو الذي يحاول أن يكون محايداً ـ عسيرة جداً ، إذ هو يمسى مكروهاً من الجميع • فهو يريد أن يتحرى الحقيقة الموضوعية لدى كل فريق منهم ، بينما يريد كل فريق منهم أن يلتزم الباحث جانبه وحده •

التنويم الاجتماعي :

لا يذهب ظن القاريء الى أن العراقيين يختلفون في هذا عن غيرهم من البشر ، فالواقع أن النظرة « الجزئية » طبيعة بشرية عامة وهي انما تختلف شدة وضعفاً ـ في الافراد أو في الجماعات ـ حسب اختلاف الظروف •

إن الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه من بعض الوجوه التنويم المغناطيسي وهو ما يمكن أن نسميه بـ « التنويم الاجتماعي » • فالمجتمع يسلّط على الانسان منذ طفولته الباكرة ايحاءاً مكرراً في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معيّنة يصعب الخروج منها • وهذا هو الذي جعل الانسان الذي نشأ في بيئة معينة ينطبع تفكيره غالباً بما في تلك البيئة من عقائد دينية وميول سياسية واتجاهات عاطفية وما أشبه ، فهو يظن أنه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ولا يدري أنه في الحقيقة صنيعة بيئته الاجتماعية ، ولو أنه نشأ في بيئة أخرى لكان تفكيره على نمط آخر •

دلّت الابحاث النفسية الحديثة التي أجريت في مجال التنويم المغناطيسي على أن الانسان قد يتأثر بالتنويم الى درجة يرى فيها أشياء أو يسمع أصواتاً غير موجودة ، وهو أثناء التنويم قد يتصور الأبيض أسود والأسود أبيض ، ولو قرّبت الى أنفه زجاجة تنبعث منها رائحة كريهة وأوحي اليه بأنها رائحة طيّبة لظهر على وجهه الارتياح كأنه يشم الطيب فعلاً[1] .

إن التنويم المغناطيسي في حقيقته ليس سوى إيحاء مكرر يسلّط على الانسان حيث يقال له مرة بعد مرة إنه يرى شيئاً معيناً فتنطبع الصورة الموحى بها في ذهنه تدريجاً حتى تبدو كأنه يراها رأى العين أو يلمسها لمس اليد . وقد يصح أن أقول ان التنويم الاجتماعي يفعل مثل ذلك في الكثير من الناس بحيث يجعلهم يرون الأبيض أسود والأسود أبيض وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم يرون الحق الذي لا شك فيه .

القوقعة الجديدة :

إن الفرد الذي يعيش طيلة حياته في بيئة مغلقة ـ كما هو الحال في القبائل والقرى المنعزلة ـ يظل خاضعاً للتنويم الاجتماعي في كبره فيرى الامور من خلال ما أوحى به اليه في مجتمعه الضيق ، وهو يبقى كذلك حتى ساعة موته . أما الذي يعيش في بيئة مفتوحة فانه عندما يكبر يقع تحت تأثير ايحاءات اجتماعية من أنماط شتى ، وبهذا يخرج من قوقعته الفكرية التي نشأ عليها في بيئته الاولى ويدخل في عالم جديد يحتوي على الكثير من وجهات النظر وصراع الأفكار والجماعات .

إن أكثر الافراد في مثل هذه الحالة ، إذ يخرجون من قوقعتهم الفكرية القديمة ، قد يدخلون في قوقعة جديدة لها بريق يجذبهم اليها .

---

(١) انظر في موضوع التنويم المغناطيسي والتنويم الاجتماعي كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » للمؤلف ـ بغداد ١٩٥٩ .

ومن طبيعة الانسان بوجه عام أنه يميل الى الطمأنينة في داخل قوقعة تحميه كما يفعل الحلزون ، ولهذا فهو حين يخرج من قوقعته القديمة يحب الدخول في قوقعة جديدة . وهذا هو ما حدث فعلاً في مجتمعنا في مرحلته الراهنة التي بدأت منذ الحرب العالمية الأولى كما سنأتي اليه في جزء قادم من هذا الكتاب .

تتميز المرحلة الراهنة بما نسميه بـ « الحماس الجمعي » ، وهذا الحماس كأي شيء آخر في الوجود له محاسنه ومساوئه ، فهو من جهة يثير الجماهير ويبث فيهم نزعة الفداء والتضحية ولكنه من الجهة الأخرى يحجب عنهم النظرة الموضوعية ويجعل مهمة الباحث المحايد بينهم عسيرة .

صدق من قال : « إن حماس الجماهير هو وقود التاريخ » ، فالحماس هو الذي يحرك الشعوب ، ومن الممكن القول إن الشعب البارد الذي لا يتحمس لقضاياه العامة قد يكون طعمة لكل فاتح طامع أو مستغل ظالم . ولكن الذي أريد أن ألفت النظر اليه في هذا الصدد هو أن الحماس لا يكفي وحده لنجاح الشعوب في مضمار الحياة الحديثة ، بل لابد أن تتواسق معه من الجانب الآخر دقة النظر وموضوعيته .

يمكن تشبيه المجتمع الناجح في العصر الحديث بالجيش الذي يدخل معركة حاسمة إذ هو يجب أن تتوازن فيه حكمة القيادة مع حماس الجنود ، فالجيش لا يستطيع أن ينتصر في المعركة اذا كان جنوده لا يتحمسون عند القتال ، وكذلك لا يستطيع أن ينتصر اذا كانت القيادة فيه يسيطر على أحكامها الحماس . ان القائد المتحمس قد يدفع جنوده نحو الهزيمة المحتومة وهو يحسب أنه سائر بهم نحو النصر الأكيد .

إننا ـ في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا ـ في أشد الحاجة الى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس !

مقدمة الجزء الاول

ان هذا الجزء من الكتاب يستوعب فترة طويلة نسبياً تمتد من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، أي أنها تشمل الجزء الاكبر من الزمن الذي حكم العثمانيون فيه العراق ، والملاحظ أن أهم ما تميز به المجتمع العراقي في تلك الفترة أمران : أولهما الصراع التركي الايراني على العراق وما جرّ وراءه من نزاع طائفي شديد بين الشيعة وأهل السنة ، والثاني سيطرة المد البدوي على العراق حتى صار الناس فيه كأنهم قد انتكصوا الى عادات الجاهلية الاولى • وفي رأيي أن هذين الأمرين يمثلان المحور الذي كانت الحياة الاجتماعية في العراق تدور حوله ولا يزال بعض أثره باقياً حتى الآن • وسأحاول في هذه المقدمة تحليل هذا الموضوع واستقصاء بعض الجوانب النفسية والاجتماعية منه بقدر الامكان لكي يكون القاريء على بصيرة من أمره عند قراءة الفصول التالية •

الايرانيون والتشيع :

أرى من المناسب قبل أن أبدأ بالموضوع أن أشير الى خطأ شائع لا يزال الكثيرون منا يعتقدون بصحته وهو أن ايران كانت الموطن الأصلي الذي انبثق منه مذهب التشيع منذ بداية أمره وأن هذا المذهب انما جاء الى العراق من ايران •

إن الابحاث التاريخية الحديثة تشير الى العكس من هذا الرأي تماماً ، حيث ثبت أن العراق هو منبع التشيع وقد انتقل التشيع منه الى ايران والى غيرها من البلاد الاسلامية ، وهناك حقيقة تاريخية يكاد يجمع عليها الباحثون الآن وهي أن الايرانيين كانوا في الغالب من أهل السنة والجماعة وقد ظلوا كذلك حتى بداية القرن العاشر الهجري ــ أي القرن السادس عشر الميلادي ــ وهم لم يدخلوا مذهب التشيع الا منذ ذلك القرن على إثر ظهور

الدولة الصفوية هناك .

لا يُنكر أن ايران كانت قبل ظهور الدولة الصفوية تحتو
غير قليل من الشيعة ، ولكن هؤلاء كانوا محصـــورين في مدن
ونيسابور ، أما بقية المدن الايرانية ولا سيما الكبيرة منها كاصف
وخراسان وتبريز فكان سكانها ـ كلهم أو معظمهم ـ سنيين .

ومما يجدر ذكره في هـــذا الصدد أن الايرانيين عندما
اشتهروا بان أكثر علماء السنة منهم ، وقد استفاضت هذه الشهرة
نسب الرواة الى النبي حديثاً في تأييدها هو : « لو تعلّق العلم بأك
لناله قوم من أهل فارس » . وعقد ابن خلدون فصلاً في مقدمت
تعليل ذلك في ضوء نظريته العامة حول خصائص البداوة والحض

سواء أصحت نظرية ابن خلدون في هذا الشأن أم لم تص
أن المجتمع الايراني كان ذا ميل قوي نحو طلب العلم والانهماك
وجه من الوجوه ، وقد شهدنا أثر ذلك عندما تحول الايرانيون
حيث أصبح اكثر علماء الشيعة منهم . والمعروف عن الدولة الص
عندما كانت تعمل على « تشييع » الايرانيين في البداية استعانت
العرب ، فاستقدمت منهم عدداً من جبل عامل ومن البحرين(٢) ،
على ذلك سوى فترة قصيرة من الزمن حتى أخذ العلماء يظهرو
الايرانيين أنفسهم ، ونبغ اذ ذاك أفذاذ مشهورون لا يقلون في
الفكري عن أسلافهم الأولين ، ولكن الفرق بينهم وبين أسلافهم
شيعة بينما كان أسلافهم من أهل السنة .

---

(١) ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون) ـ تحقيق علي عبدال
ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ج٤ ص١٢٤٧ ـ ١٢٥٠ .

Edward Browne (A. Literary History of Persia)
.bridge 1953—vol IV p. 360.

ـــ صارت اصفهان في العهد الصفوي عاصمة الدولة ومركز العلم الشيعي • وعلى إثر انهيار الدولة الصفوية وشيوع الفوضى في ايران انتقل مركز العلم الى كربلاء وظل فيها حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ومنذ ذلك الحين أخذ المركز يتحول الى بلدة النجف واستقر فيها حتى يومنا هذا ويبدو أنه استقر فيها نهائياً ولن يتحول عنها •

إن الذي نريد أن نستنتجه من هذا هو أن ايران بعد أن تحولت الى التشيع أخذت تؤثر في المجتمع العراقي تأثيراً غير قليل ، فقد بدأ التقارب بين الايرانيين وشيعة العراق ينمو بمرور الأيام ، وصارت قوافل الايرانيين تتوارد تباعاً الى العراق من أجل زيارة العتبات المقدسة أو طلب العلم أو دفن الموتى أو غير ذلك •

وقد نشأ في العراق من جراء ذلك وضع اجتماعي فريد في بابه هو أن الشيعة الذين يؤلفون أكثرية السكان في العراق هم من العرب بينما أكثرية علمائهم من الايرانيين •

يأتي الطلاب الايرانيون الى العراق لتلقي الدروس الدينية في مدارس النجف أو كربلا ، فمنهم من يعود الى وطنه بعد الانتهاء من دراسته ، ومنهم من يبقى • ومن الطبيعي أن الذين يبقون منهم يظلون على صلة مستمرة بوطنهم الأول ، فاذا حدث في ايران أي صراع ديني أو سياسي فسرعان ما ينتقل أثره الى العراق عن طريقهم إذ أن الجدال الذي ينشب بين رجال الدين في ايران لابد أن يصل اليهم على وجه من الوجوه ، فيتجادلون هم بدورهم ، وكثيراً ما ينتشر عدوى الجدال الى العامة وربما أدى الى استفحال الخصومة وتبادل الشتائم بينهم • وهذا هو ما وقع فعلاً في قضية « التنباك » التي حدثت في عام ١٨٩٠ ، وقضية المشروطية التي حدثت في عام ١٩٠٦ ، وغيرها من القضايا التي سنأتي الى بعضها في هذا الجزء أو الاجزاء التالية له •

إن هذا الوضع ليس من شأنه أن تكون له تلك الاهمية لو قدر للعراق أن يكون جزءاً من الدولة الايرانية ، ولكن القدر شاء للعراق أن يكون جزءاً من الدولة العثمانية ، وبهذا صار المجتمع العراقي منشقاً على نفسه لا يدرى أين يتجه ، فحكومته كانت مرتبطة بتركيا تأخذ أوامرها منها بينما كانت أكثرية شعبه مرتبطة بايران •

استفحال الصراع الطائفي :

كانت الدولة العثمانية قد ظهرت في تركيا منذ القرن السابع الهجري، غير أنها اتجهت في توسعها أولاً نحو الغرب باتجاه أوربا ، وهي لم تتجه نحو الشرق أي باتجاه العراق وغيره من البلاد العربية ألا بعد ظهور الدولة الصفوية في ايران • ومنذ ذلك الحين صار العراق موضع نزاع عنيف بين الدولتين الايرانية والعثمانية واستمر كذلك ما يزيد على الثلاثة قرون ، ومن هنا نشأ المثل المشهور في العراق : «بين العجم والروم بلوى ابتلينا»[1] • إن هذه « البلوى » التي ابتلي بها العراق اذ ذاك نشأت من كون الدولة الايرانية اتخذت التشيع شعاراً لها بينما اتخذت الدولة العثمانية شعار التسنن ، فأدى ذلك الى استفحال الصراع الطائفي في العراق الى درجة لا تطاق •

يجب أن لاننسى أن الصراع الطائفي كان موجوداً في العراق منذ صدر الاسلام ، وطالما شهدت بغداد في العهد العباسي معارك بين المحلات السنية والشيعية يسقط فيها الكثير من القتلى ، وتحرق البيوت والاسواق ، وتنتهك حرمة المراقد المقدسة • ولكن هذا الصراع بلغ أوجه عندما حدث التنازع على العراق بين الدولتين الايرانية والعثمانية حيث صار أهل العراق

---

(١) مما يلفت النظر أن العراقيين ـ والعرب عموماً ـ كانوا يطلقون على الأتراك اسم « الروم » ، والظاهر ان ذلك نشأ من كون الاتراك جاءوا الى البلاد العربية من جهة الروم •

لا يفهمون من شؤون حياتهم العامة سوى أخبار هذه الدولة أو تلك ، وكل فريق منهم يدعو الله أن ينصر احداهما ويخذل الأخرى •

لم يكن أهل العراق في ذلك الحين يعرفون شيئاً من المفاهيم السياسية الحديثة كالوطنية أو القومية أو الاستقلال ، بل كان جلّ ما يشغل بالهم هو الاحساس الديني المتمثل بالتعصب المذهبي • ومعنى هذا أنهم لم يكونوا يعتبرون الايرانيين أو الأتراك أجانب هدفهم احتلال البلاد والانتفاع بخيراتها ، انما كان كل فريق منهم ينظر الى الدولة التي تنتمي الى مذهبه كأنها حامية الدين ومنقذة الرعية •

وقد ظلت هذه النظرة سائدة بين العوام حتى عهد قريب ، وكان من مظاهرها تقديسهم للمدفع المعروف باسم « طوب أبو خزامة » ، فهذا المدفع جاء به السلطان مراد الرابع لفتح بغداد ثم تركه فيها ، وقد انثال العوام يتبركون به بعدئذٍ مع العلم أنه لم يكن سوى اداة من ادوات « احتلال » العراق و « استعماره » حسب مفاهيم العصر الحديث •

ان الصراع الطائفي يقوم في ظاهره على أساس الخصومة بين من يدّعي التمسك بأصحاب النبي ومن يدعي التمسك بأهل بيته • والواقع أن الدولتين العثمانية والايرانية كانتا متماثلتين من حيث بعدهما عما كان يدعو اليه أصحاب النبي وأهل بيته معاً ، إذ كانت كلتاهما من الدول الاستبدادية القديمة التي لم يكن لها أي شبه كثير أو قليل بالدولة الاسلامية التي شهدناها في عهد النبي وخلفائه الراشدين •

لم يكن أهل العراق في العهد العثماني يدركون هذا ، أو يستطيعون أن يدركوه ، فقد كان يكفيهم أن تكون الدولة على مذهبهم فتشيّد قبور ائمتهم وتعتني باقامة الطقوس والمظاهر الدينية الخاصة بهم ، ولا بأس بعدئذ أن تفعل الدولة ما تشتهي فذلك أمر لا يهمهم ولا يعتقدون أن له دخلاً بالدين •

مبدأ الشفاعة :

يمكن القول إن العقيدة الدينية كانت آنذاك ترتكز في بعض أسسها على مبدأ الشفاعة فالناس حين يدّعون التمسك بالصحابة أو بأهل البيت لم يكن قصدهم من ذلك اتباع طريقتهم في الحياة ، بل كان قصدهم الحصول على شفاعتهم يوم القيامة .

كان الناس يعتقدون أن الدنيا فانية وهي لا تستحق أن يهتم بها الانسان إنما يجب عليه أن يهتم بأمور الآخرة بدلاً عنها ، وأهم وسيلة للفوز الأخروي في نظرهم هو القيام بالطقوس الدينية من جهة والحصول على شفاعة المقرّبين عند الله من الجهة الأخرى ، أما الاخلاق وحسن المعاملة وما أشبه فهي ليست ذات أهمية كبيرة لأن جميع الذنوب في نظرهم قد يغفرها الله بوساطة الشفعاء الذين يحبهم الله حباً جماً ولا يردّ لهم أي طلب .

لا يخفى أن مبدأ الشفاعة هذا منبثق من طبيعة الحكم الذي اعتاد الناس عليه في العصور القديمة ، فهم قد اعتادوا أن يروا الشخص المقرّب من السلطان قادراً أن ينقذ أي انسان من حبل المشنقة أو يجعله يحظى بالجوائز والمال الوفير ، وقد انعكست هذه النظرة على عقيدتهم الدينية فصاروا يعتقدون أن الشفاعة لها أهمية عند الله في الآخرة كمثل أهميتها عند السلاطين في الدنيا .

إن هذا قد يساعدنا على تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية المتناقضة التي كان العهد العثماني يزخر بها من حيث اهتمام الناس ـ حكومة وشعباً ـ بتعمير المساجد والمراقد المقدسة ، وشدة العناية بالطقوس والمظاهر الدينية ، في الوقت الذي كان فيه الظلم والنهب والاعتداء شائعاً بين الناس ـ فالحكومة تظلم الناس ، والناس يظلمون بعضهم بعضاً ، ولكن الجميع واثقون بأنهم سيدخلون الجنة غداً بوساطة الشفعاء الكرام .

إن أهم قضية يثور الجدل حولها بين الشيعة وأهل السنة هي قضية الخلافة أي من يجب أن يكون الخليفة بعد وفاة النبي ـ علي أم أبو بكر . ومن ينظر الآن في هذه القضية نظرة عصرية محايدة يشعر أنها من قضايا الماضي البعيد وليست لها أية أهمية أو علاقة بواقعنا الراهن . ولكن العراقيين كانوا ينظرون فيها من وجهة نظر أخرى ، فهم حين يعتقدون بان فلاناً أجدر من فلان بالخلافة يحسبون ان ذلك سينفعهم يوم القيامة لان فلانا سيشفع لهم بين يدى الله ولابد أن ينقذهم بشفاعته من عذاب الجحيم !

تدور عقيدة الشيعة حول أهل البيت ، فهؤلاء في نظر الشيعة هم وحدهم المقربون الى الله والقادرون على الشفاعة المنجية ، ومن يريد أن يحظى بشفاعتهم يجب عليه أن يتولاهم ويتبرأ من أعدائهم ولا يجوز له أن يحبهم ويحب أعداءهم في آن واحد . أما أهل السنة فاتخذوا عقيدة أخرى تتلخص بالعبارة المعروفة : « نحب الكل ونحظى بالكل » ـ أي أنهم يحبون أبا بكر وعلياً معاً كما يحبون الصحابة وأهل البيت جميعاً ـ ولذلك فهم سينالون حسب عقيدتهم شفاعة الكل[1] .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن مبدأ الشفاعة موجود في كل الطوائف والأديان على وجه من الوجوه ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا المبدأ يضعف تأثيره في المرحلة الأولى من نشأة الدعوة الدينية ، فالناس اذ ذاك يهتمون بالعمل الصالح اكثر من اهتمامهم بمبدأ الشفاعة ، انما هم بعد مرور الزمن عليهم وانتكاصهم تدريجاً الى قيمهم الاجتماعية القديمة

---

(١) يروي طالب مشتاق قصة طريفة في هذا الشأن وهي أنه بحكم ولادته في الكاظمية وهي بلدة شيعية نشأ شيعياً فأخذت جدته تنصحه بأن يترك التشيع ويعتنق مذهب السنة ، وكانت تكرر عليه دائماً قولها : « إننا يا بني نحب الكل ونحظى بشفاعة الكل » ، غير أنه كان يهزأ بها ولا يعير قولها أي اهتمام ...

انظر : طالب مشتاق (أوراق أيامي) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ج١ ص١٠ .

ـ حيث يعودون الى التكالب على الدنيا وينسون تعاليم الدين ـ يجدون أنفسهم أنهم قد انغمسوا في الذنوب وأن ليس لهم من أمل في النجاة الا اذا كان لديهم رجل وجيه عند الله يتشفع لهم . إنهم في هذا كالمجرم الذي هو على وشك أن يحال الى المحكمة إذ هو لا يجد أملاً في النجاة الا عن طريق الوساطة ، ولذا نراه يلتجىء الى الوسيط طالباً « دخالته » متضرعاً بين يديه وهو يظن أن الوسيط لابد أن يرق قلبه أو تدفعه المروءة والشهامة فيقوم بالوساطة له على أي حال .

يمكن القول إن مبدأ الشفاعة يشبع حاجة نفسية عند الناس ، وهم لا يكتفون باللجوء اليه من أجل غفران ذنوبهم فقط ، بل يلجأون اليه أيضاً عندما يحتاجون الى وسيط في أمورهم الدنيوية ، فاذا تمرض شخص عزيز عليهم ، أو حل بهم الفقر وتراكمت عليهم الديون ، أو انتشر بينهم وباء أو داهمتهم كارثة ، أسرعوا الى قبر أحد الائمة أو الاولياء يبكون عنده ويستغيثون . فهم قلما يدعون الله في حاجة لهم لأنهم يتصورون الله كالسلطان لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق المقربين منه من ذوي الجاه الكبير والمقامات الرفيعة .

خلاصة القول أننا لا نستطيع أن نفهم سر الكثير من مظاهر التدين ـ في المجتمع العراقي وغيره من المجتمعات المشابهة له ـ ما لم نفهم مبدأ الشفاعة ومبلغ تغلغله في أعماق القلوب ، إن الناس قد ينكرون أثر هذا المبدأ فيهم أحياناً لكنهم خاضعون لتأثيره من حيث لا يشعرون ولولاه لأحسوا بالضياع .

اخلاق اهل العراق :

كان العراقيون في العهد العثماني أقرب الى أخلاق البداوة منهم الى أخلاق الاسلام ، وسبب ذلك يعود الى سيطرة « المد البدوي » عليهم . وليس هنا مجال التبسط في هذا الموضوع ، يكفي أن أقول إن هناك تبايناً كبيراً بين أخلاق البداوة وأخلاق الاسلام إذ أن البداوة تمجد قيم العصبية والثأر والغزو والنهب والدخالة وقتل المرأة لغسل العار وما أشبه ، بينما يشجب الاسلام تلك القيم ويعدها من عادات الجاهلية المنهي عنها . والواقع أنها على الرغم من شجب الاسلام لها كانت شائعة في العهد العثماني وكان الكثير من الناس يمجدونها ، ولم يكن من النادر أن نراهم يفخرون بالرجل الذي يهزّ الارض بأقدامه اذا مشى ، ويكسر عيون الناس دون أن يتمكن أحد من كسر عينه ، ويسطو على البيوت ليلاً بدافع الرجولة ، وهم عندئذٍ يصفونه بأنه « سبع » أو « رجل ليل » أو « فخر العشيرة » أو غير ذلك من صفات المديح .

الواقع ان « المد البدوي » طالما راود المجتمع العراقي – مرة بعد مرة – خلال عصور التاريخ ، فهو يأتيه تارة وينزاح عنه تارة أخرى . ويرجع السبب في ذلك على الاكثر الى كون الصحراء التي تتاخم العراق هي من أعظم منابع البداوة في العالم – إن لم تكن أعظمها على الأطلاق – وليس هناك حاجز طبيعي يحجز بينها وبينه ، ولذا كانت القبائل البدوية على استعداد دائماً لدخول العراق والسكنى فيه ، وهي تفعل ذلك حالما تجد الفرصة مؤاتية لها كما في فترات الفوضى والحروب ، أو على إثر انتشار الأوبئة الكاسحة ، أو في الأوقات التي تكون فيها الحكومة ضعيفة مهملة والحضارة مضمحلة – وعندئذ تتغلغل القبائل البدوية في أنحاء العراق فتسيطر على الطرق وتهدّد المدن والقرى مما يؤدي بسكانها الى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وبهذا تنتشر قيم العصبية والثأر والغزو بينهم .

وهناك سبب آخر يمكن أن يؤتى به في هذا الصدد وهو أن مياه العراق تحمل من الغرين نسبة عالية جداً[1] ، وهــذا يؤدى في فترات الفوضى والاهمال الى ترسب الطين في مجاري الانهـار ، واندثار تـرع الري ، وتتابع الفيضانات • ولابد أن يؤدي هذا بدوره الى ترك الكثير من العشائر حرفـة الزراعـة واتجاهها نحو حرفـة الرعي وما يصاحبهـا من عادات البداوة •

أضف الى ذلك أن الأراضي الزراعية في العراق كثيراً ما تتضاءل في قدرتها الانتاجية من جراء تراكم الأملاح فيها أو تغير مجاري الأنهار ، وهذا يدفع العشائر الريفية ـ في العهود التي تضعف سيطرة الحكومـة فيها ـ الى التنازع فيما بينها من أجل الاستحواذ على الاراضي الصالحة أو من أجل الاحتفاظ بها على الاقل ، ومعنى هذا انتكاص تلك العشائر الـى عادات البداوة إذ هي تجد أنها غير قادرة على البقاء في معركة الحياة الا بحد سيفها وقوة عصبيتها •

المد البدوي الاخير :

يبدو لي أن المد البدوي الأخير الذي شمل العراق في العهد العثماني كان أشد وطأة من جميع عهوده السابقة إذ لم يشهد المجتمع العراقي عبر تاريخه الطويل حقبة سيطرت فيها القيم البدوية كتلك الحقبة • ولعلنـي أستطيع أن أعلّل ذلك بالأسباب التالية :

أولاً ـ ان الفتح العثماني جاء عقب فترة من الفتوح المغولية والتترية، وهي فترة لم تتوفر فيها حكومة حضرية تعنى بترويج التجارة وتشجيع الانتاج والعناية بنظام الري • ويعتبر المؤرخون تلك الفترة أشـد فترات التاريخ العراقي ظلاماً وأوطأها حضارة • ان الحكومات التي تتابعت عـلى

---

(١) أحمد سوسة (فيضانات بغداد في التاريخ) ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ج١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ •

العراق منذ سقوط الدولة العباسية ، أو ربما قبل ذلك ، كان همها الأكبر ينحصر في الفتح والجباية بدلاً من العمران أو سيادة الأمن والنظام في المجتمع ، فاضطر أهل المدن من جراء ذلك الى الالتجاء الى العصبية القبلية والقيم البدوية من أجل المحافظة على أرواحهم وأموالهم ، كما اضطرت العشائر الصغيرة الى التكتل أو الانضمام الى اتحادات قبلية كبيرة لكي تكون أقدر على تنازع البقاء • وقد اشتد هذا الوضع ضراوة في العهد العثماني ، فكثيرا ما كان الولاة فيه يضربون العشائر بعضها ببعض لكي يشغلوها أو يضعفوها على طريقة « فرّق تسد » •

ثانياً ـ ان الدولة العثمانية حين جاءت لفتح العراق في القرن السادس عشر كانت قد اجتازت قمة قوتها وازدهارها وسرعان ما بدأت تظهر عليها امارات الضعف والانهيار ، ولم يكن من المقدّر لها آنذاك أن تبقى على قيد الحياة مدة طويلة غير أن الذي أبقاها حية على الرغم من وهنها الشديد هو ما عرف في التاريخ الحديث باسم « المسألة الشرقية » إذ كانت بعض الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا تتبع ازاء الدولة العثمانية سياسة من لا يريد لها الحياة أو الموت • إنهم كانوا يخشون أن تموت قبل أن يتم الاتفاق بينهم على اقتسام تراثها ، فكانوا يدأبون على اعطائها جرعات صغيرة من العلاج كلما وجدوها مشرفة على الموت ، وهكذا بقيت الدولة العثمانية مدة طويلة تعالج سكرات الموت دون أن تموت • ومعنى هذا أن العراق وغيره من البلاد التي كانت خاضعة لها ظلت ترزح تحت نير التفسخ الحكومي والانحطاط الحضاري ، فكان ذلك فرصة ثمينة للقبائل البدوية حيث أخذت تتغلغل في العراق وتسيطر بقيمها الاجتماعية عليه •

ثالثاً ــ ان الدولة العثمانية علاوة على ضعفها العام كانت مشغولة بنزاعها المتصل مع ايران ــ ذلك النزاع الذي استمر ثلاثة قرون تقريباً ولم يهدأ نسبياً الا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولابد أن يكون هذا

الانشغال فرصة للقبائل لكي تسرح وتمرح في العراق كما تشاء • ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الحكومة العثمانية كثيراً ما كانت تستعين بالقبائل العراقية في حروبها مع ايران ، والمعروف عن تلك القبائل أنها لا تشترك في الحرب بدافع وطني أو ديني أو ما أشبه ، بل هي تشترك فيها ابتغاء الغنيمة من جهة وابتغاء الحصول على امتيازات تخول لها السيطرة على مناطق خاصة بها من الجهة الاخرى ، وهي بعد انتهاء الحرب قد تصبح مستقلة تحكم نفسها بنفسها وتحاول أن توسع نفوذها على العشائر المجاورة لها • وبهذا قد تقع مناطق واسعة من العراق تحت سيطرة شيوخ عشائريين يحكمونها حسب قيمهم البدوية •

رابعاً ـ كانت الأوبئة تجتاح العراق في العهد العثماني مرة كل عشر سنوات تقريباً • والواقع ان الأوبئة كانت تجتاح العالم كله حيناً بعد حين ولكنني أميل الى الظن أن العراق كانت حصته منها أكثر من حصة غيره ، وربما كان من أسباب ذلك هو أن العراق يقع في طريق الحج بالنسبة لبعض الاقطار الاسلامية ، وهو بالاضافة الى ذلك يحتوي على مراقد مقدسة يقصدها الزوار كثيراً وفيه مقبرة تعد أعظم مقابر العالم هي مقبرة « وادي السلام » في النجف • ومعنى هذا أن أي وباء يحدث في بلد مجاور لابد أن ينتقل الى العراق عاجلاً أو آجلاً(١) •

ولا حاجة بنا الى القول إن الأوبئة هي من أشد العوامل تأثيراً في توهين الحضارة وفي تدعيم « المد البدوي » في البلاد ، إذ هي تكون عادة أشد وطأة على سكان المدن منها على سكان البادية أو الريف ، وكلما كانت المدن أكبر وأكثر ازدحاماً بالسكان كان تأثير الوباء فيها أفظع • وطالما قضت الاوبئة على معظم الصنّاع وأرباب الحرف في المدن فلا يبقى منهم

---

(١) انظر في عوامل استفحال الأوبئة في العراق كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦ •

ما يكفي لاستمرار الحضارة وازدهارها ٠

المدن والعشائر :

هناك ظاهرتان اجتماعيتان يمكن أن نستدل بهما على مبلغ استفحال المد البدوي في العهد العثماني : احداهما قلة السكان في العراق ، والثانية كثرة العشائر بالنسبة الى أهل المدن فيه ٠

كان مجموع سكان العراق في منتصف القرن التاسع عشر يناهز المليون وربع المليون ، وهذا عدد قليل جداً بالنظر الى ما كان عليه سكان العراق في العهد العباسي إذ يقال أن سكان بغداد وحدها آنذاك كان يزيد على سكان العراق كله في العهد العثماني ٠

كانت العشائر في العهد العثماني تنوف نسبتها على ثلاثة أرباع سكان العراق ، وكانوا فئتين بدواً وزراعاً[(١)] ، ولكنهم جميعاً يخضعون للعصبية القبلية ولا يعرفون غيرها ٠ فهم كانوا ينظرون الى كل حكومة نظرة عداء لا فرق عندهم بين أن تكون الحكومة تركية أو ايرانية ، وربما عمد بعض العشائر الى معاونة الجيوش المنتصرة ، والى نهب فلول الجيوش المنكسرة ، بغض النظر عن عقيدة هذه الجيوش أو تلك ٠

أما اهل المدن فكانوا يختلفون بعض الاختلاف عن العشائر في هذا الشأن ، فلقد كانت لديهم ثلاثة مستويات من العصبية أو الانتماء الجماعي ، بينما كان للعشائر مستوى واحد من العصبية هي العصبية القبلية ٠ فالفرد الحضري يتعصب قبل كل شيء لمحلته ازاء المحلات الاخرى من بلدته، حيث تكون المحلة بالنسبة له كالعشيرة بالنسبة للبدو والريفيين ، بيد أن عصبيته المحلية هذه قد تتحول الى عصبية أوسع نطاقاً وهي التي نسميها بالعصبية البلدية ، ويحدث ذلك حين يهدد البلدة خطر عام ، وبذا تتحد جميع

---

(١) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي في العراق) ــ بيروت بدون تاريخ ــ ص٥١ ــ ٥٨ ٠

المحلات في سبيل الدفاع عن البلدة وتقف صفاً واحداً تجاه العدو المشترك .

أما المستوى الثالث من العصبية عند أهل المدن فهو المستوى الطائفي ، وهو يظهر عندما تثار قضية طائفية أو تأتي لغزو البلاد دولة تنتمي الى إحدى الطائفتين . وحينئذٍ ينسى أهل المدن عداواتهم المحلية والبلدية ويركزون اهتمامهم نحو القضية الجديدة ، وهنا يظهر مصداق المثل البدوي المشهور : « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » .

يتضح من هذا ان الطائفية ليست سوى نمط معين من العصبية ، أي أنها تقوم على أساس من الانتماء الاجتماعي اكثر مما تقوم على أساس من الدين والحرص على سلامة تعاليمه .

فالملاحظ أن العراقيين في نزاعهم الطائفي كانوا ينسبون كل فريق منهم الى الرجل الذي يعتبرونه رمز عصبيتهم الطائفية فيقال إن هؤلاء « ربع علي » وأولئك « ربع عمر » [١] ، وكل فريق منهم يتصور نفسه كأنه عشيرة الرجل ، وهم يتحمسون له كما تتحمس القبائل عند القتال تحت راية شيخها الكبير .

إن هذا يشبه من بعض الوجوه ما يحدث أثناء النزاع بين بلدتين من طائفة واحدة ، كمثل ما يقع أحياناً بين النجف والكاظمية فأهل الكاظمية يطلقون على أنفسهم لقب « أولاد موسى » نسبة الى الامام موسى الكاظم المدفون في بلدتهم ، وكذلك يطلق أهل النجف على أنفسهم لقب « أولاد علي » . فالقضية هنا خرجت من إطارها الديني وأصبحت كأنها نخوة قبلية ، وحين يتقاتل « أولاد علي » و « أولاد موسى » ينسون أن علياً

---

(١) ان لفظة « ربع » في اللهجة العراقية تعنى الجماعة أو الحزب أو الكتلة ، والظاهر أن لها أصلا في اللغة العربية الفصحى فالمعروف تاريخياً ان المحاربين في صدر الاسلام كانوا يقسمون الى « أرباع » أي فرق .

وموسى من شرعة واحدة ومبدأ واحد •

ظاهرة الشقاوة :

إن من أهم الظواهر الاجتماعية التي تدل على مبلغ سيطرة المد البدوي على العراق في العهد العثماني هي ظاهرة « الشقاوة » ولابد لنا في هذه المناسبة من دراسة هذه الظاهرة على شيء من التفصيل إذ هي تعطينا صورة واضحة لما كان عليه المجتمع العراقي آنذاك من تركيب وقيم •

إن « الشقي » من الناحية القانونية يعتبر مجرماً ، غير أنه من الناحية الاجتماعية يعد من الأبطال الذين تفتخر بهم المحلة ويشار اليهم بالبنان • إنه كان في الغالب يمتهن اللصوصية والسطو على البيوت وفرض « الخاوة » ـ أي الاتاوة ـ على الاغنياء ، ولكنه في الوقت نفسه لا يخالف القيم المحلية السائدة فهو في محلته شهم مغوار يحمي جاره ويحافظ على حق « الزاد والملح » ويراعي تقاليد العصبية والدخالة والنجدة وما أشبه • أما سلوكه الاجرامي فهو موجّه ضد الحكومة من ناحية ، وضد الافراد الذين لا ينتمون الى عصبيته من الناحية الأخرى •

كثيراً ما كانت تجري المعارك الدامية بين الشقي و « الجندرمة » ليلاً ، وترتفع منزلة الشقي في نظر الناس بمقدار ما تكثر معاركه الجريئة ويزداد عدد ضحاياه • واذا ألقي القبض عليه ودخل السجن كان ذلك بمثابة وسام له استناداً على المبدأ القائل « السجن للرجال » • أما اذا قُتل خرج أهل محلته لتشييع جنازته وهم يتأسّفون على موت مثل هذا الرجل « العظيم » •

في أواخر العهد العثماني قُتل أحد الاشقياء المشهورين في بغداد ـ واسمه « عباس السبع » ـ مع زميل له ، فربط « الجندرمة » جثة كل منهما بذيل حصان وسحبوهما في الطرقات • وقد ذكر شاهد عيان أنه

رأى الناس يبكون لهذا الحادث ، ووجد جماعة « تهوّس » خلف الجثة الاولى قائلة « عباس السبع يا مطيّع التجار » ، وكانت النساء يلطمن ويندبن حول الجثة الثانية قائلات : « يا أهل الزود اطلعوا ، ثارت الجيلات »[1] •

إن هذا يدل على مبلغ تقدير الناس للشقي ، فهم يمدحونه بأنه « مطيّع التجار » أي أنه يجبي الأتاوة من الاغنياء ويفرض عليهم الطاعة لأمره • والظاهر أن الحكومة حين سمحت بسحب الجثة وراء حصان أرادت أن تجعل من صاحبها عبرة لغيره من الاشقياء ، غير أن عملها هذا جعل الشقي شخصاً مشهوراً يندبه الناس ويتأسفون لموته •

كان عدد الاشقياء في العهد العثماني قليلاً جداً بالنسبة لمجموع السكان في المحلة أو البلدة ، انما هم كانوا على الرغم من قلة عددهم يمثلون القيم الاجتماعية السائدة أوضح تمثيل • إن السبب في قلة عددهم ناشيء من كون الشقاوة تستلزم في صاحبها صفات نادرة كالشجاعة ، والقوة البدنية ، والحذق في استعمال السلاح ، وغلاظة القلب ، والجرأة ، وهذه صفات قلما تجتمع في شخص واحد ، وان هي اجتمعت في احد الاشخاص وجب أن تتاح له ظروف مساعدة ـ كأن يشتبك في معركة دامية مع خصوم له أو مع قوات الحكومة ويخرج منها منتصراً ـ وعند هذا تبدأ سمعته بالذيوع وترتفع مكانته بين أبناء محلته ، وكلما توالت انتصاراته بعدئذ ازدادت معنويته ودخل في عداد الاشقياء المرموقين •

واذا نبغ في إحدى المحلات شقي مشهور ـ على النحو الذي ذكرناه ـ اعتزت المحلة به إذ هو سيكون حاميها من اللصوص ليلاً ، وبطلها المغوار عندما تنشب معركة بينها وبين محلة اخرى • والشقي له في زيّه علامة

---

(١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص١٣٥ •

يتميز بها ، كالطريقة التي يلف بها الكوفية حول رأسه ، أو سرواله الطويل ، واذا مشى كانت له مشيته الخاصة ونظراته الشزرة ، والويل لمن يقصّر في احترامه أو لا يرد له التحية بأحسن منها .

إن أكثر الصبيان في المحلة يجعلون الشقي المشهور قدوة لهم ويطمحون أن يكونوا مثله في يوم من الأيام ، فهم عندما يستمعون الى آبائهم وأقاربهم يتحدثون عن مناقب الشقي ومغامراته البطولية يحسون بالرغبة نحو الاقتداء به لكي ينالوا السمعة التي نالها . ومشكلة هؤلاء الصبيان أنهم حين يكبرون قد يشعرون بخيبة الأمل إذ أن اكثرهم لا يستطيعون أن يصلوا الى الهدف الذي يطمحون اليه ، وقد يصاب بعضهم من جراء ذلك بالعقدة النفسية الطاحنة على منوال ما اصيب بها خلف بن أمين .

خلف بن أمين :

الواقع أن شخصية خلف بن أمين تمثل لنا نموذجاً لعدد غير قليل من العراقيين في العهد العثماني ، ولا يزال لها نظائر في أيامنا هذه بيد أنها في تضاءل وتقلص على أي حال .

عاش خلف بن أمين في بغداد في أواخر العهد العثماني ولا يزال أهل بغداد يتناقلون نوادره ويتفكهون بها ، وخلاصة أمره أنه كان قميئاً جباناً وليس لديه من المؤهلات ما يجعل منه شقياً مشهوراً لكنه كان يطمح أن يكون شقياً يشار اليه بالبنان ، فكان يملك مسدسين كبيرين يشدّهما الى جنبيه ليتباهى بهما انما هو لا يستعملها الا حين يطمئن من زوال الخطر ، فاذا سمع في محلته أثناء الليل صراخاً يدل على وجود لص فيها ، ظل هو في بيته لا يحرك ساكناً ، حتى اذا هرب اللص أو ألقي القبض عليه خرج هو من بيته وقد شهر المسدسين بكلتا يديه يطلق منهما الرصاص ويصرخ : اين هو ؟ دلّوني عليه !

وكانت أحاديثه مع الناس لا تخلو من قصص القتل والسلب والسطو على البيوت و « البسط » ، وهو يعزو الكثير منها الى نفسه طبعاً ، واذا وقعت حادثة قتل أو سرقة كبيرة ذهب الى « القلّغ » ـ أي مركز الشرطة ـ يسأل الناس هل ورد اسمه بين المتهمين ، ومن هنا جاء المثل البغدادي المعروف « ما جابوا اسم خالكم ؟! » .

وكثيراً ما يحشر نفسه بين المتهمين أو يعمد الى الاعتراف أمام الحاكم بجريمة لم يقترفها بغية دخول السجن ، ولكن الحاكم كان معانداً له فكان يطلق سراحه في كل قضية ، ويخرج هو من المحكمة متألماً يذمّ الحاكم ويعتبره ظالماً لأنه يطلق سراح « المجرمين » ويحكم على « الابرياء » .

يمكن القول إن معظم الناس كانوا مثل خلف بن أمين يحبون التفاخر المصطنع بالشقاوة ، وانما اشتهر ابن أمين وحده بهذا لانه أفرط في تفاخره حتى صار أضحوكة الناس . إن الكثيرين في الواقع يملكون في أعماق قلوبهم مثل تلك النزعة في التفاخر المصطنع غير أنهم يتكتّمون فيها ويدارونها مخافة أن يضحك عليهم الناس ، ولو كُشف الغطاء عن أعماق قلوبهم لرأينا فيهم كثيراً من طراز خلف بن أمين .

الفرق بين العيارين والاشقياء :

يُرجع الدكتور مصطفى جواد تقاليد الأشقياء الى أخلاق العيارين والشطار وأهل الفتوة الذين ظهروا واستفحل أمرهم في بغداد في العهد العباسي[1] . والواقع أن هناك تشابهاً غير قليل بين تقاليد هؤلاء واولئك ولكننا مع ذلك نلاحظ فرقاً بينهما هو أن الشقاوة يغلب عليها الطابع الفردي بينما كان العيارون وأضرابهم يخضعون لتنظيم جماعي يشبه تنظيم الجنود أحياناً ويشبه تنظيم « الاصناف » المهنية ـ أي النقابات ـ أحياناً اخرى .

(١) ابن المعمار (كتاب الفتوة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

يخيل لي أن العيارين وأضرابهم انما نشأوا في محيط متحضر ويمثلون ثورة الفقراء على الاغنياء ، أي أنهم ظهروا من جراء التمايز الطبقي الذي كان المجتمع البغدادي يزخر به في ذلك الحين حيث يعيش الأمراء والاغنياء في أقصى درجات الترف ويعيش الفقراء والكسبة في أقصى درجات الحرمان •

لقد كانت بغداد في العصر العباسي عاصمة امبراطورية مترامية الاطراف تأتي اليها أموال الخراج والجزية والغنائم من كل مكان ، فنشأت فيها طبقة مترفة غاية الترف من جهة ، وهاجر اليها آلاف الفقراء ليعيشوا على فضلات موائد المترفين من الجهة الاخرى[1] • ولهذا ظهرت في بغداد قصور باذخة تحتوى على أعظم ما وصلت الحضارة آنذاك من وسائل اللذة والعيش الرغيد ، كما ظهرت فيها تجمعات بشرية يسودها الفقر والقذارة وتعشعش فيها عصابات اللصوص والعيارين والشطار ومن لف لفهم •

يحدثنا المؤرخون عن العيارين واللصوص أنهم كانوا حين يقطعون الطرق على القوافل وينهبونها يحتجّون بأنهم أنما يأخذون حقهم في الزكاة التي امتنع التجار عن دفعها لهم طوعاً ، فهم يزعمون أنهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا لان الزكاة صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرّق في فقرائهم[2] •

إن هذا الوضع الاجتماعي يختلف طبعاً عن الوضع الذي كان عليه

---

(١) ان كتاب ألف ليلة وليلة يعد من خير المراجع في تصوير تلك الحالة الاجتماعية التي كانت تعيشها بغداد ، فالقارىء يستطيع أن يستشف من وراء سطور الكتاب البون الشاسع في مستوى المعيشة بين المترفين والكادحين •

(٢) جرجى زيدان (تاريخ التمدن الاسلامي) ـ القاهرة ١٩٢٧ ـ ج٤ ص١٨٤ •

العراق في العهد العثماني ، فقد كان همّ الوالي العثماني في الغالب أن يحصل على أقصى ما يستطيع الحصول عليه من أموال الجباية لكي يرسل حصة الأسد منها الى اسطنبول ويستحوذ هو على الباقي منها ، أما اذا أراد الوالي العمران فأقصى ما يفعله هو أن يكثر من تعمير المساجد والمعاهد الدينية إذ هو كسائر الناس يؤمن بمبدأ « الشفاعة » وكلما ازداد عدد ما يبني من المساجد في هذه الدنيا ازداد عدد القصور التي تبنى له في جنة الفردوس .

يقول المستر ريج القنصل البريطاني المعروف الذي ساح في المنطقة الشمالية من العراق في عام ١٨٢٠ : إن من محاذير السفر مع جماعة كبيرة هو أن القرويين يخفون كل بضاعة جيدة لديهم مخافة أن تسلب منهم وعلى الأخص اذا علموا أن بين الجماعة من هم من موظفي الحكومة[١] . إن ما لاحظه المستر ريج قد لاحظه الكثير من السياح الأجانب في العراق أيامئذ ، ولهذا اعتاد الناس أن يتشاءموا من أي مظهر للنعمة يظهر عليهم ويتكتموا في أمر ثرواتهم لكي لا يعلم بها أحد فتصبح عرضة للمصادرة من قبل الحكام ، أو للسرقة من قبل اللصوص . وهذا هو الذي جعل التمايز الطبقي بين الناس غير واضح المعالم أي أنه لم يكن مثل ما كان عليه في العهد العباسي .

الوعي الجماعي :

لا بد لنا في هذه المناسبة من أن نشير الى أن الوعي الجماعي كان في العهد العثماني اكثر شيوعاً من الوعي الطبقي ، ونقصد بذلك أن الناس كانوا يتعصّبون لعشائرهم أو محلاتهم أكثر مما كانوا يتعصبون لأبناء طبقتهم ، فقد كان أبناء المحلة الواحدة في المدن يتضامنون ويتعاونون فيما

(١) كلوديوس جيمس ريج (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠) ـ ترجمة بهاءالدين نوري ـ بغداد ١٩٥١ ـ ص٧ .

بينهم بغض النظر عن اختلاف مستواهم الاقتصادي ، وكان الغني منهم يحرص أن يفتح ديوانه لأبناء المحلة جميعاً من غير تفريق بينهم ، ويكثر من الولائم لهم واغداق الهدايا عليهم في المناسبات المختلفة ، وكانوا هم من جانبهم يسرعون الى نجدته في الملمات ويتعصبّون له في المعارك والخصومات .

ويتضح هذا في المجتمع الريفي والبدوي أكثر مما يتضح في المدن ، حيث نجد شيخ العشيرة لا يتكبر على أبناء عشيرته ولا يتميز عنهم في لباس أو طعام أو مسكن الا قليلاً ، وهو يحرص أن يكون في خدمتهم دائماً ينظر في قضاياهم ويحل مشكلاتهم ويسد عوزهم ، ولذا نجدهم يفتخرون به ويتعصبون له ، وقد يغضبون اذا شُتم شيخهم أمامهم ، واذا رفع الشيخ رايته واطلق « هوسة » القتال التفوا حوله وقاتلوا معه من غير تردد أو اعتذار .

يجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الوعي الجماعي هو من مظاهر سيطرة المد البدوي على العراق في العهد العثماني ، فالناس عادة لا يتركون الوعي الجماعي ويأخذون بالوعي الطبقي الا بعدما يظهر عليهم التحضّر وهم عندئذٍ يشعرون بأن المال هو عصب الحياة وأنه هو الذي يرفع مكانة الانسان أو يخفضها . أما في البداوة ــ أو في المجتمع الذي يسيطر عليه المد البدوي ــ فالناس لا يقدّرون المال الا بمقدار ما يدعم عصبيتهم الجماعية ويرفع من مكانتهم فيها ، وليست له فيما سوى ذلك قيمة كبيرة . ومعنى هذا أنهم يطلبون المال لا من أجل أن يتنعّموا به بل من أجل أن يتكرّموا به .

وتظهر هذه النظرة الى المال عند الاشقياء بجلاء ، فالمال لديهم وسيلة لا غاية ، وكثيراً ما كانوا يعدّون السلب والسطو على البيوت من مظاهر الشجاعة والرجولية ولهذا كان الرجل المقدام يلقب « رجل ليل » باعتبار

أن الخروج للسرقة ليلاً عمل يحتاج الى الكثير من الشجاعة والثقة بالنفس وعدم الخوف • ومن هنا صار بعض وجهاء المدن يخرجون ليلاً للسطو على البيوت لكي يدعموا بذلك وجاهتهم ويرفعوا مكانتهم الاجتماعية •

وفي العراق الان قصص كثيرة لا يزال يتناقلها المسنون يستدلون بها على ما كان في أيامهم الماضية من أخلاق « عالية » ، وهي في مجملها تدور حول مناقب الاشقياء من حيث حرصهم على تقاليد المروءة أكثر من حرصهم على السرقة واستلاب الاموال • ومن هذه القصص واحدة طالما سمعت أبناء الجيل الماضي يلهجون بها ، وخلاصتها أن جماعة من الاشقياء سطوا ذات ليلة على بيت وأخذوا يجمعون منه الأواني وبعض الاثاث بغية جعلها في حمل واحد ليسهل نقلها ــ على طريقة اللصوص في تلك الايام ــ فأحسّت بهم أم البيت وهي خائفة فأيقظت ولدها قائلة له : « قم ساعد أخوالك » ، والظاهر أنها قالت ذلك على سبيل التهكم ولكن اللصوص أخذوا قولها مأخذ الجد وتركوا السرقة من بيتها اذ أن المرأة صارت بمثابة « اخت » لهم وليس من الجائز في عرفهم أن ينهب الرجل اخته وابناء اخته ، إنه يجب أن يحميهم لا أن ينهبهم !

إن هذه القصة قد يصح أن نتخذها معياراً لاخلاق الناس في ذلك العهد • ونحن هنا لا يهمنا أن تكون القصة قد حدثت فعلاً أو لم تحدث ، يكفي فيها أن الناس كانوا يتناقلونها كثيراً وأنهم كانوا حين يتحدثون بها معجبين بما تحتوي عليه من خصال المروءة والرجولية ، وهي اذن تدل على ما كان لديهم من قيم اجتماعية •

قصة حسن كبريت :

إن قصة حسن كبريت قد تصلح أن تكون من بعض الوجوه نموذجاً للقيم الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الايام • فقد كان هذا الرجل من

٣ أشقياء الكاظمية ، عاش في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال البريطاني ، وتدل الروايات الكثيرة التي يتناقلها الناس حوله أنه كان سفاكاً للدماء من طراز ذلك الرجل الذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته • وتشير بعض القرائن الى أنه كان مصابا بمرض « الصادية » اذ كان يتلذذ بالقتل وسفك الدماء ، قيل إنه عندما اشترك مع « المجاهدين » في واقعة الشعيبة أثناء الحرب العالمية الاولى كان لا يكتفي بقتل جنود الأعداء بل كان يقطع رؤوسهم ويأتي بها الى رجال الدين الذين كانوا مع «المجاهدين» وكان رجال الدين يتقززون من عمله هذا ويمنعونه عنه دون جدوى •

سأله سائل[١] في أواخر عمره عن عدد ضحاياه وكيف سيواجه ربه يوم القيامة ، فكان جوابه أنه قتل من الناس عدداً كبيراً ولكن له أملاً في أن الله سيغفر له ذنوبه بشفاعة فاطمة الزهراء بنت النبي ، ثم قص قصته التي يأمل بها الشفاعة وهي أنه ذهب ذات ليلة مع رفاق له من اشقياء بغداد للسطو على بيت أحد الأغنياء هناك ، ولما أتم السرقة عاد الى الكاظمية عن طريق مقبرة الشيخ معروف ، وكانت المقبرة يومذاك بعيدة عن العمران ، فسمع من بين القبور صوت فتاة تستغيث وتتوسل بفاطمة الزهراء ، وأدرك ان رجلاً فظاً كان يريد اغتصابها وهي عذراء غير مكترث لتوسلاتها • وعند هذا قرر حسن كبريت أن يضيف الى قائمة ضحاياه واحداً « من أجل فاطمة الزهراء » ، فأسرع الى الرجل من ورائه وأغمد الخنجر في خصره فقتله فوراً وأخذ الفتاة الى أهلها سالمة •••

أرجح الظن أن حسن كبريت مات وهو واثق من أنه سينال الشفاعة المنشودة ويدخل الجنة • ولا يزال في العراق كثير من أمثاله إذ هم ينجرفون فيما اعتادوا عليه من أخلاق الجاهلية، فينهبون ويعتدون ويقتلون،

---

(١) حدثني بهذا رجل أثق به كان قد أدرك حسن كبريت في شيخوخته عندما ترك الشقاوة عن عجز •

ثم يقومون بعمل يرجون منه شفاعة أحد المقربين الى الله في زعمهم ، فيغفر الله ذنوبهم جميعاً ـ « ان الله غفور رحيم ! » •

لا لوم عليهم في ذلك ، إذ هم مضطرون اليه بحكم ظروفهم القاهرة • فهم من جهة قد نشأوا على أخلاق الجاهلية واعتادوا عليها فلا يستطيعون أن يحيدوا عنها ، وهم من الجهة الأخرى يخشون الله وعذاب الجحيم ، ولابد لهم اذن من وسيلة تنجيهم من هذه الورطة الكبرى • ان مبدأ الشفاعة ـ كما أشرنا اليه من قبل ـ يشبع حاجة نفسية فيهم ولولاه لشعروا بالضياع !

الفصل الأول

نشأة الدولة العثمانية وفتح العراق

تأسست الدولة العثمانية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، الموافق للقرن السابع الهجري ، وهي لم تفتح العراق الا في عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٤م ـ أي بعد مرور أكثر من قرنين على تأسيسها ـ وفي خلال هذه الفترة الطويلة كانت الدولة قد مرت بأحداث وتجارب دينية وغير دينية جعلتها ذات طابع خاص بها يميزها عن غيرها من الدول القديمة أو الحديثة • وساحاول في هذا الفصل دراسة ما جرى في تلك الفترة من بعض الجوانب التي تتصل بموضوع هذا الكتاب ، وأبدأ بدراسة تكوين الجيش الانكشاري الذي يعد من أشهر ما تميزت به الدولة العثمانية •

تكوين الجيش الانكشاري :

كانت الدولة العثمانية في أول أمرها عبارة عن قبيلة تركمانية تعيش على الساحل الشرقي لبحر مرمرة الى الجنوب من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد انتهزت القبيلة ضعف الدولة البيزنطية فأخذت تشن عليها الغارات باسم الاسلام والجهاد في سبيل الله ، فكان ذلك بداية نمو الدولة العثمانية وتوسعها نحو اقطار أوربا الشرقية •

وفي عام ١٣٢٦م تولى أمر الدولة السلطان أورخان الذي تأسس الجيش الانكشاري في عهده ، ويقوم هذا الجيش على أساس اختطاف الأطفال من البلاد المسيحية المجاورة باعتبار أنها من بلاد الكفر التي يجوز نهب أي شيء منها بشراً كان أم متاعاً ، فكان العثمانيون يقومون بين كل

حين وآخر بغارات في المناطق الاوربية ويعودون في كل مرة بعدد كبير من الأطفال يسمونهم « ديوشرمه » ـ أي المقطوفين ـ فيودعونهم في مؤسسات خاصة بهم تشبه المدارس الداخلية من أجل تنشئتهم نشأة اسلامية عسكرية .

إن الطفل « المقطوف » الذي ينشأ مثل هذه النشأة تنقطع صلته بأهله وأبويه فلا يعرف من دنياه سوى الاخلاص للدين والدولة والقتال في سبيلهما ، فهو يتشبع منذ نعومة أظفاره بفكرة الجهاد ، وحين يذهب الى الحرب يؤمن في قرارة نفسه أنه سيكون إما غازياً أو شهيداً ـ أي أنه لا بد له من أن ينال في الحرب إحدى الحسنيين ـ الانتصار أو الذهاب الى الجنة[1] .

وقد صادف في بداية تأسيس الجيش الانكشاري أن جاء الى تركيا من خراسان رجل صوفي علوي النسب اسمه الحاج محمد بكتاش ولي ، فسكن في القرية التي تسمى باسمه اليوم على بعد ١٨٠ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من أنقرة . وقد حصل هذا الرجل على سمعة عالية جداً في المناطق المجاورة وقصده الناس من أجل التبرك به . وحين علم السلطان أورخان بأمره أراد أن ينتفع من بركته ليشمل بها جيشه الجديد ، فقصده بنفسه ومعه أفراد من الجيش ، وقام الحاج بكتاش بما ينبغي في هذا الشأن حيث وضع يده على رأس أحد الجنود ، وقطع شيئاً من قبائه فجعله على رأس الجندي ، ثم قدم لهم علماً أحمر يتوسطه هلال وسيف ذي الفقار ، وأخذ يدعو الله أن يبيض وجوههم وأن تكون سيوفهم بتارة وأن يفوزوا بكل غزوة بالظفر[2] . وأطلق الحاج بكتاش على الجيش اسم «يني جرى»

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) أحمد سري دده بابا (الرسالة الأحمدية في تاريخ الطريقة البكتاشية) ـ القاهرة ١٩٥٩ ـ ص١٥ .

أي الجيش الجديد ، وهو الاسم الذي صار فيما بعد علما على الجيش ثم حرّف في اللغة العربية فأصبح « الانكشاري »[1] •

ومنذ ذلك الحين صار الجيش الانكشاري مرتبطا بالطريقة البكتاشية ارتباطا وثيقا حيث اتخذ الجنود الحاج بكتاش شفيعا لهم ورمزا ، وأخذ الناس يطلقون عليهم اسم « أولاد الحاج بكتاش »[2] • ونُصب في كل كتيبة من الجيش شيخ بكتاشي يسمىّ « بابا » وهو يقيم مع الجنود لارشادهم وتعليمهم آداب الطريقة وطقوسها ، والمفروض أن يتقدم هذا الشيخ الكتيبة عند الذهاب الى الحرب شاهرا سيفه[3] • ومن هنا اعتقد الجنود ان كل نصر ينالونه على الكفار لابد أن يكون من بركة الحاج بكتاش •

ومما يلفت النظر في الطقوس البكتاشية التي تمسك بها الجيش الانكشاري أنهم يعطون أهمية كبيرة للطبخ وتقديم الطعام ، فهم مثلا يقدسون قدور الطبخ ولا يفارقونها حتى في أوقات الحرب ويدافعون عنها دفاعا مستميتا اذ هم يعتبرون ضياعها أثناء الحرب أكبر اهانة تلحق بهم ، وهم اذا أرادوا ابداء عدم الرضا من أوامر رؤسائهم قلبوا القدور أمام بيوتهم • ومن مظاهر اهتمامهم بالطبخ أن قائدهم الاعلى يسمونه « جوربچي باشي » ـ أي طباخ الحساء ـ ويسمون الضباط الذين يلونه في الرتبة « آشچي باشي » و « عشى باشي » و « سقا باشي » و « أوده باشي » • وقيل ان السبب في ذلك هو أن الانكشاريين يعتبرون أنفسهم عائشين على مائدة السلطان وفي فضل نعمته وأنهم أولاده • وفي بغداد اليوم أسرة معروفة تلقب بـ « آل الجوربچي » وهي من بقاياهم •

---

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ـ القاهرة ١٩١٢ ـ ص٤٢ •

(2) John K. Birge (The Bektashi Order of Dervishes) — Bristol 1937 — P. 74 .

(٣) أحمد سري دده بابا (المصدر السابق) ص١٥ •

العقائد البكتاشية :

يبدو أن الطريقة البكتاشية هي مزيج من التصوف والتشيع ، فهم يؤمنون بالائمة الاثنى عشر ايمانا شديدا لا يخلو من غلو ، والملاحظ أن محور التقديس لديهم هو علي بن أبي طالب فهم يعدّونه النموذج الاعلى للانسان الذي تظهر فيه الحقيقة الالهية ، وهم كذلك يؤمنون بغيبة الامام الثاني عشر ويترقبون ظهوره ، ومن أدعيتهم المعروفة دعاء « ناد علياً مظهر العجائب» وهم يدعون به في النوائب اعتقادا منهم أن علياً سينجدهم كما أنجد النبي في معركة أحد ، ففي عقيدتهم أن النبي عندما جرح في تلك المعركة قرأ الدعاء بأمر من جبرائيل فشفي[١] .

والبكتاشيون يتمسكون بمبدأ « التولّي والتبرّي » المعروف عند الشيعة ـ أي ولاية أهل البيت والبراءة من أعدائهم ـ ولكن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد : هل هم يعترفون بالخلفاء الثلاثة الذين تولوا الامر قبل علي أم يتبرأون منهم ؟ الواقع أن هذه ناحية غامضة في العقيدة البكتاشية ومن الصعب التثبت منها .

يرى الدكتور بيرج الذي اختص بدراسة الطريقة البكتاشية أنهم يعتبرون الخلفاء الثلاثة من أعداء أهل البيت ولهذا فهم يتبرأون منهم[٢] . ولكنه يعود فيذكر قصة نقلا عن أحد كتب البكتاشية تدل على خلاف رأيه هذا ، وخلاصة القصة أن علياً أراد في حياة النبي أن يسأله عن الخلفاء من بعده ولكنه استحى من السؤال فطلب من معاوية أن يسأل النبي بدلا عنه . ولما سأل معاوية النبي كان جوابه أن الخلفاء من بعده هم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، وحين وصل النبي الى ذكر الخليفة الرابع لم يفصح عن اسمه بل قال انه الذي سأل السؤال وذلك لان النبي كان يعلم بأن علياً هو صاحب

(1) John Birge (op. cit.) p. 132—140.

(2) Ibid, p. 159 & 270.

السؤال ، ولكن معاوية ادعى أنه الخليفة الرابع بحجة أنه هو الذي قام بالسؤال فعلا"[1] .

ان هذه القصة تدل على أن عقيدة البكتاشيين في الخلافة تقرب من عقيدة أهل السنة . وقد جاء في كتاب « الرسالة الاحمدية » الذي ألفه أحمد سري دده بابا ـ شيخ مشايخ البكتاشية في الوقت الحاضر ـ قوله : إن المريد البكتاشي يجب أن يكون من أهل السنة والجماعة[2] . وهذا يعني أن البكتاشيين يعترفون بالخلفاء الثلاثة ويقدسونهم ، ولا ندري هل قال الشيخ ذلك عن ايمان أم قاله تقية ؟!

فاصلة السلطنة :

الواقع أن الجيش الانكشاري كان له دور كبير جدا في توسع الدولة العثمانية وازدياد قوتها ، فقد صارت الدولة بفضل هذا الجيش تنتقل من نصر الى نصر في داخل القارة الاوربية . ومن الممكن القول انها كانت كلما توسعت في فتوحها توسع أمامها مجال الغارات من أجل اختطاف الاطفال المسيحيين ، وبهذا يزداد عدد جيشها الجديد الذي يؤدي بدوره الى زيادة توسع الدولة[3] . أضف الى ذلك أن انتصارات الدولة العثمانية في بلاد « الكفر » ـ حسب تعبير ذلك الزمان ـ لفتت اليها أنظار المسلمين في مختلف أقطارهم فأخذ المتطوعون منهم ينضمون اليها . ان كل فتح من فتوحاتها كان من شأنه أن يرفع مكانتها في نظر المسلمين ويقوي من تيار المتطوعين في خدمتها[4] .

لم تتوقف الفتوح العثمانية الا فترة قصيرة من الزمن ـ هي التي

(1) Ibid, P. 140.

(٢) أحمد سرى دده بابا (المصدر السابق) ـ ص ١٥ .
(٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص ١٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص١٦ .

سماها المؤرخون العثمانيون بـ « فاصلة السلطنة » ودامت عشـــر سنوات تقريبا ـ وقد حدثت من جراء اجتياح التتر بقيادة تيمورلنك للبلاد العثمانية عام ١٤٠٢م •

كان السلطان العثماني يومئذ بايزيد الاول ، والواقع أنه كان ملكاً قوياً وقد قاتل تيمورلنك ببسالة بيد أن الحظ خانه فانكسر في المعركة أمام تيمورلنك وأسر ، ثم مات في الاسر • وتجزأت الدولة العثمانية من جـــراء ذلك الى عدة امارات صغيرة •

وبعد موت تيمورلنك وانهيار دولته استطاع أحـــد أبنـــاء بايزيد أن يستعيد للدولة العثمانية تماسكها القديم ـ بعد حروب داخلية عديدة ضـــد اخوته وغيرهم ـ وقد اشتهر هذا الرجل في التاريخ العثماني باسم السلطان محمد جلبي الغازي • ومما يلفت النظر أنه في عهد هذا السلطان ظهـــرت حركة اجتماعية عجيبة اذ هي كانت تجمع بين التصوف وعقيدة المهـــدي والاشتراكية •

كان زعيم الحركة رجل معروف من رجال الدين اســـمه بدرالدين محمود ، وقد أخذ يدعو الى الاشتراك في الاموال والى المساواة بين المسلمين والمسيحيين فتابعه خلق كثير من الفلاحين الذين كانوا يعانون من قســـوة الاقطاع • وانتشر أتباعه بقيادة الدراويش يصولون ويجولون في أنحـــاء البلاد[1] ، واستطاعوا أن يهزموا الجيش الذي وجهه عليهم السلطان وأن يقتلوا قائده مما اضطر السلطان أن يوجه اليهم جيشا أكبر بقيـادة وزيره الاول ، فحاربهم في موقع قريب من أزمـير وكسرهم[2] ••• وبذا تفرق شمل الحركة ثم نسيها الناس بعد حين •

---

(1) Carl Brockelmann (History of the Islamic Peoples) — Translated by Perlmann — Cornwall 1947 — P. 274.

(٢) محمد فريد (المصدر السابق) ص٥٣ •

فتح القسطنطينية :

كانت مدينة القسطنطينية من أكبر مدن العالم في العصور الوسطى وأجملها حتى يجوز أن يقال انها كانت باريس العصور الوسطى • وقد ظلت زهاء ألف عام عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، وحاول المسلمون في العهد الاموي فتحها عدة مرات وكذلك حاول العثمانيون دون جدوى • فهي في وضع جغرافي يصعب اقتحامه اذ تحيط بها المياه من جوانب ثلاثة تقريبا ، أما الجانب الرابع منها وهو الجانب الغربي المتصل بالبر الاوربي فكان محاطا بسور منيع •

كان السلاطين العثمانيون يولون أهمية بالغة لفتح القسطنطينية ولا سيما بعد أن توسعت فتوحهم في البر الاوربي ، فقد أصبحت القسطنطينية اذ ذاك بمثابة الاسفين يشق ما بين الجزء الشرقي والجزء الغربي من الدولة العثمانية • وعندما انتقلت عاصمة الدولة الى أدرنه الواقعة الى الغرب من القسطنطينية اشتد حرص السلاطين على فتحها ، وكان أشدهم حرصاً على ذلك هو السلطان محمد الثاني الذي تولى الحكم في عام **١٤٥١** ، وهو الذي لقب بـ « الفاتح » لانه استطاع أن يفتح القسطنطينية أخيرا •

الواقع أن ما أبداه السلطان محمد في فتح القسطنطينية من حزم وبعد نظر كان أمرا عظيما ، فقد حشد تجاه سورها الغربي ما يقارب ربع المليون من الجنود ، وحشد في المياه المحيطة بها مائة وثمانين سفينة • واستخدم رجلا مجرياً خبيرا بصنع المدافع ، فصنع له مدافع جسيمة قادرة على قذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها أثنا عشر قنطارا الى مسافة ميل • وقد أخذت هذه المدافع تمطر القسطنطينية بمقذوفاتها الهائلة فتحدث فيها تخريبا ورعبا •

ومن الأعمال الباهرة التي قام بها السلطان محمد آنذاك هو أنه استطاع أن ينقل سفنه من مياه البوسفور الى داخل الخليج المعروف

بـ « القرن الذهبي » عن طريق البر ، وذلك لكي يتجنب المرور بالسلاسل الضخمة التي وضعها البيزنطيون في فم الخليج ، فقد أمر بتمهيد الارض في المكان المنوي نقل السفن فيه وكان لا يقل طوله عن الخمسة أميال ، ثـم وضعت على الارض ألواح خشبية عريضة وصب عليها الشحم الكثيف ليسهل انزلاق السفن عليها . وفي ليلة واحدة أمكن نقل نحو سبعين سفينة ، ولما وصلت السفن الى مياه الخليج أخذت تمطر المدينة بوابل من قنابلهـا فجأة فذعر أهل المدينة ذعرا شديدا لانهم لم يكونوا يتوقعون أن تأتيهـم القنابل من تلك الجهة ، وكان ذلك من العوامل الفعالة في انخذالهم وكسـر معنويتهم .

وكان في الجيش العثماني عدد كبير من الدراويش والسادة ورجـال الدين يبثون الحماس في أفراده . وأرسل السلطان منادياً ينادي بين الجنود: أن المدينة ستترك لهم بعد فتحها ثلاثة أيام يستبيحونها كما يشاؤون ، وأن رجالها ونساءها وأطفالها وكنوزها ستكون تحت تصرفهم في تلك الفترة . وأقسم السلطان بالله أنه سيبر بوعده هذا . وقبل أن يأمر السلطان بالهجوم على أسوار المدينة جمع القواد وخطب فيهم يذكرهم بالثواب الذي سينالونه وبالنساء الجميلات اللواتي لم تقع عين انسان على مثلهن[1] .

وفي فجر ٢٩ أيار ١٤٥٣ هجم الجيش على أسوار المدينة ، مع أصوات التهليل والتكبير يصاحبها دق الطبول ونفخ الابواق ، وأبدى الانكشاريين الذين كان عددهم يبلغ الخمسة عشر ألفا بسالة منقطعة النظير ، فقد كانوا يؤلفون قلب الجيش العثماني باعتبارهم الحرس السلطاني المكوّن من نخبة الجنود ، وقد تولوا الهجوم على السور من جهة باب القديس رومانوس ، وقد وصفهم معاصروهم من الافرنج بأنهم كانوا لا يبالون بالموت ويرمون

---

(١) محمد مصطفى صفوت (السلطان محمد الفاتح) ـ القاهـرة ١٩٤٨ ـ ص ٩٨ ، ١٠١ .

بأنفسهم الى ساحة القتال كالاسود الكاسرة • وصاروا يتقدمون وهم يكبرون بأصوات مدوية حتى صعدوا على السور ثم دخلوا الى المدينة[1] •

وعم الفزع المدينة حين دخلها الجنود العثمانيون ، وانتشر القتل في كل مكان منها ، وكثر النهب واغتصاب النساء ومن الممكن القول ان البسالة التي أبداها الجنود في الهجوم انقلبت الآن الى تلذذ وحشي واستباحة مطلقة• وليس هذا بالامر الغريب فمعظم الحروب القديمة يقع فيها مثل ذلك • ان الجندي ليس ملاكاً ، بل هو بشر يريد أن ينال جزاء تضحيته في الدنيا والآخرة معاً •

من ذيول الفتح :

دخل السلطان القسطنطينية بموكب فخم من باب القديس رومانوس ولما وصل قريبا من كنيسة سانت صوفيا ترجل عن فرسه وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعا لله وشكرا ، ثم دخل الكنيسة فاستقبله رجالها الذين كانوا خائفين ، فأمنهم وأكد حمايته لهم ، وطلب من المسيحيين الذين كانوا لاجئين في الكنيسة أن يعودوا الى بيوتهم آمنين ، وأصدر أمره الى الجنود بالكف عن النهب والاعتداء • حوّلت كنيسة أيا صوفيا الى جامع وبدّل اسم «القسطنطينية» الى « اسلامبول » ـ أي مستودع الاسلام ـ ولكن هذا الاسم لم ينتشر استعماله كثيرا ، بل راج محله اسم « الاستانة » و « اسطنبول »[2] •

وأرسل السلطان الرسائل الى ملوك المسلمين يبشرهم بفتح

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٩ ، ١٠٧ ـ ١٠٨ •

(٢) الاستانة لفظة فارسية تعني « العتبة المقدسة » ، اما اسطنبول فهي لفظة اغريقية كان اليونانيون يطلقونها على القسطنطينية ومعناها « الى المدينة » وسنستعمل هذا الاسم بعد الآن في هذا الكتاب لأنه الاسم الشائع في العراق كما أنه الشائع في الأطالس العالمية •

القسطنطينية ، منها رسالة بعثها الى اينال شاه ملك مصر ، وهي طويلة نقتطف منها ما يلي لما فيه من دلالة اجتماعية :

« ••• ان من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم • ونحن على السنة قائمون ••• فهممنا هذا العام ••• الى أداء فرض الغزاء في الاسلام ••• وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا والتي بقيت في وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخرا ••• وهي قلعة عظيمة مشتهرة في ألسنة أهل الارض باسم القسطنطينية • ولا يبعد أن تكون هي التي نطق بها صحاح الاحاديث والاخبار المصطفوية ••• ومتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادي الاولى ، هجمنا مثال النجوم رجوما لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ، ببركة العدل الفاروقي ، بالضرب الحيدري لآل عثمان ••• فلما ظهرنا على هؤلاء الارجاس الانجاس الحلوس ، طهّرنا القوس من القسوس ، وأخرجنا منه الصليب والناقوس ، وصيّرنا معابد عبدة الاصنام مساجد أهل الاسلام ••• »[1] •

ذكر المؤرخ المصري ابن أياس في كتابه « بدائع الزهور » أنه عندما وصل خبز الفتح الى مصر دقت البشائر بالقلعة ونودي في القاهرة بالزينة وأرسل الملك رسولا الى ابن عثمان يهنئه بالنصر[2] •

ظهور الدولة الصفوية :

في الوقت الذي كانت فيه قوة الدولة العثمانية تتعاظم على أثر فتح القسطنطينية كانت منطقة أذربيجان الايرانية تتمخض عن حركة صوفية قدّر لها فيما بعد أن تكون خطرا جسيما على الدولة العثمانية ــ هي الحركة الصفوية •

---

(١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص ٢٥ ــ ٢٦ •
(٢) محمد مصطفى صفوت (المصدر السابق) ص ١١٠ •

ومما يجدر ذكره أن الطريقة الصفوية لم تكن في بداية أمرهـــا تختلف كثيرا عن الطريقــة البكتاشية من حيث كونهـا مزيجا من التصوف والتشيع الاثني عشري، وكان أتباعها يعرفون باسم « القزلباش » ـ أي ذوي الرؤوس الحمر ـ وذلك لانهم كانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوات حمراء فيها اثنتا عشر طية اشارة الى الائمة الاثنى عشر •

وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي ـ الموافق للقرن العاشــر الهجري ـ تولى قيادة الحركة الصفوية شاب يبلغ الثالثة عشرة من عمره اسمه اسماعيل ، فاستطاع هذا الفتى خلال سنوات معدودة أن يؤسس دولة قوية في ايران وأن يوسع حدود تلك الدولة حيث ضم اليها العراق وما وراء النهر وجزءا كبيرا من قفقاسيا •

سوف نأتي الى دراسة الشاه اسماعيل وسيرته في الفصل القادم ، يكفي أن نذكر هنا أن هذا الرجل عمد الى فرض التشيع على الايرانيين بالقـــوة وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة ، وكان شــديد الحماس في ذلــك سفاكا لا يتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه ، قيل أن عدد قتلاه ناف على ألف ألف نفس[1] •

وفي عام ١٥٠٨ استطاع الشاه اسماعيل أن يفتح بغداد ، وتشير أكثر المصادر التاريخية الى أنه فعل بأهل بغداد مثل ما فعل بالايرانيين من قبـل فأعلن سب الخلفاء وقتل الكثير من أهل السنة ونبش قبر أبي حنيفة • ومن المناسب أن أنقل هنا ما قاله الشيخ محمد جواد مغنية في هذا الموضوع اذ هو يمثل وجهة نظر أخرى فيه ، انه قال ما نصه :

« وأمر الشاه اسماعيل أن يؤذن بحي على خير العمل في جميع بـلاد ايران ، ونقش على النقود اسم علي وآله ، ونشر في الاقطار المجاورة لايران

---

(١) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ـ ج١ ص٣١٣ (الحاشية) •

الدعاة لمذهب التشيع ، وحين دخل الى بغداد ، وذلك في ٢٥ جمادي الثانية سنة ٩١٤ ، فرح الناس بقدومه ، والتجأوا الى عدله ، وكانوا ينتظرونه بفارغ الصبر ، وأخذوا يقدمون القرابين والذبائح اكراما له ، وفي اليوم التالي بلا فاصل توجه الى كربلا ، وأدى مراسيم الزيارة ، وبات ليلته معتكفا في الحائر ، منكباً على قبر الحسين الشهيد (ع) ، وأمر بصنع الصندوق المذهب للقبر الشريف ، وعلّق بالحضرة ١٢ قنديلا من الذهب ، وفرشها بأنواع السجاد الثمين ، كما أمر بصنع صناديق أخرى للنجف الاشرف والكاظمية وسامراء بدلا من صناديقها القديمة •

« ثم سافر الى النجف الاشرف ، وتشرف بزيارة المشهد العلوي وقدم القناديل من الذهب والفضة ، والمفروشات الثمينة ، وفي هذه السنة شرع بناء حرم الكاظمين والمسجد الكبير المعروف بمسجد الصفويين • وأمر بحفر النهر الذي كان قد حفره عطا ملك ، ثم اندثر بمرور الزمن ، فجدده الشاه اسماعيل ، ووقف ريعه على خدام المشهدين : العلوي والحسيني • هذا ، الى حبه وتعظيمه العلماء والعلويين ، وانعامه عليهم بالاموال والمناصب والاستعانة بأهل الكفاءة والمقدرة على نشر المذهب ، واعلان أسماء الائمة الاثنى عشر على المنابر وفي المحافل ، وبشتى المناسبات »[١] •

يجد القاريء في هذا مصداق ما ذكرناه في مقدمة الكتاب من أن الانسان حين ينظر الى الحقيقة انما يركز نظره على جانب واحد منها ويبالغ فيه ، من حيث يغضّ النظر عن الجوانب الاخرى ، وهو اذ يفعل ذلك يعتقد جازماً بأن الحق كله معه • وسنرى في هذا الكتاب نماذج كثيرة من ذلك ـ انها طبيعة الانسان في كل مكان وزمان !

---

(١) محمد جواد مغنية (دول الشيعة في التاريخ) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ص ١٢٢ ـ ١٢٤ •

السلطان سليم ياوز :

لم يمض على احتلال الشاه اسماعيل بغداد سوى أربع سنوات حتى تولى عرش السلطنة العثمانية في اسطنبول رجل شديد المراس لا يقل عن الشاه اسماعيل في تعصبه المذهبي وتعطشه للدماء ـ هو السلطان سليم الذي اشتهر بلقب « ياوز » ومعناه الصارم الذي لا يعرف اللين •

يقول لونكريك : ان السلطان سليم كان له من المواهب المتناقضة ما يستدعي العجب ، كالثقافة والشراسة ، وبسالة الذكي مع جمود الغبي ، وقد أتاحت له فترة السلم التي كانت سائدة أيام نشأته أن يدرس العالم وأن يرثي للاسلام من الزندقة التي كانت تنال منه ، وأثرت مذبحة العجم للسنيين في بغداد تأثيرا أليماً في نفسه ...[1]

مهما يكن الحال فقد أعلن السلطان سليم نفسه حاميا لأهل السنة وزعيما لهم ، واستحصل من بعض رجال الدين فتوى تجيز له قتل الشيعة باعتبارهم مارقين عن الاسلام[2] ، ثم وضع خطة للقضاء على جميع الشيعة الساكنين في داخل حدوده •

نظم السلطان نمطاً من الشرطة السرية وأرسل أفرادها في شتى أرجاء البلاد العثمانية ـ الآسيوية والاوربية ـ بغية احصاء عدد الشيعة فيها ، وقد تبين له أن عددهم يناهز السبعين ألفا بين رجل وامرأة وطفل • وبعد أن تأكد السلطان من عددهم ومبلغ تركزهم في الاماكن المختلفة أرسل جنودا الى تلك الاماكن بنسبة عددهم ، ثم أوعز الى أولئك الجنود أن يلقي كل واحد منهم القبض على من بقربه من الشيعة في وقت معين • وتم عندئذ قتل

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ترجمة جعفر خياط ـ ص١٩ •

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٤٠ •

أربعين ألف من الشيعة بينما أودع الباقون في السجن المؤبد[١] .

يشبّه المؤرخون هذه المذبحة بتلك التي قام بها الكاثوليك في فرنسا للانتقام من البروتستانت وهي المذبحة المعروفة باسم « سان برتلميو »[٢] . ومما يلفت النظر أن هذه المذبحة وقعت بعد مذبحة الشيعة بستين سنة تقريبا ، فهل كان هناك ترابط سببي بين المذبحتين ؟ ان هذا موضوع جدير بأن يبحث فيه .

بين السلطان والشاه :

يروي الدكتور بيرج عن أحد مشايخ البكتاشية قصة غريبة خلاصتها أن السلطان سليم العثماني والشاه اسماعيل الصفوي كانا كلاهما من أتباع الطريقة البكتاشية ، وقد حدث مرة في شبابهما أنهما كانا جالسين معاً بحضور « بالم سلطان » الشيخ البكتاشي المشهور فاتفقا فيما بينهما على أنهما حين يصلان الى الحكم يسعيان نحو توحيد المسلمين في عقيدة واحدة ـ والمفروض أنها عقيدة البكتاشية ـ فلما وصلا الى الحكم فعلاً كتب اسماعيل الى سليم يذكّره بوعده فأجابه سليم معتذرا بأن وزراءه سنيون وأنه مضطر الى التباطؤ في تحقيق وعده ، فكان هذا الاعتذار سببا لغضب اسماعيل عليه حيث وصفه بأنه كذّاب وأنه لا يلتزم بكلمته . ومن هنا اشتد العداء بينهما[٣] .

لا ندري مبلغ صحة هذه القصة ، انما هي على أي حال قد تعطينا وجهة نظر البكتاشيين في تعليل العداء بين السلطان والشاه . وتشير بعض القرائن التاريخية الى أن السلطان عندما عزم على محاربة الشاه كان مرتابا

---

(1) Edward S. Creasy (History of The Ottoman Turks) — Beirut 1961 — p. 131—132.

(٢) محمد فريد (المصدر السابق) ص٧٤ .

(3) John Birge (op. cit.) p. 67.

من ولاء الانكشاريين له وكان يخشى أن ينقلبوا عليه أثناء المعركة وينضموا الى صف الشاه لما بينه وبينهم من تشابه في العقيدة •

في عام ١٥١٤ وقعت معركة طاحنة بين جيوش السلطان والشاه وهي المعركة التي عرفت في التاريخ باسم « چالدران » نسبة الى الموضع الذي حدثت فيه على مقربة من تبريز • وكان النصر فيها حليف الجيش العثماني، وقد أمر السلطان بذبح جميع الاسرى ، وأن يصنع من جماجم القتلى هرم لينصب في ساحة المعركة ـ كما هيّ عادة المنتصرين في ذلك الزمان •

مما يلفت النظر أن السلطان لم يستغل النصر الذي ناله تمام الاستغلال اذ رأيناه يتوقف عن مطاردة عدوه المهزوم ويرجع الى اسطنبول • وقيل ان الانكشاريين هم الذين كانوا السبب في ذلك فقد امتنعوا عن الاستمرار في التقدم الى داخل ايران بحجة اشتداد البرد وقلة الملابس والمؤون اللازمة لهـــم •

مهما يكن الحال فان السلطان عندما وصـــل الى اسطنبول أمر بقتل عدد كبير من الضباط الانكشاريين الذين كـانوا السبب في توقف الزحف نحو ايران ، وأمر كذلك بقتـــل جعفر جلبي ـ قاضي العسكر البكتاشي ـ الذي كان من أكبر الداعين الى التوقف • ثم استن السـلطان للجيش الانكشاري سنة جديدة هي تعيين قائدهم من غيرهم وبأمر منه وذلك لكي يضمن السيطرة عليهم فلا يعودون يعصون أمره في المستقبل[١] •

فتح مصـر :

يبدو أن هناك سببا آخر علاوة على الذي ذكرناه هو أن السلطان سليم خشي أن يتوغل بجيوشه في ايران فينتهز الفرصة المملوك قانصو الغوري ـ ملك مصر والشام ـ ويهاجمه من الخلف • ومما يجدر ذكره في هـذا

(١) محمد فريد (المصدر السابق) ص٧٤ ـ ٧٥ •

الصدد ان الشاه كان على صلة وثيقة بالغوري وقد عقد معه معاهدة مما جعل الغوري يقطع علاقاته الدبلوماسية مع السلطان سليم[1] ، ولهذا نجد السلطان يعد العدة لحرب الغوري على اثر انتهائه من حرب الشاه •

وفي ٢٤ آب ١٥١٦ تقابل الجيشان ـ العثماني والمملوكي ـ لاول مرة في واد قرب حلب يسمى « مرج دابق » ولم تدم المعركة بينهما سوى ساعات قليلة ـ من شروق الشمس حتى العصر ـ وكان النصر فيها حليف الجيش العثماني ، وكان أهم سبب في انتصاره قوة مدافعه وهو نفس السبب الذي ساعد الجيش العثماني على الانتصار في معركة چالدران وغيرها من المعارك السابقة[2] •

كان النصر في مرج دابق حاسما ، وقد قُتل قانصو الغوري في ساحة المعركة ، ولم يجد السلطان سليم في تقدمه بعدئذ مقاومة ذات أهمية فأتم فتح البلاد الشامية كلها خلال أسابيع معدودة • ثم توجه نحو مصر فعبر صحراء سيناء ، وصادف أن هطلت على الصحراء حينذاك أمطار غزيرة سهلت على جيشه اجتيازها • وفي ١٣ نيسان ١٥١٧ تم له فتح القاهرة بعد معركة طاحنة في شوارع المدينة • وقد أبدى المماليك في تلك المعركة مقاومة ضارية اذ كانوا يقاتلون من شارع الى شارع ، ومن دار الى دار ، حتى قتل منهم ومن سكان القاهرة آنذاك ما يبلغ خمسين ألفاً • ووقع طومان باي رئيس المماليك في أيدي العثمانيين فأمر السلطان سليم بشنقه بباب زويله[3] •

---

(١) زين نور الدين زين (نشوء القومية العربية) بيروت ١٩٦٨ ـ ص ١٩ •

(٢) كانت المدافع يومذاك من الأسلحة الحديثة ، وقد أدرك سلاطين آل عثمان أهميتها في الحروب فحرصوا على استجلاب الخبراء من أوربا لصنعها وتحسينها ، والظاهر أنهم تفوقوا في ذلك على الدول الأوربية إذ كان خبراء المدافع الأوربيين يجدون من التقدير والمكافاة في الدولة العثمانية اكثر مما يجدونه في دولهم •

(٣) محمد فريد (المصدر السابق) ص٧٦ •

انتقال الخلافة الى العثمانيين :

كان في القاهرة حينئذ رجل من سلالة الاسرة العباسية هو محمد المتوكل على الله ، وقد ذكر المؤرخون أن هذا الرجل تنازل للسلطان سليم عن حقه في الخلافة الاسلامية وسلّمه المخلفات النبوية المقدسة وهي البيرق والسيف والبردة ، وسلمه كذلك مفاتيح الحرمين الشريفين • ومنذ ذلك الحين صار كل سلطان عثماني يلقب بـ « أمير المؤمنين » و « خليفة رسول رب العالمين » •

كان انتقال الخلافة الى العثمانيين موضع خلاف وجدل بين الفقهاء ، وقد اعترض بعضهم على هذا الانتقال استنادا على ما ورد عن النبي من أنه قال : « الائمة من قريش » • والشائع أن السبب الذي جعل الدولة العثمانية شديدة التمسك بالمذهب الحنفي هو أن أبا حنيفة كان لا يأخذ بهذا الحديث ويرى من الجائز أن تكون الخلافة في غير قريش •

وفي الآونة الاخيرة جاء ساطع الحصري برأي حاول فيه نفي أمر انتقال الخلافة الى العثمانيين من أساسه على الرغم من اجماع المؤرخين عليه • فهو يقول : ان الابحاث التاريخية لا تؤيد وقوع ذلك على الرغم من تواتر الاقوال فيه ، وأن تلك الابحاث لا تترك مجالا للشك في أنه اسطورة تكونت بعد فتح مصر وبعد وفاة السلطان سليم بمدة غير يسيرة • ويأتي الحصري بالقرائن التاريخية التي تؤيده في رأيه ، ثم يقول ما نصه : « كل شيء يدل على أن سلاطين آل عثمان لم يعيروا ـ في بادىء الامر ـ أمر الخلافة أي اهتمام • وعندما اهتموا بها فيما بعد ـ وأرادوا أن يستفيدوا منها ـ بصورة تدريجية ، اختلق ساستهم ومؤرخوهم اسطورة التنازل والانتقال »[1] •

---

(١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٤٢ـ٤٥ •

الواقع على أي حال أن العثمانيين استفادوا من فكرة الخلافة ـ كما يقول الحصري ـ فائدة كبيرة ، ذلك أن اعتقاد المسلمين بتلك الفكرة قوّى نفوذ الدولة العثمانية وسهّل حكمها تسهيلا عظيما • وسوف نرى في هذا الجزء من الكتاب وفي الاجزاء التالية له مبلغ تأثير تلك الفكرة في المجتمع العراقي ولاسيما في عهد السلطان عبدالحميد •

السلطان سليمان القانوني :

في عام ١٥٢٠ توفى السلطان سليم بمرض السرطان ولم يكن قد تجاوز الحادية والخمسين من عمره ، فتولى العرش مكانه ابنه سليمان • وكان هذا على النقيض من أبيه رحيماً يحب العدل ، ودام حكمه ستة واربعين سنة ، ووصلت الدولة في عهده الى أوج اتساعها ومجدها • وقد أطلق الأوربيون عليه لقب « العظيم » كما أطلق عليه الاتراك لقب « القانوني » و « سيد عصره » •

الملاحظ ان السلطان سليمان عاش في عصر كثر فيه مشاهير الملوك في الشرق والغرب من أمثال أكبر شاه في الهند ، واسماعيل شاه في ايران ، وايفان الرهيب في روسيا ، وهنري الثامن في بريطانيا ، والبابا ليو العاشر في روما ، والامبراطور شارلكان في اسبانيا والمانيا • ويقول المؤرخ كريسي تعليقاً على ذلك : لم يحصل أي واحد من هؤلاء الملوك العظام على مجد يناهز مجد السلطان سليمان[١] •

الواقع أن الجيوش العثمانية كانت في عهد السلطان سليمان ذات مزايا عالية من حيث كثرة عددها وكفاءة مدفعيتها وبراعة المهندسين العسكريين فيها ، وكانت العناية براحة الجنود ونظافتهم كبيرة حتى أن مجموعات من السقائين كانوا يتجولون بين الجنود أثناء السير لسقاية المرضى

(1) Edward Creasy (op. cit.) P. 158—159.

والمنهوكين • أضف الى ذلك أن الجنود كانت لهم ثقة لا حد لها بالسلطان سليمان وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أنه مؤيد من الله وأنه مذكور في القرآن ولابد أن يقودهم نحو النصر ، وكانوا يطلقون عليه لقب « متمم العدد التام » ويقصدون بالعدد التام رقم عشرة وذلك لان حكم السلطان سليمان اقترن بامور عديدة فيها هذا الرقم ، فهو عاشر سلاطين آل عثمان وقد اعتلى العرش في مستهل القرن العاشر الهجري وغير ذلك ، وهذا في نظرهم يحتوي على اليمن وحسن الفال(١) •

أخذ السلطان سليمان ينتقل من نصر الى نصر دون أن يقف في وجهه شيء • وقد بدأت انتصاراته في السنة الثانية من حكمه عندما فتح بلغراد وقلعتها الحصينة ، وبذا انفتح امامه الطريق نحو أوربا الوسطى فيما وراء نهر الدانوب • وفي ١٥٢٦ نال النصر الحاسم في معركة موهاج واحتل بودابست ، ثم تقدم نحو مدينة فينا العظيمة فضرب الحصار حولها في ١٥٢٩ وسلّط عليها مدافعه الضخمة ، لكنه تراجع عنها عند حلول البرد وسقوط الثلوج •

الفزع في أوربا :

في ١٦ نيسان ١٥٢٣ بعث الامبراطور شارلكان الى سفيره في بريطانيا يقول له : « ••• وعليك أن توضح للملك وللكاردينال مبلغ الخطر الذي يتعرض له العالم المسيحي ••• ونكاد نعتقد أن الاتراك سينوون مهاجمة العالم المسيحي هذه السنة ، وستكون أرض المعركة أما في ايطاليا أو هنغاريا أو في البلدين معاً وفي الوقت ذاته ••• ولكن أينما هاجم الاتراك في العالم المسيحي فان ذلك من شأنه أن يعرض كرامتنا ، بصفتنا امبراطوراً وحامياً للكنيسة ، الى الامتهان ، كما أنه يعرض كرامة أخينا حامي الايمان ، اذا نحن تغاضينا عن مثل هذا التعدي في حياتنا • واذا سمحنا

(1) Ibid, p. 160—161 & 202.

للعدو بأن يقوم بمثل هذا العمل العدائي فانه سيكون بمثابة وصمة عار تلحق بنا الى الأبد ، هذا فضلا عما ستتعرض اليه من بؤس وشقاء »[١] .

تدل هذه الرسالة على مبلغ الفزع الذي انتاب أوربا من جراء التوسع العثماني ، وتشير بعض القرائن الى أن الأوربيين أخذوا ينظرون الى الدولة الصفوية في ايران كوسيلة لتحويل الخطر عنهم ، فقد كتب السفير النمساوي في اسطنبول يومذاك يقـول : « ان الايرانيين وحدهم يقفون بيننا وبين الدمار »[٢] . ويقول المؤرخ هارولد لامب : إن الرسـل الموفدين من البندقية ذهبوا الى الشاه في ايران ليحثوه على حرب الدولة العثمانية إذ أن هذه الحرب اذا ما أمكن اشعالها ستخفف الضغط عن مدينة فينا وعن البحر الابيض المتوسط[٣] .

فتح بغداد :

كان السلطان سليمان منذ توليه الحكم يواجه ضغطاً من قبل حاشيته ومستشاريه يحثونه على « انقاذ » بغداد من أيدي الايرانيين وعلى اعـادة تعمير مرقد « الامام الاعظم » ابي حنيفة ، وكان الشعراء يستثيرون نخوته في هذا السبيل ، و « الاغوات » يذكرونه دائما بوجوب اكتساح الايرانيين « المارقين » بالنار والسيف على طريقة أبيه السلطان سليم[٤] .

في عام ١٥٢٤ توفي الشاه اسماعيل فخلفه على العرش ابنـه الأكبر طهماسب الذي لم يكن عمره آنذاك يزيد على العشر سنوات ، وقد أرسل

---

(١) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ص ١٤ ـ ١٥ .

(2) Edward Browne (A Literary History of Persia) — Cambridge 1953 — vol 4, p. 93—94.

(٣) هارولد لامب (سليمان القانوني) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ترجمـة شكري محمود نديم ـ ص ٢٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

السلطان سليمان يهنىء الشاه الجديد ولكنه استعمل عبارات الوعيد في أخريات رسائله • وفي السنة التالية ذعر البلاط الايراني عند سماعه بالاستعدادات العسكرية الواسعة النطاق التي كانت تجرى في اسطنبول ، فاتصل بملك هنغاريا ليعاونه على العدو المشترك ، ولما سمع السلطان سليمان بذلك أمر باعدام الأسرى الايرانيين الذين كانوا معتقلين في غاليبولى[1] •

وأخيراً في سنة ١٥٣٤ تحرك السلطان سليمان بجيشه نحو تبريز ثم انحدر منها نحو الجنوب في المناطق الغربية من ايران ، وكانت الجيوش الايرانية تنسحب من أمامه مرحلة بعد أخرى ، حتى وصل الى همدان ومنها اتجه غرباً نحو بغداد • والواقع ان هذا الزحف الطويل لم يكن موفقاً كل التوفيق ، فقد عانى الجيش العثماني فيه من شدة البرد وكثرة الامطار والوحول أمراً عظيماً ، وفقد الكثير من مدافعه وحيواناته ، ولم يصل الى مقربة من بغداد الا وهو في أشد حالات الوهن •

يبدو أن وصول السلطان سليمان على رأس جيشه ـ ومعه المدافع ـ الى مقربة من بغداد بعث الرهبة في قلوب الحامية الايرانية ، فقد كانت تلك أول مرة يسمع أهل بغداد فيها عن المدافع ، وربما انتشرت المبالغات بينهم عن هذا الاختراع العجيب وما يمكن أن يأتى به من أفاعيل في التدمير • وعلى أي حال فقد دخل السلطان بغداد فاتحاً دون مقاومة ، وكانت الحامية الايرانية قد انسحبت منها قبل ذلك •

كان دخول السلطان الى بغداد في اليوم الاخير من عام ١٥٣٤ ، والمعروف عنه أنه لم يسمح بالنهب أو ايذاء أحد من السكان • وقد تقدم اذ ذاك الشاعر المشهور فضولي البغدادي فألقى بين يدي السلطان قصيدة في مدحه كان مطلعها :

---

(١) لونكريك (المصدر السابق) ص٢١ •

أيّد اللهم في الآفاق أمن المسلمين بادوام دولت باينده سلطان دين[1]

وكانت أبيات القصيدة كلها من هذا الطراز حيث يكون الشطر الاول منها باللغة العربية والثاني بالفارسية • ومما يجدر ذكره أن كلاً من الممدوح والمادح كان من أتباع الطريقة البكتاشية •

وبعد أن استراح السلطان في بغداد أربعة أيام ذهب لزيارة الائمة في الكاظمية وكربلا والنجف ، ويحكى أنه حين صار على بعد أربعة فراسخ من النجف ، ولمح قبة القبر المقدس فيها ، ترجل عن فرسه وأخذ يمشي على قدميه قائلا ان أعضاءه اهتزت لمرأى القبة • وتُروى عنه أبيات من الشعر في تمجيد الامام نطق بها وهو يمشي نحو النجف •

وقد أمر السلطان باتمام البناية التي بدأ بتشييدها الشاه اسماعيل في الكاظمية على قبر الامامين موسى والجواد ، وكذلك أمر بدفع مرتبات لخدم القبر من خزانة بغداد[2] • ثم أشرف على تعميق مجرى نهر الحسينية وتوسيعه بحيث صارت مياه الفرات تصل الى كربلا بانتظام ، وقد عدّ الناس ذلك كرامة للامام الحسين تمت على يد السلطان[3] •

قصة قبر ابي حنيفة :

عند عودة السلطان سليمان من زيارة كربلا والنجف زار قبر الامام أبي حنيفة ، وكان الايرانيون قد هدموه ونبشوه كما أشرنا اليه من قبل ، فأمر بتشييد قبة وجامع عليه • والظاهر أنه لم يكن حول القبر سكان آنذاك فأمر السلطان بتعمير دار ضيافة وحمام وخان ونحو أربعين أو

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٤٩ ـ ج٤ ص ٢٩ •

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ص ٢٩ ، ٣٤ •

(٣) لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٥ •

خمسين دكاناً ، ثم أمر بتعمير قلعة لحراستها ووضع فيها جنوداً يبلغ عددهم مائة وخمسين ومعهم المعدات الحربية والمدافع •

وفي تلك الآونة شاعت حول القبر قصة اعتبرت كرامة لأبي حنيفة ، خلاصتها أن أبا حنيفة ـ قبل أن ينبش الايرانيون قبره ـ ظهر في المنام للسادن وقال له : « ضع الصندوق الذي على قبري على الضريح الذي هو في المحل الفلاني لان هناك كافراً مستحقاً للعقاب » ، فاستيقظ السادن وفعل ما أمر به أبو حنيفة دون أن يعرف السبب فيه • ولم يمض على ذلك مدة طويلة حتى استولى الايرانيون على بغداد ، وحينذاك كسروا الصندوق وفتحوا القبر فوجدوا فيه جسداً ملوثاً حسبوه جسد أبي حنيفة فألقوه في النار • ولما استعاد السلطان سليمان بغداد ظهر أبو حنيفة في المنام لأحد عرفاء الجيش يخبره بمكان القبر الحقيقي ، وعندما حفروا فيه وجدوا صخرة كبيرة تفوح من تحتها رائحة طيبة انعشت الحاضرين ، فترك السلطان الصخرة في موضعها وأهال عليها التراب وأمر بتشييد القبة فوقها[1] • وقد اعتقد الجيش أن في ذلك علامة تدل على أن السلطان موجّه من الله[2] •

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٤ ص٣٠ ـ ٣١ ،
(٢) هارولد لامب (المصدر السابق) ص ٢٤٠ •

الفصل الثاني

الدولـة الصفوية والتشيع

كان لظهور الدولة الصفوية في ايران تأثير كبير جداً من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية ، ولم يقتصر أثرها على ايران وحدها بل تعداها الى العراق وتركيا وافغانستان والهند . والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم تاريخ العراق وطبيعة مجتمعه فهماً عميقاً ما لم ندرس الدولة الصفوية على شيء من الاسهاب . وسأحاول في هذا الفصل دراسة جانب من الدولة الصفوية أعتبره ذا صلة وثيقة بالمجتمع العراقي هو الجانب المذهبي . ومما يؤسف له أن هذا الجانب لم يلق عناية كافية من الباحثين على الرغم من أهميته التاريخية والاجتماعية .

مؤسس الدولة :

مؤسس الدولة الصفوية هو الشاه اسماعيل ـ كما أشرنا اليه في الفصل الماضي ـ وهو الذي فرض التشيع الاثنا عشري على الايرانيين قسراً وجعله المذهب الرسمي للحكومة الايرانية . ويعطينا الاستاذ برون وصفاً رائعاً لشخصية هذا الرجل نقلاً عن بعض الرحالة والتجار الأوربيين الذين شاهدوه ، فهو كان كما يبدو من أقوال هؤلاء يجمع النقائض إذ هو من جهة كان قاسياً متعطشاً للدماء الى حد يكاد لا يصدق بينما كان من الجهة الأخرى وسيماً ، ذا أخلاق رقيقة ، محبوباً من قبل جنوده الى درجة العبادة حتى أنهم كانوا يرمون بأنفسهم الى ساحة الحرب

من غير دروع مؤمنين بأنه يحميهم من الخطر عند القتال[1] .

يخيل لي أن الشاه اسماعيل كان من اولئك الرجال الذين يملكون مواهب نادرة ـ سلبية وايجابية معاً ـ وهم مؤمنون أن القدر هيأهم للقيام بمهمة ما . والظاهر أنه حين قام بفرض التشيع على الايرانيين كان واثقاً بأنه مكلف بذلك من قبل قوة روحية عليا . انه على أي حال كان معتقداً بأن هاتفاً غيبياً يدفعه ويرشده في أعماله . ولا ننسى أنه كان رجلاً صوفياً ومن شأن المتصوفة بوجه عام أنهم يؤمنون بـ « الكشف » ـ أي الالهام الغيبي ـ والمعروف عنه أنه كان يعلن لمريديه أنه لا يتحرك الا بمقتضى أوامر الأئمة الاثنى عشر وأنه لذلك معصوم وليس بينه وبين المهدي فاصل[2] . ولعلني لا أعدو الصواب اذا قلت ان جميع الامور المستحدثة التي أدخلها اسماعيل في التشيع الايراني قد انبعثت من هذه النزعة الصوفية فيه اذ لم يكن في مقدور أحد أن يفرض مثل تلك الامور على الناس دفعة واحدة دون أن يستند فيها على « الكشف » ودعوى الالهام الروحي .

يروى عنه أنه عندما فتح تبريز في بداية أمره وأراد فرض التشيع على أهلها بالقوة نصحه بعض مستشاريه من رجال الدين أن لا يفعل ذلك بحجة أن ثلثي سكان المدينة من أهل السنة ، وأنهم لا يصبرون على سب الخلفاء الثلاثة من على المنابر ، ولكنه أجابهم قائلاً : « أنا مكلّف بذلك وأن الله والائمة المعصومين معي ، وأني لا أخاف أحداً ، فاذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم فلا أبقي منهم أحداً

---

(1) Edward Browne (A Literary History of Persia) — Cambridge 1953 — vol. 4, p. 22—23.

(٢) كامل مصطفى الشيبي (الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري) ـ بغداد ١٩٦٦ ـ ص ٤١٣ .

حيــاً »[1] .

يمكن القول على أي حال ان الشاه اسماعيل أســاء الى التشيع من حيث أراد نفعه ، أو لعله أساء الى التشيع ونفعه في آن واحد . فهو من ناحية قد زاد من تعداد الشيعة اذ أدخل فيهم الكثير من الايرانيين ، ولكنه من الناحية الأخرى أدخل في التشيع أموراً أضرت به وشوهت سمعته ، أضف الى ذلك أنه جعل التشيع مذهباً حكومياً وبذا أضعف فيه نزعتــه الشعبية القديمة .

وسائل نشر المذهب :

اتخذ الشاه اسماعيل سب الخلفاء الثلاثة وسيلة لامتحان الايرانيين ، فمن يسمع السب منهم يجب عليه أن يهتف قائلاً « بيش باد ، كم ما باد »، وهذه العبارة تعني في اللغة الآذربيجانية أن السامع يوافق على الســـب ويطلب المزيد منه ، أما اذا امتنع السامع عن النطق بهــذه العبارة قُطعت رقبته حالاً . وقد أمر الشاه بأن يعلن السب في الشوارع والأسواق وعلى المنابر منذراً المعاندين بقطع رقابهم .

تروى في هذا الصدد قصة طريفة تشبه من بعض الوجوه قصة غاليلو الذي سيق للمحاكمة في ايطاليا لأنه قال بدوران الارض حــول الشمس ولم ينج من العقوبة الا بانكاره هذا القول ، فقد فعل مثل هذا أحد علماء السنة المعروفين هو شمس الدين الخفري اذ كان في شــيراز عند مجيء الشاه اسماعيل اليها ، وحين تقدم بين يدي الشاه من أجل امتحانه في سب الخلفاء الثلاثة انبرى يلعنهم لعناً شنيعاً فنجا بذلك من الذبح ، ولما خرج من عند الشاه عاتبه أصحابه وقالوا له : « كيف ارتددت عن دينك ولعنت ائمتك الثلاثة ؟! » فأجابهم : « ... لأجل هؤلاء الأعــراب الثلاثة ...

(1) Edward Browne (op. cit.) vol 4, p. 53—54.

أقتل أنا مع ما أنا عليه من الفضل والكمال ؟! »[1] .

ولم يكتف الشاه اسماعيل بالارهاب وحده في سبيل نشر التشيع بل عمد كذلك الى اتخاذ وسيلة أخرى هي وسيلة الدعاية والاقناع النفسي ، فقد أمر بتنظيم الاحتفال بذكرى مقتل الحسين على النحو الذي يُتبع الان[2] . وهذا الاحتفال كان قد بدأ به البويهيون في بغداد في القرن الرابع الهجري ، ولكنه أهمل وتضاءل شأنه من بعدهم . ثم جاء الشاه اسماعيل أخيراً فطوّره وأضاف اليه « مجالس التعزية »[3] بحيث جعله قوي الأثر في القلوب . وقد يصح القول انه كان من أهم العوامل في نشر التشيع في ايران لان ما فيه من مظاهر الحزن والبكاء وما يصاحبه من كثرة الاعلام ودق الطبول وغيرهما يؤدي الى تغلغل العقيدة في أعماق النفس والضرب على أوتارها الكامنة[4] .

وأمر الشاه اسماعيل كذلك بادخال « الشهادة الثالثة » في الاذان أي عبارة « أشهد أن علياً ولي الله » - وكانت هذه الشهادة قد أدخلها بعض الغلاة في الاذان منذ القرن الثالث الهجري غير أن الشيعة المعتدلين استنكروا ذلك في حينه ولم يقبلوا به ، أما اسماعيل فقد فرض الشهادة الثالثة فرضاً ولم يكترث بأحد ، ولا تزال هذه الشهادة موضع أخذ ورد عند الشيعة حتى الآن ...

---

(١) كامل مصطفى الشيبي (التقية) - مجلة الايمان في عدديها الخامس والسادس من السنة الثانية - ١٩٦٥ - ص ٦٠ .

(٢) كامل مصطفى الشيبي (الفكر الشيعي) ص ٤١٥ .

(٣) المظنون أن تمثيل مأساة كربلا ، وهو المعروف الآن باسم « الشبيه » ، لم ينشأ في العهد الصفوي ، بل هو نشأ بعدئذٍ في العهد القاجاري .

(٤) انظر حول هذا الموضوع فيما يخص العراق كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف - بغداد ١٩٦٥ - الفصل التاسع .

الشيخ علي الكركي :

توفى الشاه اسماعيل في عام ١٥٢٤ ولم يكن قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، فخلفه على العرش ابنه الشاه طهماسب وكان هذا يختلف في تكوين شخصيته عن أبيه اختلافاً واضحاً . فهو قد ورث الملك وحصل عليه جاهزا ، أما أبوه فكان مؤسس الملك وقائد الجيوش وكان بالاضافة الى ذلك واثقاً من أنه رئيس الدين والدولة معاً فلا يحتاج الى من يرشده في دينه أو دنياه .

لم يكد طهماسب يتولى الحكم حتى أدرك أنه لا يستطيع أن يكون مثل أبيه رئيساً للدين والدولة في آن واحد . يقول الدكتور كامل الشيبي : ان الشاه طهماسب رأى أن الحكمة تقضي أن يترك أمر بث التشيع بيد الاخصائيين من الفقهاء ، فاستدعى اليه الشيخ علي بن عبدالعالى الكركي لينهض بأعباء هذه المهمة[١] .

ينتسب الشيخ علي الكركي الى قرية « كرك نوح » من قرى بعلبك ، وكان عند استدعاء الشاه له يسكن النجف ، ولما وصل الى ايران استقبله الشاه استقبالاً منقطع النظير ثم أصدر « فرماناً » الى جميع انحاء المملكة ذكر فيه أن الشيخ علي هو صاحب الدولة الحقيقي باعتباره نائب الامام الغائب « صاحب الزمان » وأن على الجميع امتثال أوامره ، « فمعزول الشيخ لا يستخدم ومنصوبه لا يعزل » . ورتب الشاه له مرتبات ضخمة ومنحه قرى زراعية ليأخذ خراجها .

أصبح الشيخ علي الكركي هو الحاكم الفعلي في عهد الشاه طهماسب ـ فيما يخص الشؤون الدينية على الاقل ـ وقد وصفه أحد المؤرخين الايرانيين قائلاً : « ولم يسعَ أحد بعد الخواجه نصير الدين الطوسي مثل ما سعى الشيخ علي الكركي ، في اعلاء أعلام المذهب الجعفري ،

(١) كامل مصطفى الشيبي (المصدر السابق) ص ٤١٦ .

وترويج دين الحق الاثني عشري ، وكان له في منع الفجرة والفسقة وزجرهم ، وقلع قوانين المبتدعة بأسرهم ، وفي ازالة الفجور والمنكرات ، واراقة الخمور والمسكرات ، واجراء الحدود والتعزيرات ، واقامة الفرائض والواجبات ، والمحافظة على أوقات الجمعة والجماعات ، وبيان مسائل الصلوات والعبادات ، وتعاهد أحوال الائمة والمؤذنين ، ودفع شرور الظللين والمفسدين ، وزجر المرتكبين للفسوق والعصيان ، وردع المتبعين لخطوات الشيطان ، مساع بليغة ومراقبة شديدة . وكان يرغب عامة الناس في تعلم شرائع الدين ومراسم الاسلام ، ويحثهم على ذلك بطريق الالتزام ... » . وكان الشيخ علي لا يركب الا ويمشي رجل في ركابه يجاهر بشعار التشيع ، وقد أصدر الى أنحاء ايران أوامر تتضمن قوانين العدل وكيفية سلوك الولاة مع الرعية في أخذ الخراج وكميته ومقدار مدته . وأمر أن يقرر في كل بلد وقرية امام يصلي بالناس ويعلمهم شرائع الدين ...[1]

النزاع بين الكركي والقطيفي :

ان هذا المسلك الذي سلكه الشيخ علي الكركي في دخوله في خدمة الدولة الصفوية ، وتوليه المنصب الكبير فيها ، أثار عليه نقمة الكثيرين من علماء الشيعة المعاصرين . فهؤلاء كانوا يعتقدون على طريقة أسلافهم القدامى أن أية حكومة لا يتولاها الامام هي ظالمة يحرم الدخول في خدمتها وأن الخراج الذي تجبيه تلك الحكومة من الناس يعتبر غصباً لا يجوز للفقيه أن يأخذ منه شيئاً استناداً على ما جاء في القرآن : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

---

(١) محسن الأمين (أعيان الشيعة) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ج٤١ ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

وكان على رأس المعارضين للكركي فقيه يوازيه في العلم والمكانـة هو الشيخ ابراهيم القطيفي ، وكان من سكنة النجف أيضاً • وقد بـدأ النزاع بينهما منذ وصول رسول الشاه الى النجف لاستدعاء الشيخ الكركي، اذ كان مع الرسول هدية لكل منهما فقبل الكركي هدية الشاه بينما رفضها القطيفي • وقد انتقد الكركي عمل زميلـه في رفض الهدية قائلاً لـه « أخطأت في ردها ، وارتكبت إما حراماً أو مكروهاً بتركك التأسّي بالامام الحسن السبط في قبوله جوائز معاوية مع أنك لست أعلى مرتبة من الامام ولا السلطان اسوأ حالاً من معاوية »[1] •

وقد اشتد النزاع بين الرجلين بعـد قبول الكركي دعوة الشـاه ودخوله في خدمة الدولة ، ومما زاد في حدة النزاع أن الكركي وافق على جميع الأمور التي استحدثتها الدولة الصفوية وكتب فيها الرسائل المؤيدة ، فرد عليه القطيفي برسائل مضادة •

أهم الرسائل التي كتبها الشيخ علي الكركي هي تلك الرسالة التي تدور حول موضوع الخراج وكان عنوانها : « قاطعة اللجاج في حـل الخراج » ، وقد رد عليها القطيفي برسالة عنوانها : « السـراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج » • وجاء في مقدمة رسالة القطيفي خمس نقاط : الاولى في حرمة كتمان العلم والفقه ، والثانية في ذم اتباع السـلطان من العلماء ، والثالثة في مدح من أعان طالب العلم وذم من آذاه ، والرابعة في مدح العالم العامل وذم التارك للعمل ، والخامسة في الحيل الشرعية•والظاهر أن هذه النقاط الخمسة كلها موجهة نحو انتقاد الكركي وما ينسب اليه من أعمال في خدمة الدولة • وقد أخذ القطيفي في رسالته يشـجب الخراج ويعدّه ظلماً وغصباً ، وأشار الى أن الشاه كان قد طلب منه مثلما طلب من

---

(١) محسن الامين (المصدر السابق) دمشق ١٩٣٦ ـ ج٥ ص٢٠٣

الكركي في العمل على ترويج الدين واظهار فضل التشيع ولكنه رفض ذلك لأن من رأيه أنه اذا أخذ الحرام وترك أمر الدين فكيف يكون أهلاً لترويج الدين[1] •

يبدو أن الشيخ علي الكركي أفرط في تأييد مستحدثات الدولة الصفوية بحيث وافق على أمور لا يجوز في الشرع الموافقة عليها ـ كلها أو بعضها ـ ولعل هذا هو الذي جعل الخصوم يطلقون على الكركي لقب « مخترع الشيعة » • وكانت من جملة رسائله رسالة في تجويز السب عنوانها « نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت » ، وأخرى في تجويز السجود للعبد ، وثالثة في تجويز السجود على التربة الحسينية[2] • وقد كتب الكركي رسائل في مواضيع أخرى ، فكتب القطيفي في كل واحد من تلك المواضيع يرد عليه • ومما يلفت النظر أن الكركي كتب رسالة في وجوب صلاة الجمعة مع العلم أن الشيعة كانوا قد أبطلوها منذ زمن بعيد حيث آشترطوا لها وجود السلطان العادل[3] ، والمظنون أن الكركي انما افتى بوجوبها لاعتقاده بتوافر العدالة في حكومة الشاه •

ان هذا الجدال الشديد الذي نشب بين الكركي والقطيفي أدى الى انقسام علماء الشيعة في حينه الى فريقين متنازعين ، ولكن هذا الانقسام لم يدم طويلاً حيث انتهى أخيراً بانتصار الكركي واتباعه • وليس من الصعب اكتشاف السبب الذي أدى الى هذا الانتصار اذ هو متوقع ومنسجم مع طبيعة الحياة الاجتماعية ، فالدولة بما لديها من أموال ومناصب مغرية قادرة أن تقوى جانب العلماء الذين يؤيدونها وتضعف جانب الذين يعارضونها • وقد رأينا الدول القديمة ـ على مختلف عقائدها ومنازعها ـ تفعل مثل ما فعلته الدولة الصفوية وتنجح فيه نجاحاً لا يستهان به •

---

(١) المصدر السابق ، ج٤١ ص١٨٦ •

(٢) كامل مصطفى (المصدر السابق) ص ٤١٤ ـ ٤١٦ •

(٣) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٥ ص٢٠٣ •

الهجرة من جبل عامل :

في الوقت الذي ظهرت الدولة الصفوية في ايران كان جبل عامل يزخر بنهضة علمية نادرة المثال ، وكان فيه على ضيق رقعته وفقره عدد من المجتهدين يزيد على ما كان في أية منطقة شيعية أخرى[1] . وكانت هذه النهضة قد بدأت منذ القرن الرابع عشــر الميلادي – أي القرن الثامن الهجري – وأخذت تنمو بمرور الايام[2] .

من الممكن القول إن دخول جبل عامل في حوزة الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم ياوز قد أدى الى وقوع شيء من الاضطهاد – قليل أو كثير – على الشيعة فيه ، وقد جرى ذلك في نفس الوقت الذي كانت فيــه الدولة الصفوية تجتذب علمــاء الشيعة وتغــدق عليهم الامــوال والمناصب المغرية ، وهذا لابد أن يؤدي الى هجرة العلماء العامليين الى ايران عــلى نطاق واسع . يقول الدكتور كامل الشيبي : ان موجة العامليين انصبت في ايران على صورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ التشيع[3] .

كان من أشهر العامليين الذين وفدوا الى ايران بعد الكركي هــو الشيخ حسين بن عبدالصمد ، وقد حل محل الكركي في منصب « شــيخ الاسلام » . وسيرة هذا الرجل تدل على أنه كان ذا مزاج يختلف عن مزاج سلفه ، فهو لم يستسغ الترف والجاه كما استساغهما الكركي وأخذ يتذكر ما كان عليه أساتذته في جبل عامل من شظف العيش والكدح فــي

---

(١) الواقع ان ظهور مثل تلك النهضة العلمية في بقعة منعزلة كجبل عامل أمر يلفت النظر ويدعو الى التساؤل ، فما هي العوامل التي ساعدت على ذلك ؟ أن هذا موضوع اجتماعي جدير بأن يبحث فيه .

(٢) محمد كاظم مكي (الحركة الفكرية والأدبيــة في جبل عامل) – بيروت ١٩٦٣ – ص ٦٨ .

(٣) كامل مصطفى الشيبي (المصدر السابق) ص ٤١٧ .

سبيل الرزق ، وربما صار من جراء ذلك يعاني صراعاً نفسياً ، ولذا نراه في أواخر أيامه يتجه نحو التصوف والزهد ويعتزل المنصب الكبير الذي عهد به اليه • ذهب الى الحج ومن هناك آثر السكنى في البحرين ثم كتب الى ابنه الشيخ محمد « البهائي » يحرضه على ترك ايران وصحبة السلطان، وكان من جملة ما قاله له : « اذا كنت تريد الدنيا فاذهب الى الهند واذا كنت تريد الآخرة فاذهب الى البحرين وان كنت لا تريد الدنيا ولا الآخرة فتوطن في بلاد العجم » • وقد توفي الشيخ حسين أخيراً في البحرين ، وقبره لا يزال معروفاً في قرية المصلى[1] يزوره الناس ويتبركون به •

الشاه عباس الكبير :

وصلت الدولة الصفوية قمة مجدها في عهد الشاه عباس الذي يلقب بـ « الكبير » • وفي عصر هذا الشاه لم تبق ايران في حاجة الى استجلاب العلماء من جبل عامل أو غيره اذ هي أصبحت قادرة على انتاج من تحتاج اليه من العلماء •

تولى الشاه عباس الحكم في عام ١٥٨٨م وهو لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وتروى نادرة طريفة بمناسبة تسنمه العرش تدل على العقلية السائدة في ذلك الحين خلاصتها أن المنجمين نصحوا الشاه بأنه يجب أن يتخلى عن العرش لمدة قصيرة لأن النجوم تشير الى أن خطراً شديداً سيحيق بصاحب العرش خلال تلك المدة ، فاستجاب الشاه لنصحهم وتنازل عن العرش موقتاً حيث نصب مكانه رجلاً غير مسلم اسمه يوسف ، وقد بقي هذا المسكين على العرش ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أوعز الشاه بقتله واستعاد العرش منه • وعند هذا قال المنجمون للشاه انه سيحظى

---

(١) محسن الامين (المصدر السابق) - دمشق ١٩٤٨ - ج٢٦ ص ٢٢٦ - ٢٤٧ •

بمجد طويل عظيم[١] ٠

يبدو أن هذه النبوءة التنجيمية على الرغم من طبيعتها الخرافية كان لها أثر غير قليل في تكوين شخصية الشاه إذ هي أنتجت فيه ايحاءاً نفسياً قوياً جعلته واثقا من نفسه ومن أنه سينال مجداً عظيماً حسب ما تنبأ بـه المنجمون ٠ يجب أن لا ننسى في هذا الصـدد أن كثيرا من الأمور التي نعدّها من الخرافات ، ونستهين بها ، قد يكون لها تأثير بالغ الاهمية ـ في الفرد أو المجتمع ٠

الواقع أن الدولة الصـفوية كانت ـ عندما تسلم الشاه عباس زمـام الأمور فيها ـ مهددة بالخطر الماحق من الحـدود الشـرقية والغربية معـاً ٠ فبالاضافة الى الخطر الآتي اليها من جهة الدولة العثمانية كان هناك خطرا آخر آتياً من جهة دولة الأزبك الواقعة على الحدود الشـــرقية ، وقـد استطاع الأزبك اذ ذاك أن يفتحوا بلدة هرات بعد حصار دام تسعة أشهر ، ثم فتحوا طوس ـ وهي البلدة التي تضم مرقد الامام علي بن موسى الرضا ـ فذبحوا الكثير من سكانها ونهبوا كنوز المرقد الرضوي وكان من جملـة ما نهبوه قطعة من الماس بقدر بيضة الدجاجة ، ثم استمروا في الفتح حتى احتلوا نيسابور وسبزوار واسفرايين وطبس وغيرها من بلدان خراسان ٠

أدرك الشاه عباس أنه غير قادر أن يحارب في جبهتين في وقت واحد، فآثر أن يصالح العثمانيين لكي يتفرغ لمجابهة الأزبك ، وقد تم له ما أراد في عام ١٥٩٠ حيث عقد معاهدة مع الدولة العثمانية تعهد فيها أن يسلّم لها مناطق آذربيجان وجورجيا وقسماً من لورستان ، وأن يمنع رعاياه من سب الخلفاء الثلاثة[٢] ٠

---

(1) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — Vol 2, P. 174—175.

(2) Carl Brockelmann (History of jslamic Peoples) — Cornwall 1947 — p. 325.

ثم توجه الشاه نحو الازبك ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة كبيرة في عام ١٥٩٧ ، وتمكن بعدئذ من استرجاع المناطق المفقودة ولا سيما بلدة طوس المقدسة . ومنذ ذلك الحين بدأ عصر جديد في ايران هو الذي يعده الايرانيون « العصر الذهبي » من تاريخهم الحديث .

جهود عباس العمرانية :

أولع الشاه عباس بالعمران ولعاً عظيماً ، وليس هنا مجال التبسط في ذكر جهوده العمرانية إنما نذكر منها أمرين لأهميتهما الاجتماعية : أحدهما أنه نقل العاصمة من قزوين الى أصفهان وأخذ يبني فيها العمارات الفخمة والمساجد الرائعة التي هي اليوم من أعظم ما يقصده السواح في ايران ، وقد أصبحت أصفهان من جراء ذلك مضرب المثل في الازدهار العمراني والحضاري حتى قيل « اصفهان نصف جهان » أي أن أصفهان نصف الدنيا .

أما الأمر الثاني فهو اهتمام الشاه عباس بتعمير مرقد الرضا في طوس وطلاء قبته بالذهب . وقد بدأ ذلك منذ عام ١٥٩٨ ، وفي عام ١٦٠١ استطاع أن يسترجع قطعة الماس المنهوبة فأرسلها بفتوى من العلماء الى الروم من أجل بيعها ، ثم اشترى بثمنها أراض واملاكاً وقفها على المرقد . وفي السنة التالية مشى الشاه على قدميه من أصفهان حتى طوس ــ وهي مسافة تبلغ ثمانمائة ميل ــ بغية التبرك بزيارة المرقد . وعند وصوله أخذ يقص بيده فتائل الشموع الكثيرة التي تنير المرقد ، ويروى أن الشيخ « البهائي » كان حاضراً فأنشد أبياتاً من الشعر قال فيها ما معناه : إن الملائكة نزلوا من السماء وأخذوا يتهافتون حول الشموع فيا أيها الرجل الذي يقص بمقصه فتائل الشموع إحذر أن تقص جناح جبرائيل(١) .

---

(1) Percy Sykes (Op. Cit.) Vol. 2, p. 181.

وأخذ الشاه عباس بعدئذ يشجع الايرانيين على زيارة الرضا بكل وسيلة ممكنة ، ومما قام به في هذا الشأن أنه عبّد الطرق في مختلف أنحاء ايران وبنى فيها القناطر والخانات بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ ايران. قيل إن عدد الخانات التي بناها بلغ ألف خان يتسع الواحد منها لمئات المسافرين مع دوابهم وحمولتهم ، ولم يكن يؤخذ أجر على ايوائهم فيها ، وما زالت آثارها باقية حتى اليوم(١) .

يعزو بعض الكتاب اهتمام الشاه عباس بزيارة الرضا الى أنه كان يريد أن يجعلها بديلاً عن الحج لدى الايرانيين ، ومن هؤلاء الكتاب الرحالة المصري محمد ثابت إذ قال عن الشاه عباس : إنه « صرف قومه عن زيارة مكة لكراهيتهم للعرب ولكي يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة في بلاد يكرهونها ... »(٢) . إن هذا في نظري رأي لا يخلو من خطأ في التفسير ، فالشاه عباس في الواقع لم يكن راغباً في تحويل الايرانيين عن الحج ، وهو بالأحرى لم يكن قادراً على ذلك ، بل كان همه منصباً على تحويلهم عن زيارة العتبات المقدسة الموجودة في العراق تحت سيطرة أعدائه العثمانيين . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الزوار الايرانيين الذين كانوا يذهبون لزيارة العتبات المقدسة في العهد العثماني كانوا يعانون الشيء الكثير من الأذى ، على أيدي الاطفال في أزقة بغداد ، وعلى أيدي الموظفين في المخافر والدوائر ، وكانوا كثيراً ما يتقدمون عند عودتهم بالشكوى الى الشاه مما نابهم من الأذى في العراق .

مهما يكن الحال فقد صار مرقد الرضا في طوس – منذ عهد الشاه عباس – من أهم معالم المجتمع الايراني ، وقد توالت عليه التعميرات

---

(١) محمد جواد مغنية (دول الشيعة في التاريخ) – النجف ١٩٦٥ – ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٢) محمد ثابت (جولة في ربوع الشرق الأدنى) – القاهرة ١٩٥٢ – ص ١٦١ .

والاضافات من غير انقطاع حتى يومنا هذا ، وليس في مقدورنا اعطاء صورة وافية عما فيه الآن من أبنية وزخارف فنية وكنوز وذهب ، وماله من أملاك وأوقاف ، فذلك أمر يجل عن الوصف . ويعتبر المرقد اليوم أغنى جميع العتبات المقدسة على الاطلاق وأزخرها بالفن من حيث العمارة والزينـــة والعلائق الثمينة[1] .

ويزور المشهد سنوياً عدد كبير من الزوار وهم الآن يقدرون بمليون زائر يقصدونه من أنحاء ايران ـ ومن العراق ومختلف بلاد الشـيعة . وفي ايران يطلق على من أتم زيـارة الرضـا لقب « مشتي » ـ نسبة الى مشهد ـ ويضـاف هـذا اللقب الى اسـمه فيقال « مشـتى فلان » كمثل ما يضـــاف لقب « كبلي » ـ أي كربلائي ـ على اســـم من أتم زيارة الحســين .

فتح بغـــداد :

في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشـر جاء الى ايران من بريطانيا السر انطوني شيرلي واخـوه السر روبرت ، وكان في حاشيتهما رجل خبير بصب المدافع ، فانتهز الشـــاه عباس الفرصة واستعان بالرجل لتجهيز جيشه بالمدافع القادرة على مجابهة المدافع العثمانية التي كانت تعد في ذلك القرن أعظم مدافع العالم على الاطلاق .

وفي عام ١٦٠٢ بدأ الشاه يشن غاراته على التخوم العثمانية ، وبعـد سنتين استرجع مدينة تبريز بقوة مدافعه الجديدة ، ثم صار من بعد ذلك يكسب النصر تلو النصر ، حتى تمكن في عام ١٦٢٣ من فتح بغداد ـ بعد حصار دام ثلاثة أشهر أكل الناس فيه الأطفال وبلغت قيمـة الحمار ألف

---

(١) جعفر الخليلي (موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم خراسان) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص ٢٥٨ .

آقجـة[1] .

والظاهر أن الشاه عباس فعل ببغداد عند فتحها مثلما فعله الشـــاه اسماعيل قبله ، وربما زاد عليه ، فقد هدم مرقدي أبي حنيفة والشيخ عبدالقادر ثم وزع دفاتر لتسجيل اسماء أهل السنة من سكان بغداد بقصد القضاء عليهم جميعاً ، ولـو لم يتدخل السـيد دراج كليدار الحسين لنفذ الشاه ما أراد . فقد كان هذا السيد ذا جاه لدى الشاه واستطاع أن يشفع للكثيرين من أهل السنة وسجل أسماءهم في دفتره باعتبارهم من « محبي أهل العبا » ـ أي من الشيعة ـ فأنقذهم من القتل[2] .

زار الشاه عباس ـ بعد فتح بغداد ـ المراقد المقدسة في الكاظميـة وسامراء وكربلاء والنجف ، وبذل فيها الأموال تعميراً وهدايا ، وقد ركز جهوده العمرانية على النجف بوجه خاص ، فبنى فيها الأواوين والخانات لراحة الزوار ، وأمر بفتح قناة تحت الأرض لجلب الماء الى البلدة ، وانضم عسكره الى العمال في الحفر ، حتى أوصلوا الماء الى مكان قريب من البلدة، وبنى هناك « بركة » في سرداب ينزل اليها الناس على درجات ليسـتقوا منهـــا[3] .

ان هذا الذي فعله الشاه عباس ـ من حيث كونه يهدم ويبنى ، ويقسو ويرحم ، في آن واحد ـ ليس بالأمر العجيب إذ هو ما يفعله عـــادة اكثر الناس على اختلاف طبقاتهم لا فرق فيه بين رجل الشارع والملك ، ولكن أعمال الملك قد تكون مشهورة يعرفها الجمهور ويبالغون فيها بينما أعمال رجل الشارع لا يعرفها سوى نفر معدود من الناس وهي قد تنسى بعـد

(١) عباس العزاوي (تاريخ العـراق بين احتلالين) ـ بغـــداد ١٩٤٩ ـ ج٤ ص ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ص ١٨٠ .

(٣) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضـره) ـ النجف ١٩٥٨ ـ ج١ ص ١٩٣ .

حين • ان الذي يحب أن يحسن الى الناس جميعاً من غير تفريق ليس سوى انسان شاذ •

يصف السنيون الشاه عباس كأنه غول لا يصدر منه غير الشر والأذى ، بينما يصفه الشيعة كأنه قديس دأبه العمران والعدل وطلب الحق • مشكلة هذين الفريقين تشبه من بعض الوجوه مشكلة المرأتين اللتين ذكرنا قصة الشجار بينهما في مقدمة الكتاب إذ كانت كل واحدة منهما تركز نظرها على الأذى الذي أصاب ولدها ، وتبالغ فيه ، من غير أن تلتفت الى مبلغ الاذي الذي أصاب ولد الأخرى •

يحكى أن فارسين من فرسان القرون الوسطى التقيا في طريق عند نصب قديم فاختلفا في لونه : أحدهما يرى أنه أصفر والآخر يرى أنه أزرق ، والواقع أن النصب كان أصفر وازرق في آن واحد حيث كان مصبوغاً في أحد وجهيه بلون يخالف لون الوجه الآخر • وأخذ الفارسان يتنازعان قبل أن يتحققا من حقيقة النصب وكان كل منهما يتعجب من مخالفة الآخر لرأيه ويعتقد أنه مغالط أو معاند • إن النزاع بينهما أذهلهما عن اكتشاف الحقيقة وكلما اشتد النزاع بينهما ازداد كل منهما في تعصبه لرأيه وفي عدائه لرأي خصمه •

الشيخ البهائي :

نبغ في عهد الدولة الصفوية عدد من فطاحل العلماء والمفكرين أشهرهم اثنان هما : الشيخ محمد بن الشيخ حسين العاملي الملقب بـ « البهائي » ، والملا محمد باقر بن الملا محمد تقي الملقب بـ « المجلسي »•

عاش البهائي في عصر الشاه عباس الكبير وتولى مشيخة الاسلام ونال لدى الشاه حظوة لم ينلها أحد غيره ، والظاهر أن نفسه لم تكن مطمئنة الى إقبال الدنيا عليه وكأنه ورث شيئاً من نزعة الزهد والتصوف من أبيه

الشيخ حسين بن عبدالصمد العاملي الذي أشرنا الى بعض سيرته آنفاً . فقد كتب في بعض كتبه يقول إنه لو لم يأت والده الى بلاد العجم لما ابتلي هو بصحبة السلطان[1] . وكتب مرة أخرى يصف نفسه قائلاً : « إنه لو لم يأت والدي قدس الله روحه من بلاد العرب ويختلط بالملوك لكنت من أتقى الناس وأعبدهم وأزهدهم لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه الديار فاختلطت بأهل الدنيا واكتسبت أخلاقهم الرديئة واتصفت بصفاتهم ثم لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا الا القيل والقال ، والنزاع والجدال ، وآل الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل وجسر على مباراتي كل خامل »[2] .

كان البهائي موسوعياً كابن سينا وأمثاله من مشاهير المفكرين القدامى الذين كانوا مطلعين على معظم العلوم والفنون الموجودة في زمانهم ـ وهذا أمر كان ممكنا في الازمنة القديمة بخلاف زماننا هذا ـ ولكن البهائي يختلف عن ابن سينا بكونه اشتهر بالرياضيات والهندسة بينما كان ابن سينا مشهوراً بالطب والفلسفة ، وقد رويت عن البهائي أساطير حول براعته الرياضية والهندسية تشبه الاساطير التي رويت عن ابن سينا في الطب ، ولا يزال العامة في ايران يتناقلون عن البهائي قصصاً لا تخلو من مبالغة أو خرافة .

سئم البهائي منصب « شيخ الاسلام » لما كان يحف به من مكايدات ومؤامرات لا يتحملها المفكرون الكبار ، وحنّت نفسه الى حياة التصوف والرحلة في سبيل العلم على طريقة المسلمين الأوائل ، فلبس لباس الدراويش وأخذ يتجول في مختلف الاقطار الاسلامية كتركيا وبلاد الشام ومصر والحجاز ، وسكن القدس حيناً من الزمن كما سكن دمشق

---

(١) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٢٦ ص ٢٣٥ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٤٤ ص ٢٣١ .

والقاهرة ، وقيل إن رحلته استغرقت زهاء ثلاثين سنة ، ونال اعجاب العلماء وثقتهم في كل بلد حل فيه لأنه كان مخلصاً في طلب العلم ، حر التفكير لا يماري أو يكابر •

ألّف البهائي خلال رحلته كتابه المشهور « الكشكول » ، وقد استمد هذا الاسم من الكشكول الذي يحمله الدراويش يضعون فيه ما يعطى اليهم من صدقات ، وهو كتاب فريد من نوعه وقد يشبه كشكول الدراويش من حيث كونه جامعاً للمعلومات من شتى الانواع ، ففيه يجد القاريء شذرات فلسفية وصوفية وأدبية وفقهية ورياضية وغيرها • وقد حاول بعض المؤلفين فيما بعد تقليد البهائي فألفوا كتبا عديدة على نمط « الكشكول » ولكنهم لم يصلوا الى مستواه ــ وشتان ما بين المبدع والمقلد !

ومما يلفت النظر في أمر البهائي أن أهل السنة يعتبرونه سنياً والشيعة يعتبرونه شيعياً ، وقد راج كتابه « الكشكول » في مصر وايران معاً ، ثم طبع فيهما أخيراً ، والملاحظ أن هناك فرقاً بين نسختيه الايرانية والمصرية إذ توجد في النسخة الايرانية إضافات تلائم مزاج الدولة الصفوية والعقائد التي استحدثتها ، ولا ندري هل كان ذلك من فعل المؤلف أم أنه من فعل النساخ ؟!

نظرية البهائي في المعرفة :

لعل من المناسب ــ ونحن في صدد سيرة البهائي ــ أن نشير باختصار الى نظرية له في المعرفة تدل على حرية تفكيره وتسامحه الديني • وخلاصة النظرية حسبما رويت عنه في كتب ناقديه هي : « أن المكلف اذا بذل جهده في تحصيل الدليل فليس عليه شيء اذا كان مخطئاً في اعتقاده ، ولا يخلد في النار وان كان بخلاف الحق »[1] •

---

(١) عبدالله نعمة (فلاسفة الشيعة) بيروت بدون تاريخ ــ ص ٤٠٦ •

إن هذه النظرية ذات أهمية علمية غير قليلة وان كانت تبدو للناظر السطحي بسيطة ، والواقع أنها تنسجم مع أحدث ما توصلت اليه الابحاث النفسية والاجتماعية . والمظنون أن البهائي استمدها من تجواله الواسع بين الناس ومخالطته لأصحاب العقائد المختلفة . ومن الممكن القول إن كل مفكر صادق النظر اذا اطلع على العقائد المختلفة يستطيع أن يكتشف فيها حقيقة واضحة هي أن كل ذي عقيدة يؤمن بصحة عقيدته ايماناً قاطعاً لا شك فيه وأنه مهما تأمل وفكر فلا يقدر أن يخرج بتفكيره عن الأدلة والقوالب المنطقية الملائمة لعقيدته . ومعنى هذا أن الانسان لا يلام على أية عقيدة اكتسبها من محيطه الاجتماعي فنشأ عليها ، إذ أن تلك العقيدة صحيحة في نظره كمثل ما تكون عقيدتنا صحيحة في نظرنا ، فلو أننا نشأنا في محيطه لاعتقدنا بمثل عقيدته ، وكذلك لو نشأ هو في محيطنا لاعتقد بمثل عقيدتنا . خلاصة القول ان الانسان في اكثر الاحيان لا يختار عقيدته بارادته وتفكيره بل يتلقاها من محيطه الاجتماعي جاهزة ثم يتصور أنها خير عقيدة أنزلت للناس ـ وهذه هي طبيعة الملايين من البشر !

مما يجدر ذكره أن الجاحظ كان قد جاء بما يشبه هذه النظرية التي جاء بها البهائي[1] ، ولكنها حوربت ثم ضاعت ولم يبق منها الا مقتطفات جزئية مما رواه المنتقدون لها . كان من رأي الجاحظ أن الشخص الأمي الذي يعيش في قرية نائية ، أو محيط اجتماعي منعزل ، نراه لا يعرف من العقائد غير العقيدة التي نشأ عليها ، وهو اذن لا يستطيع أن يفكر الا في نطاق تلك العقيدة ، إنه غير ملوم في ذلك ولا يعاقبه الله عليه ، فالله لا يكلف نفساً الا وسعها . ويستخلص الجاحظ من هذا ان الله لا يعاقب من الكفار الا أولئك المعاندين الذين يدركون الحق ويحيدون

(١) انظر حول نظرية الجاحظ هذه كتاب « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » للمؤلف ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ص ٤٩ ـ ٥٢ .

عنه حرصاً على جاه أو رئاسة أو نحو ذلك من الأسباب ، أما الباقون منهم – وهم الذين يمثلون سواد الناس وأكثريتهم – فان من الظلم عقابهم لأنهم لا يفهمون الحق الا من خلال العادات والعقائد التي نشأوا عليها ، والله ليس بظلام للعبيد[1] !

لا حاجة بنا الى القول إن هذه النظرية التي جاء بها الجاحظ والبهائي لا يمكن أن تلقى قبولاً من المتعصبين الذين اعتادوا أن ينظروا الى كل من يخالفهم في العقيدة نظرة عداء شديد ويعتبرونه مخلداً في النار لا شفاعة تنفعه ولا يقبل الله منه عذراً . طبيعة المتعصبين أنهم يتصورون ان الحق واضح ومن السهل الوصول اليه عن طريق الدليل العقلي ، وهم يتصورون كذلك أن المخالف لهم انما انحرف عن الحق عناداً إذ هو في أعماق نفسه يعرف الحق ثم يحيد عنه عمداً . وهذا هو الذي جعل المتعصبين من أصحاب العقائد المختلفة لا يترددون أن يعذبوا مخالفيهم أو يذبحوهم ، ويسبوا نساءهم وأطفالهم ، دون أن يرق لهم قلب أو يؤنبهم ضمير .

ردّ على البهائي غير واحد من رجال الدين في عصره وبعد عصره . ومن الطريف أن أحدهم حاول الدفاع عن البهائي فقال ما نصه : « إن المخالفين لم يبذلوا الجهد في تحصيل الدليل ولو بذلوه لوصلوا الى الحق غالباً »[2] . يبدو أن هذا الرجل هو كأمثاله من المتعصبين نشأ على عقيدة معينة وتصور أن الحق فيها واضح ، وما درى أن المخالفين الذين نشأوا على عقيدة أخرى يتصورون مثله أن الحق واضح فيها – « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

---

(١) أحمد أمين (ضحى الإسلام) – القاهرة ١٩٤٣ – ج٣ ص١٣٤ .

(٢) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٤٤ ص ٢٣٨ .

محمد باقر المجلسي :

عاش الملا محمد باقر المجلسي في المرحلة الاخيرة من الدولة الصفوية إذ توفي في عام ١٦٩٩ أي قبل سقوط الدولة الصفوية بثلاث وعشرين سنة ، وهو يختلف عن الشيخ البهائي من عدة وجوه نخص بالذكر منها اثنين هما :

أولاً : عاش المجلسي عيشة الترف والأبهة وكان مطمئناً الى تلك العيشة راضياً بها ، وذلك على العكس مما كان عليه البهائي . وقد تولى المجلسي منصب « شيخ الاسلام » في عهد الشاه سليمان ، ثم أضيف اليه في عهد الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية منصب « الملا باشي » ـ أي رئيس العلماء ـ تعظيماً له .

ثانياً : كان المجلسي شديد التعصب لعقيدته ولا يتسامح مع أية عقيدة مخالفة مهما كانت ، وقد أغرى الدولة باضطهاد جميع المخالفين الذين كانوا موجودين في داخل الحدود الايرانية كالسنيين والمتصوفة والمجوس واليهود والنصارى ، ولم يسلم منه حتى الفلسفيين إذ اعتبرهم من اتباع الاغريق الكفار[١] .

اشتهر المجلسي بكثرة مؤلفاته وخاصة بكتابه « بحار الأنوار » الذي يتكون من خمسة وعشرين مجلداً ضخماً ، وقد بولغ في غزارة كتابات المجلسي حتى قيل انه كان يكتب ما مقداره خمسون ألف كلمة كل يوم[٢] . والمظنون أنه لم يكتب كل ذلك بيده بل كان لديه كتاب كثيرون فهو يرشدهم الى ما يريد نقله من المراجع ، ومما أعانه على تأليف كتابه

---

(1) Laurence Lockhart (The Fall of The Safavi Dynasty) — Cambridge 1958 — p. 70—71.

(2) Edward Browne (Op. Cit.) Vol 2, p. 404.

« بحار الأنوار » أنه كان جماعاً للكتب مولعاً باقتنائها وكانت الدولة تساعده على ذلك ، فقد بلغه ذات مرة أن أحد الكتب التي كان محتاجاً اليها موجود في اليمن ، فأخبر الشاه بذلك ، فأرسل الشاه سفيراً الى ملك اليمن مع هدايا كثيرة بغية الحصول على الكتاب[١] •

كتب المجلسي « بحار الأنوار » باللغة العربية بينما كانت مؤلفاته الأخرى باللغة الفارسية ، وقد اتخذ في مؤلفاته الفارسية اسلوباً مبسطاً مفهوماً مما جعلها ذات تأثير بالغ في الشعب الايراني ، قيل أن كتابه « حق اليقين » كان سبباً في تشيع سبعين ألف سني من الايرانيين[٢] •

أما كتاب « بحار الانوار » فله شأن آخر ، إنه أضخم كتاب لدى الشيعة ويعد موسوعة كبرى إذ هو جمع معظم أحاديث الشيعة وأخبارهم وعلومهم • وفي رأي بعض الباحثين أن المجلسي أساء الى التشيع بهذا الكتاب أكثر مما نفعه ، فهو قد جمع فيه كل ما عثر عليه من الأخبار والقصص والأساطير ـ لا فرق بين الغث والسمين منها ـ ثم وضعها في متناول كل من يريد الاغتراف منها ، وجاء بعدئذ قرّاء « التعزية » وخطباء المنابر فصاروا يأخذون منه ما يروق لهم وبذا ملأوا أذهان العامة بالغلو والخرافة وجعلوهم يحلقون في عالم من الأوهام لا صلة له بعالم الواقع الذين يعيشون فيه •

عندما تم تأليف كتاب « بحار الانوار » أوقف الشاه بعض أملاكه الخاصة في سبيل نسخ الكتاب وتوفيره للطلبة[٣] • وحين أدخلت المطبعة

---

(١) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٤٤ ص ٩٧ ـ ١٠٠ •

(٢) دوايت دونلدسن (عقيدة الشيعة) ـ تعريب ع٠م ـ القاهرة ١٩٤٦ ـ ص ٣٠٢ •

(٣) محسن الأمين (المصدر السابق) ج٤٤ ص ٩٨ •

الحجرية في ايران في العهد القاجاري كان هذا الكتاب من اوائل المؤلفات التي طبعت فيها على نطاق واسع ، وقد وردت الى العراق منه نسخ كثيرة مما أدى الى انتشار معلوماته « الغثة » في أوساط الشعب العراقي على منوال ما حدث في ايران .

الفصل الثالث

العهد العثماني في طوره الثاني

كانت الدولة العثمانية قد وصلت الى أوج اتساعها وقوتها في عهد السلطان سليمان القانوني ، في أواخر القرن السادس عشر ، ثم أخذت من بعد ذلك تسير نحو التفكك والانحطاط . وقد بدأ اختلال أمور الدولة باختلال نظام الجيش الانكشاري ، ومما يلفت النظر ان هذا الجيش الذي كان في أول الأمر من أهم العوامل في نمو الدولة العثمانية وازدهارها أمسى أخيراً من أهم العوامل في تدهورها .

يقول ساطع الحصري : إن الجيش الانكشاري فقد بالتدريج كل ما كان له من مزايا وتحول في آخر الأمر الى آلة فساد وفوضى ، فقد تضاءل ارتباط الانكشاريين بثكناتهم وأخذ الكثير منهم يشتغلون بمهن مختلفة بعد أن يبيعوا تذاكر « علوفاتهم » — أي مرتباتهم — الى الراغبين من الناس كما تباع الأسهم والسندات وهم لا يجتمعون الا لرفع صوت العصيان أو بطلب عزل وزير أو شنق جماعة من الوزراء ، وعندما تقرر الدولة تسفيرهم الى الحرب قلما كانوا يصمدون أمام هجمات الاعداء غير أنهم يحاولون أن يستروا « عار فرارهم » بنشر شتى الاشاعات بين الناس مدّعين أن القواد أرادوا أن يبيعوهم الى الاعداء الكفار ، ولهذا صارت الحروب التي كانت الدول العثمانية تخوض غمارها كثيراً ما تنتهي بهزائم شنيعة وأخذت حدود الدولة تتراجع وتتقلص شيئاً فشيئاً[1] .

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) — بيروت ١٩٦٠ — ص ٤٧ — ٤٨ .

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه الشاه عباس الصفوي يتأهب لفتح بغداد كان الانكشاريون في اسطنبول لاهين باستهتارهم وشغبهم ، وقد وصل بهم الحال الى درجة أنهم هجموا على السلطان عثمان الثاني وهو في قصره ـ بين زوجاته وجواريه ـ فأخرجوه مهاناً ثم قتلوه ، وحينئذ صارت الحكومة ألعوبة في ايديهم ينصبون الوزراء ويعزلونهم حسب أهوائهم ، وشرعوا يمنحون المناصب لمن يجزل لهم العطايا ، فكانت وظائف الدولة تباع جهراً[1] . وفي عام ١٦٢٣ ـ وقبل أيام معدودة من سقوط بغداد بيد الشاه عباس الصفوي ـ نصب الانكشاريون السلطان مراد الرابع على العرش وكان صبياً دون الثانية عشرة من عمره ظناً منهم أنه سوف يكون طوع أمرهم وألعوبة في أيديهم .

السلطان مراد الرابع :

خاب ظن الانكشاريين في السلطان مراد الرابع ، فهو بدلاً من أن يكون ألعوبة في أيديهم تمكن من أن يجعلهم ألعوبة في يده . ونستطيع أن نعدّ عهد هذا السلطان الشاب فترة انتعاش في جسم الدولة المريض ولكن هذه الفترة لم تدم الا قليلاً إذ هو مات في الثامنة والعشرين من عمره ففقدت الدولة العثمانية بذلك رجلاً جباراً كان في مقدوره أن يستعيد لها بعض قوتها المنهارة .

كان السلطان مراد كأمثاله من الجبارين القدامى سفاكاً للدماء قاسياً الى أقصى حد ، والظاهر أن هذه صفة كانت في الأزمنة القديمة ضرورية لمن يريد أن يحرك التاريخ ويستغل طاقة الجماهير فاذا فقدها استهان الناس به وتجرأوا على عصيان أمره . والواقع ان السلطان مراد لم يكن يقل عن سلفه السلطان سليم ياوز في شدة البطش حتى صار اسمه يضرب

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العليـة العثمانية) ـ القاهرة ١٩١٢ ـ ص ١٢٥ .

به المثل في القسوة ، وقد اشتهر عنه أنه كان لا يأبه بحياة الآخرين ، وقيل في مدحه إنه « لا يصفح عن جرم غير جرمه »[١] .

لم يكد السلطان مراد يتسلم زمام الحكم حتى بدأ يعد العدة لاسترجاع بغداد من أيدي الصفويين ، ثم وجه اليها قوات كبيرة مرتين أولاهما في عام ١٦٢٤ والاخرى في عام ١٦٣٠ ، وقد حوصرت بغداد في كلتا المرتين وضيق عليها الخناق ولكن الجيش العثماني اضطر في كل مرة أن يرفع الحصار وأن يعود من حيث أتى .

يبدو ان شغب الانكشاريين كان من العوامل الرئيسة في هذا الاخفاق الذي مني به الجيش العثماني ، وقد أدرك السلطان مراد أنه لا يستطيع أن يقوم بعمل عسكري جبار ما لم يكسر شوكة الانكشاريين ويقضي على عناصر الشغب بين صفوفهم ، وقد تم له ما أراد في عام ١٦٣٢ حيث أمر بقتل كل من ثبت عليه أي ضلع في حوادث الشغب الأخيرة[٢] .

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان مراد مشغولاً بمحاولاته الفاشلة لاسترجاع بغداد كان الرأي العام السني شديد الامتعاض من استمرار بقاء بغداد في أيدي العجم . يحكى أن أحد الدراويش قصد اسطنبول من بغداد بغية مقابلة السلطان ولومه على تأخره في « انقاذ » بغداد ، وفي يوم جمعة دخل الدرويش المسجد الذي يصلي فيه السلطان ولم يكد يلمحه قادماً حتى صاح في وجهه وهو يرتعش من شدة التأثر قائلا : أنت تخفي نفسك بين حرسك وحريمك لاهياً بالأنس والطرب ... أما علمت أن الروافض هدموا قبر الشيخ عبدالقادر ؟! وقيل إن السلطان تأثر كل التأثر من كلام هذا الدرويش وأقسم بأغلظ الايمان أنه سينقذ بغداد من أيدي

---

(١) سيتون لويد (الرافدان) ـ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس ـ بغداد بدون تاريخ ـ ص ٢٤٤ .

(٢) محمد فريد (المصدر السابق) ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

العجم ويعمّر من جديد قبراً للشيخ عبدالقادر يليق بمقامه[1] .

استرجاع بغداد :

في عام ١٦٣٧ فرغ صبر السلطان مراد فأخرج « الطوغ الهمايوني »، وهو العلم الخاص الذي لا يخرج الاّ في الضرورة القصوى ، وأصدر « الفرمان » بالتأهب لفتح بغداد على أن يكون هو على رأس جيوشه على منوال ما كان يفعله أسلافه العظام كسليم ياوز وسليمان القانوني . وعندما تحركت الجيوش من اسطنبول لبس السلطان زيّ العرب تشبهاً بأصحاب الرسول عندما كانوا يتأهبون للجهاد . وكان يحمل معه خمسة مدافع ضخمة : اثنان منها بمعيار عشرين أوقية من البارود ، وثلاثة بمعيار ثماني عشرة أوقية[2] .

وعندما وصل السلطان بجيوشه الى مقربة من بغداد ، وفرض الحصار عليها ، أمر أن تنصب خيمته الخاصة « الأوطاغ » على شاطيء دجلة أمام قبر أبي حنيفة دون أن يذهب لزيارته إذ قال : « انني اخجل من زيارته قبل أن تفتح بغداد » . والمعروف عنه أنه كان يعمل بنفسه في أعمال الحصار الشاقة تنشيطاً للجنود ، ويوزع بيده الاسلحة المختلفة والاعتدة عليهم ، وكان يمر كل يوم بالمحاربين في المتاريس ويشجعهم قائلاً : « ابذلوا جهودكم في سبيل الدين والغيرة الاسلامية ولا تقصروا ، هذا يوم السعي وبذل ما في الوسع ... »[3] . وكان يصلي في كل صباح ومساء ويتمرغ في الأرض خاشعاً والدموع تغمر عينيه[4] .

(١) مدام ديولافوا (رحلة مدام ديولافوا) ـ ترجمة علي البصري ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٤٩ ـ ج٤ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج٤ ص ٢٢٠ ـ ٢٣٠ .

(٤) سيتون لويد (المصدر السابق) ص ٢٤٥ .

استمر الحصار أربعين يوماً أبدى فيـــه الفريقان من الاستماتة في القتال أمراً عجيباً • وفي ٢٢ كانون الأول ١٦٣٨ أحدثت المدافع العثمانية ثغرة في سور بغداد من الجهة الشـــرقية طولها ثمانون ياردة ، فتقـدم العثمانيون نحوها واشتد القتال بينهم وبين الايرانيين في تلك الثغرة طوال يومين كاملين دون أن تبدو عليهم أية علامة تدل على النصـر مما جعل السلطان يتوفز غضباً ويوبّخ وزيره الاعظم « طيار محمد باشا » واصـفاً إياه بالجبن • وفي اليوم الثالث سلّ الوزير الأعظم سيفه فهاجم الثغرة على رأس قوة من الجنود وهم يهتفون « الله •• الله » ، فصرعت الوزير قنبلة ولكن الجنود تقدموا فدخلوا السور وانكشفت المدينة أمامهم •••

عقابيل الفتح :

لم يكد الجنود العثمانيون يشقون طريقهم عبر سور بغداد حتـى أرسل بكتاش خان قائد الحامية الايراني الى السلطان مراد يعلن استسلامه هو وحاميته ، وجاء القائد بنفسه الى « الأوطاغ » السلطاني فاقتيد بين صفين من الحرس الاشداء ، ولما مثل بين يدى السلطان عفى عنه السلطان وأنعم عليه بالهدايا الثمينة •

وفي تلك الساعة خيل للناس أن القتال قد انتهى وأن بغداد سترفرف عليها راية السلام ، هذا ولكن حادثاً حدث لا يعرف كنهه على وجه الدقة حوّل بغداد فجأة من طور التفاؤل الى نقيضه، وشهدت بغداد اذ ذاك مذبحة لا تقل في بشاعتها عن أفظع مذابح التاريخ •

اختلف المؤرخون في تعيين سبب المذبحة ، فالأتراك منهم يعزونـه الى اخلال الحامية الايرانية بشروط الاستسلام ، والايرانيون يعزونه الى روح الانتقـام العنيف الذي سـيطر عـلى الجنود العثمانيين عند دخولهم بغداد • ومهما كان السبب فقد انثال العثمانيون على أفراد الحامية الايرانية

فامعنوا فيها ذبحاً وتقتيلاً بحيث لم يسلم منها سوى ثلاثمائة جندي مع العلم أنها كانت تبلغ عند الاستسلام زهاء عشرين ألفاً[١] •

والغريب أن مذبحة أخرى وقعت بعد تلك بأيام قليلة ، وكان سببها انفجار مخزن للبارود في بغداد حيث قتل به ثمانمائة من الانكشاريين ، وعند ذاك أمر السلطان بالذبح العام انتقاماً • وقد اختلف المؤرخون - هنا أيضاً - فيمن شملهم الذبح • فالمؤرخ كريسي يذكر أن الذبح شمل سكان بغداد - وربما قصد الشيعة منهم - ونقل عن المؤرخين الأتراك أن عدد القتلى في هذه المرة بلغ ثلاثين ألفاً[٢] • أما المؤرخ لونكريك فيرى أن السلطان أمر بذبح الايرانيين فقط من غير تفريق بين من التجأ منهم الى المعسكر العثماني وغيرهم • ويضيف لونكريك الى ذلك : أن السلطان أمر بقتل ثلاثمائة زائر ايراني كانوا قد جاءوا في تلك الفترة لزيارة الكاظمية ، وكذلك أمر بقتل ألف أسير جيء بهم بين يديه فقطعت رقابهم حالاً[٣] •

وبعد انتهاء المذبحة تقدم الباقون من سكان بغداد صفوفاً بأطفالهم ونسائهم وهم يصرخون « الداد - أمان » ، فأصدر السلطان أمره بالأمان لهم ومنع منعاً باتاً أن يتعرض أفراد الجيش لأموال الأهلين وأولادهم ، وأعلن أن كل من وجدت في خيمته أموال لأحد يعاقب بالاعدام •

وذهب السلطان بعدئذ لزيارة أبي حنيفة في الاعظمية وقال « الآن حقت الزيارة » ، فقرىء هناك الختم الشريف وتليت الأدعية وذبحت

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٤ ص ٢٢٩ •

(2) Edward Creasy (History of the Ottoman Turks) — Beirut 1961 — P. 256.

(٣) ستيفن همسلي لونكريك (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) - ترجمة جعفر الخياط - بغداد ١٩٦٢ - ص ٧٤ •

القرابين وبذلت الصدقات • ونظم القاضي تاج الدين المالكي أبياتاً من الشعر يؤرخ فيها الفتح جاء فيها :

خليفة الله مراد غزا
قلعة بغداد فأرداها

فلنشرحن فعل مراد بها
مؤرخاً قد ذبح الشاها[1]

وفي ١٧ شباط من عام ١٦٣٩ غادر السلطان مراد بغداد ، فخرج بجيوشه من باب السور التي كانت تسمى يومذاك « آق قابو » أي الباب الابيض – ثم سميت بعدئذ ب « باب الطلسم » – وأمر بأن تسد الباب سداً نهائياً فبنيت فتحتها بالآجر • وعند وصول السلطان الى اسطنبول استقبل فيها استقبالاً منقطع النظير حيث امتلأت شرفات البيوت وسطوحها بالناس وهم يهتفون مرحبين به ، وكان الناس في الشوارع ينحنون تعظيماً عند مرور موكبه بهم ويقولون « بارك الله » !

لم يهنأ السلطان بالنصر طويلاً إذ لم يمض على وصوله العاصمة سوى مدة قصيرة حتى أصيب بحمّى دامت خمسة عشر يوماً • وقد اشتد تأثير الحمى فيه من جراء ادمانه الخمرة ، ثم صادف أن كسفت الشمس أثناء مرضه فانتابه الرعب مما زاد في وطأة المرض عليه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة •

« طوب أبو خزامة » :

كان السلطان مراد عند مغادرته بغداد قد ترك فيها أحد مدافعه الثقيلة ليوضع عند باب « القلعة » ، وقد صار هذا المدفع في نظر العامة من أهل

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٤ ص ٢٣٠ – ٢٣٢ •

بغداد ـ لا سيما السنيين منهم ـ شبه قديس تنسب اليه الكرامات وتنسج حوله الأساطير .

أطلق أهل بغداد على المدفع اسم « طوب أبو خزامة » ، ويعزى سبب هذه التسمية الى وجود خرق صغير في فوهة المدفع كأنه منخر له ، وتقول الأساطير الشعبية في تعليل الخرق إن المدفع كان في السماء عند حصار بغداد وأن الله أمر جبرائيل أن ينزل به الى الأرض لمساعدة السلطان مراد على فتح بغداد فنزل به جبرائيل يقوده من منخره . وهناك أساطير أخرى يتناقلها أهل بغداد حول هذا المدفع ، منها أن الاسماك التسع المنقوشة على جانبيه كانت قد لصقت به عند اجتيازه « بحر القدرة » أثناء نزوله من السماء ، ومنها أن المدفع عند استقراره في الارض أخذ يلتقف التراب ويحوّله بقدرة الله الى قنابل يقذف بها العدو[1] .

ومن الاساطير الشعبية أن السلطان مراد غضب ذات يوم على المدفع فضربه بقبضة يده ولا يزال أثر الضربة باقياً فيه يدل على مبلغ قوة السلطان ، ويحكى أيضاً أن المدفع نفسه انتابه الغضب ـ ربما من جراء ضربة السلطان له ـ فرمى بنفسه الى نهر دجلة مما اضطر السلطان الى أن يسحبه من « منخره » ويعود به الى الشاطيء .

وصلت الاساطير حول كرامات « طوب أبو خزامة » الى حد صارت فيه النساء يتبركن به وينذرن له النذور ويربطن به الخيوط على منوال ما يصنعن في المراقد المقدسة ، وجرت العادة في بغداد أن يؤتى بالمولود الجديد في يومه السابع فيطاف به حول المدفع ويُدخل رأسه في فوهته ثلاث مرات، وظلت هذه العادة جارية حتى عهد متأخر مما اضطر السيد محمود شكري الألوسي في أواخر العهد العثماني أن يكتب رسالة في شجبها عنوانها :

(١) عزيز جاسم الحجية (بغداديات) ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ج ٢ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

« القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع » • وننقل فيما يلي تعليق محمد بهجت الأثري على تلك الرسالة :

« القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع : رسالة في مقاومة بعض مظاهر الوثنية التي راجت عند العوام ، والمدفع المذكور هو من مدافع السلطان مراد العثماني التي استخدمها في قتال الفرس لاخراجهم من بغداد ، ووضع في مدخل الثكنة العسكرية ببغداد رمزاً للقوة ، واشتهر باسم « طوب أبو خزامة » • وقد نسجت حوله الأساطير وحكيت الغرائب من أمره في فتح بغداد ، كأن ما استشعره البغداديون من ذل الاحتلال الفارسي قد دفع عامتهم الى هذه الاقاصيص ، وكان شأنهم في أول الأمر معه شأن المعجب ، ثم استحال الاعجاب مع الايام الى التبرك به وتقديسه ، فاذا هم ينذرون له النذور ويعلقون عليه التمائم ويقبلونه • وعظم ذلك في نفوسهم حتى استعصى اقلاعهم عنه ولم تغن معه المواعظ فكتب الألوسي هذه الرسالة باحثاً فيها في تاريخ هذا المدفع والمفاسد الناجمة منه ، وقدمها الى المشير هدايت باشا ليردع العوام عن زيارته وتقديم النذور اليه ، وقد ترجمت الرسالة الى اللغة التركية »[1] •

لم يترك العوام التبرك بالمدفع الا بعد نقله الى المتحف الحربي في « الباب الوسطاني » قبيل الحرب العالمية الثانية – فيما أتذكر – فنسيه الناس اذ ذاك ونسوا كراماته • ومنذ عهد قريب أعيد المدفع الى ساحة الميدان قريباً من موضعه الاول وصنعت له قاعدة متينة • وهو اليوم يعتبر أثراً قديماً لا قدسية فيه •

---

(١) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية) – القاهرة ١٩٥٨ – ص ١١٣ •

كنج عثمان :

لم يحتكر « طوب أبو خزامة » القدسية له وحده بعد فتح بغداد بل شاركه فيها رجل اسمه « كنج عثمان » ، وكان هذا الرجل من قادة الجيش العثماني وقد جاء الى العراق قبل مجيء السلطان مراد ، تصحبه قوة من الجيش ، فاحتل الحلة والرماحية وكربلا والنجف ولكنه مات قبل فتح بغداد فنقلت جنازته بعد الفتح الى بغداد ودفنت قرب السراي . وظن أهل بغداد أنه من الذين استشهدوا في المعركة وانتشرت بينهم الاساطير عنه وعن كراماته ، فقيل إنه كان عند فتح بغداد يحمل راية أمام السلطان مراد فقطعت يداه ولكن الراية ظلت تمشي وحدها من غير أن يكون لها أحد يحملها ، ولم تسقط الراية الا بعد أن شاهدها أحد الناس ودهش لمنظرها العجيب .

وقد صار قبر « كنج عثمان » مزاراً ، فبُنيت عليه قبة واتخذت له سقاية للماء . وفي عام ١٧٢٠ جدد بناء القبر الوالي المشهور حسن باشا ، وكُتب على شباك قبره المطل على الطريق ما نصه : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . رئيس الشهداء كنج عثمان . قد عمر هذا المكان صاحب الخيرات حسن باشا سنة ١١٣٣هـ » .

وعند الاحتلال البريطاني لبغداد عام ١٩١٧ استحصلت الفتوى من العلماء لنقل رفاته الى مقبرة الشهداء في العيواضية من أجل توسيع الطريق، ويبدو أن المأمور المكلف بالنقل لم يهن عليه ذلك فترك العظام التي عثر عليها في مكانها لم ينقل منها شيئاً ، واكتفى بنقل الشباك الذي كان منصوباً فوقها فوضعه على أحد القبور في مقبرة الشهداء[1] .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ بغداد ١٩٥٣ ـ ج ٥ ص ١٧ ـ ٢٠ .

الصلح بين الدولتين :

بعد مضي سنة واحدة على فتح بغداد بيد السلطان مراد عقد صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية حيث تم الاتفاق فيه على أن تبقى بغداد في حوزه الدولة العثمانية وتأخذ الدولة الصفوية عوضاً عنها بلدة ايروان في أرمينيا • وقد قدّر لهذا الصلح أن يدوم طويلا اذ استمر على ما ينوف على التسعين عاماً دون أن يعكّره أي قتال أو نزاع جدي بين الدولتين •

في عام ١٦٧٤ ظهرت اشاعات في بغداد تشير الى أن الدولة الصفوية عازمة على غزو العراق ، فانتشرت الأراجيف بين الناس من جراء ذلك وأصيبت الاسواق بالركود وقلت حركة القوافل ، ثم تبين أخيراً ان تلك الاشاعات لا صحة لها فعادت الطمأنينة الى الناس[١] •

يعزى سبب هذا الصلح الطويل الى أن الدولة الصفوية كانت في حينه تعاني الانحطاط والوهن ولم يكن في مقدورها أن تحارب أو تنتصر في الحرب ، فالشاه صفي الذي تسنم العرش بعد وفاة جده الشاه عباس الكبير عام١٦٢٩ كان سكيراً منغمساً فيالملذات ولا يبالى بما يجرى فيالبلاد، وكذلك كان ابنه الشاه عباس الثاني ، وحفيده الشاه سليمان • والمعروف عن الشاه سليمان الذي تولى الحكم من عام ١٦٦٦ الى عام ١٦٩٤ أنه ترك أمور الدولة بأيدي خصيانه والملا محمد باقر المجلسي يتنافسون عليها وانغمس هو في الخمرة والنساء ، ولما قيل له ان العثمانيين قد يهاجمون بلاده أجابهم بمثل جواب المستعصم العباسي وهو : أنه لا يكترث لهجومهم على شرط أن يتركوا له أصفهان • وعندما أرسلت اليه بعض الدول الأوربية سفراءها ليحرضوه على استعادة بغداد ، أثناء انشغال الدولة العثمانية في حروبها الأوربية ، أجابهم أنه يحب أن يحافظ على المعاهدة المعقودة بينه وبين السلطان العثماني وأن يعيش معه فيسلام • ويعلق المؤرخ

---

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ص ١١٠ •

لوكهارت على هذا الجواب بقوله : « لا يمكن أن يكون هناك شك ، بالنظر الى ضعف الجيش الايراني وانخفاض معنوياته في ذلك الوقت ، أن هذا القرار كان حكيماً ، ولكن المحتمل أن القرار جاء نتيجة اللامبالاة لا نتيجة الحكمة »(١) .

ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الدولة العثمانية كانت هي أيضاً تعاني في تلك الفترة من الانحطاط والوهن ، وقد وصف ساطع الحصري أحد مظاهر انحطاطها وهو كثرة رجال الدين فيها وشدة سيطرتهم على شؤونها ، فقال : انهم كانوا على فئات شتى منهم القضاة والمفتون والائمة والخطباء والسادة والمشايخ والمدرسون والطلبة والدراويش وغيرهم ، وكان عددهم يزداد وتأثيرهم يشتد على مرور السنين ، ولكنهم في الوقت نفسه كان مستواهم العلمي يتردى بصورة سريعة فصارت تنتشر بينهم ضروب التعصب الأعمى وتنتقل منهم الى الناس وتستولي حتى على عقول الحكام والسلاطين ، وقد سجل التاريخ العثماني أمثلة كثيرة على ذلك : فأحد السلاطين مثلاً كان يطلب من شيخ الاسلام أن يقوم بـ « استخارة » لمعرفة أكفأ الرجال لمنصب الصدارة العظمى ، وأشار أحد رجال الدين على سلطان آخر أن لا يعين رجلاً في منصب لأن اسمه ليس من الاسماء التي تقترن بـ « اليمن » ، وامتنع أحد القواد عن الهجوم ليلاً في بعض الوقائع الحربية لأن رجال الدين الذين في جيشه كانوا يعتبرون الهجوم ليلاً من الأمور التي لا تتفق مع شعائر الاسلام . وكثيراً ما كان رجال الدين ينظمون المضابط من أجل نصب الولاة وعزلهم، فصار أصحاب المطامع يسعون لاغرائهم في سبيل أغراضهم الخاصة(٢) .

---

(1) Laurence Lockhart (The Fall of The Safavi Dynasty) Cambridge 1958 — p. 29—30.

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص ٥١ ـ ٥٢ .

الانحطاط في العراق :

ان الانحطاط العام الذي أصيبت به الدولـة العثمانية لابد أن ينال العراق نصيبه منه ، وقد يصح القول ان نصيب العراق من الانحطاط العام كان أكبر من نصيب بعض الأقطار العثمانية الأخرى على وجه من الوجوه، فالمعروف عن العراق أنه كان بمثابة المنفى للولاة والموظفين الأتراك اذ كان هؤلاء يمتعضون من العمل فيه كمثل ما يمتعض اليوم موظفونا من العمل في أهوار الجبايش مثلاً ، ولم يكن يقبل العمل فيه الا الموظف الـذي لا يجد له عملاً في مكان آخر أو الذي يتوقع أن يبقى فيه مدة قصيرة ليجمع منه ثروة ينتفع منها في مستقبل أيامه • وهذا هو الذي جعل الجهاز الحكومي في العراق آنذاك في أوطأ دركات الضعف والتفسخ •

لا حاجة بنا الى القول ان تفسخ الجهاز الحكومي في بلد كالعراق لابد أن يؤدي الى ارتفاع « المد البدوي » فيه • ان الحكومة ــ كما اشرنا اليه من قبل ــ أهم دعائم الحضارة ، وحين تضعف الحكومة تضـعف الحضارة معها فيختل نظام الري ويقل السكان وتتخرب المدن ، واذ ذاك تنتهز القبائل البدوية الفرصة فتأتي من الصحراء متغلغلة في انحاء البـلاد حيث تحل محل الحكومة في السيطرة على الكثير من الطرق والمـدن • وهذا هو ما وقع فعلاً في تلك الفترة « المظلمة » من تاريخ العراق •

مر السائح الفرنسي تافرنيه بالعراق في أواسط القرن السابع عشر ، وحين نقرأ مذكراته التي كتبها عن رحلته[١] نستطيع أن نستنتج منها أن الكثير من مناطق العراق كانت تحت سيطرة القبائل الرحالـة وأن تلك القبائل كانت تعيش في مستوى من الترف غير مألوف عادة في الحياة البدوية مما يدل على وفرة ما كانت تفرضه على القوافل والمسافرين من أتاوات •

---

(١) جان بابتست تافرنيه (العراق في القرق السابع عشـر) ــ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ــ بغداد ١٩٤٤ •

ويحدثنا السائح الالماني نيبور الذي جاء الى العراق عام ١٧٦٥ عن الطريقة التي كانت القبائل تجبى بها الاتاوات من القوافل فيقول : إن التجار يجب أن يدفعوا مبلغاً معيناً عن أموالهم المحمولة في القافلة الى رئيس القافلة « الكروان باشي » قبل الشروع بالحركة ، وهذا الرئيس لا يكاد يرى جماعة من الأعراب يعترضون طريق القافلة حتى يتقدم نحوهم مع نفر من رجاله على ظهور الخيل فيبدأ المفاوضة معهم حول المبلغ الذي ينبغي أن يدفعه لهم جزاء حمايتهم للقافلة أثناء مرورها بمنطقتهم ، وقد تطول المفاوضة بين الفريقين وقد يهدد كل منهما الآخر بقوة سلاحه ، حتى يتم الاتفاق بينهم في النهاية ، وتستأنف القافلة سيرها بسلام .

ويحدثنا نيبور أيضاً عن سير السفن في نهر الفرات بين البصرة والحلة ، وكيف كان بعض شيوخ القبائل يفرضون الضرائب عليها أحياناً بدلاً من الحكومة . وأشار الى حادثة نهب وقعت لسفينة صغيرة محملة بالتمر وقد قتل فيها بعض ركابها من جراء امتناعهم عن تسليم أموالهم طوعاً .

ويصف نيبور بعض المناطق التي مر بها في سفينته فيما بين البصرة والحلة فيقول ما نصه : « وهذه الأراضي الصالحة للزراعة تمتد الآن بعيدة عن النهر كالبادية تماماً بسبب خلوها من السكان والجداول . تقع القرى بعيدة عن النهر بعداً لا بأس به وهي مشيدة على أتعس طرز ويتجلى منها أن الشيوخ العرب لم يتركوا الشيء الكثير لسكانها المساكين ، فالبيوت وأسوارها كلها من القصب . والخلاصة أنني لم أصادف في أي مكان اكواخاً أردأ من أكواخ هذه المنطقة الخصبة بطبيعتها والمشهورة منذ أقدم الأزمنة حيث كانت منطقة غنية بالسكان ...[1] » .

---

(١) كارستن نيبور (رحلة نيبور الى بغداد) ـ ترجمة سعاد هادي العمري ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٦٧ ـ ٦٩ .

الاتحادات القبلية :

كان من أهم معالم « المد البدوي » في العراق آنذاك ظهور عدة اتحادات قبلية كبيرة ، خاصة في المناطق الجنوبية ، كان أشهرها المنتفق والخزاعل وزبيد وبنو لام وقشعم •

وكل واحد من هذه الاتحادات يتكون حول رئيس قوي أو أسرة قوية ، فتنضم اليه العشائر الصغيرة القريبة منه تدريجاً ، وكلما ازدادت قوة الاتحاد ازداد عدد العشائر المنضمة اليه ، حتى يصبح أخيراً شبه امارة مستقلة لا يربطها مع الحكومة المركزية في بغداد سوى رباط ضعيف هو « التزام الضريبة » ، والحكومة لا تبالي بما يفعل شيخ الاتحاد ما دام يؤدي المبلغ الذي تعهد بدفعه كل عام ، وكثيرا ما يشعر الشيخ بقوته ازاء الحكومة فيمتنع عن دفع المبلغ ـ كله أو بعضه ـ واذ ذاك تنشب المعارك بينه وبينها •

كل عشيرة صغيرة تدرك أنها غير قادرة على البقاء بقوة سلاحها وحده، ولابد لها من أن تنضم الى اتحاد ما لكي تتقوى به ، أما اذا بقيت مفردة فلابد أن يلتهمها جيرانها الأقوياء عاجلاً أو آجلاً • وقد يحدث مثل هذا لأهل المدن والقرى فهم لابد لهم من أن يتحالفوا مع احدى العشائر القوية المجاورة لها • وهذا هو ما يعرف عندهم ب « الكتبة » ـ ولا تزال بقاياه في بعض المدن حتى الآن ـ فالفرد في المدينة « يتكاتب » مع احدى العشائر حيث تتعهد له أن تحميه من خصومه وتأخذ بثأره اذا قُتل ، وهو يتعهد لها من جانبه أن يساهم معها في الديات والمغارم التي تقع عليها ويقاتل معها حين تطلب ذلك منه عند الضرورة • وكثيراً ما ينقسم سكان المدينة الى فريقين متعادين من جراء « مكاتبتهم » مع عشيرتين متنازعتين •

هجرة شمر وعنزة :

منذ عام ١٦٤٠ بدأت هجرة شمر ـ القبيلة البدوية المعروفة ـ من مكانها القديم في أواسط جزيرة العرب متجهة الى الشمال نحو بادية الشام، فوقعت من جراء ذلك معارك طاحنة بينهم وبين قبيلة الموالي التي كانت تسكن هناك ، وقد استمرت المعارك عشرين سنة انتهت بانتصار شمر وتراجع الموالي نحو الحدود السورية .

ولم تمض على ذلك سوى مدة غير طويلة حتى جاءت من أواسط جزيرة العرب موجة بدوية جديدة تحمل قبيلة عنزة ، فبدأ القتال بين عنزة وشمر على منوال ما حدث قبلئذ بين شمر والموالي . واستطاعت عنزة أن تدفع بشمر عبر الفرات ـ نحو منطقة « الجزيرة » في العراق ـ بعد معارك هائلة لا يزال الرواة في البادية يتحدثون عنها[١] .

ان هذه الاحداث أدت الى وقوع تغير كبير في ميزان القوى القبلية في العراق كما أدت الى ادخال دم جديد من البداوة فيه . فقبيلة شمر عند تغلغلها في منطقة « الجزيرة » كانت لا تزال تحافظ على خشونتها البدوية وما يتبع ذلك من شدة في البأس واندفاع عنيف نحو الغزو والقتال ، ولذا اضطرت العشائر التي كانت تسكن في تلك المنطقة أن تتحول الى مناطق أخرى نحو الجنوب أو نحو الشرق عبر دجلة ، فأدى ذلك بدوره الى تحول عشائر أخرى من مناطقها . ومعنى هذا أن التوزيع القبلي في العراق أصيب بما يشبه الموجة الشديدة التي تتلوها موجات أصغر منها .

الوالي الجبار :

في الوقت الذي كان فيه المد البدوي مسيطراً على العراق ـ على المنوال الذي ذكرناه ـ كان الولاة في بغداد يتعاقبون الواحد بعد الآخر

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٧٩ ـ ٨٠ .

دون أن يتمكن أحد منهم من القيام بعمل يردع العشائر أو يفرض طاعة الحكومة عليها .

تعاقب على بغداد ، منذ أن تم فتحها على يد السلطان مراد في عام ١٦٣٨ حتى نهاية القرن ، ما لا يقل عن الثلاثين واليا ، فكان كل واحد منهم كما قال سيتون لويد : لم يترك عند عزله عملاً يذكر به اللهم الا بناء قبة في جامع أو معالجة حدث مشؤوم من قبيل ثورة أو مجاعة[1] . ولكن بغداد شهدت في عام ١٧٠٤ مجيء وال ليس من طراز هؤلاء ويعد من أعظم الولاة العثمانيين قوة وحنكة هو حسن باشا[2] .

أدرك هذا الوالي « الجديد » أن المشكلة الكبرى في العراق هي مشكلة العشائر وسيطرتها على الطرق ، وتشير القرائن الى أنه استغل وجود المدافع لديه فأراد أن يرهب العشائر بها ويجلبهم الى الطاعة . وتشاء المصادفة أن تقع حادثة نهب فظيعة قام بها بعض العشائر بعد وصول حسن باشا الى بغداد بمدة قصيرة . ويصف الشيخ عبدالرحمن السويدي هذه الحادثة بما نصه :

« ففي أثناء هذه السنة قدم من الموصل الطوف الكثير المعبر عنه بالكلك ، ومعهم خير غزير من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك من كل محبوب ، فبينما هو سائر في دجلة وسط الطريق اذ خرجوا على أهله آل شهوان وآل غرير من فرق الاعراب العراقية وجملة الاحزاب المنافقية ، فنهبوا أكثر الأموال ، وقتلوا غالب الرجال ، وجاء الباقون الى بغداد ينادون بالويل والثبور ، ويبثون للوزير هاتيك الأمور ، وفي أثناء

---

(١) سيتون لويد (المصدر السابق) ص ٢٤٧ .

(٢) اشتهر هذا الوالي باسم « جديد حسن باشا » ، ولا تزال في بغداد محلة تعرف بهذا الاسم . ويقال انه من أصل أموي ، وهو انما لقب بـ « الجديد » لتمييزه عن سمي له كان قد حكم العراق من قبل .

هذه السنة أيضاً قطع أولئك الأعراب طريق كركوك ونهبوا قراها وقتلوا وصلبوا روح من تصدى لحماها »[1] .

يبدو أن حسن باشا أراد أن يجعل من تلك العشائر عبرة لغيرها ، فحشد عليها جيشاً قوياً تصحبه المدافع وسار بنفسه على رأس الجيش فحاصر جمعهم في موضع جنوب الموصل يقال له « الخانوقة » وأمطرهم بوابل من القنابل فقضى على الكثير منهم ، وألقى القبض على رئيسهم ، ونهب الجنود أموالهم ، ولكنه لم يسمح للجنود بالتعرض للنساء على خلاف ما اعتادت عليه الجيوش في تلك الايام[2] .

وحين عاد حسن باشا الى بغداد منتصراً أوعز بكتابة كتاب شديد اللهجة وبنسخ متعددة ليرسلها الى مختلف العشائر العراقية يحذرها فيه وينذرها . وفيما يلي تنقل جزءاً من الكتاب لما فيه من دلالة على ما كان العراق فيه يومئذاك من وضع اجتماعي عجيب :

« بعد حمد من خلق العباد في عالم الكون والفساد ، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد المرسل لقمع أهل البغي والعناد والتمادي في الفساد وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا الاحكام وسددوا أمور الأنام . فهذا كتابي وارد عليكم معاشر أهل البادية ... قد أُمرتم بطاعة السلطان منذ أزمان ، ونُهيتم عن الفساد والطغيان ، ففرّطتم في الفساد ونصرتم جيش أهل البغي والافساد ، واشتكت الناس من ضركم حيث أضرمت نار بغيكم وشركم ، فكأنما أمرتم بالعكس ، حتى نهبتم الأموال ، وأبحتم قتل النفس ، ولم ترعوا شعائر الاسلام ... ولا تغرنكم كثرتكم فسيفنا صقيل ولا يأمنكم شطوطكم ونبوتكم فرمحنا طويل ... وقد أفتى العلماء بهدر

(١) عبدالرحمن السويدي (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) ـ تحقيق صفاء خلوصي ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ج١ ص ١٨ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٥ ص ١٦٣ .

دمائكم وسبي نسائكم وامائكم • وان عزمتم على القتال فاعلموا أن قد دنت منكم الآجال ••• فان هربتم الى الأقطار القاصية ، وذهبتم الى الامصار النائية ، فالوصول اليكم غير بعيد وحصد رؤوسكم ليس علينا بأمر جديد »[1] •

يبدو أن العشائر لم تكترث لهذا التهديد ، ولعلها حسبته كغيره من تمشدقات الولاة السابقين ، اذ لم تمض عليه سوى مدة قصيرة حتى بدأ بنو لام يهاجمون نواحي بغداد حتى وصلوا بغاراتهم الى خان بني سعد • واذ ذاك توجه اليهم حسن باشا بجيشه ومدافعه وأخذ يطاردهم ، فالتجأوا الى جبال بشتكوه غير أنهم لم يتمكنوا من النجاة ، واستطاع حسن باشا أخيراً أن يضربهم ضربة قاصمة وينهب أموالهم[2] •

كانت هذه بداية معارك عديدة بين العشائر وجيوش الحكومة استمرت بضع عشرة سنة من غير توقف ، وكان حسن باشا أثناء ذلك يخرج من حرب مع احدى العشائر ليدخل في حرب مع أخرى • ولم تسلم من ضرباته سوى عشيرة قشعم التي كانت تسكن البادية غرب الفرات ، فقد كان رئيسها شبيب طائعاً للحكومة وموضع ثقة الوالي ولهذا أضمر العشائر له العداء وحاولوا اهانته ونهبوا بيته غير مرة[3] •

الحلف العظيم :

إن الشدة التي اتبعها حسن باشا في قمع العشائر دفعت مجموعة كبيرة منها في أواخر ١٧٠٨ الى التحالف ضده برئاسة مغامس المانع شيخ مشايخ المنتفق ، وقد احتل هذا الشيخ البصرة واجتمعت اليه نجدات من شتى العشائر كشمّر والخزاعل وزبيد والمياح وغزية وآل سراي وبني خالد ، حتى بلغ عدد من معه مائة ألف أو يزيدون •

---

(١) عبدالرحمن السويدي (المصدر السابق) ج١ ص٢٣ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص١٦٥ •
(٣) المصدر السابق ، ج٥ ص ١٨٤ •

والتقى هذا العدد الضخم بجيش حسن باشا في الصحراء على مقربة من البصرة ، فوقعت بينهما معركة طاحنة قيل إن عدد القتلى فيها بلغ عشرة آلاف فتكدست جثثهم في ساحة القتال • وانتهت المعركة بانتصار جيش الحكومة فأخذ حسن باشا يعطي الذهب والفضة لكل من يأتيه برأس أحد القتلى أو بقلبه •

اعتبرت تلك الواقعة من مفاخر حسن باشا ، وحين عاد الى بغداد بعد الانتصار فيها استقبل استقبال الفاتحين ونظم الشعراء في مدحه قصائد عديدة ـ باللغة الفصحى والعامية ـ ولقبه بعضهم « أخو فاطمة » •

يرى المؤرخ عباس العزاوي أن العشائر العراقية لو كانت قد انتصرت في تلك المعركة لنال العراق استقلاله منذ ذلك الحين[١] • وهذا رأي لا أعدّه من الناحية الاجتماعية مصيباً ، فليس في مقدور مجموعة من العشائر مهما كانت قوية أن تنال استقلالاً سياسياً لبلادها • من طبيعة العشائريين أن اتفاقهم موقت وتنازعهم دائم ، فاذا أتيح لهم أن يتفقوا على أمر ما ، وينالوا فيه انتصاراً ، فسرعان ما يختلفون فيه ويتنازعون بعد نيل الانتصار ، وهم بذلك لا يستطيعون أن يؤسسوا لأنفسهم كياناً سياسياً ثابتاً •

هناك تناقض طبيعي بين العصبية القبلية وتكوين الدولة • فلو أن رؤساء العشائر الذين اتفقوا على حرب حسن باشا كانوا قد انتصروا عليه لما كان انتصارهم هذا ذا جدوى لهم ، ولو فرضنا انهم استطاعوا آنذاك أن يطردوا الدولة العثمانية من العراق لما استقام أمرهم بعد ذلك الا قليلاً ، فان انقسامهم على أنفسهم لابد أن يغري دولة أخرى على غزو بلادهم ، وهم عندئذ سيكونون فريقين : فريق مع الدولة الغازية وفريق عليها • إن هذه هي عادة العشائر في كل زمان ومكان ولا يمكن أن يتخلوا عنها الاّ اذا تخلوا عن عصبيتهم القبلية •

(١) المصدر السابق ، ج٥ ص١٧٩ •

الفصل الرابع

انهيار الدولة الصفوية

وظهور نادر قلي

في الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعمل على إخضاع العشائر ويثبت دعائم الدولة العثمانية في العراق ـ على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق ـ كانت الدولة الصفوية في ايران تسـير نحو الموت بخطى سـريعة حتى أصبحت على حد تعبير المؤرخ البريطاني السرجون مالكولم : « كأنها بناء ضخم على وشك الانهيار »[١] .

تم انهيار الدولة الصفوية أخيراً على يد احدى القبائل الافغانية ، ومن الجدير بالذكر هنا أن الدولة الصفوية كانت في أيام قوتها قد احتلت جزءاً كبيراً من بلاد الافغان ، واضطهدت السنيين فيها ، ولكنها لم تنجح في تحويلهم الى التشيع كما نجحت في ايران ، وظل الافغانيون ـ لا سيما القبائل منهم ـ يتحينون الفرصة للانتقاض على الدولة الصفوية والانتقام منهـا .

مير ويس :

في عام ١٧٠٧ ذهب مير ويس أحد رؤساء القبائل الافغانية الى الحج ،

(1) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — vol. 2, p. 237.

وهناك استفتى فقهاء المذهب الحنفي ـ وكان من اتباع هذا المذهب ـ في أمر قتال العجم ونهب أموالهم وسبي نسائهم وأطفالهم فأفتوه كلهم بذلك الا الفقيه عبدالكريم السندي فانه امتنع عن مثل هذه الفتوى . ولما قضى مير ويس حجه ذهب الى المدينة وبذل مالاً كثيراً من أجل أن يبيت داخل الشباك النبوي ، فبات فيه على نية قتال العجم وعندئذ رأى النبي في المنام وهو يقلده سيفاً . ولما استيقظ مير ويس من النوم فرحاً حيث اعتقد أن النبي اذن له في قتال العجم وفي نهب أموالهم وسبي ذراريهم[1] .

كان لهذه الرؤيا التي رآها مير ويس داخل الشباك النبوي تأثير عظيم فيه ، فقد كان من العقائد الشائعة بين المسلمين في تلك الايام ـ ولا تزال شائعة عند الكثير منهم حتى يومنا هذا ـ أن من يرى النبي في منامه فهو قد رآه حقاً لأن الشيطان لا يتمثل به ، ولذا فان ما يقوله النبي لاحد المسلمين في المنام يعد أمراً مقدساً أو نبوءة صادقة[2] . ومن هنا وجدنا مير ويس يعود الى بلاده وهو مؤمن كل الايمان أنه يقوم بانجاز مهمة كلفه النبي بها وهي ناجحة « باذن الله » .

التف حول مير ويس عدد كبير من الاتباع ، علاوة على اتباعه من ابناء قبيلته ، وأخذ يشن بهم الغارات على الدولة الصفوية . وقد نال أول انتصار مهم في عام ١٧٠٩ حيث فتح بلدة قندهار بعد أن قتل حاكمها ومعظم حاميتها الايرانية . ومنذ ذلك الحين صارت حركته تتسع شيئاً فشيئاً وتكسب النصر مرة بعد أخرى . وفي خلال بضع سنوات تمكن من تأسيس دولة افغانية ذات شوكة لا يستهان بها .

---

(١) عبدالرحمن السويدي (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) ـ تحقيق صفاء خلوصي ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ج١ ص ٨٦ .

(٢) انظر في تفصيل ذلك كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » للمؤلف ـ بغداد ١٩٥٩ ـ المقدمة والقسم الاول .

مير محمود :

توفي مير ويس في عام ١٧١٥ فخلفه على العرش ابنه مير محمود ، وكان هذا شجاعاً الى أبعد الحدود ولكنه كان من الناحية الأخرى قاسياً الى أبعد الحدود أيضاً ، ومن المحتمل أنه كان مصاباً بمرض « الصنادية » الخبيث •

تغلغل مير محمود بجيوشه في ايران ، وفي عام ١٧٢٢ فتح العاصمة أصفهان بعد حصار شديد وأسر الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية • وفي ذات يوم من السنة التالية أقام في أصفهان وليمة كبرى دعا اليها زهاء ثلاثمائة من أعيان البلدة ، وعندما استقر المجلس بهم أمر بذبحهم جميعاً وبرمي جثثهم في الميدان الكبير ، ثم أرسل من يذبح نحو مائتين من أطفالهم • وأصدر بعدئذ قراراً بذبح جميع الجنود الايرانيين الذين انضموا اليه أثناء حصار أصفهان ، وكان عددهم ثلاثة الآف ، معللاً قتلهم بأنهم ما داموا قد خانوا ملكهم فلا خير يرجى منهم لأنهم سيخونونه ايضاً في الفرصة المناسبة • والظاهر أنه كان يزداد تعطشاً للدماء كلما أمعن في القتل ، فقد أصدر قراراً ثانياً بقتل كل شخص كان في خدمة الشاه السابق، واستمرت المذبحة في هؤلاء خمسة عشر يوماً ، دون أن تبدو منهم أية محاولة للمقاومة ، حتى كادت أصفهان تفرغ من سكانها •

وفي عام ١٧٢٥ قرّر مير مجمود قتل جميع أفراد الاسرة الصفوية باستثناء الشاه ، فصفّوا بأمره في ساحة القصر وقد ربطت أيديهم الى ظهورهم ، وكان بينهم طفلان من أولاد الشاه ، وتقدم مير محمود بنفسه مع اثنين من جلاوزته فأخذوا يقتلونهم شدخاً بالسيف • وهنا شوهد منظر مفجع للغاية إذ صادف أن كان الشاه السابق قريباً من ساحة المذبحة فأسرع اليها على إثر سماعه صراخ القتلى ، واذ ذاك جرى نحوه طفلاه لائذين به وهما يحسبان أنه قادر على انقاذهما من القتل ، وفي تلك اللحظة

كان مير محمود شاهراً سيفه وراءهما قاصداً قتلهما ، فرفع الشاه يده لدرء السيف عنهما ولكنه لم يتمكن من انقاذهما إذ قتلهما مير محمود ، وأصيب الشاه من جراء ذلك بجراح ...

اتضح لمن شهدوا الحادثة أن مير محمود لابد أن يكون مصاباً بخلل في عقله لأن هذا أمر لا يمكن أن يقوم به ذو عقل سليم . ولم تمض على تلك الحادثة سوى أيام معدودة حتى أخذ الاختلال العقلي يظهر على مير محمود بوضوح ، فصار يقذف بالشتائم في وجه كل من يتقرب منه ويعض نفسه في هياج .

قرر قادة الافغان أخيراً أن يعزلوه عن الملك ،فأطلقوا سراح ابن عمه أشرف خان الذي كان مسجوناً ، واستطاع هذا أن يجمع حوله بضع مئات من الاتباع فيزحف بهم نحو القصر الملكي في أصفهان ويستولى عليه . وبعد ثلاثة أيام وجد مير محمود ميتاً ، ولم يُعرف هل مات ميتة طبيعية أو مات مقتولاً ، وفي اليوم التالي نصب أشرف خان مكانه ملكاً[١] .

صدى الأحداث في بغداد

كان والي بغداد حسن باشا يرقب أحداث ايران بعين اليقظة والحذر ، وقد جاءته الأوامر من اسطنبول تأمره باعداد مراكز دفاعه إعداداً وافياً مخافة أن ينتهي الأفغان من احتلال ايران ثم يتوجهوا نحو فتح العراق ، فأخذ ينظف خندق بغداد ويرمم سورها المتداعي[٢] .

وكان حسن باشا في بداية الأمر أراد أن يسبر غور مير محمود فأرسل اليه كتاباً يسأله عن مقصده من الهجوم على ايران فكان جواب

---

(1) Laurence Lockhart (The Fall of The Safavi Dynasty) — Cambridge 1958 — p. 207 — 211.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ١٢٨ .

مير محمود : « أنه رأى من واجبه الديني وحميته الاسلامية أن يطهر البلاد من الكفرة الفسقة الذين عاثوا في الأرض فساداً وأنه على الشريعة الاسلامية السمحاء وليست له أطماع وأغراض أخرى ، كما وأنه من الموالين للدولة العثمانية ويستمد منها العون لشد أزره في سبيل المحافظة على شعائر الدين الاسلامي وإزالة الكفر والفسوق من بين المسلمين » . وأرسل مير محمود هذا الجواب بيد سفيره الخاص محمد صادق خان ، ولما وصل هذا السفير الى بغداد أخذ يحث حسن باشا على مساعدة مير محمود وتقويته ليتمكن من الاستيلاء على البلاد الايرانية كلها ويكون حليفاً مخلصاً للدولة العثمانية[1] .

يبدو أن حسن باشا كان طامعاً في ايران[2] وقد هاله ما رأى من انهيار سريع للدولة الصفوية على أيدي القبائل الافغانية ، وربما تأسف لأن انهيار تلك الدولة لم يتم على يده ، ولهذا أخذ يشجع اسطنبول ويحرضها على انتهاز الفرصة السانحة ومهاجمة ايران بغية الاستحواذ على الاجزاء الباقية منها قبل فوات الأوان . وقد نجح هذا التحريض في اسطنبول ،فسرعان ما أصدر الشيخ عبدالله مفتي اسطنبول فتوى تدعو الى الجهاد في سبيل محاربة « الروافض » وشد أزر مير محمود . وكانت خلاصة الفتوى حسبما رواها صاحب كتاب « دوحة الوزراء » كما يلي :

« لما كان الروافض المقيمون في ايران منذ عهد اسماعيل الصفوي قد عاثوا في الارض الفساد وأعلنوا سب الصحابة الكرام أبا بكر وعمر وعثمان وكفروهم باستثناء علي ، وقذفوا الصديقة عائشة وابتعثوا مذاهب

---

(١) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٣ ـ ج ٥ ص ٢٠٢ .

الزنادقة ممن سبقوهم وتأولوا الآيات القرآنية بحسب ميولهم وقاموا بمقاتلة من ينتسب الى أهل السنة والجماعة وأباحوا نساءهم وفعلوا غير ذلك من الأعمال المنكرة فان بلادهم تعتبر ديار حرب وتطبق عليهم أحكام الشريعة فيما يختص بالمرتدين وتجب محاربتهم وتطهير البلاد منهم »[1] .

واستحصل شيخ الاسلام فتويين أخريين من علماء الدين بهذا الصدد ، والملاحظ أن أمثال هذه الفتاوى لم تكن تصدر خلال التسعين سنة الماضية - عندما كان الصلح قائماً بين الدولتين الصفوية والعثمانية - ثم رأيناها تصدر على حين غرة عندما أصبحت الدولة الصفوية في آخر رمق من حياتها . وقد علّق عباس العزاوي على ذلك حيث قال : « من هذا الوضع السياسي وتلك الفتوى يُعرف أن الغرض الاستيلاء فاتخذ الدين وسيلة لتهييج الرأي العام . وإن شيخ الاسلام لا يتخلف عن إصدار فتوى مثل هذه . وهكذا يفعل الايرانيون في حروبهم مع العثمانيين ... »[2] .

وصدرت الأوامر الى حسن باشا بأن ينهض لغزو ايران . فجهز هذا جيشاً يضم الكثير من العشائر العراقية كالخزاعل وغيرهم ، ولما وصل الجيش الى مقربة من كرمانشاه - في عام ١٧٢٣ - خرج اليه حاكمها عبدالباقي خان مع أعيان البلدة وسلم له مفاتيح البلدة ، فعامل حسن باشا السكان معاملة طيبة .

قضى حسن باشا الشتاء في كرمنشاه والظاهر أن الحركات الاخيرة هدت قواه وكان قد بلغ السبعين من عمره فمات قبل حلول الربيع . وقد امتنع أصحابه من أن يدفنوه هناك خشية أن ينبش الاعداء رفاته فيما بعد ، فشُقت بطنه وغُسلت أمعاؤه وحُشيت بالمسك والعنبر والكافور ، ثم

---

(١) رسول الكوكولي (المصدر السابق) ص ١٧

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٠٦ .

نُقلت جثته الى بغداد فدُفنت في جوار أبي حنيفة في الأعظمية[1] • وكان يوم وصول جنازته الى بغداد يوماً مشهوداً ساد الحزن فيه على الناس وندبه الرجال والنساء ، وأقيمت المآتم العديدة له •

احمد باشا :

صدر الفرمان السلطاني بأن يخلف حسن باشا على ولاية بغداد ابنه أحمد باشا وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي يخلف الابن أباه على ولاية بغداد في العهد العثماني • والواقع أن أحمد باشا لم يكن يقل عن أبيه في الحزم وقوة الشخصية ، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى توجه على رأس جيش كبير نحو ايران • وفي ربيع ١٧٢٤ وصل الى همدان ففرض الحصار عليها ، وقد أبدت حامية البلدة بسالة في الدفاع عنها ولكن المدافع العثمانية المتفوقة استطاعت أن تحدث في السور فجوات ، فانتقل القتال الى شوارع البلدة واستمر ثلاثة أيام بلياليها • وحل عيد الاضحى في اليوم الثالث من المعركة فكانت ضحاياه من البشر • ثم انتهى القتال بهدنة كان من شروطها أن تكون همدان ولاية عثمانية وأن يُذكر اسم السلطان في الصلاة العامة • وعندما وصلت البشائر بفتح همدان الى اسطنبول لبست حلة قشيبة بالأفراح ، وكتب السلطان بيده كتاب شكر الى الوالي أحمد باشا[2] •

مما يجدر ذكره أنه في الوقت الذي كان فيه أحمد باشا مشغولاً في ايران اغتنمت العشائر العراقية فرصة غيابه فعمت الفوضى في أرجاء البلاد ـ من المدن المقدسة الى ديار بكر ـ فاضطر أحمد باشا أن يترك الجبهة ويعود الى بغداد على وجه السرعة[3] ، وأنزل بالعشائر المتمردة

---

(١) عبدالرحمن السويدي (المصدر السابق) ج١ ص١١١ •
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٣١ •
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣ •

ضربات شديدة ونهب أموالها • ولكنه لم يكد يستقر في بغداد بعد طول العناء والسفر حتى ظهرت بوادر تحالف ضخم بين العشائر ضده •

ففي خريف ١٧٢٥ وصلت الأنباء الى بغداد تشير الى اجتماع عدد كبير من رؤساء العشائر في بلدة الكفل كان فيهم رؤساء شمر وبني لام وساعدة وآل شبل وغيرهم ، وقيل إنهم عقدوا حلفاً عشائرياً واسع النطاق لم يشهد العراق له مثيلاً من قبل • ثم صاروا يغيرون على القرى ويقطعون الطرق ، واستمروا على ذلك بضعة أشهر •

في أوائل أيار من عام ١٧٢٦ شن أحمد باشا هجوماً مفاجئاً على الحلف العشائري وأبدى هو نفسه شجاعة نادرة فكان يخترق الصفوف بسيفه • وانتهت المعركة بانتصاره وبهزيمة العشائر المتحالفة • وعند رجوعه الى بغداد امتدحه شعراء كثيرون منهم الشيخ عبدالله السويدي والشيخ حسين الراوي والسيد عبدالله أمين الفتوى[١] •

النزاع العثماني الافغاني :

عندما تولى أشرف خان امارة الافغان في نيسان من عام ١٧٢٥ بدأ النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وقد اتخذ النزاع في بداية الأمر شكل الجدال الفقهي ثم تحول أخيراً الى قتال بالسيف •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدولة العثمانية كانت منذ بضع سنوات قد تحالفت مع روسيا واتفقت واياها على اقتسام ايران ، وقد اتخذ أشرف خان ذلك الاتفاق حجة بيده وصار يلوم الدولة العثمانية على تعاونها مع دولة نصرانية[٢] ، وأعلن أنه أولى من غيره بحكم ايران وأن الجيوش العثمانية يجب أن تنسحب منها •

عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢١٥ •

(2) Percy Sykes (Op. Cit.) vol. 2, p. 239.

أرسل أشرف خان سفيراً الى اسطنبول اسمه عبدالعزيز سلطان ، وقد حمل السفير معه محضراً موقعاً من قبل تسعة عشر فقيهاً أفغانياً يؤيدون فيه جواز تعدد الائمة ـ أي جواز أن يكون في الاسلام أكثر من خليفة واحد ـ وذلك لكي يكون لاشرف خان حق في حكم ايران ، وجاء في المحضر كذلك قولهم إنهم من سلالة خالد بن الوليد ولهذا فهم أولى بالخلافة من آل عثمان الأتراك استناداً على الحديث القائل « الائمة من قريش » .

إن الدولة العثمانية تستطيع أن تتحمل أي رأي عدا مثل هذا الرأي الذي يبعث الريب في صحة خلافتها ، ولذا انزعج المسؤولون في اسطنبول كل الانزعاج عند وصول السفير الافغاني وتقديم محضره اليهم ، وسرعان ما اجتمع فقهاء اسطنبول وكتبوا محضراً مضاداً استندوا فيه الى الحديث القائل : « اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما » . وأصدر شيخ الاسلام فتوى مؤداها أنه لا يصح اجتماع إمامين الا اذا كان بين مملكتهما حاجز عظيم ، وإلا فيعد الثاني باغياً وقتاله واجب[1] .

وبناء على فتوى شيخ الاسلام صدر الفرمان السلطاني باعلان الحرب على أشرف خان باعتباره باغيا وأرسلت الأوامر بذلك الى أحمد باشا في بغداد ، وكان الشيخ عبدالله السويدي يعتبر آنذاك أعلم علماء السنة في العراق كله فانبرى يؤيد فتوى شيخ الاسلام ويفند فتوى فقهاء الافغان .

المعركة العجيبة :

وأخيراً توجه أحمد باشا نحو محاربة أشرف خان على رأس جيوش جرارة بلغ تعدادها ستين ألفا يصحبها سبعون مدفعاً . والتقى الفريقان في موضع بين همدان واصفهان في العشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٧٢٦ .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٢٧ ـ ٢١٩ .

كان أشرف خان يعرف ضعف جيشه تجاه الجيش العثماني ، إذ لم يكن لديه سوى عشرين ألف مقاتل وكانت مدافعه صغيرة بالنسبة لمدافع خصمه. ولكنه أدرك أن في وسعه توهين قوة خصمه عن طريق الدعاية وبحيلة تشبه حيلة « رفع المصاحف » التي لجأ اليها معاوية في معركة صفين •

أعد أشرف خان منشورات تتضمن استنكار القتال بين أهل السنة ، وأرسل من يوزعها خفية في المعسكر العثماني ، وكذلك أرسل من يقدم الوعود والهدايا الى بعض رؤساء العشائر الكردية الذين كانوا في ذلك المعسكر • وبلغت خطة أشرف خان قمتها حين أرسل أربعة فقهاء محترمين الى أحمد باشا ليسألوه علانية : كيف يجوز له أن يحاربهم مع العلم أنهم سنيون مثله وأنهم مطيعون للشريعة الاسلامية في محاربة الروافض ؟! وبينما كان هؤلاء الفقهاء يجادلون أحمد باشا إذ ارتفع صوت الآذان للصلاة ، فنهضوا بصمت وأخذوا يقيمون الصلاة في وسط الجيوش العثمانية فأحدثوا فيها تأثير نفسياً عميقاً •

أثمرت هذه الاساليب البارعة في إضعاف معنوية الجنود العثمانيين ، والظاهر أن أحمد باشا لم يكن قد أعارها أي اهتمام اعتماداً على شجاعته وما كان لديه من جيوش جرارة ومدافع ضخمة • فلما نشبت المعركة أحس بفداحة الضربة التي وجهت اليه دون أن يعلم ، فقد انسحب من صفوفه جميع الاكراد تقريباً ، كما انسحب آخرون ، وعند هذا أمر بالتراجع العام بعد أن ترك في الميدان اثنى عشر ألف قتيل[1] ، فكانت تلك من اكبر الهزائم التي لحقت بالجيوش العثمانية في تاريخها الطويل •

وفي أواخر ١٧٢٧ تم الصلح بين الفريقين ، وكان من شروط الصلح أن تبقى المناطق المفتوحة من ايران في حوزة من فتحها ، وأن يعترف

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٣٢ •

أشرف خان بخلافة السلطان العثماني ويبقى هو ملكاً على ايران، وكالة عن السلطان • ثم أرسل أشرف خان هدايا ثمينة الى السلطان توثيقاً لأواصر الصلح بينهما ، وكان من بين الهدايا فيل مدرب عليه سرير في شكل قبة ويجلس على رأسه ثلاثة رجال • وجيء بالفيل الى بغداد في طريقه الى اسطنبول وخرج الناس للتفرج عليه ، وجلس الوالي أحمد باشا في مسقف في باب المعظم فتقدم الفيل نحوه هو يومىء بخرطومه كأنه يسلّم عليه • وخلع الوالي عليه جائزة • وقد مات الفيل عند وصوله إلى ديار بكر من شدة البرد[1] •

ظهور نادر قلي :

عندما خرج أهل بغداد يتفرجون على الفيل كانوا يحسبون ان النزاع الايراني العثماني قد انتهى الى الأبد وأنهم سيستريحون من « البلوى » المزمنة التي جرها عليهم • لم يدروا أن جباراً من جبابرة التاريخ قد ظهر في ايران وأنه سائر نحو اشعال ذلك النزاع من جديد – إنه نادر قلي الذي عرف فيما بعد باسم « نادر شاه » •

يعد نادر قلي من طراز الاسكندر أو جنكيز خان ، وقد أطلق عليه الأوربيون لقب « نابليون الشرق » • ولا يسعنا المجال أن نتحدث باسهاب عن سيرة هذا الرجل ، يكفي أن نقول إنه كمعظم جبابرة التاريخ نشأ نشأة وضيعة إذ كان في صباه راعياً للغنم بالقرب من خراسان ، ثم ارتقى بعدئذٍ فصار قاطع طريق تتبعه عصابة من الاشقياء ، وأخذ أتباعه يزدادون بمرور الايام حتى بلغ عددهم في عام ١٧٢٧ – وهو عام الفيل بالنسبة لأهل بغداد – زهاء خمسة الآف محارب •

وفي ذات ليلة رأى نادر قلي في منامه الامام علياً وهو يقلده سيفاً

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٢٢ •

ويهيب به لانقاذ ايران ويعده بالعرش ، فكان هذا الحلم له بمثابة نقطة تحول في حياته حيث أيقن بأنه مكلف بمهمة يجب أن يؤديها • وصادف في ذلك الحين أن ظهر في مازندران رجل يطالب بعرش ايران يدعى طهماسب شاه وهو ابن الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية ، فأسرع نادر قلي اليه واضعاً نفسه واتباعه تحت أمره •

وضع طهماسب شاه ثقته في نادر قلي وسلّمه قيادة جيشه ومنحه لقب « طهماسب قلي » أي غلام طهماسب[١] • وأخذ نادر قلي يكسب الانتصارات تباعاً ، فلم تنته سنة ١٧٢٩ حتى كان قد تمكن من طرد الافغان من ايران ، وقضى على رئيسهم الداهية أشرف خان • وفي السنة التالية استطاع أن يطرد العثمانيين من مناطق ايران الغربية ، وبهذا استعادت ايران حدودها القديمة وخيل للناس أن الدولة الصفوية عادت الى الحياة من جديد •

عند وصول نبأ تلك الانتصارات المذهلة الى اسطنبول أعلنت الدولة النفير العام ، وأصدر السلطان أمره الى والي بغداد أحمد باشا بوجوب السفر فوراً الى ايران « لتأديب هذا العدو الغادر ودحره »[٢] • وفي ١٦ أيلول ١٧٣١ التقى الجيشان العثماني والايراني في موضع يبعد عن همدان مسيرة يوم واحد •

كان طهماسب شاه نفسه يقود الجيش الايراني ، ولم يكن نادر قلي حاضراً إذ كان يومذاك في خراسان ، فاستطاع أحمد باشا أن يوقع به هزيمة منكرة حيث أضاع طهماسب فيها نصف جيشه وجميع مدافعه •

---

(١) ان هذا هو الاسم الذي اشتهر به نادر بين سكان العراق عند مجيئه الى العراق لفتحه ، وقد اختزل الاسم على ألسنة العامة فصار « طهماز » •

(٢) رسول الكركولي (المصدر السابق) ص ٢٥ •

وبعد مفاوضات طويلة عقد صلح بين الفريقين تنازل فيه طهماسب للدولة العثمانية عن جورجيا وأرمينيا[1] .

حين سمع نادر قلي بهذا الصلح تملكه الغضب وعزم على فسخه ، وأسرع الى أصفهان فعزل طهماسب ونصب مكانه على العرش ابنه البالغ من العمر ستة أشهر ، وجعل من نفسه وصياً على هذا الملك الصغير . ثم أرسل الى أحمد باشا كتاباً يتوعده فيه وينذره بأنه زاحف نحو بغداد لفتحها حيث قال له : « ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، أننا نطالب بحق لا نزاع فيه في زيارة قبور الائمة علي والحسين والمهدي وموسى . ونطالب بجميع الايرانيين الذين أسروا في الحرب الأخيرة ... ونحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ولنستريح في ظل أسوارها »[2] .

حصار بغداد :

في الأيام الاولى من عام ١٧٣٣ عبر نادر قلي نهر ديالى من جهة بهرز ، وتقدم نحو بغداد ففرض الحصار على جانب الرصافة منها . وبعد محاولات عديدة غير مجدية لعبور دجلة تمّ له أخيراً نصب جسر على النهر - بمعونة مهندس أوربي - على بعد عدة أميال من شمال بغداد ، وبهذا استطاع تطويق بغداد من جميع جهاتها فانقطع عنها التموين وأخذت أسعار الاطعمة فيها ترتفع شيئاً فشيئاً .

أمر أحمد باشا سكان جانب الكرخ أن يتركوا دورهم وينتقلوا الى جانب الرصافة ليكونوا في حماية السور المنيع المحيط به ، وكان هذا خطأً منه لانه أضاف الى السكان المحصورين عبئاً جديداً ، والظاهر أنه كان

(1) Edward Browne (A Literary History Of Persia) — Cambridge 1953 — vol. 4, p. 134.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٣٥ .

يأمل قرب وصول المدد الذي أرسله السلطان لانقاذ بغداد • ومهما يكن الحال فقد كان انتقال جماهير كثيرة من جانب الى آخر عبر دجلة أمراً صعباً مليئاً بالاهوال إذ لم يكن على النهر يومذاك سوى جسر واحد ، وهو جسر بدائي منصوب على سفن ، وقد استخدم الناس في عبورهم وسائل أخرى كالزوارق والقفف ، وطالت مدة العبور ثلاثة أيام عانى الناس فيها أشد العناء ، فانتهكت حرمات النساء وهلك خلق كثير بما فيهم الاطفال والشيوخ والعجائز[1] •

أدرك نادر قلي أنه غير قادر على فتح بغداد عن طريق الهجوم المباشر وذلك لضعف مدافعه بالمقارنة الى المدافع العثمانية من جهة ، ولمناعة سور بغداد وصمود المدافعين عنه من الجهة الأخرى ، فلجأ الى طريقة الحصار الطويل والتجويع • والواقع أنه نجح في ذلك نجاحاً غير قليل ، فقد استفحلت المجاعة في بغداد بحيث صار الناس يأكلون الكلاب والقطط ويمتصون دماءها ويمضغون جلودها • وقد شهد الشيخ عبدالرحمن السويدي بعينه جماعة من السكان يصطادون الكلاب في الأزقة ويأكلونها ، وهجم بعض السكان ذات يوم على طعام الوالي اثناء نقله ونهبوه مما جعل الوالي يبكي لحالهم •

ويروى السويدي أنه أثناء خروجه من مسجد الشيخ عبدالقادر بعد انقضاء صلاة الجمعة متجهاً نحو منزله شاهد في طريقه امرأة ذات جمال وهي منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمه وتضعه في حجرها ، ولما سألها عن السبب قالت إنها منذ خمسة أيام لم يدخل في جوفها شيء غير الماء[2] •

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٠ • وعباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص٢٣٨ •

(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٠ ـ ٣١ •

وبلغت المجاعة حداً اضطرت فيه بعض العذارى الى بيع انفسهم برغيف من خبز الشعير[١] ، وصار الناس يأكلون الشريس وحب القطن فانتشرت بينهم الأمراض وكثر الموت « فلا تمر في طريق حتى ترى الواحد والاثنين والثلاثة أمواتاً »[٢] • وقيل إن عدد الموتى بلغ حتى نهاية الحصار مائة الف ، فرميت جثث الألوف منهم في النهر ، وبقيت جثث الباقين تملأ الهواء بعدواها[٣] •

وفي الوقت الذي كان فيه سكان بغداد يقاسون مثل هذه المجاعة الفظيعة ، كان أفراد الجيش الايراني ينعمون بالعيش الرغيد من جراء انفتاح طرق التموين لهم من أنحاء العراق المختلفة ، وقد امتلأت سوق معسكرهم بالسلع الرخيصة من كل نوع ، وأمر نادر قلي بهدم دور الكرخ ليُستفاد من أخشابها وأبوابها في بناء مقصورات لضباطه ، وكان هؤلاء قد جاؤا بنسائهم فسكنوا في تلك المقصورات • ولما حل يوم النيروز ـ في ٢١ آذار عام ١٧٣٣ ـ احتفل به الجيش الايراني احتفالاً بهيجاً[٤] •

عاقبة الصبر :

دام الحصار سبعة أشهر أبدى فيه أحمد باشا صموداً عجيباً ولولاه لاستسلمت بغداد في وقت مبكر ، وكان أحمد باشا يتخذ شتى الوسائل في تدعيم معنويات جنوده فكان يتجول بينهم بنفسه يشجعهم ، وقد يكلف سراً بعض من يعتمد عليهم ليأتوا الى بغداد من الخارج فيتسلقوا السور ويبشروا السكان بقرب وصول الانقاذ •

وفي ذات يوم أرسل نادر قلي وفداً من العلماء الى داخل بغداد بحجة

(١) المصدر السابق ص٣٠ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ٥ج ص ٢٤١ •
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٤٢ •
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٧ •

المجادلة مع علمائها ، والواقع أنه أرسلهم لمعرفة ما وصلت اليه المجاعة في المدينة • وقد أدرك أحمد باشا الغرض من مجيئهم فأراد أن يستفيد من ذلك لغرضه ، فوضع في طريقهم أكداساً من أرغفة الخبز وجعل الباعة ينادون عليها أن سعر الرغيف بأربعة فلوس ، ثم أقام للوفد مأدبة دسمة جعلتهم يعتقدون أن ما بلغهم عن المجاعة في بغداد غير صحيح[1] •

وصل جيش الانقاذ أخيراً بقيادة عثمان باشا الأعرج ، وكان هذا القائد بطلاً مشهوراً ذا شخصية خلابة ، وقد استغرقت مسيرته من اسطنبول ستة أشهر تقريباً ، والتقى بجيش نادر في موضع قريب من بلد ، ونشبت المعركة الحاسمة بينهما في صباح التاسع عشر من تموز ، واستمرت تسع ساعات كان القتال فيها هائلاً مريراً • إنها كانت معركة بين عملاقين من عمالقة الحرب ، فكان عثمان باشا بالرغم من عرجه يقود جيشه بنفسه راكباً فرسه ، وقد فعل نادر قلي مثله حتى فقد أثناء القتال حامل لوائه وقُتل فرسان من تحته • وانتهت المعركة أخيراً بانتصار الاعرج وبهزيمة نادر •

الواقع أن خسارة الجيش الايراني في تلك المعركة كانت فادحة جداً ، فقد خسر فيها ثلاثين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، كما خسر جميع مدافعه وكل ما كان معه من خيام وأمتعة وحيوانات وأطعمة • وأسرع نادر قلي هارباً بفلول جيشه ، فعبر الحدود عائداً الى ايران • أما عثمان باشا فقد ذهب الى الاعظمية حيث توافد عليه أهل بغداد من جميع الطبقات شيباً وشباناً يقبلون أقدامه ويمسحون عنها الغبار[2] •

عودة المهزوم :

ظن الكثيرون أن نادر قلي لن تقوم له قائمة بعد تلك الهزيمة المنكرة

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٢ •
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٤١ ــ ١٤٢ •

التي حلت به ، ولكنه كان رجلاً من طراز غير عادي فاستطاع أن يجمع شمل جيشه في همدان وأن يعيد له معنويته من جديد • ولم تمض على هزيمته سوى ثلاثة أشهر ، أو أقل من ذلك ، حتى رأيناه يعبر الحدود العراقية مرة أخرى •

كان همه الاكبر في هذه المرة هو الانتقام من خصمه الأعرج والقضاء عليه ، فقد أدرك أنه لا يستطيع فتح بغداد ما دام الأعرج « العملاق » موجوداً في العراق • ولهذا توجه نحو كركوك إذ كان خصمه مخيماً على مقربة منها • وفي ٢٦ تشرين الاول ١٧٣٣ نشبت الحرب بينهما ، ولكنها سرعان ما انتهت إذ أن عثمان باشا سقط عن ظهر جواده صريعاً وتشتت شمل جيشه • ولما جيء بجثته أمام نادر قلي وقف صامتاً مدة من الزمن وهو يتأملها بخشوع ، ثم أمر بحملها محروسة الى بغداد •

وعندما وصل نبأ مقتل عثمان باشا الى بغداد ساد الهلع فيها وارتفعت أسعار الاطعمة ، وأراد أحمد باشا أن يتجنب الخطأ الذي تورط فيه في المرة الماضية فأرسل المنادين ينادون في الاسواق والشوارع بأمر من لا يستطيع البقاء في المدينة أن يخرج منها ، فخرج الكثيرون من بغداد •

وصل نادر قلي بجيشه فطوق بغداد ، ولكن الحصار لم يدم في هذه المرة طويلاً ، إذ سرعان ما وصلت أنباء من ايران تشير الى نشوب ثورة فيها لمصلحة الاسرة الصفوية • وبادر نادر قلي يطلب الصلح من أحمد باشا ، وشعر هذا كأن الصلح فرج نزل اليه من السماء فوافق عليه • وبعد أن زار نادر قلي العتبات المقدسة عاد الى ايران •

تاديب العشائر :

عندما استراح أحمد باشا من المعارك واطمأن من ابتعاد نادر قلي عن بغداد ، عزم على تأديب العشائر العراقية التي انضمت الى صفوف الاعداء

وعاثت بالأمن خلال الفترة الماضية • والظاهر أن بعض العشائر اغتنموا فرصة انشغال الحكومة في تلك الفترة فأخذوا يعبثون في البلاد كما يشتهون ، وكانت عشيرة شمر ـ بوجه خاص ـ قد ساعدت نادر قلي مساعدة كبيرة حيث قام بعض أفرادها بدور الأدلاء والجواسيس له فكانوا ينقلون له الأخبار يومياً ويطلعونه على كل صغيرة وكبيرة •

بدأ أحمد باشا بتأديب عشيرة شمر ثم أعقبها بعشيرتي قشعم وزبيد ، ولما جيء برؤسائهم أمامه أعلنوا التوبة وتعهدوا له بالطاعة فأطلق سراحهم[1] •

لم تدم طاعة العشائر الا قليلاً ، ففي السنة التالية ارتأت الدولة العثمانية نقل أحمد باشا الى ولاية أورفه ولم يكد هذا الوالي الحازم يغادر بغداد حتى عادت العشائر الى عادتها القديمة • ولم يقتصر الأمر على العشائر فقط بل أخذ الانكشاريون يشغبون أيضاً وأكثروا من القتل والفوضى في بغداد • وعند هذا أدركت الدولة أن العراق يختلف عن غيره من الولايات العثمانية من حيث كثرة العشائر فيه وحاجته الى حاكم قوي قادر على قمعها ، فأرجعت أحمد باشا الى ولاية بغداد •

عند وصول أحمد باشا الى بغداد في عام ١٧٣٦ استقبله الأهالي بفرح عظيم ، ومدحه اسماعيل الروزنامجي بقصيدة تركية كما مدحه آخرون بقصائد عربية[2] • وبدأ أحمد باشا بتأديب الانكشاريين فقتل بعض رؤسائهم وأبعد البعض الآخر منهم ، ثم توجه بعدئذ نحو بني لام فكسرهم ونهب أموالهم •

ثورة سعدون :

في عام ١٧٣٨ ثار الأمير سعدون شيخ المنتفق ومعه عشرة الآف مقاتل ،

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٣٥ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٥٠ •

ونزل في موضع بين النجف والكوفة وأخذ يتحكم في الناس قائلاً : « أنا السلطان في هذه الديار . وما شأن أحمد باشا وما السلطان ؟ إني إن شاء الله آخذ بغداد واحكم فيها بالعدل » . ثم أرسل قوة لمحاصرة الحلة ، وأخرى لمحاصرة البصرة وقال عن البصرة إنها ملكهم وإنهم كانوا يأخذون منها الاتاوة كل سنة وليس للروم ـ اي الترك ـ أي حق فيها[١] .

استمر سعدون في حركته زهاء أربع سنوات ، واستطاع أن يسيطر على مناطق واسعة من الفرات الأسفل والأوسط ، وفرض الاتاوة على المسافرين فلم يسلم منه حتى وكلاء الشركات الانكليزية والفرنسية في البصرة[٢] ، غير أن حركته انتهت بمقتله في عام ١٧٤١ على إثر معركة بينه وبين جيش الحكومة . وعندما جاء الخبر بمقتله الى أحمد باشا أنعم هذا على البشير وعلى القاتل بالعطايا الكبيرة ، ثم أمر بأن يسلخ رأس القتيل ويحشى تبناً ويرسل الى اسطنبول[٣] .

---

(١) المصدر السابق ج٥ ص ٢٥٦ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٥٤ .
(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٥٨ .

الفصل الخامس

نادر قلي ومشروع المذهب الخامس

درسنا في الفصل الماضي شيئاً من سيرة نادر قلي ومحاصرته بغداد ، وسنحاول في هذا الفصل أن ندرس شيئاً من أعماله التي تلت ذلك ولا سيما فيما يخص مشروعه في التقريب الطائفي الذي بذل في أواخر عهده جهوداً كثيرة . ان البحث في هذه النقطة قد يلقي ضوءاً على بعض الجوانب الغامضة من تاريخ المجتمع العراقي .

بداية المحاولة :

قضى نادر قلي السنوات الثلاث بعد انسحابه من بغداد يشن الغارات الناجحة في نواحي آذربيجان وقفقاسيا واستطاع أن يغلب الجيوش الروسية والعثمانية فيها ، وأن يفتح مدناً مهمة كتفليس وگنجا وباكو وگيلان ودربند ورشت . وبهذا استعاد سمعته التي هبطت عند اخفاقه في فتح بغداد .

بعد هذه الانتصارات الكبيرة توقف في مروج مغان القريبة من أردبيل بغية الاحتفال بعيد النيروز ، وكان ذلك في ٢١ آذار ١٧٣٦ ، وهناك دعا أعيان الايرانيين وقوادهم الى وليمة كبرى وأعلن لهم موت الشاه الطفل الذي كان هو وصياً عليه وطلب منهم أن يختاروا ملكاً جديداً .

كان المتوقع في مثل هذه الحالة أن يهتف الحاضرون كلهم بأنهم لا يريدون سواه ملكاً ، وقد هتفوا بذلك فعلاً غير أنه أظهر التمنع ورفض الاستجابة لهتافهم . وبعد انقضاء الحفل ظل نادر قلي مصراً على الرفض

طيلة شهر كامل ، وكلما كانوا يزدادون في الحاحهم عليه كان يزداد هو من جانبه تمنعاً وتعززاً .

الظاهر أنه كان يضمر في قلبه نية مبيتة على أمر ما ، وقد اتضحت نيته عندما رضي أخيراً بأن يتولى الملك حيث اشترط له شروطاً أثارت الدهشة في الناس ، وكان أهم تلك الشروط هو أن يترك الايرانيون سب الخلفاء ومواكب العزاء وجميع الأمور التي من شأنها التفريق بين الشيعة وأهل السنة . ويروى أن رئيس المجتهدين كان حاضراً فلم يقبل بهذا الشرط ، ونهض ينصح نادر قلي بأن يحصر جهوده في القضايا الدنيوية ويترك القضايا الدينية للمختصين بها ، ولكن الموت الفجائي الذي نزل به جعل الآخرين يحجمون عن إبداء أي رأي معارض ، وانتهى الاجتماع بقبول الشروط[1] . وجرى بعدئذ تتويج نادر قلي باحتفال عظيم - في موعد عينه المنجمون - ومنذ ذلك الحين صار اسمه « نادر شاه » .

يعلل بعض المؤرخين هذا الشرط الذي اشترطه نادر قلي لقبوله العرش بسببين محتملين : أولهما أنه أراد به أن ينسى الايرانيون الأسرة الصفوية باعتبار أن هذه الأسرة هي التي أسست السب ومواكب العزاء ونشرتهما في ايران ، والسبب الثاني هو أن نادر قلي كان يحلم بأن يقضي على الدولة العثمانية ويبني مكانها دولة اسلامية كبرى تجمع كل المسلمين - الشيعة وأهل السنة معاً[2] .

ويمكن أن نضيف الى هذين السببين سبباً ثالثاً هو أن نادر قلي نفسه لم يكن متعصباً لأية طائفة من الطائفتين المتنازعتين ، وربما جاز أن نعتبره

---

(1) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — vol. 2, p. 254 — 255.

(2) Gbid, vol. 2, p. 255.

من أولي الشخصية التي تعرف في علم الاجتماع بـ « الشخصية الحدية » إذ هو نشأ في بيئة سنية ـ هي قبيلة أفشار التركمانية ـ ثم خالط الشيعة بعدئذ وقادهم في الحروب • وتشير بعض القرائن الى أنه كان يحاول التشبّه بعاهل الهند المشهور « أكبر شاه » المغولي الذي ابتكر ديناً جديداً بغية توحيد الهنود في عقيدة واحدة(١) ، وربما أراد نادر قلي أن يفعل مثله في ايران والعراق •

المذهب الخامس :

كانت خطة نادر قلي هي أن يجعل من التشيع مذهباً فقهياً خامساً يضاف الى المذاهب الأربعة الموجودة عند أهل السنة ، وقد أطلق عليه اسم « المذهب الجعفري » نسبه الى الامام العلوي جعفر بن محمد الصادق •

يبدو أن نادر قلي لم يكن أول من جاء بمثل هذه الفكرة ، فالمظنون أن الشريف المرتضى الذي عاش في بغداد في العهد البويهي قد سبقه اليها • يروى صاحب كتاب « روضات الجنات » أن الشريف المرتضى كان قد اتفق مع الخليفة العباسي القادر بالله على أن يأخذ من الشيعة مائة ألف دينار ليجعل مذهبهم في عداد المذاهب السنية فترتفع التقية والمؤاخذة على الانتساب اليهم ، وقد كلّف المرتضى الشيعة بأن يجمعوا نصف المبلغ ويدفع هو النصف الآخر من خاصة ماله فلم يوفقوا الى ذلك(٢) •

يخيل لي أن إخفاق الشريف المرتضى في مشروعه ـ على فرض وقوعه ـ يرجع سببه الى أن الفرق بين الشيعة وأهل السنة لم يكن مقتصراً

---

(1) Edward Browne (A Literary History of Percia) — Cambridge 1958 — vol. 4, p. 137.

(٢) محمد باقر الخوانسارى (روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات) ـ طهران ١٣٦٧هـ ـ ص ٣٧٨ •

على قضايا الفقه فقط بل هو يشمل كذلك قضايا أعمق منها تتصل بأصول الدين ، فأصول الدين عند أهل السنة ثلاثة هي التوحيد والنبوة والمعاد بينما هي عند الشيعة خمسة حيث يضيفون اليها العدل والامامة .

أضف الى ذلك أن الشيعة يؤمنون بأن الائمة الاثني عشر هم كلهم مراجع للعقيدة والفقه ولا يتميز بعضهم عن بعض في شيء إذ هم جميعاً في الفضل والقدسية سواء ، ومعنى هذا أن الشيعة يفضلون أن يُطلق عليهم اسم « الامامية » أو « الاثني عشرية » بدلاً من اسم « الجعفرية » .

مهما يكن الحال فقد عزم نادر قلي أن يسير في تنفيذ خطته رغم كل صعوبة ، وأخذ يبذل في سبيل ذلك جهوداً وأموالاً غير قليلة . والظاهر أنه وجد في الامام جعفر الرجل الذي يصلح أن يكون رمزاً للتقريب بين الشيعة وأهل السنة ، فقد كان هذا الامام يعيش في نفس العصر الذي عاش فيه مالك وأبو حنيفة ، وهما من كبار أئمة السنة، والمعروف عنهما أنهما كانا يجلانه كل الاجلال ، وكان جعفر بالاضافة الى ذلك ينتمي الى علي بن أبي طالب من جهة أبيه ، والى أبي بكر من جهة أمه وجدته ، والمأثور عنه أنه كان يعلن للناس قائلاً « ولدني أبو بكر مرتين » وذلك لكي يردع الغلاة الذين اعتادوا على سب أبي بكر وصاحبه عمر .

نادر قلي يفتح الهند :

كان نادر قلي كنابليون وغيره من الفاتحين الكبار الذين نشأوا من أصل وضيع لا يشبع من الفتح ، وكلما اتسعت فتوحه ازداد طمعه في فتح أكبر .

اتجه نادر قلي بعد تتويجه نحو الشرق ـ ولنسمه بعد الآن نادر شاه ـ ففتح قندهار وغزنة وكابل ، ثم عبر ممر خيبر الى الهند . وقد كانت الهند يومذاك تحت حكم محمد شاه من سلالة أكبر شاه ، وهو رجل اتصف

بالكسل والانغماس في الملذات فكان لا يصبر دون أن تكون بين ذراعيه خليلة وفي يده كأس[1] ، أي أنه كان على النقيض من نادر شاه الذي كان لا يستريح الا وهو على ظهر جواده مقاتلاً أو سائراً الى قتال • وهذا هو الفرق ـ حسب نظرية ابن خلدون ـ بين من يبني مجده بنفسه ومن يرثه عن آبائه •

وفي عام ١٧٣٨ وقعت المعركة الحاسمة بين الرجلين على بعد ستين ميلاً من دلهي ، فكانت هزيمة الجيش الهندي فيها منكرة على الرغم من تفوقه في العدد والعدة ، ووقع محمد شاه أسيراً غير أن نادر شاه عفا عنه وأعاده الى العرش • وقدم محمد شاه الى نادر شاه كنوز أسلافه العظيمة منها عرش الطاووس المشهور الذي لا يزال باقياً في طهران ، ومنها الماسة المشهورة « كوهينور » التي تزين الآن التاج البريطاني •

وكانت غنائم نادر شاه من حملته الهندية يصعب تقديرها لكثرتها ونفاسة ما فيها من التحف والاحجار الكريمة ، فقد قدرها هانوي بخمس وثمانين مليون باون ، وقدرها غيره بأقل من ذلك أو أكثر • ويبدو أن نادر شاه لم تشبعه غنائم الهنود على كثرتها فأراد أن يشبع من دمائهم أيضاً ، فلم تمض على دخوله دلهي سوى أيام معدودة حتى أمر بمذبحة عامة في سكانها ، وكان سبب المذبحة حدوث شغب في المدينة قُتل فيه أفراد من جيشه ، وقد بدأت المذبحة في الساعة الثامنة صباحاً واستمرت سبع ساعات هلك فيها من سكان المدينة أكثر من مائة ألف شخص ، وقيل إن نادر شاه كان جالساً أثناء ذلك على منصة نصبت له فوق سطح مسجد « روشن الدولة » وهو ينظر الى مأساة المدينة من جهات ثلاث • ولا تزال عبارة « نادر شاهي » في أسواق دلهي تعني مذبحة[2] •

---

(1) Percy Sykes (op. cit.) vol. 2, p. 258.
(2) Gbid, vol. 2, p. 262.

وعند انتهاء نادر شاه من النهب وسفك الدماء أحب أن يتصاهر مع الاسرة المغولية المالكة في الهند ، فزوج ولده الثاني نصر الله من بنت محمد شاه • ويحكى أنهم طلبوا من العريس أن يذكر نسبه حتى الجد السابع ـ حسب عادتهم في الفخار بالنسب ـ فكان جوابه : « أنه ابن نادر شاه ، ابن السيف ، حفيد السيف ، وهكذا الى سبعين جداً بدلاً من سبعة » •

وبعد عودة نادر شاه من الهند اجتاح بلخ وبخارى ، وبذا وصل الى قمة مجده ، فأطلق على نفسه لقب « شاهنشاه » ـ أي ملك الملوك ـ وأمر أن لا يُخاطب الا بهذا اللقب وهدد بالعقوبة من يطلق عليه لقباً سواه[1]• والملاحظ ان هذا اللقب ظل مستعملاً من قبل ملوك ايران حتى يومنا هذا •

العود الى مشروع التقريب :

بعد أن أعلن نادر قلي نفسه « ملك الملوك » أراد العودة بعزم جديد الى مشروع التقريب الطائفي ، ولعل من العوامل التي دفعته الى ذلك هو أن جيوشه صارت مؤلفة من الشيعة والسنيين معاً ، فكان فيها الأفغان والأزبك والتركمان علاوة على الايرانيين ، وكأنه أدرك أن التقريب الطائفي قد يؤدى في النهاية الى ازالة الجفاء والتوتر بين جنوده •

أخذ نادر شاه يقسر الايرانيين بالقوة على ترك ما كان الصفويون قد أحدثوه من عادات وطقوس طائفية ، وحين وجد مقاومة من بعض علماء الشيعة صار يضيق عليهم الخناق ويفرض عليهم المغارم ، ثم صادر الأوقاف التي كانت في ايديهم • ويُروى أنه دعا علماء الشيعة ذات يوم الى اجتماع وطلب منهم أن يكتب كل واحد منهم في ورقة مقدار حاجته الى النقود ، ولكنه بدلاً من أن يدفع اليهم ما دونوه في أوراقهم أمر بأن تؤخذ تلك

---

(١) عبدالله السويدي (الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية) ـ القاهرة ١٣٢٤ هـ ـ ص ٤ •

المبالغ منهم غصباً فأوقعهم في ورطة حتى اضطر بعضهم الى بيع أثاثه وكتبه في الاسواق[1] .

وفي عام ١٧٤٠ أرسل نادر شاه تحفاً وهدايا الى مرقد أبي حنيفة والى مراقد الائمة في الكاظمية وكربلاء والنجف ، وكانت التحف التي خصصت للمرقد العلوي في النجف جسيمة ولا تزال محفوظة في الخزانة هناك ، ومن المحتمل أنها كانت من جملة الغنائم التي استحوذ عليها في الهند .

وأخذ نادر شاه يقوى أواصر الصداقة مع الدولة العثمانية ، فأهدى اليها أحد عشر فيلاً وثلاثة الآف عبد ، وجاءت الهدية الى بغداد في طريقها الى اسطنبول وبصحبها ألف وخمسمائة فارس ، وكان فيها فيل واحد مع هدية ثمينة لوالي بغداد أحمد باشا . فاستقبل الوالي الهدايا استقبالاً باهراً وأسكن رئيس الفرسان الذين جاؤا بها في قصره العامر المشيّد في جانب الكرخ في الموضع الذي يُسمى الآن « بستان المتولية »[2] .

تذهيب المرقد العلوي :

وأرسل نادر شاه مالاً كثيراً لتذهيب قبة المرقد العلوي في النجف وتذهيب مأذنتيه وايوانه ، وشُرع بالعمل في عام ١٧٤٢ ، فجمع له زهاء مائتين من الصاغة ووالصناع الماهرين من شتى الأقطار فكان فيهم الصيني والهندي والتركي والفارسي والعربي ، وبلغ مجموع أجورهم ما يعادل خمسين ألف تومان ، وهذا كان يُعد مبلغاً هائلاً في ذلك الزمان حتى ضرب المثل به فقيل « تبذير نادر في النجف »[3] .

(١) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ترجمة موسى كاظم نورس — بيروت بدون تاريخ — ص٤٧ .
(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) — بغداد ١٩٥٣ — ج٥ ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .
(٣) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) — النجف ١٩٥٨ — ج١ ص ٦٤ .

كان تذهيب المرقد العلوي على أي حال أول عمل من نوعه في العراق ـ وربما كان الثاني من نوعه في البلاد الاسلامية إذ سبقه تذهيب قبة الرضا في خراسان على نحو ما أشرنا اليه في فصل سـابق ـ والواقع أن تذهيب المرقد في النجف كان ذا تأثير نفسي واجتماعي لا يستهان به • فالنجف كما لا يخفى تقع على هضبة عالية وعندما أخذت القبة المشيدة هناك تلمع تحت أشعة الشمس ـ من جراء طلائها بالذهب ـ صارت تشـاهد من مسـافات شاسعة في أقاصي الريف والبادية وشرعت الافئدة تنجذب اليها من مختلف الأرجاء وتهفو اليها النفوس ، أضف الى ذلك عظمة الرجل المدفون تحتها وما أحيطت به من هالة قدسية يتفق على احترامها الشيعة وأهل السنة معاً • ويخيل لي أن نادر شاه انما أمر بتذهيب المرقد العلوي من أجل الهدف الذي كان يسعى اليه وهو التوفيق بين الطائفتين المتعاديتين ، ولعله أراد أن يتخذ من الامام علي شعاراً جديداً لمشروعه كما اتخذ الامام جعفر الصادق من قبل •

من مفارقات نادر شاه أنه ـ كما رأينا آنفاً ـ كان في العراق يوصف بتبذير الأموال بينما كان في الهند يوصف بسفك الدماء ، وفي نظري أن هذين الوصفين يمثلان معنى واحداً إذ كان نادر شاه يبذر الأموال ويسفك الدماء في سبيل الهدف الاكبر الذي كان يطمح اليه وهو أن يدوم له ولاسرته من بعده لقب « ملك الملوك » •

نكسة نادر شاه :

دفع نادر شـاه طموحه المفرط الى الزحف على منطقة داغسـتان في قفقاسيا لقتال قبائل « اللزكية » فيها ، فمُني هناك بهزيمة منكرة حتى أن أفراداً من تلك القبائل[١] تمكنوا من التغلغل في معسكره ومن الوصول الى

---

(١) كانت قبائل « اللزكية » هذه محاربة شديدة المراس ولم يكن في وسع أي جيش أن يتغلب عليها • وقد جاء في أحد الأمثال الايرانية ما ←

خيمته الخاصة فاختطفوا منها بعض النساء والجواهر الثمينة •

ومُني نادر شاه بمصيبة أخرى على إثر عودته من قتال « اللزكية » إذ هاجمه رجلان أفغانيان بغية اغتياله وأصاباه بجراح ثم لاذا بالفرار دون أن يتمكن أحد من القبض عليهما ، وظن نادر شاه أن ولده رضا قلي مرزا له يد في المؤامرة فأمر بسمل عينيه ، ولكنه نـدم بعدئذٍ أشد الندم فأمر بقتل جميع الرجال الذين حضروا عملية « السمل » بحجة أنه كان من الواجب عليهم آنذاك أن يفتدوا بأرواحهم في سبيل انقاذ عيون الأمير الذي يمثل مجد ايران •

وتتابعت من بعد ذلك ثلاث ثورات قام بها الايرانيون ضد نادر شاه • قام بالأولى منهـــا في آذربيجـان رجل يدّعي أنه ابن حسـين الصفوي ، وساعدته قبائل « اللزكية » كما ساعده السلطان العثماني ، وقد تغلب عليـه نادر شاه بعد معركة طاحنة ، وعندما جيء بالرجل أسيراً أمر نادر شاه بقلع احدى عينيه ثم كتب الى السلطان يقول له : إن نادر شاه يستنكف من أن يقتل مثل هذا المخلوق الحقير على الرغم من كونه مؤيداً من جناب السلطان•

أما الثورة الثانية فقام بها تقي خان حاكم منطقة فارس ، ولما تغلب عليه نادر شاه فعل به مثلما فعل بالاول ، حيث أمر بقلع احدى عينيه ، غير أنه أضاف الى ذلك قتل جميع أقاربه • أما الثورة الثالثة فقام بها محمد حسين القاجاري في منطقة استراباد ، واستطاع نادر شاه أن يقضي عليـــه بسهولة ولكنه أشاع الخراب والقتل في تلك المنطقة عقابا لها ، وأمر بنصـب هرمين من جماجم القتلى فيها[1] •

معناه : اذا كان ملك ايران أحمق فدعه يذهب لقتال « اللزكية » • والظاهر أن سمعة هذه القبائل وصلت الى العراق أيضا ، ولا تزال كلمة « اللزكي » شائعة بين العامة وهي تعني الرجل اللجوج •

(1) Percy Sykes (op. cit.) vol. 2, p. 266—277.

يبدو أن نادر شاه كان يريد أن يتشبّه بجنكيز خان وتيمورلنك في كثرة سفك الدماء أو في صنع الاهرام من جماجم القتلى ، ولدينا قرينة تاريخية تشير الى ذلك بصورة غير مباشرة ، ففي مؤتمر النجف الذي سنأتي على ذكره فيما بعد وقف الخطيب يدعو له على المنبر فقال : « اللهم أدم دولة من أضاءت به الشجرة التركمانية ، قاب الرئاسة وجنكيز السياسة »[1] • وقد يصح القول بوجه عام إن نادر شاه لم يكن يختلف عن معظم الجبابرة الذين غيروا مجرى التاريخ من حيث تعطشه للدماء أو ابتلائه بمرض « الصادية » الخبيث •

غزو العراق ـ للمرة الثالثة :

في عام ١٧٤٣ أرسل نادر شـاه الى السلطان العثماني يطلب منه الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري ، فجمع السلطان علمـاء اسطنبول يستفتيهم في الأمر فكان جوابهم أن الشيعة مارقون عن الاسلام يجوز قتلهم وتأسيرهم شرعاً • وحين وصل هذا الجواب الى نادر شاه اتخذه ذريعة لأعلان الحرب على الدولة العثمانية ، وسرعان ما توجه بجيوشه نحو العراق، وعبر الحدود بالقرب من مندلي •

ومما يلفت النظر أن نادر شـاه حين غزا العراق في هذه المرة لم يتحرش ببغداد وبواليها أحمد باشا ، وقد سمح له أحمد باشا بأن يستولي على جميع مزارع بغداد ـ وكان الوقت موسم حصاد ـ ليمون بها جيوشه الغازية •

إن هذه ظاهرة غريبة تدعو الى التساؤل ، والأغرب منها أن المؤرخين لم يعيروها الاهتمام الكافي ولم يحاولوا إعطاء تفسير مقنع لها • يقول المؤرخ رسول الكركوكلي مثلاً في تعليلها : إن أحمد باشا وافق على مزور نادر

(١) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص٢٧ •

شاه وعلى مكوثه واعتبره ضيفاً ولسان حاله يقول « اذا كنت مأكول الطعام فرحب »[1] . وقال مؤرخ آخر : إن أحمد باشا خدع نادر شاه واحتال عليه حيث قال له أن يسير أولاً الى فتح الموصل وعند عودته منها سيجد بغداد مفتوحة بين يديه، وقد نجحت حيلة أحمد باشا « والحرب خدعة »[2].

يخيل لي أن في الامر سراً غامضاً لم تكشف الايام عنه ، وربما كانت هناك خطة مكتومة اتفق عليها نادر شاه وأحمد باشا من وراء ظهر الدولة العثمانية أو من أجل اقتسام المنافع بينهما على حسابها . وعلى أي حال فالمعروف عن نادر شاه أنه كان شديد الاعجاب بأحمد باشا وقد وصفه ذات مرة بقوله : إنه انسان كامل من أصحاب العقل والدراية إذ كان يخوف حكومته مني كما كان يخوفني منها وبهذه الطريقة أمضى اوقات راحة[3] . ومن يتأمل في هذا القول يشعر كأن فيه أمراً آخر غير المديح المجرد .

حصار الموصل :

اجتاح نادر شاه كركوك وأربيل ، وفي الايام الأخيرة من ايلول وصل الى مقربة من الموصل ، ثم فرض الحصار عليها . والواقع أن حصار الموصل يختلف عن حصار بغداد الاول الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، فقد رأينا في حصار بغداد كيف اكتفى نادر شاه بالتطويق ومنع التموين بغية تجويع السكان ، أما في حصار الموصل فكان اعتماده في الدرجة الاولى على شن الهجمات وقصف المدافع ، وقيل إنه سلط على الموصل زهاء مائتي مدفع ظلت تمطر المدينة بقنابلها ليلاً ونهاراً ،وقد وصفها بعض من شاهدها فقال على سبيل المبالغة : إن الشظايا المتطايرة منها تظلم السماء نهاراً وتنيرها

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٥ .
(٢) سليمان صائغ الموصلي (تاريخ الموصل) ــ القاهرة ١٩٢٣ ــ ج١ ص٢٧٨ .
(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص٢٨٢ .

كالشهب ليلاً[1] .

ودام الحصار اثنين وأربعين يوماً قُذف فيها على البلدة ما يزيد على الأربعين ألف قنبلة وشُنت عليها خمس هجمات . ودافع أهل الموصل عن بلدتهم دفاعاً بطولياً ، وكانوا قد أقسموا على أن يقتلوا نساءهم في حالة دخول الاعداء الى البلدة لئلا يقعن في أيديهم ، وكان الحاج حسين باشا الجليلي قد أبدى أثناء الحصار همة لا تنكر ، وكذلك أبدى أبناؤه وأفراد أسرته حتى أنهم كانوا يشاركون العامة في نقل التراب تشويقاً لهم[2] .

اضطر نادر شاه أخيراً أن يطلب الصلح من أهل الموصل ، فأرسل الحاج حسين اليه وفداً للمفاوضة مؤلفاً من ثلاث رجال هم : قاضي الموصل ، وعلي أفندي الغلامي مفتي الشافعية ، وقره مصطفى بك . فلما وصل هؤلاء الى فسطاط نادر شاه استقبلهم بحفاوة وأظهر لهم البشاشة واثنى على بسالة أهل الموصل ثم قال لهم : « أنا من الأصل ما كان لي دعوى مع أهل الموصل ، ولكن كان مرادي تصحيح عقيدتي واظهار ما هو الحق من دين السنة والشيعة ... » . ثم اتفق الفريقان في النهاية على شروط الصلح وتبادلا الهدايا ، وكانت هدية الحاج حسين الجليلي الى نادر شاه ثمانية رؤوس من جياد الخيل وأحسنها[3] .

ويروى القس سليمان صائغ الموصلي : أن اهل الموصل يعزون انتصارهم الى شفاعة مريم العذراء والقديسين الذين هدم نادر شاه هياكلهم ومعابدهم ، وشوهد على سطح كنيسة العذراء أشباح يدافعون عن البلدة

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ١٤٨ .

(٢) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ج١ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٨ .

(٣) محمد أمين العمري (منهل الاولياء) ـ تحقيق سعيد الديوهجي ـ الموصل ١٩٦٧ ـ ج١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

ويردّون عنها القنابل إذ يصوبونها الى جهة العدو ، ولهذا سعى الحاج حسين الجليلي الى تجديد كنيسة العذراء التي تهدمت خلال الحرب كما جدد ورمم كنائس أخرى(١) .

مسير نادر الى النجف :

بعد أن أتم نادر شاه عقد الصلح مع أهل الموصل توجه بجيوشه نحو بغداد فانتشر الذعر بين سكانها واستعدوا للحصار ، ولكنه عند وصوله الكاظمية أرسل الى أحمد باشا يطمئنه بأنه يريد الصلح مع الدولة العثمانية . ثم جرت مفاوضات بين الرجلين لم يُعرف عن تفاصيلها شيء ، ويقول الشيخ عبدالله السويدي ـ الذي كان من المقربين الى أحمد باشا ـ بعد أن أشار الى مجيء نادر شاه من الموصل ما نصه : « ... ونزل في قصبة سيدنا موسى بن جعفر فزاره وزار محمد الجواد ثم عبر دجلة في قارب وزار الامام أبا حنيفة ولم تزل الرسل تختلف بينه وبين أحمد باشا الى أن رفع مطالبته بالاقرار بصحة مذهب الشيعة والتصديق بأنه مذهب جعفر الصادق ثم توجه الى النجف لزيارة الامام علي بن أبي طالب وليرى القبة التي أمر أن تبنى بالذهب ... »(٢) .

من القصص الشائعة التي يتناقلها الناس حول نارد شاه أنه عند اقترابه من سور النجف يومذاك وضع في عنقه سلسلة من الذهب كأنها قيد يشير بها الى عبوديته للامام علي ، ولما وصل الى الضريح المقدس لثمه وعلق السلسلة في مدخل الضريح . ثم تقدم نديمه مرزا زكي فأنشد بيتين من الشعر قائلاً ما معناه : « نم في تراب النجف مطمئناً ولا تسأل عما يجرى يوم القيامة فان الأرض التي ينقلب الخمر فيها خلاً لابد أن تنقلب السيئات

---

(١) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ج١ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٥ .

فيها الى حسنات » . وكان الشاعر يشير بهذا الى كرامة مشهورة للامام علي تناقلها الخلف عن السلف وهي أن أحد الفساق أدخل زجاجة خمر الى النجف فانقلبت خلاً[1] .

مؤتمر النجف :

لم يكد نادر شاه يستقر في النجف حتى عزم على عقد مؤتمر عام يجتمع فيه علماء الشيعة والسنة لوضع أسس التوفيق بين الطائفتين المتعاديتين . ومن الممكن القول أن هذا هو أول مؤتمر من نوعه في التاريخ الاسلامي ، وربما كان الأخير أيضاً !

كان نادر شاه قد جلب معه من ايران سبعين عالماً شيعياً ، كما جلب سبعة علماء من تركستان وسبعة من أفغانستان ، ثم استدعى من كربلاء السيد نصر الله الحائري الذي كان حينذاك كبير مجتهدي الشيعة في العراق . وأرسل الى أحمد باشا يرجوه أن يبعث من قبله عالماً يمثل السنيين العراقيين فأرسل أحمد باشا اليه الشيخ عبدالله السويدي .

يقول السويدي في مذكراته التي كتبها فيما بعد حول ذهابه الى النجف ما خلاصته : إنه بينما كان جالساً في بيته ببغداد - قبيل المغرب - جاءه رسول من أحمد باشا يستدعيه لكي يبعثه الى النجف لمجادلة علماء الشيعة في أمر مذهبهم ، وكاد السويدي يعتذر عن قبول المهمة لصعوبتها غير أن أحمد باشا ألح عليه ، ثم قال له : « أسأل الله تعالى أن يقوي حجتك ويطلق بالصواب لسانك لكن أنت مخيّر بين المباحثة وتركها . فقط لا تترك البحث بالكلية بل أورد بعض الأبحاث في خلال الصحبة بالمناسبة ليعلم العجم أنك ذو علم . وإن رأيت منهم الانصاف وأنهم يريدون إظهار الصواب فابحث معهم واياك أن تسلّم لهم .. إن الشاه في النجف وأريدك

---

(١) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٢٢٣ .

صبيحة يوم الأربعاء تكون عنده » • وأتى له بكسوة فاخرة ودابة وخادم وأرسل معه بعض خدام ركابه ثم واجهه مع العجم الذين أرسلهم نادر شاه لمرافقته الى النجف •

وفي يوم ٢٢ شوال من عام ١١٥٦هـ ـ الموافق ١١ كانون الأول عام ١٧٤٣م ـ سافر السويدي مع حاشيته الى النجف ، وكان طيلة الطريق يفكر في الادلة التي سيواجه بها علماء الشيعة ، وما يحتمل أن يكون ردهم عليها ، وكيف يرد على ردهم ، فحصل لديه اكثر من مائة دليل وعلى كل دليل جواب واحد أو اثنان أو ثلاثة • وعند وصوله النجف أُدخل على نادر شاه في فسطاطه الفخم فرحب به الشاه وسأله عن صحة أحمد خان ، أي الوالي أحمد باشا ، ثم قال له موضحاً السبب الذي دعاه الى عقد المؤتمر : « إن في مملكتي فرقتين ـ تركستان وأفغان ـ يقولون للايرانيين أنتم كفار ، فالكفر قبيح ولا يليق أن يكون في مملكتي قوم يكفّر بعضهم بعضاً • فالآن أنت وكيل من قبلي ترفع جميع المكفّرات وتشهد على الفرقة الثالثة بما يلتزمونه ، وكل ما رأيت أو سمعت تخبرني وتنقله لأحمد خان » • ثم أذن له بالخروج وأمر بأن تكون ضيافته عند اعتماد الدولة •

وذهب السويدي بعد تناول طعام الغداء الى خيمة الشيخ علي أكبر الذي كان يتولى منصب « الملا باشي » في ايران ، وبدأت المجادلة بينهما • فجاء « الملا باشي » بثلاثة أدلة يستدل بها على خلافة علي بعد النبي ، وهي : آية المباهلة ، وآية ايتاء الزكاة أثناء الركوع ، وحديث المنزلة • وأخذ السويدي يحاول تفنيدها الواحد بعد الآخر[1] •

(١) انظر في تفاصيل أحداث المؤتمر كتاب الشيخ عبدالله السويدي « الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية » المطبوع في القاهرة عام ١٣٢٤هـ وقد طبع للمرة الثانية في القاهرة عام ١٣٦٧ هـ بعنوان « مؤتمر النجف » مع مقدمة وتعليقات لمحب الدين الخطيب •

قرارات المؤتمر :

وبعد مجادلات طويلة لا مجال هنا لذكرها تم الاتفاق على قرارات معينة ، ثم اجتمع علماء الطائفتين أخيراً تحت المسقف المنصوب وراء ضريح الامام فكتبوا محضراً يشتمل على خمس مواد هي كما يلي :

الاولى : بما أن أهل ايران عدلوا عن العقائد السالفة ، ونكلوا عن الرفض والسب ، وقبلوا المذهب الجعفري الذي هو من المذاهب الحقة ، فالمأمول من القضاة والعلماء والأفندية الكرام الاذعان بذلك وجعله خامس المذاهب •

الثانية : إن الأركان الاربعة من الكعبة المعظمة في المسجد الحرام التي تتعلق بالمذاهب الأربعة فالمذهب الجعفري يشاركهم في الركن الشامي بعد فراغ الامام الراتب فيه من الصلاة – يصلون بامامهم على طريقة الجعفرية •

الثالثة : في كل سنة يُعيّن من حكومة ايران أمير للحاج الايراني ويكون في الدولة العلية العثمانية أعلى شأناً من الأمير المصري والشامي •

الرابعة : فك الأسرى من الجانبين ومنع وقوع التحقير عليهم •

الخامسة : يُعيّن وكيلان في الدولتين في مقر السلطنتين لأجل القيام بمصالح المملكتين وبهذه الوسيلة ترتفع الاختلافات الصورية والمعنوية ما بين أمة سيد الثقلين •

ثم سجلت في المحضر خلاصة العقيدة التي تم الاتفاق عليها بين الفريقين وهي الاقرار بالخلفاء الأربعة على الترتيب وأن جعفر الصادق من ذرية الرسول الكريم وممدوح سائر الأمم ومقبول عند أئمة سائر المذاهب فمن أظهر العداوة له فهو عار عن كسوة الدين • ثم سجلت كذلك شهادة أهل السنة على هذه العقيدة وهي كما يلي :

« نحن علماء الاسلام من بخاري وبلخ نشهد أن العقيدة الصحيحة الاسلامية للامة الايرانية على نحو ما ذكره العلماء سالفاً وأن هذه الفرقة داخلة في الاسلام ومن أمة سيد الأنام (ص) وكل من أظهر العداوة مع هذه الفرقة فهو خارج عن الدين ومحروم من شفاعة خاتم النبيين ، وفي دار الدنيا هو مسؤول لدى سلطان الآفاق ، وفي العقبى لدى سلطان السلاطين على الاطلاق . والاختلاف مع أهل هذه العقيدة في بعض الفروع غير مناف ولا مغاير للاسلام ، وأصحابها من أهل الاسلام ، ويحرم على الفريقين المسلمين من أمة محمد قتل كل واحد منهم الآخر ونهبه وأسره ، وهم إخوان في الدين »[1] .

ذكر الشيخ عبدالله السويدي : أنه حين تم توقيع العلماء على المحضر صار لأهل السنة فرح وسرور لم يقع مثله في العصور ولا تشبهه الأعراس والأعياد ، فكان يوماً مشهوداً من عجائب الدنيا ، والحمد لله على ذلك .. ثم بعث نادر شاه حلويات في صواني من فضة ومعها مبخرة من الذهب الخالص مرصعة بنفائس الجواهر التي لا يقدر ثمنها ، وفيها مقدار من العنبر كثير ، وبعد أن تبخروا بها وقفها الشاه على الضريح ، وصار ذكر الصحابة ومناقبهم في كل خيمة من المعسكر وعلى لسان العجم كلهم بحيث كانوا يذكرون لأبي بكر وعمر وعثمان مناقب وفضائل يستنبطونها من الآيات والأحاديث مما يعجز عنه فحول أهل السنة ، وأخذوا يسفهون رأي الشاه اسماعيل في سبهم[2] .

ملاحظة اجتماعية :

الواقع أن النتيجة التي انتهى اليها مؤتمر النجف قمينة بالتقدير ، فهي قد جاءت بالحل الوسط للنزاع المستفحل بين الشيعة وأهل السنة ولم

---

(١) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٢٢٥ .
(٢) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٢٤ ـ ٢٦ .

يكن في وسع هذين الفريقين أن يتوصلا الى حل خير من هذا الحل الذي جاء به المؤتمر ، ولكننا قد نواجه هنا سؤالاً مهماً من الناحية الاجتماعية وهو : كيف استطاع أعضاء المؤتمر أن يتوصلوا الى مثل تلك النتيجة الموفقة ؟!

ولكي ندرك أهمية هذا السؤال يجب أن لا ننسى أن أعضاء المؤتمر حين كانوا يتناقشون كان نقاشهم قائماً على أساس من الجدل المنطقي القديم ، وطريقة قلتم وقلنا ، وهذه طريقة لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة مثمرة يتفق عليها الفريقان مهما طال الجدال بينهما • إن هذا أمر لاحظناه في جميع المجادلات « الكلامية » التي نشبت بين الناس منذ أقدم الازمان حتى زماننا هذا[1] ، فلم يحدث أن تجادل فريقان ثم استطاع احدهما أن يقنع الآخر بصحة رأيه أو تنازل هو عن شيء من رأيه الا نادراً ، وربما جاز القول بأنه كلما طال الجدال ازدادت الفجوة بينهما واشتد العداء •

من طبيعة هذا الجدال أن كل دليل يأتي به أحد الفريقين يستطيع الفريق الآخر أن يأتي بدليل ينقضه ، وهذا هو ما كان يعرف قديماً باسم « تكافؤ الادلة » • ولهذا كان الانتصار في الجدل يعتمد على قدرة المجادل ولباقته وسعة معرفته أكثر مما يعتمد على سلامة رأيه ، واذا كان المتجادلان متكافئين في المقدرة واللباقة استمر الجدل بينهما الى ما شاء الله دون أن يتمكن أحدهما من اقناع الآخر برأيه • ان كل دليل مهما كان في الظاهر قوياً يمكن أن يُؤتى برد عليه ، والرد يمكن أن يُؤتى برد آخر ينقضه ، وهكذا الى ما لا نهاية له • وحين ينتهي الجدل لسبب ما يظن كل فريق أنه

---

(١) انظر في نقد المنطق القديم ، وفي طبيعة الجدال الذي يقوم عليه، كتاب « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » للمؤلف ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ القسم الأول •

كان الغالب فيه وأن خصمه كان المغلوب •

إن هذا هو الذي جرى عليه الجدال الطائفي في الاسلام منذ بداية أمره ، ومن يدرس المجادلات التي احتدمت في بغداد في القرن الرابع الهجري ، أو تلك التي نشبت بين العلامة الحلي وابن تيمية في القرن السابع ، أو التي قامت على اثر ظهور الدولة الصفوية في القرن العاشر ، يتبين له أنها كانت جميعاً من نمط واحد هو هذا النمط الذي يخضع لمبدأ « تكافؤ الأدلة » • ومما يلفت النظر أن الشيخ عبدالله السويدي نفسه الذي كان لولب مؤتمر النجف قد اشترك في مجادلة من هذا القبيل ببغداد مع أحد علماء الشيعة عام ١٧١٨ — أي قبل انعقاد المؤتمر بخمسة وعشرين عاماً[1] — والمظنون أن المجادلة انتهت كما تنتهي أية مجادلة من نوعها حيث اعتقد كل فريق فيها أنه أفحم خصمه بقوة أدلته « العقلية » و « النقلية » •

إرادة الجبار :

أرجح الظن أن العامل الاساسي في نجاح مؤتمر النجف على الرغم من عقم طريقة الجدال فيه هو ما يمكن أن نسميه بـ « ارادة الجبار » ونعني بها ارادة نادر شاه ، فقد كان هذا الرجل يريد نجاح المؤتمر بأية صورة ، والظاهر أنه أوعز — قبيل انعقاد المؤتمر — الى « الملا باشي » وسائر علماء الشيعة بأن لا يكثروا من الجدل مع السويدي ولا يعاندوه •

يقول السويدي في مذكراته : إنه كان يخشى من عدم انصاف العجم في جدالهم معه وذكر ذلك لمفتي الافغان الملا حمزة القلنجابي ، فطمأنه الملا حمزة قائلاً له : « كن أميناً من هذه فان الشاه جعل على هذا المجلس ناظراً ، وعلى الناظر ناظراً آخر ، ثم على الآخر آخر ، وكل واحد لم يدر

---

(١) عبدالرحمن السويدي (حديقــة الزوراء في سيرة الوزراء) — تحقيق صفاء خلوصي — بغداد ١٩٦٢ — ج١ ص ٧٥ — ٧٩ •

بحال صاحبه فلا يمكن أن ينقل للشاه خلاف الواقع »[1] . إن هذا يدل على أن شخصية الشاه كانت مسيطرة على المؤتمر سيطرة فعالة ، فكان كل واحد من أعضاء المؤتمر يشعر كأنه مراقب من قبل الشاه ويعلم أن أيـــة بادرة للعناد أو المماحكة تصدر منه أثناء الجدال قد تؤدي الى غضب الشاه عليـــه .

خلاصة القول إن المؤتمر لو كان قد جرى على رسله من غير أن يكون لنادر شاه إشراف عليه لما انتهى الى مثل ما انتهى اليه فعلاً ، ولربما كانت عاقبته زيادة الاختلاف والعداء بين الطائفتين .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن السويدي حين يشير في مذكراته الى دوره في المؤتمر يؤكد أنه كان الغالب في الجدال وأنه أسكت « الملا باشي » بقوة أدلته وجعله يرضخ لرأيه ، ولكننا حين نقرأ ما كتب الشيعة حول مجادلات المؤتمر نراهم يقولون : إن ادلة السويدي كانت باردة وتافهة[2] ، وإن سكوت « الملا باشي » ربما كان ناشئاً عن ميله الى التساهل وعدم اكثار النزاع معه بناء على رغبة نادر شاه[3] .

ابتهاج نادر شاه :

ابتهج نادر شاه كل الابتهاج لنجاح مؤتمر النجف ، وظن أنه وفق فيه لعمل عجز عنه كل سلاطين المسلمين من قبل . وقد استدعى اليـــه الشيخ عبدالله السويدي عند انتهاء المؤتمر وخاطبه قائلاً :

« جزاك الله خيراً ، وجزى أحمد خان خيراً ، فوالله ما قصـــر في اصلاح ذات البين ، واطفاء الفتنة ، وحقن دماء المسلمين . أيد الله سلطان

---

(١) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ١٢ .
(٢) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٢٢٥ .
(٣) محسن الأمين (اعيان الشيعة) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ج٤١ ص٥٢

ال عثمـــان وجعل الله عزه ورفعته أكثر من ذلك ... يا عبدالله أفندي لا تظن أن الشاهنشاه يفتخر بمثل ذلك انما هذا أمر يسّره الله تعـالى ووفقني له حيث كان رفع سب الصحابة على يدي مع أن آل عثمان منذ كان السلطان سليم الى يومنا هذا ـ كم جهزوا عساكر وجنوداً ، وصرفوا أموالاً ، وأتلفوا أنفساً ليرفعوا السب فما توفقوا في ذلك . وأنا لله الحمد رفعته بسهوله . وهذه القبائح كما تقدم نشأت من الخبيث اسماعيل أغواه أهل لاهيجان ولم تزل الى يومنا هذا ... يا عبدالله أفندي ، أنا لو أفتخر لافتخرت بأني في مجلسي هذا عبارة عن سلاطين أربعة : فأنا سلطان ايران، وسلطان تركستان ، وسلطان الهند ، وسلطان الأفغان . لكن هذا الأمر من توفيق الله تعالى ، فأنا لي منة على جميع المسلمين حيث أني رفعت السب عن الصحابة وأرجو أن يشفعوا لي ... »[1] .

الواقع أن نادر شاه له الحق أن يفتخر بنجاح المؤتمر ويفرح به ، إذ هو عمل عظيم من غير شك ، ولكن نادر شـاه نسي أثناء فرحته أمراً مهماً هو أن المؤتمر لا يمكن أن يكون له أثر دائم ما لم يتعاون على تنفيذ قراراته أمراء المسلمين وعلماؤه جميعاً ، ثم يظلون يتعاونون عليه جيلاً بعد جيل ، فالنزاع الذي دام بين الطائفتين أكثر من عشرة قرون ليس من السهل أن يختفي فجأة بمجرد كتابة محضر والتوقيع عليه .

دلائل الأعمـاق :

أمر نادر شاه أن تقام صلاة الجمعة في جامع الكوفة الذي هو على بعد بضعة أميال عن النجف ، وطلب من السويدي أن يحضر الصلاة لكي يسمع باذنه مدح الصحابة من قبل خطباء الشيعة . وفي صباح يوم الجمعة ذهب الجميع الى الجامع ، وصعد السيد نصر الله الحائري فألقى خطبـة أثنى فيها على الخلفاء الأربعة واحداً بعد الآخر ، كما اثنى على بقية الصحابة

(١) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٢٥ .

وأهل البيت ، ثم دعا للسلطان العثماني ولنادر شاه من بعده .

ومما يذكر أن الحائري حين وصل الى ذكر الخليفة الثاني عمر كسر آخره مع العلم ان هذا غير جائز حسب قواعد النحو لأن اسم عمر ممنوع من الصرف ، ولا ندري هل أن الحائري فعل ذلك سهواً أم عن قصد . وقد امتعض السويدي من ذلك كل الامتعاض واعتبر عمل الحائري دسيسة مقصودة أراد بها ذم الخليفة عمر ، إنه قال ما نصه : « لكنه كسر الراء من عمر مع أن الخطيب إمام في العربية لكنه قصد دسيسة لا يهتدي اليها الا الفحول ، وهي أن منع صرف عمر انما كان للعدل والمعرفة ، فصرفه هذا الخبيث قصداً الى أنه لا عدل فيه ولا معرفة قاتله الله من خطيب وأخزاه ، ومحقه وأذله في دنياه وعقباه ... »[١] .

ان هذا دليل على أن التقارب الطائفي الذي حصل في مؤتمر النجف كان سطحياً ولم يتغلغل في أعماق القلوب ، فقد بقي سوء الظن يلعب دوره على الرغم من الفرح الظاهر ، ولهذا كان السويدي يراقب كل كلمة تفوه بها الحائري في خطبته ويدقق في فحصها ، ولما لم يجد في الخطبة سوى تلك الهنة البسيطة ــ وهي كسر راء عمر ــ انتهزها فرصة وأخذ يبالغ فيها ويستنتج منها ما توحى به روح الخصومة القديمة . لقد كان المفروض فيه لو كان حسن الظن أن يفسر الأمر تفسيراً حسناً ، ولكنه لم يفعل مما يدل على أن الشحناء التي دامت قروناً لا يمكن أن تزول فجأة .

وهناك دليل آخر يمكن أن يؤتى به في هذا الصدد هو أن السويدي حين عزم على مغادرة النجف بعد انتهاء المؤتمر أجرى مناقشة مع « الملا باشي » حاول فيها البرهنة على أن الشيعة ليسوا على مذهب جعفر الصادق ، وهذا كما لا يخفى يناقض ما تم عليه الاتفاق في مؤتمر النجف كل المناقضة . وفيما يلي نص ما قاله السويدي في آخر مذكراته :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

« إن المذهب الذي تتعبدون عليه باطل لا يرجع الى اجتهاد مجتهد .. وليس لجعفر الصادق فيه شيء ، وأنتم لا تعرفون مذهب جعفر الصادق ، فان قلتم إن في مذهب جعفر الصادق تقية فلا أنتم ولا غيركم يعرف مذهبه ... إذ كل مسألة تُنسب اليه يحتمل أن تكون تقية ، إذ لا علاقة تميز بين ما هو للتقية وبين غيره ... فان قلتم ليس في مذهب جعفر الصادق تقية فهو ليس المذهب الذي أنتم عليه لأنكم تقولون بالتقية »[1] .

مصير الحائري :

كان مؤتمر النجف قد عُقد في أواخر شهر شوال ، أي أنه كان قريباً من موسم الحج ، فأراد نادر شاه اغتنام الفرصة حيث بعث السيد نصر الله الحائري الى مكة وأرسل معه نسخة من المحضر الذي تم الاتفاق عليه في المؤتمر ، كما أرسل كتبا الى الشريف مسعود أمير مكة والى المفتي والقاضي هنالك يقول لهم فيها إنه بعث اليهم إمام المذهب الجعفري لتنفيذ قرارات المؤتمر .

وعندما وصل الحائري الى مكة سُمح له باقامة الصلاة والقاء الخطبة في الركن الشامي من الكعبة — حسبما ورد في قرارات المؤتمر — ولسنا ندرى كيف كانت خطبة الحائري هناك ، وهل كسر راء عمر أم لا ، انما الذي نعرفه أن أهل مكة هاجوا وماجوا[2] ، مما جعل الشريف مسعود يتدخل في الأمر وأن يكتب للسلطان يخبره بما وقع . ويخيل لي أن للشيخ عبدالله السويدي يداً في ذلك إذ أنه كتب في ختام مذكراته عن المؤتمر قائلاً : « فلأجل هذا الذي حدث عزمت على الحج اللهم يسر ذلك »[3] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٢) محسن الأمين (المصدر السابق) — بيروت ١٩٦٠ — ج ٤٩ ص ١٠٦ .

(٣) عبدالله السويدي (المصدر السابق) ص ٣٩ .

وصل المرسوم السلطاني من اسطنبول وفيه أمر الى الشريف مسعود بأن يلقى القبض على الحائري وأن يسلمه الى أمير الحج الشامي أسعد باشا العظم لكي يأخذه هذا معه الى الشام ويسجنه في قلعة دمشق ، وبعد أن أودع الحائري في سجن القلعة طلبه السلطان فسيق الى اسطنبول[١] .

ان ما جرى على الحائري في اسطنبول غير معروف على وجه الدقة ، فمؤلف « روضات الجنات » يقول : ان نادر شـــاه هو الذي أوعز الى الحائري بأن يذهب الى اسطنبول بعد الحج لمصالح تتعلق بأمور الملك والملة ، ولكن الحائري حين وصل الى اسطنبول وُشي به الى السلطان بفساد المذهب وأمور أخرى فأحضر واستشهد ... »[٢] .

وحدثني الدكتور مرتضى نصر الله ـ وهو من سلالة الحائري ـ أن الرواية التي تتاقلها الأسرة حول مصير جدهم هي أنه مات من جراء وضع السم له في الطعام ، غير أن جنازته شيعت تشييعاً رسمياً ودفن في قبر لائق به ، ولا يزال قبره قائماً وقـد نصب عليه شباك تتبرك به النســاء وينذرن له النذور[٣] .

المحاولة الاخيرة :

في عام ١٧٤٥ ـ وبعد مرور بضعة عشر شهراً على مؤتمر النجف ـ استعرت الحرب من جديد بين نادر شاه والدولة العثمانية على الحدود بالقرب من أرمينيا ، وكان يقود الجيوش العثمانية محمد باشا يكن ، واشترك فيها من العراقيين الحاج حسين باشا الجليلي ، وقد خسر نادر شاه الألوف

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٥ ص ٢٧٠ .

(٢) محمد باقر الخوانساري (المصدر السابق) ص ٧٢٧ .

(٣) مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن في اسطنبول محلــة تعرف باسم « والدة خان » واكثر سكانها شيعة من أتراك آذربيجان ، والمظنون أن أهل هذه المحلة هم الذين يزورون قبر الحائري ويتبركون به .

من جنوده في هجمات غير موفقة • ثم وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في شهر آب ١٧٤٥ ، بالقرب من اريوان ، حيث استطاع نادر شاه أن يوقع بالجيوش العثمانية هزيمة منكرة مما أدى الى مقتل القائد محمد باشا يكن بأيدي جنوده •

حاولت الدولة العثمانية إعداد جيوش جديدة في سبيل اعادة الكرة على نادر شاه ، غير أنه أبدى رغبته في الصلح وأرسل من لدنه وفداً الى اسطنبول للمفاوضة ، وجاء الوفد الى بغداد والتقى بأحمد باشا ، وقد بذل هذا الرجل جهداً غير قليل في التوسط من أجل الصلح •

كان الوفد يحمل كتاباً من نادر شاه الى السلطان العثماني جاء فيه : « نعرض على الهمايون اخلاصنا ، ومختلف دعواتنا ، وآلاف التحيات الطيبات الممزوجة بالحب والاخلاص ، وتلبية لطلب الجميع وتعبيراً عن آراء الجماهير من مقلدي الامام جعفر الصادق رضي الله عنه نقول : من بعد حدوث قضية القائد محمد باشا أخذنا نفكر في هذه الحروب القائمة بين أهل الاسلام ، وكيفية توقيها واحلال السلام بدلاً من سفك الدماء ، هذه الحروب التي سوف لا تبقي على الأخضر واليابس في حالة استمرارها • فعليه ، ولتوفر حسن النية وكون الجميع على دين واحد ، وأن الايرانيين الذين يذهبون الى بيت الله الحرام يقومون بتأدية الصلاة والفرائض مقتدين بأي امام من ائمة المذاهب الاربعة مما يجعلهم متحدين ويداً واحدة لا فرق بين أحد منهم • فمن أجل هذه الروابط الدينية والأخوية ألتمس طلب العفو والمصالحة بين الدولتين وإدامة اتفاقهما الى يوم القيامة ، ونأمل من جلالتكم أن توافقوا على ذلك وعدم رد التماسنا ودامت عظمتكم وأيام خلافتكم » •

وجاء جواب السلطان على هذا الكتاب وفيه : « ••• إننا تلقينا كتابكم الكريم ومما زادنا سروراً ما بذلتموه من جهود في المؤتمر الذي عقدتموه

في صحراء مغان ، ووحدّتم به وجهة نظر المسلمين ، وأزلتم من بينهم النفرة التي كانت مستحكمة بين الطائفتين ، وحملتموهما انتهاج مذهب أهل السنة والجماعة ، ورفعتم البدع والأعمال المنكرة ، وأزلتم ما كان يعكر صفو العلاقات من دواعي الخصومة ، الأمر الذي تلقته الدولة العلية بكل سرور واستحسان • ولأجل ادامة هذه الصداقة والمحبة الاخوية بين الدولتين فاننا نتمسك بالمواد الخمسة لتكون وسيلة لتوثيق عرى الصداقة وإدامتها وتجديدها لئلا تقع بعدئذ بأمور توهن هذه الروابط الاخوية أو تدعو الى التأويل والخصومة ••• وجعلنا الحدود كما كانت على عهد الخاقان سلطان مراد خان الرابع ••• وما عدا هذا ينبغي افهام الايرانيين بالتيهي أحسن بضرورة نبذ ما كانوا عليه أيام الصفويين من بدع ، والعودة الى الدخول في مذهب أهل السنة والجماعة ، والكف عن سب الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وأن تُذكر أسماؤهم بالتعظيم والتوقير ، ولكي يُعاملوا في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة معاملة طيبة تختلف عن معاملة بقية الحجاج والزوار » •

وتم عقد الصلح في يوم النيروز ٢١ آذار ١٧٤٧ ، وصدر الاعتراف به من قبل حكومة ايران حيث جاء فيه : « ••• أما بعد فان ما فعله تاج ملوك ممالك الهند وايران ، الخاقان الاعظم والقاءان الاكرم ، ظل السبحان، شاه شاهان جهان ، السلطان نادر شاه ، خلد الله سلطنته وشوكته ، في المؤتمر الذي عقده في صحراء مغان من توثيق روابط الاخوة بين الرعايا ، مما حمل الجميع على التمسك بسلطنته ، وحصد ما زرعه اسماعيل الصفوي من الفتن والفساد ، والتنافر بين العباد ، باسم الطائفية ، مما أدى الى بذر بذور العداء بين الروم والايرانيين ، فزال بفضله كل ذلك ، وحمل الجميع على التآخي بين الجعفريين وأهل السنة والجماعة ، مما اكتسب رضاء الأعلى حضرة ••• خاقان البحرين وسلطان البرين ، ثاني اسكندر

ذي القرنين ، خليفة ظل الله وبادشاه اسلام پناه ... السلطان الغازي محمود خان ، أيد الله ملكه وخلافته ودولته ، واكتسب موافقته على عقد الاتفاق ، وتخصيص ركن من أركان الكعبة المشرفة لصلاة الجعفريين ، وتعيين آمر للحجاج ، والسماح بمرورهم بطريق الشام ومصر ، واطلاق سراح الأسرى من الجانبين ، وتعيين كل دولة وكيلاً لها في عاصمة الدولة الأخرى ... »[1] .

الفوضى في ايران :

لم يتمتع نادر شاه بالصلح الذي تم بينه وبين الدولة العثمانية سوى ثلاثة أشهر ، إذ اغتيل في ٢٠ حزيران من العام نفسه . يقول الاستاذ برون في تعليل الاغتيال : ان نادر شاه كان قد وضع خطة جهنمية لقتل جميع الايرانيين في جيشه لكي لا يبقى فيه سوى التركمان والأزبك ، ولكن بعض قادة الايرانيين علموا بالخطة فأسرعوا الى اغتياله حسب المثل القائل : « يتغدون به قبل أن يتعشى بهم »[2] .

ومما يذكر أنهم حين دخلوا فسطاطه ليلاً بغية اغتياله استيقظ من النوم وشرع يقاتلهم ، ولم يمت الا بعد أن قتل اثنين منهم[3] . ومهما يكن الحال فقد مات نادر شاه ميتة تليق به . إنه عاش مقاتلاً ومات مقاتلاً !

وحين ذاع مقتل نادر شاه بين أفراد جيشه شاعت الفوضى بينهم وأسرعوا الى خيامه فنهبوها ، وبدأ النزاع والقتال بين الشيعة والسنيين

---

(١) انظر حول تفاصيل المفاوضات والمراسلات بين نادر شاه والدولة العثمانية كتاب « دوحة الوزراء » للشيخ رسول الكركوكلي ، ص ٦٧ ـ ٨٩ .

(2) Edward Browne (Op. Cit.) vol. 4, p. 137.

(3) Percy Sykes (Op. Cit.) vol. 2, p. 273.

منهم • وقد حاول أحمد خان الدوراني الذي كان يرأس الجنود الافغان والأزبك أن يثأر لنادر شاه فلم يوفق ، وانسحب بجنوده الى افغانستان حيث أسس دولة قوية هي الدولة الافغانية التي لا تزال قائمة هناك •

كان مقتل نادر شاه إيذانا بانتشار الفوضى في جميع أرجاء ايران ، وشاع القتل والنهب واضطراب الأمن في كل مكان ، وصار الملوك يتتابعون على عرش ايران واحداً بعد الآخر ، فلا يكاد يستقيم أمر أحدهم سوى مدة قصيرة حتى يثور عليه آخر وينزله عن العرش • والغريب في أمر هؤلاء الملوك الذين تتابعوا على العرش ان كل واحد منهم حين كان ينتصر على غريمه يسمل عينيه ، ولست أدري ما هو السر في انتشار عادة « السمل » هذه في تلك الفترة • والى القارىء قائمة بالملوك « المسمولين » :

١ ـ تولى العرش بعد نادر شاه ابن اخيه علي قلي باسم « عادل شاه »، ولم يدم عهده سوى سنة واحدة إذ عزله أخوه ابراهيم أخيراً وسمل عينيه •

٢ ـ ولم يدم عهد ابراهيم سوى سنة واحدة كذلك حيث قتله اتباع شاه رخ حفيد نادر شاه ، وشاه رخ هذا هو ابن رضا قلي الذي سمل أبوه عينيه من قبل •

٣ ـ لم يبق شاه رخ على العرش سوى مدة يسيرة ، فقد ثار عليه رجل اسمه مرزا سيد محمد ـ وهو ابن متولى مشهد الرضا ـ فأسره ثم سمل عينيه •

٤ ـ ثار يوسف علي ـ وهو من قواد شاه رخ ـ على مرزا سيد محمد فأسره وسمل عينيه وعيون أولاده ، ثم قتلهم جميعاً •

٥ ـ ثار اثنان من الرؤساء هما مير علم خان وجعفر خان ، وكانت مع أولهما عشائر عربية بينما كانت مع الثاني عشائر كردية ، وقد انتصرا

على يوسف علي ثم أمرا بسمل عينيه •

٦ ـ تنازع هذان الرجلان بعد انتصارهما فتغلب مير علم خان على صاحبه جعفر خان وسمل عينيه •

٧ ـ لم يدم حكم مير علم خان طويلاً إذ أغار عليه أحمد خان الدوراني ملك أفغانستان وقتله ، ولكنه لم يسمل عينيه •

٨ ـ أقام أحمد خان الدوراني في خراسان دولة صغيرة لتكون حاجزاً بينه وبين ايران ، وجاء بشاه رخ « المسمول بن المسمول » فنصبه ملكاً عليها • وقد دام ملك شاه رخ في خراسان زهاء خمسين عاماً في الوقت الذي كانت فيه بقية ايران تغلي بالحروب والفتن من جراء التنافس على العرش •

كريم خان والقاجارية :

خلال فترة الفوضى التي عمت ايران ـ منذ مقتل نادر شاه في عام ١٧٤٧ حتى تأسيس الدولة القاجارية في عام ١٧٩٦ ـ لم يظهر من بين المتنافسين على العرش من هو جدير بالملك حقاً سوى رجل واحد هو كريم خان الزندي • وقد كان هذا الرجل في بداية أمره جندياً عادياً في جيش نادر شاه ثم صار يرتفع بعد مقتل سيده شيئاً فشيئاً حتى استطاع في عام ١٧٥٠ أن يؤسس دولة خاصة به وجعل عاصمتها شيراز ، وقد مرت به فترة غير قصيرة كان فيها المسيطر على جميع انحاء ايران ، ولكنه لم يطلق على نفسه لقب « شاه » بل آثر أن يسمى نفسه « الوكيل » اشارة الى أنه يحكم وكالة عن الشاه الشرعي اسماعيل الصفوي الذي كان يومذاك مأسوراً[١] •

توفي كريم خان في عام ١٧٧٩ ، وبوفاته عادت الفوضى الى ايران

(1) Percy Sykes (op. cit.) vol. 2, p. 277 — 281.

واستمرت الحروب بين المتنافسين على العرش من جديد ، ولم يهدأ الوضع فيها نسبياً الا في عام ١٧٩٦ عندما تولى العرش أغا محمد الخصي ، وهو أخو زوجة كريم خان ، وكان ذلك بداية حكم الإسرة القاجارية التي ظلت تحكم ايران حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى •

حرب القلم :

سوف نأتي الى ذكر الدولة القاجارية وأثرها في العراق في مناسبات آتية ، ولكنني أود أن أشير هنا الى أن هذه الدولة سارت على نفس الطريق الذي سارت عليه الدولة الصفوية من حيث ترويج السب وطقوس العزاء وما أشبه ، وبذا عاد النزاع الطائفي الى وضعه القديم دون أن يظهر عليه أي أثر من تلك الجهود التي بذلها نادر شاه في سبيل التقريب •

الواقع ان الحرب بين الدولتين القاجارية والعثمانية قد توقف نهائياً منذ منتصف القرن التاسع عشر ــ على اثر عقد الصلح وتعيين الحدود بينهما بشكل ثابت ــ ولكن ذلك لم يخفف من حدة الجدال الطائفي ، وربما زاد الجدال اشتعالاً بعد ادخال المطبعة الحجرية الى ايران في عام ١٨٣٣ حيث بدأت المؤلفات الطائفية تصدر باعداد كبيرة وهي تحتوى على آلاف الأدلة « العقلية » و « النقلية » ، فيأتي الرد عليها من قبل الطائفة الأخرى بآلاف الادلة أيضاً •

يمكن القول بعبارة أخرى إنه عندما بطل عمل السيف بين الطائفتين لم يبطل عمل القلم ، وكأن القلم حل محل السيف في الصراع بينهما ، فقد شرع علماء كل من الطائفتين يؤلفون الكتب في سبيل تأييد عقيدتهم وتفنيد عقيدة الطائفة الأخرى ، ومعنى هذا أن القتال ظل مستمراً بينهما غير أنه تحول من قتال بالسيوف والمدافع الى قتال بالادلة « العقلية » و « النقلية » •

من مزايا قتال السيف أنه ينتهي عادة الى نتيجة حاسمة حيث تتم فيه غلبة أحد الفريقين على الآخر ، وليس للفريق المغلوب سوى الاعتراف بهزيمته والخضوع لشروط الغالب • أما قتال القلم فهو لا ينتهى الى مثل هذه النتيجة إذ هو يظل سجالاً دون أن يعترف أحد الفريقين بأنه مغلوب، ويستمر الحال على ذلك الى ما لا نهاية له ــ على نحو ما ذكرناه آنفاً •

أشرنا سابقاً الى طبيعة « البلوى » التي ابتلي بها المجتمع العراقي من جراء الحروب التي نشبت بين « العجم والروم » حسبما جاء في المثل الدارج ، والواقع أن تلك « البلوى » لم يقتصر أثرها على تخريب الحضارة فقط بل هي ساهمت أيضاً في تخريب العقول • ان الجدال « اللا نهائي » الذي اعتاد العراقيون عليه من جراء ذلك جعل بينهم وبين واقع الحياة حجاباً • ومن المؤسف أن هذا النمط من الجدال لا يزال منتشراً في أوساط الكثيرين منهم حتى هذه الساعة ــ لا فرق بين أولي الثقافة الحديثة منهم وأولي الثقافة القديمة ــ وربما كان هذا من جملة العوامل التي أدت الى استفحال العنف في الجدل السياسي لدى أهل العراق •

الفصل السادس

عهد المماليك في العراق

(الطور الاول)

دام عهد المماليك في العراق زهاء ثمانين عاما ، فقد بدأ في عــام ١٧٤٩ بولاية سليمان باشا « أبو ليلة » وانتهى في عام ١٨٣١ بعزل داود باشا • وكان مماليك العراق يشبهون مماليك مصــر من حيث أصلهم ومنشأهم ، فهم إتوا في الغــالب من جورجيا ، ومنهم من أتى من بــلاد الشركس والداغستان وأباظه واللاظ ، وهي كلها من بلاد القفقاس أو مجاورة لها • وكانوا يستجلبون أطفالاً كالانكشارية، فيودعون في مدارس خاصة بهم ليتعلموا القراءة والكتابة والسباحة والفروسية وفنون القتال ، فاذا تخرجوا أدخلوا في سلك الجيش أو الوظيفة الحكومية •

إن أول من عُني باستجلاب المماليك في العراق هو الوالي المشهور حسن باشا الذي تحدثنا عنه في فصل سابق ، فقد أراد هذا الوالي ــ بعد أن فسد نظام الانكشارية[1] ــ أن يجعل لنفسه جنداً مختصين به يستعين بهم ويتعصبون له ، فأرسل الى بلاد القفقاس من يأتي اليه منها بالصبيان •

كانت أسواق تفليس يومذاك زاخرة بالصبيان المعروضــين للبيع ، والظاهر أن بيع الاطفال كان من تقاليد أهل تلك البلاد على وجــه من الوجوه • ومما يجدر ذكره أن الكثيرين من أطفال قفقاسيا كانوا قــد

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ــ القاهرة ١٩٦٨ ــ ص ٢٣ •

استجلبوا في عهود سابقة الى تركيا ومصر وبلاد الشام ، وقد حصل البعض منهم هنالك على مناصب رفيعة ومنهم من نال الملك كما رأينا في مصر •

أسس حسن باشا في بغداد دائرة خاصة اسمها « ايج دائرة سي » ، أي دائرة الداخل ، ومهمتها الاشراف على شراء المماليك وتدريبهم• وعندما تولى الحكم من بعده ابنه احمد باشا زاد من استجلاب المماليك والعناية بهم حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها بحيث استطاعوا بعد موت سيدهم أحمد باشا ان يفرضوا إرادتهم على الدولة العثمانية وينصبوا أحدهم ـ وهو سليمان باشا « أبو ليلة » ـ والياً على العراق •

نظرة عامة :

كان عهد المماليك في العراق على قصره ذا أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية ، وفي رأيي أن دراسة هذا العهد تعطينا صوراً قيمة عن المجتمع العراقي بوجه عام ، والمجتمع البغدادي بوجه خاص •

تميّز عهد المماليك عن ما قبله وما بعده بشدة التنافس والتنازع على الحكم في العراق ، فقد كان الولاة قبل عهد المماليك يُعيّنون بفرمان يصدر من السلطان في اسطنبول ومعنى هذا أن من يطمح الى الحكم في العراق يجب عليه أن يبذل جهده في اسطنبول ، حيث يحاول استرضاء السلطان أو حاشيته من أجل نيل الفرمان ، أما في عهد المماليك فقد تغير الحال إذ أصبح الفرمان السلطاني قليل الأثر في تعيين الولاة ، وفي بعض الأحيان لم يكن له أي أثر على الاطلاق •

إن الذي كان له الأثر الأكبر في تعيين الولاة هو ما ينتهي اليه التنازع بين المماليك أنفسهم ، فأي مملوك يستطيع أن ينال ولاية بغداد ـ أو « الوزارة » كما كانوا يسمونها ـ اذا تمكن من التغلب على منافسيه بطريقة من الطرق ، وحين يتم له ذلك يجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فيكتبون

عريضة الى السلطان يسترحمون منه أن يصدر أمره في منح « الوزارة » الى المملوك الغالب ، وكثيراً ما يستجيب السلطان لاسترحامهم فيرسل اليهم الفرمان المطلوب .

خلاصة القول إن مركز الثقل في تعيين الولاة قد تحول من اسطنبول الى بغداد ، ويجب أن لا ننسى هنا أن أعيان بغداد وعلماءها لم يكن لهم تأثير مهم في هذا التعيين ، فهم يجتمعون عادة عندما يُطلب منهم ذلك ، وهم مستعدون أن يوقعوا على أي عريضة يضعها بين أيديهم المملوك الغالب ، وقد لا يترددون أن يلهجوا بالدعاء له وبالثناء عليه . وقد ظل هذا ديدنهم حتى عهد متأخر ، ولا يزال بعضهم على ديدنهم القديم حتى هذه الساعة .

معارك المحلات :

إن الطريقة التي أسلفنا ذكرها في أمر تعيين الولاة أدت الى نتيجة اجتماعية تلفت النظر وهي استفحال المعارك بين محلات بغداد ، فقد جرت العادة في عهد المماليك أنه حين ينشب نزاع بين فريقين منهم على الحكم تنتقل عدوى النزاع حالاً الى سكان بغداد ، فكل فريق من المماليك يستنجد عند النزاع بأصدقائه من رؤساء المحلات وأشقيائهم ، وهؤلاء بدورهم يستصرخون أهل المحلة ، فتهب المحلة بسلاحها للقتال الى جانب الفريق الذي استنجد بها ، وبهذا تنقلب ميادين بغداد ودروبها الى ساحات حرب يصول فيها شجعان المحلات على خصومهم من شجعان المحلات المعادية ، وقد تزغرد النساء تشجيعاً لهم مما يزيدهم حماساً وعنفاً .

من خصائص المماليك أنهم ينشأون في بغداد منذ طفولتهم ، وكثيراً ما تتكون لهم علاقات بريئة أو غير بريئة مع سكان بغداد ، وهم بذلك يختلفون عن الولاة وكبار الموظفين الذين كانت اسطنبول ترسلهم الى بغداد في العهد السابق أو اللاحق . ان المماليك كانوا يعتبرون أنفسهم « بغادة »

أصليين ، وقد يتفرقون بمساكنهم في المحلات المختلفة ويتعصبون لتلك المحلات ــ كل في محلته الخاصة به ــ فاذا اشترك أحدهم في نزاع التجأ الى جيرانه وأبناء محلته يستنجد بهم ، وقد يفعل مثل هذا خصمه حيث يستنجد بمحلة أخرى • وقد يشتد الأمر أحياناً بحيث تنقسم محلات بغداد كلها الى فئتين متحاربتين تسيل بينهما الدماء كانهما جيشان من الاعداء •

المماليك والانحراف الجنسي :

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى يمكن أن نعزو أحد أسبابها الى تأثير عهد المماليك ، وهي ظاهرة انتشار الانحراف الجنسي في العراق[1] • فالمماليك حين كان يؤتى بهم وهم صبيان الى بغداد ، ثم يودعون في المدارس الداخلية الخاصة بهم ، قد يتعاطون اللواط في ما بينهم أو يتعاطاه معهم المعلمون • والواقع أن تلك المدارس لم تكن سليمة من الناحية الخلقية ولم يكن الولاة يكترثون لما يجري فيها ما دامت تخرج لهم الموظفين الحاذقين والقادة الشجعان •

أضف الى ذلك أن اولئك الصبيان المجلوبين كثيراً ما كانوا يخالطون سكان بغداد ، وهم قد يقعون تحت تأثير الاغراء عند مخالطتهم بعض الفساق المنحرفين • ويجب أن لا ننسى أنهم كانوا في الغالب من أولي الوجوه الوسيمة والبشرة البيضاء مما يجعلهم اكثر تعرضا للاغراء من غيرهم • ولم يكن لديهم آباء يراقبونهم ويحرصون على سلامة اخلاقهم ، ولهذا كانوا ينجرفون في طريق الانحراف دون رادع أو حياء •

وحين يرتقي أحد هؤلاء في كبره الى منصب رفيع من مناصب الحكومة ، يصبح موضع حديث الناس ودهشتهم • إن ابشع عار في

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » للمؤلف ــ بغداد ١٩٦٥ ــ ص ٣٢٢ ــ ٣٢٦ •

المجتمع العراقي هو أن يكون الرجل ملوطاً به ، أو كان ملوطاً بـــه في صغره ، وقد يصفه الناس بأنه « مكسور العين » لأنه لا يستطيع أن يواجه الناس بملأ عينيه ، وهم يسخرون ويتهكمون عند وصول رجل بهـــذه الصفة الى مركز رفيع من مراكز المجتمع أو الحكومة • ويخيل لي أن هذا هو منشأ الفكرة التي راجت في الأوسط الشعبية في بغداد ـ وظلت رائجة حتى عهد متأخر ـ ومؤداها أنه لا يرتفع في المناصب الا من كـان ملوطاً به • فمن المحتمل في تفسير ذلك أن رجلاً من فساق بغداد صادف أن لاط بأحد صبيان المماليك ثم تسنم هذا الصبي في كبره منصباً رفيعاً من مناصب الحكومة ، وربما صادف وقوع مثل ذلك لرجل آخر ، فشـاع الخبر بين العوام وصار عندهم قاعدة عامة • ومن طبيعة العوام أنهم ميالون الى استنتاج القواعد من حادثة واحدة أو عدد قليل من الحوادث •

سليمان « أبو ليلة » :

كان سليمان باشا « أبو ليلة » أول من تولى الحكـم في العراق من المماليك ، كما أشرنا اليه آنفاً ، وهو قد توصل الى الحكم اثر فتنة طاحنة قام بها الانكشاريون في بغداد وضربوا السراي بالقنابل ، واستمرت الفتنة ثلاثة ايام مما جعل الوالي الذي عينتـــه الدولة يفر من بغداد طلبـاً للنجاة ، فاضطرت الدولة الى تعيين « أبو ليلة » والياً مكانه •

دام حكم « أبو ليلة » ثلاث عشرة سنة تقريباً ، وهو انما سُمي بهذا الاسم لتخفيه في الليل وخروجه ، وكان شديد الوطأة على كل من يعبث بالأمن لا سيما العشائر المتمردة ، ولا يرعى أي مبدأ أو ذمة في ضـرب الخارجين عليه ، وقد لُقب بألقاب أخرى علاوة على « أبو ليلة » ، فكان الناس يطلقون عليه « أبو سمرة » و « دواس الليل » و « سليمان الأسد »[1].

---

(١) ستيفن همسـلي لونكريك (أربعـة قرون من تاريخ العـراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ١٦٥ •

مما يدل على إعجابهم به • إنه كان قوياً والقوة هي رأس المفاخر في المجتمع العراقي كما لا يخفى •

ومما يلفت النظر أن هذا الوالي القوي على الرغم مما كان يتمتع به من شجاعة وحزم في علاقته مع رعيته خارج بيته كان في بيته ضعيف الارادة لا أمر له ولا نهي إذ كانت زوجته عادلة خاتون ـ وهي بنت سيده السابق ـ مسيطرة عليه سيطرة كبيرة • وقد وصف السائح الالماني نيبور هذه السيدة ومبلغ سيطرتها على زوجها فقال : إنها لم تنس أن زوجها كان في شبابه مملوكا لوالدها ، فكانت مغرورة جداً وحريصة على الحكم ، فعينت أياماً خاصة ليراجعها الناس في قضاء حاجاتهم فكانت تجلس في غرفة ويأتي رئيس الخصيان اليها بالعرائض فتنظر فيها وتعطى الجواب ، وكثيراً ما كانت تبطل الأوامر التي كان قد أصدرها زوجها أو كهيته • وكانت لها شارة شرف خاصة هي عبارة عن منديل حريري يتميز بها أتباعها من الذين خدموا في عهد والدها وجدها ، فكانوا يلفون الشارة على رؤوسهم أثناء المراسيم ليتميزوا بها عن سائر الموظفين ، وصار على من يريد اقتناء هذه الشارة أن يدفع الى عادلة خاتون مبلغاً من المال على سبيل الهدية[١] •

مهما يكن الحال فقد بلغ نفوذ المماليك القمة في عهد « أبو ليلة » ، وأخذ الصبيان المستوردون من أسواق تفليس يصلون الى بغداد بأعداد متزايدة فأُسست لهم مدرسة مستدامة تسع مائتين منهم • وصار « أبو ليلة » يكثر من استخدامهم في وظائف الحكومة ، فكان منهم الكتبة والجباة وقواد الحاميات كما كانوا من كبار حاشيته أيضا ، فأدى ذلك الى حرمان الاسر التركية والبغدادية المعروفة من نصيبها الذي اعتادت عليه في جهاز الحكومة سابقاً • فكان يكفى للصبي المستورد أن يتخرج من المدرسة لكي يجد

---

(١) كارستن نيبور (رحلة نيبور الى بغداد) ـ ترجمة سعاد العمري ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٤٦ ـ ٤٧ •

المجال مفتوحاً أمامه في وظائف الحكومة ، وهو قد يتدرج فيها حتى يصل الى ارقى المراتب منها . أما الفرد البغدادي فقد صار غير مسموح له بأن يدخل سلك الوظيفة على أي حال[1] .

علي وعمر :

في عام ١٧٦١ أصيب سليمان باشا « أبو ليلة » بمرض لازمه نحو ستة أشهر ثم قضى عليه ، وكان موته بداية فترة طويلة من الفوضى .

كان عند موت سليمان باشا سبعة رجال مرشحين للخلافة من بعده يقال لهم « أصحاب الداعية » وكلهم من المماليك ، وكان كل واحد منهم يشعر أنه أولى من غيره بالحكم ، وكاد التنافس بينهم يؤدى الى الحرب وبقيت بغداد من غير وال فاستولى الخوف على السكان ، وتدخل العلماء والأعيان بغية تسكين الفتنة[2] .

استقر الرأي أخيراً أن يكتب الى اسطنبول باسماء المرشحين السبعة لكي يختار السلطان منهم واحداً . وحين عاد الجواب من اسطنبول وجدوا فيه ان السلطان قد اختار علي باشا الذي كان يومذاك متسلماً للبصرة ، ولم يكد يصل هذا الى بغداد ويتسلم زمام الحكم حتى بدأت المؤامرات تحاك ضده من أجل قتله والتخلص منه .

دامت ولاية علي باشا زهاء سنتين قضاها كلها في محاربة العشائر جنوباً وشمالاً ، وقد حاول منافسوه المتآمرون عليه أن يغتالوه أثناء مروره بالدورة عند عودته من محاربة عشيرة كعب ولكنه نجا منهم .

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٦٦ . وانظر كذلك : ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) — ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد — بغداد ١٩٦٧ — ج٢ ص٨٩ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) — بغداد ١٩٥٤ — ج٦ ص ٣٢ .

كان علي باشا من أصل ايراني ، أي أنه لم يكن من أصل قفقاسي كسائر المماليك ، وقد اتخذ خصومه ذلك ذريعة بأيديهم حيث أخذوا يشنعون عليه بأنه شيعي وأنه في محاربته للعشائر كان يقسو على الاكراد الذين هم من أهل السنة ويتساهل مع الخزاعل الذين هم من الشيعة[1] . وقد شاعت هذه التهم حوله في أوساط بغداد ، وكان أهم مروجيها اثنان هما : عادلة خاتون أرملة الوزير الراحل ، وزوج اختها عمر باشا الذي هو من المرشحين السبعة .

واجتمع المتآمرون ذات يوم من عام ١٧٦٣ برئاسة عمر باشا فأعلنوها ثورة شعواء في بغداد وتابعهم سكان بعض المحلات ، فاحتلوا القلعة وأخذوا يرمون السراي بالقنابل ، وظهرت المتاريس في طرقات بغداد حتى أصبحت المدينة كأنها في يوم حشر[2] . واضطر علي باشا أن يهرب من السراي متنكراً بزي امرأة والتجأ دخيلاً الى احدى الدور المجاورة ، ولكن صاحب الدار لم يراع حق الدخالة حسبما يقتضيه العرف المحلي فأخبر عنه، فجاؤوا اليه وأخرجوه ثم قتلوه .

اجتمع علماء بغداد وأعيانها على اثر ذلك وكتبوا عريضة ذكروا فيها : أن علي باشا كان خائناً للدولة ، وأنه أراد تسليم العراق الى ايران ، وأنهم لم يستطيعوا صبراً على هذه الخيانة العظمى فاتخذوا الاجراءات الحاسمة ضده من غير ان يخبروا الدولة خشية فوات الأوان ، وهم الآن يسترحمون من السلطان أن يعهد بالولاية الى عمر باشا لثقتهم بكفايته واخلاصه للدولة .

وجاء الفرمان من اسطنبول بعد حين طبقاً لما أراده العلماء والأعيان ، واحتفلت بغداد بنصب عمر باشا في الولاية ، فمدحه الشيخ عبدالرحمن السويدي بقصيدة كان كل شطر منها يتضمن تاريخاً ، كما مدحه سليمان

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٣٧ .

الشاوي بقصيدة تضمن شطرها الأخير تاريخا هو :« وقمت بالعدل والاحسان يا عمر »[1] . وأشيع بين الناس أن محي الدين بن عربي ـ القطب الصوفي المعروف ـ كان قد تنبأ بهذا الحادث حيث قال في « الشجرة النعمانية » :
« لك سرّ واظهار ، وصحو وخمار ... على خلاف العادة يصير ... » ، فلفظة « صحو » تشير الى اسم علي باشا لأن عددها في حســاب الحروف يساوي عدد « علي » ، وكذلك تشير لفظة « يصير » الى اسم عمر باشا[2] .

ثورات العشائر :

بدأ عمر باشا عهده بالهجوم على شـيخ الخزاعل حمود الحمد في الفرات الاوسط ، وكان هذا الشيخ قد استفحل أمره وصار الاتحـاد العشائري التابع له كأنه دولة مستقلة يأمر فيها وينهى . وسار عمر باشـا على رأس حملة كبيرة الى قرية « مللوم » ، وبعد صعوبات غير قليلة استطاع أن يتغلغل بقواته في صفوف العشائر الثائرة ، ويتغلب على ما أقاموه من خنادق وحصون وحواجز ، ونشبت اذ ذاك معركة طاحنة استمرت اكثر من ثلاث ساعات كان النصر فيها حليف عمر باشا فاستولى على خيام العشائر وأموالهم وأوقع فيهم قتلاً وتأسيراً ، ثم سجد لله شكراً على هذه النعمة التي أنعم بها عليه[3] وعندما عاد عمر باشا الى بغداد مدحه الشعراء بقصـائد منها قصيدتان لسليمان بك الشاوي[4] .

يقول المؤرخ رسول الكركوكلي : « بعد تلك الحملة المظفرة التـي شنها عمر باشا على شيخ الخزاعل ، ذاع في الناس صيته وعظمت في القلوب

---

(١) المصدر السابق ، ج٦ ص٣٩ .
(٢) ياسين العمري (الدر المكنون) ـ نقلاً عن فؤاد جميل ومصطفى جواد في حاشية كتاب ريجارد كوك (المصدر السابق) ج٢ ص ٤٣ ـ ٩٤ .
(٣) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٤٠ .
(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٤٠ .

منزلته ، وهابه الصغير والكبير ، وانقادت له العشائر والأهالي وتجنبوا أعمال التمرد والعصيان ، وهدأت الأحوال وسارت الأمور موضعها الطبيعي من السنة الثامنة والسبعين الى الثانية والثمانين ، ولكن في هذه السنة ـ أي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية على صاحبها أزكى التحية ـ بدأ شيخ عشائر المنتفق الشيخ عبدالله يشق عصا الطاعة ويظهر التمرد والخروج على أنظمة الدولة وأوامرها ، وأخذ يتعرض لما حول البصرة من مقاطعات ، ويساجل متسلم البصرة الحاج سليمان أغا النزاع والخصومات ، ولم تفد معه النصائح والارشادات ، وأخفقت وساطة عبدالله الشاوي إذ قام بعقد اجتماع بينه وبين متسلم البصرة في مدينة الزبير بغية الوصول الى ازالة سوء التفاهم من بين الاثنين ••• ولم ير الوزير مندوحة من حسم الأمر بالقوة ، فجرد حملة عسكرية قوية واتجه رأساً نحو البصرة ، ولما قاربها وصار على بعد ١٢ ساعة منها عسكر في مكان يسمى (أم الحنطة) وما كاد يبلغ خبر مجيئه مسامع الشيخ المتمرد حتى ارتعدت فرائصه واعتراه الفزع والذعر ، ولعجزه وعدم تمكنه من المقاومة والمدافعة لاذ بالفرار وولى الأدبار هو ومن معه من العشائر »[١] •

وبعد انتصار عمر باشا على شيخ المنتفق أمر بقتل الوسيط عبدالله بك الشاوي إذ تبين له أن وساطته لم تكن خالية من خيانة ، وجيء بالشاوي الى « أم الحنطة » فأعدم هناك • ولما وصل خبر مقتل الشاوي الى عشيرته الكبيرة ـ العبيد ـ أعلنوا العصيان على الحكومة وتجمعوا في منطقة الدجيل الواقعة في شمال بغداد ، برئاسة سليمان بك الشاوي وأخوه سلطان بك وهما إبنا القتيل ، وصاروا يقطعون الطرق ويتعرضون للقوافل •

لم يكد نبأ هذه الثورة العشائرية الجديدة يصل الى عمر باشا في « أم الحنطة » حتى أسرع بقواته الى بغداد ، فوصلها بثمانية أيام مع العلم

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٤١ •

أن المسافة التي قطعها تستغرق عادة ما يقارب العشرين يوماً . ولم يسترح عمر باشا في بغداد بل خيم في موقع « المنطقة » بين الكاظمية وبغداد ، ومن هناك أمر فرسانه باطلاق أعنة خيولهم نحو الدجيل بكل سرعة ، وكان الوقت ليلاً ، فباغت عشيرة العبيد مباغتة ، حيث وجدوا انفسهم محاطين بالعساكر من كل جانب فلاذوا بالفرار وهم فزعين ، ووقع سلطان بك الشاوي أسيراً فجيء به الى عمر باشا ولكنه آثر الانتحار فأغمد خنجره في صدره غيظاً[1] .

انتقاض الأمر :

بدأ الأمر ينتقض على عمر باشا منذ عام ١٧٧٢ حيث وفد الطاعون الى بغداد ثم أخذ يسرى الى سائر انحاء العراق . وقد جاء هذا الطاعون من اسطنبول ثم انحدر جنوباً ، وأخذ يقضي على الآلاف من السكان كأنه يحصدهم حصداً حتى قيل إنه هلك في يومه الاول في بغداد سبعون ألفاً ثم صار عدد الموتى يزداد يوماً بعد يوماً . واستمر الوباء زهاء ستة أشهر .

أخذ الاغنياء من سكان المدن ـ ولا سيما بغداد ـ يتركون بيوتهم وينصبون خيامهم في الارياف بعيداً كما هي عادتهم في كل وباء يجتاحهم ، وقد كان عمر باشا يقرعهم على ذلك في أول الأمر ، ثم وجد أخيراً أنه مضطر أن يفعل فعلهم ، فذهب بأهل بيته الى مقربة من الاعظمية ونصب خيامه هناك حتى خفت وطأة الوباء .

وانتهزت العشائر ما حل ببغداد فجاؤا اليها وعاثوا فيها نهباً وتخريباً . وازداد عيث العشائر بعد زوال الطاعون إذ لم يبق من رجال الحكومة وجنودها ما يكفي لضبط الأمن فاغتنموها فرصة ثمينة على طريقة « غاب القط فالعب يا فار » .

ولم يكد يستريح الناس من خطر الطاعون حتى نشبت فتنة في

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

كردستان بين آل بابان ، والتجأ محمد باشا بابان الى كريم خان الزندي في ايران يستنجد به ، فزوده كريم خان بالقوات العسكرية وبالمال والعتاد ، وعاد محمد باشا من ايران على رأس تلك القوات فوقعت بينه وبين قوات عمر باشا معركة شديدة هُزم فيها وخسرت القوات الايرانية التي كانت معه آلاف القتلى والجرحى والاسرى[1] .

النزاع مع ايران :

كان لهزيمة محمد باشا بابان وللخسائر الفادحة التي مُنيت بها القوات الايرانية أسوأ الأثر في كريم خان الزندي ، فانه تلقى نبأ الهزيمة بمنتهى التأثر وعقد النية على مواصلة القتال مع حكومة بغداد حتى النهاية . ومما زاد في الطين بلة ان عمر باشا استحوذ على أموال الايرانيين الذين ماتوا في الطاعون في البصرة وبغداد والعتبات المقدسة ، فقد كان في البصرة وبغداد ما يربو على سبعمائة اسرة ايرانية ماتوا جميعاً بالطاعون فكانت اموالهم كلها من نصيب عمر باشا[2] . ويقال إنه قبض على جماعة من سكان الكاظمية ووضعهم تحت العصا مما أدى الى وفاة أحدهم[3] .

وفي عام ١٧٧٥ أرسل كريم خان جيشاً ضخماً بقيادة أخيه صادق خان نحو البصرة فحاصرها . ودام الحصار ثلاثة عشر شهراً عانى أهل البصرة فيه أشد العناء ، وتفاقمت المجاعة بينهم حتى اضطروا الى أكل القطط والكلاب . وصادف ان كان في البصرة آنذاك رجل من اعيان الايرانيين هو السيد نعمة الله الشوشتري فتوسط لدى صادق خان على تسليم البصرة حسب شروط اتفقوا عليها ، وبهذا دخل الجيش الايراني المدينة فاتحاً .

---

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ــ الموصل ١٩٥٢ ــ ص ٢٣ ــ ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص٣١ .

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٥٢ .

اختلفت أقوال المؤرخين حول معاملة صادق خان لأهل البصرة عند فتحها • فالمؤرخ البريطاني السر برسي سايكس يشير الى أنها كانت معاملـة عادلة[1] ، ويؤيد لونكريك هـذا الرأي بعض التأييد حيث يقـول : إن الايرانيين دخلوا البصرة بكل انتظام ، ولم يُسمح بأي عنف أو فوضوية عنـد الدخول ، غـير أن بعض الحوادث الطفيفـة وقعت فعلاً • ولكن لونكريك يضيف الى ذلك أن الايام السود حلت بالبصرة بعدئذ حين بـدأ جمع الغرامة من السكان فقد التزم الاغنياء بجمع المبلغ ولكن الفقراء هم الذين دفعوه في الحقيقة ، فعم الجور وسوء الاستعمال وتفاقم أمرهما[2] •

أما المؤرخ البصري ابن سند فقد أطنب في ذكر المظالم التي أنزلهـا صادق خان في البصرة حيث قال عنه ما نصه : « ••• فدخل البصرة بعسكره وهتكها وفضحها ، ولم يبق مأثماً الا ارتكبه ، ولم يف بشيء مما وعد بـه من العهود ، وما ترك نوعاً من الظلم الا تجشمه ، أفعال ولا أفعال التتـار ، وأمر الناس بسب الصحابة جهراً علناً على المنابر والمنائر ، خصوصاً أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ، ونودي بحي على خير العمل ••• »[3] •

مقتل عمر باشا :

عندما وصل نبأ حصار البصرة الى اسطنبول ـ في بداية الأمر ـ ظن المسؤولون هناك أن السبب الاكبر في هذا النزاع مع ايران هو عمر باشا وأن عزله لابد أن يؤدي الى عودة السلم بين الدولتين ، ولكنهم كانوا يدركون أن عزله ليس بالأمر الهين إذ هو قد يعلن العصيان على الدولة فيتابعه أنصاره

---

(1) Percy Sykes (A History of Pereia) — London 1958 — Vol. 2, p. 281.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٨٩ •

(٣) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود بطيب أخبار الوالـي داود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص١١ •

من المماليك أو غيرهم وهم كثيرون •

وفي عام ١٧٧٦ وصل الى بغداد على التوالي ثلاثة قواد ، ومع كل واحد منهم قوة عسكرية كبيرة ، وهم : أوزون عبدالله باشا والي ديار بكر ، ومصطفى باشا الاسبيناخجي والي الرقة ، وسليمان باشا الجليلي والي الموصل • وكان القصد من مجيئهم هو عزل عمر باشا ولكنهم تظاهروا بأنهم جاؤا لنجدته في حرب العجم ، وقد انطلت الحيلة عليه حتى أنه أوعز اليهم بأن يذهبوا الى البصرة لفك الحصار عنها[1] •

كان مصطفى باشا الاسبيناخجي هو الذي أسندت اليه ولاية بغداد وخوّل أن يقتل عمر باشا اذا امتنع عن تسليم الولاية اليه • وحين اجتمع الرجلان وعرف عمر باشا بأمر عزله أظهر الطاعة ولم يبد عليه أي اعتراض ثم غادر بغداد مع جمع من أصحابه وخيم في « المنطقة » في منتصف الطريق الى الكاظمية • والظاهر أن مصطفى باشا لم يطمئن من هذه الحركة التي قام بها عمر باشا وربما خيل له أن في الأمر مكيدة فبعث قوة من الجند ليهاجموا عمر باشا ليلاً ، وقد تمكن عمر باشا من الهروب غير أن فرسه كبا به فسقط على الارض وانكسرت رقبته • ثم عثر عليه أحد الجنود فقطع رأسه وذهب به الى مصطفى باشا فأرسله هذا الى اسطنبول[2] •

أمر الوالي الجديد مصطفى باشا الاسبيناخجي بمصادرة أموال الوالي القتيل ، وكذلك أمر بجباية الأموال من الاغنياء زاعماً أنها من أجل انقاذ البصرة غير أنها كانت تتسرب الى جيبه ، فضج الناس بالشكوى منه وكتبوا الى السلطان فيه • أضف الى ذلك أنه كان يضيق على المماليك ويعلن أنه يريد القضاء عليهم ، مما جعلهم يتسللون من بغداد تدريجاً حيث تجمعوا في منطقة غير بعيدة الى الشرق منها ، برئاسة زعيم لهم هو عبدالله باشا الكهية ،

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٣٤ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٥٥ •

وأخذوا يهددون بغداد ويشنون الغارة على اطرافها مرة بعد مرة ، وتمكنوا من احتلال بعض المواقع • وانتهزت العشائر هـــذه الفرصة فعادت الى ديدنها القديم وأكثرت من الغزو والنهب وقطع الطريق •

وفي هذا الوقت العصيب سقطت البصرة بيد الجيش الايراني على نحو ما ذكرناه آنفا ، ولم يسع السلطان تجاه ذلك الا أن يصدر أمره بعــزل مصطفى باشا من ولاية بغداد مع العلم أنه لم يكن قد مضى عليه فيها سوى ثمانية أشهر أو تسعة ، وسـيق الوالي المعزول الى ديـار بكر مخفوراً ، وهناك قطع رأسه بأمر من السلطان •

التعبئة العامـة :

جمع السلطان في اسطنبول المجلس العـام للدولـة ـ وهو مجلس لا يُعقد الا عند اشتداد الازمات ـ وقرر المجلس وجوب اعلان الحرب على كريم خان الزندي ، وبذا قُدم استفتاء الى شيخ الاسـلام هـذه صـورة موجزة منه :

« ان زيداً الجائر من سـكان بلاد العجم والذي يزعم بأنه وكيل الشاه ، قد كون له عصابة باغية من اللصوص والمجرمين • وقد شـرعت هذه الفئة الباغية تهاجم بلاد المسلمين واستولت على احدى القلاع الاسلامية وفتكت بأرواح المسلمين ، فهل يُعد (زيد) ومن ناصـــره من الباغين ؟ (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) ، وحسب منطوق الآية الكريمة هل وجب قتال هذه الفئة الباغيـة واسـترجاع القلعـة التي اغتصـبتها من المسلمين ؟ » ، فكان جواب شيخ الاسلام على هذا الاستفتاء هو : « نعم ، وجب قتالها والله أعلم » •

وعلى اثر صدور هذه الفتوى أُعلنت التعبئة العامة في جميع الولايات العثمانية ، ثم تقرر أن يصـــدر العفو عن المـاليك المتمردين وأن يولّى

زعيمهم عبدالله باشا على بغداد ، وذلك حرصاً على وحدة الصف تجاه العدو المشترك . ثم وصلت الى بغداد من اسطنبول خمسمائة كيس من النقود لسد نفقات الحرب ، وجاءت عن طريق الفرات مائة وخمسون سفينة محملة بالجنود[1] .

محمد العجمي :

يقول الشيخ رسول الكركوكلي في كتابه « دوحة الوزراء » : عندما وصل عبدالله باشا الى بغداد والياً كان الاعتقاد السائد لدى الخاص والعام أن هذا الرجل هو الذي سينقذ البصرة من أيدي العجم ، ولكنه بالنظر لما جُبل عليه من الميل الى الأنس والطرب نسي المهمة المكلف بها وانغمس في الملذات بتشجيع من محمد بك العجمي[2] .

الواقع أن محمد العجمي هذا الذي أشار اليه صاحب « دوحة الوزراء » قد لعب دوراً كبيراً جداً في المجتمع البغدادي خلال حقبة غير قصيرة ، ولابد لنا من الوقوف عنده لندرس شيئاً من سيرته وشخصيته .

إن محمد العجمي ـ وكان البغداديون يسمونه عجم محمد ـ جاء الى بغداد منذ عهد عمر باشا ، وكان اذ ذاك شاباً أمرد مليحاً ، وله صوت جميل ، وقد جاءت معه أمه واختاه اللتان كانتا على جانب عظيم من الحسن . واستطاع محمد أن يجعل من أسرته هذه شبه جوقة موسيقية ، فكانت أختاه ترقصان وأمه تنقر على الدف وهو يغني . وكان يتعاطى مهنة « القيادة » أيضاً ويقال إنه كان يفتخر بذلك قائلاً : « ما وصلت الى ما وصلت اليه الا بهذه الصنعة الشريفة »[3] .

---

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ٣٨ ـ ٤١ .
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٥٩ .
(٣) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١٧ .

يقول ابن سند البصري في وصفه : « ... فنفقت سوقه في بغداد وأقبل عليه أهل الفجور والفساد من أمراء بغداد وأعيانها ، ونبه وعظم ، وصار يتوسط للناس في قضاياهم ، ويرتشي وتُهدى اليه الهدايا ، وداهنه أرباب الحاجات ، ونفع وضر ، الى أن صار يُعد من رجال الدولة وعظمائها ، وتقرب من الوزراء وجرى فيهم مجرى الدم من اللحم ونادمهم — وكان فصيحاً منطيقاً — وقبل عبدالله باشا صار دويداراً عند عمر باشا ، ففتح له أبواباً من الظلم ووشي اليه على ناس وأخرب بيوتهم ، وهرب أكثر تجار بغداد من خوفهم من شر عجم محمد ، وشاب وظلمه وفجوره شباب ، وكلما طال عمره زاد شره ، وعلمته التجارب طرقاً يضار بها أعداءه يغفل عنها ابليس ، حتى أنه لما قُتل الوزير عمر باشا فرح الناس لظنهم أنهم خلصوا من شر عجم محمد وأن ناره قد خمدت ، مع أن عمر باشا كان المخير أقرب وله مآثر حسنة ... فما يشعرون الا ومصطفى باشا قربّه اليه أكثر من قرب عمر باشا ، وصار هو مستشاره الأول وأول داخل عليه وآخر خارج عنه ، وولاّه خازنداريته ، وعكف الكل على الخمور والزنا واللواطة وجميع أنواع الفجور والمظالم ، حتى أنه لما أرسل السلطان خزنة لصرفها على محاربة العجم واخراجهم من البصرة استحوذ عليها ذلك اللعين عجم محمد ... وأبان للوزير عبدالله باشا حسابات ودفاتر مسددة بأنه صرفها فيها ، ومن غفلة الوزير عبدالله باشا أنه صدقه وائتمنه ، لأن هذا الوزير كان أبله ومغفلاً وألكن ، ولكن سبحان من أعطاه الوزارة ، ومنه يُعلم أن الوزارة ليست بالعقول والمعارف بل بالجدود والحظوظ ... »[1] .

معارك محلية :

لم يدم حكم عبدالله باشا سوى سنتين إذ ابتلي في آخرها بمرض الاستسقاء ، وفي شتاء ١٧٧٧ مات فكان موته إيذاناً بنشوب معارك محلية

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ — ١٨ .

عنيفة في بغداد استمرت عدة أشهر .

كان التنافس على الحكم بعد موت عبدالله باشا منحصراً بين شخصين هما محمد العجمي واسماعيل أغا الكهية ، وانقســـمت محلات بغداد الى فريقين متناحرين حيث تعصب كل فريق منهما لاحد المتنافسين ضد خصمه. فقد وقفت محلات الفضل والمهدية والقراغول والميدان الى جانب محمــد العجمي ، بينما وقفت محلات رأس القرية وباب الشيخ والشورجة الى جانب اسماعيل أغا[1] . وقد انحاز المماليك الى اسماعيل أغا بوجه عام ، أما الانكشارية فقد انقسموا الى فريقين ، وانحاز الجنود المحليون الى من كان يدفع لهم مالاً أكثر[2] . وصار كل فريق يكتب العرائض ويجمع التواقيع ليبعثها الى السلطان في سبيل تعيين مرشحه والياً على بغداد بدلاً من مرشح خصمه .

حاول سليمان بك الشاوي رئيس العبيد تهدئــة الحالــة ، وكان ذا منزلة محترمة لدى مختلف الطبقات في بغداد ، فارتأى أن يخرج المرشحان كلاهما من بغداد حتى ينجلي الوضع ، فوافقه على ذلك اسماعيل أغا غير أن محمد العجمي أبى وعاند . وكان أهل الميدان من أشد أنصار العجمي عصبية له ، لأنه كان يغمرهم بفضله[3] ، وقد جادلهم الشــاوي ذات مرة قائلاً لهم بأن مرشحهم لا تقبل به الدولة والياً على بغداد لأنه من العجم فأجابوه بلسان واحد : « ليكن عجماً ، فان الروم عينوا خمسة وزراء من العجم وهذا سادس »[4] .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٨١ .
(٣) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٢٤ .
(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٧٣ .

استنجد محمد العجمي بصديقه أحمد اغا رئيس « اللاوند »[1] الذي كان في بعقوبة يومذاك فأنجده بجماعة كبيرة من « اللاوند » ، وجاء هؤلاء فخيموا تجاه مقبرة الشيخ عمر فتقوى بمجيئهم أهل محلة الميدان •

ومن الجانب الآخر تقوى فريق اسماعيل أغا بانضمام سليمان بك الشاوي وعشيرة عقيل اليه ، وعبرت عشيرة عقيل دجلة من الكرخ وجعلوا متاريسهم على رأس الجسر قرب المولى خانه • ودامت المعارك بين الفريقين خمسة أشهر نهبت فيها الاسـواق والبيوت ، وسـفكت الدمـاء ، وانتهكت الحرمات « وكم من غني أصبح فقيراً وفقير أصبح غنياً »[2] • واشـتـد البلاء بالمستضعفين من الناس • وصار القتال مشهداً من مشاهد الأسواق في كل يوم •

ولم تهدأ الحالة الا في شهر أيار عام ١٧٧٨ عندما وصل حسن باشا الكركوكلي وهو يحمل فرماناً من السلطان بولاية بغداد ، ودخل الوالي الجديد بغداد بموكب رسمي حافل فهرب محمد العجمي الى نواحي ديالى بمعونة صاحبه أحمد أغا ، ومن هناك صارا يقطعان الطرق ويغيران عـلى بغـداد •

ولاية حسن باشا الكركوكلي :

في عهد هذا الوالي استرجعت البصرة من أيدي الايرانيين ، ولم يكن للوالي أي فضل في ذلك إذ أن الجيش الايراني هو الذي انسحب منها على اثر وفاة كريم خان في شيراز • وعاد الى البصرة متسلمها السابق سليمان أغا بعد أن ظل محبوساً في شيراز طيلة مـدة الاحتلال الايراني للبصـرة ،

---

(١) اللاوند لفظة تركية تعني الجنود شبه النظاميين الذين كانوا في العهد العثماني يُجندون محلياً ، وهم في الغالب من الاكراد أو اللور • وفي بغداد الآن محلة تعرف بـ « خان اللاوند » نسبة اليهم •

(٢) المصدر السابق ، ج٦ ص٧٤ •

والظاهر أنه لم يلق في حبسه أي أذى وقيل إن الايرانيين أحبوه وأكرموه •

دامت ولاية حسن باشا في بغداد مدة قصيرة لا تزيد عن ثمانية عشر شهراً ، وقد عانى الأهالي في أثناءها الشيء الكثير من الضيق ، فقد استطاع محمد العجمي أن يجمع حوله من الاتباع ما يزيد على العشرة آلاف وسيطر بهم على مناطق واسعة في نواحي بعقوبة وعاث بالأمن ومنع سير القوافل وقطع الطرق مما أدى الى تعطيل الحياة الاقتصادية في بغداد ، وكان له أنصار في بغداد غير قليلين ، ولا سيما في محلة الميدان ، فكانوا يحرضون الأهالي على الثورة • والمظنون أن المماليك في بغداد لم يكونوا راضين عن ولاية حسن باشا ، وهو ليس منهم ، فكانوا من عوامل الثورة عليه أيضاً •

وفي أواخر تشرين الاول من عام ١٧٧٩ حدثت مشاجرة بين شخصين قرب مقبرة الشيخ عمر ، فلما سمع أهل الميدان بها اتخذوها ذريعة لاعلان الثورة وأخذوا يصرخون عالياً بأنهم لا يريدون حسن باشا • فخشي الوالي مغبة ذلك والتجأ الى القلعة الداخلية متحصناً بها • وفي اليوم التالي حين أدرك الأهالي ضعف الوالي تجمعوا في الطرقات واتخذوا المتاريس ثم بدأوا مهاجمة السراي •

وعندما حل الظلام في عشية ذلك اليوم تسلل الوالي الخائف من باب القلعة وعبر النهر نحو جانب الكرخ ، واستطاع أخيراً أن يهرب الى ديار بكر ، وهناك ابتلي بمرض لازمه بضعة أيام ثم مات[١] •

كان سليمان أغا في البصرة يرقب أحداث بغداد بعين اليقظة ، وأخذ يكاتب السلطان مزيناً له اسناد ولاية بغداد اليه وتعهد أن يقطع دابر الفتن فيها ويعمل على توطيد الأمن ، وبعد مراسلات عديدة اقتنع السطان وأصدر

---

(١) المصدر السابق ، ج٦ ص٨٢ — ٨٣ •

أمره بتوجيه ولاية بغداد الى سليمان أغا بالاضافة الى وظيفته الاصلية[1] •

إن سليمان أغا هذا هو الذي اشتهر بين الناس فيما بعد باسم « بيوك سليمان » ـ أي سليمان الكبير ـ وهو من المماليك ، ويعتبر عهده العصر الذهبي لحكومة المماليك في العراق •

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٥٣ •

الفصل السابع

سليمان الكبير

وظهور الحركة الوهابية

بدأ حكم سليمان الكبير في بغداد عام ١٧٨٠ ودام اثنتين وعشرين سنة ، وتلك مدة طويلة لم يحظ بها والي آخر غيره في تاريخ العهد العثماني كله . وهو انما لقب بـ « الكبير » تمييزاً له عن وال آخر اسمه سليمان تولى الحكم فيما بعد ، ولكنه على أي حال يستحق هذا اللقب من بعض الوجوه ، فقد وصفه أحد الذين اختلطوا به من البريطانيين ـ هو السر هارفورد جونز ـ حيث قال : « ربما كان سليمان أحسن نموذج وُجد لباشا تركي . فقد ولد مملوكاً ، فكان على جانب عظيم من جمال الرجال ـ وكان في قوامه ووجهه من المعاني المؤثرة والمنظر الخلاب للألباب ما يبعث في النفس الهيبة ـ ولا سيما عندما كان يلبس اللباس التركي المألوف . وكان بارعاً بجميع الحركات العسكرية والرياضية براعة المتخصصين كما أنه كان مخلصاً في عمله متحمساً في القيام بواجباته الدينية ... »[1] .

يبدو من هذا الوصف أن سليمان الكبير جمع في نفسه جمال الخلقة وكفاءة الشخصية ، واجتماع هاتين الخصلتين في شخص يفتح أمامه الأبواب

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ١٩٣ .

ويمهد له الطريق نحو النجاح المتواصل ، وكثيراً ما يؤثر منظر هـــذا الشخص في عقول العامة فينسبون اليه أعمالاً لم يقم بهـــا ويبالغون في مدحه ٠ والواقع أن منظر الانسان من حيث وسامته أو دمامته له أهميــة اجتماعية كبيرة وكلما ازدادت وسامته ازدادت الفرصة أمامه للنجاح ونيل المكانة الرفيعة في المجتمع ، والويل لمن كان دميماً بليداً !

صار سليمان الكبير في نظر العراقيين أسطورة تحاك حولها المبالغات ٠ يقول المؤرخ ياســين العمــري : إن محي الدين بن عربي ـ المتصــوف المشهور ـ كان قد تنبأ بحكم سليمان الكبير وشهد بفضله إذ قال في كتابه « الشـــجرة النعمانيــة » : « يا رأس الرؤوس ويا نفس النفوس لك الظهور » ، فلفظة « الظهور » تساوي في حساب الحروف رقم (١١٩٢) وهو يرمز الى السنة التي بدأ بها حكم سليمان الكبير حسب التقويم الهجري ، وكذلك قال ابن عربي في وصفه : « فأمر بالمعروف في الأمور وأدار الزمان وحوادث الحدثان فقد يقوم بطل قرم لا عطل سيفه حسام قصا » ، فلفظة « قصا » تساوي في حساب الحروف اسم « سليمان »[١] ٠ إن هـــذه قد يعتبرها أهل زماننا من قبيل الأوهام والخرافات انما هي كانت في ذلك الزمان تعتبر من الحقائق التي لا شك في صحتها ٠

توطيد دعائم الحكم :

لم يكد سليمان باشا الكبير يصل الى بغداد على اثر توليه الحكم حتى توجه نحو ديالى للقضاء على محمد العجمي وعصابته الذين سيطروا على تلك الانحاء ، ونجح في ذلك مما جعل محمد العجمي يهرب الى ايران ٠ ثــم توجه سليمان باشا بعدئذ نحو الخزاعل في الفرات الأوســط ، وكــان هؤلاء قد اغتنموا فرصة الفوضى التي حلت بالبلاد في الفترة الســابقة

(١) ياسين العمــري (غرائب الأثــر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) ـ الموصل ١٩٤٠ ـ ص٦٢ ٠

فسيطروا على منطقة الفرات الأوسط زهاء ثماني سنوات برئاسة شيخهم حمد الحمود • واستطاع سليمان باشا أن يخضعهم لأمره بواسطة قطع مياه النهر عنهم دون أن يريق قطرة دم واحدة ، وقد كافأه السلطان على ذلك بسيف مرصع القبضة وثوب من السمور الفاخر • وفي عام **١٧٨٢** توجه سليمان باشا نحو كردستان لاخضاع ثورة قامت هناك ، فالتجأ المتصرف الثائر محمود باشا بابان الى ايران ، وعين سليمان باشا مكانه ابراهيم بك بابان • وابراهيم هذا هو الذي أسس بلدة السليمانية ، وهو انما سماها بهذا الاسم نسبة الى ولي نعمته سليمان باشا الكبير(١) •

إن هذه الموفقيات التي نالها سليمان باشا في بداية حكمه جعلت مهابته تزداد وقعاً في النفوس ، فاستتب الأمن في أنحاء البلاد ، وانتظم سير القوافل ، وراجت الأسواق • وجمع سليمان باشا من الداخل والخارج ألف مملوك وأخذ يدربهم تدريباً متعباً ليكونوا أهلاً للاعتماد عليهم عند الحاجة ، ثم عين للانكشاريين ضباطاً اختارهم بنفسه ووزعهم على مراكز الفرات الأوسط والخالص بدلاً من إبقائهم متجمعين في بغداد(٢) •

مجاعة في بغداد :

لم تقع حادثة شغب في بغداد طيلة عهد سليمان الكبير سوى مرة واحدة ، وهي حدثت من جراء قحط شديد حل بالبلاد في سنة **١٧٨٦** • ففي تلك السنة شح الماء في الأنهر كما شحت الأمطار فارتفع سعر وزنة الحنطة في بغداد الى ثمانية قروش(٣) ، وهـذا سعر كان يعتبر في تلك

---

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ٥٤ ـ ٥٨ •

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٩٨ •

(٣) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٨٣ •

الأيام غالياً جداً لا يقدر عليه الا القليل من الناس ، فعمت المجاعة وانتشرت الأمراض حتى تراكمت جثث الموتى في الطرقات ، وأكل البعض الجيفة وامتصوا الدماء •

حاول الوالي أن يخفف من وطأة المجاعة على أهل بغداد ، فأمر باخراج ما كان في مخازن الحكومة من الشعير الذي كان معداً لعلف الخيل ، وفرّقه على الفقراء ، فلم يجد ذلك نفعاً[1] • فأخذت صرخات الثورة تنتشر في محلات بغداد واغتنم الاشقياء الفرصة فصاروا يصولون ويجولون كدأبهم في مثل هذه الحالة • وأخرج أهل باب الشيخ علم الشيخ عبدالقادر وساروا به متظاهرين ، وتعالت الأصوات بشتم الوالي والهتاف بعزله • ثم تقدمت الجموع نحو السراي بغية الهجوم عليه ، ولكن الوالي لم يضعف لهم أو يستسلم ، بل أمر جنوده بفتح النار عليهم ، فسقط منهم عدد من القتلى وفر الباقون • ولم يكتف الوالي بذلك بل أمر بالقاء القبض على الرؤساء الذين حرضوا على الشغب ، فصلب بعضهم فوراً ، لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، وسجن آخرين منهم • أما الرجل الذي كان يحمل علم الشيخ عبدالقادر فلما أمسكوا به وجدوا في عقله خللاً فاكتفوا بنفيه الى البصرة[2] •

سليمان الشاوي :

لا يتم الحديث عن عهد سليمان الكبير في العراق ما لم نتطرق الى شيء من سيرة الحاج سليمان بك الشاوي ، فهذا الرجل في الواقع يستحق أن يُخصص له بحث قائم بذاته ، فسيرته تعطينا صورة واضحة لما كان عليه المجتمع العراقي في ذلك العهد من وضع عجيب •

(١) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود) ــ اختصار أمين الحلواني ــ القاهرة ١٣٧١هـ ــ ص ٣٩ •
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٨٤ •

كان الحاج سليمان يجمع في نفسه صفات قلما اجتمعت في أحد غيره ، فهو كان رئيس عشيرة كبيرة هي عشيرة العبيد ، وكان كذلك شاعراً من شعراء القريض وعالما لغوياً ومؤلفاً[1] ، علاوة على كونه من المقربين الى ولاة بغداد وكثيراً ما كان يتولى لديهم منصب « باب العرب » - أي إدارة شؤون العشائر - وقد أشرنا في الفصل السابق الى الثورة التي قام بها في عهد عمر باشا انتقاماً لمقتل أبيه والى الدور المهم الذي اضطلع به بعدئذ اثناء اشتداد المعارك بين محلات بغداد حيث انحاز الى جانب اسماعيل أغا ضد محمد العجمي .

وفي السنوات الأولى من حكم سليمان الكبير كانت العلاقة بينه وبين سليمان الشاوي متينة جداً ، وقد توسط الحاج سليمان لدى مشايخ الفرات الأوسط فجاء بهم الى بغداد لتقديم فروض الطاعة الى الوالي[2] . وظلت العلاقة بينهما متينة حتى عـــام ١٧٨٥ إذ توترت فجأة ثم انقطعت ، وغادر الحاج سليمان بغداد غاضباً فانضمت اليه عشـــيرته وأخذ يعيث بالأمن في نواحي الخابور .

اختلفت أقوال المؤرخين في تعليل هذا النزاع الذي نشب بين الرجلين، فالشيخ رسول الكركوكلي يقول : إن الحاج سليمان الشاوي سلك مـع الوالي مسلك التكبر والعجب بالنفس والانانية ، فشمخ وتجبر ، وكثيرا ما كان يتطاول بالكلام على الوالي ويسمعه ألفاظاً غير لائقة ، وطالما نبهـه الوالي كناية وتصـــريحاً فلم يفد معه شـــيء من ذلك بل ازداد غروراً وطيشاً ، يضاف الى هذا مناوأة الحاج سليمان للمهردار أحمد أغا ذي المنزلة الرفيعة ، وقيامه بالحط من قدره حسداً منه وغيرة ، كأنه يجهل أن شرف

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ الأدب العربي في العراق) - بغـــداد ١٩٦٢ - ج٢ ص٤١ - ٤٣ .

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص١٩٨ .

المرء بالفضل والأدب وليس بالأصل والنسب ، فاضطر الوالي بعد أن فرغ صبره الى نفيه من بغداد للتخلص من ثرثرة لسانه ...[1] .

أما أحمد علي الصوفي صاحب كتاب « المماليك في العراق » يعزو النزاع بينهما الى سبب آخر هو أن الحاج سليمان الشاوي كان يحتقر في قرارة نفسه المماليك ويعتبرهم غاصبين سرقوا خيرات البلاد وتحكموا فيها رغم أنف أبنائها ، ولم يكن يتكتم في انتقاد حكمهم والشكوى من ظلمهم واستبدادهم ، وقد اشتدت نقمة الحاج سليمان حين رأى أحمد أغا المهردار وهو المملوك المغمور يسيطر على الأمور في بغداد ، فاستنكف الحاج سليمان وهو الشيخ العربي الكبير أن يسير في ركاب هذا المملوك القذر الحقير[2] .

وهناك مؤرخ ثالث يرجع السبب الى ما هو أعمق من ذلك فيقول إن الوالي سليمان الكبير كان قد وضع خطة مكتومة لجعل الادارة كلها بأيدي المماليك والقضاء على نفوذ أية جماعة أخرى ، فقام بابعاد زعماء الانكشارية والعرب والأكراد ، واستغل اشتداد الخصومة بين مهرداره أحمد أغا والحاج سليمان فاتخذ ذلك ذريعة لابعاد الحاج سليمان ، ولم يكن يعرف مكنون سره سوى المهردار أحمد أغا[3] .

الشاوي ثائراً :

أمضى الحاج سليمان الشاوي في الخابور بضعة أشهر يستعد لقتال الحكومة ، وقد التفت حوله عشيرته العبيد كما انضم اليه كل متشرد أو هارب من مختلف القرى والمدن ، وأخذت قواته تعبث بالأمن فيما بين الخابور وضواحي بغداد حتى أصبحت الطرق والبساتين حول بغداد غير

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٨١ ـ ١٨٢ .
(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٥٩ ـ ٦٠ .
(٣) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ج٦ ص ٩٦ .

آمنة[1] • وفي عام ١٧٨٦ وقعت معركة مهمة بين قواته وجيش الحكومة بالقرب من الفلوجة انتصر فيها على الجيش انتصاراً ساحقاً • وبعد مرور شهر واحد على معركة الفلوجة وصل الحاج سليمان بقواته الى ضواحي بغداد الغربية ونزل عند قبر الحلاج القريب من الست زبيدة ، فانقطعت السبل وانتشر الذعر بين سكان بغداد وظنوا أن مدينتهم ستسقط قريباً في ايدي العشائر ويشيع النهب والقتل فيها •

أسرع الوالي يجمع من استطاع جمعه من الجنود ، وأمر بتجنيد الكثير من سكان بغداد ، وتمكن أخيراً من دحر العدو ، وقد أبدى العقيليون من سكان الكرخ بسالة في الدفاع لا تنكر ، مما اضطر الحاج سليمان الى الانسحاب نحو الدجيل ثم ذهب الى شفاثة ، ومن هناك التجأ دخيلاً الى ثويني شيخ المنتفق •

سارع الشيخ ثويني الى تأييد الحاج سليمان ، وكاتب حمد الحمود شيخ الخزاعل لتكوين جبهة عشائرية قوية ضد الحكومة • وقد تم تكوين تلك الجبهة فعلاً حتى قيل عنها إنها كانت أخطر ثورة عربية قامت في وجه حكومة المماليك في العراق[2] • وأرسل الشيخ ثويني قسماً من خيالة المنتفق الى البصرة فدخلتها واستولت على السراي ، وبعد يومين دخل ثويني البصرة مع خمسة آلاف من رجاله فاعتقل رؤساء الدوائر الحكومية وضباط الاسطول وصادر أملاكهم وأموالهم كما فرض على سكان البصرة غرامة قدرها ستة آلاف تومان ، وبذا صارت في البصرة حكومة عربية قبلية[3] •

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٠٠ •

(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص٦٣ •

(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٠١ •

في شهر آذار من عام ١٧٨٧ توجه سليمان باشا على رأس جيش كبير نحو البصـــرة عن طريق الفرات • وفي ١٣ تشرين الاول وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في موقع « أم الحنطة » قرب البصرة ، وقد استخدمت العشائر فيها المدافع وأبدى فيها سليمان باشا من الشـــجاعة والاقدام شـيئا كثيرا اذ سل سيفه وأخذ يصول ويجول بين الصفوف • وانتهت المعركـة بانتصاره وبحصوله على غنائم لا تحصى •

وأصدر سليمان باشا أمرةً بعزل ثويني من مشيخة المنتفق وعين مكانه حمود السعدون ، وكذلك عزل حمد الحمود عن مشيخة الخزاعل وعين مكانه محسن الحمد • أما الحاج سليمان الشاوي فقد تمكن من الفرار وبقي فاراً مدة ثم طلب العفو من الوالي فعفا الوالي عنه وأعاد اليه أملاكه وأمره بالاقامة في مقاطعاته الواقعة غرب بغداد في موضع يقال له « تل أسود » •

ظل الحاج سليمان في « تل أسود » حتى عام ١٧٩٠ ، ففي هذه السنة عاد محمد العجمي من ايران فجأة والتجأ « دخيلا » عنده حسب التقاليـد العشائرية ، وهنا صار الحاج سليمان في موقف حرج لا يدري كيف يخرج منه ، فليس من الهين عليه أن يرفض « دخالة » من التجأ اليه ، وكذلك ليس من الهين أن يكون عرضة لغضب الوالي عليه •

أرسل الوالي اليه يطلب منه تسليم « دخيله » ، فأخذ يماطل في اجابة الطلب مما حمل الوالي على أن يوجه اليه حملة بقيادة الكهية • ولم يجد الحاج سليمان تجاه ذلـك سوى الهرب نحو الصحراء مـــع « دخيله » العجمي ، وقد خسر من جراء ذلك كثيرا من أمواله ومواشيه[1] • انـــه آثر تحمل الخسارة المادية على تحمل الخسارة المعنوية •

استطاع محمد العجمي أخيرا أن يهرب عن طريق الصحراء الى مصر

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ١٩٤ •

ـ حيث مات فيها ـ وذهب الحاج سليمان الشاوي الى قومه في الخابور •
وفي عام ١٧٩٤ اغتاله أحد أقربائه[1] ، فاستراح وأراح !

ظهور الحركة الوهابية :

في عهد سليمان باشا الكبير استفحلت الحركة الوهابية في نجد ، وتم لها احتلال الاحساء ، وأخذت تهدد العراق تهديدا خطيرا • ولابد لنا في هذه المناسبة من ذكر شيء عن بداية هذه الحركة ومبادئها الاساسية •

سُميت الحركة الوهابية بهذا الاسم نسبة الى مؤسسها الشيخ محمد ابن عبدالوهاب[2] وقد وُلد هذا الرجل في « العيينة » من قري نجد في عام ١٧٠٣ ، وكان أبوه قاضي القرية فنشأ في بيئة دينية ، وأتم دراسته الدينية في مكة والمدينة والبصرة • وقد ظهرت عليه أولى بوادر التجديد الديني عندما كان يدرس في المدينة حيث رأى الناس يستغيثون بقبر النبي ويشفعونه في حاجاتهم فأنكر ذلك عليهم واعتبره إشراكا بالله • وحين جاء الى البصرة ، وشاهد انهماك سكانها في الشفاعة والتوسل بالقبور ، أخذ ينتقدهم بعنف مما أثار استياء البعض منهم فأخذوا يضايقونه ، ثم طردوه من البصرة ، وكاد يموت في الصحراء من العطش •

كان الشيخ يعتقد اعتقادا جازما أن مبدأ الشفاعة والتوسل بالقبور من الامور المنافية لعقيدة التوحيد الاسلامية ، فالله يقول في كتابه : « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني » ، ويقول كذلك : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » ، وفي القرآن آيات أخرى في مثل هذا المعنى إذ هي تحضّ الناس على أن يكون توسلهم الى الله ودعائهم له

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص١١٣ •

(٢) ان الوهابيين أنفسهم لا يرتضون هذا الاسم لهم ، فهم يسمون أنفسهم بـ « الموحدين » ، وقد جرينا في هذا الكتاب على الاسم الشائع لهم وهو الاسم المستعمل في أكثر المصادر التاريخية •

وحده ، فلماذا يخالف المسلمون ما جاء في القرآن اذن !!

كان الشيخ محمد يعتبر الاضرحة التي اعتاد المسلمون على تقديسها وزيارتها هي كالاوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدونها من دون الله ، فالناس يرجون من المدفونين في تلك الاضرحة أن يتشفعوا لهم عند الله ويقربوهم اليه زلفى ، وهذا في نظر الشيخ محمد هو نفسه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه تجاه الاوثان •

لقد ملكت هذه الفكرة عقل الشيخ محمد حتى صار لا يرى في الحياة سوى هدف واحد هو ارجاع الناس الى الفطرة الاسلامية الاولى وهي عبادة الله وحده وترك عبادة الاضرحة • والواقع أنه لم يكن أول من فكر بمثل هذه الفكرة • فقد سبقه اليها ابن تيمية قبل خمسة قرون ، ولكن الفرق بينهما هو أن ابن تيمية نادى بالفكرة في بيئة حضرية فلم ينجح بينما نادى محمد بها في بيئة بدوية فنجح نجاحا عظيما •

في عام ١٧٣٠ ذهب الشيخ محمد الى « حريملة » من قرى نجد وأخذ يعلن دعوته فيها ، فتابعه البعض من سكانها بينما عارضه الآخرون ، وبهذا انقسم أهل البلدة الى فريقين متعاديين ، وكاد خصومه يقتلونه لولا هروبه من القرية وذهابه الى قرية « العيينة » التي ولد فيها ، وهناك آزره أميرها عثمان بن حمد وزوجه بأخته جوهرة •

بدأ الشيخ محمد يطبق مبادئه في تلك القرية عمليا فأمر بقطع الاشجار التي كانت مقدسة لدى العامة ، وذهب بنفسه يحمل معولا لقطع الشجرة الرئيسة التي كانت أكثر قدسية من غيرها • والتفت بعدئذ الى ضريح مقدس في نجد غاية التقديس هو قبر زيد بن الخطاب الذي قُتل هناك أثناء حروب الردة ــ وهو أخو الخليفة الثاني عمر ــ فذهب الشيخ بصحبة ستمائة رجل من أتباعه بغية هدم الضريح ، فخرج اليه سكان القرية المجاورة ليحولوا دون مراده فلم يوفقوا ، وأخذ الشيخ المعول بيده فهدمه •

وقد توقع العوام أنه سيصاب بمصيبة أثناء الليل جزاء انتهاكه حرمة الضريح المقدس ولكنهم أبصروه في الصباح التالي وهو يتمتع بصحة جيدة[1] .

التحالف مع ابن سعود :

في عام ١٧٤٥ اختلف محمد بن عبدالوهاب مع أمير حريملة فخرج منها لاجئاً الى قرية أخرى هي قرية « الدرعية » التي كان يحكمها الامير محمد بن سعود . ويشبّه الوهابيون هجرته هذه بهجرة النبي محمد من مكة الى المدينة .

تحالف الشيخ محمد بن عبدالوهاب مع الامير محمد بن سعود وتعاهدا على أن يكونا يداً واحدة في نشر الدعوة الجديدة ومكافحة خصومها ، وكان ذلك ايذاناً بتحول الدعوة من طورها السلمي الى طورها الحربي .

أدخل الشيخ محمد في عقول أتباعه مبدأ الجهاد المقدس باعتباره أهم الفروض الدينية ، وبذا وضع إصبعه على النقطة الحساسة في المجتمع البدوي وهي الغزو والغنيمة ، فصارت القبائل تتهافت على الانضمام الى الدعوة الجديدة ، وكان كل نصر تناله الدعوة في غزواتها يزيد من عدد أتباعها ومن حماسهم لها .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ما جاءت به الدعوة الجديدة من استنكار لعقيدة الشفاعة وتكفير لاصحابها كان عاملا مهماً في نجاحها ، فهو قد أعطى لاتباعه حجة لغزو المخالفين لهم باعتبارهم مشركين تحل دماؤهم وأموالهم ونساؤهم . أضف الى ذلك أن البدو بطبيعتهم لا يهتمون بعقيدة الشفاعة كما يهتم بها الحضر ، فهم لم يتعودوا على الوساطة في حياتهم الاجتماعية ، وليس لديهم حكام مستبدون كما هو الحال عند الحضر ، ولذا

(١) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد وتاريخ الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص٣٧ .

فهم يستطيعون أن يفهموا المبدأ الوهابي في استنكار الشفاعة ويستجيبوا له من غير صعوبة • ولعل هذا هو السبب الذي جعل الدعوة الوهابية يسهل انتشارها بين البدو بينما هي من الصعب انتشارها بين الحضر ، إن الفرد الحضري الذي اعتاد على الشفاعة في علاقاته مع حكامه يصعب عليه أن يستغني عنها في علاقاته مع ربه • يمكن القول بوجه عام إن أكثر العقائد والطقوس الموجودة لدى العامة هي صدى لعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، ثم يأتي رجال الدين بعدئذ فيؤيدون العامة فيما يعتقدون وما يفعلون •

بين المحاسن والمساوىء :

يقول ابن سند البصري في وصف الحركة الوهابية ـ وكان معاصراً لها تقريباً ـ : « ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها • ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها ، وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر ، خصوصاً بين الحرمين الشريفين • ومنعوا من غزو الاعراب بعضهم على بعض ، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم ـ من حضرموت الى الشام ـ كأنهم اخوان أولاد رجل واحد ، وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر في زمان ابن سعود ، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش الى الانسانية ••• فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين • ويُفهم عقلا من سياستهم أنه اذا فُقد القاتل والسارق والناهب فأي سبب يمنع الناس من الاشتغال بالزراعة أو التجارة أو اقتناء المواشي في البادية المخصبة للتكسّب من ألبانها وأصوافها وجلودها، واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون ، فكأن المسألة شبيهة بالدورية ـ أي متى وُجد الامان ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالحلال وُجد الامان ، ولكن هذا الدور منفك الجهة ، ولولا ما في الوهابيين من هذه النزعة أعني نزعة تكفير

من عداهم لملكوا جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ، ولكن بسبب هذه النزعة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول ... »[1] .

ان هذا القول الذي جاء به ابن سند هو تحليل اجتماعي لا بأس به ، ولكننا نستطيع مناقشته من ناحيتين : الاولى أنه اعتبر نزعة التكفير لدى الوهابيين من أسباب فشلهم وبغض الامم لهم ، وقد نسي أن هذه النزعة هي التي أعطتهم الحجة المشروعة لقتال المخالفين لهم ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ ولولاها لما تهافتت القبائل البدوية على الدخول في الدعوة وأبدت فيها ذلك الحماس المنقطع النظير .

ومن الناحية الثانية يقول ابن سند إن قسوة الوهابيين في تأديب الناهب والقاتل هي التي أمنت الطرق في الصحراء ، وهذا رأي لا يخلو من وجاهة ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن القسوة في التأديب لا تكفي وحدها في هذا الشأن ، فالبدو الذين قامت ثقافتهم الاجتماعية على الغزو والنهب منذ قديم الزمان لا يمكن أن يتركوا ذلك ما لم يجدوا مجالا آخر يعوضهم عنه على وجه من الوجوه .

الواقع ان الدعوة الوهابية أشغلت البدو بغزو أوسع نطاقاً وأكثر غُنماً مما كانوا قد اعتادوا عليه من قبل ، إنها فتحت أمامهم المجال لغزو البلاد المجاورة بدلا من غزو بعضهم بعضاً ، فانثالوا على تلك البلاد يغنمون منها ما لم يكن يحلمون به في غزواتهم السابقة ، وذلك بالاضافة الى ما سوف يفوزون به من غنائم كبرى في جنة الفردوس .

إن البدو بوجه عام لا يمكن أن يتركوا عادة النهب والغزو ما داموا بدواً ، انما تتحول تلك العادة عندهم من صورة الى أخرى ! .

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٨١ـ٨٢ .

أثر الدعوة في العراق :

كان الامير محمد بن سعود قد توفي في عام ١٧٦٥ فخلفه على الامارة ابنه الاكبر عبدالعزيز ، وقد سار هذا على سيرة أبيه في التحالف والتعاون مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب لنشر الدعوة الجديدة بالسيف ، ونال في هذا السبيل انتصارات عديدة جعلته سيد الصحراء .

ومنذ عام ١٧٩٠ أخذ الخطر الوهابي يهدد العراق ، فقد ظهرت على الحدود من ناحية الصحراء جماعات وهابية وسمت ابلهـا بشارات بارزة وهي تحمل رقاعاً دينية غريبة ، وصارت تغزو مراعي الظفير والمنتفق والشامية . وكذلك أخذ الدعاة الوهابيون يتسللون الى العراق يحاولون نشر الدعوة الجديدة في أوساط العشائر والمدن ، فكانوا يرتادون مضائف الشيوخ في الفرات ليخطبوا فيها ويستغلوا العداء الموجود لدى العشائر ضد الحكومة العثمانية ووالي بغداد[1] .

وفي المدن بدأت الدعاية الوهابية تنتشر هنا وهناك فتؤثر في بعض الافراد لا سيما في رجال الدين السنيين ، وأخذ الجدل يظهر بينهم فمنهم من وجدوا في الدعوة الوهابية تنقية للاسلام من البدع المستحدثة وعودة الى سنة السلف الصالح فحبذوها ، ومنهم من وجدوا فيها انكاراً لفضل الاولياء وكراماتهم فشجبوها .

يحدثنا المؤرخ الموصلي ياسين أفندي العمري عن أحد القضاة في أيامه أنه كان مجاهراً بعقيدته « السلفية » وهو ملا محمد بن ملا أحمد الموصلي المعروف بابن الكولة ، وقد كان هذا الرجل قاضياً في ديار بكر ثم نُقل الى بغداد في عام ١٧٩٤ ، وعند مروره بالموصل في طريقه الى مقر عمله الجديد أخذ يرتاد ديوان آل الجليلي فيها وكان لا يتكتم في الانكار

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١١ .

على الاولياء كالشيخ عبدالقادر الكيلاني والشيخ محي الدين بن عربي ، وكان يقول : إنه لو حصل بيده صندوق الشيخ عبدالقادر لأوقده بالنار وغلى عليه قهوة • ويعلق ياسين العمري على ذلك قائلا بأن هذا القاضي اذا ذهب الى بغداد فسيطرده حاميها الشيخ عبدالقادر أما اذا سار الى الروم فسوف يتلقاه الشيخ محي الدين وربما قتله أو أعاده الى فقره وضعفه • وقد وقع ما تنبأ به ياسين العمري فعلاً ، إذ لم يستقر القاضي في بغداد سوى شهرين ، ثم نفاه منها واليها سليمان باشا ، « فخرج منها خائفاً يترقب ••• وتوجه الى بلاد الروم وقد وهنت دعوته وضعفت همته »[1] •

بداية العداء مع الدولة :

في عام ١٧٩٦ وردت الاخبار الى بغداد أن الامير عبدالعزيز بن سعود استولى على منطقة الاحساء التي تتاخم العراق من الناحية الجنوبية ، واحتل القطيف والعقير حتى وصل ساحل الخليج ، وأشيع عنه أنه عند احتلاله تلك المنطقة قتل نحو مائتين من العلماء فيها[2] • ومن الجانب الآخر أخذ ابن سعود يهدد طريق الحج مما جعل شريف مكة يكتب الى السلطان يستغيث به ، فأرسل هذا الى والي بغداد سليمان باشا الكبير يأمره أن يسير بقواته « لتأديب العصاة » •

يبدو أن الوالي سليمان باشا كان يومذاك قد أنهكته الشيخوخة ، ويقال انه كان قُبيل ذلك كتب الى السلطان يستعفي من الحكم لضعفه عنه فلم يقبل السلطان منه ذلك • واضطر الوالي في عام ١٧٩٧ أن يكلّف ثويني شيخ المنتفق ـ بعد أن صالحه واسترضاه ـ بالمسير الى حرب الوهابيين وأمر أن يلتحق به حملة البنادق من جند البصرة وهم «البلوج» مع خمس قطع من المدافع • وسار ثويني نحو الاحساء مع جمع من عشائر

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٣٥ـ٣٦ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص١٢١ •

المنتفق وعقيل والظفير وبني خالد وغيرهم • ولكنه عند وصوله مع قواته الى عين الشيبك هجم عليه في خيمته عبد زنجي اسمه « طعيس » فأغمد حربته في صدره وهو يهتف « الله أكبر ! » •

لم يكد ينتشر خبر موت ثويني في جموع العشائر التي كانت معه حتى شاع فيها الذعر وتفرقت شذر مذر ، وانتهز الوهابيون الفرصة فإنثالوا عليها يقتلون وينهبون فغنموا منها المدافع والقنابل كما غنموا شيئاً كثيراً من الابل والغنم والزاد والمتاع •

فوجىء الوالي سليمان باشا بفداحة هذه الضربة التي لم يكن يتوقعها ولعله كان يظن أن الحركة الوهابية أمرها هين لا يحتاج قمعها الى كبير عناء ، ثم تبين له أنها أعظم مما كان يظن •

ولم تمض على تلك الهزيمة سوى أشهر معدودة حتى أغار سعود بن عبدالعزيز على قرية « أم العباس » قرب سوق الشيوخ فقتل من سكانها عدداً كبيراً ، ثم أغار بعدئذ على العين المعروفة باسم « الابيض » قرب السماوة ، وكانت قد اجتمعت فيها عشائر عراقية كثيرة كشمر والظفير وآل بعيج والزقاريط ، فدهمهم في بيوتهم وغنم أكثر ما لديهم من إبل ومتاع ، كما قتل عدة رجال من فرسانهم كان منهم مطلق بن محمد الجرباء رئيس شمر[1] •

حملة الأحساء :

اهتم الوالي بالامر فأعد حملة كبيرة بقيادة الكهية[2] علي باشا

(١) المصدر السابق ، ج٦ ص١٢٣–١٢٦ •

(٢) الكهية لفظة مختزلة عن « الكتخداء » الفارسية وكانت في عهد المماليك تعني معاون الوالي ومنفذ أوامره وقائد قواته ، وكان هذا منصبا كبيرا في تلك الايام يلي منصب الوالي في الاهمية • وقد تأتي لفظة «الكهية» في اللهجة العراقية أحيانا بصورة « الكخية » و « الچخية » •

للزحف على الوهابيين . وقد أمضى علي باشا صيف ١٧٩٨ كله في اعداد الحملة فحشد فيها خمسة آلاف انكشاري ، ومدافع كثيرة ، وقطعات من عشائر عقيل والعبيد وشمر والمنتفق وقشعم والظفير وغيرهم ، كما استأجر خمسة آلاف بندقي من النجادة ، وحين وصل الزبير سار معه الكثير من أهاليها .

إنها كانت حملة ضخمة حتى قيل إنها كانت تضم ثمانية عشر ألف فرس وعشرة آلاف بعير ، ولكن ضخامتها هذه لم تنفعها في مسير الصحراء وربما كانت وبالا عليها . وعندما وصلت الحملة الى قلعتي « الهفوف » و « المبرز » ظهر الفشل عليها ، فقد عجزت المدافع عن هدم أسوار القلعتين ، فاستعيض عنها بالمعاول من غير جدوى ، وبدأت الاباعر تهزل وينتشر فيها الموت ، وضج الجنود سأماً ، وصار الكثير منهم ينادون بضرورة العودة وعدم فائدة الاستمرار في القتال[1] .

وفي هذه الحالة الحرجة وصلت الى علي باشا رسالة من سعود يطلب فيها الصلح ننقلها فيما يلي بما هي عليه من أسلوب شبه عامي :

« من سعود العبدالعزيز الى علي ، أما بعد ما عرفنا سبب مجيئكم الى الحسا وعلى أي منوال جئتم ، أما أهل الحسا فهم أرفاض ملاعين ونحن جعلناهم مسلمين بالسيف ، وهي قريبة الآن وليس داخلة في حكم الروم وبعيدة عنكم ولم يحصل منها شيء يسوى تعبكم ، ولو أن جميع أهل الحسا وما يليها تؤدي لكم دراهماً ما تعادل مصروفاتكم التي عملتموها في هذه السفرة ، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك الا ثويني فهو كان المعتدي ولقي جزاءه ، فالآن مأمولنا المصالحة فهي خير لنا ولكم ، والصلح سيد الاحكام » .

وبعد مراسلات ومفاوضات وافق الفريقان على الصلح ، وعادت الحملة

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١٣ .

الى بغداد في شهر تموز من عام ١٧٩٩ • ولم يبق سوى اقامة المراسيم لتصديق شروط الصلح ، فأرسل ابن سعود رجلا من عنده الى بغداد ليمثله في توقيع وثيقة الصلح • وهنا حدثت المهزلة التي ضحكت لها بغداد : فقد زُيّن السراي وزخرفت جدرانه من أجل استقبال الممثل السعودي ، ولبس الوالي وحرسه أزهى ما عندهم من ملابس رسمية مزركشة واصطف الجند استعدادا للاستقبال ، ولكنهم فوجئوا بظهور رجل بدوي ذي أسمال يمشي بخطا سريعة ، وعندما دخل هـذا الرجل لم يلتفت الى الباشوات الذين حضروا للاحتفاء به ، بل تركهم جانباً وجلس القرفصاء بين يدي الوالي ثم قدّم وريقة وسخة وأخذ يخطب بلهجته النجدية خطاباً جافاً مهيناً[1] •

عودة النزاع :

لم يدم الصلح بين الفريقين طويلا ، إذ لم يمض على توقيع وثيقـة الصلح سوى مدة قصيرة حتى حدثت حادثة نسفته نسفاً ، وخلاصة الحادثة كما يرويها المؤرخ ياسين العمري هي أن قافلة من أعراب نجد جاءت الى العراق بحراسة فرسان من أتباع ابن سعود ، وقد وصلت القافلة الى بغداد فباعت ما لديها واشترت ما تحتاج اليه ثم عادت ، وعند مرور القافلة بالنجف في طريق عودتها الى ديارها شاهد الوهابيون شيخ الخزاعل وهو يقبل عتبة المرقد العلوي فهجموا عليـه وقتلوه ، واذذاك نشبت معركة داميـة بين الوهابيين والخزاعل دامت ثلاث ساعات قتل فيهـا عدد كبير من الفريقين ونهبت أباعر الوهابيين وخيلهم[2] •

وعندما علم ابن سعود بحادثة النجف أرسل الى والي بغداد يطلب منه ديات القتلى ويهدده بنقض العهد الذي بينهما ، فأرسل الوالي اليـه عبدالعزيز بك الشـاوي ليفاوضه في الامر ويعلمه بأن القتلى كانوا من

(١) المصدر السابق ، ص٢١٤ •

(٢) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٥٣ـ٥٤ •

الجانبين اذ قتل الوهابيون من الخزاعل مثلما قتل الخزاعل من الوهابيين ، ولكن ابن سعود ضحك عندما كلمه الشاوي بهذا الشأن وقال له : « أما كفى الوزير أننا تاركوه يحكم بغداد ؟ والله عن قريب ترى جميع غربي الفرات لنا وشرقيه له » • ويروي ابن سند أن عبدالعزيز الشاوي أثناء مكوثه بين الوهابيين من أجل المفاوضة تأثر بهم ومال الى مذهبهم[1] •

كان من نتائج فشل المفاوضة أن صار الوهابيون يظهرون هنا وهناك غرب الفرات فيقطعون الطرق ويغيرون على القرى • وفي شهر أيار من عام ١٨٠٠ نهبوا قافلة كانت قادمة من الشام ، بالقرب من بلدة عانه ، وقتلوا عددا من العانيين[2] • وفي رواية ياسين العمري أنهم أغاروا على بلدة عانه نفسها ونهبوا بعض بيوتها وقتلوا أربعين شخصا من سكانها ، ثم أغاروا بعدئذ على كبيسة ولكن عشيرة العبيد قاتلتهم فولوا الأدبار[3] •

الطاعون وواقعة كربلا :

في شهر شباط من عام ١٨٠٢ بدأ ينتشر في بغداد طاعون شديد فاضطر الوالي وحاشيته الى مغادرة بغداد والذهاب الى الخالص بغية الابتعاد عن منطقة الوباء • وكان الوالي يومذاك مصاباً بداء المفاصل وقد تجاوز الثمانين من عمره ، ولم يكد يستقر به المقام في الخالص حتى وصله نبأ من شيخ المنتفق حمود الثامر يعلمه بأن جيشاً وهابياً قادماً نحو العراق يريد الانتقام لحادثة النجف •

لم يكن الوالي في وضع يؤهله لمجابهة الخطر فترك الامر للكهية علي باشا ، والظاهر أن هذا الكهية لم يكن متحمساً للامر أو راغباً فيه من

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٧٢ •
(٢) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص ٥٠ •
(٣) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٥٧ •

أعماق قلبه ، فخرج من بغداد ولكنه توقف في موقع « الدورة » زاعماً أنه ينتظر التحاق العشائر به ، وبينما كان على وشك مواصلة السفر من هناك جاء الخبر بالكارثة الرهيبة التي أنزلها الوهابيون في كربلاء . فسار الكهية بقواته مسرعاً غير أنه وصل البلدة بعد فوات الاوان[1] .

وقد عثرنا على وصف طريف باللهجة العامية للحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد في تلك الفترة ، وتأثير الوباء فيها ، كتبه تاجر مسيحي كان يسكن بغداد يومئذ اسمه يوسف بن ديمتري المقدسي . وفيما يلي ننقل الوصف بنصه لاهميته :

« ثم أنه في رمضان قبل توجه الكروان المذكور الموافق في شباط حصل أمراض وحميات وبائية وموت غفلة في الجانب الآخر من بغداد ما يلي الباب المسمى الشيخ معروف وباب الكاظم ، وحصل الوهم في آل بغداد لانه طاعون ، وكان يموت من الجانب المذكور كل يوم مقدار من ٢٠ الى ٢٥ الى ٣٠ منهم . كثرة وافرة طفروا الى البرية وما بقي من ذلك الجانب الا ما قل ، وكان يزيد وينقص ، وفي كل ذلك لم يصر شيء عند النصارى ولا اليهود . وفي ثالث يوم العيد في شهر ذي الحجة (١٢١٦) ظهر خبر أن حضرة واليها سليمان باشا مراده التوجه ثاني يوم ، فخافت الناس جداً ، وكان هذا الخبر مسموعاً ، والتجار المعتبرين من الاسلام خرجوا من بغداد ، بعضهم بأذن .. بعضهم بغير اذن ، الى ديرة العرب . والوزير المشار اليه نهار السبت خامس العيد خرج هو ودائرته مع الحرم والمماليك وخزينته جميعاً ، ووقع الخوف في قلوب الناس من أنواع شتى . ومن هذه الاسباب تعطلت الاسباب وحصل وقوف حال عظيم واختلال بين الرعية . والوزير بعده بعيد عن بغداد مقدار ساعتين (فقط) . وفي ١٨ ذي الحجة ورد من الوهابي عسكر جرار بكثرة وافرة الذي لم يتحقق

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢١٦-٢١٧ .

عددهم الى مقام الحسين الذي يبعد عن المشهد مسير يوم ••• ووقت فتوح الباب دخل العسكر غفلة ••• »[1] •

تفصيل الواقعة :

كانت واقعة كربلا قد حدثت في يوم ٢٢ نيسان من سنة ١٨٠٢م ، وهو يوافق يوم ١٨ ذي الحجة من سنة ١٢١٦هـ • وهذا اليوم كما هو معروف من أعياد الشيعة ويسمى « عيد الغدير » ، وقد دخل الوهابيون بلدة كربلا يومذاك على حين غرة وهم شاهرون سيوفهم يذبحون كل من يلقونهم في طريقهم ، ولم يستثنوا منهم الشيوخ والنساء والاطفال[2] •

اختلف المؤرخون في عدد القتلى في ذلك اليوم فقدره بعضهم بثمانية آلاف بينما قدره آخرون بأقل من ذلك ، وقيل ان الوهابيين قتلوا عند ضريح الحسين خمسين شخصا ، وفي الصحن خمسمائة • ونهبوا كل شيء وقع في أيديهم ـ من الدور والحوانيت والمرقد المقدس ـ وكان أهم ما غنموه هدايا الملوك من النفائس والتحف والاحجار الكريمة التي كانت مخزونة في ضريح الحسين ، وحاولوا قلع صفائح الذهب من على الجدران فلم يوفقوا •

ويذكر السائح الهندي مرزا أبو طالب خان ـ وكان قد زار كربلا بعد الواقعة ـ أن الناس كانوا يتهمون عمر أغا حاكم البلدة بأنه كان متواطئاً مع الوهابيين وقام بمكاتبتهم ولم يعمل شيئاً لحماية البلدة ، والثابت أنه هرب الى قرية قريبة من كربلا أول ما علم بالخطر فلم يدافع قط • وقد قتله سليمان باشا أخيراً • ويقول أبو طالب انه لقي بكربلا عمته المسماة « كربلاي بكم » ونسوة من حاشيتها وكان الوهابيون قد سلبوهن كل ما يملكن فأعانهن بما استطاع من المعونة • ثم ذكر أبو طالب أن الوهابيين

(١) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج١ ص٥٠ـ٥١ •
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١٥ •

قتلوا خمسة آلاف انسان وجرحوا عشرة آلاف ...[1] .

الغارة على النجف :

ترك الوهابيون كربلاء وهم فرحون بنصرهم وغنائمهم ، وكانوا يقولون : « لو لم نكن على الحق لما انتصرنا »[2] . فتوجهوا بعدئذ نحو النجف بغية أن يفعلوا بها مثلما فعلوا بكربلاء ولكنهم لم يوفقوا في ذلك اذ كان أهل النجف قد استعدوا لهم ودافعوا عن بلدتهم دفاعاً مستميتاً . وقد وصف الحادثة أحد الذين شهدوها من سكان النجف فقال : « لما جاء سعود الى النجف وأحاط بها واشتغل الرمي بالرصاص من الطرفين قُتل من أهل النجف خمسة ... وكانت شدة عظيمة على أهل النجف لعلمهم بما صنع بأهالي كربلاء من القتل والنهب ، وبما فعل بمكة والمدينة ، ولذا برزت المخدرات من خدورها ومعهن العجائز يشجعن المقاتلين ويقفن على كل فرقة فرقة ويقلن : أما تستحون على نسائكم أن تُهتك وأموالكم أن تنهب وتذهب غيرتكم . واستغاثوا كلهم بأمير المؤمنين (ع) وعجوا الى الله بالبكاء والعويل ، واستجاروا بحامي الجار فأجارهم فهزم المنافقين وشتت شملهم ، وشوهدت ضرباته المعلومة »[3] .

وبعد أن انسحب الوهابيون من حول النجف أسرع النجفيون فنقلوا خزانة المرقد الثمينة الى الكاظمية مخافة أن يعود الوهابيون مرة أخرى فينهبوها كما فعلوا بخزانة الحسين في كربلاء وقد عاد الوهابيون الى النجف فعلا ــ ولكن بعد خمس سنوات كما سنأتي اليه في حينه ــ غير أنهم لم

(١) أبو طالب خان (رحلات في آسيا واوربا وأفريقيا) ــ لندن ١٨١٠ ــ نقلا عن ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢١٥ (الحاشية) .

(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص٧٤ .

(٣) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ــ النجف ١٩٥٨ ــ ج١ ص٣٢٦ .

يحظوا منها بطائل فانسحبوا عنها خائبين كما فعلوا في المرة الاولى .

اثر الواقعة في الشعر :

كان تأثير واقعة كربلاء في الشعب العراقي شديدا ـ ولا سيما في الشيعة ـ وقد ظهر أثره في الشعر واضحاً . يقول ابراهيم الوائلي : « ... ومن الطبيعي أن تثير هذه الحادثة شعراء الشيعة على الاخص لانها استهدفت المدينة التي تضم مرقد الامام الحسين بن علي وانتهت بنهب الضريح المقدس وهدمه وقتل كثير من المجاورين له وفيهم رجال الدين والاطفال والنساء . وقد نظر الشعراء الى هذه الحادثة كأنها تجديد لمأساة الحسين يوم استشهد في كربلاء مع اخوته وأبنائه وأنصاره ، فبكوا وسخطوا وأثاروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم ... »[1] .

وكان من أبرز الشعراء الذين استفزتهم هذه الحادثة الحاج هاشم الكعبي والحاج محمد رضا الازري ، ويليهما الشاعر حسين بن سليمان الحكيم الحلي . وكذلك تأثر بها من الشعراء السنيين عثمان بن سند البصري فقد كان هذا الشاعر يعتبر الوهابيين من أهل الزيغ والضلال ويدعو الى قتالهم باسم الدين لانهم في رأيه مارقون خارجون عن اجماع المسلمين وطاعة السلطان .

وهناك شاعر عراقي آخر سلك تجاه الوهابيين سلوكاً مزدوجاً هو السيد عبدالجليل الطباطبائي من أهل البصرة ، فقد كان هذا الشاعر من تجار اللؤلؤ وكثيراً ما كانت أعماله تضطره الى السفر الى الكويت والاحساء والبحرين وغيرها من المناطق التي احتلها ابن سعود . فهو ضد الوهابيين حين يكون في البصرة ، وهو معهم حين يكون في ديارهم . وعلى أي حال

---

(١) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسى العراقي في القرن التاسع عشر) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص١٢٣ .

فهو كان الشاعر العراقي الوحيد الذي مدح الحركة الوهابية وعدها احياءاً للدين وتشييدا لاركانه وقمعاً للبدع ، وهو في ذلـــك لا يختلف عن أي شاعر كان يعيش مع السعوديين آنذاك . وقد وفد في عام ١٨١٠ عـــلى سعود بن عبدالعزيز فألقى بين يديه قصيدة يمدحه بها جاء فيها هـــذان البيتان :

جمعت شتات المكرمات سجية
فسدت الورى مجـــداً وفقتهم فخرا

وظاهـــرت دين الله بالبيض والقنـــا
وبرهانك القرآن والسـيرة الغـــرا[1]

أثر الواقعة في ايران :

عندما وصل خبر واقعة كربلا الى الشاه فتح علي القاجاري تأثر غاية التأثر ، وأمر باعلان الحـداد في أرجـــاء ايران ، ولبس السواد هـــو وحاشيته ، وأقيمت المآتم في كل مكان .

وأرسل الشاه احتجاجاً شديد اللهجة الى حكومة بغداد ألقى فيـــه على عاتقها تبعة الواقعة متهما اياها بالتقصير في أمر الدفاع عن كربلا مـــع علمها بنيات الوهابيين . وأوضح الشاه بكلمات جـــازمة عزمه على تأليف جيش جرار للانتقام من الوهابيين وأنه سيهاجم بغداد في طريقه ويحتلها . وقد تسلم الوالي سليمان الكبير هذا الانذار وهو في آخر رمق من حياته فلم يستطع الرد عليه . أما الشاه فقد فوجيء بهجوم على حدوده الشمالية من قبل روسيا فشغل به عن الانتقام[2] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ ـ ١٤٥ .

(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ٨٢ .

فتح الحجاز :

توجه الوهابيون بعد واقعة كربلا نحو فتح الحجاز ، وفي شهر نيسان من عام ١٨٠٣ ـ أي بعد مرور سنة واحدة على واقعة كربلا ـ استطاعوا أن يفتحوا مكة ، وفي ربيع السنة التالية فتحوا المدينة فخربوا المسجد النبوي ونهبوا التحف التي فيه وهي من هدايا ملوك الهند ومصر والسلجوقيين والعثمانيين[1] ، وقيل ان سعود أرسلها الى الهند وباعها هناك[2] .

وفي موسم الحج في عام ١٨٠٦ بدأ الوهابيون يشجبون بعض الشعائر التي يقوم بها الحجاج ويحاولون منعها باعتبارها بدعاً مخالفة للسنة . وكان الحجاج الآتون من مصر والشام يجلبون معهم محامل مقدسة ، فانبرى سعود يسأل أميري الحج المصري والشامي متحديا لهما : « ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها ؟! » ، فلما أجاباه بأن تلك المحامل اشارة لاجتماع الناس وهي عادة قديمة قال لهما : « لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام ، وان أتيتم بها فاني أكسرها » . وكذلك اشترط عليهما أن لا يأتيا بالطبول والزمور وغيرها من الأمور التي جرت العادة عليها .

وفي موسم الحج التالي عندما وصلت قافلة الحجاج القادمة من جهة

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ٩٤ .
(٢) كان من جملة تلك التحف المنهوبة قطعة من الماس لا تقدر بثمن اسمها « الكوكب الدري » ، غير أنها اعيدت الى موضعها من المسجد من قبل ابراهيم باشا عندما جاء الى الحجاز لحرب الوهابيين وبقيت هناك حتى الحرب العالمية الاولى ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وقد إتهم الشريف حسين القائد التركي فخري باشا بسرقتها ـ والله وحده الذي يعلم بما جرى لها !

الشام وتركيا الى مشارف المدينة أُمرت بأن تعود من حيث أتت ، فاحتج على ذلك أمير الحج الشامي عبدالله العظم فلم ينفع احتجاجه شيئاً ، واضطر الحجاج الذين أنهكهم السفر طيلة الأسابيع الخمسة الماضية أن يعودوا الى دمشق دون أن يروا المدينة ومكة[1] . ويُروى أن الوهابيين أحرقوا في تلك السنة المحمل المصري ، ونُودي في الناس أن لا يأتي الى الحرمين من هو حليق الذقن ، ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون والشاميون عن الحج[2] .

النسبية الاجتماعية :

يحدثنا المؤرخ ابن بشر النجدي ـ وكان قد شهد بنفسه حالة الضنك والفقر التي كان أهل الدرعية عاصمة الوهابيين يعانونها قبل ظهور دعوتهم ثم انقلاب الحالة الى العكس من ذلك بعدئذ ـ فيقول : « لقد شاهدت ضيقهم في أول الأمر ثم الدرعية بعد ذلك في زمن سعود وما عند أهلها من الأموال الكثيرة ، وكثرة الرجال ، والاسلحة المحلاة بالذهب والفضة ، والخيل الجياد ، والنجائب العمانيات ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك من أسباب الثروة التامة بحيث يعجز عن عده اللسان ويكل من تفصيله البيان . ونظرت الى موسمها يوماً في الموضع المعروف بالباطن فوجدت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب آخر ، فرأيت من الذهب والفضة والأسلحة والابل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة واللحم والحنطة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه ، والموسم ممتد مد البصر وكنت أسمع أصوات البائعين والمشترين ، وقولهم بعت واشتريت ، كدويّ النحل فسبحان

---

(١) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) ص ١١٨ .

(٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٤٦ ـ ص ٢١٧ .

من لا يزول . »[1]

يمكن القول ان هذا الرفاه الذي تمتعت به عاصمة الوهابيين كانت قد تمتعت بمثله جميع عواصم الدول الفاتحة على توالي العصور ، انما يجب أن لا ننسى أنه رفاه تم على حساب الكوارث والمصائب التي حلت بالبلاد المفتوحة . وهنا يتضح مصداق النسبية الاجتماعية بكل وضوح ، فالذين حصلوا على الرفاه لا بد أن يلهجوا بمدح الدولة التي جاءت به ويعتبرونها خير دولة اخرجت للناس ، بينما أهل البلاد المفتوحة ينظرون الى تلك الدولة نظرة اخرى ويعتبرونها على النقيض من ذلك ألعن دولة في الوجود . كل فريق ينظر اليها من زاويته الخاصة به ، وهذا هو ديدن البشر منذ خُلق البشر ، وفيه يكمن سرٌ مهم من أسرار التأريخ !

---

(١) ابراهيم فصيح الحيدري (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٣٣ .

الفصل الثامن

المماليك بعد سليمان الكبير

درسنا في فصل سابق فترة التنازع الاولى من عهد المماليك وهي الفترة التي بدأت في عام ١٧٦٢ عقب وفاة سليمان باشا « أبو ليلة » ، واستمرت ثمانية عشر عاما ، حيث اشتد فيها التنافس على الحكم بين المماليك واشترك معهم سكان المحلات البغدادية ، وسنحاول الآن دراسة فترة التنازع الثانية وهي التي بدأت عقب وفاة سليمان باشا الكبير في عام ١٨٠٢ .

النزاع على الخلافة :

كان لسليمان الكبير عند وفاته ثلاثة أولاد صغار هم سعيد وصالح وصادق ، وأربعة أصهار هم علي باشا الكهية وسليم أغا وداود أغا ونصيف أغا ، وقد جمعهم قبيل موته ـ ومعهم محمد بك الشاوي الذي كان يتولى منصب « باب العرب » ـ وأوصاهم أن يولوا من بعده صهره علي باشا الكهية وأن لا يختلفوا عليه ، وحذرهم من مغبة التنازع والاختلاف فيما بينهم اذ قال باللهجة العامية حسب رواية التاجر يوسف بن ديمتري المقدسي الذي كان يسكن بغداد يومذاك : « اذا كنتم قلب واحد وبينكم محبة لا يتسلط الغريب وتحوزوا الدولة التي اقتنيتها ، والا متى تفخذتم عن بعضكم فتأتي الغرباء من الوزراء وتبدل الدولة والعائلة ... »[1]

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص ٥٤ .

لم تنفع هذه النصيحة والتحذير شيئاً ، فسرعان ما اشتعلت بغـــداد بالفتنة على أثر وفاة سليمان الكبير • يقول لونكريك : لم يـــكد سليمان باشا يلفظ أنفاسه الاخيرة ، أو ربما قبل ذلك بساعة ، حتى بادر أحمـد أغا رئيس الانكشارية بجمع من استطاع جمعهم من الرعـاع والسوقة واستولى على القلعة فتحصن بها وأخذ يضرب السراي بالقنابل ، وعندمـا سمع الناس هدير القنابل أسرعوا فأغلقوا دكاكينهم ، وامتـلأت شوارع بغداد بالمسلحين من الأهالي ، وبقيت الحالة متقلقلة يوماً بعد يوم كما ظلت النتيجة معلقة[1] •

يبدو أن أحمد أغا كان متآمراً مع الصهر الثاني سليم أغا فكان يريد الولاية له بدلا من علي باشا الذي أوصى به الوالي الراحل ، بينما كـــان محمد بك الشاوي من الجانب الآخر يريد الولاية لعلي باشا • والمظنون أن مشاجرة شخصية بين هذين الرجلين كانت من العوامل الفعالة في اشعال الفتنـــة •

وقد وصف التاجر يوسف المقدسي بلهجته العامية تلك الفتنة وكان شاهد عيان فيها ، وفيما يلي ننقل جزءاً كبيراً من وصفه لما فيه من تصوير غير متكلف للوضع الاجتماعي الذي كان سائداً حينئذ :

« ••• وفي نهار الثاني ــ أي بعد وفاة الوالي سليمان الكبير ــ نودي بالبلد باسم علي باشا بالأمان وكل من الناس يلزم حده في صناعته ، ولكن الينكجارية في ساعة وفاته توجهوا الى القلعة وضبطوها من يد الحكم لأنها منذ حكومة المشار اليه هي في يده والينكجارية مالهم اعتبار ، وسابقاً كانت في يدهم ، فالآن وجدوا الفرصة في تسليمها وابتدأوا يوما بعد يوم يتظاهرون

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العـــراق الحديث) ــ ترجمة جعفر خياط ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص ٢٢٠-٢٢١ •

ويكثرون • والجيل الذي لم يعرف الفترات الاولى من الجهال يــريد الافتتان ويدوروا وهم تحت السلاح ، وابتدأ الســكر الذي في كــافة أيام الوزير المشار اليه لم ير سكران في بغداد • ومن له عداوة أظهرها ، ولا عادوا يعتبروا الحكم ، وأحمد أغا المذكور ليلاً نهاراً دائراً في البلد ، أحياناً متنكراً ، أحياناً ظاهراً ، لتمهيد الفتنة •••

« وثاني يوم كذلك الى نهار الخميس في ١٩ جمادي الموافق ٤ أيلول ظهر أنهم لم يريدوا علي كهية المذكور لأنه ظهر منه حركات لأجل أخذ القلعة ، وليس الأمر كذلك ، ولكن في هذا اليوم قيل عن الأغا المذكور حنق على كهية باشا فطلع من عنده وهيَّج البلد كلها ، فتبعه ينسكجارية الميدان والشورجة والأسافل الذين في بغداد أرباب النهيبة المنتظرينها كل الايام الماضية ، وأما محلة الشيخ ومحلات الباب الوســطانية فلم يتبعوه ، فمضوا ألوف ألوف الى أطراف السراية وعملوا متاريس في كل الاطراف ، وابتدأ الضرب بين الفريقين من العصر الى الصباح بالتفنك والطوب من القلعة على السراية ، وآل السراية الكروج تضــرب من المتاريس التي بالسراية •

« ونهار الجمعة طالعوا دلال أنه سـليم بيك قيم مقــام وأجلسوه بالسراية ، ونادى المنادي باسمه ، وأما الأسواق أكثر أربــاب الدكاكين نقلت أموالها الى الخانات حذراً من النهب • وفي هذه الثلاث الليالي حصل تعد من الينكجرية على النصارى واليهود بالليل في طلب دراهم ، والبعض أخذوا منهم •

« ونهار السبت صباحاً غادر الناس جميعاً الا المحلتين المذكورتين ، والأغا المذكور أشهر غضبه بأنه يريد قتل كهية بيك وقتل محمد بيك ونهب أموالهما ، فابتدأ الحرب بينهما من قبل العصر ، والطوب يشتغل من القلعة على السراية ، وادهم الظلام وهم كذلك • وأمــا الينكجرية ومن يتبعهم

وجدوا الفرصة ، والحرب قائم في الميدان ، ابتدأت تنهب الدكاكين فلم يبقى ولا دكان من جميع أسواق المتاجر والعطاطير والبقاقيل التي لاعدد لها ، فتحوها ونهبوها حتى أقفالها .

« أما محمد بيك من الجانب ـ أي جانب الكرخ ـ أرسل أحضر كهية علي باشا الى عنده في سفينة من الشط وقال له لا تخف ، وأمر العكيل وعرب الجبور في الليل فدخلوا بالسفن وصرخوا : لعينك يا علي باشا ! وهجموا مع جملة من الكروج على المتاريس وحرقوا قطعة من السوق الموجه الى الميدان لئلا تكون فيه الكماين في الدكاكين ، وهجموا والنار مشتعلة ، فالذين قدامها في الكماين من رؤيتهم النار هربوا ، وهم وراهم وصاحوا بهم حتى تقطعت قلوبهم وهم مجردين سيوفهم الى الميدان ، فتبددت تلك الألوف التي لا عدد لها ، ورأسهم الأغا انهزم واختبى ، والطوب لا يزال يشتغل من القلعة لان هناك من الينكجرية جملة وافرة ورئيسهم كوسه حسين وهذا رجل من التجار غير أنه أحب التكبر .

« وبعد الظهر قامت العلماء والمفتي وأخذوا الصنجق ـ أي علم الشيخ عبدالقادر ـ معهم ومضوا على القلعه لأنه لم يرتضوا بما فعله الأغا وأحزابه وقالوا : كل من أعان الأغا على غيه فقد كفر لأن الاطاعة واجبة الى ولي الأمر . ولما أبصروهم من القلعة ، ورأوا تلك الجموع فرقتها العكيل ، فخافوا جداً . والعساكر والعكيل عسكروا أمام باب القلعة وضربوا طوب على بابها الصغير ، فتحوه ودخلوا ، والذين بها أرموا أنفسهم من الأسوار ، منهم على الشط ، منهم على الأرض ، ومنهم سلّم ، ومنهم حصل على الهزيمة .

« أما صباح هذا اليوم الأحد قبل الفجر بعد أنهم أي العرب كسروا تلك الجموع جاء منهم فرقة على محلة اليهود ونهبوا بعض البيوت من اليهود ، ووقع صيحة عظيمة موهمة جداً . وأما كهية علي باشا رجع من

ذلك الجانب وجلس في سرايته ... وحينئذ أمر أن يمضوا وينهبوا بيته ـ أي بيت أحمد أغا ـ فحالاً في ظرف ساعة صار بيته خرابا دكداكا ، ونساؤه طلعت هزيمة ، وجواريه ضبطوها العسكر مع جملة الأموال التي طلعت في بيته . وأمر المنادي ينادي في البلد : كل من وجد الظالم المذكور وأتاني به ويخبر به له جائزة ألف ذهب . ثم مسك أعوانه وأقربائه . وثاني يوم نهار الاثنين بينما المنادي ينادي وجدوا مملوكا له عبد أسود ، فودوه الى السراية ، أمر بضربه فأقر أنه في بيت في عقد في محلة رأس القرية ، فجاؤوا أخرجوه من بيت واحد كان أتباعه سالفاً . فليعتبر كل ظالم ! لان رؤيته في أخذه بها كفاية لاعتبار كل ظالم ، لأنه حملوه كأنه حمل بجملة من العسكر والعكيل حافي الأرجل مكشوف الرأس بهيئة الموت ، وأمامه ووراءه خلق لا تعداد لهم ، ولما وصلوا به الى السراية أمام علي باشا المذكور قام وضربه بيده بالغدارة ضربتان ، وأمر بتقطيعه ، فسحبوه من السراية الى وسط الميدان . وكل يضربه ضربة ، بالسيوف والخناجر ، وحصلت نهايته نهاية تعيسة ، وأمر بالتفتيش على موجوداته . فهذا نهاية من لا يحفظ وداً ![1] ... »

الجانب الطائفي :

ان هذا الوصف الذي نقلناه عن التاجر يوسف يدل على أن النزاع كان في أول أمره بين المماليك والانكشارية ـ أو بين الكروج والينكجرية على حد تعبيره ـ ثم انضم اليه أخيرا أهل المحلات البغدادية . والملاحظ أن التاجر يوسف أهمل في معرض وصفه للنزاع ذكر جانب مهم منه هو الجانب الطائفي ، مع العلم أن بعض المؤرخين لا سيما ياسين العمري

---

(١) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج١ ص ٥٤ـ٥٨ . (كل عبارة بين شرطتين هي من المؤلف ويقصد بها التوضيح) .

أشاروا الى هذا الجانب اشارات واضحة ، حيث ذكروا أن الشيعة من سكان بغداد وقفوا الى جانب أحمد أغا رئيس الانكشارية بينما وقف أهل السنة الى جانب علي باشا الكهية . والى القاريء نص ما قاله ياسين العمري في كتابه « غرائب الأثر » حول تلك الحادثة :

« ... ونهض في بغداد الأمير محمد بك الشاوي وجمع الناس من أهل السنة وحملوا سنجق الامام الاعظم وسنجق الشيخ عبدالقادر الكيلاني وهجموا على القلعة وملكوها وهرب الينكجرية ومن تابعهم من الرافضة ، ونهبت بيوت اليهود وبعض بيوت المسلمين الروافض ونهبت الاسواق ، وعبر دجلة علي باشا ودخل السراي ... » . ثم قال بعد ذكر انتهاء الحادثة : « وشرع علي باشا يقتل الرافضة ويصادر أغنياءهم ... »[1]

يرجح في ظني أن هذه كانت الحادثة الوحيدة التي وقع فيها نزاع طائفي في بغداد طيلة عهد المماليك ، فالمعروف عن جميع معارك المحلات التي حدثت في ذلك العهد أنها كانت خالية من أي طابع طائفي وذلك لتجنب الشيعة عن التدخل في أي أمر له مساس بالسياسة ، فكانت المعارك تجري بين السنيين فقط من أهل بغداد باعتبار أنهم وحدهم الذين لهم الحق في مناقشة شؤون الحكم أو التدخل فيها .

والسؤال الذي يواجهنا هنا : ما هو السبب الذي أدى الى ظهور الطابع الطائفي في هذه الحادثة وحدها دون غيرها من حوادث عهد المماليك ؟

يبدو لي أن هناك عوامل متنوعة وراء ذلك أهمها اثنان ، أولهما أن أحمد أغا رئيس الانكشارية كان نفسه شيعيا وقد وصفه مؤلف « أعيان

---

(١) ياسين العمري (غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) ـ الموصل ١٩٤٠ ـ ص ٦٢ـ٦٣ .

الشيعة » بقوله : « سيد شريف جليل القدر من السلالة الطاهرة النبوية العلوية الفاطمية[1] » . والظاهر أن أحمد أغا كان على صلة وثيقة مع شيعة بغداد يحبهم ويحبونه ، فلما حدثت الحادثة استنجد بهم على خصمه علي باشا الكهية فهبوا لنصرته .

أما العامل الثاني فهو أن علي باشا الكهية لم يكن محبوباً في أوساط الشيعة من جراء تقاعسه عن حماية كربلا أثناء الغزو الوهابي ، ويجب أن لا ننسى هنا أن حادثة بغداد حدثت بعد أربعة أشهر من واقعة كربلا ، ومعنى هذا أن القلوب كانت لا تزال متأثرة بالواقعة على أي حال .

يقول ياسين العمري ان محي الدين بن عربي كان قد تنبأ بالحادثة اذ قال في « الشجرة النعمانية » : « ... نبأ قد ظهر ، طبق ما في الخبر ، خدمته الجيوش ، وجيشه الوحوش ، بقصد أقوام من أرباب الكلام ... الحامل للسداد ، يُقتل في بيت المهيب ... » ، فعدد « نبأ » في حساب الحروف يساوي عدد « أحمد » ، وعدد « الحامل » يساوي عدد « علي » أما « بيت المهيب » فالمقصود به المسجد لان علي باشا قُتل فيه أخيرا[2] .

عودة الوهابيين :

كان يقيم في بغداد شخص أفغاني الاصل اسمه « ملا عثمان » قيل انه نذر نفسه للدفاع عن الاسلام وعزم أن يقتل رئيس الوهابيين[3] ، وقيل في رواية اخرى انه من أهل كربلا وأنه كان فيها أثناء غزو الوهابيين لها

---

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) ـ دمشق ١٩٣٨ ـ ج٧ ص ٣٤٧ .

(٢) ياسين العمري (المصدر السابق) ص ٦٣ .

(٣) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ٢٢٧ .

وشهد بأم عينيه كيف ذبحوا زوجته وأطفاله فأقسم على الانتقام[1] • ومهما يكن الحال فقد ذهب ملا عثمان الى الدرعية عاصمة الوهابيين وهو بزي درويش فاختلط بهم حتى اطمأنوا اليه ووثقوا به ، فكان يصلي في الصف الثالث في صلاة الجماعة وراء الأمير عبدالعزيز بن سعود مباشرة • وفي يوم جمعة ـ في أواخر عام ١٨٠٣ ـ انتهز الفرصة أثناء الركوع فألقى بنفسه على الأمير وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف ، ولم يكتف بذلك بل طعن عبدالله شقيق الأمير وكان يصلي بجانب شقيقه فجرحه جرحاً بليغاً ولكن هذا أسرع بالرغم من اصابته فأهوى على القاتل بسيفه فقتله[2] •

تولى امارة الوهابيين بعد عبدالعزيز ابنه سعود ، وقد ظن هذا أن القتل جرى بتحريض من والي بغداد فعزم على الانتقام منه • ففي موسم الربيع من السنة التالية حين كانت عشيرة الظفير منتشرة في البادية وراء المراعي أغار عليها ابن سعود فنهبها نهباً ، ثم توجه نحو البصرة فدهم الجانب الجنوبي منها وقتل فيه الكثيرين ، وأغار على جماعة من المنتفق كانوا قرب البصرة برئاسة منصور بن ثامر السعدون فقتل بعضهم وأسر رئيسهم • وذهب الى قصر الدريهمية ـ وهو مشرب أهل الزبير ـ فهدمه وقتل من كان فيه • ثم توجه نحو بلدة الزبير فشرع بحصارها ، وأراد بث الرعب في سكان البلدة فأمر أتباعه عند غياب الشمس بأن يطلقوا رصاص بنادقهم كلها دفعة واحدة ، ولما سمع أهل الزبير ذلك ارتعبوا وصعدت النساء الى السطوح ووقع فيهم الضجيج مما أدى الى اجهاض بعض الحوامل ، ولكنهم صمدوا ولم يتخاذلوا • واستمر الحصار اثني عشر يوما حصد فيها الوهابيون المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك ، وهدموا جميع

---

(١) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٠٣ •

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣ •

القبور والمشاهد الموجودة خارج السور كمشهد طلحة والحسن البصري[1] ، ثم عادوا من حيث أتوا •

أرسل السلطان الى علي باشا في بغداد يأمره بالحاح أن يسير لحرب الوهابيين ، والظاهر أن علي باشا لم يكن يرغب في ذلك أو يشعر بالقدرة عليه ، فأخذ يقوم بحركات مظهرية ضد الوهابيين لا جدوى فيها •

وكان قد أشيع اذذاك أن محمد بك الشاوي وأخاه عبدالعزيز يميلان الى العقيدة الوهابية ولهما مراسلات مع سعود ، فأمر علي باشا بقتلهما مما أحنق عشيرتهما العبيد فقاموا بثورة شعواء ، وقد استفحل أمر الثورة على اثر تحالف عشيرة العبيد مع عبدالرحمن بابان الذي كان من جانبه متحالفا مع ايران ، فأدى ذلك الى توتر العلاقات بين العراق وايران ، ثم الى اعلان الحرب بينهما ، وكانت النتيجة أن هُزم جيش علي باشا تجاه الجيش الايراني هزيمة منكرة[2] •

الغارة على النجف :

وفي أواخر نيسان من عام ١٨٠٦ جاءت الأنباء الى أهل النجف بأن الوهابيين قادمون لغزوها ، فأخذ الكثيرون منهم يهربون من البلدة مخافة أن يفعل الوهابيون بها مثلما فعلوا بكربلا قبل أربعة أعوام • ولم يبق في النجف من حملة السلاح القادرين على الدفاع عنها سوى مائتين •

انبرى للدفاع عن النجف الشيخ جعفر الجناجي الذي كان يتولى الزعامة الدينية فيها ـ وهو صاحب كتاب « كشف الغطاء » ـ

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٤ ـ ج٦ ص ١٦١ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٤٥ •

وساعده بعض زملائه من رجال الدين فصار يجمع السلاح ويهيىء وسائل الدفاع • وفي الليلة التي أحاط الوهابيون بالبلدة كان الشيخ جعفر يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ، فأمر بغلق أبواب السور وجعل خلفها الصخور والاحجار ، وعيَّن لكل باب عددا من المقاتلين ، ولم يكتف بالمقاتلين من الاهالي بل جنّد معهم طلبة العلم •

وقد سجل أحد المجتهدين الذين شهدوا الواقعة ذكرياته عنها ـ وهو السيد جواد العاملي صاحب كتاب « مفتاح الكرامة » ـ فكتب في آخر الجزء الخامس من كتابه يقول : « تم هذا المجلد في أول شهر ربيع الاول سنة ١٢٢١ مع تشتت الأحوال واشتغال البال بما نابنا من الخارجي الملعون في أرض نجد فانه اخترع ما اخترع من الدين وأباح دماء المسلمين وتخريب قبور الائمة المعصومين ••• وفي سنة ١٢٢١ في الليلة التاسعة من شهر صفر قبل الصبح بساعة هجم علينا في النجف الأشرف ونحن في غفلة حتى أن بعض أصحابه صعدوا السور وكادوا يأخذون البلد فظهرت لأمير المؤمنين (ع) المعجزات الظاهرة والكرامات الباهرة فقُتل من جيشه كثيرا ورجع خائبا وله الحمد على كل حال[1] • »

مقتل علي باشا :

دام حكم علي باشا نحو خمس سنوات كانت مليئة بالقلاقل والمخاوف، وقد قتل أخيرا غيلة ، وكان قاتلوه جماعة من الكرج يرأسهم رجل اسمه مدد بك ، وكان هذا الرجل من المقربين الى علي باشا غير أنه كان يضمر له الشر ويحقد عليه • وفي فجر ذات يوم من عام ١٨٠٧ بينما كان علي باشا يصلي صلاة الصبح في المسجد هجم عليه مدد بك ـ اذ كان يصلي

(١) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ـ النجف ١٩٥٨ ـ ج١ ص ٣٢٧ •

بجانبه ـ فأغمد خنجره في خاصرته ، فسقط الوالي مضرجا بدمائه ، وأسرع القاتل مع أعوانه الى الخروج من المسجد هاربين .

التجأ القتلة الى دار سعيد بك بن سليمان الكبير فطردهم هذا وأغلق الباب في وجوههم ، واذذاك اتجهوا الى دار نصيف أغا فاستقبلهم هـذا وآواهم والظاهر أنه أراد أن يغتنم الفرصة للدعوة لنفسه ، فأرسلهم الى دار النقيب السيد رمضان متولي أوقاف الشيخ عبدالقادر وكان النقيب غائباً في بعض القرى فدخل القتلة داره وعزموا على الاحتماء بها والصمود فيها .

تولى الأمر في تلك الساعة سليمان باشا الكهية ـ وهو ابن اخت الوالي القتيل ـ فأمر بقصف دار النقيب بالمدافع الصغار ما اضطر القتلة المحتمين بها الى الخروج منها[1] . يقول رسول الكركوكلي : ان القتلة نظموا مع نصيف أغا مظاهرة وتقدموا بها نحو السراي وكان الغرض منها تنصيب نصيف أغا وكيلا للوالي غير أن الاعيان والعلماء أسرعوا وبايعوا الكهية سليمان باشا وأجلسوه مكان الوالي الراحل ، ونظرا لما يتمتع به الكهية من سمعة طيبة بين الناس فقد مالوا اليه على اختلاف طبقاتهم ، ولما اقتربت مظاهرة نصيف أغا من السراي خرج عليها الجند والأهلون ففرقوها وظلوا يطاردون أفرادها ، فهرب بعضهم الى جهة النهر حيث عبروا الى جانب الكرخ بواسطة القفف[2] .

وذكر ياسين العمري أن نصيف أغا ذهب الى جانب الكرخ يحرض الناس على مساعدة القتلة فلم يتابعه الناس وحملوا عليه وقتلوه ثم شدوا في رجله حبلاً و «سحلوه» في الازقة وعبروا به الى جانب الرصافة والناس

---

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص ٧٥ .

(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢٤٠ .

يتفرجون عليه[1] ...

أرجح الظن أن الاجراء السريع الذي قام به الكهية سليمان في مطاردة القتلة فورا هو الذي أنقذ بغداد من الانقسام والفوضى ، ولولا ذلك لربما وقعت في بغداد فتنة دامية ينقسم من جرائها سكان المحلات الى فريقين متطاحنين ـ هذا يؤيد سليمان باشا وذاك يؤيد نصيف أغا ـ على منوال ما يحدث عادة حين ينشب نزاع بين ولاة الامر في عهد المماليك .

الوالي الجديد :

عندما هدأت الحالة في بغداد اجتمع الأعيان والعلماء وزعماء المماليك فنصبوا سليمان باشا قائمقاما ـ أي والياً بالوكالة ـ حسب الاصول المتبعة في مثل هذه الاحوال ، وأرسلوا عريضة الى السلطان يذكرون فيها ما حدث ويسترحمون اصدار فرمان بتوجيه الولاية أصالة الى سليمان باشا . وحين وصلت العريضة الى اسطنبول اجتمع رجال الدولة وقرروا اغتنام الفرصة لتخليص ولاية بغداد من حكم المماليك ، ولكنهم سرعان ما غيروا رأيهم للاسباب التالية :

أولا : ان سفير فرنسا في اسطنبول تقدم بمذكرة الى الباب العالي قال فيها : « ان أحوال بغداد في حالة الاختلال وقوة سليمان باشا في غاية الكمال ، فيكون من مصلحة الدولة توجيه الولاية اليه . وانه يرى من واجبه أن يبلغ رأيه هذا الى الباب العالي بصورة ودية . »

ثانيا : ان رجال الدولة في اسطنبول كانوا يخشون أن يعينوا واليا من غير المماليك فيعلن المماليك العصيان على الدولة .

---

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٧٥ .

ثالثا : وردت الى اسطنبول عريضة ثانية من بغداد تكرر استرحام العلماء والاعيان في توجيه الولاية الى سليمان باشا ، ويُروى أن المبالغ التي أرسلها سليمان باشا مع العريضة لعبت دوراً حاسماً في هذا الامر[1] .

تم أخيرا لسليمان باشا الحصول على الفرمان بولاية بغداد ، وقد اشتهر هذا الوالي باسم « سليمان الصغير » تمييزا له عن سلفه سليمان الكبير ، ثم لقّب فيما بعد بـ « القتيل » لانه قُتل بدوره ولكن مقتله كان أفظع من مقتل خاله علي باشا وأكثرَ غرابة .

كان سليمان باشا عند توليه الحكم في الثانية والعشرين من عمره ، ويكاد المؤرخون يجمعون على مدح سيرته اذ كان حسبما ذكروا عنه محبا للعدل رؤوفا بالرعية وقام بأعمال اصلاحية غير قليلة في بعض أجهزة القضاء والجباية ، غير انه كان من الجهة الاخرى مغرورا لا يبالي ـ حين يندفع في شيء ـ أن يثير عداء الناس . ويخيل لي أنه كان من طراز اولئك الشبان الذين لم يجربوا الحياة ويتصورون أن الدنيا لا بد أن تسير طبقا لما يفكرون به أو يشتهون بغض النظر عن طبيعة الاشياء .

قال عنه سليمان فائق : انه كان « على جانب كبير من دماثة الخلق وقد سار في حكمه سيرة حسنة وتمسك بأهداب العدل والحلم والكرم ، ولكنه كان غراً عاش في أكناف خاله علي باشا ولا يعرف شيئاً من تصاريف الزمان وانقلاباته ودورانه ، وعلى الرغم من تعيينه لاول مرة بمنصب الكهية لعلي باشا فقد انتفخ غروراً بعد تسنّمه كرسي الوزارة وشمخ بأنفه وتملكه الزهو والكبر والاعجاب بنفسه كأنما هو فاتح بغداد ، وسرعان ما اتهمه الناس بالاعوجاج والانحراف ، وبميله الى المذهب الوهابي مع أنه

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص ٥٨ـ٥٩ .

كان سلفي الاعتقاد • »[١]

يبدو أن خصومه الذين تضرروا من اصلاحاته في بغداد صاروا يشوهون سمعته ويلصقون به تهمة « الوهابية » ، وكانت تلك تهمة بغيضة جدا في نظر الدولة يومذاك[٢] ، فأخذت علاقته باسطنبول تسوء يوما بعد يوم •

يذكر ساطع الحصري بعض التهم التي وجهها رجال الدولة في اسطنبول على سليمان الصغير ويعتبرها نموذجاً لما كانت عليه الدولة العثمانية يومذاك من انحطاط • فقد اتهموه أنه ألغى « اصول مصادرة الأموال » ، وأبطل الرسوم التي كان يجبيها القضاة من أصحاب الدعاوى اذ خصص لهم رواتب مقننة ، وحصر الاعدام داخل حدود القصاص الشرعي ، وقالوا انه خالف بهذه الاعمال النظم الاساسية المقررة في الدولة وانه فعل كل ذلك بتسويلات من علماء بغداد الذين كانوا يميلون الى المذهب الوهابي • ويقول المؤرخ التركي أحمد جودت باشا في التعليق على أعمال سليمان الصغير : لا شك في أن هذه الاعمال تدل على حسن النية غير أنه لم يكن من الجائز للوالي أن يقدم عليها من تلقاء نفسه ، ولا سيما ان ابطال تلك الامور في الوقت الذي كانت فيه جارية ومعمولاً بها في سائر الولايات العثمانية هو بمثابة اعلان عن « ظلم دولته المتبوعة » من طريق التلميح الضمني ، فضلا عن ان اقدامه على ذلك يُعد تقليدا للوهابيين الذين كان الواجب عليه محاربتهم والتنكيل بهم[٣] •••

---

(١) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٣٧ •

(٢) انها تشبه تهمة « النازية » في العراق خلال الحرب العالمية الثانية وتهمة « الشيوعية » بعدها •

(٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٦٤ •

حملة حالت أفندي :

فرغ صبر رجال الدولة في اسطنبول ازاء سليمان باشا وصاروا يتحينون الفرص لعزله من ولاية بغداد ، وقد اتيحت لهم الفرصة عندما جهز سليمان باشا حملة ضخمة وسار بها نحو اورفة وماردين في الشمال بغية تأديب القبائل العاصية هناك ، فقد وصلت الى اسطنبول عرائض من سكان المناطق التي مرت بها الحملة يشكون فيها من أعمال القتل والنهب التي عانوها على أيدي الجنود[1] ، والواقع ان هذه الشكاوي لم يكن من شأنها أن تنال الاهتمام من رجال الدولة لو كان سليمان باشا مرضيا عنه ، فطالما وصلت اليهم مثل هذه الشكاوى من مختلف الولايات ـ على توالي الايام ـ فلم يكن مصيرها سوى سلة المهملات •

واكتشف رجال الدولة في سليمان باشا سيئة أخرى هو أنه لم يرسل الى اسطنبول شيئاً من الاموال المطلوبة منه ، فاتخذوا ذلك حجة بأيديهم للعمل على اسقاطه • أرسلوا اليه رجلاً عُرف بسعة الحيلة واتقان الدسائس والمؤامرات هو حالت أفندي آل رئيس الكتاب ، وحين وصل هذا الرجل الى بغداد خيّر سليمان باشا بين أمرين : إما دفع المبالغ المطلوبة منه بصورة منتظمة أو التخلي عن ولاية بغداد •

يبدو أن سليمان باشا لم يعر اهتماماً كافياً لما قاله حالت أفندي ، وكأنه كان معتمداً على قوته في بغداد حيث كان قد أنشأ له فيها جيشاً منظماً كما استطاع أن يكتسب محبة الاهالي بعدله وأعماله الاصلاحية • وقد أدرك حالت أفندي مصدر قوته فآثر أن يعود الى الموصل لكي يعمل من هناك على اسقاطه •

---

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ١٢٣ـ١٢٤ •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن سليمان باشا كان عند مروره بالموصل أثناء حملته الشمالية قد أساء الى أهل الموصل وأغضب أمراءها الجليليين ، وأرسل الى جميع العشائر يأمرهم بقتال أهل الموصل ونهب قراهم وأباح لهم دماءهم[1] ، ولذا كان أهل الموصل من أشد الناس عداوة لسليمان باشا فسعوا لتوسيع النفرة بينه وبين حالت أفندي وشجعوا على قتاله .

أعد حالت أفندي حملة كبيرة للزحف على بغداد ، وانضم اليها أهل الموصل كما انضمت عشائر كثيرة كطي وشمامك والعبيد والعزة والبيات ، وكذلك انضم اليها عبدالرحمن باشا بابان مع جماعته من الاكراد . وسار هذا الجيش المختلط حتى وصل الى قرية « خرما آباد » ـ أي خرنابات ـ بالقرب من بعقوبة ، وكان سليمان باشا قد أعد جيشاً هناك ، فوقف الجيشان أحدهما تجاه الآخر استعداداً للقتال .

معارك بغداد :

في الوقت الذي كان فيه سليمان باشا على رأس جيشه قرب خرنابات نشبت في بغداد معارك محلية من النوع المعهود ، وكان المخرض عليها رجل من أغوات الانكشارية اسمه عبدالرحمن أغا الموصلي ـ وهو جد الأسرة الأورفلية المعروفة الآن في بغداد ـ فقد كان هذا الرجل على اتصال بالجيش السلطاني وبرئيسه حالت أفندي ، فأخذ يجمع حوله الموصليين الساكنين في بغداد ويثير عصبيتهم على سليمان باشا ، واستطاع أخيراً أن يهاجم القلعة بمن معه من الانكشاريين والاهالي فاحتلها وقتل رئيس الانكشارية الذي كان فيها .

وحين سمع سليمان باشا بما جرى في بغداد أسرع ببعض قواته اليها ،

---

(١) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٩٣ .

وتمكن من استعادة القلعة ، فتمت له السيطرة على المدينة ، وعند هـــذا أخذ يتعقب الموصليين وينتقم منهم ، فأمر أن لا يقيم ببغداد أحد من أهل الموصل ولو كان ساكناً فيها منذ أربعين سنة ، ثم قبض على نحو عشرين رجلاً منهم وأمر بضربهم بالسـياط وسجنهم ، فاختفى من بغـداد كل الموصليين ، وقد تمكن الكثير منهم أن يفروا من المدينة[1] .

مقتل سليمان باشا :

كان حالت أفندي قد انتهز فرصة انشغال سليمان باشا بأهل بغـداد فتقدم بقواته نحو بغداد وعسكر على بُعد ساعة من الاعظمية . والغريب أن سليمان باشا كان يظن أن الحملة الموجهة عليه قـد جرت بغير علـم السلطان وأنها من تدبير آل الجليلي وأهل الموصل ، ولهذا أرسل قاضي بغداد ومعه رجل من وجهاء الموصليين الساكنين في بغداد اسمه « الحـاج صالح أغا » بغية المفاوضة مع حالت أفندي فلم ينفعه ذلك شيئاً .

وفي عصر اليوم الخامس من تشرين الاول عام ١٨١٠ وقعت المعركة الفاصلة بين الجيشين على مقربة من الاعظمية ، ويقال إن المعركة انتهت عند المساء بنصر واضح لسليمان باشا ، وبات هذا ليلته وهو واثق أن النصر النهائي سيكون له ، ولكنه لم يكد يستيقظ في فجر اليوم التالي حتى وجد معظم جنوده قد تخلوا عنه ورجعوا الى بغداد تحت جنح الظلام بحجـة أنهم سمعوا بورود الفرمـان وأنهم لا يريدون أن يعصوا أمر خليفـة المسلمين .

لم يبق مع سليمان باشا سوى ثلاثين رجلاً ، فاتجه بهم نحو الجنوب وعبر ديالى ، وهناك قُتل غيلة على يد بعض الأعراب من عشيرة الدفافعـة من شمر طوقة ، وجاء القتلة برأسه الى حالت أفندي فأمر هـذا بسلخ

---

(١) المصدر السابق ، ص١١١

الرأس وبارساله الى اسطنبول عن طريق الموصل • ولما مر الرأس بالموصل فرح الناس به شماتة ، فكان يوم مرور الرأس بالموصل يوماً مشهوداً[١] •

فتنة لاحقة :

عندما دخل حالت أفندي الى بغداد منتصراً كان يحمل معه فرماناً من السلطان خاليا من الاسم ، وكان مخولاً أن يملأه بالاسم الذي يريده ، وقد وقع اختياره أخيراً على رجل قدير من المماليك هو عبدالله أغا الملقب بـ « التوتونجي » •

لم يمض على ذلك سوى شهر واحد حتى نشبت في بغداد فتنة جديدة ، وكان محركها عبدالرحمن أغا الذي كان محرك الفتنة السابقة كما أسلفنا • فقد كان هذا الرجل معتزاً بما فعل ضد الوالي السابق ويريد أن يكون له رأي في تعيين الوالي الجديد ، وهو في الواقع لم يكن راضياً عن عبدالله التوتونجي ويود أن ينصب مكانه سعيد بك الابن الاكبر لسليمان الكبير والذي كان يومذاك قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره •

اتصل عبدالرحمن أغا بالرجال الذين يعتمد عليهم تمهيداً للثورة ، ثم أعلن الثورة بمن كان معه من الانكشارية ، والتحق به المسلحون من الاهالي ، وتوجهوا نحو القلعة بغية احتلالها • وعند هذا انتشر الرعب في بغداد ، ونقل أصحاب الدكاكين بضائعهم الى بيوتهم مخافة أن تنهب ، واستنجد الوالي الجديد بعشيرتي الجبور والعقيل من سكان الكرخ ، فعبر اليه منهم نحو مائة مسلح ، واحتدمت المعركة خمس ساعات انهزم في آخرها أصحاب عبدالرحمن أغا فدخلوا بيوتهم وأغلقوا عليهم الابواب • أما عبدالرحمن أغا فقد التجأ الى « الباليوز » ـ أي القنصل البريطاني ـ فلم يتمكن هذا من حمايته مما اضطر الأغا الى الفرار من بغداد •

---

(١) المصدر السابق ، ص١١٧

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المؤرخ الموصلي ياسين أفندي العمري حين ينتهي من ذكر هذه الوقائع لا ينسى أن يأتي ـ كعادته في كل مرة ـ بقول للشيخ محي الدين بن عربي ويعده نبوءة صادقة بما جرى ، فهو يروي عن كتاب « الشجرة النعمانية » قوله : « ... محو قد قرب ، لمن يضطرب ، فتنة تقوم وقتال يدوم ، تطفأ عن قريب ، من رأي مصيب ». فهذه العبارات تشير في نظر العمري الى مقتل سليمان باشا ، وولاية عبدالله باشا ، وغير ذلك من الأحداث التي جرت ، طبقاً لما يدل عليه حساب الحروف[1] . وليت لدينا الآن رجلاً كالعمري لكي يفسر لنا تنبؤات ابن عربي عن أحداث هذا الزمان :

غارات الوهابيين :

بينما كانت بغداد مشغولة بأحداثها الدامية على نحو ما ذكرناه آنفاً ، كان الفرات الاوسط مهدداً بخطر الغزو الوهابي حتى كان الرعاة هناك لا يستطيعون الخروج الى البادية لخوفهم على أغنامهم من الوهابيين[2] .

وقد سجل السيد جواد العاملي ذكرياته عن تلك الايام في آخر المجلد السابع من كتابه « منهاج الكرامة » حيث قال ما نصه : « وقد أحاطت الاعراب من عنيزة ـ القائلين بمقالة الوهابي الخارجي ـ بالنجف الاشرف ومشهد الحسين (ع) وقد قطعوا الطريق ونهبوا زوار الحسين(ع) بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان وقتلوا منهم جمعاً غفيراً ، وأكثر القتلى من العجم ، وربما قيل إنهم مائة وخمسون وقيل أقل ... وبقي جملة من زوار العرب في الحلة ما قدروا أن يأتوا الى النجف الاشرف . فبعضهم

---

(١) المصدر السابق ، ص١٢١

(٢) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٣٢ـ١٣٣ .

صام في الحلة وبعضهم مشى الى الحسكة • ونحن الآن كأنّا في حصار ، والاعراب الى الآن ما انصرفوا ، وهم من الكوفة الى مشهد الحسين (ع) بفرسخين أو أكثر على ما قيل • والخزاعل متخاذلون مختلفون ، كما أن آل بعيج وآل جشعم يتقاتلون ، كما أن والي بغداد جاءه وال آخر وأنه معزول وهما يتقاتلان • وقد عمت علينا أخبارهما لانقطاع الطرق • وبذلك طمعت عنيزة في الاقامة في هذه الاطراف ولا قوة الا بالله »[1] •

مقتل التوتونجي :

لم يدم حكم عبدالله باشا التوتونجي في بغداد غير سنتين ونصف السنة تقريباً ، وقد قضى تلك المدة القصيرة وهو في خوف دائم من سعيد بك وحزبه إذ كان الكثير من المماليك يميلون الى سعيد بك ويعطفون عليه وفاءاً لذكرى أبيه سليمان الكبير •

وفي أواخر عام ١٨١٢ هرب سعيد بك من بغداد وذهب الى سوق الشيوخ لاجئاً عند شيخ المنتفق حمود الثامر ، فأرسل الوالي عبدالله باشا الى الشيخ حمود يطلب منه تسليم سعيد بك فكان جواب الشيخ « أن الموت دون تسليم جاري »[2] ، فلم يجد عبدالله باشا مناصاً من أن يجهز حملة كبيرة ويسير بها نحو سوق الشيوخ •

كان عدد المقاتلين العشائريين الذين أعدهم شيخ المنتفق لمساعدة سعيد بك يبلغ العشرين ألفا ، وحين وصل جيش الوالي الى مقربة من سوق الشيوخ نشبت معركة عنيفة بين الفريقين ، وقد استطاع الوالي بما كان لديه من مدافع أن يوقع الهزيمة بالعشائر فتشتت شملهم ولم يصمد مع

---

(١) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ج١ ص ٣٢٧-٣٢٨ •
(٢) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) ــ اختصار أمين الحلواني ــ القاهرة ١٣٧١هـ ــ ص١١٦ •

سعيد بك في ساحة المعركة سوى ثلاثين فارساً .

لم يبق على الوالي الا أن يكر كرته الاخيرة ليظفر بعدوه وينال النصر الحاسم عليه ، وهنا حدث له حادث يشبه ما حدث لسلفه سليمان الصغير فقد انقلب معظم قواد جيشه عليه فجأة وانحازوا الى جانب سعيد بك وكانت حجتهم في ذلك أنهم تذكروا نعمة أبيه سليمان الكبير عليهم وأنهم يريدون الوفاء له بالانتصار لابنه[1] . وكذلك انهزم آل قشعم الذين كانوا قد جاؤوا مع الوالي وقاتلوا الى جانبه[2] . ولم يبق مع الوالي غير مائتين من أتباعه المخلصين .

وانثالت العشائر على معسكر الوالي فنهبته نهباً ذريعاً ، ووقع الوالي أسيراً مع كهيته طاهر أغا فجيء بهما مقيدين الى سوق الشيوخ ، فقتلا هناك ورمي برأسيهما تحت أقدام سعيد بك[3] .

سعيد باشا :

عندما سمع قاضي بغداد بما جرى في المنتفق وبمقتل الوالي ، أسرع فأعلن الباشوية لسعيد وكتب الى اسطنبول لتصادق على ذلك بحسب العادة. وفي ١٦ أيار عام ١٨١٣ دخل سعيد « باشا » بغداد وبصحبته شيخ المنتفق حمود الثامر[4] . فاستقبله أهل بغداد استقبالاً حافلاً . ثم عقد في السراي اجتماع حضره القاضي والمفتي والقواد والاعيان وقرروا إسناد الولاية اليه وكالة الى حين وصول الفرمان السلطاني اليه[5]. وفي أواخر حزيران وصل الفرمان اليه بولاية بغداد مع الانعام عليه برتبة الوزارة حسب الاصول .

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢٥٩ .
(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١١٧ .
(٣) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص١٤١ .
(٤) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٣٣ .
(٥) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص١٤٢ .

كان سعيد باشا عند توليه الحكم يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، ولم يكن قبل ذلك قد مارس الحكم ، بل كان مترفاً من طراز أبناء الدلال الذين لا يعرفون من دنياهم سوى الانغماس في الملذات والفخار المزيف .

يقول ابن سند البصري : إن أمر سعيد باشا صار بيد حمود شيخ المنتفق كالطفل في يد وصيه ، وقد أعطاه سعيد باشا ما في جنوب البصرة من القرى جميعها وهو يقارب ثلث ايراد العراق ، وضحك لآل المنتفق الزمان ، وأطاعهم الحاضر والبادي ، وقصدهم الشعراء من جميع النواحي، وأجازوا بجوائز تفوق جوائز بني العباس ، وكنت لا تسمع في المجالس الا صفاتهم ومدحهم بما هو زائد عن حدهم ، بل عن حد الملوك . وطغى بنو المنتفق وبغوا وامتدت يد النهب منهم على سائر الناس خصوصاً على البصرة فأن بعضهم يدخلون بيوت أهل البصرة نهاراً ـ فضلاً عن الليل ـ ويأخذون كل ما تصل اليه أيديهم ويبيعونه في السوق جهاراً نهاراً وصاحبه يراه ولا يستطيع أن يتكلم ، وكل من اشتكى الى الشيخ حمود لا تُسمع شكواه لان عادة حمود نصرة الظالم[1] .

تمرد العشائر :

في الوقت الذي كانت فيه منطقة البصرة تحت سيطرة حمود شيخ المنتفق وعشيرته كانت منطقة الفرات الاوسط تعج بالفوضى ، فقد أعلنت عشائر الخزاعل وزبيد العصيان على الدولة فقطعت الطرق ونهبت القوافل التي كانت تسير بين الحلة وكربلاء والنجف ، مما شجع عشائر أخرى كشمر الجرباء والظفير على العصيان أيضاً فعمت الفوضى وانقطاع الطرق في كل مكان حتى وصل النهب والسلب الى الكاظمية وأطراف الكرخ

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١١٩ .

وصار الناس في خوف على أنفسهم وأموالهم[1] .

ومما زاد في خطورة الحالة أن أربعين ألف زائر من الايرانيين ـ وكانت بينهم زوجة الشاه ـ حوصروا في كربلاء من قبل العشائر وأصبحت أموالهم وأرواحهم في خطر ، وكانت العشائر تنتظر خروج الزوار من كربلاء للوقيعة بهم ، فذُعر الوالي سعيد باشا من ذلك ذعراً شديداً خشية أن يصاب الزوار بضرر فتتخذ حكومة ايران ذلك حجة لتهديد العراق أو غزوه ، وقد تلومه الدولة على اهماله[2] . لم يجد سعيد باشا علاجاً للمشكلة الا بتعيين زوج أخته داود أغا في منصب الكهية على الرغم من كونه قد عزله قبلئذ من منصب الدفتردار بتأثير الوشايات .

ان داود أغا هذا هو الذي صار فيما بعد والياً على بغداد ـ كما سنأتي عليه في فصل قادم ـ وهو في الواقع من الرجال الأكفاء فاستطاع أن يضرب العشائر المتمردة ضربات قوية مزّق بها شملهم ، وأنقذ الزوار في كربلا ثم أرسل من يحرسهم في سفرهم الى النجف وفي عودتهم الى الكاظمية فايران ، ثم عزل شيخ زبيد وعين مكانه شاف الله الشلال المعروف باسم « شفلّح » .

موكب سعيد باشا :

وصل السائح البريطاني جيمس بكنغهام الى بغداد في ١٦ تموز من عام ١٨١٦ ، وقد أعطانا في الكتاب الذي ألفه عن رحلته وصفاً لموكب سعيد باشا عند مروره من أحد أبواب بغداد ـ والمظنون أنها الباب الشمالية المعروفة اليوم بباب المعظم ـ إذ قال :

« وحين طلعت الشمس وصلنا باب مدخل المدينة وقد تجمع خارجه

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٢٢٢ .
(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١٢٠ .

عدد كبير من الفرسان العرب والأتراك للمباراة كما وقف بالقرب منهم جمع أكبر من المشاة يمثلون حرس الباشا الذي كانوا يتوقعون عودته في أية لحظة من رياضته الصباحية على صهوة جواده ...

« وفي هذه الاثناء دخلت تلك الشخصية يتقدمها رعيل من حرسه المؤلف من المماليك الجورجيين وهم يرتدون فاخر الثياب ويمتطون الجياد الجميلة حسنة التجهيز ، ثم أعقب ذلك رعيل آخر من الجند المشاة كانوا يحملون البنادق الانكليزية التي اشتروها مع غيرها من الملابس من الانواع التي كان حرس المقيم البريطاني يستعملونها ، ولكنهم كانوا يضعون على رؤوسهم طاقيات كبيرة من الفرو كروية الشكل خشنة المظهر ، بينما كان سيرهم يدل على فقدان النظام والاتساق . كان القليل من الطبول والابواق القصبية هي الآلات الموسيقية الوحيدة ، وكانت الاصوات المنبعثة منها ليست مقبولة على أن شيئاً ما لم يقض على الرهبة التي أشاعها مرور الباشا لدى كل من شاهده وتلك حادثة بارزة دون ريب .

« كان على مقربة من الباب مقهيان كبيرتان امتلأت مقاعدهما بالمئات من المتفرجين ومع ذلك فلم يُشعل فيها غليون دخان ، ولا قُدم قدح من القهوة ، ولا انطلقت كلمة واحدة في تلك اللحظة الرهيبة . كان كل واحد من الحاضرين قد نهض من مقعده ، وراح يحني جسمه الى أمام أو يرفع يده الى شفتيه ثم يضعها على جبينه فقلبه بمنتهى الاحترام . ومع أن الباشا كان نادراً ما يدير رأسه أو عينيه عن النظر باستقامة الى أمام ، الا أنه كان يرد على تلك التحيات برشاقة عظيمة . وكان كل شيء يجري بمنتهى التؤدة واللباقة »[١] .

---

(١) جيمس بكنغهام (رحلتي الى العراق) ـ ترجمة سليم طه التكريتي ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص ١٨٣ـ١٨٤ .

عزل داود اغا :

كانت نابي خانم أم الوالي سعيد باشا تبغض داود أغا بغضاً شديداً على الرغم من كونه زوج ابنتها ـ أو لعلها كانت تبغضه لهذا السبب كما هو ديدن الحموات غالباً ـ وحين تولى داود أغا منصب الكهية أظهرت نابي خانم امتعاضها الشديد وصارت تلوم ولدها على هذا التعيين ، فلما ذهب ولدها لزيارتها وحاول تقبيل يدها حسب الاصول المتبعة رفضت هي تقديم يدها اليه وقالت له مؤنبة : كيف تتخذ داود كهية وأنت تعلم حق العلم أنه وأشباهه أعدائي منذ عهد بعيد ، يجب عليك أن تعزله حالاً والا فوجهي حرام عليك وحليبي غير محلل لـك ، فلست أنت بولـدي ولست أنـا بوالدتك • فاضطر سعيد باشا تجاه هذا الاصرار الى عزل داود [1] ، ففقد بذلك رجلاً محنكاً كان من الممكن أن يكون عوناً له في الملمات •

أرادت نابي خانم أن تعين الحاج عبدالله ظاهري كهية لولدها • وكان هذا الرجل يتولى منصباً رفيعاً في عهد زوجها سليمان الكبير ثم اعتـزل الوظيفة وذهب الى بلدة بوشهر في ايران ، فأرسلت اليـه تستدعيه من هناك، وحين وصل الى بغداد ذهب لمقابلتها في باب الحرم فجرت بينهما محاورة طريفة تصور لنا الوضع الاجتماعي والسياسي في بغداد يومذاك • وقد آثرنا نقل جزء من هذه المحاورة كما وردت بلهجتها العامية في كتاب « تذكرة الشعراء » لعبدالقادر الشهرباني •

بدأت نابي خانم المحاورة بقولهـا تخاطب الحاج عبـدالله ظاهري : « إني أريد أن تباشر مشاغل ولدي سعيد باشا في جميع أمور الحكومـة خارجاً وداخلاً وتصير كهية مرخص عنده كما كنت في أيام والده المرحوم سليمان باشا ، وانت من جراغات المتحيزين ، كنت عند المرحوم فبقي هذا

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في بغداد) ـ ترجمة محمـد نجيب أرمنازي ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٤٤ـ٤٥ •

نجله يجب عليك أن تؤدي الحقوق مع نجله وتباشر أموره وخصوصه من كل الوجوه » . سكت الحاج عبدالله عن جوابها ، ولما ألحت عليه أخذ يعتذر لها عن قبول المنصب وصار يذكر الفرق في الاحوال بين أيام زوجها سليمان الكبير وأيام ابنها ، ومما قاله لها في هذا الشأن : « ... المرحوم كان أفلاطون زمانه ، كان معمر الاطراف والحواشي ، كان عنده رجال يخدمونه بالصدق ـ أدناهم كنت أنا ـ فالرأي والتدبير كنا نأخذه منه وما أحد منا كان يتكلم بكلام من غير إذنه لانه هو كان صاحب الرأي ... فكثر في أيام حكومته العلماء والشعراء وأهل الصنائع وكثرت البضائع وتعمرت البلاد ... وقل الاوباش من داخل البلد وتعمرت الجوامع والمساجد من كثرة الجماعة وامتلئت المدارس من طلبة العلم ، وقل الملاهي في داخل البلد ـ بالطبيعة لا بالنهي من طرف الحكم بل إنما صار تجلي من طرف الله ـ يكفيك اذا اقتضى الرجل يجعل فرح لختان أو زواج فما يأتي بآلة الملاهي حياءاً من الناس بل انما يعمل وليمة وإما يقري فيها مولود أم يقري كلام الله ... وأنتم اليوم تريدون أن أباشر الامور وأتعاطى سياسة الحكومة بمنصب الكهيوية فهذا ما تلزم راس لان اليوم على ما رأيت ولذلك أفندينا سعيد باشا كل أموره وخصوصه بيد أوباش مجتمعين على رأسه »[1] .

لم تقبل نابي خانم عذره وأصرت عليه اصراراً شديداً ، فرضي أخيراً أن يتولى المنصب مكرهاً ، واستطاع أن يسير في أمور الحكومة سيرة حسنة ولكن ذلك لم يدم غير أربعة أشهر تقريباً إذ أن الوالي وقع في عشق غلام مليح من أهل بغداد اسمه « حمادي العلوجي » فسيطر هذا الغلام عليه سيطرة تكاد تكون تامة فلم يكن يطيب للوالي سوى أن يقضي

(١) عبدالقادر الشهرابانى (تذكرة الشعراء) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ص ٤٧ـ٤٨ .

أوقاته بالقرب منه • وقد حاول الحاج عبدالله نصح الوالي دون جدوى فقدم استقالته من منصبه واعتزل في بيته ، ولم يؤثر فيه اذ ذاك أي الحاح من السيدة الوالدة نابي خانم •

تردي الوضع :

اشتهر حمادي العلوجي بلقب « ابن أبو عقلين » ولم يعرف السبب في تلقيبه بهذا اللقب ، والمظنون أنِ أحد آبائه جاء من « بعقلين » من قرى الشام فحرفها العامة في بغداد الى « أبو عقلين » ، والملاحظ أن هذه الكلمة بقيت متداولة بين عوام بغداد حتى عهد متأخر إذ يؤتى بها مثلاً على الرجل الذي يورط نفسه في المآزق •

يبدو على أي حال أن حمادي العلوجي كان يملك شيئاً من الذكاء وقوة الشخصية علاوة على ملاحته ، وقد أخذت سيطرته على الوالي سعيد باشا تزداد يوماً بعد يوم ، واستطاع أن يرتفع في المناصب حتى وصل أخيراً الى منصب الكهية وصار يأمر وينهى كما يشاء ، وكثر المتزلفون له والمادحون •

يقول المؤرخ سليمان فائق في شأن العلاقة العاطفية بين الوالي وحمادي : « أما محبته لحمادي أغا تلك المحبة التي بلغت درجة العشق والهيام والتي أصبحت حديث الخاص والعام بالاضافة الى ما كان يتمتع به المومى اليه من حسن وجمال فان كل ذلك قد حمل الناس على اتهامه بالانحراف الجنسي ولا دليل ينفي عنه تلك التهمة »[1] • وقد أدت هذه العلاقة المشبوهة الى تدهور الاحوال في العراق حيث انشغل الوالي بعشقه وأهمل شؤون الحكم ، فانتشرت الفوضى والاضطرابات هنا وهناك ، فتمردت بلدة مندلجين ـ أي مندلي ـ على الحكومة وطردت الضابط الذي

---

(١) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ص٥٧ •

كان يتولى أمورها ، كما اشتد العداء بين سكان النجف حيث انقسموا الى فريقين « الشمرت والزقرت » وأخذ يقاتل كل منهما الآخر ، وامتد لهيب العصبية القبلية الى كربلاء وثارت الحزازات بين أهلها فحارب بعضهم بعضا[1] •

وصار التذمر ينتشر في صفوف المماليك في بغداد ، وكأنهم لم يهن عليهم أن يروا شخصاً عادياً من سكان بغداد ، وابن علوجي ، ينتمي الى الطبقة الحاكمة التي هي من شأنهم وحدهم ويتدخل في شؤون الادارة العليا حتى تصل يده الى المتصرفين فيعزل وينصب منهم من يريد •

أصبح داود أغا زعيم المعارضة والتف حوله المتذمرون من المماليك وغيرهم • وفي ايلول من عام ١٨١٦ تمكن داود أغا من مغادرة بغداد خلسة ، يصحبه نحو مائتين من أتباعه ، وذهب الى كركوك حيث لقي من محمود باشا بابان ترحيباً وعوناً • وهناك أخذت حركته تنمو شيئاً فشيئاً ، والتحق به الكثير من أغوات بغداد •

داود ينال الفرمان :

استطاع داود أغا وهو في السليمانية أن يحصل من السلطان على فرمان بولاية بغداد بدلا من سعيد باشا • وقد ساعده على ذلك في اسطنبول رجل من أولي النفوذ هو حالت أفندي آل رئيس الكتاب الذي عرفنا شيئاً عنه من قبل ، فقد بذل هذا الرجل جهوداً كثيرة في سبيل عزل سعيد باشا من ولاية بغداد وتولية داود أغا مكانه •

ولحالت أفندي في هذا الشأن قصة طريفة جديرة بالذكر هنا ، فهو كان مديناً لصراف يهودي بغدادي يسكن اسطنبول اسمه حسقيل ، وكان

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص٢٦٩ •

لحسقيل أخ يسكن بغداد اسمه عزره ويريد أن يعينه في منصب « الصراف باشي » ـ أي رئيس الصرافين ـ عند سعيد باشا ، وقد كلّف حسقيل حالت أفندي أن يتوسط له في الأمر غير أن سعيد باشا رفض الاستجابة لوساطته مما أثار حنق حالت أفندي عليه وجعله يتحين الفرص للوقيعة به[1] .

كان رئيس الصرافين في بغداد ـ واسمه ساسون[2] ـ مدعوماً من قبل حمادي العلوجي ونابي خانم معاً ، ولذا كان من الصعب جداً زحزحته عن منصبه ما دام سعيد باشا في الحكم ، فاتفق حالت أفندي مع داود أغا على أن يساعده في الحصول على ولاية بغداد مقابل تعيين عزره في منصب رئيس الصرافين عنده[3] .

ويقال إن عزره قام من جانبه بعمل ساعد حالت أفندي في مسعاه ، فهو قد غافل الموظفين الذين يعملون في سك النقود النحاسية في بغداد فكتب على بعض القطع النقدية اسم سعيد باشا بدلاً من الطغراء السلطانية ثم تمكن من إرسال بعض تلك القطع الى أخيه حسقيل في اسطنبول ، وقد قدمها هذا بدوره الى حالت أفندي فكانت في يده ذريعة قوية نحو مقصوده حيث أظهر للمسؤولين في اسطنبول أن سعيد باشا يسك النقود باسمه بدلاً من اسم السلطان .

وفي تلك الآونة اجتمع أعيان كركوك وبعض أمراء الاكراد فكتبوا

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٢٣٠ .

(٢) ان ساسون هذا هو جد جد الأديب المعروف أنور شاؤول ، وهو كذلك والد داود ساسون صاحب الشركة التجارية المعروفة في بريطانيا والتي كان لها فرع في بغداد .

(٣) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ج٢ ص١٢٩ .

الى السلطان عريضة يسترحمون منه أن يسند ولاية بغداد الى داود أغا ، فوصلت العريضة الى اسطنبول في الوقت المناسب إذ اتخذها حالت أفنـدي وسيلة للحصول على الفرمان المنشود[1] .

تعليل ابن سند :

إن هذا الذي ذكرناه عن كيفية حصول داود على فرمان ولاية بغداد يكاد يجمع عليه أكثر المؤرخين ، ولكن ابن سند البصري يحاول أن يشذ عنهم في ذلك وكأنه وجد فيه ثلباً لداود فأراد أن يأتي بتعليل آخر يرفع من شأنه . ولا ننسى في هذا الصدد أن ابن سند كتب تاريخه بايعاز من داود ومن أجل تمجيده .

يقول ابن سند في وصف خروج داود من بغداد : « ... ولما وصل كركوك ومعه من أتباعه نحو المائتين راسل الدولة العلية وكشف لها عن سوء سيرة سعيد باشا وشناعة سياسته وتقليد أزمة الممالك المهمة لأعـراب البادية أهل الظلم والغشامة الذين ديدنهم النهب والسلب وهو فخرهم في مجالسهم . وكان داود باشـــا باقعة في التحريرات التركية والعربيـنـة والفارسية ينظم وينثر في الثلاث اللغات ، ويشهد له فصحاء كل من الثلاث اللغات بأنه إمام فيها . فلما بلغت رسائله الى الدولة تحيرّوا من فصاحتها وبلاغتها وما اشتملت عليه من الأمور السياسية ، فعلموا أن الـذي يكتب مثل هذه التحريرات هو الجدير بالرئاسة ، وهو الأحق بأن يتولى زمـام السياسة . وكان الاصطلاح في القرون الماضية عند الدولة العلية أن مقادير الرجال تعرف بمقدار تقدمهم في الكتابة والتحريرات والاسئلة والأجوبة المسـددة ... »[2] .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص٢٣١ .

(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

ليس من المستبعد أن يكون لرسائل داود الى اسطنبول أثر في نيله الفرمان ، فالحذلقة اللفظية كانت ولا تزال ذات تأثير على عقول الكثير من الناس في هذه المنطقة من العالم ، ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى جهود حالت أفندي وحسقيل وعزره في هذا السبيل . إن الرسائل مهما كانت ذات لفظ رنان لا يمكن أن ترتفع في تأثيرها الى مستوى « الأصفر الرنان » !

مقتل سعيد باشا :

حين وصل الفرمان الى يد داود أغا ـ وقد أصبح الآن باشا ـ أخذ يرسل دعاته الى بغداد وسائر أنحاء العراق لبث الدعاية له ، ثم تحرك من كركوك بقواته ومن تابعه من الاكراد نحو بغداد . ويقال إن سعيد باشا أدرك خطورة موقفه فآثر أن يرضخ للامر ويترك بغداد طلباً للسلامة غير أن عشيقه حمادي أغا ثناه عن عزمه وحثه على الصمود وعلى عصيان أمر السلطان[1] .

أرسل سعيد باشا الى حليفه حمود شيخ المنتفق يستنجد به ، فخف هذا لنجدته وجاء الى بغداد ومعه ألف وخمسمائة فارس فخيموا في جانب الكرخ . وفي ٧ كانون الثاني ١٨١٧ نشبت معركة حامية بين الفريقين خارج السور من جهة باب المعظم ، وقد لعبت مدافع القلعة دوراً مهماً في المعركة كما قام فرسان المنتفق بحركة هجوم مباغتة مما جعل النصر يميل الى جانب سعيد باشا ، فاضطر داود باشا الى الابتعاد بقواته عن بغداد نحو الشمال بغية الاستراحة وجمع الشمل[2] .

ظن سعيد باشا أن الخطر زال عن بغداد ، فسمح لشيخ المنتفق بالعودة مع فرسانه الى دياره ، وفُتحت أبواب بغداد وعادت الطمأنينة

---

(١) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ١٥٤ .
(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٣٧ .

الى السكان • ولكن ذلك لم يستمر طويلاً إذ أن وجود داود باشا مع قواته يهدد بغداد جعل أسعار الاطعمة فيها تميل نحو الارتفاع تدريجاً حتى بلغ سعر وزنة الحنطة ثلاثين قرشاً[1] ، وأخذ أنصار داود باشا المنتشرون في بغداد يبثون الاشاعات المهيجة فيالاسواق والمقاهي ويحرضون الناس على الثورة •

بدأت أولى بوادر الثورة في محلة باب الشيخ إذ خرجت المظاهرات منها وأمامها حملة الدفوف والأعلام وهم يستغيثون من سوء الحالة وضيق أسباب المعيشة وارتفاع الاسعار وانقطاع الطرق ، ثم عمت الفوضى وكثر السلب والنهب ، وراح المتنفذون يفعلون ما يشاؤون دون رقيب أو حسيب، مما اضطر الوالي أن يلجأ هو واتباعه الى القلعة حيث اتخذوا فيها موقف الدفاع[2] • واستمرت الفوضى خمسة أيام كانت مفعمة بدوي المدافع وفرقعة البنادق وهوسات العقيليين وأناشيد الانكشاريين[3] •

وفي الوقت الذي كانت فيه الحالة في مثل هذا التأزم علم سعيد باشا بأن حمادي أغا قد جرح وهو مطروح في احدى غرف القلعة الداخلية ، فأسرع اليه يواسيه وظل معه في الغرفة لا يفارقه غير مبال بما يجرى في الخارج • وحينئذ اجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فكتبوا محضراً وأرسلوه الى داود باشا يحثونه على الاسراع الى بغداد لانقاذ الاهالي مما أصابهم •

وفي ٢٠ شباط ١٨١٧ دخل داود باشا بغداد ، فاستقبله الأهالي استقبالاً رائعاً وتعالت الاصوات من كل ناحية : « خير مقدم » و « مرحباً »[4] ••• وأخذ سيد عليوي أغا رئيس الانكشارية يبحث عن

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٧ •
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ •
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٣٨ •
(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٤١ •

سعيد باشا بغية قتله ، فوجده لائذاً بحضن أمه فأهوى عليه بالبلطة حيث قطع عنقه فوراً من غير أن يهتم بتوسلات أمه وصـــريخها ، فتدحرج الرأس أمامها على الأرض بينما بقي الجسد وحده في يدها[1] • أما حمادي أغا فقد أُلقي القبض عليه ثم قُتل بعد أن عُذّب تعذيباً بشعاً طويلاً[2] •

يعلق سليمان فائق على مقتل سعيد باشا ـ وكان قد أدرك الحادثة ـ فيقول : « ••• وكان كل من يسمع بهذه الفاجعة يتملكه الحزن والأسف والألم العميق حتى أني على الرغم من كوني فتى حينذاك كان يتملكـي الحزن والاكتئاب كلما أذكر هذه الحادثة ، وعلى الرغم من سفري الى الاستانة ثم اصطحابي لداود باشا فاني لم أتمكن من إخفاء استيائي وتأثري حتى في حضوره • وذات مرة ذُكرت الحادثة التي نحن بصـــددها في مجلس داود باشا وكان يضم أحد وجهاء بغداد من أبناء الربيعي فلم يتمالك كل من في المجلس نفسه وانخرط الجميع في البكاء • وقد حاول داود باشا أن يتصدى للدفاع عن نفسه وتبرير ما قام به فلم يسعفه النطق وسكت وكان سكوته دليلاً على تقصيره في هذا الشأن »[3] •

انظر أيها القاريء الى هؤلاء كيف يتألمون لمصيبة حلت بواحد من المترفين من أبنـــاء طبقتهم ، حيث قُتل في حجر أمه ، فهم يبكون كلمـا ذكروها كأنما الدنيا ليس فيها سوى هذه المصيبة بينما هـــي تزخر بآلاف المصائب تقع كل يوم على رؤوس الكادحين الذين ليس لهم من يســمع شكواهم أو يبكي لحالهم ـ ألا ما أبشع لؤم البشر !

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٣٨ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ •
(٣) سليمان فائق (المصدر السابق) ص ٥٩ •

الفصل التاسع

داود باشا

لم يُقدّر لاي والٍ في العراق ـ طيلة العهد العثماني ـ مثل ما قُدّر لداود باشا من حيث تأثيره الفكري والاجتماعي ، فقد ظل الكثير من العراقيين حتى عهد متأخر يذكرونه ويتحدثون عن مناقبه ـ أو مثالبه ـ ولا يزال في العراق أشخاص لهم مكانتهم العالية وهم يحملون وثائق تشير الى أنهم من « عتقاء داود باشا » وهم يفتخرون بها أو هم على الأقل لا يختزون منها •

نشأة داود باشا :

لم تختلف نشأة داود باشا كثيراً عن نشأة غيره من المماليك ، فهو من أهالي تفليس في جورجيا ، وُلد في عام ١٧٦٧ ، وأختطف من أهله يوم كان في الثالثة عشر من عمره ، فجاء به أحد النخاسين الى بغداد وعرضه للبيع ، فاشتراه أحد وجهاء بغداد ـ هو مصطفى بك الربيعي ـ غير أنه باعه بعد أيام لسبب لا نعرفه ، فصار داود يتنقل من يد الى أخرى حتى انتهى المطاف به الى يد الوالي سليمان باشا الكبير فأدخله هذا في زمرة مماليكه وأخضعه للتدريب الذي كان يخضع له سائر المماليك في تلك الأيام •

الظاهر أن داود كان صبياً موهوباً فهو يجمع الى وسامة الطلعة ذكاءاً لماحاً ومقدرة على استعمال السلاح ، فأعجب به سليمان باشا وجعله كاتباً خاصاً له ثم رفعه الى منصب « المهردار » ـ أي حامل الختم ـ وزوجه من احدى بناته[1] • ولم يكن هذا بالأمر الشاذ أو المستغرب فقد حدث

(١) أحمد علي الصوفي (المماليك في العراق) ـ الموصل ١٩٥٢ ـ ص ١٩١ •

مثل هذا في عهد المماليك غير مرة ، ثم صار عادة لدى بعض العراقيين إذ إن أحدهم قد يُعجب بصبي فيعطف عليه ويجعله صاحباً له لا يفارقه حتى اذا كبر الصبي زوجه من بنته •

إن زواج داود من بنت سليمان باشا أثار حسد الكهية علي باشا ، فلما تولى هذا الكهية الحكم بعد سليمان باشا اضطر داود أن يترك سلك الوظيفة ويلجأ الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ليكون طالباً للعلم فيه ، وبقي هناك طيلة ولاية علي باشا مثابراً على دراسة العلوم الدينية واللغوية• وكانت تلك الفترة ذات أثر كبير في تكوين شخصية داود وجعلت عهده حين تولى الحكم فيما بعد ذا طابع خاص به يميزه عن عهود غيره من الولاة •

عاد داود الى سلك الوظيفة الحكومية عندما تولى الحكم عبدالله باشا التوتونجي في عام ١٨١١ ، فقد عينه هذا في منصب « الدفتردار » ـ أي مدير الأمور المالية ـ ومما يلفت النظر أن داود أثناء قيامه بمنصبه الجديد لم يترك ما كان عليه في جامع الشيخ من دراسة أو تدريس ، وكأنه أراد أن يبرهن للناس أن الدنيا لم تغيّر من مسلكه الديني ، فصار يعقد الدروس الدينية في « القوناق » ـ أي في الدائرة الحكومية التي كان يعمل فيها ـ وكان الطلبة يحضرون اليه فيها فيلقي عليهم الدروس بعد صلاة العصر • وعندما صار والياً أخذ يلقي دروسه مرتين في الاسبوع ، حيث يقرأ في كتاب البخارى صباح الخميس ، ويقرأ في كتاب البيضاوي صباح السبت(١) •

علاقته بأسرته :

يبدو أن داود كان على اتصال بأسرته منذ أن بدأ يتولى المناصب العالية في بغداد ، ولهذا رأينا أحد اخوته يفد اليه على اثر تسلمه ولاية

(١) عبدالقادر الشهرباني (تذكرة الشعراء) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ص ٢٢ ، ٤١ ، ٥٥ •

بغداد . ففي شهر أيار من عام ١٨١٧ وصــل هذا الأخ الى بغداد فأسكنه داود باشا في الحرم ، وكان مسيحياً لا يتكلم سوى اللغة الكرجية والأرمنية واسمه « جيو » ، وقد غيرّ اسمه فصار « سليمان » دون أن يغيّر دينه . وفي شهر آب من السنة ذاتها غادر بغداد عائداً الى بلاده بعد أن حُوّل على السليمانية بعشرين ألف قرش[1] .

وذكر السائح البريطاني السر كير بورتر أنه عند وصوله الى بغداد في تشرين الأول ١٨١٨ ذهب بصحبة القنصل البريطاني المستر ريج لزيارة الوالي داود باشا في مقره ، ولما عرف داود باشا أنه قد مر في سياحته بجورجيا تملكه الحنين الى أهله وأخذ يسأله عن أحوال تلك البلاد وأخبره أن أباه وأمه وإخوته يسكنون في تفليس وهو يريد أن يرسـل كتاباً الى حاكم جورجيا الروسي يوصيه فيه بأسرته . وقد أرسل داود باشا الكتاب فعلاً مع هدية ثمينة بيد أنها لم تصل الى المهُدى اليه لأن الاكراد سلبوا الرسول الذي كان يحملها بالقرب من ماردين[2] .

مشكلة العشائر

تولى داود باشا الحكم في بغداد في أواخر شباط من عام ١٨١٧ ، وكانت أهم مشكلة واجهها في السنة الأولى من حكمه هي مشكلة العشائر ، وقد عاني في معالجتها عناءاً شديداً وكادت تقضـي عليه لولا مساعدة الظروف له .

رأينا في الفصل السابق شدة التنازع على الحكم الذي جرى بين المماليك خلال الخمسة عشر سنة الماضية ـ منذ وفاة سليمان الكبير حتى بدء ولاية داود باشا ـ وقد انتهزت العشائر العراقية تلك الفرصة ، وكانت

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقيـة) ـ بغـداد ١٩٤٨ ـ ج٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ .

فرصة ذهبية بالنسبة لها ، فأخذت تسيطر على طرق القوافل وتفرض الأتاوات ، ويغزو بعضها بعضاً ، مما جعل المجتمع العراقي يرزح تحت وطأة التحكم العشائري الى درجة لا تطاق ٠

يقول رسول الكركوكلي : « وخلال الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد كان أكثر العشائر قد خرج عن الطاعة ، فلما تولى داود باشا مقاليد الحكم أذعن معظمهم من تلقاء أنفسهم الا عشيرة بني تميم وشمر الباوي والرفاعي والنجادة وبني عمير ، فان هؤلاء قد اتفقوا فيما بينهم وتجمعوا بمكان قريب المحمودية وراحوا يشنون هجماتهم على أبناء السبيل يقتلون ويسلبون بالرغم من قربهم من مركز الحكومة ٠٠٠ »[1] ٠ فجهز داود باشا ثلاث حملات ضد تلك العشائر واستطاع أن يمزق شملها ويستولى على أموالها ومواشيها ٠

وبعد نجاح داود باشا في حملاته ضد العشائر المتمردة ظن أنه قادر أن يقضي على عادة الغزو بين العشائر قضاءاً نهائياً ، ولعله أراد أن يقلد الوهابيين في ذلك ، فأصدر أمراً عاماً وجهه الى العشائر العراقية كافة يمنعهم به من غزو بعضهم بعضاً « لأنهم مسلمون وأن الاسلام يحرم الغزو تحريماً قاطعاً » ٠ وحاول داود باشا أن ينفّذ أمره هذا بالقوة الرادعة ، فلم يكد يسمع عن غزو قامت به احدى عشائر شمر على عشيرة الحديديين حتى أرسل حملة لتأديب العشيرة الغازية ، وأخذ منها خمسمائة بعير عقاباً لها ٠ ثم أرسل حملة أخرى لتأديب آل يسار في الفرات الأوسط على إثر غزوة قاموا بها على احدى العشائر[2] ٠

---

(١) رسول الكركوكلي (دوحة الوزراء) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بيروت بدون تاريخ ـ ص٢٧٧ ٠

(٢) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص ١٣١ـ١٣٢ ٠

إن هذا الذي فعله داود باشا في محاولة منع الغزو بين العشائر يشبه ما فعله حسن باشا في عام ١٧٠٤ ، وما فعله ناظم باشا في عام ١٩١٠ ، وقد فشلوا جميعاً فيما حاولوه • إن العشائر لا يمكن أن تترك عادة الغزو الا اذا استبدلت به غزواً آخر أكثر غنماً منه ، وهذا هو ما حدث فعلاً لدى القبائل النجدية اثناء الحركة الوهابية ـ كما أشرنا اليه في فصل سابق ـ إذ هم وجدوا في « الجهاد في سبيل الله » و « غزو الكفار » خير ما يعوضهم عن الغزوات الصغيرة التي اعتادوا عليها من قبل •

النزاع مع ايران :

كثيراً ما كانت منطقة كردستان مبعث نزاع بين العراق وايران ، فاذا حدث تنافس على الحكم بين أمراء الأكراد هنالك أسرع بعضهم الى حكومة ايران يستنجد بها على خصمه ، وقد تنتهز حكومة ايران الفرصة أحياناً فترسل قواتها لمساعدة هذا الفريق أو ذاك من الأمراء المتنازعين ، وقد يؤدي ذلك الى نشوب الحرب بين البلدين ، وهذا هو ما وقع فعلاً في أواخر عام ١٨١٧ ـ أي قبل أن تنتهي السنة الأولى من ولاية داود باشا •

يمكن القول على أي حال إن العراق كان مهدداً بالغزو الايراني منذ عام ١٨٠٥ حين عُيّن الشاهزادة محمد علي مرزا حاكماً على كرمانشاه ، فقد اشتهر هذا الرجل بقوة شخصيته وشدة طموحه وشراسته ، وأخذ منذ بداية تعيينه ينظم جيشه على الطريقة الأوربية ويعده اعداداً حديثا ، وكاد يهاجم العراق في عهد سعيد باشا لو لم يتدخل السفير البريطاني في ايران ويقنع الشاه باحترام الحدود القديمة[1] •

وفي أوائل ١٨١٨ استغل الشاهزادة نزاعاً وقع بين امراء آل بابان ،

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٤٣ •

واستنجاد بعضهم به ، فوجه ثلاثة جيوش يستهدف بها احتلال بغداد : أحدها من جهة السليمانية بقيادة محمد علي أغا البياتي ، والثاني من جهة مندلي بقيادة حسن خان الفيلي ، والثالث من جهة بدرة وجصان بقيادة كلهر علي خان وكلب علي خان •

وفي هذا الوقت الذي كان فيه الخطر يهدد بغداد ، فر منها صادق بك ـ أخو الوالي السابق ـ والتجأ دخيلاً الى شفلح الشلال شيخ زبيد ، وكأنه أراد أن يفعل مثلما فعل أخوه في عهد الوالي عبدالله باشا التوتونجي حين التجأ الى شيخ المنتفق على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق • وقد رحب به الشيخ شفلح كما انضم اليه جاسم الشاوي الذي كان داود باشا يريد قتله ، فتوافرت لديه بذلك قوة عشائرية لا يستهان بها وأخذت تشن الغارات على القرى والمدن وتقطع طرق القوافل والسفن بين بغداد والبصرة على طريقة « اضرب واهرب »[١] •

كانت تلك أحلك الأيام على داود باشا إذ اجتمعت عليه الأخطار من كل جانب ، ولكنه صمد لها صموداً عجيباً وأثبت أنه من أولئك الرجال الذين تلمع كفاءتهم عند اشتداد الازمات • أدرك داود باشا أنه لا يستطيع أن يقاتل القوات الايرانية والعشائرية في آن واحد ، فلجأ الى الحيلة حيث استخدم طريقة « فرق تسد » مع العشائر المتمردة وذلك بأن سلط على الشيخ شفلح الشلال اثنين من خصومه الذين ينافسونه على الرئاسة وهما علي البندر وشبيب الدرويش ، واستطاع هذان الرجلان بمن معهما من الاتباع أن يتغلبا على شفلح ويهزما قواته ، ففر هو وصادق بك وجاسم الشاوي والتجأوا الى عشائر عفج في الفرات الأوسط •

وبعد أن استراح داود باشا من هذه الجهة توجه نحو مقاومة الجيوش الايرانية الغازية • والظاهر أنه آثر استرضاء الشاهزادة وعقد الصلح معه ،

---

(١) أحمد على الصوفي (المصدر السابق) ص١٥٩ •

فوافق على معظم الشروط التي قدمها الشاهزادة من أجل الصلح ومنها إبقاء محمود باشا بابان حاكماً على السليمانية[1] • وبعد مراسلات ومفاوضات استمرت شهرين تم عقد الصلح بينهما ، ولكنه كان صلحاً موقتاً لم يدم طويلاً كما سيأتي بعد قليل •

ثورة عشائرية أخرى :

لم يتمتع داود باشا بالراحة ـ بعد تلك الأيام الحالكة ـ سوى أشهر معدودة • ففي خريف ١٨١٨ جاءت من بادية الشام عشيرة بدوية تدعى « الصقور » ، وهي من عنزة ، فوصلت الى مقربة من بلدة المسيب وأخذت تعيث بالأمن هناك وتقطع الطرق ، فوجه اليها داود باشا قوة عسكرية بقيادة خازنه يحيى أغا ، والتقى هذا بعشيرة « الصقور » في موضع يقع غرب المسيب فدارت الدائرة عليه وأوقعت به العشيرة هزيمة منكرة •

لم يكد ينتشر نبأ هذه الهزيمة التي حلت بجيش الحكومة حتى بدأت بعض العشائر تتجرأ وتعلن تمردها على الحكومة وتقطع الطرق • ففي الشمال أعلن العصيان مشكور الزوين شيخ شمر ، كما أعلنته عشائر عفيج وجليحة وآل فتلة في الجنوب ، وأخذت عشيرة الظفير تهدد زوار العتبات المقدسة بين النجف وكربلاء وتقطع عليهم الطريق ، وصار عباس الحداد رئيس « الزقرت » في النجف يهاجم خصومه « الشمرت» بغية وضع النجف كلها تحت سيطرته •

بدأ داود باشا حركاته القمعية بالشمال فوجه كهيته القدير محمد أغا بقوة كبيرة نحو عشيرة شمر ، واستطاع الكهية بعد مسيرة ثماني عشرة ساعة أن يفاجىء العشيرة بهجوم صاعق ، ففر أفراد العشيرة بأرواحهم وتركوا

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ١٦٧ـ١٦٨ •

للجيش جميع أموالهم فكانت غنائم الجيش آنذاك ثمانية آلاف شاة وخمسمائة ناقة ومائتي ذلول ، علاوة على الخيام وما فيها[1] .

وفي اليوم الاول من شهر تشرين الثاني ١٨١٨ تحرك الكهية محمد أغا بقواته من بغداد قاصداً الفرات الأوسط لتأديب العشائر المتمردة هناك ، وكان يصحبه بعض الاكراد برئاسة عبدالله باشا بابان ، وعشيرة عقيل الكرخية ، كما ساندته عشيرة الخزاعل وآل بعيج . وعلى مقربة من بلدة الكفل التقى ببعض رؤساء « الصقور » وكان عددهم ثمانية عشر رجلاً ، منهم حمدان القعيشيش وابن هذال زيد الحميدي ، وقد توسط شيخ عقيل بينهم وبين الكهية وأخذ لهم الأمان منه . وسار هؤلاء في معية الكهية حتى وصلوا الكوفة ، وهناك أمر الكهية باعتقالهم وارسالهم مكبلين بالقيود الى بغداد . وقد غضب شيخ عقيل من ذلك غضباً شديداً فأخذ يصرخ محتجاً ، لأنه كان الوسيط في أخذ الأمان لهم ، غير أن صرخاته ذهبت أدراج الرياح[2] .

وتوجه الكهية بعدئذ نحو عشائر عفج وآل فتله ، وجرت معهم معارك طاحنة ـ لا سيما حول قلعة شخير الغانم ـ كان النصر فيها حليف الكهية ، وغنم الجيش ألف طغار من الحبوب ، كما فرض خمسين ألف قرش غرامة على كل من جليحة وآل فتلة وجعل جبايتها في عهدة الخزاعل[3] .

قضية عباس الحداد :

كان عباس الحداد في أول أمره يمتهن الحدادة كما يبدو من اسمه ، وعند هجوم الوهابيين على النجف في عام ١٨٠٢ لمع اسمه مسن

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ج٦ ص٢٥٧ .
(٢) عبدالعزيز نوار (المصدر السابق) ص١٠٤ .
(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٢ .

زمرة الشجعان الذين دافعوا عن البلدة وأنقذوها من الخطر • وقد استعان به الشيخ جعفر كاشف الغطاء بعدئذ وجعله على رأس جماعة من الشبان المسلحين ليكونوا على إهبة الدفاع عن البلدة عند وقوع أية غارة عليها في المستقبل • والظاهر أن قوة عباس الحداد تطورت بمرور الايام حتى صارت أخيرا بمثابة شرطة إجرائية للشيخ جعفر تنفذ أوامره في حكم البلدة وفي تطبيق أحكام الشرع فيها ، فاذا أراد الشيخ أن يستدعي أحداً اليه أو يفرض عقوبة على أحد أرسل الحداد لاجراء اللازم •

وحدث ذات يوم أن جاءت الى الشيخ امرأة تُدعى « أم السعد » ـ وهي أخت السيد محمود رئيس قرية الرحبة ـ تشكو اليه من جور أخيها لأنه امتنع من تزويجها هي واختها على الرغم من كثرة خطابهما إذ كان يعد ذلك نوعاً من « القيادة » ويستنكر أن يقع التناكح في داره حتى بين الحيوانات • فأرسل الشيخ جلوازه الحداد مع زمرة من أتباعه الى السيد محمود يطلب منه الحضور الى مجلس الشرع ، ولكن السيد محمود رفض إطاعة أمر الشيخ مما أدى الى نشوب مشاجرة بينه وبين الحداد • ثم قُتل السيد محمود أثناء ذلك ، والمظنون أن الحداد هو الذي قتله • وعند هذا هب كليدار النجف الملا محمد طاهر يطالب بثأر السيد محمود لأنه كان ينتسب اليه بصلة الخؤولة • فكان ذلك ايذاناً ببدء النزاع المعروف في النجف بين « الزقرت » و« الشمرت » ـ هؤلاء يتبعون الكليدار وأولئك يتبعون الحداد ـ وبذا انشق سكان النجف الى فريقين متناحرين ، وكثيراً ما كانا يتقاتلان بالبنادق من فوق المآذن وسطوح المنازل المرتفعة[1] •

وعندما تولى داود باشا مقاليد الحكم في بغداد أسرع اليه عباس الحداد ، ورمى بنفسه في باب الحرم ، متوسلاً اليه أن يوليه حكم النجف

(١) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ـ النجف ١٩٥٨ ـ ج١ ص ٣٣٠ـ٣٣٤ •

بصورة رسمية ، فوافق داود باشا على ذلك ومنحه ما أراد[1] . ولكن عباس الحداد لم يراع هذا الفضل الذي أسداه اليه داود باشا ، حيث رأيناه يعلن الثورة مع الثائرين حالما وصل اليه نبأ هزيمة جيش الحكومة تجاه عشيرة الصقور . فوجّه الكهية اليه صالح أغا الكردي مع « بيرقين » ـ أي سريتين من الجيش ـ وانتهى أمر الحداد أخيراً بمقتله ، فأرسل صالح أغا رأسه الى الكهية ، وأرسله هذا بدوره الى داود باشا .

فرح الانتصار

بعد أن أنهى الكهية محمد أغا أعماله « التأديبية » في الفرات الأوسط ، ترك فيه ثلاثين « بيرقاً » من جنوده ، وأربعين « بيرقاً » من عشيرة عقيل ، للمساعدة على حفظ الأمن وجباية الغرامة ، ثم قفل راجعاً الى بغداد . وفي بداية عام ١٨١٩ كان وصول الكهية الى بغداد فاستقبل فيها استقبال الفاتحين وخلع عليه داود باشا خلعة فاخرة مكافأة له .

وفي تلك السنة شرع داود باشا بتشييد الجامع الكبير الذي عُرف فيما بعد باسم « جامع الحيدرخانة » والذي لا يزال قائماً يشرف على شارع الرشيد بالقرب من ساحة الميدان ويُعد من أوسع وأفخم مساجد بغداد . ويبدو أن داود باشا بنى هذا الجامع من باب الشكر لله على نجاته من تلك الأيام الحالكة التي مرت به .

مرت سنة ١٨١٩ على داود باشا بسلام ، انما هي لم تكد تقترب من نهايتها حتى وصلت الأنباء الى بغداد تشير الى تحرك عشائر الدليم نحو العصيان بالتحالف مع زوبع والجميلة والبو عيسى . وفي بداية عام ١٨٢٠ تحرك الكهية محمد أغا بقواته من بغداد متوجهاً نحو عشائر الدليم ، وعند وصوله اليهم نشبت معركة شديدة بين الفريقين استمرت طيلة النهار ،

---

(١) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج٢ ص ٣٤٢ـ٣٤٣ .

وقد وصفها الشيخ رسول الكركوكلي إذ كان معاصراً لها فقال : « وما هي الا جولات حتى تغلبت عليهم ـ قوات الكهية ـ ومزقت جموعهم ، وقتلت الكثيرين منهم ، وغرق معظم الذين ألقوا بأنفسهم الى نهر الفرات اثناء هزيمتهم ، واستولت الحملة على أموالهم ومواشيهم ، وسبت عيالهم وذراريهم ، ثم اتجهت نحو عشائر الجميلة والزوبع والبو عيسى لترابطهم سراً مع عشائر الدليم ، وطاردتهم الى نواحي شفاثة وظفرت بهم ، وبعد معاقبتهم واستيفاء ما بذمتهم من رسوم وأموال أميرية عادت الحملة . وبعد هذه الواقعة هدأت الأحوال ، وانتظمت الأمور ، وخيم السلام على بغداد ، وراح الشعراء يتسابقون الى مدح الوالي والثناء عليه لحزمه وحسن ادارته »[1] .

والظاهر أن داود باشا أراد أن يجعل الفرح في تلك السنة مضاعفاً ، فعزم على ختان ولده طورسون يوسف بك بمناسبة بلوغه السابعة من عمره . فأقيمت المهرجانات الفخمة سبعة أيام ، وأقبلت الوفود من كل مكان لتقديم التهاني ، ونُصبت خيمة جميلة في ساحة السراي وبُسطت الموائد للقاصي والداني . وقد خُتن مع « المحروس » ما يزيد على ألف طفل من الايتام ، وخلع الباشا على العلماء والاشراف حللاً بديعة الاوصاف . وانتهز الشعراء المناسبة فنظموا القصائد في تهنئة الباشا ومدحه، وهم صالح التميمي وفوزي ملا محمد أمين وعبدالله البصري وعثمان بن سند وغيرهم[2] .

النزاع مع المستر ريج :

في عام ١٨٢٠ اشتد النزاع بين داود باشا والقنصل البريطاني المستر ريج ، ولكي نفهم جذور هذا النزاع يجب أن نرجع قليلاً الى الوراء

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٦ .

لندرس شيئاً من سيرة المستر ريج هذا منذ أن عيّن قنصلاً في بغداد عام ١٨٠٨ •

يمكن القول إن المستر ريج هو أول من عمل على تمكين النفوذ البريطاني في العراق ، وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً حتى أصبحت شخصيته في بعض الاحيان أقوى من شخصية الوالي حيث أدرك الناس أن الولاة في تبدل دائم ، وقد يقتل أحدهم الآخر ، بينما يبقى المستر ريج في منصبه لا يتغير • ولهذا كان الناس لا يقيمون وزناً لوعود باشواتهم وأعيانهم الا اذا كانت مدعومة بضمان المستر ريج[1] ، وكانوا يسمونه « الباليوز » ـ وهي لفظة ايطالية بمعنى القنصل ـ وصار اسم « الباليوز » على كل لسان في بغداد •

إن من الوسائل التي اتخذها ريج لتدعيم نفوذه في المجتمع البغدادي هو اعتماده على المظاهر الزاهية والمواكب الفخمة ، فقد أدرك أن منزلة الانسان في هذا المجتمع انما تقاس بما تحف به من الابهة والفخامة ، ولهذا جعل للقنصلية حرساً من الفرسان بملابس مزركشة ، ولهم طبولهم وأبواقهم ، وهم يسيرون في موكب مهيب عند خروج « الباليوز » الى مكان ما وعند عودته منه ، وكثيراً ما يقف المتفرجون من أهل بغداد على جانبي الطريق وهم مدهوشون بروعة الموكب •

وعندما تولى داود باشا الحكم في بغداد خرج المستر ريج بموكبه ليهنيء الوالي الجديد بمنصبه ، ولعله كان يظن أن هذا الوالي كغيره من الولاة السابقين غير أنه اكتشف خطأ ظنه بعد زمن ليس بالبعيد •

في عام ١٨٢٠ أعلن داود باشا فجأة مضاعفة الرسوم المفروضة على الصادرات والواردات البريطانية ، ولما احتج المستر ريج على ذلك قائلاً

---

(١) كلوديس جيمس ريج (رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠) ـ ترجمة بهاء الدين نوري ـ بغداد ١٩٥١ ـ ص ٢٠ •

بأن للبريطانيين حقوقاً معينة أقرتها اسطنبول أجاب داود باشا بأنه لا يقبل بأي حق أوربي خاص ببغداد . وأسرع ريج فاتخذ اجراءاً مضاداً لعمل داود باشا وذلك أنه أمر نائبه في البصرة بمنع السفن الواردة من الهند من الدخول الى ميناء البصرة كما أمره بمنع السفن الداخلة من الخروج[1] . ثم أعلن ريج عزمه على الرحيل الى بومبي من أجل عرض القضية على المسؤولين هناك ولكن داود باشا منعه من ذلك وأمر جنوده بفرض الحصار على دار القنصلية البريطانية .

كانت القنصلية يومذاك على نهر دجلة في جانب الرصافة ـ على مقربة من جسر الاحرار الحالي ـ وكان يقف الى جانبها في النهر يخت مسلح لحمايتها . فوضع داود باشا تجاهها على الضفة المقابلة من النهر مدفعاً على استعداد لقصف القنصلية . ولم يقف ريج ازاء ذلك موقف المستكين ، بل أراد أن يثبت لأهل بغداد أنه لا يزال ذلك « الباليوز » صاحب الحول والطول الذي يعهدونه .

صمم ريج أن يدافع عن القنصلية بما لديه من حرس وقواسين ، وصادف أن كان في ضيافة القنصلية يومذاك عدد من ضباط شركة الهند فأشركهم ريج في خطة الدفاع . وقسم الدار الى قطاعات وزع عليها قواته ، ووضع الاستحكامات حولها ، وأشرف بنفسه على جميع مواقع الدفاع كأنه قائد عسكري كبير يشرف على معركة فاصلة ، أو كأنه « نابليون » ينتظر « واترلو » أخرى[2] .

يبدو أن داود باشا أدرك ما سوف تؤدي اليه هذه البادرة من مشكلة دولية فأرسل بعض موظفيه الى ريج ليفاوضوه ، ولكن ريج استقبلهم

---

(١) محمد بن أحمد الحسيني (رحلة المنشي البغدادي) ـ ترجمة عباس العزاوي ـ بغداد ١٩٤٨ ـ ص ١٨ .

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص ٢١٠ .

بغضب ورفع في وجوههم العصا ثم طردهم من الدار طرداً مخزياً • وأرسل داود باشا الى ريج وفداً آخر مؤلفاً من الدفتردار والصراف باشي عزره ، فنجح هذا الوفد في مهمته وتم الاتفاق على أن يمنح داود باشا لريج رخصة الخروج من العراق ، وأن يكتب ريج مقابل ذلك مذكرة يعترف فيها بأنه عومل معاملة حسنة وأنه انما يغادر العراق بمحض ارادته[1] •

يقول السيد محمد أغا المنشي ـ الذي كان يعمل كاتباً عند ريج ـ ان ريج كان قادراً أن يستولي على بغداد في تلك الحادثة لأن الانكشارية كانوا من أعوانه وكذلك كان أعيان بغداد وعامة الناس ، ولكنه لم يفعل ذلك لانه كان محباً للسلام وغير ميال للشحناء واثارة القلاقل[2] •

يدل هذا القول على أن ريج كان وثيق الصلة بالانكشارية وبأعيان بغداد وأن هؤلاء كانوا قد وعدوه بالمعونة عند نزاعه مع الوالي ، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن ريج كان قد وضع خطة سياسية بعيدة المدى عميقة الجذور في سبيل وضع العراق تحت النفوذ البريطاني ولكن داود باشا فوّت عليه الفرصة وخيّب أمله •

مهما يكن الحال فقد غادر ريج بغداد في ١١ أيار ١٨٢١ حيث أقله اليخت الخاص الى البصرة ، فوصلها بعد ثمانية أيام ، ومن هناك ركب سفينة بريطانية الى بوشهر ، ثم ذهب الى شيراز لمشاهدة آثار « تخت جمشيد » القريبة منها • وقد لقي ريج حتفه في شيراز إذ أصابه وباء الهيضة الذي انتشر هناك على حين غرة •

عينت الحكومة البريطانية الكابتن تيلر ليخلف ريج في قنصلية بغداد ، وكان هذا يعمل قبلئذ في البصرة في وظيفة « نائب قنصل » • وقد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١١ •
(٢) محمد بن أحمد الحسيني (المصدر السابق) ص ٢٠ •

اتبع تيلر مع داود باشا سياسة تختلف عن سياسة سلفه ، فساد الصفاء والود بينهما على وجه من الوجوه •

وباء « الكوليرا » :

أشرنا آنفاً الى انتشار وباء الهيضة « الكوليرا » في شيراز حيث مات به المستر ريج ، ولابد لنا من أن نذكر هنا أن هذا الوباء جاء من الهند عن طريق السفن ، وقد انتشر في بداية الامر في مدن الخليج كبندر عباس وبوشهر ، ثم وصل الى البصرة في أوائل شهر آب من عام **١٨٢٠** • والظاهر أن العراقيين لم يكن لهم عهد بهذا الوباء منذ زمن بعيد ، إذ كانوا قد اعتادوا على وباء الطاعون في الغالب ، وحين جاءهم وباء الهيضة استغربوا منه ولم يعرفوا له دواءاً ، وأطلقوا عليه اسم « الهواء الاصفر » و « أبو زوعة » • وقد أعطانا ابن سند وصفاً له ــ وكان يسكن البصرة يومذاك ــ فقال ما نصه :

« وفي تلك السنة حصل وباء عظيم في البصرة كاد أن يفني أهل البصرة ، وكثير من البيوت مات أهلها جميعاً وقُفلت بالضبة ، وكثير من الاموات يجدونهم في الطرقات ولا يعلمون من أي الجهات هم ، وأغلب الناس فروا الى البادية ، وهو طاعون كالذي ذكر الامام النووي أن من علاماته القيء والاسهال • وهذا الوباء كان كذلك يبتلي صاحبه بالقيء والاسهال المفرط ، وصاحبه لا يبول فاذا بال سلم واستمر في البصرة من آخر شوال الى آخر ذي القعدة ، الا إن شدته من أول ذي القعدة الى اثني عشر منه ، ثم كان تارة يشتد وتارة يخف الى أن انعدم • وصاحبه تعتريه حرارة عظيمة ظاهراً وباطناً ، وقد ألقى بعض المصابين به نفسه في الماء البارد فلم يفده شيئاً وقضى نحبه • وتحيرت فيه الاطباء وما علموا له دواءاً أصلاً كما أنهم لم يتحققوا أسبابه على اليقين ، بل كل من الحكماء يبدي سبباً للوباء يخالف ما يقوله الحكيم الآخر ، وهذا دليل على عدم الوقوف

على الحقيقة لأن الحق واحد لا يختلف فيه ، وما هذا الا لكون أدلتهم ظنية »[1] .

واشتدت وطأة الوباء في البصرة في منتصف شهر آب ، ثم أخذ يسري شمالا فاجتاح سوق الشيوخ والعرجة والسماوة والنجف وكربلاء والحلة حتى وصل الى بغداد ، ومنها انتقل نحو كركوك والسليمانية . وقد فاتح داود باشا رجال القنصلية البريطانية للتعاون معهم على درء الخطر ، فتقدم « حكيم الباليوز » ـ أي طبيب القنصلية ـ ببعض الأدوية المضادة للوباء مع النصائح والارشادات التي تساعد على الوقاية منه ، فتُرجمت المعلومات من اللغة الانكليزية الى التركية ووزعت على الجهات المختصة للعمل بها[2] .

الغزو الايراني :

بينما كان العراق يعاني من وباء الهيضة الوافد اليه من الهند بدأ يهدده من ايران وباء من نوع آخر هو الجيوش الغازية .

كان هناك مائة سبب ـ كما يقول لونكريك ـ لعودة النزاع بين العراق وايران ، منها سوء معاملة الاتراك للزوار الايرانيين في العراق والتجاء بعض أمراء بابان الى الشاهزادة محمد علي مرزا حاكم كرمانشاه . وقد زار الشاهزادة أباه فتح علي شاه ليستأذنه في غزو العراق ، فوجد هناك السفير الروسي خير مشجع له على ذلك ، وبهذا أذن الشاه لابنه أن يفعل ما يشاء[3] .

كان عبدالله باشا بابان من جملة أمراء الاكراد الذين التجأوا الى

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٩٨ .
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٤٤ .

الشاهزادة في كرمانشاه ، فأصدر الشاهزادة أمراً بتعيينه حاكماً على السليمانية بدلاً من ابن أخيه محمود باشا الذى كان معيناً بأمر من داود باشا • وقد أخذ عبدالله باشا يهاجم الحدود العراقية من جهة خانقين ، ثم توجه بعدئذ بقوة كبيرة نحو السليمانية بغية فتحها ، وكان الشاهزادة يدعمه من ورائه بجيش ضخم يضم خمسة عشر ألف فارس ، ثم انضم اليه من العراق كيخسرو بك رئيس عشيرة الجاف •

أرسل داود باشا الى السلطان في اسطنبول يعلمه بالخطر المحدق به ، فأجاب السلطان باعلان الحرب على ايران ، وبعث الى داود باشا نجدة من « الهايته » تتألف من خمسة آلاف ألباني • فأضاف داود باشا هذه النجدة الى قواته ووجهها مع أربعين مدفعاً نحو السليمانية بقيادة الكهية محمد أغا • وقد وصل الكهية بجيشه الى زنكباد في ايلول ١٨٢١ ، وبعد أن انتظر فيها أربعين يوماً تحرك على طريق كركوك نحو السليمانية ، وهناك على مقربة من السليمانية جرت معركة بين الفريقين أصيب فيها جيش الكهية بهزيمة شنعاء ، ويقال إن الهزيمة كانت مدبرة من قبل الكهية نفسه إذ كان قد اتفق سرا على ذلك مع الشاهزادة بعد أن وعده الشاهزادة بأن يعينه والياً على بغداد عند فتحها •

انفتح الطريق أمام الجيش الايراني بعد تلك الهزيمة ، فأخذ يتقدم نحو بغداد حتى وصل الى قرية « هبهب » ، وهي على مسيرة يوم واحد من بغداد ، فسار الرعب في بغداد وارتفعت الاسعار وأخذ المئات من الناس يهربون منها نحو الحلة والفلوجة[1] • ثم وصلت بعض طلائع الجيش الايراني الى خان بني سعد الذي يبعد عن بغداد بمسافة خمسة عشر ميلا ، وأيقن الكثيرون أن بغداد على وشك أن تسقط أو تقع تحت وطأة حصار عسير • وانتهزت الفرصة بعض العشائر المجاورة فأخذت تقطع الطرق

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ •

وتغير على القرى ، وقد تعرضت قرى الدجيل لمثل تلك الغارات[١] .

وفي تلك الآونة بالذات كان وباء الهيضة قد وصل بغداد ثم أخـذ يسري نحو الشمال ، فانتشر في صفوف الجيش الايراني حتى أصيب به الشاهزادة نفسه ، وكان ذلك لداود باشا بمثابة فرج من السماء . وقـد أدرك الشاهزادة أنه غير قادر على الاستمرار في الحرب فأرسل الى الشيخ موسى كاشف الغطاء يطلب منه التوسط لعقد الصلح مع داود باشا ، وكان الشيخ قد تولى الزعامة الدينية في النجف بعد وفاة والده الشيخ جعفر ، فجاء مع حاشيته الى بغداد ونجح في عقد الصلح بين الفريقين المتحاربين ، ولهذا اشتهر الشيخ موسى بين الناس بلقب « مصلح الدولتين » .

ولم يكد الشاهزادة يصل الى مقره في كرمانشاه حتى مات ، وحين وصل نبأ موته الى بغداد عم الفرح في الاوساط الحكومية إذ كان هـذا الرجل مصدر إقلاق لحكومة بغداد ، وللدولة العثمانية كلها ، طيلة خمسة عشر عاماً[٢] . وقد حاول حسين مرزا ابن الشاهزادة المتوفى ـ والذي خلف أباه في حكم كرمانشاه ـ أن يعيد الكرّة على العراق فأرسل جيشاً ضخماً لغزوه ، وتقدم الجيش الايراني عبر الحدود العراقية حتى وصل الى بلدة شهربان ، وكان الحاج طالب[٣] يقود الجيش العراقـي إزاءه ، غير أن وباء الهيضة بدأ يهدد الجيش الايراني كما فعل في المرة الاولى مما اضطره الى الانسحاب من العراق والعودة الى ايران .

وفي عام ١٨٢٢ عقد مؤتمر أرضروم وفيـه تم الصلح بين الدولتين الايرانية والعثمانية حيث اتفق الفريقان على تسوية القضايا التي كانت تثير

---

(١) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص ١٤٧ .
(٢) أحمد علي الصوفي (المصدر السابق) ص ١٧٤ .
(٣) تولى الحاج طالب منصب الكهية بعد محمـد أغـا الذي التحق بالجيش الايراني ، وهو والد سليمان فائق و جدّ حكمت سليمان .

الخصومة بينهما كقضية الحدود وضرائب التجار ومعاملة الزوار الذين يقصدون العتبات المقدسة[1] • وبهذا استراح داود باشا من مشكلة كبرى كانت تقض مضجعه دائماً •

مسيو ديفو :

بعد أن اطمأن داود باشا من زوال الخطر الايراني بدأ يهتم بتقوية الجيش وتدريبه على النظم الحديثة ، وكأن الحرب الاخيرة قد علمته درساً بليغاً حيث أدرك به قيمة النظم الحديثة في تشكيل الجيوش • وكان أول عمل قام به هو استقدام ضابط فرنسي اسمه المسيو ديفو للعمل من أجل هذا الغرض •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المسيو ديفو كان من ضباط نابليون الذين تركوا فرنسا بعد سقوط رئيسهم ، وكان قبل استدعائه من قبل داود باشا يعمل في تدريب جيش الشاهزادة في كرمانشاه ، وهو يشبه في ذلك ضابطاً نابليونياً آخر اسمه المسيو سيف كان قد استخدمه محمد علي باشا في تدريب جيشه في مصر وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم « سليمان باشا » •

كان مسيو ديفو كما وصفه أحد الذين شاهدوه : « رجلاً فارع الطول ، نحيف القوام ، وفي الستين من عمره ، وهو أسمر الادمة بسبب تعرضه لشمس الشرق طويلا ، ويعلو شفته العليا شاربان أبيضان كثيفان ، وعلى عينيه حاجبان كثيفان أيضاً • إن بزته تشعرك بأنه عسكري فرنسي حق ، وأزرار سترته مزينة بالتاج الانبراطوري والحروف الاولى من اسم نابليون ، ويتدلى من ثقب الزر صليب لويس المرغوب ، وسراويله التركية الواسعة تدل على السلك العسكري التركي الذي يخدم فيه الآن •

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٢ •

وتعلو رأسه قبعة صغيرة تميل نحو أذنه اليسرى »[1] .

نشط المسيو ديفو في تدريب الجيش العراقي ، وفي تكثير عدده ، وتمرينه على الاسلحة الحديثة . وقد ساء ذلك المستر تيلر القنصل البريطاني إذ لم يهن عليه أن يرى ضابطاً فرنسياً يتولى مثل هذه الوظيفة في العراق بينما كان يطمع أن يتولاها ضابط بريطاني[2] .

واشترى داود باشا مصنعاً للبنادق من أوربا وجلب الفنيين لادارتها ، كما أسس مصانع المنسوجات لتفي بحاجات الجيش ، ورصد المرتبات المنتظمة للجنود لكي تغنيهم عن فرض الاتاوات على الرعية حسب عادتهم القديمة .

تقليد محمد علي :

يبدو أن داود باشا جعل من محمد علي باشا والي مصر قدوة له ، وحاول تقليده لاسيما من حيث ادخال المخترعات الاوربية الحديثة في البلاد . كتب المبشر البريطاني غروفز الذي كان يسكن بغداد يومذاك يقول : « كل شيء كان يدل على تغلغل النفوذ الاوربي ... ولم يكن هذا الاتجاه في استعمال الاساليب الاوربية والتحسينات بارزاً في الشؤون العسكرية فحسب ، بل في أمور أخرى أكثر أهمية منها . فقد كانت رغبة الباشا عظيمة في ادخال الملاحة البخارية في هذين النهرين الجميلين .. واني أشعر في الحقيقة بأن الباري سبحانه وتعالى قد أدخل انقلابات عظيمة في قلب هذه الامة »[3] .

قيل إن من جملة الامور التي استحدثها داود باشا في العراق هو أنه

(١) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ج٢ ص ١٤٠ .
(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص ٣٢٢-٣٢٣ .
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٦٣ .

أصدر أول جريدة في بغداد باسم « جرنال العراق » ، فكانت تطبع في مطبعة حجرية باللغتين العربية والتركية ، وتوزع على قواد الجيش وكبار الموظفين وأعيان المدينة ، كما تعلق نسخ منها على جدران السراي ، وكانت تحتوي على وقائع العشائر وأخبار الدولة العثمانية وأوامر الوالي والاصلاحات الواجب اجراؤها وما أشبه[1] .

من الممكن القول إن داود كان مفتوح الذهن تجاه كل اختراع نافع مهما كان مصدره . يروى أن رجلاً ايرانياً خبيراً بصنع الآلات اسمه المرزا عبدالمطلب جاء الى بغداد وتعهد لداود باشا بأن يصنع « طلومبة » ترفع الماء من النهر ويستغنى بها عن البكرات المعتادة التي تسمى بـ « الكرود » . وقد اهتم داود باشا بأمره وخصص له عدداً من الحدادين والعمال ليساعدوه في صنع الآلة ، وبعد مدة وجيزة أتم المرزا صنعها فسميت « جرخ يوسف » نسبة الى طورسون يوسف بك ابن داود باشا ، وخرج أهل بغداد يتفرجون عليها ويتعجبون . وقد أنعم داود باشا على المرزا بخلعة ومال جزيل وأمره أن يقيم في بغداد لكي يتعلم الناس الصنعة منه وأجرى له مرتباً[2] . ويرجح في ظني أن تلك الآلة هي التي عرفت في العراق بعدئذ باسم « الناعور » ، وانتشرت في بعض المناطق منه انتشاراً واسع النطاق .

مشاهدات سائح :

في شهر آذار من عام ١٨٢٤ وصل الضابط البريطاني جورج كيبل مع رفاق له الى بغداد ، وقد سجل لنا في مذكرات رحلته صوراً طريفة عن المجتمع البغدادي وعن شخصية داود باشا ننقل بعضها فيما يلي على سبيل الايجاز .

---

(١) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص١٠.

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

وصل كيبل ورفاقه الى بغداد من الجنوب عن طريق دجلة ، ويقول كيبل ان ملابسهم الغريبة لفتت أنظار الناس الذين كانوا واقفين على سيف النهر ، وكان بينهم عدد من النسوة ولكنهن لم يجسرن على رفع النقاب عن وجوههن ، ومنهن من رفعن الصوت عالياً • وعندما وصلت السفينة الى مقربة من باب بغداد استقبلهم قواسان من قواسي القنصلية البريطانية وطلبا منهم أن يتريثوا في أماكنهم الى أن يأتي موكب الاستقبال لكي يرافقهم الى دار القنصلية • يقول كيبل إنه لم يشأ أن يستجيب لطلبهما وقرر هو ورفاقه المشي على الاقدام في داخل بغداد فحملق القواسان فيه دهشة اذ هما لم يستطيعا أن يتصورا رجلا بريطانياً يهين كرامته ويمشي في الشوارع على قدميه • وقد وصل الموكب بعد ساعة وهو يضم خيلاً عليها أغطية من القطيفة المزركشة بالفضة ولها أعنة مزينة على أحسن وجه ، فامتطى كيبل ورفاقه ظهور الخيل وساروا في الشوارع يتقدمهم أحد القواسين ممتطياً صهوة جواده وبيده عصاه الرسمية وهي من فضة وفي رأسها كرة موشاة مزركشة بثقوب[1] •

ان هذا يدل على مبلغ اهتمام القنصلية البريطانية بمظاهر الابهة والفخفخة ، وهي المظاهر التي كان « المرحوم » ريج يحرص عليها كل الحرص على نحو ما أسلفنا القول فيه ، وقد ظل خليفته تيلر مستمراً على الاهتمام بها • والواقع أن أي رجل ذي مكانة لا يستطيع أن يستغني عنها في مثل تلك الظروف • فقد اعتاد الناس على رؤية الكبراء يركبون الأفراس المطهمة وتحيط بهم المواكب والحاشية والعبيد ، وكلما تضخمت مظاهر الأبهة حول الرجل ارتفعت منزلته في نظر الناس ، ولا تزال بقية من تلك العادة موجودة تؤثر في أعماق النفوس حتى يومنا هذا •

وزار كيبل مع رفاقه داود باشا في السراي ، وذكر كيف استقبلهم

---

(١) ريجارد كوك (المصدر السابق) ص ١٣٨ — ١٣٩ •

أولاً ـ على مبعدة من السراي ـ وفد الانكشارية ، حتى اذا دخلوا ساحة السراي الفسيحة وجدوا فيه جنود الباشا مصطفين ، وعند مرورهم بباب السراي الثانية استقبلهم ضباط الباشا ثم مروا بصفين من الانكشارية وهم واقفون مكتوفي الايدي لا يبدون حراكاً • وكانت قاعة الاستقبال شرقية الأثاث ومزينة بعدد كبير من المرايا المثلثة فكان منظرها باهراً عجيباً ، وكان داود باشا جالساً في أحد أركان القاعة متكئاً على وسائد •••

ووصف كيبل داود باشا فقال : إنه رجل تظهر عليه امارات الطيبة ، وعمره بين أربعين وخمسين سنة ، وهو ذو خلق جذاب • ولكن كيبل يعود فيقول : إن ببغداد اشاعة تدور مفادها أن ضحايا طموح داود باشا وطمعه بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة شخص على الأقل ، « وقد حاولت في أثناء المقابلة أن اكتشف من خلال سحنته اللطيفة أثراً لمثل هذه الجريمة الفظيعة ، ولكن ذلك كان من غير جدوى »[١] •

اجتذاب العلماء والادباء :

تميز عهد داود باشا بكثرة ما بُني فيه ـ أو جُدِّد بناؤه ـ من المساجد والمعاهد الدينية ، قيل إنها بلغت ثمانية وعشرين معهداً • ومن طريف ما يُروى في هذا الصدد أن أم داود باشا التي كانت تسكن تفليس سمعت بما كان ابنها يبني من معاهد اسلامية فصارت هي من جانبها تبني معاهد مسيحية كالبيع والديارات[٢] • والظاهر أنها ـ وهي المسيحية المخلصة ـ أرادت أن تستغفر ربها لنفسها ولابنها فأخذت تفعل ما يرضي ضميرها الديني تعويضاً عما كان يفعله ابنها الذي اعتنق الاسلام •

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٩ ـ ١٤١ •

(٢) انستاس ماري الكرملي ، في كتاب عبدالقادر الشهراباني (المصدر السابق) ص ٦ •

ولم يكتف داود باشا ببناء المعاهد الدينية ، بل أخذ أيضاً يجتذب اليه الشعراء والمؤلفين والفقهاء وأرباب الطرق الصوفية ، ويغدق عليهم النعم والجوائز . يقول الشيخ رسول الكركوكلي ، وهو أحد المؤلفين الذين غمرهم داود باشا بفضله : « وأخذ العلماء من جانبهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤدون واجباتهم بفخر واعتزاز وحمية ، وكثر منهم الوعاظ ينصحون ويرشدون ويرغّبون ويرهّبون ، ويوجهون عباد الله الى الجادة المستقيمة والى التمسك بالأخلاق وتقوى الله والتحلي بالآداب ومحاسن السلوك والعادات ، وقد انطلقت ألسن الشعراء بمدح الوزير والثناء على أعماله بمختلف اللغات ، وقد جمعت هذه القصائد والمدائح في مجموعة سأبرزها للناس في كتاب على حدة . ولقد كان لشقيقي خضر أفندي والأربللي عبدالله أفندي القدح المعلى في هذا الباب ، ونالا من لدن الوزير ما يليق بهما من الاكرام لشعورهما الفياض ، وخصص للاول راتباً شهرياً قدره ثلاثة آلاف قرش ، وعيّن الثاني حاكماً على أربيل وهو كل ما كان يصبو اليه ويتمناه »[1] .

يعتبر عصر داود باشا بداية اليقظة الحديثة في الأدب العراقي[2] ، وقد ارتفع فيه اسلوب الشعر وأخذ ينمو نمواً جديداً ، ونبغ شعراء كانوا قادة الشعر العراقي خلال القرن التاسع عشر كعبدالغفار الأخرس وصالح التميمي وعبدالباقي العمري وعثمان بن سند البصري[3] . وهذا في الواقع نتيجة طبيعية لما كان داود باشا يغدقه على الشعراء من مكافآت مغرية . أضف الى ذلك أن داود باشا نفسه كان يتذوق الشعر ويطرب

---

(١) رسول الكركوكلي (المصدر السابق) ص ٢٧٩ .

(٢) داود سلوم (تطور الفكرة والاسلوب في الادب العراقي) ـ بغداد ١٩٥٩ ـ ص ٩ .

(٣) يوسف عزالدين (الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر) ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٥٥ .

له لانه أمضى شطراً كبيراً من حياته في دراسة اللغة العربية وآدابها أثناء طلبه العلم في جامع الشيخ عبدالقادر .

الجانب الآخر :

يجب أن لا ننسى أن داود باشا في الوقت الذي كان فيه يغدق الأموال على العلماء والأدباء كان من الجانب الآخر يقسو على الرعية في الجباية ويجور عليهم بشكل غير مألوف . وصفه سليمان فائق الذي كان معاصراً له في أيام صباه فقال : « ومما يؤسف له كثيراً أنه في زمن حكومته حصل منه حيف وظلم في أمور كثيرة فلم يخل من أن يُنعت به ، ولم يكن كريماً سخياً ، وتجاوز الحد في جلب المال وادخاره فأفرط ، ولا تزال الرسوم التي طرحها على بغداد يئن من ثقلها الأهلون ، فاستمر أخلافه على استيفائها مع أنها لم تكن معروفة قبله ولا مسموعاً بها »[١] .

ووصفه مؤرخ آخر فقال : « ... وأما وقائعه فما تذكر لقبحها ولمزيد ظلمه ... وليس له مادة حسنة كي يعتني المؤرخون بذكرها حتى لو أننا نذكر من تعديه على عباد الله لأفضى الى كفره وانكاره . أسس أشياء من الظلم ما تخطر على قلب فرعون وكان بخيلاً جداً مع زيادة أمواله ، يغصب الناس أموالهم ظلماً وعدواناً ... كان يغصب أموال الناس بواسطة حاج أفندي الكردي ... »[٢] .

ويتفق المؤرخون الغربيون مع الشرقيين في هذا الوصف الذي وُصف به داود باشا . فقد قال عنه لونكريك : إن كرمه كان مصحوباً بجشع مسنون[٣] . وقال كوك : « ولقد كلف الازدهار الظاهري الذي اتسمت به الادارة مبلغاً كبيراً من النفقات ، وتراءى البذخ في السراي

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٦ ص ٣٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج٦ ص ٣٣١ .
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٣٩ .

لشعب يزداد عيلة على إملاق ، وداست الضرائب عمال المدينـة الفقراء ، وكانت شديدة الوطأ إلا على رجال القبائل الثائرين الذين كانوا يتهربون منها ••• » • وأشار كيبل الى أن داود باشا كـــان يعمد الى المبايعات في السوق بين حين وآخر ، وأنه خفض قيمة العملة الى النصف[1] •

ويروي السائح الفرنسي فونتانيه قصة لا ندري مبلغ صحتها ، انما هي على أي حال تنسجم مع ما عُرف عن داود باشا من استهتار بالرعية وأموالها • وخلاصة القصة أن أخاً لداود باشا ـ وهـو غير الأخ الاول « جيو » الذي أشرنا اليه سابقاً ـ جاء الى بغداد أثناء ولاية أخيه واعتنق الاسلام فأعطاه أخوه داراً ومالاً ورتب له خداماً ثم اشترى له من السلطان رتبة « مير ميران » فصار اسمه « حسين باشا » • ولما نفد ما عنده من المال ـ اذ كان سكيراً ـ ذهب الى أخيه داود باشا يطلب منـــه نقوداً ، فصرخ أخوه في وجهه قائلاً « تطلب نقوداً ولا تعرف أن تحصل عليها ! ألست أخاً لداود باشا ! أليس هناك من يمكن أن يدخلك منه المال ! » ، فخجل « حسين باشا » من غباوته وبدا له أن يستفيد من كلام أخيـه فقبض على يهودي وأخذ يضربه بالعصا ضرباً مبرحاً ثم سلبه كل ما يملك ، وصار يعاود مثل هذا العمل مرة بعد أخرى ، مما اضطر أخاه أن يبعده عن بغداد فعينه حاكماً على البصرة • وهناك في البصرة أخذ « الأخ الكريم » يحاول الاستيلاء على أموال الناس معتقداً أن هذا حقه ، ولكنه أخفق فاستولى على أملاك الحكومة ، بل على أملاك أخيه ، وقد وجد سفينة مغشـاة بنحاس فنزعه عنها لبيعه • وهكذا فعل بالسفن التي كانت في الميناء • وحذراً من أن تؤدي هذه المعاملة الى ثورة أستدعى الى بغداد[2] •

وكان داود باشا بالاضافة الى ذلك يميل الى حياة الترف والمظـــاهر

---

(١) ريجارد كوك (المصدر السابق) ج٢ ص ١٣١ ، ١٣٩ـ١٤٠ •
(٢) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ج٢ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ •

الباذخة . وقد ذكر السياح الذين شاهدوا السراي الذي شيده داود باشا في بغداد أنه كان ينافس في الفخامة سراي اسطنبول[1] . وأشار السر كير بورتر الى أن ترف داود باشا كان على طرف نقيض مع فقر الناس وشقائهم في بغداد ، ففي ولائمه وملاهيه يتردد ذكر صحون وملاعق الذهب والأكواب النادرة ومناديل الحرير والموسلين المطرز وأباريق الفضة والعطور[2] .

فذلكة اجتماعية :

يتضح مما ذكرناه آنفاً أن داود باشا كان من طراز السلاطين القدامى أرباب « العصور الذهبية » المعروفة ، إذ هو يقسو على الناس في جباية المال ثم يمنح جزءاً مما يجبيه الى العلماء والادباء . وهذه طريقة ناجحة عملياً وان كانت في حقيقتها مخالفة للشرائع الدينية ولما يقتضيه مبدأ العدالة الاجتماعية .

ان الحاكم حين يغدق الأموال على العلماء والادباء يكسب بهم ألسنة بارعة تنطق بمديحه ، فهم يأخذون بالتغني بمناقبه في مؤلفاتهم وقصائدهم. أما جماهير الناس وهم الذين يرزحون تحت وطأة الاغتصاب والظلم فليس لديهم من ينطق بلسانهم أو يدافع عنهم ، وكثيراً ما يتأثرون هم أنفسهم بما يذيعه الادباء والعلماء في مدح الحاكم فيصدقون به ، وينسبون المظالم التي حلت بهم الى القضاء والقدر أو يعللونها بأنها عقوبة من الله على ذنوبهم .

ان « القلميين »[3] هم الذين يصنعون الأفكار وينشرونها بين

---

(١) ريجارد كوك (المصدر السابق) ج٢ ص ١٣١ .
(٢) داود سلوم (المصدر السابق) ص١١ .
(٣) ان هذا اصطلاح اتخذته موقتاً لتعريب لفظة (Publicists) الانكليزية والتي تعني الكتاب والادباء والشعراء والفنانين والفقهاء وغيرهم من أصحاب صناعة القلم .

الناس ، وفي مقدورهم أن يجعلوا الأبيض أسود ، والاسود أبيض ، فاذا استرضاهم الحاكم واجتذب قلوبهم بجوائزه ومجاملاته صار في نظرهم أعدل خلق الله طراً وأفضلهم وأزكاهم ، أما اذا أهملهم أو أغضبهم فالويل له عندئذ « من الله والناس أجمعين » .

إن الحاكم الذي يريد أن يسير في سياسته على طريقة علي بن أبي طالب فيساوي بين الناس في العطاء لابد أن يكون مصيره الفشل ، ذلك لأن « القلميين » القادرين على توجيه الرأي العام سينفضون عنه ويذهبون الى خصمه وقد يندفع وراءهم جماهير الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

إننا حين نرى « القلميين » في عهود متأخرة يحبون علياً ويمدحونه يجب أن لا ننسى أنهم لو كانوا في زمانه لفعلوا العكس من ذلك ، ودليلنا على هذا هو أنهم ظلوا دائبين على مدح سلاطين زمانهم ، وكلما ازدادت جوائز أولئك السلاطين لهم ازدادوا هم من جانبهم في تدبيج أفانين المديح .

مشيئة القدر :

دام حكم داود باشا في العراق زهاء خمسة عشر عاماً وهي مدة تساوي عدد اسمه في حساب الحروف كما يقول سليمان فائق[1] . وكان في وسع داود باشا أن ينال الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وأن يؤسس ملكاً له ولأسرته من بعده ، على منوال ما فعل محمد علي باشا في مصر . فهو قد أدرك طبيعة المجتمع العراقي وكيف يسوس الناس ، واستطاع كذلك أن يعدّ جيشاً مدرّباً لا يستهان بقوته ، غير أن الظروف عاكسته أخيراً فهدمت الحلم الذي كان يراوده طويلاً .

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في بغداد) ـ ترجمة محمد نجيب أرمنازي ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٥١ .

ليس في هذه الدنيا بشر يخلو من الأخطاء ، والخطأ البشري قد يكون في بعض الأحيان بسيطاً ولكنه قتال يودي بصاحبه • وقد اقترف داود باشا خطأً من هذا الطراز في عام ١٨٣٠ حين تورط في قتل المبعوث الذي أرسله السلطان اليه ـ على نحو ما سنذكره في الفصل القادم ـ مما جعله يدخل في مشكلة مع السلطان كانت القاضية عليه • والظاهر أنه اغتر بنفسه وبقوته فتسرع في عمل كان هو في غنى عنه ، ولو أنه صبر قليلاً فلم يتسرع في قتل المبعوث السلطاني لانتهت الأمور حسبما يروم من تلقاء نفسها •

إن محمد علي باشا استطاع في عام ١٨٣٢ أن ينزل بالجيوش العثمانية ضربات ماحقة ، وكاد جيشه أن يصل الى مقربة من اسطنبول بقيادة ابنه ابراهيم ، ولو كان داود باشا أثناء ذلك لا يزال حاكماً في العراق لتمكن من التعاون مع محمد علي باشا على تحقيق هدفهما المشترك، ولربما تغير من جراء ذلك مجرى التاريخ في العراق وبعض البلاد العربية الأخرى • وقد صدق من قال : « تقدرون وتضحك الاقدار ! » •

الفصل العاشر

نهاية الانكشارية والمماليك

منذ منتصف القرن الثامن عشر بدأت عاصمة الدولة العثمانية تشهد صراعاً عنيفاً بين المحافظين والمجددين ، هؤلاء يريدون السير في تيار الحضارة الحديثة وأولئك يعدون ذلك كفرا • وهذه هي أول مرة يحدث فيها مثل هذا الصراع في العالم الاسلامي ، ثم أخذ الصراع يمتد بعدئذ وينتشر في مختلف البلاد الاسلامية شيئاً فشيئاً •

إن السبب الذي جعل اسطنبول تسبق البلاد الاسلامية كلها في هذا الشأن هو أنها مدينة ذات موقع جغرافي عجيب ، إذ هي تقع وسطاً بين الشرق والغرب ، فتستمد من الشرق تراثها القديم بينما هي تتلقى من الغرب التيار الحديث • ومن الطبيعي اذن أن يحدث الصراع بين هذين الاتجاهين فيها على وجه من الوجوه •

كانت قضية التعليم العسكري من أوائل القضايا التي ثار حولها الصراع بين المحافظين والمجددين في اسطنبول ، وقد برزت هذه القضية للوجود عندما أدرك ساسة الدولة العثمانية أنهم يجب أن يواكبوا الحضارة الأوربية بعلومها وفنونها لكي يستطيعوا السير في مضمار الحياة الحديثة ، وكان هذا الادراك قد اتضح لديهم حين وجدوا جيوشهم غير قادرة أن تصمد تجاه الجيوش الأوربية في المعارك وأنها كانت تصاب في معظم الاحيان بالهزائم المنكرة •

من أهم خصائص الدولة العثمانية أنها قامت في بداية أمرها ــ كما رأينا في فصول سابقة ــ على أساس العصبية الدينية والجهاد في سبيل الله ،

وهي قد نجحت في ذلك نجاحاً عظيما حين كانت الحروب تعتمد بالدرجة الأولى على الحماس والعصبية • ولكن طبيعة الحروب قد تغيرت في العصر الحديث حيث أصبحت تقوم على العلم والتقنية أكثر مما تقوم على الحماس والعصبية • ومن هنا انبعثت المشكلة التي أخذت الدولة العثمانية تعانيها في عهودها الأخيرة •

أشرنا في فصل سابق الى مبلغ اهتمام السلاطين العثمانيين بالمدافع – في بداية اختراعها – حتى تفوقوا بها على جميع الدول التي دخلت في حرب معها ، ولكننا يجب أن لا ننسى هنا أن استعمال المدافع لم يكن في ذلك الحين بالأمر العسير ، فقد يكفي فيها أن تكون ضخمة ذات قنابل كبيرة ، ثم تُصوب على الأسوار أو الجيوش تصويباً تقريبياً ، لتحدث الأثر المطلوب • إن هذا لم يعد كافياً بعد أن تطورت فنون المدفعية لدى الدول الأوربية وبدأ استخدام أحدث النظريات الرياضية وجداول اللوغارتمات فيها ، ولهذا كانت المدافع الأوربية تنزل بالجيوش العثمانية خسائر فادحة من مسافات بعيدة دون أن تتمكن المدافع العثمانية من الرد عليها •

من أحداث الصراع :

كان أول السلاطين العثمانيين الذين حاولوا إصلاح الجيش وتدريبه على الفنون الحديثة هو السلطان مصطفى الثالث الذي تولى الحكم في عام ١٧٥٧ ، فقد أخذ يستعين ببعض الخبراء والضباط الاوربيين لتدريب الجنود على الأساليب العسكرية الحديثة ، وكان ذلك ايذانا بظهور المعارضة ضده إذ هب الانكشاريون ينتقدون هذا الاتجاه الجديد ويستنكرونه ، وصاروا يقولون : إن ولي الله الحاج بكتاش قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ودعا لهم بالنصر الدائم ، ولهذا فان بركته ودعاءه يغنيهم عن كل تعليم[١] •

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) – بيروت ١٩٦٠ – ص ٧٧ .

واشتدت معارضة الانكشاريين في عهد السلطان سليم الثالث الذي تولى الحكم في ١٧٨٩ ، فقد كان هـــذا السلطان بمزاجه وتدريبه من المصلحين ، وشرع بسلسلة من الأعمال الاصلاحية في مختلف أجهـــزة الدولة ، فأوقف سوء الاستعمال في أمور الاقطاع ، وألغى طريقة « الالتزام » في جباية الضرائب ، وشجع الطباعة وترجمة الكتب من اللغات الأجنبية ، وأرسل البعثات الى أوربا[1] . ولكن العمل الذي أحنق الانكشاريين أكثر من غيره هو أن السلطان أدخل في الجيش ما يسمى بـ « النظام الجديد » وهو نظام يقوم على أساس التعليم العسكري وفق الأساليب الأوربية ، فقد هب الانكشاريون لمقاومة هذا النظام ، يؤيدهم المتعصبون من رجال الدين ، وأخذوا يشنّعون عليه بما مفاده أن التعليم العسكري من الأمور التي لم يعرفها الاسلام وأن الفتوحات الاسلامية كلها تمت من غير تعليم ، وذلك علاوة على أن النظام الجديد بدعة وكل بدعة حرام ، وأنه من بدع الكفار وأن الأخذ به يؤدي الى التشبّه بهم وقد منع الاسلام من ذلك إذ قال : إن من تشبّه بقوم فهو منهم[2] .

وفي عام ١٨٠٧ ثار الانكشاريون على السلطان سليم فحاصـروه في قصره ، ثم استحصلوا فتوى شرعية هذا نصها : « هل يحق للسلطان ، الذي يحارب مسلكه وأنظمته القواعد الدينية المقدسة التي نص عليها القرآن الكريم ، البقاء على العرش ؟ الجواب : كلا » . فخلعوا السلطان بناءاً على هـذه الفتوى ، ثم قتلوه بعدئذ ، ونصـــبوا مكانه سلطاناً جديداً يلائم رغباتهم . ولكن دعاة الاصلاح قاموا بثورة مضادة برئاسة مصطفى باشـا البيرقدار فزحفوا على العاصمة واستولوا على الحكم ثم نصبوا على العرش

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العـــراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٧٩ .

شاباً يبلغ من العمر السادسة عشرة هو السلطان محمود الثاني الذي قدر له أن يكون من أعظم سلاطين آل عثمان وأكثرهم تأثيراً في مجرى التاريخ العثمانـي •

السلطان محمود الثاني :

هناك مقياسان لقياس عظمة الرجال : أحدهما ينظر الى كفاءة الرجل وقوة شخصيته قبل أن ينظر الى مدى نجاحه الفعلي في الحيـاة ، بينمـا الآخر يفعل العكس من ذلك إذ هو يقيس الرجل بأعماله الناجحة ويغض النظر عن مواهبـه الشخصية • ونحن إذ نريد دراسـة سيرة السلطان محمود حسب المقياس الاول نجده عظيماً من غير شك • يصـفه المؤرخ كريسي فيقول : إنه كان في الغالب محاطاً بالظروف السيئة ولكنه لم يتخاذل إزاءها أو يترك الكفاح ، وإن ذكراه تستحق الاحترام لدى أولئك الذين يقيسون عظمة الرجل حسب بعد نظره وجهوده الفعالة دون أن يكترثوا لنجاحه أو فشله اللذين يخضعان للظروف[1] •

تولى السلطان محمود العرش في ٢٨ تموز من عام ١٨٠٨ ، وجعل مصطفى باشا البيرقدار وزيره الأعظم ، وقد عمل هذا الوزير بنشـاط في سبيل اصلاح الجيش وفي القضاء على عناصر الشغب والفوضى فيه • وقـد سكت الانكشاريون ورجال الدين المؤيدون لهم في بداية الأمر ، حيث أظهروا الموافقة على ما جرى ، ولكنهم في ١٤ تشرين الثاني أعلنوهـا ثورة شعواء ثم أحاطوا بدار الوزارة فأضرموا النار فيها مما أدى الى موت الوزير فيهـا حرقاً • وانتشـرت الفتنة في أنحاء اسطنبول واشتد القتال بين الانكشارية وجنود السلطان ، واشتعلت النيران في عدة مناطق من المدينـة كما انفجرت المستودعات العسـكرية الضـخمة المليئة بالعتاد والبارود •

(1) Edward Creasy (History of Ottoman Turks) — Beirut 1961 — P. 492.

واضطر السلطان محمود تجاه ذلك أن يصـــدر فرماناً يعلن فيه إلغـاء « عادات الافرنج » التي استحدثت في نظام الجيش ، ويشجبها ويلعنها ، ثم أعاد كل قديم على قدمه •

يبدو أن السلطان محمود فعل ذلك لكي يعطي لنفسه مهلة يستطيع أن يتهيأ بها للكفاح من جديد وفي ظروف أفضل • وفي رأي المؤرخ محمد فريد : أن السلطان اضطر للاذعان لطلبات الانكشـارية لكي يتمكن من إنقاذ اسطنبول من الدمار العاجل اذ هي كادت تقع كلها طعمة للنيران في ذلك الوقت[١] •

إبادة الانكشاريين :

ظل السلطان محمود يترقب الفرصة لضرب الانكشاريين • وفي عام ١٨٢٦ ـ أي بعد ثمانية عشر عاماً من توليه الحكم ـ وجد الفرصة سانحة اذ كانت سمعة الانكشاريين قد وصلت إذ ذاك الى الحضيض من جـراء الهزائم المتتابعة التي لحقت بهم في حروب البلقان وأوربا الشرقية •

وضع السلطان خطة متقنة لابادة فرقهم الموجودة في اسطنبول ، وقد بدأ الخطة باستحصال فتوى شرعية مؤداها أن الجيش الاسلامي يجب أن يخضع للتدريب المنظم لكي يتمكن من مقاتلـة الكفار ، ثم أوعز بفرض التدريب على بعض الفرق الانكشارية • ولم يهن على الانكشـاريين ذلك طبعاً فاجتمعوا كلهم في أحد الميادين وأعلنوا الثورة على السلطان ثم تقدموا بجمعهم نحو السراي • وكان السلطان قد استعد لهم إذ نصب في مكان ما عدداً من المدافع تحت قيـادة رجل يعتمد عليه اســـمه ابراهيم ويلقب بـ « قره جهنم » ـ أي جهنم السوداء ـ وقد استقبل ابراهيم هذا حشـــود الانكشاريين بقصف مركز من مدافعه بحيث صاروا كأنهم في جهنم فعلاً •

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ـ القاهرة ١٩١٢ ـ ص ١٩٩ •

فتراجعوا نحو ثكناتهم بعد أن سقط منهم كثير من القتلى ، ولكن ابراهيم لاحقهم وأخذ يصب قنابله على ثكناتهم فهدمها وأشعل النار فيها • خرج منهم بعض الشجعان وبأيديهم السيوف غير أنهم قُتلوا قبل أن يفلحوا في الهرب • وحاول قليل منهم طلب الرحمة دون جدوى • وفي النهاية لم يسلم من الانكشاريين أحد • فكانت مذبحة منظمة دبرت باتقان[1] •

وجرت في كثير من المدن التركية الأخرى مذابح للانكشاريين تشبه مذبحة اسطنبول ولكن على نطاق أضيق • وأرسل السلطان الى الولاة في جميع أنحاء المملكة يأمرهم بالغاء الجيوش الانكشارية في مناطقهم وباحلال « النظام الجديد » محلها •

ضربة البكتاشية :

بعد الانتهاء من إبادة الانكشاريين توجه السلطان محمود نحو الطريقة البكتاشية يريد تقليم أظافرها باعتبارها مباءة الانكشاريين وركيزتهم الروحية ، فاجتمع رجال الدين مع مشايخ الطرق الصوفية الأخرى ـ بايعاز من السلطان ـ وأفتوا بأن التعاليم البكتاشية مخالفة للشريعة الاسلامية ، واستند السلطان على هذه الفتوى فأمر بهدم التكايا البكتاشية الموجودة في اسطنبول ، وتسويتها بالأرض ، ومصادرة الكتب الموجودة فيها • وأخذت الاشاعات على اثر ذلك تنتشر بين الناس حول زندقة البكتاشيين واستهانتهم بالقرآن حتى قيل إن المصحف في تكاياهم كان موضوعاً في أماكن غير لائقة ، وإن الأباريق كانت مغطاة بأوراق منه •

وتقرر أن يُقتل بعض مشايخ البكتاشية ويُبعد الآخرون الى أماكن نائية ، وعند هذا بدأت الوشايات تروج بين الناس إذ صار يستعملها كل من له خصم يريد التخلص منه • وفي رأي المؤرخ التركي جودت باشا أن

---

(1) Edward Creasy (op. cit.) P. 504 — 505.

كثيراً من الناس أُبعدوا بتهمة انتمائهم الى الطريقة البكتاشية وهم أبرياء منها . وتحولت أملاك البكتاشيين الى الطريقة النقشبدية[١] .

مصيرهم في العراق :

كان الفرمان السلطاني بإبادة الانكشاريين قد وصل الى بغداد في أواخر الصيف من تلك السنة . يقول لونكريك : إن والي بغداد داود باشا أخفى الأمر مؤملاً حلول فرصة يجدد فيها ولاءه وطاعته للسلطان ويحسّن علاقته به ثم يقضي على القوة الوحيدة الموجودة في ولايته من غير أن تكون تابعة له[٢] .

وفي يوم معين جمع داود باشا الانكشاريين في ساحة السراي ـ وكانوا ثمانية عشر سرية ـ وكان قد أعد جنوده من المماليك وما يلزمهم من المدافع للسيطرة على الساحة . ثم أوعز بقراءة الفرمان السلطاني ، فقوبل الفرمان بدهشة شديدة ووجوم . وفي هذه اللحظة الدقيقة بدرت من داود باشا بادرة لم تكن متوقعة منه ، فهو بدلاً من أن يأمر باطلاق الرصاص أخذ يخاطب الانكشاريين الموجودين في الساحة بلهجة مؤثرة ـ والدموع تترقرق في عينيه ـ طالباً منهم أن يطيعوا أمر السلطان وأن ينخرطوا في نظام الجيش الجديد الذي أسسه السلطان . ولم يكد الانكشاريون يسمعون ذلك منه حتى نزعوا من على رؤوسهم « القلبق » دليلاً على الطاعة وأخذوا يتهافتون على تسجيل اسمائهم في النظام الجديد . وقد جرى مثل ذلك في الحلة والبصرة وغيرهما من مدن العراق .

وكان للبكتاشية تكية في محلة الجعيفر في جانب الكرخ من بغداد ، فأوعز داود باشا باخلاء التكية منهم ، وقد كُلّف السيد طه الحديثي

(1) John Kingsley Birge (The Bektashi Order of Dervishes) — Bristol 1937 — P. 77—78.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

بالقيام بادارة التكية غير أنه عُزل عنها بعد أيام قلائل إذ اتهم بأنه منهم •
ويعلق ابن سند البصري على ذلك قائلاً : « فبعد أن كانت التكية ملعنة للصحابة أصبحت دار الحديث »[١] •

بداية النزاع مع داود باشا :

بعد أن فرغ السلطان محمود من أمر الانكشاريين والبكتاشيين التفت الى أمر المماليك في بغداد ، والظاهر أن التقارير التي وردت اليه من بغداد دلت على أن داود باشا لم يكن صادق النية في القضاء على الانكشاريين طبق الأوامر التي صدرت اليه •

وفي سنة ١٨٢٨ لاحظ السلطان في داود باشا تقصيراً واضحاً في تنفيذ أوامره ، ففي تلك السنة كانت روسيا قد أعلنت الحرب على الدولة العثمانية تأييداً لثورة اليونان ، ونُودي بالنفير العام في جميع الاقطار العثمانية وطُلب من كل وال أن يقدم للدولة معونة مالية حسب قدرته ، فكان المقرر على داود باشا أن يقدم ستة آلاف كيس[٢] ، ولكنه امتنع عن ارسال هذا المبلغ • ففُسّر امتناعه في اسطنبول بمثابة اعلان عصيان على الدولة واعتبر كأنه تخلى عن سيده السلطان في أحرج المواقف وأساء الى هيبته[٣] •

في صيف ١٨٣٠ أرسل السلطان محمود الى بغداد رجلاً يثق به يدعى صادق افندي وخوله مسؤولية العمل على التخلص من داود باشا

---

(١) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ص ١٦٢ •

(٢) الكيس في تلك الايام كان على نوعين : كيس الفضة وهو يحتوى على خمسمائة قرش ، وكيس الذهب ويساوي ما قيمته عشرة آلاف قرش أي أنه يعادل عشرين كيس فضة • والمظنون أن المبلغ الذي قُرر على داود باشا قُدر بأكياس الذهب ، وهو بلا شك مبلغ ضخم في معيار تلك الايام •

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار (داود باشا والي بغداد) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٤٤ •

بأية وسيلة تُتاح له • ويبدو أن صادق أفندي لم يكن أهلاً للمهمة التي كُلّف بها ، فقد كان الجدير به أن يترفق ويتكتم عند القيام بمهمته نظراً لما كان يتمتع به داود باشا من دهاء وكثرة أعوان ، غير أنه آثر أن يسلك مع داود باشا منذ البداية مسلك التعجرف والاستهانة •

أحسّ داود باشا أن صادق أفندي لا يتردد أن يقتله اذا هو لم يطع أمره سلماً ، ولهذا قرّر داود باشا أن يتغدّى بخصمه قبل أن يتعشى خصمه بـه • جمع داود باشا مستشاريه الذين يثق بهم وهم : محمد افندي المصرف ، وسليمان أغا الميراخور ، والصراف باشي اسحق اليهودي • ووضع بالاتفاق معهم خطة محكمة لقتل صادق افندي •

كان صادق أفندي يسكن في دار الضيافة الواقعة في محلة الصابونجية ، وفي ٢٠ تشرين الاول ليلاً أحاطت بالدار كتيبة من الجنود ثم اقتحمها محمد أفندي المصرف وسليمان أغا الميراخور يصحبهما رمضان أغا حاجب داود باشا ومعه عريف ضخم الجثة اسمه خالد أغا • فأيقظوا صادق أفندي من النوم وقالوا له « تشهّد » ، وهذه كلمة تقال لمن يُراد قتله لكي ينطق بالشهادتين قبل لقاء ربه •

عندما رآهم صادق أفندي عازمين على قتله انهار انهياراً عجيباً ، فارتمى على قدمي سليمان أغا متضرعاً ، وأخذ يسألهم العفو[١] ويبدي استعداده لعمل أي شيء يريدون منه فلم ينفعه ذلك شيئاً ، وتقدم العريف خالد أغا فنزع الشال من محزمه بهدوء ووضعه على عنق « الأفندي » فقضى بسرعه على حياته وتوسلاته معاً[٢] •

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في العراق) ـ ترجمة محمد نجيب أرمنازى ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٥٨ •

(٢) جيمس بيلى فريزر (رحلة فريزر) ـ ترجمة جعفر خياط ـ ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص ١١٩ •

صدى المقتل :

في الصباح التالي أعلن أن مبعوث السلطان قد أصيب بمرض « الهواء الاصفر » ، وأنه طريح الفراش في دار الضيافة ، وأخذ داود باشا يرسل في كل يوم طبيباً يتظاهر بأنه ذاهب لمداواة « الأفندي » ، وكذلك أرسل أشخاصاً للسؤال عن صحته[1] • ثم جيء بشخص فأُلبس ملابس « الأفندي » وطيف به مرة أو مرتين في شوارع بغداد لكي يقضوا على أية إشاعة تدور بين الناس حول مقتله •

لم تنفع هاتيك التظاهرات التمثيلية شيئاً ، فقد أخذت الاشاعات تنتشر بين سكان بغداد حتى وصلت الى مسامع القنصل البريطاني تيلر[2] • وصار الناس يتوقعون صراعاً بين داود باشا والسلطان فتهافتوا على شراء المواد الغذائية مما أدى الى ارتفاع أسعارها ، وخشيت بعض الأقليات مغبة هذا الصراع فآثرت أن تترك بغداد قبل نشوب القتال •

وكان لمقتل صادق أفندي صدى مدوٍ في اسطنبول وفي مختلف الولايات العثمانية • وكان محمد علي باشا والي مصر يومذاك يعد قواته للهجوم على بلاد الشام واعلان عصيانه على الدولة العثمانية ، فانتهز الفرصة وأرسل الى السلطان يعلن استعداده لبعث جيش الى العراق ليقبض على داود الذي دنّس يديه بدم مبعوث السلطان[3] • والمظنون أن محمد علي أراد بذلك الحيلة وربما كان يأمل أن يكلفه السلطان بتوجيه حمله ضد داود باشا فيتمكن بذلك من الوصول الى مقصده بأيسر السبل • ومهما يكن الحال فقد فوت السلطان على محمد علي غرضه ، وكلف علي رضا باشا والي حلب بقيادة الحملة على داود باشا •

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ج ١ ص ٢٠٦ •

(٢) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١٢٠ •

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار (مصر والعراق) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ١٣٥ •

الطاعون في بغداد :

حشد علي رضا باشا جيشاً كبيراً وتحرك به من حلب في اوائل شباط من عام ١٨٣١ . ولم تكد الاخبار تصل الى بغداد حول تحرك هذا الجيش نحوها حتى بدأ فيها طاعون فظيع ، وقد قلب هذا الطاعون جميع الخطط التي وضعها داود باشا لمقاومة الجيش القادم وجعل بغداد كالريشة في مهب الرياح لا تملك من أمرها شيئاً .

يمكن القول إن هذا الطاعون كان أفظع وباء حل بالعراق عبر تاريخه الطويل ، وقد ظل المعمرون من أهل بغداد يتحدثون عن مآسيه حتى عهد متأخر ، وفي بغداد الآن سوق يسمى « السوق الجائف » وهو انما سمى بهذا الاسم لأنه امتلأ بالموتى اثناء الطاعون واشتدت النتونة فيه الى درجة لا تطاق . ولابد لنا في هذه المناسبة من أن نقف عند هذا الطاعون لنتحدث عن بعض أحداثه مما يتصل بالحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد حينذاك .

جاء هذا الطاعون من الشمال . فمنذ شهر تموز عام ١٨٣٠ كانت بغداد على علم بتفشي الطاعون في تبريز ، وبعد شهرين وردت الأخبار عن وصوله الى كركوك ، فطلب داود باشا من طبيب القنصلية البريطانية اعداد منهج للحجر الصحي بغية منع الوباء من التقدم نحو بغداد . وقد أعد الطبيب المنهج ولكن المتزمتين من رجال الدين في بغداد أفتوا بأن الحجر الصحي مخالف للشريعة الاسلامية ، ومنعوا داود باشا من اتخاذ أي عمل لصد سير الوباء ، ولهذا كانت القوافل الواردة من ايران وكردستان تدخل الى بغداد بكل حرية[١] .

وفي أواخر أذار من عام ١٨٣١ ظهرت أول إصابة طاعونية في بغداد ، وكانت في محلات اليهود القذرة ، ثم أخذ الطاعون يسري نحو المحلات

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٦٧ .

الأخرى • وقد ذكر سليمان فائق الذي كان في بغداد يومذاك : إن عـدد الجنائز التي أخرجت من أبواب المدينة في أواخر شهر آذار بلغ الألف ، وفي أواسط شهر نيسان بلغ العدد ثلاثة آلاف جنازة يومياً حسب ما ضبط في سجلات الموظفين ، ثم لم يبق من الموظفين بعدئذ من يقوم بالتسجيل[1] •

وقد عمد الاوربيون الذين كانوا في بغداد ، والمسيحيون المتصلون بهم ، الى حجر أنفسهم في بيوتهم لا يخرجون منها وذلك بعد أن جهزوا أنفسهم بما يلزمهم من مواد التموين • وكانوا اذا اضطروا الى أخذ شيء من الخارج سحبوه الى فوق من الشبابيك ثم أمسكوه بالملاقط ودخنوه قبل البدء باستعماله • ولهذا كانت الاصابات بينهم قليلة نسبياً ، وكانت تأتـي اليهم عن طريق القطط أحيانا • أما سائر السكان فقد استسلموا للقـدر وأخذ الطاعون يحصدهم حصداً حتى قيل إن عدد الموتى في اليوم الواحد بلغ أخيراً تسعة آلاف •

والغريب أن اللصوص انتهزوا الفرصة فصاروا يدخلون البيـوت لينهبوها دون أن يخشوا أحداً من أصحابها لأنهم إما أن يكونوا قد ماتوا أو هم على وشك الموت • ومن النوادر التي تُروى عن تلك الايام هـي أن رجلاً رأى في منامه كأن الملائكة كانوا يمرون في الزقاق يسجلون عدد الذين سيموتون في كل بيت ، وقد وجد أن العدد الذي سُجّل عن بيتـه يطابق تماماً عدد عائلته ، ولما كان أفراد عائلته قد ماتوا جميعاً ما عداه أيقن انه لابد مائت قريباً • وحين استيقظ من النوم استعد للموت فغسل بدنه ولبس الكفن ثم تمدد نحو القبلة • وشاءت المصـادفة أن يدخل في تلك اللحظة الى البيت لص ، وظن اللص أن صاحب البيت ميت غير أنه فوجيء به على حين غرة وهو ينهض صارخاً به ، فوقع اللص ميتاً من هول المفاجأة• وعند هذا أيقن صاحب البيت أن عدد الموتى الذي سُجل عن بيته قد تم ،

---

(١) انظر جريدة البلاد البغدادية بعددها الصادر في ١٩٥٦/٥/١١ •

فلا داعي لموته اذن ، فبقي على قيد الحياة يحمد الله على نعمته .

ينبغي أن لا ننسى أن الكثير من الناس ماتوا دون أن يصابوا بالطاعون، بل استولى عليهم الخوف فأماتهم . ولهذا اعتاد العامة في العراق أن يسموا الوباء بـ « الوهم » . والظاهر أن الرجل الذي تحدثنا عن قصته آنفاً كاد يموت بسبب « الوهم » ثم تخلص من الموت بسبب « الوهم » أيضاً . ولعل من المناسب أن أذكر هنا أن هذا الرجل هو والد جد كاتب هذه السطور .

مشاهدات غروفز :

كان يسكن في بغداد أثناء الطاعون مبشر بريطاني اسمه غروفز ، وكان قد فتح فيها مدرسة لأيتام النصارى ، فلما بدأ الطاعون طلب منه القنصل البريطاني الانتقال معه الى ريف البصرة تجنباً للعدوى ، فأبى غروفز وقرر البقاء في بغداد متوكلاً على الله . وقد سجل غروفز مشاهداته عن تلك الأيام الرهيبة في كتاب صدر في لندن عام ١٨٣٢ . ويُعد كتابه هذا أدق تسجيل لاحداث الطاعون في بغداد .

أغلق غروفز داره ، وكان يسكن معه فيها اثنا عشر شخصاً من بينهم معلم أرمني وأسرته ، وكانت في مقابل شبابيك داره دربونة تؤدي الى ثمانية بيوت ، ومن هذه البقعة الصغيرة كانوا يشاهدون الجثث تنقل الى الخارج يوماً بعد يوم حتى صعد عددها الى سبع عشرة جثة . وكانت الشوارع قد خلت من المارة فلا يُرى فيها سوى حملة الموتى أو الذين يأخذون الأكفان لهم والسقائين الذين يأخذون الماء لغسل الجثث .

وفي اليوم الرابع والعشرين من نيسان خرج غروفز من داره لزيارة القنصلية البريطانية فلم يصادف في طريقه أحداً عدا الذين يحملون الجثث والأشخاص المصابين ، وكانت صرر الملابس من مخلفات الموتى ملقاة بالقرب من كثير من الأبواب ، وقد أُغلقت ساحة الجامع الكبير إذ لم يبق فيها

مكان لدفن أحد فصار الناس يحفرون القبور في جوانب الطرق ، وحتى في الطرق نفسها ، وفي كل بقعة فارغة أخرى • وبينما كان غروفز يسير في الشوارع بملابسه الكهنوتية شاهدته نساء عربيات فأبدين إيماءات غريبة تلفت النظر وكأنهن كن يخاطبن بها الله متعجبات من بقاء الافرنج والكفار مثله على قيد الحياة بينما كان يموت ذلك العدد الكبير من المسلمين •

وذكر غروفز أن الموت أصبح مألوفاً عند الناس بحيث كانوا يدفنون أقرب الناس اليهم من غير اكتراث ظاهر ، ثم وصل الحال أخيراً الى أن الناس أخذوا يتساقطون في الطرقات فلا يدفنهم أحد فتأتي الكلاب تنهش أجسادهم وربما كان بعضهم أثناء ذلك لا يزال يعالج سكرات الموت • وكان أشد المناظر ايلاماً وجود المئات من الأطفال الصغار في الطرقات وهم يتصارخون ، بعد أن ماتت أمهاتهم ، فيختلط صراخهم بزمجرة الكلاب التي تنهش جثث الموتى[1] •

ظاهرة اجتماعية :

وهناك ظاهرة اجتماعية لوحظت في كل وباء يجتاح العراق ، كما لاحظها غروفز في هذا الوباء على وجه من الوجوه ، وهي شدة اهتمام الناس بغسل الميت وتحنيطه وتكفينه وإجراء كل ما أمرت به الشريعة الاسلامية في هذا الشأن • إنهم اعتادوا أن يخالفوا أوامر الشريعة في حياتهم العملية كل يوم فلا يبالون ، ولكنهم عند الموت يحرصون كل الحرص على اتباع الشريعة مع العلم أن غسل الميت في وقت الوباء يزيد من انتشار عدواه بينهم •

والأغرب من هذا أن الكثير من الناس يسرعون الى شراء مواد التحنيط والتكفين لأنفسهم وأفراد عائلاتهم حالما يسمعون بانتشار الوباء بينهم

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ٩٣ ـ ١١٤ •

استعداداً للموت ، فهم يخافون أن يُدفنوا من غير ذلك وكأنهم يتصورون أن الله سيرميهم في نار جهنم اذا وجدهم غير محنطين ولا مكفنين •

في الايام الأولي من انتشار الطاعون في بغداد ازداد الطلب على « مواد الموت » ، فارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشا • وذكر غروفز أن أحد الباعة استغل نكبة الناس فأخذ يبيع قطن الأكفان بأسعار مرتفعة ، ثم مات هو نفسه ، فلم يبق في المدينة شيء من هذه المادة • وارتفع سعر الحبال الى أربعة أضعاف سعرها الأصلي •

واشتد الطلب على الماء أيضاً لحاجة الناس اليه في غسل الموتى • والظاهر أن السقائين اغتنموا الفرصة كما اغتنمها باعة الاكفان والحبال • فاذا طولب أحدهم بقربة من الماء كان جوابه أنه يأخذها لغسل جثة أحد الموتى • وقد اضطر بعض الناس أن يذهب بنفسه الى النهر من أجل جلب الماء ليغسل به طفلاً ميتاً(١) •

من مذكرات سليمان فائق :

كان سليمان فائق في بغداد في بداية انتشار الطاعون ، وكان يومذاك شاباً ، وقد سجل بعض ذكرياته عن تلك الأيام ، وهي ذكريات لا تخلو من دروس اجتماعية ويمكن اعتبارها متممة لتلك التي سجلها غروفز •

يقول سليمان فائق : إنه عندما بلغت الجنائز اليومية بين الستمائة والسبعمائة جنازة زاد خوفه واضطرابه وذهب الى والده يستأذنه في الخروج الى البادية فراراً من الطاعون ، ولكن والده أجابه قائلاً : « يا بني لا يجوز الفرار من الوباء ، فان الذين ماتوا هاربين يصبحون عصاة ، فلنبق في المدينة فمن مات منا أصبح شهيداً وأما من نجا بنفسه فيصبح من السعداء »• وقد بذل سليمان جهده من أجل إقناع والده على تغيير رأيه مبرهناً له خطأ

(١) المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ •

رجال الدين الذين حرّموا الحجر الصحي وأن الشريعة الاسلامية لا تؤيدهم في ذلك • وبعد ان اقتنع والده برأيه قال له : « يا بني ليس من اللائق لحقوقنا القديمة ومناسباتنا العامة أن أترك داود باشا وأخرج ، فاخرج انت واذهب أما انا فسأمكث هنا متوكلاً على الله ، وان شاء الله تعالى فاني معتزم السفر الى الآخرة مع هذه القافلة الطيبة دون أن أقتل في أواخر عمري بسيف السياسة » • وخرج سليمان مع أفراد العائلة ومعه بعض سكان بغداد فخيموا في الصحراء على مقربة من بعقوبة •

كان سليمان فائق يغير موضع خيامه مرة كل أربعة أو خمسة أيام حذراً من العدوى ، وقد نجا منها فعلاً هو ومن كان معه ، فلم يمت منهم سوى الذين أرسلوا الى القرى لطحن الحبوب • وعندما خف الطاعون عزم سليمان أن يسرع في العودة الى بغداد ، ومما دفعه الى ذلك خطر النهب من قبل بعض العشائر المحيطين بهم ، فقد كان محمد البردي شيخ شمرطوقه يرسل رجالاً من عشيرته حول المخيم بغية نهبه • والظاهر أنهم انتهزوا فرصة الطاعون هناك كمثل ما انتهزها اللصوص في بغداد •

وعندما وصل سليمان فائق مع أهله الى مشارف بغداد لاحظ أن المدينة محاطة بالمياه من جهاتها الأربع ، لأن النهر كان قد فاض في أواخر أيام الطاعون ولم يكن في المدينة من يقدر على مكافحته فأغرق الكثير من محلاتها ، فاستأجر سليمان قفة وركبها مع أهله وساروا بها داخل المدينة حتى وصلوا الى الموضع المسمى بـ « حمام الراعي » ، وهناك نزلوا من القفة وبدأوا يسيرون على أقدامهم •

يقول سليمان إنهم لم يجدوا في الطرقات التي مشوا فيها أي انسان حتى أن أمه قالت لمن معها من النساء : « أيتها البنات ، لا يوجد أحد في الطريق فلمَ نسير وقد أسدلنا هذا النقاب ؟» ، فرفعت النساء النقاب ــ أي البيجة ــ عن وجوهن وسرن نصف ساعة من غير أن يشاهدن انساناً •

وعند وصولهم الى محلة النصارى شاهدوا امرأة تطل عليهم من نافذة احدى الدور ، وأخذت المرأة تستفسر منهم عن حالهم ثم التفتت نحو داخل الدار تخبر من فيها بوجود بشر في الطريق لا يزالون على قيد الحياة . وقد سأل سليمان المرأة عن سر بقائها هي وأهل بيتها أحياءاً مع العلم أنه لم يشاهد في جميع الطرقات التي مرّ بها أحداً ، فأجابته المرأة قائلة : « نحن نصارى ، وقد جئنا الى هنا ونحن بضع عائلات وأقمنا الحجر على أنفسنا ، وكنا في بداية الحجر واحداً وأربعين شخصاً بالتمام فأصبحنا بحمد الله ثلاثة وأربعين وذلك بولادة طفلين . وبما أننا لم نر بشراً منذ مدة يمر من هذا الشارع فعندما شاهدناكم علمنا أن الطاعون قد ولى ففرحنا لذلك » .

وبعد وصول سليمان فائق هو والنساء الى دارهم ، ذهب لزيارة داود باشا في مقره فوجده في دائرة الحرم مطروحاً في الفراش وهو في غيبوبة لاصابته بالطاعون . وبعد مرور بضعة أيام تحسنت صحته بعض التحسن. وعند ظهور اللصوص في المدينة وانتشار الحوادث المخلة بالأمن أخذ داود باشا يعين الموظفين ويشرف على شؤون الحكومة بالرغم من ضعف صحته .

وكانت جثث الموتى إذ ذاك لا تزال مطروحة في البيوت والاسواق والطرقات ، وبلغ تعفن الهواء حداً لا يطاق ، فعين داود باشا جنوداً لتنظيف بغداد وجعل مقداراً من المال لنقل كل جثة . فأُلقيت آلاف الجثث في دجلة من غير تكفين وتجهيز ، وكانت أكثر الجثث تُشد من أرجلها بالحبال وتُربط بذيول الحيوانات السائبة التي لم يكن لها مالك ، فتسحبها الحيوانات وهي مقلوبة على وجوهها حتى شاطىء النهر[1] .

بغداد تعلن الطاعة :

لم تكد بغداد تسترجع أنفاسها من وطأة الطاعون ، ويعود الذين

(١) انظر جريدة البلاد البغدادية بعددها الصادر في ١٩٥٦/٥/١١ .

هربوا منها الى بيوتهم ، حتى انتشر الخبر بأن طلائع الجيش السلطاني القادم قد وصلت الى بساتين الكاظمية وهي على بعد أميال قليلة من شمالي بغداد •

كان علي رضا باشا قائد الجيش السلطاني لا يزال في الموصل ، وقد أرسل من هناك طلائع من قواته بقيادة قاسم باشا العمري ومعه صفوق شيخ شمر وسليمان الغنام من شيوخ عقيل • وحين وصل قاسم باشا الى مقربة من بغداد أرسل رسله الى علماء بغداد وأعيانها يحرضهم على إطاعة السلطان وعلى طرد الوالي المعزول داود باشا ، وكان قاضي بغداد الذي هو أخو قاسم باشا يبذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل •

يبدو على أي حال أن داود باشا كان في قرارة نفسه ينوى الاستسلام للجيش القادم ، فقد كان لا يزال يعانى من عقابيل المرض الذي أصيب به، ولم يبق معه من خدمه وحرسه سوى نفر قليل لا يتجاوز عدده الخمسين• وفي ذات يوم فوجيء داود باشا بمظاهرة صاخبة تأتي من محلة باب الشيخ، يتقدمها رؤساء المحلة ، وهم يهتفون بهتافات معادية له ، ثم أحاطوا بالسراي وشرعوا يشعلون النار في أحد أبوابه • وعند هذا انبرى أحد عبيد داود باشا ـ دون علم منه ـ فأطلق على المتظاهرين بضع رصاصات أدت الى جرح بعضهم وفرار الباقين •

يقول سليمان فايق : إن المتظاهرين لم يكن لهم غرض من مجيئهم الى السراي سوى اعلام داود باشا بعزله حسب الفرمان الوارد من السلطان ، ولهذا تراجعوا وذهب كل واحد منهم الى داره[١] •

أدرك داود باشا حراجة موقفه فخرج مع عبده الحبشي فيروز تحت جنح الظلام والتجأ الى دار حبيبة خانم • وعندما شاع خبره في الصباح التالي جاء اليه وفد من الأعيان والعلماء فأخرجوه من تلك الدار بكل

---

(١) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ـ ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٨٢ •

احترام وذهبوا به الى دار صالح بك بن سليمان الكبير لكي يكون وديعة لديه حتى يجرى تسليمه الى الوالي الجديد عند قدومه •

وجاء قاسم باشا العمري من الكاظمية فدخل بغداد حيث استقبله السكان بمختلف طبقاتهم وأدخلوه الى السراي « محفوفاً بالعزة والاجلال »[1] • واعتقد قاسم باشا أن كل شيء قد انتهى وأن بغداد أصبحت في قبضة يده فأرسل الى علي رضا باشا في الموصل يدعوه للمجيء الى بغداد سريعاً لكي يتولى مقاليد الحكم فيها •

تحول عجيب !

في صباح ١٣ حزيران ١٨٣١ عندما كان قاسم باشا العمري في السراي ينتظر تسليم داود باشا اليه ، سمع ضوضاء شديدة تنبعث من الخارج • وبعد قليل تبين له أن جماهير غفيرة تحيط بالسراي تريد مهاجمته وعلى رأسها محمود أفندي النقيب ، وكانت الجماهير مؤلفة من الأهالي والمماليك وجماعة كبيرة من عشيرة عقيل التي تسكن الكرخ • واستطاعت الجماهير أن تستحوذ على مخزن السلاح ثم أخذت تمطر السراي بالرصاص والقنابل •

كان مع قاسم باشا في داخل السراي سليمان الغنام ومعه زهاء ثلاثة آلاف من عشيرة عقيل ، وأخذ هؤلاء يدافعون عن السراي • ومعنى هذا أن عشيرة عقيل كانوا فريقين أحدهما يدافع من الداخل والآخر يهاجم من الخارج • وفي المساء شعر سليمان الغنام بأنه يقاتل مع الجانب الخاسر فأسرع مع جماعته الى الخزينة فكسروا أقفالها ونهبوها ، ثم أشعلوا النار في السراي وخرجوا منه يحملون منهوباتهم متجهين نحو باب المعظم ، ومن هناك ألقوا بأنفسهم الى النهر فعبروه سابحين الى جانب الكرخ ، وقد غرق بعضهم أثناء العبور •

(١) سليمان فائق (تاريخ المماليك في بغداد) ص ٦٥ ـ ٦٦ •

وانثالت الجماهير المحيطة بالسراي فدخلته ناهبة مدمرة ولم تترك فيه شيئاً من تلك النفائس التي كان داود باشا حريصاً على اقتنائها • وكان الكثير من النقود وأدوات الذهب والفضة تُشاهد مطروحة في الازقة بعد أن سقطت من أيدي العقيلين الهاربين فتهافت عليها الغوغاء يتكالبون عليها • وفي أثناء هذا الاضطراب لم يُعرف مصير قاسم باشا العمري ، وفي رواية فريزر أنه حينما تخلى عنه حرسه الخاص اقتاده أحمد أغا « التفنكجي باشي » الى بئر قريبة وألقاه فيها[١] •

الواقع أن هذا التحول في سلوك الجماهير البغدادية أمر عجيب يلفت النظر ، فهم قد انقلبوا بين عشية وضحاها من موقف الطاعة لأمر السلطان الى موقف العصيان عليه ، فما هو السبب في ذلك ؟ حاول سليمان فائق تعليل الحادث ـ وهو قد كان شاهد عيان فيه ـ فأشار الى الأعمال الفظيعة التي قام بها الأعراب من أتباع سليمان الغنام وصفوق على أثر دخول قاسم باشا العمري الى بغداد حيث أخذ هؤلاء يرتكبون المنكرات وينهبون الدور ويتعرضون بالنساء ، حتى أن صفوق أمر أتباعه بأن يأتوه بأرملة سليمان أغا ، وأن يبحثوا عنها في كل مكان ، زاعماً أن علي رضا باشا وهبها له[٢] • إن هذه الفظائع في رأي سليمان فائق هي التي جعلت جماهير بغداد تثور على قاسم باشا وتتحدى أمر السلطان بعد أن كانت قد أعلنت الطاعة له •

البغداديون يتحدون :

مهما يكن الحال فالملاحظ أن سكان بغداد أصبحوا ـ بعد حادث الهجوم على السراي ومقتل قاسم باشا ـ متحدين جميعاً ، وهذه أول مرة يقف فيها أهل المحلات البغدادية صفاً واحداً لا اختلاف بينهم • وقد أسرع الأعيان والعلماء على عادتهم فكتبوا العرائض الى السلطان يرجون منه اسناد

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١٢٢ •
(٢) سليمان فائق (تاريخ بغداد) ص ٨٣ ـ ٨٤ •

الولاية الى داود باشا ، أو الى صالح بك ، ويعلنون استعدادهم لدفع مبلغ كبير اليه ولزيادة الجزيـة السـنوية من ألف كيس الى عشـــرة آلاف كيس[1] •

وعندما علم علي رضا باشا بالأمر حث المسير بقواته نحو بغداد • وفي بداية شهر تموز ١٨٣١ وصل الى مقربة من بغداد وعسكر في بساتين الصليخ ، وأخذ يشدد الحصار علي المدينة ، فجرت معارك غير قليلة بينه وبين أهل بغداد •

كان أهل بغداد يقاتلون على مستويين : أحدهما نظامي تحت قيادة مسيو ديفو ومن معه من قواد داود باشا والمماليك ، والآخر أهلي لا يخضع لقيادة أو تنظيم وهو يمثل سكان المحلات البغدادية الذين يقودهم رؤساؤهم والأشقياء المغاوير •

لا شك أن أهل المحلات أبدوا بسالة لا يستهان بهـا أثناء القتال ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يسيئون الى أنفسهم من حيث لا يشعرون كما هي عادة الغوغاء دائماً • فهم قد يندفعون في القتال من غير هدف أو خطة ، تحت تأثير صيحة يهتف بها أحد مغاويرهم فيسيرون وراءه كالأغنام وهـم لا يدرون لماذا ساروا والى اين يذهبون •

حدث ذات مرة أن تجمهر جمع كبير منهم عند باب المعظم ، وكانت أصوات الرصاص والقنابل تلعلع في الجو ، فتحمست جماعة منهم للقتال • ويبدو أن تلك الجماعة كانت مؤلفة من الشجعان المحليين الذين يحبون أن يثبتوا رجوليتهم في المعارك ، فأصروا على فتح باب السور وعلى الخروج منه لمقاتلة قوات علي رضا باشا ، وكان يشجعهم على ذلك حسـن أغا بن

---

(١) يوسف عزالدين (داود باشا ونهايـــة المماليك في العراق) ـ مستل من مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ـ شباط ١٩٦٠ ـ ص١٦ ـ ١٧ •

عليش أفندي . وقد حاول رضوان أغا - وهو من المماليك المعروفين بالتروّي والحكمة - أن ينصحهم ويبين لهم مغبة عملهم الطائش فلم يأبهوا له وقابلوه بتهكم وشتموه[1] ، ثم اندفعوا خارجين . والظاهر أنهم نجحوا في بداية الأمر حيث استولوا على طابية على ساحل النهر وغنموا سلاحها ومدفعين كانا فيها ، فأغراهم ذلك إذ تحولوا نحو طابية أخرى تقع على طريق الاعظمية ، وهناك فاجأهم أحد عشر فارساً من « الهايته » فهزموهم هزيمة شنعاء ، وصار « الهايتة » يطاردونهم حتى أوصلوهم الى باب المعظم . وحين شاهد الجمهور الذين كانوا واقفين هناك هزيمتهم انثالوا هم من جانبهم يفرون الى الداخل نحو جهة المقاهي وصار يدهس بعضهم بعضاً ، وقد سقط منهم من جراء ذلك قتلى وجرحى كثيرون .

مذبحة المماليك :

ما إن حل شهر ايلول حتى أصبحت الحالة في داخل بغداد لا تطاق من شدة الحصار ، فقد شح الطعام شحة بالغة ، وصارت المنهوبات تعرض علناً للبيع من دون خوف أو خجل .

وكان دعاة علي رضا باشا منتشرين بين سكان بغداد يثبطون عزيمتهم عن المقاومة ويدعونهم الى طاعة السلطان . وفي ليلة ١٤ إيلول كان صبر السكان قد نفد فبادر رجل من التجار اسمه الحاج خليل ، ومعه جماعة تؤيده ، ففتحوا باب السور الجنوبية[2] ، وسمحوا للجيش السلطاني بالدخول منه ، وتم بذلك احتلال بغداد . وحينئذ عم الفرح في المدينة فهبطت الأسعار مائة ضعف . وفتحت الدكاكين أبوابها ،ووقفت الجرائم عند حدها[3] .

---

(١) سليمان فائق (المصدر السابق) ص ١٠٠ .
(٢) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١٢٢ .
(٣) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ص ٢٧٦ .

وضع علي رضا باشا خطة متقنة لقتل المماليك تشبه من بعض الوجوه تلك التي وضعها محمد علي باشا في مصر ، فهو عند دخوله الى بغداد اتخذ اسلوب المصالحة والتوفيق مع الجميع ، وتظاهر بالرضا عن المماليك وولى بعضهم مناصب عالية ، ولكنه كان يضمر لهم نية الغدر الماحق • وفي ذات يوم دُعي المماليك مع جماعة من أعيان بغداد وعلمائها الى اجتماع في ديوان الباشا بحجة الاستماع لقراءة الفرمان الذي وصل مؤخراً من اسطنبول ، وكان السراي حينذاك قد امتلأت سطوحه وشرفاته وأروقته بالجنود المسلحين • وبعد أن تناول المدعوون القهوة ودخنوا « الجبوق » ، وبينما كان الفرمان على وشك أن يُقرأ ، قام رجل اسمه علي أغا فأهاب بالجنود الألبانيين الذين كانوا مستعدين أن يقتل كل واحد منهم من كان بجانبه من المماليك • ولما تردد هؤلاء في القيام بعملهم صرخ بهم علي أغا : « ما بالكم ؟ لماذا ترددون ؟ أضربوا ـ فاما أن تقتلوهم أو تُقتلون أنتم » ، ثم انتضى سيفه وأهوى به على المملوك الذي كان بجانبه • وقبل أن يتمكن المماليك من انتضاء سيوفهم للدفاع عن أنفسهم ، قُضي عليهم جميعاً[1] • وكان من بين القتلى اشخاص كانوا قد انشقوا على جماعتهم وانضموا الى جانب علي رضا باشا قبل دخوله بغداد ، فلم يشفع لهم ذلك عنده •

وصدر الأمر بعدئذٍ بقتل جميع المماليك اينما وُجدوا ، ويروي شاهد عيان كيف جرى مقتل صالح بك ابن سليمان الكبير ، وهو من الذين لم يحضروا وليمة الذبح ، فقد أسرع اليه جمع من الجنود بينما كان راكباً حصانه ، وانهالوا عليه ضرباً وطعناً فنطق بعبارة « آمنت بالله » وبالشهادتين ثم خر الى الأرض صريعاً • فتقدموا منه وحزّوا رأسه ثم تركوا جثته عارية في أحد الازقة لا يسترها شيء[2] •

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص ١١٦ •
(٢) سليمان فائق (المصدر السابق) ص ١١٦ •

ومما يلفت النظر أن داود باشا الذي كان أصل البلاء لم ينله شيء من الأذى بل أرسله علي رضا باشا بكل احترام الى اسطنبول ، وهناك حصل على حظوة السلطان وتولى من بعد ذلك بعض الولايات والمناصب الكبيرة .

راي للمناقشة :

نشر الدكتور عبدالعزيز نوار منذ عهد قريب مقالاً في مجلة الهلال القاهرية تعرض فيه للمعارك التي وقعت بين أهل بغداد والقوات السلطانية التي كان يقودها علي رضا باشا وقد جاء في هذا الصدد برأي يستحق المناقشة لما له من صلة وثيقة بأوضاع المجتمع العراقي في ذلك الحين .

خلاصة رأي الدكتور نوار هي أن أهل بغداد إنما ثاروا في عام **١٨٣١** ضد جيش السلطان لأنهم كانوا يحسون بدافع وطني وقومي يدفعهم الى ذلك ، فهو يقول في ذلك ما نصه : « ... إن رغبة السلطان محمود الثاني العثماني في أن يطرد المماليك من العراق كانت قد أعمته عن حقيقة التطور التقدمي الذي وضح في العراق خلال حكم داود باشا آخر ولاة المماليك في العراق ... ولكن القضاء على داود باشا لم يكن بالأمر السهل نظراً لأنه كان قد كسب ثقة أهل العراق بصفة عامة ، وثقة الطبقة المثقفة في بغداد بصفة خاصة لأنه كان والياً مصلحاً وعالماً متبحراً في علوم الفقه وشديد العناية بترقية اللغة العربية وآدابها ... ولذلك وقف أهل بغداد الى جانب داود عندما بعث السلطان العثماني محمود الثاني بجيش كبير بقيادة علي رضا لطرد داود من بغداد ، لأن داود في نظر أهل بغداد هو أجدر من الأتراك العثمانيين بحكم بغداد ، وأنه على السلطان أن يحترم مشيئة أهل البلاد في تعيين حاكمهم . ولهذا شارك الأهالي داود باشا في الاستعداد للدفاع عن البلاد ضد جيش السلطان ... وهكذا أثبت أهل العراق أن المسألة ليست صراعاً بين داود والسلطان بقدر ما هي دفاع عن

حق أهل البلاد في اختيار الوالي الجديد بحكمهم ... »[1] .

إن من يقرأ هذا الرأي الذي جاء به الدكتور نوار يخيل له أن أهل بغداد في تلك الأيام كانوا يحملون وعياً وطنياً ناضجاً ، وأنهم حين شهروا السلاح ضد جيش السلطان إنما كانوا يدافعون عن حقهم في تقرير مصيرهم تجاه تعسف الحكم العثماني . نسي الدكتور نوار ، أو تناسى ، أن العراقيين لم يكونوا آنذاك يعرفون شيئاً من المفاهيم والمصطلحات السياسية التي تملأ أذهان الناس في أيامنا هذه ، فهم لم يكونوا يدركون ما هي « الوطنية » أو « القومية » أو « الحرية » أو « الاستقلال » أو « حق تقرير المصير » أو ما أشبه مما يلهج به الرأي العام في العصر الحديث . جل ما كان يفهمه الناس في تلك الأيام هو العصبية المحلية أو القبلية ، وما يتصل بها من عادات الثأر والنخوة وغيرها من القيم المنبعثة من أعماق الثقافة الاجتماعية السائدة .

في رأيي أن معارك عام ١٨٣١ لم تكن تختلف من حيث محتواها الاجتماعي عن معارك المحلات التي زخر بها تاريخ بغداد في عهد المماليك ، كل ما هنالك من فرق هو أن أهل بغداد في المعارك الأخيرة كانوا جبهة واحدة ضد جيش السلطان بينما كانوا في معاركهم السابقة يقاتل بعضهم بعضاً ، ولكننا يجب أن لا ننسى أنهم في جميع معاركهم ـ الاولى والأخيرة ـ كانوا يندفعون في القتال من جراء انتفاضة غوغائية يقودها رؤساء المحلات أو أشقياؤهم دون أن يعرفوا السبب الحقيقي الذي يختفي وراء حركتهم .

ان هذه ظاهرة اجتماعية نلاحظها في العراق وفي أي بلد آخر يعيش في مثل ظروفه الاجتماعية ، فقد يكفي لقيام حركة ما في احدى المحلات أن ينبري أحد الشجعان من أولي الصوت الجهوري واللسان اللاذع

---

(١) انظر مجلة الهلال القاهرية بعددها الممتاز الصادر في ١٩٦٥/٢/١ ـ ص ١٩ .

فيهتف في أهل المحلة مستنجداً بهم ، وعند هذا يجد الكثيرون من أهل المحلة أنفسهم مندفعين في الاستجابة له من حيث يريدون أو لا يريدون ، فيشهرون أسلحتهم ويجرون بها في الازقة . وقد يزداد اندفاعهم حين يلمحون النساء ينظرن اليهم أو يزغردن لهم ، وهم اذ ذاك قد يرمون بأنفسهم الى الموت من حيث لا يشعرون .

وقد يحدث أحياناً أن يندفع أهل المحلة في ثورة عارمة وهم لايعرفون بوضوح لما ثاروا . فهم قد يركضون وراء صيحة النخوة ، ويحسبون أن الأمر بسيط لا يعدو أن يكون على شاكلة المعارك المحلية المعتادة ، ثم تجرفهم الأحداث بتيارها خطوة وراء خطوة ، واذا بهم يجدون أنفسهم أخيراً في خط النار تجاه قوات ساحقة لا قبل لهم بها ، وحينذاك قد ينقلبون على أعقابهم يلوذون بأذيال الفرار ويدوس بعضهم بعضا .

يخيل لي أن هذا هو ما حدث فعلاً في بغداد ١٨٣١ . فقد خرج الأهالي من باب المعظم يحاربون جيش السلطان ، والظاهر أنهم كانوا اذ ذاك تحت وطأة الحماس الذي أثاره فيهم بعض رجال المماليك من أمثال حسن أغا . ولو أنهم كانوا منذ البداية تحت تأثير رجال آخرين فلربما كانت حماستهم موجّهة نحو تأييد جيش السلطان بدلاً من محاربته .

من المؤسف أن نجد بعض كتابنا وباحثينا في هذه الأيام يسيرون في تفسير أحداث التاريخ على نفس الطريقة التي سار عليها الدكتور نوار . فهم يحاولون أن يصبغوا تلك الأحداث بالصبغة التي يشتهونها بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان . إنهم بعبارة أخرى يفسرون أحداث الماضي في ضوء ما يريدون أن تكون عليه تلك الاحداث ، وليس في ضوء ما هي عليه في الواقع .

الملاحق

القيت في هـذه السنة والتي قبلها بضع محاضرات عامـة ، في بعض الجمعيات والنوادي ببغداد ، حول موضوع المجتمع العراقي في المرحلة الراهنة التي يمر بها ، كما القيت بحثا في الموضوع نفسه في المؤتمر العالمي السادس لعلم الاجتماع الذي انعقد في ايفيان عام ١٩٦٦ ، وقـد اعددت بحثا آخر لالقائه في مؤتمر الادباء العرب السابع الذي انعقد ببغداد في نيسان الماضي غير ان ظروفا خاصة حالت دون تقديمه للمؤتمر • وقد رأيت من المناسب ان اكتب هذه الملاحق اضع فيها خلاصة لتلك المحاضرات والبحوث عسى ان يكون ذلك ذا نفع للقارىء على وجه من الوجوه • وليسمح لي القارىء اذا وجد في هذه الملاحق شيئا من التكرار لبعض ما ورد من آراء في كتبي السابقة أو الجزء الحالي من هـذا الكتاب • فالمقصود من هـذه الملاحق ان تعطي صورة مجملة لمختلف الآراء التي توصلت اليها حول طبيعة المجتمع العراقي وكيف تتكون شخصية الفرد فيه •

الملحق الاول

التغير والتناشز الاجتماعي

العالم كله الآن يعاني تغيراً اجتماعياً هائلا لم يعهد له مثيلا من قبل في جميع أطوار التاريخ ، فقد أنتج العلم في العصر الحديث مخترعات عظيمة في وسائل المواصلات والسفر والنقل والاعلام والنشر بحيث صارت العزلة الاجتماعية وما يتبعها من ركود اجتماعي غير ممكنة في أي مجتمع مهما كان نائياً أو محاطاً بالجبال الشاهقة •

كان السفر في الماضي بطيئاً وشاقاً حتى قيل في أحد الامثال العربية : « السفر قطعة من سقر » ، ولهذا كانت العزلة الاجتماعية هي الطابع الغالب على معظم المجتمعات البشرية ، أما الآن فقد انقلبت الآية وصار الاتصال والتزوار والاحتكاك بين المجتمعات من الامور الشائعة ، وهذا لابد أن يؤدي بدوره الى ظهور التغير في كل مجتمع قليلا أو كثيراً • إن من النادر أن نجد الآن مجتمعاً قادرا على المحافظة على عزلته الاجتماعية دون أن يتأثر بما يجري في العالم من زخم حضاري عنيف • رأينا منذ عهد قريب كيف حاول إمام اليمن الاسبق يحيى حميدالدين أن يعزل اليمن عن المؤثرات الخارجية فأخفق ، وكذلك أخفق اللاما في التيبت ، وأخفق غيرهما كثيرون •

بداية التغير في العراق :

بدأ الاتصال الحضاري في العراق منذ عهد داود باشا حين حاول هذا الوالي أن يُدخل الى البلاد بعض المخترعات والنظم الاوربية ، وقد تابعه في ذلك بعض من جاء بعده من الولاة كرشيد باشا « أبو المناظر »

ونامق باشا • وفي العقد السابع من القرن التاسع عشر ظهرت البواخر النهرية في العراق ، وامتدت اليه خطوط التلغراف ، فكانت تلك أموراً عجيبة في نظر الناس حاروا في تعليلها وكانت لهم بمثابة هزة فكرية فتحت أذهانهم نحو آفاق لم يكونوا يحلمون بها من قبل •

وفي عام ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس فكانت أهميتها الاجتماعية للعراق عظيمة جداً إذ هي قربت المسافة البحرية بين العراق وأوربا ، ويسرت السفر ونقل البضائع بينهما تيسيراً كبيراً • وشاء القدر أن يتولى ولاية بغداد في تلك السنة رجل مصلح ذو ولع بالاعمار والتجديد هو مدحت باشا • ولم يدم عهد هذا الوالي سوى سنتين تقريباً غير أنه أحدث في العراق ، وخاصة في بغداد ، ما يشبه الثورة ، وظل الناس يذكرونه سنوات عديدة • ومن طريف ما يُذكر في هذا الصدد أن عجوزاً من سكان الكرخ حين شهدت عربات « الترام » التي أسسها مدحت باشا بين بغداد والكاظمية فتحت فمها دهشة وصاحت : « بس على الموت ما يقدرون ! » • إنها حين رأت عربة ذات طابقين تسير على سكة ، ويجرها زوج من الخيول ، حسبت ان هذا أقصى ما يمكن أن ينتجه العقل البشري من إبداع عجيب •

وفي عام ١٩٠٨ حين وصلت الى بغداد أول سيارة خرج أهل بغداد عن بكرة أبيهم ليتفرجوا عليها ويتعجبوا منها ، وأخذ الكثيرون منهم ينظرون تحت السيارة ليكتشفوا قوائم الحصان المختفي في بطنها على زعمهم ، فهم لم يستطيعوا أن يتصوروا عربة تسير من غير حيوان يجرها • وبعد قليل سمعوا أن الافرنج اخترعوا عربة تطير في الهواء فكان ذلك آخر ما تحتمله عقولهم ، ثم جاء السيل العرم من المخترعات المذهلة بعدئذ ، يتلو بعضها بعضاً ، فانهار كل حاجز بين المعقول وغير المعقول في نظرهم ، وصار كل شيء لديهم ممكنا • وكان هذا إيذانا ببدء المرحلة

الراهنة التي انقلبت فيها جميع المقاييس الفكرية والاجتماعية •

التناشز الاجتماعي :

قد يصح أن نعد الحرب العالمية الاولى حدثاً يفصل بين عهدين متمايزين في العراق هما عهد التغير البطيء وعهد التغير السريع ، وهناك فرق كبير جداً بين ذينك العهدين من حيث نتائجهما الاجتماعية • ومن خصائص التغير البطيء أن المجتمع يتكيف له ويتلائم معه بمرور الايام فلا يظهر فيه صراع عنيف أو تناقض بين القديم والجديد على منوال ما يظهر أثناء التغير السريع •

لا ننكر أن التغير السريع الذي حدث في العراق منذ الحرب العالمية الاولى قد أفاد المجتمع كثيراً ، حيث أدخل فيه معالم الحضارة الحديثة خلال وقت قصير ، وقفز به الى الامام من الناحية المادية قفزة لا يستهان بها ، ولو قارنا وضع العراق الآن بما كان عليه قبل نصف قرن لوجدنا فرقاً عظيماً من حيث المستوى العمراني والاقتصادي والسكاني والصحي والعلمي وغيرها ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذا التقدم الحضاري الكبير قد أنتج في الوقت نفسه مشاكل اجتماعية كبيرة أهمها في نظري مشكلة « التناشز الاجتماعي » • فمن طبيعة الحياة أن ليس فيها شيء ينفع الناس دون أن يحتوي على ما يضرهم في الوقت نفسه ، وقد أخطأ الطوبائيون حين تخيلوا حياة خالية من المشاكل أو الشرور فتلك حياة لا يمكن أن تُوجد على وجه هذه الارض أو هي بالاحرى لا تنسجم مع طبيعة الانسان•

من طبيعة التغير السريع أنه لا يؤثر في جميع أجزاء الكيان الاجتماعي على درجة واحدة ، فكثيرا ما يكون هناك جزءان مترابطان ثم يحدث التغير في أحدهما دون أن يحدث في الآخر ، أو هو قد يحدث في أحدهما أسرع مما يحدث في الآخر ، فيؤدي ذلك الى صراع أو توتر أو تناقض

بينهما ، وهذا هو ما أسميته بـ « التناشز الاجتماعي » •

الواقع أن المجتمع العراقي في مرحلته الراهنة يعاني من تناشزات عديدة ، وقد أحصيتها ذات مرة فوجدتها تزيد على الاربعة عشر تناشزاً ، وربما كانت هي أكثر من ذلك • ولست هنا بصدد استقصاء هذه التناشزات انما أود أن أذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر :

تناشز الحقوق والواجبات •

إن الحقوق والواجبات كما لا يخفى جانبان متواسقان ومترابطان ولا يجوز أن ينفك أحدهما عن الآخر في الحياة العملية ، وقد كانت العصبية القبلية أو المحلية في العهد العثماني قائمة على مثل هذا التواسق بين الحقوق والواجبات ، فالفرد يتوقع من عشيرته أو محلته أن تقف الى جانبه في الملمات ، وتنجده اذا تخاصم ، وتأخذ بثاره حين يُقتل ، والمفروض فيه أن يكون من جانبه مستعداً للقتال معها في المعارك والمساهمة معها في الديات ، وهو قد يرمي بنفسه الى الموت في سبيلها دون أن يسأل : لماذا ؟

عندما جاءت الحضارة الحديثة الينا جلبت معها مفهوماً للعلاقات الاجتماعية يختلف عن المفهوم الذي اعتدنا عليه سابقاً ، هو مفهوم «الوطن» بدلا من مفهوم « العشيرة » أو « المحلة » ، وصارت الحكومة بمؤسساتها وقوانينها هي التي يجب أن يخضع لها الفرد بدلا من الخضوع للعرف العشائري القديم • وهنا نشأ أحد مظاهر التناشز الاجتماعي فينا • فنحن حفظنا الحقوق التي لنا على الحكومة ، وأخذنا نتحمس لها ونهتف بها ونخطب فيها ، ولكننا نسينا أن الحكومة لها في نفس الوقت واجبات على الفرد يجب أن يقوم بها •

من طبيعة الانسان بوجه عام أنه سريع الى إدراك ما له من حقوق تجاه غيره ، أما الواجبات المتصلة بتلك الحقوق فهو يحاول أن ينساها ،

أو يتهرب منها ، أو يتقاعس عنها ، ثم يجد تبريراً لما فعل على وجه من الوجوه • إن الانسان بعبارة أخرى أسرع الى المطالبة بحقوقه منه الى القيام بواجباته ، وهذا هو ما فعله الفرد العراقي حين جاءت اليه الحضارة الحديثة بمفاهيمها ومبادئها •

كان العراقيون في العهد العثماني يعتبرون الحكومة عدوة لهم ، فهم يفتخرون بعصيان أوامرها ، ويحتقرون من يتعاون معها وقد ينظرون اليه كما ينظرون الى جاسوس ، واذا جاءهم هارب من الحكومة ولجأ عندهم « دخيلا » فالمفروض فيهم أن يخفوه ويدافعوا عنه ويضللوا رجال الحكومة عنه • وقد بقيت هذه العادات الاجتماعية شائعة بين الناس حتى هذه الساعة ، ولا يزال الكثيرون منهم لا يحتقرون من يخالف القانون ، أو يكسر مصابيح الشارع ، أو يخرج على صف الانتظار ، أو يعاون الاشقياء واللصوص ، وربما احترمه بعضهم واعتبروه رجلا قوياً يتحدى الحكومة ولا يخاف •

في العراق ظاهرة اجتماعية عامة نكاد نلاحظها في كل مكان هي أن الفرد العراقي ميال الى انتقاد حكومته ووضع اللوم عليها في كل ما لا يعجبه من أمور الحياة ، وكثيراً ما يقارن حكومته بالحكومات الراقية حضارياً ثم يأخذ بالتأفف والشتم • إنه يريد من حكومته أن تكون أرقى حكومة في الدنيا ولكنه ينسى أنه لا يتعاون معها ولا يطيع قوانينها ، أو هو بعبارة أخرى يريد منها أن تكون كحكومة السويد مثلا بينما هو يسلك تجاهها كما كان أبوه يسلك تجاه الحكومة العثمانية • إنه حفظ الحقوق التي له على الحكومة كالمواطن السويدي ولكنه لا يقوم مثله بالواجبات التي لها عليه • ولست أقول هذا من باب الدفاع عن الحكومة العراقية ، بل هي حقيقة اجتماعية يجب أن تقال !

تناشز المدارس والوظائف :

كان النظام الطبقي في العهد العثماني مغلقاً أو شبه مغلق ، فالولد يمتهن حرفة أبيه في الغالب ، وكان الشعار السائد بين الناس : « ما يصيبك الا نصيبك » . وحين فُتحت بعض « المكاتب » ـ أي المدارس الحديثة ـ في أواخر ذلك العهد لم يدخل فيها سوى أبناء الموظفين ، أو « الافندية » كما كانوا يسمونهم ، وقليل من أبناء المتصلين بهم من الوجهاء . أما عامة الناس فلم يُدخلوا أبناءهم في « المكاتب » إذ لم يخطر ببالهم أن أبناءهم يمكن أن يكونوا « أفندية » في يوم من الايام ، أضف الى ذلك أن الشائع بينهم هو أن « المكتب » يفسد الاولاد ، ومن هنا نشأ المثل الدارج : « ذب الكتب من إيدك شغل المكتب ما يفيدك » .

ولكن هذا الوضع انقلب رأساً على عقب بعد مرور سنوات معدودة على انتهاء الحرب العالمية الاولى ، فقد صار الاقبال على المدارس من مختلف طبقات السكان كأنه تيار هائل يتضخم عاماً بعد عام ، وأصبح كل من يدخل المدرسة يطمح أن يكون في المستقبل « أفندياً » يشار اليه بالبنان . واختفى شعار « القسمة والنصيب » من أذهان هذا الجيل حيث حل محله شعار : « كل من جد وجد » و « كل من سار على الدرب وصل » .

الواقع أن الحكومة العراقية قد توسعت في دوائرها وتنوعت منذ بداية تأسيسها حتى الآن ، وقد استطاعت بشيء كثير من الصعوبة أن تستوعب المتخرجين من المدارس ، سنة بعد أخرى ، ولكن هذا التوسع في الدوائر الحكومية لا يمكن أن يجارى النمو الهائل في عدد المتخرجين ، ولابد أن يأتي يوم تتوقف الدوائر عن استيعاب أي موظف جديد الا بنطاق ضيق جداً ، ويخيل لي أن هذا اليوم قريب أو هو على وشك أن يحل .

إن عدد تلاميذ المدارس الابتدائية في العراق اليوم يزيد على المليون ، مع العلم أن عدد سكان العراق كله لا يزيد على العشرة ملايين . وهؤلاء

التلاميذ كلهم يأملون أن يدخلوا المدارس الثانوية بعد تخرجهم من المدارس الابتدائية ، وأن يدخلوا الكليات بعدئذ ، وأن يحصلوا على الوظائف اللائقة بهم أخيراً . وهم اذا فشلوا في دراستهم كانوا مشكلة لانفسهم وأهليهم ، واذا نجحوا كانوا مشكلة للحكومة . فليس من السهل عليهم أن يعودوا الى مهن آبائهم ، وليس من السهل عليهم كذلك أن يعودوا الى عقيدة « القسمة والنصيب » ؟ وليس في هذه الدنيا حكومة تستطيع أن تجعل جميع رعاياها « أفندية » من أولي « الياقات » البيضاء !

تناشز المرأة والرجل :

جاءتنا الحضارة الحديثة بمفاهيم وقيم من حيث علاقة المرأة والرجل تختلف كل الاختلاف عن تلك التي اعتدنا عليها في الجيل الماضي ، فقد كانت المرأة آنذاك لا يجوز أن تبدي رأيها علانية في أمر زواجها ، إن أهلها هم الذين يفاوضون في زواجها ويساومون على مهرها ، وليس لها الا أن تقول « نعم » ، أما اذا امتنعت عن النطق بهذه الكلمة فقد تُتهم بأنها « عاشقة » وقد ينهال ولي أمرها عليها بالعصا ، أو يذبحها بالخنجر .

كان نظام الزواج في الماضي يقوم على مفهوم « الخطبة » وهو الآن في تحول سريع نحو مفهوم « الحب » . إن المرأة الحديثة بعد أن تعلمت وتوظفت أصبحت لا ترضى لنفسها أن تكون موضع مساومة لا ارادة لها فيها ، فهي تريد أن يكون أمرها بيدها تختار لنفسها من تشاء ، وهي تقصد بهذا أنها تريد أن تتزوج من يبادلها الحب والغرام .

صار « الحب » أسطورة شائعة بين فتيات هذا الجيل وفتيانه ، وكأنه حلم من أحلام الحياة لا يمكن للانسان أن يعيش بدونه . وقد ساعدت المخترعات الحديثة على شيوع هذه الاسطورة ، كالحاكي والسينما والمذياع ومكبر الصوت والمسجل ، فأمست أغاني الحب تلعلع في كل مكان ويترنم

بها حتى الكهول من أمثال كاتب هذه السطور •

وأخيراً جاء التلفزيون ـ أو التلفاز كما أحب أن أسميه ـ فكان أعظمها تأثيراً إذ هو بمثابة سينما ومرقص ومغنى يأتي الانسان بها الى بيته فينشأ عليها الاطفال ذكوراً واناثاً • وسيأتي يوم نطلق فيه على هؤلاء الاطفال حين يكبرون اسم « جيل التلفزيون » كمثل ما أطلقنا على الاطفال الذين ولدوا بعد الاحتلال البريطاني اسم « أولاد السقوط » •

إن أبناء هذا الجيل ينشأون على رؤية التلفاز في بيوتهم ، حيث يشهدون به في كل يوم فيلماً أو تمثيلية أو أغنية أو رقصة وهي كلها تهتف « الحب •• الحب •• الحب ••• » ، فتتغرز أسطورة الحب في أعماق قلوبهم • وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يبدأوا يحاولون تقليد ما شهدوا في التلفاز من أفانين العشق ، فالفتى ينشد فتاة أحلامه ، والفتاة تنشد فتى أحلامها ، وهم يظلون يحلقون في عالم الاوهام السعيدة الى أن يأتيهم يوم يرتطمون فيه بصخرة الواقع التي لا محيص عنها ، إنها صخرة التناشز الاجتماعي الذي يحيط بهم من حيث لا يشعرون •

مشكلة هؤلاء أنهم تغيروا بمفاهيمهم العائلية تغيراً سريعاً ، بينما عماتهم وخالاتهم وعجائز محلتهم لم يزلن محافظات على مفاهيمهن القديمة أو هن لم يتغيرن فيها الا قليلا • فالفرد من الجيل الجديد قد يندفع في سبيل الغرام وهو يحسب أن عجائز المحلة قد وقعن في الغرام مثله •

وهناك ناحية أخرى من هذا التناشز يحدث في أعماق الفرد نفسه ، فالفتى قد يندفع في الغرام مع فتاة ويغريها بمعسول كلامه ، حتى اذا استجابت له وأرادت الزواج به انتفضت التقاليد العائلية القديمة من أعماقه ، فنسي وعوده المعسولة لتلك الفتاة ، وأخذ يبحث عن فتاة أخرى تلائم تلك التقاليد ، وربما أرسل الخاطبات ليخطبن له على طريقة الآباء والاجداد •

إن الافلام التي تُعرض على شاشة التلفاز أو السينما تمثل في الغالب

العادات الاجتماعية السائدة في بلاد الغرب ، فالمفروض في الفتى الغربي الذي يغازل فتاته أنه يحبها فعلا وأنه يبتغي الزواج بها • أما الفتى العراقي فقد تعلم مظاهر هذه العادة قبل أن يتعلم العادة نفسها ، إنه يحاكي الفتى الغربي في المرحلة الاولى من الحب حين يناغي فتاته بأناشيد الغرام ، ويغدق عليها الوعود الخلابة ، ولكنه عندما ينوي الزواج ينسى ذلك كله ويأخذ بالبحث عن زوجة « صالحة » لا تعرف الحب والهيام • إن الفتى العراقي يمكن أن يوصف بأنه « جيمس سنيوارت » في ظاهره ، و « حاج عليوي » في باطنه • إنه مزدوج في شخصيته ولا يدري أنه مزدوج !

تناشز الدين والجيل الجديد :

كان رجال الدين في العهد العثماني منسجمين مع الوضع الاجتماعي الذي يعيش فيه عامة الناس ، فلا تناشز بينه وبينهم ، وكان أكثر الناس يلجأون الى رجال الدين في حل مشكلاتهم العائلية والاجتماعية وغيرها ، ولم يكن هناك أفضل وأقدر من رجال الدين في حل تلك المشكلات إذ هم كانوا يمثلون الفئة « المثقفة » في ذلك العهد علاوة على كونهم يمثلون الدين وتعاليمه المقدسة •

وحين جاءت الحضارة الحديثة الى العراق ، ونشأ جيل جديد عليها ، ظهرت فجوة واسعة في العقلية والنظرة الى الحياة بين رجال الدين والمتعلمين من الجيل الجديد • وهناك أسباب عديدة لهذه الفجوة نذكر منها ما يلي :

أولا : موقف التزمت الشديد الذي وقفه رجال الدين في بداية الامر تجاه ما جاءت به الحضارة الحديثة من أفكار ونظم وأزياء ، فقد حرّموا مثلا المدارس والوظائف ، كما حرموا القبعة والسفور وحلق اللحية ، وقراءة الجريدة وتعلم اللغات الاوربية ، والقول بكروية الارض وأن المطر من البخار ، وكثير غير ذلك • إن تيار الحضارة قوي جارف لا يستطيع أحد الوقوف في وجهه ، وقد اندفع في تياره المتعلمون من الجيل الجديد

غير مكترثين لتحريم رجال الدين . ومما يلفت النظر أن أبناء رجال الدين أنفسهم قد اندفعوا بتيار الحضارة أيضاً فدخلوا المدارس كغيرهم من أبناء الناس وحلقوا لحاهم وقرأوا الجرائد وتوظفوا ، ثم تزوجوا البنات السافرات ... الخ .

ثانياً : كان من أهم ما يشغل تفكير رجل الدين في الماضي هو التفريق بين الحلال والحرام ، وبين الطاهر والنجس ، وحين نقرأ مجلدات الفقه الضخمة نجدها لا تخرج عن نطاق هذين الموضوعين الا قليلا ، وقد يستغرب القارىء حين يعلم أن « الطهارة » تستغرق حيزاً كبيراً جداً من مجلدات الفقه وأوقات الفقهاء مع العلم أن هذا الموضوع لم يأت عن النبي فيه سوى أحاديث معدودة ولكن الفقهاء فرعوا فيها وفصلوا ، جيلا بعد جيل ، حتى وصلوا بها الى هذا التضخم الهائل العجيب . ومشكلة رجال الدين اليوم أن المتعلمين من الجيل الجديد لم يعودوا يحتاجون الى مثل هذه القضايا ولا يسألون عنها كما كان آباؤهم يفعلون ، فالواحد منهم لا يهتم بالنجس والطاهر ، وقد يبول واقفاً من غير « خرطات » ، كل ما يهتم به هو وجود الجراثيم التي تنقل الامراض ولا يبالي بما سواه . فمادة الكحول مثلا هي في نظره طاهرة لانها تقتل الجراثيم بينما هي في نظر رجل الدين في غاية النجاسة . فما أبعد الشقة بينهما يا ترى !

ثالثاً : لا يزال رجال الدين يجرون في كتاباتهم وخطبهم على قواعد المنطق الارسطوطاليسي القديم ، وهو منطق يصلح للجدال انما هو لا يصلح لاكتشاف الحقائق أو التثبت منها . إنه منطق الادلة المتكافئة حيث تستطيع أن تبرهن به على صحة أي رأي وعلى صحة نقيضه في آن واحد . يظهر هذا بوضوح في الجدال الطائفي الذي لا يزال بعض رجال الدين يشغلون أنفسهم به ، فالرجل منهم يأتي بعشرات الادلة « العقلية » و « النقلية » يريد أن يبرهن بها على صحة العقيدة التي نشأ عليها ، مع العلم أنه لو كان نشأ في بيئة طائفية أخرى لكانت أدلته « العقلية »

و « النقلية » من طراز آخر • إن كثيراً من الكتب التي يصدرها رجال الدين في هذه الايام هي من هذا النمط ، وهي تكلف أموالا وجهوداً غير قليلة ولكنها لا تنتج الفائدة المطلوبة منها إذ لم يتحول أحد من الطائفة التي نشأ فيها الى الطائفة الاخرى من جراء اقتناعه بالادلة الموجودة فيها • ان هذه الكتب لا تقنع الا أصحابها أو المحافظين الذين يفكرون مثلهم ، أما المتعلمون من الجيل الجديد فهم لا يقرأونها لانهم مشغولون بكتب أخرى ، وهم عندما يهتمون بالقضايا الطائفية إنما يبتغون منها أن تساعدهم في الحصول على الوظيفة أو الترقي فيها ، وتراهم لا يبالون بعدئذ أن تكون هذه الطائفة أو تلك على حق أو على باطل •

رابعاً : نشأت في العهد العثماني طقوس دينية كانت ملائمة لعقول الناس آنذاك ومنسجمة مع قيمهم الاجتماعية ، وحين جاءت الحضارة الحديثة وتفتحت أذهان الناس أخيراً بقيت تلك الطقوس على حالها ، وربما نما البعض منها وتضخم • وأوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو ما يسمى بـ « المواكب الحسينية » ، فقد أخذت هذه المواكب تتضخم عاماً بعد عام بشكل لا ينسجم مع روح العصر ، ويؤدي الى الضرر في النفس والمجتمع ، ووقف الكثير من رجال الدين موقف المتفرج تجاه هذا التضخم « المخزي » ، وربما أيده البعض منهم بأدلته « العقلية » و « النقلية » ، بينما الواجب الديني يقضي عليهم أن يهبوا جميعاً لمكافحته والقضاء عليه • إن الحجة التي يتمسك بها رجال الدين لتبرير موقفهم هذا هو أن العوام لا يطيعونهم ، وقد قال لي أحدهم ذات يوم : « لو جاء الحسين نفسه يردع العوام عن تلك المواكب لما سمعوا منه » •

خلاصة القول إن رجال الدين لم يستطيعوا أن يجاروا التغير الفكري الذي حدث في العصر الحديث • نحن لا ننكر أن فريقاً منهم بدأوا يتعلمون الآراء الحديثة ويحاولون التكيف للظروف المستجدة ، ولكن تغيرهم هذا بطيء بالمقارنة الى التغير الهائل الذي حدث في عقلية الكثير من الناس •

الملحق الثاني

الفرضيات الثلاث

قد يلاحظ القارىء الذي تابع دراساتي الاجتماعية ، منذ صدور أول كتاب لي في عام ١٩٥١ حتى الآن ، أني حاولت تفسير المجتمع العراقي في ضوء فرضيتين : احداهما « ازدواج الشخصية » ، والثانية « صراع البداوة والحضارة » ، ثم أضفت اليهما في الآونة الاخيرة فرضية ثالثة هي فرضية « التناشز الاجتماعي » • ولابد لي من أن أعترف في هذه المناسبة ـ كما اعترفت في مناسبات سابقة ـ أن هذه الفرضيات ليست من بنات أفكاري ، بل اقتبست كل واحدة منها من عالم اجتماعي معروف : فالاولى اقتبستها من مكايفر ، والثانية من ابن خلدون ، والثالثة من أوكبرن ، غير أني حورت وبدلت في كل واحدة منها ـ قليلا أو كثيراً ـ لكي أجعلها أكثر انطباقاً وانسجاماً مع ظروف المجتمع العراقي وطبيعة تكوينه •

وأود أن ألفت نظر القارىء الى أن هذه الفرضيات الثلاث مترابطة فيما بينها ترابطاً وثيقاً ، وقد يصح اعتبارها أوجهاً مختلفة لموضوع واحد هو موضوع المجتمع العراقي في المرحلة الراهنة التي يمر بها • وفيما يلي تلخيص لتلك الفرضيات حيث أعرضها حسب تسلسلها المنطقي لكي يتبين القارىء مبلغ الارتباط بينها بالنسبة للموضوع العام الذي تتصل به •

صراع البداوة والحضارة :

إن الوطن العربي الذي يمتد من المحيط الاطلسي غرباً الى الخليج العربي شرقاً يشتمل على أعظم منطقة صحراوية في العالم ، وهو يشتمل كذلك من خلال هذا الامتداد الصحراوي على بقاع خصيبة وافرة المياه •

فالصحراء تنتج البداوة بينما البقاع الخصيبة تنتج الحضارة وقد كانت تلك البقاع في الواقع مهداً لأعرق الحضارات البشرية • ولهذا كان الوطن العربي ميداناً للصراع بين البداوة والحضارة منذ بداية التاريخ ، ولا يزال كذلك حتى يوم الناس هذا • ويندر أن تجد منطقة أخرى على وجه الارض تشبه الوطن العربي في ذلك •

ويتضح صراع البداوة والحضارة بأجلى مظاهره في العراق لأسباب لا مجال هنا لذكرها • إن العراق هو « بلد هابيل وقابيل » على حد تعبير المؤرخ المعروف توينبي • وهذا هو الذي جعل المجتمع العراقي عرضة لمد البداوة وجزرها على توالي العصور ، يأتيه المد البدوي تارة وينحسر عنه تارة أخرى حسب تفاوت الظروف • ويمكن القول إن أطول فترة سيطر فيها المد البدوي على العراق هي الفترة الاخيرة التي بدأت منذ سقوط الدولة العباسية ، أو قبل ذلك بقليل ، ثم استمرت ما ينوف على الستة قرون • فقد كانت تلك فترة شاذة اشتد فيها المد البدوي الى الدرجة القصوى إذ انهارت فيها سلطة الدولة ، واختل نظام الامن ، وتتابعت الفيضانات والاوبئة والمجاعات ، مما جعل الحضارة تذوي في العراق وتستفحل القيم البدوية فيه •

يكفي لفهم طبيعة تلك الفترة أن نذكر أن ثلاثة أرباع السكان فيها كانوا يخضعون للتنظيم العشائري وتسيطر عليهم قيم العصبية والغزو والثأر والدخالة والتسيار وغسل العار وما أشبه • أما الربع الباقي من سكان العراق ـ وهم الذين يمثلون أهل المدن ـ فهم وإن كانوا يختلفون عن العشائر في بعض الامور الظاهرية ، كالمساكن والملابس وطرق كسب العيش ، غير أنهم في أعماق نفوسهم لم يكونوا يختلفون عن أولئك كثيراً ، وطالما تعصب ابن المدينة لمحلته كمثل ما يتعصب الرجل البدوي لعشيرته •

لم يبق من قيم الحضارة القديمة في تلك الفترة سوى بعض الحرف

والصناعات البسيطة ، ولكننا حين ندرس شخصية صاحب الحرفة نجده أقرب الى قيم البداوة منه الى قيم الحضارة • فهو يود أن يغلب الزبون بدلا من أن يداريه ويرضيه على طريقة أهل الحضارة ، ولا يكاد الزبون يغفل عنه حتى يسرع هو الى غشه • إن نزعة « الغزو » و « الفرهود » أقوى عنده من نزعة العمل والانتاج ، فهو يهتم بالربح العاجل الذي يأتيه عن طريق الغلبة أكثر من اهتمامه بالربح الآجل الذي يأتيه من حسن السمعة • ولهذا كانت المشاجرات بين البائع والمشتري ، أو بين العامل وصاحب العمل ، أو بين الحرفي والعميل ، كثيرة الشيوع في المدن العراقية • والويل لمن يريد أن يبني داراً فانه سيحاط بعدد كبير من الناس وكل واحد منهم يحاول انتهاز الفرصة لغبنه أو التدليس عليه • واذا غشك أحدهم في شيء فانه لا يستحي من ذلك وربما ابتسم لك ابتسامة صفراء يشير بها الى أنه غلبك وضحك عليك •

التناشز الاجتماعي :

أهم سبب للتناشز الاجتماعي الذي نعانيه في المرحلة الراهنة هو أن الحضارة الحديثة جاءت الينا بأفكار ومبادىء ومفاهيم تناقض العادات الاجتماعية التي نشأنا علينا في بيئاتنا المحلية • فهي قد جاءت لنا مثلا بمبادىء المساواة والعدالة والديمقراطية والحرية والوطنية وما أشبه ، وهذه في حقيقة أمرها لا تنسجم مع قيم العصبية والقرابة والجيرة والنخوة والدخالة وحق الزاد والملح وغيرها من العادات التي كانت سائدة في الجيل الماضي ولا يزال أثرها باقياً في أعماق النفوس •

إن الأفكار الحديثة قد جاءتنا من طرق شتى كالمدارس والاحزاب ، والحفلات والمظاهرات ، والصحف والكتب ، والاذاعات والتمثيليات ، فحفظناها بسرعة لانها تلائم ما نشعر به من طموح أو نتحسس به من آلام ، ولكننا حين فعلنا ذلك لم نستطع أن نغير عاداتنا الاجتماعية التي

نشأنا عليها بمثل السرعة التي غيرنا بها أفكارنا •

يجب أن لا ننسى أن الحضارة هي عادات ونظم اجتماعية قبل أن تكون أفكاراً ومحفوظات • فالفرد في البلاد الراقية حضارياً ينشأ في حياته البيتية على عادات تلائم الحضارة التي يعيش فيها ، ولهذا فهو اذا كبر لا يجد فرقاً كبيراً بين حياته الاولى في طفولته وحياته الثانية في كبره • أما الفرد عندنا فهو قد ينشأ في بيئة محلية مفعمة بقيم العصبية والكسار والثأر والشقاوة والغلبة ، حتى اذا كبر تعلم أفكاراً مناقضة لتلك القيم ، وهو بذلك قد يجد نفسه مضطرا أن يجاري هذه تارة وتلك تارة اخرى • انه بعبارة اخرى يعيش في عالمين متضادين : عالم المثل العليا الذي ينادي بها في كتاباته وخطاباته ، وعالم الواقع الذي يعيش فيه بمفاخراته ومنابزاته •

ان العادات تميل بطبعها الى الجمود والتعلق بالماضي ، وان هي تغيرت كان تغيرها بطيئاً • أما الافكار ولا سيما فيما يخص المبادىء السياسية الجديدة فهي يمكن أن تتغير في أذهان الناس خلال وقت قصير ، فبمجرد أن تُلقي على الناس خطبة رنانة تضرب بها على أوتار قلوبهم حتى تجدهم قد تأثروا بها وحفظوا ما جاء بها من أفكار ، وربما أخذوا بدورهم يخطبون بها على من هم دونهم من الناس •

ازدواج الشخصية :

ان ازدواج الشخصية[1] هو أن يسلك الانسان سلوكاً متناقضاً دون

---

(١) هناك فرق كبير في موضوع ازدواج الشخصية بين المعنى النفسي منه والمعنى الاجتماعي ، ونحن هنا إنما نبحث في المعنى الاجتماعي منه ، فنرجو من القارىء الانتباه الى ذلك حذراً من الالتباس • انظر كتاب المؤلف « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » ـ بغداد ١٩٦٥ ـ الفصل الحادي عشر•

أن يشعر بهذا التناقض في سلوكه أو يعترف به ، وهو ينشأ عن وقوع الانسان تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم أو المفاهيم ، فهو يتـأثر بأحد النظامين تارة ، وبالآخر تارة اخرى • والواقع أن الازدواج بهذا المعنى كان موجوداً في العهد العثماني ، انما كان على نطاق ضيق ومقتصراً على بعض سكان المدن والقليل من سكان الارياف •

أستطيع أن أقول ان ازدواج الشخصية كان منتشـراً بين اولئك الذين ينشأون في بيئة دينية متـزمتة يكثر فيها الوعظ ، فهم يتـأثرون بالمواعظ ظاهراً وقد يعظون غيرهم بنفس العبـارات التي سمعوها مـن الواعظين ، غير أنهم في حياتهم العملية يسيرون حسب القيم المحلية التي تناقض التعاليم الدينية كل المناقضة ، وهم يفعـلون ذلك دون أن يفطنوا الى ما في سلوكهم من ازدواج عجيب • ان الفرد منهم حين يكون تحت تأثير الموعظة يبدو كأنه انسان ورع تقي يخـاف الله ويؤمن بأن الدنيـا دار فناء وأن الآخرة دار بقاء ، ولكنه ينسى ذلك كله حالما يشهد معركة محلية ، أو يدخل في منابزة أو مفاخرة مع أحد ، فهو ينقلب فجأة الى رجل من طراز « عباس السبع » أو « حسن كبريت » ، وتـراه اذذاك يتباهى بالغلبة والاغتصاب والاعتداء والنهب والخديعة ، ويحتقر المعتدى عليه باعتبار أنه « مخنث » لا خير فيه •

ان هذا النوع من الازدواج الذي كان موجوداً في العهد العثماني قد نشأ من جراء التناقض بين التعاليم الدينية والقيم المحلية وقد اعتـاد عليه الناس على توالي القرون حتى صار فيهم عادة مألوفة ، أما الازدواج الحديث فهو قد نشأ فيهم من جراء التناشز الاجتماعي الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وهو أوسع انتشاراً من الازدواج القديم وأشد وضـوحاً ، وربمـا كان الكثير من المصابين به يفطنون اليه ولكنهم لا يكترثون له •

ان الازدواج الحديث أصبح الآن منتشراً بين شتى فئات السكان

لا سيما المتعلمين منهم ، وربما صح القول ان كل متعلم ، أو شبه متعلم ، يكاد لا يخلو من ازدواج في شخصيته قليلا أو كثيراً • انه قد حفظ الافكار والمبادىء الحديثة وهو يتحمس لها ويكثر من ترديدها في مقالاته وخطاباته ، واذا جلس في مجلس عام نراه شديد الانتقاد لكل من يخالف تلك المبادىء ـ من حكام ورعايا ـ ولكنه يخالفها هو نفسه كل يوم في حياته العملية من حيث يدري أو لا يدري •

ان الذي يستمع الى خطاباتنا ومقالاتنا يحسب أننا وصلنا في علاقاتنا الاجتماعية الى أرقى ما وصلت اليه الامم المتقدمة قبلنا ، ولكن هذا « الرقي » لا يعدو طور الكلام في الغالب ، اذ لا تكاد تتغلغل في أعماق المجتمع حتى تجده لم يتغير في عاداته عما كان عليه في الماضي الا قليلا •

الازدواج وظاهرة الوساطة :

أوضح مثل يمكن أن نأتي به عن ازدواج الشخصية في المرحلة الراهنة هو ظاهرة « الوساطة » ، فنحن جميعاً نشجب الوساطة في مقالاتنا وخطاباتنا ، ونحن جميعاً نعمل بها في حياتنا العملية فنوسط أو نتوسط حسبما يقتضيه المقام •

اننا نحترم الوسطاء من اولي النفوذ ونمدحهم حين يقومون بالوساطة لنا أو بتأثير رجاء منا ، ولكننا لا نكاد نراهم يتوسطون لغيرنا حتى نأخذ بذم الوساطة وندعو الى مبدأ المساواة وعدم التفريق بين المواطنين • اننا بعبارة اخر ندعو الى الوساطة تارة والى المساواة تارة اخرى مع العلم أنهما في الحقيقة مبدآن متناقضان •

كنت ذات يوم جالساً في احدى المقاهي المحلية في بغداد القديمة اصغي الى أحاديث الناس ، فوجدت زمرة منهم يتحدثون بحماس عن موظف كبير من أبناء محلتهم ، فهم يمدحونه ويصفونه بأنه « شهم »

و « سبع » و « ابن أجاويد » لأنه يساعد « جماعته » في قضاء حاجاتهم ، وهو لا يكاد يلمح أحداً من أبناء محلته قادماً اليه حتى يهب لمساعدته في كل سبيل ، وقد يعطل أعمال الناس في سبيل انجاز عمله ، وربما ترك دائرته ليتوسط له في الدوائر الاخرى . ثم أخذوا يقارنون بين هذا الموظف « الشهم » وبين موظف آخر من أبناء محلتهم أيضا ، فمطوا شفاههم اشمئزازاً منه ووصفوه بأنه « مخنث » وأنه « بومة » اذ هو لا يفرق بين « جماعته » وغيرهم ، وليس لديه نخوة ، فاذا جاء اليه أحدهم يستنجده في حاجة أخذ يتمتم ويمطمط اعتذاراً وأسفاً .

ان هؤلاء لم يخرجوا في حديثهم هذا عن القيم المحلية التي نشأوا عليها في بيئتهم القديمة ، فهم لا يزالون يؤمنون بالعصبية والنخوة وحق الجيرة والزاد والملح وما أشبه . أما مبدأ المساواة بين المواطنين فهو أمر جديد عليهم ، وهم ينادون به عندما تكون لهم حاجة به . فاذا كانت لهم معاملة في احدى دوائر الحكومة مثلا ، ثم وجدوا غيرهم قد تقدم عليهم في انجاز معاملته عن طريق وسيط من ذوي النفوذ ، رفعوا اذ ذاك عقيرتهم يشجبون هذا الظلم الواقع عليهم وينادون بالويل والثبور على الظالمين .

وقد يستفحل هذا الازدواج عند بعض الذين يعملون في السياسة ويتزعمون الجماهير ، فهم يخطبون ويهتفون بمبادىء العدالة والمساواة والديمقراطية التي لا تفرق بين المواطنين ويدعون الى اعطاء كل ذي حق حقه ، ولكنهم لا يكادون يتولون مناصب الحكم حتى ينسوا ما هتفوا به وخطبوا ، وأخذوا يوسطون ويتوسطون كغيرهم من الناس . انهم لا يختلفون عن رواد المقهى الذين تحدثنا عنهم اختلافاً كبيراً .

مما يجدر ذكره في هذا الشأن أن الناس ليسوا كلهم على درجة واحدة في ازدواج شخصيتهم ، فمنهم من يشتد فيهم الازدواج ومنهم من

يضعف فيهم ، وبين هؤلاء واولئك درجات شتى • والملاحظ في الحياة الاجتماعية بوجه عام أنه كلما كان الفرد أكثر انتقاداً لغيره كان الازدواج فيه أشد ، وقد نجد نماذج كثيرة في مجتمعنا لهذا الطراز من الافـــراد الذين دأبوا على انتقاد كل شيء يرونه ، فهم ينتقدون كل انسان كمـــا ينتقدون كل عمل تقوم به الحكومة أو أية مؤسسة اخرى • انهم يريدون من الناس أن يكونوا ملائكة معصومين من الخطأ ، وأن تكون الدنيا جنة الفردوس ، مع العلم أنهم في سلوكهم الواقعي لا يختلفون عن غيرهم من الناس وربما كانوا أشد من غيرهم انحرافاً عن المثل العليا التي ينـادون بها في انتقاداتهم المتتابعة •

خطأ شائع :

هناك خطأ شائع لا يزال بعض مفكرينا يؤمنون بصحته هو أننـــا نستطيع أن نجمع في أنفسنا محاسن الحضارة الحديثة مع محاسن التراث الاجتماعي الذي نشأنا عليه ، أي أننا نستطيع أن نكون من أرقى الامم في العلم والصناعة والجهاز الحكومي مع المحافظة على روابط القرابة والجيرة والنخوة والمروءة والزاد والملح وغيرها من القيم المحلية التي ورثناها عن الآباء • منشأ الخطأ لدى هؤلاء أنهم لا يدركون طبيعة التناقض بـــين الحضارة الحديثة وقيمنا المحلية القديمة ، فلقـــد نشأت تلك القيم في مجتمع بدوي وهي ملائمة له كل الملائمة ، انما هي اذا سيطرت في مجتمع حديث أدت الى انحطاطه وهدمه •

يمكن تشبيه الحضارة الحديثة بالماكنة المعقدة ذات الاجزاء الدقيقة ، فكل جزء منها يجب أن يكون في مكانه المناسب له ، وهي تتوقف عـــن العمل عند طروء أي خلل في أي جزء منها مهما كان صـــغيراً • ان الحضارة بعبارة اخرى تقوم على أساس الاختصاص وتقسيم العمل وعلى أساس وضع الشخص المناسب في المكان المناسب •

ان قيمنا المحلية القديمة تفرض على كل رجل من ذوي النفوذ أن يهب لنجدة من يأتيه راجياً اياه في حاجة ، والمتوقع منه أن يتوسط له في دوائر الكحومة والمؤسسات العامة والخاصة ، فاذا نجح في ذلك مدحه الناس ، أو افتخر هو به أمام الناس ، ولكنه لا يدري أنه بعمله هذا كان كمن يضع أجزاء « الماكنة » في غير أماكنها المناسبة ، أو كمن يضع جزءاً مكان جزء فيها • فهو يعطل « ماكنة » الحضارة في بلاده ويحسب أنه فعل خيراً •

اننا تحت تأثير قيمنا المحلية القديمة لا نستطيع أن ننظر الى الفرد نظرة خالية من اعتبارات العصبية والقرابة والجيرة والصداقة والفضل وما أشبه ، ومعنى هذا أننا لا نستسيغ في علاقاتنا الاجتماعية مبدأ «الفردية» الذي هو من أهم اسس الحضارة الحديثة • فالفرد في نظرنا ليس كما هو في حد ذاته ، وما لديه من محاسن ومساويء خاصة به ، بل بما له من روابط شخصية وعائلية وعشائرية وغيرها •

ان « الفردية » مبدأ جديد بالنسبة لنا وطاريء علينا ، ويتضح هذا في الشتائم الشائعة بين العامة في العراق فهم لا يشتمون الشخص وحده بل لابد أن يلحقوا به في الشتيمة أباه وامه ، أو اخوته وأخواته ، أو سائر عائلته أو عشيرته • ولا حاجة بنا الى القول ان الشتائم العامية هي من أوضح الدلالات عما في المجتمع من نزعات وقيم •

الاخلاق والامور الجنسية :

وهناك ناحية اخرى من هذا الموضوع جديرة بأن نتطرق اليها في هذه المناسبة هي ناحية الاهتمام الشديد بالامور الجنسية ، فنحن من أشد الامم اهتماماً بهذه الامور ، ونستطيع أن نستدل على ذلك بالشتائم العامية الشائعة بيننا فقلما يتشاتم العامة دون أن يكون لتلك الامور أثر في

شتائمهم المتبادلة ، وهم لا يشتمون الفرد اذا كان في علاقاته الجنسية « فاعلا » فذلك في نظرهم من امارات الغلبة والرجولة ، انما العار كل العار أن يكون هو أو أحد أفراد عائلته « مفعولا به » •

والملاحظ أن الكثيرين منا اذا ذكروا الاخلاق السائدة في البلاد الراقية حضارياً ـ ولا سيما فيما يتصل بالامور الجنسية منها ـ أبدوا اشمئزازهم منها وأخذوا يطنبون في مدح أخلاقنا القديمة بالمقارنة اليها • حدثني رجل من تجار بغداد كان قد زار باريس في احدى جولاته التجارية ، فقال انه ركب ذات مرة قطار تحت الارض فرأى فيه مشهداً اجتماعياً أثار غضبه ، انه رأى فتى وفتاة يتعانقان ويقبل أحدهما الآخر ، فأخذ يحملق فيهما ويحوقل ، وقد استغرب حين وجد الركاب ينظرون اليه شزراً ويحتقرونه بدلا من احتقار العاشقين المتعانقين • ان هذا الرجل لا يزال ينظر الى الامور من خلال القيم المحلية القديمة التي نشأ عليها في بغداد ، فهو يعتبر تبادل القبلات بين ذكر وانثى أمام الناس من أبشع الرذائل الخلقية ، وهو قد اعتاد في محلته أن يكون بمثابة رقيب على كل من يفعل ذلك فيوبخه أو يصفعه ، وقد يجتمع أهل المحلة ليعاونوه في ذلك وربما اتفقوا جميعا على طرد هذا « العنصر الفاسد » من المحلة •

ان الحضارة الحديثة تقوم على أساس آخر من الاخلاق ، فالناس فيها لا يكترثون أن يفعل الانسان بنفسه ما يشاء ما دام لا يتعرض بغيره أو يعتدي عليه • فالحرية الفردية هي المحور الذي تدور عليه أخلاق الحضارة ومؤداها أن الفرد حر أن يفعل ما يشاء ما دام لا يتعرض بحرية غيره • ولذا رأينا ركاب القطار بباريس لا يمتعضون من رؤية ذكر وانثى يتعانقان لانهما لم يضرا بذلك أحداً ، غير أنهم امتعضوا من صاحبنا البغدادي لأنه حملق فيهما وحوقل وهذا في نظرهم تدخل في حرية الغير •

الملحق الثالث

الشعر والحضــارة

كان من نتائج النكسة التي حلت بنا في حزيران عـام ١٩٦٧ أن صار كل فريق منا يحاول أن يجد سبباً للنكسة لكي يلقي اللوم عليــه ويستريح ، وقد وصل الحال بالبعض منا الى حد أنه اعتبر غناء ام كلثوم أحد أسباب تلك النكسة • ولكن أمراً واحداً غفلوا عنه في هذا الصدد هو ولعنا المفرط بالشعر ، ولست أدري لماذا غفلوا عنه مع العلم أنه أجدر بأن يكون سببا للنكسة من غناء ام كلثوم •

الواقع أننا من أكثر الامم ولعاً بالشعر وانهماكاً فيه ـ ان لم نكن أكثرهم على الاطلاق ـ وهذا في رأيي من عيوبنا الاجتماعية أو هو بالاحرى من مظاهر التناشز الاجتماعي فينا • فنحن نريد أن نسير في مضـــمار الحضارة الحديثة ولكننا في الوقت نفسه نصر على المحافظة على تراثنـا الشعري الذي هو على طرفي نقيض مع نظم الحضارة ومقتضياتها •

ان ولعنا المفرط بالشعر تراث بدوي نشأ فينا منذ أيام الجاهلية حين كانت القبيلة تحتفل بنبوغ الشاعر مثلما تحتفل بنبوغ الفارس الشجاع ، فالشاعر يقاتل عن القبيلة بلسانه كما يقاتل الفارس بسيفه • ان الحياة البدوية تقوم على أساس من الحــرب الدائمة ، ومن خصائصها أنهــا تعتمد على الحماس والفخر والشعر فتلك وسائل ثلاث تؤدي الى هدف واحد هو تقوية معنوية القبيلة تجاه أعدائها • فالقبيلة البدوية هي دائما اما غازية أو مغزية ، وهي اذن في حاجة شديدة الى ما يقوي في كـــل

فرد من أفرادها ثقته بنفسه ويدفعه نحو الاقدام على المـوت من غير اكتراث ظاهر •

يقول عمرو بن كلثوم أحد شعراء الجاهلية المشهورين من قصيدة له يفخر بقبيلته :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحـر نملأه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبـابر ساجدينا

يلاحظ القاريء أن هذا فخار مبالغ فيـه الى الدرجة القصوى ، والذي يتفوه به من أهل عصرنا قد يُعد في نظر الناس سفيهاً أو مجنونا ، انما هو كان في أيام الجاهلية جائزاً أو مستحسناً ، وهو قد يكون لـه أثره المجدي من الناحية النفسية والاجتماعية في الحياة البدوية لأنـه يبعث في الرجل الغرور بنفسه وبقبيلته ويقوي فيه روح العصبية التي هي من شرائط تنازع البقاء في الصحراء •

شعراء السلاطين :

عندما انتقل العرب الى طور الحضارة ظهر عامل جديد في ترويج الشعر وتشجيعه هو جوائز السلاطين المغرية للشاعر المجيد الذي يمدحهم بقصائده الرنانة • وبذا تحول الشاعر من كونه لسان القبيلة والمنـافح عنها الى كونه مداحا في أبواب السلاطين •

الملاحظ أن معظم الشعراء الذين اشتهروا في هذا الطور نشأوا من أصل وضيع ، فقد يبدأ الرجل منهم حياته وهو في أشد حالات الفقـر والحرمان ، ثم يرتفع بشعره شيئاً فشيئا ، فاذا ساعده الحظ ونال الحظوة لدى أحد السلاطين صار ذا منزلة رفيعة ، يشار اليه بالبنان ، ويجـالس الامراء والكبراء ، وتكثر لديه الجواري والغلمان • ان مثل هذا الشاعر « العصامي » لا بد أن يكون قدوة ومثالا يحتذى به في نظر الكثيرين من

الشبان الذين نشأوا مثل نشأته ، وقد يدفعهم ذلك الى الانهماك بالشعر طمعاً بأن يرتفعوا به كما ارتفع الشاعر المشهور • ان هذا يشبه من بعض الوجوه ما يحدث الآن في البلاد الراقية حضارياً حيث ينهمك الكثير من أبناء الفقراء بالعلم لكي يصلوا عن طريقه الى ما يطمحون اليه من جاه وثراء ، انما الفرق بينهما هو أن هؤلاء يريدون الارتفاع عن طريق العلم بينما كان اولئك يريدونه عن طريق الشعر • ان الانسان بوجه عام يود الارتفاع بأية وسيلة تتيحها له الظروف الاجتماعية التي تحيط به وهو لا يبالي أن يتم ذلك عن طريق الشعر أو العلم أو أي طريق آخر ـ صالحاً أو طالحاً ـ ما دام يؤدي الى الهدف المنشود • وقد صدق من قال : « اذا أردت أن تعرف طبيعة مجتمع فانظر الى الذين نالوا المكانة المحترمة فيه » •

درجات الشعراء :

من طبيعة البشر انهم حين يتنافسون على شيء لا بد أن تتفاوت درجاتهم فيه تبعاً لاختلاف مواهبهم وظروفهم النفسية والاجتماعية ، وهذا هو ما كان عليه وضع الشعراء في طور الحضارة العربية ، فالقليل منهم هم الذين نالوا الدرجة القصوى من النجاح أما الباقون منهم فانهم بعد أن حاولوا وفشلوا نراهم يكتفون بأن يتقربوا لدى من هم دون السلاطين في وفرة الجوائز كالامراء والوزراء ، أو الاغنياء والتجار ، وربما وصل الحال ببعضهم الى الدرجة السفلى بحيث صار الشاعر منهم ينتظر مناسبات الافراح والاحزان لدى أبناء الطبقة الوسطى ، كمناسبة الفاتحة على ميت ، أو العودة من الحج ، أو ختان الولد أو زفافه ، ونراه عند ذاك يلقي القصائد « الرنانة » حسب مقتضى الحال متوقعاً أن ينال بها شيئاً من المال قليلا أو كثيراً • وقد يعمد أحدهم الى نظم القصائد للمناسبات المختلفة قبل حدوثها ثم يحشوها بالاسم الملائم عندما يأتي

أوانها • ان هؤلاء لا يختلفون عن شعراء السلاطين الا من حيث الدرجة اذ هم جميعاً مداحون يتكسبون بشعرهم كما يتكسب الشحاذ عن طريق الدعاء للناس بطول الاعمار •

الشعر والموضوعية :

من المباديء التي سار عليها الشعر العربي منذ بداية أمره هو أنه لا يبالي بالصدق في تصوير الامور ، ومن هنا جاء الوصف الشائع عنه : « أكذبه أعذبه » • وقد وصف القرآن الشعراء بأنهم « في كل واد يهيمون » و « أنهم يقولون ما لا يفعلون » •

والواقع أن هذا ليس بالامر المستغرب بالنظر الى وظيفة الشعر في الحياة الاجتماعية التي نشأ فيها • فالشاعر كان في حياة الجاهلية ينافح عن قبيلته تجاه خصومها ـ كما رأينا ـ ومعنى هذا أنه لا يبالي بالحقائق بمقدار ما يبالي بنصرة القبيلة ، فقبيلته هي المحقة دائما ، وهي الافضل والاقوى والاعلى نسباً وحسباً ، ولا يمكن أن تصل الى مستواها الرفيع أية قبيلة اخرى على وجه الارض • ان الشاعر بعبارة اخرى يجب عليه أن يسير في شعره على المبدأ البدوي القائل : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » •

وحين انتقل الشاعر العربي الى طور الحضارة وصار مداحاً للسلاطين ـ أو الذين هم دونهم من الامراء والاغنياء ـ وجد نفسه مضطرا أن يمدح ويهجو حسبما يقتضيه المقام ، أو حسبما تكون غليه الجائزة من كثرة أو قلة ، فهو لا يبالي أن يصف السلطان بأنه أعدل خلق الله حين تكون جائزته كبيرة ، وأنه أظلمهم جميعاً حين تكون جائزته على عكس ما كان متوقعا منها • وقد رأينا أمير الشعراء قديما ـ أي المتنبي ـ وأمير الشعراء حديثا ـ أي أحمد شوقي ـ يفعلان مثل هذا دون حياء •

يجب أن لا ننسى أن هذه اللامبالاة من حيث الصدق في تصوير الامور عند الشعراء تبدأ لديهم منذ أول تمرينهم على نظم الشعر ، أي أنهم يتعودون عليها ويمارسونها منذ بداية أمرهم ، حتى اذا كبروا صارت فيهم عادة مألوفة لا يجدون فيها حرجا أو يخجلون منها .

يقول الدكتور عبدالرزاق محي الدين أثناء مجادلة جرت بيني وبينه منذ سنوات[1] : ان الشاعر العربي حين يتمرن على قول الشعر في أول أمره يأخذ بالنظم في الموضوعات التقليدية التي نظم فيها الشعراء المجيدون قبله فيتغزل من غير غرام ، ويتحمس من غير شجاعة ، ويتكلف الشباب وهو طاعن في السن ، ويبكي على الطلول وهو مقيم في المدينة ، ويصف الخمرة دون أن يذوقها ، ويصطنع المجون وهو من أشد الناس تزمتاً ووقاراً ...

ان هذا كله يفعله الشاعر المبتديء من أجل التمرين ، ولا يخفى ما للتمرين في عهد الصبا من أثر في تكوين العقلية عند الكبر . ولهذا كان الشعراء المشهورون اذا مدحوا أحدا أو هجوه لا يهتمون بأن يكون قولهم منطبقا على الواقع أم لا . ومما يجدر ذكره أن الناس حين يستمعون الى قصيدة من شاعر لا يهتمون هم من جانبهم بأن يكون الشاعر قد قال صدقاً أو كذبا ، كل اهتمامهم ينصب على جودة القصيدة من حيث روعة ألفاظها وانسجام قوافيها ، أي انهم يطربون للشعر من ناحيته الفنية المجردة ولا يكترثون لما فيه من حق أو باطل .

---

(١) يجد القاريء تفاصيل هذه المجادلة في كتاب « اسطورة الادب الرفيع » للمؤلف ـ بغداد ١٩٥٧ .

نهضة القرن الماضي :

شهد العراق في القرن التاسع عشر نهضة شعرية ضخمة كثر فيها الشعراء المجيدون في بغداد والنجف والحلة وكربلا والموصل والبصرة . ومن يدرس أسباب تلك النهضة يجدها لا تختلف من حيث محتواها الاجتماعي عن أسباب النهضة في الزمان القديم الذي يُدعى بـ « العصر الذهبي » .

يمكن القول إن داود باشا كانت له يد في ترويج الشعر ، كما كانت للسيد مهدي بحر العلوم الذي تولى الزعامة الدينية في النجف يد أخرى . وقد ظهرت في بعض المدن العراقية أسر ذات جاه وثراء فأخذت تشجع الشعر وتمنح الجوائز المغرية فيه كآل الجليلي بالموصل ، وآل كبة ببغداد ، وآل القزويني بالحلة ، وآل الرشتي بكربلا ، وآل باش أعيان بالبصرة ، وآل السعدون في المنتفق ، ورؤساء الخزاعل في الفرات الأوسط . وصار الشعراء يقصدونهم في مناسبات الأفراح والأحزان ويلقون في دواوينهم القصائد « العصماء » . ثم ظهر أخيراً الشيخ خزعل في المحمرة فكان قصره في « الفيلية » لا يختلف عن قصور السلاطين القدامى إذ كان يقصده الشعراء والخطباء ، كما يقصده المطربون والمطربات . والواقع أن بعض الفضلاء الذين نحترم ذكراهم كانوا في طور من أطوار حياتهم مداحين عند الشيخ خزعل ينظمون في أمجاده القصائد ويؤلفون له الكتب .

إن هذه النهضة الشعرية جعلت كل متعلم يطمح أن يكون شاعراً مجيداً لكي ينال الحظوة لدى بعض الأعيان أو الأمراء . وقد بلغ الولع بالشعر لدى المتعلمين في بعض المدن درجة يندر أن يكون لها نضير في التاريخ ، ولا تزال بقية منها موجودة حتى يومنا هذا .

أنقل للقارىء نبذة من مقالة لأحد شعراء النجف المخضرمين ، نشرها في جريدة الجمهورية في ١٩٦٨/٦/٤ ، يصف بها شدة الولع

بالشعر بين الشبان من أبناء جيله • إنه قال : « فتحنا عيوننا قبل أربعين سنة والندوات الأدبية في بغداد والحلة والنجف وكربلاء ، وفي أهم المراكز العراقية المعروفة ، تحفل بالشعراء وقصائدهم ، وبالادباء وأدبهم ، في كل اتجاه لا سيما المواضيع السياسية الثورية التي تطالب بالاستقلال وتحث على الفضائل الاجتماعية والتجديد والتحرر الفكري • وكنا نخرج من حفل أدبي كي تتسابق الى ندوة شعرية أخرى ، تتبارى بالتقفية والمطاردات الشعرية ـ كما كان يُعبّر عنها ـ ونتراهن فيما بيننا ، وكم أُتخمنا بعد أكلات دسمة كان يعدها الفريق الخاسر المسكين منا ، أو قضينا وقتاً من الأيام في سفرة جميلة الى الضواحي القريبة ••• على حساب أحدنا في جو مرح عامر نعود منه بثروة شعرية من وصف السفرة وما تخللها من مبادرات وجدانية تكون زادنا ومتاعنا في مجالسنا بعد العودة الى حين طويل حين يجدّ حادث ينسينا ما قبله ، وهكذا • تصور يا أخي القاريء ما كان يبعثه هذا الجو الادبي العامر بالمسابقات والمراهنات في نفس الواحد من هؤلاء من إثارة للغيرة واستنهاض للهمم والحميات حيث يحشد كل طاقاته وامكاناته ليلحق بأخيه وزميله وقريبه ••• » •

بين الشكل والمحتوى :

لا ننكر أن شعراءنا اليوم قد تغيروا عما كانوا عليه بالأمس ، فقد تحول الكثيرون منهم من مدح السلاطين الى مدح الشعوب ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن تغيرهم هذا انما كان من ناحية الشكل في الغالب ، أما من ناحية المحتوى فلم يتغيروا الا قليلاً • إنهم ظلوا يسيرون في شعرهم على نفس الطريقة القديمة من حيث الاندفاع في الفخر والحماس وقلة المبالاة بحقائق الأمور • فهم بدلاً من أن يجعلوا السلطان ظل الله في الارض وأعدل الناس طراً ، اتجهوا نحو الشعب فجعلوه « نبيلاً » كاملاً في جميع صفاته لا يتطرق اليه النقص أبداً •

يبدو أن شعراءنا حين تركوا مدح السلاطين واتجهوا نحو مدح الشعب صاروا كأنهم عادوا الى حياة البداوة الأولي حين كان الشاعر يمدح قبيلته ، ويذم خصومها ، في الحق والباطل • فهم لا يختلفون عن شعراء الجاهلية الا من حيث أنهم وسعوا نطاق القبيلة فجعلوه « الشعب » أو « الوطن » أو « الأمة » • إنهم بعبارة أخرى غيروا شكل العصبية ، أما مضمونها فلم يغيروه حيث بقوا ينظرون الى شعبهم أو وطنهم أو أمتهم كما كان الشاعر البدوي ينظر الى قبيلته •

إن هذا النمط من التفكير الحماسي ــ وهو الذي يصح أن نسميه بالتفكير الشعري ــ لم يقتصر أثره على الشعراء فقط بل شمل أيضاً الكثير من المفكرين وحملة الاقلام والخطباء ، فهم جميعاً يجرون على طريقة واحدة هي طريقة عمرو بن كلثوم : « ماء البحر نملأه سفيناً ! » •

قرأت في كتاب عراقي صدر منذ عهد قريب العبارة التالية أنقلها بنصها : « قلنا إن من خصائص الفرد العراقي حب العمل والشهامة والرجولة والتآخي وهي ثلاث خصائص اذا وُجدت في شعب ومجتمع استطاع أن يبلغ أقصى ما يهدف اليه وأن يحظى بما لا يستطيع أن يناله أحد من المجتمعات أو الشعوب إذ ليس ثمة من خير عميم ولا فضل وفير الا كان نتاجاً لهذه الخصائص ••• » • ان هذا كلام قد نجد له أمثلة عديدة في شتى صحفنا ومجلاتنا ومؤلفاتنا ، وكثيرا ما يكتب الكاتب منا ويبدو كأنه يلقي قصيدة رنانة أو يتلو نشيداً حماسياً •

الحرب الحديثة :

من خصائص التفكير الشعري أن أصحابه اذا انتصروا في حرب نسبوا سبب انتصارهم الى أنفسهم وما أبدوا في الحرب من بسالة وتضحية، أما اذا انكسروا عزوا هزيمتهم الى سبب خارج عنهم كالاستعمار أو الخونة

الذين يتعاونون مع الاستعمار • ولا يخفى أن هذا النوع من التفكير يجعل أصحابه بعيدين عن تفهم الواقع كما هو ، والاستفادة من دروسه •

نجد نموذجاً واضحاً من هـذا التفكير لـدى البعض من كتابنا ومؤرخينا بالنسبة لثورة العشرين ، وهي الثورة التي استطاعت فيها عشائر الفرات الأوسط أن تنزل ضربة ساحقة بقوات الاحتلال البريطاني في عام ١٩٢٠ ، فقد عزوا هذا النصـر الى وطنية العشـائر واستماتتها في القتال ، ولكنهم حين حلت الهزيمة بالعشائر أخيراً عزوا سببها الى الخونة الذين تآمروا على الثورة وضربوها من الخلف •

لست هنا بصدد البحث في ثورة العشرين ، فهذا موضوع سأحاول دراسته في جزء قادم من هذا الكتاب ، ولا شك عندي أنها كـانت ثورة مجيدة تستحق أن نفخر بها ولا يجوز أن نستهين بها ولكننا في الوقت نفسه لا يجوز أن نغالي فيها على طريقة الشعراء •

إن العشائر في هذا العصر الذي نعيش فيه لا يمكن أن تنجح فـي حرب ضد جيش منظم لديه مدافع ومصفحات وطائرات ، وان هي نجحت مرة على سبيل الصدفة فليس في مقدورها أن تنجح في كل مرة • ولعلني لا أعدو الصواب اذا قلت إن النصر الباهر الذي نالته العشائر في ثورة العشرين كان أشبه بالحدث الشاذ منه بالحدث الذي تُبنى عليه قاعـدة عامة • فقد اجتمعت عوامل شتى مكنت العشائر من النصر • وليس من المحتمل أن تجتمع تلك العوامل مرة أخرى لتنتج مثل ذلك النصـر •

تغيرت طبيعة الحرب في العصر الحديث تغيراً أساسياً ، إذ هـي أصبحت تعتمد على العلم والتقنية اكثر من اعتمادها على الفخر والحماس • إن رجلا شجاعاً من طراز عنترة العبسي لم تبق له تلك الأهمية التي كانت له في الحروب القديمة ، فلقد حل محله الجندي المدرب الذي يحمل بيده

أحدث الأسلحة النارية ومن ورائه المصانع والعلماء يجهزونه كل يوم بشيء جديد . وكذلك حل محل الرجز أو « الهوسة العشائرية » خطة يعمل على وضعها الخبراء العسكريون عدة سنوات وفق أحدث التطورات في فن السلاح والحرب .

حدث مرة أثناء ثورة العشرين أن استطاع رجل عشائري أن يستولي على مدفع ، ويقتل صاحبه ، بسلاح بدائي هو عبارة عن عصا في رأسها كتلة من القير ـ وهو الذي يسمى في العراق بالمقوار ـ ومن هنا نشأت « الهوسة » المشهورة التي صارت فيما بعد شعار الثورة : « الطوب أحسن لو مقواري ! » ومعناها أن المقوار أقوى من المدفع وأقدر منه على الغلبة . مشكلتنا آنذاك ، ولا تزال حتى الآن ، أننا نريد أن نجعل تفضيل المقوار على المدفع قاعدة عسكرية عامة وأن نعتمد عليها في كل ثورة نقوم بها أو حرب نخوضها . فشعراؤنا وكتابنا لا يزالون ينظمون القصائد ويدبجون المقالات ليبرهنوا عن طريق الألفاظ الرنانة أن المقوار يغلب المدفع دائماً وأننا ما دمنا قد انتصرنا به في الماضي فلابد أن ننتصر به في المستقبل « حتماً » .

وربما صح القول بأن انتصار مصر في عام ١٩٥٦ يشبه من بعض الوجوه انتصار العشائر العراقية في عام ١٩٢٠ ، فكل منهما قد ساعدت عليه ظروف وعوامل ليس من المحتمل اجتماعها كلها مرة أخرى ، ولكننا اغتررنا بأنفسنا وتملكنا الحماس والفخار المغالي فيه ، وملأنا الجو بالأناشيد !

المجتمع العراقي والعربي :

عندما أصدرت كتابي الأخير « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » في عام ١٩٦٥ أشرت في مقدمته الى ما يجرى في مصر والعراق وبعض الأقطار العربية الأخرى من ظهور عدد كبير من المؤلفات في موضوع

« المجتمع العربي » ، ومحاولة ادخال هذا الموضوع في مناهج السنوات الاولى من جميع الكليات والمعاهد الدراسية ، وقد لاحظت أن هذه المؤلفات والدروس تنحو في الغالب منحى الوعظ والتوعية الحماسية ، وتتبع الاسلوب الخطابي بدلاً من الاسلوب الموضوعي • وقلت اذ ذاك ما نصه (كما جاء في ص ١٠ من الكتاب) :

« لست أشك أن هذا المنهج (الوعظي) في دراسة المجتمع العربي مهم ومفيد ، لا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار كون المؤلفات السائرة على هذا المنهج قد كتبت لتوضع بين أيدي طلاب هم في السنوات الأولى من دراستهم الجامعية ، فلابد لها اذن من أن تنحو نحو الوعظ والتوجيه ، لكي تفتح عيون الطلاب الى ما عليهم من واجبات تجاه وطنهم الاكبر • ولكنني أعتقد أننا لا يجوز لنا أن نقف عند هذه الدراسة التوجيهية ، فنكتفي بها ، ولا نتعداها الى دراسة أخرى أكثر عمقاً منها وأقرب الى منهج علم الاجتماع الحديث • أخشى أننا اذا غلونا في الاندفاع بهذا التيار أن نكون مثل (وعاظ السلاطين) الذين كانوا يملأون عقول الناس بالمثل الطوبائية ، بينما هم يغضون النظر عن الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس ، والذي يمنعهم من إدراك تلك المثل العالية » •

من المؤسف ان تلك الدعوة الى الدراسة الموضوعية لم تلق في حينها قبولاً لدى الكثيرين ، وظل هؤلاء ، كما كانوا ، يعتقدون أن التوعية الخطابية أولى من الدراسة الموضوعية في هذه المرحلة الدقيقة التي نحارب فيها الاستعمار وربيبته الصهيونية • وقد صارحني بعضهم ذات يوم قائلاً بأن دراسة أي جزء من الوطن العربي كالمجتمع العراقي أو السوري أو المصري – بدلاً من دراسة المجتمع العربي كله في موضوع واحد – هي بمثابة دعوة الى الاقليمية المقيتة وهي تضر العرب في هذه المرحلة أكثر مما تنفعهم •

يبدو على أي حال أن نكسة حزيران عام ١٩٦٧ لفتت أنظار بعض

مفكرينا الى خطأ هذا النوع من التفكير • ولعل من المناسب أن أنقل هنا ما ذكره محمد حسنين هيكل الصحافي المصري المعروف - في جريدة الاهرام في ١٣/١/١٩٦٨ - بصدد تعداد الأخطاء التي تورطت بها القوى الثورية في البلاد العربية • إنه قال ما نصه :

« ••• إن القوى الثورية لم تضع أمام عملها خريطة اجتماعية للعالم العربي الذي تنتمي اليه وتتحرك وسط تضاريسه • وكان لابد من تحديد هنا وإجابة على أسئلة كثيرة : الى أي مدى يؤثر العامل القومي الذي ينبع من حقيقة أن العرب جميعاً أمة عربية واحدة ؟ والى أي مدى يؤثر العامل الوطني الذي ينبع هو الآخر من حقيقة مضادة وهي أن شعوب هذا الأمة العربية الواحدة تنقسم الى أوطان مستقلة لكل منها حدودها ، ما هي أوجه الشبه وما هي أوجه الخلاف بين الشعوب العربية التي تنتمي الى أمة واحدة ؟ وهل مجتمع النهر في مصر وهو الذي عرف نظام الدولة قبل سبعة آلاف سنة يشبه نظام الصحراء حيث ما زال نظام القبيلة سائداً ومتحكما ؟ ما هو الوزن الحقيقي للاوضاع العنصرية والطائفية التي تؤثر على موازين القوى داخل العديد من الأوطان العربية ، داخل لبنان مثلاً ، وداخل العراق ، وداخل سوريا ، وداخل الجزائر ؟ وغيرها وغيرها • في غيبة مثل هذه الخريطة العلمية للتضاريس الانسانية للعالم العربي فان القوى الثورية فيه اعتمدت على العاطفة وحدها ، والعاطفة بالطبيعة - وعندما تكون وحدها - تكون قصيرة النفس غير قادرة على الشوط الطويل العنيف » •

أود في الختام أن أعيد نفس الكلمة التي ذكرتها في مقدمة هذا الكتاب ، وهي أننا - في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا - في أشد الحاجة الى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس !

فهرس الكتاب

ـ اعتذار ـ

وقعت في الكتاب أخطاء مطبعية غير قليلة لم نستطع تلافيها ونترك أمر تصحيحها لفطنة القاريء اللبيب •

كتب المؤلف المطبوعة

(١)	شخصية الفرد العراقي	١٩٥١
(٢)	خوارق اللاشعور	١٩٥٢
(٣)	وعاظ السلاطين	١٩٥٤
(٤)	مهزلة العقل البشري	١٩٥٥
(٥)	اسطورة الأدب الرفيع	١٩٥٧
(٦)	الاحلام بين العلم والعقيدة	١٩٥٩
(٧)	منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته	١٩٦٢
(٨)	دراسة في طبيعة المجتمع العراقي	١٩٦٥
(٩)	لمحات اجتماعيــة من تاريخ العراق الحديث (الجزء الاول)	١٩٦٩

٣/١٢٠٠٠/١٩٦٩

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

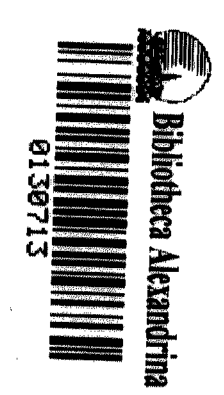
EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثاني

من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٧٢





الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثاني

من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٧٢

مطبعة الارشاد ـ بغداد

١٩٧١

المقـــدمة

ان هذا الجزء الـذي بين يدي القارىء يختلف عن الجزء الـذي سبقه من ناحيتين : أولاهما ان الجزء الأول كاد يستوعب أحداث ثلاثـة قرون ، أما هذا الجزء فلا يستوعب سوى أحداث نصف قرن تقريباً ، وذلك من بداية ولاية علي رضا باشا عام ١٨٣١م الى نهاية ولاية مدحت باشا عام ١٨٧٢م • ويرجع السبب في هذا الى قلة المراجع المتوفرة لدينا عن الاحداث البعيدة وكثرتها عن الأحداث القريبـة • ومن الممكن القـول بوجه عام انه كلما كان العهد أقرب الينا كانت المراجع فيه أوفر • وسيرى القارىء في بعض الاجزاء القادمة أن الواحد منها قد يقتصر على أحداث سـنوات قليلة كما هو الحـال في الجزء الخاص بالحرب العالمية الاولى أو الجزء الخاص بثورة العشرين •

والناحية الثانية هي أن الجزء الاول اهتم كثيراً بأحداث ايران لما كان لها من علاقة وثيقة بأحداث العراق ، أما الجزء الحالي فقد أهتم بأحداث مصر والشام اكثر من اهتمامه بأحداث ايران ، وهذا أمر لـه دلالته اذ أن المجتمع العراقي أخذ منذ القرن التاسع عشـــر يتحوّل في اتجاهاته الاجتماعية والفكرية من الشـرق الى الغرب ، أو بعبارة اخرى من الوعي الطائفي الى الوعي القومي •

كان العراق في القرون الثلاثة التي سبقت القرن التاسع عشـــر لا يعرف عما يحدث في مصر والشام الا قليلاً • انه كان مشغولاً بالصراع الهائل الذي نشب بين الدولة العثمانية والصفوية وما نتج عنه من منازعات ومذابح طائفية • وعندما حل القرن التاسع عشـــر أخذت رياح التمدين والتجديد تأتي من جهة الغرب عن طريق مصر والشام ، وقد وقع العراق تحت تأثيرها شيئاً فشيئاً • ومعنى هذا ان العراق بدأ يشهد ظاهرة اجتماعية لا عهد له بها من قبل ، فبعدما كان الصراع الطائفي هو الذي يشـــغل

الأذهان فيه ظهرت بوادر صراع من نوع جديد هو الصراع بين القديم والجديد .

الواقع أن الدولة العثمانية كانت تعاني من الصراع بين القديم والجديد منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ولكن الذي هزها هزاً عنيفاً وجعلها تتجه نحو الجديد هو فتح نابليون لمصر في نهاية ذلك القرن وما أعقبه من ظهور محمد علي باشا وفتح ابنه ابراهيم باشا لبلاد الشام ، فقد أدركت الدولة العثمانية اذ ذاك أن من الضروري لها أن تتطور وأن تسير في طريق الحضارة الحديثة والا فهي محكوم عليها بالفناء حتماً . وصارت الدولة منذ ذلك الحين تحاول تجديد أجهزتها وتصلح فيها بمقدار جهدها . وقد وصل أثر هذا التجديد الى العراق ببطء ، ولكنه وصل على أي حال وأخذ العراق يتحسس به شيئاً فشيئاً ، وبذا أصبح العراق ميدانا للصراع بين التراث الاجتماعي الذي كان سائداً فيه قديماً وما جاء به الزمن من تيار حضاري حديث .

من معالم التراث القديم :

أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب الى أن التراث الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق يتميز بأمرين هما التعصب الطائفي والمد البدوي ، وذكرنا أن هذين الأمرين هما في الحقيقة وجهان لشيء واحد ، فالطائفية ليست ديناً انما هي نوع من الانتماء القبلي الى مذهب أو شخص معين ، والفرد الطائفي حين يتعصب لمذهبه لا يهتم بما في المذهب من مبادىء خلقية أو روحية ، فذلك أمر خارج عن نطاق تفكيره ، وكل ما يهتم به هو ما يوحي به التعصب من ولاء لجماعته وعداء لغيرهم . انه بعبارة أخرى ينظر الى طائفته كما ينظر البدوي الى قبيلته .

كان العراقيون بالرغم من اختلاف المذهب الذي يدينون به ظاهراً لا يختلفون في التراث الاجتماعي المسيطر عليهم ، أي في العادات والقيم

والمفاهيم التي توجه سلوكهم في الحياة ، فهم جميعاً كانوا يسيرون على المبدأ البدوي القائل : « أنصر اخاك ظالماً أو مظلوماً »[1] ، وكانت قيمة الرجل في نظرهم تقاس بمقدار ما يبدي من نخوة وسخاء في عشيرته من جهة وما يبدي من شجاعة واقدام في غزو الآخرين من الجهة الأخرى .

وتتضح هذه القيم في سلوك أهل الريف الى حد كبير . يقال ان المرأة في الريف كانت تختزي من زوجها اذا لم يكن « رجل ليل » يقطع الطرق ويسطو على البيوت ، وكثيراً ما كان الرجل الريفي يقوم بالغزو ارضاءاً لزوجته واكتساباً لاعجابها[2] .

ويروى عن فرحان شيخ شمر أنه نزل ذات يوم في قرية المشاهدة الواقعة في شمال بغداد فرأى رجالها ضخام الاجسام فسألهم : هل تغزون ؟ ولما ذكروا أنهم لا قدرة لهم على الغزو قال : « اغزوا من هم أطگع منكم »[3] ، وكان يقصد من ذلك أنهم اذا كانوا ضعفاء لا يقدرون على الغزو فليغزوا من هم أضعف منهم .

ويحدثنا السائح بكنغهام عن الوضع الاجتماعي في العراق ، وكان قد زاره في عام ١٨١٦م ، فيقول ان بعض الريفيين فيه كانوا يرون أفضل ما ينبغي أن يفعلوه حين لا يجدون عملاً يشتغلون به هو أن يمتطوا خيولهم ويذهبوا لقطع الطريق ، وهم يظلون يتجولون يرقبون القوافل المارة والمسافرين فاذا وجدوا من يقدرون عليه هجموا عليه ونهبوه ،

---

(١) يظن بعض الناس خطأً أن هذا حديث نبوي ، والواقع أنه مبدأ بدوي قديم وقد حوّله النبي الى مبدأ اسلامي حين قال : اذا كان اخوك ظالماً فاردعه عن ظلمه ففي ذلك نصره . ولكن هذا المفهوم الاسلامي لم يدرك البدو مغزاه بل ظلوا على دأبهم القديم ينصرون ابن قبيلتهم في الحق والباطل على السواء .

(٢) عباس العزاوي (عشائر العراق) بغداد ١٩٣٩ — ج١ ص٣٤٩ .

(٣) عبدالجبار الراوي (البادية) بغداد ١٩٤٩ — ص٢٤١ .

والا تحولوا عنه الى هدف آخر • وقد وقع هـــذا فعلاً على القافلة التي كان بكنغهام مســـافراً معها بالقرب من بلدة قزلرباط التي تســـمى الآن بـ « السعدية » ، فقد اقترب منها ثلاثة فرسان يحملون الرماح بغية نهبها ، فخرج اليهم بكنغهام وكان في زي رجل عربي مع رجلين من القافلة وكانا ايرانيين ، ويقول بكنغهام يصف المقابلة بين الفريقين : « كنا ثلاثة ، اثنان من الفرس ممن يحملون بنادق تشعل بثقاب الكبريت ، وأنا نفسي ، وقد كنت أحمل رمحاً من النوع الذي كان أولئك الاعراب يحملونه ، وقد أسرعنا بخيولنا لملاقاتهم ، واذ أطلقنا طلقة في الهواء حين اقتربنا منهم فقد أمرناهم بأن يتوقفوا عن السير • اقترب كل واحد منا من الآخر بحذر ، في الوقت الذي لا تزال فيه القافلة وراءنا على بعد نصف ميل ، وقد ركز كل واحد منا أبصاره على واحد منهم بكل ما تتطلبه المعركة الحقيقية من ريبة وتيقظ ، ورفع كل واحد أسلحته استعداداً للضرب ، وضبط فرسه الدائبة المريبة من تحته بشدة ، وبدوا وكأنهم يستخفون بتمهلنا بسبب نفاذ صبرهم من التطلع الى الغنيمة • وأخيراً وبعد بضع كلمات خشنة تبادلنا التحية المألوفة (الســـلام عليكم) فأخفضنا أسلحتنا الى جنوبنا ، ورفع خصومنا ألثمتهم عن وجوههم ••• ثم أعطونا اشارة الاذعان والامان ، وعلى هذه الشاكلة انتهى ذلك الأمر ••• »[١] •

ان هذه القيم الاجتماعية لم يقتصر وجودها على ســـكان الريف وحدهم بل كانت موجودة أيضاً بين أهل المدن وان كانت فيهم أقل وضوحاً وهي قد تتخذ صوراً شتى حسب اختلاف الأحوال • فالملاحظ أن أطفال المدن اذ يلعبون في الأزقة ينشأ لديهم الميل نحو النهب والغلبة واحترام القوة وبذا ينمو في أذهانهم مفهوم « السبع » و « المخنث » ، فالسبع منهم هو القادر أن يغلب غيره أو يختطف منه شيئاً أو يخدعه ، أما المخنث فهو

---

(١) جمس بكنغهام (رحلتي الى العراق) ترجمة سليم طه التكريتي – بغداد ١٩٦٩ – ج٢ ص١٧٧ •

الذي يكون مغلوباً أو منهوباً أو مخدوعاً ، وهو لذلك يكون ذا منزلة واطئة جداً في نظرهم يستغلونه ويهينونه أو يلوطون به •

والأطفال حين يكبرون تظل تلك القيم كامنة في أعماق نفوسهم ، وهي تظهر تارة وتختفي تارة أخرى حسبما تتيحه لهم الظروف • ومن هنا كان « الاشقياء » ينالون الاعجاب بين أهل المدن بمقدار ما تزداد مقدرتهم في السطو على البيوت وفرض الأتاوة على التجار ومصاولة جنود الحكومة• وقد يحاول بعض وجهاء المدن أن يتشبهوا بالاشقياء أحياناً فيسطوا على البيوت لا من أجل السرقة بل من أجل التحدي والتفاخر •

وقد يفاخر الرجل من أهل المدن بأنه قادر أن يأكل حقوق الآخرين من غير أن يقدر أحد على أكل شيء من حقوقه ، وربما كان هنا هو الدافع اللاشعوري الذي يدفع الكثير من أهل المدن الى المماطلة في أداء الديون أو التهرب منها أو انكارها ، وكأنهم يعدون ذلك نوعاً من الغلبة ودليلاً على « الشطارة » • ومما يلفت النظر أن الرجل منهم اذ يأكل الديون الصغيرة نراه يبذل المال الوفير على الولائم أو المجالس أو المواكب• فهو بخيل من ناحية وكريم من ناحية أخرى ، انما هو في كلتا الحالتين يريد من حيث لا يشعر أن يتشبه بالرجل البدوي الذي هو كما رأينا : « نهاب وهاب » •

وكانت عادة المغالبة شائعة في الأسواق على نطاق واسع • فالبائع ينظر الى الزبون كمثل ما ينظر البدوي الى من يريد أن ينهبه أو يغزوه لكنه يختلف عن البدوي بأنه يحاول التستر والمراوغة بينما البدوي مكشوف السريرة ينهب علانية ويعتبر المراوغة ضعفاً وجبناً •

ان البائع الحضري قد يكون في حياته العامة شهماً مضيافاً ولكنه عند البيع والشراء يتحول الى شخصية أخرى هي شخصية جده البدوي بعد أن يجرى تحويراً عليها يلائم حياة السوق • ولا تزال بقايا من ذلك سائدة بين الكثير من أصحاب الدكاكين وذوي الحرف والعمال وغيرهم •

فانت حين توصي على صنع حذاء مثلاً ، ثم تغفل عنه ، تجد الصانع قد غشك أو غبنك على وجه من الوجوه ، أما اذا أردت أن تبني داراً وتغفل عنه فالغش قد يحيط بك من كل الوجوه • وقد سألت أحدهم ذات يوم عن ذلك بعد أن بيّنت له محاسن الأمانة والنصح وكيف أنهما من أسباب النجاح في التجارة ، فأجابني متهكماً اذ قال ما معناه : انه لو اتبع طريق النصح والأمانة في أعماله لأكله الناس الذين اعتادوا على استغلال الانسان الطيب والسب عليه ، وكان هذا جواباً مقنعاً !

بين الحكومة والشعب :

لا حاجة بنا الى القول ان هذه القيم الاجتماعية لو أتيح لها الانطلاق من غير رادع حكومي يردعها لانتهت الى انتشار الفوضى في البلاد وأكل الناس بعضهم بعضا ، فهي قيم تلائم حياة البداوة في الصحراء ولكنها لا تلائم الحضارة ، ولهذا وجدنا العراق في القرون التي سيطر المد البدوي عليه فيها يسير نحو الخراب تدريجاً •

بلغ الخراب في العراق أسفل دركاته في القرن الثامن عشر ، حتى بلغ عدد سكانه نصف المليون أو أكثر منه قليلاً ، وتضاءلت مدنه كما انحطت الزراعة فيه ، بينما انتعشت فيه القبائل المترحلة ، وانتقل زمام الحكم فعلياً من يد الحكومة الى ايدي رؤساء الاتحادات القبلية(١) •

لاشك ان الحكومة كانت سبباً في ذلك الخراب الذي وصل اليه العراق حينذاك ، اذ هي كانت متفسخة ومريضة الى أبعد الحدود كما هو معروف ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نبرىء جانب الشعب منه ، ومن الممكن القول ان الشعب والحكومة كانا اذ ذاك بمثابة عاملين متفاعلين كل منهما سبب للآخر ونتيجة له في آن واحد ، فضعف الحكومة يؤدي بطبيعته الى ازدياد تمسك الشعب بقيمه البدوية ، كما أن تمسك الشعب بقيمه البدوية

---

(١) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ــ الفصل الثالث •

يؤدي بدوره الى زيادة الضعف في الحكومة •

وهنا يجب أن نذكر ان التجديد الذي ظهر في القرن التاسع عشر بدأ من جانب الحكومة أولاً ، وذلك عندما حاول الولاة فرض السيطرة الحكومية على السكان ولا سيما العشائريين منهم ، وكان هذا ايذانا باستفحال الصراع بين الشعب والحكومة •

سنرى في الفصول القادمة كيف أن بعض الولاة اتبعوا سياسة الشدة وأكثروا من سفك الدماء في سبيل فرض السيطرة الحكومية على السكان ، وهذا أمر قد لا نستسيغه من وجهة النظر المثالية اذ لابد لنا من أن نقف الى جانب الشعب ندافع عنه ونشجب سياسة الشدة التي اتخذها الولاة تجاهه ، غير أننا من الوجهة الأخرى نلاحظ أن تلك الشدة كانت ضرورية لاضعاف الروح العشائرية والقيم البدوية في الشعب ، ولولاها لبقي الشعب يأكل بعضه بعضاً حتى يومنا هذا •

كان فقهاء المسلمين قديماً يرون أن الحكومة الجائرة خير من الفوضى التي تنتج من عدم وجود الحكومة ، وهذا في الواقع رأي يصدق على المجتمع العراقي في تلك الآونة الى حد غير قليل ، فقد كانت الحكومة فيه في القرون السابقة كأنها من الناحية الاجتماعية غير موجودة اذ هي تركت الناس يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون ما داموا يدفعون الضريبة المفروضة عليهم ، وقد أدى ذلك الى حالة الفوضى الشاملة والخراب العام التي أشرنا اليها آنفاً •

من أهم الأمور التي دار حولها الصراع بين الحكومة والشعب في القرن التاسع عشر هو نظام التجنيد الاجباري ، فقد حاول الوالي عمر باشا في عام ١٨٥٨م أن يفرض التجنيد على السكان وكان ذلك أمراً جديداً عليهم لا عهد لهم به من قبل فاعترضوا عليه ونقموا منه كثيراً ، وقام بعضهم بما يشبه الثورة عليه ، مما جعل الشاعر المعروف السيد حيدر الحلي ينظم قصيدة يستغيث فيها بالامام الغائب ويتوسل اليه أن يظهر لينقذ الأمة من

تلك الغمة .

يقول سليمان فائق في التعليق على تلك الحادثة وكان معاصراً لها اذ كان قائمقاماً في قضاء خراسان : « ومع أن الأهلين وأفراد العشائر على جانب عظيم من حب الوطن فان الانخراط في سلك الجندية كان عندهم أصعب من الموت ... »[1] . ولست أدرى ماذا يقصد سليمان فائق من كلمته هذه ، فهو يقول ان العراقيين كانوا يحبون الوطن مع العلم أنهم في ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون ما هو الوطن فكيف تراهم يحبون ما لا يعرفون ؟!

ان التفسير الاجتماعي لتلك الحادثة هو أن العراقيين كانوا بحكم نزعتهم البدوية ينظرون الى الحكومة كأنها عدوة لهم تريد الاضرار بهم ولا تريد الخير ، ولما فرضت الحكومة عليهم نظام التجنيد أخذوا يتهربون منه على منوال ما يتهربون من الضريبة أو السخرة أو أي شيء آخر تريده الحكومة منهم .

كان الفرد العراقي مستعداً أن يتحمل أعظم المشاق في سبيل العصبية التي ينتمي اليها ، سواء أكانت قبلية أو محلية أو بلدية أو طائفية ، وهو قد يرمي بنفسه الى الموت عند نشوب معركة بينها وبين أعدائها ، ولكنه عندما تطلب منه الحكومة شيئاً من ذلك لا يستجيب لها وكثيراً ما يحاول النكاية بها بدلاً من التعاون معها .

نظرة مستقبلية :

ان النزعة البدوية التي تغلغلت في المجتمع العراقي خلال مئات السنين لا يمكن أن تزول عنه سريعاً ، انها تتضاءل في قوتها بمقدار ما تنمو قوة الحكومة ازاءها ، غير أنها تظل في أكثر الاحيان كامنة في أعماق

---

(١) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص١٦٧ .

النفوس تترقب الفرصة السانحة لكي تخرج من مكمنها فتعود الى العيث من جديد •

أوضح مثل على ذلك ما حدث في بعض المدن العراقية اثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد حصلت اذ ذاك فترة خليت فيها تلك المدن من أية سلطة حكومية اذ انسحب الجيش العثماني منها قبل أن يدخلها الجيش البريطاني ، وعند هذا انثال الناس على دوائر الحكومة ، وبعض الدور والدكاكين ، ينهبونها ويبعثرون أوراقها وينتزعون أبوابها وشبابيكها وقد يولعون فيها النار •

لا ننكر أن هذا الذي حدث في العراق قد يحدث مثله في أي بلد آخر حين تمر به فترة يخلو فيها من السلطة الحكومية ، غير أن الذي حدث في العراق يختلف عما يحدث في غيره من حيث الطابع البدوي الذي يتميز به ، فالنهابون في العراق يوجهون معظم هجومهم على دوائر الحكومة قبل غيرها ، وكأنهم يريدون الانتقام منها ، وقد يشترك في النهب أشخاص محترمون اذ هم لا يختلفون في ذلك عن المبتذلين والصعاليك وهذا يدل على طابع القيم الاجتماعية السائدة فيهم •

وقد حدث مثل هذا أيضاً خلال الحرب الثانية وبعدها ، مما سنأتي الى ذكره بتفصيل في بعض الاجزاء القادمة من هذا الكتاب ، ومن الممكن القول بوجه عام ان الصراع بين النزعة البدوية والسلطة الحكومية ما يزال قائماً في العراق انما هو سائر في سبيل التضاؤل شيئاً فشيئاً ، ولابد أن يزول عنه في يوم قريب أو بعيد • ان كل سبب يؤدي الى تدعيم السلطة الحكومية بين السكان هو بطبيعته عامل فعال في تقليص النزعة البدوية فيهم •

الفصل الأول

من تاريخ الدولة العثمانية

احداث مصر والشام

يحسن بنا قبل الشروع بدراسة أحداث العراق أن ندرس شيئاً من تاريخ الدولة العثمانية الذي كان له ارتباط مباشر أو غير مباشر بتلك الاحداث ، وقد خصصت لهذا الموضوع فصلين : أولهما فيما يخص أحداث مصر والشام ، والثاني فيما يخص الصراع بين القديم والجديد .

احتلال الفرنسيين مصر :

الواقع أن فتح القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر عام **١٧٩٨**م كان من أهم الاحداث التي وقعت للدولة العثمانية في العصر الحديث وهزتها هزاً عنيفاً .

يقول المؤرخ الموصلي ياسين العمري : ان السلطان سليم الثالث لم يعلم بما جرى في مصر الا بعد شهرين ، فلما بلغه الخبر جعل يبكي على الاسلام وأحضر الوزير الاعظم عزت محمد باشا فشتمه ونفاه ، وعزل شيخ الاسلام ، واستدعى يوسف باشا فقلده الوزارة العظمى ، وخرج هذا من اسطنبول بمائة وعشرين ألف فارس(١) .

وكان السلطان قد أعلن الجهاد الديني فاستجاب الكثيرون له في الحجاز والشام وشمال أفريقيا . ففي الحجاز ضج الناس واجتمعوا في الحرم وخطب فيهم رجل من الأشراف يسمى الكيلاني يحضّهم على الجهاد

---

(١) ياسين العمري (غرائب الأثر) الموصل ١٩٤٠ ــ ص٤٨ ــ ٤٩ .

فتطوع معه نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر نحو الصعيد وهم مصممون على الموت ، فانضم اليهم بعض أهل الصعيد ، وبعض الاتراك والمغاربة ، وأبدوا بسالة في محاربة الفرنسيين . وجاء من درنه في طرابلس رجل لقب نفسه بالمهدي ، وانضم اليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وسار بهم الى دمنهور فأباد حاميتها الفرنسية[1] .

أما في العراق فكان صدى الحادث ضعيفاً وذلك لبعد المسافة بين البلدين من جهة ، ولانشغال العراقيين بالخطر الوهابي الذي كان يومذاك في عنفوانه من الجهة الأخرى ، فلم يتطوع منهم لمحاربة الفرنسيين سوى رجل كردي اسمه پير رجب بن حسن الزيباري العقراوي ، وكان قد رأى في المنام رسول الله يأمره بالجهاد ويبشره بأنه اذا وصل الى مصر فستُفتح بعد حصار ثلاثة أيام . وذهب الرجل مع عشرين مقاتلاً من الأكراد والتحق بالجيش العثماني فأكرمه يوسف باشا وكتب له فرماناً في أربعين آقجة من خراج الموصل[2] .

والطريف أن ياسين العمري حين يذكر نابليون بونابرت يسميه « برته بول » ويصفه بأنه مقدم الكفار وقائدهم الى الضلال ويقول في شأن اتفاق الدول الغربية ضده ما نصه : « اتفق مع السلطان سليم قرال الانكروس وقرال النمسا وغيرهم على محاربة الفرنسيين وأرسلوا العساكر في المراكب مع مراكب المسقوف وقطعوا الطرق على الفرنسيين وملكوا منهم اثنى عشر مركباً كلها ذخائر وأسلحة وبارود ورصاص ... »[3] .

ولم ينس ياسين العمري تنبؤات الشيخ محي‌الدين بن عربي حول هذا الحادث كما هي عادته في الأحداث الأخرى ، فهو ينقل عن كتاب « الشجرة النعمانية » لابن عربي قوله : « وراءات الاسماء الشريفة تشير

---

(١) عبدالعزيز الشناوي (عمر مكرم) القاهرة ١٩٦٧ ـ ص٤٩ـ٥٠ .

(٢) ياسين العمري (المصدر السابق) ص٥٨ .

(٣) المصدر السابق ـ ص٥١ .

برموزها الى سفك الدماء وظهور الفساد وخراب البلاد وهي بداية خراب الدنيا ••• ويجلس يوسف على سرير يوسف » • ويقول ان في هذا اشارة الى الوزير الأعظم يوسف باشا حين استعاد مصر وجلس على سرير يوسف عليه السلام[1] •

استمر احتلال الفرنسيين لمصر زهاء ثلاث سنوات ، وكان على الرغم من قصر مدته ذا أثر بالغ في المجتمع المصري ، ومن الممكن مقارنته من حيث تأثيره الاجتماعي بالاحتلال البريطاني للعراق اثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان الاحتلال الفرنسي سبباً لظهور تغير اجتماعي سريع في مصر وكان بداية لانتقالها من حياة العصور الوسطى الى حياة العصر الحديث •

يقول الدكتور عبدالعزيز الشناوي في هذا الصدد : « تعتبر هذه المحاولة أول غزو عسكري أوربي مسيحي في التاريخ الحديث لبلد عربي اسلامي من بلاد الدولة العثمانية • ولكن هذا الغزو سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا على دول وامارات اسلامية في أواسط آسيا وجزر الهند الشرقية والهند ، غير أن هذه السيطرة المبكرة لم تمس قلب العروبة كما فعلت حملة الجنرال نابليون على مصر »[2] •

ظهور محمد علي :

عندما انسحب الفرنسيون من مصر في عام ١٨٠١م سادت في القاهرة فترة من الفوضى والتنازع على الحكم دامت أربع سنوات ، وفي خلال تلك الفترة بدأت بالظهور شخصية رجل قدّر له أن يكون من أعظم الرجال الذين حركوا التاريخ العربي في العصر الحديث ـ هو محمد علي باشا الملقب بـ « الكبير » •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٥٧ •

(٢) عبدالعزيز الشناوي (المصدر السابق) ص٣٤ •

كان محمد علي من أصـــل ألباني وقد ولد في بلـدة « قوله » في مقدونيا عام ١٧٦٩م ــ وهو نفس العام الذي ولد فيه نابليون ــ وعندما بلغ الرابعة من عمره مات أبواه معاً فعاش يتيماً يعاني الذل والحرمان ، واشتغل بالجندية في أيام شبابه كما اشتغل بالتجارة[١] • وفي عام ١٨٠١م حين وصلت قوات عثمانية الى أبى قير في مصـــر لمحاربة نابليون كان محمد علي من جملة الضباط الصـغار فيها وكاد يغـــرق في البحر اثناء المعركة[٢] ، ولو أنه مات آنذاك لربما سار التاريخ في مصر والبلاد العربية سيرة أخرى غير السيرة التي عرفناها ! •

تسلم محمد علي ولاية مصر في عام ١٨٠٥م واستمر يحكم مصـــر طيلة ثلاثة وأربعين عاماً • والمعروف عنه أنه كان في حكمه جائراً ماكراً شديد القسوة ولكنه كان في الوقت نفسه بانياً من الطراز الأول ، فهـــو الذي اسس مصر الحديثة وجعلها من الناحية الحضارية والثقافية أرقى البلاد العثمانية جميعاً • يقول عنه المؤرخ الألماني بروكلمان : « انه عـلى الرغم من أخطائه وأنانيته يعود اليه الفضل في فتح مصر لتأثيرات الحضارة الأوربية »[٣] •

والغريب في هـــذا الرجل أنه كان أمياً ولم يتعلم القراءة الا في الاربعين من عمره ، غير أنه كان مولعاً بالكتب تُقرأ عليه ، فقد تُرجمت له وقُرأت عليه بعض الكتب عن نابليون ، كما استنســـخت له مقدمة ابن خلدون عن مخطوطات مغربية قديمة ثم ترجمت الى اللغة التركية لكي

---

(١) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق) بيروت بدون تاريخ ــ ج١ ص١٩ ــ ٢٢ •

(٢) ج• كرســتوفر هيرولد (بونابرت في مصـــر) ترجمة فؤاد اندراوس ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص٤٣٦ •

(3) Carl Brochelmann (History of The Eslamic Peoples) New York 1947—P. 350.

يفهمها ، وكان وزيره أرتين يترجم له عن الايطالية مؤلفات مكيافللي بمعدل عشر صفحات في اليوم الواحد . يقول أرتين : « أما في اليوم الرابع فاستوقفني قائلاً : لقد قرأت كل ما أعطيتني اياه من مكيافالي ، فلم أعثر على شيء جديد يذكر في صفحاتك العشر الأولى الا أنني كنت آمل أن تتحسن الحال . لكن الصفحات العشر الأخرى لم تكن أفضل . أما الأخيرة فلست سوى مجرد عموميات . اني أرى بوضوح أنه ليس لدى مكيافالي ما يمكنني أن أتعلمه منـــه . فأنا أعرف من الحيل فوق ما يعرف ... فلا داعي للاستمرار في ترجمته »[1] .

اعتمد محمد علي في الشـؤون الادارية عـلى الاوربيين والاتراك والشراكسة والالبانيين والاكراد، وكان رأيه في المصريين أنهم لا يصلحون الا لحمل الاثقال وسوق الحمير . يقول الدكتور حسين فوزي النجار : « ولا نغمط الرجل حقه ، فقد أقام بناء دولة حديثة ، وحمل المصريين كرها على القيام بالدور العظيم في هذا البناء دون أن يعدهم له أو يقوم بأقل جهد في تقويم روح الشعب لادراك آماله ومراميه ، وحكم البلاد حكماً شرقياً مستبداً باسلوب العثماني الماكر الطموح الحاذق في تدبير المؤامرات، الراغب في التوسع والسلطان، فعاش بمعزل عن سواد الناس بعد أن أبعدهم عن تفكيره ، ولم يسع الى اشراكهم في مسؤولية العمل العظيم الذي يقوم به ، بل لعله كان يراهم دون ذلك ، وما عليهم الا أن يمدوه بحاجتـه من المال والعمال دون أن يكون لهم رأي فيما يعمل ، وكأن مصر لم تكن غير مزرعة يستثمرها لحسابه على أحدث الأساليب وليس منها عائد الا له وحده ، وللزارع الكفاف أو ما يقيم الأود فحسب ... »[2] .

---

(١) البرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة) ترجمة كريم عزقول ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) حسين فوزي النجار (رفاعة الطهطاوي) القاهرة بدون تاريخ ـ ص٢٤ ـ ٢٥ .

يرى بعض الباحثين الاجتماعيين أن محمد علي انما تمكن من بناء الدولة لانه لم يشرك رعاياه في مسئولية الحكم ، ولو كان قد أشركهم فعلاً لعجز عن القيام بما قام به • ففي رأي هؤلاء الباحثين أن جماهير الناس في مثل تلك المرحلة الاجتماعية التي ظهر فيها محمد علي ليس في وسعهم أن يفهموا الأمور على حقيقتها وربما أثرت فيهم الاشاعات والاساطير والأوهام فجعلتهم يندفعون بحماس نحو ما يضرهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون !

كان من أوائل الأمور التي أهتم بهـا محمد علي هو « تحديث » الجيش المصري أي تحويله الى النظام الحديث في التدريب والتسليح • يجب أن لا ننسى ان الجنود في مصر يومذاك كانوا يسيرون على نسق ما اعتادوا عليه وتوارثوه من الأسلاف فلم يكونوا يعرفون الخطوط أو المربعات أو غيرها من النظم العسكرية الحديثة ، بل كانوا عبارة عن « وجاقات » ــ أي فرق ــ ولكل فرقة منهم قائد ، فاذا نزلوا الى ساحة القتال ركب كل واحد منهم فرسه واستل سيفه أو بندقيته أو رمحه وهجم على ما يتراءى له[1] • وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنسيين وأعجب بنظامهم وهو النظام الذي وضعه نابليون ودوخ به العالم ، فعزم محمد علي أن يبني جيشه على أساسه •

وفي عام ١٨١٩م جاء الى مصر ضابط فرنسي قدير يدعى الكولونيل سيف ، وكان من رجال نابليون ثم أخرج من الجندية بعد سقوطه ، فعهد اليه محمد علي بتدريب جنوده على النظام الحديث[2] ، وقد أخلص

(١) جرجي زيدان (المصدر السابق) ج١ ص٢٣٥ •

(٢) عندما دخل هذا الضابط في خدمة محمد علي أعلن اسلامه وصار يدعى (سليمان باشا الفرنساوي) ، وهو أحد أجداد الملك فاروق من أمه ، وقد أطلق اسمه على شارع مهم من شوارع القاهرة هو الشارع الذي يعرف الان باسم « طلعت حرب » ، وكان له تمثال فيه •

هـذا الرجل في خدمة محمد علي وجعل جيشه من أكفأ الجيوش في الشرق وربما أكفأها على الاطلاق •

محاربة الوهابيين :

كان السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش العثماني منذ عام ١٨٠٨م يرسل الكتاب تلو الكتاب الى محمد علي باشا طالباً منه محاربة الوهابيين وانقاذ الحجاز من أيديهم • والظاهر أن محمد علي كان في قرارة نفسه راغباً في اداء هذه المهمة التي كلفه بها السلطان اذ كان يعتقد أن العناية الآلهية قد سخرته لقتال الوهابيين الذين هم في نظره ونظر السلطان خارجين عن الاسلام[١] •

جهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الاكبر طوسون باشا ، وفي عام ١٨١١م عبرت الحملة البحر الأحمر الى ميناء ينبع ثم احتلت المدينة ومكة • وكان الوهابيون ينسحبون من أمامها حتى اذا حل صيف ١٨١٢م كروا عليها وهزموها هزيمة منكرة مما اضطر محمد علي باشا أن يذهب بنفسه الى الحجاز للاشراف على قيادة الحملة •

يروي المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي في تعليل تلك الهزيمة عن أحد قواد الحملة أنه قال : « كيف كنا نطمع في النصر وأكثر عسكرنا على غير ملة الاسلام وفيهم من لا يدين بدين ، وكان معنا صناديق الخمر ، ولا تسمع في خيامنا أذانا ، ولا تقام بها صلاة ، ولا تخطر ببالهم شعائر الدين ، مع أن القوم كانوا اذا حل وقت الصلاة أذن المؤذنون وانتظموا صفوفاً خلف امام واحد في خشوع وخضوع ، كل ذلك وجنودنا يعجبون من فعلهم هذا لأنهم لم يسمعوا به »[٢] •

---

(١) بيير كربتيس (ابراهيم باشا) ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٣٧ ـ ص٢٠ •

(٢) ابراهيم جلال بك (من يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ـ ص ١٥٨ •

عاد محمد علي الى مصر عندما بلغه فرار نابليون من منفاه في جزيرة « البا » ، فقد ظن أن نابليون سيعود الى غزو مصر مرة ثانية • وفي عام ١٨١٦م أرسل محمد علي ابنه الثاني ابراهيم باشا الى الحجاز لقيادة الحملة بدلاً من طوسون باشا الذي كان قد مات من جراء حمى أصابته •

كان ابراهيم باشا عندما تولى قيادة الحملة ضد الوهابيين في السابعة والعشرين من عمره ، ومن طريف ما يروى عنه أنه حين وصل الى المدينة قبل بدء القتال وقف عند قبر النبي وأخذ يتوسل به متضرعاً أن يساعده على قتال الوهابيين « العصاة » ، وقد تملكه الحماس الديني آنذاك فأقسم أن يعتق جميع عبيده السود والبيض معاً ، وأن لا يذوق الخمر بعد الآن • ويقال انه عند عودته الى المعسكر أمر بأن ترمى كل زجاجات النبيذ الموجودة في مخازن الميرة الى النار[1] •

استطاع ابراهيم باشا أن يهزم الوهابيين وأن يطاردهم في صحرا نجد حتى وصل الى عاصمتهم « الدرعية » • وبعد أن حاصر « الدرعية » بضعة أشهر تمكن من احتلالها في ايلول عام ١٨١٨م ، ثم أسر أميرهم عبدالله بن سعود ، فكان انتصاره عليهم حاسماً •

يمكن القول ان هذا الانتصار الذي ناله ابراهيم باشا كان أول حدث من نوعه في تاريخ الصحراء العربية ، اذ لم يكن قبل ذلك في مقدور أي جيش حضري أن يتغلغل في تلك الصحراء فاتحاً وأن يهزم فيها جموع البدو المتمرسين على القتال فيها والعارفين لمسالكها •

يعزو المؤرخ العراقي ابن سند البصري هذا الانتصار الى المدافع والآلات الحربية الجديدة التي كان الجيش المصري يستعملها في القتال ، فهذه الاسلحة تحتاج كما يقول ابن سند الى علوم وصناعات وهندسة يجهلها البدو ، وهو يصور لنا كيف استولى الرعب على البدو حين

---

(١) بيير كوبتيس (المصدر السابق) ص٢٩ •

سمعوا أصوات المدافع لأول مرة في حياتهم وهي تدوي بين الجبال ، فقد كان لها هدير مخيف لم يعهدوا له مثيلاً من قبل[1] .

ولما وصلت أنباء انتصار الجيش المصري الى البلاد العثمانية عم الفرح فيها ، لا سيما في العراق ، وجرى الاحتفال بالنصر في كل مكان . وكذلك فرحت ايران وأرسل الشاه فتح علي سيفاً مرصعاً ثميناً الى ابراهيم باشا ، كما أرسل اليه ابن سند البصري من العراق قصيدة يمدحه فيها ويحرضه على ذبح الوهابيين كلهم فلا يستثني منهم أحداً حتى الاطفال على اعتبار أنهم لابد أن يكونوا خبيثين ما دام آباءهم كانوا كذلك[2] .

وقد وصف التاجر يوسف بن ديمتري المقدسي بلهجته العامية ما جرى في البصرة من احتفال في تلك المناسبة فقال ما نصه : « وفي ٢٥ ب ـ أي رجب ـ نهار الجمعة وصل للبصرة بيرقدار أسعد باشا ومعه صورة فرمان الدولة العلية ودخل في هلاي وتلى الفرمان باسم محمد سعيد باشا والي بغداد وبصرة وشهرزور وبعده بيورلدي من سعادته بتقرير المتسلمية لسليمان بك . وبعده قروا فرمان من الدولة بخصوص انتصار محمد علي باشا والي مصر على الوهابي وبعده بيورلدي بهذا الخصوص وأنه يصير دعا للسلطان محمود خان وصار شنك في الصراي . ومن البلدة والمراكب رموا أطواب وسليمان (بك) أمر على الشنك سبعة أيام الصبح والعصر ... »[3] .

مؤتمر الدرعية :

أراد ابراهيم بعد انتصاره على الوهابيين أن يعقد في الدرعية مؤتمراً

---

(١) عثمان بن سند البصري (مطالع السعود) اختصار أمين الحلواني ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ص٨٧ ، ٩٦ .

(٢) ابراهيم الوائلي (الشعرالسياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ ـ ص١٣٣ .

(٣) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص٢٢ .

بين علمائهم وعلماء أهل السنة ، وهو مؤتمر يشبه من بعض الوجوه مؤتمر النجف الذي عقده نادر شاه في عـام ١٧٤٣م لفض الخلاف بين الشـيعة والسنيين ، غير أن مؤتمر النجف انتهى بالاتفاق بين علماء الفريقين[١] أما مؤتمر الدرعية فقد انتهى بذبح العلماء الوهابيين جميعاً •

استدعى ابراهيم باشا اليه علماء الوهابيين وكان عددهم خمسمائة ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً : انه يريد أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم وعقائد السنة ، وانه أحضر معه من القاهرة جماعة من العلماء السنيين ويود أن يجمع بينهم ليبحثوا الأمر أمامه ويتجادلوا فيـه •

انعقد الاجتماع في جامع الدرعية واستمر ثلاثة أيام متوالية ، وكان ابراهيم باشا جالساً يصغي الى الجدال الذي دار بين الفريقين من غير أن يبدي أية ايماءة تدل على تحيّزه لهذا الفريق أو ذاك • وظل يشـرف على نظام المؤتمر بصمت فلم يقاطع متكلماً ولم يرفع صوته على أحد ، فلقد كان وجوده كافياً لأن تسري بين المتجادلين روح الحرية والأدب[٢] •

وفي اليوم الرابع أقفل ابراهيم باشا باب الجدل بسؤال وجهه الى كبير العلماء الوهابيين اذ قال له : « هل تؤمن بأن الله واحد وأن الدين الصحيح واحد هو دينكم ؟ » • فلما أجاب العالم الوهابي بكلمة « نعم » رد عليه ابراهيم باشا بلهجته القاهرية قائلا : « ما رأيك في الجنة أيهـا الخنزير وما عرضها ؟ » ، وكان ابراهيم باشا يقصد من سؤاله هذا أن يشير الى ما جاء في القرآن من أن الجنة عرضها السموات والأرض ، ولم يستطع العالم الوهابي أن يعترض على ذلك طبعاً ، وعند هذا قال ابراهيـم باشا : « اذا كان عرضها السموات والارض كما تقول ، واذا وسعتك أنت

---

(١) انظر تفاصيل مؤتمر النجف في الجزء الاول من هذا الكتاب ـ الفصل الخامس •

(٢) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص٤٠ •

وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة ، ألا تكفي شجرة واحـدة من اشجارها لأن تظلّلكم جميعـاً ؟ فلمن اذن بقية الدار ؟ أسـألك الجواب » •
فسكت العالم الوهابي وأصحابه ولم يستطيعوا التقدم بأي جواب • فلما تبين لابراهيم باشا أنه قطع حجتهم أمر جنوده بقطع رقابهم جميعاً • ولم تنقض سوى دقائق معدودة حتى كان الجميع في عداد الموتى ودفنت جثثهم في ساحة الجامع[1] •

حرب اليونان :

لم تكد الدولة العثمانية تستريح من مشـكلة الوهابيين حتى ظهرت لديها مشكلة أخرى هي مشكلة اليونان • ففي أوائل نيسان من عام ١٨٢١م بدأت بوادر ثورة في اليونان تطالب بالاستقلال ، وهي الثورة التي عرفت في التاريخ العثماني باسم « حرب المورة » •

يقول المؤرخ العراقي ابن سند البصري عن ثورة اليونان ما نصه : « ودخلت سنة ١٢٤٠ وفيها عصت بلاد المورة على الدولة العلية ••• وقتلوا أكثر المسلمين الذين كانوا في تلك البلاد متولدين ومتوطنين منذ قرون طويلة ، وكان المسلمون هم أهل الأراضي والأملاك والمزارع ، وكـان نصارى المورة بصفة خدامين عندهم ، فلا زال أمر النصارى يتقوى بواسطة الكنائس ورؤسائها لما يجتمعون في أعيادهم ومواسمهم وينصحون أمتهـم بالاستقلال ، وشرعوا في تعليم أولادهم الحروب والرمي بالرصـاص ، وأتقنوا أسباب الشجاعة بأنواعها سراً ، وتعلموا الصنائع التي يتولد منهـا الغنى ، وأرسلوا أولادهم الى بلاد أوربا لتعليم الصنائع ، والمسلمون في غاية الغفلة والبلاهة يتركون تربية أولادهم للنساء أو للمخاصي المعبـر عنهم بالأغوات، فلذلك ينشأ الأولاد وعقولهم مثل عقول تلكم المخاصي »[2]•

---

(١) المصدر السابق ـ ص٤٠ ـ ٤١ •
(٢) عثمان بن سند البصري (المصدر السابق) ص١٥٤ ـ ١٥٥ •

عندما بدأت الثورة في اليونان هبت الشعوب الاوربية كلهما تعمل على تأييدها واعتبرتها كأنها المثل الاعلى للثورة ضد الظلم والاحتلال الاجنبي والاستبداد الغاشم ، وتشكلت في مختلف البلدان الأوربية جمعيات سميت بـ « جمعيات محبي اليونان » وأخذت تجمع المال من أجل الثوار وترسل اليهم المتطوعين والأسلحة والذخائر ، وذهب الشاعر البريطاني المعروف اللورد بيرون يحارب في صفوفهم حتى قتل أخيراً في احدى المعارك ، كما ذهب اليهم من امريكا ابن واشنطن ، ونظم فيكتور هوغو الأديب الفرنسي المشهور قصائد حماسية تدعو الشبان الى الانضمام الى الثورة ، فاستجاب لها الكثيرون منهم(١) . يقول المؤرخ البريطاني فيشر : عندما وصل نبأ مقتل اللورد بيرون الى بريطانيا انتشر الحماس الرومانطيقي فيها لتأييد الثورة اليونانية انتشاراً واسعاً في الشوارع والحانات ، واعتبر بيرون شهيد الحرية اليونانية ، وصار اسم اليونان كأنه تعويذة سحرية(٢) .

أما في البلاد العثمانية فكان الناس ينظرون الى الثورة من وجهة نظر مناقضة لتلك التي كانت في أوربا ، فقد صارت « حرب المورة » في نظرهم كأنها مؤامرة من قبل الأوربيين للقضاء على الاسلام ، فأعلن الجهاد في كل مكان ، وانطلق الخطباء في المساجد يدعون المسلمين للدفاع عن دينهم ، وأخذ الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في سبيل ذلك . خذ العراق مثلاً فهو على الرغم من بعده عن اليونان تأثر بما جرى فيها فأعلن فيه النفير العام وأهيب بالمسلمين جميعا ـ الشيعة وأهل السنة على السواء ـ أن ينهضوا لمكافحة عدو الله والاسلام وأن يقدم كل فرد منهم ما يستطيعه(٣) .

---

(١) محمد فريد بك (تاريخ الدولة العلية العثمانية) القاهرة ١٩١٢ ـ ص٢٠٩ .

(2) H.A.L. Fisher (A Histary of Europe) London 1944 — P. 879.

(٣) عبدالعزيز نوار (داود باشا) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص٢٤٤ .

وانبرى الشعراء ينظمون القصائد في ذلك[١] .

دامت الثورة بضع سنوات أريقت فيها دماء كثيرة ، ففي بداية الثورة كان الثوار اليونانيون قد هجموا على الاتراك الساكنين بينهم فذبحوهم عن بكرة أبيهم بما فيهم النساء والاطفال وحين وصل خبر هـذه المذابح الى اسطنبول والمدن التركية الأخرى هب الاتراك لينتقموا لاخوانهم من اليونانيين الساكنين في بلادهم ، ووقعت من جراء ذلك مذابح في اسطنول وأزمير وسلانيك وقبرص لا تقل بشاعة عن تلك التي وقعت في بلاد اليونان[٢] . يقول المؤرخ الأمريكي شفيل : ان هذه المذابح دلت عـلى أن الاتراك واليونانيين جميعاً متوحشون وأن القتال بينهم كان قتال افناء[٣] .

ويروى المؤرخ الشامي محمد كرد علي : أن الدولة العثمانية أرادت أن تقتل الطائفة الارثودكسية في الشـــام انتقاماً لمـا فعل أبناء مذهبهم في اليونان ، فأمرت والي دمشق بأن يقتلهم ولكن الوالي كان عاقلاً عـــلى ما يظهر فأحال القضية على مجلس دعا اليه الاعيان وأرباب الشأن ، وكان جواب هؤلاء : « ليس عندنا مفسدون من النصارى ، وجميعهم ذميـون وعاملون بشروط الذمة لا تجوز أذيتهم ، والرسول أوصانا بالذميين ، ونحن لا نقـــدر أن نتحمل تبعة قتلهـم » . ثم كتبوا محضـــراً بذلك ، ونجا النصارى[٤] .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الصحف الأوربية كانت تتجاهل أخبار المذابح الفضيعة التي قام بها المسيحيون في اليونان ضد المسلمين بينما

---

(١) ابراهيم الوائلي (المصدر السابق) ص٢٠٧ .

(2) Eversley (The Turkish Empire) London 1922 — P. 262.

(3) Ferdinand Schevill (The History of The Balkan Peninsula) New York 1922 — P. 333.

(٤) محمد كرد علي (دمشق) القاهرة بدون تاريخ — ص٤٥ .

هي كانت تبالغ بحنق شديد في وصف المذابح الانتقامية التي قام بها المسلمون[1] • والواقع ان هذا أمر لا غرابة فيه اذ هو منسجم مع طبيعة العقل البشري ، وقد فعلت الصحف العثمانية من جانبها مثلما فعلت الصحف الأوربية ، ولهذا كانت أخبار المذابح تروى في أوربا بعكس ما كان يروى في البلاد العثمانية • ان هذا يمثل لنا نموذجاً واقعياً لما يحدث دائماً بين البشر من تعاكس في وجهة النظر حول القضية الواحدة حيث يجزم كل فريق منهم أن الحق معه وحده •

وفي عام ١٨٢٤م ، عندما شعر السلطان محمود بعجز جيوشه عن قمع الثورة أرسل الى محمد علي باشا والي مصر يطلب منه المعاونة • وفي ١٦ تموز من عام ١٨٢٤م تحرك أسطول مصري من ميناء الاسكندرية وهو يحمل سبعة عشر ألف جندي بقيادة ابراهيم باشا متوجها نحو اليونان ، وقد استطاعت القوات المصرية والعثمانية أن تنزل بالثوار اليونانيين هزائم فادحة • وفي حزيران من عام ١٨٢٧م دخلت تلك القوات مدينة أثينا بعد حصار طويل واحتلت قلعتها المشهورة « أكربول » •

وفي الوقت التي كانت فيه الثورة اليونانية على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، حدث حادث في خليج نافارينو حوّل الهزيمة من جانب الثوار الى الجانب الآخر • ففي ٢٠ تشرين الأول ظهرت سفن روسية وفرنسية وبريطانية ، وعلى حين غرة انطلقت القنابل منها نحو السفن المصرية ، وفي خلال ساعات معدودة تحطم نصف الاسطول المصري ، واضطر ابراهيم الى الانسحاب بالباقي منه نحو مصر مدحوراً •

اعتذرت بريطانيا للسلطان محمود بأن واقعة نافارينو كانت غير مناسبة ، أو غير مقصودة ، وكان الأحرى أن يقال عن الاعتذار نفسه انه غير مناسب فان واقعة نافارينو انتهت بانتصار الثورة اليونانية وبنيل اليونان

---

(1) William Yale (The Near East) Ann Arbor 1958— P. 35.

استقلالها . يقول المؤرخ شفيل : « ان مدافع نافارينو كانت بمثابة تحية من أوربا أطلقت احتفاءاً بمولد دولة مسيحية جديدة »[١] .

محمد علي يعلن العصيان :

أخذ محمد علي باشا يطالب السلطان محمود بولاية الشام[٢] مكافأة له على خدماته التي قدمها للدولة في حرب الوهابيين واليونانيين ، ولكن السلطان رفض طلبه أو ماطل فيه مما أثار حنق محمد علي وجعله يعمد الى أخذ ولاية الشام بالقوة بدلاً من أخذها بالرضا والتفاهم .

كان محمد علي باشا واثقا من أن جيشه المدرب تدريباً حديثاً قادر على مغالبة جيش السلطان وكسره ، فأعد حملة قوية ـ برية وبحرية ـ لفتح بلاد الشام بقيادة ابنه ابراهيم باشا . وقد استطاعت الحملة في بداية أمرها أن تستولي على غزة ويافا والقدس من غير مقاومة .

كانت العقبة الكبرى التي وقفت في وجه الحملة المصرية هي قلعة عكا تلك القلعة التي صمدت في وجه نابليون وأعجزته . بدأ ابراهيم باشا بحصار القلعة وأخذ يمطرها بوابل من القنابل ، قيل انه ألقى عليها في يوم واحد ثلاثة آلاف قنبلة وعشرة آلاف كرة من الحديد ، ولا تزال بعض كرات الحديد باقية في عكا يستعملها الاهالي لرص الطرقات[٣] .

صمدت عكا للحصار ما يزيد على ستة أشهر ، أي أنها صمدت لحصار ابراهيم باشا أكثر من ثلاثة أضعاف الزمن الذي صمدت فيه لحصار نابليون ، وكان ابراهيم باشا يخشى أن يعجز عن فتحها ثم يعود

---

(1) Ferdinand Schevill (op. cit.) P. 338.

(٢) حين نذكر اسم « الشام » في هذا الكتاب نقصد به سوريا الطبيعية التي تشمل اليوم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، فقد كانت هذه البلاد في العهد العثماني تعتبر كأنها قطر واحد .

(٣) داود بركات (البطل الفاتح ابراهيم) القاهرة بدون تاريخ ـ ص ١٠ .

الى مصر خائبا كما فعل نابليون قبله . يقول المؤرخ كربتيس : كان الاسبوع يمر تلو الاسبوع وقلعة عكا مستعصية على الجيش المصري وهو لا يستطيع أن ينال منها منالاً ، فقلقت الأفكار في الاسكندرية ومصر ، وقلقت أفكار الشعب المصري حتى أن محمد علي أصدر أوامر مشددة تحرم اذاعة أنباء الحرب في مصر ، وفي أواخر شهر آذار من عام ١٨٣٢م قطعت رقاب أربعة رجال من سكان القاهرة وعلقت على جثة اثنين منهم ورقة كتب عليها : « هذا جزاء الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » ، وفي السابع من شهر نيسان عرضت على الجمهور جثتان أخريان كتب عليهما : « هذا هو العقاب الذي يحل بمن يتقوّلون السوء عن الحكومة خفية »[١] .

وفي فجر ٢٧ أيار قام الجيش بهجوم على عكا من ثلاثة جهات ، واستمر الهجوم متصلاً حتى الظهر ، فاستطاع الجيش أن يحتل أحد خانات البلدة ، ولم يجد الوالي عبدالله باشا مناصا من التسليم بعد أن هلك من جنوده تسعة أعشارهم أو أكثر . وعندما جيء بهذا الوالي الى ابراهيم باشا قال له : « لا تعاملني يا باشا معاملة الحريم فان دفاعي يبرهن على الضد، وكل أخطائي أني اعتمدت على الباب العالي الذي لا يزيد شرفه في نظري على شرف المومس ، ولو أني عرفت ذلك لاتخذت الحيطة ولما كنت اليوم ملقياً بين يديك » . فطيّب ابراهيم باشا خاطره وأرسله مكرماً الى أبيه محمد علي ، وقد احترمه هذا بدوره ثم أطلق سراحه وأعاد اليه جميع الكنوز التي كان يملكها[٢] .

وحين وصل البريد الى مصر بنبأ سقوط عكا صدرت الأوامر باطلاق المدافع في جميع المدن والبنادر ثلاث دفعات يومياً لمدة ثلاثة أيام اعلاناً

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) داود بركات (المصدر السابق) ص١٧ ، ٢٦ .

للفرح العام ، وصدر العفو عن المسجونين والمنفيين ما عدا القاتل وقاطع الطريق • ومن الجدير بالذكر أن حكومة مصر احتفلت في عام ١٩٣٢م بمناسبة مرور مائة عام على فتح عكا ، وجرى الاحتفال في ميدان الاوبرا قرب تمثال ابراهيم باشا حضره الملك فؤاد ، ونشرت جريدة الاهرام في حينه اقتراحاً باطلاق اسم ابراهيم باشا على الميدان وعلى الشارع الذي يمر به ، وقد أخذت الحكومة بهذا الاقتراح •

السلاح الديني :

في الوقت الذي كانت فيه عكا ما تزال صامدة للحصار أمر السلطان محمود بعقد مجلس الشرع للنظر في عصيان محمد علي والحكم عليه بما تقتضيه أوامر الشريعة • واجتمع المجلس في ٢٣ نيسان وهو مؤلف من امام جامع أيا صوفيا ، وامام جامع السلطان أحمد ، وثلاثة من المفتين ، وأربعة عشر من قضاة العسكر ، واثني عشر من قضاة المحاكم ، وتسعة من ائمة السراي والمدارس الشاهانية • وكان السؤال الأول الذي وجه اليهم هو : « ما الذي جاء به الشرع الحنيف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ؟ » فكان جوابهم عليه : « قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهد الاستطاعة » •

ثم وُجّه اليهم السؤال الثاني وهو : « ما الذي جاء به الشرع الشريف في عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذي أحسن اليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراكدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدراً وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا عمل بسنة سيد المرسلين ؟ » • فكان جوابهم : « يجرّد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يحل به القصاص ويلقى لوحوش البرية أو الى طيور الفلا ، وهذا جزاؤه في الدنيا ، وفي الآخرة الخزي

والنار الآكلة » . وكان السؤال الثالث والأخير اليهم هو : « هل يكون الخليفة مسؤولاً أم ذلك المارق أمام الله والناس ؟ » . فكان جوابهم : « لا جناح على الخليفة ولا تثريب فانه قام بما فرضه الشــرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف » .

وبناءاً على ذلك أصدر المشايخ حكماً هذا نصه : « حيث ثبت خروج محمد علي وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما بشق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وبذلك قضى الشرع الشريف أولا تجريد محمد علي وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما مع سائر من شاركهما في هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان » . وقد أرسل هذا الحكم الى محمد علي مع قومندان احدى السفن البريطانية ، فلما وصل اليه استهتر به وتهكم عليه وقال في محضر من قناصل الدول : « هل يسمح السلطان لنفسه أن يحاربني باسم الدين وأنا أحق منه بمهبط الدين والوحي لأني أنقذت الحرمين الشريفين وأعدت للدين سلطانه ، وأنا الآن أحكم مكة المكرمة والمدينة المنورة » .

واجتمع علماء الأزهر فوضعوا رداً شرعياً على الحكم الذي أصدره مشايخ اسطنبول . وأذيع الرد في جميع الأقطار . والظاهر أن بعض القناصل تحدثوا الى محمد علي في موضوع الحكم الشرعي وهل يجــوز لعلماء الأزهر الرد عليه ، فكان جواب محمد علي : أن علماء الازهر أحفظ للدين وأعرف بأحكام القرآن الكريم من جميع علماء الاسلام ، ثم قال محمد علي : « أنا لم أطلب منهم شيئاً ولكن ما فعلوه انما هم فعلوه دفاعاً عن حرمة الدين من أن تنتهك »[1] .

ان هذه المبارزة بالأحكام الشرعية بين السلطان ومحمد علي تذكرنا بما كان يقع في تاريخ الاسلام على توالي العصور من مجادلات ومنازعات

---

(١) المصدر السابق ــ ص٢٦ ــ ٣٥ .

« كلامية » ، إذ كان كل فريق من المسلمين يأخذ من الشريعة الأدلة التي ينتفع بها في حرب خصومه ويتجاهل ما سواها •

فتح بلاد الشام :

كان سقوط عكا ايذاناً ببدأ الزحف الخاطف الذي قام به الجيش المصري في بلاد الشام حيث أخذت المدن الشامية تسقط في يده تباعاً ، ثم اجتاز الجيش جبال طوروس ووصل بزحفه الى مسافة غير بعيدة عن اسطنبول حتى خيّل للسلطان محمود من شدة فزعه أنه على وشك أن يسمع هدير المدافع المصرية من الجانب الآخر من مضيق البوسفور • وكان ذلك كله قد حدث خلال أشهر معدودة مما أثار فزعاً هائلاً في عواصم الدول الأوربية الكبرى اذ حسبوا أن اسطنبول ستسقط قريباً وأن تراث « الرجل المريض » سيقع في يد محمد علي بدلاً من الوقوع في أيديهم كما كانوا يتوقعون •

ومما زاد في فزع الدول الأوربية أن السلطان محمود كان في لحظة من لحظات الفزع قد استنجد بروسيا من غير أن يستشير وزراءه ، فأرسلت روسيا ثماني بوارج من اسطولها الى البوسفور ووقفت البوارج حيال اسطنبول بحجة الدفاع عن السلطان وعن دولته التي كانت على وشك الانهيار[١] •

كان ابراهيم باشا يريد مواصلة الزحف واحتلال اسطنبول لكي يضع الدول الأوربية أمام الأمر الواقع ، أما أبوه محمد علي فكان يريد وقف الزحف والتروي • يبدو أن ابراهيم كان ينظر في الامر نظرة الرجل العسكري الذي لا يهمه سوى النصر ولا يبالي بالعواقب ، أي أنه كان يسير على مبدأ « اعمل أولاً ثم فكر » ، اما محمد علي فكان ذا نظرة سياسية حيث يسير على المبدأ القائل بان التفكير يجب أن يسبق العمل •

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص١٨٧ ـ ١٩٠ •

وأخذ محمد علي يرسل الى ابنه ابراهيم المرة بعد المرة يأمره بالتوقف ، فكان ابراهيم يطيع أباه على مضض اذ كان موقناً أن اسطنبول أصبحت في متناول يده وهو قادر على اقتطافها متى شاء •

وبعد مفاوضات ومناورات دبلوماسية بذل فيها سفراء الدول الأوربية جهوداً كبيرة تم الصلح بين الفريقين في آخر نيسان من عام ١٨٣٣م ، وهو الصلح المعروف باسم كوتاهية المدينة التركية التي وصل اليها زحف الجيش المصري ، وكان أهم بنود الصلح هو أن يتولى محمد علي حكم الشام علاوة على مصر بشرط أن لا تكون ولاية الشام وراثية في عقبه •

طبيعة العهد الجديد :

دام الحكم المصري في بلاد الشام زهاء عشر سنوات ، وقد جرت فيها أثناء ذلك أحداث ذات أهمية اجتماعية غير قليلة بالنسبة لأهل الشام وبالنسبة لبعض البلاد المجاورة أيضاً •

كان ابراهيم باشا طيلة مدة حكمه يحاول التحبّب الى الناس ويتظاهر أمامهم بمظهر المنقذ المحرر الذي يريد أن يقيم حكماً وطنياً ذا شعار عربي ، فهو قد أطلق على جيشه اسم « الجيش العربي » ولقب نفسه « سر عسكر الجيش العربي » ، وكان يوقع رسائله وأوامره بهذا اللقب[1] • وحين كان يتحدث الى الناس كان يعتبر نفسه عربياً ويود أن يعتبره الناس كذلك ، وصرّح ذات مرة قائلاً : « لقد جئت الى مصر صبياً فلوّنت مصر دمي وصيّرتني عربياً » ، وكان يعلن أهدافه في العمل على انهاض العرب ويبذل جهده في نشر تلك الاهداف بين أهل الشام ، وكثيراً ما كان في بياناته العسكرية يأتي بألفاظ تثير الحماسة وتذكّر الناس بعصور المجد والفخار في التاريخ العربي ، ويحاول أن يقنع السكان

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص٩ ، ١٩ •

بأن فجر عهد جديد قد أشرق عليهم[1] .

وكان عند دخوله الى دمشق قد اختار عشرين من أعيانها للمشاركة في حكم الولاية ، وأصدر بلاغاً قدّمه بهذه العبارة : « يجب على الراعي أن يعنى بأمر رعيته ... » ، ثم أرسل المنادين في الطرقات ينادون أن العدل سيشمل الناس جميعاً لا فرق بين دين ودين . وكتب أحد الاجانب الذين شهدوا الحالة يومذاك يقول : ان الجنود كانوا يدفعون للأهالي ثمن ما يأخذونه منهم وهذا أمر قلما وجده الناس في جيش أوربي ويندر أن يوجد في جيش اسلامي . ولم يغفل ابراهيم باشا عن الضرب على ايدي الذين كانوا يتحكمون في الناس سابقاً ويغتصبون أموالهم . وعندما قدم اليه سكان الناصرة عريضة يشكون فيها من قسوة حاكمهم أمر الحاكم بأن يقدم حسابه فلما ثبت أنه ابتزّ منهم ستة آلاف قرش فوق ما يجب عليهم أداؤه أصدر عليه فوراً حكما بالسجن مع الاشغال الشاقة اثنى عشر شهراً[2] .

ويحكى أن رجلاً جبلياً اعترض طريق ابراهيم باشا وأخذ يشكو لـه ظلامته ، فلما ضاق صدر الباشا قال له : « يا عزيزي لقد طالعت اليـوم مائتي عريضة وأود أن أرتاح قليلاً فثق بأن عريضتك ستكون موضـع عنايتي »[3] .

الواقع أن أهل الشام استقبلوا العهد الجديد في بدايته بالفرح واعلان الغبطة ، وكانوا يقابلون ابراهيم باشا اينما ذهب بالحفاوة وهتافات الترحيب، ولكننا يجب أن لا ننسى أن هذه حالة موقتة لا يمكن أن تدوم طويلا . ان الفرحة التي يقابل الناس بها عهداً جديداً لابد أن يعقبها رد فعل مضاد لها على وجه من الوجوه .

---

(١) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ترجمة ناصرالدين الأسد [illegible]ان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص٩١ .

(٢) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص١٦٤ ، ٢٠٧ .

(٣) داود بركات (المصدر السابق) ص١٤٤ ـ ١٤٥ .

من طبيعة الناس بوجه عام أنهم اذ يفرحون بعهد جديد يتخيلون أنه سيعالج جميع مشاكلهم التي كانوا يتذمرون منها في العهد السابق ، ويشبع كل حاجاتهم ، ولكنهم سرعان ما يشعرون بخيبة الأمل ، فليس في وسع أي نظام بشري مهما كان عظيماً أن يلبي رغبات جميع الناس ، وان هو استجاب لرغبة البعض منهم أدى ذلك الى حرمان آخرين وقد قيل قديماً : « رضا الناس غاية لا تنال » .

لم يمض على الحكم المصري سوى مدة قصيرة حتى بدأت بوادر النقمة والتذمر بالظهور بين الناس ، وحين انسحب ابراهيم باشا من بلاد الشام في عام ١٨٤٠م كان معظم الناس فيها يلعنونه ويعلنون فرحهم بذهابه . ان العوامل التي ساعدت على ظهور تلك النقمة كثيرة ، نذكر فيما يلي أهمها :

أولاً : ان أشد ما يكرهه الناس من الحكومة عموماً هو الضريبة ، وعندما يفرح الناس بالعهد الجديد يحسبون أن الضرائب ستزول عنهم أو تخف على الاقل . ومن الجدير بالذكر أن حصيلة الضرائب أثناء الحكم المصري في الشام ارتفعت الى نحو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في العهد السابق[١] . يقول مخائيل مشاقة وهو من الشاميين الذين تعاونوا مع الحكم المصري : ان زيادة الضرائب كانت ثمناً للعدالة والحرية والمدنية التي أدخلها الحكم المصري الى البلاد وهو ثمن زهيد غير أن الناس أبوا أن يدفعوه ، وفضلوا العودة الى عهد الذل والهمجية على بذل دريهمات في سبيل استقلالهم والتخلص من مضطهديهم[٢] .

ثانياً : فرض ابراهيم باشا التجنيد الاجباري على أهل الشام على

---

(1) Philip Hitti (Lebanon In History) London 1957 — P. 423.

(٢) مخائيل مشاقة (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) القاهرة ١٩٠٨م ـ ص١١٢ .

نحو ما فعل أبوه في مصر ، وكان يظن أن الشاميين سيخضعون له كما خضع المصريون من قبل[1] ولكنه أخطأ الظن لما بين الشعبين من اختلاف اجتماعي كبير . ومما زاد في الأمر سوءاً أن ابراهيم باشا قرر نزع السلاح من السكان تمهيداً لفرض التعبئة العسكرية العامة فلم يطق الناس صبراً على ذلك لأنهم في مجتمع يرى الوسيلة الأولى لحماية الفرد وأمنه هي بندقيته[2] . ويحدثنا السائح البريطاني وليم تومسون الذي كان في بيروت عند فرض التجنيد على السكان فقال : انهم أخذوا يلتجئون الى القناصل الأوربية والأجانب طلباً للحماية ، ومنهم من فر الى الكهوف ، ورمى عدة رجال بأنفسهم الى البحر قرب صخرة « الروشة » ثم صاروا يتسلقون الصخرة بينما كان الجنود المصريون يطاردونهم[3] .

ثالثا : من طبيعة كل عهد جديد أن يظهر له خصوم ــ منذ يومه الأول ــ وهم اولئك الذين كانوا في العهد السابق من أولى الجاه والنفوذ أو كانت لهم مصالح قائمة فيه ، فهم لابد أن يتألموا ويتذمروا عند قيام العهد الجديد ، وقد يتخذون أية وسيلة تقع في أيديهم من أجل تشويه سمعته والنكاية به . يقول المؤرخ الشامي محمد كرد علي في وصف الادارة المصرية بدمشق : « وقد رأى الدماشقة ادارتها أحسن من الادارة التي عهدوها من العثمانيين ، وكان من أول أعمال المصريين ترتيب المجالس الملكية ، واقامة مجلس الشورى ، وترتيب المالية ووضع نظام للجباية ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، ومع هذا استثقل أرباب النفوذ والمشايخ ظل هذه الدولة وودوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وتفتك بالآمنين الأبرياء ... »[4] .

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص٢٢٨ .
(٢) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ص٩٢ .
(3) Philip Hitti (op. cit.) P. 424.
(٤) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤٠ ــ ٤١ .

رابعة : ان الفتاوي الشرعية التي أصدرها علماء اسطنبول في تكفير محمد علي كان لها شيء من التأثير على الناس ، وقد أضيف اليها ما أفتى به مفتي عينتاب اذ حكم على محمد علي بانه رافضي زنديق[1] ، وربما كان سبب هـذه التهمة الأخيرة هو أن محمد علي كـان يميل الى الطريقـة البكتاشية . وعلى أي حال فقد أخذ دعاة الدولة العثمانية وأعوانها يندسون بين الناس فينشرون تلك الفتاوى بينهم حيث يلصـقون تهمـة « الكفر » و « الزندقة » بالحكم المصـري . ومما ساعد عـلى رواج هـذه التهمة أن ابراهيم باشا اتبع سياسة المساواة بين المسلمين والمسيحيين على نحو ما سنذكره بعد قليل ، فعد الناس ذلك دليلاً على كفره .

خامسة : كانت بريطانيا لا تقل عن الدولة العثمانية عداءاً لمحمد علي ومحاربة للحكم المصري في الشام ، وكان اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يبغض محمد علي من صميم قلبه اذ يعتبره الخطر الذي يهدد طريق الهند[2] ، وقد كتب عنه في ٢١ أذار ١٨٣٣م رسالة قال فيها : « ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية . وقد يكون هذا الأمر في ذاته لا ضرر منه ، ولكنه يرمي الى تقطيع أوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه أبداً . وفضـلاً عن ذلك فان أي ملك عربي ، مهما تبلغ قوته ، لن يكون أقدر من تركية على المحافظة على ما تحتله من طريق الهند »[3] . والواقع أن بريطانيا أرسلت عملاءها الى بلاد الشام للعمل على تقويض الحكم المصري فيها ، وكان أهمهم في ذلك رجل يدعى ريشارد وود وهو قد أُرسل من السفارة البريطانية في اسـطنبول الى بيروت في عـام ١٨٣٥م لكي يفسـد ما بـين الدروز

---

(١) بيير كربيتس (المصدر السابق) ص١٥٨ ، ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٢٢٥ .

(٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ص٩٣ .

والمصريين[1] .

الليدي ستانهوب :

لعل من المناسب هنا أن نذكر شيئاً عن أمرأة بريطانية كان لها دور لا يستهان به في اثارة الشاميين على الحكم المصري هي الليدي هسترستانهوب. وسيرة هذه المرأة لا تخلو من طرافة وشذوذ ، فهي من ذوات الحسب والنسب اذ كان خالها وليم بت السياسي البريطاني المعروف ، وجدها اللورد چاثام ، ولكنها سئمت الحياة في بريطانيا بعد موت خالها في عام ١٨١٠م ، وقيل انها أصيبت بخيبة في الحب ، فآثرت السفر الى الشرق الأوسط . وجاء بصحبتها شاب غني كان عاشقاً لها اسمه مشيل بروس ، فوصلت الى اسطنبول ثم انتقلت منها الى القاهرة واستقبلها محمد علي في ديوانه ، ومن ثم ذهبت الى بلاد الشام فزارت تدمر واستقبلها الاعراب هناك كأنها ملكة ، وكانت هي تسرف في العطاء وفي احاطة نفسها بمظاهر الأبهة والبذخ ، كأنها تريد أن تعيد الى الاذهان اسم زنوبيا ملكة تدمر[2] .

وفي عام ١٨١٣م - بعد أن تركها عاشقها بروس وعاد الى بريطانيا - استقرت في لبنان حيث شيّدت لنفسها قصراً يشبه القلعة فوق تل صغير على بعد ثمانية أميال من صيدا ، واتخذت زي النساء المحلي فلبست عمامة ومداساً برأس منعكف، وصارت تدخن النارجيلة وتحمل السوط والخنجر، وشرعت تدرس اللغة العربية وأولعت بعلم النجوم وعلم الكيمياء القديم ، وأحاطت نفسها بحرس من الألبانيين وحاشية من الزنوج وفرضت عليهم أن يسلكوا معها حسب قواعد التشريفات الملكية .

الواقع أنها استطاعت أن تكون ذات نفوذ وسلطة كبيرة جداً بين سكان

---

(1) Sarah Searight (The British In The Middle East) London 1969 — P. 92.

(2) Ibid, P. 156—7.

المناطق المجاورة ، ولا سيما الدروز منهم ، فكانوا يحترمونها ويطيعون أمرها الى درجة تبعث على الدهشة • وعندما فتح ابراهيم باشا بلاد الشام أدرك مالها من نفوذ وطلب منها أن تقف على الحياد ولكن الحيـــاد لم يكن من شيمتها فصارت من أشد الناس طعناً في الحكم المصري[١] • ولا ندرى هل كان ذلك بايعاز من الحكومة البريطانية أم بدافع ذاتي منبعث من شخصيتها ذات الأطوار الغريبة •

كان لستانهوب جواسيس يعملون في المدن الشامية الكبيرة ، وكانت مراسلاتها ومؤامراتها مع الشيوخ والباشوات متصلة ، وكان لها يد في اثارة الدروز على الحكم المصري[٢] ، ولم يسترح منها ابراهيم باشا الا بعد أن ماتت في عــام ١٨٣٩م ، فدفنت في مكانها ، وكان عمرها لا يتجاوز الثالثة والستين ، وقيل انها كانت عند موتها وحيدة مفلسة[٣] •

المشكلة الطائفية :

كانت المشكلة الطائفية من أهم المشاكل التي واجهها الحكم المصري في بلاد الشام • ولكي نفهم طبيعة هذه المشكلة يجدر بنا دراسة الوضع الذي كان سائداً في تلك البلاد قبل مجيء الحكم المصري •

الواقع أن الوضع الطائفي كان في العهد العثماني قد اتخذ طابعــاً معيناً يستمد جذوره من الفقه الاسلامي الذي يعتبر المسلم أرفع درجة من الذمي • يقول ساطع الحصري : ان الحكومة العثمانية كانت تعامل رعاياها المسلمين معاملة خاصة تختلف عن معاملة غير المسلمين ، فهي كانت تعتبرهم كأنهم أهل الدولة وتعتبر غيرهم كأنهم غرباء عنها[٤] •

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص٢١٨ •

(2) Philip Hitti (op. cit.) P. 424.

(3) Sarah Searight (op. cit.) P. 158.

(٤) ساطع الحصري (محاضرات في نشوء الفكرة القومية) بيروت ١٩٥٦ — ص١٧٧ — ١٧٨ •

ولم يكن هذا التمييز الديني مقتصراً على المعاملات الرسمية فقط ، بل كان يشمل كذلك معاملات الناس بعضهم لبعض . يحدثنا مخائيل مشاقة حديثاً طويلاً عما كان يجرى في بلاد الشام من اضطهاد للمسيحين نقتطف منه ما يلي :

« كان المسيحي عرضة للاهانة والذل أينما مرّ وحل ، وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى ألف الذل كما ألف مُذّله اذلاله . فكان النصراني حيثما مر وتوجه يُنعت بالكافر ويُشتم صليبه ويحتقر وتقلب عمامته ويصفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة . وكان اذا مر في حي المسلمين لحقه صبيان الأزقة قائلين له (نصراني كلب عواني .. رقّوله بالصرامي . قالت أمه فينه ضربة تقلع عينه) . وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له : اشمل ، يريد بذلك أن يسير عن يساره فيفعل صاغراً ... وكان كثيراً ما يسخره أصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم ، أو يستعملون اهانته لاذهاب مللهم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم تعال يا معلم فيذهب اليه ويصفعه ويكلفه أن يذهب بحاجته أو يلبسه حذاءه أو يشتغل عنه شغلاً ما ، واذا كان مازحاً يهمس في اذنه شتماً أو اهانة ، أو يأخذ عمته ويصفعه على أم رأسه ويرمى العمة الى جاره وهذا الى الذي يليه وهلم جرا ... وكان قانون الحكومة اذ ذاك يُكره المسيحي أن يحمل على كتفه كيساً يسمونه كيس الحاجة وليس له أن يخرج من بيته بدونه والمقصود من هذا الكيس أن يضع به من الأغراض وحوايج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله من بقول وخضار وغيرها ... »(١) .

ان هذا وصف قد لا يخلو من مبالغة وتزويق ، فقائله مسيحي وهو لابد أن ينظر الى الأمور من زاويته الخاصة ، ولكننا مع ذلك نشعر بأن في قوله شيئاً من الحقيقة قليلاً أو كثيراً ، فنحن نعرف طبيعة البشر حين يسيطر

(١) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص٢٦ ـ ٢٧ .

عليهم الجهل والتعصب ، وكثيراً كون الانسان ذئباً لأخيه الانسان كما لا يخفى !

وعلى أي حال فان ابراهيم باشا عندما تم لـه فتح بلاد الشام اتخذ سياسة المساواة بين المسلمين وغيرهم كما أشرنا اليه من قبل ، فأجاز لهم ما كان ممنوعاً عليهم كلبس العمامة البيضاء والحذاء الأحمر أو ركـوب الخيل ، وأعلن للناس أن اليهود والنصارى ليسوا أحط مقاماً من المسلمين حتى ينزل أحدهم عن دابته اذا قابل في الطريق أي شخص مسلم[١] ، ثم عيّن الكثير من المسيحيين في المناصب المهمة ، وصار المسيحيون في دمشـق يُخرجون مواكبهم الدينية من غير أن يعترضهم أحد ، وحين ارتد ثلاثة من المسلمين واعتنقوا المذهب الماروني غض ابراهيم باشا نظره عنهم ولم يفعل بهم شيئاً[٢] .

وسمح ابراهيم باشا للارساليات التبشيرية بتأسيس مراكز ثابتة لهم في بلاد الشام وأعطاها حرية كاملـة للعمل ، فادى ذلك الى قيام أشـهر مؤسستين ثقافيتين أجنبيتين في لبنان هما الارسالية الامريكية والارسـالية اليسوعية[٣] اللتان لا تزالان قائمتين .

ان سياسة المساواة هذه التي سار عليها ابراهيم باشا جعلت المسيحيين يرضون عنه والمسلمين يغضبون ، ولكن المسيحيين لم يستمروا على رضائهم عنه مدة طويلة ، فان عوامل النقمة التي أسلفنا ذكرها سرعان ما أخذت تؤثر فيهم أيضاً ، وانتهى الأمر به أخيراً الى أنه عند انسحابه من البلاد كان مغضوباً عليه من اكثر السكان لا فرق في ذلك بين المسلمين منهم والمسيحيين .

تتابع الثورات :

أولى الثورات التي قامت في وجه الحكم المصري ظهرت في فلسطين في

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص١٤١ .

(2) Philip Hitti (op. cit.) P. 423.

(٣) أنيس صائغ (لبنان الطائفي) بيروت ١٩٥٥ ـ ص١٠٠ .

عام ١٨٣٣م ، وكان أشد المحرضين عليها هم آل أبى غوش في القدس ويافا اذ كانوا من الناقمين على ابراهيم باشا المتذمرين من حكمه .

كانت أسرة أبي غوش في العهد السابق تفرض الأتاوة على أديرة الرهبان وعلى حجاج المسلمين وكل من يمر بمنطقتها من أصحاب المواشي ، وقد منعها ابراهيم باشا من ذلك وسجن كبيرها ، فنقمت الأسرة عليه من جراء ذلك ، كما نقمت عليه قبيلة عنزة لما كان بينها وبين أسرة آبي غوش من مصاهرة[1] .

وانضمت الى هذه الاسرة في النقمة على ابراهيم باشا أسر أخرى كأسرة طوقان وأسرة الجزار في نابلس ، فقد كان رجال تلك الأسر هم الحكام في العهد السابق فأسقطهم ابراهيم باشا وأحل محلهم أسرة آل عبدالهادي[2] . وفي ذات يوم من عام ١٨٣٣م صعد شاب الى مأذنة الجامع الكبير في نابلس وأخذ يصيح بأعلى صوته قائلاً : « لقد درست معالم الاسلام ومُحي من الوجود ، ألا يجرى في عروقنا الدم التركي ، ليقم كل رجل يحب النبي الى سلاحه فيتقلده ، وليذهب لقتال هذا الرجل الذي لا ايمان له ، هذا الجاور ـ أي الكافر ـ ابراهيم باشا ، هذا السكير الذي يدمن شرب الخمر والنبيذ ، والذي يأكل لحم الخنزير وكل ما يخرجه البحر من أقذار كما يفعل المسيحيون ، والذي يسكن الأديرة مع القسس ، ويصلي معهم ولا يذهب الى المساجد قط »[3] . وكان هذا النداء ايذانا ببدء الثورة في فلسطين ، وكانت ثورة عارمة خسر فيها ابراهيم باشا ـ على ما قيل ـ أربعة آلاف جندي[4] ، ولابد أن تكون خسائر الثوار أكثر .

ولم يكد ابراهيم باشا ينتهي من هذه الثورة حتى نشبت في الشمال

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص١٢٥ ، ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ص١٢٥ .

(٣) بيير كربيتس (المصدر السابق) ص٢٢٠ .

(٤) داود بركات (المصدر السابق) ص١٥٣ .

ثورة أخرى قام بها النصيرية حيث كمنوا للواء من الجيش المصري فهزموه وفتكوا بنصف رجاله ، ثم هاجموا بلدة اللاذقية فنهبوا أملاك الحكومة والمسيحيين ، ولم تخمد هذه الثورة الا بعد معارك طاحنة أحترق فيها الكثير من القرى[1] •

وفي عام ١٨٣٦م قام الدروز بثورة شعواء أوسع نطاقاً مما سبق وأوخم عاقبة ، وكان سببها المباشر هو أن شريف باشا والي دمشق أرسل الى شيخ مشايخ الدروز يحيى حمدان يستدعيه اليه ، ولما حضر الشيخ طلب منه الوالي مائة وسبعين شاباً للجندية ، فاعتذر الشيخ عن ذلك قائلاً بان شبان الدروز يدافعون عن بلادهم تجاه غزوات البدو ولا يمكن الاستغناء عنهم ، ويقال ان الشيخ أظهر حدة في كلامه مما جعل الوالي يغضب عليه فيمسكه من لحيته أو يصفعه على وجهه • فكظم الشيخ غيظه وتظاهر بالطاعة وخرج وهو يضمر الثورة •

وقد استمرت الثورة زهاء عشرة أشهر كانت فيها خسائر الفريقين هائلة ، وقدّر القناصل خسارة ابراهيم باشا فيها بعشرة آلاف رجل ، وكان الدروز قد أبدوا من الشجاعة وحسن التدريب ما أعجب به كبار القواد[2] •

مقتل الراهب الكبوشي :

في عام ١٨٣٨م حدثت حادثة غريبة في دمشق هزت الرأي العام واتخذها الخصوم حجة يشنّعون بها على الحكم المصري ، وخلاصة الحادثة أن راهباً من الطائفة الكبوشية يدعى الأب توما كان قد ذهب الى حارة اليهود في الخامس من شباط بغية تلقيح أحدهم ضد الجدري غير أنه لم يرجع الى بيته ، فاتّهم اليهود بقتله وألقت الحكومة القبض على عدد منهم ووضعتهم تحت العذاب لكي يعترفوا على القاتل •

---

(١) المصدر السابق ــ ص١٢٧ ــ ١٢٨ •

(٢) المصدر السابق ــ ص١٢٩ ، ١٥١ ــ ١٥٣ •

يتهم اليهود منذ زمن قديم بأن لديهم تقاليد دينية تدعوهم الى اصطياد شخص مسيحي بمناسبة عيد الفصح حيث يستنزفون دمه ليعجنوا به الفطير الذي يأكلونه في ذلك العيد ، وقد تنوقلت هذه التهمة عن اليهود طيلة القرون الوسطى ، وشاعت حولهم حكايات غريبة من قبيل خطف الأطفال أو الرهبان من أجل استنزاف دمائهم ، وكثيراً ما أدت تلك الاشاعات الى موجات من الاضطهاد تحل باليهود في البلاد الأوربية بين حين وآخر .

وقد جرى مثل هذا في دمشق على اثر اختفاء الراهب الكبوشي ، حيث هاج الناس وماجوا وسار جمهور منهم نحو سراي الحكومة يطلبون منها التحقيق عن الجناة والتشديد في عقابهم . واتخذت القضية طابعاً دولياً ، فقد اهتم بها القنصل الفرنسي باعتباره حامي النصارى في بلاد الشام ، كما اهتم بها القنصل النمساوي لأن أحد المتهمين كان من رعايا دولته .

جرى التحقيق الشديد مع المتهمين ، فمات اثنان منهم أثناء التحقيق ، واعترف أحدهم ويدعى الحاخام موسى أبو العافية بأنهم انما قتلوا الراهب من أجل استنزاف دمه ثم طرحوا جثته بعدئذٍ في أحد المجارى القريبة . وقد أعلن أبو العافية اسلامه ليقي نفسه من نقمة قومه عليه وصار اسمه « محمد أفندي » . ثم عثر على الجثة بعدئذٍ فقام بالفحص عليها مخائيل مشاقة لانه كان يتعاطى مهنة التطبيب .

صدر الحكم أخيراً ، فنال عشرة من المتهمين عقوبة الاعدام ، وحصل على العفو أربعة منهم لأنهم أقروا بالحقيقة وكان أحدهم محمد أفندي أبو العافية(١) . ولكن حكم الاعدام لم ينفذ ، وأطلق سراح المحكوم عليهم بأمر من محمد علي باشا . وقيل ان أحد اليهود البريطانيين وصل الى دمشق واشترى حرية المتهمين من الباشا بستين الف كيس(٢)

---

(١) أبو صادق (التفليم المقدس) بغداد ١٩٦٧ ـ ص٢٠ .

(٢) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص١٢١ ـ ١٢٢ .

موقعة نزيب :

ان صلح كوتاهية الذي عقد في عام ١٨٣٣م بين محمد علي باشا والسلطان محمود كان بمثابة هدنة موقتة وما كان صلحاً حقيقياً ، فلم يكن من الهين على السلطان محمود أن يرى أحد رعاياه يهزم جيوشه ويذله ويرضخه لمشيئته ، ولهذا اشتد عزم السلطان محمود على أن يقوي جيشه لكي يجعله كفؤاً للجيش المصري وقادراً على غلبته ، فاستدعى من المانيا ضباطاً قديرين من أمثال فون ملباخ وفيشر وفون ونك والبارون فون مولتكه ليدربوا جيشه على أحدث الأساليب •

وفي عام ١٨٣٩م ظن السلطان أن جيشه قد أصبح قوياً بحيث يستطيع أن يقف تجاه الجيش المصري ويهزمه ، أضف الى ذلك أنه كان يتوقع من أهل الشام أنهم سيثورون على الجيش المصري أثناء نشوب المعركة وينقضون عليه من ورائه ، وبذا تحل به الهزيمة الكبرى •

وقعت المعركة الحاسمة بين الجيشين في موضع قريب من قرية « نزيب »[١] ، وهي قرية تقع الى الشمال من حلب على الحدود بين سوريا وتركيا • ومما يلفت النظر أن كلا من الجيشين كان فيه ضابط أوربي قدير يضع الخطط له ، فقد كان القائد الالماني فون مولتكه في قيادة الجيش العثماني بينما كان سليمان باشا الفرنساوي في قيادة الجيش المصري •

كان الجيش العثماني قد اتخذ له موقعاً حصيناً وفق خطة متقنة وضعها فون مولتكه ، ولم يكن في مقدور الجيش المصري أن يقتحم ذلك الموقع ما لم يعتمد على خطة تحتوي على مجازفة كبيرة • ويقال ان الخطة التي وضعها سليمان باشا لهذا الغرض كانت عبارة عن مزيج من العبقرية والجنون • فهي خطة يمكن أن توصف بأنها « وميض من العبقرية » في

---

(١) اخطأ بعض المؤرخين العرب حيث اطلقوا على المعركة اسم « نصيبين » بدلاً من « نزيب » مع العلم أن بلدة نصيبين تقع قرب الموصل وهي بعيدة جداً عن موقع المعركة •

حالة نجاحها ، وبأنها « أوهام من عقل مخبول » في حالة اخفاقها[1] •

يبدو أن الخطة كانت تعتمد على الجانب النفسي من الطبيعة البشرية بدلاً من الاعتماد على القواعد العسكرية المعروفة ، فهي تقوم على أساس انتقال الجيش المصري من مواقعه وتعريض جناحه للخطر بخلاف ما تقتضيه قواعد الحرب ، وهذا لابد أن يحدث ذهولاً في القيادة العثمانية فلا تستطيع أن تتبيّن كنه الخطة الا بعد مرور فترة من الزمن وهي فترة كافية لكي يقوم الجيش المصري بالمناورة المناسبة له •

كان ابراهيم باشا واثقاً من سلامة تقدير صاحبه سليمان باشا ، فأسرع الى الموافقة على خطته وسار عليها بحذافيرها من غير تردد • والغريب ان فون مولتكه في الجانب الآخر عندما أدرك حقيقة الموقف وأراد تغيير خطته لكي يواجه بها مناورة الجيش المصري وقف القائد العثماني حافظ باشا في وجهه ومنعه من ذلك • وقد احتدم الجدال بين الرجلين من جراء ذلك ، إذ كان حافظ باشا يريد ادارة المعركة حسب أسلوبه القديم بينما كان مولتكه يريد أن يديرها حسب أحدث الأساليب • واشتد الغضب بالقائد الالماني اثناء الجدال بحيث هدّد بتقديم استقالته ، غير أن حافظ باشا قال له يلومه : « ان الجندي لا يستقيل قبيل المعركة » مما جعله يسحب استقالته[2] •

كانت المعركة قد بدأت في صباح ٢٤ حزيران ١٨٣٩م ، ولم تمض عليها سوى ساعات ثلاث حتى كان الجيش العثماني قد انهار تماماً وشاعت فيه الفوضى • يقول المؤرخ بروكلمان : ان تلك المعركة شهدت أموراً لم تشهدها أية معركة أخرى في التاريخ اذ اختلط فيها الغالب والمغلوب وصاروا يركضون جميعاً في اتجاه واحد[3] •

---

(١) بيير كربتيس (المصدر السابق) ص٢٣٨ •

(٢) المصدر السابق ـ ص٢٣٩ •

(3) Carl Brochelmann (op. cit.) P. 359.

الانحدار بعد القمة :

مات السلطان محمود قبيل سماعه بنبأ هزيمة « نزيب » ، ثم جاءت بعد ذلك ثالثة الاثافي وهي خيانة أمير البحر التركي أحمد باشا فقد خرج هذا بسفنه حالما سمع بخبر الهزيمة وتوجه بها الى الاسكندرية حيث سلمها الى الحكومة المصرية ، وكان ذلك قمة الانتصار لمحمد علي باشا وأخطر ساعة في تاريخ الدولة العثمانية ٠

لم يهنأ محمد علي باشا بهذا النصر طويلاً ، فقد أخذت القوى المعادية تسعى في ثلمه والانتقاص منه ٠ ففي ٨ حزيران من عام ١٨٤٠م – أي بعد مرور سنة واحدة على معركة « نزيب » – اجتمع عدد كبير من مشايخ الدروز والمسيحيين والسنيين والشيعة في قرية انطلياس التي تقع على البحر الى الشمال من بيروت ، فعقدوا مؤتمراً في ضريح القديس الياس ، وهو ضريح تقدسه معظم الطوائف في لبنان ولا يقسمون به كذبا ، وتحالف الجميع هنالك على التعاون والتضامن في سبيل القيام بثورة عامة ضد الحكم المصري ، وتعهدوا على « أن يقاتلوا من أجل الاستقلال أو يموتوا دونه » ، واختاروا فرنسيس الخازن رئيساً لهم(١) ٠

ونشبت الثورة فعلاً ، فكانت ثورة واسعة النطاق اشترك فيها المسيحيون مع الدروز ، والشيعة مع السنيين ، وكانت تلك أول مرة يشترك فيها هؤلاء جميعاً في حركة موحدة ، وحاول ابراهيم باشا التفريق بينهم دون جدوى(٢) ٠

وانتهزت بريطانيا الفرصة فأرسلت بعض سفنها الحربية الى بيروت تصحبها سفن نمساوية وعثمانية ، وأخذت السفن تقصف بيروت وأنزلت الجنود في جونيه القريبة منها ٠ ونالت عكا أثناء ذلك كارثة جديدة لا تقل

---

(1) Philip Hitti (op. cit.) P. 424—425.

(٢) انيس صايغ (المصدر السابق) ص١٠٢ – ١٠٣ ٠

فظاعة عن كوارثها السابقة ، فقد أخذت السفن البريطانية تقصفها بالقنابل ، وأصابت احدى القنابل مخازن الذخيرة فيها فانفجرت تلك المخازن انفجاراً رهيباً ارتجت له الأرض وسمع دويه في أقصى البلاد وهلك به ألف وخمسمائة جندي . وكانت تلك ثالثة كارثة حلت بعكا منذ بداية القرن : أولاها كانت بحصار نابليون ، والثانية بحصار ابراهيم باشا ، وها هي الآن تحل بها الثالثة . وقال أحد الشعراء يصف حالة عكا ويذمها :

قالوا بأن جهنماً تحت الثرى ... مالي أراها فوق عكة تضرم

لو لم تكن دار الشقاوة عكة ... ما أمطرتها بالشرار جهنم[1]

اضطر محمد علي تحت ضغط الدول الأوربية أن يأمر ابنه ابراهيم بالانسحاب من بلاد الشام . وفي منتصف كانون الأول من عام ١٨٤٠م بدأت القوات المصرية بالانسحاب ، وقد لقيت تلك القوات الأهوال أثناء انسحابها ، ولم يصل ابراهيم باشا بما بقى منها الى مصر الا بشق الأنفس[2] .

ونستطيع أن نقول أن زوال الحكم المصري من بلاد الشام كان ايذانا بعودة الفوضى اليها . كتب القنصل البريطاني بدمشق في تقرير له يقول : « لم يكد المصريون يُطردون ويتقلص ظل سطوتهم ـ وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد ـ حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة ، وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومُنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة بالتدريج ، حتى أمكن القول أنه لا يوجد ثم ظل للأمن على الحياة والأملاك ، وكل شيء يدعو الى عودة الفوضى الى هذه الديار »[3] .

وأخذ التوتر الطائفي تظهر معالمه هنا وهناك ، وعاد بعض عوام المسلمين

---

(١) داود بركات (المصدر السابق) ص١٩٩ .

(٢) محمد فريد بك (المصدر السابق) ص٢٤٦ .

(٣) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤١ ـ ٤٢ .

الى عادتهم القديمة في اضطهاد المسيحيين وصاروا ينتقمون منهم[١] .
ولوحظ أن المسيحيين في دمشق صاروا يتركون العمائم البيضاء خوفاً من تحرش المسلمين بهم ورجعوا الى عمائمهم السوداء[٢] .

وأصبحت كل طائفة من الطوائف الشامية تستظل بحماية احدى الدول الكبرى وتوثق ارتباطها بها ، فكان السنيون يستظلون بحماية الدولة العثمانية بطبيعة الحال ولا يريدون غيرها ، كما كان الدروز يستظلون بحماية بريطانيا ، والارثدوكس يستظلون بحماية روسيا . أما المارونيون فكانت علاقتهم قد توطدت بفرنسا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ثم ازدادت توطداً بمرور الزمن حتى صاروا أخيراً يعتبرون فرنسا حليفتهم الطبيعية ويطلقون عليها لقب « الأم الحنون » .

مذابح الستين :

يمكن القول على أي حال ان أبشع فترة في تاريخ بلاد الشام هي تلك التي أعقبت الحكم المصري وامتدت زهاء عشرين عاماً ، وهي التي سميت بـ « عهد الفتن » إذ حدثت فيها ثلاث مذابح طائفية فظيعة : كانت الأولى في عام ١٨٤١م ، والثانية في عام ١٨٤٥م ، والثالثة في عام ١٨٦٠م .

تعد مذابح الستين ، وهي التي وقعت في عام ١٨٦٠م ، من أفظع المذابح الطائفية في تاريخ الدولة العثمانية ، ولا يزال الكثيرون من أهل الشام يذكرونها بألم ممض ، وكانت السبب الاول في هجرة الشاميين الى الامريكتين وأفريقيا وغيرها من أنحاء العالم .

بدأت مذابح الستين في لبنان في شهر نيسان ، وفي خلال أسابيع قليلة كان أكثر من ستين قرية مسيحية في منطقتي الشوف والمتن قد تحولت الى رماد ، وفي حاصبيا كانت التعليمات تقضي بأن لا يبقى أي ذكر مسيحي بين

---

(١) انيس صايغ (المصدر السابق) ص١١١ ــ ١١٢ .
(٢) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص١٣٧ ــ ١٣٨ .

السابعة والسبعين حياً ، واتسع نطاق الكارثة حتى وصل الى زحلة فلم يسلم فيها بيت من الحريق الا نادرا ، واستمرت الكارثة ثلاثة أشهر سقط فيها من القتلى اثنا عشر الفاً وقدرت الخسائر في الممتلكات بأربعة ملايين باون[1] .

وفي تموز انتقلت الشرارة الى دمشق ، وهناك اتخذت الكارثة وجهاً آخر ، حيث سيطر الغوغاء على المدينة وصاروا يقتلون ويدمرون بلذة عارمة لا تقف عند حد كما هو شأن الغوغاء في كل زمان ومكان . يقول المؤرخ الشامي محمد كرد علي في وصف المذبحة ما نصه : « وأهم ما وقع في هذا القرن حادثة النصارى المعروفة بحادثة الستين سنة ١٨٦٠م وخلاصتها قيام رعاع المسلمين والدروز على نصارى دمشق وقتلهم ونهبهم والقاء النار خمسة أيام في حيهم حتى خرب كله ... جرى هـذا كله في مدينة التسامح واللطف ، فسوّد الأشقياء سمعة دمشق بعد أن عاش المواطنون قرونا في صفاء وولاء . وكانت لبعض الدول الغربية يد في اثارة النصارى من جهة واثارة الدروز من أخرى . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الدولة ــ يقصد الدولة العثمانية ــ هي التي دفعت الرعاع أو غضت النظر عنهم فارتكبوا ما ارتكبوا ... »[2] .

والجدير بالذكر أن الأمير عبدالقادر الجزائري أبدى أثناء المذبحة من المروءة والشهامة أمراً عظيماً ، فقد استطاع هو ورجاله أن ينقذ ما يزيد على ألف شخص من النصارى[3] ، وظل طيلة ثمانية أيام بلياليها متقلداً بندقيته لا يذوق النوم الا لماماً حذراً من هجوم الغوغاء على النصارى الذين كان يحميهم في داره والدور المجاورة لها . وقد جاء اليه الغوغاء ذات مرة يهددونه ويطلبون منه تسليم من عنده من النصارى كأنهم متعطشون

---

(1) Philip Hitti (op. cit.) P. 437—438.

(٢) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤٢ ــ ٤٣ .

(3) Philip Hitti (op. cit.) P. 439.

للدماء ، فلم يضعف تجاه الغوغاء وأبدى استعداده لقتالهم فانصرفوا عنه[1] .

وحاول كثير من وجهاء دمشق أن يحذوا حذو الأمير الجزائري كأسعد أفندي حمزة ،والشيخ سليم العطار ، وصالح أغا الشوربجي ، وسعيد أغا النوري ، وعمر أغا العابد . ولكن البعض منهم خارت قواه تجاه بطش الغوغاء فسلّم من في حوزته من النصارى اليهم ، فذبحهم الغوغاء ذبح النعاج .

عزمت الدول الاوربية على التدخل ، وأرسلت فرنسا قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندي الى بيروت . وعند هذا أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف فأسرعت بأرسال وزير الخارجية فؤاد باشا ، وكان من دهاة الرجال ، فوصل الى بيروت قبل وصول القوة الفرنسية اليها .

وحين وصل فؤاد باشا الى دمشق أمر بالقاء القبض على من اتهموا في التحريض على المذبحة أو المشاركة فيها ، وأمر كذلك بتفتيش البيوت بحثاً عن الأموال المنهوبة ، فاستولى الرعب على الناس وصاروا يطرحون ما عندهم في الطرقات والشوارع حتى امتلأت بها . واستفاد اليهود من تلك الفرصة حيث صاروا يشترون الأشياء الثمينة بأسعار تافهة لأنهم لم يكونوا من المشتبه بهم .

وبعد التحقيق صدر الأمر باعدام مائة وأحد عشر جندياً رمياً بالرصاص ، وبشنق ست وخمسين رجلاً من الأهالي وكان بعضهم من الأسر الكبيرة ، وحكم على آخرين بالنفي والاشغال الشاقة ، وكان من بين المنفيين طاهر أفندي مفتي الحنفية وعمر أفندي مفتي الشافعية وأحمد عجلاني نقيب الاشراف والشيخ عبدالله الحلبي رئيس العلماء[2] . وانتهت الملحمة باعدام أحمد باشا الذي كان والياً في دمشق أثناء المذبحة ويقال انه كان منفذاً للاوامر التي وردت اليه من اسطنبول فخافت الدولة من شيوع

---

(١) مخائيل مشاقة (المصدر السابق) ص١٧٧ ، ١٨٤ .
(٢) المصدر السابق ـ ص١٨٩ .

الخبر فقتلته[1] .

مصر بعد محمد علي :

في عام ١٨٤٤م بلغ محمد علي باشا الرابعة والسبعين من عمره ، وقد بدأت بوادر الخرف أو الاختلال العقلي تظهر عليه . وفي منتصف ١٨٤٨م اشتد المرض عليه فتولى ابنه ابراهيم باشا الحكم مكانه . غير أن ابراهيم باشا لم يستقر في الحكم طويلا اذ كان مصاباً بمرض في بدنه وقد مات من جراء ذلك في ١٠ تشرين الثاني من العام نفسه ، فتولى الحكم مكانه ابن اخيه عباس باشا . وفي ٢ آب من العام التالي مات محمد علي باشا .

كان عباس باشا ، فيما يقول عنه بروكلمان ، ذا تعصب ديني شديد ويمقت الثقافة الأوربية مقتاً عميقاً وقد برهنت فترة حكمه القصيرة على أنه كان مستبداً غير كفوء[2] . وكان أهم عمل قام به عباس باشا هو انشاء سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة في عام ١٨٥٢م ، وكذلك مد خطوط التلغراف في مصر لتسهيل التجارة[3] ، فكان ذلك بداية دخول المخترعات الحديثة في البلاد العثمانية .

مات عباس باشا في تموز من عام ١٨٥٤م ولم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره الا قليلاً ، والمظنون أنه مات مسموماً ، فتولى الحكم مكانه عمه سعيد باشا وكان هذا على النقيض من سلفه يميل الى الثقافة الاوربية ويحب العلم الحديث ويتكلم اللغة الفرنسية جيداً .

كان لسعيد باشا صديق حميم من الفرنسيين هو فرديناند ديلسبس ، وقد استطاع هذا الصديق أن يحصل منه على امتياز لفتح قناة تربط بين البحر الابيض والبحر الأسود ، هي القناة التي عرفت فيما بعد باسم « قناة

---

(١) محمد كرد علي (المصدر السابق) ص٤٣ .

(2) Carl Brockelmann (op. cit.) P. 363 ‘ 369.

(٣) جرجي زيدان (المصدر السابق) ج١ ص٥٨ .

السويس » . والواقع أن حفر القناة لم يكن أمر سهلاً اذ كان يعتمد بالدرجة الأولى على الايدي العاملة ، ولم يكن للآلات نصيب كبير فيه كما هو الحال في ايامنا . واستغل دي‌لسبس صداقته مع سعيد باشا فلجأ الى « السخرة » من أجل الحصول على العمال ، فكان أبناء القرى يساقون الى العمل تحت ضرب القرباج أحيانا ، وقد يربطون بالحبال كقطعان العبيد في أفريقيا ، فمات منهم الألوف من جراء الأوبئة وشدة العطش والارهاق . واستمر العمل بهذه الصورة اثني عشر عاماً !

كان دي‌لسبس كما وصفه أحد معاصريه يتميز بطاقة عقلية وبدنية لا تعرف الكلل ، وأجمع الذين كتبوا عنه على أنه « ساحر » لفرط ما لديه من قدرة خارقة على الاقناع والثقة بالنفس[1] . انه كان كغيره من الجبارين الذين غيروا وجه التاريخ لا يبالون بالآلام البشرية إذ لا يترددون عن التضحية بالكثير من الارواح في سبيل الهدف الذي يسعون اليه . لقد استخدم دي لسبس كل وسيلة وقعت في يده لانجاز مشروعه ، وقد نجح فيه أخيراً ، فنسي التاريخ اسماء الألوف الذي وقعوا صرعى أثناء حفر القناة ، وبقي دي لسبس خالداً . وهذا هو ديدن التاريخ مع جميع الفاتحين العظام .

مات سعيد باشا في عام ١٨٦٣م فتولى حكم مصر مكانه ابن اخيه اسماعيل باشا . وكان اسماعيل هذا قد تلقى دراسته الأولى في باريس فأعجب بالحضارة الأوربية ايما اعجاب ، وحين تولى الحكم أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا . والمعروف عنه أنه كان مولعاً بالاسراف والبذخ حتى أغرق مصر بالديون ، ولكنه كان من الجهة الأخرى شديد الشغف بالعمران والبناء . يقول المؤرخ المصري رفعت بك : « من الحقائق المقررة الآن أن ما أنجزه اسماعيل باشا في مصر خلال سنوات حكمه الستة عشر فاق

---

(١) مجلة المصور المصرية ــ العدد الخاص ــ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩م .

ما أنجزه أي ملك في أي قطر في العصور الحديثة ، فهو قد تفوق بما قام به في القاهرة والاسكندرية حتى على ما قام به لويس الرابع عشر في باريس • اذهب اينما شئت في القاهرة فلابد أن ينجذب نظرك نحو بناية فخمة أو حديقة أو تمثال أو شارع عريض أو نافورة ، أو حياً من الأحياء كان قد خططه ونفذه اسماعيل باشا »[١] •

ومما تميّز به اسماعيل باشا هو أنه حبب سكنى مصر الى الاجانب من الاوربيين والامريكيين ، فكان يساعدهم ويؤيد مشاريعهم ويشجعهم على توسيع تجارتهم ، فتقاطروا الى مصر أفواجاً[٢] ، فأفادوا مصر واستفادوا منها كالخبازة الماهرة التي تأكل نصف ما تخبز على حد تعبير المثل الدارج •

وفي ١٧ تشرين الثاني من عام ١٨٦٩م جرى الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، فكان عدد المدعوين اليها ثمانية آلاف معظمهم من اوربا ملوكاً ووزراء وأدباء كبار ، وكانت نجمة الاحتفال أوجيني امبراطورة فرنسا الحسناء • وقد بذل اسماعيل باشا في مظاهر الضيافة والاحتفاء ما أذهل عقول المدعوين وذكّرهم بأساطير ألف ليلة وليلة ، وبلغ ما انفقه في ذلك مليونا وأربعمائة ألف جنيه • وقد شكى أحد الوزراء المصريين من هذا الاسراف لأحد الوزراء الأوربيين قائلاً : « انا نأكل أحجار الاهرام حجراً حجراً » ، فرد عليه الوزير الأوربي ضاحكاً : « لا تهتم يا صاحب السعادة ، سنقرضكم المال اللازم لتشتروا منا الاسمنت •• لاعادة بنائها ؟! » • وكانت هذه بداية مأساة الديون في مصر[٣] •

كانت الخطوط البحرية التي تصل ما بين الشرق والغرب قبل افتتاح

---

(1) M.Rifaat bey (The Awakening of Modern Egypt) Bristol 1947 — P. 106.

(٢) جرجي زيدان (المصدر السابق) ج١ ص٦٧ •

(٣) مجلة المصور المصرية ـ العدد الخاص ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩م •

القناة تمر برأس الرجاء الصالح الذي يقع في جنوب افريقيا ، وعندما افتتحت القناة تحولت معظم تلك الخطوط اليها • ففي السنة الأولى من افتتاحها بلغ عدد السفن التي مرت بها ٤٨٦ سفينة ، ثم أخذ العدد يزداد سنة بعد أخرى • وفي عام ١٨٧٤م استطاعت شركة القناة أن تدفع للمساهمين أرباحاً قدرها عشرة ملايين فرنك[١] •

وقد استفادت مصر من هذا التحول في الخطوط البحرية استفادة عظمى ، فان مرور تلك الخطوط بها جعلها قريبة من الشرق والغرب معاً وصارت بذلك ملتقى حضارياً مهماً ، فازدهرت الطباعة والصحافة فيها كما ازدهر العمران • ولم يقتصر تأثير القناة على مصر وحدها بل شمل بلاد أخرى كثيرة ، وسنرى في الجزء القادم مبلغ تأثيرها في العراق •

---

(١) محمد عبدالرحمن برج (قناة السويس في ١٠٠ عام) ــ القاهرة ١٩٦٩م ــ ص٥٢ ــ ٥٤ •

الفصل الثاني

من تاريخ الدولة العثمانية

الصراع بين القديم والجديد

ان الصــــراع بين القديم والجديد ـ أو بعبــارة أخرى بين المحافظين والمجددين ـ ظاهرة اجتماعية نلاحظها في كل زمان ومكان انما هي تختلف شدة وضعفاً حسب اختلاف الظروف • وقد بلغ هذا الصراع أشده في العصر الحديث ولا سيما في الشعوب النامية التي اتصلت بالحضارة الحديثة حيث ظهر فيها معجبون بتلك الحضــارة يدعون اليها من جهة ، ومتزمتون يستنكرونها ويقاومونها من الجهة الأخرى •

من طبيعة السواد الاعظم من الناس في كل مجتمع أنهم يميلون الى المحافظة على تراثهم القديم الذي وجدوا عليه آباءهم فهم لا يحبون تبديله، واذا جاءهم ما يخالفه نهضوا جميعاً لمقاومته لا يفرقون بين النافع والضار منه ، فكل جديد هو مستنكر في نظرهم وليس للمنطق فيه مجال • وهذا أمر نلاحظه في كل الشعوب حتى تلك التي نعدها الآن « راقية » فهي عندمـا كانت من قبل منعزلة عن العالم جامدة على تقاليدها ثم جاءهـــا الجديد من الخارج ، أو ابتكره أحد ابنائها ، هبت لمكافحته واعتبرته كفراً • ويجب أن لا ننسى أن هذه الشعوب بالرغم من « رقيها » الراهن لا تزال تحتوى بين أفرادها على محافظين يستنكرون الجديد ويقاومونه غير أنهم قليلـــون نسبياً وتأثيرهم ضعيف •

ان مقاومة الجديد في المجتمع يمكن تشــبيهه بطبيعـــة « الرفض » الموجودة في البدن الحيّ اذ هي ترفض كل جسم غريب يدخل فيه ســواء أكان قلبا مزروعاً ينفعه او جرثومة تضره ، وحين تضعف طبيعة « الرفض »

هذه في البدن ، فتقبل ما هو نافع كالقلب المزروع مثلاً ، تضعف في الوقت نفسه مقاومة البدن لجراثيم الامراض ، ولهذا نجد البدن قد استفاد من وجود القلب الجديد فيه غير أنه من الناحية الأخرى أصبح عرضة لتغلب الأمراض عليه •

يصح أن نقول اذن ان المجتمع اذ يقاوم الجديد انما يحاول أن يحافظ على كيانه ، فالمجتمع في حقيقة أمره ليس سوى مجموعة العادات الاجتماعية التي يتمسك بها أفراده ويتعصبون لها ، فاذا استهان الأفراد بهذه العادات وصاروا يتقبلون كل شيء جديد يأتي اليهم أدى ذلك الى تفكك كيانهم الاجتماعي عاجلا أو آجلاً • وبهذا يمكن اعتبار المحافظين الذين يغارون على تراثهم القديم بمثابة سدنة الكيان الاجتماعي ، فوجودهم له وظيفته وأهميته في الحياة الاجتماعية ، ولكننا يجب أن لا ننسى في الوقت نفسه أنهم من أسباب تجميد المجتمع أيضاً ، فهم اذا سيطروا على مجتمع ما منعوه من التطور وعرقلوا عليه سبيل التكيف للظروف المستجدة •

ان المجتمع البشري بوجه عام يهدده خطران : خطر الجمود من جهة وخطر التفكك من الجهة الاخرى • والمجتمع الأمثل هو الذي تتوازن فيه قوى المحافظة والتجديد فلا تطغى احداهما على الأخرى •

الصراع في الدولة العثمانية :

بدأ الصراع بين القديم والجديد في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، فقد أراد السلطان مصطفى الثالث الذي تولى الحكم في عام ١٧٥٧م أن يستعين ببعض الخبراء الاوربيين لتدريب جيشه على الأساليب العسكرية الحديثة ، فهب الانكشاريون في وجهه يعارضونه وكان رأيهم : أن ولي الله الحاج بكتاش قد بارك الجيش الانكشاري عند تأسيسه ودعا له بالنصر الدائم ولهذا فان بركته ودعاءه يغنيهم عن كل تعليم[١] •

---

(١) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) بيروت ١٩٦٠م — ص٧٧ •

واشتدت المعارضة في عهد السلطان سليم الثالث الذي تولى الحكم في عام ١٧٨٩م ، فقد حاول هذا السلطان ادخال النظام الحديث في الجيش فقام المفتي مع لفيف من العلماء وبعض رجال الدولة يعارضونه وقالوا ان النظام الجديد بدعة مخالفة للشرع ، وأوحوا الى الجنود أنهم سيلبسون الملابس الافرنجية والتزيي بزي النصارى مع ما في ذلك من مخالفة للقرآن الشريف والشرع المنيف . وفي ٢٧ أيار ١٨٠٧م ثار الجنود برئاسة رجل منهم اسمه « قباقجي أوغلي » فجاؤوا بقدور الانكشارية فصفوها في أحد الميادين علامة على العصيان ، وقُرأت عيهم أسماء الساسة الذين يؤيدون النظام الجديد فذهبوا اليهم في بيوتهم فقتلوهم وجاؤوا برؤوسهم الى الميدان حيث وضعوها أمام القدور . ثم أصدر المفتي فتوى شرعية مفادها أن كل سلطان يدخل نظم الافرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك . وبذا تم عزل السلطان سليم ونصب مكانه السلطان مصطفى الرابع[1] .

ولم تمض على نجاح حركة « قباقجي أوغلي » سوى سنة واحدة تقريباً حتى أخذ الخلاف يدب بين رجالها ، وانتهز الفرصة مصطفى باشا البيرقدار ، وكان من دعاة التجديد ، فزحف بقواته نحو اسطنبول واستطاع أن يعزل السلطان مصطفى الرابع وينصب مكانه السلطان محمود الثاني الذي لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره .

وقد ذكرنا في الفصل السابق بعض الاحداث الهامة التي وقعت في عهد السلطان محمود الثاني كثورة اليونان وفتح الجيش المصري لبلاد الشام . والواقع أن السلطان محمود كان من أعظم دعاة التجديد والساعين فيه غير أن تلك الأحداث أشغلته فلم يتمكن من السير في التجديد الى الحد الذي كان يروم .

---

(١) محمد فريد بك (تاريخ الدولة العلية العثمانية) القاهرة ١٩١٢م ـ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

يقال ان السلطان محمود كان يحب التشبه ببطرس الاكبر قيصر روسيا المشهور ، فتجول في اوربا بغية اقتباس العادات والنظم التي تروق له منها . وكان من جملة محاولاته التجديدية أنه استبدل الطربوش الأحمر بالعمامة ، ولبس الملابس الافرنجية وأمر أن تكون هي الزي الرسمي في الجيش ودوائر الحكومة . واستطاع في عام ١٨٢٦م أن يقضي على الجيش الانكشاري الذي كان عقبة في سبيل التجديد ، كما استطاع في عام ١٨٣١م أن يقضى على المماليك في العراق[١] .

عهد التنظيمات :

في ١ تموز من عام ١٨٣٩م مات السلطان محمود الثاني ، وقد اختلف الأطباء في سبب موته ولكن المتفق عليه هو أن ادمانه الخمرة كان من العوامل التي ساعدت على التعجيل في موته . وقد تولى العرش من بعده ابنه عبدالمجيد الذي كان في السادسة عشر من عمره ، وكان هذا السلطان يختلف عن أبيه من حيث العزم وقوة الشخصية غير أنه كان يشبهه في ميله الى التجديد .

استدعى السلطان عبدالمجيد رشيد باشا الذي كان سفيراً للدولة العثمانية في لندن ليتولى الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة ، وكان رشيد باشا هذا من المتحمسين للتجديد ومن المعجبين بالحضارة الاوربية ، وكان يسوءه أن يسمع الأوربيين يصفون الدولة العثمانية بـ « الرجل المريض » ويود أن يزيل هذه الوصمة عن الدولة عن طريق اقتباس النظم الحديثة[٢] .

أول عمل اهتم به رشيد باشا عند توليه الصدارة هو اقناع السلطان باصدار منشور لاصلاح الدولة ، هو المنشور التي عرف في التاريخ العثماني

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب ــ الفصل العاشر .

(٢) صديق الدملوجي (مدحت باشا) بغداد ١٩٥٣م ــ ص١٧ .

بـ « منشور الكلخانة » . وقد صدر هذا المنشور في ٣ تشرين الثاني عام ١٨٣٩م حيث تلي في قصر « الكلخانة » على مشهد من الأعيان والسفراء وكبار رجال الدولة .

ان المحور الذي يدور حوله منشور الكلخانة هو تأمين سلامة النفس والعرض والمال لجميع رعايا الدولة . يقول ساطع الحصري : ان تقرير مثل هذه الحقوق في منشور جديد قد يبدو غريباً ولكن ذلك كان هاماً بالنسبة الى الاحوال السائدة في البلاد العثمانية آنئذ ، فان اعدام الاشخاص من غير محاكمة ولا سؤال كان من الأمور المألوفة ، وكثيراً ما كان يعقب الاعدام مصادرة الأموال ، وكثيراً ما كان يعدمون بعض الأغنياء لأمور تافهة بغية مصادرة أموالهم وأما أعراض الناس فلم تسلم من تعرضات رجال الأمن وأوباش الجنود ، ولهذا فان منشور الكلخانة أراد أن يعطي حداً لهذه الأحوال ويؤمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم[١] .

عُدّ منشور الكلخانة نصراً لرشيد باشا ، وقد أثنت عليه الصحف الأوربية مما بعث في قلبه الرضا والغبطة ، ولكن السفير الروسي أعلن استخفافه بالمنشور ونعته بـ « الحركة المسرحية »[٢] أي أنه عبارة عن أقوال مجردة أريد بها التظاهر أمام الناس .

الواقع أن المبادىء المثالية التي تضمنها منشور الكلخانة كان من الصعب تحقيقها في تلك الظروف الاجتماعية التي كان الناس يعيشون فيها ، غير أنها على الرغم من ذلك كانت ايذاناً ببدء عهد جديد في تاريخ الدولة العثمانية عرف بـ « عهد التنظيمات » ، وقد استمر هذا العهد زهاء نصف قرن جرى فيه الكثير من الاصلاحات في نظام الجيش والادارة ، وفتحت فيه المدارس الحديثة ، وأدخلت المخترعات الأوربية ، كما انتشر فيه

---

(١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٨٧ — ٨٨ .

(2) Carl Brochelmann (History of The Islamic Peples) New York 1947 — P. 361.

استعمال الزي الجديد بين الموظفين[1] ، وهو الزي الذي بدأ به السلطان محمود ويتألف من الملابس الافرنجية والطربوش الأحمر •

يقول ساطع الحصري : « ان عهد التنظيمات صار بداية عهد تقدم ونهوض في الدولة العثمانية ، ليس من وجهة الشؤون الحكومية فحسب ، بل من وجهة الأمور الأدبية والثقافية أيضاً • ومع هذا ، ظل رجال الدين يتدخلون في شؤون الدولة ، ويعرقلون التقدم في مختلف الميادين • مثلاً ظلوا يزعمون للناس بأن التصوير حرام بوجه عام ، ويحولون بذلك دون طبع الكتب المصورة ولا سيما الكتب المدرسية المصورة »[2] •

السرستراتفورد كاننغ :

في عام ١٨٤٢م عُيّن السرستراتفورد كاننغ سفيراً لبريطانيا في اسطنبول ، وظل في عمله هذا ستة عشر عاماً كان يسعى خلالها نحو تجديد الدولة العثمانية بكل جهده •

أهم ما كان يشغل بال كاننغ ويوجه جهوده هو حالة التفسخ العام التي كانت سائدة في أرجاء الدولة العثمانية ، فهو كان يخشى أن تنهار الدولة من جراء هذا التفسخ فتنحدر روسيا نحو البحر الابيض المتوسط وتهدد بذلك طريق الهند • لقد كان لكاننغ هدفان : أحدهما مقاومة كل حركة تقوم بها روسيا لتوهين الدولة العثمانية وابتلاعها ، والثاني تشجيع حركة التجديد في الدولة العثمانية ودفعها في طريق المدنية الحديثة[3] • ويجب أن لا ننسى أن كاننغ لم يكن يسعى لتجديد الدولة حباً بها بل كان قصده من ذلك تقوية الدولة لكي تقف حاجزاً تجاه روسيا من أجل حماية طريق

---

(١) البرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة) ترجمة كريم عزقول ــ بيروت ١٩٦٨ ــ ص٦٤ ــ ٦٥ •

(٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٩٣ •

(3) G.J.S. Eversley (The Turkish Empire) London 1922 — P. 293.

الهنـد[١] .

عندما وصل كاننغ الى اسطنبول في عام ١٨٤٢م ليبدأ عمله في السفارة كان السلطان قد وقع تحت تأثير المحافظين فعزل رشيد باشا من منصـب الصدارة وجعل في مكانه رجلاً عرف بالارتشاء وفساد الذمة هو رضا باشا . فأخذ كاننغ يسعى بكل جهده نحو اعادة رشيد باشا الى منصب الصدارة ، وقد استطاع بعد جهود كبيرة أن ينال مبتغاه[٢] .

لم يكن كاننغ سفيراً عادياً يخضع لتعاليم حكومته في كل صغيرة وكبيرة كما يفعل سفراء الدول في أيامنا هذه . ان وسائل المواصلات في تلك الأيام لم تكن كما هي في أيامنا تتم بسرعة البرق، ولهذا كان كاننغ كثيراً ما يتحمل المسؤولية ويتبع السياسة التي يرتأيها من غير أن يرجع بالمشورة الى لندن ، وربما كان في بعض الأحيان هو الذي يملي سياسته على لندن[٣] .

كان أهل اسطنبول يلقبون كاننغ « بيوك ايلجي » ــ أي السـفير الكبير ــ باعتباره أكبر السفراء في اسطنبول وأوسعهم نفوذاً ، وكان بعض النصارى يسمونه « سلطان السلاطين » لما عرف عنه من سيطرة على السلطان عبدالمجيد . وكان كاننغ لا يتردد من التدخل في شؤون الدولة العليا من أجل الهدف الذي يسـعى اليه ، وكثيرا ما كان يعـامل الوزراء بكبرياء وعجرفة فاذا وجد منهم تلكؤاً في اجابة مطاليبه أسرع لمقابلة السلطان وطالما أثّر عليه وأرضخه لمشيئته[٤] .

حرب القرم :

تعتبر حرب القرم من أهم الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في

---

(1) Sarah Searight (The British In The Middle East) London 1969 — P. 85.

(2) G.J.S. Eversley (op. cit.) P. 244.

(3) Ibid, P. 292.

(4) Ibid, P. 287—294.

القرن التاسع عشر ، وقد اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا الى جانب الدولة العثمانية ، وهي انما سميت بهذا الاسم لحدوث أهم معاركها في شبه جزيرة القرم التي تقع في شمال البحر الأسود •

كان السبب المباشر للحرب هو ما وقع من خصام عنيف في مدينة القدس بين رهبان الكاثوليك والارثدوكس ، فانتهز قيصر روسيا الفرصة وقدم انذاراً الى الحكومة العثمانية يطلب منها أن تعترف به اعترافاً رسمياً بأنه حامي جميع الرعايا الارثدوكس في البلاد العثمانية ، وأسرع السفير البريطاني كاننغ يحرض المسؤولين العثمانيين على رفض الانذار ، ومن هنا أخذت الأزمة تشتد شيئاً فشيئاً •

وفي أثناء ذلك ، بينما كانت الازمة في عنفوان اشتدادها ، جرت مقابلة بين قيصر روسيا وسفير بريطانيا في بطرسبرغ السرهاملتون سيمور ، فدار الحديث بينهما حول مصير « الرجل المريض » ــ أي مصير الدولة العثمانية ــ فاقترح القيصر اجراء « عملية » عاجلة لها لتجنب خطر الانهيار المفاجيء وما يصحبه من فوضى قد تعم أوربا بأسرها ، وأبدى القيصر استعداده أن يقوم هو بالعملية وأن يقدم مصر وجزيرة كريت الى بريطانيا تعويضاً لها ، فرد عليه السفير البريطاني قائلاً : « ان جلالتكم تتحدثون عن رجل مريض ، فاعذرني يا صاحب الجلالة اذا أنا لفتّ نظركم الى أن واجب القوي حماية الضعيف والمعتل ، وليس الاجهاز عليه ! »[1] •

نشبت الحرب في شهر تموز من عام ١٨٥٣م ، واستمرت ثلاث سنوات ، وكانت في البداية محصورة بين روسيا والدولة العثمانية ، ثم اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا في أذار من عام ١٨٥٤م • وكان لها ثلاث جبهات : جبهة الدانوب في الغرب ، وجبهة قفقاسيا في الشرق ، وأما الجبهة الثالثة فكانت في شبه جزيرة القرم •

---

(١) آلما وتلن (عبدالحميد ظل الله على الارض) ترجمة راسم رشدي ــ القاهرة ١٩٥٠ ــ ص٣٤ •

يقول المؤرخ الامريكي وليم ييل في وصف حرب القرم : انها كانت من أكثر الحروب التي نشبت بين الدول الاوربية « غباءاً وعدم فائدة »[١] • فقد كانت الخسائر فيها بالأرواح والممتلكات هائلة ، وكان أفظع ما جرى فيها حصار قلعة سيباستبول وهو الحصار الذي قامت به الجيوش البريطانية والفرنسية ضد الحامية الروسية ودام سنة كاملة • ولم يكن الجنود البريطانيون والفرنسيون متعودين على برد روسيا فانتشرت بينهم الامراض والعاهات • ولم تستسلم الحامية الروسية الا بعد أن أمست سيباستبول يباباً[٢] • وقد انتهت الحرب أخيراً بانتصار الدولة العثمانية وحليفتاها بريطانيا وفرنسا ولكنه كان انتصاراً باهظ الثمن الى أبعد الحدود ، وصرخ الكثير من البريطانيين والفرنسيين ندماً : « ماذا جنينا من هذه الحرب ؟! » •

جهاد الكفار :

كانت حرب القرم كغيرها من الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية تعتبر في نظر المسلمين جهاداً ، فهي حرب بين المسلمين الذين تمثلهم الدولة العثمانية من جهة ، والكفار الذين تمثلهم روسيا من الجهة الأخرى • ولكن حرب القرم تميزت بدخول بريطانيا وفرنسا فيها الى جانب الدولة العثمانية ومعنى هذا أن الكفار انقسموا الى فريقين : فريق مع الدولة العثمانية وفريق عليها •

يبدو ان اكثر المسلمين لم يلتفتوا الى هذه النقطة من حرب القرم ولم يعيروها بالاً ، فقد كان معيار الجهاد في نظرهم هو ما يقول به السلطان باعتباره ولي أمر المسلمين ، ولا أهمية بعدئذ لدخول بعض الكفار في

(1) William Yale (The Near East) Ann Arbar 1958 — P. 73.

(2) Ferdinand Schevill (The History of The Balkan Peninsula) New York 1922 — P. 360.

الحرب الى جانب الدولة . وقد حدث مثل هذا في الحرب العالمية الأولى عندما أعلن السلطان محمد رشاد الجهاد على الكفار مع وجود الألمان الى جانب الدولة العثمانية يحاربون معها .

ألّف أبو الثناء الآلوسي الذي كان يومذاك يعد من أعلم علماء العراق كتابا بمناسبة تلك الحرب عنوانه « سُفرة الزاد لسَفرة الجهاد » قال في مقدمته : « فلما رأيت من الناس على الجهاد فرط التهالك ، وحققت أن قد سعوا اليه من أقصى الممالك ، تاقت نفسي ، واشتاقت الانسلاك في سلك أبناء جنسي ، وثارت غيرتي الهاشمية ، وحمت حميتي الاسلامية ... ونوديت أن من الجهاد أن تؤلف فيه رسالة ، تذكر فيها فضله ومآله ، وتعظ فيها مسلمي البشر ، وتستنهض القاعدين غير أولى الضرر » . وقد تطرق الآلوسي في هذا الكتاب الى تحالف الدولة العثمانية مع بريطانيا وفرنسا في الحرب فقال بجواز ذلك شرعاً ، وكان رأيه أن المسلم يجوز له أن يستعين بالكافر في الجهاد بشرط أن يكون الكافر المستعان به مخالفاً في العقيدة الدينية للكافر المستعان عليه[1] . ولست أدري من أين استمد الآلوسي هذه الفتوى ؟ انها على أي حال فتوى ملائمة لتلك الظروف !

ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن شاعر العراق المعروف عبدالباقي العمري نظم قصيدة أرخ بها عام فتح سيباستبول وأشاد بالدول الثلاث لتعاونها في الحرب ، ونراه يقول في التمهيد للقصيدة : « ان هذا تاريخ تام ، يناغي المريخ في علو المقام ، لتسخير مدينة سيواستبول القوية الاستحكام ، الواقع على أيدى الدول الفخام ، المتحدة اتحاد الأرواح بالأجسام ، المؤتلفة ائتلاف العقود في النظام ، المتفقة اتفاقاً لا يعرف افتراقاً ما دامت الليالي والأيام ، لابرحوا في حالتي النقض والابرام ، متمسكين بالعهود الوثيقة بالعروة الوثقى التي لا تقبل الانفصام ، ولا زالوا على ما هم

---

(١) محسن عبدالحميد (الآلوسي مفسراً) بغداد ١٩٦٩ ـ ص١١٧ ـ ١١٨ .

عليه من التحابب الى قيام الساعة وساعة القيام » • والقصيدة تحتوى على ستة عشر بيتاً نقتبس منها هذه الابيات :

أقول للدول المنصـــور عسـكرها   لا زال عسـكرها بالله منصـورا
لمـا اتفقتم عـلى صـدق المحبة في   ما بينكم واتحدتم صرتم سـورا
أضحى القرال وأمسى لاقرار لـه   والقلب منـه بنار الغيظ مسجورا
طرداً وعكسـاً تركتم فلك فكرتـه   في يم غـم بعيـد الغـور واپـورا
غادرتم البر بحـراً يستفيض دمـاً   والبحر براً عـلى الاشـلاء معبورا
سيواستبول التـي أعيت معاقلهـا   سخرتم حصنها أرخت تسخيرا[1]

الاحتفال بالتحالف :

من الأمور التي تلفت النظر أثناء حرب القرم ما فعله القنصل الفرنسي في الموصل للاحتفال بالتحالف بين دولته والدولة العثمانية • ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن منطقة الموصل هي من المناطق التي يعيش فيها المسيحيون والمسلمون معاً حيث يسكنون في قرى متقاربة ومتداخلة ، وكثيراً ما كانت الفتن والمعارك الطائفية تنشب بينهم لأسباب واهية كما هي عادة المتجاورين من ذوي العقائد المختلفة • وعندما وقعت حرب القرم خشي المسؤولون أن تنشب فتن من هذا النوع في تلك المنطقة • يقول الكاتب الفرنسي بيير دي فوصيل عن منطقة الموصل ما نصه : « كانت كل حرب تنشب بين تركيا وبين احدى الدول الغربية تثير الكراهية والبغضاء ضد الطوائف التي تتمتع بحمايتنا • وهكذا كانت الحالة حتى أثناء حرب القرم • فقد أراد المسلمون كراهية لروسيا أن يقوموا بمجازر ضد المسيحيين يدفعهم الى ذلك جهلهم الذي يتخبطون في ديجوره بحيث لم يعلموا أن فرنسا وانكلترا قد أعلنتا الحرب على روسيا بغية نجدة السلطان وقد أراد قنصلنا في الموصل مسيو

---

(١) عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقـي) النجف ١٩٦٤ — ص ٣٨٠ — ٣٨١ •

بلاس تبديد هـذا الوهم بتظاهرة مشـــهودة لتنقشع الشكوك من عيون السكان ••• » ثم نقل فوصيل نص الرسالة التي أرسلها القنصل الفرنسي الى حكومته في باريس في هذا الموضوع ، وهي كما يلي :

« منذ أن ورد البريد الأخير حاملاً أنباء المطالع السعيدة للحرب ، وحال أن أعلمتنا هذه الأخبار بدخول الأساطيل الفرنسية والانكليزية الى البسفور ، دعوت الوالي وأعضاء حاشيته الى مأدبة كبرى كما دعوت معه ضباط الحامية وبطرياركي الكلدان والسريان والمحميين الفرنسيين وقنصل انكلترا • وقد حرصت على أن يكون مجلس أعضاء حاشيته حول نفس المائدة التي تضم رؤساء الطوائف الكاثوليكية • وهذا المشهد هو أول مشهد من هذا القبيل يعاينه هذا القطر وانتظرت من هذا الموقف أفضل النتائج •• ولدى انفضاض عقد المدعوين أطلقت نيراناً اصطناعية مكونة من قطع ترتفع الى أعلى درجة ممكنة من الارتفاع فأحدثت هذه الصواريخ كثيراً مـن الفراقع ، وكل ذلك لئلا يبقى أحد في الموصل على جهل بما كان يحدث •• انني من أولئك الذين يمقتون مقتاً كبيراً كل تظاهرة عقيمة لا تستهدف الا احداث الضجيج والعجيج دون أن تؤدي الى نتيجة ولكنني أرجوكم أن تأخذوا بنظر الاعتبار أنني هنا منعزل منقطع تماماً ومحاصر من قبل ســكان يتكلمون كل اللغات في موطن بلبلة الألسنة • كما أن هؤلاء الأقوام يضمون في صفوفهم كافة الطوائف المتعادية الجاهلة بحيث يصعب على الولاة كثيراً كبح جماحهم وكفكفة غلوائهم والحد من نقمتهم على كل ما هو مسيحي بالاضافة الى كون هؤلاء السكان لا تؤثر فيهم الا المظاهر الخارجية المبهرجة• وقد انتفعت من الأخبار الأولى الحسنة الآتية من مسرح الحرب لانني أجهل الأخبار التي سيجلبها لنا البريد القادم وعما اذا كانت الانتصارات ستدوم ، وفي حالة وصول الاندحارات لا سمح الله فان الحفلـة التي أقمتها أمس ستهدىء ثائرة السكان • وأؤمل على كل حال أن أخفف من وقع ما يحتمل أن يقع من كوارث وأن أدع هذه الأيام تمضي بسلام • ولا شك أن كل

هذا سيحمل الينا الطمأنينة خلال شهر عـلى الأقل • لذا شعرت حينئذ بضرورة القيام بتظاهرة أخرى من نوع آخر فانني أسألك السماح بالموافقة على تحقيقها حتى ولو أدت الى تضحية بعض النفقات ••• »[١] •

من نتاج حرب القرم :

تعتبر حرب القرم في رأي بعض المؤرخين نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ شـعوبها[٢] ، وكذلك تعتبر عاملاً مسـاعداً في التغير الاجتماعي والسياسي الكبير الذي حدث في المجتمع العثماني منذ منتصف القرن التاسع عشر[٣] •

أهم مظهر للتغير الاجتماعي الذي أنتجته حرب القرم كان من نصيب العاصمة اسطنبول ، فقد فتحت تلك الحرب أبواب اسطنبول للحضـارة الاوربية ، وأخذ الأتراك ينظرون الى البريطانيين والفرنسيين نظرتهم الى حلفاء ينصـرونهم ضد عدوتهم التقليدية روسـيا • وصار البريطانيون والفرنسيون من جانبهم يتغلغلون في البلاد العثمانية لادخال الحضارة فيهـا من جهة ، ولجني الارباح التجارية من الجهة الأخرى •

تقول المؤرخة الألمانية الدكتورة وتلن : ان الدولة العثمانية برهنت على أنها حاجز ذو قيمة ضد الخطر الروسي فشددت أوربا على ضرورة الاصلاح الداخلي فيها اذ أن كل تقوية لجسد « الرجل المريض » كـانت تزيد من مقدرته على حماية طريق الهند واغلاق الدردنيل في وجه السفن الروسية ، وقد أخذ الانكليز والفرنسيون يمدون الدولة العثمانية بالقروض ويرسلون البعثات الاقتصادية والعسكرية الى المقاطعات العثمانية الشاسعة ،

---

(١) نقلاً عن جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٣ أذار عام ١٩٦٦ ـ ترجمة الدكتور أكرم فاضل •

(2) Sarah Searight (op. cit.) P. 89—90.

(3) G.J.S. Eversley (op. cit.) P. 312.

ويؤسسون المدارس وينشئون السكك الحديدية وخطوط التلغراف ، وهم اذ كانوا يفعلون ذلك لم يكونوا يفكرون في أمر محاربة روسيا فقط بل كانت لهم مقاصد تجارية أيضاً ، وكانت أولى نتائج هذه الخطة تبشر بالنجاح فأصبحت الأنسجة القطنية الانكليزية تغطي أجساد الفلاحين الاتراك، واستخدمت المحاريث الانكليزية لشق الأراضي التركية ، وصارت سمعة الانكليز من حيث تفوقهم في مجال القوة والذكاء والصناعة شائعة في أنحاء تركيا كلها . أما المدارس الحديثة فكان الغرض منها تثقيف النشأ الصغير واعداده لشراء البضاعة الأوربية الجديدة[١] .

وتضيف الدكتورة وتلن الى ذلك قائلة : « ... ألا ان الاتراك وهم محاربون بالفطرة كانوا يحتقرون الاشتغال بالتجارة والصناعة ، فسمحوا لتجارتهم بأن تقع في أيدي جماعة من الأوربيين ليسوا على كل حال من النوع الممتاز . فقد نزح الى تركيا مقامرون وأفاقون من كل نوع وأنشأوا هناك مشاريع خيالية لم يكن أحد ليجرؤ على تكذيبها في ذلك العصر المملوء بالغرائب . فأنشئت شركات لشراء أراض وهمية كي تقام عليها المباني والبنوك ومكاتب التلغراف وخطوط السكك الحديدية ـ مشاريع خيالية ولكنها في الظاهر ذات مستقبل مضمون يفوق على كل حال ماضي أصحاب هذه المشاريع . وهاجر الى تركيا كذلك كثير من لاجيء البولونيين الذين لم يتقنوا شيئاً في حياتهم سوى خياطة الثياب وترقيع الأحذية ، ولكنهم اقتحموا في تركيا الأوساط الهندسية العالية ، وادعوا الخبرة بفن المعمار . وكانت تجارة الحصول على الامتيازات اللازمة لكل مشروع جديد في حد ذاتها عملاً مربحاً ، ومجرد الاشاعة عن معرفة أحد موظفي الباب العالي كافية لاطعام عائلة ، وأصبحت صيحة (اغن نفسكَ) ـ شعار الملك لويس فيليب ـ تتجاوب فوق البوسفور ، ولكن على نحو مفرط يتناسب مع طبيعة

---

(١) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٣٦ ـ ٣٧ .

الشرق • وهكذا أخذت تركيا تدفع غالياً ثمن أكاليل الغار الجديدة • فكان انتصارها في الواقع انهزاماً أمام حلفائها الغربيين • وكان سير الأمور يوحي بأن أوربا ستتمكن من شراء تركيا بأسرها • فقد خضعت هذه الدولة القديمة المحاربة لأمضى الأسلحة وأدهاها : سلاح الذهب ! »[1] •

زار وليم رسل مراسل جريدة التايمس اللندنية اسطنبول في عام ١٨٦٩م ، وكان قد زارها أثناء حرب القرم ، فقال يصف التغير الهائل الذي حدث فيها : « ان مصابيح الغاز انتشرت في الشوارع الرئيسة ، وكذلك الماء الوفير ، أما العمامة القديمة الضخمة فقد أبدلت بالطربوش ، والرجل المريض ظهر للعيان وكأنه نزع عنه كل علامات المرض العضال الذي قيل ان اصابته منه كانت شديدة »[2] •

خط همايون :

كان السفير البريطاني كاننغ يسعى جاهداً لتحقيق مبدأ المساواة بين المسيحيين والمسلمين في دوائر الدولة العثمانية وقوانينها ، وكان يحادث رشيد باشا من أجل ذلك مرة بعد مرة اذ يقول له : « ان دولتنا تسعى الى الدفاع عن الدولة العثمانية ضد روسيا بكل ما لديها من قوة ، الا انها تلاحظ أن عندكم بعض الأحوال التي تفسح مجالاً واسعاً للتحريكات الروسية ، ولا تترك لنا مجالاً للدفاع عنكم • مثلاً انكم لا تقبلون شهادة الذمي على المسلم ، مع أنكم تحكمون بلاداً كثيرة جميع سكانها مسيحيون • فالمتغلبة من المسلمين يتعدون على هؤلاء ، من غير أن يخافوا العقاب ، بسبب عدم وجود شهود مسلمين غير أتباعهم المأجورين ، وبسبب عدم الالتفات الى شهادة غير المسلمين ، مهما كان عددهم ••• »[3] •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٣٧ ـ ٣٨ •

(2) Sarah Searight (op. cit.) P. 88.

(٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ص٩١ •

وكان من نتائج الحاح السفير البريطاني في هذا الموضوع أن جمع رشيد باشا مجلس العلماء وهو المجلس الذي يضم كبار رجال الدين من المسلمين وعرض عليهم ما قال السفير له ثم وجه اليهم هذا السؤال : « ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين ، على الأقل في المحلات التي لا يوجد فيها سكان مسلمون ؟ » فكان جواب الحاضرين جميعاً : « لا مساغ شرعياً لذلك على الاطلاق » • وبعد المحاورة معهم تبين أن هناك حلاً للمشكلة هو أن يصدر السلطان أمراً بقبول شهادة غير المسلم ، وبذا يصبح الأمر « شرعياً » لانه صادر من « ولي الأمر »[1] •

ان هذا الحل الذي توصل اليه رشيد باشا مع رجال الدين ساعد على اصدار منشور سلطاني جديد يتضمن مبدأ المساواة بين رعايا الدولة جميعاً بغض النظر عن اختلاف معتقداتهم وأديانهم • وصدر هذا المنشور في ١٨ شباط ١٨٥٦م على أثر انتهاء حرب القرم، وأطلق عليه اسم « خط همايون » أو « منشور الاصلاحات الخيرية » •

أثار هذا المنشور امتعاض المتعصبين من المسلمين ، فهم كانوا يعدون المساواة بين المسيحيين والمسلمين أمراً مخالفاً للشريعة الاسلامية اذ ليس من الجائز شرعاً في نظرهم أن يكون الكافر والمؤمن على صعيد واحد أمام القانون ، وذهب البعض منهم الى الظن بأن « خط همايون » أريد به تحويل الدولة العثمانية الى المسيحية أو أنه ايذان بانتصار قريب للمسيحية على الاسلام حيث يتحقق به الامل الذي فشلت في تحقيقه الحروب الصليبية في القرون الغابرة •

يمكن القول على أي حال ان « خط همايون » كان سبباً في اثارة بعض الفتن الطائفية بين المسلمين والمسيحيين • وكانت أولى تلك الفتن ما جرى في مدينة جدة في موسم الحج من عام ١٨٥٨م ، وخلاصة الحادث أن جمهوراً من الحجاج هاجموا بعض النصارى في تلك المدينة وكان

---

(١) المصدر السابق ـ ص٩١ ـ ٩٢ •

يتزعمهم بعض المتعصبين من رجال الدين ، فقتلوا عدداً من النصارى كان منهم القنصل البريطاني وزوجة القنصل الفرنسي . وحين علم نامق باشا والي مكة بالخبر أسرع الى جدة فألقى القبض على المتهمين وحاكمهم ثم حكم على بعضهم بالاعدام ، غير أنه أجل تنفيذ الحكم عليهم حتى تأتي المصادقة من اسطنبول. والظاهر أن هذا التأجيل لم يرض بريطانيا وفرنسا ، فوصلت الى جدة سفينة حربية بريطانية وقدم ربانها الى نامق باشا انذاراً بتنفيذ حكم الاعدام خلال أربع وعشرين ساعة ، وعندما انتهت مدة الانذار سلطت السفينة مدافعها على مدينة جدة وظلت تمطرها بالقنابل عشرين ساعة ، ولم يتوقف القصف الا على أثر وصول اسماعيل باشا من اسطنبول ، اذ هو أسرع الى تنفيذ حكم الاعدام فأنقذ جدة من القصف[١] .

السلطان عبدالعزيز :

شاء القدر أن يختفي من مسرح السياسة العثمانية في خلال سنوات ثلاث الرجال الثلاثة الذين كان يسعون نحو تجديد الدولة، ففي عام١٨٥٨م مات رشيد باشا كما اعتزل فيها كانتغ الخدمة لكبر سنه ، وفي عام ١٨٦١م مات السلطان عبدالمجيد فخلفه على العرش أخوه عبدالعزيز وكان هذا على النقيض من سلفه محافظاً لا يحب التجديد .

يذهب أكثر المؤرخين الى القول بان السلطان عبدالعزيز كان مسرفاً متلافاً ويحب النساء حباً جماً حتى قيل ان عدد النساء في حريمه بلغ التسعمائة وهو رقم لم يصل اليه أحد من أسلافه[٢] ، وقيل كذلك ان عدد الخصيان عنده بلغ الثلاثة آلاف[٣] ، وقد بنى لنفسه قصراً لم تعهد له اسطنبول مثيلاً على كثرة ما كان فيها من قصور باذخة[٤] ، وذكروا أن

---

(١) محمد فريد بك (المصدر السابق) ص٢٨٤ .

(٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٥٧ .

(3) William Yale (op. cit.) P. 77.

(٤) قدري قلعجي (مدحت باشا) بيروت ١٩٥١ ــ ص١٩ ــ ٢٠ .

قصره كان يحتوى على ثلاثمائة طباخ وأربعمائة سائس وأربعمائة بحار للزوارق وأربعمائة موسيقي ومائة وخمسين حوذي ، وكان في اسطبله ستمائة جواد ، وقد بلغت نفقة جيبه الخاص مليونين ونصف ليرة في السنة ، وكان ينفق من هذا المبلغ نصف مليون ليرة على الصور والجواهر لأنه كان شديد الولع بها ، وينفق ستة عشر ألف ليرة على السكّر والحلوى ، وكان لديه خدم اختصوا بالعناية بدخانه وملابسه والروائح العطرية في غرفة حمامه[1] .

ان هذه ربما كانت مبالغات اختلقها الرواة كما هي عادتهم في مثل هذه الأمور ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستشف منها قسطاً من الحقيقة علماً بان الرواة لم يذكروا عن غيره من سلاطين آل عثمان مثلما ذكروا عنه ، فلابد أن يكون قد تميز عنهم بافراطه في التبذير وحب النساء .

وهناك ناحية أخرى ربما كانت عاملاً مساعداً في تشويه سمعة السلطان عبدالعزيز وزيادة التقولات فيه ، فالمعروف عنه انه كان يمقت الحضارة الغربية وكل ما هو أوربي ، وكان لا يتورع عن التصريح برأيه هذا علانية مما اضطر وزراءه أن يلفتوا نظره غير مرة بقولهم : « مولاي ، ان الواحد يشعر بذلك بلا شك ، ولكن لا يقوله ! »[2] . أضف الى ذلك أنه ابتعد في سياسته عن بريطانيا وفرنسا وأخذ يتقرب الى روسيا ، واستطاع السفير الروسي ايغناتيف أن يكون ذا نفوذ عليه يشبه نفوذ السفير البريطاني السابق على السلطان عبدالمجيد .

زيارته لاوربا :

في عام ١٨٦٧م دُعي السلطان عبدالعزيز لزيارة المعرض الدولي الذي أقيم في باريس ، وكانت الدعوة قد وجهت اليه بتوقيع نابليون الثالث

---

(١) سليم سركيس (سر مملكة) القاهرة ١٨٩٧ ـ ج١ ص١١ .
(٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٤٤ .

امبراطور فرنسا في ذلك الحين وصيغت بعبارات منمقة مغرية غير أن عبدالعزيز اعتبرها اهانة له اذ لم يسبق لسلطان عثماني أن وطئت قدماه أرضاً ليست من أملاكه وكيف يراد منه أن يقف اليوم وهو ظل الله على الأرض مع سواه من الملوك والامراء في أرض المعرض .

حاول الوزراء اقناع السلطان بقبول الدعوة دون جدوى ، وبعد أن يئسوا من اقناعه اتجهوا نحو شيخ الاسلام لايجاد حل شرعي للمشكلة ، وكان شيخ الاسلام عند حسن ظنهم حيث أفتى بأن كل شبر من الأرض تطأه قدما السلطان يصبح ملكا له غير أنه يملك الحق في منح تلك الأرض لمن يشاء ، ومعنى هذا أن السلطان يستطيع بناء على تلك الفتوى أن يزور بلاد أوربا كلها ثم يعيد « توزيعها » بعدئذ حسبما يراه مناسباً[1] . ويقال ان السلطان عند عودته من سفرته أعلن قائلاً : « انني ملكت كل أرض زرتها ولكنني أرى نفسي غير محتاج اليها فوهبت فرنسا لامبراطورها وانكلترا لملكتها »[2] .

يروى أن محاورة جرت بين السلطان عبدالعزيز وصدره الأعظم أمين عالي باشا حول رأيه في السفرة . وفيما يلي ننقل شيئاً من تلك المحاورة على شكل سؤال وجواب لأنها تصور عقلية السلطان والانطباع الذي حصل لديه عن أوربا :

الصدر الاعظم : « أرجو جلالتكم أن تكون راضياً عما رأيت في هذه الرحلة ؟ » .

السلطان : « أنا راض مزيد الرضا ، بل أشكر الله تعالى أنني غير أعمى البصيرة نظير ملوك أوربا » .

الصدر الاعظم : « وما الذي جذب نظر جلالتكم الشريف دون سواه في هذه الرحلة ؟ »

---

(١) المصدر السابق ــ ص٤٥ .

(٢) سليم سركيس (المصدر السابق) ص١٦ ــ ١٧ .

السلطان : « رأيت المدن الأوربية حسنة البناء ولكنها خالية من جمال مناظر الاستانة . وكل انسان هناك منهمك في حشـد المال . والنسـاء معرضات في المراقص والاستقبالات تعرضاً يوجب الخجل ، متعلقات على أذرع رجال لا نسب يصلهم بهن ، وأزواجهن لا يبالون بعارهم ، وعلى وجوه الراقصـات ابتسامات لطيفـة حلوة الا ان رفاقهن من الرجال يمسكونهن ولا يشعرون باكثر مما يشعر به الخصيان ، وهذا يشير الى عظيم تأثير العادات السيئة » .

الصدر الاعظم : « أحسنت فيما تقول يا مولاي . ان المسلم المؤمن يستغرب التمدن الأوربي ولكن أولئك النساء يكون منهن زوجات أمينات وأمهات كريمات ولهن في الغالب معرفة الاساتذة وانما دفعهن الى ذلك اتباع العادة التي لا ضرر فيها » .

السلطان : « وهل تحسب هذا من قبيل التهذيب والتمدن والألوف من الناس يموتون جوعاً في لندن وحدها ، وتملأ بهم السجون حتى تفيض ، فهل انت واقف على احصاء ذلك ؟ ان جميع السجون ملآنة ! » .

الصدر الاعظم : « ذلك لان الجرائم تعاقب حالاً ، أما العدل فغير كامل عندنا ويسمح للمجرمين بالفرار والنجاة » .

السلطان : « انهم لا ينجون من عدل الله ! » .

الصدر الأعظم : « يظهر أن جلالتكم غير متأثر تأثراً حسناً » .

السلطان : « يسرني أنني ذهبت الى هناك انما اعترف أنني كنت أتوق حقيقة الى الرجوع الى تركيا ، فان مثل تلك الحركة المهولة حيث لكل ساعة ما يشغلها انما هي حياة صبيان المدارس لا حياة سلطان ، وهؤلاء الملوك يخدمون شعبهم ، أما نحن فاننا سادة » .

الصدر الاعظم : « واأسـفاه يا مولاي ان من حسـن حظك أن لا يسمعك أحد » .

السلطان : « ولماذا ؟! هلا أستطيع أن أبدي أفكاري ، لعلك تريد

مني أن أعيش معيشة أولئك الافرنج الذين يقضون وقتهم وينفقون مالهم على الفنون والتجارة والسياسة ... لابد لي من الاعتراف أن أعظم ما أدهشني كان قبح منظر النساء الاوربيات المتجاوز الحد فجميعهن قبيحات الوجوه الا الامبراطورة أوجيني وامبراطورة النمسا ، وعندي أن الملك الراغب في التزوج يجب أن تفوق امرأته سائر النساء جمالاً ، والأمر على عكس ذلك في أوربا فانهم على ما أرى يختارون أبسطهن منظراً في الحسن »[1] .

ظهور مدحت باشا :

في عهد السلطان عبدالعزيز بزغ نجم السياسي المشهور مدحت باشا الذي يعد أعظم من سعى في تجديد الدولة العثمانية ودفعها في طريق الحضارة الأوربية . ويحسن بنا أن ندرس شيئاً من سيرة هذا الرجل اذ نجد فيها مثلاً صارخاً للصراع بين القديم والجديد .

كان هذا الرجل عصامياً صنع نفسه بنفسه ولم يعتمد على جاه عائلي أو قرابة من ذوي النفوذ والثروة . ولد في عام ١٨٢٢م وكان أبوه قاضياً شرعياً اسمه الحاج حافظ أشرف أفندي ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره انخرط في سلك الوظيفة الحكومية كاتباً بسيطاً ثم تنقل في مختلف البلدان العثمانية كدمشق وصيدا وقسطموني[2] ، وصار يرتفع في الوظائف درجة بعد أخرى وكان في كل وظيفة يتولاها يبدي من الهمة والكفاءة ما يلفت اليه الأنظار .

لا شك أن الحظ ساعد مدحت باشا مساعدة كبيرة ، فهو قد عاش في وقت كانت الدولة العثمانية تسعى نحو اصلاح شؤونها وكان يتولى أمرها الرجل الذي تحدثنا عنه رشيد باشا . فلو أن مدحت كان قد نشأ قبل هذا

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٨ ـ ٢٠ .
(٢) قدري قلعجي (المصدر السابق) ص١٠ .

الوقت لكانت همته في أداء وظيفته شؤماً عليه كما هو الحال في الحكومات المتفسخة التي يخفق فيها الموظف الصالح ويفلح الطالح •

في عام ١٨٥٢م أرسل مدحت الى الشام للتحقيق في قضية اختلاس كان المتهم فيها من رجال الدولة الكبار • ولم يكن مدحت آنذاك سوى موظف صغير ولكنه قام بواجبه خير قيام ونجح فيه بحيث استطاع أن يثبت ادانة الرجل الكبير • وقد لفت نجاحه هذا انتباه رشيد باشا فاجتذبه اليه وجعله في زمرة حوارييه الذين يعتمد عليهم في اصلاح الدولة ، وبذا صار مدحت يتدرج في المناصب العالية •

وفي ١٨٥٨م أتيح لمدحت أن يتجول في عواصم أوربا ، فاستغرقت جولته ستة أشهر اطلع فيها على أحوال أوربا وعوامل تطورها • ذهب الى فينا وبروكسل وباريس ولندن ، وهناك رأى رأي العين ما كان يقرأ ويسمع عنه عن الحرية والمساواة والنظم الدستورية التي كان الأوربيون يتمتعون بها • وقد أعجب كل الاعجاب بالثورة الفرنسية وبمبادئها ، وكان من رأيه أن المرحلة التي اجتازها الشعب الفرنسي عند ثورته على الاستبداد هي نفسها المرحلة التاريخية التي تجتازها الشعوب العثمانية في زمانه[1] •

وفي عام ١٨٦٠م مُنح مدحت رتبة الوزارة وعُيّن والياً في بلاد الصرب وبلغاريا ، فقام هناك بأعمال عمرانية مهمة كانشاء الطرق وتأسيس المدارس والمستشفيات واصلاح نظام الري والزراعة ، وكانت هذه أموراً غير مألوفة في الاقطار العثمانية يومذاك ، وفي عام ١٨٦٩م نُقل مدحت الى العراق فأخذ يعمل فيه على منوال ما عمل في بلاد الصرب وبلغاريا ــ كما سنأتي اليه بتفصيل في فصل قادم •

وفي عام ١٨٧٢م توفي الصدر الاعظم أمين عالي باشا وكان هذا من دعاة التجديد ومن المؤيدين لمدحت باشا ، فحل محله في الصدارة محمود

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٩٣ •

نديم باشا ، واختلف مدحت باشا مع الصدر الجديد حول السياسة المالية والعمرانية التي سار عليها في العراق فاضطر الى الاستقالة من ولاية بغداد في ٢٣ أيار ١٨٧٢م وعاد الى اسطنبول •

وعند وصول مدحت باشا الى اسنطبول اشتد الصراع بينه وبين محمود نديم باشا ، وكان هذا رجلاً مرتشياً لا يبالي أن يبيع أسرار الدول في سبيل المال ، وكان ميالاً الى روسيا حتى قيل انه كان أداة طيعة بيد السفير الروسي ايغناتيف يتقاضى منه مرتباً معيناً ما عدا الهدايا(١) ، وكان هذا أمراً ينسجم مع ميول السلطان فاشتد التعاون بينهما ضد مدحت باشا •

أخذ مدحت باشا يدعو الى اقامة الدستور والنظام البرلماني ، فالتف حوله كثير من المتعلمين والمتذمرين ، وبذا صارت اسطنبول ساحة صراع بين دعاة الدستور ودعاة الاستبداد • يقول الدكتور أحمد أمين في ذلك ما نصه : « اذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره ، وانجلى الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما : هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب ، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبدالعزيز وحوله الحاشية ومحمود باشا نديم رئيس الوزارة ، وهو يمد السلطان بكل ما يحتاج اليه من أموال الدولة ، ينفق منه أقله في المصلحة العامة وأكثره في شهواته ، ثم يؤيده كثير من المعممين من رجال الدين ، قد اشتريت ذممهم بما أغدق عليهم من أموال الأمة ، فهم يسمون كل حركة تدعو الى الاصلاح فتنة ، ويقولون : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم • وكان لكل معسكر أدباؤه وكتابه وشعراؤه ••• الدول الأوربية نفسها تدخل في هذا المعترك ؟ فانجلترا تعطف على مدحت ، لأنها بحكم نظامها تميل الى الديمقراطية والى الدستور ، ولان صلاح تركيا وهدوئها ما يعوق مطامع روسيا ؟ وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم ، وسفيرها في تركيا (ايغناتيف) يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ •

روسيا اذ ذاك »[1] •

استطاع مدحت باشا أن يحصل على قوة من الرأي العام تدعمه مما اضطر السلطان الى تكليفه بتولي الصدارة ، وعمد مدحت باشا على أثر تسلمه زمام الحكم الى تقديم محمود نديم باشا الى المحاكمة بتهمة اختلاس مائة ألف ليرة من أموال الدولة ، وتمكن من ادانته ولكن محمود نديم أذاع في المحافل بأن المبلغ الذي أدين به انما أنفقه على القصر السلطاني ، وما لبث السلطان أن أصدر أمراً بالعفو عنه • ولذا قدّم مدحت باشا استقالته بعد أن بقي في الصدارة مدة لا تزيد على الخمسة والسبعين يوماً • وبعد فترة غير طويلة تمكن السلطان من اعادة محمود نديم باشا الى الصدارة من جديد •

خلع السلطان :

أخذت المشاكل تتوالى على السلطان عبدالعزيز وصدره محمود نديم باشا ، فقد تتابع شتاءان قاسيان على الأناضول مما جعل الفلاحين يبيعون أولادهم من الجوع ، وأخذ الكثيرون منهم يهاجرون الى السواحل فمات منهم في الطريق عدد غفير • ثم نشبت ثورة في بلغاريا جرت فيها مذابح بين المسلمين والمسيحيين حسبما جرت العادة عليه ، فأرسل السلطان الى مواطن الثورة جنوداً بثياب مهلهلة وبطون خاوية ، وأخذت الصحف الأوربية على عادتها تطنب في ذكر الفضائع التي يقترفها المسلمون وتنسى ما يقترفه المسيحيون مع العلم ان الفريقين كانا من طراز واحد من حيث التعصب الأعمى والقسوة •

وفي تلك الآونة بلغت القروض الأجنبية على الدولة العثمانية مائتي مليون باون ، وكان ذلك مبلغاً هائلاً في معيار ذلك الزمان • وفي شهر آب من عام ١٨٧٥م أمر السلطان بتخفيض دفع الفوائد على القروض الى النصف

---

(١) أحمد أمين (زعماء الاصلاح في العصر الحديث) القاهرة ١٩٤٩ ـ ص ٣٧ ـ ٣٨ •

مما يعتبر دلالة على الافلاس ، ويقال ان السفير الروسي ايغناتيف هو الذي أوحى الى السلطان بذلك من أجل توسيع الفجوة بينه وبين الغرب . وقد أثار عمله هذا موجة شديدة من السخط في الغرب ، وأخذ عملاء الدول الاجنبية يعملون على اثارة الأحقاد الدفينة بين النصارى والمسلمين في البلاد العثمانية[1] .

وأخذ التذمر من نظام الحكم ينتشر بين الرعية شيئاً فشيئاً ، وكان مدحت باشا وأعوانه يزيدون في النار ضراماً . وفي ذات يوم تجمهر الطلبة في جامع محمد الفاتح ثم ساروا في مظاهرة صاخبة نحو الباب العالي وهم يهتفون بسقوط الصدر الاعظم محمود نديم باشا وشيخ الاسلام حسن فهمي أفندي، ولبثوا يحيطون بالقصر طيلة الليل حيث أعلنوا أنهم لا يتركون أماكنهم حتى تجاب مطاليبهم .

وفي صباح اليوم التالي أعلن السلطان أنه يلبي مطاليبهم للمرة الأولى والأخيرة ولكنه سيضطر الى انزال العقاب الصارم بهم اذا عادوا لمثلها . وصدرت الأوامر بعزل محمود نديم وحسن فهمي ، ثم تألفت وزارة جديدة يرأسها رشدي باشا فدخل فيها مدحت باشا وزير دولة ، كما أسندت مشيخة الاسلام الى رجل من المجددين هو حسن خيرالله أفندي .

كان واضحاً للناس منذ البداية أن السلطان لم يكن راضياً عن الوزارة الجديدة وأنها انما جاءت رغم أنفه ، وصارت الاشاعات تدور في اسطنبول عن احتمال خلع السلطان قريباً ، واستشعر السلطان بالخطر وعزم على تهريب ثروته وجواهره الى روسيا .

والواقع أن مدحت باشا وأعوانه كانوا يعملون في الخفاء لخلع السلطان . وقد اتصل مدحت باشا بالسفير البريطاني يطلب منه ايواءه مع أعوانه في بريطانيا فيما لو قدّر لحركته الفشل ، واستجاب السفير له وأصدر أمره الى السفن البريطانية الراسية قريباً بأن تتوجه نحو اسطنبول استعداداً

---

(١) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٥٩ .

للأمر . وقد انتقد بعض المؤرخين هذا العمل من مدحت باشا واعتبروه نوعاً من الخيانة الوطنية حيث قالوا : ان مدحت باشا كان عليه أن يفكر بالنتائج الوخيمة التي قد يتمخض عنها دخول الاسطول البريطاني في ذلك الظرف العصيب وما الفرق اذن بينه وبين محمود نديم باشا الذي كان مدحت باشا نفسه يتهمه بالتقرب من روسيا والسير في ركاب سياستها !؟[1] .

وجاءت الفرصة المناسبة لخلع السلطان في ٢٩ أيار ١٨٧٦م ، ففي ذلك اليوم كانت عربة سلطانية تسير في شوارع اسطنبول بسرعة جنونية وهي تحمل أكياساً من النقود الذهبية مقدارها مائة ألف ليرة ، وكان هذا المبلغ قد جبي من الناس لارساله الى الجنود الذين كانوا يقاتلون في بلغاريا بدون طعام وأحذية ، غير أنه بدلاً من ارساله الى اولئك الجنود أُرسل الى والدة السلطان حيث سارت به العربة الى قصر الحريم ، وقد أثار هذا الحادث مراجل الغضب في الأحياء القريبة من الميناء وتخللت صيحات الشعب الهائج كلمات مثل « كفر » و « نهب » . وكان غضب الأهالي شديداً بحيث خشي الوزراء مغبة قيام ثورة جامحة في اسطنبول[2] .

وعند هذا أسرع مدحت باشا وأعوانه الى شيخ الاسلام الجديد حسن خيرالله أفندي واستحصلوا منه فتوى بخلع السلطان كان هذا نصها : « اذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام في الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسية في درجة لا طاقة المملك والملة على تحملها وقد أخل بالأمور الدينية والدينوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعه ؟ الجواب : يصح . كتبه الفقير حسن خيرالله عفى عنه »[3] .

وفي ليلة ٣١ أيار ، وكانت ليلة ذات مطر وريح شديد ، أيقظوا

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٦٠ ــ ٦١ .
(٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ص٥٩ ــ ٦٠ .
(٣) محمد فريد بك (المصدر السابق) ص٣٢٠ .

السلطان عبدالعزيز من نومه وأخبروه بأنه مخلوع ، فتمالك نفسه ونطق بكلمة « قسمة ! » • ثم نُقل محجوراً الى أحد القصور السلطانية ، وكان قد اختار من جواريه ثلاثمائة ليعشن معه كما اختارت له أمه أربعة من الخصيان السود ليشرفوا على شؤون الجواري

لم يمض على السلطان المخلوع سوى أربعة أيام حتى وُجد في غرفته مقتولاً ، وقد أسرع الوزراء فاستدعوا لجنة طبية للكشف عنه ، وتألفت اللجنة من تسعة عشر طبيباً كان منهم ستة أطباء من السفارات الاجنبية ، وقررت اللجنة أنه مات منتحراً بقطع أحد العروق من ذراعه الأيمن ولكن خصوم مدحت باشا أشاعوا أن السلطان المخلوع مات مقتولاً وان الوزراء هم الذين قتلوه ثم عمدوا الى رفع الشبهة عنهم باستدعاء اللجنة الطبية ونشر تقريرها في الصحف •

قمة الصراع :

يذهب بعض المؤرخين الى القول بأن خلع السلطان عبدالعزيز لم يكن في الواقع من جراء تبذيره أو استهتاره بأموال الدولة بل كان من جراء انحرافه عن بريطانيا وفرنسا واتجاهه نحو روسيا • ومن هؤلاء المؤرخين محمد فريد بك صاحب كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، فهو يقول في ذلك ما مضمونه : ان السلطان عبدالعزيز أدرك أن تحالف الدول الغربية مع الدول العثمانية في حرب القرم وما بعدها لم تكن نتيجته سوى اضعاف الدول العثمانية ، والتدخل في شؤونها ، وتشجيع المسيحيين من رعاياها على الانشقاق ، وبث روح الفتنة والفساد في بلادها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم ، وقد عاد ذلك بالنفع على روسيا جارتها القوية وعدوتها القديمة ، ولهذا ارتأى السلطان عبدالعزيز أن الأولى والانجح لسياسة الدولة هو التباعد عن تلك الدول والتحالف مع روسيا، وقد أيّده على هذا الرأي الصدر الأعظم محمود نديم باشا ، والمتواتر أنهما كانا يسعيان لوضع معاهدة هجومية

دفاعية مع روسيا فلما سمعت الدول الأوربية بذلك أخذ عملاؤها وسفراؤها ـ الظاهرون والسريون ـ يبثون الوساوس في عقول السذج من أهل اسطنبول وينسبون الى السلطان التبذير والاسراف وعدم الكفاءة لادارة مهام الملك ، وما زال هؤلاء يوسوسون للناس ويلقون بذور الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله ، وصادفت دسائسهم أذنا صاغية عند بعض العلماء الذين كانوا لا يميلون الى السلطان بسبب خروجه من مملكته وزيارته معرض باريس وحضوره المسارح التمثيلية والمراقص[1] •

مهما يكن الحال فقد حل محل السلطان عبدالعزيز على العرش ابن أخيه السلطان مراد ، وكان هذا فيما اشتهر عنه ميالاً الى الدستور ومعجباً بالحضارة الغربية ، وقد فرح مدحت باشا وأعوانه به غير أن فرحتهم لم تدم طويلاً إذ لم يلبث السلطان مراد أن أصيب بالجنون وأصبح غير قادر على القيام بواجبات الملك • واضطروا عندئذٍ الى خلعه والى الاتيان بأخيه عبدالحميد ليحل محله على العرش •

ليس هنا مجال الحديث عن السلطان عبدالحميد ، فهو موضوع طويل ولعله اهم موضوع في تاريخ الدولة العثمانية كله وسوف نتحدث عنه باسهاب في الجزء القادم من هذا الكتاب ، ويكفي هنا أن نقول ان الصراع بين القديم والجديد بلغ القمة في عهد هذا السلطان •

أخذ السلطان عبدالحميد يكافح الدستور ودعاته من جهة ، ويدعو الى الجامعة الاسلامية من الجهة الاخرى، وصار ينظر الى الدول الاوربية كلها بمقياس واحد لا فرق فيه بين روسيا أو بريطانيا حسب المبدأ القائل « الكفر ملة واحدة » ، فهي كلها في نظره تريد هدم الاسلام وابتلاع البلاد الاسلامية ، وما الدعوة الى الدستور أو التمدن أو غير ذلك من المبادىء الجديدة الا أحابيل جاءت بها أوربا لتمزيق صفوف المسلمين وخداعهم •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٣١٩ ـ ٣٢٠ •

الفصل الثالث

ولاية علي رضا باشا

ان علي رضا باشا ـ ويسمى أيضاً علي باشا ـ هو أول الولاة الذي حكموا العراق بعد القضاء على المماليك في ١٨٣١م ، وتمثل ولايته بداية عهد جديد في العراق هو عهد العودة الى طاعة الدولة العثمانية بخلاف ما كان عليه الوضع في العهد السابق عندما كان العراق شبه مستقل عنها ٠

أول عمل قام به علي رضا باشا في بغداد هو تدبيره لمذبحة المماليك[1]، وهي مذبحة تلفت النظر لأنهـا جاءت عقب مذبحتين سـابقتين : حدثت أولاهما في القاهرة عام ١٨١١م حيث قضى بها محمد علي باشا على المماليك في مصر ، والثانية حدثت في اسطنبول عام ١٨٢٦م حيث قضى بها السلطان محمود على الانكشاريين ٠ والظاهر أن محمد علي باشا كان المبدع الأول لفكرة المذابح وقد اسـتفاد منها اسـتفادة كبيرة لانـه تخلص نهائيـاً من خصوم لـه دأبوا عـلى الكيد به ، وقد قلده فيها السلطان محمود للقضاء على الانكشاريين الذين كانوا يشاغبون دائماً في مقاومة كل تجديد للجيش أو اصلاح له ، وعندما نجح في التخلص منهم أوعز الى علي رضا باشا أن يقوم بمذبحة مماثلة في العراق للتخلص من المماليك وقام هذا بما أوعز به السلطان اليه ٠

وبعد أن تم القضاء على المماليك صـــدر الأمر باستصفاء أملاكهم وما حصلوا عليه طيلة مدة حكمهم الذي استمر ثمانين ســـنة تقريباً ٠ وانتدبت الدولة رجلاً خبيراً بالشؤون المالية والحسابية اسمه عارف أفندي

---

(١) انظر تفاصيل المذبحة في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ الفصل العاشر ٠

الدفتري ، فوصل هنا الى بغداد على عجل ، وأخذ جلاوزة الوالي يطاردون أقارب المماليك ونساءهم ويعذبونهم لكي يعترفوا بمواضع ثرواتهم المخبوءة والذهب المدفون ، وكان أولئك الجلاوزة لا يترددون ان يضعوا سيقان النساء في « الفلقة » ويكووا أبدانهن بالسفافيد المحماة بالنار بغية قسرهن على البوح بالأسرار ، غير أن الحصيلة من ذلك لم تكن وافرة كما كانوا يتوقعون • وقد وضعت الحصيلة في المزاد ثم أرسلت المبالغ الناتجة عنها الى « الجيب الهمايوني » في اسطنبول[١] •

شخصية علي رضا :

ان علي رضا باشا هو في الأصل من أهل طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، وينتمي الى قبيلة اللاظ ـ أو اللاز كما تلفظ في اللغة التركية ـ ولهذا اشتهر باسم « علي رضا اللاظ » • وقد وُصف هذا الوالي عند مجيئه الى العراق بأنه كان بديناً في الخمسين من عمره يضع الطربوش على رأسه ويبدو عليه الشيء الكثير من سحنة التتر ولكن بشكل مقبول[٢] •

ويقول المؤرخ لونكريك عنه ما نصه : « بقي علي رضا باشا رأساً للحكومة في بغداد وملحقاتها البصرة وكركوك مدة احدى عشرة سنة • وقد أبدى خلال اشتغاله في هذه المدة شيئاً من حرية الفكر • وكان كرمه مضرب الأمثال ، كما كانت سماجته مختفياً قسم كبير منها وراء اعتداله • وكان يتلائم مع دعاة التقدم من الاجانب ، لأنه كان خلواً من التعصب والاندفاع بالكلية • يضاف الى ذلك أنه كان ذا أخلاق سامية ، وله رغبة في عمل الخير الحقيقي ، زيادة على ميوله الأدبية والعلمية • على أنه كان

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص١٢ •

(٢) جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر) ترجمة جعفر الخياط ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص١٤٨ •

حاكماً فاشلاً حقاً ، فقد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل أن يحرك قبيلة على أخرى . وكان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن اجهاد نفسه في العمل ، فأصبح بذلك مضطراً للخضوع الى أسوأ المشاورين . ولم يك قادراً على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية .. »[1].

كان علي رضا باشا قد أبقى زوجته في حلب ولم يأت بها الى العراق ، ولكنه لم يمض على وصوله الى بغداد سوى شهرين ، أو أقل من ذلك ، حتى زفت له زوجة ثانية وهي فتاة « گرجية » حسناء من بنات المماليك تدعى سلمى خاتون . ويعلق سليمان فائق على هذا الزواج فيقول ما معناه ان بقاء الوالي في بغداد بدون زوجة يعتبر في نظر الأهالي من الأمور غير المألوفة فأشار عليه بعضهم باختيار زوجة له من بنات المماليك لا سيما وأن زوجته التي تركها في حلب لم تنجب له ولداً ذكراً[2] .

لست أدرى الى أي حد يصح هذا التفسير الذي جاء به سليمان فائق ؟ أرجح الظن أن علي رضا باشا لم يكن يكترث لأقوال الناس بمقدار ما كان يكترث للذاته الخاصة ، ويبدو أنه كان مفتونا بالجمال « الگرجي » علماً بأن هذا الجمال كان يضرب به المثل في بغداد ، ولا يزال البغداديون حتى الآن اذا أرادوا وصف امرأة بالجمال المفرط قالوا عنها : « كأنها گرجية ! » .

الشائع عن علي رضا باشا أنه كان شديد الميل الى الخمرة وربما كان مدمنا عليها . قيل انه حين يعود مساءاً من حفلاته الداعرة في البساتين يكاد لا يقدر على المشي من شدة السكر ، ولعله بسلوكه هذا قد شجع الفساق

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر الخياط ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص٢٨٥ .

(٢) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نورس ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص١٨٢ .

على الاقتداء به فصارت رذيلة السكر في عهده عادة مألوفة مع العلم أنها كانت في عهد سلفه داود باشا من الأمور المعيبة التي يحاول اصحابها التكتم فيها[1] .

والمعروف عن علي رضا باشا أنه كان من أتباع الطريقة البكتاشية وهي طريقة صوفية تغالي في الأئمة الاثنى عشر غلواً شديداً . قيل انه كان اذا حل شهر محرم وهو الشهر الذي قتل فيه الامام الحسين اعتكف في قصره وترك الشهوات ، وكان له شاعر من أهل الكاظمية هو الشيخ صالح التميمي ، وقد نظم له هذا الشاعر قصيدة في رثاء الحسين فكان يقرأها له في شهر محرم[2] .

بغداد في عهده :

كانت بغداد في بداية حكم علي رضا باشا قد فقدت القسط الاكبر من عمرانها وسكانها نتيجة تعاون الطاعون والفيضان عليها على نحو ما ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد أعطانا السائح البريطاني فريزر الذي زار بغداد في ١٨٣٤م وصفاً مريعاً للوضع الذي كانت عليه آنذاك : فقد انخفض عدد سكانها الى الخمسين ألفاً بعد ما كان قبل ذلك مائة وخمسين ألفاً ، ومات بالطاعون معظم التجار والصناع وأرباب الحرف ، وفي بعض الصناعات التي اشتهرت بها بغداد لم يبق من أصحابها أحد ؛ فاذا سألت عنها في الأسواق قيل لك : « آه ، ان ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا »[3] .

أما أبنية بغداد فقد قضى على معظمها الفيضان كمثل ما فعل الطاعون بالبشر ، وتقدّر المساحة التي هدم الفيضان أبنيتها في جانب الرصافة

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص٢٠٠ .
(٢) علي الخاقاني (شعراء الحلة) النجف ١٩٥٢ ــ ج٣ ص١٥٢ .
(٣) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١١٢ .

بما يناهز الثلثين من مجموع المساحة العامة ، فأصبحت كلها خرائب مليئة بالماء ، ومن الغريب أن مساحة كبيرة من الأرض قد انخسفت بتأثير الماء المتراكم وضغطه فكونت تجاويف وأوجار عميقة في البساتين الواقعة في القسم الجنوبي من المدينة ما بين دجلة ومحلة باب الشيخ ، وأخذت حتى الابنية التي ظلت قائمة يظهر عليها الكثير من الشقوق المخطرة من جراء تأثير الماء على أسسها . وكان جانب الكرخ أكثر تهدماً وخراباً من جانب الرصافة اذ لا يمر الانسان هناك الا بين جدران متهدمة أو مائلة للانهدام ، وانقاض ما كان في يوم من الأيام كتلة كثيفة من المساكن . أما سور المدينة في كلا الجانبين فهو متهدم كذلك ومتداع تظهر فيه الثغرات الكبيرة التي دخل منها ماء الفيضان الى المدينة[١] .

وكان قصر داود باشا الفخم الذي بذل في عمرانه وتزيينه المال الكثير قد ناله الخراب أيضاً ، والمظنون أنه كان في محل « القشلة » الحالية مشرفاً على النهر ، فاضطر علي رضا باشا الى النزول في احدى الدور التي لم ينلها الخراب من دور المماليك ، ثم أمر باعادة بناء السور لقصر داود باشا بغية جعله ثكنة لجنوده[٢] .

وفي الوقت الذي كان فيه الخراب لا يزال سائداً في بغداد عاد وباء الطاعون اليها مرتين ، وقد حصد في المرة الأولى خمسة آلاف شخص ، وفي الثانية سبعة آلاف . وكان الوباء الأخير قد وقع في أيار من عام **١٨٣٤م** حيث انتقل الى العراق من كرمانشاه ، وكان القنصل البريطاني قد حذّر الوالي من سوء العاقبة قبل حلول الوباء ونصح بمنع مجيء القوافل الى بغداد غير أن الوالي لم يعمل بنصيحته ، وقيل انه كان يطمع بالأتاوي التي يقبضها من الزوار الايرانيين . وعندما ظهرت أولى بوادر الوباء أخذ

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢١٩ ـ ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ص١٣٠ .

الكثير من سكان بغداد يهربون منها نحو القرى والبراري ، وكان اليهود من جملة الهاربين اذ خرجوا كلهم فنجوا[1] •

يمكن القول ان بغداد لم تشهد طيلة قرون عديدة كارثة مثل تلك الكارثة حيث تتابعت عليها ثلاثة طواعين في خلال ثلاث سنوات علاوة على الفيضان المدمر • وقد ظلت ذكرى هذه الطواعين عالقة في أذهان البغداديين حتى زمن متأخر ، فصاروا يؤرخون بها كما أرخ عرب الجاهلية بعام الفيل • وقد أدرك كاتب هذه السطور في صباه الناس وهم اذا أرادوا وصف أحد منهم بالهرم قالوا عنه انه « يفطن على الطواعين » ، والمظنون أنهم كانوا يقصدون بها الطواعين الثلاثة التي حدثت في بغداد بين عام ١٨٣١م وعام ١٨٣٤م •

جلاوزة الوالي :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد على الوضع السيء الذي ذكرناه آنفاً كان للوالي جلاوزة يعاونونه في الحكم ويعدّون من أشد الناس ظلماً ودناءة ، فكانوا يقسون على الناس في الجبايه ويغتصبون الاموال منهم ويؤذونهم في كل سبيل • وقد رأينا نموذجاً من مظالمهم في تعذيبهم لنساء المماليك من أجل استصفاء أموالهم •

اشتهر من هؤلاء الجلاوزة ثلاثة هم : علي أغا اليسرچي ، وعبدالقادر ابن زيادة الموصلي ، وعلي أفندي الذي اشتهر في بغداد باسم « الملا علي الخصي »• وقد ورد وصف لهؤلاء الثلاثة في كتاب مجهول المؤلف مكتوب بلغة قريبة من العامية ، والظاهر ان المؤلف عاصرهم وشهد أعمالهم فهو يروي في كتابه شيئاً من مظالمهم ، ويحسن بنا نقل بعض ما كتب في هذا الصدد لكي يطلع القاريء به على المرحلة الاجتماعية التي كان يعيش العراقيون فيها آنذاك •

---

(١) المصدر السابق ــ ص١١٣ •

قال المؤلف عن أحد اولئك الثلاثة وهو علي أغا اليسرچي : « كان لا يعرف سياسة الحكومة ، ولا يدرك شيئاً ، غير أنه يحبس المسلمين ويأخذ دراهمهم ، كما أنه كان مولعاً بالزنا، وتزوج امرأة فاحشة مجاهرة، وجعل يخلو نهاره معها ... » .

ثم قال المؤلف عن الجلواز الثاني وهو عبدالقادر الموصلي الذي كان يتولى أمر الكمرك في بغداد : « ... أتى مع الوزير علي باشا من حلب ، وكذلك فشا ظلمه في بغداد . ومن بعض ظلمه كان يتعاطى التجارة وهو وال على الكمرك ، وتأتيه المكاتيب من الشام وحلب وغيرها من شركائه وعماله ، ويخبرونه عن أجناس البضاعة وعن أسعارها ، فيرسل ما شاء ، واذا أراد تاجر من تجار بغداد أن يرسل من ذلك الجنس لم يدعه يرسل، بل يمنعه من ارساله ، وهذا دأبه الى أن وقف أمر التجار . وفي أيامه يأكل الناس أموال بعضهم بعضاً ويأتون اليه ويرشوه فيساعدهم على أكل أموال عباد الله . وهذا كان دأبه ، ولا يبالي من أحد ولا من علي باشا ، ولا من الحكيم العليم ... كان بخيلاً أبخل من كلب بني زائدة ، خماراً لواطاً ، يفحش في كلامه وسائر أوقاته ، خال من الكمال ومآثر السياسة ... من يرشوه برشوة وافرة يحكي مع الوزير ويأخذ له المنصب من امارة ومشيخة والتزام ميري وضمان وما أشبه ، ويصك له صكاً ... وجرى على هذه الحالة احدى عشرة سنة الى أن أكل جميع ايراد بغداد ، وصار عنده كنوز ، وكثرت أمواله . وكان عنده أربعة غلمان يلوط بهم ، اثنان مماليكه ، واثنان من أولاد الناس . وكل سبت يطلع خارج البلد ويعمل وليمة ويشرب الخمر مجاهرة ، وجعلها وظيفة على جلسائه من التجار ، كل أسبوع على واحد ، وهو أيضاً يوم عليه ، حمله على ذلك البخل وحب المال ، ومنهم ما يودون يعملون الوليمة ولكن يعملونها مخافة منه . ومناقبه أيضاً شنيعة جداً ، حتى انه تجرأ على رجل من أهل بغداد ، أمر بقتله في مربط خيله ، بسبب أنه متعرض بأحد غلمانه ، قتله ظلماً ولم يخف من

أولياء المقتول ولا من الوزير علي باشا . وله اخوان جعل واحداً والياً على البصرة ، والآخر على الحلة ، ويجلبون الأموال اليه ، ومع هذه الصولة ما تصدق يوماً بمائة درهم ، ولا أجاز شاعراً ... » .

ويصب المؤلف معظم نقمتـه عـلى الجلواز الثالث ـ أي الملا علي الخصي ـ فهو يقول عنه : « ومبدأ أمره كان كاتباً في قرية الخالص .. رجل ذميم الخلقة ، وجهه وجه الخصي ، منهم من يدعى أنه خصي .. وله زوجة لم تلد منه ، ووجهه أمر مهول كوجه القرد بل اسوأ حالاً من القرد والخنزير . فالمذكور قدمه الوزير وجعله بمنزلة قائد الجيش ، وجعل بيده ميري العشائر ... وهؤلاء المسلمون مظلومون حيث سـابقاً كان يعطي الرجل خمسة عشر قرشاً والذي ضاعفها هذا الكلب ملا علي الخصي ... وهذا الكلب الخصي يغصب عياناً مجاهرة ، ويفتخر بفعله ، والوزير علي باشا مطلع بذلك ولم يعارضه ولا ينهاه ... فالخصي المذكور كان مقدماً عنده وكان يظهر الى خارج البلد وينهب سواد العراق وهم أعراب فلاحون ... يأخذ أغنامهم وجميع مالهم من الدواب ، ويبيعونهـا على جزارين بغداد غنمهم ، والبقر يرمونها على أهالي البساتين ويحسبونها عليهم ، الدابة التي تباع بمائة يأخذون منهم ثلثمائة ، وأمثال ذلك ، حتى اذا مات شيء من هذه الدواب يقطعون اذناها ويجرونها بثمن دابة حية قبل تسليمهم اياها . ولزيادة طغيانه يحبس الناس في بيته ويضربهم أشد ضرب ولا يطلقهم حتى يأخذ منهم مالاً ، لا يستطيعون أداءه ويبيعون أملاكهم وهم مسجونون عنده في بيته ... وأن أعجاماً تبعة ايران قطانين يبيعون القطن رمى عليهم جاموساً ويأخذ أضعافاً عن أثمانهن مضاعفة ، وعلى بياعين الحطب يرمي عليهم جاموساً ويأخذ كما يأخذ من المذكورين . والحيرة أن الاعاجم الذين ذكرناهم مساكنهم لا تدخل فيها الجمس وهم حائرون في بيعها ويدورون بها في الطرق ولا مأوى عندهم . ويدور في نفسه في الميدان فكلما رأى فرساً جيدة غصبها من مالكها قهراً ، وأخذ خيلاً من أصحابها

من شيوخ العرب وسائرهم بهذه الصورة ، والناس يخافون من سطوته وجوره • وكل هذه الفعال يعلم بها علي باشا الضال ، حتى أنه جاء الى الجسر يريد العبور فوجد امرأة مارة أمامه أيضاً تريد العبور فضربها بعصاة بيده كان يحملها برأسها ضربة شديدة فماتت من ساعتها ••• وهاشميون أدخلهم في قلم الميرى ، وأخذ منهم الخانة ، وجرت العادة الهاشميون ما يعطون ميري الخانة التي تؤخذ من غيرهم من العشائر ، وهذا الخبيث يأخذ أموال الرعية ويتصدق من بعضها على فقراء الناس • ووجوه أهل بغداد لا قدرة لهم عليه ، بل بعضهم يتأمل من اكرامه • فيا تعساً له من زمان ••• وجوه بغداد لم يكن أحد منهم يخاطب الوزير في هذا الخبيث مع أنه كان يوجد من أرباب العلم وأهل الصادة ••• »[1] •

انتفاضة جميل زادة :

تُعتبر انتفاضة جميل زادة من أهم الأحداث التي حدثت في عهد علي رضا باشا ، ر..ي قد جرت في السنة الثانية من ولايته وكان المتزعم لها والمحرض عليها عبدالغني جميل زاده الذي كان يتولى يومذاك منصب الافتاء وهو جد أسرة آل جميل المعروفة الآن في بغداد •

كان السبب المباشر للحادثة هو أن احدى نساء المماليك وهي أرملة رضوان أغا ، وكانت سيدة علوية من أسرة نقيب مندلي ، قد التجأت الى عبدالغني تحتمي عنده من مطاردة الجلاوزة لها ، وأودعت لديه طلفها البالغ من العمر ست سنوات ، غير أن الجلاوزة لم يحترموا حماية المفتي لها فقبضوا عليها وعذبوها ، وقد أدّى تعذيبهم لها الى اكتشاف « مشارب » نحاسية مليئة بالذهب ، فغضب المفتي من ذلك واحتج لدى الوالي دون أن يجدى احتجاجه شيئاً •

لا نعرف تفاصيل ما حدث بعدئذ ، والمؤرخون ساكتون عن ذلك

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٤٩ ـ ٥٥ •

لسبب لا نعرفه ، وكل ما لدينا من معلومات في هذا الشأن هو أن مظاهرة خرجت في يوم ٢٨ أيار ١٨٣٢م من محلة قنبر علي وهي المحلة كان المفتي يسكن فيها فانضم اليها الكثيرون من أبناء المحلات الأخرى ، وتوجهت المظاهرة نحو السراي وهي تنوي الهجوم عليه كما يبدو • ثم وقعت معركة حامية بين المتظاهرين وحرس السراي سقط فيها عدد من القتلى ، وتقدمت المظاهرة نحو باب الحرم ، غير أن الوالي استطاع أن يلم شعثه ويعبيء جنوده ، فشتت شمل المتظاهرين ، ثم سلط مدافعه على محلة قنبر علي فأشعل فيها النار[1] • وقد نهبت دار المفتي ثم أحرقت ، فتلفت مكتبته الثمينة التي يقدر عدد كتبها بنحو سبعة آلاف[2] •

واستطاع المفتي أن يهرب الى جانب الكرخ حيث التجأ هو وابن عمه عبدالرزاق الى عشيرة عقيل الساكنة هناك ، وقد تمكنت العشيرة من تهريبه مع ابن عمه الى بلدة عانه ، فبقي فيها سنة واحدة ثم عاد الى بغداد • ويقال ان الوالي استدعى عبدالغني بعد أن هدأت الفتنة وعرض عليه المقاطعات الجسيمة فلم يقبل منه ذلك ، وظل غاضباً ثائراً طيلة حياته وعبر عن غضبه وثورته بقصائد شديدة اللهجة عربية الروح والاندفاع • وقد جاء في قصيدة له يصور فيها حالة العراقيين وموقفهم منه قوله :

أجول بطرفي في العراق فلا أرى	من الناس الا مظهر البغض والشحنا
فخيرهم للأجنبي وقبحهم	على بعضهم بعضاً يعدونه حسنا
طوينا عن الزوراء لادرّ درها	بساطاً متى ينشر يعدونه طعنا
واني وان كنت ابنها ورضيعها	فقد أنكرتنا لاسقاها الحيا مزنا[3]

---

(١) انظر مقالة جعفر الخياط في جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ٢٢ كانون الثاني عام ١٩٦٤ •

(٢) محمود شكري الآلوسي (المسك الأذفر) بغداد ١٩٣٠ — ص ١٢٨ •

(٣) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ — ص١٦٨ — ١٧٠ •

وجهة نظر :

ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب رأياً للمؤرخ المصري الدكتور عبدالعزيز نوار حول ما قام به البغداديون عام ١٨٣١م من دفاع عن داود باشا ومحاربة للجيش السلطاني القادم ، فهو يرى أن البغداديين انما فعلوا ذلك بدافع وطني وقومي لأنهم كانوا يعتبرون داود باشا أجدر من الاتراك بحكم العراق وأن على السلطان أن يحترم مشيئة أهل البلاد في تعيين حاكمهم[1] .

وللدكتور نوار رأي آخر يشبه هذا الرأي فيما يخص انتفاضة جميل زادة ، اذ هو يعتقد أن تلك الانتفاضة كانت من وحي الفتح المصري لبلاد الشام ونتيجة التجاوب مع محتواه القومي . انه يقول في ذلك ما نصه :

« ... على أن الانتصارات المصرية في الشام (١٨٣١ - ١٨٣٢م) كانت أكبر دافع لعبدالغني في اعلان ثورته . ولدينا من الوثائق ما يكشف عن أن أهل بغداد كانوا على استعداد لفتح أبواب العراق بأسره لا أبواب بغداد فقط لاخوانهم عرب مصر . كان أهل بغداد في فرحة كبرى عندما علموا بأن الشام تحرر من حكم الولاة العثمانيين . ولم يكن عرب العراق يعرفون كثيراً عن محمد علي والي مصر ، وانما كانوا يعرفون الكثير عن مصر والمصريين وعن أصالة العروبة في مصر وعن تفوق الحضارة العربية بها ، فكانوا خلال نشوتهم بتلك الانتصارات المصرية يفخرون بجيش مصر العربي ويبدون دهشتهم بالفلاح المصري الذي ترك فأسه - التي عاش عليها فقط قروناً طويلة - الى المدفع والى الشراع والى الآلة والى الدراسات العالية . أدهشتهم رجولته في ميدان المعركة واتقانه للتشكيلات العسكرية بسرعة عجيبة . ان هذه النقلة ليست في الواقع نقلة فجائية ، وليست من عمل رجل واحد ، وانما هي تلبية لتطور عام كان يدفع بمصر نحو الدور

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب - بغداد ١٩٦٩ - ص٢٨٢ .

الذي يجب أن يلعبه في تحقيق الهدف الطبيعي الذي كانت تتجه اليه البلاد العربية ، وهو توحيد البلاد العربية تحت حكومة واحدة • هذه المشاعر التي لم تكن واضحة من قبل وظهرت جلية عندما كسبت القوات المصرية انتصاراتها الأولى على أرض فلسطين سنة ١٨٣١م ••• فثورة عبدالغني جميل قررت أن ينفض أهل العراق أيديهم من الولاة العثمانيين ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وأن يكون لأهل العراق رأيهم في الوالي الذي يتولى أمرهم ، بل وأن يكون من بينهم ، وأن يضعوا أيديهم في أيدي المصريين ••• »[1] •

يبدو لي أن الدكتور نوار تجنّب الموضوعية في رأيه هذا كما فعل في رأيه الأول ، ولعل الحماس قد دفعه الى أن يكون خطيباً بدلاً من أن يكون باحثاً • يجب أن لا ننسى أن أهل بغداد لم يكونوا في ذلك الزمن يتحسسون بمثل تلك الأحاسيس التي يريد الدكتور نوار أن ينسبها اليهم كمشاعر القومية والوحدة والعروبة وما أشبه ، فهذه لم تظهر في العراق بالصورة التي يصفها الدكتور نوار الا في عهد متأخر جداً •

غفل الدكتور نوار عن أمر كان الجدير به أن لا يغفل عنه هو أن انتفاضة جميل زادة حدثت قبل أن ينال الجيش المصري انتصاراته الكبرى في بلاد الشام ، فقد كان الجيش المصري آنذاك لا يزال يحاصر عكا وقد مضى على حصاره لها ستة أشهر دون أن ينال منها شيئاً حتى بدأ اليأس ينتشر بين المصريين وراجت الاشاعات المخذّلة بينهم على نحو ما ذكرناه في الفصل الاول • لا أنكر أن انتفاضة جميل زادة حدثت في اليوم التالي لليوم الذي سقطت فيه عكا بيد الجيش المصري وهو ٢٧ أيار ١٨٣٢م ، ولكن الذي يجب أن لا ننساه هو أن أهل بغداد لم تكن لديهم في تلك الايام

---

(١) عبدالعزيز نوار (ثورة ١٨٣٢ في العراق) مجلة الهلال ـ القاهرة ١ شباط ١٩٦١ ـ ص٢١ ـ ٢٣ •

وسائل مخابرات سلكية أو لاسلكية يستطيعون أن يطلعوا بها على أخبار العالم عند وقوعها كما هو الحال في أيامنا • ويرجح في ظني أن أكثر البغداديين الذين اشتركوا في مظاهرة قنبر علي لم يكونوا يعرفون شيئاً عن حصار عكا أو يهتمون به ، كل ما كانوا يعرفونه هو أن المفتي قد استنجد بالمغاوير من أبناء محلته ونخاهم لحماية « العلوية الشريفة » أرملة رضوان أغا ، فهبوا لنجدته كما هي عادتهم في مثل هذه الحالة •

حدثني حسين جميل المحامي ، وهو من أسرة عبدالغني جميل زادة ، نقلاً عن بعض الرسائل التي كتبها عبدالغني في بلدة عانة أثناء التجائه اليها بعد فشل ثورته أنه قال : « اني لم أثر على السلطان بل على مظالم الوالي التي حلت بالأهالي » • ان هذا القول ربما كتبه عبدالغني للدفاع عن نفسه تجاه السلطان الذي هو في نظر عبدالغني « ولي الأمر » والخليفة الذي تجب طاعته ، ولكنه على أي حال قول قد لا يخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيراً •

الثمرة الناضجة :

قد يصح أن نقول ان انتفاضة جميل زادة حدثت قبل أوانها بفترة وجيزة ، فهي لو كانت تأخرت بضعة أسابيع لكان لها شأن يذكر ولربما كانت سبباً في تغيير مجرى التاريخ في العراق •

رأينا في الفصل الأول كيف انطلق الجيش المصري بعد سقوط عكا زاحفاً نحو الشمال بحيث اتم احتلال بلاد الشام كلها خلال مدة قصيرة ، ولابد أن نشير هنا الى أن ابراهيم باشا لم ينس وهو في زحمة انتصاراته أن يرسل دعاته وكتبه الى بعض عشائر العراق ومدنه يحرضهم على الانضمام الى حركته في العصيان على الدولة العثمانية ، وقد لقيت دعوته شيئاً من النجاح في شمال العراق •

ففي الموصل أعلن يحيى باشا الجليلي العصيان على الدولة ، وسانده

صفوق شيخ مشايخ شمر فانحدر نحو الجنوب وحاصر بغداد ثلاثة أشهر وأخذ يقطع الطرق وينهب القرى. وانتهز الفرصة محمد باشا أمير راندوز الذي اشتهر باسم « ميركور » ـ أي الأمير الأعور ـ فاستولى على أربيل وزاخو ودهوك وجزيرة ابن عمر ، واجتاح بعض القرى القريبة من الموصل ، فكانت أنباء انتصاراته تصل الى القيادة المصرية في الشام والقاهرة فتلقى فيها ترحيباً ، وقيل ان اتفاقاً حصل بينه وبين محمد علي باشا على استقلال كردستان تحت رئاسته .

ظن هؤلاء الثائرون الثلاثة ـ أي يحيى باشا ومحمد باشا والشيخ صفوق ـ أن جيوش مصر ستدق عن قريب أبواب العراق المتداعية وأن الحكم العثماني سينهار فيه ، فأخذ كل واحد منهم يسعى نحو توسيع نصيبه من الأسلاب قبل فوات الأوان . ولو أن جميل زادة كان قد قام بانتفاضته في ذلك الحين لأصاب نجحاً غير قليل .

يمكن القول بوجه عام أن العراق كان في صيف ١٨٣٢م أشبه بالثمرة الناضجة ، وكان في مقدور ابراهيم باشا أن يقتطفها بسهولة لو أراد ، ولكنه كان فيما يبدو غير راغب في ذلك اذ كان همه منصباً على فتح اسطنبول ، وتشير بعض القرائن الى أنه كان لا يميل الى فتح العراق ويعتبره من الأقطار التي تضر من يفتحها اكثر مما تنفعه ، فهو لا يريد حكم العراق حتى في حالة موافقة الدولة العثمانية على ذلك[١] .

عنزة تهدد بغداد :

حين تم عقد الصلح بين محمد علي باشا والدولة العثمانية في نيسان ١٨٣٣م بدأت الدولة تنتقم من الذين انتهزوا فرصة الحرب وأعلنوا تعاونهم مع المصريين ، وقد تمكنت الدولة من عزل يحيى باشا الجليلي في الموصل

---

(١) عبدالعزيز نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٣٠ .

ومن القاء القبض على الشيخ صفوق ونقله الى اسطنبول مخفوراً كما تمكنت من القضاء على محمد باشا أمير راوندوز •

ومرت على العراق بعد هذا فترة هادئة نسبياً خلا فيها من الفوضى وعيث العشائر الى حد ما ، ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً • ففي النصف الثاني من عام ١٨٣٤م أحاط ببغداد خطر جديد هو الخطر الآتي من عشيرة عنزة •

كانت عشيرة عنزة من أشد العشائر العراقية بداوة اذ هي جاءت من نجد منذ عهد قريب واشتبكت مع عشيرة شمر التي جاءت قبلها في نزاع عنيف أربك المجتمع العراقي زمانا طويلاً • وفي صيف ١٨٣٢م عندما كانت عشيرة شمر تهدد بغداد أرسل الوالي علي رضا باشا الى عشيرة عنزة يستعين بها على قتال شمر ، فجاءت عنزة على عجل وهي تطمع بمكافأة كبيرة أو غنائم وافرة ، ولكنها لم تحصل من ذلك على شيء لأن عشيرة شمر انسحبت من تلقاء نفسها دون حرب ، وبقيت عنزة بالقرب من بغداد تطالب الوالي بالمكافأة التي كان قد وعدها بها • وتوترت العلاقة بينه وبينها فهي تريد منه المكافأة وهو يرفض اعطاءها •

اضطر الوالي في هذه المرة أن يستعين بعشيرة شمر لقتال عشيرة عنزة ، وجاءت شمر تريد الانتقام من عدوتها التقليدية • وفي يوم ١٢ تشرين الثاني من عام ١٨٣٤م نشبت معركة طاحنة على مقربة من بغداد بين عشيرة عنزة من جانب ، وجيش الوالي مع عشيرة شمر من الجانب الآخر ، وقدّر عدد المقاتلين من عشيرة عنزة بخمس وثلاثين ألفاً ، وانتهت المعركة بانتصارهم ، غير أنهم تركوا جيش الوالي وأخذوا يطاردون أعداءهم الشمريين ، وكانت هوساتهم : « خل النظام واقتل الجربا »[١] ، ومعناها : اترك جنود الحكومة واقتل عشيرة شمر •

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١٣٣ ـ ١٣٤ •

وبعد انتهاء المعركة أصبحت المنطقة المحيطة ببغداد في حالة من الفوضى وفقدان الأمن لا تطاق ، فقد سيطرت عنزة على القرى والطرق ، وأخذ القرويون والرعاة وأهل البساتين يتركون أماكنهم ويلجأون الى داخل أسوار بغداد يحتمون بها ، فاكتضت بغداد بهم وامتلأت الطرقات والأزقة بحيث لا يستطيع الانسان أن يسير فيها الا بصعوبة .

كان السائح البريطاني فريزر يومذاك في بغداد ، وفي ٢٨ تشرين الثاني كتب الى زوجته رسالة يصف فيها وضع بغداد وما حولها فقال : ان بغداد لا تزال في حالة حصار فليس في وسع أحد أن يخرج وراء السور الى مسافة مهما كانت قريبة من غير أن يتعرض للسلب في أغلب الاحتمال ، وقد جعل رجال عنزة مركز تجمعهم في عقرقوف قرب الكاظمية ومد وا رواق سيطرتهم على الصحراء الواقعة بين دجلة والفرات كما استولوا على طريق الحلة بحيث لا يمكن لاي أحد أن يسافر في ذلك الاتجاه ، وانتهز اللصوص والاشقياء في بغداد الفرصة فأخذوا يخرجون للسلب باسم رجال عنزة ، وصار سير القوافل غير آمن الا اذا كان مع كل قافلة حرس قوي ، وعاد الكثيرون من المسافرين وقد سلبت حتى ملابسهم . والأدهى من ذلك أن السلب شمل رجال الوالي في مواضع قريبة من أبواب المدينة ، وكان من بينهم يوسف بك الذي يتولى وظيفة « باب العرب » أي ادارة شؤون العشائر . وقبل يومين سمع اطلاق النار من موضع قريب من الست زبيدة وتبين أن جماعة من عنزة هاجموا ذلك الموضع ونهبوا كل ما فيه من ابل وأغنام وغير ذلك[١] .

معركة داخل بغداد :

بينما كانت الفوضى لا تزال ضاربة أطنابها خارج اسوار بغداد ، بدأت معركة عنيفة داخل الاسوار بين جنود الوالي وعشيرة عقيل الساكنة

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٧٢ ـ ١٧٣ .

في جانب الكرخ ، وقيل ان سبب المعركة هو أن الوالي كان حانقاً على تلك العشيرة ثم اشتد حنقه عليهم مؤخراً حين وصل الى علمه أنهم شاركوا في بعض أعمال النهب والسلب التي حدثت خارج الاسوار • فأرسل اليهم أمراً بمغادرة بغداد فوراً والا فهو سيضطر الى طردهم منها بالقوة ، ولما وصل الأمر اليهم حاولوا المفاوضة مع الوالي فلم ينفعهم ذلك شيئاً • وفي صباح ٤ كانون الاول ١٨٣٤م بدأت المعركة بين الفريقين ، فكانت معركة دموية طاحنة استمرت طيلة النهار •

بدأت المعركة حين أسرعت جماعة من عقيل فقطعت الجسر من جهة الكرخ ثم تجمعت في مقهى قريب من رأس الجسر وأخذت تطلق منه الرصاص على جانب الرصافة • فتقدم رهط من الجنود من الرصافة فعبروا القسم الباقي من الجسر واتخذوا لهم مواضع في داخل قواربه ثم صوبوا نيرانهم على المقهى ، ونصب جنود آخرون مدفعين على الشاطيء لقصف جانب الكرخ ومقاهيه الملأى بأفراد عقيل •

وفي الساعة الثانية بعد الظهر أرسل الوالي الى المقيم البريطاني يطلب منه أن يعيره يخته الكبير المصنوع في بريطانيا لكي يستخدمه في القتال ، فاستجاب المقيم البريطاني له وأعاره اليخت ، واستطاعت زمرة من الجنود أن يركبوا اليخت تحت وابل من الرصاص ، وتوجهوا به نحو بساتين الكرخ فنزلوا هنالك ، واستطاعت زمرة أخرى أن يعيدوا نصب الجسر وعبروا عليه •

وعند حلول الظلام انتهت المعركة بهزيمة عقيل وانتصار جنود الوالي ، غير أن شيئاً أبشع من المعركة بدأ حينذاك حيث انثال الجنود على جانب الكرخ يعيثون فيه كما يشتهون • فقد نهب الجنود الأسواق واشعلوا النار فيها ، ثم اتجهوا نحو المنازل فنهبوها كذلك وأخذوا ينتهكون حرمات النساء ويسيئون اليهن اساءة لا توصف ، وصار زعيق النساء يُسمع من

جانب الرصافة •

ومن الفضائع التي جرت في تلك الليلة المرعبة أن جندياً ألبانياً حاول اغتصاب امرأة فمانعته عن نفسها ممانعة شديدة مما أدى به وهو في سورة الشهوة والغضب الى أن يقتلها ، وقد نُقلت جثتها في اليوم التالي الى مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، فألقيت على عتبة المرقد ، فأمر نقيب الاشراف بأن تُدفن كما يدفن الشهداء • ويحكى أيضاً أن جندياً دخل أحد بيوت الكرخ للنهب فأزعجه صراخ طفل فيه فأسرع فألقاه في التنور ظناً منه أنه يلقيه في البئر ، ثم خرج يتباهى بفعلته أمام الناس ، ولما وصل الخبر الى أمه المسكينة أسرعت الى البيت وجاءت بمن ينزح لها البئر • وبينما هم يهمون بالخروج بعد أن يئسوا من العثور على الطفل سمعوا صوت صراخه في التنور[1] •

وفي اليوم التالي للمعركة ، أي في ٥ كانون الاول ١٨٣٤م ، كتب فريزر الى زوجته يصف لها ما شاهده بنفسه في بغداد من ذيول ما جرى بالأمس فقال انه كان في فترة الصباح والنهار كله يرى الناهبين وهم يمرون أمامه حاملين أسلابهم ، فكان أحدهم يسحب خروفاً وراءه ، وآخر يحمل شدة من الدجاج المربوط الى بعضه ، وثالث يحمل الكثير من القدور والأواني والفراش أو السجاد ، ورابع يمسك بيده حزمة من لوازم النساء وملابسهن ، وخامس يسوق أمامه حمارين أو ثلاثة وهي محملة باكياس كبيرة تحتوي على خليط من كل شيء • وفي تلك الآونة جاء الى فريزر أحد الجنود يعرض عليه فرساً ويقول انه غنمها أثناء المعركة ، وقد تعجب الجندي حين وجد فريزر يمتنع من شراء الفرس •

والغريب أن جانب الرصافة امتلأ يومذاك بالمنهوبين علاوة على الناهبين ، فمنذ الساعات المبكرة من الصباح ازدحمت الأزقة باللاجئين

---

(١) المصدر السابق _ ص١٨٧ _ ١٨٨ •

القادمين من جانب الكرخ ، فكان الكثيرون منهم عراة أما الذين كانوا أسعد حظاً منهم فكانوا يحملون معهم ما استطاعوا حمله من لوازمهم ، وقد شاهد فريزر النساء يضربن بأيديهن ويولولن بينما كان الرجال عابسين مكتئبين أو يصخبون ويشتمون • وقد تُسمع أحيانا في زاوية من الزوايا امرأة تمزق الهواء بصراخها وعويلها حزناً على طفلها أو زوجها الذي غرق في النهر أثناء العبور بالقفف ، أو من أجل ضياع ممتلكاتها وأثاث بيتها الذي اختطفه الناهبون على مشهد منها • ومن أطرف ما ذكره فريزر في رسالته هو أن بعض حوادث النهب قد تقع بين الناس وهم في مثل تلك الحالة ، فقد ينقضّ رجل على خروف رجل آخر فيأخذه ويولي هارباً[1] • ان هذا يدل على القيم الاجتماعية ذات الجذور المتغلغلة في أعماق النفوس •

أبو الثناء الآلوسي :

كان أبو الثناء الآلوسي من أهم الشخصيات العراقية في عهد الوالي علي رضا باشا ، فقد تولى منصب الافتاء فيه وكانت له شخصية مؤثرة ظل تأثيرها باقياً في الكثير من الناس حتى عهد متأخر • والواقع ان سيرة هذا الرجل تصور لنا جانباً مهما من الوضع الفكري والديني الذي كان سائداً في العراق حينذاك •

وُلد الآلوسي في الكرخ في أواخر ١٨٠٢م ، وهو من أسرة علوية النسب وكان أبوه السيد عبدالله أفندي مدرساً في جامع أبي حنيفة • وقد نشأ الآلوسي نشأة دينية وظهر عليه النبوغ في سن مبكرة ، وحين بلغ العقد الثالث من عمره صار مدرساً في عدة مساجد كمسجد الحاج أمين الباچچي، ومسجد الملا عبدالفتاح ، ومسجد القمرية ، ومسجد السيدة نفيسة ، وجامع

---

(١) المصدر السابق ــ ص١٨٥ ــ ١٨٨ •

مرجان ، حتى بلغت دروسه في اليوم أربع وعشرين درساً[1] ، ولهذا كثر حساده ومبغضوه كما هو شأن النابغ الذكي في محيط اجتماعي ضيق .

كان داود باشا يعطف على الآلوسي ويحميه ، وحين قام أهل بغداد في عام ١٨٣١م لتأييد داود باشا ضد الجيش السلطاني انضم الآلوسي اليهم، ولما انكسر أهل بغداد ودخل علي رضا باشا الى بغداد فاتحاً على رأس الجيش السلطاني خاف الآلوسي وذهب ملتجئاً الى محلة باب الشيخ فاختفى في سرداب فيها وظل فيه ثلاثة أيام لا يخرج منه ، ثم شفع له بعدئذ المفتي عبدالغني زادة فعفا الوالي عنه وعينه أميناً للفتوى ووجه اليه وظيفة التدريس في المدرسة القادرية ، ولكن الآلوسي لم يهنأ بوظيفته الجديدة طويلاً اذ سرعان ما حدثت الانتفاضة التي قام بها المفتي فاشترك الآلوسي فيها حيث ذهب الى جانب الكرخ يحرض الناس على تأييدها . ولما أخفقت تلك الانتفاضة اضطر الآلوسي الى الاختفاء للمرة الثانية ، وكانت هذه المرة أشد عليه من المرة الأولى حتى قيل ان علي رضا باشا كان يبحث عنه يريد قتله[2] .

وقد جاءه الفرج في هذه المرة على يد بعض شيوخ الطريقة النقشبندية اذ تشفعوا له عند الوالي ، فقبل الوالي شفاعتهم فيه ، ولكن الآلوسي لم يهنأ بهذه الشفاعة فقد كان النقيب محمود أفندي الكيلاني يبغضه ويريد الكيد به ، ثم وشى به لدى الوالي فأمر الوالي بتحديد اقامته في محلة باب الشيخ لا يخرج منها . وظل الآلوسي مقيماً في باب الشيخ سنة ونصف سنة يتجرع الويل من عدوه النقيب .

---

(١) محسن عبدالحميد (الآلوسي مفسراً) بغداد ١٩٦٩ ـ ص٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) عبدالعزيز نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء محمود الآلوسي) المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع عشر ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص١٤٩ ـ ٥٢ .

جاءه الفرج أخيراً في احدى ليالي رمضان من عام ١٢٥٠هـ ـ الموافق لشهر كانون الثاني من عام ١٨٣٥م ـ ففي تلك الليلة جاء الوالي لزيارة جامع الشيخ عبدالقادر وجلس يستمع الى مجلس الوعظ فيه على عادة الولاة العثمانيين ، والظاهر أن الآلوسي انتهز تلك الفرصة فارتقى المنبر وأخذ يلقي خطبة نالت اعجاب الوالي كثيراً ، ويروى عن الوالي أنه قال حينئذ عن الآلوسي : ان هذا الرجل لو كان في اسطنبول لصار شيخ الاسلام[1] • وبعد انتهاء الخطبة أرسل الوالي اليه يطلب منه أن يأتي لمقابلته في اليوم الثاني من عيد الفطر •

ذهب الآلوسي لزيارة الوالي في اليوم المعين فنال لديه حظوة كبيرة ، وأعاد اليه الوالي جميع وظائفه التي أخذت منه ، وتوطدت الصداقة بينهما ، فكان يذهب لزيارة الوالي في الاسبوع مرتين ، وكان المخاطب الوحيد في مجلسه من بين العلماء والأعيان[2] •

كان محمد سعيد أفندي الطبقچلي هو المفتي في ذلك الحين ، وصادف ذات يوم أن كان هذا المفتي في مجلس الوالي وجاء ذكر أبي طالب عم النبي فقال عنه انه مات كافراً ، فاستاء الوالي من هذه الكلمة • وأراد الطبقچلي أن يبرهن على صحة قوله فجاء في اليوم التالي ومعه « زنبيل » مملوء بالكتب وهي كلها تؤيد قوله في كفر أبي طالب • وعند هذا اشتد غضب الوالي عليه وقال له موبخاً : « هل أنت خصم لعم الرسول ؟! » • ثم التفت الوالي نحو الآلوسي وكان حاضراً فسأله عن رأيه في الموضوع فكان جواب الآلوسي أن أبا طالب مات مسلماً ، ثم أخذ الآلوسي يعدد أقوال القائلين بهذا الرأي من باب التأييد له • فأمر الوالي بعزل الطبقچلي من منصب

---

(١) عباس العزاوي (ذكرى أبي الثناء الآلوسي) بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٥١ •

(٢) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٤٤ •

الافتاء وبتعيين الآلوسي مكانه[1] •

وانثالت الدنيا من بعد ذلك على الآلوسي ، فابتاع له داراً من أكبر دور بغداد تقع في محلة العاقولية من جانب الرصافة ملاصقة لجامع الشيخ عبدالله العاقولي[2] ، فكان له مجلس حافل فيها يرتاده العلماء والأدباء والكبراء ، وصار هذا المجلس سبباً في انتعاش الحركة العلمية والأدبية في عصره فكانت تعقد فيه ندوات المناقشة تحت رئاسة الآلوسي ويكون هو الحكم فيها[3] • ونظم الشعراء في مدحه القصائد كعبدالغفار الأخرس وعبدالباقي العمري وأحمد عزت العمري وعبدالحميد الاطرقجي وصالح التميمي وغيرهم[4] • وفي شهر أيار من السنة التالية أبعد الوالي عدوه النقيب محمود الكيلاني الى السليمانية[5] ومات هذا في المنفى ، فاستراح الآلوسي من مكايداته وخلا له الجو •

طاعة السلطان :

ان طاعة السلطان من المواضيع الفقهية التي ثار حولها الجدل بين الفرق الاسلامية منذ صدر الاسلام ، وقد أثير الجدل حوله من جديد على أثر اعلان محمد علي باشا العصيان على الدولة العثمانية كما أشرنا اليه في الفصل الاول حيث انقسم الفقهاء الى فريقين أحدهما يوجب طاعة السلطان والآخر لا يوجبها •

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ص٥١ ـ ٥٢ •

(٢) محمد بهجة الأثري (اعلام العراق) ـ القاهرة ١٣٤٥هـ ـ ص ٢٣ •

(٣) ابراهيم الدروبي (البغداديون ـ اخبارهم ومجالسهم) بغداد ١٩٥٨ ـ ص٢٧ •

(٤) محمد بهجة الأثري (المصدر السابق) ص٢٤ •

(٥) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص٣١ •

كان العراق مباءة لهذا النوع من الجدل في صدر الاسلام لتتابع الثورات فيه ، وقد اشتد الجدل فيه عندما احتلت الجيوش المصرية بلاد الشام حيث أخذت الدعاية المصرية تجد آذاناً ضاغية في بعض انحاء العراق لا سيما في الشمال منه • والمظنون ان علي رضا باشا كان يبحث عن فقيه عراقي كبير ليكتب كتاباً يؤيد فيه جانب الدولة ويفنّد حجة الثائرين عليها•

يخيل لي أن علي رضا باشا حين أعلن اعجابه بالآلوسي بعد سماعه لخطبته كان كأنه اكتشف فيه الرجل المطلوب • والواقع أن الآلوسي كان عند حسن ظن الباشا ، فقد استجاب له بسرعة وانكب على تأليف كتاب عنوانه « التبيان في شرح البرهان في اطاعة السلطان » •

ان هذا الكتاب هو شرح لكتاب صغير كان قد ألفه سابقاً الشيخ عبدالوهاب أفندي ياسين چي زادة • وقد افتتح الآلوسي شرحه بتدبيج مدائح طويلة في السلطان وفي الوالي ثم أخذ بالبحث في شرعية وجود الدولة العثمانية ووجوب طاعة سلطانها على جميع المسلمين ، فجاء بالادلة على ذلك من الكتاب والسنة وشرحها شرحاً وافياً • ثم عقد فصلاً في قضية الامامة من وجهة نظر أهل السنة ووجهة نظر الشيعة ، فجادل الشيعة جدلاً طويلاً وفنّد عقيدتهم في قاعدة اللطف وفي المهدى المنتظر [١] •

ولم يكتف أبو الثناء الآلوسي بذلك ، بل كتب بايعاز من الوالي رسالة الى شريف مكة محمد بن عون يدعوه فيها الى التمسك بالولاء للسلطان ويذم محمد علي باشا على عصيانه ويصفه قائلاً : « محمد علي المصري المصرّ على ما يسيء ويزري ••• أراد حسب زعمه الفصل بين الشجر ولحائه ••• فقد ذهب كثير من الأئمة الاخيار الى أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار » [٢] •

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص١٠٩ ـ ١١١ •
(٢) عبدالعزيز نوار (مصر والعراق) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص١٥٣ •

وقـد ارتفعت منزلة الآلوسـي لدى الدولة من جراء ذلك ارتفاعـاً عظيماً ، فمنحه السلطان رتبة « تدريس الاستانة » وهي رتبة فخرية ، كما أجازه الوالي بتولية أوقاف مرجان وهي أوقاف تدر خيراً كثيراً .

لمـاذا ؟

ان الموقف الذي وقفـه أبو الثناء الآلوسـي في تأييد السلطان ضـد الثائرين عليه لا يخلو من غرابة . فالآلوسي شارك سابقاً في ثورتين عـلى على السلطان : احداهما مع داود باشـا في عام ١٨٣١م ، والثانية مـع عبدالغني جميل زادة في السنة التالية . فما هو السبب الذي جعل الآلوسي يغير موقفه بهذه السرعة ؟!

يرى الدكتور يوسـف عزالدين في تفسير ذلك أن موقف الآلوسي في تأييد السلطان انما كان من قبيل التقية والمجاراة ، وقد وصف الدكتور عزالدين الوضع الفكري الذي كان سائداً في العراق آنذاك بقوله : « لذلك كان اصحاب الآراء يضطرون للمحاورة والتقية ومجاراة الولاة الذين لا يرعون الاً ولاذمـة وبذلك يأمنون عـلى أنفسهم من بطشهم حتى أن أبا الثناء الآلوسـي لم يجد ما يدفع عنه غائلـة الاضطهاد واعادة حقوقـه المهضومة الا بتأليف كتاب كان يعتقد في قرارة نفسه ببطلانه الا وهو شرح (البرهان في اطاعة السلطان) ذلك الكتاب الذي أجازه عليه علي رضا باشا والي بغداد بتوليته أوقاف مدرسة جامع مرجان ولم يكتف الباشا بذلك بل جلب له رتبة (تدريس الاستانة) من الاستانة ونصبه مفتياً للحنفية »[١] .

ان هذا القول الذي جاء به الدكتور عزالدين لم يوافق عليـه أحد الذين كتبوا في سيرة الآلوسي وهو محسن عبدالحميد فرد عليه مدافعاً عن

---

(١) يوسف عزالدين (الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٥٨ ـ ص٤٩ ـ ٥٠ .

الآلوسي اذ قال في ذلك ما مضمونه : ان الآلوسي لم يكن بالرجل الذي يبيع دينه بدنياه فهو لم يؤلف كتابه في أيام اضطهاده آملاً أن تعاد له حقوقه المهضومة بل ألّفه بعد اعادة حقوقه وتعيينه مفتياً ، وهو انما فعل ذلك عن عقيدة راسخة لان الواجب الديني في ذلك العصر المفعم بالأخطار والمؤامرات على الاسلام كان يفرض ذلك عليه وعلى أمثاله ، أضف الى ذلك أن الصراع الطائفي دفع علماء السنة في العراق - ومنهم الآلوسي - أن يبذلوا المستحيل في سبيل مناصرة الدولة العثمانية السنية الحنفية[1] ٠

مهما يكن الحال فان الآلوسي قد أدى خدمة كبيرة للدولة العثمانية في تلك الفترة الحرجة التي كثر الثوار عليها فيها من مختلف الجهات ٠ يقول الدكتور عبدالعزيز نوار : « لقد قدّر علي رضا قيمة ابى الثناء الآلوسي في خدمة مصالح السلطان العثماني في تلك الظروف الحرجة التي تحتاج الى رجل علم يستطيع أن يثبّت قلوب الناس على الولاء للسلطان ٠ وقر رأي علي رضا على أن يستغل علم وذكاء أبى الثناء الآلوسي في تنفيذ أهدافه في العراق وخارج العراق ، وخاصة في مقاومة تيار التوسع المصري ٠ ولا شك أن تكليف علي رضا لأبي الثناء الألوسي بشرح (البرهان في طاعة السلطان) في تلك الظروف كان جزءاً من مخطط عام وضعه علي رضا لجعل العراق قاعدة فكرية وعسكرية تعمل ضد التوسع المصري في المشرق العربي »[2] ٠

بين الرفض والتسنن :

أشرنا من قبل الى أن الوالي علي رضا باشا كان بكتاشي العقيدة يغالي في حب الأئمة الاثني عشر ، والظاهر ان الشعراء اكتشفوا هذه النزعة فيه فصاروا ينظمون القصائد في مدح أهل البيت وذم أعدائهم بشكل صريح

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص١١٢ - ١١٣ ٠

(٢) عبدالعزيز نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء الآلوسي) المجلة التاريخية المصرية - المجلد الرابع عشر - القاهرة ١٩٦٨ - ص١٥٢ - ١٥٣ ٠

غير مألوف سابقاً ، وكان أشدهم في ذلك هو الشاعر الموصلي المعروف عبدالباقي العمري •

نظم عبدالباقي العمري ديوانا خاصاً بمدح أهل البيت سماه « الباقيات الصالحات » ، وحين نقرأ هذا الديوان نكاد نشعر أن العمري انما نظمه تقرباً من الوالي واكتساباً لرضاه ، فالقصائد التي فيه تتضمن نزعة شيعية واضحة وقد اشتهر بعضها في أوساط الشيعة شهرة واسعة حتى صار « المداحون » يتلونها في الطرقات و « الروضخونية » يقرأونها في مجالس التعزية •

افتتح العمري ديوانه هذا بقصيدة طويلة تحتوي على ١٥٨ بيتاً وفيها الشيء الكثير من مدح أهل البيت وذم بني أمية • ننقل فيما يلي أبياتاً نموذجية منها :

جعلت حبي ومولاتي لهم	وعرض مدحي لنجاتي سببا
سفن النجا معاقل للالتجا	تلوح شرّعاً وتبدو هضبا
جربتهم لقمع كل معضل	من سقم قد أعجز المطببّا
فقل لمن أعيا الطبيب داؤه	خلّ الطبيب واسأل المجربا
يزيد غيظي كلما ذكرتهم	فألعن الذي لها قد شعبا
الى يزيد دون ابليس اذا	ما سئل اللعن انتمى وانتسبا
نقطع في تكفيره ان صح ما	قد قال للغراب لما نعبا
واحربا يا آل حرب منكمو	يا آل حرب منكمو واحربا
لكم ومنكم وعليكم وبكم	ما لو شرحناه فضحنا الكتبا[١]

وعندما أهدى السلطان محمود الثاني قطعة من ستر قبر النبي الى مرقد الامام موسى بن جعفر في الكاظمية ، نظم العمري قصيدة لامية في مدح الامام لا تخلو من غلو[٢] • فأوعز علي رضا باشا الى السيد كاظم

(١) عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقي) النجف ١٩٦٤ — ص٩١ — ٩٦ •

(٢) المصدر السابق — ص ١١٣ — ١١٤ •

الرشتي رئيس الشيخيين في كربلا بأن يشرح القصيدة ، فألّف هذا كتابا في ذلك حيث قال : « وقد أودعت في هذا الشـرح من غرائب الأمور ، وعجائب الرسوم ، ما لا يجمعها كتاب ، ولا يحويها سؤال ولا جواب ، وانمـا هي من اشارة السـنة والكتاب • وكتبتـه بأمر الوزير الأعظم ، والدستور المعظم ، جامع الرئاستين ، علي رضا باشا والي بغداد دار السلام ، صينت عن حوادث الأيام »[1] •

والملاحظ أن العمري اذ كان ينظم القصائد بهذه الروح الشـيعية كان من الجانب الآخر يهاجم الشيعة ويسميهم بالاسم الذي ينبزهم بـه الخصوم وهو « الرافضة » • فعندما غزا علي رضا باشا المحمرة في عـام ١٨٣٧م وهزم القبائل الشيعية الساكنة حولها نظم العمري قصيدة طويلـة وردت فيها الأبيات التالية :

فتحنا بحمد الله حصن المحمرة	فأضحت بتسخير الآله مدمرة
بسيف علي ذي الفقار الذي لنا	لقد أخلصت صقلاً يد الله جوهره
سقى الرفض ساقي الحوض كأس منية	غـداة وردنا بالمسـرات كوثره
فواعجبا من شـيعة كيف تدّعي	ولاء علـي وهـي عنه منفـره
وأمست (بنو النصار) والرفض دينها	على ما دهاها من عليّ مفكره
وطار بسر (الباز) صيت عقابنا	لهم فغدت شيراز منهم مطيره[2]

نرى العمري في هذه الابيات ينبز الشيعة بالرفض ويعلن أن سـرّ « الباز » أي الشيخ عبدالقادر الكيلاني قد طيّر شيراز • ان هذا يدل على ان الوالي علي رضا باشا كان بالرغم من عقيدته البكتاشية لا يميل الى الشيعة أو هو على الأقل لم يكن يتظاهر بالميل اليهم • والملاحظ بالاضافة الى ذلك أن أبا الثناء الآلوسي كان في عهده قد كتب عدة رسائل في الرد على الشيعة

---

(١) كاظم الرشتي (دليل المتحيرين) كربلا ١٣٦٤هـ ـ ص ١٣٤ •
(٢) عبدالباقي العمري (المصدر السابق) ص٢٣٤ ـ ٢٣٧ •

ونقض بعض عقائدهم لا سيما طعنهم في الصحابة .

نستطيع أن نستنتج من ذلك على أي حال أن علي رضا باشا كان يميل الى الشيعة من جهة وينحرف عنهم من الجهة الأخرى ، فهو لكونه بكتاشي العقيدة يشترك مع الشيعة في حب أهل البيت ، وهو لكونه والياً عثمانياً يختلف عنهم في حبه للصحابة أو في عدم طعنه فيهم على الأقل .

يرجح في ظني أن أكثر البكتاشيين كانوا مثل علي رضا باشا في هذا الاتجاه ، وقد قابلت بعضهم وناقشتهم فوجدتهم على شدة غلوهم في أهل البيت لا يطعنون في الصحابة ولا سيما في الخلفاء الثلاثة . فهم يعتبرون أنفسهم من أهل السنة والجماعة ويصفون الشيعة بأنهم « رافضة » ، وكان معيار الرفض عندهم هو سب الصحابة . والظاهر أن هذا المعيار هو الذي كان سائداً في البلاد العثمانية آنذاك ، فالذي لا يسب الصحابة يعد سنياً والذي يسبهم يعد رافضياً ، وكان هذا هو السبب الذي جعل في مقدور البكتاشيين أن يتولوا المناصب العالية والوزارات في الدولة العثمانية كعلي رضا باشا والكثيرين من أمثاله .

ان مبدأ « التولّي » و « التبرّي » موجود عند البكتاشيين كما هو موجود عند الشيعة ، ولكن البكتاشيين يُخرجون الصحابة والخلفاء الثلاثة من نطاق « التبري » و يشملون به بني أمية . ولهذا كان عبدالباقي العمري يكثر من ذم بني أمية في قصائده ، وكذلك فعل أبو الثناء الآلوسي في تفسيره حيث جعل الأسرة الأموية هي الشجرة الملعونة في القرآن .

الطقوس الشيعية :

ان الطقوس الشيعية المعروفة من حيث اقامة مجالس التعزية واخراج المواكب الحسينية وما أشبه كان قد أسسها الصفويون في ايران منذ القرن السادس عشر وانتشرت هناك دون أن تأتي الى العراق ، فقد كان الولاة العثمانيون يمنعونها من الدخول الى العراق واستمروا على ذلك اكثر من

قرنين حتى جاء علي رضا باشا فكان هذا أول الولاة الذين سمحوا بها .

كان الولاة قبل علي رضا باشا يعتبرون تلك الطقوس من جملة أساليب الدعاية التي كانت حكومة ايران تحاول بها التغلغل في العراق ، ولهذا كانوا يتشددون في منعها عندما تكون هناك حرب بين الحكومتين . والمعروف عن داود باشا أنه كان اكثر من غيره تضييقاً عليها حتى قيل ان شيعة بغداد في زمانه كانوا يقيمون مجالس التعزية في السراديب ويجعلون امرأة تدير الرحى في صحن الدار لكي لايسمع المارة في الشارع صوت من في المجلس.

ان أول رجل استطاع أن يقيم مجلس تعزية في العراق كان من أهل النجف اسمه الشيخ نصار بن سعد العبسي[1] ، والظاهر أنه اغتنم فرصة الصلح الذي عقد في عام ١٨٢١م بين داود باشا وحكومة ايران والذي توسط فيه الشيخ موسى كاشف الغطاء ، فأخذ يقيم مجلس التعزية في داره ، واقتدى به بعض سراة النجف تدريجاً . أما في بغداد فقد ظل أمر المنع سارياً طيلة عهد داود باشا .

وفي عام ١٨٣١م عندما سمع شيعة بغداد بقدوم علي رضا باشا على رأس جيش كبير لمحاربة داود باشا شد الرحال اليه سبعة من وجهائهم ، فالتقوا به في الموصل وشكوا اليه حالهم وكيف أنهم يقيمون مجالس التعزية في السراديب ، فطيّب علي رضا باشا خاطرهم ووعدهم بأنه عندما يفتح بغداد سيجعلهم يقيمون مجالس التعزية فوق السطوح بدلاً من تحت الأرض ، وانه هو نفسه سيحضر تلك المجالس .

وقد أنجز علي رضا باشا وعده بعد فتحه بغداد ، فلما حل شهر محرم في السنة التالية ، وكان ذلك في ٢١ أيار من عام ١٨٣٢م ، أقامت احدى الاسر الشيعية مجلساً للتعزية في دارها ، وقد حضره الوالي فعلاً[2] فكان

---

(١) علي الخاقاني (شعراء الغري) النجف ١٩٥٤ ــ ج١٢ ص٣٢٤ .
(٢) حدثني بذلك المؤرخ عبدالرزاق الحسني .

ذلك تشجيعاً لغيرها للاقتداء بها • ومنذ ذلك الحين أخذت مجالس التعزية تنمو وتنتشر في كل مكان ، وكان من أسباب انتشارها أنها أصبحت رمزاً للوجاهة في المجتمع فصار كل رجل يملك شيئاً من الثروة ميالاً أن يقيم مجلساً في داره لكي يرفع به منزلته الاجتماعية •

وفي الوقت الذي أخذت فيه مجالس التعزية بالانتشار ظهرت مواكب اللطم ، وكان أول موكب منها أخرجه الشيخ باقر بن الشيخ اسد الله في الكاظمية ، ثم انتشرت المواكب من بعد ذلك في أنحاء العراق • وقد أصبحت هذه المواكب كمجالس التعزية رمزاً للوجاهة مما ساعد على انتشارها ، فالرجل الذي يترأس موكباً أو يمشي أمامه أو ينوح فيه يشعر بشيء من الشموخ والأبهة من جراء ما يحيط به من جماهير تنظر اليه ، وتزداد الأبهة لديه أضعافاً عندما تكون النساء في صفوف المتفرجين فان صراخهن يجعل الرجل المشارك في الموكب يشعر كأنه فاتح يقود جيشاً عظيماً • ولولا ذلك لماتت المواكب منذ زمان بعيد !

جرى الولاة من بعد علي رضا باشا على سنته ، فكانوا يتساهلون في أمر انتشار الطقوس الشيعية ، ما عدا مدحت باشا فهو قد حاول منعها ولكنه لم يوفق ، ويقال انه سأل اسطنبول في أمرها فكان الجواب : « دعهم يفعلون ما يشاؤون ما داموا لا يؤذون سوى أنفسهم » •

يبدو أن السبب الذي جعل الحكومة العثمانية تتساهل تجاه تلك الطقوس بعدما كانت تتشدد في منعها هو أنها صارت تخشى من الدعاية التي كان محمد علي باشا يبثها في أوساط الشيعة آنذاك ، فقد كانت الرسائل تأتي منه تباعاً فتصل الى بغداد والبصرة وكربلا والنجف وبعض العشائر العراقية • ومعنى هذا أن الحكومة العثمانية لم تعد تحذر من الدعاية الايرانية بمقدار ما تحذر من الدعاية المصرية • وعندما زال الخطر المصري فيما بعد كان الخطر الايراني قد تضاءل وكاد يزول وذلك بعدما استتب الصلح بين الدولة العثمانية والايرانية وتعينت الحدود بينهما بشكل دائم كما سنأتي اليه في الفصل القادم •

الفصل الرابع

ولاية نجيب باشا

في نيسان من عام ١٨٤٢م نقل علي رضا باشا الى الشام وحل محله في ولاية بغداد محمد نجيب باشا ، وكان هذا والياً على الشام فوصل الى بغداد في شهر ايلول من العام نفسه •

إن نجيب باشا من اسرة اسطنبولية ذات مقام رفيع ، وأجمع المؤرخون على أنه كان صارماً شديد القسوة ، والظاهر أن الدولة قد أرسلته لكي تباشر به عهد « التنظيمات » في هذا البلد المليء بالروح العشائرية وارتباك الأمن •

وقد أعطانا المؤرخ لونكريك صورة غير حسنة عن نجيب باشا حيث قال : انه كان ذا ذكاء وشجاعة وحيوية خارقة غير أن عصبيته القومية انقلبت الى بغض رهيب للاجانب ، ولكي يحصل على المال من أجل استعماله الشخصي في الغالب اتخذ طرقاً للجباية مخربة وخالية من بعد النظر ، وكانت غطرسته تغيظ القبائل مع أن قواته لم تكن قادرة على تهدئة ما ينتج عنها من قلاقل ، ولم يكن عنفه حائلاً دون أخذ الرشوة كما أن تعقله لم يكن حائلاً دون تعصبه الذميم[1] •

مع القنصل الفرنسي :

عند وصول نجيب باشا الى بغداد كان يتولى القنصلية الفرنسية فيها رجل أرستقراطي من أولي الألقاب هو البارون دي فيمار ، وكان هذا

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر خياط ــ بغداد ١٩٦٢ ــ ص٢٨٦ •

القنصل ذا اعتزاز شديد بنفسه وبلاده يريد أن يرفع مكانته في نظر الناس عن طريق المظاهر والرسميات • وقد كانت بينه وبين القنصل البريطاني منافسة شديدة ، فكان كل واحد منهما يحاول اجتذاب علماء بغداد وأعيانها اليه بغية تدعيم نفوذ بلاده في العراق • ويجب أن لا ننسى في هذه المناسبة ان فرنسا وبريطانيا كانتا في ذلك الحين على اختلاف في السياسة تجاه الدولة العثمانية فقد ساندت فرنسا محمد علي باشا في عصيانه على الدولة العثمانية بينما ساندت بريطانيا الدولة عليه •

كان القنصل البريطاني ببغداد اكثر قدرة على العطاء وتوفير المظاهر الباذخة لنفسه من زميله الفرنسي ، فكانت له سفينة حربية تقف في دجلة أمام دار القنصلية كما كان له حرس من جنود الهنود ، وكان ينفق بسخاء على رؤساء القبائل • أما القنصل الفرنسي فكان لا يقدر على ذلك وقد اشتكى ذات مرة الى حكومته يقول ان الموضوع من الأموال تحت تصرف زميله البريطاني يساوي الأموال الموضوعة تحت تصرف السفير الفرنسي في اسطنبول(١) •

تشير القرائن الى أن نجيب باشا كان ميالاً الى القنصل البريطاني ، ولهذا نجده عند وصوله الى بغداد يقوم بزيارته قبل كل أحد ، وقد امتعض القنصل الفرنسي من ذلك كل الامتعاض اذ هو يعتبر نفسه أحق بتلك الزيارة من القنصل البريطاني ، فارسل الى السفارة الفرنسية في اسطنبول يشكو اليها من الوالي نجيب باشا واستطاعت السفارة هناك أن تحمل الباب العالي على توجيه رسالة طافحة بالتوبيخ والتقريع الى نجيب باشا ، غير أن نجيب باشا لم يعر تلك الرسالة أي وزن(٢) •

---

(١) پير دي فوصيل (الحياة في العراق منذ قرن) ترجمة اكرم فاضل ــ بغداد ١٩٦٨ ــ ص٢٠ •

(٢) المصدر السابق ــ ص١٠٤ •

وبعد مرور أيام قليلة على ذلك وقعت حادثة في أحد أسواق بغداد كان من شأنها زيادة التوتر بين الوالي والقنصل الفرنسي • ففي ٦ تشرين الأول من تلك السنة حل شهر رمضان ، وكان من عادة أهل بغداد أن يحتفلوا بهذا الشهر المقدس ليلاً فتمتلىء الأسواق بالأضواء ، وتعرض فيها أنواع خاصة من الحلوى ، وتزدحم المقاهي والدواوين بروادها • وفي احدى الليالي من ذلك الشهر خرجت أربعة نسوة أوربيات للتفرج على الأسواق وكنّ يلبسن البرقع والعباءة على الطريقة المحلية وبرفقتهن ولد صغير وخادم عراقي من المسيحيين • ولم تكد هؤلاء النسوة يخرجن من أحد الاسواق حتى فوجئن بأفراد من الشرطة يحيطون بهن ثم يضعون القيود في أيديهن ويسوقونهن الى مدير الشرطة •

كان زوج احدى النسوة يتمتع بحماية القنصل الفرنسي ، فذهب الى مدير الشرطة محتجاً ، وقد اعتذر اليه مدير الشرطة اذ ادعى أنه كان يحسب النسوة مسلمات وهو انما اشتبه في أمرهن لأنهن كن في رفقة رجل مسيحي فألقى القبض عليهن من غير روية • ولم يقبل الرجل عذر مدير الشرطة وذهب الى القنصل الفرنسي يرفع شكواه وكان الوقت قريباً من منتصف الليل • فأرسل القنصل ترجمانه الى دار الوالي طالباً منه أن تأخذ العدالة مجراها في هذه القضية • وقد أبدى الوالي بعض الاعتراضات غير أن ترجمان القنصل فنّدها جميعاً مما اضطر الوالي أن يرسل مدير الشرطة الى القنصل لكي يقرر القنصل عقوبته بنفسه •

أخذ مدير الشرطة يطلب من القنصل الصفح والمغفرة ، فعفى القنصل عنه ولكنه أراد ان لا تمر القضية من غير عقوبة لأفراد الشرطة الذين أهانوا السيدات فطلب أن توضع القيود في أيديهم على مشهد من الناس ثم يسجنوا في زنزانة ، وطلب كذلك أن يؤتى بهم في الصباح التالي فيضربوا ضرباً مبرحاً أمام مركز الشرطة وبحضور الترجمان[١] •

---

(١) المصدر السابق ـ ص١١٩ ـ ١٢٠ •

ظلت العلاقات متوترة بين الوالي والقنصل الفرنسي حتى صيف ١٨٤٤م ، ويبدو أن الوالي أراد حينئذ أن يصالح القنصل ويترضاه فأرسل اليه يخيّره بين أمرين : اما أن يزور القنصلية زيارة رسمية أو يكتب له رسالة اعتذار ، فوافق القنصل على الامر الثاني ، ولكن هذا الصلح لم يدم طويلاً ، فعند حلول عيد الفطر من عام ١٢٦١هـ ـ وقد وافق اليوم الثالث من تشرين الأول عام ١٨٤٥م ـ تهيأ القنصل الفرنسي لزيارة الوالي بغية تهنئته بالعيد حسبما جرت العادة عليه غير أنه وجد القنصل البريطاني قد سبقه الى ذلك وكأنه كان حاضراً عند باب السراي في وقت فتحها صباحاً . وهذا في رأي القنصل الفرنسي خرق للقواعد الدبلوماسية ولابد أنه تم بالتواطؤ مع الوالي نكاية بفرنسا واهانة لكرامتها . وعمد القنصل الفرنسي الى رد الاهانة بمثلها فأرسل مستشار القنصلية ليقوم بمراسيم التهنئة بدلاً عنه مما أدى الى غضب الوالي وهيجانه ...

أرسل الوالي الى القنصل الفرنسي ينسب اليه أنه لا يرفع علم القنصلية عند مرور زورقه في نهر دجلة أمام دار القنصلية . فكتب القنصل في جوابه قائلاً : « لا صحة بالمرة لما تزعمونه رفعتكم من القول حول هذا الموضوع من أن علم القنصلية لا يرتفع لدى مرور زورق عزتكم الذي ترفرف عليه الراية العثمانية وهو يتهادى في نهر دجلة أمام دار القنصلية الفرنسية ، لأني على الدوام كنت بنفسي آمر برفع العلم أمامي لا فوق القنصلية الفرنسية فحسب وانما كذلك فوق زورقي نفسه ، وهناك مائتا رجل بوسعهم الادلاء بشهاداتهم لتأييد مدعاي هذا ... »[1] .

وبلغت الازمة ذروتها في عام ١٨٤٦م حين اقتحم جنود مدججون بالسلاح دار القنصلية الفرنسية ، ورفض الوالي معاقبتهم ، مما جعل القنصل يوجه اليه احتجاجاً شديد اللهجة ، ثم أرسل الى السفارة الفرنسية في

(١) المصدر السابق ـ ص١٠٧ .

اسطنبول يلح عليها أن تقف الى جانبه ثأراً لكرامة فرنسا ، واستجابت السفارة لطلبه فضغطت على الباب العالي من أجل توجيه توبيخ صارم الى الوالي نجيب باشا ، وقد أثمرت جهودها في هذا الشأن حيث رأينا نجيب باشا يقيم حفلة استقبال على شرف القنصل الفرنسي ويعترف له بالأولوية على زميله القنصل البريطاني[1] .

واقعة كربلا :

في السنة الثانية من ولاية نجيب باشا وقعت في كربلا مذبحة فظيعة قام بها الجيش بقيادة الوالي نفسه ، ولكي نفهم كنه هذه الواقعة يجدر بنا دراسة جذورها التي تمتد الى عهود سابقة .

الواقع ان بلدة كربلا كانت في تلك الأيام قد تحكمت فيها زمرة من الاشقياء والسفلة يقال لهم « اليرمازية » ، وهذه لفظة تركية معناها « الذين لا ينفعون لشيء » ويقصد بهم الاشرار من طبقات المجتمع[2] . وكان هؤلاء الاشرار قد تجمعوا في كربلا منذ عهد داود باشا برئاسة زعيم لهم اسمه السيد ابراهيم الزعفراني ، وأخذوا يعيثون فيها فساداً ويستغلون سكانها كما يشاؤون .

ويعزى تجمع هؤلاء الاشرار في كربلا الى ما لهذه البلدة من قدسية عظيمة اذ هي كانت ولا تزال اكبر مزار يقصدها الشيعة من أقاصي البلاد ، وكانت الحكومة في عهد المماليك تحترمها ولا تتدخل في شؤونها ، وفي عهد الوالي علي رضا باشا زاد احترامها لما كان هذا الوالي يكنّه من حب شديد للائمة . ولهذا صارت كربلا ملاذاً لكل من يهرب من وجه

---

(١) المصدر السابق ـ ص١١٠ .

(٢) جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر) ترجمة جعفر الخياط ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص١٧٨ .

الحكومة في العراق ، فكان الهـاربون ــ من ماردين حتى المحمرة[1] ــ يلجأون الى كربلا ويحتمون بها فلا تستطيع الحكومـة أن تلقي القبض عليهم ، وأخذ عددهم يزداد واعتداءاتهم تستفحل بمرور الأيام . وقـد وصف السائح البريطاني فريزر وضع كربلا حينذاك فقال :

« ومن الحقائق التي تدل على ضعف الحكومة التركية التام في هذه الولاية أن جميع العتبات التي لها قدسية خاصة تقريباً قد جُعلت ملاذاً لشر الناس في المجتمع وأكثرهم تفاهة ، ولا تزال في وضعها حتى الآن ... كما هي الحال في محلة الشيخ عبدالقادر ببغداد نفسها وقد حصل مثل هـذا الوضع في النجف وكربلا معاً ، ولكن بمقياس أوسع وحالة أسوء بكثير ، اذ ازداد عدد المتمردين المتجمعين هناك بحيث لم يعد من الممكن لحاكم المنطقة ولا لسلطة الباشا أن تسيطر عليهم . وهؤلاء لا يفعلون ما يشاؤون فحسب ، بل كانوا يطلبون من الزوار الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة الإذعان لأوحش الطلبات وأبعدها عن المألوف والمعقول ، وفي حالة عـدم الانصياع للطلبات كانوا ينهبون أمتعتهم ويجردونهم حتى من ألبستهم ، كما يسلبونهم زوجاتهم وبناتهم في بعض الأحيان . وقد استفحل هذا الشر لدرجة اضطر فيها داود باشا نفسه الى تجريد قوة ضد النجف ، فنجح في اخضـاعها للطاعة . ولا تزال كربلا في حالة ثورة . فلم يسـتطع اليرماز والقتلة والسفهاء ، الذين يكونون عدداً كبيراً فيها ، من صد الجيش الذي جرده الباشا عليهم فقط بل أصبحوا يهيمنون هيمنة تامة على البلدة كلهـا بحيث لم يكن بوسع أحد أن يعصي لهم أمراً أو يتحداهم من دون أن ينال جزاءه ... وهم يذهبون في فسادهم وخلاعتهم حتى الى حد أنهم ، حينما يعلمون أن أحد الزوار يصطحب معه زوجة جميلة أو اختاً حسناء ، يبعثون ليأتوا بها اليهم ، وحينما يرفض ذلك يعمدون الى سرقتها منه بحيلة من

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (المصدر السابق) ص٢٧٤ .

الحيل أو الى اغتصابها بالقوة .وكثيراً ما كان يحدث هناك أن تُفقد زوجات بعض الناس على هذه الشاكلة لمدة اسبوع أو اكثر فيعدن الى أهلهن بعد ذلك بحالة يرثى لها ، فقد سمعت أحد الايرانيين أنا بنفسي يتذمر من معاملة زوجته بهذه الطريقة ... »[1] .

وقد وردت تفاصيل أخرى عن وضع كربلا في الكتاب المجهول المؤلف الذي أشرنا اليه في الفصل السابق ، فهو يقول في ذلك ما نصه :

« ان كربلا كانت عاصية على وزراء بغداد ... وكان بها السيد ابراهيم الزعفراني رجل أصله عجمي وترأس على أوباشها وسفهائها وأطاعه أراذل البلد المفسدون وهم يتولون الحرب ، وعامتهم من أيام داود باشا كانوا عاصين الا أنهم يؤدون شيئاً قليلاً عوض خراجها (نحو خمسة وثلاثين ألف قران) . وكل من يعمل مفسدة في العراق أو يأكل أموال الناس يذهب الى كربلا ويستجير بهؤلاء الأراذل حتى اجتمع عندهم مقدار عشرة آلاف مقاتل من أجلاف الناس ، وعصت أيام داود باشا وعلي باشا هم عصاة بغاة يؤذون السكان الذين في كربلا حتى أنهم مرة أمسكوا على أحد مجتهديهم السيد ابراهيم القزويني ليلاً ولم يطلقوه حتى أدى لهم أربعة آلاف قران من سكة محمد شاه فأطلقوه فهم مفسدون ذوو جرأة على أعراض الناس ، وأهل البلد يؤونهم ويخافون على أنفسهم لأنهم متى أرادوا هجموا على بيت أحدهم ونهبوه ، والحاكم الذي هو من أهل البلد طوع أيديهم ولا يعارض بما يفعل هؤلاء الباغون الفجرة ... »[2] .

تفاصيل الواقعة :

عزم الوالي نجيب باشا بعد أن اطلع على الحالة أن يفعل ما عجز عنه

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١٧٣ ـ ١٧٦ .
(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٤ ج٦ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

الولاة السابقون وهو القضاء على حركة « اليرمازية » وعدم الاهتمام بقدسية البلد • وكان أول عمل قام به في هذا الشأن هو أنه أرسل انذاراً الى رؤساء الحركة ينذرهم فيه بوجوب الخضوع ونزع السلاح خلال شهر واحد ، ولما لم يستجب الرؤساء الى انذاره وجه اليهم قوات عسكرية تصحبها المدافع • وقد حاصرت تلك القوات بلدة كربلا ثلاثة وعشرين يوماً •••

ليس لدينا اطلاع كاف على ما كان يجري في المجتمع الكربلائي أثناء الحصار ، ويخيل لي أن الكثيرين من أهل كربلا ـ لا سيما رجال الدين والتجار والكسبة ـ لم يكونوا راضين عن الحالة أو راغبين في محاربة الحكومة ولكنهم لم يستطيعوا الافصاح عن نياتهم خوفاً من « اليرمازية » • وهذا هو ما يحدث عادة في كل مجتمع يسيطر عليه السفلة والغوغاء حيث يعلو فيه صوتهم ويخفت صوت من عداهم ، والويل لمن يعارضهم في شيء ! • أضف الى ذلك أن النزعة الغوغائية التي تستفحل في مثل هذه الحالة قد تدفع الكثير من الناس الى الحماس والهتاف وابداء الشجاعة المصطنعة ، وقد ينتشر الحماس الغوغائي بين السكان كما ينتشر الوباء الجارف ، وبذا يسير المجتمع نحو الكارثة خطوة وراء خطوة كأنها القدر المحتوم •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المجتمع الكربلائي كان منقسماً على نفسه من جراء الصراع العقائدي بين الشيخيين وخصومهم على نحو ما سوف نذكره فيما بعد • والظاهر أن نجيب باشا كان على علم بهذا الانقسام الموجود بين سكان البلدة فحاول استغلاله اذ أرسل الى السيد كاظم الرشتي رئيس الشيخيين يرجوه أن يعمل على حقن الدماء ، وقام السيد كاظم بما طُلب منه فصار يحض الناس على فتح أبواب البلدة للقوة التركية والاستسلام لها ، فكان ذلك سبباً في زيادة الانقسام والانشقاق بين

الأهالي حيث انصاع اتباع السيد كاظم لرأيه بينما ازداد خصومه عناداً واصراراً على القتال •

وأخذت الأساطير الدينية تنتشر بين السكان تحرضهم على المثابرة في القتال ، وشاع في أحد الأيام أن رجلاً رأى العباس في منامه وهو يبشّر أهل كربلا بالنصر المبين(١) • وأرسل رؤساء الحركة الى بعض العشائر المتحالفة معهم كآل فتله وآل يسار وآل زغبة يستنجدون بهم •

كان نجيب باشا قد اتخذ قرية المسيب قاعدة له ، وجعل قيادة القوات المحاصرة بيد الفريق مصطفى باشا • ثم اتصل بالقنصل البريطاني والقنصل الفرنسي ، وبالوكيل الايراني وبعض الشخصيات الايرانية الذين كانوا يسكنون كربلا ، طالباً منهم أن يساعدوه على تسوية الأزمة وكأنه أراد أن يظهر أمامهم بأنه غير مسؤول عما سوف يجرى في البلدة المقدسة من اباحة وسفك للدماء • وقد حاول بعض هؤلاء التوسط بين الفريقين من غير جدوى • ويبدو أن غطرسة الوالي من جهة وغوغائية الأهالي من الجهة الاخرى عرقلتا سبيل المفاوضة • وقيل أن بعض « اليرمازية » كانوا يرفعون أصواتهم بسب السلطان من فوق السور مما أدى الى ازدياد حنق العسكر عليهم •

وفي فجر الثالث عشر من كانون الاول ١٨٤٢م ـ وكان اليوم الثاني من عيد الأضحى ـ سلّطت القوات التركية مدافعها على سور كربلا من ناحية باب النجف ففتحت فيه ثغرة واسعة ، وبعد معركة طاحنة عند الثغرة استطاعت القوات التركية أن تنجح في التغلغل في البلدة ، وما هي الا برهة قصيرة حتى تم لها النصر التام فسيطرت على البلدة • وبدأ عندئذ التقتيل والنهب بشكل فظيع حيث أبيحت البلدة للجنود أربع ساعات فصاروا

---

(١) محمد زرندي (مطالع الأنوار) ترجمة عبدالجليل سعد ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ص٢٨ •

يفعلون ما يشاؤون بلذة عارمة كما هي عادة الجنود الفاتحين في القرون الغـابرة •

كانت الأوامر قد صدرت الى الجنود بأن يحترموا بيت السيد كاظم الرشتي فلا يمسوه بأذى ، وحين علم الأهالي بذلك أخذوا يتهافتون على البيت طلباً للنجاة ، وقد كثر ازدحامهم عليه حتى مات تحت وطأة الزحام كما قيل عشرون شخصاً • واضطر السيد كاظم أن يضيف الى بيته بعض البيوت المجاورة بغية ايواء اللاجئين اليه ، فنجوا جميعاً[1] •

وكذلك نجا الذين التجأوا الى صحن الحسين ، وكان سبب نجاتهم أن نائب الكليدار الحاج مهدي كمونة خرج الى القائد مصطفى باشا ومعه بعض السدنة ، وكانت عمامته في رقبته وهو يطلب « الأمان » ويبكي ويلطم ثم خاطب القائد بالتركية قائلاً له ما معناه : « أفندم ، اننا لم نخلع الطاعة ولم نفارق الجماعة ، فلا تأخذنا بذنوب المفسدين ، وترحم علينا بالأمان » • فرفع القائد يده مشيراً الى الجنود بالتوقف عن الضرب ، فنجا بذلك جميع من كان في داخل الصحن الا من مات منهم من شدة الزحام •

ثم ذهب القائد من بعد ذلك الى صحن العباس وكانت أبوابه مغلقة ، ولم يفتحها أحد له ، فأمر الجنود بقلع أحد الأبواب ، ثم هجم الجنود على الذين كانوا مزدحمين في الصحن وحول الضريح وأخذوا يقتّلون فيهـم تقتيلاً ذريعاً • وقد وُجد فيما بعد في السرداب الـذي هو تحت رواق العباس ما يزيد على الثلاثمائة قتيل •

وفي صباح اليوم التالي وصل نجيب باشا الى البلدة ، وعندما اقترب بموكبه من صحن الحسين ترجل عن جواده فاستقبله الحاج مهدي كمونة ومن معه من السدنة وهم يحملون القرآن وأعلام الروضة • ثم دخـل نجيب باشا الى الصحن وقد حف به الحاج مهدي كمونة والسيد كاظم

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٨ •

الرشتي والملا علي الحصني والشيخ وادي الشعفلح رئيس عشيرة زبيد وغيرهم • وبعد أن زار ضريح الحسين ذهب الى تكية البكتاشية الملاصقة للصحن فاستراح فيها قليلا[1] •

اختلف الرواة في تقدير عدد القتلى من سكان كربلا ، فمنهم من جعل العدد أربعة وعشرين ألفاً ، ومنهم من جعله أربعة آلاف ، ومنهم من جعله بين بين • وقد أُلقي القبض على السيد ابراهيم الزعفراني فجيء به مكبلاً الى بغداد فمات فيها بعد قليل ، كما أُلقي القبض على بعض أشراف كربلا بتهمة التحريض على الحركة والمقاومة من أمثال السيد صالح الداماد وعلي كشمس وطعمة العبد وبعض آل نصر الله وآل النقيب • وطورد الكليدار السيد عبدالوهاب آل طعمة ثم عفي عنه بشفاعة نقيب بغداد السيد علي الكيلاني[2] •

ان واقعة كربلا يمكن اعتبارها نموذجاً للكثير من وقائع التاريخ التي يصطرع فيها فريقان من البشر اذ يضع كل منهما اللوم على خصمه ويبرىء نفسه منه ، بينما الواقع أن الفريقين كليهما يتحملان اللوم •

أذكر في هذه المناسبة قولاً للامام علي بن ابي طالب في موضوع الثورة على الخليفة عثمان فهو قد خاطب الثوار بعد قتلهم الخليفة مقارناً بينهم وبين أقارب الخليفة الذين استأثروا بالحكم فقال : « استأثروا فأساؤوا الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع » • معنى هذا أن أقارب الخليفة يستحقون اللوم كما يستحقه الثوار الذين قتلوا الخليفة ، أولئك استبدوا وهؤلاء طاشوا ، وتلك حكمة اجتماعية بليغة يجدر بنا الاعتبار بها عند دراسة وقائع التاريخ •

---

(١) نقلاً عن كتاب مخطوط عنوانه (كربلا في التاريخ) بقلم عبود الصالحي •

(٢) جعفر الخليلي (موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم كربلا) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ج١ ص٢٧٩ ـ ٢٨٠ •

ماذا قال الشعراء :

عندما انتهت واقعة كربلا انبرى الشعراء على عادتهم ينظمون القصائد كل من جانبه الذي يميل اليه أو يطمع فيه • وكان عبدالغفار الأخرس قد نظم قصيدة طويلة مدح بها نجيب باشا وذم أهل كربلا ذماً قبيحاً اذ أشار الى أن نجيب باشا ضحى بهم في العيد كما تنحر الغنم • وفيما يلي أبيات نموذجية من تلك القصيدة :

لقد خفقت في النحر ألوية النصر وكان انمحاق الشر في ذلك النحر
علت كلمات الله وهي علية بحد العوالي والمهندة البتر
تبلّج دين الله بعد تقطب ولاحت أسارير العناية والبشر
محا البغي صمصام الوزير كما محا دجا الليل في اضوائه مطلع الفجر
وكر البلا في كربلاء فأصبحت مواقف للبلوى ووقفاً على الضر
فدانت وما دانت لمن كان قبله من الوزراء السابقين الى الفخر
وحذرهم من قبل ذلك بطشه وأمهلهم شهراً وزاد على الشهر
وعاملهم هذا الوزير بعدله وحاشاه من ظلم وحاشاه من جور
ولو يصبر القرم الوزير عليهم لقيل به عجز وما قيل عن صبر
فان مراد الله جار على الورى ولابد أن يُجرى ولابد أن يَجرى
فلاذوا بقبر ابن النبي محمد وقد سر في تدميرهم صاحب القبر
سيول دم القتلى غداه أبادهم تسيل بهاتيك الأزقة والجدر
ولا برحت أيامه الغر غرة تضيء ضياء الشمس في طلعة الظهر
ولا زال في عيد جديد مؤرخاً نقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر[1]

ومدح شاعر آخر نجيب باشا لقيامه بتلك المذبحة فقال :

أحسين دنس دار مرقدك الألى سموا الروافض وهو نعم المرقد
كم من وزير لم ينل تطهيرها منهم فطهرها النجيب محمد

(١) المصدر السابق – ج١ ص٢٣١ – ٢٣٣ •

فرد عليه السيد مهدي بن السيد داود الحلي بقصيدة تضمنت بعض اقواله بعد أن عكس معناها . وهذه بعض أبيات منها :

(أحسين دنس دار مرقدك الألى) كفروا فحاشا منه يدنس مرقد
من حقده جلب الجنود لها كما جاءت اليك جنودها تتجند
دارت على أشياعكم فيها كما دارت عليك غداة قل المسعد
رقدوا به ولكونهم والوكم سموا الروافض وهو نعم المرقد[١]

وتروى في ذلك رواية أخرى اذ يقال ان المفتي أبا الثناء الآلوسي نظم بيتين من الشعر لهما شبه بالبيتين المذكورين آنفاً ،فرد عليه شاعران من الشيعة هما الشيخ عزيز بن الشيخ يوسف النجفي والملا محمود التبريزي ، وهذا هو ما نظمه الشيخ عزيز :

اخسأ عدو الله أن نجيبكم رفض الهدى وعلى العمى يتردد
ولئن به وبك البسيطة دنّست فابشر يطهرها المليك محمد

لجنة تحقيق دولية :

حين وصل نبأ واقعة كربلا الى ايران ضج الناس وعمهم الحزن والحداد . ويقال ان الشاه محمد كان آنذاك مريضاً فكتم وزراؤه عنه أمر الواقعة ، ولما أبلّ من مرضه وعلم بها تملكه الغضب الشديد وأقسم أن يأخذ بالثأر ولكن سفراء بريطانيا وروسيا عملوا على تهدئة غضبه[٢] .

ان العلاقات بين الدولة الايرانية والعثمانية لم تكن في تلك الأيام على ما يرام وكان التوتر سائداً على الحدود بينهما ولا سيما في نواحي المحمرة والسليمانية ، فلما حدثت واقعة كربلا ازداد التوتر بينهما حتى كاد يؤدي

---

(١) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ ـ ص٢٠٠ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٩ .

الى اعلان الحرب ، وأخذ التجار الايرانيون يغادرون البلاد العثمانية على وجه السرعة • وفي شباط من عام ١٨٤٣م كتب القنصل الروسي في تبريز الى حكومتـه يقول لها : ان جرائم الباشـا التركي قوبلت في ايران بالتأبين الديني وهي الآن تهدد مجدداً باندلاع الحرب بين الباب العالي وفارس[١] •

لم تشأ بريطانيا أن تقف موقف المتفرج ازاء هـذا الوضـع المتأزم فأسرعت الى التدخل في سبيل منع الحرب بين الدولتين ، وبعد جهـود دبلوماسية كثيرة في اسطنبول تألفت لجنة مختلطة للتحقيق في واقعة كربلا اشترك فيهـا مندوبون عن الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا • ووصلت اللجنة الى كربلا في ربيـع ١٨٤٣م وأخذت تتصـل بالأهالي وتسـتمع الى شهاداتهم •

مما يلفت النظر أن التقرير الذي قدمه المندوب البريطاني عن نتائج تحقيقه كان مختلفاً كل الاختلاف عن تقرير المندوب العثماني من حيث تقدير عدد القتلى ونوعيتهم • فالمندوب العثماني قدّر القتلى من الأهالي بما يناهز المائتين والخمسين وجعل أكثرهم من الايرانيين بينما هو قـدر خسائر الجيش التركي بأربعمائة قتيل ومائتي جريح ، ومعنى هذا أنه اعتبر خسائر الأهالي أقل من خسائر الحكومة • أما المندوب البريطاني فكان مفاد تقريره أن عدد القتلى لا يزيد على الخمسة آلاف وأن ثلاثة آلاف منهم قتلوا داخل البلدة ومعظمهم من العرب ، ويضيف التقرير الى ذلك أن عدداً من الهنود من رعايا بريطانيا قد قتلوا في الواقعة أو فقدوا بينما لم يقتل من رعايا روسيا سوى شخص واحد[٢] •

الملاحظ أن كلا التقريرين على الرغم من التفاوت الكبير بينهما يرميان

---

(١) ن٠أ٠ خالفين (الصراع على كردستان) ترجمة أحمد عثمـان أبو بكر ــ بغداد ١٩٦٩ ــ ص٥٨ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهـرة ١٩٦٨ ــ ص ٩٢ ــ ٩٣ •

الى هدف واحد هو التقليل من عدد القتلى الايرانيين ، ويبدو أن المقصود من ذلك هو مجابهة التهويل الذي قامت به ايران في تصوير الواقعة وفي تضخيم عدد القتلى من رعاياها • وعلى أي حال فقد تقدمت ايران الى الدولة العثمانية بمطاليب شديدة كان أهمها :

(١) أن يدفع السلطان تعويضاً لمنكوبي كربلا •
(٢) أن يعلن الباب العالي عدم رضاه وموافقته على حملة نجيب باشا •
(٣) أن يعيد نجيب باشا ما تخرب من العتبات المقدسة •
(٤) أن يحكم نجيب باشا بالعدل ويحمي الايرانيين في كربلا وزوارها •
(٥) أن يكون نجيب باشا مهدداً بالعزل ان هو أساء التصرف فيما بعد •
(٦) أن تعلن هذه القرارات لجميع السفراء[1] •

وقد وافقت الدولة العثمانية على هذه المطاليب ما عدا المطلب الخاص بعزل نجيب باشا اذ اعتبرت ذلك تدخلاً في شؤون الدولة الداخلية • وأيد السفير البريطاني في اسطنبول موقف الدولة العثمانية • وانتهى الأمر أخيراً بتصفية الأزمة بين الدولتين على وجه من الوجوه •

معاهدة ارضروم الثانية :

بعد أن انتهت أزمة كربلا أخذت بريطانيا تبذل جهدها بالتعاون مع روسيا من أجل حل جميع المشاكل والقضايا المعلقة بين ايران والدولة العثمانية حول الحدود ، وخصوصاً حول منطقتي عربستان وكردستان ، وهي مشاكل طال عليها الزمن وأخذت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم •

وفي ١٥ أيار من عام ١٨٤٣م عقد مؤتمر في أرضروم لهذا الغرض اشترك فيه مندوبون عن الدول الأربع هم : مرزا تقي خان مندوباً عن ايران،

---

(١) المصدر السابق ـ ص٣٣٧ •

وأنور أفندي مندوباً عن الدولة العثمانية ، والكولونيل فارانت مندوباً عن بريطانيا ، والكولونيل دانيزي مندوباً عن روسيا • واستمرت مفاوضات المؤتمر زهاء أربع سنوات •

لم تخل مفاوضات المؤتمر من بعض المخاصمات والمنازعات ، وكثيراً ما كانت توشك على الانقطاع لولا توسط المندوبين البريطاني والروسي • وحدث حادث في بداية المؤتمر كاد يؤدى الى مذبحة خلاصته أن رجلاً من حاشية المندوب الايراني أبدى ملاحظة اعتبرها أهل أرضروم اهانة لمذهب السنة فهاجم جمهور منهم المخيم الايراني وقتلوا اثنين أو ثلاثة من رجاله وكادوا يفتكون بالمندوب الايراني نفسه لو لم يسرع الى انقاذه أحد حاشية المندوب العثماني • وقد اعتذرت الدولة العثمانية لايران عن ذلك ودفعت خمسة عشر ألف تومان تعويضاً[١] •

وفي عام ١٨٤٦م اشتدت الخصومة بين المندوبين العثماني والايراني حول المحمرة الى حد كاد يؤدي الى النزاع المسلح ، فقد أرسلت الدولة العثمانية الى ميناء المحمرة سفينة حربية ، وأخذت السفينة ترغم القوارب التي كانت تقصد ذلك الميناء على الذهاب الى البصرة لدفع ما عليها من رسوم كمركية ، فاحتجت ايران على هذا العمل ، وتدخلت بريطانيا فاستطاعت أن تقنع الدولة العثمانية بسحب السفينة ، وصدرت الأوامر بذلك الى والي بغداد نجيب باشا[٢] •

وفي عام ١٨٤٧م انتهى مؤتمر أرضروم من صياغة نصوص المعاهدة التي سميت بـ « معاهدة أرضروم الثانية »[٣] ، وحين قدمت المعاهدة الى

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٩ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص٣٣٩ ـ ٣٤٠ •

(٣) كانت معاهدة أرضروم الأولى قد عقدت في عهد الوالي داود باشا في عام ١٨٢٣ •

الدوائر المسؤولة في طهران واسطنبول امتنعت هذه عن الموافقة عليها ولم تصادق عليها الا تحت ضغط من روسيا وبريطانيا[1] • وكان أهم ما جاء في المعاهدة النقاط التالية :

(١) أن تتنازل الدولة العثمانية لايران عن المحمرة وجزيرة عبادان مقابل تنازل ايران عن كل مدعياتها في منطقة السليمانية حيث تتعهد بعدم التدخل في شؤونها •

(٢) تقسيم منطقة زهاو الى قسمين ، فالقسم الشرقي منها وهو الذي يشمل كرند وقصر شيرين يُضم الى ايران بينما يبقى القسم الغربي منه في حوزة الدولة العثمانية •

(٣) تأمين المعاملة الحسنة وتسهيل الاجراءات الرسمية والكمركية للزوار الايرانيين الذين يقصدون العتبات المقدسة في العراق •

مسح الحدود :

لم يكد المسؤولون في طهران واسطنبول يضعون اختامهم على معاهدة أرضروم حتى بدأ النزاع يظهر من جديد بين الدولتين ، اذ أخذت كل منهما تفسر فقرات المعاهدة كما تشتهي وتعين خطاً للحدود معارضاً لخط الدولة الأخرى • وعمدت ايران الى وضع حامية في جزيرة عبادان الواقعة عند مصب شط العرب دون أن تستشير أحداً من أعضاء المؤتمر أو تستشير بريطانيا وروسيا[2] •

كانت المعاهدة قد احتاطت لهذا الأمر فنصت على تأليف لجنة من الدول الأربع لمسح الحدود مسحاً علمياً دقيقاً بغية ازالة أي سبب للنزاع حولها في المستقبل • وقد تألفت اللجنة فعلاً باسم « اللجنة المختلطة » حيث اشترك

---

(١) ن٠أ٠ خالفين (المصدر السابق) ص٦٣ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ص٣٤٣ •

فيها درويش باشا مندوباً عن الدولة العثمانية ، والمرزا جعفر خان عن ايران، والكولونيل وليامز عن بريطانيا ، والكولونيل جريكوف عن روسيا[1] •

وذهبت اللجنة الى الحدود لدراستها على الطبيعة نقطة فنقطة ، وكان عملها مضنياً طويلاً وقد اعتمدت في تعيين الحدود على كل ما تيسر لديها من الوثائق الرسمية وسجلات الضرائب وخطوط تقسيم المياه وقمم الجبال ، وكانت تلجأ أحيانا الى استطلاع رغبات الأهالي الساكنين في المنطقة والتعرف الى انتمائهم الطائفي وقد تستمع الى شهادات المسنين منهم والاقوال المأثورة •

ولم يخل عمل اللجنة من المخاصمات والمنازعات على منوال ما حدث في مؤتمر أرضروم • وكان للطائفية يد في اثارة بعض تلك المنازعات ، فقد كان الشيعة من سكان الحدود يميلون الى الانضمام الى ايران بينما كان السنيون يميلون الى الدولة العثمانية • خذ مثلاً ما حدث حول « قوتر » وهي قرية ذات موقع مهم في شمال العراق اذ هي تشرف على الطريق المؤدي الى خوي وتبريز في ايران ، وكان أهل القرية يرغبون في الانضمام الى ايران غير أن درويش باشا أراد ضمها الى الدولة العثمانية استناداً الى فقرات غامضة وردت في بعض المعاهدات القديمة ، وتقدم حينذاك الى اللجنة بالتواطؤ مع درويش باشا أربعة رجال مسنين فشهدوا ان القرية كانت تعود الى الدولة العثمانية منذ عهود سحيقة ، واستطاع درويش باشا أن يحقق مأربه أخيراً حيث أمر القوات التي معه باحتلال القرية •

أرسل السفير البريطاني في اسطنبول ، السر ستراتفورد كانغ ، الى المندوب البريطاني في اللجنة يوصيه بأن يتضامن مع المندوب الروسي عند وقوع خلاف بين أعضاء اللجنة[2] • وهذه توصية كان لها أثرها في انجاح عمل اللجنة ، فلو لم يتضامن المندوبان البريطاني والروسي تجاه المندوبين

---

(١) المصدر السابق ـ انظر الحاشية ـ ص٣٤٢ •
(٢) ن•أ• خالفين (المصدر السابق) ص٦٥ •

الآخرين لما كان في وسع اللجنة أن تصل الى اتفاق في أية نقطة من نقاط الحدود المتنازع عليها .

عقائد الشيخيين :

أشرنا من قبل الى السيد كاظم الرشتي وقلنا انه كان رئيس الشيخيين أثناء واقعة كربلا ، ولابد لنا هنا من اتمام الحديث عنه وعن الشيخيين لما كان لهم من أهمية اجتماعية في تلك المرحلة التي مر بها العراق آنذاك .

ان الشيخيين انما سموا بهذا الاسم نسبة الى الشيخ أحمد الاحسائي ، وكان هذا الرجل من أهل الاحساء ولد في عام ١٧٥٣م ، ثم هاجر الى كربلا لطلب العلم وتجول في ايران ثم استقر أخيراً في كربلا ، ومات قريباً من المدينة في عام ١٨٢٦م أثناء ذهابه الى الحج . وقد تميز الشيخ أحمد ببعض الآراء والعقائد مما أدى الى ظهور انقسام في الشيعة حيث تابعه فريق منهم وخاصمه فريق ، وقد اشتد النزاع بين اتباعه وخصومه في بعض المدن الايرانية الى حد التضارب وسفك الدماء[1] . ليس هنا مجال التفصيل في عقائد الشيخ أحمد يكفي أن نشير هنا الى بعضها باختصار :

اولاً ــ انه يعتقد ان المعصومين الأربعة عشر ــ أي النبي وفاطمة والائمة الاثنى عشر ــ هم علة تكوين العالم وسبب وجوده وهم الذين يخلقون ويرزقون ، ويحيون ويميتون ، ولكنه يستدرك فيقول ان الله في الحقيقة هو الخالق الرازق ، والمحيي المميت ، غير أنه لعزته وتكرمه عن مباشرة الأمور بنفسه أوكلها الى المعصومين الأربعة عشر حيث جعلهم أسبابا ووسائط لأفعاله ، فهم اذن مظاهر لأفعال الله ومحال لمشيئته[2] .

ثانيا ــ ان الانسان اذا صفت نفسه وتخلص من أكدار الدنيا يستطيع

(١) أحمد كسروي (التشيع والشيعة) طهران ١٣٦٤هـ ــ ص٥٥ .

(٢) علي الحائري (عقيدة الشيعة) كربلا ١٣٨٤هـ ــ ص٩ ــ ١١ .

أن يتصل بأحد المعصومين الأربعة عشر عن طريق الاحلام أو بطريق آخر، فيوحى له المعصوم بالعلم الغزير ويكشف له الحجب • وقد حصل الشيخ أحمد نفسه على العلم بهذه الطريقة ، فهو ذكر في سيرته التي كتبها بقلمه : أنه رأى في منامه ذات ليلة الحسن بن علي فأجابه الامام عن مسائل كانت غامضة عليه ثم وضع فمه الشريف على فمه وأخذ يمج فيه من ريقه وكان الريق ساخناً غير أنه كان ألذ من العسل • وظل الشيخ من بعد ذلك يتصل بالائمة بهذه الطريقة فيجيبونه بشكل واضح مدعوم بالأدلة فلا يقدر أحد أن يدخل عليه أية شبهة حتى ولو اجتمع الناس كلهم على ذلك وجاؤوا بألف اعتراض[1] • والظاهر ان هذا هو السبب الذي جعل خصوم الشيخين ينبزونهم بلقب « الكشفية » اذ هم يعتمدون في عقائدهم على « الكشف » كما يفعل الصوفية •

ثالثا ـ ان للانسان جسدين أحدها « هورقليائي » والثاني « صوري »، فالأول منهما هو الجسد اللطيف الذي يمثل مادة الانسان الثابتة أي جوهره الأصيل كما يمثل المعدن مادة الشيء المعمول منه ، أما الجسد « الصوري » فهو الذي يتكون من الأجزاء الفضلية والكثافات العرضية الموجودة في بدن الانسان وهي كثافات تكدر البدن وتمنع من صفائه ولطافته • ويعتقد الشيخ أحمد ان الانسان اذا مات اندثر جسده « الصوري » فلا يعود اليه في يوم القيامة ، أما الذي يعود اليه فهو جسده « الهورقليائي » فقط • وكذلك يعتقد الشيخ أحمد ان النبي حين عرج الى السماء في ليلة الاسراء لم يصعد بجسده « الصوري » الكثيف بل صعد بجسده « الهورقليائي »[2] •

رابعا ـ ان الشيخ أحمد الاحسائي ينظر الى غيبة الامام الثاني عشر

---

(١) أحمد الاحسائي (سيرة الشيخ أحمد الاحسائي) تحقيق حسين محفوظ ـ بغداد ١٩٥٧ ـ ص١٧ ـ ١٩ •

(٢) موسى الاسكوئي (احقاق الحق) النجف ١٩٦٥ ـ الفصلين الرابع والخامس •

بمثل النظرة التي نظر بها الى موت الانسان أو معراج النبي ، فهو يعتقد أن الامام عندما غاب غيبته الكبرى انما هو قد نزع عنه جسده « الصوري » وبقي محتفظاً بجسده « الهورقليائي » ، وهذا هو سر بقائه مئات السنين في قيد الحياة دون أن يتطرق اليه الفناء . ويروى عن الشيخ أحمد أنه قال : « ان الامام ، روحي له الفداء ، لما خاف من أعدائه خرج من هـذا العالم ودخل في جنة هورقليا وسيعود الى هذا العالم بصورة شخص من أشخاصه » . ويعني بذلك أنه يعود بالولادة والنمو كسائر الناس(١) .

التبشير بالظهور :

كان الشيخ أحمد الاحسائي في كتاباته ودروسه يكثر من الاشـارة الى قرب ظهور الامـام الغائب بمناسبة انقضاء ألف سنة على غيبته ، وقيل ان الاحسائي أثناء رحلته الى ايران كان في كل بلدة يمر بها يختار نفراً من مريديه فيوجه انتباههم الى أن الامام الغائب على وشك الظهور وأنهم يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد لنصرته ، وكان يؤكد لهم أن الامام الغائب حين يظهر سوف يبدل الكثير من العقائد والتعاليم الموجودة ، وان ذلك سيرتعب منه « نقباء الارض » لعدم قدرتهم على تحمله(٢) .

وقد أوصى الشيخ أحمد في أواخر أيامه بأن يكون السيد كاظم الرشتي خليفته من بعده ، وقال لاتباعه : « لا يوجد سوى السيد كاظم الرشتي الذي يعرف مقصدي ولا يقدر أن يفهمه أحد خلافه ، فاطلبوا علومي من السيد كاظم الرشتي فقد تلقاها مني مباشرة وهي التي تلقيتها من الائمـة الذين تلقوها من رسول الله . فهو وحده الذي يعرف مغزى كلامي » .

ثم أوصى الشيخ أحمد خليفته السيد كاظم بأن يكون يقظاً يترقب

---

(١) عبدالحسين آواره (الكواكب الدرية) ترجمة أحمد فائق رشد ـ القاهرة ١٩٢٤ ـ ص٤٣ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص١٢ ـ ١٣ .

ظهور الامام الغائب ويمهد أذهان الناس له ، وقال له : « فالحق أقول لك ان الساعة قريبة تلك التي طلبت من الله أن ينجيني من مشاهدتها لأن زلزلة الساعة شيء عظيم ... »[1] .

كان السيد كاظم قد اتخذ كربلا له مقراً ، وقد انقسم أهل كربلا في عهده الى فريقين فريق تابعوه وكانوا يسمون « بشت سري » وهي لفظة فارسية معناها « خلف الرأس » لأنهم يصلون خلف رأس الحسين ، أما خصومهم فكانوا يسمون « بالا سري » لأنهم يصلون فوق رأس الحسين .

وقام السيد كاظم بما أوصاه به استاذه الشيخ أحمد فكان يواصل التبشير بقرب ظهور الامام الغائب وكان يقول لاتباعه : « ان الموعود الذي تنتظرونه لا يأتي من جابلقا ولا جابرسا بل هو موجود في وسطكم وترونه بأعينكم ولكنكم لا تعرفونه » . وحين زار الرشتي بلدة الكاظمية سأله أحد الناس فيها : متى يكون ظهور الموعود ؟ فأدار الرشتي عينيه في المجلس ثم قال للسائل : « وانك أنت سوف تراه »[2] .

وقد مات الرشتي في عام ١٨٤٣م بعد قليل من واقعة كربلا . ويروى عنه أنه لم يوص بالخلافة الى أحد من بعده اذ اعتذر بقرب ظهور الامام الغائب[3] ، وقيل انه أوصى اتباعه بأن يهجروا بيوتهم ويطهروا أنفسهم من كل أغراض الدنيا ، ثم يتفرقوا في البلاد مكرسين أوقاتهم كلها للبحث عن الموعود الذي حان حينه[4] .

وانقسم الشيخيون بعد وفاة الرشتي الى فرق ثلاث : فرقة تابعت المرزا محمد حسن جوهر الذي كان يسكن كربلا ، والثانية تابعت الحاج كريم

---

(١) المصدر السابق — ص١٤ .

(٢) المصدر السابق — ص٢٠ .

(٣) أحمد كسروي (المصدر السابق) ص٥٧ .

(٤) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٠ ، ٣٧ .

خان القاجاري الذي كان يسكن كرمان في ايران ، أما الفرقة الثالثة فلم ينحازوا الى أحد هذين الرجلين بل ذهبوا يتجولون في البلدان بحثاً عن الامام الغائب الذي هو في اعتقادهم على وشك الظهور ، وكان على رأس هذه الفرقة الأخيرة رجل كان من الملازمين للرشتي والمتعلقين به اسمه الملا حسين البشروئي •

ظهور الباب :

استطاع الملا حسين البشروئي بعد الجهد أن يعثر على « الموعود » في شخص شاب من أهل شيراز اسمه السيد علي محمد وهو الذي لقب بـ « الباب » ومنه انبثقت الدعوة البابيه ثم البهائية •

كان الملا حسين منذ خروجه من كربلا قد أعد علامتين ليمتحن بهما الموعود عند ظهوره ، اولاهما رسالة كان الملا حسين كتبها بنفسه حول بعض الأقوال الغامضة والتعاليم المتشابهة التي صدرت من الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي فمن يحل معضلاتها ويكشف الغموض عنها لابد أن يكون هو الموعود • أما العلامة الثانية فهي تفسير سورة يوسف بطريقة جديدة مغايرة للاصول المعروفة •

وكان أول عمل قام به الملا حسين هو أنه انقطع للرياضة « الاربعينية » في جامع الكوفة وهي رياضة مأثورة لدى الشيعة لمن يريد أن يرى الامام الغائب • وبعد انقضاء الأربعين يوماً سافر الى بوشهر ومنها ذهب الى شيراز • وهناك بينما كان الملا حسين يسير منفرداً خارج سور البلدة ، في اليوم الأول من وصوله اليها ، التقى على سبيل المصادفة بشاب وسيم يلبس العمامة الخضراء هو السيد علي محمد ، وقد تقدم السيد نحوه فحياه وعانقه ورحب به كأنه يعرفه منذ زمن بعيد ، ثم دعاه الى منزله للاستراحة من وعثاء السفر ، فأجاب الملا حسين دعوته وذهب معه الى منزله حيث أمضى تلك الليلة •

ان الليلة التي قضاها الملاحسين في منزل السيد علي محمد في شيرازهي في غاية الاهمية بالنسبة للدعوة البابية والبهائية ، ولكي نفهم كنه ما جرى فيها يجدر بنا دراسة شيء من حياة السيد علي محمد وشخصيته قبل أن يعلن دعوته في تلك الليلة •

كان السيد علي محمد يومذاك في الرابعة والعشرين من عمره يمتهن التجارة مع خاله في شيراز وبوشهر ، وقد سافر في عام ١٨٤٠م الى كربلا فحضر بعض دروس السيد كاظم الرشتي وقيل ان الرشتي اهتم به وعطف عليه(١) • ويكاد المؤرخون يجمعون على أن السيد علي محمد كان ذا شخصية غير عادية اذ كان يميل الى العزلة والخشوع والانهماك في الرياضات الروحية • وحين كان يعمل في بوشهر في مطلع شبابه كان يقضي بضع ساعات يومياً في الصلاة والمناجاة على سطح المنزل فلا يبالي بالحر الشديد الذي تتميز به تلك البلدة ، وعندما كان يحضر مجالس التعزية كان يظهر عليه الخشوع والخضوع فتنهمر عيناه بالدموع بينما كانت شفتاه تهمسان ببعض المناجاة التي يتلوها(٢) •

يخيل لي ان الالتقاء بين السيد علي محمد الشيرازي والملا حسين البشروئي في تلك الليلة كان من المصادفات النادرة التي تقع أحياناً فتؤثر في مجرى التاريخ البشري ، فلقد كان الملا حسين في أشد اللهفة الى لقيا « الموعود » من جهة بينما كان السيد علي محمد مستعداً من الناحية النفسية لأن يكون هو « الموعود » من الجهة الاخرى • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان تلك السنة كانت ذات أهمية حروفية كبيرة ، فهي نهاية انقضاء ألف سنة على غيبة الامام الثاني عشر وقد ورد عنها في كتب الملاحم روايات

---

(1) E.G. Browne (A Year Among The Persians) Cambridge 1927 — P. 65.

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٦١ — ٦٣ •

مأثورة عن جعفر الصادق وابن عربي ومحمد اكبري وغيرهم[1] .

ليس لدينا من المعلومات عما جرى في تلك الليلة بين الرجلين الا ما ذكرته المصادر البابية والبهائية . ونحن ننقل عنها فيما يلي خلاصة لما جرى :

ورد في كتاب « مطالع الانوار » : ان الملا حسين بعدما استراح من وعثاء السفر في منزل السيد علي محمد سأله السيد عمن أصبح خليفة الرشتي بعد وفاته ، فأجابه الملا أن الرشتي أوصى تلاميذه بأن يتركوا أوطانهم من أجل البحث عن الموعود ، ولذا فهو قد جاء الى شيراز وسيذهب الى غيرها من البلدان عملاً بتلك الوصية . وهنا انبرى السيد علي محمد سائلاً : هل عيّن الرشتي الأوصاف والمميزات التي يجب أن يتصف بها الموعود ؟؟ فأجابه الملا قائلاً : « نعم فانه من السلالة الطاهرة والعترة النبوية ومن ذرية فاطمة ، وأما سنّه فاكثر من العشرين وأقل من الثلاثين ، وعنده علم لدني ، وهو متوسط القامة ، ويمتنع عن شرب الدخان ، وخالٍ من العيوب والعاهات الجسمانية » . فسكت السيد ثم سأل بصوت جهوري : « انظر هل ترى هذه العلامات في شخصي ؟! » . وقد أثار هذا السؤال المفاجيء دهشة الملا حسين فقال معترضاً : « ان الذي ننتظره هو شخص قدسي ليس فوق قداسته قداسة ، ويُظهر من الأمر ما له قوة فائقة ، وشرائطه وعلائمه عديدة ، فكم أشار السيد ـ الرشتي ـ الى سعة علمه وكم كان يقول ان علومي بالنسبة لعلمه كقطرة من بحر مما وهبه الله وان جميع ما حصلته لم يكن الا كذرة من التراب في مقابل اتساع معارفه والفرق بينهما شاسع » .

وبعد أن أدلى الملا حسين بهذا الجواب شعر بالخجل من نفسه وعزم على تلطيف اسلوبه وتخفيف حدته ، ثم تذكر العلامتين اللتين أعدهما من

---

(١) المصدر السابق ـ ص٣٩ .

قبل لامتحان الموعود عند ظهوره وأراد تقديمهما للسيد علي محمد ليمتحنه بهما • وفي تلك اللحظة أعاد السيد عليه السؤال قائلاً له : « أنعم النظر هل لا يمكن أن يكون الشخص الذي يعينه السيد كاظم انما هو أنا ؟! » • وعند هذا وجد الملاحسين نفسه مضطراً أن يمتحن السيد علي محمد فقدم له أولاً الرسالة التي تحتوي على مسائل غامضة مأخوذة من كتابات الاحسائي والرشتي وطلب منه توضيحها ، ثم طلب منه ثانياً تفسير سورة يوسف • وقد استطاع السيد علي محمد في بضع دقائق أن يوضح له المسائل الغامضة بأسلوب مبهج جعل الملا حسين مأخوذاً لا يملك نفسه • وبعد أن انتهى السيد علي محمد منها توجه نحو تفسير يوسف فتناول القلم وأخذ يكتب بسرعة لا تصدق ، ولم يتوقف عن الكتابة حتى أتم تفسير السورة كلها ، وكان يتلو الآيات أثناء كتابتها فتزيد حلاوة صوته من قوة تأثير كلماته •

لم يجد الملا حسين مناصاً تجاه هذه « البراهين الساطعة » الا بأن يصدق بالدعوة ، فكان أول مؤمن بها ، وقد أطلق السيد علي محمد على نفسه لقب « الباب » باعتباره باباً للامام الغائب ونائباً عنه ، ثم أطلق على الملا حسين لقب « باب الباب » ثم قال له : « ان هذه الليلة وهذه الساعة سيُحتفل بها في الأيام الآتية كأعظم الأعياد وأهمها فاشكر الله الذي أوصلك الى مرغوب قلبك وأشربك من رحيق كلامه المختوم ، طوبى للذين هم اليه واصلون ! »[١] •

حدث كل ذلك في ليلة الخامس من شهر جمادي الأولى من عام ١٢٦٠هـ الموافق ٢٣ أيار من عام ١٨٤٤م • وقد اعتبر البابيون ـ ثم البهائيون من بعدهم ـ هذا اليوم عيداً اذ هو عيد « المبعث » بالنسبة لهم ، وهم الآن يقدسونه ويحرمون تعاطي الاشغال فيه[٢] •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٤١ ـ ٤٩ •

(٢) عبدالرزاق الحسني .(البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم) صيدا ١٩٥٧ ـ ص١٢ •

محاكمة في بغداد :

بلغ عدد الذين اعتنقوا الدعوة الجديدة في أول أمرها ثمانية عشر ، فسماهم الباب « حروف الحي » لأن لفظة « الحي » تساوى في حساب الحروف عدد (١٨) ، ثم أرسلهم الباب يبشرون بدعوته في أنحاء ايران •

ولم ينس الباب العراق فأرسل اليه أحد حروف الحي هو الملا علي البسطامي •وقد وصل هذا الرسول الى كربلا يبشر الذين كانوا ينتظرون ظهور « الموعود » أنه قد ظهر فعلاً ، فصدق به بعضهم وكذبه آخرون • ثم ذهب الى النجف ، وكان الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر هو الذي يتولى الزعامة الدينية فيها ، فدخل الى مجلس الشيخ وأعلن من غير تهيب أن الموعود الذي ينتظرونه قد ظهر في شيراز ، وأخذ يبرهن لهم صحة دعوى الباب حيث قال في وصفه : « ان دليله آياته ، ومعجزته هي المعجزة التي يعترف بها الاسلام لمعرفة الحق ، فمن قلم هذا الشاب الهاشمي الذي لم يدخل المدارس تجرى في ظرف ثمان وأربعين ساعة من الآيات والمناجاة ما يعادل قدر القرآن الذي أنزل على محمد رسول الله في مدة ثلاث وعشرين عاماً »[١] • كان هذا الكلام بمثابة قنبلة انفجرت في المجلس فهب الحاضرون كلهم على البسطامي وأخذوا يهينونه اهانة بالغة ثم اوثقوه بالقيود وكتبوا بكفره محضراً وقعوه جميعاً وسلموه الى الحكومة متهمين اياه بهدم الاسلام والقدح في الرسول وتحريك الفتنة • وسيق البسطامي مخفوراً الى بغداد •

عندما جيء بالبسطامي الى نجيب باشا عمد هذا الى عقد مجلس خاص لمحاكمته مؤلف من علماء الشيعة والسنة معاً • وكان هذا أول مجلس من نوعه في العهد العثماني اذ لم يكن مألوفاً في ذلك العهد أن يجتمع علماء الطائفتين في مجلس واحد لمحاكمة متهم ، فهذا يعنى أن الحكومة اعترفت

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٧١ •

بمذهب الشيعة اعترافاً رسمياً • وقد اختلفت الأقوال في تعليل الدافع الذي دفع الوالي نجيب باشا الى ذلك العمل ، فمن قائل ان الوالي انما فعل ذلك من أجل أن يتقرب الى علماء الشيعة ويسترضيهم بعد الذي وقع منه في كربلا ، ومن قائل انه قصد من عقد المجلس أن يضعف موقف المفتي أبي الثناء الآلوسي لانه كان يبغضه •

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن نجيب باشا كان على صلة وثيقة بأحد علماء النجف الكبار هو الشيخ حسن كاشف الغطاء ، وقد بدأت صلته به عندما ذهب الى النجف مع فرقة من الجيش بعد واقعة كربلا ، فقام الشيخ حسن بضيافة نجيب باشا وجنوده ثلاثة أيام[1] • ويعد الشيخ حسن مقارباً في مكانته العلمية للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر وله مقلدون كثيرون •

وعندما انعقد مجلس المحاكمة ببغداد حضره الشيخ حسن كاشف الغطاء مع ابني أخيه الشيخ محمد والشيخ مهدي ، كما حضره من كربلا السيد ابراهيم القزويني والمرزا محمد حسن جوهر ، ومن الكاظمية الشيخ محمد حسن آل ياسين والشيخ حسن أسد الله • وقد حضره من علماء بغداد : المفتي أبو الثناء الآلوسي ، والسيد علي الكيلاني نقيب الاشراف ، ومحمد سعيد أفندي الطبقجلي ، ومحمد أمين افندي الواعظ •

وارتج المجتمع البغدادي لانعقاد هذا المجلس وراجت مختلف الاشاعات حوله، وظن العوام أن علماء الشيعة والسنة لايمكن أن يجتمعوا عبثاً ولا بد أن يكون سبب اجتماعهم هو للنظر في قضية أبي بكر وعلي وأيهما أولى بالخلافة من الآخر • حدثني أحد المسنين من أهل بغداد أن الشيخ حسن عند وصوله الى بغداد نزل في ضيافة آل كبة اذ كانت هذه الأسرة يومذاك أغنى الأسر

---

(١) محسن الأمين (أعيان الشيعة) دمشق ١٩٤٦ ــ ج٢١ ص١٣٣ ــ ١٣٦ •

الشيعية في بغداد وأوسعها نفوذاً وشهرة ، وكان الشيخ يرتدي الملابس الخشنة على عادة أكثر العلماء في النجف فأرغمه آل كبة على ارتداء الملابس الفاخرة بحجة أنه ذاهب لمقابلة « أعداء المذهب » ولابد أن يظهر أمامهم بالمظهر اللائق •

يبدو على أي حال أن المجلس لم يخل من مجادلة عنيفة جرت بين الشيخ حسن كاشف الغطاء وأبي الثناء الآلوسي ، فقد كان رأي الآلوسي أن يُقتل المتهم ولا تقبل منه توبة ، أما الشيخ حسن فكان رأيه أن المتهم يجب أن يستتاب أولاً ولا يقتل الا اذا أصر على ذنبه ، وقد استشهد الشيخ حسن بكتب من مراجع المذهب الحنفي فجيء بها الى المجلس وتبين أن الرأي فيها مطابق لرأيه فأخذ المجلس به[1] • ان هذه المجادلة في الواقع اعتيادية تقع دائماً في مجالس علماء الدين ، ولكن العوام في بغداد لم يفهموها بهذا المعنى بل اعتبروها نوعاً من المغالبة أو المبارزة بين عالم الشيعة وعالم السنة ، وأخذوا يطنطنون لها ما يشاؤون ، شأنهم في ذلك شأن العامة في كل زمان ومكان •

لسنا نعرف ماذا حل بالملا علي البسطامي بعدئذ ، والظاهر أن الناس شغلوا بأمر المجادلة بين الآلوسي وكاشف الغطاء فنسوا المتهم الذي حدثت المجادلة من أجله • قيل انه سيّر مخفوراً الى اسطنبول فمات في الطريق من جراء مرض أصابه ، وقيل في رواية أخرى انه مات مقتولاً ، ويعتبره البابيون والبهائيون أول « شهيد » في سبيل الدعوة الجديدة •

نشاط الدعوة الجديدة :

عندما اقترب موسم الحج من تلك السنة عزم الباب على الحج فركب

---

(١) يجد القارىء تفاصيل ما جرى في المجلس في رسالة مخطوطة كتبها الشيخ عباس ابن الشيخ حسن كاشف الغطاء عنوانها « نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري » •

سفينة شراعية من ميناء بوشهر وكان يصحبه خادم حبشي وشاب من أتباعه المخلصين هو محمد علي البارفروشي الذي لقبه الباب بـ « القدوس » ، وبعد شهرين وصلت السفينة بهم الى جدة . وعندما أتم الباب مناسك الحج كتب رسالة الى شريف مكة يذكر فيها معالم دعوته . وقد وصلت الرسالة الى الشريف في زحمة الحج فلم يهتم بها[1] .

ولما عاد الباب الى موطنه بدأت دعوته تثير الجدل بين سكان شيراز ، اذ اعتنقها نفر منهم وتحمسوا لها بينما قاومها رجال الدين والعامة وافتوا بكفرها . وكان الشاه محمد قد علم بما يجرى في شيراز من جدال فأرسل أحد علماء الدين وهو السيد يحيى الدارابي الى هنالك لكي يمتحن الباب ويأتى بحقيقة أمره . وعندما وصل الدارابي الى شيراز واجتمع بالباب قدم له أسئلة لامتحانه وهي حول الآيات المتشابهة في القرآن وبعض المسائل المستعصية من نبوءات الأئمة ، فأخذ الباب يجيب عليها بشكل أثار اعجاب الدارابي . وفي جلسة أخرى أخذ الباب يفسر له سورة الكوثر وكان تفسيره لهذه السورة يختلف عن التفاسير المعهودة وكانت الآيات تتموج من قلمه بسرعة مدهشة تكاد لا تصدق حتى بلغ مجموعها ألفين ، مما جعل الدارابي مسحوراً بها حتى كان على وشك أن يغمى عليه ثلاث مرات[2] ... وانتهى الأمر بالدارابي أخيراً الى اعتناق الدعوة البابية ...

كان يحكم شيراز يومذاك وال صارم يدعى حسين خان الايرواني . ويروي صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » ان هذا الوالي استدعى الباب اليه وأخذ يتظاهر أمامه بأنه من المؤمنين به وطلب منه الاجتماع بالعلماء لاظهار دعوته لهم . ولما تم الاجتماع قام الباب يخاطب العلماء قائلاً : « ألم يأن لكم ايها العلماء أن تنبذوا الهوى ، وتتبعوا الهدى ، وتتركوا الضلال .

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ص١٣٨ .

وتسمعوا أقوالي ، وتذعنوا لأوامري . ان نبيكم لم يخلف لكم بعده غير القرآن ، فهاكم كتابي (البيان) فاتلوه واقرأوه تجدوه أفصح عبارة من القرآن ، وأحكامه ناسخة لأحكام الفرقان ، فاسمعوا وانتصحوا ، وابقوا على أنفسكم وعلى أطفالكم وعلى أموالكم ، قبل أن تسل السيوف وتوضع في رقابكم ، وتشحذ في أعناقكم ، وتسفك دماءكم ، فاسمعوا وطاوعوا اني لكم من الناصحين » . وعند هذا طلب العلماء منه أن يكتب صحيفة يثبت فيهـا مدعياته ، ولما كتب الباب الصحيفة وجدوها ملحونة كثيرة الاغلاط ، فذكروا ذلك له فكان جوابه أنه لم يتعلم في المدارس وان الذي يكتبه هو الهام من الغيب ووحي يوحى اليه فلينظروا الى المعاني ويتركوا المباني ، وليأخذوا اللب ويرموا القشر . فارتفع ضجيج العلمـاء ، فمنهم من أفتى بكفره ، ومنهم من قال باختلال عقلـه . ثم أمر الوالي فجروه الى صـحن الدار وربطوا رجليه في « الفلقة » وأخذوا يضربونه حتى كاد يغمى عليه . ثم حملوه على دابة وذهبوا به الى المسجد فصعد المنبر فأعلن توبته وأظهـر الندامة[1] .

وجاء في كتاب « مطالع الانوار » أن الباب قال من على المنبر : « ان غضب الله على كل من يعتبرني وكيلاً عن الامام أو الباب اليه ، وان غضب الله على كل من ينسب اليّ انكار وحدانية الله أو أني أنكر نبوة محمد خاتم النبيين أو رسالة أي رسول من رسل الله أو وصاية علي أمير المؤمنين أو أي أحد من الأئمة الذين خلفوه » . ثم أطلق سراح الباب فعاد الى منزلـه بحراسة خاله[2] .

ظل الباب بعد تلك الحادثة بضعة أشهر وهو معتزل في منزله لا يعلن شيئاً من دعوته . والظاهر أن اتباعه كانوا دائبين في نشر دعوته ، فأخذت

(١) محمد مهدي خان (مفتاح باب الأبواب) القاهرة ١٣٢١هـ — ص١٣٣ ــ ١٤١ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص١٢١ ــ ١٢٢ .

الدعوة تنتشر في بعض البلدان الايرانية ، كما انتشرت في كربلا على نحو ما سنذكره في الفصل القادم .

أرسل الصدر الاعظم من طهران الى حسين خان والي شيراز يطلب منه التخلص من الباب بأية صورة . وفي أواخر آذار من عام ١٨٤٦م أرسل الوالي مدير شرطته عبدالحميد خان الى منزل الباب فألقى القبض عليه ثم ساقه نحو مركز الشرطة ، ولكنه لم يكد يسير به قليلاً حتى وجد السوق في هرج ومرج والناس يهرعون ذاهلين وهم يحملون الجنائز ، وكان سبب ذلك انتشار وباء الكوليرا في البلدة وموت الكثير منه فجأة . فتوجه مدير الشرطة نحو داره ومعه الباب فوجد ولده مصاباً بالوباء ، وعند هذا ألقى مدير الشرطة نفسه على أقدام الباب يتضرع اليه أن ينقذ حياة ابنه ويطلب منه المغفرة . وشرع الباب يتوضأ ثم أمر بأخذ شيء من الماء الذي غسل به وجهه ليشربه الولد المصاب . وقد نجا الولد « من بركات هذا الماء »[1].

الكوليرا في العراق :

ان وباء الكوليرا الذي انتشر في ايران في عام ١٨٤٦م جاء اليها من الهند ، ثم أخذ يسري منها نحو العراق كعادته في كل مرة . وفي ٢٣ آب من ذلك العام ، وكان موافقاً لليوم الأول من شهر رمضان ، ظهرت بوادر الوباء في بغداد فساد الرعب على الناس وارتفعت أسعار مواد التحنيط والتكفين !

من الظواهر الاجتماعية التي تُلاحظ في بغداد عند كل وباء يفد اليها هي أن الموسرين من سكانها ورجال الحكم والقناصل يهربون من المدينة ومعهم الخيام ومواد التموين ، فيخيمون في البرارى بعيداً عن الناس وبذلك ينجون من الوباء في الغالب غير أن بغداد تبتلي عند ذاك بموجة عارمة من

(١) المصدر السابق ــ ص١٥٢ ــ ١٥٥ .

اللصوص اذ هم ينتهزون فرصة خلو المدينة من السلطة فيدخلون الدور كما يكسرون أبواب الدكاكين ويعيثون فيها نهباً وتخريباً •

كان القنصل البريطاني من جملة الذين هربوا من بغداد عندما حل بها وباء ١٨٤٦م ، فذهب هو ومن معه من موظفي القنصلية وخدمها الى مقربة من طاق كسرى فخيموا هناك وفرضوا على أنفسهم نظام الحجر الصحي بكل دقة • والغريب أن القنصل الفرنسي أصر على البقاء في بغداد فلم يغادرها طيلة أيام الوباء وكأنه أراد بذلك أن يتحدى القنصل البريطاني ويستهين به • وقد أصيب القنصل الفرنسي بالوباء وكاد الوباء يقضي عليه لو لم يسرع لانقاذه طبيب أوربي كان ماراً ببغداد يومذاك •

وفي ١٤ تشرين الاول ١٨٤٦م عندما أبل القنصل الفرنسي من مرضه كتب الى حكومته رسالة يصف فيها حالة بغداد أثناء الوباء والسبب الذي منعه من مغادرتها ، حيث قال : « ••• وقد بدأت الكوليرا بالتفشي والانتشار بين الأهالي الجهلاء بصورة مرعبة اعتباراً من أول يوم من أيام رمضان • فارتاعوا منها كل الارتياع نظراً لأنهم محرومون ممن يرشدهم ارشادات صحية • وما ان شرع المرض بالظهور حتى غادر قنصل انكلترا بغداد والتجأ الى طاق كسرى الذي يبعد عنها مسيرة ست ساعات وقد اصطحب معه طبيب قنصليته وهو الطبيب النظامي الوحيد الذي استطاع أن يقدم للمرضى بعض المساعدات • وقد فرض على نفسه وعلى مرؤوسيه ومواطنيه الحجر الصحي الاربعيني ورفض رفضاً قاطعاً الاتصال بالمدينة • وما يزال هذا الاعتزال نافذ المفعول حتى الآن • ولم يساهم هذا الابتعاد في اقلاق البلدة • وما ان علم السكان برحيل الانكليز هذا حتى هربت طائفة اليهود بأجمعها تقريباً وتبعتها جماعة من النصارى وحذا حذوها عدد كبير من الأعراب ففروا جميعاً من هذا الطاعون متجهين الى مختلف الاتجاهات وذلك حين اقتنعوا بطابع هذا المرض المعدي • ومن جهة أخرى كان هناك عدد كبير

من الناس لا تعرف مذاهبهم رأوا هجرة سكان بغداد هذه وأملوا أن الجائحة ستتناول بالتدمير أكبر عدد ممكن من الأفراد الباقين في المدينة فجاسوا خلال البلدة وحرضوا السكان على الانضمام اليهم للقيام بعمليات النهب والسلب هذه تمهيداً لاشعال نيران ثورة • في هذه الظروف رأيت من المناقض كل المناقضة لواجباتي أن أحذو القنصل البريطاني في أن أغير شيئاً من مجرى الأمور اليومي في القنصلية العامة • فبقي أبناء جلدتي من الفرنسيين وكذلك الأجانب المشمولين بالحماية الفرنسية معي داخل المدينة•• وبعد أقل من خمسة عشر يوماً تبين أن الكوليرا قد حصدت أرواح ٤٣١٨ نسمة من السكان من مختلف الأعمار من السكان الذين تناقص عددهم حتى وصل الى أقل من ٣٥٠٠٠ نسمة وذلك من جراء الهجرات نتيجة للفزع العام • أما الاوربيون فلم يخسروا الا ضحية واحدة ألا وهي الأب المحترم (ألفونس) معاون مدير الارسالية التبشيرية اللاتينية ••• ومنذ بضعة ايام وقعت اصابات متفرقة بهذا المرض هنا وهناك واخذ الوباء هذا الشكل المشتت كما كانت حالته في البداية ولكنه أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً ويتراجع منحسراً عن المدينة » •

وقد وصل الجواب الى القنصل الفرنسي من حكومته على هذه الرسالة وفيه نجد وزير الخارجية الفرنسية ينحي باللائمة على عمل القنصل البريطاني لمغادرته بغداد أثناء الوباء ويستحسن قرار القنصل الفرنسي في البقاء فيها ثم يهنؤه بالشفاء « الميمون » من مرضه[1] •

لم يكد ينقضي على هذا الوباء الذي ذكرناه سوى أشهر معدودة حتى ظهرت بوادر وباء جديد من الكوليرا ، وكانت بداية ظهوره في البصرة وأخذ يسري نحو الشمال تدريجاً • وحين بلغ الحلة أخذ يفتك فيها بمعدل يتراوح بين ثمانية وعشرة يومياً • ثم وصل الى بغداد فكان معدل اصاباته اليومية ثلاثين يموت نصفهم تقريباً •

---

(١) پير دى فوصيل (المصدر السابق) ص٥١ ــ ٥٣ •

وكان للحكومة طبيب فرنسي يدعى الدكتور دروز ، وقد حذر هـذا الطبيب الحكومة من الوباء قبل مجيئه ، وطلب مبالغ من المال لاعداد بعض الأدوية اللازمة له ، غير أن الحكومة لم تهتم بطلبه ولم تتخذ أي اجراء للوقاية من الوباء • وقد أصيب القنصل الفرنسي بالوباء في هذه المرة أيضاً ولكن بخطورة أقل من خطورة المرة الأولى ، واضطر الى الانتقـال الى بستان « النجيبية » في باب المعظم قريباً من مسكن الوالي الصيفي[١] •

بين الوالي والمفتي :

لابد لنا في ختام هـذا الفصل أن نذكر شيئاً عن العلاقة بين الوالي نجيب باشا والمفتي أبي الثناء الآلوسي ، فقد كانت العلاقة بينهما سيئة للغاية اذ كان كل منهما يبغض الآخر ويحاول الانتقاص من شأنه •

الملاحظ أن الآلوسي لم يتعرض في جميع مؤلفاته لذكر السبب الذي أدى الى نشوء العداء بينه وبين نجيب باشا ، ولم يأت المؤرخون الذي كتبوا في سيرة الآلوسي بما يشفي الغليل في تعليل ذلك العداء • والظاهر أن هناك عوامل شتى لعبت دورها في هذا الشأن ، أذكر بعضها فيما يلي :

اولاً ـ كان نجيب باشا قادرياً في اتجاهه الصوفي ، وكان شديد الميل الى آل الكيلاني والى نقيبهم السيد علي أفندي الكيلاني[٢] • ومما يذكر أن آل الكيلاني لم يكونوا على صلة حسنة بالآلوسي ، ولعلهم كانوا يكيدون به ويوغرون صدر نجيب باشا عليه • وكان الآلوسي قد أشـار في بعض مؤلفاته الى أن أعدائه كانوا يكثرون من الدس عليه عند الوالي غير أنه لم يذكر أسماءهم[٣] ، والمظنون أنه يشير بذلك الى آل الكيلاني ومن تابعهم •

---

(١) المصدر السابق ـ ص٥٣ ـ ٥٤ •

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص٨٣ •

(٣) عباس العزاوي (ذكرى أبى الثناء الآلوسي) بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٥٨ •

ثانيا ـ كان الآلوسي لتوقد ذهنه وغزارة علمه كثير الحساد ، يقول عنه حفيده السيد محمود شكري الآلوسي : « الا أنه كان قليل الحظ من العشير ، كثير الصبر والمداراة لكل شرير ، وكان محسوداً للغاية ، مغبوطاً على ما ناله من العناية ، فلذا بلغ فيه أعداوه ما بلغوا ، حيث أنهم مما امتلأ به صدره فرغوا ... »[1] . وكان اعداء الآلوسي يسعون الى الكيد به منذ أيام داود باشا فقد اتهموه آنذاك بسبب ابن حجر ولكن داود باشا ردّهم ، وفي عهد علي رضا باشا كانوا يتفقون فيما بينهم على لغز علمي معين فيدسوه عند الوالي ليسأل به الآلوسي بغية اظهار عجزه ولكن الآلوسي كان حاضر الجواب دائماً . وظلوا يواصلون الكيد به حتى نجحوا أخيراً في عهد نجيب باشا[2] .

ثالثا ـ يبدو أن الآلوسي كان معجباً بنفسه يحب الفخار ، وهذه صفة قد تؤدي عاجلاً أو آجلاً الى نشوء فجوة نفسية بينه وبين الوالي ولا سيما اذا كان الوالي من طراز نجيب باشا . يقول محسن عبدالحميد : « والآلوسي يهمه كثيراً أن يكون محترماً بين الناس ، وهو يذكر احترام الناس له بفخر واعزاز ، والويل لمن لا يقدره ، ولا ينزله المنزلة التي يستحقها ، وعلى الرغم من أن القارىء يشعر أنه قد يكون صادقاً فيما يقول ـ وهذا هو الظن الأغلب ـ الاّ اننا مع ذلك نؤاخذ الآلوسي عليه ، ونود لو أنه لم يلجأ الى هذا . ومع ذلك فالعصمة لله وحده ... ولا أستطيع أن أعد على الآلوسي المعايب ، وانما هي عبارة عن هنات وهفوات »[3] .

رابعا ـ كان نجيب باشا قد اتهم الآلوسي بولائه للقنصل الفرنسي وأرسل بذلك تقريراً الى اسطنبول[4] . وتلك تهمة كانت في تلك الأيام لها

---

(١) محمود شكري الآلوسي (المسك الاذفر) بغداد ١٩٣٠ ـ ص١١
(٢) محسن عبدالحميد (الآلوسي مفسراً) بغداد ١٩٦٩ ـ ص٩٤ ـ ٦٥.
(٣) المصدر السابق ـ ص٧٨ ـ ٧٩ .
(٤) المصدر السابق ـ ص٤٥ .

مغزاها اذ هي تدل على الميل نحو محمد علي باشا وتأييد عصيانه على الدولة. ويقول الدكتور عبدالعزيز نوار : ان الآلوسي كان يحمل روحاً عربية معادية للاتراك وكان ذلك من أسباب عداء نجيب باشا له لان هـذا الوالي جاء الى العراق لينفّذ سياسة الباب العالي في تقوية قبضة الدولة على البلاد والقضاء على الزعامات المحلية فيها[١] .

قد يواجهنا هنا سؤال هو آن الآلوسي في عهد علي رضا باشا كان قد كتب كتاباً في « طاعة السلطان » وكفرّ محمد علي باشا على عصيانه ، فكيف يا ترى تحوّل الآلوسي عن هذا الرأي الى الرأي المناقض له في عهد نجيب باشا ؟

الواقع ان هذا أمر جائز في تلك الأيام كما هو جائز في أيامنا ، ففي مقدور الانسان أن يبدّل رأيه حسب تغير الظروف . ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الآلوسي كان شافعي المذهب قبل أن يتولى منصب الافتاء ، فلما تولى المنصب في عهد علي رضا باشا تحول الى المذهب الحنفي . يقول عنه حفيده السيد محمود شكري الآلوسي : « وكان في صباه شافعي المذهب ، لا يميل لسواه ولا يذهب ، وقلّد مدة افتائه الامام آبا حنيفة في معاملاته ، وبقي على ما كان عليه في عباداته ، وكان بعد عزله يقول أنا شافعي ما لم يظهر لي الدليل ، والاّ فليس عن العمل به من محيل ، حيث ان العالم اذا علم الدليل لا يعذر بالتقليد ، وليس عن العمل باجتهاده محيد ... »[٢] .

مهما يكن الحال فقد بلغ العداء بين نجيب باشا والآلوسي الى حد جعل أحدهما ينتقد الآخر حين يجتمع معه في مجلس . نستدل على ذلك من

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء محمود الآلوسي) في المجلة التاريخية المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ج ١٤ ص١٥٧ ـ ١٦٣ .

(٢) محمود شكري الآلوسي (المصدر السابق) ص١٩ .

عبارات وردت في أحد مؤلفات الآلوسي حيث قال ما نصه : « وكم قد قال بعض الولاة اياك أن تقول في مجلسنا المسألة شرعاً كذا ، وقد أصابني منه عامله الله بعدله لعدوله عن قوله مزيد الأذى ، واتفق أن قال لي بعض خاصته يوماً ، أرى ثلثي الشرع شراً ، فقلت له وان كنت عالماً أن في أذنيه وقراً ، نعم ظهر الشر لما أذهبتم من الشرع العين ، ولم تأخذوا منه سوى حرفين[1] .

نستنتج من هذه العبارات المسجوعة أن الآلوسي كان يجابه نجيب باشا بالاعتراضات الشرعية مما جعل نجيب باشا يتفزز من اعتراضاته وينهاه أن يذكر الشرع في مجلسه مرة أخرى . وهذا يدل على أن العلاقة بينهما أصبحت متوترة جداً .

يقول محسن عبدالحميد عند ذكر هذا الموقف الذي اتخذه الآلوسي تجاه الوالي : انه يدل على مظهر من مظاهر شخصية الآلوسي اذ هو كان يجهر بالحق من غير أن يخشى ما يلحقه في سبيل ذلك من الأذى والمكروه[2] . ان هذا قول يصعب علينا قبوله فنحن نعرف أن الآلوسي لم يكن يجابه الوالي السابق بمثل ما كان يجابه به نجيب باشا ، فهي اذن ليست مسألة جهر بالحق بمقدار ما هي مسألة عاطفية وعلاقة شخصية . ان من طبيعة الانسان بوجه عام ــ كما لا يخفى ــ أنه اذا أحب شخصاً غض النظر عن عيوبه وسكت عنها أما اذا أبغضه فانه يبحث عن عيوبه ويبالغ فيها وقد « يجهر بالحق » في سبيلها .

أخذ نجيب باشا يتحين الفرصة للايقاع بالآلوسي . وقد حدث في أحد الأيام أن وصلت الى الآلوسي دعوة من اسطنبول لحضور الحفلة التي عزم السلطان عبدالمجيد على اقامتها لختان ولديه ، فاعتذر الآلوسي عن حضور

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٧٦ .

(٢) المصدر السابق ــ ص٧٦ .

الحفلة وكتب في ذلك رسالة قدمها الى الوالي لكي يرسلها هذا الى اسطنبول حسبما تقضي به القواعد المتعارف عليها في تلك الايام • ويذكر الآلوسي في أحد مؤلفاته ان الوالي هو الذي أوعز اليه بالاعتذار عن حضور الحفلة أو اجبره عليه ثم اتخذ ذلك سلاحاً بيده لتشويه سمعته عند رجال الحكم في اسطنبول • ولم يكتف الوالي بهذا بل بعث رسالة الاعتذار الى اسطنبول بوساطة القنصل الفرنسي نكاية بالآلوسي • وكانت تلك مؤامرة من الوالي أصابت الآلوسي في الصميم(١) •

مظاهرة باب الشيخ :

أشرنا من قبل الى أن محلة باب الشيخ في بغداد كانت مثل كربلا وغيرها من العتبات المقدسة من حيث كونها حرماً أمناً يلجأ اليه الهاربون من الحكومة فلا تستطيع أن تلقى القبض عليهم فيه • وكانت محلة باب الشيخ منبعاً للكثير من المظاهرات والانتفاضات ضد الحكومة طيلة العهد العثماني • وفي عهد نجيب باشا كانت هذه المحلة تتمخض عن حركة عدائية احتجاجاً على الضرائب الفادحة التي فرضها الوالي على « الأصناف » أي أصحاب الحرف •

وفي أحد الايام من صيف ١٨٤٧م خرجت مظاهرة من محلة باب الشيخ وهي تهتف بهتافات ضد الحكومة ، واتخذت المظاهرة طريقها نحو باب المعظم ومن هناك اتجهت الى بستان « النجيبية » حيث كان الوالي يقيم في مسكنه الصيفي • وقد ارتعب الوالي من المظاهرة وظن أنها تشبه تلك التي قام بها عبدالغني جميل زادة في عام ١٨٣٢م • ولكنه سرعان ما سيطر على الموقف فاتخذ اجراءات قمعية شديدة ، وأثبت بذلك أنه شديد تجاه كل مشاغب لا فرق عنده بين أهل كربلا وأهل باب الشيخ •

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (المصدر السابق) ج١٤ ص١٥٩ — ١٦٠ •

ثم أصدر الوالي أمره بابعاد خطيب الحضـرة القادرية السيد محمد أمين الواعظ وأخيه السيد خطـاب الى البصـرة اذ اتهمها بانهما كانا من المحركين للمظـاهرة[1] • وقد اغتنم الوالي هـذه الفرصة فأنزل بعدوه الآلوسي ضربته الموجعة حيث اتهمه بانه كان من المحرضين على المظاهرة فعزله من منصب الافتاء كما جرده من أوقاف المدرسة المرجانية • وأصبح الآلوسي من بعد ذلك في حالـة من الحرمان والضنك شـديدة حتى كاد ـ على حد تعبيره ـ يأكل الحصير الذي تفرش به المساجد[2] •

---

(١) مصطفى نورالدين الواعظ (الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر) الموصل ١٩٤٨ ـ ص٨٥ ـ ٨٩ ٠

(٢) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٤٦ ٠

الفصل الخامس

قرة العين

شغل المجتمع العراقي في السنوات الاخيرة من ولاية نجيب باشا بحديث امرأة عجيبة تدعى « قرة العين » اذ هي أسفرت عن وجهها ، وارتقت المنبر ، وخطبت وجادلت ، فكان ذلك أول حدث من نوعه في تاريخ العراق ، وربما في تاريخ الشرق كله ، طيلة قرون عديدة . ونحن الآن اذ نريد دراسة تاريخ المجتمع العراقي في تلك الآونة يحسن بنا التعرف الى شخصية هذه المرأة ومبلغ تأثيرها في العراق ثم في ايران .

ولدت هذه المرأة في قزوين عام ١٨١٤م ، وقد سميت بـ « زرين تاج » وهو اسم فارسي بمعنى « التاج الذهبي » لأنها كانت ذات شعر أشقر ، وكانت أسرتها من الأسر الدينية المعروفة في قزوين ذات جاه ومكانة تدعى بـ « آل البرغاني » ، وقد برز فيها علماء مجتهدون لهم شأن كان منهم الملا محمد صالح الذي هو والد قرة العين ، والملا محمد تقي الذي هو أحد أعمامها ، وكان الملا محمد تقي هذا كبير علماء قزوين في ذلك الوقت .

تميزت قرة العين بجمالها الفتان وذكائها المفرط ، وقد بدأ نبوغها بالظهور منذ صباها الباكر قيل انها كانت تحضر دروس أبيها وعمها التي كانا يلقيانها على الطلبة ، فكان يوضع لها ستار لتستمع الى الدروس من ورائه ، وسرعان ما أخذت تشارك في المجادلات الكلامية والفقهية التي تثار بين رجال أسرتها ، وكثيراً ما كان أبوها يظهر أسفه قائلاً : « لو كانت ولداً لكانت أضاء بيتي وخلفتني » . وذكر أخوها عبدالوهاب في وصف ذكائها المفرط فقال : « اننا جميعاً من أخوة وأولاد عم ما كنا نقدر أن نتكلم في

حضرتها لأن علمها كان يرعبنا ، واذا تصادف وتكلمنا عن مسألة فانها كانت تتكلم عنها بكل وضوح واتقان على البداهة حتى نعلم أننا أخطأنا السبيل ونتركها ونحن متحيرون »[1] .

كان أهل قزوين في ذلك الحين كأهل كربلا منقسمين الى فريقين متنازعين : « بشت سري » و « بالا سري » أي شيخيين وخصوم الشيخيين . وكان هذا الانقسام قد سرى الى بيت قرة العين فكان عمها الكبير الملا محمد تقي من خصوم الشيخيين بينما كان عمها الآخر الملا علي من الشيخيين . وقد نشأت قرة العين في هذا الجو الفكري المفعم بالجدل ، ولا شك أنها استطاعت أن تستوعب بذكائها الشيء الكثير من ذلك الجدل وتنتفع به .

عندما بلغت قرة العين الرابعة عشر من عمرها زفت الى ابن عمها الملا محمد بن الملا محمد تقي ، ولم تمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى قرر الزوج الهجرة الى العراق لطلب العلم ، فسافرا معاً الى كربلا ونزلا في دار تعود للاسرة في محلة « الخيمگاه » وهي الدار التي لا تزال قائمة يسكنها بعض أسرة البرغاني وقد زارها كاتب هذه السطور منذ عهد قريب .

مكث الزوجان في كربلا ثلاث عشرة سنة تقريباً رزقا فيها بولدين هما ابراهيم واسماعيل ، والظاهر أن حياتهما في كربلا لم تخل من خصام ومناقرة ، فهي أخذت تميل الى السيد كاظم الرشتي الذي كان يرأس الشيخيين يومذاك ، بينما كان زوجها يميل الى « البالاسري » . وربما كان الخصام بين الزوجين في بدايته بسيطاً ثم صار يشتد ويتعقد مع الايام .

عاد الزوجان الى قزوين في عام ١٨٤١م ، ورزقا هناك بولد ثالث سمياه « اسحاق » وكانت عودتهما ايذانا باستئناف الخصام والمناقرة بينهما من جديد . فقد أصدر والد زوجها فتوى أعلن فيها تكفير الشيخيين بينما هي ازدادت من جانبها ولعاً بالعقائد الشيخية وتعلقاً بالسيد كاظم الرشتي .

---

(١) محمد زرندي (مطالع الانوار) ترجمة عبدالجليل سعد ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ص٦٣ ـ ٦٦ .

وشرعت قرة العين تكاتب الرشتي تستفسر منه عن بعض المعاني الغامضة في كتاباته ، ثم قررت أخيراً أن تترك زوجها وأولادها وتهاجر الى كربلا لتكون قريبة من الرشتي وتنضم الى حوزته العلمية .

وفي عام ١٨٤٣م سافرت قرة العين الى كربلا ، وكانت حينئذٍ في التاسعة والعشرين من عمرها وفي قمة نضوجها ، وحين وصلت الى كربلا فوجئت بان الرشتي الذي جاءت من أجله كان قد توفى قبل أيام قليلة فأصيبت بخيبة الأمل وشاركت في مأتمه[١] .

اعتناقها الدعوة البابية :

تجمع المصادر البابية والبهائية علىأن قرة العين كانت من أوائل الذين اعتنقوا الدعوة البابية حيث أصبحت من « حروف الحي » الثمانية عشر ، وأنها اعتنقت الدعوة يوم كان الباب لا يزال في شيراز يدعو الى نفسه سراً . وهذا أمر يصعب علينا تصوره اذ كيف استطاعت قرة العين أن تعلم بالدعوة وهي في كربلا وتقتنع بها دون أن تتصل بالباب أو تعرف عنها شيئاً .

أوردت المصادر البهائية في هذا الشأن روايتين مختلفتين ، فقد جاء في أحد تلك المصادر وهو كتاب « تذكرة الأوفياء » : أن قرة العين عندما وصلت الى كربلا بعد وفاة السيد كاظم الرشتي انقطعت الى العبادة والتضرع في انتظار الموعود الذي كان الرشتي قد تنبأ بقرب ظهوره ، وفي ذات ليلة رأت في منامها شاباً يلبس رداءاً أسود وعمامة خضراء وهو في السماء رافعاً يده بالدعاء ويتلو بعض الآيات ، وبعد حين وصل اليها تفسير من الباب لسورة يوسف فوجدت فيه احدى الآيات التي سمعت الشاب يتلوها في المنام ، فأدى ذلك بها الى التصديق بدعوة الباب[٢] .

---

(١) ان هذه المعلومات عن قرة العين حصلت عليها من مصادر مختلفة ، وقد استفدت بصورة خاصة من كتاب مخطوط بقلم عبود الصالحي عنوانه « قرة العين على حقيقتها وواقعها » . ومما يجدر ذكره ان هذا الكاتب هو من أسرة البرغاني ومن أقرباء قرة العين .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٦٤ .

أما كتاب « الكواكب الدرية » فيروي القصة بشكل آخر اذ يقول :
بينما كان تلاميذ السيد كاظم الرشتي قد انتشروا في البلاد يبحثون عن الموعود انقطعت هي للرياضة والتبتل وهجرت تناول المطبوخات ، وكانت كل أوقاتها مصروفة في الترقب والانتظار • وفي ذات يوم كتبت رسالة الى الملا حسين البشروئي تقول فيها : « اذا وفقتم للقاء طلعة الموعود فلا تحرموني من موافاتي بذلك النبأ ، ولا تضنّوا عليّ بالسعادة ، فان للأرض من كأس الكرام نصيباً » ، فوصلت رسالتها الى الملا حسين أثناء وجوده في شيراز فقدم الرسالة الى الباب ، فأدخل الباب اسمها في عداد « حروف الحي » وكتب توقيعاً بذلك • ولما جاء الملا علي البسطامي الى العراق موفداً من الباب اتصلت قرة العين به واستفهمت منه عن تفاصيل الدعوة مما جعلها تزداد ايمانا بها[1] •

المرحلة الاولى :

تشير القرائن الى ان الدعوة البابية أخذت تكتسب الاتباع في كربلا تدريجاً ، وكانوا كلهم من الشيخيين ، غير أنهم كانوا يلتزمون التقية والتكتم ولا يعلنون عن مذهبهم الجديد أمام الناس ، ولم يكن من المسموح لهم في أول الأمر أن يذكروا اسم الباب أو يعينوا شخصه بل كانوا يتحدثون عنه بطريق الرمز والاشارة ، وكثيرا ما كانوا يطلقون عليه اسم « الذكر » عند الحديث عنه •

والظاهر ان قرة العين حين اعتنقت الدعوة البابية كانت كغيرها من اتباع الدعوة تلتزم التقية ، ولكنها أخذت تنشط في الاتصال بالناس لتمهيد الأذهان نحو قبول الدعوة الجديدة • قيل انها كانت في تلك المرحلة من حياتها تلقي الدروس الدينية في منزلها ويجتمع اليها عدد كبير من الطلبة

---

(١) عبدالحسين آواره (الكواكب الدرية) ترجمة أحمد فائق رشد ـ القاهرة ١٩٢٤ ـ ج١ ص١١٠ ـ ١١١ •

والمستمعين ، فكانت تجلس في غرفة صغيرة وراء باب عليه ستار ، ويجتمع الطلبة والمستمعون في غرفـــة اخرى واسعة ، وهي تتحدث اليهم من وراء الســتار •

كانت قرة العين تملك صـــوتاً جهوريـــاً ومقدرة كبيرة عـــلى الكلام والجدال ، فأحدثت في المجتمع الكربلائي هزة عنيفة وأصبح اسمها على كل لسان ، وصار الناس نساء ورجالاً يتناقشون ويتجادلون في الأفكار الجديدة التي كانت تطرحها قرة العين في دروسها المنزلية •

وفي شــهر آب من عـــام ١٨٤٦م انتقلت قرة العين مع حاشيتها الى الكاظمية ، ويقال في سبب هـــذا الانتقال أن خلافاً حدث بينهـــا وبين كبير الشيخيين المرزا محمد حسن جوهر فقررت الابتعاد عنه والذهاب الى بلدة أخرى تستطيع أن تنفرد فيها من غير معارض تخشى بأسه •

استُقبلت قرة العين في الكاظمية استقبالاً حافلاً وكان على رأس المحتفين بها أولاد السيد عبدالله شبر ، فنزلت أول الأمر في ضيافتهم ، ثم تحولت بعدئذ الى دار السيد صادق الكشفي وهو من خدمة الجوادين وكانت داره معدة لنزول الزوار الشيخيين فيها • وأخذت قرة العين تلقي الدروس في الكاظمية على منوال ما كانت تفعل في كربلا ، وزادت عـــلى ذلك فصـــارت تصعد المنبر أحيانا فتذهل السامعين بقوة حجتها وحسن القائها •

وذاع صيتها في بغداد فأخذ الكثير من سكانها ، من الشيعة وغيرهم ، يفدون الى الكاظمية لسماع دروسها ومحاضراتها • روى لي أحد المسنين من أهل الكاظمية نقلاً عمن شهد قرة العين أثناء مكوثها في الكاظمية فقال ان الكثير من الناس حضروا حلقات درسها وصلّوا وراءها ، وكانوا اذا استمعوا اليها وهي تتكلم يكادون يذهلون عن أنفسهم من شدة تأثرهم بها •

يبدو أن قرة العين لم تكن متزمتة في حجابها على النمط الشديد الذي اعتادت عليه نساء عصرها ، وهي ربما كانت تلتزم بالسفور الذي تبيحـــه

الشريعة الاسلامية وهو اظهار صفحة الوجه والكفين من غير زينة ، فكانت تجالس الذين تثق بهم من أصحابها وتحادثهم وهي مكشوفة الوجه ، غير أن هذا النوع من السفور لم يكن يستسيغه الناس في تلك الايام فأثار ضجة لدى العامة ورجال الدين وأخذوا يتقولون عليها ويلصقون بها التهم الشنعاء .

كان الناس في تلك الايام قد اعتادوا أن يربطوا بين عفة المرأة وشدة حجابها ، فكلما كانت المرأة أشد حجابا كانت في نظرهم أعظم عفة وأكمل خلقاً . ولهذا أخذ خصوم قرة العين يتهمونها بالتحلل الخلقي ، ولا تزال هذه التهمة لاصقة بها حتى اليوم . سألت ذات مرة أحد المسنين من أهالي الكاظمية عما يعرف عنها ، ولم يكد الرجل يسمع سؤالي حتى فاجأني بقوله انها كانت « كذا وكذا » مما لا يستحسن ذكره . وليس هذا الجواب بالأمر المستغرب من رجل عاش في بيئة الحجاب الشديد وآمن به ايماناً مطلقاً .

يقول صاحب كتاب « الكواكب الدرية » : ان سفور قرة العين تلقاء صحبها وتلاميذها أثار خلافاً بين رجال الدين وقام بينهم الجدال والشقاق على قدم وساق ، وعندما سألوا التلاميذ عن ذلك أجابوا بأن الوجه والكفين لم تكن عورة في نظر الدين الاسلامي وجاؤوا بدليل الحج حيث أن ازواج النبي لم يسترن الوجه والكفين رغم الازدحام العظيم أثناء موسم الحج ، ولكن هذا الجواب المؤيد بالشواهد لم ينه المشكلة بل استشرى الخلاف والجدال بين الناس[1] .

المرحلة الثانية :

مكثت قرة العين في الكاظمية زهاء ستة أشهر ، ثم عادت الى كربلا في شهر شباط من عام ١٨٤٧م بمناسبة زيارة الأربعين التي حلت في الثامن من ذلك الشهر . وبعودتها الى كربلا دخلت مرحلة جديدة من حياتها ،

---

(١) المصدر السابق ــ ص١٨٩ .

فهي أخذت تترك طريقة التقية والتكتم وتعلن دعوتها جهاراً ، وكان ذلك سبباً في حدوث انشقاق في صفوف البابيين حيث تابعها فريق منهم وهم الذين يسمون « القرتية » وكان منهم الملا باقر وهو أحد السابقين الى الدعوة البابية ومن الذين نالوا مديحاً من قلم الباب ، أما خصومها فقد اتبعوا الملا أحمد الخراساني الذي كان يتولى رعاية بيت السيد كاظم الرشتي ومسؤولاً عن أرملتـه •

عثر كاتب هذه السطور على كتابين يصوران ذلك الانشقاق الـذي حدث في كربلا تصويراً رائعاً ، وهذان الكتابان يكمل أحدهما الآخر ، أو بعبارة أدق : يرد أحدهما على الآخر • فالأول منهما مخطوط عنوانـه « عقائد الشيخية » وهو مكتوب بلغة عامية بقلم الملا أحمد الخراساني اذ ينتقد فيه قرة العين ويشتمها ويسميها « بنت طالح » ، أما الكتاب الثاني فهو بقلم أحد اتباع قرة العين يدعى الشيخ سلطان الكربلائي وهو يرد فيه على الملا أحمد الخراساني ويدافع عن قرة العين[1] •

حين نقرأ هذين الكتابين بامعان ونقارن بينهما نستطيع أن نكتشـف نقاط الخلاف بين أتباع قرة العين واتبـاع الملا أحمد • وهي باختصـار كما يلي :

(١) ان قرة العين كانت تعتقد بأن الوقت قد حان لرفع حجاب التقية والاجهار بالدعوة ، بينما كان الملا أحمد يعتقد أن الباب أمره بالتزام التقية •

(٢) كان الملا أحمد يعتبر كتب الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي خالدة ، وكان يواصل القراءة فيهـا ، أما قرة العين وأصـحابها فيعتبرون تلك الكتب منسوخة حيث ذهب زمانها بظهور الباب ، وأخذوا

---

(١) أشكر عبود الصالحي من كربلا على اعارتي الكتاب الأول ، كما أشكر عبدالرزاق العبايجي من بغداد على اعارتي الكتاب الثاني •

يشنعون على الملا أحمد ويمنعون الناس من مجالسته ويصفونه بأنه يأكل الميتة ويعنون بذلك أنه يقرأ كتب الأموات •

(٣) المقصود بظهور الامام الغائب في رأي قرة العين هو ظهور الباب أما رجعة الائمة فالمراد بها ظهور السابقين في الدعـوة أي الذين اعتنقوا الدعوة البابية قبل غيرهم : فالملا حسين البشروئي هو في مقام رسول الله ، والملا علي البسطامي في مقـام أمير المؤمنين ، وقرة العين في مقـام فاطمة الزهراء ، والملا حسن السجستاني في مقام الحسن ، والسيد حسين اليزدي في مقام الحسين ، والملا باقر في مقام الامام الباقر ••• الى آخره • ان هذا هو ما كان ينسبه الملا أحمد الى قرة العين وأصحابها ، بينما هم كانوا يتبرأون من ذلك •

(٤) كان الملا أحمد ينسب الى قرة العين أنها تمنع من اقامة العزاء على الحسين أو زيارة قبور الائمة بحجة أن الائمة لا يجوز نسبة الصفات البشرية اليهم كالموت والعطش ، فلامعنى اذن لذكر عطش الحسين أو قتله •

(٥) كانت قرة العين وأصحابها يحرمون التدخين ويعدون ذلك من التعاليم الجديدة التي جاء بها الباب ، أما الملا أحمد فكان يدخن مدعياً أنه يفعل ذلك أمام الناس من باب التقية •

ولكي يطلع القاريء على الاسلوب الذي كتب به الملا أحمد كتابـه ورأيه في قرة العين ننقل فيما يلي نبذة منه كما هي بنصها الحرفي فلا نغيّر منها شيئاً سوى اضافة بعض الفوارز وبعض الشروح حيث نضع الشروح بين شرطتين كما جرت عليه العادة • يقول الملا أحمد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي خلق الخلق ليحسنوا عملاً باتباع الصالحين ••• أما بعد فيا أهل الحق من المجاهدين المحسنين الذين وعد الله لكم الحق اليقين ، فاصمتوا واسمعوا الى ما يبرز من هـذا الحقير الفقير الذي ابتلى بما ورد على أولياء الرحمن من اختلاف أهل سجّين

مع العليين ، أحمد بن اسماعيل الخراساني تلميذ السيد العظيم الذي هو من أولياء المتقين ... فاعلموا ان مذاهب اليوم مختلفة منهم أهل السنة والجماعة ومنهم الشيعة الذين يسمون أنفسهم جعفرية الاثنا عشرية ، وهم على فرقتين البالاسرية والشيخية ، والشيخية على فرقتين البابي وغيره ، والبابي أيضاً صاروا فرقتين منهم الذين اتبعوا بنت صالح القزويني الذي انكر الشيخ الكريم والسيد العظيم - يقصد الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي - وكذلك بنته أنكر على الذكر الحكيم - يقصد الباب - برد أقواله وأفعاله ونسبت نفسها اليه واتبعت شهوتها وهواها وبلغت منه مناها ، فتباً لها على جرأتها لسيدها ومولاها ... » .

ثم ذكر الملا أحمد كيف أن كتاباً وصل من الباب في مدح قرة العين فاتخذ الملا باقر هذا الكتاب حجة بيده لجمع الاتباع حولها . يقول الملا أحمد : « ... وعلى أي حال ، هذا ملا باقر أخذ منزلاً ومكاناً عند هذه المرئة أعني بنت صالح ثم بعد مضي أيام أخذ كتاب الذي ورد لبنت صالح ويدور في الناس بين الأصحاب ويقول لهم آمنوا بالكتاب فانه ورد في حق قرة العين وهي باب اليوم عليكم كما أن جناب الملا حسين باب عليكم ، فمن أقرها نجى ومن أنكرها هلك . قلت يا ملا باقر هذا الكتاب لا يدل على ما تريدون لا تفسدوا على أنفسكم ، ولا جناب قرة العين ولا سائر الناس ما سمع مني ، حتى أنه أجمع أصحاباً من الرجال عند قرة العين رأيسهم شيخ سلطان ثم شيخ صالح الكريمي ثم ميرزا هادي النهري وبعض آخر من الأصحاب . على أي حال كما قلت لهم : يا جماعة ما يدل هذا الكتاب لما تريدون . ما سمعوا مني ، وأخذوا في النزاع والجدال ، وحكموا علي بالكفر وعدم التدريس والتعليم للأطفال ... وأمرتهم قرة العين أن كلما يبرز من لسان مبارك جناب الملا باقر فهو حق فخذوه وان لم تعلموا مراده فانه في عالم الفؤاد . والجماعة فعلوا فعالاً عجيبة غريبة لم يفعله لا الأولون ولا الآخرون حتي صار بين الأصحاب نزاع وجدال ... وأنا لما وقع

النزاع أول مرة كبتت كتباً متعددة بطريق سؤال المسائل الى الأطراف واحداً الى جناب ملا شيخ علي بالشيراز ، والآخر الى جناب السيد حسين الى الاصفهان ، وواحد الى الذكر العلي ـ يقصد الباب ـ وواحد الى جناب السيد علي في الكاظم عليه السلام . وما ذكرت في هذه الكتب قول أحد أو اسم شخص لعل الجماعة يقبلون اذا جاء الجواب ، فوصل جواب كتاب الذكر العلي سلام الله عليه وجواب كتاب سيد حسين على رد أقوالهم وافعالهم ... فأولوا كتب على مرادهم وما جازوا أبداً وما أثر فيهم شيئاً ... ومن الواقعات أنه لما وقع الاختلاف أنا صرت حزيناً كئيباً الى أن رحت الى حضرة الحسين عليه السلام والتمست من الامام عليه السلام رفع الاختلاف والايتلاف ، ولما خرجت من الحضرة صرت الى بيت ميرزا هادي النهري ، فاذا جاء ملا باقر وبيده كتاب ورد من الذكر العلي سلام الله عليه يقول : البشارة البشارة ان الذكر أرسل اليك السلام ، ويريدك بنت الصالح . فلما ذهبت عندها ، وبعض الاصحاب أيضاً كانوا حاضرين ، قالت أردتك من جهة أن الذكر صلوات الله عليه بلغ اليك السلام في كتاب سيد علي شبر وهذه عبارته : (واذكر أحمد في بيت كاظم) . فلما قرأنا قالت أنت لابد أن تدرس درسين : واحد لملا باقر وشيخ صالح وميرزا هادي وخواص الاصحاب ، والآخر من أي كتاب تريد لمن تريد . فخرجت من المجلس مبتشراً برفع الاختلاف والايتلاف ، فلما جئت الى البيت سمعت من بعد يومين أنهم أوّلوا الكتاب وقالوا : (ان بيت كاظم هو ملا علي ، وأحمد هو متكلم وحده فعل المستقبل) . ففهمت أنهم ما يريدون الا النزاع والفتنة ... » .

ثم يصف الملا أحمد ما حدث بعدئذ لقرة العين فيقول : « ... ثم بعد ذلك اشتهر خبرها بين الناس وأنها تعدّت وفعلت ما فعلت ، فاضطرب الناس وأخبروا الحاكم بأنها كافرة تغيّر الناس . فاجتمعوا في الشورى

ورأوا الصلاح أنهم يأخذوها ، فهجموا عليها في بيت ميرزا هادي النهري فهربت الى بيت السيد صلوات الله عليه ـ يقصد بيت السيد كاظم الرشتي ـ فدخلت فيهم ، وجاؤوا جماعة فمنهم حاجي مهدي كمونة ، وملا عبدالجليل القاضي ، وسيد سعيد بن السيد ثابت ، وأخذوها من بيت السيد وحبسوها في بيت حاجي مهدي كمونة ، فمضت أيام كانت هي في الحبس ، وأخبروا الحاكم بخبرها ، ولكن لما كانت امرءة ما شدّدوا عليها فخلوا سبيلها • وفي هذه الايام أنا كنت ذات يوم قاعد في البيت وقد جائني بعض من أصحابها قـال تريدك بنت طالح ، قلت نعم فذهبت اليهـا فلما قعدت رأيت بعض أصحابها أيضاً قاعدين وهي تتكلم ، فقالت لي أتدري لأي جهة أردتك ؟ قلت لا ، قالت ألقي الي من قبل ولاية ملا باقر فألقيت عليكم فما قبل مني أحد الاّ أربعة عشر نفس ، سبعة من الرجال وسبعة من النسوان ، والآن ألقى شيئاً آخر ، قلت : أي شيء ؟ قالت : وردت علي بلسان الحال لا المقال أني أريد أرفع التقية وأثبت حجية الذكر صلوات الله عليه ـ تقصد الباب ـ وأروح بالبغداد • قلت بأي دليل؟ قالت : وردت علي من ست جهات • قلت للمعارضة : وردت علي من ست جهات أنه يجب التقية • قالت : أنت كاذب • قلت : اني غير كاذب بل أنت كاذبة • ثم قلت : أما أنا الى الآن ورد عليّ من الذكر صلوات الله عليه سبعة كتب وفيها أمرني بالتقيـة والستر والحفظ وأما أنت فافعلي ما تريدين وأنا لست مطيعاً لك بل مطيع شخص آخر وهـو ما أمرنـي بذلك ، فقمت من المجلس وقلت : أزيد من ذلك لا يجوز التكلم مع الأجنبية • وبعد ثلاثة أيام ذهبوا بعض أصحابها بأمرها الى الحاكم وكفلوا أمرها ثم قالوا للحاكم : نحن نريد نتكلم مع الناس ونثبت حجتنا • قال الحاكم : اخرجوهم فانهم بعد ما يجوزون من هـذه القضية • فأخرجوهم من المجلس ، ثم بعد ثلاثة أيام ركبوا وراحوا الى

البغداد ، النسوان مع الرجال الأجنبيين بغير المحرمية والمناسبة ، بنت طالح مع أصحابها من الرجال والنسوان »[1] •

وجهة النظر الأخرى :

في الوقت الذي سجل فيه الملا أحمد وجهة نظره في كتابه كان الشيخ سلطان قد سجل في الكتاب الثاني وجهة النظر المعاكسة ، فهو يقول :

« يا ذكر الله تعالى شأنك ، بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد الفقير الحقير ، المعترف بالقصور والتقصير ، سلطان بن خلف بن الشيخ حسن سلطان ، اليكم يا معشر الشيعة من أهل الباب ، سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته • أما بعد فلا يخفى عليكم أيها الاخوان أن من المعلوم الضروري الذي لا يحتاج الى البيان أن العالم في الترقي ، والمدارك في ازدياد ، والله سبحانه في كل آن وزمان ، من أحداث ابتلاء وامتحان لتزييل أهل الباطل من أهل الايمان ••• فلهذا الأمر المحكم صدر ما صدر ، ووقع ما وقع ، في هذه السنة في شهر رمضان ، والى الآن ، من الاختلاف الشديد في الاقوال والأعمال والاعتقادات والكليات والجزيئات • وسبب ذلك ان الملا أحمد حيث سمى نفسه من المصدقين المسلمين لأمر الذكر عليه السلام ، وجلس في بيت باب الله المقدم سلام الله عليه ــ يقصد بيت السيد كاظم الرشتي ــ وجعل يفعل فعل المكذبين المنكرين ، يجمع الناس الذين أقروا باللسان دون الجنان ، ويصنع لهم القهوة ويأمرهم بشرب الدخان في السر والعلانية • ولم يزل على هذا الحال حتى جاء شهر رمضان واتفق في ليلة منه ، وهو الثالث والعشرين ، أن المصدقين كانوا موعودين للافطار ، وبعد الفراغ منه أمر الملا أحمد لهم بالغليان ــ يقصد النارجيلة ــ وكان ذلك بحضور رجل من السابقين وهو جناب الملا محمد باقر فنهى الجماعة عن شرب الدخان ، وأكثرهم لا ينتهون ، فجعل جناب الآخوند ــ يقصد الملا

(١) نقلاً عن الكتاب المخطوط (عقائد الشيخية) بقلم الملا أحمد الخراساني ــ ص٣ ــ ١٣ •

باقر – يلوم الملا أحمد على فعله ، والملا أحمد يقول : انما أفعل هذا للتقية . فقال له الآخوند : انما التقية تكون من الأغيار وأنتم كلكم تدّعون التصديق والايمان وليس معكم أحد من المنكرين ، ثم وأي التقية في عدم شرب الدخان ، وما معنى التقية ، وما حدها ، وان احترام هذا البيت لازم على جميع المؤمنين ولا يجوز فيه شرب الدخان . فوصل الخبر الى العيال – يقصد أرملة السيد كاظم الرشتي – والى قرة العين ، فأرسلوا اليه يلومونه كثيراً وينصحونه ويعظونه : ان الأمر عظيم والخطب جسيم ، وأنتم عنه معرضون ، وفي اللذات الفانية منهمكون ، وللدخان والقهوات شاربون ، ولا تنقطعون الى الله ، ولا تسلكون سبيله . وهو لا يسمع منهم ولا يلتفت اليهم ، وظل يتهم جناب الآخوند ويقول : هو فضحني عند قرة العين وعند العيال ولا أرضى بعد ذلك يدخل عليّ لانه من المفسدين . وصار الملا أحمد كلما يتكلم جناب الآخوند بكلمة يردّه ان عرف حقيقتها أم لم يعرف ... والملا أحمد مصرّ على الجدال والرد على جناب الآخوند حتى وصل خبره الى جناب قرة العين فأرسلت اليه : ان الواجب عليك احترام الآخوند والقبول منه لأنه من السابقين ولا يقول الا الحق . وملا أحمد لا يقبل شيئاً مما تقول ، فطلبته وأحضرته وأقامت عليه الحجة وخصمته بأن الملا محمد باقر هو وما يقول حق وصدق . واذا خرج من عندها يرجع كما كان ولا يزداد الا عتوا ونفوراً . وبينما هو وهي في هذا الحال من الجدال والقيل والقال اذا وردت علينا كتابات وتوقيعات من الذكر عليه السلام في حق جناب قرة العين ، قرة عينه عليه السلام ، ومنها ما يدل على درجات عالية ومقامات شريفة ... »[1] .

وبعد أن ذكر الشيخ سلطان أقوال الذكر – أي الباب – في حق قرة العين ، ومدحها مدحاً كثيراً ، قال : « فسمع الملا أحمد وأصحابه شيئاً

---

(١) نقلاً عن كتاب « ظهور الحق » وهو مطبوع في ايران بدون ذكر لمكان الطبع أو تاريخه – ص٢٤٥ – ٢٤٧ .

من تلك البيانات ، وردّوها بالشتم والسب بلا بينة ولا برهان ، وأنكروا فضل السابقين وأكثروا الطعن فيهم ، وقاموا معنا في مقام الجدال ، وأكثروا القيل والقال ، وقالوا : ليس كل من راح الى الشيراز صار من السابقين • قلنا : نعم كل من راح في تلك الايام التي راحوا بها السابقين لأجل طلب الدين فهو منهم ••• فقال الملا أحمد : لا يلزم أن يكونوا أيضاً في الرتبة سابقين • قلنا : ان الذكر عليه السلام قال لهم سابقين ولم يقيد ولم يخصص بوقت دون آخر ، أو بالظاهر دون الباطن ، أو بالتشريع دون التكوين ، أو بالشهادة دون الغيب ، وقوله صلوات الله عليه عام شامل لجميع ما ذكرنا وما لم نذكر ، ونحن ليس لنا أن نخصص كلامه عليه السلام بوجه دون وجه ، وشيء دون شيء ، من قبل أنفسنا ما لم يرد عنه ، فان ورد قلنا به ، وان لم يرد فوجب علينا أن نأخذ كلامه سلام الله عليه على حقيقته وصرافته أيضاً ••• فقال الملا أحمد : الذي يكون كما تقول ـ أي من السابقين ـ لا يكون خالياً من العلم ، وأنا أرى أني أعلم منهم • قلنا : ليس الميزان هذه العلوم ، ولا مدار هذا الأمر عليها ، وقد بيّن الذكر صلوات الله عليه ان الميزان ليست هي العلم بشيء بل هي الفطرة الخالصة ، والحب لله ولأوليائه ، والتوجه الى الله في فؤاده وحقيقته ، بلا كيف ولا اشارة ، ولا علم ولا عبارة ••• فلما رأي الملا أحمد وأصحابه ذلك منا قاموا معنا في مقام الجدال، وأكثروا القيل والقـال ، وبعد ذلك اعتزلوا عنا وصـاروا يفترون علينا ويشـنعون عند الناس ، وينسبونا الى الاقوال الباطلة والعقائد الفاسدة • والناس يجيئون عندنا للتفحص يقولون : ان الملا أحمد وجماعة معهـم ينسبون اليكم أنكم تقولون ان الذكر عليه السلام رب من دون الله ، وان بابه وأول مؤمن به جناب آخوند ملا حسين سلام الله عليه هو محمد بن عبدالله ، وان ثاني مؤمن به جناب الملا علي ـ يقصد البسطامي ـ سلام الله عليـه هـو علي بن أبي طـالب ، وأن قـرة العين سـلام الله عليها هي حقيقة فاطمة ، وأن السابقين أحد عشر هم الائمة عليهم السلام ،

وأن الشيخ والسيد خلقا من فاضل جسم السابقين • فلما سمعنا هذه الافتراءات والزور والبهتان علمنا أنهم سعوا في الأرض فساداً بعد اصلاحها ، فجمعناهم ليلة في بيت باب الله المقدم عليه السلام لاصلاح هذا الفساد ، وتبرءاً مما أشاروا اليه من الاعتقاد ، وهم الملا أحمد ، والملا حسين الخادم في ذلك البيت ، والسيد كريم ، والسيد علي الخراساني ، والحاج صادق ، والحاج علي الصائغ ، وبعض الجهال والاراذل من أمثالهم ، وقلنا لهم يا قوم لمَ تشيّعون الفاحشة في الذين آمنوا بغير ما اكتسبوا وتحتملون اثماً كبيراً ، اتقوا الله ولا تثيروا الفتنة فانها أشد من القتل ، وما جمعناكم في هذه الليلة الا لقطع النزاع والخلاف ، ونبرء الى الله من جميع ما أشرتم من الباطل ، وعلى تقدير صحة ذلك نستغفر الله العلي المتعال ونريد السكوت بعد هذا المجلس واطفاء الفتنة • فما مضت بعد ذلك الا ّ أيام يسيرة ، أقل من اسبوع ، واذا هو قد قام بين أصحابه منزهاً لعيبه ، مبرءاً لجبيه ، ويقول : قد نزل اليّ كتاب من الذكر عليه السلام ، ويقول : اني أنا الباب والمرجع للناس • فأخذ البيعة من أصحابه على ذلك ، وظل ينادي : أن من لم يدخل اليّ ويحضر درسي ويأتمّ بي فهو من الضالين المرتدين • فقلنا في أنفسنا : يا سبحان الله كيف يكون باباً من يدعو الى غير الله ويرد على ذكر الله صلوات الله عليه كلما نزل في فضل أبوابه وأصفيائه السابقين سلام الله عليهم • ثم طلب منا الحضور في درسه فأجبناه لذلك ، وحضرنا عنده ، وقرأنا كتابه ومن جملة ما فيه أنه عليه السلام يوصيه بالعيال حرم باب الله المقدم عليه السلام خيراً واحسانا ••• »[1] •

ثم ذكر الشيخ سلطان كيف ان الملا أحمد أخذ يسيء الى أرملة السيد كاظم التي أوصاه الباب بها خيراً ، ومنعها من الحج مع قرة العين ، وسعى الى الحكام من أجل ذلك ، وأنه حين سمعت أرملة السيد وقرة العين بذلك طردتاه ولعنتاه ، غير أنه كان يزداد غياً وأخذ هو وأصحابه يسبون السيدتين

(١) المصدر السابق ـ ص٢٤٩ ـ ٢٥٣ •

ويتكلمون عنهما بالكلام القبيح ، وتجرأ أحد أصحابه فخاطب قرة العين قائلاً لها « يا حميراء » ، وقد خاطبها الملا أحمد نفسه قائلاً : « ما خالفت حمراؤها صفراءها » ، فوقعت السيدة الأرملة مغشياً عليها من هول ما أصابها من يد هذا الظالم ، وتمرضت بعد ذلك ، ولم تستطع الذهاب الى الحج[1] .

ثم أشار الشيخ سلطان الى تطور النزاع بينهم وبين الملا أحمد وأصحابه ، فقال : « فلما رأى هذا الرجل عدم قبولنا لدرسه والرد عليه ، ولم نكن اتباع كل ناعق ، اجتمع هو وأصحابه علينا وطردونا مرات عديدة ، ونحن نرجع اليهم ونعتذر منهم في كمال الخضوع والمذلة والمسكنة ، حتى أن بعضاً منا قبّل يد الملا أحمد ، كل ذلك امتثالاً لأمر الذكر عليه السلام حيث أمر باحياء بيت باب المقدم عليه السلام لنجتمع هناك ونتلو من الآيات البديعة في الليل والنهار ، وما قبلوا منا عذرنا ، وطردونا بالسب واللعن ، والشتم والطعن ، وأثاروا الفتنة ، وشيّعوا الفاحشة ، وافتروا علينا الأقوال الباطلة ، وأوصلوها الى الأعداء ، وألزمونا بيوتنا . وكثر الكلام والسب والطعن علينا من كل مكان ، وحركوا الملا حسن گوهر علينا فقام يخطب في كثير من الأيام في مجلسه ، ومجلس المرزا محيط ، وكل مجلس جلس فيه ، بملأ من عامة الناس ، وهو يقول : أيها الناس ان هؤلاء الضالين المضلين خربوا الشريعة وأفسدوا في الدين فالواجب عليكم حفظ دينكم والذب عنه بكل ما يمكنكم ولا تسكتوا عنهم واذكروا أحوالهم واعتقاداتهم في جميع المجالس ، ليعرفوهم الناس ويجتنبوهم ... وظل الملا أحمد وأصحابه يثيرون الفتنة ويضرمون نارها بلا فتور ، فكتبوا كتباً عديدة بمضامين مختلفة وعبارات متفاوتة لكل أحد بحسب ما يلائم طبعه ومزاجه ، وكتبوا فيها تلك الافتراءات الأولية التي تقدم ذكرها وغيرها ، وأرسلوها الى سائر الأمصار والاقطار ، ونشروها في جميع الآفاق والبلدان ، مثل النجف

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

والكاظمين وسر من رأى وبغداد وشيراز وأصفهان وقزوين وخراسان وغيرها من البلاد ، وشوّشوا قلوب أولئك المؤمنين مثل جناب السيد علي شبر الكاظمي كتب لي كتابا يقول فيه : قد سمعنا أشياءاً عجيبة وأموراً غريبة تفتت الأكباد وتهجر العيال والأولاد . وكل هذه الأمور والفتنة صدرت من الملا أحمد وأصحابه ... »[1] .

قرة العين في بغداد :

اضطرت قرة العين ازاء تلك الخصومة العنيفة التي شنها عليها الملا أحمد وأصحابه أن تغادر كربلا ، فرحلت الى بغداد مع حاشيتها وبعض أصحابها من النساء والرجال . وعند وصولها الى بغداد نزلت في ضيافة أحد المخلصين لها من سكان تلك المدينة هو الشيخ محمد شبل ، وهذا الرجل أصله من الكوفة وهاجر الى الكاظمية ، ثم انتقل منها الى بغداد في عام ١٨٢٧م ، كان وكيلا للسيد كاظم الرشتي في بغداد . فلما نزلت قرة العين في ضيافته أخيراً خصص لها ثلاث دور كان احداها لسكنى النساء من حاشيتها ، والثانية لسكنى الرجال ، والثالثة لمجلس الدرس[2] .

والظاهر أن قرة العين وجدت المجال لها في بغداد أرحب مما كان في كربلا ، فجلست لالقاء دروسها من وراء ستار وأخذ الناس يقصدونها للاستماع اليها ، وكانت في معظم دروسها تنادي بحلول اليوم الذي تُجدد فيه الشريعة وتُنسخ التقاليد البالية[3] . وقد حضرت ذات يوم مجلساً كان فيه الوالي نجيب باشا والمفتي أبو الثناء الآلوسي فأذهلت الحاضرين ببلاغتها[4] .

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٢) عبود الصالحي (المصدر السابق) ص٢١ .

(٣) أغا محمد مصطفى البغدادي (رسالة أمرية) في ذيل الرسالة التسع عشرية ـ القاهرة ١٣٣٨هـ ـ ص١٠٩ .

(٤) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص١١٢ .

ظلت قرة العين تلقي دروسها المثيرة في بغداد مدة غير يسيرة من غير معارض • ويبدو أن خصومها في كربلا لم يسكتوا عنها ، ولا سيما المرزا محمد حسن جوهر رئيس الشيخيين ، فأخذوا يبذلون جهودهم لتحريض الحكومة ضدها • وكان للمرزا محمد حسن صلة حسنة بالوالي واستطاع أن يقنعه بوجهة نظره مما اضطر الوالي أن يكتب الى اسطنبول في شأن قرة العين ثم أمر بحبسها في بيت الآلوسي ريثما يأتي الجواب من هنالك •

مكثت قرة العين في بيت الآلوسي شهرين ، ولم يكن الآلوسي مضيّقاً عليها بل كان يجتمع اليها ويناقشها في أمر دعوتها الجديدة ، وكثيراً ما كان يسمح لها بالخروج مع ناظر يرسله معها ، فكانت تذهب الى دار الشيخ محمد شبل حيث ينتظرها هناك أتباعها والمعجبون بها فتلقي عليهم ما تشاء من أحاديث ودروس •

وقد أشار الآلوسي في بعض كتاباته الى قرة العين ، وكان مما ذكره عنها قوله : « ••• وهي ممن قلّدت الباب بعد موت الرشتي ، ثم خالفته في عدة أشياء منها التكاليف فقيل انها كانت تقول بحل الفروج ورفع التكاليف بالكلية • وأنا لم أحس منها بشيء من ذلك مع أنها حبست في بيتي شهرين ، وكم من بحث جرى بيني وبينها رفعت فيه التقية من البين • والذي تحقق عندي أن البابية والقرّية ـ يقصد أتباع قرة العين ـ طائفة واحدة يعتقدون في الأئمة نحو اعتقاد الكشفية ـ يقصد الشيخية ـ فيهم ويزعمون انتهاء زمن التكليف بالصلوات الخمس وأن الوحي غير منقطع فقد يوحى للكامل لكن لا وحي تشريع بل وحي تعليم لما شرع قبل ونحو ذلك ، وهو رأي لبعض المتصوفة ••• وأعظم أسباب ضلالتهم النظر في كلام الرشتي وشيخه الأحسائي مع عدم فهم مقاصدهما منه وحمله على ما هو بعيد

عن الدين المحمدي بمراحل ولذا أكفرهم أصحاب هذين الرجلين أيضاً على ما سمعته بأذني من كبارهم ...»[1] .

انشقاق آخر :

في تلك الفترة التي كانت فيها قرة العين محبوسة في بيت الآلوسي حدث انشقاق وجدال بين اتباعها الذين هم في بغداد والكاظمية ، وكان سبب هذا الانشقاق هو أن قرة العين أخذت تدعو الى تجديد الشريعة الاسلامية والى تبديل بعض تعاليمها وشعائرها ، فوافقها على ذلك فريق من اتباعها بينما رفض الفريق الآخر . وقد أشار الى هذا الانشقاق كاتب من أتباعها هو أغا محمد مصطفى البغدادي ، وهو ابن الشيخ محمد شبل ، في رسالة صغيرة له حيث قال ما نصه :

« ... وأظهرت سر الظهور وأعلنت نسخ التقليد المهجور وبيّنت تجديد الشريعة الآلهية بشريعة البيان ، وكانت في مجلس الأحباء مكشوفة الوجه ولكن في مجلس الأغيار تكلمهم من خلف حجاب . وقد تزلزل بعض الأحباء لما شهدوا نسخ ما كانوا عليه ، وأكثرهم استقاموا واعتقدوا بأن الله يفعل ما يشاء ، والبعض من قصبة الكاظمية تزلزلوا وهم السيد محمد جعفر والسيد حسن جعفر والسيد علي بشر والسيد طه وكاظم الصوفي وقالوا أنهم مؤمنون بحضرة الاعلى ـ يقصدون الباب ـ الذي هو ذكر الله وأن حضرته لم ينسخ الشرع العتيق ولم يجدد أمراً بل زاد في الاحكام وأكد في الصلاة والصيام وحرّم الدخان وأن السيدة قرة العين تجاوزت الحد ونسخت الشريعة التي ورثناها عن الأب والجد بدون أمر من حضرة الاعلى . وكتب أعلمهم السيد علي بشر عريضة قدمها الى (ماه كو) وتشرفت بحضور العلي الاعلى ـ يقصد الباب ـ وكان حاملها رجلاً يدعى (نوروز علي) كان خادماً للسيد كاظم الرشتي . فنزل لوح بليغ في جواب تلك العريضة

---

(١) محمود شكري الآلوسي (مختصر التحفة الاثني عشرية) القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ص٢٤ .

ورجع به (نوروز عاي) الى قصبة الكاظمية وسلمه للسيد علي بشر ورفقائه ، وتوجه من بغداد الوالد ــ أي والد المؤلف وهو الشيخ محمد شبل ــ والأحباء الثابتون واجتمعوا في مجلس واحد يضم ما ينوف عن السبعين شخصاً وقرأوا اللوح المبارك علانية وفيه بيانات مباركة وآيات واضحة الى أن وصل البيان الى قوله تعالى مخاطباً للسائل بشر المتزلزل : (وأما ما سألت عن المرأة التي زكت نفسها وأثرت فيها الكلمة التي انقادت الأمور لها فانها امرأة صدّيقة عالمة عاملة طاهرة ، ولا ترد الطاهرة في حكمها لأنها أدرى بمواقع الأمر من غيرها وليس لك الا اتباعها لأنك لن تقدر أن تطلع بحقيقة شأنها) الى آخر اللوح . فلما سمعه الثابتون فرحوا وحمدوا الله على ما هداهم ، والمتزلزلون ارتدوا على أعقابهم وكفروا بما آمنوا لأن تجديد الحدود شق عليهم ... »[1] .

ان هذا « اللوح » الذي وصل من الباب الى الكاظمية كان بمثابة وحي منزل في شأن قرة العين وعلو مكانتها ، وفيه ورد لقب جديد لها هو « الطاهرة » فصارت قرة العين منذ ذلك الحين تعرف به بين البابيين وكان له أثره فيما بعد كما سنأتي اليه .

اخراجها من العراق :

عندما وصل الخبر الى قزوين بأن قرة العين محبوسة في بغداد اهتم له عمها ووالد زوجها الملا محمد تقي البرغاني فأرسل الى أحد أرباب النفوذ في كربلا يكلفه بالتوسط لدى الحكومة في اطلاق سراحها . وقد سافر هذا الرجل الى بغداد ليسعى في هذا السبيل ، ثم كتب الى الملا محمد تقي رسالة يذكر له فيها نتائج مسعاه . وفيما يلي مقتطفات من تلك الرسالة وهي مترجمة الى اللغة العربية بقلم الشيخ عبود الصالحي حيث يقول فيها مرسلها مخاطباً الملا محمد تقي :

---

(١) اغا محمد مصطفى البغدادي (المصدر السابق) ص١٠٩ ــ ١١٠ .

« سيدي الجليل ... سافرت الى بغداد متوجهاً الى دار مفتي بغداد اليوم معالي السيد محمود الآلوسي أفندي ، فوجدتها هناك مع ثلاث نساء أخريات وجارية . فطلب الي معالي السيد المفتي شرح حالها وبيان قصتها فقلت : نعم انها امرأة مستورة وهي في كمال الورع والتقوى وقد اعترتها بعض الوساوس الشيطانية وتمكنت منها وسيطرت على دماغها وأفكارها وكان للوسط الديني الذي تعيشه أثر بالغ في ذلك كله حيث أنها تعيش بين أحضان الورع والتقوى وفي بيت العلم والتقدس . كما سألني معالي السيد المفتي عن تاريخ حياة والدها وحالاته فقلت : انه اليوم رجل ايران الأوحد في العلم والورع . وقد أثر كلامي في نفس معالي المفتي فقال لي : سأطلب من معالي الباشا خلاصها والاعتذار لها عما حيك حولها وذهابها الى أهلها ... وهي الآن محترمة ومعززة في دار معالي السيد المفتي وأنا في هذا اليوم الجمعة الموافق لليوم الثامن من شهر ربيع الثاني ذاهب الى بغداد لأجل العمل الجاد في خلاصها وهي مكدرة الخاطر من طرف الملا حسن گوهر ... كما أن حضرات الاعيان وعلماء بغداد قاطبة يحترمونها أي احترام ويكنّون لها كل تقدير ، وان ما قالوه وأشاعوا عندكم فهو باطل ومحض اختلاق ... ولتوضيح الحقيقة حررت الرسالة . وان شاء الله تعالى وبحوله وقوته ..أنقلها الى داري الخاصة بأي حال من الأحوال ، وأرسلها اليكم مع حضرات السادة ان شاء الله ، فليكن خاطركم طيباً ومرتاحاً »[1] .

وصل الأمر أخيراً من اسطنبول باطلاق سراح قرة العين واخراجها من العراق ، فخرج معها لمرافقتها في السفر جماعة من اتباعها بلغ عددهم الثلاثين كان منهم : الشيخ محمد شبل ، وابنه أغا محمد مصطفى وكان في العاشرة من عمره ، والشيخ صالح الكريماوي ، والشيخ سلطان الكربلائي ، والسيد أحمد اليزدي ، والسيد محسن الشعرباف الكاظمي ، والملا ابراهيم

---

(١) عبود الصالحي (المصدر السابق) ص ٤٥ ــ ٤٧ .

المحلاتي ، والحاج محمد الكرادي ، وسعيد الجباوي ، وعبدالهادي الزهيراوي ، وحسن الحلاوي ، ودرويش المكوئي ، وغيرهم •

قرة العين في كرمانشاه :

خرجت قرة العين من بغداد فيما يشبه الموكب الكبير ، فقد كانت هي والنسوة اللواتي معها يركبن الهوادج بينما كان الرجال من أتباعها يمتطون الخيول • وبعد سفر طويل وصلوا الى كرمانشاه ، وقد أعطانا أغا محمد مصطفى في رسالته الصغيرة وصفاً مسهباً للضجة التي أحدثتها قرة العين في تلك البلدة • وفيما يلي ننقل عنه خلاصة لما جرى هناك •

عندما وصلت قرة العين الى كرمنشاه أمرت بالنزول في ثلاثة منازل حيث خصصت أحدها لها ولمن معها من النساء وبعض العلماء ، وخصصت الثاني لعامة الاتباع ، أما الثالث فخصصته لاجتماع الناس وتبليغهم بالدعوة • وفي اليوم التالي لوصولها أوعزت بفتح أبواب المنزل الثالث فحضر فيه أكابر البلدة وأمراؤها وخوانينها وتجارها حتى ضاقت الساحة بهم على اتساعها ، ونهض الشيخ صالح الكريماوي يتلو عليهم شرح « سورة الكوثر » بالعربية، ووقف على يمينه الشيخ محمد شبل والملا ابراهيم المحلاتي والشيخ سلطان الكربلائي يترجمون ذلك الى الفارسية •

وقد ارتجت البلدة بأسرها للأمر فكان الازدحام يكثر حول منزلها حتى تضيق الأزقة بالناس ، وكانت النساء يأتين اليها نهاراً فتقرأ عليهن الآيات الجديدة وأسرارها ، وفي المساء يأتي اليها بعض العلماء والامراء فيقابلونها من وراء ستار ويستمعون الى حديثها ثم يخرجون منها متحيرين ، وبعضهم يخرج منجذباً • وكانت الاسئلة ترد اليها في كل يوم من العامة والعلماء فتكتب الأجوبة بسرعة •

لم يتحمل المتعصبون من رجال الدين هذا الوضع وانزعجوا منه ،

فكلموا كبيرهم أغا عبدالله البهبهاني في ذلك وطلبوا منه الرد على قرة العين واجابة المسائل التي تثيرها بما يفحمها ، فذهب البهبهاني الى الأمير حاكم البلدة وطلب منه اخراج قرة العين هي وأصحابها من البلدة ، واستدعى الحاكم قرة العين الى قصره فذهبت اليه برفقة الشيخ سلطان الكربلائي والملا ابراهيم المحلاتي وبضع نسوة من حاشيتها ، وأخذ الأمير يحاورها فعرض عليها شكوى العلماء وأنهم يطلبون معرفة الهدف الذي تسعى اليه ، فأجابت قرة العين : أن الهدف هو البشارة بظهور القائم الموعود وان الدليل على ذلك هو الآيات التي جاء بها . وكان أغا عبدالله البهبهاني حاضراً في المجلس فقال يتحدّاها بأنه يطلب دليلاً غير هذه الآيات ، فأجابته أنها تطلب « المباهلة » منهم حيث يجتمعون كلهم معها في مكان يعيّنه الأمير ، ثم يتباهلون ويجعلون لعنة الله على الكاذبين ، وبذا تكون النتيجة أن يموت المبطل في مكانه .

أظهر الأمير السرور بهذا الطلب ، وأوعز الى البهبهاني بان يعيّن موعداً للمباهلة غير أن البهبهاني اعتذر بأنه مريض وأنه سيحضر المباهلة متى تم له الشفاء من مرضه . ثم خرج بعدئذٍ من البلدة واختفى في بستان خارجها .

وكتب البهبهاني رسالة الى عم قرة العين في قزوين يخبره بما فعلت ابنة أخيه في كرمانشاه من اظهار أمر الباب ونسخ الشريعة . وبعد مرور خمسة عشر يوماً على ذلك وصل الى كرمانشاه أربعة رجال من اقرباء قرة العين واتفقوا مع قائد العسكر السرتيب صفر علي على تسفير قرة العين عنوة . وقبل شروق الشمس من اليوم التالي أحاط الجنود بالمنازل الثلاث التي كانت قرة العين تنزل فيها مع أصحابها ، فأخرجوا الأمتعة منها وحملوها على بغال كانوا قد أعدوها من قبل ، فخرجت اليهم قرة العين وهي متحجبة تنادي فيهم : « قد ظهر الموعود أيها الغافلون ، قد ظهر الرب الودود وأنتم

ميتون ! » فحدث هرج ومرج، ثم حصل اعتداء على الشيخ صالح الكريماوي والشيخ سلطان الكربلائي والملا ابراهيم المحلاتي[1] •

قرة العين في همدان :

توجهت قرة العين مع أصحابها نحو همدان • والمعروف عن سكان هذه البلدة ان الكثير منهم كانوا شيخيين ، فلما سمعوا بقدوم قرة العين عليهم استعدوا لاستقبالها والاحتفاء بها باعتبارها شيخية مثلهم• وقد مكثت قرة العين في همدان تسعة أيام كانت في خلالها تسعى بحماس لنشر الدعوة الجديدة ، فتأثر بها عدد من النساء والرجال •

وكان من بين الذين تأثروا بها في همدان اثنان من أحبار اليهود هما الملا الياهو والملا لالازار ، فقد عرضت قرة العين على هذين اليهودين آيات من التوراة وكتب الأنبياء فيها اشارة الى ظهور الباب فتعجبا من سعة اطلاع قرة العين على الكتب المقدسة ، ولما ألقيا عليها الاسئلة المختلفة في هذا الأمر أجابتهما بما اقنعهما • وكانت تلك البذرة الأولى لانتشار الدعوة البابية بين اليهود[2] •

وأرادت قرة العين أن تجتذب اليها كبير المجتهدين في همدان فأرسلت اليه الملا ابراهيم المحلاتي برسالة تدعوه فيها الى التصديق بظهور الموعود وتبرهن له على صحة ذلك بالآيات والأحاديث « الصحيحة » • وحين دخل الملا ابراهيم الى مجلس المجتهد وسلمه الرسالة استشاط هذا غضباً وأخذ يلعنه بأشنع الألفاظ ، فرد عليه الملا ابراهيم ينصحه قائلاً : « ليس من شأن أهل العلم والعرفان مقابلة الدليل والبرهان باستعمال لسان الطعن والقدح » ، فاضطرم المجتهد حنقاً عليه وأمر بضربه واهانته ، فهجم الطلبة عليه وأوسعوه ضرباً ثم سحبوه وألقوا به خارج المنزل • وحمله بعض الناس الى دار قرة العين ، فلما رأته بتلك الحالة أظهرت السرور وقالت له : « طوبى

---

(١) اغا محمد مصطفى البغدادي (المصدر السابق) ص١١١ ــ ١١٤ •

(٢) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص١٩٧ ــ ٢٠١ •

لك وصلى الله عليك بما قدمت نفسك فداء لاعلاء كلمـة ربك الأعلى » ثم أمرت الاصحاب بمعالجته ، وظل هو طريح الفراش سبعة ايام حتى تماثل للشـفاء[1] ٠

قرة العين تهجر زوجها :

غادرت قرة العين همدان قاصدة الى بلدتها وموطن أسرتها قزوين ، وعندما وصلت اليها نزلت في بيت والدها ولم تذهب الى بيت زوجها الملا محمد ، فأرسل اليها زوجها نسوة لاقناعها بالعودة الى بيته غير أنها رفضت باصرار أن تستجيب لـه وقالت للنسـوة : « قولوا لهذا القريب الأحمق المغرور لو كان قصدك حقاً أن تكون رفيقاً لي وزوجاً لكنت أسرعت لمقابلتي في كربلا ولسرت على قدمك لحراستي وحراسة هودجي طول الطريق الى قزوين ، واذ ذاك كنت أثناء سفري معه أقدر أن أوقظه من نوم غفلته وأظهر له طريق الحق ٠ ولكن ذلك لم يقـدر عليه ، وقـد مر على فراقنا ثلاث سنوات فلا يمكن له في هذه الحياة ولا في الحياة الآخرة أن أجتمع به فقد طرحته كلية من حياتي للابد »[2] ٠

ان هذا العمل الذي قامت به قرة العين اذ هي هجرت زوجها خلافاً للتقاليد الشرعية والعرفية السائدة كان بمثابة سلاح ماض في يد خصومها فوجهوا اليها نقداً شديداً وألصقوا بها شتى التهم ٠ وقد حاول أحد المؤلفين البهائيين تبرير هذا العمل فقال في ذلك ما نصه : « ولا يخفى أن سيدة مثل قرة العين بذّت الرجال في العلم والعرفان ، وذاقت روحها حلاوة شهد الفضل والايقان ، وأدهشت كل من سمع بياناتها الفائضة من لسانها الطلق ، لن تقبل قط أن تقيم صاغرة كسائر النساء في منزل قرينها المستبد المنتقد لجميع أعمالها وأقوالها وسلوكها ، وتقبع في كسر بيتها مكتفية بالاشـتغال

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٠١ ـ ٢٠٢ ٠
(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢١٨ ـ ٢١٩ ٠

في بسائط الأمور المنزلية ، وتجعل نفسها أسيرة في يد شخص فيه من الأطوار والأخلاق مثل ما كان عليه ابن عمها هذا . فلا جرم لم تقبل بوجه من الوجوه أن تجيب هذا الطلب ورفضته الرفض البات ، ووقع حينئذٍ فراق البينونة بينهما ، وصرفت النظر عن أولادها وتركتهم »[1] .

مقتل الملا محمد تقي :

كان هذا القرار الحاسم الذي اتخذته قرة العين في هجران زوجها سبباً في نشوب خصام شديد بينها وبين والد زوجها الملا محمد تقي الذي كان كبير علماء قزوين كما أسلفنا . وقد حاول والد قرة العين التوفيق بين بنته وأخيه فلم يوفق واضطر الى الاعتزال وترك الأمور تجرى لمقاديرها .

صار الملا محمد تقي يصعد المنبر بعد كل صلاة فينهال باللعن والطعن على الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي وكل من اتبعهما من البابين وغيرهم . وانتشر الهياج من جراء ذلك بين العامة فأخذوا يطاردون الشيخيين والبابيين جميعاً ويعتدون عليهم . ومن القصص التي تروى في هذا الشأن أن أحد الشيخيين تجرأ في تلك الآونة فأعلن مدح الاحسائي والرشتي وأظهر فضائلهما ، ولما سمع الملا محمد تقي بأمره حكم عليه بالكفر وبطرده من البلدة ، فتجمع العامة عليه ونزعوا عمامته ثم ربطوا عنقه بها وأخذوا يسحبونه في طرقات البلدة حافياً وينهالون عليه بضرباتهم وشتائمهم[2] . ويُروى عن رجل آخر اسمه الملا جليل الأرومي أنه كان يتجول في البلدان يبشر بظهور الباب ، ولما مر بقزوين وعلم به الملا محمد تقي أمر بعض طلبته فقبضوا عليه وجاؤا به الى داره ، ثم أمر بوضعه في « الفلقة » وبضربه على رجليه[3] .

---

(١) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٢) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٢٠ .

(٣) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

لم يمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى هجم رجل مجهول على الملا محمد تقي وهو يصلي في المسجد فجراً فطعنه بالخنجر طعنات كانت القاضية عليه[1] . فارتجت البلدة كلها لمقتله وذهب ابنه الملا محمد الى دار الحكومة وقد شق ثوبه وهو يبكي وينتحب فأحدث هياجاً بين العامة واشتعلت نيران الفتنة وصارت حياة الشيخيين والبابيين في خطر شديد[2] .

ومما يلفت النظر في هذا الصدد أن قرة العين كانت قبل مقتل عمها بأيام معدودة قد أوعزت الى أصحابها بمغادرة قزوين والعودة الى مواطنهم اذ قالت لهم : « لابد من وقوع زلزلة عظيمة ترتج منها قزوين وتسفك دماؤكم جميعاً ، وان الله يريد بكم خيراً في المستقبل ... » ، غير أنها استثنت من أصحابها رجلين هما الشيخ صالح الكريماوي والملا ابراهيم المحلاتي وقالت لهما ان الشهادة لهما قد حانت[3] .

وقد تحققت نبوءة قرة العين ، فكان الشيخ صالح الكريماوي من أوائل المتهمين بقتل الملا محمد تقي ، فسيق الى طهران وقتل في الميدان الذي يقع في وسطها ، وهو يعتبر أول من سفك دمه في سبيل الدعوة الجديدة في ايران . ثم هجم الغوغاء في قزوين على متهمين آخرين كان منهم الملا ابراهيم المحلاتي فقطعوا أجسامهم اربا اربا[4] . أما قرة العين فقد سُجنت في حرم سراي الحاكم تحت المراقبة الشديدة ، فلبثت في ذلك مدة ، ولكنها استطاعت أن ترسل رسالة الى المرزا حسين علي النوري في طهران تستنجد به[5] ، وكان هذا الرجل من ذوي الثراء والنفوذ ومن

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٢٠ .

(٢) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢٠٨ .

(٣) أغا محمد مصطفى البغدادي (المصدر السابق) ص١١٨ ـ ١١٩ .

(٤) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

(٥) عمر رضا كحالة (أعلام النساء) دمشق ١٩٥٩ ـ ج٤ ص١٩٧ ـ ١٩٨ .

السابقين في اعتناق الدعوة البابية وكان الباب قد منحه لقب « بهاء الله » • فاستطاع أن يبعث الى قرة العين من تمكن من تهريبها من قزوين وجاء بها الى طهران ، فأخفاها في بيته • وظلت قرة العين مختفية في بيت بهاء الله الى أن تقرر عقد مؤتمر « بدشت » قرب خراسان فرحلت للمشاركة فيه •

مؤتمر « بدشت » :

ان « بدشت » مكان تكثر فيه المروج والبساتين يقع على نهر شهرود بين مازندران وخراسان • وقد قرر البابيون عقد مؤتمر لهم فيه على أثر اعتقال الحكومة للباب في قلعة « ماكو » ، وهم انما اختاروا هذا المكان لبعده عن مزدحم الناس وتطفلهم • وكان الغرض من عقد المؤتمر هو للمداولة في أمرين ، أولهما كيف يمكن انقاذ الباب من معتقله ، والثاني هل تنسخ أحكام الشريعة الاسلامية أم تبقى على حالها• وقد انعقد المؤتمر في حزيران من عام ١٨٤٨م وحضره أقطاب البابيين من مختلف البلدان الايرانية فبلغ عددهم واحداً وثمانين كان فيهم قرة العين وبهاء الله ، ولم يتغيب منهم سوى « باب الباب » أي الملا حسين البشروئي لانشغاله بأمر آخر في خراسان •

الواقع أن مؤتمر « بدشت » مهم جداً اذ هو يفصل بين عهدين في تاريخ الدعوة البابية • فقد كانت هذه الدعوة قبل مؤتمر « بدشت » تعتبر فرقة من الشيخية لا تختلف عنها الا ّ في بعض الجزئيات التي لا أهميـة لها ، أما بعد المؤتمر فقد أصبحت الدعوة البابية فرقة قائمة بذاتها أو هي بعبارة أخرى أصبحت دينا جديداً •

يبدو أن المشتركين في المؤتمر لم يهتموا بأمر انقاذ البـاب بمقدار ما اهتموا بالأمر الثاني وهو : هل تنسخ الشريعة الاسلامية أم تبقى عـلى حالها • وتشـير القرائن الى أنهم منذ بدايـة المؤتمر انقسـموا الى فئتين مختلفتين : احداهما ترى وجوب نسخ الشريعة ، والأخرى ترى وجوب الابقاء عليها •

كانت قرة العين على رأس القائلين بوجوب نسخ الشريعة ، وكان رأيها أن الباب أعظم مقاماً من جميع الانبياء الذين سبقوه وأن له الحق في نسخ الاحكام الاسلامية القديمة والاتيان باحكام جديدة . أما المعارضون لهذا الرأي فكان على رأسهم محمد علي البارفروشي وهو الشاب الذي رافق الباب في رحلة الحج ومنحه الباب لقب « القدوس » ، وكان ذا منزلة رفيعة لدى البابيين ويعده البعض منهم في مقام الملا حسين البشروئي أو هو أرفع مقاماً منه . وقد وقف هذا « القدوس » يعارض قرة العين معارضة شديدة وتابعه الكثير من البابيين ، وكان رأيه أن الباب ليس سوى مروج للشريعة الاسلامية ومصلح لها مما طرأ عليها من الفساد والابتداع ، ولهذا فهي يجب أن تبقى على ما كانت عليه في الكليات والجزئيات جميعاً[1] .

بينما كان الخلاف يشتد في المؤتمر بين قرة العين والقدوس كان بهاء الله ساكتاً ويبدو أنه اتخذ موقف الحياد بين الفريقين وبقي ينتظر ما تتمخض عنه الايام . وظلت قرة العين تكافح في سبيل رأيها وتسعى الى اجتذاب القوم اليها بكل جهدها ، فهي كانت تعلم علم اليقين أن رأيها لو تحقق لانفض عن الدعوة البابية الكثير من اتباعها ، ولكنها أصرت على الرأي بالرغم من ذلك وأعلنت قائلة : « ان هذا العمل سيبرز الى ساحة الوجود لا محالة وسيطرق هذا القول اذن العام والخاص ، اذن فكلما أسرعنا في الكشف عن هذه الغوامض كان أليق وأوفق وأنفع للأمر وللعمل الذي نقوم به حتى ينفصل عنا كل ضعيف لا يحتمل التجديد ولا يبقى معنا الا كل قوي مخلص يفدي بنفسه هذا السبيل القويم البديع »[2] .

عزمت قرة العين أخيراً أن تقوم بعمل تحسم به الجدال الذي استفحل بين القوم ، ففي أحد الايام بينما كان القدوس وأكثر القوم مجتمعين في خيمة بهاء الله فاجأتهم قرة العين وهي تدخل عليهم سافرة الوجه ومتزينة ،

---

(١) عبدالحسين آواره (المصدر السابق) ص٢١٧ ــ ٢٢١ .
(٢) المصدر السابق ــ ص٢٢٠ ــ ٢٢١ .

وكان هذا على خلاف عادتها اذ كانت قبلئذ متمسكة بالحجاب الشديد على طريقة النساء في زمانها ، وكأنها أرادت بعملها هذا أن تنسخ حكماً من أحكام الشريعة هو تحريم التبرج الذي نزل به القرآن •

أثار دخول قرة العين على القوم بهذه الصورة ذهولاً عظيما • يقول صاحب كتاب « مطالع الانوار » في وصف ما حدث : « فأخذت الناس الدهشة ووقف الكل حائرين أمام هذا المنظر الغير منتظر • وكانوا يظنون أن رؤيتها غير محجبة من أكبر المحال وأن النظر الى خيالها وظلها غير جائز لأنهم يعتبرونها مظهر فاطمة الزهراء ورمزاً لعصمة الطهارة في نظرهم »[1] •

حاول بعضهم اخفاء وجوههم بأيديهم ، ووضع آخرون رؤوسهم تحت عباءاتهم لكي لا يقع نظرهم على وجه قرة العين ، ولم يملك واحد منهم نفسه فعمد الى رقبته فحزها بسكين كانت بيده ثم خرج من المجلس والدماء تنزف منه وهو يصرخ مهتاجاً ، واقتدى به آخرون فخرجوا وراءه ولم يرجعوا اذ هم انفصلوا عن الدعوة وعادوا الى عقيدتهم القديمة • أما الذين صمدوا فقد وقفوا بلا حراك وهم متحيرون في أمرهم لا يدرون ماذا يفعلون • أما القدوس فقد استل سيفه وهو في غضب شديد كأنه يريد أن ينقض على قرة العين ليقتلها •

لم تتأثر قرة العين بما جرى ولم ترهب سيف القدوس بل قامت تخطب في الحاضرين بكل جرأة وبلاغة • يقول صاحب كتاب « مطالع الانوار » انها وقفت وقد أضاء وجهها بشعور الفرح والغبطة والنصر وأخذت تخطب ارتجالاً باسلوب شبيه بأسلوب القرآن ، ثم قالت : « اني أنا الكلمة التي ينطق بها القائم والتي تفر منها نقباء الأرض ونجباؤها » ، والتفتت نحو القدوس تلومه على عدم طاعته لها ، ثم وجهت كلامها الى الجميع حيث طلبت منهم أن يحتفلوا بهذه المناسبة السعيدة ، وقالت : « ان هذا اليوم يوم

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٣٤ •

عيد وسرور عام وهو اليوم الذي تفك فيه قيود الماضي • فليقم كل من يشترك في هذا المجد ويعانق صاحبه »[١] •

ان هذا الموقف الجريء الذي وقفته قرة العين حسب رواية « مطالع الأنوار » يرويه خصوم البابية بشكل آخر ، يقول صاحب كتاب « مفتاح باب الابواب » ان قرة العين صعدت المنبر في المؤتمر وخطبت قائلة :

« اسمعوا أيها الأحباب والأغيار ••• واعلموا أن أحكام الشريعة المحمدية قد نسخت الآن لظهور الباب ، وأن أحكام الشريعة الجديدة البابية لم تصل الينا ، وان اشتغالكم الآن بالصوم والصلاة والزكاة وسائر ما أتى به محمد كله عمل لغو وفعل باطل ، ولا يعمل بها بعد الآن الا كل غافل وجاهل ، ان مولانا الباب سيفتح البلاد ويسخر العباد ، وستخضع له الأقاليم السبع المسكونة ، وسيوحد الأديان الموجودة على وجه البسيطة ، حتى لا يبقى الا دين واحد ، وذلك الحق هو دينه الجديد ، وشرعه الحديث ، الذي لم يصل الينا الى الآن منه الا نزر يسير • فبناء على ذلك أقول لكم وقولي هو الحق : لا أمر اليوم ولا تكليف ، ولا نهي ولا تعنيف، وانّا نحن الآن في زمن الفترة ، فاخرجوا من الوحدة الى الكثرة ، ومزّقوا هذا الحجاب الحاجز بينكم وبين نسائكم ، بأن تشاركوهن بالأعمال ، وتقاسموهن بالأفعال ، واصلوهن بعد السلوة ، واخرجوهن من الخلوة الى الجلوة ، فما هن الا زهرة الحياة الدنيا ، وان الزهرة لابد من قطفها وشمها ، لأنها خلقت للضم وللشم ، ولا ينبغي أن يعد ولا يحد شامّوها بالكيف والكم ، فالزهرة تُجنى وتُقطف ، وللأحباب تُهدى وتُتحف ، وأما ادخار المال عند أحدكم وحرمان غيركم من التمتع به والاستعمال ، فهو أصل كل وزر وأساس كل وبال ، لأنه لم يخلق لنفس واحدة تتلذذ به من حيث يتحسر المحروم ، بل هو حق مشاع غير مقسوم ، جعل

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٢ ـ ٢٣٥ •

للاشتراك بين الناس ، وللتداول من دون احتكار ولا اختصاص ، فليشارك بعضكم بعضاً بالأموال ، ليرفع عنكم الفقر ويزول الوبال ، ساووا فقيركم بغنيكم ، ولا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم ، اذ لا رادع الآن ولا حد ، ولا منع ولا تكليف ولا صد ، فخذوا حظكم من هذه الحياة ، فلا شيء بعد الممات »[1] .

اننا لا نستطيع أن نسلّم بصحة هذه الخطبة تسليماً تاماً ، فهي مروية بقلم أحد الخصوم ومن طبيعة الخصم أنه ميال للمبالغة في ذكر الحقيقة أو اختلاق الأكاذيب فيها كما لا يخفى . ومهما يكن الحال فقد أجمع الرواة ـ البابيون وخصومهم جميعاً ـ على أن الخطبة أحدثت نزاعاً شديداً بين الحاضرين ، فقد تعصب فريق منهم الى رأي قرة العين بينما تعصب آخرون الى رأي القدوس . وقد وصف كتاب « مطالع الانوار » هذا النزاع الشديد الذي حدث بين البابيين فقال ما نصه :

« وحصل اضطراب عظيم بين الذين قاموا على نشر هذا الاصلاح بكل جهدهم . وكان بعضهم لا يوافق على حصول مثل هذا التغيير الأساسي وظنوا أنه عين الكفر وامتنعوا أن ينسخوا ما يعتبرونه أعظم أحكام الاسلام التي لا تنسخ ، وطائفة اعتبرت أن قول الطاهرة هو الفصل في مثل هذه الأحوال وأن طاعتها واجبة على جميع المؤمنين ، وتمسك البعض ممن امتعضوا من تصرفها مع القدوس واعتبروه أنه هو الممثل والنائب عن الباب والوحيد الذي يحق له أن يحكم في مثل هذه الأمور الخطيرة ، ونظر فريق غير هؤلاء الى الحادثة بأجمعها أنها عبارة عن امتحان الهي لفصل الصادقين من الكاذبين ، والمؤمنين عن الكافرين . وكانت الطاهرة في كثير من الأحيان ترفض اطاعة القدوس وتقول : (اني اعتبر القدوس تلميذاً أرسله اليّ الباب لتعليمه وتهذيبه ولا أنظر اليه بنظر آخر) . ولم يمتنع القدوس أن

---

(١) محمد مهدي خان (مفتاح باب الأبواب) القاهرة ١٣٢١هـ ـ ص١٨٠ ـ ١٨١ .

يتهم الطاهرة أنها صاحبة هذه الفتنة وادّعى أن الذين يدعون الى رأيهـا وقعوا فريسة للخطأ . واستمرت حالة المشادة بين الاثنين بضعة أيام الى أن توسط بهاء الله وبطريقته المثلى وفّق بينهما تماماً ، ولمّ شعثهما ، ولأم الجرح الذي سببه هذا الهياج والنزاع الحاد ، وبذلك وجّه همة كل منهما الى طريق الخدمة المنتجة . وحصل المقصود من هذا الاجتماع المنشود ، لأن النداء بالنظام الجديد كان بمثابة النفخ بالصور ، فمسخت التقاليد العقيمة المجمع عليها والتي كانت تقيد ضمائر الناس ، ومُحيت بكل جسارة وبغير وجل . فتهيأت الطريق لاعلان الأحكام والقواعد الجديدة التي جاء بهـا الأمر الجديد . وعزم بقيـة الجمع المحتشد في بدشت عـلى الرحيل الى مازندران . ورحل القدوس مع الطاهرة في هودج واحد أعده لسـفرها بهاء الله . وفي الطريق كانت الطاهرة تنظم قصيدة وتأمر الأصحاب أن ينشدوها أثناء سيرهم خلف الهودج، وكانت الجبال والأودية تردد أصوات وأناشيد ذلك الجمع المتحمس أثناء سفرهم ايذاناً بمحو القديم وبعث اليوم الجديد »[1] .

فترة النسخ :

مهما يكن الحال فقد مرت الدعوة البابية بعد مؤتمر « بدشت » بفترة سميت بـ « فترة النسخ » ، وهي المرحلة التي نسخ الباب فيها الشـريعة القديمة ولم يأت بعد بالشريعة الجديدة . ويبدو أن بعض البابيين استغلوا تلك الفترة فاندفعوا في الشهوات اندفاعاً غير محمود . ورد في كتـاب « مطالع الانوار » في هذا الموضوع ما نصـه : « ... وأثناء سفرهم الى مازندران أراد بعض الاتباع أن يسيئوا استعمال الحرية التي نتجت عن نسخ الشرائع القديمة وظنوا أن في طرح الطاهرة للحجاب اشارة منهـا للتجاوز عن حدود الآداب واشباع الأغراض النفسية . وسبّب هذا التعدي

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

الواقع من هؤلاء البعض غضب المولى وأوجب تفريقهم وتشتيتهم • ففي قرية نيالا امتحنوا امتحانا شديداً وأصيبوا بأضرار جسيمة من يد أعدائهم ، وكان هذا التشتيت جزاءاً وفاقاً لذلك الافراط الذي ظهر من هـذا النفر القليل من غير المسؤولين من بين الاتباع المؤمنين ، وحُفظ الأمر طاهراً نقياً معززاً في شرفه »[1] •

ويروي لنا مؤلف « مفتاح باب الأبواب » ما الذي جرى في قريـة « نيالا » فيقول : ان قرة العين عندما وصلت مع أصحابها الى تلك القريـة دخلت الى الحمام مع القدوس ابتغاء الراحة من وعثاء السفر ، « وسـمع بهم أهل القريـة وبما هم فيـه ، فتجمعوا زرافات ووحدانا ، وتسـلحوا وهجموا عليهم ، وفرقوا شملهم ، وقتلوا منهم نفراً معدودين ، وجرحوا جماعة ، وأخذوا أموالهم ، وسلبوا أحمالهم ، ثم أطلقوا سبيلهم وهم عراة حفاة ••• »[2] •

ان هذه الرواية التي جاءت في كتاب « مفتاح باب الأبواب » ينكرها البابيون والبهائيون انكاراً تاماً ويعدونها من أكاذيب الخصـوم • ويعلق عليها السيد كامل عباس الذي كان سكرتير المحفل البهائي ببغداد سـابقاً فيقول : ان قرة العين كانت موضع ثقة العلماء وقد شهدوا بطهارتها في كل أدوار حياتهـا ، أما ما ورد في كتاب « مفتاح باب الابواب » فهو مختلق وملفق[3] •

وقد تحدث كاتب هذه السطور الى السيد كامل عباس فسألته عن « فترة النسخ » وهل هي تشمل قواعد الزواج والطلاق مثلاً ، فكان جوابه : أن الفترة شملت التكاليف التعبدية فقط كالصوم والصلاة ونحو ذلك ، أما

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ •

(٢) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص١٨٢ •

(٣) عبدالرزاق الحسني (البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم) صيدا ١٩٥٧ ـ ص٧٧ •

التعاليم الاخلاقية فلم يحدث فيها أي تبديل أثناء الفترة لأن الأديان كلها تتشابه في الاخلاق فلا فرق بين القديم والجديد منها •

وقد ذكر المستشرق براون أنه أثناء جولته في ايران في عام ١٨٨٨م قابل رجلاً متحرراً ينتسب الى النحلة البابية ، وقد جر الحديث بينهما الى موضوع قرة العين وما يتهمها به الخصوم من وجود علاقة مريبة لها مع القدوس ، فقال الرجل مدافعاً عنها : انهم يتهمون قرة العين بعدم العفة وهذا افتراء اذ هي جوهر الطهارة ، ولكن ما يتهمونها به ربما وقع أثناء فترة النسخ اذ هي عاشرت القدوس معاشرة الازواج ، غير أنها بعد نزول الشريعة الجديدة صارت هي وجميع الاتباع متمسكين بها كل التمسك[1] •

مصير قرة العين :

في ٩ تموز من عام ١٨٥٠م أعدم الباب في تبريز بناء على فتاوي صدرت من علماء تلك المدينة • وقد أثار مقتله حنق بعض أتباعه فصمموا على اغتيال الشاه ناصر الدين أخذاً بثاره • وفي ١٥ آب من عام ١٨٥٢م بينما كان الشاه يتريض خارج قصره عند سفح جبل شمران تقدم نحوه رجلان وبيد أحدهما عريضة وهما يصرخان « الظليمة الظليمة ، الغوث الغوث » ، فلما مد الشاه يده لتسلم العريضة عاجله الثاني بطلق ناري أصاب فخذه اصابة خفيفة ، وسرعان ما تداركه الحرس فقتلوا أحد الرجلين وأمسكوا بالثاني جريحاً • وكانت محاولة الاغتيال هذه ايذانا ببدء حملة واسعة النطاق في انحاء ايران للبحث عن البابيين وقتلهم ، وقد ذهب الكثير من الابرياء ضحايا من جراء اتهام الخصوم لهم بأنهم من البابيين •

شهدت طهران آنذاك ضروباً من التعذيب والقسوة الفظيعة اشترك

---

(1) E.G. Browne (A Year Among The Persians) Cambridge 1927 — P. 571—572.

فيها الأهالي والحكومة معاً • قيل ان البابيين الذين اعتقلوا في طهران وزعوا على مختلف طبقات الناس ، فأخذ كل منهم حصته من البابيين وشهروهم في طرقات المدينة وأهانوهم وعذبوهم ثم قتلوهم(١) • وروى سايكس أنّ بعض البابيين قُطّعوا بالفؤوس ، وعندما أُعطي طبيب الشاه الفرنسي حصته من البابيين رفض تقطيع ضحيته بالفؤوس حيث اعتذر قائلاً : انه قتل بحكم مهنته من الناس ما فيه الكفاية وهو لا يريد أن يضيف الى القائمة ضحايا جديدة(٢) •

كانت قرة العين من جملة الذين ألقي القبض عليهم غير أنها أودعت لدى محافظ مدينة طهران محمود خان كلانتر • ومما يلفت النظر أنها لم تراع الظروف الارهابية المحيطة بها فكانت طيلة فترة اعتقالها في دار المحافظ دائبة على التبشير بالدعوة البابيه • انها كانت تنتهز مناسبات الولائم والمجالس النسائية التي تعقد في تلك الدار لتلقي فيها أحاديثها المثيرة • والظاهر أن وجود قرة العين في تلك الدار جعل النساء يتهافتن عليها ليحظين بمشاهدة تلك المرأة المشهورة التي أصبح اسمها على كل لسان • وأخذت قرة العين تضرب على أوتار قلوب النساء وتظهر لهن المنزلة الواطئة التي خصصها رجال الدين القديم للمرأة وكيف أن الدين الجديد رفع من شأن المرأة ومنحها حريتها •

أرسل الصدر الأعظم الى قرة العين رجلين من العلماء ، هما الملا محمد أندرماني والملا علي كيني ، من أجل امتحانها وكتابة تقرير عن عقيدتها الدينية لكي يتخذ الاجراء المناسب لها • وقد عقد الرجلان معها سبع جلسات لامتحانها ، فكانت هي في كل جلسة تناقشهما بحماس وتبرهن لهما أن الباب هو الامام المنتظر الموعود ، وكان ردهما عليها أن الامام المنتظر

---

(١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ص٣٣ •

(2) Sir Percy Sykes (A History of Persia) London 1958 — vol. 2, P. 344.

يجب أن يظهر من مدينتي « جابلقا » و « جابرسا » حسبما ورد في المصادر الدينية ، فكانت تجيبهما بأن هذا باطل محض اخترعه الرواة الكذابون وأن المدينتين المذكورتين لا وجـود لهما مطلقـاً وما هما سـوى خرافـة تليق للمجانين ، ثم قالت بتأثر : « ان الأدلة التي تسوقانها هي أشبه بأقوال طفل غبي جاهل ، فالى متى تسيران وراء هذه الأكاذيب والخرافات الجنونية ، والى متى لا ترفعان رأسكما لتريا شمس الحقيقة » . فغضب الملا علي من هذه الاقوال ونهض قائلاً لصاحبه : « ما هي الفـائدة من زيادة البحث والمناقشة مع كافرة ! » . ثم خرجا وكتبا تقريراً ذكرا فيه أن قرة العين قد ارتدت وكفرت ورفضت التوبة وأنها تستحق القتل عملا بحكم القرآن[١] .

واختلفت الأقوال في الكيفية التي قتلت بها قرة العين ، فمن قائل : انها وضعت في فوهة مدفع واطلقت عليها قنبلة مزقتها اربا اربا[٢] ، ومن قائل : انها رُبطت من شعرها بذيل بغل فسحبت الى المحكمة وهناك صدر الحكم باحراقها حية غير أن الحكومة أوعزت بتأخير الاحراق الى ما بعد موتها ، فخنقت ثم أُلقيت جثتها الى النار[٣] . ويروي المستشرق براون نقلاً عمن سمع من محمود خان كلانتر : أن الشاه استدعى قرة العين الى قصره في نيكارستان وطلب منها التبري من الباب ولما رفضت قرة العين ذلك وأصرت على الرفض أمر الشاه بالقائها في بئر كانت في حديقة القصر ، ثم أُلقيت فوقها أربعة أحجار ضخام ، وهيل عليها التراب[٤] . أما صاحب كتاب « مطالع الأنوار » فيذكر : أن قرة العين أُخذت من دار المحافظ الى حديقة الايلخانة ، وهي حديقة كانت موجودة في ذلك الحين مقابل السفارة البريطانية ، فخُنقت بمنديل من الحرير قدمته هي بنفسها الى جلادها ،

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٢) محمد باقي الجلالي (الحقائق الدينية في الرد على العقيـدة البهائية) النجف بدون تاريخ ـ ص٢٤ .

(٣) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص١٨٣ .

(4) E.G. Browne (op. cit.) P. 541—542.

ثم أنزلت في بئر كانت قد حفرت هنالك حديثاً ، وهيل عليها التراب[1] .

كلمة تقييم :

حين نستقرىء سيرة قرة العين منذ بداية أمرها حتى ساعة مقتلها نشعر بأنها امرأة ليست كسائر النساء ، فهي علاوة ما تميزت به من جمال رائع كانت تملك ذكاءاً مفرطاً وشخصية قوية ولساناً فصيحاً ، وتلك صفات أربع قلما اجتمعت في انسان واحد ، وان هي اجتمعت فيه منحته مقدرة على التأثير في الناس وجعلته ممن يغيرون مجرى التاريخ .

وصفها الكونت دي غوبينو في كتابه « الأديان والفلسفات في آسيا الوسطى » ، وهو قد زار ايران بعد مقتل قرة العين بمدة قصيرة ، فقال : « ... كان الكثير من الذين عرفوها وسمعوها في أوقات مختلفة من حياتها يذكرون لي دائماً أنها فضلاً عما اشتهرت به من العلم والغزارة في الخطب فان القاءها كان من السهل الممتنع وكان الناس أثناء تكلمها يشعرون باهتزاز وتأثير الى أعماق قلوبهم مفعمين بالاعجاب وتنهمر دموعهم من الآماق »[2] .

وكذلك وصفها صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » فقال : « وقصارى القول ان هذه الفتاة كانت آية الجمال والكمال ، وفريدة رصيفاتها بالحسن والاعتدال ، طلقة اللسان ، فصيحة البيان ، عذبة المنطق ، شهية الكلام ، جسوراً مقدامة ، ومن منظومها بالفارسية والعربية ما يطرب الأديب ، ويخلب لب الأريب ، ولكن قضى عليها سوء الحظ ونكد الطالع (ان صح جميع ما يقال عنها) أن تحيد عن محجة الحق والصواب ، وتميل عن منهج الهدى والثواب ، وتأتي بما تمجه نفوس أولي الألباب ، حتى ترتكب ما أطفأت به نور جمالها الزاهي الزاهر ، ومحقت بدر كمالها البهي

---

(١) محمد زرندي (المصدر السابق) ص٥٠٠ ــ ٥٠١ .

(٢) المصدر السابق ــ ص٥٠٥ .

الباهر ، ولله الأمر في الأول والآخر »[1] ٠

الملاحظ من خلال سيرتها أنها كانت شديدة الميل الى التجديد في العقيدة ، فهي قد اعتنقت العقيدة الشيخية عندما كانت تلك العقيدة جديدة بالنسبة الى عقائد الشيعة المألوفة ، غير أنها لم تكد تسمع بظهور الباب حتى أسرعت الى اعتناق دعوته ٠ ورأيناها منذ اعتنقت الدعوة البابية تتزعم القائلين بتجديد الشريعة بين أتباع تلك الدعوة ، مرة في كربلا وأخرى في الكاظمية وثالثة في بدشت ، حتى كتب لها الفوز أخيراً ٠ وقد يصح القول انه لولا قرة العين لما سار تاريخ الدعوة البابية على النحو الذي سار عليه فعلاً ٠

حاول بعض الخصوم تعليل هذا الميل لتجديد الشريعة عند قرة العين بأنه نتيجة زواجها الفاشل من ابن عمها ، ففي رأيهم أنها كانت تبغض زوجها من أعماق قلبها ولما كانت الشريعة الاسلامية لا تمنح المرأة حق الانفصال عن زوجها أو الطلاق منه فقد اندفعت قرة العين اندفاعاً لا شعورياً نحو اعتناق كل دعوة تتيح لها نسخ الشريعة لكي تتخلص من ربقة زوجها البغيض على وجه من الوجوه ٠

اني اعتقد على أي حال أن قرة العين امرأة لا تخلو من عبقرية وهي قد ظهرت في غير زمانها ، أو هي سبقت زمانها بمائة سنة على أقل تقدير ٠ فهي لو كانت قد نشأت في عصرنا هذا ، وفي مجتمع متقدم حضارياً ، لكان لها شأن آخر ، وربما كانت أعظم امرأة في القرن العشرين !

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص١٨٣ ـ ١٨٤ ٠

الفصل السادس

عشـرون سنة

مرت على العراق بين عزل نجيب باشا وتعيين مدحت باشا فترة عشرين سنة تعاقب فيها عدة ولاة كان أشهرهم نامق باشا ، ورشيد باشا ، وعمر باشا • وسنحاول في هذا الفصل البحث في سيرة هؤلاء الولاة والأحداث التي حدثت في أيامهم حسب تعاقبها الزمني •

نامق باشـا :

في تموز من عام ١٨٤٩م عزل نجيب باشا من ولاية بغداد فحل محله عبدالكريم نادر باشا ، وقد عزل هذا بدوره في كانون الاول من العام التالي فحل محله محمد وجيه باشا ، وقد عزل هذا كذلك بعد أن أمضى في منصبه سنة واحدة فحل محله الوالي المشهور نامق باشا الملقب بـ « الكبير » •

كان نامق باشا قبل تعيينه لولاية بغداد مشيراً لفيلق العراق واختلف مع الوالي محمد وجيه باشا حول الطريقة التي ينبغي أن يحكم بها العراق ، وكانت قد نشبت آنذاك ثورة عشائرية كبيرة في الفرات الأوسط فارتأى الوالي محمد وجيه باشا أن تعالج الثورة باللين والسياسة ، أما نامق باشا فكان رأيه اتباع طريق السيف والشدة وتعهد بضرب العشائر وتأديبهم حفظاً لهيبة الحكومة • وجرت المخابرات مع اسـطنبول في هـذا الشأن فجاءت الأوامر من هنالك مؤيدة لرأي نامق باشا مما اضطر محمد وجيه باشا الى رفع استقالته من الولاية ، فعينت الدولة نامق باشا بدلاً عنه ، وبهذا جمع نامق باشا في يديه الادارة المدنية والعسكرية معاً •

وصف أبو الثناء الآلوسي نامق باشا بأنه « المشير الذي لا يستشير سوى غضبه » ، وقال عنه محمود الشاوي في تاريخه : « كان نامق باشا شجاعاً حقوداً على العصاة فكل من يخرج على طاعة الحكومة يقدم له السيف لا السياسة ... وكان الموظفون في أيامه يخافون بطشه ويبذلون كل جهد لينالوا رضاه ... »[1] .

أول عمل قام به نامق باشا عند تسلمه زمام الولاية هو أنه سار على رأس قوة كبيرة نحو العشائر الثائرة في الفرات الأوسط ، فانزل بهم ضربات ساحقة . وقد سُمّيت تلك الواقعة بـ « واقعة الوردية » لانها حدثت في مقاطعة الوردية القريبة من الحلة ، وكان قد اشتركت فيها عشائر الخزاعل وبنو حسن وزوبع وغيرهم . واستطاع نامق باشا أن يأسر سبعة من رؤساء العشائر الثائرة كان منهم كريدي شيخ الخزاعل ، وظاهر المحمود شيخ زوبع وهو والد ضاري الذي اشتهر فيما بعد أثناء ثورة العشرين . وأمر نامق باشا بسوقهم جميعاً مقيدين بالاغلال نحو اسطنبول ...

يبدو أن طريقة الشدة التي انتهجها نامق باشا أدت الى عكس ما كان يأمله منها ، فقد انتشرت الفوضى في أنحاء العراق وأمست الطرق غير مأمونة والقوافل تُهاجم وتنهب في كل مكان .

كان أول من أعلن راية التمرد على نامق باشا هو الشيخ ظاهر المحمود ، اذ هو استطاع أن يهرب من أيدي حراسه بعد مغادرته الموصل ، ثم استدعى اليه عشيرته فصاروا يقطعون الطرق وينهبون القوافل . واحتذت بهم عشيرة زبيد فأخذت تقطع الطرق في جنوب بغداد ، وفي أواخر شباط من عام ١٨٥٢م اعترض أفراد من زبيد خمس سفن في دجلة وهي محملة بأموال كثيرة للتجار ، وبعد أيام معدودة استحوذوا على قرية المسيب ونهبوا

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ — ج٧ ص ٩٣ ـ ١٠٠ .

أهلها كما نهبوا ما كان مخزوناً فيها من الأطعمة ، ثم توجهوا نحو الحلة فحاصروها • وبهذا انقطعت الطرق واستولى الرعب على الناس حتى صاروا لا يستطيعون الخروج من بغداد ، وظلت المزارع حول بغداد من غير حصاد ، وارتفعت الاسعار في كربلا والنجف[1] •

وصف أبو الثناء الآلوسي في أحد مؤلفاته حالة العراق يومذاك وكان معاصراً لها بقوله : « وأنه لا يستطيع الطير أن يطير ، ولا الأسد الوثاب أن يسير ، ما بين حلتها وبصرتها ، بل ما بين كرخها ومقبرتها ، وتعذر على الساعي الخريت ، الذهاب من باب الكاظم الى هيت وتكريت ، حيث كثر القتل والنهب في جهاتها الأربع ، فغدا كل من اشتمل عليه سورها يفتت مما عراه اليرمع ••• »[2] •

عزل نامق باشا :

يقال عن نامق باشا انه لم يكن شديداً على العراقيين فقط بل كان شديداً أيضاً على الاجانب الذين يسكنون العراق لا سيما النصارى منهم ، فكان متعصباً عليهم • وقد حدثت في بغداد حادثة دلت على ما يضمره هذا الوالي من عداء وتعصب على النصارى •

خلاصة الحادثة أن صيرفياً نصرانياً يحمل الرعوية الفرنسية كان يسكن بغداد ويمثل بعض البيوت التجارية في بيروت ، وفي يوم جمعة بينما كان هذا الرجل راكباً حصانه وهو يسير به في أحد الأسواق مر به موكب الوالي وهو في طريقه الى صلاة الجمعة • وكان الموكب فخماً طويلاً تتألف مقدمته من الفرسان والقواصين وكبار الموظفين ، ويأتي بعدهم الوالي راكبا حصانه ، فيتلوه الكهية ثم الامام وعدد كبير من رجال الدين • وقد جرت العادة أن يقف الناس جميعاً عند مرور الموكب وأن يترجل من

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص٩٧ ـ ٩٩ •
(٢) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٠٠ ـ ١٠١ •

كان منهم راكباً ، والظاهر أن الصيرفي كان يجهل تلك العادة فلم يترجل عن حصانه ، فلمحه نامق باشا واعتبر ذلك منه صلفاً وسوء أدب فأمر جنوده بانزاله عن حصانه وتأديبه ، وأخذ هؤلاء يضربونه ضرباً مبرحاً بكعاب بنادقهم حتى أنهكوه وأدموه . وظل الصيرفي بعد هذا طريح الفراش بضعة أسابيع . وقدم القنصل الفرنسي في بغداد احتجاجاً شديد اللهجة كما أن السفير الفرنسي في اسطنبول قدم احتجاجاً مماثلاً الى الباب العالي وطالب بتعويض للصيرفي مقداره (٣٦٠٠) فرنك . وقد اضطر الباب العالي أخيراً أن يستدعي نامق باشا الى اسطنبول[١] .

رشيد باشا :

في آب من عام ١٨٥٢م صدر الفرمان باسناد ولاية بغداد الى رشيد باشا ، وكان هذا الوالي الجديد يلقب بـ « الگوزلگلي » أي صاحب النظارات ، وسماه العراقيون « أبو المناظر » ، والظاهر أنه كان أول من استعمل النظارات في البلاد العثمانية حيث جاء بها من أوربا فاشتهر بها .

المعروف عن رشيد باشا أنه ولد في جورجيا من أبوين مسيحيين ، ولما بلغ التاسعة من عمره أسره الأتراك وأكرهوه على الاسلام ، ثم صار فيما بعد من الضباط اللامعين في الدولة العثمانية فأُوفد الى فرنسا للتخصص في فنون المدفعية وبقي فيها عدة سنوات . يقول السائح الألماني بيترمان الذي زار بغداد في ١٨٥٤م : ان رشيد باشا كان أثناء ولايته في بغداد يطالع الكتاب المقدس ولا سيما الانجيل وبالنظر لبقائه في فرنسا مدة طويلة فقد ارتاب البغداديون في اسلامه ، ولكي يبعد هو عن نفسه تلك الشبهة شرع بتعمير جامع من ماله الخاص بشكل محتشم[٢] .

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص٩٨ ـ ٩٩ .

(٢) سعاد هادي العمري (بغداد كما وصفها السواح الأجانب) بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١٠٥ .

يمكن القول على أي حال ان رشيد باشا كان ثاني والي في العراق من ذوي الثقافة الحديثة ، فقد سبقه في ذلك عبدالكريم نادر باشا الذي كان قد تلقى تعليمه في النمسا ، ولكن الفرق بين الرجلين هو أن أولهما كان مولعاً بالأدب والشعر فألهاه ذلك عن تفهم الثقافة الحديثة تفهما عميقاً وظل مشغولاً بالألفاظ وبالتحذلق فيها ، أما الثاني ـ أي رشيد باشا ـ فكان من طراز آخر ، ويرجح في ظني أنه كان أول حاكم في العراق حاول أن يسير به في طريق المدنية الحديثة •

يقول سليمان فائق : « ان رشيد باشا كان قد قضى مدة طويلة في فرنسا للدراسة ، وقد حصل على درجة عالية في علم الادارة والسياسة ، وصار من الرجال الذي يشار اليهم بالبنان ، وقد اختار السير على سياسة اللين والصفح على عكس ما كان عليه نامق باشا الذي أوصل البلاد الى الدرك الأسفل بسبب شدته وقسوته • وقد تمكن رشيد باشا خلال مدة قصيرة من سبر غور العراق والعراقيين ، ومعرفة ميولهم وطبائعهم ، وراح يعالج الأوضاع بحكمة وتعقل ، ومع أنه قد تشدد في اظهار سطوته وقدرته على المتمردين والعصاة ، الا انه قد استمال هؤلاء ، وألّف بينهم ، ونشر العدل ، ووسع المشاريع العمرانية ، ووفر للخزينة الكثير من الأموال والايرادات ، واستطاع أن يدفع ما تراكم على الخزينة العراقية من ديون ، وأن يدفع أيضاً رواتب الموظفين المدنيين والعسكريين المتأخرة التي لم تدفع منذ عهد علي رضا باشا • وسعى سعياً حثيثاً في سبيل اعمار البلاد فانتعشت على يديه وأعاد اليها رونقها وازدهارها وبث في أفرادها روح الحركة والنشاط في مختلف المجالات ، وبقي دائباً على هذه الحركة يواصل ليله بنهاره مدة أربع سنين متوالية ••• »[١] •

---

(١) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص١٦٦ ـ ١٦٧ •

ولم يكن سليمان فائق المؤرخ الوحيد الذي وصف رشيد باشا بهذا المدح بل نجد مؤرخين آخرين يصفونه بذلك أيضاً ، أحدهم لونكريك صاحب كتاب « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » ، فهو يقول عن رشيد باشا : ان السنوات الخمس التي قضاها هذا الرجل في حكم العراق تميزت بالحكم النزيه الصارم الحر ودلت على أن في المقدور ادخال حكومة حديثة في العراق ، فقد كان رشيد باشا يلح على موظفيه في أن يعملوا بنزاهة ، وحاول مكافحة الفساد العام المستحوذ على كل شيء ، وكثرت في ايامه الواردات لأنه حال دون الاكثار من النهب والاختلاس ، وحقق موارداً دائما للتصدير بنقل الحبوب الى الحجاز ، وكذلك شق الترع العديدة للري ، غير أنه ضويق كثيراً من اسطنبول للحصول على المال الكثير وارساله الى الدولة التي كانت مشغولة بحرب القرم[1] .

وورد في تقارير القنصل الفرنسي الذي كان في بغداد يومئذ ما يؤيد قول لونكريك وسليمان فائق ، فقد كتب القنصل الى حكومته في باريس يصف رشيد باشا قائلاً : انه منذ وصوله الى بغداد أخذ يدفع رواتب العساكر التي لم تدفع طيلة السنتين الماضيتين ، وأشاع الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد ، وصار يهدد الخونة والمختلسين حيث أبلغ الموظفين المسؤولين عن الأموال العامة أن حساباتهم سيدققها بنفسه وأن المتلاعب بها سيعاقب بالجلد على عدد القروش التي اختلسها من غير اعتبار لمركزه أو رتبته ، وبفضل هذه الاجراءات الحازمة استوفيت الضرائب بيسر وسهولة وتدفقت الأموال الى خزائن الولاية وانتعشت التجارة وازدهرت[2] .

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) بيير دي فوصيل (الحياة في العراق منذ قرن) ترجمة أكرم فاضل ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص٨٦ .

وجهة نظر أخرى :

في الوقت الذي نجد فيه رشيد باشا ممدوحاً من قبل هؤلاء المؤرخين الذين ذكرناهم نراه مذموماً من قبل مؤرخين آخرين • ولا غرابة في هذا اذ هو أمر طبيعي يحدث لكل من يعمل وينتج في أي مجال من مجالات هذه الدنيا ، فهو ما دام عاملاً منتجاً فلابد أن يتضرر من عمله فئة من الناس فيبغضونه ويذمونه •

كان رشيد باشا قد اهتم بتنظيم الزراعة وحفر الأنهار ، كما ضرب على أيدي المرتشين والمختلسين من الموظفين وقاوم المحتكرين من التجار ، وأشرف على شؤون الضرائب والأموال العامة بحيث استطاع أن يدفع الرواتب المتراكمة ، وهذه كلها لابد أن تؤدي الى تضرر الكثير من الناس أو فقدان ما كانوا يجنونه من أرباح ، وليس من المتوقع أن يبقى هؤلاء ساكتين تجاه الأعمال التي تضرروا منها ، فهم لابد أن يعدوا أنفسهم على حق ويعدوا الوالي الذي سلبهم أرباحهم على باطل ، ثم يأخذون بالتقول عليه والمبالغة في ذكر مساوئه أو اختلاقها ، وقد يتحول الأسود لديهم الى أبيض والابيض الى أسود ، كما هو دأب البشر دائماً عندما يبغضون أو يحبون •

أقبح ما كُتب عن رشيد باشا نجده في الكتاب المجهول المؤلف الذي ذكرناه في فصلين سابقين ، والظاهر أن المؤلف كان معاصراً لرشيد باشا وكان وثيق الصلة بالتجار والزراع الذين تضرروا من أعماله العمرانية • وفيما يلي ننقل جزءاً مما كتبه بلغته العامية حيث قال في وصف رشيد باشا ما نصه :

« ••• حسد كل من يتعاطى المعاملة في البيع والشراء حتى أنه أعطى دراهم لأناس يجلبون الأغنام من القرى وهو شريك معهم على زيادة الدراهم • وكان يأتي الى بيت بعض التجار ويسأل كم يملك فلان التاجر ،

وكم يملك فلان ، وهو حسود قد فاق (...) بالحسد ، ويأتي الى مخازن التجار ويستكشف عن دفاترهم : ما تملكون ؟ وما عندكم من مال ؟ وقد تحكّم به الملل الخارجية كاليهود والنصارى . ومن حين ورد بغداد الى أن هلك ما تصدق على فقير بدرهم واحد ، وهو كذوب حسود قاسي القلب بخيل ما سمعنا له بخصلة حسنة ... ومن أهم من يصح ذكرهم آل دانيال ... تقدموا عنده ... وامتزجوا معه امتزاج الماء مع الخمر ، وانتفعوا انتفاعاً بيّناً ، كل ذلك بالتفات الوزير لهم وتبينهم له وجه المنافع الجارية على غير المعتاد ، بظلمهم على العباد ، الى أن توغلوا في الأمور ، وتقدموا عنده حتى أنهم أخفوا عليه الحال وأخذوا يأكلون من أموال الميري لتوجهه لهم ، ولم يستيقظ من هذه الغفلة الآ قبل موته بأيام قلائل . وقد آل أمرهم الى أن ما كان يزرع في ملحقات بغداد من حنطة وشعير أو رز يشترونه ويحتكرونه حتى تغلو أسعار ذلك ، فيبدأون ببيعه حسب مرامهم. هذا ما ثبت عند الخاص والعام صراحة واعلاناً منهم بيّناً ، وقد انقطع سبب البائعين والشارين من الأهالي والسكنة ، فصار الطعام محوزاً ومدخراً تحت أيديهم ، فأسعار الطعام غالية دائماً في بغداد ونواحيها ... وهؤلاء اليهود هم أساس فساد المملكة يلقون الفتنة بين شيوخ الأعراب والولاة ، فاستقام أمرهم خمس عشرة سنة بهذه الكيفية الى مدة انتهاء هذا الوزير .. وهم باقون على هذه الحال ، وقد جمعوا دراهم جمة . واذا أردنا أن نذكر كل ما عملوه لطال التحرير وقصر التقرير ، ولكننا أوجزنا التسطير في ذكر أصحاب السعير . وقد وضعوا بدعاً في أراضي الهندية لم تكن في الزمن السالف ، ومن ذلك أن موطناً فيه ماء يقال له (أبو بغال) جعلوا عليه أعواناً يأخذون من المار اذا كان راكباً ، أو كان حمل على دابته قوارب ، ثلاثة دراهم ونصف ، فضاعفوه وبدأوا يأخذون خمسة عشر قرشاً ، وأحياناً عشرين قرشاً ، ومع هذا يضمنونه من الملتزم بثلاثين ألف قران ، ويلزم بأيديهم مائتين وثلاثين ألف قران ، وسبب ذلك ان الملتزم

لتلك الأراضي لابد أن يقدم كفيلاً وهم يكونون كفلاء بشرط أن يضمنهم (أبو بغال) المكان المذكور فيضطر الملتزم الى اعطائهم ذلك بثمن بخس، ويحصل الضرر على الضامن وتحصل مغدوريته على أموال السلطان»[1].

ان هذه التهم التي ألصقها المؤلف المجهول بالوالي رشيد باشا ربما كانت صحيحة قليلاً أو كثيراً، وليس من المستبعد أن يكون رشيد باشا قد جمع لنفسه أثناء ولايته مالاً على نحو ما كان يفعل غيره من الولاة العثمانيين، ولكن الذي نريد أن نلفت نظر القاريء اليه هو أن تلك التهم على فرض صحتها لا تمنع من أن يكون رشيد باشا من الحكام المصلحين، فنحن نعلم أن الانسان بوجه عام كثيراً ما تختلط فيه نوازع الشر والخير معاً، وربما كان رشيد باشا من هذا الطراز اذ كان يسعى نحو تعمير البلاد ونحو تعمير جيبه في الوقت نفسه.

تأثير حرب القرم :

وقعت حرب القرم في الوقت الذي كان فيه رشيد باشا والياً في بغداد، وهي كانت حرباً شعواء كما تحدثنا عنها في فصل سابق، وقد نال العراق منها الضرر كما نالته جميع البلاد العثمانية، ولعل ذلك كان من أسباب زيادة عدد الناقمين على رشيد باشا.

عندما وصل نبأ اعلان الحرب الى بغداد جمع الوالي أعيان بغداد وعلماءها، وكان منهم صبغة الله الحيدري وأبو الثناء الآلوسي، وقال لهم ان «الأرس» أي الروس تحركوا على محاربة السلطان، ثم طلب منهم أن يجمعوا التبرعات من الأهالي لمعونة الدولة. وقر رأي المجلس أن يدفع الموسر من الأهالي مبلغ ألف قرش، والمتوسط مائة قرش، والفقير خمسة وعشرين، وكذلك فرض على كل بيت رسم مقطوع قدره مائة قرش. وقد استثنيت محلة باب الشيخ من دفع هذه الأعانة اذ اعتذر عنها النقيب

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١١٠ ـ ١١٤.

فذكر ما عليه سكانها من ضعف الحال ورق عليها قلب الوالي[1] .

وعندما اشتدت الحرب وطالت أيامها أخذت الاشاعات تروج بين الأهالي حول احتمال هجوم ايران على العراق . وانتشر في بغداد خبر مفاده أن الشاه ناصر الدين تحالف مع الروس وأرسل اليهم المعدات والاطعمة ، فاضطرب أهل بغداد لهذا الخبر كما اضطرب اهل خانقين وشاع الخوف وارتفعت الاسعار .

أعلن الشاه أنه لن يطعن أخاه العثماني المسلم من الخلف ، ولكن الأجراءات العسكرية التي اتخذها على الحدود جعلت الناس لا يصدقون بقوله . واهتم الوالي رشيد باشا بالأمر كل الاهتمام ، فأخذ يحشد جنوده ، وطلب النجدة من عشيرتي شمر وعنزة ، كما استدعى عشيرة عقيل الساكنة في الكرخ اذ كانت هذه العشيرة بمثابة جيش غير نظامي للحكومة . ثم استدعى عبدالله بابان من منفاه في اسطنبول ليتولى تجميع القوات الكردية من أجل الدفاع عن منطقة السليمانية ، وأرسل رسول بك الصوراني الى كركوك للدفاع عنها . وفي الجنوب أوعز رشيد باشا الى شيخ الكويت وشيخ المنتفق بان يستعدا لمواجهة الهجوم المتوقع من جنوب ايران .

كان القنصل البريطاني في بغداد هنري رولنسون يرى أن تنتهز بريطانيا الفرصة للاستيلاء على العراق ، وكان يظن أن العراقيين ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركي على يد بريطانيا . ولكن هذه الفكرة التي سيطرت على ذهن رولنسون لم تكن تنسجم مع سياسة حكومته في لندن ، فأرسلت اليه تلفت نظره الى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية وأن أهم ما يجب أن يفعله في هذا الوقت هو منع ايران من

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٠٥ .

استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق[1] •

وقد بذلت بريطانيا في الواقع جهداً كبيراً لكي تجعل الحكومة الايرانية تقف على الحياد أثناء حرب القرم ، وصارت تضغط على الشاه لتمنعه من الانسياق وراء الوعود الروسية ، وأرسلت الى شط العرب سفينتين حربيتين لارهاب القوات الايرانية[2] •

وأخذت الحكومة في بغداد تتشدد في طلب المجندين ، وكان هناك عدد منهم قد أُعفوا من الخدمة سابقاً لعلل في أبدانهم ، فسيقوا الآن الى الخدمة قسراً ، وتألف منهم ومن غيرهم جيش أريد له التوجه نحو الحدود الايرانية من جهة زهاو وكرمانشاه •

وبينما كان الناس في هرج ومرج وقد سادهم الرعب وصل خبر مفرح الى القنصل البريطاني ببغداد مفاده أن الشاه ترك أمر مهاجمة العراق بتحريض من امام الجمعة بطهران ، فقد قال له هذا الرجل بان محاربة الدولة العثمانية نصر للكفار وهذا أمر لا يجوز شرعاً[3] • وكان وصول هذا الخبر في اواخر عام ١٨٥٣م ، وبه انفرجت الضائقة عن الناس واطلق سراح المجندين •

بهاء الله في بغداد :

ان بهاء الله كان كما ذكرنا في الفصل السابق من ذوي النفوذ والثراء في طهران ومن أوائل الذين اعتنقوا الدعوة البابية • وفي عام ١٨٥٢م عندما قام بعض البابيين بمحاولة اغتيال الشاه اعتقل بهاء الله فيمن اعتقل من

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار (دور العراق العثماني في حرب القرم) في المجلة التاريخية المصرية ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ج١٣ ص٢٣٢ •

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص٣٤٤ ـ ٣٤٥ •

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٠٧ •

البابيين ، وأودع في سجن مظلم زهاء أربعة أشهر ، ثم أطلق سراحه بشفاعة من الصدر الأعظم[١] ، وقيل ان الوزير المفوض الروسي دلگوركي تشفع له كذلك[٢] ، ثم أُبعد مع أفراد أسرته الى العراق •

وفي ٨ نيسان من عام ١٨٥٣م وصل بهاء الله الى بغداد ، فنزل في أول الأمر في الكاظمية على عادة الايرانيين عند مجيئهم الى العراق ، غير أنه انتقل الى بغداد بايعاز من القنصل الايراني فسكن محلة العاقولية بجانب الرصافة ، ثم تحول بعدئذ الى دار واسعة تقع في محلة الشيخ بشار بجانب الكرخ[٣] •

وبعد مدة قصيرة من وصول بهاء الله الى بغداد وصل اليها أخوه من أبيه المرزا يحيى الملقب بـ « صبح الأزل » ، وكان هذا معروفاً بين البابيين يومذاك بأنه هو وصي الباب وخليفته وأن بهاء الله انما يرأس البابيين بالنيابة عنه • وقد استطاع صبح الازل أن يهرب من ايران متنكراً بزي درويش فكان يتجول في القرى بهذا الزي حتى وصل الى بغداد •

كان البابيون في بغداد في تلك الآونة في شقاق ونزاع على نمط ما كانوا عليه يوم كانت قرة العين هنالك • وقد أشار أحد المصادر البابية الى ذلك فقال ما نصه :

« ••• لأن الاحباب تشتتوا وكل من كان يبلغ أمر الله رأى نفسه

---

(١) محمد مهدي خان (مفتاح باب الأبواب) القاهرة ١٣٢١هـ — ص٣٣٣ •

(٢) محمد زرندي (مطالع الانوار) ترجمة عبدالجليل سعد — القاهرة ١٩٤٠ — ص٤٨١ — ٤٨٦ •

(٣) حدث حول هذه الدار نزاع شديد بين الشيعة والبهائيين في العشرينات من القرن الحالي ، واستطاع الشيعة أخيراً أن يستحوذوا عليها فحوّلوها الى « حسينية » ، ولا يزال البهائيون يأملون في استرجاعها • انها كعبة مقدسة بالنسبة اليهم •

شيئاً من الأشياء كأنهم مرايا الظهور وخصوصاً حين نزول صاعقة الامتحان وهو صعود الرب الأعلى جل شأنه ـ يقصد مقتل الباب ـ لأنه امتحان عظيم ولا حول ولا قـوة الا بالله العلي العظيم • وبقي الأمر في هرج ومرج واستندت أحباء كل بلدة الى أحد المرايا مثلاً جماعة اعتقدوا بصبح الازل، وآخرون اعتقدوا برجل بغدادي يدعى الشيخ علي الدباس ، وجماعة أخرى اعتقدوا بالسـيد علاو ••• والأحباء تشـتتوا وكل واحد منهـم يفعل ما يشاء ••• »[1] •

يبدو ان بهاء الله حاول التوفيق بين البابيين ورفع أسباب الشـقاق بينهم فلم يفلح • فقد ذكر صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » عن ذلك يقـول :

« وكان وصول البهاء وحزبه الى بغداد في اليوم الأول من شـهر محرم سنة ١٢٦٩هـ ويعرف عند البابية (بعام بعد حين) فاحتجب المرزا يحيى عن الناس وكان تارة يجول بضواحي بغداد متستراً ، ويشتغل ببعض الحرف متنكراً ، وأحياناً يمكث في بغداد بزي الاعراب ، ولكن البهاء لم يخرج من بغداد وكان يجلس يومياً في ملهى (قهوة) بساحل الدجلـة ويسامر الناس كأحدهم ، فابتدأ يفد اليه بقايا البابية في ايران واجتمع هنا بضعة مئات منهم وهم لا يدرون ماذا يفعلون ، والى من ينتسبون ، ولمن يخضعون ، لأن الوجهاء منهم كان كل منهم يدعي لنفسه الرياسة والزعامة، والبهاء ينظر اليهم شزراً لما كان يختلج في فؤاده ويدبر في نفسه من القبض على زمام القوم في يوم ، وكان ينكر عليهم ما يأتونه من الموبقات وما يدعونه من الرئاسة والنيابة ، ويظهر خلافة أخيه ومشروعيتها للبابية ويبذل الجهد في جلب الناس اليه ، ولكن البابية لم يذعنوا لأقواله ولم يسلموا بخلافـة

---

(١) اغا محمد مصطفى البغدادي (رسالة أمرية) في ذيل الرسالة التسع عشرية ـ القاهرة ١٣٣٨هـ ـ ص١٢٦ •

أخيه ونيابة البهاء عنه ، فاشتعلت نيران الشحناء والبغضاء ، وأخذ يضمر بعضهم لبعض الحقد والضغينة ، وينسبون له ما يخجل اليراع من ذكره ودام الحال على هذا المنوال نحو سنة حتى أضمروا له الشر ونووا الفتك به لما رأوا منه الثبات وعدم التحول عن عزمه ، وكادوا يقضون وطرهم منه ، فاضطر البهاء الى الهرب لشدة المقاومة والمناصبة ، فبرح بغداد خفية وسافر الى جهات كردستان العثمانية ... »[١] .

غادر بهاء الله بغداد بمفرده متجهاً الى الشمال وهو في زي درويش يحمل كشكولاً وسمى نفسه « درويش محمد » ، وعند وصوله الى السليمانية اعتكف في جبل سركلو الذي يقع على مقربة منها ، ثم انتقل بعد فترة وجيزة الى البلدة نفسها فنزل في تكية الخالدية حيث أمضى فيها سنتين . وحين اهتدى أفراد أسرته الى مكانه أرسلوا اليه يرجونه أن يعود ويلحون في رجائهم عليه ، وذهب الشيخ سلطان الكربلائي الى السليمانية ليقنعه بالعودة . فعاد بهاء الله الى بغداد وكان وصوله اليها في ١٩ آذار من عام ١٨٥٦م .

الدعوة البابية في العراق :

عند عودة بهاء الله الى بغداد استطاع أن يجمع شمل البابيين ويزيل أسباب الخلاف من بينهم ويبعث فيهم الحماس . وكانت علاقته برجال الحكم وعلماء بغداد والقناصل قوية ، وقد زاره القنصل البريطاني في منزله بنفسه وعرض عليه أن يجعله تحت الحماية البريطانية ويسهل سفره الى الهند ، وتعهد له بأن يوصل أية رسالة منه الى الملكة فكتوريا ، ولكن بهاء الله رفض كل ذلك حيث اختار السكنى في بلاد السلطان[٢] .

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص٣٤١ ــ ٣٤٢ .
(2) Shoghi Effendi (God Passes By) Wilmette 1950 — P. 128—131.

وكان الكثير من البابيين الايرانيين قد لجأوا الى بغداد هرباً من الاضطهاد الذي أصابهم في ايران ، وأخذ عددهم يتكاثر في بغداد شيئاً فشيئاً . ذكر السائح الألماني بيترمان الذي زار بغداد في عام ١٨٥٤م ان عددهم فيها بلغ خمسة آلاف تقريباً[١] . وربما ازداد هذا العدد بعدئذ .

وأخذ البابيون ينشطون برئاسة بهاء الله في نشر دعوتهم في العراق على نحو ما كانوا يفعلون في ايران ، فاستجاب لدعوتهم بعض الافراد ، وكان أهم من اعتنق دعوتهم ببغداد رجل يُعد من كبار الملاكين والأغنياء فيها هو المرزا موسى الجواهري ، وهذا الرجل هو من أصل ايراني اذ كان أبوه المرزا هادي من كبراء ايران وقد هرب منها عام ١٨٢١م لاجئاً الى الدولة العثمانية ، وكان يحمل معه جواهر كثيرة فباعها واشترى بثمنها أملاكاً في بغداد والكاظمية وبعض قرى ديالى ، ولا يزال في الكاظمية حمام يعرف باسمه فيقال له « حمام مرزا هادي » . ولما اعتنق ابنه المرزا موسى الدعوة البابية صار يبذل في سبيلها الكثير من جهده وماله ، وهذا هو السبب الذي جعل الدعوة البابية تنتشر في بعض قرى ديالى كالعواشق وذيابه والهويدر .

يمكن القول على أي حال ان الدعوة البابية لم يبلغ انتشارها في العراق مقدار ما بلغ في ايران أو جزءاً منه ، فقد كان انتشارها في ايران واسع النطاق حيث دخل الناس فيها أفواجاً ، بينما كان انتشارها في العراق تدريجياً بطيئاً يكاد لا يتأثر به في الجيل الواحد سوى افراد معدودين ، فما هو السبب في ذلك يا ترى ؟!

ان هذا موضوع اجتماعي مهم يحتاج الى دراسة ، وأستطيع الآن أن أدلي فيه برأي عسى أن يكون نواة لبحث مقبل . ففي نظري أن هناك عوامل مختلفة جعلت انتشار الدعوة البابية في ايران أوسع منه في العراق ،

---

(١) سعاد هادي العمري (المصدر السابق) ص٨٧ .

أذكر فيما يلي أهمها :

اولاً ـ ان الدعوة البابية في ايران وقعت منذ بداية أمرها تحت وطأة الاضطهاد الشديد بينما هي كانت في العراق حرة نسبياً ، وقد جرى الولاة في بغداد على سياسة التسامح معها أو غض النظر عنها ، ولعلهم كانوا يتبعون في ذلك سياسة « فرق تسد » على وجه من الوجوه . وفي رأي المستشرق براون الذي درس الدعوة البابية دراسة مستفيضة أن الاضطهاد الذي حل بها في ايران كان من العوامل الفعالة في نشرها بين الشعب الايراني ، وهو ينقل قولاً لمبشر أوروبي كان في أصفهان اثناء اضطهاد رجل من البابيين خلاصته : أنه كلما قُتل واحد من البابيين من أجل عقيدته دخل في الدعوة مائة مؤمن جديد(١) .

ثانياً ـ كانت ايران منذ العهد الصفوي تعج بطقوس التعازي الحسينية كالمواكب ومجالس البكاء ، وهذه أثرت في ذهنية الشعب الايراني وجعلت بعض الأفراد منه يميلون الى تحمل الآلام والى التضحية من أجل الائمة اعتقاداً منهم أن تلك هي وسيلتهم الى الجنة . يرى براون ان تلك التعازي بالرغم مما تحتوى عليه من أباطيل ومبالغات قد خلقت في الايرانيين تحمساً للموت في سبيل العقيدة(٢) . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان البابيين في ايران خاضوا معارك ضارية ضد قوات حكومية تفوقهم في العدد والعدة ، وأبدوا فيها بسالة نادرة ، ومات الكثيرون منهم فيها . فكانت هذه المعارك في نظر بعض الايرانيين كأنها اعادة لمعركة كربلا ، فكانوا يتمنون لا شعورياً أن يكونوا قد شاركوا فيها حيث يتصورون أنهم يقتدون بأنصار الحسين . أما في العراق فالتعازي الحسينية لم تظهر الا منذ ولاية علي رضا باشا كما

---

(1) E.G. Browne (A Literary History of Persia) Cambridge 1953 — Vol. 4, P. 195—196.

(2) Ibid, Vol. 4, 164—166.

ذكرناه في فصل سابق ، ولهذا فهي لم تؤثر في النفسية العراقية كما أثرت في النفسية الايرانية • أضف الى ذلك أن القيم البدوية المسيطرة على الفرد العراقي تجعله أقل تأثراً بتلك التعازي من الفرد الايراني • ان الفرد العراقي أميل الى التباكي منه الى البكاء الحقيقي •

ثالثا ـ ان الدعوة الشيخية التي سبقت الدعوة البابية ومهدت الطريق لها كانت منتشرة في ايران انتشاراً كبيراً ولها أتباع في أكثر المدن الايرانية، بينما هي كانت في العراق قليلة الاتباع نسبياً • وقد وجدنا الدعوة البابية في أول أمرها تنتشر بين الشيخيين أكثر مما انتشرت بين غيرهم • فالشيخيون كانوا كما رأينا في فصل سابق يترقبون ظهور « صاحب الزمان » بمناسبة قرب انتهاء ألف سنة على غيبته ، وعندما حلت السنة « الموعودة » وهي سنة ١٢٦٠هـ صاروا متلهفين لسماع « النبأ العظيم » الذي كان قد بشر بـه الشيخ أحمد الاحسائي والسيد كاظم الرشتي ، فلما وصلهم النبأ تهافت الكثير منهم عليه • ولهذا كان شعار البابيين في بداية أمرهم هو « يا صاحب الزمان » ، فكانوا يهتفون به عندما يبرزون الى القتال أو يساقون الى ساحة الاعدام •

والملاحظ ان البابيين في ايران كانوا متحدين في الغالب ، بينما كان البابيون في العراق متفرقين وكثيراً ما كانت المجادلات والمنازعات تسـود بينهم • ويبدو أن السبب في ذلك هو وجود الاضطهاد على البابيين في ايران وعدمه في العراق • ولو كان البابيون في العراق قد جوبهوا بالاضطهاد لاتحدوا ازاءه كما فعل اخوانهم في ايران •

ملكم خان في العراق :

في الوقت الذي كان فيه بهاء الله في بغداد وصل اليها من ايران رجل ذو شخصية عجيبة للغاية يُدعى « ملكم خان »[١] • وقد قام هذا الرجل

(١) لا نعرف على وجه الدقة أية سنة جاء فيها ملكم خان الى العراق ، والمظنون أنه جاء بعد عام ١٨٦٠م •

في بغداد والكاظمية وكربلا بأعمال « سحرية » أدهشت عقول الناس ولا يزال المسنون في هذه المدن يتناقلون الحكايات الغريبة عنه .

ان ملكم خان ينتمي الى أسرة أرمنية ، وكان أبوه مسيحياً ثم اعتنق الاسلام ، ويزعم ملكم خان أنه كان أخاً بالرضاعة للشاه ناصر الدين . وكان في طفولته قد تعلم بباريس ، وعند عودته الى طهران أسس فيها محفلاً ماسونياً ، وكان بذلك أول من أدخل الماسونية في ايران .

واشتهر ملكم خان في طهران بأنه ساحر عظيم يقوم بالخوارق التي لا يمكن تفسيرها ويروي السر برسي سايكس نموذجاً من أعماله الخارقة نقلاً عن رجل شهدها عياناً في محضر الشاه[١] وهي مما يصعب تصديقها .

كان ملكم خان صغير الجسم ذا أنف طويل وعينين سوداوين ، وقد وصفه المستشرق بلنت بعد اجتماعه به في لندن فقال عنه : انه كان أروع شخصية التقى بها ، وقد زاد اقتناعاً على أثر اجتماعه به بتفوق الذكاء الشرقي[٢] . ويزعم ملكم خان ــ حسبما رواه بلنت عنه ــ أنه أسس في طهران نحلة دينية خاصة به سماها « الانسانية » أو « الآدمية » ، وقد بلغ أتباعها هناك ثلاثين ألفاً ، وصار هؤلاء الاتباع يطلقون عليه لقب « الطيف المقدس » ، فوضع لهم « انجيلاً »[٣] .

يبدو أن الشاه ناصر الدين ارتاب من ملكم خان ، ولعله خشي أن يفعل ملكم خان في ايران كما فعل البـاب من قبل ، فطلب منـه مغادرة ايران ، فرحل ملكم خان الى العراق وزار العتبات المقدسة ، وكان في كل

(1) Sir Percy Sykes (A History of Persia) London 1958 — Vol. 2, P. 397—398.

(2) E. G. Browne (The Persian Revolution) Cambridge 1910 — P. 38.

(٣) ألفريد سكاون بلنت (التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر) القاهرة بدون تاريخ ــ ج١ ص١١٣ ــ ١١٦ .

مدينة عراقية ينزل فيها يثير الدهشة بأعماله العجيبة • وقيل انه حضر مجلس الوالي بدعوة منه في أحد الأيام فجعل الحاضرين من أعيان بغداد وعلمائها يقصون لحاهم بمقصات أعطاها لهم وهم يحسبون أنهم يقصون عناقيد العنب •••

وقد روى لي بعض المسنين في الكاظمية قصصاً في منتهى الغرابة عن ملكم خان أثناء زيارته لهذه البلدة مما لا يسع المجال لذكره • ولم يفت هؤلاء الرواة أن يذكروا كيف اجتمع ملكم خان ببهاء الله في وليمة فأخجله بأفاعيله السحرية لكي يسيء الى مكانته الدينية ، وذلك أن بهاء الله حين مدّ يده لتناول الطعام انقلبت حبات الرز في يده الى دود وأخذت الدجاجة المطبوخة ترفرف بجناحيها ثم طارت بين دهشة الحاضرين وضحكهم •••

لست هنا بصدد البحث في هذه القصص المنسوبة الى ملكم خان أو غيره من ذوي المواهب الخارقة ، وهل هي علمية أم خرافية ، فذلك أمر يطول[1] • يكفي أن أقول هنا باختصار : ان علماء الغرب كانوا في القرن الماضي ينظرون الى تلك الخوارق نظرة استهجان وتكذيب ، غير أنهم منذ عام ١٩٣٠م أخذوا يخضعونها للبحث المنهجي ، وظهر بذلك علم جديد اسمه « الباراسيكولوجي » •

والجدير بالذكر أن الباحثين الماركسيين كانوا يستنكرون هذا العلم مثلما فعل زملاؤهم الغربيون قبلهم ، ثم بدأوا منذ عام ١٩٦٠م يعترفون به ، وقد وصلوا أخيراً في دراساتهم له الى نتائج ايجابية تشبه تلك التي توصل اليها علماء الغرب •

---

(١) بحثتُ هذا الموضوع في كتابين من كتبي السابقة ، وهما : (خوارق اللاشعور) المطبوع في بغداد عام ١٩٥٢ ، و (الاحلام بين العلم والعقيدة) المطبوع في بغداد عام ١٩٥٩ •

لم يمكث ملكم خان في العراق سوى مدة قصيرة رحل من بعدها الى اسطنبول ، ثم ذهب الى لندن حيث عيّنه الشاه وزيراً مفوضاً لايران فيها • وبقي ملكم خان في منصبه هـذا سبعة عشـر عاماً ، ويقال انه قام ببعض الأعمال الخارقة هناك مما أذهل عقول البريطانيين • وفي عام ١٨٨٩م عـزل ملكم خان من منصبه فكان ذلك سبباً لأن يعلن ملكم خان عداءه الشـديد للشاه ، فأصدر في لندن جريدة باللغة الفارسية عنوانها « القانون » وأخذ يشن بها حملات شعواء على الشاه • فكانت هذه الجريدة تهرب الى ايران خفية ، كما كانت تصل الى العراق عن طريق البريد الهندي ، وقد أحدثت في كلا البلدين تأثيراً غير قليل •

ولاية عمر باشا :

في منتصف شهر آب من عام ١٨٥٧م أصيب الوالي رشيد باشا بالتهاب في حنجرته لم يعرف سببه ، فسقاه الأطباء دواءاً لم ينجع فيه ، وقيل ان الدواء كان مغلوطاً فأدى الى موتـه[١] ، وكان عمره يومذاك لا يتجاوز الخمسين عاما • فعينت الدولة في مكانه قائداً عسكرياً من الذين اشتهروا في حرب القرم اسمه عمر باشا •

ان عمر باشا من أصل هنغاري وكان في مطلع شبابه يسمى ميخائيل ، وحين بلغ الثامنة والعشرين من عمره غادر وطنه فاعتنق الاسلام وسـمى نفسه « عمر » ثم دخل جندياً في خدمة الدولة العثمانية • ويبدو أنه كان رجلاً مقداماً فصار يرتقي في المراتب العسـكرية تدريجاً[٢] ، وكان في حرب القرم بطلاً يشار اليه بالبنان •

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المنتفق) ترجمة محمد خلوصي الناصري ــ بغداد ١٩٦١ ــ ص ٢٨ ــ ٢٩ •

(٢) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر) ــ بيروت بدون تاريخ ــ ج١ ص٢٣٨ ــ ٢٤٠ •

وصل عمر باشا الى بغداد في ١٨ شباط من عام ١٨٥٨م ، وكان قد جاء معه بعض القواد الذين قاتلوا معه في حرب القرم من أمثال شبلي باشا العريان الدرزي واسكندر باشا البولوني الأصل ، كما جاء معه جنود نظاميون وغير نظاميين يبلغ عددهم أربعة آلاف •

وتشير القرائن الى أن عمر باشا انما جاء الى العراق بمهمة خاصة هي فرض التجنيد الاجباري على الأهالي ، فقد كانت الحكومة تخشى مغبة ذلك لسيطرة الروح العشائرية على سكان العراق ، وربما ظنت أن عمر باشا قادر على تحقيق المهمة لما كان يملك من ارادة قوية وشخصية عسكرية صارمة •

أول عمل قام به عمر باشا بعد وصوله الى بغداد هو أنه أمر بهدم القلاع التي بناها سلفه رشيد باشا في أنحاء الهندية وسوق الشيوخ ، وكأنه أراد بذلك أن يلقي في روع الناس أنه ليس في حاجة الى القلاع لضبط الأمن ، ولعله ظن أن في مقدوره تأديب العشائر بقوة قليلة عند ظهور تمردهم وعصيانهم ، غير أن العشائر في تلك الانحاء لم تكد ترى هدم القلاع حتى صارت لا تعبأ بالحكومة أو تخاف منها ، وأخذت تعبث بالأمن كما تشاء •

كان التجنيد الاجباري يطلق عليه في ذلك الحين اسم « عسكر نظام »، وكانت خطة عمر باشا أن يشرع بتنفيذه في منطقة بغداد أولاً فاذا نجح فيه سعى الى تنفيذه في المناطق الأخرى • ولذا فانه جمع علماء بغداد وأعيانها بغية اقناعهم بالأمر الجديد ، وقبل أن يقرأ عليهم فرمان التجنيد وزع عليهم مبالغ كبيرة من المال ، كل حسب رتبته ، لاجتذاب قلوبهم • فكان نصيب القاضي عشرة آلاف قرش صاغ ، ونصيب النقيب الكيلاني سبعة آلاف وخمسمائة ، أما بقية الحاضرين فقد حصل كل واحد منهم على خمسة آلاف قرش • وقد بلغ مجموع ما وزع عليهم كلهم ثلاثة وستين

ألف قرش • فلما قُرأ عليهم فرمان التجنيد بعدئذ رحبوا بـه جميعاً وأظهروا الطاعة ، ثم صاروا يأتون بأولادهم فيدخلونهم في سلك التجنيد ، وكان أول من فعل ذلك مفتي بغداد محمد فيضي الزهاوي حيث جاء نفسه بولده[1] ، فحذا حذوه وجهاء بغداد • وفي خلال بضعة أيام تم تجنيد خمسمائة[2] •

فرح عمر باشا بهذا النجاح وخيل له أن أهل العراق جميعاً سيفعلون مثلما فعل أهل بغداد ، غير أنه لم يكد يشرع بفرض التجنيد على العشائر والمدن خارج بغداد حتى أخذت الفوضى تعم البلاد وانتشر التمرد في كل مكان • فقد أعلنت عشائر ديالى العصيان وتركت مزارعها وفرت هاربة من وجه الحكومة[3] • وانتقل العصيان الى الفرات الأوسط واستطاعت العشائر هناك أن تضرب القوات الحكومية ضربات شديدة ، ثم عم العصيان مناطق أخرى من العراق[4] •

لكي يأخذ القارىء صورة واضحة عما جرى في العراق من جراء التجنيد الاجباري يومذاك ننقل ما ورد عنه في كتاب التاريخ المجهول المؤلف الذي نقلنا عنه غير مرة سابقاً • فقد ذكر المؤلف تفصيل ما جرى في صدد الحديث عن عمر باشا حيث قال في وصفه ما يلي :

«لا يدرك شيئاً من سياسة الحكومة وأخرب ما حول بغداد بعـدم تدبيره وغروره لأنه أراد من جميع العرب القاطنين حول البلد عساكر نظام وهذه الارادة منافية لطباع العرب الساكنين بنواحي بغداد ويفرون منها فرار الجبان من الأسد • وفي يوم الأربعاء ١٣ شوال ، الساعة ١١ ، طلع

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٢١ •

(٢) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ص١٦٧ •

(٣) المصدر السابق ـ ص١٦٧ •

(٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ـ ص١٢١ ـ ١٢٥ •

الوزير من بغداد الى أطراف الحلة ليمهدها ويرتب قوانينها وفق الأرادة اللائقة أو حسب ارادته ولم نعرف ما يحدث من مرامه . وأخذ معه الكهية، والشيخ بندر شيخ المنتفق المعزول ، ومحمد أفندي كاتب العربية ، وصالح اليهودي ابن دانيال . والخلاصة قد أمر على أهل الحلة خمسين نفراً بطريق البدلية ، فضجروا من ذلك وأخذوا بالفرار من بلادهم ، ثم استغاثوا به فلم يغثهم ، حتى أنهم حرروا عرضاً ــ يقصد عريضة ــ وجاء به مقدار مائة رجل فأكثر وصاحوا صيحة واحدة فأهالوه وأنكر منهم ذلك ، ومع هذا فان سكنة الحلة ليس عندهم داركة أو معرفة ولا نباهة كنباهة أهل بغداد ... ولما عاين الوزير ضجر أهل الحلة وعدم انقيادهم له وشاهد منهم التكلف ، وهم ضاجون صاخبون أمامه في الطرق والأسواق ، أمر بمسك كل من جاء اليه بالعرض وهم كثيرون ، فمسك منهم مقدار مائة نفر ، وأخذ منهم أربعين نفراً ، وسرح الباقي . فالخلاصة برجاء والي بلدهم القائمقام جعل الذين يؤدون البدلية ثلاثة وأربعين نفساً ، والذين مسكهم مقدار أربعين نفساً ، منهم من بقي في النظام بلا بدل لضعفه ، ومنهم من أتى ببدل عوض عنه وأطلق نفسه من النظامية . وعلى أهل الحسين ــ يقصد أهل كربلا ــ جعل خمسين نفساً وأخذ منهم بالبدلية ، ثم تحركوا بحركات فاسدة وقتلوا اثنين من أهل البلد ، واحد من كربلا وآخر نظام ، وهربوا ، ورأى منهم الغيلة والخباثة ، ويظهر منهم اشارة خلع الطاعة ، فأمر النظام وأدخل عليهم عسكراً وافراً وأمر بمسك كل من يصادفوه ، فصادفوا مقدار ثلاثين نفراً ، فمسكوهم غصباً وأتوا بهم الى بغداد مقيدين ذليلين وأدخلوهم الى النظام . وجعل على المشهد ــ يقصد النجف ــ ثلاثين نفساً فلما عاين أهل النجف ما فعل بأهل الحلة وأهل كربلا أبانوا وجه الطاعة ومسكوا ثلاثين نفساً بدلاً عنهم وأتوا بهم الى بغداد بالطاعة والانقياد وخلصوا مما حصل من الوزير على القريتين المذكورتين . ثم أراد الوزير من الأعراب الذين هم بأطراف الهندية ونواحيها ومن الشامية والديوانية ، من أهل

الهندية تسعين نفساً ومن الديوانية والشامية من الأعراب الذين هم حول الديوانية مائة وثمانون نفساً ، فجميع الاعراب الذين هم بأطراف الحلـة خلعوا الطاعة وأبانوا المحاربة والقتال ونهبوا أموال المترددة ، لا سـيما الخزاعل فانهم قد خلعوا الطاعة وكان اذذاك الرئيس علىأعراب الخزاعل ومن والاهم مطلق بن كريدي • ولما أنهم أظهروا عدم الطاعة قد سيّر عليهم الوزير عسكراً من بغداد ، وكان الأمير على العساكر شبلي باشا ، ثم اتبعه بعسكر ثان وعليهم الرئيس اسكندر باشا • والخلاصة أمدهم بأربع دفعات من العساكر النظامية والسوارية والهايته ، ووقعت بينهم حروب دفعات ، وفيالأكثر تكون النصرة للأعراب علىعسكر الوزير المذكور الى أن آل الأمر الى أن شبلي باشا أراد الصلح معهم ، وأخبر بذلك الوزير ، فقال له الوزير لا تتصالح معهم الى أن آتيك • ثم طلع الوزير في المحرم بنفسه ومعه جملة عساكر ، ونازلهم الى أن تنحوا عنه ، ولحقهم الى أطراف السماوة بلا قتال منـه ولا منهم • ثم في آخر المحرم وقعت محاربة بين الأعراب وعسـاكر الوزير ، ونشب الحرب فيما بينهم مقدار ست ساعات ، وانتصر الأعراب على العسكر وقتل منهم مقدار خمسمائة نفس ، وقتل القليل من الأعراب • ثم في اليوم الثاني ارتحل العسكر من مكانه بأمر الوزير ونزل الجربوعية ، وفي اليوم الثالث ارتحل ونزل هو وعسكره الحلة خائفين • ولو لم يرحل وجنوده معه والاّ كان بيتوه ليلاً وهجموا عليه وعلى معسكره وأكثروا فيهم القتل ، حتى أنه لما كان في مقامه الأول وهو وعسكره أمامهم هاجوا عليه في الليل وهجموا على العسكر ، وقتلوا مقدار مائة نفر فأكثر • ولما ظعن العسكر وهو معهم ودخل الحلة أعلم الناس أنه يريد سد الهندية التي هي مدار قوة العرب ، لانه ما زالت الهندية مكسورة لم يقدر عليهم الوزير حيث أنهم يتحصنّون بأهوارها وبطائحها ويعيشون في أطراف الأراضي البعيدة ، لأنه يكون ما حولهم من جميع الجهات ماء محيط بهم مقدار ست سـاعات ، وبعض الأماكن أكثر • وأمر بارسـال عشـرة آلاف جراب

وخمسمائة مسحاة من أجل سد الهندية ، والدفتردار قائمقام في بغداد قد مسك بما أراد الوزير من الجربان »[1] .

ان هذه الشدة التي استعملها عمر باشا في سبيل التجنيد الاجباري أثار عواطف الشاعر المعروف السيد حيدر الحلي وكان معاصراً لها ، فنظم قصيدة « عصماء » استصرخ فيها الامام الغائب ودعاه الى الظهور من أجل انقاذ شيعته من الكارثة التي حلت بهم ، فان الدين على قوله قد تغير والضلال ملأ الأرض والهدى مات . وهي قصيدة طويلة نقتطف منها ما يلي ليطلع القارىء على مبلغ كراهية الناس للتجنيد في ذلك الزمان :

لم صاحب الأمر عن رعيته ... أغضى فغصّت بجور أكفرها
ما عذره نصب عينه أُخذت ... شيعته وهو بين أظهرها
يا غيرة الله لا قرار على ... ركوبه فحشائها ومنكرها
سيفك والضرب ان شيعتكم ... قد بلغ السيف حز منحرها
مات الهدى سيدي فقم وأمت ... شمس ضحاها بليل عثيرها
فالله يابن النبي في فئة ... ما ذخرت غيركم لمحشرها
ماذا لأعدائها تقول اذا ... لم تنجها اليوم من مدمرها
أشقة البعد دونك اعترضت ... أم حجبت منك عين مبصرها
كم سهرت أعين وليس سوى ... انتظارها غوثكم بمسهرها
تغضي وأنت الأب الرحيم لها ... ما هكذا يا ابن أطهرها
ترضى بأن تسترقها عصب ... لم تله عن نايها ومزهرها[2]

عزل عمر باشا :

في الوقت الذي كان فيه عمر باشا مشغولاً بأحداث الفرات الأوسط

---

(١) المصدر السابق ـ ج٧ ص١٢٠ ـ ١٢٤ .

(٢) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص١٩٤ ـ ١٩٦ .

وصلت الانباء اليه بأن الشاه ناصر الدين يتقدم نحو الحدود بجيش تعداده عشرون ألفاً ، فأسرع عمر باشا بجيشه نحو السليمانية ولكنه لم يكد يصل اليها حتى علم بعودة الشاه الى مقره • وقد انتهز عمر باشا فرصة وجوده في تلك الأنحاء فأخذ يطارد قبيلة الهماوند التي كانت تقطع الطرق وتعبث بالأمن ، واستطاع أن يلقي القبض على بضعة أفراد منها فأمر باعدامهم حالاً لكي يجعلهم عبرة لغيرهم •

وبينما كان عمر باشا يتجول بقواته في تلك المنطقة وصله خبر مفاده أن عشائر غزية عبرت الفرات قادمة من بادية الشام وأخذت تعيث في البلاد وتنهب القوافل ، حتى وصلت الى مقربة من بغداد ، فتوجه عمر باشا نحوها بكل سرعة ، حتى أنه تمكن من الوصول الى قرية دلي عباس في خلال ثلاثة أيام • وقد استقبله هناك سليمان فائق قائمقام قضاء خراسان ، وأخبره بأن العشائر عادت الى بادية الشام • يقول سليمان فائق في معرض حديثه عن عمر باشا : « فلما سمع ذلك مني اختلجت أساريره وشاهدت آثار التأسف قد بدت على وجهه لأنه كان مصمماً على التنكيل بتلك العشائر وتأديبها »[١] •

لم يمض على عودة عمر باشا الى بغداد سوى خمسة أيام حتى جاء البريد بأمر عزله من الولاية • وقيل ان السبب المباشر الذي أدى الى عزله هو تسرعه في اعدام الهماوندين دون استئذان من الدولة ، فقد كانت الدولة تخشى أن يؤدى هذا العمل الى خروج قبيلة الهماوند من العراق والتحاقهم بايران • وربما كان السبب الحقيقي في عزله غير هذا حيث لم ترض الدولة عن سياسة الشدة التي اتبعها عمر باشا مع أهل العراق وما أدت اليه من فوضى وتذمر عام[٢] •

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٦٩ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٢٧ •

ان سليمان فائق يلوم الدولة على عزلها عمر باشا ، فهو يقول في ذلك : « وهكذا فان الوالي المذكور أيضاً بعدما اكتسب معرفة واسعة بأحوال العراق وسكانه خلال مدة قصيرة من الزمن وعرف طبائع الأمور فيه وقام بأعمال باهرة للأخذ به الى التقدم ، تعرض للعزل لمجرد أنه ألقى القبض على بضعة أفراد من الأشقياء الهماوند وأعدمهم قبل الاستئذان من المقامات العليا ، ولم تأخذ تلك المقامات بنظر الاعتبار خدماته الجليلة واخلاصه وأحكامه التي كان يجتهد فيها ويتحرى وجه الحقيقة والصواب ، وكثيراً ما كان يرجع عن أي عمل حالما يشعر بأنه مخطىء فيه . وبعزله أرجعوا عجلة التقدم الى الوراء ... »[١] .

وفي ٢٥ ايلول من عام ١٨٥٩م غادر عمر باشا بغداد معزولاً ، وكانت مدة ولايته في العراق سنة واحدة وسبعة أشهر ، وحين شاع خبر عزله عم الفرح في أنحاء العراق ، ولا سيما في الفرات الأوسط ، واعتبر العراقيون يوم عزله عيداً[٢] . وقد أرّخ أحد ظرفاء الحلة سنة عزله بقوله : « عمر باشا ترس » ، وهذه الجملة تساوي في حساب الحروف عدد ١٢٧٦ وهو يمثل السنة التي عزل فيها عمر باشا حسب التقويم الهجري[٣] .

تنافس على الولاية :

مرت بعد عزل عمر باشا فترة تشبه من بعض الوجوه أيام المماليك التي كانوا يتنافسون فيها على ولاية بغداد ويحاول بعضهم القضاء على البعض الآخر .

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٦٩ .

(٢) ودّاي العطية (تاريخ الديوانية قديماً وحديثا) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص٤٥ .

(٣) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) النجف ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٤٣ .

كان في بغداد أثناء عزل عمر باشا قائد عسكري برتبة فريق اسمه أحمد توفيق باشا ، وكان هذا يطمح الى منصب الولاية ويتحرق اليها شوقاً غير أن الدولة لم تستجب لرغبته وعينّت للولاية بدلاً عنه رجلاً آخر اسمه مصطفى نوري باشا ، فادى ذلك الى نشوء البغضاء بين الرجلين ، وصار أحمد توفيق باشا يتحين الفرص للايقاع بغريمه وتشويه سمعته .

ليس لدينا معلومات كافية عن مصطفى نوري باشا سوى ما كتبه عنه سليمان فائق، وقد أعطانا سليمان فائق عنه صورة سيئة جداً أرجح الظن أنها لا تخلو من مبالغة ، فلقد كان سليمان فائق من خصومه كما يبدو ، فهو يقول فيه : انه كان أمياً لا يتمكن حتى من كتابة اسمه على الرغم من أنه يحمل لقب « كاتب السر » ، وانه كان لا يعرف سوى الأكل والبلع مادة ومعنى ، فكان ذلك شغله الشاغل ، وفي خلال حكمه الذي دام نحو أحد عشر شهراً أضرّ بخزينة الدولة زهاء ثلاثين ألف كيس ، وكان لا يتردد عن قبول أية رشوة مهما كان مبلغها ـ من المجيدي الواحد الى الألف كيس ـ وكان صهره محمد باشا الذي كان يتولى في عهده منصب « الكهية » هو الواسطة بينه وبين الناس في الرشوات ، وقد حصلا معاً خلال تلك المدة القصيرة على ألفي كيس من النقود المجيدية البيضاء . ثم يقول سليمان فائق : « وسار على هذا المنوال بقية أتباعه من الموظفين والمقربين حتى انتشرت هذه الروائح الكريهة في أرجاء البلاد ، ووصلت الى أوربا وتشوهت بذلك سمعة الحكومة ، وصار حديث الأندية والمجالس اذ لا يخلو مجلس من التطرق الى ذكر شيء من سوء أفعال الوالي واتباعه ، وأخيراً بلغ الأمر أن أذيعت هذه الأخبار وانتشرت هذه الروائح التي تزكم الأنوف في الصحف السيارة ... »(١) .

واستطاع أحمد توفيق باشا أخيراً أن ينظم هو وأعوانه « مضبطة »

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٦٩ ـ ١٧٠ .

ضد خصمه مصطفى نوري باشا ، وقد وقع « المضبطة » بعض علماء بغداد وأعيانها حسبما جرت عليه العادة في تلك الأيام ، ثم أرسلوها الى السلطان عبدالعزيز في اسطنبول •

وقد انتجت « المضبطة » أثرها المنشود فجاء الأمر من اسطنبول بعزل مصطفى نوري باشا من ولاية بغداد • وصادف أن كان خط التلغراف قد تمّ مده الى بغداد في تلك الآونة ، فكان أول استعمال له هو في نقل أمر العزل ، مما دعا الشاعر عبدالباقي العمري الى نظم بيتين من الشعر في تلك المناسبة هما :

كـاتب الســـر كـان في الزو راء وزيراً وفي العراق مشيراً
فاتى التلغراف كاتب ســـر لاحقـاً بانصـــرافه مأموراً[1]

وفي أواخر شباط من عام ١٨٦١م وصل الأمر من اسطنبول بتعيين الفريق أحمد توفيق باشا والياً على بغداد ، وهذا هو ما كان يتمناه ويسعى اليه •

ولم يكد الوالي الجديد يجلس على كرسي الحكم حتى أصدر أمره باتخاذ الاجراءات التي أراد بها التدليل على نزاهته وعلى ارتشاء سلفه • وكان أول عمل قام به في هذا الشأن هو الغاء المخصصات التي كان الولاة يأخذونها من الخزينة لنفقات سفرهم وتنقلاتهم ، وكان مقدارها ألفي كيس • ثم أخذ يعزل القائمقامين والموظفين الذين عينوا في عهد سلفه، ويعين غيرهم مكانهم • وأجرى التحقيق مع الكهية السابق محمد باشا ، وقيل ان المبالغ التي أخذها هذا الكهية من شيوخ العشائر والقائمقامين والضباط كانت ستة عشر ألف كيس بحساب اسطنبول[2] • وقد استطاع

---

(١) عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقي) النجف ١٩٦٤ — ص ٤٢٠ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٣٢ ـ ١٣٣ •

أحمد توفيق باشا في خلال شهرين أن ينظم شؤون الخزينة فيوفر فيها زيادة قدرها خمسة وعشرون ألف كيس[1] .

لم يدم حكم أحمد توفيق باشا في بغداد سوى مدة قصيرة تقل عن سبعة أشهر . والظاهر أن سلفه مصطفى نوري باشا كان السبب في عزله حيث صار يسعى في اسطنبول نحو تبرئة نفسه وادانة خصمه ، وربما بذل في سبيل ذلك جزءاً كبيراً من الأموال التي حصل عليها في بغداد ، فأمرت الدولة باعادة التحقيق في أمره . وكانت نتيجة التحقيق في هذه المرة على النقيض مما كانت عليه في المرة السابقة ، اذ اتضح للمحققين أن ما اتهم به مصطفى نوري باشا ليس صحيحاً وأنه كان من تدبير خصمه أحمد توفيق باشا . فصدر الأمر بعزل هذا من ولاية بغداد .

يقول سليمان فائق في التعليق على ذلك : ان الدولة لم تكافىء أحمد توفيق باشا على ما بذله من خدمات جليلة، بل هي كافأته على عكس المأمول، فقد استطاع المحققون أن يجعلوا الحق باطلاً والباطل حقاً واعتبروا الشكاوى التي رفعت الى الدولة ضد مصطفى نوري باشا انما صدرت من أناس مشاغبين مغرضين ، وان الذين وقعوا عليها من الأهلين وأعضاء المجلس كانوا مخدوعين اذ هم وضعوا تواقيعهم عليها دون أن يعلموا بما تحويه . وينعى سليمان فائق على الدولة سوء سياستها في العراق لأنها تقيّم الولاة على خلاف حقيقتهم أحيانا ، فان أعمال الوالي قد تكون على جانب من الحكمة والاستقامة والخدمة الخالصة ولكن الدولة تعده على الضد من ذلك ، ولهذا صار القطر العراقي يميل طابعه نحو النحوس منذ أمد غير قصير[2] .

---

(١) سليمان فائق بك (المصدر السابق) ص١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ـ ص١٧٠ ـ ١٧٢ .

نامق باشا ــ للمرة الثانية :

جاء التلغراف بتعيين نامق باشا والياً على بغداد ، وهو نفس الوالي الذي خبره العراقيون قبلئذٍ في عام ١٨٥٢م حيث اشتهر بالقسوة ٠

وصل نامق باشا الى بغداد في ٤ شباط من عام ١٨٦٢م ، وبعد قراءة « الفرمان » في ساحة السراي خطب في الحاضرين قائلاً : انه سوف يعامل بشدة كل من يحاول الاخلال بالأمن كما أنه لا يقرّب اليه الا ّ من كان يحسن عملاً"[1] ٠

ظن الناس ان نامق باشا سيعود الى سيرته الأولى من حيث اتباع سياسة الشدة في العراق ، ولكن القرائن دلت على أنه كان في هذه المرة يختلف عما كان عليه في المرة السابقة ٠ والظاهر ان المدة التي فارق فيها العراق ، وهي تناهز العشر سنوات ، أثرت في شخصيته تأثيراً غير قليل ٠ فقد كان المعروف عنه سابقاً أنه كان من المتفرنجين الذين لا يبالون بالدين كثيراً ، ولكنه عند عودته الى العراق للمرة الثانية لوحظ عليه أنه آخذ يميل الى الطريقة « الخلوتية » وأظهر التقوى وواظب على الصلوات المفروضة ٠

وفي اليوم الثالث من وصوله الى بغداد أمر بعزل الجلواز المشهور الحاج أحمد آغا ، فقد كان هذا الجلواز في منصب « التفنكچي باشي » يصول ويجول ويتعسف في معاملة الناس حتى صار البغداديون يضربون به المثل ، فاذا أرادوا الاشارة الى شخص يتصف بالعناد والرعونة قالوا : « تعال فهّم الحاج أحمد آغا » ٠ وقد استطاع نامق باشا أن ينقذ الناس منه بجرة قلم ٠

واهتم نامق باشا كذلك بانقاذ الناس من « الاشقياء » الذين يحترفون اللصوصية ، وكانوا كثيرين في بغداد يتباهون بشجاعتهم واعتدائهم على

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٣٥ ٠

الناس ، فأمر نامق باشا بأن كل شخص يؤتى به متهماً بالسرقة أو شرب الخمر أو التسكع من غير عمل يجب أن يؤخذ الى القلعة ويسجل هنالك في سلك الجندية ثم يساق الى اليمن . وكان المشهور عن اليمن في تلك الأيام أن المنفي اليها لن يعود .

وحين سافر نامق باشا الى البصرة ، وذلك بعد اسبوعين من وصوله الى بغداد ، أخذ معه في المركب جماعة من القتلة واللصوص يبلغ عددهم مائة وعشرة وقد وضعت أيديهم في القيود ، وعند وصولهم الى البصرة أمر نامق باشا بتشغيلهم في الأعمال الشاقة ، غير أن فريقاً منهم استطاعوا أن يهربوا وأن يعودوا الى بغداد ، ثم أخذوا يعيشون فيها بالأمن من جديد فكانوا يختفون نهاراً ويسطون على البيوت ليلاً . فأمر الوالي بمطاردتهم فقبض على البعض منهم ثم حبسوا في القلعة مكبلين بالحديد[1] .

وأخذ نامق باشا يهتم بالأمور المالية اهتماماً شديداً ، قيل انه صنع للخزانة ثلاثة مفاتيح أودع أحدها عند أمين الصندوق ، والثاني عند الدفتردار ، أما الثالث فأبقاه عنده ، وأمر أن تقدم له في كل يوم لائحة يفصل فيها الوارد والمصروف ، ومنع من صرف أي مبلغ بغير اذنه . ويحكى عنه أنه كان يتلو في كل يوم دعاءاً عند الخزانة يطلب به من الله دوامها وحراستها وزيادتها . وقد استطاع بتدبيره هذا أن يرسل في رأس كل شهر قافلة من البغال محملة بالنقود الى السلطان[2] .

بين البابيين والشيعة :

تشير المصادر البهائية الى أن نامق باشا كان على صلة وثيقة ببهاء الله الذي كان يرأس البابيين في بغداد يومذاك ، فكان يقدره كل التقدير وزاره

---

(١) المصدر السابق — ج٧ ص١٣٨ .

(٢) المصدر السابق — ج٧ ص١٣٦ .

في منزله ، وكان احترامه له عميقاً[1] • والظاهر ان البابيين اغتنموا هذه الفرصة فنشطوا في اعلان دعوتهم وترويجها بين الناس مما جعل الشيعة يتحفزون للرد عليهم ومحاربتهم •

ويجب أن لا ننسى ان علماء الشيعة في العراق كانوا ينظرون الى الدعوة البابية كنظرة زملائهم في ايران اليها حيث يعدونها مارقة عن الاسلام ، وصارت تهمة « البابية » عندهم تشبه تهمة الزندقة والكفر • ومما زاد في نفرتهم منها أن البابيين جعلوا اليوم الأول من شهر محرم عيداً لهم باعتباره يوم ميلاد الباب، فكانوا يجتمعون للاحتفال به في حديقة « النجيبية » بباب المعظم فيمرحون ويلهون ، مع العلم أن الشيعة يعتبرون ذلك اليوم يوم حزن لهم اذ يبدأون به طقوسهم في التعازي الحسينية التي تستمر عشرة أيام كما هو معروف •

كان يسكن العراق في تلك الآونة عالم ايراني واسع النفوذ يلقب بـ « شيخ العراقين » واسمه الشيخ عبدالحسين الطهراني ، فأخذ هذا على عاتقه مقاومة الدعوة البابية ، وقد عاونه في ذلك القنصل الايراني العام في بغداد المرزا بزرك خان القزويني •

كانت أولى محاولات الشيخ عبدالحسين والقنصل الايراني هي في اقناع حكومة بغداد على اعادة بهاء الله الى ايران ، ولكن الحكومة لم تستجب لرغبتهما ، وبعد محاولات أخرى غير موفقة قرر الشيخ عبدالحسين دعوة علماء الشيعة الى مؤتمر عام يُعقد في الكاظمية للنظر في هذا الأمر •

وعندما انعقد المؤتمر في الكاظمية حضره معظم علماء الشيعة ولا سيما علماء النجف وكربلا • وقد ذكر صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » : ان الشيخ مرتضى الانصاري الذي كان يتولى الزعامة الدينية للشيعة يومذاك

(1) Shoghi Effendi (op. cit.) P. 131.

لم يحضر المؤتمر بل وقف على الحياد[١] ، أما المصادر البهائية فتقول ان الشيخ مرتضى حضر المؤتمر غير أنه رفض أن يوافق الحاضرين على رأيهم في تكفير الدعوة البابية وأعلن قائلاً : « اني لست مطلعاً على كنه حقائق هذه الطائفة ، ولا عالماً باسرار سرائر إلهياتهم كما هو حقها ، ولا فهمتها بعد ، ولا رأيت من أحوالهم وأطوارهم ما ينافي الكتاب المبين ، ويدعو الى التكفير والتضليل ، فأقيلوني من هذه القضية ، وكل انسان درى بتكاليف نفسه فعليه أن يعمل »[٢] • وخرج الشيخ مرتضى من المجلس وعاد الى النجف ثم أرسل من هناك الى بهاء الله يعتذر اليه عما جرى ويبدي رغبته المخلصة في حمايته[٣] •

وذكرت المصادر البهائية أيضاً أن علماء الشيعة قرروا في مؤتمرهم أخيراً ارسال رجل يعتمدون عليه الى بهاء الله ليجادله ويطلب منه البرهان على صحة دعواه ، ووقع اختيارهم على رجل من بينهم اسمه « الحاج ملا حسن عمو » وهو ايراني يتميز برجاحة العقل وفصاحة اللسان[٤] • فذهب هذا الرجل لمقابلة بهاء الله في بغداد ، وعندما استمع الى براهينه واقتنع بها قال له ان العلماء لا يقتنعون بدعوتك الا اذا قمت لهم بمعجزة باهرة تقطع حججهم كلها • فكان جواب بهاء الله أنه قال :

« لا حق لكم في ذلك ، لأن الله هو الذي يمتحن عباده وليس عباده الذين يمتحنونه ، واني مع ذلك سأجيب طلبكم غير أن الدعوة الربانية ليست من قبيل الألاعيب المسرحية التي تُقدم بكل ساعة أو تتبدل

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص٣٤٧ •

(٢) كتاب (مقالة سائح) ـ المؤلف غير مذكور ـ ترجمة محمد حسين بيچارة ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ص٦٢ •

(3) Shoghi Effendi (op. cit.) P. 144.

(٤) أبو الفضائل الجرفادقاني (كتاب الحجج البهية) القاهرة ١٩٢٥ ـ ص١٤٢ •

كل يوم ، والا فهي تصبح كألعاب الأطفال • ان العلماء يجب أن يجتمعوا كلهم ويوقعوا على محضر يتعهدون به أنهم اذا تمت المعجزة أمامهم فانهم لابد أن يؤمنوا بالدعوة ايمانا لا شك فيه ، أما اذا عجزت عن القيام بالمعجزة حق لهم أن يحكموا عليّ بالتدليس والكذب » •

فوافق الملا حسن على هذا القول وعاد الى العلماء يخبرهم به ، ولكن العلماء رفضوا الأخذ به حيث قالوا ان بهاء الله ساحر وربما قام بالمعجزة عن طريق السحر فلا يستطيعون أن يردوا عليه(١) •

تسفير بهاء الله :

أخذ الشيخ عبدالحسين الطهراني بالتعاون مع القنصل الايراني يسعى نحو ابعاد بهاء الله الى ناحية قاصية من البلاد العثمانية ، وقد اتصلا بالشاه في هذا السبيل ، فأوعز الشاه الى سفيره في اسطنبول بأن يقنع الحكومة العثمانية بذلك •••

وفي يوم ٢١ آذار من عام ١٨٦٣م بينما كان بهاء الله واصحابه يحتفلون بعيد النوروز في مزرعة الوشاش قريباً من بغداد ، وصل اليهم رسول من الوالي نامق باشا طالباً من بهاء الله أن يذهب الى السراي للمباحثة في أمر هام • وفي اليوم التالي عندما ذهب بهاء الله الى السراي قدم له نائب الوالي رسالة من الصدر الاعظم يدعوه فيها أن يكون ضيفاً على السلطان في اسطنبول ، وقدم اليه أيضاً مبلغاً من المال لنفقات سفره •

وفي ٢١ نيسان انتقل بهاء الله مع أفراد عائلته وعدد من أتباعه الى بستان النجيبية فخيموا فيها بضعة عشر يوماً استعداداً للرحيل الى اسطنبول • وتروي المصادر البهائية ان الوالي نامق باشا زار بهاء الله أثناء مكوثه في البستان لتوديعه ، وأظهر له أسفه الشديد ، وأبدى استعداده التام لكل

---

(1) Abdul - Baha (Events in Bahai History) in (The Bahai World) — Wilmette 1945 — Vol. 9, P. 160.

مساعدة يحتاج اليها وقال له : «كلما أردت شيئاً فليس عليك سوى أن تأمر ، ونحن مستعدون لتنفيذ أمرك » • ثم سلّم الوالي الى الضابط المكلف بمرافقة بهاء الله في سفره رسالة يأمر فيها جميع الولاة والموظفين الذين يمر بهم بهاء الله في طريقه أن يقدموا له أقصى ما في مقدورهم من احترام ومساعدة[1] •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن بهاء الله أثناء مكوثه في بستان النجيبية نزل عليه « الوحي » بأنه هو « الموعود » الذي كان الباب يبشر به في كتبه وألواحه ، فأعلن بهاء الله ذلك للأصحاب المجتمعين في البستان حيث ذكر لهم أن الباب بالنسبة له كيوحنا المعمدان بالنسبة للمسيح • فوافق الأصحاب على ذلك وأعلنوا فرحهم به •••

وفي ٩ أيار غادر بهاء الله ومن معه بستان النجيبية في قافلة تضم خمسين بغلاً وسبعة هوادج ، ويصحبها عشرة فرسان من جنود الحكومة مع ضابط يرأسهم • وسارت القافلة عن طريق كركوك والموصل الى ميناء صمصون على البحر الاسود ، ومن هناك ركبوا باخرة الى اسطنبول فوصلوها في ١٦ آب •وبعد أن مكثوا في اسطنبول أربعة أشهر انتقلوا منها بايعاز من الحكومة العثمانية الى مدينة أدرنة •

وفي مدينة أدرنة نشب نزاع شديد بين بهاء الله وأخيه صبح الأزل حول رئاسة البابيين انتهى الى انشقاق البابيين الى جماعتين متعاديتين ، فالجماعة التي تابعت بهاء الله أُطلق عليها اسم « البهائية » بينما أُطلق على الجماعة الأخرى اسم « الأزلية » • وسنحاول تلخيص النتائج التي تمخض عنها هذا النزاع في ملحق هذا الفصل •

نامق باشا وآل السعدون :

كان آل السعدون يرأسون اتحاداً عشائرياً قوياً في جنوب العراق

---

(1) Shoghi Effendi (op. cit.) P. 149—150.

يسمى بـ « المنتفق » ومركزه سوق الشيوخ ، وفي عام ١٨٦٠م أراد والي بغداد مصطفى نوري باشا تحويل منطقة المنتفق الى قائمقامية تابعة لبغداد بغية تدعيم السيطرة الحكومية على تلك الانحاء القاصية التي كانت زاخرة بالفوضى والتمرد • فعُيّن الشيخ منصور السعدون قائمقاماً برتبة « مدير الاسطبل العامر » ومُنح لقب « بك » •

ومن طريف ما يروى في هذا الشأن أن عشائر المنتفق استاؤوا من هذا العمل اذ لم يهن عليهم أن يكون شيخهم موظفاً في الدولة مع وجود العداء الشديد الذي طال عليه الزمن بينهم وبينها ، فنظم شاعرهم بيتين من الشعر بلهجته البدوية هما :

يابـو علـي الموردة   أميرنا صـاير مدير
عاداتنا ذبح العساچر   وشعاد لوجانا المشير(١)

الواقع أن نظـام القائمقاميــة كان في أول أمره صـورياً حيث بقي الرئيس السعدوني على عادته جالساً في مضيفه يستقبل ضيوفه ، ويكـرم الشعراء الذين يمدحونه ، ويفصل في المنازعات العشائرية حسبما يقتضيه العرف العشـائري ، أما اللقب أو الرتبة الرسـمية التي حصـل عليها من الدولة فلم يعرها أهمية سوى ما يمكن أن ينتج عنها من زيادة في المهابة والنفوذ تجاه الموظفين وسكان المدن •

وعندما تولى نامق باشا الحكم في العراق في عام ١٨٦٢م أراد أن يجعل آل السعدون اكثر انصياعاً لنظام الحكومة فعيّن سليمان فائق محاسباً للمنتفق ، وكان هذا قائمقاماً في خانقين فنقله الى هنالك ليكون بمثابة رقيب أو مستشار للشيخ منصور السعدون • وقد أثار هذا التعيين آل السعدون وأحنقهم ، وكان أشدهم حنقاً الشيخ ناصر أخو الشيخ منصور ، فجمع أتباعه وصار يسعى نحو تحريك الفتنة وبث الاشاعات المغرضة ضد سليمان

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) بغداد ١٩٤٨ ـ ج١ ص٧٥ •

فائق وضد الحكومة •

أمضى سليمان فائق في وظيفته الجديدة ثلاثة أشهر تقريباً وهو في وضع مريب ينذر بالخطر ، واجتمع آل السعدون برئاسة الشيخ ناصر للتآمر على قتله ، وكادوا يقتلونه لو لم ينبر الشيخ منصور للدفاع عنه حيث أعلن قائلاً : ان سليمان فائق ضيفه وفي حمايته وهو لا يتردد عن قتل نفسه اذا نال سليمان فائق أي مكروه • واستطاع سليمان فائق أخيراً أن يهرب الى القرنة ناجياً بنفسه وقد أعانه في هربه داود أفندي السعدي الذي كان يتولى وظيفة الافتاء والتدريس في سوق الشيوخ آنذاك •

واشتد الاضطراب في منطقة المنتفق من جراء ذلك ، فأعلنت العشائر العصيان ، ونهبوا المواشي والسفن ، وقطعوا خطوط التلغراف التي كانت قد أنشئت منذ وقت قريب وكأنهم أرادوا بقطع تلك الخطوط تحدي الحكومة وارهابها • واضطر نامق باشا تجاه هذا الوضع المتأزم أن يلغي نظام القائمقامية وأن يعهد بمشيخة المنتفق الى الشيخ فهد السعدون ، غير أن العشائر لم تقبل بهذا الحل ولعلها استمرأت العصيان ، فأرسلت الحكومة اليها من العمارة باخرة فيها فوج من المشاة ومدافع صغيرة ، وقد تمكنت هذه القوة من مباغتة العشائر وأمطرتها بالقنابل فمزقت شملها •

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فقد وقعت واقعة أخرى بين العشائر وقوة حكومية كان شبلي باشا العريان قد أرسلها من الحلة ، وتمكنت العشائر من دحر تلك القوة والقضاء عليها اذ لم ينج منها الا نفر قليل • وحين سمعت عشيرة بني مالك بهذه الواقعة ، وكانت تسكن في جوار البصرة ، هاجمت قوات الحكومة فيها ، فاضطر سليمان فائق الذي كان يومذاك قائمقاماً في البصرة أن يستعين بأهالي البصرة لمقاومة العشائر فسلحهم وأحضر لهم المدافع ، واستطاع أخيراً أن يهزم العشائر حيث سقط منهم أكثر من ستمائة قتيل ، واضطرت العشائر أن تتقدم الى الحكومة صاغرة

تطلب منها « الدخالة » .

ثم أرسل نامق باشا من بغداد قوة كبيرة بقيادة حافظ باشا ، فوصلت تلك القوة الى المنتفق وضربت العشائر ضربة ساحقة ، ووقع الشيخ ناصر في الأسر فجيء به الى بغداد حيث فرضت عليه الاقامة الجبرية مع تخصيص مرتب له . أما الشيخ منصور فقد هرب مع بعض أتباعه الى الصحراء ، وظل يتجول فيها زهاء سنة كاملة ، ثم جاء بعدئذ الى البصرة يرجو « الدخالة » من سليمان فائق ، وجاء به سليمان فائق الى بغداد فأدخله على نامق باشا ، فقبل نامق باشا دخالته وعفا عنه[1] .

توديع نامق باشا :

في ١٠ تموز من عام ١٨٦٧م وصلت برقية من اسطنبول تستدعي نامق باشا للتوجه اليها حيث قد اختاره السلطان لكي يكون وزيراً للحربية. وبعد خمسة أيام من وصول البرقية تحرك نامق باشا من بغداد متوجهاً الى اسطنبول فخرج البغداديون لتوديعه .

يصف سليمان فائق روعة التوديع الذي جرى لنامق باشا فيقول : ان أهل بغداد خرجوا لتوديعه بكافة طبقاتهم ، رجالاً ونساءاً ، وصبياناً وأطفالاً ، وحينما تحركت العربة به بكي المودعون ونادوا بأعلى أصواتهم : « عليك عون الله فاذهب بسلام راشداً مهدياً ايها المقدام » . ويعلل سليمان فائق هذا التوديع الحار بانه اعتراف من البغداديين بما قام به نامق باشا من أعمال جليلة ، حيث كثر الانتاج الزراعي في عهده ، وراجت التجارة ، واستتب الأمن ، وانقمعت الفتن ، وانقطعت شهادة الزور ، وسُدّت أفواه النمامين ، وقُطع دابر المفسدين[2] .

قد يسأل سائل : هل كان هذا القول صحيحاً ؟ وهل كان سليمان

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المنتفق) ص٣٢ ـ ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٥٢ .

فائق مخلصاً فيه ؟ يرجح في ظني ان سليمان فائق لا يختلف في قوله هذا عن أمثاله من المؤرخين الذين دأبوا على تفسير الأحداث كما يشتهون • ان من يعرف طبيعة المجتمع البغدادي في ذلك الزمان يستطيع أن يدرك مغزى اجتماع الجماهير فيه لتوديع حاكم أو لاستقباله • ولعلني لا أعدو الصواب اذا قلت ان العامة من أهل بغداد حين خرجوا لتوديع نامق باشا انما فعلوا ذلك من أجل التفرج كما هي عادتهم في مثل هذه المناسبة ، أما علماءبغداد وأعيانها فهم اعتادوا أن يخرجوا في استقبال كل حاكم وفي توديعه ، فتلك هي وظيفتهم الاجتماعية ، وهم يستفيدون منها كل الفائدة ، اذ هي تزيد من حظوتهم لدى الحكام من جهة ، وترفع من مقامهم في نظر العامة من الجهة الأخرى • وكثيراً ما نراهم يتبخترون أمام العامة وكأنهم يقولون لهم بلسان الحال : انظروا الينا !

ويخيل لي أن هؤلاء العلماء والأعيان عندما خرجوا لتوديع نامق باشا كانوا حريصين كل الحرص على اظهار العواطف « النبيلة » بين يديه ، فهو قد صار وزيرا رفيع الشأن وذا نفوذ في الدولة ولدى السلطان ، وهم يتصورون أنهم سيحتاجون اليه في يوم من الأيام ، وأنه سيساعدهم جزاء عواطفهم « النبيلة » • فلما تحركت العربة به هتفوا له وانهمرت الدموع من أعينهم • وفي هذه الحالة لابد أن يتجاوب العوام معهم فيهتفون مثلهم ويبكون وهم لا يدرون لماذا يهتفون ويبكون !

بين القاضي والقنصل :

حل تقي الدين باشا محل نامق باشا في ولاية بغداد ، وقد وصل الى بغداد بعد مغادرة سلفه اياها بأربعة أيام ، وكانت ولايته قصيرة الأمد اذ لم تدم سوى سنة واحدة وبضعة أشهر غير أنه أعيد الى بغداد بعدئذٍ في عام ١٨٨١م وظل فيها والياً مدة تزيد على الست سنوات •

لم يقع في ولاية تقي الدين باشا ــ في دفعتها الأولى ــ ما يستحق

الذكر سوى حادث نزاع جرى بين قاضي بغداد والقنصل الفرنسي ، وهو حادث جدير بالذكر لما له من أهمية اجتماعية .

ورد وصف لهذا الحادث في تقرير للقنصل الفرنسي أرسله الى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٠ تموز ١٨٦٨م حيث قال ما نصه :

« لقد قمت يوم عيد ميلاد جلالة السلطان بزيارة رسمية للوالي مرتدياً الحلة الرسمية كما تقضي بذلك العادة ... ولدى خروجي من داره عرجت على دار قائد القوات العسكرية . فاستقبلني الجنرال لدى باب الصالون استقبالاً في غاية اللطافة والحلاوة كما هو المعتاد ، ولدى دلوفي الى هذه الغرفة وقع نظري على القاضي وقد جلس القرفصاء بوقاحة وقلة حياء وتجاهل وجودي ولم يتزحزح من مكانه فينهض لتحيتي لدى دخولي كما فعل الآخرون . فدنوت منه بخطى قصيرة دون أن يجتاحني الغضب وبهدوء تام ، وبعد أن حدجته بنظراتي ببرودة مدى لحظة التقت عيناي بعينيه أمسكت بلحيته برقة ولطف واستجوبته بهذه الكلمات : (عجباً . أما يرى هذا الرجل قنصل الامبراطور نابليون ؟) . فظهر العجب والدهشة على وجه القاضي ، ولكنه ظل جالساً على مقعده . حينئذ أضفت هذه الكلمات وأنا باق على هدوئي ، ولكنني لم ألمس لحيته هذه المرة : (ان هذا الرجل يتبجح بأنه لم ينهض لتحية رجل مسيحي .. على رسله .. ولكن بوسعه بعد الآن أن يقول ان رجلاً مسيحياً هز لحيته عندما كان قاضياً لبغداد) . فامتعض الجنرال كل الامتعاض من سلوك القاضي وتوسل الي أن أجلس . فصمدت أمام توسلاته . لأن القاضي لم يبد عليه أنه يريد التنازل عن موقفه فينهض احتراما لي ولا أن يغادر القاعة . لذلك امتطيت جوادي من فوري عائداً مع ضباطي الى دار القنصلية » .

ثم كتب القنصل في ختام تقريره يصف القاضي بالتعصب الذميم وكراهية المسيحيين لكي يبرر بذلك سلوكه المتعجرف معه ، حيث قال : « ان هذا الشخص منذ وصوله الى بغداد يتباهى على ملأ من الأشهاد بأنه

لا ولن ينهض أبداً من مقعده تحية لرجل مسيحي بالغاً ما بلغت درجة هذا الرجل المسيحي من الرفعة والوجاهة • ولذلك فقد تعمد الوقاحة التي مثلها أمامي مع سبق الاصرار ، لان هذا ما علمناه علم اليقين منذ عهد قريب • وقد أراد أن يرى الجمهور رأي العين تعلقه بحبل الدين الحنيف فدبر توقيت هذه المقابلة معي على أن تقع في يوم من أيام الاحتفالات ليظهر في ظرف رسمي احتقاره للمسيحيين حتى ولو كان ذلك تجاه البزة الرسمية التي تحمل رسم الامبراطور منقوشا ••• وقد جاء هذا المتعصب يحمل بين جنبيه هذه النية البلهاء منتظراً قدومي الى صالون قائد القوات العسكرية حيث لم أكن أتوقع أن أصادفه قط »[1] •

وعلى أي حال فان الحادث لم ينته بسلام وكاد يؤدى الى فتنة ، فان اهانة القنصل الفرنسي للقاضي بامساك لحيته كان أمراً في منتهى الأهمية عند البغداديين اذ أن اللحية كانت في ذلك الزمان تعتبر رمز كرامة الرجل• وقد ذكر بعض الشهود أن القنصل لم يكتف بامساك لحية القاضي حسبما ورد في تقريره بل عمد فوق ذلك الى شد القاضي من معصميه لكي يرغمه على النهوض • وحين انتشر الخبر بين الأهالي هاجوا وماجوا واعتبروا اهانة القاضي بمثابة اهانة للمسلمين جميعاً ، وعزموا على القيام بمظاهرة عدائية ضد الأجانب ، وعلى مهاجمة القنصلية الفرنسية وقتل القنصل ، غير أن المشير الذي وقع الحادث في داره أسرع بقوة من الجيش فأحاط بالقنصلية للحيلولة دون مهاجمتها • واهتم الوالي تقي‌الدين باشا بالأمر فاستدعى جماعة من أعيان بغداد وطلب منهم تهدئة الخواطر خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه[2] • ثم قطع الوالي علاقته مع القنصل وطلب من الحكومة الفرنسية سحبه من بغداد فاستجابت الحكومة الفرنسية لطلبه ، كما أن الباب العالي في اسطنبول أصدر أمره بعزل القاضي • وبذا هدأت الحالة وعادت الأمور الى مجاريها •

---

(١) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) ص١١١ ــ ١١٣ •

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص١٥٦ •

ملحق الفصل

أشرنا في هذا الفصل الى ما حدث في أدرنه عام ١٨٦٣م من نزاع شديد بين بهاء الله وأخيه صبح الأزل حيث انشق البابيون الى جماعتين متعاديتين : بهائيــة وأزلية • وهنــا ينبغي اتماماً للفائدة أن نذكر شيئاً من النتائج التي تمخض عنها هذا النزاع وما آل اليه أمر الجماعتين في النهاية •

يمكن القول ان النزاع بدأ منذ اليوم الــذي أعلن فيهــا بهاء الله في بستان النجيبية أنه هو « الموعود » الذي بشر به الباب ، فقد أغضب هــذا الاعلان صبح الأزل ولكنه كتم غضبه حتى وصل الى أدرنة ، وهناك انفجر غضبه بتحريض من صديق له كربلائي اسمه السيد محمد الاصفهاني • وقد اشتد النزاع بين الفريقين الى حد أنهم صاروا يتخاصمون علانية أمام الناس ويدس بعضهم السم في طعام البعض الآخر •

كان صبح الأزل يزعم أن معه « وصية » موقعة من الباب وهي دليل قاطع على أنه وصي الباب وخليفته من بعده • أما البهائيون فيقولون أن هذه « الوصية » انما كتبها الباب لكي يجعلها تغطية يحافظ بها على حياة بهاء الله وينجيه من كيد الاعداء ، أي أن الباب في نظر البهائيين أراد أن يصون بهاء الله ويصرف عنه الانظار لكي لا يمسه الأذى من بعده فأظهر الخلافة لاخيه صبح الازل من باب التستر والتغطية • ويضــيف البهائيون الى ذلك قائلين : ان الباب حين عيّن صبح الأزل خليفة صورياً له حذّره وأنذره بأن هــذه الخلافة هي لأمد محــدود ، وهــي تبقى الى أن يعلن « الموعود » ــ أي بهاء الله ــ دعوته ، وحينذاك يجب على صبح الازل أن لا يعاند أو يعادي « الموعود » عند ظهوره ، والاّ فهو سوف يكون مطروداً من ربقة الايمان ، ولكن صبح الأزل لم يكترث لما قال له الباب بل عاند وكابر وبذلك خرج من ربقة الايمان •

في عام ١٨٦٨م تم الاتفاق بين الحكومة العثمانية والسفارة الايرانية على

التفريق بين الجماعتين ، فأبعدت بهاء الله مع اتباعه البالغ عددهم ثمانيــة وستين الى عكا ، بينما أبعدت صبح الازل مع اتباعه البالغ عددهم ثلاثين الى جزيرة قبرص •

وفي ٢٨ أيار من عام ١٨٩٢م مات بهاء الله في عكا وكان في الخامسة والسبعين من عمره ، فخلفــه في رئاسة البهائيين حســب وصية منه ولده الاكبر عباس أفندي الملقب بـ « عبدالبهاء » • وقد وقع شيء من التنازع على الخلافة بين عبدالبهاء وأخيه المرزا محمد علي ، ولكن هذا التنازع لم يدم طويلاً اذ انتصر عبدالبهاء أخيراً ودان له البهائيون بالطاعة المطلقة •

كان عبدالبهاء يتميز بالحنكة والذكاء العظيم ، واستطاع في خلال سنوات معدودة أن يحوّل النحلة البهائية من دعوة محلية الى دعوة عالمية • وقد تجول في أوربا وأمريكا مرتين ، في عام ١٩١١م وعام ١٩١٢م ، فخلب عقول الكثير من الناس هناك واجتذبهم الى نحلته • فكان مظهره وهو في عمامته وجبته ولحيته البيضاء وصوته الخفيض ذا أثر فعال على الناس من الناحية النفسية •

وفي الوقت الذي كانت فيه النحلة البهائية تنتشر في العالم على يد عبدالبهاء ، ويتكاثر اتباعها ، كانت النحلة الأزلية على العكس من ذلك تسير نحو التضاؤل والاضمحلال ، ولم يبق الآن من الأزليين سوى عدد محدود قد لا يتجاوز المائتين أو الثلاثمائة واكثرهم يعيشون في ايران •

يقول صــاحب كتاب « مفتاح بــاب الأبواب » في وصــف عبدالبهاء « ••• ان الرجل ذو مقدرة قوية في استجلاب القلوب ببراعته وحسن خلابته ، وسعة اطلاعه على أخبار الأمم والملل ، ومخاطبة كل قوم بما يوافق اعتقادهم وذوقهم • واعتقادي أنه لولا العباس لما قامت للبابية البهائية قائمة لأنه ذو مكانة سامية في الحزم والسياسة ••• »[1] •

---

(١) محمد مهدي خان (المصدر السابق) ص٣٥٦ •

الفَصْلُ السَّابعُ

ولاية مدحت باشا

الواقع ان مدحت باشا لم يكن والياً عادياً كغيره من الولاة الذين حكموا العراق في العهد العثماني • انه كان واحداً من عظماء الرجال ، ولم تكن ولايته في العراق سوى فترة قصيرة من حياته المليئة بالاعمال التي غيرت مجرى التاريخ العثماني • وقد اشتهر بكفاحه في سبيل الحركة الدستورية ومقاومة الاستبداد ، وكان مصيره الموت خنقاً على نحو ما سوف نذكره في الجزء الثالث من هذا الكتاب • ان هذه السيرة جعلت من مدحت باشا « بطلاً شهيداً » في نظر أكثر الناس ولا سيما بعدما انتصرت الحركة الدستورية في البلاد العثمانية ، فلقد أصبحت سيرة مدحت باشا من جراء ذلك اسطورة تحيط بها هالة من المجد ويشيد بذكرها الناس في كل مناسبة •

حين يتحول أي رجل من رجال التاريخ الى « اسطورة » ينسى الناس سيئاته وأخطاءه ويبالغون في ذكر حسناته ومناقبه • وهذا هو ما حدث فعلاً في شأن مدحت باشا ، فقد صار في نظر الكثير من الكتاب والمؤرخين كأنه معصوم من الخطأ وكأن أعماله كلها حسنة لم يصدر منها أي قبيح اطلاقاً • ان مدحت باشا يشبه من هذه الناحية بعض عظماء التاريخ الذين تمجدهم أممهم فنحن اذ نقرأ سيرتهم الآن لا نجد فيها سوى المديح مع العلم أنهم كانوا في حقيقة أمرهم بشراً يصيبون ويخطئون • ان سيرة الرجل من هؤلاء يمكن أن نصفها بأنها « مغربلة » ، وهي سيرة لا يستسيغها المنهج العلمي الحديث كما لا يخفى •

أستطيع أن أقول بوجه عام ان مدحت باشا على الرغم مما تميز به من كفاءات وفضائل كان يرتكب أخطاءاً كثيرة من جراء ثقافته الناقصة وشدة شغفه بالحضارة الأوربية . والظاهر أنه كان ذا ولع مفرط بالتجديد وبتقليد الأوربيين ، وكأنه كان يعتبر الأوربيين المثل الأعلى الذي يجب أن يهتدي به كل من يريد اصلاح بلاده من الشرقيين . يقول المؤرخ لونكريك عنه أنه : « لم تخل أعماله العديدة التي اضطلع بها خلال سنى حكمه في العراق ... من آثار العجلة والأغلاط الاقتصادية الناشئة عن جهل بعض الأمور أو تناسيها ، لأنه كان في بعض الأحيان كثير الثقة ، حتى الافراط ، بكل ما يسمى تجديداً ، كما أنه كان يفضّل في أحيان أخرى الأمور الخلابة على الأمور المعقولة ... على أن نظره للأمور ، وفعاليته الوطنية ، واستقامته المطلقة ، كلها قد أنجزت أعمالاً أعظم من الأعمال التي تمكنت ثقافته الناقصة من تشويهها ... »[1] .

يخيل لي أن مدحت باشا كان لا يختلف من بعض الوجوه عن اولئك « الافندية » المغرورين الذين لم ينالوا من الثقافة الحديثة سوى معلومات ضحلة فصاروا يتحذلقون بها ظناً منهم أنهم استوعبوا جميع أسرار الكون والمجتمع وأنهم قادرون على اصلاح كل شيء بجرة قلم . لا ننكر أن مدحت باشا كان يمتاز على هؤلاء « الأفندية » بنزاهته ، ونشاطه الذي لا يحد ، وميله الى العمران والاصلاح ، ولكنه مع ذلك لم يكن خالياً من بعض الغرور والتظاهر . وصفه المستشرق بلنت وكان قد التقى به في دمشق أثناء ولايته عليها فقال عنه : « لم يكن ممتازاً بأي شيء في مظهره سوى أنه كان فخوراً مختالاً ، ولم أجد في أثناء محادثتي معه في موضوع تجديد تركيا واصلاحها أي عمق في أفكاره ، والواقع أنه كان أكثر من

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

الأتراك احتقاراً لكل ما هو عربي »[1] .

قراءة الفرمان :

وصل مدحت باشا الى بغداد يوم ٣٠ نيسان من عام ١٨٦٩م ، وأقيم الاحتفال له في السراي فقُرىء « الفرمان » السلطاني بالتركية وهو طويل بدأ بالعبارات التقليدية وهي كما يلي بعد ترجمتها الى العربية حسبما جاء في جريدة الزوراء :

« الدستور المكرم ، والمشير المفخم ، نظام العالم ، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهام الأنام بالرأي الصائب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد أركان السعادة والاجلال ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى ، ومن أفاخم وكلاء دولتي العلية ، رئيس شورى الدولة السابق ، الموجه لعهدة استيهاله واقتداره هذه المرة نظارة ادارة أمور الفيلق السادس الهمايوني مع انضمام ولاية بغداد ، والحائز الوسام العثماني من الرتبة الأولى ، وكذا الوسام المجيدي الهمايوني من الرتبة الاولى ، وزيري وسمير درايتي مدحت باشا أدام الله تعالى اجلاله .

« ليعلم أنه اذا جاءكم توقيعي الرفيع الهمايوني فليكن معلوماً أنه مما لا حاجة للاطناب في وصفه وبيانه هو أن خطة بغداد الجسيمة من أعظم القطع التي تتألف منها ممالك دولتي العلية المحروسة ومن مقتضيات أرضها ووضعها أنها صالحة لكل اعمار وترق . وهذا من المسلمات . ولما كانت أعز الآمال والمطالب لسلطنتي الهمايونية أن تحصل على كافة أسباب العمران ، وهذه الآمال لا تتم كما هو المرغوب فيه الا أن يقع الاختيار على من هو عارف ، قادر على ايصال ذلك بمنّه تعالى الى حيز العمل »[2] .

---

(١) الفريد سكاون بلنت (التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر) القاهرة بدون تاريخ ـ ج١ ص١٢٢ .

(٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص١٦٠ .

وبعد الانتهاء من قراءة « الفرمان » ألقى مدحت باشا خطاباً طويلاً بالتركية حث الناس فيه على العمل في سبيل الزراعة والتجارة والصناعة ، وذكّر الموظفين أنهم مكلّفون بخدمة الأهلين والعمل من أجل سلامتهم وسعادتهم . ومما يلفت النظر في الخطاب أنه وضع اللوم في الخراب السائد في العراق على عاتق الرعية لأنهم قصروا في عملهم ولم يسلكوا سلوك الأمم الراقية . فهو يقول في ذلك ما نصه : « ولكن الخراب المستولي وعدم النشاط ناجم من تقصير الأهلين ، فلم يسلكوا ما سلكته الأمم ، وانما تُرك كل امرىء وشأنه ، وصارت الامة لا تأبه بما أخذت به الأمم .. والا فحضارة القطر الماضية وصناعته القديمة لا تزال آثارها مشهودة ... ولا منجاة من هذه الورطة الا بالانقياد للمتبوع الأعظم ، ومن قدّمه من أصحاب المناصب ، بأن يُطاعوا ، ويُسلّم اليهم بما أرادوا ، وهو قد حافظ على حقوق الأهلين عموماً ، وراعى استراحتهم ، والعدل فيما بينهم ، وأرسل الولاة لهذا الغرض ، فلا يتطلب أكثر من التسليم لهم والانقياد بالطاعة ، ليتمكنوا من السعي والحصول على المبتغى »[1] .

ان هذا الخطاب الذي افتتح مدحت باشا به حكمه في بغداد لم يكن يخلو من اشارة ضمنية الى أن داء العراقيين يكمن في قلة طاعتهم للسلطان ، أي أنهم يتصفون بالعصيان والتمرد على الحكومة ، ولا منجاة لهم الا بأن يقتدوا بالأمم الاخرى فيتعودوا على الطاعة والنظام . ان هذا قول طالما سمعناه يتردد على ألسنة الناس منذ صدر الاسلام ، وكان قد استقر في أذهان رجال الدولة العثمانية أن العراق تسوده النزعة العشائرية فهو يتمرد على الحكومة حالما يلمح ضعفاً فيها ، والمظنون أن مدحت باشا كان يحمل مثل هذا الرأي عند وصوله الى بغداد . يقول سليمان فائق : ان مدحت باشا في بداية ولايته في العراق كان يعتقد أن اصلاح العشائر لا يتم الا

(١) المصدر السابق — ج٧ ص١٦٣ .

بالقوة الترهيبية وبالسيف ، ثم أدرك خطأ هذا الرأي أخيراً[1] •

أعماله الاولى :

من أوائل الأعمال التي قام بها مدحت باشا هو التقصّي عن الموظفين المعروفين بالرشوة لمعاقبتهم من أجل أن يجعلهم عبرة لغيرهم • والظاهر ان هذا كان أول عمل من نوعه قام به وال عثماني في العراق ، اذ المعروف عن معظم الولاة أنهم كانوا يشاركون الموظفين في الرشوة أو هم على الأقل يغضون النظر عنها ويتساهلون فيها حسب مبدأ « الخطية » الذي كان ولا يزال شائع الاستعمال في العراق •

بدأ مدحت باشا بقائمقام راوندوز ، ثم أعقبه بمدير ناحية عانه وقاضيها ، وساقهم للمحاكمة • وحين علم بأن متصرف كربلا وبعض الموظفين معه مصابون بداء الرشوة أيضاً سافر بنفسه الى كربلاء ، وبعد التحقيق معهم عزل المتصرف حالاً وأحاله الى المحكمة • ثم انتهز فرصة وجوده في كربلا فأمر بتخطيط محلة جديدة فيها لتخفيف ما كان فيها من زحام ، وكانت تلك أول محلة في العراق تحتوى على شوارع عريضة ومستقيمة نسبياً ، ولا تشبهها في ذلك سوى بلدة الناصرية التي أسست في عهد مدحت باشا أيضاً ــ كما سنأتي اليه فيما بعد •

ويروى سليمان البستاني في كتابه « عبرة وذكرى » طريفة عن مدحت باشا جديرة بأن تذكر هنا ، وخلاصتها أنه في أوائل أيامه ببغداد جمع أعضاء مجلس الادارة واقترح عليهم أن يكتبوا الى الباب العالي استئذانا بزيادة الضرائب ، فوافقه الأعضاء على اقتراحه وكتبوا بذلك محضراً ختموه باختامهم • وبعد أيام حين عاد المجلس الى الانعقاد عرض عليهم مدحت باشا اقتراحاً مضاداً لاقتراحه الأول وهو أن يكتبوا الى الباب العالي

---

(١) سليمان فائق (تاريخ المنتفق) ترجمة محمد خلوصي الناصري ــ بغداد ١٩٦١ ــ ص٦٣ ، ٦٧ •

قراراً يذكرون أنهم تسرعوا في قرارهم الأول وأنهم وجدوا الضرائب الحالية ثقيلة فلا يجوز زيادتها • وأسرع أعضاء المجلس فوافقوا على ما قال وختموا المحضر المطلوب بأختامهم • وهذا أمر كثير الحدوث لدى مجالس الادارة في العراق أو هو بالأحرى العادة الجارية فيها ، حيث يسرع الأعضاء الى الموافقة على كل يرتأيه الرئيس حقاً أو باطلاً ، وأراد مدحت باشا أن يلقنهم درساً في ذلك فأخرج المحضرين المتناقضين ومزقهما أمامهم[1] •••

ثورة في بغداد :

في أوائل شهر ايلول من عام ١٨٦٩م – أي بعد انقضاء أربعة أشهر على ولاية مدحت باشا في بغداد – شبت ثورة شعبية فيها ، وكان السبب المباشر لتلك الثورة هو ما عزم عليه مدحت باشا من فرض التجنيد الاجباري على سكان بغداد •

كان مدحت باشا على علم بالصعوبات التي جابهت عمر باشا في أمر التجنيد الأجباري ، فارتأى أن يشرع بتطبيق نظام التجنيد على أهل بغداد أولاً قبل غيرهم من سكان العراق ، فأمر بتشكيل لجان للتجنيد فيها قوامها ضباط عسكريون على أن يعاونهم مختارو المحلات • ويبدو أنه كان واثقاً من طاعة أهل بغداد لوجود القوات الحكومية بالقرب منهم •

أصابت « القرعة » ثلاثمائة مكلف ، ولكن هؤلاء رفضوا الانصياع عندما استدعوا الى الخدمة ، وأخذت بوادر النقمة والتحفز تظهر هنا وهناك في بعض المحلات • وكان على رأس المحلات الثائرة محلة باب الشيخ – كما هي دأبها في كل مرة – تتلوها محلة قنبر علي • وحمل الكثير من الأهالي أسلحتهم وقاموا بمظاهرة تتقدمهم الطبول وهم « يهوسون » تحدياً للحكومة ، وتوجهت بعض العصابات المسلحة منهم نحو الأسواق فصارت

(١) سليمان البستاني (عبرة وذكرى) القاهرة ١٩٠٨ – ص٦٨ – ٦٩ •

تنهب الدكاكين ، ثم سارت نحو محلات اليهود والنصارى بغية العيث فيها .

كان مدحت باشا جالساً في مقره قبيل غروب الشمس فسمع لعلعة الرصاص[1] ، ولم يكد يتبين جلية الخبر حتى أسرع بنفسه الى ثكنات الجيش فصار يوزع السلاح بيده على الجنود ، وأرسل قوة منهم الى محلات اليهود والنصارى وبيوت الاجانب لحمايتها وكأنه خشي أن يحدث فيها ما حدث في الشام قبل عشر سنوات من مذابح فظيعة . ثم أمر بقطع الجسر ومنع عبور النهر بأية وسيلة ، وأرسل قوة من الخيالة لكي تحيط ببغداد وتلقي القبض على كل هارب منها أو داخل اليها بغية النهب[2] .

وركز مدحت باشا اهتمامه على محلتي باب الشيخ وقنبر علي ، فوجه الى الاولى منهما أربع سرايا من الجنود مع مدفع تحت قيادة اللواء سامح باشا ، كما وجّه الى الثانية مثل ذلك تحت قيادة اللواء فيضي باشا . والظاهر ان الأهالي أدركوا وخامة العاقبة فتفرقوا قبل أن يطلق عليهم الجنود طلقة واحدة . وعندما حل الظلام ألقت الحكومة القبض على مائة وثمانين رجلاً اتهموا بأن لهم ضلعاً في اثارة الجمهور ، فمن كان يحترف « الشقاوة » منهم أُدخل في سلك التجنيد ، أما الباقون فقُدموا للتحقيق والمحاكمة[3] .

ثم استُدعي بعدئذ المكلفون الثلاثمائة الذين كانت القرعة قد أصابتهم فلبوا الدعوة طائعين . وكان ذلك ايذاناً ببدء تطبيق التجنيد الاجباري على العراق كله ، فصارت الحكومة تستدعي المكلفين من جميع الألوية ولم يُستثن منها سوى ألوية المنتفق والدليم والعمارة باعتبار أن أكثر السكان فيها هم من العشائر الرحالة[4] .

---

(١) مدحت باشا (مذكرات مدحت باشا) ترجمة كمال بك حتاتة ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص١٥٨ .

(٢) صديق الدملوجي (مدحت باشا) بغداد ١٩٥٣ ـ ص٣٦ .

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٤) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٣٦ .

ثورة الفرات الاوسط :

لم يكد مدحت باشا ينتهي من ثورة بغداد حتى هبت في الفرات الأوسط ثورة أخرى أشد خطراً وأوسع نطاقاً ، وهي التي عرفت بـ « واقعة الدغارة » .

كان سبب هذه الثورة لا يختلف عن سبب اكثر الثورات العشائرية التي زخر بها تاريخ العراق في العهد العثماني ، وهو النزاع حول الضرائب . ففي تلك السنة امتنعت عشيرة عفك عن دفع الضريبة المفروضة عليها بحجة ان المزارع تلفت من جراء الفيضان . وكانت العشيرة تابعة يومذاك للحلة ، فسار متصرف الحلة توفيق بك نحوها تصحبه قوة عسكرية مؤلفة من ٣٨٠ جندي وعلى رأسها ضابطان كبيران ، وعند وصوله الى مقربة من العشيرة أرسل يستدعي اليه رؤساءها ، فجاءه أحد أولئك الرؤساء وهو الحاج طرفة الأحمد وأخذ يعتذر اليه ، فلم يتحمل المتصرف سماع أعذاره وقام اليه فلطمه على عينيه ، وكان ذلك ايذانا بنشوب الثورة[١] .

ولسليمان فائق رأي آخر في تعليل الثورة خلاصته أن مدحت باشا كان له معاون يعتمد عليه كل الاعتماد اسمه رائف افندي وهو الملقب بـ « تويسز » أي عديم الشعر ، وكان لهذا المعاون صديق يهودي يُدعى عزرا الصراف ، فكان عزرا هذا من الأبالسة يتوسط في رشوة الموظفين ويعاون على سرقة أموال الحكومة ، وقد توسط لتعيين متصرف للحلة متفسخ فلم يكد يصل هذا المتصرف الى محل عمله حتى باشر بنهب الأموال واكراه الرعية على اعطاء الرشاوي بدعاوى مزورة فاستعرت نيران العصيان هنالك من جراء ذلك[٢] .

مهما يكن الحال فالثورة بدأت بانتصار ساحق نالته عشيرة عفك ،

---

(١) ودّاي العطية (تاريخ الديوانية) النجف ١٩٥٤ ـ ص٥١ ـ ٥٣ .
(٢) سليمان فائق (المصدر السابق) ص٥٧ ـ ٦٠ .

فقد طوقت هذه العشيرة القوة التركية ثلاثة أيام ثم هاجمتها أخيراً فقتلت المتصرف والضابطين اللذين معه ومعظم جنوده ، ولم يبق من القوة التركية سوى قليل من الجنود فروا على وجوهم . وقد أدى هذا الانتصار الى تضخم الثورة وتكاثر المنضمين اليها من العشائر المجاورة حتى قيل ان عدد الثوار بلغ مائة ألف[1] .

اهتم مدحت باشا للأمر ، فأسرع بارسال ما كان متيسراً لديه من قوات نظامية وغير نظامية الى الديوانية ، واستعان بالعشائر الموالية للحكومة كعشائر المتنفق التي كان يرأسها ناصر السعدون . أما العشائر الثائرة فقد كانت آنذاك قد طوقت الديوانية ، وقطعت أسلاك التلغراف ، ونهبت المؤون والمعدات التي كانت مرسلة من الحلة الى القوات المحصورة في البلدة .

أدرك مدحت باشا حراجة الموقف فسافر الى الحلة ليشرف بنفسه على قيادة المعارك ، وقد اشتد غضبه حين علم بأن قائد القوات المحصورة في الديوانية يريد أن يعقد صلحاً مع الثوار ، فأمر بعزله حالاً وعيّن مكانه قائداً آخر .

وجد مدحت باشا أن اتخاذ العشائر الثائرة مقرها وسط الاهوار قد ساعدها على الغلبة اذ هي تضرب ليلاً ثم تختفي نهاراً في الأهوار بين أحراش القصب والبردي فلا يمكن الوصول اليهم ، فارتأى أن يقطع المياه عنهم لكي تجف أراضيهم . أسرع بمن كان معه من جنود ومدافع الى صدر نهر الدغارة وبدأ يعمل على اهالة التراب فيه بغية منع مرور الماء منه . وقد حاولت العشائر مهاجمته وعرقلة عمله دون جدوى ، اذ أن مدافعه كانت شديدة الفتك فيهم حيث منعتهم من التقرب منه . وبعد مرور ثلاثة عشر يوماً استطاع أن يبني سداً محكماً في صدر النهر ، ثم بنى عليه قلعة حصينة جهزها بالمدافع . وعند هذا أدرك الثوار ما ينتظرهم من مصير وخيم

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢١١ .

فطلبوا منه الأمان ، ولابد أن المنافسات والأحقاد الموجودة بين الرؤساء كان لها أثر في هذا الاستسلام •

قُدّم الى المحكمة العسكرية اثنان من الرؤساء هما : دنان رئيس عشيرة عفك، وبديوي رئيس عشيرة الدغارة، ثم شُنقا على جسر الديوانية ـ كل واحد منهما على جانب منه • وأُلقي القبض على بعض الرؤساء الآخرين فسُجن بعضهم وأُبعد البعض الآخر الى جزر بحر ايجه وبلاد الروملي[1] •

ملاحظة اجتماعية :

ان انتصار مدحت باشا على ثورة الفرات الأوسط بعث في نفسه الفخار والغبطة ، فنظم بيتين من الشعر هما :

فلا والقنا والمرهفات البواتر ... فلا ترة أبقيت لي عند واتر
أيذهب خصم في دم لي مضيع ... ولست أذيق الخصم حد البواتر

ولست أدري هل نظم مدحت باشا نفسه هذين البيتين أم نظمهما له أحد الشعراء المقربين منه • وعلى أي حال فقد صار البيتان مدار حديث الناس في مجالس بغداد وأنديتها الأدبية وأخذ الشعراء يتبارون في تشطيرهما وتخميسهما كما هي عادتهم في مثل هذه المناسبة • يقول الشاعر الحلي المعروف السيد حيدر الحلي في ديوانه :

« ولما قدم حضرة قطب الوزارة ، ومؤمل الامارة ، والي بغداد جناب أحمد مدحت باشا ، نظم بيتين يتحمس بهما ••• فكتب اليّ الحاج مصطفى كبة الى الحلة يستحثني بعد الالتماس على تشطيرهما وتخميسهما وأن أنثر مع ذلك نبذة من مدح الوالي المشار اليه ، وأن أنظم من الشعر مما يحسن به الثناء عليه ، وذكر أنه حضر في تلك المجالس ، وجرى ذكر

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٣٣ ـ ٣٥ •

البيتين فضمن التشطير والتخميس ، ثم ألزمني بذلك وحثني على الاستعجال فأجبته ... » ثم أخذ السيد حيدر يمدح الوالي مدحاً عظيماً فوصفه بأنه : « ألحف بيضة الاسلام جناح ظله ، وأقام دون حوزة الملك سداً من زبر آرائه ونصله ، ومد غطاء الأمن على الدين ، وبسط العدل على جميع المسلمين ... حتى هتف لسان العراق ، الآن بزغت شمس العدل باهرة الاشراق ، ودرّ حلب البراعة ، ونطق بعد الافحام لسان اليراعة ، واستطيب نفحات غوالي الفضل ، بعدما منع من شمها زكام الجهل ، وقام وزن الآداب، بعدما كسدت منها البضائع ، حين نجم مشترى زهرة الكمال في حضرة فلكية المطالع ... » .

وبعد أن كال السيد حيدر أفانين المديح على مدحت باشا خمس البيتين وشطرهما ، ثم خمس التشطير أيضاً . وهو لم يكتف بذلك بل نظم قصيدتين في مدح مدحت باشا بناءآ على التماس من الحاج مصطفى كبه. وفيما يلي أبيات نموذجية من احدى القصيدتين :

أثنت عليك بأسرها الدول	وتشوقتك الأعصر الأول
وأعدت للايام جدّتها	فاليوم عمر الدهر مقتبل
أوسعتها وفضلتها كرماً	عنه يضيق السهل والجبل
وسبرت غور زمانها فغدا	لا جرح الاّ وهو مندمل
ما في الحياة لخالع أمل	انت الحمام وسيفك الأجل
ان تنتعل قمم الملوك فقد	توّجتهم بالفخر لو عقلوا
قل للقبائل لا نعدّكم	جمع القبائل كلها رجل
أسد قلوب عداه من فرق	ذهل ونابل فكره ثعل
يا ابن الوزارة أنت أوحدها	لاراعها بفراقك الثكل
فأقم وبدرك كامل أبداً	والبدر منتقص ومكتمل

في دولة صلحت وزارتهـا لك فهي تحسدها بك الدول[1]

نقف هنا لنتساءل : كيف جاز للسيد حيدر الحلي وهـو الرجل المعروف بالفضل والعزوف عن الدنيا أن يمدح والياً عثمانياً قضى على ثورة شعبية وشنق زعماءها ؟! •

الواقع أن هذا الذي فعله السيد حيدر قد يدعو الى العجب في زماننا أما في زمانه فكان أمراً مألوفاً لا داعي للعجب منه • ان أكثر الشعراء ، أو كلهم تقريباً ، كانوا على هذه الشاكلة اذ هم يمدحون ويذمون فلا يبالون بما في قولهم من غلو أو باطل أو كذب • وجرى الكتاب على ذلك أيضاً حيث شغلتهم عباراتهم المنمقة المسجوعة عما في الحياة من حقائق صارخة • فقد كان العرف السائد بين الناس هو أن يكون الاهتمام بجودة النظم وتنميق العبارة اكثر من الاهتمام بما وراء ذلك من حق أو باطل • وما زال بعض الشعراء والكتاب يسيرون على هذه الوتيرة حتى الآن •

وهناك ناحية أخرى ينبغي أن لا ننساها في هذا الصدد هي أن السيد حيدر الحلي كان ينظر الى واقعة الدغارة بمنظار رجل من أهل المدن تجاه العشائر المجاورة • أي أنه لم يكن ينظر الى تلك الواقعة كما ننظر اليوم الى ثورة شعبية ضد حكومة جائرة ، بل كان على العكس من ذلك يعتبرها كأنها حركة عصيان من عشائر متمردة هدفها الغزو والنهب وقطع الطريق•

يمكن القول بوجه عام انه كان بين أهل المدن والعشائر في العراق عداء واحتقار متبادل على وجه من الوجوه ، فكثيرا ما كانت العشائر تتحين الفرص لغزو المدن ونهبها ، كما كان أهل المدن من جانبهم يبنون الاسوار حول مدنهم بغية حمايتها من غزو العشائر • وعندما وقعت واقعة الدغارة كان الكثير من أهل المدن القريبة يتمنون انتصار الحكومة وانكسار العشائر

---

(١) حيدر الحلي (ديوان السيد حيدر الحلي) بغداد ١٩٦٤ ــ ج٢ ص٤١ ــ ٤٧ ، ٢٠١ ــ ٢٠٤ •

لأنهم يدركون ماينتج عن انتصار العشائر من فوضى واباحة وتقتيل •

يروي الشيخ يوسف كركوش الحلي عن رجل من أهل الحلة عاصر واقعة الدغارة أنه قال في سبب تلك الواقعة ما نصه : « ان مدحت باشا زار منطقة الديوانية وتجول في عشائرها وجلس في رباعها ، فشاهد أهل الأرياف لا يعرفون لبس السراويل ، وحين يجلسون تبدو عوراتهم ، فأمر المتصرف أن يلزمهم بلبس السراويل ، فامتنعوا عن لبسها وقاموا ببعض الأعمال التي تمس بكرامة الحكومة ، فقام المتصرف بتأديب الفاعلين • وبذلك استعرت نيران الفتنة فتحولت الى ثورة جامحة ذهب ضحيتها الألوف من الطرفين وقتل فيها متصرف الحلة توفيق ••• »[1] •

ان هذا السبب الذي جاء به الرجل الحلي في تعليل واقعة الدغارة ليس بالسبب الوجيه كما لا يخفى ، انما هو يصلح لتمثيل رأي أهل الحلة في تلك الواقعة ، اذ هم ينسبون سبب الواقعة الى امتناع العشائر عن لبس السراويل والى اصرارهم على كشف عوراتهم في مجالسهم • وهذا يدل على احتقار أهل الحلة للعشائر الثائرة ، وعلى وضع اللوم عليهم بدلاً من وضعه على الحكومة •

تفويض الأراضي :

ان واقعة الدغارة لفتت نظر مدحت باشا الى مشكلة العراق الكبرى أي مشكلة العشائر • فالعشائر في ذلك العهد كانوا يؤلفون ثلاثة أرباع سكان العراق تقريباً ، وكانوا في قتال متصل ، فيما بينهم تارة ، وفيما بينهم وبين الحكومة تارة أخرى • وكان رأي مدحت باشا أن أهم عامل وراء هذا الوضع الاجتماعي الشاذ هو عدم تملك العشائر للأرض حيث جعلهم ذلك يتنازعون على الأراضي من غير اهتمام باصلاحها أو اعمارها ، وجعل

(١) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) النجف ١٩٦٥ — ج١ ص١٤٥ •

الكثير منهم يعودون الى حالة الترحل والبداوة[1] .

جاء في مذكرات مدحت باشا ما نصه : « تعرضت بلاد العراق للحروب والغارات وتهديد الأمن وكثر الثوار في جهات هندية والحلة وغيرهما كما لا يخفى على عارف أحوال تلك البلاد . وقد اختلفت الأفكار في شأن هذه الثورات فمن قائل ان أهالي البلاد هم من الشيعة وسبب شقهم عصا الطاعة هو أن رجال الحكومة يخالفونهم في المذهب ، ومن قائل ان رؤساء القبائل يحثون الأفراد على مقاتلة الحكومة للتخلص من الأموال الأميرية . وهذه الاسباب غير كافية لأنه لا يعقل أن هذا العدد الكبير يثور ويهدر دمه باشارة المشايخ ، والذي ينظر الى حالة البلاد يتضح له أن سبب هذه المخاصمات هي مسألة الأراضي ... »[2] .

وقد استقر رأي مدحت باشا أخيراً على ان يكون حل تلك المشكلة المستعصية هو في تفويض الأراضي الأميرية الى العشائر ببدل زهيد . وانكب مدحت باشا على هذا الحل يسعى فيه بكل جهده ، فأسس دائرة للتسجيل العقاري سميت بـ « دائرة الطابو » ، وأخذ يشجع الرؤساء والاغنياء على التسجيل ويرغبهم فيه بكل وسيلة .

ظن مدحت باشا أن مشروعه هذا ـ أي مشروع تفويض الأراضي ـ سيؤدي الى تغير جذري في المجتمع العراقي ، وأن العشائر سيتحولون به دفعة واحدة من وضعهم القديم الى وضع جديد حيث يصبحون ـ في زعمه ـ مواطنين صالحين يعملون في زيادة ثروة البلاد الزراعية وتنتهي الخلافات المزمنة بينهم .

تبين أخيراً أن هذا كان وهماً من الاوهام . ويذهب معظم المؤرخين الى أن مشروع تفويض الاراضي كان من جملة الأخطاء الكبيرة التي تورط

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٣٨ ـ ٣٩ .
(٢) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٦٣ .

فيها مدحت باشا ، فهو قد تحمس للمشروع واندفع فيه دون أن يراعي ملائمته للظروف الاجتماعية التي تحيط به • لا ننكر أن المشـروع قد أصابه شيء من النجح في بعض المناطق من العراق ، ولكنه في الغالب قد انتهى الى الاخفاق ، وربما صح القول انه أدى الى تعضّل مشكلة العشائر بدلاً من علاجها •

يمكن أن نعزو فشل المشروع الى عاملين رئيسين : أولهما تفسخ الجهاز الاداري ، والثاني العداء الموجود بين الشعبوالحكومة • ولا يخفى ان هذين العاملين هما من أهم العوامل في فشل أي مشروع حكومي في اي بلد من يلاد العالم •

فمن حيث العامل الأول نرى أن الموظفين الذين أُوكل اليهم أمر تسـجيل الأراضـي عبثوا به عبثاً ذريعـاً تحت تأثير الرشـوة أو المراعاة الشخصية كما هو دأبهم في معظم أعمالهم • فكثيرا ما كانوا يبدلون اسم شـخص بآخر ، واذا سـجلوا حدود أرض جعلوها كما يشـاء الشخص المفوض له حتى ان بعض الأراضي حُدّدت بتعابير غريبة كأن يقال « من مطلع الشمس الى مغيبها » أو « من الجاري الى الذاري »[1] • ويبدو أن بعض الاشخاص الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف انتهزوا الفرصـة فسجلوا بأسمائهم مساحات شاسعة من الأراضي وذلك بعد أن دفعوا شيئاً من الرشوة الى الموظف المسؤول ، فادى هذا فيما بعد الى ظهور الكثير من القضايا المعقدة والدعاوي التي لا نهاية لها •

اما من حيث العامل الثاني ــ أي عامل العداء بين الشعب والحكومة ــ فالملاحظ أن أكثر العشائر الذين كانوا يتصرفون بالأرض فعلاً لم يعيروا مشروع التفويض أي اهتمام ولم يستفيدوا منه ، بل كانت نظرتهم اليـه

---

(١) عبدالله الفياض (مشكلة الأراضي في لواء المنتفك) بغداد ١٩٥٦ ــ ص ٤٧ •

كنظرتهم الى سائر مشروعات الحكومة مليئة بالريب والحذر • يجب أن لا ننسى أن العشائر العراقية اعتادوا منذ زمان بعيد على اعتبار الحكومة عدوة لهم ، ولم يكن من المعقول في نظرهم أن تقوم الحكومة بعمل نافع لهم، والقاعدة عندهم أن العدو لا يمكن أن ينفع عدوه •

وعندما جاءهم مدحت باشا بمشروعه لم يستطيعوا أن يتصوروا أنه في مصلحتهم ، ولعلهم ظنوا أن وراء المشروع قصداً خفياً ضاراً بهم ، وقد ذهبت تأكيدات مدحت باشا لهم أدراج الرياح حيث حسبوه كغيره من الحكام لا يريد بهم غير السوء •

ان الذين استفادوا فعلاً من المشروع هم نفر من أغنياء المدن وبعض رؤساء العشائر الذين كانت لهم صلة وثيقة بالحكومة ، وكان أكثرهم استفادة آل السعدون في المنتفق • فالمعروف عن مدحت باشا أنه عندما فكر بالمشروع في البداية استدعى اليه ناصر السعدون وأقنعه بفائدته ، فكان ناصر هذا من أشد الناس اندفاعاً في تسجيل الأراضي باسمه وفي حثّ قومه على الاقتداء به •

يقول علي الشرقي : ان ناصر السعدون كان ينصح جميع عشائر الغراف والمنتفق بأن يسجلوا الأراضي التي يتصرفون فيها بأسمائهم ، وكان يحذّرهم من مغبة اهمالهم لهذا الأمر لأنه سيؤدى أخيراً الى تجريدهم من تلك الأراضي حيث يصبحون غرباء في بلادهم ، وكان يبالغ في نصحهم في هذا الشأن ، غير أن اولئك البسطاء امتنعوا أشد الامتناع وتوهموا في ذلك وساوس كثيرة ، فكان يشفق عليهم بالرغم من ذلك ويرسل عليهم الزعماء لاقناعهم فكانوا يفرّون من وجهه[١] •

وانتهى الأمر أخيراً بأن صار الكثير من أراضي المنتفق مسجلاً باسماء آل السعدون ، فأدى ذلك الى نشوء النزاع الطويل هنالك بين آل

(١) علي الشرقي (ذكرى السعدون) بغداد ١٩٢٩ ـ ص٤٥ ـ ٤٦ •

السعدون المالكين للأرض رسمياً والعشائر المتصرفين فيها فعلياً ـ وهو النزاع المشهور الذي أقلق الحكومة زمناً طويلاً ولم يُحسم الا مؤخراً •

تشييد مدينة الناصرية :

يبدو أن مدحت باشا كان يسعى نحو ادخال معالم الحضارة الى العراق بكل وسيلة ممكنة ، وكان مما فكر فيه من هذه الناحية هو تحويل بعض شيوخ العشائر الى موظفين رسميين ، وقد وقع اختياره على ناصر السعدون ليجعله نموذجاً في هذا السبيل •

رأينا في الفصل السابق كيف أن ناصر السعدون قاوم هذا الاتجاه في عهد نامق باشا ، ولكننا نراه في عهد مدحت باشا يرضى ويخضع لأمر الحكومة • يقول علي الشرقي : ان مدحت باشا « استقدم الشيخ ناصر الى بغداد ورغّبه في تحويل المشيخة الى متصرفية وولاية ، وحسن له الترغيب في بناء حاضرة للمنتفق وايجاد أساليب حضرية • وقد اقتنع الشيخ ناصر بأن الأيام قد دالت وأن انقلاباً اجتماعياً واقع لا محالة • فأراد أن يستقبله ولا يقاومه • وسرعان ما تنازل لقبول الجديد وصارت المشيخة متصرفية ••• »[١] •

صدر الأمر بتعيين ناصر السعدون متصرفاً للواء المنتفق ، واختير الموظفين الذين يساعدونه في الادارة ، فعُيّن عبدالرحمن بك الذي كان قائمقام الهندية معاوناً له ، والحاج سعيد أفندي محاسباً ، وعبدالقادر أفندي الآلوسي قاضياً • وفي أواخر شهر آب من عام ١٨٦٩م ركب هؤلاء الباخرة النهرية من بغداد ، وكان برفقتهم بعض الموظفين الصغار ، فوصلوا البصرة ثم توجهوا منها نحو المنتفق •

كانت بلدة سوق الشيوخ هي مركز اللواء في البداية ، فارتأى مدحت

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٨ •

باشا الانتقال منها الى مدينة أخرى تشاد على الفرات الى الشمال منها • وقد شرع ببناء المدينة فعلاً حيث وضع تصميمها مهندس بلجيكي اسمه « جولس تلي »[1] ، وسميت بـ « الناصرية » نسبة الى ناصر السعدون • ومن الممكن القول ان « الناصرية » أول مدينة تشاد في العراق على الطراز الحديث ، اذ هي ذات شوارع عريضة مستقيمة وقد تقاطعت تقاطعاً هندسياً جميلاً ، وهذا أمر لم يكن مألوفاً في العراق يومذاك •

كان أول بناء أقيم في المدينة الجديدة هو سراي فخم للحكومة ، وقد تبرع ناصر السعدون لاكمال بناء المدينة بثمانمائة وخمسين كيساً ، وكان ذلك يساوي (٤٢٥٠) ليرة ذهب ، ثم تبرع كذلك بما يقارب الألف ليرة لانشاء جسر من القوارب يربط المدينة بالجانب الآخر من النهر • وجاء على أثر ذلك نعوم سركيس[2] الذي كان صرافاً لناصر السعدون وأمينا لخزانته فبنى داراً لسكناه وكذلك بنى أسواقاً وخانات ومقاهياً ، فاقتدى به الناس وأخذوا يبنون الدور والدكاكين تدريجاً •

يروى عن منصور السعدون ــ وهو الاخ الاكبر لناصر السعدون ــ أنه كان يعارض في تاسيس مدينة الناصرية معارضة شديدة اذ كان يرى أن ذلك سيؤدى الى اضعاف المشيخة السعدونية والقضاء عليها ، وحين وجد أخاه مصراً على تأسيس المدينة اشترط أن يكون موقعها في منخفض من الأرض لكي تكون تحت خطر مياه بحيرة « أبوجداحة » حتى اذا أرادت الحكومة بهم سوءاً سلطوا مياه البحيرة على المدينة فاغرقوها[3] • والظاهر

---

(١) عبدالرزاق الحسني (العراق قديماً وحديثا) صيدا ١٩٥٨ ــ ص ١٦٥ •

(٢) ان نعوم سركيس هذا هو والد الباحث يعقوب سركيس صاحب كتاب « مباحث عراقية » •

(٣) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ص١٦٥ •

أن مدحت باشا أدرك المغزى من ذلك فأمر بتحكيم السداد لوقاية المدينة من الغرق .

أود في هذه المناسبة أن أنقل رأيا لعلي الشرقي وكان خبيراً بتاريخ المنتفق ، فهو يقول : ان بناء الناصرية كان بمثابة هدم لآخر ساف من صرح الامارة السعدونية ، ففي الظاهر كانت تلك الايام أسعد أيام الأسرة السعدونية غير أنها كانت تخفي تحتها الشقاء اذ أن الأسرة أخذت في تلك الأيام تتحضر ، فتركت البداوة التي هي أساس امارتها ، بينما هي لم تتماسك في طورها الحضري بل انغمست في الترف ، وكان اهتمامها منصباً على تسجيل الأراضي وأجربة النخيل في دفاتر الحكومة ، وبذا تحول آل السعدون الى ملاكين بعد أن كانوا أمراء[1] .

فتح الاحساء :

في الوقت الذي كان فيه مدحت باشا والياً ببغداد كان الانشقاق قد ظهر بين أفراد الأسرة السعودية في نجد ، فكان هناك سعود الفيصل قد احتل الرياض وأخذ يحكم فيها ، بينما كان أخوه عبدالله ينافسه على الحكم واتصل بمدحت باشا مدعياً أنه موال للسلطان وأن أخاه عميل للانكليز .

ورد في مذكرات مدحت باشا حول هذا الموضوع ما نصه : « وكان ابن سعود المدعو عبدالله الفيصل من قبيلة الوهابيين ولكنه لم يحذ حذو أسلافه في نشر مذهبه ولا عاكس الدولة العلية وكان معتدلاً في أعماله أما أحد اخوته المسمى سعود فكان يسعى في اغتصاب الامارة من أخيه ولذا فانه توجه الى الهند للاستعانة بالانكليز وألّب العشائر وحثهم على شق عصا الطاعة في وجه أخيه ... »[2] .

وفي ٢٠ نيسان ١٨٧٠م طبع ببغداد منشور بغية توزيعه على سكان

---

(١) علي الشرقي (المصدر السابق) ص٢٨ ، ٤٤ .
(٢) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٧٣ .

نجد والأحساء وهو مملوء بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض الناس على « طاعة ولي الأمر » و « توحيد الكلمة » و « قتال الفئة الباغية » • وكان القصد منه اثارة الناس هنالك على سعود الفيصل بحجة أنه يمثل الفئة الباغية المارقة عن الدين والخارجة عن طاعة السلطان • وكانت هذه من أهم وسائل الدعاية والتوجيه في تلك الايام •

وأعد مدحت باشا حملة قوامها أربعة آلاف من الجنود النظاميين ، وألف وخمسمائة من العشائر ، بقيادة نافذ باشا • وتحركت الحملة من البصرة وهي محمولة على سفن شراعية كويتية بلغ عددها ثمانين سفينة بين كبيرة وصغيرة ، وكان معها بواخر تحمل المدافع أكبرها باخرة تسمى « بروسة » تحمل ثلاثة وعشرين مدفعاً • وفي شهر أيار من عام ١٨٧١م نزلت الحملة في رأس التنورة ، ثم استطاعت أن تحتل الأحساء كلها بعد أن خاضت معارك قليلة غير مهمة • والظاهر أن المدافع التي كانت مع الحملة هي التي ساعدت على نجاحها ، اذ أن البدو لم يكونوا يملكون من المدافع سوى عدد قليل ، وكانوا علاوة على ذلك لا يعرفون كيف يستعملونها على الوجه الصحيح •

وفي أواخر تشرين الاول غادر مدحت باشا بغداد باحدى البواخر النهرية متوجهاً الى البصرة في طريقه الى الأحساء ، وكان في عزمه أن يعيّن عبدالله الفيصل متصرفاً على الأحساء على منوال ما فعل بناصر السعدون في المنتفق ، وخصص له ثلاثين ألف قرش راتباً شهرياً • ولكنه لم يكد يصل الى الأحساء حتى وجد عبدالله قد هرب الى الرياض • وأدرك مدحت باشا أن عبدالله ليس من طراز ناصر السعدون اذ هو يريد أن يكون آمراً لا مأموراً حسب المبدأ البدوي القائل : « الامارة ولو على الحجارة » •

بقي مدحت باشا في الاحساء أربعين يوماً تفقد فيها أنحاء البلاد ، وعين فيها نافذ باشا متصرفاً ، ثم عاد الى بغداد • وقد كتب اليه السلطان عبدالعزيز

يشكره على ما فعل وأهدى اليه سيفاً مرصعاً ، وكذلك كتب اليه الصدر الاعظم أمين عالي باشا بخط يده كتابا قال له فيه : « ان نجداً ستكون جنة تجرى من تحتها الأنهار كمصــر بهمتكم في زمن قريب »[1] • وانتهز الشعراء الفرصة على عادتهم فنظموا القصائد « الرنانة » في مدح مدحت باشا وتهنئته على « الفتح المبين » وعلى اهداء السلطان له السيف المرصع ، وكان من جملة أولئك الشعراء عبدالغفار الأخرس ، والسيد أحمد بن السيد كاظم الرشتي ، ومحمد أمين العمري • وقد تضمن البيت الاخير من قصيدة العمري تاريخاً هو هذا :

وقد جذّ رأس البغي اذ قيل أرخوا   أتاك من الخاقان سيف مرصع[2]

١٢٨٨هـ

ثورة شمر :

بينما كان مدحت باشا مشغولاً باعداد حملة الاحساء أعلن عبدالكريم الصفوق شيخ شمر عصيانه على الدولة وأخذ يقطع الطرق وينهب القرى في المنطقة الواقعة بين الموصل وحلب وديار بكر • وقد أعلن مدحت باشا عن عشرة آلاف قرش مكافأة لمن يأتيه بعبدالكريم حياً ، ونصف المبلغ لمن يأتيه به ميتاً[3] •

مما يجدر ذكره في هــذه المناسبة أن قبيلة شــمر كانت آنذاك تمر بمرحلة حرجة من تاريخها الاجتماعي ، فهي كانت قبيلة بدوية على وشك أن تقع تحت تأثير الحضارة ، وكان هناك صراع شديد بين شيخها عبدالكريم الذي كان يريد بقاء القبيلة على بداوتها ، وبين أخيه فرحان الذي يريد

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٨٢ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٦٦ •
(٣) عبدالعزيز سـليمان نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص٣٧٠ •

توجيه القبيلة نحو الزراعة والاستقرار في الأرض ٠

كان فرحان من أم حضرية وقد نشأ في اسطنبول ودخل في مدارسها ، أما عبدالكريم فكانت أمه بدوية تُدعى « عمشه » وكانت تلقي في ذهن ولدها منذ صغره أن يكون فارساً بدوياً يقود قبيلته نحو الغزو ومقاتلة الحكومة على منوال ما فعل الآباء والأجداد ٠ ونشأ عبدالكريم وهو كسائر شيوخ البدو يعتبر الزراعة مجلبة للذل ، وأن مجد العرب منوط بسكنى الخيام واستعمال السيف ٠

وتذكر الباحثة آن بلنت أن عبدالكريم كان يحب فتاة طائية متزوجة على جانب كبير من الجمال ، ولما أراد أن يأخذها عنوة قطع الزوج جسمها ارباً أمامه ، فكان ذلك سبباً في أن يصاب عبدالكريم بلوثة في عقله ، وصار منذ ذلك الحين يشن الغارات ويقطع الطرق[1] ٠ وعلى أي حال فقد وضع مدحت باشا خطة محكمة للقضاء عليه بالتعاون مع والي ديار بكر ٠

جرت معارك عديدة بين عبدالكريم والقوات التركية أصيب فيها عبدالكريم بهزائم فادحة ، وهرب أخيراً مع ألفين من أتباعه نحو بادية الشام، ثم انحدر جنوباً ٠ وعندما مر قريباً من ديار المنتفق ألقى ناصر السعدون القبض عليه وسلمه جريحاً الى مدحت باشا ٠ وبعد محاكمة قصيرة صدر الحكم عليه بالاعدام ، وتم اعدامه شنقاً في الموصل ٠

أخذ مدحت باشا يسعى نحو توطين قبيلة شمر في الأرض وترك البداوة ، وجعل فرحان « متصرفاً » براتب سنوي قدره عشرون ألف قرش يأخذه من أعشار المنتوج الزراعي ٠ وقد نجحت هذه الخطة في بداية أمرها حيث بلغ عدد « الكرود » التي نصبت لارواء الأراضي هنالك مائة وسبعين كرداً[2] ٠ ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلاً ، فان « عمشة »

---

(١) نقلا عن المصدر السابق ــ حاشية ص٣٧١ ٠

(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٦٣ ٠

كان لها ولد آخر صغير اسمه « فارس » وكانت قد ذهبت بـه مع أولاد عبدالكريم الى عشيرتها في جبل حائل ، وانشأتهم هنالك على عداء فرحان وعلى عداء الحكومة والحضارة • وحين كبر هؤلاء عادوا الى قبيلة شمر واستطاعوا أن يجتذبوا عدداً كبيراً من أفرادها الى البداوة من جديد •••

زيارة الشـاه :

في عام ١٨٧٠م جاء الشاه ناصر الدين الى العراق لزيارة قبور الائمة، وكانت تلك أول مرة يزور فيها شاه ايراني العراق سلماً • وقد وردت الأوامر من اسطنبول الى مدحت باشا تأمره أن يبذل أقصى ما في وسعه للاحتفاء بالشاه وضيافته •

أخذ مدحت باشا يستعد لاستقبال الشـاه بكل جهده ، فشيد قصراً واسعاً في بستان النجيبية وهو القصر الذي صار فيما بعد مستشفى باسـم « المجيدية » • وقيل ان مدحت باشا أرسل مقاييس غرف القصـر وقاعته الواسعة الى معامل فينا لصنع الأثاث المناسب له من طراز لويس الخامس عشر ، وقد وصل الأثاث في الوقت الذي تم فيه بناء القصر • ثم صنع مدحت باشا جسراً جديداً بدلاً من الجسر القديم لمرور موكب الشـاه عليه(١) •

وصل الشاه الى بغداد في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٨٧٠م ، وكان مدحت باشا قد خرج لاستقباله الى خانقين ، ونظم المفتي محمد فيضي الزهاوي قصيدة بالفارسية ترحيباً بالشاه كان هذا مطلعها :

هزاران شكر كز فضـل وعطاي ايزد منّان

شد أز تشريف شه بغداد رشك جمله بلدان(٢)

ومعناه : آلاف الشكر لله المنّان حيث صارت بغداد بتشريف الشـاه لها محسودة من جميع البلدان •

---

(١) يوسف عزالدين (فهمي المدرس) القاهرة ١٩٧٠ – ص٤٩٢ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٢٤٣ •

كانت تلك السنة سنة غلاء وقحط شديد ، وكان مع الشاه حاشية كبيرة يتجاوز عدد أفرادها العشرة آلاف ، ومعهم أكثر من خمسة عشر ألف دابة . وقد لقي مدحت باشا مشقة كبيرة لاطعام هذا العدد الكبير من البشر والحيوان . واستمرت زيارة الشاه ثلاثة أشهر بلغ ما أنفقه مدحت باشا فيها ثلاثين ألف ليرة ، وهذا كان مبلغاً عظيماً في تلك الأيام .

وذهب الشاه لزيارة القبور المقدسة في الكاظمية وسامراء وكربلاء والنجف ، وكان مدحت باشا في صحبته اينما ذهب . وقد أراد الشاه في النجف أن يشاهد الكنوز المخزونة في المرقد المقدس وهي من هدايا الملوك والأمراء على توالي الزمان ، فأخرجها له مدحت باشا ، وظهر أن المصاحف والمخطوطات القديمة كانت قد أصابهاالتلف لقلة العناية بحفظها وهي تحت الأرض ، أما الكنوز الأخرى من الذهب والأحجار الكريمة فلم يصبها شيء من التلف ، وقد قدّر ثمنها بما يربو على الثلاثمائة ألف ليرة عثمانية. وكان رأي مدحت باشا أن تباع هذه الكنوز ويُنشأ بثمنها خط حديدي بين ايران والنجف لتسهيل سفر الزوار ، فلم يوافق علماء الدين على هذا الرأي . فأعاد مدحت باشا الكنوز الى موضعها القديم ثم ختم على بابها بختمه هو ومن كان معه من وزراء ايران(١) .

لم تخل زيارة الشاه من طرائف ونوادر صارت موضوع حديث الناس زمناً طويلاً . فالمعروف عن الشاه ناصر الدين أنه كان من دهاة الرجال وله مهارة في خلق القصص التي تكسبه اعجاب الناس ومديحهم . يروى عنه مثلاً أنه أثناء زيارته لكربلاء ذهب الى أحد العلماء الكبار وهو ملا أغا الدربندي ليزوره في بيته ، وكان هذا العالم معروفاً بالغلظة والجرأة على المجابهة لا يهاب أحداً . ولما دخل الشاه عليه لاحظ أن شوارب الشاه طويلة فأعلن انتقاده لها قائلاً يخاطب الشاه : « أنت سلطان مسلم وعدم

---

(١) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٧٠ .

قص شاربك مخالف لقوانين الاسلام » • فأسرع الشاه يطلب مقراضاً ثم قص شواربه بالمقراض قبل أن يقوم من مجلسه[1] ، فكان ذلك منه عملاً لا يخلو من دهاء ولباقة سياسية •

ويُروى أيضاً أن الشاه حينما كان في زيارة ضريح الحسين ألقى خطيب من خطباء كربلا اسمه الشيخ لطف الله كلمة بين يديه قال فيها يخاطب الحسين : « السلام عليك يا أبا عبدالله •• لقد كنت في يوم كربلا تنادي (هل من ناصر) ، فلم يأت لنصرك أحد ، أبشر اليوم فقد جاءك الناصر ! » وكان الخطيب يقصد بذلك الشاه ناصر الدين ، فأخذ الشاه يبكي بكاءاً شديداً ، ثم أمر بتخصيص مرتب شهري للشيخ لطف الله يأخذه من القنصلية الايرانية هو وأولاده من بعده •

وحدثني من أثق به أن الشاه عندما فرغ من زيارة ضريح الحسين وخرج ليلبس حذاءه في « الكشوانية » سمع المؤذن يؤذن للصلاة من على المنارة ، ولاحظ أن الأذان كان خالياً من الشهادة الثالثة ، مع العلم أن الايرانيين كانوا قد أدخلوا الشهادة الثالثة في الأذان منذ بداية العهد الصفوي • فأمر الشاه باحضار المؤذن بين يديه وأمره أمراً جازماً بأن يعيد الأذان مرة أخرى على أن يدخل الشهادة الثالثة فيه • فأطاع المؤذن أمر الشاه ، ثم اقتدى به جميع المؤذنين فيما بعد وما زالوا حتى يومنا هذا !

مشكلة نقل الجنائز :

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة الشاه ففاوضه حول بعض المشاكل التي كانت قائمة بين البلدين احداها كانت مشكلة نقل الجنائز •

والواقع أن مشكلة نقل الجنائز كانت من المشاكل المستعصية التي أدت الى الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، فقد كان الايرانيون يحرصون كل

---

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) دمشق ١٩٣٧ — ج٦ ص٦ •

الحرص على نقل موتاهم الى العراق لدفنها في النجف ، فكانت الجثث تتعفن في الطريق لطول المسافة ، وكثيراً ما كانت سبباً في نقل الامراض والأوبئة الى العراق • وقد تمّ الاتفاق بين مدحت باشا والشاه على أن لا يسمح بدخول الجنائز الايرانية الى العراق الا بعد مرور سنة واحدة على الوفاة[1] •

كان القصد من هذا الاتفاق أن يجري دفن الموتى في المقابر المحلية في ايران موقتاً لمدة سنة واحدة ، وهو ما يعرف عندهم بـ « الأمانة » ، حتى اذا انتهت السنة جاز نقل الجثث الى العراق وهي عندئذٍ ليست سوى عظام جافة لا لحم عليها ، وبذلك يمكن تجنب الضرر الناتج عنها • وقد وضعت الحكومة العثمانية على الحدود الايرانية موظفين صحيين يراقبون نقل الجنائز ويفحصونها لكي لا تكون « طرية » •

ظن مدحت باشا حين عقد هذا الاتفاق مع الشاه أن المشكلة حُلّت حلاً نهائياً واستراح الناس منها ، وقد تبيّن فيما بعد أن ظنه هذا كان خاطئاً من بعض الوجوه • ذلك أن بعض الايرانيين لجأوا الى « التهريب » في نقل جنائزهم فادى هذا الى ظهور مشكلة ربما كانت أشد ضرراً من المشكلة الاولى •

ظهر في بعض المدن الايرانية أشخاص اختصوا بتهريب الجنائز وكأنهم جعلوا ذلك مهنة لهم ، فهم يأتون بجثة الميت فينتزعون عنها اللحم بالسكين والحجر ثم يرشون على العظام مقداراً من النورة والزرنيخ ، ويتركونها معرضة للشمس والهواء حتى تصير كأنها مدفونة تحت التراب مدة طويلة • وتُحمل هذه العظام في صندوق خاص بها ، أما اللحم فيحمل في كيس ، حتى اذا وصل أصحاب الجنازة الى النجف جمعوا اللحم والعظام ، ودفنوها معاً في قبر واحد ، بعد أن يقرأوا الفاتحة والأدعية المناسبة طبعاً !

---

(١) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ص٤٥ ـ ٤٦ •

والظاهر أن رقباء الحدود فطنوا للحيلة فأخذوا يتشددون في البحث عن مخابىء لحوم الموتى المراد تهريبها ، وأخذ حملة الجنائز يتفننون من جانبهم في اخفائها عن عيون الرقباء . وتروى في ذلك نوادر عجيبة لا يزال بعض المسنين يتحدثون بها حتى الآن ، منها أن رجلاً ايرانياً كان يحمل لحم أبيه في كيس وهو في طريقه الى النجف ، وشاءت الصدفة أن أحد رفاقه في السفر شعر بالجوع وأخذ يبحث عن شيء يأكله فوجد الكيس فاستخرجه وطبخه ثم أكله ، غير أنه لم يكد ينتهي من طعامه حتى اكتشف أنه انما أكل لحم الميت ، وصار ابن الميت يلطم وجهه ويصرخ « يا ويلتاه أكلت أبي ! »[1] .

لا حاجة بنا الى القول ان نقل الجنائز عادة غير اسلامية وقد نهى عنها الامام علي نهياً شديداً وعاقب عليها[2] ، وهي انما بدأ استعمالها في القرن الرابع الهجري ثم استفحل أمرها في القرون الأخيرة . ومما يلفت النظر أن بعض المشعوذين من رجال الدين كانوا يشجعون العامة عليها ، وقد روي عن أحد هؤلاء المشعوذين واسمه الملا محمد علي الأردوبادي أنه ورد اليه استفتاء من أحد العامة يسأله قائلاً : « قد ينجم عن نقل الجنائز المفاسد ، فان أكثر المكارين يسعون عند رأس الحد لاخفاء الجنائز عن موظفي الجمارك فتراهم يكسرون العظام ويدقونها لكي يمكنهم وضعها في كيس صغير واخفائها في زاوية من زوايا الاصطبل أو في غيرها من المحال ؟ » . فكان جواب الملا محمد علي : « ان نقل الجنائز أمر قريب الوجوب . وأما ما ذكرت من كسر عظام الميت فلا بأس به فان له أسوة بمولانا علي الاكبر ... فقطعوه اربا اربا »[3] .

---

(١) هبة الدين الشهرستاني (تحريم نقل الجنائز) بغداد ١٣٢٩هـ ـ ص١٦ .

(٢) المصدر السابق ـ ص٤ .

(٣) أحمد الكسروي (التشيع والشيعة) طهران ١٣٦٤هـ ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

أعمال مدحت في بغداد :

قام مدحت باشا بأعمال عمرانية متنوعة في بغداد كانشائه أول مدرسة وأول مطبعة وأول جريدة وأول مستشفى ، كما أنشأ سكة حديد لعربات تجرها الخيول بين بغداد والكاظمية[1] • ومن الممكن اعتبار ولاية مدحت باشا نقطة تحول في حياة بغداد الاجتماعية والفكرية ، فهو قد خلب الأذهان بانجازاته الحضارية التي لم يعهد البغداديون لها مثيلاً من قبل وصارت محور أحاديثهم مدة طويلة •

يجب أن لا ننسى على أي حال أن بعض الانجازات التي اشتهر بها مدحت باشا كان قد بدأ بها ولاة سابقون ، كتشييد دار الحكومة ببغداد وهي التي تعرف بـ « القشلة » فهي قد شرع ببنائها نامق باشا ، ولم يكن لمدحت باشا من فضل فيها سوى العمل على اكمالها ، ولكنه عندما افتتحها في عهده أضاف الى سمعته هالة جديدة وجعل الناس يبالغون في الحديث عنه والثناء عليه •

كانت بغداد عند مجيء مدحت باشا اليها محاطة بسور قديم يرجع تاريخه الى العصر العباسي ، فارتأى مدحت باشا أن يهدم هذا السور ويجعل مكانه حدائق ومنتزهات عامة • والظاهر أنه لم ينجح في انشاء تلك المنتزهات اذ صار موضع السور مجموعة من الخرائب[2] ، غير أنه استطاع أن يبني بطابوق السور — وكان من النوع الجيد — عدداً من الأبنية التي ظلت قائمة ينتفع منها الناس حتى عهد متأخر ، ولا يزال بعضها قائماً حتى الآن •

---

(١) سنأتي الى ذكر هذه الأعمال بتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان « بواكير الحضارة الحديثة في العراق » •

(٢) سيتون لويد (الرافدان) ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس — بغداد بدون تاريخ — ص٢٥٥ •

لم يكلف مدحت باشا خزينة الحكومة كثيراً في بنائه تلك الأبنية ، فعلاوة على الطابوق الذي استمده من سور بغداد كان يجمع لها الأموال من تبرعات الأهالي ، وكان من جملة الذين تبرعوا لهذا الغرض : الشيخ ناصر السعدون ، وسليمان فائق بك ، والامير اقبال الدولة ، ومحمد أفندي جميل زاده ، والخواجة يوسف الكركوكلي .

ومن الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي كانت فيه سمعة مدحت باشا ترتفع في نظر الكثير من الناس كان المتزمتون من رجال الدين ينظرون اليه بعين الريبة والاستنكار ، فهو في رأيهم « متفرنج » وأن ما جاء به من تجديد خطر يهدد الدين والاخلاق تبعاً للمبدأ للقائل : « التشبه بالكافر الحاد »[1] .

ومن أعمال مدحت باشا التي أثارت عليه نقمة اولئك المتزمتين أنه حوّل بستان « النجيبية » الى حديقة عامة وأنشأ فيها جوقاً موسيقياً يعزف الألحان لروادها ، وجعل أجرة الدخول اليها خمسة قروش . ويبدو أن بعض رواد الحديقة صاروا يشربون الخمر فيها ويطلقون لأنفسهم العنان ، فأخذ خصوم مدحت باشا يتقولون عليه أنه هو الذي أباح شرب الخمر فيها .

استقالة مدحت باشا :

كان الصدر الاعظم أمين عالي باشا يعطف على مدحت باشا ويدعمه ، وحين مات هذا الرجل في أوائل عام ١٨٧٢م تولى الصدارة بعده محمود نديم باشا ، فصار هذا يشنّع على مدحت باشا أمام السلطان ويكيد له .

ورد في مذكرات مدحت باشا : أن واردات العراق وصلت في عهده الى مائتين وعشرين ألف كيس ــ أي ما يعادل مليون ومائة ألف ليرة

---

(١) منير بكر التكريتي (الزوراء) بغداد ١٩٦٩ ــ ص١١ .

عثمانية ــ وكان مدحت باشا قد تعهد بارسال خمسين ألف كيس الى اسطنبول في كل سنة ، فطلب محمود نديم باشا زيادة المبلغ الى أربعة وسبعين ألفاً ، وهذه الزيادة تقتضي تخفيض مرتبات الموظفين كما تقتضي تقليل المبالغ المخصصة للاعمار . فلم يوافق مدحت باشا على ذلك وأرسل عدة برقيات الى اسطنبول يحتج بها ويذكر فيها وجهة نظره ، فلم يصله من هنالك الجواب المقنع مما اضطره الى رفع استقالته . وقد قبل محمود نديم باشا استقالته من غير تردد[1] .

حُسبت المدة التي أمضاها مدحت باشا والياً في العراق فكانت ثلاثة سنوات وواحداً وعشرين يوماً[2] . وفي ٢٧ أيار من عام ١٨٧٢م غادر مدحت باشا بغداد متوجها نحو اسطنبول . وتُروى في هذا الصدد قصة لا ندري مبلغ صحتها ، خلاصتها : ان مدحت باشا عندما عزم على السفر لم يجد ما يكفي لنفقات سفره فرهن ساعته عند الحاج مصطفى كبة . ويروي فهمي المدرس هذه القصة بشكل آخر اذ يقول : ان مدحت باشا اضطر عند سفره أن يبيع العلبة التي أهداها له السلطان عبدالعزيز ، فطلب من صديقه معلم نسيم أن يبيعها له سراً ، وذهب هذا الى الأمير الهندي اقبال الدولة الذي يسكن الكاظمية فعرض العلبة عليه ، ولم يشأ هذا الأمير أن يأخذ العلبة فأعادها الى مدحت باشا مع مبلغ من الليرات ، ولكن مدحت باشا أعاد العلبة الى الأمير ، فأعادها هذا مرة أخرى . وهكذا كانت العلبة تذهب وتعود بين الرجلين مرة بعد مرة مما جعل الأمير يذهب بنفسه الى مدحت باشا يرجوه متوسلاً أن يقبل المبلغ مع العلبة . فأبى مدحت باشا ذلك وفضّل أن يسافر الى اسطنبول كما يسافر الفقير البائس .

ويقول فهمي المدرس في تفسير هذه القصة : ان مدحت باشا كان

---

(١) مدحت باشا (المصدر السابق) ص١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٢) انظر مجلة « الروضة » البغدادية بعددها الصادر في ٢٥ آب ١٩٥٩ .

يقبض مرتباً شهرياً قدره ألف ليرة عثمانية ولكنه « لا يصيبه منه سوى سد الرمق لما تعوده من البذل والبسط في اطعام الطعام ظهراً ومساءاً لرجال حاشيته وكبار الموظفين ومن يتعذر عليهم مفارقة الكراسي من الكتاب والمأمورين ـ لاستمرار العمل ـ وانصاف الذين يواصلون السعي معه على ضوء الشموع الى هزيع من الليل وامداد المعوزين منهم بالمال واسعافهم في الاعياد واعالة المنقطعين ... »[1] .

يخيل لي ان هذه القصة وتفسيرها هي جزء من « الاسطورة » التي اصطنعت حول شخصية مدحت باشا ، ولا أستبعد أن يكون مدحت باشا نفسه قد اختلق بذرة القصة على شكل من الأشكال ثم ترك الناس من بعده يزوّقون فيها ويبالغون كما هي عادتهم في مثل هذه الأمور .

---

(١) يوسف عزالدين (المصدر السابق) ص٤٨٨ .

تمت الفصول

ويليها ملحقان

الملحق الاول

المجتمع المصـــري

أثناء الاحتلال الفرنسي

أشرنا في الفصل الأول من هذا الجزء الى فتح نابليون لمصر في أواخر القرن الثامن عشر وما كان له من أهمية كبيرة في تاريخ الدولة العثمانية والبلاد العربية • والواقع أن هذا الحادث لا تقتصر أهميته على الناحية التاريخية فقط بل كانت له أهمية أخرى من الناحية الاجتماعية • فهو يعطينا دروساً ذات قيمة علمية لا يستهان بها حيث يصور لنا ماذا يحدث بين الناس عند احتكاك حضارتين من مستويين متفاوتين •

كان المجتمع المصري عند فتح نابليون له في مستوى حضاري منخفض ، وجاء الفرنسيون اليه وهم يحملون حضارة من مستوى أرفع نسبياً • وبذا لم يكن الصراع بين الفرنسيين والمصريين عسكرياً فقط بل كان اجتماعياً أيضاً • وهو يشـبه من بعض الوجوه ما حدث في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها عندما احتلت بريطانيا العراق وبدأ الصراع بينهـا وبين العراقيين •

أظن ان القاريء العراقي سينتفع من هذا الملحق قليلاً أو كثيراً ، فسيرى فيه أحداثاً مشابهة للاحداث التي وقعت في العراق اثناء الاحتلال البريطاني • وربما استطاع القاريء أن يخرج من هذه المقارنة بعبر اجتماعية تساعده على فهم الانسان والمجتمع على وجه من الوجوه •

قدوم الاسطول الفرنسي :

في ١٩ أيار ١٧٩٨م تحرك اسطول فرنسي ضخم من ميناء طولون

متوجهاً نحو مصر لغرض فتحها بقيادة نابليون بونابرت • وكان نابليون يومذاك في التاسعة والعشرين من عمره قصير القامة شاحب اللون رقيق البدن ليس له مهابة تؤثر في الناظر اليه غير أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة وعبقرية عسكرية لا تضاهى •

وعند اقتراب الاسطول من الساحل المصري خطب نابليون في جنوده يذكرهم بحملته السابقة في ايطاليا فقال : « ايها الضباط والجنود ، لقد حضرت قبل عامين لاتولى قيادتكم • وكنتم يومها على ساحل ليجوريا تعانون الفاقة والعوز في كل شيء ، حتى لقد بعتم ساعاتكم لتشتروا ما تحتاجون اليه • وقد وعدتكم أن أقضي على هذا الحرمان ، وقدتكم الى ايطاليا ، حيث أُعطيتم كل شيء بسخاء ، فهل بررت بوعدي لكم ؟ » فأجابوه بصوت واحد : نعم ! فواصل خطابه قائلاً : « حسناً ، دعوني أخبركم أنكم لم تفعلوا بعد للوطن ، ولا فعل الوطن لكم ، ما فيه الكفاية • واني الآن قائدكم الى بلد تفوقون فيه بأعمالكم المقبلة ما قمتم به الى الآن من أعمال تدهش المعجبين بكم ، وستؤدون للجمهورية خدمات يحق لها أن تنتظرها من جيش لا يقهر • واني أعد كل جندي أن يحصل عند عودته لفرنسا على ما يكفيه لشراء ستة أفدنة من الأرض » • وبعد أن انتهى نابليون من خطابه ارتفعت الهتافات من الجنود : « تحيا الجمهورية الخالدة » وتلتها أناشيد وطنية •

لقد كان الجنود الفرنسيون في تلك الحملة كغيرهم من جنود العالم الذين يذهبون للفتح يدفعهم دافعان : أحدهما مثالي يظهر في هتافاتهم وأناشيدهم ، وآخر واقعي يكمن في أعماق نفوسهم اذ هم يطمعون أن يشبعوا به رغباتهم المكبوتة • يقول المؤرخ هيرولد : ان الجنود الفرنسيين كانوا ، باستثناء عدد قليل منهم ، يشوب وطنيتهم ذكرى الغنائم والطعام الكثير والخمر والنساء ، وتوقع الظفر بهذا كله في وفرة تشرح الصدور ،

ولا ريب اذن في أن وعد بونابرت لرجاله بالغنيمة والمكافآت المادية آثار حماستهم أكثر من أي شيء آخر في خطابه[1] •

الحالة في مصر :

في الأول من تموز وصل الاسطول الفرنسي الى مقربة من الاسكندرية فكان منظره في البحر مذهلاً اذ كان يحتوى على زهاء أربعمائة سفينة ـ بين بارجة وفرقاطة وناقلة ـ فأثار رعباً في أهل الاسكندرية اذ هم لم يشاهدوا من قبل مثل هذا المنظر • وقد وصف الحالة مؤرخ شامي اسمه نقولا الترك فقال : ان المشاهدين من البر لا ينظرون بحراً بل سماء ومراكب « فوقع عليهم خوف عظيم ووهم جسيم ، شيء لا يُقدّر »[2] •

كان المماليك هم الحكام الفعليين في مصر في تلك الآونة ، وكان كبيرهم اسمه مراد بك ، فلما وصل الخبر اليهم بوصول الاسطول الفرنسي الى الاسكندرية أظهروا عدم الاكتراث اعتماداً على قوتهم وقالوا : « اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وانهم يحطمونهم بسنابك الخيول ، ويحصدون رؤسهم ببوارق السيوف »[3] • ويروى عن مراد بك نفسه أنه قال مفاخراً : انه سيشرح الافرنج كما يشرح التسمّام[4] •

احتل نابليون الاسكندرية من غير مقاومة تذكر ، ثم توجه نحو فتح القاهرة • ويصف المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي حالة القاهرة عند وصول الخبر اليها ـ وكان شاهد عيان فيها ـ فقال : « وفي يوم الثلاثاء

---

(١) ج • كرستوفر هيرولد (بونابرت في مصر) ترجمة فؤاد اندراوس ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص١٠ ـ ١١ •

(٢) المصدر السابق ـ ص٦ •

(٣) عبدالرحمن حسن الجبرتي (يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ـ ج١ ص٣٣ •

(٤) ج•كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٢٨ •

نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، وصاروا يكررون المناداة كل يوم ، فأغلق الناس الدكاكين والأسـواق ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خيماً ، أو يجلسون في مكان حرب أو مسجد ، ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك ، بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم ببذل أموالهم ، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ، ولكن لم يساعدهم الدهر ، وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، وصعد نقيب الأشراف السيد عمر للقلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي فنشره من القلعة الى أن وصل به الى بولاق وهو راكب ومعه ألوف من العامـة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح وبصحبته طبول وزمور وغير ذلك وأما مصر فانها بقيت خالية الطرق لا تكاد تجد بها أحداً سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون عـلى الحركة فانهم مستترون مع النساء في بيوتهم . والاسواق مجفرة ، والطرق معفرة ، من عدم الكنس والرش . وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع رطل البارود بستين نصفاً ، والرصاص بتسعين . وغلا السلاح وقل ، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصي ، ومكث المشـايخ والعلمـاء بزاوية علي بك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر . وأقام غيرهم من الرعايا ، البعض بالبيوت ، والبعض بالزوايا ، والبعض في الخيام . ومحصل الأمر أن جميع ما بمصر من الرجال تحوّل لبولاق وأقام بها ... وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون قوت يوم بيوم لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد . وتنقطع

الطرق ويعدو الناس بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً ، وكذلك العرب تغير على الأطراف والنواحي ، وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب ، واخافة طريق ، وقيام شر ، واغارة على أموال الناس ، وافساد مزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى • وطلب أمراء مصر الافرنج الذين هم تجار بمصر فحبس بعضهم بالقلعة ، وبعضهم بأماكن الأمراء ، وصاروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها ، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة ، والعامة لا ترضى الا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم ، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة في وقت الفتنة » •

ويقول الجبرتي أيضاً : ان العلماء كانوا أثناء ذلك يجتمعون « في الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار ، وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف ••• »[١] •

منشور نابليون :

لم تكد الاسكندرية تسقط في يد نابليون حتى بدأت تظهر على جدرانها أوراق مطبوعة تحتوى على خطاب من نابليون موجه الى الشعب المصري باللغات العربية والتركية والفرنسية • وفيما يلي النص العربي لهذا المنشور وهو كما يلاحظ القارىء مكتوب بلهجة عامية واطئة :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه • من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرف أهالي مصر

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٤٦ ـ ٥٠ •

جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلّطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها • فأما ربّ العالمين القادر على كل شيء فأنه قد حكم على انقضاء دولتهم • يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف الآ بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الآ لأخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فان كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبّرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها • وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الآ الظلم والطمع من المماليك• أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين • ومع ذلك

الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه • ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم • طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم • طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ••• »[1] •

لقد اعترف نابليون في اواخر أيامه عندما جاء ذكر هذا المنشور فوصفه : أنه كان قطعة من الدجل ولكنه دجل من أعلى طراز[2] • ومهما يكن الحال فقد أمر نابليون بطبع آلاف النسخ من المنشور ونشره في أنحاء مصر ، واستخدم في سبيل ذلك جواسيس من مالطة يتكلمون اللغة العربية بلهجة المغاربة ، فصار هؤلاء يخالطون الجموع المحتشدة في بولاق ويوسوسون لهم ويثبّطون من عزائمهم[3] • والمظنون أن هؤلاء الجواسيس كان لهم أثر لا يستهان به في الجماهير •

معركة الاهرام :

كان الفرق بين المماليك والفرنسيين في القتال كبيراً يلفت النظر ، فقد كان المماليك رجالاً اشداء يملكون من صفات الشجاعة والبسالة والقوة البدنية شيئاً كثيراً ولكنهم كانوا يقاتلون على طريقة أبي زيد الهلالي • أما الفرنسيون فكانوا قد جاؤوا معهم بأحدث ما وصل اليه فن الحرب من علم وتنظيم وتدريب ، وكان قائدهم نابليون كما أشرنا اليه من

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٩٦ ــ ٩٨ •
(٢) المصدر السابق ــ ص١٩ •
(٣) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٣٧ •

قبل يملك عبقرية عسكرية لا تضاهى ، وقد عده بعض المؤرخين أعظم قائد عسكري أنجبته العصور الحديثة .

وصف ضابط فرنسي فرسان المماليك أثناء تهيؤهم لخوض احدى المعارك فقال : « كانت الصحراء تمتد الى الخلف ومن فوقها السماء الزرقاء ، وأمامنا الخيول العربية الجميلة المطهمة تنفخ وتصهل وتطفر في رشاقة وخفة تحت راكبيها من المقاتلين المدججين بسلاح يخطف بريقه الأبصار ، مرصع بالذهب والجواهر الكريمة . أما ملابسهم فزاهية الألوان ، وأما عمائمهم فيعلوها ريش مالك الحزين ، وبعضهم يلبسون الخوذات المذهبة . وأما سلاحهم فالسيوف والرماح والصوالج والحراب والبنادق والبلط والخناجر ،ويحمل كل منهم ثلاثة أزواج من الطبنجات ... » ويضيف المؤرخ هيرولد الى هذا الوصف قائلاً : « كل مملوك كان (جبخانة) تمتطي جواداً ، فهذا الفارس الذي يركب على الطريقة القوقازية يطلق أولاً قربينته ثم يدسها تحت فخذه ، وبعدها يطلق طبنجاته ويقذف بها من فوق كتفه ليلتقطها خدمه بعد حين ، ثم يقذف الجريد الفتاك ، وهو سهام طولها أربع أقدام مصنوعة من جريد النخل بعد شقه وثقفه ، وأخيراً يهاجم العدو بسيفه الأحدب ، وقد يحمل سيفين في آن واحد ويضرب بهما ولجام الجواد بين نواجذه . وقد علمته سنوات طويلة من المرانة أن يفصل الرأس عن الجسد بضربة عكسية لا ثاني لها ... »[1] .

كان المماليك قد حشدوا جموعهم للدفاع عن القاهرة في جبهتين : الأولى في قرية بولاق[2] على الضفة الشرقية من النيل بقيادة ابراهيم بك ،

---

(١) ج.كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٢٧ .

(٢) لم تكن بولاق يومذاك متصلة بمدينة القاهرة كما هي عليه الآن، بل كان يفصل بينهما سهل مترب خال من العمران . فقد كانت مساكن القاهرة تنتهى عند بركة الازبكية التي هي الآن حديقة عامة ، وكانت قد بنيت على ضفاف البركة قصور باذخة لبعض أمراء المماليك .

والاخرى في قرية أمبابة على الضفة المقابلة من النيل بقيادة مراد بك . ويعتقد الخبراء العسكريون أن مراد بك ارتكب خطأً حربياً جسيماً بمقابلة الفرنسيين عند أمبابة ، اذ كان الواجب عليه أن يجمع قواته الى قوات ابراهيم بك في بولاق ويترك للفرنسيين مهمة عبور النيل من أجل دخول القاهرة ، وهي مهمة لا تخلو من خطر على الجيش الفرنسي المهاجم . ويقال ان النفرة والتنافس والتحاسد بين القائدين كانت سبباً في هذه الخطة الخاطئة[١] .

وقعت المعركة الفاصلة في امبابة في ٢١ تموز ١٧٩٨م ، وقد أطلق المؤرخون على تلك المعركة اسم « معركة الاهرام » لأن الأهرام كانت تلوح للناظر من ساحة القتال على الرغم من أنها كانت على بعد عشرة أميال منها . وقد خطب نابليون في جنوده عند بدء المعركة قائلاً لهم : « أيها الجنود ان أربعين قرناً تنظر اليكم من قمة هذه الأهرام »[٢] .

أمر نابليون جنوده بأن يكونوا على هيئة مربعات ، وهي خطة أذهلت المماليك . والواقع أن المماليك قاتلوا ببسالة نادرة ، فكانوا يرمون بأنفسهم الى ساحة القتال لا يبالون بالموت ، وأخذ الموت يحصدهم حصداً . وكان أشدهم في ذلك رجل اسمه أيوب بك الدفترار فقد هجم بحصانه على الفرنسيين وهو يصيح فيهم على طريقة أبي زيد الهلالي : « ويلكم يا لئام ، ساقكم الغرور لفتح هذه الثغور ، اليوم نملأ منكم القبور ... » ، ولكنه سقط قتيلا وداسته الخيل[٣] .

وذكر الجبرتي : أن الجموع الذين كانوا محتشدين في بولاق في الضفة المقابلة من النيل أخذوا يصرخون : يا رب ، يا لطيف يا رجال الله ،

---

(١) عبدالعزيز محمد الشناوي (عمر مكرم ــ بطل المقاومة الشعبية) ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص٤٠ ــ ٤١ .

(٢) في . كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٣٣ .

(٣) المصدر السابق ــ ص١٣٥ .

ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يقاتلون بصياحهم وجلبتهم ، فكان العقلاء منهم يأمرونهم بترك الصياح ويقولون لهم ان الرسول والصحابة انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح ، فلم يستمع أحد منهم لهذه النصيحة ، ومن يقرأ ومن يسمع[1] .

حاول المماليك الذين كانوا في بولاق أن يعبروا النهر بالسفن لنجدة اخوانهم في أمبابة ، ولكن الهزيمة كانت قد حلت بهؤلاء قبل أن يتمكن أولئك من العبور . وكانت هزيمة شنعاء تشبه أن تكون مجزرة ، وكان منظر جثث الرجال والخيل رهيباً لكثرة ما أريق من دماء في ساحة المعركة، وغرق مئات من المماليك في النيل أو قتلوا بمدافعهم التي صوبها الفرنسيون عليهم .

شيوع الذعر :

بعد أن حلت الهزيمة المنكرة بجيش المماليك في أمبابة فر مراد بك مع من بقي معه من أتباعه نحو الصعيد ، كما فر ابراهيم بك نحو بلاد الشام . وكانوا قبل فرارهم قد أشعلوا النار في السفن التي كانت راسية في النيل وكان عددها يناهز الثلاثمائة . وعندما حل المساء صار أهل القاهرة يشاهدون اللهب المتصاعد من السفن في النهر ، وباتت منائر القاهرة طوال الليل ينعكس ظلها بتأثير أضواء اللهب الآتية من النيل ، كما انعكست الأضواء على جوانب الأهرام البعيدة . وظن الناس أن الافرنج أحرقوا الجيزة وبولاق ، وانتشرت الاشاعة أنهم قادمون نحو القاهرة وأن طلائعهم وصلوا الى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء[2] . ومما زاد في الوضع سوءاً عودة الجموع من بولاق وهم يلطمون وجوههم ويقولون : « يا ويلنا قد وقعنا في أسر الافرنج ! »[3] .

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٣٧ .
(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٣ ـ ٥٤ .
(٣) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٣٨ .

يقول الجبرتي : « ... فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أي طريق يسلكون ، وأي جهة يذهبون ، وأي محل به يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه ، وخرج غالب النساء حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع . فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته أو يسد جوعه ، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوت عن الحصر ... وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وعروا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان ، فمنهم من رجع من قريب وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين ، ومنهم من جازف متكلا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله ولا سمعنا بما يشابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، وما راءٍ كمن سمع »[1] .

ولم تسلم دور المماليك في القاهرة آنذاك من النهب والتخريب ، فقد انتهز الأوباش واللصوص الفرصة ـ كعادتهم في مثل هذه الحالة ـ وأخذوا يعيثون فيها كما يشتهون ، حيث انتهبوا ما كان في الدور من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان[2] .

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ـ ج١ ص٥٧ .

الافرنج في القاهرة :

أدرك الناس بعد فوات الأوان أن الخطر الذي كانوا يخشونه لا وجود له ، وأن الفرنسيين لم يعبروا النيل وأنهم لا يزالون في الجانب الآخر منه . فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ثم اتفقوا على كتابة رسالة الى الافرنج واختاروا لحمل الرسالة رجلاً مغربياً يعرف لغتهم ورجلاً آخر معه . وذهب الرجلان فقابلا نابليون في الجيزة ، فبش نابليون لهما وطمنهما وسألهما : « اين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لمَ تأخروا عن الحضور لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ » .

وبعد مفاوضات تم تسليم القاهرة لنابليون ، فدخلت طلائع الجيش الفرنسي اليها في ٢٣ تموز . ثم دخل نابليون الى القاهرة في اليوم التالي وكانوا قد أعدوا له قصراً فخماً من قصور المماليك في حي الازبكية ، وكان هذا القصر قد بناه صاحبه حديثاً وبذل في زخرفته وتأثيثه أموالاً عظيمة ثم تركه من غير أن يهنأ به ، وكأنه كان قد بناه من أجل نابليون !

ونصب الفرنسيون جسراً من القوارب على النيل لكي يعبره الجنود ، وكانت القاهرة آنذاك خاوية خالية لا يشاهد في شوارعها غير السارقين المتلصصين ، وغير الكلاب والقطط وبعض العجائز المقنعات . ثم أخذ المارة يتكاثرون وكان أولهم الباعة المتجولون الذين يتجرون في كل سلعة حتى البغايا . ثم أخذ رجال الشرطة يتجولون ليلاً ونهاراً للقضاء على اللصوص والقتلة ، وكان الجلادون يسيرون معهم ، فاذا أمسكوا برجل مشتبه به حكموا عليه بالموت فوراً وسرعان ما يسقط رأسه الى الأرض[١] .

ولم يمض وقت طويل حتى أدرك سكان القاهرة أن الافرنجي على خلاف ما صورته الاشاعات سابقاً من أنه شيطان طول أظافره قدم . والواقع ان الجنود الفرنسيين أخذوا يتبعون مع الأهالي سياسة التحبب والمحاسنة ،

---

(١) ج. كروستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢١٣ ـ ٢١٤ .

وصاروا يضاحكون الباعة ويشترون ما يحتاجون اليه منهم بالثمن الغالي قياساً على أسعار بلادهم ، وكان هذا مصدر دهشة الناس لأنهم كانوا قد اعتادوا في العهود السابقة أن ياخذ الجندي ما يريد دون أن يدفع له ثمناً وربما اعتدى على البائع وضربه علاوة على ذلك .

يقول الجبرتي في معرض حديثه عن سلوك الفرنسيين في أسواق القاهرة : « ثم أن عساكرهم صارت تدخل الى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات وسكنوا البيوت وجافت منهم الحارات ، ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، وهذه من أعظم المكايد لأجل اضلال عقول العامة ، وانهمكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السعرانين ففجر السوقه وصغروا الخبز وطحنوه بترابه وباعوا البيضة بنصف فضة بعد أن كانوا يبيعون كل أربع بيضات بنصف ، وفتح الناس عدة دكاكين بجوارهم يبيعون فيها أصناف المأكولات كالفطير والكعك والسمك المقلي واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك ، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع المسكرات وعدة خمامير وقهاوي ، وطافت جماعة من النصارى في الاسواق تبيع العرقي كسقاة الماء وصاروا ينادون به في الأسواق بلغتهم وفحش ذلك جداً »[1] .

وكان نابليون قد أصدر في ٢٥ تموز مرسوماً بتشكيل ديوان للحكم مؤلف من أعيان القاهرة وعلمائها ، وكان هذا على حد تعبير الدكتور لويس عوض « أول مجلس للوزراء عرفته مصر »[2] ، فقد كان في مصر قبل هذا ديوان للحكم ولكن عضويته كانت قاصرة على الاتراك والمماليك أما الآن فقد صار مصرياً خالصاً . ويقول الدكتور عوض في وصف هذا الديوان :

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٥٩ ـ ٦٠ .
(٢) لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث ـ الفكر السياسي والاجتماعي) ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص١٩ .

« ولا شك أن هذه الواجهة من الحكم المصري كانت في حقيقتها (وزارة دمى) ، وهي حال كل وزارة من أبناء البلاد في أي بلد تحكمه سلطة عسكرية أجنبية تحتله . ولكن مجلس الوزراء المصري لم يكن مجرداً تماماً من الارادة المستقلة ولا سيما في الأمور التي لا تتعارض مع مصالح الفرنسيين المباشرة وقد كان يباشر اختصاصه المحدد في تعيين الموظفين رغم معارضته الفرنسيين في بعض الاحيان ... »[١] .

نابليون والاسلام :

اتخذ نابليون منذ دخوله مصر سياسة التقرب من المسلمين والتحبب اليهم ، وقد أعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سيعتنق الاسلام ، ولبس العمامة والقفطان في أحد الأيام ، وصلى مع المصلين ، وقال لأحد مشايخ الدين : انه ينوى « اقامة حكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن التي هي وحدها المبادىء الحقة القادرة على اسعاد الناس » .

وحاول نابليون أن ينشر بين المصريين اشاعة مفادها أن النبي ظهر له في المنام وقال له : « اجهر بايمانك بأركان ديني لأنه دين الله . ان العرب في انتظار هذه العلامة ، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك » . وتقول الاشاعة ان نابليون التمس من النبي مهلة سنة واحدة ليعد فيها جيشه ، فأعطى النبي له المهلة ، وتعهد نابليون بأن يبني مسجداً عظيما وأن جيشه كله سيعتنق الاسلام[٢] .

وحين اقترب موعد الاحتفال بالمولد النبوي تساءل نابليون عن سبب امتناع المسلمين عن اقامة شعائر المولد كعادتهم في كل سنة فاعتذر السيد خليل البكري بتعطل الأمور وتوقف الأحوال ، فأمره نابليون باقامة الشعائر

---

(١) لويس عوض (تاريخ الفكر المصري الحديث ـ الخلفية التاريخية) ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٥ .

ومنحه ثلاثمائة ريال فرنسي ليستعين بها على ذلك ، فأُقيمت الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليها ، وشارك الفرنسيون فيها « ولعبوا ودقوا طبولهم، وأحرقوا حراقة في الليل وسواريخ تصعد في الهواء ونفوط »[١] .

وأمر نابليون بأن تقام احتفالات مماثلة في غير القاهرة من المدن ، وأن يشارك القواد الفرنسيون فيها . وكان نابليون قد حضر الوليمة التي أقامها السيد خليل البكري بالمناسبة ، فاستمع الى تلاوة القرآن بخشوع . وعندما قُدّم الطعام وهو عبارة عن تلال من الرز واللحم عليها شحم الضأن قاوم نابليون شعور الغثيان ومدّ يده نحوها آكلاً . ثم وصل الى دار البكري موكب يتقدمه جوق موسيقي عسكري وفيه جميع الضباط يرافقهم حملة المشاعل[٢] .

يمكن القول على أي حال ان هذه المراءاة التي تظاهر بها نابليون لم تؤثر الا في القليل من الناس ، وبقي أكثرهم ولا سيما رجال الدين في شك منه وريبة ، يذكر المؤرخ نقولا الترك أنهم كانوا يقولون : « كل هذا خداع ومخاتلة لبينما يتملك ، وأما هو نصراني ابن نصراني »[٣] .

وكان نابليون يسعى نحو ازالة الريبة من قلوبهم بكل وسيلة ، فكان في احاديثه مع شيوخ الأزهر يحاول أن يقنعهم بأن النبي خصه بعنايته وأن ذلك هو الذي مكّنه من هزيمة المماليك الشجعان ، وأن القرآن تنبأ بذلك في عدة آيات . وفي احدى مناقشاته معهم ذكر لهم أنه يرغب أن يعتنق الاسلام هو وجيشه ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان : أولاهما مسألة الختان ، والثانية تحريم الخمرة . فكان جوابهم له : أن الختان مستحب وليس واجباً ، أما الخمرة فهي اثم ولكنها لا تجعل شاربها مارقاً عن الاسلام اذ قد يشربها الانسان ويبقى مسلماً[٤] . ثم طال الجدل بينهم ، ولا ندري

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٦٧ .
(٢) ج. كروستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٠٧ — ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق — ص٤٣٨ .
(٤) المصدر السابق — ص٢٥٣ — ٢٥٥ .

على وجه اليقين ما هي النتيجة التي انتهى الجدل اليها •

صدر منذ عهد قريب كتاب صغير لمؤلف باكستاني بعنوان « نابليون المسلم » ، وقد حاول فيه مؤلفه أن يبرهن على أن نابليون اعتنق الاسلام عن اخلاص • وجاء في الكتاب ما يلي ننقله بنصه :

أولاً ــ رب منتقد يقول ان هذا التحول الديني باب من أبواب الاسترضاء ولكن نابليون لم يكن بحاجة الى مثل ذلك وهو القرم العنيد الذي لم تلن له قناة حتى مع أكبر قواده •

ثانياً ــ اذا كان ادعاؤه الاسلام مع استثنائه من شرطي الختان والخمرة بدعة استرضائية فلماذا عمد الى بناء جامع كبير وأباح لجنوده ومقربيه اعتناق الاسلام ؟

ثالثاً ــ ألم يصرح بأن جميع بني الانسان متساوين فما يفضل انسان على آخر الا بالتقوى كأنه استوحى آية القرآن وآمن بها ؟

ثم يختم المؤلف الباكستاني كتابه بعبارة أشار بها الى أن شعر نابليون وأظافره نمت بعد موته ، واعتبر ذلك ظاهرة عجيبة لا سابقة لها في التاريخ وقال : « وليس لها من تفسير الا ما برره الايمان بحلول القوة الالهية جزاء للتقوى ، تغمد الله روح نابليون الكبير برحمته ورضوانه »[1] •

اننا ننقل رأي هذا المؤلف الباكستاني من غير تعليق ، ونترك للقارىء أن يحكم له أو عليه •

جاك عبدالله مينو :

بينما كان نابليون يعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سوف يعتنق الاسلام ، كان هناك قائد فرنسي آخر اعتنق الاسلام فعلاً وسمى نفسه « عبدالله مينو »

---

(١) أبو أحمد جل الوحيد (نابليون المسلم) مترجم عن الانكليزية ــ المترجم غير مذكور ــ بيروت ١٩٥٤ ــ ص١٦ ــ ٦١ •

وأخذ يوقع رسائله بهذا الأسم الجديد .

كان هذا القائد يومذاك في الخمسين من عمره يرأس القوة الفرنسية في بلدة رشيد ، وعندما اعتنق الاسلام أخذ يقوم بكل ما يفرضه الاسلام على أتباعه من شعائر وعبادات ، فكان يتلو القرآن ، ويؤدي الصلاة في المسجد في كل جمعة ، ويقيم الصلوات الخمس في تعبّد ظاهر . وتزوج فتاة علوية كان أبوها صاحب حمام في رشيد اسمها « زبيدة » ، وقيل انه تزوجها على الطريقة السائدة في البلاد الاسلامية يومذاك أي أنه عقد عليها قبل أن يراها[1] . غير أنه استطاع أن يحصل على اعفاء من الختان[2] .

أصبح اسلام مينو حكاية غريبة يتناقلها الناس في جميع أنحاء مصر ، وأخذ الجنود الفرنسيون يعلّقون عليها تعليقات شديدة البذاءة . أما نابليون فأدرك أن هذا الحدث قد أضفى شيئاً من المعقولية على وعده بتحول الجيش الفرنسي كله الى الاسلام ، وكتب الى مينو يهنؤه على « تضحيته » في سبيل القضية « الوطنية »[3] .

وقد اختلفت الآراء في تعليل اسلام مينو ، فمن قائل انه انما أعلن اسلامه من أجل الزواج بزبيدة لأنها كانت فتاة مغرية أيقظت بمفاتنها شهواته وعبثت بعقله ،ومن قائل انه فعل ذلك لدافع سياسي اذ المعروف عنه أنه كان أكثر القواد الفرنسيين بمصر تحمساً لسياسة الاندماج مع الأهالي وكان رأيه أن مصر يجب أن تبقى مستعمرة فرنسية أبداً . ولست أدري ما هو رأي المؤلف الباكستاني في هذا الشأن ؟ أحسبه يقول بأن اسلام مينو كان نتيجة اخلاص واقتناع عميق ـ والله أعلم !

ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة أن قائداً فرنسياً من أصدقاء

---

(١) ادوار لوكروا (الجزار قاهر نابليون) بيروت بدون تاريخ ـ ص ١٨٠ .

(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٥ .

(٣) المصدر السابق ـ ص٥٠٥ .

مينو كتب اليه يسأله : هل أن زوجته المسلمة جميلة ، وهل في نيته أن يتحفها برفيقات لها جرياً على عادة أهل البلاد ؟ فأجابه مينو قائلاً : « يا عزيزي الجنرال ، ان زوجتي ... طويلة القامة ، مبسوطة الجسم ، حسنة الصورة من جميع الوجوه . فلها عينان رائعتان ، ولون بشرتها هو اللون المصري المألوف ، وشعرها طويل فاحم . وهي لطيفة الطبع ، وقد وجدتها تتقبل كثيراً من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت ... وأنا لم ألح عليها بعد في الخروج سافرة على الرجال ، فهذا يأتي شيئاً فشيئاً .. ولن انتفع بما أباحه النبي من الزواج بأربع نساء خلاف السراري : فان في النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة ؟ وفي زوجة واحدة أكثر من الكفاية لي »[1] .

المجمع العلمي المصري :

كان نابليون قد استصحب معه الى مصر ١٦٧ رجلاً من المختصين بمختلف العلوم والفنون ، فكان فيهم الفلكيون والرياضيون والكيميائيون والأطباء والآثاريون والمعماريون وعلماء المعادن والنبات والحيوان والمصورون وغيرهم ، وقد ألّف من هؤلاء مجمعاً سُمّي بـ « المجمع العلمي المصري ».

لقد كان هدف نابليون من فتح مصر تحويلها الى مستعمرة فرنسية ، وأراد من أعضاء المجمع أن يساعدوه على جعل مصر أكثر عمرانا وانتاجاً ونظاماً لكي يزداد بذلك كسب فرنسا منها .

كان نابليون كصاحب البقرة الذي يغذيها جيداً ويعتني بها لكي يزداد لبنها ، وهو بذلك يختلف عن معظم الفاتحين القدامى الذين دأبوا على استهلاك أقصى ما يستطيعون من البقرة حتى اذا ماتت أكلوا لحمها وقرمطوا عظامها . يقول المؤرخ هيرولد في وصف نابليون : « كانت القدرة على الجمع بين حب العظمة الشخصية ونفع الناس احدى المواهب الكثيرة

---

(١) المصدر السابق ـ ص٥٠٥ .

التي تفرد بها . فأنشأ المجمع العلمي المصري معيناً له ، وضرباً من التجميع لأرباب الفكر ، لتساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته في ادارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها في المستقبل . وكان هذا الهدف في ذاته جديداً لم يسبق له نظير ... »[1] .

اتخذ المجمع مركزه في قصر فخم من قصور المماليك في حي الناصرية في القاهرة ، وأضاف اليه مجموعة من المباني المحيطة به ، وما لبث أعضاء المجمع أن أنشأوا حديقة للحيوان وأخرى للطيور ، وثالثة للتجارب الزراعية ، ثم أسسوا مختبراً كيمياوياً ، ومتحفاً صغيراً للتاريخ الطبيعي ، ومكتبة ، ومرصد ، ومطبعة ، ومجلة ، ونواة لمتحف للآثار ، ومعمل لصنع الآلات التي يحتاجون اليها أو لاصلاحها . وكانت المهام العملية التي كُلّف بها أعضاء المجمع قسمين : الأولى عاجلة وهي العمل على اقامة طواحين الهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، واصلاح النظام المالي ، وصنع الأدوات التي لا يمكن جلبها من فرنسا بسبب الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا . أما المهام الآجلة فهي العمل على دراسات تتناول شق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الابيض ، وبناء سدود على النهر للاستفادة من مياهه على نحو أفضل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، ووضع نظام تعليمي جديد ، وغير ذلك .

وانصرف أعضاء المجمع الى هذه المهام بدأب عجيب ، وفي خلال السنوات الثلاث التي عملوا فيها بمصر انتجوا أثراً خالداً من آثار البحث الجماعي هو كتاب « وصف مصر »الذي يحتوى على أربعة وعشرين مجلداً ضخماً ، وقد طبع في فرنسا بين عام ١٨٠٩ و ١٨٢٨م[2] .

---

(١) المصدر السابق ــ ص٢٣٠ .

(٢) توجد في بغداد نسخة من هذا الكتاب بمجلداته المتعددة عند السيدة مرغريت مكية استاذة التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد .

وفتح المجمع قاعاته ومكتبته لمن يريد الاطلاع عليها من الفرنسيين أو المصريين • يقول الجبرتي : « واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد والاقاليم ••• ولقد ذهبت اليهم مراراً واطلعوني على ذلك ••• » • ويصف الجبرتي كيف قام العلماء الفرنسيون أمامه ببعض التجارب الكيميائية والفيزيائية ، ثم يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا »[١] •

يقول الدكتور حسين فوزي النجار : « وقد كشف مجيء الحملة الفرنسية عن عظم الهوة التي تفصل بين حضارة الغرب الناهضة المتقدمة وحضارة الشرق الآفلة والتي لم يبق منها غير تلك الذبالة التي تلفظ أنفاسها في رحبات الأزهر ••• »[٢] •

مخترعات الحضارة :

مما يجدر ذكره ان الحضارة الأوربية كانت يومذاك في بداية ازدهارها ، ولم تكن المخترعات العجيبة التي نشهدها الآن قد ظهرت ما عدا بعض الأوليات منها ، كالساعة والمطبعة ، والمدفع والبندقية ، والعربة المركبة على نوابض وعجلات ، والنواظير المقربة والمكبرة ، والأداة التي تنتج تياراً كهربائياً ضعيفاً ، والمحرك البخاري ، والمنطاد الذي يرتفع في الهواء بتأثير الدخان • وكان المصريون يعرفون بعض تلك المخترعات قبل مجيء

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٣٥ ـ ٢٣٧ •
(٢) حسين فوزي النجار (رفاعة الطهطاوي) ـ القاهرة بدون تاريخ ص ١٧ •

نابليون ، كالساعة والمدفع والبندقية ، أما المخترعات الأخرى فكانوا يجهلونها ، وقد حاول الفرنسيون اثارة دهشتهم بها فنجحوا تارة وفشلوا تارة أخرى .

يحدثنا الجبرتي عن الأداة التي تنتج التيار الكهربائي ، وكان قد شهدها عند زيارته للمجمع العلمي ، فيقول : « ... ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا أمسك علاقتها شخص ، ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفاً أو أكثر ... »[١] .

يظهر أن الفرنسيين لم يكتفوا بالتجارب العجيبة التي يقومون بها في مختبرات المجمع العلمي والتي يشهدها قلة من الناس ، فأرادوا تطيير منطاد في سماء القاهرة ليشهده آلاف الناس . وكان المنطاد قد اخترعه اخوان فرنسيان اسمهما « مونتغولفيه » في عام ١٧٨٣م ، وهو عبارة عن كرة كبيرة مصنوعة من القماش الخفيف والورق لها فتحة في أسفلها وتنصب فوق موقد يخرج منه دخان كثيف ، فعندما تمتليء الكرة بالدخان ترتفع في الجو عالياً ، وقد تبقى في الجو عدة دقائق وهي تحمل قفصاً فيه حيوانات أو بشر[٢] . وقد استطاع بعض المغامرين في فرنسا أن يعبروا بحر المانش بمنطاد من هذا النوع .

أمر نابليون بصنع منطاد في القاهرة ليطير به رجل على مشهد من

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٣٧ .

(2) ... (One Hundred Great Lives) London 1948 — P. 47—51.

الجمهور • وقد تم صنع المنطاد فعلاً ولكن أحداً لم يتطوع لركوبه مخافة أن يهبط به وسط خيام البدو • وقد كان البدو في تلك الأيام يعادون الفرنسيين فاذا أمسكوا بواحد منهم لاطوا به قسراً انتقاماً منه • واضطر الموكلون بأمر المنطاد أن يطلقوه في الجو من غير أن يكون فيه انسان ، بل ملأوه بالمناشير المطبوعة • ولم يكد المنطاد يرتفع حتى اشتعلت فيه النار ، وأخذت المناشير تنزل منه مبعثرة ، وشعر المشاهدون من المصريين بأنهم انخدعوا • وكان الجبرتي من جملة المشاهدين فقال يصف ما حدث : « فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة ••• بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح » •

وقام الفرنسيون بمحاولة أخرى في اطلاق منطاد ، فارتفع المنطاد واندفع مع الريح حتى وصل الى بعض التلول القريبة من القاهرة فسقط عليها • ويتهكم الجبرتي على هذه المحاولة الثانية فيقول : « ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة بزعمهم »[1] •

أسباب الثورات :

ان السنوات الثلاث التي كانت مصر فيها تحت وطأة الاحتلال الفرنسي مليئة بالانتفاضات الشعبية والثورات، فقد نشبت في القاهرة ثورتان عارمتان : أحداهما في تشرين الاول من عام ١٧٩٨م والثانية في آذار من عام ١٨٠٠م، كما نشبت ثورات أخرى في مختلف أنحاء القطر •

ليس من العجيب أن تنشب ثورات في أي بلد يقع تحت وطأة احتلال أجنبي ، ولا سيما اذا كان سكان البلد على دين غير دين المحتلين ، فهذا أمر

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢١٢ ـ ٢١٣ •

يكاد يكون طبيعياً . ومع ذلك فاننا سنحاول فيما يلي ذكر الاسباب التي نراها ذات أثر في تحريض المصريين على مقاومة الاحتلال الفرنسي :

أولاً ـ كان الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال نلسن قد أنزل ضربة ماحقة بالاسطول الفرنسي في أبي قير بالقرب من الاسكندرية ، وذلك في بداية شهر آب من عام **١٧٩٨م** ، وبذا انقطع الاتصال بين فرنسا والجيش الفرنسي في مصر ، فاضطر نابليون أن يعتمد في تموين جيشه على الضرائب والغرامات والقروض الاجبارية مما جعل المصريين يتذمرون. وكان أشد الضرائب وقعاً على سكان القاهرة ضريبة العقار ، فقد فرض الفرنسيون على الدار من المستوى الأعلى ثمانية فراسنة ، والأوسط ستة ، والأدنى أربعة ، ولم يعفوا من الضريبة سوى الدار التي يقل ايجارها الشهري عن الريال الواحد . وفرضوا الضرائب كذلك على الوكايل والخانات والحمامات والسيارج والحوانيت كل بحسبه ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها على الجدران ، وعينوا المهندسين والخبراء لتقدير الضريبة على كل موضع . وكانت هذه الضريبة هي السبب المباشر لثورة القاهرة الاولى حسب رواية الجبرتي[1] .

ثانياً ـ أنشأ الفرنسيون عند دخولهم القاهرة جهازاً للشرطة مؤلفاً من المصريين ، ولم يقبل الدخول في سلك الشرطة سوى السفلة والشذاذ من الناس وصار هؤلاء يتحكمون في الأهالي ويقسون عليهم ، وكان أبرزهم رجل رومي اسمه بارتلميو ، وقد أطلق عليه الأهالي اسم « برطلمين » ، وسماه بعضهم « فرط الرمان » ، وكان في أول أمره ذا دكان في سوق الموسكي يبيع فيه القوارير ، ثم صار في عهد الاحتلال الفرنسي جلوازاً كبيراً يقود سرية من الشرطة كلهم من الأدنياء مثله . فكان يخرج في الشوارع بقامته الطويلة وهو راكب فرسه ، وقد تخرج زوجته العملاقة معه

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٣ ـ ٩٤ .

أحياناً فتركب فرساً الى جواره . وكان أحب الأمور اليه قطع الرقاب بالجملة ، « وكان منظره وهو يسير الى القلعة وقد جرد سيفه في يده ، ومن خلفه ضحاياه المكبلين ، ما يكفي لاخماد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين »[1] .

ثالثاً ـ كان الفرنسيون على أثر دخولهم القاهرة قد اتخذوا بعض الاجراءات الشديدة من أجل تنظيف المدينة وتنظيمها وتقليل خطر الأوبئة فيها ، فقد هدموا جميع البوابات التي تفصل أحياء المدينة والحارات بعضها عن بعض ، وأمروا كل ذي دار أن يضع قنديلاً مضيئاً أمام داره طوال الليل ، كما أمروا بوضع قنديل على كل ثلاثة دكاكين ، وألزموا الناس بالكنس والرش وازالة القذارة والقطط الميتة من الطرق القريبة منهم ، ووضعوا السم للكلاب ، ومنعوا من دفن الموتى في المساجد والمواضع القريبة من المساكن ، ونودي في الأسواق بنشر الثياب والامتعة وتعريضها للهواء والشمس خمسة عشر يوماً ، وعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك ، وأمروا ذوي المرضى أن يبلغوا عن مرضاهم لكي يعودهم الأطباء الفرنسيون ، وأن يبخروا مساكنهم دفعاً للتعفن وانتشار الأمراض[2] . وهذه اجراءات لم يكن الأهالي قد اعتادوا عليها ، فصاروا يتخوفون منها ويتهربون ويتذمرون كما هو دأب الناس في البلاد المتخلفة دائماً .

رابعاً ـ كان دخول الفرنسيين للقاهرة سبباً في نشر السفور والتبرج والخلاعة بين النساء ، فادى ذلك الى امتعاض الأهالي وتذمرهم الشديد . يقول نقولا الترك في وصف ذلك : « فلهذا السبب صعب جداً دخول الافرنج على المصريين الى هذه الديار ولا سيما اذ كانوا يرون نساءهم

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٧٥ ، ٩١ ـ ٩٢ .

وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين الافرنج جهاراً ، ماشين معهم في الطريق ، نايمين قائمين في بيوتهم ، فكانوا يكادون أن يموتوا من هذه المناظر ... »[1] . ويذكر الجبرتي ذلك بصورة أكثر تفصيلا فيقول : « لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخلن مع الفرنسيس لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهم ... ولما وفى النيل ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهن لهم في المراكب ، والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة ، وصحبتهم آلات الطرب وخدمة السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاذبون الصوت في تحريك المقاذيف بسخائف موضوعاتهم ، وكثائف مطبوعاتهم ، وخصوصاً اذا دبت الحشيشة في رأسهم وتحكمت في عقولهم ، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم بشيء كثير ... »[2] . وكان مما حز في قلوب المصريين أشد من غيره تبرج زينب بنت السيد خليل البكري نقيب الاشراف ومخالطتها للفرنسيين وهي لم تكن آنذاك قد تجاوزت السادسة والعشرين من عمرها ، وشاع بين الناس أنها صارت عشيقة لنابليون وخليلته .

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٦١ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٣٢ — ١٣٤ .

خامسة ـ كان النصارى في مصر لهم زي خاص يتميزون به عن المسلمين ، ولم يكن يجوز لهم أن يحملوا السلاح أو يركبوا الخيل ، فلما احتل الفرنسيون مصر أمروا بالمساواة بين الناس من غير تفريق بينهم على أساس من الدين أو غيره . والظاهر أن البعض من النصارى واليهود قد فرحوا بالوضع الجديد واشتطوا فيه ، فساء المسلمين ذلك . وكان مما زاد في استياء المسلمين أنهم شاهدوا نساء النصارى واليهود تنتشر بينهن « موضة » السفور تقليداً للفرنسيين . وصار المسلمون يشكون الى نابليون من ذلك فأصدر نابليون أمره بان يعود النصارى واليهود الى ارتداء عمائمهم القاتمة وأحزمتهم المزركشة وأحذيتهم السوداء . ثم كتب نابليون الى أحد قواده يقول : « مهما فعلت بالمسيحيين فسيظلون دائماً أصدقاءنا . فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا في وقاحتهم »[1] .

سادسة ـ ان نابليون حين أنشأ ديوان الحكم من أعيان القاهرة وعلمائها ظن أنه يؤلف قلوبهم بذلك ويجتذبهم اليه ، ولكنه نسي أمراً كان الجدير به أن لا ينساه هو أنه أرضى بعمله فئة من الأعيان والعلماء هي تلك الفئة التي اشتركت في ديوان الحكم ، أما الفئات الأخرى فلابد أن تشعر بالحقد والنقمة وتضمر له العداء . ان نابليون بفعله ذاك كان كمثل من يقيم وليمة فاخرة بغية التحبب الى الناس ولكنه في الواقع يثير استياء الكثيرين منهم . فصاحب الوليمة انما يكسب بوليمته قلوب الذين دعاهم اليها فقط ، أما الذين لم يدعهم اليها وهم الاكثرون فانهم سينقلبون الى اعداء حاقدين يبغضونه ويشنّعون عليه . ليس في مقدور صاحب الوليمة أن يدعو اليها جميع من يعرف من الناس ، ولابد أن يبقى منهم من ليس مدعواً ، وكلما اتسعت دائرة المدعوين اتسع معها عدد الذين يشعرون بأن صاحب الوليمة قد أهملهم ، ومعنى هذا كثرة الحاقدين عليه والشاتمين له !

---

(١) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٩٩ .

سابعاً ـ كان السلطان العثماني سليم الثالث قد أصدر فرامين يدعو المسلمين بها الى الجهاد ضد الفرنسيين ، وأخذت نسخ من هذه الفرامين تدخل مصر خلسة ويقرأها الأئمة علناً في المساجد ٠ وقد هدد السلطان في فرامينه بأن جيوشه قادمة سريعاً لسحق الفرنسيين ، وستأتي معها مراكب عالية كالجبال ، ومدافع تبرق وترعد ، وأبطال يزدرون بالموت في سبيل الله ٠ وكان المماليك الذين نجوا من معركة الاهرام وفروا الى الصعيد أو بلاد الشام يرسلون دعاتهم الى مصر ينذرون كل من يتعاون مع الفرنسيين بسوء العاقبة ، ويبشرون الناس بقرب الفرج ٠

وصار الذين تعاونوا مع الفرنسيين من أعضاء الديوان وغيرهم موضع احتقار الناس ٠ حدث مرة أن نابليون أراد تكريم رئيس الديوان الشيخ عبدالله الشرقاوي فوضع على كتفه طيلسانا فيه شعار الجمهورية الفرنسية المثلث الألوان ، فاحمر وجه الشيخ غيظاً وألقاه على الأرض ، ولما أوضح الترجمان له أن الطيلسان يُقصد به رفع مكانة صاحبه في عيون الفرنسيين أجاب الشيخ : « ولكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين »[1] ٠

ثورة القاهرة الاولى :

بدأت هذه الثورة في ٢١ تشرين الاول ١٧٩٨م ـ أي بعد ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين الى القاهرة ـ وكان أول محرك لها شيخ أزهري خرج الى الاسواق ينادي : « أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الازهر ، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار » ، وصارت الأصوات ترتفع من فوق المآذن والسطوح العالية تدعو المسلمين الى الجهاد ، وظهر « فتوات » الحسينية والحارات البرانية وهم ينادون : « نصر الله دين الاسلام »[2] ٠ وتجمع العامة حولهم وهم مسلحون بالبنادق والهراوات ، وأقفلت الأسواق ٠

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢١٠ ٠

(٢) ابراهيم جلال بك (من يوميات الجبرتي) القاهرة بدون تاريخ ـ ص٩٤ ٠

وجاء الحاكم العسكري الجنرال ديبو راكباً حصانه مع خمسة من أعوانه ، فانبرى له من أحد الازقة رجل وضربه على خاصرته بخشبة ، فسقط ديبو على الأرض ثم مات •

يقول الجبرتي : « فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، وفي كل حدب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ••• وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس ••• وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا في القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة للجوانية ، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام ، وما جاورها من بيوت المسلمين على التحام ، وأخذوا الودايع والأمانات ، وسبوا النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات ، وما به من الأمتعة والموجودات ، وأكثروا من المعاطب ، ولم يفكروا في العواقب ، وباتوا تلك الليلة سهرانين ، وعلى هذه الحال مستمرين »[١] •

وهاجم فريق من العامة الدار التي أودعت فيها الأدوات العلمية ، الفلكية والهندسية والكيمياوية والكهربائية وغيرها ، فقتلوا أربعة من الخبراء الذين كانوا فيها ثم حطموا الأدوات تحطيما • وهاجم فريق آخر منهم المستشفى العسكري فقتلوا جرّاحين اثنين على بابه ، كما قتلوا ثلاثة وثلاثين مريضاً فيه • وكاد دار المجمع العلمي أن يكون عرضة لهجوم العامة لولا قيام العلماء للدفاع عنه ، وقد صمد هؤلاء العلماء فأخذوا يتصيدون أفراداً من المهاجمين ببنادقهم ، وظلوا كذلك عدة ساعات حتى وصلتهم النجدة في الوقت المناسب •

ان ما فعله العامة في ثورة القاهرة لم يكن بالأمر الغريب أو النادر في تاريخ الثورات ، فهو يقع في كل ثورة شعبية على شكل من الاشكال •

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٤ ـ ٩٥ •

وكان ما فعله العامة في الثورة الفرنسية لا يختلف في أساسه الاجتماعي عما فعله العامة في ثورة القاهرة • يقول المؤرخ هيرولد : ان الغوغاء الذين شاركوا في ثورة القاهرة لم يكونوا يختلفون عن اولئك الذين ساروا الى فرساي في بداية الثورة الفرنسية ، أو الذين جابوا شوارع باريس بعدئذ وهم يرفعون ثديي الأميرة دولامبال على رؤوس الرماح[1] •

ان الغوغاء هم الغوغاء في كل مكان وزمان ، ولكن أفعالهم الوحشية الفظيعة لا يجوز أن تحجب عنا ما في الثورات التي يشاركون فيها من جوانب حميدة أو مبادىء صالحة •

القضاء على الثورة :

أمر نابليون بتسليط مدافع القلعة على جامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق اذ كانت تلك المنطقة مركزاً لتجمع الثوار • ففي ظهر اليوم الثاني من الثورة بدأت القنابل تتساقط تباعاً على ساحة الجامع فتفتك بمن كان فيها من الناس ، كما سقطت على الدور المجاورة ، فبعث دويها الرعب الشديد في سكان القاهرة اذ لم يكونوا قد شاهدوا ذلك من قبل ، فأخذوا يصرخون : « يا سلام من هذه الآلام ، يا خفي الألطاف نجنّا مما نخاف »[2] ، وصاروا يتراكضون في كل جانب ويدخلون في كل مكان يظنون فيه النجاة • وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون يصحبهم ثلاثمائة خيال بالجامع ، ثم دخلوا فيه وأخذوا يأسرون من كان فيه من الثوار ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً • وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون في الأزبكية يطلبون منه الصفح ، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم • ولكن اعلانه العفو كان ظاهرياً اذ أنه أصدر أوامره خفية بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها • وكان من جملة ما أمر به في هذا الشأن قوله لأحد قواده :

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٦٤ •

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٦ •

« تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أُمسكوا وبيدهم سلاح ، فليؤخذوا الى شاطيء النيل ... بعد هبوط الظلام ، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر » . ثم أمر نابليون باعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضاء في « ديوان الدفاع » وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة[1] .

ومضت بضعة أيام كانت شديدة على سكان القاهرة ، فقد صار الجلواز الكبير « برطلمين » يبث أعوانه وجواسيسه في الطرقات والحارات بحثاً عمن شارك في الثورة أو نهب الدور ، وكان المنهوبون من النصارى وغيرهم يدلّونه على من اعتدى عليهم ، كما كان الناهبون أنفسهم يدل بعضهم على بعض . وصار موكب « برطلمين » يسير في شوارع القاهرة وفيه الكثير من المقبوض عليهم موثقين بالحبال وهم يساقون الى السجن[2] .

وسرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، فنظفوا الأزهر وعاد الناس الى الصلاة فيه ، واستطاع الخبراء في المجمع العلمي صنع أدوات جديدة بدلاً من تلك التي حُطمت أو نُهبت . وفي ٢١ كانون الأول أذاع نابليون على أهالي القاهرة منشوراً أشار فيه الى عفوه ، وهذا هو نصه :

« ايها العلماء والأشراف ، أَعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . وأَعلموا أمتكم أن الله قدّر في الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي ، وقدّر في الأزل أني أجيء من المغرب الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذي أمرت به . ولا يشك العاقل أن هذا

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص١٧٠ ـ ١٧١ .
(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص٩٩ .

كله بتقدير الله وارادته وقضائه • وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل ، وأشار في آيات أخرى الى أمور تقع في المستقبل ، وكلام الله في كتابه صدق وحق • اذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم ، فلترجع أمتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور • والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافق ، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب • واعلموا أيضاً أني أقدر على اظهار ما في نفس كل أحد منكم لانني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه ، وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده • ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد ، وان اجتهاد الانسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدرّه وأجراه على يدي ، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »[1] •

يلاحظ القاريء في هذا المنشور انه يختلف اختلافاً واضحاً من حيث أسلوبه ولغته عن المنشور الأول الذي نشره نابليون في بداية الغزو • فالمنشور الأخير مكتوب بلغة فصيحة وأسلوب أدبي لا بأس به ، بينما كان المنشور الأول مكتوباً بلهجة عامية مبتذلة • ويمكن أن نفسر هذا الفرق بين المنشورين بأن نابليون لم يكن لديه في بداية الغزو من يترجم له سوى بعض العامة من المغاربة أو أهل مالطة ، أما بعد استقراره في القاهرة فقد كان لديه موظفون يحسنون الترجمة والتعبير بالعربية الفصيحة •

ظهور المهدي :

في أواخر كانون الثاني من عام ١٧٩٩م توجه نابليون بشطر من جيشه

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٢٧٤ ــ ٢٧٥ •

نحو الشام بغية فتحها • وقد فتح الكثير من المدن الفلسطينية بسهولة غير أنه وقف عاجزاً تجاه أسوار عكا ، وبعد أن حاصرها طيلة شهرين نكص عنها خائباً ، وكان للطاعون أثر غير قليل في خيبته تلك •

في الوقت الذي كان فيه نابليون مشغولاً بحصار عكا ، ظهر في الاسكندرية درويش ليبي اسمه أحمد وادعى انه المهدي المبعوث لقيادة المؤمنين في القضاء على الكفار • وسار نحو الجنوب في منطقة البحيرة الواقعة الى الغرب من نهر النيل حول دمنهور ، فأخذ يتجول في القرى وبين القبائل البدوية يهيّج الناس ويعظ فيهم • وكان يسير بين الناس عارياً من الثياب تقريباً ويزعم أنه قادر أن يقلب الافرنج الغزاة الى تراب بمجرد النظر اليهم ، وأن يمنع مدافعهم من الانطلاق بنفخة من فمه ، وأن يجعل قذائف المدافع واقفة في الهواء فلا تصل اليهم •

وكان هذا « المهدي » يزعم أيضاً أنه ابن ملك المغرب ، وأن جسده روح خالص لا يحتاج الى طعام ، وهو يقتات عادة بغمس اصبعيه في ابريق لبن ودعك شفتيه بهما ، وهو يستطيع أن يحوّل كل مايمسه الى ذهب ، أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذي أصحابه • وقد انطلت هذه المزاعم على الفلاحين والبدو واستهوتهم ، فجنّد منهم عدة آلاف •

وفي ٢٤ نيسان **١٧٩٩م** استطاع اتباع هذا « المهدي » أن يستولوا على بلدة دمنهور ، وذبحوا الحامية الفرنسية فيها ،ثم زحفوا على الدلتا • غير أن حملة تأديبية فرنسية أدركتهم في ٩ آذار ، وأدركوا خطأهم في أول لقاء لهم برصاص البنادق وقذائف المدافع • ففروا الى الصحراء • ولا يعرف على التحقيق هل فر « المهدي » معهم أم سقط بين الضحايا(١) •

يبدو على أي حال أن ثورة المهدي أقلقت الفرنسيين في أول نشوبها ، ولعلهم ظنوا أنها ستنتشر في القرى المصرية انتشار النار في الهشيم • فقد

---

(١) ج• كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٢٩ ـ ٤٣٠ •

كتب أحد الفرنسيين في مصر وهو المسيو ثير يقول : ان ثورة المهدي وضعتهم في خطر[١] • ومهما يكن الحال فقد انتقم الفرنسيون من دمنهور انتقاماً فظيعاً ، حيث ورد على لسان أحد قوادهم قوله : ان دمنهور زالت من الوجود ، فقد أُحرق أو ضُرب بالنار ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من أهلها[٢] •

معركة أبي قير :

كانت حملة نابليون في فلسطين سيئة الحظ الى أقصى حد ، فلم يرجع الى مصر من الجنود الفرنسيين سوى ثلثهم تقريباً ، أما الباقون فقد ماتوا أو أصابهم العجز • ولكن نابليون حين عاد الى القاهرة أمر بان يقام له استقبال كما يقام للفاتح المنتصر •

وفي ١٤ حزيران دخل نابليون القاهرة على رأس من بقي من جنوده ، أما الجرحى والمرضى فكانوا قد وزعوا على عدد من المدن في الطريق اخفاءاً لأمرهم • ودخل موكب نابليون من باب النصر ، وكان كل واحد من جنوده يحمل خوصة من سعف النخل مثبتة في قبعته اشارة الى النصر المزعوم الذي ظفروا به في فلسطين ، كما نُشر السعف في طريق الموكب ، واكتضت الشوارع بجموع كبيرة من المتفرجين • ووصل الموكب الى ميدان الازبكية حيث كان في استقباله العلماء والأعيان وكبار القواد •

ولم يمض على نابليون في القاهرة بعد عودته اليها من فلسطين سوى شهر واحد حتى بلغه وصول جيش عثماني بالسفن الى مقربة من الاسكندرية • وكانت هذه فرصة كان نابليون يترقبها في تلك الظروف الحرجة المحيطة به ، فهو كان يطمع أن ينزل هزيمة فادحة بالعدو لكي يستعيد بعض سمعته التي فقدها من جراء الحملة الفلسطينية •

---

(١) ادوار لوكروا (المصدر السابق) ص١٨١ •
(٢) ج كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٤٣٠ •

قُدِّر عدد الجيش العثماني بما يقارب العشرة آلاف ، وقد نزل على مقربة من قرية أبي قير ، فاقتحم معقلاً فرنسياً يضم ثلاثمائة جندي وذبحهم جميعاً ، ثم احتل بعدئذ الحصن المشيّد على قمة شبه الجزيرة • وعندما وصلت أنباء هذه الانتصارات الى سكان القاهرة انتشر الفرح بينهم وظنوا أن الجيش العثماني سيدق قريبا أبواب القاهرة • يقول الجبرتي في هذا الصدد : « فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط في الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى ، واتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم للنصراني : ان شاء الله بعد أربعة أيام نشتفي منكم ، وكلام من هذا المعنى ، فذهب النصراني الى الفرنسيس مع عصبة من جنسه وأخبروهم وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين اثارة فتنة ، فأرسل قايمقام الى الشيخ المهدي وتكلم معه في شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيباً وتكلم كثيراً ونفى الريبة وكذب أقوال الأخصام وتشدد في تبرئة المسلمين عما نسب اليهم وبالغ في الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى ، وكان هذا المقام من مقاماته المحمودة • ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم »[1] •

وفي صباح ٢٥ تموز نشبت معركة طاحنة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في أبي قير ، وكان نابليون يدير المعركة بنفسه ببراعته العسكرية المعهودة • وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم انتهت المعركة بانكسار الجيش العثماني وأسر قائده مصطفى باشا ، ولم ينج منه سوى أفراد قلائل فكانت هزيمة ماحقة •

ولما عاد نابليون الى القاهرة واستقر في قصره بالأزبكية ذهب للسلام عليه العلماء والأعيان • يقول الجبرتي : « فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : ان صاري عسكر يقول لكم انه لما سافر الى الشام

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج١ ص١٩٤ — ١٩٥ •

كانت حالتكم طيبة في غيابه ، وأما في هذه المرة فليست كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا في أحكامه ، وان المهدي والصاوي ما هم (بونو) أي ليسوا طيبين ، ونحو ذلك ... فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم على ما وقع له مع العساكر بأبو قير والنصر عليهم وغير ذلك »[1] .

الجنرال كليبر :

بلغ نابليون عن تدهور الأوضاع في فرنسا وقيام اتحاد دولي ضدها ، فقرر العودة اليها . وقيل ان مما دفعه الى العودة نبأ مفاده أن زوجته جوزفين انتهزت فرصة غيابه وصارت تخونه مع عشيق لها .

أُعدّت لنابليون في الاسكندرية أربع سفن اثنتان منها حربية من نوع الفرقاطة . وفي ٢٣ آب ١٧٩٩م تحركت السفن بنابليون ومعه أربعمائة رجل ، وكان الحظ حليفه حيث نجا من الوقوع في قبضة الاسطول البريطاني الذي كان يبحث عنه . وقد استغرقت الرحلة الى فرنسا سبعة وأربعين يوماً عاش فيها نابليون على أعصابه .

استخلف نابليون على القيادة من بعده قائد اسمه الجنرال كليبر ، وكان هذا يختلف عن نابليون من بعض الوجوه ، قيل ان نابليون كان يقطع في كل يوم ستة رؤوس وهو محتفظ ببشاشته أما كليبر فكان يقطع رؤوساً أقل ولكنه لم يكن بشوشاً وكان علاوة على ذلك يعتصر الاغنياء بطريقة منظمة ويفرض عليهم الضرائب والغرامات الفادحة[2] .

وقامت في عهد كليبر ثورة القاهرة الثانية وكانت أشد من الأولى وأكثر هولاً ، وقد شارك فيها أهل بولاق . واستطاع كليبر أن يقضي عليها ، كما هزم الجيش العثماني الذي كان قد اقترب من القاهرة من جهة الشرق

(١) المصدر السابق ـ ج١ ص١٩٨ ـ ١٩٩ .
(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السبق) ص٤٧٢ .

في الوقت نفسه .

وفي ١٤ حزيران ١٨٠٠م بينما كان الجنرال كليبر يتمشى في حديقة قصره اقترب منه رجل بزي العمال اسمه سليمان الحلبي متظاهراً بأنه يريد تقبيل يده ، ثم أغمد مديته في بطنه فسقط كليبر صريعاً يتخبط بدمائه . وانتشر خبر مصرع كليبر في القاهرة كالبرق ، ودقت الطبول تدعو الجنود الى مراكزهم ، ولجأ الأهالي الى بيوتهم محتمين بها خشية العاقبة ، بينما اندفع بعض الجنود في الشوارع كالمجانين يضربون بسيوفهم كل من يصادفونه من الرجال والأطفال . ولم تنته الفوضى الا بالعثور على القاتل ، فقد وجدوه يصلّي الى جانب جدار متهدم والمدية بقربه وهي ملوثة بالدم والتراب .

وبعد اجراء المحاكمة للقاتل حُكم عليه بعقوبة تسمح بها تقاليد الحكم في مصر ولكنها لا تتفق مع مبادىء الثورة الفرنسية . وقد تولى « برطلمين » تنفيذ الحكم فجعل يد القاتل تشوى على النار أولاً ثم أجلسه على خازوق بعدئذ . وقتل « برطلمين » معه ثلاثة من الأزهريين دل التحقيق على أن القاتل أفضى اليهم بعزمه على اغتيال كليبر ولم يخبروا الحكومة عنه[١] .

عهد عبدالله مينو :

خلف كليبر في قيادة الجيش الفرنسي بمصر عبدالله مينو الذي تحدثنا عن اسلامه من قبل . وأخذ هذا الرجل يعمل في ضوء الخطة التي تبنّاها بحماس وهي جعل مصر قطعة من فرنسا ، فراح يغير ملامح البلاد ليصوغها على صورة فرنسا ، فأمر بهدم أحياء كاملة في القاهرة لتتسع لانشاء شوارع فسيحة ، وانتزع جباية الضرائب من أيدي الأقباط وفرض ضريبة واحدة على الأرض ، وألغى الرسوم الاقطاعية ، وانشأ محاكم جنائية تحت ادارة الفرنسيين ، وأمر بقيد المواليد والوفيات اجبارياً ، وأصدر أول

---

(١) المصدر السابق ـ ص٤٩٩ ـ ٥٠٥ .

جريدة تطبع باللغة العربية ، وغير ذلك .

وكان عبدالله مينو يتظاهر بأنه حريص على الاسلام ويريد تطهيره من البدع . يقول الجبرتي : « ... أرسل كبير الفرنسيس يسأل المشايخ عن الذين يدورون بالأسواق يكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقد فيهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون ، هذا جائز في الاسلام أو حرام في الشريعة ؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنّتنا ، فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه بهذا الوصف ، فان كان مجنوناً ربط في المارستان ، أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد » .

وفي أوائل عام ١٨٠١م وُلد للجنرال مينو طفل من زوجته العلوية زبيدة سماه « سليمان مراد جاك مينو » ، فكتب اليه مشايخ الديوان رسالة يهنئونه بهذا الحدث السعيد ، فرد عليهم مينو بجواب طويل ملأه بعبارات الخضوع لله وتمجيد الاسلام وذكر فناء الدنيا وبقاء الآخرة ، وفيه يقول : « ... فنحن نعلم أن القرآن العظيم الشأن ، ذلك المصحف الأكمل ، والكتاب المفضل ، يشمل على مبادىء الحكمة السنية والحقوق اليقينية ... بمثل ذلك عرفتُ أنه لمن المستحيل أن القرآن الشريف يفصح الآن على ما هو من باب النظام لأنه من دون ذلك فكل ما هو في هذا العالم الفاني ليس الآن ممات وخراب ... فالآن انما نكون نحن من أشر المذنبين اذا سرنا سيرة كالضالين ، وعلى أوامره عصاة غير منخضعين ، ومع ذلك فنسأله جل شأنه أن يقوينا على السلوك في ديننا ودنيانا وهذا القدر كفانا ... فيا حضرة المشايخ والعلماء الكرام اننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدي السيد سليمان مراد جاك مينو ، فنطلب من الله سبحانه تعالى واسألوه كذلك بجاه رسوله سيد المرسلين أن يجود به عليّ زماناً مديداً ، وأن يكون للعدل محباً ، وللاستقامة والحق مكرماً ، وبوفاء وعده صادقاً ، وأن لا يكون من أهل الطمع ، فهذا هو أوفر الغنى الذي أرغبه

لولدي ، لأن الرجل الذي لا يهتدى الا بالخير لا يصرف اعتناءه الا في خير الأدب ، لا في قنية الفضة والذهب ، فنسأله تعالى أن يطيل بقاءكم ، والسلام »[1] .

مما يلفت النظر أن هذه الجهود التي بذلها مينو من أجل اقناع المصريين باخلاصه وصحة اسلامه باءت بالفشل ، فقد كان المصريون ينظرون الى مينو كنظرتهم الى نابليون من قبل اذ اعتبروه دجالاً يريد بأخاديعه اقتلاع تقاليدهم ونظمهم[2] .

الجلاء عن مصر :

ان خطة مينو في البقاء في مصر والعمل على جعلها مستعمرة فرنسية كانت سبباً في انقسام الجيش الفرنسي الى فريقين : أقلية تؤيد مينو في البقاء ، وأكثرية تحن الى فرنسا وتريد الجلاء عن مصر . وقد فعل هذا الانقسام فعله في التعجيل بنهاية الاحتلال الفرنسي لمصر[3] .

وكانت بريطانيا تحاول منذ البداية ـ كما رأينا ـ مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر بكل وسيلة تقع في يدها . ثم استقر رأيها أخيراً على ارسال قوات بريطانية لتساهم مع القوات العثمانية في اخراج الفرنسيين من مصر . وفي الأول من آذار ١٨٠١م نزل في الاسكندرية جيش بريطاني ، كما جاء من الجنوب عن طريق البحر الأحمر جيش آخر فوصل الى الجيزة . وزحف من الشرق جيش عثماني بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضياء باشا . وبعد مفاوضات ومماحكات تم الاتفاق على أن يجلو الفرنسيون عن مصر على نفقة الحلفاء . وقد حاول مينو التمرد على هذا الاتفاق ومعارضته ولم يقبل به الا بعد أن حوصر مع بعض قواته في الاسكندرية وذاقوا من

---

(١) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص٨٩ ـ ٩٤ .
(٢) ج. كرستوفر هيرولد (المصدر السابق) ص٥٠٩ .
(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (المصدر السابق) ص٨٤ ـ ٨٥ .

الجوع والعطش والوباء قسطاً لا يستهان بـه • وفي ١٨ تشـرين الاول ١٨٠١م تم اجلاء آخر جندي فرنسي عن الأراضي المصرية •

يقول الجبرتي في وصف الفرح الذي عم القاهرة لجلاء الفرنسيين عنها : « ••• ففرح الناس وهنأ بعضهم بعضاً ، وأظهروا الفرح والسرور بدخول المسلمين وخروج الكافرين ، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم ، والنساء يلقلقن بألسنتهن عند رؤيتهن في الأسواق ومن الطيقان ، وقام في الناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهن بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك ••• وفي يوم الأحد سافر هجان الى جهة الحجاز وصحبته فرمان بخبر الفتح والنصر وارتحال الفرنسيس وجلائهم عن أرض مصر ، ومكاتبات من التجار لشـركائهم بارسال البن والبضائع والمتاجر الى مصر • وفيه نودي بعدم التعرض بالايذاء لنصراني أو يهودي سواءاً أكان قبطياً أو رومياً أو شامياً فانهم من رعايا السلطان ، والماضي لا يعاد ••• »[١] •

وذكر الجبرتي أن الجنود العثمانيين عادوا الى عاداتهم القديمة في معاملة أهل الاسواق ، فقد أخذوا يتحكمون في الباعة ويفرضون على أصحاب الحوانيت دراهم يأخذونهـا كل يـوم ، كما صـاروا يتناولون طعامهم في الاسواق بلا ثمن ، ولم يكفهم هذا بل تعرضوا للناس في مساكنهم فكان أفراد منهم يأتون الى البيت ويأمرون صـاحبه بالخروج منه ليسـكنوه • وأسرف بعض الجنود في التعدي على الناس ، فكان أحدهم يذهب الى السوق ومعه دنانير مزيفة ويستبدل بها دراهم من فضة • أو يستأجر حماراً من المكارين فيذهب به الى غير رجعة واذا سار المكارى معه ليمشي وراء حماره قتله • وعندما اشتكى الناس ذلك الى الرؤساء قال هؤلاء لهم : ان الجنود

---

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٧٥ — ١٨٤ •

هم اخوانكم في الجهاد حاربوا أعداءكم وأخرجوهم من بلادكم وهم الآن ضيوفكم لأمد قصير فلم يسع الناس الا السكوت[١] .

ومن أغرب ما ذكره الجبرتي في هذا الشأن هو أن بعض الانتهازيين الذين كانوا يخدمون الفرنسيين ويتعاونون معهم انقلبوا الآن وصاروا من أشد الناس حماساً في تأييد العهد الجديد . يقول الجبرتي : « ... والعجب أن بعض نصارى الأروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيس تزيوا بزي العثمانية وتسلحوا بالأسلحة واليطقانات ودخلوا فيهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالايذاء للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية ويقولون في ضمن سبهم للمسلم : فرنسيس كافر . ولا يميزهم الا الفطن الحاذق أو يكون له بهم معرفة سابقة »[٢] .

ومن الأحداث التي أثارت انتباه الناس آنذاك ما جرى لزينب ابنة نقيب الاشراف السيد خليل البكري ، وهي الفتاة التي تبرجت وخادنت نابليون حسبما أشيع عنها ، فقد استُدعيت هي وأبوها الى المحاكمة ، ولما حضرت سئلت أمام أبيها عما فعلت فقالت : « اني تبت من ذلك » . ولما سئل أبوها قال : « اني بريء منها » ، فأمروا بكسر رقبتها . وصدر الأمر بعزل البكري من نقابة الاشراف واعادة النقابة الى صاحبها الأول السيد عمر مكرم الذي كان الفرنسيون قد عزلوه عنها . ثم أصدر الوالي العثماني أمره بعزل البكري من مشيخة السجادة البكرية أيضا وقال : انه « لا يصلح لسجادة الصدّيق »[٣] .

---

(١) ابراهيم جلال بك (المصدر السابق) ص١٢٠ ــ ١٢١ .

(٢) عبدالرحمن حسن الجبرتي (المصدر السابق) ج٢ ص١٨٤ .

(٣) عبدالعزيز محمد الشناوي (المصدر السابق) ص٨٧ ــ ٨٩ .

الملحق الثاني

حول طبيعة الانسان

كثيراً ما أخطأ المفكرون القدماء في فهم ظواهر المجتمع وأحداث التاريخ من جراء خطأهم في فهم الطبيعة البشرية • وقد حاولت في مؤلفاتي التطرق الى بحث الطبيعة البشرية وشرح بعض نواحيها ، ووجدت الآن من المناسب أن أكتب هذا الملحق لأجمع فيه خلاصة ما كنت قد ذكرته سابقاً حول هذا الموضوع مع بعض الزيادات اتماماً للفائدة •

ان ما ابتغيه من هذا الملحق هو أن يعرف القاريء رأيي في الطبيعة البشرية لكي يفهم الاتجاه الذي أسير عليه في تفسير التاريخ والمجتمع •

العقل البشري :

يجب أن نعلم منذ البداية ان الانسان هو حيوان قبل أن يكون انساناً، وهو انما امتاز عن أخيه الحيوان ببعض الفروق التي جعلت منه انساناً • وأول هذه الفروق هو العقل •

بالغ القدماء في تقدير العقل واعتبروه موهبة عليا خلقها الله في الانسان لكي يجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر ، ويرشده الى الحق • وقد اتضح الآن خطأ هذا الرأي ، ولم يعد يؤمن بصحته الا الذين لا يزالون يعيشون في تراث الماضي ، وهم كثيرون عندنا مع الأسف •

ان العقل في الانسان ما هو الا عضو كسائر الاعضاء ، وهو انما خلقه الله في الانسان لكي يساعده على تنازع البقاء كمثل ما خلق الخرطوم الطويل في الفيل ، أو المخالب القوية في الأسد ، أو السيقان السريعة في الفرس ، أو الناب السامة في الحية ، أو الدرع الواقي في السلحفاة • وبعبارة اخرى : ان العقل ليس المقصود منه اكتشاف الحقيقة ، أو التمييز

بين الخير والشر ، كما كان القدماء يظنون ، بل المقصود منه اكتشاف كل ما ينفع الانسان في الحياة ويضر خصمه .

معنى هذا ان الانسان في تفكيره لا يبحث عن الحقيقة بمقدار ما يبحث عن الوسيلة التي تساعده في الحياة . انه يدّعي دائماً بأنه يحب الحق والحقيقة ، ويضحي بمصلحته في سبيلهما . وهذا وهم يتوهمه الانسان أحياناً لكي يتباهى بنفسه . فالانسان يحب الحقيقة حين تكون نافعة له ، وتراه عند ذلك يطالب بها ويترنم بمدحها ويلعن مخالفيها ، وهو يستمر على ذلك ما دامت الحقيقة بجانبه ، ولكنها لا تكاد تتحول الى جانب خصمه حتى يبدأ بالنظر اليها من زاوية أخرى ونجده حينئذٍ يراوغ ويداور ، ويبحث عن الأدلة التي تقلل من شأن تلك الحقيقة ، وقد ينكرها انكاراً تاماً في حالة عجزه عن تفنيدها .

لكي نفهم كنه العقل كما هو في واقع أمره دعنا ننظر في أحوال البشر المختلفة ، ولنأت على ذلك بأمثلة ثلاثة هي :

أولاً ـ ان الانسان اذ ينشأ في بيئة اجتماعية معينة ، ويظل قابعاً فيها لا يفارقها ذهنياً ، نراه يؤمن بصحة ما فيها من معتقدات وتقاليد وقيم ، فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أنها خير ما يمكن أن يكون في الدنيا كلها ، وأن ليس هناك ما هو أفضل منها ، وهو كلما فكر وتأمل لا يستطيع أن يخرج من اطار هذا الاعتقاد الجازم . ان العقائد التي ينشأ عليها قد تكون « سخيفة » جداً ولكنها في نظره « معقولة » جداً ، وهو يتعجب ويتساءل لماذا لا يؤمن بها المخالفون مثلما يؤمن هو بها ، ولا يدرى أن المخالفين يتعجبون ويتساءلون مثله .

ثانياً ـ ان الانسان حين يتنازع مع خصم له على مصلحة له مادية أو معنوية نراه يتخذ كل وسيلة تقع في يده من أجل التغلب على خصمه ، وهو مؤمن أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه ، ويريد من الناس أن يؤيدوه على رأيه هذا . وهم اذا وافقوه كانوا في نظره منصفين ، أما اذا خالفوه كانوا ظالمين أو مغرضين « لعنة الله عليهم » ! . ان من الصعب جداً ،

أو من المستحيل أحياناً ، أن يقتنع انسان برأي ليس في مصلحته ، فان البرهان الذي نقدمه له هو برهان قوي في نظرنا نحن ، أما في نظره فهو بارد تافه لا قيمة له ٠

ثالثا ــ اذا أحب الانسان شخصاً أو شيئاً تحيز في تفكيره نحوه ، فصار يبالغ في ذكر محاسنه ويغض النظر عن مساوئه ٠ وهو يفعل العكس من ذلك اذا أبغض ذلك الشخص أو الشيء ٠ ويتضح هذا غاية الوضوح في تحيز الانسان لنفسه اذ هو يحب نفسه أكثر مما يحب أي شيء آخر في الوجود ، وهذا موضوع سنأتي الى ذكره فيما بعد على شيء من التفصيل٠

قد يسأل سائل : اذا كان العقل البشري كما تقول فكيف استطاع أن يخترع هاتيك المخترعات العجيبة حتى تمكن أخيراً من الوصول الى القمر ؟!

الواقع اننا لا ننكر عظمة العقل البشري من حيث قدرته على الاختراع والابداع ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون العقل متحيزاً في تفكيره ٠ وربما صح القول ان تحيز العقل هو الذي مكّنه من الاختراع والابداع ٠

ان العقل البشري لا يبدع الا اذا كانت لديه مشكلة يريد حلها ٠ أنظر الى الانسان في بداية أمره عندما كان النزاع على البقاء شديداً بينه وبين أخيه الحيوان ، فلقد كان الحيوان أقوى منه جسماً غير أن الانسان يمتاز عليه بما يملك من مقدرة على التفكير ٠ فكان أول اختراع للانسان هو « الفأس الحجرية » ، وهي قطعة مدببة من الحجر منحوتة من أحد جوانبها لكي يسهل مسكها ٠ وقد استطاع الانسان أن يغالب بها الحيوان على الرغم من ضعف جسمه ٠ ثم أخذ الانسان يطور أسلحته شيئاً فشيئاً حتى توصل أخيراً الى الصواريخ والقنابل النووية ٠

معظم الاختراعات التي تزخر بها الحضارة الآن كان المقصود منها مغالبة الخصوم على وجه من الوجوه ، وهذا هو الذي جعل الاختراعات تنمو نمواً كبيراً أثناء الحروب ــ الحارة أو الباردة ٠

ان الباحث الذي يواصل الليل والنهار في مختبره بغية اكتشاف شيء من العلم يبدو للناظر البسيط كأنه منهمك في البحث عن الحقيقة لذاتها ، بينما هو في الواقع يبحث عن شيء ينفعه تجاه منافسيه ، او ينفع قومه تجاه خصومهم • ولهذا نجده يتالم نل الآلم حين يسبقه أحد الى الاختراع ، ويزداد المه حين يظهر الاختراع على يد احد من اعداء قومه •

الشعور بالذات :

قلنا ان الانسان يتميز عن الحيوان بالعقل ، وهناك ميزة أخرى للانسان ذات أهمية قد لا تقل عن أهمية العقل ، هي الشعور بالذات • ومما يلفت النظر ان القدماء لم يفطنوا الى هذه الميزة على الرغم من أهميتها ، وكان ذلك من الأسباب التي جعلتهم يخطئون في فهم الطبيعة البشرية •

ان الشعور بالذات هو ما يشعر به الانسان حين يتحدث عن نفسه ويقول « أنا » ، وهو الذي يدفع الانسان دائماً نحو الارتفاع في نظر الغير والحصول على اعجاب الناس وتقديرهم •

كل انسان يرغب من أعماق نفسه في أن يكون محترماً في مجتمعه له منزلة رفيعة أو مشهوراً يشار اليه بالبنان • فهو كثيراً ما يفضّل معاناة الألم أو الجوع ، وقد يضحي بماله أو بنفسه أحياناً ، من أجل أن يصون منزلته بين قومه • وهذا هو المحور الذي يدور حوله الشعور بالذات •

ان الشعور بالذات غير موجود في الحيوان ، فالحيوان لا يستحي ولا يبالي بأفراد نوعه كيف ينظرون اليه ، انه يعيش في عالمه الخاص به وهو سعيد ما دام قد حصل على الدفء والطعام • أما الانسان فلا تكمل سعادته الا ّ بوجود الناس حوله من جهة ، وباحترامهم له من الجهة الاخرى •

ان الطفل البشري لا يملك الشعور بالذات عند ولادته ، ثم يبدأ هذا الشعور ينمو لديه تدريجاً • والملاحظ أنه في بداية شعوره بذاته يود أن يكون ممدوحاً ومفضّلاً على اخوته وأترابه ، فاذا مدحناه انتعش وبان

الســرور على وجهه ، واذا ذممناه انزعج وتألم وربما عصــى وتمرد واخذ يزعق من غير سبب ظاهر • ان السبب الحقيقي في تمرده هو شعوره بأنه صار دون أترابه في المنزلة ، وهذا يؤلمه ألماً شديداً ، وربما جهل الطفل سبب ألمه في بعض الأحيان •

وحين يكبر الطفل ويصبح شخصاً بالغاً تظل هذه النزعة ملازمة له ، غير أنها تختفى تحت طلاء من الادعاءات والمزاعم المصطنعة • فالشــخص البالغ لا يختلف عن الطفل من حيث حبه للمديح وتقدير الناس له ولكنه لا يظهر ذلك علانية بل يتظاهر بالعكس من ذلك رياءاً • ان الطفل صريح لم يتعلم الرياء بعد ، ولهذا فالطبيعة البشرية تظهر عليه بشكل مفضوح •

ان الشعور بالذات عملية نفسية تحدث في الانسان على مراحل ثلاث وهي تتتابع في لحظة واحدة ، فالانسان أولاً يتخيل شخصاً أو جماعة من الناس ينظرون اليه ، وهو ثانياً يتخيلهم يحملون رأياً عنه حســناً أو قبيحاً ، وهو ثالثاً يشعر بالفخار أو الخزي حسبما يتخيل من رأيهم فيه • معنى هذا ان الشعور بالذات قد ينشأ من التوهم أو التخيل • فالانسان يشعر بالاعتزاز ويرفع رأسه فخاراً حين يتوهم رأي الغير فيه حسناً ، وهو عــلى النقيض من ذلك يشعر بالانكساف ويطأطىء رأسه خجلاً حين يتوهم رأي الغير فيه قبيحاً • ان الانسان لا يعرف ماذا يضمر الناس له في قلوبهم من احترام أو احتقار ، بل هو يتخيل ذلك تخيلاً ، وكثيراً ما يخطىء في تخيله فيحسب الناس معجبين به بينما هم في الواقع يستصغرونه ويحتقرونه ، أو يحسبهم محتقرين له بينما هم يحترمونه •

لا شك أن الانسان كلما ازداد نضوجه ازدادت مقدرته على معرفة ماذا يفكر الناس عنه ، ولكنه مهما كان ناضجاً فانه لا يستطيع أن يكتشف حقيقة ما يضمره الناس له بكل دقة ، ولابد أن يبقى جزء كبير من مشاعر الناس نحوه محجوباً عنه •

اذا كان الانسان مصاباً بـ « عقدة النقص » توهم أن الناس كلهم

يحتقرونه ويستهينون به ، ولذا فهو يشعر بالخجل والانكماش النفسي ، وتراه ضعيف الثقة بنفسه يخشى أن ينطق بقول أو يقوم بعمل لئلا يجابهه الناس بالسخرية والاهانة • وكثيراً ما تفوته الفرص من جراء ذلك •

ان المصابين بعقدة النقص قليلون ، أما اكثر الناس فهم يحملون ما يمكن أن نسميه بـ « عقدة الكمال » • والمصاب بهذه العقدة معجب بنفسه ويقدرّها أكثر مما هي في حقيقة أمرها ، فهو يعتقد أنه عظيم أو ذكي أو جميل ، وأنه يتفوق على أقرانه في كل شيء ، ويسوءه أن يرى أحد أقرانه ينال اعجاب الناس دونه ، فهو يضمر الحسد له أو الحقد ، ويحاول تصغير شأنه في نظرهم بأية وسيلة يقدر عليها •

الخلل في تكوين الذات :

ان الشعور بالذات في بداية تكوينه عند الطفل يكون فجاً ساذجاً على نحو ما رأينا ، ثم يتقدم نحو النضوج تدريجاً • ومن مظاهر الفجاجة في الطفل أن شعوره بالذات يتنوع بين لحظة وأخرى حسب تنوع الاشخاص الذين ينظرون اليه ، أو يتخيل أنهم ينظرون اليه • ففي مقدورنا أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نريده بمجرد أن نمدحه عليه كأن نقول مثلاً : « انظروا اليه كيف يصلّي ! انه يتقن الصلاة جيداً ! » ، ونراه عندئذٍ يقف بوقار مصطنع ويحرك شفتيه بالتلاوة ثم يركع ويسجد بغية أن ينال اعجابنا • أو نقول : « أنظروا كيف يرقص ! انه يتقن الرقص جيداً ! » ، ونراه يبدأ بالرقص على منوال ما فعل في صلاته •

وبمرور الأيام تأخذ الذات بالتناسق شيئاً فشيئاً حيث يقل فيها التنوع وتتجه نحو التوحد • وكلما ازداد نضوج الشخص وكثر احتكاكه بالناس زاد تناسق الذات فيه • ولكننا يجب أن لا ننسى أن التناسق الكامل في الذات لا يستطيع أن يصل اليه أي انسان مهما بلغت درجة نضوجه ، فلابد أن يبقى في الانسان شيء من التنوع الذاتي على وجه من الوجوه •

الملاحظ في بعض الأشخاص أنهم على الرغم من بلوغهم سن الكهولة

يظلون يحافظون على درجة من التنوع الذاتي قريبة مما كانوا عليها في سن الطفولة • فترى أحدهم يبدّل شخصيته حسب تبدل الاشخاص الذين ينظرون اليه دون أن ينتبه الى التناقض الواضح الذي يقع فيه • فهو مثلاً أثناء الحديث مع صاحب له قد يلمح امرأة حسناء بالقرب منه ، فيتغير فجأة في طريقة كلامه ، وفي حركاته وسكناته • انه يغفل عند ذاك عن وجود صاحبه ويركز اهتمامه على المرأة حيث يروم أن يؤثر فيها وينال اعجابها •

أعرف شخصاً من المصابين بهذا الخلل في تكوين الذات ، وهو يصلح أن يكون نموذجاً له ، فهو اذا جلس في مجلس أخذ يتغير في كلامه حسب تغير الاشخاص الذين يدخلون المجلس أو يخرجون منه • وهو قد يبدي رأياً ويتحمس له ثم ينقضه بعد لحظات • ولا يستحي من التناقض الذي يظهر عليه أو لعله لا يدري به • والسبب في ذلك ان الذات عنده لم تصل بعدُ الى درجة التناسق المناسبة لسنّه ، بل بقي كما كان في طفولته فجاً •

وهناك خلل آخر في تكوين الذات هو الذي يطلق عليه اسم « السيكوباتية » وقد يصح تعريبه بـ « داء الصفاقة » • فالشخص المصاب بهذا الداء يتميز عن غيره بوجود ضعف في تناسق ذاته من الناحية الزمنية • فهو لا يبالي بما فعل في الماضي ، أو ما سوف يفعل في المستقبل ، ولا يستحي منهما • انه قد يستقرض منك مبلغاً من النقود على أن يرجعه اليك بعد ساعة ، ثم تمضي عليه الساعة والساعتان وعشرات الساعات دون أن يشعر بأهمية وعده ، وربما قابلك بعدئذٍ بوقاحة كأنه لم يستقرض منك شيئاً ، وهو قد يبتسم لك ابتسامة بلهاء ثم يكرر الوعد لك مرة بعد مرة بلا جدوى •

ان الشخص « الصفيق » قد يخونك أو يغشك أو يغتابك أو يهاجمك بصلافة ، ثم ينسى ذلك ويريد منك أن تنساه أيضاً • ومما يجدر ذكره أن الشخص السوي قد يرتكب مثل هذه الأفعال ولكنه يخجل منها عادة ويحاول الاعتذار عنها أو تبريرها • أما الشخص « الصفيق » فهو يرتكب تلك الافعال بلا اكتراث كأنه لم يفعل شيئاً يستحق اللوم •

ان الشخص « الصفيق » كثيراً ما ينتهي أمره الى الضياع والانهيار المعنوي • فهو حين ينسى وعوده ، أو يأكل الديون الصغيرة التي عليه ، يجعل الناس لا يثقون به ، وقد يصبح بينهم منبوذاً لا يعامله أو يعتمد عليه أحد • ومعنى هذا أنه يخسر سمعته ومستقبله من أجل دراهم معدودة أو أشياء تافهة •

ان الناس يتعجبون حين يجدون شخصاً يضرّ نفسه بهذا الشكل • والواقع أن الشخص « الصفيق » عندما يضر نفسه لا يخضع للتفكير المنطقي، بل هو يفعل ذلك بدافع لا شعوري لا يعرف هو مأتاه في نفسه • انه يكتفي بما تأتي به اللحظة الحاضرة من لذة عاجلة ، ولا يبالي بما يأتي به الغد من خسارة دائمة • وبعبارة أخرى ان شعوره بذاته منحصر في نطاق اللحظة التي هو فيها ، فهو لا يتخيل ذاته الماضية ولا ذاته المقبلة •

لا ننكر أن الشخص « الصفيق » قد يستفيد في بعض الظروف ، فقلة الحياء فيه تجعله ناجحاً في انتهاز الفرص أحياناً • انه يستطيع أن يتزعم كل مظاهرة ، ويقف في كل حفلة ، ويتزلف لدى كل متنفذ • والمعروف عن بعض المتنفذين أنهم يحتاجون الى شخص من هذا الطراز لكي يقوم بخدمتهم في المهمات التي لا يرضى أن يقوم بها الاشخاص الأسوياء •

التغلف الذاتي :

يحيط بعقل الانسان غلاف وهمي يحجب عنه ما يقول الناس في ذمه، ولهذا يبقى الانسان مغروراً بنفسه معجباً بها فلا يعرف قيمته الحقيقية الموجودة في أذهان الناس عنه •

مما يساعد على تكوين هذا الغلاف الذاتي في الانسان هو ما اعتاد الناس عليه في حياتهم الاجتماعية من مجاملات ، فهم اذا أرادوا ذم شخص تحدثوا عنه في غيابه ولم يذكروا ذلك في حضوره الا نادراً ، أما المديح فهم يحرصون على ذكره في حضور الشخص وكثيراً ما يبالغون فيه بدافع التزلف والنفاق •

والانسان حين يسمع الناس يمدحونه يحسب أنهم يذكرون الحق الذي لا شك فيه . انه لا يدري ماذا يقول الناس عنه في غيابه . فهو مغتبط بالمديح الذي يسمعه ، اذ يميل اليه بكل جوارحه ، ويبتش للمادحين ويصغي اليهم مما يشجعهم علـى التمادي فيه . واذا كان ذا نفوذ أو ثروة وجاه المنافقون يتزلفون اليه بمديحهم المفرط ازداد اغتباطا بنفسه وغروراً بها ، وتخيل أن الدنيا كلها تلهج بذكره وأن ليس للناس من حديث سوى حديث فضله وعظمته .

من طبيعة العقل البشري أنه لا يأخذ صور الاشياء كما هي في الواقع علـى نحو ما تفعل المرآة ، بل هو يلتقط نقاطاً معينـة من الشيء الذي ينظر اليه ثم يكمّل الصـورة بعدئذٍ من الخيال . وهـذا هو ما يحدث للانسان عندما يريد أن يأخذ صورة عن نفسه ، فهو يلتقط الأماديح التي تقال فيه ، فيحفظها ويؤكد عليها ويبالغ فيها ، ثم يبني منها صورة زاهية عن نفسه ، وهو معتقد كل الاعتقاد أن هذه هي الصورة الحقيقية الموجودة في أذهان الناس عنه . فاذا جاءه أحد يصارحه بالحقيقة المرة تملكه الغضب واعتبر الانتقاد باطلاً وأن قائله لابد أن يكون مغرضاً أو حسـوداً أو لئيمـاً .

والغريب أن الاسان كثيراً ما يذم الناس في غيابهم ، ولكنه لا يتصور أن الناس يفعلون به مثلما يفعل هو بهم . ان الغلاف الذاتي يمنعه من رؤية هذه الحقيقة الواضحة .

يجب أن لا ننسى ان الأفراد ليسوا كلهم على درجة واحدة من حيث ثخانة الغلاف الذاتي الذي يحيط بعقولهم ، فمنهم من يكون غلافه ثخيناً جداً وهو الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الفطير » ، وفيهم من يكون على النقيض من ذلك ذا غلاف رقيق يكاد يكون شفافاً وهو الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الناضج » . وأكثر الناس هم الذين يتفاوتون من حيث ثخانة غلافهم الذاتي بين « الفطير » و « الناضج » على درجات .

ان الشخص « الناضج » هو الذي يعرف قيمة نفسه ويقدرها تقديراً

قريباً من الواقع ، واذا أحس بشـــيء من الغرور أو الاعجاب بالذات استطاع كتم هذا الاحساس في نفسه وترويضه بحيث لا يظهر منه الا ما هو مقبول في نظر الناس • وهو حين يتواضع في اظهار مشـاعره الذاتية لا يصطنع التواضع ويتكلفه ، وكثيراً ما يكون تواضعه صميمياً لا رياء فيه أو مباهاة •

أما الشخص « الفطير » فأمره عجيب • انه معجب بنفسه الى الدرجة القصوى وهو موقن بأن الناس كلهم معجبون به أيضاً • واذا استحسن شيئاً ظن أن الناس جميعاً لابد أن يستحسنوه مثله • وتراه يأتي بالنكتة التافهة ويكون أول الضاحكين عليها ، وحين يضحك الناس معه مجاملة يعتقد أن الناس « ماتوا » من الضحك ، وقد يؤدي ذلك به الى أن يعيد النكتة عـلى الناس مرة بعد مرة •

واذا تحدث هذا « الفطير » في مجلس أخذ يرنو ببصره خلسة نحو الحاضـرين ليرى تأثير كلامه فيهم • أما اذا ألقى كلمة في حفل عام ، أو كتب مقالة في جريدة ، فانه يظل يتباهى بما قال مدة طويلة ، ولا يكاد يلتقي بصديق له حتى يسأله عن الكلمة التي ألقاها وعن « عبقريتها » التي لا تضاهى • وقد يضطر الصديق الى مجاملته فيقول له ما يريد أن يقال ، وعند هذا ينبلج وجهه عن ابتسامة الفخر ثم يمضي في طريقه رافعاً رأسه نحو الأعالي •

واذا كان هذا « الفطير » شاباً من طلاب الغرام ازدادت مشـكلته تعويصاً ، فهو يحسب أن « حسنه » فاق حسن يوسف الصديق ، فاذا دخل الى مرقص شرقي تخيل أن الراقصات وقعن في حبائل غرامه ، أو هن على وشك أن يقعن فيها ، وهو عند انتهاء الحفلة ربما وقف في باب المرقص متوقعاً أن تدعوه احدى الراقصات الى بيتها لشدة ما تشعر به نحوه من لوعة الهيام !

قد يسـأل سـائل : أيهما اكثر سـعادة في الحياة ، « الفطير » أم « الناضج » ؟ •

يمكن القول ان الشخص « الناضج » أكثر قدرة على فهم الحياة وعلى الاكتناه الموضوعي لها ، انما هو لا ينال من السعادة بمقدار ما ينال منها الشخص « الفطير » • ان الشخص « الناضج » حين ينجز عملا من الأعمال يستطيع أن يعرف القيمة الحقيقية لعمله على وجه التقريب ، ولهذا فهو لا يفرح به كما يفرح الشخص « الفطير » •

الواقع أن كل انسان مهما كان « ناضجاً » لا يمكن أن يخلو من بعض « الفطارة » قليلاً أو كثيراً • ان « النضوج » التام غير موجود في البشر كما لا توجد فيهم أية صفة أخرى كاملة • ومن الجدير بالذكر أن « الفطارة » ذات نفع كبير لصاحبها لانها تمنحه المنزلة الاجتماعية الرفيعة التي يطمح اليها ولو عن طريق الأوهام ، فلولا « الفطارة » لأدرك الانسان قدر نفسه وقيمة أعماله كما هي على حقيقتها ، وهذا أمر يصعب على الانسان تحمله • ان الأوهام ضرورية للانسان ولولاها لما أحب الانسان الحياة •

الجنون والعقل :

الجنون موضوع لا يزال العلم عاجزاً عن اكتناهه ، ولست أريد أن أتطرق الى هذا الموضوع الا بالقدر الذي يتصل بطبيعة الانسان من حيث تكوين الذات والعقل فيه •

الجنون أصناف شتى ، وأهم صنف فيه وأوسعه انتشاراً هو الذي يسمى بـ « الشيزوفرينيا » أي جنون الفصام ، وهو انما سمي بهذا الاسم لأن المصاب به ينفصم نفسياً عن المجتمع ويخلق له في أوهامه مجتمعاً خاصاً يعيش فيه كما يشاء •

ان شخصاً ما قد يعجز عن نيل المنزلة العالية التي كان يطمح اليها فيندفع ، لسبب من الاسباب ، نحو تخيل عالم خاص به لينال فيه المنزلة المطلوبة ، فتراه يحسب نفسه ملكاً أو أميراً أو قائداً مشهوراً أو عبقرياً

يشار اليه بالبنان ، وهو سعيد بهذه المنزلة الوهمية التي حصل عليها .

وهناك صنف آخر من الجنون هو ما يسمى بـ « البارانويا » ، أو جنون العظمة والاضطهاد ، والمصاب به يشبه المصاب بجنون الفصام من حيث اعتقاده بأنه شخص عظيم ، غير أنه يعتقد بالاضافة الى ذلك أن الناس يضطهدونه ويتآمرون عليه ، فاذا رأى اثنين يتهامسان فيما بينهما ظن أنهما يتآمران للايقاع به ، واذا سمع عن مظاهرة سياسية تصور أنها مدبرة ضده، وربما تصور أن الاستعمار العالمي كله يضع الخطط لقتله والتخلص منه .

يمكن القول ان كل انسان على وجه الأرض قد يحمل في أعماق نفسه بذرة الجنون من هذا الصنف أو ذاك ، أو كليهما معاً ، فكل انسان غير قانع بالمنزلة الواقعية التي هو فيها ، وهو قد ينطوي على نفسه ليتخيل المنزلة الرفيعة التي يطمح اليها ، وربما تخيل كذلك ان الناس يحسدونه على تلك المنزلة ويضمرون له البغضاء ويكيدون له . ولكن الفرق بين المجنون والعاقل هو أن أحدهما يتستر على نفسه ويكتم مشاعره ويتظاهر بالتواضع فيقول الناس عنه انه عاقل ، بينما الآخر يعلن عن مشاعره جهاراً ولا يبالي بما يقول الناس عنه . وبعبارة أخرى : ان العاقل هو الذي يملك القدرة على التمييز بين الأفعال التي يرضى عنها الناس وتلك التي يسخرون منها ، أما المجنون فهو لا يملك مثل هذه القدرة وتراه يكشف للناس عن جميع مايشعر به تجاه نفسه وتجاه الغير لا يكتم منه شيئاً ، فظاهره وباطنه سـواء !

ولابد لنا في هذه المناسبة من أن نتطرق الى نموذج من الناس هو وسط بين العقل والجنون ، أو هو بعبارة أخرى : قريب من الجنون ولكنه ليس مجنوناً ، هو الذي يمكن أن نسميه بالشخص « الكيشوتي » .

ان هذا الاصطلاح مأخوذ من اسم بطل القصة الاسبانية المشهورة « دون كيشوت » ، وهذا الرجل كان يعيش في القرون الوسطى وكان يطمح أن يكون فارساً من اولئك الفرسان الشجعان الذين كانوا ينالون

اعجاب الناس يومذاك ، غير أنه كان ضعيف الجسم مسكيناً . وقد وجد حصانا هزيلاً فامتطاه ، ثم وجد درعاً ممزقاً فلبسه ، وخرج الى الناس ينادي : هل من مبارز ؟! وصار يبارز طواحين الهواء ظنا منه أنه يبارز العمالقة ، ويقتل قطيعاً من الغنم ظناً منه أنه يقاتل جيشاً عرمرماً .

ان هذه قصة لا تخلو من مبالغة ولكنها مع ذلك تمثل نموذجاً لشخصية موجودة في الواقع وان كان أصحابها قليلين .

ان الشخص « الكيشوتي » يقف في منتصف الطريق نحو الجنون ، والناس قد يسخرون منه كما يسخرون من المجنون أحياناً ولكنه لا يتقدم نحو الجنون ، بل يقف في مكانه طيلة حياته . انه يتصور نفسه أميراً ، أو زعيماً سياسياً مشهوراً ، أو قائداً من قواد صاحب الزمان ، والناس يعاملونه حسبما يتصور هو في نفسه لكي يضحكوا عليه ولكنه يعتقد أنهم يعاملونه بصدق واخلاص . وهو قد يقوم بأعمال عجيبة ليمثل الدور الذي يشتهيه ، كأن يظهر بمظهر الأمير أو الزعيم أو القائد ، واذا اشتد الناس في السخرية منه ظن أنهم يمازحونه حباً به .

ان الشخص « الكيشوتي » يختلف عن المجنون بكونه قادراً على كسب العيش واحتراف مهنة كسائر الناس ، وهو في مهنته يكاد لا يختلف عن العقلاء ،ولكن نقطة الضعف فيه هي أوهامه « الكيشوتية » وهي أوهام لا تسمح له أن يكون عاقلاً ، ولا تتقدم به نحو الجنون ، فهو يظل طيلة حياته في تلك المرحلة الوسطى بين العقل والجنون .

ان أكثر المجانين يمرون بالمرحلة « الكيشوتية » قبل أن يدخلوا في عالم الجنون . وكثيراً ما يدفعهم الناس بسخريتهم نحو الجنون دفعاً . أما الشخص « الكيشوتي » فهو يبقى في مرحلته الوسطى مهما سخر الناس منه وآذوه . فما هو السبب في ذلك ؟ ان هذا من ألغاز الشخصية البشرية التي لا يزال العلم عاجزاً عن حلها .

العامية والتفرد :

ان الانسان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشبه من بعض الوجوه التنويم المغناطيسي ، وهو ما يمكن أن نسميه بـ « التنويم الاجتماعي » . فالمجتمع يسلط على الانسان منذ طفولته ايحاءاً مكرراً في مختلف شؤون العقائد والقيم والاعتبارات الاجتماعية ، وهو بذلك يضع تفكير الانسان في قوالب معينة يصعب التحرر منها . وهذا هو الذي جعل الانسان الذي ينشأ في بيئة مغلقة ينطبع تفكيره غالباً بما في تلك البيئة من عقائد دينية وميول اجتماعية واتجاهات عاطفية وما أشبه . فهو يظن أنه اتخذ تلك العقائد والميول بارادته واختياره ، ولا يدري أنه صنيعة بيئته الاجتماعية ولو أنه نشأ في بيئة أخرى لكان تفكيره على نمط آخر .

ان التنويم المغناطيسي في حقيقته ليس سوى ايحاء مكرر يُسلّط على الشخص كأن يقال له تكراراً انه يرى شيئاً معيناً ، وربما كان الشيء غير موجود ولكن صورته تنطبع في ذهن الشخص كأنه موجود فعلاً . وهـذا هو ما يفعله التنويم الاجتماعي في الكثير من الناس بحيث يجعلهم يؤمنون بالأوهام والخرافات وهم واثقون بأنها حقائق واضحة لا يجوز أن يتجادل فيها اثنان ، أو يشك فيها انسان !

ثبت علمياً أن الافراد لا يتأثرون كلهم بالتنويم المغناطيسي على وتيرة واحدة . فمنهم من يتأثر به كل التأثر ومنهم من يكون تأثيره فيه ضعيفاً ، وهناك أفراد لا يمكن تنويمهم اطلاقاً . والظاهر أن الافراد يتفاوتون تجاه التنويم الاجتماعي على منوال ما يتفاوتون تجاه التنويم المغناطيسي .

فالملاحظ أن السواد الاعظم من البشر في كل العصور ، وهم الذين نسميهم « العامة » ، يتأثرون بالتنويم الاجتماعي تأثراً كبيراً . فالفرد منهم يكون خاضعاً في تفكيره للايحاء الاجتماعي المسلّط عليه ، فهو يفكر مثلما يفكر الناس حوله ، يحب ما يحبون ، ويكره ما يكرهون ، وتكون عقائده وميوله طبق ما هي في محيطه الاجتماعي لا يخالفها الا قليلاً ، واذا اندفع

الغوغاء في أفعال اعتدائية عاتية أيدهم وهتف لهم بشرط أن تكون أفعالهم موافقة للايحاء المسلط عليه ، أما اذا كانت مخالفة له فانه يشجبها ويتقزز منها ويتعجب كيف قام الناس بها •

ان الشخص « العامي » قد يكون ذا شهادة علمية عالية ولكن علمه ليس سوى مجموعة من المعلومات حفظها حفظاً دون أن تؤثر في نمط تفكيره • انه يبقى « عامياً » في تفكيره مهما تعلم ، وهو لا يختلف عن « العامي » غير المتعلم الا بمظهره الخارجي أو بما يتحذلق به من أفانين الكلام وترديد المصطلحات العلمية •

وهناك على الضد من الشخص « العامي » شخص يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « المتفرد » وهو الذي يكون تأثره بالتنويم الاجتماعي ضعيفاً نسبياً • وهذا الشخص يشعر منذ طفولته بأنه مختلف عن غيره ، فهو يرى الناس حوله يتفاخرون بأمور هي في نظره لا تستحق الفخار • انه يحب أن ينسجم مع الناس ولكنه لا يتمكن من ذلك في أكثر الأحيان ، فهو في واد وهم في واد آخر ، وربما كان معذباً من الناحية النفسية لعجزه عن مجاراة الناس في معتقداتهم وميولهم ، وهو قد لا يدري السبب في ذلك •

يمكن القول ان « التفرد » صفة ضرورية لتكوين شخصية العبقري أو النبي أو المصلح أو العالم أو أي شخص ينجز عملاً شاذاً عن المألوف • فلولا صفة « التفرد » في هؤلاء الاشخاص لما استطاعوا أن يفكروا بعملهم الشاذ أو يقوموا به •

ان الشخص « العامي » هو الذي تتمثل فيه الطبيعة البشرية بأجلى مظاهرها من حيث حبه لذاته وتحيزه العقلي ، وكل ما يهتم به هذا الشخص في أقواله وأفعاله هو أن ينال مديح الناس وارتفاع منزلته بينهم • وبعبارة أخرى : انه منهمك في ذاته لا يعرف غيرها • أما الشخص « المتفرد » فهو وان كان لا يخلو من هذه النزعة بوجه عام غير أنه قد ينسى ذاته أحياناً ، وينسى الناس حوله ، فيندفع في سبيل هدفه الشاذ كما يندفع العاشق

الولهان • وهذا هو السبب الذي جعل الناس يصفون « المتفرد » بأنه مجنون • فهم منهمكون في ذاتهم ويتوقعون من غيرهم أن يكون مثلهم في ذلك ، فاذا رأوا شخصاً يشذ عنهم استغربوا منه وألصقوا به تهمة الجنون •

تعجبني في هذا المقام كلمة للامام علي بن أبي طالب هي : « الناس ثلاث : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، والباقي همج رعاع ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح » •

الانانية والغيرية :

ان الانانية هي الصفة الاساسية في الانسان ، فهو يحب نفسه دائماً ويفضلها على الغير ، ولكننا مع ذلك قد نرى الانسان يضحي بنفسه أو بمصلحته في سبيل الغير أحياناً ، كما تفعل الأم تجاه ولدها ، أو البدوي تجاه قبيلته ، أو المؤمن تجاه دينه ••• الخ •

يمكن القول ان هذه الغيرية التي نراها في الانسان أحيانا ليست غيرية بمعناها الحقيقي ، بل هي أنانية تبدو كأنها غيرية • وبعبارة أخرى : ان الغيرية في الانسان ليست سوى صورة من صور الأنانية أو مستمدة منها •

خذ الأم مثلاً فهي حين تتفانى في سبيل ولدها انما تتفانى في سبيل نفسها من حيث لا تشعر ، ذلك أن ولدها ليس كائناً غريباً عنها بل هو جزء من ذاتها وامتداد لها ، اذ هي تفتخر بفخاره وتعتار بعاره ، وكثيراً ما يتعلق مصيرها بمصير ولدها ارتفاعاً أو انخفاضاً •

ومثل هذا يمكن أن نقول عن البدوي تجاه قبيلته ، ولو بدرجة أضعف ، فالبدوي يرمي بنفسه الى الموت في سبيل قبيلته لانه يدرك أن انتصارها انتصار له وهزيمتها هزيمة له ، واذا ذلت قبيلته أو أهينت فلابد أن يصيبه الذل والهوان عاجلاً أو آجلا •

أما المؤمن الذي يموت في سبيل دينه فهو يتوقع أن يلقى بعد الموت ما يعوّضه خير تعويض ، فهو بموته يفقد المنفعة القليلة العاجلة من أجل منفعة كثيرة آجلة • ولكن الملاحظ أن الشهداء في الدين قليلون نسبياً

ذلك لأن اكثر الناس غير مصدقين بالآخرة تصديقاً حقيقياً من أعماق نفوسهم ، ولو كانوا مصدقين بها حقاً لتهافتوا على الموت أكثر من تهافتهم على مناصب الدنيا ومغرياتها •

وهناك جانب آخر من هذا الموضوع هو ما نسميه بـ « الجزاء الاجتماعي »• فالانسان كثيراً ما يخدم الغير أو يضحي في سبيله لكي ينال التقدير من الناس وترتفع منزلته بينهم • خذ مثلاً ذلك الشخص الذي يسمع عن حدوث حريق في محلته وصوت استغاثة تنبعث منه ، فهو يسرع الى النجدة متلهفاً وقد يرمي بنفسه الى النار لينقذ أحداً منها ، وهو اذ يفعل ذلك يتوقع أن ينال التقدير من أبناء محلته بعدئذ ، فيتحدث الرجال في المقهى عن بطولته ، وتروي النساء القصص المثيرة عنه ، واذا مشى في الطريق أشار الناس اليه بالبنان وردوا له التحية بأحسن منها •

ان هذا الذي يفعله الفرد المحلي يفعله كل انسان ، غير أن الناس يختلفون من حيث المظهر الذي يظهرون به أو الوسيلة التي يستعملونها من أجل الحصول على « الجزاء الاجتماعي » • فالمكتشف الذي يرتاد القطب ، والعالم الذي يقضي أوقاته بين الكتب ، والبدوي الذي يغزو ، والشقي الذي يسطو على البيوت ، والشاعر الذي ينظم القصائد العصماء ، كل هؤلاء وغيرهم انما يطلبون « الجزاء الاجتماعي » ، ولكنهم اختلفوا في أعمالهم من جراء اختلاف الدوافع النفسية المسيطرة عليهم أو الظروف الاجتماعية المحيطة بهم •

الواقع أن للقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع أثراً كبيراً في توجيه أفراده نحو عمل ما • فاذا كان المجتمع يقدّر العلماء مثلاً اندفع أكثر أفراده نحو طلب العلم والتنافس عليه ، واذا كان يقدّر الشعراء صار كل فرد راغباً في حفظ الشعر وروايته أو التحدث فيه على أمل أن يكون في يوم من الايام شاعراً مشهوراً ، أو ناقدا للشعر على أقل تقدير •

عندما يفتح الطفل عينه للحياة يسمع الكبار حوله يتحدثون فيمدحون

شخصاً ويذمون آخر ، وهو يصغي الى أحاديثهم فتنغرز في نفسه القيم التي يجري تقدير الأشخاص عليها • فاذا كبر هذا الطفل اجتهد في أن يكون موضع تقدير الناس حسب القيم التي تلقنها في طفولته •

وفي بعض المجتمعات قد يكون هناك نظامان متناقضان من القيم : أحدهما واقعي وهو الذي يجرى تقدير الاشخاص به عملياً ، والآخر مثالي وهو الذي يتواعظ به الناس في خطبهم ومقالاتهم • فينشأ فيهم من جراء ذلك ما نسميه بـ « ازدواج الشخصية » ، حيث نجد الناس هنالك يترنمون بالمثل العليا في أقوالهم بينما هم في أفعالهم يسيرون على الضد منها •

اذا أردنا أن تعرف المستوى الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات وجب أن نغض النظر عما يتواعظ أفراده به من أقوال رنانة ونركز نظرنا على القيم الواقعية التي يجري تقدير الأشخاص بها فيه •

قال أحد علماء الاجتماع : « انظر الى الأشخاص الذين يقدرهم المجتمع تعرف الاتجاه الحضاري السائد في ذلك المجتمع ومصيره » •

الانسان والدين :

ان النفس البشرية تحتاج الى الدين كمثل ما يحتاج البدن الى الغذاء • فالانسان مهدد بالاخطار ومحاط بالمشاكل دائماً وهو اذن في حاجة الى عقائد وطقوس دينية تساعده على مواجهة تلك الاخطار والمشاكل وتبعث الطمأنينة في نفسه ازاءها •

ان الانسان الحديث بدأ يعالج مشاكله والأخطار التي تهدده بالعلم ، ولكنه خلال الدهور الطويلة التي عاشها قبل ظهور العلم الحديث كان يقف تجاه الطبيعة عاجزاً ، وكان مضطراً أن يلجأ الى الطقوس التعبدية على أمل أن تنقذه من الخطر • خذ مثلاً قرية بدائية يثور بقربها بركان مخيف ، فان أهل القرية لا يملكون تجاه البركان سوى القيام بالرقص الجماعي وعمل التعاويذ وتقديم القرابين حسبما تفهمه عقولهم • انهم يتصورون أن البركان شخص مثلهم تؤثر فيه التوسلات وابداء الخضوع والتزلف نحوه•

واذا شاءت الصدفة أن يهدأ البركان بعد قليل أيقنوا أن أفعالهم التعبدية هي التي أنقذتهم من غضــب البركان ، وبذا تتحول تلك الأفعال الى طقوس تقليدية مقدسة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وكلما طال عليها الزمن ازدادوا لها تقديساً •

مهما يكن الحال فان الدين ليس كله على هذه الشاكلة ، ومن الممكن تصنيف الدين الى صنفين رئيسين هما : الدين الكهاني والدين النبوي • فالذي ذكرناه في أمر البركان ينطبق على الدين الكهاني وهو الدين الذي ليس له مؤسس بل هو ينشأ تلقائياً حيث يبتدعه العامة تدريجاً حسب تطور حاجاتهم النفسية والاجتماعية • أما الدين النبوي فأمره يختلف كل الاختلاف ، وقد يصح أن نصفه بأنه دين ثوري اذ هو يأتي به « نبي » من أجل اصلاح الأحوال السائدة في المجتمع على وجه من الوجوه •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن « النبي » حين يظهر بدين ثوري جديد لابد أن يقاومه المجتمع ، فليس يهون على الناس الذين ورثوا عقيدتهم القديمة عن الآباء ونشأوا عليها أن يروا شخصاً يسعى الى هدمها • انهـا عقيدة مقدسة في نظرهم ، وهم يعتبرونها أفضل العقائد وأقربها الى العقل ، ولذا فهم يستنكرون الدعوة الجديدة التي يأتي بها « النبي » كل الاستنكار ويتهمونه بشتى التهم ويضطهدونه ويسخرون منه ، وربما قتلوه •

وتظل الدعوة الجديدة التي يأتي بها « النبي » في حرب متصلة مع أعدائها فترة من الزمن قصيرة أو طويلة حسب اختلاف الظروف ، فاذا انتصر اعداؤها وقضوا عليها نساها الناس وصارت في حكم الموتى ، وما أكثر الدعوات التي ظهرت في التاريخ ثم ماتت • أما اذا انتصرت الدعوة عـلى أعدائها كان ذلك عاملاً فعالاً في تكاثر أتباعها ، وكلما ازدادت انتصاراتها ازداد عدد الداخلين فيها واشتد تحمسهم لها وايمانا بها •

ان الذين يعتنقون الدعــوة الجديدة في ايام محنتها قليلون جداً ، أما أكثر أتباعها فهم الذين يعتنقونها بعد انتصـارها وهم فريقان : فريق

يعتنق الدعوة بدافع الانتهازية وطلباً للدنيا ، وفريق يعتنقها ايماناً بصحتها اذ هو يعتقد أنها لو لم تكن على حق لما انتصرت • ومما يلفت النظر أن هؤلاء الاتباع قد يضطهدون من يخالف الدعوة الجديدة كما كانوا من قبل يضطهدون أتباعها الأولين •

والمشكلة في كل دين نبوي أنه يتحول الى دين كهاني بمرور الأيام• فالتعاليم التي جاء بها « النبي » كثيراً ما تناقض العادات الاجتماعية السائدة بين الناس ، وهم انما رضخوا لتلك التعاليم في فترة الحماس الأولى عند دخولهم في الدين الجديد ، ولكنهم لا يستطيعون الاستمرار عليها طويلاً ، فهم لابد أن يتحرروا منها ليعودوا الى عاداتهم القديمة أو يطوروا لهم عادات أخرى تحت ضغط ظروفهم المتغيرة •

اعتاد العامة أن يأخذوا من الدين النبوي جوانبه الاعتقادية والتعبدية ، اما الجوانب الاجتماعية منه ، وهي التي كافح « النبي » في سبيلها ، فهم لا يكترثون لها اذ هي تبقى مسجلة في الكتب يتواعظ الناس بها دون أن يعملوا بها •

ويستفحل هذا الاتجاه لدى العامة حين ينتشر بينهم مبدأ « الشفاعة » ، فنراهم يكذبون ويغشون وينهبون ويعتدون ، وهم في الوقت نفسه يشيدون المساجد والأضرحة ، ويتوسلون بقبور الأولياء ، ويقيمون الولائم والمواكب والمآتم ، اعتقاداً منهم ان الله سيغفر لهم ذنوبهم جميعاً بشفاعة أوليائه الكرام•

الواقع أن لرجال الدين دوراً لا يستهان به في هذا التحول نحو الدين الكهاني ، فهم بحكم وظيفتهم الاجتماعية يسايرون العامة فيما يعملون ، وقد يأتون بالأدلة « العقلية » و « النقلية » لتأييدهم عليه •

يجب أن لا ننسى أن رجل الدين بشر كسائر الناس ، وهو اتخذ الدين له حرفة كما يتخذ غيره أية حرفة أخرى ليرتزق منها • ان حرفة رجل الدين تفرض عليه أن يداري العامة لكي يرضوا عنه ، فرضاهم عنه هو الذي يرفع منزلته من جهة ، ويزيد في رزقه من الجهة الأخرى •

اننا نظلم رجل الدين حين نطالبه بأن يكون من دعاة الاصلاح في الدين ، ونحن في هذا كمن يطلب من صاحب دكان أن يقوم بعمل ينفّر الزبائن منه . ان كل دعوة اصلاحية لابد أن يقاومها العامة ويضطهدونها . وقد رأينا في « النبي » مثالاً على ذلك ، واذا أراد رجل الدين أن يقتدي بـ « النبي » في دعوته الاصلاحية فمعنى ذلك أنه يجب أن يسد دكانه ويبوء بالخسارة علاوة على هبوط منزلته بين الناس .

ذكرنا سابقاً أن أكثر الناس « عاميون » في تفكيرهم والنادر منهم من يكون « متفرداً » غير مندفع بتيارهم ، وهذا ينطبق على رجال الدين بشكل واضح ، فالمعروف عن معظم رجال الدين أنهم يجارون العامة في ما يبتدعون من عقائد وطقوس ، ولا نكاد نسمع عن أحدٍ منهم أنه دعا الى اصلاح الا مرة واحدة في كل جيل أو أقل من ذلك !

نلاحظ الكثير من رجال الدين يؤلفون الكتب في انتقاد عقائد الآخرين ، وهم يحسبون أنهم مصلحون . وهذا في الواقع ارتزاق لا اصلاح ، فهم في عملهم هذا انما يبتغون زيادة عدد الزبائن على دكاكينهم . ولو كانوا يقصدون الاصلاح حقاً لبحثوا عن عيوب قومهم ودعوا لاصلاحها بدلاً من البحث عن عيوب الآخرين .

خلاصة القول ان أنانية الانسان تظهر في مجال الدين على نحو ما تظهر في مجالات الحياة الأخرى . وللحسين بن علي كلمة جديرة بأن تُذكر في هذه المناسبة ، حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا مُحصوا بالبلاء قلّ الديانون » .

التنازع البشري :

التعاون والتنازع صفتان متلازمتان في البشر لا ينفصلان ، فلا يمكن أن يكون البشر متعاونين تعاوناً كلياً لا تنازع فيه ، أو متنازعين تنازعاً كلياً لا تعاون فيه . ان الانسان ليس حيواناً محضاً ولا انساناً محضاً ، بل هو

حيوان وانسان معا ، فهو يميل الى التعاون بدافع كونه انساناً ، ويميل الى التنازع بدافع كونه حيواناً •

الملاحظ في الطفل البشري أنه يميل الى التعاون والتنازع معاً منذ أوائل أيامه ، فهو اذا شاهد قريناً له من الأطفال ابتش له وأنس بصحبته وأخذ يتعاون معه في اللعب • غير أنه لا يستمر على ذلك سوى فترة قصيرة ، ومن ثم نراهما قد تشابكا بالأيدي وحاول أحدهما ضرب الآخر أو اختطاف ما في يده حيث يتركه يبكي دون أن يحس بأية شفقة عليه •

الانسان انما يتعاون مع غيره لانه مضطر الى ذلك ، فهو لا يستطيع أن يعيش منفرداً كالحيوان ولابد له من مجتمع يربيه ويساعده على تكوين طبيعته البشرية • فالانسان اذن يتعاون مع الجماعة التي ينشأ فيها وترتبط مصالحه وعواطفه بها ، ولكنه لا يكاد يلمح من بين جماعته أحداً ينافسه أو ينازعه على مصلحة له مادية أو معنوية حتى تنتفض من أعماقه نزعته الحيوانية الأصيلة ، فيكشر عن أنيابه وتبرز مخالبه المخفية •

ان الحياة الاجتماعية تجعل الانسان في اكثر الأحيان مضطراً أن يكتم غيظه ، ويداري خصمه أو يجامله ، فلا ينقض عليه كما ينقض الحيوان المفترس على فريسته ، انما هو يود أن يفعل ذلك من صميم قلبه ، وهو يتمنى أن يهاجم خصمه مباشرة لولا خوفه من كلام الناس أو عقاب الحكومة أو الثأر •

مزية الحيوان أنه حين يقوم بعمل يسير نحوه مباشرة ولا يبالي بمن حوله من أفراد نوعه • انه يجري على فطرته دون رياء أو تظاهر أو أية محاولة للتبرير • ولهذا نجد الذئب يهاجم الشاة فيأكلها ويقرمط عظامها ثم يضطجع هادئاً كأنه لم يفعل أمر منكراً • والواقع أن الانسان يحب أن يفعل بخصمه كما يفعل الذئب بالشاة ولكنه لا يقدر على ذلك في أكثر الأحيان لأن المجتمع قد وضع له قواعد وتقاليد وأعراف تمنعه من ذلك • واذا اضطر الانسان الى مهاجمة خصمه أو الانتقام منه فانه يبحث عن حجج

ومعاذير ليبرر بها فعله أمام الناس ، ونراه عند ذاك يصف خصمه بأبشع الصفات : يضخم معايبه وينكر محاسنه أو يتهمه بأنه خائن للوطن أو مارق عن الدين أو مضر بالمصلحة العامة • وهو يقصد من هذه التهم أن يجد له من بين الناس أعوانا يؤيدونه في ايذاء خصمه أو يسمحون له بايذائه على الأقل •

ان العقل البشري له مقدرة فائقة على ابتكار الحيل والوسائل بشتى أنواعها ، فهو يبتكر الأسلحة التي يقتل بها خصومه ، وهو كذلك يبتكر الحجج والمعاذير التي يبرر بها قتلهم •

يقال ان الانسان لديه « ضمير » يمنعه من أن يكون سبعاً ضارياً كالحيوان المفترس ، ويوصف « الضمير » بأنه الصوت الالهي في الانسان ، وهذا وصف مغلوط اذ المفروض في الله أنه لا يظلم الناس شيئاً بينما نجد « الضمير » كثيراً ما يدفع الانسان الى اقتراف الاعتداءات الفظيعة والمذابح •

ان « الضمير » في الواقع أمر نسبي وهو نتاج القيم الاجتماعية التي ينشأ عليها الانسان أو يؤمن بها بعدئذ • ولهذا رأينا الكثير من الأخيار والزهاد والصالحين يرتكبون أفدح الجرائم تجاه من يخالفهم في العقيدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً •

سبب التنازع :

ان التنازع بين الحيوانات ظاهرة طبيعية ليست في حاجة الى تفسير أو تعليل ، فالحيوانات انما تتنازع على موارد الغذاء التي هي محدودة ، وهي بتنازعها يهلك منها الضعيف ويبقى القوي ، وبذا يتم التطور البيولوجي عبر ملايين السنين كما هو معروف •

ومن الممكن القول ان البشر انما يتنازعون لنفس السبب الذي تتنازع له الحيوانات • فموارد الطبيعة محدودة ، ولابد للبشر أن يتنازعوا عليها • ولنفرض أن تلك الموارد توفرت بقدرة قادر بحيث أصبحت تكفي البشر جميعاً ، فانهم يظلون يتنازعون على الرغم من ذلك •

مشكلة الانسان ان حاجاته غير محدودة ، وهو في ذلك يختلف عن الحيوان ، فهو كلما أشبع حاجة من حاجاته انبثقت فيه حاجة أخرى • أضف الى ذلك أن الانسان لا يكتفي بالحاجات المادية وحدها ، اذ هو يملك حاجات معنوية علاوة عليها ، وربما كانت حاجاته المعنوية أكثر أهمية من الحاجات المادية في بعض الاحيان • فهو لا يكاد يشبع من الطعام حتى يتطلع الى الغرام والهيام ، أو الى الجاه والرئاسة ، أو الى غير ذلك من المطاليب التي لا تحصى • وتراه لاهثاً وراءها لا يقف فيها عند حد ، فلا يهدأ الا عندما يدركه الموت فيستريح عندئذٍ ويريح •

مما يزيد في حدة التنازع البشري هو ما يتصف به الانسان من تحيز عقلي وتغلف ذاتي • فكل شخص يعتقد أنه أولى من غيره ، أو أفضل ، أو أذكى ، أو اكفأ ، أو أجمل ، ثم يأتي بالحجج التي تؤيده في ذلك • فاذا تنازع مع أحد أيقن أنه هو المحق وأن خصمه لابد أن يكون مبطلاً •

يتضح هذا في قاعات المحاكم وما يجري فيها من خصومات قضائية ، فكل فريق من المتخاصمين يعتقد أن الحق معه ، فاذا حكم القاضي الى جانبه قال عنه انه منصف ، والا فهو جائر غشوم •

وهذا أمر لا يقتصر على الأفراد بل هو موجود بين الجماعات أيضاً • فقد امتلأ التاريخ بأحداث النزاع العنيف فيما بين القبائل ، والمدن ، والاحزاب ، والطوائف ، والدول • وكل فئة من هذه الجماعات تؤمن بان الحق معها وأن الباطل مع خصمها •

قد يسأل سائل : هل يمكن أن يأتي يوم على البشر يزول التنازع عنهم ويسود بينهم التآخي والوئام ؟

الواقع اننا اختبرنا الانسان طيلة الدهور التي عاشها على وجه الأرض فلم نره قد تبدل في طبيعته ، بل بقي كما كان ، على الرغم من تبدل المراحل الاجتماعية التي مر بها • حين ننظر الى أعظم الدول الآن ، وأرقاها حضارة وعلماً ، نجدها تتنازع فيما بينها على منوال ما تتنازع القبائل البدائية • وقد

شهدنا الدول « الراقية » تخوض حربين عالميتين فكانت القسوة التي عاملت كل دولة بها أعداءها لا تقل فظاعة عن قسوة الهمج •

ان الحكومات استطاعت أن تحسم المنازعات التي تنشب بين رعاياها بوساطة أجهزة القضاء والشسرطة وما أشسبه ، وهسذه الأجهزة قد تكون متفسخة أو جائرة ولكن وجودها على أي حال خير من عدمه ، فلولاها لتحوّل النزاع بين الأفراد الى قتال عنيف وأكل بعضهم بعضاً • ويصح أن نقول مثل هذا عن الحروب التي تنشب بين الدول ، فهذه الحروب ستظل مستمرة الى أن تظهر قوة عالمية قاهرة تحكم في منازعات الدول ، وتنفذ حكمها بالقوة ، على منوال ما تفعل الحكومات المحلية في منازعات الأفراد•

ان الدول الآن تعيش في نفس المرحلة التي عاش فيها الأفراد قبل ظهور الحكومات المحلية • فكل دولة تريد أن تأخذ حقها بحد السيف ، وهي تشحذ سلاحها استعداداً للحرب ، ومعنى هذا ان الحرب بين الدول لا تحتاج الاّ الى شرارة صغيرة لكي تنفجر كما ينفجر مخزن البارود !

ان العقل البشري استطاع أن يبتكر أعجب الاسلحة وأشدها فتكاً ، ولكنه لا يزال في منازعاته يفكر على نمط ما كان عليه الأسلاف الغابرون • وهنا يكمن الخطر الاكبر ! فطبيعة التنازع في الانسان لم تتغير انما تغيرت الاسلحة التي يستعملها الانسان في تنازعه • لقد تحوّل السيف والرمح والسهم في يد الانسان الى طائرات وصواريخ وقنابل نووية • ونحن نخشى أن يبتكر العقل البشري أسلحة أفظع من هذه ثم يظهر في احدى الدول زعيم من طراز هتلر فينسف الكرة الأرضية نسفاً !

لا يجوز أن نثق بالانسان حين نراه ينادي بالعدل أو الحق أو غيرهما من المثل العليا • فهو كما أشرنا اليه من قبل انما ينادي بتلك المثل حين تكون نافعة له ، وهو ينساها حين تكون نافعة لخصمه• فلو ترك البشر من غير قوة قاهرة تفرض السلم عليهم فرضاً لظلوا يتحاربون وهم يعتقدون أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل •

تركيب الشخصية :

جرى المفكرون القدماء على التصنيف الثنائي في حكمهم على الأشخاص ، وكانوا يضعون بين كل صنف ونقيضه حداً فاصلاً لا يجوز تعديه في نظرهم اذ هم يعتبرونه حداً طبيعياً ، فاذا حكموا على شخص بأنه عادل مثلاً وجب أن يكون الشخص عادلاً في جميع أفعاله وأقواله فلا يمكن أن تظهر عليه أية بادرة من الظلم مهما كانت ضئيلة •

ان هذا هو ما يعرف في المنطق القديم بقانون « الوسط المرفوع » أو « الثالث المرفوع » ، وهو قانون كان القدماء يعتقدون أنه من الضرورات العقلية التي لا يجوز الشك فيها • وقد تبين الآن خطأ هذا القانون ومخالفته لواقع الحياة ، فليس هناك صفة محضة في أي انسان بحيث تخلو من نقيضها ، ولابد لكل انسان من أن يجتمع فيه النقيضان من كل صفة ، غير أن أحد النقيضين قد تزداد نسبته فيه من حيث تقل نسبة النقيض الآخر •

بطل استعمال قانون « الوسط المرفوع » في البحوث الحديثة وحل محله قانون « التدرج » ، ومعنى هذا القانون ان البشر يتفاوتون في صفاتهم درجياً لا نوعياً ، فاذا أردنا تصنيفهم وجب أن نضعهم على درجات متتابعة حسبما تكثر أو تقل نسبة احدى الصفات فيهم •

خذ مثلاً ما اعتاد الناس عليه من تصنيف الأفراد حسب طول قاماتهم ، اذ يقولون : هذا طويل وذاك قصير ، ولكننا في الواقع لو جمعنا عدداً كبيراً من الأفراد ووضعناهم في صف واحد حسب الطول لوجدناهم قد انتظموا بشكل درجي لا يصح فيه التصنيف الثنائي ، ففي أقصى الطرفين نجد أطولهم ، وفي أقصى الطرف الآخر نجد أقصرهم ، أما الباقون فهم على درجات متفاوتة بين ذينك الطرفين •

ان هذا التدرج يصدق على جميع الصفات البشرية كمثل ما يصدق على طول القامة • وأوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو ما توصلت اليه البحوث النفسية في أمر قياس الذكاء ، فقد ثبت الآن أن

الافراد يتفاوتون في ذكائهم تفاوتاً درجياً كبيراً • فالأوساط من الناس هم الذين تتراوح درجة ذكاؤهم بين السبعين والمائة والأربعين • وهناك المفرطون في ذكائهم الذين قد يتجاوز بعضهم المائتين • وهنالك في الطرف الآخر المتخلفون عقلياً وهم الذين تهبط درجة ذكائهم دون السبعين قليلاً أو كثيراً •

يجب ان لا ننسى ان البحوث الحديثة كثيراً ما تستعمل التصنيف الثنائي غير أنها تقصد منه معنى غير المعنى الذي يقصده القدماء ، فهي تقصد به تبيان النموذج من كل صفة ونقيضها ، مع العلم أن هذا النموذج ليس له وجود واقعي انما هو افتراض خيالي يراد تصوير الطرف الأقصى من الصفة أو نقيضها •

ان الصفات البشرية كثيرة يصعب حصرها ، وقد تطرقنا الى ذكر بعضها سابقاً عند دراسة الفرق بين الجنون والعقل ، وبين العامية والتفرد ، وبين الفطارة والنضوج • ونستطيع أن نضيف الى هذه صفات أخرى هي التي اعتاد الناس أن يشيروا اليها عند تصنيفهم الاشخاص حيث يميزون بين الطيب واللئيم ، والشجاع والجبان ، والرحيم والقاسي ، والانبساطي والانطوائي ، والكريم والبخيل ، والمتفائل والمتشائم ••• الخ •

ان الصفات البشرية بشتى أنواعها اذ تتجمع في الفرد على نسب متفاوتة تؤدي الى تكوين « الشخصية » فيه • وهذا هو الذي جعل من النادر وجود اثنين من البشر يتماثلان في تكوين شخصيتهما تماثلاً تاماً • فكل فرد من البشر يحمل في شخصيته جميع الصفات كما رأينا ، ولكن الأفراد يختلفون فيما بينهم من جراء اختلاف النسبة الموجودة بين تلك الصفات في كل واحد منهم • ان الشخصية بهذا الاعتبار تشبه المركب الكيمياوي المعقد ، فأقل تغير في النسبة بين محتوياتها يؤدي الى تغير واضح في طابعها العام •

مما يجدر ذكره أن تركيب الشخصية لا يخضع للمنطق ، بل ان له منطقاً خاصاً به • فقد يكون شخص ما مفرطاً في الذكاء ولكنه في الوقت

نفسه عامي التفكير فطير ، أو قد يكون انبساطياً جداً ومتفرداً . فالناس قد يتعجبون من مثل هذا الشخص اذ هم لا يستطيعون أن يفهموا كيف يجمع في شخصيته هذه الصفات التي هي متعارضة في زعمهم . والواقع أن عدداً لا يستهان به من رجال التاريخ العظام هم من هذا الطراز العجيب غير أن المؤرخين غربلوا أخبارهم ونسقوها بحيث جعلوا صفاتهم منسجمة كلها مع العقل والمنطق .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالذكر أيضاً ، هي أن الكثير من الناس قد يقعون في الخطأ حين يفسرون سلوك غيرهم بما يفسرون به سلوكهم حيث يغفلون عن الفرق الكبير بينهم وبين الغير في تركيب الشخصية . فأحدهم مثلاً قد يكون انبساطياً جداً بحيث لا يستطيع أن يستقر بضعة دقائق من غير أن يكون معه صاحب ينادمه ، ولا يتحمل السفر أو التنزه أو تعاطي الخمرة الا برفقة أحد ، وهو يتصور أن الناس كلهم مثله وقد يقسرهم على مرافقته ظناً منه أنهم سيسعدون بذلك كما يسعد هو به مع العلم أن في الناس من هو على النقيض منه اذ لا يستطيع أن يتمتع بوقته الا منفرداً .

خلاصة القول ان شخصية كل انسان فريدة من نوعها لا تماثلها أية شخصية أخرى . وهذه حقيقة ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما نريد أن نعامل الناس أو نصدر أحكامنا عليهم . وما أكثر الذين جهلوا هذه الحقيقة فاساؤوا الى الناس والى أنفسهم . وقد تتعضّل المشكلة حين يكون أحدهم ذا سلطة على الناس ، فهو يشتهي أمراً ويحسب أن الناس كلهم يشتهونه مثله ، وهو قد يقسرهم عليه قسراً فيضرهم من حيث يظن أنه يريد نفعهم .

الخاتمة :

قد يسأل سائل : لماذا نريد أن نعرف طبيعة الانسان على حقيقتها ، وما الفائدة العملية التي نجنيها من ذلك ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نصلح الانسان أو نعالج مشاكله ما لم نفهم طبيعته التي جُبل عليها • فقد أخطأ المفكرون القدماء حين تصوروا الطبيعة البشرية كأنها نتاج العقل ، وتصوروا العقل كأنه موهبة عليا وظيفتها الوصول الى الحقيقة ، وبذلك ظنوا أن في وسعهم اصلاح البشر عن طريق الموعظة والخطابة والنصيحة •

اصطنع اولئك المفكرون مثلا عليا للانسان ، كما فعل افلاطون في جمهوريته ، والفارابي في مدينته الفاضلة ، ثم صاروا يرشدون الناس الى تلك المثل ثقة منهم أن الانسان اذا عرفها واقتنع بها عقلياً أخذ يسعى نحوها ويحققها في نفسه ومجتمعه ، وبذا يتم الصفاء والهناء في العالم بزعمهم •

أخفقت كل المثل التي جاء بها المفكرون القدماء ، فلم يتأثر بها أحد فعلياً ، وظل الناس كما كانوا قديماً يسيرون على نمط ما اعتادوا عليه • واذا تعلم أحد المتحذلقين شيئاً من الفلسفة تعالى على الناس واتخذ تجاههم موقف الواعظ الفاهم وأخذ يلومهم على سوء أخلاقهم وينسب اليهم سبب المصائب التي تحل بهم ، مع العلم أنه في سلوكه الفعلي لا يختلف عنهم •

اذا رأينا فكرة مثالية عالية لا يتأثر بها البشر على توالي الأجيال فينبغي أن نضع اللوم عليها لا على البشر • فالبشر قد جُبلوا على طبيعة معينة لا يستطيعون التحول عنها ، ونحن يجب أن نجعل الفكرة ملائمة للطبيعة البشرية بدلاً من أن نجعل الطبيعة ملائمة للفكرة •

صوّر لنا الفارابي في كتابه « المدينة الفاضلة » مجتمعاً سعيداً يعيش في أتم الصفاء والهناء ، وكان رأيه أن من أهم خصائص هذا المجتمع وجود رئيس صالح فيه ينظم شؤونه ويحكم فيه بالعدل • وقد ذكر الفارابي الصفات المثالية التي يجب أن تتوفر في الرئيس حيث يكون تام الأعضاء فاهماً ذكياً فصيحاً معتدلاً صدوقاً عادلاً قوي العزيمة محباً للعلم معتزاً بكرامته • ان الفارابي لم يقف ليسأل : اين يمكن ان نجد مثل هذا الرئيس

الكامل ؟ واذا وجدناه فكيف يمكن أن نجعل الناس ينتخبونه رئيساً لهم ؟

لنفرض أننا بعد البحث الطويل عثرنا في احدى زوايا الأرض على الشخص الكامل حسبما تخيله الفارابي ، ثم جئنا به نزفه الى الناس اذ نقول لهم : هيا انتخبوه لتسعدوا ! فهل يا ترى سيوافق الناس على رأينا هذا ويسرعون الى انتخاب الشخص الذي رشحناه لهم ؟

ان البشر كما خبرناهم على توالي الازمان لا يمكن أن يتفقوا على رأي واحد ولو جاءهم هذا الرأي من السماء ، فهم لابد أن ينقسموا عليه وقد يتنازعون حوله أو يتقاتلون •

ان الشخص « الكامل » الذي جئنا به اليهم لا يكاد يصل اليهم حتى يظهر تجاهه منافسون يحسبون أنفسهم أفضل منه وأعدل وأذكى ، ثم يحاولون أن يجمعوا حولهم الانصار ، وعند هذا يبدأ الجدال بينهم وربما أدى ذلك الى التشاتم أو التشابك بالأيدي أو التضارب بالسيوف • وقد تنتهي المعمعة بسقوط الشخص « الكامل » على الأرض مضرجاً بدمائه •

ان الفارابي وأمثاله من المفكرين القدماء لا يهتمون بهذه الاحتمالات المتوقعة ، وكأنهم يعيشون في عالم غير العالم الذي يعيش فيه البشر • فهم يضعون الخطة الطوبائية لاصلاح المجتمع ويطلبون من الناس تحقيقها دون أن يقفوا لحظة ليتساءلوا : هل في مقدور البشر تحقيق تلك الخطة عملياً أم لا ؟ !

من المؤسف أن نرى بعض مفكرينا وكتابنا لا يزالون يسيرون في تفكيرهم على هذا النمط من التفكير المثالي ، فهم اذا أعجبتهم فكرة أخذوا يخطبون ويكتبون بحماس في الدعوة اليها ، ولا يبالون عندئذ أن تكون الفكرة منسجمة مع الطبيعة البشرية أم مخالفة لها •

انا اليوم في أشد الحاجة الى اصلاح الأذهان قبل البدء في اصلاح البلاد !

الفهرس

حول الأخطاء المطبعية

وقعت في هـذا الجزء أخطاء مطبعية عـلى الرغم من شـدة العناية بالتصحيح ، وهي أخطاء نامل أن يفطن اليها القارىء ويصححها بنفسه .

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

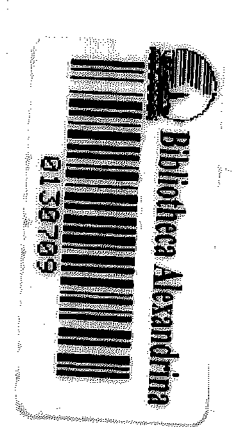
Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثالث



الدكتور علي الوردي

استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الثالث

من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٤

مقدمة

ان هذا الجزء يستوعب فترة أمدها ثمانية وثلاثون عاماً تبدأ من عام ١٨٧٦ حين تسنم السلطان عبدالحميد عرش آل عثمان وتنتهي في عام ١٩١٤ حين أعلنت الحرب العالمية الاولى . وهي فترة مهمة جداً من الناحية الاجتماعية حيث تعرض العراق فيها لتيار الافكار والمخترعات والنظم الاوربية الحديثة مما أدى الى حدوث تغير ملحوظ في حياة السكان المعنوية والمادية .

ان السنوات القليلة التي سبقت تلك الفترة شهدت بداية دخول بعض المخترعات الى العراق كالبواخر النهرية ومحطات التلغراف ومراكز البريد، وهذه كانت بمثابة رفع الحواجز التي كانت تحجب المجتمع العراقي عن تيار الحضارة الحديثة واخراجه من العزلة الاجتماعية التي كان يعيش فيها . وفي عام ١٨٦٩ حدث أمران كان لهما كل الاثر في هذا الاتجاه : أولهما مجيء مدحت باشا والياً الى العراق والمعروف عن هذا الوالي أنه أدخل الكثير من معالم الحضارة الحديثة الى العراق ، كالمدرسة والمستشفى والمطبعة والجريدة والمصنع وسكة الترام والحديقة العامة والشارع المبلط وغيرها. والأمر الثاني هو فتح قناة السويس ، والواقع ان هذه القناة كان لها تأثير عظيم في العراق من الناحيتين الاقتصادية والفكرية .

يقول يوسف غنيمة في كتابه « تجارة العراق » عن تأثير قناة السويس في العراق ما نصه : «ان هذا المشروع وحده أحيا تجارتنا وربطها بأوربة لا بل بعالم الحضارة بأجمعه ، أو بعبارة أخرى أنقلها عن بسمارك وهو قوله ان قناة السويس هي النخاع الشوكي في المملكة البريطانية ، ويحق لي

القول هنا انها النخاع الشوكي في تجارة العراق أيضاً »[1] . ويقول الأب انستانس ماري الكرملي في حديثه عن البصرة : « ... وكانت تجارتها شيئاً زهيداً لا يستحق الذكر ولما خرقت الترعة وبدأ عبورها سنة ١٨٦٩ تغيرت الاحوال تغيراً عظيماً وأخذت تجارتها ترتفع ارتفاعاً عجيباً اذ ما كانت تمضي السنة الواحدة الا وقد تضاعفت المقادير عما كانت في السنة المنصرمة . وكان الانكليز أسبق الامم الى نقل البضائع منها واليها وهم الذين نشطوا البصريين لترويج التجارة وغرس النخيل لاجتناء التمر . نعم ان النخيل كان موجوداً في البصرة ونواحيها لكن لم يكن بالألوف المؤلفة على ما نشاهد عدده اليوم . فقد أكد لي العارفون أن النخيل زاد مائة ضعف عدداً من بعد عشر سنوات من فتح قناة السويس ... »[2] .

كان من أهم نتائج فتح القناة ـ بالاضافة الى انشاء خطوط البواخر والتلغراف والبريد ـ زيادة الصادرات العراقية كالحبوب والتمور والصوف والمصارين والجلود والعفص وعرق السوس والكثيراء والحنظل والصمغ والافيون . فقد أخذت هذه السلع تلقى رواجاً في أوربا والهند وغيرهما ، وصارت المقادير التي تنقلها البواخر منها تنمو باطراد . يكفي لتوضيح ذلك أن نقول ان كمية الصادرات العراقية كانت قبل فتح القناة تناهز ما قيمته مائة وخمسون ألف دينار ، ثم صارت تزداد تدريجياً حتى وصلت في عام ١٩١٣ قريباً من ثلاثة ملايين دينار ، ومعنى هذا أنها خلال تلك المدة تضاعفت عشرين مرة[3] .

والواقع ان هذا الانتاج الاقتصادي انتج تحولاً لا يستهان به في طبيعة الانتاج الزراعي . فقد كانت الزراعة العراقية قبلئذ قائمة على أساس الاقتصاد القبلي ، أي أن القبيلة كانت تنتج ما تحتاج اليه ، ولكنها أصبحت

---

(١) يوسف رزق الله غنيمة (تجارة العراق قديماً وحديثاً) ـ بغداد ١٩٢٢ ـ ص ٨٩ .

(٢) انستانس ماري الكرملي (خلاصة تاريخ العراق) ـ البصرة ١٩١٩ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٣) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي في العراق) ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ج١ ص ٩٤ .

فيما بعد تنتج من أجل البيع والربح • ومن هنا قام بعض المزارعين خاصة في المناطق الجنوبية ، بتحويل أراضيهم الى انتاج زراعي كبير من أجل بيعها في الاسواق الخارجية تدفعهم الى ذلك الارباح الكبيرة •

يمكن القول ان زيادة الصادرات أدت بدورها الى زيادة الواردات يقول يعقوب سركيس : ان العراقيين أصبحوا يجلبون من أوربا عوضاً عن أثمان صادراتهم بضائع كثيرة من منتجاتها الصناعية التي لم يكونوا من قبل قادرين على شرائها لقلة ما في أيديهم من نقود[5] • ويجب أن لا ننسى أن أكثر السلع التي استوردت من أوربا هي استهلاكية ، والقليل منها انتاجيـة •

من أهم المواد الانتاجية التي استوردت الى العراق في تلك الايام هي المضخات التي تستعمل لرفع مياه السقي من الأنهر • وبدأ الناس في بعض المناطق يسمعون لأول مرة في حياتهم أصوات المضخات وهي تعمل في هدوء الليل • وقد بلغ مجموع ما استورد من تلك المضخات في بداية القرن العشرين اثنى عشر ، ثم أخذ عددها يزداد عاماً بعد عام [6] • وكذلك استوردت مكائن لصنع الثلج وأخرى لطحن الحبوب وتقشير الارز وغير ذلك • وقد ظهرت من جراء ذلك حرفتان شعبيتان احداهما لمن يعمل في تشغيل الماكنة ويسمى « مكينچي » ، والاخرى لمن يعمل في اصلاح المكائن ويسمى « فيترچي » •

ان هذا التطور الاقتصادي كان من العوامل الفعالة في ظهور تطور اجتماعي مواز له • فسكان العراق ارتفع عددهم من مليون وربع في منتصف القرن التاسع‌عشر الى ما يقارب ضعف ذلك العدد في‌عام ١٩١٤، وكذلك‌تحول الكثير من البدو الرعاة الى زراع مستقرين في الارض ، فقد دلت الاحصاءات أن البدو كانوا في عام ١٨٦٧ يؤلفون نسبة ٣٥ بالمائة من سكان العـراق

---

(٤) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ٣٩ •

(٥) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ــ بغداد ١٩٥٥ ــ ج٢ ص٢٧٥ ــ ٢٧٦ •

(6) Stephen Hemsley Longrigg (Iraq1900 To 1950) Oxford 1956 — P . 64 .

فيما كان أهل المدن يؤلفون نسبة ١٧ بالمائة [٧] . وظهرت خلال تلك الفترة منها قرى لم يكن لها وجود من قبل أو كانت قرى صغيرة فنمت ، وفيما يلي أسماء القرى والمدن مرتبة حسب سنوات تأسيسها أو بداية نموها :

العمارة ١٨٦١ — علي الغربي ١٨٦٤ — العزيزية ١٨٦٥ — قلعة صالح ١٨٦٨ — المحمودية ١٨٦٨ — السكوت ١٨٦٩ — الهندية ١٨٧٠ — الرمادي ١٨٧٠ — الناصرية ١٨٧٠ — شيخ سعد ١٨٧١ — الصويرة ١٨٧٢ — قلعة سكر ١٨٧٣ — الشطرة ١٨٧٣ — أبو صخير ١٨٧٥ — المجر الكبير ١٨٧٦ الكميت ١٨٧٨ — البغيلة ١٨٨٢ — الرفاعي ١٨٩٣ — الشامية ١٨٩٧ ...

والواقع أن ظهور هذا العدد الكبير من المدن في تلك المدة المحدودة له دلالته الاجتماعية ، فهو يشير الى ازدياد السيطرة الحكومية من جهة كما يشير الى نمو الحضارة من الجهة الاخرى . والملاحظ أن اكثر تلك المدن تقع على ضفاف دجلة فيما بين بغداد والقرنة ، وهذا كان من نتائج انشاء خط البواخر النهرية هناك لأن تلك المدن بدأت في الغالب كمحطات لتزويد البواخر بالوقود أو تزويد المسافرين بالطعام ثم نمت بعدئذ من جراء عوامل اقتصادية وحضارية أخرى .

طبقة الافندية :

ظهرت في العراق آنذاك طبقة اجتماعية جديدة يطلق عليها اسم « الافندية » ، وهم عادة من متخرجي المدارس الحديثة ، وصاروا يحلون محل الموظفين القدماء في الدوائر الحكومية تدريجياً ، وكان لهم أثر لا يستهان به في ادخال معالم الحضارة الحديثة الى المجتمع العراقي .

وصف لونكريك طبقة الافندية بقوله : انهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة من غير أن يكون لهم علم فوق ذلك ، وكانوا يحاولون تقليد الاوربيين بملابسهم تقليداً مضحكاً ، ويصرون على التكلم بالتركية بين العرب ، ويحتقرون العشائر والفلاحين ، ويكثرون من ذكر المصطلحات العلمية والفنية ، ولكنهم في الوقت نفسه مرتشون قادرون على تأجيل أية معاملة

---

(٧) محمد سلمان حسن (المصدر السابق) — ج١ ص ٥٣ .

الى أجل غير مسمى[8] .

ان هذا الوصف الذي جاء به لونكريك قد يصدق على الكثير من الافندية فعلاً ، ولكننا يجب أن نعترف في الوقت نفسه انهم كانوا نتاج ظروفهم الثقافية والاجتماعية . انهم وجدوا انفسهم قد تعلموا شيئاً من المبادىء والمصطلحات العلمية الحديثة وهم يعيشون في مجتمع تغلب عليه الأمية والخرافة ، فاذا تحدثوا فتح الناس افواههم اعجاباً بحديثهم ، فخيل اليهم أنهم من طينة تختلف عن طينة الناس حولهم . ولهذا وجدناهم يتعالون على الناس ويجعلون لأنفسهم نوادي خاصة بهم ، ولا يكلمون الناس الا من وراء أنوفهم ، غير أنهم كانوا على الرغم من ذلك من عوامل التجدد في العراق من حيث ارادوا أو لم يريدوا .

كان تحدثهم في المصطلحات الحديثة مثل «الاوكسجين» و «المقروب» و «الجاذبية» و «كروية الأرض» يثير في أذهان الناس تطلعاً نحو آفاق جديدة ويحفزهم الى الجدل في قضايا لم يكونوا يألفونها من قبل . أضف الى ذلك أن الافندية في كل بلدة يحلون فيها كانت لهم حاشية من وجهاء تلك البلدة هم الذين يطلق العامة عليهم لقب « أهل الجبب » ، فكان هؤلاء الوجهاء يفتخرون بكونهم يجالسون الأفندية ويحادثونهم ، وكثيرا ما كانوا يقلدونهم في بعض « حذلقاتهم » العلمية ، فينقلونها الى العامة . وقد يظهر بين العامة من يُعجب بتلك « الحذلقات » فيحاول تقليدها بدوره . وقد يؤدي ذلك في بعض الاحيان الى نشوء صراع في أوساط العامة يشبه من بعض الوجوه صراع المجددين والمحافظين . شهد كاتب هذه السطور في صباه جماعة من العامة يثلبون أحدهم ويسخرون منه لأنه امتنع عن شرب الماء من طاسة المقهى بحجة احتوائه على « مقروب » ، وكان تهكمهم عليه شديداً ، ثم مرت الايام واذا ببعض اولئك المتهكمين أصبحوا يتقززون من « المقروب » على منوال ما تقزز منه الذي تهكموا عليه سابقاً . ان من عادة البشر أنهم يستنكرون الشيء الجديد في البداية ثم يألفونه أخيراً !

---

(8) Stephen Hemsley Longrigg (Four Centuries Of Modern Iraq) - Oxford 1925 — P. 281 — 282 .

وكان للافندية أثر اجتماعي آخر هو من حيث ميلهم الى التجديد في الملبس والمسكن وما أشبه . فهم أول من استعمل الملابس الافرنجية والطربوش ، كما أنهم أول من استعمل الاثاث الحديث كالكرسي والمنضدة ، واتخذوا الملعقة والسكين والشوكة في تناول الطعام ، وقرأوا الجرائد والمجلات ، وحلقوا لحاهم . ان هذه الامور كانت مصدر فخار وزهو لهم باعتبارها من علامات التمدن التي تميزهم عن سواد الناس . وقد تابعهم في ذلك بعض الوجهاء من « أهل الجبب » . أما العامة واكثر رجال الدين فكانوا ينظرون الى تلك الامور نظرة ازدراء وتحريم اذ هي تؤدي الى التشبه بالكافر وهذا محرم في نظرهم حسب المبدأ القائل : « من تشبه بعمل قوم عُدّ منهم » . حدثني ثقة عن شاب من أهل بغداد عاش في أواخر القرن الماضي أنه ترك لبس الحذاء القديم المعروف باسم « اليمني » واتخذ «القندرة» بدلاً منه أقتداءاً بالافندية، فثارت عليه من جراء ذلك ضجة بين أقربائه وأهل محلته ، وذهب اخوه الى عمته يشكو اليها منه ويقول انه سوّد وجه الأسرة امام الناس وطلب منها أن تنصحه وتردعه ، وقد حاولت العمة نصح ابن أخيها دون جدوى اذ هو بقي مصراً على لبس « القندرة » ورفض « اليمني » !

تأثير المطبوعات المصرية :

شهدت مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر نهضة طباعية وصحافية زاهرة ، وقد ساهم فيها المسيحيون الذين هاجروا الى مصر من بلاد الشام فراراً من الاستبداد الحميدي كيعقوب صروف وفارس نمر وشبلي شميل وجرجي زيدان وفرح انطون وغيرهم . وصار نتاج تلك النهضة يأتي الى العراق بكثرة فأحدث فيه أثراً فكرياً لا يستهان به .

أصبحت مصر كأنها الواسطة الفكرية ودار التعريب بين أوربا والبلاد العربية ، فكانت الافكار الحضارية الجديدة تأتي اليها من أوربا ، فيترجمها الكتاب والمؤلفون المصريون بعد أن يضيفوا اليها طعماً عربياً ، ثم ترسل بعدئذ بشكل صحف ومجلات وكتب الى العراق والبلاد العربية الاخرى عن طريق البواخر . وكان سير البواخر يومذاك منتظماً يحمل رزم المطبوعات الآتية

من مصر كما يحمل المنتوجات الصناعية الآتية من أوربا .

أهم المجلات التي كانت ترد الى العراق في تلك الآونة هي المقتطف والهلال ، وكانت النزعة الغالبة على كلتا المجلتين هي الدعوة نحو تبني الحضارة والعلوم الحديثة ، ونحو بناء المجتمع على أساسها ، ولكن مجلة المقتطف كانت تنزع نحو الفلسفة والعلوم الطبيعية بينما كانت مجلة الهلال تنزع نحو العلوم الاجتماعية واللغوية والتاريخية . يقول الاستاذ ألبرت حوراني : « ... عندما وصلت الاعداد الاولى من المقتطف الى بغداد في ١٨٧٦ ، لم يرحب بالمجلة الا بعض الشباب ، بينما قاومها المحافظون من مختلف المذاهب السنية والشيعيةوالمسيحية واليهودية ، لأنها كانت فينظرهم تنشر عقائد جديدة وخطرة . حتى أن نعمان الآلوسي نفسه ، الذي كان زعيم حركة اصلاح اسلامية لا تختلف عن حركة محمد عبدة ، قاومها هو أيضاً . وقد انقضى بعض الوقت قبل أن أخذت عقائدها في الانتشار»[٩].

كانت مجلة المقتطف تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم شبلي شميل ، وحين وصلت المجلة الى العراق انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردون عليها ويفندونها ، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ أغا رضا الاصفهاني والشيخ جواد البلاغي ، والفوا في ذلك كتباً ضخمة باسلوبهم الجدلي . وقد أرسل أحدهم كتابه في نقد النظرية الى شبلي شميل ظناً منه أن هذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتاب وسيعلن تركه لها ، ولكن شبلي شميل أرسل اليه جواباً مقتضباً هذا هو : « عذرك جهلك والسلام » .

رائدان فكريان :

من أوائل الذين أولعوا بالمطبوعات المصرية وتأثروا بها اثنان ، أحدهما في بغداد والآخر في النجف هما جميل صدقي الزهاوي وهبة الدين الشهرستاني .

---

(٩) البرت حوراني (الفكر العربي في عصر النهضة) ـ ترجمة كريم عزقول ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

كان الزهاوي من قراء المقتطف وأول من اعتنق نظرية داروين في العراق ومن اكبر دعاة الحضارة الحديثة فيه ، وقد صار في نظر المعممين زنديقاً وفي نظر الافندية فيلسوفاً . انه لم يكتف بالدعوة الى الافكار الحديثة بل آخذ ينتقد بعضها ليدل بذلك أنه صار فيلسوفاً حقاً !

أنتقد الزهاوي نظرية نيوتن في الجاذبية باسلوب لا يختلف في أساسه المنطقي عن أسلوب آغا رضا الاصفهاني في انتقاد نظرية داروين ، ولكن الافندية اعتبروه عبقريا لأنه استطاع أن ينتقد نظرية كبرى من نظريات العلم الحديث دون أن يكون له المام بها سوى ما قرأه عنها في مجلة المقتطف وأمثالها . ان هذا أمر غير مقبول في ايامنا هذه ولكنه كان في تلك الايام يُعد من علامات الذكاء الخارق والعبقرية .

أما الشهرستاني فكان يشبه الزهاوي من بعض الوجوه ويختلف عنه من وجوه أخرى . كان الشهرستاني في أوائل القرن العشرين من اكثر الناس ولعاً بالمطبوعات المصرية بحيث صار مرجعاً لها عند الراغبين فيها من شبان الملائية ومتجدديهم ، وقد اتخذ له حلقة دراسية في جامع الطوسي كان يدرس فيها بعض مبادىء العلوم الحديثة التي استمدها من المجلات والكتب المصرية، فأثار بذلك شيئاً من الضجة واعتبره المتزمتون متفرنجاً زنديقاً .

نشأ كل من الزهاوي والشهرستاني نشأة دينية اذ كانت أسرتاهما من الأسر الدينية المعروفة ، غير أن الشهرستاني ظل محافظاً على عمامته وزيه الديني حتى آخر يوم من حياته ، بينما خلع الزهاوي عمامته في كهولته ودخل في سلك « الافندية » ، وهذا الفرق الظاهري يشير الى ما بينهما من اختلاف ذهني عميق .

قد يصح أن نقول ان الفرق بين الرجلين هو كالفرق بين النجف وبغداد من الناحية الاجتماعية ، فالنجف تُعد بيئة اجتماعية مغلقة بالمقارنة الى بغداد اذ يسودها التزمت والتقليد ولا يأتيها الغريب الا لكي يتأثر بها أو يذوب فيها، أما بغداد فهي على النقيض من ذلك مفتوحة يلتقي فيها الغرباء والأجانب من كل صوب فيؤثرون فيها أكثر مما يتأثرون منها .

كان كل من الزهاوي والشهرستاني يسير فى تجديده الفكري على

طريقة تلائم البيئة الاجتماعية التي عاش فيها ، فالزهاوي كان شديد الاعجاب بالعلوم الحديثة ويريد من الدين أن يلحق بها ويتفق معها . أما الشهرستاني فكان على النقيض من ذلك شديد التمسك بالدين ويريد من العلوم الحديثة أن تلحق به وتواكبه وتتفق معه ، ولهذا رأيناه في جميـــع كتبـــه ومقالاته يحاول أن يبرهن للقراء أن الدين الاسلامي قد سبق العلوم الحديثة بنظرياته وأن تلك العلوم لم تأت بما يناقض الاسلام أبداً ، أما اذا ظهر بينهما شيء من التناقض فمرد ذلك الى سوء الفهم وقلة الاطلاع .

في عام ١٩١٠ نادى الزهاوي بتحرير المرأة ورفع الحجاب عنها ، فقامت عليه في بغداد ضجة كادت تودي بحياته . وفي العام التالي نادى الشهرستاني بتحريم نقل الجنائز فقامت عليه في النجف ضجة مماثلة . ان كل واحـــد من هذين الرجلين كان ينظر الى الدنيا من خلال اطاره الفكري الخاص به ، فالزهاوي يريد أن يقفز بالمجتمع العراقي الى الحياة الحديثة دون مبالاة بالدين والتقاليد ، بينما كان الشهرستاني يريد عودة المجتمع الى حظيرة الدين بعد تنقيته من الادران التي لحقت به في العهود المتأخرة .

نجحت دعوة الزهاوي أخيراً بينما أخفقت دعوة الشهرستاني ، ذلـــك لأن التيار الحضاري جبار ساحق لا يقبل بأنصاف الحلول . وهذا هـــو ما نلاحظه واضحاً في أبناء الجيل الجديد اذ هم تركوا الدين وراء ظهورهم وانغمسوا في الحضارة الحديثة ينهلون منها بلا حـــدود . ولا ندري أين سينتهي المطاف بالناس أخيراً !

الفصل الاول

السلطان عبد الحميد

لكي نفهم الأحداث التي وقعت في عهد السلطان عبدالحميد ــ وهــو العهد الذي دام اثنين وثلاثين عاماً ــ يجب علينا دراسة شخصية هذا الرجل وبعض سيرته على شيء من التفصيل .

ولد عبدالحميد في ٢٢ ايلول ١٨٤٢ من جارية شركسية اسمها «حاجي» يقال انها كانت أرمنية فأسلمت ، وقد أحيط الطفل منذ يومه الاول باشاعات غير حسنة ويذكر ان أباه السلطان عبدالمجيد لـم يعترف بأبوته الا بعــد مرور اسبوع على مولده ، وصارت نساء الحريم يتهامسن ــ كما هي عادتهن في مثل هذه الامور ــ عن نسبة الطفل الى أب أرمني يدعى بدروس كان يعمل طباخاً في القصر ثم اختفى ولم يظهر لــه بعــد ذلك أي أثر . ويرى بعض المؤرخين أن هذه الاقاويل التي أحاطت بمولد عبدالحميد كان لها أثر غيــر قليل على سلوكه وتفكيره عندما أصبح سلطانا .

لم يكن عبدالحميد في أول أمره يأمل أن يكون سلطاناً لوجود أخ له اكبر منه سناً هو مراد ، وحين بلغ عبدالحميد طور الشباب كان الصــراع شديداً بين دعاة الدستور ودعاة الاستبداد في عهد عمه السلطان عبدالعزيز، وكان دعاة الدستور تحت زعامة مدحت باشا وقــد اســتطاعوا أخيراً أن يخلعوا السلطان عبدالعزيز وينصبوا مكانه ابن أخيه مراد .

المظنون أن مراد كان يحمل في جهازه العصبي استعداداً للجنون ، فلما أزفت ساعة تنصيبه على العرش كان كأنه فوجيء بذلك مفاجأة هزت عقلــه وأثارت فيه كوامن الخبل . وخلاصة القصة أن وزير الحربية جــاء اليــه في منتصف الليل ليخبره بخلع عمه ونصبه اياه سلطاناً ، وكان مراد آنذاك نائما فلما أوقظ من النوم وجد نفسه بغتة أمام وزير الحربية وهو بملابسه

العسكرية فتصور أن عمه السلطان قد أرسل اليه الوزير لقتله ، وعندما تكلم الوزير ليذكر الغرض من مجيئه لم يفهم مراد من كلامه شيئاً بل ظل يحملق فيه مرتجفاً ثم شرع لشدة خوفه يتوسل الى الوزير ان يبقي على حياته • وقد اضطر الوزير ازاء هذه الحالة أن يخرج مسدسيه فوضعهما بين يدي مراد قائلا له : « يا صاحب الجلالة •• اذا كان عندك أي شك في سلامتك فباستطاعتك أن ترميني بالرصاص فوراً » • ثم قاده الوزير وهو لا يزال مرتجفاً الى مركب كان واقفاً في الانتظار[1] •

ولم يكد مراد يجلس على العرش حتى بدأت امارات الجنون تظهر واضحة عليه • وفي اليوم السادس من جلوسه انتحر السلطان المخلوع بأن قطع شريان ذراعه بمقص ، فزاد هذا الحادث في وطأة الجنون عليه • وقد استدعت الحكومة أمهر الاطباء من أوربا لعلاجه بلا جدوى ، فان الجنون أخذ يشتد عليه يوماً بعد يوم • ومضى عليه شهران دون أن يكون في حالة تسمح بمقابلة السفراء الاجانب لتقديم أوراق اعتمادهم ، او بتقليد سيف آل عثمان كما تقتضي به التقاليد •

وفي الوقت الذي كان الجنون يستفحل على السلطان مراد ، كان مدحت باشا يتصل سراً بعبدالحميد ليفاوضه في أمر احتمال نصبه سلطاناً مكان أخيه ، وكان مدحت باشا أثناء المفاوضة يحاول التعرف على رأي عبدالحميد في الدستور وهل هو موال له أو معاد ، ويقال ان عبدالحميد ابدى أمام مدحت باشا حماسا شديدا للدستور وأعلن انه عند تسلمه الحكم سيمنح الشعب حرية واسعة ، ويدعو مجلس الامة ، ويسن القوانين الملائمة لروح العصر ، ثم كتب صكاً بذلك وحلفه يميناً عليه[2] •

وبعد أن استوثق مدحت باشا وأعوانه من ميول عبدالحميد الدستورية أصدر شيخ الاسلام فتوى أجاز فيها خلع السلطان مراد كان هذا نصها : « اذا جن امام المسلمين جنوناً مطبقاً ، ففات المقصود من الامامة ، فهل يصح

---

(١) آلما وتلن (عبد الحميد ظل الله في الارض) ـ ترجمة راسم رشدي ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ص ٦١ ـ ٦٢ •

(٢) صديق الدملوجي (مدحت باشا) ـ بغداد ١٩٥٣ ـ ص ١٠٥ •

حق الامامة من عهدته ؟ الجواب : يصح والله أعلم »[٣] .

عبد الحميد سلطاناً :

في ٣٠ آب ١٨٧٦ جرى الاحتفال بتنصيب عبدالحميد سلطاناً ، وفي ١٩ تشرين الاول أسند عبدالحميد الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة الى مدحت باشا ، وفي ٢٣ كانون الاول أعلن الدستور فاطلقت المدافع بتلك المناسبة ورفعت اعلام الزينة على بنايات الحكومة .

فرح مدحت باشا وأعوانه بما تم غاية الفرح . فقد خيل لهم أن الدنيا ارتمت كلها في أحضانهم ، وان الدعوة الدستورية التى كافحوا من أجلها طويلا بدأت تعطي ثمارها ، وان السلطان عبدالحميد سيكون آلة طيعة في ايديهم يحركونه كما يشاؤون . ولكنهم سرعان ما شعروا بخيبة الامل وأدركوا أنهم بنصبهم عبدالحميد كانوا كأنهم يحفرون قبورهم بأيديهم .

كان مدحت باشا منذ بداية توليه الصدارة حريصا على تدعيم أواصر الاخاء بين المسلمين والمسيحين ، فقد زار بطريق الروم وبطريق الأرمن وحدثهما عن الحرية التي يمنحها الدستور لجميع المواطنين من غير تفريق بينهم، وكان هذا أمراً فريدا من نوعه اذ لم تعهد الدولة العثمانية في تاريخها أن زار الصدر الاعظم رؤساء الطوائف المسيحية ، وقد قابل المسيحيون هذه البادرة بحماس وابتهاج . ولم يكتفه مدحت باشا بذلك بل رفع الى السلطان كتاباً يقترح فيه قبول الطلاب المسيحيين في المدارس العسكرية ، ثم أتبعه بكتاب آخر يقترح فيه تعيين ولاة مسيحيين في بعض الولايات العثمانية ، غير أن السلطان أهمل الجواب على هذين الكتابين مما جعل مدحت باشا يقدم له احتجاجاً شديد اللهجة يتهمه فيه بأنه يعمل على هدم كيان الدولة .

وكان مدحت باشا علاوة على ذلك قد أطلق الحرية للصحافة ، فأخذت الصحف تكتب ما تشاء وتنتقد من تشاء من غير قيد ، وتجرأت بعض الصحف فصارت تنتقد السلطان والاسرة المالكة بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وقد امتعض السلطان من ذلك كل الامتعاض وأرسل الى مدحت باشا مذكرة

---

(٣) قدري قلعجي (مدحت باشا) ــ بيروت ١٩٥١ ــ ص ٥٠ .

بما نشرته الصحف من أمور لا يرضى عنها طالباً منه معاقبتها ، لكن مدحت باشا وقف الى جانب الصحف يدافع عنها وأجاب السلطان بأن الدستور يخول الصحافة حق الكتابة في شؤون الدولة بحرية تامة .

نفد صبر السلطان أخيراً ، فدبر بالتعاون مع بعض أنصاره ورجال حاشيته مؤامرة لعزل مدحت باشا وابعاده . وفي ليلة ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٧ نفذ السلطان مؤامرته ببراعة ، وسيق مدحت باشا الى باخرة كانت راسية في الميناء فأبحرت به نحو ايطاليا . وفي صباح اليوم التالي صدرت جرائد اسطنبول وهي تتهم مدحت باشا بالخيانة وبأنه كان يحوك مؤامرة لابادة الأسرة المالكة وقلب الدولة الى جمهورية وتنصيب نفسه رئيسا لها .

لم يشأ السلطان أن يتنكر للدستور في ذلك الحين ، بل أمر باجراء الانتخابات النيابية . وفي ٤ آذار من عام ١٨٧٧ افتتح مجلس « المبعوثين » أي مجلس النواب . وفي اليوم التالي احتشد جمهور كبير من الطلاب والمتعلمين وساروا في مظاهرة نحو قصر السلطان وهم يهتفون بسقوط الحكومة وباعادة مدحت باشا من المنفى ...

الحرب الروسية العثمانية :

في شهر أيار من عام ١٨٧٧ ــ أي بعد مرور عشرة أشهر على تسلم عبدالحميد زمام الحكم ــ نشبت حرب شعواء بين روسيا والدولة العثمانية، وكانت هناك أسباب مختلفة أدت الى نشوبها منها الاضطرابات والمذابح التي كانت تزخر بها بلاد البلقان في تلك الايام ، ومنها ايضاً خوف روسيا من اعلان الدستور في الدولة العثمانية وما قد يجر وراءه من تدعيم للنفوذ البريطاني والفرنسي فيها .

وقد ارتج العالم الاسلامي والاوربي لتلك الحرب ، وأصدر شيخ الاسلام في ٢١ أيار فتويين : احداهما بوجوب القتال على كل مسلم ، والثانية باضافة لقب « غازي » على اسم السلطان في الاوامر وعلى المنابر اشارة الى ما جاء في الحديث النبوي : « من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا »[٤] .

---

(٤) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ــ القاهرة ١٩١٢ ــ ص ٣٥٤.

واستمرت الحرب بضعة أشهر مُنيت الجيوش العثمانية فيها بهزائم منكرة في الجبهتين البلقانية والقفقاسية ، وهلك فيها الالوف من الشبان الذين سيقوا الى ساحات القتال من مختلف الولايات العثمانية .

وقد أبدى السلطان عبدالحميد أثناء الحرب همة ودأبا لا يستهان بهما فكانت آلة التلغراف منصوبة في ديوانه الخاص ليكون بها على اتصال دائم مع قواد الجبهتين ويتعرف الى اخبار المعارك ساعة بعد ساعة ، وكانت تشجيعاته الشخصية للقواد حافزا قويا لهم على الصمود . وقد اتخذ خصوم السلطان تلك مثلبة له اذ اعتبروها تدخلا منه في الامور العسكرية وجعلوها سبباً في نزول الهزائم بالجيوش العثمانية .

واشتهر في تلك الحرب أحد قواد الجبهة البلقانية هو عثمان باشا ، فقد استطاع هذا الرجل ان يصمد بقواته في بلدة « بلافنا » زهاء خمسة أشهر تجاه قوات روسية ضخمة ، ولم يستسلم الا بعد أن كبد الروس خسائر جسيمة وصار صمود عثمان باشا في « بلافنا » مضرب المثل في التاريخ العسكري الحديث .

وبعد سقوط « بلافنا » انحدرت القوات الروسية نحو اسطنبول بزخم شديد ، فاحتلت مدينة « أدرنة » في ٢٨ كانون الثاني ١٨٧٨ ، وسرعان ما وصلت الى سواحل مرمرة حيث أصبح في مقدور الناظر من هناك أن يلمح منائر اسطنبول وهي تتراءى له في الافق . وكان ذلك أقرب موضع وصلت اليه الجيوش الروسية في جميع حروبها السابقة التي خاضتها ضد الدولة العثمانية[٥] .

ان وصول القوات الروسية الى مقربة من اسطنبول أشاع الذعر في لندن ، فصدرت الاوامر الى الاسطول البريطاني بالتوجه نحو الدردنيل ، وكاد دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية يجر بلاده الى محاربة روسيا على نمط ما جرى قبلئذ في حرب القرم ...[٦] .

---

(5) Ferdinand Schevill (The History Of The Balkan Peninsula) — New York 1922 — P . 400

(6) G . J . S . Eversley (The Turkish Empire) — London 1922 — P . 329

وجرت على عجل مفاوضات بين روسيا والدولة العثمانية ، ثم عقدت في ٣ آذار معاهدة موقتة بينهما عرفت باسم « معاهـدة سان ستيفانو » . وقد حصلت روسيا بهذه المعاهدة على قلعة قارص في أرمينيا وعلى ميناء باطوم ، ووافقت الدولة العثمانية على استقلال بلغاريا . وفي مؤتمر برلين الذي عقد في شهر حزيران لم تصادق بريطانيا على اتفاق سان ستيفانو الا بعد أن حصلت من الدولة العثمانية على جزيرة قبرص ، وكأنها أرادت بذلك أن تأخذ تعويضا عن مساعدتها للدولة العثمانية في ساعة المحنة[7] .

تغير عبدالحميد :

كانت الحرب الروسية العثمانية شديدة التأثير على نفسية السلطان عبدالحميد وعلى تفكيره ، انه فقد بهذه الحرب جزءا كبيرا من مملكته وأدرك أنه كان يقاتل فيها وحيدا فلم تسرع الى نجدته الدول الغربية التي كانت تتظاهر بالصداقة له ، ولو لم يسرع هو الى المصالحة مع الروس لسقطت اسطنبول في أيديهم غنيمة باردة ولربما ذهبت الدولة العثمانية كلها نهباً بأيدي الطامعين فيها .

شعر عبدالحميد بخيبة أمل تجاه بريطانيا بوجه خاص فهي بعد أن استحوذت على جزيرة قبرص عمدت على احتلال مصر في عام ١٨٨٢ ، وايقن عبدالحميد ان بريطانيا لا تختلف عن روسيا من حيث طمعها باقتسام تراث « الرجل المريض » على الرغم من تظاهرها بخلاف ذلك . تبين له أخيراً أنه يجب أن يحذر من الدول الاوربية كلها على حد سواء عملا بالمبدأ الاسلامي القائل : « الكفر ملة واحدة » ، وكان هذا هو المبدأ الذي سيطر على عقله فيما بعد حتى آخر يوم من حياته .

ويمكن القول ان هذا التحول الذهني لدى السلطان عبدالحميد جعله يزداد نفوراً من الحركة الدستورية ودعاتها ، وكأنه أدرك ان هـذه الحركة ليست سوى دسيسة من الدول الغربية يراد بها هدم الدولة العثمانية ونهبها ،

---

(7) Carl Brockelmann (History Of The Islamic Peoples) — Translated By Carmichael And Perlmann — New York 1947 — P . 378 .

وان دعاة تلك الحركة ليسوا سوى صنائع لتلك الدول او عملاء لها .

ومما يجدر ذكره أن عبدالحميد كان قد اغتنم فرصة انشغال الناس بالحرب فأصدر في ١٣ شباط ١٨٧٨ فرماناً بحل المجلس والغاء الدستور . وفي اليوم التالي أمر باخراج النواب البارزين من اسطنبول واعادتهم الى ولاياتهم . ومنذ ذلك الحين أخذ عبدالحميد يحكم الدولة على طريقته الاستبدادية التي اشتهر بها واشتهرت به .

مصير مدحت باشا :

كان مدحت باشا على أثر نفيه من اسطنبول في اوائل ١٨٧٧ قد صار يتجول في اوربا ويتصل بساستها ويكتب في صحفها ، ولقي في الاقطار الاوربية التي حل فيها — ولا سيما في بريطانيا — الشيء الكثير من التكريم والتقدير . والظاهر ان السلطان عبدالحميد وجد من المناسب أن يسترضي مدحت باشا لفترة محدودة من الزمن فأصدر أمره بالعفو عنه وبتعيينه والياً في بلاد الشام .

ظل مدحت باشا والياً في الشام زهاء سنة ونصف سنة ، ثم صدر الامر بنقله الى أزمير . وفي ٤ أيار من غام ١٨٨١ بينما كان مدحت باشا راقداً في داره في أزمير فوجيء بعدد كبير من الجنود يحاصرونه فأسرع يغادر الدار تحت جنح الظلام وأخذ عربة من الشارع فتوجه بها نحو حي الافرنج ، وهنالك التجأ الى القنصلية الفرنسية وبقي فيها حتى الصباح ، ثم سلم نفسه .

سيق مدحت باشا الى اسطنبول ، ومن ثم قدم هو ونفر من أعوانه الى المحاكمة في قصر يلدز بتهمة الاشتراك في قتل السلطان عبدالعزيز . وقد اهتمت الصحافة الاوربية بأنباء المحاكمة اهتماماً شديداً ، وعندما صدر الحكم عليه بالاعدام هاج الرأي العام في أوربا ، وقدم البرلمان البريطاني الى السلطان احتجاجاً شديد اللهجة على هذا العمل « المخالف للمبادىء الانسانية » . وقابل السفير البريطاني في اسطنبول السلطان لينصحه بتبديل الحكم أو الغائه .

واجتمع السفراء الاجانب في اسطنبول وكتبوا الى السلطان رسالة

أشاروا فيها الى عدم كفاية الادلة التي أدين بها مدحت باشا وأصحابه ، والتمسوا من السلطان اصدار عفوه عنهم . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن السفير الايراني محسن خان هو الذي قدم بنفسه الرسالة الى السلطان باعتباره عميد السفراء في اسطنبول ، فكان جواب السلطان على الرسالة : أن العفو وعدمه هما من حقوقه وأنه يعجب من تقديم مثل هذه الرسالة بوساطة سفير الدولة الايرانية التي تشنق الناس من غير محاكمة. فرد السفير الايراني على السلطان قائلاً : ان المحاكمة التي جرت في قصر يلدز ليس لها مثيل في بلاد العالم كلها واذا ذكر له جلالة السلطان حادثة تشابهها في بلاد العجم كان له من الشاكرين[8] .

اضطر السلطان أخيراً الى تبديل حكم الاعدام بالنفي المؤبد ، وسيق مدحت باشا وأصحابه الى بلدة الطائف في الحجاز حيث حجزوا في أحد السجون هنالك . وفي نيسان من عام ١٨٨٣ تم خنق مدحت باشا بايعاز من السلطان كما أشيع ، وقيل ان السلطان لم يهدأ باله الا بعد أن وصلت اليه من الحجاز علبة مكتوب عليها : « علاج ياباني ــ قطعة من الفن النادر لجلالته » . ولم يكن في العلبة سوى رأس مدحت باشا .

شخصية عبدالحميد :

اختلفت الآراء في تقييم هذا الرجل فالمبغضون له جعلوه أظلم السلاطين واكثرهم لؤماً وسفكا للدماء بينما المحبون وضعوه في مرتبة القديسين . وما زال الخلاف بين مبغضيه ومحبيه باقياً حتى الآن .

قد يصح أن نقول ان عبدالحميد كان كغيره من رجال التاريخ الكبار له محاسنه ومساوئه ، فالمبغضون يركزون نظرهم على مساوئه ويبالغون فيها بينما المحبون يركزون على محاسنه. وهذا هو ما يفعله اكثرالناس فيجميع العصور وقد ضاع من جراء ذلك الكثير من أسرار التاريخ .

ان الشخصية البشرية بوجه عام ليست كما يتصورها العاطفيون من الناس ، فهي لا يمكن أن تكون ذات جانب واحد ــ كلها محاسن أو كلها

(٨) قدري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ١٢٠ .

مساوىء . ان الشخصية في الواقع مزيج عجيب قد تختلط فيها لمعات العبقرية بوساوس الجنون ، وقد تصطرع فيها دوافع الخير والشر معاً . وهذا هو ما كانت عليه شخصية عبدالحميد فعلاً .

يمتاز عبدالحميد عن الكثيرين من أسلافه السلاطين بحبه للعمل والتدقيق في ادارة شؤون الدولة حتى الصغيرة منها ، فكان يستيقظ مبكراً كل يوم فيعكف على مطالعة اكوام التقارير التي تصله من اطراف المملكة، ويظل يعمل عليها حتى المساء . ولم يكن يأنف من الجلوس الى الضباط والموظفين الكبار على منضدة واحدة لكي يناقشهم في شؤون الدولة — الامر الذي لم يفعله سلطان عثماني قبله . وكان كثيراً ما يستدعي موظفيه بعد تناول طعام العشاء ويستأنف معهم العمل المرهق . وكان عبدالحميد فوق ذلك ذكياً ذا نظر بعيد ، وقد استطاع بدهائه أن يوقع الخصومة أحيانا بين الدول الاوربية ، لا سيما بين بريطانيا وروسيا ، لكي يلهيهم عن التطلع الى التهام دولته[٩] .

ولكن هذا الرجل على الرغم من مزاياه التي لا تنكر كان مصاباً ببعض العقد النفسية الطاحنة التي أقضت مضجعه وجعلته لا يعرف الطمأنينة والراحة النفسية طيلة المدة التي كان حاكماً مطلقاً فيها ، فقد جعل له جيشاً كبيراً من الجواسيس حتى قيل ان عددهم في العاصمة وحدها بلغ العشرين ألفاً . وكان لا يأمن من أحد حتى من جواسيسه مما دفعه الى أن يجعل بعضهم رقيباً على بعض ، أو كما وصفه هو نفسه ذات مرة : « جاسوس على جاسوس على جاسوس » ! وكان من أشد ما يخشاه أمران : الاغتيال والحركة الدستورية . فكان جواسيسه يتغلغلون بين الناس ، في القصور والمقاهي والملاهي والاسواق ، ليبحثوا عن من يتآمر لقتل السلطان ، أو يدعو الى الدستور . والويل لمن كان يؤتى به متهماً باحدى هاتين التهمتين أو كليهما .

منع السلطان عبدالحميد من تداول المطبوعات التي تتجرأ على نقد حكمه بأية صورة ، وكان الرقباء على الصحافة والطباعة يدققون في عملهم

---

(٩) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ١٠٥ .

الى درجة الوسواس لأنهم يخشون أن يكونوا هم أنفسهم متهمين ، واضطر بعض أهالي اسطنبول أن يمتنعوا عن ارتياد الملاهي أو استعمال البريد لئلا يكونوا موضع ريبة في نظر الجواسيس ، واذا انتقلت عائلة من دار الى أخرى أسرع الجنود يفتشون الاثاث المنقول بحثاً عن المتفجرات والمنشورات . واذا اجتمع ثلاثة في مقهى شك كل واحد منهم في أن يكون أحد صاحبيه من الجواسيس[10] .

يروي الدكتور رامزور قصة تدل على مبلغ ما كان يعانيه الناس من شدة الرقابة في ذلك الزمان ، وخلاصة القصة أن مراسلاً فرنسياً في اسطنبول وجد مقالاته كثيراً ما كانت تمزق من قبل الرقابة ، فذهب الى رفعت بك مدير الرقابة يسأله عن الحدود التي يستطيع أن يكتب فيها دون أن تمزق مقالاته ، فأجابه رفعت بك قائلاً : « تستطيع أن تتكلم عن أي شيء » ، ولما ابدى المراسل دهشته من هذا الجواب أخذ رفعت بك يوضح له المقصود من عبارة « كل شيء » وقال له : « طبعاً ! عن أي شيء سوى ، وأنت تفهم طبعاً ، عن أصحاب التيجان والحكومات الاجنبية والفوضوية والاشتراكية والثورة والاضطرابات والفوضى والحرية وحقوق الشعب والسياسة الخارجية والسياسة الداخلية والدين والكنائس والمساجد ومحمد والمسيح وموسى والانبياء والالحاد والتفكير الحر والسلطات والانوثة والحريم والوطن والامة والقومية والعالمية والجمهورية والنواب والشيوخ والدستور والمؤامرات والقنابل ومدحت باشا وكمال بك والسلطان مراد والهلال والصليب ومكدونية وأرمينية والاصلاحات والجراد وشهر آب (اغسطس) وبعض المواضيع الاخرى المتصلة الى حد ما بهذه المواضيع » . وهنا هب المراسل الفرنسي متسائلاً : « سبحان الله فماذا بقي ؟ » ، فأجابه رفعت بك : « ماذا بقي ؟ كل شيء : المطر والطقس الحسن على أن لا تذكر المطر في آب (أغسطس) أو ضوء القمر . وتستطيع أن تتكلم عن الكلاب في الشوارع ، على أن لا تطلب ابادتها ، وتستطيع أن تتكلم عن السلطات ما دمت لا تشير الى الفساد . وتستطيع أن تتكلم عن صاحب الجلالة

---

(١٠) المصدر السابق – ص ١٦٥ .

الامبراطورية وتتغنى في مدحه ، وبالاختصار لك الحرية التامة الكاملة في التكلم بما يروق لك »[11] .

يمكن القول باختصار ان عبدالحميد كان رجل دولة من الطراز الاول، ولولا عقدة الوسواس المسيطرة عليه لكان في مقدوره أن يتفوق على ساسة العالم بالدهاء وبعد النظر !

المذابح الارمنية :

تميز عهد السلطان عبدالحميد بما وقع على الارمن من مذابح جماعية، والواقع أن تلك المذابح كانت فظيعة جداً اهتز لها الرأي العام في أوربا كما تألم منها الكثير من العثمانيين . وقد أطلق الاوربيون على عبدالحميد من جرائها لقب « السلطان الاحمر » و « السفاك الكبير » .

وقعت المذابح في أرمينيا وهي المنطقة الواقعة في شرقي الاناضول قرب الحدود الروسية ، وقد بدأت أولى المذابح في شهر تشرين الاول من عام ١٨٩٤ ، واستمرت ثلاث سنوات ، تخمد تارة وتفور تارة أخرى . وبلغ عدد الهالكين فيها من الارمن مائة ألف ، وبالغ بعض المؤرخين فأوصل الرقم الى نصف مليون .

وفي ٢٦ آب من عام ١٨٩٦ استولت عصابة من الارهابيين الارمن على البنك العثماني في اسطنبول فكان ذلك سبباً في اثارة مذبحة جديدة في حي الارمن فيها ، وقد قام بالمذبحة هناك جمهور من الغوغاء مسلحين بالهراوات الثقيلة فكانوا يشدخون بهراواتهم كل شخص أرمني يلاقونه ، واستمرت المذبحة ثلاثة ايام هلك فيها ما بين الخمسة والستة آلاف أرمني .

يتهم المؤرخون الاوربيون عبدالحميد بأنه كان الموعز بتلك المذابح والمدبر لها ، ويذهب بعضهم الى تعليل ذلك بدافع لا شعوري لما دار حول أمه ومولده من اشاعات غير حسنة ، فكان عبدالحميد على زعم هؤلاء المؤرخين يكره الارمن ويريد الانتقام منهم بسبب ذلك . تقول المؤرخة

---

(١١) ارنست رامزور (تركيا الفتاة) ـ ترجمة صالح احمد العلي ـ بيروت ١٩٦٠ ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

الالمانية الدكتورة وتلن فيهذا الشأن: « ان عبدالحميد الذي كان في العادة يفضل سياسة التدرج والتراضي ذهب الى أقصى العكس فيما يتعلق بأرمينيا • كان كرهه الفائق لتلك البلاد يتغلب على حكمته السياسية كلما سمع باسمها ينطق أمامه . فقد كانت حياته كلها مظللة بالشك في أنه من صلب والد أرمني • وقد كاد ذلك الشك أن يدمره بعد ولادته مباشرة ، كما عجل في موت والدته • فكان يقصد من وراء كل عمل من أعمال القسوة الموجهة ضد الارمن أن يثبت أنه ليس واحداً منهم • كان ذلك هو الدليل الوحيد الذي يستطيع تقديمه . وسواء أكان ذلك صحيحاً ، أم أن بغضه للارمن كان وليد التعصب الديني والعنصري ، فان أحداً لن يستطيع أن يحزم بذلك ... »(١٢) .

مهما يكن الحال فليس من الانصافه أن نضع اللوم كله في المذابح الارمنية على السلطان عبدالحميد• يجب أن لا ننسى أن أرمينيا بلاد يسكنها المسيحيون والمسلمون في قرى متجاورة • وكان العداء مستحكماً بين الفريقين منذ زمن بعيد • وقد حدث في العهد الحميدي ما زاد في الطين بلة حيث ذهب بعض شباب الارمن الى أوربا للدراسة فلقنوا هناك المبادىء القومية الحديثة والمطالبة بالاستقلال ، وحين عاد هوءلاء الى بلادهم أخذوا يثيرون قومهم بالخطب الحماسية مما أحنق عليهم جيرانهم المسلمين• وصارت الاشاعات المغرضة تنتشر في أوساط الفريقين فتشعل نار البغضاء بينهم• يقال ان مواعظ التحريض والتهييج صارت تلقى من على منابر المساجد والكنائس معاً • وانتشرت بين المسلمين منشورات باللغتين العربية والتركية عنوانها : « رؤيا شيخ يخدم قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة » جاء فيها : أن النبي ظهر لهذا الشيخ في المنام وأخبره باقتراب يوم القيامة وأن الله غاضب على أمة الاسلام لأنهم يسهون عن صلاتهم ويرتدون ملابس الكفار ويستعملون اختراعاتهم . فكانت هذه المنشورات تثير عواطف العامة وتزيد من عدائهم نحو « الكفار » وتحفزهم على مهاجمتهم وقتلهم ، وحين بدأت المذابح صار بعض الدراويش المتعصبين يتجولون بين الغوغاء وهم

---

(١٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ـــ ص ١٣٥

يصرخون بأعلى اصواتهم : « أنهبوا ، واقتلوا ، وأحرقوا حتى تشبع قلوبكم . فان الله يتهلل بدم الكفار ، ورائحة البيوت المحترقة تسره كما يسره الدخان المتصاعد من المحراب . اياكم أن تبقوا على الرجل المسن ، فان ايمانه صلب كصلابة عظامه » (١٣) .

ان هذه الامور ليست غريبة عن الطبيعة البشرية ، فهي في الواقع تصاحب كل تجمع غوغائي يسوده التعصب ، وقد شهدنا نماذج منها في مختلف بلاد العالم . ولكن الذي يلام عبدالحميد عليه أنه لم يتشدد في مراقبتها ولم يقم بما يجب عليه من اتخاذ الوسائل الواقية منها ، وربما صح بعض ما نسبه اليه خصومه من أنه كان مشجعاً لها من وراء ستار على وجه من الوجوه .

الجامعة الاسلامية :

أهم فكرة سيطرت على ذهن السلطان عبدالحميد هي فكرة الجامعة الاسلامية تحت شعار « يا مسلمي العالم اتحدوا » . انه كان يرى ملايين المسلمين خاضعين لحكم « الكفار » في أفريقيا والهند وجاوه وغيرها ، فكان ذلك يحنقه ويثيره اذ هو يعتبر نفسه خليفة الله على هؤلاء المسلمين ومسؤولا عنهم ، وكان يحلم بيوم يعلن فيه المسلمون «الجهاد» ضد أسيادهم «الكفار» .

وكان عبدالحميد شديد الاهتمام بعلماء الدين ومشايخ الطرق الصوفية، يقربهم ويبذل لهم الاموال . يقول السيد اسماعيل الواعظ في مذكراته عنه وكان معاصراً له في العراق : « .. كان يحترم اهل العلم والطرائق ويعلي قدرهم ، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ ورتب رواتب للاعضاء الذين هم فيه ، وكانت نيته حسنة مع مرشديهم غير أن المرشدين كانوا يحتالون لجر المغنم منه ، وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية ، كل ذلك لاجل اعلاء العلم وأهله ، وأضرب هنا مثالا لتمسك عبدالحميد بالدين ، وهو أنه اذا طرق سمعه أن في بلدة من البلاد العثمانية ، او قرية ، او ناحية ، لم يكن فيها مسجد أو جامع تقام فيه الجمعة يصدر ارادته ببناء جامع أو مسجد

---

(١٣) المصدر السابق - ص ١٣٨

فيها ، ومن ذلك أنه أصدر ارادته السنية ببناء جامع في قصبة الديوانية وذلك بناء على ما طرق سمع السلطان أن أهل الديوانية يتكبدون المشاق في صلاة الجمعة بناء على عدم وجود جامع فيها ، فأمر ببناء جامع الا أن الادارة لم تقم ببنائه ، حتى أني أتذكر ان الحكومة عملت (قروكي) أي تصميم لبناء الجامع تجاه محل الحكومة ودارها والثكنة العسكرية المخصوصة للمشاة وأهمل »[١٤] .

وطبع السلطان عبدالحميد آلاف النسخ من القرآن الكريم وأمر بتوزيعها في انحاء البلاد العثمانية ، واكثر من فتح المدارس الدينية حتى بلغ عدد طلابها في مدينة اسطنبول وحدها أربعين ألف . وأضاف الى ذلك أنه استثنى علماء الدين وطلابه من الجندية ، فكان ذلك سبباً لتهافت الناس على علم الدين هربا من التجنيد ، وقد سجل أحد الشعراء العراقيين هذه المنقبة للسلطان ، وهو حسن البزاز الموصلي ، حيث نظم قصيدة قال فيها ما معناه : ان أهل العلم وان كانوا لا يقدرون على القتال غير أنهم في المحاريب شجعان[١٥] .

وفي عام ١٨٨٦ أهدى السلطان شعرات النبي الى عدد من الجوامع المشهورة في العالم الاسلامي ، فأصاب كل جامع منها شعرة واحدة . وكان يوم وصول الشعرات يوماً مشهوداً في كل مكان وصلت اليه حيث خرج المسلمون جميعاً يستقبلونها بالتهليل والتكبير وبالدعاء للسلطان . وكان نصيب العراق من تلك الشعرات خمسة خصصت لجوامع أبي حنيفة والكيلاني والكاظمية وكربلاء والنجف . ويحدثنا الرواة عن وصول الشعرة الى الاعظمية وكانت موضوعة في زجاجة ثمينة داخل صندوق صغير من الذهب، فجرى لها احتفال رسمي عظيم اذ جيء بهودج مزين بأنواع الحرير وهو محمول على بعير مزين كذلك ، وامتدت صفوف العساكر من باب المعظم ببغداد حتى باب الجامع بالاعظمية ، وجاء الوالي ماشياً وبيده زمام

(١٤) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) ـ الموصل ١٩٤٨ ـ ص ٢٨٠ـ٢٨١ .
(١٥) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي) ـ بغداد ١٩٦١ ـ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

البعير يحف به الاعيان وكبار الموظفين ، وسار في الموكب أهل بغداد وهم يحملون المباخر ويرشون ماء الورد على الجموع ، فكان يوماً عظيماً في بغداد . وقد خصص للشعرة وقت معين ، هو آخر جمعة من كل رمضان ، حيث تخرج فيه للمصلين باحتفال مهيب ، فيستقبلونها بالتهليل والتكبير . وكان الوالي الحاج حسن باشا يخرجها بنفسه تبركاً بها[١٦] .

وقد بلغت سمعة عبدالحميد الى قمتها عندما شرع بانشاء سكة الحديد بين دمشق والمدينة . فقد بلغ طول السكة تسعمائة ميل وبلغ مجموع نفقاتها ثلاثة ملايين ليرة ، وكان اكثر من ثلثي هذا المبلغ قد جمع من تبرعات المسلمين في شتى أقطارهم ، فقد كانت التبرعات تنهال الى صندوق المشروع من أغنياء المسلمين وفقرائهم ، حتى قيل ان بعض الفقراء في جاوه أرسلوا اليه مبالغ كانوا قد اقتطعوها من مخصصات غذائهم اليومي .

وبعد سبع سنوات من العمل المضني تم اكمال السكة في عام ١٩٠٨ . وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً في جميع الولايات العثمانية ، وأخذت آلاف الخطابات والوثائق تنهال على السلطان من كل بلد يسكن فيه المسلمون وفيه يعلن مرسلوها باسم مئات الملايين ولاءهم للسلطان وتعلقهم بدعوة الجامعة الاسلامية التي يتبناها .

كتب السفير البريطاني في اسطنبول في تقريره السنوي الى حكومته عام ١٨٠٧ يقول : « ومهما يكن من أمر ، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشر الاخيرة . أما الاول فهو تلك السياسة الماهرة التي حدت بالسلطان الى أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للاسلام ، ويبث في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة الحجاز التي ستيسر لكل مسلم في المستقبل القريب الحج الى الاماكن المقدسة في مكة والمدينة فتتيح لهم التمتع في الآخرة بمسرة الجنة ومباهجها ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة

---

(١٦) هاشم الاعظمي (تاريخ جامع الامام الاعظم) ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ج١ ص ٧٢ ـ ٧٥ .

العمياء الى حد لم يسبق له مثيل ، وأصبحوا يقبلون عن رضى باستبداده المطلق الذي لم يشهد التاريخ له شبيهاً من قبل . وصارت ارادة (البادیشاه) هي الشريعة المطبقة على الارض ، فاذا دعا سوء الحظ مسلماً الى أن يحس بارهاب الحكومة العنيف وطغيانها فانه يعزو هـذه المظالم الى الموظفين ، ولا يعزو الى الخليفة عملا فيه سوء ...[17] .

علاقته مع المانيا :

كان عبدالحميد يبغض الحضارة الاوربية بغضاً شديدا ويصفها بأنها « مسمومة»[18] . وكان يركز بغضه بصفة خاصة على بريطانيا ويحـذر المسلمين منها قائلاً : انهم يجب أن يخشوها أشد مما يخشون آية دولة أخرى . وكان معتقدا كل الاعتقداد بأن أوربا المسيحية تريد ابتلاع الاسلام والخلافة الاسلامية ويجب على المسلمين ان يتحدوا لمجابهة هـذا الخطر الماحق . وكان يحذر المسلمين من أن ينخدعوا بالمظاهر المادية الخلابة التي تميزت بها الحضارة الاوربية ، فهي في نظره حضارة دنيوية زائلة ومن واجب المسلمين أن يهتموا بالآخرة اكثر من اهتمامهم بالدنيا الفانية التي لا قيمـة لها والتي تؤدي في كثير من الاحيان الى نار جهنم .

تقول الدكتورة وتلن : ان عبدالحميد بلغ من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يبلغه سوى العدد القليل ممن سبقه من السلاطين ، فقـد أصبح رمزاً للاسلام والشرق ، ووعد المسلمين بقيادتهم الى مستقبل أفضل ، وكان أول من تجرأ بعد مائتي عام من الهزيمة والتقهقر تجاه الغرب أن يتحداه فكـان يقول : « يجب أن لا ندع الغرب يبهرنا فان الخلاص ليس في المدنية الغربية وحدهـا » ، وقد ادى تعلقه بهذه الآراء التي كان يرددها باستمرار الى أن يؤمن الناس بها وبه[19] .

يبدو أن عبدالحميد كان يستثني المانيا من الدول الاوربية ، فكان يثق

---

(١٧) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسـان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(18) William Yale (The Near East) — Ann Arbor 1958 — P . 100 .

(١٩) آلما وتلن (المصدر السابق) ـ ١٧٦ .

بالضباط الألمان وعهد الى بعثة منهم بتدريب جيشه على النظم العسكرية الحديثة . وفي عام ١٨٨٩ حين تولى عرش المانيا القيصر غليوم الثاني ازدادت العلاقة بين البلدين متانة . فقد أعلن غليوم أنه صديق للدولة العثمانية وهو لا يبتغي سوى معاونتها على بناء مستقبل زاهر لها لكي تكون هي بدورها منقذة العالم .

وفي عام ١٨٩٨ قام غليوم مع زوجته القيصرة أوغستا بزيارة عبدالحميد في اسطنبول وطبع قبلة على خده فكانت تلك أول قبلة فعلها ملك مسيحي على خد سلطان عثماني . ثم ذهب القيصر من بعد ذلك مع زوجته الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة فيها ، وحين وصل الى القدس كان يرتدي عقالاً عربياً فوق بذلة فارس صليبي ولعله كان يقصد من ذلك أن يجمع في نفسه شخصية فارس مسيحي وشخصية صديق للاسلام . ثم توجه الى دمشق حيث ألقى خطبة قال فيها : « فليطمئن صاحب الجلالة السلطان، وليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجلونه لأنه الخليفة — الى انهم سيجدون في امبراطور المانية الصديق الدائم لهم » .. ثم ذهب الى قبر صلاح الدين الأيوبي . فوضع عليه اكليلاً من الزهور ، وأمر بصنع مصباح من الفضة للقبر هدية شخصية منه بوصفه أحد المعجبين اعجاباً بالغاً ببطل الاسلام اثناء الحروب الصليبية[٢٠] ، واستنزل في خطابه الرحمة على روح هرون الرشيد الذي كان صديقاً لشارلمان[٢١] .

واخذت صحافة العالم الاسلامي تنشر أخبار الزيارة مع الاطناب في تمجيد القيصر ، وتناول العوام القصة بطريقتهم الخاصة فصاروا يبالغون فيها ويزوقون ، حتى وصل الحال ببعضهم الى حد الادعاء بان القيصر اعتنق الاسلام وأطلقوا عليه اسم « الحاج عبدالله غليوم » ! .

أثارت زيارة القيصر الخوف في روسيا وبريطانيا وفرنسا ، فأخذت هذه الدول تتقارب بعد ما كانت متباعدة متعادية من أجل الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا أشد الدول انزعاجاً من تلك الزيارة ، وقد أشارت احدى

---

(٢٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ١٤٧ .
(٢١) H.T وتلن (المصدر السابق) — ص ١٥٧ .

الصحف البريطانية الى الزيارة بلهجة لا تخلو من تهـديد حيث قالت : اذا حاربت الامم سنوات من أجل مدينة واحـدة فانها تكون اكثـر استعدادا للحرب من أجـل تجارة تسـاوي مائتين وخمسين مليونا . وخطب اللورد سالزبري في ٩ تشرين الثاني ١٨٩٨ يقول : « انه في الحالة الراهنة لا يمكـن للامة أن تتخلى عن سياسة التسلح ، فان شـبح الحـرب يلوح في الافق ، ولا سيما أن الوقت قد حان للدخول في ميراث الامم المنحلة . على انجلترا أن تتسلح باسـم السـلام ... لـكي تكون على اسـتعداد تام لـكل طـارىء ... »[٢٢] .

وصارت بريطانيا تؤيد كل حركة في البلاد العثمانية من شـأنها احراج السلطان عبدالحميد ومناوأته ، ولهذا أخذت تشجع الحركة الدسـتورية في تركيا ، والحركة العلمانية في مصر ، والحركة القومية في الشام والعراق ـ على نحو ما سنأتي اليه في فصول قادمة .

الدعاية الحميدية في العراق :

أصبح السلطان عبدالحميد في نظر اكثر العراقيين بمثابة رمز للاسـلام وعنوان مجده، فهو حامي حمى المسلمين والذائد عن تخومهم تجاه الكفار. وصار الناس يلهجون بالدعاء له في كل مناسبة ، وقد اعتادوا على ذلك بحيث صارت العجائز يفتتحن به قصصهن للاطفال، فلا تبدأ احداهن بقصة حتى تقول: « كان ما كان ، الله ينصر السلطان » . وكذلك صار الرجل العامي يلهج بين كل حين وآخر بالدعاء المألوف «اللهم انصر الدين والدولة » ، ومعنى هذا ان الدين والدولة صارا في نظره كأنهما صنوان لا يفترقان أو هما وجهان لشيء واحد .

ويروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته ما كان تلاميذ الكتاتيب فـي العهد الحميدي يتعلمونه في الدعاء للدولة والسلطان ، فهو يصف « زفـة الختمة » التي يقوم بها التلاميذ في دروب المحلة احتفاءاً بختم أحدهـم للقرآن ، فكان يتقدم الموكب ثلاثة منهم يتلون الدعاء ، ويجيب عليهـم

---

(٢٢) المصدر السابق ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

الآخرون بعد كل عبارة منه بلفظة « آمين » . وهذا نص الدعاء : « الله ينصر السلطان ، سيد الأكوان ، يارب الدين والايمان ، أدم دولة بني عثمان ، الهي بالنبي جرجيس ، أجرنا من جنود ابليس ، بأهل الذكر والتقديس ، أدم دولة بني عثمان ، الهي انصر أفندينا ، الحاكم بالعدل فينا ، أدمه ياعظيم الشان ... »(٢٣) .

وفي أوائل عام ١٨٩٣ وردت الاوامر السلطانية الى والي بغداد الحاج حسن باشا توعز اليه باختيار نفر من علماء بغداد ليكونوا مدرسين سيارين يتجولون في انحاء العراق من أجل وعظ الجمهور العراقي وتثقيفه دينياً ، وقد اختير لهذه المهمة خمسة أشخاص هم: الشيخ طه الشواف لقضاء الدليم، والملا قاسم الملا أحمد لقضاء الجزيرة ، والملا عمر الجبوري لقضاء الكوت، والشيخ أحمد الشيخ داود لقضاء بعقوبة ، والمولوي غلام رسول الهندي لقضاء مندلي . وقد كتب السيد مصطفى الواعظ مذكرة في هذا الخصوص تحتوي على أحد عشر مادة لتكون منهاجاً يسير عليها هوءلاء العلماء في مواعظهم وارشاداتهم . وكان أهم ما جاء في تلك المذكرة وجوب الدعاء للسلطان عبدالحميد وحث الناس على السمع والطاعة له ، فهذا « هو من أهم المهمات وأوجب الواجبات بحكم منطوق آية : واطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم »(٢٤) .

وقد ساهم شعراء العراق مع رجال الدين في تمجيد السلطان عبدالحميد ويجب أن لا ننسى ان الشعراء اعتادوا منذ قديم الزمان على مدح السلاطين والحكام ، غير ان السلطان عبدالحميد نال من شعرهم نصيباً أوفر ، يقول ابراهيم الوائلي في هذا الصدد : « لقد كان نصيب السلطان عبدالحميد من الشعر العراقي أوفر من غيره مع أن الفترة التي حكم فيها سماها المؤرخون فترة الاستبداد ، غير أن الاستبداد لم يعرف عنه شعراء العراق ما كان يعرفه سواهم من الاتراك أو أنهم لم يدرسوا المفهوم الذي أدركه سواهم من المطلعين على التيارات السياسية ، فقد كان للجامعة الاسلامية التي احتضنها

---

(٢٣) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٣ ــ ١٤ .
(٢٤) مصطفى الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٩ ــ ٢١١ .

هذا السلطان لتوطيد مركزه أثر كبير عند رجال الدين والشعراء في العراق اذ ان كان دعاة هذه الجامعة ومؤيدوها لا يألون جهداً في ترسيخها في نفوس العراقيين ... »[٢٥] .

اشترك في تمجيد السلطان عبدالحميد الكثير من الشعراء منهم جميل صدقي الزهاوي ، وأحمد عزت الفاروقي ، وجعفر الحلي ، وطاهر الدجيلي ومحمد القزويني ، والشيخ يعقوب الشيخ جعفر ، وعبدالنبي الخضري . فهم كانوا يصفونه بانه « أمير المؤمنين » و « امـام العصر » و « وخليفـة المسلمين » و « حامي حمى الاسلام » وغير ذلك من الالقاب التقديسية .

وحين نشبت الحرب بين اليونان والدولة العثمانية في نيسان من عام ١٨٩٧ ، ونالت الجيوش العثمانية انتصارات باهرة ، كان ذلك حافزاً لشعراء العراق أن ينظموا القصائد الرنانة في تمجيد السلطان والاشادة بانتصـار جيوشه التي هي جيوش الاسلام في نظرهم على جيوش الكفار . وكان مـن جملة هؤلاء الشعراء السيد جعفر الحلي ، فقد نظم في ذلك قصيدة رنانـة نقتطف منها الابيات التالية :

لك طأطأت دول الضـلال رقابهـا	قدها فسيفك قد أذل صعابهـا
فاليوم صـار الـدين فيـك مؤيدا	ولدولـة الاسـلام كـل هابهـا
فمـن المطـاول دولـة نبويـة	وقفت ملائكة السـما حجابها
أرسى قواعدهـا النبـي محمـد	ورفعت أنت الى السـماء قبابهـا
لـم يسطع المخلوق ذلة دولة	الحـق خالقها أعـز جنابهـا[٢٦]

ابو الهدى الصيادي :

يحسن في ختام هذا الفصل أن نتحدث عن رجل نال أعظم الشـهرة والنفوذ في العهد الحميدي ، وظل يتمتع بمكانته العليا طيلة ذلك العهـد دون أن يتمكن أحد من زحزحته عنها ــ هو أبو الهدى الصيادى .

ولد الصيادي في عام ١٨٤٩ في قرية من قرى حلب اسمها « خـان

---

(٢٥) ابراهيم الوائلي (المصدر السابق) ــ ص ٢١٢ ــ ٢١٣ .
(٢٦) جعفر الحلي (سحر بابل وسجع البلابل) ــ صيدا ١٣٣١ هـ ــ ص ٥٢ــ٥٣

شيخون » ، وكان رفاعي النسب وعندما بلغ مبلغ الرجال انتسب الى الطريقة الرفاعية ، ثم هاجر الى اسطنبول في أواخر عهد السلطان عبدالعزيز. يروي محمد كرد علي في مذكراته نقلاً عن أبيه أنه قال : « ... كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول في خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة وكنا نتآلف ونشترك في النفقة والسمر ، وكان يزورنا درويش شاب ، أسمر اللون ، جهوري الصوت ، تبدو امارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتم بمئزر ، ويكتسي عباءة وقفطاناً . ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم ، وما كان يشاركنا في النفقة ، ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن واري المعروف بأبي الهدى الصيادي » [٣٧] .

يحدثنا الكاتب المصري ابراهيم المويلحي عن كيفية اتصال الصيادي بالسلطان عبدالحميد ونيل الحظوة عنده ، فيقول ما خلاصته : أن الصيادي ذهب ذات يوم الى قصر السلطان وطلب مقابلته بحجة أن النبي ظهر له في المنام وأمره أن يبلغ السلطان كلاما على أن يكون الكلام شفاهياً في غير واسطة ، ولما قيل له ان السلطان لا يعرف العربية ذهب ثم عاد بعد يومين وهو يقول : ان النبي جاءني في الرؤيا وتفل في فمي فتكلمت باللغة التركية . فدخل على السلطان وأبلغه الرسالة النبوية ، وكان ذلك سبباً في نيله الحظوة الرفيعة لدى السلطان[٣٨] .

يبدو أن هذه القصة غير خالية من المبالغة ، ولعلها من اختلاق الخصوم، وقد أورد محمد كرد علي قصة أخرى في هذا الشأن أراها أقرب الى الواقع وخلاصتها : ان زوجة ناظر الضبطية في اسطنبول أصيبت بمرض أعجز الاطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فوصفوا له الصيادي فجيء به ، وقرأ هذا عليها الادعية والتعاويذ على طريقة الصوفية ، فشفيت المرأة من مرضها بعد أيام . وشاء القدر أن تصاب احدى جواري السلطان بمرض مماثل فجيء بالصيادي اليها وفعل بها مثلما فعل بالمرأة الاولى ، فشفيت كذلك .

---

(٢٧) محمد كرد علي (المذكرات) ـ دمشق ١٩٤٨ ـ ج١ ص ٢٤٢
(٢٨) محمود أبوريه (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص١٣٢-١٣٣ .

وكان الصيادي يومذاك في الثامنة والعشرين من عمره ، وحظي بمقابلة السلطان فنال عنده المنزلة العليا[٢٩] ..

وهناك رواية ثالثة في هذا الشأن يرويها سليمان فيضي ، وخلاصتها ان الصيادي حين ذهب الى اسطنبول أخذ يقيم في ليالي الجمع حلقات الذكر على الطريقة الرفاعية المعروفة فأثار ذهول الناس بما كان يقوم به من خوارق الاعمال كادخال السيوف والخناجر في أجسام مريديه وتناول النار. وقد سمع السلطان عبدالحميد به فاستدعاه الى قصره ولما شاهد منه تلك الاعمال العجيبة اعتقد انها لابد أن تكون من كرامات الاولياء ، وان الصيادي لابد أن يكون من اولياء الله الصالحين ، فأمر له بقصر فخم ولمريديه برواتب ضخمة ، وصار يستشيره في أموره ومشاكله ، ولم يكن يرد له طلباً ..[٣٠] .

مهما يكن الحال فقد صار أبو الهدى الصيادي أعظم شخصية في عهد السلطان عبدالحميد ، واخذ الوزراء والكبراء يقبلون يديه ويعتقدون أنه المهدي المنتظر ويستدلون على ذلك بأن لفظة « أبو الهدى » تساوي في حساب الحروف لفظة « المهدي » . وكان هو يفتخر أمام السلطان بأن مريديه من الرفاعية يبلغ عددهم عشرة ملايين ، وان بلاد العرب في قبضته ، والاولياء في خدمته ، والنبي في معونته[٣١] . ومما يذكر ان الصحافة الاوربية كانت تشير الى الصيادي أحيانا باعتباره « منجم السلطان » الذي يفتح له الفال .

واتخذ الصيادي من نفسه وسيطاً بين العرب والسلطان . فجعل داره مضيفاً يقصده العرب ، طلابهم وزوارهم ، فكان يغدق عليهم من كرمه ويتشفع لهم عند السلطان في قضاء حاجاتهم . وقد انتفع منه الكثيرون فكانوا من دعاته وأنصاره في مختلف البلاد العربية .

ومن الذين انتفعوا من الصيادي السيد رجب نقيب أشراف البصرة

---

(٢٩) محمد كرد علي (المصدر السابق) — ج١ ص ١٤١ .
(٣٠) سليمان فيضي (في غمرة النضال) — بغداد ١٩٥٢ — ص ٤٧ .
(٣١) محمد أبوريه (المصدر السابق) — ص ١٣٣ — ١٣٤ .

وابنه السيد طالب ، فقد كان السيد رجب ينتسب الى السادة الرفاعيـه ، وكان ذا جاه ومال ، وأراد في أحد الايام أن يتقرب من السلطان عبدالحميد بمعونة الصيادي ، فأرسل اليه ستة من الجياد الاصيلة مع خرقة خضراء مأخوذة من ستار الرفاعي ، وقد وصلت الهدية الى اسطنبول برفقة الحاج عيسى روحي أفندي . وحين علم بها السلطان أوعز بأن تقدم « الخرقة » اليه في موكب ، فسار الحاج عيسى وهو يحملها بيديه وأمامه فرقة تعزف الموسيقى كما سار خلفه رجال الدرك والجنود . وعند وصول الموكب الى القصر استقبله رجال القصر بألبستهم الرسمية ، ثم تناول السلطان « الخرقة » فقبلها ثم وضعها على رأسه وعينيه وصدره ، وقبلها من بعده الحاضرون من وزراء وقواد وكبراء ، ثم ذهبوا بها الى الحرم السلطاني . وأمر السلطان بأن تمنح الرتب والمناصب المناسبة الى السيد رجب النقيب وأخيه وأولاده ، والى الشيخ ابراهيم الراوي وأولاده ، والى الحاج عيسى وابنه ، كما صدر الامر باسناد نقابة الكاظمية الى اسماعيل ابن الشيخ ابراهيم الراوي ، وباسناد مديرية المعارف ببغداد الى الحاج عيسى[٣٢] .

ومثلما كان للصيادي أنصاره الكثيرون كان له خصومه الكثيرون ايضاً ، وكان الخديوي عباس الثاني من أولئك الخصوم ، وفي عام ١٩٠١ هرب من الصيادي غلام له اسمه « شكيب » والتجأ الى مصر ، فاستغل الخديوي ذلك للتشنيع على الصيادي ، ونظم حافظ ابراهيم قصيدة على لسان الصيادي يشكو فيها حرقة الجوى لفراق الغلام ، وفيما يلي بعض أبياتها :

أحرق الدف لو رأيت شكيباً	وأفض الأذكار حتى يغيبا
هو ذكري وقبلتي وامامي	وطبيبي اذا دعوت الطبيبا
لا تعيبن يا شكيب دبيبي	انما الشيخ من يدب دبيبا
فسلوا سبحتي فهل كان تسبيـ	ـحي فيها الا شكيبا شكيبا[٣٣]

---

(٣٢) مصطفى الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ .

(٣٣) عبد المتعال الصعيدي (المجددون في الاسلام) ــ القاهرة ــ ص ٥١٨ ــ ٥١٩ .

الفصل الثاني

احداث العراق

في العهد الحميدي

حين تبوأ عبدالحميد العرش كان الوالي في بغداد اسمه عبدالرحمن باشا ، وكان أول عمل قام به هـذا الوالي فـي العهـد الحميدي هو اجراء الانتخابات لمجلس المبعوثين ، ولم يكن العراقيون يومذاك يدركون معنـى الانتخابات ، ولهذا جرت الانتخابات بكل هدوء وفـاز فيهـا الذين أرادت الحكومة فوزهم .

كان المبعوثون الذين يمثلون بغداد ثلاثة هم : مناحيم دانيال ، وعبـد الرزاق الشيخ قادر ، ووفعت بك بن الحاج أحمد أغا . وقد سافر هؤلاء الى اسطنبول لحضور افتتاح المجلس الذي جرى فى آذار ١٨٧٧ ، غير أنهم لـم يبقوا هناك سوى شهر واحد ثم عادوا الى بغداد بعد أن عطل السلطـان الدستور وأغلق المجلس .

نقل الوالي عبد الرحمن باشا الى ولاية ديار بكر ، وحل محله فى ولاية بغداد عاكف باشا وقد وصل هذا الى بغداد فى ١٣ أيار ١٨٧٧ ولم يبق فيهـا سوى احد عشر شهرا ، وفي عهده وقعت الحرب الروسية العثمانية وهـي التي عرفت في العراق باسم « دقة الغربية » ، وقـد سـيق من العراق الى ساحة الحرب في قفقاسيا عشرة آلافه جندي ولم يرجع منهم سوى نفر قليل، فقدهلك اكثرهم من شدة البرد والجوع ، ومن هنا نشأت النوحية المشهورة في العراق : «أويلاخ يا دقة الغربية » [1] .

---

(١) الغربية في اللهجة العراقية تعني جهة الشمال ، ويقصد بها جبهة قفقاسيا ، والواقع ان « دقة الغربية » حدثت مرتين : أولاهما في بداية العهد الحميدي على نحو ما ذكرناه هنا ، والثانية فى بداية الحرب العالمية الاولى كما سنذكره في الجزء القادم من هذا الكتاب .

وفي ٤ نيسان ١٨٧٨ وصل الى بغداد الوالي الجديد قدري باشا ، وبعد مرور ثمانية أشهر على وصوله عين وزيراً للداخلية فغادر بغداد متوجها الى اسطنبول عن طريق البصرة ، وحل محله في ولاية بغداد عبد الرحمن باشا الذي كان والياً فيها من قبل . وقد دامت ولاية عبد الرحمن باشا في هذه المرة سنة واحدة وتسعة أشهر ، وفي أثناء تلك المدة حدثت في شمال العراق مجاعة فظيعة لم تشهد البلاد مثلها منذ عهد بعيد .

كارثة المجاعة :

في الاشهر الاخيرة من عام ١٨٧٩ هطلت الامطار بغزارة في شمال العراق مما جعل الناس يستبشرون بقدوم موسم جيد تهبط فيه أسعار المواد الغذائية ، غير أن تفاؤل الناس لم يدم طويلاً اذ هبت على حين غرة ريح سموم لافحة أهلكت الزروع وجعلت سنابلها ذاوية لا بذور فيها ، ثم أعقب ذلك برد شديد جمد الانهار[٢] ، فكان ذلك بداية القحط والمجاعة .

كتب القنصل الفرنسي في الموصل المسيو سيوفي الى حكومته رسالة مؤرخة في ٢٣ شباط ١٨٨٠ وصف فيها المجاعة قائلاً : « لقد تحول القحط الى مجاعة حقيقية أخذت وطأتها تشتد يوماً بعد يوم . فكانت أعداد كبيره من سكان الأرياف تترك في كافة الايام قراها مولية وجوهها شطر مدينتنا بحثاً عن الرغيف بعد أن طوح بها الجوع وضاقت بها ديارها . وقد استحال المئات من سكان هذه المناطق الذين ينتمون الى الطبقة الكادحة الى فقراء متسولين يئنون تحت وطأة البؤس ويتضورون من الجوع ويشكون من قلة العمل . وكان لهجوم هذا الجيش العرمرم من سكان الريف ومن الشغيلة المعوزين ، وكلهم جائعون ، أثره في زيادة عدد الجائعين الذين لا ينضب له معين . اذ أنه في ظرف شهر واحد ضاعف عدد فقرائنا ثلاثة أضعاف . فاضطر بعضهم تحت لهيب الجوع الى أكل لحوم جثث الحيوانات . وقد أكد لي أحد الضباط بحضور الوالي أن خمسة أشخاص كانوا يموتون من الجوع في كل

---

(٢) سليمان صائغ الموصلي (تاريخ الموصل) ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ج١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

يوم في مدينة الموصل .. وكانت الفاقة في كركـوك أشد مـن الفاقة فـي الموصل . فقد كتب مطران هذه المدينــة الكلداني الى بطرياركه يقـول ان ثلاثين شخصاً يموتون في كركوك كل يوم . وعاثت عصابات اللصوص وقطاع الطرق في الأرياف ، فهم يهاجمون القــرى ويستولون على كل ما يجدونه دون أن تتدخل السلطة فتقدم أي نجــدة للضحايا المساكين . وقد أكــد لي بعضهم أن قرابة أربعين قرية قد هجرها سكانها ... »

وقد انتهز المحتكرون الفرصة اذ كانوا قد ادخروا منذ بداية الســـنة كميات كبيرة من الحنطة والشعير ثم صاروا يستعملون وسائل جهنمية لرفع الاسعار ، فكانوا يزعمون نفاد الحنطة لديهم ولكنهم في الوقت نفسه يبيعون حبوبهم سراً بسعر يبلغ عشرين مرة أو خمسة وعشرين مرة من سعر التكليف، وكان رئيس البلدية من جملة هؤلاء المحتكريــن ، واستطاع اثناء المجاعة أن يضاعف ثروته أربعة أضعاف .(٣)

حاولت الحكومة المحلية معالجة الأمر فخولت سلطات البلدية حق دخول المساكن للاستحواذ على ما فيها مـن طعام وتوزيعه علــى المعوزين ، غير أن المفتشين الذين كلفوا بهذه المهمة لم يكونوا أهلاً لها ، اذ كانوا كغيرهم من موظفي ذلك العهد يخضعون لتأثير العلاقة الشخصية أو الرشوة ، فصاروا اذا أرادوا الذهاب الى بيت من بيوت الأغنيــاء لتفتيشه أرســلوا الى أصحابه يعلمونهم بنيتهم ، وبذلك ظــل الاغنياء على وضعهم لم يخســروا شيئاً وباء الفقراء بالخسران (٤) .

وشاءت الأقدار أن تصدر الدولة العثمانية آنذاك أمراً بتخفيض نقدها تخفيضاً كبيراً ، فأصبح المجيدي يساوي ثمانية قروش بعــدما كان يســاوي عشرين قرشاً ، والبيشلغ يساوي قرشين بعدما كــان يساوي خمسة قروش . فأضاف هذا التخفيض على الناس بلاءاً جــديداً ، وخربت بســببه بيــوت

---

(٣) بيير دي فوصيل (الحياة في العراق منذ قرن) ـ ترجمة اكرم فاضل ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٤) وليس بدج (رحلات الى العراق) ـ ترجمة فؤاد جميل ـ بغداد ١٩٦٦ ـ ج١ ص ٢٨٧ .

المئات منهم[٥] . يروى ان امرأة فقيرة في الموصل باعت مصاغاً ذهبياً لها بمبلغ مائة قرش ، ولم يكن لديها غيره ، وصادف أن انخفضت قيمة النقود في ذلك اليوم فهبط المبلغ لديها الى ستين قرشاً . ثم نزل بها مصاب آخر عندما ذهبت الى السوق لتشتري منه ما يقيتها ويقيت ابنتها الصغيرة ، حيث سطا عليها نشال وسرق المبلغ منها . وعادت المرأة الى بيتها أخيراً وهي تندب نكد حظها .[٦]

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان القناصل والمرسلين الاجانب قاموا بدور لا يستهان به في تخفيف أثر المجاعة على الناس ، فقد أرسلوا الى بلادهم يطلبون منها النجدة على وجه السرعة . وكان القنصل البريطاني من أوائل الذين فعلوا ذلك اذ أرسل الى لندن برقية يقول فيها : « الغوث .. الغوث .. وعلى استعجال . الوفيات كثيرة ، الاطفال يباعون ويشترون ، أو يتركون تحت رحمة الاقدار ، الجياع ينحدرون كالسيل المنهمر من القرى المجاورة الى المدينة »[٧] . فوردت الى الموصل من أوربا مبالغ كثيرة من المال ، فنصبوا بها القدور الضخمة حيث طبخوا بها الحساء وأخذوا يغرفون منه للجياع فأنقذوا منهم عدداً غير قليل .

وأخذت الجماهير الجائعة ترفع أصواتها بلعن الدولة العثمانية دون خشية ، فقد جعلهم الجوع لا يخافون العقاب ، وصاروا كذلك يتمنون حكم النصارى . وعندما مر القنصل الفرنسي بالجماهير المحتشدة عند باب السراي قالت امرأة من بينهم بصوت مرتفع وهي تخاطب القنصل : « بارك الله فيك فانك خير من المسلمين ما دمت تحنو على الفقراء » .[٨]

سميت تلك المجاعة في الموصل بـ « سنة الليرة » لأن وزنة الحنطة بيعت عامئذ بليرة واحدة[٩] ، وكانت الليرة في تلك الايام ذات شأن عظيم . أما

---

(٥) المصدر السابق – ج١ ص ٢٨٧ .
(٦) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) – ج١ ص ٣١٥ .
(٧) وليس بدج (المصدر السابق) – ج١ ص ٢٨٦ – ١٨٧ .
(٨) پيير دي فوصيل (المصدر السابق) – ص ٨٤ – ٨٥ .
(٩) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) – بغداد ١٩٥٦ – ج٨ ص ٤٩ . ٥٠ .

في بغداد فسميت المجاعة « سنة البرسيمة » وكان سبب هذه التسمية ان كثيراً من الاكراد جاؤوا الى بغداد فراراً من المجاعة وهم يصرخون « برسيمه ! برسيمه ! » اي جوعان ، فنشأ الاسم من ذلك . وقد وصل أثر المجاعة حتى البصرة اذ انحدر اليها بعض الجياع فسكنوا العراء ، واشتغلت البنات منهم خادمات في البيوت ، وتزوج بعضهن بالبصريين .(١٠)

ثورة عشائرية كبرى :

لم تكد المجاعة تخف وطأتها عن الناس في الشمال حتى كان الجنوب يتمخض عن ثورة عشائرية كبرى بزعامة منصور باشا السعدون .

كان منصور باشا قبل قيامه بالثورة مقيماً في بغداد حيث كانت الحكومة قد فرضت عليه الاقامة الجبرية وعينته عضواً في مجلس الادارة . وقد ظل في بغداد ثلاث سنوات ، ثم انتهز أخيراً فرصة فخرج من بغداد متوجهاً نحو الغراف ، ومن هناك استدعى اليه ابن أخيه فالح باشا الذي كان متصرفاً للواء الناصرية ، كما استدعى اليه جميع عشائر المنتفق ، وأعلن استقلاله وسمى نفسه « سلطان البر » .

كان الرأي في بغداد منقسماً حول هذه القضية فالوالي عبدالرحمن باشا كان يعطف على آل السعدون ويريد حل قضيتهم سلماً ، أما قائد الجيش عزت باشا فكان مصراً على محاربتهم والقضاء على امارتهم وكان يكتب الى المسؤولين في اسطنبول يحرضهم على حرب آل السعدون فلا يجد منهم الجواب الشافي . والمظنون ان ناصر باشا السعدون – وهو الاخ الاصغر لمنصور باشا وكان في اسطنبول يومذاك – قد استطاع بلباقته وهداياه أن يؤثر على المسؤولين ويقنعهم بان أخاه ليس عاصياً وان الفتنة سببها قاسم باشا الزهير ، وقد صدق المسؤولون بقوله وأمروا بالقاء القبض على قاسم باشا وسوقه مخفوراً من البصرة الى بغداد ، وقدم بعض أعيان البصرة عريضة طويلة الى السلطان ذكروا فيها المظالم التي حلت بهم على أيدي آل السعدون ويرجون من السلطان أن يأمر باطلاق سراح قاسم باشا الزهير

(١٠) حامد البازي (البصرة في الفترة المظلمة) – بغداد ١٩٦٩ – ص ١٥٥ .

واعادته الى البصرة « معززاً مكرماً كما هو اللائق بشأن أمثاله »[11] .

أشتد حنق عزت باشا اخيرا تجاه التحديات التى كان منصور باشا يوجهها الى الحكومة في الجنوب، فأرسل الى السلطان برقية قال فيها بصراحة: ما دامت ليرات السعدون ومطامع المسؤولين موجودة فلا يمكن اصلاح العراق ! . ويبدو ان هذه البرقية كان لها أثرها في حكومة اسطنبول فجاء الجواب منها الى عزت باشا تأمره بأن يأخذ المسوءولية على عاتقه بالقوات المتوفرة لديه . ثم ورد الامر بعزل عبدالرحمن باشا عن ولاية بغداد ، فحل محله وال معروف بالبطش هو تقي الدين باشا ، وكان هذا الوالي له معرفة سابقة بالعراق وأهله لانه كان والياً فيه من قبل .

وقعت المعركة الفاصلة بين عشائر آل السعدون وقوات الحكومة في منطقة أم الشعير قرب الحي وذلك في أواخر صيف ١٨٨١ ، وكان عدد أفراد العشائر نحو عشرة آلاف، بينما كان عدد جنود الحكومة لا يتجاوز الالفين . واتخذت العشائر خطة بارعة للحرب اذ هم ساقوا أمامهم مجموعة كبيرة من الاباعر يتراوح عددها بين الالفين والثلاثة آلاف بعير ، ووضعوا أكياس الرمل على ظهورها كما وضعوا الزفت في آذانها لكي لا تفزع من صوت المدافع . وكان على كل بعير رجلان أولهما ينثر الرمل في وجوه الاعداء بينما الثاني يضرب البعير بعصا من حديد لكي يشتد في اندفاعه الى الامام . وكادت هذه الخطة تنجح لو لم يتخذ عزت باشا تجاهها موقف الصمود ، فقد كان هذا الرجل على رأس جنوده يحضهم على القتال . وكان للمدافع أثرها في كسر قوة العشائر وبث الرعب فيهم وتفريق أباعرهم . اضف الى ذلك أن عشيرة المياح خرجت في اللحظة الاخيرة من صفوف آل السعدون واتثالت على أموالهم تنهبها، فكان ذلك بمثابة الضربة القاصية لآل السعدون، ففروا منهزمين ، وغنم الجيش فى تلك المعركة غنائم وفيرة جيء بها الى بغداد فبيعت هنالك ، وذهبت حصيلة البيع الى الخزانة [12] .

---

(١١) انظر نص العريضة فى جريدة (الجوائب) فى عددها الصادر في ١٥ ذي القعدة ١٢٩٧ هـ .

(١٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٥٢ ــ ٥٨ .

كانت تلك نهاية الامارة السعدونية في العراق تلك الامارة التي حكمت منطقة واسعة من جنوب العراق ردحا من الزمن ، وصار سقوطها محور حديث الناس وظهرت حوله بعض الاغاني الشعبية كان منها اغنية جاءت على لسان امرأة من آل السعدون وهي تخاطب فالح باشا السعدون حيث تقول : « فالح ياغرنوق ، طاسه وخذوها اروام ، بيش أحلب النوق » . ومعناها : ان الاروام ــ أي الاتراك ــ استلبوا منها الاناء الذي كانت تحلب به الناقه فبأي اناء تحلب بعد هذا ؟ ! .

حاول سعدون باشا بن منصور باشا أن يستعيد شيئا من مجد أسرته القديم ، وكان يدفع بأفراد أسرته نحو الرجوع الى البداوة والخشونة وترك التحضر ، فلم يوفق اذ كانت تقف في طريقه عقبتان : اولاهما انشقاق آل السعدون والبغضاء المستحكمة بين آل ناصر وآل منصور فكان كل فريق منهما يهدم ما يبنيه الآخر ، والثانية نفرة عشائر المنتفق من آل السعدون من جراء خلافها معهم حول ملكية الاراضي . وكان مصير سعدون باشا أن ألقت الحكومة عليه القبض وسيرته الى حلب حيث مات فيها(١٣) .

معاملة الزوار :

دامت ولاية تقي الدين باشا مدة تزيد على الست سنوات . وهي مدة طويلة بالنسبة لوال عثماني في العراق . ويبدو أن الدولة كافأته بذلك على مساهمته في القضاء على الامارة السعدونية . و لم يحدث أثناء ولايته الطويلة ما يستحق الذكر من الناحية الاجتماعية سوى ما اشارت اليه جريدة الزوراء عن معاملة الزوار الايرانيين في بغداد واتخاذ الوالي بعض التدابير لحمايتهم من الاذى .

نشرت جريدة الزوراء في يوم ٢١ صفر ١٣٠٢ هـ ــ الموافق ١١ كانون الاول ١٨٨٤ م ــ خبرا مفاده أن الزوار يشكون على لسان حكومتهم من أنهم ينالون الحيف في العبور وفي نزول الخانات ، وقد اخذت الحكومة تعهدا من أرباب الخانات وأمثالهم في تضمين المسروقات ، ومن لا يقدم

---

(١٣) علي الشرقي (ذكرى السعدون) ــ بغداد ١٩٢٩ ــ ص ٤٨ ــ ٤٩ .

مثل هذا التعهد منهم يسد خانه [١٤] .

ومما يلفت النظر ان السائحة الفرنسية مدام ديولافوا التي جاءت الى العراق مع زوجها في عام ١٨٨١ قد أشارت في مذكراتها الى سوء المعاملة التي يلقاها الزوار الايرانيين ببغداد حيث قالت : ان قوافل الزوار لا تكاد تدخل باب السور في الجهة الشرقية من بغداد ويلمحها الاطفال هنالك حتى ينهالوا عليها بالسباب المقذع ، وقد يهاجمونها لانتهاب أغطية الزوار أو نراجيلهم أو أوانيهم المعلقة على جوانب الدواب ، ثم يطلقون سيقانهم للريح فيختفون في منعطفات الازقة . واذا عجز الاطفال عن نهب شيء منهم قذفوهم بالاحجار ، وقد يسقط الحجر منهم بين أرجل الدواب فيسبب ذعرها وسقوط أحمالها على الارض ، وعندما ينهمك الزوار في اعادة الاحمال الى مواضعها يأخذ الاطفال في السخرية منهم وضجيج قهقهتهم يشق عنان السماء . وتضيف ديولافوا الى ذلك قائلة : ان الزوار كانوا يتحملون تلك المضايقات بصبر وأناة ، ولم يفكروا يوماً في تقديم شكواهم الى المسؤولين الاتراك . وفي الواقع ان هؤلاء المسؤولين كانوا يشجعون تلك الافعال أو هي تحدث بوحي منهم ، فكانت كل شكوى تقدم اليهم في هذا الشأن تقابل بالاستهزاء [١٥] .

يبدو أن الزوار قد نفد صبرهم في عام ١٨٨٤ ، فتقدموا بشكواهم الى القنصل الايراني ببغداد ، ورفع القنصل الشكوى الى الوالي تقي الدين باشا ، فاتخذ هذا الوالي التدابير التي رآها كافية لحماية الزوار . ولا ندري هل استمر العمل بتلك التدابير أم أنها أهملت بعد حين كغيرها من أعمال الحكومة في تلك الايام .

بين النقيب والوالي :

أحيل تقي الدين باشا على التقاعد ، فغادر بغداد في ٢٩ آذار ١٨٨٧ ، وحل محله في ولاية بغداد مصطفى عاصم باشا . وقد اتخذ الوالي الجديد

---

(١٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٧٣ .
(١٥) ديو لافوا (رحلة مدام ديولافوا) ــ ترجمة علي البصري ــ بغداد ١٩٥٨ ــ ص ٧٤ ــ ٧٥ .

دار سكناه في محلة الميدان مقابل الاعدادية المركزية حاليا ، بينما كان سلفه تقي الدين باشا يسكن في قصر النجيبية في باب المعظم وهو القصر الـذي بنـاه مدحت باشا لضيافة الشاه ناصـر الدين فـي عام ١٨٧٠ ، وقد جعله الوالي الجديد مستشفى للبلدية(١٦)

دامت ولاية مصطفى عاصم باشا زهاء ثلاث سنوات ، وأهم ما كـان يشغل أذهان الناس في ايامه هو حديث الصراع بينه وبين نقيب أشراف بغداد السيد سلمان الكيلاني • ومن الجدير بالذكر ان السيد سلمان كان ذا مجد باذخ وشخصية قوية ، وقد قابل السلطان عبدالحميد في اسطنبول فنال عنده حظوة كبرى ، ولكن نفرة حدثت بينه وبين أبي الهدى الصيادي مما جعـل هذا يكيد له ويحاول الحط من شأنه •

والمظنون أن الصيادي كان قد أوعز الى الوالي مصطفى عاصم باشا بمعاداة السيد سلمان ، فلما وصل الوالي الى بغداد أخذ يسعى نحو الوقيعة بـه والاضرار بالاوقاف القادرية التي كانت تحت اشرافه •

يمكن القول ان السيد سلمان الكيلاني لقي الكثير من العنـاء فـي عهد الوالي مصطفى عاصم باشا ، فانفض عنه الناس الذين كانوا يحفون به ويرتادون ديوانه ، وتكالب عليه أهل القرى الذين كانت لهم علاقة زراعيـة معه • وأخذ الوالي يسعى نحو توهين الطريقة القادرية من جهة ، ونحو تدعيم الطريقة الرفاعية من الجهة الاخرى ، فتم في عهده تشييد جامع ومقـام فخم حول قبر السيد أحمد الرفاعي الذي يقع في البلدة التي تسمى باسمه الآن على نهر الغراف ، كما بوشر في بغداد بتعمير جامع السيد سلطان علي الذي هو جد الرفاعي ليكون مقابلا لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ومضاهيا له •

وقد حصل الصيادي من السلطان عبدالحميد على فرمان بنصب السيد ابراهيم الراوي نقيبا للسادة الرفاعية مع منحه رتبة عالية ليكسف به مجـد السيد سلمان الكيلاني ، ويقال ان السيد ابراهيم الراوي استطاع أن يستثمر علاقته الوثيقة بالصيادي في نفع أهل راوة وعانة حيث صار ملجأ لهم فـي

---

(١٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) - ج٢ ص ٢ ، ٨ ، ٩٧ •

بغداد وواسطة يتشفع لهم عند الحكومة ، « وتراه لا يرد أحدا يرجوه ويلتمسه ، فاذا زرته تجده يحرر كتب رجاء وشفاعة لمن يرجوه ويتشفع به ، ورجاءه وشفاعته مقبولة في كل الاوقات ... »[17] .

لم يسترح السيد سلمان ويسترجع نفوذه الا عند ما نقل مصطفى عاصم باشا من بغداد على أثر قضية دفن الحاخام كما سنأتي اليه . ومن طريف ما يروى عن السيد سلمان انه حين وصل اليه خبر موت مصطفى عاصم باشا بعد سنتين أخذ يبكي بكاءاً شديداً ، فلما سأله أخوه عبدالرحمن عن سبب بكائه أجاب : لست أبكي أسفاً عليه بل اسفاً على موته قبل أخذ حقي منه[18] .

قضية دفن الحاخام :

في صيف ١٨٨٩ ظهرت الكوليرا في العراق ، وكانت شديدة فعم بلاؤها مختلف الانحاء ، وقد بلغ عدد الموتى في مدينة بغداد وحدها ما يزيد على المائة والثلاثين يومياً . وهرب الموسرون والحكام والاجانب من بغداد — كعادتهم في كل وباء — حيث خيموا بعيدا في البراري . واستمر الوباء في بغداد ثلاثين يوما ثم أخذ يتضاءل شيئا فشيئا .

كان من بين الذين ماتوا بالوباء عبدالله ابراهيم سوميخ ، وكان رئيس الحاخامين وله عند اليهود منزلة رفيعة . ولم يشأ اليهود أن يدفنوه في مقبرتهم العامة الواقعة في الجهة الشرقية من بغداد ، وحصلوا على اذن من الوالي مصطفى عاصم باشا ليدفنوه عند مرقد النبي يوشع الواقع في جانب الكرخ قريبا من مرقد الشيخ جنيد ، ولكنهم عندما وصلوا الى المرقد وأرادوا فتح بابه عارضهم السادن وتجمع الناس ، ثم جاء رئيس بلدية الكرخ عبدالله الزيبق مع بعض مأموريه ليقف الى جانب السادن ، وهجم اليهود على الباب فكسروها ثم دفنوا الجثة داخل سور المرقد . وقيل انهم ضربوا أثناء ذلك عبدالله الزيبق وشتموه بمساعدة أمير اللواء سعيد أغا ، فقد كان هذا الضابط

---

(١٧) مصطفى نورالدين الواعظ (الروض الازهر) — الموصل ١٩٤٨ — ص ٣٧٦ .
(١٨) المصدر السابق — ص ٤٠٩ .

يرعاهم وعلى صلة بأحد رؤسائهم معلم نسيم .

وعندما علم الوالي بالامر اتخذ الاجراءات الشديدة ضد اليهود فأمر بالقاء القبض على رئيس الحاخامين اليشاع ورفقاءه من اعضاء المجلس الجسماني كيوسف شنطوب وصالح كاشي . فحبسوا في الكنيس[19] ووصل الخبر الى أوربا ، وهب اليهود هنالك فأثاروا ضجة في الصحف والاوساط السياسية ، ورفع أحد زعماء اليهود في بريطانيا احتجاجا الى اللورد سالزبري ، وقدم هذا شكوى الى اسطنبول[20] . وأشيع أن اليهود توصلوا الى أم السلطان وجعلوها تتدخل في الامر[21] .

طلب الوالي من السلطان اذناً باخراج جثة الحاخام من مدفنها ونقلها الى مقبرة اليهود العامة . وقد أبدى السلطان في هذا الشأن لباقة سياسية ، كما هي عادته في مثل هذه الامور ، اذ هو أبرق الى الوالي يأذن له بنقل الجثة ، كما أبرق اليه في الوقت نفسه يعلمه بأنه منقول الى ولاية أطنة وأنه يجب أن يغادر بغداد حالاً . وقد تم نقل الجثة ليلا في ١١ كانون الاول ١٨٨٩ ، وفي اليوم التالي غادر الوالي مصطفى عاصم باشا بغداد متوجها الى أطنة ، غير أنه نقل الى ولاية الشام قبل وصوله الى تلك المدينة[22] .

الوالي سري باشا :

عين سري باشا والياً لبغداد خلفاً لمصطفى عاصم باشا ، وقد وصل الى بغداد في ١٢ كانون الثاني ١٨٩٠ ، ولم يمكث فيها طويلا اذا كانت مدة ولايته فيها سنة واحدة وسبعة أشهر .

الواقع ان سري باشا تميز عن غيره من الولاة العثمانيين بصفة اشتهر بها ، هي انه كان اديبا وله عدة موءلفات فى التفسير وعلم الكلام وشرح العقائد الاسلامية ونقد ما يخالفها ، وكان عهده من اكثر العهود تشجيعا للادب

---

(١٩) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٩٤ ــ ٩٦ .
(٢٠) ريجاردكوك (بغداد مدينة السلام) ــ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ج٢ ص ١٧٣ .
(٢١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٩٥ .
(٢٢) المصدر السابق ــ ج٨ ص ٩٤ .

وتكريما لرجال الدين . وعندما تلى فرمانه في القشلة على أثر وصوله الى بغداد ألقى خطبة أدبية رنانة دعا فيها الى طاعـة الله ورسـوله وولي الامر ، وطلب من الرعية تنبيهه اذا اعترته غفلة في اداء الواجب ، وقال : « ليس بعيب ظهور الخطأ من الانسان وانما العيب في الاصرار على الخطأ ، والحق أحق أن يتبع ... »(٢٣) .

يقول بهجت الاثري في وصف سري باشا : انه كان أخا علـم وأدب يقضي ليله ونهاره بمطالعة الكتب ، ومحاورة العلماء ، ومطارحة الادباء ، فلم يجد صاحباً يجول معه في هذه الميادين سوى محمود شكري الآلوسي ، وكان هذا غير راغب في معاشرة الامراء ويؤثر العزلة عن الناس ، ولكن سـري باشا حبب نفسه اليه واكثر التردد عليه حتى استماله اليه، فكان يقضي اكثر أوقاته في مجالسته ومحادثته كما كان يستعين به على التأليف والتصنيف ، ثم أناط به انشاء القسم العربي من جريدة الزوراء فكتب فيها ما شـاء من المقالات العلمية والادبية وأوجد حركة في ذلك الجو الساكن بما كان يعرضه فيها من الاسئلة المتنوعة على علماء بغداد(٢٤) .

ومثل هذا ذكر الشيخ آغا بزرك الطهراني في كتابه « طبقات اعـلام الشيعة » حيث قال : ان الوالي سري باشا كان أديباً له علاقات مع رجـال العلم والادب ومنهم الشيخ علي كاشف الغطاء النجفي ، وقد ألف الشيخ علي كتابا بعنوان « النوافح العنبرية في المآثر السرية » جمع فيه ما قيل فـي صديقه سري باشا من مدائح وتهان ، وما قاله هو أيضاً فيه(٢٥) .

ولم يكتف سري باشا بما كان له من علاقات وثيقة برجال الدين ، بل رأيناه علاوة على ذلك يقسو على البابيين يضطهدهم ولا سيما رئيسهم ببغداد الحاج محمد حسين الاصفهاني صاحب الدار المعروفة في محلة الشيخ بشار بجانب الكرخ ، فقد نفاه سري باشا الى الموصل ، وصدرت جريدة الزوراء

---

(٢٣) انظر نص الخطبة في جريدة الزوراء في عـددها الصادر في ١ جمـادي الآخرة ١٣٠٧ هـ .

(٢٤) محمد بهجة الاثري (اعلام العراق) ــ القاهرة ١٣٤٥ هـ ــ ص ١٠٤ .

(٢٥) آغا بزرك الطهراني (طبقات اعلام الشيعة) ــ النجف ١٩٦٨ ــ ج١ ق٤ ص ١٤٣٨ ــ ١٤٤٠ .

في ٢٨ آذار ١٨٩١ تشرح السبب الذي أدى الى نفيه اذ قالت عنه: انه كان دائم السعي لاضلال عقول الناس واجتذابهم الى نحلته ، وان الدولة كانت تحميه ، أو كانت غافلة عنه ، فتمادى هو في اعلان دعوته جهارا حتى كثر القال والقيل بين الاهالي ، ورفع بعضهم العرائض طالبين ابعاده مع اتباعه، ولهذا صدر قرار نفيه الى الموصل وجاءت الاخبار بوصوله اليها[٢٦] .

والغريب في أمر سري باشا أنه في الوقت الذي كان فيه على تلك الصورة من حيث رعايته للعلم والادب كان عهده من أبشع العهود من حيث شيوع التفسخ والرشوة واللصوصية فيه . كتب القنصل الفرنسي ببغداد المسيو بونيون في رسالة الى حكومته مؤرخة في ٢٣ آذار ١٨٩١ قال فيها ما نصه :

« ان التسيب في بغداد قد بلغ الاوج . فالسرقات متصلة واعتقد أن مائتي حادثة قتل على الاقل قد وقعت منذ ثمانية أشهر في المدينة . ولم يصدر أي حكم جدي في أي من هذه الجرائم . فان الحكام يبيعون أحكام تخليص المجرمين للمجرمين . ويذكر الناس هنا أسماء قتلة ارتكبوا جرائم القتل في رابعة النهار ولكن أطلق سراحهم بحجة عدم وجود شهود . ولا أستطيع أن أرسم لمعاليكم صورة عما وصلت اليه الحالة في هذا الاقليم منذ أن أصبح يدار من قبل الوالي الحالي . ان هذا الشخص المرتشي يبيع كل شيء لقاء المال الى درجة لا يمكن تصورها . وان الناس هنا ابتداءاً من الوالي وانتهاءاً بآخر فرد من أفراد الجندرمة يسرقون وينهبون وأن الفوضى خير من النظام الذي نعيش في ظله »[٢٧] .

يمكن القول ان سري باشا اقتدى في سيرته هذه ببعض الحكام القدامى الذين كانوا ينهبون رعاياهم من جهة ، ويسخون على الادباء والعلماء من الجهة الاخرى . وتلك طريقة كانت تنفع الحكام في الازمنة الماضية لان الادباء والعلماء هم الذين يملكون القلم لتسجيل مناقب الحكام وتخليد ذكرهم ، أما سواد الرعية فان شكاويهم لا يسجلها أحد . وكادت

---

(٢٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ـ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .
(٢٧) بيير دى فوصيل (المصدر السابق)ـ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

هذه الطريقة تنفع سري باشا كذلك لو لم يفضح أمرها القنصل الفرنسي !

سدة الهندية الاولى :

في أواخر القرن الثامن عشر أراد ثري هندي اسمه آصف الدولة ايصال الماء الى النجف ، فأمر بشق جدول يأخذ ماءه من الفرات جنوب المسيب . ولما تم شق الجدول أخذ يتوسع مجراه بمرور الايام حتى تحولت معظم مياه الفرات اليه ، وصار نهر الحلة يتضاءل تدريجيا . وقامت الحكومة منذ عهد علي رضا باشا بمحاولات شتى لاعادة المياه الى نهر الحلة دون جدوى .

وفي عام ١٨٨٥ جف نهر الحلة تماماً فلم تكن المياه تدخل فيه الا في موسم الفيضان ، فنقص سكان بلدة الحلة الى أقل من النصفه ، وتحولت العشائر الى مناطق أخرى . وارسل السيد محمد علي القزويني برقية الى اسطنبول على شكل بيت من الشعر هذا نصه :

الى أن يعود الماء في النهر جارياً ويخضر جنباه تموت ضفادعه [٢٨]

واهتمت اسطنبول بالامر فاستدعت من فرنسا مهندساً معروفاً هو المسيو شونديرفر ، ووصل هذا مع مساعد له الى بغداد في خريف ١٨٨٩ ، وأخذ يتجول دارساً مجرى الفرات حتى وصل الى مسكنة ثم عاد . وقام أخيرا ببناء سدة على شكل جناحين مائلين مع فتحة في الوسط طولها سبعة عشر مترا[٢٩] . وقد حشر لبناء هذه السدة الكثير من ابناء العشائر وغيرهم، واستعملت السخرة في سبيل ذلك احيانا . وتخليدا لذكرى بناء السدة شيدت منارة مرتفعة قريبا من جناحها الايسر كتب عليها تاريخ الانتهاء من البناء مع تمجيد للسلطان عبدالحميد . ولا تزال المنارة قائمة حتى الآن مع العلم ان السدة اندثرت منذ زمن بعيد .

وفي ٢٥ تشرين الاول ١٨٩٠ جرى الاحتفال بافتتاح السدة ، وحضر الوالي سري باشا ومعه السيد عبد الرحمن الكيلاني ورفعت افندي الچادرچي.

---

(٢٨) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ــ النجف ١٩٦٥ ــ ج١ ص ١٥٢ .
(٢٩) احمد سوسة (وادي الفرات) ــ بغداد ١٩٤٥ ــ ج٢ ص ٢٨٨ .

وغيرهما من أعيان بغداد ، كما حضره أعيان الحلة وكربلاء ، وألقى مفتي الحلة السيد مصطفى الواعظ خطبة مدح بها السلطان على هذه المنة العظيمة التي تفضل بها على رعيته ، ثم مدح الوالي على همته . وبعد الانتهاء من الاحتفال توجهوا الى بستان لرفعت الچادرچي قريبة من الحلة اسمها « الجمجمة » فباتوا فيها . وفي اليوم التالي توجهوا الى الحلة ، وتزينت الحلة لاستقبالهم ، وخرج أهلوها بأسلحتهم وطبولهم ، وألقى الشيخ عباس العذاري قصيدة في مدح الوالي فانعم الوالي عليه بساعته الذهبية مع سلسلتها المصنوعة من الذهب .(٣٠)

ويجب أن لا يفوتنا في هذه المناسبة أن نذكر أن الطابوق الذي بنيت به السدة استخرج كله من خرائب بابل ،وقد استخدم الديناميت من أجل ذلك اذ كان يوضع في جدران قصور بختنصر لنسفها واستخلاص الطابوق منها.(٣١) وهذا أمر يؤسف له فان قصور بختنصر لو كانت باقية على وضعها القديم لكانت اليوم من الكنوز الآثارية والسياحية التي لا تقدر بثمن .

ضجة في الموصل :

اعتاد السلطان عبدالحميد أن يرسل الى الولايات العثمانية بين كل آونه واخرى مفتشاً ذا رتبة عالية وسلطة واسعة لكي ينظر في اصلاح الفساد المستولي على البلاد . وفي عام ١٨٩٢ أرسل السلطان الى العراق مفتشاً من هذا النوع اسمه عمر لطفي باشا ومنحه سلطة تفوق سلطة الولاة . وقد وصل هذا الرجل الى الموصل في ٥ تموز عازماً أن يبدأ مساعيه الاصلاحية فيها .

كانت ولاية الموصل يومذاك قد عم فيها التفسخ وكثرت المظالم .(٣٢) وظن عمر لطفي باشا أنه قادر أن يصلح كل شيء فيها عن طريق العنف والارهاب ، وكان من رأيه أن يرهب الكبراء أولاً فيخشاه العامة تبعاً لهم . ولهذا كان أول عمل قام به في الموصل هو أنه أطلق سراح الذين كانوا في السجن من العامة وزج في مكانهم بأعضاء مجلس الادارة وبعض الأعيان

---

(٣٠) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٢٠٠ .
(٣١) وليس بدج (المصدر السابق) — ج١ ص ١٥٤ — ١٥٦ .
(٣٢) بيير دى فوصيل (المصدر السابق) — ص ٨٧ .

بدعوى أنهم اللصوص وقطاع الطرق .[33] ولبث هـؤلاء في السجن ــ في الحر الشديد ــ ستة أيام ، ثم أطلق سراحهم وعزلهم عن وظائفهم [34] . ثم جاء بالقاضي وكان معروفاً بالارتشاء ، فأركبه على حمار ووجهه الى الخلف وطاف به في شوارع الموصل وكان المنادي يسير أمامه يعلن للناس جريمته . وأصبح الناس في ذهول اذ كانت تلك أول مرة يشاهدون فيها مثل هـــذا الحكم القاسي العادل .[35]

وألف عمر لطفي باشا لجنة خاصة لتحصيل ما تبقـى على الاهالي مـن ضرائب وديون أميرية عن السنوات الثمان الماضية ، وأسرع الناس يؤدون ما فرض عليهم اذ كانوا يخشون أن يكون مصيرهم كمصير القاضي أو أعضـاء مجلس الادارة . وقد استطاعت اللجنة أن تجمع في خلال مـدة قصيرة مـا يزيد على ٥٢ ألف ليرة . وبنى عمر لطفي باشا بهذا المبلغ داراً للحكومة على طراز جديد كما زاد في مرتبات الجنود .[36]

ان هذا النجاح الذي ناله عمر لطفي باشا جعله يتمادى في الشـــدة غير مبال بشيء ، وقد وصلت به الثقة بالنفس الى حد أنه أصدر أمره باحصاء سكان الموصل حتى الاناث منهم ، وهنا جوبه الباشا بما لم يكن يتوقعه ، فقد أنتهز خصومه تلك الفرصة وأخذوا يشنعون عليه أنه يريد انتهاك حرمـات النساء بتسجيل أسمائهن ، وقامت قيامة أهل الموصـــل ، فاغلقت الأسواق ، وخرجت المظاهرات تهتف بسبه ، وكان من جملة هوساتهم أثناء ذلك قولهم : « كلب أسود خير من الوالي » . وكان يتزعم المظاهرات رجل اسمه « محمد ابو جاسم » ، فلما قبضت الحكومة عليه وزجت به في السجن ظهر ابن اختـه يتزعم الجماهير بدلاً عنه وهو يردد مفتخراً : « هذا الخال واني ابن اخته ــ عند الموت خالي عرفته » .[37]

أخذت البرقيات تنهال على اسطنبول محتجة على عمل الباشا ، وعـاد

---

(٣٣) صديق الدملوجي (اليزيدية) ــ الموصل ١٩٤٩ ــ ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .
(٣٤) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٣١٥ .
(٣٥) پيير دى فوصيل (المصدر السابق) ــ ص ٨٧ ــ ٨٨
(٣٦) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٢١٦ .
(٣٧) خيري العمري (حكايات سياسية) ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٩٧ ــ ٩٨ .

الجواب من اسطنبول يقول : ان السلطان لا يريد الدخول الى حرمه الامبراطوري قبل ان يطمئن كل الاطمئنان على حقيقة الوضع . واضطر الباشا أخيراً الى التنازل عن أمر الاحصاء . (٣٨) وكانت تلك أول هزيمة له ، ثم تلتها بعدئذ هزيمة أخرى ازاء اليزيدية وهي الهزيمة التي أدت الى عزله واعادته الى اسطنبول مدحوراً .

مشكلة اليزيدية :

ان مشكلة اليزيدية قديمة تمتد جذورها الى عدة قرون خلت ، وكانت المعارك بينهم وبين جيرانهم المسلمين لا يخمد لها أوار والاضطهادات لهم متصلة ، غير أن المشكلة اتخذت طابعاً جديداً منذ بدأ تطبيق نظام التجنيد الاجباري في العراق ، فقد انقسم الرأي حولهم بين رجال الدولة : هل هم مسلمون ليخضعوا لنظام التجنيد ، أم غير مسلمين ليكونوا كاليهود والنصارى يؤخذ منهم البدل النقدي .

يبدو ان الرأي استقر أخيراً على أنهم يجب أن يخضعوا لنظام التجنيد، ولهذا رأينا رؤساءهم في عام ١٨٧٢ يقدمون الى الحكومة عريضة يطلبون فيها استثناء اليزيدية من التجنيد بحجة أنه يمنعهم من اداء الواجبات التي تفرضها عليهم دياناتهم كزيارة طاووس ملك الذي يمثل الشيطان في زعمهم ثلاث مرات كل سنة ، وزيارة مرقد الشيخ عادي مرة واحدة ، واحتفاظ كل فرد منهم في جيبه بشيء من تربة الشيخ عادي حيث يأكل قليلاً منها كل صباح . وقد ذكروا في عريضتهم أيضاً أن دياناتهم تحرم عليهم دخول المرحاض والحمام واستعمال اللباس الكحلي وأكل السمك والقرع والبامية والفاصولية واللهانة والخس ، وسكنى الأماكن التي يزرع فيها الخس ، والاستماع الى لعن الشيطان من فم أحد فاليزيدي الذي يسمع لعن الشيطان يجب عليه أن يقتل من تفوه به أو يقتل نفسه والا أصبح كافراً . فهذه الواجبات وغيرها تمنع اليزيدية من الدخول

(٣٨) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) — ص ٥٦ — ٦٠ .

في سلك التجنيد ولهذا فهم يرجون من الحكومة اعفاءهم منه .[٣٩]

كان لتلك العريضة أثرها في المسؤولين ، وربما صاحبتها هدايا ثمينة زادت في تأثيرها فيهم على طريقة ذلك الزمان ، فوافقت الحكومة على استثناء اليزيدية من التجنيد وجعلتهم كاليهود والنصارى يدفعون البدل النقدي عوضاً عنه . واستمر الحال على ذلك بضع عشر سنة ، حتى جاء يوم أخذ بعض رجال الدين ينادون فيه بأن اليزيدية لا يجوز معاملتهم كأهل الكتاب وانما هم فرقة من الاسلام انحرفوا عن الجادة وينبغي اعادتهم اليها بكل وسيلة ممكنة وفرض التجنيد عليهم كسائر المسلمين .

أرسلت الحكومة الى اليزيدية بعثات دينية لارشادهم وهدايتهم ، فلم توفق في ذلك [٤٠] . ثم لجأت الى الشدة وأرسلت اليهم الحملات التأديبية فحدثت من جراء ذلك فضائع انتهكت فيها الحرمات وسفكت الدماء وانتهبت الاموال . يحدثنا السائح البريطاني السر وليس بدج عن بعض تلك الفضائع ، وكان قد سمع بها عند مروره بقرى سنجار في شتاء ١٨٩٠ — ١٨٩١ ، فكانت مما تقشعر منه الأبدان [٤١] .

وفي عام ١٨٩٢ نيطت مهمة ارشاد اليزيدية بعمر لطفي باشا ، وأخذ هذا يستعمل طريقته التي سار عليها في الموصل وعزم على أن يعرض « الرشاد » على اليزيدية بالحسنى فمن رفضه منهم أرغمه عليه بحد السيف .

بدأ الباشا « ارشاده » باليزيدية الذين يسكنون في قرى الشيخان الى الشرق من الموصل باعتبار أنهم أقل عناداً وعنفاً من يزيدية سنجار ، فأرسل اليهم يستدعيهم اليه ، فجاء منهم خلق كثير لما وقر في نفوسهم من هيبته ، وكان على رأسهم أمير الشيخان ميرزا بك . ولما قاربوا مدينة الموصل خرج الباشا لاستقبالهم ومعه علماء الموصل وأعيانها تصحبهم كتيبتان

---

(٣٩) عبد الرزاق الحسني (اليزيديون في حاضرهم وماضيهم) — صيدا ١٩٥١ — ص ٧٢ — ٧٤ .

(٤٠) صديق الدملوجي (المصدر السابق) — ص ٥٠٦ .

(٤١) وليس بدج (المصدر السابق) — بغداد ١٩٦٨ — ج٢ ص ١٠٨ — ١١٤ .

من الجند وجوق موسيقي . وقد دهش اليزيدية من هذا التكريم الغريب ، فساروا والموسيقى تعزف أمامهم حتى وصلوا الى دار الحكومة فدخلوها حتى امتلأت الساحة بهم . وصعد الباشا مع العلماء والأعيان الى أعلى السلم ، وألقى عليهم كلمة بالمناسبة ثم طلب منهم أن يلعنوا الشيطان ، فسكتوا جميعاً ، وكرر الأمر عليهم ثلاث مرات فلم ينطق باللعن منهم سوى الأمير ميرزا بك وأخيه الصغير واثنين من العامة [٤٢] . فأمر الباشا الجنود بضربهم ، وأخذ الجنود يضربونهم ضرباً مبرحاً حتى مات منهم تحت الضرب ثلاثة ، وسقط الكثير منهم جرحى فحملوا الى المستشفيات للمعالجة . أما الذين سلموا من الأذى فقد قربهم الباشا اليه وأكرمهم لعلهم يهتدون [٤٣] .

الظاهر أن ميرزا بك وبعض الذين جاؤوا معه آثروا التقية وتظاهروا أمام الباشا أنهم تركوا تقديس الشيطان وأنهم اذا عادوا الى قراهم فسيقنعون اخوانهم بأن يفعلوا مثلهم . وأبرق الباشا الى اسطنبول يقول بان عشرين ألفاً من اليزيدية اهتدوا بهمته ، وطلب أوسمة للامير ميرزا بك وأخوته ، وقد وصلت الاوسمة الى الموصل فسلمت لأصحابها ، وأخذ اليزيدية يعودون الى قراهم تدريجياً .

وأرسل الباشا الى قرى الشيخان معلمين ليعلموا اليزيدية القراءة وأصول الدين . ولم يكد المعلمون يصلون الى القرى حتى جوبهوا بالطرد منها وهددهم سكانها بالقتل ان عادوا . ولما بلغ الباشا ذلك استشاط غيظاً وأرسل ابنه مع كتيبة من الجند الى تلك القرى فنهبوها واستاقوا المواشي كما سبوا النساء والاطفال ، وذبحوا من رجالها خلقاً كثيراً . وأضرموا النار في أربع من قرى الدنادية فاحترقت بأهلها ومواشيها[٤٤] وكذلك نهبوا قصر الامارة وهدموا قباب الأضرحة ، وفعلوا في مرقد الشيخ عادي من المنكرات ما يكل عنه الوصف ثم حولوه الى مدرسة دينية ، واستولوا على السناجق والمقدسات وأرسلوها الى بغداد حيث احتفظ بها في خزانة الجيش ولم تعد

---

(٤٢) صديق الدملوجي (المصدر السابق) — ص ٥٠٧ .
(٤٣) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) — ج١ ص ٢١٨ — ٢١٩
(٤٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ ص ١٢٠ .

الى اليزيدية الا بعد اعلان الدستور .(٤٥)

وحين علم يزيدية سنجار بما حل باخوانهم في قرى الشيخان أعلنوا العصيان ، وكانت مواضعهم الجبلية تساعدهم على مقاومة القوات الحكومية وانزال الخسائر الفادحة بهم . وعزم عمر لطفي باشا على أن يتوجه بنفسه لقتالهم ، وأعد لهم المدافع مع قوات عشائرية وعسكرية كبيرة . وفي ١٥ نيسان ١٨٩٣ وقعت معركة عنيفة بين الفئتين استمرت ثلاثة أيام ، في موقع يقال له « زوقايه » ، وكانت خسائر القوات الحكومية في تلك المعركة كبيرة بينما كانت خسائر اليزيدية قليلة نسبياً . فقد كان اليزيدية مستميتين في القتال وكثيراً ما كانوا يهاجمون الجيش ليلاً ثم يعودون الى متاريسهم. وأخذت العشائر الملتحقة بالجيش تترك مواقعها كما هي عادتها في أوقات المحنة . واضطر الباشا ازاء هذا الفشل الذي مني به أن يلجأ الى فتح باب المفاوضة مع اليزيدية .

وفي الوقت الذي كان فيه الباشا مشغولاً بمفاوضة اليزيدية وصلت الى الموصل لجنة كان الباب العالي قد أرسلها للتحقيق معه ، وقد استدعته اللجنة الى الموصل وأبلغته بوجوب السفر الى اسطنبول ، فسافر اليها في ٢٥ نيسان وصدر الأمر هناك بعزله . ولما سمع اليزيدية بذلك أعلنوا السرور وصاروا يهتفون باسم السلطان عبد الحميد واعتبروه واحداً منهم ، وقالوا انه لم يكن راضياً بالاعتداء عليهم .(٤٦)

في عام ١٩٠٣ كتب والي الموصل نوري باشا الى الباب العالي يدافع عن اليزيدية ويقترح أن تترك لهم الحرية في معتقداتهم ، وأن يؤخذ البدل النقدي منهم عوضاً عن الخدمة العسكرية ، وقد استجاب الباب العالي لهذا الاقتراح ، وأعيد مرقد الشيخ عدي الى اليزيدية حيث ألغيت المدرسة الدينية التي أسسها عمر لطفي باشا فيه .(٤٧)

ان تلك النكبات التي حلت باليزيدية لا تزال ذكراها ماثلة في أذهانهم

---

(٤٥) صديق الدملوجي (المصدر السابق) ـ ص ٥٠٧ .

(٤٦) المصدر السابق ـ ص ٥٠٩ .

(٤٧) عبد الرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ص ٩٨ .

حتى الآن ، فهم قد حفظوها في تراثهم الشعبي على شكل اناشيد رثائية بطريقة الحكاية تسمى « ستران » (٤٨). ومن الجدير بالباحثين بالتراث الشعبي أن يهتموا بتسجيل تلك الاناشيد لما فيها من أهمية اجتماعية وتاريخية .

الحاج حسن باشا :

في عام ١٨٩١ اتفق سري باشا والي بغداد مع الحاج حسن باشا والي ديار بكر على أن يحل أحدهما محل الآخر على طريقة « البجايش » ـ أي التبادل ـ وقد وافقت اسطنبول على ذلك .

وفي ٢٤ آب وصل الوالي الجديد الى الطارمية في طريقه الى بغداد ، وكانت قد خرجت لاستقباله باخرة نهرية وهي تحمل وكيل الوالي المشير نصرت باشا ومعه الأعيان وكبار الضباط والموظفين . فبات الوالي الجديد تلك الليلة في قصر كاظم باشا ، ثم تحركت به الباخرة في صباح اليوم التالي نحو الاعظمية فنزل اليها حيث قام بزيارة مرقد أبي حنيفة ، ومن هناك عبر الى الكاظمية حيث قام بزيارة مرقد الجوادين . وتحركت به الباخرة بعدئذ نحو بغداد ، فخرج الناس على الضفتين ليشهدوا مرور الباخرة ، وكان ذلك يوماً مشهوداً في بغداد ، وأطلقت المدافع تسع عشرة طلقة . وقد وصلت الباخرة الى شاطيء القشلة في الساعة التاسعة غروبية ، أي قبل غروب الشمس بثلاث ساعات . وفي الساعة الثانية بعد الغروب قرأ مميز المكتوبي فرمان السلطان ، فأعقبه الوالي بكلمة مدح فيها السلطان مدحاً كثيراً حتى جعله كأنه قديس يوحى اليه ، وختم كلمته بقوله : « ليعش سلطاننا عيشاً كثيراً » . ثم ألقى المفتي محمد سعيد أفندي الزهاوي دعاءاً بالمناسبة ، ثم تقدم من بعده أخوه الشاعر جميل صدقي الزهاوي فألقى قصيدة بالتركية رحب فيها بالوالي وبارك قدومه .(٤٩)

ظل الحاج حسن باشا في ولاية بغداد خمس سنوات ، وقد تميز

---

(٤٨) سليمان صائغ الموصلي (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٣٢٠ .

(٤٩) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١١٥ ـ ١١٧ .

بصفتين نال بهما حسن السمعة : أولاهما أنه كان متديناً يقوم بالشعائر الدينية بشكل يرضى العامة بمختلف طوائفهم ، فقد رأيناه يزور مرقد أبي حنيفة ومرقد الجوادين قبل دخوله الى بغداد، وقد ذكرنا في الفصل السابق كيف أنه كان يخرج شعرة النبي بنفسه في الاعياد تبركاً بها . أما الصفة الثانية التي تميز بها فهي أنه كان بشوشاً يجامل الناس وقد نال بذلك رضا القناصل ببغداد . وصفه القنصل الفرنسي المسيو بونيون بقوله : « ان والينا الجديد لا هو متعلم ولا هو ذكي ، انه اداري فاشل لا يستحق درجة الصفر في الادارة ، ولكنه هشوش بشوش في وجوه الأجانب ويعمل كل ما في وسعه لارضاء الناس كافة . ولم ينقطع القناصل أبداً عن كيل المديح والثناء له . وعذرهم وعذري في ذلك ان الاساليب المحزنة التي كانت تصرف بموجبها الشؤون في عهد سلفه الطالح قد حملتنا حملاً على الاعتقاد بأن الولاة الجهلاء في بعض الأحيان هم أفضل الولاة » . (٥٠)

الهر ريتشارز :

حدث في عهد الحاج حسن باشا أمران يستحقان الذكر : أحدهما ما جرى في سامراء وهو الذي هز المجتمع العراقي هزاً عنيفاً وكاد يؤدي الى فتنة طائفية رعناء على نحو ما سوف ندرسه في الفصل القادم . أما الأمر الثاني فهو في شأن شاب ألماني كان يسكن بغداد في تلك الآونة اسمه ريتشارز .

كان ريتشارز ذا ثروة طائلة ومن اسرة المانية نبيلة وقد سكن بغداد لسبب غير معروف ، وكان متعطلاً يحرص على حضور حفلات الاستقبال التي كانت الجالية الأوربية تقيمها بين حين وآخر ، فكان مطمح الانظار في تلك الحفلات لما له من شباب وثراء .

قيل عنه انه كان لوطياً وقد جاء الى بغداد لاشباع شهوته الشاذة فيها . وقد رفعت عائلة مسيحية في عام ١٨٩٤ دعوى الى المحكمة ضد ريتشارز اتهمته فيها بأنه لاط بغلام لها كان تلميذاً في مدرسة الآباء الكرمليين . وقد أثارت هذه القضية ضجة في بغداد ، وانقسم الناس فيها الى فريقين فوقف

---

(٥٠) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) — ص ٩٠

فريق منهم الى جانب ريتشارز بينما وقف آخرون ضده . وادعى ريتشارز ان الآباء الكرمليين هم الذين لفقوا الدعوى ضـــده وتآمروا للايقاع به لانه لم يكن يمتنع عن أكل اللحم والدسم في يوم الجمعة ، وكـــان يقيم حفـــلات راقصة أثناء الصوم الكبير .

وقد جرى الفحص الطبـــي على الغلام فتبين أنه قـــد سبق اللواط به بافراط بحيث لا يمكن اثبات حدوث اللواط الاخير عليه أو نفيه ، ولم ينته التحقيق الى نتيجة . وقد أظهرت الحكومة الالمانية استياءها من هذا التشهير الذي أحاط بالقضية ، فأرادت البرهنة عملياً على اقتناعها ببراءة احد رعاياها ، فعينت ريتشارز قنصلاً لها ببغداد ، [٥١] وكـــان بذلك أول قنصل لالمانيـــا في العراق . [٥٢]

ان هذه القضية في الواقع تثير التساؤل ، فما هو السبب الذي جعل ذلك الشاب الثري يترك أوربا وما فيها من مجالات واسعة لاشباع شهوته ثم يختار بغداد من دون غيرها من بلدان العالم . كتب القنصل الفرنسي الى حكومته يقول : « أي دافع دفع هذا الشاب الثري الأنيق سليل الاسرة النبيلة للمجيء الى بغداد ان لم يكن ذلك لاحتمال الاستفادة من الفرص التي تتيحها له مدينة عامورة الجديدة ؟ » . [٥٣]

نرى القنصل الفرنسي يصف بغداد بأنها « عامورة الجديدة » أي انهـــا تشبه بلدة لوط القديمة ، وهذا أمر يلفت النظر . فنحن نعـــرف ان الانحراف الجنسي كان منتشراً في بغداد آنذاك انما هو لم يكن على تلك الدرجـــة التي يصفها القنصل . اننا نقف هنا تجاه لغز اجتماعي غامض !

نامق باشا الصغير :

نقل الحاج حسن باشا الى ولاية الشام ، وفي ٢٦ تموز ١٨٩٦ وصل الى

---

(٥١) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) ـــ ص ١٥٥ ـــ ١٥٦

(52) Stphen Hemsly Longrigg (Iraq 1900 To 1950) — Oxford 1950 — P. 5 .

(٥٣) بيير دي فوصيل (المصدر السابق) ـــ ص ١٥٦ .

بغداد الوالي الجديد عطاءالله باشا الكواكبي • وكان هـذا الوالي طاعنـة في السن ذا لحية كثـة بيضاء تشبه لحى رجال الدين ، وقـد هجاه الشاعر الشيخ رضا الطالباني ببيتين من الشعر باللغة التركية قال فيهما ما معناه : ان تعيين الوالي الذي تجاوز عمره المائة يـؤدي الى اضطراب أحوال البلاد بـلا ريب ، اذ ليس من المعقول احياء البلاد بأحد الأموات ، فمرحى لقوة ادراكك أيها الباب العالي ! (٥٤)

دامت ولاية عطاءالله باشا في بغداد ثلاث سنوات ، ثم نقل منها ، وحل محله والي طرابلس الغرب نامق باشا ، وقد وصل هذا الوالي الى بغداد فـي ١٩ ايار ١٨٩٩ •

لقب نامق باشا بـ « الصغير » للتمييز بينـه وبين نامق باشا « الكبير » الذي ولي العراق قبل العهد الحميدي مرتين • والواقع ان نامق باشا الصغير له أهمية خاصة تميزه عن غيره من ولاة العهد الحميدي ، وتأتي أهميته من ناحيتين : أولاهما أنه تصاهر مع آل الآلوسي حيث تزوج عاتكة خاتون بنـت السيد نعمان خير الدين الآلوسي ، والثانية أنه حاول التشبه بمدحت باشا في الانشاء والتعمير •

يخيل لي أن نامق باشا عند وصوله الى بغداد وجد الناس يلهجون بذكر ما قام به مدحت باشا من أعمال عمرانية في العراق فاراد أن يقلده أو لعله أراد أن يتفوق عليه لكي ينال سمعة أعظم منه • نذكر فيما يلي بعض الأعمال التي قام بها نامق باشا تشبهاً بمدحت باشا :

اولا ــ كان مدحت باشا قد أنشأ اول مدرسة حديثة في العراق ، وهي كانت للذكور طبعاً ، فجاء نامق باشا وأنشأ أول مدرسة للاناث • ثم أنشـأ علاوة على ذلك مدارس جديدة في بغداد كما أنشأ مدارس أخرى في الحلة والديوانية وخانقين ومندلي • وحين وجد صعوبة في استقدام المعلمين من اسطنبول أنشـأ دارا للمعلمين ببغداد وجعلها معهـدا داخليا لكي يسكنها الطلاب من مختلف الألوية العراقية •

ثانيا ــ كان مدحت باشا قد أنشأ مدرسة الصنائع للايتام ، وقد اهملت

---

(٥٤) عباس لعزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ١٢٦ •

هذه المدرسة بعد ذهاب مدحت باشا وأشرفت على الاندثار اذ لم يبق فيها عند مجيء نامق باشا سوى أربعين تلميذاً • وانبرى هذا الوالي لانعاشها من جديد فرمم بنايتها وأضاف اليها قسماً خاصاً بالنجارة ، كما أدخل فيها تدريس الموسيقى واستقدم لها من أوربا جوقاً كاملاً ، ونما بذلك عدد تلاميذها حتى وصل الى المائة والثلاثين • (٥٥)

ثالثا ــ كان مدحت باشا قد شيد مستشفى للغرباء في جانب الكرخ • وقد أهمل هذا المستشفى على منوال ما أهملت مدرسة الصنائع • وفي عام ١٨٩٦ تحولت بناية المستشفى الى مدرسة اعدادية • ولما جاء نامق باشا أسرع الى تشييد مستشفى جديد في باب المعظم في الموضع الذي أقيمت فيه السجون بعدئذ ، واستورد له الأدويه والادوات الجراحية من أوربا ، واهتم به اهتماماً كبيراً • (٥٦)

رابعا ــ كان مدحت باشا قد اسس شركة ترامواي الكاظمية ، وجاء نامق باشا فأسس شركة لعربات تجرها الخيول وتسير بانتظام بين بغداد وبعض المدن القريبة منها كالحلة وكربلاء وسامراء وبعقوبة ، وهي الشركة التي أطلق العامة عليها اسم « الكومبانية » واشترك في تأسيسها بعض سراة بغداد وكبار تجارها كعارف أغا وغيره •

خامسا ــ كان مدحت باشا قدشيد كثيرا من الابنية العامة التي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن • وقد حاول نامق باشا الاقتداء به في ذلك ، وكان من آثاره سراي الكاظمية الذي ظل قائماً حتى عام ١٩٥١ ، وكان سراياً فخماً في حينه وقد جرى الاحتفال بوضع حجر الاساس فيه في ٢٠ تشرين الثاني من عام ١٩٠٠ •

سادساً ــ كان مدحت باشا قد صنع جسراً جديداً لبغداد وزينه لكي يمر عليه الشاه أثناء زيارته العراق في عام ١٨٧٠ • وقد أصبح هذا الجسر

---

(٥٥) عبد الرزاق الهلالي (تاريخ التعليم في العراق) ــ بغداد ١٩٥٩ ــ ص ١٦٨ ــ ١٦٩ •

(٥٦) هاشم الوتري ومعمر خالد الشابندر (تاريخ الطب في العراق) ــ بغداد ١٩٣٩ ــ ص ٥٥ •

عند مجيء نامق باشا واهياً مفككاً وكثيراً ما كان ينقطع أثناء الفيضان فينجرف مع تيار الماء فاذا أعيد الى محله أقيمت له زفة عامة حيث يخرج الأهالي بالمزامير والطبول فرحاً بعودته . وقد اهتم نامق باشا بالامر وأوعز الى مدرسة الصنائع بصنع جسر جديد بدلا عنه . وجرى الاحتفال بنصب الجسر الجديد في ٣١ آب من عام ١٩٠٢ ، وتجمهر الناس على جانبي النهر ليشاهدوا الاحتفال . والواقع أنه كان جسراً لم يشهد البغداديون له مثيلاً من قبل ، فقد كان متيناً عريضاً ذا سياج أنيق وكانت في أحد جانبيه شرفات مسقوفة وضعت فيها الكراسي كأنها المقاهي ، على نمط الجسور في اسطنبول . وبقي هذا الجسر حتى الليلة التي انسحب فيها الاتراك من بغداد في عام ١٩١٧ ، فقد أشعلوا النار فيه عند انسحابهم وبقيت النيران تلتهب فيه طيلة النهار والليله التالية .[٥٧]

والغريب أن نامق باشا لم يكد يفتتح الجسر حتى جاءه أمر عزله من ولاية بغداد ، وقد فرح بهذا العزل المفاجيء الكثيرون من أهل بغداد وشاع بينهم أنه ورد عليه التبليغ بالعزل أثناء مروره على الجسر عند افتتاحه نكاية به . ونظم الحاج محمد رفعت بيتاً بالتركية يسخر فيه من الوالي المعزول حيث قال ما معناه : ان نامق خرج من بغداد منكسراً فركب القفة ولم يعبر من فوق الجسر . وكذلك نظم أحد الشعراء بالعربية أبياتاً كان مطلعها :

قوموا بنا يا بني الزوراء نبتهل فعن قريب جميع الخزي يرتحل

مما يذكر أن نامق باشا عند تشييده للجسر لم يكلف خزانة الحكومة بشراء الاخشاب والمواد اللازمة له بل فرض معظمها على الملاكين وأصحاب البساتين ، وجمعها منهم قسراً ، فكان ذلك سبباً لانتشار التذمر منه بين سكان بغداد . وقيل في سبب عزله انه عندما صلى في جامع الميدان يوم الجمعة قرن الخطيب اسمه أثناء الدعاء باسم السلطان ، فانتهز المتذمرون الفرصة وأبرقوا بالخطبة الى اسطنبول فعاد البرق مخبراً بعزله .. »[٥٨] .

---

(٥٧) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ١٤٧ ـ ١٥٠ .
(٥٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

الفوضى بالبصرة :

كانت البصرة في مطلع القرن العشرين في حالة من الفوضى والتسيب لا تطاق . وقد أشار الى ذلك سليمان فيضي في مذكراته فقال في وصف أحوال العراق بوجه عام ، وأحوال البصرة بوجه خاص ، ما نصه :

« كان من نتائج سوء الادارة أن فقد الأمن في ربوع البلاد ، وأصبح اللصوص وقطاع الطرق في مأمن من العقاب ، يرتكبون جرائمهم في وضح النهار دون خوف أو وجل . وكانت الحالة في المدن الكبرى ، مثل بغداد والموصل ، أهون شراً منها في النواحي البعيدة ، اذ لم تكن الأعمال اللصوصية فيها لتتعدى السرقات الفردية في جنح الظلام . ولكنها في البصرة بلغت حداً خطيراً ، حتى ساد فيها قانون الغاب ، وأصبح هم الناس أن يحرسوا ممتلكاتهم بأنفسهم ، وأن يدافعوا عن حياتهم بسلاحهم ، كأن لم تكن حكومة وكأن لم يكن قانون . واني لا أزال اذكر جيداً تلك الحوادث المؤلمة التي كانت تروع سكان المدينة الآمنة بين حين وآخر . أذكر كيف كان بعض الرجال المدججين بالسلاح يدخلون السوق الرئيسية في وضح النهار فينهبون أموال الصيرفيين ، ويفتكون بهم ، ثم يخرجون آمنين . وأذكر أيضاً تلك الأمسيات القاتمة ، عندما تهاجم عصابة من أربعين أو خمسين رجلاً مسكن أحد الاثرياء أو مخزناً تجارياً كبيراً ، فيقلعون الأبواب والنوافذ ويدخلون الدار عنوة ، ويفتكون بساكنيها ، لا فرق عندهم بين كبير أو صغير .. ثم يحملون ما استطاعوا حمله من مال ورياش في حين يقوم أعوانهم بحراسة مداخل الطرق المؤدية الى تلك الدار . فاذا ما انتهى الغزو ، حملوا المسروقات الى البساتين المتاخمة للمدينة لاقتسام الغنائم .. وهم يرددون الاهازيج .. ويطلقون الرصاص اعتباطاً . كل هذا والحكومة ساهرة على الأمن وأعزالله السلطان !! .. » (٥٩)

يبدو لي أن من أهم الاسباب التى ادت الى هذه الفوضى هو أن البصرة محاطة بمناطق يستطيع اللصوص والخارجون على القانون الالتجاء اليها بسهولة ، فالصحراء تقع الى الغرب منها ، والحدود الايرانية

---

(٥٩) سليمان فيضي (غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٥١ .

الى الشرق عبر النهر منها ، كما يقع البحر الى الجنوب ، والاهوار الى الشمال . أضف الى ذلك أن منطقة البصرة نفسها هي عبارة عن غابة هائلة من النخيل يمكن أن يختفي فيها اللصوص فلا ينالهم أحد .

ويجب أن لا ننسى ما كان للشيخ خزعل أمير المحمرة من أثر في تلك الفوضى . فقد كانت لهذا الامير بساتين واملاك كثيرة في البصرة وكان يستخدم لحمايتها نفرا من الاشقياء الذين احترفوا مهنة القتل والابتزاز ، فكان هؤلاء يعيثون في البصرة كما يشاؤون ، ثم يلجأون الى المحمرة عندما يهددهم خطر . ومن الجرائم التي اقترفها هؤلاء الاشقياء واشتهر أمرها في البصرة جريمة ذهب ضحيتها أحد وجهاء البصرة هو الحاج منصور جلبي السلمان عميد أسرة السلمان المعروفة ، فقد شاع عن هذا الرجل أنه تفوه ذات يوم بكلمة تنم عن قلة احترام للسيدة فاطمة ابنة الرسول ، وحين وصل خبر تلك الكلمة الى الشيخ خزعل أوعز من طرف خفي الى بعض اشقيائه بقتل الرجل . فجاء الى الرجل اثنان منهم ، فوجداه جالساً في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه كل يوم وكان مكتظاً بالناس ، فأطلقا عليه الرصاص ثم سارا بهدوء كأنهما لم يفعلا شيئا حتى تواريا عن الانظار . وقد اعتبرت هذه الجريمة في نظر الكثير من الناس منقبة للشيخ خزعل ، فهم حمدوا له غيرته على ابنة الرسول ونسوا أنه قاتل . وتلك كانت عقلية الناس في تلك الايام !

السيد طالب النقيب :

في تلك الفوضى التى كانت سائدة في البصرة نبغ شاب ذو طموح وشخصية قوية هو السيد طالب بن السيد رجب نقيب أشراف البصرة . انه كان النبتة الملائمة لتلك التربة الاجتماعية !

جمع السيد طالب حوله عصابة من الاشقياء وأخذ يهاجم بهم كل من يقفه في طريق طموحه ، ثم اتصل بابي الهدى الصيادي مدلاً عليه بكونه رفاعياً مثله ، فشمله هذا بحمايته . وصار السيد طالب يصول ويجول في البصرة دون أن يعترضه أحد . وكان يتوقع من والي البصرة أن يلبي طلباته ولا يعارضه في شيء ، فاذا تردد الوالي في اجابة طلبه مرة أسرع

السيد طالب فاحتل برجاله دائرة التلغراف وراح يمطر الباب العالي ببرقيات الشكوى طالبا نقل الوالي ، وكثيرا ما كان ينجح في مسعاه بمعونة مولاه أبي الهدى الصيادي[٦٠] •

والمعروف عن السيد طالب أنه كان عطوفا على الفقراء بقدر ما كان شديدا على الاغنياء ، وقد شبهه آيرلند بـ « روبن هود »[٦١] لهذا السبب • انه كان سخياً جدا يبذل الطعام للمحتاجين في الوقت الذي كان فيه يبتز المبالغ الضخمة من الملاكين وكبار التجار لا سيما الذميين منهم ، وتلك صفة كان الناس يقدرونها كل التقدير ويعدونها من معالم الرجولة الكاملة، ولهذا ذاع صيت السيد طالب وأخذ العامة يلهجون بذكره ويختلقون حوله المبالغات والاساطير •

ولم يكن السيد طالب يتردد من سفك الدماء حين يجد احدا يعانده في شيء ، يروى أن أحد المحامين في البصرة اسمه عبدالله الراوندوزي كان يتوكل في الدعاوي التي تقام ضد آل النقيب ، فاغتاظ منه السيد طالب وأمر أحد رجاله بالاعتداء عليه من أجل أرهابه ، وقد جرح المحامي ولكنه لم يرتدع ، فعاقبه السيد طالب أخيرا بقتله علناً أمام الناس في محلة « سوق الدجاج » واهتز المجتمع البصري لهذا الحادث وتضعضع من السيد طالب به ، غير أن الصيادي أسرع لنجدته فاستدعاه الى اسطنبول، ولم يلبث أن عينه متصرفاً للواء الاحساء • وقيل ان السيد طالب أثناء ولايته في الاحساء لم يكف عن نشاطه المعتاد فقد هاجم دار منصور باشا أحد أثرياء القطيف بحجة وجود أسلحة وعلم بريطاني فيها ، وأتهمه منصور باشا على أثر ذلك بأنه اختلس من داره عند التفتيش مبلغا قدره مائة ألف جنيه، وملأ منصور باشا الدنيا صراخاً ، وطلب تقديم السيد طالب الى محكمة جزائية ، مما اضطر السيد طالب الى الاستقالة من وظيفته والعودة الى اسطنبول ، وهناك عين عضوا في ديوان شورى الدولة[٦٢] •

---

(٦٠) خيري العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ص ٢٤ •

(٦١) فيليب ويلارد آيرلند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٧٧ •

(٦٢) مهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٣٨ـ٤٠ •

فخري باشا ابو الكواني :

في عام ١٩٠٤ أرسلت الحكومة العثمانية الى البصرة رجلا عسكرياً شديد المراس اسمه فخري باشا ليكون فيها والياً بالوكالة ، والمظنون أن الحكومة انما أرسلت هذا الرجل بغية انقاذ البصرة من حالة الفوضى التي كانت سائدة فيها . يقول سليمان فيضي في هذا الشأن ما نصه :

« بقي الأمن في البصرة مزعزعاً زمناً طويلا ، حتى قدمها فخري باشا الوالي الجديد ، الذي كان قائدا عاما للجيوش العثمانية في العراق قبل ذلك . فلما استلم مهام منصبه راعه وضع الامن ، فعمد الى كسر شوكة الشقاة وقطع دابرهم . ولم تكد تمر ليلتان على وصوله حتى هاجم صحبة فريق من جنوده ، مباءة اللصوص وفتح عليهم نارا حامية ، فقتل منهم ستة وجرح خمسة وفر الباقون . وفي صبيحة اليوم التالي صحا الناس على صوت منـاد يدعوهم للتفرج على الجثث المكدسة في أحد الميادين ... فاستبشروا وزايلهم بعض خوفهم . ثم دعا المختارين في المدينة وقراها وهددهم بالسجن ان لم يفضوا اليه بأسماء المجرمين . فلم يكد يمر النهار حتى توفرت لديه قائمة طويلة ، فسعى جنوده الى القبض عليهم ، فاستسلم الكثيرون وأودعوا السجن ، وقتل كل من حاول الفرار منهم . وحين بلغه أن بعض الفارين التجأوا الى المحمرة ، كتب الى أميرها الشيخ خزعل راجيا اعادتهم ، فأعيدوا الى البصرة مقيدين بالسلاسل . وبنتيجة هذه الحملة بلغ عدد القتلى من اللصوص واحدا وعشرين ، وضعت جثثهم داخل أكياس (كواني) وألقيت في النهر .. فظلت عائمة فيه .. ترتفع مع المد وتنخفض بالجزر ، فكان منظرها عبرة وعظة . ومن يومها وأهل البصرة ينعمون بالنوم اللذيذ بعد طول سهاد وقلق ، وهم يلهجون بالدعاء للوالي الجديد (أبو الكواني) .. »[٦٣] .

ان هذه الطريقة التي اتبعها فخري باشا تشبه من بعض الوجوه تلك التي اتبعها زياد بن أبيه عندما تولى حكم البصرة في عام ٤٥ هـ ، فقد كانت البصرة حينذاك على مثل حالة الفوضى التي شهدناها أخيرا ، وجاء

---

(٦٣) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ٥١ ـ ٥٢ .

زياد فخطب في أهل البصرة خطبته « البتراء » ثم أخذ يقتل فيهم تقتيلا ذريعا حتى وصل الامر به الى أنه قتل اعرابيا مع علمه أنه بريء ، ونطق اذ ذاك بكلمته المشهورة التي أصبحت فيما بعد مثلا سائرا «أشهد أنك بريء ولكن في قتلك صلاحا للامة » •

ان هذه الطريقة قد لا يرضى عنها رجال القانون والشرع ، ولكنها في الواقع هي الطريقة الناجعة عند شيوع الفوضى واللصوصية في مجتمع ما • ان البشر في مثل هذه الحالة لا تجدي معهم العدالة المثالية وحرفية القانون ، بل لا بد لهم من حاكم سفاك لا يبالي أن يقتل البريء لكي لا يفلت من يده المجرم • ان هذا الحاكم قد يجني على آحاد من الناس لا ذنب لهم غير أنه في الوقت نفسه ينقذ ألوف الناس من الرعب الدائم والفوضى • ان القسوة قد تكون في بعض الاحيان أنفع للناس من الرحمة• يجب ان لا ننسى ان الانسان هو في أصل طبيعته حيوان !

دقة ابن رشيد :

في الوقت الذي كان فيه فخري باشا يتعقب اللصوص في البصرة كانت صحاري نجد تعج بأحداث جسام من جراء ظهور أمير سعودي ذي دهاء وجرأة اسمه عبدالعزيز آل سعود •

كان عبدالعزيز في مطلع شبابه لاجئا مع أبيه الأمير عبدالرحمن في الكويت ، وكان أبوه يعاني الضيق في معيشته حتى قيل أنه رهن سيفه ذات يوم عند عطار كويتي من أجل شراء ما يحتاج اليه من القهوة • وفي أواخر ١٩٠١ خرج عبدالعزيز مع أربعين فارسا من أعوانه متوجها نحو بلدة الرياض بغية استخلاصها من حكم آل الرشيد • والظاهر ان عبدالعزيز حين خرج في تلك الحملة كان كاليائس المستميت الذي يريد أن يحيى حياة كريمة أو يموت فيستريح •

في ١٥ كانون الثاني ١٩٠٢ استطاع عبدالعزيز بضربة جريئة بارعة أن يحتل الرياض ، فكان ذلك بداية صعود نجم هذا الشاب • وفي خلال السنتين التاليتين كانت المعارك متصلة بينه وبين خصمه عبدالعزيز آل رشيد أمير حائل ، وقد تمكن خلال تلك المدة من توسيع نطاق سيطرته

جنوبا وشمالا حتى وصل بفتوحه الى منطقة القصيم تلك المنطقة التي تقع في منتصف الطريق بين الرياض وحائل وتعد من أغنى بقاع نجد وأكثرها عمرانا وخصبا ، وتحتوي على خمسين قرية وبلدة أهمها بريدة وعنيزة .

كان ابن رشيد على صلة وثيقة بالدولة العثمانية فاستنجد بها لكي تساعده على ابن سعود . ولم تتردد الدولة عن تلبية طلبه اذ هي كانت تدرك ما وراء انتصار ابن سعود من خطر ، ولعلها كانت تخشى أن يكرر الوهابيون على يد هذا الرجل ما فعلوه من قبل حين احتلوا الحجاز وهاجموا العراق وارتكبوا فيهما المذابح الفظيعة .

وفي أوائل آذار من عام ١٩٠٤ وصلت الأوامر من اسطنبول الى بغداد بتجهيز حملة قوية لمساعدة ابن رشيد في حربه لخصمه ابن سعود . وكان المشير أحمد فيضي باشا هو قائد الجيش في بغداد ويقوم بأعمال الوالي وكالة ، أي أنه كان يجمع في يده زمام الامور العسكرية والادارية معا . والمعروف عن هذا الرجل أنه كان مرتشيا سيء السيرة لا يبالي بنجاح العملة بمقدار ما يبالي بامتلاء جيبه . فكان ذلك سببا في وقوع الكارثة التي حلت بالجنود العراقيين في الصحراء ، وهي الكارثة التي اشتهرت في العراق باسم «دقة ابن رشيد» ، فكانت الكارثة الثانية بعد «دقة الغربيه» .

تألفت الحملة من أربعة أفواج مع بطرية من مدافع الصحراء ، وكان عدد جنود الفوج يتراوح بين الثمانمائة والالفه معظمهم من العراقيين . وكانت الحملة بقيادة الحاج شكري بك . فتوجهت الى الصحراء عن طريق السماوة ، فاستقبلها ابن رشيد استقبالا حافلا وجهز لها الجمال اللازمة لنقلها الى القصيم[٦٤] .

ظلت الحملة تحارب في القصيم خلال أشهر الصيف ، وفي احدى المعارك قتل قائدها الحاج شكري بك مع اثنين من أمراء الافواج ، ثم انتهى أمرها الى الهزيمة الشنعاء . يقول فيلبي في تعليل تلك الهزيمة : « ينبغي علينا أن نذكر ان الاتراك كانوا يقاتلون في بيئة غير مألوفة لديهم وأحوال

---

(٦٤) المصدر السابق ــ ص ٣٩ .

غير ملائمة لهم .. كانوا يحاربون في صحراء مجدبه وفي حمارة القيظ .. ومع هذا فان في وسع المؤرخ المنصف أن يقول : انهم لم يقاتلوا بصورة ممتازة وقد عانوا الهزيمة على يدي عدو شجاع ماهر ، موارده تقل كثيرا عن مواردهم »[٦٥] .

وتشتت جنود الحملة هائمين على وجوههم في تلك الصحراء المترامية الاطراف فالذين ساروا في أثر البدو نجوا ومنهم من استسلم الى ابن سعود فآواهم واحسن معاملتهم [٦٦] ، أما الباقون فقد صاروا عرضة للجوع والعطش ، واضطروا الى أكل بذور الحنظل ولحوم الدواب الميتة، وفتك الموت بهم فتكا ذريعا . واستطاع بعض الناجين منهم أن يصلوا الى البصرة ، يقول سليمان فيضي : « وان أنسى لا أنسى يوم وصلت هذه الفلول الى مدينة البصرة ، في حالة يرثى لها من الجوع والعري والمرض . لقد عم الحزن البصرة يومذاك ، وأبدى أهلها في مؤاساتهم أبلغ الكرم » . [٦٧] واصيب بعض الذين نجوا بعاهات رافقتهم طيلة حياتهم . [٦٨]

لم تتعظ الحكومة العثمانية بما جرى ، بل قررت ارسال حملتين أخريين لمساعدة ابن رشيد احداهما من الحجاز والاخرى من العراق ، على أن تلتقيا في منطقة القصيم ، وناطت القيادة العامة عليها بالمشير أحمد فيضي باشا .وقد انتهز هذا الرجل هذه الفرصة الذهبية التي أتيحت له من جديد ، فصار يشتد على الناس من أجل احتلابهم ، وكان الناس يدفعون له ما يشاء لكي يتخلصوا من مغبة الموت في الصحراء . وقيل انه أخذ يمنح الاجازات لكبار الضباط الذين يريدون التخلف عن الحملة لقاء مبلغ لا يقل عن ثلاثمائة ليرة ،[٦٩] وكان يكلف المثرين من التجار بالالتحاق بالحملة

---

(٦٥) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ــ ترجمة عمر الديراوي ــ بيروت ــ ص ٢٨٩.

(٦٦) المصدر السابق ــ ص ٢٨٨

(٦٧) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٣٩ .

(٦٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ١٤٨ .

(٦٩) مجيد الموسوي (الحاج عطية أبو كلل) ــ بغداد ــ ص ٥٠

بحجج وأعذار واهية فكانوا يفتدون أنفسهم منه بأموال كثيرة ،[٧٠] ولم ينج منه حتى رجال الدين اذ كان يفرض عليهم السفر مع الحملة من أجل تشويق الجنود على القتال ، وقد سلبهم بهذه الوسيلة فوق ما يملكون • [٧١]

تألفت الحملة العراقية في هذه المرة من ثمانية أفواج وبطريتين مدفعيتين مع فرقة موسيقية كبيرة ! • وخرجت الحملة من بغداد مع قائدها المشير أحمد فيضي باشا في ٢١ تشرين الاول من عام ١٩٠٤ وسارت الحملة عن طريق النجف ، ومكثت في تلك البلدة عدة أيام لاستكمال ما تحتاج اليه من تموين • ونزل المشير في ضيافة السيد جواد الكليدار ، فأخذ منه خمسة آلاف ليرة بحجة أنها قرض • ثم كلف الحاج عطية أبو كلل بشراء خمسة طغارات من الملح المهرب وسجلها في دفاتر الحكومة بالسعر الرسمي[٧٢] •

مهما يكن الحال فان مصير هذه الحملة يختلف عن مصير الحملة السابقة ، فقد كان الموسم في هذه المرة شتاءاً ، ويبدو أن ابن سعود لم يشأ أن يصطدم بها فتركها تحتل القصيم كلها بدون مقاومة ، وارتفع العلم العثماني على قلعة بريدة كما أعلن الخطباء الدعاء للسلطان في المساجد • وكتب أحمد فيضي باشا الى اسطنبول يقترح عودة القوات العثمانية الى العراق بعد انتهاء مهمتها في القصيم ، وجاءه الجواب من اسطنبول يأمره بالذهاب الى اليمن وتسليم قيادة الحملة في القصيم الى قائد آخر • وقد ذهب المشير الى اليمن ، وضاعت الخمسة آلاف ليرة على السيد جواد الكليدار !

وفي ١٤ نيسان من عام ١٩٠٦ وقعت معركة ضارية بين ابن رشيد وابن سعود دون أن تشارك فيها القوات العثمانية • وقد قتل ابن رشيد في تلك المعركة ، وانتصر ابن سعود انتصاراً كاد يكون حاسماً • وفي أواخر تشرين الثاني حصل الاتفاق مع ابن سعود على جلاء القوات العثمانية من القصيم ،

---

(٧٠) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٠٤ •
(٧١) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج٨ ص ١٤٨ •
(٧٢) مجيد الموسوي (المصدر السابق) — ص ٥٠ •

فتم ترحيل جنود العراق الى العراق ، وجنود الحجاز الى المدينة ، على جمال جهزها لهم ابن سعود • وبذا تمت السيادة لابن سعود على القصيم بدون منازع •[٧٣]

ابعاد الآلوسي :

في ١٦ كانون الاول ١٩٠٤ وصل الى بغداد وال جديد هو عبد الوهاب باشا الألباني ، ولم تدم ولايته الا عاماً واحداً ، وأهم ما حدث فيها هو ابعاد العالم الديني المشهور السيد محمود شكري الألوسي الى الأناضول •

ان التهمة التي أبعد الآلوسي من أجلها هي أنه يميل الى المذهب السلفي ، وكانت تلك تهمة شديدة يومذاك اذ هي تعني بأن صاحبها وهابي أو يعطف على الحركة الوهابية ،وكان السلطان عبد الحميد يميل الى المتصوفة ويعتمد عليهم في تدعيم ملكه ويعتبر السلفية كالوهابية حركة معادية له • يقول بهجت الاثرى — وهو سلفي من تلاميذ السيد محمود شكري الآلوسي — في ذلك ما نصه :

« ••• ما كاد ينطوي بساط ذلك القرن بما فيه — يقصد القرن الثالث عشر الهجري — حتى آل الأمر الى بعض السلاطين الذين كان من سياستهم ارضاء المشعبذين بالدين واستدناؤهم منهم ليحولوا جماهير العوام اليهم فيقوي بهم ضعفهم ، ويشتد ساعدهم ، وينبسط سلطانهم ، فيستمتعوا بشهواتهم ويتذوقوا لذة الاستفادة من غفلتهم ، فحارب العلم وساعد الجهل ، فظهرت دجاجلة الطرق والملبسون متظاهرين بالدين يبثون روح الفساد ويغررون بالعامة ، ومن ورائهم السلطة تؤيدهم وتعزز دعوتهم، حتى تم له على يدهم ما أراد فبنيت التكايا ، وشيدت القباب على قبور المتمشيخة والدجالين ، من رفاعيين ونقشبنديين وقادريين وعيدروسيين ، وعظم سلطان الشرك والرياء ، ونذرت للقبور النذور ، وقربت لها القرابين ، وعلقت عليها التمائم ، وأوقدت لها السرج ، حتى صار المتدين في

---

(٧٣) فؤاد حمزة (قلب جزيرة العرب) — الرياض ١٩٦٨ — ص ٣٧٤ •

نظر الناس من يضرب بالدف ويرقص في (حلقة الذكر) ، والعالم من يطيل الذقن ، ويكحل العين ، ويكبر الردن ، وصار العالم المستقل والموحد العريق اذا أنكر عليهم شيئاً من أضاليلهم ينبز (بوهابي) بل ينبذ ويسخط عليه وينتقم منه بكل ما يقتدر عليه ويساعد عليه السلطان الجائر ... »

ثم يقول الأثري في وصف استاذه محمود شكري الآلوسي : انه كان في بداية أمره مضطراً الى المجاملة والتستر بستار التقية فألف كتاباً بعنوان « الاسرار الإلهية في شرح القصيدة الرفاعية » شرح فيه منظومة أبي الهدى الصيادي في مدح السيد أحمد الرفاعي ، وقدم الكتاب الى السلطان ، فأجازه السلطان بتدريس مدرسة السيد سلطان علي . ولكن الآلوسي عندما اشتهر أخيراً وكثر أتباعه وتلاميذه خلع عنه رداء التقية والمجاملة وأخذ يدعو الى ضرورة تطهير الدين من أوضار البدع التي طرأت عليه، « وشن الغارات الشعواء على الخرافات المتأصلة في النفوس، والتقاليد السخيفة التي شب عليها القوم .. فغاظ ذلك أصحاب العمائم المكورة ، والاردان المكبرة ، والاذيال المجررة ، من كل حشوي غر ، وجاهل غمر ، ذي خداع ومكر ، وصاروا يشنعون عليه في مجالسهم وينبزونه بوهابي وهي كلمة ينفر منها السواد الجاهل حيث توحي اليهم أبالستهم زخرفة القول زورا ويذكرون لهم عن الوهابي أنه منكر للرسل وعدو لجميع المسلمين يريق الدماء ويستحل الحرمات ... ولم يزالوا يتربصون به الدوائر حتى عام ١٣٢٢ هـ فسعوا فيه الى (عبدالوهاب باشا) والي بغداد وكان حشويا عدواً للاصلاح ، فكتب عنه الى عبدالحميد ما شاء وشاء له الهوى ، واقل ما جاء في كتابه : أنه يبث فكرة الخروج على السلطان، ويؤسس مذهبا يناصب كل الاديان ، وأن تأثيره سار ، وآخذ يوما فيوما في الانتشار ، ويخشى منه سوء المغبة ...»[٧٤] .

ويضيف الاثري الى ذلك في كتاب آخر له حيث قال في وصفه الوالي عبدالوهاب باشا بأنه : « كان رجل سوء وكان شعوبياً خرافياً يشنأ المفكرين ويحقد على المصلحين ودعاة التجديد ، فطفقوا يدسون على

---

(٧٤) محمد بهجة الاثري (المصدر السابق) - ص ٩٧ - ١٠١

السيد الآلوسي عنده ويمثلونه له على الصورة التي تمليها البغضاء والضغينة ، حتى أخافوه منه وبغضوه اليه وأثاروه الى رفع مذكرة الى السلطان عبدالحميد يصف فيها نفوذه الشعبي وتأثيره في الناس وترويجه للدعوة العربية والانفصال عن الدولة ، وما الى هذا من مخاوف يحذرها السلطان ولم تكن تخطر من السيد الآلوسي ببال ، ويقترح ابعاده من بغداد والتنكيل به وبأعوانه وأنصاره قبل أن تستفحل دعوته وتحدث للدولة متاعب هي في غنى عنها ... وأصدر السلطان أمره بنفي السيد الآلوسي وكبار أنصاره وتلاميذه الى الاناطول فورا ، فأخذ من داره مخفورا ليلة ٢٢ محرم ١٣٢٣ هـ ، وأخذ معه ابن عمه السيد ثابت بن أبي البركات نعمان خيرالدين الآلوسي ، والتاجر الثري الحاج حمد العسافي من كبار الاتقياء الصالحين ، وأبعدوا جميعا الى الاناطول . وطلبت السلطة المحلية آخرين من كبار تلاميذ السيد الآلوسي كالاستاذ عبدالرزاق الاعظمي الذي علم بالامر فاختفى ثم فر الى بريدة الى حاكمها الامير بن رشيد ... ليحتمي به وليوسطه لدى السلطان ليلغي أمر النفي ويعيد السيد الآلوسي الى بغداد ...»[٧٥] .

وعندما وصل الآلوسي وصاحباه الى الموصل تشبث بهم علماؤها وأعيانها وأبرقوا الى السلطان يتشفعون لهم عنده . وكان في اسطنبول يومذاك السيد علي علاء الدين الألوسي فتشفع لهم كذلك .[٧٦] وقبل السلطان شفاعتهم وأمر باعادة المبعدين الى بغداد ، وحين غادر ركب الآلوسي مدينة الموصل خرج أهلوها لتوديعه باحتفاء عظيم . وكذلك فعل أهل بغداد عند اقتراب الآلوسي منها ، « وقد استقبلته الجماهير البغدادية وفي طليعتها أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه من مراحل بعيدة استقبالاً حافلاً منقطع المثال ، وانهالت عليه من كل مكان القصائد والرسائل في تهنئته

(٧٥) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الالوسي) ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٧٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٥٠ .

بعودته منتصراً على غرمائه » [٧٧]

ومن الجدير بالذكر ان ثلاثة من تجار البصرة قد أبعدوا في تلك الأيام أيضاً بتهمة العطف على الحركة الوهابية ، وهم الحاج محمد الشعيبي وعبدالله العويد ومحمد الشبل ، وسيقوا الى قونية . [٧٨] والظاهر أنهم ظلوا مبعدين مدة طويلة دون أن يتشفع لهم أحد .

الفجر الصادق :

ان ابعاد السيد محمود شكري الألوسي أمر له دلالته في تلك الظروف ، والظاهر أن الحكومة العثمانية كانت تربط بين دعوة الآلوسي في بغداد وحركة عبدالعزيز بن سعود في نجد ، فالأمران في نظر الحكومة يؤديان الى نتيجة واحدة هي نسف الاساس الديني الذي تقوم عليه الخلافة العثمانية . وتشير القرائن الى أن الدعوة السلفية في بغداد لم تقتصر على اولئك الذين تم ابعادهم من بغداد والبصرة ، بل كان لها اتباع غيرهم ، وهم اخذوا ينشطون في تمجيد المذهب الوهابي في الوقت الذي كانت فيه الحملة العثمانية تحارب القوات الوهابية في القصيم ، وهذا أمر لا يمكن أن تصبر عليه الحكومة العثمانية كما لا يخفى .

ومما يلفت النظر أن الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي أخرج في تلك الآونة ذاتها كتاباً بعنوان « الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق » هاجم فيه الوهابية هجوماً شديداً وأيد المتصوفة في توسلهم في القبور وتقديسهم للاولياء ، ثم دعا الى طاعة السلطان معتبراً اياها من أهم الواجبات الدينية ، ومدح السلطان عبد الحميد مدحاً كثيراً .

فرغ الزهاوي من تاليف الكتاب في ٩ تشرين الثاني ١٩٠٤ ، وأرسله الى القاهرة فطبع هناك وجاء في ٧٦ صفحة بالقطع الصغير ، وقد كتب الزهاوي في صدر الكتاب ما يوضح مقصده منه فقال : « انه يكتب هذه

---

(٧٧) محمد بهجة الاثري (المصدر السابق) ـ ص ٨٩ .
(٧٨) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ٥٦ .

الرسالة لرد اعتراضات الوهابية وليكشف زيف عقائدها الزائفة لكي يحذرها المسلمون بعد أن شاهد في بغداد مروجين لهذا المذهب من أدعياء العلم» .
ثم ختم الزهاوي الكتاب بقوله : « لقد تم ما أردت تنميقه في هذه العجالة منعاً لاتساع المذهب الوهابي وانتشاره في بغداد وما جاورها من البلاد كي يتضح الحق لعين القارىء وينجلي له الصواب فلا يغتر بما نشرته هذه الفرقة المارقة وموهت به على البسطاء والجاهلين ، وقد ساعدني على تأليفها وتنميقها حضرة أخي وصاحبي العلامة (معروف أفندي الرصافي) دام في حفظ الباري والحمد لله أولاً وأخيراً ــ الفقير اليه تعالى زهاوي زاده جميل صدقي » .

قد يعجب القاريء حين يرى الزهاوي يؤلف مثل هذا الكتاب وهو الرجل الذي كان أول من دعا الى الحضارة الحديثة في العراق وآمن بنظرية داروين واتهم بالالحاد . ويبدو أن الزهاوي شعر بالندم فيما بعد على تأليفه الكتاب ولا سيما بعد سقوط عبد الحميد . نراه في عام ١٩١٦ يكتب الى صديقه هبة الدين الشهرستاني يعتذر له عن تأليفه الكتاب ويقول انه انما فعل ذلك خوفاً من استبداد عبد الحميد واضطهاده . (٧٩) وكتب روفائيل بطي مدافعاً عن الزهاوي في ذلك فقال : « ...ان أحد رؤساء الوهابية في بغداد أخذ يحرض عليه الحكومة ، تارة بحجة أنه يطعن بسياسة السلطان عبد الحميد ، وطوراً يرميه بالكفر والزندقة ، وذلك في عهد عبدالوهاب باشا الألباني والي بغداد ، وكان الوالي هذا يعاديه فكتب الى المراجع يطلب ابعاده عن الديار العراقية الى بلاد قصية ، فاضطر الاستاذ الى أن يؤلف كتابه (الفجر الصادق) في الرد على الوهابية مصدراً اياه بمدائح السلطان عبدالحميد مخافة أن يناله المعتدون بسوء وتبكيتاً لذلك المحرض الوهابي . » (٨٠)

أما بهجت الاثري ــ وهو من تلاميذ الألوسي كما رأينا ــ فله رأي

---

(٧٩) يوسف عزالدين (في الأدب العربي الحديث) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ٦٢ .
(٨٠) روفائيل بطي (الأدب العصري في العراق العربي) ــ القاهرة ١٩٢٣ ــ ج١ ص ٨ .

آخر في تأليف الكتاب . انه يعطف على الحركة الوهابية ويعتبرها دعوة اصلاحية كانت تحاول نزع الخلافة من الترك وارجاعها الى العرب ولهذا صار الاتراك يشنعون عليها وينسبون اليها فضائع هي بريئة عنها . ويصف الأثري جميل صدقي الزهاوي بأنه من « ملاحدة العصر » وأن رده على الوهابيين انما كان لقاء أجر تقاضاه من الاتراك للقضاء على العرب ، ثم يقول الأثري : « ولا أعلم متى ينتبه المسلمون من رقادهم ، ولا تروج عليهم أمثال هذه الدسائس التي خدرت أعصابهم وجعلتهم شذر مذر ؟ اللهم ان ذلك لا يتحمله قلب مليء بالايمان ، ولا يسيغه امرؤ رزق حظاً من الاسلام، دين الأخوة والوحدة والوئام . »[81]

الطوفان :

في ٢٦ كانون الأول ١٩٠٥ وصل الى بغداد وال جديد هو عبد المجيد بك ، وهذه أول مرة يأتي فيها الى بغداد وال بلقب « بك » وليس « باشا » . ولم يمكث هذا « البك » في بغداد سوى سنة واحدة وخمسة وأربعين يوماً ، وقد حدثت في عهده مذبحة الايرانيين في كربلاء ، على نحو ما سنذكره في فصل قادم ، وهي التي أدت الى عزله .

وفي ١٦ شباط ١٩٠٧ وصل الى بغداد وال آخر هو أبو بكر حازم بك . وفي عهد هذا الوالي حدث الفيضان الهائل الذي لم تشهد بغداد له مثيلاً منذ زمن بعيد . وفيما يلي ننقل وصفاً لهذا الفيضان على لسان شاهد عيان له هو الأب انستانس ماري الكرملي ، فهو يقول ما نصه :

« نهار الخميس ٢٨ آذار شعر البغاددة بحر فجائي غير مألوف وخارق العادة في مثل ذلك اليوم من الشهر المذكور ، وان درجة الحرارة بلغت ٢٥ من المقياس المئوي ، فتطير منه الناس وخافوا انقلاباً عظيماً في الجو . وفي تلك الليلة وقع من المطر كمية عظيمة أثر رعود قصفت ولا قصف المدافع وبروق مزقت كل ممزق أديم السحب الركام ، فنزل المطر حتى تصورنا أن البحور علتنا وأن نظام الكون قد تشوش ، ودامت الأمطار

---

(٨١) محمد بهجة الاثري (أعلام العراق) ـ القاهرة ١٣٤٥ هـ ـ ص ١٠٠.

تنحدر مدة خمسة أيام حتى فاض دجلة فيضانا كسر به السدود وفاض على ضواحي المدينة فأغرقها وأتلف الزروع كلها من حنطة وشعير وقد بلغ سنبلها الصدر والباقلي وغيرها من البقول التي قد أحصدت .

« وأما الدور فسقط كثير منها على أهاليها فقتلتهم . ومنها ما نبهت أهاليها على الفرار ففروا من هجوم المياه تاركين كل ما عندهم من أثاث البيت حتى غدت النجاة من أنفس النفائس . وقد دخل الماء عدة محلات وأحياء وأتلفها عن آخرها . أما الموتى من انسان وحيوان فلا تحصى ، اذ ترى الجثث تطفو على وجه الماء وليس من يلتفت اليها واغلب الهلكى من أهل البادية اذ فاجأهم الماء وعلاهم بدون سابق علامة أو خبر . وكنت تسمع الجلبة والصياح في الليل كأن يوم القيامة قد جاء بهوله ولا يعلم الى أين المفر . فلا ترى الا ضوءاً هنا ، وامرأة مولولة هناك ، وفي تلك الناحية حائط يدفن عشيرة بأسرها ، وفي ذلك البستان يسمع النواح والعويل . والخلاصة ذكر مثل هذا التفصيل وسماعه مما يفتت الاكباد ويسحق الصم الاصلاد ... » (٨٢)

والغريب ان فيضاناً عالياً حدث في الوقت نفسه في نهري الفرات وديالى فكسر السدود فيهما وهاجمت المياه بغداد من كل جانب ، حتى أصبحت المدينة كأنها جزيرة صغيرة في وسط بحر واسع . وقد وصف عبد العزيز القصاب تدفق المياه الآتية من الفرات الى جانب الكرخ فقال :

« ... فاكتسحت جميع السهول بسرعة مدهشة حتى وصلت الى سدة المسعودي الكائنة بالقرب من مرقد الشيخ الجنيد والست زبيدة . ومن شدة اندفاع المياه انكسرت أيضاً سدة المسعودي وقد تدفقت الأمواج المتلاطمة على جانب الكرخ ولم تتوقفه الا بالقرب من سوق حمادة وعلاوي الحلة بعد ما هرع جميع الأهلين رجالاً ونساءاً مع الجنود والفلاحين والعمال لانقاذ جانب الكرخ . ولقد شاركهم في ذلك العلماء والوجهاء ونقلوا الأتربة والحصر والاخشاب لمدة اسبوع تقريباً . وكان هذا الحادث من أفجع الحوادث الاخيرة ولقد أحدث هذا الفيضان الفظيع

---

(٨٢) أحمد سوسه (فيضانات بغداد) ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ج٢ ص ٤٠٥ .

اضراراً جسيمة في المزروعات والمواشي والابنية والنفوس وكأنما اكتسحها بحر خضم . حتى ان السفن صارت تنقل الناس والتجار بين الفرات وجانب الكرخ من بغداد مدة طويلة . وعلى أثر ذلك قررت الحكومة تشكيل لجنة لتقدير الأضرار برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعينتني سكرتيراً لها . وأذكر أن الاحصاء الذي قدمناه قد أثبت انهيار أكثر من مائة وخمسين داراً وموت أكثر من سبعين شخصاً تحت أنقاضها . ولقد أسعفت الحكومة الأهلين وساعدتهم بالتعويضات المناسبة ونفذت اقتراح اللجنة المشار اليها . واعتقد أن الأحياء من الكرخيين يذكرون فظاعة ذلك الفيضان ويذكرون ما قاساه أهالي جانب الكرخ من رعب واضطراب ويذكرون أيضا الاهازيج التي كانت تنشد في الشوارع والساحات من نظم بعض الشيوخ والعجائز وخاصة ما نظمته العدادة المسماة (طخة الجبورية ... » (٨٣)

خاتمة العهد :

في عام ١٩٠٧ ـ وهو عام الفيضان الذي ذكرناه ـ قرر الباب العالي تأليف لجنة باسم « الهيئة الاصلاحية للخطة العراقية » لدراسة أحوال العراق الادارية والاقتصادية والثقافية ووضع خطة للنهوض بها ، وكانت اللجنة مؤلفة من رئيس وثلاثة أعضاء وسكرتير ، وكان رئيسها رجل حقوقي برتبة وزير اسمه ناظم باشا وهو غير الوالي العسكري الفريق ناظم باشا الذي اشتهر أمره بعدئذ في عهد الدستور .

وصلت اللجنة الى بغداد في خريف ١٩٠٧ ، فطافت انحاء العراق للتفتيش والدراسة ثم قدمت توصياتها ، وكان مما قامت به اللجنة أنها فصلت عدداً من الموظفين كما حكمت على آخرين منهم بحرمانهم من وظائف الدولة وقد اصطدمت اللجنة اخيراً بالوالي أبو بكر حازم بك مما أدى الى نقله الى ولاية سيواس ، وتولى ناظم باشا أعمال الوالي بالوكالة . ولم يمض على ذلك سوى أيام معدودة حتى أعلن الدستور العثماني .

---

(٨٣) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٤٣ .

الفصل الثالث

المرزا محمد حسن الشيرازي

ونظام الاجتهاد الشيعي

يعد المرزا محمد حسن الشيرازي أعظم مجتهد شيعي ظهر في العهد الحميدي ، وقد جرت في عهده أحداث هامة كان لها أثرها الاجتماعي في العراق وايران . ولكي نفهم سيرة هذا الرجل والاحداث التي وقعت في عهده يجدر بنا دراسة نظام الاجتهاد عند الشيعة وهو موضوع قل الباحثون فيه على الرغم مما له من أهمية اجتماعية كبيرة .

بين الاخباريين والاصوليين :

الواقع ان نظام الاجتهاد لم تتركز دعائمه لدى الشيعة الا في عهد متأخر ، أما قبل ذلك فكان الشيعة منقسمين الى فرقتين متنازعتين هما الاخبارية والاصولية . فالاخباريون لا يجيزون فتح باب الاجتهاد انما يعتمدون في أحكامهم الشرعية على الاخبار الواردة عن النبي والائمة الاثنى عشر ، ومن هنا جاءت تسميتهم بـ « الاخباريين » . أما الاصوليون فرأيهم أن الاخبار الواردة قد لا تكون كلها صحيحة ، وهي على مراتب مختلفة من حيث القوة ، ولذا وجب على الفقيه أن يبحث في أسانيدها ويقارن بينها مستعينا في ذلك بعلم خاص يسمى علم « الاصول » لكي يتحقق من مدى صحتها ويتمكن من استنباط الاحكام الشرعية منها .

قد يصح القول ان « الاخباريين » سلفيون يعتمدون على الاخبار المنقولة ولا يميلون الى استعمال المنهج العقلي في نقدها وغربلتها ، أي أنهم يعتمدون على « النقل » ولا يستعملون « العقل » في أحكامهم الشرعية ، وشعارهم : « ان دين الله لا يصاب بالرأي وعقول الرجال » . أما الاصوليون فهم على النقيض من ذلك اذ هم يرون في الاخبار ما هو

ضعيف وقوي ، أو مكذوب وصحيح ، ولابد من استعمال العقل في التمييز بينهما . ولعل من الممكن تشبيه هذا الخلاف بين الاخباريين والاصوليين بالخلاف الذي حدث في القرن الثالث الهجري بين الحنابلة والمعتزلة ، فالمعتزلة كانوا يريدون أن يقيموا عقائدهم على أساس من قواعد المنطق بينما كان الحنابلة يستنكرون ذلك كل الاستنكار وكان شعارهم : « من تمنطق فقد تزندق » .

اشتد النزاع بين الاخباريين والاصوليين في أوائل القرن التاسع عشر ، وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء حامل راية الاصوليين بينما كان المرزا محمد الاخباري حامل راية الاخباريين . وقد بلغ النزاع بين هذين الرجلين الى حد التنابز بالالقاب وتبادل الشتيمة المقذعة . كتب الشيخ جعفر كتابا عنوانه «الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الاخباريين»، فرد عليه المرزا محمد بكتاب عنوانه « الصيحة بالحق على من ألحد وتزندق » . وكتب الشيخ كتابا آخر عنوانه « كاشف الغطاء عن معائب المرزا محمد الاخباري عدو العلماء » . وكان جواب المرزا محمد أنه اتهم الشيخ بأنه ينتمي في نسبه الى بني أمية — وتلك تهمة فظيعة في نظر الشيعة كما لا يخفى — فكتب الشيخ يقول : « جنابكم أقرب الى هذا النسب ... »(1) .

كان على عرش ايران في ذلك الحين الشاه فتح علي ، والمعروف عن هذا الشاه أنه كان يحاول الاقتداء بالصفويين من حيث تدعيم التشيع الاثني عشري ورعاية علمائه ، ودام حكمه سبعا وثلاثين سنة . وقد قصده المرزا محمد الاخباري الى طهران محاولا اجتذابه الى مذهبه ، وكاد ينجح في ذلك ، لو لم يتداركه الشيخ جعفر كاشف الغطاء حيث سافر الى طهران واستطاع بعد جهد جهيد أن يقنع الشاه بصحة المذهب الاصولي. وعاد المرزا محمد الاخباري من طهران مدحورا .

وفي عام ١٨١٧ عندما كان المرزا محمد في الكاظمية هجم عليه نفر من أهل الكاظمية وقتلوه كما قتلوا معه أكبر أولاده المرزا أحمد . وبذلك

---

(1) محسن الإمين (أعيان الشيعة) — دمشق ١٩٤٠ — ج٥ ص ٤٢١ .

ضعفت الحركة الاخبارية بمقتل زعيمها ، وصارت تذوي وتتضاءل بمرور الزمن حتى لم يبق لها الآن من الاتباع الا قليلون وهم متفرقون هنا وهناك في بعض نواحي العراق وايران . أما الحركة الاصولية فقد سادت وشملت مختلف أقطار العالم الشيعي .

ازدهار النجف :

ابتداءاً من عام ١٨٢١ أخذت العلاقات بين العراق وايران تسير في طريق التحسن تدريجيا ، فأستتب الصلح بين الحكومتين وتعينت الحدود بينهما ، فأدى ذلك الى كثرة ورود الزوار والمهاجرين الايرانيين الى العراق، وانهمرت الاموال معهم الى العتبات المقدسة . وشهدت النجف من جراء ذلك أعظم عصور ازدهارها العلمي فشيدت فيها المدارس الدينية الكبيرة ، وصار كل طالب علم في ايران أو في غيرها من البلاد الشيعية يطمح أن يهاجر الى النجف لكي يكمل دروسه العالية فيها . وقيل أن عدد الطلاب بلغ في تلك الآونة عشرة آلاف ، فكان فيهم الايراني والتركي والهندي والتبيتي والافغاني والبحراني والعاملي والاحسائي علاوة على العراقي ، ولكن نسبة الايرانيين فيهم هي الغالبة .

من طبيعة البشر أنهم اذا اتثالوا على أمر واشتد تنافسهم عليه صاروا يفرطون فيه ويغالون . وهذا هو ما حدث في النجف فعلا على أثر انتصار الحركة الاصولية فيها وازدهارها . وقد أشار الى ذلك السيد محسن الامين في عدة مواضع من كتابه الموسوعي « أعيان الشيعة » ، فهو يقول في هذا الموضوع ما خلاصته : ان المجتهدين في النجف انهمكوا في علم الاصول والفقه الى درجة الافراط ، ويأتي على ذلك مثلاً بالمرزا حبيب الله الرشتي المتوفي في ١٣١٢ هـ اذ كان أعظم المجتهدين تدريسا في زمانه فكان يعمد في درسه على التطويل العجيب حتى قيل انه بقي في تعريف « البيع » شهورا ، وكان ذلك مألوفاً في ذلك الزمان انما هو في رأي السيد محسن الامين من قبيل « تضييع العمر فيما لا فائدة فيه » . ويقول السيد محسن ان عشرات المجلدات الضخمة كتبت في علم الاصول فكان ذلك تعقيدا للعلم ، وتبعيدا لا تعبيدا ، ولو كانوا قد نقحوا تلك

الكتب وهذبوها لكان عشرها كافيا[٢] .

ان المواضيع الفقهية التي تدرس في المدارس الدينية عـادة هي : الطهارة والنجاسة ، الوضوء والصلاة ، الصوم ، الزكاة والخمس ، الحج، الزواج والطلاق والارث ، معاملات البيـع والشـراء . وحين تتفحص المجلدات الضخمة التي كتبت في هذه المواضيع لا نملك انفسنا من الدهشة على الصبر العجيب الذي اتصفه به مؤلفوها ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع الا أن نوافق السيد محسن الامين على قوله بأنها تضييع للعمـر فيمـا لا فائدة فيـه .

حاول بعض المجددين من المجتهدين اجراء تهذيب وتلخيص للدروس التي تلقى في مدارس النجف ، وقد قوبلت هذه المحاولة بمعارضة شديدة من قبل المجتهدين المحافظين وأتباعهم ، وذلك أمر طبيعي في كل أمر جديد كما لا يخفى . والواقع ان محاولة التجديد سائرة في طريقها غير أنها تسير ببطء ، مع العلم أن المجتمع يسير بزخم شديد . وهذا هو من معـالم التناشز الاجتماعي في مجتمعنا .

نفوذ المجتهدين :

ان نظام الاجتهاد الشيعي يحتم على كل فرد بالغ أن يقلد في أحكامه الشرعية أحد المجتهدين ، ولا يجوز للفرد أن يبقى من غير تقليـد الا أن يكون هو نفسه مجتهدا ، أو يتحرى «الاحوط» من أقوال المجتهدين وهذا أمر صعب كل الصعوبة. ولذا صار اكثر الناس في المجتمع الشيعي يرجعون الى المجتهدين في مختلف أمورهم الدينية والدنيوية ، يسـألونهم عـن الحلال والحرام فيها ، وعن الطاهر والنجس ، وقـد يحـدث أحـيانا أن يستفتوهم في أمور السياسة وتكون الفتوى التي يصدرها احد المجتهدين سبباً في ثورة او انتفاضة شعبية كبرى . يصفه المستشرق براون نفـوذ المجتهدين في ايران ، وهو قد زار ايران ودرس أحوالها الاجتماعيـة دراسة دقيقة ، فقال : « ان المجتهدين والملائية يمثلون قوة ... عظيمـة

---

(٢) المصدر السابق ــ دمشق ١٩٤٥ ــ ج١٧ ص ٤٥٩ ، ج١٨ ص ٩٦ ، ج ٢٧ ص ١٥٥ .

في ايران ، وهم يهتمون في كل ناحية من نواحي الحياة البشرية ، من أدق التفاصيل في الطهارة الشخصية الى أعظم القضايا في السياسة . فالمسلم الشيعي حين تقع له مشكلة لها مساس مباشر بالاحكام الشرعية (التي هي من الناحية العملية تدخل في كل الامور) فانه يتقدم بها الى أحد المجتهدين يستفتيه في حلها ، والفتوى التي يصدرها المجتهد قد تشمل تكفير ملك فاسق أو وزير ، وقد يعلن فيها أن الذي يؤيد ذلك الملك أو الوزير هو كمن يحارب الامام الغائب . والواقع أن وجود المجتهدين الكبار في النجف وكربلا، أي خارج الحدود الايرانية، دعم مركزهم وجعل لهم حصانة . وقد حاول الكثيرون من حكام ايران تقليص نفوذ هؤلاء المجتهدين قبل العهد الصفوي وبعده ، فلم يوفقوا في محاولاتهم الا قليلا، لان الملائية يؤلفون طبقة وطنية حقيقية ويمثلون في كثير من الاحيان مطامح الشعب ووجهة نظره ، واستطاعوا غير مرة أن يدرأوا عن الشعب جور الحكام ..» (٣) .

حين نقارن بين المجتهد الشيعي والفقيه السني من الناحية الاجتماعية نجد فروقا واضحة أهمها ثلاثة :

اولا : ان الفقيه السني يشبه أن يكون موظفا حكوميا اذ هو يعتمد في معاشه على الحكومة وينقل من مكان الى آخر بأمر منها ، وقد تزاد وظائفه ومخصصاته أو تقلل حسب رغبة الحكام أو مقدار رضائهم عنه . أما المجتهد الشيعي فهو يستمد معاشه من زكوات الناس وهداياهم وأثلاث أمواتهم ، وهو لذلك يكون وثيق الصلة بسواد الناس يتحسس بأحاسيسهم ويميل الى الوقوف الى جانبهم ضد حكامهم . انه قد يضطر الى مجاراة العامة في خرافاتهم وعاداتهم الموروثة ولكنه في الوقت نفسه لا يسمح بوقوع الظلم عليهم .

ثانيا : ان انفتاح باب الاجتهاد عند الشيعة جعل المجتهد فيهم قادرا على اصدار فتاوى جديدة تلائم ظروف الوقت ، وهو قد يستطيع ان

---

(3) Edward Browne (A Litterary History Of Persia) — Campridge 1953 — Vol 4 P 371 — 372 .

ينسخ تلك الفتاوى بفتاوى منافضة بناءاً على تغير الظروف . انه مثلاً قد يعلن تحريم شيء من الاشياء ــ كما حدث في قضية « التنباك » التي سنأتي اليها ــ ثم يعلن بعدئذ تحليله . وكثيرا ما تودي هذه المقدرة عند المجتهد الشيعي الى ظهور نفوذ سياسي له تجعل الحكام يحسبون لــه حسابه ولا سيما حين يكون المجتهد قد مات منافسوه وتمت له الرئاسة العامة في التقليد .

ثالثا : ان المجتهد الشيعي ينظر الى الحكام نظرة تختلف عن نظرة الفقيه السني اليهم ، وقد اتضح هذا في القرون الاخيرة حين اتخذ السلطان العثماني لقب « الخليفة » وخوطب بـ « امير المومنين » ، فقد أصبح السلطان واجب الطاعة لدى أهل السنة باعتباره ولي الامر الذي ورد وجوب طاعته في القرآن . اما عند الشيعة فولي الامر الواجب الطاعة هو الامام الثاني عشر الذي غاب عن الابصار ، وهم يسمونه « صاحب الزمان » ، وينوب عنه اثناء غيبته المجتهدون ، ولذا فان المجتهدين في نظر الشيعة أولى بالطاعة من الملك ، واذا لم يحصل الملك على اذن منهم في الحكم كان حكمه باطلا . يقول الشيخ سليمان ظاهر العاملي : « ان المجتهدين جامعي شروط الاجتهاد هم نواب الامام ... ومن وظيفتهم أن لا يقروا ظلم ملك ظالم في الرعية وأن لا يكتموا حكماً من أحكام الشريعة شريطة التمكين وان لا يجر الى فساد واهراق الدماء ... »[٤] .

التنافس بين المجتهدين :

المجتهدون في كل عصر كثيرون وهم يتفاوتون في عدد مقلديهم، فهناك المجتهد الصغير الذي يتخذ مركزه في بلدة معينة وينحصر مقلدوه في نطاق تلك البلدة والقرى المجاورة لها ، وهناك من الناحية الاخرى المجتهد الكبير الذي يسكن النجف أو غيرها من المراكز الدينية الكبرى وينتشر مقلدوه في مختلف انحاء العالم الشيعي . ويتراوح بقية المجتهدين بين هذا

(٤) ف . و . فرنو (يقظة العالم الاسلامي) ترجمة بهيج شعبان ــ بيروت ــ ج٢ ص ٢٠٥ .

وذلك على درجات شتى ٠

والمجتهدون عادة يتنافسون فيما بينهم على منوال ما يتنافس أصحاب المهنة الواحدة ، كل يريد أن يجتذب اليه اكبر عدد من المقلدين ٠ انهم بشر وقد تعتورهم النقائص البشرية كما تعتور غيرهم من الناس ٠

قد يظهر في بعض الأحيان مجتهد كبير تساعده الظروف فيصبح مرجعاً عاماً للعالم الشيعي كله من غير منافس ، كما حدث للمرزا محمد حسن الشيرازي في أواخر القرن التاسع عشر ، أو السيد أبو الحسن الاصفهاني في العقد الخامس من القرن العشرين ، ولكن هذه المرجعية العامة ليست مطلقة كما تبدو في مظهرها الخارجي ، بل هي في واقعها محدودة ويهددها الخطر دائماً ٠

ان المرجعية العامة لدى الشيعة لا تشبه البابوية لدى الكاثوليك ، فالبابا يتم انتخابه عند موت سلفه ولا يحق لأحد من الكرادلة بعدئذ أن ينازعه في شيء أو ينافسه ٠ أما المرجعية الشيعية فهي غير انتخابية انما ينالها أحد المجتهدين الكبار عن طريق ما يمكن تسميته بـ « الغربلة الاجتماعية » ، فاذا مات المرجع السابق حصل التنافس بين المجتهدين الذين يلونه في المنزلة ، وهذا التنافس قد يقصر أو يطول حسب اختلاف الظروف، وكثيراً ما ينحصر بين اثنين منهم اذ يكون لدى كل واحد منهم عدد من المقلدين قريب مما لدى الآخر ، وحينذاك قد تشتد المنافسة بينهما وتتخذ أنماطاً وصوراً شتى ٠ ولا يستطيع أحدهما أن يحصل على المرجعية العامة الا بعد أن يموت منافسه ٠ واذا مات هو بعد ذلك عاد التنافس من جديد بين المجتهدين ٠

ان هذه المنافسة بين المجتهدين لا تخلو من فائدة ، اذ هي كثيراً ما تؤدي الى التسابق بينهم في العلم والتقوى من أجل الحصول على كسب المقلدين ، ولكننا يجب أن لا ننسى في الوقت نفسه أن المنافسة قد تؤدي أحياناً الى استفحال الخلاف بينهم والعداء مما يدفع بعضهم الى اتخاذ وسائل غير مستحسنة فى سبيل الانتصار على خصمه ٠

ان المقلدين أكثرهم من العامة ، ومن طبيعة العامة أنهم يتمسكون

بالخرافات والأباطيل ويحسبون أنها هي الحق الذي لا شك فيه • وقد يلجأ بعض المجتهدين الى استرضاء العامة والى موافقتهم على خرافاتهم واباطيلهم، اذ هم يخشون أن يجابهوا العامة بما لا يرضون فينفض العامة عنهم وينضموا الى صفوف منافسيهم •

وهناك ناحية أخرى يجب أن لا نغفل عنها في هذا الصدد هي أن المرجعية العامة لا تستقر في أحد أمداً طويلاً ، ذلك ان المجتهد الذي يحصل عليها لا بد أن يكون كبير السن لانه قد بقي على قيد الحياة بعد أن مات منافسوه جميعاً ، ومعنى ذلك أنه حصل على المرجعية في أواخر عمره ، وسرعان ما يدركه الموت • أضف الى ذلك أنه لا يستطيع وهو في شيخوخته أن يفهم الدنيا وما استجد فيها من ظروف وأحداث •

صاحب الجواهر :

في الربع الثاني من القرن التاسع عشر كان يتنافس على المرجعية العامة في النجف رجلان هما : الشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والشيخ محمد حسن صاحب كتاب « جواهر الكلام » • وفي عام ١٨٤٦ مات الشيخ حسن كاشف الغطاء فانفرد صاحب الجواهر بالمرجعية من بعده غير أنه لم يتمتع بها الا قليلاً حيث مات بعد موت زميله باربع سنوات •

كانت النجف في عهد صاحب الجواهر قد وصلت الى أوج نموها من حيث عدد طلابها وكثرة الأموال المنصبة فيها • والمعروف عن صاحب الجواهر أنه كان ميالاً الى الترف والمظاهر الباذخة ، وصفه صاحب كتاب « ماضي النجف وحاضرها » فقال ما نصه :

« هذا الشيخ أظهر عز الشريعة وفخرها ، وأبهة العلم ومجده ، كان فخم المنظر ذا هيئة كهيئة الملوك ذوي الشأن ، وحاشية كحاشية أولى التيجان ، في كمال الجلالة وعظيم الهيئة ، يتختم بالياقوت والألماس ، ويعتم بالترمة البيضاء النفيسة • وهو الذي سن الخروج الى مسجد الكوفة والسهلة ليلة الأربعاء — ولم يكن ذلك قبله معروفاً — فكان يخرج ومعه تلاميذه وحاشيته على الخيول المسرجة وتنقل معه الموائد المنوعة • وتزوج

في أواخر أيامه بالعلوية الشريفة كريمة العلامة السيد رضا بن السيد بحر العلوم وكانت كريمة عليه ، محترمة لديه ، حتى أوصى أن تدفن معه خاصة الى جواره في مرقده الخاص به » [٥]

وأشيع عن صاحب الجواهر أنه كان متساهلاً في منح الاجازات لطلابه وكان يقول في تبرير ذلك : « دعوهم يأكلوا خبزاً » [٦] ، ولهذا كثر الحاملون لاجازاته في ايران وانتشروا في معظم مدنها ، حتى أن أحد أعيان الايرانيين قال في وصف ذلك : « ان الشيخ صاحب الجواهر عنده مصبغة يخرج منها علماء لأنه لم يبق بلد من بلدان ايران الا وفيه من خريجي مدرسته . »[٧] . ويروى أن الشاه محمد القاجاري قال مثل هذا القول مما اضطر صاحب الجواهر أن يرد عليه من فوق منبر الدرس حيث قال : « كتب الي بعض اخواني من طهران يقول ان السلطان محمد شاه القاجاري قال بأن عند الشيخ محمد حسن مصبغة اجتهاد يصبغ فيها الطلبة ويرسلهم الى ايران ، مع أنه يعلم بأني لم أشهد باجتهاد هؤلاء الذين كتبت لهم بالرجوع اليهم في المسائل والقضاء ، فان مذهبي في المسألة معروف فانني أجوز القضاء بالتقليد . نعم ما شهدت في كل عمري باجتهاد أحد الا أربعة ... » [٨]

توفي صاحب الجواهر في شهر حزيران من عام ١٨٥٠ عن عمر يناهز الرابعة والستين ، فدفن في قبر خاص به هو اليوم مزار بالنجفه يقصده الناس للتبرك وعليه قبة زرقاء . ومما يلفت النظر أن صاحب الجواهر عين أحد تلاميذه ليكون خليفته من بعده ومرجعاً عاماً لجميع مقلديه ، وهذه هي المرة الوحيدة التي يحدث فيها مثل ذلك في تاريخ الاجتهاد الشيعي ، ولست أدري ما هو السبب فيها !

---

(٥) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ــ النجف ١٩٥٥ ــ ج٢ ص ١٣١ ــ ١٣٢ .

(٦) محسن الامين (المصدر السابق) ــ بيروت ١٩٥٩ ــ ج ٤٤ ص ٦ .

(٧) جعفر محبوبة (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ١٣٩

(٨) آغا بزرك الطهراني (طبقات اعلام الشيعة) ــ النجف ١٩٦٢ ــ ق ٣ ج ١ ص ١٢٠٥ .

أوصى صاحب الجواهر أن يكون الشيخ مرتضى الانصاري خليفته من بعده ، والمعروف عن هذا الرجل أنه كان شديد الزهد ولم يكن يريد أن ينال المرجعية بعد استاذه أو يطمح اليها ، وكانت الأنظار متجهة الى غيره من المجتهدين الكبار ، وقد رشح البعض أحد أولاد صاحب الجواهر ليكون خليفته ، ولكن صاحب الجواهر خيب ظنهم جميعاً فهو عندما أدركته الوفاة جمع المجتهدين في بيته وأعلن لهم قائلا : ان ما كان يعود اليه من أمر الشريعة المقدسة فهو وديعة الله عند الشيخ مرتضى الانصاري . فكان قوله هذا مفاجأة للحاضرين ، وقيل أن أحدهم أخذ لشدة أسفه ينكت سبابته في الأرض حتى أدماها لانه كان من الذين يطمحون الى المرجعية العامة فخاب أمله .[٩]

كان الشيخ مرتضى الانصاري على النقيض من استاذه الراحل غير ميال الى الترف ويعيش عيشة الفقراء على الرغم من غزارة الاموال التي كانت ترد اليه ، فكان ينفقها كلها ، حتى قيل انه في يوم وفاته لم يكن عنده ما يصرف لعزائه أوما يقوم بكفالة ابنتيه اللتين تركهما بعده[١٠] وقد سئل ذات مرة عن سبب هذا الفرق الشاسع بين سلوكه وسلوك استاذه فأجاب : ان استاذه أراد أن يظهر عز الشريعة ، أما هو فيريد أن يظهر زهدها[١١] .

الميرزا الشيرازي :

ولد المرزا محمد حسن الشيرازي في مدينة شيراز في ٢٥ نيسان ١٨١٥ ، وأتم دروسه الاولية فيها ، وحين بلغ الثامنة عشر من عمره سافر الى اصفهان لمواصلة دراسته فيها . وفي عام ١٨٤٣ هاجر الى النجف ليحضر دروس المجتهدين الكبار فيها وينال رتبة الاجتهاد .

كان المرزا الشيرازي على صلة وثيقة بالشيخ مرتضى الانصاري منذ بداية هجرته الى النجف ، وكان الانصاري معجبا به فلما تولى المرجعية

---

(٩) جعفر محبوبة (المصدر السابق) — ج٢ ص ١٣٤
(١٠) المصدر السابق — ج٢ ص ٤٩
(١١) محسن الامين (المصدر السابق) — ج٤٤ ص ٦ .

العامة زادت حظوة الشيرازي لديه وفضله على الكثير من تلاميذه • روى السيد حسن الصدر عن أبيه السيد هادي الذي كان زميلا للشيرازي في الدراسة ، فقال : أن الشيرازي كان قليل الكلام فيمجلس درس الانصاري، واذا تكلم لا يجهر بصوته ، فينحني الانصاري لسماع كلامه ويشير الى الحاضرين بالسكوت قائلا لهم « ان جناب الميرزا يتكلم » • واذا فرغ من كلامه رفع الانصاري رأسه وتوجه الى الحاضرين فقرر لهم كلام الشيرازي ، وهذا منه تعظيم للشيرازي عظيم ! [١٢] •

عندما مات الشيخ مرتضى الانصاري في أواخر ١٨٦٤ كان هناك أربعة مجتهدين كبار مرشحين للمرجعية من بعده ، هم : المرزا محمد حسن الشيرازي ، والشيخ محمد حسين الكاظمي ، والشيخ حبيب الله الرشتي، والسيد حسين الكوهكمري • وقد انقسم المقلدون فى الاقطار الشيعية بين هؤلاء الاربعة ، فمال العرب نحو تقليد الشيخ محمد حسين الكاظمي، بينما مال الترك نحو الكوهكمري ، أما الفرس فانقسموا بين الشيرازي والرشتي •

وفي عام ١٨٧٠ حدث حادثان كان لهما أثرهما في رفع مكانة الشيرازي فى أوساط العامة وزيادة عدد المقلدين له ؛ أولهما مجيء الشاه ناصر الدين الى العراق ، والثاني وقوع الغلاء الشديد •

يروي صاحب كتاب « أعيان الشيعة » : أن علماء النجف حين سمعوا بتحرك الشاه من كربلا خرجوا لاستقباله ، فذهب بعضهم الى خان الحماد الواقع في منتصف الطريق ، وذهب آخرون الى خان المصلى الذي يقع على بعد ثلاثة فراسخ من النجف ، ولم يتغيب منهم سوى رجل واحد هو الشيرازي • وحين وصل الشاه اليهم سلم عليهم راكبا ولم ينزل لتحيتهم، ولما دخل الى البلدة حضر العلماء جميعاً لزيارته ما عدا الشيرازي ، ثم أرسل الشاه مبلغا من النقود الى كل واحد منهم فقبلوها ولم يقبلها الشيرازي • وعند هذا بعث الشاه وزيره حسن خان الى الشيرازي ليعاتبه ويطلب منه أن يزوره ، فكان جواب الشيرازي : « أنا رجل درويش

---

(١٢) ذبيح الله المحلاتي (تاريخ سامراء) ـ النجف ١٣٦٨ هـ ـ ج٢ ص٥٠ •

مالي وللملوك » ، ولما ألح الوزير عليه في ذلك رضي أن يجتمع بالشاه في الحرم العلوي أثناء الزيارة ؛ وقد اجتمعا فعلا فصافحه الشاه وطلب منه أن يتلو الزيارة لكي يتلو هو معه . وكان هذا الحادث سببا في ارتفاع منزلة الشيرازي عند الشاه وعند كافة الناس ، « وكان ذلك أول ما ظهر من مخايل كياسته وبعد نظره في الامور »[١٣] .

أما في الحادث الثاني ، وهو حادث الغلاء الشديد ، فقد انبرى الشيرازي لتخفيف الضائقة عن أهل النجف والطلاب فيها ، فعين لكل محلة من محلات النجف ، وكل فئة من سكانها ، أناساً يوزعون الحبوب على المحتاجين ، واستمر على ذلك حتى حل موسم الحصاد الجديد وارتفعت الشدة عن الناس « وكان ذلك من كراماته » [١٤] .

هجرته الى سامراء :

صار عدد المقلدين للشيرازي يزداد بمرور الايام ، ولم يحل عام ١٨٧٤ حتى كان الشيرازي اكثر المجتهدين مرجعية وأرفعهم مكانة . وفي شهر ايلول من ذلك العام سافر الى سامراء للزيارة ، غير أنه لم يرجع منها بل استقر فيها ، واخذ تلاميذه وأعضاء حوزته ينضمون اليه تدريجيا ، ثم التحق به أخيرا أفراد عائلته وأصحابه جميعاً .

كانت هجرة الشيرازي الى سامراء من أهم الاحداث في حينها، وصارت محور حديث الناس وكثرت التقولات حولها ، وأخذ الناس يتساءلون : ما السبب الذي جعل الشيرازي يترك النجف دار العلم ويتخذ مقره في تلك القرية الصغيرة النائية ؟ ! وقد تعددت الآراء في تعليل تلك الهجرة ، فمنهم من قال ان الشيرازي اراد بها التخلص من قيود الرئاسة والعزلة عن الخلق[١٥] ، ومنهم من قال انه أراد الابتعاد عن المنافسين

---

(١٣) محسن الامين (المصدر السابق) ـ دمشق ١٩٤٦ ـ ج٢٣ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(١٤) آغا بزرك الطهراني (المجدد الشيرازي) ـ النجف ـ ص ٣٩ .

(١٥) آغا بزرك الطهراني (طبقات أعلام الشيعة) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ج١ ص ٤٣٩ .

ومكايداتهم ، وكذلك الابتعاد عن معارك الزقرت والشمرت[١٦] ، وآخرون ذكروا أنه كان مصابا بمرض السل وهو انما اختار سامراء لطيب هوائها .
وقال تلميذه السيدحسن الصدر فيسبب هجرته: انه بعد مساعدة أهل النجف في سنة الغلاء « صار عامة الناس يرجونه في كل مهمة ، ويقصدونه في كل ملمة ، حتى في فكاك أولادهم من الجندية ببذل المال الذي به يكون فكاكهم من ذلك ، وكان بدل الواحد منهم يومئذ مائة ليرة عثمانية ، فضاق به الامر وعرفه ان المحرك لكثرة الرجاء منه بعض أعيان النجف ، ورأى أن لا علاج له الا بالخروج من النجف الاشرف ...» [١٧] .

اننا حين نستعرض هذه الآراء المختلفة لا نستبعد ان تكون كلهاصحيحه، وهي ربما اجتمعت كلها في ذهن الشيرازي عندما عزم على الهجرة الى سامراء ، ولكن هناك سببا آخر لم يذكره أحد وهو فيما أظن قد لا يقل أهمية عن الاسباب الاخرى ان لم يكن أهمها .

يجب ان لا ننسى في هذا الصدد ان سامراء تتميز عن غيرها من المدن العراقية بصفة خاصة بها هي أنها قد اجتمع فيها عاملان متناقضان : الاول هو أن سامراء مزار شيعي مقدس يقصدها آلاف الزوار من الشيعة في كل عام ، والثاني ان سكان سامراء وسدنة الاماكن المقدسة فيها من أهل السنة. والواقع ان اجتماع هذين العاملين المتناقضين في سامراء كان سببا في وقوع الكثير من المخاصمات الطائفية فيها ، وطالما كان زوار الشيعة ولا سيما الايرانيين منهم يلقون الاذى والمضايقات من قبل سكان البلدة والعشائر المحيطة بها ، وادى ذلك الى توتر العلاقات بين ايران والعراق في بعض الاحيان . يخيل لي أن من الاسباب التي دفعت الشيرازي الى الهجرة الى سامراء هو أنه كان يريد تحويلها الى بلدة شيعية لكي ينقذ الزوار من المضايقات التي يلقونها فيها . انه لم يعلن ذلك على الناس ولكن الكثير من القرائن يشير اليه .

ومهما يكن الحال ، فقد صار الشيرازي بعد استقراره في سامراء

---

(١٦) محسن الامين (المصدر السابق) — ج ٢٣ ص ٢٧١ .
(١٧) ذبيح الله المحلاتي (المصدر السابق) — ج٢ ص ٥٣

ينفق الاموال الطائلة فيها ، فشيد فيها مدرسة دينية تتسع لمائتين من الطلاب. وهي ما زالت قائمة تعرف باسم « مدرســة المرزا » ، كما بنى حسينية ، وحماماً للرجال وآخر للنساء ، وسوقاً كبيرة ، ودورا كثيرة ، ثم نصب جسرا من القوارب على دجلة بلغت تكاليفه الفه ليرة عثمانية • وكثــرت هجرة الشيعة الى سامراء من شتى الانحاء حتى أصبحت بلدة عــامرة مع العلم انها لم تكن قبل ذلك سوى قرية صغيرة بيوتها من طين •

وكاد السكان القدامى يذوبون في خضم هذا النمو السريع ، واخــذ الشيرازي يبذل لهم العطاء بغية تأليف قلوبهم ، فأحبه الكثير منهم • وصار الشيعة يقيمون طقوس العزاء الحسيني على عاداتهم في كل بلدة يحلــون فيها ، وهي طقوس كانت في تلك الايام تؤثر في النفوس تأثيرا عاطفيا عميقا خاصة في أوساط العامة وأبناء العشائر ، فوقع أهل سامراء تحت تأثيرهــا وشرعوا هم أنفسهم يخرجون مواكب العزاء تقليدا للشيعة ، ومعنى هــذا أنهم بدأوا يسيرون في طريق التشيع شيئا فشيئا على نحو ما فعل الكثير من سكان العراق قبلهم[١٨] •

رد الفعل :

ان هذا التحول الهام الذي حدث في سامراء أدى الى ظهور رد فعــل شديد ضده بين علماء السنة في بغداد فتحفزوا للعمل في سبيل « انقــاذ » سامراء ، وكان أشدهم حماساً في ذلك الشيخ محمد ســعيد النقشبندي نقابل والي بغداد الحاج حسن باشا وباحثه في الامر ، وأبرق هــذا الــى السلطان عبدالحميد يخبره بالخطر الذي يهدد سامراء •

كان السلطان عبدالحميد في تلك الآونة يسعى نحو توحيد كلمــة المسلمين للالتفاف حوله ، ولعله لم يكن يحب أن تتطور قضية سامراء بحيث تؤدي الى توتر العلاقة بينه وبين الشاه ناصر الدين • والظاهر أنه أرســل الى والي بغداد يأمره أن يعالج القضية بهدوء ، فاذا كان الشيرازي قــد

---

(١٨) انظر في تفصيل ذلك كتاب المؤلف (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ــ بغداد ١٩٦٥ ــ الفصل التاسع .

فتح مدرسة شيعية في سامراء فليفتح الوالي ازاءها مدرسه سنية ، ولا يزيد على ذلك شيئاً !

سافر الشيخ محمد سعيد النقشبندي الى سامراء مخولاً بفتح المدرسة في سامراء ، وخرج أهل سامراء لاستقباله واحتفوا به احتفاءا منقطع النظير حتى قيل في حينه « كأنه ظهر المهدي عليهم بقدومه » [19] . واستأجر النقشبندي دارا جعلها مدرسة له وأخذ يشتغل بالتدريس والوعظ والارشاد.

الواقع اننا لا نعرف تفاصيل ما حدث في سامراء بعد وصول النقشبندي اليها ، غير أننا نستطيع أن نتصور ذلك استنادا الى ما نعرفه من طبيعة البشر بوجه عام . فالبشر حين يتنازعون لا بد أن يتحيزوا في نظرتهم الى الامور، كل فريق منهم يذكر محاسنه وينسى مساوئه ، ويفعل خصمه مثل ذلك ، وكل منهم يعتقد جازما أن الحق معه وحده وأن الباطل مع خصمه . ان هذه طبيعة عامة في البشر لا فرق بين المتعلمين منهم والجهلة ، واذا كان هناك فرق بينهم فهو من جراء اختلافهم في السلاح الذي يستعملونه في النزاع. فالجاهل قد يستعمل الخنجر والهراوة بينما المتعلم يستعمل الادلة «العقلية» و « النقليــة » .

عند البحث في قضية سامراء وقع في يدي كتابان أحدهما لمؤلف شيعي والآخر لمؤلف سني . وفيما يلي أنقل نبذة مما كتبه كل من هذين المؤلفين ، وسيرى القارىء فيها نموذجا واقعيا لما ذكرناه من طبيعة البشر .

يقول المؤلف الشيعي في حديثه عن وضع سامراء بعد هجرة الشيرازي اليها ما نصه : «... فصارت سامراء من بركة وجوده مركزا للعلم والعلماء ، وظهرت فيها شعائر التشيع عن حجاب التقية والخفاء ، مثل الاذان والصلاة واقامة مجالس اللطم والنوح والعزاء ، وتبين لكثير من الاهالي الحق الواضح، والنور اللائح ، ومالت قلوبهم اليه كل الميل ، وتنفرت عن كبرائهم أهل الحيف والميل ، فوشى بالخبر الى خليفتهم القاضي الناصبي ، العنيد الشقي ، الموسوم بمحمد سعيد النقشبندي ، فشمر عن ذيل التعصب يداً ، وأقام في التسويلات مجتهدا . مستعملاً للحيل واللطائف ، مستعينا ببناء المدرسة

---

(١٩) يونس السامرائي (تاريخ علماء سامراء) ــ بغداد ١٩٦٦ ــ ص ٢١ .

واجراء الوظائف ، حتى نال مراده ، بما صنعه من صنيع أجداده ، فوقـع في العصر الاخير ما وقع في الصدر الاول ، من رجوع القوم القهقري ، حتى جرى في الاواخر ما جرى ، من بعض اشقيائهم من هتك ناموس الدهـر وصاحب الشرع ... »[٢٠] .

أما المؤلف السني فقال في وصف النقشبندي وكيف بنى مدرسـته في سامراء : « ... ومن جملة حزمه أنه سجل فيها عموم اولاد رؤساء هذه البلدة ... فضبطهم وضبط آباءهم بذلك عن تلاعب المبتدعين بهم لأن تلك الطائفة التي سبقت الاشارة اليها قد لعبت دورا قويا بهذا البلـد وبذلت الاموال الطائلة والهدايا الجسيمة لعموم الاهلين ولا سيما للرؤساء فاستمالت قلوبهم وأنطقت بالمدح والثناء ألسنتهم ولو لم يقيض الله انشاء هذه المدرسة وأن يكون مدرسها ذلك الحازم الفاهم لطاحوا في الشبك واصطادهم الفخ كما صاد كثيرا من أبناء العراق وجرفهم التيار ، وبهذا الموقف الكريم الذي وقفه المرحوم الشيخ محمد سعيد أفندي النقشبندي توقفت حركة المتحركين وشلت أيدي المبتدعين فتفرقوا أيدي سبأ ولم ترفع لهم راية ولم يثر لهـم ثائر وكل منهم رجع الى كوخه وعشه بعد أن كانت لهم الكلمة المسموعـة ويؤيدهم الرأي العام ... »[٢١] .

قضية « التنباك » :

بينما كان النزاع الطائفي يأخذ مجراه الطبيعي في سامراء حدثت في ايران قضيــة « التنبــاك » وهي قضيــة جــديرة بالدراسة لما كــان لهــا من صدى قوي في العراق وما كان لها من أثر في تدعيم مكانة الشيرازي بحيث جعلته المرجع الاعلى للشيعة بلا منافس .

ان « التنباك » نوع من التبوغ كان شائعا في ايران في القرن التاسع عشر اذ كان يوضع في النرجيلة لتدخينه ، ولم يكن الايرانيون قــد عرفوا السيكارة بعد . وقد نشأت قضية « التنباك » من جراء اتفاقية عقدهـا

---

(٢٠) آغا بزرك الطهراني (المجدد الشيرازي) — ص ٢٠ .
(٢١) يونس السامرائي (المصدر السابق) — ص ٢٤ .

الشاه ناصر الدين مع شركة بريطانية حيث منحها امتيازا لاحتكار «التنباك» وبيعه في كافة انحاء ايران • وقد ادى ذلك الى ظهور استياء شديد عــم البلاد بأسرها وصار في نهاية الامر كأنه ثورة شعبية كبرى •

ظهرت أولى بوادر الوعي الشعبي ضد اتفاقية « التنباك » فـي ٢٣ شباط من عام ١٨٩١ ، وذلك حين ذهب عدد من التجار لمقابلة الشاه راجين منه الغاء الاتفاقية لما فيها من ضرر عليهم ، فلم يستجب الشاه لرجائهم[٢٢] • وقد تتابعت الاحداث بعدئذ بسرعة عجيبة كأن يداً خفية كانت تعمــل على تصعيدها ، واتخذ رجال الدين دور الزعامة في الكثير من المدن الايرانية فوقعت من جراء ذلك معارك بين الاهالي والقوات الحكومية سقط فيهــا عدد غير قليل من القتلى والجرحى •

والملاحظ ان موجة من التعصب ضد الحضارة الاوربية أخذت تظهر في أوساط الشعب الايراني أثناء ذلك ، وصارت الاشاعات تدور بين الناس حول مفاسد الحضارة وآفاتها • والظاهر أن رجال الدين انتهزوا فرصــة الاستياء العام من اتفاقية « التنباك » فارادوا اقتلاع جميع النظم الحديثــة التي دخلت الى ايران في عهد الشاه ناصر الدين • وفيما يلي ننقل صــورة من تلك الاشاعات حسبما وردت على لسان كاتب ايراني كان معاصرا لهــا ومصدقا بها • يقول الكاتب :

« ••• فبينما هم كذلك اذ جاء من لندن جماعة من الاجانب لا يقل عددهم عن مائة ألف نسمة بين رجال ونساء ، ودخلوا طهران وشرعوا فــي تنفيذ مقاصدهم ، وأرسلوا في كل بلد من بلاد ايران عــدة مــن هيئتهم ، وقويت بذلك كل ملة في ايران سوى ملة الاسلام ، وكثرت الفواحش وشرب الخمور ، فلم تزل كل يوم تكثر هذه الدواهي ، وقد فتح الاجانب المدارس لدعوة الناس الى مذهب المسيح ، وجعلوا المبشرين (البرتستانت) في جميع المستشفيات ينفقون اموالا جمة على الفقراء والمساكين ويستخدمون بنــات الاسلام وفتياتها ، وصار المسلمون مقهورين تحت أيديهم ، وفرقوا أربعمائة ألف تومان بين الامراء والحكام ليوافقوهم في تنفيذ مقاصدهم ••• واتصل

---

(22) Edward Browne (The Persian Revolution) — Cambridge 1910 — P . 49

باصحاب الامتياز كثير من الدجالين الذين يريدون التقرب اليهم ويدعون أنهم من المسلمين فكانوا يدلونهم على أعراض الناس ونواميسهم وما ادخروا من التنباك ، وجعلوا يصرفون عوام الناس عن اطاعة العلماء فاضطهد أهل الدين، وكانوا يحبذون السفور لبنات المسلمين وينصبون الكراسي في المعامل الاسلامية ليجلسوا وينظروا الى بنات المسلمين اللاتي يشتغلن في المعامل وهن سافرات ، ووقع من أمثال ذلك ما لا يحيط ببيانه القلم ... » [٢٣]

تشير بعض القرائن الى أن الروس بذلوا جهوداً كثيرة في سبيل اثارة الناس ضد اتفاقية « التنباك » ، ففي طهران أعلن السفير الروسي اعجابه بما شاهد من هياج عام ضد الاتفاقية واعتبره دليلاً على غيرة الايرانيين واخلاصهم لدينهم وهتفه على ملأ من الناس قائلا : « زنده باد اتفاق مسلمانها ! » [٢٤] أي ليحيى اتفاق المسلمين . وفي العراق قيل ان القنصل الروسي سافر من بغداد الى سامراء بغية مقابلة الشيرازي ، وعرض عليه اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للقضاء على الاتفاقية ولو أدى ذلك الى خلع الشاه . [٢٥]

فتوى الشيرازي :

كانت الرسائل والبرقيات تتوالى الى الشيرازي من ايران يطلب اصحابها فيها منه أن ينقذهم من اتفاقية « التنباك » . وفي أواخر تموز ١٨٩١ أبرق الشيرازي الى الشاه يطلب منه الاستجابة لرغبة الرعية في الغاء الاتفاقية ، فأرسل الشاه اليه جواباً مفصلاً يذكر فيه الاسباب « المشروعة » التي دفعته الى عقد الاتفاقية . وقد وصل جواب الشاه الى القنصل الايراني ببغداد ، فحمله هذا نفسه الى سامراء وحاول اقناع الشيرازي بصواب ما ورد فيه ، فلم يقتنع الشيرازي بكلامه . وأبرق الشيرازي الى الشاه مرة ثانية يطلب منه الغاء الاتفاقية ويفند الاعذار التي

---

(٢٣) ذبيح الله المحلاتي (المصدر السابق) — ج٢ ص ٦٥ — ٦٨ .
(٢٤) المصدر السابق — ج٢ ص ٧٤
(٢٥) ف . و . فرنو (المصدر السابق) — ص ٢٠٢ .

قدمها الشاه اليه في جوابه السابق .

وبعد أن يئس الشيرازي من اقناع الشاه أصدر فتواه المشهورة بتحريم تدخين التنباك وهذا هو نصها بعد ترجمته الى العربية : « بسم الله الرحمن الرحيم . اليوم استعمال التنباك والتتن حرام بأي نحو كـان ومن استعمله كمن حارب الامام عجل الله فرجه . حرره الأحقر محمد حسن الحسيني » .

ان هذه الفتوى على اختصارها كان بمثابة القنبلة من حيث تأثيرها في المجتمع الايراني ، فهـي حين وصلت الى الشيخ محمـد حسن الاشتياني بطهران ، وكان كبير المجتهدين فيها ، أمر بأن تقـرأ علـى الجمهور من على المنابر ، واستنسخ منها مائـة الف، نسخة فأرسلت الى أنحاء ايران . وقـد حاولت الحكومة الايرانية جمع النسخ من أيدي الناس ومنع انتشارها فلم تفلـح .

وامتنع الناس عن تدخين « التنباك » على نطاق واسع ، وصار الناس يراقب بعضهم بعضاً لكي لا يعمد أحدهم الى التدخين سراً خلافاً للفتوى . والغريب أنهم كانوا يتسامحون مع من يتعاطى الافيـون أو يشرب الخمـر ولكنهم لا يتسامحون مع من يدخن « التنباك » ، وكانت حجتهم في ذلك ان متعاطي الافيون والخمر له توبة أما مدخـن « التنباك » فلا توبة له لأنـه بمثابة من يقتل الامام علياً . وشاع في حينه أن تأثير الفتوى امتد الى قصر الشاه نفسه حتى قيل ان الشاه أمر خادمه بأن يحضر له « القليان » ــ أي النرجيلة ــ فامتنع الخادم من تنفيذ أمره محتجاً بوجوب طاعة الشيرازي الذي هو نائب الامام .

ومن الطرائف التي تروى فى هذا الصـدد أن بعض الفساق الذيـن اعتادوا على شرب الخمر وتعاطي المنكر امتنعوا عن التدخين وأخذوا يحطمون النرجيلات في المقاهي ، ولما سئلوا في ذلك قالوا : اننا نفعل المعاصي ولنـا أمل برسول الله وأهل بيته أن يشفعوا لنا عند الله يـوم القيامة ، والمرزا الشيرازي هو اليوم نائبهم وحامي شرعهم فاذا عصيناه وأغضبناه فمن الذي سوف يشفع لنا اذن ؟ ! [٢٦]

---

(٢٦) محسن الامين (المصدر السابق) ــ ج٢٣ ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

الغاء الاتفاقية :

وفي أحد الايام شوهد اعلان ملصق على جدار احدى العمارات المعروفة في طهران مفاده : ان الناس مأمورون بالجهاد وموعدهم يوم الاثنين القادم فمن كان مسلماً وجب عليه الجهاد حسب فتوى الشيرازي . فكان هذا الاعلان سبباً لشيوع الرعب في طهران ، وانتشر الخوف بين الاجانب ففر الكثيرون منهم من طهران متنكرين بملابس النساء . وأخذ الناس يشترون الاسلحة استعداداً للجهاد ، وكتبوا وصاياهم وارتفعت اصوات البكاء من دورهم اذ كانوا يودعون نساءهم وأطفالهم . ولم تهدأ الحالة نسبياً الا بعد أن أمر الشيخ محمد حسن الاشتياني خطباء المنابر بتكذيب اعلان الجهاد .

ثم عادت الحالة الى التأزم من جديد بعد فترة قصيرة ، وكان سبب ذلك أن الشاه أرسل الى الاشتياني يخيره بين أن يفتي باباحة « التنباك » أو يغادر طهران ، فاختار الاشتياني المغادرة ، ولم يكد الأهالي يسمعون بذلك حتى هبوا جميعاً للتظاهر ، فامتلأت الشوارع بهم يقودهم رجال الدين ، وأغلقت الأسواق ، وخرجت النساء باكيات ، وارتفعت الاصوات بالهتاف ضد الاحتكار ولعن الوزراء ، وسرت عدوى البكاء الى داخل القصور الملكية أي الى حريم الشاه وجواريه . وأخذ الجنود الذين أرسلوا لمقاومة المتظاهرين يبكون أيضاً .(٢٧) وأحاط المتظاهرون بالقصر الملكي يرأسهم سيد يلبس عمامة زرقاء غامقة وهم يهتفون هتافات معادية ويقذفون القصر بالأحجار ، فأطلق الجنود النار عليهم فسقط على الارض نفر منهم كان السيد من جملتهم ، وبلغ عدد القتلى سبعة والجرحى عشرين ، فأدى ذلك الى تفرق المتظاهرين(٢٨) .

أرسل الشاه خاتماً من الماس الى الاشتياني رمزاً للمصالحة معه ، ولكن الاشتياني اشترط لقبول الخاتم الغاء الاتفاقية ، فوافق الشاه على ذلك . وفي ٢٦ كانون الثاني من عام ١٨٩٢ خرج المنادون في الشوارع ينادون باباحة التدخين ، وكان ذلك يوماً مشهوداً في ايران وفي سامراء .

---

(٢٧) ذبيح الله المحلاتي (المصدر السابق) ج٢ ص ١٦٥ .

(28) Edward Browne (op . cit) — P . 54 .

دفع الشاه للشركة البريطانية صاحبة الامتياز الملغي تعويضاً قدره نصف مليون باون استقرضه من البنك البريطاني في طهران وكان ذلك بداية الديون الاجنبية على الحكومة الايرانية .(٢٩) ومما يجدر ذكره أن الشاه تظاهر بالفرح عند الغاء اتفاقية « التنباك » وأخذ يمدح الشيرازي امام حاشيته وزواره قائلاً بأنه أحيى الدولة القاجارية بفتواه وأن قدره كان مجهولاً لديه قبل هذا وقد أدرك الآن منزلة هذا الرجل الكبير . ثم كتب الشاه الى الشيرازي رسالة مطنطنة أظهر له فيها اخلاصه الصميم ، كما كتب الوزراء والولاة مثل ذلك الى الشيرازي .

يخيل لي أن هذا التزلف الذي أبداه الشاه نحو الشيرازي انما كان من باب الدهاء واللباقة السياسية ، فهو قد رأي مكانة الشيرازي ترتفع في نظر الايرانيين فأراد أن يستفيد من ذلك لكي يخلص سمعته من اللطخة التي لحقت بها بسبب عقده اتفاقية « التنباك » . وبعبارة أخرى : ان الشاه حين تظاهر بمدح الشيرازي أراد أن يقول للايرانيين انه لا يقل عنهم في تمسكه بالدين وفي طاعته لنائب الامام .

ضجة في سامراء :

في الوقت الذي بلغ فيه الشيرازي قمة مجده على النحو الذي ذكرناه آنفاً حدثت في سامراء حادثة كادت تؤدي الى فتنة طائفية خطيرة ، ولا ندري هل كانت تلك الحادثة مدبرة أم هي جرت على رسلها . ولكي لا يفهم القاريء الحادثة من كلا جانبيها أنقل عنها روايتين احداهما لكاتب شيعي والأخرى لكاتب سني .

يقول الكاتب الشيعي فيهما ما نصه : « نقل لي أحد الثقات من أصدقائي قصة عن الامام المجدد ـ أي المرزا الشيرازي ـ مفادها : أن أحد العوام في سامراء كان مندفعاً ضد الامام المجدد بتأثير عاطفي فاعتدى على أحد اولاده وهو الابن الاكبر الميرزا محمد الشيرازي وضربه على رأسه فمات بعد حين ولم يحرك الامام المجدد ساكناً مطلقاً فالتفت أعداء

---

(29) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — vol 2 . P 373 .

الاسلام — يقصد بهم الانكليز — الى هذه الناحية وأرادوا شرا بالعراق في استغلال الموقف وقصدوا الامام المجدد الى سامراء طالبين منه الاحتجاج على هذا التصرف المشين ضد مقامه العالي ، فردهم الامام الشيرازي بقسوة قائلاً لهم : أرجو أن تفهموا جيداً أن لا دخل لكم ببلادنا مطلقاً وما هذه القضية الا حادث بسيط بين أخوين فرجع هؤلاء بخفي حنين يجرون أذيال الخيبة والفشل ، ووصل الأمر الى الباب العالي في اسطنبول فسر الخليفة بهذا الموقف المشرف ، وأمر الوالي ببغداد أن يمثل بين يدي السيد الامام المجدد ليقدم له الشكر على موقفه هذا والاعتذار على الحادث . ويتذكر المعمرون من أهالي سامراء مواقف الامام الشيرازي الطيبة ... » (٣٠)

أما الكاتب السني وهو سامرائي فقد كتب عن الحادثة بتفصيل أكثر حيث خصص لها فصلاً بعنوان «الفتنة في سامراء سنة ١٣١١ هـ — ١٨٩٣م» جاء فيه ما نصه :

« لا يخفى على كل مطلع أن أهالي سامراء يحترمون غيرهم اذا بادلوهم الاحترام والتقدير ويعتزون بالجار ويحمونه . وفي سنة ١٢٩٢ هـ عندما نقل الشيخ محمد حسن الشيرازي مقر اجتهاده من ايران الى سامراء كان اتباعه يعتدون على بعض أهالي سامراء فكان سكان مدينة سامراء يردون هذا الاعتداء بلطفه وبكل رجولة واباء الا ان الاعاجم الذين يسكنون في مدرسة الشيرازي وهم لا يتعدون أصابع اليد أرادوا أن يثيروا فتنة عمياء يريدون اظهار أهالي سامراء أنهم هم المعتدون .

« وكان سبب اثارة هذه الفتنة ان الحكومة أرسلت من بغداد الى سامراء مفرزة من الجندرمة لأخذ رسوم الكودة وتعقيب بعض أشغال الدولة يومذاك ، وكان من جملة الجندرمة رجل اسمه (حسن بن دغير) وهو سامرائي من عشيرة البو مليس ، فبينما هو جالس في أحدى المقاهي هجم عليه أحد الايرانيين الساكنين في سامراء فضربه ضربة قوية على خده فاستغرب لهذا الفعل الغريب حيث لم يستطع احد من العجم أن يتجاسر على

---

(٣٠) عبد الرحيم محمد علي (آغا بزرك الطهراني) — النجف ١٩٧٠ — ص ٤٢ — ٤٣ .

شخص من أهـل سامراء لما عرف عنهـم من الشجاعة والرجولة والأنفـة والكرامة ، مع كونه جندرمة تابع للدولة العثمانية ، فلما رأى أهالي سامراء تجاسر هذا الايراني أخذتهم الحميـة والنخوة فكالـوا للايـراني الصاع صاعين ، وهناك جاء الايرانيون وجاء جماعة من أهل سامراء واشتبكوا في معركة ضارية استعملت فيها المدي والخناجر والقامات والسيوف والبنادق ، كما أن محمد علي النائب العجمي صعد فوق منارة الحضرة العسكرية وأخذ يطلق النار من بندقيته التي هي من نوع (مكنزي) على أهالي سامراء ، وأخيراً قتل ابن أخت الميرزا حسن الشيرازي كما أصيب كثيرون من الطرفين بجروح بليغة ، فولى بعد ذلك الايرانيون الادبار .

« فأوفدت الحكومة العثمانية الوالي ببغداد(الحاج حسن رفيق باشا)الى سامراء لدراسة الوضع واصلاح الطرفين ، وقد تحرك كل من أهالي الكاظمية وكربلاء والنجف وايران نفسها لنصرة العجم في سامراء ، حتى أن الحكومة الايرانية أرسلت أحد وزرائها أيضاً وهو المدعو (علاء الدين) ، كما وصل القنصل الانكليزي من بغـداد الى سامراء في زورق بخاري للتدخل فـي الموضوع أو اثارة الفتنة مرة ثانية حيث طلب مقابلة المـرزا حسن الشيرازي فرفض الشيخ الشيرازي مقابلة القنصل وبعث له شخص يبلغه بكلمته وهي (نحن مسلمون فلا حاجة لتدخلكم بيننا) فرجع القنصل خائبا ، ولم يغـادر الوالي حسن باشا حتى أصلح بين الطرفين .. »[٣١]

جنازة الشيرازي :

كان الشيرازي في ذلك الحين قد تجاوز الثمانين من عمره ، ويبدو أن الحادثة هدت قواه ففاضت روحه في ٢٤ شعبان ١٣١٢ هـ ـ الموافـق ٢٠ شباط ١٨٩٥ م ـ وكان لموته صدى هائل في ايران والعراق .

كان نقل جنازة الشيرازي من سامراء الى النجف من أعجب الحوادث في حينها اذ هي حملت على الاعناق في معظم الطريق بين البلدتين ، فكانت كلما

---

(٣١) يونس السامرائي (تاريخ مدينة سامراء) ـ بغـداد ١٩٧١ ـ ج٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

قاربت بلدة خرج أهلها لاستقبالها مسافة ثم ودعوها مسافة .

روى السيد حسن الصدر قصة الجنازة بتفصيل ، اذ كان من الذين رافقوها طيلة الطريق ، فقال ما خلاصته : انهم حين قاربوا بلدة بلد خرج أهلها بالاعلام السود واللطم فحملوا النعش الى البلدة ، وبات النعش فيها في تلك الليلة ، وعند الصباح خرجوا فاستقبلهم أهل الدجيل وحملوا النعش الى بعد فرسخين أو ثلاثة من الكاظمية حيث كان الكاظميون في استقبالهم ، وجرى في الكاظمية تشييع عظيم حتى خيف أن ينكسر الصندوق من شدة الزحام ، وبات النعش في الحرم الكاظمي ، وفي الصباح خرجوا نحو بغداد فاستقبلهم البغداديون حتى الذميين منهم ، وأرسل المشير رجب باشا الجنود لاستقبال النعش وقد نكسوا بنادقهم بهيئة الحزن ، وحين وصل النعش الى جسر الخر وضع على الأرض وأحاط الناس به لاطمين ، ولما رفع من على الارض أخذ الناس التراب من تحته للتبرك . وفي المحمودية كان السيد جعفر عطيفة قد أعد القدور الضخمة لاطعام المشيعين ، فباتوا فيها ، ثم خرجوا منها عند منتصف الليل متوجهين نحو المسيب . وكان الطريق كله حتى وصلوا الى كربلاء ، ثم من بعدها الى النجف ، مملوءاً بالعشائر يتصل بعضها ببعض وهي تحمل الأعلام والبنادق ، وكانت كل عشيرة حين يأتي دورها ترمي البنادق من أيديها فتلطم على رؤوسها ثم تتناول النعش لتسلمه الى العشيرة التالية . وعندما وصلوا الى النجف كان يوماً عجيباً غريبا لم يشاهد في الدنيا نظيره حيث كان الألوف من الناس بين نوح وبكاء ولطم وعزاء ، وبعد أن طيف بالنعش حول المرقد العلوي وتم حفر القبر أنزل الجثمان الى القبر وكانت أرضه قد فرشت بالتربة الحسينية التي كان الشيرازي قد ادخرها لنفسه في كيس وأودعها عند وكيله في النجف الحاج محمد ابراهيم الكازروني . وأقيمت الفواتح من بعد ذلك في جميع الاقطار الشيعية ، ودام عزاؤه سنة واحدة تقريباً .[٣٢]

سامراء بعد الشيرازي :

حاول نفر من أصحاب الشيرازي وكبار تلاميذه البقاء في سامراء بعد

---

(٣٢) آغا بزرك الطهراني (المصدر السابق) ـ ص ٤٢ ـ ٤٥ .

وفاة شيخهم ، وكان على رأسهم مجتهد اسمه المرزا محمد تقي الشيرازي، والظاهر ان هذا الرجل حاول أن يواصل رسالة شيخه في سامراء فلم تساعده الظروف ، وقد انفض عنه أكثر الطلاب والمدرسين فعادوا الى النجف أو الى كربلا والكاظمية ، ومنهم من عاد الى ايران . وقد اضطر هو نفسه الى الهجرة من سامراء على أثر الاحتلال البريطاني لها في أواخر الحرب العالمية الاولى ، فاستقر في كربلا ثم أصدر هناك فتواه التي تشبه من بعض الوجوه فتوى تحريم « التنباك » والتي كانت من أسباب ثورة العشرين كما سنأتي اليه في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الشيخ سعيد النقشبندي بقي في سامراء بعد وفاة الشيرازي . وقد استطاع أن يسافر الى الحج ومن هناك ذهب الى اسطنبول وقابل السلطان عبدالحميد ، وكان من نتائج تلك المقابلة أن تقرر بناء مدرسة دينية كبيرة في سامراء ، وقد تبرع السلطان من خزينته الخاصة بمبلغ ألف ومائتي ليرة لبناء المدرسة ، كما خصص مرتبا شهريا قدره خمسون ليرة لينفق على اعالة مائة طالب .

وحين عاد النقشبندي الى سامراء شرع ببناء المدرسة فيها ، ويحكى ان العمال اثناء عملهم في بناء المدرسة عثروا على « كنز » يحتوي على نقود عباسية ، فاستبشر أهل سامراء بذلك واعتبروه هدية من الخليفة العباسي الى الخليفة العثماني في سبيل الدفاع عن السنة المحمدية .

وظل النقشبندي يدير المدرسة ويدرس فيها طيلة أربع سنوات . وفي عام ١٨٩٨ نقل الى الاعظمية للتدريس في مدرسة الامام الاعظم ، فأرسلت الحكومة بدلا عنه رجلين هما الشيخ قاسم أفندي الغواص والشيخ عباس أفندي القصاب .

لا حاجة بنا الى القول ان التوتر الطائفي في سامراء قد خف بعد وفاة الشيرازي ولكنه لم يتلاش تماماً وليس من طبيعته أن يتلاشى . يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عن الوضع في سامراء وكان قائمقاماً فيها عام ١٩٠٧ فقال ما نصه : « وبعد مباشرتي لعملي بخمسة أيام علمت بحصول اعتداءات على الزوار الايرانيين في العتبات المقدسة هناك ، وفي احدى الليالي لبست زيا ايرانيا ودخلت الى محل غيبة الامام المهدي ومرقد الامامين

على الهادي وحسن العسكري (رضى الله عنهم) واطلعت على ما يحدث هناك من اعتداءات على الزوار . وفي صباح اليوم التالي جلبت جميع الخدم ووبخهم وشددت عليهم النكير وحذرتهم بأني سأراقب الحالة بنفسي واخذوا يخشون مراقبتي فتغيرت الحالة عما كانت عليه . » (٣٣)

الوضع في النجف :

عاد المجتهدون في النجف بعد وفاة الشيرازي الى التنافس من جديد على منوال ما كانوا عليه بعد وفاة الشيخ مرتضى الانصاري . وصف الحالة شاهد عيان كان يسكن النجف يومذاك فقال : ان المقلدين تفرقوا بعد وفاة الشيرازي وتوزعوا على عدة مجتهدين ، وبهذا اشتهر بعض المجتهدين بعد ما كان مغمورا ، ونال البعض الآخر منهم عددا من المقلدين ولم يكن قبلئذ يقلده أحد ، « وكان في النجف رجل صحاف من العجم ... اسمه الحاج باقر ، فقلنا له ونحن جماعة — من باب المطايبة — : أنت يا حاج باقر لمن قلدت ؟ فقال : قلدت السيد كاظم اليزدي . فقلنا : لماذا ؟ فقال : لما توفى الميرزا رفع كل واحد من العلماء بيرقاً أما السيد كاظم فذهب الى مسجد السهلة وانزوى ولذلك قلدته ...(٣٤) » .

يمكن القول على أي حال ان المجتهدين الذين نالوا اكبر عدد من المقلدين بعد وفاة الشيرازي كانوا ثلاثة هم : المرزا حسين الخليلي وكان أكثر مقلديه من الفرس ، والشيخ محمد طه نجف وكان اكثر مقلديه من العرب ، والشيخ حسن المامقاني وكان أكثر مقلديه من الترك . وقد مات المامقاني في آذار من عام ١٩٠٥ ، ومات طه نجف بعده ببضعة أشهر ، فانحاز اكثر المقلدين الى الخليلي ولكن هذا الرجل لم يتمتع بالمرجعية طويلاً اذ كان حينذاك قد تجاوز التسعين من عمره وأصيب بالعمى ، ثم توفي في ٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ .

كان قد برز منذ أواخر أيام الخليلي مجتهدان كبيران هما الملا كاظم الخراساني والسيد كاظم اليزدي ، وكان التنافس بينهما شديدا . وقد ظهر تنافسهما بوضوح في قضية المشروطية كما سنأتي اليه في الفصل القادم .

---

(٣٣) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي)— بيروت ١٩٦٢ — ص ٥١ .
(٣٤) محسن الامين (المصدر السابق) — ج٢٣ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

الفصل الرابع

المشروطية الايرانية
واثرها في العراق

المشروطية هي حركة المطالبة بالدستور التي ظهرت في تركيا وايران[١] ، وهي انما سميت بهذا الاسم لان القائمين بها اعتبزوا مواد الدستور بمثابة « الشروط » التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته ، وهذه فكرة مستمدة من نظرية « العقد الاجتماعي » التي شاعت في أوربا بعد قيام الثورة الفرنسية ومنها جاءت الى تركيا وايران .

ان المشروطية ظهرت في تركيا قبل ظهورها في ايران بما يزيد على ثلاثين سنة ، ويعود سبب ذلك الى قرب تركيا من أوربا وشدة تأثرها بالحضارة الاوربية . يجب ان لا تنسى ان الصراع بين القديم والجديد بدأ في تركيا منذ منتصف القرن الثامن عشر ، أما في ايران فقد بدأ هذا الصراع منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك من جراء دخول بعض المخترعات والنظم الحديثة الى ايران على عهد الشاه ناصر الدين .

المعروف عن الشاه ناصر الدين أنه كان معجباً بالحضارة الاوربية ميالاً للتعرف عليها ومشاهدتها عياناً ، وقد سافر الى أوربا ثلاث مرات فقوبل فيها بحفاوة بالغة ، غير أنه كان يخشى تأثير الافكار الاوربية على رعاياه ويكره أن تنتشر بينهم فكرة المشروطية على منوال ما انتشرت في تركيا . وقد صرح ذات مرة : أنه يود أن يكون محاطاً بحاشية من الاغبياء لا يعرفون عن بروكسل هل هي مدينة أم نوع من الخس[٢].

---

(١) انها تلفظ في تركيا « مشروطية » وفي ايران « مشروطة » وقد اخترنا في هذا الكتاب التلفظ التركي لانه شائع الاستعمال فى المصادر العربية .

(2) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — Vol 2 , P . 395 .

يمكن القول ان ناصر الدين كانت له يد كبرى في ادخال معالم الحضارة الحديثة الى ايران ، وكان في الوقت نفسه شديدا تجاه كل من يتحدث عن القانون او الدستور أو أية فكرة تحررية أخرى . وبعبارة أخرى انه كان كمن يقدم الطعام اللذيذ للجائع ويمنعه من تناوله ، وقد أحدث في المجتمع الايراني من جراء ذلك نوعاً من التوتر ، وبقي هذا التوتر كامناً يتحفز للظهور عند أول فرصة تتاح له . فلما مات ناصر الدين وتبوأ العرش من بعده ابنه الضعيف مظفر الدين ، انطلق التوتر الكامن وكأنه كان مستعداً للانطلاق .

بدايات النظم الحديثة :

لابد لنا لكي نفهم جذور المشروطية في ايران أن ندرس كيف بدأت النظم والمخترعات الحديثة في الدخول الى ايران في عهد الشاه ناصر الدين. والواقع ان ذلك جرى تدريجاً خطوة وراء خطوة على النمط التالي .

اولا : في عام ١٨٥١ أسست في طهران كلية حديثة باسم «دار الفنون»، وكان الغرض من تأسيسها تخريج موظفين أكفاء للدولة ودبلوماسيين[٣]. وجيء بأساتذة من أوربا للتدريس فيها ، وقد ألف هؤلاء عدة كتب في العلوم التي كانوا يقومون بتدريسها [٤] ، فكانت تلك الكتب بذرة النهضة الفكرية الحديثة في ايران . وفي عام ١٨٥٨ أرسلت الحكومة الايرانية اثنين واربعين من متخرجي « دار الفنون » الى أوربا لاكمال دراستهم[٥].

ثانيا : وفي السنة التالية لتأسيس « دار الفنون » افتتح أول محفل ماسوني في طهران ، وكان مؤسسه المرزا ملكم خان الذي كان قد نشأ في باريس وتعلم فيها . وصار اسم المحفل في اللغة الفارسية « فراموش خانة » أي دار النسيان باعتبار أن العضو يجب أن ينسى جميع أسرار المحفل

---

(3) Peter Avery (Modern Iran) — London 1967 — P : 82 .

(4) Edward Browne (Press And Poetry Of Modern Iran) — Cambridge 1914 — P . 154 .

5) Peter Avery (op . cit .) — P 84

فلا يفشيها الى أحد . وقد انتمى الى المحفل كثير من أبناء الطبقة العالية[6].
وكانت الماسونية في ذلك الحين من عوامل نقل الافكار الاوربية الى الشرق إذ كانت تسعى نحو بث مبادىء الثورة الفرنسية بين الناس أي الاخوة والحرية والمساواة . وقد أدرك الشاه ناصر الدين أخيرا خطرها على عرشه فأمر بسد المحفل وأبعد المرزا ملكم خان الى خارج البلاد .

ثالثا : في عام ١٨٥٨ بدأ نصب أول خط للتلغراف في ايران ، ثم أخذت الخطوط التلغرافية تنمو مع الزمن ، حتى وصل عدد المحطات التلغرافية في ايران عام ١٨٨٤ الى أربعة عشر ، وكانت هذه المحطات تدار من قبل فنيين بريطانيين يسكنون في دور بالقرب منها ، وقد جلب بعض هؤلاء الفنيين زوجاتهم معهم أو تزوجوا من فتيات أرمنيات ، وكان معهم أطباؤهم . وبذا كانت المحطات التلغرافية بمثابة مراكز اشعاع للقيم الحضارية في الكثير من أنحاء ايران القاصية[7] .

رابعا : لم تظهر في عهد الشاه ناصر الدين سوى صحف اسبوعية تسيطر عليها الحكومة ، ولكن بعض الايرانيين استطاعوا أن يصدروا صحفاً معارضة في خارج البلاد ويرسلوها الى ايران بشتى الوسائل . وكان أهم تلك الصحف : صحيفة « اختر » التي كانت تصدر في اسطنبول ، وصحيفة « حبل المتين » في كلكتا ، وصحيفة « ثريا » في القاهرة ، وصحيفة « القانون » التي كان يصدرها المرزا ملكم خان في لندن . وكان لهذه الصحف تأثير بالغ في الشعب الايراني ، وكثيرا ما كانت تهرب الى ايران ضمن بالات البضائع المستوردة ، وقد اتخذت الحكومة اجراءات شديدة لمنع تسللها الى ايران فكان ذلك سببا في ازدياد تهافت الناس عليها سرا .

عوامل مساعدة :

عندما قتل الشاه ناصر الدين في عام ١٨٩٦ تبوأ العرش مكانه ابنه

---

(6) Percy Sykes (op . cit .) — vol 2 . P . 398 .

(7) Peter Avery (op . cit .) P . 83 — 84

مظفر الدين ، وكان هذا الشاه الجديد على النقيض من أبيه متهافت الشخصية لا يخلو من غباء وفطارة ، وكان بالاضافة الى ذلك عليل البدن ، ولم يكد يتولى الحكم حتى حفت به جموع من المتزلفين الذين كانوا يطمحون ان ينالوا في عهده الثروات بكل وسيلة تقع في أيديهم(٨) .

كان الشاه مظفر الدين مولعاً كأبيه بالسفر الى البلاد الاوربية غير ان الخزينة كانت في أيامه فارغة فاضطر الى الالتجاء الى القروض الاجنبية، وقد انتهزت روسيا الفرصة فصارت تمده بالقروض وتحصل منه على بعض المنافع والامتيازات الكمركية(٩) مما أدى الى انتشار التذمر بين التجار وأهل « البازار » أي الحرفيين وأصحاب الدكاكين .

كان أهل « البازار » — وما زالوا — يؤلفون في ايران طبقة ذات أهمية غير قليلة في الحياة الاجتماعية والسياسية اذ أن لهم رؤساءهم وتقاليدهم النقابية التي تسمى « قواعد الصنف » ، واذا قرروا اغلاق دكاكينهم احتجاجاً على أمر من الامور كان ذلك بمثابة نوع من الاضراب العام(١٠) وأصابوا الحياة الاقتصادية بالشلل . أضف الى ذلك ما كان لاهل « البازار » من تأثير في رجال الدين وصلة معاشية بهم ، فاذا اشتكوا من شيء فسرعان ما تسري شكواهم الى رجال الدين ويصدر هؤلاء لهم الفتاوي المناسبة .

ومما زاد في الطين بلة أن الشاه مظفر الدين كان قد ترك شؤون الدولة بيد صهره الامير « عين الدولة » وكان هذا جاهلاً صلفاً ومكروهاً من قبل الشعب الايراني فكانت أعماله التعسفية من عوامل زيادة التذمر بين أهل « البازار » .

وفي عام ١٩٠٥ حدثت ثورة في روسيا ضد القيصر وقمعت بشدة ، فهرب بعض زعمائها القفقاسيين الى ايران حيث أنشأوا الصحف وأخذوا

---

(8) Percy Sykes (op . cit .) vol 2 P . 374

(9) Richard Frye (Iran) — London — P . 67

(١٠) فت . و . فرنو (يقظة العالم الاسلامي) — ترجمة بهيج عثمان — بيروت — ج٢ ص ١٣ .

يوجهون الشعب الايراني نحو الافكار الديمقراطية الحرة[11] فكان ذلك عاملا آخر في نشر التذمر بين الناس تجاه كل عمل تقوم به الحكومة ولو كان حسناً •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان التنافس بين روسيا وبريطانيا كان في تلك الآونة شديدا ، وكان لكل من هاتين الدولتين دعاة وعملاء يسعون لها بين أفراد الشعب الايراني • وقد رأينا في الفصل الماضي كيف اغتنمت روسيا قضية « التنباك » لكي تثير الايرانيين على بريطانيا ، فكان ذلك سبباً في انهيار النفوذ البريطاني في ايران وارتفاع النفوذ الروسي[12] • والظاهر ان البريطانيين أرادوا الانتقام من الروس فاخذوا يشجعون حركة المشروطية في ايران نكاية بهم ــ حسب المثل القائل : « دقة بدقة » •

بداية الحركة :

بدأت حركة المشروطية في ايران من جراء حادثة بسيطة حدثت في عام ١٩٠٥ ، وخلاصتها : أن نفراً من أهل « البازار » خالفوا بعض الاوامر الحكومية فأمرت الحكومة بشد أقدامهم في « الفلقة » وجلدهم بالسياط ، وكانت تلك عادة متبعة تقع بين حين وآخر في عهد الشاه السابق دون أن يعيرها الناس اهتماماً كبيرا ، أما الآن فقد أهتم الناس لها ، وتجمع عدد كبير منهم بينهم جماعة من رجال الدين فذهبوا الى مسجد الشاه القريب من سوق « البازار » الكبير بغية « الالتجاء » فيه •

ان « الالتجاء » من التقاليد التي اعتاد الايرانيون عليها منذ العهد الصفوي ، وهم يسمونه « البست » ، ومعناه ان يذهب الناس الى أماكن معينة كالمساجد أو الاضرحة أو بيوت المجتهدين او السفارات الاجنبية أو الاسطبلات الملكية او ميادين المدفعية أو محطات التلغراف ، وهناك لا تستطيع الحكومة أن تلقي القبض عليهم •

---

(11) Amin Banani (The Modernization Of Iran) --- Stanford 1961 — P 9

(12) Edward Browne (The Persian Revolution) --- Cambridge 1910 — P 35 , 57 .

استطاع الامام في مسجد الشاه أن يطرد الملتجئين اليه بايعاز من الحكومة وبمعونة جماعة من أعوانه ، فخرج الملتجئون من المسجد وهم اكثر حماسا من قبل ، وانضم اليهم أناس آخرون ، وتوجهوا الى بلدة «الشاه عبدالعظيم» على بعد بضعة أميال من طهران فالتجأوا الى المرقد المقدس الموجود فيها ، وهناك أعلنوا أنهم لا يخرجون من مكانهم الا بعد اجابة مطاليبهم ، وكان من بين مطاليبهم عزل « عين الدولة » من منصبه وتأسيس دار للعدالة أطلقوا عليها اسم « عدالة خانه » .

أخذ عدد الملتجئين في بلدة « الشاه عبدالعظيم » يتكاثر يوما بعد يوم، وكأن الناس وجدوا في ذلك فرصة لشفاء غليلهم من الحكومة ، وصار الوعاظ والروضخونية — أي قراء التعزية — يصعدون المنابر لينددوا بالحكومة ويشجبوا أعمالها . ومما زاد في أهمية هذا « الالتجاء » أن اثنين من اكبر علماء طهران كانا من بين الملتجئين وهما : السيد محمد الطباطبائي والسيد عبدالله البهبهاني ، كما كان بينهم الواعظ المشهور آغا سيد جمال الدين .

أرسل الشاه اليهم رسوله الخاص ليسترضيهم ، فقابلوا الرسول بجفاء وأرجعوه خائباً . واضطر الشاه أخيرا أن يرسل اليهم كتاباً مسجلاً بخط يده يتعهد لهم فيه باجابة مطاليبهم . وعند هذا وافقوا على العودة الى طهران ، وقد جهزهم الشاه بعربات ملكية فركب كبراؤهم فيها ، واستقبلتهم الجماهير في طهران استقبال الفاتحين . ولا حاجة بنا الى القول بأن مكانة الطباطبائي والبهبهاني قد ارتفعت ارتفاعاً هائلا في نظر الجماهير يومذاك .

تفاقم الحركة :

يبدو أن الشاه لم يستطع تحقيق وعده حيث أخذ على يده صهره « عين الدولة » . وفي منتصف أيار ١٩٠٦ أصيب الشاه بالشلل فانتهز « عين الدولة » الفرصة ليضرب ضربته ، فقد أصدر أمره بالقاء القبض على السيد محمد الطباطبائي ، وحين جاء الجنود للقبض على هذا المجتهد الكبير تجمع الناس لتخليصه من أيديهم ، فوقع من جراء ذلك اصطدام بين الجنود

والاهالي سقط فيه واحد من الاهالي قتيلاً ، وشاء القدر إن يكون هذا القتيل من طلبة العلم وسيداً من ذرية الرسول . ولما جرى تشييع السيد القتيل وقع اصطدام آخر سقط فيه خمسة عشر قتيلاً .

توتر الوضع في طهران الى الدرجة القصوى ، وغادر طهران كثير من المجتهدين حيث ذهبوا الى بلدة قم المقدسة للالتجاء فيها ، ثم أصدروا بياناً هددوا الشاه فيه أنهم سيغادرون ايران جميعا الى العراق ما لم يوف بوعده لهم في تحقيق المطاليب الشعبية . وأغلق أهل « البازار » دكاكينهم تأييدا للمجتهدين ، فأصدرت الحكومة أمرا بنهب كل دكان يغلقه صاحبه .

وهنا حدث حادث له مغزاه العميق ، فقد ذهب فريق من أهل « البازار » الى المفوضية البريطانية ينشدون معونتها ، وحين وجدوا منها تشجيعا التجأوا اليها فخيموا في حديقتها الواسعة الواقعة في ضاحية قولهك ، وهناك أخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم ، وأعلنوا أنهم لن يرجعوا الى فتح دكاكينهم حتى تجاب مطاليب المجتهدين .

يقول السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته التي سجل فيها بعض أحداث المشروطية : ان التجاء التجار الى المفوضية البريطانية أحدث فيهم تطورا فكريا ووعيا سياسيا جديدا ، فهم كانوا قبلئذ يطالبون بتأسيس مجلس الـ « عدالت خانة » ولكن زوجة المفوض البريطاني أخذت تفهمهم بأن طلبهم هذا لا قيمة له وأن هدفهم يجب أن يكون أوسع من ذلك وأهم وهو الحرية والمساواة والشورى . وقد كانت تلك السيدة مثقفة فاستطاعت أن تحدث فيهم التأثير المطلوب ..[١٣] .

مهما يكن الحال فان التجاء أهل « البازار » الى المفوضية البريطانية كان حدثاً مثيرا تحدثت عنه صحف العالم وأخذت تفسره تفسيرات شتى ، ونشرت جريدة التايمس اللندنية في عددها الصادر في ١٤ أيلول من عام ١٩٠٦ وصفاً للحادثة أرسله اليها مراسلها في طهران نذكر فيما يلي نبذة منه :

ان الالتجاء الى المفوضية بدأ في شهر تموز وأخذ عدد الملتجئين يتضخم بسرعة حتى بلغ في شهر آب اثني عشر ألفاً وأصبحت الاسواق كلها مغلقة ،

---

(١٣) علي الخاقاني (شعراء الغري) ـ النجف ١٩٥٦ ـ ج١ ص ٨٥ .

وكانت حديقة المفوضية مليئة بالخيام وهي مزدحمة بشتى الفئات ، تجارا وعلماء وحرفيين وغيرهم ، وأخذوا يضبطون أنفسهم ضبطا دقيقا فلم ينتج عنهم على الرغم من كثرة عددهم شيء كثير من الاذى ، وكانت مطابخهم وتحضير طعامهم في غاية النظام ، وكان منظرهم في الليل رائعاً حيث كان لكل خيمة روضخون خاص بها ، فيجتمع سكان الخيمة حوله ليستمعوا الى قصة المقتل حيث يبكون على طريقتهم العجيبة ويضربون رؤوسهم من شدة الحزن ...(١٤) .

اضطر الشاه اخيراً الى الرضوخ لارادة الشعب ، فعزل « عين الدولة » من منصبه ونصب في مكانه رجلاً من أنصار المشروطية هو نصرالله خان ، ثم أصدر أمره باجراء الانتخابات للمجلس النيابي الذي سمي بـ « المجلس الشوروي الملي » .

التجاء في كربلاء :

لم يمض على حادثة التجاء أهل « البازار » في طهران الى المفوضية البريطانية سوى مدة قصيرة حتى جرت في كربلا حادثة مماثلة خلاصتها . ان الحكومة المحلية في كربلا فرضت على الايرانيين الساكنين فيها ضرائب خاصة ، فأعلن الايرانيون احتجاجهم على تلك الضرائب وتذمرهم منها ، وكان يشجعهم على هذا الاحتجاج والتذمر محمد حسن خان القندهاري الذي كان يتولى وظيفة نائب القنصل البريطاني في كربلا . فكان هذا الرجل يغريهم ويمنيهم ، وقد وثقوا بوعوده فتجمعوا قريبا من دار القنصلية البريطانية الواقعة في محلة « الخيمگاه » وهم في حالة « الالتجاء » على الطريقة الايرانية . نفرشوا البسط في الشارع وعلقوا خياماً على الجدران ليستظلوا بها من وهج الشمس ، واستمروا على ذلك اكثر من خمسين يوماً يأكلون وينامون في مكانهم لا يتحولون عنه حتى سدوا الطريق على المارة .

كان المتصرف في كربلا يومذاك رشيد بك الزهاوي ، وقد حاول اقناعهم بالتفرق دون جدوى ثم وسط بعض رجال الدين في ذلك فلم يأبهوا لهم . وقد بعث المرزا حسين الخليلي والسيد كاظم اليزدي اليهم من النجف

(14) Edward Browne (op . cit .) P 119 — 120 .

رسلاً ينصحونهم فلم يستمع أحد منهم للنصح . واضطر المتصرف أخيرا أن يرسل اليهم مدير الشرطة لينذرهم فقابلوا المدير بالاستهزاء وكأنهم كانوا واثقين ان الحكومة في العراق كحكومة ايران لا تستطيع أن تنتهك حرمة « الالتجاء » ، أو لعلهم ظنوا أن بريطانيا العظمى كلها تقف الى جانبهم .

وجهت الحكومة اليهم ثلاثة انذارات متعاقبة كان الاول منها لمدة أسبوع ، والثاني لمدة أربع وعشرين ساعة ، والثالث لمدة ست ساعات . وقد حلت نهاية الانذار الثالث في منتصف ليلة القدر من شهر رمضان ١٣٢٤ هـ - الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٩٠٦ - فأحاط الجنود بالملتجئين ووجهوا عليهم رصاص بنادقهم من كل ناحية . ان الملتجئين لم يكونوا يتصورون ان الامر سيصل الى هذا الحد ، وقال قائل منهم : «لا تخافوا انه ليس رصاصاً حقيقياً» ، غير أنهم صاروا يتساقطون صرعى على الارض ، فأسرعوا يستغيثون بالقنصلية يدقون بابها لتسمح لهم بالدخول فلم يجدوا منها غوثا . وعند هذا أطلقوا سيقانهم للريح بعد أن سقط منهم سبعون قتيلاً وعدد كبير من الجرحى .

استطاع السيد علي الشهرستاني من علماء كربلا أن يذهب الى بغداد وأن يتصل بالقنصل الايراني ليخبره بما جرى ، وأبرق القنصل بتفاصيل الواقعة الى طهران واسطنبول . ثم وصل الى كربلا خبراء أرسلهم القنصل البريطاني من بغداد للتحقيق في الامر ، فشهدوا محل الواقعة وأثر الرصاص في جدران القنصلية . وكان من نتيجة ذلك أن عزلت الحكومة العثمانية والي بغداد مجيد بك وعينت في مكانه أبو بكر حازم بك .

ان السؤال الذي يواجهنا هنا : هل كان هناك ارتباط سببي بين واقعة كربلا وأحداث المشروطية في طهران ؟ وهل ان محمد حسن خان حرض الايرانيين على « الالتجاء » من تلقاء نفسه أم هو فعل ذلك بايعاز من الحكومة البريطانية ؟ ان في هذا سراً لا نعرفه ، وربما كشفت عنه الوثائق فيما بعد .

صياغة الدستور الايراني :

افتتح المجلس الملي في طهران في ٧ تشرين الاول من عام ١٩٠٦ ،

وقد حضر الشاه مظفر الدين حفلة الاحتفال على الرغم من مرضه . وكان أول عمل اهتم به المجلس الملي هو تأليف لجنة لصياغة مواد الدستور ، وقد تمت صياغة الدستور وصادق عليه الشاه في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٧ ، ثم مات الشاه بعد ذلك بأيام معدودة .

كان الدستور الايراني في كثير من نصوصه عبارة عن ترجمة حرفية للدستور البلجيكي الصادر في عام ١٨٣٠ ، فهو يقوم على أساس المبادىء الديمقراطية التي كانت شائعة في أوربا من حيث الاعتقاد بالقانون الطبيعي وحقوق الانسان ، ولكن لجنة صياغة الدستور حرصت على أن يكون موافقاً للشريعة الاسلامية لا يخالفها في شيء . نجد هذا واضحا في المادتين الاولى والثانية منه . وفيما يلي نصهما المترجم :

المادة الاولى : الدين الرسمي للدولة هو المذهب الجعفري الاثني عشري الحق من الاسلام ، ويجب على الشاه أن يقر بهذا المذهب ويحميه .

المادة الثانية : ان المجلس ، الذي تم تشكيله ببركة امام العصر عجل الله فرجه ، وتفضل جلالة الشاه ، وسعي العلماء كثر الله أمثالهم ، والامة الايرانية ، لا يجوز له أبدا أن يسن أي قانون مناقض لشرائع الاسلام المقدسة ... ومن الواضح أن العلماء هم الذين يقررون ذلك . ولهذا فالواجب رسميا في كل دورة من دورات المجلس أن تكون فيه لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص هم من المجتهدين والفقهاء الورعين ، والعارفين أيضاً لحاجات العصر ومقتضياته ... وعلى المجلس أن يعتبر هؤلاء أعضاء فيه . ووظيفتهم هي أن يدرسوا جميع اللوائح التشريعية فاذا وجدوا فيها ما يخالف الشرائع الاسلامية المقدسة رفضوه . وان قراراتهم في هذا الصدد واجبة التنفيذ ونهائية . وان هذا الشرط من الدستور لا يمكن تغييره الى حين ظهور امام العصر عجل الله فرجه[١٥] .

الشاه محمد علي :

بعد موت الشاه مظفر الدين تولى الحكم ابنه محمد علي ، وكان هذا

---

(15) Amin Banani (op , cit .) P 17 — 18 .

طاغية طماعاً سيء السيرة ، وأخذ منذ بداية حكمه يكيد للمجلس النيابي والحركة الدستورية ، ولهذا تميز عهده القصير بالصراع العنيف بين أنصار « الاستبداد » وأنصار « المشروطية » .

ومما زاد في شدة الصراع عقد المعاهدة الروسية البريطانية في ٣١ آب ١٩٠٧ . ففي هذه المعاهدة اقتسمت الدولتان النفوذ في ايران حيث حصلت روسيا على القسم الشمالي منها بينما حصلت بريطانيا على القسم الجنوبي ، فكان ذلك بمثابة ضربة قاسية على انصار المشروطية اذ أصبحت طهران ومناطق ايران الشمالية تحت النفوذ الروسي مما شجع الشاه محمد علي على التمادي في نزعته الاستبدادية ، وصار حرا يعمل ما يشاء دون أن يخشى من تدخل بريطانيا في دعم انصار المشروطية[١٦] .

كان الشاه محمد علي يحيط به مستشارون روس ، وهو يتأثر بآرائهم تأثيرا كبيرا ولا سيما برأي رجل منهم يهودي اسمه شبشال[١٧] . يقول المؤرخ لنشوفسكي : ان الروس كانوا يعتقدون بأن حركة المشروطية هي من تدبير بريطانيا ويعتبرونها مهددة لسطوتهم ونفوذهم في ايران ، فاستغلوا تقربهم من بريطانيا في عام ١٩٠٧ وشجعوا الشاه محمد علي على تعطيل الدستور[١٨] .

صار الشاه محمد علي على أي حال يبذل الاموال ويحشد الانصار في سبيل القضاء على حركة المشروطية في بلاده ، وكان الشعار الذي رفعه في ذلك هو أن الدستور بدعة مخالفة للشريعة الاسلامية . وقد أيد الشاه في موقفه هذا لفيف من رجال الدين الكبار على رأسهم الشيخ فضل الله النوري ، وكان هذا الرجل من انصار المشروطية في أول الامر ثم انفصل عنهم واخذ يحاربهم حرباً لا هوادة فيها ويتهمهم بأنهم بابيون وزنادقة . أما أنصار المشروطية فكان يتزعمهم السيد محمد الطباطبائي والسيد عبدالله

---

(١٦) ف . و . فرنو (المصدر السابق) — ج٢ ص ١٥ .

(17) Peter Avery (op . cit .) -- P 128

(١٨) جورج لنشوفسكي (الشرق الاوسط في الشؤون العالمية) — ترجمة جعفر خياط — بغداد ١٩٦٤ — ج١ ص ٦٨ .

البهبهاني • وبهذا انقسم الشعب الايراني الى حزبين متطاحنين ، وصار كل حزب منهم يكفر الحزب الآخر ويدعو الى محاربته •

تألفت في طهران وأكثر المدن الايرانية نواد أو مجالس محلية تشبه تلك التي ظهرت في فرنسا ابان ثورتها الكبرى[19] ، وقد أطلق عليها اسم « الانجمن » • فكانت هذه النوادي تجمع التبرعات وتحشد الانصار وتدربهم على السلاح بغية الدفاع عن المشروطية • وكثيراً ما شوهد رجال الدين بعمائمهم وهم يتدربون على استعمال البنادق معتقدين أنهم يقومون بواجب الجهاد في سبيل الله •

وبعد صراع عنيف بين الشاه والمجلس النيابي استطاع الشاه في حزيران ١٩٠٨ أن يوجه للمشروطية ضربة قاصمة ، فأعلن الاحكام العرفية ووجه جنود « القوزاق » بقيادة لياخوف الروسي لتطويق المجلس ، ثم أمر باطلاق المدافع عليه • وأنتشر الرعب في طهران ، وأخذ أنصار المشروطية يلوذون بالفرار ، فاستطاع بعضهم أن يلتجيء الى المفوضية البريطانية وينجو بنفسه بينما وقع البعض الآخر في قبضة القوات الحكومية • وقد شنق من المقبوض عليهم اثنان احدهما المرزا جهانكير خان صاحب جريدة « صور اسرافيل » الثورية ، والثاني هو المرزا نصرالله الاصفهاني الذي كان من أشد وعاظ المشروطية تأثيراً في الجماهير حتى كان يلقب بـ « ملك المتكلمين » وهو الذي لا يزال تمثاله قائماً في أحد شوارع طهران •

وبعد أن انتصر الشاه في طهران أبرق الى ولاته في أنحاء ايران يأمرهم بالغاء المشروطية وتشتيت شمل أنصارها وسد نواديهم • وأخذ الولاة ينتقمون من أنصار المشروطية ، فكانوا يجلدون من يقع في أيديهم منهم أو يبعدونه أو يحبسونه •••

لم يهنأ الشاه بانتصاره طويلاً ، فقد هبت الثورات عليه في بعض المدن ، وكان أهم هذه الثورات تلك التي نشبت في تبريز اذا استطاع أنصار المشروطية فيها أن ينظموا أنفسهم تنظيماً جيدا وتمكنوا من السيطرة على

---

(19) Percy Sykes (op . cit .) Vol 2 . P 408

المدينة فترة غير قصيرة من الزمن[٢٠] • وقد شجعت هذه الثورة أهل رشت لأن يقوموا بثورة مماثلة ، وتحركت القوات الرشتية نحو مدينة قزوين فاحتلتها ثم توجهت نحو طهران • وجاءت الضربة القاصمة اخيراً على يد الحاج علي قلي خان رئيس قبائل البختيارية في منطقة أصفهان وهو المعروف بلقب « السردار أسعد » ، فقد حشد هذا الرجل قوات مقاتلة يبلغ عدد افرادها الفين ومعها عدة مدافع • وفي حزيران من عام ١٩٠٩ توجه السردار أسعد بقواته نحو طهران ، والتقى على مقربة منها بالقوات القادمة من رشت ، وفي ١٢ تموز دخل طهران فاتحاً • وعند هذا أدرك الشاه حراجة موقفه فالتجأ الى المفوضية الروسية طلباً للسلامة ، وأعلن الثوار عزله عن الملك وتتويج ابنه أحمد الذي كان في الثانية عشرة من عمره •

الشقاق في العراق :

ان هذه الاحداث الصاخبة التي حدثت في ايران لا يمكن أن تمر دون أن يكون لها صداها في المجتمع العراقي • والواقع ان الرسائل والاستفتاءات أخذت تنهال من ايران على كبار المجتهدين في النجف تسألهم عن المشروطية هل هي حلال أم حرام • وكان جواب المجتهدين في أول الامر أن المشروطية موافقة للشريعة الاسلامية ، غير أنهم انقسموا بعدئذ على منوال ما انقسم علماء ايران ، فادى ذلك الى ظهور الجدال والتنازع في أوساط العامة مما كان له أثره البالغ في المجتمع العراقي وتطور وعيه السياسى •

من أوائل الرسائل التي وردت الى علماء النجف تستفتيهم في أمر المشروطية كانت هذه الرسالة ننقلها بعد ترجمتها الى العربية :

الى حضرات المجتهدين وحفظة الحكمة الآلهية ــ لابد وانكم سمعتم بمجلس الشورى الشعبي وانتم تعرفون جيدا أن هذا المجلس الذي يعمل على حفظ القوانين المستمدة من الطريقة الاثنى عشرية المقدسة لمحو الظالمين والخائنين ونشر العدل على جميع البلاد وأعلاء شأن الراية الايرانية ،

---

(٢٠) انظر المقالات المتسلسلة التي نشرتها مجلة العرفان الصيداوية في عام ١٩٢٣ بقلم السيد احمد كسروي التبريزي •

ويؤسفنا أن عـددا من الانانيين المفسدين أخـذوا ينشـرون الافتراءات والاكاذيب من أجـل محو المجلسـ . فنحن ننتظر فتواكم في بيان تكليف المسلمين في هذا الشأن » .

وعلى أثر وصول هذا الاستفتاء الى النجف اجتمع كبار علمائها للجواب عليه ، وكانت فتواهم التي اتفقوا عليها هي كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ، ولعنة الله على القوم الظالمين الى يوم القيامة . أما بعد فبالتأييدات الالهية والمراحم السـماوية وتحت توجيهات الهادي العالي الشأن حضرة صاحب الزمـان روحنا فداه : ان قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلـوا هـذه القوانين وينفذوها . وعليه نكرر قولنا : ان الاقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الاقدام على مقاومة أحكام الدين الحنيف ، فواجب المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس[21] » .

وقد وقع على هذه الفتوى الملا كاظم الخراساني بالنيابة عن زملائـه المجتهدين ، ولم يشذ عنهم في ذلك سوى مجتهد واحد هو السيد كاظـم اليزدي اذ امتنع عن التوقيع . وكان امتناع هذا المجتهد بداية الانقسام بين المجتهدين ، ثم أخذ الانقسام يشتد ويستفحل بمرور الايام .

انقسم أهل النجف الى فريقين متعاديين : أحدهما يدعو الى المشروطية بزعامة الملا كاظم الخراساني ، والآخر يدعو الى الاستبداد بزعامة السيد كاظم اليزدي . ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ما في المجتمع النجفي من ميل مفرط الى الجدل بوجه عام ، فلما جاءت قضية المشروطية كـانت حافزاً جديداً فيه حيث أنثال الناس يتجادلون حولها بعنف شديد الى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل . وقد أشار أحد الشعراء الى ذلك حيث قال :

تغيرت الدنيـا وأصبح شرهـا يروح بافراط ويغـدو بتفريط
الى اين يمضي من يروم سـلامة وما الناس الا مستبد ومشروطي[22]

---

(٢١) محمد علي كمال الدين (التطور الفكري في العراق) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٢٣ ــ ٢٤

(٢٢) محسن الأمين (أعيان الشيعة) ــ دمشق ١٩٤٨ ــ ج ٧ مكرر ص ٤٦١ .

حدثني الكتبي النجفي عبدالحميد زاهد : أنه كان في تلك الايـــام صبياً يلعب مع أقرانه في الازقة ، فكان الصبيان عند اللعب يقسمون أنفسهم الى فريقـــين : مستبد ومشروطة ، ثم نشبت المعـــارك بينهم تقليدا لمـــا يقع بين الـــكبار •

ومما زاد في الطين بلة أن الروس أسسوا في النجف قنصلية وعينوا لها رجلاً واسع الحيلة شديد الدأب في مقاومة المشروطية هو أبو القاســـم الشيرواني ، فتم التعاون بينه وبين اليزدي• واستطاع اليزدي انيستميل اليه الكثير من العامة ومغاوير المحلات من رجال « الزقرت » و « الشمرت » ، فكان اذا خرج الى الصلاة حف به المسلحون من أعوانه وهم يهتفون بالصلاة على محمد وآل محمد ــ تحدياً لانصار المشروطية• وصارت الاشاعات تروج في أوساط العامة حول المشروطية بأن المقصود منها هـــو هـــدم الـــدين وافساد الاخلاق •

وفي أحد الايام ظهر على بعض الجدران في النجف اعلان فيه صورة يد تمسك مسدساً وفيه تهديد لليزدي بأنه سيقتل اذا لم ينزل علـــى ارادة أنصار المشروطية ، فهاج العوام لذلك وثارت بهم « الغيرة على ابن رسول الله » باعتبار ان اليزدي سيد من ذرية الرسول • وصار أنصار المشروطية عرضة للاعتداء والضرب في الاسواق والطرقات بحجة أنهم زنادقة مارقين عن الـــدين •

الواقع ان الجدال حول المشروطية لم يقتصر على النجف وحدها بل سرى الى كربلا والكاظمية وبعض المدن الشيعية الاخرى • حدثني أحد المسنين من أهل الكاظمية عما جرى في هذه البلدة من نزاع شديد وجـــدال حول المشروطية ، فقد كان اكثر العامة من دعاة الاستبداد ويعدون المـــلا كاظم الخراساني هو واتباعه كفاراً ولا يكادون يسمعون عن أحد العلمـــاء أنه « مشروطـــة » حتى ينفضوا عنه ويلعنوه ويتركوا الصلاة خلفـــه • حاول أحد دعاة المشروطية ، وكان شاباً شديد الحماس ، أن يجمع التواقيع في تأييدها ، فذهب الى أحد العلماء في الصحن الكاظمي يطلب منه توقيعه ولما وجده يرفض اعطاء خاتمه للتوقيع سحب السجادة من تحته ومنعه من الصلاة ، وقد حدثت في الكاظمية ضجة من جراء ذلك وهب نفر من مغاوير

المحلات فطاردوا الشاب ثم أمسكوا به في أحد الازقة واعتدوا عليه اعتداءاً منكرا . وحين علمت الحكومة بالامر أرسلت قوة من الجنود لحماية الاستبداديين ، فأدى ذلك الى انكماش المشروطيين وتضاؤل نفوذهم في البلدة ، وظل الوضع كذلك فيها حتى يوم اعلان الدستور في البلاد العثمانية حيث انقلب الوضع الى عكسه .

من النوادر الادبية التي تروى عن تلك الفترة ان أحد علماء الكاظمية وهو السيد محمد مهدي الصدر نظم بيتين من الشعر في ذم الاستبداديين ، فانبرى الشيخ عبدالحسين الاسدي يرد عليه حيث قام بتشطير البيتين مما أدى الى قلب معناهما الى النقيض منه . ننقل فيما يلي البيتين مع تشطيرهما، وقد وضعنا التشطير بين قوسين تمييزا له عن الاصل :

المستبدون قد تاهوا بغيهم	(بذاك قد قال قوم وافتروا زورا)
(صم وبكم فهم لا يعقلون كما)	لم يجعل الله في أبصارهم نورا
لوكان يمكنهم أن ينسخوا نسخوا	(ما كان في لوحه المحفوظ مسطورا)
(مالوا لشورى الأولى قدحرفوا علناً)	من الكتاب عناداً آية الشورى

عند اعلان الدستور العثماني :

أعلن الدستور في البلاد العثمانية في ٢٣ تموز من عام ١٩٠٨ ، وانتشرت مظاهر الزينة والابتهاج في العراق بتلك المناسبة ، على نحو ما سنذكره في الفصل القادم . فكان هذا التحول الفجائي في موقف الحكومة العثمانية من المشروطية عاملاً مهماً في تدعيم موقف الملا كاظم الخراساني وأعوانه وانخذال أعوان السيد كاظم اليزدي .

من طبيعة العامة أنهم يستأسدون في حالة الامن من الخطر ، فاذا حل بهم الخطر انكمشوا في بيوتهم وأخذ كل منهم يتبرأ من عمل آخر ويزعم أنه لا دخل له في الامور . وهذا هو ما حدث في النجف عند اعلان الدستور العثماني ، فقد انكمش العوام أتباع اليزدي وأصبح الجو ملائماً لاتباع الخراساني يصولون فيه ويجولون . ونظم الشيخ علي الشرقي قصيدة يهجو بها اليزدي ويتشفى به ، كما نظم السيد صالح الحلي بعض الابيات اللاذعة من الشعر قارن في أحدها بين اليزدي ويزيد .

كان قائمقام النجف يومذاك ناجي السويدي ، وهو بغدادي أديب لـه صلات حسنة مع أنصار المشروطية ، وقد بذل جهـده في تأييدهم . ثم زار النجف ثريا بك من زعماء الاتحاديين فاجتمع بالخراساني في احدى المدارس الدينية ، فكان يوماً حافلاً في النجف ابتهج له الانصار وابتأس الخصوم . ويمكن القول ان بعض الذين كانوا من أنصار اليزدي تحولوا عنه وأخذوا يتملقون للحكومة ويهتفون بأعلا أصواتهم « يعيش الدستور ! » ــ وليس هذا بالامر الغريب !

انذار الخراساني الى الشاه :

عندما اشتد الصراع بين الشاه محمد علي وانصار المشروطية في ايران وضع الملا كاظم الخراساني كل ثقله الى جانبهم ، وبذل جهودا كبيرة لتدعيم موقفهم ضد الشاه .

كان للخراساني كاتب نشيط اسمه الشيخ علي المحلاتي ، فكان هـذا الكاتب يأخذ الفتاوي والمقالات التى يصدرها الخراساني ضد الشاه فيطبع منها آلاف النسخ ثم يرسلها تهريباً عبر الحدود الى ايران لكي توزع هناك سراً . وكان لهذه المنشورات اثر لا يستهان به في تحريض الايرانيين على الشـاه وفي عزله أخيراً . ننقل فيما يلي ترجمة جزءاً من أحد تلك المنشورات حيث يخاطب الخراساني فيه الشاه بشدة وينذره ويتوعده :

« يا منكر الدين ويا أيها الضال الذي لا نستطيع مخاطبتك بلقب شاه . كان المرحوم أبوك أعطى الدستور ليرفع الظلم والتصرفات غير القانونيـة عن الشعب الذي كان في ظلام دامس قروناً عديدة حيث أنـه لا يوجـد في المشروطية شيء يخالفه الدين ... ولكنك من اليوم الاول الذي تبوأت فيه عرش السلطة وضعت تحت أقدامك جميع الوعود والايمان وعملت بجميـع الحيل ضد المشروطية . وقد تجلى لنا خطأنا فيك حيث سعيت أن تجعلنـا آلة بيدك ضد المجلس ... والآن سمعنا أنك أرسلت الينـا أحـد رجالك المقربين لشراء ذممنا بالذهب ، ولست تعلم أن سعادة الشعب أثمن كثيرا من ذهبك ... ان ذكرك للدين والشريعة كذب وهراء أردت بكذبك هذا اغفال البسطاء المتمسكين بالدين لتمنع الدستور وتجعل الناس في ذل وفقر . وعلى

هذا انت عدو للدين المقدس وخائن للوطن وتشبه السارق الذي يسرق الناس باسم الدين والشريعة ... انك انت والمجتهدون المرتزقة الذين يدعون بمخالفة المشروطية للشرع يتجاهلون حقيقة الدين بأن العدالة شرط حتى في الامور الجزئية ... واذا حصل تأخر منك عما قلنا فاننا سوف نحضر جميعاً في ايران ونعلن الجهاد ضدك . ولنا في ايران اتباع كثيرون ، والمسلمون كثيرون أيضا . فاننا أقسمنا على ذلك(٢٣) » .

الوضع في كربلاء :

كان الوضع في كربلا يختلف عن الوضع في النجف من بعض الوجوه ، فقد كان في كربلاء حينذاك واعظ ايراني من أنصار الاستبداد اسمه السيد أكبر شاه ، وكان خطيباً مصقعاً له لحية طويلة وتأثير قوي على العامة . انه كان يعظ ضد المشروطية قبل اعلان الدستور العثماني ، وظل يخطب بعد اعلانه من غير أن يخشى أحدا .

وفي شهر آذار من عام ١٩٠٩ وصل الى كربلا واعظ ايراني من المشروطيين اسمه الشيخ جواد ، وبدأ منذ ذلك الحين نزاع شديد بين الرجلين من على المنابر . وانقسم أهل كربلا الى فريقين ، كل فريق التزم واعظا ، وصار يكفر بعضهم بعضاً .

كان قتل الحسين من المواضيع التي اتخذها الفريقان مستندا لهما في الجدل . فأنصار المشروطية يعتقدون ان الحسين انما قتل بسيف الاستبداد وأنه لو كان نظام المشروطية سائدا في زمانه لاختاره المسلمون خليفة عليهم بدلاً من يزيد . أما أنصار الاستبداد فرأيهم أن المشروطية تعني الشورى وأن الشورى هي التي أدت الى ضياع الخلافة من أهل البيت ووصولها الى رجل مثل يزيد

نشرت جريدة الرقيب البغدادية في ١ نيسان ١٩٠٩ وصفا لما كان يحدث في كربلا من جدال بين الشيخ جواد والسيد اكبر شاه ، ومضمون ما ذكرته الجريدة هو : ان الاحرار الايرانيين والعثمانيين استبشروا بوصول الشيخ جواد الى كربلا ، فغص الجامع بالناس لسماع خطبه المؤثرة ، وقد ذكر

---

(٢٣) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) — ص ٢٦ — ٢٧ .

الشيخ ما أمر به النبي من اجراء العدل والمساواة ، ثم أشار الى أن الحسين لم يقتل الا بسيف الاستبداد ، وعند هذا قام أحد أركان « المستبدين » يرد على الشيخ ويثلبه ، وهو لم يجرأ على ذلك من تلقاء نفسه « لانه أحقر من ذلك » بل كان مدفوعاً من قبل حزبه الذين « يريدون ليطفئوا نور الله » ولولا حضور وكيل المتصرف لحصل ما لا يحمد عقباه ، وفي اليوم التالي حضر الشيخ جواد « رغما عن أركان حزب التقهقر » يحيط به الاحرار « اطاحة الهالة بالقمر ... فرمى الله بالذل والخزي اولئك الاضداد لكل فضيلة، وعند ذلك تهللت وجوه الاحرار ... وتكلم الخطيب بما خطر له من مدح العدل وقدح الظلم ، والثناء على الاحرار والطعن في المستبدين الاشرار ، فلم يستطع من اولئك الظلمة أحد أن يفوه بكلمة ... »[٢٤] .

أمرت الحكومة السيد اكبر شاه أن يغادر كربلا الى الكاظمية ، وقد علقت جريدة الرقيب على ذلك في ٥ نيسان حيث تساءلت عن الفائدة من نقل هذا الواعظ من مدينة الى أخرى داخل العراق وهل أن ذلك سيرفع الضرر الناتج عن خطبه المثيرة الداعية الى مبادىء الاستبداد والظلم ؟! يبدو أن الجريدة كانت تريد من الحكومة أن تبعد الواعظ الى ايران وتنقذ العراقيين من شره .

الفوضى في ايران :

كان الايرانيون يعتقدون ان المشروطية عند تطبيقها في بلادهم ستكون علاجاً ناجعاً لجميع مشاكلهم فلا يشكون بعد ذلك من شيء ، ولكنهم وجدوا بعد انتصار حركة المشروطية وعزل الشاه محمد علي أنهم وقعوا في حالة هي أسوأ مما كانوا فيها .

أصبح كل من ساهم في الحركة طامحاً أن ينال أعظم المناصب مكافأة له على جهاده في سبيل « الملة » ، وظهرت عصابات اللصوص في كثير من الانحاء يعبثون بالامن ويقطعون الطرق ، وامتنع حكام الاقاليم عن ارسال

---

(٢٤) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

ما عليهم من مبالغ للخزينة المركزية ، واقسم الناس شيعاً واحزاباً كل حزب يعتقد ان رأيه هو الذي يجب أن يتبع في اصلاح البلاد .

ان قبائل البختيارية حصلت من تلك الفوضى على حصة الاسد ، فقد احتلت مدينة أصفهان بحجة حماية الثورة ، واستحصلت من الخزينة المركزيه مبلغا شهريا قدره عشرون ألف تومان بدعوى حراسة الطريق ، وذلك علاوة على ما كانت تجبي من الناس من ضرائب مباشرة . ومن الطرائف التي رويت في هذا الصدد أن لصاً من قطاع الطرق اسمه نائب حسين الكاشاني نهب ذات مرة أحد البختياريين وقال : ان هذه هي حصتي من الغنائم[٢٥] .

وكانت جلسات المجلس الملي تمثل أعجب المشاهد وأدعاها للسخرية ، فقد كان الجدال بين النواب عنيفاً والشتائم متبادلة ، وكثيرا ما شارك المستمعون فيها ، وكان كل نائب يريد أن يخطب بحماس لينال اعجاب الغوغاء ، حتى اذا خرج من المجلس توقع أن ينال من أهل الاسواق حمداً وتقديرا . واذا كان النائب شديد التعصب جهوري الصوت استطاع أن يغلب الآخرين ، في الجدال ، ثم يدعي بعدئذ ان الحكومة لم تأخذ برأيه ولو كانت قد أخذت به لارتقت ايران الى مصاف الدول العظمى .

كتب الوزير المفوض البريطاني الى حكومته يقول مامضمونه . ان الايرانيين سيبقون الى مدى جيلين غير جديرين بالنظام الدستوري . وقد علق أحد البريطانيين الذين كانوا يسكنون في طهران يومذاك على هذا القول اذ وضع اللوم على بريطانيا واعتبرها مسؤولة عن نشر الديمقراطية في البلاد التي لا تصلح لها ...[٢٦] .

من الاعمال التي تورط بها أنصار المشروطية عند انتصارهم أنهم شنقوا المجتهد الكبير الشيخ فضل الله النوري الذي كان يتزعم انصار الاستبداد في عهد الشاه محمد علي ، وكان شيخا وقورا كبير السن ، وقد قام بشنقه على ملأ من الناس رجل أرمني اسمه بيريم كان مديراً للشرطة حينذاك ، فأدى ذلك الى شيوع التذمر في اوساط الكثيرين من

---

(25) J .M . Balfour (Recent Happennings In Persia) — London 1922 — P 99 .

(26) Ibid , P 85 .

الناس . وانتهز الخصوم الفرصة فجعلوا شنق الشيخ بمثابة « قميص عثمان » وأقاموا له مجالس الفاتحة وحفلات التأبين في كل مكان ، وأخذوا يبالغون في تمجيد الشيخ بغية التشهير بالمشروطية وانصارها . ولم يقتصر ذلك على ايران بل سرت عدواه الى العراق فأخذ خصوم المشروطية فيه يكثرون من أقامة مجالس الفاتحة على روح الشيخ وينادون : « أويلاخ ، قتل شيخنا مظلوماً ! » .

اعلان الجهاد على روسيا :

في عام ١٩١١ حصل اختلاف حول بعض الامور المالية بين روسيا والحكومة الايرانية ، فزحفت القوات الروسية نحو مدينة تبريز فاحتلتها ، ثم عمدت الى شنق بعض رجال الدين فيها من أجل ارهاب غيرهم ، فأدى ذلك الى الهياج التام في ايران فأعلن رجال الدين الجهاد وأمروا الناس بالتدريب على السلاح . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن سكان كرمان ، وهي بلدة تقع في الجنوب من ايران ، تحمسوا للجهاد أكثر من غيرهم وأخذوا يتدربون على السلاح تحت اشراف رجال الدين وهم عازمون عزماً أكيدا على غزو روسيا وعزل القيصر . ولم يمر على ذلك سوى مدة قصيرة حتى ظهرت بالقرب من البلدة عصابة من اللصوص وأخذت تقطع الطرق وتنهب القوافل حتى وصل مجال فسادها الى أبواب البلدة . فاستنجد المسؤولون في البلدة بالقنصل البريطاني وطلبوا منه قوة لمحاربة العصابة ، وقد اعتذر القنصل لهم ثم سألهم متعجباً : لماذا لا يستطيع المجاهدون أن يحاربوا عصابة صغيرة من اللصوص بينما هم يستعدون لمحاربة روسيا كلها . فكان جواب المسؤولين : أن المجاهدين انما يستعدون لمحاربة روسيا لانها بعيدة عنهم ، ولكن اللصوص قريبون[٢٧] !

وكانت حركة الجهاد قد انتشرت في العراق أيضاً ، فقد أوعز الملا كاظم الخراساني بنصب الخيام في ظاهر النجف وتعبئة المجاهدين فيها استعدادا للزحف على روسيا . وقد نصبت الخيام فعلا وتهيأ الناس

(27) Ibid . P 32 — 33

السفر ، وامتلأ الجو بأهازيج العشائر والخطب الرنانة .

وفي ليلة ١٢ كانون الاول من عام ١٩١١ بينما كان الخراساني على أهبة السفر شعر بتوعك مفاجيء في صحته ، فاصفر وجهه وانتابه العرق الغزير ، وقبل أن تشرق شمس الصباح التالي أدركته الوفاة . فاستدعي اليه طبيب الحكومة ، وقد قرر هذا بعد فحصه أنه مات بالسكتة القلبية . ولكن الناس لم يصدقوا ذلك وأخذت الاشاعات تروج بينهم في أنه مات مسموماً بأيدي الجواسيس ، وانتشرت بينهم قصة مفادها أن رجلاً كان قد أهدى اليه قبيل وفاته تفاحة صفراء وهي التي جرت عليه البلاء[٢٨] .

تفرق المجاهدون على أثر موت الخراساني ، وطويت الخيام ، وانشغل الناس بالنوح على الفقيد واقامة مجالس الفاتحة والقاء القصائد الشعرية في تأبينه . حدثني أحد المسنين من اهل الكاظمية : أنه كان عند وفاة الخراساني صبياً وكان يسمع باذنه سب الخراساني وتكفيره شائعاً على ألسنة الكبار المحيطين به ، وصادف أن ذهب الى النجف مع أهله للزيارة في تلك الايام فوجد المآتم والفواتح تقام للخراساني في كل مكان، فكان عجبه شديداً وأخذ يسأل أهله : كيف يجوز للناس أن يقيموا المآتم للكافر أي للخراساني ؟! ولم يستطع أهله أن يقدموا له جواباً مقنعاً .

وفي أواخر آذار ١٩١٢ وصل الى العراق خبر مفاده ان الجيوش الروسية قصفت بالمدافع مشهد الرضا في خراسان فانهدم جزء من القبة والسقف وأدى ذلك الى قتل وجرح عدد من الزوار الذين كانوا يتهجدون فيه . وعند هذا ساد الهياج في مختلف انحاء ايران والعراق ، ووجد المجتهدون في العراق ان من الضروري استئناف حركة الجهاد من جديد .

اجتمع في الكاظمية لفيف من المجتهدين كان فيهم : السيد مهدي الحيدري ، والشيخ مهدي الخالصي ، والسيد اسماعيل الصدر ، والشيخ عبدالله المازندراني ، والشيخ فتح‌الله الاصفهاني ، والشيخ محمد حسين القمشئي ، والسيد علي الداماد ، والسيد مصطفى الكاشاني ، وقرروا اعلان الجهاد على روسيا على منوال ما فعل الخراساني الراحل .

---

(٢٨) مجلة العلم النجفية ــ العدد السابع ــ السنة الثانية .

امتنع مجتهدان كبيران عن الحضور الى مؤتمر الكاظمية وعن الانضمام الى حركة الجهاد وهما : المرزا محمد تقي الشيرازي في سامراء، والسيد كاظم اليزدي في النجف . فقرر الشيخ مهدي الخالصي أن يسافر بنفسه اليهما بغية اقناعهما بالانضمام الى الحركة، ولم يجد الخالصي صعوبة في اقناع الشيرازي عندما ذهب اليه في سامراء ، غير أنه عند ذهابه الى النجف لم يتمكن من الاجتماع باليزدي لمحادثته في الموضوع اذ كان هذا يتهرب من لقياه المرة بعد المرة .

وفي أحد الايام بينما كان الخالصي في النجف يواصل مساعيه للاجتماع باليزدي وقع عليه اعتداء من قبل بعض العامة ، وقد أسرع الخالصي الى مغادرة النجف والعودة الى الكاظمية درءاً للفتنة . وحين سمع أهل الكاظمية بالحادث تحفزوا لاخذ الثأر اذ لم يهن عليهم أن يعتدي أهل النجف على عالمهم دون أن ينتقموا له . وقد بذل الخالصي جهده لتهدئتهم .

كان والي بغداد يومذاك جمال بك ، وكان على صلة وثيقة بالخالصي، فلما سمع بحادث الاعتداء عليه أمر بالقاء القبض على المعتدين وبسوقهم مكبلين الى بغداد . وانبرى الخالصي يتشفع لهم عند الوالي حتى جعله يأمر باطلاق سراحهم . وفي زحمة هذه الاحداث نسي الناس جهاد الروس وانشغلوا بجهاد بعضهم بعضاً ! .

نظرة عامة :

اننا حين ننظر الى حركة المشروطية بوجه عام نستطيع أن نقول انها على علاتها كانت ذات أثر اجتماعي وفكري لا يستهان به في تطوير المجتمع العراقي . ينبغي أن لا ننسى ان أنصار المشروطية كانوا في ذلك الحين يمثلون « الجبهة التقدمية » بالنسبة للمرحلة الاجتماعية التي عاشوا فيها ، فهم كانوا يدعون الى تأسيس المدارس الحديثة ، وتعلم اللغات والعلوم الاوربية ، ومطالعة الجرائد والمجلات . وهذه كانت يومذاك من الامور المستنكرة أو المحرمة في نظر العامة والكثير من رجال الدين .

كان شباب المشروطية في النجف من اكثر الناس اندفاعاً في التطلع

الى الحضارة الحديثة والاقتباس منها ، فكانت الكتب والمجلات والجرائد الحديثة ترد اليهم خلسة ، وكانوا يجتمعون في بيت أحدهم سرا لمطالعتها. واذا خرجوا من البيت أخفوها تحت عباءاتهم لكي لا يراها أحد من العامة أو المتزمتين من رجال الدين فيثيرها عليهم شعواء .

أهم ما الف في الدعوة الى مبادىء المشروطية في تلك الفترة كتاب صدر في النجف باللغة الفارسية عنوانه « تنبيه الامة في وجوب المشروطة». وكان مؤلفه المرزا محمد حسين النائيني من كبار تلامذة الملا كاظم الخراساني ، وقد جاء فيه بآراء جريئة جداً بالنسبة لزمانها كتعليم المرأة واصدار الصحف وحرية الرأي وما أشبه . ومما يدل على أهمية الكتاب أن مؤلفه حاول التملص منه عندما صار من المراجع الكبار اذ هو خاف أن ينفر المقلدون منه بسبب هذا الكتاب . ففي عام ١٩٢٩ ترجم أحد النجفيين الكتاب الى العربية ونشره تباعاً في مجلة العرفان الصيداوية ، فأوعز النائيني الى حاشيته بشراء جميع نسخ المجلة التي وردت الى العراق لكي لا تصل الى أيدي القراء .

محمد مهدي الموسوي :

ان الكثير من رجال الدين ما زالوا حتى الآن يحملون أسوأ الاثر عن المشروطية ويلعنونها لعناً وبيلاً . التقيت بأحد هؤلاء منذ عهد قريب ، وهو السيد محمد مهدي الموسوي الاصفهاني الكاظمي ، فسالته عن رأيه في المشروطية ، ولم يكد يسمع سؤالي حتى انبرى يذمها ذماً قبيحاً ووصفها بأنها « خراب الدين » ، ثم قال : انها هي التي أوصلتنا الى مانحن فيه من ضياع !

ولهذا الرجل كتاب عنوانه « أحسن الوديعة في تراجم مشاهير مجتهدي الشيعة » ، وقد تطرق في كتابه الى ذكر المشروطية عند ترجمته للشيخ فضل الله النوري ، فهو يقول فيه ما نصه :

« وكان رحمه الله من كبار العلماء المجتهدين وأجلاء الفقهاء المحدثين والادباء البارعين والنبلاء الجامعين ولدين الله من الناصرين ... وقد صلبه أشرار الفرقة المعروفة بالمشروطة ، والمتولي لصلبه بأمرهم رجل من الأرامنة

يدعى بيرم ... في طهران بملأ من الناس ، ولم يتكلم أحد أبدا ، من دون جرم وتقصير لسبب ليس محل ذكره هنا . وقد قتلت هذه الفئة المعروفة جمعاً كثيرا من أعاظم علمائنا ... وكان غرضهم من ذلك محو الدين كي تكون لهم الحرية التامة فيفعل كل منهم ما يشاء ويحكم ما يريد من دون معارض لهم (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتمه) اذ مع نفوذ العلماء ما كانوا يقدرون أن ينثوا آرائهم الباطلة وينشروا عقائدهم الفاسدة في البلاد الاسلامية ولكن للبيت رب يحميه وللدين صاحب يقيه ... » .

ويعود السيد محمد مهدي الموسوي الى ذم المشروطية في موضع آخر من كتابه عند ترجمته للسيد كاظم اليزدي ، فهو يصفها على النحو التالي :ـ

انها هي التي أنزلت الملوك عن عروشها والسلاطين عن تخوتها ، وقتل فيها العلماء الورعون والوزراء العادلون ، وأحدثت في الاسلام ثلمة عظيمة لا يسدها الا ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل لنا مخرجه ، وقد ذهب أبالسة المشروطة الى حجة الاسلام السيد محمد كاظم اليزدي عليه الرضوان ليدخلوه في حزبهم العاطل كما أغفلوا جماعة من معاصريه ، ولكن سيدنا المعظم استلم سرا عن أحوال الحزب المشروطي من أهالي بعض المدن الايرانية ، ممن يثق بقولهم ، فلما كتبوا له حقيقة الامر لم يدخل في الحزب وقعد في داره خائفا يترقب . وقد أرادوا قتله لكن رؤساء أعراب النجف ، وهم أهل الغيرة والحمية والديانة والفتوة ، حفوا به وطافوا حول داره كطوافهم حول الكعبة المشرفة ، فلم ير العدو الفرصة في قتله . وظني أن رؤساء النجف هؤلاء لو كانوا في طهران لمنعوا من قتل الشهيد السيد عبدالله البهبهاني ... « اللهم أرنا الفجر الصادق والنور البارق ، الطلعة الرشيدة والغرة الحميدة ، مولانا امام العصر والزمن ، الحجة بن الحسن (ع) ، ليأخذ من أعداء الدين ثار المسلمين ...(٢٩) » .

---

(٢٩) محمد مهدي الموسوي (أحسن الوديعة) ـ النجف ١٩٦٨ ـ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الفصل الخامس

المشروطية التركية
واحداث عهد الدستور

ان تاريخ المشروطية التركية مر بمرحلتين ، الاولى هي التي قامت بزعامة مدحت باشا ثم قضى عليها السلطان عبدالحميد على نحو ما ذكرناه سابقا ، أما الثانية فهي التي نشأت من جديد في عهد السلطان عبدالحميد ثم انتصرت عليه أخيراً ، وهذه المرحلة هي التي نريد أن نتحدث عنها في هذا الفصل .

وقبل أن نبدأ الحديث عن المشروطية التركية يجب أن نذكر أنها كانت ذات طابع اجتماعي يختلف كل الاختلاف عن طابع المشروطية الايرانية . فالمشروطية التركية هي في الغالب من صنع « الافندية » أي أولي الثقافة الحديثة ، فهؤلاء هم الذين قاموا بها دون أن يساعدهم فيها رجال الدين والعامة الا قليلاً ، اما المشروطية الايرانية فهي على العكس من ذلك قامت بزعامة بعض المجتهدين الكبار وتابعهم فيها العامة والكثير من أعيان المدن والارياف .

يمكن أن نعزو هذا الفرق الى سببين : أحدهما هو ما ذكرناه في الفصل الثالث من أن رجال الدين في ايران اعتادوا أن يقفوا الى جانب الشعب ضد حكامه لان معظم ارتزاقهم منه ، أما في تركيا فارتزاق رجال الدين يأتي معظمه من الحكومة وهم لذلك ينظرون الى السلطان نظرة تقديسية ويعتبرونه ولي الامر الذي نص القرآن على وجوب طاعته .

والسبب الثاني هو أن تركيا قريبة كل القرب من أوربا وقد تأثرت بالحضارة الاوربية منذ زمن بعيد مما جعل الكثير من شبابها ينشأون على الثقافة الاوربية ويعتنقون مبادئها ونظمها السياسية ، وقد نما عدد هؤلاء « المتأوربين » بمرور الايام فاصبحوا يؤلفون في تركيا طبقة كبيرة

لها أهميتها الاجتماعية والفكرية ، وهؤلاء هم الذين قاموا بحركة المشروطية بمعزل عن العامة ورجال الدين تقريبا .

وهناك ناحية أخرى في المشروطية التركية ينبغي أن لا ننساها هنا هي أن الجيش لعب دورا حاسماً فيها اذ هو قام بقيادة ضباطه الشبان من أولي الثقافة الحديثة بحركة انقلابية ضد السلطان عبدالحميد واستطاع أن يفرض عليه الدستور في أول الامر ثم يخلعه أخيراً . أما في ايران فكان الجيش ضعيفاً وكان ضباطه من الطراز القديم وقد وقفوا جميعا الى جانب الشاه محمد علي في صراعه ضد المشروطية ، ولهذا تميزت حركة المشروطية في ايران بظهور صراع عنيف بين الجماهير والحكومة استمر بضع سنوات وسقط فيه كثير من الضحايا .

جمعية الاتحاد والترقي :

ان جمعية الاتحاد والترقي كان لها الفضل الاكبر في انجاح المشروطية التركية في مرحلتها الثانية ، وليس هنا مجال الاسهاب في ذكر بدايتها وكيف نمت ، يكفي أن نقول انها تأسست في اسطنبول عام ١٨٨٩ باسم « تركيا الفتاة » وكانت سرية تعمل في منتهى الحذر والحيطة مخافة أن تقع في يد جواسيس السلطان عبدالحميد أو شرطته .

والظاهر ان الجمعية لقيت تشجيعاً في أوربا ، ولا سيما في فرنسا وبريطانيا ، فأخذ الكثير من أعضائها يهربون الى أوربا او الى مصر فيجدون هناك مجالاً رحباً لنشاطهم وقد يصدرون الصحف المعارضة للسلطان عبدالحميد ، وكان السلطان ينزعج من ذلك كل الانزعاج ويبعث رسله الى الاعضاء الهاربين بغية اسكاتهم او اغرائهم بالعودة . ذكر الملك عبدالله في مذكراته عن أيام شبابه التي قضاها في اسطنبول فقال : ان فرار أحد اعضاء الجمعية من اسطنبول يؤدي الى انتشار ضجة خافتة بين الناس حول فراره حيث يأخذ الناس بتداول الخبر بينهم همساً فيقول أحدهم للآخر : هل سمعت أن فلاناً فر وأخذوا جيرانه للتحقيق ؟! وكان السلطان ينزعج من هذا التساؤل الهامس ويقلق له[1] .

---

(١) عبد الله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ـ ص ٢٦ .

في عام ١٩٠٢ عقدت جمعية الاتحاد والترقي مؤتمرا عاما لها في باريس رفعت فيه شعارها المعروف وهو « الحرية والاخوة والمساواة » ، وهو كما لا يخفي مستمد من مبادىء الماسونية والثورة الفرنسية ، فكان ذلك من العوامل التي ساعدت على رفع سمعة الجمعية في الاوساط الاوربية . وفي عام ١٩٠٥ وجدت الجمعية مجالاً واسعاً لنشاطها في مقدونيا وهي منطقة لم تكن واقعة تحت وطأة جواسيس السلطان بل كانت خاضعة للرقابة الدولية . وقد استطاعت الجمعية ان تعمل في هذه المنطقة على شيء من الحرية ، واجتذبت الى صفوفها عددا لا يستهان به من الضباط الشبان المتحمسين .

والجدير بالذكر ان مقدونيا كانت في ذلك الحين تتميز بكثرة المحافل الماسونية ، فكان ذلك من العوامل التي ساعدت على نمو الجمعية وحمايتها. يقول الدكتور رامزور في هذا الشأن ما نصه :

« لم يمض وقت طويل على المتآمرين في سلانيك ، وهي مركز النشاط ، حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى ، وهي الماسونية . اذ لما كان يصعب على عبدالحميد أن يعمل هنا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الاجزاء الاخرى من الامبراطورية ، فان المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع ، بطريقة سرية طبعا ، وضمت الى عضويتها عددا ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبدالحميد .

« لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافل الماسونية في سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة . وعلى ما يبدو ان الجمعية استعملت بعض المحافل أو ربما جميعها لتكون محلات للاجتماع ، وضمت كثيرا من أعضائها ، واستخدمت الفن الذي نماه الماسونيون في اختيار المرشحين للعضوية ، ومن المحتمل أيضاً ان عمل الجمعية سار بسرعة تثير التقدير بسبب هذا الاتصال مع ماسونية سلانيك ...[٢] » .

يمكن القول ان جمعية الاتحاد والترقي أخذت تستعين بكل وسيلة

---

(٢) ارنست رامزور (تركية الفتاة) ــ ترجمة صالح احمد العلي ــ بيروت ١٩٦٠ ــ ص ١٢٣ ــ ١٢٤

تقع في يدها للتخلص من قبضة الاستبداد الحميدي ، فهي لم تكتف بالاستعانة بالمحافل الماسونية بل استعانت باليهود أيضاً . يقول المؤرخ أرمسترونج : ان الجمعية كانت تعقد اجتماعاتها « في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية والجمعيات الماسونية الايطالية ، اذ أن جنسيتهم هذه تحميهم – بحكم المعاهدات والامتيازات الاجنبية – من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان ، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم ، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لان لهم محاكمهم القنصلية الخاصة .... ومن ثم دأب أعضاء (الاتحاد والترقي) على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر ! . وكان بعضهم ... قد انضموا الى جماعة (الماسون) ... واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية . وصاروا يتلقون الاعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ، ويتصلون اتصالاً منتظماً باللاجئين السياسيين البارزين الذين نفاهم السلطان الى خارج البلاد[٣] » .

اعلان الدستور :

في ٢٣ تموز ١٩٠٨ أرسل نفر من الضباط في سلانيك انذارا باسم الجيش الى السلطان عبدالحميد يطلبون فيه اعادة الدستور الى البلاد، ثم تحركت بعض القوات من سلانيك زاحفة نحو اسطنبول . وأدرك السلطان خطورة الوضع فدعا مجلس الدولة الى الانعقاد ، وكان السلطان على عادته يرقب المجلس من وراء ستار ، وسره أن أحدا من الحاضرين لم ينطق بكلمة « الدستور »[٤] ، ولكن رجلا واحدا تجرأ وتفوه ناصحاً بقبول مطاليب الثوار ، ذلك هو شيخ الاسلام جيث قال للسلطان : « بل أجبهم الى رغائبهم وامنح الدستور فانه مطابق للشرع الشريف[٥] » ...

---

(٣) هـ . س . ارمسترونج (مصطفى كمال) – القاهرة – ص ٢٩ .

(٤) آلما وتلن (عبد الحميد ظل الله فى الارض) – ترجمة راسم راشد – القاهرة ١٩٥٠ – ص ١٨٧ – ١٨٨ .

(٥) سليمان البستاني (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) – القاهرة ١٩٠٨ – ص ٩٦ .

أصدر السلطان أمره باعادة الدستور والشروع بالانتخابات ، وصدرت الصحف في يوم ٢٤ تموز وهي تحمل الخبر ، غير أن أهالي اسطنبول قابلوا الخبر بشيء من الوجوم ، وصار « الاحرار » الذين كانوا ينتظرون هذا الاعلان بفارغ الصبر يهنيء بعضهم بعضا مع شيء من الخوف والحذر ، حتى أن الكثير من الناس كانوا يعتبرون هذا الاعلان حيلة من السلطان يريد أن يوقع به الناس(٦) .

وقد تحقق صدق الخبر في اليوم التالي اذ صدرت الصحف الاسطنبولية وهي تحمل في صفحاتها الاولى المقالات الطويلة العريضة تبشر بها الناس بحلول يوم الحرية والعدل وزوال الظلم . وكان ذلك ايذانا بخروج المظاهرات الهائلة وانتشار معالم الفرح والزينة في كل مكان . يقول الكاتب التركي أحمد أمين يالمان في ترجمته الذاتية : « ان الصحف التي ظهرت في ٢٥ تموز لم تكن سوى صرخة داوية من الفرح والسرور وكان أثر ذلك كبيراً . فالمدينة النائمة انتفضت وقد عرتها هزة الانفعال والحماسة، فامتلأت الشوارع بالجماهير المرحة ، وهي تولي الخطابات الثورية عنايتها واهتمامها ، وأخذ الناس من مختلف الاجناس والمذاهب يعانق واحدهم الآخر ويؤاخيه(٧) » .

وكان من أهم مظاهر الابتهاج بالعهد الجديد اعلان التآخي بين المسلمين والمسيحيين ، وقد ظهر ذلك واضحاً في المناطق التي كان النزاع بين الفريقين شديدا كاسطنبول وبلاد البلقان والشام . وصف الدكتور هوارد بلس ما جرى في بيروت يوم اعلان الدستور وكان شاهد عيان فيها، فقال : « فأطلقت حينئذ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتمالكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن أصدقاء أعزاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساء الدين المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . وقطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل واكتظت الشوارع بالناس

---

(٦) مصطفى نور الدين الواعظ (الروض الازهر) — الموصل ١٩٤٨ — ص ٢٢٧ .
(٧) نقولا زيادة في مقدمة كتاب ارنست رامزور (المصدر السابق) — ص ١٤ .

فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زمانا طويلا ، وكانت امارات المودة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم » .

ووصف شاهد آخر هو الشيخ مصطفى الغلاييني ما جرى في بيروت فقال : « من أبهج ما رأيت من هذا الوفاق ان نفرا من شبان حي السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجميزة (حي مسيحي) فجددوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد أن أبلاها الجهل ورجال السوء . هنالك تآخى الفريقان وتحاب القبيلان وعلموا أن العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة[٨] » .

وفي اسطنبول سارت وفود من المسلمين وعلى رأسهم رجال الدين بصورة ملفتة للنظر الى مقابر الارمن ليضعوا الزهور على قبور الضحايا الذين قتلوا اثناء المذابح قبل أكثر من عشر سنوات[٩] وفي مدينة أخرى سجن ضباط العهد الجديد رجلا تركيا لانه أهان أحد المواطنين المسيحيين[١٠] .

ومما يلفت النظر ان الكثير من الناس عند اعلان الدستور ظنوا ان بريطانيا كانت لها اليد الطولى فيه ، ولهذا ارتفعت سمعة الانكليز في نظر الجماهير العثمانية الى الدرجة القصوى[١١] . ولما وصل السفير البريطاني الجديد السر جيرارد لوثر الى اسطنبول استقبلته الجماهير في محطة القطار بالهتاف الشديد ، وقيل انهم فكوا أربطة الخيل وسحبوا عربته بأيديهم زيادة في تكريمه[١٢] .

وحدث مثل هذا للماسونية ، فقد اعتقد الكثير من الناس في البلاد العثمانية وخارجها ان الانقلاب هو من صنع الماسونية ، وقد ساعد

---

(٨) انيس المقدسي (العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث) — القاهرة ١٩٣٩ — ص ٤٣ .

(9) William Yale (The Near East) — Ann Arbor — P 166 .

(١٠) توفيق علي برو (العرب والترك في العهد الدستوري العثماني) — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٧٦ .

(11) G . J . S . Eversley (The Turkish Empire) London 1917 — P 348 .

(١٢) زين نور الدين زين (نشوء القومية العربية) — بيروت ١٩٦٨ — ص ٢١٨ .

الماسونيون أنفسهم على ترويج هذه الفكرة بين الناس حيث أخذوا يبالغون في ذكر ما فعلوه من أجل قيام الدستور ، وصارت بعض الصحف الاوربية تضرب على هذا الوتر أيضا ، فأدى ذلك الى ارتفاع سمعة الماسونية في نظر المتحمسين للعهد الجديد ، ولقيت الماسونية رواجاً في تركيا بعض الوقت[١٣] .

موقف السلطان :

المظنون ان السلطان عبدالحميد لم يكن مخلصا في موافقته على اعلان الدستور ، بل فعل ذلك من باب الدهاء والمراوغة ، وربما كان غرضه أن يماشي الثوار في أول الامر لكي يخففه من فورتهم الجامحة حتى اذا خمدت الفورة بمرور الزمن استطاع أن يدبر لها الضربة القاضية . تقول الدكتورة وتلن : ان طريقة السلطان عبدالحميد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي وكممثل ، فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ثم رضي بقبول العضوية العادية في الجمعية عندما أبانت له اللجنة المركزية فيها أن الاعضاء كلهم متساوون ، وأخذ السلطان علاوة على ذلك يتظاهر بأنه أشد الاعضاء اخلاصاً للجمعية فتبرع بنصف مليون ليرة من جيبه الخاص لصندوق الجمعية ووهب أحد قصوره ليكون مقر البرلمان القادم ، ووضع الوردة الحريرية التي كانت شعار الجمعية في معطفه ثم صار يشكر رجال الجمعية لانهم « فتحوا عينيه » على الحقيقة مدعياً أن مستشاريه الاغبياء هم الذين أخفوها عنه[١٤] .

وقد صدق الناس أقوال السلطان هذه ، وصاروا يضعون اللوم في مظالم العهد البائد وأسوائه على عاتق الحاشية ، ويستثنون السلطان منها . فهو صار في نظرهم بريئاً وأنه كان ضحية الوزراء والباشوات الذين أحاطوا به وأضلوه بنصائحهم الشريرة . وخرجت الصحف التركية المصورة وفيها رسوم رجال العهد البائد على هيئة العقارب والافاعي والضباع وقد

---

(١٣) ارنست رامزور (المصدر السابق) ـ ص ١٢٧ .

(١٤) آلما وتلن (المصدر السابق) ـ ص ١٨٨ .

انقضوا على البلاد ينهشونها ، ما عدا السلطان الذي كان فوق الشبهات. وبعد قليل قامت مظاهرات تهتف بحياة السلطان ، ثم جاءت الوفود من المقاطعات المختلفة لتتأكد من سلامة السلطان وأنه غير مصاب بسوء ، ولما أطل عليهم السلطان من شرفة قصره ارتفعت أصوات الجماهير هاتفة بحياته[١٥] . « باديشا هم جوق يشا ! » .

بين المحاسن والمساويء :

لا ينكر ان عهد الدستور كان له الكثير من المحاسن بالمقارنة الى العهد السابق ، فقد أزيح به عن كراسي الحكم اولئك المحافظين الذين كانوا يسيرون على الاسلوب القديم ، وحل محلهم شبان مفعمون بالحماس وحب التجديد والعمل الدائب ، وكذلك ظهر نوع من التنبه أو الوعي بين أفراد الشعب فصار الموظفون يخشون من الاهالي بعد ما كانوا قبلئذ يحتقرونهم ويطردونهم ، وأصبح الموظف المرتشي حذرا متخوفا لا يدري متى يأتي أمر نقله أو عزله وكان ذلك مانعاً من الرشوة قليلا أو كثيرا .

ولكن العهد الجديد على الرغم من محاسنه كان لا يخلو من مساويء أصيلة كامنة فيه ، شأنه في ذلك كشأن أي تغير فجائي في نظام الحكم او المجتمع . ولم تمض على اعلان الدستور مدة طويلة حتى بدأت المساويء تبدو للعيان وتنمو بمرور الايام . وأخذ الناس يتذمرون منها ويبالغون فيها. ومن الممكن حصر هذه المساويء في نقاط خمسة هي كما يلي :

أولا : ان رجال العهد الجديد لم تكن لديهم خبرة كافية في السياسة أو ادارة شؤون الدولة . وكان يغلب عليهم الحماس والتفاؤل الشديد ، فاذا تحمسوا لفكرة ظنوا أنهم قادرون على تحقيقها بقوة الارادة ، ولعلهم اتبعوا في ذلك شعار نابليون الذي قال : « ليس في قاموسي كلمة مستحيل » . والظاهر ان الكوارث التي واجهوها خلال السنوات القليلة التي حكموا فيها جعلتهم يدركون أن الحياة اكثر تعقيدا من أن تخضع لمثل هذا الشعار الساذج .

---

(١٥) المصدر السابق ــ ص ١٨٨ .

ثانيا : من طبيعة كل انقلاب أو ثورة أن يظهر فيه أناس متطرفون يريدون من الناس جميعاً أن يسيروا معهم في طريق التطرف او الاباحية . وقد ظهر مثل هؤلاء في العهد الدستوري ، فكان منهم دعاة الالحاد الذين أخذوا يهاجمون الاديان كلها و يعدونها أكاذيب وزخارف مزيفة تورث العداوات بين الناس[16] ، ومنهم المتفرنجون الذين يدعون الى تقليد أوربا في كل شيء فشاع بينهم استعمال القبعة وأسرفت نساؤهم في التبرج وخرجن في المنتزهات والشوارع في « ثياب فاضحة »[17] ، وكذلك منهم دعاة العنصرية الطورانية الذين رفعوا شعار « نحن أتراك قبل أن نكون مسلمين » .

ثالثا : لا بد في كل عهد جديد أن يظهر من ينقم عليه وينتهز الفرص للكيد له ، فكل من خسر وظيفة أو فقد مصلحة في العهد الجديد يصبح عدواً له بالطبع . والواقع ان الناقمين في العهد الدستوري كثيرون ، كان منهم المتصوفة ورجال الدين بوجه عام ، وأعوان السلطان عبدالحميد وجواسيسه وقد بلغ عددهم كما قيل ثلاثين ألفا[18] ، وكان منهم أيضا كبار الساسة والموظفين الذين كانوا يتنعمون في العهد السابق بالجاه العريض والمال الوافر ، فانقطع عنهم عند اعلان الدستور كثيرا مما كانوا يتنعمون به ولهذا وجدناهم يستغلون الاخطاء التي تورط بها رجال العهد الجديد وأخذوا يضخمونها وينشرونها بين العامة ، ومن طبيعة العامة أنهم ميالون الى تصديقها ويأخذون هم بدورهم في تضخيمها ونشرها . وهكذا يعم التذمر بين الناس تدريجيا .

رابعا : ان رجال العهد الجديد لابد أن ينقسموا عاجلاً أو آجلا الى فريقين متصارعين . فهم كانوا متفقين في العهد السابق لوجود عدو مشترك لهم يهددهم بالخطر الماحق ، فلما انتصروا على عدوهم أصبحوا هم

---

(١٦) انيس القدسي (المصدر السابق) ــ ص ٤٥ .

(١٧) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ١٩٤ .

(١٨) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ــ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٧٥ .

أعداء بعضهم لبعض ، وسبب ذلك يعود الى طبيعة الحسد والمنافسة التي تنشأ بينهم ، فاذا حصل فريق منهم على المناصب العليا تألم الآخرون من ذلك وأضمروا له الحقد . أضف الى ذلك أن كل فريق منهم يحسب أن رأيه في ادارة الدولة أصوب من رأي الآخرين وهو يريد أن يسير الجميع على رأيه ، وبذا يبدأ الشقاق بينهم ثم ينمو شيئاً فشيئاً . وقد يصل العداء بينهم الى حد يشغلهم عن الاهتمام بالعدو المشترك الواقف لهم بالمرصاد .

خامسا : ان الجماهير التي أعلنت ابتهاجها الشديد عقب اعلان الدستور لابد أن تصيبها خيبة الامل بعد وقت قصير أو طويل ، وربما صح القول ان خيبة الامل بالعهد الجديد يشبه رد الفعل في عالم الفيزياء اذ هو يكون شديدا بمقدار شدة الابتهاج الذي قوبل به العهد الجديد في أول أمره . لقد جاء عهد الدستور بمبادىء ثلاثة هي : « الحرية والاخوة والمساواة » ، ثم زاد عليها مبدأ رابعاً هو « العدالة » ، وهذه مبادىء مثالية يلهج بها الانسان عندما يكون في حاجة اليها ، أي عندما تكون مصلحته متوقفة عليها ، ولكنه يتنكر لها حالما يراها تخالف مصلحته أو تكون في مصلحة خصمه . وهذا هو ما حدث فعلاً في البلاد العثمانية في عهد الدستور ، فالناس كانوا يريدون من الحكومة أن تساويهم في المعاملة مع من هو أعلى منهم ولكنهم لا يرضون أن تساويهم مع من هو أدنى . وكذلك كان الناس يريدون الحرية لانفسهم يعملون فيها ما يشاؤون ولكنهم اذا رأوا غيرهم يتمتع بالحرية غضبوا منه وصاروا يشتمونه ويشتمون الحكومة معه .

من معالم خيبة الامل :

وصف المؤرخ شيفيل حالة الابتهاج الشديد الذي قوبل به عهد الدستور في البلاد العثمانية فقال : انها كانت كهذيان الحمى، وكانت كغيرها من الهياجات العاطفية تحتوي على خداع للنفس هائل ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يصحو الناس فيه من سكرتهم ليدركوا أن الدنيا لا يمكن أن تتغير بالحماس الشديد . والغريب ان ذلك الهياج العاطفي لم يقتصر أثره على الشعوب العثمانية بل شمل بعض الدوائر السياسية المهمة في أوربا أيضا،

فقد أخذت بعض الصحف الاوربية الرصينة تتحدث عن « المعجزة » التي أنجزتها الديمقراطية في تركيا ، وتجرأ وزير الخارجية البريطانية السر ادوارد غراي فتنبأ بأن مشكلة مقدونيا وغيرها من مشاكل البلاد العثمانية المشابهة لها سوف تختفي نهائيا . ويقول شيفيل : ان الانقلاب العثماني كان من جملة الاحداث التي جعلت قسماً كبيرا من الشعوب الاوربية قبل عام ١٩١٤ يعيشون في ما يمكن تسميته بـ « فردوس المجانين[١٩] » .

لم تمض على تلك الحالة سوى مدة قصيرة حتى بدأ النقيض يعمل عمله . زارت المس بيل بلاد الشام بعد ستة أشهر من اعلان الدستور العثماني فقالت تصف مشاعر الناس فيها بما نصه :

« ... فانني جالست في حلب رجالا عديدين يمثلون أعلى الطبقات الاجتماعية وأدناها ، من العالم الجليل الى العامل البسيط ، وعندها استطعت أن أدرك جانباً مما كان يجول في أفئدة الناس في آسيا من أمل وخوف وحيرة . فلقد اشتركت جماهير الناس باقامة حفلات ومهرجانات حماسية احتفاءاً بالدستور — وكانت فترة مضمخة بالآمال ، وبالاحلام الشاردة ، اذ بدا للناس أن مشاكل الامبراطورية العثمانية المتأصلة الجذور قد حلت بضربة قلم . ولكن سرعان ما خفت الحماسة وعاد الناس من عالم الاحلام الى عالم الواقع المرير حتى ظهر لهم أن طبيعة الانسان هي هي لم يطرأ عليها تبديل . فانقلب الرأي العام . فانهم كانوا يترقبون تغييرا وتبديلا ولكن التغيير كان بطيئاً ، فوقعوا في حيرة ، وداخلتهم المخاوف من أن يتبدل كل شيء وهم في غفلة من أمرهم . ولكن خفت مظالم الحكم حيناً وكان لهذا أثر في نفوس الناس هنا وهناك ، ولكن الناس لم يشعروا بالطمأنينة والأمن . نعم شعروا بشيء من الحرية الشخصية ، وزال عنهم شبح الجواسيس في الدوائر الرسمية ... وكنت تسمع الناس في كل مجتمع ، مسيحياً كان أم اسلامياً ، يوجهون النقد اللاذع للمعاملات الرسمية الحكومية ، ولكن قل أن تسمع نقداً بناءاً . فان الحكومة ظلت

(19) Ferdinand Schevill (The History of The Balkan Peninsula) — New York — P 452

في نظر الناس قوة مستقلة متسلطة لا تربطها بالمحكوم أية رابطة . فقد يشكو المرء من ظلمها وجورها فيلعنها كما يلعن العاصفة الثلجية التي تخرب مزرعته ، ولكن هذا المرء لم يشعر أنه مسؤول عن هذه الحكومة أو انه يستطيع اسداء النصح لها أو كبح جماحها ، بل كان يقف مكتوف اليدين تماماً كما يقف ازاء العاصفة الثلجية التي لايد له فيها ، انما يلعنها ... ولكن عندما كنت أسأل عن هذه الناحية ، ناحية مسؤولية الفرد تجاه الحكم، كنت أسمع الاجوبة لا تختلف عن جواب فتوح عندما سألته مرة عن الانتخابات وكيف انتخب . قال لي : تعرفين ، سعادتك ، اني سائق عربة فمالي وللحكومة ؟ غير أني اقول لك أن الحكومة الجديدة ليست بأفضل من الحكومة القديمة . فما هي حلب ، هل يسود فيها العدل اكثر من ذي قبل ؟ والله لا ...[٢٠] » .

وزار الكاتب المعروف جرجي زيدان بلاد الشام في عام ١٩١٠ فكتب يصف خيبة آمال الناس بالدستور وتطرفهم في ذلك حيث قال: «... وطائفة تعجلت استثمار الدستور فهي تريد أن تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حالة الاحتضار وقد نضبت ماليتها، وأجدبت أرضها ، واظلمت مدنها ، وتخربت طرقها وشوارعها ، وفسد كل شيء فيها حتى أخلاق أهلها، واختل نظام اجتماعها ، وفرق التعصب بين طوائفها ومذاهبها — تريد هذه الفئة من المنتقدين أن تصير هذه المملكة في سنتين مثل أرقى ممالك أوربا وهذا مستحيل» [٢١] . يبدو أن المشكلة الاساسية في عهد الدستور هي أنه أثار في الناس آمالا طوبائية من المستحيل تحقيقها في عالم الواقع . كان الناس في العهد السابق لا يتوقعون من الحكومة أي خير ، فاذا أصابهم الخير منها في بعض الاحيان حمدوا ذلك منها ورفعوا أيديهم يدعون الله أن ينصر الدين والدولة ، أما في عهد الدستور فصاروا يتوقعون من الحكومة كل الخير ، وكأنهم اعتقدوا أن الدنيا انقلبت دفعة واحدة الى جنة الفردوس ، وأصبح كل فرد يتخيل أن الحكومة ستحل جميع مشاكله

---

(٢٠) زين نور الدين زين (المصدر السابق) — ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٢١) انيس المقدسي (المصدر السابق) — ص ٤٧ .

التي كان يشكو منها ، وسترفع عنه كل ضيم ، وتغدق عليه النعم الوافرة • ثم تمر عليه الايام من بعد ذلك دون أن يتحقق له شيء من ذلك فيشعر عندئذ بخيبة الامل ويعلن تذمره •

ومن طبيعة الناس أنهم حين يتذمرون من عهد جديد يأخذون بالترحم على العهد السابق ويحنون اليه ، ويدفعهم ذلك الى تضخيم محاسن ذلك العهد ونسيان مساوئه • ويظل الناس يفكرون على هذا المنوال حتى يأتيهم انقلاب جديد ينسيهم ما كانوا فيه ويفتح لهم من الذكريات صفحة جديدة •

واقعة ٣١ آذار :

لم تمض على اعلان الدستور العثماني سوى مدة قصيرة حتى تألفت في اسطنبول جمعية باسم « الجمعية المحمدية » تحمل الصبغة الدينية في مظهرها الخارجي بينما هي في الواقع ذات هدف سياسى تعمل لمحاربة العهد الجديد والقضاء عليه •

كان من أبرز أعضاء الجمعية رجل متصوف يدعى « درويش وحدتي » وقد أخذ هذا الرجل يعمل تحت ستار الغيرة على الدين واستطاع أن يؤثر على الجنود بواسطة أعوانه من الدراويش وبعض رجال الدين ، وكانت دعواه أن الدستور مخالف للشريعة الاسلامية وان السلطان غير راض عنه وهو انما وافق عليه مكرهاً ، ولهذا وجب الغاء الدستور واعلان الشريعة بدلاً عنه •

لقيت دعاية هذه الجمعية رواجا في أوساط العامة ، وكان أنصارها يؤكدون للناس أن الدستور هو من صنع الماسون والمرتدين واليهود • وفي أوائل نيسان ١٩٠٩ نشر الصحفي حسن فهمي بك في جريدته «سربستي» خبراً قصيراً مفاده ان الاتراك يجب أن يلبسوا القبعة ومعنى هذا أن الاتراك سوف يتشبهون في زيهم بالكفار • ولم يمض على نشر الخبر سوى أيام معدودة حتى أطلق مجهول رصاص مسدسه على الصحفي فأرداه قتيلا، وكان القاتل يرتدي بذلة ضابط من ضباط العهد الجديد[٢٢] • فهاجت الخواطر

---

(٢٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ١٩٢ ــ ١٩٤

لهذا الحادث ، وقدم ستة من أعضاء مجلس المبعوثين سؤالا عنه الى وزير الداخلية ، وتفاقم القلق في اسطنبول[٢٣] . واغتنم الناقمون الفرصة فحولوا تشييع جنازة القتيل الى مظاهرة ضد العهد الجديد وأخذوا يوزعون فيها اوراقاً صغيرة في مهاجمة المبعوثين ، وما ان انتهت مراسيم الدفن حتى ارتفعت أصوات تهتف بحياة الشريعة المحمدية وبسقوط جمعية الاتحاد والترقي فجاوبتها أصوات كثيرة أخرى ...[٢٤] .

وفي ١٣ نيسان استيقظت اسطنبول صباحاً على أصوات الطبول والرصاص ، وشوهدت أفواج من الجنود تجري في الشوارع وتطلق الرصاص ، وكان في مقدمة كل فوج جماعة من الدراويش تحمل الاعلام وتهتف مع الجنود « باشاسون شريعة محمدية » أي تعيش الشريعة المحمدية . وحاصر الجنود مجلس المبعوثين والباب العالي وأرسلوا وفدا الى السلطان يطلبون منه الغاء الدستور واعلان الشريعة .

ثم أخذ الجنود يتفرقون الى شراذم صغيرة يبحثون في كل حارة عن شبان الضباط ليقتلوهم ، انهم كانوا يريدون تطهير الجيش من الضباط « المكتبلية » أي الضباط المتخرجين من المدارس الحديثة ، أما الضباط « الألايلية » أي الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجنود بدون مدرسة فقد تركهم الجنود[٢٥] . وقد قتل الجنود من الضباط « المكتبلية » نحو ثلاثمائة[٢٦] .

وهجم الجنود على نادي الاتحاد والترقي ، وعلى ادارة جريدة طنين ، وعلى النادي العسكري ، وعلى النادي النسائي ، فنهبوها وجعلوا عاليها سافلها . وتقدموا نحو مجلس المبعوثين بغية قتل أعضائه ، وكان فيه نحو أربعين مبعوثاً ، ولبث هؤلاء ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ، ومنهم من اختبأ في أي

---

(٢٣) شكيب أرسلان (سيرة ذاتية) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٧١ .
(٢٤) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ١٩٣ .
(٢٥) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) ــ بيروت ١٩٦٠ ــ ص ١١٠ ــ ١١٢
(٢٦) شكيب أرسلان (المصدر السابق) ــ ص ٧٢ .

مكان يتوارى به عن الاعين . وتمكن الجنود من قتل وزير العدلية كما قتلوا مبعوثاً عربياً اسمه محمد بك أرسلان ، ولكنهم عندما فعلوا ذلك سمعوا بأن عسكراً سيأتي بأمر من السلطان ليقتص منهم فوقع الرعب في قلوبهم وتوقفوا عن قتل بقية المبعوثين ، ثم صاروا يطلقون الرصاص في الفضاء تهويلاً [٢٧] .

تقول الدكتورة وتلن : « كان الهياج في العاصمة يزداد ساعة بعد ساعة ، ولم ينقطع اطلاق النيران في الشوارع . كانت الجماعات الثائرة تهاجم الرجال الذين ارتدوا القبعات ، وتقص شعور النساء اللواتي كن يسرن بدون نقاب . وأصبح الجنود أصحاب الامر والنهي في المقاهي ، والشوارع ، وجعلوا من أنفسهم قضاة ينزلون العقاب بالسكارى وهم أشد سكرا منهم . وكانت المدينة كلها تردد الهتاف : لتحي الشريعة ! والموت لتركيا الفتاة ! [٢٨] » .

وقد انتشرت عدوى هذا الغليان الديني الى الولايات التركية المختلفة، ففي الولايات الشرقية عاد الاكراد الى شن غاراتهم المعتادة على الارمن ، كما وقعت مذابح أرمنية في مرسين وأطنة وبعض المدن الواقعة في شمال سوريا[٢٩] وانتشر الرعب في الاحياء المسيحية في اسطنبول وصار سكانها ينتظرون بفارغ الصبر تدخل البوارج الاجنبية لحمايتهم[٣٠] .

أطلق الاتراك على تلك الواقعة اسم « أتوز بير مارت وقعه سي » ، أي واقعة ٣١ آذار ، لانها وقعت في ذلك اليوم حسب التقويم الشرقي وكان هذا التقويم متأخرا عن التقويم الغربي عامئذ بثلاثة عشر يوما .

خلع عبد الحميد :

في ١٦ نيسان ١٩٠٩ ــ أي بعد ثلاثة أيام من الواقعة ــ أبرق محمود شوكت باشا قائد حامية مقدونيا الى اسطنبول يقول بأنه « عائد لاقرار

(٢٧) المصدر السابق ــ ص ٧٢ ــ ٧٤ .
(٢٨) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ١٩٥ .
(29) William Yale (op . cit .) P 170 .
(٣٠) آلما وتلن (المصدر السابق) ــ ص ١٩٥ .

«النظام في العاصمة » . ثم تحرك القائد بجيشه وهو يتظاهر أمام الجنود بأنه زاحف لحماية السلطان وانقاذ العاصمة من الفوضى ، وكان السلطان نفسه يزعم أمام حاشيته أنه هو الذي استدعى « جيشه الوفي » من مقدونيا لاقرار الامن في بلاده .

استطاع محمود شوكت باشا أن يصل الى مقربة من اسطنبول خلال مدة قصيرة تكاد لا تزيد على الثلاثة أيام وضرب بذلك رقما قياسيا في سرعة الزحف . وقد انضم اليه في الطريق جماعات من اليهود والارمن والاروام والبلغار والصرب بغية المعاونة على قمع الحركة « الرجعية » . وفي ٢٣ نيسان وقف محمود شوكت باشا عند أبواب العاصمة فاستسلمت له حاميات الاسوار الخارجية ، والجنود الهائمون في الشوارع ، بلا مقاومة . وفي مساء ٢٤ نيسان عاد الهدوء الى اسطنبول وصار محمود شوكت باشا السيد المطلق فيها .

كان رجال العهد الجديد قد اختفوا في بيوت غير بيوتهم أثناء واقعة ٣١ آذار ، فلما دخل محمود شوكت باشا العاصمة منتصرا عادوا الى الظهور وأخذوا ينتقمون من أعدائهم ومن جميع من ساهم في الواقعة .

نصبت المشانق على جانبي جسر « غلطة » وعلقت على صدور الجثث المشنوقة عبارة « خائن للحرية » . وحكمت المحكمة على ثلاثين من رجال الدين بأن يأكلوا خبزاً مسموماً لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، وصار كل معمم يمشي في شوارع اسطنبول عرضة للاهانة والاعتداء . ذكر معروف الرصافي أنه وصل الى اسطنبول في تلك الفترة فاضطر الى خلع عمامته وزيه الديني واستبدل به ملابس افرنجية جديدة لكي لا يتعرض للاذى[٣١] .

وفي ٢٦ نيسان اجتمع مجلس المبعوثين ومجلس الاعيان في جلسة مشتركة وقرروا خلع السلطان عبدالحميد ، واستدعوا شيخ الاسلام لكي يصدر الفتوى اللازمة لذلك ، ويقال ان شيخ الاسلام صادق على الفتوى وهو محاط بحراب البنادق[٣٢] .

---

(٣١) يوسف عزالدين (شعراء العراق في القرن العشرين) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٧٢ .

(٣٢) آلما وتلن (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٠ .

وذهب الى السلطان وفد مؤلف من أربعة أعضاء لتبليغه بقرار خلعه. والغريب أن اعضاء الوفد لم يكونوا اتراكا أصليين بل كانوا مواطنين عثمانيين من أصل أرمني ورومي ويهودي (٣٣) ، وكان أحدهم من ذوي الرتب العالية في الماسونية اسمه عمانويل كراسو أفندي وهو يهودي من سلانيك(٣٤) . والمظنون ان جمعية الاتحاد والترقي انما اختارت اعضاء الوفد بهذه الشاكلة نكاية بالسلطان عبدالحميد وتحدياً له .

كان السلطان شاحب اللون تظهر عليه علامات الشيخوخة عندما دخل عليه الوفد ، فسألهم بلهجة الآمر الناهي التي اعتاد عليها : « ماذا تريدون ؟... ماذا حدث ؟ » ، فتقدم نحوه رئيس الوفد الفريق أسعد ، وبعد أن أدى له التحية اللائقة قال : « جئنا لنبلغكم أن الامة قد عزلتكم عن العرش » . وعند سماع السلطان هذه الكلمات سرت رجفة في جسده وظل ساكتا برهة ، ثم نطق بنفس الكلمة التي نطق بها عمه عبدالعزيز عند عزله قبل ثلث قرن : « قسمة ! » . ثم وجه السلطان الى الوفد سؤالا حول مصيره ومصير عائلته فأجابه الفريق أسعد : « أن الشعب التركي شهم نبيل ، ولك أن تثق به » . ولما ألقى أعضاء الوفد تحية الخروج ووصلوا الى الباب صاح فيهم السلطان المخلوع قائلا : « ليعاقب الله أولئك المسؤولين عن هذه النكبة ! » ، فتطلع كراسو الى أعلى وقال : « ان الله عادل . ولنا أن تتأكد من أن المذنب سينال عقابه ! ...(٣٥) » .

عومل السلطان بعد خلعه بكل شهامة وتأدب ، فاختار من الحريم ثلاث زوجات وأربع جوار ، كما اختار عددا من الحاشية لمرافقته . وسار بهم قطار خاص نحو سلانيك حيث استقروا هناك في قصر كبير وسط حديقة واسعة .

وجدوا في قصر يلدز الذي غادره السلطان المخلوع أحد عشر كيساً مملوءة بالنقود بلغ مقدارها نصف مليون ليرة ذهباً ، كما وجدوا كمية هائلة

---

(٣٣) المصدر السابق — ص ٢٠١ .
(٣٤) ارنست رامزو (المصدر السابق) — ص ٢٠٠ — ٢٠١ .
(٣٥) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

من الجواهر مخبأة في دولاب حديدي قـدر ثمنها بمليون ليرة[٣٦]. وكان للسلطان في بنوك المانيا رصيد بمليونين باون ، وله مبالغ أخرى كبيرة عند القيصر غليوم الثاني[٣٧] .

بقيت في قصر يلدز ٢١٣ جارية هن اللواتي لم يأخذهن السلطان المخلوع معه ، فطلبوا من ذوي قرباهن أن يأتوا اليهن لاسترجاعهن . فجاء الاقرباء ومعظمهم من فلاحي الشركس والارناؤوط وصاروا يتفحصون وجوه الجواري حتى عثر كل واحد منهم على من يريد . ولم يبق من الجواري سوى عدد قليل لم يمكن الاهتداء الى أقاربهن ، أو كن قد نسين المكان الذي جئن منه[٣٨] .

حل محل عبدالحميد على العرش أخوه محمد رشاد باسم السلطان محمد الخامس ، وكان في الرابعة والستين من عمره ، والمعروف عنه أنه كان في عهد أخيه شبه محجور يقضي وقته في الحريم وغير مسموح له أن يقرأ الصحف او يكون له أصدقاء وكان خدمه جواسيس عليه من قبل أخيه .

وصفه السلطان الجديد دبلوماسي أجنبي كان قد قابله بعد تسنمه العرش فقال : « ان مظهر السلطان محمد الخامس يشير الى أنه شخص تافه. فهو قصير محدوب له عيون غائرة ووجه عميق الخطوط ولون زيتي أصفر ، انه غير جذاب على وجه التأكيد . وتدل ملامحه على ضعف ذكائه ، ولم يتخلص من نظرة الرعب التي تراوده وكأنه كان يخشى أن يفاجئه قاتل من وراء ركن مظلم فيغتاله ...[٣٩] »

ومما يجدر ذكره ان جلوس هذا السلطان على عرش آل عثمان جعل العامة يرددون قول من قال : « اذا حكم رشاد ظهر الفساد » . وكان المتصوفة ينشرون هذه العبارة بين الناس وينسبونها الى القطب الصوفي المشهور محي‌الدين بن عربي[٤٠] . وقد اعتقد الكثير من الناس ان تلك

---

(٣٦) المصدر السابق — ص ٢٠٩ .

(37) G . J . S . Eversley (op . cit .) — P 351 .

(٣٨) آلما وتلن (المصدر السابق) — ص ٢٠٨ .

(39) G . J . S . Eversley (op . cit .) — P 352 .

(٤٠) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) — بغداد ١٩٥٦ ج٨ ص ١٨٦ .

نبوءة لا بد أن تتحقق عاجلا أو آجلا . فلما توالت المصائب على الدولة العثمانية في عهد السلطان الجديد ، من حرب طرابلس الغرب الى حرب البلقان ثم الحرب العالمية الاولى ، تحققت النبوءة في نظر الناس وأخذوا يذكرون العهد الحميدي بكل خير واشتد حنينهم اليه .

حرب طرابلس الغرب :

كان الاتحاديون ــ أي أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ــ يحكمون البلاد قبل واقعة ٣١ آذار بصورة غير مباشرة ، فلما وقعت الواقعة وانتصروا فيها على خصومهم صاروا يحكمون بصورة مباشرة ، وأخذوا يصدرون القوانين والانظمة لاصلاح الدولة حسبما يتراءى لهم . وكان من جملة القوانين التي أصدروها « قانون التنسيقات » والقصد منه تطهير أجهزة الدولة من الموظفين المتفسخين ، وكذلك أصدروا قانونا ألغوا فيه عبارات التفخيم المبالغ فيها التي كانت تستعمل في المراسيم والمراسلات الرسمية ، كما أصدروا قانونا ساووا فيه بين المسلمين وغير المسلمين في التجنيد الاجباري وهو بخلاف القانون القديم الذي كان يستثني غير المسلمين من التجنيد ويفرض عليهم البدل النقدي .

ظل الاتحاديون يعملون على هذا المنوال زهاء سنتين دون أن يعترض طريقهم عارض جدي يربك جهودهم ، وكان التفاؤل آنذاك سائدا بينهم اذ كانوا يحسبون أنهم سينقذون الدولة العثمانية من مرضها العضال قريبا ويسيرون بها في مضمار الحضارة الحديثة . وبينما هم في تفاؤلهم فوجئوا في ٢٧ ايلول ١٩١١ بانذار قدمته اليهم ايطاليا أمده أربع وعشرون ساعة ، وبدون انتظار للجواب أرسلت ايطاليا أسطولها الى سواحل طرابلس الغرب ــ أي ليبيا الحالية ــ فأنزلت فيها قوات عسكرية كبيرة واحتلت أهم مدنها الساحلية كطرابلس ودرنه وبنغازي خلال أيام معدودة .

قررت الحكومة العثمانية أن تحارب ايطاليا بكل مالديها من قوة ، ولكن مشكلة قامت في وجهها هي عدم توفر اسطول بحري لديها لنقل الجنود الى طرابلس الغرب ، مع العلم أن الاسطول الايطالي كان مسيطرا على البحر . واضطرت الحكومة أن تضع خطة حربية من نوع خاص : هي

أن يذهب جماعات من الضباط بملابسهم المدنية وبصورة سرية فيدخلوا طرابلس الغرب شرقا عن طريق مصر ، وغربا عن طريق تونس ، ثم يتولوا هناك أمر تكوين جيش محلي من أهل البلاد .

الواقع ان هذه الخطة نجحت عند تطبيقها ، فأنزلت بالايطاليين خسائر فادحة وحالت دون تقدمهم من المدن الساحلية نحو داخل البلاد[٤١] . وكان أنور بك ــ وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم أنور باشا ــ من أول الضباط الذين تطوعوا للذهاب الى طرابلس الغرب من أجل تحقيق تلك الخطة ، وقد تطوع معه في ذلك مصطفى كمال الذي صار فيما بعد اول رئيس للجمهورية التركية ، وعزيز علي المصري ، وبضعة ضباط عراقيين كان منهم تحسين العسكري وصبحي الطرابلسي ومحمود حلمي وعيسى الوتري وسعيد المدفعي واسماعيل الطرابلسي ، وهؤلاء كانوا ضباطا صغارا قد تخرجوا حديثا من الكلية العسكرية في اسطنبول .

يحدثنا تحسين العسكري عن الطريقة التي وصل بها الى طرابلس الغرب فقال : انه تنكر باسم حسن العطار من أهالي حماه ، وركب باخرة رومانية الى الاسكندرية ، وقد اعترضت طريق الباخرة سفينة حربية ايطالية فأطلقت طلقة واحدة في الهواء على سبيل الانذار ثم صعد رجالها لتفتيش الباخرة خشية أن يكون فيها جنود أو ذخائر عثمانية . وقد نجا تحسين العسكري ورفاقه على أي حال فوصلوا الى الاسكندرية في ٢ أيار ١٩١٢، ومن هناك ذهبوا الى طرابلس عن طريق الصحراء[٤٢] .

كان أنور بك قد نشر دعوة « الجهاد » بين القبائل السنوسية ، ونجحت دعوته فيهم فانضموا اليه بحماس بالغ واعتبروه ممثل الخليفة الشرعي في جهاد الكافرين . وقد اتخذ هو لنفسه خيمة فخمة مفروشة بالسجاد ومبطنة بالجوخ والاصواف المزركشة ، فكان يستقبل فيها رؤساء القبائل ويستمع الى آرائهم ، وأصبح له بينهم نفوذ عظيم

---

(٤١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ــ ص ١١٥ .

(٤٢) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ــ بغداد ١٩٣٦ ــ ج١ ص ١٥ ــ ١٨ .

واسم لامع .

ولم تخل الحرب في طرابلس الغرب من بعض المشاكل التي أثارها الحسد والتنافس بين الضباط الاتراك . ذكر المؤرخ أرمسترونج : ان مصطفى كمال كان ينفس على أنور تلك الابهة والنفوذ الذي ناله بين القبائل فصار يكثر من انتقاده وتسفيه آرائه ، وقد ازداد التوتر بينهما بمرور الايام حتى صارا يتشاجران علنا . كان انور يتحمس للمشروعات الضخمة والخطط الجبارة من غير أن يعبأ بالتفصيلات او الحقائق او الارقام بينما كان مصطفى كمال على النقيض من ذلك شديد الحذر لا يجري وراء الاحلام العريضة انما يسعى الى أهدافه بعد أن يمعن فيها النظر طويلا ويقلبها على شتى وجوهها ، ولم يكن يميل الى استمالة العرب او الاجانب بل كان معتداً بتركيته الى حد احتقار كل ما عداها . ثم آنتهى الامر بمصطفى كمال أن لاذ بخيمته الصغيرة التي كان يعيش فيها معيشة خشنة مثل معيشة جنوده[٤٣] .

ويبدو ان شيئا من التحاسد والتنافس ظهر كذلك بين أنور وعزيز علي المصري مما كان له أثره في الحوادث التي جرت في اسطنبول في عام ١٩١٣ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

مهما يكن الحال فقد استمرت الحرب أحد عشر شهرا ، وقد جلب الايطاليون خلالها نجدات كثيرة فدعموا بها مراكزهم على السواحل غير أنهم لم يستطيعوا التقدم نحو الداخل . والظاهر أنهم أرادوا أن يعوضوا عن فشلهم هذا عن طريق تفوقهم في البحر ، فاحتلوا جزيرة ردوس وجزائر الدوديكانيز في بحر ايجه ، وحاصروا مضيق الدردنيل[٤٤] ، كما قصفوا سفينتين عثمانيتين في ميناء بيروت فأغرقوها ، وقتل من جراء ذلك سبعون شخصا وجرح نحو مائتين . وقد نظم الشعراء العرب في هذه الواقعة قصائد كثيرة يشكون الى الله فيها مما أصابهم على يد الظالمين .

---

(٤٣) هـ . س . ارمسترونج (المصدر السابق) ـ ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(44) William Yale (op . cit .) — P 178

بين الاتحاديين والائتلافيين :

في الوقت الذي كانت فيه المعارك الحربية تدور على سواحل طرابلس الغرب كانت المعارك الكلامية تدور في اسطنبول على صفحات الجرائد وفي جلسات مجلس المبعوثين . فقد نشأت تجاه الحكومة آنذاك معارضة شديدة وأخذت تشن حملاتها الضارية عليها .

كانت المعارضة تتهم الحكومة بأنها لم تهتم بتحصين طرابلس الغرب مع علمها بأطماع ايطاليا فيها ، وكان اكثر الهجوم منصبا على الصدر الاعظم حقي باشا حيث كانت المعارضة تتهمه بأنه محبه لايطاليا بتأثير زوجته الايطالية وأنه كان شغوفا بارتياد النوادي الايطالية باسطنبول يتعاطى القمار فيها مع أصدقائه الايطاليين ويخضع لسلطان الذهب[٤٥] .

استقالت وزارة حقي باشا وحلت محلها وزارة أخرى غير أن المعارضة لم تخمد حدتها بل ظلت تواصل حملاتها على الحكومة . وفي ٨ تشرين الثاني ١٩١١ تأسس حزب ضم معظم المعارضين باسم « جمعية الحرية والائتلاف » ، وبهذا بدأ الصراع الحزبي المشهور بين الاتحاديين والائتلافيين .

كانت جمعية الحرية والائتلاف تضم بين صفوفها بعض الامراء ورجال الدولة القدماء الذين يمثلون اتجاها يمينياً في السياسة العثمانية ، وكان المبدأ الذي نادوا به هو « اللامركزية » أي منح الولايات العثمانية شيئاً من الاستقلال الاداري لكي تتصرف به حسب حاجاتها وظروفها الخاصة دون الرجوع الى المركز أي عاصمة الدولة .

أما الاتحاديون فكانوا يدعون أنهم أصحاب الحق في البلاد لما بذلوه من تضحيات ، وكانوا يتهمون الائتلافيين بأنهم من الرجعيين الذين قضى العهد الجديد على مصالحهم . وكان الائتلافيون يردون هذه التهمة بتهمة مضادة هي أن الاتحاديين شبان أغرار يضرون البلاد بحماسهم من حيث يظنون أنهم ينفعونها .

بلغ الخصام بين الفريقين في مجلس المبعوثين الى الدرجة القصوى ،

---

(٤٥) توفيق علي برو (المصدر السابق) ـ ص ٣٣٠ .

مما اضطر الاتحاديين الى اصدار فرمان سلطاني بحل المجلس واجـــراء انتخابات جديدة • وقد جرت الانتخابات في ربيع ١٩١٢ وكان فيها الصراع عنيفا بين الاتحاديين والائتلافيين • وكانت تلك أول مرة يشهد النـــاس في البلاد العثمانية انتخابا بهذه الصورة • واستطاعت الحكومة الاتحادية أخيرا أن تنجح فيه حيث لم يفز من خصومها سوي أربعة مبعوثين •

لم تدم فرحة الحكومة الاتحادية بنجاحها فـي الانتخـاب طويـلا ، فقد تراكمت المشاكل عليها حتى اضطرت فى ٢٢ تموز أن تستقيل • وألف الائتلافيون وزارة جديدة وأسرعوا الى حل مجلس المبعوثين الذي لـــم يمض على افتتاحه سوى أربعة أشهر(٤٦) •

حرب البلقـان :

كانت دول البلقان تريد اغتنام فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب طرابلس الغرب لكي تعلن الحرب عليها ، وكانت المفاوضات تجري سرا بين الدول البلقانية في هذا السبيل ، وقد أدركت الحكومة الائتلافية ذلك ورأت من الضروري أن تعقد الصلح مع ايطاليا لكي تتفرغ للحرب المتوقعـــة مع دول البلقان •

جرت المفاوضات بين المندوبين العثمانيين والايطاليين في سويسرا ، وفي ١٨ تشرين الاول ١٩١٢ تم عقد معاهدة الصلح بين الدولتين تقرر فيها تنازل الدولة العثمانية عن طرابلس الغـــرب الى ايطاليا على شرط أن تبقى سلطتها الدينية على المسلمين هناك محفوظـــة حيث يحق للســـلطان تعيين موظفين شرعيين لهم(٤٧) •

ومما يلفت النظر في هذا الشأن أن دول البلقان أعلنت الحرب علـــى الدولة العثمانية قبل يوم واحد من التوقيع على معاهدة الصلح تلك(٤٨)، وشرعت جيوش بلغاريا واليونان وصربيا والجبل الاسود تهاجـم الحدود

---

(٤٦) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ بيروت ١٩٧٠ ــ ص ٢٩ .

(47) Carl Brockelmann (History of The Islamic Peoples) New York — P 385 .

(48) William Yale (op . cit .) — P 188

العثمانية كأنها كانت مستعدة لذلك منذ زمن بعيد . وبذا بدأت حرب ضروس تعد من أبشع الحروب في ضراوتها وفي المآسي التي تنجت عنها .

كانت الحدود العثمانية قبل بدء الحرب تمتد غربا حتى ساحل بحر الادرياتيك ، وقد أخذت الجيوش البلقانية تهاجم تلك الحدود كل جيش من جبهته الخاصة به حسب خطة موحدة متقنة . وصارت الجيوش العثمانية تمنى بالهزائم الفظيعة مرة بعد أخرى بشكل لم يحدث له مثيل في جميع أطوار التاريخ العثماني .

من أفظع الهزائم التي مني بها الجيش العثماني تلك التي وقعت قرب مدينة قرق كليسه في الجبهة البلغارية في ٢٣ تشرين الاول ١٩١٢ ، فقد ساد الرعب على الجنود فيها بشكل يصعب تصديقه وصاروا يفرون على وجوههم لا يلوون على شيء ، وأخذ قسم منهم من شدة رعبهم يطلقون الرصاص بعضهم على بعض[٤٩] .

وفي ٣١ تشرين الاول وقعت هزيمة أخرى قرب لوله برغاز ، فكانت هزيمة حاسمة اذ تقهقر الجيش العثماني بلا نظام ، ولم يقف الا عند خط شطالجة الذي يحمي اسطنبول وهو على بعد عشرين ميلا عنها ، وصار سكان اسطنبول يسمعون هدير المدافع ، وانتشرت الاشاعات المرجفة بينهم ، وبدأ الناس يتساءلون : متى تسقط اسطنبول ؟ ! وأرسلت الدول الاوربية سفنها الحربية الى مياه اسطنبول . وأنزلت تلك السفن جنودا لحماية أحياء الاوربيين والبنوك والسفارات . وذهب سفراء الدول الى الصدر الاعظم كامل باشا لمفاتحته في موضوع الامن في اسطنبول فقال لهم : « اني سأدافع عن النظام في الاستانة حتى النهاية ، أما اذا سمحت الدول بغزو الاستانة واستولى اليأس على الاهالي فاني ألقي تبعة ما يجري حينئذ على وجدان أوربا . ولا تحسبوا أنني أترك الاستانة مع سلطاني ، فهو يفضل أن يقتل في قصره وأنا أفضل أن أقتل في ديواني على مزايلة الاستانة »[٥٠] .

---

(٤٩) يوسف البستاني (تاريخ حرب البلقان) ــ القاهرة ــ ص ٩١ ــ ٩٣ .
(٥٠) المصدر السابق ــ ص ١٠٩ .

يمكن تعليل هذه الهزائم التي مني بها الجيش العثماني في حرب البلقان بعدة أسباب نذكر منها بعضها فيما يلي :

اولا : كانت الدول البلقانية تستعد للحرب منذ زمن غير قصير ، واستطاعت أن تنظم جيوشها على أساس حديث ، أما العثمانيون فلم يدركوا الخطر الآتي اليهم من هذه الجهة وكانوا واثقين بالجندي التركي الذي في الواقع من أعظم جنود العالم في شجاعته وقوة صموده ولكن هذا الجندي لا يكفي وحده لنيل النصر بل لابد أن يكون لديه تموين كاف وطرق مواصلات صالحة وضباط أكفاء وسلاح جيد . قيل ان أشد ما كان يعانيه الجندي التركي في حرب البلقان هو البرد والجوع ، وكانت لفظة «أكمك» التركية ـ أي الخبز ـ لا تفارق أفواههم ، وقد تمضى على البعض منهم أربعة أيام دون أن يأكل فيها شيئا أو يأكل شيئا قليلا لا يكفيه .

ثانيا : كان الاتحاديون قد أصدروا قانونا للتجنيد ساووا فيه بين المسلمين وغير المسلمين كما أشرنا اليه آنفا ، ولهذا فقد تجند في الجيش العثماني الكثير من المسحيين الذين كانوا معفيين من التجنيد سابقا كالبلغار والروم والصرب ، وحين نشبت حرب البلقان كان هؤلاء يطلقون رصاصهم في الهواء اذ لم يكن يهون عليهم أن يصوبوا بنادقهم على أبناء عمومتهم من بني قومهم ودينهم ، وكانوا أول الفارين من صفوف الجيش عندما تلوح بارقة النصر في جانب أبناء عمومتهم .

ثالثا : ان الصراع الحزبي الذي كان مستفحلا بين رجال الدولة في اسطنبول قد ألهاهم عن توحيد الجهود ضد عدوهم المشترك ، وقيل ان ذلك الصراع قد سرت عدواه الى الضباط في جبهة الحرب . كتب مراسل جريدة الطان الباريسية يقول : « ان عقارب السياسة كانت تسعى الى قلوب الضباط فتنفث سمها في عواطف الالفة وتصرف الضابط عن واجبه المقدس ، فكنت ترى الضابط الصغير ينظر بعين الحقد الى رئيسه اذا كان من غير حزبه ، وربما استخف بأوامره . وقد أكد لنا ضابط كبير من أركان الحرب أن الشقاق والتنازع كانا واقعين بين كبار القواد قبيل

المعركة الكبرى في تراقيا »[٥١] .

انواع المآسي :

لم يقفه الامر عند حد الهزائم الشنعاء بل تعداه الى كوارث اخرى أبشع منها ، فقد كان في البلقان مسلمون كثيرون ، وقد فر قسم كبير منهم من ويلات الحرب والتجأوا الى اسطنبول أو غيرها من المدن القريبة من ساحات القتال وهم في حالة يرثى لها وانتشرت بينهم المجاعة والاوبئة .

كان في مدينة أدرنة نحو خمسين ألفه مسلم محاصرين وهم على وشك الموت جوعا ، وفي سلانيك نحو مائة ألف لاجيء . أما في اسطنبول فكان عدد اللاجئين اليها مائة وثلاثين الفا ولم يكن أكثرهم يملكون ما يقوتون به أنفسهم وعائلاتهم[٥٢] ، وكان فيهم الكثير من النساء والاطفال . وازدحمت اسطنبول بالجرحى فغصت بهم المستشفيات والكنائس والجوامع والدور الخاصة ، وأصبحت النواحي المحيطة بالمدينة حاشدة بمعسكرات اللاجئين ، وانهار نظام التموين ، ومات الالوف بالكوليرا والتيفوس ، وألوف غيرهم من الجوع والبرد[٥٣] .

والغريب ان اسطنبول في الوقت الذي كانت فيه زاخرة بالمآسي على النحو الذي ذكرناه كانت الفنادق الافرنجية فيها وحارات الاروام والاجانب تسير في حياتها المألوفة كأن الامر لا يعنيها ، وكانت صالات الرقص صاخبة على عادتها « فكنت ترى الجرحى المرتجفين بردا المتقمين لوناً يسيرون في جهات (بيرا) على ألحان الموسيقات وخطرات الراقصين والراقصات ، بل كنت ترى ما هو أقبح من ذلك كله ، ترى أناساً يرقبون أخبار فشل الجيش ليذيعوها في الانحاء ، وبعضهم كان يستنبطها[٥٤] ... »

وقد جرت في بعض القرى البلقانية القريبة من ساحات القتال مآس أبشع من مآسي المهاجرين ، فقد انثال الجنود البلقانيون وأفراد عصاباتهم

---

(٥١) المصدر السابق ــ ص ٢٢١ .
(٥٢) شكيب ارسلان (المصدر السابق) ــ ص ٩٠ ــ ٩٣ .
(٥٣) هـ . س . آرمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٤٥ ــ ٤٦ .
(٥٤) يوسف البستاني (المصدر السابق) ــ ص ١٠٧ .

على المسلمين هناك وصاروا يذبحون فيهم وينتهكون حرمات نسائهم كما يشتهون . والظاهر أن هؤلاء الجنود وأفراد العصابات ارادوا أن ينتقموا لما كان الاتراك يفعلون بهم في الماضي ولكنهم تفوقوا عليهم . قال أحد الكتاب في وصف تلك المذابح : « انه اذا صحت جميع أخبارها فان البلقانيين ارتكبوا في خمسة أشهر بقدر ما ارتكبه الباشبزق والجنود التركية في خمسة قرون » . وأرسل كاتب بريطاني الى جريدة التايمس اللندنية يقول : « الواقع اذا صحت الانباء التي وصلتني ـ وليس هناك ما يحملني على الارتياب في صحتها البتة ـ أن أفظع المذابح في العصور الحديثة تجرى باسم المسيحية ... ولا ريب أن سكوتنا عن تلك الفضائع الهائلة يقع أسوأ وقع في صدر كل مسلم يعلم قيامنا وقعودنا من جراء مذابح محلية صغيرة أقدم عليها الاكراد او الالبان ... »[٥٥]

ومن الجدير بالذكر ان اخبار تلك المآسي كان لها وقع شديد في مختلف أنحاء العالم الاسلامي . يقال ان الكثير من المسلمين في الهند كانوا يحيون الليالي بالبكاء والتضرع في المساجد ، وأخذ أهل كل بلدة منهم يجمعون ما يستطيعون من المال ويرسلونه الى اسطنبول اغاثة للاجئين فيها واعانة للجيش العثماني . وكانت مصر من اكثر البلاد الاسلامية حماسة وبذلاً في هذا السبيل . يقول يوسف البستاني : انه يعرف أناسا في مصر باتوا على الطوى يوم ورد خبر معركة لوله برغاز[٥٦] . وتألفت لجنة برئاسة الامير عمر طوسون لجمع التبرعات ، فجمعت ما يقرب من اربعمائة الف جنيه[٥٧] ، وأرسلت جمعية الهلال الاحمر المصرية سبع بعثات الى اسطنبول لاغاثة الجرحى واللاجئين[٥٨] ...

انقلاب اتحادي :

ان من سوء حظ الائتلافيين ان تلك المآسي والهزائم وقعت اثناء

---

(٥٥) المصدر السابق ـ ص ١٨٧ ـ ١٩٥ .
(٥٦) المصدر السابق ـ ص ٢٠٦ .
(٥٧) شكيب ارسلان (المصدر السابق) ـ ص ٨٩ .
(٥٨) يوسف البستاني (المصدر السابق) ـ ص ٢١١ .

توليهم الحكم • وفي ٣ كانون الاول ١٩١٢ تم عقد هدنة في البلقان بتوسط من الدول الكبرى ، ثم جرت المفاوضات في لندن بين مندوبي الدولة العثمانية ودول البلقان • وقد أصرت دول البلقان على أخذ أدرنة وكانت هذه المدينة يومذاك محاصرة من قبل القوات البلغارية ، فرفضت الدولة العثمانية تسليمها ، وكادت المفاوضة تنقطع من جراء ذلك ويعود الفريقان الى الحرب •

كان كامل باشا يرأس الحكومة العثمانية آنذاك وهو شيخ محنك ضرسته التجارب ، والظاهر أنه وجد نفسه في موقف حرج ، فهو يخشى الرأي العام في حالة موافقته على تسليم أدرنة ، وهو يخشى سوء المغبة في حالة رفضه ذلك • وارتأى أخيرا أن يدعو اليه كبار رجال الدولة في مؤتمر وطني عام ليشاورهم في الامر ، وقد انعقد المؤتمر في قصر « دولمة باغجة » في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٣ حضره ولي العهد يوسف عزالدين أفندي وعدد من الامراء وشيوخ الساسة والقواد ، ولكن زعماء الاتحاديين لم يحضروه بالرغم من توجيه الدعوة اليهم وكأنهم كانوا غير راضين عن عقده • كان عدد الحاضرين في المؤتمر ستة وستين ، وقد وافقوا كلهم على تسليم أدرنة ماعدا واحدا منهم لم يوافق •

وفي اليوم التالي انعقد مجلس الوزراء في الباب العالي للنظر في كتابة الجواب الى لندن حسبما وافق عليه المؤتمر الوطني ، وبينما كان الوزراء يتداولون فيما بينهم سمعوا أصوات مظاهرة صاخبة في الخارج ، وكان المتظاهرون يرفعون الاعلام وينشدون الاناشيد الحماسية ويهتفون بالعبارات التالية : يحيى الحرب ! لا نريد صلحاً يشين سمعة الوطن ! نريد الحرب ! نريد الحرب التي تشرف الوطن ! [٥٩] •

ودخل نفر من المتظاهرين الى مجلس الوزراء يهتفون فخرج اليهم وزير الحربية الفريق ناظم باشا وهو غاضب فأخذ ينتهرهم ، فأطلق عليه أحدهم رصاصة أردته قتيلاً ، والشائع أن القاتل هو أنور بك ، ثم تبودل الرصاص في المدخل فقتل به اثنان من المتظاهرين وستة من الحراس

---

(٥٩) احمد عزت الاعظمي (القضية العربية) ـ بغداد ١٩٣١ ـ ج ٢ ص ٨٠ •

والمرافقين • وتقدم أحد المتظاهرين وكان ضابطا نحو الصدر الاعظم كامل باشا وقال له : ان الخواطر هائجة هياجا عظيما خارج الباب العالي والجدير بك أن تكتب استقالتك • فاضطر الصدر الاعظم الى كتابة استقالته • ثم صدر الفرمان السلطاني من بعد ذلك بتعيين محمود شوكت باشا صدرا أعظم ، وقام هذا بتأليفه وزارة اتحادية •

الهزائم من جديد :

في ٣ شباط ١٩١٣ — أي بعد أحد عشر يوما من تأليف الوزارة الاتحادية — عادت الحرب من جديد الى جميع الجبهات البلقانية ، وعادت الهزائم أيضا الى الجيش العثماني •

وفي ٢٦ آذار استطاع الجيش البلغاري أن يحتل أدرنه فانهى بذلك حصارها الطويل ، فغنم فيها مئات المدافع وأسر نحو أربعين ألف رجل ، كما استسلم له قائد الحامية الغازي شكري باشا • وعندما دخل المنتصرون الى أدرنه أخذوا ينهبون ويقتلون كما هي عادة المنتصرين في البلاد المفتوحة، قالت جريدة « لوكال انزيجر » في وصفه المدينة بعد سقوطها : « انها كانت هائجة مائجة ، وكان البلغاريون والاروام يهجمون على بيوت المسلمين فينهبون ويسلبون ويرمون من قاومهم بالرصاص حتى كنت ترى جثث القتلى متراكمة في الشوارع[٦٠] » •

كان الالم بالغاً في اسطنبول عند ورود الخبر اليها بسقوط أدرنه ، واهتزت أوربا للخبر أيضاً ، فقد خافت الدول الكبرى أن يرسل البلغار المائة الف جندي الذين كانوا مشغولين بحصار أدرنة الى خطوط شطالجة فيقتحموها ويدخلوا اسطنبول عنوة ، وتنفتح بذلك مشكلة عالمية يصعب حلها •

أسرعت الدول للتوسط بين الفريقين المتحاربين • وفي ٢٣ أيار تم عقد معاهدة الصلح بينهما في لندن • وقد رضخت الوزارة الاتحادية أخيرا للأمر الواقع فتنازلت عن أدرنه ووافقت على جميع المطاليب التي طلبها

(٦٠) يوسف البستاني (المصدر السابق) — ص ١٣١ •

المنتصرون • وانتهز الائتلافيون الفرصة وأخذوا يشنعون في الصحف على الوزارة الاتحادية وكيف أنها رضيت بشروط أشد واثقل من تلك الشروط التي رضيت بها وزارة كامل باشا من قبل • فرد الاتحاديون عليهم بقولهم: « ان الدولة التي تقع في خطر يجب عليها أن تدافع عن نفسها ما دامت تجد للدفاع سبيلاً ، حتى اذا فازت استرجعت ما فقدت مع الفخر ، واذا فشلت أنقذت شرف سيفها وشهد لها التاريخ بأنها فعلت كل ما استطاعت[٦١] » •

الاتحاديون يسيطرون :

في صباح ١٢ حزيران ١٩١٣ بينما كان الصدر الاعظم محمود شوكت باشا راكبا سيارته متوجها بها نحو الباب العالي شاهد جمعا كبيرا من الناس وهي يسيرون وراء نعش • فوقفت سيارة الصدر الاعظم انتظارا لمرور النعش والمشيعين الذين وراءه ، ولكن النعش لم يمر بل أنزله المشيعون الى الارض فجأة وصاروا يطلقون الرصاص على الصدر الاعظم ، فخر هذا صريعاً كما خر معه أحد مرافقيه • ثم هرب المشيعون تاركين النعش وحده على الارض ، وتبين ان النعش كان فارغاً !

شاع في حينه ان الائتلافيين هم الذين دبروا الحادث لكي يثأروا به لمقتل ناظم باشا • غير أن بعض القرائن تشير الى أن الاتحاديين هم الذين دبروا الحادث، أو كانوا على الاقل يعلمون به ولم يمنعوه ، لكي يتخذوا منه قميص عثمان وينتقموا به من خصومهم • والواقع أن الاتحاديين استفادوا من مقتل محمود شوكت باشا استفادة كبيرة دعموا بها موقفهم ، واستطاعوا من بعد ذلك أن يستأثروا بالحكم دون أن يجرأ أحد على معارضتهم •

قام الاتحاديون باجراء تحقيق شديد قصدوا به مطاردة خصومهم وارهابهم ، وصدر الحكم أخيرا باعدام ثلاثة عشر رجلا من زعماء الائتلافيين بتهمة اشتراكهم في مقتل محمود شوكت باشا ، وكان من بين هؤلاء المحكوم عليهم الداماد صالح باشا زوج منيرة سلطان احدى أميرات البيت المالك ، وذهبت الاميرة الى السلطان محمد الخامس تبكي وتتضرع

---

(٦١) المصدر السابق ـ ص ٢٣٩ •

لديه لكي لا يصادق على اعدام زوجها . ويقال ان السلطان اخذ يبكي معها غير انه لم يستطيع أن يفعل لها شيئاً . وتم اعدام زوجها مع الآخرين !

وفي الوقت الذي كان فيه الاتحاديون يكيلون لخصومهم الضربات القاصمة ، أخذ النزاع يدب بين دول البلقان من جراء اختلافهم على اقتسام المناطق الواسعة التي فتحوها ، ثم أشهروا الحرب بعضهم على بعض . واغتنم الاتحاديون تلك الفرصة فاوعزوا الى القوات العثمانية باجتياز الحدود التي وضعتها معاهدة لندن وبالتقدم نحو أدرنه لاحتلالها . وفي ٢٢ تموز ١٩١٣ دخل أنور على رأس القوات العثمانية الى أدرنه فاتحا ، وكان دخوله اليها رائعا حيث كانت الاعلام ترفرف فوق رأسه ، والطبول تدق ، والطريق مفروشة بأغصان الزيتون[٦٢] .

ان استرجاع أدرنه دعم موقف الاتحاديين تجاه خصومهم الأئتلافيين دعماً لا يستهان به ، كما خفت عن الجيش العثماني لطخة العار التي لحقت به على أثر هزائمه المنكرة في حرب البلقان .

انور دكتاتورا :

عندما دخل أنور بك أدرنة فاتحاً أضاف بذلك بطولة أخرى الى تلك التي قام بها في طرابلس الغرب قبل عامين ، ويمكن أن نضيفه الى هاتين البطولتين بطولة ثالثة هي قتله لناظم باشا وان كان انور بك لا يعترف بها أمام الرأي العام .

ولم يمض على استرجاع أدرنه سوى مدة قصيرة حتى تبوأ أنور بك وزارة الحربية ، وحصل على لقب « باشا » ، ثم تزوج بأميرة من البيت المالك هي أخت زوجة المرحوم صالح باشا . وقد جرت حفلة زواجه بشكل لم يسبق له مثيل في قصور آل عثمان[٦٣] .

ان هذا النجاح المذهل الذي ناله أنور في خلال سنوات ــ حيث تحول به من ضابط صغير الى وزير وباشا وداماد ــ جعله مغرورا يحسب ان الدنيا

---

(٦٢) هـ . س . أرمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٤٩ .
(٦٣) خالد محسن اسماعيل (قلم وزير) ــ بغداد ١٩٧٠ ــ ص ٤٨

كلها أصبحت طوع يده . انه كان يومذاك في الواحدة والثلاثين من عمره جميل المحيا مفتول الشاربين ، وقد علق صورة نابليون على جدار غرفتـه ليشير بذلك الى أنه نابليون تركيا وصار اصدقاؤه يدعونه « نابليونلك » أي نابليون الصغير[٦٤] .

كان أقوى زعماء الاتحاديين في تلك الآونة ثلاثة هم طلعت وأنـور وجمال ، وكان أنور أقواهم جميعا فصار الشخصية المسيطرة في اسطنبول. ومما يجدر ذكره أن أنور ـ ولنسمه الآن أنور باشا ـ كان ميالاً الـى ألمانيا معجباً بنظام جيشها واثقا أنه جيش لا يغلبه أي جيش آخر في العالم ، فأخذ يسعى نحو توثيق العلاقة بين المانيا والدولة العثمانية بكل جهده .

وفي أواخر ١٩١٣ وصل الى اسطنبول قائد المـاني هـو الجنرال ليمان فون ساندرس مـع بعثـة عسكرية كبيرة لتنظيم الجيـش العثماني وتدريبه ، ومنح سلطة تنفيذية واسعة ، ثم صار الضباط والمعدات تنهـال على تركيا في الاشهر الاولى من عام ١٩١٤ ، وبدأت المفاوضات تجري بين أنور باشا والسفير الالماني لعقد معاهدة تحالف بين الدولتين[٦٥] . وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى استطاع أنور باشا وأعوانه أن يدخلوا الدولة العثمانية فيها الى جانب المانيا . وقد كان أنور باشا موقناً بأن الدولـة العثمانية ستفوز في هذه الحرب بالمجد والعظمة وسيصل هو بذلك الى أعظم ما وصل اليه انسان في التاريخ .

يصف القائد التركي علي فؤاد شخصية أنور باشا على أثر مقابلته له بعد اعلان الحرب فيقول : انه كان قبل ذلك شاباً كريم الخلق ، لين الجانب، رقيق الوجه ، وقـد انقلب الآن الى دكتاتور تلوح عليه مخايل حاكـم قاهر فغاضت بشاشته واكفهرت أسارير وجهه وقر قراره على أن يفعـل ما فعل قيصر . ويضيفه علي فؤاد الى ذلك قائلاً : « وكان أنور باشا يرى أن الله خلقه ليجري على يديه بعض خوارق العادات ، ولا يخالجه شـك

---

(٦٤) هنري مورغنتو (مذكرات سـفير امريكا في الاستانـة) ـ تـرجمة فؤاد صروف ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ص ١٢ .

(65)G . J . S . Eversley (op . cit .) — P 374

في ذلك ، ويرى ان هذه الحرب هي أفضل وسيلة ينبغي التوسل بها ليبلغ مطامحه وشهواته ، وينفذ تلك الخوارق التي قدر لها أن تجري على يديه، وفي الحرب نجم الحاكم القاهر الشاب ، وفيها الواجب الذي اعتقد انه أنزل عليه بقضاء وقدر . وغاية هذه الحياة عنده هي أن يموت ميتة مذكورة ، ولكن قبل أن يموت يجب أن يحمل برؤوس الحراب حملات عنيفة يقيم سوق المنايا ويقعدها ، وكل شيء هين عليه بعد حملات الحراب ، لان تاريخ العالم لا يكتب الا برؤوسها[٦٦] » .

عانت البلاد العثمانية أثناء الحرب العالمية الاولى أبشع الويلات وأفظعها ، فحلت بها المجاعات ، وانتهكت منها الحرمات ، وكثر فيها الثكالى والايتام والارامل ، كل ذلك لان أنور باشا وبعض المغرورين من أمثاله أرادوا أن يشيدوا لهم مجدا . وليس هذا بالامر النادر او الغريب ، فمعظم كوارث التاريخ وويلاته انما نشأت بمثل هذا السبب — مع الاسف الشديد !

---

(٦٦) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) — ترجمة نجيب الارمنازي — بيروت ١٩٦٢ — ص ٢٦ — ٣٨ .

الفصل السادس

احداث العراق

في عهد الدستور

فوجىء أهل بغداد في يوم ٢٤ نيسان ١٩٠٨ بأمر جذب انتباههم هو ظهور معالم الزينة على دوائر الحكومة ، وكان الافندية في حركة يتحدثون مستبشرين ، وقد رفعت أعلام كتب عليها بالقلم العريض « حريت عدالت مساوات أخوت » . وأخذ الاهالي يتساءلون عما جـرى فقيـل لهم أن ان السلطان أمر باعادة الدستور .

يقول توفيق السويدي في مذكراته ـ وكان يومذاك في بغـداد قد أنهى دراسته الثانوية ـ : ان أهل العراق كانوا لا يعرفون شيئاً عـن تلك المفاهيم ولا يحيطون حتى بجزء من مغازيها ، والمفهوم الوحيد الـذي كان ظاهرا لدى الجمهور هو أن هذا العهد الجديد سيجعل المسـلم وغير المسلم اخوانا في الوطن وأنه سيحد من سلطة السلطان عبدالحميد ، وهـذا ما لا يرضاه أحد منهم[1] ...

لقد كانت هناك فئتان فرحتا باعلان الدستور حقاً : احداهما فئـة الافندية الذين كانوا منتمين الى جمعية الاتحاد والترقي قبل اعلان الدستور، أو كانوا مؤيدين لها في قلوبهم ، وهؤلاء كانوا قليلين ومعظمهم من الاتراك. أما الفئة الثانية فهي التي كانت تتألف من أتباع الملا كاظم الخراساني أي دعاة « المشروطية » ، وهؤلاء كانوا يمثلون الاقلية بين الشيعة وكان العامة يعتبرونهم زنادقة على نحو ما ذكرناه في فصل سابق .

حين نقارن وضع العراقيين تجاه اعلان الدستور بسكان بعض البلاد

---

(١) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص١٦ ، ١٩ .

العثمانية الاخرى كالشام وتركيه نجد فرقا كبيرا ، فقد كان الفرح في العراق محدودا ضعيفا بينما في البلاد الاخرى عاما شديدا • ويمكن تعليل ذلك بان البلاد الاخرى كانت تتميز بالصراع الطائفي العنيف بين المسلمين وغير المسلمين ولهذا رأيناهم يظهرون الفرح بالدستور لكي يدلوا به على أنهم أصبحوا اخوانا • أما في العراق فقد كان الصراع الطائفي محصورا فيما بين المسلمين أنفسهم ، وهم لذلك لم يجدوا في اعلان الدستور ما يخفف من داء الطائفية فيهم الا قليلاً •

التحرر من القيود :

الواقع ان بغداد شهدت عند اعلان الدستور ظاهرة اخرى غير ظاهرة الفرح هي ظاهرة الانطلاق في السلوك العام والتحرر من القيود التقليدية لدى الكثير من الشبان ، وقد تمثل ذلك في ثلاثة أمور هي : كثرة انتشار الاسلحة ، وانتشار الملاهي ، واستفحال الشتائم الصحافية •

روى شاهد عيان عما جرى في بغداد يومذاك فقال : ان بغداد أصبحت شبه معرض لانواع الاسلحة حيث كانت تباع هذه الاسلحة على مشهد من رجال الحكومة ، فأينما تسير في الاسواق تجد الاسلحة النارية ظاهرة للعيان ، وكان أغلبها مسدسات وهي على انواع ، وكذلك انواع الخناجر والسيوف والبنادق[٢] ويبدو أن أشقياء بغداد ظنوا أن الحرية التي جاء بها عهد الدستور تعني حرية اقتناء الاسلحة والاعتداء على الغير • يحكى أن أحد الاشقياء في ذلك الحين سطا على بيت وقتل صاحبه فلما قدم الى المحاكمة وصدر عليه الحكم بالاعدام صرخ محتجاً : « اين الحرية التي تنادون بها !! » ، انه كان يحسب أن عهد الدستور يبيح له نهب الناس وقتلهم بلا حساب • وانثال البغداديون على الملاهي على منوال ما فعلوا تجاه الاسلحة • وقد شهدت بغداد عقب اعلان الدستور أول مسرح ترقص عليه أمرأة وكان ذلك حدثا هز المجتمع البغدادي هزاً عنيفاً ، ثم توالت من بعد ذلك وفود الراقصات من بلاد الشام ومصر وتركيه بشكل يثير الدهشة

---

(٢) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ١٤٥ •

على نحو ما سنذكره في فصل قادم .

أما في ميدان الصحافة فقد حدث أمر يشبه من بعض الوجوه ما جرى في ميداني اللهو والشقاوة . فقد حصل من جراء زوال الرقابة عن الصحف عقب اعلان الدستور أن أصبح كل شخص قادر على الكتابة مهما كان ضحل الثقافة يحاول اصدار جريدة أو مجلة . وبهذا ظهر في بغداد ما يمكن تسميته بـ « الفورة الصحافية » ، وهي فورة مصطنعة لم تقم على أساس من التخطيط الصحيح .

اعتاد القراء في تلك الآونة أن يشهدوا كثرة صدور الصحف كما يشهدوا كثرة موتها ، فكان من شأن كل جريدة أن تموت بعد صدور أعداد قليلة منها . وكثيرا ما كان صاحب الجريدة يلجأ الى الشتيمة المقذعة او المعارضة الشديدة لكي تروح صحيفته فترة من الزمن ، واضطر بعض الاعيان أن يسدوا أفواه الصحفيين « الوقحين » بمبالغ يدفعونها باسم الاشتراك وهي في الواقع ليست سوى رشوة للستر . وصف رفائيل بطي وضع الصحافة في بغداد آنذاك فقال : ان الازدياد الفاحش في عدد الصحف مع نقص الخبرة والدربة عند محرريها جعلهم يشتطون في كتاباتها ولا سيما فى الجدل السياسى والحزبي ، فظهرت فيها مهاترات شخصية « يندى لها الجبين » مما جعل الرجعيين يقعون على فريسة باردة فخرجوا من أوجارهم وطفقوا يندون بحرية الصحافة[٣] ...

حادث في بغداد :

كانت جمعية الاتحاد والترقي قد أرسلت الى العراق — كما أرسلت الى غيره من البلاد العثمانية — مندوبين عنها لاجل فتح فروع للجمعية فيه . وقد فتحت الفروع في بغداد والبصرة والموصل والنجف والحلة وكربلاء وغيرها من المدن العراقية . وكان افتتاح الفرع في كل مدينة يجري باحتفال فخم تلقى فيه الخطب والقصائد . وأخذت الحكومة تشجع وجهاء المدن ورؤساء العشائر على الانتماء الى فروع الجمعية ، وقد تهافت

---

٣) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) — القاهرة ١٩٥٥ — ص ٢١ .

هؤلاء على الانتماء تهافتاً شديدا كما هي عادتهم في كل أمر يجدون فيه تزلفاً الى الحكومة واكتساب رضاها . ولذا رأينا فروع الجمعية في المدن العراقية تتضخم خلال وقت قصير . يروي رئيس فرع البصرة عمر فوزي مكتوبي زادة : أن طلبات الانتساب الى الفرع كانت تتوالى لدرجة أنهم لم يجدوا وقتا لتدقيقها[٤] .

كان فرع بغداد اكبر فروع الجمعية وأهمها ، وكان يرأسه مراد بك سليمان ، وقد أصدر جريدة باسم « بغداد » . وكان من أعضاء فرع بغداد الشاعران المعروفان جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ، وعندما أقيم مهرجان للفرع ألقى الزهاوي فيه قصيدة هاجم بها الظالمين الذين حكموا الشعب بالقرباج وأشاد بالدستور الذي حقق العدالة[٥] .

ان النجاح الذي نالته جمعية الاتحاد والترقي في تأسيس فروعها في العراق لم يكن خاليا من بعض المنغصات ، وكان سبب ذلك حماس بعض أعضاء الجمعية واندفاعهم . ففي بغداد مثلا قام سامي افندي الاورفلي فالقى في أحد اجتماعات الجمعية خطبة هاجم بها أشراف بغداد وأعيانها وكان هؤلاء منذ بداية العهد الجديد يشعرون بالتذمر منه ويحنون الى العهد البائد ، فلما سمعوا بخطبة سامي أفندي عزموا على القيام بعمل منظم ضد العهد الجديد .

اجتمع السيد عبدالرحمن النقيب ، وعيسى افندي الجميل ، وعبدالرحمن باشا الحيدري ، ومحمد فاضل باشا الداغستاني ، وكاظم باشا ، وجميل أفندي أمين الادارة ، والملا نجم الدين الواعظ ، والشيخ عبدالوهاب النائب ، وأخوه الشيخ سعيد النقشبندي ، والشيخ مصطفى الشهرباني ، وغيرهم ، فألفوا جمعية باسم « المشور » جعلوا هدفها الظاهر الدفاع عن الشريعة المحمدية ومقاومة الافكار اللادينية ، بينما كان هدفها الحقيقي مقاومة جمعية الاتحاد والترقي .

كان خطيب الجمعية الشيخ مصطفى الشهرباني وكان أعمى فصيحا

---

(٤) توفيق علي برو (العرب والترك) ــ القاهرة ١٩٦٠ ــ ص ٧٩

(٥) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٣٧ ــ ٣٨.

فأخذ يلقي الخطب الرنانة في المساجد يثير الناس باسم الغيرة على الدين • وقد انبرى لمناهضته الصحافي عبداللطيف ثنيان صاحب جريدة الرقيب ، فصار يكتب المقالات الشديدة في انتقاد جمعية « المشور » مما أدى الى ظهور توتر في المجتمع البغدادي •

وفي ١٣ تشرين الاول ١٩٠٨ م ـ الموافق ١٧ رمضان ١٣٢٦ هـ ـ انطلقت الشرارة التى تشعل النار ، وخلاصة الحادثة ان جماعة من الاتحاديين كان فيهم عبداللطيف ثنيان ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي دخلوا جامع الوزير الواقع تجاه السراي أي القشلة • وكان الناس فيه يؤدون صلاة العصر ، فصعد الرصافي على كرسي أعد له في صحن الجامع وقرأ بيانا حزبيا كانت جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك قد أرسلته الى فرعها في بغداد • ولم يكد الرصافي ورفاقه يخرجون من الجامع حتى انطلقت أشاعة في أسواق بغداد مفادها آن الاتحاديين أهانوا الدين الاسلامي وأن الرصافي أسكت قارىء القرآن وأهانه من أجل قراءة بيان جمعيتهم • وفي اليوم التالي ظهرت مظاهرة تتقدمها الطبول فتابعها الغوغاء والاطفال ، وصاروا يطوفون الاسواق والطرقات وهم ينادون « الدين يا محمدا ! » ، وسرعان ما اغلقت الاسواق مخافة النهب •

يقول علي ظريف الاعظمي في كتابه « مختصر تاريخ بغداد » : « ولكن هؤلاء الثائرين بينما كانوا ينادون (الدين يا محمدا) نهبوا في طريقهم ما صادفوه على رؤس الباعة وما وجدوه في بعض الدكاكين المفتوحة ، وسلبوا بعض اليهود ، وتجاوزوا بالنهب على قافلة كانت قد جاءت من كردستان الى بغداد ومرت فى سوق السراي ، وفعلوا افعالا مخزية • ثم صاروا يدخلون السراي ويخرجون منه مرارا وينادون بطلب الحكم بالشريعة الاسلامية ولغو الدستور[٦] ••• » •

كان ناظم باشا يومذاك والي بغداد بالوكالة ـ وهو غير الوالي العسكري الفريق ناظم باشا الذي حكم العراق بعدئذ ـ فخرج الى

---

(٦) علي ظريف الاعظمي (مختصر تاريخ بغداد) ـ بغداد ١٩٢٦ ـ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ •

المتظاهرين ووعدهم باجابة مطاليبهم ، فلم يلتفتوا الى أقواله واستمروا في هياجهم ، فارسل الوالي اليهم بعض أعيان بغداد بغية اقناعهم بتحقيق ما وعدهم به ، وخرج هؤلاء الى المتظاهرين في ساحة القشلة يحاولون تهدئتهم . وكذلك أمر الوالي بالقاء القبض على عبداللطيف ثنيان ومعروف الرصافي تسكيناً لهم ، وجيء بهذين الرجلين الى مركز الشرطة ثم أطلق سراحهما بعد أن ثبت كذب ما شاع عنهما . وانفض جمع المتظاهرين أخيرا بعد أن استمرت مظاهرتهم بضع ساعات[٧] .

حادث آخر في الحلة :

حدث في الحلة حادث شبيه بحادث بغداد من بعض الوجوه ، وخلاصته أن أحد الضباط من أعضاء فرع جمعية الاتحاد والترقي في الحلة اسمه حمدي أفندي بن حنوفه خطب ذات يوم في جمع من الناس وأخذ يذكر مظالم العهد البائد وما كان فيه من تفسخ في جهاز الدولة ، ثم قال في ختام خطابه : « آن هذا دور الحرية والمساواة والاخوة ، فقد اصبحتم واليهود أخوة ، فلا فرق بين المسلم واليهودي » . فهاج القوم وماجوا وعلت الضوضاء . ووصل الخبر الى العامة فأخذوا يبحثون عن الضابط ليقتلوه ولكنهم لم يجدوه .

ولم يتعظ الضابط بما جرى ، بل رأيناه يعود الى ما يشبه فعله الاول بعد مدة قصيرة ، فقد كان جالسا في أحد المقاهي وأخذ يتكلم عن الحرية ومزاياها فتعرض لحفلات المولد النبوي ومجالس التعزية الحسينية ، ثم قال : ان المفتي يشبه مطران النصارى وان السيد القزويني يشبه حاخام اليهود . وحين وصل الخبر الى السيد محمد القزويني اشتد غضبه وأمر بترك العزاء الحسيني الى أن يتم الاقتصاص من الرجل . وفعل مثله امام جامع السنة عبدالسلام الحافظ فاغلق باب الجامع وقرر أن لا صلاة الا بعد أن يأخذ العدل مجراه . وثار أهل الحلة وأخذ كل واحد منهم سلاحه وهجموا على القشلة يريدون قتل الضابط وأغلق الناس دكاكينهم

---

(٧) المصدر السابق ــ ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

سبعة أيام ، وهجم الغوغاء على نادي الجمعية ونهبوا ما فيه من أثاث . ولم تهدأ البلدة الا بعد أن أخرج الضابط منها مخفورا وسيق الى بغداد. أرسل مركز الجمعية في سلانيك مندوبا لها يدعى عمر أفندي اليوزباشي للتحقيق في الامر . وحين وصل هذا المندوب الى الحلة ودرس الامر قرر الغاء فرع الجمعية هناك وتأسيسه من جديد بأعضاء من أشراف البلدة ووجهائها ، وقد تألف الفرع أخيرا برئاسة المفتي وصار السيد محمد القزويني نائبا له ، وانتمى اليه الآلاف من أهل الحلة . ثم وردت برقية من مركز الجمعية الى كل من المفتي والقزويني تتضمن الشكر على ما فعلا في سبيل الجمعية[8] .

انتخاب المبعوثين :

كان الفرمان السلطاني قد صدر عقب اعلان الدستور باجراء الانتخاب لاعضاء مجلس المبعوثين ــ أي النواب ــ في كافة البلاد العثمانية . وقد جرى الانتخاب في العراق في خريف ١٩٠٨ ، والواقع أنه لم يكن انتخابا حقيقيا بل كان صوريا يشبه التعيين . وقد استطاعت فروع الجمعية في المدن العراقية أن تسيطر على صناديق الانتخاب سيطرة تكاد تكون تامة .

لم يكن في العراق حينذاك غير قليل من الناس من يفهم ما هو الانتخاب . ويخيل لي أن العامة خشوا أن يكون الانتخاب حيلة حكومية يراد بها التجنيد الاجباري أو جباية الضريبة أو ما أشبه ، انهم لم يصدقوا أن الحكومة تريد نوابا عن الاهالي لمحاسبة الحكومة ومراقبتها ، فهذا في نظرهم أمر غير معقول . أما وجهاء المدن ورؤساء العشائر فالذين ساهموا في الانتخاب منهم انما فعلوا ذلك من باب التزلف للحكومة طبعا .

كتب السيد اسماعيل الواعظ يصف الانتخاب وكان قد شهده بنفسه فقال ما نصه : « وصار لهذا الانتخاب شأن عظيم لانه كان حرا بتمام معنى الكلمة حتى أن الوالد انتخب من بغداد عن بغداد ، ومن الديوانية عن

(٨) مصطفى نورالدين الواعظ (الروض الازهر) ــ الموصل ١٩٤٨ ــ ص ٢٢٩ ــ ٢٣٢ .

الديوانية ، وخير فاختار الديوانية »[9] . ولا يخفى ان هـذه الشـهادة كانت منبعثة عن عاطفة ولم تكن تمثل الحقيقة ، فلو كان والد هذا الرجـل قد أخفق في الانتخاب لكانت شهادته من طراز آخر .

انتهت الانتخابات في شهر تشرين الثاني ، وهذه هي أسماء الفائزين فيها مع حفظ الالقاب : اسماعيل حقي بابان وعلي الآلوسي وساسون حسقيل عن بغداد ـ شوكت رفعت ومصطفى الواعظ عن الديوانية ـ عبدالمهدي الحافظ عن كربلا ـ طالب النقيب وأحمد الزهير عن البصرة ـ رأفـت السنوي وخضر لطفي عن المنتفق ـ محمد علي فاضل وداود يوسـفاني عن الموصل ـ ملا سعيد كركوكلي زادة عن السليمانية ـ على الحـاج مصطفى قيردار وصالح النفطجي عن كركوك ـ عبدالمحسن السـعدون وعبدالمجيد الشاوي عن العمارة[10] .

الملاحظ ان هذه القائمة تضم اسم رجل شيعي هو عبدالمهدي الحافظ مبعوث كربلا ، واسم رجل يهودي هو ساسون حسقيل مبعوث بغـداد، وهذا أمر لم يكن مسموحا به في العهد الحميدي انما سمح به الاتحـاديون لكي يبرهنوا به أنهم بدأوا عهدا جديدا لا يفرقون فيه بين الناس على آساس من المذهب أو الدين ، فالكل في نظرهم سواء !

كان يوم ٤ كانون الثاني ١٩٠٩ موعد مغادرة المبعوثين بغـداد ، فنصبت البلدية لتوديعهم خيمة كبيرة قرب مقبرة الشيخ معروف في جـانب الكرخ ، وأقام فرع الجمعية مأدبة فخمة فيها حضرها أعيان بغداد وكبـار موظفيها كما حضرها والي بغداد بالوكالة محمد فاضل باشا الداغستاني . واصطف الجنـود ، وعزفت الموسيقى ، والقى مبعوث الديوانية السـيد مصطفى أفندي الواعظ خطبة ذكر فيها ما يجب على المبعوث أن يفعلـه وهو الذي وضعت الامة ثقتها به ، ثم شكر الامة على ذلك[11] ...

---

(٩) المصدر السابق ـ ص ٣٧٩ .
(١٠) عباس العزاوي (تاريخ العـراق بين احتلالين) ـ بغـداد ١٩٥٦ ـ ج ٨ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
(١١) مصطفى نور الدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٠ .

غادر المبعوثون بغداد متوجهين الى اسطنبول عن طريق الفرات ، وكان في صحبتهم الشاعر معروف الرصافي اذ كان قد استدعاه صاحب جريدة « اقدام » لكي يساعده على اصدار جريدته باللغة العربية[١٢] . وبعد أربعة وعشرين يوما وصل المبعوثون الى اسطنبول ، وكان المجلس قد جرى افتتاحه قبل وصولهم باربعين يوما ، فبدأوا يشاركون في جلساته ومناقشاته.

صدى الخلع في العراق :

عندما خلع السلطان عبدالحميد في نيسان ١٩٠٩ ووصل خبره الى العراق كان له صدى بالغ فيه ، فقد كان للسلطان عبدالحميد فى قلوب العراقيين مهابة تشبه التقديس . يقول توفيق السويدي في مذكراته : ان اكثر المصلين فى المساجد بكوا عندما ورد في خطبة الجمعة لاول مرة اسم السلطان الجديد محمد الخامس[١٣] . ويروي السيد اسماعيل الواعظ ما جرى في الحلة ، وكان مفتياً ورئيسا لفرع الاتحاد والترقي فيها ، فقال: ان برقية وردت اليه في منتصف الليل تنبيء بخلع السلطان عبدالحميد ، وفى الصباح غص السراي بالموظفين والاهالي وكان يوماً مشهودا ، وبعد أن تلا هو نص البرقية ألقى دعاءا بالمناسبة ابتدأه بالآية : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير » . فأخذ الناس يبكون بكاءا مرا[١٤].

وفي اليوم التالي صدرت جريدة « بغداد » الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقي وهي تحتوي على تفاصيل الخبر ، فاقبل أهل بغداد عليها اقبالا منقطع النظير حتى بيع منها في ذلك الحين ثلاثة آلاف نسخة ، وكان هذا رقما قياسيا بالنسبة لجريدة عراقية في ذلك الزمان[١٥] .

ومن الجدير بالذكر ان محمود شوكت باشا الذي كانت له اليد الطولى

---

(١٢) يوسف عزالدين (شعراء العراق في القرن العشرين) — بغداد ١٩٦٩ — ص ٧١ .

(١٣) توفيق السويدي (المصدر السابق) — ص ١٩ .

(١٤) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٣٨٩ .

(١٥) رفائيل بطي (المصدر السابق) — ص ٢٣ .

في خلع عبدالحميد كان بغداديا وهو ابن سليمان فائق وأخو مراد سليمان وحكمت سليمان . ويمكن القول ان الكثير من البغداديين شعروا بالفخار حين علموا بأن رجلا منهم قام بذلك العمل الجبار واستطاع أن يخلع السلطان ، وقيل ان بعض أشقياء بغداد كان يجلسون في المقاهي المحلية ويفتلون شواربهم مفاخرين بالباشا ابن محلتهم . انهم أسفوا لخلع السلطان ولكنهم في الوقت نفسه فرحوا لان الخلع تم على يد واحد منهم .

كان محمود شوكت باشا من بقايا المماليك في العراق — أي انه شركسي الأصل — ولكن الناس كانوا يظنون خطأ أنه عربي من سلالة عمر بن الخطاب. وكان سبب هذا الخطأ أن محمود شوكت باشا هو ابن خالة هادي باشا العمري فتوهم الناس أنه لا بد أن يكون عمريا كابن خالته ، وقد راج هذا الخطأ في العراق والبلاد العربية الاخرى ، ونظم شوقي قصيدة في مدح محمود شوكت باشا ذكر فيها أنه « ابن الاكارم من بني عمر » (١٦) ، وفعل مثل ذلك شاعر عراقي حيث وصف محمود شوكت باشا بأنه « بجده عمر اقتدى » (١٧) . وقد نبهت جريدة الرقيب البغدادية الى تصحيح هذا الخطأ فذكرت أن محمود شوكت باشا ليس عمرياً وان قام بتلك البطولة العظمى !

تتابع الولاة :

كان ناظم باشا والياً لبغداد بالوكالة عند اعلان الدستور على نحو ما ذكرناه آنفا ، وبعد أشهر قليلة استدعي هذا الرجل الى اسطنبول ليتولى وزارة العدلية ، فحل محله في ولاية بغداد نجم الدين منلا بك ، ولكن هذا الوالي لم يمكث في منصبه الجديد سوى خمسة أشهر ، فقد استدعي بعدئذ الى آسطنبول ليتولى وزارة العدلية على أثر مقتل ناظم باشا الذي لم يتمتع بالوزارة طويلا اذ كان من جملة ضحايا واقعة ٣١ آذار .

وفي ٩ آب ١٩٠٩ وصل الوالي الجديد شوكت باشا وهو مهندس

---

(١٦) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) — بغداد ١٩٥٥ — ج ١ ص ٢
(١٧) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج ٨ ص ١٧٥ .

عسكري ولم يحصل على سمعة حسنة في بغداد . يقول عنه الكاتب العراقي ابراهيم صالح شكر : انه « كان من السذاجة المتناهية ، والضعف في تدبير الامور ما جعل منه (الالعوبة) التي يلهو بها أغرار الاتحاديين ، ولكن في الحاق الاذى بمن يكرهون ، وتوفير الخير لمن به يتصلون ، وكان حظ (الراقصة طيرة المصرية) من هذا الخير غير قليل ... »[١٨] .

وقد أعطانا مفتي الديوانية السيد اسماعيل الواعظ صورة أخرى عن الوالي شوكت باشا حيث قال عنه : « ... هذا الرجل زاده الله في الجسم بسطة غير أنه لا يعي ولا يحل ولا يربط . وأضرب مثلا واحدا هو أنني استأذنت من المشيخة وجئت بغداد ، ومن المعلوم يجب علي أن اذهب الى الولاية وأواجه الوالي ، وعند مواجهتي كان حاضرا السيد أحمد افندي ، والسيد عبدالله أفندي النقيب ، وصارا يعرفاني للوالي ، فأجابهم بنعم ، وبقيت منتظرا لما يدور منه من الاسئلة عن لواء الديوانية وعن حالته السياسية والاقتصادية وما اشبه ذلك . وبعد مضى نصف ساعة رأيت الوالي لا يتكلم بكلمة واحدة سوى أنه مشغول بالكتابة ، فالتفت الى الكتابة التي هو مشغول فيها وكنت قريبا منه فرأيته يشطب ويحرر أرقاما كأنه يريد أن يقضي وقته بغير ما يفيد شيئاً . فقمت وقال لي : « صو كره كور شورز » أي بعدئذ تتواجه . ففكرت أن أعود عليه ثانية ، فبعد يومين ذهبت ، وعندما حللت عنده سألني : « خواجه أفندي نه استيور سكز » أي يا ملا ماذا تريد ؟ فأجبت اني مفتي الديوانية وقد أمرتم في المواجهة فأتيت ، فسكت . وبعد هنيهة قمت فقال لي : « بردها كور شورز » أي كذا مرة أخرى تتواجه ، فعلمت أن الوالي لا يعرف سوى هذه الكلمة .. »[١٩] .

الفريق ناظم باشا :

يبدو أن العراق في عهد الوالي شوكت باشا شاعت فيه الفوضى وكثر عصيان العشائر . يقول الكاتب العراقي ابراهيم صالح شكر في وصفه

---

(١٨) خالد محسن اسماعيل (قلم وزير) ـ بغداد ١٩٧٠ ـ ص ٣٩ .
(١٩) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٢ .

حالة العراق يومذاك : « والفوضى سائدة في العراق ، وحبل الامن العـام مضطرب في جوانبه ، فقبائل الهماوند تعبث في أطراف كركوك وجهـات السليمانية ، وقبائل المنتفك رافعة لواء العصيان مستخفة بالحكم ، وعشائر الديوانية متمردة تجاهر الحكومة بالاستخفاف وتمنع عنها الرسوم الاميرية. وعشائر بني لام من الكوت الى العمارة تقطع على البواخر ووسائط النقل النهرية المرور بين البصرة وبغداد ، وسعدون باشا السعدون متنمر فـي البادية وغاراته المجتاحة هنا وهناك تقلق الحكومة وتؤلم رجالاتها ولكنهم لا يستطيعون صدها أو التقليل من حوادثها . ثم ان الامن في بغداد نفسها كان كثير الاضطراب واضح الخلل ، ففي كل ليلة كان اللصوص يصطدمون بالدرك والشرطة والنواطير ، فيهب الناس من مضاجع النوم على أصـداء البارود وأزيز الرصاص ، وتجاوب الحراس وخفراء الليـل باصـوات الاستغاثة وصراخ المعونة وطلب النجدة ... »[٢٠]

قررت الحكومة العثمانية أن تفعل شيئا لعلاج حالة العراق المستعصية ، فعينت له رجلا حازما من طراز خاص هو الفريق حسين ناظم باشا ، وجمعت له قيادة الجيش كما ضمت اليه ولايتي البصرة والموصل علاوة على ولايـة بغداد ، ومنحته سلطة واسعة لم تكن للولاة قبله ، وأذنت له بصرف أربعين ألف ليرة زيادة سنوية ليتلافى بها ما يحتاج اليه اصلاح البلاد من نفقـات اضافيـــة .

في ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٩ وردت من اسطنبول برقية الـى الوالي شوكت باشا تعلمه بأمر نقله من بغداد على أن يبقى قائما بأعمال الولايـة وكالة حتى مجيء الوالي الجديد . وبعـد يومين نشـرت جريدة الرقيب البغدادية برقية وردتها من مبعوث كربلا الحاج عبدالمهدي الحافظ تبشر الناس بنبأ تعيين ناظم باشا ، وأخذت الاشاعات تروج في بغداد حول هـذا الوالي وعن عزمه وحزمه والاعمال العظيمة التى سيقوم بها في العراق . والمظنون ان بعض الموظفين الاتراك هم الذين بثوا تلك الاشاعات بين الناس للتمهيد لقدوم ناظم باشا وخلق الاسطورة حوله .

---

(٢٠) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ــ ص ٣٥ .

ومرت فترة طويلة تقارب الستة أشهر قبل وصول ناظم باشا الى بغداد مما زاد في شيوع المبالغات حوله . ومنذ منتصف شهر نيسان ١٩١٠ بدأت الجرائد البغدادية تنشر أنباء تحرك ناظم باشا نحو بغداد مرحلة بعد مرحلة . وفي ٦ أيار وصل ناظم باشا الى بغداد عن طريق الفلوجة ومعه موكب فخم يحتوي على الكثير من الاسلحة الحديثة ومجموعة من الضباط والاطباء والجنود الممتازين ، فجرى له استقبال فخم جدا حتى قيل ان البلدية أنفقت سبعة آلاف قرش للاحتفاء به . وفي اليوم التالي أدى ناظم باشا صلاة الجمعة في جامع الشيخ عبدالقادر مع الوالي السابق شوكت باشا . وبعد يومين جرى الاحتفال في القشلة بقراءة الفرمان ، ولوحظ أن نص الفرمان كان يختلف اختلافا واضحا عن الفرامين السابقة اذ لم يكن يحتوي على الالقاب الفخمة والمديح المفرط ، وكان هذا اول فرمان من نوعه على أثر صدور القانون الجديد الذي ألغي به عبارات التعظيم في الكتابات الرسمية . ثم صار الشعراء ينظمون في مدح الوالي والترحيب به القصائد الرنانة كان منهم الشيخ محمد السماوي وعبدالمسيح الانطاكي والمعلم داود صليوة وهجري دده الكركوكلي والاسطة علي البناء[٢١] .

كان الفريق ناظم باشا أقصر قامة من سلفه شوكت باشا ولكنه كان أقوى شخصية منه وله وقار ونظرة تلقي الهيبة في القلوب . ذكر عنه علي جودت الايوبي وكان ضابطا تحت امرته فقال : انه كان « صارما في الانضباط العسكري لا يرحم الضابط الذي بمعيته اذا تأخر دقيقة واحدة عن الوقت المحدد ، وويل له اذا هو أهمل واجبه . كان جهده اليومي يستغرق خمس عشرة ساعة في كثير من الاحيان ، وكان لا يبالي عندما يرى بعض الجنود الاتراك يتساقطون وينهارون تحت ضربات الشمس المحرقة أثناء قيامهم بواجب التعليم والتمرين ولا سيما في شهري تموز وآب في بغداد ، وفي الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا »[٢٢] .

والملاحظ أن ناظم باشا في الوقت الذي كان فيه شديدا تجاه مرؤسيه

---

(٢١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ١٩٥ .
(٢٢) علي جودت (ذكريات) ــ بيروت ١٩٦٧ ــ ص ٢٩ .

كان يتظاهر بالتواضع تجاه أفراد الشعب ، فكانت عربته تخترق طرق بغداد من غير موكب او حاشية بخلاف ما كان عليه الولاة قبله[٢٣] . وكان لهذا السلوك أثره في قلوب البغادة فصاروا يحبونه ويتداولون المبالغات في مديحه . أضف الى ذلك أنه كان يجامل رجال الدين ويقبل أيديهم امام الناس مما جعلهم يلهجون بذكره .

وصف السيد اسماعيل الواعظ في مذكراته شدة محبة البغادة لناظم باشا فقال : انهم كانوا يحبونه محبة عظيمة ولا حديث لهم في مجالسهم الخاصة والعامة الا بذكره الحسن ، واذا مر بأزقة بغداد وأسواقها قاموا له احتراما ، وكان هو يعظم العلماء ويحترمهم غاية الاحترام ولا سيما الوالد يقصد والده السيد مصطفى ـ فكان الوالد اذا دخل عليه يستقبله ويهم بتقبيل يديه غير أن الوالد يمتنع عن ذلك ، وكان لا يحيد عن رأي الوالد فاذا أرادت الحكومة أن تقوم بعمل مخالف للشريعة وكلمه الوالد فيه أمر بمنعه . ويضيف السيد اسماعيل الى ذلك قائلا : ان ناظم باشا لم يكن يصلي أو يصوم ولكنه قام بواجب الشريعة في زمانه ، وعندما حل رمضان لم يشاهد فيه من يتجاهر بالافطار ، وكل من تجده الشرطة مفطرا تأتي به وتجلبه الى المركز وتجلده عشر جلدات ثم تحكم عليه بالحبس شهرا[٢٤] .

كان ناظم باشا يشبه مدحت باشا من بعض الوجوه ، أو لعله كان يريد التشبه به ، وقد نعته حمدي بابان بـ « مدحت زماننا »[٢٥] ووصفه المؤرخ البريطاني لونكريك بأنه كان ذا عزم ونزاهة ولكن عيبه أنه كان ذا رغبة شديدة في ظواهر التمدن يعوزه الاعداد لمشاريعه الضخمة[٢٦] .

كان ناظم باشا عازما على القيام بأعمال عمرانية وحضارية عديدة ، ولكن الوقت لم يسعفه اذ لم تطل مدة ولايته في العراق سوى سنة واحدة

---

(٢٣) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ـ ص ٣٤ .
(٢٤) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ .
(٢٥) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٩٣ .
(26) Stephen Hamsley Longrigg (Iraq 1900 To 1950) — Oxford 1950 — P 51.

تقريبا . وهو على الرغم من قصر مدته قام بأعمال غير قليلة منها ما هو خاص بمدينة بغداد ومنها ماهو عام للعراق كله . أما الاعمال الخاصة ببغداد فنذكر منها ما يلي :

اولا : العناية بنظافة بغداد ووقايتها ، فقد جلب ماكنة لرش الماء في الاسواق في الصيف بدلاً من رش السقائين ، كما أمر باعداد عربات خشبية لجمع الاوساخ ومنع أصحاب البيوت من رمي اقذارهم في الطرقات على منوال ما اعتادوا عليه قديما ، ودفن الخنادق المحيطة بالمدينة اذ كانت مباءة للقذارة ونمو الجراثيم ، كما أمر بانشاء صيدلية حديثة تفتح أبوابها ليلاً ونهارا ، وجمع المجانين والمصابين بالامراض المعدية في أماكن خاصة بهم وأجرى عليهم النفقات ، وأبعد المشردين من الغرباء الذين لا عمل لهم ، ثم أقام سدة طويلة حول بغداد من الجهة الشرقية لحمايتها من الغرق .

ثانيا : فتح مدرسة « كوجك ضابطان » - أي صغار الضباط - على النهر في جانب الكرخ وعين لها مديراً حازماً اختاره من بين الضباط الذين جاؤوا معه من اسطنبول ، وكان من جملة معلميها علي جودت الايوبي وجعفر العسكري ونوري السعيد . وقد جرى فيها تدريب التلاميذ على الاسلحة الحديثة التي جاء ناظم باشا بها معه .

ثالثا : كان الجنود سابقا لا تدفع لهم مرتباتهم بانتظام ، ولهذا كانوا قبل حلول الاعياد يهجمون على أسواق بغداد فينهبونها ، وكان الناس قد اعتادوا على ذلك ويسمونه « فرهود » ، وجاء ناظم باشا فمنع الفرهود وأمر باعطاء الجنود مرتباتهم المتأخرة ، كما أدخل الكثير من التجديد والاصلاح في نظام الجندرمة ، واعتنى بالسجون فأدخل فيها نظام تشغيل السجناء على نحو ما هو معمول به في أوربا .

رابعا : شق شارع النهر وغطاه بالقير وهو أول شارع في بغداد اذ لم يكن فيها قبلئذ سوى أسواق مسقوفة وازقة ملتوية . وقد أدى شق الشارع الى هدم جانب من دار القنصلية البريطانية وبناية بيت لنج ، وجاء الضابط المكلف بشق الشارع الى ناظم باشا يخبره بأن البريطانيين لا يقبلون بهدم الدار والبناية فانتفض ناظم باشا غضباً وقال له بصوت مرتفع :

« خذ الآن فوجاً من العسكر واهدم دورهم على رؤوسهم »[٣٧] . وهـذا هو السبب الذي جعل القنصلية البريطانية تنتقل من محلها القديم الى محل لها جديد قريب من الباب الشرقي .

خامساً : امر بجمع الكلاب ، وجعل مبلغ أربعة قروش مكافأة لمن يأتي بكلب ، فصار الناس يأتون بالكلاب يجرونها بالحبال الى القشلة طمعـاً بالمكافأة . وقد ضرب الرقم القياسي في ذلك رجل من محلة الطوب اسمه حسون حيث أتى بستة وثلاثين كلباً وحصل منها على مبلغ لا يستهان بـه . وكانت الكلاب تساق الى محل قرب مقبرة اليهود حيث يجري اعدامها ، وقيل ان الكلاب في تلك الايام أخذت تفزع عند سماعها كلمة « حبـل » فكان الاطفال يركضون وراءها ويهتفون « حبل ! حبل ! » وهي تجـري مذعـورة .

استتباب الامن في العراق :

ان أهم عمل قام به ناظم باشا هو العمل على قمع الفوضى التي كانت سائدة في العراق ومنع القتال الذي يجري بين العشائر ، وهـي العـادة التي كانت تسمى آنذاك بـ « الغزو » .

عندما وصل ناظم باشا الى بغداد كان أول ما فكر فيه واهتم لـه هو وضع خطة كافية لمنع الغزو . أرسل في البداية الى رجال الدين مـن السنيين والشيعة جميعاً فاستكتبهم الفتاوي في تحريم الغزو ، وقد كتـب هؤلاء فتاويهم كما أراد ناظم باشا حيث ذكروا فيها أن الغزو عادة جاهليـة مخالفة للاسلام وهي تؤدي الى قتل النفوس ونهب الاموال وغير ذلك من الامور التى لا يختلف اثنان فى سوء مغبتها وأضرارها المادية والمعنويـة فضلا عن مخالفتها للشرع الشريف ، ويستحق فاعلها العقـاب الشـرعي والقانوني . وقد شارك في أصدار هذه الفتاوي من علماء السنة : المفتـي محمد سعيد الزهاوي ، والسيد عبدالرحمن النقيب ، والشيخ غلام رسول الهندي ، والسيد محمد نافـع الطبقجلي ، والشيخ عبدالوهـاب النائب ،

---

(٢٧) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٠ .

واخوه الشيخ محمد سعيد النقشبندي ، والسيد محمود شكري الآلوسي .
ومن علماء الشيعة : الملا كاظم الخراساني ، والشيخ عبدالله المازندراني، والسيد محمد القزويني ، والسيد محمد اسماعيل الصدر ، واثنان آخران من كربلاء هما الشيخ محمد حسين والشيخ محمد باقر[٢٨] .

كان ناظم باشا مدركا ان الفتاوي الدينية وحدها لا تردع العشائر عن الغزو ، ولم يكن الحافز الديني في يوم من الايام مانعا من قيام الناس بما اعتادوا عليه من أعمال اعتدائية . ولهذا رأينا ناظم باشا يتخذ طريقة عملية لارهاب العشائر ، وهي أنه استدعى الى بغداد جميع الافواج العسكرية التي كانت متفرقة في مختلف انحاء العراق ، واعد لهذه الافراج معسكرا موقتا في موضع قريب من موقع بغداد الجديدة الحالية سماه « أوردي گاه » أي محل الجيش . ثم أخذ يخضع الجنود الى تدريب صارم لكي يجعل منهم قوة عسكرية يؤبه لها .

وأمر ناظم باشا بدعوة رؤساء العشائر الى بغداد ليكونوا بضيافة الحكومة فيها ، ونصبت لهؤلاء الرؤساء خيام في مكان قريب من محل الجيش . وفي يوم معين جرى استعراض مهيب للجيش كله شهده رؤساء العشائر كما شهده علماء بغداد واعيانها وكبار الموظفين وقناصل الدول الاجنبية . ثم وقف ناظم باشا فألقى خطابا بالتركية وكان المترجم بجانبه يترجم الخطاب الى العربية ، وكان الخطاب مليئاً بالتهديد الشديد . وبعد الانتهاء منه أمر ناظم باشا بتوزيع الخلع على رؤوساء العشائر ، من عباءات وغيرها حسب العادة الجارية ، وكان ذلك يوما مشهودا في بغداد لم يشهد الناس له مثيلاً من قبل .

كان من نتائج هذا العمل ان استتب الامن في بغداد وفي مختلف انحاء العراق . وازدادت سمعة ناظم باشا ارتفاعاً لدى الناس ، وصار اسمه يرهب الاشقياء والعشائر العاصية ، وبدأت الاشاعات تدور بين الناس حول تجوله متنكرا ليفتش الامور بنفسه ، واختلق بعضهم الاوهام في ذلك كأن يقول أحدهم هامساً أنه شاهد فارساً في المكان الفلاني هو ناظم باشا .

---

(٢٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج٨ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

بعينه ، فيصدقه السامعون وقد يزيدون عليه من عندياتهم قليلاً او كثيرا .

ذكر ابراهيم صالح شكر ، وكان قد أدرك عهد ناظم باشا ، فقال : ان البغداديين نعموا بالامن فى ذلك العهد بحيث صاروا يخرجون في المساء رجالاً ونساءاً من غير خوف الى خارج الباب الشرقي فيتمشون حتى « قهوة العبد » عند بستان الخس ، وهذا أمر لم يكن مألوفاً في بغداد قبلئذ لكثرة اللصوص فى تلك المنطقة(٢٩) .

ظن الكثير من الناس فى ذلك الحين ان استتباب الامن سيدوم ، وأن أيام الشقاوة واللصوصية والعصيان قد زالت الى الابد ولن تعود ، وهذا تفاؤل لم يكن له أساس من الواقع الاجتماعي اذ ليس من السهل على الناس الذين اعتادوا على قيم معينة طيلة أجيال متوالية أن يتركوها فجأة بين عشية وضحاها . انهم قد يتركونها فترة قصيرة من الزمن في حالة الارهاب الشديد ، ولكن الارهاب يجب أن يدوم مدة كافية من الزمن لكي يعطي ثماره . والا فان الناس سيعودون الى مثل ما كانوا عليه حالما يزول الارهاب عنهم . وهذا هو ما وقع فعلاً على أثر عزل ناظم باشا من ولاية بغداد فى عام ١٩١١ .

الواقع ان حالة الفوضى التى كانت سائدة فى العراق قبل مجيء ناظم باشا ، ثم عادت بعده ، لم تكن طارئة على المجتمع العراقى بل هي أصيلة فيه اذ هي من أهم معالم المد البدوي الذي سيطر على العراق خلال القرون الستة الماضية . فقد كان من مفاخر الرجل في الريف وفى الكثير من المدن أن يكون قادرا على السطو والنهب وقطع الطريق وعصيان الحكومة ، بشرط أن لا يفعل ذلك فى عشيرته او محلته . انه يحمي عشيرته ويغزو غيرها ، ومن لا يقدر على ذلك اعتبروه مخنثاً لا رجولة فيه . أعرف أشخاصا هم من وجهاء بعض المدن وكبرائها كانوا في شبابهم يسطون على البيوت أو يخرجون لقطع الطريق ، فكان ذلك بداية شهرتهم وأساس الوجاهة التي حصلوا عليها بعدئذ .

ومن المناسب أن انقل هنا قصة طريفة حدثت فى بلدة السماوة فى

---

(٢٩) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) — ص ٣٧ ، ٧٣ .

الايام الاولى من ولاية ناظم باشا وقد رواها عبدالعزيز القصاب الــذي كان قائمقاماً في السماوة حينذاك ، انه يقول : عند وصول ناظم باشـا الى بغداد فوجئت بطلب منه أقلقني هو سحب الفوج الموجود في الســماوة حالاً وارسـاله الى بغـداد ، وفي اليوم التالي غـادر الفـوج السماوة ، وعند عودتي من توديعه قابلني في الطريق رجل مجروح في وجهه وهــو يشكو لي ظلامته ، ثم قابلني رجل آخر دلال نهبت منـه العباءة التي كـان يبيعها ، ورجل ثالث بزاز يهودي كان يبكي مدعيا أن فلاناً سلبه مقدارا من الخام وفر هاربا ، ورجل رابع كان قد أهانه شخص من غير سبب يذكـر . يقول عبدالعزيز القصاب : ان المعتدين في كل هذه الحوادث كانوا يقولون للمعتدى عليهم : ان الحكومة قد ذهبت بذهاب الجيش وأنه لم يبق فـي القضاء هيبة للحكومة . وعند هذا أسرع القائمقام فاستدعى المعتدين وأمر الجندرمة بطرحهم على الارض وأخذ يضربهم بنفسه واحدا بعد الآخر ويقول لهم : «تعتقدون أن الحكومة ذهبت . كلا . انها لا تزال هنا وقـد أصبحت اقوى من ذي قبل . اني لا أسـمح لاحـد ان يخـل بالامن ويخـالف القانون »[٣٠] .

صدق من قال : الحاكم الجائر خير من الفوضى !

ضجة حول الزهـاوي :

نشرت جريدة المؤيد المصرية في عددها الاسبوعي الصادر في ٧ آب ١٩١٠ مقالاً بتوقيع جميل صدقي الزهاوي عنوانه « المرأة والدفاع عنها » شرح فيه مضار الحجاب وأورد بعض المظالم التي ترزح تحتها المرأة المسلمة. وفيما يلي نبذة من المقال :

« أجاز المسلمون أن يقسو الرجل فيطلق المرأة ويستبدلها بغيرهـا كسقط المتاع راداً الى حضنها أطفالها الذين هم نتائج شهوته غير راحـم لدموعها ولا مصغ لنشيجها ... لماذا لم يجز المسلمون أن تطلقه لتنجـو من شراسته ، وقد قال تعالى في كتابه المبين بعد آية الطلاق (ولهن مثـل

---

(٣٠) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) – بيروت ١٩٦٢ – ص ٨٢ – ٨٤ .

الذي عليهن) ، لماذا لا يكون لها هذا الطلاق مثل ما هو عليها لتتم المساواة وتسود العدالة كما هو مدلول الآية • اني وحقك لاحب الشيعة لانهم لا يقولون بالطلاق الا اذا وقع أمام مجتهدهم ، وأحب الوهابية لانها لاتقول بوقوعه ثلاثا في قول واحد الا اذا كان القول متعددا والازمنة مختلفة ، ولا يخفى ما في ذلك من التؤدة واعطاء المهلة ليجد فيها الزوج الطائش زمانا للندم عن ذنب جناه على أولاده الصبية وعلى رفيقة حياته ، وان كان المذهبان جائرين لانهما لا يخولانها هذا الحق الذي شرعه العقل • أشاعت بعض الصحف الاسلامية أن جماعة من النساء المظلومات شرعن يرتددن فرارا من معاشرة أزواجهن المسيئين اليهن ، وذلك نتيجة معاملة قاسية طبيعية لذلك الظلم الثقيل ، فلا يلومن المسلمون الا أنفسهم فهن مضطرات الى الردة وما حيلة المضطر الا ركوبها••• »[٣١] •

استطاعت مجلة « تنوير الافكار » البغدادية ، وهي مجلة دينية كان يديرها نعمان الاعظمي ، أن تحصل على نسخة من جريدة « المؤيد » فنقلت المقال عنها • ولم تكد المجلة تخرج الى الاسواق في بغداد حتى قامت ضجة كبرى فيها ، وسارت مظاهرة من الجمهور نحو السراي تطالب بانزال العقوبة الرادعة على الكاتب « الزنديق » •

كان رجال الدين هم الذين حركوا الضجة والمظاهرة ، وكان على رأسهم السيد مصطفى الواعظ مبعوث الديوانية ، وكان يومذاك قد عاد الى بغداد أثناء عطلة المجلس، فذهب الى الوالي ناظم باشا وأوضح له ما يترتب على مقالة الزهاوي « المارق من الدين » من « المفاسد المخلة بالشريعة الغراء »[٣٢] ، فلبى الوالي طلب السيد مصطفى وعزل الزهاوي من وظيفته اذ كان مدرساً لمجلة الاحكام العدلية في مدرسة الحقوق • وبعد قليل أصدر الشيخ محمد سعيد النقشبندي كتابا رد فيه على مقالة الزهاوي بعنوان « السيف البارق في عنق المارق » •

أرسل الزهاوي الى جريدة « الرقيب » بيانا للنشر كان هذا نصه :

---

(٣١) عبد الحميد الرشودي (الزهاوي) — بيروت ١٩٦٦ — ص ١١٣ — ١١٤ •
(٣٢) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٣١٠ — ٣١١

« الى ناظم الحكومة في بغداد ـ اسمع ان أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى في بغداد (البلد الذي يسيطر عليه الدستور وعدلك الوافي) أخذ يدير رحى فتنة جسيمة فيحرض الجاهلين على الايقاع بي باسم الدين البريء من الظلم جزاء مقالة اجتماعية نشرت بامضائي في (المؤيد الاسبوعي) كما في (تنوير الافكار) دفاعاً عن المرأة • وهي ، عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها ، لم تتعين بعد أكاتبها أنا أم هي مزورة على لساني من عدو لي في العراق ! والذي أرجوه من الحكومة الدستورية هو أن لاتقتص من الصابغين أكفهم بدمي ••• بل تعتني بتعليمهم وانقاذهم من الجهل لئلا تمتد أيديهم فى المستقبل الى منكد آخر مثلي يتمنى في كل كتاباته اصلاحاً للامة اجتماعيا »(٣٣) •

لم ينفع الزهاوي هذا البيان شيئا ، فقد وقف ناظم باشا الى جانب رجال الدين ضد الزهاوي ، والمظنون أنه انما فعل ذلك نكاية بالزهاوي اذ كان هذا اتحاديا شديد التعصب للاتحاديين بينما كان ناظم باشا معدودا من المناوئين لهم •

مهما يكن الحال فقد سيطر الرعب على الزهاوي لانه كان يخشى أن يعتدى الغوغاء عليه أو يقتلوه ، واعتزل في بيته لا يخرج منه • روى لي رجل من البغداديين المسنين : أن ثلاثة من أشقياء بغداد ذهبوا الى دار الزهاوي ليلاً وطرقوا عليه الباب ، فلما خرج اليهم طلبوا منه أن تخرج زوجته معهم الى القهوة ، وحين أبدى الزهاوي استنكاره لهذا الطلب أجابوه : كيف اذن يطلب هو من بنات الناس أن يرفعن الحجاب ويختلطن بالرجال ؟! ثم اخذوا يهددونه قائلين له : أنهم سوف يقتلونه بخناجرهم اذا هو عاد الى مثل تلك الاقوال الفاسدة • ولم ينصرفوا عنه الا بعد أن وعدهم وعدا مؤكدا بأنه سوف يسمع قولهم ويتأدب بأدبهم ، وهو يحلف بالله الف مرة على ذلك •

غرام ناظم باشا :

كان ناظم باشا أثناء ولايته في بغداد قد وقع في غرام فتاة أرمنية

---

(٣٣) عبد الرزاق الهلالي (الزهاوي بين الثورة والسكوت) ـ بيروت ـ ص ٤٣

حسناء تعرف بين أهل بغداد باسم « سارة الزنگينه » أو « سارة خاتون » . وقد اشتهرت هذه القصة عنه حتى وصلت أخبارها الى اسطنبول وربما الى اوربا .

بدأت القصة ذات ليلة من شهر آب ١٩١٠ ، وذلك عندما أقام ناظم باشا حفلة « بالو » على ظهر باخرة نهرية من أجل انشاء مستشفى الغرباء ببغداد ، وكانت الحفلة مختلطة حضرها القناصل وزوجاتهم وأفراد الجاليات الاجنبية وبعض العائلات المسيحية ، وقد زينت الباخرة بالانوار والاعلام وصدحت فيها الموسيقى . وكانت سارة قد حضرت الحفلة مع أفراد عائلتها وهي تلبس الأزار والبوشي على الطريقة التي كانت مألوفة يومذاك ، ولم يكد الباشا يشاهدها حتى شغف بها حباً على الرغم من الفرق الكبير بين عمريهما ، اذ هي كانت في السابعة عشرة من عمرها بينما هو كان في الخمسين[٣٤] .

ليس هنا مجال الاسهاب في ذكر القصة[٣٥] ، يكفي أن نقول ان الباشا بذل محاولات شتى للوصول اليها دون جدوى ، ولعله ظن أنه قادر بهيبته وسلطانه أن ينال منها مبتغاه ، ثم تبين له أنها فتاة من طراز خاص ذات ارادة وشخصية قوية . وقد بلغ به الغرام يوما أن عرض عليها الزواج فلم تقبل به ، ولما يئس من اقناعها أخذ يهددها ثم سلط عليها جلاوزته يراقبونها ويضايقونها ...

وتسربت أنباء غرام الباشا الى أوساط العامة في بغداد ، فوجدوها فرصة ثمينة لهم ليحوكوا المبالغات والاساطير حول القصة ويجعلوها على شاكلة ألف ليلة وليلة . وكان الحديث عنها يدور في أول الامر همساً، ثم صار الناس يتجاهرون به أخيرا ، ونشأت الاغاني « والبستات » وهي تتضمن اشارات غير مباشرة حول سلوك الباشا العاشق .

---

(٣٤) أتيح لي أن أقابل سارة الزنگينة في عام ١٩٤٥ وكانت يومذاك عجوزا بدينة غير أنها كانت لا تزال تحمل بعض بقايا جمالها القديم ، وقلت في نفسي عند رؤيتها : « ساعد الله قلبك يا ناظم باشا ! » .

(٣٥) يجد القاريء تفصيل القصة في كتاب خيري العمري (حكايات سياسية) — القاهرة ١٩٦٩ — الفصل الاول .

وانتهز خصوم ناظم باشا الفرصة فأخذوا يشنعون عليه ما شاءت لهم أهواؤهم . والواقع أن خصومه كانوا كثيرين ، فالاتحاديون كانوا يعتبرونه من المناوئين لهم ، كما كان البريطانيون يكرهونه لانه هدم دار قنصليتهم وبيت لنج . وكان هناك كثيرون هدم ناظم باشا دورهم أو عزلهم عن وظائفهم أو أهانهم فهم لا يمكن أن يحبوه ، وكان بعض المتزمتين من رجال الدين وغيرهم يكرهونه أيضا لانه اقام حفلة رقص وغناء على الباخرة في نهر دجلة .

وانقسمت جرائد بغداد تجاه ناظم باشا الى فئتين متعاكستين ، فكانت جريدة « صدى بابل » لصاحبها داود صليوه ، وجريدة « الرياض » لصاحبها سليمان الدخيل ، قد وقفتا الى جانبه . أما الجرائد الاخرى فاتخذت موقف النقد والمعارضة له .

واستطاعت سارة أخيرا أن تهرب من بغداد متنكرة حيث أقلتها احدى بواخر لنج الى البصرة ومن هناك أبحرت الى بوشهر . ثم وصلت الى باريس عن طريق بومبي . وقد ساعدها في هربها القنصل الروسي في البصرة والمقيم البريطاني في بوشهر السر برسي كوكس .

عزل ناظم باشا :

في ١٧ آذار ١٩١١ ورد الامر من اسطنبول بعزل ناظم باشا من ولاية بغداد ، ولم يكد الخبر يشيع في بغداد حتى هب أنصار ناظم باشا فنظموا مظاهرة لتأييده قيل أن عدد المشاركين فيها بلغ العشرين ألفا[٣٦] ، وهو رقم مبالغ فيه انما هو على أي حال يدل على أن المظاهرة كانت ضخمة .

يقول علي ظريف الاعظمي : « ولما شاع خبر عزله في بغداد ثارت العامة بايعاز بعض الاشراف الذين كانوا من حزبه ، وقام غوغاء الناس يطلبون ابقاءه ، وهاجوا وماجوا ثم ضربوا الطبول وذهبوا بجموعهم الى داره وأركبوه عربة وسحبوها به وهم ينادون تارة (هذا والينا) وتارة (الله ينصر دولتنا ناظم باشا والينا) ، حتى وصلوا به الى السراي واقعدوه

---

(٣٦) خيري العمري (حكايات سياسية) ــ ص ٣٥

في محله ثم ساروا الى دائرة البرق والبريد وتجمهروا فيها وظلوا يبرقون الى العاصمة يطلبون ابقاءه باسم الالوف من الناس ودام الحال طوال النهار ... » [٣٧] .

واستمر التوتر في بغداد ثلاثة أيام ، كما أرسل عدد من الضباط فيها برقيات الى اسطنبول يهددون بالاستقالة الاجماعية احتجاجا على عزل ناظم باشا ، فلم ينفع ذلك شيئاً . وورد الامر من اسطنبول باناطة اعمال الولاية وكالة الى امير اللواء يوسف آكاه باشا ، وعمد هذا الى استعمال الشدة في قمع المظاهرات وزج القائمين بها والمحرضين عليها في السجن ، فهدأت الحالة وأخلد الناس الى السكون .

وفي صباح ٢٠ آذار ١٩١١ ركب ناظم باشا باخرة من بواخر لنج متوجها الى البصرة ، ومن هناك ذهب الى اسطنبول عن طريق بومبي . ولم ينس أثناء مروره بمدينة بومبي أن يسأل عن حبيبته سارة عسى أن يحظى بلقياها فلم يوفق[٣٨] . وقد تولى ناظم باشا وزارة الحربية عندما تسلم الائتلافيون الحكم في ٢٢ تموز ١٩١٢ ، ثم قتل بعد أشهر معدودة على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق .

يجب أن لا يفوتنا أن نذكر ان الشاعر جميل صدقي الزهاوي نظم قصيدة على أثر عزل ناظم باشا ملأها ذما له وشماتة به ، وهي كانت بعنوان « طاغية بغداد » ، وفيما يلي بعض أبيات منها :

رام هتكاً لما تصون فتاة	كسبت في أمر العفافه اشتهاراً
بنت قوم لم يدنس العرض منهم	بقبيح هم من سراة النصارى
ايها المصلح الكبير أهذا	ما يسميه بعضهم اعمارا
يامهين العراق هل كنت تدري	ان أهل العراق ليسوا غيارى
سر بعيداً الى سلانيك عنا	ان فيها كواعباً أبكاراً

الوالي جمال بك :

ظل يوسف آكاه باشا والياً في بغداد بالوكالة زهاء خمسة أشهر

---

(٣٧) علي ظريف الاعظمي (المصدر السابق) — ص ٢٥١ — ٢٥٢ .
(٣٨) خيري العمري (المصدر السابق) — ص ٣٨ — ٣٩ .

حتى وصل اليها الوالي الجديد جمال بك • وجمال بك هذا من زعماء الاتحاديين الكبار كما أشرنا اليه في الفصل السابق ، وهو الذى أطلق العرب عليه فيما بعد ــ أثناء الحرب العالمية الاولى ــ لقب « السفاح » وهو لقب يليق به •

وصل جمال بك الى بغداد فى يوم السبت ٢٦ آب ١٩١١ ، وكان فى التاسعة والثلاثين من عمره ربع القامة بهي الطلعة له لحية شقراء أنيقة ، والمعروف عنه أنه كان فى ظاهره بشوشاً يحسن المجاملة غير أنه كان في أعماقه قاسياً لا يتردد ان يؤذي أو يقتل من كان يجامله بالامس ، فتراه اذا تقدم اليه أحد برجاء ابتش له ورحب به وقال له : « باش أوستنه » أي « على رأسى » ، ولكنه يكتب سرا بما يناقض ذلك[٣٩] •

كان جمال بك يختلف عن سلفه ناظم باشا من حيث كونه لا يهتم بالمظاهر الدينية ، وكان يحضر الحفلات الراقصة التي كانت الجالية الاوربية تقيمها بين آونة وأخرى • انه اتخذ سكناه في دار عبدالجبار الخضيري الكائن على نهر دجلة قريبا من الباب الشرقي ــ وهو الذي صار في العهد الملكي مقرا لوزارة الشؤون الاجتماعية • وكان مدير البنك العثماني وهو رجل بريطاني يسكن في الدار المجاورة له ، وقد اعتاد جمال بك أن يحضر الحفلات الراقصة التي كان يقيمها مدير البنك فى داره ويراقص زوجته ، وهذا كان من الامور المألوفة بين الاوربيين ولكن البغداديين استنكروه واعتبروه من المخازي التي لا يجوز لوال مسلم أن يرتكبها • وقد كتب أحد البغداديين تعليقاً على صنيع جمال بك في هذا الشأن فقال عنه ما نصه : « اشتهر بالمخازي ، ورقص الدانص مع مدامة مدير الباتق العثماني »[٤٠] •

في الفرات الاوسط :

بعد مضى اربعة عشر يوما على وصول الوالي جمال بك الى بغداد أصدر بيانا الى العشائر نشرته جريدة الزوراء حذرهم فيه من العودة الى

---

(٣٩) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٣٩١ ، ٣٩٨ •
(٤٠) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٢٢٥ •

الغزو، وذكرهم بفتاوى العلماء ، وقال لهم: انهم بحمد الله مسلمون موحدون يعرفون أن النار جزاء من يقتل الناس ويعيث في الارض فسادا ، وطلب منهم الرجوع الى باب الحكومة وعدالتها لحل المنازعات بينهم ، ثم هدد من لا يفعل ذلك منهم بالعقاب الشديد(٤١) .

لم تفهم العشائر ما قاله الوالي في بيانه اذ هي كانت قد عادت الى التنازع والقتال فيما بينها خلال الاشهر القليلة التي سبقت وصوله الى بغداد . وكانت أولى العشائر التي فعلت ذلك هي عشائر الشامية وأبو صخير مما ادى الى انتشار الفوضى في أنحاء المنطقة .

كان عليوي الرخيص رئيس آل شبل محور الفوضى في تلك المنطقة، فقد كان هذا الرجل هارباً أثناء ولاية ناظم باشا فلما سمع بعزله عاد الى المنطقة مستنجدا بعشائر الخزاعل وآل فتلة وآل ابراهيم وآل زياد والجبور وغيرهم ، فأنجدوه وهاجموا أعداءه عشيرة الغزالات وأتباعهم من أهل النخيل ، فوقعت من جراء ذلك معارك فظيعة وقيل ان مزهر الفرعون أبدى فيها قسوة عجيبة حيث حاصر قرية اللهيبات القريبة من الحيرة فأحرق دورها ونهب أموالها ، ثم توجه بعدئذ الى الحيرة نفسها وكانت تسمى « الجعارة » فأحرق جزءاً من سوقها ونهب الحوانيت والدور فيها ، وأزهق ارواحا بريئة كثيرة(٤٢) .

أرسل جمال بك الضابط سليمان عسكري مع قوة عسكرية الى تلك المنطقة(٤٣) . واستطاع هذا الضابط أن يضرب العشائر المتحاربة ضربات شديدة ، ثم ألقى القبض على رؤسائها فزجهم في السجن كان منهم مزهر الفرعون وأخوه مبدر ، وعبدالكاظم الحاج سكر وأخوه عبدالواحد ، ولكنه لم يستطع أن يلقي القبض على رأس الفتنة عليوي الرخيص فاستحوذ على جميع مواشيه وأثاثه وأغنام عشيرته ، وأعطى أراضيه وأراضي عشيرته الى حسن الفرهود رئيس بني زريج(٤٤) .

---

(٤١) المصدر السابق ــ ج٨ ص ٢١٦ ــ ٢١٨ .
(٤٢) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ــ بغداد ١٩٥٤ ــ ص ٣٢ .
(٤٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج٨ ص ٢١٩ .
(٤٤) علي آل بازركان (المصدر السابق) ــ ص ٣٢ ــ ٣٣ .

وبعد القضاء على تلك الفتنة قرر الوالي جمال بك زيارة الفرات الاوسط في جولة تفتيشية ، فتحرك من بغداد مع حاشية له على الخيول وقد لبس العباءة والعقال . وبعد أن فتش سدة الهندية التي كان العمل يجري فيها توجه الى الحلة ، وعند اقترابه منها لم يجد في استقباله سوى اربعة اشخاص فقط هم : المفتي اسماعيل أفندي الواعظ ، والحاكم صالح أفندي الباچچي ، ومأمور الاملاك المدورة محمود أفندي الشيخ علي ، والقومسير محمود أفندي ، فاشتد غضب الوالي لعدم حضور القائمقام والاهالي لاستقباله . ولما دخل الى البلدة جاءه شوكت بك ، وكان القائمقام بالوكالة، وأخذ يعتذر ويتضرع قائلا : « ايها الباشا ، من الصغير الخطأ ، ومن الكبير العفو ، عبدكم أخطأ وهو مغرور بعفو ولطف دولتكم » . ولكن الوالي لم يقبل اعتذاره بل ظل غاضبا لا يتكلم ، ثم ذهب الى دائرة التلغراف فأبرق الى قائمقام خانقين الحاج نامق أفندي يأمره بأن يحضر حالاً الى الحلة ليتسلم منصب القائمقامية بدلاً من شوكت بك على أن يصل اليها خلال يومين . وكانت تلك مشكلة كبرى للحاج نامق افندي اذ يجب عليه أن يقطع مسافة ثمانية أيام بيومين ، وقد استطاع على أي حال أن يصل الى الحلة في الوقت المحدد له حيث أمضى الوقت كله على ظهر فرس ، وكان يبدل فرسه في كل بلدة يمر بها بين خانقين والحلة .

ولم يمكث الوالي في الحلة ، بل غادرها حالاً الى الجربوعية فالديوانية ، وكان قاضي الديوانية صالح افندي الملي وكيلاً عن المتصرف فيها ، فأقام للوالي حفلة استقبال لم يسبق لها مثيل حيث نصب خيمة فخمة على جدول الرشادية ، وقد جلس فيها الوالي فجاءت العشائر أفواجا تسلم عليه ، كما زينت البلدة بأنواع الزينة وفرشت السجادات الايرانية على الارض من الجسر الى باب السراي وفي داخل السراي أيضا . ومكث الوالي في الديوانية ثلاثة ايام ثم غادرها الى الشامية فأبو صخير فالنجف فكربلاء ، ومن ثم عاد الى بغداد[٤٥] .

---

(٤٥) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .

فتوى الجهـــاد :

في ٣٠ ايلول ١٩١١ وصل الخبر الى بغداد بهجوم ايطاليا على طرابلس الغرب ، فأصدر الوالي جمال بك بيانا الى المسلمين من أهل العراق طلب فيه منهم ان يهبوا لنصرة الدولة في حرب الكافرين . وعلى أثر نشر هـــذا البيان خرجت المظاهرات في بغداد على شكل مواكب تحمل الرايـــات والطبول ، وذهب المتظاهرون الى القشلة حيث خرج اليهم الوالي فخطب فيهم بالتركية كما خطب فيهم الزهاوي بالعربية ، ثم ساروا من بعد ذلـــك في الطرقات وهم يهتفون لنصرة الدولة . ولم تخل تلـــك المظاهرات مـــن حادث مزعج اذ التقى في باب المعظم موكب باب الشيخ بموكب الحيدرخانه ، والظاهر أن احقاداً كانت موجودة بين المحلتين ، فنشب بينهما قتـــال كـــان النصر فيه لاهل باب الشيخ[٤٦] .

وانطلق الشعراء من بعد ذلك يتبارون في نظم القصائد للتحريض على الجهاد ومساعدة الدولة العثمانية فيه ، وكان ابرزهم في ذلك الرصـــــافي وعبداللطيف الحلي وأبو المحاسن ومحمد حسين كاشف الغطاء ورضـــا الشبيبي وأخوه باقر وعلي الشرقي وعبدالعزيز الجواهري وابراهيم منيـــب الباچچي وعبدالرحمن البناء .

وتألفت لجان خاصة في المدن العراقية لجمع التبرعات منها لجنـــــة في البصرة برئاسة السيد طـــالب النقيب جمعت آلاف الليرات ، وتطوع الالوف من سكان العراق للمشاركة في القتال ولكنهم لم يذهبوا . وتبرع مبدر الفرعون رئيس آل فتلة وهو في السجن بمبلغ قـــدره خمسمائة ليرة كما أعلن عن استعداده للمشاركة في الحرب[٤٧] ، وقد كافأه الوالي على ذلك فأطلق سراحه من السجن هو وأقرباؤه من رؤساء آل فتلة .

وأصدر رجال الدين فتاويهم في وجوب بذل النفس والنفيس لنصرة الدولة ، وقد ساهم في اصدار هـــذه الفتاوي علماء السنة والشيعة جميعاً

---

(٤٦) لويس ماسنيون (لهجة بغداد العربية) ـ ترجمة اكـرم فاضل ـ بغـــداد ١٩٦٢ ـ ص ٨ .

(٤٧) ابراهيم الوائلي (الشعر العراقي وحـــرب طرابلس) ـ بغـــداد ١٩٦٤ ـ ص ١١ .

ما عدا واحدا منهم هو السيد كاظم اليزدي . ومما يلفت النظر ان هـذا الرجل عاد فأصدر فتواه حين هاجمت روسيا ايران ، وقد ذكر فـي فتواه عندئذ ان المسلمين يجب أن يقوموا بأمر الدفاع عن طرابلس الغرب تجاه هجوم ايطاليا ، وعن ايران تجاه هجوم الروس .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان مجلة العلم النجفية كانت قـد أشارت في صدر عددها الصادر فى ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١ الى ان السيد كاظم اليزدي تخلف عن بقية علماء النجف فى التوقيع على الفتوى ، ثـم عادت المجلة فى آخر العدد نفسه فنشرت خبرا بعنوان « بشارة عظمى » نقلت فيه نص الفتوى التي أصدرها اليزدي وعلقت عليه قائلة : « قـد سبق منا فى صدر هذا العدد ابداء الاسف من تخلف حضرة المومى اليه عن بقية علماء النجف فى امضاء صورة منشورهم الخطير فى وجـوب اتحاد المسلمين ودفاعهم عن طرابلس الغرب . ولكنه دام ظله بعد ما أبلغه حضرة الحر المقدام عزيز بك قائمقام النجف تعديات ايطاليا على طرابلس وتجاوزات الروس والانكليز على الحدود الايرانية أعلن موافقته لحجج الاسلام في وجوب توحيد كلمة أهل التوحيد لدفاع هاتيك الدول الثلاث، ونشر هذه الفتوى التى قدمنا صورتها الجليلة لانظار قرائنا الـكرام . فليصدقوا ما قررناه فى أعدادنا الماضية وهو أن اعداءنا كلما زادونا اضطهادا ازددنا اتحادا ... » .

الصراع الحزبي في بغداد :

في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٢ حل الاتحـاديون مجلـس المبعـوثين واستصدروا فرمانا باجراء انتخابات جديدة ، وكان الائتلافيون حينذاك قد ألفوا حزبهم المعارض واختاروا السيد مصطفي الواعظ ليكون وكيلا عنهم في تأسيس فرع لحزبهم في بغداد .

غادر السيد مصطفى اسطنبول فى ١٩ شباط متوجها الى بغـداد ، فوصلها بعد شهر واحد . وعند وصوله دعا السيد عبدالرحمن النقيـب والسيد علي الآلوسى ، والشيخ يوسف السويدي ، وعبدالرحمن باشـا الحيدري ، الى وليمة غداء فى داره فى باب الشيخ . وقد اتفق الحاضرون

على معارضة الوالي جمال بك ومقاومة « أعابيثه » ، وأقسموا بالله على ذلك[٤٨] .

وأخذ السيد مصطفى الواعظ يعمل على تأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف ببغداد ، واستأجر له دارا خاصة به وعلق على أحد جدرانها قطعة كتب عليها « الائتلاف خير من الاختلاف » . وقد انضم الى الفرع الكثير من الشباب المتعلم من أمثال كامل الطبقجلي صاحب جريدة « بين النهرين » ، وحمدي الباچچي ، وشكري الفضلي ، ومحمود نديم الطبقچلي ، ومحمود أديب ، وعمر نظمي ، وجمال بابان ، وغيرهم . وكان هذا الفرع مدعوماً من قبل السيد طالب النقيب في البصرة .

حاول الوالي اجتذاب السيد مصطفى الواعظ الى حزب الاتحاد والترقي ، فزاره في داره ذات مساء وظل يحاوره ويغريه حتى الساعة الرابعة بعد الغروب ، وتعهد له بتعيينه عضوا في مجلس الاعيان ، فلم يوفق في اقناعه[٤٩] . وتحول الوالي بعدئذ نحو السيد عبدالرحمن النقيب محاولا اجتذابه ، وكان النجاح حليفه في ذلك ، فقد تعهد للنقيب بجعل ابنه محي الدين مبعوثا عن بغداد ، وتم الاتفاق بينهما على ذلك ، وانسحب النقيب من الحلف الذي كان بينه وبين زملائه الآخرين[٥٠] .

جرت الانتخابات في ربيع ١٩١٢ ، وكانت انتخابات حامية تختلف عما جرى من قبل ، وشهد العراقيون لاول مرة في حياتهم صراعا حزبيا بين المرشحين . وقد بذل الوالي جهودا كبيرة في سبيل انجاح المرشحين الاتحاديين ضد خصومهم ، وكانت النتيجة أن فاز الاتحاديون في جميع الالوية ما عدا البصرة والعمارة اذ فاز فيها الائتلافيون بقوة السيد طالب[٥١] .

يقول السيد اسماعيل الواعظ في وصف تلك الانتخابات : انها

---

(٤٨) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٢٦١ .
(٤٩) المصدر السابق ــ ص ٣٩٨ .
(٥٠) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ــ ص ٤١ .
(٥١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٠٢ ــ ١٠٤ .

قد حصل فيها « التلاعب المشين من حرق الاوراق وتزويرها »[٥٢] . ولست أدري هل حصل ذلك حقاً أم أن السيد اسماعيل قال ذلك لان أباه السيد مصطفى فشل في الانتخاب ؟!

وقد أقام الاتحاديون ببغداد حفلة بمناسبة نجاحهم في الانتخاب خطب فيها الوالي فأخذ يعدد مناقب الاتحاديين وأعمالهم فى خدمة الدولة العثمانية ، وخطب كذلك فؤاد بك الجيبچي ونوري أفندي البغدادي وجميل صدقي أفندي الزهاوي ، وكان مما قاله الزهاوي في خطبته « انه يعيش اتحاديا ، ويموت اتحاديا . ويلاقي الله بوجه الاتحاديين »[٥٣] . ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن الزهاوي كان قد فاز بالانتخاب مبعوثاً عن لواء المنتفق .

صاحب المنار فى بغداد :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد مشغولة بالانتخابات وصل اليها السيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » القاهرية ونزل فى ضيافة السيد عبدالرحمن النقيب . والظاهر أن مجيء هذا الرجل الى بغداد فى تلك الظروف لم يكن خالياً من بعض المقاصد السياسية . يجب أن لا ننسى ان السيد رشيد كان من الذين انتقدوا الاتحاديين على سياستهم ضد العرب وكتب فى ذلك مقالات عديدة ، وقد اصطدم من جراء ذلك مع الشيخ عبدالعزيز شاويش فى عام ١٩١١ ، اذ كان الشيخ شاويش يهاجمه في مجلته « الهداية » ويتهمه بأنه متفاهم مع الانكليز ، فيرد عليه السيد رشيد في مجلته « المنار » ويكيل له الصاع صاعين[٥٤] .

وحين وصل السيد رشيد الى بغداد احتفى به أهل بغداد لا سيما الشباب المتعلم من ذوى التحسس القومي ، فطلبوا منه القاء محاضرة عامة وحاولوا تمثيل رواية « وفاء العرب » ليمهدوا بها الى اجتماع الناس من

---

(٥٢) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٥٦٢ .
(٥٣) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) — ص ٤٢ .
(٥٤) انور الجندي (عبد العزيز جاويش) — القاهرة — ص ١١٢ — ١١٤ .

أجل استماع المحاضرة • ولم يرق ذلك للاتحاديين في بغداد فحركوا عليه رجال الدين والعامة وكانت الذريعة التي اتخذوها ضده هي أنه « سلفي » ينكر قدسية الاولياء• وكان على رأس المحرضين عليه السيدمصطفى الواعظ، وقد ألف في ذلك كتيبا ، ويقال ان السبب فى ذلك هو أن السيد مصطفى بعد أن خسر النيابة أراد أن ينال عضوية المجلس الاداري فأخذ يتقرب الى الوالي عن طريق التشهير بالسيد رشيد رضا [٥٥] • وقد اضطر هذا أن يغادر بغداد دون أن يلقى المحاضرة •

مصير الائتلافيين في بغداد :

قدم جمال بك استقالته من ولاية بغداد على أثر تسلم الائتلافيين الحكم في اسطنبول فى ٢٢ تموز ١٩١٢ • وفى ١٧ آب غادر جمال بك بغداد ، وقد خرج الاتحاديون ومن شايعهم من أهل بغداد لتوديعه ، واجتمعوا فى الساحة القريبة من مقبرة الشيخ جنيد ، فخطب فيهم خطبة مسهبة ختمها بقوله : « قد تظنون أنني استقيل من ولاية بغداد خشية من معاكسة الوزارة لما أريده هنا ، فاذا كان ظنكم هذا فغلطا ما تظنون ، والواقع اني انما سارعت باستقالتي لاستطيع الذهاب الى الاستانة فهناك أستطيع العمل على اسقاط وزارة الأئتلافيين »[٥٦] •

مرت بعد جمال بك فترة استغرقت سنة ونصفه تقريبا تعاقب عليها عدة ولاة ، بالوكالة تارة وبالاصالة تارة أخرى ، كان آخرهم محمد فاضل باشا الداغستاني التي ظل واليا بالوكالة من ١٠ ايلول ١٩١٣ حتى ١٨ كانون الثاني ١٩١٤ • ولم يحدث خلال تلك الفترة ما يستحق الذكر سوى ما حصل فى بغداد من صدى بليغ لمقتل الصدر الاعظم محمود شوكت باشا ، فقد قتل هذا الرجل فى اسطنبول فى ١١ حزيران ١٩١٣ كما ذكرناه فى الفصل الماضى ، وحين وصل الخبر الى بغداد فرح الأئتلافيون به فرحا ظاهرا وظنوا أن مقتله سيقصم ظهر الاتحاديين على نحو ما قصم مقتل ناظم باشا قبلئذ

---

(٥٥) خالد محسن اسماعيل (المصدر السابق) ــ ص ٤٤ ــ ٤٥ .
(٥٦) المصدر السابق ــ ص ٤٦

ظهر الائتلافيين وشتت شملهم •

كان بعض الائتلافيين في بغداد شباباً أغرارا اذا سمعوا بحادثة ظنوا ان الدنيا انتهت بها فيندفعون في أمر ثم يندمون عليه • فهم لم يكادوا يسمعون بمقتل محمود شوكت باشا حتى أعلنوا اغتباطهم بذلك ، واخذت الموسيقى تصدح في ناديهم • وأرسل أحدهم ، وهو كامل أفندي الطبقجلي، برقيات الى ولي العهد وبعض ذوي المقامات العالية في اسطنبول تتضمن البشرى والتهنئة •

كان الاتحاديون في اسطنبول قد اتخذوا من مقتل محمود شوكت باشا قميص عثمان على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق ، وصاروا ينتقمون من خصومهم ويطاردونهم في كل مكان • ولهذا أبرق وزير الداخلية الى الداغستاني الذي كان واليا في بغداد بالوكالة يأمره بالقاء القبض على كامل الطبقجلي ويوسف السويدي وشكري الفضلي ومحمود نديم الطبقچلي ، وتسفيرهم الى اسطنبول لتقديمهم الى المحكمة العسكرية بتهمة اشتراكهم في مقتل الصدر الاعظم محمود شوكت باشا •

كان محمد فاضل باشا الداغستاني يتميز عن غيره من الولاة العثمانيين بأنه يعتبر نفسه بغداديا ، وكان ذا شهامة ونخوة على الطريقة المحلية ، ولهذا كان البغداديون يحبونه ويبالغون في مدحه • فلما جاء الامر اليه في القاء القبض على الائتلافيين البغداديين هب للتشفع لهم وحمايتهم • فرفع اقتراحا الى اسطنبول يطلب فيه احالتهم الى محكمة عسكرية تقام في بغداد ، فاجيب الى طلبه فيهم ما عدا واحدا منهم هو كامل الطبقچلي ، واضطر الى تسفيره الى اسطنبول ليلاقي جزاءه ، أما الباقون فقد أمضوا في التوقيف عدة ايام ، ثم أطلق سراحهم •

كانت تلك نهاية الائتلافيين في بغداد ، حيث تفرقوا بعدها أيدي سباء فاعتزل السياسة بعضهم ، وانضم آخرون الى الحزب الغالب ، وهرب محمود نديم الطبقچلي الى البصرة محتميا بالسيد طالب النقيب •

سدة الهندية الثانية :

ان السدة التي بناها المهندس الفرنسي شونديرفر في عام ١٨٩٠ على نهر الفرات أخذت تتهدم بمرور الايام ، حتى اذا حل عام ١٩٠٥ اصبحت

الحالة في شط الحلة اشد مما كانت عليه قبل انشاء السدة ، وانقطعت المياه في موسم الصيهود عن أراضي الحلة والديوانية والدغارة وصار السكان يهجرونها ، وبدأ التلف يحل ببساتين النخيل[٥٧] .

وفي شهر كانون الاول ١٩٠٨ وصل بغداد المهندس البريطاني المعروف السر وليم ويلكوكس اذ كانت الحكومة العثمانية قد عينته مستشارا للري في العراق[٥٨] . وبعد دراسة الوضع رفع ويلكوكس تقريره الى اسطنبول حيث يقترح فيه بناء سدة ذات ابواب حديدية على بعد ثمانمائة متر من شمال سدة شونديرفر . وقد أخذت الحكومة بهذا الاقتراح وعهدت ببناء السدة الجديدة الى شركة «جاكسون» البريطانية ، وباشرت الشركة بالعمل في شباط من عام ١٩١١ .

بنيت السدة على اليابسة في الجهة الشرقية من مجرى النهر ، واستخدم فيها زهاء ٣٥٠٠ عامل عراقي ، وجرى العمل فيها بدقة عجيبة ويعود الفضل في ذلك بالدرجة الاولى الى الشركة المتعهدة والى المهندس المشرف السر وليم ويلكوكس ، فلولاهما لما كان في الامكان بناء سدة بمثل تلك الضخامة في وضع اداري متفسخ كالوضع الذي كان سائدا في العراق يومذاك .

بلغت تكاليف السدة ربع مليون ليرة ، وهذا مبلغ زهيد يمكن أن نعزو سببه الى رخص أجور العمل من جهة ، والى نزاهة المشرفين على العمل من الجهة الاخرى . وفي ١٢ كانون الاول ١٩١٣ جرى الاحتفال بافتتاح السدة ، فكان احتفالا مهيباً حضره القناصل وكبار الموظفين والاعيان كما حضره الوالي بالوكالة محمد فاضل باشا الداغستاني . والقى المستر هويتلي مندوب الشركة خطابا بالفرنسية ، فأعقبه الداغستاني بخطاب آخر بالتركية. ثم سار المدعوون الى سد التراب الذي أقيم لمنع الماء من الجريان ، فتلي دعاء وذبحت الذبائح ، ثم أمسك الداغستاني بمسحاة أزال بها شيئا من التراب ، واندفع من بعده عشرون عاملا فأزالوا سد التراب كله في خمس

---

(٥٧) احمد سوسة (وادي الفرات) ــ بغداد ١٩٤٥ ــ ج٢ ص ٢٩١ .

(58) Stephen Hamsley Longrigg (op . cit .) — P 68 .

دقائق ، وتدفقت المياه نحو السدة بين زغردة النساء واطلاق الرصاص[٥٩] .

ولاية جاويد باشا :

في ١٨ كانون الثاني ١٩١٤ وصل بغداد الوالي جاويد باشا ، وكان معه عدد من الضباط والموظفين ، فاستقبل استقبالاً حافلاً وأطلقت له المدافع .

كان جاويد باشا من كبار الاتحاديين ، وهو مختص بالاقتصاد والشؤون المالية ، وقد تولى وزارة المالية في عهد الدستور مرتين ، ولهذا أثار تعيينه في العراق بعض الاقاويل والمخاوف . وكان قبل وصوله الى بغداد قد هاجمته جريدة « النهضة » لصاحبها مزاحم الباچچي ، وجريدة « المصباح » لصاحبها عبدالحسين الازرى ، وتوسمتا فيه الشر على العراق وأهله .

يبدو أن جاويد باشا كان حريصاً على استيفاء ما بذمة العشائر من أموال أميرية، ولعله أراد بذلك أن يسترجع المبالغ التي أنفقت على سدة الهندية . وقد كان اهتمامه منصبا بالدرجة الاولى على آل فتلة في منطقة أبو صخير والمشخاب ، فقد كانت تلك المنطقة غنية بزراعة الرز وكان جفاف شط الحلة سابقا قد أفادها كثيرا اذ تحول الماء اليها مما جعل عشائرها مرفهة نسبياً .

عين جاويد باشا حامد آفندي السامرائي قائمقاما بالوكالة في أبو صخير ، وكان هذا الرجل معروفا بالصرامة والنزاهة ، ولما تسلم الوظيفة وجد أن مبدر الفرعون والآخرين من رؤساء آل فتلة عليهم ديون أميرية كثيرة ، ثم وصلته « اخبارية » في شأن مبدر الفرعون بوجه خاص تقول انه ينفق على المومسات والراقصات خمسين ليرة في كل ليلة .

قام جاويد باشا بجولة تفتيشية في الفرات الاوسط ، وكانت له سيارة خاصة به وهي أول سيارة شاهدها سكان تلك المنطقة ، فكان سائقها يرسل صفائح البنزين والدهن اللازمة لها أمامه في الطريق . وصادف

---

(٥٩) احمد سوسة (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ .

عند وصول جاويد باشا الى كربلا ان كان فيها مبدر الفرعون فارسل السائق معه بعض الصفائح ليحملها الى أبو صخير • وحين وصل مبدر الى أبو صخير دخل على حامد السامرائي ليخبره بقرب وصول الوالي اليها، فالتفت السامرائي اليه غاضبا وقال له: « بمثل هذه الامور والاحوال تأكلون اموال الحكومة وتنالون من أوليائها الاحترام خصوصا من يجهل احوالكم، فاين أموال الحكومة يا مبدر ؟ فاعلم أني لست ممن يموه عليهم ، ولا من يرغب في الاولاد والنساء ، ولا من أهل الارتكاب حتى تأخذوني بيدكم كما هي عادتكم مع مأموري الحكومة • واني لا أدعكم تأكلون قرشا واحدا من أموال الحكومة من هنا فصاعدا » • فخرج مبدر من عند السامرائي والغيظ ظاهر على وجهه •

وعند وصول الوالي الى أبو صخير جاء اليه رؤساء آل فتلة مستغيثين يطلبون منه عزل القائمقام ، فقال لهم : « اعلموا ان هذا القائمقام لا مرتكب فترشوه ، ونحن طلبنا منه تحصيلات الاموال السابقة والحالية ، فان دفعتموها فهو صديقكم والا فاني خولته وأعطيته اليد وأبحت له أن يفعل فيكم ما يشاء بمساعدتي » • ثم ركب الوالي سيارته وغادر البلدة[٦٠] •

قدم حامد السامرائي الى رؤساء آل فتلة انذارا أمده عشرة ايام بأن يوفوا ما بذمتهم من أموال الحكومة السابقة والحالية ، ولم يجد أولئك الرؤساء طريقا أمامهم سوى الثورة واعلان العصيان • وقد استمرت الثورة أربعة أشهر ، ووجهت الحكومة عليهم من البصرة باخرة مجهزة بالمدافع والرشاشات ، وأنزلت بهم الهزيمة ، وصعد حامد السامرائي فوق قلعة مبدر وقال : « يا آل فرعون أسومكم سوء العذاب » ، ثم أمر بهدم القلعة • واستسلم مبدر للحكومة في أبو صخير ، وألقت القبض على أخيه مزهر وابن اخيه سرتيب المزهر ، وعبد الكاظم الحاج سكر واخيه حسن[٦١] ، وسيقوا جميعا الى بغداد فأودعوا السجن فيها • أما عبدالواحد

---

(٦٠) علي آل بازركان ؛ المصدر السابق) ـ ص ٣٤ ـ ٣٥ •

(٦١) فريق مزهر آل فرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٥ •

الحاج سكر فقد استطاع الهرب واختفى بين الرعاة[٦٢] • وقـام السامرائي عندئذ بعمل يعد الاول من نوعه في تاريخ العراق الحديث ، هو أنه استولى على اراضى الرؤساء وقسمها على أفراد العشيرة ، واستحصل من الوالي على « الشرطنامات » اللازمة لهم • وقد أشغل الافراد بيوت رؤسـائهم واستغلوا أراضيهم • ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فلما أعلنت الحرب العامه واحتل الانكليز البصرة أطلق الوالي سراح رؤساء آل فتلة وأعاد اليهـم أراضيهم • وذهب هؤلاء الى الشعيبة ليشاركوا في « الجهـاد فـي سـبيل الله » ! •

---

(٦٢) علي آل بازركان (المصدر السابق) ـ ص ٣٦ •

الفصل السابع

حركة الوعى العربى
واثرها فى العراق

لم يكن للعرب في العصور المتأخرة وعي قومي بالشكل الواضح الذي نشهده في عصرنا ، ذلك لان الوعي الديني هو الذي كان سائدا بينهم وكان المسلمون منهم يعتبرون الاتراك اخوانا لهم في الدين ضمن اطار الدولة العثمانية التي كانت تمثل الخلافة الاسلامية في نظرهم •

لم يظهر الوعي القومي بين العرب الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكان اول ظهوره بين المسيحيين الشاميين ، ويعزو ساطع الحصري ذلك الى أسباب منها أنهم كانوا اكثر اتصالا من المسلمين بالدول الغربية ، وأنهم فضلا عن ذلك كانوا يعتبرون الدولة العثمانية غريبة عنهم ومتسلطة عليهم ، ولذا فهم كانوا يختلفون فى هذا المضمار عن اخوانهم المسلمين[١] •

ان اول جهد منظم فى تاريخ الوعي العربي الحديث اتضح فى عام ١٨٧٥ حين الف خمسة شبان مسيحين من الذين درسوا فى الكلية الامريكية «جمعية ثورية سرية» • وقد استطاع هؤلاء الخمسة بمرور الزمن ان يضموا الى جمعيتهم اعضاء من مختلف الطوائف الدينية وان يفتحوا لها فروعا في دمشق وطرابلس وصيدا ، كما استطاعوا ان يستميلوا اليهم المحفل الماسوني الذي كان قد انشىء منذ عهد قريب وان يشركوه فى اعمالهم[٢] •

---

(١) ساطع الحصري (نشوء الفكرة القومية) ـ بيروت١٩٥٦ ـ ص ١٧٧ـ١٨٤ •
(٢) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصرالدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ •

وصف فارس نمر وهو أحد المؤسسين لتلك الجمعية كيف نشأت الفكرة في أذهانهم فقال : ان فكرة القومية لم تكن يومذاك قد وجدت طريقها الى وجدان العامة ، وكان ولاء الناس يقوم على أساس ديني طائفي، وكانت الوحدة القومية في مثل تلك الظروف امراً يستحيل قيامه ، غير أن جماعة صغيرة من الشبان معظمهم من المسيحيين كانوا يريدون تحرير لبنان من الحكم التركي فأسسوا الجمعية وراحوا يجتمعون مساءا على الروشة في رأس بيروت للتداول والتشاور ، وكان أشد ما يقلقهم هو شعورهم بأنهم غرباء في الوطن واحتقار الاتراك لهم ، وقد أدركوا أنهم اذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يظهروا كجبهة واحدة أمام الاتراك ، ولم يكن هناك من قاسم مشترك بين المسلمين والمسيحيين سوى « العروبة » . فالعروبة كشعار كان فى وسعها أن تثير في نفوس العرب شعورا بالقومية وأن توحد بين المسلمين والمسيحيين الناقمين على الاتراك . وهناك نقطة اخرى في هذا الشأن هو أن بعض الاعضاء البارزين فى الجمعية كانوا قد انضموا الى المحافل الماسونية ، فأخذوا يسعون نحو ادخال المسلمين في تلك المحافل لكي يستميلوهم من بعد ذلك الى الجمعية ، وقد انضم فى الواقع عدد قليل من المسلمين الى المحافل االماسونية[٣] .

فى عهد مدحت باشا :

كان مدحت باشا قد عين والياً فى بلاد الشام فى عام ١٨٧٨ وقد تميز عهده في تلك البلاد بشيء من اليقظة الفكرية والتحرر على نحو ما تميز في العراق من قبل . وآنتهز أعضاء « الجمعية الثورية السرية » تلك الفرصة فنشطوا للعمل في بث دعوتهم بين السكان .

أخذ أعضاء الجمعية يكتبون منشورات فيها تنديد بالحكم التركي واهابة بالعرب ان يثوروا عليه ، ويلصقونها على الجدران في شوارع

---

(٣) زين نور الدين زين (نشوء القومية العربية) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ص ٦٠ ـ ٦١ .

بيروت ليلا . ثم وسعوا نشاطهم بعدئذ فصاروا ينشرون منشوراتهم في دمشق وطرابلس وصيدا علاوة على بيروت . واستمروا على ذلك حتى أواخر ١٨٨٠ . وقد اصيب المسؤولون في اسطنبول والشام بالحيرة والذهول من جراء هذا النشاط السري .

سرت الاشاعات بين الناس ان الوالي مدحت باشا مطلع على سر الجمعية وأنه ان لم يكن مؤسسها الحقيقي فهو على الاقل يسبغ عليها حمايته ، ونسب اليه أنه يريد أن يستقل ببلاد الشام كما استقل محمد علي باشا بمصر قبله . وأرسل السلطان عبدالحميد بعض جواسيسه خفية الى بيروت ، ففتشوا المساكن واعتقلوا بعض الاشخاص المشتبه بهم . ورفع أعيان بيروت الى الحكومة عريضة يعربون فيها عن ولائهم للسلطان واستنكارهم لكل حركة ثورية[٤] . وبعث القنصل البريطاني ببيروت برقية الى حكومته في ٢٨ حزيران ١٨٨٠ هذا نصها : « ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة . يشك في ان مدحت باشا هو منشئها ومع ذلك فالهدوء يسود البلاد . التفصيلات بالبريد القادم[٥] » .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى وصل الى دمشق المشير حسين فوزي باشا مندوبا عن السلطان عبدالحميد ، فقابل مدحت باشا ، وبعد ان ابلغه سلام السلطان قال له : انه موفد اليه بمهمة خاصة هي أخذ العهد والميثاق منه على اخلاصه للذات الشاهانية . فسأله مدحت باشا : عن أية حادثة تريد مني اعطاء عهد الاخلاص ، فأجاب المشير : عن عزمكم علي قلب ولاية الشام الى ايالة ممتازة وضمها الى لبنان واستقلالكم فيهما . يؤيد ذلك الاحتفال الذي أقمتموه للسر لايارد سفير انكلترة عند زيارته لكم في دمشق » . وبعد ثلاثة أيام من هذه المحاورة صدر الفرمان السلطاني بنقل مدحت باشا الى ولاية أزمير[٦] .

وبعد انتقال مدحت باشا من ولاية الشام تسرب الضعف الى « الجمعية

---

(٤) المصدر السابق ــ ص ٦٤ .
(٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ١٤٩ ــ ١٥٣ .
(٦) صديق الدملوجي (مدحت باشا) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٥٦ ــ ١٥٧ .

الثورية السرية » وبدأ الانقسام يظهر بين أعضائها . والظاهر ان الاعضاء اختلفوا حول الهدف الاعلى للجمعية ، فكان المسلمون منهم يطلبون الحكم الذاتي ضمن اطار الدولة العثمانية بينما كان المسيحيون يطلبون الاستقلال التام لبلادهم وطرد الاتراك منها . وقد أدى الخلافه بين الاعضاء الى أن تحل الجمعية نفسها وأحرقت أوراقها[٧] .

الشاميون يهاجرون :

على أثر الاحتلال البريطاني لمصر فى عام ١٨٨٢ انتقلت حركة الوعي العربي من بلاد الشام الى مصر ، فقد أخذ الكثير من المثقفين الشاميين يهاجرون الى مصر حيث وجدوا فيها من الحرية والازدهار الصحافي ما لم يجدوه في بلادهم ، فنشطوا للعمل هناك وأخذوا يصدرون الصحف والمجلات ويؤلفون الكتب ، فأنتجوا بذلك حركة فكرية لا يستهان بها . انهم أخذوا يستعملون مصطلحات عربية قديمة بعد أن اسبغوا عليها معاني حديثةمثل « الوطن » و « الامة » و « الاستقلال » و «حقوق الانسان »[٨]، وهي من مفاهيم الثورة الفرنسية والحركات القومية الاوربية ، فصارت هذه المصطلحات تنتشر فى البلاد العربية منذ ذلك الحين .

يقول المؤرخ وليم ييل : « ان مصر تحت الحكم البريطاني أصبحت ملاذاً للقوميين العرب ، فقد جاء المهاجرون الشاميون الى وادي النيل افواجا حيث كونوا فيه جالية صغيرة مهمة ، ان هؤلاء اللاجئين كانوا نشيطين في عدة مجالات وقد واصلوا فعالياتهم السياسية والثقافية في مصر. وبذا صارت الجالية الشامية في القاهرة مركزا للقومية العربية مهماً..»[٩].

ومما يذكر ان هؤلاء الشاميين المهاجرين الى مصر اتخذوا لهم مقهى خاصاً بهم في القاهرة هو مقهى « سبلنديد بار » مقابل حديقة الازبكية ، فكان الكثير منهم يترددون عليه عصر كل يوم من أمثال رفيق العظم وشبلي

---

(٧) زين نور الدين (المصدر السابق) — ص ٦١ .

(8) Phillip Hitti (History Of Syria) — London 1951 — P 477 .

(9) William Yale (The Near East) — Ann Arbor — P 196

شميل وانطوان الجميل ومحمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب واسكندر عمون وسامي جريديني وسليم سركيس وجميل الرافعي وحقي العظم وغيرهم[١٠] .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تأسست أول جمعية سياسية على أيدي هؤلاء المهاجرين هي « جمعية الشورى العثمانية » ، وكان من مؤسسيها رفيق العظم ومحمد رشيد رضا كما ساهم فيها رجال من الاتراك والشركس والارمن ، وكان هدفها مقاومة الاستبداد الحميدي والعمل على اقامة حكومة دستورية في البلاد العثمانية . ويقال ان هذه الجمعية أقلقت السلطان عبدالحميد حتى أنه لم يستطع النوم ثلاث ليال متوالية عند سماعه خبرها ، وسماها « جمعية الشر والفساد »[١١] .

ولم يقتصر الشاميون هجرتهم على مصر فقط بل هاجروا كذلك الى بلاد اخرى كثيرة كفرنسا وسويسرا والامريكتين الشمالية والجنوبية ، وكانوا في كل بلد يحلون فيه يصدرون الصحف الخاصة بهم ويجهرون فيها بنقد السياسة الحميدية وبالدعوة الى القومية العربية ، وكانت تلك الصحفه تصل الى البلاد العثمانية خفية عن طريق البريد الاجنبي وتتداولها بعض الايدي هنا وهناك بعيدا عن عيون الرقباء .

يمكن القول بوجه عام ان الدعوة القومية التي كان الشاميون المهاجرون يسعون لبثها في البلاد العربية لم تلق فيها الا نجاحا محدودا ، اذ كان اكثر العرب متمسكين بالجامعة الاسلامية التي كان السلطان عبدالحميد يدعو اليها . ومن الجدير بالذكر ان عبدالحميد كان يبذل جهده في استمالة العرب واسترضائهم ، وكان لا يشعر بأي تمييز بينهم وبين قومه الاتراك ، أو لعله كان يسير على سياسة التوازن بين القوميتين حيث جعل الباب العالي ومناصب الوزارة بايدي الاتراك بينما جعل قصره وشؤونه الخاصة بأيدي العرب[١٢] .

---

(١٠) احمد عزت الاعظمي (القضية العربية) ـ بغداد ١٩٣٢ ـ ج ٤ ص ١٠٧ .
(١١) زين نور الدين (المصدر السابق) ـ ص ١٩٥ .
(١٢) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

عقب اعلان الدستور :

في ٥ آب ١٩٠٨ ــ أي بعد اعلان الدستورالعثماني بثلاثةعشر يوماً ــ اجتمع في اسطنبول نفر من كبراء العرب كشكري الحسيني وشفيق المؤيد وندرة مطران وناجي السويدي وحمدي الباجچي وشاكر الآلوسى وعبدالوهاب الآلوسى وعارف المارديني ومحمد المخزومي وعبدالله الحيدري وصادق المؤيد ومحي الدين الجزائري وغيرهم ، فأسسوا جمعية باسم « جمعية الاخاء العربي العثماني » هدفها مساعدة جمعية الاتحاد والترقي على تنفيذ الدستور وتمتين الروابط بين العرب والاتراك .

وبعد أن جرى انتخاب الهيئة الادارية للجمعية قام شاعر بيروتي اسمه عزيز سليم صعب فألقى قصيدة بالمناسبة نقتطف منها الابيات التالية :

دع سعادا وحب دعد وميه	وانظم الشعر في هوى الحريه
نعم حرية بها الترك والا	عراب والروم واليهود سوية
يا بني الترك ان رعيتم أخانا	نحن أولى الورى وأوفى الرعية
نحن منكم وانتم اليوم منا	باجتماع ككتلة درية
يا بني العرب جددوا ما حفظتم	من عهود للراية التركية
وانبذوا الفرق فىاللسانوكونوا	واحدا في العبادة الوطنية
فلنقف كلنا بكل وقار	ونحيي العساكر المليه
ولنحيي عبدالحميد بقول	فليعش للحكومة الشورية[١٣]

لم تعش هذه الجمعية طويلا اذ هي انحلت على أثر واقعة ٣١ آذار وخلع عبدالحميد ، ويقال ان الاتحاديين أغلقوا الجمعية لانهم اعتبروا معظم أعضاءها من الرجعيين الذين آزروا الثورة المضادة[١٤] . ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى ظهرت جمعية عربية أخرى بدلا من الجمعية المنحلة ولها ما يشبه هدفها غير أنها كانت مؤلفة من الشباب في الغالب ، وقد أطلق عليها اسم « المنتدي الادبي » .

---

(١٣) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ بغداد ١٩٣١ ــ ج٢ ص ٩٨ ــ ١٠١ .

(١٤) احمد قدري (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ــ دمشق ١٩٥٦ ــ ص ١٠ .

كان لولب الجمعية الجديدة شاب حقوقي من جبل عامل في الثلاثين من عمره اسمه عبدالكريم الخليل ، وقد استطاع هذا الشاب بنشاطه الذي لا يفتر وقوة شخصيته ان يجمع حوله الكثير من الطلاب العرب الموجودين في اسطنبول ، وكان عددهم يناهز الثمانمائة ، فصارت دار الجمعية محلا يلتقي فيه هؤلاء الطلاب ويقيمون الحفلات . وقد القى معروف الرصافي في قاعة المنتدى بعض قصائده « العصماء » .

تيار مضاد :

في الوقت الذي كان فيه التآخي بين العرب والاتراك يجري في طريقه على النحو الذي ذكرناه آنفا ، كان هناك تيار آخر يجري على الضد منه ، ذلك أن بعض العرب بدأوا يشعرون بان الاتراك صاروا يتحيزون ضدهم ، وأخذ هذا الشعور ينمو بينهم تدريجيا .

ان الانقلاب العثماني جعل أزمة الحكم كلها في أيدي الاتراك ، ولم يبق للعرب ذلك النفوذ الذي كان لهم في القصر السلطاني ، وهذا أمر لا بد أن يؤدي الى ظهور شيء من التذمر بين العرب . ان أقل بادرة سلبية تبدو من الاتراك ، وان كانت غير مقصودة ، قد تثير في العرب رد فعل أشد منها ، فيقابلها الاتراك بما هو أشد منه ، وهكذا يتفاقم العداء بين الفريقين شيئاً فشيئاً كما هو شأن أي نزاع ينشأ بين البشر في مثل هذه هذه الظروف .

يحدثنا أحمد قدري وهو عربي كان طالباً في اسطنبول عند الانقلاب العثماني فقال : انه كان يمشي مع صديقه عوني عبدالهادي في احد شوارع اسطنبول عقب اعلان الدستور فشاهد جمهورا غفيرا من الناس وقد صعد ضابط تركي على عربة يخطب فيهم ، وأخذ الضابط يذكر محاسن الدستور ثم انتقل الى التحامل على كبراء العرب من رجال العهد البائد فقال : « الخائن عرب عزت والخائن عرب أبو الهدى » يقصد بذلك عزت باشا العابد وأبو الهدى الصيادي . يقول احمد قدري : « وقد عجبت أيما عجب لهذا التحامل المغرض ، أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الاتراك فلم لم يندد الخطيب بواحد منهم بمثل ما ندد

بالشخصيتين العربيتين ؟ واذا كان يندد بهما لشخصهما فلم يعمد الى ذكر قوميتهما ؟ حقاً لقد هزني شعوري القومي ، وتعاظمتني العزة العربية ، فانطلقت اليه وصديقي عوني عبدالهادي ندفع الجماهير المزدحمة ، حتى اذا وصلنا اليه جابهناه باستنكار مزاعمه وفي ملامحنا الغضب الشديد وفي صوتنا نبرات مثل النار » [١٥] .

وفي تشرين الاول ١٩٠٨ — أي بعد اعلان الدستور بثلاثة أشهر — كتب الكاتب التركي المشهور حسين جاهد في جريدته « طنين » يقول : ان الامة التركية كانت وستظل هي الامة الحاكمة في السلطنة العثمانية ، وان الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين فلا مجال اذن للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الاخرى ، وان الدستور العثماني لا يمكن أن يكون في شكله النهائي الا دستورا تركيا[١٦] .

الواقع ان هذه المقالة لم يرض عنها الكثير من زعماء الاتراك وعقلائهم، وانتقدوها بشدة ، ولكنها مع ذلك أثارت النقمة في العرب واعتبروها تمثل وجهة نظر الاتراك كلهم وتكشف عن نواياهم المخفية .

وفي أواخر ١٩٠٩ ازداد شعور النقمة عند العرب على أثر صدور « قانون التنسيقات » وهو القانون الذي اريد به تطهير جهاز الحكومة من الموظفين الفاسدين . فقد أحس العرب أن نصيبهم من التطهير فاق نصيب زملائهم الاتراك ، وأشيع بينهم أن قوائم الموظفين التي قدمت الى لجان التنسيق كانت تحمل رموزا موضوعة بجانب كل اسم منها ، فالموظف العربي يرمز له بحرف (ع) والارمني بحرف (م) . وهذه اشاعة قد لا تكون صحيحة غير أنها تؤدي على أي حال الى زيادة العداء بين العرب والاتراك .

أدى التطهير الى عزل بضعة عشر متصرفا من العرب ، وكان في وزارة الخارجية اثنا عشر موظفا عربيا فلم يبق منهم بعد التطهير سوى واحد[١٧] . ولا حاجة بنا الى القول ان كل موظف يناله التطهير يعتبر

---

(١٥) المصدر السابق — ص ٦ — ٧ .
(١٦) توفيق علي برو (العرب والترك) — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٩٥ — ٩٦ .
(١٧) المصدر السابق — ص ٩٦ — ٩٧ .

نفسه بريئاً ولو كان في الحقيقة من اكثر الناس تفسخاً ، فيجأر بالشكوى ويعزو عزله الى تحيز الاتراك ضده ثم يأخذ بصب اللعنات عليهم ٠

يقول الكاتب المصري محمد لطفي جمعة : انه عندما زار اسطنبول في شتاء عام ١٩١٠ وأوائل عام ١٩١١ لاحظ بوادر التذمر بين العرب ، وقد روى له العرب اخبارا كثيرة عن اضطهاد الترك لهم[١٨] ٠ وفي شهر شباط من عام ١٩١١ وقف شكري العسلي مبعوث دمشق في مجلس المبعوثين وخطب قائلا :

« ايها السادة ، بحثت بالامس في كتاب (السالنامة) ٠٠٠ واستقصيت اسماء الموظفين المنشورة فيه ، فلم أجد بعد البحث الا أسماء قليلة جدا لا تتجاوز عدد أصابع اليد من أبناء العرب الذين هم نصف هذه السلطنة٠٠ فنحن نشترك مع بقية العناصر في دفع الضرائب والقيام بالتكاليف فهل من العدل أن نقوم بما علينا ولا نعطى ما لنا ٠٠٠ هل من المعقول ان أمة كهذه ليس فيها شبان أكفاء لوظيفة مقيد في دائرة الصدارة أو مميز في قلم الداخلية ٠ ان في نظارة المالية فقط ١١١ تركيا و١٣ يهوديا و١٠ من الارمن و٤ من الروم ، وليس فيها عربي واحد ٠ ان سبب ذلك هو فساد التصور وخطأ الاجتهاد ولو عمل لذلك قانون عادل لارتفعت الشكوى ٠ وهـذا ما نحن نطالب به بلسان الامة العربية وبالنيابة عنها » ٠

وقد قوبل هذا الخطاب بضجيج الاستنكار من قبل نواب الترك واعتبروه تابعاً من نعرة هدامة ٠ وكان العرب أنفسهم قد انقسموا تجاه الخطاب، فمنهم من ارتأى ان فتح قضية الوظائف غير مناسبة لانها تظهر العرب بأنهم يهتمون بالوظائف أكثر من اهتمامهم بالاصلاح العام ، بينما ارتأى آخرون أنه قد آن الاوان لاظهار الحقيقة والافاضة بالشكوى لكي يعود رجال الحكم الى الصواب[١٩] ٠

وفي تلك الآونة التي كانت فيها بوادر التذمر تنتشر في أوساط العرب

---

(١٨) محمد لطفي جمعة (حياة الشرق) ــ القاهرة ــ ص ٢٢٥ ٠

(١٩) توفيق علي برو (المصدر السابق) ــ ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ ٠

نشرت جريدة « اقدام » التركية مقالة عن اليمن جاء فيها : « ان أهـــل اليمن يعبدون المال ، وأنهم في سبيل المال يضحون كل شيء ، حتى اعراض النســاء ... » . فقامت قيامة العرب الذين كانوا في اسطنبول يومذاك ، من ضباط وطلاب ونواب وغيرهم ، وذهبت مظاهرة منهم الى أدارة الجريدة فقذفوها بالاحجار ، وكسروا زجــاج شبابيكها ، وأهانوا صاحبها . ثــم توجه وفد منهم الى الباب العالي ، فأخذ الصدر الاعظم يلطف من حدتهم ، ثم أحيل صاحب الجريدة الى المحكمة العرفية فصدر الحكــم بتعطيــل الجــريدة ..

وحين وصل الخبر الى الجرائد في البلاد العربية قامت قيامتها أيضا ، فكتبت احدى الجرائد الشامية تقول مخاطبة صاحب الجريدة : « خسئت لا أب لك ، وما أصدق المثل العربي عليك : رمتني بدائها وانسلت ... وهذه أنساب العرب يتوارثونها كابرا عن كابر فاين نسبك ونسب مــن ينتمي اليك ياصاحب اقدام ؟ ! . » وكتبت جريدة الرقيب البغدادية تقول : « ان الكاتب لابد وأنه يجهل العرب وأحوالهم كــل الجهــل ، ويرى أن ناموسه هو لديه أقــل شيء يمكــن بيعه بأبخس ثمن ... » . وانبرى الشعراء كذلك ينظمون القصائد الشعواء في الرد على صــاحب الجريدة وشــتمه [٢٠] .

الحركة الطورانية ونقيضها :

ان الحركة القومية التركية ـ وهي التي عرفت باسم « الحركـــة الطورانية » ـ كانت قد نشأت بين الاتراك منذ بداية اتصالهم بالحضارة الاوربية الحديثة ، ولكن انصارها كانوا في العهد الحميدي قليلين جدا ، فلما حدث الانقلاب العثماني أخذ عددهم يزداد تدريجيا . والظاهر أن فريقا من الاتحاديين كانوا يدعمونهم بالمعونة المادية والمعنوية .

وفي ٣ تموز ١٩١١ أسس بعض المتحمسين للدعوة الطورانية جمعية اسمها « ترك أوجاغي » ـ أي الوطن التركي ـ وفتحوا لها فروعا وأنديــة

---

(٢٠) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابــق) ـ بغــداد ١٩٣١ ـ ج ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

في مختلف المدن التركية ، وكان هدفها تنبيه الاتراك الى أمجادهم القومية ودراسة تاريخ أبطالهم القدماء كجنكيزخان وأوغوز وهولاكو وتيمورلنك. وكان من رأي أصحاب هذه الدعوة أن هناك أربعين مليون تركي تابعين لروسيا في آسيا الوسطى والقفقاس وهم يؤلفون مع أتراك الدولة العثمانية قومية كبرى لها شأنها ، ولهذا وجب اقامة الدولة على أساس قومي بدلا من قيامها على أساس الدين .

وكان شعار أصحاب هذه الدعوة : « نحن أتراك قبل أن نكون مسلمين » ، وأخذوا يدعون الى ترجمة القرآن الى التركية ، ويحبذون اتخاذ الاسماء الطورانية بدلاً من الاسماء العربية ، كاسم « أوغوز » بدلا من « محمد » ، و « ايشلداق » بدلا من « أنور » . وأخرج كاتب منهم اسمه عبيدالله أفندي كتاباً بعنوان « قوم جديد » أشار فيه الى اسماء الخلفاء الراشدين المكتوبة في المساجد وقال : « ما هذا الجهل ! ؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم أيها الناس ؟! تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم وتتركون خلفاء الترك الذين قدستهم الاحاديث النبوية » . وكذلك نظموا أناشيد تركية لكي ينشدها تلاميذ المدارس العسكرية منها نشيد مطلعه كالآتي :

جنكـز خـانك بايراغـي آتلي شانلي صانلاندي

ومعناه : لقد تموجت رايات جنكيزخان في جو الشرف والمجد .

الواقع ان هذه الدعوة كانت محصورة في فئة معينة من الاتراك هم اولئك الذين كانوا متأثرين بالثقافة الاوربية ، اما سواد الاتراك فلم يكونوا راضين عنها لان تمسكهم الشديد بالدين الاسلامي يمنعهم من قبول أية دعوة أخرى مناقضة له . وقد نشب بينهم وبين أصحاب الدعوة الطورانية نزاع غير قليل .

ومهما يكن الحال فان الدعوة الطورانية اثارت في الشبان العرب الموجودين في اسطنبول شيئاً من رد الفعل ، وصارت النعرة القومية تنمو بينهم وتنتشر من جراء ذلك ، وقد ظهر ذلك واضحاً في المدارس العسكرية التي كانت تضم العرب والاتراك ، فكان كل فريق منهم يمجد أبطاله القدامى تحدياً للفريق الآخر . وانتقلوا من بعد ذلك الى المصاولة بالاناشيد

القومية ، فكان الاتراك يبدأون النشيد في مدح جنكيز خان وتيمورلنك، فيجيبهم العرب بمدح صلاح الدين وخالد بن الوليد والزبير بن العوام وطارق بن زياد والعبادلة السبعة[21] .

وأخذ بعض شبان العرب في اسطنبول يؤسسون الجمعيات القومية السرية كالجمعية القحطانية ، وجمعية العلم الاخضر، وجمعية اليد السوداء ، كما أسس نفر منهم في باريس جمعية العربية الفتاة .

السيد طالب النقيب :

كان السيد طالب النقيب يسكن آنذاك في اسطنبول باعتباره نائب البصرة في مجلس المبعوثين ، وهو لم يكن على وفاق مع الاتحاديين اذ كان هؤلاء يعتبرونه من أنصار ابى الهدى الصيادي وعارضوا انتخابه عن البصرة ولكنه فرض نفسه في الانتخاب فرضاء وعندما وصل الى اسطنبول بعد انتخابه كان يطمح الى نيل منصب مرموق فيها فلم يوفق، ولهذا صار من أشد الناقمين على الاتحاديين • يقول أحمد عزت الاعظمي في ذلك ما نصه: « قدم السيد طالب بك الى الاستانة وكان أكبر همه أن يشغل احدى الوزارات التي يعتقد أنه أهل لها • فلما تحقق لديه أن ما تحدث به نفسه هو قريب من المحال ، لان الاتحاديين لا يرغبون فيه ولا يميلون اليه ، أخذ في كل ما من شأنه أن يحدث شغبا وجلبة في جو الاستانة• وكان يرتاح كثيرا عندما تذكر الصحف العربية اسمه مقرونا بالاعجاب والاكبار اذ أنه كان من المولهين بحب الذات مغرما به غراما لا مزيد عليه »[22] .

أخذ السيد طالب يجتمع بالمعارضين من الاتراك ويؤيدهم نكاية بالاتحاديين • ولما ظهر «الحزب الحر المعتدل» ــ وهو أول حزب للمعارضة في عهد الدستور ــ انتمى اليه السيد طالب • يروي سليمان فيضي في مذكراته : انه كان في اسطنبول في بداية صيف ١٩١١ لاداء امتحان في الحقوق ، فدعاه السيد طالب النقيب الى منزله لتناول طعام الغداء وكان

---

(٢١) محمد لطفي جمعة (المصدر السابق) ــ ص ٢٢٧ .
(٢٢) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج٤ ص ٩٣ .

هناك حاضراً شكري بك العسلي ونفر من أعضاء حزب المعارضة ، وجرى الحديث حول توتر العلاقات بين الترك والعرب وما أبداه الاتحاديون من تعصب للقومية التركية وسعي لتتريك العـرب وكيف ان بعض عقـلاء الترك ناوأوا هذه الحركة الهدامة • ويعلق سليمان فيضي على ذلك قائلا : « والحقيقة ان هذا الموضوع الخطير كان حديث البلد بأسره في ذلـك الوقت ، حتى اني حين زرت المنتدى الادبي في استانبول سمعت أعضـاءه وزائريه يتهامسون عن الاخطار المحيقة بالعـرب اذا استرسل الاتحاديون في مشروعهم الغاشم • »[٢٣] •

وعندما عاد السيد طالب وسليمان فيضي الى البصرة في شهر تموز ١٩١١ أخذا يسعيان نحو تأسيس فرع للحزب الحر المعتدل فيها • وفـي ٦ آب ١٩١١ جرى افتتاح الفرع في مهرجان عظيم حضره الالوف مـن أهل البصرة ، كان فيهم الوالي وكبار الموظفين والقناصل ، وألقيت فيـه الخطب والقصائد الحماسية • ثم تليت برقيات التهنئة والتأييد الواردة من أنحاء العراق ومختلف الاقطار العربية • وصار أعيان البصـرة الذين كانوا من حزب الاتحاد والترقي يستقيلون منه وينضمون الى الحـزب الجديد ، كما انضم اليه بعض الضباط من أمثال عـارف عـانة ومحمود أديب وعبدالجليل الشالجي وسعيد المدفعي وسعيد حقي وغيرهم •

وبعد ثلاثة أيام من افتتاح الحزب في البصرة جاء القنصل البريطاني الى دار الحزب واختلى بالسيد طالب في غرفته حيث عرض عليه استعداد بريطانيا لتقديم كل المساعدات الممكنة للحزب ، كما عرض أن يستدعي احدى قطع الاسطول البريطاني للرسو في مياه شط العرب خشية أن تتخذ الحكومة العثمانية اجراءات معادية للحزب • وكان جواب السيد طالب حسبما يدعيه صاحبه سليمان فيضي : ان الحزب ليس بحاجة الى حمايـة بريطانيا وأنه يعمل لمصلحة العرب وحدهم لا لمصلحة غيرهم[٢٤] •

وأرسل الحزب رسائل الى بعض الاشخاص البارزين في المـدن

---

(٢٣) سليمان فيضي (غمرة النضال) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ٩٤ •
(٢٤) المصدر السابق ــ ص ٩٧ ــ ٩٨ •

العراقية يدعوهم الى تأسيس فروع له عندهم ، كيوسف السويدي وعيسى الجميل ومحمود نديم الطبقچلي في بغداد ، والسيد علوان الياسري والسيد هادي زوين ومبدر الفرعون في الفرات الاوسط ، ومحمد علي فاضل وداود يوسفاني في الموصل ، وعطية أبو كلل والشيخ جواد الجواهري في النجف ، والسيد طفار في السماوة ، والحاج عباس العلي في الكوت ، والسيد عبدالمطلب في الحلة ، والحاج نجم البدراوي وفائق الخضيري في العمارة ، وعبدالله الفالح السعدون والشيخ خيرالله في المنتفق ٠

واصدر الحزب جريدة تنطق بلسانه اسمها « الدستور » لصاحبها السيد عبدالوهاب الطباطبائي ، وتبرع الحاج محمود عبدالواحد بنفقات مطبعة حديثة استوردت من أوربا لطبع الجريدة ٠ وقد نالت انتشاراً واسعاً واشترك في تحريرها اكثر الادباء والمثقفين في البصرة ٠

الائتلافيون والعرب :

في ٨ تشرين الثاني ١٩١١ تأسس في اسطنبول حزب الحرية والائتلاف كما ذكرنا في الفصل الخامس ، وقد أسرع اعضاء الحزب الحر المعتدل فانضموا كلهم الى الحزب الجديد رغبة في توحيد كلمة المعارضة٠ وفعل السيد طالب مثل ذلك في البصرة حيث بدل اسم حزبه وجعله فرعا لحزب الحرية والائتلاف ٠

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان حزب الحرية والائتلاف أخذ يسعى نحو اجتذاب العرب وسائر الاقوام غير التركية اليه ليدعم بهم موقفه تجاه خصومه الاتحاديين ، ويقال انه صار يكشف للعرب أسرار الاتحاديين وكيف أنهم يريدون تتريك العرب والقضاء على تراثهم القومي٠

وكان الحزب بالاضافة الى ذلك يدعو الى مبدأ اللامركزية وهو المبدأ الذي كان العرب يميلون اليه لينالوا به شيئا من الاستقلال الاداري الذي كانوا يطمحون اليه ٠ يقول ساطع الحصري : ان معظم النواب العرب خرجوا من حزب الاتحاد والترقي وانضموا الى حزب الحرية والائتلاف اذ هم كانوا كغيرهم من الاقوام غير التركية في البلاد العثمانية

يميلون الى نظام اللامركزية ويعتبرونه أضمن لتقدم البلاد من جهة ولصيانة حقوقهم القومية من الجهة الاخرى[٢٥] .

يمكن القول على أي حال ان الصراع الحزبي بين الأئتلافيين والاتحاديين كان من العوامل الفعالة في زيادة العداء بين العرب والاتراك وفي تنمية الوعي القومي لدى العرب .

طور جديد :

في أواخر عام ١٩١٢ تأسست في مصر جمعية عربية علنية باسم جمعية اللامركزية ، فكان ذلك ايذاناً باتنقال حركة الوعي العربي الى طور جديد وقد أدى الى ظهور نتائج اجتماعية وسياسية ذات أهمية لا يستهان بها .

كان القائمون بأمر تلك الجمعية من الشاميين اللاجئين الى مصر كرفيق العظم ومحمد رشيد رضا وشبلي شميل واسكندر عمون ومحبالدين الخطيب وحقي العظم . وقد نشطت الجمعية للعمل فأخذت تطبع المنشورات القومية المثيرة وترسلها عن طريق البريد الاجنبي الى من تثق بهم في البلاد العثمانية ، وكان هؤلاء يوزعونها بين الناس سرا .

كانت بيروت والبصرة وبغداد أشد المدن العربية تأثراً بدعوة الجمعية، وجرى في كل من هذه المدن الثلاث انتفاضات قومية أذهلت الاتحاديين، كما انعقد موءتمر عربى في باريس كان له صداه البالغ في اسطنبول والبلاد العربية .

ففي بيروت تأسست جمعية مماثلة لجمعية اللامركزية المصرية باسم « الجمعية العمومية الاصلاحية » ، وكان القائمون بها نفرا من أعيان بيروت منهم سليم سلام ومختار بيهم والشيخ أحمد طبارة ، وكان من أهدافها الرئيسة المطالبة بادارة لامركزية للبلاد العربية واستقدام خبراء ومستشارين ومفتشين من الاجانب[٢٦] .

---

(٢٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) — ص ١٩٩ .
(٢٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) — ص ٩٨ .

نالت جمعية بيروت في بداية الامر نجاحاً غير قليل لان الحكم كان آنذاك في أيدي الائتلافيين ، فلما عاد الاتحاديون الى الحكم في ٢٣ كانون الثاني ١٩١٣ أخذت الجمعية تتعرض للمضايقات من قبل الحكومة المحلية. وفي ٩ نيسان ١٩١٣ أصدر والي بيروت الاتحادي أبو بكر حازم بك أمره بالغاء الجمعية .

أثار الغاء الجمعية ضجة كبرى في بيروت ، فقد صدرت معظم صحف بيروت في اليوم التالي وهي بيضاء ليس فيها سوى قرار الالغاء محاطاً باطار أسود دلالة على الحداد ، وشوهدت كلاب تجري في شوارع بيروت وقد علقت في رقابها بطاقات تحمل اسم الوالي تحقيراً له . ثم ذهب بعض أعضاء الجمعية الملغاة الى القنصليتين البريطانية والفرنسية يحتجون لديهما على عمل الوالي ، فقيل لهم ان في امكانهم عقد اجتماعاتهم في قاعة الكلية الامريكية، لأن القاعة تعتبر ارضاً أجنبية ليس للحكومة سلطة عليها . وقد عقدت الجمعية جلستها في القاعة المذكورة ، وبعد مناقشات طويلة أثناء الجلسة حصل الاتفاق بين الحاضرين على القيام باضراب عام في بيروت . وقد حدث الاضراب فعلاً في يوم السبت ١٢ نيسان ، وأغلقت جميع أسواق بيروت ، فكان المار فيها لا يرى الا بعض الحوانيت الصغيرة فاتحة أبوابها[٢٧] .

وصدرت الجرائد الممالئة للحكومة كجريدة الرأي العام وجريدة أبابيل تشتم القائمين بالحركة وتندد بأعمالهم[٢٨] ، كما انتهجت الحكومة سياسة العنف فاعتقلت الزعماء البارزين وعطلت الجرائد ، فادى ذلك الى قيام مظاهرات التأييد في أنحاء مختلفة من بلاد الشام . ولجأت الحكومة أخيرا الى اتخاذ حل وسط حيث أطلقت سراح المعتقلين وأعلنت ان الاصلاحات المطلوبة سوف تتم[٢٩] .

---

(٢٧) المصدر السابق ــ ص ٩٩ ، ٢١١ .
(٢٨) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٥٢ .
(٢٩) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ١٩٠ .

الحركة في البصرة :

كان السيد طالب النقيب في البصرة قد تجاوب مع أحداث بيروت تجاوبا قويا ، فرأيناه يقطع علاقته بالائتلافيين ويجعل حزبه مرتبطا بجمعية اللامركزية المصرية على غرار جمعية بيروت . وفي ٢٨ شباط ١٩١٣ جرى افتتاح حزبه الجديد باسم « الجمعية الاصلاحية في البصرة » .

وفي شهر آذار انعقد مؤتمر عربي في المحمرة حضره السيد طالب والشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل وغيرهم ، فتم الاتفاق بين المؤتمرين على أن كلاً منهم يجب أن يبذل كل ما في طاقته لتحقيق مطاليب العراق في الاستقلال . وانتدبوا الرسل الى كربلا والنجف لبث الدعاية القومية فيهما ، ثم أرسلوا قرار المؤتمر الى زعماء الحركة العربية في بغداد واسطنبول وسوريا ومصر وغيرها[٣٠] .

وفي شهر نيسان توتر الموقف في البصرة الى درجة خطيرة ، فقد رأس السيد طالب وفدا من وجوه البصرة وتوجه به الى الوالي مطالبا بترفيت بعض الضباط الذين ينتمون الى جمعية الاتحاد والترقي بحجة أنهم ينتمون الى جمعية تناوىء العرب ، وألمح السيد طالب في كلامه مع الوالي الى أن العرب قد يلتجئون الى القوة في سبيل تحقيق مطاليبهم. وعندما سمع القنصل البريطاني بما جرى أحس بأن خطرا يوشك ان يحل بالبصرة فأبرق الى حكومته يطلب ارسال سفينة حربية الى البصرة لحماية المصالح البريطانية فيها . وقد وصلت السفينة فعلاً في ٤ أيار ١٩١٣ .

نفد صبر الاتحاديين تجاه السيد طالب وتحدياته لهم ، فعينوا لقيادة الجيش في البصرة رجلاً صارماً شديد العداء للحركة العربية هو فريد بك متصرف المنتفق السابق . وقد وصل هذا الرجل الى البصرة في ٩ أيار وأخذ يدبر خطة للقضاء على السيد طالب وحزبه بالتعاون مع عجيمي السعدون رئيس المنتفق وسالم الخيون رئيس بني أسد . وجاء عجيمي مع رجاله الى الشعيبة القريبة من البصرة واحتلوا قصر النقيب فيها ، ثم جاء

---

(٣٠) فيليب ويلارد آيرلند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٧٨ .

سالم الخيون مع ثلاثين من رجاله المسلحين فاستأجروا دارا كبيرة في البصرة واستقروا فيها ، استعدادا لتنفيذ المؤامرة • وأدرك السيد طالب خطورة موقفه فأرسل الى الشيخ مبارك والشيخ خزعل يستنجد بهما ، فتدفقت اليه الاسلحة منهما بكثرة • وقرر السيد طالب ان يتغدى بخصمه قبل أن يتعشى هذا به •

كان فريد بك قد ذهب في ١٩ حزيران ١٩١٣ الى الفاو في رحلة تفتيشية على الباخرة النهرية « مرمريس » ، وكان في صحبته على الباخرة بديع نوري بك متصرف المنتفق وهو أخو المفكر العربي المعروف ساطع الحصري • وكان المتوقع عودتهما الى البصرة في اليوم التالي • وقد وضع السيد طالب خطة لقتل فريد بك عند نزوله من سلم الباخرة •

وفي صباح اليوم المعين لوصول الباخرة خرج من دار السيد طالب رجل بملابس رثة وهو يحمل فراشاً قذرا على رأسه ، وبعد نصف ساعة خرج رجل مثله ، ثم تلاهما ثالث ورابع ، وكانوا جميعاً يخفون البنادق في أفرشتهم القذرة واجتمعوا في دار قديمة مهجورة تشرف على رصيف العشار • وعند الغروب وصلت الباخرة « مرمريس » الى الرصيف ، ولم يكد فريد بك يهم بالنزول مع صاحبه بديع نوري بك حتى انهال عليهما وابل من الرصاص من قبل أولئك الرجال الاربعة • فسقط الرجلان على الارض ميتين ، وهرب القتلة وهم يطلقون الرصاص حتى اختفوا في البساتين •

اضطربت الحكومة في بغداد واسطنبول لهذا الحادث ، وأوفدت المدعي العام ببغداد نجاتي بك الى البصرة للتحقيق • وعند وصول هذا الرجل بالباخرة الى رصيف العشار لم ينزل اليه اذ هو خاف أن يقتل على يد رجال السيد طالب ، فكتب تقريرا مختصرا اتهم فيه القضاء في البصرة بالتحيز الى جانب السيد طالب ، ثم عاد من يومه الى بغداد • والواقع ان القضاء في البصرة كان متحيزا وقد ذهب من جراء ذلك دم القتيلين هدراً • وأبرق وزير العدلية الى بهاء الدين بك رئيس استئنافه البصرة يخبره بأمر فصله من وظيفته ، ولما سأل بهاء الدين بك : الى أين

أذهب ؟ جاءه الجواب : « اذهب الى جهنم ! »[٣١] •

ارتفعت مكانة السيد طالب بعد هذا الحادث ارتفاعا عظيما ، وذاع صيته وصار يلقب بـ « عميد العراق » ، وأخذ الشعراء يقصدونه ليلقوا بين يديه قصائد المديح وينالوا منه الجوائز ، وكان من بين هؤلاء الشعراء الشيخ كاظم الدجيلي وعبدالرحمن البناء وخيري الهنداوي • وأصبح الموظفون بمختلف درجاتهم — من الوالي فنازلاً — يخافونه ويتملقونه ، ولم يكن أحد منهم يجرأ أن يعترض عليه أو يرد له طلباً •

الحركة في بغداد :

يقول الدكتور آيرلند : ان القوميين في بغداد كانوا منقسمين الى جماعات أربع ، فكانت جماعة منهم من أشياع السيد طالب ، وكانت جماعة أخرى تنظر الى الشام في الزعامة والعون ، كما كانت جماعة ثالثة تتراسل مع مصر ، أما الجماعة الرابعة فقد كونت حزبا بغداديا مستقلا يعتمد بالدرجة الاولى على جهوده ورؤسائه[٣٢] •

يمكن القول على أي حال ان جماعة السيد طالب في بغداد كانت أقوى من الجماعات الاخرى ، اذ هي كانت تستمد التشجيع والمعونة المادية والادبية منه ، وكانت تضم مزاحم الباججي وحمدي الباججي ومحمد رضا الشبيبي وباقر الشبيبي وبهجت زينل وعبدالمجيد كنه ورزوق غنام ويوسف عزالدين وابراهيم حلمي وعبدالحميد الشالجي وصبيح نجيب وعاصم الجلبي وتحسين العسكري ومحمود بعقوبة وغيرهم • وقد أسس هؤلاء ناديا ظاهره أدبي وباطنه سياسي اسمه « النادي الوطني العلمي » وطلبوا من السيد طالب أن يتولى رئاسته الفخرية فأبرق اليهم قائلاً : « لا زلت أقدم حياتي لترقي وطني المحبوب وزاد في سروري نهضة الشباب العراقيين بهذا الباب • فمع كمال الممنونية قبلت تكليفكم وأوصيكم بالسعي التام لبلوغ المرام المادي والادبي • وقد أوصيت لكم بثلاثين ليرة تقبضونها من البنك العثماني اعانة لناديكم المحترم وأهدى سلامي الى

---

(٣١) سليمان فيضي (المصدر السابق) — ص ١٠٨ — ١١٥ •

(٣٢) فيليب ويلارد آيرلند (المصدر السابق) — ص ١٧٩

الاخوان » . ولما علم السيد طالب أن دار النادي في بغداد متواضعة أرسل الى مزاحم الباجچي برقية يقول فيها : « أجروا لكم محلاً مناسبا مع شرف النادي » [٣٣] .

وفي ربيع ١٩١٣ أخذت الجماعات القومية ببغداد تعمل سوية من أجل توحيد الجهود مع البصرة وبيروت ومصر في تقديم مطاليب مشتركة الى اسطنبول[٣٤] . وكانت الاجتماعات تعقد سرا في دار الشيخ يوسف السويدي ، وكان ابنه ثابت يلهب الحماس بما لديه من ذلاقة لسان[٣٥] . وفى ١٩ تموز وصل سليمان فيضي سرا قادما من البصرة وهو يحمل الكثير من الرسائل والمنشورات[٣٦] . وبدأت المنشورات الآتية من اسطنبول وتلك التي جاءت من البصرة توزع فى بغداد بين حين وآخر . وظهرت على الجدران بيانات تناشد العرب ان ينهضوا في وجه « الغاصبين » ويطالبوا بالحكم الذاتي واللامركزية . وحدث في ثكنات الجيش شجار بين الضباط العرب والاتراك كاد يؤدي الى انفجار علني لو لم يتداركه محمد فاضل باشا الداغستاني فيناشد في الفريقين الشرف العسكري .

كانت الحكومة قد علمت فى ١٤ حزيران ١٩١٣ بأن رسولاً وصل الى بغداد مبعوثاً من رجال الحركة العربية في بيروت ومصر ، فقامت الشرطة بتفتيش دار السويدي وبعض زعماء الحركة الآخرين واعتقلتهم ثم أفرجت عنهم بعد يومين[٣٧] . وفي ٣ تشرين الاول أصدرت جماعة السيد طالب ببغداد جريدة باسم « النهضة » ، ولم يصدر من الجريدة سوى أحد عشر عدداً ، اذ كانت الحكومة شديدة النقمة عليها ، فأغلقتها وحاولت القاء القبض على صاحبها مزاحم الباجچي وعلى محررها ابراهيم

---

(٣٣) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١ .
(٣٤) فيليب ويلارد آيرلند (المصدر السابق) ـ ص ١٧٩ .
(٣٥) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ج١ ص٣٢ .
(٣٦) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١١٨ .
(٣٧) فيليب ويلارد آيرلند (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ ـ ١٨٠ .

حلمي الغمر ، غير أنهما تمكنا من الهرب الى البصرة(٣٨) .

وجهة نظر :

يجب ان نذكرهنا ان هذه الحركة العربية التى اتضحت معالمها في القاهرة وبيروت والبصرة وبغداد ــ فى عام ١٩١٣ ــ كانت محصورة تقريبا في نطاق تلك المدن وحدها ، أضف الى ذلك ان الذين يتحسسون بها من سكان تلك المدن كانوا قليلين نسبياً ومعظمهم من الشبان من أولى النشاط السياسى والفكري . أما سواد الناس فى البلاد العربية فكانوا لا يتحسسون بتلك الحركة ، وقد يصح القول أن الكثير منهم كانوا ينظرون اليها نظرة ريب واستنكار ويعتبرونها دسيسة من الكفار لهدم الخلافة الاسلامية .

يروي سليمان فيضي : أنه عندما زار الموصل في أواخر تموز ١٩١٣ ليدعو الى القضية العربية وجد ان المؤمنين بهذه القضية بين أهل الموصل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين ، وهو يفسر ذلك بسببين : احدهما أن النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل تقف حائلاً بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصيغة الاسلامية المقدسة ، والثاني هو أن سطوة الحكومة الاتحادية كانت فى الموصل يومذاك أقوى مما كانت في غيرها من المدن العراقية ، فقد كان خالد بك مدير البوليس فيها اتحاديا متطرفاً ، ولما جاء سليمان فيضى الى الموصل أحاطه بالجواسيس وأشاع عنه في الأوساط الدينية أنه يبشر بنبذ التقاليد الدينية وعصيان خليفة رسول الله وأنه خطر على الدين والخلافة(٣٩) .

ومن الممكن القول ان اكثر الشعوب العربية ايماناً بقدسية الخلافة العثمانية هو الشعب المصري ، فقد كان المصريون من جراء الاحتلال البريطاني الذي يرزحون تحته ينظرون الى الدولة العثمانية كأنها المنقذة لهم ويعتبرونها موئل قوة الاسلام تجاه اعدائه النصارى . ولما قام اللاجئون الشاميون بتأسيس جمعية اللامركزية فى القاهرة استنكرها

---

(٣٨) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٨٣ ، ١١٦ .

(٣٩) المصدر السابق ــ ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

معظم المصريين وعدوا القائمين بها صنائع وعملاء للانكليز .

ونستطيع أن تتبين هذه النظرة المصرية نحو الحركة العربية فيما كتبه الكاتب المصري المعروف، محمد لطفي جمعة في كتابه « حياة الشرق »، فهو يصف فكرة اللامركزية التي كانت الجمعيات العربية تنادي بها بأنها عادلة في ظاهرها خبيثة في حقيقتها لانها في رأيه تؤدي حتما الى تمزيق الدولة الاسلامية والى انتهاب المستعمرين لاوصالها . وقد انحى هذا الكاتب بالشتم والتقريع على جمعية اللامركزية فوصفه مؤسسيها بأنهم كانوا يجلسون في قهوة « سبلنديد بار » ويتناولون المرتبات من الاموال السرية الفرنسية والبريطانية ، ويقول ان منهاج هذه الجمعية انما انتشر في الاقطار العربية ذلك الانتشار السريع بفعل الدعاية الاستعمارية . ويلخص الكاتب رأيه في الحركة كلها فيقول ما نصه :

« وكان كل فريق من هؤلاء المطالبين بالاصلاح واللامركزية والثورة العربية سواء أكانوا في مصر أو في سوريا أو في بغداد أو في البصرة يظهر بمظاهر تخالف الحقيقة فان بذخهم واسرافهم كانا يدلان على اتصالهم بمصادر غنية تنفق الذهب جزافا ومن غير حساب . فكنت ترى بعض المقيمين في مصر يقتنون الاملاك وليس لديهم مصادر ثروة معروفة ، وتراهم أبداً يعملون في الخفاء وفي غموض يشبه أحوال المتآمرين ، وهم أبداً في انتقال بين ممالك الشرق ، وتراهم اذا كتبوا لم يقصدوا الا الدفاع عن فكرة الاستعمار ولكنهم يحاولون اخفاء فكرتهم ، ولم يتصلوا بأحد من ذوي النفوذ والجاه الا وابتزوا منه الاموال باسم الدين او باسم الاصلاح . وكان أحدهم وهو المقيم في البصرة يكثر من الاجتماع بخزعل ومبارك الصباح وهما ثعبانان من ثعابين الشرق العتيقة السامة .... »[٤٠] .

المؤتمر العربي بباريس :

كان عدد الجالية العربية بباريس في عام ١٩١٣ نحو ثلاثمائة معظمهم من الشاميين ، ولم يكن بينهم من العراقيين سوى اثنين هما الطالب توفيق

---

(٤٠) محمد لطفي جمعة (المصدر السابق) – ص ٢٢٩ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ .

السويدي والتاجر سليمان عنبر . وفي شهر آذار من ذلك العام اجتمعت لجنة منهم فقررت عقد مؤتمر للمطالبة بحقوق العرب ، وأرسلت الدعوات الى جمعية اللامركزية في القاهرة ، والجمعية الاصلاحية في بيروت ، والى جميع القائمين بالحركة العربية في الاقطار العربية والامريكتين .

وحين انتشر خبر الدعوة للمؤتمر في الاقطار العربية تحمس لها فريق من العرب وعارضها فريق آخر ، وصارت البرقيات تنهال على اسطنبول من جهة ، وعلى باريس من الجهة الاخرى ـ هذه تؤيد عقد المؤتمر وتلك تعارضه . وكان من بين البرقيات المعارضة للمؤتمر برقية بعث بها الشريف حسين من مكة وصف فيها المؤتمر بأنه خدمة أجنبية وخيانة للوطن العثماني ، وقد نشرت هذه البرقية جريدة « اقدام » الاسطنبولية .

وأرسل السيد طالب النقيب الى باريس برقية يؤيد فيها عقد المؤتمر، كما أرسل جماعة من بغداد برقية يطلبون فيها أن يمثل العراق في المؤتمر توفيق السويدي وقد وقع البرقية مزاحم الباججي ونعمان الاعظمي وشاكر غصيبة وعبدالرحمن البناء وعبداللطيف المدلل ومحي الدين الكيلاني وبهجت زينل ويوسف ضياء ومحمد سعيد الراوي وآخرون . وأبرقت من بغداد برقيات أخرى كثيرة في تأييد المؤتمر ، ودفع أصحابها أجورها ، غير أنها لم ترسل[٤١] .

كان على رأس المعارضين للمؤتمر أدباء مشهورون من أمثال شكيب أرسلان وعبدالعزيز الثعالبي وعبدالعزيز شاويش ومعروف الرصافي . وكان عبدالعزيز شاويش أشدهم شجبا للمؤتمر واتهاما له ، فقد أصدر في اسطنبول جريدة باسم « الحق يعلو » دعا فيها الى الالتفاف حول الجامعة الاسلامية ووصف دعاة المؤتمر بأنهم منشقون على الاسلام ممالئون للنصارى . وكان منزل هذا الرجل في اسطنبول بمثابة منتدى سياسي تحت شعار ديني ، فكان يلتقي فيه المعارضون للمؤتمر وخصوم الحركة العربية . ونظم معروف الرصافي قصيدة بائية طويلة شتم فيها القائمين بالحركة العربية في بيروت

---

(٤١) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٢٥ ـ ٣٠ .

والقاهرة وباريس ووصفهم بأنهم عملاء للافرنج هدفهم هدم الدولة الاسلامية[٤٢] .

واجتمع في دمشق نفر من الاعيان كالشيخ أسعد شقير وعبدالرحمن بك اليوسف ومحمد باشا المخزومي ومحمد فوزي باشا العظم ، وتكلم فيهم عبدالرحمن فأخذ ينتقد الداعين الى المؤتمر قائلاً بأنهم من الغلمان الذين لا يعبرون عن رأي أهل البلاد ، وأنهم مندفعون بأيد أجنبية ، وقذفهم بأحط الشتائم . ثم كتب المجتمعون عريضة بهذا المعنى وطافوا بها في الاسواق والشوارع يأخذون التواقيع عليها ، وسافر محمد المخزومي الى مدن فلسطين لكي يحمل أعيانها على مناهضة المؤتمر[٤٣] .

يقول شكيب أرسلان في مذكراته حول مؤتمر باريس ما نصه : « ... فكنت ساخطاً على عقد المؤتمر ... وكانت وجهة نظري أن مؤتمرا كهذا لا ينبغي ان يعقد في عاصمة كباريز لها ما لها من المطامح الى سوريا ، ولا يجوز أن يعقد بينما الدولة مشغولة بالحرب البلقانية وقد فقدت قسما عظيماً من السلطنة وسقطت أهميتها العسكرية والسياسية ، وان سقوط أهمية الدولة لا ينحصر ضرره في الترك وحدهم بل يتناول جميع المسلمين.. واتفقت مع عارف بك المارديني والى الشام على الابراق الى الاستانة باستنكاره فأشار الوالي الى الاعيان والعلماء ورؤساء المذاهب والبطاركة والمطارين فأمضوا جميعا برقيات الى الباب العالي بأنهم لا يعرفون هذا المؤتمر ، وتقدمت البرقيات في هذا المعنى من جميع المدن السورية» [٤٤]..

انعقد المؤتمر أخيرا في ١٨ حزيران ١٩١٣ في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمين في باريس ، وحضره ممثلان عن جمعية اللامركزية المصرية ، وستة ممثلين عن الجمعية الاصلاحية البيروتية ، وثلاثة ممثلين عن المهاجرين في الولايات المتحدة ، وواحد عن المهاجرين

---

(٤٢) انظر نص القصيدة في ديوان الرصافي ـ الطبعة السادسة ـ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٥ .

(٤٣) توفيق علي برو (المصدر السابق) ـ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨

(٤٤) شكيب ارسلان (سيرة ذاتية) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ .

في المكسيك ، واثنان عن العراق ، كما حضر المؤتمر عبدالكريم الخليل ممثلا عن الشبيبة العربية في اسطنبول[45] .

يقول توفيق السويدي الذي كان أحد ممثلي العراق في المؤتمر : ان النية كانت متجهة في أول الامر الى تسمية المؤتمر بـ « المؤتمر السوري » وصنعوا الختم له بهذا الاسم غير انه استطاع بعد بذل الجهد الى اقناعهم بتبديل الاسم فصار « المؤتمر العربي الاول » وصنعوا له ختما جديدا . ويصنف السويدي أعضاء المؤتمر الى ثلاث فئات على النحو التالي :

(١) المسلمون الذين لم يكونوا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية بل كان هدفهم التمتع بالحقوق فيها على قدم المساواة مع الاتراك .

(٢) المسيحيون الذين كانوا حاقدين حقد الاعداء على الاتراك وكانوا متصلين اتصالاً وثيقاً بالدول الاجنبية وبالاخص فرنسا التي كانت لها سياسة توسع واستعمار واضحة في سوريا .

(٣) المذبذبون الذين كانت لهم أهداف عربية من جهة ومطامع مادية من الجهة الاخرى ، ولكنهم كانوا قليلين[46] .

انتخب المؤتمر الشيخ عبدالحميد الزهراوي رئيساً له ، واستمر ستة أيام عقد فيها أربع جلسات كان المتكلمون فيها يبذلون أقصى الجهد للتأكيد على أنهم يريدون الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية على شرط الاعتراف بحقوق العرب من حيث هم شركاء في الدولة وان يتاح لهم مجال حر في نظام لامركزي للحكم[47] .

المصالحة :

ارتأى الاتحاديون في اسطنبول أن يصالحوا رجال المؤتمر فأرسلوا اليهم أحد زعمائهم مدحت شكري بك ، وقد وصل هذا الرجل الى باريس وفاوضهم ، وبعد أن رأى تقارب وجهات النظر بينه وبينهم عاد الى اسطنبول

---

(٤٥) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر (المؤتمر العربي الاول) ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ص ١٤ ـ ١٦ .

(٤٦) توفيق السويدي (المصدر السابق) ـ ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٤٧) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٩٢ .

ومعه عبدالكريم الخليل • وفى اسطنبول واصل عبدالكريم المفاوضة مع وزير الداخلية طلعت بك ، وقد انتهت مفاوضتهما الى عقد اتفاقية مكتومة تحتوي على اثنى عشر مادة وهي مذيلة بتوقيعهما •

وفي ٥ آب ١٩١٣ صدر فرمان سلطاني يتضمن شيئاً من محتوى تلك الاتفاقية • وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع عدد كبير من العرب فى دار المنتدى الادبي بدعوة من رئيسه عبدالكريم الخليل ، وألفوا وفداً من الشريف علي حيدر باشا وابنيه محي‌الدين ومجيد ، ومعروف أفندي الرصافي ، والشيخ عبدالعزيز شاويش ، وشكري باشا الايوبي ، وبديع بك المؤيد ، ونجيب بك شقير ، وسامي بك العظم ، وابراهيم بك صوصة ، ومحي‌الدين باشا الجزائري ، والمونسنيور شريم ، والدكتور حسين حيدر ، وعبدالكريم أفندي الخليل(٤٨) • وكانت العربات مصطفة في شارع المنتدى فامتطاها أعضاء الوفد وساروا الى الباب العالي لمقابلة الصدر الاعظم سعيد حليم باشا بغية شكره على صدور الفرمان • فالقى الصدر الاعظم خطبة طويلة أعرب فيها عن ارتياحه لزوال سوء التفاهم بين العرب والاتراك ، ثم القى الشيخ عبدالعزيز شاويش خطبة باللغة العربية شكر فيها الصدر الاعظم على عواطفه وقال : ان لا قوة في المستقبل تقدر ان تفرق بين العرب والاتراك • وتقدم عبدالكريم الخليل فالقى كلمة باسم الشبيبة العربية بدأها بتهنئة الحكومة على استعادة أدرنة ثم شكر الحكومة على وعودها باعطاء الحقوق للعرب واشراكهم فى أمور الدولة • وفي المساء أقام عبدالكريم وليمة في فندق « طوقاتليان » دعا اليها الوزراء والاعيان والنواب وكبار الموظفين ، وخطب فيهم معلناً سروره بازالة سوء التفاهم بين العرب والاتراك • ونهض وزير الداخلية طلعت بك فقال : انه هو وزملاؤه الوزراء كانوا يخدمون العرب منذ زمن بعيد واستشهد على ذلك بالشريف علي حيدر باشا(٤٩) •

---

(٤٨) احد أعضاء الجمعيات العربية (ثورة العرب) ـ القاهرة ١٩١٦ ـ ص ٨٢ ـ ٨٣ •

(٤٩) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٨٦ ـ ٨٨ •

وأبرق عبدالكريم الخليل الى باريس يدعو أعضاء المؤتمر للحضور الى اسطنبول ، فجاء منهم ثلاثة هم : سليم سلام ومختار بيهم والشيخ أحمد طبارة . وقد وصلوا الى اسطنبول بالقطار في ١٥ آب ، فجرى لهم في محطة القطار استقبال عظيم . وفي ٢٣ آب حظي الثلاثة بمقابلة السلطان. وفي ٢٧ آب قابلوا ولي العهد ، وفي مساء اليوم نفسه أقامت جمعية الاتحاد والترقي وليمة شائقة للشبيبة العربية دعت اليها الوزراء والكبراء ، وتبودلت فيها الخطب المعلنة عن السرور على نحو ما جرى في وليمة « طوقاتليان » .

وأبرق عبدالكريم الخليل الى الشيخ عبدالحميد الزهراوي يطلب منه الحضور الى اسطنبول ، فقدم الزهراوي في ٢٨ تشرين الاول ١٩١٣ ، فاستقبله في محطة القطار أعيان العرب وشبيبتهم وكان فيهم نيف وسبعون ضابطاً عربياً ، فكان استقبالا حماسياً رائعا . وحين أطل الزهراوي من نافذة القطار هتف المستقبلون : « فليحي الاصلاح ! وليحيِ زعماء العرب ! ، ولتحي الامة العربية ! » ، وارتجت أرجاء المحطة بالتصفيق والترديد . وعند نزوله من القطار ركب عربة أعدت له ، وركب المستقبلون وراءه رتلاً من العربات لا يقل عدده عن الخمسين عربة ، وساروا حتى وصلوا الى دار المنتدى الادبي .

وفي أواخر ١٩١٣ صدرت الصحف الاتحادية وهي مزينة بصورة الزهراوي والى يمينه رمز للجيش العثماني والى يساره رمز للاسطول وتحته صور صغيرة لانور وطلعت وجمال مع عبارة كتبت بحروف كبيرة هي : « بمثل هؤلاء الابطال يعتز الملك وعلى مثل هذا الاتحاد تشيد الدولة العثمانية مستقبلها العظيم »(٥٠) .

وفي ٤ كانون الثاني ١٩١٤ صدر فرمان بتعيين سبعة من زعماء العرب أعضاء في مجلس الاعيان كان على رأسهم الزهراوي ، ثم جرى تعيين شكري العسلي وعبدالوهاب الانكليزي وأمين التميمي وناجي السويدي في مناصب عالية ، كما أسست ثانويتان عربيتان ، احداهما في دمشق ونيطت ادارتها برفيق التميمي ، والاخرى في بيروت ونيطت ادارتها برستم حيدر .

---

(٥٠) احد اعضاء الجمعيات العربية (المصدر السابق) — ص ٩٢ — ٩٩ .

وصار الوزراء وزعماء الاتحاديين يكثرون من زيارة المنتدى الادبي ، ويتوددون الى الشبيبة العربية من أعضائه ، ويخطبون فيه • وحين أقيم في المنتدى احتفال بالمولد النبوي وقف طلعت بك خطيبا وكان من جملة ما قال في خطبته : « اذا فر العرب منا فاننا تتمسك بهم ونلتزمهم ونضمهم الى صدورنا ونصافحهم مصافحة الاخ لاخيه » [٥١] •

وفي الوقت الذي كانت فيه عملية المصالحة تأخذ مجراها في اسطنبول كان طلعت بك يعمل لمثل هذه المصالحة مع السيد طالب في البصرة • وبعد جهود كثيرة بذلت فى هذا السبيل تم الاتفاق مع السيد طالب • وفي ٣ شباط ١٩١٤ نشر السيد طالب في الصحف بيانا هذا نصه :

« أعلن مع كمال الفخر الى عموم أهالي الولاية والملحقات بأننا قد اتفقنا للاشتراك في الجهود ، كأننا روح واحدة ، لاجل اعلاء شأن حكومتنا السنية التي قدرت صداقتنا رسمياً ، فلم يبق بيننا وبين الحكومة السنية خلاف بأي صورة كانت ، وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالاً قطعيا وصرنا كلنا كتلة واحدة تعمل على سعادة دولتنا الابدية وتسعى الى محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا وحتى آخر فرد منا • وللبيان حررت الكيفية وأعلن ذلك في ٧ ربيع الاول ١٣٣٢ ، ٣ شباط ١٩١٤ — نقيب زاده السيد طالب » •

وعلى أثر نشر هذا البيان أرسل طلعت بك وأنور باشا من اسطنبول رسائل شكر الى السيد طالب وجهزاه بجفرة خاصة كي يستطيع الاتصال بهما رأساً بدون وساطة الوالي • ثم جاء الى البصرة وال جديد اسمه سليمان شفيق باشا ولقبه الاهالي بـ « الوالي أبو العباية » لانه عند نزوله من الباخرة كان يلبس عباءة • وقد حرص هذا الوالي على توثيق أواصر الصداقة مع السيد طالب وتلبية مطاليبه[٥٢] •

الناقمون على المصالحة :

ان هذه المصالحة التي جرت بين العرب والاتراك لم يرض عنها بعض

---

(٥١) المصدر السابق — ص ١٠٢ •

(٥٢) سليمان فيضي (المصدر السابق) — ص ١٣١ — ١٣٣

العرب في البلاد العثمانية وخارجها . ففي ١٩ شباط ١٩١٤ أرسلت جمعية الاتحاد السوري في نيويورك رسالة احتجاج الى جمعية اللامركزية في القاهرة وصفت فيه عمل الزهراوي وجماعته بأنه ذر الرماد في أعين البسطاء ، وطلبت من الجمعية فصلهم من عضويتها ، ولكن الجمعية لم توافق على هذا الطلب ، ما عدا واحداً من أعضائها هو حقي العظم فانه أخذ يشنع على الزهراوي ويصفه بأقبح الأوصاف[٥٣] .

وكان عزيز علي المصري في اسطنبول أشد العرب نقمة على المصالحة، وأرسل الى الزهراوي ينذره بالكف عن الدعاية للحكومة ويطلب منه مغادرة اسطنبول والعودة الى موطنه في بلاد الشام . وكان يعاون عزيز علي في ذلك بعض الضباط كجميل المدفعي ويوسف العزاوي وسعيد التكريتي ، وذهب هؤلاء الى الزهراوي يتوعدونه فأخذ هو يبدي موافقته لهم خوفاً[٥٤] .

كتب الزهراوي رسالة الى صديقه محمد رشيد رضا عضو جمعية اللامركزية في القاهرة يشكو اليه فيها من هؤلاء الناقمين عليه ويخص بالذكر منهم الضباط الشبان الذين التفوا حول عزيز علي المصري ، فهو يصفهم في رسالته بأنهم لا تجربة لهم في أمور السياسة بتاتاً ، ويصف عزيز علي وصفاً غير حميد حيث يقول فيه انه « ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لاجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا ، وهو لاجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لانه على زعمه يؤخر حركات العرب ، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير واين ترسي . وهو يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الاولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ، ولكن لا ينجح بحوله تعالى . ومن جهة اخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح الى مصالحة أولياء الامور وحينئذ يرضى عن كل شيء . فانظر يا عزيزي الى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا . »[٥٥]

---

(٥٣) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) — ج ٤ ص ١٢ — ١٤ .
(٥٤) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج١ ص ٣٦ — ٣٧
(٥٥) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) — ج٤ ص ١٨ — ٣٠

ولما تعين الزهراوي عضوا في مجلس الاعيان جاء اليه الضابط العراقي يوسف العزاوي في منزله ، وكان عبدالكريم الخليل حاضرا ، وأخذ يتجادل معهما حول السياسة التي ينتهجانها في مصالحة الاتحاديين ، واشتد غضبه عليهما فأسمعهما كلمات قارصة وذكر لهما ان الاتحاديين سوف يبطشون بهما وبغيرهما من زعماء العرب فيأول فرصة تسنح لهم[٥٦]. وكان العزاوي في ذلك كأنه يتنبأ بالمصير المؤلم الذي انتهى اليه الخليل والزهراوي أثناء الحرب الاولى حيث شنقهما جمال باشا فيمن شنق ــ أولهما في بيروت في ٢١ آب ١٩١٥ والثاني في دمشق في ٦ أيار ١٩١٦ .

عزيز علي المصري :

كان عزيز علي المصري يومذاك في الخامسة والثلاثين من عمره وفي رتبة « بكباشي » ــ اي مقدم ــ في الجيش العثماني ، وهو مصري من أصل عراقي ، وكان معروفا في مسلكه العسكري بشدة البأس والجرأة ، وكان في حياته العامة صلب الرأي صريحا لا يداري . وقد انضم الى جمعية الاتحاد والترقي قبل اعلان الدستور، وساهم في القضاء على حركة ٣١ آذار، وشارك في حرب طرابلس حيث حصل بينه وبين أنور شيء من التحاسد على نحو ما أشرنا اليه في الفصل الخامس .

وكان عزيز علي قد بقي في طرابلس الغرب بعد عقد الصلح مع ايطاليا بغية تنظيم المقاومة المحلية ضد الاحتلال الايطالي ، وعندما عاد الى اسطنبول في صيف ١٩١٣ حصل الخلاف بينه وبين الزهراوي والخليل حول المصالحة مع الاتحاديين ، وقد اتهمه الاتحاديون بان اختلافه معهما نشأ عن الغيرة والحسد . يقول جمال باشا في مذكراته : ان عزيز بك لم يستطع أن يرى نفوذ عبدالكريم الخليل وعبدالحميد الزهراوي يفوق نفوذه في بحث القضية العربية ، فوصلت به الجرأة الى أن أعلن ان العرب لا يقنعون بالاتفاق الذي تم انما يطلبون أن تكون الحكومة ثنائية بينهم وبين الاتراك على نموذج الملكية الثنائية الموجودة بين النمسا والمجر ، ونعت أصحاب

---

(٥٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ص ٣٩ .

الاتفاق بأنهم خونة لبلادهم ولسوف يجزون الجزاء العادل فيما بعد لانهم حصلوا على المناصب التي أرادوها وقنعوا بالاصلاحات التافهة المنوي ادخالها • ويضيف جمال باشا الى ذلك قائلا : « ولما عين أنور في النهاية لوزارة الحربية اظلمت الدنيا في عيني عزيز بك ، فانه لم يستطع صبرا على أن يبقى — وهو الذي كان زميلا لانور في المدرسة الحربية وقام بأعمال نافعة وأظهر قسطا عظيما من الوطنية — بكباشيا بسيطا في هيئة أركان الحرب بينما منافسه صار وزيرا للحربية ، فأدى به ذلك الى استنتاج هذه النتيجة السيئة وهي أن اشتراكه في العمل مع الاتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجدا • اذن : فلتحي الثورة العربية !! » (٥٧) •

وفي ٢٨ تشرين الاول ١٩١٣ أسس عزيز علي جمعية عربية سرية باسم « جمعية العهد » وأخذ يجتذب اليها شبان العرب من ضباط وطلاب ، وكان الضباط العراقيون يؤلفون الاكثرية في هذه الجمعية كنوري السعيد وياسين الهاشمي وجميل المدفعي ومولود مخلص وعلي جودت الايوبي وعبدالله الدليمي وتحسين علي وطه الهاشمي ويوسف العزاوي وسعيد التكريتي وصبيح نجيب وتحسين العسكري ونوري فتاح وعلي رضا الغزالي وعبدالغفور البدري

وأصبح منزل عزيز علي في اسطنبول يعج بالحركة اذ كان يلتقى فيه الشبان العرب لا سيما الضباط منهم ، وأخذ الجواسيس يحومون حوله ويقدمون عنه التقارير المقلقة • وفى أوائل ١٩١٤ صدر الامر بنقل عزيز علي الى منطقة نائية ، فقدم هو استقالته ، وبذلك صار متفرغا لقيادة الحركة العربية في اسطنبول •

وفي ٩ شباط ١٩١٤ بينما كان عزيز علي خارجا من فندق طوقاتليان بعد الغداء بادره ثلاثة من رجال الشرطة السريين ودعوه الى مركز الشرطة المركزي وهناك ألقي القبض عليه • وفي ٢٥ آذار سيق عزيز علي الى مجلس تأديب عسكري لمحاكمته سريا عن أمور اتهم بأنه فعلها في طرابلس الغرب •

---

(٥٧) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) — ترجمة علي احمد شكري — بغداد ١٩٦٣ — ص ٧٣ — ٧٦ •

وقد أحدث اعتقال عزيز علي هياجاً وضجة في اسطنبول ، وقيل ان مصطفى كمال زميل عزيز علي في حرب طرابلس الغرب أرسل الى أنور باشا برقية احتجاج في هذا الشأن ، وأرسلت الشبيبة العربية في اسطنبول الى كافة الاقطار العربية برقية هذا نصها : « اعتقل عزيز بك بطل بنغازي ، الاستياء عام ، الحالة مؤسفة »(٥٨) . وكان ثابت عبدالنور الموصلي من اكثر الشبيبة العربية حماسا لانقاذ عزيز علي ، فقد كان يتنكر بأزياء مختلفة حذرا من الجواسيس ويطرق أبواب السفارات الاجنبية ، وحدث له مرة أن تنكر في زي قسيس وأخفى وجهه بلحية كثة مستعارة ودخل الى السفارة البريطانية طالبا منها التدخل لانقاذ عزيز علي من الاعتقال باعتبار أنه مصري وأن لبريطانيا الحق في ذلك(٥٩) .

وكان التأثر في مصر شديدا لاعتقال عزيز علي ، وأخذت الصحف المصرية تشن حملات عنيفة على الحكومة العثمانية ، وتألفت لجنة برئاسة شيخ الازهر وقصدت المندوب السامي اللورد كتشنر تطلب منه التدخل ، وحث اللورد كتشنر وزارة الخارجية البريطانية على التدخل لانقاذ عزيز علي . وكتبت جريدة التايمس اللندنية أربع مقالات افتتاحية للدفاع عنه . وبذل السفير البريطاني في اسطنبول مساعيه في سبيل ذلك(٦٠) . وأقامت السفارة الفرنسية في اسطنبول مأدبة في دارها كان الغرض منها بحث قضية عزيز علي دعي اليها السفراء والوزراء ، واختلى اثناء المأدبة صحافي فرنسي معروف بجمال باشا وحثه على اقناع صديقه أنور باشا بالعفو عن عزيز علي(٦١) .

وفي ١٥ نيسان ١٩١٤ ذكرت الصحف ان الحكم صدر باعدام عزيز علي وأن السلطان خففه الى السجن خمسة عشر عاما بالاشغال الشاقة . وفي ٢١ نيسان صدر فرمان سلطاني بالعفو عن عزيز علي وأطلق سراحه .

---

(٥٨) توفيق علي برو (المصدر السابق) ـ ص ٥٦٣ .
(٥٩) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٦٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ١٩٨ .
(٦١) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١٥١ .

وفي اليوم التالي أبحر عزيز علي الى مصر واستقبل هناك اســـتقبالا حماســـياً [٦٢]

لم يهدأ عزيز علي في مصر ، وليس من طبيعته الهدوء ، فاجتمع الـى الشيخ فؤاد الخطيب وحقي العظم وكان هذا قد استقال من جمعية اللامركزية، وألف هؤلاء الثلاثة فيما بينهم جمعية باسم « الجمعية الثورية العربيـة » هدفها اثارة العرب للانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الاستقلال التـــام •

وأخذ هؤلاء الثلاثة يطبعون المنشورات العنيفة ذات اللهجـة المثيرة ويرسلونها سرا الى بلاد الشام • واستمروا على ذلك حتى بعـد اندلاع الحرب العالمية الاولى ، وقد وقعت نسخ من تلك المنشورات في يد الحكومة فكان ذلك سبباً في شنق بعض الذين شنقهم جمال باشا في دمشق وبيروت•

ان أحمد عزت الاعظمي يوجه اللوم الشديد على اولئك الثلاثة لعملهم هذا فهو يقول عنهم : انهم كانوا آمنين في مصر يجلسون على كراسي مقهى « سبلنديد بار » مقابل حديقة الازبكية ، ويمتعون انظارهم بمحاسن اللواتي كن يتهادين في الشارع أمامهم ، غير مدركين عواقب ما تأتي به منشوراتهم من رزايا على رؤوس شباب العرب في البلاد العثمانية[٦٣] • ومما يلفت النظر ان الاعظمي حين يوجه اللوم على أولئك الثلاثة يؤكد أن عزيز علـي لم يكن منهم وأن العضو الثالث كان شخصا آخر لم يذكر هو اسمه ، ولكن القرائن تشير الى أن عزيز علي كان هو نفسه العضو الثالث •

---

(٦٢) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ١٩٨ ــ ١٩٩

(٦٣) احمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج ٤ ص ١٠٥ ــ ١١٩ •

الفصل الثامن

بواكير الحضارة الحديثة في العراق

نقصد ببواكير الحضارة الحديثة تلك المخترعات والنظم الاوربية التي أدخلت الى العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر • وسنحاول في هذا الفصل دراسة هذه البواكير وما انتجت في المجتمع العراقي من تأثير خلال الفترة التي تنتهي عند اعلان الحرب العالمية الاولى واشتراك الدولة العثمانية فيها •

الباخرة :

كانت الباخرة أول اختراع أوربي جاء الى العراق خلال القرن التاسع عشر ، وكان الوالي رشيد باشا الكوزلكلي أول من فكر في ادخالها الى العراق • ففي عام ١٨٥٥ دعا هذا الوالي جماعة من التجار وعرض عليهم تأليف شركة للملاحة النهرية يكون نصف رأس مالها من الحكومة والنصف الآخر يشترك فيه التجار ، وبعد ذلك أرسل « طلباً » الى معامل انتويرب في بلجيكا لصنع باخرتين[1] • وقد وصلت الباخرتان في عام ١٨٥٨ ـ أي بعد موت رشيد باشا ـ فقام بتركيبها رجل يدعى « مسعود بك البلجيكي»[2] ، ولم يكن هذا الرجل بلجيكياً انما لقبه الناس بهذا اللقب لانه سافر الى بلجيكا وتدرب فيها مدة ـ وكانت هذه عادة الناس في تلك الايام •

كانت البواخر عند أول ورودها موضع دهشة العراقيين الساكنين على

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ٢٧٩ •

(٢) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج٢ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ •

ضفاف الانهار من العشائر وأهل المدن اذ هم لا يكادون يسمعون صفيرها وهي قادمة حتى يخرجوا الى شاطىء النهر لينظروا اليها ويتعجبوا منها ، وقد أطلقوا عليها اسم « الدخانية » أو « مركب الدخان » لما كانوا يشاهدون فيها من فوهات ينبعث منها الدخان .

ومنذ عام ١٨٦٢ كان سير البواخر بين بغداد والبصرة منتظما الى حد ما يجري على مواعيد معينة ، وكانت اجرة الراكب بين هاتين المدينتين ليرة ونصف مع العلم ان الاجرة فى السفن الشراعية كانت لا تزيد على الليرة الواحدة . وقد امتد مؤخرا خط فرعي بين بغداد وسامراء تجرى فيه باخرة مرة كل أسبوع .

كانت تتنافس على نقل الركاب بين البصرة وبغداد شركتان : احداهما بريطانية وهي المعروفة باسم « بيت لنج » والاخرى عثمانية تشرف عليها الحكومة . وكانت شركة لنج ناجحة ومربحة ، أما الشركة العثمانية فكانت على الرغم من تدعيم الحكومة لها غير مربحة من جراء الادارة السيئة فيها[٣] .

كانت البواخر بوجه عام تواجه مشكلة عويصة عند سيرها في أنهار العراق هي مشكلة ارتطام الباخرة فى الطين عندما تنخفض المياه أثناء الصيهود ، فكان الربان يستعين بالشاقول لمعرفة مدى عمق النهر ولكن ذلك لا يجدي الا قليلاً ، فكثيرا ما ترتطم الباخرة على الرغم من ذلك ولا بد عندئذ من تفريغها من الركاب والبضائع من أجل تعويمها ، وقد يشترك فى عملية التعويم احيانا جميع الركاب صغارا وكبارا ، نساءا ورجالا[٤] .

وهناك مشكلة أخرى كانت تجابه البواخر في العراق ، وهي اطلاق الرصاص عليها من قبل العشائر القاطنة على ضفافه النهر . والظاهر أن آبناء العشائر كانوا يعتبرون سير البواخر بالقرب منهم تحديا لهم ، فهم قد اعتادوا أن يفرضوا الاتاوة على القوافل المارة فى منطقة نفوذهم ولم يكن يهون

---

(3) Dahiri (Introduction Of Technology) — Bagdad 1969 — P 100

(٤) ديولافوا (رحلة مدام ديولافوا) ــ ترجمة علي البصري ــ بغداد ١٩٥٨ ــ ص ٣١ .

عليهم أن يروا البواخر تمر بهم دون أن تدفع لهم الاتاوة المعتادة .
وكانت هذه المشكلة تؤدي أحيانا الى مشكلة أخرى هي أن العشائر قد تهاجم بواخر بيت لنج فيحتج أصحابها الى الوالي أو يبرقون بشكواهم الى لندن ، وتضطر الحكومة العثمانية عندئذ الى توجيه الحملات التأديبية ضد العشائر المعتدية وكثيرا ما تفشل في ذلك[٥] .
نشرت جريدة « الجوائب » الاسطنبولية فى ٢٢ تموز ١٨٨٠ تقول: « ان أربعين رجلا من العشائر فى العمارة أطلقوا النار على باخرة انكليزية لنهبها فقتلوا بحريا وأحد ركابها وضابطا فأرسل قنصل انكلترا فى البصرة برقية الى سفيره باستنبول يخبره بذلك ، فأبلغ السفير الامر الى الباب العالي ، فأرسل الباب العالي برقية مشددا بها الى والي بغداد يأمره بأن يرسل قوة عسكرية ويقبض على اولئك المعتدين » .
وصفت السائحة الفرنسية ديو لافوا حالة البواخر فى العراق عام ١٨٨١ فذكرت : ان بواخر بيت لنج كانت تسير مرة واحدة فى الاسبوع ، وكانت قذرة جدا لان المسافرين فيها كانوا يقومون بأعمال الطبخ والغسل في ممراتها وقاعاتها دون رادع ، أما البواخر العثمانية فكانت تسير في الشهر مرتين ولكن الامور فيها تجرى « حسب مشيئة الشيطان او الترك » اذ هم يتقاضون مبالغ مختلفة من المسافرين بحجج وأسباب واهية ، وهم لا يكتفون بذلك بل يستعينون بأية طريقة لابتزاز المال وان كان في ذلك مايسيء الى الركاب ويضايقهم[٦] .
وتروي المدام ديولافوا قصة طريفة في هذا الصدد خلاصتها : أن احدى البواخر العثمانية عندما حل موعد تحركها من البصرة لم يكن فيها من الفحم ما يكفي لوصولها الى بغداد ، وسبب ذلك أن متعهد الفحم كانت له على الحكومة ديون مستحقة وقد رفض أن يجهز الباخرة بالفحم ما لم تدفع الحكومة تلك الديون ، ولكن الباخرة يجب أن تسير في موعدها المقرر وقد صدر اليها الامر بالتحرك على الرغم من احتجاج ربانها . كان

---

(5) Longrigg (Iraq 1900 To 1950) Oxford 1956 — P . 25 — 26 .

(٦) ديو لافوا (المصدر السابق) — ص ٢٧ — ٢٨ .

الربان فرنسيا ولم يستطع عصيان الامر الصادر اليه فاضطر أن يستخدم السمسم الذي كان منقولا فى الباخرة وقودا لها ، وقد وصل بغداد أخيرا ووجد أنه انفق من السمسم ما تزيد قيمته على ثلاثين ألف فرنك [٧]...

حاولت الحكومة العثمانية في أوائل العهد الدستوري اصلاح شركة البواخر التابعة لها فاتفقت مع بيت لنج على توحيد الشركتين على ان تكون الادارة بريطانية والعلم عثمانيا ، وصدر فرمان سلطاني بذلك ، غير أن المعارضة اعتبرت الاتفاق ضارا بالبلاد وأخذت تشن على الحكومة حملة شعواء فى الصحف وفى مجلس المبعوثين . وحين وصل الخبر الى بغداد هاج الناس وماجوا احتجاجا على الاتفاق وكان يحركهم بعض كبار التجار من أصحاب المصالح القائمة وعلى رأسهم عبدالقادر باشا الخضيري. وتجمهر الناس فى بغداد حول دائرة التلغراف ، وجلس الخضيري عند آلة التلغراف يرسل البرقيات الاحتجاجية الى اسطنبول على نفقته الخاصة كما جرت عليه العادة فى تلك الايام .

وفي ١٤ كانون الاول ١٩٠٩ جرى التصويت على الاتفاق في مجلس المبعوثين ، فوافقت الاكثرية عليه . وفي ١٣ آذار ١٩١٤ بدأت الادارة الجديدة تتسلم البواخر النهرية التى كانت تابعة للشركتين السابقتين من أجل تنظيمها على أساس جديد ، وكان الامل أن يتم لها ذلك في وقت قريب، ولكن القدر لم يمهلها اذ قامت الحرب العالمية الاولى فى صيف ذلك العام واستحوذت الحكومة العثمانية على البواخر جميعا بغية استخدامها فى الاغراض العسكرية .

التلغـــراف :

عندما حدثت ثورة الهند فى عام ١٨٥٧ شعر الانكليز بالحاجة الماسة الى مد خط تلغرافي يصل لندن بالهند عبر البلاد العثمانية[٨] . فتم الاتفاق بين الدولتين على قيام المهندسين البريطانيين بمد الخطوط التلغرافية بين

---

(٧) المصدر السابق ــ ص ٢٨ ــ ٣٠ .

(8) Sarah Searight (The British In The Midde East) — London 1969 — P.127.

تركيا والعراق . وفي أوائل ١٨٦١ نصب أول خط في العراق ما بين الموصل وبغداد ، وفي صيف ذلك العام تحقق الاتصال التلغرافي بين بغداد واسطنبول[٩] .

ثم صارت شبكة الخطوط التلغرافية تتشعب وتمتد في مختلف أنحاء العراق . وأول امتداد لها كان باتجاه البصرة عبر المنتفق ، وأول مخابرة تلغرافية بين بغداد والبصرة جرت في ٢٨ كانون الثاني ١٨٦٥ . ثم امتدت الخطوط الى خانقين باتجاه ايران ، والى كربلا والنجف ، والى الكوت والعمارة وبدرة ومندلي . وما حلت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت الدوائر التلغرافية مفتوحة في جميع البلدان العراقية المهمة .

قابل العراقيون التلغراف بدهشة أشد من تلك التي قابلوا بها البواخر، وقد ذهب الكثير من « عقلائهم » الى عدم التصديق به فليس من المعقول في نظرهم أن يصل الخبر من اسطنبول الى بغداد في لحظة واحدة مع العلم ان المسافر يقطع المسافة بينهما في عشرين يوما أو أكثر . يحكى عن أحد وجهاء كربلا أنه كان في بغداد عندما وصل اليها خط التلغراف لاول مرة ، فلما عاد الوجيه الى كربلاء أخذ يتحدث عن هذا الاختراع العجيب وكيف ان الانسان يستطيع به أن يدق على حديدة في بغداد فيسمع الناس صوتها في اسطنبول ، فظن الناس ان هذا الوجيه قد اعتاد على تعاطي الخمرة في بغداد فصار سكيرا لا يعي ما يقول .

كان استعمال التلغراف في أول أمره مقصورا على المخابرات الحكومية ولم يكن الاهالي يستعملونه الا نادرا ، ثم اعتادوا على استعماله فيما بعد تدريجاً . وقد أدرك الاهالي بمرور الزمن أن التلغراف يمكن استعماله في رفع شكاويهم الى الوالي ببغداد ، أو الى السلطان باسطنبول ، ومن هنا صار مأمور التلغراف ذا مركز مرموق في نظرهم ، فهم يسرعون اليه حين يتذمرون من معاملة أحد الموظفين لهم ، وتراهم عندئذ يقفون على رأسه فيدفعون له الاجور المقررة ويطلبون منه ابراق شكواهم الى المراجع المختصة حالا . ومن الطرائف التي يتناقلها أهل النجف أن نفرا من الأهالي أرادوا

---

(٩) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) — ص ٣٠١ .

ابراق شكواهم ضد أحد الموظفين فقدموا الى مأمور التلغراف رشوة لكي يكون دقه على الآلة شديدا ظناً منهم أن الدق الشديد أسرع وصولاً وأشد تأثيرا •

يمكن القول بوجه عام ان التلغراف كان له أثر غير قليل فى تدعيم السيطرة الحكومية وفي تغلغلها فى المناطق النائية من العراق ، فقد صار فى وسع الحكومة حشد القوات العسكرية وتوجيهها ضد المتمردين بسهولة ووقت أقصر • ولهذا كانت العشائر تنظر الى خطوط التلغراف نظرة عداء وريبة ، فهم لا يكادون يعلنون عصيانهم على الحكومة حتى يسرعوا الى تلك الخطوط فيقطعوها ويحطموا أعمدتها ، انهم يحسبونها بمثابة الجاسوس الذي ينقل أخبارهم الى الحكومة • يروى عبدالعزيز القصاب الذي كان قائمقاما فى السماوة عام ١٩١٠ أن جماعة من العصاة العشائريين هجموا على محطة التلغراف وكسروا الآلة التي فيها حيث وصفوها بانها « تكرش عليهم » [١٠] ، أي أنها تنقل أخبارهم الى الحكومة وتنم عليهم •

ومن الجدير بالذكر ان خطوط التلغراف فى العراق كانت معرضة للانقطاع بين آونة وأخرى ، وذلك بسبب ما اعتاد عليه العراقيون من تحطيم كل شيء يعود للحكومة ونهبه • شوهد أحد المسافرين فى عام ١٩١٣ وهو يتسلق عمودا للتلغراف ليقطع أسلاكه وينهبها ، فهي في رأيه تنفع للاستعمال في ربط الاحمال على الدواب[١١] • فهذا الرجل لا يبالي أن يضر بمصالح الحكومة والناس ، ويربك أعمالهم ، من أجل شيء تافه • أو لعله يتعمد ذلك تبعا لما يقول به المثل الدارج : « شعرة من جلد خنزير » • وما زالت هذه العادة موجودة بين الكثيرين منا • انها من بقايا تراثنا البدوي القديم!

العربة :

كانت الحيوانات هي وسيلة السفر البرية السائدة في العراق طيلة العهد العثماني ، ولم تدخل العربة اليه الا مؤخرا وبنطاق محدود جدا •

---

(١٠) عبد العزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ص ٨٥ •
(١١) حامد البازي (البصرة في الفترة المظلمة) — بغداد ١٩٦٩ — ص ٩٦ •

وكانت اولى العربات في العراق هي عربات « الترامواي » التي أسسها الوالي مدحت باشا وهي ذات طابقين تجرها الخيول على سكة من حديد وكانت يومذاك شائعة الاستعمال في اسطنبول وفي بعض المدن الاوربية.

كان مدحت باشا قد لاحظ كثرة الزوار الذين يذهبون الى الكاظمية وهي بلدة شيعية مقدسة تضم مرقد اثنين من الائمة الاثنى عشر وتقع على بعد خمسة أميال الى الشمال من بغداد ، فقرر تأسيس شركة مساهمة تقوم بانشاء سكة « ترامواي » بينها وبين بغداد .

وفي شهر أيار من عام ١٨٧٠ طرحت أسهم الشركة في الاسواق ، وكانت قيمة السهم الواحد ليرتان ونصف الليرة ، فأقدم بعض الاثرياء والتجار على شرائها بتحريض من مدحت باشا ، وقد ذكرت جريدة الزوراء في عددها الصادر في ١١ أيار تقول : ان الاقبال على شراء الاسهم شديد وان الناس مستمرون عليه . والظاهر أن مدحت باشا كان شديد الرغبة في انجاح المشروع فأوعز بكتابة ذلك لتشويق الناس على الشراء .

كان على مدحت باشا أن يختار بين طريقين لانشاء السكة : أحدهما في جانب الرصافة ويمر بالاعظمية ولكنه يحتاج الى جسر من الحديد فوق دجلة ، والآخر في جانب الكرخ وهو طريق لا يحتاج الى جسر ولكنه كثير الالتواء . وقد استقر رأي مدحت باشا على اختيار الطريق الثاني لقلة نفقاته .

أرسل مدحت باشا الى مصانع بريطانيا يطلب منها المواد والادوات اللازمة ، وسار العمل في المشروع بنجاح لا بأس به ، ويعود الفضل في ذلك الى همة الوالي وحرصه ودأبه . وعندما اكتمل المشروع وبدأت العربات تجري ذهل الناس لمنظرها ، قيل ان احدى عجائز الكرخ أبدت اذ ذاك دهشتها حيث قالت : « بس على الموت ما يقدرون ! » .

كان رأس السكة في أول الامر يصل الى بداية الدور من الجعيفر، فارتأت الشركة تمديد السكة في داخل الكرخ الى مقربة من الجسر تسهيلاً للركاب . وفي ١٩ ايلول ١٨٧١ نشرت جريدة الزوراء تقول : « قد قر القرار على شراء الدور الواقعة على الطريق الى حد خستةخانة الغرباء الواقعة

في جانب الكرخ وتحويل المركز الى هناك ، وحسبما سمعنا ان الدولة قد أخذت بالشراء ومنذ كم يوم حصلت المباشرة في العمليات. وحيث أن الادوات الموجودة قد تحقق عدم كفايتها الى المحل الذي يمد فيه الخط وأنها محتاجة الى مقدار خمسماية مترو من شطوب الحديد وغيرها فقد أوصي على جلب الادوات المذكورة مع ثمانية عربات للطريق من أوربا ».

كان ربح الشركة في السنة الاولى يربو على العشرين بالمائة من رأس المال[12] . وظلت الشركة مطردة النجاح الى أن رفع مدحت باشا استقالته من الولاية وغادر بغداد في عام ١٨٧٢ ، فبدأت الشركة منذ ذلك الحين تسير في طريق التدهور تدريجا كشان أغلب المشاريع العثمانية . وقد أعطتنا المدام ديولافوا وصفاً لما كانت عليه الشركة من اهمال اثناء زيارتها لبغداد في عام ١٨٨١ ، فهي تعطي مثلاً واقعياً على ذلك خلاصته : ان بقعة من الارض التي تمر عليها السكة في منتصف الطريق انخسفت ولم تستطع العربات مواصلة السير عليها ، فيضطر الركاب أن ينزلوا عنها ليأتي الحمالون فيدفعوها حتى يعبروا بها البقعة المنخسفة . وقد ذكرت ديولافوا . أن الخسف مر عليه ثمانية عشر شهرا فكان المهندسون يأتون اليه لفحصه ثم يكتبون عنه التقارير ، وتمضي الايام بعد ذلك من غير نتيجة . وقد كان في الامكان اصلاح تلك البقعة في ساعة او ساعتين بوساطة اولئك الحمالون أنفسهم ...

وتأتي ديولافوا بمثل آخر على اهمال شركة الترامواي حيث وصف ركوبها هي وزوجها احدى العربات عائدة من الكاظمية ، فقد كان سائق العربة قد أوشك وقت عمله على الانتهاء وهو يريد العودة الى بيته بأقصى سرعة ممكنة ، فأخذ يلهب الخيول بسوطه مما جعل العربة تهتز اهتزازاً شديدا لسرعتها ، وكان في العربة بعض النساء فارتفع صراخهن ولكن السائق لم يكترث لصراخهن بل اشتد في ضرب الخيول بسوطه . وصادف عند دخول العربة في أزقة الكرخ ان كان هناك عدد من الحمير تحمل سمكاً

---

(١٢) مدحت باشا (مذكرات مدحت باشا) ـ ترجمة يوسف كمال حتاته القاهرة ـ ص ١٦٨ .

« البز » ذي الحجم الكبير ، فجفلت الحمير وألقت أحمالها على الارض وأخذ أصحابها يشتمون السائق بلهجة خشنة ، فأجابهم السائق بشتائم مثلها . وتبدي ديولافوا أسفها لانها لم تكن تفهم معنى تلك الشتائم المتبادلة . وكان بجانبها رجل يحمل كوزا من العسل فأريق شيء من العسل على ملابسها من شدة الاهتزاز ، وأخذ الرجل يلعن الارض والسماء غيظاً لفقدان بعض عسله دون أن يهتم بما جرى على ملابس السيدة من تلويث . وقد أصيب ركاب آخرون أثناء ذلك بكسور في أيديهم وأرجلهم ، كما أصيب خادم القنصلية الفرنسية الذي كان يرافقها برضوض وجروح في رأسه وفقئت احدى عينيه . وتضيف ديولافوا الى ذلك قائلة بان هذه الحادثة المؤسفة لم تكن نادرة الوقوع في عربات الترامواي ، ولكن الذي يبعث على العجب أن احدا لم يرفع صوته بالشكوى من تصرفات السواق تلك ، والاعجب من ذلك أن هؤلاء السواق لا يعدون أنفسهم مسؤولين عن تلك الحوادث المؤسفة بل يردونها الى احكام القضاء والقدر وما يريده الله لعباده[13] .

ظل العراق عشرين سنة وليس فيه من العربات سوى عربات الترامواي . وفي ١٨٩٠ ظهر نوع من العربات الخشبية يجرها زوج من الخيول من غير سكة وقد خصصت لنقل الركاب بين بغداد والاعظمية . وفي السنة التالية ظهرت في بغداد عربات مستوردة من أوربا هي عربات « اللاندون » ، وهي انما سميت بهذا الاسم لانها كانت تصنع في بلدة ألمانية اسمها « لاندو » وقد أضاف العامة عليه النون كما هي عادتهم في مثل هذه الاسماء . وكانت هذه العربات في بداية أمرها خاصة بالوالي وبعض كبار الموظفين والاعيان يستعملونها في تنقلاتهم داخل بغداد ، ثم عم استعمالها بعدئذ على نحو ما حدث للسيارات بعد الحرب الاولى .

وفي مفتتح القرن العشرين أسس نفر من أثرياء بغداد وتجارها شركة لتسيير العربات بين بغداد وبعض المدن القريبة منها كبعقوبة والحلة وكربلا وسامراء ، وكانت الواحدة من تلك العربات تجرها خيول أربعة تبدل

---

(١٣) ديولافوا (المصدر السابق) ـ ص ٩٠ ـ ١٠٠ .

في المحطات ، فكانت بذلك قادرة على قطع الطريق بين بغداد وكربلاء مثلا خلال نهار واحد . وقد اشتهرت هذه العربات بين العامة باسم « عربابين عارف أغا » اذ كان هذا الرجل أكبر المساهمين فيها ، وسماها بعضهم كذلك « عربابين الكومبانية » . وقد نجحت الشركة في تسيير عرباتها ، وأقبل الناس عليها ، وأصبحت المقاعد في العربات تحجز قبل أيام عديدة لا سيما في موسم الزيارات والاعياد . ولعل من المناسب ان نذكر أن الملا عبود الكرخي كان يدير مكتب الشركة في الكرخ فكان يجلس فيه بعقاله ذي اللفات الاربع ليبيع التذاكر أو يحجز المقاعد .

وفي عام ١٩٠٧ ذهب عبدالرحمن الباججي ومحمد صالح الشابندر الى اسطنبول واستطاعا أن يحصلا من السلطان على امتياز بتأسيس شركة ترامواي بين النجف والكوفة . ويروى عن عبدالرحمن الباججي أنه عند عودته الى بغداد صرح قائلا: « جئت من اسطنبول بمفتاح الكيمياء » اشارة الى الارباح المتوقعة من تأسيس الشركة[١٤] . وقد تأسست الشركة في ذلك العام وساهم فيها بعض أثرياء النجف كالحاج محسن شلاش ، وصارت العربات من ذوات الطابقين تجري بين الكوفة والنجف على نمط ما كانت تجري بين الكاظمية وبغداد .

وفي ١٩٠٨ وردت الى بغداد من حلب أول سيارة ، فخرج أهل بغداد للتفرج عليها ، وصار بعضهم ينظرون تحتها لكي يكتشفوا الحصان الكامن في بطنها على زعمهم اذ لم يكن من المعقول أن تسير عربة من غير حصان يجرها . وبعد قليل ظهر « الماطور » في نهر دجلة وهو زورق يوضع في وسطه محرك كمحرك السيارة، وقد شجع الوالي نجم‌الدين منلا الاهالي على الاستفادة منه لتأسيس شركة وطنية للنقل النهري[١٥] . ثم أسس تاجر يهودي اسمه « مشعل » خطاً لنقل الركاب بين بغداد وبعقوبة يستخدم فيه سيارات طويلة من نوع اللوري ذات مقاعد جانبية . وبلغ مجموع

---

(١٤) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ١٥٥ .

(١٥) المصدر السابق ــ ج ٨ ص ١٧٩ .

السيارات في العراق كله عند اعلان الحرب الاولى أقل من اثنتي عشرة سيارة[16] .

يحكى ان الوالي جاويد باشا عندما ذهب الى النجف بسيارته الخاصة في عام ١٩١٤ طلب من أحد وجهائها أن يركب فيها لتسير به خارج السور ، ولكن الوجيه بعد أن نظر الى السيارة ملياً رفض الركوب فيها بحجة أنه صاحب عيال وهو لا يأمن من شرها على نفسه .

البريد :

لم يكن في العراق في النصف الاول من القرن التاسع عشر خدمات بريدية منظمة ، وكان الناس حين يريدون ارسال مكتوب لهم من بلدة الى اخرى يذهبون الى خانات المسافرين ليتعرفوا فيها الى شخص عازم على السفر الى البلدة التي يقصدونها فيرجونه ايصال مكتوبهم اليها . وقد يتخصص في بعض المدن شخص معين لهذا الغرض فيأتي الناس اليه بمكاتيبهم وهو يجمعها عنده انتظارا لمسافر يحملها معه قربة لوجه الله .

أما الحكومة فكان لها رجال مختصون بنقل بريدها اشتهروا باسم « طاطران » ــ أي التتر ــ وكان هؤلاء يركبون الخيول او الجمال السريعة التي تبدل في نقاط معينة أثناء الطريق . وكان للقناصل رجال مختصون بنقل بريدهم على هذا المنوال أيضاً .

تأسست أول خدمة بريدية عامة في العراق في عام ١٨٦٨ ، ولم تكن عثمانية بل كانت تتبع الحكومة الهندية البريطانية ، وكان لهـا موزعون وصناديق منصوبة في الشوارع وزوارق للنقل ، وقد شملت بخدماتها المدن الواقعة على الانهر والعتبات المقدسة ، وظلت تعمل بانتظام عشر سنوات[17] .

وفي عام ١٨٧٨ اشتركت الدولة العثمانية في الاتفاقية البريدية العالمية التي تم عقدها في باريس ، ومنذ ذلك الحين شرعت الحكومة تفتح دوائر البريد العثمانية في المدن العراقية . وصارت تضع العراقيل تجاه دوائر البريد الهندية حتى قضت عليها اخيرا .

---

(16) Longrigg (op . cit .) — P . 64 .

(١٧) ستيفن همسلي لونكريك (المصدر السابق) ــ ص ٣٢٤ .

كانت دوائر البريد العثمانية كغيرها من الدوائر الحكومية يسودها التفسخ وسوء التنظيم ، وكثيرا ما كان الموظفون فيها لا يتسلمون مرتباتهم عدة أشهر فيضطرون الى الاعتماد على الرشوة من أجل العيش . وصار الناس يفضلون ارسال مكاتيبهم عن طريق القناصل بدلا من ارسالها بالبريد الحكومي . حدثني أحد المسنين من أهل بغداد : أنه كان يذهب بمكتوبه الى القنصلية البريطانية فيشتري منها طابعا بريطانيا ليلصقه على المكتوب ثم يسلمه الى موظف معين فيها .

ويذكر سليمان البستاني في كتابه «عبرة وذكرى» : ان مكاتب البريد الاجنبية كانت منتشرة في أكثر الموانىء والمدن المهمة في البلاد العثمانية ، وكانت مأمونة لا يستطيع أحد أن يطلع على ما فيها ، وكان الكثير من الناس يعتمدون عليها في ارسال أموالهم وأسرارهم . وحدث في عام ١٨٩٤ أن اكتشفت احدى السفارات في اسطنبول خيانة بين عمال بريدها وكانوا عثمانيين حيث سلموا رسائل بعض رجال المعارضة الى « المابين » لقاء مبلغ معلوم عن كل رسالة ، فأصدرت السفارة أمرها بان لا يستخدم بعدئذ في بريدها أي عامل عثماني[١٨] .

من الممكن القول ان دوائر البريد العثمانية تحسن وضعها نسبياً في العهد الدستوري ، وسادها شيء من النظام . يصف عبدالكريم العلاف كيف كان البريد يصل الى بغداد في أواخر العهد العثماني فيقول : ان صاحب البريد كان يدخل الى بغداد من باب المعظم ممتطياً جواده وبيده سوط يلوح به فى الهواء ، وأمامه عدد من الخيل تحمل البريد راكضة ، وهو ينادي بصوت عال : « بوستة كلدي » أي جاء البريد . فيسرع الناس بالذهاب الى دائرة البريد الواقعة فى محلة الميدان فيجتمعون فى ساحتها، وهناك يقف الموظف المختص فيقرأ على الناس الاسماء المكتوبة على الرسائل، فيتسلمها من كان حاضرا منهم ، أما الذين لم يستطيعوا الحضور فيذهب اليهم الموزع ويأخذ منهم عشر بارات عن كل رسالة بمثابة «بخشيش»[١٩].

---

(١٨) سليمان البستاني (عبرة وذكرى) ـ القاهرة ١٩٠٨ ـ ص ٤٩ .
(١٩) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ١٥٦ .

المعمل والماكنة :

كان أول معمل حديث أقيم في العراق هو الذي أسسه الوالي رشيد باشا الگوزلگلي في العقد السادس من القرن التاسع عشر . وهو لم يكن في الواقع معملاً بل كان محلا لاصلاح البواخر والآلات المستوردة من الخارج، ويضم تورنة ومقراض ومثقب وما أشبه ، وكان محله في جانب الكرخ من بغداد واسمه « دمير خانة » وسماه أهل بغداد بـ « الحداد خانة » .

وقد طرأ الخلل على هذا المعمل بعد موت رشيد باشا ثم تعطل أخيرا وأهمل . ولما جاء مدحت باشا أمر مسعود بك البلجيكي باعادته الى العمل من جديد . وقام المعمل بخدمات مهمة للجيش حيث اهتم باصلاح البنادق القديمة المعروفة باسم « جاقماقلي » ، والتي كانت متروكة في المخازن وقد أكلها الصدأ ، فحولها الى بنادق من نوع « شيشخان » الصالح للاستعمال[٢٠] .

وفي عام ١٨٦٤ أسس الوالي نامق باشا أول معمل حديث للنسيج في العراق ، وهو الذي أطلق البغداديون عليه اسم « العباخانة » أو « القاطرخانة » ، وبه عرفت المحلة المحيطة به . وكان يدار بالبخار وينتج بعض حاجات الجيش من ألبسة وخيام . وحين جاء مدحت باشا عمل على تطوير المعمل وتوسيعه حتى وصل انتاجه في اليوم الواحد الى ثلاثمائة متر من الاقمشة الصوفية وأربعمائة متر من الاقمشة القطنية السميكة[٢١] .

وقد وجد مدحت باشا الحاجة ماسة الى استيراد معمل للطحن . ذكرت جريدة الزوراء في ١٦ آذار ١٨٧٠ : ان سكان بغداد بلغوا مائة وخمسين ألفاً ، ثم قالت الجريدة : « فالحنطة التي تطحن لمأكولات هذا المقدار من النفوس قد انحصرت أما في الرحى التي تدار بالبغال أو باليد حتى أن أجرة طحن الحنطة تصل الى ثلث ثمن الحنطة وما عدا ذلك فالحنطة

---

(٢٠) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج ٧ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢١) المصدر السابق ـ ج٧ ص ٢٦٠ .

التي تطحن لاشهر ليست وفق المطلوب بل بعض الطحين يخلط ويفسد وهذا هو من الامور الثابتة بالتجربة فالآن جعلت الحكومة السنية علاوة على الهمة التي بذلتها في حق العموم من استكمال راحة الجميع ، ويعني أنها قد تشبثت في جلب ماكنة للطحن»[٢٢] .

طلب مدحت باشا من أحد المصانع الفرنسية معملا للطحين بقوة سبعين حصاناً وكان ثمنه ألفي ليرة ، ولكن المعمل تأخر وصوله لانشغال فرنسا بحرب السبعين وهي الحرب التي نشبت بينها وبين المانيا . وحين وصل المعمل أخيرا كان مدحت باشا قد غادر بغداد فترك مهملاً على رصيفه البصرة حتى أكله الصدأ . وقد استطاع أخيرا حسين فوزي باشا قائد الفيلق أن يجلب المعمل المصدوء الى بغداد واتخذ له الابنية اللازمة وجعله يعمل[٢٣] .

ثم كثرت من بعد ذلك مكائن الطحن الاهلية في بغداد وغيرها من المدن العراقية . نشرت جريدة الرقيب البغدادية في ٤ آذار ١٩٠٩ تقول: « في محلة قاضي الحاجات وسوق الشورجة عدة ماكينات تشغل بالغاز للطحن وتهبيش التمن ... وقد تضررت الاهالي من قعقعتها ورائحتها وهزها للأبنية»[٢٤] .

وفي عام ١٨٨١ استوردت ماكنة لصنع الثلج فنصبت في شريعة الميدان ببغداد ، وكان الثلج يصنع فيها على شكل صفائح كالزجاج السميك ويباع الكيلو غرام منه بقرش صاغ[٢٥] . ولم يستطع الاهالي الاستفادة منه الا قليلاً اذ كان معظم انتاجه يذهب الى بيوت القواد وكبار الموظفين فكان هؤلاء يرسلون خدمهم الى المعمل للاتيان بالثلج وكثيرا ما كان الخدم يتماركون عند باب المعمل من أجل الحصول على المقدار المطلوب من الثلج .

وفي عام ١٨٨٨ استورد ابراهيم حي الهندي معملين للمشروبات الغازية

---

(٢٢) منير بكر التكريتي (الزوراء) ــ بغداد ١٩٦٩ ــ ص ٧ .
(٢٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٧ ص ٢٦٠
(٢٤) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ٣٦ .
(٢٥) عبد الكريم العلاف (المصدر السابق) ــ ص ٩٧ .

فنصب أحدهما في البصرة والثاني في العشار، (٢٦) اشتهرت هذه المشروبات باسم هندي « ناءمليت » وأخذت تدر أرباحاً غير قليلة مما شجع آخرين على استيراد معامل أخرى لها .

وفي عام ١٨٨٩ كان لشركة لنج مكبسان للصوف يعملان بقوة البخار ويحولان الصوف المحلي الى بالات جاهزة للتصدير ، وكان لشركة اندرو وير كذلك مكبسان مائيان كبيران(٢٧) . وقد كثرت من بعد ذلك مكابس للصوف وعرق السوس في مختلف أنحاء العراق .

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ بعض أصحاب المزارع والبساتين باستعمال المضخات البخارية لري مزارعهم ، وقد بلغ عدد تلك المضخات في نهاية القرن اثنى عشر ، ثم أخذ عددها يتضاعف من بعد ذلك (٢٨) .

وفي عام ١٩٠٧ انشأت أول اسالة للماء في بغداد ، وكانت من طراز بسيط جدا حيث نصبت مضخة في شريعة الميدان ومدت منها أنابيب الى البيوت من غير تصفية أو تعقيم ، وكان للاسالة أجرة شهرية مقطوعة قدرها عشرة قروش صاغ لكل بيت(٢٩) ، وكانت الاملاح والوحول تترسب في الانابيب فيكابد الناس منها ما يكابدون .

المطبعة :

ذكر رزوق عيسى أن أول مطبعة أنشئت فى العراق كانت فى الكاظمية لصاحبها المرزا محمد باقر التفليسى ، وهي حجرية ، وقد طبع فيها كتاب « دوحة الوزراء » للشيخ رسول الكركوكلي فى عام ١٨٢١ . وفي رأي يعقوب سركيس أن هذا قول لا نصيب له من الصحة(٣٠) .

وفي عام ١٨٥٦ أنشئت فى العراق مطبعتان حجريتان ، احداهما في كربلا وكان صاحبها ايراني أخذ يطبع فيها بعض الادعية والزيارات والاوراق

---

(٢٦) حامد البازي (المصدر السابق) ــ ص ١٤٢ .

(٢٧) محمد سلمان حسن (التطور الاقتصادي فى العراق) ــ بيروت ــ ج١ ص ٢٨٦ .

(28) Longrigg (op. cit) P. 64 .

(٢٩) عبد الكريم العلاف (المصدر السابق) ــ ص ٧٥ .

(٣٠) يعقوب سركيس (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ .

التجارية ، وكذلك طبع فيها مقامات ابي الثناء الآلوسي • والثانية في الموصل للآباء الدومنكيين ، وقد طور الآباء هذه المطبعة فحولوها في عــام ١٨٥٩ الى مطبعة حروفية ، ثم صارت المطبعة تملك مسبكاً لصب الحروف وقسماً خاصاً بالتجليد الفني الحديث[٣١] • وظلت هذه المطبعة الدومنكية تعمل أكثر من خمسين سنة فكانت من عوامل النهضة الادبية في شمال العراق[٣٢]، وقد صادرتها الحكومة عند نشوب الحرب العالمية الاولى •

وفي عام ١٨٦١ جلب كامل التبريزي الى بغداد من ايران مطبعة حجرية، وكان خطاطها رجل ايراني اسمه محمد جواد ، وصارت تطبع بعض الكتب منها « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » لمحمد أمين السويدي • وفــي عام ١٨٦٩ استورد مدحت باشا من باريس مطبعة حروفية آلية لكي يطبع بها جريدة الزوراء ، وكانت هذه أول مطبعة في العراق تــدار بالبخــار وقد زودت بالاجهزة الحديثة • وعلى أثر افتتاح هذه المطبعة أغلقت مطبعـة كامل التبريزي أبوابها •••

وفي عام ١٨٧٥ أسس تحسين باشا والي الموصل مطبعة للولاية وأمــر بجلب آلاتها من اسطنبول ، وساهم الآباء الدمنكيون في ادارتها فنياً • وفي عام ١٨٨٤ أسس الحاخام يهوذا بيخور أول مطبعة يهودية في العــراق وكان فيها حروف عبرية لطبع الكتب الدينية ، وحروف عربية لطبع الاوراق التجارية • وفي عام ١٨٨٩ أسس محمد علي جلبي زادة أول مطبعة فــي البصرة لكي يصدر بها جريدة « الفيحاء » •

وفي عام ١٨٩١ أسس ابراهيم باشا في بغداد مطبعة مهمة ســميت بمطبعة « دار السلام » ، وقد جرى فيها طبع كتاب « بلوغ الارب فــي معرفة أحوال العرب » للسيد محمود شكري الألوسي الذي نال به وساما من ملك السويد • وفي عام ١٩٠٢ أسس الحاخام عزرا دنكور في بغــداد مطبعة عدت في حينها من أكبر مطابع العراق ، وكانت تهتم بطبع الــكتب

---

(٣١) خليل صابات (تاريخ الطباعة في الشرق العربي) ــ القاهرة ١٩٦٦ ــ ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ •

(٣٢) روفائيل بطي (الصحافة في العراق) ــ القاهرة ١٩٥٥ ــ ص ١٧ •

اليهودية والاوراق التجارية • وفي عام ١٩٠٧ أسس محمود الشابندر مطبعة باسم « مطبعة الشابندر » وكانت من أكبر مطامع العراق أيضا تدار بمحركين بخاريين وتتمكن من طبع ثلاث آلاف نسخة في الساعة • وفي عهد الدستور أنشئت مطابع أخرى في بغداد وبعض المدن الاخرى، كالنجف والموصل والبصرة، (٣٣) مما لا يتسع المجال للاسهاب فيها •

الجريدة والمجلة :

يقال ان اول جريدة ظهرت فى العراق أصدرها داود باشا فى عام ١٨١٦ باسم « جرنال العراق » ، فكانت تطبع في مطبعة حجرية باللغتين التركية والعربية وتوزع على قواد الجيش وكبار الموظفين وأعيان بغداد وأشرافها، كما كانت تعلق على جدران دار الحكومة ليطلع عليها الناس • ويقول المؤرخ عبدالرزاق الحسني : انه لم يعثر على نسخة من هذه الجريدة لا في المتحف البريطاني ولا في المؤسسات العثمانية القائمة(٣٤) مما يثير الشك في وجودها •

يرجح في ظني أن « جرنال العراق » ـ على فرض وجودها ـ لم تكن جريدة بالمعنى المتعارف عليه الآن ، وربما كانت بمثابة منشورات دورية أصدرها داود باشا لاطلاع كبار الموظفين والاعيان على ما يريد أن يطلعهم عليه •

وظل العراق من غير جريدة تصدر فيه حتى عام ١٨٦٩ ، وهو العام الذي جاء فيه مدحت باشا الى بغداد واليا • والظاهر أن مدحت باشا كان قد أعد العدة لاصدار جريدة في بغداد قبل مغادرته اسطنبول ، وكان قد استصحب معه الى بغداد أحد الكتاب الاتراك المعروفين لكي يتولى تحرير الجريدة هو أحمد مدحت افندي • وفي ١٥ حزيران من عام ١٨٦٩ ـ أي بعد ستة وأربعين يوما من وصوله الى بغداد ـ صدر العدد الاول من الجريدة باسم « الزوراء » وهي باللغتين التركية والعربية • والملاحظ

---

(٣٣) خليل صابات (المصدر السابق) ـ ص ٣٠١ ـ ٣٠٥ •

(٣٤) عبد الرزاق الحسني (الصحافة العراقية في ربع قرن) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٣ •

ان تاريخ اليوم المكتوب في صدر العدد الاول منها كان حسب التقويم الشرقي وهو يقل عن التقويم الغربي باثني عشر يوماً .

يمكن القول بأن جريدة الزوراء كان لها بعض الاثر ، وان كان محدودا، في توعية الناس وفي تثقيفهم . والمعروف عن مدحت باشا أنه أطلق لها شيئا من الحرية فأخذت تكتب في مواضيع شتى كالحث على تعليم البنات، والوقاية من الاوبئة ، والاسباب التي أدت الى انحطاط العراق ووسائل ترقيته ، كما احتوت على رسائل من أنحاء العراق . وهذه أمور لابد ان تثير انتباه الناس وتفتح أذهانهم على وجه من الوجوه .

وقد استمر صدور جريدة الزوراء من غير توقف زهاء ثمانية وأربعين عاما ، غير أنها لم تبق على ما كانت عليه في عهد مدحت باشا من حرية في النقد وميل الى التوعية . وقد ساهم في تحريرها كثيرون كان منهم أحمد عزت الفاروقي ، وطه الشواف ، ومحمود شكري الألوسي ، وفهمي المدرس، وعبدالمجيد الشاوي ، وجميل صدقي الزهاوي .

وفي عام ١٨٨٥ ظهرت في الموصل جريدة باسم « الموصل » وهي كانت رسمية كالزوراء . وفي ١٨٨٩ ظهرت في البصرة جريدة باسم « الفيحاء » وكان قد أصدرها موظف بغدادي يسكن البصرة اسمه محمد علي جلبي زاده.، وفي عام ١٨٩٥ تحولت هذه الى جريدة رسمية على أثر نقل صاحبها الموظف الى بيروت . وقد عاشت هاتان الجريدتان كالزوراء حتى انتهاء العهد العثماني في العراق .

وفي عام ١٩٠٢ أصدر الآباء الدومنكيون في الموصل مجلة دينية اسمها « اكليل الورد » فكانت أول مجلة تصدر في العراق ، واستمرت على الصدور حتى يوم اعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ . وفي عام ١٩٠٥ أصدر الآباء الكرمليون في بغداد مجلتين دينيتين احداهما باللغة العربية بعنوان « زهيرة بغداد » والاخرى باللغة الفرنسية بعنوان « الايمان والعمل » ، وقد استمرت هاتان المجلتان على الصدور ما ينوف على السنة ثم احتجبتا[٣٥] .

---

(٣٥) عبد الرزاق الحسني (تاريخ الصحافة العراقية) ـ بغداد ١٩٥٧ ـ ص٢٥

وعندما أعلن الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ حدثت فورة صحافية في العراق تلفت النظر على نحو ما ذكرناه في الفصل السادس • وكانت أول جريدة ظهرت في ذلك العهد هي جريدة « بغداد » التي أصدرها فرع جمعية الاتحاد والترقي ببغداد • وتتابع من بعد ذلك ظهور الجرائد والمجلات على نحو سريع عجيب ، ففي خلال ثلاث سنوات بلغ عدد الجرائد والمجلات التي صدرت نحو سبعين • وفي عام ١٩١١ أصدرت وزارة الداخلية فى اسطنبول أمرا قضت فيه أن يلغى امتياز كل جريدة توقفت عن النشر قبل يوم ٥ آذار من تلك السنة ، وبهذا تم الغاء امتياز ثماني وثلاثين جريدة ، ولم يبق في بغداد عندئذ سوى ثلاث جرائد ومجلتين•[٣٦]

من أشهر الجرائد التي صدرت في عهد الدستور جريدة « الرقيب » لصاحبها عبداللطيف ثنيان ، وجريدة « بين النهرين » لصاحبها محمود الطبقجلي ، وجريدة « مصباح الشرق » لصاحبها عبدالحسين الازري ، وجريدة «النهضة» لصاحبها مزاحم الباججي، وجريدة «الرصافة» لصاحبها السيد صادق الاعرجي ، وغيرها • وكانت مجلة « لغة العرب » التي أصدرها الاب انستانس ماري الكرملي في بغداد ، ومجلة « العلم » التي أصدرها السيد هبة الدين الشهرستاني في النجف، أهم المجلات التي صدرت فى عهد الدستور •

كان الاتراك يطلقون على الجريدة اسم « الغازيتا » أو « الغزتة » ، وهي لفظة ايطالية وقد حورها العامة فى العراق فجعلوها « قسطة » • ومما يجدر ذكره ان المتزمتين من رجال الدين كانوا ينظرون الى الجريدة نظر استنكار ، وظلوا كذلك حتى عهد متأخر• فقد كانوا يعدون قراءة «القسطة» من باب اللهو المكروه شرعاً وهم يرون من الواجب على المسلم أن يقرأ القرآن والادعية وكتب الدين بدلاً من قراءة « القسطة » • ويروى عن أحد علماء بغداد في أواخر العهد العثماني أنه لاحظ ابنه ذات يوم يدخل غرفته ويسدها عليه سداً محكماً ، فداهم الغرفة ليجد ابنه يقرأ الجريدة ، فانهال عليه بالضرب المبرح قائلا له : « لقد خربت بيتي بادخالك الغازيتا » • وقد

---

(٣٦) روفائيل بطي (المصدر السابق) — ص ٢٢ — ٢٣ •

اضطر الابن الى احراق الجريدة خشية العيون والرقباء.[٣٧]

المستشفى :

ان أول مستشفى في العراق هو الذي بناه مدحت باشا على شاطىء دجلة في جانب الكرخ ، وهو كغيره من مباني مدحت باشا استمد طابوقه من سور بغداد ، وقد جمعت له التبرعات من أغنياء بغداد وأعيانها ، وتم افتتاحه فى عام ١٨٧٢ باسم « خسته خانة الغرباء » أي مستشفى الغرباء .

وهذا المستشفى لم يكن فى الواقع مستشفى بالمعنى المتعارف عليه فى أيامنا بل كان أشبه شيء بدار للعجزة . فلم يكن الاهالي فى تلك الايام يستسيغون ايداع مرضاهم فى مستشفى حكومي بل جرت العادة أن يعتنوا بمرضاهم في بيوتهم ، وكانوا يعتقدون ان الحكومة من شأنها قتل المرضى لا علاجهم . ولهذا كان المستشفى الذي بناه مدحت باشا مخصصاً للغرباء الذين ليس لهم أقارب يعتنون بهم في بيوتهم ، ولم يلجأ اليه في الواقع سوى المعوزين والمتسولين والعجزة ، وكان قد خصص فيه جناح خاص للمساجين والمتوهين والعواهر[٣٨] .

وقد أهمل المستشفى بعد مدحت باشا وقلت المنفعة منه تدريجاً حتى كادت تنعدم ، وأصيبت بنايته بشقوق . وفي عام ١٨٧٩ عمل الوالي عبدالرحمن باشا على اصلاحه وتجهيزه بالادوات والادوية بمقدار ما ساعدته الظروف في تلك الايام . وفي ٦ نيسان من تلك السنة أعيد افتتاحه مجددا وحضر حفلة افتتاحه جمع كبير من الناس[٣٩] . وفي عام ١٨٩٦ قررت الحكومة الاستغناء عنه نهائيا فأعطيت بنايته الى دائرة المعارف وانتقل اليها « المكتب الاعدادي الملكي » .

وكان المستشفى الثاني فى العراق هو الذي أسسه الوالي نامق باشا الصغير في باب المعظم في الموضع الذي أقيمت عليه بناية السجن المركزي

---

(٣٧) منير بكر التكريتي (الصحافة العراقية) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٥٧ .

(٣٨) هاشم الوتري ومعمر الشابندر (تاريخ الطب في العراق) ـ بغداد ١٩٣٩ ـ ص ٥٤ .

(٣٩) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ح٢ ص ٤٥ .

فيما بعد ، وقد اهتم به نامق باشا اهتماما كبيرا وكأنه أراد أن يجعله خيرا من مستشفى مدحت باشا، فغرس أمامه حديقةواستورد له الادوية والادوات الجراحية من أوربا • وجرى افتتاحه في ٧ نيسان من عـام ١٩٠١ بحضور نامق باشا والمشير وجماعة من الاعيان والعلماء وقرأ فهمي المدرس ــ الذي كان يومذاك محرر جريدة الزوراء ــ الدعاء للسلطان ولوزرائه وللوالي • وقد سمي المستشفى الجديد بـ « مستشفي الغرباء » كذلك •

كانت الهيئة الادارية في المستشفى الجديد مؤلفة من « سر طبيـب » ــ أي طبيب أول ــ ومدير داخلي وجراح وكحال ومدير وكاتب ووكيـل خرج وطباخ ومعاون طباخ وبستاني وامام للصلاة وعشرين خادما وخادمة ، وكان تحضير الادوية فيه يجري على الطريقة اليونانية العربية • ومما يلفت النظر أن نامق باشا على الرغم من رغبته الشديدة في ترقية المستشفى كـان قد عين لادارته رجلا يدعى محمود خان ، ولم يكن لهذا الرجل من كفـاءة سوى براعته في لعبة الشطرنج[٤٠] •

وقد جرى بعد عزل نامق باشا من ولاية بغداد شيء من الاصـلاح والتغيير في المستشفى ، فتم عزل محمود خان من ادارته وعين فيه الدكتور نظام الدين للرئاسة والامراض الباطنيـة ، والدكتور ذهنـي بك للامراض الجراحية ، والدكتور سامي سليمان لامراض العيون ، كما عين الاوسـطة عباس مساعدا للجراح •

وفي بداية عهد الدستور تقرر نقل هذا المستشفى الى بناية المستشفى الاول الذي بناه مدحت باشا في جانب الكرخ فاستعيدت البناية من دائرة المعارف وتحول اليها المستشفى الجديد • وتم أخيرا تعيين الدكتور محمد كاني بك لادارة المستشفى ، وكان هذا رجلا قديرا وجراحا ماهرا فنفخ فيه روحاً من النظام لا يستهان به • وفي عهد هذا المدير أسندت وظائف التمريض لاول مرة الى النساء حيث قامت بها جماعة من الراهبات الفرنسيات فكن خير عامل لرقي المستشفى وبدأ بهن طور جديد من النظام والترتيب[٤١] •

---

(٤٠) هاشم الوتري ومعمر الشابندر (المصدر السابق) ــ ص ٥٥ •
(٤١) المصدر السابق ــ ص ٥٦ •

وكان المستشفى الثالث فى العراق هو مستشفى « المجيدية » ، وقد أقيم في القصر الذي بناه مدحت باشا في بستان النجيبية لضيافة الشـــاه ناصر الدين • وكان افتتاحه في عام ١٨٩٧ عندما كان الشـــير رجب باشـــا والياً بالوكالة ، وقد أضاف هذا الوالي الى القصر غرفاً واسعة فـــي المكان الذي تقوم فيه ردهات المستشفى الآن ، وجعله مستشفى عسكريا وقيـــل انه سماه بـ « المجيدية » تيمناً باسم السلطان عبدالمجيد والد الســـلطان عبدالحميـــــد •

وفي ٢٦ آب ١٩١٠ افتتح الوالي ناظم باشا مستشفى يهوديا خـــارج باب المعظم سمي باسم مؤسسه « منير الياس » ، وحضر حفلة الافتـــاح جمع من الاعيان وكبار الموظفين ، وقد وجهت الدعوة اليهم باسم الحاخـــام داود پابو • وكان المستشفى واسعا ومجهزا بأحدث الاجهزة واعتبر في حينه أفخم واكثر تنظيما من جميع المستشفيات الحكومية •

الملهـى :

لم يكن في العراق حتى نهاية القرن التاسع عشر أي ملهى او مرقص من النمط المتعارف عليه الآن • وفي أوائل القرن العشرين ظهر نوع ساذج من الملاهي في بغداد في بعض المقاهى الواقعة حول ساحة الميدان او قريبا منها • ومما يجدر ذكره أن ساحة الميدان كانت في ذلك الحين بمثابة منتزه عام لاهل بغداد ، فقد غرست فيها في عام ١٨٨٩ حديقة عامـــة وبني فـــي وسطها حوض يحتوي على نافورة تقذف الماء ،وصار بعض الناس يقصدونها عصر كل يوم للتمشي فيها والتنزه •

كان في الجانب الغربي من ساحة الميدان مقهى يعرف باسم صاحبـــه سبع ، وكان سبع هذا كما وصفه عبدالكريم العلاف في كتابه « بغـــداد القديمة » : دمث الاخلاق طيب السريرة يعرف المعوزين من رواد مقهاه فلا يطالبهم بأجور المقهى[٤٢] • ويعتبر هذا الرجـــل أول مؤسس للملاهي في العراق •

---

(٤٢) عبد الكريم العلاف (المصدر السابق) ــ ص ٥٨ •

كان سبع في أول أمره قد جعل في مقهاه جوقاً موسيقيا محليا من من النوع الذي يسمى بـ « الجالغي البغدادي » وله مغنيان يتناوبان على قراءة المقامات البغدادية ، ثم طور سبع مقهاه فاستحضر له غلماناً يرتدون الملابس النسائية ليرقصوا فيه • وفي عام ١٩٠٧ اشتهر المقهى لوجـود غلام وسيم جدا يرقص فيه ، وكان هذا الغلام اسمه نعيم وهو مسيحي من حلب ، وقد افتتن البغداديون به افتتاناً عجيباً • وفي احدى الليالي بينما كان الغلام يرقص في المقهى أطلق عليه أحد عشاقه الرصاص فسـقط على الارض مضرجا بدمائه ، فنقل الى مستشفى الغرباء حيث مات ، وكان سبب قتله ان العاشق طلب منه الوصال فأبى هو ذلك[٤٣] • وقـد رثاه الرصافي بقصيدة مفعمة بالاسى والحزن ، والمظنون أنه كـان من عشاق الغـــلام •

وعندما أعلن الدستور فى عام ١٩٠٨ ، واطلقت الحرية للناس ، تقدم سبع بمقهاه نحو اللهو خطوة أخرى ، اذ استورد له من حلب راقصـة حسناء اسمها « رحلو » ، وصارت هذه الحسناء ترقص عصر كل يوم في المقهى فتخلب بغنجها الابصار وتسبي القلوب !

عرفت رحلو كيف تصطاد الزبائن ، اذ هي لا تكاد تغمز بعينهـا لأحد منهم حتى يفقد أعصابه ويبذل لها كل ما في جيبه من مال ، وربمـا اضطر في اليوم التالي الى بيع داره او أثاث بيته لكي ينال منهـا غمـزة اخرى • وجنت رحلو من ذلك ، كما جنى سبع من ورائها ، مالاً كثيرا •

ان نجاح سبع في مقهاه ـ او ملهاه ـ شجع الغير على الاقتداء به ، وكان أول من فعل ذلك حسن صفو صاحب المقهى المعروف بـ « قهـوة الشط » التي تقع على النهر في محلة المصبغة قريبا من شارع البنـوك الحالي ، فقد أتى بمغنية كان لها صيت عريض يومذاك هي «طيرة المصرية» • وكانت هذه المغنية قد وفدت من مصر على الشيخ خزعل أمـير المحمرة فغنت له أغنية سيد درويش « زوروني بالسنة مرة » ، ثم جاءت من هناك الى بغداد ، وصارت تغني في « قهوة الشط » ، فكسفت رحلو بروعـة

---

(٤٣) المصدر السابق ـ ص ١٢١ ـ ١٢٢ •

غنائها . وصفت جريدة الرقيب البغدادية تهافت الناس على «قهوة الشط» فقالت في عددها الصادر في ١٤ تشرين الاول ١٩٠٩ : « ... أما المراقص وتحشد الناس فيها وتهافتهم عليها فحدث ولا حرج ، حتى أن أوسع محل منها وهو (قهوة الشط) الذي يسع ما ينوف على ٧٠٠ شخص لم يزل بعض الناس يدفع رسم الدخولية ثم يعود على الفور لعدم وجود محل يجلس فيه ... »[٤٤] .

واشتهر آنذاك عزاوي صاحب المقهى المعروف باسمه وكان محل مقهاه في السوق المسقوف المتفرع من ساحة الميدان ، وما زال المحل باقيا وقد اتخذ معرضا لبيع « الموبيليا » والاثاث . وكان عزاوي في أول أمره قد جعل في مقهاه شيئا شبيها بخيال الظل يدعى « قره قوز » بادارة رجل اسمه راشد افندي ، ثم طور مقهاه أخيرا فاستورد له الراقصات على منوال ما فعل سبع والآخرون .

شاع في بلاد الشام وتركيا ومصر أن الراقصة التي تذهب الى العراق تجني ذهبا ، فأخذت الراقصات يفدن الى بغداد بتهافت عجيب ، وأصبحت المقاهي الواقعة في الميدان والسوق المتفرع منه موئلاً لتلك الراقصات يبذلن فيه أفانين الغنج لخداع الزبائن ونهبهم . وقد نظم الرصافي قصيدة يشكو فيها من انهماك الناس في الملاهي .

وفي عام ١٩١٣ قررت بلدية بغداد ان تبني مسرحا حديثا للرقص والغناء ترفيها لاهل بغداد ، فأقامته خارج بغداد في الموضع الذي بنيت عليه بعدئذ المحطة القديمة لقطار كركوك بالقرب من كلية الآداب حاليا ، وقد عملت فيه المغنية بديعة لاطي واختها خانم لاطي . واستمر هذا الملهى حتى قيام الحرب العالمية الاولى ، فتوقف عند ذاك عن العمل وأغلق أبوابه[٤٥] .

تقلصت الملاهي في بغداد خلال الحرب في فترة ما قبل الاحتلال

---

(٤٤) خالد محسن اسماعيل (قلم وزير) ـ بغداد ١٩٧٠ ـ ص ٧٥ .
(٤٥) عبد الكريم العلاف (قيان بغداد) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ١٩٦

البريطاني ، ولم يبق فيها سوى ملهى عزاوي الواقع في السوق المسقوف. حدثني محمود حلمي الكتبي عن وضع هذا الملهى، وكان من رواده في تلك الايام ، فقال : ان عزاوي كان يجلس عند مدخل الملهى على كرسي من جريد على منوال ما يجلس أصحاب المقاهي ، وقد وضع أمامه على طاولة صغيرة صحناً من نحاس لجمع النقود . وكانت اجرة الدخول « قران » وهو يعادل أربعة قروش او عشرين فلسا ، ولكنه كان يومذاك ذا قوة شرائية كبيرة .

يجب ان لا يفوتنا في هذا الصدد ذكر السينما ، فان أول دار لها افتتحت في عام ١٩٠٩ في الميدان وكان تهافت الناس عليها شديدا . وقد أشارت الرقيب في حينه الى أن الكثير من الفقراء صاروا ينفقون معظم دخلهم عليها(٤٦) .

المسرحية :

أول من أهتم بالمسرحيات والتمثيل في العراق هم القساوسه النصارى ، وكان غرضهم من ذلك وعظياً حيث ارادوا به تقوية العقيدة في قلوب اتباعهم وتنويرهم بالتعاليم المسيحية ، وكانت مواضيع مسرحياتهم في أول أمرها مستمدة من التوراة والانجيل .

يقول الدكتور عمر الطالب : ان تاريخ ظهور أول مسرحية عراقية هو عام ١٨٨٠ ، ففي ذلك العام ظهر كتاب مطبوع في لبنان بقلم قس موصلي اسمه الاب حنا حبش وهو يحتوي على مسرحيات ثلاث هي : كوميدية آدم وحواء ، وكوميدية يوسف الحسن ، وكوميدية طوبيا . وكان المقصود من هذه المسرحيات أن تمثل في المدارس المسيحية في الموصل . وفي عام ١٨٨٨ مثلت المدرسة الاكليركية في الموصل مسرحية « نبوخذ نصر » ، وكان مؤلفها الخوري هرمز نورسو الكلداني المارديني ، وهي مطبوعة في لبنان أيضا من قبل الكنيسة الكلدانية(٤٧) .

---

(٤٦) عبدالله الفياض (المصدر السابق) — ص ٣٦ — ٣٧ .

(٤٧) عمر الطالب (المسرحية العربية في العراق) — النجف ١٩٧١ — ج٢ ص ٦ — ٧ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ .

وفي عام ١٨٩٣ ظهرت مسرحية مترجمة عن الفرنسية باسم « لطيف وخوشابا » بقلم نعوم فتح‌الله سحار ، وهي مطبوعة في دير الآباء الدومنكيين . وتعد هذه المسرحية رائدة الفن المسرحي فى العراق ، ولها اهميتها التاريخية فى توضيح جذور الادب المسرحي فيه . وقد مثلت على مسرح مدرسة الآباء الدومنكيين في الموصل . وفي ١٨٩٥ ترجم نعوم عن الفرنسية مسرحية أخرى باسم « الامير الاسير » ، ومثلت في المدرسة نفسها(٤٨) .

وتوالت من بعد ذلك ترجمة المسرحيات وتمثيلها فى المدارس المسيحية فى الموصل ، ثم انتقل أثر ذلك الى بغداد لا سيما بعد اعلان الدستور العثماني . ففي عام ١٩٠٨ مثلت مدرسة السريان الكاثوليك ببغداد مسرحية « شهيد الدستوز مدحت باشا » وهي مترجمة عن التركية، وفى العام نفسه مثلت المدرسة الكلدانية مسرحية « سلسترا » ، وهي مترجمة عن التركية أيضا من تأليف الشاعر التركي المعروف نامق كمال.

واشتد النشاط المسرحي في بغداد خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، غير أنه ظل محصورا فى المدارس المسيحية، ولم يبدأ المسلمون فيه آلا بعد الحرب .

وهنا يجب ان لا ننسى ما كان للشيعة من اهتمام فى التمثيل فى شهر محرم ، ولا سيما فى اليوم العاشر منه ، فقد كانوا يمثلون واقعة الحسين وهم على ظهور الخيل فى بعض الساحات الواسعة أو صحون المراقد المقدسة . وقد جاء ذلك الى العراق من ايران فى أواخر القرن التاسع عشر. وهو فى الواقع ليس تمثيلا بالمعنى الحديث ، بل هو نوع من المشاهد الدينية التي يقصد بها اثارة الحزن والبكاء فى المتفرجين .

وكان لدى المسلمين في سنوات ما قبل الحرب طراز آخر من التمثيل غير الفني وهو التمثيل الهزلي الذي كان العامة يسمونه « أخباري » . يقول عبدالكريم العلاف : انه كان يشاهد ليلاً في قهوة التبانة في محلة

---

(٤٨) المصدر السابق ـ ص ٦ ـ ٧ ، ٢٦ .

الفضل رجلا هزلياً يدعى « ابن الحجامة » ومعه زميل اسمه « منصور » وهما يقومان بتمثيل فصول مضحكة على جمهور من المتفرجين [٤٩] .

والواقع أن فصل « الاخباري » صار لازماً في جميع المراقص البغدادية حيث تخصص فيه بعض الافراد وهم يقومون به على نمط تهريجي بعد انتهاء فترة الغناء والرقص . وقد اشتهر في أداء هذا الفصل خلال الحرب الاولى وبعدها رجل كاظمي من أصل ايراني اسمه جعفر القزويني وكان هو يلقب نفسه « جعفر آغا لقلق زاده » . وكان هذا الرجل ذا موهبة هزلية نادرة ولكنه عاش في غير زمانه فضاعت موهبته . وقد أدركه كاتب هذه السطور وشاهد بعض فصوله فأعجب به .

الفونوغراف :

في أوائل القرن العشرين وصل الى بغداد اختراع مذهل صار حديث الناس زمنا طويلا هو الفونوغراف ، وقد أطلقوا عليه اسم « الصندوق الذي يغني » .

يحدثنا كامل الجادرجي عن بداية مجيء الفونوغراف الى بغداد وكان يومذاك صبياً ، وكان خاله مدحت الدفتري قد اقتنى هذا الجهاز ، فقال عن خاله : « كان وحده من أفراد الاسرة يملك جهاز الفونوغراف الذي كان جديدا ونادرا جدا في بغداد . وقد كانت لديه اسطوانات يعتز بها كل الاعتزاز ، والاسطوانات في ذلك الوقت كانت مصنوعة من شمع خاص ، وكان عمل الفونوغراف آنذاك مزدوجاً ، فهو يسجل الصوت ويذيعه . وأذكر أن خالي ذات يوم طلب الي أن أتكلم ما أريد أمام مكبرة الصوت في فونوغرافه فارتبكت ولم أعرف ما أصنع . قال لي : غن أو قل ما تريد فهو يسجل صوتك بالحرف ، واني لأذكر جيدا أني قلت هذه العبارة (جتي جاموسة) وبعد لحظة سمعت الآلة تردد صوتي كما هو بالضبط فتملكني العجب الشديد . لا أذكر متى كان ذلك بالضبط ولكن الذي أذكره ان هذا الحادث وقع قبل وفاة خالي بمدة لا أحسبها قصيرة — وان كان قياس الزمن

---

(٤٩) عبد الكريم العلاف (بغداد القديمة) — ص ٦٤

بالنسبة للطفل يختلف عما هو عليه بالنسبة للرجل ــ فاذا فرضنا ان هــذه الحادثة وقعت حوالي ١٩٠٤ فيكون خالي قد استعمل الفرنوغراف في بغداد بعد شيوعه بمدة قصيرة جدا .. »(٥٠)

كانت اسطوانة الفونوغراف في تلك الايـام تختلف فـي شكلها عـن الاسطوانة في أيامنا ، اذ هي كانت اسطوانية الشكـل ــ أي على شـكل انبوب واسع قصير ــ ومن هنا جاء اسمها الذي ظل لاصقاً بها حتـى الآن على الرغم من تحولها أخيراً الى شكل قرص . وكان في جهـاز الفونوغراف ابرتان احداهما لتسجيل الصوت وهي مدببة الرأس ، والاخـرى لسمـاع الصوت وهي بيضوية الرأس . فاذا نصبت أبرة التسجيل على الاسـطوانة وهي تدور خرج منها شيء يشـبه النشارة البيضاء . وفـي الجهـاز شيء كالسكين في مقدوره مسح التسجيل اذا نصب على الاسطوانة أثناء دورانها .

اختص ببيع الفونوغراف تاجر يهودي في خان الباشا الصغير ، أمـا تصليحه فقد اختص به ساعاتي كاظمي كان له دكان في سوق السراي . وكان ثمن الجهاز الواحد خمساً وعشـرين ليرة ذهبية وهو مبلغ ضخـم بالنسبة لمستوى الاسعار يومذاك ، ولذا لم يتمكن من اقتنـاء الفونوغراف الا بعض الشبان من أبناء الاسر الثرية .

صار الذين اقتنوا الفونوغراف يسجلون فيه الاغاني الشائعة ، ومنهـم من سجل فيه التراتيل الدينية والتعازي الحسينية . وقد ملأ المغني المعروف أحمد زيدان المتوفى في عام ١٩١٢ عدة اسطوانات بالمقامات البغدادية التـي كان يتقنها (٥١) ، وأخذ بعض أصحاب المقاهي يستعملون تلك الاسطوانات في مقاهيهم لجذب الزبائـن .

وأثير في ذلك الحين سؤال شرعي : هل الفونوغراف حلال أم حـرام ؟ فالمتزمتون من رجال الدين أفتوا بحرمته على نحـو ما أفتوا بحرمة جميـع الامور المستوردة من بلاد الافرنج لانهـا كلها في نظرهم تؤدي الى هـدم

---

(٥٠) كامل الجادرجي (من أوراق كامل الجادرجي) ــ بـيروت ١٩٧١ ــ ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(٥١) جلال الحنفي (المغنون البغداديون) ــ بغداد ١٩٦٤ ــ ص ٣٨ ــ ٣٩

الدين وافساد الاخلاق • أما المتحررون من رجال الدين فكانت فتواهم أن الفونوغراف اذا استعمل للاغاني فهو حرام ، واذا استعمل للقرآن والتراتيل الدينية فهو حلال •

حل محل الفونوغراف قبيل الحرب جهاز من طراز جديد يسمى « الغرامفون » ، وهو يستعمل الاقراص بدلا من الاسطوانات وليس فيه مقدرة على تسجيل الصوت بل تأتي الاقراص من الخارج وهي مشحونة بالاغاني • وكان رخيص الثمن سهل التشغيل فشاع استعماله في البيوت والمقاهي • وظهرت عند ذلك شركة تسجيل الاسطوانات ، وقد طلبت الشركة من المغني أحمد زيدان السفر الى الشام ليسجل هناك جملة من المقامات البغدادية ، فطلب المغني أجراً قدره خمسمائة ليرة ذهبية ويقال ان الشركة وافقت على ذلك غير أنه لم يشأ السفر الى الشام (٥٢) •

المدرسة :

رأينا المسيحيين أول من اهتم بتأسيس المطابع وأنشأوا المجلات والمسرحيات في العراق ، ويجب أن نذكر هنا أنهم كذلك أول من اهتم بفتح المدارس الحديثة فيه • وهذا أمر لا داعي للاستغراب منه ، فالمسيحيون العراقيون اتصلوا بالحضارة الاوربية وتأثروا بها قبل المسلمين بزمن غير قصير ، ولهذا نجدهم قد سبقوا المسلمين في تبني الكثير من نظم الحضارة وأفكارها •

اولى المدارس الحديثة في العراق هي تلك التي فتحت على يد الآباء الدومنكيين في الموصل ، ولم تقتصر هذه المدرسة على تعليم أبناء الطائفة المسيحية فقط بل دخلها أيضاً عدد كبير من أبناء المسلمين • والظاهر أن ذلك حفز الحكومة المحلية على فتح مدرسة « أميرية » في الموصل ، وقد تم فتحها في عام ١٨٦١ بسعي من الحاج فهمي أفندي العمري (٥٣) فكانت أول مدرسة حكومية في العراق •

---

(٥٢) المصدر السابق – ص ٤٠
(٥٣) سليمان صائغ الموصلي (تاريخ الموصل) – القاهرة ١٩٢٣ – ج١ ص ٣٢٣ •

وقد عمل الآباء الكرمليون في بغداد على فتح المدارس الحديثة على نحو ما فعل زملاؤهم الدمنكيون في الموصل • وفي عام ١٨٦٥ فتح اليهود أول مدرسة لهم في بغداد وهي مدرسة « الاليانس » التي كانت تحت اشراف الاتحاد الاسرائيلي الفرنسي •

وحين جاء مدحت باشا الى بغداد والياً في عام ١٨٦٩ فتح فيها ثلاث مدارس هي : مدرسة الصنائع للايتام ، والرشدية الملكية ، والرشدية العسكرية • وكانت المدرسة الرشدية في ذلك العهد تقرب من مستوى المتوسطة غير أنها كانت تقبل التلاميذ الذين تعلموا في الكتاتيب •

وأخذت المدارس الحكومية تتكاثر وتتنوع من بعد مدحت باشا حتى بلغ عددها في أواخر العهد العثماني رقماً لا يستهان به ، ولكن مستوى التدريس فيها كان منحطا الى حد بعيد • فقد كانت المدرسة ذات الصفوف الاربعة لا تضم في بعض الاحيان سوى معلم واحد ، وكان الكثير من المعلمين جهلة وبعضهم من أولى الاخلاق الرديئة (٥٤) • وكان التدريس يجري باللغة التركية، وكثيراً ما كان التلاميذ يتغيبون فلا يحضرون المدرسة الا عندما يأتي زائر أو مفتش، وقد تعجز دائرة المعارف أحيانا عن دفع مرتبات المعلمين شهورا متتابعة•

وعلى العكس من المدارس الحكومية كانت المدارس الاهلية ــ المسيحية واليهودية ــ اذ هي كانت منتظمة الى درجة لا بأس بها • وهي لم تكن تتميز عن المدارس الحكومية بانتظامها فقط بل كانت تتميز عنها ايضاً من حيث طابع التعليم فيها ، اذ هي كانت تحرص على أن يتعلم تلاميذها مهنة حرة تنفعهم في الحياة العملية كاتقان اللغات الاوربية وفن المراسلة والمحاسبة ومسك الدفاتر ومباديء القانون والطب والهندسة وما أشبه •

أما تلاميذ المدارس الحكومية فلم يكن طموحهم موجهاً نحو تعلم المهن الحرة • انهم كانوا من أبناء الموظفين في الغالب وهم يرغبون أن يكونوا في المستقبل موظفين كآبائهم ، ولم تكن الوظيفة يومذاك في حاجة الى معرفة علمية دقيقة ، وقد يكفي فيها أن يعرف صاحبها اللغة التركية ويتقن الكتابة

---

(٥٤) فيليب ويلارد آيرلند (العراق) ــ ترجمة جعفر خياط ــ بيروت ١٩٤٩ ــ ص ٨٨ •

فيها ثم يتعالى على العامة بما يتحذلق به من مصطلحات وعبارات محفوظة .

كانت المدارس الحكومية على نوعين عسكرية وملكية أي مدنية ، والواقع أن الدولة العثمانية كانت تهتم بالمدارس العسكرية أكثر من اهتمامها بالمدارس المدنية ، فهي كانت تدرك أن الضابط الجاهل أشد ضرراً بالدولة من الموظف الجاهل ، انه قد يسبب هزيمة جيش أو فقدان بلد ينتج الضرائب أما الموظف الجاهل فهو قد لا يضر الدولة كثيرا ما دامت القوة العسكرية لديها سليمة . يقول ساطع الحصري : ان الدولة العثمانية كانت « دولة عسكرية بكل معنى الكلمة . فشؤون الجيش فيها كانت بمثابة المحور الاساسي لجميع شؤونها . وفساد أمورها بدأ بفساد جيشها . فكان من الطبيعي أن يبدأ اصلاح أمورها أيضا باصلاح جيشها » . (٥٥)

أنشأت الدولة العثمانية مدارس عسكرية ، رشدية واعدادية ، في الولايات التي كانت فيها مراكز للجيوش العثمانية وهي التي كانت تسمى آنذاك بمراكز « الاوردي » . وقد جعلت تلك المدارس داخلية يعيش فيها التلاميذ على حساب الحكومة ، وتعهدت الحكومة بتسفير المتخرجين منهم كل عام الى اسطنبول وبادخالهم في المعاهد العسكرية العالية هناك .

كان نصيب ولاية بغداد من المدارس العسكرية اكبر من نصيب معظم الولايات العثمانية الاخرى ، ولعل ذلك من جراء ضخامة « الاوردي » الموجود فيها وأهميته . وفي عام ١٨٨١ تخرجت في بغداد الدفعة الاولى من تلاميذ الاعدادية العسكرية ، وكان عددهم ثلاثة عشر ، فنقلوا الى اسطنبول عن طريق دير الزور وحلب ، وأدخلوا في « مكتب الحربية » . (٥٦)

ان نقل التلاميذ الى اسطنبول وادخالهم في المعاهد العالية على حساب الحكومة جعل الكثير من الشبان يرغبون في المدارس العسكرية ، لا سيما الفقراء منهم . يحدثنا سليمان فيضي الموصلي أنه عندما أتم في عام ١٨٩٩ السنة الرابعة من المدرسة الاعدادية الملكية قال أحد أقرانه : « لماذا لا نذهب الى بغداد لننخرط في المدرسة العسكرية ؟ » فسرى الهمس بينهم

---

(٥٥) ساطع الحصري (البلاد العربية والدولة العثمانية) – بيروت ١٩٦٠ – ص ٧٣ .

(٥٦) عباس العزاوي (المصدر السابق – ج٨ ص ٦٥ .

في هذا الامر مسرى النار في الهشيم اذ كان كل واحد منهم يحلم « بملابس الضباط الانيقة وبسيوفهم الذهبية وبتلك الانجم اللامعة والازرار المذهبة التي تخطف الابصار » . وقرر عشرة منهم الرحيل الى بغداد للدخول في الاعدادية العسكرية كان منهم علي جودت ومولود مخلص ، وتم لهم ما أرادوا .(٥٧)

يبدو أن الموسرين والاعيان في العراق كانوا يستنكفون أن يدخلوا أبناءهم في المدارس العسكرية الداخلية ، فهم كانوا يفضلون ادخالهم في المدارس الملكية ثم يرسلونهم بعد التخرج الى اسطنبول ليدخلوا على حسابهم معاهد الطب أو الحقوق أو دار المعلمين أو ما أشبه . ولكن هؤلاء كانوا قليلين بالمقارنة الى الذين كانوا يدخلون المدارس العسكرية من ابناء الطبقة التي هي دونهم . يقول ساطع الحصري : « وهذا هو السبب في أن الحكومة العراقية ــ في بدء تكوينها ــ لم تجد بين أبنائها الا عدداً قليلا جداً من خريجي المدارس العالية ، في حين أنها وجدت عدداً كبيراً من خريجي المدرسة الحربية ، ومن يستعرض أسماء رؤساء الوزارات الذين تولوا الحكم ــ بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤١ ــ يجد أن معظمهم كانوا ممن درسوا في المدارس العسكرية » .(٥٨)

المدرسة عند الشيعة :

عندما فتحت المدارس الحديثة في العهد الحميدي لم يدخل الشيعة أبناءهم فيها ، وكان لذلك سببان : أحدهما يعود الى الدولة والآخر يعود الى الشيعة أنفسهم . فقد كانت الدولة لا تحبذ دخول الشيعة الى المدارس لكي لا يطمحوا من بعد ذلك الى الوظائف الحكومية ، وكان الشيعة من جانبهم يحرمون المدارس ويعدونها مفسدة للدين والاخلاق .

كتب كامل الجادرجي في مذكراته يقول : « كانت الطائفة الشيعية تعد في زمن السلطان عبد الحميد ــ وبالحقيقة في زمن الدولة العثمانية ــ أقلية تنظر اليها الدولة بعين العداء ، فلم تفسح لها مجالات التقدم في أية ناحية

---

(٥٧) سليمان فيضي (غمرة النضال) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٤ ــ ١٥ .
(٥٨) ساطع الحصري (المصدر السابق) ــ ص ٨٦ .

من نواحي الحياة • ومن الامثلة البارزة لذلك أنها كانت لا يقبل لها تلميذ في المدرسة الحربية ، ولا يقبل منها فرد في وظائف الدولة الا ما نـدر وعند الضرورة القصوى • وحتى في مدارس الدولة الاعدادية القليلة كانت توضع العراقيل في طريق دخول أبناء هذه الطائفة فيها فأدى ذلك كله بطبيعة الحال الى انعزالها وسلوكها مسلك الاعمال الحرة كالتجارة والصناعة والزراعة وما الى ذلك من أعمال لا علاقة لها بالحكومة ، لان الدولة كانت لا تعتبر هذه الطائفة جزءاً منها ، كما كانت الطائفة لا تعتبر نفسها جزءا من الدولة • فكان العداء يستحكم يوماً بعد يوم بينها وبين الدولة ••• » • (٥٩)

وعندما أعلن الدستور العثماني في عام ١٩٠٨ حصل شيء من التغير في نظرة الدولة نحو الشيعة وأخذت الحكومة في بعض المدن الشيعية تقسر الصبيان على دخول المدارس قسراً • يحدثنا الشيخ يوسف كركوش الحلي عما جرى في عهد الدستور ، وكان هو يومذاك صبياً يتعلم في أحد الكتاتيب المحلية ، فقال : « ••• ولكن الجمهور كان يعيش في العقلية السابقة فكان ينظر الى المدارس نظرة فيها شيء من الاستهجان ، ونحن الناشئة كنا متأثرين بما كنا نسمعه من الجمهور من الاحاديث عن المدارس الحديثة • اني كنت في الكتاب أتعلم القراءة والكتابة ، فعزمت الحكومة المحلية في الحلة أن تكبس الكتاتيب وتسوق طلابها الى مدارسها ، وقامت ثلة من الجندرمة لهذا الغرض فجاء الخبر الينا ونحن في الكتاب ، فذعرنا ولم نقدر على الخروج من باب الكتاب مخافة أن تقبض علينا الجندرمة ويسوقونا الى المدرسة الحديثة ، فتسلقنا سطح الكتاب وقفزنا الى السطوح المجاورة جهلا منا بفائدة المدرسة الحديثة ، بل كنا نتصور أنها خطر على الاخلاق والعقيدة لما وقر في نفوسنا من كلام الجمهور • ان خمول أربعة قرون الذي ران على نفسية الجماهير لا يزول بسرعة » • (٦٠)

ان أول من فكر من الشيعة في فتح مدارس خاصة بهم في العهد الحميدي هو الحاج سلمان أبو التمن من تجار بغداد المعروفين ، وكان لهذا

---

(٥٩) كامل الجادرجي (المصدر السابق) ـ ص ٨٦ •
(٦٠) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ •

قصة طريفة خلاصتها : أن هذا الرجل كان قد استورد من روسيا نوعاً جميلاً متقناً من « السماور » الذي يستخدم لصنع الشاي ، وقد لقي هذا السماور رواجاً كبيراً مما دعا الحاج سلمان الى آستيراد كمية أخرى منه . وكان للحاج كاتب يهودي فأخفى هذا الكاتب الطلب وتآمر مع أحد التجار اليهود على استيراد السماور لنفسه مما أدى الى خسارة الحاج سلمان . ان هذه الحادثة نبهت الحاج سلمان وغيره من تجار الشيعة الى ضرورة فتح المدارس الخاصة بهم لتخريج كتاب منهم بدلاً من الاستعانة بالكتاب اليهود .

يروي علي البازركان وكان صديقاً للحاج سلمان : انه عندما حادثه في ضرورة فتح مدارس شيعية أجابه الحاج : « اسكت يا علي لئلا يسمعك الناس فيعتبرونك من الكفرة الفجرة » . وصادف عند اعلان الدستور أن جاء الى الكاظمية السيد محمد سعيد الحبوبي ، وهو من علماء النجف المتحررين، فذهب لزيارته الحاج سلمان وبصحبته علي البازركان وطلبا منه الفتوى في أمر المدارس الحديثة هل هي حلال أم حرام . فكان جواب الحبوبي : أنها ضرورية للشيعة فضلا عن كونها حلالا . ثم تبنى الحبوبي الفكرة وذهب الى بغداد فنزل في ضيافة الحاج داود والد الحاج سلمان أبو التمن ، وهناك دعا اليه وجهاء الشيعة وأخذ يحرضهم على ضرورة فتح المدرسة وجاء لهم بالادلة العقلية والنقلية في الرد على من يقول بتحريمها .

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ اجتمع لفيف من وجهاء الشيعة وكتبوا عريضة الى الوالي يطلبون فيها الاجازة بفتح مدرسة جعفرية ، وتعهد علي البازركان بتقديم العريضة الى الوالي وباقناعه بالموافقة عليها . وقد ذهب البازركان بالعريضة الى القشلة فقابل الوالي واستطاع ان يقنعه بمنح الاجازة بعد محاورة قصيرة معه ، وتم بذلك تأسيس أول مدرسة حديثة للشيعة في العراق باسم « مكتب الترقي الجعفري العثماني » . [٦١]

وفي ٥ نيسان من عام ١٩٠٩ نشرت جريدة الرقيب بياناً موقعاً من جعفر أبو التمن الذي كان يومذاك يتولى وظيفة أمين صندوق المدرسة الجعفرية ، وكان عنوان البيان « جواب الاستفتاء من الجعفريين » وهذا هو نصه :

---

(٦١) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٤٥ ـ ٥٠ .

« جواز دخول أولاد الجعفرية الى المكاتب لتعلم العلوم والمعارف والكمالات واللغات المختلفة التي تمس الحاجة الى تعلمها وتقضي الضرورة بعدم جهلها مع التحفظ على القواعد الاسلامية وعقائدهم مما لا ينكر ولا قائل بعدمه ، ولذا أن أساطين العلماء الاعلام المجتهدين في النجف وكربلاء دفعاً للشبهة الواقعة في أذهان الجهلة قد كتبوا لعموم الجعفرية يحثونهم ويشوقونهم الى تأسيس وتشييد مكاتب كهذه حاوية للشروط المتقدمة وذكروا أن ذلك من أفضل الاعمال الخيرية » .[٦٢]

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن دعاة المشروطية في النجف كانوا من أوائل من دعا الى فتح المدارس الحديثة بين الشيعة ، واستطاعوا بعد اعلان الدستور العثماني أن يفتحوا في النجف مدرستين أهليتين هما المدرسة العلوية والمدرسة المرتضوية . وقد ساعدهم على ذلك الملا كاظم الخراساني واثنان او ثلاثة من المجتهدين أمثاله ، وبلغ من تأييد الخراساني لهم ان أجاز انفاق الحقوق الشرعية على المدارس التي فتحوها . وقد اقتدى بهم بعض وجهاء الكاظمية كالحاج علي أكبر الاهرابي والسيد عيسى المشاط فسعوا الى فتح مدرسة أهلية فيها . وكذلك فعل بعض وجهاء الحلة فجمعوا مبلغاً من المال وأودعوه عند الحاج مصطفى الشهربانلي غير أن نشوب الحرب حالت دون فتح المدرسة ، ولما انتهت الحرب أنفق الحاج مصطفى المبلغ المودع عنده على تعمير مقام الامام علي في الحلة بعد أن حصل على اذن من أحد المجتهدين[٦٣] .

تمت الفصول

ويليهـا ملحقان

---

(٦٢) عبدالله الفياض (المصدر السابق) — ص ٨٨ .

(٦٣) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج١ ص ١٦٠ .

الملحق الاول

السيد جمال الدين الافغاني

ان سيرة الافغاني تلقي ضوءا على طبيعة المرحلة الاجتماعية التى كانت اقطار الشرق الاوسط تمر بها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر • أضف الى ذلك أن الافغاني كانت له صلة لا يستهان بها ببعض أحداث العراق لا سيما قضية سامراء ، ولهذا وجدت من الضروري دراسة هذا الرجل وكشف بعض النواحي الغامضة من حياته ــ تلك النواحي التى تتصل بالعراق على وجه من الوجوه •

والملاحظ بوجه عام أن الافغانى يعد من رجال التاريخ الذين يكتنفهم الغموض ، فتفاصيل نشأته وكثير من أعماله وجولاته لا تزال تحتوي على بعض الاسرار • ومما يزيد فى غموض الافغاني أن معظم الذين كتبوا فى سيرته اتخذوا الاسلوب الخطابي ، فهم في كتاباتهم يصورونه كأنه مخلوق من طينة تختلف عن طينة البشر اذ هو في رأيهم رجل مثالى لا تهمه مصلحته الخاصة وليس له في الدنيا من هدف سوى ايقاظ الشعوب ومقاومة الطغاة • ولا حاجة بنا الى القول ان هذا أسلوب ذهب زمانه ولم يعد يلائم المنهج العلمي الحديث •

ينبغي أن نعترف قبل كل شيء أن الافغاني بشر كسائر الناس ، يخطىء ويصيب ، وقد يميل الى الشهوات ، وتغريه الدنيا بمغرياتها • ومن الواجب علينا أذن ان نسير بدراسة الافغاني في هذا الضوء ، وبذلك نأمل أن تنكشف لنا بعض الاسرار التى تحيط به •

هل هو ايراني :

من اهم الاسرار التي تحيط بحياة الافغاني هو فيما يتصل بأصله ومسقط رأسه ، فقد انقسم المؤرخون في ذلك الى فريقين : أحدهما يذهب الى القول بأن الافغاني ليس أفغانيا بل هو ايراني وأنه ولد في قرية أسدآباد

التي هي من قرى همدان . أما الفريق الثاني فيقول عنه انه أفغاني حقاً وقد ولد في قرية اسعد آباد التي هي من قرى بلدة كنر القريبة من كابل .

اني بعد الدراسة التي قمت بها في هذا الموضوع أميل الى الرأي الاول أي أن الافغاني كان ايرانياً ولم يكن أفغانياً . وقد دفعني الى هذا الرأي قرائن شتى أذكر أهمها فيما يلي :

أولاً : هناك في قرية أسد آباد الايرانية أشخاص كثيرون يدعون أنهم أقرباء السيد جمال الدين ، وتعرف هذه القرية عند أهل القرى المجاورة بـ « قرية السيد جمال الدين » ، ولا تزال الغرفة التي ولد فيها الافغاني باقية على حالها حتى الآن[1] . وأعرف صديقاً كان قد زار قرية أسد آباد قبيل الحرب العالمية الثانية واجتمع بأخت الافغاني فيها . ويعيش في النجف اليوم رجل دين مسن اسمه السيد حسين الحسيني الهمداني وهو يدعي أنه حفيد عم الافغاني ، وقد زرته في أيلول ١٩٦٩ في الدار التي قيل ان الافغاني كان يسكنها عندما كان طالباً في النجف . وليس هناك ما يدل على أن هؤلاء جميعاً يكذبون .

ثانياً : صدر في برلين عام ١٩٢٦ كتاب بالفارسية في سيرة الافغاني بقلم المرزا لطف‌الله خان ، ويدعي المؤلف أنه ابن اخت الافغاني وأنه اجتمع به في طهران عند ذهاب الافغاني اليها في عام ١٨٨٦ ، ويحتوي الكتاب على صورة فوتوغرافية واضحة تجمع الافغاني والمرزا لطف‌الله خان مع زمرة من رجال الدين الايرانيين ، وقد ترجم الكتاب الى العربية في مصر عام ١٩٥٧ ، ومن يقرأ الكتاب يشعر أنه لابد أن يحتوي على شيء من الحقيقة قليلاً أو كثيراً اذ من المستبعد أن يختلق المؤلف صلته القريبة بالافغاني على هذه الصورة المكشوفة . واذا كان الافغاني أفغانياً حقاً فلماذا لم يظهر أحد من أقربائه الأفغانيين حتى الآن فيكذب المؤلف أو يتحداه على وجه من الوجوه ؟ !

ثالثاً : كان الافغاني قد زار ايران مرتين بدعوة من الشاه كما سنأتي اليه فيما بعد ، وقد ألح الشاه عليه ذات مرة أن يتولى رئاسة الوزارة فأبى . وهنا يذكر الشيخ عبدالقادر المغربي أنه عند حضوره مجلس الافغاني في

---

(١) محسن الامين (جمال الدين الافغاني) — ص ٧ .

اسطنبول سأله حول هذا الموضوع قائلاً : كيف يدعوك الشاه لأن تكون رئيس وزرائه مع أنك من أهل السنة ؟ فكان جواب الافغاني : ان ذلك كان من الشاه هوساً وجنوناً . ويعلق المغربي على هذا الجواب قائلاً : ان ذلك دليل على ان الافغاني لم يكن ايرانياً ولا شيعياً[2] . ولست أدري كيف استنتج المغربي هذا المعنى من جواب الافغاني مع ان الافغاني كان يقصد به التهرب من ذكر الحقيقة كما هو ظاهر من القرينة .

رابعاً : عندما اشتد العداء أخيراً بين الشاه والافغاني أخذ أعوان الشاه يشوهون سمعة الافغاني فأشاعوا عنه أنه « بابي » وأنه « غير مختون » ، ولكنهم لم يشيعوا عنه أنه « سني » أو « أفغاني » وكان من السهل عليهم أن يفعلوا ذلك لو كان الافغاني أفغانياً حقاً . ومما يلفت النظر في هذا الشأن أن خصوم الافغاني في اسطنبول كانوا كثيراً ما يتهمونه بالايرانية والتشيع ، وكان من هؤلاء أبو الهدى الصيادي اذ كان يصف الافغاني بـ « المتأفغن » ويقول عنه انه مازندراني من أجلاف الشيعة[3] .

خامساً : المعروف عن الافغاني أنه كان أثناء تجواله في الاقطار المختلفة يتصل بالايرانيين وقد ينزل في ضيافتهم أحياناً ، فهو عند مروره بقفقاسيا نزل في ضيافة محمد علي خان الكاشاني ، وفي موسكو نزل في ضيافة القنصل الايراني نعمةالله الاصفهاني ، وحينما جاء الى بغداد منفياً نزل في خان عبدالصمد الاصفهاني وهو خان خاص بالايرانيين ، وعند ذهابه الى البصرة كان كثير التردد على السيد توفيق الهمداني يزوره في داره الواقعة على نهر العشار ويأكل عنده « الكليچة » الايرانية .

سادساً : عندما نفي الافغاني من مصر في عام ١٨٧٩ لم يأت لتوديعه في السويس سوى القنصل الايراني أحمد النقاوي ونفر من التجار الايرانيين الساكنين في مصر ، وقدموا له مائة جنيه ليستعين بها في سفره غير أنه رفض قبولها . وهذا أمر يلفت النظر ويثير التساؤل : فما هو السبب الذي جعل

---

(٢) عبد القادر المغربي (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٨٠ ـ ٨١

(٣) محمد رشيد رضا (تاريخ الاستاذ الامام) ـ القاهرة ١٩٣١ ـ ج١ ص٩٠.

اولئك الايرانيين يفعلون ذلك ان لم تكن لهم مع الافغاني رابطة خاصة .

سابعاً : ان والد الافغاني اسمه « صفدر » وهذا الاسم فارسي مركب من كلمتين هما « صف » و « در » ومعناه ممزق الصفوف ، وهو لقب للامام علي لأنه موصوف بالشجاعة في الحرب حيث كان يمزق الصفوف فيها . أضف الى ذلك أن الافغاني كان له في مصر خادم يتقن الفارسية اسمه « عارف أبو تراب » ، وان اسم « أبو تراب » لايوجد في غير ايران ، وهو من الاسماء التي يتسمى بها الايرانيون دون غيرهم[٤] .

ثامناً : كان الافغاني واسع الالمام بالفلسفة الاسلامية كما يظهر من كتاباته أو أحاديثه التي كان يلقيها على تلاميذه ومريديه ، وقد عد ألبرت حوراني ذلك من القرائن التي يمكن أن يستدل بها على ايرانية الافغاني ، فهو يقول عن الافغاني : « ان كتاباته ومحاضراته أظهرت أنه كان على معرفة وثيقة بالتراث الفلسفي الاسلامي ، ولا سيما فلسفة ابن سينا ، وهذه المعرفة كان من السهل الحصول عليها في المدارس الشيعية حيث لايزال تراث ابن سينا حياً فيها أكثر مما في المدارس السنية ... »[٥]

تاسعا : نجد في مقالات « العروة الوثقى » ذكراً لبعض القصص والامثال الشعبية التي يتناقلها الناس في ايران والعراق ، وهي تكاد تكون خاصة بهم ، كقصة هيكل صطخر ، وقصة الزنجي والطفل[٦] . وكذلك نجد في كتابات الشيخ محمد عبده أقوالاً لبعض علماء الشيعة من العهد الصفوي كالمير باقر الداماد[٧] . فهذه الاقوال لا بد أن الشيخ استمدها من استاذه الافغاني ، ولا بد أن الافغاني استمدها من دراسته الشيعية القديمة .

عاشرا : مما اشتهر به الافغاني في مصر أنه كان يحسن الخطابة باللغة العربية الفصحى ، وقد وصفه جرجي زيدان أنه « كان خطيباً مصقعاً لم يقم

---

(٤) لطف الله خان (جمال الدين الاسدآبادي) — ترجمة صادق نشأت وعبد النعيم حسنين — القاهرة ١٩٥٧ — ص ١١ ، ٢٦ .

(5) Albert Hourani (Arabic Thought ...) — Oxford 1962 — P 108

(٦) جمال الدين الافغاني ومحمد عبده (العروة الوثقى) — بيروت ١٩٧٠ — ص ٢٦٢ ، ٢٧٦ .

(٧) مصطفى عبد الرازق (محمد عبده) — القاهرة — ص ٧٠ .

في الشرق أخطب منه » [٨] ، وذكر الدكتور شبلي شميل : « أنه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح والقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس » . [٩] وهنا نود أن نسأل : هل يمكن لرجل نشأ في بلاد الافغان وتلقى دروسه فيها أن تكون له مثل هذه المقدرة الخطابية باللغة العربية ؟! ان هذه المقدرة الخطابية هي في أرجح الظن من جراء دراسة الافغاني في النجف . وقد رأينا في النجف ــ وما زلنا نرى ــ ايرانيين يجيدون التكلم بالفصحى خيراً مما يجيده الكثير من العرب . ويجب أن لا تنسى في هذا الصدد ان الافغاني كان بالرغم من فصاحته العربية تظهر عليه أثناء الحديث لكنة أعجمية واضحة [١٠] ، فهو مثلاً يدخل الألف واللام على بعض الاسماء التي لا يجوز في العربية ادخالها فيها كبغداد وأوربا ، فهو يقول : « البغداد » و « الأوربا » .

تلك هي بعض القرائن التي تؤيد القول بأن الافغاني كان ايرانياً ، وهناك قرائن اخرى سنأتي اليها استطراداً في ثنايا هذا البحث .

نشأة الافغاني :

جاء في رواية المرزا لطف‌الله خان ــ وهي الرواية التي نعتمدها ان الافغاني ولد في قرية أسد آباد في عام ١٢٥٤ هـ ، أي عام ١٨٣٨ م، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره سافر بصحبة والده السيد صفدر الى العراق لزيارة العتبات المقدسة ، ثم استقر في النجف حيث تركه أبوه فيها لمواصلة الدراسة في مدارسها الدينية وعاد هو الى بلاده [١١] .

وتشير القرائن الى أن الافغاني مكث في النجف بضع عشرة سنة ، باستثناء فترة أمدها سنة وبضعة أشهر سافر فيها الى الهند . ومن الجدير بالذكر أن النجف كانت يومذاك في أوج نهضتها العلمية حيث ازدهرت فيها الدراسات الفلسفية والكلامية والاصولية ، وقد عاش الافغاني في هذا

---

(٨) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق) ــ بيروت ــ ج٢ ص ٦٠ .
(٩) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٠١ .
(١٠) المصدر السابق ــ ص ٢٦ ، ٥٥ .
(١١) لطف الله خان (المصدر السابق) ــ ص ٤٩ ــ ٥٤ .

الجو الفكري وتشبع ذهنه به ، والمعروف عن الافغاني أنه كان شديد الذكاء قوي الحافظة ميالاً للجدل والتفلسف . يروى عن السيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان زميلاً للافغاني في الدراسة أنه قال عنه : « لقد كنا ندرس معاً علم التصوف عند الحاج عباس قولي بالنجف ، وكان الافغاني من حسن البيان بحيث يستطيع ، ان أراد ، أن يصور الحق باطلاً والباطل حقاً ».(١٢)

كانت رحلة الافغاني الى الهند في عام ١٨٥٤ ، وقد درس هناك بعض مباديء العلوم الحديثة ، ويقول سليم العنحوري ان الافغاني درس في الهند علم الاديان وتعمق فيه حتى أفضى به ذلك الى الالحاد والقول بقدم العالم (١٣) . ولا ندري مبلغ ما في هذا القول من صحة لا سيما اذا علمنا أن العنحوري اعتذر عنه فيما بعد وأعلن تكذيبه ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستشف من هذا القول أن الافغاني ربما مر أثناء رحلته في الهند بمرحلة من التشكيك على منوال ما حدث للغزالي وغيره من المفكرين العظام .

يبدو ان الافغاني بعد عودته من الهند أحدث شيئاً من الضجة والجدال في النجف وانقسم الناس حوله فكان فريق منهم يؤيده ويأخذ بآرائه ، وآخر يخالفه ويتهمه بالزندقة . وقد أشار الى ذلك المرزا لطف الله خان في كتابه ولكنه ذكر أنه حصل قبل سفر الافغاني الى الهند (١٤) ، وهذا أمر يصعب علينا قبوله لان الافغاني كان حينذاك دون الثامنة عشرة من عمره . ويرجح في ظني أن الضجة حدثت حول الافغاني بعد عودته من الهند وبعد أن درس مباديء العلوم الحديثة و « علم الاديان » .

مغامراته في الافغان :

يخيل لي أن الافغاني سئم الحياة في النجف أخيراً ، ولعله لم يجد فيها ما يشبع طموحه فآثر الخروج الى العالم الواسع ليجرب حظه فيه . ففي أواخر ١٨٦٥ غادر الافغاني النجف متوجهاً الى طهران ، وبعد أن مكث في طهران

---

(١٢) قدري قلعجي (جمال الدين الأفغاني) ـ بيروت ١٩٥٢ ـ ص ٢٤ .
(١٣) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ص ٤٣ .
(١٤) لطف الله خان (المصدر السابق) ـ ص ٥٤ .

ستة أشـــهر غادرها الى خراسان حيث مكث فيها ثلاثة أشهر • ومـــن ثم عبر الحدود نحو بلاد الافغـــان •

كانت افغانستان في تلك الايام تمر بفترة عصيبة من الفوضى والتنازع على الحكم ، وكان التنافس على النفوذ فيها شديدا بين بريطانيا وروسيا ، وكانت ايران تساهم في هذا التنافس اذ كانت تقف الى جانب روسيا ضـــد بريطانيا • وعند وصول الافغاني الى افغانستان كان هناك نزاع عنيف بين أميرين من أمرائها هما شير علي خان الموالي لبريطانيا وأخوه محمد أعظم خان الموالي لايران وروسيا •

تزيا الافغاني بزي سيد من رجال الدين وادعى أنه من أشراف بلـــدة «كنر» • يروى الشيخ آغا بزرك الطهراني في كتابه « طبقات أعلام الشيعة » نقلا عن أحد وزراء الافغان في تلك الفترة ـــ وهو السردار محمـــد خـــان القزلباشي ـــ أنه رأى ذات يوم في مجلس الامير عبدالرحمن خان سيدا من رجال الدين يسمى « السيد جمال الدين » ويزعم أنه من عائلة أفغانيـــة معروفة ، فاستنكر السردار ذلك وقال له متحديا انه يعرف اكثر الاســـر والبيوت المعروفة في الافغان فمن أية اسرة هو ؟! فتمتم السيد وأجـــاب بجواب ملفق مفتعل تظهر عليه الحيلة واللباقة ، ثم انصرف من عند الامير خجلا ولم يعد اليه بعد ذلك • (١٥)

مهما يكن الحال فقد استطاع الافغاني ـــ حسبما ذكر هو عن نفسه ـــ أن يدخل في حاشية الامير محمد أعظم خان ، وهو عم عبدالرحمن خان ، ثم ارتفعت منزلته عند هذا الامير حتى أحله محل الوزير الاول ، وعظمت ثقة الامير به فكان يلجأ لرأيه في عظائم الامور وما دونها • (١٦)

لم يمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى انجلت المعركة عن هزيمة محمد أعظم خان وانتصار خصمه شير علي خان ، فوجد الافغاني نفسه فـــي

---

(١٥) آغا بزرك الطهراني (طبقات اعلام الشيعة) ـ النجف ١٩٥٦ ـ ق ٢ ج١ ص ٦٩٦.

(١٦) محمد المخزومي (خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني) ـ بيـــروت ١٩٦٥ ـ ص ٨ ـ ٩

موقف حرج جداً لا يدري ما يفعل . يقول الافغاني عن نفسه : انه بقي في كابل بعد هزيمة صاحبه محمد أعظم خان ثلاثة أشهر ، ولم يمسسه شير علي خان بسوء احتراما لنسبه الشريف ، ولكنه خشي أن يكيد به شير علي خان . فاستأذن منه للحج فاذن له بذلك على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كي لا يلتقي فيها بمحمد أعظم خان الذي كان قد فر اليها . فارتحل الافغاني الى الهند ، وقد استقبلته حكومة الهند بحفاوة واجلال غير أنها لم تسمح له بطول الاقامة ، فسافر على نفقتها الى السويس ، ومن هناك ذهب الى القاهرة فأقام فيها نحو أربعين يوماً ثم غادرها الى اسطنبول .

الافغاني في اسطنبول :

حين وصل الافغاني الى اسطنبول كان في زي سيد افغاني عليه جبة وكساء وعمامة عجراء ، فاجتذب اليه الانظار ، واستطاع أن يقابل الصدر الاعظم عالي باشا فنال عنده حظوة . وبعد ستة أشهر عينه عالي باشا عضوا في مجلس المعارف الاعلى .

أخذ الافغاني يتعلم اللغة التركية حتى تمكن بعد مدة وجيزة من أن يتكلم بها ويكتب . وفي كانون الاول من ١٨٧٠ ، وكان الشهر رمضان ، أقيمت حفلة في دار الفنون حضرها جمع غفير من الحكام والعلماء والصحافيين، فألقى الافغاني فيها خطاباً تطرق فيه الى ذكر الانبياء والفلاسفة والفرق بينهما، والظاهر أنه استمد رأيه في ذلك من بعض الفلاسفة القدماء كابن رشد وابن سينا ، فأثار عليه بعض رجال الدين الحاضرين لا سيما شيخ الاسلام حسن فهمي افندي وكان هذا يضمر الحقد له . ولم تكد الحفلة تنتهي حتى أخذ شيخ الاسلام يشنع على الافغاني وينسب اليه أنه أهان الانبياء وقال ان النبوة صنعة من الصنائع . وسرعان ما تلاقف خطباء المساجد هذه التهمة وكأنهم وجدوا فيها موضوعاً يهيجون الناس به فأخذوا يصولون ويجولون من على منابرهم في ثلب الافغاني والتنديد به ، وتناولت الجرائد هذه القضية وأكثرت من القول فيها حيث انقسمت الى فريقين : مع الافغاني وعليه .

ذكر الشيخ عبدالقادر المغربي أن أباه الشيخ مصطفى كان في اسطنبول

حينئذ فكتب رسالة في الرد على الافغاني عنوانها : « عين الصواب في الرد على من قال ان الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب » ملأها بالتشنيع على الافغاني ونبزه بالتهمة التي نسبت اليه . ويعتذر الشيخ عبدالقادر عن أبيه فيقول : « وأرجو ألا يكون مؤاخذا لما وقر في نفسه من حسن القصد وسلامة النية » . (١٧)

كان في مقدور الافغاني أن ينحني للعاصفة حتى تمر بسلام ، ولكنه كان كما وصفه الذين خالطوه حاد المزاج يسيطر عليه الغضب أحياناً فيخرجه عن طريق التعقل . ولهذا رأيناه يطالب بمحاكمة شيخ الاسلام ويلج في ذلك مما أدى بالحكومة الى الطلب اليه بمغادرة اسطنبول موقتاً الى أن تهدأ الخواطر ثم يعود اليها متى شاء .

حلوله في مصر :

وصل الافغاني الى القاهرة في ٢٢ اذار ١٨٧١ ، فقابل رئيس الوزارة رياض باشا ونال عنده حظوة كالتي نالها في اسطنبول عند عالي باشا ، وأجرى رياض باشا له مرتباً قدره ألف قرش وهو مرتب كان له شأنه في تلك الايام.

ونال الافغاني كذلك حظوة لدى الخديوي اسماعيل باشا . يقول المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي : ان رعاية اسماعيل باشا للافغاني أمر لا يعسر فهمه اذا عرفنا أن في اسماعيل جانباً ممدوحاً هو حبه للعلم ورغبته في نشره ورعايته ، وثمة اعتبار آخر لا يفوتنا الالماع اليه ذلك ان اسماعيل باشا كان يحب أن ينافس حكومة اسطنبول في المكانة والنفوذ السياسي فلما جاء الافغاني الى مصر مبعدا من اسطنبول انتهز اسماعيل باشا الفرصة وأراد أن يظهر للناس كيف أن مصر تؤوي العلماء في الوقت الذي كانت فيه اسطنبول تضيق بهم . (١٨)

اننا على أي حال نقف هنا تجاه لغز غامض ولابد لنا من أن نتساءل : كيف استطاع الافغاني أن ينال تلك الحظوة الكبيرة في اسطنبول وفي القاهرة بمجرد وصوله اليهما ؟ نحن نعرف ان العشرات من رجال الادب

(١٧) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ـ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(١٨) عبد الرحمن الرافعي (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ـ ص١٥ ـ ١٧ .

والعلم يفدون الى تينك المدينتين في كل عام فما هو السبب الذي جعل الافغاني وحده يتميز عنهم جميعاً بمقابلة كبار رجال الدولة ونيل المكانة الرفيعة عندهم ؟ أكان الافغاني يحمل طلسماً أم ماذا ؟!

اتخذ الافغاني محل سكناه في عمارة العناني بحارة أم الغلام قريباً من المسجد الحسيني وخان الخليلي . وكانت عادته اليومية أن يقضي سحابة نهاره في مسكنه فاذا حل المساء خرج يتوكأ على عصاه ومعه خادمه « عارف أبو تراب » يلازمه كظله ، فيذهب الى مقهى رجل يوناني اسمه « متاتيا » يقع في ميدان العتبة الخضراء تجاه دائرة البريد المركزية[19] ، وهناك يحف به أصحابه فيلقي عليهم أحاديثه الشائقة التي هي خليط من الفلسفة القديمة وبعض مبادىء العلوم الحديثة ، ويناقشهم في شتى المواضيع .

كان الافغاني ذا مقدرة على اجتذاب الاصحاب والمريدين ، ولا سيما من بين صفوف الشباب . وكان الشيخ محمد عبده من أوائل الذين التحقوا بحلقته ، ثم صارت الحلقة تتوسع تدريجياً بمرور الايام .

ولم يطل الامر بالافغاني حتى ظهر تجاهه خصوم من بين شيوخ الأزهر ورجال الدين كان على رأسهم الشيخ عليش ، فأخذ هؤلاء يشنون عليه الحملات الشعواء ويزعمون ان الافكار الجديدة التي يدعو اليها تفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وتؤدي الى حرمان النفس من خير الدنيا والآخرة .[20]

سجل ابراهيم الهلباوي ذكرياته عن تلك الفترة فقال : « كنت طالباً في الازهر الشريف لم أتجاوز العام السادس عشر حين نزل السيد جمال الدين مصر وأقبل عليه الادباء والمتنورون يستمعون الى أحاديثه العلمية ويحضرون في مجالسه ودروسه ، وكان الشيخ محمد عبده من هؤلاء الذين أعجبوا بالسيد وتشيعوا له ، فحقدت عليه وصرت أتربص به وباخوانه الدوائر لاني كنت أعتقد كما يعتقد أشياخي الذين تأثرت بهم بان السيد جمال الدين رجل

---

(١٩) لا يزال هذا المقهى في موضعه القديم وهو يسمى الآن « يونيفرسال » ، وقد زاره كاتب هذه السطور منذ عهد قريب .

(٢٠) محمود أبوريه (جمال الدين الافغاني) ــ القاهرة ١٩٥٨ ــ ص ٣٨ .

ملحد ونزل مصر ليضل الناس ويجمع حوله شيعة ينشرون الحاده وضلاله ، حتى أصبح قذى في عيني لا أستطيع رؤيته ، وصرت أتوخى أن تقع هنة من السيد جمال الدين أو أحد اتباعه لأشفى بها حقدي عليه » • ثم يذكر الهلباوي كيف أنه عندما التقى بالافغاني أعجب به وانمحت من ذهنه تلك الاوهام التي كان يتلقاها من مشايخه عنه . (٢١)

دخوله في الماسونية :

في أواخر أيار من عام ١٨٧٥ قدم الافغاني طلباً الى المحفل الماسوني فى القاهرة يطلب فيه قبوله عضوا فى المحفل ، ولا تزال ورقة الطلب محفوظة في مكتبة البرلمان الايرانى (٢٢) وهي مكتوبة بخط يد الافغانى نفسه • وهذا هو نصها :

« يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة بأني أرجو من اخوان الصفا ، واستدعي من خلان الوفا ، أعني أرباب المجمع المقدس الماسون ، الذي هو عن الخلل مصون ، أن يمنوا علي ويتفضلوا الي بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبادخالى فى سلك المنخرطين فى ذلك المنتدى المفتخر ، ولكم الفضل• »

وقد تم قبول الافغانى فى المحفل الماسوني ، ثم أخذ يرتقى في مراتب الماسونية سريعاً ، حيث نجده في أوائل عام ١٨٧٨ يصل الى مرتبة الرئاسة• وفيما يلي نص الكتاب الذي أرسله اليه « لوج كوكب الشرق » الماسوني يخبره باختياره رئيسا له :

« الى الاخ جمال الدين المحترم ــ انه لمعلوم لديكم بأن في جلسة ٢٨ الماضي وبأغلبية الآراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج لهذا

---

(٢١) مجلة العربي الكويتية ــ في عددها الصادر فى كانون الاول ١٩٧١ .

(٢٢) عثر في طهران على الكثير من اوراق الافغاني ورسائله وقد حفظت في جناح خاص في مكتبة البرلمان الايراني . وفي عام ١٩٦٣ نشرت جامعة طهران كتابا يحتوى على تصنيف لتلك الاوراق وصور فوتوغرافية لبعضها، وهو كتاب مهم جدا يستطيع القارىء أن يستنتج منه الكثير من القرائن التي تؤيد كون الافغاني ايرانيا وليس افغانيا .

العام ولذا قد نهنئكم ونهني ذواتنا على هذا الحظ العظيم، وعن أمر الرئيس محترم الحالي أدعو أخوتكم للحضور في يوم الجمعة القادم ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب الى محفل هذا اللوج لاجل استلامكم القادوم بعد اتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي ثم سيصير يوم الخميس ١٠ الجاري الساعة ٦ افرنكي مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه . فالرجاء حضوركم فى اليوم المذكور للاشتراك فى الاشغال وفى الحالتين ملابسكم تكون سوداء ورباط الرقبة والكفوف بيضاء . واقبلوا منا العناق الاخوي . كاتب السر: نقولا سكروج . » (٢٣)

كان دخول الافغاني في الماسونية وارتقاؤه فيها من جملة الاسباب التى رفعت من شأن الافغانى فى مصر ووسعت مجال نفوذه فى الدوائر الحكومية وأوساط الطبقة العالية . فقد صار الكثير من الماسونيين من مريديه كما دخل الكثير من مريديه فى الماسونية . يقول الدكتور سامي عزيز: ان المحفل الماسونى ضم بالاضافة الى الامير ولي العهد نخبة من الصحفيين والكتاب منهم يعقوب بن صنوع وسعد زغلول وأديب اسحق ومحمد عبده والمويلحي وسليم النقاش وابراهيم اللقاني وعلى مظهر والزرقانى والقونى ، هذا الى جانب محمد شريف باشا وبطرس غالي باشا وبعض أعضاء مجلس الشورى وبعض ضباط الجيش . (٢٤)

الافغاني سياسيا :

كانت الحكومة المصرية فى تلك الآونة على وشك أن تعلن افلاسها لكثرة الديون الاجنبية المستحقة عليها وعجزها عن الوفاء ، فكان ذلك سببا لتدخل بريطانيا وفرنسا في ادارة الحكومة المصرية من أجل حماية الدائنين الذين هم من رعاياها ، فظهر من جراء ذلك ما يعرف بـ « الرقابة الثنائية » . وفى عام ١٨٧٨ تشكلت وزارة برئاسة نوبار باشا وفيها وزيران اجنبيان أحدهما بريطاني والآخر فرنسي . فاعتبر المصريون ذلك اهانة لبلادهم

---

(٢٣) أصغر مهدوي وايرج افشار (مجموعة اسناد ومدارك) ـ طهران ١٣٤٢ ش ـ لوحة ١٦ تصوير ٤٠ ، ٤١ .

(٢٤) سامي عزيز (الصحافة المصرية) ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٦

وأطلقوا على الوزارة اسم « الوزارة الاوربية » . [٢٥]

والملاحظ ان الخديوي اسماعيل باشا اتخذ موقفا شديدا ضد التدخل الاجنبي في بلاده وأخذ يشجع الصحف على مهاجمة ذلك التدخل ويثير الناس عليه ، كما شجع مجلس الشورى على معارضة الوزارة . وبعبارة أخرى : ان اسماعيل باشا أصبح كأنه زعيم شعبي يطالب بالاستقلال والديمقراطية .

ومما يلفت النظر ان الافغاني في ذلك الوقت بالذات صار سياسيا مع العلم أنه كان قبل ذلك يتجنب الخوض في السياسة في احاديثه . وقد أدى هذا التحول في مسلك الافغاني الى حصول شيء من الخلاف والنفرة بينه وبين أعضاء المحفل الماسوني الذي ينتمي اليه . ذكر محمد المخزومي في كتابه « خاطرات الافغاني » : أن أحد أعضاء المحفل قال له اثناء الاجتماع « ان الماسونية لا دخل لها في السياسة واننا نخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها » ، فنهض الافغاني يرد عليه حيث قال :

« كنت انتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكنني ما كنت أتخيل أن الجبن يمكنه ان يدخل من بين اسطواناتي المحافل الماسونية .. لاتتم الصورة في الذهن الا بعد التعريف والوصف ... أما نحن معشر الماسون فيؤلمني انني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونيا ، ولا لمطلق الماسونية ، تعريفا يجعل لها صورة في الذهن أو وصفا على من ينخرط في تلك العشيرة . أول ما شوقني للعمل في بناية الاحرار ـ يقصد الماسون ـ عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، اخاء ، غرض منفعة الانسان ، سعي وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق . فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية ... ولكن مع الاسف أرى ان جراثيم الاثرة ، والانانية ، وحب الرئاسة ، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم ، وخضوعا لشرق عن بعد سحيق ، يعتوره تهديد ووعيد ، وغير ذلك من الامور التي ما تأسست الماسونية الحرة الا لملاشاتها ... » [٢٦] .

---

(٢٥) عبد الرحمن الرافعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٩

(٢٦) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ١٨ ـ ١٩ .

وانسحب الافغاني بعد هذا الخطاب من المحفل الماسوني ، وأسرع فأسس محفلاً ماسونياً جديداً برئاسته ، وانضم اليه أصحابه وتلاميذه . والظاهر ان الظروف ساعدت المحفل الجديد على النمو ، وأصبح الافغاني بذلك شخصية سياسية لها وزنها ، فأخذ يكتب في الصحف ويخطب في الجماهير ، ثم شكل حزباً سياسياً باسم « الحزب الوطني الحر » وصار يقابل الوزراء والقناصل ومراسلي الصحف الاجنبية ليحدثهم باسم الحزب ، وقد ترجمت مقتبسات من أقواله في الصحف البريطانية في لندن مما جعل بعض وزراء بريطانيا يهتمون بها ويتناقشون حولها [٢٧] .

هنا يواجهنا سؤال : هل كان الافغاني في نشاطه السياسي هذا واقفاً الى جانب اسماعيل باشا أم الى جانب خصومه ؟

الواقع أن اكثر الذين كتبوا في سيرة الافغاني أشاروا الى أنه وقف ضد اسماعيل باشا وطالب بخلعه ، فقد ذكروا أنه ذهب على رأس وفد لمقابلة وكيل دولة فرنسا ، وطلب منه باسم « الحزب الوطني الحر » أن يساعدهم على خلع اسماعيل باشا بحجة ان فكرة الاصلاح لا يمكن أن تخرج الى حيز التنفيذ ما دام هذا الرجل حاكماً في مصر ، وذكروا أيضا أن الافغاني قابل شريف باشا رئيس الوزارة التي تشكلت حديثاً ونصحه بأن يحمل الى اسماعيل باشا رغبة الناس في تنازله عن العرش . وذكر المستر بلنت ان الافغاني كان يريد قتل اسماعيل باشا وقد اقترح على تلميذه الشيخ محمد عبده أن يقوم باغتياله أثناء مروره بعربته على جسر قصر النيل اذ كان اسماعيل معتاداً أن يمر على ذلك الجسر كل يوم [٢٨] .

يمكن القول على أي حال ان هذه هي احدى النقاط الغامضة من حياة الافغاني فنحن لا نعرف على وجه اليقين أية جهة ارتبط بها الافغاني في تلك الفترة وما هو الهدف الذي كان يقصده فيها . انها نقطة تحتاج الى مزيد من الدراسة ، ويؤسفنا أن نجد معظم المؤرخين يمرون بها مراً خفيفاً دون أن يولوها العناية الكافية .

---

(٢٧) جرجي زيدان (المصدر السابق) ــ ج ٢ ص ٥٦ .

(٢٨) محمود قاسم (جمال الدين الافغاني) ــ القاهرة ــ ص ٤٤ ــ ٤٥ .

في عهد توفيــق باشا :

بذلت بريطانيا وفرنسا جهدهما لدى السلطان عبدالحميد في اسطنبول لعزل اسماعيل باشا ، وقد تم لهما ذلك أخيرا • ففــي ٢٦ حزيران ١٨٧٩ وصلت من اسطنبول الى القاهرة برقية تنبيء بعزل اسماعيل باشا ونصب ابنه توفيق باشا بدلاً عنه • ويروى أن اسماعيل باشا عندما غادر القاهــرة احتشدت الجماهير لتوديعه في محطة القطار ، ولم يتمالك الكثير منهــم أنفسهم فانخرطوا في البكاء [٢٩] •

شعر الافغاني في عهد توفيق باشا كأن الدولة المصرية كلها أصبحت طوع يده • فقد كان توفيــق باشا ماسونياً وكان علاوة علــى ذلك محبا للافغاني ومعجباً بأفكاره • وأخذ الافغاني يوجــه أعضاء محفله الماسوني نحو العمل الجدي لاصلاح الجهاز الحكومي ، فجعلهم عدة فئات وأناط بكل فئة منهم مراقبة الدوائر فــي وزارة من الوزارات ، ففئــة للحقانية ، وأخرى للمالية ، وثالثة للاشغال ، ورابعة للجهادية • فكانت كل فئــة تنظر في شؤون الــدوائر الخاصة بها وتتعرف على ما يقــع من الظلم ووجوه الاصلاح فيها ، ثم تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في اسلوب حازم صريــح •

يقول الدكتور أحمد أمين تعليقاً على ذلك : هكذا اتسعت دائرة نفوذ الافغاني في مصر ، فقد كان في بداية أمره يدرس في حجرة ، ثم انتقل الى قهوة ، وها هو ذا الآن يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومــة بمحفله الماسوني [٣٠] •

نفيه مــن مصــر :

لم يكتف الافغاني بهذا النشاط الذي ذكرنــاه في اصلاح الجهــاز الحكومي بل صار يطالب بالدستور وباقامة النظام النيابي في مصر • وأخذ يخطب في هذا الموضوع ويحرض أعوانه على نشر المقالات فيه •

---

(٢٩) بيير كربيتيس (اسماعيل المفتــرى عليــه) ــ ترجمــة فؤاد صــروف ــ القاهرة ــ ص ٢٥٧ •

(٣٠) احمد امين (زعماء الاصلاح) ــ القاهرة ١٩٤٩ ــ ص ٧٤ •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الافغاني كان في أول عهده بمصر لا يرى ف النظام النيابي خيراً ، وكان يعتقد أن مجلس النواب لا قيمة لـه ما دام المصريون على ما هم عليه من ضعف اليقظة وقلة الشجاعة . أما الآن فقد بدل رأيه هذا [٣١] وصار يدعو الى النظام النيابي بكل حماس .

نشأ الخلاف بين الافغاني والخديوي الجديد توفيق باشا من جـراء هذه المطالبة بالدستور والنظام النيابي . فاستدعاه الخديوي اليه وطلـب منه الكف عن القاء الخطب والاحاديث المثيرة وقال له : « انني أحب كـل خير للمصريين ، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف ان أكثر الشعب خامل ، جاهل ، لا يصلـح أن يلقي عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » . وقد حاول الافغاني اقناع توفيق باشا بفائدة الحياة النيابية ونظام الشورى ، فلم يوفق في محاولته . وأضمر له توفيق باشا الحقد.[٣٢]

وفي ساعة متأخرة من ليلـة ٢٦ آب ١٨٧٩ ، عنـدما كان الافغاني راجعاً على عادته مـن مقهاه نحو بيته ، ألقـى القبض عليـه وحجز فـي « الضبطية » حتى الصباح . ومن هناك حمل فـي عربة مقفلة الى محطـة القطار ، وسار به القطار تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، ثم نقل الى باخرة كانت في طريقها الى الهند .

لم يأت لتوديع الافغاني عند مرسى الباخرة سوى القنصل الايرانـي ونفر من التجار الايرانيين الذين كانوا يسكنون في بلدة السويس ، وقدم له هؤلاء مبلغ مائة جنيه ليستعين بها في سـفره [٣٣] ، فرفض قبول المبلغ وقال لهم : « أنتم الى هـذا المال أحوج ، والليث لا يعـدم فريسة حيثمـا ذهـب » [٣٤] .

وفي اليوم التالي ذهب بعض رجال « الضبطية » الى منزل الافغاني لتفتيشه ، فأخذوا من كتبه وأوراقه ما شاؤوا ، ثم حشـوا الباقي فـي

---

(٣١) المصدر السابق ــ ص ٧٦ .
(٣٢) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٢١ .
(٣٣) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ .
(٣٤) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٢٤ .

صناديق وأرسلوها بحراً الى ميناء بوشهر الايراني اذ كانوا يظنون أنه ذاهب الى ايران . أما خادمه « عارف أبو تراب » فقد ظل محجوزاً في « الضبطية » بضعة أيام ثم أطلق سراحه ، فسافر الى بيروت .

وفي ٢٨ آب – أي بعد نفي الافغاني بيومين – نشرت جريدة الاهرام بياناً رسمياً ورد اليها من ادارة المطبوعات ننقل فيما يلي نبذة منه :

« قد استقرت الحكومة بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوي البطش مجتمعة على فساد الدين والدنيا رئيسهم يدعى جمال الدين الافغاني مطرود من بلاده .. ثم من الاستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة في ديارنا المصرية .. فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة في قطع عرق الفساد فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من الطريق السويسي الى الاقطار الحجازية لازالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتدين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين (٣٥) . »

ويعلق المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي على نفي الافغاني فيقول : « ومن المؤلم حقاً أن يتقرر نفي جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامي البارودي وزير الاوقاف وقتئذ وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره . فتأمل كيف يتنكر الانصار والأصدقاء لاستاذهم ، والى حد يضيع الوفاء بين الناس !! ولا ندري كيف أساغ البارودي نفي السيد جمال الدين واشترك في احتمال تبعته ، واذا لم يكن موافقاً على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجاً واستنكاراً . لا شك أن موقف البارودي في هذه الحادثة لا يمكن تسويغه او الدفاع عنه باي حال . » (٣٦)

اختلفت الاقوال في تعليل نفي الافغاني من مصر ، فمنهم من ذهب الى ان الخلاف في الرأي بينه وبين توفيق باشا كان هو السبب في نفيه ،

---

(٣٥) محمود ابورية (المصدر السابق) – ص ١١٩ .
(٣٦) عبد الرحمن الرافعي (المصدر السابق) – ص ٤٦ – ٤٧ .

ومنهم من قال بأنه نفيه انما جرى بضغط من المستر فافياني قنصل بريطانيا العام في مصر • وللباحث المصري الدكتور سامي عزيز رأي غريب في هذا الموضوع اذ هو يقول : « ويلاحظ من دراسة تاريخ الافغاني أن الانجليز سكتوا عنه وهو في مصر طالما كان عضواً في الماسونية الانجليزية ولكنه عندما خرج عليها وأنشأ المحفل التابع للشرق الفرنسي وأخذ يهاجم سياسة بريطانيا ، عندئذٍ أشار الانجليز على توفيق بضرورة التخلص منه [٣٧] •• »

الرد على الدهريين :

ذهب الافغاني على اثر نفيه من مصر الى الهند واستقر في مدينة حيدرآباد دكن زهاء ثلاث سنوات • ولا نعرف عن حياة الافغاني في تلك الفترة سوى أنه ألف فيها بالفارسية كتابه « الرد على الدهريين » وهو الكتاب الذي ترجمه الشيخ محمد عبده فيما بعد الى العربية بمساعدة عارف أبو تراب • ولتأليف هذا الكتاب قصة جديرة بالذكر هنا لانها تلقي ضوءاً على وضع المسلمين في الهند حينذاك وموقف الافغاني منه •

كان المسلمون في الهند آنذاك يعانون صراعاً شديداً بين تراثهم الديني القديم وما جاءت به الحضارة الاوربية من مفاهيم ونظم حديثة• والواقع أن المسلمين في جميع أقطارهم كانوا يعانون مثل هذا الصراع ولكن المسلمين في الهند سبقوا غيرهم في ذلك ، وكان الصراع بينهم أشده• وفي القرن التاسع عشر ظهر في الهند مفكر اسلامي حاول أن يوفق بين ذينك التيارين المتصارعين ، واندفع في ذلك بحماس منقطع النظير ، هو السيد أحمد خان • فقد نظر هذا الرجل الى حالة المسلمين في زمانه فوجدهم ـــ كما يقول الدكتور أحمد أمين ـــ يرزحون تحت وطأة الفقر والجهل والفقر والقلق ، وكان رجال الدين فيهم لا يفهمون من الدين الا رسمه ويريدون أن يخضعوا العالم الواسع لعقليتهم الضيقة فحرموا المدارس الحديثة وكل ما جاءت به الحضارة الاوربية من نظم ، وقد أرسل

---

(٣٧) سامي عزيز (المصدر السابق) ـــ ص ٣١٦ •

الهندوس أبناءهم الى تلك المدارس ونالوا الوظائف بينما بقي المسلمون في معزل عن ذلك اذ هم لم يدخلوا المدارس الحكومية ولم يؤسسوا مدارس خاصة بهم [٣٨] .

نهض السيد أحمد خان يدعو المسلمين الى تبني الحضارة الحديثة وعلومها ، وكان من رأيه أن العلوم الحديثة لا تعارض في حقيقتها التعاليم الدينية . [٣٩] وفي عام ١٨٧٥ وضع في بلدة « عليكره » بذرة مدرستها المشهورة ليجعل منها جامعة اسلامية تنشر الثقافة الحديثة بين المسلمين، وقد أحدثت حركة السيد أحمد خان ضجة كبرى في الهند ، فكثر أتباعها كما هاج عليها رجال الدين والعامة .

اطلق خصوم السيد أحمد خان على حركته اسم « النيشرية » وهو نبز لها اذ هو مأخوذ من لفظة « الطبيعة » الانكليزية ، فقد اتهمها الخصوم بأنها تؤمن بالطبيعة وتنكر وجود الله ، واتهموها أيضاً بانها من صنع الانكليز الكفار الذين يريدون بها هدم الاسلام . وتعرضت حياة السيد أحمد خان للخطر من جراء هذه التهم التي ألصقت بحركته ، فقد حاول أحد العوام طعنه بخنجر ذات مرة غير أنه نجا بأعجوبة ، وظل ثابتا جريئاً في دعوته لم يتزحزح عنها ولم يداج فيها [٤٠] ..

وصل الافغاني الى الهند في الوقت الذي كان فيه الصراع على أشده بين أنصار السيد أحمد خان وخصومه ، وكان المتوقع منه أن يقف الى جانب السيد أحمد خان لانه كان مثله يعتقد بأن العلوم الحديثة لا تعارض التعاليم الدينية ، ولكنه لم يفعل ذلك بل فعل الضد منه ، وقد ألف كتابه « الرد على الدهريين » لهذا الغرض فملأه بالتهجم المقذع على السيد أحمد خان وأنصاره وألصق بهم تهمة الالحاد .

كان رأي الافغاني في السيد أحمد وأنصاره أنهم يتظاهرون بمظهر الاسلام نفاقاً بينما هم يضمرون الحقد والغل اذ هم باعوا أنفسهم

---

(٣٨) احمد امين (المصدر السابق) ـ ص ١٢٥ .
(٣٩) جرجي زيدان (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٦٥ .
(٤٠) احمد امين (المصدر السابق) ـ ص ١٣١ .

للانكليز فاتخذهم هؤلاء أعوانا لكي يفسدوا بهم عقائد المسلمين ولكي يزيلوا منهم الاعتزاز بدينهم فتخمد حميتهم ويتبدد شملهم وبذلك تكون الغلبة للانكليز عليهم .

ولم يقتصر الافغاني تهجمه على انصار السيد أحمد خان فقط بل تهجم كذلك على جميع أصحاب المبادىء الحديثة كالداروينيين والاشتراكيين والشيوعيين . والملاحظ أنه لم يكن موضوعياً في أسلوبه بل جرى فيه على الطريقة التقليدية التي لاحظناها في اسلوب أغا رضا الاصفهاني وأمثاله حيث اعتمد فيه على الرنين اللفظي والمبالغة الخطابية . خذ مثلاً نقده لنظرية داروين فهو يقول فيه ما نصه :

« ... وعلى زعم دروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثا . فان سئل دروين عن الاشجار القائمة في غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ الا ظنا ، وأصولها تضرب في بقعة واحدة ، وفروعها تذهب في هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيته وأشكال أوراقه ، وطوله وقصره ، وضخامته ورقته ، وزهره وثمره ، وطعمه ورائحته وعمره ، فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ أظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه [٤١] .. »

وحين يتطرق الافغاني الى الاشتراكية والشيوعية يحاول تفنيدهما بمثل هذا الاسلوب الذي حاول به تفنيد نظرية داروين ، فهو يقول عن الاشتراكيين والشيوعيين : « ... انهم زينوا ظواهرها بدعوى أنهم سند الضعفاء والطالبون بحقوق المساكين والفقراء ... الا أن غاية ما يطلبون انما هو رفع الامتيازات الانسانية كافة ، واباحة الكل للكل ، واشراك الكل في الكل ، وكم سفكوا من دماء ، وكم هدموا من بناء ، وكم خربوا من عمران ، وكم أثاروا من فتن ، وكم أنهروا من فساد . كل ذلك سعياً في الوصول

---

(٤١) جمال الدين الافغاني (الرد على الدهريين) - ترجمة محمد عبده - القاهرة ١٩٤٧ - ص ٢٢

الى هذه المطالب الخبيثة . وجميعهم على اتفاق في أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الارض منحة من الطبيعة ، وفيض من فيوضها ، والاحياء في التمتع بها سواء ، واختصاص فرد من الانسان بشيء منها دون سائر الافراد بدعة في شرع الطبيعة ، سيئة يجب محوها والاراحة منها .. » (٤٢)

ان هذا الاسلوب الذي استعمله الافغاني في النقد يشبه من بعض الوجوه أسلوب ذلك الامي الذي رسم شكل « الحية » وباری به خصمه الذي كتب لفظ « الحية » بالحروف ، فهو أقدر على الغلبة في نظر العامة ولكنه في الحقيقة كان زائفاً .

وهناك نقطة اخرى جديرة بالذكر هنا ، وهي النقطة التي أثارها الباحث المصري أمين عز الدين . ففي رأي هذا الباحث أن الافغاني كان غير موفق في توقيت هجومه على الاشتراكيين والشيوعيين، وذلك للاسباب التالية :ـ

اولا ، ان الافغاني نشر كتابه وهجومه على الاشتراكية في أوج قيام الثورة العرابية التي كانت بحاجة الى دعم الاشتراكيين الاوربيين لها وتأييدهم .

ثانيا : ان الافغاني نشر هجومه في وقت كان فيه الموقف المصري شبيها بالموقف الفرنسي أثناء ثورة الكوميون ، ففي كلا البلدين تجمعت القوى الوطنية لمواجهة العدو الخارجي من جهة والعدو الداخلي المتمثل في القوى الرجعية من الجهة الاخرى .

ثالثاً : ان الافغاني نشر هجومه على الكوميونيين في الوقت الذي كانت فيه تتردد دعاية خبيثة بأن عرابي وحركته لها صلات سرية وعلنية بعناصر من كوميون باريس وبعض قادته الذين كانوا لاجئين في مصر . (٤٣)

العروة الوثقى :

خرج الافغاني من الهند في ١٨٨٢ ، وقيل انه ذهب الى الولايات

---

(٤٢) المصدر السابق ـ ص ٦٧

(٤٣) مجلة الاذاعة والتلفزيون القاهرية ـ في عددها الصادر في ٨ أيار ١٩٧١ .

المتحدة وبقى فيها بضعة أشهر على أمل الحصول على الجنسية الامريكية، ثم عاد الى لندن فى ربيع ١٨٨٣ . [٤٤] ولم يمكث الافغانى فى لندن طويلاً بل غادرها الى باريس واستقر فيها . والملاحظ أنه بدأ في باريس يهاجم بريطانيا والاستعمار البريطانى فى الشرق مهاجمة عنيفة .

استدعى الافغاني اليه تلميذه الشيخ محمد عبده ، وكان هذا منفياً في بيروت على أثر اشتراكه في الثورة العرابية، فتعاون الرجلان على اصدار المجلة التي اشتهر أمرها في العالم الاسلامي فى حينه أي مجلة «العروة الوثقى» .

صدر العدد الاول من المجلة فى ١٣ آذار ١٨٨٤ ، وكان الشيخ محمد عبده هو الذي يحررها بقلمه بينما كانت أفكار المجلة من نتاج الافغاني . وصارت المجلة ترسل بالبريد الى مختلف أقطار العالم الاسلامي ، فكان الناس يجتمعون لقراءتها ويتهادونها فيما بينهم ، ويتناقشون فى مواضيعها . [٤٥] ووصل تأثيرها الى العراق ، ويقال ان السيد سلمان الكيلاني كان من المشتركين فيها ببغداد فكان كلما جاء اليه عدد منها واطلع عليه قال : « يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا . » [٤٦] وأخذت الصحف الطهرانية تترجم بعض مقالات المجلة الى اللغة الفارسية وتنشرها . [٤٧]

ومما يلفت النظر أن المجلة في الوقت الذي كانت فيه تركز هجومها على الاستعمار البريطاني تكاد تخلو من ذكر الاستعمار الفرنسي والهولندي والروسي ، [٤٨] مع العلم أن الكثير من المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة استعمار تلك الدول . فما هو السبب فى ذلك ؟ ! الله اعلم !

وكانت بريطانيا تنظر الى مجلة « العروة الوثقى » نظرة عداء وخشية، وعملت على منع دخولها فى البلاد الاسلامية الواقعة تحت سيطرتها . ففي

---

(44) Edward Browne (The Persian Revolution) —Cambridge 1910 — P 401 .

(٤٥) قدري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ٦٥ .

(٤٦) عبد المنعم شميس (سفير الله) القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٦٥ .

(٤٧) لطف الله خان (المصدر السابق) ــ ص ٣٠ .

(٤٨) إلبرت حوراني (الفكر العربي فى عصر النهضة) ــ ترجمة كريم عزقول ــ بيروت ــ ص ١٤٣ .

مصر مثلاً نشرت الجريدة الرسمية انذاراً بأن كل من توجد عنده المجلة يغرم مبلغاً يتراوح بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيهاً . وعندما وصل خبر ذلك الى الافغاني بباريس نشر في المجلة مقالاً تهجم به على الانكليز تهجما مقذعا . (٤٩)

صدر من مجلة « العروة الوثقى » ثمانية عشر عدداً ، ثم توقفت عن الصدور ، والمظنون أن من أسباب توقفها ما وقع من خلاف بين الافغاني والشيخ محمد عبده حول توجيه سياستها ، فقد بدأ الشيخ محمد عبده يسأم من الاشتغال بالسياسة ويميل الى مثل منهج السيد أحمد خان في مهادنة الاستعمار البريطاني والاتجاه نحو اصلاح الناس عن طريق التعليم والتهذيب ، وقد عرض الشيخ محمد عبده رأيه على الافغاني محاولاً اقناعه به ، فلم ينجح في ذلك ، وكان رد الافغاني عليه : « انما أنت مثبط ! وقد شرعنا في هذا العمل ، ولا بد لنا من المضي فيه مادمنا نرى له منفذاً . » (٥٠) وقد غادر محمد عبده باريس حيث عاد الى بيروت.

ذهابه الى لندن :

كان للافغاني صديق بريطاني اسمه ويلفرد سكاون بلنت ، وكان هذا الرجل أرستقراطياً ثرياً يحب العرب والشرق ، ويعطف على الثورات الوطنية التي قامت في الهند وآيرلندا ومصر . وفي عام ١٨٨٥ استطاع بلنت أن يقنع اللورد راندولف تشرشل الذي تولى يومذاك وزارة شؤون الهند بفائدة استدعاء الافغاني الى لندن للتفاهم معه .

كان بلنت يعتقد ان الافغاني وان كان خصماً لدوداً للاستعمار البريطاني غير أنه في خصومته ليس ذا تعصب أعمى وأنه يرحب بأي اتفاق شريف مع بريطانيا اذا كان ذلك ممكناً . (٥١) وقد كتب بلنت الى الافغاني يدعوه لزيارة لندن ، فلبى الافغاني الدعوة ونزل في ضيافة بلنت.

---

(٤٩) محمد سلام مدكور (جمال الدين الافغاني) ـ القاهرة ١٩٣٧ ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٥٠) محمود قاسم (المصدر السابق) ـ ص ٦٥ ٦٦ .

(51) Edward Browne (op . cit.) — P 402 .

ثلاثة أشهر ، والتقى هناك باللورد تشرشل وغيره من كبار الساسة البريطانيين .

يبدو أن الافغاني أثناء مكوثه في ضيافة بلنت قد غير رأيه تجاه بريطانيا ، فهو أصبح يعتقد ـ كما يروي عنه بلنت ـ أن في روسيا خطراً على العالم الاسلامي أشد من خطر بريطانيا ، وهو يرغب في تحقيق تقارب بين بريطانيا والاسلام . (٥٢) ومهما يكن الحال فقد قررت الحكومة البريطانية أن يذهب الافغاني مع السر هنري دراموند ولف في بعثة خاصة الى اسطنبول لمفاوضة السلطان عبدالحميد من أجل عقد حلف ضد روسيا مؤلف من بريطانيا وتركيا وايران وافغانستان . وقد تم الاستعداد لسفر البعثة ، واشتريت بطاقة القطار للافغاني ، غير أن ولف رفض في اللحظة الاخيرة أن يأخذ الافغاني معه في البعثة ، وقد انزعج الافغاني من ذلك وحنق حنقاً شديداً . (٥٣)

وحدث بعدئذ حادث آخر زاد من حنق الافغاني ، خلاصته : ان اثنين من أصدقاء الافغاني تخاصما بحضوره في منزل بلنت ، وضرب أحدهما الآخر بالمظلة على رأسه ، فطلب بلنت منهما أن يخرجا من منزله ، فلما خرج الرجلان من المنزل خرج الافغاني وراءهما ، وعند هذا طلب بلنت من الافغاني ان يجد له منزلاً آخر . (٥٤) ان بلنت بعبارة أخرى طرد الافغاني من منزله .

ظل الافغاني يتسكع في لندن بضعة اسابيع ، ثم استقر رأيه أخيراً ان يذهب الى روسيا ليعمل على عقد حلف بين تركيا وروسيا ضد بريطانيا .

ذهابه الى ايران :

بينما كان الافغاني في لندن يتأهب للسفر الى روسيا وردت اليه

---

(52) Albert Hourani (op . cit .) — P 111 .

(53) Edward Browne (op . cit .) — P . 403

(54) Albert Hourani (op . cit .) — P 111 .

(55) Edward Browne (op . cit .) — P . 403

برقية من الشاه ناصر الدين تدعوه لزيارة طهران ، فلبى الافغاني الدعوة ولعله اعتزم الذهاب الى روسيا من بعد انتهاء زيارته لطهران .

غادر الافغاني بريطانيا عن طريق البحر ، فوصل الى بوشهر في ٢٠ أيار ١٨٨٦ ، وبعد أن مكث فيها أياماً سافر الى اصفهان . وكان الحاكم العام في أصفهان يومذاك الامير مسعود مرزا ابن الشاه ناصر الدين وهو الملقب بـ « ظل السلطان » ، والمعروف عن هذا الامير أنه كان شديد الطموح يتوق للعرش وقد كوّن لنفسه جيشاً خاصاً به وجمع حوله الانصار والدعاة . [٥٦] وحين وصل الافغاني الى اصفهان أبرق الامير مسعود مرزا الى طهران راجياً السماح للافغاني بالبقاء في ضيافته برهة من الزمن . وقد مكث الافغاني في اصفهان شهراً ونصف شهر ، وجرت بينه وبين الامير محادثات لا نعرف عنها شيئاً ، غير أننا نعرف أن الامير تعهد للافغاني بجميع نفقات سفرته المقبلة الى روسيا .

ثم سافر الافغاني بعد هذا الى طهران ، فوصلها في شهر آب ١٨٨٦ ، ونزل في ضيافة الحاج محمد حسن كومباني أمين دار الضرب ، وقد التقى هنالك بابن اخته المرزا لطف الله خان . ويقول الشيخ مصطفى عبدالرازق عن الافغاني في طهران : « فنال مكانة سامية وتزاحم حوله الامراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نظم كثير منهم في سلك الماسونية » . [٥٧]

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الافغاني كان منذ وطئت قدماه أرض ايران قد خلع زيه الافغاني الذي اشتهر به في تركيا ومصر ، وتزيا بزي سيد من علماء الشيعة حيث وضع العمامة السوداء على رأسه ، والعباءة على كتفيه ، والمداس الاصفر في قدميه ، ولقب نفسه بـ «الحسيني» اشارة الى أنه من سلالة الامام الحسين بن علي . ومن ينظر الى الصورة الفوتوغرافية التي أخذت له مع ابن اخته في طهران وهو جالس بين اثنين

---

(56) Ibid — P 74 , 88 , 331

(٥٧) مصطفى عبد الرازق (جمال الدين الافغاني) في مقدمة كتاب (العروة الوثقى) — بيروت ١٩٧٠ — ص ٢٥ .

من رجال الدين يكاد لا يميزه عنهما بشيء •

قابل الافغاني الشاه غير مرة ، وقد ذكر المرزا لطف الله خان شيئاً من المحاورة التي جرت بين الافغاني والشاه عند التقائهما للمرة الاولى ننقلها فيما يلي :

قال الشاه مخاطباً الافغاني : « اني مسرور بقبولك الدعوة وتجشمك متاعب السفر الى ايران ، كما اني مسرور بلقائك ، واني اعترف بشأنك بأي صورة تكون فيها ، كما أني أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوف مثلك في بلاد ايران استفادوا بنتيجة علمه وفضله وحكمته في البلاد الاجنبية الاخرى ، وان علماء الاجانب وفضلاءهم يعترفون بفضلك وعلمك ومقامك، واني مطلع على تلك الخدمات التي قمت بها نحو الاسلام والمسلمين في مصر والهند وأفغانستان وتركيا والاقطار الاوربية ، والعجب من أنك بمفردك تستطيع القيام بكل هذه الاعمال العظيمة ، ويؤسفني أن تستفيد الشعوب الاجنبية من ثمرات اعمالك ويبقى بنو وطنك محرومين منها ، فقل لي ما الذي يجب أن نعمله لتعمير ايران ورقيها ، وما هي أنجع الوسائل التي نرقى بها ايران ؟ ! »

فأجابه الافغاني قائلاً : « أستطيع أن أفخر بنفسي بأن أرى عاهل ايران قد استيقظ من سباته العميق وأخذ يفكر في تعمير البلاد ورقيها وثق بي • نعم انني ايراني أسدآبادي ، وان كافة العلوم بحمد الله مخزونة في صدري ؛ فلا تنظر الى وحدتي وصغر جسمي ، فاني أستطيع أن أطمس جبل دماوند هذا بقبضة يدي الصغيرة ، فاينما كنت وأكون لا أبغي الا حفظ الجامعة الاسلامية ورقي المسلمين واستقلال بلادهم ، فبقدر ما أشعر بالنوايا السلطانية الخيرية أبذل ما استطعت الجهد لمؤازرتها وتنفيذها • ان خراب ايران وذل وشقاء الايرانيين التعساء تعود الى الذات السلطانية نفسها » • ثم أخذ الافغاني يظهر للشاه عيوبه ومنها أنه يملك ثمانين زوجة ولكل زوجة كثير من الخدم حيث ينفق عليهم ما يعادل نفقات المملكة • فتأثر الشاه بكلام الافغاني كل التأثير — حسب رواية ابن اخته المرزا لطف الله — وتقبل المقترحات الاصلاحية التي قدمها له وتعهد بتحقيقها ، ثم عرض عليه

بعدئذ منصب رئاسة الوزارة ورئاسة دار الشورى ولكن الافغاني رفض ذلك وقال : « اني لم أطلب ولن أطلب الرئاسة في الدنيا أبداً ولا أبغي ولم آكن أبغي غير تربية المسلمين ورقي الوطن ، ولا أقول الا ما أراه لازماً وجديراً ، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد الى ما اقترحه بنظرة صائبة ودقيقة ثم يقروا كل ما يجدوه صالحاً ويأمروا بتنفيذه » . فوافق الشاه على ما قاله الافغاني وأمر بأن يجتمع الوزراء والرؤساء والاعيان والتجار به ويدونوا قانوناً خاصاً بذلك للعمل به . [٥٨]

الواقع ان هذه المحاورة بين الشاه والافغاني حسبما رواها المرزا لطف الله خان يصعب علينا تصديقها لما فيها من مبالغات ومثاليات تزيد عن الحد المعقول . ويخيل لي أن المرزا لطف الله انما نقلها عن لسان خاله الافغاني وأن الافغاني حين تحدث بها اليه كان فرحاً بنفسه فأراد أن يتباهى أمام ابن اخته بجرأته على الشاه فأخذ يطنب في حديثه ويبالغ ويجعل من الحبة قبة ــ كما هو شأن المتحدثين عن أنفسهم في كثير من الاحيان .

ذهابه الى روسيا :

بعد أن مكث الافغاني في طهران أربعة أشهر وبضعة أيام استأذن من الشاه بالسفر فجاء اليه الاذن من الشاه على شكل رسالة خاصة هذا نصها :

« جناب السيد جمال الدين ان غايتنا تحققت من لقائكم والآن وأنتم تنوون السفر الى أوربا أرى أن ذلك خير ولكي تتذكروا ذاتنا العظيمة دائماً فقد أرسلت اليكم علبة الماسية للسعوط ، ونحن أنفسنا لن ننساكم أبداً » . ولم يكتف الشاه بذلك بل أرسل الصدر الاعظم المرزا علي اصغر خان ليحمل الى الافغاني الرسالة مع علبة السعوط . وقد أهدى الصدر الاعظم الى الافغاني من عنده خاتماً من الماس مع مبلغ من المال قدره ألف تومان ، فرد الافغاني المبلغ وأخذ الخاتم مع علبة السعوط . [٥٩]

---

(٥٨) لطف الله خان (المصدر السابق) ــ ص ٨٠ ــ ٨٢ .
(٥٩) المصدر السابق ــ ص ٨٣ ــ ٨٤ .

عند وصول الافغاني الى بطرسبرغ كان يسكن فيها رجل ايراني اسمه السيد حسين خان عدالت التبريزي ، وقد صار هذا الرجل صديقاً للافغاني وموضع سره ، ثم كتب بعدئذ مقالا عنه ننقل جزءاً منه فيما يلي :

« قدم السيد جمال الدين سنة ١٣٠٤ هجرية الى بطرسبرغ (لنينجراد) وكان غالبية الايرانيين يزورونه لما له من الشهرة ، وتعرفت به أثناء زيارتي له ، وسرعان ما تحولت تلك المعرفة الى صداقة قوية ، ولعل السبب المهم الذي جعله يرغب في صداقتي هو ان السيد كان شديد الميل الى أن لا يتدخل الآخرون في سلوكه ومقاصده ، وأما أنا فقد كنت أسير حسب رغبته ، وفضلا عن ذلك فانه لم يكن يعرف اللغة الروسية وكان في حاجة الى من يترجم له ، فكنت أقضي كل اوقات فراغي في حضرته ، وبلغ انسجامه معي الى درجة أنه كان يشرح لي كل أفكاره وعقائده وأهدافه ... وكان كل غرضه في بادىء الامر هو انقاذ الهند من براثن الانجليز ، وقد أصدر لهذا الغرض جريدة (العروة الوثقى) في باريس ... وبعد أن تعطلت (العروة الوثقى) اعتزم السيد جمال الدين السفر الى بطرسبرغ ... وقد بدأت صداقة السيد مع (كاتكوف) ـ الذي كان من الصحفيين البارزين ، والصديق الحميم لامبراطور روسيا ـ ابان اقامته في باريس ، وكانت دعوة (كاتكوف) هذا من الاسباب القوية لسفر السيد الى روسيا ، ولكن المنية عاجلت (كاتكوف) حينما وصل السيد الى بلاد الروس ، فاضطر الى العمل وحده في المشروع الذي كان ينوى القيام به هنالك ... وكان أساس خطته الاصلية اعداد العدة لتوحيد البلاد الاسلامية وتخليصها من ربقة الاستعمار البريطاني ، وهذا هو السبب لعداء الانجليز الدائم نحوه ، حتى أنهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مراقبة أعماله في بطرسبرغ . فكان السيد في هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لاثارة الحرب بين الروس والانجليز حتى تتهيأ الفرصة له للقيام بمهمته ، ولكن الروس كانوا غير راغبين في خوض معركة أخرى لانهم كانوا قد انتهوا وشيكاً من حربهم مع العثمانيين فكانت حالتهم المالية في اضطراب شديد ، وقد تقابل السيد جمال الدين

عدة مرات مع (زنويف) مدير وزارة الخارجية الروسية ، ولكن المدير المذكور لم يبد أية مساعدة للأخذ بآرائه . وهذا نص عبارة السيد جمال الدين عند مقابلته لزنويف : « كلما أرميه الى الهواء يقع كالقطة فوق الارض أي على يديه ورجليه » . ثم انه أراد أن يقابل الامبراطور بصورة رسمية ... ولكن الامبراطور لم يوافقه على ذلك ورأى أن تكون المقابلة بصورة سرية . ولذلك لم تتسن له الا مقابلة الملكة ، لان مقابلة الامبراطور السرية كانت بلا جدوى . فيئس السيد جمال الدين من تنفيذ خطته في روسيا . وفي أثناء هذه الاحوال اختلت شؤون الامير (ظل السلطان) ولم يستطع ـ نتيجة لذلك ـ أن يمد السيد بالمال ، فأخذ نشاط السيد بالفتور تدريجياً ... » [٦٠]

غادر الافغاني روسيا في عام ١٨٨٩ فقصد باريس لزيارة معرضها الدولي . وصادف أن كان الشاه ناصر الدين يقصد باريس في ذلك الحين أيضاً ، فالتقى الرجلان في مدينة فينا .

كان الشاه قبل هذا قد عقد اتفاقاً مع الانكليز سمح فيه لسفنهم بالملاحة في نهر كارون كما منح لرجل منهم امتيازاً بانشاء بنك بريطاني في ايران باسم «البنك الشاهنشاهي» . وقد أثار ذلك حنق روسيا واستيائها الشديد . والظاهر أن الشاه كان في حاجة الى رجل يبعثه الى روسيا لتهدئة المسؤولين فيها ، وقد وجد هذا الرجل في شخص السيد جمال الدين الافغاني .

يصفه المرزا لطف الله خان ما حدث بين الشاه والافغاني عند التقائهما في فينا ثم يقول : « أمر الشاه أحد حاشيته قائلا له : مد يد العهد وتصافح مع السيد من قبلي . ولكن ذلك السيد العظيم رفض المصافحة مع الرجل قائلا له : ان يد مثلك لا تليق أن تتصافح معي ، لان يدي حرية بأن يصافحها الشاه ، ولا يحق ليد أن تعاهدني الا يد السلطان نفسه . فقدم ناصر الدين شاه يده بنفسه الى السيد ، وأخذ بيد السيد وأعطاه عهداً أكيداً من كل ناحية ، ثم ألقى كل منهما كلمة في لزوم مراعاة العهد وتوثيقه ... » [٦١]

---

(٦٠) المصدر السابق ـ ص ١٥١ ـ ١٥٦

(٦١) المصدر السابق ـ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

وسافر الافغاني الى روسيا حيث قابل المسؤولين فيها وقام بالمهمة التي كلفه الشاه بها ، ثم عاد من هنالك الى ايران ، فوصل طهران في أواخر ١٨٨٩ ، وكان الشاه وصلها أيضاً فنال الافغاني حظوة لديه كالتي نالها في زيارته الاولى .

ابعاده من ايران :

لم يمض على الافغاني في طهران سوى مدة قصيرة حتى بدأ النفور يظهر بينه وبين الشاه ، وهذا أمر طبيعي فليس في مقدور الشاه أن يتحمل رجلا فخورا كالافغاني ، كما ليس في مقدور الافغاني أن يتحمل ملكاً مستبدا كالشاه ناصر الدين . وسرعان ما استفحلت الكراهية بينهما وأخذ الافغاني على عادته يطلق لسانه في الشاه ويتحدث عن مثالبه واسرافه .

يدعي الافغاني ان السبب الذي أدى الى نشوء النفور بينه وبين الشاه هو أنه كان يدعو الى اقامة الدستور في ايران وقد استنكر الشاه منه ذلك وقال له : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك الملوك كاحد أفراد الفلاحين ؟! » . (٦٢) ويبدو لي ان هذا الخلاف في الرأي بين الرجلين كان نتيجة للنفور بينهما وليس سبباً له ، فقد رأينا الافغاني حين عاش في كنف السلطان عبدالحميد بعد ذلك لم يدع الى اقامة الدستور في تركيا بل أيد السلطان على استبداده ومدحه كثيراً . وهذا يدل على أن الافغاني انما دعا الى اقامة الدستور في ايران تحدياً للشاه ونكاية به ، ولو أنه كان على علاقة حسنة معه لفعل كما فعل مع السلطان عبدالحميد .

ومهما يكن الحال فقد أخذ الافغاني يجهر بنقد الشاه ويثير الشعب عليه ، وقابله أعوان الشاه بالمثل فصاروا يبثون حوله الاشاعات القبيحة ، فتارة يتهمونه بانه « بابي » وتارة أخرى يتهمونه بانه « غير مختون » . فكان الافغاني اينما سار سمع من أفواه بعض العامة لعنات غير مباشرة توجه اليه كقولهم « الا لعنة الله على البابية وأعداء الشاه ! » . (٦٣)

---

(٦٢) محمد المخزومي (المصدر السابق) — ص ٣١ — ٣٢ .

(٦٣) لطف الله خان (المصدر السابق) — ص ٨٩ — ٩٠ .

أدرك الافغاني أخيرا ان بقاءه في طهران لا يدعو الى الطمأنينة ، فذهب الى بلدة « الشاه عبدالعظيم » التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب طهران ، والتجأ الى المرقد المقدس فيها ، وهناك أعلن عداءه الصريح للشاه وحكومته ، وأخذ يخطب في أهل البلدة والزوار الذين يفدون الى المرقد ذاكراً لهم المظالم التي تحل بهم ومظاهر التفسخ المحيطة بهم ، ويحرضهم على الثورة . وصار الكثير من الناقمين على الحكومة يأتون اليه ملتجئين معه الى المرقد المقدس ، فكان ذلك بمثابة تجمع ثوري خطر ضد الشاه . وظل الافغاني على تلك الحالة زهاء سبعة أشهر .

نفد صبر الشاه فأوعز الى الصدر الاعظم بأن يتخلص من الافغاني بأية صورة . وفي أوائل ١٨٩١ جاء الى بلدة « الشاه عبدالعظيم » جلواز معروف بالغلظة اسمه « أغا بالاخان سردار » ، واستعان هذا بستة رجال من أهل البلدة : فأمسكوا بالافغاني وأخذوه قهراً . وقيل ان عمامته سقطت من على رأسه أثناء الامساك به ومزقت ثيابه الداخلية . ولم يهب لنجدته سوى رجل واحد هو المرزا محمد رضا الكرماني فقد أخذ يصرخ وينادي « واشريعتاه ! » لكي يثير الناس فلم ينفعه ذلك شيئاً .(٦٤)

سيق الافغاني عن طريق قم وكرمانشاه الى الحدود العراقية ، وكان الفصل شتاءاً قارس البرد فلقي الافغاني في سفره عنتاً شديداً واعتل بدنه اذ كانت الدواب وسيلة السفر ، وقد تسلمته الشرطة العراقية عند الحدود فجاءت به الى بغداد .

حياته في العراق :

نزل الافغاني عند وصوله الى بغداد في خان عبدالصمد الاصفهاني الواقع قرب سوق الصفارين ، والمظنون أنه في موضع بناية المصرف المركزي الحالية . وقد مكث الافغاني في بغداد ثلاثة أشهر تقريباً قابل فيها والي بغداد سري باشا والنقيب السيد سلمان الكيلاني وغيرهما . روي لي أحد المسنين من البغادة ان الوالي عند التقائه بالافغاني سأله : هل أنت سني أم شيعي ؟ فأدار الافغاني وجهه تغاضياً عن الجواب .

---

(٦٤) المصدر السابق — ص ٩٢ — ٩٣ .

ومن الطريف أن نذكر أن الافغاني أثناء مكوثه في بغداد نسخ بخط يده رسالة صغيرة في الكيمياء القديمة ، ولا تزال هذه الرسالة محفوظة في المتحف الخاص به في طهران ، وقد كتب الافغاني في آخرها هذه العبارة : « كتبته بيدي في دار السلام البغداد وأنا الغريب في البلدان الطريد عن الاوطان جمال الدين الحسيني الاستنبولي » ، ثم أعاد الافغاني النظر في العبارة فشطب بالقلم الاحمر فوق كلمتي «البغداد» و«الاستنبولي»، وكتب فوق الكلمة الاولى « الشريف » ؛ وفوق الثانية « الكابلي » . (٦٥) ولا نعلم السبب الذي دفعه الى ذلك .

كانت الحكومة الايرانية قد طلبت من الوالي سري باشا أن يمنع الافغاني من الذهاب الى العتبات المقدسة لكي لا يتصل بعلماء الشيعة فيثيرهم على الشاه . ويزعم الدكتور مهدي البصير أن الوالي ضيق على الافغاني وراقبه مراقبة شديدة بناءا على الاوامر التى تلقاها من السلطان عبدالحميد . (٦٦) هذا ولكن القرائن تشير الى خلاف ذلك ، فقد تواترت الروايات على أن الافغاني زار الكاظمية والنجف متنكرا ، والمظنون ان الوالي سمح له بذلك بشرط أن يتكتم في جولاته فلا يعرف الجمهور عنها شيئاً .

زار الافغاني الكاظمية ومكث فيها أياماً في دار الملا أحمد اليزدي واتصل به في تلك الدار جماعة كان منهم الحاج علي أوف التبريزي ، والحاج علي مطلب ، والحاج علي اكبر الاهرابي ، فكانوا يجتمعون به سراً في سرداب تحت الارض . (٦٧) والشائع ان الشاعر عبدالمحسن الكاظمي كان من الذين اتصلوا بالافغاني وتأثروا بأفكاره اذ كانت داره ملاصقة للدار التي نزل الافغاني فيها في الكاظمية .

وحدثني ثقة من أهل النجف أن الافغاني حين زار النجف متنكرا اجتمع بالسيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان زميله في الدراسة سابقاً ، وكان

---

(٦٥) اصغر مهدوي وايرج افشار (المصدر السابق) ــ ص ١٥ .

(٦٦) عبد المحسن القصاب (ذكرى الافغاني في العراق) ــ بغداد ١٩٤٥ ــ ص ٨٥ .

(٦٧) حسين علي محفوظ (عراقيات الكاظمي) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٧٦ .

اجتماعهما في الصحن الشريف في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة ، وقد طال اجتماعهما منذ صلاة العشاء حتى مطلع الفجر .

وقيل أيضا أن الافغاني زار سامراء وقابل المرزا محمد حسن الشيرازي واختلى به برهة من الوقت . ولا ندري مبلغ هذا القول من الصحة .

ذهابه الى البصرة :

غادر الافغاني بغداد الى البصرة فاحتفى به والي البصرة هدايت باشا كل الاحتفاء وبالغ في تكريمه . وبعد مرور أيام معدودة على وصوله البصرة وردت الى هدايت باشا من اسطنبول برقية سرية تطلب منه أن يتحقق عن نشأة الافغاني وأصله وهل هو ايراني كما يزعم الشاه . والظاهر أن الشاه كان قد كتب بذلك الى السلطان عبدالحميد ليحرضه على الافغاني ويستعديه عليه .

اهتم هدايت باشا بالامر فكلف قاضي البصرة الشيخ عبدالحميد الرافعي بأن يقوم بمهمة التحقيق فيه من غير أن يشعر الافغاني به ، وذهب القاضي الى الافغاني يسائله ويحاوره لعله يستشف من كلامه ما يدل على أصله ، وأدرك الافغاني القصد الخفي من محاورة القاضي له فأخذ يؤكد له أنه أفغاني في أصله وفرعه وليس له أية علاقة بايران ، وأن الشاه انما يشيع ذلك بغية التنكيل به . وقد صدق القاضي بقول الافغاني ، كما صدق الوالي به وأبرق بذلك الى اسطنبول . [٦٨]

يجب أن لا ننسى ان ايران كانت في ذلك الحين في عنفوان ثورتها ضد اتفاقية التنباك . وبينما كان الافغاني في البصرة وصل اليها من شيراز مجتهد ايراني كان من زعماء تلك الثورة اسمه السيد علي اكبر الشيرازي ، فالتقى الافغاني به ، وتعاون الرجلان على كتابة رسالة بليغة موجهة الى المرزا محمد حسن الشيرازي في سامراء يشجبان فيها سياسة الشاه ويذكران مظالمه الكثيرة على الشعب الايراني . [٦٩]

---

(٦٨) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ـ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(٦٩) صادق نشات وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) ـ ص ٩٣ .

كانت الرسالة طويلة جدا وتحتوي على عبارات مهيجة واستصراخ عاطفي ، وقد ذيلها الافغاني بتوقيعه « الحسيني » ، (٧٠) ثم سافر السيد علي أكبر بنفسه الى سامراء لايصالها الى المرزا ، وقد استقبله المرزا بكل تعظيم وتسلم الرسالة منه .

شاع أمر الرسالة في العراق فأخذ الناس يستنسخونها ويتداولونها فيما بينهم في كثير من المدن العراقية ولا سيما في العتبات المقدسة . وكان لها تأثير كبير في النجف ، (٧١) كما وصل تأثيرها الى جبل عامل . يقول الشيخ سليمان الظاهر وهو من علماء جبل عامل : ان نسخة من الرسالة وصلت اليه اذ كان قد أرسلها اليه أحد الاصدقاء من النجف مع وصف للاضطراب العجيب الذي ساد ايران في ذلك الحين . (٧٢)

اعتقد اكثر الذين كتبوا في سيرة الافغاني أن رسالته تلك الى المرزا الشيرازي هي السبب في اصدار المرزا لفتواه المشهورة في تحريم «التنباك» . وهذا رأي لا يخلو من مبالغة ، فالواقع ان المرزا الشيرازي كان قد وصلت اليه علاوة على رسالة الافغاني رسائل كثيرة من مختلف أنحاء ايران وهي كلها تضج بالشكوى من اتفاقية « التنباك » على نحو ما ذكرناه في الفصل الثالث من هذا الجزء . يقول السيد محسن الامين في هذا الصدد ما نصه : « ولكن الحقيقة أن الميرزا الشيرازي أفتى بتحريم تدخين التنباك حينما بلغه اعطاء الامتياز الى الدولة البريطانية قبل أن يرسل له السيد جمال الدين هذا الكتاب ، ولم يكن افتاؤه بتأثير كتاب جمال الدين ، ولو لم يكن له مؤثر ديني من نفسه عظيم لم يؤثر فيه كتاب جمال الدين ، ولكن الناس اعتادوا اذا مالوا الى شخص أن يسندوا كل وقائع العالم اليه . » (٧٣)

ذهابه الى لندن :

طلب الافغاني من اسطنبول اذنا بالسفر الى لندن ، فورد الاذن له

---

(٧٠) انظر نص الرسالة في كتاب « تاريخ الشيخ محمد عبده » للسيد محمد رشيد رضا ـ المطبوع في القاهرة عام ١٩٣١ ـ ج١ ص ٥٦ ـ ٦٢ .

(٧١) محسن الامين (المصدر السابق) ـ ص ٢٥ .

(٧٢) ف . و . فرنو (يقظة العالم الاسلامي) ـ ترجمة بهيج شعبان ـ بيروت ـ ج٢ ص ٢٠٢ .

(٧٣) محسن الامين (المصدر السابق) ـ ص ٣٢ .

بذلك . وعندما كان الافغاني يهم بالسفر شعر هدايت باشا بأنه لا يملك من المال ما يكفيه لنفقات سفره ، فتبرع له بمبلغ خمسين ليرة ، كما تبرع له نقيب الاشراف بمائة وخمسين ليرة ، وكذلك تبرع بعض أعيان البصرة بمبالغ اخرى ، حتى بلغ مجموع التبرعات خمسمائة ليرة . (٧٤)

وصل الافغاني الى لندن في خريف ١٨٩١ ، ولم يكد يستقر به المقام فيها حتى شرع يعمل للتشهير بالشاه والطعن فيه . وقد التقى الافغاني في لندن برجل ايراني تربطه واياه روابط الماسونية هو المرزا ملكم خان ، وكان هذا الرجل كالافغاني شديد الحنق على الشاه وقد أصدر جريدة باللغة الفارسية اسمها « القانون » لمهاجمة الشاه ، فتعاون الافغاني معه في تحرير الجريدة وأخذا يملآن صفحاتها بالطعن بالشاه وذكر مثالبه وتحريض الشعب الايراني عليه .

يقول السر برسي سايكس : ان جريدة « القانون » كان لها في ايران تأثير عظيم ، فقد كان ملكم خان ذا اسلوب في الفارسية ممتاز فاثار الايرانيين به الى درجة لم يسبقه اليها أي كاتب آخر ، وصارت الجريدة تهرب الى ايران خفية في بالات البضائع المستوردة ، وقد وضعت الحكومة عقوبات شديدة على كل من توجد لديه نسخة من الجريدة . (٧٥)

وكانت جريدة « القانون » ترسل الى العراق أيضا ، وكان لها قراؤها والمتأثرون بها فيه . فقد كان في العراق كثيرون يعرفون الفارسية خاصة بين طلبة الدين وعلمائه في العتبات المقدسة . ومن الممكن القول ان هذه الجريدة مهدت الجو لحركة « المشروطية » التي حدثت فيما بعد .

وكانت تصدر في لندن علاوة على جريدة « القانون » جريدة أخرى تهاجم الشاه هي جريدة « ضياء الخافقين » ، وكانت تقوم بنشرها شركة بريطانية باللغتين العربية والانكليزية ، فصار الافغاني يكتب فيها بتوقيع « السيد » . وقد كتب فيها ذات يوم مقالا عنيفا استهله بأسماء

---

(٧٤) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٨٧ .

(75) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — Vol 2 P 398 — 399

كبار المجتهدين في العراق وايران ، فأخذ يدعوهم الى خلع الشاه ، ووصفه بأنه « يستلب حقوق العلماء تدريجيا ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم ... حتى خلا له الجو فقهر العباد ، وأباد البلاد ، وتقلب في أطوار الفظائع ، وتجاهر بأنواع الشنائع ، وصرف في أهوائه الدنية ، وملاذه البهيمية ، ما مصه من دماء الفقراء والمساكين عصرا ، وما نزح من دموع الأرامل والأيتام قهرا ... » (٧٦)

جاء السفير الايراني الى الافغاني يستعطفه ويقسم عليه « بجده المصطفى » أن يكف عن مهاجمة الشاه ، وعرض عليه أن يطلب ما يشاء مقابل السكوت ، فكان جواب الافغاني عليه : « لا أتمنى الا أن تزهق روح الشاه ويشق بطنه ويوضع في القبور » . (٧٧)

ان الدكتور أحمد أمين يلوم الافغاني على هذا السلوك العنيف الذي سلكه تجاه الشاه ، فهو يقول في ذلك ما نصه : « هذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين ، دعاه اليها حدته وحبه للانتقام ، اذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية في بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذي طالما حاربه في (العروة الوثقى) ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الاثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟ لقد كان مدحت باشا في موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، اذ نفاه (عبدالحميد) ، وأخذه رجاله من دست الوزارة الى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل ، ومع هذا فما وضع قدمه في أوربة حتى أخذ يسعى في دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير في فضل الاتراك على أوربة ، ولا ينطق بكلمة في ذم عبدالحميد الذي عامله معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات (السيد) دعا اليها حدة مزاجه . » (٧٨)

دعوة السلطان له :

في أواخر عام ١٨٩٢ وصل الى رستم باشا السفير العثماني في لندن

---

(٧٦) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) — ج١ ص ٦٣ — ٦٨ .
(٧٧) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٤٧ .
(٧٨) احمد امين (المصدر السابق) — ص ٩٨ — ٩٩ .

أمر من السلطان عبدالحميد يأمره بدعوة الافغاني الى اسطنبول ، وقد عرض رستم باشا الدعوة على الافغاني وألح عليه في تلبيتها ، غير أن الافغاني اعتذر عن قبولها قائلا بأنه في شاغل وقتي لاصلاح بلاده . (٧٩) وبعد أيام وصل كتاب من اسطنبول الى رستم باشا يتضمن هذه العبارة : « لا يقبل جلالته لكم عذرا اذا ما أقنعتم جمال الدين بالمجيء الى الاستانة ، ليقابله ثم يعود اذا شاء ، منتظرين اشعاركم برقياً » . فاضطر الافغاني تجاه هذا الالحاح أن يجيب دعوة السلطان ، ورحل الى اسطنبول .

اختلفت أقوال المؤرخين في تعليل هذا الاصرار الذي أبداه السلطان عبدالحميد في دعوة الافغاني . وفيما يلي ننقل باختصار أهم تلك الاقوال :

اولا : ان الشاه ناصر الدين لما أعيته الحيل في استرضاء الافغاني واسكاته كتب الى السلطان عبدالحميد يرجوه استدعاء الافغاني اليه ليجعله تحت مراقبته دفعاً لشره . (٨٠)

ثانيا : ان السلطان عبدالحميد كان يريد ارسال الافغاني الى أوربا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . (٨١)

ثالثا : ان السلطان عبدالحميد أراد باستضافته للافغاني أن يظهر أمام الناس أنه يرعى العلم والعلماء من كافة الاقطار الاسلامية ، وذلك من أجل تدعيم فكرة الجامعة الاسلامية التي كان السلطان يسعى اليها . (٨٢)

رابعا : ان السلطان كان يخشى أن ينضم الافغاني الى جمعية « تركيا الفتاة » المعارضة له فيكون قوة كبرى الى قوتهم ، خصوصا وقد كان الافغاني اجتمع في باريس ببعض رجال هذه الجمعية وأطلعوه على خطتهم في اصلاح الدولة العثمانية فراقه مذهبهم وشجعهم على عملهم وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » ،وقد بلغ السلطان ذلك عنه فاستدعاه اليه لكي يمنعه من الانضمام اليهم . (٨٣)

---

(٧٩) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٣٢ .
(٨٠) قدوري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ٨٧ .
(٨١) عبد المنعم شميس (المصدر السابق) ــ ص ٤١ .
(٨٢) عبد الرحمن الرافعي (المصدر السابق) ــ ص ١٣٧ .
(٨٣) احمد امين (المصدر السابق) ــ ص ٩٩ .

ان هذه الاسباب التي ذكرها المؤرخون قد تكون كلها أو بعضها ذات اثر في دفع السلطان الى دعوة الافغاني ، ولكني أظن مع ذلك أن هناك سبباً آخر أولى بالذكر من هذه الاسباب ولكن المؤرخين غفلوا عنه ، وهو أن السلطان أراد من دعوة الافغاني اليه أن يجعله وسيطاً بينه وبين علماء الشيعة في العراق وايران بغية اجتذابهم الى الجامعة الاسلامية .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد ان العلاقة بين الشيعة والسنيين لم تكن حينذاك على ما يرام من جراء هجرة المرزا الشيرازي الى سامراء على نحو ما بسطناه في الفصل الثالث ، ويخيل لي أن السلطان عبدالحميد كان يبحث عن رجل من الشيعة يستطيع أن يرتق الفتق الذي حدث بين الطائفتين ويجتذب الشيعة الى الجامعة الاسلامية ، وكأنه وجد هذا الرجل أخيراً في شخص الافغاني فدعاه اليه .

وعلى أي حال فقد نال الافغاني عند وصوله الى اسطنبول تكريماً من السلطان عظيما ، فقد أنزله في « المسافرخانة » وهو القصر المخصص لضيوف السلطان والمجاور لحدائق قصر يلدز ، وأجرى له مرتباً شهريا قدره خمس وسبعون ليرة وهو مرتب ضخم لم يكن يناله في تلك الايام الا الأقلون ، ومنحه من « الاسطبل الهمايوني » عربة يجرها جوادان مع سائق ، كما عرض عليه أن يهديه احدى جواريه المشهورات بالجمال غير ان الافغاني رفض قبول هذه الهدية « اللذيذة » .

واتخذ الافغاني في « المسافرخانة » مجلساً خاصاً به ، وصار يرتاد هذا المجلس الكثير من الكبراء والمفكرين والشباب المتعلم ، فكان الافغاني يخلبهم بروعة أحاديثه على نحو ما كان يفعل في قهوة « متاتيا » بالقاهرة . وأخذ الافغاني ينتهز الفرص خلال أحاديثه ليبدي اعجابه بعظمة السلطان وعبقريته السياسية ، وكان من جملة أقواله في هذا الشأن : أن السلطان عبدالحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاءاً ودهاءاً وسياسة ، وأن الممالك الاسلامية لا تسلم من شراك أوربا الا بالانضواء تحت راية الخليفة الاعظم . (٨٤)

---

(٨٤) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ٣٤ ـ ٣٦ .

وكان السلطان من جانبه لا يرد أي طلب أو شفاعة للافغاني . يروي الشيخ عبدالقادر المغربي قصة تدل على مبلغ ما كان للافغاني من جرأة ودالة على السلطان خلاصتها : ان الافغاني طلب من السلطان زيادة مرتب صديق من اصدقائه ورفع رتبته ، فوعده السلطان خيرا ولكنه تباطأ في تحقيق وعده ، فذهب الافغاني لمقابلة السلطان وهو مغتاظ ، ووقف أمام السلطان وقد بدت عليه آثار الانفعال وقال بصوت متهدج : « أمير المؤمنين كسر قلبي، أمير المؤمنين كسرقلبي! » . فلاطفه السلطان وهدأ خاطره، وأمربتنفيذ ماطلب منه . ولما خرج الافغاني من المقابلة ناوله الحاجب كيساً فيه خمسمائة ليرة عثمانية ذهباً(٨٥) .

وحدث ذات يوم في عام ١٨٩٣ أن أقيم في قصر يلدز احتفال فخم حضره السلطان ، وجاء الافغاني يريد الدخول فمنعه أحد الحجاب ، غير أن الافغاني أصر على الدخول محتجاً بكونه من السادة والعلماء وهذا يجعله مساوياً في المنزلة لأي واحد من المدعوين ، وحين علم السلطان بالامر استدعاه اليه وجعله يقف قريباً منه وراء الكرسي الهمايوني ، حتى صار الافغاني عندئذ أقرب الى السلطان من رئيس الخصيان(٨٦) .

ومما يذكر أن الافغاني ظل فترة طويلة بعد وصوله الى اسطنبول مستمراً على ثلب الشاه والتشنيع عليه ، فاستدعاه السلطان اليه وقال له : ان سفير ايران طلب مقابلتي مرتين فلم أسمح له بالمقابلة ، ثم أذنت له في المرة الثالثة ، وطلب مني أن آمرك بالكف عن الشاه وترك التعرض له ، وها أنا ذا أطلب منك تركه والاعراض عنه . فأجابه الافغاني : « انني امتثالاً لأمر مولانا خليفة العصر عفوت الشاه ، عفوت الشاه » . فقال السلطان حينئذ : « يحق لشاه ايران أن يخاف منك خوفاً عظيماً »(٨٧) .

جهوده في التقريب :

اخذ الافغاني منذ حلوله في اسطنبول يعمل على التقريب بين الشيعة

---

(٨٥) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(86) Edward Browne (op.. cit .) — P 403 .

(٨٧) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) — ص ٨٢ .

والسنيين وعلى اجتذاب الشيعة الى الجامعة الاسلامية ، وقد استعان في ذلك بثلاثة ايرانيين كانوا يسكنون اسطنبول آنذاك هم : المرزا حسن خان الملقب بـ « خبير الملك » ، والشيخ أحمد روحي الكرماني ، والمرزا عبدالحسين الكرماني . وكان أحد هؤلاء الثلاثة ، وهو الشيخ أحمد روحي ، من أشد الناس حماساً للجامعة الاسلامية بحيث نقش على فص خاتمه هذه العبارة : « داعي اتحاد اسلامم ، أحمد روحي آمده نامم » ، ومعناها : أنا الداعية الى الاتحاد الاسلامي ، أحمد روحي اسمي .(٨٨)

كان الافغاني يجتمع بهؤلاء الثلاثة في قصر السلطان حيث أعدت لهم قاعة خاصة ، فكانوا يجتمعون فيها والسلطان يراقبهم من وراء ستار(٨٩)، فيكتبون الرسائل الى علماء الشيعة في العراق وايران يدعونهم فيها الى نبذ الخلاف مع السنيين في قضية الخلافة ، والى الالتفاف حول السلطان عبد الحميد من أجل تقوية الأمة الاسلامية تجاه الكفار الذين يريدون ابتلاعها .

وصلت رسائل الافغاني الى علماء الشيعة ، والظاهر أنه عرف كيف يخاطبهم ويؤثر في عقولهم لأنه كان واحداً منهم في سالف الايام ، فهو يقول لهم ان الامام علياً صلى وراء عمر ونصحه وعاونه وزوجه بنته ، وهو انما فعل كل ذلك حرصاً على مصلحة الاسلام وتوحيداً لشمله تجاه الكفار ، وهم يجب أن يقتدوا بامامهم فيلتفوا حول السلطان عبدالحميد ويساندوه . ثم ذكر الافغاني لهم كيف أن الامام زين العابدين كان يدعو لنصرة أهل الثغور ومعنى هذا ان الامام كان يدعو الله أن ينصر الجيوش الاموية الموجودة في ثغور البلاد الاسلامية لحمايتها من غزو الكفار ، وقد أصبحت الدولة العثمانية اليوم هي حامية الثغور الاسلامية ولهذا يجب عليهم مساعدتها والدعاء لها بالنصر .

تشير بعض القرائن الى أن رسائل الافغاني انتجت ثمرتها في أوساط الشيعة . ذكرت جريدة التايمس اللندية في ٣ آب ١٩٠٣ ان فريقاً من علماء الدين البارزين في ايران أخذوا يدعون الى الاعتراف بخلافة السلطان

---

(88) Edward Browne (op . cit .) — P 415

(٨٩) آلما وتلن (عبدالحميد ظل الله على الارض) ــ ترجمة راسم رشدي ــ القاهرة . ١٩٥٠ ــ ص ١٧٥ .

العثماني ، ويفسر براون هذه الدعوة بأنها ربما كانت من نتيجة المساعي التي قام بها الافغاني في التوفيق بين الشيعة وأهل السنة(٩٠) • ويغلب على الظن أن دعوة الافغاني كان لها بعض الاثر في حركة الجهاد التي قام بها علماء الشيعة في العراق خلال الحرب العالمية الاولى ، فالملاحظ ان العلماء عند اعلانهم الجهاد أخذوا ينادون بمبدأ زين العابدين في نصرة أهل الثغور •

وقعت نسخة من تلك الرسائل التي كان الافغاني يرسلها الى علماء الشيعة في يد القنصل الايراني ببغداد ، وأسرع القنصل فأرسلها الى الشاه ناصر الدين مردفاً اياها بكتاب من عنده يقول فيه : ان الأفغاني اتفق مع نفر من الرعايا الايرانيين على تسليم ايران الى السلطان العثماني تحت ستار الوحدة الاسلامية وقد جذب الى صفه أغلب العلماء (٩١) • وعندما وصل كتاب القنصل الى الشاه اشتد غضبه وأرسل الى سفيره في اسطنبول يأمره بأن يتخذ كل وسيلة ممكنة لالقاء القبض على الايرانيين الثلاثة الذين تعاونوا مع الافغاني في كتابة الرسائل وتسفيرهم الى ايران •

وأخذ السفير يسعى بكل جهده نحو تسفير اولئك الثلاثة ، واستطاع أخيراً أن يقنع مدير الشرطة محمود باشا ، ويغريه بالوعود والهدايا ، لكي يلقي القبض عليهم بحجة أن لهم ضلعاً في حوادث الارمن الاخيرة • فقام محمود باشا بما أراد منه السفير الايراني ، وأبعد الثلاثة الى طرابزون بغية نقلهم من هنالك الى ايران • وحين علم الافغاني بالامر أسرع الى مقابلة السلطان وقال له : « ان هؤلاء الاشخاص لم يرتكبوا اثماً سوى مشاركتهم اياي في آرائي بشأن الاتحاد الاسلامي • » فأبدى السلطان أسفه ، وأمر بالابراق الى طرابزون لكي يبقى الثلاثة فيها فلا ينقلون الى ايران ، ثم أوعز السلطان الى منيف باشا الذي كان على وشك السفر الى طهران بأن يتشفع لهم عند الشاه •

لم ينجح السلطان في مسعاه لانقاذهم ، فقد حدث حينذاك اغتيال الشاه على يد رجل من أنصار الافغاني ، واضطرت الحكومة العثمانية الى

---

(90) Edward Browne (op . cit .) — P 107 .

(٩١) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) — ص ١٠٤ •

تسليمهم الى ايران ، فجرى اعدامهم في تبريز في ١٧ تموز من عام ١٨٩٦ ، ثم سلخت جماجمهم وحشيت تبناً وأرسلت الى طهران(٩٢) .

أثر اغتيال الشـــاه :

جرى اغتيال الشاه في الوقت الذي كان يتأهب فيه للاحتفال بالعيـد الخمسيني لحكمه حسب التقويم القمري . ففي ١ أيار ١٨٩٦ بينما كان الشاه يزور مرقـد « الشاه عبدالعظيم » أطلق عليه الرصـاص المرزا محمد رضا الكرماني وهو يصرخ قائلاً : «خذها من يد جمال الدين» ، فقتله ، وقـد ذكرت الصحف البريطانية في حينه أن القاتل كان بابياً غير أن التحقيق الذي قامت به الحكومة الايرانية مع القاتل دل على أنه من أنصار الافغاني وأنـه كان قد اجتمع بالافغاني في اسطنبول وحرضه هـذا على اغتيال الشـاه . واعترف القاتل في التحقيق أن السلطان عبد الحميد كان قد أوعز الى الافغاني بذلك وقال له : « لاتخش شيئاً »(٩٣) .

طلبت الحكومة الايرانية مـن الحكومة العثمانية تسـليم الافغـاني اليها ، فرفضت الحكومة العثمانية تسليمه بحجة أنه أفغاني وليس ايرانياً . والظاهر ان الافغاني خشي أن تسلمه الحكومة العثمانية في نهاية الامـر على نحو ما فعلت بأصحابه الثلاثة ، فذهب الى السفارة البريطانية طالبـا حمايتها ، فقد كانت السفارة البريطانية هي المسؤولة عن الرعايا الافغانيين لعدم وجود سفارة أفغانية في اسطنبول يومذاك . ولما سمع السلطان بأمـر التجائه الى السفارة البريطانية أرسل اليه أحـد حجابه يستعطفه باسـم الاسلام ان لا يهين كرامة الخليفة بهذا العمل ، فاستجاب الافغاني لرجـاء السلطان وعدل عن السفر بعد أن كان قد أعد حقائبه . (٩٤)

وظلت الحكومة الايرانية تواصل الحاحها على الحكومة العثمانيـة بتسليم الافغاني اليها ، وأرسلت اليها أخيراً وثيقة موقعة من أهالي أسدآباد يشهدون فيها بان الافغاني هو من أبناء بلدتهم ، وكـان قصـد الحكومـة

---

(92) Edward Browne (op . cit .) — P 415 .

(93) Ibid , P 83 — 92 .

(٩٤) محمود ابورية (المصدر السابق) ـ ص ١٠٠

الايرانية من هذه الوثيقة أن تثبت بها أن الافغاني من رعاياها ويحق لها أن تطالب بتسليمه اليها • ولكن الحكومة العثمانية لم تكترث بتلك الوثيقة وأصرت على موقفها السابق في عدم تسليم الافغاني الى ايران • (٩٥)

نهاية الافغاني :

ان السلطان عبدالحميد بالرغم من امتناعه عن تسليم الافغاني الى ايران لم يعد يحمل للافغاني ذلك الود الذي كان يحمله له سابقاً • ومن الممكن القول ان العلاقة بينهما أخذت تسوء بمرور الايام •

وقد انتهز أبو الهدى الصيادي الفرصة ، وكان شديد البغض للافغاني، فصار يكيد له عند السلطان ويشنع عليه مما زاد في هبوط مكانة الافغاني في عين السلطان •

وحين علم الناس بفتور العلاقة بين الافغاني والسلطان أخذوا يقللون من ارتيادهم لمجلس الافغاني في قصر الضيافة • يروي بلنت نقلاً عن الشيخ محمد عبده : « ان هبوط مكانة الافغاني عند السلطان جعل أصدقاءه القدامى يتجنبونه ، كما أن زملاءه من نزلاء قصر الضيافة هجروه تدريجاً ، ولما مات الافغاني أخيراً لم يكن عنده سوى خادم واحد مخلص ، وكان هذا الخادم نصرانياً » • (٩٦)

كان موت الافغاني من جراء داء في فكه قيل انه السرطان • وكان الافغاني في بداية الامر يشكو من ألم في أسنانه فأشار عليه الطبيب بقلعها، ولما قلعت أسنانه زاد الالم عليه وحصل التهاب في اللثة • وحين علم السلطان بالامر أرسل الى الافغاني جراحه الخاص اسكندر باشا قنبور زاده ، فأجرى هذا له ثلاث عمليات متتابعة استأصل بها فكه الاسفل وجزءا من لسانه • ويبدو أن هذه العمليات لم تنجح في استئصال السرطان كله ، فظل الافغاني يعاني من الالم الشديد بضعة أشهر حتى لفظ أنفاسه الاخيرة في ٩ آذار ١٨٩٧ •

---

(٩٥) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) — ص ١١٧ — ١١٨ •

(96) Edward Browne (op . cit .) — P 404

لم يكن مع الافغاني في ساعة موته ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ سوى خادم نصراني ، وكان هذا من أقباط مصر اسمه جرجي أفندي كوتجي ، وقد أبدى من الاخلاص للافغاني أمراً عجيباً حيث ظل ملازماً له في محنته لا يفارقه الا في ساعات النوم ، وقيل أنه لم يكن خادماً بل كان صديقاً وقد أنفق على الافغاني من ماله الخاص مائتي ليرة • [٩٧] وهنا لا بد لنا من أن نتساءل عن سر هذا الاخلاص العجيب ! •

عندما تيقن جرجي أفندي من موت الافغاني أرسل الى بعض اصدقائه يخبرهم بموته فلم يحضر منهم سوى اثنين • وجاء رجال الشرطة فاستحوذوا على أوراق الافغاني ومخلفاته ، ثم جيء بأربعة حمالين فحملوا الجنازة وساروا بها الى مقبرة تدعى « شيخلر مزارلغي » أي مقبرة المشايخ ، فدفنوه فيها •

لم يكد خبر وفاة الافغاني ينتشر بين الناس حتى بدأت الاقاويل والاشاعات المختلفة تظهر هنا وهناك حول سبب موته ، وأتخذ خصوم السلطان ذلك وسيلة يشنعون بها عليه ويتهمونه بأن هو الذي أوعز بقتل الافغاني • ومن هنا بدأ اسم الافغاني يدخل في عداد الابطال الشهداء ، وصار الرواة يحوكون حوله الاساطير كما هي عادتهم تجاه كل «بطل شهيد» •

نقل رفاة الافغاني :

ظل قبر الافغاني في اسطنبول مهملا لا يهتم به أحد حتى عام ١٩٢٦ ، ففي ذلك العام جاء الى اسطنبول الامريكي المعروف شارلس كراين ، فشيد على قبر الافغاني تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوهها عبارة تركية هذه ترجمتها : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم ، الخير الامريكاني المستر شارلس كراين سنة ١٩٢٦ • »

وفي عام ١٩٤٤ سعت الحكومة الافغانية لنقل رفاة الافغاني من اسطنبول الى كابل ، وقد تم نقل الرفاة عبر العراق • ففي ١٠ كانون الاول

---

(٩٧) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٩١ ـ ٩٢

١٩٤٤ وصل النعش الذي يضم الرفاة الى بغداد من الموصل ، فاستقبل النعش في محطة القطار استقبالا مهيبا ، ثم سير به الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني حيث أودع فيه • واجتمع مجلس أمانة العاصمة في تلك المناسبة فقرر تسمية أحد شوارع بغداد باسم الافغاني ، وهو الشارع العريض الذي يمتد من ساحة عنتر في الأعظمية حتى السدة الشرقية الحديثة •

وفي صباح ١٥ كانون الاول جرى في جامع الشيخ عبدالقادر احتفال لتوديع الرفاة خطب فيه طه الراوي وخالد الهاشمي وجلال الحنفي وأحمد زكي الخياط ، وألقى الشاعر محمد مهدي الجواهري قصيدة كان مطلعها :

هويت لنصرة الحق السهادا   فلولا الموت لم تطق الرقادا

ثم نقل النعش الى المطار حيث حملته طائرة خاصة الى البصرة ، ومن هناك نقل بحراً الى الهند ، ثم أوصل الى كابل برا • وقد استقبل النعش في كابل استقبالا فخماً شارك فيه الملك محمد ظاهر شاه ووزراؤه ، وكان الملك من بين الذين حملوا النعش على أكتافهم ، وتم أخيراً دفن الرفاة في ضريح فخم يتوسط جامعة كابل •

معالم شخصيته :

كان الافغاني ربع القامة أقرب الى القصر ، أسمر اللون مع شيء من الصفرة ، له لمة مسترسلة الى شحمة الاذنين ، مهيباً جذاب الملامح ، مصاباً بقصر في نظره فاذا قرأ كتاباً أدناه من عينيه ، وقد اتخذ النظارات أخيراً ليستعين بها في القراءة •

ومن مزاياه أنه كان حسن المعاشرة بشوشاً كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم • [٩٨] وكان يبدو دائماً مشرق الوجه منبسط الاسارير تبرق عيناه عند الحديث وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة عند سماعه النوادر من جلسائه • [٩٩] وكانت له نظرات قوية التأثير في مخاطبيه وقد

---

(٩٨) جرجي زيدان (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٨٢ •
(٩٩) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٤٨

وصفه بعضهم بقوله : « لقد كان لعينيه بريق عجيب كأنه بريق النـــور الشديد في حلك الظلام » . [١٠٠] ولكنه قــد تعتريه أحياناً نزوات مــن الحدة تخرجه عن خط الاعتدال وتبعده عن المصلحة كما أشار اليه تلميذه الشيخ محمد عبده اذ قال : « كثيرا ما هدمت الحدة فيه ما رفعته الفطنة » .

وكان الافغاني يستعمل اللغة الفصحى في أحاديثه مع جلاسه ، واذا كان السامع عامياً تنازل الى مخاطبته باللغة العامية . [١٠١] وكانت عبارته بالرغم من فصاحتها لا تخلو من لكنة خفيفة تدل على أصلــه الاعجمي . وكان يحب الاطالة في الحديث ولكن حديثه غير مملول في الغالب .

وكان الافغاني يفرط في التدخين ، ويفضــل « السيكار » علــى السيكارة الاعتيادية ، وكان لشدة ولعه بالتدخين لا يعتمد على أحد فــي ابتياع « السيكار » له ، فكان يذهب بنفسه الى السوق حيث يختــار منه النوع الافرنجي الجيد ، وكان ينفق في ذلك جزءاً كبيراً من دخلــه . وكان يعتقد أن التدخين يفتح الذهن وأنه هو الذي ساعد الاوربيين علــى ابداع تلك المخترعات العظيمة . والمظنون ان افراط الافغاني في التدخين كان من أهم الاسباب في ظهور السرطان في فكه .

وقد اعتاد الافغاني أن يغير لقبه كلما انتقل من بلد الى آخر ، فقــد رأيناه في مصر وتركيا يلقب نفسه بـ « الافغاني » بينما هو في ايران يلقب نفسه بـ « الحسيني » . ويتضح من أوراقه المحفوظة أنه كان يتخــذ ألقاباً أخرى مثل «الاسطنبولي» و «الكابلي» و «الرومي» و «الطوسي» و «الاسعدآبادي» . والمظنون أنه كان يغير لقبه حسب تغير الظروف أثناء تنقلاته المختلفة ، فكان يتخذ اللقب الذي يظن أنه يقربه الى الناس فــي المحيط الذي يحل فيه .

وكان الافغاني يغير زيه ولباس رأسه مثلما كان يغير لقبه ، فهو فــي ايران يلبس العمامة السوداء التي هي شعار السادة من رجال الدين ، فاذا ذهب الى تركيا ومصر لبس العمامة البيضاء ــ فوق طربوش تارة وبغير

---

(١٠٠) محمود قاسم (المصدر السابق) ــ ص ٨٦ .
(١٠١) محمد المخزومي (المصدر السابق) ــ ص ٤١ .

طربوش تارة أخرى . وقد لبس الطربوش مجرداً في أوربا أحياناً ، (١٠٢)
أما في الحجاز فقد لبس العقال والكوفية . وقيل انه في بعض جولاته
لبس العمامة الخضراء . (١٠٣) ومن يدري فربما لبس القبعة أيضاً .

وكان الافغاني لا يتزمت في سلوكه على نحو ما يفعله أقرانه من أهل العمائم ، فهو عندما كان يسكن القاهرة ذهب مع أصحابه الى مشرب البيرة في الازبكية ، وكان في المشرب ساقية أوربية حسناء ، فراهن أصحابه على أنه يستطيع أن يبكيها ويضحكها ثم أخذ يتحدث اليها حتى أبكاها وأضحكها كما راهنهم عليه . وعندما سكن في اسطنبول صار يتردد على متنزه « الكاغد خانة » فيذهب الى أكواخ الغجر الموجودة في ناحية منه حيث يخاطبهم ويتحدث اليهم ويقدم لهم « البخشيش » . (١٠٤) ويروي سليم العنحوري ان الافغاني كان يتعاطى القليل من السكونياك . (١٠٥) وحدثني رجل من أهل النجف أن الافغاني شوهد ذات مرة وهو يدخل المبغى العام في عشقباد عند زيارته لها .

والمعروف عن الافغاني أنه لم يتزوج ولم تكن له رغبة في النساء ، وقد سئل عن ذلك ذات مرة فأجاب بما مضمونه أنه لا يريد الزواج لكي لا يكون ذلك عبئاً عليه في أسفاره الكثيرة واشغاله المتنوعة . (١٠٦) ويخيل لي ان هذا تبرير مصطنع من الافغاني وأن له سبباً آخر يخفيه عن الناس ، وربما كان الافغاني ضعيف الشهوة للنساء أو كان عنيناً لا شهوة له على الاطلاق ، لانه لو كان ذا شهوة قوية لما منعه أي مانع من الاتصال بالنساء على صورة من الصور ، وقد رأينا معظم الرجال العظام في التاريخ يتزوجون ويتصلون بالنساء على الرغم من كثرة أشغالهم وأسفارهم .

توجد في مخلفات الافغاني رسائل تدل على أنه كان على اتصال

---

(102) Edward Browne (op . cit .) — P 401 .

(١٠٣) محمود قاسم (المصدر السابق) ــ ص ٩٠ .
(١٠٤) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٣٨ ــ ٤٠ .
(١٠٥) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٥٢ .
(١٠٦) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٦٤ .

ببعض الحسناوات الاوربيات ، ولا سيما امرأة منهم اسمها « كاثي » ، وربما كان عاشقاً لها أو هي كانت عاشقة له . (١٠٧) ولا ندري — على فرض وجود هذا العشق بينهما — هل كان من قبيل الحب الافلاطوني أم كان أعمق من ذلك !؟ .

عقيدته ومذهبه الفكري :

كان الافغاني غير متزمت في عقيدته الدينية على نحو ما كان غير متزمت في سلوكه ، والملاحظ ان أصحابه ومريديه كانوا من أديان وطوائف شتى ، فكان فيهم المسيحي واليهودي والبهائي والازلي والسني و الشيعي والمجوسي والملحد . وتشير بعض القرائن الى أنه في عقيدته الدينية كان متأثراً برأي القطب الصوفي المشهور محي الدين بن عربي الذي كان يعتبر الاديان كلها على اختلاف عقائدها ديناً واحداً أساسه الحب وانما يختلفه الناس في ادراك معبودهم تبعاً لتفاوت مداركهم وعقولهم .

وكان الافغاني على الرغم من أصله الشيعي لا يتعصب للتشيع تعصباً أعمى ، ففي الوقت الذي نراه فيه ينتقد أهل السنة على سدهم باب الاجتهاد . (١٠٨) نراه ينتقد الشيعة على عاداتهم في اقامة المآتم الحسينية حيث يضربون أنفسهم بالسلاسل ، (١٠٩) أو في تذهيب المراقد المقدسة والتذلل نحوها . (١١٠)

وكان الافغاني يعتقد ان اثارة قضية الخلافة بعد وفاة النبي أمر يضر المسلمين في الوقت الحاضر ولا ينفعهم ، وهو يتساءل في ذلك قائلا : لو أن أهل السنة وافقوا الشيعة الآن على أحقية علي بالخلافة فهل يستفيد الشيعة من ذلك شيئاً ؟!! أو أن الشيعة وافقوا أهل السنة على أحقية أبي بكر فهل ينتفع أهل السنة ؟!! ويهتف الافغاني بعد ذلك قائلا :

---

(١٠٧) اصغر مهدوي وايرج افشار (المصدر السابق) — تصوير ٢٤٢ .
(١٠٨) محمد المخزومي (المصدر السابق) — ص ١٤٦ .
(١٠٩) جمال الدين الافغاني (تتمة البيان في تاريخ الافغان) — القاهرة ١٩٠١ — ص ١٥٠ ، ١٦٦ .
(110) Edward Browne (op . cit .) — P 76 — 77 .

« أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ؟! ومن هـذا الموت قبل الموت ؟! ... » (١١١)

يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق في وصف الافغاني : « والسيد جمال الدين ، من الشيعة كان أم من أهل السنة ، قد تسامى عن كل معاني التعصب لفرقة من فرق المسلمين ، بل هو تسامى عن كل معاني التعصب الضيق الذي يلقي بين الناس احناً وعداوات . » . (١١٢)

وكان الافغاني يميل الى ما يشبه مبدأ النسبية في نظره الى الامور. يقول محمد المخزومي في خاطراته : ان الافغاني كان ذا موهبة خاصة في قوة الاقناع بحيث يستطيع أن يأتي بما يدل على استهجان شيء واستحسانه في آن واحد ، وقد سئل الافغاني عن سر مقدرته هذه فكان جوابه : ان لكل شيء وجهين ، ولكل انسان صفات طيبة وقبيحة ، وأن الحكم على الاشخاص والاشياء انما يختلف باختلاف الظروف واختلاف رغبة الناظر وموقفه ، فاذا نظرنا الى الشخص من جهة المحاسن مدحناه، واذا نظرنا اليه من جهة المساوىء ذممناه . ويذكر الافغاني لتأييد رأيه هذا أمثلة من حياة النبي ، فقد دعي النبي ذات يوم الى طعام رجل فقير ، وكان ادامه الخل ، فقال النبي : « نعم الأدم الخل » تطييباً لقلب الرجل الفقير الذي لا يملك سوى الخل ، ثم دعي النبي في يوم آخر الى طعام رجل موسر وكان ادامه الخل أيضا فقال : «بئس الأدم الخل » . فالنبي اذن قد مدح الخل وذمه حسب اختلاف الظروف . (١١٣)

مذهبه التوفيقي :

عاش الافغاني في عصر كان الصراع فى البلاد الاسلامية شديدا بين القديم والجديد ، وكان انصار القديم جامدين لا يريدون أن يتحولوا قيد شعرة عما وجدوا عليه آباءهم ، بينما كان أنصار الجديد مندفعين في تجديدهم بحيث كانوا يستهجنون كل قديم بغض النظر عن محتواه . وجاء

---

(١١١) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ١١٣ ـ ١١٤ .
(١١٢) قدري قلعجي (المصدر السابق) ـ ص ٢٥ .
(١١٣) محمد المخزومي (المصدر السابق) ـ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

الافغاني يحمل رسالة فكرية هي التوفيق بين الفريقين •

أحدث الافغاني بمذهبه « التوفيقي » تأثيرا بالغا في عقول الكثير من المسلمين لا سيما ذوي الثقافة الحديثة منهم ، فقد كان هؤلاء يعانون صراعاً نفسياً من جراء ما يرونه في العلوم الحديثة من مخالفة لبعض نصوص القرآن والمأثورات الدينية الاخرى ، فكان من الصعب عليهم أن يشككوا في صحة دينهم من جهة ، كما كان من الصعب عليهم من الجهة الاخرى ان يرفضوا ما جاءت به العلوم الحديثة من مخترعات ونظريات عظيمة• وحين جاء الافغاني اليهم بمذهبه « التوفيقي » وجدوا فيه ضالتهم المنشودة فتهافتوا عليه وشغفوا به •

يحدثنا محمد رشيد رضا عن تأثير المقالات التي قرأها في مجلة العروة الوثقى على تفكيره حين كان شابا ، فيقول : « اتفق لي أن كنت أقلب أوارق والدي رحمه الله ، فرأيت عددين من جريدة (العروة الوثقى) فقرأتهما بشوق ولذة ، ففعلا في نفسي فعل السحر ، فطفقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ، ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ، فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة ، فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي ، وهو أنه ليس روحانيا أخرويا فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، أخروي دنيوي ••• وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأيا فوق الذي كنت أراه في ارشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصورا في تصحيح عقائد المسلمين ، ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا ••• فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب ارشاد المسلمين عامة الى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الامم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة ، فطفقت استعد لذلك استعدادا ، وكنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده ، وما قيل فيهما وما كتب عنهما • وكنت أناضل دونهما ، وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ أحد على الطعن فيهما أمامي ••• » (١١٤)

---

(١١٤) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) — ج١ ص ٨٤ •

كان الافغاني يشبه في مذهبه « التوفيقي » السيد أحمد خان الهندي، اذ كانا كلاهما يواجهان نفس الصراع بين القديم والحديث ، غير انهما كانا مختلفين في موقفهما تجاه الاستعمار البريطاني . فالسيد أحمد خان كان يميل الى مهادنة الاستعمار وحصر الاهتمام بتعليم المسلمين وتثقيفهم، بينما كان الافغاني يميل الى العنف والثورة .

ومما يجدر ذكره أن صراعا يشبه الصراع الذي واجهه الافغاني والسيد أحمد خان كان قد حدث قديما في الاسلام بعد ما ترجمت اليه الفلسفة الاغريقية ، فقد نشب عند ذاك نزاع شديد بين المتفلسفين والمتدينين، أي بين العقليين والنقليين ، واخذ كل فريق منهما يكفر الآخر ويحاول اضطهاده عند المقدرة عليه .

وجاء المفكر الاندلسي المشهور ابن رشد يريد التوفيق بين الفريقين، فكان رأيه ان الفلسفة والدين كلاهما حق ، فهما اذن لا يتعارضان لان الحق لا يعارض الحق ، واذا ظهر اختلاف بينهما فسبب ذلك أن الدين موجه الى العامة بينما الفلسفة موجهة الى الخاصة ، ومعنى هذا انه اختلاف في الاسلوب وليس في المحتوى .

كان ابن رشد يعتقد ان الانبياء والفلاسفة جميعاً يقصدون مصلحة البشر ، وقد عرف الانبياء طبيعة العامة فجاؤوا لهم بالشرائع التي تلائم تفكيرهم ، فالانبياء في رأي ابن رشد يحدثون الناس على قدر عقولهم ، واستشهد في ذلك بقول لعلي بن أبي طالب « حدثوا الناس على قدر عقولهم » . فاذا وجدنا في الدين نصاً يخالفه الفلسفة في ظاهره وجب علينا أن نلجأ الى « التأويل » أي حمل النص على المعنى المجازي وترك المعنى الحرفي الذي هو اشارة ورمز . (١١٥)

حين ندرس أفكار الافغاني نجد رأي ابن رشد واضح الاثر فيها ، يروي محمد المخزومي عنه أنه في أحد مجالسه في اسطنبول تطرق الى ما يقال عن التناقض الموجود بين النصوص القرآنية والآراء العلمية

---

(١١٥) علي الوردي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) ـ القاهرة ١٩٦٢ ـ ص ٢١٥ .

الحديثة فقال ما نصه : « عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة، والقرآن بريء مما يقولون . أثبت العلم كروية الارض ، ودورانها ، وثبات الشمس دائرة على محورها ، فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لابد أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يتجل عن مخالفته للعلم الحقيقي ، وخصوصا في الكليات . فاذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم ، والكليات ، اكتفينا بما جاء به من الاشارة ورجعنا الى التأويل ، اذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات في القرآن صريحة واضحة وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود . ولو جاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية ، والبرق وما تفعله الكهربائية من الغرائب ، وغير ذلك، لضلت الناس وأعرضت عنه، وحسبته كذباً . لذلك نراه قد جاء بالاشارة الى كل ما هو حادث اليوم، وما هو ممكن ان يحدث في مستقبل الزمن مع مراعاة عقول الخلق وتقريب الاشياء للاذهان عن طريق نظرهم وقابلية فهمهم . » ثم أخذ الافغاني يورد أمثلة من القرآن يؤيد بها رأيه هذا ، فالتنويم المغناطيسي والتلغراف والطيران وكروية الارض وما يتنبأ به الفلكيون من اختلاف النظام الشمسي في المستقبل كلها وردت في القرآن عن طريق الرمز والاشارة ، والواجب علينا أن نلجأ الى التأويل لنستخرج المعنى الحقيقي منها وهو المعنى الذي لا يتعارض مع مكتشفات العلم الحديث .(١١٦)

ان هذا المذهب « التوفيقي » الذي اتبعه الافغاني قد تأثر به الكثيرون من بعده ، وكان أول من تأثر به في العراق السيد هبة الدين الشهرستاني، اذ هو أخرج في عام ١٩١١ كتابا عنوانه « الهيئة والاسلام » حاول فيه التدليل على ان جميع النظريات الفلكية الحديثة قد وردت في القرآن أو وردت على لسان النبي والائمة الاثنى عشر .

ونجد هذا المذهب رائجا اليوم في مصر وله اتباعه والمعجبون به ، وقد اصدر اتباعه — وما زالوا — يصدرون الكتب العديدة يريدون أن

---

(١١٦) محمد المخزومي (المصدر السابق) — ص ١٠٠ — ١٠٤ .

يبرهنوا بها على أن القرآن يحوي جميع ما جاءت بـه العلوم الحديثـة من مخترعات ونظريات • ولست أعدو الصواب اذا قلت انهم افرطوا فـي هذا الاتجاه افراطا غير مستساغ ، فقد اصبح القرآن في أيديهم كأنه كتاب فلـك وطب وجيولوجيا وكيميـاء وفيـزياء ، وبهـذا خرجـوا عـن الاطار الذي وضعه الافغاني والهدف الذي كان يسعى اليه •

المرزا باقـر البواناتي :

لعل من المستحسن في ختام سيرة الافغاني أن نتحدث بايجاز عـن سيرة رجلين كانت لهما صلة وثيقة به هما : المرزا باقر البواناتي والشيخ محمد عبده • ولنبدأ بالاول منهما •

الواقع ان المرزا باقر رجل غامض كل الغموض ونحن لا نعـرف شيئاً محققاً عن نشأته وبداية أمره • وقـد اختلفت الأقـوال والروايات في ذلك • ففي رواية المرزا لطف الله خان : أنه كان كبير علماء بوشـهر وكان يلقب بـ « يوحنا زمانه » لما عرف به من علم وفضل ، وقد تعـرف بالافغاني عندما مر هذا ببلدة بوشهر في عام ١٨٥٧ على أثر عودته مـن الهنـد ، وأعجب بالافغاني واعتقد بصحـة آرائـه واتبـع نصائحـه وارشاداته • (١١٧)

وجاء في رواية أخرى رواها الشيخ عبدالقـادر المغربي : أن المرزا باقر كان في صغره قد تعلم في مدارس الهند البريطانية وأعلن تنصـره وسمى نفسه « مرزا يوحنا » ، ثم دخل في خدمة الجيش البريطاني عنـد احتلاله بوشهر حيث صار ترجماناً لقائد الجيش ، وكان اثناء ذلك ينظـم القصائد في هجاء النبي محمد ، ولما جاء الافغاني الى بوشهر وسـمع بهجائه للنبي حرض الاهالي على ضربه ، وصار الاهالي يضربونه ضربـاً مبرحاً حتى أنهكوه وسال الـدم من فمه ومنخره وهـو يستغيث بالنبي والحسـين ••• (١١٨)

وللسيد هبة الدين الشهرستاني رأي آخر في المرزا باقر ، اذ قـال

---

(١١٧) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين (المصدر السابق) ـ ص ٥٥ •

(١١٨) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ـ ص ٥٤ ـ ٥٥ •

عنه في مجلة «العلم» ما مفاده : ان المـــرزا باقـــر كان من كبار فلاسفة ايران الذين قذفتهم الحكومة الاستبدادية الى الخارج ، وكان من طبقة السيد جمال الدين الافغاني وفي عصره • ويروي الشهرستاني عمن يثق به أن المرزا باقر جمع القرآن على ترتيب أزمنة نزوله ابتداءاً من ســورة « العلق » حتى ينتهى الى آخر سورة من القرآن وهي « المائـــدة » ، ثم ترجم ذلك كله الى اللغة الانكليزية ، فعظم ذلك على أكثر علمـــاء الدين في ايران وتكلموا عليه بما لا يليق به • (١١٩)

هذا هو ما قاله الرواة عن المرزا باقر في بداية أمره ، ثم تمر عليـــه بعد ذلك فترة طويلة لا نعرف فيها عنه شيئاً ، حتى اذا حل عام ١٨٧٠ نرى المرزا باقر في بغداد مشتبكا في جدال مع الكاتب التركي احمد مدحـــت أفندي الذي كان محررا لجريدة الزوراء ، وكان هـــذا الكاتب في ذلـــك الوقت ملحدا فأخذ المرزا باقر يحاوره ويناقشه حتى استطاع أن يرجعـــه الى الايمان من جديد • (١٢٠)

ورحل المرزا باقر بعدئذ الى بيروت حيث تزوج فيها بأمرأة من اسرة معروفة ــ هي أسرة آل الخطيب ــ فرزق منها ببنت وولد ، ولا يزال الولد حياً يعيش في بيروت اسمه « محمد الباقر » وأحسب أنه الآن في العقـــد العاشر من عمره ، أو لعله قد مات بعد كتابة هذه السطور •

وفي عام ١٨٨٣ سافر المرزا باقر الى باريس ، وكان الافغاني يومذاك فيها يصدر مجلة « العروة الوثقى » ، فذهب المرزا باقر اليه يعرض خدماته عليه وأخبره بأنه تاب وكفر عن ذنبه القديم وصار داعية للاسلام ومبشرا به • وقد كلفه الافغاني بالذهاب الى لندن ليكون مراسلا للمجلة فيهـــا يترجم لها من الصحف البريطانية •

صار المرزا باقر في لندن من اكبر الدعاة للاسلام واشدهم حماساً ، فكان يطبع نشرات في الدعوة للاسلام ويقف على أبواب الكنائس ليدس نشراته في أيدي الداخلين والخارجين • (١٢١) واتخذ له مهرا مربع الشكل

(١١٩) مجلة العلم النجفية في عددها الصادر في شباط ١٩١١ •
(١٢٠) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٨١٩ •
(١٢١) عبد القادر المغربي (المصدر السابق) ــ ص ٥٦ •

كتب فيه عبارة « انكسر الصليب » وعبارة «مات الخنزير » ، فكان هـذا المهر بمثابة شعار له يطبعه على صدور رسائله . (١٢٢)

وحين جاء الشيخ محمد عبده الى لندن مبعوثاً من قبل الافغاني لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية مصر والسودان كان المرزا باقـر مترجمـة للشيخ في مفاوضاته . والغريب ان المرزا باقر لم يترك التبشير بالاسلام حتى في وقت المفاوضات ، فكان الشيخ يقول له « ليس هـذا وقته » ، ويرجوه أن يؤجل التبشير الى وقت آخر ، ولكن المرزا باقر لم يكن يصغي للرجـاء ...

وحدث ذات يوم أن نظم أحد شعراء الهند قصيدة بليغة فـي مدح الملكة فكتوريا ، فكلفوا المرزا باقر بترجمتها الى اللغة الانكليزية وقـد أتقن المرزا ترجمتها بحيث نالت اعجاب الملكـة فأمرت بمنحـه خمسمائة جنيه ، ولكن المرزا باقر رد المبلغ وقال انه يطلب جائزة أخرى هي دخول الملكة فكتوريا في الاسلام . (١٢٣)

كان المرزا باقر في لندن يسكن غرفة قذرة ضيقة وهو محاط باكـوام من الكتب يعلوها الغبار ، وكان أكثر تلك الكتب باللغة الفارسية والعربية وفي مواضيع دينية ، وكان بعضها باللغة العبرية والانكليزية . وقد زاره المستشرق براون في غرفته هذه ، وأعطانا عنه وصفاً عجيباً اذ قال : انـه لم يشهد في حياته رجلا يعيش في عالم خيالي من صنعه مثل المرزا باقر ، فهو لا يبالي بمصلحته الشخصية ولا براحته ولا يكترث للمال أو بالتقرب من أولى النفوذ ، وكثيرا ما ينفر الناس منه لشدة ما يهاجمهم في أعـز معتقداتهم ، كما ينفر منه أصدقاؤه لكثرة كلامه الذي لا ينقطع ، وهـو قد تحول في عقيدته الدينية من التشيع الى التصوفه ، ثم الى المسيحيـة فالالحاد فاليهودية ، وانتهى أخيراً الى انشاء دين خاص به سماه «المسيحية الاسلامية » . انه كان جدلياً شديد الثرثرة بعيدا عن للتعقل وغير واقعي

---

(١٢٢) اصغر مهدوي وايرج افشار (المصدر السابق) ـ تصوير ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢
(١٢٣) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٨١٨ .

الى أبعد الحدود ولكنه على الرغم من كل ذلك لا يستطيع الانسان الا أن يحترمه . (١٢٤)

وفي أواخر عام ١٨٨٤ عاد المرزا باقر الى بيروت لابتلاء ابنته بالسل ، وهناك التقى بالشيخ عبده مرة ثانية ، وكذلك التقى بخادم الافغاني القديم عارف أبو تراب ، فاتفق الثلاثة على انشاء جمعية باسم « جمعية التأليف والتقريب » هدفها التقريب بين الاديان السماوية الثلاثة أي الاسلام والنصرانية واليهودية ، والدعوة الى نبذ التعصب في الدين ، وتأليف الكتب التي تصور الاديان الثلاثة بروح الانصاف والمحبة ، والتعاون على ازالة الضغط الاوربي على الشرق ، وتعريف الافرنج بحقيقة الاسلام . وقد انتمى الى هذه الجمعية عدد من المفكرين الايرانيين والاتراك والهنود والانكليز واليهود كالقس اسحق تيلر في لندن ، والوزير مؤيد الملك في طهران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في اسطنبول ، والمستر لينتر مفتش المدارس في الهند .

كان المرزا باقر والقس تيلر من أشد الاعضاء حماساً في العمل لهذه الجمعية بالقول والكتابة ، ويقال ان الشيخ محمد عبده أرسل هو وجماعة من علماء الشام رسالة الى القس تيلر في موضوع التقريب الذي كان القس يعمل له في لندن ، فلما علم السلطان عبدالحميد بالامر كلف سفيره في لندن بالتحقيق فيه والتعرف على أسماء موقعي الرسالة . وعندما حصل السلطان على الاسماء أوعز بنفيهم ... (١٢٥)

مهما يكن الحال فقد تم ابعاد المرزا باقر فعلا ، وذهب الى ايران حيث مات فيها في عام ١٨٩٠ أو بعده بقليل . أما الشيخ محمد عبده فله قصة أخرى سنأتي اليها فيما يلي :

الشيخ محمد عبده :

ولد الشيخ محمد عبده عام ١٨٤٩ في قرية صغيرة من قرى الوجه البحري من أب فلاح ، ونشأ كما ينشأ أبناء الفلاحين حافياً عاري الرأس

---

(124) Edward Browne (A Year Among The Persians) — Cambridge 1927 P 13 — 14 .

(١٢٥) قدري قلعجي (محمد عبده) ـ بيروت ١٩٤٨ ـ ص ٦٣ ـ ٦٥ .

يجري في الازقة ويلعب في التراب ويسبح في الترع . [126] وحين بلغ الثالثة عشرة أرسله أبوه الى المسجد الاحمدي في طنطا ليتعلم تجويد القرآن ومباديء العلوم الدينية ، وفي عام ١٨٦٦ التحق بجامع الازهر وبقي فيه اثنتي عشرة سنة .

كان الشيخ محمد عبده من أوائل الذين اتصلوا بالافغاني وتتلمذوا عليه ، وهو يحدثنا في مذكراته عن بداية اتصاله بالافغاني فيقول : انه بعد أن حضر حلقات الازهر ثلاث سنوات سئم الدروس المعتادة فيها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديدا وتميل الى العلوم العقلية ، ثم ذهب لحضور درس الشيخ حسن الطويل الذي كان معروفاً في الازهر بعلم المنطق فلم يجد فيه ما يشفي غليله ، وفي ذات يوم جاءه أحد الشاميين من المجاورين في الازهر يخبره بأن عالماً أفغانياً عظيماً جاء الى مصر وهو يقيم في خان الخليلي — وكان يقصد بذلك السيد جمال الدين الافغاني — فذهب محمد عبده مع الشيخ حسن الطويل الى حيث يسكن الافغاني فوجدوه يتناول عشاءه ، وبعد القيام بما تقتضيه آداب المجاملة طفق الافغاني يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والمتصوفة فيها ، ثم أخذ يفسرها لهما تفسيراً جعل محمد عبده يمتليء قلبه اعجاباً بالافغاني وشغفاً به . [127] ومنذ ذلك الحين أصبح محمد عبده من تلاميذ الافغاني المختصين به .

ظل محمد عبده ملازماً للافغاني حتى يوم نفيه من مصر في عام ١٨٧٩ . وعندما قامت الثورة العرابية فى عام ١٨٨٢ اشترك محمد عبده فيها ، فلما أخفقت الثورة واحتل الجيش البريطاني مصر ألقي القبض عليه وأودع في السجن ثلاثة أشهر ، ثم حكمت المحكمة عليه بالنفي ثلاث سنوات يقضيها خارج البلاد .

كان قد حكم بالنفي مع الشيخ محمد عبده على أشخاص آخرين كابراهيم اللقاني وحسن الشمسي ، وهم كانوا مثله من تلاميذ الافغاني

---

(١٢٦) مصطفى عبد الرزاق (محمد عبده) — القاهرة ١٩٤٦ — ص ١٧ .
(١٢٧) محمد رشيد رضا (المصدر السابق) — ج١ ص ٦٥ — ٦٦ .

ومن الماسونيين أيضاً ، فذهبوا الى بيروت ، وهناك احتفى بهم الماسونيون اللبنانيون وساعدوهم ، يقول شاهين مكاريوس في كتابه « فضائل الماسونية » ما نصه :

« وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الاخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ ، فان الاخوان المصريين والمهاجرين الذين جاؤوا الى سورية قابلهم اخوانهم بالترحيب العظيم ودعوهم الى محافلهم ومنازلهم ، وكان الافاضل الشيخ محمد عبده وابراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وغيرهم يحضرون معنا محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية ، ونال الاستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الاميركي الذي حضر الى محفل لبنان ، وكنا وقتئذ من العاملين في المحفل ... » (١٢٨)

لم يمكث الشيخ محمد عبده في بيروت سوى سنة واحدة ، ثم استدعاه الافغاني الى باريس لاصدار مجلة « العروة الوثقى » على نحو ما ذكرناه سابقا . يقول المستر بلنت : ان الشيخ محمد عبده لم يمض على اقامته في باريس شهران حتى أصبح « أوربياً متفرنساً » ، فترك عادة حلق الرأس حلقا تاما على طريقة المشايخ ، وأطال شعر رأسه ولحيته حتى صار مظهره يحاكي مظهر الفنانين الاوربيين . (١٢٩)

وبعد أن توقفت مجلة « العروة الوثقى » عن الصدور ، عاد الشيخ الى بيروت واستقر فيها . وقد شرح هناك « نهج البلاغة » ، كما ترجم كتاب الافغاني « الرد على الدهريين » من الفارسية الى العربية وذلك بمساعدة خادم الافغاني عارف أبو تراب .

صار الشيخ يلقي الدروس في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة ، كما كان يقضي اكثر أمسياته في بيت الحاج محيالدين حمادة رئيس بلدية بيروت ، ثم تزوج بعد وفاة زوجته القديمة امرأة بيروتية هي ابنة

---

(١٢٨) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ القاهرة ١٨٩٩ ــ ص ١٢٤ .
(١٢٩) قدري قلعجي (المصدر السابق) ــ ص ٥٢ .

أخي الحاج محي الدين . وقد أعجب أهل بيروت بالشيخ محمد عبده وأقبلوا على مجلس سمره وحلقة درسه اقبالا لم تشهد بيروت له مثيلا من قبل . يقول شكيب أرسلان وهو من رواد مجلسه : « ان مجلس الشيخ كان يضم علماء السنة ومجتهدي الشيعة وعقال الدروز ، والى جانبهم أساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق ، كما كان يضم بعض الملحدين أحيانا ، اذ وجد فيه الجميع مرجعاً عاماً لسعة عقله وعلو ادراكه واحاطة نظره » . (١٣٠) وقد كان عباس أفندي رئيس البهائيين من رواد مجلسه كذلك .

كان أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر يسعون لاصدار العفو عنه والسماح له بالعودة الى مصر ، ولكن الخديوي توفيق باشا كان يكرهه ولم يقبل باصدار العفو عنه الا بضغط من الانكليز . (١٣١) وقد عين الشيخ عند عودته قاضيا ، ثم ارتقى في عام ١٨٩٠ الى منصب مستشار في محكمة الاستئناف ، وظل في هذا المنصب تسع سنوات ، ثم صار أخيرا المفتي الأكبر للديار المصرية .

ترك الشيخ السياسة وطلقها ثلاثاً ، وقال في ذلك كلمته المشهورة وهي : « اعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي عن السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسائس ومسوس » . (١٣٢)

ويروي تلميذه محمد رشيد رضا : أن الشيخ عند عودته الى مصر ترك الماسونية أيضاً فقد دعاه الماسونيون الى محافلهم فلم يجبهم ، وأهدوا اليه وساماً فلم يقبله ، ولما سئل في ذلك أجاب : « ان عملها في البلاد التي وجدت فيها العمل قد انتهى وهو مقاومة الملوك والبابوات » . وقال

---

(١٣٠) المصدر السابق — ص ٥٧ — ٥٨ .
(١٣١) أحمد أمين (محمد عبده) — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٦٠
(١٣٢) قدري قلعجي (المصدر السابق) — ص ٧٠ — ٧١ .

التلميذه محمد رشيد رضا : « ان دخوله فيها كان لغرض سياسي اجتماعي وأنه تركها من سنين فلن يعود اليها » .[١٣٣]

انهمك الشيخ محمد عبده في المرحلة الاخيرة من حياته بأمرين : اولهما تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه ، والثاني تقريب المسلمين من الحضارة الحديثة ليستفيدوا منها علميا وصناعيا وتجاريا وسياسيا .[١٣٤] وكان الشيخ مثل استاذه الافغاني يتبع منهج ابن رشد في أمر التوفيق بين المعقول والمنقول . فهو يقول في هذا الشأن : « فانا معشر المسلمين نعلم على القطع انه لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له » . ويقول أيضاً : « ونحن نقطع قطعاً ان كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي » .[١٣٥]

وقد أدى هذا المنهج « الرشدي » بالشيخ محمد عبده الى تحليل الكثير من الامور الحضارية الحديثة التي أعتاد رجال الدين على تحريمها . فرجال الدين ينظرون الى تلك الامور نظرة شكلية بحتة دون اهتمام بمحتواها وحقيقتها ، أما الشيخ فكان اهتمامه بمحتوى الامور اكثر من اهتمامه بالشكليات والنصوص .

خذ البنوك مثلا فرجال الدين يحرمونها باعتبارها ربا استنادا الى التعريف الشكلي للربا ، أما الشيخ فيعتبر البنوك وسيطة بين المالكين للمال من جهة والقادرين على استثمار المال من الجهة الاخرى ، أي أنها كالسمسار الذي يتوسط في ايجار الدور بين مالكيها ومستأجريها ، وهي تأخذ على ذلك أجرة بنسبة المبلغ كالسمسار . ان البنوك في نظر الشيخ محمد عبده اذن لا تتعاطى الربا أو تستغل المعوزين على منوال ما كان المرابون يفعلونه في ايام الجاهلية ، بل هي تقوم بوظيفة اقتصادية ضرورية، ولولاها لما وصل الاقتصاد الحديث الى هذا النمو العجيب .

سئل الشيخ محمد عبده ذات يوم عن الحديث النبوي القائل بحرمة

---

(١٣٣) مجلة المنار القاهرية ــ المجلد الثامن ــ ص ٤٠٢

(١٣٤) جرجي زيدان (بناة النهضة العربية) ــ القاهرة ــ ص ٨٤ .

(١٣٥) مصطفى عبدالرازق (المصدر السابق) ــ ص ٧٢ ــ ٧٣ .

التصوير وهو : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » ، فأجاب الشيخ : ان هذا الحديث قيل في أيام الجاهلية عندما كانت الصور تتخذ للتبرك والعبادة ، فلما زالت عادة التبرك والعبادة زالت الحرمة معها . وكان الشيخ في احدى سفراته قد مر باحدى المدن المصرية فأقبل عليه أعيانها يسلمون عليه وكان من بينهم رجال المحكمة الشرعية ، وأخذ أحدهم يحدثه عن دخول الكثير من أهل مدينتهم في الاسلام ولهذا فهو مشغول مع زملائه بأمر تعليم المسلمين الجدد أركان الدين ، وذكر مثلا تعليمهم كيف يغسلون وجوههم في الوضوء وما هي حدود الوجه وأين يبدأ واين ينتهي . فقال له الشيخ محمد عبده : « سبحان الله ياسي الشيخ ! قل له : يغسل وجهه . كل انسان يعرف حدود وجهه من غير حاجة الى مساح ! » (١٣٦) .

وفي يوم آخر ورد الى الشيخ محمد عبده استفتاء شرعي حول لبس القبة ، وكان الاستفتاء قد جاء من مسلم يسكن الترنسفال في جنوب افريقيا ، فأجاب الشيخ في ذلك ما نصه : « أما لبس البرنيطة اذا لم يقصد فاعله الخروج عن الاسلام والدخول في دين غيره فلا يعد كفرا ، واذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره ذلك » (١٣٧) .

أحدث الشيخ محمد عبده بآرائه هذه ضجة كبرى في مصر ، وانقسم الناس حوله بين مؤيدين ومعارضين . فالمؤيدون يعتبرونه اماماً من جملة الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لتجديد الاسلام حسبما ورد في الحديث الشريف ، أما المعارضون فاعتبروه الدجال الذي يظهر في آخر الزمان .

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمد عبده كان وثيق الصلة بالمندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كرومر . ويدافع أنصار الشيخ عنه في هذا الشأن قائلين : انه كان يتصل بالانكليز ليستعين بهم على

---

(١٣٦) قدري قلعجي (المصدر السابق) ـ ص ١٢٠ ـ ١٢١

(١٣٧) احمد أمين (المصدر السابق) ـ ص ٨١ .

القيام بمشاريعه الاصلاحية . وقد سئل الشيخ ذات مرة في موضوع الاستعانة بالاجانب فكان جوابه : « قد قامت الادلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين ... فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم ، وأن يمضوا على طريقتهم ، ولا يحزنهم شتم الشاتمين ، ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيل لهم بالنصر اذا اعتصموا بالحق والصبر » .(١٣٨)

في عام ١٨٩٢ مات توفيق باشا فحل محله على عرش الخديوية ابنه عباس الثاني . وكان هذا الخديوي الجديد يومذاك في الثامنة عشرة من عمره وهو يختلف عن أبيه من بعض النواحي ولا سيما من حيث سياسته تجاه الانكليز .

كان توفيق مواليا للانكليز ومنسجماً مع اللورد كرومر ، أما ابنه عباس فكان يضمر العداء لهم وأخذ يجمع الانصار حوله لمقاومتهم . ولهذا انشق رجال الفكر والسياسة في مصر الى فريقين متصارعين : فريق الخديوي وفريق اللورد كرومر .

كان فريق الخديوي يدعون الى مكافحة الاحتلال البريطاني والى الالتفاف حول السلطان عبدالحميد وتأييد الجامعة الاسلامية ، وكان أشهرهم في ذلك شاب نابغ اسمه مصطفى كامل . فقد احتضن الخديوي عباس هذا الشاب ومنحه لقب « باشا » وأيده بالمعونة المادية والمعنوية . وقد أسس مصطفى كامل حزباً شعبياً باسم « الحزب الوطني » كما أصدر جريدة له باسم « اللواء » ، وصار يواصل الخطابة والكتابة بنشاط لا يفتر ، فأحدث في الرأي العام المصري تأثيراً قوياً وواسع النطاق .

أما الفريق الآخر فكان رأيه أن جلاء الانكليز عن مصر لا يتم الا عن طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته ، فالشعب الجاهل يساعد الاعداء على نفسه ؛ ولهذا يجب الاهتمام بتعليم الشعب وتثقيفه قبل الشروع بمحاربة الاستعمار . وكان من أهم رجال هذا الفريق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطفي السيد ، وقد تابعهم على هذا الرأي الكثير

---

(١٣٨) المصدر السابق — ص ٦٤ — ٦٧ .

من المتعلمين والباشوات وأصحاب الاطيان .

وأصبح الصراع بين هذين الفريقين ـ أو الحزبين ـ شديدا أشغل الناس خلال بضع عشرة سنة ، وصارت جهود الشيخ محمد عبده في الاصلاح الديني موضع تهمة في نظر خصومه حيث اتهموه بانه متآمر مع الانكليز لهدم الاسلام . وأخذ الحزب الوطني وعلى رأسه مصطفى كامل يحاربه ويرميه بالمروق من الوطنية . صارت التقارير تكتب ضده الى اسطنبول ، فلما زار الشيخ محمد عبده اسطنبول استقبل فيها استقبالا سيئا ، واتخذت التدابير لاهانته لولا لطف الله . (١٣٩)

وعندما انتشرت فتوى الشيخ في تجويز لبس القبعة اتخذ خصومه تلك ذريعة للتشنيع عليه ، وانبرت جريدة اللواء وبعض الجرائد الاخرى تهيج العامة عليه . وعمد بعضها الى تشويه سمعته وشتم عرضه ، ولفقوا عليه صورة فتوغرافية تمثله وهو يخاصر فتاة افرنجية وكلبها يعبث بأطراف جبته . (١٤٠)

وفي عام ١٩٠٥ أصيب الشيخ محمد عبده بالسرطان ، ومات في ١١ تموز من العام نفسه ، وقد جرى لجنازته تشييع عظيم . وكان الخديوي يومذاك متغيبا عن مصر ، فلما عاد اليها غضب على الذين شاركوا في جنازته وقال فيهم موبخا : « ألم يعتقدوا ما كان عليه المفتي من العداء والمعاكسة للدين وأهله وأنصاره ... » (١٤١)

---

(١٣٩) المصدر السابق ـ ص ٧٩ ـ ٨٠
(١٤٠) عباس محمود العقاد (محمد عبده) ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ ص ٢٤٣ .
(١٤١) قدري قلعجي (المصدر السابق) ـ ص ١١٦ .

الملحق الثاني

ما هي الماسونية

جاء ذكر الماسونية في عدة مواضع من هذا الجزء ، ولعل القارىء قد تساءل عند مروره بها : ما هي الماسونية ؟!

الواقع ان الماسونية من المواضيع التي يكتنفها الغموض ، فقد حرص أصحابها على كتمان أسرارها ، وقد صدرت عنها باللغة العربية مؤلفات كثيرة ولكن معظمها كتبت بروح غير علمية اذ هي مليئة بالسباب المقذع وقذف التهم بلا حساب ، وقد ضاعت الحقيقة من جراء ذلك . فالقارىء الذي يقرأ تلك المؤلفات لا يستطيع أن يتبين الحقائق من بين هذا الركام الهائل من الشتائم والتهم . ومن المؤسف أن نجد الكثيرين من كتابنا لم يتعلموا بعد أسلوب البحث العلمي الحديث ، فاذا كتب أحدهم في أي موضوع اتخذ موقف الخطيب المتحمس وأخذ يصب اللعنات أو ينشد المدائح حسبما يملي عليه الاتجاه العاطفي المسيطر عليه .

اني عند دراستي للماسونية اعتمدت في الدرجة الاولى على مصدرين: أولهما ما كتبه الباحثون العلميون عنها ، والثاني ما كتبه الماسونيون أنفسهم . وقد ساعدتني الظروف في الحصول على بعض الكتب الماسونية من باعة الكتب القديمة في القاهرة والاسكندرية ، ولا سيما تلك التي كتبها الماسوني المعروف شاهين مكاريوس . والواقع ان هذا الرجل قد كشف من خلال مدحه للماسونية عن الكثير من خفاياها .

ان شاهين مكاريوس كان من أوائل اللبنانيين الذين دخلوا الماسونية في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم هاجر الى مصر وساهم في الماسونية هناك وأصدر مجلة « اللطائف » كما أصدر عدة كتب في الماسونية . وقد استطعت الحصول على خمسة من تلك الكتب فكانت خير معوان لي في هذه الدراسة .

لست أدعي اني نجحت في هذه الرسالة نجاحاً وافياً ، فلا تزال هناك

بعض النقاط في الماسونية لم أتمكن من معرفة كنهها على وجه اليقين .
وجل ما استطيع قوله في هذا الشأن هو أني لم أتحيز في الدراسة الى جانب الماسونية أو ضدها ، وهذه طريقة قد لا يرضى عنها بعض القراء لانهم اعتادوا على الاسلوب الخطابي فيما يقرأون ، ونرجو أن يقل عدد هؤلاء القراء بمرور الايام ، فنحن لا تتوقع من أنفسنا أن نسير في سبيل الحضارة الحديثة ما لم تتبع أساليبها .

عندما صدر الجزء الثاني من الكتاب في العام الماضي أشاع بعض الناس أني قبضت من البهائيين خمسة عشر ألف دينار لقاء ما كتبت فيه من فصل عن « قرة العين » ، ولست أدري ما هو المبلغ الذي سوف أقبضه من الماسونيين لقاء هذا الملحق ؟! .

كيف بدات الماسونية :

الماسونية مأخوذة من لفظة « ماسون » الانكليزية التي تعني البناء أو المعمار ، ويضاف اليها عادة لفظة أخرى هي « فري » أي حر ، ومن هنا جاء اسم الماسونية في أوساط العامة اذ هم يسمون الشخص الماسوني « فرمسوني » ، وقد يلفظه بعضهم « فرمصولي » .

والماسونية انما سميت بهذا الاسم لان جذورها تمتد الى نقابات البنائين القديمة . وقد اختلف المؤرخون حول الزمن الذي ظهرت فيه جذور الماسونية قديماً ، فالماسونيون يرجعون أصل الماسونية الى نقابة البنائين الذين بنوا هيكل سليمان في عام ١٠١٢ قبل الميلاد ، وبعضهم يرجعه الى ما هو أقدم من ذلك ، ولكن التحقيق العلمي لا يؤيدهم في ذلك . ويذهب اكثر الباحثين الآن الى أن الماسونية يرجع أصلها الى النقابات التي ظهرت في بريطانيا منذ القرن الثاني عشر على أثر الفتح النورماني . فقد حدثت في بريطانيا آنذاك فورة في تشييد الكنائس والاديرة ، حتى قيل أن خمسمائة كنيسة بنيت فيها خلال عشرين سنة . (١)

---

(1) Pick And Knight (Pocket History Of Freemasonry) — London 1963 — P 16 — 17 .

يجب أن لاننسى ان تشييد الابنية الضخمة يحتاج الى حذق كبير ومعرفة دقيقة بالحساب والهندسة والمثلثات وبعض العلوم الاخرى ، وقد اعتاد أهل المهن قديما على كتمان معلوماتهم اذ هم يسمونها « سر المهنة » ولا يبوحون بها الا للمبتدىء الذي يدخل تحت رعايتهم وهو عادة من أبنائهم . وهذا هو ما كانت تفعله نقابات البنائين في بريطانيا أثناء فورة البناء تلك ، فقد كان أعضاؤها مسيحيين مخلصين ولايقبلون عضواً جديداً الا بعد أن يحلفه بالتوراة على أنه سيكون مخلصاً لاخوانه من أعضاء النقابة ، وأن يتقن عمله ، وأن يحافظ على الاسرار . (٢)

وكان للنقابات القديمة علاوة على ذلك رموز واشارات سرية يتعارف الاعضاء بها فيما بينهم . فهم كانوا يتنقلون من مكان الى آخر حسب مواقع الابنية التي يعملون في تشييدها ، وهم لذلك كانوا في حاجة الى ما يتعارفون به لئلا يدخل بينهم غريب يفسد عليهم أمرهم . (٣)

يعتبر يوم ٢٤ حزيران من عام ١٧١٧ ذا أهمية كبيرة في تاريخ الماسونية لانه اليوم الذي انتقلت فيه الماسونية من طورها القديم الى طور جديد . ففي ذلك اليوم اجتمع في لندن نفر من الماسونيين القدماء وقرروا تأسيس جمعية جديدة تختلف في أهدافها وطبيعة أعضائها عن النقابات القديمة التي كانوا ينتمون اليها . وبهذا نشأت الماسونية بشكلها الحديث .

كانت الماسونية القديمة تضم في نقاباتها البنائين فقط ، أما الماسونية الحديثة فهي تضم في محافلها كل من يريد الانتماء اليها بغض النظر عن مهنته على شرط أن يكون محترماً في مجتمعه وذا تفكير متنور . ويعزو هانكنز هذا التحول في الماسونية الى سببين : أولهما تضاؤل بناء الكنائس الضخمة ، والثاني نمو الافكار الانسانية والديمقراطية الحديثة . (٤)

---

(2) Hankins (Masonry) In The Encyclopedia Of Social Sciences — 1967

(3) Knoop And Jones (Introduction To Freemasonry) — Manchester 1937 — P 38.

(4) Hankins (op . cit)

ومما يلفت النظر أن الماسونية الحديثة حافظت على الكثير من طقوس النقابات القديمة ورموزها ، فنجد شعارها مؤلفاً من البركال والزاوية القائمة ، كما نجد فيها رموزاً أخرى مستمدة من مهنة البناء كالشاقول والمالج والقدوم والازميل والذراع والمثلث والمئزر . وينظر الماسونيون الآن الى هيكل سليمان نظرة احترام يشبه التقديس باعتباره أول بناء فخم أقيم لعبادة الله الذي يسمونه « مهندس الكون الأعظم » . وهم يحترمون كذلك رجلا من أهل صور القديمة اسمه « حيرام أبي » ، فقد كان هذا الرجل يتقن صنعة النحاس وقد استخدمه سليمان في زخرفة هيكله كما ورد في التوراة . ولهذا يطلق الماسونيون على أنفسهم كنية « أبناء الارملة » أشارة الى حيرام الذي وصفته التوراة بأنه كان ابن ارملة . (٥)

الماسونية والدين :

لم يمض على تأسيس الماسونية الحديثة في لندن سوى سنوات قليلة حتى كانت محافلها منتشرة في أكثر المدن الكبيرة في بريطانيا والقارة الاوربية ، ثم أخذت من بعد ذلك تنتشر في مختلف بقاع العالم .

يعلل بعض الباحثين سرعة انتشار الماسونية في العالم بأنها كانت بمثابة رد فعل للنزاع العنيف الذي كان سائدا بين الناس آنذاك من جراء اختلافهم في العقيدة والدين ، وهذا هو الذي جعل المحافل الماسونية تقبل في عضويتها كل متدين يغض النظر عن محتويات دينه حيث نجد فيها المسيحي واليهودي والمسلم والمجوسي والبوذي والكونفوشيوسي والبراهمي والبهائي وغيرهم .

تقوم فلسفة الماسونية على أن الاديان كلها متفقة على الايمان بوجود الله وبخلود الروح ، ولهذا فالماسونية تكتفي من العضو أن يكون مؤمناً بهذين الامرين ، وتترك له بعد ذلك حرية العبادة والعقيدة كما يشاء .

---

(5) Hawkins (Concise Cyclopedia Of Freemasonry) — London 1922 — P 10 — 11 , 225 .

وقد يصح القول ان الماسونية كانت بمثابة دعوة للتآخي بين الاديان ، ومن هنا جاءت مبادؤها الثلاثة المشهورة : « الحرية والاخاء والمساواة » .

ورد في الدستور الاول الذي وضعه جيمس أندرسن للماسونية الحديثة في عام ١٧٢٣ قوله : ان الماسونية القديمة كانت تلزم أعضاءها على اعتناق دين البلد الذي تعمل فيه ، أما الآن فقد رؤي حضهم على اعتناق ذلك الدين الذي يتفق عليه جميع الناس تاركين آراءهم الخاصة جانباً ، أعني أن يكون المرء فاضلا صادقا ذا عفة وشرف ، ولهذا صارت الماسونية مهدا للاتحاد وسبيلا لبث الصداقة الخالصة بين الناس . (٦)

وجاء في كتاب «الآداب الماسونية » ما نصه : «والماسونية تنور العقل وترشد الخاطر وتقلل التعصب ، فهي مع تشديدها على كل عضو باتباع شرائط دينه ، ومع امتناعها عن قبول الذين لم يعرفوا التدين ، تفرض على أعضائها التواد بغض النظر عن اختلاف المذهب ، وتمنعهم من المناظرة في الامور المذهبية التي توجب الضغائن وتولد التعصب وهو آفة العمران .. وهذه أكبر نعمة من نعم الماسونية جادت بها على البلدان التي دخلتها ، والادلة عليها ظاهرة فحيث تقوى الماسونية يضعف التحزب وتقوى الآداب ، وحيث لا توجد الماسونية يعم الجهل والانقسام ويكثر الشقاق بين الانام . » (٧)

وجاء في كتاب « الحقائق الاصلية في تاريخ الماسونية العملية » كذلك : « والماسونية منتشرة انتشارا يحسدها عليه أعظم الاديان الموجودة التي أمتدت في أربعة أقطار المعمور ، لان تلك تفرق في العالم بين الشعوب فمن عابد صنم وكافر وجاحد ومبدع ومخالف ، بينما نرى الماسونية فاتحة ذراعيها لقبول أولادها داعية اياهم اخوة ... فالماسونية تصلح ما فسد من عقائد الاديان بتعليمها المحبة والتواثق على السراء والضراء ... » (٨)

لا حاجة بنا الى القول ان هذه الدعوة الى التآخي بين الاديان

---

(٦) محمد عبد الله عنان (تاريخ الجمعيات السرية) ـ القاهرة ١٩٥٤ـ ص٩٦ .
(٧) شاهين مكاريوس (الاداب الماسونية) ـ القاهرة ١٨٩٥ ـ ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٨) شاهين مكاريوس (الحقائق الاصلية) ـ القاهرة ١٨٩٧ ـ ص ١٧ .

لابد أن تغضب رجال الدين • والواقع ان القساوسة ولا سيما الكاثوليك منهم اعتبروا الماسونية كأنها دعوة الى نبذ المسيحية ومن هنا بدأت الظنون والشبهات تحوم حول الماسونية في كل مكان ذهبت اليه • ومما ساعد على انتشار تلك الشبهات حول الماسونية ما كان لها من أسرار واشارات خاصة لا تبوح بها لأحد ، فصار خصومها يتهمونها بأنها تعقد اجتماعاتها مع ابليس وتستخدم السحر وتشتغل بالكيمياء •

وفي ٢٧ نيسان من عام ١٧٣٨ — أي بعد تأسيس الماسونية الحديثة بواحد وعشرين عاما — أصدر البابا كلمنت الثاني عشر بيانا أعلن فيه تحريمها واعتبر كل من ينتمي اليها مرتدا عن دينه • وهذا هو نص البيان:

« ان الانباء العمومية قد أفادتنا أنه تألفت بعض الجمعيات السرية تحت اسم فريماسون أو بنائين أحرار أو أسماء أخرى شبيهة بهذا تختلف باختلاف اللغات ، وأن هذه الجمعيات تزيد كل يوم انتشارا وعدوى ، ومن خواصها أنها تضم اليها رجالا من كل الاديان والشيع يتظاهرون خارجاً بالآداب الطبيعية وهم يرتبطون بينهم بروابط الاسرار الغامضة على مقتضى ما سنوه لهم من السنن ، فنراهم يقسمون على التوراة وتحت طائلة أشد العقابات بأنهم يسكتون أبدا عن اعمال جمعيتهم ، على أن الاثم مهما اختفى لابد أن ينكشف يوماً • وهذا ما جرى لتلك الجمعيات التي بلغ العموم شيء من أعمالها السيئة ، فحرك في قلوبهم الريب في صحة نياتها ، وتحقق العقلاء أن الانضمام اليها دليل على خبث الداخل فيه وعلى فساده • وحسبنا شاهدا على أن اجتماعاتها الخفية هي للشر لا للخير أنها تبغض النور • وقد ازداد اشمئزاز الناس العقلاء من هذه الجمعيات الى حد أوجب حمل كل الدول على معاكستها وتشتيت شملها • واذا فكرنا في الاضرار الجسيمة التي تنجم عن هذه الجمعيات السرية رأينا منها ما يوجب القلق سواء كان لسلام الممالك او لخلاص النفوس • ومن ثم بعد أخذ رأي اخوتنا الكرادلة وبعلمنا التام وبقوة سلطتنا الرسولية حكمنا وقضينا بأن هذه الشركات والجماعات المعروفة باسم الفريماسون وبأي اسم كان مثله يجب رذلها ونفيها • وبناء عليه نرذلها

نحن ونشجبها بقوة هذا المنشور الذي نريد أن يكون مفعوله مخلدا .
والحالة هذه نخطر بحكم الطاعة المقدسة على كل المؤمنين وعلى كل فـرد من أفرادهم من أي مرتبة أو حالة كانوا ، من اكليريكيين أو علمانيين ، من قانونيين أو غير قانونيين ، أن ينشئوا جمعيات ماسونية أو ينشـروها أو يساعدوها أو يقبلوها في بيوتهم او يدخلوا فيها او يحضروا حفلاتها ، وذلك تحت طائلة الحرم يسقط فيه المؤمن بذات الفعل ودون تنبيه خاص ، ونحفظ لنا ولخلفائنا الحل من هذا الخطأ ولا نسمح لاحد أن يحل عنه دون رخصتنا اللهم الا في ساعة الموت » . (٩)

كان هذا البيان البابوي ايذانا بنشـوب الصـراع الشـديد بين الماسونية والكاثوليكية . فقد بدأت الحكومات الكاثوليكية وخاصة فـي أسبانيا والبرتغال تطارد الماسونيين وتضطهدهم ، كما صـار الماسونيون من جانبهم يعلنون ثلب البابا ويحاربون المذهب الكاثوليكي بكل شدة .

بـين المحافظـة والتجديد :

يقدر عدد المحافل الماسونية في العالم ــ حسبما ورد فـي دائـرة المعارف الدولية لعام ١٩٦٤ ــ باثنـين وثلاثين ألف محفل ، ويقدر عـدد أعضائها ما بين الخمسة والستة ملايين . (١٠)

وليس للماسونية مركز عالمي عام لكن لها محافل رئيسية مستقلة بعضها عن بعض ، ولكل محفل رئيسي محافل اعتيادية تابعة له ، ويسمى المحفل الرئيسي « المحفل الاكبر » أو « الشرق السامي » أو « المجلس السامي » أو غير ذلك من الاسماء حسب اصطلاح المؤسسين لـه ، واذا أسس مثـل هذا المحفل في أحد الاقطار وجب الحصول على اعتراف المحافل الرئيسية من الاقطار الاخرى .

وللماسونية درجات أساسية ثلاث موجودة في كل المحافل تقريبـا

---

(٩) لويس شيخو (السر المصون في شيعة الفرمسون) ــ بغداد ١٩٦٦ ــ ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

(10) Gosnell (Masonry) in The Encyclopedia International -- 1964

وهي : المبتدىء والزميل والاستاذ ، وهي مأخوذة من مراتب البنائين القدماء . ثم أضيفت بعدئذ درجات أخرى عالية وهي تختلف باختلاف الطرائق المتبعة ، كالدرجة الثامنة عشر والثالثة والثلاثين في الطريقة الاسكتلندية القديمة المقبولة ، ودرجة النخل والصدف في الطريقة الامريكية ، والدرجة السادسة والتسعين في الطريقة المنفيسية ، ودرجة العقد الملوكي وفارس الهيكل والاستاذ المختار في طريقة يورك الخ ...

واذا أريد تأسيس محفل اعتيادي في مكان ما وجب اجتماع سبعة ماسونيين أو أكثر من درجة استاذ أو أعلا منها ، فيطلبون الاذن لهم بالتأسيس من المحفل الرئيسي في قطرهم اذا كان موجودا ، أو من محفل رئيسي في قطر آخر . وحين يتم تأسيس المحفل يجوز له قبول أعضاء جدد فيه حسب الاصول المتعارف عليها .

يمكن تصنيف الماسونية في العالم الى فئتين متمايزتين : محافظة ومجددة . فالماسونية المحافظة هي المنتشرة في بريطانيا واسكندنافيا والمانيا والولايات المتحدة ، وهي تدعو الى طاعة الحكومة والانسجام مع النظام القائم . أما الماسونية المجددة فهي المنتشرة في فرنسا وأوربا الجنوبية وامريكا اللاتينية ، وهي تدعو الى محاربة التسلط الديني والاستبداد السياسي .

يعزو الدكتور روسك الفرق بين الفئتين الى ما يحيط بكل منهما من ظروف سياسية واجتماعية مختلفة ، فالفئة الاولى من الماسونية تعيش في بلاد يسودها النظام الحر نسبياً وليس فيها صراع عنيف بين الكاثوليك والبروتستان ، ولهذا فهي لا تجد في نفسها حافزاً للتدخل في امور الدين والسياسة . أما الفئة الثانية فهي تعيش في بلاد تختلف عن تلك في أوضاعها الدينية والسياسية ، ولهذا فهي أصبحت ذات نزعة ثورية تجاه الاوضاع السائدة في بلادها قليلا او كثيرا . (11)

والملاحظ ان الماسونية المحافظة ذات مكانة محترمة في المجتمع الذي تعيش فيه ، وهي مكشوفة لا تتكتم الا في حدود معينة ، بينما

---

(11) Roucek (Social Control) — New York 1947 — P 800 .

الماسونية المجددة تميل الى التكتم بوجه عام وينظر اليها الناس بعين الريبة والاتهـــــام .

حين ندرس عظماء الرجال في البلاد التي تنتشر فيها الماسونية المحافظة نجد عددا غير قليل منهم ماسونيين . عثرت في أحـد المراجع الماسونية الانكليزية على قائمة باسماء العظماء الذين هم ماسونيون . [12] أذكـر فيما يلي بعضهم :

الملوك : أوسكار الاول ، شارلس الخامس عشر ، أوسكار الثـاني (السويد والنرويج) ، غوستاف الخامس (السويد) ، فردريك السابع ، فردريك الثامن (الدانمارك) ، اسـكندر الاول (روسيا) ، فردريـك الكبير ، فردريك وليم الثالث (بروسيا) ، القيصر فردريك (المانيـا) ، ليوبولد الاول (بلجيكا) ، جورج الرابع ، وليـم الرابع ، ادوارد السابع ، ادوارد الثامن ، جورج السادس (بريطانيا) .

رؤساء الولايات المتحدة : واشنطن ، مـونرو ، جاكسن ، بولـك ، بوكانين ، أندرو جونسن ، غارفيلد ، ماكنلي ، ثيودور روزفلت ، هاردنج ، كولدج ، ترومن .

القواد : نابليون ، ولنجتون ، نلسن ، كتشنر ، برشنج ، ماكارثر .

الكتاب : فولتير ، غوته ، دويل ، وايلد ، كبلنج ، توين .

المشاهير : بيتهوفن ، موزارت ، ميرابو ، مازيني ، غاريبالدي ، فورد ، أغا خان الثالث ، تشرشل ، فلمنج ، كيبل ، لندبرغ .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الماسونية ذات أهمية اجتماعية كبيرة في الولايات المتحدة ، وعدد الماسونيين فيها يفوق عددهم في أي قطر آخر في العالم ، ولهم في كل ولاية محفل رئيسي خاص بها حيـث يتبعه عدد كبير من المحـافل الاعتيادية . يقـول الدكتور روسـك : ان الماسونية تمثل الطبقة العالية في المجتمعات المحلية في الولايات المتحدة ، فالعضوية فيها تدل على المكانة المحترمة والنفوذ ، ولهذا فان نفوذ الشخص قد يزداد بانتمائه الى الماسونية ، وهو يعتمد على اخوانه الماسونيين فـي

---

(12) Pick And Knight (op . cit .) — P 290 — 292

الملمات • ويضيف الدكتور روسك الى ذلك قائلا : ان الماسونية في أعمالها الخيرية تقصر نفعها على أعضائها وعائلاتهم فقط ، ولذا فهي تختلف عن بعض الجمعيات الاخرى التي تحاول بأعمالها الخيرية معونة المعوزين عموماً كجمعية الروتاري مثلا" • (١٣)

الاشارة والاسرار :

العضو في أي محفل ماسوني يستطيع أن يطلب المساعدة من جميع الماسونيين في العالم ، وهناك اشارة سرية يتعارفون بها في أي مكان يتلاقون فيه ، وهي على انواع فمنها ما هو خاص بالمصافحة ، وآخر للاستغاثة من بعيد ، وثالث للتعارف من قريب ، والمظنون أنها تتبدل بين حين وآخر لكي لا يكتشفها الغريب فيستفيد منها •

حدثني صديق كان يدرس في مصر قبل أربعين سنة فقال انه ذهب الى المفوضية المصرية ببغداد في ذلك الحين ليحصل منها على سمة الدخول الى مصر ، ولم يكد يدخل الى غرفة الموظف المختص حتى نهض اليه الموظف مرحباً وأبدى همة في انجاز معاملته ، ثم أخذ بيده وذهب به الى غرفة مجاورة خالية وسأله : متى دخلت في الماسونية ؟ وقد تعجب الصديق من سؤاله هذا لانه لم يكن ماسونياً ولم يفكر أن يدخل الماسونية في يوم من الايام • وقد تبين له اخيراً أنه عند دخوله الى غرفة الموظف كان قد أبدى الاشارة الماسونية عن طريق الصدفة ومن غير قصد ، ولهذا ظن الموظف أنه ماسوني • وقد سألت الصديق عن ماهية تلك الاشارة التي أبداها فقال انه لا يعرفها ولا يدري كيف قام بها انما هي جاءت من تلقاء نفسها اعتباطاً •

وقد حدث لي شخصياً أني كنت في احدى الحفلات منذ سنوات ، فتقدم مني رجل لا أعرفه وصافحني ثم وضع ابهامه اثناء المصافحة في باطن كفي وأخذ يحركه بطريقة أثارت انتباهي ولكني لم أدرك مغزاها في حينها ، ثم بدا لي بعدئذ أنها ربما كانت اشارة ماسونية • وحدث لي

---

(13) Roucek (op . cit .) — P 302

مرة أخرى أن صافحني رجل فأمسك بأبهامي الايمن وضم راحة كفه حوله وأخذ يخرج الابهام ويدخله على طريقة الميل والمكحلة . وربما كانت هذه نوعاً آخر من الاشارة الماسونية ـ والله أعلم !

والمعروف أن للماسونية اسراراً أخرى علاوة على الاشارة السرية الخاصة بهم . ولا أكتم القاريء أني حاولت التعرف على تلك الاسرار فلم أوفق ، وكل ما حصلت عليه منها هو ما يذكره الخصوم عنها وهي حصيلة لا يوثق بها طبعاً ، فمن طبيعة الخصوم أنهم يبالغون في نقل المعلومات وقد يختلقونها اختلاقاً .

نشرت مجلة « القوات المسلحة » القاهرية في عددها الصادر في الاول من حزيران ١٩٦٤ تحقيقاً صحفياً كانت قد أجرته مع الفقيه المعروف الشيخ محمد أبو زهرة ، فقد كان هذا الرجل ماسونياً ثم خرج منها في غام ١٩٥١، وقد وجهت المجلة اليه بضعة أسئلة وكان أهم ما ورد في أجوبته للمجلة قوله : « استلفت نظري هيكل لآدمي كان موضوعاً في مدخل المحفل ، وقيل لي أنه لاحد الاعضاء وقد تبرع به بعد موته لكي يوضع في المحفل دليلاً على اخلاصه للماسونية حتى بعد موته ، كما أحسست أيضاً أن هناك أموراً لا يعلمها كل الاعضاء بل بعضهم فقط ، كما أحسست أنني كنت مراقباً لدرجة أنه لايسمح لي بدخول كل حجرات المحفل ، بل كانت اقامتي محدودة في غرفة واحدة فقط ... واعتراني الشك منذ اليوم الاول ولاحظت ان هناك تيارات خفية أما من ناحية المبادىء أو من الاشخاص ... »

يخيل لي أن رؤساء المحفل انما منعوا الشيخ أبو زهرة من الاطلاع على كل أسرارهم لانه كان عضواً مبتدئاً ، والمظنون أن العضو كلما ارتفع في الدرجات الماسونية زاد اطلاعه على اسرارها . وهذا أمر شهدناه لدى طائفة الشيعة الاسماعيلية عندما كانت تضطلع بدعوة سرية لمحاربة الخلافة العباسية ، فقد كان لتلك الدعوة سبع درجات وكلما ارتفع العضو في درجته انكشفت له أسرار من فلسفة الدعوة لم يكن يعرفها من قبل ، حتى

اذا وصل العضو الى الدرجة الاخيرة انكشفت له جميع الاسرار • (١٤)
وليس من المستبعد ان تكون الماسونية قد اقتبست هـذا التنظيم مـن الاسماعيلية قديماً عن طريق الفرسان العائدين من الحروب الصليبية •

وهناك صيغة لليمين يحلف بها العضو عند انتمائه للماسونية ، وهذه الصيغة تختلف باختلاف الطرائق المتبعة ، نذكر فيما يلي نموذجاً منها هو : « أنا فلان أقسم بالله الرحيم مهندس الكون الاعظم في حضرة هذا المحفل الموقر وأتعهد أمام الحاضرين أني أصون وأكتم الاسرار الماسونية التـي تباح لي ولا أبوح بشيء منها ، وأقسم أيضاً أني لا أكتب هذه الاسرار ولا أطبعها ولا أدل عليها وأن أمنع بكل قدرتي من يريد أن يفعل ذلـك كي لا تكشف أسرارنا لغير أبناء عشيرتنا ، وأقسم بشرفي بلا مواربة أنـي أحافظ على قسمي هذا وأتـودد الى اخـواني وأعضاء محفلي وأساعدهم وأعاونهم في احتياجاتهم وأواضب على الحضور في جلسات المحفل بقـدر استطاعتي وأحافظ على طاعة قانون المحفل الاكبر • وان حنثت في يميني أكن مستحقاً قطع عنقي واستئصال لساني والقـاء جثتي لطيور السـما ولحيتان البحر • واني راض بأن جثتي تعلق في محفل ماسوني لاضحى عبرة للداخلين من بعدي ثم تحرق ويذر رمادها في الهواء » • (١٥)

وهنا قد يواجهنا سؤال : لماذا هذا الحرص الشديـد من الماسونية على كتمان أسرارها ؟ يجيب شاهين مكاريوس على ذلك بقوله : « ولذلك أسباب كثيرة اهمها أن الماسونية تأسست فـي أيام الظلم والاضطهـاد ، وكان أعضاؤها يخافون من أهل الفسـاد والاستبداد اذا هـم صرحـوا بنواياهم على التكاتف لترقية المظلومين واعانة الادباء على نشـر المبادىء الحرة بين العالمين ، فجعلوا أمورهم سرية ، ونحن ورثنا عنهم هذه الغايات الشريفة والتعاليم السامية ، فوجب علينا أن نقتفي آثارهم فيها ، ونكتـم الأسرار التي كتموها ••• وليس استتار الامور الماسونية شيئاً جـديداً في الوجود فقد جرى على ذلك أشهر الحكماء والفلاسفة من أيام القدم

---

(١٤) علي الوردي (منطق ابـن خلدون في ضـوء حضارته وشـخصيته) ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦

(١٥) لويس شيخو (المصدر السابق) ــ ص ٦٧ ــ ٦٨ •

اذ كانوا يعلمون الحقائق ويكتمونها في صدورهم فلا يلقونها الا للمستحق على الطريقة الماسونية الحالية ، وذلك خوفاً على الحقيقة من اضطهاد الجاهلين ، وصوناً لها من العبث اذا تناقلتها أفواه المتشدقين ... » (١٦)

ومما يجدر ذكره أن خصوم الماسونية يتهمونها بأنها تغتال العضو الذي يبوح بأسرارها ، ويروون في ذلك قصصاً عجيبة ، ولكن الماسونيين يبرئون أنفسهم من مثل هذه التهمة ويعتبرونها من اختلاق الخصوم .

وعلى أي حال فقد حدثت في الولايات المتحدة عام ١٨٢٦ حادثة لها مغزاها في هذا الشأن خلاصتها أن رجلاً اسمه وليم مورغان كان قد أطلع على أسرار الماسونية واتفق مع أحد الصحفيين على كشف تلك الاسرار ، وقد بذل الماسونيون بعض الجهود لاسكاته من غير جدوى. (١٧) وبعد قليل قبضت الشرطة عليه بتهمة السرقة ، فمكث في الحبس ليلة واحدة ثم نقل الى قلعة نياغارا وحبس هناك بضعة أيام ، ثم اختفى أثره بعدئذ ولم يعرف عنه شيء . (١٨) وصارت هذه الحادثة ذريعة بأيدي خصوم الماسونية في الولايات المتحدة فشنوا عليها حملات شعواء ، وهاجموا بعض قاعاتها وأغلقوا الكثير من محافلها ، واستمروا على ذلك عشر سنوات . (١٩)

ان المؤرخين الماسونيين حين يذكرون هذه الحادثة يحاولون تبرئة الماسونية من تهمة قتل الرجل ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بما يكشف الغموض عنها . والذي يرجح في الظن ان الماسونية كان لها ضلع في الحادثة على وجه من الوجوه .

الماسونية وبريطانيا :

ان العلاقة بين الماسونية وبريطانيا أقوى مما هي بينها وبين أية دولة

---

(١٦) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) — ص ٣٩ .

(17) Pick And Knight (op . cit .) — P 235 .

(18) Hawkins (op . cit .) — P 159 .

(19) Pick And Knight (op . cit .) — P 236

أخرى • رأينا سابقاً كيف أن الماسونية نشأت في بريطانيا ومنها انتشرت الى بقية أقطار العالم ، والواقع ان الماسونية لم تلق في بريطانيا أي منع أو اضطهاد على نحو ما لقيت في الكثير من البلاد الاخرى ، وعندما أصدر البرلمان البريطاني في عام ١٧٩٨ قراره بمنع الجمعيات السرية استثنى منها الجمعية الماسونية • [٢٠] وقد دخل في الماسونية خمسة من ملوك بريطانيا هم : جورج الرابع ، ووليم الرابع ، وادوارد السابع ، وادوارد الثامن ، وجورج السادس • وقد دخل في الماسونية أيضاً زوج الملكة الحالية •

يمكن القول ان بريطانيا أفادت الماسونية كمثل ما استفادت منها ، فقد كان البريطانيون ينشرون الماسونية في كل مكان ذهبوا اليه تجاراً أو مستعمرين أو فاتحين ، وقد استطاعوا في الوقت نفسه أن يجعلوا لهم بوساطة الماسونية كثيراً من الاصدقاء والانصار في البلاد التي ذهبوا اليها•

في عام ١٨٨٥ ألقى الجنرال ولسلي ــ وهو القائد البريطاني الذي فتح مصر وقضى على ثورة عرابي في عام ١٨٨٢ ــ كلمة في محفل ماسوني في ليفربول قال فيها : « اني سافرت في معظم الامصار ، وجبت الاقطار ، وعانيت الشدائد والاهوال ، وقاسيت كل مر في القتال ، وبليت بمر الدهر كما حظيت بحلوه ، وتقدمت والحمد لله في مدارج الفخر والرئاسة ••• وها أنا اقول أمامكم اليوم قولا لا ريب في صحته هو أني استسهلت الصعب وسخرت بالاهوال في كل البلاد لاني حيث توجهت كنت ألقى لي اخواناً من الماسون يرحبون بي ويساعدونني على ما أريد ، ولست ارتاب في أن نجاحي كان لاني أستاذ في الماسونية » • [٢١]

ويعتز الماسونيون بالملك ادوارد السابع بوجه خاص ، ويقدرونه كل التقدير ، لانه كان شديد الحب للماسونية وقد بذل كل جهده في سبيل ترقيتها ونشرها في أنحاء الامبراطورية البريطانية التي كانت في عهده لا تغيب الشمس عنها •

---

(20) Roucek (op . cit .) — P 301

(٢١) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) ــ ص ٦١

دخل هذا الرجل في الماسونية عام ١٨٧٠ وكان يومذاك ولي عهد أمه الملكة فكتوريا .وبعد أربع سنوات من دخوله الماسونية انتخب استاذاً أعظم للماسونية ، وقد جرت حفلة تنصيبه في قاعة « ألبرت » المشهورة في لندن ، وكانت حفلة عظيمة اذ اجتمع فيها من الماسونيين عدد لم يجتمع مثله في التاريخ . (٢٢)

وفي ١٣ حزيران ١٨٨٧ جرى الاحتفال في لندن بالعيد الخمسيني لجلوس الملكة فكتوريا على العرش ، وانتهز الماسونيون الفرصة فأرسلوا مندوبين عنهم الى لندن ، وكان عددهم يزيد على سبعة آلاف ماسوني يمثلون ألفاً وسبعمائة محفل من شتى أنحاء العالم . وقد أعدوا احتفالا خاصاً بهم في قاعة فسيحة بمدينة لندن حضروها بملابسهم الماسونية وجلسوا حسب درجاتهم . وقام ولي العهد فألقى كلمة أعرب فيها عن سروره الزائد بهذا الاحتفال ، ثم قال : « اني افتخر بكوني من ذرية ملوك ساعدوا الماسونية منذ عهد قديم ونشطوها لعلمهم أن مبادءها صادقة، وأعمالها وان خفيت على بعض الناس مآلها كلها الى خير الانسانية » . وبعد أن انتهى من كلمته نهض سكرتير الحفلة الكولونيل كلارك فألقى كلمة بالنيابة عن المحافل الماسونية خلاصتها أن الماسونيين في جميع الاقطار التابعة لبريطانيا يعربون عن اخلاصهم للحكومة وحبهم لشخص الملكة ، ويطلبون من مهندس الكون الاعظم أن يطيل بقاءها وأيام حكمها . ثم قام اللورد كارنافون راجياً أن تحظى تلك الكلمة بالقبول وأشار الى مساعدة العائلة المالكة الانكليزية للماسونية وقال : « ان هذه الجمعية ترأس عليها سبعة عشر أميراً من بيت الملك في أوقات مختلفة ، وان جلالة الملكة فكتوريا هي ابنة ماسوني ، وأن أكثر أعضاء عائلتها الشريفة ماسونيون » . وقام اللورد لاتوم فأيد رأي اللورد كارنافون بأن تحظى الكلمة بالقبول ، وعند هذا أجمع الحاضرون على قبولها ، وعزفت الموسيقى بالسلام الملكي ، ثم وقف الجميع وصفقوا ثلاث مرات للملكة ، وعزفت الموسيقى مرة أخرى .

---

(22) Pick And Knight (op . cit .) — P 130 .

وفي ٢٢ حزيران ١٨٩٧ جرى احتفال آخر في لندن بمناسبة العيد الستيني للملكة فكتوريا حضره ثمانية آلاف ماسوني ، وقدموا للملكة عريضة تهنئة . وكان سكرتير الاحتفال دوق كنوت الابن الثاني للملكة ، فلما انتهى الحاضرون من توقيع العريضة أخذ الدوق القلم الفضي الذي وقعوا به واحتفظ به وقال : « هذا أعظم قلم كتب كتابة ماسونية في تاريخ البشرية وسأحفظه أثرا خالدا لهذا الاجتماع » ، فصفق الحاضرون « حتى كادت أساسات البناء تتزعزع » . ثم تواردت الرسائل والبرقيات من الماسونيين في مختلف أرجاء الارض بالتهنئة للملكة . [٢٣]

وفي عام ١٩٠١ ماتت الملكة فكتوريا فخلفها على العرش ولي عهدها. وقد اضطر الملك الجديد أن يستقيل من منصب « الاستاذ الاعظم » للماسونية ، فاختير أخوه دوق كنوت بدلا عنه ، أما هو فقد أصبح « حاميا » للماسونية . وقد استمر دوق كنوت رئيساً للماسونية ثمانية وثلاثين عاما ، ويعتبر عهده أعظم عهود الماسونية اذ هي ازدهرت فيه ونجحت نجاحاً عظيماً . وحين اضطر هذا الدوق أن يستقيل من الرئاسة لسبب صحي في عام ١٩٣٩ اختير دوق كنت في مكانه . وظلت الرئاسة الماسونية حتى الآن يتعاقب عليها أمراء العائلة المالكة البريطانية واحدا بعد الآخر . [٢٤]

الطقوس الماسونية :

للماسونية طقوس عجيبة يحرصون على القيام بها عند تأسيس محفل من محافلهم ، أو عند قبول عضو جديد فيه أو ترقيته أو موته . وهذه الطقوس تختلف باختلاف الطرائق المتبعة انما هي في الاساس واحدة .

وتجري الطقوس بشكل تمثيلي حيث يقوم الاعضاء بتمثيل الادوار فيها حسب درجاتهم ومناصبهم . والى القاري نموذجاً منها أنقله عن أحد

---

(٢٣) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ القاهرة ١٨٩٩ ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(24) Pick And Knight (op . cit .) — P 130 — 135 .

المراجع الماسونية [٢٥] وهو خاص بترقية أحد الاعضاء الى الدرجة الثامنة عشرة حسب الطريقة المتبعة في المجلس السامي المصري لعام ١٩٢٦ .

يتم اعداد ثلاث غرف في المحفل احداهما سوداء والثانية حمراء والثالثة تحضيرية مع فرش الارض ووضع الاستار والرموز فيها حسبما يقتضيه دستور الطريقة ، ويقوم بالادوار فيها الرئيس ويلقب بـ « كلي الحكمة » ، والمحافظان الاول والثاني ، والامراء ، والخبير ، وحارس الحصن ، وفارس البلاغة ، وروفائيل ، بالاضافة الى طالب الترقية . وعند افتتاح الحفلة يعلن الرئيس اسم الطالب فينسحب الامراء الى الغرفة السوداء حيث يلبسون ملابس سوداء ومئزر أسود ، وعلى أثر ذلك يسمع طرق على الباب ، فتجرى المحاورة على النمط التالي :

المحافظ الثاني : انذار خطر أيها الاخ كلي الحكمة .

الرئيس : ايها المحافظان الاول والثاني انظرا من الذي اتي ليزعجنا ؟

المحافظ الثاني : (يذهب الى الباب ويستفهم من الخبير عن الطارق) ممن هذا الانذار ؟

الخبير : هذا فارس الشرق والغرب المستحق سلمني طلباً وعرض على الأخ كلي الحكمة ، وهو الآن يلتمس الدخول للحصول على الرد .

المحافظ الثاني : انتظر حتى أخبر كلي الحكمة (يتوجه نحو الرئيس) فارس الشرق والغرب المستحق قدم التماساً لك أيها الاخ كلي الحكمة بواسطة الخبير ، وهو الآن يلتمس الدخول ليستلم الجواب .

الرئيس : قل للاخ الخبير أن يقوده الى هنا .

الخبير : (يدخل مع الطالب ويقفان في الغرب) ايها الاخ كلي الحكمة اقدم لك الاخ « فلان » .

الرئيس : من أنت ومن تكون ؟

الطالب : ولدت شريفاً ومن قبيلة جوداه .

الرئيس : ما هي رتبتك ؟

الطالب : فارس الشرق والغرب .

---

(٢٥) عبد المجيد يونس (الدرجة الثامنة عشر ـ درجة الفرسان الحكماء) ـ القاهرة ١٩٢٦ ـ ص ٢١ ـ ٢٨ .

الرئيس : اعطني الكلمة (يأخذ الكلمة ويستفهم عن عمر الطالب ثم يواصل كلامه) لقد قبل المقام التماسك ، ولكن مع اعجابنا بجدك وشجاعتك وثقتنا بأمانتك وحسن سيرك نأسف بأنك أتيت الينا في وقت نحن محاطون فيه بالاكدار والاحزان العميقة ، فترى دلائل الرعب على وجوهنا ، لان الارض تزلزلت ، والصخور تشققت ، وحجاب المحراب تمزق الى شطرين (يُسمع صوت ناقوس وتزاح الستائر التي أمام المذبح الى الجوانب) وقد خيم الظلام ، فقد هدمت مذابحنا ، وانسكب من الحجر المكعب دماء وماء ، فخسف النجم الساطـع ، وضرب راعينا ، وفقدت الكلمة (سكوت وموسيقى بطيئة) ومع ذلك فقد أحسنت بوصولك في ساعة الخطر هذه ، لانه بما أنك برهنت بأنك فارس شجاع باسل فنحن نثق بأنك ستساعدنا في مساعينا لتعوض خسارتنا ونسترد الكلمة ، وفي هـذه الحالة فقط نتمكن من انالتك هذا الترقي الذي ترغب فيه باخلاص •

الطالب : اني أعد بأمانة بأن أساعدكم في أعمالكم وأن أطيع كـل ما تأمرونني به •

الرئيس : اذن ايها الفارس المستحق اني أشير عليك بأن تسافر ثلاثة وثلاثين يوماً ، أحد عشر يوماً الى الشمال ، وأحد عشر يوماً الى الجنوب، وأحد عشر يوماً الى الغرب ، عائدا الي من الشرق بكل ما تتحصل عليـه من المعلومات أثناء سفرك ، واني ألفت نظرك بنوع خاص الى جمال عهدنا الجديد السامي ولكي تتمكن من تقديره حق قدره دعنا نسـأل الله أن يمنحنا المعونة وحسن الختام (يتلو صلاة ثم يواصل كلامه) ان الاخ الخبير سيقودك الى عامود الحكمة في الشمال ، ثم الى عامود الجمال في الجنوب، ثم الى عامود القوة في الغرب ، فاذهب بسلام (تنطلق موسيقى رهيبـة بينما يسير الطالب في سفره وراء الخبير ، وفي كل مرة يمر بها أمام المحراب ينحني ، وعند وصوله الى الاعمدة في الدورة الثالثة والخامسة والسابعة يأخـذ الحروف ألف وراء وميم الموضوعة هنـاك واحـدا بعد الآخر ، ثم يقف في الغرب) •

الخبير : ايها الاخ كلي الحكمة أقدم لك فارس الشـرق والغـرب هذا الذي أتم سفر الثلاثة والثلاثين يوما المفروضة عليه •

الرئيس : ما الذي حصلت عليه أثناء سفرك .

الخبير : لقد بحثنا في الداخل وحول الاعمدة ، في الشمال والجنوب والغرب ، عن الكلمة المفقودة ، ولكننا لم نفز الا بالحصول على الحروف، التي تتشرف بتقديمها اليك .

الرئيس : (يتسلم الحروف) اني أهنئك على النجاح الذي وفقت اليه في سياحاتك . هذه الحروف الاولى من أسماء الفضائل التي نرجو أنك بمساعدتها تتوفق الى اكتشاف الكلمة المفقودة . ولكن قبل أن أزيدك أيضاحاً يجب عليك أن تقسم قسماً رهيباً بانك تحفظ أسرار ورموز هذه الدرجة وأعمال مقامنا الخفية حفظاً تاما ، فهل أنت مستعد لاداء هذا القسم العظيم (يجيبه الطالب بكلمة نعم) اذن تقدم واركع أمام المحراب وضع يدك اليمنى على الكتاب الكريم بينما تجعل اليد اليسرى تقاطع اليمنى ، واذكر اسمك بالكامل واتبعني فيما أقول (يتلو القسم) أرجوك أن تختتم هذا القسم بتقبيل الكتاب الكريم سبع مرات (يفعل الطالب ذلك) انهض ايها الفارس (ينهض الطالب ويعود الى الغرب) أرى من الواجب أن أعلمك أن السبعة دوائر التي سافرت حولها تمثل الازمنة الستة لخلق العالم التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى في ستة أيام ثم استوى على العرش . لقد هنأتك من قبل على عودتك السعيدة من أسفارك ، وعلى وجدانك الحروف الاولية لا سيما الثلاث مبادىء الاولية لنظامنا أي درجتنا وهي ألف وراء وميم ، والتي بمساعدتها — وليس في ذلك شك ان شاء الله — ستنجح تماماً في الوصول الى نهاية غرض جميع أبحاثنا ، وهي تلك الكلمة التي يجب أن يتوقف عليها خلاصنا الابدي ، لان الايمان هو مادة الاشياء التي نأملها ، وهو الثقة بالاشياء التي لا نراها . ولان الرجاء لا يخجل ، ولان المحبة تتحمل كثيرا وهي شفوقة لا تحسد ولا تفاخر بنفسها ولا تطلب لنفسها ولا تغضب بسهولة ولا تفكر بالسيئات ولا تسر بالاثم ولكن تسر بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء ، المحبة لا تسقط ابدا فلنصلي (يتلو فارس البلاغة الصلاة) يمكن للطالب الآن أن يذهب ويستعد بالتأمل فيما أوحى به الكتاب الكريم بالتمرين على الايمان والرجاء .

عند هذا يخرج الطالب ثم يدخل مرة أخرى ليمثل دور المسافر الباحث عن الكلمة المفقودة ، وبذا ينتهي القسم الاول من الطقوس • أما القسم الثاني فيبدأ بموكب مؤلف من جميع الاعضاء مرتبين حسب درجاتهم، ويدور الموكب في الغرفة السوداء بينما تعزف الموسيقى ألحانا رهيبة ، والكل ينحنون كلما مروا بالمحراب • ثم يدخلون بعدئذ في الغرفة الحمراء ما عدا الخبير والطالب فان حارس الحصن يمنعهما من الدخول ويطلب منهما اعطاء الكلمة ، وتجرى المحاورة التالية :

الخبير : لا يمكننا ، كلانا مسافران للبحث عن الكلمة المفقودة آملين أن تتحصل عليها بالمثابرة على الايمان والرجاء والمحبة ومساعدة الاله الحي القيوم •

حارس الحصن: ان مظهر ملابسكما لا يتفق مع الخشوع الذي يجب ان يكون فيه أولئك الذين يرغبون في استرداد الكلمة المفقودة • ارجعا وارتديا ثياب الخضوع لأتمكن من ارسال روفائيل لاحضاركما •

يعود الطالب والخبير الى الغرفة التحضيرية حيث يوضع على رأس الطالب شاش أسود ويجرد من الجواهر والملابس الماسونية كلها ، وفي الوقت نفسه يسمع صوت قرقعة ويخفت النور وتوضع على الارض عظام وجماجم مع قليل من الملح ، وتعزف موسيقى بطيئة ، وينسحب الخبير ليترك الطالب وحده • وبعد قليل يأتي اليه روفائيل •

روفائيل : اني آت لأقودك تحت الظلام من وادي الموت الى قصر النعيم • فيجب أن تقاسي في بادىء الامر أخطارا ومصاعبا وأهوالا ، لكن تشدد وتمسك بالفضائل التي تحصلت عليها • فالايمان سيساعدك اذا ما يئست ، والرجاء سيشجعك في طريقك ، والمحبة ستلهمك الصواب عند كل امتحان • وبعد أن تكون قد سافرت في وحدة الظلام لتصل الى دار النعيم فاقترب مني واتبعني • (تعزف الموسيقى نغمة حزن ثم تتغير النغمة شيئاً فشيئاً الى دور فيه شيء من السرور ، بينما روفائيل يأخذ الطالب الى الغرفة الحمراء ويضعه في الغرب ثم يخاطب الرئيس) ايها الاخ الكلي الحكمة اني أحضر معي هذا الفارس الباسل الذي سافر وسط الاخطار والمصاعب ووادي ظل الموت باحثاً عن الكلمة المفقودة ،

وبما أنه حصن نفسه بتمسكه بالثلاث صفات الاصلية وهي الايمان والرجاء والمحبة فهو يتوسل الآن أن يكافأ على جليل أعماله .

الرئيس : يا أخ روفائيل نحن لا نشك في أن هذا الفارس الباسل المشمول بمساعدتك القوية يستحق كل امتياز وسأطلب منه الآن أن يرقى السلم الذي يقوده من الظلام الى المجد والكمال . وعلى كل حال دعني أولا أسألك كيف أتيت الى هنا ؟

روفائيل : بين ظلام ومصاعب وأخطار .

الرئيس : بم تشجعت ؟

روفائيل : بقوة الايمان والرجاء والمحبة .

الرئيس : ماذا تأمل الحصول عليه ؟

روفائيل : الكلمة المفقودة .

الرئيس : لقد فعلت خيرا فكن على تمام الاستعداد لتصعد على السلم السري الذي يقودك الى درجة الكمال والنصر ، ويمكنك أن تتقدم وتقف عند كل درجة وتجيب على أسئلتي كما يفعل مرشدك الذي سيمدك بارشاداته ، والاله الحي القيوم يساعدك (تستمر المحاورة على شكل سؤال وجواب عند صعود كل درجة من درجات السلم حتى يصل الطالب الى الدرجة السابعة) ايها الفارس الباسل لقد نجحت في وجود الكلمة المفقودة بمساعدة الايمان والرجاء والمحبة (ينزع عن رأسه الشاش الاسود) لقد وجدت بالايمان وردة شارون وأصبحت قادرا على ادراك من لا يتركك ، ولقد تحصلت بالرجاء على البركات السماوية التى تسليك في حالات اليأس والخطر وتعلمك وقت الضيق وكيف تتمسك بالصبر حتى يأتي الله بالفرج والمحبة ، كللت بكل فضيلة . والآن خذ الحروف الاولية لاسماء الكلمات الاربعة الاخيرة لسياحتك وضعها معا تجد اسما هو الكلمة . والآن ايها الفارس المستحق بما أنك قد وجدت الكلمة فاني أسأل فارس البلاغة أن يضعها في المكان المخصص لها .

وهنا يضع فارس البلاغة الحروف فوق الحجر المكعب على المذبح، ويجثو الجميع على ركبهم بينما هم يشيرون بأصابعهم الى الحروف ، ثم يقومون ويعطون العلامة السرية التي لا يعرفها سوى الماسونيين فقط

وهي « العبـ ... » • ويقترب الطالب من الشرق فيركع ، ويضع الرئيس السيف على كتفه الايمن ويمنحه رتبة الحوصل والنسر ، وأمير من أمراء الصليب الوردي ، ثم يقدم له وردة ترمز الى وردة شارون ، ثم يعطيه علامات هذه الدرجة وأولاها علامة « العبـ ... » • وبعد محاورات وطقوس أخرى تتم الحفلة حيث ينطق فارس البلاغة بالكلمة « ... » ويأمر الرئيس : « عودوا الى أماكنكم أيها الامراء » •

دوافع الانتماء :

عندما نرى كثرة انتشار الماسونية في العالم لابد أن نسأل : ما هو السبب الذي جعل الناس ينتمون اليها بهذه الكثرة ؟ يقول شاهين مكاريوس : ان الدوافع التى تدفع الناس الى دخول الماسونية مختلفة أهمها ثلاثة هي : (١) حب الاطلاع على الاسرار الماسونية ، (٢) الرغبة في الحصول على المساعدة التي تقدمها الماسونية لمن ينتمي اليها ، (٣) الاعجاب بالماسونية ومبادئها • وفي رأي شاهين ان الذين يدخلون الماسونية من أجل الاطلاع على أسرارها أو نيل مساعدتها قليلون ، أما الذين يدخلونها بدافع الحب لها والاعجاب بمبادئها فهم الاكثرون ، وهو يصفهم بقوله : « هم الفريق الاعظم والحمد لله من الماسون ، وهم الركن الاكبر للبناء الفخيم الذي أسسه لنا الاجداد العظام في العصور الخالية » • (٢٦)

حين ندرس هذا القول في ضوء ما نعرفه عن الطبيعة البشرية يصعب علينا الموافقة عليه ، فالواقع أن اكثر الذين يدخلون الماسونية هم من الذين يطمعون أن ينالوا منها المساعدة أو المنفعة على وجه من الوجوه ، أما الاعجاب بها وبمبادئها فيأتي في الدرجة الثانية • ولست أقول هذا في شأن دخول الماسونية فقط بل هو يصدق على كل عمل يقوم به الانسان في الغالب • فمن طبيعة البشر بوجه عام أنهم يركضون وراء مصالحهم المادية أو المعنوية ثم يتظاهرون بأنهم انما فعلوا ذلك حباً بالمبادىء السامية

---

(٢٦) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ــ ص ٨٠ ــ ٨٤ •

والمثل العليا • لا أنكر وجود بعض الافراد الذين يعشقون المباديء السامية ويضحون بمصالحهم في سبيلها ، ولكن هؤلاء قليلون جـدا ، اما اكثـر الناس فهم مثلي ومثلك من الذين يقولون ما لا يفعلون •

يحدثنا شاهين مكاريوس تفسه عن السبب الذي حدا به الى دخول الماسونية فيقول : « لما كان عمري ثماني عشرة سنة كنت مقيما في مدينة بيروت بسورية ومستخدما في مطبعة الامريكان ••• وكان رئيسي فـي عملي الخواجه صموئيل هلك الاميركي وهو ماسوني ، وكان يكرهني لان تربيتي لم تكن توافق تربيته ، فقلت في نفسي : لعلي اذا دخلت الماسونية أستفيد منها وأتمكن من ارضائه ••• وقدمت طلبي بواسـطة الدكتور غربيلي ومكثت انتظر نحو نصف سنة وأنا أسأل ولم يجبني أحد ، وبعـد مضي سنة من طلبي الاول أجابوني بالرفض ، فتكدرت كدرا لا مزيـد عليه ، واستقصيت عن السبب فعلمت ان صغر سني كان السبب الاكبـر لرفض طلبي ، فعزمت على تجديد الطلب وقدمته ثانية ، وبعد مضي نحـو شهرين من تقديمه أخبرني الخواجة ابراهيم غبريل أن استعد للدخـول ، فدفعت أربع عشرة ليرة فرنسوية رسوم تكريس وترقية للدرجتين الثانية والثالثة وثمن وليمة بسيطة ••• » (٢٧)

أستطيع أن أقول ان الماسونية لو لم تكن تؤدي لاعضائها بعض المنافع لما انتمى اليها الا القليل من الناس ، ولربما ماتت بعد ولادتها بزمن قصير •

ان الماسونية كانت منذ بداية أمرها ــ وما زالت حتى الآن ــ تحرص على أن تضم في محافلها أشخاصا من ذوي النفوذ أو الثروة أو المكـانة العالية في المجتمع ، وهذا أمر يؤدي بطبيعته الى اغراء الكثير من النـاس الى الانتماء اليها • ان الانسان يميل عادة الى الدخول في زمرة طبقة أعلا من طبقته ، وهذا في رأيي هو مفتاح السحر الذي امتلكتـه الماسـونية وجعلت الناس يتهافتون عليها •

ان صغار الناس يجدون في الماسونية مجالا للتقرب مـن الـكبار ونيل صداقتهم ، أما الكبار أنفسهم فهم قد يجدون في الماسونية مجـالا

---

(٢٧) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ ص ١١٧ ــ ١١٨ •

لتكثير أنصارهم ودعاتهم بين الجمهور • وهكذا تكون المنفعة متبادلة بين صغار الناس وكبارهم عن طريق الماسونية •

ان الماسونيين يطلقون على انفسهم اسم « العشيرة » ويقصدون بذلك أنهم كافراد العشيرة في ولائهم بعضهم لبعض وفي تضامنهم في السراء والضراء • وكل واحد منهم يعتبر الآخر أخاً له ويناديه « يا اخي » ، واذا ذهب أحدهم الى اخ له في الماسونية وأبدى له الاشارة السرية فالمفروض في هذا الاخ أن ينهض لمساعدته بأقصى جهده •

ورد في كتاب « الدستور الماسوني العام للطريقة الاورشليمية » ما نصه : « ••• وعلى كل ماسوني أن ينتبه ويمتحن من يتعرف به ، حتى متى تحقق صدق أخويته يكرمه ويعينه ، واذا احتاج الى عمل يساعده لنيله ويرشده ويوصي به الآخرين ليتمكن من توظيفه في المحل المناسب له ، وعليه أن يبذل جهد طاقته لمساعدته ، واذا كان صاحب عمل عليه أن يفضل أخاه على من سواه من الفقراء والمعوزين » • [٢٨]

ويذكر شاهين مكاريوس : أنه عندما كان في مصر جاء اليه أحد المواطنين فأبدى له الاشارة الماسونية وأخذ يستنجد بـه لانـه محكوم عليه بالعزل من الوظيفة وبالسجن ستة أشهر ، وأنه بريء مظلوم ، فكتب شاهين رسالة ماسونية الى رئيس الموظف يرجوه فيها أن يسمح لـه بمقابلته ، وبعد الاصرار على الرئيس سمح بمقابلة الموظف وعفا عنه وقال لـه « أصلح سيرتك وسريرتك وأنا أعيدك الى أحسن من وظيفتك » • ويعلق شاهين على ذلك قائلا : « وهكذا كانت الماسونية واسطة لانقاذ ذلك الرجل من السجن وحفظت كرامته وكرامة عائلته ، ويشهد الله انني لم أدعه يخسر قرشاً واحدا ولم آخذ منه شيئاً • وعاد الرجل الى أهله قرير العين طيب الخاطر • » • ثم يضيف شاهين الى ذلك قائلا : « أما الرجل الذي سعيت له هذا السعي وخدمته هذه الخدمة فما عدت رأيته من زمن مديد ، ولم يشكرني على صنيعي معه ، وقد استغربت عمله ولما سألت عنه علمت عنه أنه « فلان » وهو من محفل الشمس في مصر التابع للمجلس

---

(٢٨) شاهين مكاريوس (الدستور الماسوني العام) ــ القاهرة ١٩٠٧ ــ ص ١٠ •

الاعلى الفرنسوي ، وهذا المحفل غير معروف الآن رسميا لدى المحفل الاكبر الوطني المصري » • [٢٩]

في الغربة والحرب :

من أهم المنافع التي يجنيها الماسوني من انتمائه اليها هي مساعدة اخوانه له في السفر والغربة • فالمحافل الماسونية منتشرة في مختلف أنحاء الارض ، ويستطيع الفرد الماسوني أن يطلب المعونة منهم عند حاجته اليها في أي مكان يذهب اليه • فهو اذا كان في بلدة لا يعرف فيها أحدا ذهب الى الاماكن العامة التي يرتادها الناس عادة كالمتنزهات والملاهي ودور السينما والمسارح والمعابد ، وأخذ يبدي الاشارة الماسونية ، وحين يلمح اشارته أحد الماسونيين يسرع اليه ليسأله عن حاجته ويحاول مساعدته جهد امكانه •

يقول شاهين مكاريوس في كتابه « الآداب الماسونية » : « لا يخفى ان هذه الجمعية الشريفة أكثر امتدادا على وجه البسيطة من غيرها ، ولذلك يغلط الاخوة المتغربون الذي يخفون أنفسهم عن اخوتهم لانهم يخسرون معاضدتهم • وطريقة التعرف بين الاخ وأخيه معروفة بين الماسون من أول استنارتهم بنورها • فمن جملة المساعدات التي تقدمها الماسونية لبنيها المتغربين في جهات بعيدة التوصية بهم لمن تعرفه من أعضائها في تلك الجهات ، ولذلك وجب على كل ماسوني حقيقي يحافظ على شرف الماسونية ويحفظ عهودها أن يقابل اخوته مقابلة الصديق الصادق والاخ الامين ولا يتستر على مكاشفهم اذا راعوا الاصول في التعرف ولزموا خطة الآداب والفضائل • وعندنا ان العلامة الماسونية لا ينبغي أن تعطى الا مع الاحترام اللائق وفي وقت اللزوم ، والماسوني الحر لا ينبغي أن يسكت عن مجاوبة اخوته اذا كان فيه شرف نفس ولكنه يعذر اذا جهل ما يبدونه له من الاشارات ••• » • [٣٠]

---

(٢٩) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ •
(٣٠) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ـ ص ٥٨ ـ ٥٩ •

ويذكر شاهين في كتابه « فضائل الماسونية » أمثلة عديدة على مساعدة الماسونيين بعضهم لبعض في الغربة • ننقل فيما يلي بعض تلك الامثلة باختصار لكي يأخذ القارىء صورة واضحة عن طبيعة الماسونية والمنفعة التى يجنيها اعضاؤها منها :

(١) رجل ماسوني من أهل الشام سافر الى باريس للتجارة وضارب في البورصة فأفلس فيها ، وقد تملكه الحزن واليأس حتى كاد يرمي بنفسه في نهر السين ، ثم اهتدى أخيرا الى محفل ماسوني فدخل عليهم مستنجدا، وقد رحب به الاعضاء وبذلوا الجهد لمساعدته حيث عينوه في عمل تجاري براتب شهري قدره ثلاثمائة فرنك •

(٢) ماسوني آخر من أهل الشام اسمه الخواجة نقولا منسي سافر الى باريس للنزهة ولشراء بعض البضائع ، وفي أحد الايام تاه في الشوارع ولم يكن يعرف الفرنسية فلجأ الى الاشارة الماسونية وأخذ يدخل المخازن مشيرا بها ، فتعرف عليه ماسوني فرنسي وأسرع لمساعدته حيث ذهب به الى شارع المغاربة ، وهناك تعرف عليه ماسونيون آخرون وعادوا به الى الفندق ، وصاروا يزورونه مرة بعد مرة ، وعاونوه في مصالحه ، ودعوه الى محفلهم ، وأكرموه كل الاكرام •

(٣) أحد رؤساء جمهورية المكسيك السابقين وهو المدعو دياز كان في بداية أمره ضابطاً ثائرا وقد هرب من بلاده والتجأ الى مدينة نيوأورليانز، وهناك ضاقت به الدنيا وكان ماسونياً فوضع الاشارة الماسونية على صدره وأخذ يمشي في شوارع المدينة وكان ذلك في شهر تموز من عام ١٨٧٦ ، فتعرف عليه ماسوني يعمل محاسبا في باخرة وساعده على العودة سراً الى بلاده • وقد صار الضابط الهارب فيما بعد رئيسا للجمهورية ، وبحث عن منقذه الماسوني فعينه قنصلا عاما في باريس •••

(٤) رجل أمريكي اسمه جورج كاروثر كان راكباً قطاراً في ٢٤ ايلول ١٨٦٤ ، فهاجمت القطار عصابة من اللصوص برئاسة اللص المشهور بيل أندرسن ، وأوقف اللصوص القطار فأنزلوا الركاب منه ثم أخذوا يستحوذون على ما عندهم ويقتلونهم • ولما وصل الدور الى جورج كاروثر

استنغاث بالاشارة الماسونية ، فأسرع اليه رئيس العصابة وأنقذه كما أنقذ الذين يأتي دورهم بعده وكانوا ثلاثة عشر شخصا ...

(٥) كان أحد الماسونيين الامريكيين مسافرا في ليلة شديدة المطر حالكة الظلام ، فاعترضه لص وصوب نحوه بندقيته وقال له : «أما مالك وأما روحك » . وأخذ الرجل يتوسل باللص دون جدوى ، واقترب اللص منه وأمسك بعنقه ، ولما يئس الرجل من النجاة تلفظ بكلمة الاستغاثة الماسونية ، ولم يكد اللص يسمع الكلمة منه حتى رمى البندقية من يده وضم الرجل الى صدره قائلا له : «ايها الاخ اغفر ذنبي » ...

(٦) كان أحد المبشرين الامريكيين واسمه لورنزو داو يتجول في تركيا سائحا ، ولما وصل الى أزمير أصابته حمى شديدة ألزمته الفراش مدة طويلة حتى نفد ما معه من الدراهم ، وحين خف مرضه خرج يتجول في شوارع المدينة ، وصار يبدي الاشارة الماسونية عساه يجد ماسونيا ينقذه، فاقترب منه شاب تبدو عليه هيئة الوقار ورحب به وأخذه الى بيته حيث قام بضيافته وتمريضه حتى تم شفاؤه ، ثم دفع عنه أجور الفندق التي كانت متبقية عليه ، وزوده بما يكفيه للعودة الى بلاده . [٣١]

ويذكر شاهين قصصا اخرى من هذا القبيل جرت أثناء الحروب ننقل منها اثنتين لاهميتهما . فالاولى منها حدثت في مدريد في عام ١٨٠٥ اثناء الاحتلال الفرنسي لاسبانيا ، وخلاصتها ان ضابطا فرنسيا اسمه جيرارد أخذ اجازة من فرقته التي كانت معسكرة خارج مدريد وذهب للتجول في المدينة ، وصادفه عندئذ أن نشبت ثورة في المدينة ضد الفرنسيين ، فأحاط الثوار بالضابط يريدون قتله ، ولكنه أبدى اشارة الاستغاثة الماسونية فهرع اليه ضابط بريطاني وأخفاه في اصطبل قريب وأعطاه قليلا من الويسكي لانعاشه ، ثم جاء له بملابس اسبانية فألبسه اياها ورافقه في شوارع المدينة حتى أوصله الى مقربة من المعسكر الفرنسي . وعند توديعه قال له : « ايها الاخ أنا ضابط انكليزي واسمى هنري سيتن ، ولم

---

(٣١) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ ص ٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ١٥٠

تزل الحرب قائمة بيننا وبين فرنسا على قدم وساق ، فاذا قدرت على مساعدة أبناء وطني فأرجو منك أن لا تتأخر عن ذلك ، واذكر اسم اخيك هنري سيتن » .

والقصة الاخرى حدثت لقائد بلجيكي في معركة واترلو في عام ١٨١٥ ، فقد لمح هذا القائد أخا ماسونيا في صفوف الاعداء وهو على وشك أن يقتل فأسرع اليه مخترقاً جنود العدو وأسره وجاء به الى صفوفه، وبعد أن انتهت المعركة أطلق سراحه مكرماً معززا . ويعلق شاهين على ذلك قائلا : « أما الخطر الذي عرض القائد نفسه له فهو اولا خطر القتل بين عساكر العدو ، وثانياً خطر التهمة بالخيانة ، فان جيشه توهم فيه الخيانة لما انقض على صفوف الاعداء ، ولكن المحبة الاخوية التي تتأصل في قلب الاخ الماسوني تنفي من مخيلته الخوف وتربي فيه الشجاعة والشهامة » . (٣٢)

وقد قرأت في كتاب انكليزي قصتين من هذا النوع حدثتا في البلاد العربية ، احداهما في فلسطين والاخرى في طرابلس الغرب . فالقصة الاولى حدثت أثناء الحرب العالمية الاولى حين تحطمت طائرة بريطانية ونجا الطيار، فقد أبدى الطيار الاشارة الماسونية فأسرع اليه ضابط تركي وأنقذ حياته.

أما القصة الثانية فقد جرت في عام ١٧٩٥ حين أسرت سفينة طرابلسية في البحر الابيض المتوسط سفينة امريكية. وأخذ الطرابلسيون يستخدمون ربان السفينة المأسورة وبحارتها في أعمال العبيد ، ولكن الربان ابدى الاشارة الماسونية ، فأسرع اليه ضابط طرابلسي كان قد انتمى الى الماسونية في فرنسا ، وقدم له وسائل الراحة ثم سعى لاطلاق سراحه . (٣٣)

بين الغرب والشرق :

الواقع ان الماسونية كانت من العوامل التي ساعدت في التقريب

---

(٣٢) المصدر السابق ـ ص ١٣ ـ ١٤ ، ٦٨ .

(33) Pick And Knight (op . cit .) — P 202 — 203 , 213 .

بين الشرقيين والغربيين ولا سيما في البلاد الاسلامية التي كان أهلها ينظرون الى الافرنج بعين الريبة . وقد أشار الى هذا الموضوع محمد سعيد المراغي ــ وهو ماسوني مصري ــ في كتاب له صدر في عام ١٩١٠ حيث قال ما نصه :

« لا ننكر أن الماسونية منذ ظهرت في الشرق لطفت من حدته ، وذهبت بشدته وقضت على عصبيته ، فقد خدمت بذلك مدنية الغرب وسهلت لاقوامها أسباب الاختلاط بالشرقيين والاستفادة من أقطار الشرق الذهبية. وكل ذلك لا فضل فيه الا للماسونية التي أنبتت حياة الحرية في بلاد قلتها من زمن بعيد ، وغرست أغراس الاخاء في أقطار وممالك تضن به على غير أبناء الجنس والمذهب والدين ، وبذرت بذور المساواة في أرض تجهلها لتأصل الفروق بين الاشخاص في كل شيء ، فالقوى فيها متأله يستضعف الضعيف ويستعبده ويستبد فيه ، والغني يسترق الفقير ويستخدمه في مرافقه ويعايشه معايشة الانسان للحيوان الاعجم أي لفصيلة البهم والانعام . ولهذا كان الشرق مثار مخاوف الغرب ، يرهب الاختلاط بأهله كل غربي ، ويخشى من نتائج الهجرة اليه كل متمدن ، ولكن جاءت الماسونية فأزالت كل تلك المخاوف ، وقضت على أسبابها، وذهبت بشرورها ، وجلبت السرور الاجتماعي ، وجمعت بين أبناء الانسانية ، وحببت بين الاجناس والعناصر ، وأحيت شعار التواد والاخاء بين بني الآدمية الموقرة » .

ثم يضيف محمد سعيد المراغي الى ذلك قائلاً : ان المبشرين الاوربيين جاؤوا الى الشرق وبذلوا فيه الملايين من الذهب والفضة ، كما وجهوا اليه الاساطيل والجيوش واستخدموا المواهب ، فلم يحظوا منه بطائل . ثم جاءت الماسونية أخيرا فنجحت من حيث فشل المبشرون ، اذ هي تمكنت من تلطيف حدة العصبيات وأطفأت لهيب الاحقاد القومية ، فخدمت بذلك الانسانية أجل خدمة ... (٣٤)

---

(٣٤) محمد سعيد المراغي (ما هي الماسونية وما هو الماسوني) ــ القاهرة ١٩١٠ ــ ص ٢٧ ــ ٢٨ .

وقد احتـوت المصادر الماسونية على الكثير من القصص في هـذا الموضوع أي موضوع التقريب بين الغربيين والشرقيين . ننقل منهـا قصة واحدة ذكرها شاهين مكاريوس اذ هي تصور لنا الموضوع بوضوح. قال شاهين : انه كان في عام ١٨٨٩ راكبـا الباخرة مع جماعة من اخـوانه الماسونيين حيث كانوا مسافرين من بيروت الى الاسكندرية ، فرأى بيـن ركاب الباخرة رجلا بريطانيا كبير الجسم مهيبا ، فأبدى لـه الاشـارة الماسونية ، ولم يكد الرجل يلمح الاشارة حتى هب واقفا وصاح باللغـة الانكليزية « برذر » أي أخي ، ثم تقدم من شاهين وعانقه أمام الحاضرين ، فعرفه شاهين بالاخوان الماسونيين ، وفرح الرجل بذلك فرحا عظيما وقال : « نحن الآن محفل أخوي في وسط البحر » ، ثم نادى خـادم الباخـرة فأحضر من فاخر المشروبات لجميع الاخوان وشرب نخبهم ونخب الرابطة الاخوية التي ربطت قلوبهم ، وأخبرهم أنه من الاغنياء وقد ساح حـول الارض مرتين وهذه هي الثالثة وأنه حيثما توجه وجد اخوان الماسونيـة على تمام الصفاء . ووعد الجماعة بأنه سيزور محافلهم في مصر عنـد وصوله اليها . وقد زارهم فعلا ... (٣٥)

ان هذه القصة تصور لنا كيف أن الماسونيين يشعرون بالاخاء بغض النظر عن الفروق الدينية أو القومية بينهم . وهذا أمر قد يستحسنه بعض الناس بينما يستنكره آخرون حسب الزاوية التي ينظرون منهـا اليـه ، فالمتمسك بدينه أو المعتز بقوميته لا يستسيغ الماسونية لانها في نظـره تعمل على هدم الرابطة التي تربطه مع أبناء دينه او قومه .

يمكن القول بوجه عام ان الماسونية هي نوع من الولاء يناقض أي ولاء آخر يشعر به الانسان ، وهذا كان من أهم الاسباب التي جعلت الماسونية مغضوبا عليها من قبل اكثر الناس .

من ادواء الماسونية :

كل مؤسسة بشرية مهما كانت لابـد أن تعتورهـا بعض الادواء

---

(٣٥) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) — ص ٦٠ .

والمشاكل ، ولابد أن يظهر بين المنتمين اليها من يسيء اليها أو يستغلها لمصلحته الخاصة • وليست الماسونية بدعاً في ذلك فقد ظهر فيها الكثير من الادواء والمشاكل التي انتقدها الماسونيون أنفسهم فضلا عن الخصوم•

ولا يخفى أن أدواء الماسونية تختلف باختلاف المجتمع الذي تعيش فيه • وعند دراستي للماسونية في البلاد العربية وجدت أنها مصابة بنفس الادواء التي أصيبت بها المؤسسات العربية الاخرى من جراء القيم الاجتماعية السائدة في هذه البلاد كقيم الوساطة والمحسوبية والرشوة واستغلال النفوذ والتنافس على الرئاسة •

أول تلك الادواء هو فيما يخص قبول العضو الجديد في المحفل الماسوني ، فقد جرت العادة في الغرب أن الماسونية لا تقبل في محافلها عضوا جديدا الا بعد تحقيق وتدقيق اذ هي لا تريد ان يكون بين اعضائها من هو عالة عليها أو يجلب لها العار • أما في البلاد العربية فقد تساهلت بعض المحافل في أمر القبول الى درجة أصبح الكثير من المقبولين فيها غير لائقين بها •

من أصول الماسونية أنه أذا أراد شخص دخول أحد محافلها وجب أن يزكيه اثنان من أعضاء المحفل القدامى • وهنا يشكو شاهين مكاريوس من تهاون بعض الاعضاء عند تزكية طالب الدخول حيث يقول : « ومعلوم أن الامر في الغالب يتوقف على الاخين الذين يزكيان الطالب فان شهدا به شهادة حسنة قبل والا رفض • ويتفق كثيرا أن طالب الدخول لا يعرف من أعضاء المحفل غير واحد فيجتهد هذا العضو في ادخال صديقه ويقنع غيره بحسن صفاته فيضع الاخ الثاني ختمه على الشهادة وهو لا يعلم الطالب ولا يعرف عنه الا ما سمعه من صديقه الاول • ولطالما عادت هذه العادة بالاضرار الوخيمة وكانت سبباً في دخول الذين لا يستحقون من الماسونية غير الطرد ، وهو أمر ننبه الاخوان اليه ونرجوهم البحث التام عن كل أجنبي قبل مساعدته على الدخول في مصاف الاحرار » •

ويتذمر شاهين مكاريوس من بعض الماسونيين الذين يريدون تكثير أعضاء محافلهم بغض النظر عن صفاتهم وأخلاقهم ، فهو يقول في ذلك :

« ولطالما أخطأ الاخوان مثل هذا الخطأ من فـرط غيرتهـم وميلهم الـى توسيع نطاق الماسونية وتكثير عدد أعضائها او من رغبتهم في نفع بعض معارفهم وأصدقائهم وادخالهم ضمن العشيرة الماسونية ، فساعدوا علـى قبول البعض ممن ظهر عدم نفعه أو ممن صار عالة علـى الماسونية ... وعليه فنحن نشدد التنبيه والتحذير علـى الاخـوان أن يتأنوا ويترووا ويدققوا في البحث عن صفات الذين يطلبون الدخول عن يدهـم حتـى لا يكثر عدد الذين لا يستحقون شرف العد في مصاف الماسون والذين تعدهم الماسونية عارا عليها . ويسوءنا أن أمثال هؤلاء يعدون بالعشرات أو المئات في بعض البلدان ... وليعلم هؤلاء الاخوان أن الماسونيـة ليست في حاجة الى تكثير أفرادها ... » (٣٦)

ان الماسونية في بلاد الغرب تعتبر بمثابة تأمين ضد الحاجة ، والمفروض في الماسوني هناك أنه لا يطلب المساعدة من اخوانه الا عنـد الضـرورة القصوى ، فاذا لج في طلب المساعدات منهم مرة بعد مرة احتقروه وربمـا طردوه من المحفل باعتباره غير لائق أن يكون ماسونيا . وورد في منشـور صادر من « الشرق السامي الفرنسي » في ٢ حزيران ١٩١٠ ما نصـه : « يحذر المجلس العام المحافل الماسونية من قبول طلاب جـدد يستهدفون رواج تجارة أو منفعة خاصة من وراء انضمامهم الى الماسونية » . (٣٧)

أما في البلاد العربية فالكثير من الذين يدخلون الماسـونية انمـا يطمعون أن ينالوا عن طريقها بعض المكاسب في التجارة او المقاولات او الوظيفة . يروي الكاتب الفلسطيني عجاج نهويض قصة رجل من أهـل القـدس كان يملك مطبعـة في عهد الاحتلال البريطاني ، وقـد انتمى الى الماسونية ثم أخذ يشكو منها حيث قال : « يا أخي ما العمل ؟ قالوا لي اعمل ماسونياً وانجح . فعملت ماسونياً وصار لي سنوات وأنا ماسـوني لكني ما استطعت بعد أن آخذ أي مناقصة طباعية من مناقصات الحكومة .

---

(٣٦) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ـ ص ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٨٥

(٣٧) فورستيه (هذه هي الماسونية) ـ ترجمة بهيج شعبان ـ بيروت ١٩٥٥ ـ ص ١١٣

واذا كان بيننا يهودي فاليهودي يكسح الجميع • وابني الثاني عمل ماسونياً ، لكن بقينا في شغلنا كالسابق » • (٣٨)

وهناك داء آخر ابتليت به الماسونية العربية وهو الداء الذي يظهر على بعض الأعضاء عند وصولهم الى الدرجات العليا ، فتراهم قد غروا بأنفسهم ونسوا اخوانهم • يقول شاهين : « ان البعض من الاعضاء يجتهدون حتى يصلوا الى نقطة معلومة فيها فاذا نالوها فترت همتهم وظنوا أنهم اكتفوا من الماسونية ، أو أن الماسونية اكتفت منهم ، وما كانت هذه شيمة أصحاب الحزم والعزم ولا قامت الامور العظيمة في الماسونية وغيرها بمثل هؤلاء الاعضاء ••• » • ويقول شاهين أيضاً : « ويسوءنا أن نرى بعض اخواننا متى تسنموا ذروة المنصب ينسون ما يلاقيه اخوانهم الصغار من التعب والنصب ، وقد يصمون آذانهم عن اجابة نداأنهم ، ويغضون الطرف عنهم كأنهم لا يعرفونهم ، بل قد ينفرون منهم كما ينفر الظليم ، ويأول بهم الامر الى نكران الماسونية ••• ونعرف أخاً كان تتظلم من رئيسه ، وكان رئيسه ماسونياً ولكنه لم يراع حقوق الاخوة ، وما زال يعامل أخاه معاملة الرئيس للمرؤوس حتى سئمت نفسه وعيل صبره فشكا أمره الى رئيس المحفل ، فدعا ذلك الرئيس وكلمه الاعضاء في شأن أخيهم وأخيه ، ولكنه أصر على معاملته بالقسوة • ثم اتفق أن ذلك الاخ ارتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ونظر الى رئيسه فرآه في حالة يرثى لها، اذ كان قد عزل من منصبه ، فرثى له ونسى ما لقيه منه وحركته الاريحية الماسونية على مساعدته ، فساعده مساعدة يعز نظيرها وصار من أخلص أصدقائه » • (٣٩)

يبدو لي ان الاعضاء الكبار في الماسونية العربية انما صاروا مغرورين لا يهتمون بمساعدة الصغار لان الصغار أنفسهم صاروا لجوجين في طلب المساعدة • فالمسألة اذن تفاعلية وقد ينطبق عليها مصداق الحديث القائل: « كيفما تكونوا يولى عليكم » •

---

(٣٨) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٧ •
(٣٩) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) — ص ٦٨ — ٦٩ ، ٧٣ •

يروي شاهين مكاريوس قصة لها دلالتها في هذا الصدد ، فهو يقول : انه عندما كان سكرتيرا لمحفل لبنان عام ١٨٨١ وردت اليه رسالة من أحد الاخوان الماسونيين في بلدة حاصبيا يشكو اليه من تحامل القائمقام عليه ، فأسرع شاهين لمساعدته وركب عربة الخيل الى دمشق ، وكان أثناء ركوبه في العربة يبدي الاشارة الماسونية أملاً أن يجد بين ركاب العربة من يساعده عند وصوله الى دمشق ، فلم يستجب لاشارته أحد مع العلم ان واحدا من الركاب كان ماسونياً ولكنه تجاهل الاشارة • وعند وصول العربة الى دمشق وجد شاهين في استقباله جماعة من الماسونيين اذ كان أحد الاخوان في بيروت قد أخبرهم بذلك برقيا • وقد مكث شاهين في دمشق خمسة عشر يوما حيث قام بضيافته الاخوان وأكرموه ، واستطاع هو بمعونتهم مساعدة الاخ الذي استغاث به من حاصبيا • وصادف أنه ذهب ذات يوم الى الحمام مع اثنين من اخوانه ، فشاهد هناك الماسوني الذي تجاهل الاشارة في العربة ، وقد أبدى هذا له التحية الماسونية • فتقدم منه أحد الاخوين وأخذ يعاتبه على ما فعل وقال له : « ••• عار عليك أن يعرفك أخ استاذ ماسوني بنفسه وأنت تبتعد عنه ، فما هذا شان الكرام ، ولما عرفت باكرامنا لاخينا العزيز جئت تعرفه بنفسك وأنت عار من الثياب • فاحذر أن تعود الى مثل هذا الامر القبيح » • (٤٠)

الملاحظ ان شاهين حين ذكر هذه القصة أشار الى أن الرجل كان متزوجاً حديثاً وكانت زوجته معه في العربة ، ويبدو لي أن الرجل كان ذاهباً الى دمشق لقضاء شهر العسل فيها ، ولهذا تجاهل الاشارة الماسونية الموجهة اليه اذ هو لم يشأ أن يشغله أحد أثناء ذلك الشهر اللذيذ • ولقد كان المفروض في شاهين أن يراعي وضع الرجل فلا يطلب المساعدة منه • ان اللوم اذن يمكن القاؤه على شاهين بمقدار ما يلقى على الرجل •

وللماسونية العربية أدواء اخرى ذكرها خصومها من أجل ثلبها والتهجم عليها ، نذكر منها ما أشار اليه الاب لويس شيخو حيث قال

---

(٤٠) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ ص ٣٤ ـ ٣٦ •

ان أحد الماسونيين اللبنانيين أرسل اليه رسالة يشكو فيها اثنين من رؤساء محفله ، فكل واحد منهما يتاجر ببيع الدرجة الثامنة عشرة الى من يطلبها لقاء ست ليرات ، فهما يمنحانها بعد يوم واحد من منح الدرجة الثالثة مع العلم أن الترقية بين الدرجتين تقتضي مرور اثنين وثلاثين شهراً حسب الدساتير الماسونية .

ويذكر الاب شيخو رسالة أخرى وردته من ماسوني آخر يشكو فيها من استغلال رؤساء المحفل له ولغيره من الاعضاء الصغار . وهذا هو بعض ما ورد في الرسالة : « سيدي أنا ماسوني وانغشيت كما انغش غيري فوجدت نفسي متعوباً منها لكني لا أقدر اتظاهر خوفا من الانتقام ، وقد كتبت هذه الاسطر وقلبي يرجفه . وما يمكنني أن أقوله أن المنفعة في جمعية الماسون للذوات وبعض الافراد ، أما نحن فكآلة بين أيديهم ليدركوا منا مآربهم أو كجند تحت يد ملك ظالم . واذا أراد هؤلاء الذوات والمتقدمون في الماسونية الحصول على شيء نالوه بمساعدة بعضهم وأتفقوا لنوال غاياتهم من مال الصندوق وستروا على بعضهم واغتنوا على ظهر الحمير مثلنا . فترى محفل صنين أفلس وأكلوا مال الصندوق وأجرة المحل . وهكذا بقية الرؤساء يصرفون مال الجمعية ويتنعمون مع عيالهم ونحن لا نعرف بشيء سوى (حضرة الاخ) ولسان حالهم يقول : يكثر الله الحمير لكي نربح على ظهرهم الوظائف ... » .[41]

الماسونية في مصر :

يقال ان بداية دخول الماسونية الى مصر كانت أثناء الاحتلال الفرنسي في نهاية القرن الثامن عشر ، فقد أسس الجنرال كليبر محفلاً ماسونياً سماه « محفل ايزيس » ودخله بعض المصريين ، غير أنه أغلق على أثر مقتل كليبر في ١٤ حزيران ١٨٠٠ .

وفي عام ١٨٣٠ أسس بعض الايطاليين الساكنين في الاسكندرية محفلاً تابعاً للمحفل الاكبر الاسكتلندي ، ثم صارت المحافل من بعد

---

(٤١) لويس شيخو (المصدر السابق) ــ ص ٣١٠ .

ذلك تؤسس واحدا بعد الآخر ولكن أكثر المنتمين اليها كانوا من الاجانب ٠ وظل الامر كذلك الى أن تولى اسماعيل باشا عرش مصر في عام ١٨٦٣ ، ففي عهده ازدهرت الماسونية ودخلها الكثير من علماء مصر وأعيانها ٠ يقول جرجي زيدان : « وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية ، وبحمايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادؤها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق — يقصد توفيق باشا — وجماعة من أمراء البلاد ووجهائها » ٠ (٤٢)

وفي ٨ أيار ١٨٧٦ تأسس المحفل الاكبر الوطني المصري على الطريقة الاسكتلندية القديمة المقبولة ، واعترفت به المحافل الكبرى في العالم ، ومنح سلطة اعطاء الدرجات العالية للاعضاء كما منح سلطة تكريس المحافل الاعتيادية التابعة له ، وانتخب الاخ زولا رئيساً أعظم له ٠

وفي عام ١٨٨٧ قرر المحفل الاكبر المصري انتخاب الخديوي توفيق باشا استاذا أعظم له ، فذهب وفد منهم الى القصر وعرضوا على الخديوي اختيارهم له رئيساً حيث قالوا له : انه اذا لم يشد أزرهم آل أمر الماسونية الوطنية الى الاضمحلال ٠ وتقدم أحدهم بقصيدة طويلة في مدح الخديوي أشار فيها الى المبادىء الثلاثة التي تدعو اليها الماسونية وهي الحرية والاخاء والمساواة ٠ وهذه هي الابيات الاولى منها :

الحر يدرك بالتوفيق ما طلبا ... وبالمساواة كل يبلغ الاربا
وبالاخاء رخاء العيش مقترن ... تربو رباه اذا عهد الاخاء ربا
وما المساواة الا العدل وهو على ... مصربتوفيق مدتروحه طنبا(٤٣)

فاستجاب الخديوي لرجائهم ورضي بأن يكون الاستاذ الاعظم لهم ، غير أنه اعتذر عن الحضور في اجتماعاتهم لكثرة أشغاله وكلف ناظر الحقانية حسين فوزي باشا لينوب عنه في الرئاسة ٠ وفي عام ١٨٩٠ طلب الخديوي منهم أن يعفوه من الرئاسة ليتولاها غيره من أبناء الشعب

---

(٤٢) جرجي زيدان (تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر) — بيروت — ج ١ ص ٧٤ ٠

(٤٣) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) — ص ١٩٨ ٠

تشجيعاً لهم • وفي ٩ كانون الثاني ١٨٩١ اجتمع أعضاء المحفل الاكبر واتتخبوا ادريس بك راغب رئيساً أعظم لهم ، ثم جعلوا الخديوي رئيس شرف مؤبداً • وحين بلغ الخديوي ذلك أعلن سروره وأهدى الى المحفل الاكبر مائة جنيه تنشيطاً له على أعماله الخيرية • وأرسلت المحافل الكبرى في العالم الى المحفل المصري تهانيها بما حصل •

كان ادريس بك راغب قد ورث من أبيه ثروة طائلة ، وكان متحمساً للماسونية مخلصا لها ، فأنفق الكثير من ثروته عليها • وقد نمت الماسونية في عهد رئاسته لها ، وكثرت محافلها حتى صار عددها أربعة وخمسين محفلاً• يقول شاهين مكاريوس عنه : « وقد أجمعت القلوب على حبه واعلاء منزلته ، وبعد صيته في الآفاق ، فتواردت عليه مدائح الشعراء من كل صوب حتى لو طبعت كلها لملأت مجلدات من الكتب ••• » (٤٤)

دامت رئاسة ادريس بك ثلاثين سنة ، والظاهر أن نجاحه في ترقية الماسونية أدى الى ظهور بعض المنافسين له والمتمردين عليه من بين الاعضاء، وهذا هو من جملة الادواء التي ابتليت بها الماسونية في البلاد العربيه • ذكر محمد سعيد المراغي في كتابه الصادر عام ١٩١٠ ما نصه :

« قضت قوانين الماسونية أن لا يوجد محفلان أعظمان او شرقان عظيمان في مملكة واحدة الا بشروط لا تتوفر بمصر والشرق أبدا • ولا يوجد منذ نيف وثلاثين سنة محفل أكبر أو شرق أعظم منتظم خلاف المحفل الاكبر الوطني المصري الذي يرأسه عطوفة الاخ الكلي الاحترام الاستاذ الاعظم (ادريس راغب بك) فهو المحفل الشرعي الذي لا تقوم قائمة لغيره بغير اذن منه ، وهو صاحب السلطة الشرعية ولم يؤسس في مصر محفل وطني شرقي سواه • نعم خرج عليه بعض الافراد لغايات في صدورهم ، واستأنسوا بأوهام كبرت في قلوبهم ، وأعلنوا عن أنفسهم أنهم أسسوا محفلا أعظم سموه بالمحفل الاكبر الاورشليمي منذ ثلاث سنوات ، ولم يوفقوا الى استمداد سلطة شرعية من (المحفل الاكبر الوطني المصري) ، لانهم سلكوا سبيل التهاون في حقوق العشيرة ، واكثروا من

---

(٤٤) شاهين مكاريوس (الحقائق الاصلية) — ص • ي — د •

فئات من الطبقة الاخيرة والحثالة من الناس ، وظنوا أنهم بذلك يخدعون بعض المحافل الكبرى في (الغرب) فتعترف بهم ، وكثيرا ما حاولوا خداع محافل أمريكا وغيرها فلم يجدوا الى ذلك سبيلا . ولقد دعاهم (المحفل الاكبر الوطني المصري) كثيرا الى الهدى ، ونصحهم ليتركوا الوسواس، ولايشوشوا على أذهان العامة ، فكبر عليهم الرجوع الى الحق ، وهو فضيلة عظمى . فوجب علينا أن نحذر الناس من الاغترار بهم ، والاعتماد على أوهامهم ، وكفى أن يعلم الناس كافة حقيقة مزاعم اولئك المغرورين الذين خدعوا أنفسهم وغرروا بها » . (٤٥)

ونشرت جريدة « المقطم » القاهرية في ٢ كانون الاول ١٩١٠ تقول : « احتج عطوفة ادريس راغب الاستاذ الاعظم للمحافل المصرية على دولة البرنس عزيز حسن لانشائه محفلا ماسونيا » . وفي منتصفه شهر نيسان من عام ١٩١١ نشرت جريدة « الاهرام » ما يشير الى وجود خصام شديد حول ميزانية المحفل الاكبر المصري بين أمناء سره ورؤساء بعض المحافل التابعة له . ويبدو أن الخصام تجاوز جدران المحفل الى الخارج . (٤٦)

وفي عام ١٩٢٢ بلغ الخصام أشده بين اعضاء المحفل الاكبر ، وكان سببه موضوع الرئاسة . فقد رغب اكثر الاعضاء أن يكون ولي العهد الامير محمد علي استاذا اعظم بدلا من آدريس بك . ولم يرض ادريس بك بذلك طبعا وتابعه بعض الاعضاء . وحين عقد المحفل الاكبر جلسته في ٢٨ ايلول ظهر الانشقاق حول هذا الموضوع بين الاعضاء واضحا ، فقد انسحب ادريس بك من الجلسة هو ونائبه وسبعة عشر عضوا معه ، ويقال انه أخذ معه عند انسحابه الختم الاكبر وبعض السجلات المهمة . وعند هذا قرر الباقون من الاعضاء أن يقوموا بالانتخاب لمنصب الاستاذ الاعظم الذي شغر بانسحاب ادريس بك . ولما تم الانتخاب فاز به الامير محمد علي حيث حصل على ١٨٢ صوتا بينما حصل ادريس بك على ثلاثة أصوات فقط ، وكانت هناك ثلاثة أوراق بيضاء . ولم يوافق ادريس بك

---

(٤٥) محمد سعيد المراغي (المصدر السابق) ـ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٤٦) لويس شيخو (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٥ ـ ٦ .

على نتائج الانتخاب واعتبره باطلا ، وأقام عدة دعاوى في المحاكم ، فكان قرار المحاكم في غير صالحه . وقد اعترفت المحافل الكبرى في الكثير من أقطار العالم بشرعية ما حصل . (٤٧)

ان انتخاب الامير محمد علي رئيسا للماسونية المصرية زاد من مكانتها الاجتماعية في نظر الناس ، وقد كان هذا الامير بالرغم من اعتزازه بنفسه وبأسرته يتواضع للماسونيين على اختلاف طبقاتهم . يقول أحد الماسونيين المصريين في ذلك : « كان ولي العهد الامير محمد علي يجانسنا نحن أفراد الطبقات الفقيرة ويتناول معنا الطعام ويحثنا على ضرورة التمسك بآداب وأوامر العشيرة ، وكان الوصول الى قصر محمد علي من المستحيلات لغيرنا كما هو معلوم » . (٤٨)

كان للماسونية في مصر مجلة تنشر أخبارها وتشيد بها هي مجلة « اللطائف » لصاحبها شاهين مكاريوس ، وكانت بداية صدور هذه المجلة في عام ١٨٨٦ واستمرت على الصدور خمساً وعشرين سنة حتى توقفت عنه في عام ١٩١٠ على أثر موت صاحبها . وفي عام ١٩١٥ أصدر اسكندر ابن شاهين مكاريوس مجلة « اللطائف المصورة » التي استمرت على الصدور بضع عشرة سنة وكانت كسابقتها مليئة بأخبار الماسونية والاشادة بذكرها .

وفي عام ١٩٤٢ صدرت مجلة ماسونية ثالثة لصاحبها حسين شفيق المصري عنوانها « الايام » ، وكان مندوبها في العراق عبدالمهدي الفائق ، وعندي نسخة من عدد منها صادر في ١ شباط ١٩٤٤ أنقل منه الخبر التالي كنموذج لنشاط الماسونية في مصر حينذاك :

« غادر الاخ الكلي الاحترام السكرتير الاعظم محمد بك رفعت القاهرة صباح الجمعة ٢٨ يناير سنة ١٩٤٤ على متن طائرة الى الاسكندرية لحضور حفلة تثبيت محفل باراثينون ، وقد كان في استقبال سعادته

---

(٤٧) المحفل الاكبر الوطني المصري (تقرير الاعمال لعام ١٩٢٧) — القاهرة ١٩٢٧ — ص ١٠٠ — ١٠٣ .

(٤٨) ابو صادق (الماسونية بلا قناع) — بغداد ١٩٦٧ — ص ١٤٩ .

بالمطار الكثير من اخوان الاسكندرية الافاضل ممن يقدرون مآثره وتضحياته في سبيل الماسونية • وفي المساء عقب حفلة التثبيت أقيمت حفلة ساهرة لمناسبة تشريفه حضرة الاخ كلي الاحترام السكرتير الاعظم• تبودلت فيها الكلمات الطيبة حول ما أداه ويؤديه سعادته من جليل الخدمات للانسانية ثم عاد بسلامة الله صباح يوم السبت على متن طائرة أيضا حيث كان في توديعه جمهرة كبيرة من الاخوان • أدام الله حياته الغالية وجعله ذخرا وملاذا للانسانية » •

يمكن القول بوجه عام ان الماسونية في مصر تختلف من حيث مكانتها الاجتماعية عنها في البلاد العربية الاخرى • فهي كانت ذات مقام محترم في نظر الناس وقد انتمى اليها الكثير من الامراء والباشوات ورجال الدين • وكان سعد زغلول من المنتمين اليها ، وظل كذلك حتى آخر يوم من حياته ، دون أن يؤثر ذلك في زعامته الشعبية • وقد ظلت الماسونية في مصر تتمتع بهذه المكانة المحترمة حتى عام ١٩٦٤ عندما أصدرت الحكومة المصرية أمرها باغلاق المحافل الماسونية ـ كما سنأتي اليه في خاتمة هذا الملحق •

الماسونية في الشام :

نعني بالشام المنطقة التي تضم الآن سوريا ولبنان وفلسطين والاردن، وتتميز هذه المنطقة بتنوع الطوائف الدينية فيها وتنازعها وماجر ذلك من تغلغل لنفوذ الدول الاجنبية فيها •

ان أول محفل ماسوني أنشىء في بلاد الشام كان في بيروت عام ١٨٦٢ واسمه « محفل فلسطين » وهو تابع للمحفل الاكبر الاسكتلندي ، وكان مؤسسه القنصل البريطاني العام في الشام المستر ألدرج ، وقد انتمى اليه بعض الاعيان على الرغم من أن رسوم الدخول فيه كانت زهاء ثلاثين ليرة عثمانية • ومن الطرائف التي تروى عنه أن الحاج حسين بيهم عندما تم قبوله فيه وطلبوا منه حسب العادة أن يحلف اليمين على القرآن-بأن لا يخون الجمعية ولا يبوح بأسرارها اعتذر قائلاً انه لم يتوضأ ، فسمحوا له بالوضوء في غرفة ثانية ، ثم ادى بعدئذٍ يمين الامانة أمام السدة.

الماسونية .[49]

تضاءل شأن محفل فلسطين على أثر عودة المستر ألدرج الى بلاده في عام ١٨٦٨ ، غير أن محفلا جديدا أنشىء في العام التالي باسم « محفل لبنان » وكان تابعا للشرق السامي الفرنسي ، وقد انتمى اليه الكثير من أعضاء محفل فلسطين الآنف الذكر كما انتمى اليه آخرون من غيرهم . وكان معظم أعضاء هذا المحفل من الروم والبروتستان والمسلمين واليهود، ولم يدخله من الموارنة والارمن الا قليل . وكان رسم الدخول فيه اثنتي عشرة ليرة عثمانية .[50]

وقد اعتزت الماسونية الشامية بدخول الامير عبدالقادر الجزائري فيها ، وكان دخوله في عام ١٨٦٤ عندما كان مارا بالاسكندرية في طريق عودته من الحج حيث انتمى الى محفل الاهرام ، وحين رجع الى دمشق أسس فيها محفلا تابعا للمحفل الاكبر الايطالي باسم « محفل سوريا » . وقد أخذت الماسونية من بعد ذلك تنتشر وتتكاثر في بلاد الشام شيئاً فشيئاً .

وفي عام ١٨٩١ استطاع شاهين مكاريوس أن يحصل على رخصة من المحفل الاكبر المصري لتأسيس محفل تابع له في بيروت باسم « محفل فينيقية » وعندما تم تأسيس المحفل ألقى شاهين مكاريوس أرجوزة طويلة نقتطف فيما يلي بعض أبياتها :

باسمك يا مهندس الاكوان ... ويا مفيض الجود للانسان
أرشدتنا الى طريق الحق ... طريق أرباب الحجى والصدق
أعني بهذا عصبة الماسون ... من عرفت بسرها المصون
قد نظمت بسلكها الملوكا ... وأحسنت بسيرها السلوكا
في كل صقع بل بكل ناد ... أبناؤها كثيرة التعداد
تلقاهم على اختلاف المذهب ... كأنهم من نفس أم وأب
فكلهم لبعضهم أعوان ... لا بينهم غل ولا أضغان

---

(٤٩) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ـ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٥٠) جرجي زيدان (تاريخ الماسونية العام) ـ القاهرة ١٨٨٩ ـ ص ١٩٦ .

ماذم جهلاً هذه الطريقة الا قبيح الخلق والخليقة
وطغمة رامت لهـا الأضرارا فاكتسبت بفعلها الصغارا
تريد تقويض صروح فضلنـا مـع أن صنعة البنا من شغلنا
ومـن يكن أس بناه التقوى عليـه أيدي الاعتدا لا تقوى
فاتحـدوا يا اخـوتي اتحـادا يفت من جمع العـدا الاعضادا
وابسطوا الأكف بالدعـاء الى مفيض الجـود والعطاء
بأن يقي سلطاننا العثماني مـن غير الايـام والازمان
مليكنا عبدالحميد الغازي منقذنا مـن ربقة الاعواز
لا زال ماضي الحد في أعدائه والنصر معقوداً على لوائه (٥١)

ان هذه الارجوزة لم تنفع المحفل شيئاً وربما أضرت به ، فقد صدر أمر السلطان عبدالحميد في أواخر صيفه ١٨٩٢ باغلاق المحفل مما اضطر اعضاؤه الى عقد اجتماعهم في المغاور والكهوف خارج بيروت حذراً من الجواسيس . وقد كتب الاعضاء الى المحفل الاكبر المصري يسألونه : ماذا يفعلون ؟ فأجابهم المحفل الاكبر يأمرهم بأن يوقفوا اجتماعاتهم ويطيعوا أمر الحكومة ريثما تمر هذه السحابة ويقتنع السلطان عبدالحميد باخلاص الماسونيين لسدته الملوكية . (٥٢)

ومما يلفت النظر ان السلطان عبدالحميد لم يغلق المحافل الماسونية الاخرى في بلاد الشام ، بل اكتفى باغلاق « محفل فينيقية » وحده . والظاهر أنه كان يرتاب من هذا المحفل بوجه خاص لعلاقته بالمحفل الاكبر المصري ، وكأنه كان يخشى من تغلغل النفوذ البريطاني عن طريقه الى بلاد الشام .

مهما كان الحال فان انتشار المحافل الماسونية في بلاد الشام أدى الى ظهور صراع شديد بين أتباعها وأعدائها ، فقد كان من ألد أعدائها رجال الدين من مختلف الطوائف وعلى رأسهم اليسوعيون ، وأخذ هؤلاء يشوهون سمعة الماسونية ويلصقون بها شتى التهم .

---

(٥١) شاهين مكاريوس (الآداب الماسونية) ــ ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ .
(٥٢) شاهين مكاريوس (فضائل الماسونية) ــ ص ٦٢ ــ ٦٣ .

ان أول كتاب صدر في الشام ضد الماسونية كان بقلم رجل دين شيعي اسمه الحاج عزالدين محمد بن علي الشامي العاملي ، وكان صدور الكتاب فى عام ١٨٧٢ بعنوان « كشف الظنون عن حال الفرمسون » ، وقد أتى المؤلف فيه بمختلف الادلة العقلية والنقلية التي هي في رأيه تصد العاقل عن الدخول في الماسونية ، فهو يقول مثلا : « ان هذا البيت لا يمنع أحدا من أهل الملل لنحلته ، وأكثر أهله في الهند مجوس خارجون عن الملل الثلاث . وحيث صح ذلك ، وكان هذا البيت مما يدخله الملحد والموحد ، فكيف تدخله أيها المسلم اذا لم يظهر لك منه الا الاخوية وهي لا تجوز في مذهبك وقد قال ربك جل وعلا على لسان نبيك : ما جعل بينك وبين الذين عاديتهم منهم مودة ... » (٥٣)

ثم توالى بعد ذلك صدور الكتب في ذم الماسونية والصد عنها ، وكان أهم تلك الكتب وأشهرها كتاب « السر المصون في شيعة الفرمسون » الصادر في بيروت في عام ١٩١١ بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي . وهو كتاب شديد اللهجة في ثلب الماسونية وكيل التهم لها .

يقول جرجي زيدان ــ وهو ماسوني من أصل لبناني ــ في كتابه « تاريخ الماسونية العام » : « وأشد مقاومي الماسونية في سورية جماعة الجزويت وقد أنشأوا لهذا الغرض وغيره جريدة دينية في بيروت دعوها جريدة البشير وموضوعها مقاومة كل المذاهب والاديان الا المذهب الكاثوليكي ، والايقاع بكل الجماعات الا جماعة الجزويت ... وتأمل بما أقيم في طريق الماسونية من مثل هذه العقبات التى تخور لها الهمم وتكره من أجلها الأعمال. أما العامة فلا تسأل عما غرس في اذهانهم من الكره والاحتقار لجماعة الماسون حتى أصبح اسمهم مرادفاً لادنى صفات الاحتقار عندهم ، فكانوا اذا أرادوا المبالغة في وصف أحد الكفرة والمنافقين لا يجدون أنسب من قولهم : فارماسون كافر منافق مختلس وما شاكل ... » (٥٤)

---

(٥٣) لويس شيخو (المصدر السابق) ــ ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .
(٥٤) جرجي زيدان (المصدر السابق) ــ ص ١٩٦ ــ ١٩٨ .

وقد ذكر شاهين مكاريوس مثل هذا في كتابه « فضائل الماسونية » حيث قال : « وكان الشائع عن الماسونيــة في سورية أنهــا جمعية كفــر لا تعترف بوجود الخالق جل وعلا ، وأنها من أكبر العوامل على ازالـــة الديــن ، ومن دخلها مهمــا كان صالحاً يصــير شريرا ولا يعود يمكنــه الخروج منها ، وان من يبوح بأسرارها تعرفه حالاً فتأتي بصورة من رسمه وتطعنها بحربة فيموت صاحبها ، وكانوا يروون أن فلانا مات على هــذه الصورة ، وآخر على صورة ثانية ، فانهم سحروه فمات ، وكانوا يتهمونها بالعرافة والتنجيم وكل نوع من المنكــر . وسمعت الخواجه فارس تويني الذي كان بمطبعة الاميركان يتظلم مرة من سوء المعاملة فيقول : لو كنــت مجوسياً أو ماسونيا ما كانوا يعاملونني هذه المعاملة . وسمعت آخر يشتم خصمه أقبح الشتائم ولم يغضب الى أن قال له : يا ابن الفرمسوني ، فقــام وأمسك به وصار ينادي : ياناس اشهدوا، يشتمني ويقول ياابن الفرمسوني، انت فرمسوني وكل أهلك فرمسون ... »[55]

يبدو أن هذه الحالة قد تغيرت الى النقيض منها على أثر الانقــلاب العثماني في عام ١٩٠٨ . فقد أخذ الماسونيون يرفعون رؤوسهم فخــارا زاعمين أنهم هم الذين قاموا بالانقلاب وأن الدولة أصبحت في يدهم ، وصار الكثير من الناس يتزلفون اليهم كما هي عادتهم في مثل هـــذه الظروف . يقول عجاج نويهض وهو قد أدرك ذلك العهد : « ان الحــال في المملكة العثمانية تغيرت بسرعة شديدة من يوم أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ فانتشرت الماسونية في أرجاء المملكة انتشارا واسعا ، وفتح الباب على مصراعيه ، وأصبح العربي ــ مسلماً كان أم مسيحياً ــ اذا انتمى الى الماسونية يتباهى ويعتز ويتمايل تمايل الطاووس ، هذا اذا كان من عامة الناس ، أما اذا كان من الخاصة فانه يروح ويجيء موهما الناس أن عنــده مفاتيح القدرة السحرية وأن له اخواناً يساعدون أخاهم في كل نائبـــة وينجدونه في أعماله ، وعندما كانت تجري الانتخابات العامة للبرلمــان

---

(٥٥) شاهين مكاريوس (المصدر السابق) ــ ص ١٢٠ .

العثماني ... كانت الماسونية هي العامل الخفي الاول ... ». (٥٦)

وكان من شأن هذا الانتعاش الذي أصاب الماسونية في عهد الدستور ان زادت حدة العداء بينها وبين رجال الدين ، وبهذا انقسم الناس في بعض المدن والقرى اللبنانية الى فريقين متطاحنين ، فريق مع الماسونية وفريق مع القساوسة .

كتب نعوم لبكي في جريدة « المهاجر » في ٣ حزيران ١٩١٠ مبدياً أسفه من هذا التطاحن بين الفريقين ، وذاكرا ما ينتج عنه من عواقب وخيمة حسب رأيه ، فهو يقول : « كلما قويت شوكة الماسونية في لبنان يضعف النفوذ الاكليريكي ، ومتى سقطت هيبة الاكليروس تنحل شيئاً فشيئاً وحدة الموارنة لان الرؤساء هم واسطة عقدها ، ولا بد لليد التي تقبض على زمام هذه الوحدة من قوة أويفلت . ومتى انحلت وحدة الموارنة بضعف اليد التي تقبض على زمامها تنحل ايضا الرابطة التي بين الموارنة وفرنسا ، لان الاكليروس الماروني هو الصلة بينهما ، ويقل لذلك نفوذ الفرنسويين في سورية . هي خطة من أرادوا الكيد للنفوذ الفرنسوي ... فانت ترى من ذلك وهو صفحة صغيرة من صفحات كبيرة أن الماسونية الحاضرة غير التي أردنا انتشارها في لبنان ، لذلك ندمنا على أننا ساعدنا هذه الماسونية ونعلن للناس أننا كفرنا بها ... » . (٥٧)

مرت على الماسونية الشامية أثناء الحرب العالمية الاولى فترة خمود حيث قل في تلك الفترة نشاطها الى الحد الاقصى ، غير انها عادت الى النشاط من جديد بعد انتهاء الحرب ، وربما ازدادت آنذاك نشاطا بتشجيع من الانكليز والفرنسيين . يقول عجاج نويهض عن تلك الايام : « صارت الماسونية سلعة يقتنيها كل راغب بأرخص ثمن حتى وصلت الى القرى وبهرت عيون الطبقة العامة » . (٥٨)

وفي عام ١٩٣٩ اجتمع كبار الماسونيين الشاميين فأسسوا محفلا أكبر

---

(٥٦) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٧ .

(٥٧) لويس شيخو (المصدر السابق) — ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٥٨) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٦٧ .

ليجمع شمل المحافل الشامية ، واتتخبوا عطا الايوبي استاذا أعظم له •
وقد اعترفت المحافل الكبرى فى العالم بهذا المحفل غير أنه توقف عن
العمل بعد فترة قصيرة من تأسيسه من جراء اندلاع الحرب العالمية الثانية •
وفي عام ١٩٥٠ انعقد مؤتمر ماسوني حضره مندوبون من البلاد العربية
وقرروا احياء المحفل الاكبر من جديد • (٥٩)

الماسونية في العراق :

ليس لدينا معلومات مضبوطة عن نشاط الماسونية في العراق في
العهد العثماني ، وكل ما نعرفه في هذا الصدد هو أن الشيخ خزعل أمير
المحمرة كان ماسونياً نشيطاً وقد نال من الماسونية أوسمة لقاء خدماته
لها • (٦٠) وليس من المستبعد أنه ساعد على تأسيس المحافل الماسونية
في العراق وأدخل فيها بعض المتصلين به من اعيان العراق وأدبائه • ولا
ننسى أن الشيخ خزعل كانت له صلات كثيرة في العراق ولا سيما في
البصرة والفرات الاوسط •

وقد ازدهرت الماسونية في العراق عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى
بتشجيع من بعض المسؤولين البريطانيين • عثرت في مصدر ماسوني
انكليزي على هذه العبارة : « أخبرنا الاخ جي • في • كولز أن الماسونية
ازدهرت في العراق منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى قيام اسرائيل ،
وعند ذلك تعطلت موقتا ، ثم انتعشت من جديد حتى قيام الجمهورية
العراقية » • (٦١)

ويرجح في ظني أن البصرة كان لها القدح المعلى في الماسونية
قبل غيرها من المدن العراقية ، ويمكن ان نعزو سبب ذلك الى كونها
ميناءاً لها اتصال بالاجانب منذ زمان بعيد بالاضافة الى وقوعها تحت

---

(٥٩) عبد الحليم الياس الخوري (الماسونية ذلك العالم المجهول) ـ بيروت
١٩٥٤ ـ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٦٠) مصطفى عبد القادر النجار (التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية)
ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ١٠٨

(61) Pick And Knight (op . cit .) — P 214 .

تأثير الشيخ خزعل . نشرت بعض الصحف العراقية في ١٢ كانون الاول ١٩٢٥ خبرا مفاده : ان المحافل الماسونية في البصرة احتفلت بوضع الحجر الاساسي لبناء المحفل الماسوني الواقع على طريق النهر ، وقد افتتح المحفل المستر مور مبيناً أن المحافل الماسونية في البصرة قد تأسست سنة ١٨٣٩ وهي تضم الآن ما يقارب السبعمائة عضو . (٦٢)

وفي عام ١٩٢٦ حدثت حادثة في البصرة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن رجلا كاثوليكيا من الطائفة الكلدانية كان ماسونيا من أعضاء محفل « صدق الوفاء » التابع للمحفل الاكبر المصري ، ولما مات هذا الرجل رفض القساوسة اجراء المراسيم الدينية له ومنعوا من دفنه في الكنيسة الكاثوليكية مع العلم أنه كان قد ساهم في بنائها من ماله الخاص. وقد أثار الماسونيون في البصرة وبغداد ضجة حول هذه القضية وكتبوا المقالات في الصحف التابعة لهم هاجموا بها القساوسة الكاثوليكيين .

ففي ١٥ كانون الاول ١٩٢٦ نشر عبدالرحمن أفندي الهاشمي في جريدته « الاخاء » مقالا بعنوان « فلتحي المبادىء الحرة وليعش الماسون في مشارق الارض ومغاربها » ندد فيه بعمل القساوسة وانتقدهم انتقادا لاذعا . وفي ٢٣ من الشهر نفسه نشرت جريدة « العراق » البغدادية مقالا بعنوان « الانتقام من الميت » قالت فيه : « ليس أمتناع المطران الرئيس من اجراء المراسيم المعتادة هو الذي يؤلم القلوب بل العذر الذي بنى عليه تمنعه وهو كون الميت ماسونيا » . ثم أخذت الجريدة تصف المرحوم بأنه كان مشهوراً بالتقوى والمواظبة على الصلاة واداء الفروض الدينية التي تفرضها الكنيسة الكاثوليكية ، وأنه بقدر ما كان مخلصا في دينه كان حريصا على تنفيذ المبادىء الماسونية .

وفي اليوم التالي ــ أي في ٢٤ كانون الاول ١٩٢٦ ــ نشرت جريدة « الاوقات العراقية » مقالا بالانكليزية في الموضوع نفسه بعنوان « سبيلك رحمة ومودة » . وبعد أربعة أيام نشرت الجريدة نفسها مقالا بالعربية

---

(٦٢) جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ١٢ كانون الاول ١٩٦٥ .

بتوقيع « ماسوني » هدد فيه القساوسه بقوله : « وهل تعلمون أنكم بعملكم هذا تجعلون منتسبي الجمعية الماسونية مضطرين الى أن يفتشوا عن الحقائق الواردة في الاناجيل الشريفة ويقايسوها بالاعمال الاخيرة » .(٦٣)

مرت الماسونية العراقية في الثلاثينيات وما بعدها بمرحلة سادها التكتم الشديد ، وأصبح الشخص الماسوني لا يعلن عن ماسونيته أمام الناس وربما أنكرها . ويبدو ان السبب في ذلك هو استفحال الدعاية النازية ثم الدعاية الشيوعية في العراق آنذاك . والمعروف عن النازية والشيوعية أنهما متفقتان على احتقار الماسونية ومحاربتها ، فالنازية تعتبر الماسونية صنيعة النفوذ البريطاني والفرنسي بينما الشيوعية تعتبرها منظمة برجوازية .

لقد صار من الصعب الحصول على معلومات يوثق بها عن المحافل الماسونية في العراق وعن عدد اعضائها ، وقد انتشرت بين الناس احيانا قوائم بأسماء الماسونيين في العراق ، واني احتفظ بواحدة منها ، ولكنني لا أشعر بالثقة فيها . والمظنون أن بعض الناس اتخذوا من تلك القوائم وسيلة للـ بخصومهم ، فهم يحشرون أسماء الخصوم في القائمة وينشرونها ، وعند هذا يحلف هؤلاء المساكين بأغلظ الايمان أنهم ليسوا ماسونيين فلا يصدقهم الناس .

نشرت جريدة « العرب » البغدادية في ٢٩ آب ١٩٦٤ خبرا قالت فيه : انها علمت من مصادر خاصة أن عدد المحافل الماسونية في الوقت الحاضر يبلغ ثمانية عشر محفلا ، وان ثلاثة أو أربعة منها في البصرة . ولا أدري الى أي مدى يمكن الاعتماد على هذا الخبر .

زرت منذ عهد قريب الدار التى كانت مقرا للماسونية في بغداد سابقاً ، وهي تقع في الكرادة الشرقية ، فلاحظت فيها ما يدل على وجود ثلاثة محافل في بغداد هي : (١) محفل بغداد رقم ٤٠٢٢ ، (٢) محفل العراق رقم ٤٤٧١ ، (٣) محفل دار السلام رقم ٥٢٧٧ . وهناك

---

(٦٣) أبو صادق (المصدر السابق) ــ ص ١٩٢ ــ ٢٢٢ .

اشارة الى شيء رابع اسمه « فصل بغداد » لست أدري ما هو المقصود منه • وقد وجدت على جدران قاعة المقر أسماء رؤساء المحافل منذ عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٧ ، وأكثرهم بريطانيون والقليل منهم عراقيون •

وقد لفت نظري في قاعة المقر قطعة من المرمر موضوعة في أسفل أحد العمودين القائمين قرب المدخل السري للقاعة ، وقد كتب عليها بالانكليزية ما ترجمته : « هذا الحجر الاساسي لقاعة بغداد الماسونية وضع من قبل صاحب الفخامة المندوب السامي السر هنري دوبس ، وعاونه الاخ المحترم الكولونيل جون چاپلوارد في ٢٥ تموز ١٩٢٥ » • ورأيت في جهة أخرى من العمود قطعة ثانية مكتوب عليها : « هذا الحجر أعيد وضعه من قبل الاخ الفائق الاحترام السر جون چاپلوارد المفتش الاعظم للعراق في ٣٠ تموز ١٩٤٠ » •

في عام ١٩٥٨ عندما قامت ثورة الرابع عشر من تموز أسرعت الحكومة العراقية فاغلقت المحافل الماسونية في كافة انحاء البلاد ، فكانت بذلك أول حكومة عربية تفعل ذلك • وقد جرى ذكر للماسونية في المحكمة العسكرية العليا الخاصة أثناء محاكمة الدكتور محمد فاضل الجمالي وعبدالجبار فهمي • ننقل فيما يلي الحوار الذي جرى بين الجمالي ورئيس المحكمة في موضوع الماسونية لكي يطلع القاريء فيه على مبلغ اختلاف وجهة النظر بين اتباعها وخصومها :

الرئيس : فسروا لنا أن الماسونية جمعية انسانية خيرية ، وسميها ما شئت •

المتهم : سيدي أنا لا أعرف •

الرئيس (مقاطعا) : ألم تكن جمعية صهيونية يهودية استعمارية ؟

المتهم : كلا • العفو •

الرئيس : ما هي ؟ تحت التاج البريطاني •

المتهم : الماسونية حسب ما أفهمها جمعية سرية ذات رموز تستهدف العلاقات الانسانية والخدمة الاجتماعية بدون أن تمس دين الرجل أو عقيدته السياسية ، وكل بلد اليوم ، مثلا مصر ترون أن عندهم محفل

أعظم وعندهم محافل مصرية ٠

الرئيس : وعلامته المثلثات المتقاطعة ، ألم تكن صهيونية ؟

المتهم : فيها رموز مختلفة من الاديان المختلفة ٠

الرئيس : رمز يهودي ؟

المتهم : العفو ٠

الرئيس : أي صهيوني ، أي استعماري ؟

المتهم : كلا ٠ اليوم مثلا اذا ذهبتم الى أي بلد ، الى تركيا ، ليس هناك استعمار ، المفروض أنها ليس جمعية استعمارية ، جمعية وأغراضها فقط تجمع الجماعة الذين يجتمعون ويكونوا بينهم أخوة وتعاون اجتماعي٠

الرئيس : هل يصح وأنت الرجل الوطني المخلص الفاضل الشريف أن تنتسب الى جمعية لم تكن وطنية سواء كانت عراقية أو غيرها من الاقطار الاخرى ٠

المتهم : سيدي اسمحوا لي ، الماسونية تؤسس وطنية في أي بلده اليوم مثلا العرب يستطيعون أن يكون محفل لهم.ولا يقبلوا اليه ابن بلد آخر ٠

الرئيس : هل يحتاج لها الشعب العراقي ؟

المتهم : سيدي هذا موضوع شخصى ٠ اليوم أنا أقرأ المجلة الفلانية ، أو الجريدة الفلانية ، ليس ضروريا أن يحتاج الشعب العراقي المجلة الفلانية ٠

الرئيس : هل يقرأ مجلة البدائع ؟ هل يجوز لشاب متثقف قراءة مجلة البدائع ؟ هل تباح القراءة لكل كتاب كان ؟ الكتاب شبيه القاريء٠ الكتاب خير جليس ٠

وهنا قام المدعي العام فقرأ رسالة وصلته قبل قليل يدعي صاحبها أنه كان ماسونيا وخرج منها وهو اليوم يريد فضح اسرارها ، ثم اخذ يصفه الماسونية فقال انها تعمل في خدمة التاج البريطاني ، وان شروط القبول فيها التحرر والكفر بالدين والشرف والقومية ، وان العضو يقسم اليمين بالسلاح الذي يختاره وهو ملزم بتنفيذ الامر المفروض عليه

حتى التضحية بدينه وعرضه وقوميته ، وان الحكومة البريطانية تمد الماسونية في جميع أنحاء العالم بالمال والنفوذ والدسيسة ، وترقي الاعضاء الى مناصب الدولة التي يعيشون فيها لكي تفعل ما تشاء بوساطتهم ، وكثيرا ما نسمع عن حكام استقالوا عندما عجزوا عن انقاذ أخيهم الماسوني من التجريم • وقد أشار صاحب الرسالة الى أنه لم يذكر اسمه الصريح لانه يخاف من اغتيال الماسونيين له •

المتهم : سيدي هذه والحقيقة على طرفي نقيض • هذه رسالة كاتبها لا يعرف شيء عن الماسونية مطلقاً • اولا الماسونية لا علاقها لها ••

الرئيس (مقاطعا) : لا يزال لك أمل في انقاذك من قبل الماسونية • هذا الشعب العراقي ومحكمته لا يمكن لاي سلطة أن تؤثر عليه • المحكمة حرة • والشعب العراقي حر (تصفيق من الحاضرين) • اننا لا نخاف من أية قوة في العالم في سبيل خدمة وطننا وشعبنا • ان دمائنا رخيصة في سبيل شرفنا • شرفنا الوطني والانساني (تصفيق من الحاضرين) •

المتهم : سيدي الماسونية حولها كتب ومؤلفات كثيرة • أولا الماسونية ليس لها علاقة بالبريطانيين ، خاصة كل بلد له ماسونيته • النقطة الاخرى أن لا يدخل الماسونية من لا يؤمن بالشرف والعرف • وكذلك القسم وما أشبه الذي ذكره ليس له ضمنا الحقيقة • ان هذا واجبي أن أقوله للتسجيل فقط • فما ورد في هذه الرسالة سيدي باطل من أساسه •••(٦٤)

الخاتمة :

في شهر نيسان من عام ١٩٦٤ أصدرت الحكومة المصرية أمرها باغلاق جميع المحافل الماسونية في مصر • وفي ١ أيار صدرت مجلة « القوات المسلحة » القاهرية وهي تحتوي على تحقيق صحفي مثير عن الماسونية بالعناوين التالية : « نصر صحفي ـ القوات المسلحة تدخل الغرفة السوداء في المحفل الماسوني ـ هياكل عظيمة ـ توابيت للموتى ـ

---

(٦٤) وزارة الدفاع (محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة) ـ بغداد ١٩٥٩ ـ ج٣ ص ١١٩١ ـ ١١٩٤ •

أول صور تنشر في العالم لطرق الارهاب الماسوني » •

وفي ٣ حزيران نشرت مجلة « آخـر ساعة » القاهرية تحقيقاً آخـر عن الماسـونية ذكرت فيـه الاسـباب التي حـدت بالحكومة المصرية الى اغلاق محافلها وقالت مانصه : « عندما طلبت الجمعيات الماسونية بالجمهورية العربية المتحدة تسجيل تنظيماتهم بوزارة الشؤون الاجتماعية طلـب منهم المسؤولون تطبيق قانون الجمعيات عليهم ، وهذا القانون يحتم خضـوع كل الجمعيات داخل الجمهورية لاشراف وزارة الشؤون الاجتماعية ويكون للمسؤولين في الوزارة حق التفتيش على أعمال الجمعية للتأكد من عـدم مخالفتها القانون • ورفضت الجمعيات الماسونية ذلك ، لانه يتعـارض مع السرية التامة التي تعيش فيها ، فقررت الحكومة الغـاء الجمعيـات الماسونية في مصر » •

وقد علقت مجلة « آخر ساعة » على ذلك قائلة : « ولم يكن هـذا هو السبب الوحيد لالغاء الجمعيات الماسونية ، ان أمن الدولة وسلامتها اقتضيتا الغاء هذه الجمعيات أيضا • فقد قررت الصهيونية اسـتغلال المحافل الماسونية في جميع أنحاء العالم لمزاولة نشاطها نظرا لضمان سرية ما يجري في داخل هذه المحافل ••• يكفي أن تعرف أنه فـي احـد الاجتماعات لقيادة الحركة الصهيونية العالمية الذي عقد في جنيف منـذ ثماني سنوات تم اتخاذ القرار السري انه على جميع المنظمات الصهيونيـة في جميع أنحاء العالم ، وفي الدول المعادية لاسرائيل بصفة خاصة ، التسلل الى الجمعيات الماسونية ومزاولة نشاطهم والاندماج بهم واستغلال السرية المفروضة على كل طقوسها لمصلحة الاغراض الصهيونية العالمية »

ولكي لا يقع الماسونيون كلهم في موضع التهمة أعلن أنور أحمد مدير منطقة القاهرة للشؤون الاجتماعية ــ وهو الرجل الذي أمر بحل الجمعيات الماسونية ــ فقال : « ان كثيرا من أعضاء هذه الجمعيات مواطنون صالحون شرفاء الا انهم لا يدركون الخطوره التي قد تعود على الدولة من جمعياتهم، اذ أن السرية التامة التي تفرضها الجمعيات الماسونية على نشاطها تكـون فرصة مواتية لتسلل العناصر المعادية للدولة •• وكما رأينا فان الصهيونية

لم تفتها الفرصة وقررت استغلالها » .

ومهما كان الحال فقد كان لقرار الحكومة المصرية في اغلاق المحافل الماسونية صدى قوى في الرأي العام في مصر والبلاد العربية الاخرى، وأخذ الكثير من الماسونيين يخرجون منها أو يعلنون براءتهم منها .

ان أهم أثر للقرار المصري ظهر في الاردن ، فقد أصدر الماسونيون هنالك بياناً نشروه في الصحف ، وهو بيان طويل نكتفي بالاشارة الى بعض النقاط المهمة منه . يعترف البيان بأن الصهيونية استغلت الماسونية العالمية استغلالاً مجرماً في أبشع صورة عرفتها الانسانية ، ولكن البيان يعود فيقول ان العرب لا يجوز لهم أن يخرجوا من الماسونية ويتركوا الصهيونية حرة تعمل فيها ما تشاء . ان من واجبهم الديني والقومي أن لا يتركوا هذا الميدان خالياً من صوت العرب الداوي حتى لا ينفرد الصهاينة في بث دعايتهم المضللة فيه بشتى وسائل الاغراء والنفوذ . ولهذا قرر الماسونيون الأردنيين أن يؤسسوا منظمة ماسونية خاصة باسم « الحركة الماسونية العربية » هدفها التعاون مع المحافل الماسونية المتعاطفة معهم في مختلف أنحاء العالم من أجل انصاف عرب فلسطين واطلاع العالم على مأساة اللاجئين . وكان هذا البيان موقعاً من قبل « القطب الاعظم » عبد المجيد مرتضى ، و « السكرتير الاعظم » الدكتور سليمان البستاني .

وعلى أثر نشر هذا البيان أصدر المفتي العام في الاردن فتوى طويلة جوابا على استفتاء ورد اليه عن الحكم الشرعي في الماسونية . والملاحظ أن هذه أول فتوى دينية صدرت في الاسلام عن الماسونية اذ لم يكن قد صدر قبلها أية فتوى صريحة في هذا الموضوع . ننقل فيما يلي جزءا من هذه الفتوى :

« ان الذي يغلب على الظن ان الماسونية من بدع اليهود ... ومن الدليل على أن هذه الجمعية من بدع اليهود ما فيها من شارات يهودية كمثل نجمة سليمان وان اليهود هم الذين يقومون بها ويتولونها ويروجونها ... وان مما يريب في هذه الماسونية شدة كتمان مبادئها واخفاء مذاهبها ومداخلها ومخارجها حتى لا يظهر دعاتها من أمرها الا ما يكون بمنزلة

الطعم الذي يكون في الفخ للصيد وهو انها دعوة انسانية وفيها للداخل نفع كبير وخير كثير ، وانه ان لم يكن موظفا فسيوظف ، وان كان موظفا فسيرفع الى أعلا المراتب واكبر المناصب وهلم جرا .. • ونحن لا نرى أنه يسوغ لنا أن نفتي في شيء لا نعرف كنهه ولا ندري حقيقته ، والذي نفتي به من مبادىء هذه الجمعية ما نقطع به وهو تقديم الاخوة الماسونية على الاخوة الدينية والاخوة القومية ، وهذا في حقيقته ومآله هو تقديم للماسونية على الدين ، وهذا عند التأمل كفر ••• وان مبدأ الماسونية هذا الذي يقوم على تقديم الاخوة الماسونية يضمن الموالاة للاخوان اليهود، والموالاة هي النصرة وأن يكون كل واحد من الموالين بمنزلة الاب من الابن ، وقد كانت الموالاة عند العرب تقدم على القرابة ، وقد نهى الله تعالى عن تولي اليهود الذين هم أعداء ••• واذا استفتانا أحد أنه هل يجوز ان يدخل الماسونية فان فتوانا أنه لا يجوز لان مبادىء الماسونية مجهولة وليس مما يجوز أن نبيح الدخول فيما يريب ولا تعلم حقيقته وهذا ما يقضي به الحديث الذي يعد من قواعد الاسلام وهو (دع ما يريبك الى مالا يريبك) ، بل هذا ما يقضي به العقل أيضا لانه لو سألك سائل عن طريق لا تعرفه هل يسلكه ، فانه لا يجوز لك أن تشير عليه بسلوكه لان في ذلك شيئا من التغرير وهذه فتوانا فيما نقطع به •••»(٦٥)

ان هذا الذي حدث في الاردن ، والذي حدث فى مصر قبله ، كان له أثره في سوريا ولبنان • ففي ٩ آب ١٩٦٥ أصدرت الحكومة السورية أمرها باغلاق المحافل الماسونية وأندية الروتاري في بلادها ، وأنذرت كل من يقوم بنشاط فيهما بسوقه الى المحاكم العسكرية المختصة بتهمة الانتماء الى جمعيات سرية ذات طابع دولي • أما في لبنان فقد كان الاثر مختلفا تبعا لطبيعة التركيب الاجتماعي والسياسي الذي يتميز به لبنان عن غيره من البلاد العربية •

المعروف في لبنان أن بعض كبار السياسيين والاثرياء هم ماسونيون،

---

(٦٥) مجلة الشريعة (اسرار الحركة الماسونية) ــ عمان ١٩٦٤ ــ ص ٣٣ ، ٤٠ ــ ٥٤ .

وكان المقرر ان يعقد في بيروت في العشرة الاخيرة من شهر آب عام ١٩٦٥ مؤتمر ماسوني عالمي يحضره زهاء ألفي ماسوني يمثلون المحافل الكبرى من جميع أنحاء العالم • ولكن الحكومة اللبنانية أصدرت في اللحظة الاخيرة قرارا بالغاء عقد المؤتمر ، وأعلن أديب الفرزلي نائب رئيس مجلس النواب وهو قطب ماسوني يقول : انه هو الذي طلب من الحكومة اللبنانية الغاء عقد المؤتمر خوفاً من بعض الماسونيين الصهاينة أن يتسللوا الى لبنان عن طريقه • (٦٦)

اضطر المحفل الاكبر اللبناني تجاههذا القرار أن يدعو عدداً من أقطاب الماسونية في العالم لزيارة بيروت ، وقد وصل هؤلاء الى بيروت في أواسط آب ، فاستقبلهم أديب الفرزلي وذهب بصحبتهم الى السراي حيث زاروا رئيس الوزراء رشيد كرامي •••

يبدو أن ضغط الرأي العام دفع الحكومة اللبنانية أخيرا الى اغلاق المحافل الماسونية على منوال ما فعلت الحكومة السورية والحكومة المصرية قبلها ، ولكن هذا الاغلاق على أي حال لم يكن جديا ، فقد ظلت المحافل الماسونية في لبنان تعقد اجتماعاتها دون أن تتدخل السلطة في أمرها • وفي ١٩ كانون الثاني ١٩٧٢ ذكرت وكالة الانباء الفرنسية خبرا مفاده أن صائب سلام رئيس وزراء لبنان أصدر قرارا بالغاء جميع اجراءات المنع التي اتخذتها الوزارات السابقة ضد الماسونية ، وينص هذا القرار على « أن مجلس الموقرين اللبنانيين من الدرجة الثالثة والثلاثين، واللجنة الماسونية العليا للدرجات العليا في لبنان ، قد أصبح مصرحاً لهما اعتبارا من الآن بممارسة نشاطهما طبقاً للمادة السادسة من قانون المنظمات » • (٦٧)

---

(٦٦) ابو صادق (المصدر السابق) ـ ص ١٧٤ •

(٦٧) جريدة الثورة البغدادية في عددها الصادر في ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٢ •

الفهرس

حول الاخطاء المطبعية

وقعت في هذا الجزء بعض الاخطاء المطبعية على الرغم من شـــدة العناية بالتصحيح ، وهي أخطاء نأمل أن يفطن لها القارىء ويصححها بنفسه.

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٠ لسنة ١٩٧٢

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME TWO

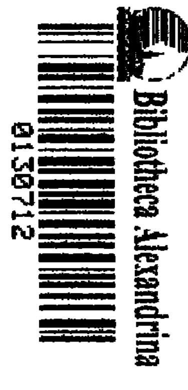
SECOND EDITION

الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية
من
تاريخ العراق الحديث

الجزء الرابع

من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨



الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية
من
تاريخ العراق الحديث

الجزء الرابع

من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨

مقدمة

ان هذا الجزء خاص بدراسة أحداث العراق التي وقعت خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ، أي من عام ١٩١٤ حتى عام ١٩١٨ • ولا حاجة بنا الى القول ان الحرب الاولى كان لها تأثير بالغ الأهمية في المجتمع العراقي، انها هزت العراق هزاً عنيفاً وكانت ايذانا ببدء مرحلة انتقال اجتماعية كبرى لا نزال نعيش فيها وسنظل نعيش فيها فترة لا نعرف مداها •

سوف نحاول دراسة النتائج الاجتماعية والفكرية والسياسية للحرب في العراق في أجزاء قادمة من الكتاب ، وسنكتفي في هذا الجزء بدراسة الاحداث التي وقعت خلال سنوات الحرب الأربع وتأثيرها الآني في المجتمع العراقي • وقد وجدت من المناسب تخصيص الفصلين الأول والثاني من هذا الجزء لدراسة بعض ما جرى من أحداث هامة في تركيا والشام والحجاز لما لها من علاقة مباشرة وغير مباشرة بأحداث العراق • وأرجو أن يعلم القاريء أني حين اذكر كلمة « تركيا » في هذا الجزء أقصد بها في بعض الاحيان الدولة العثمانية ، وحين أذكر «الاتراك» أقصد بهم رعايا تلك الدولة من أتراك وغيرهم ، وهذا اصطلاح جرى عليه الكثير من الكتاب والمؤرخين وقد جاريتهم في ذلك توخياً للاختصار •

كلمة لا بد منها :

أود ان أنتهز هذه المناسبة لأشير الى أمر ربما لاحظه القارىء في جميع كتبي هو كثرة الأخطاء النحوية فيها ، وهذا أمر أعترف به ولا أعتذر عنه •

لا أكتم القاريء أني اعتبر النحو العربي بلاءاً ابتليت به الأمة العربية، وأنا على يقين ان الأمة العربية في مسيرتها الحضارية نحو المستقبل سوف

يأتي عليها يوم تجد نفسها مضطرة الى الغاء النحو كله من مناهج مدارسها أو الغاء الجزء الأكبر منه على الاقل • فنحن حين نتصور ضخامة عدد الكتب والمعلمين وساعات الدروس التي تخصص لتعليم قواعد النحو في المدارس، ثم نتصور النتيجة من كل ذلك حيث يتخرج التلاميذ وهم قد نسوا معظم تلك القواعد أو أهملوها ، ندرك مبلغ التبذير الذي تعانيه الأمة العربيـة في جهودها الفكرية جيلاً بعد جيل •

مشكلة النحو العربي أنه ذو قواعد كثيرة ومعقدة دون أن تكون لها أية فائدة عملية • ولم نحصل من النحو الا على أفراد من النـاس دأبهم البحث عن الأخطاء النحوية في خطب الناس وكتاباتهم لينتقدوا أصحابها بها ويشنوا عليهم الهجمات الشعواء • ومما يلفت النظر ان هؤلاء الافـراد الذين ينقبون عن الأخطاء النحوية عند غيرهم هم أنفسهم قد يتورطون في الاخطاء عندما يخطبون أو يكتبون ، ولم أجد أحداً مهما بلغ اتقانه للنحو قد نجا من الأخطاء النحوية في خطبه أو كتاباته ، فهو ينتقـد الناس علـى أخطائهم ثم يظهر بين الناس من يرد له الكيل وينتقده على أخطـائه التي اقترفها من حيث يدري أو لا يدري •

ومما أذكره في هذا الصدد ان المرحوم الدكتور مصطفى جواد ــ وكان أكبر عالم بالنحو واللغة في بلادنا كما هو معروف ــ رأيت أناسـاً قـد وجدوا بعض الأخطاء النحوية في كتاباته ، وجادلوه وجادلهم من غيـر أن يصلوا الى نتيجة حاسمة • معنى هذا ان النحو العربي بحر واسع عميق ليس له أول ولا آخر ، فما يقوله قوم فيه يناقضهم عليه قوم آخرون • ولا أدري متى ينتهي هذا البلاء الذي ابتليت به الأمة العربية !

يجب علينا أن نبدأ منـذ الآن فـي تقليص القواعـد النحوية أو تشذيبها في سبيل التخلص منها تدريجاً ، واني سـأبدأ ذلك بنفسي حيث أحاول اهمال بعض القواعد النحوية في هذا الجزء ، وأسأله تعـالى ان يمكنني من الاستمرار في ذلك في الاجزاء القادمة •

ان أول قاعدة نحوية سأحاول اهمالها هي اعـراب اسـماء الاعـلام العربية ، ولا سـيما الحديثة منها ، من أمثـال محمد علي ، أبو التمن ،

رؤوف ، جمال ، حميد ، فيصل ، حسين ، وما أشبه . فقد وجدت بعض الكتاب اذا ذكروا اسم «محمد علي» مثلاً وكان في محل نصب كتبوه هكذا « محمداً علياً » ، وهم يفعلون مثل ذلك في كثير من الاسماء ، وهذا في رأيي تزمت يسيء الى اللغة العربية ويؤدي الى ركاكة الاسلوب فيها . ان اسماء الاعلام يجب أن تكتب بالشكل الذي يلفظه الناس به ولا يجوز أن تخضع لقواعد الأعراب .

وهناك قاعدة نحوية أخرى سأحاول اهمالها كذلك وهي حذف حرف العلة من أواخر بعض الأسماء مثل سامي ، كافي ، داعي ، ساري ، راضي ، وغيرها . فان حذف الحرف الأخير من هذه الاسماء كثيراً ما يؤدي الى التباس المعنى في ذهن القارىء وغموضه ، فالقارىء اذا قرأ كلمة « سام » مثلاً قد لا يعرف هل هي مشتقة من السمو أو من السم . لا أنكر ان بعض القراء يستطيعون ان يعرفوا ذلك بسهولة حسبما توحي به القرينة في العبارة التي يقرأونها ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن ليس كل القراء من هذا القبيل ، وليس هناك أي داعي لكي نشغل ذهن القراء بمثل هذه المسائل التي لا جدوى فيها .

ينبغي أن نعلم أن القارىء اليوم هو غيره بالأمس ، انه اليوم مشغول وعلى عجل من أمره وليس لديه وقت كافي لكي يتمعن في الكلمات التي يقرأها ويعيد النظر فيها من أجل فهمها . انه في حاجة الى اسلوب واضح في الكتابة يفهم المقصود منه بنظرة خاطفة . فلقد ذهب ذلك الزمان الذي كان الكتاب فيه يفتخرون بما في كتاباتهم من زخرف وتعقيد، والذي كان القراء فيه يفتخرون بمقدرتهم على حل الألغاز التي يأتي بها الكتاب .

رجاء الى النقاد :

أكتب هذه الكلمة في مقدمة هذا الجزء تنبيهاً لبعض النقاد لكي لا يشغلوا أنفسهم في تحري الأخطاء النحوية فيه على نحو ما فعلوا في الاجزاء والكتب السابقة . رجائي من النقاد أن يبحثوا عما في كتبي من أخطاء تاريخية واجتماعية ، فذلك أجدى لمجتمعنا من البحث عن اخطاء اللغة والنحو والصرف .

ان كتبي لا يمكن أن تخلو من أخطاء علمية على أي حال ، شأنها في ذلك شأن أي عمل من أعمال البشر . واني أشكر النقاد الذين اهتموا بهذا الجانب من كتبي ونبهوني الى الاخطاء العلمية التي وقعت فيها . واعترف اني انتفعت من ملاحظاتهم ونقداتهم قليلاً أو كثيراً .

يروى عن الغزالي أنه كان لا يبالي بالاخطاء اللغوية تظهر في كتاباته، وحين عوتب في ذلك أجاب قائلا : ان قصده هو المعاني وتحقيقها دون الألفاظ وتلفيقها . وقد علّق أحد الباحثين الحديثين على هذا الجواب قائلا : « ونحن نحمد الله على عدم اشتغال الغزالي بعلوم اللغة ، وعلى عدم اهتمامه بصناعة الالفاظ ، فانه لو اعتنى بهذه الناحية لما امتازت كتابته بهذه القوة والسلاسة في التعبير»[1] .

لا شك ان الغزالي سبق زمانه بهذا المبدأ الذي نادى به منذ مئات السنين ، حيث جعل اللغة وسيلة لا غاية ، وهو المبدأ السائد الآن في مختلف أنحاء العالم المتمدن . ومن المؤسف أن نرى بعض كتابنا ونقادنا لا يرتضون هذا المبدأ وقد يشجبونه ويتهمونه ، . والملاحظ ان هؤلاء الكتاب والنقاد قد يدعون لأنفسهم النزعة التقدمية او الثورية في الحياة ، انما هم في اللغة رجعيون . ولست أدري كيف يوفقون بين هاتين النزعتين المتناقضتين في أنفسهم ؟!

ان اللغة جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية ، وهي مترابطة ترابطاً عضوياً وثيقاً مع الجوانب الأخرى منها . ولست أعتقد أن أمة من الأمم تستطيع أن تماشي الحضارة الحديثة في نظمها السياسية والاقتصادية بينما هي في لغتها لا تزال تتبع طريقة الحذلقة والتصنع وتخضع لقواعد كثيرة لا فائدة منها .

في رأيي اننا في حاجة الى ثورة في مجال اللغة كمثل حاجتنا الى الثورة في مجات الحياة الاخرى ! .

---

(١) جميل صليبا وكامل عياد (المنقذ من الضلال) ــ دمشق ١٩٦٠ ــ ص ٩ .

الفصل الأول
الدولة العثمانية في الحرب

قبل البدء بدراسة احداث العراق ينبغي دراسة بعض الأحداث الهامة التي كان لها أثرها في مجرى الحرب في الدولة العثمانية بوجه عام • ففي هذا الفصل سنحاول دراسة الاحداث غير العسكرية ، أما في الفصل التالي فسنحاول دراسة الاحداث العسكرية •

يجب أن نذكر قبل كل شيء ان الدولة العثمانية كانت قبيل اندلاع الحرب تحت سيطرة الاتحاديين — أي حزب الاتحاد والترقي — على نحو ما شرحناه في الجزء الثالث • فكان أنور باشا وزير الحربية أعظم رجال الدولة نفوذاً وأقواهم شخصية حتى أطلق عليه بعض المؤرخين لقب « دكتاتور الحرب » • ويليه في النفوذ طلعت باشا وزير الداخلية الذي صار فيما بعد رئيس الوزراء • ثم يأتي في الدرجة الثالثة جمال باشا وزير البحرية وهو الذي نيطت به القيادة العامة في بلاد الشام كلها كما سنأتي اليه • اما رئيس الوزراء سعيد حليم باشا والوزراء الآخرون فكانوا أمام هؤلاء الثلاثة ضعافاً ليس لهم من القوة والنفوذ الا قليلاً • يقول القائد التركي علي فؤاد بك في مذكراته : « كانت المملكة العثمانية في قبضة الاتحاديين ، وكان الاتحاديون في قبضة المركز العام ، وكان المركز العام في قبضة الحكام الثلاثة ، وكان الثلاثة في قبضة أنور يسوقهم سوقاً عنيفاً • أما مقام السلطنة والقوة التشريعية وحزب الاتحاد والترقي والحكومة الرسمية والمطبوعات والرأي العام فلم تكن الا أشباحاً ماثلة وخيالات مصورة » • [1] •

كان أنور باشا يميل الى المانيا ويعجب بجيشها اعجاباً لاحد له ويعتقد

---

(١) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) — ترجمة نجيب الارمنازي — ١٩٦٢ — ص٣١ •

اعتقاداً جازماً أنه جيش لا يُغلب ، فلما اندلعت نيران الحرب في أوربا كان أنور باشا واثقاً من أن النصر لا بد أن يكون في جانب المانيا في النهاية ، والظاهر أنه كان يهوى من أعماق قلبه زج دولته في الحرب الى جانب المانيا لكي تشاركها الغنيمة ويحظى هو بأكاليل الغار ، ولكنه وجد ذلك صعباً في بداية الحرب فآثر التريث والانتظار لكي يجد الفرصة المناسبة التي تتيح له ذلك بعدئذٍ .

النفير العام :

عندما اندلعت نيران الحرب في أوربا في أوائل آب ١٩١٤ أعلنت تركيا الحياد تجاه الدول المتحاربة ، وأعلنت كذلك حالة النفير العام في بلادها بحجة المحافظة على حيادها تجاه من يريد الاعتداء عليها .

كانت حالة النفير العام ـ وهي ما يطلق عليه في اللغة التركية «سفر بزلك» ـ شديدة الوطأة على سكان البلاد العثمانية حيث سيق الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين الى التجنيد ، وصارت دوائر الاعاشة العسكرية تضع يدها على حيوانات النقل والكثير من المواد التي اعتبرتها لازمة للجيش باسم « التكاليف الحربية » ، وكانت هذه الدوائر تعطي لمن تأخذ منه شيئاً ورقة تتعهد الحكومة فيها بأنها سوف تسدد الثمن بعد انتهاء الحرب . وهذا معناه ان الحكومة تصادر أموال الناس من غير مقابل لان الناس لم يكونوا يثقون بالحكومة وأوراقها وكانوا على يقين بأن ما تأخذه الحكومة لن يعود ، وقد أدى ذلك الى شل الحياة الاقتصادية في البلاد .

يقول الباحث التركي المعروف الدكتور أحمد أمين في كتاب له عنوانه «تركيا في الحرب العالمية» : «ان حالة النفير العام ضربت الحياة التجارية في البلاد كأنها صاعقة تنزل من سماء صافية ، وقد تضررت كل فروع الحياة الاقتصادية كما تضررت الزراعة . فقد لجأت دوائر الاعاشة في الجيش الى مصادرة كل شيء ، ولم تقتصر مصادراتها على المواد الضرورية للجيش، بل أخذت تصادر أشياء من قبيل الجوارب الحريرية وأحذية الاطفال ومكائن الطباعة . وصار التجار يؤثرون بيع بضائعهم بأي ثمن للتهرب من مصادرة

الجيش لها . وكان هناك دافع آخر دفع التجار للبيع المستعجل هو أنهم في حاجة الى النقود لدفع الضريبة الحربية التي فرضت عليهم ... وتوقفت الاعمال التجارية التي تعتمد على الدفع المؤجل ، وتهافت الناس على البنوك لسحب ودائعهم ... واضطرت الحكومة الى اعلان تأجيل الديون» .(٢)

ان هذا الذي ذكره الدكتور أحمد أمين يؤيده مورغنتو الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في اسطنبول خلال الحرب ، فقد كتب هذا الرجل في مذكراته حول المصادرات التي لجأت اليها الدوائر العسكرية فقال مانصه:

« وذلك هو المبدأ ــ مبدأ النهب ــ الذي تمشت عليه الحكومة التركية في جميع ما يحتاجه الجيش من مؤون وذخائر . وتفصيل ذلك أن الضباط الاتراك كانوا يقبضون على كل حصان أو بغل أو جمل أو بقرة أو خروف ، ويأتون به الى المأمور المعين لذلك . وفي أحد الايام اجتمعت بأنور باشا فقال لي انهم جمعوا ما ينيف على مائة وخمسين ألف من الحيوانات المتفرقة . وكان عملهم هذا ــ كما سيجيء ــ من أعظم العوامل التي أدت بألوف النفوس للموت جوعاً وذلك لانهم لم يتركوا من الحيوانات في المزارع والحقول ما يكفي للقيام بعمل الفلاح فانحطت الزراعة وقل القوت والطعام... ومن أظرف ما عرفت من أعمال الضباط بهذا الخصوص ــ عمل يضحك ويبكي معاً ــ وهو أنهم دخلوا أحد المحلات واذ لم يجدوا شيئاً يتمكنون من نهبه باسم الجيش أخذوا ما وجدوه من كلسات حريرية ومشدات للسيدات، وفرضوا على رجل آخر يتاجر بثياب للاولاد والسيدات أن يقدم عدداً معلوماً من الاحرامات واذ لم يفعل ذلك في الوقت المضروب نهبوا ما لديه من البضائع ، وبعد عدة أيام رأى بضائعه في مخازن جاره معروضة للبيع . تلك هي الطريقة التي استعملها الضباط لجمع الاموال. رأيت أنور في أحد الايام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له ان تلك الاعمال تؤدي بالمملكة الى خراب عاجل ودمار أكيد، ولكنه لم يعبأ بأقوالي ولم يخفق فؤاده ألماً لتلك الاعمال ، بل كان يفتخر

---

(2) Ahmad Amin (Turkey In The War) — New Haven 1930 — p. 109 — 110.

بأنه أنشأ جيشاً كبيراً مجهزاً من لا شيء ... »[٣]

اننا حين نقارن بين تركيا والدول الاوربية في هذا المجال نجد فرقاً كبيراً هو الفرق بين رقي الحضارة وانحطاطها ، فالدول الاوربية اعتمدت على مصانعها في سد حاجاتها العسكرية ، ولم تصادر شيئاً من أيدي الناس الا بثمنه، أما تركيا فلم يكن لديها مصانع تنتج لها ما تريد الا" قليلا" ، وكان الأجدر بها أن تستر على نفسها فلا تدخل في حرب هي حرب حضارية في الدرجة الاولى .

التهيؤ للحرب :

استمرت حالة النفير العام في تركيا ثلاثة أشهر تقريباً كانت الحكومة فيها تتأرجح بين دخول الحرب وعدمه، وقد انقسم رجال الدولة الى فريقين: أحدهما يدعو الى دخول تركيا في الحرب الى جانب المانيا ، والآخر يدعو الى الوقوف على الحياد. والواقع ان دعاة الحرب كانوا قليلين عدديا ولكنهم متنفذين ولهم سيطرة في مجلس الوزراء وفي أجهزة توجيه الرأي العام.

ومما يلفت النظر أنه في نفس اليوم الذي أعلنت فيه حالة النفير العام في تركيا ــ أي في ٢ آب ــ عقدت معاهدة سرية بين المانيا وتركيا ، ولم يكن في هذه المعاهدة ما يوجب على تركيا دخول الحرب الى جانب المانيا انما هي كانت عاملا" قوياً في تقوية الروابط بين الدولتين .

ويقال ان المانيا لم تكن في بداية الحرب ترغب في دخول تركيا الى جانبها في الحرب اذ هي كانت تأمل أن تنال نصراً سريعاً على الحلفاء بمفردها دون معونة أحد ، ولم تحب أن تشاركها تركيا في ثمرات النصر ، ولكن ألمانيا غيّرت رأيها على أثر فشلها في معركة المارن التي وقعت في ١٩ ايلول، فقد أرسل غليوم عندئذٍ الى سفيره في اسطنبول يأمره بان يبذل جهده لادخال تركيا في الحرب عاجلا" .

كان السفير الألماني في اسطنبول ــ واسمه البارون فون ونغنهايم ــ

---

(٣) هنري مورغنتو (مذكرات سفير اميركا في الاستانة) ــ ترجمة فؤاد صروف ــ القاهرة ١٩٢٣ ــ ص ٢٤ ــ ٢٥ .

رجلاً طويل القامة حاد النظرات قوي الشخصية له خبرة دبلوماسية طويلة ولهذا اختاره غليوم منذ ما قبل الحرب ليكون منفذاً لمآربه في اسطنبول ، وقد أخذ هذا الرجل يستعمل مختلف الوسائل لتحريض تركيا على دخول الحرب .

استأجر فون ونغنهايم كتاباً يملأون الأعمدة الطويلة في الصحف للتغني بمديح المانيا وذم بريطانيا وحلفائها . وأيدت الحكومة هذا الاتجاه في الصحف ، فالصحيفة التي لا تجاري ذلك سرعان ما تغلق . وصارت الصحف تنشر أخبار الانتصارات الألمانية وتبالغ فيها بينما هي لا تذكر عن انتصارات الحلفاء الا قليلاً . وأصبح غليوم حامي حمى الاسلام ، وأنور باشا البطل الذي سيعيد الى الأمة مجدها الغابر .

حدثت في تلك الآونة حادثة كان لها أثرها البالغ في هذا الشأن هي ان تركيا كانت قبل الحرب قد أوصت أحد مصانع بريطانيا على صنع باخرتين حربيتين ، وكانت قد جمعت ثمنها بواسطة الاكتتاب العمومي وتحمس الاتراك لهذا العمل الوطني فباعت النساء حليهن من أجله ودفع الموظفون له جزءاً من رواتبهم . ولكن بريطانيا امتنعت عن تسليم الباخرتين على أثر اعلان الحرب ، فهاج الرأي العام في تركيا ، وانتهز فون ونغنهايم تلك الفرصة الذهبية فأخذ يوجه الى الصحف التركية الرسائل العديدة يذكر فيها أن بريطانيا عدوة الاسلام وأنها تحاول دوماً أن تهبط بالمسلمين الى أدنى الدركات .[٤] .

وحدثت بعد هذا حادثة أخرى كانت لها اهميتها القصوى هي ان طرادين ألمانيين اسمهما « غوبن » و «برسلاو » كانا في البحر الابيض المتوسط عند اندلاع الحرب ، فأخذ الاسطول البريطاني يطاردهما مطاردة عنيفة . وفي ١٠ آب استطاع الطرادان الوصول الى مضيق الدردنيل فاحتميا فيه وبذلك نجيا من مطاردة الاسطول البريطاني . يقول وزير البحرية جمال باشا في مذكراته ما نصه : « في مساء ١١ آب اجتمعنا كالمعتاد في قصر الصدر الاعظم لتناول العشاء ، وكنت أنا وطلعت وجاويد

---

(٤) المصدر السابق ـ ص ٢٩ .

أول من حضر . ولما استقر بنا المقام جاء أنور باشا فحيانا بابتسامته الهادئة المألوفة قائلاً : لقد ولد لنا ولد . فلم نفهم مراده لأول وهلة ولكنه أشفق علينا من القلق فقال : لقد لوحظت غوبن وبرسلاو صباح اليوم بالقرب من الدردنيل ولما كان الاسطول الانكليزي يطاردهما طلبتا أن نأذن لهما باجتياز المضايق فصرحت لهما بذلك لأني لم أشأ تعريض مدرعتين لدولة محالفة لخطر محقق وهما الآن في الدردنيل تحت حماية قلاع المضايق ، وقد أصبحنا بناءاً على ذلك ازاء مشكلة سياسية فمن الواجب أن نصل الى قرار حاسم هذا المساء » .(٥)

الواقع أنها كانت مشكلة سياسية كبرى ، اذ ان الحياد يفرض على تركيا أن تطلب من الطرادين مغادرة المياه التركية في خلال أربع وعشرين ساعة والا فهي يجب أن تنتزع عنهما سلاحهما وتحتجزهما في أحد الموانى .

وقد جرت حول هذه المشكلة مناقشات حادة في مجلس الوزراء ، واتصل الوزراء بالسفير الالماني واتصل هذا ببرلين لاسلكياً ولم يستطيعوا الوصول الى حل الا في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل حيث تم الاتفاق على أن يعلن للعالم شراء تركيا للطرادين ، وصدرت جريدة « اقدام » في صباح اليوم التالي وفي صدرها عنوان بأحرف كبيرة هو « صفقة عظيمة ــ نجاح باهر للحكومة العلية » ، وأخذت الجريدة تشرح للقراء كيف أن بريطانيا امتنعت عن تسليم الباخرتين الحربيتين بينما باعت المانيا للحكومة العثمانية الطرادين « غوبن » و « برسلاو » .

دخول الحرب :

كان الطرادان « غوبن » و « برسلاو » بقيادة الأميرال الالماني سوشون ، وقد خلع هذا الاميرال مع بحارته قبعاتهم ولبسوا بدلاً عنها الطرابيش الحمر اعلاناً بأنهم صاروا ضباطاً رسميين في البحرية التركية .

صار سوشون يتحين الفرص للخروج الى البحر الاسود بغية التحرش بالاسطول الروسي ، ويبدو أنه كان مأموراً بذلك سراً من قبل قيصر المانيا .

---

(٥) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) ــ ترجمة علي احمد شكري ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ١٣٥ .

وفي أواخر تشرين الاول استطاع سوشون أن يخرج الى البحر بطراديه مع بضعة مراكب تركية، فقصف بعض الموانئ الروسية وأغرق بضعة مراكب، ثم عاد الى اسطنبول .

حدث ذلك في يوم ٢٩ من تشرين الاول ، وصادف أنه كان يوم عرفة الذي يسبق عيد الاضحى . وفي ذلك اليوم كان رئيس الوزراء سعيد حليم باشا يلتمس الراحة في بيته استعداداً لمراسيم العيد في اليوم التالي وهو لا يعلم بما فعل سوشون . رن جرس التلفون عليه حيث طلب منه أنور وطلعت الاذن للحضور عنده ، فلما حضرا أخبراه أن معركة حدثت بين الاسطولين التركي والروسي في البحر الاسود ، وعند هذا حصلت مشادة بين الرئيس وأنور . ثم بدأ الوزراء يتوافدون الى بيت الرئيس ، وجاءت البرقيات تنبيء أن الاسطول التركي ضرب ميناء أوديسا ، فكان لذلك تأثير شديد على الرئيس ، وأخذ الوزراء يندّدون بعواقب هذا العمل وخطله . وقال رئيس الوزراء : « انه من أنصار السلم ويرى من الخطأ دخول تركيا في حرب تكون وخيمة عليها ، واذا كان هناك من يؤيد فكرة الحرب فليتقدم لاستلام أمور الدولة » . فقام أنور باشا يدافع عن نفسه ويؤكد أن ما جرى لم يكن بعلمه ، فلم يقتنع الوزراء بكلامه ولكنه لم يحفل بهم وترك الغرفة. وبعد ساعتين وصل اليهم خبر آخر هو أن الاسطول التركي ضرب ميناء سباستبول ، فسأل أحد الوزراء طلعت باشا عن ذلك فأجابه هذا : « انه لا يبعد أن يكون الاميرال سوشون الألماني هو الذي فعل ذلك» .(٦)

وفي اليوم التالي عقد مجلس الوزراء جلسة غير اعتيادية ، فكان أكثر الوزراء يعارضون دخول الحرب ويرون اتخاذ الاجراءات الضرورية لتسوية القضية مع روسيا سلماً ودفع التعويضات لها . وحدثت مشادة بين الوزراء مما دعاهم الى تأجيل الجلسة الى المساء . ولم يكد رئيس الوزراء يفرغ من الجلسة حتى وصل اليه سفراء بريطانيا وفرنسا وروسيا يطلبون منه جوازات سفرهم ايذاناً بمغادرة البلاد ، وكان الرئيس حينذاك مرهقاً فتوجه نحو السفير الروسي محاولاً اقناعه بأنه لم يكن يعلم شيئاً عن الحادثة ،

---

(٦) عمر ابو النصر (الحرب العالمية الاولى) ــ بيروت ــ ج ٥ .

فقال له السفير البريطاني : انه كان قد أنذره سابقاً بأن الحالة ستؤدي الى هذه النهاية • واغرورقت عينا الرئيس بالدموع وسألهم أن يؤجلوا سفرهم قليلاً لأن مجلس الوزراء سيجتمع مساءاً وأنه سوف يجاهد في سبيل حل مرضي وأن أكثرية الوزراء معه •

اجتمع مجلس الوزراء مساءاً في منزل شيخ الاسلام خيري أفندي، فلم يحضر الجلسة أنور وطلعت وجمال ، واستمع الحاضرون الى اقتراح قدمه وزير التجارة سليمان أفندي البستاني مؤداه ارسال مذكرة الى الحلفاء يؤكدون فيها التزام تركيا الحياد واعادة البعثة العسكرية الألمانية الى بلادها، وبينما هم في ذلك اذ دخل عليهم طلعت باشا وأظهر لهم خطأ الاقتراح والنتائج الوخيمة التي تنتج عنه ، وطلب منهم قبل الرد على سفراء الحلفاء أن يأخذوا رأي السفير التركي في برلين • فقبل الوزراء بذلك وأجلوا الجلسة الى موعد آخر •

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه الوزراء منهمكين في ايجاد حل للمشكلة صدر من الحكومة التركية بلاغ رسمي يصف حادثة البحر الأسود بخلاف حقيقتها حيث أشارت الحكومة فيه الى أن الاسطول الروسي هو الذي بدأ العدوان على الاسطول التركي • وهذا هو نص البلاغ بعد ترجمته الى العربية :

« ان الاسطول الروسي كان يتعقب الاسطول التركي ويزعج الاوضاع فيما يقومون به من أعمال تطبيقية بصورة متمادية • وفي ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤ م ابتدر في الخصام • وبناء على تقدمهم بأعمال عدائية نحو مضيق البوسفور بحاملة ألغام ، وثلاثة زوارق طوربيد ، وسفينة فحم ، قامت السفينة الحربية (غوبن) فأغرقت حاملة الألغام ، وأوقعت الخسارة في زورق طوربيد بصورة ثقيلة ، وضبطت السفينة حاملة الفحم ، وأسرت ثلاثة ضباط واثنين وسبعين جندياً ، وقصفت سباستيول بنجاح • وان حاملة الغام كانت تحمل سبعمائة لغماً ومائتي جندي ، فانقذ بعضهم فوصلوا الى اسطنبول في ٣٠ منه • ومن افادات الاسرى علم ان هؤلاء كان أملهم أن يبثوا الالغام داخل البوسفور ليتمكن الروس من تدمير

الاسطول . أما (برسلاو) فانها وافت شرقي مدخل بحر آزاق فخربت في مدينة نوفوروسيسق نحو خمسين مخزناً للبترول ، ومخازن عديدة للارزاق ، وأغرقت أربع عشرة سفينة نقل عسكرية »(٧) .

ان صدور هذا البلاغ الرسمي في مثل ذلك الوضع الدقيق كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فمن كان المسؤول عن اصداره يا ترى. ولماذا ؟ وعلى أي حال فقد توتر الجو من جرائه في الدوائر السياسية والدبلوماسية ، وأدرك السفراء ان دعاة الحرب في الحكومة التركية أقوى من دعاة السلم ، ولهذا غادر السفير الروسي اسطنبول في مساء ٣١ تشرين الاول ، وفي مساء اليوم التالي غادرها السفيران البريطاني والفرنسي. وتلا ذلك اعلان روسيا الحرب على تركيا كما أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب عليها أيضاً .

وعلى أثر ذلك عقد مجلس الوزراء في الباب العالي جلسة فوق العادة. فأخذ رئيس الوزراء يشرح الظروف التي أدت الى اعلان الحلفاء الحرب على تركيا ، ثم طلب من الوزراء أن يبدو رأيهم بمنتهى الصراحة بلا خوف ولا محاباة . فكان أسبقهم الى الكلام أوسقان أفندي وزير البرق والبريد اد قال انه يبغض الحرب وهو لا يستطيع التوقيع على قرار دخول الحرب ولذا فهو يقدم استقالته من الوزارة ، اما اذا حولت وزارته الى مصلحة فانه يستمر في عمله بصفته مديراً عاماً . ثم تكلم بعده سليمان أفندي البستاني فقال انه يعارض الحروب بجميع أشكالها بصفته عضواً في جمعية السلام العالمي ، ولذا فهو مضطر الى الاستقالة . وتلاه شوروك صولو محمود باشا فقال : انه بناءاً على نظرة الارتياب التي ينظر زملاؤه اليه يلتمس قبول استقالته . ولم يكن جاويد بك وزير المالية حاضراً غير أن طلعت باشا قال عنه انه مصمم على الاستقالة . ثم غادر الوزراء المستقيلون المجلس ، وشرع الباقون في كتابة القرار الذي شرحوا فيه الضرورة القاضية بدخول

---

(٧) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٦ ج ٨ ص ٢٥٣ .

تركيا الحرب . [٨] ويقال ان رئيس الوزراء كان قد عزم على الاستقالة أيضاً ولكنه عدل عن عزمه في اللحظة الأخيرة ، ويعزى هـذا العدول في رأي مورغنتو الى أنه كان محباً للفخر والأبهة والعظمة وقد دفعه ذلك الى البقاء في أعظم منصب في الدولة العثمانية .[٩]

بين المثالب والمناقب :

بعد مرور أيام قليلة على دخول تركيا الحرب وقف أنور باشا يخطب في زمرة من الضباط فقال : أخطأ بعض الجبناء فيما توهموه من أن عمل اسطولنا في البحر الاسود كان برأي الاميرال سوشون وحده لكي يجعل تركيا أمام الامر الواقع ، والحقيقة ان قادة الألمان وأمراءهم المستخدمين في تركيا ليسوا سوى موظفين لدى الحكومة التركية ، وان رجال الحكومة التركية ليسوا في قبضة أحد او تحت تأثير أي سلطان ، انما هم احرار في آرائهم وأعمالهم وهم الذين اختاروا خوض معامع الحرب كي لا يعيش الاتراك في ذلة « فاما أن يذودوا بالسيف عن حوض عزهم ويقاتلوا دون استقلالهم وحقهم حتى يبلغوا ما يؤملون واما أن يموتوا ميتة كريمة » . [١٠]
يتضح من هذا ان تركيا انما دخلت الحرب بتأثير رجل واحد أو بضعة رجال أرادوا أن يكسبوا المجد والفخار فاندفعوا في أمر ظنوه يؤدي الى ذلك . ان القائد التركي علي فؤاد بك وصف أنور باشا في تلك الايام بقوله : « كان أنور يرى أن الله خلقه ليجري على يديه بعض خوارق العادات ، ولا يخالجه شك في ذلك ، ويرى أن هذه الحرب هي أفضل وسيلة ينبغي التوسل بها ليبلغ مطامحه وشهواته وينفذ تلك الخوارق التي قدّر لها أن تجري على يديه ... وغاية الحياة عنده هي أن يموت الانسان ميتة مذكورة، ولكن قبل أن يموت يجب ان يحمل برؤوس الحراب حملات عنيفة يقيم فيها سوق المنايا ويقعدها ، وكل شي هين عليه بعد حملات الحراب لان

---

(٨) جمال باشا (المصدر السابق) ــ ص ١٥٠ ــ ١٥١ .
(٩) هنري مورغنتو (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ .
(١٠) علي فؤاد (المصدر السابق) ــ ص ٣٨ ــ ٣٩ .

تاريخ العالم لا يكتب الا برؤوسنها » .(١١)

الواقع اننا لا نلوم أنور باشا ورفاقه حين كانوا يريدون أن ينالوا المجد لو كان الضرر الناتج من ذلك مقتصراً عليهم وحدهم ، ولكنهم جروا وراءهم الى البلاء ملايين البشر ، وأهلكوا الحرث والنسل ، وخلفوا مئات الألوف من الايتام والثكالى والارامل . ومن الممكن القول ان الكثير من الحروب التي زخر بها التاريخ لا تختلف عن هذه الحرب من هذه الناحية اذ هي كلها حدثت بتأثير رجل واحد أو بضعة رجال أرادوا أن يكسبوا المجد والفخار !

وانا اذ نقول هذا في أنور باشا ينبغي أن لا ننسى جانباً آخر منه وهو جانب حسن . فان أنور باشا اذا كان المسؤول الأول عن ادخال تركيا في الحرب فانه كذلك يعزى اليه الفضل الاكبر في أمر تجديد الجيش التركي وتقويته . والواقع ان أنور باشا بدأ بتجديد الجيش منذ تسلم زمام وزارة الحربية في عام ١٩١٣ على أثر انتهاء الحرب البلقانية . يقول علي فؤاد بك في مذكراته :

« كان من الواجب الذي لا مناص منه انقاذ الجيش من الفوضى بعد انتهاء الحرب البلقانية ، وتجديد شبابه . ولا يستطيع القيام بهذه المهمة الا رجل عزيز الجانب منيعه ، وكان انور باشا ذلك الرجل ، وكان المكواة لداء الفوضى المستفحل . فقبض على أزمة الجيش قبضة الحاكم القاهر ، وانتزعه من الشيوخ الواهنين والشبان الاغرار ، فكفر الجيش عن سيئاته الماضية كلها ، واشتد كاهله في بضعة أشهر ، وساد فيه الضبط والنظام ... » .(١٢) .

كان جهاز الجيش في العهد الماضي مثل غيره من اجهزة الدولة يخضع لاعتبارات المحسوبية والوساطة والرشوة ، وكان الكثير من ضباطه الكبار قد وصلوا الى مناصبهم عن طريق تلك الاعتبارات ، وهذا من شأنه أن يؤدي الى ضعف الجيش وتفككه فلا يستطيع أن يصمد لحرب طاحنة

---

(١١) المصدر السابق — ص ٢٧ — ٢٨ .
(١٢) المصدر السابق — ص ٤٠ .

مدة طويلة . وحين تولى أنور باشا زمام الجيش اتخذ في تجديده طريقة الحزم والصرامة ، فكان لا يحابي ولا يتأثر بالاعتبارات التي كانت مألوفة بين الناس يومذاك ، وهذا يعد من مناقب أنور باشا بلا مراء .

كانت التمارين العسكرية تجرى مراراً في الاسبوع ، وكان أنور باشا يقف منها موقف الناقد كما هي العادة المتبعة ، وكان يقول بعد انتهاء التمارين .. « ان الجيش العثماني سيغسل عنه العار الذي أورثته اياه حرب البلقان » .

وقد ساعدت أنور في عمله هذا البعثة العسكرية الالمانية التي كانت برئاسة الجنرال ليمان فون ساندرز ، فقد بذلت البعثة في هذا السبيل جهوداً عظيمة حقاً ، حتى أصبح الجيش التركي في الواقع من الجيوش التي يؤبه لها في الاوساط العسكرية العالمية .

خاض الجيش التركي معارك ضارية طيلة أربع سنوات كاملة ، فأصيب بهزائم منكرة ، ولكنه أنزل بالعدو هزائم منكرة أيضاً . ولو كان هذا الجيش في دولة غير متفسخة لقام بالمعجزات .

اعلان الجهاد :

لم يمض على دخول تركيا الحرب سوى ايام معدودة حتى أعلن فيها « الجهاد » لحرب الكفار . وقد جرى اعلان « الجهاد » على مراحل ثلاث: الاولى في ٧ تشرين الثاني ١٩١٤ حين أصدر خيري أفندي شيخ الاسلام فتوى ذكر فيها أن الجهاد فرض عين على جميع المسلمين سواء منهم الذين يعيشون في البلاد العثمانية أو البلاد التي تحكمها بريطانيا وفرنسا وروسيا، وأن عليهم جميعاً أن يتحدوا لمقاومة هذه الدول الثلاث عدوة الاسلام وأن يحاربوها ويمتنعوا عن مساعدتها في هجومها على الدولة العثمانية أو على الدول المتحالفة معها وهي المانيا والنمسا والمجر .

وفي ١١ تشرين الثاني أعلن السلطان باعتباره خليفة المسلمين بلاغاً للجيش والاسطول حض فيه على الحرب من أجل تحرير المسلمين المستعبدين ومن أجل الدفاع عن الدولة العثمانية . وأخيراً جاءت المرحلة الثالثة في ٢٣ تشرين الثاني حين صدر بيان للعالم الاسلامي موقع من قبل ثلاثين رجلاً

من كبار رجال الدين كان في مقدمتهم خيري أفندي شيخ الاسلام وعلي حيدر أفندي أمين الفتوى وثلاثة من شيوخ الاسلام السابقين • وكان البيان طويلاً جاء فيه : أن بريطانيا وروسيا وفرنسا تستعبد المسلمين منذ زمن بعيد وتنتهك حرماتهم وهي تبغي اضعاف الخلافة لانها ركيزة الاسلام ومناط قوته ، ولهذا فان أمير المؤمنين الخليفة يدعو المسلمين جميعاً من غير استثناء الى الجهاد للدفاع عن قبر النبي وبيت المقدس وكربلا والنجف وعاصمة الخلافة • فيا ايها المسلمون من عاد حياً من جهاده نال سعادة كبرى، أما الذي يموت منكم فله أجر الشهداء ويذهب الى الجنة حسبما وعدنا الله به • ثم ينتهي البيان بقوله : « ايها المقاتلون المسلمون ، بعون الله وشفاعة النبي انكم سوف تسحقون أعداء الدين وستملأون قلوب المسلمين بالفرح الابدي طبقاً للوعد المقدس » •(١٣)

ان هذه البيانات الرسمية الثلاثة أعقبها طوفان من المنشورات والكراريس والنشرات الدورية وما أشبه ، وهي مكتوبة بمختلف لغات العالم ، وانتشرت منها ملايين النسخ في أنحاء البلاد العثمانية وهربت الى مصر والسودان والهند وايران وافغانستان وما وراءها • وكانت تختلف اختلافاً كبيراً في أسلوبها وفي مضمونها فكان بعضها يحض الجنود على الفرار من جيوش الحلفاء ، وبعضها يدعو الى القتل والاغتيال أو غيرهما من الاعتداءات الفردية • ثم أوفدت البعوث لتؤيد بالقول واللسان ما دعت اليه الكتابات المطبوعة فتزيد من حرارتها ، وكانت البعوث من جميع الانواع : الوعاظ المتجولين والعلماء والفقهاء والمحرضين المحترفين والمستشرقين الالمان ، واستطاع بعض هؤلاء أن يتسللوا الى مصر والسودان والبلاد الافريقية الاخرى •••(١٤)

وألف محمد حبيب العبيدي الموصلي ــ وكان يومذاك في الشام ــ كتابين في الجهاد طبعا في بيروت عام ١٩١٦ ، أولهما عنوانه « حبل الاعتصام

---

(13) Ahmad Amin (op. cit.) p. 174 — 177.

(١٤) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ــ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ •

ووجوب الخلافة في الاسلام » والثاني عنوانه « جنايات الانكليز على البشر وعلى المسلمين خاصة » . ففي الكتاب الاول يقول العبيدي ان الانكليز أشد الناس عداوة للمسلمين ولخلافتهم المقدسة ولدينهم المبين ، وهو يحذر المسلمين منهم ويحرضهم على حربهم . وفي الكتاب الثاني يعدد العبيدي مثالب الانكليز ويقول انهم ليسوا أعداء المسلمين فقط بل أعداء الشرقيين عامة ، وانهم انما يكرهون الدولة العثمانية لانها السبب في حياة المسلمين . ويقول العبيدي أيضاً : ان الانكليز بوجه عام يسعدون بشقاء من تحت يدهم من الشعوب ، وهو يلخص رأيه في الانكليز ببيتين من الشعر هما :

يا أسارى الهوان قوماً فقوماً   قد عرفتهم جرائم الانكليز
فمتى تحطمون للذل قيداً   مستعينين بالقوي العزيز [١٥]

الواقع أن الاتراك والألمان علقوا آمالاً كباراً على دعوة الجهاد، اذ هم كانوا يتوقعون أن يثيروا بها المسلمين على الحلفاء في كل مكان ، فقد كان هناك نحو سبعين مليونا من المسلمين في الهند ، وستة عشر مليونا في مصر والسودان ، وعشرين مليوناً في افريقيا ، وعشرين مليوناً في روسيا . فاذا ثار بعض هؤلاء على حكوماتهم أحدثوا في قوات الحلفاء أضراراً لا تقف عند حد. يروي مورغنتو : ان السفير الألماني فون ونغنهايم ذكر له بصراحة الهدف من ادخال تركيا الى جانب المانيا في الحرب حيث قال : « ان المانيا كانت ترمي الى اثارة العالم الاسلامي على المسيحيين — أي أنها كانت تنوي تسعير حرب دينية للقضاء على سلطة انكلترا وفرنسا في مستعمراتهما الاسلامية كالهند ومصر والجزائر وغيرها . ان تركيا بحد ذاتها ليست شيئاً مهماً : جيشها صغير ضعيف ولا ننتظر منه أعمالاً مجيدة في ساحات القتال، ولكننا نحن لا نرى في تركيا الا العالم الاسلامي فاذا تمكنا من اثارة الرأي الاسلامي العام ضد انكلترا وفرنسا وروسيا نكون قد أرغمناهم على طلب الصلح في وقت قريب » . [١٦]

---

(١٥) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) — بغداد ١٩٦٠ — ص ٩٣ — ٩٤ .

(١٦) هنري مورغنتو (المصدر السابق) — ص ٦١ .

كان الدعاة الألمان في البلاد الاسلامية يزعمون أن الشعب الالماني كله قد اعتنق الاسلام ، حتى القيصر غليوم نفسه قد اعتنق الاسلام أيضاً، (١٧) ولهذا صار القيصر يعرف بين المسلمين باسم « الحاج غليوم » تارة و « محمد وليم » تارة أخرى . (١٨) وهذا يذكرنا بما فعل نابليون في مصر عندما فتحها في عام ١٧٩٨ حيث رأيناه يلبس العمامة ويتحدث عن رؤيته للنبي محمد في المنام .

يواجهنا هنا سؤال: هل نجحت دعوة الجهاد بالقدر الذي توقعه الأتراك والألمان ؟ ان اكثر المؤرخين يجيبون على هذا السؤال بالنفي . وربما صح القول ان دعوة الجهاد كانت حركة فاشلة ، ففي الوقت الذي كان المتوقع فيه أن يثور المسلمون في الهند وغيرها على الحلفاء رأينا الكثيرين منهم يتطوعون في جيوش الحلفاء وقد أخلص بعضهم في القتال الى حد يثير الدهشة .

يقال ان السلطان السابق عبدالحميد ــ وكان عند اعلان الجهاد لا يزال حياً في اسطنبول ــ كتب في مذكراته يقول : «أخطأ أخي في اعلان الجهاد، وكان عليه أن يهدد به الحلفاء وان يتخذه سلاحاً للتهويل لا أن يعلنه . فانا على يقين أن ليس بين المسلمين في الخارج من يلبي نداءه . لقد كنت شديد الاطلاع على نفسية البشر ، ولذا كنت أهدد باعلان الجهاد تهديداً فقط . أما وقد أعلنه أخي فلا حول ولا قوة الا بالله ! ... » (١٩)

الدعاية الالمانية :

لم يكن أنور باشا وحده واثقاً من انتصار المانيا في الحرب بل كان الكثير من المسلمين مثله في ذلك . وقد كانت الدعاية الالمانية في البلاد الاسلامية تسير جنباً الى جنب مع دعوة الجهاد ، وهذا يذكرنا بما حدث في الحرب العالمية الثانية عندما كانت الدعاية الالمانية في البلاد العربية تسير جنباً الى جنب مع الدعوة القومية .

---

(17) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — vol 2, p. 442.

(18) Ronald Storrs (Orientations). — London 1939, — p. 142.

(١٩) مجلة الاسرار ــ في عددها الصادر في ٣ أيار ١٩٣٨ .

كان الكثير من المسلمين في الحرب الاولى يعتقدون ان المانيا لديها أسلحة سرية ومخترعات ستغلب الحلفاء بها . وكان أهم تلك المخترعات في نظر الناس هو منطاد زبلين ، وهو منطاد ضخم جداً يحلق عالياً في السماء ، وكان لألمانيا عدد غير قليل منه في بداية الحرب فصارت ترسله لقصف لندن وباريس وبعثت الرعب في سكان تينك المدينتين .

وكان الدعاة الالمان يركزون قسطاً كبيراً من دعايتهم حول هذا المنطاد وعظمته وجسامة التدمير الذي يحدثه في بلاد العدو . يروي ستورز أن بطاقات بريدية كانت توزع في مصر أثناء الحرب وفيها صورة لمنطاد زبلين وهو يرمي بقذائفه من الديناميت على الاسطول البريطاني .(٢٠)

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد ان الشيخ محمد علي اليعقوبي من شعراء العراق نظم قصيدة أثناء حصار الكوت أشار فيها الى منطاد زبلين ومبلغ التدمير الذي أحدثه في لندن وهذه بعض ابيات منها :

لله جيش المسلمين المنعوت كل حجي قد عاد منه مبهوت
صال على انكلترا وهي الحوت ولم يزل يطردها حتى الكوت
من بعد ما جاست خلال سلمان

قد عز يا انكلترا ما تبغين وراءك اليوم عن المعصومين
ليس العراق مثلما تظنين فلندن حام عليها زبلين
يقذفها قنابلاً ونيران (٢١)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان بلاد ايران كانت خلال الحرب تربة خصبة للدعاية الالمانية ، حيث أخذ الدعاة الألمان يبذلون جهوداً كبيرة فيها وينفقون الأموال الطائلة ، وكانوا يدأبون على بث الاشاعات حول اخلاص « الحاج غليوم » للاسلام وحول سلاحه الخطير « زبلين » . وقد انتهزوا حالة الفوضى التي كانت سائدة في ايران في تلك الآونة فصاروا يسرحون ويلعبون فيها كما يشاؤون .

كان أشهر الدعاة الالمان في ايران وأعظمهم حذقاً وجرأة رجل اسمه

---

(20) Ronald Storrs (op. cit) p. 140.

(٢١) جريدة «صدى الاسلام» في عددها الصادر في ٦ ربيع الثاني ١٣٣٤ هـ .

فاسموس، وكان هذا الرجل قبل الحرب قنصلاً لالمانيا في بوشهر فلما شبت الحرب أخذ يجمع حوله الأعوان ويتخذ الدعوة الدينية سلاحاً له ، وقد حرض الايرانيين على قتل القناصل الانكليز ومستخدميهم في كل مكان . ويزعم الانكليز أنه كان يستخدم آلة لاسلكي مدعياً أمام الناس أن الاخبار تأتي اليه من السماء وأن الحاج غليوم يعدهم بالجنة ان هم ظلوا مثابرين على جهاد الانكليز الكفار . (٢٢) وفي أحد الأيام انتشر خبر في اصفهان بأن منطاد زبلين سيأتي محملاً بأكياس من السكر ، وكان السكر يومذاك قد ارتفع سعره ارتفاعاً فاحشاً ، فخرج الناس لاستقبال المنطاد ، ولكن المنطاد لم يصل مع الاسف ، ورجع الناس الى بيوتهم بخفي حنين .

ومن الطرائف التي يرويها الانكليز عن فاسموس أنه استطاع أن يقنع أحد التجار الاثرياء في شيراز ويجعله من عملاء ألمانيا، وقد أخبره ذات يوم بان القيصر نفسه يريد مخابرته من برلين ، ولكي يجعل الحيلة تنطلي عليه جلس هو في غرفة فيها آلة تلغراف وأدخل التاجر الشيرازي عليه وأخذ يدق على الآلة مدعياً أن القيصر موجود في المحطة اللاسلكية للمحادثة معه ولذا يجب عليه أن يقبل الأرض ثلاث مرات ، وعاد فاسموس يدق على آلته ثم قال للتاجر ان القيصر يسلم عليه ويسأل عن صحته ، وأسرع التاجر فتبرع بمبلغ من المال مقداره عشرة آلاف باون ، فقال له فاسموس ان القيصر تقبل الهدية ووعده بأنه سيرسل صورته باللاسلكي . وقد وصلت صورة القيصر الى التاجر فعلاً بعد يومين . وظل التاجر بعد ذلك معتقداً بصحة ما حدث ، ولم ينكشف له سر الحيلة الا بعد وصول القائد الانكليزي سايكس مع قواته الى شيراز ، فجاء اليه التاجر يشكو اليه قائلاً : انه أكل خرا . (٢٣)

مأساة الارمن :

قدر عدد الأرمن الساكنين داخل الحدود التركية في بداية الحرب بمليون ونصف ، ومشكلتهم أنهم كانوا غير متجمعين في منطقة معينة خاصة

(22) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 173.
(23) Percy Sykes (op. cit.) — vol 2' p. 243 — 245.

بهم بل كانوا متفرقين فـي عـدة ولايات هي : أرضروم ، وان ، بتليس خربوط ، ديار بكر ، طرابزون ، سيواس ، أطنه ، حلب ، وغيرها • وكانوا يعيشون في هذه الولايات متجاورين مع المسلمين من الاتراك والأكراد ، وكثيراً ما كانت المعارك الدينية والفتن تنشب بينهم وبين جيرانهم كما هو ديدن البشر في مثل هذه الظروف •

ذاق الأرمن مذابح رهيبة في عام ١٨٩٥ على نحو ما ذكرناه في الجزء الثالث، وذاقوا المذابح كذلك في عام ١٩٠٩• وعندما اندلعت نيران الحرب في عام ١٩١٤ كان من الطبيعي أن يتجه هوى الأرمن نحو الروس ضـد أعدائهم الاتراك ، وقد عبرت الحدود الشرقية تشكيلات من المتطوعين الأرمن فتغلغلوا في الاناضول وأخذوا يخربون القرى ويقتلون سـكانها وينسفون الجسور وسكك الحديد وخطوط التلغراف • وفي ٢٠ نيسـان ١٩١٥ سيطر ٢٥٠٠ أرمني مسلح على بلدة « وان » وأسسوا فيها حكومة أرمنية موقتة • وفي الوقت نفسه أخذ الأرمن الفـارون من التجنيد فـي تركيا يؤلفون عصابات مسلحة ويعيثون فساداً في نواحي ديار بكر وسيواس ومرعش وقره حصار • ثم صاروا يهاجمون الجيوش التركية من الخلف، وبهذا صارت الجيوش التركية بين نارين : نار الجيوش الروسية من الامام ونار العصابات الأرمنية من الخلف • (٢٤)

أثار هذا النشاط الإرمني المعادي بعض رجال الدولة في تركيا وعلى رأسهم طلعت باشا وزير الداخلية، وكان من رأي هؤلاء الرجال ان الحكومة التركية ينبغي أن تنتهز هذه الفرصة للتخلص من الأرمن كلياً ، فان وجود الأرمن في تلك المناطق الحساسة هو مصدر خطر دائـم علـى الامـة التركية ، وقد أصبح من الواجب انقاذ الأمة من هذا الخطر نهائياً ، ان هذا العمل سينال احتقار الرأي العالمي ولعنته ولكنه في الأمد البعيد يؤدي الى ما فيه مصلحة الامة •

نوقشت قضية الأرمن فـي اجتماع لمجلس الوزراء التركي فـي ١١ حزيران ١٩١٥ ، وقد صدر بلاغ رسمي عقب الاجتماع يبدو في ظاهره بريئاً

---

(24) Ahmad Amin (op. cit) — p. 215.

ولكنه في حقيقته يحمل المأساة الكبرى للارمن ويعد لطخة عار في جبين الذين وافقوا عليه والذين نفذوه . ننقل فيما يلي نص البلاغ :

« بما أن الأرمن يأتون بأمور مخالفة للقوانين وينتهزون الفرص لاقلاق الحكومة وقد ظهر عندهم أسلحة ممنوعة وقنابل ومواد متفجرة مهيأة بقصد عمل ثورة داخل البلاد وقد قتلوا المسلمين في وان وساعدوا الجيوش الروسية . ولما كانت الحكومة بحال الحرب مع دول انكلترا وفرنسا وروسيا فخوفاً من أن يتصدى الأرمن لعمل شغب وثورة كعادتهم فقد قررت الحكومة جمع جميع الأرمن وسوقهم لولايتي الموصل وسوريا وللواء دير الزور على أن تكون أعراضهم وأموالهم وأنفسهم في أمان من اعتداء المعتدين وتسلط المجرمين . وقد أعطيت الأوامر اللازمة لاحضار أسباب راحتهم ولاسكانهم في تلك البلاد الى أن تضع الحرب اوزارها » . (٢٥)

وبدأت منذ ذلك الحين عمليات تسفير الأرمن من بيوتهم في قوافل سيراً على الاقدام عبر البراري والجبال باتجاه العراق وسوريا . تبدأ العملية عادة بذهاب جنود الدرك الى محلات الأرمن يخبرونهم بأنهم يجب أن يستعدوا للسفر خلال يومين أو أيام معدودة . ثم يؤخذون بعد هذا بنسائهم واطفالهم فيساقون قسراً في صفوف طويلة ...

أدرك الأرمن سوء المصير الذي ينتظرهم من تسفيرهم هذا ، ولهذا أسرع بعض رجالهم الى حمل سلاحهم والتجأوا الى الجبال والمغاور ليقاتلوا فيها قتال المستميتين . أما النساء والاطفال فقد سيقوا كالنعاج تحت وطأة السياط وكعوب البنادق . وانثال عليهم قطاع الطرق والجنود والذين يتخذون من الدين ستاراً للنهب والانتهاك والتلذذ بالقتل يعملون فيهم ما يشتهون . وأخذ النساء والاطفال يتساقطون على جانبي الطريق من شدة الجوع او الارهاق أو المرض . وأصبح اغتصاب النساء الجميلات مألوفاً اذ لم ينج منه حتى البنات الصغيرات أحياناً . وقد ضحت الكثيرات من الارمنيات بأرواحهن في سبيل الذياد عن أعراضهن .

---

(٢٥) فائز الغصين (المذابح في ارمينيا) ــ ١٩١٧ ــ ص ١٣ .

يروي فائز الغصين وكان مسافراً في تلك الايام من حلب الى ديار بكر أنه شهد بالقرب من مدينة اورفه صفوفاً ماشية على أقدامها فظنها عن بعد جنوداً سائرين الى ميدان الحرب ولما اقترب منهم وجدهم نساءاً أرمنيات حافيات حاسرات وخلفهن أفراد من الدرك ، واذا تخلفت واحدة منهن لكزها الدركي بكعب بندقيته فيسقطها على وجهها أرضاً ، أما من تتخلف منهن لمرض يصيبها فانها تترك في البر وحيدة • وعندما وصل فائز الغصين الى مقربة من بلدة « سيورك » شاهد منظراً مريعاً ، اذ وجد جثث الموتى على جانبي الطريق بكثرة ، وكلما اقترب من « سيورك » ازداد عدد الجثث ، وكان فيها جثث النساء والاطفال علاوة على جثث الرجال •

وعند وصول فائز الغصين الى مقربة من ديار بكر لاحظ على جانب الطريق طفلاً في الرابعة من عمره ذهبي الشعر أزرق العينين تبدو عليه آثار الترف والدلال وهو واقف في الشمس لا يتحرك ولا يتكلم ، فكلموه دون جدوى • وروى أحد اعراب الجزيرة أنه كان مسافراً مع رفاق له في تلك الانحاء فوجدوا في البرية سبعة عشر طفلاً اكبرهم في الثالثة عشرة من عمره ، وهم في حالة يرثى لها من الجوع والعطش فسقوهم وأطعموهم • ثم تركوهم ولما عادوا بعد أسبوع الى المكان نفسه وجدوهم موتى جميعاً • [٢٦]

تقدر المصادر التركية عدد الهالكين من الأرمن بين مائتين وثلاثمائة ألف ، أما المصادر الغربية فتقدرهم بين خمسمائة وستمائة ألف • [٢٧] وقد ضج الرأي العام العالمي لهذه الكارثة ، واتخذها الحلفاء ذريعة لتشويه سمعة الاتراك والألمان •

وقف الزعيم الأرمني كريكور زهراب في مجلس المبعوثين فخطب محتجاً بشدة على هذه الفضائح، ووجه الكلام الى طلعت باشا وزير الداخلية قائلا له : «سأناقشك الحساب يوماً » ، فأجابه طلعت باشا متهكماً : « في أي وقت وأي مكان ! ؟ » ، فرد عليه زهراب : « في البرلمان ومن

---

(٢٦) المصدر السابق ص ١٨ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٥٧ •

(27) Ahmad Amin (op. cit) — p. 221.

فوق منبر الخطابة ! » [٢٨] • وفي اليوم التالي ألقي القبض على زهراب وسيق نحو البلاد العربية ، وقيل انه قتل في الطريق •

يجب أن نذكر ان الاتراك لم يكونوا كلهم راضين عن هذه المآسي التي حلت بالأرمن ، فقد أبدى الكثير منهم اعتراضهم عليها ، كما بذل الكثير من الولاة والموظفين جهدهم في تخفيف وطأة الكارثة عن الارمن وحمايتهم ، وقد استقال بعضهم من وظيفته احتجاجاً • والمعروف عن ثابت بك السويدي وهو بغدادي كان قائمقاماً في قضاء البشيري التابع لولاية ديار بكر أنه استقال من وظيفته احتجاجاً على ذلك ، [٢٩] وقيل انه قتل في الطريق على نحو ما قتل زهراب •

وفي الوقت الذي نجد في تركيا أمثال هؤلاء نجد أناساً على النقيض منهم اذ هم اندفعوا مع التيار العام فاشتركوا في المجازر أو رضوا عنها على الاقل ، وكان بعضهم يفتخر بما فعل بالأرمن من تعذيب أو قتل ، وهم يبررون عملهم بأنهم انما ينفذون أمر السلطان ويزعمون ان أمر السلطان من أمر الله وتنفيذه فرض • [٣٠]

ان بعض رجال الدولة المسؤولين عن مذابح الأرمن قد كتبوا يدافعون عن أنفسهم ويبررون أفعالهم • وكان في مقدمتهم طلعت باشا حيث كتب في مذكراته عقب انتهاء الحرب يقول : « لقد اتخذ الكتاب مسألة نفي الأرمن ••• سبباً للطعن على الحكومة العثمانية • وقبل أن أذكر شيئاً عن موقف الحكومة نحو الأرمن أريد أن أصرح أن الاخبار عن هذا النفي مبالغ فيها فالأرمن واليونان أرادوا أن يستميلوا الشعوب الأوربية والامريكية فصوروا الحالة بصور جاءت غير منطبقة على حقيقة الواقع ، ولا أريد بقولي هذا أن أنفي صحة هذه الحوادث ولكني أريد أن انفي ما فيها من مبالغة واغراق ••• اني اعترف ان النفي لم يجر في كل الاماكن حسب القوانين المرعية والمعترف بها ، وأنه حدثت في بعض القرى أعمال غير

---

(٢٨) استارجيان (تاريخ الامة الارمنية) ـ الموصل ١٩٥١ ـ ص ٣٣٥ •
(٢٩) فائز الغصين (المصدر السابق) ـ ص ٧٥ •
(٣٠) المصدر السابق ـ ص ٤٠،٧٨ •

قانونية ، وما ذلك الا نتيجة البغض الذي أوغر قلوب الفريقين ــ الأرمن والمسلمين ــ نعم هناك عدد من أصحاب المناصب في الحكومة أساؤوا استعمال سلطتهم ولحق الضرر بعدد كبير من الأبرياء ••• فاذا عاقبنا هؤلاء يهيج الرأي العام علينا وتنتشر الفوضى في بر الاناضول وتنشطر الامة الى شطرين في وقت نحن فيه بأمس الحاجة الى الاتحاد ••• لقد حدثت أمثال هذه الحوادث في كل مملكة في العالم أثناء الحرب ولكن لسوء الحظ لم يرها العالم ولم يسمع بذكرها الا في بلادنا لأن أعين الجميع كانت متجهة الينا » • ويضيف طلعت باشا الى ذلك قائلا : ان التبعة في هذه المأساة تقع على الأرمن أنفسهم لأنهم ساعدوا الجيش الروسي وعاثوا فساداً في مؤخرة الجيش التركي ، ولم تكن كنائسهم سوى مستودعات للاسلحة والذخائر ••• [٣١]

وكان جمال باشا من بين الذين كتبوا في تبرير مأساة الأرمن أيضاً ، لكنه يدعي أنه لم يكن من المسؤولين عنها وأنه ساعد نساء الأرمن وأيتامهم عند وصولهم الى بلاد الشام • ان جمال باشا في مذكراته يضع تبعة تلك المأساة على السياسة الروسية التي كانت تحرض الأرمن خلال سبعين عاماً على جيرانهم الاكراد والاتراك ويزعم ان الأرمن اقترفوا من المذابح ضد المسلمين أثناء الحرب أكثر مما أقترفه المسلمون ضدهم • وهو يقول في ذلك ما نصه :

« فلنفرض جدلاً ان الحكومة العثمانية نفت مليوناً ونصف مليون من الأرمن من ولايات الاناضول الشرقية وان زهاء ستمائة ألف منهم قد مات أو قتل في الطريق أو سقط ضحية الجوع والتعب ، فهل يدري أحد كم قتل من الاكراد والاتراك في ولاية طرابزون وأرضروم ووان وبتليس بصورة تقشعر منها الابدان بأيدي الأرمن عندما زحف الجيش الروسي على تلك الولايات ؟ اني لأقرر هنا بأن عدد من قتل من الاكراد والاتراك ليربي كثيراً على مليون ونصف ، فان جاز أن يكون الاتراك مسؤولين عن المذابح الارمنية فلماذا لا يكون الارمن مسؤولين عن المذابح التركية ؟ ألأن

---

(٣١) من مذكرات طلعت باشا ــ ملحق في كتاب هنري مورغنتو (المصدر السابق) ــ ص ١٠٥ •

الاتراك والاكراد ليسوا في نظر الانسانية... باكبر قيمة من الذباب؟»[٣٢].

ثم يتحدث جمال باشا في مذكراته عن الفظائع التي قام بها الأرمن تجاه المسلمين ، وهي فظائع لا تقل حسب وصفه لها عن تلك التي قام بها المسلمون . ويعلق الباحث التركي الدكتور أحمد أمين على ذلك فيقول : ان ما ورد في مذكرات جمال باشا عن مذابح الأرمن للمسلمين مبالغ فيه ، وان عدد الذين قتلوا من المسلمين بأيدي الأرمن لا يزيد على الأربعين ألفاً .[٣٣]

اننا نقف هنا ازاء فضائع بشرية بين فريقين يضع كل منهما اللوم فيها على الآخر . نحن لا نشك أن مأساة الأرمن كانت فظيعة حقاً ، ولا نشك كذلك ان الأرمن انتقموا لأنفسهم من المسلمين عندما اتيحت لهم الفرصة . فهي اذن كانت مذابح متبادلة ، وهي تكشف لنا عن خفايا الطبيعة البشرية بلا طلاء .

ان هذا ليس بالأمر الشاذ النادر في تاريخ البشر ، والواقع ان التاريخ مليء بمثل هذه المذابح ، وهي تتوالى حيناً بعد حين من غير انقطاع ، ويبدو ان البشر لا يستطيعون أن يبدلوا طبيعتهم هذه مهما طال بهم الزمن .

ومشكلة البشر ان كل فريق منهم حين يقص تاريخه انما يذكر منه جانباً واحداً وينسى الجانب الآخر ، انه يذكر الفظائع التي أوقعها خصومه به وينسى الفظائع التي أوقعها هو نفسه بخصومه . وقد صدق من قال : « ان العقل البشري متحيز بطبيعته » .

المجاعة في لبنان :

عانت البلاد العثمانية خلال الحرب شحة في الطعام على درجات متفاوتة ، ولكن المجاعة الشديدة لم تظهر الا في أربع مناطق فقط هي الكوت وخانقين والموصل ولبنان . وكانت المجاعة في المناطق الثلاث الاولى ذات نطاق محدود وفي فترة زمنية غير طويلة نسبياً على نحو ما سوف

---

(٣٢) جمال باشا (المصدر السابق) — ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(33) Ahmad Amin (op. cit) — 222.

نذكره ضمن أحداث العراق في فصول قادمة • أما مجاعة لبنان فكانت واسعة النطاق حيث شملت بعض المناطق المجاورة من سوريا علاوة على منطقة لبنان ، واستمرت اكثر من سنتين ، وعانى الناس فيها البلاء الوبيل•

بدأت المجاعة في نيسان من عام ١٩١٦ حين وفدت اسراب كثيفة من الجراد الى بلاد الشام ، فأكلت الاخضر واليابس • وأخذت أسعار الحبوب ترتفع في مختلف بلاد الشام ولكن الغلاء تفاقم في منطقة لبنان بصفة خاصة لانها منطقة جبلية تقل فيها زراعة الحبوب ، وهي كانت في زمن السلم تستورد الحبوب من المناطق الداخلية أو عن طريق البحر ، فلما اشتدت الحرب قل ورود الحبوب اليها لقلة حيوانات النقل من جهة ولوجود الحصار البحري عليها من الجهة الاخرى •

كان سعر طن الحنطة في بداية المجاعة زهاء أربعين ليرة ذهب • ثم أخذ يرتفع تدريجاً حتى وصل أخيراً الى مائة وعشرين ليرة ، وهذا مبلغ كبير جداً بمقياس تلك الايام • وكذلك ارتفعت أسعار الحبوب الأخرى• يروي عمر أبو النصر : أنه سمع جائعاً يشكو الى الله شدة جوعه ويقول: « يارب أكلة عدس وأموت » • (٣٤)

أخذ الناس تحت وطأة ضغط الحاجة يبيعون أثاثهم ثم قلعوا الاخشاب والاشجار والاحجار من بيوتهم وعرضوها للبيع بثمن بخس ، كما باعوا بيوتهم أحياناً• أما النساء فقد بعن حليهن في البداية ثم ملابسهن، واضطر البعض منهن الى بيع أنفسهن عن طريق الحلال أو الحرام • فقد كان في مقدور أي انسان أن يتزوج فتاة جميلة بمهر تافه • وكثرت الخادمات في تلك الأيام كما كثرت بائعات العرض •

ان المجاعة تؤدي عادة الى انتشار الاوبئة والامراض بسبب سوء التغذية ، ولهذا ينتشر الموت بين السكان على نطاق واسع • يقال ان عدد الموتى فى بلاد الشام من جراء المجاعة بلغ ثلاثمائة ألف وربما أكثر ، (٣٥) فتلاشت قرى باكملها • وتشير بعض الاحصاءات الى أن منطقة صيدا

---

(٣٤) عمر ابو النصر (المصدر السابق) ــ م ٣ ص ١٨٦ــ١٨٧ •
(٣٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٣٤٤ •

وجنوب لبنان كان عدد سكانها في بداية الحرب ٧٧ ألفاً فأصبحت في نهاية الحرب ٤٤ ألفاً • وكانت قرية البطرون تحتوي على خمسة آلاف نسمة فأصبحت تحتوي على ألفين فقط • (٣٦)

لكي يأخذ القارىء صورة واضحة عن المجاعة في لبنان تنقل عنها شهادات مختلفة لاشخاص أربعة كانوا قد شهدوا المجاعة بأنفسهم وكتبوا عنها في مذكراتهم • فاحدى هذه الشهادات لرجل لبناني هو جرجيس الخوري المقدسي وكان حينذاك استاذاً في جامعة بيروت الامريكية ، وهو يقول في كتاب نشره في بيروت عام ١٩٢١ : « ان الذين لم يهربوا الى سوريا الداخلية طلباً للقوت صاروا من جملة الشحاذين الذين كان عددهم في ازدياد مستمر في بيروت ، وكان من بين الشحاذين أفراد يملكون شيئاً من الطاقة تمكنهم من التجول في الشوارع والطرق على أبواب البيوت ، أو اجتياح اكوام النفايات والبحث عن جثث الحيوانات الميتة ، أما الذين لا يقدرون على ذلك فقد انطرحوا على جوانب الشوارع يستغيثون بالمارة بأيدي ممدودة وأصوات ضعيفة • وهناك أفراد بينهم أطفال كانوا ينطقون من خلال نظراتهم ••• وحين جاءت سنة ١٩١٨ كانت الطبقات السفلى من المجتمع قد أبيدت تقريباً ، وحلت محلها الطبقة الوسطى » • (٣٧)

أما الشهادة الثانية فهي لرجل أمريكي كان قد تجول في بعض قرى لبنان في تموز ١٩١٧ بصحبة رئيس الصليب الاحمر الامريكي وكتب يقول ما نصه : « كانت المناظر مما يعجز دونه الوصف • وكم رأينا عائلات كاملة تتلوى من الآلام المبرحة على المصاطب العارية في اكواخها البائسة ، وكانت الأنات في طرف من الحي تسمع في طرفه الآخر • لقد باع هؤلاء كل قطعة من أثاث بيوتهم ليشتروا خبزاً ، وفي كثير من الاحيان نزعوا آجر السقف لمثل ذلك أيضاً ، وكانت مئات الدور التي مات أصحابها خالية آيلة الى السقوط والاندثار • ويقدر المعتدلون أن من ماتوا من الجوع نفسه خلال سنتين في لبنان وحده لا يقلون عن مائة

---

(36) Philip Hitti (Lebanon In History) — London 1957 — p. 486.
(37) Ibid. p. 485.

وعشرين ألفاً » . [٣٨]

أما الشهادة الثالثة فهي لرجل تركي من أولى الشأن أسمه فالح رفقي بك ، وكان قد زار بيروت اثناء استفحال المجاعة ، فكتب في مذكراته يقول : « ... خرجت الى شوارع بيروت فاذا بي تجاه مناظر مفجعة ، فهنا أولاد عراة منتفخو البطون يتزاحمون على قشور البرتقال يلتهمونها لاشباع جوعهم ، وهناك هياكل عظمية من النساء تسترهن رقع بالية مرتميات على الطرقات يلتمسن كسرة الخبز ... » ويقول أيضاً : « وما كدنا نجتاز طريق ذلك الشارع القائم على احدى مرتفعات المدينة وتجتاز الى المناطق المجاوزة حتى شعرت بمرارة ألم تضطرني الى الوقوف ، فقد أخذت الاصوات ترتفع حولي وكلها تشير الى أن أصحابها يقاسون آلام الجوع المؤلم وهم يستعطفون المارة بعبارات مفجعة طالبين كسرة من الخبز ، ثم أخذت أرى الهياكل العظمية ترتمي هنا وهناك وهي بحالة غير قادرة على الحيل . ثم رأيت احدى عربات النقل تقف أمامي وأذرعاً ممدودة من طرفها الخلفي ، فاقتربت منها فاذا بها عدة جثث هي جثث النساء والاطفال الذين فتكت بهم المجاعة . وان بلدية بيروت خصصت مثل هذه العربات لتطوف الأحياء وتجمع الاموات الذين يسقطون في الطرقات لنقلها الى مثواها الاخير . وان هذه العربات تقل كل ليلة عشرات من هؤلاء البؤساء وفي بعض الاحيان تقل بعض الذين أغمي عليهم من الجوع وليس هناك من يهتم بهم ، فيلقون أيضاً في الحفرة مع رفاقهم ، حتى اذا قاموا من اغمائهم هذا ووجدوا أنفسهم بين الاموات عاد الجوع والخوف فأثر فيهم ولحقوا برفاقهم . وقد روي لي سائق هذه العربة أنه كثيراً ما شاهد أمثال هذه الحوادث وليس هناك من يهتم بها ... » . [٣٩]

ونأتي أخيراً الى الشهادة الرابعة وهي التي روتها الراقصة المشهورة بديعة مصابني ، فقد كانت هذه السيدة يومذاك تحترف الرقص والغناء في بيروت وكانت ذات بشرة ناعمة يندر مثيلها وجمال وشخصية مغرية ،

---

(٣٨) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ٣٤٤ .

(٣٩) احمد عزت الاعظمي (القضية العربية) — بغداد ١٩٣٣ — ج ٥ ص ٩٢ — ٩٦ .

فأحبها ضابط تركي من ذوي النفوذ اسمه صلاح الدين وأخذ يغدق عليها ما تشتهي من مقادير الحبوب . انها تقول في مذكراتها : « ففي صباح أحد الايام ، وبينما كنت أقف على شرفة منزلنا ، شاهدت طفلة تبحث في نفايات الشارع عن شيء تأكله ، فناديت شقيقتي نظلة وطلبت اليها أن تأتيني بالطفلة الجائعة . وما أن رأت تلك الصغيرة نفسها أمام ما أحضرته لها نظلة من طعام حتى أقبلت عليه بشراهة ونهم وكأنها حيوان صغير . تركتها تأكل ما طاب لها دون أن تساورني أية فكرة بأن التخمة قد تؤذيها ، وسرعان ما بدت عليها آثار التورم ، وماتت بعد اسبوع واحد . لم تمت من الجوع بل ماتت من التخمة ! ياللسخرية ! ... وتجددت الحالة نفسها مع والدة مسكينة كانت تبحث عما تقتات به مع ولدها الصغير ، آويناها في منزلنا وقدمنا لها ما يطرد الجوع من جسدها وجسد طفلها الهزيل . لم تصب المرأة بأذى بل تمكنت من مقاومة الجوع والتخمة ، أما طفلها فلم تطل به المدة حتى لحق بالصغيرة الاولى ... » . (٤٠)

من صفات المجاعات بوجه عام أنها ذات تمييز طبقي ، فالفقراء هم الذين ينالون منها النصيب الاكبر ، اما الاغنياء فلا يتأثرون بها الا قليلاً وربما استفاد منها بعضهم لا سيما المحتكرون والمرابون وطلاب الشهوات ، فتنتضخم ثرواتهم ويتسع نطاق ملذاتهم .

يروي الذين شاهدوا مجاعة لبنان ان بعض الاغنياء استطاعوا أن يضاعفوا ثرواتهم عن طريق الاحتكار أو الربا او شراء الدور ونفائس الاشياء بأثمان بخسة ، وكانوا في بيوتهم يأكلون مثلما اعتادوا عليه في حياتهم الاعتيادية ، وقد يعمد بعضهم الى اقامة الولائم الفخمة حيث يقدمون فيها أفانين الطعام لضيوفهم وهم يضحكون ويمرحون دون أن يهتموا بما يجرى بالقرب منهم من بؤس عجيب .

يحدثنا فالح رفقي بك في مذكراته : أن احد أغنياء بيروت أقام في قصره الفخم حفلة راقصة ساهرة لجمال باشا في نفس الوقت الذي كانت فيه شوارع بيروت مملوءة بالجياع والموتى من الجوع على النحو

---

(٤٠) نازك باسيلا (مذكرات بديعة مصابني) ــ بيروت ــ ص ١٦٦ .

الذي ذكرناه ، ويصف فالح رفقي بك الحفلة فيقول ان الموائد التي صفت فيها كانت تحتوي على مالذ وطاب من المأكولات والخمور المعتقة والعرق الزحلي ، وكان الاعيان الذين حضروها مرتدين الملابس الانيقة كما كانت النساء متزينات بالجواهر القيمّة . وعلائم السرور والابتسامات ظاهرة على وجوههم جميعاً ... (٤١)

من المناظر المألوفة في أيام المجاعة أن باعة الاطعمة والبقالين يظلون يعرضون أشياءهم في الاسواق على منوال ما كانوا يفعلون في الأيام الاعتيادية ولكن أسعارها عالية جداً لا يقدر عليها الا الاغنياء وبعض أفراد الطبقات الوسطى . وليس من النادر منظر جائع على وشك الموت وهو مطروح بالقرب من دكان بقال . ولا لوم على البقال في ذلك وعذره أنه لو وزع ما عنده على الجياع لصار واحداً منهم ثم لا ينفعهم ذلك الا الى أمد قصير حيث يعودون بعده الى جوعهم الأول .

وقد يعمد بعض الجياع ـ لا سيما الصغار منهم أو الذين لهم قدرة على الجري والمصاولة ـ الى اختطاف الأطعمة من أيدي الناس والهروب بها. يروي منير الريس في مذكراته عما شاهده في دمشق اثناء المجاعة فيقول: « لقد كان مشهد الصبية والاطفال الجياع مثيراً وهم يتسولون في الشوارع والأسواق ، ومنهم من كان يختطف من الباعة ومن أيدي الناس كل ما تقع عليه عينه من الغذاء : هذا يغرف بيديه من ماعون اللبن الخاثر او الرائب اذا رآه بيد تحمله من السوق ، وذاك يتلصص بقدميه الحافيين وراء حامل الوعاء يتحين الفرصة للغرف والخطف فاذا تلفّت صاحب الماعون فر الجائع واللبن يقطر من يديه وفمه . حتى الجنود كانوا جياعاً يخرجون من صفوفهم مشاةً ويهجمون في أسواق المدن وشوارعها على الحوانيت وباعة الاطعمة يتخطفون ما تصل اليه أيديهم . وكلما مرت سرية من الجنود في شوارع دمشق وأسواقها كنا نرى الباعة المتجولين يفرون بصوانيهم وعرباتهم التي تحمل المآكل الجاهزة والحلوى خشية أن يتخطفها الجنود الجياع من

---

(٤١) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ـ ج ٥ ص ٩٣ـ٩٤ .

بين أيديهم » • [٤٢]

وقد تناقل الناس في لبنان حكايات واشاعات عن نساء أكلن لحوم الاطفال من شدة الجوع • يحكى مثلاً عن امرأة من قرية « قلمون » القريبة من طرابلس أنها دخلت على جارة لها فوجدتها قد طبخت لحم طفلها في قدر وصارت تأكل منه ، فلما سألتها الجارة عن ذلك أجابتها: «مات ولدي جوعاً فأكلته لكي لا أموت أيضاً • وقد مات لي ولد قبله فأكلته أيضاً » • وتبين أخيراً أن الطفلين لم يموتا ميتة طبيعية بل أن المرأة ذبحتهما • وقد ألقت الحكومة القبض عليها وزجتها في السجن • وماتت المرأة في السجن••

ويروي الأب بولس سيور : أن فتاتين اختين في ميناء طرابلس لا يزيد عمر اكبرهما عن الثامنة عشرة كانتا تجتذبان الاطفال بحيلة الى بيتهما المنفرد فتذبحانهم بسكين كبيرة ، ثم تطبخان لحومهم فتأكلان منها وتبيعان منها قطعاً مقلية للأكل ودهناً للاضاءة • وصادف في أحد الايام أن افتقدت أم طفلها ثم رأت ملابسه على طفل آخر فأمسكت به ، وتبين أن هذا الطفل أخو الفتاتين ، وذهبت هيئة التحقيق الحكومية الى بيتهما فوجدت في بئر فيه اربعاً وعشرين جمجمة • فزجت الحكومة الفتاتين في السجن وأماتتهما فيه جوعاً • [٤٣]

لا ندري مبلغ هذه الحكايات من الصحة ، وربما كانت من المبالغات التي اعتاد الناس على تداولها في مثل تلك الظروف • ولكن الذي نعرفه ان المجاعات الشديدة قد تؤدي بالناس أحياناً الى أكل لحوم البشر • وقد وقعت في الموصل حادثة من هذا القبيل سنأتي الى ذكرها في فصل قادم • ويروي التنوخي أن امرأة ببغداد في عام ٣٣٤ هـ ، وكان عام غلاء شديد ، شوت ولدها وجلست تأكله ، فعلم الناس بأمرها وأخذوها الى السلطان فقتلها • [٤٤]

ويروي مؤرخ اسمه عبداللطيف البغدادي أنه شهد في مصر في

---

(٤٢) منير الريس (الكتاب الذهبي) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٥١ــ٥٢ •

(٤٣) عمر ابو النصر (المصدر السابق) ــ بيروت ــ م ٣ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ •

(٤٤) القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة) ــ تحقيق عبود الشالجي ــ بيروت ١٩٧١ ــ ج ١ ص ٣٥١ •

عام ٥٩٥ هـ مجاعة شديدة اعتاد الناس فيها على أكل لحوم البشر على نطاق واسع • تنقل فيما يلي مقتطفات من أقواله لأهميتها الاجتماعية :

« ••• واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بني آدم فكثيراً ما يُعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل • ورأيت صغيراً مشوياً في قفة ، وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما • و وجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه من اللحم فأكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم ••• ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظُفر معها بطفل مشوي تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبي منهم أشد، وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه ••• واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلة فيه الا ان النساء أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار • ولقد أحرق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ••• ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى تفانى أكثرهم، ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير : منهم من يفعله حاجة ، ومنهم من يفعله استطابة ••• وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم الى مكانهم بانواع المخاتل ••• ووجد باطفيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الآدمي وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه فقال : خفت اذا دام الجدب أن يهزل الناس • وكان جماعات من الفقراء قد أووا الى الجيزة وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، وفُطن لهم وطُلب قتلهم فهربوا ، ووجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير ، وخبرني الثقة الذي وجد في بيوتهم أربع مائة جمجمة ••• » (٤٥)

---

(٤٥) عبداللطيف البغدادي (عبداللطيف البغدادي في مصر) ـ القاهرة ص ٦٢ ـ ٦٤ •

ومن الجدير بالذكر في شأن مجاعة لبنان أنها كانت كمأساة الأرمن موضع تلاوم بين فريقين ، فالاتراك يضعون اللوم فيها على الحلفاء ويدعون أن الحصار البحري الشديد الذي فرضه الحلفاء على السواحل اللبنانية كان السبب الاول في المجاعة حيث منعوا به من ورود الحبوب على السفن المحايدة الى لبنان . (٤٦) وكان الحلفاء يردون التهمة على الاتراك بمثلها ويدعون أن سوء الادارة التركية ولؤمها كان السبب الاكبر في المجاعة . ويقول منير الريس في مذكراته : ان الحكومة التركية اتبعت نحو لبنان سياسة انتقامية خاصة خلال سنوات الحرب ، وكان جمال باشا ينفذ تلك السياسة بلؤم فيحول دون وصول القمح والدقيق ومواد الغذاء اليه ، وهو بلد جبلي لا ينتج الا القليل من الحبوب . (٤٧)

انهيار الدولة :

كان الجندي التركي مشهوراً في العالم ببسالته وقوة صموده وصبره على القتال ، ولكن الصبر له حدودة ، فقد ظل الجندي التركي يقاتل بضراوة حتى أواخر عام ١٩١٦ وعند ذاك بدأ صبره ينفد ، وصار عدد الفارين من صفوف الجيش التركي يزداد يوماً بعد يوم . وفي بداية عام ١٩١٧ بلغ عدد الفارين من الجنود الاتراك ثلاثمائة ألف ، وفي صيف ١٩١٨ زاد عددهم على نصف مليون . (٤٨) وقد ظهرت مشكلة كبرى من جراء هذا الفرار الواسع النطاق ، تلك هي ان الجنود الفارين لم يعودوا الى بيوتهم أو قراهم اذ كانوا يخشون القاء القبض عليهم واعدامهم ، بل لجأوا الى الجبال وصاروا يؤلفون هناك العصابات المسلحة ، وأخذت تلك العصابات تشن الغارات على السكك الحديدية وطرق القوافل ، وقد تهاجم القرى والمدن ، وفرضت الاتاوة على الفلاحين ، فكان الفلاحون مضطرين ان يشتروا سلامتهم بدفع الاتاوة حيث لم تكن الحكومة قادرة على حمايتهم . (٤٩)

---

(٤٦) شكيب ارسلان (سيرة ذاتية) — بيروت ١٩٦٩ — ص ٢٢٥ — ٢٣٦ .

(٤٧) منير الريس (المصدر السابق) — ص ٥٠ .

(48) Ahmad Amin (op. cit) — p. 261—262.

(49) Ibid, p. 262.

ووصل أذى العصابات الى مقربة من اسطنبول ، وكان الجنود الذين يرسلون لحماية الطريق هناك ينضمون الى العصابات • وأرسل رجال العصابات الى طلعت باشا رئيس الوزراء يهددونه بأنه اذا لم يعقد الصلح فسوف يزحفون على اسطنبول وينهبونها • [50] حاولت الحكومة علاج المشكلة حيث أنها في ٢٠ تموز ١٩١٨ أعلنت العفو العام عن الفارين جميعاً وطلبت منهم العودة الى مواضعهم في الجيش من أجل الدفاع عن شرف الوطن • ولما وجدت الحكومة أن ذلك لم ينفعها شيئاً عمدت في ٢٩ تموز الى اعلان بيان مؤثر تستنجد فيه بمروءة الفارين وايمانهم حيث خاطبتهم قائلة بأنهم يجب أن يتحملوا كل الحرمان والاذى في سبيل الله وأن لا يفكروا بالفرار حتى ولو مزقت أبدانهم تمزيقاً • انه كان بياناً بليغاً مؤثراً ولكن البلاغة ـ كما يقول الباحث التركي أحمد أمين ـ لا تجدي في مثل تلك الظروف لان الفرار من القتال كان بمثابة ثورة ضد الحرب وضد الاسلوب الذي أديرت الحرب به • [51]

وفي شهر تموز نفسه الذي كانت الحكومة فيه تستنجد بالفارين على هذه الصورة الذليلة مات السلطان محمد الخامس وحل محله أخوه الامير وحيد الدين باسم السلطان محمد السادس ، وكان هذا السلطان الجديد على النقيض من أخيه الراحل يكره طلعت باشا وأنور باشا والوزارة الاتحادية كلها ويتحين الفرصة للايقاع بهم ، وقد اتخذ القائد المشهور عزت باشا الارناؤوطي مستشاراً له، وكان هذا القائد شديد الكراهية للاتحاديين•

وفي ايلول نزلت بالحكومة كارثتان متعاقبتان ، ففي ٢١ منه استطاع الجنرال اللنبي أن ينزل بالجيوش التركية في فلسطين ضربة ماحقة مزقتها تمزيقاً • وفي ٢٩ منه استسلمت بلغاريا للحلفاء وبذلك قطعت خط الاتصال بين تركيا والمانيا من جهة ، وجعلت في مقدور جيوش الحلفاء مهاجمة أسطنبول من الغرب من الجهة الأخرى • وفي ٧ تشرين الاول اضطرت الوزارة الاتحادية الى تقديم استقالتها • وبعد يومين أوعز

---

(٥٠) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ترجمة عبدالمسيح وزير بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٥٦٣ •

(51) Ahmad Amin (op. cit) p. 264.

السلطان الى عزت باشا الارناؤوطي بتشكيل وزارة جديدة ، وأسرعت هذه الوزارة بارسال مندوبين عنها الى الحلفاء طلباً لعقد الهدنة • وفي ٣٠ من الشهر نفسه تم التوقيع على شروط الهدنة في جزيرة « مودروس » وتحركت سفن الحلفاء متجهة نحو اسطنبول للدخول اليها دخول الفاتحين • وفي اليوم الاول من تشرين الثاني دخلت السفن اسطنبول ، ونزل منها الجنود الى الشوارع ، فاستقبلهم السكان غير المسلمين ، ولا سيما اليونانيون والأرمن ، استقبالاً حماسياً هائلاً ، وأصبحت كلمة « زيتو » اليونانية تملأ الجو في كل مكان ترحيباً بجنود الحلفاء • وصارت الاهانات توجه الى الضباط الاتراك فاضطر هؤلاء الى خلع ملابسهم العسكرية تجنباً للاهانة • (٥٢)

مصير الزعماء :

عندما تم عقد الهدنة بين تركيا والحلفاء خاف طلعت وأنور وغيرهما من زعماء الاتحاديين على أنفسهم ، انهم كانوا يخشون أن يسلمهم السلطان الى الانكليز ويقدمهم هؤلاء الى المحاكمة بتهمة قتل الأرمن أو غيرهـا • وقد عقد هؤلاء الزعماء مؤتمراً لهم في دار أنور باشا ، وقرر سبعة منهم الهروب من اسطنبول قبل دخول سفن الحلفاء اليها ، وهم طلعت وأنور وجمال وبدري وعزمي والدكتور بهاءالدين شاكر والدكتور ناظم • واستطاع هؤلاء السبعة أن يركبوا نسافة ألمانية أوصلتهم الى شبه جزيرة القرم ، ومن هناك ركبوا قطاراً أوصلهم الى برلين • وكان أنور باشا قد افترق عنهم في الطريق بحثاً عن فرصة لمغامرات جديدة •

يقال ان رئيس الوزارة الجديدة عزت باشا ساعد الزعماء السبعة على الهرب وحين علم السلطان بذلك لام عزت باشا على مساعدته لهم قائلاً : « ان تركيا ينبغي أن تكون على صلة طيبة مع الانجليز المنتصرين » ، فأجابه عزت باشا : « ان أنور وطلعت قد يكونان نذلين ، ولكنهما تركيان قبل كل شيء ، وما كنت لاشترك في تسليم أحد من المواطنين الى أية دولة

---

(٥٢) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج ١ ــ ص ١٤٥ •

آجنبية ولو تنفيذاً لأمر السلطان » • وقـد توترت العلاقة بين السلطان وعزت باشا على أثر هـذه المحاورة ، فاستقال عزت باشا وخلفه في رئاسـة الوزارة توفيق باشا • (٥٣)

كان في برلين يومذاك عـدد كبير من الطلبة الاتراك ، وحين سمعوا بوصول الزعماء الاتحاديين اليها حـدث هياج بينهم وطلبوا من الحكومـة الألمانية تسليم الزعماء الى الحكومة التركية ، ثم صاروا يبحثون عنهـم ليضربوهم ويهينوهم • ثم التقى وفـد من الطلاب بطلعت باشا وكانوا في غاية الحنق عليه ، فأخذ يحادثهم بلطف يدافع عن نفسه وعن السياسة التي انتهجها في الحرب ، ثم أجهش طلعت باشا بالبكاء أثناء حديثه معهم فتأثروا ببكائه وفتر حماسهم ضده وانصرفوا عنه •

عاش طلعت باشا في برلين مدة ، وكان خلال تلك المـدة يغادر برلين أحياناً ليتجول في بعض البلاد الاوربية • ثم نشر مذكراته حيث أشار فيها الى أنور وجمال قادحاً فيهما • وكان يرافقه في غربته أحد الاتحاديين وهو من يهود أزمير اسمه نسيم مازلياح • وكان الأرمن في برلين يتحينون الفرصة لاغتيال طلعت باشا فحرضوا عليه شاباً منهم مضاباً بالسل اذ قالوا له : انك لا تعيش أكثر من سنة والافضل لك قبل أن تفارق الحيـاة أن تقتـل هـذا الرجل الذي قتل أمة بأسرها من الأرمن • وفي السـاعة الحادية عشرة من ضحى ١٥ آذار ١٩٢١ بينما كان طلعت باشا يتمشى في الشارع قرب مسكنه هاجمـه الشـاب الارمني من خلفه بغتـة وجعله يتخبط بدمائه • وقـد ألقت الحكومة الألمانية القبض على القاتل ثم أطلقت سراحه بعد شهرين بسعي من سفير احدى الدول الكبرى •

اقامت الجالية الاسلامية في برلين حفلة تأبين فخمـة لطلعت باشـا ، وانقسمت الصحف الالمانية حوله ، فالصحف المنسوبة للحزب الامبراطوري أعلنت أسفها عليه وذكرته بالخير لأنه كان هو وأنور السبب في محالفة تركيا لألمانيا ، أما الصحف الديمقراطية واليهودية فقـد غمزت به وأشارت الى فظائعه مع الأرمن •

---

(٥٣) ارمسترونج (مصطفى كمال) ــ ترجمة دار الهلال ــ القاهرة ــ ص ١٠٠

وقد استطاع الأرمن في اوائل ١٩٢٢ أن يغتالوا اثنين من زملاء طلعت باشا هما عزمي والدكتور بهاء الدين • وفي ١٨ تموز من تلك السنة اغتالوا جمال باشا مع اثنين من مرافقيه في مدينة تفليس وكان جمال باشا يومذاك في طريقه الى افغانستان بعد أن استعان به الملك أمان الله خان في تنظيم جيشه •

أما أنور باشا فقصته طويلة عجيبة تدل على أنه رجل غير عادي • ولا يسعنا المجال هنا ذكر القصة تفصيلاً ، يكفى أن نعطي القاري صورة موجزة عنها كما يلي :

كان أنور باشا حين فارق زملاءه في الطريق ينوى الانضمام الى البلاشفة بغية اثارة المسلمين في ققفاسيا على الانكليز ، فركب من احد موانى القرم زورقاً يريد الوصول به الى ققفاسيا ، ولم يكد الزورق يسير به بعيداً عن الساحل حتى هبت عليه ريح هوجاء مع مطر شديد ، وكاد الزورق يغرق ، وقد تمكن أنور ان يعود سالماً الى الساحل بعد أن فقد حقائبه وأصيب بذات الرئة • وظل أنور في القرم مختبئاً حتى شفي ، ثم ذهب الى ألمانيا ، ومكث فيها طيلة سنة لا يعرف الناس عنه شيئاً • ثم ركب طائرة مع الدكتور بهاء الدين قاصداً موسكو ، فتاهت الطائرة بهما ونزلت في لتوانيا التي كانت تحت سيطرة الحلفاء • فألقت الشرطة المحلية القبض عليهما ، غير أن الالمان أنجدوهما بطائرة أخرى • أما كيفية وصول الطائرة اليهما وكيف تخلصا من أيدي الشرطة وتمكنا من ركوب الطائرة فتلك قصة تصلح للسينما لغرابتها• وقد عادت بهما الطائرة الى المانيا• ولكن أنور لم يمكث فيها طويلاً بل ركب طائرة ثالثة وقد تمكنت هذه الطائرة من الوصول الى موسكو سالمة ، وأنزله البلاشفة في قصر فخم مقابل الكرملين •

كانت زوجة أنور باشا قد غادرت اسطنبول في ذلك الحين وذهبت الى برلين لزيارة زوجها وهي تحسبه أنه فيها • وحين سمع أنور بذهابها الى برلين جاء اليها من موسكو لزيارتها ، وأخذ يتردد بين موسكو وبرلين مرة بعد مرة • وفي احدى المرات بينما كان أنور ماراً في استونيا في طريقه الى موسكو وقع في قبضة الحلفاء ، فحبسوه في سجن مع المجرمين طيلة شهرين ، وكانوا يضربونه ضرباً مبرحاً ولا يطعمونه سوى الخبز اليابس •

وقد أنقذه أخيرا رجل بريطاني حيث تشفع له وهو لا يعرفه ، فأطلقوه •

وفي عام ١٩٢١ اختلف أنور باشا مع البلاشفة ، فقرر الذهاب الى تركستان لاثارة المسلمين فيها عليهم • وحين وصل الى بخارى وجد فيها حزبين يتنازعان هما : « الحزب الاميري » الذي كان ضد البلاشفة و « حزب مجددي » الذي كان معهم • فانضم الى « الحزب الأميري » واستطاع بشخصيته الخلابة وحزمه الذي لا يلين أن يجمع حوله الانصار ، وهاجم القوات البلشفية وانتصر عليها في عدة مواقع •

أخذ نفوذ أنور يتسع شيئاً فشيئاً ، وانتشر صيته في تلك البقاع حتى كاد يصبح سلطاناً • وصارت الجرائد الأوربية تنشر أخبار انتصاراته وغزواته • وفي ٤ آب ١٩٢٢ حل عيد الأضحى ، وكان أنور يومذاك في بلدة «بالجوان» التي تقع الى الشرق من بخاري ، وقد تفرق جنوده للاحتفال بالعيد ولم يبق معه سوى شرذمة صغيرة منهم ، وحينذاك هاجمته قوة كبيرة من الخيالة الروس ، فخرج بنفسه اليهم وظل يقاتلهم حتى قتل •

ظلت الصحف الاوربية والاسلامية تنشر الاخبار عنه ، فمنها مانشرت خبر قتله ، ومنها ما كذبت الخبر • وكانت الصحف الهندية مولعة بأخباره لشدة حب المسلمين له في الهند ، فكانت تارة تنشر أنه في أفغانستان ، وتارة أنه في ايران ، وتارة أنه على حدود الهند • والظاهر ان المسلمين كانوا يطربون لهذه الاخبار ويتوقعون لها نتائج عظيمة • وفي أحد الأيام ظهر في احدى الصحف الهندية بيان بتوقيع الميرالاي علي رضا بك نائب أنور باشا هذا نصه :

« مضى زمن على شهادة الغازي أنور باشا الذي كان يجاهد لتحرير تركستان ، فهو اليوم ليس في افغانستان ولا في ايران ولا على حدود الهند ، بل انتقل الى جوار ربه الذي جاهد لمرضاته بماله ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى انقرة ، فرجاؤنا من مسلمي الهند ان لا يجددوا أحزاننا بنشر الاخبار الكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » • [٥٤]

---

(٥٤) شكيب ارسلان (المصدر السابق) ـ ص ٢٣٦ ـ ٢٨٥ •

الفصل الثاني

جبهات الحرب

كان للدولة العثمانية خلال الحرب أربع جبهات هي : قفقاسيا والدردنيل وسيناء والعراق • وسنتحدث في هذا الفصل عن الجبهات الثلاث الاولى مرجئين الحديث عن الجبهة الرابعة أي جبهة العراق الى الفصول التالية •

والملاحظ بوجه عام ان المسؤولين عن ادارة الحرب في الدولة العثمانية كانوا ذوى مزاج هجومي فلم يكونوا يفكرون بالدفاع أو يميلون اليه ، فبدلاً من أن يهتموا بتحصين المواقع التي كان من المتوقع هجوم العدو عليها كالعراق والدردنيل نراهم منصرفين الى اعداد الهجوم على روسيا من جهة قفقاسيا ، وعلى مصر من جهة سيناء وقناة السويس • ويبدو أن أذهانهم كانت مشغولة بأوهام الامجاد والبطولات ، وهم انما أدخلوا دولتهم في الحرب من أجل توسيع رقعتها وليس من أجل الدفاع عنها • وكانت النتيجة أنهم اخفقوا في هجومهم في قفقاسيا وسيناء ، بينما تمكن العدو منهم في العراق وكاد يتمكن منهم في الدردنيل •

جبهة سيناء :

عين جمال باشا قائداً للجيش الرابع الموجود في بلاد الشام ، وكلفه باعداد الحملة لفتح مصر • وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩١٤ غادر جمال باشا اسطنبول بالقطار متوجهاً الى الشام ، وقد جرى له في المحطة توديع حافل اشترك فيه الوزراء والأعيان ، وخطب هو في المحطة قائلاً : انه يدرك جسامة المهمة التي كلف بها ، والمصاعب التي تكتنفها ، ولكنه اذا مات هو ورجاله دون انجاز تلك المهمة فعلى رفاقهم أن يحلوا محلهم ويعبروا على جثثهم لتحرير مصر وديعة الاسلام من أيدي الانكليز الغاصبين • (١)

---

(١) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) – ترجمة علي احمد شكري – بغداد ١٩٦٣ – ص ١٥٥ •

وجرى لجمال باشا استقبال عظيم في كل بلدة مر بها ، وكان يطلق عليه لقب « محرر مصر » . ولم ينس عند مروره بمدينة قونيـة أن يزور ضريح « مولانا » جلال الدين الرومي للتبرك . وقد التحق به هناك بعض دراويش المولوية من الشباب ، وشكلوا كتيبة خاصة بهم سارت بعـدئذ مع الحملة لفتح مصر .

وفي ٥ كانون الاول ١٩١٤ وصل جمال باشا الى دمشق ، وكانت المدينة قد زينت له بأبهى زينة ونصبت له أقواس النصر ، وحضر الألوف لاستقباله في محطة القطار ونحرت تحت قدميه الذبائح وألقيت في مديحه القصائد . وكان من جملة القصائد التي ألقيت بين يديه قصيدة طويلة القـاها الشيخ عبدالرحمن أفندي القصار بعنوان « مصـر تسـتغيث » نقتطف منهـا الأبيـات التاليـة :

جمال الدنا والدين والملك من سعت	لدعوته مـن كل شـعب أعاظمـه
تناديك مصـر المسـلمين وملكهم	لتنقذهـا ممـن تعـدت مظالمـه
مشى جيشك الجرار للحرب مسرعاً	تحف بـه الأملاك والله عاصمـه
جمال العلى أسـرع فجيش عدونا	لصارمك اشتاقت وحنت جماجمـه
يغـرر ملـك الانكليـز بجيشـه	ويحشده في مصر والله قاصمه(٢)

وقبل وصول جمـال باشـا الى دمشق ببضعة أيام جرى في المدينة المنورة احتفال عظيم لاخراج « اللواء الشريف » المحفوظ فـي المسـجد النبوي وارساله الى دمشق ، وهو عبارة عن قطعـة من أحد الاكسية التي تغطي الضريح المقدس باعتبارها الراية التي كان النبي يحملها في غزواته . وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٤ نشرت صحف دمشق بلاغاً فحواه : أنه بمناسبة اعلان الجهاد الاكبر جرى احتفال مهيب عند قبر الرسول في المدينة المنورة شهده عشرون ألفاً من المؤمنين ، حيث أخرج لهم « اللواء الشريف » فجرى ما يليق به من التبجيل تمهيداً لنقله الى دمشق لكي يتبرك به الجيش العثماني المعد لفتح مصر ، وفاز بشرف نقل اللواء رجل من سلالة الرسـول كبير

---

(٢) احمد عزت الاعظمي (القضيـة العربيـة) ـ بغـداد ١٩٣٣ ـ ج ٥ ص ٤٧ ـ ٥٠ .

السن اسمه « السيد علوي بافقيه »مع أولاده الثلاثة . وقد نشرت صحف دمشق في أماكن بارزة برقية أرسلها السيد علوي اليها قال فيها : « بالرغم من أني تجاوزت السبعين ، وتلبية لما فرضه الله علينا من الجهاد فاني أتقدم ومعي أبنائي الثلاثة لنجاهد في سبيل الله عز و جل حاملاً باحدى يدي راية الرسول المشرفة ، وباليد الاخرى كتاب الله الذي فرض الجهاد على المؤمنين كافة . ان هتافات عشرين ألفاً من المسلمين ودعواتهم ترن في أذني وأنا اتوجه الى دمشق وملء نفسي الاخلاص والرغبة في أن أموت شهيداً لاعلاء كلمة الله . ان أرض الحجاز ومن فيها من القبائل جميعاً قد لبت نداء خليفتنا المعظم » .

وفي ١٥ كانون الاول وصل موكب « اللواء الشريف » بالقطار الى دمشق ، فجرى له فيها استقبال عظيم جداً . وكان في المحطة جمال باشا ، والوالي وكبار الضباط والموظفين والاعيان ، كما كان فيها مندوبون من مختلف بلاد الشام . وعندما وقف القطار وضع اللواء على منصة خاصة وأدى له حرس الشرف التحية برفع أسلحتهم ، ثم ركع جمال باشا وقبل طرف اللواء ، وهتف الجمهور « الله اكبر » . ثم سار الموكب في شوارع دمشق تتقدمه الموسيقى ...

ونقل اللواء بعدئذٍ الى مدينة القدس فوصل اليها في ٢٠ كانون الاول، وأقيم له هناك احتفال كبير في الساحة الواسعة المحيطة بقبة الصخرة برعاية جمال باشا . ثم اختتم الاحتفال باقامة الصلاة في المسجد الأقصى . وأودع اللواء هنالك انتظاراً لليوم الذي يحمل عالياً في مقدمة الجيش الذاهب لفتح مصر . ويشاء القدر أن يموت السيد علوي بافقيه بعد ثلاثة أيام من وصوله الى القدس ، فصدرت الاوامر الى الوعاظ بأن ينتشروا بين الناس يشيدون بموته ويعظمون من شأنه ويعتبرون وفاته نذيراً وشؤماً لاعداء المسلمين . (٣)

وفي ١٤ كانون الثاني ١٩١٥ تحركت الحملة من فلسطين باتجاه قناة

---

(٣) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ .

السويس عبر صحراء سيناء . وكانت القدس والمدن الفلسطينية الأخرى قد علقت في ساحاتها وشوارعها بعض الآيات القرآنية وهي مكتوبة بخط عريض واضح : « نصر من الله وفتح قريب » ، « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

كان جمال باشا على رأس الحملة ، وقد كتب في مذكراته يقول : « وفي خلال تلك الحملة ونحن نواصل السير بالليل على ضوء القمر كان قلبي مفعماً بالكآبة الممزوجة بالأمل الكبير في النجاح كلما رددت الموسيقى انشودة (الراية الحمراء تخفق فوق القاهرة) والتي على وقعها شقت الصفوف الزاحفة طريقها في ذلك القفر المظلم الذي لا نهاية له . ولا أعد مبالغاً اذا قلت ان ذلك الجيش ــ الذي لم يسمح لفرد من أفراده سواء كان القائد العام أو الجندي الصغير أن يتناول في اليوم اكثر من ٦٥٠ غراما من البقسماط وقليل من التمر والزيتون فضلاً عن الاقتصاد الكلي في استعمال الماء ــ كان يندفع بقوة الآمال العزيزة كلما اقترب من هدفه ، فقد رسخ في نفس كل فرد فيه اعتقاد جازم بسهولة عبور القناة والثبات في الخنادق في الضفة الغربية وقيام الوطنيين المصريين بمهاجمة الانجليز من الخلف ... » .(٤)

قضت الحملة في مسيرتها زهاء عشرين يوماً ، واتخذت في السير سبلاً في قلب الصحراء بعيدة عن ساحل البحر ، وكانت تسري ليلاً وتستقر نهاراً ، خشية أن يكتشف أمرها العدو . ونجحت الحملة في ذلك نجاحاً لا يستهان به اذ هي وصلت الى مقربة من القناة دون أن يعرف العدو عنها شيئاً .

وعند وصول الحملة الى القناة كان قد استولى على جنودها الارهاق، ولم يكن لديها من الماء والطعام الا ما يكفيها أياماً قليلة ، فأذاع جمال باشا عليهم بياناً يستثير حماسهم على طريقة طارق بن زياد قائلاً : « أيها الجنود ، ان الصحارى القاحلة لتمتد وراءكم ، والعدو الجبان أمامكم ، ومصر الخصيبة خلف هذا العدو ، وهي مشتاقة الى الترحيب بكم ، فان

---

(٤) جمال باشا (المصدر السابق) ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

ترددتم فلن يكون نصيبكم الا الموت ، فالى الامام ، فان الجنة أمامكم » • [٥]

بدأت محاولة عبور القناة من قبل الجيش التركي في الساعة الثانية من بعد منتصف ليلة ٣ شباط ١٩١٥ ، وكانت عبارة السر بينهم « اللواء الشريف » • فعبرت زمر من الجنود تحت جنح الظلام على زوارق خشب خاصة ، ولكن الكلاب في الضفة المقابلة أحست بهم وأخذت تنبح عليهم مما دل الانكليز على مواضع العبور فوجهوا عليها الانوار الكشافة وأمطروا الزوارق برصاص الرشاشات •

غرق الزورق الاول فاستطاع جندي وضابط من ركابه أن يصلا الى الشاطىء المقابل ، ونجا الزورق الثاني ، وغرق الثالث ، ثم وصلت زوارق أخرى، ولم يتيسر انزال ركابها الى الشاطىء لاختلاف تكوينه الا بقعة واحدة منه كانت صالحة للانزال ولكنها كانت معرضة لنيران الرشاشات • وكان الضباط يلقون بأنفسهم في الماء لتعويم الزوارق المثقوبة ، غير ان تلك البسالة لم تنفع في كل مرة فغرقت زوارق كثيرة بمن فيها • ولم يتمكن من العبور سوى ستمائة جندي فارتفعت أصواتهم : « الله اكبر •• الله اكبر » ، وسرعان ما خفتت اصواتهم ، فقد سقط بعضهم صرعى بينما وقع الآخرون أسرى في أيدي الانكليز •

توقفت محاولات العبور عند طلوع الشمس من جراء النيران الكثيفة التي انصبت عليها ، وغرقت معظم الزوارق التي عبرت • وحاول الاتراك تجديد المحاولة في الساعة التاسعة والنصف صباحاً فلم يوفقوا بسبب التفوق الناري للعدو الكامن لهم في الضفة المقابلة • [٦] والغريب ان القناة كانت آنذاك تضم بواخر للركاب وهي في طريقها نحو البحر الابيض أو البحر الاحمر ، وحين أدركت البواخر خطورة الموقف أسرعت تريد النجاة ، وصارت لسرعتها تخالف قواعد السير وتتزاحم بغية الوصول الى ثغر الاسماعيلية للاحتماء به • [٧]

---

(٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ٢٣٦ •
(٦) شكري محمود نديم (حرب فلسطين) — بيروت ١٩٦٥ — ص ٣٢ •
(٧) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) — ١٩٦٢ — ص ١٤٣ •

اجتمع قواد الحملة في مقر القائد العام جمال باشا عند الظهر ، وكان بينهم قائدان ألمانيان هما فون كريس وفون فرانكنبرغ ، فوجه جمال باشا كلمة الى الحاضرين قائلاً : ليس القصد من هذا الاجتماع توزيع المسؤولية بل التعرف على حقيقة الموقف ، فيجب ابداء الرأي بلا حيطة أو حذر ، واذا كان هنالك أمل بالنجاح بنسبة ثلاثين أو اربعين بالمائة فانه لا يحجم عن المخاطرة . فكان رأي فون فرانكنبرغ ان الامل بالنجاح أصبح مفقوداً ، ولذا فهو يرى ضرورة التوقف عن القتال والشروع بالانسحاب . وقد أيد القواد الأتراك هذا الرأي ، غير أن القائد الألماني الآخر فون كريس كان يخالفهم في الرأي حيث قال : انه يرى وجوب متابعة القتال على الرغم من فقدان الأمل من النجاح ، فالمروءة والحمية تقضي في نظره بمهاجمة القناة حتى ولو فنيت الحملة كلها فذلك خير من أن تنكص الحملة على أعقابها . وهنا أجاب جمال باشا قائلاً : اذا لم يكن هناك أمل بالفوز فانه يضن بالحملة أن تراق دماؤها في سبيل الشرف المحض . ثم أصدر أمره بالاستعداد للانسحاب .

يقول القائد التركي علي فؤاد بك وكان مشاركاً في الحملة : انهم عندما قرروا الانسحاب وقفوا يتساءلون كيف يمكن ان يقطعوا صحراء التيه مرة ثانية ، فهم لم يعدوا العدة لهذا الانسحاب بل كان كل أملهم أن ينجحوا بعبور القناة والتمتع برغيد العيش وراءها . انهم كانوا بحاجة ماسة اثناء انسحابهم الى الماء ، كما كان هنالك احتمال أن يعبر العدو عليهم فيطوقهم . وقد دفعتهم هذه المخاوف أن يسرعوا في الانسحاب تحت ستار الظلام لكي لا يضيعوا من وقتهم ساعة واحدة . (٨)

بدأ انسحاب الحملة في مساء ٤ شباط ، فكانوا يسيرون ليلاً ويتوقفون نهاراً على منوال ما فعلوا عند مجيئهم . وقد ساعدهم القدر فعثروا اثناء الطريق على صهريج يحتوي على ماء ، فكان ذلك بشرى لهم وانتفعوا منه ، ولولاه لهلكوا . وظلوا يواصلون السير بعزيمة حتى وصلوا الى بير السبع في ١٥ شباط . انهم فقدوا في انسحابهم ستة آلاف

---

(٨) المصدر السابق ــ ص ١٤١ ــ ١٥٣ .

بعير هلكت من شـــدة العطش والجوع ، ولكنهم لـــم يفقدوا من جنودهم الا عدداً قليلاً • وهذا يعد انسحاباً ناجحاً من الناحية العسكرية •

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي كانت فيه الحملـــة فـــي طريق انسحابها عبر الصحراء أذيع في دمشق وبيروت بلاغ رسمي هذا نصـــه : « تمكنت القوات العثمانية بين التهليل والتكبير من اجتياز قناة السويس حيث فتكت بالقوات المعادية فتكاً ذريعاً ويزيد عـــدد خسائر الاعداء على خمسة آلاف مقاتل » •

ونشرت احدى الصحف في دمشق تقول : « دوت أصوات البشائر عصر يوم السبت في جميع أنحاء سوريا بالفوز المبين الذي أحرزته قواتنا باختراق قناة السويس ، فكان يوماً مشهوداً أقيمت فيه معالم الزينة في كل مكان ورقصت الأفئدة طرباً • ولم تنم للنـــاس عين ، وبلغت المظـــاهرات الوطنية أشدها وعلت أهازيج الرجال وزغردة النســـاء تختـــرق الاســـماع وتطيّر عن العيون لذيذ المنام • ولم تكد تشرق غزالة يوم الأحـــد حتى ظهرت المدن السورية تختال في حلل الزينة ، ولم يبق في الازقة والاسواق المحتشدة فيها الجموع الغفيرة محط لقدم • وسارت في دمشق مظاهرات طلاب المدارس مع موسيقاها تعزف الأناشيد الوطنية وتبشر العالم بالفتح المبين • وسارت وراءها الجماهير الى دار الحكومة تحييها تحيـــة المحب الولوع المنتظر بفروغ الصبر كل خبر سار من أخبارها • وعنـــد ذاك خرج الى الشرفة الوالي وهيئة الحكومة لتحية المخلصين ، وانصرفت الجموع وكل منهم يدعو لهذه الدولة بالنصر والظفر على الاعداء » •

والأطرف من هذا أن مظاهرة خرجت في بيروت ابتهاجاً بعبور القناة ، وقد أحضر المتظاهرون زورقاً مزيناً بالاعلام على زعم أنه أحد الزوارق التي تمكنت القوات العثمانية بها من عبور القناة ، ووضعوا الزوراق على عربة وأخذوا يجرونها في الشوارع ، فيهتف بعضهم ، « هيللى هيللي ! » فيرد الآخرون عليهم : « أخذنا الترعة الحمد للي » • واستمرت المظاهرات طيلة ذلك اليوم ، وألقى أحدهم في ساحة البرج قصيدة هنأ بها الجيش العثماني وقائده المظفر جمال بالنصر العظيم ، وأعقبه شاعر آخر بقصيدة أخرى • (٩)

---

(٩) مجلة الاسرار البيروتية ــ في عددها الصادر في ٢٧ نيسان ١٩٣٨ •

وعندما وصل جمال باشا الى دمشق أخيراً أمر بتزيين المدينة بالاعلام والانوار الكهربائية واستعرض الجيش . [١٠] وكان يتفاخر أمام الناس بأنه قاد حملة كبيرة عبر صحراء قاحلة ثم عاد الى مقره من غير حادث وأنه لم يترك وراءه في الصحراء شريداً واحداً ولم يكن بين جنوده من عضه الجوع والعطش . [١١]

انه ذهب قاصداً الفتح ثم عاد يفاخر بنجاحه في الانسحاب !

جبهة الدردنيل :

يقع مضيق الدردنيل الى الجنوب من اسطنبول ويعد مفتاحاً لها ، فالعدو الذي يتمكن من اختراق هذا المضيق يستطيع أن يفتح اسطنبول بسهولة .

يحد مضيق الدردنيل من الشرق سواحل تركيا الآسيوية . ومن الغرب شبه جزيرة غاليبولي . ويبلغ طول غاليبولي اثنين وخمسين ميلاً وهي ذات أرض وعرة جداً مليئة بالجبال والوديان وسواحلها شديدة التعرج تكتنفها المرتفعات . وهناك موقع في المضيق هو أضيق مكان فيه وتشرف عليه قلعة اسمها « جناق قلعة » ولهذا كانت جبهة الدردنيل يطلق عليها اسم جناق قلعة أحياناً ، واسم غاليبولي أحيانا أخرى .

تقع على جانبي مضيق الدردنيل عدة قلاع مشرفة عليه علاوة على جناق قلعة ، وقد بنى هذه القلاع بعض السلاطين في أزمان متعاقبة من أجل حماية اسطنبول ، وعندما أعلن النفير العام في تركيا لم تكن القلاع في حالة جيدة وكانت تنقصها المدافع الحديثة . ان المسؤولين عن ادارة الحرب في تركيا كانوا ــ كما أشرنا اليه من قبل ــ ذوي مزاج هجومي ولذا أهملوا تلك القلاع الدفاعية ولم يهتموا بأمر تحصينها كما ينبغي .

في ٣ تشرين الثاني ١٩١٤ ــ أي بعد يومين من اعلان بريطانيا الحرب على تركيا ــ أطلقت قطع الاسطول البريطاني قنابلها على قلاع الدردنيل ، وكان القصد من ذلك تخويف تركيا لكي تتجنب الدخول في الحرب ،

---

(١٠) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ بيروت ١٩٧ .

(١١) جمال باشا (المصدر السابق) ــ ص ١٧٩ .

ولكن اطلاق القنابل أضر ببريطانيا دون أن ينفعها شيئاً ، حيث جعل الاتراك يتنبهون الى أهمية الدردنيل والى ضرورة الاهتمام العاجل بتقوية قلاعه وتسليحها . وقد شرعوا فعلاً بالعمل في ذلك بالتعاون مع الالمان ، فأصبحت القلاع بعد وقت قصير في حالة من المناعة لا يستهان بها . (١٢)

وفي شهر شباط ١٩١٥ قرر الحلفاء مهاجمة الدردنيل بالسفن الحربية وحدها ، وكانت تلك فكرة المستر ونستن تشرشل الذي كان يومذاك وزيراً للبحرية البريطانية ، فقد كان واثقاً بأن قنابل السفن الحربية الضخمة قادرة على دك قلاع الدردنيل . وفي ١٩ شباط اقتربت سفن بريطانية وفرنسية من الدردنيل وأخذت ترمي قلاعه بقنابلها الضخمة . ولكن الاتراك صمدوا لهذا القصف ، واستمرت المعركة طيلة شهر كامل غرق فيها للحلفاء ثلاث بوارج كبيرة وعطلت لهم ثلاث بوارج أخرى . وتبين للحلفاء أخيراً أنها حملة فاشلة فقرروا ايقافها .

صمم الحلفاء على القيام بحملة أخرى تشترك فيها القوات البرية مع الاسطول ، وعينوا الجنرال هاملتون قائداً لها . وقد وصل هذا القائد الى الاسكندرية للعمل على اعداد الحملة . وعلم الاتراك بأمر تلك الحملة فحشدوا الكثير من قواتهم في الدردنيل وعينوا الجنرال فون ساندرز الالماني قائداً لها . وفي صباح ٢٥ نيسان بدأ الهجوم حيث برز من خلال الضباب المخيم على سواحل غاليبولي الجنوبية عدد هائل من السفن الحربية ـ من بوارج ومدمرات وناقلات ـ وأخذ الجنود ينزلون منها الى السواحل ، وكان ذلك ايذانا ببدء معارك طاحنة حصدت فيها الارواح حصداً . وقد استمرت المعارك ثلاثة أشهر تقريباً دون أن يحظى المهاجمون فيها بطائل . ومع انهم قد حصلوا على موطىء قدم لهم على الساحل غير أنهم لم يستطيعوا التوغل فى الداخل كثيراً ، وكان الاتراك متحصنين على المرتفعات المشرفة فوقهم يقاتلون ببسالة منقطعة النظير وهم يهتفون « الله اكبر » . وقد تجلت في تلك المعارك مقدرة القائد التركي مصطفى كمال بك ـ وهو الذي أصبح أول رئيس للجمهورية التركية بعد الحرب ـ

---

(12) Willim Yale (The Near East) — Ann Arbor — p. 223.

وكان يومذاك برتبة قائمقام أي عقيد ، وقد أبدى من الحزم والشجاعة وسرعة البديهة أمراً عجيباً • (١٣)

يقول بارتلت مندوب صحافة لندن في معارك الدردنيل : ان السبب في فشل الحلفاء في تلك المعارك يعود الى خطأ اقترفه الجنرال هاملتون ، فهو بدلاً من مهاجمة الاتراك في مواقعهم الضعيفة راح يهاجمهم في مراكزهم القوية واستحكاماتهم المنيعة مخالفاً بذلك القواعد الحربية التي أشار اليها نابليون بقوله : « يجب مهاجمة العدو في أضعف مكان منه بكل ما لدينا من سلاح وذخيرة ورجال » • (١٤)

يبدو ان هاملتون أدرك سر خطأه هذا فأراد أن يتلافاه في حملة جديدة ، وأخذ يعد العدة لها واختار لها موقعاً في الشمال الغربي من شبه جزيرة غاليبولي ، وكان يستهدف من وراء ذلك تطويق القوات التركية في شبه الجزيرة وقطع خط اتصالها باسطنبول •

وفي ٦ آب أنزل الجنرال هاملتون جنوده في خليج « سوفلا » ولم يكن الاتراك يتوقعون الانزال في هذه المنطقة ولم تكن لديهم فيها قوات كافية • وقد نجح الانزال في اليوم الاول نجاحاً عظيماً • ولكن الجنود بدلاً من أن يستثمروا نجاحهم هذا فيستمروا في الزحف ركنوا الى الراحة وأخذوا يستحمون في مياه البحر مبتهجين ، بينما ذهب قائدهم الجنرال ستوبفورد الى خيمته ليتمتع فيها بغفوة قصيرة في القيلولة •

وصل الجنرال هاملتون الى موقع الانزال ليرى ما يجرى فيه ، فوجد القائد نائماً ، وعندما استيقظ القائد سأله هاملتون : لماذا لم يباشر زحفه حتى الآن ؟ فكان جواب القائد : « الوقت طويل ، والجنود الآن غير مستعدين ، وأرى تأجيل ذلك الى الغد » • وقد ذهل هاملتون من هذا الجواب لأن المفروض في الحركات العسكرية ان يكون الوقت فيها ثميناً حداً ، فالساعة الواحدة قد تؤدي الى نصر باهر أو هزيمة منكرة • والغريب ان هاملتون لم يفعل شيئاً تجاه هذا القائد « البارد » وغادر الموقع دون أن

---

(١٣) أرمسترونج (مصطفى كمال) ــ القاهرة ــ ص ٧٠ •

(١٤) عمر أبو النصر (الحرب العالمية الاولى) ــ بيروت ــ ج ١٠ ص ٢٧ •

بقول له شيئاً . [١٥] وقـد اعترف الضباط الاتراك بعـدئذ ان القـوات الانكليزية لو كانت قد استمرت في زحفها لجعلت القوات التركيـة فـي موقف حرج جداً لنفاذ العتاد عندها . [١٦]

ومما يلفت النظر ان الجنرال فون ساندرز قائد القوات التركية كان رجلاً من طراز آخر ، فهو حين علم بأمر الانزال فـي خليج « سوفلا » أصدر أمره حالاً بتوجيه فرقتين من قواته الـى مرتفعـات « أنافورطة » المشرفة على موقع الانزال . ثم ركب حصانه وذهب الى تلك المرتفعـات ليتفقد الامور بنفسه . وكانت احدى الفرقتين لم تصل في الوقت المحدد لها ، فأرسل فون ساندرز يستدعي اليه قائد الموقع الميرآلاي فيضي بك ، وسأله عن السبب في تأخر الفرقة عن الوصول . فكان جواب القائـد : ان التعب الذي أصاب الجنود هو الذي أخر الفرقة عن الوصول . وعند هذا أمر فون ساندرز بعزل هذا القائد المتكاسل وعين مصطفى كمال بك بدلا عنه . [١٧] وقد أنجز هذا القائد الجديد مهمته بكل جدارة ، مما ادى الى فشل حملة الحلفاء للمرة الثانية . وقد منح مصطفى كمال بك على أثر ذلك رتبة « الباشوية » وأطلقت الصحف التركية عليه لقب « منقذ الدردنيل والعاصمـة » . [١٨]

ظلت المعارك مستمرة على الشواطيء بضعة أشهر بعد أن تحولت الى حرب خنادق ، وأخذ بعض الجنود السنغاليين يجرحون أنفسهم عمداً لكي يتهربوا من القتال، كما كان بعضهم يضعون عقاقير مضرة في عيونهم فيفقدون بصرهم موقتاً أو نهائيا اذ هم يعـدون ذلك أفضل من معـاناة أهـوال الحرب . [١٩] وقرر الحلفاء أخيراً الخلاص من هذه المحنة والانسحاب مـن شواطىء الدردنيل . وصرح بعض وزراء بريطانيا : « : أن نفوذ بريطانيـا

---

(١٥) عمـر الديراوي (الحـرب العالميـة الاولـى) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(16) William Yale (op. cit) — p. 224.

(١٧) عمر ابو النصر (المصدر السابق) ـ ج ٩ ص ٢ ـ ١٦ .

(١٨) أرمسترونج (المصدر السابق) ـ ص ٧٠ ـ ٧١ .

(١٩) عمر أبو النصر (المصدر السابق) ـ ج ٨ ص ٣٨ .

وهيبتها قد تمرغا في وحول الدردنيل » .[٢٠]

بدأ انسحاب الحلفاء من سواحل الدردنيل في ١٠ كانون الاول ١٩١٥، وانتهى في ٩ كانون الثاني ١٩١٦ . ويعد هذا الانسحاب العمل العسكري الوحيد الذي نجح فيه الحلفاء في الدردنيل . والواقع أنه كان قطعة رائعة من الفن العسكري ، وقد وصفه فون ساندرز بأنه كان على جانب عظيم من الدقة والمهارة والسرعة . ومعنى هذا أن الحلفاء فشلوا في الهجوم غير أنهم نجحوا في الانسحاب !

لقد تركت القوات المنسحبة وراءها على السواحل مقادير عظيمة من العتاد والاطعمة ، فكانت هناك ألوف الصناديق وهي مملوءة بالاسلحة الخفيفة والرشاشات والقنابل اليدوية ، كما كانت علب الطعام المحفوظ وأكياس الطحين والشعير وهي مكومة الى ارتفاع شاهق لكثرتها . والظاهر أن القوات المنسحبة لم تعمد الى اتلافها لكي لا يكتشف الاتراك أمر الانسحاب . وقد تركت القوات كذلك خيماً كثيرة منصوبة لايهام الاتراك بان القوات باقية في مواضعها . ولكن القوات المنسحبة قتلت الكثير من حيواناتها ، فتركت وراءها المئات من جثث الخيول والبغال المقتولة ، فكانت جيفة كبرى !

بلغت خسائر الانكليز في معارك الدردنيل مائة وعشرين ألفاً بين قتيل وجريح ومفقود ، بينما كانت خسائر الفرنسيين خمسة وعشرين ألفاً . أما خسائر الاتراك فربما ناهزت المائتي ألف . ولم يخسر الألمان سوى أربعة وأربعين فقط لا غير !

الهلع في اسطنبول :

حينما كانت المعارك ناشبة في الدردنيل كان الهلع مسيطراً على اسطنبول ، والواقع ان الهلع بدأ منذ الايام الاولى من عام ١٩١٥ وذلك حين أخذت الاشاعات تروج عن قرب هجوم الحلفاء على الدردنيل وتقدمهم نحو اسطنبول . وكان الكثير من الناس على يقين بأن الاسطول البريطاني

---

(٢٠) عمر الديراوي (المصدر السابق) — ص ١٦٨ .

الذي كانت له سمعته في تلك الايام قادر على اختراق الدردنيل والوصول الى اسطنبول في وقت قريب ٠

ومن الممكن القول ان أهل اسطنبول قد انقسموا تجاه هـذا الخطر الى قسمين ، فالقسم الاكبر منهم كانوا في اعماق قلوبهم يتمنون دخـول الحلفاء لكي ينقذوهم من ويلات الحرب وتعسف الاتحاديين ، أما القسم الآخر فكانوا يعتقدون ان دخول الحلفاء الى اسطنبول يؤدي الى تدمير المساجد وانتهاك الحرمات ، وهـذا هو ما كانت الدعاية الحكومية تلفقه لهم ، فكانوا يصدقون بها ويخشون دخول الحلفاء من جراء ذلك ٠

وفي ١٩ شباط ١٩١٥ عندما بدأت سفن الحلفاء تقصف قلاع الدردنيل اشتد الهلع في اسطنبول ، وأعد مدير الشرطة قطارين : أحدهما لنقـل السلطان وأعضاء الحكومة الى داخل البلاد ، والثاني لنقل السفير الالماني والسفير النمساوي الى بلادهما ٠ وكان كل قطار مؤلفاً من ثلاث عربات فقط لكي يتمكن من السير بسرعة فائقة ٠ يروي السفير الامريكي مورغنتو ان السفير الالماني فون ونغنهايم جاء اليه يريد أن يودع لديه الاشـياء الثمينة التي كان يملكها استعداداً لمغادرة اسطنبول ، وقد نقل فون ونغنهايم له رأياً للمارشال در غولتز بأن بريطانيا تتمكن بخسارة عشـر بوارج أن تخترق مضيق الدردنيل وتحتل اسطنبول ٠ (٢١)

وفي الاول من شهر آذار بدأ الكثير من الاهالي يغادرون اسطنبول ، وصدرت الأوامر الى المصارف الكبرى بنقل أموالها الى داخـل البـلاد ، كما أرسلت الحكومة سجلاتها الى هنالك ٠ وجاء بدري بك مدير الأمن العام الى السفير الامريكي يطلب منه الالتحاق بركب السلطان في القطار ، ولكن السفير فضل البقاء لكي يتمكن من منع المذابح المتوقعة بصفته سفير دولة محايدة ٠ وأخذ السفير يتعاون مع بدري بك في وضع خارطة للمحلات التي يجوز للاسطول البريطاني قصفها ، والتي لا يجوز قصفها ، حسـب القانون الدولي ٠ وأبرق السـفير بذلك الى واشنطن طالبـاً مـن وزارة

---

(٢١) هنري مورغنتو (مذكرات سـفير امريكا فـي الاسـتانة) ـ القـاهرة ١٩٢٣ ـ ص ٧٠ ٠

الخارجية الامريكية أن تحصل على موافقة قائد الاسطول البريطاني عليه . وجاء جواب واشنطن بالقبول .

ويقول السفير الامريكي ان جميع رجال السياسة كانوا على يقين من نجاح الاسطول في تقدمه ما عدا أنور باشا ، فقد كان هذا الرجل على ثقة تامة بان الاسطول غير قادر على اختراق الدردنيل . وقال للسفير : « سيخلدني التاريخ رجلاً أظهر للعالم أنه يمكن قهر اسطول بريطانيا العظيم ... » [٢٢]

وفي أواخر شهر آذار عندما كف الاسطول عن القصف وعاد الى قواعده ، هللت الحكومة وكبرت لهذا الحادث الذي اعتبرته نصراً عظيماً لها . وأصدرت أوامرها الى جميع أنحاء البلاد بوجوب اقامة الاحتفالات. ولكن هذا الفرح لم يستمر طويلاً اذ أن الحلفاء عادوا في ٢٥ نيسان — على نحو ما ذكرناه آنفاً — فهاجموا الدردنيل بقواتهم البرية والبحرية معاً . وشرع السلطان وأعضاء الحكومة يستعدون للسفر من جديد .

وفي ٢ أيار أخبر أنور باشا السفير الامريكي بأن سفن الحلفاء قصفت في غاليبولي قرى غير محصنة وقتلت فيها كثيراً من سكانها المسلمين ، وطلب اليه أن يبرق الى بريطانيا وفرنسا تهديداً بأنه اذا استمرت سفنهم بقصف القرى فسوف ينقل الى تلك القرى رعايا بريطانيا وفرنسا الموجودين في اسطنبول ليكونوا عرضة للقصف فيها . وقال أنور باشا غاضباً : « آه من هؤلاء الانكليز الجبناء جربوا أن يخترقوا الدردنيل فباؤوا بالذل والخسران ، وها هم يثأرون لأنفسهم . قنابلهم تدمر قرانا ومستشفياتنا وتهلك اخواتنا وأهلينا ..» .

وفي اليوم التالي أخذ بدري بك يلقى القبض على رعايا بريطانيا وفرنسا ، وعين موعداً قريباً لسفرهم الى غاليبولي . وبذل السفير الامريكي محاولات كثيرة مع أنور باشا ليقنعه بالعدول عن قراره ، وتم الاتفاق معه أخيراً على أن يرسل من أولئك الرعايا خمسين شاباً فقط . وقد نقل هؤلاء الخمسين الى غاليبولي فذاقوا فيها العذاب ألواناً . وفي ٩ أيار وصلت

---

(٢٢) المصدر السابق — ص ٧٨ .

الى السفير من واشنطن برقية مفادها ان بريطانيا ستلقى على أنور باشا شخصياً مسؤولية سوء معاملة الرعايا الاجانب • وذهب السفير الى أنور يخبره بذلك ويرجوه اعادة الرعايا من غاليبولي ، فصاح أنور مزمجراً : « انهم لن يرجعوا • سأتركهم هناكَ حتى ينتنوا • وليغتالني اولئك الانكليز اذا تمكنوا مني » • ولكن الرعايا أعيدوا الى اسطنبول على أي حال وكانت صحتهم جيدة • [٢٣]

وفي ٦ آب عندما وصلت الى اسطنبول أخبار الانزال البريطاني في خليج « سوفلا » ، اشتد الهلع في المدينة الى الدرجة القصوى • يقول الجنرال فون ساندرز في مذكراته : ان بعض السكان تهافتوا على محلة « بك أوغلي » يستأجرون شرفات المنازل فيها لمشاهدة جيش الاحتلال عند مروره في شوارع العاصمة • وقد طلب فون ساندرز من مرافقه أن يستأجر شرفة له أيضاً لكي لا يحرم من رؤية هذا المنظر الجميل • [٢٤]

وقد استمر الهلع في اسطنبول ، يشتد تارة ويخمد أخرى ، الى أن وصلت الاخبار في الشهر الاول من عام ١٩١٦ تنبىء بأن الحلفاء قد أنسحبوا نهائيا من الدردنيل • وعند هذا أقيمت الاحتفالات الفخمة ونشرت أعلام الزينة في كل مكان ، وازدهى أنور باشا والاتحاديون غروراً وفرحاً • يقول شكيب ارسلان: ان الاتحاديين حصلت لديهم على أثر انتصار الدردنيل نشوة ظفر غير معهودة ، ولعبت خمرة النصر برؤوسهم ، فسكروا وأبرموا قرارات غريبة عجيبة : منها سفور النساء بعد أن كان ذلك ممنوعاً ، ومنها نقل المحاكم الشرعية من المشيخة الاسلامية الى وزارة العدلية حيث بقيت المشيخة بلا عمل تقريباً ، ومنها تتريك سوريا واقتلاع الروح العربية منها• وقد ظنوا أنهم اذ تغلبوا على تلك الجيوش الجرارة في الدردنيل لا يعجزون بعدئذ عن القيام بأي عمل يريدونه اذا أتخذوا طريق الحزم • [٢٥]

---

(٢٣) المصدر السابق ص ٨٤ ــ ٩١ •

(٢٤) عمر أبو النصر (المصدر السابق) ــ ج ٩ ص ٦ •

(٢٥) شكيب ارسلان (سيرة ذاتية) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ١٥٥ ، ١٨٥ •

وفـد رجـال الـدين :

على أثر الانتصار الذي ناله الجيش التركي في الدردنيل قرر جمال باشا ارسال وفد من رجال الدين الى تركيا ليحيي السلطان باسم الشام • وكان جمال باشا قد شنق الدفعة الأولى من زعماء العرب قبل مدة قصيرة فأراد أن يذهب رجال الدين الى اسطنبول ليثبتوا للمسؤولين هناك بـأن أهل الشام راضين عن جمال باشا ويحبونه •

كان الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع رئيساً للوفد ، وقد رافقهم أربعة صحافيين هم : محمد كرد علي صاحب جريدة « المقتبس » ، ومحمد الباقر صاحب جريدة « البلاغ » ، وحسين الحبال صاحب جريدة « أبابيل » ، والشيخ عبدالباسط الأنسي صاحب جريدة « الاقبال » • وكان من أعضاء الوفد رجل دين عراقي هو محمد حبيب العبيدي الموصلي الذي كان يومذاك واعظاً للجيش الرابع ، [٢٦] كما كان بينهم رجل دين شيعي من جبل عامل يضع على رأسه عمامة سوداء اسمه السيد صدر الدين • [٢٧]

اجتمع أعضاء الوفد في محطة رياق في ٢٨ ايلول ١٩١٥ ، فركبوا القطار متوجهاً بهم نحو الشمال • وبعد سفر شاق وصلوا الى اسطنبول في ٧ تشرين الاول • فجرى لهم في المحطة استقبال فخم وعزفت لهم الموسيقى• وفي يوم الجمعة استقبلهم السلطان في أحد قصور يلدز ، وبعد أن ألقى الشقيري كلمة بالمناسبة قال السلطان : « لقد سررت بمرآكم جميعاً يا علماء الدين ، ولا سيما لمصادفة قدومكم لدار الخلافة قرب ختم قراءة البخاري الشريف الذي أقرأه منذ بداية الجهاد حتى اليوم الى لفيف من العلمـاء الصلحاء في حجرة المخلفات النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية ، ولا يخفى ان قراءة البخاري الشريف بحجرة المخلفات النبويـة تكون روضة من رياض الجنة ، واني أصدر ارادتي أن تزوروا تلك الدائرة وتشتركوا في الدعوات المستجابة عنـد ختم التلاوة للبخاري الشريف ، فاني علقت ختم البخاري على قدومكم » • ثم قال : « انه كان مبتهجاً جداً من البرقيات التي كانت ترد اليه من بلاد العرب تستفسر عن صحته ، وأنـه

---

(٢٦) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج ٥ ص ٦٧ .

(٢٧) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ ايلول ١٩٣٨ .

رأى آثار تجليات باهرة من ختم البخاري » • [٢٨]

وقابل الوفد بعد ذلك شيخ الاسلام ، ثم وزير الداخلية طلعت باشا وقام محمد كرد علي يخطب أمام وزير الداخلية فمدح الانقلاب الدستوري الذي قام به الاتحاديون قبل الحرب وما أدى اليه من عمران للبلاد وتهذيب للطباع ، ثم مدح جمال باشا على ما قام به في بلاد الشام من تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وانشاء المدارس العليا الأمر الذي لا تحلم البلاد بتحقيقه في مدة نصف قرن • ثم ختم محمد كرد علي خطابه بقوله : « كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ، ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله على مكانتها قد عمرت بلادنا ومحصت الناس فتبين بها الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم • ولو لم توفق الحكومة الى انتداب أمثال أحمد جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية أثناء هذه الازمة لتم فيها المضحك المبكي » • [٢٩]

ثم زار الوفد وزارة البحرية فاحتفى به ضباطها احتفاءاً منقطع النظير• وتناول الوفد طعام الغداء في الوزارة وتتابع أعضاء الوفد يخطبون في مدح جمال باشا وذكر الاعمال العظيمة التي قام بها • ونهض أخيراً رئيس الوفد أسعد الشقيري فألقى خطابا طويلاً في مدح جمال باشا بدأه بقوله: « ربما ظن الحاضرون ممن لا علم له باخلاق أعضاء الوفد ، ولا وقوف عنده على حقائق أحوالهم ، أنهم من المداهنين الذين يجازفون في مديح الامراء واطراء العظماء ، تزلفاً لهم وطلباً للحظوة عندهم ، وذلك لكثرة ما سمع منهم بالثناء على القائد العظيم أحمد جمال باشا واطرائه • والحقيقة على خلاف ذلك ، فان أعضاء الوفد الذين ترونهم أمامكم أبعد الناس عن مخالطة الحكام والاختلاف اليهم ، وأقربهم الى الاعتدال والصدق ، واكثرهم اخلاصاً ، وأصفاهم سريرة ••• » ثم أخذ الشقيري يطنب في مدح جمال باشا لكي يثبت بذلك ان ما قاله أعضاء الوفد فيه هو عين الصواب من غير نفاق • ثم ختم خطابه الطويل بقوله : ان جمال باشا لكثرة الاعمال العظيمة التي قام بها في بلاد الشام يعدونه من الشخوص

---

(٢٨) جمال الدين الالوسي (محمد كرد علي) ـ بغداد ١٩٦٦ ـ ص ١٠٤ •

(٢٩) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ـ ج ٥ ص ١٠٠ •

الخيالية التي يصورها الوهم وينفيها الحس والعقل « لذلك هم يقدسونه من أعماق قلوبهم ويقدسون كل من كان على شاكلته من رجال العمل المخلصين » ٠

وبعد أن تجول الوفد في اسطنبول والدردنيل وغيرها عاد الى بلاده ، واقيمت له في دمشق حفلة عظيمة حضرها جمال باشا والامير فيصل بن الشريف حسين وكبار الموظفين والاعيان ، وبعد أن القى الشقيري خطبة طويلة في وصف ما لقى الوفد من تكريم فى البلاد التي زارها نهض الشيخ علي الريماوي المقدسي فالقى قصيدة تحتوي على اكثر من خمسين بيتا حيا فيها جمال باشا ، كان مطلعها :

سرى وفدك الغازي ومثلك يوفد وعاد بملء البشر والعود أحمد[٣٠]

جبهة قفقاسية :

نقصد بقفقاسيا تلك المنطقة التي تقع الى الشمال الشرقي من تركيا ، وهي منطقة جبلية وعرة يبلغ ارتفاع بعض قممها عشرة آلاف قدم ، ويسكنها أقوام مختلفون كالأرمن والاكراد والاتراك والكرج والآذربايجانيين والداغستانيين وتختلط فيها شتى الاديان والمذاهب مما أدى الى وقوع مذابح طائفية عديدة ، وكثيراً ما نشبت الحروب الطاحنة فيها بين الروس والاتراك٠

كان الواجب على تركيا أثناء الحرب أن تقف في جبهة قفقاسيا موقف الدفاع لكي تتفرغ للجبهات الاخرى التي هي اكثر أهمية منها ٠ والواقع ان هذه الجبهة تصلح للدفاع اكثر من صلاحها للهجوم وذلك لوعورتها وكثرة الجبال فيها ، وقد يكفي للدفاع عنها وضع قوات صغيرة في بعض النقاط السوقية منها فيصعب على العدو عندئذٍ اجتيازها ٠

يبدو ان مصلحة الالمان ورغبة الاتراك اتفقتا على القيام بهجوم في جبهة قفقاسيا ، فالألمان يريدون الهجوم على الروس في هذه الجبهة لكي يخف عنهم ضغط الروس في جبهة أوربا الشرقية ٠ أما الاتراك فكانوا يطمحون الى الفتح في تلك الجبهة بغية الاتصال بالشعوب الطورانية التي تعيش هناك تحت حكم روسيا القيصرية ، وربما كان أنور باشا يطمح أيضاً

---

(٣٠) جمال الدين الالوسي (المصدر السابق) — ص ١٠٨ — ١١٢ ٠

الى القيام بحركة « نابليونية » بعيـدة المدى تستهدف الهنـد في نهايـة المطـاف . (٣١)

كان للاتراك في جبهة قفقاسيا جيش تعداده مائة وخمسون ألفاً ، أما الروس فكان تعداد جيشهم فيها مائة ألف فقط . وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩١٤ ـ أي بعد أيام قليلة من اعلان الحرب على تركيا ـ شن الروس هجوماً في تلك الجبهة ، ولكن القوات التركية أرغمتهم على التراجع بعد أن ألحقت بهم خسائر كبيرة . والظاهر ان هذا الانتصار الجزئي الذي ناله الاتراك شجع أنور باشا على القيام بهجوم كبير على الروس .

ففي كانون الاول ١٩١٤ غادر أنور باشـا اسطنبول متجهاً الى جبهة قفقاسيا وتولى قيادة الجيش فيها بنفسه . ويقال أن أنور باشا كان يريـد تقليد الطرق العسكرية الالمانية فوضع خطة لتطويق القوات الروسـية كلها وتدميرها . وهي كانت خطة عظيمة من الناحية النظرية ، انما هي كانت عقيمة من الناحية العملية ـ انها كانت بعبارة أخرى خطة رائعة على الورق ولكن طبيعة الارض في منطقة قفقاسيا لا تلائم تطبيقها عملياً .

شن أنور باشا هجومه الكبير على الروس ، ولكن الروس استطاعوا في ٣ كانون الثاني ١٩١٥ أن يوجهوا للجيش التركي ضربة قاصمة هلك فيها معظم جنوده ، ولم يبق منهم سوى اثني عشر ألفاً . فكـانت تلـك كارثة عسكرية لم يشهد تاريخ الدولة العثمانية لها مثيلاً . ومن الجـدير بالذكر ان تلك الكارثة كانت ذات أهمية بالنسبة للعراقيين اذ كان فيها الكثير منهم ولم يعد منهم سوى أفراد قليلين ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

عاد أنور باشا الى اسطنبول وهو يشعر بما جلبته الكارثة على سمعته من الهوان ، فلم يظهر كثيراً في الاماكن العامة لانه لا يدري بماذا سـوف يستقبله الجمهور . (٣٢) وقد اتخذت الحكومة التركيـة التدابير لمنع نشر أي خبر عن كارثة قفقاسيا في بلادها ، وفرضت عقوبة رادعـة على من يتكلم عنها . (٣٣)

---

(31) William Yale (op. cit.) — p. 218 — 219.

(٣٢) هنري مورغنتو (المصدر السابق) ـ ص ١٥ .

(33) William Yale (op. cit) — p. 219.

ساد الهدوء النسبي في جبهة قفقاسيا طيلة الشهور التالية • وفي ايلول ١٩١٥ وصل الى الجبهة الغراندوق نقولا ، وكان هذا قائداً للجيوش الروسية في أوربا الشرقية وقد أنزل به الالمان هزائم منكرة هنالك ، فنقل الى قفقاسيا • والظاهر أنه كان يريد أن يستعيد سمعته بنيل نصر له على الاتراك يعوض به عن هزائمه السابقة تجاه الألمان •

وضع الغراندوق خطته على أساس أن يكون الهجوم على الاتراك في الشتاء ، ولم يكن الاتراك يتوقعون هجوماً في ذلك الفصل الذي تكون الطرق فيه مغمورة بالثلوج • وشرع الغراندوق يعد العدة للهجوم بتكتم شديد • وفي ١٧ كانون الثاني ١٩١٦ بدأ هجومه ، واخذت قواته تسير من نصر الى نصر ، فاحتل مدينة أرضروم في ١٦ شباط وتعتبر هذه المدينة أعظم نقطة سوقية في المنطقة كلها • ثم احتلت قواته بعد ذلك ميناء طرابزون الواقع على البحر الاسود ، ومدينتي موش وبتليس الواقعتين الى الغرب من بحيرة وان •

ارسل الاتراك جيشهم الذي كان موجوداً في تراقيا لانجاد قواتهم في قفقاسيا ، ولكن هذا الجيش لم يتمكن من الوصول الى جبهة القتال الا في شهر آب ، فكان وصوله بعد فوات الاوان ، وحلت به الهزائم ، وصار عشرات الألوف من الجنود يفرون من خطوط القتال • (٣٤)

ولم يكتف الروس بانتصاراتهم الباهرة في جبهة قفقاسيا ، بل أرسلوا ارتالا من الخيالة القوزاق الى ايران ، وأخذت هذه الارتال تتغلغل في داخل ايران حتى وصلت الى اصفهان ، وعبرت الحدود العراقية من الشمال باتجاه راوندوز ، ومن الوسط باتجاه بعقوبة •

يمكن القول ان هذه الانتصارات الباهرة التي نالتها القوات الروسية على الاتراك كانت بمثابة القمة العالية التي يأتي بعدها الانحدار • ففي ذلك الوقت التي كانت فيه القوات الروسية تسير من نصر الى نصر في تركيا وايران نشبت ثورة في بطرسبرغ ، وقد أدت هذه الثورة الى انهيار الجيوش الروسية في جميع الجبهات ، فكان ذلك كأنه انقاذ نزل الى

---

(34) Ibid, p. 233.

الاتراك من السماء ، وبه استطاع الاتراك على ضعفهم أن يتحولوا من موقف الدفاع الى موقف الهجوم كما سنأتي اليه •

الثـورة الروسـية :

لابد لنا هنا من استعراض موجز للثورة الروسية لما كان لها من تأثير عظيم على مجرى الحرب في تركيا أولاً وعلى مجرى التاريخ في العـالم كله أخيراً •

الواقع ان الشعب الروسي عاني من ويلات الحـرب عناءاً يصعب تصوره • يقول الكاتب الانكليزي المعروف ويلز : ان الجنود الروس كانوا يذهبون الى الحرب من غير مدافع تدعمهم ؛ وحتى من غير رصاص لبنادقهم، فكانوا يساقون الى الهـلاك من قبـل قوادهم تحت تأثير هوس الحماس العسكري ؛ وكانوا في بعض الاحيان يتحملون الويل صامتين كالانعام• اما الطبقة النبيلة الحاكمة فكانت متفسخة غير قديرة ، بينما كـان القيصر قد سيطر عليه نوع من التقوى البلهاء وكان هو وحاشيته قد وقعوا تحت تأثير راهب دجال هو راسبوتين ••• (٣٥)

نفد صبر الروس في شهر آذار ١٩١٧ ، حيث خرجت مظـاهرة في العاصمة بطرسبرغ تطالب بالخبز ، فأمرت الحكومـة باطـلاق الرصـاص عليها غير أن الجنود امتنعوا عن تنفيذ أمر الحكومة • وتألفت حكومة موقتة من قبل الاحزاب المعارضة • وحين سمع القيصر بذلك ، وكان في احـدى جبهات الحرب ، غادر الجبهة مسرعاً متوجهاً الى العاصمة ، ولكنه أوقف في الطريق من قبل الحكومة الموقتة وطلب منه التنازل عن العرش • وقـد تنازل القيصر عن العرش لصالح أخيه ميخائيل غير أن أخاه رفض قبـول العرش في اليوم التالي •

مـرت علـى روسـيا بعـد هـذا ثمانيـة أشـهر عمـت فيهـا الفوضى في كل مكان ، فلقد كانت الحكومة الموقتة ضعيفة غير متناسقة يقودها رجل اسمه كرنسكي ، وكان هذا الرجل خطيباً مصقعاً يعرف كيف يخاطب الجماهير ، فصار معبودهم ، ولكنه لم يكن رجل دولة ، فتـرك

---

(35) H.G. Wells (Outline of History) Garden City — p. 1094.

الامور تجري على رسلها ، وبذلك استفحلت الفوضى واشتد التنافس بين الاحزاب كل حزب يريد أن يجر النار لقرصه .

كانت الحكومة القيصرية السابقة قد نفت الكثير من رعاياها الى سيبريا ، كما هرب آخرون الى مختلف البلاد الأوربية ، وقد بدأ هؤلاء المنفيون يعودون الى بطرسبرغ فزادوا في حدة الفوضى . وصار كل شخص ذاق شيئاً من الاذى او النفي في عهد القيصر يريد أن يكون في عهد الثورة زعيما . وأصبحت الجماهير تتقاذفهم الأهواء من كل جانب، وتتابعت التجمعات والمظاهرات ، وأخذ الخطباء يملأون الجو بالصراخ المثير.

وفي الوقت الذي كانت فيه بطرسبرغ تزخر بهذه الأحداث كان يعيش في سويسرا رجل روسي قصير القامة أكوس اللحية اسمه اوليانوف، ويلقب نفسه « لنين » . انه كان شيوعيا من زعماء الحزب المعروف باسم « البلشفيك » .

لم يكن في مقدور لنين العودة الى روسيا الا عن طريق المانيا ، وكان ذلك أمراً عسيراً لوجود حالة الحرب بين المانيا وروسيا . ولكن القيادة الالمانية ساعدت لنين على العودة الى روسيا حيث نقلته في قطار مغلق عبر بلادها الى ساحل بحر البلطيق ، ومن هناك استطاع لنين الوصول الى بطرسبرغ عن طريق السويد حيث وصلها في ١٦ نيسان . والمظنون ان القيادة الالمانية كانت تبغي من اعادة لنين الى روسيا زيادة الفوضى فيها وما درت أنها أرسلت الى روسيا رجلا سيغير مجرى التاريخ فيها وسيجعلها من أعظم دول العالم في وقت قصير !

كان لنين من طراز اولئك الرجال الذين يجمعون في أنفسهم بين الحماس والحكمة ، وكان يختلف عن الكثير من الشيوعيين الذين لا يعرفون من دنياهم سوى النصوص المحفوظة يهتفون بها ويتحمسون لها دون أن يفقهوا فحواها . فهو لم يكد يصل الى بطرسبرغ حتى بدأ العمل وفق خطة واضحة في ذهنه دون أن يهتم بالشعارات المرفوعة او الهتافات .

أصبحت بطرسبرغ يومذاك ميدان صراع بين رجلين من طرازين مختلفين ، فقد كان كرنسكي من جانب يثير الجماهير بخطبه الرنانة بينما

كان لنين من الجانب الآخر يفكر تفكير من يرمي ببصره الى الافق البعيد دون أن يهتم بالاغراءات الآنية .

كان كرنسكي يريد مواصلة الحرب ، وأخذ يخطب في الجنود محمساً لهم . أما لنين فكان يعتبر الحرب مهلكة للجنود البائسين ولا يستفيد منها سوى الحكام وأصحاب الأموال . كان لنين يدعو الى وقف الحرب حالاً وعقد الصلح مع ألمانيا بأي ثمن لكي يتفرغ بعدئذٍ الى بناء دولته على أسس جديدة ، ولهذا صار خصومه يتهمونه بأنه عميل للألمان وخائن لوطنه . ولم يكترث لنين لهذه التهم بل سار في طريقه لا يلوي على شيء .

شنت الجيوش الروسية هجوماً على الالمان بايعاز من كرنسكي في تموز ١٩١٧ ، وقد نال الهجوم بعض النجاح في بداية الأمر غير أن الالمان انثالوا بعدئذ على الجيوش الروسية فأنزلوا بها كارثة أخرى من نمط الكوارث السابقة ، وكانت تلك مذبحة جديدة مني بها الجنود المساكين .

وبينما كان كرنسكي مشغولاً بجبهة الحرب كان لنين مشغولاً بالجبهة الداخلية يفكر كيف يهدم الحكومة الحالية لكي يبني مكانها حكومته الجديدة . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ تم له ما اراد فقامت ثورة في بطرسبرغ بقيادته ، وبدأت منذ ذلك الحين تلك الطفرة الاجتماعية الكبرى التي لا ندري أين ينتهي المطاف بها .

سميت تلك الثورة بـ « ثورة اكتوبر » أي تشرين الاول على الرغم من كونها حدثت في تشرين الثاني ، ويعزى سبب ذلك الى أن روسيا كانت في تلك الايام تجري على التقويم الشرقي وهو يقل عن التقويم الغربي بثلاثة عشر يوماً .

ققفاسيا ــ مرة اخرى :

كانت الجيوش التركية في جبهة ققفاسيا ــ في الفترة التي سبقت قيام الثورة الروسية ــ في أسفل درك من الضعف وتفسخ القيادة . يقول أرمسترونج في وصفها : « ... كان ينقصها كل شيء من الطعام والذخائر والاسلحة ، وكانت ثياب الجنود قد غدت اسمالاً مهلهلة ، كما كانت مواد تموينهم تختلس وتنهب ، فمتعهدو الجيش يرشون الضباط الذين بيدهم

الأمر والنهي ويشاركونهم أرباح الصفقات • فأثرى الفريقان من هذه السرقات على حساب تموين الجيش • وكذلك كانت الخدمة الطبية على أسوأ حال •• فالجنود يموتون بالالوف تأثراً بالدوسنطاريا والتيفوس وغيرها من الامراض فضلا عن موت الكثيرين منهم تأثراً بالبرد والجوع • » (٣٦)

ارسلت القيادة التركية العليا الى جبهة قفقاسيا قائداً نزيهاً صارماً هو مصطفى كمال باشا بطل الدردنيل ، وقد بدأ هذا القائد بحملة تطهير شملت اللصوص من الضباط والمتعهدين ، فأنزل بهم عقوبات شديدة لا تعرف الرحمة ، وقد تصور بعضهم أن في مقدورهم رشوته وعرضوا عليه مشاركتهم في أعمال السلب والنهب ، فكان رده عليهم أنه أمر بشنقهم ، كما أمر بجلد كل من ثبتت عليه أية تهمة مخلة بالنزاهة •(٣٧)

وعندما نشبت الثورة الروسية في آذار كان أثرها شديداً في جبهات الحرب حيث أخذ الكثير من الجنود الروس يعصون أوامر ضباطهم ويفرون عائدين الى بيوتهم • وأرادت القيادة التركية انتهاز الفرصة لاستعادة المناطق الواسعة التي كانت القوات الروسية قد احتلتها في شرقي الاناضول ، وشرعت القوات التركية تتقدم بقيادة مصطفى كمال باشا ، ولكن تقدمها كان بطيئاً جداً لما كانت تعانيه من ضعف في الرجال ونقص في التموين • وقد استطاعت على أي حال أن تسترجع وان وبتليس وموش ، وواصلت تقدمها نحو باطوم •

وبينما كان مصطفى كمال باشا مشغولاً في هذه الجبهة اذ صدرت اليه الاوامر من اسطنبول بان يترك الجبهة بعهدة نائبه كاظم قره بكر بك ويتوجه الى فلسطين لقيادة أحد الجيوش التي كانت معدة هناك لمواجهة الهجوم الانكليزي المتوقع •

يبدو أن انور باشا كان مهتماً بأمر الهجوم في قفقاسيا اكثر من اهتمامه بأمر الدفاع عن فلسطين ، وقد ادى ذلك الى خلاف في الرأي

---

(٣٦) ارمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٧٦ •
(٣٧) المصدر السابق ــ ص ٧٦ ــ ٧٧ •

بينه وبين القادة الألمان . كتب القائد الالماني فون ساندرز يقول : ان التقدم التركي في ايران كان السبب في ضياع بغـداد ، والآن يمكن أن يكـون التقدم في قفقاسيا سبباً في ضياع البلاد العربية الأخرى . (٣٨)

ففي آذار من عام ١٩١٨ عقدت معاهدة الصلح بين المانيا والحكومة البلشفية الجديدة ، وفيها وافقت الحكومة البلشفية على الجلاء عن المناطق التركية التي كانت القوات الروسية قد احتلتها سابقاً في شرقي الاناضول ، وتسليم أردهان وقارص وباطوم الى تركيا . وأراد أنور باشا استغلال تلك الفرصة الى الحد الاقصى فأمر القوات التركية بالتقدم نحو باكو .

ان منطقة قفقاسيا تحتوي ـــ كما أسلفنا ـــ على قوميات وطوائف دينيـة شتى . وعندما انسحبت القوات الروسـية منها ظهرت فيهـا عـدة دويلات، وبدأت المعارك والفتن تنشب بين أقوامها على نطاق واسع. وجاءت القوات التركية لتضيف الى الفوضى وقوداً جديداً ، كما أرسل الألمان قواتهم الى المنطقة ، وكذلك أرسل الانكليز قواتهم اليها عن طريق ايران . وقـد احتل الانكليز باكو في تموز ١٩١٨ غير أن الاتراك أخرجوهم منهـا في منتصف ايلول .

ظلت المنطقة في فوضى مدة غير قصيرة بعد انتهاء الحـرب ، ولـكن الاتراك على أي حال نجحوا في استعادة الأراضي التي كانوا قـد خسروها في حرب ١٩١٤ ، وحرب ١٨٧٧ أيضاً . فكان ذلك الفتح الوحيـد الـذي حصلت عليه الدولة العثمانية من دخولها الحرب . يقول المؤرخ الامريكي ييل : ان أنور باشا نال هدفه في منطقة قفقاسيا ولكن هذا الربح كلفه ثمناً باهضاً اذ هو خسر مقابل ذلك البلاد العربية على نحو ما تنبأ به القائـد الألماني فون ساندرز . (٣٩)

الثـورة العربيـة :

في يوم ١٠ حزيران ١٩١٦ م ـــ الموافق ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ ـــ أعلن شريف مكة الحسين بن علي الثورة على الاتراك بالاتفاق مع الانكليز على

---

(38) William Yale (op. cit) — p. 245.

(39) Ibid, p. 247.

شروط تعهدوا له بها • وقد جهزه الانكليز بالذهب الكثير وبعض المدافع والاسلحة •

كان لدى الاتراك في الحجاز زهاء اثنى عشر ألف جندي موزعين في مكة والطائف وجدة والمدينة وغيرها • أما الشريف فلم يكن لديه جيش نظامي بل اعتمد في ثورته في أول الأمر على قبائل البدو حيث أغدق عليهم الذهب الذي أمده به الانكليز ، وقد انضم البدو الى الثورة يحدوهم الذهب المدفوع من جهة ، والأمل بالغنائم الوفيرة من الجهة الاخرى — كما هو ديدن البدو في أكثر الاحيان •

أول حامية تركية استسلمت للثورة العربية هي حامية جدة ، وذلك في ١٦ حزيران — أي بعد ستة أيام من اعلان الثورة — وقد ساعد الاسطول البريطاني في ذلك حيث قصف ثكنات الحامية قصفاً متواصلاً لمدة ثلاثة أيام • وقد استفاد العرب من المدافع التي غنموها في جدة فنقلوها الى مكة ، كما وصلتهم من مصر مدافع أخرى مع ثلاثة آلاف بندقية وعدد من الجنود والضباط المصريين بقيادة ضابط كبير اسمه سيد علي بك • وفي ٩ تموز تم الاستيلاء على قلعتي « جياد » و « جرول » في مكه • وفي ٢٢ ايلول استسلمت حامية الطائف •

انضم الى الثورة ضابط بريطاني اسمه لورنس ، وكان هذا الضابط ذا شخصية فريدة يتقن العربية فتغلغل بين البدو واستطاع أن يجعل منهم قوة لا يستهان بها في ارباك الاتراك وتدمير سككهم الحديدية وطرق مواصلاتهم •

وفي ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ تم الاستيلاء على بلدة « الوجه » الواقعة على البحر الاحمر على بعد مائتي ميل من ينبع شمالاً ، وقد قام بالاستيلاء عليها أربعمائة بدوي يقودهم ضابطان بريطانيان حيث نقلتهم الى هناك سفينة بريطانية • وقد رافق الاستيلاء نهب وتخريب وتقتيل بشكل فظيع جداً(٤٠) على عادة البدو عندما يفتحون بلدة •

---

(40) Richard Aldington (Lawrence of Arabia) — London 1958 p. 167 — 168.

وحين وصل لورنس الى البلدة في اليوم التالي تألم مما شاهده فيها من المناظر البشعة ، وقد وصف ذلك في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » حيث قال : ان ما شاهده فيها من تدمير وتقتيل كان بمثابة تصرف فاجر لا يليق ، فالبدو كانوا قد وجدوا البلدة مليئة بالغنائم فكنسوها وسلبوا المتاجر وحطموا الابواب وفتشوا كل غرفة وكسروا الصناديق والخزائن ومزقوا الستائر والفرش والوسائد مفتشين عن الكنوز الخبيئة ، بينما كانت مدافع الاسطول تفتح بقنابلها الثغرات في جدران كل منزل • ويقول لورنس : ان الضابط البريطاني الذي أدار المعركة كان مرتاحاً مسروراً ، ولكن لورنس لم يشاركه في سروره ، ففي رأيه ان بلدة الوجه كان من الممكن فتحها عن طريق ضرب الحصار عليها بضعة أيام ، ولهذا فان التدمير الذي جرى فيها كان غير ضروري • ويضيف لورنس الى ذلك قائلا ما نصه : « ثم أخذ سكان البلدة الغاضبون علينا ينتقمون منا فيسرقون كل شيء تقع عليه أيديهم ويمزقون أكياس الرز ويغترفون منها ويفرون • لذلك اضطر فيصل الى تعيين مولود مخلص القاسي حاكماً للبلدة • وقد استحضر هذا خيالته واستطاع خلال يوم واحد أن يلقي بعدد كبير في السجون » • (٤١)

وعلى أي حال فقد كان احتلال بلدة الوجه بمثابة البداية لصفحة جديدة في تاريخ الثورة العربية • فان الغنائم الوفيرة التي حصل عليها البدو لفتت أنظار القبائل المجاورة وجعلتها تنجذب الى الثورة انجذاباً قوياً • فتلك كانت أول معركة يظفر البدو فيها بالغنائم على طريقة « الفرهود » ، وهذا أمر يشتهيه البدو من أعماق قلوبهم ويتفاخرون به اذ هو محور مهم من محاور تراثهم الاجتماعي •

في ٥ نيسان ١٩١٧ انضم الى الثورة العربية رجل يعد نموذجاً للشخصية البدوية هو الشيخ عودة أبو تايه • انه كان رئيس عشيرة الحويطات التي تسكن بالقرب من العقبة ، وكان أشهر رجل في تلك الانحاء ، ومضرب المثل في الشجاعة والكرم ، والمعروف عنه أنه شمل بغزواته مساحة واسعة من البادية تمتد بين مكة والبصرة وحلب ، ولكنه كان على كثرة الغنائم

---

(٤١) لورنس (اعمدة الحكمة السبعة) ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ١٢٣-١٢٤ •

التي غنمها في غزواته تلك لا يملك شيئاً لأنه أنفقها كلها على ضيوفه والقاصدين له ، وكانت جفنته التي يقدم الطعام بها لضيوفه تسع ما يكفي لخمسة وعشرين رجلاً في آن واحد . والمعروف عنه كذلك أنه قتل بيده خمسة وسبعين رجلاً من العرب ، أما قتلاه من الاتراك فلا حصر لهم لأنهم لا يستحقون العد في نظره .(٤٢)

كان انضمام الشيخ عودة أبو تايه الى الثورة كسباً كبيراً لها ، وقد فرح بذلك الامير فيصل بن الحسين فرحاً لا مزيد عليه ، كما فرح به لورنس . وقد جمع الشيخ عودة من عشيرته خمسمائة رجل فهاجم بهم قوة تركية كانت معسكرة قريباً من العقبة ، وكانت تلك أول مرة في تاريخ الثورة يقوم بها البدو بالهجوم المباشر على قوة نظامية جيدة التسليح. وقد أدار عودة المعركة بشجاعة فائقة اعتمد فيها على المباغتة ، وانتصر فيها انتصاراً ساحقاً . ولم يترك عودة لرجاله وقتاً يرتاحون فيه عقب المعركة بل حثهم حثاً شديداً باتجاه العقبة . وفي ٦ تموز دخلوا العقبة وهم في غاية الجوع والعطش والتعب ولكنهم كانوا يسوقون أمامهم قطيعاً من الاسرى الاتراك يفوقونهم عدداً .(٤٣)

يعتبر احتلال العقبة نقطة تحول كبرى في تاريخ الثورة العربية . ومما زاد في أهميتها ان بريطانيا بدأت حينذاك تولي اهتماماً فوق العادة للجبهة الفلسطينية ، فعينت الجنرال اللنبي قائداً لها ، وقد وصل هذا القائد الى مركز قيادته في القاهرة قبل أيام معدودة من احتلال العقبة .

كان لورنس قد غادر العقبة عقب احتلالها برفقة ثمانية رجال من عشيرة الحويطات ، وكان يلبس الملابس البدوية مثلهم ، فوصلوا بعد مسيرة شاقة على الاباعر الى الاسماعيلية . فترك لورنس اصحابه هناك وسافر هو بالقطار الى القاهرة ، ثم دخل على اللنبي وهو بزيه البدوي حافياً ، وصار يتحدث اليه عن احتلال العقبة وأهميتها لحركات الجيش

---

(42) Lowell Thomas (With Lawrence in Arabia) — London p. 105 — 107.

(٤٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ٣٢٣ .

الانكليزي في الجبهة الفلسطينية . وقد قرر اللنبي على أثر هذه المحادثة مع لورنس دعم القوات العربية بكل الوسائل الممكنة لتكون الجناح الايمن لجيشه في حركاته المقبلة .

عاد لورنس الى العقبة بعد أن زودته القيادة الانكليزية بسلطة واسعة وذهب كثير ، كما رفعت رتبته العسكرية من كابتن الى كولونيل ــ أي من نقيب الى عقيد . وصار لورنس يخرج بالتعاون مع الشريف ناصر والشيخ عودة أبو تايه لشن الغارات على خطوط مواصلات الاتراك وقطاراتهم فأنزل بهم ضربات مريعة . (٤٤) وأدرك الاتراك خطورة لورنس عليهم فأعلنوا جائزة قدرها خمسون ألف ليرة ذهب لمن يأتي به حياً أو ميتاً . (٤٥)

وفي شهر تشرين الثاني ١٩١٧ وقع لورنس في قبضة الاتراك ولكنه فلت منهم بأعجوبة . وخلاصة القصة أنه ذهب الى بلدة درعا بزي بدوي بغية التجسس ، فلمحه هاشم بك حاكم درعا ، وكان هذا الحاكم لوطياً يحب الغلمان ، ومما يجدر ذكره أن لورنس كان ذا وجه صبياني يبدو أصغر من سنه الحقيقية . (٤٦) فاشتهاه الحاكم وطلب من أحد الجنود أن يأتي به اليه . ويقص لورنس في كتابه كيف حاول هاشم بك اللواط به عن طريق الاغراء تارة وعن طريق القسر تارة أخرى ، ويدعي لورنس أنه استطاع أن يتحمل العذاب بصبر وقاوم محاولات هاشم بعناد ، ثم تمكن من الهرب أخيراً . (٤٧) وتشير بعض القرائن الى ان هذا الادعاء من لورنس لا يخلو من مبالغة أو هو غير صحيح . هنالك رسالة بعث بها لورنس الى زوجة برنارد شو اعترف فيها بأنه لم يستطع احتمال العذاب وأنه استسلم في النهاية لشهوة هاشم بك . (٤٨) ويقال ان عقدة نفسية شديدة سيطرت على لورنس من جراء تلك الفعلة الشنعاء التي فعلها به هاشم بك وظلت هذه

---

(٤٤) المصدر السابق ــ ص ٣٢٥ .

(45) Lowell Thomas (op. cit.) — p. 76.

(46) Richard Aldington (op. cit) — p. 200.

(٤٧) لورنس (المصدر السابق) ــ ص ٣١٥ ــ ٣١٨ .

(48) Richard Aldington (op. cit) — p. 200 — 201.

العقدة تلازمه طيلة حياته .

ومن مفارقات القدر ان الجنرال اللنبي كان مشغولاً باعداد هجومه على فلسطين في نفس الوقت الذي كان فيه هاشم بك مشغولاً بلواط لورنس . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ استطاع اللنبي أن يحتل غزة . وفي ١١ كانون الاول فتح القدس . ويقال ان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية كان قبل ذلك قد أبدى رغبته للجنرال اللنبي في أن يكون فتح القدس هدية للامة البريطانية بمناسبة عيد الميلاد . (٤٩) وقد حقق اللنبي رغبة رئيس الوزراء . !

حشد الاتراك جيوشاً ثلاثة تجاه الجيش الانكليزي الذي كانت القوات العربية تمثل جناحه الأيمن . وفي ١٩ ايلول ١٩١٨ بدأ اللنبي بشن هجومه الكبير على تلك الجيوش ، وفي خلال ثلاثة أيام استطاع بخطة بارعة كل البراعة أن ينزل بالجيوش التركية ضربات ماحقة مزقتها تمزيقاً . وأخذ الجيش الانكليزي يتسابق مع القوات العربية للوصول الى دمشق. وفي صباح ١ تشرين الاول دخلت الخيالة الاسترالية الى دمشق من جانب ، والقوات العربية من جانب آخر . وقد استقبل الاهالي القوات العربية بحماس منقطع النظير ...

الضباط العراقيون والثورة :

التحق بالثورة العربية في الحجاز عدد كبير من الضباط العرب ، وكان معظمهم من العراقيين وهم الذين تولوا المناصب العالية في العراق بعد الحرب عندما تأسست الحكومة العراقية كما هو معروف .

أول ضابط عراقي التحق بالثورة هو شريف أفندي الفاروقي ، وهو من آل العمري في الموصل . وكان هذا الضابط يقاتل في صفوف الجيش التركي في معارك الدردنيل ، واستطاع أن يهرب الى الانكليز فنقلوه الى القاهرة ، وهناك أطلعه الانكليز على المفاوضات التي كانت تجرى بينهم وبين الشريف الحسين قبل اعلانه الثورة ، فكتب هو في ٦ كانون الاول

(٤٩) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٩٠ .

١٩١٥ كتاباً الى الشريف يضع نفسه في خدمته ويقول : « نحن رجال ليس لنا ارب سوى الاستقلال ونحن مستعدون لتضحية كلما يلزم لهذا الاستقلال لان منافع الطرفين متحدة كل الاتحاد . ونحن نرى الموت حياة في سبيلنا ولنا ثقة بأنفسنا واعتماد على بريطانيا العظمى التي جاهرت بعون العرب والتي تحب أن تصاحب العرب أصحاب السيادة في العالم الاسلامي وتعينهم على استقلالهم لاتحاد المصلحتين ... » فأجابه الشريف يشكره على هذا الكتاب ، ثم عينه ممثلا له في القاهرة . (٥٠)

أما الضابط العراقي الثاني الذي التحق بالثورة فهو نوري السعيد ، وكان قد هرب من الاتراك قبل اندلاع الحرب والتجأ الى السيد طالب النقيب في البصرة ، ولما احتل الانكليز البصرة اعتقلوه ونقلوه الى الهند . وعندما نشبت الثورة العربية طلب منهم التطوع فيها فنقلوه الى مصر ...

كان في الهند معتقل للاسرى اسمه « سمربور » يقع على بعد مائة كيلو متر من بومبي ، وكان فيه في وقت نشوب الثورة العربية زهاء ٣٠٠ ضابط عربي و ٤٠٠٠ جندي ، وكان معظمهم عراقيين من الذين أسرهم الانكليز في معارك العراق . ولم يكن هؤلاء يعلمون بخبر الثورة عند نشوبها ، الا قليل منهم كان قد أخبرهم بها السيد حسين أفنان الذي كان يعمل هناك مترجماً في خدمة الانكليز .

وفي منتصف حزيران ١٩١٦ اختار الانكليز من بين الأسرى ١٠ ضباط و ١٥٠ جنديا ، من المختصين بالمدفعية ، بحجة أنهم سينقلونهم الى العراق لمبادلتهم بأسرى من الانكليز . ونقلوهم الى بومبي بالقطار ومن هناك أبحروا بهم في باخرة متجهة الى السويس في مصر . وقد وصلت الباخرة الى السويس في أواسط تموز ، ولم تكد الباخرة تصل الى رصيف الميناء حتى صعد اليها ضابط انكليزي ومعه نوري السعيد ، فأخذ نوري يكلم الأسرى قائلا : ان الشريف حسين قد قام بالثورة ، وليس هنا مجال المناقشة حول الثورة : هل هي صحيحة أم لا ، ولكن دعنا نناقش الامر من ناحية

---

(٥٠) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) — بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ٢١٩ — ٢٣٣ .

أخرى : هل من الواجب علينا نحن ذوي المبادىء القومية من عراقيين وسوريين أن تنضم اليها أم لا ، فنحن لو رفضنا الانضمام اليها لجاء الانكليز بضباط من مستعمراتهم هنود ومصريين ، وجاء الفرنسيون بضباط تونسيين او جزائرين أو مغاربة ، وبهذا تكون الثورة تحت قيادة ضباط من المستعمرين بدلاً من ان تكون تحت قيادتنا نحن ذوي المبادىء القومية حيث نوجهها عندئذٍ كما نرغب ونشتهي • (٥١)

عند سماعهم لهذا الكلام انقسموا الى فريقين ، حيث امتنع عن الالتحاق بالثورة منهم أربعة ضباط وخمسة عشر جندياً ، فسيقوا الى معتقل للاسرى قرب القاهرة • أما الباقون فقد استجابوا للثورة ، وكان فيهم الضباط التالية أسماؤهم : رشيد المدفعي ، سعيد المدفعي ، محمد حلمي الحاج ذياب ، راسم سردست ، داود صبري ، ابراهيم الراوي • وكانوا كلهم برتبة ملازم ثاني ما عدا الاول منهم اذ كان برتبة «يوزباشي» أي نقيب • وقد نقل هؤلاء الضباط مع جنودهم الى القاهرة فمكثوا فيها أسبوعاً واحداً، ثم غادروها بالقطار الى السويس حيث ركبوا منها باخرة متجهة الى جدة ، وكان معهم نوري السعيد ، فوصلوا جدة في ٢ آب ١٩١٦ •

ومما يلفت النظر أنهم عند اختلاطهم بأهل جدة وجدوا الرأي العام فيها معارضاً للثورة ناقماً عليها ، اذ كان يعتبر الثورة كأنها خروج على الاسلام وحلف مع الكفار • وقد وجدوا كذلك الجنود الاتراك الذين استسلموا للثورة في جدة مطلقي السراح يعيشون في البلدة كما يشاؤون ويخالطون سكانها ، وكان لهؤلاء الجنود أثرهم في توجيه الرأي العام في جدة • ولما خالطهم الجنود العراقيون الذين جيء بهم من الهند تأثروا بهم وندموا على التحاقهم بالثورة • فقد كان الجنود الاتراك يقولون لهم : « كيف ولماذا يا أخي المسلم تحارب أخاك المسلم جنباً لجنب مع الانكليز الكفار ؟ ! » •

أصدر الشريف حسين أمره تلفونياً من مكة بتعيين نوري السعيد وكيلاً للقائد العام لقوات الثورة • وقد أدرك نوري السعيد خطورة

---

(٥١) ابراهيم الراوي (ذكريات) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٢٢ •

الجنود الاتراك الموجودين في جدة فأمر بجمعهم وايداعهم في معتقل خاص بهم وتشديد الحراسة عليهم ، لكي يمنع تأثيرهم على الرأي العام في جدة وعلى الجنود العراقيين فيها .

يبدو أن هذا الاجراء الذي قام به نوري السعيد قد جاء بعد فوات الأوان ، فقد ظل الجنود العراقيون متأثرين بما أوحى به اليهم الجنود الاتراك ، وأعلنوا رفضهم للانضمام الى الثورة ، وصاروا يهتفون بالهتاف التركي الذي تعلموه في سلك الجندية : « باديشا هم جوق يشا ! » .

حاول نوري السعيد اقناعهم فلم يؤثر فيهم شيئاً ، وأصروا على العودة الى معتقل الهند الذي أتوا منه . واتصل نوري بالشريف في مكة تلفونياً يخبره بجلية الأمر ، فكان جواب الشريف : « يا ابني نحن اللي ما يبغانا ما نبغاه » ــ أي أن الذي لا يرغب فينا لا نرغب فيه . وعرض الشريف عليهم أن يأتوا الى مكة ما داموا قريبين منها فيؤدوا العمرة فيها ثم يعودون ليذهبوا الى المحل الذي يريدون . وقد ذهب الجنود الى مكة فعلاً فاعتمروا فيها ثم عادوا الى جدة ومنها نقلوا الى حياة الاسر من جديد .

لم يبق من الجنود من ظل مع الثورة سوى ستة فقط ، فساروا مع ضباطهم الى مكة ، وقد جرى لهم هناك استقبال رسمي شارك فيه الموظفون وأعيان مكة . يقول ابراهيم في مذكراته ، وهو من جملة الضباط الذين وصلوا الى مكة مع الجنود الستة : انه وجد الرأي العام في مكة على منوال ما وجده في جدة اذ أن الكثير من سكانها ــ ولا سيما غير العرب منهم ــ كانوا ساخطين على الشريف حسين لتحالفه مع الانكليز والفرنسين ومحاربته الاتراك . وقد عتب الراوي في مذكراته على أهل مكة وأخذ يناقشهم ويحتج عليهم حيث وصف تقاعسهم الحالي عن نصرة الشريف حسين بمثل تقاعسهم القديم عن نصرة الرسول وعن نصرة ابن بنته الحسين ... (٥٢)

جاءت الى الحجاز بعد ذلك دفعة أخرى من الضباط كان من بينهم : علي جودت الايوبي ، عبداللطيف نوري ، عبدالحميد الشالجي ، مولود مخلص ، جميل المدفعي ، عبدالكريم شاه ، حامد الوادي ، رشيد خماس ،

---

(٥٢) المصدر السابق ــ ص ٨٤ .

عبدالله الدليمي ، رشيد الانكورلي ، جميل الراوي ، شاكر الشيخلي ، برقي العسكري ، جمال علي .

حاول الانكليز اقناع بقية الأسرى في سمربور على الالتحاق بالثورة فلم يوفقوا ، وكان رأي بعض الأسرى : « ان هذه بئر لا يعرف قرارها فكيف نرمي أنفسنا بها » ، وقال آخرون منهم : « ان الانكليز كفار وأعداء الدين الاسلامي ... ودستورهم العملي هو أن الغاية تبرر الواسطة » .(٥٣)

وفي أواخر تشرين الثاني ١٩١٦ نقل الانكليز عدداً كبيراً من الأسرى من سمربور الى بومبي بالقطار على غير رغبة منهم ، ثم أركبوهم باخرة توجهت بهم الى ميناء رابغ في الحجاز . وقد اعترض الاسرى واحتجوا وقاوموا دون جدوى . وفي رابغ خرج اليهم رجل يخطب فيهم ليحرضهم على الالتحاق بالثورة ، ثم قابلهم الامير علي محاولاً اقناعهم وشرح لهم القضية العربية ، كما حاول اقناعهم بعض الضباط الذين التحقوا بالثورة من قبل ، ولكن الاسرى أصروا على الامتناع وعاندوا عناداً شديداً ، ولم يرضخ منهم سوى ضابطين وبضعة وعشرين جندياً .

اضطر الانكليز أخيراً الى نقل الأسرى الرافضين الى مصر ، فأودع الضباط منهم في معتقل أقيم على ساحل البحر الابيض المتوسط الى الشرق من الاسكندرية في موضع يقال له « سيدى بشر » وهو الآن جزء من الاسكندرية . أما الجنود فأودعوا في معتقل جنوب القاهرة في موضع يقال له « المعادي » ، ثم اعيدوا الى الهند بعدئذٍ .

كان في مصر يومذاك ضابط عراقي أسير برتبة « بكباشي » أي مقدم ، اسمه جعفر العسكري ، وقد قرر هذا الضابط الالتحاق بالثورة ، فأرسله الانكليز الى معتقل « سيدي بشر » في محاولة اخيرة لاقناع الضباط الرافضين ، فقابل كبيرهم وكان في مثل رتبته اسمه علي غالب ، فأجابه هذا قائلا : انه وجميع الضباط لا يريدون الالتحاق بالثورة فلا فائدة من الكلام معهم أصلا .(٥٤)

---

(٥٣) محمد رؤوف الشيخلي (مراحل الحياة) ــ بصرة ١٩٧٢ ــ ج ٢ ص٣٨٧.
(٥٤) المصدر السابق ــ ج ٢ ص ٤٠٩ .

وفي ١١ كانون الاول ١٩١٦ أرسل جعفر العسكري رسالة الى الشريف حسين يطلب منه قبوله في صفوف الثورة ، ولكن الشريف رفض قبوله بأدب قائلا في جوابه : « ان جيشنا غير مستعد لقائد شهير مثلك ... » (٥٥) والمظنون أن سبب هذا الرفض هو ان الشريف كان حذراً من الضباط الكبار اذ كان يخشى أن يقوموا بانقلاب عليه فيما بعد كما فعلوا مع السلطان عبدالحميد .

وعلى أي حال فقد قرر الامير فيصل الاستفادة من كفاءة جعفر العسكري فاستدعاه اليه على مسؤوليته الخاصة . وقد وصل جعفر الى الحجاز في حزيران ١٩١٧ فأنيطت به مهمة تكوين جيش نظامي مدرب على الاسلحة الحديثة وقد نجح جعفر في ذلك . يقول لورنس . ان التحاق جعفر العسكري بالثورة كان بمثابة نجدة ضخمة لها . (٥٦)

فخري باشا :

كان فخري باشا (٥٧) قائداً لحامية المدينة عند نشوب الثورة العربية في الحجاز ، وكان يحمل للثورة بغضاً شديداً ويعدها خدمة للكفار وتآمراً على الاسلام . انه كان بكتاشي العقيدة شديد التمسك بعثمانيته ، وقد اعتاد أثناء الثورة أن يرتقي منبر الحرم النبوي فيسب العرب ويسب الشريف حسين وجميع الاشراف .

انه ظل يقاوم الثورة ولم يستسلم لها كما استسلم لها القواد الاتراك في جدة ومكة والطائف . والغريب أنه ظل مصراً على عدم الاستسلام للثورة حتى بعد عقد الهدنة بين تركيا والحلفاء في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ، وقد تجاهل الاوامر الصادرة اليه من اسطنبول في وجوب الاستسلام ، ومنع من أن يعلم بها أحد من ضباط الحامية وجنودها ، واستمر على المقاومة .

أرسل المندوب السامي في مصر السر ريجنالد وينجيت كتاباً الى

---

(٥٥) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ٢ ص ١٥٧ .
(٥٦) لورنس (المصدر السابق) — ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(٥٧) المظنون انه هو نفسه الذي تولى ولاية البصرة وكالة في عام ١٩٠٤ وأطلق عليه البصريون لقب «ابو الكواني» لصرامته في مطاردة اللصوص.

فخري باشا يقول فيه : « ان الاتراك قد هزموا ، وأن الشام قد احتلت. وان مسؤولية الدماء بعد الآن ستقع عليك شخصياً ان لم تسلّم » . فأجابه فخري باشا ما نصه : « الى جناب الجنرال ريجنالد وينجيت بمصر : أنا عثماني ، أنا محمدي ، أنا ابن بالي بك ، وأنا جندي ، وأرخ » . (٥٨)

كان يحيط بالمدينة جيشان عربيان أحدهما بقيادة الأمير علي والآخر بقيادة الامير عبدالله ، وقد حاول هذان الجيشان القيام بنشاطات هجومية على المدينة دون جدوى ، وكتب الشريف حسين في ٢٢ كانون الاول ١٩١٨ الى المندوب السامي بمصر يقول فيه : انه مضطرب جداً ومسلوب الراحة تماماً حتى أنه لا يجد مناصاً من أن يعتزل منصبه ويتخلى عن مسؤولياته. (٥٩)

أرسلت اسطنبول بايعاز من الانكليز ضابطاً تركياً مزوداً بأمر يؤكد فيه على فخري باشا أن يستسلم والا فانه سيعاقب عسكرياً . وقد وصل الضابط الى معسكر الأمير علي فأرسله الأمير الى المدينة برفقة ابراهيم الراوي وجنديين . وقابل الضابط وفداً مرسلاً من قبل فخري باشا ، واتفق مع الوفد على شروط الاستسلام . ولما عاد الوفد الى فخري باشا بالشروط التي تم الاتفاق عليها رفضها فخري باشا ثم اعتكف في الحجرة النبوية وهدد باشعال النار في الاعتدة التي كانت مخزونة في المسجد النبوي.

ضاق ضباط الحامية ذرعاً بعناد رئيسهم فخري باشا ، وفي صباح ١٠ كانون الثاني ١٩١٩ اضطروا الى الدخول عليه في الحجرة النبوية وأمسكوا به يرجونه أن يركب السيارة التي أعدوها له في باب المسجد . فركب فخري باشا السيارة مرغماً ، وسارت السيارة به متجهة نحو المعسكر العربي . وكان في استقباله في الطريق ابراهيم الراوي وعبدالله المضايفي وعدد من الخيالة . فلما أدى هؤلاء له التحية العسكرية لم يردها عليهم لشدة تأثره . انه كان غاضباً من ضباطه الذين يعملون تحت امرته وأرغموه على عمل مخالف لرغبته . (٦٠)

---

(٥٨) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ــ القدس ١٩٤٥ ــ ص ١٤٤ .
(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٠ .
(٦٠) ابراهيم الراوي (المصدر السابق) ــ ص ١٢٨ .

وصل فخري باشا بالسيارة الى مقر الأمير عبدالله • ويقول الأمير في مذكراته : ان فخري باشا حياه عند وصوله تحية الدراويش بأن رفع يده الى صدره ثم جلس بعدئذٍ جلسة المقيت الغضيب ، وقد بادره الأمير عبدالله بالكلام قائلاً : اننا عرفناك شجاعاً في الحرب وأثناء الحصار واننا ليسرنا أن نراك صبوراً على هذه المصيبة مصيبة الاسر • ففرك فخري باشا يده وقال ما معناه : انه لا يعارض تشكيل دولة عربية • فقال له الامير عبدالله : « لقد عارضت وانتهت المعارضة » •

ثم التفت فخري باشا الى ابراهيم الراوي يسأله : « هل كنت معنا ؟ » أي هل كنت ضابطاً في الجيش العثماني ، وكأنه كان يعاتبه على انضمامه الى الثورة العربية • فأجابه الراوي : « كنت معكم الى أن اعلن صاحب الجلالة استقلال البلاد العربية فالتحقت بأمتي » •[61]

خرج فخري باشا بعدئذٍ مع الأمير عبدالله فركبا السيارة ، وأخذ الأمير يتبسط معه بالحديث بلباقته المعهودة، وقدم له فخري باشا ناظوره العسكري هدية له ، فأهداه الأمير عبدالله مقابل ذلك ساعة مذهبة ذات غطاء مغلف بالميناء الازرق وقد كتب على أحد وجهيها هذان البيتان :

لي خمسة أطفي بهم ‎ ‎ حر الجحيم الحاطمة
المصطفى والمرتضى ‎ ‎ وابناهما وفاطمة

وقد فرح فخري باشا بهذه الهدية غاية الفرح[62] ، والظاهر ان هذا البيت المكتوب على الساعة أثار عواطفه البكتاشية ومس أوتار قلبه ، ذلك لأن البكتاشيين يقدسون الخمسة « أهل العبا » تقديساً مفرطاً وقد جعلوا شعارهم كفاً مفتوحة اذ يرمزون أصابعها الخمسة الى اولئك الخمسة •

وعند وصول فخري باشا الى المعسكر العربي وجد سرية نظامية من راكبي البغال عددهم ٢٥٠ جندياً وهم مصطفون لاداء التحية العسكرية له ، فزرر فخري باشا معطفه ورد التحية عليهم بمثلها وقال بالتركية : «هرشي أولمش بتمش » أي كل شيء وقع وانتهى • ثم التقى بعدئذٍ بالأمير علي

---

(٦١) المصدر السابق ــ ص ١٤٨ •
(٦٢) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ــ ص ١٤٩ •

وكان لقاؤهما مزيجاً من العتب والعداء والشيء الظاهر من البرود .[٦٣]
وبعد شرب القهوة ذهبوا به الى خيمة أعدت له خاصة وكانت خيمة كبيرة من ذوات الاربعمائة رطل تكريماً له .[٦٤] وسأله الأمير عبدالله : « هل يأمر الباشا أن نحضر اليه من يحب من الضباط الذين كان يألفهم » فأجاب فخري باشا : « اترك هؤلاء الخائنين ، لا أريد أحداً منهم » . وفي اليوم الثاني سافر فخري باشا بسيارته الى ينبع ومن هناك نقل بطرادة خاصة الى المعتقل بمصر .[٦٥]

وفي اليوم نفسه ذهب الأمير عبدالله الى المدينة مع حاشية صغيرة ، ثم توجه بصحبة ابراهيم الراوي ومحمد حلمي الى مطعم الضباط التركي ، وهناك وجّه الامير الى الضباط هذا السؤال : « كيف كنتم تحاربوننا وأنتم تدعون لنا في الاوقات الخمسة بالصلاة بقولكم : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، من هم آل محمد ؟ ألسنا نحنُ ؟ » ، فأخذ الضباط الاتراك ينظر بعضهم الى بعض ويبتسمون .[٦٦]

ان هذه المحاورة على قصرها تعطينا صورة واضحة عن اختلاف وجهة النظر بين العرب والاتراك أثناء الثورة ، فالاتراك كانوا يعتقدون ان الحق معهم لانهم يمثلون الخلافة الاسلامية ، وأن العرب عصاة مارقون ، بينما كان العرب يعتقدون أنهم أولى بالاسلام وبالحق من الاتراك — وكل حزب بما لديهم فرحون !

---

(٦٣) المصدر السابق — ص ١٥١ .
(٦٤) ابراهيم الراوي (المصدر السابق) — ص ١٢٩ .
(٦٥) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) — ص ١٥١ .
(٦٦) ابراهيم الراوي (المصدر السابق) — ص ١٣٠ .

الفصل الثالث

احوال العراق اثناء الحرب

(نظرة عامة)

في صباح ٣ آب من عام ١٩١٤ فوجيء العراقيون بالطبول تدق على غير العادة وشاهدوا على الجدران اعلانات رسم فيها صورة مدفع وبندقية وقد كتب تحتها عبارة تركية : « سفر برلك وار ــ عسكر اولانلر سلاح باشنه » ، ومعناها : ان النفير العام قد أعلن وعلى الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد بأسلحتهم •

كان القصد من هذا الاعلان البدء بالتعبئة العامة دون الاشتراك في الحرب ، اذ ان تركيا لم تدخل الحرب الا بعد ثلاثة أشهر كما ذكرناه في الفصل الاول • ولكن العامة في العراق لم يفهموا ذلك ولم يميزوا بين اعلان النفير والدخول في الحرب ، فساد الوجوم على الكثير منهم واعتبروا الامر من قبيل البلاء أنزله الله عليهم كما ينزل الطاعون عقاباً لهم على ذنوبهم •

كتب محمد رؤوف الشيخلي في مذكراته ، وكان يومذاك ضابطاً في بلدة الحي ، يقول : ان العامة فسروا عبارة « سفر برلك وار » بأنها تعني السفر الى بلدة « وان » في الاناضول ، فهم جعلوا الراء في « وار » نوناً • ولم يقتصر هذا الخطأ على العراق وحده بل ان العامة في الاناضول أيضاً قرأوا العبارة بانها تعني السفر الى وان • [1]

وقد ساعد على شيوع هذا الخطأ بين العامة اهتمام الحكومة بتحشيد جيوشها في جبهة قفقاسيا اذ هي أهملت أمر الدفاع عن العراق وركزت جهودها في تلك الجبهة النائية • وقد أشرنا سابقا الى السر الذي يكمن وراء هذا العمل حيث أن المسؤولين عن ادارة الحرب في تركيا ــ وعلى

---

(١) محمد رؤوف الشيخلي (مراحل الحياة) ــ البصرة ١٩٧٢ ــ ج ٢ ص ٣٢١ •

رأسهم وزير الحربية أنور باشا ـ كانوا يفكرون بالهجوم اكثر من تفكيرهم بالدفاع وهم انما ادخلوا الدولة في الحرب من أجل توسيع رقعتها لا من أجل الدفاع عنها •

الاخطاء المتقابلة :

لم يكن في العراق عند اعلان النفير العام سوى أربع فرق عسكرية وكان مقرها في الموصل وكركوك وبغداد والبصرة • وقد أوعزت القيادة العليا الى الفرقتين اللتين هما في الموصل وكركوك بالسفر الى بلاد الشام للمشاركة في حملة سيناء ، كما أوعزت الى الفرقة التي في بغداد بالسفر الى جبهة قفقاسيا • وكادت القيادة توعز الى الفرقة التي هي في البصرة بالسفر الى قفقاسيا أيضاً لولا ممانعة الوالي جاويد باشا •

يبدو ان القيادة العليا كانت تعتبر العراق من المناطق الحربية الثانوية، وقد بنت خطة الدفاع عنه على المتطوعين والعشائر ووحدات الدرك والحدود• وفي ٨ آب ١٩١٤ وصلت من اسطنبول برقية سرية الى بغداد تسأل عن امكانية تأليف قوة من العشائر لتوجيهها الى المحميات الانكليزية من أجل اثارة الناس فيها ،(٢) وهذا يدل على ان القيادة العليا لم تكتف باهمال أمر الدفاع عن العراق بل كانت تحلم أن تجعله قاعدة هجومية ضد الانكليز ، وكانت تظن ان العشائر في العراق قادرة على القيام بهذه المهمة •

وعلى أي حال فقد كانت القوات الموجودة في العراق عند اعلان الحرب في حالة مزرية • يقول شكري محمود نديم في كتابه « حرب العراق » ما نصه : « وقد كانت القوات التركية الموجودة في العراق بالاضافة الى قلتها ناقصة التدريب والعدة والعدد ، ولم تكن هناك أية خطط موضوعة لادامتها في الحرب ، وكانت اجراءات النفير ناقصة ونسبة الهروب عالية جداً • ولم تدرس القيادة التركية قضية الدفاع عن العراق ولم تعد ما يلزم لها من تحصينات وأسلحة دفاعية ولم تجر أية مناورات أو جولات أركان في العراق الجنوبي • ويبين المقدم الركن التركي مقبل بك في كتابه حرب

---

(٢) طه الهاشمي (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ج ١ ص ٣١ •

العراق أن المقر العام التركي لم تتيسر لديه من خرائط العراق عند نشوب الحرب سوى نسخة واحدة من خريطة للعراق بمقياس (١/٠٠٠ر٥٠٠ر١) ، كما لم تتيسر سفن نهرية حربية سوى الباخرة مرمريس • أما سفن النقل فقد كان عددها قليلا جداً • وقد أدى نقص وسائط النقل ورداءة مستوى التدريب والتجهيز الى عدم حشد الاعداد الكافية في منطقة الخطر ، أي منطقة البصرة ، بالرغم من اطلاع القيادة التركية على وصول قوات بريطانية الى البحرين واحتمال الانزال في العراق ••• » [٣]

سوف نرى في فصول قادمة كيف ان القوات الانكليزية حين غزت العراق لم تجد صعوبة في التغلغل فيه ، والظاهر ان الانكليز فوجئوا بمظاهر الضعف والانهيار السريع الذي شاهدوه في القوات التركية • ففي أربعة وثلاثين يوماً استطاع الانكليز أن يحتلوا منطقة شط العرب كلها بما فيها البصرة ووصلوا القرنة • وقد غرهم ذلك فأخذوا يتمادون في توغلهم في الاراضي العراقية شيئاً فشيئاً • وكلما ازدادت هزائم الاتراك تجاههم ازدادوا هم من جانبهم في التوغل وفي توسيع حركاتهم العسكرية • ولم تنته السنة الاولى من الحرب حتى كانوا على مقربة من بغداد ، وكادوا يحتلونها لولا الخطأ الذي وقعوا فيه من جراء غرورهم واستهانتهم بقوة عدوهم • وكان الاتراك عندئذٍ قد بدأوا يتلافون خطأهم فجاءوا بامدادات كثيرة وأنزلوا بالانكليز ضربةً قاصمة •

كان من سوء حظ العراق أن تقع القيادة البريطانية في أخطاء قد لا تقل في سوء عواقبها عن أخطاء القيادة التركية • الواقع ان الانكليز عندما أرسلوا حملتهم الى مصب شط العراق في البداية لم يكونوا يقصدون فتح العراق كله ، بلَ كان جل مقصدهم حماية حقول النفط في عبادان ، ولهذا كانت الحملة التي أرسلوها صغيرة جداً لا تزيد عن لواء مختلط واحد يبلغ عدده (٤٥٠٠) جندي ، ولو كان الجانب التركي متيقظاً لفشلت حركة الانزال حتماً وانتهت بكارثة • [٤]

---

(٣) شكري محمود نديم (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ١٦ •
(٤) المصدر السابق ــ ص ١٨ •

معنى هذا أن الحملة الانكليزية كانت في بداية أمرها أصغر من ان تستطيع احتلال العراق ، وهي انما اندفعت في التوغل من جراء الانتصارات الاولى التي نالتها تجاه الاتراك • فكانت تلاحق الاتراك بعد كل موقعة ، وكان قائدها يلح على حكومته ، عقب كل نصر يناله ، أن تسمح له بالتقدم نحو بغداد•[٥] ولو أن الانكليز كانوا قد استعدوا منذ البداية استعدادا كافياً لسقطت بغداد في أيديهم خلال السنة الاولى ولربما سقطت الموصل أيضاً بعد مدة قصيرة •

خلاصة الامر أن سلسلة المعارك الطاحنة التي شهدها العراق خلال سنوات الحرب الاربع نشأت من جراء الاخطاء التي وقع فيها الاتراك والانكليز معاً • ولقد كانت أخطاء الاتراك هي السبب المباشر لأخطاء الانكليز ، فالاتراك أهملوا في البداية مقتضيات الدفاع عن العراق مما أغرى الانكليز على التوغل في العراق دون أن تكون لهم القوة الكافية • وكانت عاقبة هذه الاخطاء المتقابلة أن عانى أهل العراق طيلة سنوات الحرب الشيء الكثير من الويلات والكوارث • وقد ينطبق على العراق في تلك الحالة المثل المعروف : «بين حانه ومانه ضاعت لحانا !» •

بلاء التجنيد :

ذكرنا في الفصل الاول كيف أن الجنود الاتراك بدأوا يفرون من صفوف الجيش منذ أواخر عام ١٩١٦ ، وهنا يجب أن نذكر ان الجنود العراقيين سبقوا اولئك بمدة طويلة اذ هم بدأوا يفرون منذ يوم اعلان النفير العام وظلوا كذلك حتى نهاية الحرب • ان الجنود الاتراك قد اعتادوا على توالي الاجيال أن يقاتلوا في سبيل دولتهم وهم موقنون أنهم يجاهدون في سبيل الله • أما العراقيون فقد اعتادوا على معاداة الدولة وهم يعتبرون التجنيد كالضريبة يجب التهرب منه بكل وسيلة تقع في أيديهم •

من طريف ما يروى في هذا الشأن ان كلمة « سفر برلك » التركية

---

(٥) متى عقراوي (العراق الحديث) ـ ترجمة المؤلف ومجيد خدوري ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ص ٣٠ •

التي تعني نفير الحرب تحولت على ألسنة العامة في بغداد الى كلمة أخرى مناقضة لها في المعنى وهي : «سفر علك» أي حرب الهرب ! والواقع ان هذه الكلمة أصبحت طيلة أيام الحرب شعاراً لكل الرجال الذين وقعت عليهم «قرعة» التجنيد . فهم لم يكادوا يسمعون طبول النفير تدق في الشوارع حتى تركوا دكاكينهم وأعمالهم وذهبوا الى بيوتهم يختفون فيها ، وعندما صارت بيوتهم غير كافية لاخفائهم بدأوا يبحثون عن أماكن أخرى للاختفاء فيها ، وقد تنكر الكثير منهم بملابس النساء ، أو التجأوا الى العشائر والجبال .

صار الناس يتعاونون في مساعدة الذين يريدون الفرار وفي تضليل الباحثين عنهم من رجال الحكومة ، وعندما يسمع الناس عن شخص أخبر الحكومة عن أحد الفارين أو تعاون معها في القبض عليه يعدونه جاسوساً ويحتقرونه وينبذونه اجتماعياً .

وأخذت الحكومة تشتد في ملاحقة الفارين بمقدار ما يشتد الفارون في فرارهم . فكان رجال الدرك ــ أي الجندرمة ــ وجنود الانضباط العسكري يتعقبون الفارين في كل مكان ، يطرقون عليهم البيوت ويطاردونهم من فوق السطوح ومن خلال أشجار البساتين ، وحين يعجزون عن القبض على أحد منهم يلقون القبض على أبيه أو أخيه ولا يطلقون سراح أحد منهما الا بعد أن يسلم الفار نفسه . ولعل من المناسب أن أذكر أن والد كاتب هذه السطور كان من جملة الفارين عند اعلان النفير ولم يسلم نفسه الا بعد أن القوا القبض على أبيه الذي كان يومذاك قد تجاوز الثمانين من عمره .

وعندما كثر الفرار من صفوف الجيش أصدر أنور باشا وزير الحربية أمراً باعدام نصف الفارين المقبوض عليهم وسوق النصف الآخر الى ساحة القتال . (٧) وفي أواخر شباط من عام ١٩١٥ جرى في بغداد أول اعدام من هذا القبيل وكان لرجل يهودي اسمه يامين بن يعقوب من محلة قنبر علي .

---

(٦) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٦ ـ ج ٨ ص ٢٥٧ .

(٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ج ١ ص ١٣٤ .

وذكر المؤرخ عباس العزاوي : انه كان من بين الذين شهدوا الاعدام ورأى الجنود المكلفين باطلاق الرصاص على الرجل لم يضربوه في موضع قتال من بدنه وقد عوقبوا على ذلك بالرياضة حتى كادوا يهلكون •(٨) ثم أخذت مشاهد الاعدام تتتابع في بغداد حيناً بعد حين •

لم ينج من بلاء التجنيد سوى الذين كانوا يحملون رعويات أجنبية • وكان الكثير من سكان العتبات المقدسة قد استعدوا لمثل هذا اليوم منذ زمان طويل فحصلوا على الرعوية الايرانية ونجوا ، أما الذين ظلوا متمسكين برعويتهم العثمانية فقد نالهم الويل • أعرف شخصاً من أهل الكاظمية كانت قد عرضت عليه الرعوية الايرانية من قبل فرفضها ، وقد شكرته الحكومة العثمانية على فعله هذا ومنحته «فرماناً» تقديرياً ، وفرح هو بهذا «الفرمان» ، ولم يدر أن ذلك سيكون بلاءً عليه وعلى أولاده في يوم من الايام •

وقد نجا من بلاء التجنيد أبناء الاسر الغنية وأولي النفوذ ، فقد عين هؤلاء بتأثير الوساطة أو الرشوة في وظائف عسكرية بعيدة عن ساحات القتال كمخازن الجيش والمستشفيات وغيرها • أشار كامل الجادرچي في مذكراته الى أن أسرته بذلت جهوداً لتخليصه من دورة ضباط الاحتياط بحجة أن صحته لا تساعده على حمل السلاح ، فأدخل دورة صحية ليتخرج منها جندياً يخدم في المستشفيات،(٩) وقد تم له ذلك فنجا من أخطار الخدمة العسكرية المسلحة • ومن الممكن القول أن كثيرين من أمثال كامل الجادرچي نجوا من الموت بهذه الوسيلة •

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي كان فيه العراقيون يفرون من التجنيد ذلك الفرار العجيب كانت الحكومة تدعي أنهم يقبلون على التجنيد بشوق وحماس بدافع حبهم الشديد للوطن • نشرت جريدة «صدى بابل» البغدادية في ١٣ أيلول ١٩١٤ مقالاً يبدو أنه موحى به من الحكومة ، هذا نصه :

« لما صدرت الأوامر السنية بالحشد العام استقبل العراقيون هذه

---

(٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٧٧ •

(٩) كامل الجادرچي (من اوراق كامل الجادرچي) ــ بيروت ١٩٧١ ص ٤٧ •

الاوامر بملء السرور والبشاشة حباً باقامة الوظائف الوطنيـة لانهم يعلمون جيداً أن الوطن مقدس وواجب على كل فرد من أبنائه المخلصين الصادقين أن يقوموا بحق هذا الواجب الذي هو ضربة لازمة ولا مندوحة عن التأخر عن القيام باتمام هذه الوجيبة التي لا يعفى منها فرد ، وعليه فقد شمروا الساعد عن الحضور الى الدوائر الرسمية لقيد أسمائهم بحماسة ملية وطنية كأبنـاء غيورين ، على أن منهم وهم المقتدرون من أدى البدل النقدي الاحتياطي بكل طيب خاطر وقرة عين ، ومنهم من أحصى نفسـه بين الافـراد الذين يحملون السلاح للذب عن حياض الوطن فكنت ترى الافراد يتقاطرون كالسيل المنهمر الى دائرة الرديف بقلب مفعم من الحب نحو وطنهم العزيز ومناصرة لدولتهم العلية ايدها الله ، ولم يتخلف حتى الساعة أحد أو أشهر العصيان . وهـذا مما يذكر للعراقيين في اخلاصهم لدولتهم وتفانيهم في حبها وحب وطنهم . وعليه فلم نقصد بهذه العبارة سوى أن نثني على غيرة أبناء الوطن الـكرام ونحمد اخلاصهم لدولتهم التي تحرص على حفظ كيانهم وحقن دمائهم وصيانة أعراضهم ولا غرو اذا كان هذا الحب متبادلاً بين الدولة ورعيتها لأن الدولة كالام الحنون والرعية كالابناء المخلصين السريرة لهذه الأم الشريفة الجليلة يقابلونها باضعاف ما يمكنهم من العون وفاءً لما عليهم من الواجب » .

التفسخ الحكومي :

كان التفسخ سائداً في الدوائر الحكومية في العراق كما هو معروف ، فلما أعلن النفير العام كان ذلك سبباً في استفحال التفسخ واتساع نطاقه . فان التجنيد الاجباري ومصادرة الاموال من أيدي الناس باسم « التكاليف الحربية » قد استغلهما الموظفون والضباط لاستدرار الرشوات من النـاس بوسائل شتى .

أعطانا محمد طاهر العمري في كتابه « مقدرات العـراق السياسية » صورة واضحة للتفسخ الذي ساد الاجهزة الحكومية في العراق أثناء الحرب، وكان هو معاصراً لها وقد شهدها بنفسه فقال : ان الكثـير مـن الموظفين العسكريين والمدنيين اتخذوا حالة الحرب وسيلة لاستدرار المنافـع بشتـى اشكالها ، وقد ظهر من بينهم من اختلس وملأ جيوبه بالرشوات والهدايا عن

طريق الاستيلاء على الاموال والحيوانات تحت عنوان «التكاليف الحربية» ، وفيهم من ارتشى عن طريق معاملات التجنيد حيث يؤجل من يشاء بأنواع الحيل بينما هو يسوق الفقير الى ميدان القتال ، وكان ضباط التجنيد والاطباء يأخذون الرشوات لقاء معاملة كاذبة أو كشف طبي مزيف . وقد سمعت من رجل موثوق أن أحد موظفي التجنيد بدّل شخصاً هارباً من الخدمة العسكرية بشخص آخر بريء وقد أعدم هذا رمياً بالرصاص عوضاً عن ذلك الشخص الهارب وهو يستغيث فلا يغاث . ولا تسأل عن موظفي الشرطة والدرك وعن اختلاساتهم من القرويين المساكين والكثير من أهل المدن اذ هم كانوا يحلبونهم حلب البقرة فلا يقضون حاجة لاحد الا بعد أن يرتشوا منه بكل ما يمكن . ولا يدخل شرطي أو دركي في قرية الا ويملأ جيوبه من الدراهم ، وهو يعلم أنه غير مسؤول عن سوء تصرفه لان رئيسه يفعل أكثر منه . وقد اشترك الكثير من الموظفين العسكريين والمدنيين مع بعض التجار فاحتكروا المواد الغذائية وغيرها وجنوا الارباح الطائلة وصار الفقراء ألعوبة بأيديهم . [١٠]

ويعطينا عبدالعزيز القصاب في مذكراته صورة أخرى عن التفسخ الحكومي ، وقد كان القصاب في السنة الاخيرة من الحرب قائمقاماً في قضاء الزيبار في المنطقة الشمالية ، فهو يقول : ان رجلاً كان يتولى القائمقامية قبله بالوكالة اسمه سامح بك ، فكان يذهب مع موظفيه وقوة من الدرك الى القرى لجمع «التكاليف الحربية» ، فكانوا يدخلون البيوت يجمعون ما يجدون فيها من الحبوب والسمن والعسل والدبس والزبيب ، ويضعون ذلك كله خارج القرية ، ثم يباشرون في بيع قسم منه الى أهل القرية نقداً ، وما يتبقى منه يرسلونه الى مخزن الحكومة في مركز القضاء بعد أن يأخذ الموظفون نصيبهم منه . وكان موسى كاظم مدير المال في مركز القضاء يتصرف بالمخزن مستغلاً أمية مأموره الذي كان في الثمانين من عمره . يقول القصاب ان المطلعين أخبروه بأن الموظفين هؤلاء أثروا ثراءاً فاحشاً من جراء الاعمال التي قاموا بها باسم «التكاليف الحربية» والمبايعات الاولى والثانية ، وجعلوا أهل القرى جميعاً محتاجين الى القوت حتى اضطروا

---

(١٠) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٣١-١٣٤ .

الى أكل قشور جذوع الأشجار والبلوط يسلقونهـا ويشربون ماءها ، ثم انتشر بينهم مرض الانفلونزا وصار يفتك فيهم طيلة أربعة أشهر مات خلالها اكثر السكـان بسبب سوء التغذية وضعف المقاومة ، حتى لـم يبق هناك من يدفن الموتى فظلت الجثث مطروحة في أماكنها •

ويصف القصاب بعض أعمال موسى كاظم مدير المال ، فيقول : وصل في أحد الايام الى مركز القضاء ستون كردياً يحملون حصيلة « التكـاليف الحربية» فكان كل واحد منهم يحمل على ظهره أربعين كيلو من الحبوب ، وكانوا قد ساروا بأحمالهم ستة أيام قطعوا فيها جبلين مرتفعين ، ومات منهم أربعة في الطريق من شدة الارهاق • وتبين ان مدير المال اعتاد في السابق ان يخصص مبلغاً غير قليل من الليرات أجوراً لنقل الحبوب ، ولكنه لا يعطيها للحمالين بل يقتسمها هو والقائمقام السابق وأعضاء لجنة الصرف ، وكان المبلغ الذي خصصه في هذه المرة اثنتين وثلاثين ليرة ذهب ، وجاء بالقائمـة يريد من القصاب التوقيع عليها ، غير أن القصاب أخذ المبلغ ووزعه علـى الحمالين حتى الميتين منهم ، فقال له مدير المال متأسفاً : «والله يا بيك صرفت هذه الليرات فيالهواء وذهبت حرام بلا لزوم ، ايش اعمل لكم ، امركم على كل حال مطاع» •

كتب القصاب الى مركز الولاية في الموصل تقريراً مفصلاً عما شاهده من مظاهر التفسخ في الموظفين وسوء الحالة التي وصل اليها القرويون من جراء ذلك ، وطلب ارسال لجنة للتحقيق ومحاكمة المجرمين ، وذكر في التقرير أنه منع الموظفين من الخروج الى القرى لجمع « التكاليف الحربية » لأن أهل القرى لـم يبق لديهم ما يعيشون به وان الحكومة هي التي يجب أن تعطيهم لا أن تأخذ منهم • ثم أعقب القصاب ذلك بتقرير آخـر ، ولكنـه لم يجد لتقريريه أي تأثير ، وسمع بعدئذٍ ان والي الموصل ممدوح بك كان يقول في مجلسه : «ان قائمقام الزيبـار شـديد على موظفيه لانهـم من غير العرب » •

ويحدثنا القصاب عن التفسخ في عقرة ، وكان قد أرسل اليها للتحقيق، فقد كان فيها رجل اسمه لطفي بك يشرف على المخزن العسكري فيها واعتاد أن يعطي وصولات بمقادير الحبوب المطلوبة من الزراع لقاء دراهـم يتفق

عليها معهم دون أن يتسلم منهم الحبوب ، وتبين من التحقيق الذي استمر عشرة أيام ان النقص في المخزن ينوف على عشرين ألف كيلو من الحنطة ، وثلاثة آلاف كيلو من الشعير ، وألف كيلو من الرز وبعض الحبوب الاخرى. وكان من نتيجة هذا التحقيق أن سيق لطفي بك مخفوراً الى الموصل وسجن فيها . وقد التقى به القصاب بعد سقوط الموصل فسأله عما جرى له ، فأجابه هذا وكانت بيده سبحة يلهو بها : « يا بيك الفلوس تخلص من الصلب » . (١١)

نصيب العراق :

الواقع ان البلاد العثمانية كلها قد عانت من ويلات الحرب مثلما عانى العراق ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول ان نصيب العراق من الويلات كان من بعض الوجوه أكبر من نصيب البلاد العثمانية الاخرى . نذكر في ما يلي أهم الاسباب التي أدت الى ذلك :

اولاً : ان الجهاز الحكومي في العراق كان أشد تفسخاً وفساداً مما كان عليه في أكثر البلاد العثمانية الاخرى ، وذلك لبعد العراق عن عاصمة الدولة من جهة ولانحطاط الاحوال الصحية والحضارية فيه من الجهة الاخرى ، فلم يكن يقبل العمل في العراق الا الموظفون المتفسخون او الذين لا يرجون لأنفسهم عملاً في مكان آخر . وكان بعض كبار الضباط والموظفين يتحملون العمل في العراق لمدة معينة طمعاً بكسب ثروة تريحهم في أيامهم المقبلة .

ثانيا : كان العراق في العهد العثماني تغلب عليه النزعة العشائرية والقيم البدوية ، ومن شأن هذه الصفة أنها تؤدي الى بغض الحكومة والنفرة من التعاون معها . لا ننكر ان هناك أقطاراً كانت أشد بداوة من العراق كنجد والحجاز واليمن ولكن هذه الاقطار لم تكن تابعةللدولة الا اسمياً اذ هي كانت تحكم نفسها بنفسها على طريقة المشيخات والامارات المحلية . أما العراق فمشكلته أنه كان عشائرياً ومحكوماً في آن واحد ، وكانت

---

(١١) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ص ١٧٨—١٨٦ .

الفجوة فيه بين الشعب والحكومة تتخذ مظاهر شتى وتؤدي الى كثير من المآسي والازمات •

ثالثاً : كان العراق خلال سنوات الحرب ميداناً لمعارك حربية شملت معظم مساحة العراق من مصب شط العرب جنوباً حتى الموصل وعانه شمالاً • ومن طبيعة المعارك الحربية أنها كالنار تحرق وتدمر • ولم يسلم من المعارك سوى منطقة الفرات الاوسط ولكن هذه المنطقة ابتليت بمعارك من نوع آخر هي المعارك العشائرية في الريف ، والمعارك المحلية في المدن ـ كما سنأتي اليه بتفصيل في فصل قادم •

رابعاً : كان الشعب العراقي من أشد الشعوب بغضاً للتجنيد الاجباري ، وقد حدثت عدة ثورات في العراق احتجاجاً على التجنيد عند تطبيقه منذ منتصف القرن التاسع عشر • ومرت على العراقيين تجربة مريرة في التجنيد في عام ١٨٧٧ حين سيق عشرة آلاف مجند منهم الى قفقاسيا فهلك اكثرهم من شدة البرد والجوع ، ومن هنا نشأت النوحية المشهورة في العراق : « أويلاخ يا دقة الغربية » • ثم جاءت في عام ١٩٠٤ تجربة مريرة أخرى حين هلك الآلاف من المجندين في صحراء نجد وهي الكارثة التي اشتهرت في العراق باسم «دقة ابن رشيد » •[١٢] وعندما أعلن النفير العام في شهر آب ١٩١٤ وسيق المجندون في بغداد الى قفقاسيا أدرك الناس ان « دقة الغربية » ستحل بهم مرة أخرى • فكان النواح يسمع في كل بيت يصاب بالتجنيد ، ولا يكاد مختار المحلة يطرق الباب على بيت يدعو أحداً فيه الى التجنيد حتى يرتفع صوت العويل فيه وصراخ النساء ••

والواقع ان « دقة الغربية » في عام ١٩١٤ لم تكن تقل في كثرة ضحاياها عن الدقتين السابقتين • فان معظم الذين ذهبوا اليها لم يعودوا ، وقد مات الكثير منهم من شدة الجوع والبرد ، أما الذين عادوا فكان البعض منهم مصابين بعاهات ظلت مصاحبة لهم حتى آخر حياتهم •

ولا بد في هذه المناسبة من ذكر بعض ذيول « دقة الغربية » في العراق ، فقد ظل الناس سنوات عديدة بعد انتهاء الحرب يتوقعون أن يعود اليهم

---

١٢) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الثالث من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني •

أبناءهم الذين فقدوهم في قفقاسيا ، وكان سبب ذلك ان شائعات سرت بينهم مفادها أن بعض المفقودين قد وقعوا في أسر الروس ، وبقي أقرباؤهم يتوقعون عودتهم يوماً بعد يوم • أذكر ان الصحف البغدادية كانت بعد الحرب تنشر بين حين وآخر عرائض يطلب فيها اصحابها من الحكومة العراقية مساعدة الأسرى على العودة الى وطنهم • ولم تنفع تلك العرائض الا قليلاً لأن اكثر المفقودين كانوا قد هلكوا في جبهة القتال ، وكان من بين هؤلاء الهالكين ابن خالة كاتب هذه السطور !

طائرات فوق بغداد :

لم يكن البغداديون قبل الحرب قد شاهدوا أية طائرة ، وحين سمعوا بخبرها للمرة الاولى صاروا في دهشة لا يدرون أيصدقونه أم يكذبونه • ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان رجلاً من عقلائهم قيل له ان الافرنج اخترعوا عربة تطير في الهواء ، فسألهم : من أية مادة قد صنعت تلك العربة ؟ فأجابوه : أنها كغيرها من العربات مصنوعة من الخشب والحديد طبعاً • وعند هذا قال الرجل لهم : ان هذا أمر غير معقول • وأراد أن يبرهن لهم على صحة قوله فأشار الى مطرقة كانت بجانبه وقال : ان هذه مصنوعة من الخشب والحديد فهل يمكن أن تطير ؟! كلا وألف كلا ! ! !

ان أول ظهور للطائرة في سماء بغداد كان في ٥ تشرين الاول من عام ١٩١٥ ، ففي عصر ذلك اليوم شاهد الناس نقطة سوداء كالذبابة محلقة في السماء وهي تئز أزيزاً مرعباً • فانتشر الخوف بينهم ، وصعد «الاشقياء» ومغاوير المحلات الى المنائر وفوق السطوح العالية وأخذوا يرمونها برصاص مسدساتهم وبنادقهم بلا جدوى • وأصبحت الطائرة بعدئذ حديث الناس في كل مكان يتحدثون عنها في دهشة يخالطها الرعب •

وبعد عشرة أيام ظهرت في سماء بغداد طائرة أخرى ، وكان ذلك صباحاً ، ثم صار ظهور الطائرات يتوالى حيناً بعد حين حتى اعتاد الناس عليها وقل الخوف منها تدريجاً • لقد كان الانكليز حينذاك يقتربون من بغداد ، وكان الغرض من ارسال طائراتهم هو لاكتشاف مواقع الاتراك في جنوب بغداد والامدادات التي تصلهم من الشمال •

كان الاتراك آنذاك قد أعدوا مواقعهم الدفاعية في سلمان باك كما سنأتي اليه في فصل قادم • وفي ظهر ١٣ تشرين الثاني ١٩١٥ ظهرت طائرة في سماء بغداد ثم هبطت قرب نهر ديالى بغية قطع خط التلغراف الممتد بين سلمان باك وبغداد ، وعند هبوطها ارتطم جناح منها بأحمد أعمدة التلغراف وأسرع بعض الخيالة من الاعراب فأسروا الطائرة والرجلين الذين كانا فيها• وقد قرر القائد التركي ارسال الطائرة مع الرجلين الى بغداد لعرضها على الناس • وخرج البغداديون يتفرجون على الطائرة ويبصقون على الرجلين ••(١٣)

اعتبر البغداديون سقوط تلك الطائرة نصراً باهراً من الله لجيش المسلمين ، ونظم الشاعر جميل صدقي الزهاوي بعدئذٍ قصيدة طويلة أشار فيها الى سقوط الطائرة حيث قال :

وقالوا بدت طيارة ستصبها	قذائف من صهواتها تتفجر
أقلب طرفي في السماء فلا أرى	سوى نقطة سوداء تخفى وتظهر
نصبنا اليها مدفعاً فأصابها	وخرت على آلاتها تتكسر(١٤)

وفي ١٢ كانون الثاني ١٩١٦ نشرت جريدة «صدى الاسلام» اعلاناً من قيادة المركز هذا نصه : « ان الطيارة التي غنمناها قبل بضعة أسابيع من الانكليز ستحلق في هذه الايام على البلدة وضواحيها • فلئلا يصدر خطأ من أحد في شأنها أعلنا الكيفية ليطلع عليها العموم» • وقد كررت الجريدة نشر هذا الاعلان عدة مرات •

انقطع ظهور الطائرات في سماء بغداد بعد هزيمة الانكليز في سلمان باك مدة طويلة تزيد على السنة ، ثم بدأت بالظهور في شهر كانون الثاني من عام ١٩١٧ وذلك عندما كانت القوات الانكليزية تعد العدة من جديد لاحتلال بغداد بقيادة الجنرال مود • ففي ظهر يوم ٢٠ من ذلك الشهر ظهرت ثلاث طائرات فوق بغداد وألقت عليها سبع قنابل ، سقطت أولاها على ثكنة المدفعية ــ أي القلعة ــ الواقعة في الميدان فقتلت فيها

---

(13) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 92.

(١٤) جريدة «صدى الاسلام» في عددها الصادر في ٢٨ رجب ١٩٣٤ •

رجلاً وجرحت آخر ، وسقطت الثانية على المدرسة النعمانية قرب دائـرة البريد ، وسقطت الثالثة في النهر على مقربة من باخرة ألمانية كانت راسـية هناك ، وسقطت الرابعة على محطة القطار في غربي بغداد ، وسقطت الخامسة على مقربة من القشلة وراء دار البلدية ــ أي أمانة العاصمة كما يسمونها الآن ــ فهدمت داراً لاحد تجار التبغ اسمه أيوب جلبي القلمجي ، وكسرت زجاج الدور المجاورة له . (١٥) وكان لسقوط هذه القنابل في بغداد أثـر شديد في أذهان الناس ، اذ كانت تلك أول مرة يشهد فيها أهل بغـداد قنابل تنزل عليهم من السماء ، فصاروا يتراكضون لا يدرون أين يذهبـون وقد امتلأوا رعباً .

كان الالمان قد جاؤوا بطائرات من صنعهم لحماية بغداد من الطائرات الانكليزية ، وجعلوا مقرها وراء سكة الحديد قرب محطة الكاظمية . وصار أهل الكاظمية يخرجون عصراً للتفرج عليها وهي جاثمة على الارض هنالك .

وفي عصر أحد الايام حين كان عدد من الناس قد خرجوا للتفرج جاءت طائرات انكليزية من جهة الجنوب وأخذت تلقي قنابلها على محطة القطـار وما حولها ، وقد أصيب من جراء ذلك عدد من الجنود والاهالي . وتحركت الطائرات الالمانية فارتفعت في الجو لمطاردة الطائرات الانكليزية التي سرعان ما اختفت عن الانظار .

وفي ٨ آذار ١٩١٧ ــ أي قبل سقوط بغداد بثلاثة أيام ــ مرت في سماء بغداد طائرة انكليزية متجهة نحو الشمال بمحاذاة سكة الحديد ، ثم هبطت في منتصف الطريق ما بين الدجيل وبغداد ، وأسـرع طياروهـا فوضعوا كمية من الديناميت تحت السكة لكي تنفجر عند مرور القطـار عليها، وقد علمت الحكومة بالامر فأرسلت نفراً من خيالة الدرك الى الموضع، واستطاع هؤلاء الخيالة أن يزيلوا الديناميت قبل انفجاره . (١٦)

---

(١٥) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥
عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٢٤٢ .

(١٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٢٥ .

ولما سقطت بغداد أصبح منظر الطائرات في سمائها أمراً مألوفاً اعتاد الناس على رؤيته في كل يوم ، ولم يعد يثير فيهم أي استغراب أو خوف • وقد ظهرت آنذاك مشكلة أخرى غير مشكلة الخوف من الطائرات ، فقد صارت الطائرات تطير أحياناً على مستوى منخفض قريب من سطوح الدور ، وأشيع أن الطيارين يمكنهم التطلع الى النساء في داخل الدور بوساطة مناظيرهم ، وهذا معناه انتهاك حرمة النساء • وقيل ان عبدالرحمن النقيب حذر نساء بيته من السير داخل الدار من غير عباءة خشية أن تمر احدى الطائرات فيقع نظر الطيار عليهن • (١٧)

كان الناس قبل سقوط بغداد يخشون قنابل الطائرات وأصبحوا بعد السقوط يخشون نظرات الطيارين !

الصحافة اثناء الحرب :

كانت بغداد عند اعلان النفير العام تصدر فيها عدة جرائد ومجلات منها جريدة « الرقيب » لصاحبها عبداللطيف ثنيان ، وجريدة « المصباح » لصاحبها عبدالحسين الازري ، وجريدة « صدى بابل » لصاحبها داود صليوه ، وجريدة « الزهور » لصاحبها محمد رشيد الصفار ، وجريدة « الرياض » لصاحبها سليمان الدخيل ، ومجلة « لغة العرب » لصاحبها الأب انستانس ماري الكرملي ، ومجلة « الرياحين » لصاحبها ابراهيم صالح شكر •

وحين احتل الانكليز البصرة أصدروا فيها نشرة يومية باللغتين العربية والانكليزية لتنقل للقراء برقيات وكالة رويتر وأخبار الحرب ، ثم تطورت هذه النشرة فأصبحت جريدة يومية باسم « الاوقات البصرية » وكانت تصدر بأربع لغات هي العربية والتركية والانكليزية والفارسية ، فكانت جريدة عجيبة • وهي كانت في الواقع بمثابة نشرة حربية هدفها خدمة مصالح الانكليز وترويج سياستهم ، حيث امتلأت أعمدتها بمدح الانكليز وذكر عدلهم وحبهم لنشر العلم والثقافة ، وبذم الاتراك وذكر

---

(١٧) صبيحة الشيخ داود (اول الطريق) ـ بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٩٦ •

ظلمهم وجهلهم • وقد ساهم في تحريرها كتاب عراقيون تحت اشراف ضابط بريطاني يتقن العربية هو جون فلبي الذي اشتهر في السعودية فيما بعد باسم « الحاج عبدالله فلبي » • (١٨)

وفي ١٩ أيار ١٩١٥ وصل الى بغداد نور الدين بك ليتولى ولاية العراق وقيادة الجيش فيه ، وقد أمر هذا الوالي الجديد باغلاق جميع الصحف الموجودة في بغداد وبنفي أصحابها الى أماكن نائية كما سنأتي اليه في فصل قادم • وقرر اصدار جريدة خاصة بالحكومة لتكون قادرة على مصاولة جريدة « الاوقات البصرية » الانكليزية وكيل الصاع لها صاعين •

أطلق على الجريدة الجديدة اسم « صدى الاسلام » ونيطت ادارة سياستها برئيس بلدية بغداد رؤوف بك الچادرچي ، وصار يساهم في تحريرها من الاتراك الدكتور حكمت ثريا بك ، ومن العرب ابراهيم حلمي العمر وخيري الهنداوي وعطا الخطيب وعبدالرحمن البناء وجميل صدقي الزهاوي ومحمود الوادي وغيرهم •

صدر العدد الاول من جريدة « صدى الاسلام » في ٢٣ تموز ١٩١٥، وقد ذكرت الجريدة في هذا العدد خطتها وهي مكونة من ست نقاط هي : (١) احكام الرابطة بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، (٢) كشف النقاب عن رياء الانكليز وهتك أسرار دول الائتلاف — أي الحلفاء — التي استباحت حرمة البلاد الاسلامية ، (٣) نشر المقالات الدينية والوطنية التي تتأيد بها عرى الوفاق والوئام بين الاقوام الاسلامية من ترك وعرب وفرس وهنود ، (٤) دحض مفتريات الاعداء الذين يتقولون على الدين والقرآن والرسول والامة الاسلامية باطلاً ، (٥) خدمة الامة العراقية ، (٦) انتقاء الاخبار الصادقة عن مختلف جبهات الحرب • وظلت جريدة « صدى الاسلام » تواصل الصدور حتى سقوط بغداد في آذار ١٩١٧ • وقد أصدر الانكليز في بغداد بعد احتلالها جريدة تنطق بلسانهم وتلهج بمدحهم أطلقوا عليها اسم « العرب » ، وسوف نتحدث عن هذه الجريدة بتفصيل في فصل قادم •

---

(١٨) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) — القاهرة ١٩٥٥ — ص ٤٣ •

كانت هناك وسيلة أخرى للاعلام في العهد التركي بالاضافة الى الجرائد ، وهي صدور أوراق مطبوعة تحمل الاخبار الحربية المستعجلة، حيث يحملها الباعة ويركضون بها في الاسواق لبيعها وهم يصيحون : « أجانص ، أجانص » ، وهذه اللفظة مأخوذة من الفرنسية وتعنى وكالة الانباء . وقد اعتادت الحكومة أن تصدر مثل هذه النشرات عقب المعارك الحربية ، وكثيراً ما كانت تكذب فيها فتقلب الهزيمة الى نصر عظيم . وكان الناس يصدّقون بها في أول الامر ثم تبين لهم أخيراً ان المقصود بها الدعاية وليس نقل الاخبار .

التجارة اثناء الحرب :

كانت التجارة العراقية قبيل الحرب تعانى أزمة ، فقد تكدست البضائع في مخازن التجار دون أن تجد من يشتريها . وعندما أعلن النفير العام في ٣ آب ١٩١٤ تفاقمت الأزمة وظهر عسر مالي فبلغت الفائدة على القروض ستين بالمائة لقاء رهن الذهب . وقد أعلنت الحكومة قانون تأجيل الديون (الموراتوريوم) تقليداً للدول الاوربية ، ولم يكن العراقيون يعهدون ذلك من قبل أو سمعوا به ، وقد ساعد المدينين من التجار على تأجيل الدفع أو تقسيط الديون .

ولما دخلت تركيا الحرب في تشرين الثاني ، انقلبت الازمة التجارية الى رخاء تجاري ورواج ، فان البضائع المكدسة في مخازن التجار أصبحت مطلوبة على أثر انقطاع الطرق البحرية ، وارتفعت أسعار البعض منها ارتفاعاً فاحشاً . فقد بلغ سعر السكر سبعة أضعاف ما كان عليه قبل الحرب ، وسعر الاقمشة القطنية أربعة أضعاف ، وارتفع سعر الحزمة من ورق السيكارة من ١٢ ليرة الى ٣٥٠ ليرة ، وسعر الصندوق من صبغ النيل من ٧ ليرات الى ٣٥٠ ليرة . وقس على ذلك ما سواه . (١٩)

أخذ تجار الشام وايران وتركيا يفدون الى بغداد ليشتروا البضائع الموجودة فيها ، وبدأت الصفقات التجارية تتتابع مرة بعد مرة ، وتنتقل

---

(١٩) يوسف زرق الله غنيمة (تجارة العراق قديما وحديثا) ـ بغداد ١٩٢٢ ـ ص ١٢٢ .

ملكية البضائع من تاجر الى آخر بسرعة ، وتراكمت الارباح في أيـــدي التجار • وكانت لليهود حصة الاسد من هذا الرواج العجيب لأن مقاليـد التجارة كانت بأيديهم كما كانت مخازنهم مشحونة بالبضائع • (٢٠)

اتخذت الحكومة سياسة الشدة تجاه المضاربين والمحتكرين وأنزلت بهم عقوبات قاسية ، ولكن الارباح الضخمة كانت تغري التجار على المجازفة فلم يعودوا يكترثون للعقوبة • وصار التجار ــ ولا سيما اليهود منهم ــ يتصلون بالمراكز التجارية في الدول المحاربة عن طريق الدول المحايـدة كسويسرا واليونان وأمريكا ، فكانوا يرسلون رسائلهم أو برقياتهم الـى تلك الدول دون أن يتركوا مجالا للرقيب في أن يرتاب فيهم ، ومن هناك تبعث رسائلهم الى لندن ومانجستر وباريس ومارسليا ، فتأتي البضـائع اليهم طروداً في البريد بما خف حمله وغلا ثمنه كالأدوية وورق السـيكارة والدانتيلا والمخرمات والعطور والخردوات والزخارف وأقمشة الحـرير وغيرهـــا • (٢١)

وحين احتل الانكليز بغداد تصاعد الرواج التجاري فيها الى الدرجة القصوى • فقد أخذ الانكليز يبذلون الاموال الطائلة لشراء ما تحتاج اليه قواتهم من مواد وخدمات • فبعد ما كان الاتراك يستخدمون طريقـــة المصادرة للحصول على ما تحتاج اليه قواتهم صار الانكليز يدفعون ثمـن ما يأخذونه نقداً وبالاسعار التي يفرضها التجار • وقد حدث مثل هـــذا في منطقة البصرة منذ بداية الحرب • فظهر من جراء ذلك عدد كبير مـن أغنياء الحرب في العراق ، وتراكمت الثروات لدى الزراع ورؤســاء العشائر على نطاق واسع ، مما كان له أثره في قيام ثورة العشرين ــ كمـا سنأتي اليه في الجزء الخامس من هذا الكتاب •

غـرق بغـداد :

في أواخر تشرين الثاني ١٩١٤ عندما كانت بغداد مشغولة بحركـــة

---

(٢٠) يوسف رزق الله غنيمة (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) ــ بغـداد ١٩٢٤ ــ ص ١٨٢ •

(٢١) يوسف رزق‌الله غنيمة (تجارة العراق) ــ ص ١١٧ •

الجهاد أصيبت بفيضان مدمر من جراء زيادة غير اعتيادية في نهر دجلة ، ولم يكن من المألوف أن يفيض دجلة في ذلك الوقت ، فكان ذلك بلاءً جديداً أضيف الى بلاء الحرب .

كانت حكومة بغداد قد تلقت قبل هذا برقيات من الموصل تنبيء بسقوط مطر غزير هنالك ، وان زيادة في النهر غير اعتيادية قادمة في الطريق الى بغداد ، فلم تعر الحكومة أي اهتمام للامر . (٢٢) ولعلها كانت مشغولة بأمور الحرب فأهملت أمر الفيضان . وفي منتصف الليل من مساء ٢٩ تشرين الثاني حدث ارتفاع مفاجيء في مستوى النهر ، وتدفقت المياه بسرعة عجيبة حيث أحاطت ببغداد من الجهة الشرقية حول سدة ناظم باشا ، ثم وجدت المياه ثغرة في الجزء الجنوبي من السدة فاخترقتها بزخم شديد نحو محلة باب الشيخ ومقبرة الشيخ عمر . وذكرت جريدة الزوراء أسماء المحلات التي اجتاحها الفيضان بعدئذٍ ، وهي: الفناهرة والسنك والمربعة والعوينة وقهوة شكر وفضوة عرب والكولات وبني سعيد والطاطران وزين العابدين والشيخ سراج الدين وفرج الله والخالدية والجوبة والعزات طوالات والدركزلية وخان لاوند والمعدان وقهوة حورى . وقالت الجريدة أن اهل بغداد لم يشهدوا مثل هذا الفيضان قطعاً ، وقد تخرب فيه ما يقارب ألفين دار ، واستمر ثلاثة أيام بلياليها . (٢٣)

كانت الحكومة في النهار الذي سبق ليلة الفيضان قد اعتقلت أفراد الجالية البريطانية الذين كانوا يسكنون بغداد آنذاك وحجزتهم في دار القنصلية البريطانية ، وكان من بين هؤلاء المعتقلين مهندس كبير مختص بشؤون السدود والري ، وكان يعمل رئيساً للمهندسين في شركة جاكسون البريطانية التي شيدت سدة الهندية . فجاء اليه موظف حكومي وأيقظه من نومه واركبه عربة وذهب به الى موقع الفيضان ليفحصه ويقدم للحكومة المقترحات في شأنه . وكان جواب المهندس البريطاني : ان الامر قد انتهى ولا علاج له وأنهم جاؤوا اليه بعد فوات الاوان وقد كان الواجب

---

(22) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia)—London — p. 231.

(٢٣) جريدة «الزوراء» في عددها الصادر في ١٥ محرم ١٣٣٣ هـ .

عليهم أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة منذ وصلتهم الاخبار من الموصل بارتفاع الماء هنالك ... (٢٤)

كانت تلك ليلة ليلاء لم تشهد بغداد مثلها من قبل ، فقد استيقظ الاهالي من نومهم مذعورين على أصوات استغاثة تنطلق من المحلات المهددة بالغرق ، وانطلق الكثيرون نحو مصدر الاستغاثة للمعاونة على مكافحة الفيضان ، وصار الناس يقيمون السدود الموقتة في رؤوس الازقة لمنع المياه من التدفق فيها ، وكانت الطبول تدق تشجيعاً لهم على العمل . يحدثنا عبدالكريم العلاف عن مشاهداته ليلتئذ في محلة الفضل فيقول : « وقد رأيت المرحوم الشيخ سعيد النقشبندي شقيق العلامة الشيخ عبدالوهاب النائب واقفاً بين جموع النساء والاولاد المحتشدة وهو يحثهم على حمل التراب ووضعه على السد الذي أقيم ، وأذكر أنه ألقى خطبة ارتجالية لم أتمكن من ضبطها ، وقد بكى وأبكى الناس ، وحمل التراب بجبته ، ولما رآه الناس وهو يحمل التراب أستماتوا على السد ، والطبول تضرب ، والصراخ قائم ، والبكاء والعويل بالغان أشدهما ولكن (لا عاصم اليوم من أمر الله) فقد جرف الماء ذلك السد واندفق حتى وقف خلف مدرسة الفضل الابتدائية اليوم ... » (٢٥)

هجر الناس دورهم ، وهم يحملون أمتعتهم ، فغصت الازقة بهم وعلا ضجيجهم وصراخهم ، فلجأ بعضهم الى دور أقاربهم في المحلات التي سلمت من الغرق ، بينما لجأ آخرون الى الجوامع ، وصار جامع الشيخ عبدالقادر ممتلئاً بالناس على سعته حتى صعد الناس الى سطح الجامع ومأذنتيه . (٢٦)

كان جانب الكرخ قد سلم من الغرق ، ولهذا أخذ الكثير من سكان الرصافة يحاولون العبور الى ذلك الجانب مع أمتعتهم ، فارتفعت أجرة الحمالين كما ارتفعت اجرة وسائل العبور علماً بأن الجسر كان قد غرق في اليوم السابق . يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي ، وكان في بغداد

---

(24) Joseph Parfit (op. cit.) — p. 231—232.

(٢٥) عبدالكريم العلاف (المصدر السابق) — ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢٦) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) — الموصل ١٩٤٨ — ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

ليلتئذٍ ، انه استأجر قفة واحـدة لمرة واحـدة بمجيديين ، وربما بلغت الاجرة جنيهاً . (٢٧)

استمرت زيادة النهر ثلاثة أيام ثم بدأت تخف . وأسرعت الحكومة فعزلت عزت بك الفارسي من رئاسة بلدية الرصافة ، وكأنها أرادت أن تجعل منه كبش الفداء حيث نسبت اليه بأنه كان قد أزال جزءاً من السدة التي تحمي الرصافة من الناحية الجنوبية . وقد حل رؤوف بك الچادرچي محل الفارسي في رئاسة البلدية وكالة .

بعثـــة الآلوســي :

عندما دخلت تركيا في الحرب أرادت أن تجتذب الى جانبها أمـير نجد عبدالعزيز بن سعود ، فارتأت أن تبعث اليه رجلاً من علماء الـدين له صلةٍ حسنة به هو السيد محمود شكري الآلوسي. وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤ غادر الآلوسي بغداد وبصحبته ابن عمه السيد علي علاء الـدين الآلوسي والواعظ المعروف الشيخ نعمان الاعظمي والضابط الحاج بكـر بك . وقد سافر الوفد الى الرياض عن طريق حلب ودمشق والمدينة ومكة، ومن مكة رحل الوفد الى الرياض على ظهور الابل ، وكان في استقبالـه هناك جمع حاشد من أهالي الرياض وأعيانها .

عندما بدأ الحوار مع ابن سعود في الرياض أخذ أعضاء الوفـــد يذكرون له كيف ان الدولة العثمانية المسلمة في حرب حياة أو موت مـع الكفار الذين يريدون القضاء عليها ، وأن الواجب الشرعي يقضي على ابن سعود وعلى المسلمين كافة الاخذ بناصرها والوقوف الى جانبها في هـــذه الحرب . وصار ابن سعود يجاري أعضاء الوفد ويماريهم بما عرف عنه من دهاء ولباقة . انهم لم يكونوا يعلمون بما كان بين ابن سعود والانكليز من صلة وثيقة ، وهو لم يعلن ذلك لهم طبعا بل تظاهر على العكس من ذلـك بانه من أشد الناس حرصاً على نصرة الدولة العثمانية ، وأنه يفديها بروحـه وأولاده وكل ما يملك ، ولولا بعض الموانع لما تأخر عن نصرتها ساعة واحدة.

---

(٢٧) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد الخامس ـ السنة الرابعة .

يصف محمد بهجت الاثري الحوار الذي جرى بين ابن سعود وأعضاء الوفد فيقول ما نصه : « وعقد الجانبان في ظلال الآصرة الاسلامية العامة وعلاقة الود الروحية الخاصة اجتماعات درست فيها مطالب الدولة التي يحملها الوفد ، والحالة الناشئة من هذه الحرب في البلاد العثمانية ، ولا سيما العراق ، في ضوء الحقائق وممكنات القدرة المجدية دون العواطف ، اذ كانت العواطف لا تغني وحدها في مواطن الجد والشدائد ، وانتهت بان شارك الأمير الوفد في هذا الشعور الاسلامي النبيل الذي حمله على قصده الى هذه الشقة القصية من الأرض ، وما ينبغي للمسلم من نصرة أخيه اذا ضامته الشدائد ، مؤكداً أن تدينه يأمره بذلك ويحضه عليه ، وسجاياه العربية تملي عليه نسيان ثاراته عند الدولة العثمانية في ساعة العسرة ، وأنه لن يصدر منه نحوها في محنتها الا الصفاء ، وود لو يتاح له أن ينضم اليها . لكن ما يراه من قوة أعدائها وضعفها المتمثل في عجزها عن امداد جيوشها فضلاً عن امداده بما يضمن له التغلب ، يفرض عليه التزام الحياد ، لأن دخوله في الحرب ينتهي الى تقويض امارته الصغيرة الناشئة ولا يفيد الدولة العثمانية شيئاً .

« واقتنع السيد الآلوسي بحجته ، ووثق بما اكده له من الحياد التام وعدم الانضمام الى الانكليز بوجه من الوجوه . فهذا الموقف ـ كما رآه السيد الآلوسي ـ هو نفسه فوز أيضاً للدولة لا شك في ذلك ، وهو اذا لم يستطع أن يجلب النفع لها فلا أقل من أن يضمن لها درء الضرر عنها ، ودرء الضرر ضرب من المنافع في حد ذاته » .[٢٨]

يبدو من هذا القول ان الآلوسي الذي شد الرحال الى الرياض من أجل اقناع ابن سعود بوجهة نظر الدولة العثمانية استطاع ابن سعود أن يقنعه بوجهة نظره . انه بعبارة اخرى انما ذهب لاجتذاب ابن سعود الى جانب الدولة العثمانية ولكن النتيجة كانت على الضد من ذلك حيث تمكن ابن سعود بدهائه أن يجتذب الآلوسي الى جانبه . ويخيل لي أن ارسال

---

(٢٨) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الآلوسي) ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٩٣ ـ ٩٤ .

الآلوسي لمفاوضة ابن سعود كان كمثل ارسال ابي موسى الاشعري لمفاوضة عمرو بن العاص عقب معركة صفين .

يعلق خيري العمري على بعثة الآلوسي هذه فيقول : ان الآلوسي كان رجل علم أنفق عمره بين الكتب ولم يكن دبلوماسياً ، ولهذا اخفق في مهمته التي أرسل من أجلها الى ابن سعود ، وقد عاد بعد فشله الى تلاميذه يعلمهم ... (٢٩)

ومن الجدير بالذكر أن الآلوسي عندما مر بدمشق هو وأصحابه في طريق عودته الى بغداد أخذ خصومه يوغرون عليه صدر جمال باشا حيث قالوا له : ان الآلوسي هو الذي زين لابن سعود الامتناع عن الانضمام الى الدولة العثمانية ضد الانكليز وأوحى اليه بالتزام الحياد . وقد صمّ جمال باشا اذنه عن سماع هذه التهمة لما كان يعهده في الآلوسي من الصدق والاخلاص (٣٠)

وصل الآلوسي الى بغداد في ١٢ نيسان ١٩١٥ ، والظاهر ان حكومة بغداد لم تكن راضية عنه ، وظلت علاقته مع الحكومة غير حسنة حتى آخر أيام الاتراك في بغداد . والمظنون ان ابن سعود أراد أن يعوض للآلوسي عما حدث له من أجله فأبرق الى الانكليز على أثر سقوط بغداد يسألهم عن حالة الآلوسي ، فكان ذلك سبباً لاهتمام الانكليز بالآلوسي وأرادوه أن يتولى منصب الافتاء ، غير انه رفض . (٣١)

كان الاتراك قد ارسلوا محي‌الدين ابن عبدالرحمن النقيب الى افغانستان لنفس الغرض الذي أرسلوا له الآلوسي الى الرياض . وقد غادر محي الدين بغداد في ١٩ آذار ١٩١٥ . ثم عاد الى بغداد بعد مدة ، ولا ندري مبلغ نجاحه في مهمته . وأرجح الظن أنه كان كالآلوسي خائباً .

---

(٢٩) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) بغداد ١٩٥٥ ـ ج ١ ص ١١ .
(٣٠) محمد بهجة الاثري (اعلام العراق) ـ القاهرة ١٩٤٥ هـ ـ ص ١٠٦ .
(٣١) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الآلوسي) ـ ص ٩٦ ـ ٩٧ .

الفصل الرابع

بواكير الحرب في البصرة

عندما أعلنت تركيا حالة النفير العام في ٢ آب ١٩١٤ بدأت الاخبـار تتسرب الى القناصل البريطانيين في البصرة وبوشهر والمحمرة بأن الاتراك مزمعون على دخول الحرب الى جانب ألمانيا قريبا وأنهم يعدون العدة لذلك • وفي شهر ايلول ابرقت وزارة الحربية التركية الى الامير عبدالعزيز بن سعود في الرياض تعلمه أنها أرسلت اليه الاسلحة والضباط لتدريب أتباعه البـدو استعدادا لشن الهجمات المحلية على الانكليز أو على المتعاهدين معهم فـي سواحل الخليج ، وقد أرسل ابن سعود نسخ البرقيات التي وصلته الـى المقيم الانكليزي في الخليج •[1]

وأرسلت دائرة الاستخبارات الانكليزية في بوشهر شاباً افغانياً الى البصرة ليتجسس لهم عن استعدادات الاتراك فيها ، وحين وصل الشـاب الى البصرة تظاهر بأنه من المتحمسين لنصرة الاسلام والدولـة العثمانيـة ، واتصل بالمسؤولين الاتراك يسألهم عن احتمال قيام حركـة للجهـاد فـي افغانستان ، فأجابه الاتراك : ان في النية ارسال جيش الى الهند عن طريق افغانستان وان من الممكن أن يساهم الشاب نفسه في اثارة الناس الى الجهاد هنالك • وقد سمح الاتراك للشاب بالتجول في المعسكرات التركية ، واستطاع هو أن يكتشف المواضع السرية للمدافع التي نصبها الاتراك بالتعاون مـع الالمان على شواطىء شط العرب • ثم تسلل الشاب عائدا الى بوشهر قبـل اعلان الحرب باسبوعين ، وكانت المعلومات التي جـاء بها ذات قيمـة كبيرة للانكليز نفعتهم عند انزال حملتهم في شط العرب بعدئذ •[2]

وفي ٢٩ ايلول وصل الى شط العرب مركب حربي انكليزي اسـمه

---

(1) Arnold Wilson (Loyalties) — London 1936 — vol. 1 , p. 6.

(2) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia) — London — p. 87.

« اسبيكل » ، فألقى مراسيه تجاه قصر الشيخ خزعل في المحمرة قريباً من مصب نهر كارون . فاعترض قائد حامية البصرة صبحي بك على ذلك وكانت حجته أن المركب يرسو في المياه الاقليمية العثمانية . وفي يوم ٧ تشرين الاول ذهب ضابط تركي الى المركب وهو يحمل اليه خطاباً ينتهي بالعبارة التالية : « يرجى مغادرة شط العرب في غضون أربع وعشرين ساعة » . فأجابه قائد المركب بأنه لا يستطيع مغادرة الشط الا باذن من وزارة الحربية البريطانية. ثم اتصل القائد بالوزارة فجاءه الامر منها بأن يدخل في نهر كارون مسافة نصف ميل ليكون في نطاق المياه الاقليمية الايرانية . وبعد اسبوع من ذلك أعلم صبحي بك القنصل البريطاني في البصرة بأن المركب يجب أن يغادر شط العرب في غضون ثمانية أيام وان أية محاولة منه للمرور في الشط بعد انقضاء المدة المقررة ستجابه بالقوة المسلحة . وشرع الاتراك بعد تقديم هذا الانذار يقومون ببعض الاستعدادات العسكرية التي كان بحارة المركب قادرين على رؤيتها بوضوح . فقد نصب الاتراك المدافع على ساحل الشط المقابل للمحمرة وأخذت السفن التركية تمخر نحو الجنوب وهي مليئة بالجنود .

أرسل صبحي بك مذكرة الى الشيخ خزعل يطلب فيها السماح لجماعة كبيرة من الجنود الاتراك أن يذهبوا متنكرين الى المحمرة فيتخذوا مواقعهم سراً على سطوح البيوت المشرفة على المركب . وكانت خطة صبحي بك هي أن تبدأ المدافع المنصوبة على ساحل الشط بقصف المركب ، فاذا أجاب المركب على القصف فان الجنود الكامنين فوق سطوح البيوت سيفاجئون المركب باطلاق النار عليه ، وبذا قد تقع فيه مذبحة غير مرتقبة ، فيأتي الجنود بعدئذ ويصعدون الى المركب حيث يقتلون كل من يتصدى لهم فيه ويستولون عليه . وختم صبحي بك مذكرته الى الشيخ خزعل بقوله : « ان هذه فرصة ممتازة لشيخ المحمرة يمكن أن يقوم فيها بخدمة ثمينة للحكومة التركية » . وحين وصلت المذكرة الى الشيخ خزعل أرسلها الى قائد المركب [٣] ، على نحو ما فعل ابن سعود قبله .

وفي منتصف الليل من مساء ٣١ تشرين الاول تلقى قائد المركب برقية

(3) Barker (The Neglegited. War) — London 1967 — p. 36—37.

مفادها أن الحرب أعلنت على تركيا ، وأوعز اليه بأن يقوم بحماية المصالح والممتلكات البريطانية في المحمرة وعبادان ، وأن يطمئن الشيخ خزعل بشأن الاجراءات التي ستتخذ لهذا الغرض • وبعد يومين انساب المركب تحت جنح الظلام نحو شط العرب فألقى مراسيه تجاه قرية سيحان الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً من الفاو ، ثم أرسل قائده رهطاً من جنوده الى الساحل لقطع خط التلغراف الممتد بين الفاو والبصرة • وفي ٦ تشرين الثاني انساب المركب نحو مصب شط العرب[٤] حيث التقى هناك بعد يومين بالحملة القادمة لغزو البصرة فساعدها بمدافعه ـ كما سنأتي اليه •

مفاوضة السيد طالب :

كان السيد طالب النقيب قبيل الحرب أقوى شخصية في منطقة البصرة ، وكان هو والشيخ خزعل والشيخ مبارك على صلة بالانكليز ويعملون على نشر الحركة القومية في العراق • وعند دخول تركيا الحرب كان الانكليز يأملون من السيد طالب أن يقف الى جانبهم على نحو ما فعل صاحباه ، ولكن أملهم هذا خاب •

كان بولارد يتولى القنصلية البريطانية في البصرة قبل الحرب ، وحين دخلت تركيا الحرب غادر هذا الرجل البصرة واتخذ مقره في المحمرة حيث نزل في دار الحاج ريّس ، ثم أرسل سراً الى السيد طالب يدعوه الى مقابلته في المحمرة • وقد استجاب السيد طالب لدعوته ، فركب زورقاً بخارياً أوصله الى مقر الشيخ خزعل في المحمرة ، ومن هناك ذهب بصحبة خزعل لمقابلة القنصل البريطاني بولارد •

لا نعلم على وجه اليقين ماذا كانت طبيعة المحادثة التي جرت بين السيد طالب والقنصل البريطاني ، فالمصادر الانكليزية تعطينا عنها صورة تختلف عن الصورة التي يرويها سليمان فيضي الذي كان يومذاك أمين سر السيد طالب وأحد أعوانه المخلصين • يقول سليمان فيضي في مذكراته : ان القنصل قدم للسيد طالب اقتراحاً خلاصته أن يقدم السيد طالب للانكليز

(4) Arnold Wilson (op. cit.) — vol 1, p. 8.

حميع المساعدات الفعلية لاحتلال البصرة مقابل تعهد الانكليز له بنصبه حاكماً عاماً في ولاية البصرة ، وتعيين موظفين عراقيين في جميع دوائرها ، وجعل اللغة العربية لغة رسمية فيها ، مع بعض الامتيازات الخاصة به وبأسرته . وقد طلب السيد طالب من القنصل مهلة للتفكير في الأمر ، وعاد الى البصرة . وبعد يومين ذهب الى المحمرة مرة ثانية وهو يحمل رده على مقترحات القنصل حيث قال له بصراحة : ان البلاد العربية ترغب في التخلص من نير الاستعمار التركي لكي تعيش مستقلة لا لتبتلي باستعمار جديد ، ولذلك فانه ـ أي السيد طالب ـ يتعهد باعلان الثورة على الاتراك مستعيناً بالضباط والجنود العرب وبالعشائر العراقية دون تدخل من الجيش الانكليزي ، وليس على الانكليز الا أن يمدوه بالسلاح والمال والطيارات والفنيين فقط . واذا تم اخراج الاتراك من البلاد تؤسس فيها دولة مستقلة دستورية تحت حماية الانكليز . ويقول سليمان فيضي : ان الحكومة البريطانية قابلت هذه المقترحات من السيد طالب بالرفض وأصرت على مقترحاتها الأولى . فأرسل السيد طالب رأيه النهائي يقول فيه : « اني لا أوافق على ذلك بتاتاً واني سأعاضد الترك مهما كلف الأمر » .[٥]

ان هذه الرواية التي أوردها سليمان فيضي في مذكراته لا يمكن أن تكون خالية من المبالغة على أي حال . فهو لا بد قد سمعها من السيد طالب ، وان من طبيعة من يتحدث عن نفسه أن يبالغ في ذكر الجانب المحمود من أفعاله وأقواله ويغض النظر عن الجانب المذموم منها . وقد ذكرت المس بيل صورة عن محادثة السيد طالب مع القنصل البريطاني يمكن اعتبارها الوجه الآخر منها . فهي تقول : ان السيد طالب تعهد لنا بأن يقوم بثورة عربية لقاء اعترافنا به أميراً في منطقته ، فأرسلنا اليه الرد بوساطة الشيخ خزعل أشرنا عليه أن يبقى في البصرة ويتعاون لترويج مصالحنا مع شيخ المحمرة وشيخ الكويت وابن سعود ، ووعدناه باعفائه من الرسوم الحكومية عن بساتين نخيله ، وبحمايته من الاتراك ، وبالمحافظة على

---

(٥) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ١٨٩ـ١٩٠ .

الامتيازات الوراثية له ولوالده النقيب . وهنا توقفت المفاوضات ...[٦]

لم تذكر المس بيل السبب الذي أدى الى توقف المفاوضات بينهم وبين السيد طالب ، ولكن ويلسون اشار الى السبب بصورة غير مباشرة حيث قال : ان السيد طالب أخذ يفاوضنا بوساطة شيخ المحمرة ولكن مطامحه كانت شخصية الى أبعد حد فلا تصلح أن تكون أساساً للبحث .[٧]

لعبة السيد طالب :

في الوقت الذي انقطعت فيه المفاوضات بين السيد طالب والانكليز وصل الى علم السيد طالب ان الاتراك ينوون الفتك به ، فقد أخبره أحد أصدقائه بأن جاويد باشا أرسل رسالة سرية الى صبحي بك يأمره بها أن يداري السيد طالب ويتظاهر له بالود والامتنان ريثما تصل القوات التركية الى البصرة ليتم القاء القبض عليه .

يبدو أن السيد طالب أصبح في موقف حرج لا يدري ماذا يفعل ، فقد كان الاتراك يحقدون عليه وينوون الانتقام منه من جهة بينما كان الانكليز من الجهة الأخرى يطلبون منه القيام بمجازفة لا يعرف مغبتها . ومن الممكن القول ان السيد طالب لم يكن واثقاً كل الثقة من انتصار الانكليز في الحرب ، فأراد اتخاذ موقف الانتظار ليعرف أي جانب سينتصر فينضم اليه .

كان لدى السيد طالب شفرة تلغرافية خاصة به للمخابرة مع أنور باشا ، فقرر الاستفادة منها للذهاب الى ابن سعود والبقاء عنده فترة من الزمن ، ثم يرى رأيه بعدئذٍ فيما ينبغي أن يفعل . ولجأ السيد طالب من أجل ذلك الى حيلة بارعة ، حيث نراه يعد برقية مزيفة تبدو كأنها مرسلة اليه من أنور باشا في اسطنبول وفيها يطلب أنور باشا من السيد طالب أن يسافر الى نجد لاقناع ابن سعود بمعاونة الدولة العثمانية .

وأخذ السيد طالب بالتعاون مع نفر من أعوانه يمثلون أدوار المسرحية

---

(٦) المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٥ .

(7) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 18.

بحيث تبدو كأنها طبيعية : فبينما كان السيد طالب جالساً في ديوانه في صباح أحد الايام دخل الخادم عليه وهو يحمل اليه البرقية المزيفة ، وتناول السيد طالب البرقية وفض غلافها أمام الحاضرين ثم ناولها الى المحامي عمر فوزي لكي يحل رموزها ويقرأها علناً . ولما قرأها المحامي أيقن الحاضرون كلهم بأنها برقية حقيقية من أنور باشا . وشاع خبر البرقية في البصرة ، وانطلت الحيلة على المسؤولين فيها وصدقوا بها تصديقاً لا شك فيه بحيث أن صبحي بك جاء الى السيد طالب وعرض عليه خدماته .

وفي عصر ٥ تشرين الثاني ١٩١٤ غادر السيد طالب البصرة ومعه أمين سره سليمان فيضي المحامي ، وقد خرج لتوديعه الوالي وقائد الحامية وجمع غفير من الأهلين والموظفين . وحين وصل السيد طالب الى منطقة «الرافضية» القريبة من الزبير حيث كانت ركائبه تنتظره انضم اليه عبدالوهاب المنديل والشيخ أحمد الابراهيم وعبدالكريم الدخيل وعبدالعزيز المكنزي والضابط توفيق الحموي ونحو أربعين رجلاً بين جمال وخادم وطباخ وسائس .

يروي سليمان فيضي في مذكراته : ان الانكليز أرسلوا الى السيد طالب قبل مغادرته « الرافضية » رسولاً يحمل رسالة سرية حيث يتعهدون له فيها أن يجعلوه حاكماً عاماً مدى الحياة على المنطقة التي يحتلونها من العراق مقابل التزامه الحياد أثناء الحرب ، فكان جواب السيد طالب : « اني أرفض كل اقتراح من هذا القبيل ، وقد عزمت على السفر الى نجد، فابحثوا عمن يعينكم على استعمار بلاده ، واعلموا ان الذي لا يرضى بحكم الاتراك اخوانه في الدين حري به أن يأبى حكم الانجليز» .[٨] ولا ندري هل هذه تمثيلية أخرى من السيد طالب أم ان الانكليز فعلوا ذلك حقاً ؟!

وصل ركب السيد طالب الى الجهرة القريبة من الكويت في صباح ٧ تشرين الثاني ، فكان في استقباله هناك الشيخ جابر الصباح ولفيف من آل الصباح ووجهاء الكويت . ثم دخل الركب الى الكويت ، ونزل في

---

(٨) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ١٩٢ .

قصر الأمير الشيخ مبارك الصباح • ويحدثنا سليمان فيضي في مذكراته عن المحاولات العديدة التي حاول بهـــا القنصل البريطاني في الكويت الكولونيل كيرى اقناع السيد طالب بقبول الاقتراح الانكليزي الأخير ، وكيف قابل السيد طالب تلك المحاولات بالاصرار على الرفض • وقد قدم الانكليز في النهاية اقتراحاً من نوع آخر هو أن يؤخذ السيـد طالـب الى الباخرة الراسية قرب الفاو والتي كانت تحمل السر برسي كوكس فيبقى فيها مع كوكس ريثما يتم احتلال البصرة ، وعند هذا يدخل الرجلان الـى البصرة سوية فيكون السيد طالب حاكماً عاماً فيها بينما يكون كوكس الى جانبه ممثلاً للحكومة البريطانية • وقد رد السيد طالب على هذا المقترح الجديد قائلا : « انه لو جرى ذلك حقاً لكانت وصمـة شنيعة وجريمـة وطنية لا تغتفر »•

ويقول سليمان فيضي : ان شيخ الكويت اختلى بالسيد طالب فـي محاولة أخيرة لاقناعه ، وانه حين وجد السيد طالب مصراً على الرفض ألمح اليه بأنه سيمنعه من مغادرة الكويت ، فقال له السيد طالب محتداً : «كنت الى الآن أدعوك بعمي ، أما الآن فأقول لك يا مبارك ، اذا منعتني من الخروج الى الكويت فأطلق من مسدسي هذا طلقتين تستقر الأولـى في رأسـك والثانية في رأسي » • فخرج الشيخ مبارك من الغرفة ونادى سليمـان فيضي قائلا له : «تعال احضر معنا وشوف رأي صاحبك المجنون !» •[٩]

خرج السيد طالب مع ركبه من الكويت أخيراً متجهاً نحو بلدة بريدة التي كان الأمير ابن سعود فيها • وقد وصل الركب اليها فـي صباح ١٨ تشرين الثاني وكان في استقبالهم بعض أنجـال الأمير ووزرائه وزهاء ثلاثمائة فارس ، وحين وصلوا الى قصر الأمير كان الأمـير عند الباب لاستقبالهم ، فصعدوا الى القاعة الكبيرة ليشربوا القهوة •

امتلأت الفسحة امـام القصر بالجماهير ، وقام الفرسان السعوديون بعرض ألعابهم البارعة ، وطلب السيد طالب اذناً من الامير بالسماح لسليمان فيضي بالقاء كلمة على الجماهير المحتشدة وقام سليمان فألقى خطاباً ارتجالياً

---

(٩) المصدر السابق ــ ص ١٩٣ •

كمـا يلـي :ـ

« سيدي الامام الاعظم ، سادتي الحضار الكرام ـ السلام عليكـم ورحمة الله ، وبعد فقد جئنا من البصرة نحمل اليكم تحيات أهلها ، ونعبـر عن آمالهم الكبار بشهامتكم الاسلامية ونخوتكم العربية . لقـد هاجـم الانجليز البصرة بلد اخوانكم في الـدين قاصدين احتلالها وفرض الرق والعبودية على سكانها ، وهذا لا شك مما لا ترضـاه حميتكم الدينيـة . فالنجدة يا آل يعرب ، والنخوة النخوة يا بني عدنان وقحطان . أغيثوا من استجار بكم من اخوانكم وأبناء عمومتكم ، وادفعوا عنهم كيد الكائدين وبطش المستعمرين . ان المسلمين في مشـارق الارض ومغاربها كالجسـم الواحد اذا تألم منه عضو تألمت له سائر الاعضاء ، فأملي وطيـد في أنكم ستتألمون لما أصاب اخوانكم أهل البصرة ، فتهبون لنصرتهم وتسارعون الى نجدتهم ، ان الله في عون المرء ما دام المرء في عون أخيه » .

وعندما وصل سليمان فيضي في خطابه الى هذا الحد نهض الامـير ابن سعود وهتف بأعلى صوته : « لبيك .. لبيك ! » فقال سليمان فيضي : « جزاكم الله خيراً انه لا يضيع جزاء من أحسن عملاً والسلام عليكـم ورحمة الله وبركاته » . (١٠)

لا حاجة بنا الى القول ان ابن سعود حين هتف « لبيك .. لبيك » انما فعل ذلك من باب الدهاء واللباقة السياسية ، فهو في حقيقة أمـره يبغض الدولة العثمانية ولا يريد نصرتها ، وهو يعلم ان السيد طالب مثله في هذا الشعور تجاه الدولة . فكان كل من هذين الرجلين يظهر أمـام الجمهور غير ما يبطن ، ولكن ابن سعود كان داهية بينما كان السيد طالب ذا كبرياء وقد تسيطر عليه العاطفة أحياناً فتدفعه الى غير مصلحته .

مكث السيد طالب وأصحابه في بريدة بضعة أيام ، وقد تظاهر ابن سعود خلال تلك الايام بكتابة بعض الرسائل الى الشريف حسين في مكـة يستشيره في أمر معاونة الدولة العثمانية بحجة أنه يخشى أن يحتل الانكليز موانيه في الخليج وهو يريد من الشريف أن يرشده بحكمته في هذه القضية

---

(١٠) المصدر السابق ـ ص ١٩٥ .

الشائكة • ولم ينتظر ابن سعود وصول الجواب اليه من الشريف ، بل أعلن فجأة بأنه قرر السفر بجيشه الى العراق لانجاد الدولة العثمانية • وأسرع السيد طالب فأبرق الى أنور باشا وطلعت باشا في اسطنبول يبشرهما بقرار ابن سعود ويطلب منهما تجهيز جيشه بالمؤون والاسلحة •

وفي ٢٨ تشرين الثاني تحرك ابن سعود بجيشه نحو العراق ، ومعه السيد طالب وأصحابه ، فكان يسير في كل يوم أربع ساعات ثم يستريح في الخيام حتى اليوم التالي • وقد أدرك السيد طالب أن ابن سعود لم يكن جاداً في زحفه وأنه انما كان يقصد كسب الوقت ريثما تنجلي المعركة المتوقعة بين الاتراك والانكليز في منطقة البصرة •

وفي ٤ كانون الاول عندما وصلوا الى موضع يدعى « الزلفي » وصلتهم رسائل من البصرة تخبرهم باحتلال الانكليز لها ، فاجتمع ابن سعود مع السيد طالب وأصحابه وذكر لهم عقم المحاولة التي يحاولونها بعد هزيمة الجيش العثماني واقترح توقف الزحف في مكانه ، فوافقوا على اقتراحه• وعرض ابن سعود على السيد طالب أن يجعله أميراً على الاحساء فرفض السيد طالب هذا العرض شاكراً •

وتم الاتفاق أخيراً أن يسلم السيد طالب نفسه الى الانكليز بشرط أن ينقله هؤلاء الى بومبي ويضمنوا له حرية العيش والتنقل فيها • وكتب ابن سعود رسالة في ذلك الى السربرسي كوكس • وقد حمل سليمان فيضي الرسالة الى كوكس في البصرة • وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٥ ركب السيد طالب من الكويت باخرة انكليزية أقلته الى بومبي • ووصف سليمان فيضي حالة السيد طالب في الكويت قبل ركوبه الباخرة فقال : « وجدت طالباً في هذا اللقاء غير طالب الذي عهدته من قبل ، فقد كانت معنوياته منهارة ، وقد ساورته الهموم وانتابته الوساوس ، فاختفت تلك القوة الكامنة وراء نظراته ، وتضاءلت تلك الصلابة المتناهية في شخصيته • فرثيت في سري لحاله ، وعصف بي الالم ، وتمنيت لو استطعت التسرية عنه ••• »[١١]

---

(١١) المصدر السابق — ص ١٩٥ •

الحملة الانكليزية :

في ١٦ تشرين الاول ١٩١٤ ــ أي قبل دخول تركيا الحرب بخمسة عشر يوماً ــ تحركت من بومبي قافلة من البواخر وهي تقل حملة انكليزية تقدر بلواء واحد متجهة نحو الخليج العربي •

كانت الحملة بقيادة الجنرال ديلامين ، وكانت الاوامر السرية التي يحملها هذا القائد هي أن يذهب في أول الامر لحماية مصافي النفط وأنابيبه الموجودة في عبادان ، فاذا اعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا وجب عليه أن يعمل لاحتلال البصرة ، وعند هذا ستوافيه الامدادات اللازمة •

وصلت الحملة الى البحرين بعد سبعة أيام من مغادرتها بومبي ، ومكثت راقفة في مياه البحرين بضعة أيام في انتظار الاوامر من الهند • ولم يسمح ديلامين لجنوده بالنزول الى الشاطيء ، بل أمرهم بالبقاء في بواخرهم حرصاً على الكتمان • وقد علم ديلامين أثناء ذلك أن رجلاً ألمانياً في البحرين على وشك أن يرسل تقريرا الى القنصل الالماني في بوشهر يخبره بوصول الحملة الإنكليزية وعدد جنودها ، فأمر ديلامين بألقاء القبض على الرجل ومصادرة التقرير الذي أعده قبل أن يتمكن من ارساله • (١٢)

وفي ٣٠ تشرين الاول وصلت الى ديلامين برقية لاسلكية من الهند تخبره بتوتر الحالة في تركيا وقرب دخولها الحرب ، فأمر بالتحرك نحو الشمال • وفي ٢ تشرين الثاني وصلت الحملة قرب الكويت فأرسل ديلامين أحد ضباطه بزورق بخاري الى أمير الكويت ليستعلم منه عن وضع قلعة الفاو وعدد جنودها وما هو الموضع المناسب لانزال الجنود فيها • فكان جواب الامير : أن أفضل موضع لانزال الجنود هو الهور الواقع في الجهة الغربية من الفاو ، وقد عاد الضابط من الكويت بهذا الرأي الى ديلامين غير أن ديلامين لم يأخذ به لاعتبارات عسكرية ارتآها • (١٣)

وفي ٣ تشرين الثاني وصلت الحملة الى الحاجز الرملي الموجود في

---

(12) Barker (op. cit.) — p. 41.

(13) Moberly (The Campaign In Mesopotamia) — London 1927 — vol. 1, p. 106.

مصب شط العرب ، فكان في انتظارها هناك المركب الحربي « أودين » .
وفي صباح ٦ منه بدأ الهجوم على قلعة الفاو حيث أخذ المركب « أودين » يمطرها بقنابله فأسكت مدافعها الاربعة في خلال ساعة واحدة . وشاء القدر أن تصيب أحدى القنابل قائد الحامية البيمباشي برهان الدين فقتلته حالاً ، وكان ذلك سبباً في انهيار معنوية جنوده فأطلقوا سيقانهم للريح . لقد كان هذا القائد يسكن البصرة وجاء الى الفاو في هذا اليوم بالذات ليتولى عمله فكان أجله فيه . (١٤)

تم احتلال الفاو من غير صعوبة في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من عصر اليوم نفسه ، وفي اليوم التالي تحرك ديلامين بقواته صعداً في شط العرب بعد أن ترك سرية من جنده في الفاو لحمايتها . وحين وصل الى « السنية » ـــ وهي موضع يقع تجاه عبادان على بعد ستة عشر ميلاً من الفاو ـــ أمر بانزال الجنود فيها .

لم يصل خبر سقوط الفاو الى البصرة الا بعد مدة غير قصيرة ، وذلك لانقطاع خط التلغراف بين البلدتين . وقد وصل الخبر أخيراً بوساطة الموظفين الهاربين من الفاو ، فأسرع صبحي بك عند ذلك مرسلاً الى موقع السنية قوة تعدادها أربعمائة جندي بقيادة اليوزباشي سامي بك . وقد علم الشيخ خزعل أمير المحمرة بأمر ارسال هذه القوة فاخبر ديلامين به . وفي فجر ١١ تشرين الثاني قامت القوة التركية بهجوم على ديلامين ولكن هذا كان مستعداً لها بعد اخبار خزعل له بها ، فتكبد الاتراك في هذه المعركة ثمانين قتيلاً ، ثم انسحبوا الى موقع يقال له « سيحان » وهو يبعد عن السنية بأربعة أميال .

وفي ١٤ تشرين الثاني وصلت الى السنية سبع عشرة باخرة انكليزية محملة بالجنود ، فتم بذلك تكوين فرقة عسكرية كاملة . وقد جاء مع البواخر قائد أعلى رتبة من ديلامين هو الجنرال باريت ، فأصبح ديلامين تحت أمرته . ولم يكد باريت يتسلم القيادة حتى وصلته برقية من حكومة الهند هذا نصها : « ليكن هدفك البصرة ، فاذا رأيت بعد تبادل الرأي مع

---

(14) Barker (op. cit.) — p. 42.

ديلامين ان القوة التي لديك كافية فعليك بالتوجه اليها ... » (١٥)

معركة كوت الزين :

تقع قرية كوت الزين على الشاطىء الايمن من شط العرب مقابل المحمرة تقريباً ، وكان الاتراك قد اتخذوا مواقعهم الى الجنوب منها على خط طويل محاذي للشاطىء يبلغ طوله زهاء ثلاثة أميال ، وحشدوا فيه حوالي أربعة آلاف وخمسمائة جندي . وفي ١٧ تشرين الثاني وقعت هناك معركة ضارية بين الانكليز والاتراك ، وهي المعركة التي عرفت في المصادر التركية باسم « معركة الساحل » .

لدينا مذكرات لضابط بغدادي كان من جملة الاسرى الذين وقعوا في قبضة الانكليز على أثر تلك المعركة ، هو محمد رؤوف السيد طه الشيخلي ، وهي مذكرات لا تخلو من أهمية تاريخية واجتماعية على الرغم من اسلوبها الركيك . وقد رأيت من المناسب هنا أن انقل شيئاً من هذه المذكرات بعد اجراء بعض التحوير على اسلوبها للتوضيح :

يقول الشيخلي : انه كان مع فوجه في البصرة فيصباح ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ عندما صدر الامر الى الفوج بالتحرك جنوباً لقتال الانكليز ، وكان الفوج مؤلفاً من أربع سرايا ، فتحركت سريتان منها براً ، أما السريتان الاخريان فنقلتا نهراً على سفن محلية مربوطة بباخرة ، وكان هو مع المنقولين في السفن . وعندما وصلوا الى محل يسمى قصر صالح بك ــ وهو في جنوب أبي الخصيب ــ جاءهم من يخبرهم أن العدو قريب وأنهم يجب أن ينزلوا الى الشاطىء حالا . فنزلوا الى الشاطىء دون أن يأخذوا معهم أمتعتهم ومعداتهم ، وصاروا يسيرون على أقدامهم بين البساتين متجهين جنوباً بمحاذاة شط العرب ، حتى وصلوا الى كوت الزين في المساء .

لم يكن لديهم في تلك الليلة أي طعام علماً بأنهم لم يأكلوا شيئاً منذ الصباح ، وقد استطاع بعض الجنود أن يحصلوا على شيء من الطعام خلسة من الفوج الذي وصل قبلهم . وهم كذلك لم تكن لديهم خيام يحتمون بها من برد الليل . يقول الشيخلي : ان أحد الجنود جاء يشكو

(15) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 115.

اليه من شدة البرد قائلاً انه كان يستدفيء نهاراً بأشعة الشمس ، والآن بعد أن غابت الشمس ماذا يصنع ! •

وفي اليوم التالي أرسلوا بعض الجنود الى القرية للبحث عن طعام لهم ، فعادوا يحملون خصافتين من التمر الاسود المعروف هناك باسم « سعادة » ، وصار الجنود يتلاقفون التمر كأنه اللؤلؤ • ثم واصلوا سيرهم عصراً ، ولم يكن لديهم خريطة يستهدون بها ، غير أن سامي بك عمل لهم تخطيطاً مستيعناً ببعض الافراد الذين يعرفون تلك الاراضي • ثم باتوا ليلتهم الثانية في أحد البساتين •

وفي اليوم الثالث بدأوا سيرهم من قبل الفجر حتى وصلوا الى موقع سيحان ، وكانوا قبيل وصولهم قد أرسلوا مفرزة من الجنود بقيادة ضابط اسمه تحسين افندي للتحرش بالعدو واختبار قوته ، فعادت المفرزة بعد أن قتل ضابطها ونصف جنودها ولم يعرفوا عن العدو سوى أنه أقوى منهم • ثم باتوا ليلتهم في البساتين ، وفي الصباح التالي وصلتهم اكياس من الطحين لطعامهم ، فتقاسموها بينهم بالحفنات • وأخذ الجنود يعجنون الطحين في كوفيات رؤوسهم من غير ملح ، ثم شووه على النار فوق أعواد التقطوها من البساتين •

صارت الاطعمة بعدئذٍ تصل اليهم وافرة من الغنم والرز والسمن ، كما وصلت اليهم القدور والقروانات ــ أي القصاع ــ فاخذوا يخبزون ويطبخون بعد جوع استمر خمسة أيام • وبينما هم في ذلك اذ وصل اليهم واعظ من رجال الدين من أجل تشجيعهم وحثهم على الثبات في القتال ، وبدأ يتلو عليهم الآيات والاحاديث الخاصة بذلك منها قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وقوله : « ان الله يحب الذين يحاربون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ، وقول النبي : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » • فصار الجنود يتضاحكون حيث قالوا : ما هو الغرض من هذا الوعظ ونحن مستعدون للموت ولكن أين القوة ؟ ! •

مكثوا في بساتين سيحان ثلاث ليالي ، وكانت قوتهم قد بلغت هنالك ثلاثة أفواج ، ووصل اليهم ضابط برتبة مقدم لقيادتهم اسمه عادل بك • وفي

صباح ١٥ تشرين الثاني بدأ القتال بينهم وبين الانكليز .
كانوا في بداية المعركة يتراجعون من أمام الزحف الانكليزي شيئاً فشيئاً ، ثم صدر الامر اليهم أخيراً بالانسحاب الى كوت الزين وأن يحفروا خنادقهم فيها . وقد واجهتهم هناك مشكلة عويصة هي أنهم لا يملكون الادوات التي يحفرون بها الخنادق ، فشكوا أمرهم الى قائدهم عادل بك ، فأجابهم القائد مغتاظاً : : ان الارض رخوة يمكن حفرها بالقسطورة والقروانة وحتى بالاضافر . فشرع الجنود يحفرون طاعة لامر قائدهم طيلة النهار ، ولكنهم لم يتمكنوا الا من حفر خنادق قليلة العمق تكفي للانبطاح فيها فقط ، وكان في نيتهم تعميق الخنادق في اليوم التالي غير أن العدو بدأ يتقدم نحوهم . فصدر الامر من عادل بك اليهم بأن يدافعوا عن خنادقهم « الانبطاحية » حتى النفس الاخير ، أما من ينهض منهم فالاعدام حاضر له طبعاً . وقد نشب عند ذلك قتال مرير تكبد الانكليز فيه خسائر فادحة لانهم كانوا يتقدمون في العراء مكشوفين على شكل « قدمات » يتلو بعضها بعضاً ، فكانت كل قدمة منهم تنبطح على الارض وتطلق الرصاص بينما كانت القدمة التي وراءها تتقدم الى الامام ، ثم تنبطح بدورها لتتقدم من ورائها قدمة أخرى ، وهكذا دواليك ...
وعندما وصل الزحف الانكليزي الى بعد ثلاثمائة متر منهم كان العتاد قد نفد لديهم ، كما نفد صبرهم أيضاً . ولما أصدر عادل بك أمره اليهم بأن يقاتلوا بالسلاح الابيض لم يطيعوا أمره وأخذوا يفرون ، ولكن فرارهم هذا كان كارثة عليهم لانهم حين خرجوا من خنادقهم صاروا عرضة لنيران العدو فهلك أكثرهم . أما من بقي منهم في الخنادق فقد وقع في أسر الانكليز ، وكان من بين الاسرى محمد رؤوف الشيخلي والقائد عادل بك ، فأخذ الانكليز سيف الشيخلي بينما أبقوا لعادل بك سيفه .
يروي الشيخلي : أنه بعد وقوعه في أسر الانكليز سأله أحد ضباطهم بلهجة التعجب : « هل أنت عربي ؟ ! » ، وكان يقصد من سؤاله أن يقول : اذا كنت عربياً فلماذا تقاتل من أجل الاتراك . فأجابه الشيخلي قائلا بأنه عثماني . وفي اليوم التالي جاء ضابط انكليزي آخر يتكلم التركية بذلاقة وتبين أنه بولارد الذي كان قنصلاً في البصرة ، وأخذ يناقش الشيخلي

ورفاقه من الضباط الاسرى حول دخول تركيا الحرب ، وأخذ يشرح لهم كيف كان من الأفضل لها أن تبقى على الحياد ، فجادله الاسرى في هذا الموضوع وكان رأيهم ان دخول تركيا الحرب أولى من وقوفها على الحياد •

ثم سيق الأسرى بعدئذٍ نحو باخرة راسية في شط العرب ، وقد مروا في طريقهم بالقائد الانكليزي الجنرال باريت فوجدوه جالساً على الارض فوق بطانيات فرشت له وبين يديه أوراق ودفاتر وخرائط كثيرة وهو منهمك في النظر فيها • ثم وصل الاسرى الى الباخرة حيث احتجزوا فيها عشرين يوماً وهي واقفة في الماء لا تتحرك • ثم نقلوا بعدئذٍ الى باخرة أخرى أبحرت بهم الى الهند • (١٦)

سقوط البصرة :

يمكن القول ان معركة كوت الزين هي التي قررت مصير البصرة ، فقد أخذت الاشاعات الانهزامية تنتشر في البصرة على أثر تلك المعركة • والظاهر ان عملاء الانكليز وجواسيسهم كان لهم دور مهم في هذا الشأن ، فكانوا يختلقون الاشاعات ويعملون على بثها بين الناس بمختلف الوسائل ، وكان الناس من جانبهم ميالين لتصديق تلك الاشاعات كما هي عادة الناس دائما في مثل تلك الظروف •

عقد صبحي بك قائد حامية البصرة اجتماعاً في مقر الولاية بالبصرة لدراسة الموقف واتخاذ القرار المناسب ، ولما كان الوالي غائباً فقد حضر مكانه القاضي الذي كان وكيلاً عنه • وبعد المداولة أجمع الرأي على ضرورة جلاء القوات التركية عن البصرة • وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩١٤ تم اخلاء البصرة بعد أن أغرق الاتراك ثلاث بواخر في شط العرب لسد الطريق على الحملة الانكليزية القادمة •

ولم يكد غوغاء البلدة وأبناء العشائر القريبة يسمعون بنبأ اخلاء البصرة حتى تهافتوا على مخازن الكمرك ودوائر الحكومة ينهبونها ويشعلون

---

(١٦) محمد رؤوف الشيخلي (مراحل الحياة) ـ البصرة ١٩٧٢ ـ ج ٢ ص ٣٢٨ـ٣٥٠ •

النار فيها • وأصبحت البلدة كلها في خطر ، فمن طبيعـة الغوغاء أنهـم لا يقفون في اندفاعهم عند حد ، فهم بعد انتهائهم من نهب أملاك الحكومة قد يتجهون الى نهب الاسواق ثم البيوت ، وقد يعمدون بعد ذلك الى القتل وانتهاك الحرمات •

اتفق جماعة من وجهاء البصرة فركبوا زورقاً بخارياً وتوجهوا به نحو قائد الحملة البريطانية حيث طلبوا منه الاسراع في احتلال البصرة لانقـاذ اهلها من خطر الغوغاء ، وقد استجاب الجنرال باريت لطلبهم فاوعز الـى المركبين الحربيين « أودين » و « اسبيكل » بأن يتحركا نحو البصرة بأقصى سرعة ممكنة • وقد وصل المركبان الى مقربة من البصرة قبيـل الغروب ، وكان الدخان يتصاعد من بعض أنحاء البلدة والغوغاء منهمكين في النهب• فأطلق المركبان بعض القنابل للارهاب مما كان له أثره في انقاذ البلدة • وفي اليوم التالي وصلت طلائع الحملة وأخذ جنودها يلقون القبض على أفـراد من الغوغاء ، وشنقوهم حـالاً ليجعلوهم عبـرة لغيرهم ، فاستتب الأمن في البلـدة !

وفي ٢٣ تشرين الثاني وصل الجنرال باريت الى البصرة على رأس قواته ومعه مستشاره السياسي السر برسي كوكس • وقد جرى احتفـال أمام سراي الحكومة حضره وجهاء البلدة ، وألقى كوكس باسم القائد خطابا قال فيه : ان بريطانيا قد احتلت البصرة وهي في حرب مع الحكومة التركية لكنها ليس بينها وبين الاهالي أي عداء ، ولا تضمر أي سوء تجاههم ، ونحن نأمل أن تثبت لهم بأننا حماتهم وأصدقاؤهم، ولم يبق الآن من الادارةالتركية شيء في هذه المنطقة ، فقد رفع في محلها العلم البريطاني الذي سـوف تتمتعون في ظله بمنافع الحرية والعدالة بالنسبة لشؤونكم الدينية والدنيوية معاً • وقد أصدرت الاوامر المشددة لجنودي المظفرة بأن يعاملوا السكان عموماً بصداقة وتقدير تامين عند قيامهم بالواجبات الملقاة على عاتقهـم • وعليكم أنتم أن تعاملوهم بالمعاملة نفسها ••• [١٧]

وختم الاحتفال برفع العلم البريطاني على السراي ، وأطلقت المراكب

---

(17) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 131.

الحربية مدافعها تحية ، وهتف الحاضرون ثلاثاً بحياة جلالة الملك . [١٨]

احتلال القرنة :

كان صبحي بك قد انسحب مع فلول قواته الى القرنة وهي ذات موقع عسكري مهم في ملتقى دجلة والفرات . وفي ٢٩ تشرين الثاني أرسل الجنرال باريت الى القيادة العامة في الهند يخبرها أنه يرغب في احتلال القرنة لحماية البصرة من الجهة الشمالية كما يرغب في تأسيس موقع مستحكم في الشعيبة لحماية البصرة من الجهة الغربية . وفي ٣ كانون الاول تلقى باريت من الهند قرار الموافقة على رغبته . [١٩]

أرسل باريت قوة بقيادة الكولونيل فريزر لمهاجمة المزيرعة وهي قرية تقع في الجانب الشرقي من دجلة مقابل القرنة . وفي ٤ كانون الاول جرى الهجوم على المزيرعة وتم احتلالها غير أن فريزر قرر الانسحاب منها لعدم توفر حيوانات النقل لتموينه ، فعاد الى قواعده مساءاً ومعه ثمانية وسبعون أسيراً . [٢٠] وقد ظن الاتراك أنهم هزموا القوة الانكليزية في هذه المعركة ، فقوى ذلك من عزيمتهم ، وعادوا الى المزيرعة وهم فرحون .

أعد باريت قوة أكبر من الاولى لاحتلال المزيرعة تمهيداً لاحتلال القرنة ، وجعلها بقيادة الجنرال فراي . وفي صباح ٧ كانون الاول تحركت القوة باتجاه المزيرعة تؤيدها المراكب الحربية من النهر . وأخذت القنابل تنهال على الاتراك من البر والنهر معاً ، فحلت الهزيمة بالاتراك . وصار الكثير من جنودهم يرمون بأنفسهم الى النهر فراراً غير أنهم لم ينج منهم الا القليل من جراء انهمار النيران الانكليزية عليهم . ومن الجدير بالذكر ان والد كاتب هذه السطور كان من بين الجنود الذين ألقوا بأنفسهم الى النهر ونجوا ، وقد ذهب هو والذين نجوا معه الى الجبايش والتجأوا

---

(18) Barker (op. cit) — p. 47.

(١٩) شكري محمود نديم (حرب العراق) — بغداد ١٩٦٧ — ص ٢٤ .

(20) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 144.

الى الشيخ سالم الخيون رئيس بني أسد فحماهم وأكرمهم اكراماً ظلوا يلهجون بذكره زماناً طويلاً •

وفي ٨ كانون الاول بعد أن تم احتلال المزيرعة من قبل الانكليز أرسل الجنرال فراي نفراً من جنوده للبحث عن موضع مناسب لنصب جسر على دجلة • وقدتم العثور على الموضع المناسب على بعد ثلاثة أميال من شمال القرنة • وفي الساعة الحادية عشر والنصف قبل الظهر عبر دجلة سباحة ثلاثة من الجنود الهنود هم : غلام نبي ونور داود وغلام حيدر، [٢١] وكانوا يسحبون معهم سلسلة من الحديد ، فأوصلوها الى الضفة الغربية ، وكان هذا تمهيداً لنصب جسر من القوارب على النهر • وحين تم نصب الجسر عبرت عليه قوة انكليزية الى الجانب الغربي من النهر •

لم يعلم الاتراك بأمر نصب الجسر الا بعد اتمامه وعبور القوة الانكليزية عليه • وأدرك الاتراك عندئذ أنهم أصبحوا في القرنة مطوقين حيث انقطع عليهم خط الرجعة • وفي منتصف الليل شوهدت باخرة تركية تتحرك من القرنة ، وتبين أنها كانت تحمل صبحي بك واثنين من ضباطه وهم قادمون ليعرضوا استسلامهم للانكليز •

وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي ـ أي في ٩ كانون الاول ـ جرى الاستسلام بحضور الجنرال فراي والسر برسي كوكس • وقد أعاد فراي الى صبحي بك سيفه اعترافا بدفاعه المجيد عن القرنة • [٢٢] ولست أدري أي دفاع مجيد أبداه هذا القائد التركي ؟ !

عند دخول الجنود الانكليز الى القرنة أصيبوا بخيبة أمل مريرة ، فالقرنة حسب الاساطير الشائعة هي موضع الجنة التي عاش فيها آدم وحواء قبل سقوطهما الى الارض ، ولكن الجنود وجدوها في غاية القذارة معظم بيوتها من طين ، وتخترقها دروب ضيقة ملتوية ، وتكثر فيها البراغيث والذباب والبعوض • وقد نظم أحدهم بيتين من الشعر في هذه المناسبة قال فيهما : اذا كانت هذه هي أرض أبينا آدم وأمنا الحسناء حواء فلا لوم

---

(21) Ibid, vol. 1, p. 149.

(٢٢) ابراهيم الراوي (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٢ •

عليهما اذن حين عصيا ربهما وأخرجا من الجنة ، واذا كانت هذه هي الجنة فكيف تكون جهنم يا ترى ؟ ! • (٢٣)

لم تنحصر مشكلة الجنود في هذا وحده بل واجهوا مشكلة أخرى هي أن أبناء العشائر المحيطةبالقرنة أخذوا يحاولون نهب المعسكر الانكليزي بشتى الطرق ، فكان الفرد منهم يجازف بحياته فيدخل المعسكر زاحفاً تحت الاسلاك الشائكة من أجل أن يسرق شيئاً ولو كان تافهاً • (٢٤)

كان احتلال الانكليز للقرنة بداية احتكاكهم بالعشائر العراقية ، وكانت هذه العشائر لا تعرف الولاء لاية حكومة مهما كانت ، لا فرق في ذلك بين حكومة الاتراك القديمة او حكومة الانكليز الجديدة ، فكل حكومة هي في نظر العشائر عدوة يجب ان تنهب ويقتل رجالها بكل وسيلة ممكنة • وكان الفرد العشائري يفتخر بغزواته ضد الحكومة وبكثرة غنائمه منها ، ويعد ذلك من علامات رجولته وشجاعته • وقد عانى الانكليز من هذه النزعة العشائرية طيلة سنوات الحرب ، كما عانى منها الاتراك ، على نحو ما سنأتي عليه في فصول قادمة •

الغليان التجاري :

كانت البصرة خلال الاشهر الثلاثة التي سبقت الاحتلال الانكليزي تعاني كساداً شديداً ، وذلك من جراء اعلان النفير العام وتوقف النقل البحري، فظلت أكداس التمور في مخازنها دون أن يتمكن أصحابها من ارسالها الى الخارج كما اعتادوا عليه في صيف كل عام • فلما جاء الاحتلال قفزت أسعار التمور وراجت التجارة وحدث تضخم نقدي لم تشهد البصرة له مثيلاً في تاريخها كله • يقول ويلسون : ان الطلب ازداد على العمال فهرع العرب والفرس من أقاصي الارض ، وارتفعت الاسعار بحيث بيعت أرخص أنواع التمور في كانون الاول بأسعار تفوق أسعار أفضل التمور التي كانت تصدر الى أوربا قبل اعلان الحرب ، وأخذت النقود تتدفق بحرية • (٢٥)

---

(23) Barker (op. cit.) — p. 63.

(24) Ibid, p. 61—63.

(25) Arnold Wilson (op. cit.) vol. 1, p. 15.

ووصف يوسف غنيمة في كتابه « تجارة العراق » حالة البصرة يومذاك فقال ما نصه : « ... ان البريطانيين دخلوا البصرة وبدخولهم انفتح مجال واسع للتجارة والاعمال اذ أنهم كانوا مسيطرين على البحار وبيدهم ويد حلفائهم مقاليد الملاحة في البحر المتوسط وبحر الهند والبحر الاحمر وخليج فارس وغيرها مما كان يسهل سبل المتاجر والمضارب في البصرة مرفأ العراق الوحيد ... وقد كانت الحملة البريطانية في حاجة الى المؤون والامتعة والمشروبات والتبغ للتدخين ، ففتح عهد زاهر للمتاجرة ، وشرع التجار يستوردون بضاعات لم يكن لها سوق في العراق ، أو كان نطاق المتاجرة بها ضيقاً ، كالمشروبات الكحولية الاوربية على انواعها ، والحليب المركز في علب ، والبسكويت والشيكولات ، والعطريات وأدوات الزينة والحلاقة ، واللحوم المكبوسة في العلب ، وقناني المخللات والرواصير ، وانواع السيكارات الامريكية ، والصابون الافرنجي على اختلاف أنواعه وغيرها وغيرها . وكلنا يعرف درجة الترف الذي عاش فيه الجندي البريطاني في العراق فضلاً عن ضباط الجيش وامرائه ، وابتياعهم الحاجيات والكماليات بأسعار مرضية . ولم يقف طلب الجيش البريطاني عند هذا الحد بل كان يبتاع غلات البلاد والبضاعات الواردة اليها من حنطة وشعير ولحم وفاكهة وسمن وبقول ووقود وخشب وحديد وملاط وزجاج نوافذ وحصران وكل أدوات البناء ، وكان يستدعي المقاولين ويعهد اليهم بأشغال خطيرة كاقامة البيوت وانشاء الطرق وبناء المستشفيات والمآوي والملاجيء ، ويبتاع الادوات الكثيرة التي يحتاج اليها الجيش . لا بل انه كان يشغل العمال كالنجارين والحدادين والبنائين والعتالين وسواهم ، وينقدهم أجوراً عالية . وكان المال يسيل من قناة السياسة الى الشيوخ والقبائل العربية ...

« فكثرة المال وكثرة طلب البضاعات والمؤون والعمال من الجهة الواحدة ، وقلة البضاعات لاشتغال المعامل في اوربة والهند لسد مطاليبه الجيوش الكثيرة وقلة وسائل النقل لاشتغال المراكب بنقل الجيوش ومعدات الحرب من الجهة الاخرى ، روجت تجارة البصرة أي رواج حتى أن البضاعة الواحدة كانت تباع مراراً قبل وصولها الى المرفأ ، وذلك بنقل بواليص الشحن من يد الى أخرى ، وكانت تخلف ربحاً طائلاً كل مرة يبعت فيها .

واذا وصلت البضاعة الى المدينة يبعت على الجيش دفعة واحدة ، او ابتاعها بياعو الاشتات وأصحاب الدكاكين ولم تلبث يومها حتى تنفد . وكـانت أسواق البصرة غاصة بأصحاب الاعمال والمستفيدين من العـرب والعجم ، وكان تجارها يبعثون بأموالهم الى الاهواز ومن هناك تتوغل في بلاد ايران ، ويبتاع عرب البدو مقادير وافرة من أنواع الامتعة والسلع وينقلونها الـى القبائل الرابضة على عدوات دجلة والفرات ، وربما نقلوها الى المناطق التـي كانت تحت سلطة الاتراك حتى بغداد وما فوقها . وكنا نسمع عن ذلـك الانقلاب الاقتصادي من الغرائب والعجائب ما يذهل الالباب ويحير العقول فنعد بشائر ذلك الاثراء والرفاه من الاحاديث الفرية أو من مخترعات الخيال وننزلها منزلة أقاصيص ألف ليلة وليلة . كيف لا يكون ذلك وكان في تلـك الانباء شيء كثير من الحقائق وأكثر منه الغلو الذي خلقته مخيلة القوم أو نشأ من تناقل الاخبار من فم الى آخر ، ومن راويـة الى ثان ، فالتفت حولهـا الزوائـــد .. » [٢٦]

اتجـاه السـكان :

من الطبيعي أن ينقسم أهل البصرة تجاه الاحتلال الانكليزي الى فئتين: فئة ترضى به وأخرى تسخط عليه . فالذين انتفعوا من الاحتلال لابـد أن يرضوا به على وجه من الوجوه ، ويدخل في جملة هؤلاء الراضين التجـار والمقاولون والعمال وأصحاب الاملاك والبساتين . انهم جنوا أرباحاً طائلـة لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، وصاروا يقارنون بين الاتراك والانكليز ــ أولئك يصادرون أموال الناس من غير تعويض وهؤلاء يشترونها بالثمن الغالي.

وهناك أشخاص من شأنهم أن يستقبلوا اية حكومة جديدة تأتي اليهم بالترحيب ويتزلفوا اليها ويمدحوها ، وهؤلاء هـم الـذين يسـميهم العامة « أهل الجبب » ، فلقد قامت وجاهتهم الاجتماعية على أساس التقرب مـن الحكام ومجالستهم ، واذا حدث انقلاب في نظام الحكم وجاء حكام جـدد ذهبوا اليهم يفعلون معهم كما فعلوا مع البائدين ، . فهم قد اعتادوا على هذا

---

(٢٦) يوسف رزق الله غنيمة (تجارة العراق قديما وحديثا) ــ بغداد ١٩٢٢ ــ ص ١٢٣ــ١٢٦ .

السلوك لا يجدون فيه معرة وربما افتخروا به أمام الناس •

عندما وصل الجنرال باريت الى البصرة وبصحبته مستشاره السياسي السر برسي كوكس جاء الكثيرون من وجهاء البصرة للترحيب بهما وتهنئتهما بالنصر ، وقد تظاهر الوجهاء بالفرح وأبدوا اعجابهم بالعدالة البريطانية وأخذوا يدعون الله تعالى أن يجعل راية بريطانيا العظمى ترفرف على رؤوسهم دوماً • وفي اليوم الاول من كانون الثاني ١٩١٥ أرسل ستة من وجهاء البصرة الى الملك جورج الخامس برقية بمناسبة رأس السنة الجديدة يظهرون فيها امتنانهم لادخالهم تحت رعاية الراية البريطانية •

ولم تقتصر هذه الظاهرة على وجهاء البصرة بل شملت الكثيرين من روساء العشائر القريبة من البصرة أيضاً • ذكرت المس بيل : أن أول من اتصل بهم هو الشيخ ابراهيم رئيس قرية الزبير ، فقد كانت قرية الزبير من أسواق البدو يتجمعون فيها أحيانا ، ولهذا كان ديوان الشيخ ابراهيم كثيراً ما تتردد فيه أحاديث القبائل البدوية وشؤونها السياسية ، وقد استفاد الانكليز من ذلك فائدة كبيرة لان الشيخ ابراهيم صار بمثابة عين للسر برسي كوكس ينقل اليه أخبار القبائل • (٢٧)

وكان على رأس الشيوخ الذين تعاطفوا مع الانكليز الشيخ كباشي السعد رئيس قرية « النهيرات » القريبة من القرنة ، فقد كان هذا الرجل من أوائل الذين اتصلوا بالانكليز اذ صار يتراسل معهم منذ سقوط البصرة ، ولما وصل الانكليز الى قريته نال اعجابهم بما كان يملك من لباقة وشخصية ظريفة ، فقد كان بعقاله ذي اللفات الاربع وعباءته المكلبدة ولحيته المصبوغة بالحناء يخلب أبصارهم ، وأخذ يتحدث اليهم عن بعض طرائف التاريخ المحلي وأساطيره وتقاليده ، فصار نديماً لهم يطربون لحديثه ويستشيرونه في المشاكل التي تتصل بالامور الاجتماعية في منطقته •

وقد فعل مثل ذلك الحاج عذار رئيس قرية « الهارثة » التي تقع بين البصرة والقرنة ، فهذا الرجل كان قد شارك في معركة كوت الزين الى جانب

---

(٢٧) المس بيل (المصدر السابق) — ص ٩ •

(28) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, 20.

الاتراك وأصيب بجراح ثم وقع في أسر الانكليز ، وأراد الانكليز ابعاده مع الاسرى الى الهند غير ان الشيخ خزعل تشفع له فأطلقوا سراحه . وأخـــذ الحاج عذار يتقرب الى الانكليز وتولى وظيفة حكومية لديهم ، وكان بذلك أول رئيس عشائري يدخل في سلك الادارة الانكليزية في العراق . (٢٨)

وعلى النقيض من هذه الفئة المتعاطفة مع الانكليز نجد الفئة الاخـرى التي كانت ساخطة عليهم ، وهي تتمثل في رجال الدين ومن يتابعهم من الاتقياء والعوام ولا سيما الذين لم يجنوا مالاً في تلك الفترة . فهؤلاء كانوا يرون في الاحتلال الانكليزي خراب الدين وفساد الاخلاق . ان عادات الانكليز ونظمهم الاجتماعية قد أثارت استنكارهم فاعتبروها مؤدية الى عواقب وخيمة في الدين والدنيا . يقول ويلسون : ان اكثر السكان في البصرة لـم تكن نواياهم حسنة تجاهنا ، وكانوا يحنون للاتراك ويمتعضون مـن انتصارنا عليهم ، فهم قد تحاشوا أساليبنا واستنكروا عاداتنا الغريبة عليهم ، فالركبات العارية التي شاهدوها في جنودنا مثلاً كانت تغيظهم وتثير تقززهم . (٢٩)

خلاصة القول ان المجتمع البصري شهد عقب الاحتلال الانكليزي انقلاباً اجتماعيا واقتصادياً هائلاً ، وقد وصف سليمان فيضي هذا الانقلاب فـي مذكراته حيث قال مانصه :

« أدى انتقال الحكم من أيـدي العثمانيين الى الانجليز الى حـدوث تبدلات جوهرية في حياة الناس ، وفي القيم الاجتماعية والسياسية للافراد ، أو بالاحرى ان الاحتلال الانجليزي للبصرة كان بمثابة انقلاب حاسم فـي مختلف نواحي الحياة فيها . فحين عدتُ الى المدينة كان الكثير من أوصافها قـد تغير ، فبرزت الى الميدان طبقة جديدة من التجـار والمتعهدين والوجهاء بالغت في الترحيب بالمحتلين الجدد وربطت مصالحها بمصالحهم ، بينمـا ناوأ المستعمر اولئك الذين أعرضوا عن التمرغ على أعتابه وربأوا بأنفسهم من التهالك على نيل مرضاته » (٣٠)

---

(28) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 20.

(29) Ibid, vol 1 , p. 35.

(٣٠) سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٢ .

الفصل الخامس

حركة الجهاد

بدأت حركة الجهاد في العراق في ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ عندما كانت البصرة مهددة بخطر الغزو الانكليزي ، فقد وصلت يومذاك برقية من البصرة الى علماء الدين في العتبات المقدسة ومختلف المدن العراقية جاء فيها ما نصه : « ثغر البصرة الكفار محيطون به ، الجميع تحت السلاح ، نخشى على باقي بلاد الاسلام ، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع » . وقد تليت هذه البرقيات على الناس في المساجد ، ونادى المنادون بها في الاسواق ، وأخذ الوعاظ والخطباء يلهبون مشاعر الناس بخطبهم الحماسية يؤكدون فيها ان الانكليز اذا احتلوا العراق فسيهدمون مساجده وعتباته المقدسة ويحرقون القرآن وينتهكون حرمات النساء ويذبحون الاطفال والشيوخ . وصدق الكثير من الناس بهذه الاقوال فشاع الرعب بينهم .

الجهاد في النجف :

أهم ما كان يخالج ذهن الحكومة يومذاك هو كيف يمكن تحريض الشيعة للانضمام الى حركة الجهاد ، وكان أول ما فكرت فيه الحكومة في هذا الشأن هو ارسال وفد الى النجف مؤلف من بعض الشخصيات المحترمة لمحادثة المجتهدين الكبار في هذا الامر . ومما يجدر ذكره أن الشيعة لا يجيزون الجهاد الا اذا كان بأمر أو موافقة من الامام المعصوم ، غير أنهم يجيزون الجهاد في حالة تعرض البلاد الاسلامية لخطر مهاجمة الكفار لها ، وهم عند ذلك يطلقون عليه اسم « الدفاع » .

تألف في بغداد وفد من محمد فاضل باشا الداغستاني وشوكت باشا والشيخ حميد الكليدار وآخرين ، وحين وصل هذا الوفد الى النجف استقبل بحفاوة بالغة ، ثم عقد اجتماع حافل في جامع الهندي حضره الكثير من العلماء والوجهاء ورؤساء العشائر ، وخطب فيه السيد محمد سعيد

الحبوبي ، والشيخ عبدالكريم الجزائري ، والشيخ جواد الجواهري ، حيث ذكروا وجوب مشاركة الحكومة المسلمة في دفع الكفار عن بلاد الاسلام ، ثم قام مبدر الفرعون رئيس آل فتلة فألقى كلمة قال فيها : « ان الاتراك اخواننا في الدين وواجب علينا مساعدتهم في طرد الاعداء من بلادنا » .[1]

ذهب الشيخ حميد الكليدار الى الكوفة لمقابلة كبير المجتهدين السيد كاظم اليزدي ومحادثته في أمر الجهاد . ولم تكن علاقة السيد كاظم مع الاتحاديين حسنة اذ هو كان من دعاة « الاستبداد » بينما هم كانوا من دعاة « المشروطية » ،[2] وقد سبق للاتحاديين ان هددوه بالنفي وأثاروا سخطه، ولكن الشيخ حميد الكليدار استطاع ان يقنعه بوجوب نسيان عدائه للاتحاديين باعتبار ان البلاد الاسلامية مهددة بخطر غزو الكفار لها ، فوافق اليزدي على ارسال ولده السيد محمد لينوب عنه في استنهاض العشائر للجهاد . وفي ١٦ كانون الاول ١٩١٤ صعد اليزدي المنبر في صحن النجف وخطب في الناس حاثاً لهم على الدفاع عن البلاد الاسلامية ، وأوجب على الغني العاجز بدناً أن يجهز من ماله الفقير القوي . فكان لكلامه صدى رددته الاطراف .[3]

غادر النجف عدد من المجتهدين مع أتباعهم متوجهين نحو جبهة الحرب ، وصاروا ينزلون في المدن والعشائر الواقعة في طريقهم بغية تحريضهم على الجهاد . ذكر عبدالعزيز القصاب في مذكراته ، وكان يومذاك قائمقاماً في السماوة : ان السيد عبدالرزاق الحلو كان أول المجتهدين الذين وصلوا الى السماوة في طريقه الى ساحة الحرب ، وكان معه تسعة من أتباعه ، فنصب خيامه على الشاطيء الشرقي من النهر . وبعد يومين من وصوله وردته برقية من الوالي جاويد باشا الذي كان في البصرة يقول فيها ما نصه : « أتوسل اليك برسول الله وآل البيت وفاطمة الزهراء أن تسرعوا

---

(١) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ــ النجف ١٩٦٦ ــ ص ٦٨ ــ ٦٩ .

(٢) انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ــ الفصل الرابع .

(٣) من مذكرات رضا الشبيبي ، نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد الخامس ــ السنة الرابعة .

في المجيء اليّ حيث أن البصرة مهددة ونحن في ضيق شديد » فلما قرأ السيد البرقيـــة هتف قائلاً : « الله اكبر ! الله اكبر ! سمعنا وأطعنا ! » ، ونادى أصحابه فأمرهم بتقويض الخيام ووضعها في السفن حالاً • يقول عبدالعزيز القصاب : أنه نصح السيد بالتريث في الرحيل لشدة الريح غير أن السيد أصر على الرحيل وقال : « يا ولدي لقد وجبت عليّ الحركـة بناءاً على الخطاب الوارد لي وان تأخري يعد عصياناً » • ثم توجه نحـو أصحابه قائلا : « أسرعوا يا أولادي » •••

ويذكر القصاب : أنه بعد مغادرة السيد عبدالرزاق للسماوة بعشـرة أيام تقريباً أخذت تتوافد الى البلدة قوافل المجاهدين من الشامية وأبو صخير والنجف ، كما وصلت اليها قوافل المجاهدين الاكراد برئاسة الشيخ كاكا أحمد • ثم وصل السيد هادي مقوطر ومعه عدد غير قليل من المجاهدين • وقد شكّل أهل السماوة الغريبون سرية من المجاهدين برئاسة الشيخ بربوتي السلمان • ولذا أطلق أهل السماوة هوستهم المشهورة وهي :

ثلثـين الجنـــة لهادينـا وثلث لكاكا أحمد واصحابه
وشـــويه وشـــويه لبـــربوتي (٤)

وتحكى حول هذه الهوسة نكتة طريفة هي أن الشيخ بربوتي السلمان امتعض عند سماعه الشطرين الاولين منها اذ وجد الجنة تقسم الى ثلاثـة أقسام فيأخذ السيد هادي مقوطر ثلثين منها ويأخذ الاكراد الثلث الباقـي دون أن يكون للشيخ بربوتي نصيب من الجنة ، ولهذا جاؤوا بالشـطر الثالث حيث اقتطعوا له شيئا من حصـــة السيد هـــادي وشيئا من حصـــة الاكراد ترضية لــه •

كان السيد محمد سعيد الحبوبي أشد المجتهدين حماساً للجهـاد • وفي عصر ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤ خرج الحبوبي من النجف في موكـب يصحبه جماعة من أصحابه ، وكان قد تقلد سيفه والطبول تدق أمامه • وبعد نزوله في كثير من المدن والعشائر وصل الناصرية في منتصف كانون الثاني

---

(٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٠٨ ــ ١١٢ •

١٩١٥ . وكان الحبوبي أثناء مكوثه في الناصرية دائب الحركة حيث صار يتجول بين العشائر المجاورة ، ويرسل أعوانه من شبان الطلبة كباقر الشبيبي وعلي الشرقي الى العشائر البعيدة ، لحثهم على الانضمام الى حركة الجهاد. وقد وضعت الحكومة تحت تصرفه أموالاً طائلة لينفقها في تجهيز العشائر فاجتمع اليه منهم خلق كثير . وفي ١٩ شباط غادر الحبوبي سوق الشيوخ متوجهاً نحو الشعيبة ، وتابعته العشائر تحملهم مئات السفن الشراعية وهي تمخر مياه بحيرة الحمار(٥) .

الجهاد في الكاظمية وبغـداد :

كان الشيخ مهدي الخالصي أشد الناس حماساً للجهاد في الكاظمية ، وقد كتب فى ذلك رسالة بعنوان «الحسام البتار فى جهاد الكفار» نشرتهـا جريدة « صدى الاسلام » بعدئذٍ على حلقات متتابعة . ولم يكتف الخالصي بهذا بل أصدر حكماً أوجب فيه على المسلمين صرف جميع أموالهم في الجهاد حتى تزول غائلة الكفار ، ومن امتنع عن بذل ماله وجب أخذه منه كرهاً . وقد اتخذ خصوم الخالصي هذا الحكم ذريعة للتهجم عليه حيث اعتبـروا فتواه تأييداً لما كان الاتراك يفعلونه من مصـادرة لأموال النـاس باسـم « التكاليف الحربية » .

دعا الخالصي علماء الكاظمية للاجتماع في غرفة الكليدار في الصحن الكاظمي للمداولة في أمر الجهاد واصدار الحكم فيه . وقد اجتمع العلماء هناك واختلفوا ، فكان رأي البعض منهم أن محاربة الانكليز هي بمثابـة القاء النفس الى التهلكة وذلك لما عندهم من استعداد وأسلحة قوية ليس للمسلمين ما يقابلها . وكان على رأس القائلين بهـذا الرأي السيد حسن الصدر والشيخ عبدالحسين الاسدي . والظاهر ان اكثر الحاضرين كانوا على رأي آخر حيث حكموا بوجوب الجهاد للدفاع عن البلاد الاسلامية ، وكان على رأسهم السيد مهدي الحيدري الذي كان يعد في ذلك الحين كبير علماء الكاظمية ، وقد أشاع الخصوم عنه قائلين : « ان السيد مهدي بر تقي

---

(٥) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ــ المصدر السابق .

لكن الخالصي أغواه فهما يسعيان في اراقة دمائنا ونهب اموالنا »[٦] .

أبرق السيد مهدي الحيدري الى علماء النجف وكربلاء وسامراء يخبرهم بأنه عازم على محاربة العدو الكافر مهما كلف الامر ، ثم أوعز بعقد اجتماع عام في الصحن الكاظمي ، ولما اجتمع الناس صعد السيد مهدي على منبر أعد له وأخذ يخطب فيهم يحضهم على الخروج للجهاد . ويقال انه أرتج عليه أثناء الخطابة لكبر سنه فصعد الشيخ حميد الكليدار على المنبر الى جانبه واعتذر عنه ثم أخذ يخطب بالنيابة عنه باللغات الثلاث : العربية والتركية والفارسية .

نصبت الخيام في ظاهر الكاظمية استعداداً للسفر ، وأمست الساحة القريبة من خان الكابولي زاخرة بالناس ، وكان الفرسان يتطاردون فيها وقد شهروا السيوف بأيديهم على طريقة الحروب القديمة . وكان للشيخ تقي الخالصي ــ وهو ابن أخي الشيخ مهدي ــ دور مهم في ذلك حيث كان يمتطي فرسه في تلك الساحة وهو يصول بها ويجول رافعاً صوته بالحداء البدوي وبالدعوة الى الجهاد .

وفي يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩١٤ ــ وكان الاول من شهر محرم ١٣٣٣ هـ ــ تجمع جمهور من شبان الكاظمية يقدر عددهم بنحو مائتين ، فساروا الى بغداد في مظاهرة مشياً على الاقدام تتقدمهم الطبول وهم يهوسون ويهزجون . وعند وصولهم الى بغداد انضموا الى الجماهير الغفيرة المحتشدة في القلعة في باب المعظم ، وصعد بعض الخطباء يخطبون في الجماهير ويثيرون حماسهم للجهاد كان منهم عبدالرحمن الكيلاني وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد الخالصي ومحمد علي قسام النجفي . ثم اطلقت المدافع وارتفعت الهتافات بحياة السلطان رشاد وسقوط الانكليز .

حدثني أحد الكاظميين الذين شاركوا في تلك المظاهرة : أنهم قبيل عودتهم الى الكاظمية مروا بمحلة تحت التكية وكانت مليئة باليهود فصاروا

---

(٦) نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه «بطل الأسلام» واني اشكر الشيخ هادي الخالصي لاعارته الكتاب لي .

يختطفون عمائم اليهود وطرابيشهم من على رؤسهم ، وعادوا الى الكاظمية وهم يحملون تلك العمائم والطرابيش ، فجاء اليهم في اليوم التالي دلال يهودي يعرفونه اسمه صالح فاسترجعها منهم بعد أن دفع لهم فيها ثمناً قليلاً .

وفي خلال العشرة الاولى من محرم كانت المواكب الحسينية تهزج بأهازيج الجهاد والدعوة لنصر الدولة العثمانية . ننقل فيما يلي نماذج من من تلك الاهازيج :

سيد مهدي ركن الدين
نمشي للجهاد ويـاه
نمشي بقوتك يا دين
نحرق راس من عاداه

يا طارش لانكلترا وفرانسا ولروسها
ان ما تطيع لحكمنا بالسيف نقطع روسها

حيدر يا عزنا وسور لنا
بحلق الفاو يحق طوب لنا

وكان البغداديون لا يقلون حماساً للجهاد عن الكاظميين ، وقد بذل الحاج داود أبو التمن أموالا كثيرة على المجاهدين . يروي علي البازركان : أنه شهد الحاج داود جالساً في مسجده في محلة « صبابيغ الآل » وقد وضع أكوام «المجيديات» أمامه وحوله المتطوعون للجهاد وهو يسألهم عن أفراد عائلاتهم ليدفع لهم ما يكفيهم ، فقال له علي البازركان وقد هزه هذا الموقف : « يا حضرة الحاج داود جلبي ان مثلك مثل عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما جهز جيش العسرة ووضع مبلغاً عظيماً من الدراهم في حجر النبي فقال النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو يعبث بالدراهم : اللهم اغفر لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[٧] .

وفي اليوم العاشر من محرم وصل الى بغداد وفد من النجف كان قد أرسله السيد كاظم اليزدي لدعوة العشائر الى الجهاد ، وكان الوفد مؤلفاً

---

(٧) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٥٠ـ٥١ .

من السيد محمد ابن السيد كاظم اليزدي ، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، والسيد اسماعيل اليزدي ، وبعض الطلبة من الفرس والعرب • وقد أغلق كثير من أهل بغداد دكاكينهم بغية استقبال الوفد والاحتفاء به • وعند وصول الوفد الى جانب الكرخ كان النهر فائضاً الى الحد الاقصى ،والجسر غارقاً والمطر ينهمر بشدة ، فجيء بزورق بخاري لنقل الوفد الى جانب الرصافة • وقد نزل الوفد في ضيافة الحاج داود(٨) •

وفي اليوم التالي ــ وهو يوافق ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٤ ــ كان موعد خروج السيد مهدي الحيدري ومن معه من مجاهدي الكاظمية متوجهين الى ساحة القتال ، وكان ذلك يوماً مشهوداً في الكاظمية حيث خرج أهل الكاظمية عن بكرة أبيهم لتوديع المجاهدين ، وارتفعت الاهازيج والهوسات الى عنان السماء • وهذه كانت احدى أهازيجهم :

حجة الاسلام طالع للجهاد

محصن بموسى بن جعفر والجواد(٩)

وصادف أن كان جانب الرصافة يومذاك قد أصيب بالفيضان المدمر ــ على نحو ما ذكرناه في فصل سابق ــ فسار موكب المجاهدين نحو جانب الكرخ ، وكان عددهم زهاء ثلاثمائة ، وكانت تنتظرهم هناك باخرة اسمها « حميدية » ، فحملتهم كما حملت معهم مائتين من الفرسان العثمانيين وكثيراً من الذخيرة • وسارت الباخرة بهم باتجاه القرنة ، وقد وصلت الى مقربة منها بعد مسيرة استغرقت ستة أيام •

وبعد سفر هؤلاء المجاهدين وصل الى الكاظمية عدد من علماء النجف وكربلاء كان بينهم الشيخ فتح‌الله الاصفهاني الملقب بـ « شيخ الشريعة » ، والسيد علي التبريزي ، والسيد مصطفى الكاشاني ، والمرزا مهدي الخراساني ، والمرزا محمد رضا الشيرازي ، والشيخ حسن علي القطيفي ، وغيرهم • وقد تقرر خروجهم مع مجاهدي بغداد في يوم ٩ كانون الاول•

---

(٨) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ــ المصدر السابق •

(٩) احمد الحسيني (الامام الثائر) ــ النجف ١٣٨٦ هـ ــ ص ٣٣ •

وفي عصر اليوم المعين كانت ضفاف دجلة على الجانبين قد امتلأت بالجماهير ، وكانت هناك باخرة اسمها « الموصل » راسية في جانب الرصافة، فركبها مجاهدو بغداد وكان على رأسهم الحاج داود ابو التمن والسيد صادق العطار والسيد عبدالكريم الحيدري • ثم عبرت الباخرة النهر نحو جانب الكرخ حيث كان ينتظرها علماء النجف وكربلاء قرب مكتب صغار الضباط • فحملتهم الباخرة وسارت بهم نحو القرنة بين تكبير الجماهير وتهليلهم •

توزيع الاموال :

تدعي المصادر الانكليزية أن علماء الدين الذين ساهموا في حركة الجهاد في العراق انما فعلوا ذلك تحت تأثير المبالغ الضخمة التي أعطيت لهم من قبل الالمان والاتراك • وينقل موبرلي عن مذكرة للدكتور زغماير ــ وهو مبعوث ألماني أسره الانكليز في ايران واستحوذوا على مذكراته ــ يذكر فيها أن مجتهداً كربلائياً قبض من الالمان مبلغ ألفي باون وسافر الى كرمنشاه لغرض الدعوة الى الجهاد هنالك[١٠] •

نحن لا تنكر ان الحكومة العثمانية قد وضعت تحت تصرف علماء الدين مبالغ ضخمة اثناء حركة الجهاد ، ولكننا مع ذلك يجب أن لا تنسى أنهم أنفقوا تلك المبالغ كلها على تجهيز المجاهدين بالاسلحة والاغذية ، أو على تشجيعهم وترغيبهم ، ولم يأخذوا لأنفسهم منها شيئاً • والمعروف عن كبار المجتهدين الذين قادوا حركة الجهاد ، كالسيد محمد سعيد الحبوبي والسيد مهدي الحيدري والشيخ مهدي الخالصي ، أنهم لم يكتفوا بانفاق المبالغ التي وضعت تحت تصرفهم على حركة الجهاد ، بل زادوا على ذلك فانفقوا من أموالهم الخاصة أو من الحقوق الشرعية التي كانت تقدم لهم • وقيل عن الحبوبي بوجه خاص انه كان غنياً له أملاك خاصة فرهنها لكي ينفق منها على المجاهدين •

ولكن هذا لا يمنع أن يكون في حاشية العلماء وصغار المعممين من

---

(10) Moberly (The Campaign In Mesopotamia) — London 1927 — vol. 1, p. 345.

أخذ المال لنفسه على صورة من الصور . وهذا أمر طبيعي لابد من وقوعه في مثل تلك الظروف . حدثني رجل أثق به أنه كان أثناء حركة الجهاد وسيطاً بين القنصل الالماني ببغداد وأحد المعممين حيث قبض المعمم من القنصل مبلغاً لا يستهان به من الليرات الذهب ، والمظنون أنه وزع جزءاً من المبلغ على المجاهدين ووضع الباقي في جيبه .

تغيير القيادة :

على أثر سقوط البصرة والقرنة وصلت الأوامر من اسطنبول بعزل جاويد باشا من منصبه . ويبدو ان القيادة التركية العليا اعتبرته المسؤول الاول عن الهزائم التي حلت بالقوات التركية في منطقة البصرة . أو لعلها أرادت أن تجعل منه كبش الفداء اذ هي نسيت أخطاءها ووضعت اللوم كله على عاتق جاويد باشا . ومما يجدر ذكره ان جاويد باشا لم يشأ أن يسكت عن هذه الاهانة عند وصوله الي اسطنبول ، فقد أصدر في عام ١٩١٦ كتاباً عنوانه «حرب العراق» أظهر فيه الأخطاء الفظيعة التي اقترفتها القيادة التركية العليا في العراق وأسهب في ذكر معائبها وطيش المسؤولين الكبار فيها .(١١)

كان جاويد باشا يجمع في يده زمام الأمور العسكرية والإدارية معاً ــ أي أنه كان والياً وقائداً للجيش في آن واحد ــ وقد ارتأت الحكومة بعد عزله أن تفصل بين الولاية والقيادة وتجعل لكل منهما رجلاً خاصاً بها على نحو ما كانت تفعل سابقاً، فعينت سليمان نظيف بك والياً، وسليمان عسكري بك قائداً . فوصل الأول منهما الى بغداد في ٥ كانون الثاني ١٩١٥ وكان الثاني قد وصل قبل ذلك .

كان سليمان عسكري بك عند اعلان الحرب في اسطنبول وكانت القيادة العليا تستشيره في أمور العراق لأنه كان قد خدم ضابطاً في العراق قبل الحرب ، وقد ظنت القيادة أنه سيستعيد للعراق ما فقده القائد السابق ، وربما زاد عليه فتحاً جديداً . يقول الضابط الركن محمد أمين زكي في وصف هذا القائد الجديد : إن ذهنه كان مشبعاً بفكرة قذف الانكليز في

---

(١١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩ .

البحر وغزو الهند ، فهو كان يفكر بالهجوم أكثر من تفكيره بالدفاع ، وكانت القيادة العليا متأثرة بآرائه •[١٢]

عندما وصل سليمان عسكري بك الى بغداد خطب أمام جمع من الموظفين والأهالي قائلاً انه سوف يدحر الجيش الانكليزي ويرميه في البحر خلال مدة وجيزة وأنه سيسترجع القرنة والبصرة ويحتل سواحل الخليج •[١٣]

وكان أول عمل قام به في بغداد أنه أوعز بقتل القاضي الذي كان وكيلاً لوالي البصرة قبيل سقوطها اذ اتهمه بأنه سبب تسليمها للانكليز • وفي صباح أحد الايام وجد القاضي مقتولاً في فندق عبدالأحد ببغداد ، وكانت الى جانب جثته ورقة مكتوب عليها : « هذا جزاء من يسلم البلاد الى العدو» •

معركة الروطة :

وزع سليمان عسكري بك قواته النظامية وقوات المجاهدين معها الى ثلاث جبهات هي الشعيبة والقرنة وعربستان ، فهو كان يأمل أن يوجه الهجوم على الانكليز من هذه الجبهات الثلاث في وقت واحد لتلتقي في المحمرة بعد الانتصار عليهم • ولكن أمله هذا كان اقرب الى الخيال منه الى الواقع ، وقيل ان قيامه بتوزيع قواته الى ثلاث جبهات أضعفها جميعاً •

كانت القوة الرئيسة قد تحشدت في الجبهة الوسطى تجاه القرنة ، وكان يقودها سليمان عسكري نفسه ، وقد اتخذت مواقعها حول «الروطة» وهي قناة تقع في الجانب الشرقي من دجلة على بعد خمسة عشر كيلو متراً من شمال القرنة ، وكانت تؤازرها جماعات كثيرة من المجاهدين من العشائر وأهل المدن برئاسة السيد مهدي الحيدري •

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩١٥ قدم القائد الانكليزي باريت من مقر قيادته في البصرة الى القرنة لدراسة الموقف ، وقد شعر أن الوضع لا يدعو الى الطمأنينة وأن الاتراك عازمون على أمر ما ، فأوعز باعداد قوة لمهاجمة

(12) Moberly (op. cit.) — Vol. 1, p. 345 .

(١٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ج ١ ص ١٠٢ •

موقع الروطة بغية تلقين الاتراك درساً • وفي فجر اليوم العشرين من الشهر نفسه تحركت القوة الانكليزية من المزيرعة متوجهة نحو الروطة ، وكانت المراكب الحربية تساندها من النهر • وعند شروق الشمس بدأ قصف المدافع ينهال على القوات العثمانية من النهر والبر معاً ، وقد أبدى الجنود الاتراك والمجاهدون صموداً فيمواجهة القصف الانكليزي الرهيب • وكان سليمان عسكري قد حضر المعركة بنفسه وأدارها بحماستهالمعهودة ولم يكترث للخطر المحيط به ، فأصيب بشظية قنبلة في ساقه نقل على أثرها الى بغداد للمعالجة•

استمرت المعركة أربع ساعات ، وقد أدرك القائد الانكليزي ان ليس هناك أي أمل في احتلال الروطة بالقوة التي كانت معه ، فأصدر أمره بالانسحاب تحت حماية المدافعمن المراكب النهرية•(١٤) وفي الساعة الثانية بعد الظهر كانت القوة الانكليزية قد عادت الى قواعدها في المزيرعة •

يمكن القول ان معركة الروطة على قصرها كانت ذات أهمية تاريخية غير قليلة ، اذ هي أصبحت موضع خلاف في التقييم بين الانكليز والاتراك• فالمصادر الانكليزية تدعي ان القصد من ارسال القوة الى الروطة لم يكن من أجل احتلالها ، وان الانسحاب منها كان مقرراً منذ البداية ، وان القوة نجحت في مقصدها حيث كانت خسائر الاتراك أضعاف خسائر الانكليز•(١٥) أما الاتراك فقد اعتبروا المعركة انتصاراً عظيماً لهم وهزيمة للانكليز ، وشاع بينهم ان الجنرال باريت قد عزل من منصبه من جراء فشله في تلك المعركة •(١٦)

ولعل من المناسب هنا ذكر وجهة نظر أخرى حول تلك المعركة هي وجهة نظر المجاهدين ، ولا سيما جماعة السيد مهدي الحيدري ، فهؤلاء كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن السيد مهدي كان السبب الاكبر في انتصار الاتراك على الانكليز لأنه كان قد نصب خيامه قريباً من ساحة المعركة وظل صامداً فيها لا يبالي بقصف المدافع مما شجع المجاهدين والقوات العثمانية

---

(14) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 65.

(15) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 162.

(١٦) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ٥٩ •

كلها أن تصمد معه وتهزم الانكليز شر هزيمة • وفيما يلي أنقل نبذة مما ورد في ترجمة السيد مهدي بقلم كاتب سيرته أحمد الحسيني ، وهذا نصها:

« ولما أسفر الصبح صلى السيد بأصحابه صلاة الفجر ثم خرج ولداه الكريمان السيد أسدالله والسيد أحمد ليستكشفا حقيقة المكان ، فبينما هما كذلك اذ لاحت لهما طلائع العدو ، وظهرت لهما بواخره النهرية ومدافعه ومعداته الحربية ، وقد بدأ — بقوة هائلة — بهجوم عنيف مفاجيء على المعسكر الاسلامي ، في ذلك الصباح الباكر ، بشكل رهيب لا قبل للجيش العثماني بصده أو رده ، لأنهم أقل عدة من العدو ••• ثم اشتبك الجيشان، وتلاقى الجمعان ، واحتدم القتال في ذلك اليوم من قبل طلوع الشمس الى ما بعد زوالها ••• وكانت خيام السيد وأصحابه متقدمة على الجيش العثماني بنصف فرسخ بحيث كانت قريبة من العدو ، وبمرأى منه ومشهد ، فوجه اليها مدافعه ، وجعلها هدفاً لقنابله وقذائفه ، فعرض بعض أصحابه عليه — قدس سره — أن يأذن بتقويض الخيام لأنها صارت غرضاً للرمي ، فلم يأذن لهم بذلك وقال : (ان معنويات الجيش كله ستنكسر اذا قوضتم خيامنا ، وربما ظنوا بأننا قد انسحبنا عن مراكزنا ، فتضعف عزيمتهم ، وتنهار قوتهم • بل يجب أن تبقى هذه الخيام قوة للجيش ، وراية للاسلام ، وهيبة للمسلمين ، ورهبة للكافرين) • ثم قام — رضوان الله عليه — بنفسه الشريفة، كأنه الليث الهصور وهو شيخ كبير قد تجاوز عمره الثمانين ، وتقلد سيفه ، وحمل قرآنه ، وندب أصحابه ، وحثهم على الثبات ، وحرضهم على القتال ، وأمرهم بالصمود ، ودعا لهم بالنصر على الاعداء ••• وصمد —أعلى الله مقامه — كالطود الأشم ، وصار يشجع الرجال ، ويثبت الأقدام من جهة ، ويصلي لله ، ويتضرع اليه ، ويطلب منه العون والنصر من الجهة الأخرى • ونهض أولاد السيد الثلاثة كأنهم الأسود الضواري •• فلم تمض على القتال الا ساعات حتى اندحر الكافرون اندحاراً فظيعاً بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة في الارواح والسلاح والمعدات ، وتحطمت لهم باخرة حربية ، وقيل غرق لهم مركب آخر ، وقتل من جنودهم ما يناهز الألف أو الألفين على اختلاف الروايتين ، وجرح منهم أكثر من ذلك • وأما من قتل من جيش المسلمين فلم يتجاوز عددهم الأربعة عشر قتيلاً ، وأما الجرحى فلم يبلغوا

الخمسين • والعجيب في هذه المعركة ان الله سبحانه سلم السيد وأصحابه جميعاً فلم يقتل منهم رجل واحد ، ولم يجرح منهم رجل واحد ، ولم يخرق لهم خباء واحد ، رغم أنهم في قلب المعركة وفي وسط الميدان !؟•• وعد الناس هذا الانتصار كرامة عظيمة للسيد العظيم ، واعتبروا ذلك من بركات وجوده وصموده في قلب المعركة ، وبفضل حكمته العالية ، وتدبيره السديد ، ودعائه الصادق ، وبطولته النادرة ، وثباته العجيب ، وانكشف للناس سر استخارته الصائبة (١٧) ، وظهر لهم أنه مؤيد ومسدد بعناية الهية خاصة • وكان بعض العسكريين يقولون بعد هذه المعركة : اننا لما اشتد الضغط علينا من العدو هممنا بالانسحاب ، ولكننا كنا كلما ننظر الى خيام السيد قائمة بمكانها تقوى عزيمتنا ، ويشتد بأسنا ،ونستحي من الانسحاب ونقول في أنفسنا : كيف ينسحب الجيش والسيد وأصحابه المجاهدون في الميدان »•(١٨)

ويروي أحمد الحسيني ان سليمان عسكري بك عندما كان راقداً في المستشفى ببغداد بعد المعركة دخل عليه أحد رجال الدين من الموظفين في الدولة عائداً له فلما وقع نظر القائد عليه قال له وهو يهز يديه مستنكراً من قعوده عن الجهاد : « أنت ها هنا ترفل بالراحة والطمأنينة والنعيم مع أنك تتقاضي راتباً ضخماً من الدولة طيلة عمرك ، وان الامام السيد مهدي السيد حيدر يحارب بنفسه الانكليز ــ على شيخوخته وعظمته ــ وهو الآن في الصفوف الأولى ، مع أنه لم يقبل من أموال الدولة قليلاً ولا كثيراً طيلة عمره » •(١٩)

الجهاد في عربستان :

كانت منطقة عربستان ــ وهي المنطقة التي أطلق الايرانيون عليها أخيراً

---

(١٧) كان السيد مهدي الحيدري قد اعتاد على الاستخارة في اموره بوساطة المسبحة أو القرآن كما هي عادة الكثير من الناس في تلك الايام • وكان صمود السيد مهدي في هذه المعركة نتيجة استخارته بالقرآن وتبين اخيرا ان استخارته كانت صائبة ! •

(١٨) (حمد الحسيني (المصدر السابق) ــ ص ٣٩ ــ ٤٢ •

(١٩) المصدر السابق ــ ص ٤٣ ــ ٤٤ •

اسم خوزستان ـ ذات أهمية كبيرة للانكليز اذ هي كانت في تلك الايـام المنطقة الوحيدة في الشرق الاوسط التي تحتوي على آبار ومصافي للنفط، وهذا هو الذي دفع الانكليز الى ارسال حملتهم العسكرية الاولى نحو شط العرب بقيادة الجنرال ديلامين ، فلقد كان الغرض الاصلي من ارسال تلـك الحملة هو لحماية مرافق النفط في عربستان وليس لاحتلال البصرة ، على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق •

كان الشيخ خزعل هو الحاكم المطلق في عربستان وان كان من الناحية الشكلية تابعاً للدولة الايرانية • وفي ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ حين كانـت البصرة مهددة بالغزو الانكليزي أرسل بعض علماء النجف الى الشيخ خزعل برقية هذا نصها : « باسم الشريعة المحمدية يجب عليك النهوض والقيـام واتفاقكم مع المسلمين في مدافعة الكفار عن ثغر البصرة بالمال والنفس وبكل ما تقدرون عليه • وهذا حكم ديني لا يفرق بين الايراني والعثماني • جاهدوا بأموالكم وأنفسكم ينصركم الله بحوله وقوته • بلغ هذا الحكـم لجميـع العشائر • عرفونا سريعاً اقداماتكم » • وقد وقع هـذه البرقية الشيـخ فتح‌الله الاصفهاني ، والسيد مصطفى الكاشاني ، والمرزا مهدي الخراساني، والسيد علي التبريزي ، والشيخ محمد حسين المهدي • وفي اليوم نفسه أرسل السيد محمد ابن السيد كاظم اليزدي برقية مماثلة الـى الشيـخ خزعل •[٢٠]

لم يهتم الشيخ خزعل بهاتين البرقيتين ، وكان رأيـه ان المجتهدين الذين أرسلوهما انما فعلوا ذلك تحت ضغط من الحكـومة التركية ، وأنه بصفته من رعايا الدولة الايرانية يجب عليه أن يقف على الحياد •[٢١]

وكان للشيخ خزعل علاقة وثيقة جداً بأحد علماء النجف هو الشيـخ عبدالكريم الجزائري ، اذ كان يعد من مقلديه ومن أشد الناس اخلاصـاً له وطاعة لأمره ، ولهذا كتب الجزائري اليه يأمره بالاشتراك في الحـرب

---

(٢٠) مصطفى عبد القادر النجار (التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ •

(٢١) مس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٧ •

الى جانب الدولة العثمانية وبتجهيز حملة من العشائر لمساعدتها ، فأجابه الشيخ خزعل يعتذر عن القيام بذلك ويشرح له موقفه من الانكليز حيث يستحيل عليه القيام في وجههم ‎•‎[٢٢] وقد تألم الجزائري من هذا الجواب وسخط على الشيخ خزعل وقطع علاقته معه • ويقال ان الشيخ خزعل حاول بعد الحرب اعادة علاقته القديمة مع الجزائري ولكن الجزائري رد عليه قائلاً « فرّق ما بيني وبينك الاسلام ! »

وعندما قامت حركة الجهاد في العراق كان صداها في عربستان قوياً، حيث تحمست بها معظم العشائر العربية هناك • ويمكن تعليل ذلك بسببين:

أولا : ان العشائر كانت تبغض الشيخ خزعل لشدته في جباية الضرائب ، ولهذا فهي انتهزت فرصة الجهاد للانتقام منه ، فقد كانت حركة الجهاد في نظر تلك العشائر كأنها ثورة عليه •

ثانيا : كان السيد عيسى كمال‌الدين كبير علماء عربستان في ذلك الحين ، وهو نجفي من أسرة «كمال‌الدين» المعروفة ، وقد استجاب لدعوة الجهاد بحماس على منوال ما استجاب لها زملاؤه علماء النجف ، وصار يتجول في مدن عربستان وبين عشائرها يحضهم على الانضمام الى الدعوة ، فأحدث فيهم تأثيراً غير قليل[٢٣] •

وفي أواخر كانون الثاني ١٩١٥ وصلت من العمارة قوة تركية بقيادة توفيق بك الخالدي ، فعسكرت على ضفاف نهر الكرخة على بعد عشرين ميلاً من بلدة الأهواز غرباً ، ثم جاء على أثرها مجاهدون كثيرون من العشائر العراقية كبني لام برئاسة غضبان البنية ، وبني طرف برئاسة عوفي بن مهاوي وعاصي بن شرهان ، وربيعة برئاسة عناية بن ماجد ، والرزقان برئاسة قاسم بن علي • وكان في صحبة المجاهدين عدد من علماء الدين كالشيخ مهدي الخالصي وابنه الشيخ محمد ، والسيد محمد بن السيد

---

(٢٢) جعفر الخليلي (هكذا عرفتهم) ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ج١ ص ٣٧٣-٣٧٤ •

(٢٣) حسين خلف الشيخ خزعل (تاريخ الكويت السياسي) بيروت ١٩٦٥ ج ٤ ص ٣٢ •

كاظم اليزدي ، والشيخ عبدالكريم الجزائري ، بالاضافة الى السيد عيسى كمال الدين .

وكان لمجيء هؤلاء المجاهدين أثره في عشائر عربستان . ففي ٥ شباط أعلنت عشيرة الباوية التي تسكن الى الشرق من بلدة الاهواز انضمامها الى حركة الجهاد، وقطعت أنابيب النفط وأشعلت النار فيها كما نهبت مخازن الشركة . وفي ٢٥ شباط ثارت عشيرة بني كعب على الشيخ خزعل حيث اتهمته بأنه حليف لبريطانيا ضد الدولة العثمانية المسلمة . وقد سيطرت هذه العشيرة على بلدة الفلاحية ونصبت عليها حاكماً من العلويين اسمه جابر السيد مشعل .(٢٤)

تحرج الوضع في المنطقة بالنسبة للانكليز ، واعترف الشيخ خزعل انه فقد سيطرته على العشائر . (٢٥) وقد استطاع الشيخ خزعل أخيراً من جمع قواته ، فأرسل قسما منها بقيادة حنظل ابن أخيه نحو عشيرة الباوية فدحرها ، كما أرسل القسم الآخر بقيادة ابنه الاكبر جاسب نحو عشيرة بني كعب فأنزل بها هزيمة منكرة .

وكان الجنرال باريت قد أرسل الى بلدة الاهواز قوة بقيادة الجنرال روبنصون ، وقد وصلت هذه القوة اليها في ١٥ شباط . وفي ظهر ٢ آذار تحرك روبنصون على رأس جنوده قاصداً ضرب القوة التركية التي كانت معسكرة في موضع يقال له « الغدير » تحت قيادة توفيق بك الخالدي . وقبل أن تشرق الشمس في اليوم التالي كان روبنصون قد وصل على بعد أربعة أميال من معسكر الاتراك، وأمر باطلاق مدافعه عليهم . ولكنه فوجيء بجموع من العشائر تنهال عليه من الجانبين . انه كان ينوي مباغتة القوة التركية ولكن العشائر هي التي باغتته . ونشب من جراء ذلك قتال عنيف تكبد فيه الفريقان خسائر فادحة . وشاع الارتباك في القوة الانكليزية ، ولم تتمكن من الانسحاب الا بصعوبة . وقد غنمت العشائر منها غنائم كثيرة كان من جملتها مدفعان أحدهما صحراوي والآخر جبلي .(٢٦)

---

(٢٤) المصدر السابق — بيروت ١٩٦٢ — ج ٢ ص ٢٥٨ .

(25) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 167.

(٢٦) طه الهاشمي (حرب العراق) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ١١٨—١١٩ .

اقترف الاتراك أثناء المعركة غلطة ساعدت القوة الانكليزية على النجاة، فقد أخذ الاتراك لشدة حماسهم يقذفون قنابلهم على العشائر التي كانت تقاتل معهم • (٢٧) ومهما يكن الحال فان أفراد العشائر أبدوا في تلك المعركة شجاعة أذهلت الانكليز • يقول موبرلي في وصفهم : ان لهم مقدرة فائقة على السرعة في التنقل والحركة ، ففرسانهم يسبقون فرساننا دائماً، أما المشاة منهم فان رشاقة أقدامهم تمكنهم من مصاولة أفراسنا ، وقد شهد ذلك ضابط هندي كان يمتطي مهراً من أمهار البولو اذ وجد أن أفراد العشائر في جريهم على أقدامهم كانوا أسرع منه ، ولولا تدخل مدفعيتنا لما استطاع الهرب منهم (٢٨) •

وعلى أثر انتهاء المعركة أعلن غضبان البنية رئيس بني لام جائزة بمبلغ من الليرات الذهب يدفعها لكل من يأتي له برأس رجل بريطاني أو هندي • وقد أدى هذا الاعلان بأفراد العشائر الى حز رأس كل جريح يقع في أيديهم طمعاً بالجائزة • ويروي ويلسون حادثة طريفة وقعت بسبب ذلك خلاصتها أن جريحاً بريطانياً أحاط به بعض أفراد العشائر وأفهموه عن طريق الاشارة أنه يجب أن يستعد لقطع رقبته ، فطلب منهم مهلة ليخلع حذاءه ، وظنوا أنه يريد أن يصلي ، ولكنه غافلهم وقذف حذاءه في وجوههم ، فأطبقوا عليه وقتلوه • (٢٩) •

اثر الجهاد في الكويت :

كان بين الشيخ خزعل والشيخ مبارك الصباح أمير الكويت صداقة متينة جداً ، وكثيرا ما كان أحدهما يزور الآخر في مقر امارته ويقضي معه أياماً • واتفق أثناء استفحال حركة الجهاد في عربستان أن كان الشيخ مبارك في زيارة صديقه في المحمرة ، فأراد ان يساعده في محنته ، فكتب الى ولده الشيخ جابر في الكويت يطلب منه ارسال قوة من حملة السلاح الكويتيين

---

(27) Barker (op. cit) — p. 67.

(28) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 185.

(29) Arnold Wilson (Loyalties — Mesopotamia) — London 1936, Vol. 1, P. 29.

ليشد بهم أزر الشيخ خزعل ويرهب العشائر الثائرة عليه •

كان في الكويت يومذاك اثنان من رجال الدين يحرضان الناس على الجهاد لنصرة الدولة العثمانية هما : محمد الشنقيطي وحافظ وهبة • وعندما تلا الشيخ جابر رسالة والده على أهل الكويت امتنعوا عن تلبية طلبه ، وجاء أفراد منهم وهم يحملون مسدساتهم تحت ثيابهم وقالوا لجابر : « لا نسمع لقولك ولا نطيع حتى وان أمرت بقتلنا ،فخيرلنا أن نموت على الاسلام من أن نموت على الكفر ••• » •

أخبر الشيخ جابر والده بما جرى • فتملكت الشيخ مبارك سورة من الغضب الشديد ، وكتب الى ولده يتوعد الذين حرضوا الكويتيين على عصيان أمره ويقول انه سينزل بهم العقاب الصارم حالما يعود الى الكويت • وقد خشي أهل الكويت مغبة هذا التهديد فأرسلوا الى الشيخ مبارك وفداً منهم ليعتذروا له ، ولما قابله الوفد أغلظ لهم القول وأسمعهم تأنيباً قارصاً وقال لهم : « ان أخي خزعل ليس في حاجة اليكم ، وها انكم تشاهدون بأعينكم القوة الكبيرة المتجمعة لديه ، واني لم أرد منكم رجالاً للاشتراك بالقتال ولكنني أردت سفناً لنقل ما يجب نقله من حلاله وأمواله الى الكويت اذا اقتضت الضرورة ، فعليه ارجعوا من حيث أتيتم وبادروا بارسال ما يمكنكم من السفن بأسرع ما يمكن » • وعندما عاد الوفد الى الكويت تم تجهيز ست سفن كبيرة فيها مائة وثمانون رجلاً ، وقد رابطت هذه السفن أمام قصر الشيخ خزعل في الفيلية مدة تقارب الشهرين ثم عادت الى الكويت•

ولما عاد الشيخ مبارك الى الكويت أخيراً استدعى اليه محمد الشنقيطي وحافظ وهبة ، وقد حضر الاجتماع معهم المعتمد السياسي البريطاني في الكويت الكولونيل كري • فقال الشيخ مبارك يخاطب الرجلين : « أنا مسلم عثماني أغار على ديني وعلى دولتي ولا أحب من يمسها بسوء غير أني اتفقت مع الانكليز على أمر فيه نفع لي ولبلدي ، ولهذا لا أرضى بالطعن فيهم وان كنت لا أحبهم وديني غير دينهم » •

أخذ الشيخ مبارك بعد هذا يتتبع المحرضين على العصيان فعاقب بعضاً

منهم ، وعفا عن بعض ، كما فر من الكويت آخرون • وكان من جملة الفارين من الكويت محمد الشنقيطي حيث التحق بالمجاهدين في معركة الشعيبة •[٢٨]

معركة الشعيبة :

ان الشعيبة تقع على بعد تسعة أميال من الجنوب الشرقي للبصرة ، وكانت في ذلك الحين تحتوي على قلعة قديمة وبضع دور واسعة ابتناها بعض أغنياء البصرة لتكون مصائف لهم • وقد أدرك الجنرال باريت أهمية هذا الموقع لحماية البصرة فاهتم بتحصينه بالخنادق والاسلاك الشائكة وأكياس الرمل •

وكان الاتراك من جانبهم قد عزموا على مهاجمة البصرة من هذه الجهة• فحشدوا في أدغال البرجسية الواقعة على بعد ستة أميال من الجنوب الشرقي للشعيبة جيشاً كبيراً مؤلفاً من قوات نظامية يبلغ عددها زهاء ستة آلاف جندي ، ومن مجاهدين معظمهم من العشائر قدّر عددهم حسب المصادر التركية بعشرين ألفاً ، وقدّره آخرون بخمسين ألفاً•[٢٩]

وصل القائد التركي سليمان عسكري بك الى الموقع في ٩ آذار ١٩١٥ ، وكان لا يزال يشكو من ساقه فكان يفتش قواته وهو محمول على نقالة صحية • وقد وضع خطته على أن تتولى القوات النظامية الهجوم من القلب ، ويتولى المجاهدون الهجوم من الجناحين الأيسر والأيمن •

كان رأي بعض قادة المجاهدين المتمرسين في الحروب كعجمي السعدون وغيره أن الهجوم المباشر على موقع الشعيبة المحصن غير مجدي بل يجب الاكتفاء بمحاصرته وشن الغارات عليه وقطع خطوط مواصلاته •[٣٠] ويقال أن الضباط الألمان أشاروا على سليمان عسكري بك بمثل هذا الرأي أيضا ولكن عناده وغروره منعاه من الاستماع الى نصائحهم •[٣١]

---

(٢٨) حسين خلف الشيخ خزعل (المصدر السابق) — بيروت ١٩٦٢ — ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٦٠ •
(٢٩) شكري محمود نديم (حرب العراق) — بغداد ١٩٦٧ — ص ٣٠ •
(٣٠) المصدر السابق — ص ٣١ •
(٣١) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٠٦ •

كان الفيضان في ربيع تلك السنة شديداً ، وقد حدث انكسار فى بعض السدود فغمرت المياه الأرض الواقعة بين البصرة والشعيبة مما اضطر القيادة الانكليزية الى استخدام الزوارق المحلية في النقل • وقد اتضح للانكليز أخيراً ان أصحاب الزوارق لا يعتمد عليهم عند اشتداد المعارك اذ هم يطلقون سيقانهم للريح حالما ينطلق هدير المدافع ، وقد اضطر الانكليز الى استخدام جنودهم لتجديف الزوارق بدلاً عنهم •(٣٢)

وفى الصباح الباكر من يوم ١٢ نيسان ١٩١٥ بدأ الهجوم التركي على الموقع الانكليزي ، وقد أبدى الجنود الاتراك في القتال بسالة نادرة ، وكذلك أبدى بعض المجاهدين ، فهلك من الفئتين عدد كبير ، غير أنهم لم يستطيعوا زحزحة العدو من خنادقه •

وكان الشيخ عجمي السعدون من أعظم المقاتلين أثراً في تلك المعركة • يقول عنه شكري محمود نديم ما نصه : « كان عجمي باشا السعدون أبرز قادة المجاهدين وغدا اسمه مضرب الامثال في الشجاعة والشهامة وحيكت حول أعماله أساطير كثيرة لا تزال تتناقل جيلاً بعد جيل • فقد كان يهاجم المفارز البريطانية ولا سيما الخيالة منها فينقض عليها على رأس فرسانه المتفكين المنتشرين بمسافات متباعدة لتجنب تأثير نار المدافع البريطانية ، وكان هؤلاء الفرسان يتجمعون في لحظة الهجوم باشارة من عجمي فيهجمون بسرعة البرق الخاطف فيوقعون بالبريطانيين خسائر فادحة ثم يقودهم عجمي بسرعة مذهلة الى حيث تبتلعهم الصحراء •••»(٣٣)

استمرت المعركة يومين دون أن تبدو أية بادرة للغلبة من أحد الفريقين على الآخر • وفي اليوم الثالث وصل الى الشعيبة الجنرال مليس ، وكان قد قدم تواً من مصر ، فتولى قيادة القوات الانكليزية • والمعروف عن هذا القائد أنه شجاع الى حد الطيش ، فأصدر أوامره الى الجنود بالخروج من الخنادق والشروع بالهجوم على القوات التركية • ونشب عند ذلك قتال ضاري بالسلاح الابيض كانت فيه الحراب تلمع وهي ملطخة بالدماء من خلال

---

(32) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 205.

(٣٣) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٣١ •

غبار كثيف خانق •

ويروي برادون : ان الهنود المسلمين الذين كانوا يقاتلون في صفوف القوات الانكليزية لم يطيعوا أمر قائدهم بالهجوم ، ذلك لأن دعوة الجهاد كانت قد أثرت فيهم بحيث جعلتهم يعتقدون أن أرض العراق مقدسة لا يجوز تدنيسها بالهجوم ، واضطر الضباط الانكليز أن ينخزوا أولئك الجنود بسيوفهم ليدفعوهم نحو الخروج من الخنادق والمشاركة في القتال مع الآخرين• (٣٤)

واستمر القتال طيلة ذلك اليوم ، وكان النصر فيه معلقاً على شعرة ليناله من يبدي من الصمود قدراً أكبر • وكاد الجنرال مليس يصدر أمره الى جنوده بالانسحاب غير انه أجّل ذلك ريثما يتم نقل جرحاه الى المؤخرة ، وهنا تدخل القدر حيث أدى الى انسحاب الاتراك من المعركة بدلاً من الانكليز •

كان الجنرال مليس قد أرسل الى سرية النقل لكي تأتي بسرعة بكل ما لديها من عجلات وبغال بغية نقل الجرحى ، وحين قدمت العجلات والبغال مسرعة أثارت غباراً كثيفاً ، فظن الأتراك ان هذا الغبار هو من جراء نجدة كبيرة وصلت الى الانكليز من البصرة ، فكان ذلك بالنسبة للاتراك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فانهارت عزيمتهم ، وحلت بهم الهزيمة•(٣٥)

كانت أولى بوادر الهزيمة قد ظهرت في صفوف العشائر ، ثم تلاهم الجنود النظاميون اذ هم أخذوا ينسحبون بلا نظام نحو أدغال البرجسية • ولم يصمد في ساحة القتال سوى ثلة من الفدائيين الاتراك ، وكان عددهم سبعة وأربعين رجلاً ، فقد ربطوا ركبهم بالحبال ، وقرروا اما أن ينتصروا أو يموتوا على أرض المعركة • وقد قتلوا جميعاً فلم ينج منهم أحد •(٣٦)

كان السيد محسن الحكيم قد حضر معركة الشعيبة لأنه كان أمين سر السيد محمد سعيد الحبوبي ، وقد وصف الهزيمة التي حلت بالمجاهدين فيها

---

(34) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 25.

(35) Ibid. p. 25 — 26.

(٣٦) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) — ص ١١٨ •

فقال : انه لم يعرف الخوف في حياته الا مرة واحدة هي في ذلك اليوم حين كانت القنابل تنفجر بين الخيام ، وهرب المجاهدون اذ أشيع بينهم أن القائد سليمان عسكري قتل هو وضباطه جميعاً ، فانتشرت الفوضى بين العشائر واختل النظام ، وقد ثبت السيد الحبوبي مع ثلة من صحبه فلم يهربوا مع الهاربين ، ثم استقر رأيهم أخيراً أن يرسلوا السيد محسن الحكيم الى خيمة القائد ليستوضح جلية الخبر . وحاول السيد محسن الحصول على فرس ليمتطيها فلم يتمكن من ذلك لأن كل واحد من المجاهدين كان محتاجاً الى فرسه للنجاة بنفسه من هول المعركة ، واستطاع السيد أخيراً أن يحصل على فرس ، وحين ذهب بها الى خيمة القائد وجده مكباً على أوراقه ، واتضح أن الاشاعة كانت غلطة أو خديعة أدت الى الهزيمة .(٣٧)

يروي باركر : ان سليمان عسكري شعر بأن العار الذي لحق به هو أكبر مما يمكن تحمله ، فجمع الضباط حوله وهو لا يزال في نقالته وأعلن لهم : أن الهزيمة كلها كانت من جراء خيانة العشائر ، وأنه لن يستطيع أن يحارب مرة أخرى . ثم أطلق نار مسدسه على نفسه . انها كانت نهاية مفجعة لرجل شجاع .(٣٨)

ويقال ان طلائع الانكليز وصلت الى خيمة القائد المنتحر عقب انتحاره مباشرة ، فأدى الجنود الانكليز لجثمانه التحية العسكرية وأبلغوا قائدهم بذلك ، فجاء القائد وحياه ثم أمر بدفنه في احتفال عسكري مهيب .(٣٩)

عوامل الهزيمة :

كانت خسائر الانكليز في معركة الشعيبة التي دامت ثلاثة أيام زهاء ألف ومائتين بين قتيل وجريح ، أما خسائر الأتراك فكانت ضعف ذلك العدد ، وتقدر خسائر المجاهدين بثلاثة آلاف . وكان عدد الاسرى الذين وقعوا في أيدي الانكليز ينوف على السبعمائة ، فسيقوا الى البصرة .

---

(٣٧) أحمد الحسيني (الامام الحكيم) ــ النجف ١٣٨٤ هـ ــ ص ٧٦-٧٧ .

(38) Barker (op. cit) — p. 75.

(٣٩) مجلة الاسرار البيروتية ــ في عددها الصادر في ٣ أيار ١٩٣٨ .

وقد اشتهرت معركة الشعيبةعند الانكليز باسم «معجزة الشعيبة»،(٤٠) وهم يعتقدون ان انتصارهم فيها أنقذهم من عواقب وخيمة فلو أنهم كانوا قد انكسروا فيها لما تمكنت قواتهم من القيام بانسحاب منتظم الى البصرة لوجود مياه الفيضان والأوحال الواسعة بينهم وبين البصرة ، ولربما أدى ذلك بهم الى هزيمة منكرة •

حاول المؤرخون والنقاد العسكريون دراسة العوامل التي أدت الى هزيمة الاتراك في الشعيبة ننقل فيما يلي أهمها :

أولاً : ان القائد التركي سليمان عسكري بك ظل تحت المعالجة الطبية ببغداد زهاء شهرين ، وقد أرسلت القيادة التركية العليا قائداً آخر ليحل محله غير أنه رفض ذلك وأصر على قيادة المعركة بنفسه بالرغم من مرضه •(٤١) ثم ذهب أخيراً الى الشعيبة وهو محمول على نقالة صحية كما رأينا • وكانت نتيجة هذا التأخير أن الانكليز زادوا من قوة تحصينهم لمواقعهم وأمدوها بالجنود والاعتدة والمؤن الكافية •

ثانياً : ان العشائر المشاركة في الجهاد بدأت تمل وتتذمر من طول الانتظار ، ثم صار رؤساء العشائر أخيراً ينذرون القيادة بالانسحاب والعودة الى مواطنهم بدعوى ان العشب سوف ينفد ويصعب عليهم بعدئذٍ اعاشة خيلهم ودوابهم ، وقد ترك بعضهم الموقع فعلاً وعادوا الى مواطنهم • (٤٢)

ثالثاً : كانت القوات التركية تحارب بأسلحة قديمة بالية ويعوزها كل ما يحتاج اليه الجيش عادة من وسائط عسكرية ، فكانت مواد الاعاشة مفقودة وظل الجنود ثلاثة أيام بلياليها وهم يقاتلون دون أن يصل اليهم طعام أو ماء حتى ان الضباط كانوا يجبرون السقاة الذين يحملون قرب الماء على التقدم الى الامام تحت نار الرشاشات لارواء الجنود الذين كاد العطش يقتلهم قبل

---

(40) Barker (op. cit.) — p. 75.

(41) Ibid. p. 67.

(٤٢) طه الهاشمي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣٤ •

أن يقتلهم الرصاص •[٤٣]

رابعاً : كان جواسيس الانكليز منبثين في صفوف المجاهدين ينقلون أخبارهم الى العدو أو ينشرون بينهم الاكاذيب والاشاعات المرجفة • وكان بعض هؤلاء الجواسيس يتنكر بزي رجال العشائر ، بينما كان البعض الآخر يتنكر بزي رجال الدين • وقد استفاد الانكليز من وضع بلدة الزبير التي كانت يومذاك شبه مستقلة ولها رئيس خاص بها هو الشيخ ابراهيم ، فاتخذوا منها مركزاً لاستخباراتهم وأعانهم الشيخ ابراهيم في ذلك معونة كبيرة •[٤٤]

ولعب الضابط الانكليزي ليجمن دوراً مهماً في هذا الشأن[٤٥] اذ كان يحسن النطق باللهجة البدوية فتنكر بزي البدو وصار يخالط أهل الزبير ويرتاد دواوينهم ومقاهيهم ، واستطاع بذلك ان يقدم تقارير دقيقة عن أحوال القوات التركية والمجاهدين ، وربما اتصل بالبعض منهم سراً ودبّر معهم أمراً •

قد يضيف بعض النقاد العسكريين الى هذه العوامل الأربعة عاملاً خامساً يتصل بشخصية القائد التركي سليمان عسكري بك ، ففي رأيهم أن هذا القائد بالرغم من حماسه واخلاصه لم يكن كفؤاً تجاه القادة الانكليز• وقد أشار الى ذلك الضابط الركن محمد أمين زكي في تقرير له الى القيادة التركية العليا حيث قال : ان معركة الشعيبة كانت كأنها مباراة بين الجهل والمعرفة ، فقد كان الجهل والمناورات العتيقة من جهة بينما كانت المهارة وخبرة السنين الطويلة التي يملكها فراي ومليس وديلامين من الجهة الاخرى ••[٤٦]

يخيل لي ان هذا الحكم على سليمان عسكري قاسي جداً ، فقد رأينا النصر في معركة الشعيبة متوقفاً على شعرة ولولا الغبار الذي أثارته العجلات والبغال الانكليزية من غير قصد لربما كان النصر قد تم للاتراك • ولو حدث هذا لكان حكم التاريخ على سليمان عسكري مناقضاً للحكم الذي صدر

(٤٣) علي جودت الايوبي (ذكريات) — بيروت ١٩٦٧ — ص ٣٣ •

(٤٤) مس بيل (المصدر السابق) — ص ٩ •

(45) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1. p. 35.

(46) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 254.

فعلاً ، ولربما صار الرجل في نظر المؤرخين من أعظم القواد وأبعدهم نظراً، وعندئذٍ قد يأتي المؤرخون ليذكروا لنا العوامل التي أدت الى هزيمة الانكليز في الشعيبة •

الاحتفال بالنصر الموهوم :

حدث في بغداد والبصرة أثناء معركة الشعيبة مثلما حدث في دمشق وبيروت عقب محاولة الاتراك عبور قناة السويس من احتفال بالنصر الموهوم •

ففي ١٤ نيسان ــ وهو اليوم الذي حلت فيه الهزيمة بالاتراك في الشعيبة ــ انتشر في بغداد خبر سار كأنه البشرى مفاده ان القوات العثمانية قد انتصرت على الانكليز واسترجعت البصرة منهم • وقد اهتزت بغداد لهذا الخبر ، فأطلقت المدافع ابتهاجاً به ، وخرجت مظاهرة في شوارع بغداد تتقدمها الموسيقى وترفرف فوقها الاعلام ، فذهبت الى دار القنصلية الألمانية حيث تبودلت التهاني على استرجاع البصرة •[٤٧] وفي مساء ذلك اليوم امتلأ صحن الكاظمية بالناس وهم يهزجون بأهازيج النصر على الكفار ،وأعطى رئيس بلدية الكاظمية السيد جعفر عطيفة ليرة ذهب لمن بشره بالخبر •

وقد حدث مثل هذا في البصرة ، حيث انتشرت بين الناس اشاعة مفادها ان الجيش العثماني على وشك أن يدخل البلدة منتصراً ، فهرعوا لاستقباله في باب الزبير ، وكان بعضهم قد أعد خطاب ترحيب ليلقيه بين يدي القائد الظافر سليمان عسكري بك • وعندما دخل الأسرى الاتراك الى البصرة ظن الناس أنهم الجنود المنتصرون ، فانطلقت صيحات الفرح عالية بين الجمهور • ولم يفطن الناس الى خطئهم الا عندما وبخهم عريف تركي كان بين الاسرى، فخيم عليهم الوجوم • ثم انطلق عويل امرأة كانت واقفة مع أخريات على سطح احدى الدور اذ صرخت تقول : «ياربي الى متى هذا النصر للكفار الى متى ؟» • وسرعان ما تجاوبت معها أصوات الكثيرات من النساء ، وصار العويل يسري من سطح الى آخر •[٤٨]

---

(47) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia) — London — p. 99.
(48) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, p. 35.

الداغستاني في عربستان :

كانت القوات التركية في عربستان ـــ كما أسلفنا ـــ تحت قيادة توفيق بك الخالدي ، وكانت قد عسكرت مع المجاهدين في «الغدير» الذي يقع على بعد عشرة أميال غرب بلدة الاهواز • وفي أواسط شهر آذار ١٩١٥ وصل الى الغدير محمد فاضل باشا الداغستاني ليحل محل الخالدي في القيادة ، وأصبح الخالدي ضابط ركن له •(٤٩)

وفي ٣ نيسان وصلت الى الداغستاني نجدة قوية مؤلفة من ثلاثة أفواج مشاة ومدفعين جبليين • وكان الواجب الذي نيط بالداغستاني هو مهاجمة الاهواز وأنابيب النفط لتخفيف الضغط على الشعيبة • وقد قام الداغستاني بالهجوم على الاهواز مرتين : أولاهما في ١١ نيسان ، والأخرى في اليوم التالي له • وقد أخفق في كلتا المرتين لانتشار الفوضى والتذمر بين العشائر التابعة له •

يعزو البعض سبب انتشار الفوضى والتذمر بين العشائر آنذاك الى سوء ادارة القائد السابق توفيق بك الخالدي ، فقد وصلت اليه من القيادة مبالغ كبيرة من الليرات لتوزيعها على العشائر ، وكان الشيخ مهدي الخالصي قد حذره من مغبة توزيعها ، ولكنه أصر وكلف السيد محمد اليزدي بأمر توزيعها ، ولم يكد اليزدي يفعل ذلك حتى بدأ اختلاف الكلمة يظهر بين رؤساء العشائر حيث صار كل واحد منهم يحسب نصيبه من المال أقل من نصيب غيره ، كما صار أفراد العشائر يتذمرون من رؤسائهم ويتهمونهم بأنهم احتجزوا المال لأنفسهم دون أن يعطوهم منه شيئاً • وقد أشار أفراد العشائر الى هذا المعنى في هوساتهم حيث قالوا : « يا سيد محمد ما انطونا ! » و «يا سيد محمد ضموهن ! » •(٥٠)

وعلى أي حال فقدتلقى الداغستاني على أثر معركة الشعيبة أمراً من القيادة بالانسحاب من الغدير والتوجه نحو العمارة ، فترك الداغستاني في الغدير قوة ضعيفة مؤلفة من عشرين بغالاً وانسحب ببقية قواته • وحين

---

(٤٩) طه الهاشمي (المصدر السابق) ـــ ج ١ ص ١١٩ •

(٥٠) محمد الخالصي في كتابه المخطوط المشار اليه سابقا •

وصل الى نهر الكرخة لم يكن لديه سوى أربعة قوارب للعبور ، ولهذا استغرق عبور النهر أربعة أيام •[٥١] وظل الداغستاني يواصل سيره على رأس قواته حتى وصل الى العمارة في ٣ حزيران ، أي أنه امضى في السير ما يقارب خمسة واربعين يوماً ، وذلك لوعورة الطريق وقلة ما لديه من وسائط النقل •

وكان وصول الداغستاني الى العمارة في نفس اليوم الذي سقطت فيه تلك البلدة في أيدي الانكليز ، فتبعثرت قواته ، واضطر هو ومن بقي معه أن يتوجهوا نحو الكوت • ولو أن الداغستاني كان قد وصل العمارة قبل يوم واحد لربما أدى ذلك الى صمود حاميتها تجاه الانكليز وعدم سقوطها • ويقال ان القائد التركي الجديد نورالدين بك غضب على الداغستاني من جراء ذلك وأهانه دون أن يراعي شخيوخته وحرمته •

انتقام في عربستان :

في ١٩ نيسان ١٩١٥ — أي بعد انتهاء معركة الشعيبة بخمسة أيام — وصلت برقية من لندن الى نائب الملك في الهند جاء فيها : « ••• ان مشكلة النفط أصبحت خطيرة ، وان امارة البحر قلقة تريد اصلاحاً سريعاً لأنابيب النفط في عربستان • ولما كان انتصار الشعيبة قد أزال الخطر عن البصرة من جهة الغرب فان الحكومة ترحب بالتحرك ضدالعدو من جهة نهر كارون •• ان التأثير المعنوي لانتصار الشعيبة اذا أعقبه هجوم ناجح من الاهواز فسوف ينهي كراهية العرب لنا ويضمن سلامة أنابيب النفط في المستقبل ••• »[٥٢] •

وفي ٢٢ نيسان تحرك من البصرة رتل مؤلف من تسعة آلاف رجل ، وتسعة آلاف بغل ، بقيادة الجنرال غورنج • واتخذوا طريقهم نحو الاهواز عن طريق النهر والبر معاً •ولم يجد الرتل أية مقاومة جدية في طريقه لأن القوات التركية كانت قد انسحبت مع المجاهدين نحو العمارة كما ذكرنا آنفاً•

ولما لم يجد الجنرال غورنج أمامه من يحاربه من الأتراك اتجه نحو

---

(٥١) طه الهاشمي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٥٣ •

(52) Moberly (op. cit) — vol. 1, p. 222.

عشيرة بني طرف بغية الانتقام منها لكي يجعلها عبرة لغيرها اذ هي كانت قد قتلت قبل مدة قصيرة أربعة ضباط بريطانيين كان أحدهم برتبة ميجر — أي رائد — وقد اعتبر الانكليز هذا العمل منها «غدراً» •

كان في صحبة الرتل ضابط اشتهر في العراق بعدئذٍ هو أرنولد ويلسون ، وكان هذا الضابط يتقن العربية والفارسية وقد تجول قبل الحرب في أنحاء عربستان وحل ضيفاً على الشيخ عاصي بن شرهان وعوفي بن مهاوي، من رؤساء بني طرف ، فكان يعرف المنطقة معرفة دقيقة ووضع لها خرائط مفصلة •

كان مركز بني طرف في قرية «خفاجية» التي تقع على الضفة الغربية من نهر الكرخة ، وكانت مؤلفة من عدة مجاميع من بيوت طينية تمتد على النهر الى مسافة أربعة أميال تقريباً • وفي ١٣ أيار أطبق الانكليز على القرية من الجانبين ، وكان دليلهم اليها ويلسون ، فأمطروها بوابل من قنابل المدافع ورصاص الرشاشات • واستمرت المعركة ثلاثة أيام قاتل فيها بنو طرف ببسالة • وقد وصف ويلسون ما حل بالقرية من جراء القصف فقال : ان المدافع التي كانت على الضفة المقابلة من النهر أخذت تصب حممها على بيوت القصب فأشعلت فيها النار ،كما احترق عدد من الخيول والجواميس التي كانت قد تركها أصحابها • ويقدر ويلسون خسارة بني طرف في المعركة بألف رأس من الماشية وكل ذخيرتهم من الحنطة ، بالاضافة الى ما حل بقرية خفاجية من تدمير هائل •

ويبدي ويلسون أسفه لأنه شاهد أشخاصاً من بني طرف يعرفهم وقد أصبحوا طعمة للنار ، كما شاهد أشخاصاً آخرين كان يعدهم من أصدقائه وهم مذبوحون ذبح النعاج • ان ويلسون يحاول تبرئة بني طرف من تهمة « الغدر » التي ألصقتها بهم القيادة ، ولكنه مع ذلك يقول عنهم انهم لا يستحقون العطف والرحمة من جراء مافعلوا بالجنود الجرحى ولأنهم تعاونوا مع الاتراك •

ويروي ويلسون حادثاً مثيراً حدث في آخر المعركة هو أن خمسين رجلاً من بني طرف ظلوا يقاومون الانكليز وهم متحصنون في بيت من طين متين

البناء ، فتقدم ويلسون نحو البيت يناديهم طالباً منهم الاستسلام حيث قال لهم : «اخرجوا ولكم الحظ والبخت» . فإنطلقت عليه رصاصة من جهتهم جعلته يسرع الى خندق ليحتمي به ، وعند هذا أخذ الجنود يطلقون النيران على البيت حتى جعلوه شعلة من نار ، ثم هجموا عليه بالحراب فقتلوا فريقاً من الذين كانوا فيه وأسروا فريقاً . وجاؤوا بالاسرى وكان عددهم أحد عشر رجلاً فأجلسوهم على الأرض في حالة تبعث على الأسى بينما كان الجنود يحيطون بهم وحرابهم تقطر دماً .

عرف ويلسون أحد اولئك الأسرى ، وهو قهواتي الشيخ عاصي بن شرهان ، وسرعان ما رفع هذا الأسير صوته ينادي ويلسون ويقول له يعاتبه : « لماذا يا مستر ويلسون عملت بنا هذا العمل ؟ انك أنت الذي قدت هؤلاء الرجال الى هنا.وهل لهذا الغرض جئتنا وأكلت زادنا وتجولت في أهوارنا وأعددت الخرائط ؟ انه كان الغدر ، الغدر في قلبك والأكاذيب على لسانك . والآن دماء اخوتنا على رأسك . الله يسامحك ! » . يقول ويلسون انه لم ير نفعاً في مجادلة الرجل ففي مثل هذه الظروف لا بد أن تكون هناك وجهتان مختلفتان للنظر .

ثم يقول ويلسون : ان العقوبة التي أنزلناها ببني طرفه كانت درساً قاسياً لها ولغيرها من العشائر القاطنة على ضفاف دجلة الى الجنوب من العمارة ، فان انعدام المقاومة العشائرية في تلك المنطقة بعد اسبوعين من ذلك يعزى بعض سببه من غير شك الى ما وقع لخفاجية من تدمير . ان هذاالدرس لم يغب عن أذهان العشائر سريعاً ولهذا لم تقع بيننا وبين ألبو محمد ايـة مشكلة سواء كان ذلك ابان الحملة أو بعدها .

وقام ويلسون بعدئذٍ بجولة استطلاعية على رأس سرية من الخيالة باتجاه العمارة . وقد شاهد أثناء الطريق جماعة من بني طرف يتراوح عددهم بين المائتين والثلاثمائة وهم يمشون على أقدامهم باتجاه خفاجية ، وكان يمشي في مقدمتهم رجلان ممتطيان جواديهما تبين أن أحدهما هو الشيخ عاصي بعينه والثاني عالم ديني ذو عمامة بيضاء . ولم يكد الشيخ عاصي يلمح شبح ويلسون من بعيد حتى هتف به سائلاً « انت ويلسون ؟ » فلما

رد عليه هذا بالايجاب استدار الشيخ نحو أبناء عشيرته وصرخ فيهم صرخة سرعان ما أعقبها الرصاص منهمراً على ويلسون وأصحابه بغير نظام • وقد تمكن هؤلاء من النجاة باحتمائهم ببعض التلال القريبة •

واستطاع ويلسون بعدئذٍ أن يقود أصحابه في طرق وعرة تحت جنح الظلام ، حتى وصل بهم الى قرية «بسيتين» • فخرج اليهم منها رجلان كان أحدهما سيداً والثاني عالماً دينياً ، وأخذ هذان الرجلان يتزلفان لويلسون على الطريقة المعتادة في الشرق ، فمدحا الشيخ خزعل والحكومة الايرانية،وأشادا بعدالة بريطانيا ، وذما الشيخ عاصي حيث وصفاه بالظلم والخيانة ، وقالا ان خفاجية نالت جزاءها العادل •

طلب ويلسون من الرجلين تجهيز جنوده بالمواد الغذائية ، فقالا ان أهل القرية أناس فقراء وهم يطلبون نقوداً عن المواد المطلوبة منهم • ولما كان ويلسون لا يحمل معه نقوداً كافية فقد اتفق مع أهل القرية على اعطائهم حوالة على البصرة أو الاهواز بدلاً من النقود • وقد رضي أهل القرية بذلك ، وعند هذا أخذت المواد الغذائية تنهال على الجنود الهيالا وفيراً من السمك والتمر والبط والدجاج والبيض والاغنام والماعز • وقد ذبح أهل القرية لهم كذلك جواميس هرمة ، وسمع ويلسون رجلاً منهم يقول لجاموسته أثناء ذبحها : «ان موتك شرعي يا عزيزتي ،فسأشتري بثمن جلدك ولحمك بندقية • سأكون رجلاً» •(٥٣)

---

(53) **Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, p. 43 — 46.**

الفصل السادس

تتابع الانتصارات الانكليزيـة

على أثر انتحار سليمان عسكري بك في الشعيبة قررت الحكومـة العثمانية العودة الى النظام الذي كانت عليه في بداية الحرب وهـو جمـع الأمور الادارية والعسكرية في يد رجل واحد ، فعزلت الوالي سليمان نظيف بك وعينت مكانه نورالدين بك ليكون والياً وقائداً للجيش في آن واحد .

ان نورالدين بك هو ابن المشير ابراهيم باشا والي طرابلس الغـرب سابقاً ، وكان عند تعيينه في العراق في الواحدة والأربعين من عمره،والمعروف عنه انه كان قائداً محنكاً ذا ثقافة عسكرية عالية ،وكان بالاضافة الى ذلـك صارماً شديد القسوة لا يبالي أن يأمر بقتل الانسان لأقل هفوة تبدر منه .

وصل نورالدين بك الى بغداد في ١٩ أيار ١٩١٥ ، وبعـد أن درس الموقف العسكري التفت نحو الجرائد التي كانت تصدر في العراق يومذاك فوجدها على خلاف ما كان يتوقع منها اذ هي كانت في نظره غير حريصـة على تأييد الدولة بمقالاتها وأخبارها كما ينبغي. فأصدر أمره حالاً باغلاق تلك الصحف وبنفي أصحابها الى أماكـن نائية . فكان من نصيب الأب أنستاس ماري الكرملي والحاج عبدالحسين الازري وداود صليوه النفي الى الاناضول ، وعبداللطيف ثنيان وابراهيم صالح شكر النفي الى الموصل، وقد تمكن سليمان الدخيل من الهرب الى ابن سعود قبل القاء القبض عليه. ولم يسلم من النفي سوى محمد رشيد الصفار صاحب جريدة « الزهور » لأنه كان شديد الولاء للدولة يؤيدها في جريدته تأييداً قوياً . (١)

والتفت نورالدين بك بعدئذٍ نحو اليهود والنصارى ، فهـو كـان يخشى منهم ويعتبرهم رتلاً خامساً للانكليز ، وأراد أن يفعل بهم مثلمـا فعلت حكومة اسطنبول بالأرمن . ويروى أنه استدعى اليه رجلين مـن أهل الرأي ليستشيرهما في هذا الأمر هما : الشيخ نعمان الاعظمي وفؤاد

---

(١) روفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص ٣٩ـ٤٠ .

بك الدفتري • وقد انبرى الاعظمي يدافع عن اليهود والنصارى ، وأثبت للقائد أن ليس هناك أي خطر منهم على الوضع العسكري • وقد أيد الدفتري هذا الرأي أيضا •[٢] والظاهر أن نورالدين بك لم يقتنع بهذا الرأي اقتناعاً تاماً حيث وجدناه يأمر بنفي نفر من وجهاء اليهود والنصارى الى الموصل[٣] •

طونزند وحليم بك :

كانت الحملة الانكليزية في بداية الأمر تتألف من فرقة واحدة هي الفرقة السادسة بقيادة الجنرال باريت على نحو ما ذكرناه سابقاً • وقد قررت الحكومة الانكليزية أخيراً جعل الحملة بقوة فرقتين حيث أضافت الى الفرقة السادسة فرقة أخرى هي الفرقة الثانية عشر وعينت لهما قائداً عاماً هو الجنرال نكسون • وقد وصل هذا القائد الجديد الى البصرة في ٩ نيسان ١٩١٥ أي قبل معركة الشعيبة بثلاثة أيام • وعند وصوله قدم الجنرال باريت استقالته معتذراً باعتلال صحته ، ثم عاد الى الهند •

عينت الحكومة الانكليزية الجنرال طونزند قائداً للفرقة السادسة بدلاً من باريت ، وكان هذا القائد الجديد يعمل في الجيش الشمالي في الهند ، وهو يحدثنا في مذكراته عن كيفية تبليغه بخبر التعيين فيقول : انه بينما كان يتناول طعام العشاء في نادي راولبندي في ليلة من ليالي نيسان ١٩١٥ وصلته برقية من وزير الحربية يخبره فيها بأنه عيّن قائداً للفرقة السادسة في العراق خلفاً للجنرال باريت، فكان فرحه بذلك عظيماً ، وقد سافر بعدئذٍ الى كراجي بالقطار ومن هناك ركب باخرة متوجهة الى البصرة فوصلها في ظهر ٢٣ نيسان • وقابل رئيسه الجنرال نكسون فور وصوله حيث أطلعه هذا على الموقف العسكري والمهمة التي نيطت به •[٤]

كان طونزند عند تعيينه لمنصبه الجديد في الرابعة والخمسين من عمره،

---

(٢) محمد صالح السهروردي (لب الالباب) ــ بغداد ١٩٣٣ ــ ج٢ ص ٣٨٨.
(٣) يوسف رزق الله غنيمة (تاريخ يهود العراق) ــ بغداد ١٩٢٤ ــ ص١٨١.
(٤) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ــ ترجمة عبدالمسيح وزير ــ بغداد ١٩٢٣ ــ ص ٥٠ــ٥١ .

وقد نال رتبة «ميجر جنرال» ــ أي لواء ــ قبل ذلك بأربع سنوات ، وكان يطمح أن ينال الترقية الى رتبة «لفتننت جنرال» ــ أي فريق ــ قريباً . انه كان من أسرة ارستقراطية اذ كان جده لورداً ، والمعروف أنه كان شديد الطموح دؤوباً لا يهدأ في سبيل طموحه . وكان أيضاً كثير القراءة في التاريخ العسكري ومولعاً بنابليون واعتاد أن يقارن خططه بخطط نابليــون ، (٥) وكان بعض مرؤوسيه حين ينزعجون منه يتهكمون عليه بقولهم انه يحــاول تقليد نابليون في حركاته .(٦)

كان الاتراك يومذاك متمركزين في مواقع لهم الى الشمال من القرنة، وكان قائدهم هناك ضابط اسمه حليم بك ، والمعروف عن هذا القائد أنــه كان ضعيف الكفاءة متفسخاً . وصفه عثمان خلوصي بك في مذكراته قائلاً ما نصه : «الاميرألاي حليم بك رجل أناني يعتقد أنه لم يوفد الى العراق ــ ذلك البلد البعيد ــ الا ليؤمن لنفسه مستقبلاً باهراً ، ولكــن ليــس بالدفاع المجيد عن الوطن وادراك الفوز بل بالخيانة . ولهذا رأيناه منــذ تولى مقدرات الفرقة في الجبهة يعمل على مطاردة القبائل بضغط وشــدة للحصول على الحبوب . ومن المؤسف ــ وهو ما نرويه للحقيقة والتاريخ ــ ان هذا القائد لم يكن يحاول تأمين حاجات الجيش بل المتاجرة بالحبــوب وجمع ثروة طائلة . وقد نجح في ذلك، وأكدت لنا الاخبار الراهنــة أنــه أرسل مع قريب له عشرين ألفاً من الليرات الذهبية في شهر آذار ، ثم عــاد وأرسل مثلها في نيسان . وهذه الأموال هي نواة الثروة الفاحشة التــي يتمتع بها الرجل في الوقت الحاضر . ولم تقف مساعي هذا القائد عند هذا الحد بل عمد الى الاتفاق سراً مع القائد الانكليزي طونزند على الخيانــة فتناول مبلغاً من المال يقال انه زاد على عشرين الفاً من الليرات الذهبية فــي مقابل تدبير خطة التراجع التي وقعت في صفوف العثمانيين ...» (٧)

ان من سوء حظ الاتراك في جبهة القرنة أن يكون قائدهم من هــذا

---

(5) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 27—33.

(6) Ronald Millar (Kut) — London 1969 — p. 21—22.

(٧) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ١٢ تموز ١٩٣٨ .

الطراز الواطيء بينما قائد الفرقة الانكليزية المقابلة لهم من طراز طونزند !

معركـة الـزوارق :

كان طونزند في مساء اليوم الأول من وصوله الى البصرة قد ركـب زورقاً بخارياً سريعاً حيث توجه به الى القرنة بغية دراسة الموقف العسكري فيها • وفي صباح اليوم التالي صعد طونزند برجاً خشبياً أعد لـه هناك ، فوجد المياه محيطة بالقرنة من جميع نواحيها على مد البصر وذلك لشـدة الفيضان في تلك السنة ، وكان الاتراك قد اتخذوا مواقعهم على تلول متفرقة هنا وهناك كأنهم في جزائر صغيرة •

عاد طونزند الى البصرة عصراً ، وانكب على وضع خطته ، وهو يقول في مذكراته : ان مياه الفيضان كانت تحول بينه وبين القيام بالمناورات الحربية مهما كان نوعها ، ولهـذا وضع خطته على أن تقوم فرقته بالهجوم المباشـر على موقع العدو بينما تقوم الفرقة الثانية عشرة بالالتفاف حول العدو مـن جهة عربستان اذ تحاول الوصول من هناك الى العمارة فتهدد العدو بقطـع طريق الرجعة عليه وتضطره الى الانسحاب العاجل • وقد استحسن نكسون هـذه الخطة غير أنه وجد فيهـا عيبـاً هو أنها تؤدي الى خـرق حيـاد ايران •[8] فترك طونزند هذه الخطة وأخذ يفكر في وضع خطة أخرى ••

الواقع ان هذه الحجة التي تذرع بها نكسون في انتقاد خطة طونزند تدعو الى الاستغراب ، ففي نفس الوقت الذي كان فيه نكسون يخشـى من خرق حياد ايران نرى قواته تهاجم قرية خفاجية التي كانت تابعـة لايران وتدمرها تدميراً • ويخيل لي أن نكسون كان لديه سبب آخر خفي يدعوه الى انتقاد خطة طونزند ، ولعله لم يحب ان يعلن هذا السبب فتظاهر بالغيرة على حياد ايران •

وضع طونزند خطة أخرى على أساس استخدام الزوارق المحليـــة ــ أي الابلام ــ في مهاجمة المواقع التركية • فحشد زهاء خمسمائة زورق، وأعد في كل زورق عشرة جنود ، كما أعد سبعة مراكب حربية كانت ثلاثة

---

(8) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٥٨ •

منها كبيرة نسبياً هي « اسبيكل » و « كليو » و « أودن » ، والاخرى صغيرة هي « كوميت » و « شيطان » و « سمانة » و « لويس بلي » .

كان المفروض في القائد التركي العام نور الدين بك أن يأتي الى الجبهة بنفسه على نحو ما فعل سلفه المرحوم سليمان عسكري بك ، ولكنه لم يفعل لسبب لا نعرفه ، وآثر أن يجعل مقره في الكوت . وقيل انه قرر سحب القوات التركية الموجودة في جبهة القرنة الى الوراء نظراً للظروف غير الملائمة لها من الناحية العسكرية ولكن قائد الجبهة حليم بك اعتذر عن تنفيذ ذلك بقلة وسائل النقل النهرية المتوفرة لديه ، ومكث في محله . (٩) ولا ندري هل فعل حليم بك ذلك عن حسن نية أم لسبب آخر !

وفي فجر ٣١ أيار بدأ الهجوم الانكليزي على المواقع التركية ، حيث تحركت الزوارق والمراكب نحوها وأخذت تصب عليها النيران بشكل لم يسبق ان حدث مثله في تاريخ العراق . (١٠) أضف الى ذلك ان طائرات ثلاث جاءت من البصرة وأخذت تحوم في سماء المعركة ، وكانت تلك أول مرة يشاهد العراقيون فيها طائرة في السماء ، فاشتد الرعب منها في قلوب الاتراك والمجاهدين الذين كانوا يقاتلون معهم . وقد بلغ تأثير الطائرات في نفوس العشائر أنهم أطلقوا عندئذٍ هوستهم المشهورة : « متعجب خالق له بعيره » . (١١)

وفي صباح اليوم التالي ألقت احدى الطائرات رسالة الى الجنرال طونزند تخبره بأن الاتراك ينسحبون من مواقعهم . وقد أبدى طونزند دهشته من هذا الانسحاب المفاجيء ، وهو يقول في مذكراته : ان المواقع التركية كانت منيعة جدا بسبب فيضان النهر ، وكانت الكفة راجحة الى جانب الاتراك ، واعتقد كل الاعتقاد أني لو كنت في محل القائد التركي لكسرت القوات الانكليزية شر كسرة وكبدتها خسارة فادحة . ونحن لم

---

(٩) شكري محمود نديم (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ٤٠ .

(10) Barker (The Neglected war) — London 1967 — p. 86.

(١١) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ــ بغداد ١٩٣٦. ج ١ ص ٧٠ .

يتم لنا الفوز في تلك المعركة الا ّ لان القائد التركي حليم بك كان جباناً لا يملك مثقال ذرة من الحزم ، فلما استولينا على مواضعه الامامية لاذ بالفرار بدلاً من الثبات في وجهنا . (١٢)

هنا نود ان نتساءل : هل كان انسحاب حليم بك بسبب جبنه وقلة حزمه كما يقول طونزند ، أم كان بسبب المبلغ الضخم من الليرات الذي وصله من طونزند سراً كما يقول عثمان خلوصي بك ؟ علم ذلك عند الله !

البلاغات الرسمية :

ان معركة الزوارق التي تحدثنا عنها آنفاً نالت شهرة عالمية في حينها ، وأخذت الصحف تتحدث عنها اذ هي كانت نادرة في تاريخ الحروب ، وقد سماها اللورد كرو في مجلس اللوردين بلندن بـ « الحملة البرمائية » ، وأطلقت عليها الصحف البريطانية اسم « سباق زوارق طونزند » .

وعلى أي حال فقد كان انسحاب الاتراك عقب تلك المعركة غير منظم تسوده الفوضى ، فقد ركب بعضهم في المراكب والسفن المحلية والزوارق، بينما سار البعض الآخر مشياً على الاقدام . وكانت المراكب الانكليزية تتعقبهم بشدة وترميهم بالقنابل ، فهلك منهم الكثيرون ووقع في الاسر منهم بضع مئات .

ومن الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي أصيبت فيه القوات التركية بتلك الهزيمة الشنعاء كانت البلاغات العسكرية تصدر ببغداد وهي تنوه بالانتصارات التي نالتها تلك القوات في حربها ضد الانكليز . فقد صدر بعد ثلاثة أيام من المعركة بلاغ هذا نصه : « وردت برقية من قائد القوات العثمانية المظفرة في الجبهة العراقية تدل على أن القوات الانكليزية حاولت مراراً متعددة احتلال مراكزنا الامامية الا ّ أنها فشلت نهائياً وردّت على أعقابها » . ثم صدر في اليوم نفسه بلاغ آخر يقول : ان العدو اضطر الى التقهقر ، ولم تعلم خسائره حتى الآن ولكن المظنون أنها كثيرة جداً . وفي اليوم التالي صدر بلاغ ثالث هذا نصه : « ان العدو

---

(١٢) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٥٦ ــ ٥٧ .

الذي دحرناه ورددناه بنجاح في غربي القرنة في جوار قلعة النجم ، كما ورد في بلاغ أمس ، جاء بنجدات أخرى وابتدأ في الساعة العاشرة ليلاً بالهجوم على مراكزنا . واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى الساعة الثانية بعد الظهر وانتهت بانكسار العدو وتشتيته وخصوصاً عند جناحنا الايمن . وكان العدو قد شحن جنودا ومدافع ورشاشات في الزوارق التي تقوى على الانتقال في المجاري المسماة (اهوارا) والتي تصب في الفرات شرقي قلعة النجم ، واندس العدو خلف جناحنا الايمن محاولاً الاحاطة بنا الا" ان ما أظهره جنودنا ومجاهدونا في هذا الجناح من الثبات اضطر العدو الى الانهزام التام وتراجع مشتتاً مقهورا حتى ان الانكليز الذين لم يتمكنوا من العودة الى الزوارق فروا تاركين في النهر سلاحهم ومدفعين رشاشين . وقد نزل بالعدو في هذه المعركة خسارة تزيد على ألف قتيل وجريح ، وبين القتلى قائد انكليزي برتبة ميجر وضابطان » . ثم صدرت بعدئذ ثلاثة بلاغات أخرى خلال مدة قصيرة وهي تنحو مثل هذا المنحى . (١٣)

يبدو أن الاتراك ارادوا بهذه البلاغات المتعاقبة ترسيخ « الكذبة » في أذهان الناس . وهذا يذكرنا باسلوب الدعاية الذي اتبعه غوبلز في الحرب العالمية الثانية حيث كان شعاره : « اكذب واكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس » .

سقوط العمارة :

كان طونزند قد قرر عقب انتصاره في معركة الزوارق أن يستغل هذا الانتصار الى الدرجة القصوى وبكل وسيلة متيسرة لديه ، فأوعز الى اسطوله النهري المؤلف من سبعة مراكب أن يطارد الاتراك المنسحبين بأقصى سرعة ممكنة ، كما قرر أن يذهب بنفسه مع الاسطول تاركاً قواته وراءه ، وكان قصده من ذلك الوصول الى العمارة قبل أن يتمكن الاتراك من تحضير وسائل الدفاع فيها . انها كانت مجازفة عسكرية مليئة بالخطر ،

---

(١٣) مجلة الأسرار البيروتية في عددها الصادر في ١٢ تموز ١٩٣٨ .

ولكن طوزند صمم على القيام بها دون اهتمام بأي شيء آخر . ومن يدري فربما كان متفقاً على ذلك سراً مع حليم بك .

كان طوزند قد جعل مقره في المركب « اسبيكل » ، وحين وجد هذا المركب بطيئاً في سيره انتقل الى مركب آخر أصغر منه وأسرع ، هو « كوميت » . ولم يكن يرافقه سوى ثلاثين بحاراً واثني عشر جندياً وستة ضباط فقط . وقد رافقه أيضاً السر برسي كوكس لمساعدته في التفاهم مع أهل القرى والمدن المتوقع احتلالها .

وفي الساعة الثالثة والنصف من عصر ٢ حزيران ١٩١٥ وصل اسطول طوزند الى بلدة قلعة صالح ، وكانت الاعلام البيض ترفرف على جميع بيوت البلدة . وشوهد زورق قادماً من البلدة وهو يحمل رؤساءها لمقابلة طوزند ، واغتنم طوزند الفرصة ليؤثر فيهم نفسياً فقال لهم : « كونوا بأمان ليس هناك من يعتدي عليكم ما دمتم أعلنتم خضوعكم واستسلامكم . وهناك خمسة عشر ألفاً من جنودنا ستصل طلائعها في هذا المساء او في صباح غد على أبعد تقدير ، وهذه القوات بحاجة ماسة الى القوت وعلف حيواناتها ، فعليكم أن تعملوا منذ الآن على تلبيتنا في ما نطلب منكم . وكونوا على ثقة وطيدة بأن قواتنا هذه وان كانت قادرة على امتلاك ما تحتاجه فوراً غير أنها لا تستولي على شيء قبل دفع ثمنه نقدا . فلسنا نريد أن نتبع خطة الاتراك في امتلاك ما لدى الاهلين عنوة ونحن لا نضمر للاهلين العداء . اننا نعتبركم كأخوان لنا ، ونحن لم نخض هذه الحرب الطاحنة الا من أجل انقاذكم والعمل واياكم يدا واحدة » . (١٤)

الواقع ان قوات طوزند كانت وراءه بمسافة بعيدة وهي لم تكن بهذا العدد الذي ذكره طوزند ، وهي كذلك لم تكن بحاجة الى قوت وعلف ، ولكن طوزند انما قال ذلك لرؤساء قلعة صالح بقصد الخداع والحيلة ، فهو كان يعلم بأنهم سينقلون الخبر الى الأتراك بسرعة وسيؤدي ذلك الى انهيار عزيمة الاتراك . وقد نجحت الحيلة فعلاً !

وسار الاسطول نحو العمارة ، فكان يشاهد الاعلام البيض منصوبة

---

(١٤) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ تموز ١٩٣٨

في جميع القرى التي يمر بها ، وكان الرجال والنساءوالاطفال الذين يعملون في الحقول يلوحون بأيديهم له • ولما وصل الاسطول الى مسافـة اثنـى عشر ميلاً من العمارة ارتأى طونزند التوقف لأنه كان معتقداً كل الاعتقاد ان الاتراك سيقاتلون للدفاع عنها • وقد جرت محاورة بينه وبـين أحـد ضباطه الكابتن «نن» ، فقد كان هذا الضابط يلح على المغامرة باقتحـام العمارة واحتلالها ، بينما كان طونزند يريد التريث لوثوقه من أن الاتـراك سيدافعون عن البلدة • وبعد ساعة من هذهالمحاورة طرأ تغير على تفكـير طونزند حيث قرر أن يجرب حظه ويتقدم نحو العمارة على سبيل المجازفة•

الواقع ان حليم بك كان قبل وصول اسطول طونزند الـى العمارة قد أصدر أوامره للدفاع عنها ، وقد كان في مقدوره أن ينجـح في الدفاع عنها لو أنه كان مصمماً على ذلك اذ كان لديه فوج تركي فدائي هو الفـوج الذي يسمى بـ «اطفائية اسطنبول» وهو مشهور بيسالته وقوة صموده في القتال • أضف الى ذلك أن قوات الداغستاني التي انسحبت من عربستان كانت على وشك الوصول الى العمارة وكان عددها يناهز الألفين • أمـا طونزند فكانت قواته بعيدة وراءه بمسافة يستغرق قطعها أربعاً وعشرين ساعة ، وكان في مقدور حليم بك أن يأسر طونزند ومرافقيه القليلين بسهولة قبل أن تصل قواته اليه •

ومهما يكن الحال فقد قرر حليم بك فجأة أن يستسلم للانكليز • وفي عصر ٣ حزيران عندما كان اسطول طونزند قد وصلتجاه دائرة الكمرك في العمارة ، شوهد زورق قادماً من البلدة ، وتبين أنهيحمل القائد حليم بـك ومعه متصرف العمارة عاصم بك وعدد من الضباط كباراً وصغاراً • انهم جـاؤوا لمقابلـة طونزند بغيـة الاستسلام لـه • وأراد طونزنـد أن يكرر نفـس الحيلة التي فعلهـا مـع رؤسـاء قلعـة صـالح من قبل ، فقال للمتصرف : ان وراءه قـوة عسكرية تعدادهـا خمسة عشر ألف جنـدي وهي ستصل بعد وقت قصير وسـوف تكون بحاجة الى أطعمة • فأجاب المتصرف وقد انطلت عليه الحيلة : ان لـديه مقـادير كبيرة مـن البقسماط • وأراد طونزند أن يقوي تأثير الحيلة في قلوب الاتراك ،فصار يبدي تذمره بحجة أن مقادير البقسماط على كثرتها لا تكفي لاطعام قواته

الكثيرة التي هي على وشك الوصول ، وألح على المتصرف أن يقوم حالاً بجمع الاغنام من البلدة .[١٥]

وبعد أن وثق طوزند من نجاح حيلته أرسل ضابطاً صغيراً مع جنديين الى الثكنة في البلدة لأسر الفوج الفدائي الذي كان تعداده ستمائة جندي. وحين وصل الضابط والجنديان الى الثكنة استسلم الفوج كله لهم . فكان منظراً عجيباً حيث كان ثلاثة رجال يسوقون فوجاً فدائياً ، فأخرجوه من الثكنة ثم ساروا به الى رصيف النهر وأركبوه جنيبة كبيرة . وكان طوزند يخشى أن يفطن الفوج الى الحيلة فيتمرد على آسريه الثلاثة ، ولهذا أوعز بأن تتحرك الجنيبة التي تحمل الفوج الى وسط النهر وتقف هناك لكي تكون تحت رحمة المدافع المسلطة عليها من المراكب .

وصادف في تلك الساعة وصول قوات الداغستاني الى العمارة قادمة من عربستان فأطلق المركب «شيطان» عليها قنابله ، فاستسلمت طلائع تلك القوات للانكليز بينما هرب الباقون نحو الشمال بلا نظام ، ولكن بعض هؤلاء الهاربين عادوا فاستسلموا للانكليز يحدوهم الخوف من أعراب بني لام .[١٦]

وفي صباح ٤ حزيران أخذ بعض سكان العمارة ينهبون بيوت الضباط الاتراك ودوائر الحكومة والمستشفيات ومستودعات الاطعمة وغيرها ، فكان منظرهم وهم يحملون منهوباتهم على شاطىء النهر كأنهم أسراب النمل . وبدأت طلقات الرصاص تسمع من داخل البلدة . فأصدر طوزند أمره الى المركب «كوميت» بأن يطلق النار على الناهبين الذين كانوا يركضون على ضفة النهر ، فسقط منهم أربعة أو خمسة أشخاص بينما أخذ الباقون يرمون المنهوبات من أيديهم ويهربون لا يلوون على شيء وهم يطأون بعضهم بعضاً .[١٧]

---

(١٥) تشارلس طوزند (المصدر السابق) ـ ص ٩٥ .

(16) Arnold Wilson (Loyalties — Mesopotamia) - London 1936 - vol. 1, p. 48.

(١٧) تشارلس طوزند (المصدر السابق) ـ ص ٩٧ .

كان مجموع الأسرى الذين وقعوا في أيدي الانكليز فيواقعة العمارة يقارب الالفين • ثم وصل الجنرال نكسون الى العمارة فهنأ طونزند تهنئة حارة على هذا النصر الرائع الذي ناله من غير خسارة • ويقول باركـر : ان هذا الانتصار هو الذي بعث الثقة المفرطة في قلوب القواد البريطانيين مما شجعهم على القيام بمغامرات أخرى تلك المغامرات التي انتهت بكوارث سلمان باك والكوت •[18]

قصة ذات مغزى :

حدثت للضابط العراقي تحسين العسكري ، على أثر سقوط العمارة ، قصة جديرة بالذكر هنا لما فيها من مغزى اجتماعي ، وهو قد سجلها في مذكراته ،[19] ننقل فيما يلي ملخصاً لها :

كان تحسين العسكري من بين ضباط القوات التركية التي استسلمت في العمارة ، ولكنه لم يسلم نفسه مع بقية الضباط بل آثر الهرب من الانكليز ، ولهذا تنكر بالملابس الاهلية وذهب يمشي في أزقة العمارة على غير هدى • وبينما هو سائر في الازقة شاهد زميلاً له بغدادياً ببزته الرسمية اسمه «برقي شوقي» واتفق الاثنان على الالتجاء الى أحد البيوت للاختفاء فيه ، ووقع اختيارهما على دار فطرقا بابها ، فخرجت اليهما امرأة تبين أنها يهودية ، فادخلتهما الى الدار • وهناك في الدار غيّر الضابط برقي رأيه وقرر الاستسلام للانكليز ثم انطلق خارجاً • أما تحسين العسكري فقد قرر الالتجاء الى الشيخ عريبي رئيس عشيرة ألبو محمد ، وأرسل اليه أحداً من أهل الدار يخبره بأمره ، فأرسل الشيخ عريبي اليه عبداً من عبيده لاصطحابه الى داره •

من الجدير بالذكر أن الشيخ عريبي كان قد شارك في حركة الجهاد على رأس عشيرته في القرنة، وكان قبل هذا قد حصل على لقب « باشا » من الحكومة التركية ، ولكنه عند عودته الى العمارة اغتنم أول فرصة

---

(18) Barker (op. cit) — p. 90.

(١٩) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ٧٥ ــ ٧٩ •

أتيحت له لمراسلة السر برسي كوكس والتفاهم معه • ولما سقطت العمارة في ٣ حزيران سعى الشيخ عريبي لتجديد صلته بالانكليز وتوثيقها حيث نراه في صباح اليوم التالي يذهب لزيارة طونزند وكوكس في مركبهما في النهر ، وفي عصر ذلك اليوم جاء كوكس لردالزيارة للشيخ عريبي في داره •

وعند وصول كوكس الى الدار لم يكن الشيخ عريبي فيه بل كان ابنه محمد ومعه الشيخ مجيد الخليفة ، وكان العسكري جالساً معهما في غرفة مطلة على الشارع • ويدعي العسكري : أنه حين لمح كوكس قادماً في الشارع توترت أعصابه فتناول مسدسه يريد قتل كوكس به ، ولكن الرجلين أمسكا بيده واختطفا المسدس منه •

ولما علم الشيخ عريبي بالأمر أخيراً قرر التخلص من العسكري لكي لا يورطه مع الانكليز في مشكلة هو في غنى عنها ، فاستحصل له من كوكس وثيقة مرور باسم مستعار ، ثم ساعده على الخروج من العمارة والذهاب الى مركز العشيرة في قرية «مسيعيدة» •

غادر العسكري العمارة في ٥ حزيران حيث ركب زورقاً وسار به شمالاً • وعلى بعد عشرة كيلومترات من العمارة شاهد على الشاطىء ضابطاً بغدادياً اسمه حسني الشواف ، وكانت العشائر قد سلبته كل ما عليه ولم يتركوا له سوى ثوب رث ، فأركبه معه في الزورق ، واستمر على السير حتى وصل هو ورفيقه الى قرية «المسيعيدة» فنزلا في مضيف الشيخ عريبي •

كانت الشيخة عريبة أخت الشيخ عريبي هي التي تقوم مقام أخيها أثناء غيابه في ادارة شؤون المضيف ، وقد رحبت الشيخة بالرجلين اللذين نزلا عندها وهيأت لهما كل وسائل الراحة • وقد مكث الرجلان في المضيف حتى اليوم التالي ، ومن غرائب الصدف انهما بينما كانا جالسين في المضيف اذ شاهدا كوكس نفسه يدخل المضيف وبصحبته الشيخ عريبي •

كان الغرض من مجيء كوكس هو لزيارة المضيف ، ولما أتم كوكس شرب القهوة التفت بشكل مفاجىء نحو الشيخ عريبي واخته يسألهما : هل صحيح أن عندكما ضباطاً من الاتراك مختبئين ؟! فجفل الشيخ عريبي من هذا السؤال ، ووثب على قدميه قائماً ، وأخذ يقسم

بالأيمان المغلظة على أن الخبر غير صحيح وأنه لا بد أن يكون وشاية من أعدائه للتنكيل به • فتضاحك كوكس كأنه يريد أن يهدىء من روع الشيخ عريبي • ثم حضر الطعام فانقطع عن الموضوع •

وقد عاد كوكس الى العمارة عقب تناول الطعام • أما العسكري والشواف فقد غادرا المضيف حيث ركبا زورقهما متوجهين به نحو الكوت•

سقوط الناصرية :

على أثر احتلال العمارة قرر الجنرال نكسون أن يحتل الناصرية لكي يتم بذلك السيطرة على ولاية البصرة كلها بألويتها الثلاثة • وقد ناط هذه المهمة بالجنرال غورنج وكان هذا القائد قد عاد تواً من حملته الانتقامية في عربستان •

ان التحريات التي قام بها غورنج دلت على أن الطريق الافضل للوصول الى الناصرية هو التحرك من القرنة عبر الفرات ثم اجتياز بحيرة الحمار الى جدول عكيكة ومنه الى سوق الشيوخ فالناصرية •

وفي فجر ٢٧ حزيران ١٩١٥ تحركت الحملة الانكليزية من القرنة وكانت مؤلفة من مراكب حربية وبواخر تحمل الجنود وعدد من الزوارق والجنائب • وكان منظر المركبين « اسبيكل » و « أودن » وهما يمخران بحيرة الحمار بصواريهما العالية يملأ القلوب رعباً • [٢٠]

وصلت طلائع الحملة الى صدر جدول عكيكة في الساعة الواحدة والنصف من عصر ذلك اليوم ، فوجدت هناك سدة متينة الصنع كانت العشائر قد صنعتها لرفع مستوى الماء في الجدول قوامها أحجار وأخشاب وسفن قديمة • فحاول الانكليز تدمير السدة بقصفها بالقنابل ولكن القصف لم يؤثر فيها شيئاً ، واضطروا أخيراً الى نسفها بالديناميت • وقد بذلوا في ذلك جهوداً مضنية استغرقت ستاً وثلاثين ساعة •

وبعد نجاح الانكليز في اجتياز سدة عكيكة توجهوا نحو بلدة سوق الشيوخ فاحتلوها في ٦ تموز • وقد وصل الى البلدة عقب احتلالها السر

---

(20) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, 52—53.

برسي كوكس الذي كان الأعراب يسمونه « سبّوزي كوكز » ، [٢١] فجرت بحضوره حفلة رفع العلم البريطاني على سراي الحكومة ٠

وبعد احتلال سوق الشيوخ توجهت القوات الانكليزية نحو الناصرية ٠ ويبدو أن الانكليز كانوا يظنون أنهم سوف يحتلون الناصرية بمثل السهولة التي احتلوا بها العمارة ، ثم اتضح لهم أخيراً أن ظنهم هذا لم يكن على صواب ٠

كان قائد القوات التركية في الناصرية ضابطاً بغدادياً اسمه أحمد بك أوراق ، وهو من طراز يختلف كل الاختلاف عن طراز حليم بك ، اذ كان رجلاً باسلاً مخلصاً لدولته عليماً بقواعد الحرب ، وقد عبأ قواته للدفاع عن الناصرية تعبئة جديرة بالثناء ٠ ولما تقدمت القوات الانكليزية نحو الناصرية وجدت مقاومة عنيفة على طول الطريق اليها ، وكانت تلك أول مرة يجابه الانكليز فيها مثل هذه المقاومة العنيفة في العراق ٠

طلب الجنرال غورنج الامدادات من البصرة غير مرة ، ولم يتمكن من الوصول الى الناصرية الا بعد جهد جهيد ، وقد تم له احتلالها في ٢٤ تموز ، غير أنه لم يوفق الى تأسير جميع القوات التركية التي كانت فيها فقد أفلت القسم الاكبر منها متجهاً الى الشطرة ومنها التحق بالقوات الرئيسة التي كانت تتجمع في الكوت بأمرة القائد العام نورالدين بك ٠

كانت خسائر الاتراك تقارب الألفين بين قتيل وجريح ، وخمسة عشر مدفعاً ، ونحو ألف من الأسرى ٠ أما الانكليز فكانت خسائرهم زهاء خمسمائة قتيل وجريح٠ وقد اعتبرت معركة الناصرية نصراً عسكرياً للجنرال غورنج ، غير أنها كانت غلطة سوقية بالنسبة للجنرال نكسون ٠ فلقد كان من الأفضل لنكسون أن يركز كل قواته على دجلة باتجاه الكوت وبغداد بدلاً من بعثرة قسم منها في الناصرية ٠ ان احتلال الناصرية لم يخدم أي غرض عسكري هام ، وكان القائد الانكليزي العام في الهند قد اعترض على القيام به منذ البداية ٠ [٢٢]

---

(21) Barker (op. cit.) — p. 92—94.

(22) George Buchanan (The Tragedy of Mesopotamia) — London 1938 — p. 17—18.

فرار ضباط عراقيين :

كان في الناصرية قبل سقوطها بيد الانكليز كثير من الضباط العراقيين، وكانوا فئتين : احداهما متمسكة بعثمانيتها وترى وجوب الاستمرار في القتال الى جانب الاتراك ضد الانكليز «الكفار» ، أما الفئة الاخرى فكانت على الضد من ذلك تؤمن بالقومية العربية وترى أن الدولة العثمانية تعاني الآن سكرات الموت بعد الهزائم المنكرة التي حلت بها ويجب على العرب أن يغتنموا هذه الفرصة للاتصال بالانكليز والتعاون معهم في سبيل تأسيس دولة عربية مستقلة • وفي ٢٧ حزيران قرر ثلاثة ضباط من هذه الفئة الاخيرة أن يهربوا الى الخطوط الانكليزية ، وهم : مولود مخلص وعبدالله الدليمي وعلي جودت الأيوبي •

ليس لدينا علم عن كيفية هرب الضابطين الاولين ، أما الثالث وهو علي جودت الايوبي فقد سجل قصة هروبه في مذكراته [٢٣] ، نلخصها فيما يلي لأهميتها :

كان الأيوبي في معية القائد أحمد بك أوراق عندما كان هذا يقوم بجولة في النهر مع سرية من الجنود على ظهر باخرة ، ولما وصلوا الى سدة عكيكة وجدوا هناك الشيخ عجمي السعدون في حالة استعداد مع عشائره لخوض المعركة ، وقد طلب عجمي مقداراً من العتاد فأوعز أحمد بك الى الايوبي بتجهيز العتاد له • وبينما كان الايوبي مشغولاً بذلك انصبت عليهم القنابل الانكليزية مما اضطر أحمد بك وجنوده الى الانسحاب بالباخرة على عجل ، حيث تركوا وراءهم الايوبي مع نفر من الجنود ، وعند هذا انثالت العشائر على الايوبي وجنوده تريد سلب بنادقهم • يقول الايوبي انهم صاروا اذ ذاك بين نارين : نار الانكليز من جانب ونار العشائر من الجانب الآخر • فاضطر الايوبي أن يرمي بنفسه الى جدول للاحتماء به ، ولما هدأ اطلاق النار خرج من الجدول وصار يمشي متجهاً نحو سوق الشيوخ•

وصف الايوبي المشاكل التي واجهها أثناء سيره في طريق سوق الشيوخ اذ كان أفراد العشائر يحاولون نهبه مرة بعد مرة ، وذكر كيف أنه في

---

(٢٣) علي جودت (ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ٣٤ ـ ٣٨ •

احدى المرات جوبه برجلين يصوبان بندقيتيهما عليه ، وصرخ أحدهما به « سلّم ياولد ! » ، فاستنجد الايوبي بأحدهما على طريقة الدخالة العشائرية قائلاً : « أنا بوجهك ياولد ! » ، فوافق الرجل على قبول دخالته بشرط أن يرمي له الايوبي سلاحه فوراً ٠ وبعد أن أعطاه الايوبي سلاحه أخذ أحد الرجلين يفتشه ، فأدرك الايوبي مقصد الرجل من التفتيش فقدم له محفظة نقوده التي كانت تحتوي على خمس ليرات مع مجيدي واحد ٠ ثم صار الايوبي يتوسل الى الرجل لكي يرجع له شيئاً من نقوده لأنه لا يملك غيرها ، وأخذ يلح في التوسل ، فأعطاه الرجل المجيدي ثم دفعه بكلمات بذيئة ليتخلص من الحاحه ٠ يقول الايوبي انه كان يحمل عددا كبيرا من الليرات الذهبية مخفية في هميانه وهو انما ألح في طلب نقود قليلة من الرجل لكي يحمله على الاعتقاد بأنه لا يملك غيرها ٠ وقد نجحت الحيلة ٠

وحين وصل الايوبي الى بلدة سوق الشيوخ وجدها في هرج ومرج ، فبات ليلته تلك عند رجل من شرطة الدرك اسمه « علي الحشاش » ، وفي الصباح خرج الايوبي ليتمشى في السوق فوجدها قد احتلها الانكليز ورأى ثلة من الجنود يتقدمهم كوكس وويلسون ومعهم الشيخ فرهود المغشغش ، فاستوقفه الجنود وسأله أحدهم بالعربية : هل أنت ضابط ؟ فانبرى الشيخ فرهود يجيب عنه وهو يضحك قائلا : « نعم ضابط واسمه علي جودت » ٠ فألقى الجنود القبض عليه ، وسيق الى البصرة حيث التقى فيها بزميليه مولود مخلص وعبدالله الدليمي ٠

مكث الثلاثة في البصرة سنة واحدة تقريباً ، ولم يذكر الايوبي في مذكراته تفاصيل ما جرى لهم في البصرة ، ولكن مجلة « الاسرار » البيروتية ذكرت شيئاً من ذلك نقلاً عن مولود مخلص فيما يبدو ، وخلاصته أن كوكس عامل اولئك الثلاثة معاملة ممتازة وقال لهم انه لا يعتبرهم أسرى بل ضيوفاً عليه ، ثم أرسلهم الى العمارة لمقابلة الجنرال نكسون الذي كان فيها آنذاك ، وعندما قابلوا نكسون عرضوا عليه اقتراحاً بتأليف قوة من المتطوعين العراقيين تقاتل الى جانب القوات الانكليزية لقاء تصريح من القائد العام بالمساعدة على تحقيق الاستقلال الذي يصبو اليه العرب ،

فكان رد نكسون عليهم أنه لا يملك السلطة التي تخوله أن يفعل ذلك ولكنه على أي حال مستعد أن يقبلهم ضباطاً في الجيش الانكليزي ووعدهم بالرتب العالية والوظائف التي يرغبون فيها ، فقال له مولود مخلص : انهم يسعون لهدف وطني وليس لنيل الرتب والوظائف فأجابه نكسون قائلاً : ان انضمامكم الى صفوفنا هو في حد ذاته عمل وطني لاننا لم نعلن الحرب الا من اجل تحرير الشعوب المستضعفة . فلم يقبل الثلاثة بهذا الجواب وظلوا مصرين على اقتراحهم الاول ، وعند هذا قدم نكسون اليهم انذاراً نهائياً قال فيه : ان عليهم ان يقبلوا الوظائف التي عرضت عليهم والا فانه يعتبرهم عثمانيين ويعاملهم معاملة الاسرى . وحين وجدهم يرفضون انذاره أمر باعادتهم الى البصرة ومعاملتهم كبقية الاسرى الذين كانوا معتقلين هناك . (٢٤)

يواجهنا هنا سؤال : لماذا قابلهم نكسون بهذه المقابلة الخشنة ، ولماذا لم يستجب لمطاليبهم ، مع العلم ان ذلك سيشجع ضباطاً آخرين على الهرب من خطوط الاتراك والانضمام الى الانكليز ؟

لكي نستطيع الجواب على هذا السؤال يجب أن نذكر ان السياسة البريطانية يومذاك كانت منقسمة تجاه العرب الى مدرستين متضادتين في الرأي هما : مدرسة القاهرة ومدرسة الهند . فلقد كانت مدرسة القاهرة تضم اولئك الرجال الذين كانوا يعملون فيما يسمى بـ « المكتب العربي » في القاهرة من أمثال مكماهون وستورز وسايكس وكلايتون ووينجيت وهوغارت ولورنس وكورنواليس وغيرهم ، وكانت السياسة التي يتبعونها هي العمل على تشجيع الدعوة القومية بين العرب والتعاون معهم لمقاومة الدعوة الدينية التي كان الاتراك يلتزمونها . أما مدرسة الهند فكانت تضم الضباط الذين كانوا يشرفون على الحملة البريطانية في العراق ، وكان رأيهم ان القوات البريطانية قادرة أن تفتح العراق من غير حاجة الى معونة العرب ، وان معونة العرب قد تضر بريطانيا اكثر مما تنفعها لانها تجعل العرب بعد الحرب يغالون في مطاليبهم الوطنية فيؤدي ذلك الى تعقيد

---

(٢٤) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٣ تشرين الاول ١٩٣٨ .

التسوية النهائية للوضع السياسي في العراق .

ولا حاجة بنا الى القول بأن الجنرال نكسون كان من اتباع مدرسة الهند ، وهذا قد يفسر لنا سر رفضه لمطاليب الضباط العراقيين . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن اتباع هذه المدرسة تراجعوا عن موقفهم هذا فيما بعد لا سيما حين حلت بهم الهزائم في الكوت ثم انتصرت مدرسة القاهرة بثورة الشريف حسين في الحجاز . يقول علي جودت الايوبي في مذكراته : ان حاكم البصرة العسكري استدعاهم على أثر اعلان الشريف ثورته وسألهم قائلا : هل أنتم مستعدون للذهاب الى أي قطر عربي ينادي بالاستقلال ؟ فكان جوابهم : نعم ! فابرق الحاكم الى مكة برغبتهم هذه ، وعاد الجواب منها مرحباً بهم فسافروا اليها ... (٢٥)

مؤامرة في الناصرية :

ان هرب الضباط العراقيين الثلاثة أثار خوف القائد التركي نور الدين بك فأوعز الى رجال استخباراته بتشديد الرقابة على الضباط العراقيين الآخرين الموجودين في الجبهة ، وأوصى بأن لا يعطى هؤلاء الضباط مراكز ذات مسؤولية في الجيش خشية أن يستميلهم الانكليز فيصاب الجيش من ذلك بالضرر الكبير . وأرسل نور الدين بك الى القيادة العليا في اسطنبول تقريراً يلفت نظرها الى موقف الضباط العراقيين وخوفه منهم ويطلب منها تقليل عددهم في الجبهة العراقية واستبدال ضباط أتراك بهم على أن يرسل الضباط العرب الى جبهة قفقاسيا أو الى منطقة تركية أخرى . (٢٦)

يبدو أن خوف نور الدين بك كان في محله ، فقد كان الضباط العراقيون في الناصرية مصممين على شيء ، وقد شجعهم هرب زملائهم الثلاثة فقرروا الاحتذاء بهم ، غير أنهم ارتأوا أن يتصلوا بالانكليز قبل الهرب لكي يضمنوا بذلك مصيرهم . وفي ١٤ تموز عندما كانت الناصرية مهددة بزحف القوات الانكليزية عليها اجتمع نفر منهم سراً في دار

---

(٢٥) علي جودت (المصدر السابق) — ص ٣٨ .

(٢٦) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٣١ تشرين الاول ١٩٣٨ .

يوسف العزاوي وكان فيهم بالاضافة الى صاحب الدار: تحسين العسكري، تحسين علي ، عبدالرحمن الاعظمي ، صادق الشيخلي ، اسماعيل نامق ، يوسف حنظل ، عيسى الوتري ، توفيق وهبي ، رشدي القبطان ، رمزي فتاح ، خلف خيري • وكان فيهم كذلك ضباط سوريون كصادق الجندي وتوفيق الحموي • وقد بدأ يوسف العزاوي الحديث فقال ما نصه :

« ترون ايها السادة أن الموقف بات خطراً للغاية فالحكومة العثمانية أهملت أمر البلاد كل الاهمال ، وهي بدلاً من أن تنصفنا وتساعدنا في هذه الاحوال الحرجة أرهقت شعبنا واستبدت عليه ••• وقد كان في امكاننا لو أنصفونا أن لا نثور عليهم ولكنهم أحرجونا فأخرجونا • ان الجيش العثماني لم يتمكن الى الآن من الثبات في أي معركة من المعارك تجاه الانكليز ، والقوات الانكليزية تتقدم في البلاد محتلة ••• وهذا معناه خلاصنا من نير أجنبي ضعيف ووقوعنا تحت نير أجنبي قوي • فعلينا اذن ان نعالج الموقف بدقة وان نتخذ تدابير من شأنها تحقيق الهدف الذي نسعى اليه » •

وبعد أن انتهى العزاوي من كلمته هذه حدثت مناقشة طويلة بين الحاضرين قرروا على أثرها ان الوقت حان لاعلان الثورة العراقية والدخول في مفاوضات سرية مع الانكليز للحصول على مساعدتهم في نيل استقلال العراق • وقد ارتأى الحاضرون ان قائد الموقع أحمد بك اوراق وضابط ركنه عادل بك يُخشى منهما ويجب اعتقالهما ، وعهدوا بأمر اعتقالهما الى اثنين منهم هما توفيق وهبي ورمزي فتاح • وقرر الحاضرون كذلك وجوب ارسال يوسف العزاوي الى الشيخ عجمي السعدون والشيخ خيون العبيد لمفاتحتهما في موضوع الثورة واقناعهما بالاشتراك فيها •

ذهب العزاوي عقب انتهاء الاجتماع الى مضارب الشيخ عجمي السعدون لمفاتحته في الامر ، ومما يجدر ذكره في هذا الشأن ان الانكليز كانوا قد اتصلوا بالشيخ عجمي قبل عدة أشهر محاولين استمالته اليهم ، وكان جوابه لهم : أنه يخشى أن تنحط سمعته اذا تخلى عن الاتراك من غير

سبب ، وانه سوف يجد سبباً يبرر تركه لهم • [٢٧] والظاهر أنه وجد السبب المبرر عندما جاء اليه العزاوي يعرض عليه اقتراح الضباط العراقيين، فقد قال له انه لم يكن يستطيع الانفصال عن الاتراك من غير سبب وجيه أما اذا تعهد الانكليز باستقلال العراق فانه أول من ينظم الى الحركة • وقد تم الاتفاق بينهما أخيراً على ارسال مندوب من الشيخ عجمي الى الجنرال غورنج لهذا الغرض •

حين قابل مندوب الشيخ عجمي الجنرال غورنج كان جواب هذا القائد يشبه جواب نكسون للضباط الثلاثة من قبل وهو أنه لا يملك أية سلطة تخوله اعطاء وعد حول استقلال العراق • ثم قال غورنج ان كل ما يستطيع أن يفعله في هذا الامر هو أن يعترف للشيخ عجمي بسيادته على عشائر المنتفق وأن يساعده بمبلغ مائتي ألف روبية تدفع له حالاً علاوة على منحه ما يحتاج من مرتبات وأسلحة وضباط للتدريب • ولما علم الشيخ عجمي بهذا الجواب قال : « انني أحقر نفسي اذا رددت عليه »•

حاول الانكليز بعد هذا ان يستميلوا الشيخ عجمي اليهم بأن زادوا له المبلغ فجعلوه ربع مليون روبية • وأرسلوا اليه صديقاً له من وجهاء البصرة هو أحمد الصانع ليقنعه فلم يوفق • وفي ٢١ تموز ـ أي قبل سقوط الناصرية بثلاثة ايام ـ عاد يوسف العزاوي الى أصحابه وأخبرهم بنتائج المحادثات التي أجراها ثم قال لهم : « كنا نعتقد ان الانكليز في أعمالهم في العراق لا يقصدون فتوحات جديدة وانما هدفهم اسعاف البلاد العربية وتحريرها من العثمانيين ولكن المحادثات التي قمت بها دلتني على أن هؤلاء لا يقصدون تحريرنا ، ولهذا أرى من الواجب العدول عن القرار الذي اتخذناه والعمل بجانب العثمانيين الى آخر نسمة من حياتنا » • وقد وافق أصحابه على رايه ، وألغيت المقررات السابقة التي اتخذت لاعلان الثورة • [٢٨]

---

(٢٧) مس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ١١ ـ ١٢ •

(٢٨) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٢٤ تشرين الاول ١٩٣٨•

معركـة السـن :

كان الجنرال طونزند قد أصيب بضربة شمس بعد أيام قليلة من احتلاله للعمارة ، فنقل الى الهند للمعالجة ، وعندما تم شفاؤه عاد الى العمارة فوصلها في صباح ٢٨ آب ١٩١٥ .

كان طونزند قد نيطت به عند عودته مهمة التقدم نحو الكوت بغية احتلالها . وبعد أن درس طونزند مواقع الاتراك وضع خطته استنادا الى قواعد نابليون الذي كان طونزند مولعاً به ، وكان من جملة تلك القواعد أنه يجب توجيه القوة الكبرى من الجيش ضد أضعف نقطة من خطوط العدو . وقد قرر طونزند تطبيق هذه القاعدة في مهاجمة مواقع الاتراك التي كانوا قد أعدوها على ضفتي نهر دجلة الى الشرق من الكوت للدفاع عنها .

كانت مواقع الاتراك قد ارتكزت على موضعين أحدهما يقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة وهو عبارة عن خط من التلول يبلغ امتداده خمسة أميال ويسمى « السن » ، والثاني يقع على الضفة اليسرى من النهر وهو عبارة عن برزخ يقع بين شاطىء النهر والاهوار الممتدة الى الشمال منه . وكانت خطة طونزند هي أن يتظاهر بالهجوم على القوات التركية المستحكمة على الضفة اليمنى وراء تلول السن بينما هو يرسل قوته الكبرى تحت جنح الظلام الى الضفة الاخرى من النهر لتقوم بحركة التفاف واسعة من وراء الاهوار بغية تطويق القوات المرجودة هنالك .

وفي صباح ٢٧ ايلول بدأ طونزند هجومه حسب الخطة «النابليونية» التي وضعها ، وكانوا قد أعدوا له برجاً ليصعد عليه فيراقب المعركة من فوقه . وصادف أن كان الجنرال نكسون قد وصل الى ساحة المعركة في تلك الساعة فصعد الى البرج أيضاً . ويقول طونزند في مذكراته : انه أخذ يدير المعركة من فوق البرج دون اهتمام بالجنرال نكسون الذي كان بجانبه ، وظل نكسون ساكتاً أثناء المعركة فلم يتدخل في الاوامر التي كان طونزند يصدرها . (٢٩)

---

(٢٩) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ١٦٧ .

أراد طونزند خداع الاتراك وايهامهم بأن قواته تتحرك كلها باتجاه تلول السن ، ولهذا أعد عجلات كثيرة وجعلها تتحرك في تلك الجهة فأثارت غباراً كثيفاً ، مما جعل نور الدين بك تنطلي عليه الحيلة فأخذ يركز معظم قواته على مواقع السن ، تاركاً المواقع الاخرى على الضفة اليسرى من النهر ضعيفة نسبياً .

حدث أثناء المعركة حادث كاد يؤدي الى فشل خطة طونزند ، وهو أن عريفاً هندياً مسلماً هرب من الخطوط الانكليزية ومعه ثلاثة جنود والتحقوا بالاتراك بدافع من ضميرهم الديني ، وأخبروا نور الدين بك بسر الخطة . وقد اهتم نور الدين بالأمر وعقد مع كبار ضباطه مجلساً حربياً للمداولة في الامر ، ولكن المجلس قرر بعد المداولة أن فرار الجنود اليهم ليس سوى مكيدة حربية يقصد بها الخداع . وكان ذلك من حسن حظ طونزند حيث سارت خطته على النحو الذي أراده لها دون أن يفطن لها الاتراك .

كانت نتيجة المعركة انتصارا باهرا لطونزند ، حيث بدأت القوات التركية تنسحب شمالاً بعد أن خسرت ١٧٠٠ قتيل وجريح ، و ١١٠٠ أسير، و ١٤ مدفعاً . أما الانكليز فكان مجموع خسائرهم ١٢٠٠ قتيل وجريح . (٣٠)

وهنا لابد لنا من أن نذكر أن نورالدين بك وان كان قد هزم في هذه المعركة غير أنه لم ينكسر ، وهناك فرق كبير بين الهزيمة والانكسار. فقد استطاع أن يسحب معظم قواته بنظام الى موقع سلمان باك وهو موقع حصين كان قد أعد من قبل للدفاع عن بغداد .

كان المفروض في طونزند بعد أن انتصر في معركة السن أن يطارد القوات التركية مطاردة عنيفة بغية أسرها كلها أو تحطيمها ، ولكنه أخفق في ذلك . ويعزى السبب في اخفاقه هذا الى عاملين : أولهما ما أبداه نورالدين بك من حذق وهمة في ادارة قواته عند انسحابها وكذلك ما أبدته

---

(٣٠) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ .

قواته من بسالة عظيمة في تعويق الحركات الانكليزية[٣١] • أما العامل الثاني في اخفاق طونزند فيعود الى قلة وسائل النقل لديه • يقول ويلسون في التعليق على ذلك : ان طونزند لو كانت لديه وسائل النقل الكافية ، البرية والنهرية ، لتمكن من أسر القوات التركية كلها ولربما استطاع بعدئذٍ أن يدخل بغداد من غير مقاومة ، ولكان ذلك نقطة تحول حاسمة في حرب العراق • [٣٢]

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن الخيالة من السيك والهندوس الذين أوعز اليهم بمطاردة القوات التركية المنسحبة ابدوا احجاماً وقلة اكتراث ، ولما سأل طونزند آمرهم عن سبب ذلك أجاب : انه لم يتمكن من نقل أواني الطبخ معه نظراً لعدم تيسر وسائط النقل وان جنوده يأنفون من استعمال أواني الطبخ العربية التي يعثرون عليها في القرى لاعداد طعامهم • ويقول طونزند في مذكراته تعليقاً على ذلك : « فلو انضمت الى قوتي في تلك الاثناء كتيبة خيالة بريطانية واحدة لتمكنت من تكبيد الترك خسارة فادحة ابان تراجعهم • ولكنهم تراجعوا من غير أن يلحق بهم اذى ، وكل ذلك من أجل أواني الطبخ فتأمل ! » • [٣٣]

يمكن القول على أي حال ان الانتصار الانكليزي في معركة السن على الرغم من نقصه هذا قد أضاف هالة جديدة الى سمعة طونزند ، فصار اسمه مشهوراً ، ولقبه بعضهم بـ « بطل سباق الزوارق » ، كما لقبه آخرون بـ « بارون بغداد » باعتبار أنه سيفتح بغداد قريباً ويصبح الحاكم فيها • وأخذت الصحف البريطانية تتحدث عنه بزهو وفخار •

سلوك العشائر :

كان للانتصارات الانكليزية المتوالية التي تحدثنا عنها تأثير مهم في سلوك العشائر العراقية ، فقد صارت هذه العشائر واثقة كل الوثوق بأن

---

(٣١) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٩١ — ٩٢ •

(32) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, 82.

(٣٣) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ١٧٤ — ١٧٥ •

الاتراك لا يرجى لهم خير وان الانكليز غالبون دائماً . وبدأت الاشاعات والاساطير تنتشر بين العشائر بوجه خاص وبين سكان العراق كله بوجه عام حول قوة الانكليز وعلومهم العجيبة وأسلحتهم الهائلة وثروتهم التي لا تحد . وكان عملاء الانكليز وجواسيسهم المنتشرون في أنحاء العراق يدأبون على بث مثل تلك الاشاعات والاساطير بين الناس ويحلفون بالله على صحتها .

يروي تحسين العسكري في مذكراته قصة تدل على مبلغ تأثير تلك الاشاعات في أذهان العشائر ، وقد وقعت تلك القصة أثناء انسحاب الاتراك من معركة السن نحو سلمان باك ، وكان تحسين يومذاك منسحباً كذلك وهو برفقة زميله يوسف حنظل ومعهما دليل ريفي اسمه « غراب » ، وصارا يتحدثان مع غراب فسألاه عن رأيه في حالة الجيشين المتحاربين فأجابهما بلهجته الريفية قائلاً : « يا خوي هذه مكتوبة لكم تظلون تطاردون للوراء » . فاغتاظ يوسف حنظل من جواب غراب ووبخه عليه ، فقال غراب تلطيفاً لغضبه : « يابيك لا تزعل ، الله ذكرها بالقرآن » ، يشير بذلك الى سورة الروم وما فيها من ذكر لمغلوبيتهم علماً بأن العشائر العراقية كانت تطلق على الاتراك اسم « الروم » . ثم أضاف غراب الى ذلك قائلاً بما معناه ان الاتراك مغلوبون حسب منطوق القرآن ، ولا فائدة من المقاومة مطلقاً . فصرخ به يوسف حنظل وأسكته . (٣٤)

ان هذه الفكرة التي سيطرت على أذهان العشائر جعلتهم يستهينون بالحكومة التركية ويحاولون ايذاءها ونهب جنودها بكل وسيلة تقع في أيديهم . وأدركت الحكومة عندئذٍ ان حركة الجهاد كانت طلاءاً ظاهرياً لدى أفراد العشائر ، وأنهم انما اندفعوا في الجهاد في البداية تحت تأثير الحماس الوقتي الذي أثاره فيهم رجال الدين ، فلما زال الحماس عادت العشائر الى سيرتها الاولى في سلوكها المعادي للحكومة . ان العداء العميق بين العشائر والحكومة الذي دام عدة قرون لا يمكن أن يزول بتأثير فورة حماسية موقتة .

---

(٣٤) تحسين العسكري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٣٣ .

يروى ابراهيم الراوي في مذكراته : أن عشيرة بني لام التي شاركت في الجهاد في عربستان برئاسة غضبان البنية أخذت بعدئذ تسلب الضباط والجنود المنسحبين كل ما كانوا يملكون . (٣٥)

ويروى الضابط التركي عثمان مظهر بك : انه كان قبيل معركة الزوارق في القرنة مكلفاً باستمالة العشائر الساكنة هناك ، فاستدعى اليها رؤساءها وخطب فيهم حيث ذكر لهم كيف أن الدولة العثمانية لا تريد الا الدفاع عنهم ودرء خطر الاعداء عنهم ، وأن الانكليز طامعون ببلادهم منذ عشرات السنين ، ولهذا أصبح من الواجب الوطني عليهم أن يهبوا للدفاع عن بلادهم حتى آخر نسمة من حياتهم . ثم وزع الضابط عليهم الاموال ، فوعدوه خيراً وقاموا بالهوسات الحماسية تأييداً له . ولكنهم لم يكادوا يشاهدون الطائرات الانكليزية تحلق في الجو حتى تفرقوا عنه من غير أن يطلقوا رصاصة واحدة ، ثم اختفوا وراء الادغال يراقبون الموقف ، ولما رأوا الاتراك ينهزمون انقلبوا عليهم وأخذوا يرمونهم بالرصاص من وراءهم . (٣٦)

المعروف عن بعض العشائر التي شاركت في معركة الشعيبة أنها لم تكد تلمح بوادر الهزيمة في جانب الاتراك حتى انثالت عليهم نهباً وقتلاً. ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن أحدى العشائر قالت في هوسة لها آنذاك : « خلينا الجنة لهادينا » ، (٣٧) تقصد بذلك أنها تركت الجنة كلها للسيد هادي مقوطر الذي كان قد حصل على ثلثي الجنة في هوسة سابقة .

ألصق الاتراك عقب معركة الشعيبة تهمة الخيانة بالعرب ، ومن هنا جاءت عبارتهم المشهورة التي صار الناس يرددونها بعدهم كثيراً وهي : « عرب خيانت ! » . وقد جرت في تلك الآونة محاورة عنيفة بين الضابط أحمد بك أوراق وبدر الرميض رئيس عشيرة بني مالك ، فقد قال هذا

---

(٣٥) ابراهيم الراوي (ذكريات) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ١٣ .

(٣٦) مجلة الاسرار البيروتية ــ في عددها الصادر في ٢٦ تموز ١٩٣٨ .

(٣٧) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ــ النجف ١٩٦٦ ــ ص ٧٦ .

الضابط بحضور جمع من العشائر : « اننا لو فتحنا الشعيبة والبصرة يبقى علينا واجب ثاني هو فتح العراق وخاصة الفرات أولاً وعشائر شط دجلة ثانياً ، لأنهم خونة » • فأجابه بدر الرميض قائلاً : « أنتم الخونة للاسلام ! وتحزبكم ضد العرب كاف لمصداق قولي ! وأنتم أولى بالحرب والقتال ممن نحارب ، ولولا فتوى علمائنا لما وجدتمونا في هذه الساحات التي نقاتل فيها » • (٣٨)

ان هذه المحاورة تدل على العداء العميق الذي كان قائماً بين العشائر والحكومة التركية • وهذا العداء كان قد ستر عليه طلاء خفيف أثناء حركة الجهاد ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ وسرعان ما أزيح عنه الطلاء وعاد الفريقان الى عدائهم القديم • فهي اذن ليست قضية خيانة انما هي قضية عداء قديم تنوسي فترة قصيرة من الزمن لظروف طارئة ثم عاد أخيراً الى وضعه الاول •

هنالك قصة يتداولها الرواة كثيراً في هذا الشأن خلاصتها أن جماعة من أبناء العشائر شاهدوا ذات مرة جندياً تركياً مجروحاً فأحاطوا به يسألونه بالاشارة عما عنده من النقود ، فأشار الجندي بيده الى فمه وكان يقصد أنه أنفق نقوده كلها في شراء الطعام له لشدة الجوع ، ولكنهم ظنوا أنه بلع نقوده ، فشقوا بطنه فلم يجدوا فيها شيئاً • ان هذه القصة لا ندري مبلغ صحتها ، وربما كانت من المبالغات التي يولع الناس بذكرها في مثل هذه الظروف ، انما هي على أي حال غير مستبعدة في ضوء ما نعرف من طبيعة العداء القديم بين العشائر العراقية وجنود الحكومة التركية • فالجنود كانوا فيما مضى يقسون كثيراً على أفراد العشائر ولا يشعرون ازاءهم بأي عطف أو رحمة ، ولابد أن تنتهز العشائر فرصة الهزائم التي حلت بالجنود في الحرب لكي تنتقم منهم أبشع الانتقام •

حب الغنيمة :

الواقع ان أفراد العشائر لم يقتصر نهبهم على الجنود الاتراك فقط

---

(٣٨) فريق مزهر آل فرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ج ١ ص ٤٠ •

بل تعدوهم الى رجال الدين والسادة الذين كانوا يجاهدون معهم ، ولكنهم كانوا ينهبونهم ويحترمونهم في آن واحد . وقد رويت في ذلك عدة قصص طريفة .

يروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته قصة من هذا القبيل خلاصتها : ان المجتهد السيد عبدالرزاق الحلو الذي خرج مع أتباعه للجهاد في نواحي القرنة لم يبق معه من اتباعه بعد الهزيمة سوى أربعة رجال ، فأخذ يتنقل بهم من قرية الى قرية ، وحين قارب احدى القرى خرج اليه بعض سكانها وكانوا من مقلديه وطلبوا منه أن ينزل عن بغلته ليأخذوها اذ قالوا له : « شيخنا بدلاً من أن يأخذ أهل القرية التي أمامنا حوائجك وامتعتك وهم أعداء لنا ، فالاولى بها نحن أصحابك » . ثم استحوذوا بالفعل على بغلته وما معه من امتعة ، كما سلبوا أصحابه الاربعة ، واضطر السيد أن يسير على قدميه ماشياً بالرغم من شيخوخته ومرضه ... (٣٩)

ويروى كذلك أن جماعة من العشائريين هجموا على خيمة مجتهد كبير بغية نهبها ، فوجدوا فيها المجتهد يصلي على سجادة ثمينة فأشاروا عليه أن ينتهي من صلاته بسرعة لأنهم يريدون أخذ السجادة من تحته ، ولما لامهم المجتهد على هذا أجابوه بكل احترام : « شيخنا لا تطولها ، اذا نحن لم نأخذها أخذها غيرنا . »

ان هذه القصة والتي قبلها تذكرنا بما حدث في كربلا على أثر مقتل الحسين بن علي حين أقبل رجل من أهل الكوفة على صبية من أهل بيت الحسين فأخذ ينتزع خلخالها من قدمها وهو يبكي ، فلما سألته الصبية عن سبب بكائه أجاب بأنه يبكي للمصيبة التي حلت بأهل البيت ولكنه مع ذلك مضطر أن يستلب الخلخال منها قبل أن يستلبه رجل آخر .

ان الدافع الذي يدفع الفرد العشائري نحو هذا السلوك تجاه رجال دينه هو حبه للنهب والغنيمة ، وهو يختلف في ذلك بعض الشيء عن سلوكه تجاه جنود الحكومة اذ هو كان ينهبهم تحت تأثير دافعين هما الانتقام والنهب معاً .

---

(٣٩) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) – بيروت ١٩٦٢ – ص ١٠٨ – ١١٠ .

ومن الممكن القول ان العشائر عندما تحمست للجهاد في البداية انما كانت تأمل ان تفوز فيه بالنهب والغنيمة علاوة على الفوز بالجنة التي وعدهم بها رجال الدين . ولما اتضح للعشائر أخيراً ان الجهاد لا غنيمة فيه ، وان الحكومة مغلوبة لا فائدة ترجى منها ، انقلبوا على اعقابهم وأخذوا ينهبون كل شيء تقع عليه أيديهم للتعويض عما فات .

يجب أن لا ننسى ان العشائر العراقية ورثت من البداوة هذا الميل الشديد للنهب والغنيمة . فقيمة الغنيمة عند البدوي لا تنحصر في نطاقها المادي المحسوس بل ان لها قيمة أخرى اكبر من ذلك كثيراً ، هي القيمة المعنوية التي ينالها الغانم بين عشيرته ويتباهى بها على الاقران . ان الغنيمة في نظر العشيرة دليل على شجاعة صاحبها ومقدرته على الغزو ولا يمتنع عن النهب سوى الجبان الضعيف .

يقول حافظ وهبه في كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » في وصف بدو الصحراء : انهم لا هم لهم الا النهب والسلب وقطع الطريق ، ويعد هذا العمل في نظرهم من المفاخر ، ولسان حالهم يقول « المال مال الله ، يوم لي ويوم لك ، نصبح فقراء ونمسي أغنياء ، ونصبح أغنياء ونمسي فقراء » ، واذا حالف البدو أميراً ثم بدرت منه بوادر الهزيمة كانوا أول الناهبين له ، وحجتهم في ذلك أنه ما دام حليفهم منهوباً ، أو مأخوذا كما يقولون ، فهم أولى به . وقد جرى مثل هذا كثيراً في العراق في الحرب الاولى مما أدى الى استغراب الانكليز لانهم لم يفهموا كيف ينهب الصديق صديقه ، ولكن البداوة لا تعرف غير النهب والسلب ، والغنيمة فيها مقدمة على كل شيء ... (٤٠)

يعزو حافظ وهبة هذه الخصلة في البدو الى كونهم مجبولين على الرياء والنفاق وقلة الاخلاص . وهذا رأي لا نميل الى الاخذ به ، فالواقع ان البدو من اكثر الناس اتصافاً بالصراحة وبعداً عن الرياء والنفاق ، ولكن مشكلتهم أن النهب لايدخل تحت مفهوم الرياء والنفاق عندهم . فالمال

---

(٤٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٤٦ ـ ج ١ ص ١٠ ، ٢٧٥ .

في نظر البدو هو كما قال حافظ وهبة مال الله ، وليس لاحد حق ثابت فيه، انما من حق كل من يملك المقدرة للحصول عليه . ومن هنا جاء في بعض أمثالهم المعروفة قولهم : « الحلال ماجل باليد » و « الحق بالسيف والعاجز يريد شهود » .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الفرد البدوي في الوقت الذي هو فيه شديد الميل الى النهب والغنيمة نراه كذلك شديد الحرص على القيام بواجبات الدخالة والضيافة وحماية الجار وما أشبه ، وقد لا يتردد البدوي أن يضحي بنفسه او بمصلحته من أجل دخيله أو ضيفه أو جاره . وقد ورثت العشائر العراقية هذه الخصال من البداوة الى حد ما ، ولهذا رأيناهم ينهبون كل انسان خارج العشيرة انما هم في داخلها أولو مروءة ونجدة وكرم .

ان قصة الشيخ عريبي التي ذكرناها آنفاً تدل على ذلك بوضوح ، فهذا الشيخ بدل ولاءه من جانب الاتراك الى جانب الانكليز بسرعة وبلا خجل ، غير أنه كان في الوقت نفسه شديد الحرص على المحافظة على قواعد « الدخالة » اذ وجدناه يحمي الضابط العثماني الذي دخل عليه ولم يفرط فيه على الرغم مما قد ينتج عن ذلك من اثارة لغضب الانكليز عليه .

ان هذه القصة تصور لنا الشخصية العشائرية من كلا جانبيها السلبي والايجابي . ولعلني لا أغالي اذا قلت ان معظم أبناء العشائر في العراق — سواء منهم الرؤساء أو الافراد العاديون — هم على هذه الشاكلة ، اذ هم لا يخجلون ان يبدلوا ولاءهم من جانب الى آخر ، او ينهبوا من كان حليفهم بالامس . فهذا أمر قد اعتادوا عليه ولا يجدون فيه ما يعيبهم ، انما هم يستنكرون كل الاستنكار خرق قواعد الدخالة او غيرها من القيم الاجتماعية التي ورثوها من أسلافهم البدو .

يروي علي آل بازركان : ان الضابط سعيد الدايني جاء الى داره ببغداد في تموز ١٩١٦ وهو في حالة يرثى لها اذ كان ممزق الثياب أصفر اللون كأنه قد نهض تواً من قبر ، وقص عليه ما كانت تقترفه عشائر دجلة من أعمال وحشية نحو الجنود من سلب وبقر للبطون ، وهو انما نجا منهم

بأعجوبة حيث أدعى أنه ابن رئيس عشيرة الداينية وقد بعثه أبوه لمواجهة رئيس عشيرة زبيد . [41]

ان القارىء لهذه القصة قد يمتعض مما فعله أفراد العشائر بالجنود من سلب وقتل ولكنه يجب أن يذكر في الوقت نفسه كيف نجا سعيد الدايني بادعائه أنه ابن رئيس عشيرة . وهذا أمر لم يكن نادر الحدوث في تلك الايام وقد نجا به الكثيرون .

حدثني أحد الجنود العراقيين من الذين فروا من القوات التركية في احدى معارك الجنوب ، فقال : انهم كانوا اذا نزلوا في طريقهم عند عشيرة من العشائر رحبت بهم العشيرة وبذلت لهم الطعام وألبستهم الملابس التي كانوا في حاجة اليها ، ولكنهم لا يكادون يخرجون من العشيرة ، ويبتعدون عنها قليلاً ، حتى يأتي اليهم بعض المسلحين من نفس العشيرة ، أو من عشائر أخرى قريبة ، فيسلبوهم جميع الملابس التي كانوا قد حصلوا عليها . وقد حدث هذا لهم مرة بعد مرة . وحين عادوا الى بيوتهم لم يكن عليهم سوى ملابس رثة ممزقة .

ان المعايير الخلقية نسبية ، فما نعتبره قبيحاً قد يعتبره غيرنا حسناً . ونحن اذ نريد أن نصدر حكماً على أخلاق فئة من الناس ينبغي أن ننظر اليهم من خلال معاييرهم لا من خلال معاييرنا ! .

---

(٤١) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ــ بغداد ١٩٥٤ ــ ص ٥٣ــ٥٤ .

الفصـــل الســـابع

العصيان في الفرات الاوسط

مرت بالفرات الاوسط على أثر معركة الشعيبة فترة أمدها سنتان تقريباً هي ما يمكن تسميتها بـ « فترة العصيان » ، وهي فترة تميزت بميل المدن فيها الى اعلان العصيان على الحكومة وادارة أمورها بوساطة رؤسائها المحليين على الطريقة العشائرية •

الواقع ان جميع المدن العراقية كانت ترغب في اعلان العصيان علـى الحكومة غير أنها لم تكن قادرة عليه ، أو هي كانت تتحين الفرصة له فلـم تجدها ، فاقتصر العصيان على مدن الفرات الاوسط وحدها • ويمكن تعليل ذلك بسببين :

أولا : ان الحكومة التركية كانت آنذاك مشغولة بمعارك دجلة ممـا اضطرها الى سحب معظم جنودها الذين كانوا في منطقة الفرات الاوسط الى هنالك ، فحصل بذلك فراغ نسبي في تلك المنطقة شجع أهل المدن فيهـا على اعلان عصيانهم •

ثانياً : ان أولى المدن التي أعلنت العصيان هي النجف ثم تلتها كربلا ، وقد صبرت الحكومة على هاتين المدينتين لقدسيتهما ، أو هي خشيت أن تنتقم منهما فيتخذ الانكليز ذلك ذريعة للدعاية ضدها في ايران والاقطار الاسلامية الاخرى • وقد أدى نجاح هاتين المدينتين في العصيان الى اقتداء بعض المدن القريبة بهما •

وأرجو من القاري أن يعذرني في وصف تلك الفترة بـ « العصيــان » بدلاً من « الثورة » • فقد جاريت في ذلك الاصطلاح العام الـذي جرى على ألسنة العراقيين أثناء الحرب اذ كانوا يطلقون على تلك الحركات اسم « العصيان » • والمظنون أن لعلماء الدين يداً في نشر هـذا الاصطلاح بين الناس ، فقد ظل هؤلاء العلماء يؤيدون الحكومة في حربها ضد « الكفار » ، واعتبروا كل ثورة عليها عصياناً •

عصيان النجف :

ظهرت بواكير العصيان في النجف منذ شهر آذار ١٩١٥ ، عندما تكاثر عدد الفارين من الجندية فيها . وأخذ نشاط هؤلاء الفارين يستفحل شيئاً فشيئاً بمرور الايام . وقد نشروا في البلدة ذات يوم أوراقاً مكتوباً فيها أن محاربة الحكومة العثمانية أولى من محاربة المشركين ، فأبرق القائمقام بالخبر الى والي بغداد ، فأرسل الوالي الى النجف قوة عسكرية كبيرة بقيادة ضابط عراقي اسمه عزت بك ، وعند وصول هذا الضابط الى البلدة أعلن على الاهالي وجوب تسليم الفارين أنفسهم خلال ثلاثة أيام وإلاّ فهو سيتخذ الاجراءات الرادعة ضدهم . ولما انتهت المدة أخذ رجال الدرك يتعقبون الفارين بشدة ، ويكبسون الدور عليهم ليلاً ونهاراً ، وربما قتلوا الممتنعين منهم وتعرضوا بالنساء . (١)

ويقال ان رجال الدرك كانوا أثناء بحثهم عن الفارين في البيوت يتحسسون أجساد النساء مخافة أن يكون أحد الفارين قد تنكر بزي امرأة فأرسلت احدى النساء رسالتين ملطختين بالسواد احداهما الى الحاج عطية أبو قلل رئيس محلة العمارة ، والثانية الى الحاج سعد الحاج راضي رئيس محلة المشراق ، تشكو فيهما من انتهاك الشرف الذي أصابها . (٢)

وفي الوقت الذي كان فيه التذمر ينمو بين النجفيين على هذا النحو كان قائمقام النجف حقي بهيج بك يقوم بأعمال تزيد من تذمرهم . فلقد كان هذا القائمقام من طراز أولئك الافندية المتحمسين الذين يريدون أن يفرضوا التمدن على الناس فرضاً رغم آنافهم . انه بعبارة اخرى كان مخلصاً في عمله ولكن عمله لا يناسب الوقت . وصفه الكاتب النجفي المعروف جعفر الخليلي بقوله : انه شاب اسطنبولي على جانب من الادراك والحزم والثقافة الحديثة ، فأراد ان ينهض بالبلدة على الرغم من عدم ملائمة الظروف بسبب الحرب وفقدان الوسائل اللازمة . فهو قد اهتم بنظافة البلدة وشدد

---

(١) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد السابع ـ السنة الرابعة .

(٢) مجيد الموسوي (الحاج عطية أبو كلل الطائي) ـ بغداد ـ ص ١٠١ .

في ذلك تشديداً امتعض منه الذين اعتادوا على التسيب والفوضى ، وحين وجد الصحن الشريف مملوءاً بالباعة والدلالين وهم يعرضون بضائعهم فيه أمر باخراجهم من الصحن تنزيهاً له فكان لهذا الامر أثره في نفوس المنتفعين من الصحن وتلقوه بتذمر شديد . ومر ذات يوم بالصحن فشاهد بعض الباعة قد عادوا اليه فركل أحدهم بقدمه وبعثر معروضاته وكان بينها شيء من الترب الحسينية والسبح ، فأشيع بين الناس ان القائمقام سحق الترب والسبح بقدميه استهتاراً بقدسيتها ، فهاجت البلدة وماجت ... (٣)

ومن أعماله التي اثارت نقمة الاهالي عليه أنه شيد مدرسة حديثة خارج السور قريباً من سكة التراموای ، وقد أقتضى البناء ازالة بعض القبور ، فأتخذ الناقمون ذلك ذريعة ضده وأشاعوا عليه أنه هتك حرمة الاموات ، وغضب العامة من ذلك وصاروا يسبونه ويتقولون عليه .

بدأت حركة العصيان في ليلة ٢٢ أيار ١٩١٥ اذ هاجمت جماعة من الفارين سور النجف من جهة محلة المشراق ، ثم دخلوا البلدة عنوة وأخذوا يطلقون الرصاص في الهواء مما أيقظ الآمنين من أهل البلدة وأرعبهم . وفي الصباح التالي انضم الى الفارين كثير من اهل البلدة ، كما انضم اليهم عدد من الفارين الذين كانوا خارج البلدة ، وصاروا يهاجمون ثكنات الحكومة ودورها ومخافرها . واستمرت المعركة ثلاثة ايام سقط فيها من جنود الحكومة وضباطها زهاء عشرين بين جريح وقتيل ، كما سقط من الاهالي عدد أقل من ذلك كان بعضهم من النساء والاطفال الذين أصيبوا برصاص تائه .

كان القسم الاكبر من الجنود قد تحصنوا في بناية « الشيلان » . وهي بناية فخمة ذات أسوار عالية تشرف على واجهة كبيرة من البلدة ، وكان في مقدور هؤلاء الجنود المقاومة لمدة طويلة حتى يأتيهم المدد من الحكومة، وقد اعتمدوا على الآبار في ماء شربهم ، ولكن النجفيين استطاعوا ان يتسللوا الى تلك الآبار من البيوت المجاورة ، من خلال ممرات يعرفونها ، وصاروا يقطعون حبال الدلاء التي يستقي بها الجنود ، مما اضطر الجنود

---

(٣) نقلا عن مقالة مخطوطة لجعفر الخليلي ، وقد اعارني أياها مشكورا .

الى الاستسلام أخيراً • وقد استسلم آمرهم أيضاً ومعه القائمقام وبقية الموظفين ، فسيقوا جميعاً الى دار السيد محمد حسن الكليدار ، ومن هناك دبّر أمر تسفيرهم الى طويريج بحماية عمران الحاج سعدون رئيس بني حسن • وشوهد الاطفال وهم يهرلون وراءهم ويهزجون : « قلنا لك سلّم يا يهودي ! » • (٤)

واتهز الغوغاء الفرصة فانثالوا على دار البلدية ودور الموظفين ومختلف دوائر الحكومة فانتهبوها ومزقوا سجلاتها ثم أضرموا النار فيها ، وكانت المدرسة التي شيدها القائمقام من جملة ما انتهبوه وأحرقوه • وأتلفوا آلات البرق ، كما انثالت العشائر على أعمدة البرق الممتدة الى الكوفة وأبو صخير فاقتلعوها •

وعند هذا تولى حكم البلدة رؤساء المحلات كل في محلته على الطريقة العشائرية ، ونادى المنادي من قبلهم في الشوارع والاسواق يأمر الناس بفتح دكاكينهم على أن يحافظوا على مستوى الاسعار السابق • وأمر الرؤساء باعادة تنوير البلدة بالفوانيس وكنس الشوارع ، ورتبوا رجالاً لجباية الرسوم والضرائب ولكنهم أمروا بتخفيضها الى النصف • (٥)

لم تشأ الحكومة الانتقام من النجف في تلك الظروف الحربية الحرجة، وارتأت أن تعالج الامر بالحكمة ، فأرسلت الى النجف وفداً للمفاوضة برئاسة نوري بك مدير تحريرات الديوانية ، وكان من أعضائه الحاج عباس العلي رئيس الكوت ، وعبدالرزاق المنير من وجهاء البصرة ، ومحمد العصيمي الزبيري • وقد نزل الوفد في دار الكليدار ثم عقد مؤتمراً حضره عدد من العلماء والوجهاء والتجار كما حضره رؤساء المحلات الاربع •

أخذ أعضاء الوفد يتحدثون الى أهل النجف عن الدولة العثمانية المسلمة التي هي في حرب حياة او موت مع الكفرة الغزاة ، وكيف أن الواجب الديني يقضي على جميع المسلمين بالتعاون معها • فأجابهم النجفيون بانهم لم تكن لهم رغبة في العصيان ولكن الحكومة هي التي اضطرتهم الى

---

(٤) المصدر السابق •

(٥) . من مذكرات محمد رضا الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد السادس ــ السنة الرابعة •

الخروج عن طاعتها لما قامت به من الاعمال الوحشية وانتهاك حرمات النساء وهتك الاعراض ، وخاصة ما قام به القائمقام حقي بهيج بك • فطلب الوفد من أهل النجف اعادة المنهوبات الى الحكومة ، فأجاب الحاج عطية بأن المنهوبات لا يمكن اعادتها لانها تفرقت بين العشائر الذين هم حول النجف • [٦]

وتم الاتفاق أخيراً على أن يعود الى النجف جهاز اداري مؤلف من قائمقام ومدير مال وأمين صندوق فقط مع قليل من الجنود • ومعنى هذا أن تكون عودة الحكومة الى النجف رمزية لمجرد المحافظة على هيبة الحكومة أمام سكان المنطقة • وقد عينت الحكومة قائمقاماً جديداً للنجف اسمه رمضان أفندي وهو رجل عسكري يعرفه أهل النجف ويحبونه • وفي صباح ١٤ آب خرج جمهور كبير من أهل النجف الى الكوفة ومعهم الرايات لاستقبال القائمقام الجديد ، ثم عادوا قبيل الغروب ومعهم القائمقام فاستقبل في البلدة بالهتاف والزغاريد •

لم يكن للقائمقام الجديد أي شأن في حكم البلدة أو نفوذ يعتد به ، فكانت النجف مستقلة يحكمها رؤساء المحلات • وقد نال أهل النجف في تلك الفترة منافع جزيلة ، اذ انفتح طريق التجارة لهم مع البصرة فأخذ تجارهم يحملون الى هنالك الحبوب والاسمان ويعودون منها بالبضائع المختلفة من صنع الهند وانكلترا • وأصبحت النجف بذلك مركزاً تجارياً مهما ، ووفد اليها تجار بغداد وغيرهم يطلبون منها البضائع النادرة • وكسب تجار النجف بذلك أموالاً وفيرة ، كما كسب رؤساؤها الاموال من الضرائب التي فرضوها على الصادرات والواردات •

وصارت النجف كذلك سوقاً عظيماً للاسلحة النارية ، فكانت البنادق الانكليزية والالمانية تجلب اليها بكثرة عجيبة ، ومن أراد شراء شيء منها أو بيعه قصد النجف • يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في وصف أهل النجف أثناء تلك الفترة : انهم اعتادوا على التظاهر في المآتم والاعراس والاجتماعات على طريقة العشائر حيث يخرجون مسلحين معطعطين وهم

---

(٦) مجيد الموسوي (المصدر السابق) - ص ١٠٦ - ١٠٧ •

يطلقون النيران، حتى اعتادت الآذان على صفير الرصاص فلا يفزع منه أحد وقلما ينقضي يوم دون أن تطلق فيه مئات ، وأحياناً ألوف ، من العيارات النارية . (٧)

وكذلك صارت النجف ملجأً يلوذ به كل فار من الجندية من أنحاء العراق . وظهر في بغداد رجل اسمه « علوان خرمة » اتخذ حرفة تهريب الفارين الى النجف لقاء مبلغ معين ، وكان يتقاسم هذا المبلغ مع درك المخافر في الطريق . ولهذا امتلأت النجف بالفارين من مختلف المدن العراقية ، وقد عامل أهل النجف هؤلاء اللاجئين اليهم بما عرف عنهم من الشهامة وروح الضيافة. وكان والد كاتب هذه السطور من بين أولئك الفارين اللاجئين .

وقد اغتنم عملاء الانكليز تلك الفرصة فاندسوا في النجف يحبذون لرؤسائها الاتصال بالانكليز لينالوا منهم الخير العميم حسب زعمهم . ذكرت المس بيل : أن الحاج عطية أبو قلل اتصل بالسر برسي كوكس بالبصرة حيث أرسل اليه رسولاً مقترحاً عليه التحاق النجف والعشائر المحيطة بها بالانكليز لقاء احترامهم للعتبات المقدسة وعدم التعرض لها، وكان السيد كاظم اليزدي يؤازر الحاج عطية في اتصاله هذا ، فأجابه كوكس بأن أشار الى البيانات التي أصدرها الانكليز في بداية الحرب كدليل على أنهم ليسوا في خصام مع العرب ولا مع الاسلام ، وأشار كوكس كذلك الى أن السلطة العسكرية الانكليزية عاملت رجال الدين الذين وقعوا في يدها بكل تسامح ورأفة ، ثم سأل كوكس الرسول عما اذا كانت النجف تعاني الضيق والضنك وعن الخطوات التي يمكن اتخاذها لاسعافها . (٨)

العصيان في كربلا :

ان نجاح النجف في عصيانها جعل سمعتها ترتفع في الفرات الاوسط ارتفاعاً عظيماً ، وصار النجفيون يفتخرون بما فعلوا واتخذوه دليلاً على

---

(٧) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة ، واني اشكر ولده أسعد الشبيبي لاعارتي اياها ، وهي مذكرات قيمة جدا ارجو ان تنشر قريبا .

(٨) مس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٩٦ .

شجاعتهم ورجولتهم، وقد أدى ذلك ببعض المدن الى محاولة الاقتداء بالنجف في العصيان •

كانت كربلاء أول مدينة حاولت الاقتداء بالنجف ، فقد شعر رؤساؤها بأنهم قادرون أن يفعلوا مثلما فعل رؤساء النجف وكأنهم قالوا بلسان الحال: « هل أن أهل النجف خير منا أو اكثر رجولة وشجاعة ؟ ! » •

كان الفارون من الجندية هم الذين بدأوا العصيان في كربلا على نحو ما وقع في النجف • وقد انتهزوا الفرصة في مساء ٢٧ حزيران ١٩١٥ ، وهو يوافق زيارة منتصف شعبان والاحتفال بمولد صاحب الزمان ، فهاجموا دار الحكومة وكان فيها نحو أربعين جندياً ، وقد آثر هؤلاء الجنود الاستسلام لهم بعد مناوشة قصيرة • وعند هذا انثال الغوغاء على دار البلدية ودائرة البريد والبرق والمدارس الرسمية وغيرها ، فانتهبوها وأضرموا النار فيها ، ثم أخرجوا السجناء ، كما انتهبوا المستشفى الحسيني وكان يعتبر من المستشفيات الجيدة في ذلك الوقت وقد تم الفراغ من انشائه في العام الماضي •

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل هجم أفراد من العشائر على المحلة الجديدة ، وهي المحلة التي أنشأها مدحت باشا وكان يسكنها الايرانيون في الغالب ، فنهبوا فيها نحو مائتي بيت ، واضطر سكان المحلة الى هجرها والانتقال الى المحلات الاخرى في كربلا القديمة • وفي اليوم الثاني من الحركة اختلف زعماؤها فيما بينهم اذ تنازعوا على اقتسام المنهوبات ، فجرى بينهم قتال في الحرم الحسيني ، وسقط منهم عدد من القتلى والجرحى•[٩]

كان الشيخ محمد علي كمونة وأخوه الاصغر فخري كمونة هما اللذان تزعما حركة العصيان في كربلا ، فكان محمد علي العقل المدبر للحركة بينما كان فخري قائدها العسكري • وقد ارتأت الحكومة أن تعالج عصيان كربلا بالحكمة على منوال ما عالجت به عصيان النجف ، وتوسط العلماء والوجهاء بين الحكومة وآل كمونة ، وقام مبعوث كربلا الحاج عبد المهدي

---

(٩) من مذكرات الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد السادس ــ السنة الرابعة •

الحافظ بدور مهم في الوساطة بين الفريقين . وقد ارسلت الحكومة بعد اتمام المصالحة متصرفاً جديداً الى كربلا كردي الاصل اسمه حمزة بك . وفي ٢٦ ايلول ١٩١٥ نشرت جريدة « صدى الاسلام » ببغداد بياناً بعنوان « احتفال عظيم في كربلا » هذا نصه :

« اجتمع السادات والعلماء والموظفون والاشراف والاهلون في كربلا يتقدمهم حضرة صدر العلماء السيد اسماعيل وهو من أجلة المجتهدين وأفاضلهم ، فسار بهم برفقة عطوفة متصرف اللواء الى سيد الشهداء الامام الحسين بن سيدنا علي المرتضى وحفيد الرسول الأعظم السعيد ، فتقرب بحماس وشوق نحو المرقد المبارك وهناك تناول سيفاً مرصعاً تاريخياً من موقعه الخاص وكان محفوظاً ومعلقاً في القبة المباركة ، وجرده من غمده وأراه للحاضرين وقال : خذوا هذا السيف من حضرة سيد الشهداء وقبلوه وقدموه الى حضرة القائد العام نور الدين بك أفندي المدافع الغيور عن الخطة العراقية التي تحتوي على هذه الروضة الطاهرة وكثير من العتبات المقدسة . فأن مولانا سيد الشهداء يود مناصرة الحكومة العثمانية حامية ديننا المبين ومطهرة هذه الاراضي المقدسة من أدران الاعداء . ايها المسلمون هذا سيف الاسلام الصارم قد جرد من غمده . فثقوا بلطف الباري من أن النصر حليف الاسلام . وبعد أن تلا دعاء بليغاً تألفت لجنة برئاسة جواد زين الدين أفندي مهمتها ايصال ذلك السيف البتار الى دار الحرب وتسلمه الى حضرة القائد المحترم نورالدين بك افندي . وكانت المظاهرات بالغة مبلغا عظيما من الهياج الديني لا يوصف . وهذه المظاهرات التي هي بشائر القيام العام ضد العدو قد أثرت في الجيش تأثيرا كبيرا » . (١٠)

يبدو أن مما ساعد على اتمام الصلح في كربلا هو انتشار حمى الملاريا فيها . فقد أتخذت تلك الحمى حينذاك شكل الوباء ، وصارت تستفحل يوماً بعد يوماً ، فانشغل الناس بها عن السياسة ومكايداتها . وقد اشار الشيخ محمد رضا الشبيبي في مذكراته المخطوطة الى وصف الحالة

---

(١٠) جريدة « صدى الاسلام » ــ في عددها الصادر في ١٦ ذي القعدة ١٣٣٣ هـ .

الصحية في كربلا وكان قد مر بها في طريقه الى النجف في ١٣ كانون الثاني ١٩١٦ ، فقال ما نصه :

« ... فوجدنا جوها كدرا ، ومناخها وبيلاً ، والمستنقعات الخبيثة الرائحة محيطةبها، ورأينا وجوه أهلها حائلة كأنها وجوه الاموات، فاين يمر الغريب يستوحش لتلك المناظر الكاسفة ، حتى البساتين لانها استحالت مستنقعات . وقد قال أحد سكانها انه قد أحصينا من أصيب بالحمى فلم يعرف أحد سلم فيها الا واحد فقط ... وتقدر الوفيات بربع أهل البلدة او اكثر من ذلك . وقد سُد آنئذٍ نهر الحسينية خوفا من زيادة تبطح المياه ... » .

والغريب ان البرد اشتد في تلك السنة الى درجة يندر أن يكون لها مثيل في السنوات السابقة ، وقد نزل الثلج أيضاً وهو أمر لا عهد للناس به منذ زمن بعيد . ذكرت جريدة « الزوراء » : ان الثلج سقط ببغداد في صباح ٢٢ كانون الثاني ١٩١٦ ، واستمر سقوطه أربع ساعات . [11] ويقول الشبيبي في مذكراته المخطوطة ان سقوط الثلج في كربلاء كان اكثر مما في غيرها ، فأدى ذلك الى زيادة الوفيات فيها .

ومما يلفت النظر ان نشاط عملاء الانكليز وجواسيسهم لم يفتر في كربلا اثناء تلك الايام الوبيلة . جاء في مذكرات حسام الدين نظمي بك الذي كان يرأس مصلحة مقاومة الجاسوسية في العراق : ان الانكليز أرسلوا آنذاك الى كربلا جاسوسا خطيراً منهم اسمه « ادكار وود » ، وأخذ هذا الجاسوس يسعى مع أعوانه لالقاء بذور الفتنة في تلك البلدة المقدسة . وقد اضطر حسام الدين أن يرسل الى كربلا جاسوسة تركية قديرة هي صديرك كمال خانم لمكافحة دسائس ادكار وود . وكانت صديرك قبل هذا تحترف الرقص في بغداد باسم « جهان خانم » ، وعندما وصلت الى كربلا استأجرت فيها داراً لسكناها ، فعلم بها ادكار وود ودبر خطة للقضاء عليها : ففي ذات يوم جاء اليها رجل عراقي من أعوان ادكار وود اسمه عبده بن جوزي مدعياً أنه مرسل اليها من رئيسها حسام

---

(١١) جريدة « الزوراء » — في عددها الصادر في ٢٦ رمضان ١٣٣٤ .

الدين ، وأعطاها كلمة السر ، فوثقت به ورافقته الى خارج كربلا ، وكان ينوي القاءها في تهلكة ، غير أنها نجت بأعجوبة . وقد تمكن الاتراك اخيراً من القاء القبض على عبده بن جوزي ، فحكمت المحكمة العسكرية عليه بالاعدام شنقاً ، وتم تنفيذ حكم الاعدام فيه ببغداد في صباح ١ تشرين الاول ١٩١٥ ، وصدر بذلك بلاغ رسمي . (١٢)

وذكرت المس بيل : ان رئيس كربلا الشيخ محمد علي كمونة اتصل سراً بالسر برسي كوكس منذ تشرين الاول ١٩١٥ طالباً من الانكليز أن يتعهدوا له بتنصيبه حاكماً وراثياً مستقلاً في ولاية مقدسة تمتد من سامراء الى النجف ، وكانت القوات الانكليزية حينذاك مشغولة بالزحف نحو بغداد ، فأرسل كوكس اليه رداً ودياً لا لون له مع هدية مالية صغيرة أثارت امتنانه ، ثم تُرك الامر على هذه الحالة موقتاً لان انسحاب القوات الانكليزية من سلمان باك بدل الموقف السياسي بأجمعه ، ولكن الانكليز ظلوا على اتصال بالشيخ محمد علي كمونه ، وواصلوا ارسال المال اليه من وقت لآخر ليساعده على الاحتفاظ بأتباعه والتمسك بموقفه في كربلا . (١٣)

ومهما كان الحال ، فقد نشبت الفتنة في كربلا من جديد في شهر أيار ١٩١٦ ، وكانت فتنة عارمة سفكت فيها دماء كثيرة من الجانبين — كما سنأتي اليه في فصل قادم .

العصيان في الحلة :

كانت الحلة ثالث مدينة عراقية تعلن العصيان على الحكومة ، وقد بدأ العصيان فيها في ٢٣ آب ١٩١٥ أي بعد ثلاثة أشهر من بدء عصيان النجف . ومن الممكن القول ان الحلة كانت تتحفز للعصيان منذ علمت بعصيان النجف ، ذلك لان الموظفين والجنود الذين طردهم أهل النجف كانوا قد وصلوا الى الحلة مشياً على الاقدام وهم في حالة يرثى لها من

---

(١٢) نقلا عن مجلة « الاسرار » البيروتية — في اعدادها ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، عام ١٩٣٨ .

(١٣) المس بيل (المصدر السابق) — ص ٩٦ .

الاعياء والجوع والعرى ، فأحاط بهم بعض الحليين يسألونهم عن شأنهم فأجابهم هؤلاء بما جرى عليهم في النجف من اذلال وانتهاب ، فكان هـذا النبأ مشجعاً لأهل الحلة على أن يفعلوا مثلما فعل اخوانهم في النجف[١٤] .

انطلقت شرارة العصيان في الحلة عندما كان أحد جنود الدرك يطارد بعض الفارين من الجندية فيها ، وقد قتل الدركي اثناء المطاردة ، فأراد القائمقام القبض على القاتل فامتنع هذا مستعيناً بقومه . وقد توتر الوضع في الحلة من جراء ذلك ، وتبودل الرصاص بين الاهالي وجنود الحكومة . وأسرع عاكف بك قائد القوات التركية في الفرات ، وكان معسكرا فـي الكفل ، فدخل بقواته الحلة ، واستدعى اليه المختارين والرؤساء طالبـاً منهم تسليم جميع الفارين من الجندية وأعطاهم مهلة امدها أربع وعشرون ساعة فقط . وفي ٢٧ آب نشبت معركة دامية بين القوات التركية وأهـل الحلة استمرت يومين ، واشتركت فيها العشائر المجاورة كاليسار وخفاجـة وآل فتلة ، وكانت العشائر لا تقصد غير النهب طبعا ولكنها تكبدت خسائر كبيرة نسبياً حيث سقط منها نحو مائة رجل بين جريح وقتيل .[١٥]

يحدثنا يوسف كركوش الحلي عن الحادثة وكان قد شهدها بنفسـه في عهد طفولته فيقول :

« اني مررت عصر ذلك اليوم في الشارع العام ... فشاهدت الناس في حيرة واضطراب وهم مدججون بالسلاح ، فلما جن الليل ونام النـاس وهدأت الاصوات فرق عاكف عسكره في طرقات الحلة وسورها ودوائر الحكومة ، وجعل بعضاً من الجنود على منارة الجامع الكبير لارتفاعها على دور البلد ... ولما أصبح الصباح صادف أني خرجت لقضاء بعض الشؤون فلما انتهيت الى رأس الدرب الذي فيـه دارنا رأيت جنوداً مـن الاتراك راكبين خيولهم مدججين بالسلاح ، فلم يتعرضوا بي لاني كنت يومئـذ طفلاً صغيراً . ومشيت في طريقي حتى وصلت الى الشارع العام ...

---

(١٤) يوسف كركوش (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج ١ ص ١٦٢ .
(١٥) نقلا عن مقالة لاسعد الشبيبي في مجلة الثقافة الجديدة ـ في عددها الصادر في شباط ١٩٧٠ .

فرأيت الجنود على طول ذلك الشارع وهم يتكلمون بلسانهم التركي ، وعند ذلك ذعرت ورجعت الى دارنا وأخبرت والدي بالذي رأيت فوضع يده على جبهته وقال : (لقد هلكنا) • وبينما نحن في هذا ومثله اذ سمعنا طلقة نارية دوت في سوق المنتخب ، وما هي الا" ثوان حتى صار أزيز الرصاص يشق الآذان ، واشتبك القتال بين أهل الحلة وعسكر عاكف المنتشر في الطرقات • وكان الخبر قد وصل الى الاعراب فتهيأوا للزحف على الحلة كي ينهبوا ويسلبوا ، فصار هجومهم على النقطة التي كانت بالقرب من تل الرماد الذي يعرف بالجبل ، فقتل الاعراب بعض من كان في النقطة ، والبعض الآخر من الجند فروا هاربين حيث رأوا أن لا طاقة لهم على محاربة أهل الحلة والاعراب ، وقتل أكثرهم أثناء فرارهم وانتثرت جثثهم على طول سوق العلاوي والاسواق الاخرى المتصلة الى القشلة • ثم دخل الاعراب الحلة ينهبون ويسلبون أسلحة العسكر وملابسه ، واشتركوا مع أهل الحلة في مكافحة العسكر وقد قضوا على أكثريته حيث كان متفرقاً في أنحاء البلد ، ولم تستعص الا" النقطة التي كانت في باب النجف فانها بقيت الى ما بعد الزوال ••• وقد قتل من أهل الحلة أثناء حصارهم لهذه النقطة رجال وأصيب آخرون • وقد ابدى الجنود في هذه النقطة عناداً شديداً ، وقد أعطاهم أهل الحلة الامان ان سلموا ، وكلموهم من أماكن قريبة بحيث يسمعون كلامهم بأن لا فائدة من المقاومة•• وكانوا يكلموهم بعدة لغات ، بالتركي والكردي والعربي • وأخيراً اقتحم أهل محلة الجامعين النقطة بطريقة حربية ، وقتلوا من كان فيها ودفنوهم بجوار السور قرب هذه النقطة ••• » (١٦)

ويقول يوسف كركوش : ان نجدة عسكرية وصلت من السدة في مساء ذلك اليوم فأحاط بها الحليون والعشائر يرقبون الليل للهجوم عليها، فخاف عاكف بك من العاقبة وطلب السلم من أهل الحلة ، وتم الاتفاق أخيراً بين الفريقين بتوسط من السيد محمد علي القزويني • وأصبحت الحلة منذ ذلك الحين خالية من أية سلطة حكومية ، وأخذ الحليون يعقدون المحالفات

---

(١٦) يوسف كركوش (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٦٤ •

فيما بينهم ، وينشئون المعاقل والحصون على رأس كل درب ، وأصلحوا ما تهدم من سور البلدة وبنوا فيه الاستحكامات المنيعة . وكانت الخصومات التي تقع بين الافراد او الجماعات تحل بطريقة التحكيم في دواوين الحلة . ويعلق يوسف كركوش على ذلك بقوله : « وبالجملة كانت حكومة الحلة اذ ذاك كحكومة جمهورية اقتضتها طبيعة الظروف ، وقد برهنت الحوادث اذ ذاك ان الشعب العراقي ومن بينهم أهل الحلة ذكي يحب النظام وينسى خلافاته ويدرك المصلحة المشتركة ويميز بين الصالح والطالح من الرجال . ويمكن الاستنتاج أنه مستعد للحكم الجمهوري اذا أتيحت له الفرص » .(١٧)

ان هذه الحادثة التي ذكرناها عرفت باسم « واقعة عاكف الاولى » وهي انما سميت بذلك تمييزاً لها عن واقعة ثانية جرت في خريف ١٩١٦ ، وهي الواقعة التي استطاع عاكف بك بها أن ينتقم من الحلة انتقاماً فظيعاً على نحو ما سوف نذكره في فصل قادم .

العصيان في السماوة :

جرى العصيان في السماوة على نمط يختلف عما جرى عليه في المدن الثلاث التي سبقتها ، فأهل السماوة لم يكادوا يعلنون عصيانهم على الحكومة ويطردونها من بلدتهم حتى ندموا على ما فعلوا وأرسلوا اليها يطلبون منها العودة والغفران . ويخيل لي ان السبب في ذلك هو ان أهل السماوة كانوا منقسمين الى محلتين متعاديتين هما : محلة « الغربي » ويرأسها الشيخ رباط السلمان ، ومحلة « الشرقي » ويرأسها السيد طفّار ، والمعروف عن هاتين المحلتين ان العداء بينهما شديد جداً بحيث يصعب استتباب السلام بينهما فترة طويلة ، وكثيرا ما ينشب القتال بينهما لاتفه الاسباب . ولهذا فان غياب سلطة الحكومة في السماوة يؤدي الى استفحال الفوضى فيها بشكل لا يطاق . أضف الى ذلك أن أحد الرئيسين وهو السيد طفار كان ميالاً للانكليز بينما كان الرئيس الثاني ميالاً

---

(١٧) المصدر السابق – ج ١ ص ١٦٤ – ١٦٥ .

للاتراك ، فاذا نجح أحدهما في حركة حاول الثاني مقاومة حركته والسعي لتفتيتها • وهذا هو ما وقع فعلاً في السماوة عقب اعلان العصيان فيها •

كان عبدالعزيز القصاب قائمقاماً في السماوة في تلك الفترة كما أشرنا اليه في فصل سابق ، وهو يحدثنا في مذكراته عن حالة السماوة قبيل سقوط الناصرية في ٢٥ تموز ١٩١٥ فيقول ما نصه :

« ••• كنا خلال الحرب فيها — أي في الناصرية — نسمع دوي المدافع عندما يكون الهواء شرقياً • وكان أهل السماوة حينذاك في سكون تام وأمن عام لم تحدث منهم حركة تخل بالامن ••• وكان حينذاك رؤساء الشرقيين والغربيين يجيئونني كل يوم عصرا يشربون القهوة في داري ولا يذهبون الى بيوتهم الا مساءاً • وكانت المحبة والصداقة فيما بيننا متينة جداً ، وكان السيد طفار بنوع خاص لا يفارقني يأتيني صباحاً في دائرة الحكومة ومساءاً في داري ، وأصبحت صداقته معي وثيقة اكثر من أي وقت مضى ، وان الحوادث المؤسفة التي حدثت في خلال الحرب في الحلة والنجف وكربلا لم تؤثر على وضعية السماوة وأمنها وسكونها ، وكان السيد طفار ينتقد هذه الحركات عند سماعه لها بشدة متناهية » • (١٨)

استمرت الحالة هادئة في السماوة حتى يوم ٢٨ تموز حين وصل الخبر الى القائمقام بسقوط الناصرية وبوصول بعض الزوارق الانكليزية الى ناحية الخضرَ متجهة نحو السماوة • وفي مساء ذلك اليوم استدعى القائمقام اليه رئيس البلدية والمفتي ورؤساء المحلات ، وأخبرهم بقرب وصول الزوارق الانكليزية الى السماوة ، وسألهم : هل أنتم مستعدون للدفاع عنْ البلدة والجهاد في سبيل الوطن ؟ • فكان جوابهم انهم متفقون معه في الحياة والموت ، وقالوا ما دامت الحرب قد أصبحت في عقر دارهم فان الجنة صارت تحت أقدامهم • وأخذوا يرددون مثل هذه الكلمات مرة بعد مرة ، فشكرهم القائمقام وشجعهم • ولكي يتأكد من أقوالهم جاء لهم بالقرآن وطلب منهم أن يحلفوا به ، فحلف كل من السيد طفار ورباط السلمان مؤيدين أقوالهم بحماسة كبيرة • ثم تناول القائمقام عصا السيد

---

(١٨) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ص ١٢١ — ١٢٢ •

طفار ، وقال للرئيسين : « هذه عصا العباس أطلب منكما الحلف بهـا » • فأمسكوا بالعصا وحلفوا بها واحداً بعد الآخر وقرروا أنهم يحيون معـه ويموتون معه •

وبعد الغروب بنصف ساعة تجمهر حوالي أربعمائة مسلح من أهـل السماوة أمام دار الحكومة بالقرب من رأس الجسر ، وأخذوا يهوسون ، وخرج القائمقام يهوس معهم فرفعوه على أيديهم وأخذوا يدورون به وهم يطلقون الهوسات المختلفة • واستمرت الهوسات بعد هذا حتى السـاعة الثالثة بعد الغروب • وقد سجل القائمقام في مذكراته نماذج من هوساتهم وهذه بعضها : « أبواب الجنـة مفتوحة لنـا » ، « نرضي الله وتتنومس بيها » ، « تتسابق للموت عليها » ، « يا سيد جدك يرعانا » ، « يا بيج للفاو تتبعك » ، « بها السوق الله يبيع جنانه » ، « الثاية بحيدر منصوبـة » ، « نسجيه من مرنا الماذاقه » ، « ذنب حيتنا أعظم من طولها » ، « يا مشـاور خلها لراعيها » • [١٩]

تم الاتفاق في تلك الليلة على أن يخرج أهل السماوة في صبـاح اليوم التالي للدفاع عن بلدتهم تجاه الزوارق الانكليزية ، وظل القائمقام ساهراً مع بعض أصحابه جالسين على شاطىء النهر ، وكانت الليلة مقمرة اذ هي كانت ليلة السابع عشر من رمضان • وفي ساعة متأخرة من الليل جاء اليه قائد الدرك يخبره بأن جنوده وعددهم تسعون هربوا كلهم ولـم يبق منهم سوى اثنين أحدهما ابن عمه والآخر من أقاربه • وقبـل بزوغ الفجر لاحظ القائمقام جمهوراً غفيراً من أهل السماوة يخرجون من السوق في الجانب الآخر من النهر ويتوجهون نحو مخزن الاعاشة العسكري الواقع على النهر ، فحطموا بابه ونهبوا مافيه من أطعمة مختلفة ، ثم تحولوا بعدئذٍ الى سراي الحكومة للعيث فيه ، ثم عبروا الجسر بغية نهب دور الموظفين •

وكان قد عبر في الوقت نفسه ثلاثون مسلحاً في سفينة متجهين بهـا نحو الثكنة العسكرية التي كان قد تحصن فيها خمسة عشر دركياً مـع قائدهم ، وتظاهر أولئك بأنهم اخوان جاؤوا للمساعدة ، فلما دخلوا الثكنة

---

(١٩) المصدر السابق ــ ص ١٢٤ ، ١٤١ •

وثبوا على الدرك فانتزعوا بنادقهم منهم ، وكادوا يقتلون القائد لو لم ينقذه بعض الرجال والنساء من عشيرة ألبو جامل .

وحين أتم جمهور السماوة نهب دور الموظفين توجهوا نحو دار القائمقام ، فوقعت مناوشة بالرصاص بينهم وبين حراس الدار استمرت ثلاثة ساعات . وتقدم رجل من بين الجمهور يطلب الامان بغية مفاوضة القائمقام ، وعندما دخل عليه في الدار قال له : « ان زوارق الانكليز دخلت السماوة وحكّمت علينا السيد طفار وان الجماهير لا يرغبون بالاساءة اليكم والى الموظفين ويطلبون خروجكم من السماوة » . وبعد أخذ و رد تم الاتفاق على خروج القائمقام والموظفين من البلدة بسلام .

وصف القائمقام في مذكراته ما شاهده أثناء خروجه مع الموظفين من البلدة فقال : « ... رأينا أهالي السماوة رجالاً ونساءاً واقفين على جانبي الجسر والجميع ملوثة وجوههم وألبستهم بالطحين الذي نهبوه من المنزل، وكانت لحاهم ووجوههم وعمائمهم وسيدياتهم بيضاء من الطحين ، وهم يبكون ويضربون على رؤوسهم ويقولون (لقد أخطأنا وقصرنا معك ياسيد أنت أحسنت الينا ولم تعمل سوءاً معنا فنرجوك الصفح) وكانت دموعهم تجري على غبار الطحين الذي على وجوهم . فتذكرت حينذاك شهادة سيدنا الحسين عليه السلام كيف قتله العراقيون وبكوا عليه ... »[20]

ومن طريف ما حدث بعد خروج القائمقام أن سرية من الخيالة الاتراك يبلغ عددهم مائة وثمانين جندياً دخلوا السماوة وهم لا يعلمون بما جرى فيها ، فلما توسطوا السوق الكبير هجم عليهم أهل البلدة وسلبوا منهم خيولهم وأسلحتهم وأجهزتهم ، وخرج هؤلاء من البلدة عراة ليس عليهم سوى خرق بالية .

ركب القائمقام ومن معه من الموظفين ونسائهم سفينة أوصلتهم الى الرميثة ، فنزل هو في دائرة الحكومة الصغيرة بينما نزل الموظفون ونساءهم في الحسينية . وجرت مخابرة تلغرافية بينه وبين القائد العام نور الدين بك الذي كان يومذاك في الكوت ، فقال القائد يخاطب القائمقام : « يظهر أنك

---

(٢٠) المصدر السابق – ص ١٢٩ .

متوهم فهذه الزوارق التي وصلت للسماوة هي زوارق حكومتنا وليست زوارق انكليزية فتركم القضاء جريمة تعاقبون عليها بالاعدام » ، فأجابه القائمقام : « اذا كان اعدامي مقرراً لديكم فأصدروا أمركم بمجيئي لبغداد وأتلقى العقاب » • وبينما كانت المخابرة تجري بينهما اذ دخل على دائرة البرق رجل عريان تماماً وعلى عورته خرقة بالية • وتبين أنه قائد الخيالة الذين سلبهم أهل السماوة ، ثم دخل رجل ثاني مثله ، وأخذ الرجلان يتحدثان الى القائد العام بالتلغراف عما جرى لهم • وعند هذا اعتذر القائد للقائمقام عن كلامه السابق •

قرر القائمقام أن يرسل النساء والاطفال مع الموظفين الذين لا لزوم لهم الى الديوانية • وحين رحل هؤلاء ووصلوا الى عشيرة الاقرع خرج عليهم بعض أفراد العشيرة فسلبوهم كل ما عندهم وما عليهم حتى السراويل التي تستر عوراتهم • وكان عبدالمجيد ابن القائمقام معهم وله من العمر ست سنوات ، فرفض أن يخلع عنه سرواله الذي يستر عورته ، فأخذوا يهددونه بالخناجر وكادوا يقتلونه ، فعمد هو الى تمزيق السروال من أحد جوانبه قائلا لهم : شوفوا هذا عتيق ومشقوق ! فتركوه •

وعندما وصلوا الى مشارف الديوانية أرسلوا أحد أصحاب الكرود اليها لاخبار الحكومة بأمرهم ، فخرج المتصرف بنفسه اليهم ومعه عدد كبير من الناس • واضطرت النساء اللواتي كن عاريات الى دفن أنفسهن في الرمال لكي لا يراهن أحد من القادمين لاستقبالهم ، وكان بين هؤلاء القادمين نساء فألبسن العاريات ما يسترهن •

ويقول القائمقام : ان السماوة أصبحت بعد خروجه منها بلا حاكم يحكمها ، ولهذا عادت المعارك بين الشرقيين والغربيين من سكانها على دأبهم القديم ، وأخذ رؤساء السماوة وتجارها يراجعونه في الرميثة مرة بعد مرة يرجون منه العودة اليها • وقد عاد هو الى البلدة أخيراً فاستقبل فيها بترحاب من قبل أهلها وساداتها وعلمائها وحتى نسائها • (٢١)

---

(٢١) المصدر السابق ــ ص ١٣٣ ــ ١٣٤ •

وضع الديوانية :

لم يقتصر العصيان على المدن الاربع التي ذكرناها بل شمل كذلك الكوفة والشامية وطويريج وغيرها ، وربما صح القول ان مدن الفرات الاوسط أصبحت كلها عاصية على درجات متفاوتة • ولكننا نستطيع أن نستثني من ذلك مدينة واحدة هي الديوانية ، فلقد ظلت هذه المدينة هادئة طيلة أيام الحرب وكانت علاقة الاهالي بالموظفين حسنة •

وصف اسماعيل الواعظ وضع الديوانية خلال أيام الحرب ، وكان مفتياً فيها ، فقال : ان الحق يقال ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، ان أهل الديوانية عاملوا الموظفين معاملة حسنة حتى آخر دقيقة من بقائهم في البلدة، فكانوا على العكس من أهالي البلدان الاخرى ككربلا والنجف والشامية الذين نهبوا الموظفين وآذوهم وحقروهم • وعندما سقطت بغداد بيد الانكليز جاءني رؤساء الديوانية واستشاروني قائلين انهم يريدون أن يكلموا المتصرف ومدراء الدوائر بأنهم يعتبرونهم كالسابق أولياء الامور فلا حذر ولا خوف عليهم • وبهذا حصلت الطمأنينة في قلوب الموظفين وصار الباعة يعطوهم السلع بالدين اذا أرادوا ، وظلت الحكومة في لواء الديوانية على هذا المنوال ثلاثة أشهر بعد سقوط بغداد • [٢٢]

يبدو أن السبب في هذا الوضع الشاذ الذي تميزت به الديوانية يعود الى شخصية المتصرف عزت بك الذي عينته الحكومة فيها منذ بداية الحرب • فالمعروف عن هذا الرجل أنه كان مجاملاً كيّساً يعرف عادات القوم ويُعرف كيف يجاريهم فيها ويوثق صلاته بهم • وقد وصفه الحاج وداي العطية في كتابه « تاريخ الديوانية » بقوله : انه أدهى متصرف عرفته الديوانية ، وقد قوبل من قبل أهلها بالاكبار والاحترام نظرا لما رأوا فيه من مقدرة واستعداد أداري وعسكري • [٢٣]

كان عزت بك يتقن اللغة العربية ، وقد اعتاد أن يقضي عصر كل يوم

---

(٢٢) مصطفى نور الدين الواعظ (الروض الازهر) ـ الموصل ١٩٤٨ — ص ٤٥٥ •

(٢٣) الحاج وداي العطية (تاريخ الديوانية) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص ٩٧ •

من أيام الاسبوع في بيت أحد وجهاء الديوانية بغية الاطـلاع على آراء الناس من جهة ، واجتذاب قلوبهم اليه من الجهة الاخرى . ويعترف المفتي اسماعيل الواعظ أن هذا السلوك من المتصرف لم يكن يعجبه لان العادة جرت في زمن الاتراك أن تكون معاملة الحكومة للعشائر بالقوة والقهر ، أما عزت بك فكان بخلاف ذلك يعامل العشائر باللطف والملاينة ، ولم يجاره المفتي في هذه السياسة مما أدى الى نشوء العداء بينهما ، ولهـذا حرّم المفتي من المأموريات الموقتة التي كانت تدر عليه مبالغ من المـال ، ولـم يكلف المفتي بمثل هذه المأموريات الا" مرة واحدة وكانت بلا عوض. (٢٤)

يخيل لي ان عزت بك تمكن بهذه الطريقة أن يمنع من ظهور العصيان في الديوانية ، فهو سار في أهل الديوانية سيرة صديق لا حاكم حيـث تركهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم حسب تقاليدهم العشائرية ، ولم يتدخل في أمورهم الا" عند الضرورة القصوى . انه بعبارة أخرى تفادى العصيان في الديوانية بأن أعطى أهلها ما يطلبونه من العصيان وهـو أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وكأنه كان بذلك يطبق المبدأ القائل : « اذا كنت مأكول الطعام فرحب » .

ظل عزت بك يسير على هذه الطريقة طيلة بقائه في الديوانية ، ولـم يقع أثناء ذلك ما يعكر الهدوء سوى مرة واحدة هي في ١٧ آب ١٩١٦ عندما جاء الضابط الانكليزي ليجمن الى الديوانية بغية التجسس والاتصال سراً ببعض رؤساء العشائر لاستمالتهم الى الانكليز .

وخلاصة القصة ان ليجمن كان متنكرا بزي درويش ايراني ويدعي أنه قادم من طهران لزيارة العتبات المقدسة وهو انما يمر بالديوانية فـي طريقه الى النجف . وقد استطاع عزت بك أن يكتشف أمره ، لانه كان قد وصلته من بغداد قبل مدة صورة ليجمن وصور جميع الجواسيس الانكليز الخطرين الذين يعملون في العراق ، فأمر باعتقاله . ولم يكد خبر اعتقاله ينتشر في البلدة حتى هب أعوان الانكليز فيها لانقاذه ، وأخذوا يذيعون بين الناس ان المتصرف حبس زائراً شيعياً مسكيناً وأمر بضربه ضرباً مبرحاً.

---

(٢٤) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٤٨

وتجمهر الناس يحملون السلاح وصاروا يشتمون المتصرف الذي كانوا يحبونه بالامس ويريدون الفتك به .

تمكن عزت بك أن يهدىء الحالة بما كان لديه من صلات حسنة مع رؤساء البلدة ، وأرسل يستدعي اليه العالم الديني الشيخ حسين ، وخاطبه قائلا :

« يا شيخ حسين ، يظن أهل الديوانية بانني قد عذبت مسلماً جعفرياً، انني أقدر أهل الديوانية ووطنيتهم الصادقة الا" انني آسف لاعتقادهم بأني قد عذبت مسلماً ، كما اني في الوقت ذاته أعلم مبلغ الدعاية السيئة التي بثها دعاة السوء بين المسلمين وجعلوهم شيعاً ليستفيدوا من تفرقتهم ، اذ كل قوم تفرقوا ضعفوا، وهذا هو الذي أضعف الاسلام... ان الشخص الذي سجنته ليس بمسلم ، وحتى ليس بشرقي انما هو ضابط انكليزي خطير ... قدم الديوانية خصيصاً وقضى ليلتين في دار (س ...) الذي جعله واسطة لاغراء الشيخ مخيف بالدراهم المرسلة معه من قائد الحملة البريطانية نكسون ، فاذا تسنى له الاستيلاء على افكار الشيخ مخيف فانه يستميل الشيخ مظهر ، واذا استمال هذين الشخصين فسيكون الفرات بأجمعه بقبضة يده ... ولكنني أريد أن تفهموا ان الانكليز مثلهم كمثل شخص عنده بقرة حلوب يستفيد من حليبها لغذائه ويبيع منه أيضاً ، ولكنه بدلاً من أن يغذيها فهو يأخذ الحليب منها ويدعها جائعة لتضعف ، ثم اذا نفد حليبها عمد الى ذبحها للاستفادة مما بقي من لحمها ومن ثمن جلدها . هذا هو شأن الانكليز في مستعمراتهم . وأكبر دليل على هذا هو وضع البلاد الهندية الآن » .[٢٥]

سيق ليجمن أخيراً الى الحلة بخفارة رجال من الدرك ، ولكن (س ...) تمكن من انقاذه في الطريق بمساعدة نفر من أعوانه من عشيرة ألبو صالح . والمظنون ان رجال الدرك أخذوا رشوة من (س ...) وسلموا ليجمن اليه ، وقد أعدم هؤلاء الدرك جزاء اهمالهم .

مكث ليجمن في عشيرة ألبو صالح ثلاثة أيام ، ثم سافر الى الشامية

---

(٢٥) الحاج وداي العطية (المصدر السابق) — ص ١٠٤ — ١٠٥ .

وحل ضيفاً على رجل يهودي فيها ، وقد أرسله هذا الى ناحيـة خضـر الدراجي بحراسة ثلاثة رجال من عشيرة الخزاعل ، ومن هناك ذهب ليجمن الى الناصرية • اما (س •••) الذي أنقذ ليجمن من الاعتقال فقد كافأه الانكليز بعد احتلالهم الديوانية بأن جعلوه رئيسـاً للبلدية فـي أوائل عام ١٩١٨ • [٢٦]

من معالم الفوضى :

ان تضاؤل السلطة الحكومية في مجتمع عشائري كالمجتمع العراقي لابد أن يؤدي الى استفحال الفوضى وتشوب المعـارك بين العصبيـات المختلفة التي يتكون منها المجتمع • وهذا هو ما حدث فعلاً في الفـرات الاوسط أثناء فترة العصيان •

من أهم الظواهر الاجتماعية التي لوحظت هناك فـي تلـك الفترة استفحال النزاع بين المحلات في داخل كل بلدة ، ولكنـه نزاع سـرعان ما يختفي عندما يهدد المدينة خطر عام يأتيها من الخارج ، وترى أهل البلدة حينئذ قـد اتحدوا كلهم ونسوا عداواتهم القديمة وتكتلوا تحت رايـة واحدة لدفع الخطر العام الذي يهددهم • ولا يكاد الخطر يزول عنهم حتى يعودوا الى التنازع من جديد •

خذ مثلا ما حدث في الديوانية أثناء تلك الفترة ، وقد أعطانا المفتي اسماعيل الواعظ عنها صورة واضحة حيث قال ما نصه :

« كان زمن الحرب زمن فتنة وسـلب ونهب واضطراب ، فمن وقت اعلان الحرب الى وقت الاحتـلال كنا فـي الديوانية بحالة يرثى لهـا ، ولا سيما في السنة الثالثة ، فقـد كنا اذا أمسينا لا نؤمن الصبـاح واذا أصبحنا لا نؤمن المساء ، وكانت البلدة منقسمة الى تسعة أفخاذ يطلقون عليها (نقطة شبّات) ، ولما لم تكن الحكومة وقتئذٍ مسيطرة على الاهالي كان يقع أحياناً بين هؤلاء الافخاذ مناوشات قتالية • ففي يوم جمعة وقعت بين آل جودة وبين آل الحاج محيسن • فهجم هؤلاء على آل جودة وقتلوا محمداً ومهدياً ابني الملا جودة ، وحال ذلك القتال بيننا وبين صلاة الجمعة

---

(٢٦) المصدر السابق ــ ص ١٣٩ ، ١٩٠ •

لان الرمي متصل في الازقة ، وبعدئذٍ هجم آل الملا جودة على آل الحاج محيسن وقتلوا منهم وجرحوا ، وهكذا دواليك .

« ووقعت واقعة أخرى وهي أن عبدالحسين بن الحاج حمزة وُجد مقتولاً في اليوسفية ، واتهم صديقه غريب من آل الحاج محيسن ، وصار الهرج في قصبة الديوانية ، واتفقوا على أن يؤدي اليمين بالعباس المتهم غريب فحلف ، وبينما هو آمن يبيع ويشتري في حانوته اذ جاءه اخوة عبدالحسين وهما ابراهيم وشندل فأطلقا عليه الرصاص وقتلاه .

« وأخرى : وهي ان ابن قاله الكردي — وهذا رجل كردي الاصل اسمه عبدالقادر سني المذهب تزوج شيعية فاستشيع وسكن الدغارة — بينما كان جالساً هو وصديق له في المقهى وكانت بيدهما بندقية انكليزية فيناولها واحد للآخر ويلعبان بها اذ خرجت منها رصاصة قتلت الثاني ، وفر ابن قاله واختفى في بيت خالته زوجة محمد أفندي السالم ... فهجمت أهل الديوانية على بيت محمد أفندي السالم يريدون قتل ابن قاله، فجاءني محمد افندي وبيّن لي المسألة وأنها خطأ ، وأراد أن أحميه من أهل الديوانية فأخذته الى بيتي ، وكانت دار محمد أفندي جاري بيت بيت. ولما رأت الاهالي أنه صار بحماي كفوا عنه . وفي تلك الليلة سيّرته بواسطة محمد الحاج محيسن الى الدغارة . وقد اضطربت الحالة حتى أن الخزاعل قامت تهجم على الديوانية ، غير أن أهل الديوانية رجال أقوياء وان كانوا متفرقين لعداوة بينهم الا أنهم يد واحدة على من ناوأهم ، فاتفقوا على ردع العشائر اذا هجمت على الديوانية ... » .(٢٧)

ان هذا الذي رأيناه في الديوانية حدث مثله في النجف ، فان معارك الزقرت والشمرت قد اشتدت في النجف أثناء فترة العصيان . يروي محمد رضا الشبيبي في مذكراته قصة احدى تلك المعارك فيقول : في غروب يوم الخميس ٥ ذي القعدة ١٣٣٣ هـ — وهو يوافق ١٤ ايلول ١٩١٥ م — تنابث فتيان من آل شربة من محلة الحويش مع فتيان من آل جريو من محلة البراق ، وتبادلوا اطلاق الرصاص في المسلخ خارج البلدة ، وتراكض

---

(٢٧) مصطفى نور الدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

الناس الى داخل السور فاتصل الرمي بهم ، واضطربت البلـدة وأقفلت الاسواق وفزع العامة الى أسلحتهم وترتبوا في حدودهم ، وبعد سـاعة أو اقل هدأت المعركة ، وكان قد جرح فيها الحاج حسون شربة زعيم أسرته جرحاً بليغاً وجرح ابنه أيضاً ، كما جرح أثنان من آل جريو . وظلت البلدة في قلق حتى يوم ٨ ذي القعدة حيث اجتمع رؤساء المحلات في دار السيد محمد حسن الكليدار ، وبعد أخذ ورد توادع أهل البراق والحويش الى شهر على أن يعضد أهـل الحويش أهـل العمارة ويعضد أهـل البراق أهـل المشـراق ... (٢٨)

ويروي الشبيبي قصة أخرى حدثت بعد ذلك بمدة قصيرة ، وفيهـا تناسى النجفيون عداواتهم المحلية واتحدوا تجـاه العشائر المحيطة بهم . وخلاصة القصة : ان جماعة من عشيرة شمر البدويـة جاؤوا الى النجف للاكتيال . وفي ١ ذي الحجة وقعت مشاجرة حول البركة خارج السـور بين أحد البدو ونفر من ألبو عامر أحلاف النجفيين ، فقتل البدوي وعقر بعيره ، ودوى الرصاص .. فهب النجفيون من داخل السـور للنجـدة ووقعت مناوشة شديدة بالرصاص بين الفريقين أسفرت عن مقتل أربعـة من البدو وواحد من النجفيين مع جرح آخـر . وكـان النجفيون يرمون الرصاص من وراء معاقلهم ومن فوق شرفات السور مما أدى الى هـرب البدو . وانثال عوام النجف عند هذا على أحمال البدو وأمتعتهم فنهبوها ، واستمر النهب حتى الساعة الثانية بعد الغروب ، وكان المنهوب شيئاً كثيراً قدرت قيمته بخمسة عشر ألف ليرة من الحبوب والامتعة . وحين سـمعت العشائر القريبة بالحادثة أسرعت تريد غزو النجف . وفي عصر ٢ ذي الحجة هجم فرسان من آل شبل على النجف فردهم النجفيون على أعقابهم بعـد أن قتلوا اثنين منهم ، ثم هجم من بعدهم رجال من الخزاعل من آل البراك، واستطاع النجفيون ردهم كذلك . وفي ٣ منه انقطع الطريق بين النجف والكوفة والجعارة حيث صار فرسان آل براك يعتـدون على كل نجفي

---

(٢٨) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد السادس ـ السنة الرابعة .

يجدونه في الطريق ، وقد قتل من جراء ذلك نجفي واحد وجرد خمسة من أسلحتهم . وفي اليوم التالي قتل نجفي آخر في طريق الجعارة ، فخرج النجفيون في طلب الفرسان . وفي ١١ ذي الحجة كانت جماعة من النجفيين في موضع في الصحراء يقال له « القصور » فوثب عليهم فريق من عشيرة شمر كانوا هناك فقتلوا واحداً منهم وجرحوا اثنين ، وأخذوا دوابهم ... (٢٩)

يمكن القول بوجه عام ان مدن الفرات الاوسط كلها كانت تعيش في مثل هذه الحالة ، اذ يتنازع سكانها فيما بينهم حتى اذا جاءهم خطر عام اتحدوا ضده . وهذا يذكرنا بالمبدأ البدوي القائل : « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » .

مما يجدر ذكره عن أهل الحلة انهم امتازوا خلال فترة العصيان بكونهم اكثر تكاتفاً واتحاداً فيما بينهم من غيرهم . ويعزى سبب ذلك الى أن الحلة كانت مهددة اكثر من غيرها بخطر غزو العشائر لها ، وذلك على أثر انشاء سدة الهندية حيث جاءت العشائر من المناطق البعيدة تبغي الحصول على الاراضي التي أحيتها السدة في منطقة الحلة ، فتكاثرت العشائر هنالك وتزاحمت وأخذ يغزو بعضها بعضاً ، كما أخذت تغزو الحلة نفسها . وقد استمرت هذه الحالة الى أيام الحرب . يحدثنا يوسف كركوش الحلي عن وضع الحلة خلال فترة العصيان فيقول ما نصه :

« صار الحليون ــ بعد ثورتهم ــ يحملون السلاح ليحفظوا أنفسهم وأموالهم من هجوم القبائل والاعراب على بلدتهم لانها كانت مهددة ، فبينما كان الناس في الاسواق يبيعون ويشترون اذ جاءهم نبأ أن الجبور أو خفاجة أو غيرها من الاعراب المجاورين للحلة يريدون الهجوم على الحلة ، فيرتبك الناس ويغلقون دكاكينهم ويتأهبون لكفاحهم ، ثم ينكشف كذب ذلك النبأ . وقد شاهدت ذلك مراراً » . (٣٠)

ولكن هذا على كل حال لم يمنع من وقوع معارك محلية صغيرة في

---

(٢٩) المصدر السابق ــ العدد السابع .
(٣٠) يوسف كركوش (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٦٢ .

المحلة في بعض الاحيان ، كتلك التي نشبت بين محلة جبران ومحلة المهدية، وقد استمرت هذه المعركة عدة ساعات ، فأغلقت فيها الاسواق ، وسقط عدد من الجرحى والقتلى ، ولم تهدأ الا بعد توسط عقلاء المحلة وسعيهم للصلح بين المحلتين •

واقعة الكوفة :

تعد واقعة الكوفة من أشهر معارك الفرات الاوسط خلال تلك الفترة ، وقد وقعت بين أهل النجف وعشيرة بني حسن ، وهي تعطينا صورة واضحة للوضع الاجتماعي الذي كان سائداً هنالك •

كان سبب الواقعة هو التنافس على حكم الكوفة بين النجفيين وبني حسن ، فرؤساء النجف يعدون الكوفة تابعة لهم لان اكثر أهلها منهم وهم أحق من غيرهم بالسيطرة عليها وجباية الرسوم منها • أما عشيرة بني حسن فكانت مجاورة للكوفة وهي تحسب نفسها أقوى من النجفيين وأحق منهم بالسيطرة على الكوفة •

وفي ٩ كانون الاول ١٩١٥ انطلقت شرارة الفتنة بين الفريقين ، اذ وقعت مناوشة بالرصاص بينهما في سوق الكوفة ، ويقال في تعليل ذلك ان بني حسن اتهموا أحد النجفيين وهو محمد أبو شبَع الذي كان يلتزم الحراسة في الكوفة بأنه يغازل نساءهم ويتحرش بهن عند مجيئهن للتسوق في الكوفة • وقد استمر تبادل الرصاص بين الفريقين برهة من الزمن ، ثم التجأ نفر من بني حسن الى خان على ضفة النهر، فتسور عليهم النجفيون ونقبوا الجدران ، واضطروهم على التسليم ، وخرج هؤلاء من الخان بعد أن اخذوا « الامان » من النجفيين ، ولكنهم عندما كانوا يعبرون الجسر في طريقهم الى أهليهم أطلق عليهم الرصاص نفر من النجفيين لم يكونوا يعرفون عن « الامان » شيئاً • [31] وبهذا انقطع كل أمل بالصلح بين الفريقين ، وأخذ كل منهما يتأهب للحرب بكل ما لديه من سلاح وقوة •

صمم الحاج عطية أبو قلل أن يبدأ الحرب بنفسه فأعد جماعة من

---

(٣١) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة •

أتباعه المسلحين ، وسار هو على رأسهم ، فركبوا عربات الترامواي متوجهين بها نحو الكوفة • وحين علم بنو حسن بالامر أسرع فريق منهم الى سكة الترامواي في منتصف الطريق قاصدين قلع بعض القضبان منها لمنع النجفيين من الوصول الى أهدافهم • فنشبت مناوشة بالرصاص بين الفريقين سقط فيها بعض القتلى والجرحى ، ولم يؤثر ذلك على سير العربات •

وعندما وصل الحاج عطية وصحبه الى الكوفة اتخذ مقره في دار السيد حسين كمونة ، ثم انضم اليه رؤساء النجف الآخرون مع أتباعهم• وأرسل الحاج عطية رسله الى العشائر المتحالفة مع أهل النجف يطلب منهم النجدة لحرب بني حسن فجاءت الامدادات من تلك العشائر بكامل عدتها الحربية وأصبحت الكوفة بذلك زاخرة بالمقاتلين الاشداء وهم مستعدون للمعركة الكبرى •

وصل الى الكوفة السيد محمد حسن الكليدار وهو راكب فرسه في محاولة للتوسط بين الفريقين وانهاء النزاع سلماً • فذهب الى معسكر بني حسن خارج الكوفة وقابل رؤساءهم غير أنهم رفضوا وساطته وقالوا ان الكوفة تقع في أراضيهم وليس للنجفيين أي حق فيها ، وطلبوا تخليتها من كل نجفي ساكن فيها• وعاد الكليدار الى الحاج عطية يخبره بالامر•(٣٢)

نشبت المعركة بعد ذلك • وكانت معركة دامية عنيفة استمرت عشرين يوما سقط فيها الكثير من الجرحى والقتلى • وقد استعمل النجفيون في المعركة مدفعاً قديماً كانوا قد استحوذوا عليه من مخلفات الاتراك ، فنقلوه بعربة من عربات الترامواي ووضعوه على شاطىء النهر • وكان المكلف باستعمال المدفع رجل زنجي اسمه الحاج اقبال ، وقد جاء هذا بكرات حديدية من تلك التي يستعملها باعة التبغ ، وصار يضع الواحدة بعد الاخرى في فوهة المدفع بعد ملئه بالبارود ، ثم يشعله بشيء من سعف النخيل ، فتنطلق الكرة منه تجاه بني حسن المعسكرين في الجهة المقابلة من النهر • وقد سقطت الكرة الاولى في وسط النهر ، وسقطت الثانية أبعد

---

(٣٢) مجيد الموسوي (المصدر السابق) ــ ص ٧٠ ــ ٧١ •

من ذلك قليلاً .. وأخذ بنو حسن يتضاحكون سخرية بالمدفع وبصاحبه الحاج اقبال ، فكان الحاج اقبال يرد على سخريتهم بالشتائم البذيئة . ثم سقطت الكرة الثالثة على بني حسن وأوقعت بهم بعض الخسائر فانقلب ضحكهم الى عياط . (٣٣)

يدعي النجفيون ان المعركة انتهت بانتصارهم اذ قام كاظم صبي رئيس محلة البراق مع جماعة من اتباعه بحركة التفاف بارعة من جهة جامع السهلة ، مما أدى الى انتصار النجفيين وانخذال بني حسن . فكانت خسائر بني حسن زهاء خمسين قتيلا ، أما النجفيون فلم يخسروا سوى اثني عشر قتيلا . وأخذت نساء بني حسن يعيّرن رجالهن بهذه النوحية :

هاكم شيلنا وذبو حداريكم
شوفوا أهل الطماطة شعملوا بيكم

ومعنى هذا ان رجال بني حسن ينبغي أن يلبسوا ملابس النساء لهزيمتهم تجاه أهل الطماطة أي الحضر .

ويقال ان بني حسن أعادوا الكرة على النجفيين فكسروهم وطردوهم من الكوفة ، وأصبحت الكوفة بعدئذ خاضعة لرئيس بني حسن علوان الحاج سعدون . وقد عين هذا أحد عبيده واسمه « طرخان » ليحكم البلدة بالنيابة عنه ويجبي منها الرسوم . (٣٤)

الاتاوة وما يقابلها :

شهدت منطقة الفرات الاوسط في فترة العصيان ظاهرة اجتماعية أخرى بالاضافة الى ظاهرة المعارك المحلية ، وهي فرض « الخاوة » — أي الاتاوة — على المسافرين والتجار .

لا يخفى أن الاتاوة هي من جملة القيم التي ورثها المجتمع العراقي عن البداوة ، وكلما تضاءلت سلطة الحكومة في منطقة منه استفحلت فيها الاتاوة ، فهي بمثابة ضريبة يدفعها الانسان للشخص القوي المسيطر على

---

(٣٣) حدثني بذلك أحد المسنين من أهل النجف .
(٣٤) نقلا عن جعفر الخليلي .

المنطقة ثمناً لحمايته . والواقع ان الشخص القوي في المجتمع العشائري يفتخر بقدرته على فرض الاتاوة على الناس كمثل ما يفتخر بقدرته على الغزو والنهب ، فكلا الامرين دليل على الرجولة والشجاعة في ذلك المجتمع .

كانت عشائر الفرات الاوسط اثناء فترة العصيان تفرض الاتاوة على كل من يمر بديرتها من المسافرين والتجار نهراً أو براً . يقال ان بقعة على شاطىء الفرات طولها عشرون ميلاً كانت في تلك الفترة تخضع لنفوذ سبع عشائر ، فكان المسافر في النهر مضطراً أن يدفع الاتاوة لتلك العشائر الواحدة بعد الاخرى . (٣٥)

وهنا يجب أن لا ننسى أن ظاهرة الاتاوة تقابلها عند العشائر ظاهرة أخرى مقابلة لها هي التي تتمثل في قيم الضيافة والدخالة والوجه والشهامة وما أشبه . فبينما كانت العشائر تفرض الاتاوة على المسافرين ، وتفتخر بذلك ، نراها في الوقت نفسه تحرص كل الحرص على حماية الضيف والدخيل وأي قاصد لها في حاجة . يروي علي الشرقي : أنه كان في عام ١٩١٥ منحدرا في زورق من السماوة الى الناصرية ، ولما وصل الى عشيرة عبس وجدهم يتقاتلون ، وكانت هناك جموع منهم على جانبي النهر يتبادلون الرصاص ، وكان سبب القتال أن مغوارا من مغاوير العشيرة اسمه ناصر قد قتل في اليوم السابق فهب اقرباؤه لاخذ ثاره من قاتليه . يقول الشرقي : انه ذهب دون علم منه الى بيت تبين أنه بيت القتيل ، ولما أراد الخروج منه لحقه ابن القتيل وهو طفل في العاشرة من عمره يطلب منه البقاء في البيت ليشرب القهوة ويتناول شيئاً من الطعام ، وكانت جدة الطفل تشجعه على ذلك تريد منه أن يكون خليفة أبيه في بيته لخدمة الضيوف . ولما أتم الشرقي الاكل وشرب القهوة قامت الجدة ومعها الطفل وخرجت الى أبناء عشيرتها المتحاربين وهي تلوح بطرف عباءتها صائحة فيهم : « يا معشر عبس أنا أم ناصر وهذا ولده نريد أن نجتاز بضيف ناصر

---

(35) Thomas Lyell (The Ins and outs of Mesopotamia) — London 1923 — p. 223 — 224.

الطريق ، فالوجه الوجه ياعبس ، عطلوا سلاحكم قليلاً ،أريد ذلـك من العدو والصديق » • فنكس الجميع سلاحهم • وسكت أزيز الرصـاص وارتفعت الأصوات « تفضلي تفضلي » ، ومع بعض الاصوات نشـيج وبكاء • ويعلق الشرقي على ذلك قائلا : « فأكبرت تلك الشيم وخشعت لتلك التقاليد ، ولما اجتاز الزورق مواقع الخطر أوقفتـه وقدمت فروض الشكر ، وقبلت وجه الصبي ودعوت لـه بالمستقبل الحسـن والحيـاة الكريمـة » • (٣٦)

الاتاوة في المـدن :

لم تكن الاتاوة منحصرة في نطاق العشائر فقط بل كانت موجودة في المدن أيضاً ولكن على شاكلة أخرى تنسجم مع ظروف المدينة • فالمدينـة ليست كالعشيرة تقع على طريق المسافرين ، بل هي سـوق تعيش على التجارة والمهن في الغالب • ولهذا فان الاتاوة فيها تفرض على بعض سكانها من التجار والمياسير من أصحاب المهن •

حدثني رجل أثق به بقصة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن رجلاً موسراً من أهل كربلا اسمه الحاج حبيب أبو الاكفان كان يتعاطى التجارة بالحبوب في تلك الفترة ، وقد علم فخري كمونة بأنه يجني مـن تجارته أرباحاً وفيرة فاستدعاه اليه وفرض عليه أتاوة قدرها مائة ليرة ذهب، ولما تردد الرجل في دفع المبلغ أمر فخري جلاوزته بانزاله في السـرداب وضربه ضرباً مبرحاً حتى يدفع ، واضطر الرجل أن يدفع المبلغ بعد أن نال من الضرب ما فيه الكفاية • وبعد مرور مدة علم فخري أن ارباح الرجل في ازدياد ففرض عليه الاتاوة مرة أخرى ، واضطر الرجل الى دفعها صابرا • ثم قرر الرجل أخيراً أن يهاجر الى النجف ظناً منه أن الوضع هناك خير مما هو في كربلا •

نزل الرجل في النجف في محلة العمارة ، ولم يكد يستقر به المقـام فيها حتى جاءه رسول من الحاج عطية أبو قلل يقول له ان الحاج عنده

---

(٣٦) علي الشرقي (الاحلام) ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ١١٤ ــ ١١٥ •

مقدار من الحنطة يريد بيعها له ، وعرض عليه سعراً أعلى من سعر السوق ، فاضطر الرجل الى شراء الحنطة بالسعر المفروض عليه • وشاءت الصدفة أن يرتفع سعر الحنطة بعدئذٍ ارتفاعا فاحشا ، فعاد رسول الحاج عطيه يطلب منه اعادة الحنطة الى الحاج لحاجته اليها • ولم يكد الرجل يعيد الحنطة حتى هبط سعر الحنطة الى مثل ما كان عليه سابقا • وعند هذا قال الحاج عطية : « ليس لنا نصيب مع هذا الرجل اتركوه » •

ان الاتاوة في المدن قد تتخذ في بعض الاحيان شكل قرض لا يُدفع، ذلك أن رئيس المحلة قد يستدعي اليه التاجر الساكن في محلته ويطلب منه مبلغاً معيناً من المال بحجة أنه قرض سيدفعه له بعد حين انما هو في الواقع لن يدفعه • والتاجر يعرف ذلك ولكنه يشعر بأن المبلغ هو بمثابة ثمن لحمايته ، فاذا امتنع التاجر عن الدفع صار عرضة للسرقة أو الاعتداء من قبل جلاوزة رئيس المحلة وأتباعه المسلحين •

لم يكن فرض الاتاوة منحصراً في طبقة الرؤساء فقط ، بل كان يستعمله أيضاً كل رجل يشعر أنه قوي يستطيع أن يفرض ارادته على غيره • فترى هذا الرجل يبحث عن بعض صغار التجار من البقالين والعطارين ليأخذ منهم ما يحتاج اليه بحجة أنه قرض ، وهم لا يرفضون طلبه الاّ اذا شعروا بأنهم أكفاء له في القوة بأنفسهم او بعشيرتهم •

يشير الشيخ محمد رضا الشبيبي الى ما يشبه ذلك في مذكراته المخطوطة عندما يتطرق الى وضع المجتمع النجفي في فترة العصيان ، اذ يقول ما نصه : « من جملة ما لاحظناه من أحوالهم ان كثيرا من ذوي المهن والحرف والتجارة والزراعة منهم تركوا أعمالهم وعولوا في الارتزاق على السلاح والقوة وتأليف العصابات » •

ويعطينا جعفر الخليلي صورة أخرى لوضع النجف مكملة لما ذكره الشبيبي ، فيقول : ان كثيرا من حملة السلاح من النجفيين كانوا يطرقون البيوت عند منتصف الليل ويفرضون على أصحابها الاتاوات ، وكثيرا ما كان الرجل منهم يمر بدكان أحد البزازين فيأخذ منه ما يريد من القماش بلا ثمن ويتناقل الناس حول هذا الموضوع حكايات كثيرة • ويقول الخليلي أنه يعرف شرذمة من حملة السلاح طرقت بيت السيد هاشم زيني بعد

منتصف الليل وفرضت عليه أتاوة قدرها مائة ليرة عثمانية يدفعها حالاً ، فدفعها ، وفي الصباح شاع الخبر ولقي بعض الاهتمام من الرؤساء وقام الحاج عطية بالتحقيق . (٣٧) ويرجح في ظني ان الرؤساء انما اهتموا بالامر لانهم لم يحبوا أن يشاركهم أحد في فرض الاتاوة على الناس .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الذين يفرضون الاتاوة على الناس انما ينفقونها على ضيوفهم أو من يلوذ بهم من الاتباع ، فهم في هذا كالبدوي الذي اعتاد أن يكون نهاباً وهاباً . خذ مثلا الحاج عطية أبو قلل فانه كان مضرب المثل في سعة مضيفه وكثرة البذل فيه . يروى عنه أنه كان في أيام الزيارات حين يزدحم صحن النجف بالزوار يقف بنفسه في وسطهم ويصيح بأعلا صوته : يازوار الامير تعالوا الى مضيف خادم الامير — يقصد نفسه — فستجدون فيه الراحة والطعام على الرحب والسعة . (٣٨)

ويمكن ان نقول مثل هذا عن كاظم صبي رئيس محلة البراق . يصفه الشيخ محمد رضا الشبيبي بقوله : انه كان رئيس عصابة معروفة في منطقة الفرات وله فعائل كثيرة من مهاجمات القرى والبلدان وقطع الطرق صيرته من مشاهير أنجاد العراق ، وقد اشتهر في السخاء والفتوة وله في النجف مضيف هو مخزن الجنود الذي أخذه منهم بعد مهاجمته اياه في بداية العصيان . ويقول الشبيبي أيضاً : أن النجفيين بوجه عام كانوا في فترة العصيان قد اعتادوا على اتخاذ المطابخ العامة ودور الضيافات على نحو ما عند أهل البادية . (٣٩)

استدراك :

الواقع ان هذا النمط من السلوك الذي رأيناه واضحاً في الفرات الاوسط خلال فترة العصيان ، لم يكن شاذاً او نادراً في المناطق الاخرى من العراق . وربما صح القول انه كان من الظواهر المألوفة في المجتمع

---

(٣٧) نقلا عن مقالة الخليلي المخطوطة .
(٣٨) حميد عيسى حبيبان (حقائق ناصعة) — النجف ١٩٧٠ — ص ٣٤ .
(٣٩) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

العراقي كله طيلة العهد العثماني ، غير أنه ازداد استفحالاً في الفرات الاوسط من جراء تضاؤل السلطة الحكومية خلال تلك الفترة .

فالمعروف عن السيد طالب النقيب مثلاً أنه كان يمارس هذا النمط من السلوك في البصرة علناً فلا يخفيه او يداري فيه . فهو كان يستدعي اليه كبار التجار ، ولا سيما الذميين منهم ، ويطلب منهم قرضا كبيرا ويعطيهم عنه سنداً مذيلاً بتوقيعه ، وكانوا يدركون أنهم لا يستطيعون مطالبته بالسند ابدا . ومن الطرائف التي تروى أن أحد الذميين اجترأ ذات يوم وطالب السيد طالب بقيمة سندٍ له عليه ، فغضب السيد طالب منه وأمره بأن يبلع السند حالاً ويشرب فوقه الماء ، وقد فعل التاجر ما أمره به السيد طالب . ولما استدعاه السيد طالب مرة أخرى طالبا منه قرضا جديدا أخذ التاجر يتوسل اليه راجيا ان يكتب السند في هذه المرة على صفحة قمر الدين لكي يسهل بعدئذٍ بلعه .

ومما يلفت النظر ان هذا النمط من السلوك كان يعد في نظر الناس من مفاخر السيد طالب ومن علامات نفوذه وقوته ، وكان الناس يتحدثون باعجاب عن الافاعيل التي يقوم بها من هذا القبيل ، ثم يتحدثون بعدئذٍ عن مبلغ سخائه ومروءته التي لا تحد . يقول آيرلند في وصف السيد طالب : « كان سخاؤه وتصدقه على الفقراء مضرب الامثال ، غير أنه كان بوضعه هذا أشبه بـ (روبن هود) . حيث أنه لم يكن ثريا ، ولذا فان ما كان يحتاجه من المال لتمشية مصالحه واعاشة حاشيته كثيرا ما كان يجبي عنوة ويبتز من أثرياء العرب القاطنين في العراق الجنوبي » . (٤٠)

ومما له صلة بهذا الموضوع أن كثيرا من الاشخاص في العهد العثماني كانت لديهم رغبة نفسية عميقة في أكل الديون التي عليهم ، أو المماطلة فيها على الاقل ، مع أنهم يملكون القدرة على أدائها ، وهم قد اعتادوا على ذلك بحيث لا يجدون فيها عيباً ، وربما افتخروا بها أحيانا . ومن الممكن القول ان هذه العادة تستمد جذورها النفسية من مفهوم

---

(٤٠) فيليب آيرلند (العراق ـ دراسة في تطوره السياسي) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٧٧ .

الاتاوة ، فالمبتلى بهذه العادة يشعر كأن أداءه الدين يعتبر دليلا على ضعفه تجاه الدائن ، ولعله يتصور ان أكل مال الناس يتضمن معنى الغلبة عليهم • ولهذا نرى بعض الاشخاص قد يتباهون بأنهم قادرون على استيفاء ديونهم من الناس دون ان يتمكن الناس من استيفاء ديونهم منهم • فهي اذن قضية مغالبة !

الملاحظ ان شيئاً من هذه العادة لا يزال باقيا لدى بعض الناس حتى يومنا هذا ، فالفرد منهم قد يكون متدينا كثير العبادة والتهجد ، او يكون ذا ثروة لا بأس بها ، ولكنه يحب أن يأكل الديون الصغيرة التي يأخذها من البقال او القصاب او الحمال • ومنهم من يأكل مثل هذه الديون الصغيرة بينما هو ينفق أضعافها على ولائمه ومظاهر سخائه في شتى المناسبات •

الفصل الثامن
معركة سلمان باك
والعلم الحيدري الشريف

تعد معركة سلمان باك من أعظم معارك الحرب في العراق من حيث أهمية نتائجها ، أو لعلها أعظم المعارك جميعاً • انها جرت بعد انقضاء سنة واحدة على بداية الغزو الانكليزي للعراق ، وهي السنة التي عانى الاتراك فيها الهزائم المتتابعة ، ثم حدثت معركة سلمان باك أخيراً فكانت أول معركة وقف الجيش التركي فيها موقف الند للند تجاه الجيش الانكليزي وصارعه ثم غلبه •

ان معركة سلمان باك كانت بمثابة البداية للطور الثاني من حرب العراق وهو الطور الذي تحول فيه الجيش التركي من موقف الدفاع الى موقف الهجوم وأخذ يكيل للجيش البريطاني الضربات القاصمة طيلة خمسة اشهر حتى انتهى الامر أخيراً باستسلام القوات الانكليزية في الكوت ذلك الاستسلام المخزي الذي هبط بهيبة بريطانيا الى الحضيض •

بين نكسون وطونزند :

حدث قبل معركة سلمان باك خلاف شديد في الرأي بين الجنرال طونزند ورئيسه الجنرال نكسون • فالمعروف عن نكسون أنه كان متسرعا يحب المجازفة ، وحين رأى الانتصارات المتتابعة التي نالتها القوات الانكليزية في العراق أصبح واثقاً بأنها قادرة على الاستمرار في نيل الانتصارات دون أن يتمكن الاتراك من الوقوف في وجهها الى أن تصل الى بغداد ، وعندئذٍ ستسقط هذه المدينة التاريخية المشهورة في يد القوات الانكليزية كما تسقط الثمرة الناضجة • وكان يؤيد نكسون في هذا الاتجاه مستشاره السياسي السر برسي كوكس ، فقد كان هذا الرجل يعتقد أن فتح بغداد له من الاهمية السياسية ما يشبه الاهمية الناتجة عن فتح

اسـطنبول . [1]

أما طوتزند فكان له رأي آخر ، ففي ٣ تشرين الاول ١٩١٥ أرسـل من العزيزية برقية مطولة الى نكسون قال فيها : ان الاتراك قد تحصنوا في موقع سلمان باك ، وهناك احتمال أن تصل اليهم نجدات قوية من الاناضول وهم قادرون أن يخرجونا من بغداد في حالة دخولنا اليها ، يضاف الى ذلك أن خطوط مواصلاتنا الى الخليج طويلة تقرب من أربعمائة ميل ، وأن مياه دجلة قد انخفضت فجأة مما جعل سير مراكبنا بطيئاً شاقاً محفوفاً بالاخطـار ، فاذا تراجعنا اتالت العشائر المعادية علينا حيث يتحول عداؤهم لنا الى ثورة علينا عند سماعهم خبر تراجعنا . واذا أردنا احتلال بغداد فالضرورة المطلقة تحتم علينا أن يكون زحفنا مؤلفاً من فرقتين أو من فرقة واحدة تعضدهـا بالقرب منها فرقة أخرى كاملة ، أما اذا أقدمنا على احتلال بغداد بغير هذه الصورة تعرضنا للاخطار الشديدة . [2]

لقـد أثبتت الحوادث فيمـا بعـد صـواب رأي طوتزند ، ولـكن نكسون لم يأخذ بهذا الرأي ، وظل متمسكاً برأيه السابق . يقول باركر في وصف نكسون : انه لم يكن من معيار القواد العظام أمثال نلسون أو دريك ، بل كان متفائلاً الى أقصى حد ، وكان تفاؤله هو الـذي جعـل طوتزند يزحف نحو بغداد من غير قوة كافية . ان التجربة السابقة التـي حصل عليها نكسون في العراق جعلته واثقاً من أن أقل ضغط بوجه علـى الاتراك يؤدي الى هزيمتهم ، فلقد كان مؤمناً ببسـالة الجنود الانكليز والهنود ويعتبر الجندي التركي من الدرجة الثانية ، ثم تبين له بعد فـوات الاوان أنه كان مخطئاً وأن الجندي التركي ليس كما كان يتصوره . [3]

توترت العلاقة بين طوتزند ونكسون من جراء خلافهم في هذا الرأي . يقول طوتزند في مذكراته : ان أصـول الضبط العسكري لا تجيز لـه

---

(1) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 66.

(٢) تشارلس طوتزند (محاربتي في العراق) ـ ترجمة عبدالمسيح وزير ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ١٧٧ .

(3) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 200—201.

الاحتجاج على رئيسه ، كما لا تجيز له الاستقالة ، فكان الواجب يقضي عليه اذن أن ينفذ أوامر رئيسه بكل ما في وسعه على الرغم من مناقضته لرأيه • (٤) ويبدو ان الحكومة البريطانية كانت تميل الى رأي نكسون في الزحف العاجل على بغداد ، يحدوها الى ذلك ما كانت تعانيه جيوشها في الدردنيل وفرنسا من هزائم ، فكانت الحكومة البريطانية ترغب أن تنال نصراً باهرا في العراق تعوض به عن تلك الهزائم ، وتراءت بغداد لها كأنها جائزة ذات بريق خلاب يبهر العيون • (٥)

وفي ٢٦ تشرين الاول ١٩١٥ تلقى طونزند من نكسون امرا بالزحف نحو بغداد بعد الاستعداد الكافي له • وفي ٢ تشرين الثاني وقف رئيس الوزارة البريطانية المستر اسكويث في مجلس العموم يقول : « ان قوات الجنرال نكسون على مقربة من بغداد ، ولست أعتقد ان الحرب شهدت في جميع ميادينها مثل هذه السلسلة من العمليات العسكرية التي صممت بعناية ونفذت بذكاء بحيث نأمل منها ان تثمر أعظم نجاح » • (٦)

يخيل لي أن موقف الانكليز والاتراك قبيل معركة سلمان باك يشبه من بعض الوجوه موقف الارنب والسلحفاة في قصة الاطفال المعروفة ، فقد كانت الارنب واثقة كل الثقة من سرعة جريها ولم تكن تتصور ان السلحفاة تستطيع ان تغلبها في السباق بأي حال من الاحوال ، فنامت مطمئنة ، بينما كانت السلحفاة تزحف دائبة نحو هدفها حتى انتهى السباق أخيراً بفوز السلحفاة وفشل الارنب •

الاستعداد للمعركة :

تقع قرية سلمان باك على بعد عشرين كيلو مترا من جنوب بغداد وهي تضم مرقد الصحابي المعروف سلمان الفارسي الذي كان العوام يعتبرونه حلاق النبي ويطلقون عليه لقب « پاك » أي الطاهر •

---

(٤) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ١٨٠ ــ ١٨١ •

(5) Arnold Wilson (Loyalties — Mesapotamia) — London 1936 — vol. 1, p. 82.

(6) Ibid, vol. 1, p. 83.

كان القائد التركي نور الدين بك قد اتخذ خطوطه الدفاعية في موضع قريب من طاق كسرى الى الجنوب من قرية سلمان باك ، وهو انما اختار هذا الموضع لانه مليء بالاطلال والروابي التي هي من بقايا مدينة «المدائن» الساسانية القديمة ، وهذه الروابي تصلح لأن يتحصن الجنود خلفها فيصعب على العدو التغلب عليها • وكان للنهر في غرب تلك الروابي عطفة كأنها زاوية حادة تحمي الجنود من ورائهم • أضف الى ذلك ان الموضع يسهل تموينه لقربه من بغداد كما يسهل وصول الامدادات القادمة اليه من الاناضول •

والواقع ان نورالدين بك كان قد اهتم بتحصين هذا الموضع منذ تسلمه القيادة في بغداد قبل بضعة أشهر ، وكان قد أوعز بتشكيل لجنة من الضباط البغداديين المتقاعدين وناط بهم مهمة اعداد وسائل الدفاع فيه، وقد استعان هؤلاء الضباط بالاهالي وبعض الوحدات المحلية ، فتم حفر الخنادق ووضع الاسلاك الشائكة فيه حسب القواعد الفنية • فلما وصلت القوات التركية المنسحبة اليه أخيرا ، على أثر انسحابها من معركة السن ، وجدته مهيأً فاستحكمت فيه •

نشط نورالدين بك في تدريب جنوده وتجديد لباسهم وتنظيم شؤونهم ، وعندما لاحظ كثرة الفارين بينهم أصدر أمره باعدام بضعة أفراد منهم لكى يلقي الرعب في قلوب الآخرين • (٧)

وبينما هو كذلك بدأت النجدات القوية التي أرسلت من الاناضول تصل اليه تدريجاً ، وهي مؤلفة من الجنود الاتراك الذين عرفوا بالبسالة وقوة الصمود وكان على رأسهم خليل بك عم وزير الحربية أنور باشا وهو الذي تولى القيادة بعدئذٍ اثناء حصار الكوت •

وصل خليل بك الى بغداد بالقطار وكان يشكو من ألم في بطنه من جراء التهاب الزائدة الدودية ، فرقد في المستشفى • أما جنوده فقد وصلوا بعده بالاكلاك عن طريق النهر • ونزلوا بالقرب من الكاظمية ، ومن هناك

---

(٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ج ١ ص ٩٦ ـ ٩٧ •

ساروا مشياً على الاقدام الى سلمان باك • حدثني أحد المسنين من أهل الكاظمية وهو من الذين شاهدوا وصولهم اليها فقال : ان منادي الحكومة الحاج هادي الخوجة أخذ ينادي في أسواق الكاظمية يطلب من الاهالي الخروج الى النهر لاستقبال القوات التركية القادمة ، ولما خرج الناس وجدوا الاكلاك تملأ النهر بشكل يثير الدهشة لكثرتها وهي مليئة بالجنود ، ثم نزل الجنود منها وأخذوا يسيرون صفوفاً خلال البساتين تتقدمهم الموسيقى بأنغامها المشجية • فارتفعت أصوات الناس بالهتاف كما ارتفعت زغردة النساء تحميساً لهم •

وطبع الاتراك في احدى مطابع بغداد منشورات باللغات الهندية بغية نشرها خلسة بين الجنود المسلمين في القوات الانكليزية • فكانت تلك المنشورات تحرض اولئك الجنود على الفرار من صفوف « الكفار » وعلى الانضمام الى صفوف العثمانيين اخوانهم في الدين ، وذكرت لهم اسم الصحابي سلمان باك وأنه مدفون في نفس الموضع الذي جاءوا للقتال فيه •

ويبدو ان هذه المنشورات أثرت في بعض الجنود بعض التأثير ، فقد أطلق أحدهم النار على حارسه وفر هاربا • واضطر طونزند أن يعيد الى العمارة فوج البنجابيين العشرين مخافة أن يفعلوا مثلما فعل هذا الجندي ، وأحل محلهم فوجاً آخر كان قد أرسل اليه من العمارة ، ولم يكتف طونزند بذلك بل أصدر أوامر مشددة منع بها ذكر اسم « سلمان باك » بين الجنود ، وامر ايضا بتبديل جميع الخرائط العسكرية حيث حذف منها اسم « سلمان باك » ووضع بدلاً عنه الاسم الفارسي القديم « طيسفون » • (٨)

معركة سلمان باك :

بدأ القتال في سلمان باك في ٢٢ تشرين الثاني ، فكان قتالاً ضارياً طاحناً يشبه المجزرة • وصف ويلسون قتال اليوم الاول من الجانب الانكليزي فقال : انه كان مذبحة رهيبة حيث اشتبك فيها جنود الفريقين

(8) Ronald Millar (kut) — London 1969 — p. 15.

يداً بيد حتى النهاية ، وشـوهدت جثث القتلى من البريطانيين والهنـود مختلطة بجثث الاتراك ، وكل من سار في المقدمة ظل بلا طعام ، وكـان الجرحى كثيرين والترتيبات الصحية سيئة على العادة ، وكانت نسبة القتلى بين الضباط عالية ، لذلك تعسر الضبط والربط وصعبت السيطرة • وجاءت الليلة التالية فكانت ليلة ليلاء أطبق على الجميع فيها أسى وشقاء ، فلقـد جُمع الجرحى ووضعوا في عربات لا نوابض لعجلاتها تجرها البغـال ، وكانت تتعالى منهم الصرخات من جراء سيرها على الارض الوعرة فتبعث الرعب في قلوب زملائهم الباقين ، وكثير منهم كان يعاني من ظمأ دام طوال اليوم ، وكان برد الليل ينفذ الى عظامهم فيثير ألماً على ألم • ان مستشفيات الميدان الاربع كانت تقوم على تقديم الخدمة الطبية لاربعمائة جريح ، لكنها قامت على خدمة أربعة أضعاف ذلك العدد في ذلك اليوم عينه • وقـد شـُغلنا طوال يومين في نقل الضحايا الى البواخر الراسية ، فحشروا علـى ظهورها كما يحشر القطيع ••• (٩)

لا حاجة بنا الى القول ان الاتراك كانوا يعانون من الشقاء أشـد مما عاناه الانكليز ، فاذا كانت التدابير التموينية والصحية عنـد الانكليز سيئة حسبما وصفه ويلسون فلابد أن تكون عند الاتراك أسوأ أضعافاً • ولكن الذي خفف الامر على الاتراك هو أن بغداد كانت قريبة منهم ، وان الكثير من خاناتها ودورها الكبيرة قد حجزت لتكون مستشفيات للجرحى، وانبرى الكثيرون من أهل بغـداد لنقـل الجرحى ومسـاعدتهم بدافـع النخوة ، كما انهالت التبرعات عليهم من بعض الاثرياء والاسر المعروفـة • ذكرت جريدة « صدى الاسلام » في عددها الصادر في ١٩ محرم ١٣٣٤ هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٥ م ـ تقول : ان الاسبوع الماضي كان مـن الايام المشهورة في حماس الاهلين لمساعدة الجرحى وتأمين حاجاتهم مـن ملبوس ومأكول ومشروب • ثم نشرت الجريدة في عدد لاحق أسماء بعض المتبرعين للجرحى : فعقيلة الميرلوا مظهر باشا تبرعت بخمسمائة قرش ، كما تبرع آل الباچچي بمقادير من الخبز والجبن والخيار ، وتبرع ألبير أفندي

(9) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 85—86.

بكمية وافرة من البقسماط ، وقدمت سيدتان من آل الباچچي قرشين لكل جريح يداً بيد .

دام القتال في سلمان باك ثلاثة أيام ، وكان النصر في اليوم الاول في جانب الانكليز حيث اضطر الاتراك فيه الى الانسحاب نحو خطوطهم الدفاعية الثانية ، ولكن الاتراك أعادوا الكرة في اليوم الثاني فاستعادوا خطوطهم الاولى . وقد اشتد القتال في اليوم الثالث فكان سجالاً اذ لم يحصل الفريقان منه الا على زيادة في عدد الضحايا . ووصل الحال بالقائدين الانكليزي والتركي في ذلك اليوم الى حد ان كلاً منهما كان يائساً من الانتصار وكان على وشك الايعاز الى قواته بالانسحاب من المعركة .

وفي منتصف الليل ورد الى نورالدين بك خبر غير صحيح مفاده أن الانكليز أرسلوا قوة باتجاه نهر ديالى للاحاطة بقواته ، فصدق نورالدين بك بالخبر وانتابه اضطراب شديد بحيث أصدر اوامره الى قواته بالانسحاب نحو ديالى . وفي الساعة الرابعة من فجر اليوم التالي بدأت القوات التركية تنسحب فعلاً . ولكن نور الدين استدرك الامر بسرعة حالما تبين له عدم صحة الخبر ، فأمر القطعات المنسحبة بالعودة الى مواقعها الاصلية .

وهنا لعب القدر لعبته على نحو ما فعل بالشعيبة ولكن في الجانب المضاد، ذلك أن طونزند حين أعلمته الطائرات بحركة القطعات التركية العائدة الى مواقعها ظن أنها نجدات جديدة وصلت الى الاتراك ، فقرر تقديم وقت انسحابه الذي كان قد قرره من قبل . [(١٠)]

يدعي خليل بك في حديث أدلى به بعد مدة أن الفضل الاكبر في انتصار الاتراك في المعركة يعود اليه وحده ، ذلك أنه عندما كان طريح الفراش في المستشفى ببغداد علم بأن نور الدين بك قرر الانسحاب الى ما وراء ديالى ، فنهض من الفراش متحاملاً على نفسه وذهب الى نورالدين يكلمه بشدة في وجوب الصمود وعدم الانسحاب . ويضيف خليل بك

---

(١٠) شكري محمود نديم (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

الى ذلك قائلاً : ان نورالدين كان في ذلك الوقت ـ كشأنه في كل وقت ـ متردداً ، ولولا كلامه القوي معه لما قرر الصمود ومواصلة الهجوم . [11]

مهما كان الحال فان معركة سلمان باك تشبه معركة الشعيبة من حيث ان النصر فيها كان معلقاً على شعرة ، وقد ذهب الجنرال طونزند ضحية لتلك الشعرة كمثل ما ذهب سليمان عسكري بك قبله .

أكاد اعتقد ان طونزند كان من أقدر القواد وأغزرهم علماً ولكنه ظهر في ظروف لم تكن من صنعه فأساءت اليه وحطت من قيمته ، فلو كان هذا الرجل يقود فرقتين بدلا من فرقة واحدة لكان في مقدوره الانتصار على الاتراك بسهولة ، ولربما دخل بغداد فاتحاً حيث ينصب له فيها تمثال بدلا من تمثال مود الذي نصب اخيراً . ولكن القدر له أحكامه !

لعلني لا أغالي اذ قلت ان كثيرا من أحداث التاريخ الكبرى هي من طراز معركة سلمان باك أو معركة الشعيبة اذ يتوقف مصيرها على قوة أعصاب رجل واحد ، أو حدوث صدفة مفاجئة ، أو غير ذلك من الامور التي قد تكون تافهة في حد ذاتها ولكنها هائلة في عواقبها .

الانسحاب الى الكوت :

يروي برادون أن طونزند حين قرر الانسحاب أمر خادمه « بوغيز » بأن يعد له مائدة الطعام عند طاق كسرى ، فأسرع الخادم الى العجلة الخاصة بالقائد فتناول منها المائدة السفرية مع الكرسي الخاص بها ، ونصبهما في ظل الطاق ، وأعد الطعام المؤلف من اللحم المعلب وقارورة ماء فيشي ، ثم وقف قريبا من طونزند ينتظر فراغه من الاكل . [12]

لست أدري لماذا فعل طونزند ذلك . وربما كان ذلك من نزوات العبقرية فيه حيث أراد أن يتمتع بالاكل تحت ظل أثر تاريخي مشهور ، وكأنه كان يستوحي منه شيئاً من عبر التاريخ ! .

شرعت القوات الانكليزية بالانسحاب من مواقعها في سلمان باك

---

(11) Sandes (In Kut and Captivity) — London 1920 — p. 89—90.
(12) Russell Braddon (op. cit.) — p. 100.

في الساعة السابعة والنصف من مساء ٢٥ تشرين الثاني مستفيدة من ظلام الليل • والغريب ان الاتراك لم يعلموا بالانسحاب الا في الصباح التالي، فقد جاءهم آنذاك بعض الخيالة العشائريين وهم يحملون معهم الكثير من البنادق الانكليزية وقالوا انهم وجدوها مطروحة في الخنادق الى جانب القتلى • [١٣] وعند هذا أصدر نورالدين بك أمره الى قواته بمطاردة القوات الانكليزية المنسحبة •

ظلت القوات الانكليزية تواصل انسحابها باتجاه الكوت طيلة ثمانية أيام ، وكانت القوات التركية تطاردها من ورائها مطاردة عنيفة لا هوادة فيها • ولم يقع في تلك الايام الثمانية ما يستحق الذكر سوى ما جرى في موضع يسمى « أم الطبول » يقع على بعد سبعة أميال جنوب العزيزية •[١٤]

والواقع ان الذي حدث في ذلك الموضع يعد أمراً عجيباً ليس له مثيل في الحروب الحديثة ، [١٥] وهو يدل على ما لدى طونزند من مهارة عسكرية • وخلاصة الحادث ان القوات الانكليزية كانت قد خيمت في أم الطبول في مساء ٣٠ تشرين الثاني بغية الاستراحة بعد مسيرة شاقة ، وعلى أثر ذلك جاءت القوات التركية فخيمت على بعد ميل واحد منها وهي لا تدري أنها على تلك المسافة القصيرة من مخيم القوات الانكليزية • يقول تحسين العسكري في مذكراته : ان نور الدين بك نصب صيوانه في مقدمة جيشه خلافاً للقواعد الحربية وعلق فوقه المصابيح الملونة اشارة الى انه مقر القيادة العامة ، ثم نام في الصيوان نومة هنيئة بكل ارتياح•[١٦]

أما طوتزند فلم ينم تلك الليلة بل جمع ضباطه وعبأ قواته وأعد مدافعه ومراكبه استعدادا لمباغتة المخيم التركي بالقصف الشديد حالما ينبلج نور الصباح • ولم يكد ينبلج النور في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين

---

(١٣) تحسين العسكري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٠٠ •

(١٤) يوجد في العراق موضعان باسم « أم الطبول » أحدهما يقع في غرب بغداد والآخر هو هذا الذي يقع في جنوب العزيزية •

(15) Ronald Miller (op. cit.) — p. 49.

(١٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٠١ ـ ١٠٢ •

حتى انطلقت القنابل مرة واحدة على المخيم التركي من المدافع البرية والنهرية معاً فأثارت فيه غباراً هائلاً ، وتساقطت الخيم كما انطلقت الخيول راكضة في كل اتجاه ، وسقط المئات من الجرحى والقتلى . [17] وكان من بين القتلى قائد الفيلق الثامن عشر ، ومن بين الجرحى اثنان من قواد الفرق . [18] واستيقظ نور الدين بك من نومه مذعورا فشاهد قواته فلولاً تتقهقر بصورة مريبة تاركة مدافعها . [19] ومن الممكن القول ان طونزند لو كانت لديه القوات الكافية لتمكن من مواصلة هجومه وأسر القوات التركية كلها أو قسم كبير منها .

بعد انتهاء معركة أم الطبول أمر طونزند قواته بمواصلة الانسحاب نحو الكوت . وفي ٢ كانون الاول وصلت القوات الانكليزية الى مقربة من الكوت ، فأبرق طونزند من هناك الى نكسون في البصرة يخبره بأن قواته منهوكة جدا وأنه لذلك قرر التوقف في الكوت فأجابه نكسون بالموافقة على ما يرتأيه حسب مقتضيات الموقف العسكري لديه .

يعتبر توقف طونزند في الكوت من الاخطاء الكبرى التي تورط بها هذا القائد في حياته العسكرية ، وهذا دليل على أن الانسان مهما كان حاذقاً فلا بد من وقوعه في الخطأ في بعض الاحيان .

ان الكوت تقع في داخل منعطف من منعطفات دجلة تشبه حدوة الحصان حيث يحيط بها الماء من نواحي ثلاث ، ويبلغ عرض المنعطف ميلاً واحداً وطوله ميلان . وهي بذلك يسهل تطويقها وتضييق الخناق عليها ، فاذا أغلق العدو فتحة المنعطف بالخنادق والاسلاك الشائكة أصبحت قوات الكوت فيما يشبه المصيدة كأنها جرذي

كان طونزند مستهيناً بقوة الاتراك وواثقاً من التغلب عليهم بعد وصول النجدات اليه ، فلا داعي للقلق في نظره اذن . وكان طونزند بالاضافة الى ذلك يعتبر الكوت ذات موقع سوقي مهم اذ هي تسيطر على

---

(17) Sandes (op. cit.) — p. 97—98.

(18) Ronald Millar (op. cit.) — p. 52.

(١٩) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٠٢ .

مدخل نهر الغراف فاذا انسحبت القوات الانكليزية منها فانه يخشى أن يتمكن الاتراك من تهديد الناصرية والبصرة عن طريق ذلك النهر •

اقترح آمر موقع الكوت الجنرال رمينجتن أن يكون توقف القوات الانكليزية في موضع السن الذي يقع على بعد سبعة أميال جنوب الكوت، فرفض طونزند الاخذ بهذا الاقتراح • وقد أثبتت الايام بعد نظر هذا القائد النابه • [٢٠]

المارشال غولتز :

في ٢٣ ايلول ١٩١٥ عينت الحكومة التركية القائد الالماني فون در غولتز قائدا عاما للجيش السادس الذي يشمل مجاله العراق وايران ، وكان هذا القائد يومذاك في الثانية والسبعين من عمره برتبة « فيلد مارشال » ، ويعتبر من عظماء القواد في أوربا •

وصل المارشال غولتز الى بغداد في ٦ كانون الاول ١٩١٥ وكان بصحبته ثلاثون ضابطاً ألمانياً ، فجرى له استقبال فخم ، واصطف تلاميذ المدارس الرسمية يحيونه ، وخصصت لسكناه دار القنصلية الانكليزية الواقعة على النهر • وقد صارت له شهرة في بغداد حيث أطلق عليه العامة اسم « قليچ باشا » ، وقيل انه كان لوطياً ويتناقل البغداديون في ذلك حكايات لا يستحسن ذكرها •

وضعت تحت تصرف غولتز سيارة خاصة ، وقد سافر بها الى جبهة الكوت لدراسة الموقف العسكري فيها ، فالتقى هناك بالقائد التركي نور الدين بك ، ووقع بينهما خلاف في الرأي حول الخطة العسكرية التي يجب اتباعها في تلك الجبهة • فقد كان نور الدين يرى وجوب مهاجمة الكوت واحتلالها لكي يتفرغ بعدئذٍ لمواجهة حملة الانقاذ الانكليزية المتوقع قدومها من البصرة قريباً ، أما غولتز فكان رأيه أن لا جدوى من مهاجمة الكوت بل ينبغي تطويقها وتشديد الحصار عليها حتى تستسلم تحت وطأة الجوع •

---

(٢٠) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٧٤ •

عاد غولتز الى بغـــداد ومنها ذهب الى كرمانشاه فوصلها فـــي ٣٠ كانون الاول ، ثم عاد الى بغداد وذهب الى الكوت مرة أخرى . وكـان نورالدين أثناء غياب غولتز قد قام بعدة هجمات على الكوت باءت بالفشل وتكبدت قواته خسائر فادحة . وحين وصل غولتز الى الـكوت للمـرة الثانية وشاهد نتائج الهجمات الفاشلة عليهـا اشـتد الخلاف بينـه وبين نور الـدين .

يقال ان نور الدين كان منذ البداية غير راضي عن تعيين غولتز لقيادة الجيش السادس . وكان اعتراضه قائماً على مبدأ أنه لا يجوز تعيين قائـد غير مسلم لقوات مجاهدة تدعي أنها تقاتل في سبيل الدين . [٢١] وعندما اشتد الخلاف بين القائدين اخيرا قررت القيادة العليا في اسطنبول الاخذ برأي غولتز وأمرت بنقل نور الدين الى جبهة ققفاسيا . وقد غادر نورالدين بغداد بعد منحه وسام الحرب الذهبي مكافأة له على خدماته السابقة ، [٢٢] وحل محله في قيادة الجبهة خليل بك .

اتبع خليل بك خطة غولتز في حصار الكوت ونجح فيهـا نجاحـاً عظيماً . وفي اوائل آذار وصل الأمر من اسطنبول بتعيين خليل بك والياً على بغداد وبترقيته الى رتبة « أمير لواء » ، فصار منذ ذلك الحين يلقـب « باشا » حسبما جرت عليه التقاليد العسكرية التركية . وقد مدحه احد الشعراء في تلك المناسبة بقصيدة كان هذا آخر بيت فيها :

يأتي الخليل على يديه مؤكداً   أرخ (تعود البصرة الفيحاء)[٢٤]

١٣٣٤ هـ

وفي ٩ نيسان ١٩١٦ أصيب غولتز وهو في مقـره ببغـداد بمرض التيفوس ثم مات بعد عشرة ايام . وشاء القدر أن يتم استسلام القـوات الانكليزية في الكوت بعد أيام معدودة من موت غولتز ، فهو لم يتمتـع

---

(٢١) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ــ ص ٧٨ .
(٢٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٢٨٧ .
(٢٣) محمد أمين العمري (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٣٥ ــ ج ١ ص ١١٤ .
(٢٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٩١ .

بمشهد هذا النصر الذي وضع هو خطته • وقد أشاع الناس في بغداد كما هي عادتهم دائماً : أن الاتراك دسوا له السم • (٢٥)

وجرى لجنازة غولتز في بغداد تشييع مهيب ، ودفن بصورة موقتة في موضع على نهر دجلة قرب الباب الشرقي يسمى « السن » وهو الآن تحت امتداد الجسر الحديدي الجديد • (٢٦) وبعد عشرين يوما نقل جثمانه الى اسطنبول • وقد صادف أن وصل الجثمان الى اسطنبول في نفس القطار الذي وصل به طونزند بعد استسلامه في الكوت • وفي ٢٤ حزيران جرى تشييع عسكري فخم لجثمان غولتز ، وتم دفنه في طرابيه • (٢٧)

رُفع خليل باشا للمرة الثانية حيث حل محل المارشال غولتز في قيادة الجيش السادس ، ولعل لصلة القرابة بينه وبين وزير الحربية أثرا في هذا الترفيع السريع • وقد أصبح خليل باشا عندئذٍ السيد المطلق في العراق وجزء كبير من ايران ، وسنرى في فصل قادم مبلغ الغرور الذي سيطر على خليل باشا من جراء ذلك والعواقب التي نتجت عنه •

حركة الجهاد الثانية :

من الجدير بالذكر في صدد النصر العظيم الذي ناله الاتراك في الكوت أنه كان أكبر جدا مما كانوا يتوقعونه ، ولعلهم ما كانوا يتوقعون نصرا على أي حال ، فهم كانوا بعد الهزائم المنكرة التي تتابعت عليهم قبلئذٍ قد سيطر عليهم التشاؤم وفقدوا الامل بأي نصر قريب • وقد بلغ التشاؤم بين الاتراك أقصاه في ايلول وتشرين الاول ١٩١٥ عندما كانت قوات طونزند تزحف نحو الكوت مستهدفة بغداد • يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في مذكراته : ان طيارة انكليزية حلقت في سماء بغداد في ليلة ٢٣ ايلول وأرسلت عمودا شعاعيا أضاء المدينة ، فأدى ذلك في الايام التالية الى توقف المصرف العثماني عن الدفع ، وسقطت الاوراق المالية ، وحمل

---

(25) Barker (op. cit) — p. 282.

(٢٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج ٨ ص ٢٩٢ •

(٢٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) — بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ١١٦ •

التجار بضائعهم وأمتعتهم الى بيوتهم ، وهجر المصطافون ضفاف دجلة ، واقتربت عشائر الدليم وزوبع وشمر طوقة من بغداد ، وفكرت الحكومة بنقل دوائرها ومخازنها الى سامراء ،.ووضعت يدها على الحبوب والاسمان . (٢٨)

ومن طريف ما يذكر في هذا الشأن أن العوام في بغداد انتشرت بينهم أهازيج تهكمية للسخرية بالسلطان رشاد وقواته العسكرية ، كان هذا بعضها :

رشاد يابن البومة عساكرك مهزومة

رشاد يابن الخايبة عساكرك هالسايبة

وفي هذا الوقت العصيب خطر لبعض المسؤولين أن يلجأوا الى دعوة الجهاد مرة أخرى عساها تنفع في الدفاع عن بغداد . انهم كانوا كالغريق يحاول الامساك بأي شيء أملاً بالنجاة . ولكن المسؤولين ارتأوا أن تكون دعوة الجهاد في هذا المرة تحت شعار جديد هو « العلم الحيدري الشريف » .

كانت حركة الجهاد الاولى التي قامت في أواخر عام ١٩١٤ ذات صبغة اسلامية عامة ، أما الآن فقد قررت الحكومة أن تجعلها ذات صبغة شيعية . وأخذت الحكومة تستخدم شتى الوسائل لبث الدعاية للعلم الحيدري في المناطق الشيعية ، وصار دعاتها يتجولون في تلك المناطق قائلين : انه علم لا يغلبه غالب ، وان صاحبه حيدر الكرار انتصر به في جميع الحروب التي خاضها ضد الكفار ، ولابد أن ينتصر العلم الآن أيضاً !

وأرسلت الحكومة محمد فاضل باشا الداغستاني ومعه عدد من الخيالة لمرافقة العلم الحيدري عند نقله الى بغداد . وقد وضعت الحكومة تحت تصرف الداغستاني مبالغ ضخمة من الليرات الذهب بغية توزيعها على العشائر التي يمر بها في طريقه الى النجف . وصار الداغستاني يتنقل من عشيرة الى اخرى في منطقة الفرات الاوسط حيث أعطى كل رئيس

---

(٢٨) من مذكرات الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد السابع ــ السنة الرابعة .

منهم مبلغا من الليرات حسب مكانته وقوة عشيرته •

وأخذت العشائر تتحرك نحو البغيلة الواقعة على دجلة للمشاركة في مقاومة القوات الانكليزية الزاحفة نحو بغداد • وحدثت أثناء ذلك حادثة جديرة بالذكر هنا ، خلاصتها ان بعض عشائر عفج والدغارة وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل رفضوا الذهاب الى الجهاد ، وكانت حجتهم في الرفض أن الداغستاني حرمهم من العطاء بينما هو اعطى غيرهم ، وقال أحد رؤسائهم وهو الحاج حمزة من عشيرة البحاحثة : ان الداغستاني يوزع الاصفر الرنان على عشائر الشامية ونحن حرمنا منه ، فهل نحن أولاد الجارية ؟!• وعندما وصل الخبر الى متصرف الديوانية اهتم بالامر وأرسل اليهم وفدا مؤلفاً من مفتي الديوانية السيد اسماعيل الواعظ ، والقاضي، ومدير التحريرات نوري بك • وذهب الوفد الى مضيف صكب الكريول شيخ عشيرة السعيد حيث كان الرافضون مجتمعين ، وقام المفتي خطيباً فيهم يحاول استرضاءهم اذ قال لهم : ان الحكومة تعتبرهم من حزبها وانصارها ولهذا فهي لم تعطهم شيئاً من المال اعتمادا على اخلاصهم للحكومة وحبهم لها • وذكر المفتي لهم : أن الحكومة فعلت ذلك على منوال ما فعل النبي (صلعم) بالانصار بعد واقعة هوازن حيث حرمهم من الغنائم وأعطاها الى المؤلفة قلوبهم أي الى المسلمين الجدد الذين لم يدخل الايمان الى قلوبهم بغية اجتذابهم الى الايمان • فلما سمع القوم هذا الكلام تحمسوا وأعلنوا انضمامهم الى حركة الجهاد ••• [٢٩]

وفد حكومي :

شكلت الحكومة وفداً من شخصيات محترمة لحضور اخراج العلم الحيدري من موضعه فوق الضريح العلوي في النجف • وقد تألف الوفد من : فؤاد بك الدفتري ، والميرلوا مظهر باشا ، وحكمت بك سليمان ، والقائد عزت باشا ، وقاضي بغداد ، وشكري بك من أعيان الحلة •

وصل الوفد الى النجف في مساء الجمعة ٢٩ تشرين الاول ١٩١٥ ،

---

(٢٩) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) ــ الموصل ١٩٤٨ ــ ص ٤٥٢-٤٥٣•

ونزل في ضيافة السيد محمد حسن الكليدار . وقد احتفى بالوفد اعيان النجف وعلماؤها ، وأقيمت لـــه اجتماعـــات كبيرة ألقيت فيهـــا الخطب والقصــــائد .

حل شهر محرم بعد وصول الوفـــد بأحـــد عشـــر يوماً ، فأصبحت مجالس التعزية الحسينية مجالا لالقاء القصائد المحرضة على الجهاد تحت ظل العلم الحيدري الشريف ، وكان العلم قد أطلق عليه هناك اسم « راية أمير المؤمنين » .

شهدت النجف آنذاك نزاعاً خفياً بين علماء الدين والرؤساء المحليين، فالعلماء أيدوا دعوة الجهاد في هذه المرة كمثل ما أيدوها في المرة السابقة ، وتحمسوا لها ، وأخذوا يستعدون للرحيل مع العلم الحيدري الى جبهـــة القتال ، أما الرؤساء المحليون وأتباعهم من حملة السلاح فكانوا يعـــادون الحكومة وكل حركة تقوم لتأييدها مهما كان لونها ، ولهذا أخذوا يعرقلون دعوة الجهاد ويبثون حولها الدعاية السيئة .

تعين اليوم الخامس من محرم موعدا لاخراج العلم الحيدري مـــن موضعه والرحيل به الى ساحة الجهاد . وخشى الرؤساء أن يفلت الزمـــام من أيديهم فأعلنوا أنهم سينضمون الى حركة الجهاد ولكنهم طلبوا تأجيل موعد الرحيل لمدة اسبوع واحد ، فأجيبوا الى طلبهم .

وفي الثامن من محرم وصل الى النجف خبر مفـــاده ان الســـيد عبود كمونة ، وهو من سدنة المرقد العلوي ، قد ألقت الحكومة القبض عليـــه مع أخيه في حدود ايران . فاتخذ الرؤساء ذلك ذريعة في أيديهم لعرقلـــة الرحيل ، وأخذوا يهيجون العامة ، ثم توجه نفر من حملة السلاح نحو دار الحكومة يريدون الهجوم عليها واطلقوا النار ، وصاروا يسبون العثمانيين ويسبون العلماء معهم . ولكن بعض العقلاء توسطوا في الامر وهدأوا النـــــاس . (٣٠)

تم الاتفاق أخيراً على أن يكون يوم الجمعة ١١ محرم ــ وهو يوافق ١٩ تشرين الثاني ــ موعد اخراج العلم والرحيل به . وقد أعد في هـــذا

---

(٣٠) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

اليوم احتفال عظيم في الصحن الشريف حضره متصرف كربلا حمزة بك ، والشيخ نعمان الاعظمي ، ومفتي النجف السيد ياسين أفندي ، بالاضافة الى أعضاء الوفد ، وانضم اليهم علماء النجف وأعيانها . وامتلأت ساحة الصحن بالجماهير الغفيرة . وجاء حملة السلاح من محلات النجف الاربعة ، وصاروا يمرون من أمام الطارمة وهم شاهرون أسلحتهم يهوسون لنصرة الدين والدولة .

اخراج العلم الحيدري :

نشرت جريدة «صدى الاسلام» سلسلة مقالات وصفت فيها الاحتفال الفخم الذي جرى للعلم الحيدري عند اخراجه من موضعه في النجف وحمله الى الكوفة ، وكانت المقالات مذيلة بتوقيع « الاعظمي » والمظنون أن كاتبها الواعظ المشهور الشيخ نعمان الاعظمي .

يصف الاعظمي نفسه في أول المقالات بأنه سيد من سلالة أهل البيت، وأن شوقه لزيارة أجداده قد ازداد أخيرا فأراد ان يكحل عينه بأثمد مرقد جده وامامه الحسين ، ثم يقول انه بعد أن اتم الزيارة في كربلا قصد النجف ، ولما لاحت له القبة المذهبة فيها ، وشم عبير جده ، نزل ماشياً ولسان حاله يقول :

عجباً لتربتها تداس ولو درى
الماشي بها ما داس مسكاً أذفرا

وحين وصل الى البلدة نزل ضيفاً على السيد هبة الدين الشهرستاني .

ثم يصف الاعظمي كيف جرى اخراج العلم الحيدري في اليوم المحدد له ــ أي في الحادي عشر من محرم ــ فقال : ان السيد محمد حسن الكليدار تقدم في وسط الزحام نحو شباك المرقد المقدس ، وهزه بيده مستأذناً بأخذ العلم منه ليكون أمام جند الرحمان في حرب عباد الصليب ، وعند هذا ألقي في روع الكليدار بوحي الالهام : « أن خذ رايتي لجندي ولا تخف ستعاد بعد الفتوح الى محلها تارة أخرى وانك من الآمنين ، واعلم أنه لا يتخلف عنها الا من نزع حبي وموالاتي من قلبه ، فليبلغ الحاضر الغائب أني بريء ممن يوالي اعداء الله عباد الصليب ، ومن يتولهم

منكم فانه ليس منكم » •

ويقول الاعظمي : ان الكليدار حين صعد لاخذ العلم من فوق الضريح كان كأنه امتطى قبة السماء ، فتناول العلم ، وحله من بنوده ، وأنزله من محله ، فعجت الاصوات بالصراخ داعية جبار الارض والسماوات أن يزلزل الانجليز ويهزمهم • ثم قرأ مفتي النجف السيد ياسين أفندي دعاءاً، وتلاه الكليدار بدعاء آخر ، ثم رفع الكليدار العلم خارجاً به من الباب، وأركع العلم في الباب للسلام فاقشعرت الابدان ، وأغمي على الكثيرين من شدة التأثر • وحين خرج العلم الى الصحن كانت الساحة والاواوين والسطوح مملوءة بالناس حتى خشي عليهم من زهاق الارواح • وارتفعت الاصوات هازجة بقولها :

ربي صلي على المختار   واجعل لنا نصراً على الكفار[31]

أخرج العلم من الصحن نحو السوق الكبير وقد حف به السدنة ، وازدحم حوله وخلفه خلق كثير ، وعج الفضاء بأصوات التهليل والتكبير وطلقات الرصاص ، حتى وصل الى باب البلدة حيث هيأت له عدة عربات من عربات التراموای ، فأركب فيها مع من كان معه من العلماء والاعيان •

كان في صحبة العلم من العلماء : الشيخ فتح الله الاصفهاني ، السيد علي التبريزي ، السيد مصطفى الكاشاني ، الشيخ باقر القمي ، الشيخ محمد حسين القمشئي ، السيد عبدالرزاق الحلو ، المرزا مهدي بن الملا كاظم الخراساني ، السيد علي بن السيد محمد سعيد الحبوبي ، الشيخ عبدالرضا الشيخ مهدي ، السيد محمد علي بحر العلوم ، الشيخ محمد جواد الجواهري ، السيد هبة الدين الشهرستاني ، الشيخ عبدالكريم الجزائري ، الشيخ محمد حسين الجعفري ، الشيخ اسحاق الرشتي ، الشيخ عبدالحسين الجواهري ، الشيخ حسن علي القطيفي ، وغيرهم • وكان معهم عدد من الطلبة ايضاً حيث بلغ مجموعهم مائة وخمسين •

وحينما وصلت العربات الى مقربة من مسجد الكوفة كان في

---

(٣١) جريدة « صدى الاسلام » ـ في اعدادها الصادرة في ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ محرم ١٣٣٤ هـ •

استقبالهم محمد فاضل الداغستاني على رأس الخيالة ، وكذلك استقبلهم جمع حاشد من أهل الكوفة . وعند مشهد النبي يونس الواقع على شاطىء النهر توقف العلم ووقف الى جانبه الداغستاني ، فألقى الشيخ نعمان الاعظمي خطاباً في الجماهير ، ثم تكلم بعده السيد محمد حسن الكليدار وابنه السيد أحمد ، والمتصرف حمزة بك . وبات الجميع ليلتهم تلك في الكوفة .

وفي ضحى اليوم التالي اي يوم السبت ٢٠ تشرين الثاني ، جاء الى الكوفة جمع من النجفيين من أهل محلة العمارة للانضمام الى حركة الجهاد، كما جاء اليها كثير من الخيالة من عشيرة بني حسن . وفي عصر ذلك اليوم توجه الداغستاني ومعه العلماء والمتصرف وحملة السلاح من أهل النجف والكوفة الى مسجد الكوفة ، فوضع العلم تجاه المحراب الذي كان يصلي فيه أمير المؤمنين ، وتلي عندئذٍ دعاء الثغور المأثور عن الامام زين العابدين . (٣٢) وكان لهذا الدعاء أهمية خاصة يومذاك اذ المعروف عن الامام زين العابدين أنه كان يدعو به لنصرة حماة الثغور أي الجيوش الاموية التي كانت تحمى حدود البلاد الاسلامية في زمانه ، وفي هذا اشارة الى وجوب تأييد الدولة العثمانية التي هي حامية الثغور في زماننا ، فهي ليست ألعن من الدولة الاموية على أي حال !

في الطريق الى بغداد :

وصل الى الكوفة السيد محمد بن السيد كاظم اليزدي مع لفيف من أصحابه للانضمام الى موكب العلم بالنيابة عن أبيه . وفي صباح الاحد ٢١ تشرين الثاني ركب الجميع في سفن شراعية أعدت لهم بلغ عددها ثلاثين سفينة ، فتحركت بهم شمالاً نحو قرية الكفل . ويقول الشيخ محمد رضا الشبيبي تعليقاً على ذلك : ان المجاهدين في المرة الاولى تحركوا في السفن نحو الجنوب ، أما في هذه المرة فقد تحركوا نحو الشمال ، « فسبحان مقلب الاحوال » . (٣٣)

---

(٣٢) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(٣٣) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

وعندما وصلوا الكفل خيموا على الضفة الشرقية من النهر . وفي منتصف الليل جاءت جموع من النجفيين للالتحاق بهم وكانت من محلات النجف الثلاث الاخرى أي المشراق والبراق والحويش . وفي صباح اليوم التالي تحركت بهم السفن نحو طويريج فوصلوها قبل الغروب بساعة، وهناك أنزلوا العلم الحيدري وساروا به نحو رحبة دار الحكومة ، فألقى الشيخ نعمان الاعظمي كلمة في الجماهير المحتشدة . وبعد قليل وصل الداغستاني الى طويريج عن طريق البر ومعه ٢٥٠ خيالاً من بني حسن .

باتوا ليلتهم تلك في طويريج ، وفي الصباح أقيم احتفال عظيم حيث نصب منبر في رحبة دار الحكومة ، وصعد عليه الشيخ فتح الله الاصفهاني فألقى موعظة حسنة وتكلم في تقصير الناس وانقطاع أعذارهم، ثم صعد المنبر بعده السيد محمد ابن السيد كاظم اليزدي وأخذ يخطب باسم والده في الحض على الجهاد ، ثم قال : « أدعوكم فنادوني لبيك » ، فهتف الناس من كل جانب « لبيك .. لبيك » ، وكان لخطابه تأثير بليغ .

وفي صباح اليوم التالي ــ وهو يوم الاربعاء ٢٤ تشرين الثاني ــ غادروا طويريج بالسفن متوجهين نحو سدة الهندية . ولم يكادوا يبتعدون عن البلدة حتى بدأوا يسمعون هدير المدافع آتياً من ناحية سلمان باك ، فقد كانت المعركة هناك في يومها الثالث ، وكان مصيرها معلقاً على شعره كما أشرنا اليه سابقاً .

وصلوا السدة قبل الغروب بساعتين ، فانبهروا مما شاهدوا فيها من روعة الانجازالهندسي ، وألقي في روعهم أنهم يعجزون عن مغالبة الايدي التي انجزت هذا العمل العظيم . ومن مفارقات القدر أنهم بينما كانوا واقفين امام السدة مبهورين بها وصلهم نبأ عن هزيمة الانكليز في سلمان باك .

وفي يوم الخميس تحركوا نحو المسيب ، فوصلوها عصرا . وكان أهل البلدة قد أغلقوا دكاكينهم وتجمعوا على ضفة النهر لاستقبال العلم الحيدري ومن معه من العلماء . وفي عصر يوم الجمعة فرش للناس على الضفة الشرقية من النهر ، ونهض الشيخ محمد جواد الجواهري يخطب في الناس فقال : « ان صاحب هذا العلم فتح البصرة أولاً ، واننا سنفتحها

بعلمه في الاخير » • ثم نهض بعده السيد محمد اليزدي فخطب يقول : «قد اتفقت لاهل العراق نعمة لم تتفق لاهل أي بلاد أخرى ، ولكنها نعمة مجهولة القدر في ظهرانيهم ، ألا وهي شرف الدفاع ، فاين المدافعون ؟؟ » •

مكث القوم في المسيب أربعة ايام وقد وصلتهم أثناء ذلك أنباء أخرى عن انتصار الجيش العثماني في سلمان باك • ففي برقية من القائد نور الدين بك جاء ما نصه : « نهب مجاهدو العشائر معسكر الانكليز العام ، واغتنم المجاهدون أسلحة كثيرة ومهمات وفيرة ، وأخذ العدو يرجع متقهقرا ومندحرا ومغلوبا في استقامة الجزيرة على جانبي دجلة ، ولا زال جيشنا يداوم على تعقيبه بكمال الموفقية » • وفي برقية أخرى طلب نور الدين من الداغستاني أن يسرع هو والخيالة الذين معه الى ناحية الجزيرة ــ أي الصويرة ــ للهجوم على العدو المتقهقر وكبس البغيلة •

في بغداد والكوت :

نشرت جريدة « صدى الاسلام » في ٢٠ محرم ١٣٣٤ هـ ــ الموافق ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٥ م ــ برنامج استقبال العلم الحيدري الشريف وهيئة علماء النجف الكرام • وفي عصر اليوم التالي وصل الى بغداد العلماء ومعهم العلم بالعربات التي تجرها الخيول ، فجرى لهم استقبال عظيم جداً حسب البرنامج الذي نشرته الجريدة اشترك فيه الاهالي والحكومة معاً • وسار العلماء يتقدمهم العلم نحو مشرعة « النواب » في جانب الكرخ • ولما كان الجسر قد غرق منذ فيضان العام الماضي فقد ركب العلماء الزوارق والعبارات ، وعبروا النهر الى المشرعة المقابلة التي تقع بجوار الاعدادية العسكرية ــ وهي دار المحاكم الآن ــ وكان في انتظارهم هناك جوق الموسيقى العسكرية وفئة من الدرك والجنود للتحية • فساروا والموسيقى تصدح أمامهم حتى دخلوا القشلة بين هتاف الجماهير وهوساتهم • ونزل معاون الوالي شفيق بك فتقدم نحو العلم ولثمه ثم لثمه الناس من بعده ، وألقى أحمد الشيخ داود دعاءاً أمن عليه الحاضرون ، ثم ألقى شفيق بك خطاباً بالتركية قال فيه : « ان هذا العلم الشريف لم يخرج من النجف ولم يكد يتقدم حتى تأخر العدو وفشل في هجومه الكبير على

سلمان باك ، ولم تكد تقع عليه عيني الآن حتى تناولت برقية من القائد العام هذه الساعة تشعر بوجوب تسريع عمال الكوت ومستخدميها » •
ثم قام أحد كتاب الفرس اسمه « ميرزا علي » فألقى قصيدة فارسية بالمناسبة • وعند انتهاء الاحتفال عاد العلماء الى الكرخ وركبوا عربات الترامواي الى الكاظمية ، وقد استقبلوا في الكاظمية استقبالاً عظيماً ، وأودع العلم عند مرقد الجوادين •

وفي عصر يوم الجمعة ٣ كانون الاول خرج العلماء من الكاظمية لزيارة الاعظمية بدعوة من أعيانها وعلمائها ، فدخلوا جامع الامام أبي حنيفة ، وتلا هنالك الشيخ محمد جواد الجواهري دعاءاً • وخرجوا بعدئذ الى ساحة الجامع ، فتلا الشيخ رؤوف مدرس الاعظمية دعاءاً آخر ، ثم ألقى الشيخ نعمان الاعظمي خطاباً في اتحاد كلمة الطوائف الاسلامية ، ولا سيما السنة والشيعة • وأعقبه احد تلاميذ مدرسة « الاخوة » في الكاظمية فألقى خطبة بالتركية • ثم ذهب الجميع الى دار متولي الاعظمية السيد عبدالباقي لشرب الشاي • ويعلق الشيخ محمد رضا الشبيبي على ذلك قائلا : « ولقد كانت زيارة أعلام الشيعة هذه للاعظمية وانبراؤهم فيها لتأليف القلوب أول زيارة في التاريخ وقعت من نوعها بين الفريقين ، وقد حفظ لهم الاعظميون هذه اليد وشكروهم على تشريف الاعظمية » • (٣٤)

وفي ٥ كانون الاول ذكرت جريدة « صدى الاسلام » : ان السيد هبة الدين الشهرستاني زار ادارتها وأهدى لها بيتين من الشعر هذا نصهما:

لنور الدين باشا نور فكر
سيجلي من سناه كل غمة
يريد المشركون ليطفئوه
ويأبى الله الا أن يتمه (٣٥)

وفي منتصف الشهر نفسه وصلت انباء مقلقة حول توغل القوات الروسية في ايران وزحفها باتجاه الحدود العراقية ، ووردت ايضا برقيات

---

(٣٤) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(٣٥) جريدة « صدى الاسلام » ـ في عددها الصادر في ٢٧ محرم ١٣٣٤ هـ .

من بعض الايرانيين الى علماء النجف يستغيثون بهم في هذا الامر . وفي ١٨ منه وصل الكاظمية متصرف كربلا حمزة بك لمحادثة العلماء في موضوع الذهاب الى ايران لتحريض الناس هناك على الجهاد . وقد أرسلت الحكومة جنودا وذخائر كثيرة الى الحدود الايرانية .

وفي أوائل شباط ١٩١٦ وردت الى معاون الوالي ببغداد برقية من خليل بك ، الذي حل محل نور الدين بك في القيادة العامة ، يطلب فيها ذهاب علماء النجف اليه في جبهة الكوت لمباحثتهم في شؤون ايران. فأعدت الباخرة « برهانية » لنقل العلماء الى هنالك . وفي ١٤ شباط تحركت الباخرة بهم من بغداد فوصلت الى مقر القائد العام في عصر ١٦ منه . ثم نشرت جريدة «صلاى الاسلام» برقية كان السيد هبة الدين الشهرستاني قد أرسلها من مقر القائد العام في الكوت هذا نصها :

« في ثالث شباط[٣٦] بالعلم الحيدري الشريف مع الوفد العلمي النجفي زرنا معسكر الاسلام المحيط بالكوت فشكرنا من صميم القلب شجاعة عسكرنا الابطال ومفاداتهم في استرجاع أراضينا المغصوبة وبهم قائدهم الغيور البطل الجسور نادرة الايام حضرة خليل بك القائد العام . ومعاً نقول ان الهيئة العسكرية لم تكن حتى اليوم في العراق بهذا الانتظام والترتيب مستحضرة للقوى التمنعية حسب القانون الالهي : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . فالمنتظر سرعة محو الاعداء بعون الله تعالى » .

مكث العلماء في جبهة الكوت بضعة عشر يوماً ، وفي خلال ذلك ازداد وصول الانباء المقلقة من ايران ، حيث استطاعت القوات الروسية احتلال كرمانشاه والاقتراب من خانقين. فاضطربت بغداد اضطراباً شديداً، وهبطت قيمة النقود الورقية العثمانية ، وامتنع الصيارفة عن أخذها ، ونشر القائد الاعلى المارشال غولتز بياناً يطمن فيه الصيارفة ويرفع عنهم التكليف بقبولها على كل حال .

وفي أوائل آذار غادر العلماء جبهة الكوت ، فمنهم من عاد الى

---

(٣٦) ان هذا التاريخ هو حسب التقويم الشرقي وهو يقل عن التقويم الغربي بثلاثة عشر يوما كما هو معروف .

الكاظمية ، ومنهم من ذهب عن طريق الغراف الى الشطرة لمعاونة الشيخ خيون العبيد رئيس عشيرة العبودة الذي كان مشغولاً بمحاربة الانكليز هنالك ، وكان على رأس العلماء الذين ذهبوا الى الشطرة السيد علي التبريزي ، كما سنأتي اليه بعد قليل .

بوادر عداء في النجف :

كان حملة السلاح النجفيون الذين جاؤوا مع العلماء الى الكاظمية غير مرتاحين من مجيئهم ، والمظنون انهم لم يلقوا من الحكومة الترحيب أو المعاملة التي كانوا يتوقعونها ، فأخذوا يتسللون من الكاظمية عائدين الى النجف . وفي ١٤ كانون الاول ١٩١٥ كان ثلاثون منهم قد غادروا الكاظمية وساروا باتجاه الفرات الاوسط في طريق غير مطروق فخرج عليهم جماعة من زوبع ونهبوهم أسلحتهم بعدما جرحوا بعضهم .

وعند عودتهم جميعاً الى النجف أصبحت النجف أكثر عداءاً للحكومة مما مضى ، وبدأ النزاع يشتد بين رؤساء المحلات وممثلي الحكومة . وفي شهر كانون الثاني ١٩١٦ ذهب فريق من حملة السلاح الى مقابر أهل السنة التي تقع خارج السور بجوار السكة فهدموا القباب والحيطان فيها وحرثوا أرضها وشرعوا يقيمون فيها بعض الابنية ، وكانت حجتهم في ذلك ان القائمقام السابق حقي بهيج بك فعل مثل ذلك بمقابر الشيعة عندما شيد المدرسة .

وفي ١٦ منه وصل الى النجف خبر مفاده ان حكومة بغداد أرسلت قوة كبيرة للانتقام من أهل النجف ولكن القوة أصيبت في الطريق بكارثة ، وان أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي فعل ذلك بها بكرامة منه حماية لأهل بلدته . فأمر رؤساء المحلات بتنوير البلدة احتفالاً بهذه الكرامة الحيدرية، وخرج حملة السلاح يطلقون الرصاص، وهاجموا دار الحكومة، وجرحوا بعض أفراد من الدرك ، وشتموا الموظفين كما أعلنوا سب رجال لا يصح سبهم .

وفي ٢١ شباط نادى المنادي في النجف بأمر من رؤساء المحلات أنه يجب على كل نجفي أن يقتني السلاح ، ومن لا يقدر على ذلك يجب على

أقربائه أن يساعدوه في شراء السلاح ، والا حقت عليه وعليهم العقوبة .
وأخذ الرؤساء يشتدون في فرض الضرائب على الصادرات والواردات حيث فرضوا على كل رزمة تدخل النجف أو تخرج منها خمسة قروش صاغ ، وعلى كل حمل ربع ذلك .

وكان وكيل القائمقام قد أوعز قبل هـذا بالصاق بعض المنشورات على جدران البلدة للتنويه بالانتصارات التي نالتها القوات العثمانية في الكوت ، فجاء المسلحون وأخذوا يستهزئون بها ثم مزقوها .

وفي ٣ آذار وردت الى السيد كاظم اليزدي برقية من القائد العام خليل باشا يشكر فيها علماء النجف ويرجو أن يقتدي بهم سائر النجفيين. وبعد يومين من وصول البرقية استدعى اليزدي رؤساء المحلات للاجتماع اليه في مدرسته ، وعندما اجتمعوا في المدرسة قرأ عليهم السيد محمد حسن الكليدار برقية القائد العام ، ثم تكلم اليزدي طالباً منهم العودة الى طاعة الحكومة ووعدهم باستحصال العفو عنهم ان هم فعلوا ذلك .

وفي ١٦ تموز وصل الى النجف رجلان من البكتاشية كان أحدهما الطبيب المشهور مظفر بك ، واجتمعا برؤساء المحلات في دار الكليدار غير مرة وأقنعاهم أن يتركوا جباية الضرائب للحكومة لأن الضرائب من شأن الحكومة وحدها . فوافق الرؤساء على ذلك بشرط أن يصدر عنهم عفو عام من السلطان ويُرفع عنهم التجنيد . وتم الاتفاق على ذلك وحلفوا عليه اليمين في المرقد العلوي . وفي ٢٥ تموز خرج المنادي ينادي في النجف بأن الرؤساء قد تخلوا عن جباية الضرائب ، وعلى الناس أن يدفعوا الضرائب بعد الآن الى جباة الحكومة .(٣٧)

وفاة الداغستاني :

كان محمد فاضل باشا الداغستاني قد عُين أثناء حصار الكوت قائداً للمجاهدين من العشائر بقرار من وزير الحربية أنور باشا .(٣٨) ومن الجدير

---

(٣٧) نقلا عن مذكرات النسبيبي المخطوطة .
(٣٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٩٤ .

بالذكر ان الداغستاني كان رجلاً يليق بتلك الوظيفة الحساسة لما كان يتصف به من شخصية مهيبة ولحية بيضاء وقامة فارعة ، وكان بالاضافة الى ذلك شجاعاً شهماً ومتديناً وله سمعة حميدة في بغداد ونواحيها . انه بعبارة أخرى كان يملك الخصال التي تحببه الى قلوب العشائر والعامة من أهل المدن ، بخلاف غيره من القادة والحكام الاتراك الذين اعتادوا على الظهور أمام العامة بمظهر الكبرياء والتعالي . (٣٩)

وفي ١١ آذار ١٩١٦ بينما كان الداغستاني في جبهة الكوت أدركته الوفاة ، ويقال في سبب وفاته ان الانكليز كانوا قد شنوا هجوماً شديداً على العشائر التي كانت تحت قيادته حيث فاجأوها فجراً باطلاق النار ، فجفلت العشائر وانطلقت هاربة نحو نهر الغراف ، وقد هلك منهم عدد غير قليل غرقاً في النهر مع خيولهم . وعند هذا هب الداغستاني يريد اثارة حمية العشائر للصمود تجاه الهجوم الانكليزي ، فرمى كلاوه على الارض وأخذ يلطم رأسه ، ثم أسرع الى فرسه يريد امتطاءها ، وبينما هو يضع رجله في الركاب سقط ميتاً .

وفي ١٩ آذار نشرت جريدة « صدى الاسلام » بلاغاً صادراً من أنور باشا يذكر فيه نبأ استشهاد الداغستاني ومبلغ خسارة الامة العثمانية به . (٤٠) وكان يوم تشييع جنازته يوماً مشهوداً ببغداد حيث أغلقت الاسواق وظهر الحزن والبكاء على الناس ، وسارت جموع كبيرة من النساء وراء الجنازة وهن يندبن الفقيد قائلات : « وين أبو داود وينه ! » .

ونظم بعض الشعراء قصائد في رثاء الداغستاني كان منهم جميل صدقي الزهاوي وناجي القشطيني وعبدالوهاب النائب . وفيما يلي ننقل

---

(٣٩) كانت دار الداغستاني قرب باب المعظم خلف بناية مصلحة نقل الركاب حاليا ، وكان قد جمع في حديقة داره بعض الحيوانات كالاسود والدببة والقرود والخيول ، وكان يسمح للجمهور بالدخول الى الحديقة عصر كل خميس لمشاهدة الحيوانات ، ولهذا يعد أول مؤسس لحديقة حيوان في العراق .

(٤٠) جريدة « صدى الاسلام » في عددها الصادر في ١٤ جمادى الاولى ١٣٣٤ هـ .

أبياتاً من قصيدة النائب :

ان القبور تباشرت بمحمد الفاضل الندب الكريم الامجد
ذلك الذي بذل الحياة لدينه ويلي عليه وويل كل موحد
قالت ملائكة السماء فأرخوا هذي الجنان الى الشهيد محمد(٤١)
١٣٣٤ هـ

خيون العبيد :

أشرنا من قبل الى أن الشيخ خيون العبيد كان أثناء حصار الكوت مشغولاً بمحاربة الانكليز • ومن الجدير بالذكر هنا ان هذا الرجل تقلب عدة مرات خلال الحرب ، فكان مع الانكليز تارة ومع الاتراك تارة أخرى •

كان خيون قبيل اعلان الحرب معادياً للحكومة التركية ووقعت بينه وبينها معركة ضارية انتهت بانتصاره وغنم فيها غنائم وفيرة ، وقد اضطرت الحكومة من جراء اعلان الحرب أن تعقد الصلح معه ، وأصبح على أثر ذلك الحاكم المسيطر على منطقة الشطرة ، ودخل بلدة الشطرة دخول الفاتحين ، وصارت الشطرة منذ ذلك الحين ملاذاً يلجأ اليه الفارون من الجندية فلا يستطيع رجال الحكومة القاء القبض عليهم •

وفي أواخر تشرين الثاني ١٩١٤ عندما وصلت الى الشطرة أخبار سقوط البصرة بيد الانكليز هجمت العشائر في الشطرة على السراي وثكنة الجند ودور الحكومة وانتهبت ما فيها كما انتزعت البنادق من أيدي الجنود، وقتلت في البلدة نفراً ممن كان يتظاهر بتأييد الحكومة • (٤٢) واضطر القائمقام ومن معه من الموظفين والجنود الى مغادرة الشطرة و هم في حالة يرثى لها لان العشائر كانت قد سلبتهم كل ما يملكون • وقد جمع لهم بعض سراة البلدة مبلغاً من المال يكفيهم لنفقة سفرهم الى بغداد •

كان خيون حينذاك خارج الشطرة في مقاطعة له تدعى « الصديفة » ، فعاد الى الشطرة مسرعاً وكف العشائر عن اطلاق النار خوفاً من تسرب

---

(٤١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٢٣٧ـ٢٣٨ •
(٤٢) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية في عددها الخامس ـ السنة الرابعة •

النهب والفوضى الى بلدة الشطرة نفسها . ثم كتب خيون الى قائد الحملة البريطانية في البصرة يخبره بما جرى . (٤٣)

ولما قامت حركة الجهاد الاولى أرسل السيد محمد سعيد الحبوبي الشيخ عبدالحسين مطر الى خيون يطلب منه القدوم الى الناصرية ، فتوجه خيون مع جمع من أصحابه بصحبة الشيخ عبدالحسين الى الناصرية ، فجرى له هنالك استقبال باهر ، وذهب الحبوبي مع خيون الى دار الحكومة واستحصل له ولأتباعه منها عفواً عاماً . واعلن خيون أنه سينضم الى حركة الجهاد في الشعيبة .

شارك خيون والكثير من عشائر الشطرة في معركة الشعيبة ، وحين حلت الهزيمة بالاتراك في تلك المعركة قام خيون بحماية السيد محمد سعيد الحبوبي عند انسحابه الى الناصرية ، ولولاه لتعرض الحبوبي لنهب العشائر كما جرى لغيره من رجال الدين . وعلى أي حال فقد عاد الكثيرون من عشائر الشطرة الى ديارهم وهم محملون بالغنائم التي نهبوها من الجيش العثماني .

وحين توالت الهزائم على القوات العثمانية بعدئذ فسقطت الناصرية بيد الانكليز ، ثم سقطت الكوت ، ظنت عشائر الشطرة أن النصر النهائي قد تم للانكليز في العراق ، فذهب خيون الى الناصرية لتحية حاكمها السياسي الميجر هاملتون ، وقد استقبله هاملتون بتكريم بالغ وناط به ادارة منطقة الشطرة نيابة عن الحكومة البريطانية ، وأوصاه باسقاط بعض الضرائب والرسوم التي كانت مفروضة على الاهالي سابقاً . (٤٤)

لم تدم هذه الحالة طويلاً ، اذ لم تكد الهزيمة تحل بالانكليز في سلمان باك حتى قلب خيون لهم ظهر المجن ، وكذلك فعل معظم رؤساء الغراف . يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي : انه تلقى رسالة من الشطرة تشير الى ان حالة العشائر في الغراف تبدلت على أثر واقعة المدائن ـ يقصد

---

(٤٣) باقر الشبيبي (تاريخ الشطرة) ـ نقلا عن كتاب عبدالجليل الطاهر (العشائر العراقية) ـ بيروت ١٩٧٢ ـ ص ٣٧٨ .

(٤٤) باقر الشبيبي (المصدر السابق) ـ ص ٣٨٠ .

سلمان باك ــ فتحالفوا على مقاومة الانكليز لو أراد هؤلاء التقدم نحو الشطرة ، ولا سيما خفاجة والعبودة وبني زيد وآل أبي سعد . [٤٥]

وعند هذا منحت الحكومة التركية خيون لقب « بك » وعينته قائمقاماً على قضاء الشطرة ، وخصصت له راتباً شهرياً قدره خمسمائة ليرة ذهب . ونشط خيون من جانبه في جمع العشائر وتعبئتها ضد الانكليز حتى تجمع لديه منها زهاء سبعة عشر الف رجل . وقد ساعده على ذلك أمران : أولهما قدوم المجتهد النجفي الكبير السيد علي التبريزي مع رهط من أصحابه الى الشطرة لحث العشائر على الجهاد ، والثاني مجيء الميرلوا مظهر باشا الى الشطرة وهو يحمل معه مبالغ كبيرة من الليرات الذهب وكمية من الملابس الحريرية فصار يوزعها على رؤساء العشائر على نحو ما فعل الداغستاني في الفرات الاوسط .

وفي أوائل كانون الثاني ١٩١٦ خرجت قوة انكليزية من الناصرية متجهة نحو الغراف ، ويقال انها أرسلت الى رؤساء المنطقة تقول لهم : اننا قادمون فمن لم يكن معنا منكم فليعلن ذلك . فكان جواب الرؤساء : « اننا لا نصير مع الانكليز ما دامت الراية الاسلامية ثابتة مع العثمانيين » . [٤٦]

وحين وصلت القوة الانكليزية الى موضع اسمه « باهيزة » وجدت جماعة من عشيرة خفاجة تسير في تشييع جنازة وهي ناشرة أعلامها وتطلق النار في الهواء كما جرت عليه العادة ، فطلب الانكليز من الخفاجيين أن يطووا أعلامهم ويلقوا أسلحتهم ، فرفض الخفاجيون ذلك ونشب قتال عنيف بينهم وبين الانكليز . وقد كمن الخفاجيون في الانهار ، وأنجدهم قومهم من عشيرتهم والعشائر الاخرى ، وحملوا على الانكليز فهزموهم . وظلت العشائر تتعقبهم حتى الجأتهم الى الاحتماء بأسوار الناصرية .

ان معركة باهيزة هذه قد ثبتت من عزيمة العشائر في الغراف ، ووحدت كلمتهم على مقاومة الانكليز . ومن هنا انطلقت الهوسة المعروفة : « شرناها وعيّت باهيزة » ، أي أنهم استشاروا باهيزة في مرور القوة

---

(٤٥) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(٤٦) المصدر السابق .

الانكليزية فامتنعت .[47]

يبدو ان الانكليز لم يهن عليهم تحدي العشائر لهم في باهيزة ، فأرادوا تلقينها درساً قاسياً . ولهذا خرجت من الناصرية قوة اكبر من الاولى متجهة نحو الشطرة . وكان خيون قد استعد لها ، وأرسلت اليه القيادة التركية من الكوت مائتي صندوق من العتاد الحربي . وفي صباح ٨ شباط كانت القوة الانكليزية قد وصلت الى موضع يقال له « البطنجة » فتصدى لها خيون بقوانه العشائرية ، ونشبت عند ذاك معركة ضارية استمرت طيلة النهار واستعمل فيها السلاح الابيض ، وقد أبدت العشائر فيها بسالة منقطعة النظير حتى اضطرت الانكليز الى الانسحاب .

كتب بعض الذين شاهدوا المعركة عن كثب رسالة الى أحد علماء النجف يصف فيها ما جرى في المعركة بلغة تختلط فيها العامية بالفصحى ، ننقلها فيما يلي بنصها من غير تغيير لاهميتها :

« بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . نبدي اليكم ونبشركم بنصر المسلمين . عندكم معلوم صار شهر جناب الاخ خيون جمع العبودة بأسرهم وكوانيعهم وهم نزول بسويج الطبرية . وعرفناكم سابقاً بالمحاربة التي وقعت والموفقية فيها لخيون . وفي نهار أمس يوم الاثنين ٣ الجاري (ربيع الثاني سنة ٣٤) عند طلوع الشمس وقعت المحاربة بين المسلمين والكافرين في موضع يقال له البطنجة عن مركز الناصرية ثلاث ساعات . وكانت قوة العدو ٦٠٠٠ مع ست طواب سريع العطش وثمان طواب مطر اللوز . ومع ذلك هجم خيون بجميع عشائره ومع خفاجة على الكافر في استحكاماته التي أعدها لحفظ عساكره وكان أمام الاستحكام من أربع جوانبه أرض بسيطة لا فيها نهر ولا ربوة يتستر فيها الانسان عن نيران المدافع والمتراليوز ولكن هذه الليوث الضواري وضعت أيديها على سلاحها وهجمت تلك الهجمة اللطيفة التي أيدت الدين وغسلت عن العرب درن العار الذي تجلببوه . فجعل يقذف عليهم بتلك المدافع بأسرها بوميات ودان والمتراليوز يمطر عليهم وهم يقتلون ويأسرون من الصبح الى مغيب الشمس

---

(٤٧) عبدالجليل الطاهر (المصدر السابق) - ص ٨٦ (الحاشية) .

حتى أدخلوه الناصرية فترك في الارض من قتلاه ما يزيد على ألف قتيل غير الذين حملهم ، ومن خيله أكثر من ٣٠٠ فرساً قتلاً . ونحن والله وقفنا عليهم وهم عراة على وجه الارض وكلهم نصارى غير مطهرين وهم هندو مع سوجر . ومختصراً من البطنجة الى الناصرية نمشي على جثث قتلى من الكافرين . واغتنمنا منه تفك ما يزيد على ٧٥٠٠ ومهمات وذخائر وأباعر وخيل أشياء كثيرة ولله الحمد . واستشهد من المسلمين ما يقرب من ٤٥ نفر الجميع ما عدا المصاويب . والمفقود من أتباع خيون المعروفين عسكر المنجل، والمصيوب كاظم العلي أغا وانشاء الله صوابه سهل . والكافر الآن محاصر بالناصرية . واليوم ٤ ربيع الثاني جناب القائمقام خيون بك كتب رسماً الى قومندان العمومي بالكوت يخبره بالقضية ويطلب منه طواب لاجل أخذ الناصرية . وان شاءالله على طبة الطواب الى الشطرة يصير الهجوم على الناصرية حيث جميع عشائر العراق فازعين ولكن لم يشتركوا جميعاً في هذه المحاربة المقدسة سوى خفاجة والعبودة من الصبح الى الساعة عشرة ، وبالعشرة لحقت الشويلات أصحاب يوسف وعاركوا معهم ، وآل أزيرج لما انكسر العدو متقهقراً عنهم تبعوا المجاهدين في محاربة العدو ، فالشويلات وآل ازيرج العصر طاحوا للعرك ، وأما بنوزيد وآل أبو سعد وقراغول وبني رچاب والطوقية وخويلد وحچام وغيرهم مالحقوا على العرك . يصير معلومكم ونسألكم الدعاء . آه » .(٤٨)

تعد معركة البطنجة أكبر معركة اضطلعت بها العشائر العراقية ضد الانكليز دون مساعدة من القوات التركية النظامية . وقد اعترفت بعض المصادر الانكليزية بما اتصفت به العشائر في تلك المعركة من شدة البأس وقوة الشكيمة والصبر على تحمل الخسائر الفادحة .(٤٩)

أصبح خيون بعد تلك المعركة مطمح الانظار وذا شأن عظيم في المجالين الحكومي والشعبي معاً . وفي شهر نيسان ١٩١٦ قام خيون بجولة في

---

(٤٨) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(49) Thomas (Alarms and Excursions In Arabia) — London 1931 — p. 78 — 79.

الفرات الاوسط على رأس سرية من فرسان عشيرته ، وكانت ترافقته قــوة من الدرك أيضاً . فزار الحلة وكربلا ، وفي ٢٠ نيسان وصــل الى النجف فاستقبل فيها استقبالاً لا مثيل له . يصف الشيخ محمد رضا الشبيبي فخامة الاستقبال الذي جرى لخيون في النجف فيقول : ان النجفيين لــم يفعلوا مثله لأمير أو كبير من قبل . (٥٠) والمظنون ان قصد خيون من زيارته هــذه هو لنصح مدن الفرات الاوسط ، ولا سيما النجف ، بطاعة الحكومة وترك العصيان عليها .

لم يتمتع خيون بمكانته العالية طويلاً ، فلما احتــل الانكليز بغداد في آذار ١٩١٧ ضاقت الارض بخيون وتملكه الخوف منهم ، فجمــع أهــل بيته وعهد اليهم بما عنده وأوصاهم بطاعة الانكليز ، ثم ذهب لاجئاً الــى عبدالله الفالح في أراضي بني ركاب . وقد أراد الانكليز القاء القبض عليه ، لكنهم غيروا رأيهم أخيراً واتبعوا معه سياسة الاغراء والاسترضاء . ونجحوا في ذلك ، لان خيون أصبح منذ ذلك الحين صديقاً مخلصاً لهم وظل كذلك حتى النهاية ، وقد أدى لهم خدمة لا يستهان بها أثناء ثورة العشرين ــ كمــا سنأتي اليه في الجزء القادم من هذا الكتاب .

---

(٥٠) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

الفصل التاسع

حصار الكوت

دام حصار الكوت من أوائل كانون الاول ١٩١٥ الى آخر نيسان ١٩١٦ ، أي حوالي خمسة أشهر كما أشرنا اليه في الفصل الماضي . وقد عانى أهل الكوت وأفراد الحامية الانكليزية معهم في تلك المدة وما بعدها أصنافاً شتى من العذاب ، فهي كانت تجربة قاسية مليئة بالعبر الاجتماعية والنفسية ، ومن الجدير بنا أن نقف هنا لدراستها على شيء من التفصيل.

الجوع بين السكان :

كان عدد سكان الكوت في بداية الحصار ستة آلاف نقريباً . وقد ارتأى طونزند اخراجهم من البلدة لكي يتخلص من مشكلة اعاشتهم ولكن السر برسي كوكس الذي كان موجوداً في الكوت آنذاك حذره من مغبة هذا الاجراء قائلاً : ان اكثر النساء والاطفال سيهلكون في الصحراء من جراء تعرضهم لاعتداء العشائر وللبرد في ليالي الشتاء القارسة . وان ذلك سيحدث تأثيراً دعائياً سيئاً بين العرب الذين جئنا لانقاذهم من مظالم الاتراك . وقد وافق طونزند على رأي كوكس هذا فألغى أمره باخراج أهل الكوت منها واكتفى بطرد الغرباء فقط ، ولكن طونزند ندم على ذلك بعدئذ لانه كان يكره أهل الكوت ويعتبرهم خونة ينقلون أخباره الى العدو ، فهو يقول في مذكراته : « وقد أسفت على الدوام لتساهلي هذا لانني لم أهتم قلامة ظفر بسن يقتل أو يموت في الصحراء من العرب الخائنين لانهم لم يستحقوا ذرة من الرحمة والشفقة ، اما الذين همني أمرهم فكانوا النساء والاولاد لان شأن هؤلاء غير الرجال » .(١)

اختلفت المصادر الانكليزية في تقدير شدة المجاعة التي عاناها أهل الكوت ، فقد ورد في مذكرات طونزند قوله : ان حاكم الكوت العسكري

---

(١) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ـ ترجمة عبدالمسيح وزير ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٣٤٦ .

كان يطعم في كل يوم ستمائة شخص مجاناً لانهم لا يملكون نقودا يبتاعون به طعاما ، وكان كذلك يبيع الحنطة.بأسعار مخفضة الى ثلاثة آلاف شخص آخرين ، وفي الايام الاخيرة من الحصار كان الحاكم العسكري يعطي هؤلاء جساء الفقراء من لحم البغال والحمير . [٢] وقد أيد هذا القول باربر وهو من ضباط حامية الكوت حيث قال ما نصه : « من جراء قيامنا باطعام المئات من سكان البلدة ، وبسخاء لكثير منهم ، فان قليلاً منهم ظهرت عليهم امارات الهزال من الجوع ، وكان الاطفال يبدون على شيء من السمنة ولم يظهر عليهم أنهم كانوا يشكون من شحة الطعام » . [٣]

ولكننا نجد في مذكرات ضابط آخر اسمه موزلي ما يناقض هذا القول ، فهو يقول فيها : ان أهل الكوت يبدو عليهم الهزال والكآبة بشكل مرعب ، وكانوا يموتون بالمئات . وقد دوّن موزلي في مذكراته في يوم ١٣ نيسان قائلاً انه عندما استيقظ في فجر ذلك اليوم كان أول صوت طرق سمعه من الشارع صوت شحاذ يستجدي الصدقة بحب الله ومحمد ، ثم أخذ الاطفال بعدئذٍ يخرجون من بيوتهم زرافات وهم يستجدون الطعام ويصرخون بشكل يدعو الى الشفقة . [٤]

يمكن القول على أي حال ان أهل الكوت لم تستفحل فيهم المجاعة الاّ في المرحلة الاخيرة من الحصار ، أما قبل ذلك فكان الكثير منهم يعيشون على ما ادخروه في بيوتهم من الحبوب والدبس والتمر والاطعمة المجففة ، وكانت السوق السوداء رائجة بينهم يتعاطون فيها البيع والشراء كما يشاؤون ، وكثيرا ما كان بعض ضباط الحامية وجنودها يشاركونهم في تلك السوق ، فيشترون منهم أو يبيعون لهم . وكان بعض الاقوياء من أهل الكوت القادرين على السباحة يعبرون النهر ليلاً بوساطة القرب المنفوخة فيجلبون لاهليهم شيئاً من الطعام . ويقال ان بعضهم اتخذوا عبور النهر وسيلة للكسب اذ كانوا يجلبون الى الكوت بعض المواد التي شحت

---

(٢) المصدر السابق — ص ٣٩٠ ، ٤٨٠ .

(3) Arnold Wilson (Loyalties) — London — 1936 — vol. 1, p. 95.

(4) Mousley (The Sscrets Of A Kuttite) — London 1922 — p. 139.

كالتبغ والشاي فيبيعونها في السوق السوداء ويجنون منها أرباحاً وفيرة ، ولكن ذلك كان مجازفة منهم وقد مات عدد كبير منهم أثناء العبور برصاص الانكليز أو الاتراك •

كان يوم ٢١ كانون الثاني يوم نحس على أهل الكوت ؛ ففيه بدأ التفتيش الدقيق عن الحبوب في كل بيت وكل مكان ، وأخذ الجنود يدخلون البيوت فينقرون الجدران وينبشون الارض ويبحثون في كل الزوايا التي يحتمل وجود الحبوب فيها ، فمن وجدوا عنده كيسين من الحبوب أخذوا واحداً وتركوا الثاني له ، أما من وجدوا عنده كمية كبيرة من الحبوب صادروها كلها • (٥)

وقد أعلنت السلطة العسكرية مكافأة لمن يدلها على مخابيء الحبوب عند الاهالي ، فجاءت الاخباريات اليها تترى • وفي أحد الايام وصلت الى السلطة اخبارية تنبيء عن وجود كمية من الحنطة مخبوءة في أحد البيوت ، فذهب بعض الضباط الى البيت ، وبينما هم يفتشون في احدى الغرف ثقب أحدهم بحربته بارية السقف فانهالت الحنطة من الثقب انهيالاً دلت على وجود كمية كبيرة من الحنطة مخبوءة في السقف • وقد فرح الانكليز بهذه الغنيمة واعتبروها كأنها معجزة نزلت عليهم من السماء •

مشاكل اخرى :

لم ينحصر عذاب أهل الكوت في مشكلة الجوع وحدها بل ابتلوا بمشاكل أخرى زادت من وطأة الجوع عليهم ، نذكر فيما يلي أهمها :

اولا : اتهم طونزند أهل الكوت بأنهم كانوا يتفننون في سرقة مخازن الطعام العسكرية ، ويخبئون بنادقهم انتظاراً لليوم الذي يثورون فيه على الانكليز ، وقد اتخذ طونزند اجراءات شديدة ضدهم ، فأحال اثنى عشر شخصا منهم الى المحكمة العسكرية بتهمة السرقة والاتصال بالعدو ، وحكمت المحكمة باعدامهم رمياً بالرصاص ، كما أمر طونزند باحتجاز عشرين رجلاً من وجهاء البلدة حيث جعلهم رهائن عنده وأعلن أنه

---

(5) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 179.

سيرميهم بالرصاص حالما تبدو من الاهالي أية بادرة تدل على خيانة • [٦]

ثانيا : عانى أهل الكوت مشقة كبرى في الحصول على ماء الشرب ، فهم قد اعتادوا ـ كغيرهم من أهل القرى في العراق ـ أن يستمدوا ماء شربهم من النهر مباشرة وذلك بأن يرسلوا نساءهم يحملن أوعيتهن من الجرار والمشارب ليملأنها بالماء من النهر ، وقد اصبح ذلك في ايام الحصار خطراً لان الاتراك في الجانب الآخر من النهر كانوا يطلقون الرصاص على كل من يقترب من الماء كائناً من كان ، وقد قتل من جراء ذلك عدد غير قليل من نساء الكوت وسقائيها •

استخدم الانكليز مضختين لسد حاجة قواتهم من الماء ، ولم يسمحوا للاهالي بالاقتراب من ماء المضختين خوفا من أن يضع بعضهم السم فيه بايعاز من العدو • ولكن الانكليز حاولوا مساعدة الاهالي بطريقة اخرى، حيث احضروا عددا من صفائح النفط الفارغة وملأوها بالتراب وصنعوا منها جدارا في موضع على ضفة النهر ليحمي النساء عند الاستقاء ليلاً ، فكانت النساء يتجمعن عند حلول الظلام وراء الجدار ثم يبدأن بملء أوعيتهن • وقد تصاب احداهن برصاص الاتراك أحياناً فيسود الرعب بينهن ويتراكضن نحو البلدة مولولات • وكانت هذه المسرحية تتكرر في كل ليلة تقريباً • [٧]

ثالثا : عانى أهل الكوت شحة مضنية فى مواد الوقود ، فقد دأب جنود الحامية على انتهاب كل الاخشاب التي وجدوها فى البلدة ، واقتلعوا شبابيك البيوت وأبوابها ، [٨] كما انتزعوا سقوف السوق•[٩] ولهذا كان الشتاء الذي مر على أهل الكوت في تلك السنة قاسياً جداً ، فكان من أصعب الامور عليهم اعداد الخبز أو طبخ الطعام علاوة على التدفئة لنفاد الوقود لديهم •

---

(6) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 92.

(7) Ronald Millar (Kut) — London 1969 — p. 99—100.

(8) Russell Braddon (op. cit.) p. 158—159 .

(9) Sandes (In Kut and Captivity) — London 1920 — p. 148.

رابعاً : عانى أهل الكوت من قصف القنابل التي كانت تنهال عليهم يوماً بعد يوم . انهم كانوا في الايام الاولى من الحصار يتضاحكون عندما يشاهدون قنابل الاتراك تمرق في جو البلدة ، فكانوا يقلدون بأفواههم صوت أزيزها في الهواء وصوت انفجارها ، لانهم كانوا يحسبونها موجهة على الكفار فقط فلا تؤذي أهل البلدة . وسرعان ما تبدلت فكرتهم هذه عندما سقطت احدى القنابل على بيت من بيوت الاهالي وقتلت جميع من فيه . (١٠)

وكان اليوم الاول من شهر آذار يوماً عصيباً على أهل الكوت ، فقد سلط الاتراك في ذلك اليوم على البلدة واحدا وعشرين مدفعاً ترميها بالقنابل ، كما حلقت فوقها ثلاث طائرات أسقطت عليها خمسين قنبلة ، فمات تحت انقاض البيوت المهدومة ستة عشر شخصاً ، وقتل اثنان ، وجرح أربعة . وأصابت احدى القنابل جامع البلدة فقتلت فيه رجلين وخرج الباقون منه وهم في حالة رعب شديد . وارتفع عويل النوائح عند ذلك في كل انحاء البلدة . (١١)

نفذ صبر الاهالي أخيرا ، فشرعوا منذ منتصف شهر نيسان يحاولون الخروج من البلدة بأية وسيلة تقع في أيديهم . وقد شوهد مئات منهم في الطرقات يصنعون الاطواف من القرب المنفوخة والجرار الكبيرة وصفائح النفط الفارغة والمقاعد الخشبية . وقد أرسل اليهم طونزند يحذرهم بأنه لا مانع لديه أن يخرجوا من البلدة ولكنه لن يسمح لهم بالعودة اليها في حالة اخفاقهم في عبور النهر . انه كان يخشى ان يندس بينهم عند عودتهم بعض الجواسيس .

وكان الاتراك من جانبهم لا يريدون خروج أهل الكوت منها ، لان خروجهم يخفف مشكلة الاعاشة على طونزند ويمكنه من الصمود مدة أطول . وأراد الاتراك ارهاب أهل الكوت ليمنعوهم من الخروج ، فقذفوا اليهم عبر الخنادق جثة رجل مقتول وقد قطعت يداه واقتلع لسانه وفي عنقه

---

(10) Russell Braddon (op. cit.) — p. 132.

(11) Ibid, p. 199.

ورقة مكتوب عليها : « هذا جزاء كل من يخرج من الكوت » • ولـكن هذا الارهاب كان تأثيره محدودا في أهل الكوت ، ففي كل ليلة كان يخرج منهم عدد مع نسائهم وأطفالهم لعبور النهر على الاطواف التي صنعوها • وهنا يلعب الحظ دوره، فمنهم من ينجو، ومنهم من يموت برصاص الاتراك أو يقع في أيدي الاتراك فيقتلونه • (١٢)

الجوع بين افراد الحامية :

يمكن تقسيم أيام الحصار من حيث توزيع الطعام على أفراد الحامية الى ثلاث مراحـل : الاولى وهي التي كانت الجرايـة فيهـا تعطى للجنود كاملة ، وقد استمرت هذه المرحلة زهاء خمسين يوماً • أما المرحلة الثانية وهي التي استمرت حتى يوم ٩ آذار فقد كانت الجراية فيها قد انخفضت الى النصف • ثم جاءت المرحلة الثالثة أخيراً وهي التى كانت الجراية فيها تكاد لا تكفي الا لسد الرمق فقط •

الواقع ان المرحلة الثالثة وهي التي استمرت خمسين يوماً تقريباً كانت مرحلة عصيبة جداً على الجنود حيث انتشرت بينهم الامراض الناتجة عـن نقص الفيتامين كالاسقربوط والبريبري ، كما انتشـر بينهم مرض الزحـار واليرقان • (١٣) وشرع بعض الجنود يأكلون الكلاب والقطط حتى نفدت جميعاً ، ولم ينج من الكلاب سوى ثلاثـة : أحدهـا كلـب طوزنـد ، والآخران هما كلبا الجنرال مليس •

وكذلك أخذ بعض الجنود يأكلون لحم القنافذ بعـد قليـه بزيت العجلات ، وذكروا أنـه كان لذيذاً • (١٤) وحين جـاء الجراد رحبوا به مبتهجين • (١٥) وصار الهنود يبحثون عن أنواع خاصة من الحشـائش ليطبخوا منه طعاماً له شبه ظاهري بمرقة السبيناغ ، وقد شاع هذا الطعام

---

(12) Ronald Millar (op. cit.) — p. 239—240.

(13) Barker (The Negleced War) — London 1967 — p. 269—270.

(14) Russell Braddon (op. cit.) — p. 240.

(15) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia) — London — p. 117.

بين أفراد الحامية حتى صار يأكله القواد وطونزند نفسه • ولكن الحشائش كانت في بعض الاحيان تحتوي على أنواع سامة • ولما مات الجنرال هوكتن قيل ان موته كان من جراء تناوله مرقة تحتوي على تلك الانواع السامة من الحشائش • (١٦) •

وعندما قرر طونزند في نهاية كانون الثاني ذبح الخيول التي لديه واجهته مشكلة هي أن الكثيرين من جنوده الهنود رفضوا أكل لحم الخيل ، وكان الهندوس أكثرهم تشدداً في ذلك لان دينهم يحرم عليهم أكل أي لحم مهما كان مصدره • والغريب ان الكثير من المسلمين رفضوا أكل لحم الخيل أيضاً مع العلم أنه غير محرم في الاسلام بل هو مكروه ، أضف الى ذلك ان الاسلام يجيز أكل أي شيء عند الضرورة •

أرسل طونزند برقية لاسلكية الى حكومة الهند يطلب منها أن تحصل له على الفتاوى بتحليل أكل لحم الخيل من رؤساء الطوائف الدينية التي كان لها جنود في الكوت ، وجاء الجواب من الهند أن البانديت الكبير وامام الجمعة في دلهي وآخرين غيرهم أصدروا فتاويهم حسب المطلوب ، ولكن امام الجمعة اشترط أن يتم ذبح الخيل طبقاً للتعاليم الاسلامية • وقد أنتجت هذه الفتاوي ثمرتها لدى الكثيرين من الجنود فصاروا يأكلون لحم الخيل هنيئاً •

ظل بعض الجنود مصرين على الرفض ، فالمسلمون منهم كانت حجتهم في الرفض ان الفتوى التي وصلت اليهم لا يوثق بها لانها جاءت عن طريق اللاسلكي وهم اذن لا يعرفون هل وقعها علماء الدين حقاً أم لا • (١٧) أما الهندوس فكانت حجتهم أنهم اذا أكلوا لحم الخيل فسينبذهم مجتمعهم عند عودتهم الى قراهم بعد الحرب ، اذ ان عائلاتهم لن ترحب بهم ، وبناتهم لن يتزوجهن أحد ، كما ان أبناءهم لن يستطيعوا الحصول على زوجات لهم • (١٨)

---

(16) Barker (op. cit.) — p. 271.

(17) Mousley (op. cit.) — p. 72.

(18) Russell Braddon (op. cit.) p. 191.

حين علم طونزند بهذه الحجج التي تذرع بها الرافضون ظن أنه قـادر أن يعالجها عن طريق الاجراءات الرسمية • ففي ١٥ نيسان أبرق الى حكومة الهند يطلب منها أن تجمع مشايخ القرى في المقاطعات التي جاء منها جنـود الحامية لتعلمهم بأن رؤساء الدين قد أذنوا للجنود بأكل لحم الخيل ولهذا فان كل من يجرأ على اهانتهم فيما بعد سوف يقع تحت طائلـة العقوبة • وطلب طونزند من الحكومة أيضاً أن تمنح الاراضي الى ضباط الحاميـة من الهنود الذين ساعدوا الحكومة في هذا الوقت العصيب • (١٩)

واتخذ طونزند من جانبه سياسة التشجيع لمن يأكل لحم الخيـل من جنوده الهنود ، فأمر بترفيعهم بينما أمر بتنزيل رتبة الرافضين • فأسفر ذلك عن نتيجة حسنة اذ صار عدد الآكلين يزداد يوماً بعد يوم ، حيث لم يبق من الرافضين في الايام الاخيرة من الحصار سوى عدد قليل •

كانت الايام الاخيرة من الحصار شديدة الوطأة على افراد الحامية جميعاً ، انما هي كانت أشد على الرافضين بوجه خاص اذ كان هؤلاء فـي منتهى الضعف وصاروا يموتون بمعدل خمسة عشر في كل يوم • (٢٠)

وبدأ الخفراء يغمى عليهم أثناء الحراسة ، واضطر الاطباء الى توزيع أقراص الافيون على بعض الجنود لمساعدتهم على تحمل آلام الجوع • (٢١)

دوّن طونزند في يوم ١٧ نيسان من مذكراته ما نصه : « وفي هذه الاثناء أخذ اليأس والقنوط من الجنود الهنود في الكوت كل مأخـذ فكانوا في كل ليلة يفرون او يحاولون الفرار الى صفوف العدو ، فلم نر بدأ من اعدام بعضهم رمياً بالرصاص • وقد جعلت في هذا اليوم ثلاثـة جنود من الفوج البنجابي الثاني والعشرين عبرة لغيرهم ، اذ حاول هؤلاء الفرار بهربهم من خنادقنا نحو خنادق العدو » • (٢٢)

وفي الاسبوعين الاخيرين من الحصار شرعت الطائرات الانكليزيـة

---

(١٩) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٨٦ •
(20) Ronald Millar (op. cit.) — p. 241.
(21) Barker (op. cit.) — p. 274.
(٢٢) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٨٩ — ٤٥٠ •

ترمي الى الكوت بأكياس من الطحين وبعض المواد الاخرى ، ولكن ذلك كان ذا جدوى قليلة اذ ان الطائرات ترمي الاكياس من أرتفاع عظيم فتسقط بعض الاكياس في النهر كما سقط بعضها في خطوط الاتراك . وكان مجموع ما حصلت عليه الحامية من رمي الطائرات سبعة أطنان فقط . (٢٣) والمظنون ان هذه الكمية ساعدت على تأجيل الاستسلام أربعة أيام . (٢٤)

منشورات الدعاية :

كان الجنود الهنود يؤلفون ما يزيد على ثلاثة أرباع حامية الكوت ، وكانوا من طوائف شتى مسلمين وغير مسلمين . وقد كان الاتراك يوجهون دعايتهم الى هؤلاء الهنود اذ يرمون اليهم المنشورات يحضونهم بها على قتل ضباطهم والفرار الى صفوف الاتراك .

كانت المنشورات مكتوبة باللغات الواسعة الانتشار في الهند كالأردو والبوشتو والبنجابي ، وهي على نوعين أحدهما موجه الى الهنود المسلمين ، والآخر موجه الى الهنود عموماً بغض النظر عن طوائفهم الدينية. فالمنشورات من النوع الاول كانت تحرض المسلمين على الامتناع عن مقاتلة اخوانهم في الدين فراراً من نار جهنم ، وتتعهد للفارين منهم باعطائهم الزوجات والاراضي . (٢٥) أما المنشورات من النوع الثاني فكانت تضرب على وتر وطني حيث تذكر للهنود ظلم الانكليز لهم وكيف أن الاتراك والالمان والنمساويين يريدون الخير للهنود ويعاونونهم على نيل استقلالهم ، وكانت هذه المنشورات مذيلة بتوقيع الجمعية الهندية الوطنية في شيكاغو . تنقل فيما يلي بعض ما ورد فيها من عبارات مثيرة :

«اخواني الهنود الاعزاء ــ أنتم تعلمون جيداً أن الله خلق هذه الحرب من أجل تحرير الهند من أيدي الانكليز القساة . وهذا هو السبب الذي جعل جميع الراجات والنوابين يعملون في الوقت الحاضر على

(23) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 96.

(24) Barker (op. cit.) — p. 275.

(٢٥) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٤٨٢ .

اثارة الاضطرابات في كل انحاء الهند من أجل طرد الانكليز منها ... ان الجنود الهنود الشجعان قد قتلوا عـددا من ضباطهم فـي سـنغافورة وسكندراباد وميروت ، وكثير منهم التحقوا بحلفائنا الاتراك والالمـان والنمساويين الذين لابد انكم سمعتم بهم . أيهـا الابطـال ان أصدقائنا الاتراك والالمان والنمساويين انما يحاربون في سبيل تخليص بلادنا مـن أيدي الانكليز ، ولكنكم وانتم هنود تحاربون هؤلاء الاصدقاء وهـذا يسبب التأخير . ان الانسان حين يشاهد منزلتكم الواطئة يشعر بالدم فـي عينيه اذ يراكم تصبرون على هذا التحقير والبغض من الانكليز ... انكم لابد قد سمعتم مؤخراً عن القتال فيالدردنيل وكيف جرح اللورد هاملتون، وكيف فر اللورد كيتشنر الجبان في الليل مع الجنود الانكليز بينما ترك الهنود وراءه ، ولما رأى الهنود ذلك قتلوا جميع ضباطهم والتحقوا بالترك.

انا نجد الجنود الهنود في كل مكان تقريباً يتركون الانكليز، أليس من المؤسف أن تظلوا أنتم معهم تساعدونهم ؟ تذكروا فقط أنكم تركتم بيوتكم للقتال من أجل خمسة عشر أو عشرين روبية ... انظروا على سبيل المثـال كم قتل منكم ايها الجنود الهنود في معركة طيسفون وليس هناك من يعتني بعائلات القتلى والجرحى منكم . أيها الاخوة قارنوا بين مرتب الجنـدي الانكليزي ومرتباتكم .. أسرعوا أيها الاخوة . ان المملكة البريطانيه هـي الآن تسير نحو الدمـار ... ان الانكليز كانوا قـد اخرجونا من بلادنا المحبوبة كرهاً ، فذهبنا لنعيش في أمريكا ، وحين سمعنا بان بلادنا تتحـرر من أيدي الانكليز جئنا عن طريق ألمانيا ، غير أننا وجدناكم تقاتلون ضـد أصدقائنا الاتراك . ايها الاخوة ما مضى فات ، والآن عليكم أن تقتلوا كل ضباطكم وتأتوا لتلتحقوا بجيش جلالة السلطان على نحو ما فعل الكثير من اخواننا الهنود في مصر . ان جميع الضباط الاتراك والغرب قد تسلموا الاوامر من جلالة السلطان بأن كل جندي هندي يهرب اليهم يجب أن يعطى مرتباً جيداً وأرضاً للزراعة اذا أحب البقاء في دولـة السلطان ، لا فـرق في ذلك بين السـيك والراجبوت والمهراتا والكركـة والبـاثان والشيعي والسني . ولذا وجب عليكم ان لا تضيعوا هذه الفرصة لقتـل ضباطكم

والالتحاق بالاتراك لمساعدتهم في استعادة حريتكم » . [٢٦]

أحدثت هذه المنشورات تأثيراً غير قليل في الجنود الهنود ، ولا سيما المسلمين منهم ، والواقع ان العامل الديني كان أقوى تأثيراً في الهنود من العامل الوطني . فأخذ الكثير منهم يتمارضون تهرباً من القتال ، وحاول بعضهم الفرار الى صفوف الاتراك ، وعمد آخرون منهم الى تشويه أبدانهم أو جرحها فكان الرجل منهم يطلق الرصاص على كفه الايمن مدعياً أنه أصيب برصاص العدو ، ولكي يزيل أثر البارود من الجرح كان يلف كفه بنسيج سميك قبل اطلاق الرصاص عليه .

وقد اتخذ طونزند اجراءات صارمة ضد هؤلاء الجنود ، فأحال الذين جرحوا أنفسهم الى محكمة عسكرية ، فحكمت المحكمة عليهم بأحكام رادعة . وأمر طونزند كذلك بأن يخلط الجنود المسلمون بغيرهم من الجنود غير المسلمين وأن يتخذ الضباط كل حيطة لمنعهم من الفرار [٢٧] .

كان الاتراك قد اعتادوا أن يتسللوا من خنادقهم ليلاً ليضعوا منشورات دعايتهم على الاسلاك الشائكة القريبة من الخنادق الانكليزية . فأوعز الانكليز الى جنود الكركه بمراقبة هؤلاء والقبض عليهم وقتلهم .

كان الانكليز يعتمدون على جنود الكركه ويثقون بهم ، وهؤلاء الجنود صغار الاجسام يغلب عليهم المرح والبشاشة كالصبيان ولكنهم قساة الى أقصى حد، فهم من نمط الذين يذبحون ضحاياهم ويبتسمون، ولهم سكاكين معكوفة خاصة بهم يتقنون الذبح بها ، فكانوا ينطرحون على الارض انتظاراً للاتراك الذين يدسون المنشورات، فاذا امسك الرجل منهم بأحد الاتراك ذبحه بسكينته والابتسامة لا تفارق شفتيه . [٢٨]

طونزند في مباذله :

اختار طونزند اثناء حصار الكوت داراً في وسط البلدة لتكون

---

(26) Ronald Millar (op. cit.) — p. 303—304.

(٢٧) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٣٥٧ ، ٤٤١ .

(28) Russell Braddon (op. cit.) — p. 127 ' 195.

مسكناً له ومقراً لقيادته ، وكانت تلك الدار من أحسن الدور في الكوت ذات طابقين ولها شناشيل جميلة . وأمر طونزند بوضع بالات الصوف على سطح الدار وقاية لها من خطر القنابل ، كما أمر بتغليف سياجات السطح بصفائح من حديد . ويقول طونزند في مذكراته : « كان العدو طول مدة الحصار يرمي مقري بالقنابل رمياً دقيقاً بلا انقطاع لان عرب البلدة كانوا يقطعون النهر سباحة في الليل فينقلون أخبارنا الى العدو » . (٢٩)

وبالرغم من خطر القنابل اعتاد طونزند أن يصعد مبكرا في كل صباح الى سطح الدار لينظر بمنظاره العسكري خلال صفائح الحديد الى خنادق الاتراك المحيطة بالكوت من كل جانب . وكان من عادة الجنود الاتراك أن يخرجوا من خنادقهم في الصباح الباكر ليتغوطوا على شاطيء النهر، فصار طونزند يتصيدهم ببندقيته كأنه وجد في ذلك نوعاً من الرياضة الصباحية . وقد تذمر من ذلك أحد الانكليز الذين شاهدوه، اذ قال متهكماً: « ليس من الروح الرياضية رمي الاتراك القاعدين » . (٣٠)

وحدث ذات مرة أن طونزند كان يرقب بمنظاره الشاطيء المقابل فشاهد جندياً تركياً يقترب من الماء ليملأ صفيحة له منه ، فأسرع طونزند ينادي خادمه « بوغيز » قائلاً : « هات البندقية ، انظر الى هذا الرجل هناك انا يجب أن نرميه » . ولم يكد الجندي التركي يتم ملء صفيحته بالماء ويحملها على رأسه حتى أطلق طونزند وخادمه عليه الرصاص من بندقيتيهما ، فسقط الجندي على الارض كما سقطت الصفيحة الى جانبه . وهتف طونزند قائلاً : « انها رصاصتي » يعني أنه هو الذي قتل الرجل ، ثم أخذ يغني ونزل من السطح متجهاً الى غرفته ليقرأ كتبه ويسجل مذكراته اليومية ... (٣١)

وفي ١٦ كانون الثاني ١٩١٦ بينما كان طونزند يراقب بمنظاره الشاطيء المقابل شعر كأن حركة غير عادية تجري هنالك ، وصارت المدافع الانكليزية

---

(٢٩) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٣٥٩ .

(30) Russell Braddon (op. cit.) — p. 194.

(31) Ibid, p. 161.

ترمي بقنابلها عليها ، وتبين ان المارشال غولتز كان في ذلـك الوقت يزور الجبهة وقد أحس به بعض الضباط الانكليز فصوبوا عليه مدافعهم بغيـة قتله . ولم يكد طونزند يعلم بالامر حتى أسرع بالايعاز الى الضباط بوقف اطلاق المدافع حالاً . وهو يقول في مذكراته حول هذا الحادث ما نصـه : « ساءني عمل الضباط ... لانني كنت احترم هذا المشير الذي كنت أعده أعظم عالم بفن سوق الجيش في اوربه . فأمرت من ساعتي بالانقطاع عـن اطلاق النار ، وقد قال لي الضباط الترك بعد ذلك أن القنبلة كادت تقتـل المشـير » . (٣٢)

كان في الكوت أثناء الحصار جهازان لاسـلكيان لغرض الاتصـال بالبصرة والهند ولندن وغيرها ، وكان خادم طونزند « بوغيز » يذهب ويعود بين دار القيادة ودار اللاسلكي ، مراراً كل يوم ، ليحمل البرقيات التـي يرسلها طونزند الى الخارج أو يتلقاها منـه . وكـان الجنود المختصون باللاسلكي مشغولين على الدوام بارسال تلك البرقيات او تلقيها . واذا لم يكن هناك برقيات عسكرية فان طونزند يشغلهم ببرقياته الشخصية يرسلها الى اصدقائه من الممثلات والممثلين . فالمعروف عن طونزند أنه كان شغوفاً بالتمثيل وفنون المسارح والملاهي وله صلات متينة بالممثلات والممثلين فـي لندن ، وقيل انه كان يحلو له أحيانا أن يقوم ببعض الادوار الهزلية يقلـد بها بعض الشخصيات ، حتى أنه قلد ذات مرة شـخصية رئيسـه الجنرال نكسون باتقان عجيب ، ولما سمع نكسون بذلك صـار ينظـر اليـه بعين الريبـة . (٣٣)

وحدث في احد الايام ان أحد جنود اللاسلكي كرر من تلقاء نفسـه رسالة شخصية كان طونزند قد أبرق بها الى صديق له في لندن يشكو اليه من رداءة الطعام لشدة الحصار ، وشاءت الصدفة أن بارجة بريطانية فـي البحر الابيض المتوسط التقطت تلك الرسالة فأبرقت بها الى البصرة ، وأبرقت البصرة بها الى الكوت . وحين علم طونزند بالامر أوعز بتقـديم جنـدي

---

(٣٢) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٣٧٢ .

(33) Ronald Millar (op. cit.) — p. 21.

اللاسلكي الى المحكمة العسكرية لينال جزاءه على تهاونه ، فحكمت المحكمة عليه بسبع سنوات يقضيها في السجن بعد الخروج من الحصار . ولكن استسلام الحامية اخيرا أنقذ الجندي من هذا الحكم القاسي . ويعلق برادون على ذلك قائلا : « الله وحده يعلم لماذا كان طونزند يرسل من الكوت كل تلك البرقيات الى الممثلين والممثلات في لندن » . (٣٤)

ومن الطرائف التي تروى عن طونزند أثناء الحصار أنه أعتاد أن يتمشى مساء كل يوم في طرقات البلدة بصحبة كلبه الصغير المسمى « سبوت » ، وكان كلبه هذا شديد الخوف يفزع من صوت القنابل ، فهو لا يكاد يسمع أزيز قنبلة تمرق في الجو حتى يقفز هارباً اذ يترك سيده ويعود الى داره لا يلوي على شيء . وقد أصبح الكلب وخوفه الشديد من الاحاديث الطريفة التي يتناقلها أفراد الحامية فيما بينهم للتفكهة . فانزعج طونزند من ذلك كأنه لم يحب أن يكون كلبه جباناً ، ولهذا أصدر أمره بتحريم كل حديث عن جبن كلبه بين الجنود . (٣٥)

تبذير الاطعمة :

كان طونزند قد تلقى في بداية الحصار برقية من نكسون يعلمه بها أنه يأمل ارسال حملة الانقاذ اليه في خلال شهرين ، فاعترض طونزند على ذلك محتجاً بأن الاطعمة المتوفرة لديه في الكوت لا تكفي الا لشهر واحد . وقد أدى اعتراض طونزند هذا الى نتيجة سيئة للغاية هي أن نكسون صار يتعجل في اعداد حملات الانقاذ ويدفعها للهجوم قبل أن تتهيأ اسبابه .

أرسل نكسون من البصرة عدة حملات لانقاذ حامية الكوت المحصورة ، وقامت تلك الحملات بسبع معارك ضارية تكبدت فيها من الخسارة في الارواح ما يزيد على عدد جنود الحامية التي أريد انقاذها . ويعتقد النقاد العسكريون ان من أهم الاسباب في اخفاق تلك المعارك هو أنها كانت مستعجلة ، فقد كان نكسون شديد الرغبة في انقاذ الحامية

(34) Russel Braddon (op. cit.) — p. 126 , 213—214.

(35) Ronald Millar (op. cit.) — p. 103.

بأسرع وقت ممكن ، ولو ان المعارك السبع جرت كلها مرة واحدة بعد الاستعداد لها استعداداً كافياً لكان في مقدورها انقاذ حامية الكوت على وجه من الوجوه .

ومما يلفت النظر أن طونزند أبدى في المرحلة الاولى من الحصار تهاوناً واضحاً من حيث الاقتصاد في استهلاك الاطعمة التي كانت موجودة لديه ، وهو لم يبدأ بالاهتمام بها الا مؤخرا . ويبدو انه كان في البداية متفائلاً شديد الثقة بقرب الفرج ، ومثله في ذلك كمثل عابر الصحراء الذي ضل الطريق فأخذ يبذر بالماء اعتمادا على قرب النجاة بينما كان الاحرى به أن يكون شديد الحرص على الماء منذ اللحظة الاولى لانه لا يدري الى متى ستطول مدة التيه عليه .

وفيما يلي نذكر أهم مظاهر التبذير في الاطعمة التي تورطت بها حامية الكوت في المرحلة الاولى من الحصار : .

أولا : عندما وصل الجنود الى الكوت على أثر انسحابهم الطويل من سلمان باك كانوا في غاية الارهاق ، فأخذوا يطلبون أفانين الطعام ، وكان المسؤولون عن الاعاشة متساهلين معهم ، فضاع من جراء ذلك كثير من المواد الغذائية المهمة .[٣٦]

ثانيا : ظل الجنود طيلة خمسين يوماً يحصلون على الجراية الكاملة التي تعطى للجنود في الاوقات الاعتيادية ، فكان الجندي الانكليزي يحصل يومياً على ٤٥٠ غراماً من اللحم ، ومثله من الخبز ، و٨٥ غراماً من لحم الخنزير المقدد والزبدة والجبن ، و ١٧٠ غراماً من البطاطة ، و١١٤ غراماً من البصل ، و٧١ غراماً من السكر ، و٨٥ غراماً من المربى ، و٢٨ غراماً من الشاي ، و١٤ غراماً من الملح .[٣٧] أما الجندي الهندي فكانت جرايته أقل من جراية الجندي الانكليزي ولكنها مع ذلك كانت زائدة عن الحاجة بالنسبة لجندي يعيش في حالة حصار .

ثالثا : كانت حامية الكوت تملك مقادير كبيرة من « القلاطة » التركية،

---

(36) Barker (op. cit.) — p. 152.

(37) Ibid, p. 151.

ولما كانت هذه « القلاطة » يصعب أكلها لشدة صلابتها فقد أخذ الطباخون يستخدمونها في الوقود • يقول باربر : ان مطعم الضباط في الكوت ظـل طيلة أيام يستعمل « القلاطة » وقودا له • [٣٨] ولا حاجة بنا الى القـول ان هذه « القلاطة » لو كانت باقية الى الايام الاخيرة من الحصار لصارت بالنسبة الى الجنود الجياع ألذ طعام خلقه الله في الوجود !

رابعا : كان في مكبس السوس في الجانب الآخر من النهر مقـادير كبيرة من الشعير تقدر بمئات الاطنان ، وكان المفروض في هذه المقادير أن تنقل الى البلدة ويحافظ عليها بكل حرص ، ولكنها في الواقع أهملت • وفي أواخر كانون الثاني ١٩١٦ عندما اشتدت الحاجة اليها وطلبها المسؤولون قيل لهم : ان الامطار أثرت فيها وأن البغلة الموجودة هناك قـد أكلت كثيرا منها • وعند الفحص تبين أن البغلة اصبحت لكثرة الاكل أسمن بغلة علـى وجه الارض • [٣٩]

خامسا : بلغ قصر النظر لدى القيادة في الكوت بحيث أنها في بدايـة الحصار سمحت للجنود بأن يستخدموا أكياس الطحين في اقامة المتاريس بدلاً من اكياس الرمل التي لم تكن موجودة آنذاك، وقد انتهز بعض الجنود الفرصة فصاروا يسرقون تلك الاكياس ويبيعونها الى أهل البلدة • سـجل طونزند في مذكراته في ٨ كانون الثاني ١٩١٦ يقول : « علمت في هذا اليوم أنه قد سرق منا ألف كيس طحين ••• وظهر أن السرقة كانت متواصلة مع شدة الحيطة التي اتخذناها لمنع ذلك ••• » [٤٠]

سادسا : كان أهل الكوت قد اعتادوا كغيرهم من أهـل العـراق أن يخزنوا في بيوتهم أطعمة تكفيهم لسنة واحدة على الاقل ، ولو أن طونزند كان قد أمر باجراء التفتيش الدقيق للبيوت في بداية الحصار لحصل منهـا على مقادير كبيرة من الحبوب ، ولكنه تكاسل ولم يأمر باجراء التفتيـش الدقيق الا في ٢١ كانون الثاني • وقد يصح القول بأن الاهالي كانوا خلال

---

(38) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 95.

(39) Russell Braddon (op. cit.) — p. 180.

(٤٠) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٣٦٦ •

المدة التي سبقت ذلك اليوم يأكلون ما يشاؤون بلا روية ، أي أنهم كانوا كالجنود متفاءلين لا يدرون ماذا يخبىء لهم القدر ، وضاعت من جراء ذلك مقادير كبيرة من الحبوب .

سابعا : كان لدى حامية الكوت ثلاثة آلاف حصان وبغل ، وكان طونزند في أول الامر يرفض ذبحها واطعامها للجنود بحجة أنه لا يريد قسرهم على أكل طعام لا يرغبون فيه ، فظلت تلك الحيوانات تستهلك الكثير من الحبوب لكي تبقى على قيد الحياة بلا فائدة . ولم يأمر طونزند بذبحها الا في نهاية كانون الثاني .

في الوقت الذي كان فيه طونزند يقترف تلك الاخطاء في الكوت كان نكسون في البصرة يعاني أزمة نفسية تقض مضجعة . فالهزائم المتتابعة التي حلت بحملات الانقاذ أثرت على أعصابه وجعلت صحته تتردى تدريجاً ، حتى صار من الصعب على أفراد حاشيته التحدث اليه لنفاد صبره . انه كان يعتبر الموقف العسكري بمثابة التحدي له ولكنه لم يكن كفؤاً لهذا التحدي وأخذ يصدر قرارات غير صائبة .

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩١٦ مُنح نكسون اجازة مرضية ونُقل الى الهند ، فحل محله الجنرال ليك الذي كان رئيس أركان الجيش الامبراطوري في الهند . وعندما وصل ليك الى البصرة ارتاع لحالة الفوضى والارتباك التي كانت تسود ميناء البصرة وأرصفة الرسو فيها ، اذ كانت البواخر هناك راسية بغير نظام لا تعرف كيف تفرغ حمولتها ، كما كانت وسائل النقل بين البصرة وساحة القتال بالغة السوء . وقد أدرك ليك ان هذا كان من أهم أسباب الهزائم التي حلت بحملات الانقاذ ، فشمر عن ساعد الجد بغية اصلاح الوضع ، ولكن ذلك يحتاج الى وقت بينما كان الوضع في الكوت لا يحتمل التأخير . (٤١)

الباخرة « جلنار » :

كانت « جلنار » أسرع باخرة للنقل في العراق آنذاك ، وقد ارتأى

---

(41) Longrigg (Iraq, 1900 to 1950) — London 1956 — p. 86.

الانكليز في أواخر أيام الحصار شحنها بالاطعمة وارسالها خلسة الى الكوت في محاولة يائسة منهم لتموين الحامية المحصورة .

كانت الباخرة في العمارة ، وقد درعها الانكليز بصفائح من الحديد وأكياس من الرمل لوقايتها من الرصاص ، ثم شحنوها بمائتين وسبعين طناً من المواد الغذائية كالمعلبات والشاي والسكر والبسكت والطحين الابيض . وتطوع عدد من البحارة ليكونوا فيها عند مسيرتها الى الكوت . وتحركت الباخرة من العمارة في الساعة السابعة من مساء ٢٤ نيسان . [٤٢]

استطاع أحد جواسيس الاتراك في العمارة أن يعلم بأمرها فأسرع الى قائمقام الحي سلطان بك الجبوري يخبره بذلك ، وأبرق القائمقام بخبرها الى خليل باشا . يقول تحسين العسكري في مذكراته : ان خليل باشا كان يتناول الطعام في مقره مع ضباط ركنه اذ وصلت اليه البرقية من قائمقام الحي ، فضحك هو وضباطه استهزاءاً بالخبر وطفقوا يتندرون على القائمقام حيث اعتبروه ساذجاً لتصديقه بهذا الخبر الذي هو في نظرهم غير معقول ، فقد كان القائمقام عربياً متخرجاً من مدرسة العشائر في اسطنبول . ولهذا أهملوا برقيته ولم يحسبوا لها أي حساب . [٤٣]

تحركت الباخرة من العمارة وهي مطفأة الانوار ، فلما اقتربت من الكوت أحس بها جنود الاتراك الذين كانوا يخفرون شواطىء النهر ، فأمطروها بوابل من الرصاص والقنابل ، فقتل الكثيرون من بحارتها وجرح آخرون .

كان الاتراك قد وضعوا بمعونة الخبراء الالمان سلكاً معدنياً عبر النهر بصورة مائلة ، وعندما وصلت الباخرة الى السلك بدأت تنحرف في سيرها تبعاً لميل السلك حتى توحلت في الطين في الضفة اليمنى من النهر . فهجم الاتراك عليها واستولوا على ما فيها من مواد غذائية ، كما أسروا الاحياء من بحارتها . وقد أطلق الاتراك على الباخرة اسماً تركياً هو

---

(42) Russell Braddon (op. cit.) — p. 247.

(٤٣) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ج ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

« كندي كلن » [٤٤] ومعناه الآتية من تلقاء نفسها .

كانت حامية الكوت تعلم بأمر الباخرة منـذ البداية ، وحين تحركت الباخرة من العمارة علمت الحامية بذلك عن طريق اللاسلكي . وقد ذهب الاتقياء من الانكليز في تلك الليلة الى الكنيسة الموقتة التي كانوا قد أقاموها في الكوت للصلاة ، فازدحمت الكنيسة بهم ، وصاروا يصلون الى الله ويدعونه أن يشملهم برحمته ويساعد الباخرة على اختراق خطوط الحصار والوصول اليهم سالمة . [٤٥]

ولما لاح نور الفجر صعد بعض ضباط الحامية فوق سطوح الدور ليروا ماذا حل بالباخرة التي جاءت لانقاذهم . وكان طونزند نفسه قد صعد الى سطح داره أيضاً ، على الرغم من التوعك الذي طرأ عليه في تلك الليلة ، ووضع البطانية على كتفيه اتقاء البرد ، وحين نظر بمنظاره وجد الباخرة جانحة عند الشاطىء لا حراك فيها وهي على بعد أميال قليلة من الكوت ، فكانت تلك اللحظة أشد اللحظات مرارة في حياة طونزند . [٤٦]

كان من بين أسرى الباخرة الذين وقعوا في أيدي الاتراك بحار انكليزي اسمه « كاولي » ، ولهذا الرجل قصة طريفة جديرة بالذكر في هذه المناسبة :

كان كاولي قد عاش قبل الحرب في العراق اكثر من ثلاثين سنة يعمل في بواخر بيت لنج ، وهو يتقن اللغتين التركية والعربية جيداً ، وتزوج من امرأة مسيحية عراقية وله بيت في رأس القرية ببغداد . وقد حدث له في أحد الايام التي سبقت اعلان الحرب أنه بينما كان ماراً بالعمارة جرت محاورة بينه وبين محاسب لواء العمارة أحمد حلمي بك الشامي ، فقد كان الشامي يعتقد بان الحرب اذا نشبت فستكون بريطانيا هي الخاسرة فيها لانها دولة بحرية فاذا خرجت الى البر ماتت كالسمكة ، فرد عليه كاولي بأن أخرج من جيبه باوناً انكليزياً من الذهب ودحرجه على طاولة كانت أمامه وقال : ان

---

(٤٤) محمد أمين العمري (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ج ١ ص ١٤٢ .

(45) Russell Braddon (op. cit.) — p. 247.

(46) Ronald Millar (op. cit.) p. 250.

الانكليز يستطيعون بهذا الباون أن يدخلوا أية بقعة من الارض بكل سهولة. ثم اورد كاولي مثلاً عراقياً دارجاً هو : « تالي الليل تسمع حس العياط » ، يعني ان الانكليز قد يخسرون المعارك أثناء الحرب ولكن النصر لهم في النهاية .

وعندما نشبت الحرب تطوع كاولي في خدمة القوات الانكليزية، وكان الاتراك يعدونه من رعاياهم وهددوه بأنهم اذا قبضوا عليه فسيرمونه بالرصاص جزاء خدمته للانكليز في الحرب . ويحدثنا تحسين العسكري في مذكراته عن مصير كاولي عندما وقع في أسر الاتراك فيقول : ان خليل باشا استدعى كاولي اليه ليتناول الطعام على مائدته ، وصادف أن كان بين الحاضرين على المائدة احمد حلمي بك الشامي فأخذ هذا يتفاخر أمام خليل باشا بما قال لكاولي قبل الحرب وماذا رد كاولي عليه ، ثم التفت نحو كاولي ليقول له كيف ان الانكليز انكسروا في الحرب ولم ينتصروا . ولكن كاولي لم يسكت تجاه هذا التحدي من الشامي بل أجاب عليه بجرأة قائلا : « لقد قلت لك تسمع حس العياط في آخر الليل وليس بوسطه » مشيرا بذلك الى ان الحرب لم تنته بعد وأن الانكليز لابد أن ينتصروا في نهايتها . وقد اغتاظ خليل باشا وضباط ركنه من هذا الجواب الجريء وأضمروا الحقد لكاولي . وفي اليوم التالي غاب كاولي ولم يرجع حتى يومنا هذا .[٤٧]

ادعى الاتراك أخيراً أنهم لم يقتلوا كاولي بل وجدوه على ظهر الباخرة قتيلاً ، ثم غيروا قولهم هذا بعدئذ حيث ذكروا أن حراس كاولي قتلوه بعد أسره على أثر محاولته الفرار . ولكن الانكليز رفضوا كلا هذين القولين ، ودلت تحرياتهم على أن كاولي قتله الاتراك عمداً ، وقد منحته الحكومة البريطانية صليب فكتوريا بعد موته مكافأة على بسالته .[٤٨]

لورنس في البصرة :

عندما اشتد الحصار على حامية الكوت قرر اللورد كيتشنر وزير

---

(٤٧) تحسين العسكري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٢٧ .

(48) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 96.

الحربية البريطانية القيام بعمل غير مألوف من أجل انقاذ الحامية وذلك بعرض الرشوة علي القائد التركي خليل باشا . والمعروف عن اللورد كيتشنر أنه لا يأنف من اللجوء الى مثل هذا العمل غير القويم .[٤٩]

نيطت المهمة بلورانس ، وكان لورنس يومذاك ضابط استخبارات في القاهرة قبل التحاقه بالثورة العربية في الحجاز . وفي ٢٠ آذار غادر لورنس القاهرة متوجهاً الى البصرة ، وقبل وصوله الى البصرة كان الجنرال ليك فيها قد تسلم برقية من لندن هي كما يلي :

« تعليمات سرية جدا للقائد شخصياً . سيصل الكابتن لورنس الى البصرة قادماً من مصر ... ليتشاور معكم في امكان رشوة خليل باشا أو نجيب باشا من قواد الجيش التركي في العراق من أجل تسهيل فك الحصار عن طونزند . ويمكنكم أن تصرفوا في هذا السبيل مبلغاً لا يتجاوز مليون جنيه . ولما لم يكن بالامكان العثور فورا على وسيط من اهل البلاد ليرافق لورنس ، فقد تتمكنون من العثور على وسيط في البصرة » .[٥٠]

كانت الحكومة البريطانية قد ناطت بلورنس مهمة أخرى علاوة على تقديم الرشوة لخليل باشا ، هي الاتصال ببعض زعماء العراق بغية احداث ثورة فيه على منوال ما كانت تدبره في الحجاز تحت شعار القومية العربية.

وصل لورنس الى البصرة في مساء ٥ نيسان . فمكث فيها بضعة أيام درس خلالها تقارير الاستخبارات عن وضع العلاقات بين العرب والأتراك في العراق ، واتضح له أن من الممكن احداث ثورة في العراق اذ ان الظروف فيه مهيأة وهي لا تحتاج الا الى عود كبريت لايقاد الثورة. وأيقن لورنس ان الثورة لو وقعت لاصبحت خطوط المواصلات التركية بين بغداد والكوت في خطر ، ولربما اضطر الاتراك الى رفع الحصار عن الكوت .

أخذ لورنس يتصل بأعوان السيد طالب الذين كانوا موجودين في

---

(٤٩) فيليب نايتلي و كولن سمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) — ترجمة ايلي لاوند وابراهيم العابد — بيروت ١٩٧١ — ص ٥٢ .

(٥٠) المصدر السابق — ص ٥٢ .

البصرة حينذاك بغية اقناعهم بالمساهمة في ثورة ضد الاتراك • يروي سليمان فيضي في مذكراته : أن لورنس استدعاه اليه في مقره في درب الاعوج بالعشار ، في يوم ٧ نيسان ، وأخذ يحادثه في موضوع الثورة قائلا :

« ••• اني شغوف بحب العرب مفتون بسجاياهم حريص على ما ينفعهم ، وقد سنحت لي الفرصة الآن لتحقيق أمنيتي بتقديم خدمة عظيمة اليهم ، وخاصة العراقيين منهم ، بأن أعمل على انالتهم استقلالهم • انها يا سيدي فرصة ذهبية ، ذلك ان اكثرية الشعب الانجليزي لا ترتاح الى استعمار بلاد جديدة بعيدة عن الجزر البريطانية ، فمن الواضح اذن أن لا تفكر الحكومة البريطانية في استعمار البلدان التي ستصبح تحت الاحتلال البريطاني بعد الحرب ، وهي بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال وأن يبرهنوا على رغبتهم فيه • وهناك على ما أعتقد وسيلة لتحقيق ذلك الا وهي الثورة ، فاذا أعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية ، أما اذا قبعوا في دورهم آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ••• وقد فوضتني الحكومة البريطانية لاشعال تلك الثورة وبذل ما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك ••• واني قد اخترتك لتقوم بمهمة اذكاء نار الثورة بعد الذي علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين في مصر • فان أقدمت فانك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة ، فسأضع تحت تصرفك البنك بكل أمواله ، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح ، فهيا الى العمل في سبيل القضية العربية وفي سبيل استقلال بلادك وحرية قومك »•

يقول سليمان فيضي انه عندما سمع هذا الكلام من لورنس اعتذر اليه بعجزه عن القيام بالثورة وأشار عليه بأن يستدعي السيد طالب من الهند للاضطلاع بهذه المهمة ، فأجابه لورنس بأن الحكومة البريطانية تفضل بقاء السيد طالب في الهند • فرشح سليمان فيضي رجلاً آخر بدلاً من السيد طالب هو أحمد الصانع اذ هو ذو كلمة مسموعة في البصرة وله

علاقة متينة بعشائر المنتفق ، فلم يقبل لورنس بهذا الترشيح وأصر على سليمان فيضي أن يكون هو القائم بالثورة لا غيره ، غير ان سليمان فيضي ظل مصراً على الرفض .(٥١)

وبعد أن يئس لورنس من اقناع سليمان فيضي حاول مفاوضة رجل آخر من أعوان السيد طالب (٥٢) لا نعرف من هو ، وربما كان أحمد الصانع ، فلم يوفق في اقناعه كذلك .

ومما يجدر ذكره ان هذه المحاولات التي قام بها لورنس قوبلت بالامتعاض الشديد من القواد البريطانيين في البصرة ، فهؤلاء القواد كانوا من اتباع مدرسة الهند كما اشرنا اليه في فصل سابق ، فكانوا لا يثقون بالعرب ولا يحبون أن يجري أي اتصال بهم ، وكان لهم انطباع سيء عن رجال العشائر بوجه خاص حيث يصفونهم بأنهم يتقلبون من جانب الى آخر حسب تقلب كفة الحرب فلا يبالون بالعهود والمواثيق وليس لهم من هدف سوى النهب والسلب ، ويضربون مثلاً على ذلك برجل من رؤساء العشائر بدل انحيازه من جانب الى آخر خمس مرات ثم صار أخيراً مع الغالبين .(٥٣)

والغريب ان القواد البريطانيين في البصرة بلغ بهم بغض العشائر الى حد أنهم كانوا يتحدثون عن مشروع قيل ان الاتراك اقترحوه عليهم وهو أن يعقد الجيشان الانكليزي والتركي هدنة موقتة فيما بينهما من أجل ابادة العشائر ابادة تامة ، حتى اذا انتهى الجيشان من ذلك عادا الى الحرب من جديد بشكل جدي .(٥٤)

مفاوضة الاستسلام :

في الساعة العاشرة من صباح ٢٦ نيسان ١٩١٦ أرسل طونزند رسالة

---

(٥١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) — بغداد ١٩٥٢ — ص ٢١١ — ٢٢٦ .

(52) Philip Graves (Sir Percy Cox) — London — p. 201.

(٥٣) فيليب ويلارد آيرلند (العراق — دراسة في تطوره السياسي) — ترجمة جعفر الخياط — بيروت ٩٤٩ — ص ٦٧ — ٦٩ .

(54) Ronald Millar (op. cit.) — p. 271.

الى علي نجيب باشا قائد القوة التركية التي تحاصر الكوت يخبره بأنه مخول من قبل القائد العام بالمفاوضة ، وهو يطلب هدنة لمدة ستة ايام • وبعد ساعة أرسل طونزند رسالة أخرى بمثل هذا المعنى الى القائد التركي العام خليل باشا • وفي المساء وصل الى الكوت ضابط تركي يحمل الجواب من خليل باشا اذ يقول فيه ان طونزند وجنوده سوف يلقون في تركيا استقبالاً عظيماً لما أبدوه من بسالة في الدفاع عن الكوت طيلة الاشهر الخمسة الماضية •

وفي صباح اليوم التالي ، وكان الجو صحواً ومياه الفيضان منخفضة، ركب طونزند زورقاً بخارياً برفقة ثلاثة من الضباط ، وسار بهم الزورق شمالاً لمقابلة خليل باشا • وخرج الناس على جانبي النهر يتفرجون لاول مرة منذ بدء الحصار وهم آمنون لا يخشون شيئاً حيث توقف قصف القنابل ورمي الرصاص • وبعد أن سار الزورق مسافة ميل ونصف التقى في وسط النهر بزورق آخر يحمل خليل باشا وحاشيته ، فانتقل طونزند وحده الى الزورق الثاني •

كان اللقاء بين القائدين ودياً ، وأخذ خليل باشا يطنب في مدح طونزند قائلاً بأنه دافع عن الكوت كدفاع عثمان باشا عن بلافنا • (٥٥) وعرض طونزند على خليل باشا اقتراح حكومته بدفع مليون باون لقاء اطلاق سراح حامية الكوت ، وقال متوسلاً بأن بسالة الحامية تجعلها جديرة بمعاملة استثنائية ، وان أفرادها يتعهدون بأنهم لن يحاربوا الاتراك طيلة أيام الحرب • وقد ظهر الاهتمام على وجه خليل باشا تجاه هذا الاقتراح ، غير أنه طلب مهلة للاتصال بانور باشا برقياً قبل اعطاء الجواب ، واتفق مع طونزند على الاجتماع به غدا مرة أخرى • (٥٦)

عاد طونزند الى مقره واتصل برقياً بالجنرال ليك في البصرة يخبره بما جرى بينه وبين خليل باشا ورأيه فيه • وفي ٢٨ نيسان أرسل طونزند الى خليل باشا رسالة يخبره فيها بأن القائد الانكليزي العام وافق على

(٥٥) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٩٦ •

(56) Russell Braddon (op. cit.) — p. 251.

تقديم كل المدافع الموجودة في الكوت الى الاتراك علاوة على مبلغ المليون باون . وبعد قليل وصل الجواب من خليل باشا الى طونزند وكان مخيباً للامل حيث كان رد أنور باشا هو : أن الدولة العثمانية ليست في حاجة الى نقود ، وأن عشرة آلاف تركي ضحوا بأنفسهم من أجل الكوت، ولكن من الممكن قبول المبلغ والمدافع في مقابل اطلاق سراح طونزند وحده، أما جنود الحامية وضباطها فيجب أن يؤخذوا أسرى . وقد ابرق طونزند بهذا الجواب الى الجنرال ليك واقترح عليه أن يزيد المبلغ الى مليونين مع تقديم عدد من الاسرى الاتراك يساوي عدد أفراد الحامية .

وفي ذلك الوقت كان لورنس قد قدم من البصرة ووصل الى مقربة من الخطوط التركية ومعه رجلان أحدهما ضابط في استخبارات البصرة اسمه « بيچ » والثاني عضو في مجلس العموم البريطاني يعرف اللغة التركية وله معرفة سابقة بخليل باشا اسمه « هربرت » . وقد تسلم هؤلاء الثلاثة برقية من البصرة توعز اليهم بتقديم الاقتراح الجديد أي زيادة المبلغ الى مليوني باون مع الاسرى .

وفي ٢٩ نيسان تمكن الثلاثة من مقابلة خليل باشا بعد مشقة وطول انتظار ، وعندما عرضوا عليه الاقتراح الجديد أعلن رفضه له فوراً وقال : انه لا يريد أن يسمع عن الامر شيئاً . فساد الصمت على الحاضرين ، ثم حاول أحد الثلاثة تحويل الحديث الى موضوع آخر هو موضوع أهل الكوت الذين تعاونوا مع الانكليز أثناء الحصار ، وأشار الى انهم ينبغي أن لا يتعرضوا لاي اضطهاد أو انتقام ، فأجاب خليل باشا قائلاً : أن أهل الكوت من رعايا الحكومة التركية ولا شأن لغيرهم بهم فالترك لهم امبراطوريتهم كما أن للانكليز امبراطوريتهم وليس هناك فرق بين الامتين . فعقب هربرت على هذا الجواب بغضب قائلا : « ليس الا" ثمانمائة ألف أرمني » ، يشير بذلك الى مذبحة الارمن .

ثم أثار لورنس مشكلة المرضى من حامية الكوت ، فقال خليل باشا : انه سيبادلهم بالاسرى الموجودين في المعتقلات الانكليزية في الهند بشرط أن يكون هؤلاء في صحة جيدة ، وسيكون الهنود في مقابل العرب، والانكليز في مقابل الاتراك . وبعد تأمل قليل غيّر خليل باشا رأيه في

مبادلة الاسرى العرب اذ قال : انه لا يقبل بعودة الاسرى العرب الى صفوف الجيش التركي لانهم جبناء حيث دلت التجربة على ان الشجعان بين العرب لا تتجاوز نسبتهم الواحد بالمائة ، بينما لا نجد بين الاتراك سوى جبان واحد من كل عشرة • ثم قال خليل باشا يخاطب هربرت : « انتم تستطيعون أن تعيدوا الينا الاسرى العرب اذا شئتم ولكني سوف أحكم عليهم بالموت، فاني أحب أن أراهم مشنوقين » • (٥٧)

انتهت المفاوضة أخيراً من غير نتيجة ، وعاد لورنس مع صاحبيه الى البصرة ، بينما استسلمت حامية الكوت الى الاتراك مع قائدها طونزند •

استسلام الحامية :

في ٢٩ نيسان بينما كان لورنس وصاحباه يفاوضان خليل باشا في المعسكر التركي كان طونزند قد أصدر اوامره بتدمير المدافع الموجودة في الكوت كأنه كان على يقين من أن المفاوضة الجارية لا جدوى فيها •

كان عدد المدافع يناهز الاربعين وتبلغ قيمتها مائة ألف باون ، وقد أخذ الجنود يدمرونها كما دمروا بنادقهم ورشاشاتهم وكل ما كان لديهم مما يمكن أن ينتفع به العدو • وكان آخر شيء دمروه هو جهاز اللاسلكي بعد أن تلقوا به رسائل التعزية من البصرة وأجابوا عليها بكلمة «الوداع» •

وبعد الظهر بقليل من ذلك اليوم ارتفعت الاعلام البيض على خطوط الانكليز في الكوت دلالة على الاستسلام ، فأقبل من المعسكر التركي ضابط برتبة عقيد اسمه « نظام بك » وهو راكب فرسه وخلفه رتل طويل من الجنود الاتراك تتقدمهم الطبول • وعندما اقترب من البلدة استقبله الاهالي بالهوسات وامارات الفرح ، وتقدم افراد منهم لتقبيل حذائه اللماع فأزاحهم عنه بحركة من قدمه •

كان نظام بك قد عينه خليل باشا حاكماً عسكرياً على الكوت ، ولما وصل الى مقر الفرقة في البلدة تقدم نحو الضباط الانكليز واحداً بعد الآخر يسلمون اليه سيوفهم وهو يصافحهم • وقد أبى بعض الضباط

---

(57) Ronald Millar (op. cit.) — p. 273—275.

أن يفعلوا ذلك وشرعوا يكسرون نصال سيوفهم ويرمونها في النهر •(٥٨)

وفي تلك الآونة بالذات انطلق بعض الجنود الاتراك ومعهم بعض الاعراب ينهبون ما يقع عليه نظرهم من ممتلكات الانكليز ، ودخلوا الى المستشفى وأخذوا ينهبون أغطية المرضى وأحذيتهم وما لديهم من اشياء ثمينة • وكان الجنرال مليس راقدا في المستشفى فاختطف أحد الجنود حذاءه مما أثار غضبه فنهض من فراشه وأخذ يجرى وراء الجندي السارق وهو يصرخ ويلعن • ولمحه أحد الضباط الاتراك وهو في تلك الحالة فأسرع لمساعدته واستعاد الحذاء له ، ثم التفت الضابط نحو الجندي السارق وأخذ يصفعه على وجهه ، وكان الجندي يأخذ له التحية بعد كل صفعة يتلقاها منه • (٥٩)

كان طونزند يومذاك متوعكاً وقد أثرت الكارثة عليه فاصفر لونه وظهرت على وجهه امارات الاسى • (٦٠) وقد اعتزل في داره وأناب عنه الجنرال ديلامين لمقابلة نظام بك • وفي اليوم التالي دخل خليل باشا مع حاشيته الى الكوت ، فخرج طونزند لاستقباله ، وقد احترمه خليل باشا كل الاحترام • ولما قدم طونزند له سيفه ومسدسه حسبما جرت العادة عليه رفض خليل باشا أخذهما وقال له: «ليظلا معك لانك تستحق حملهما» • ثم قال خليل باشا يخاطب طونزند : انه سيرسله الى اسطنبول مكرماً حيث يحل ضيفاً عزيزاً على الامة التركية ، ذلك لان الاتراك يقدرون له بسالته في الدفاع عن الكوت ، أما قواته فسوف ترسل الى اماكن في الاناضول معتدلة المناخ قريبة من البحر • (٦١)

وعندما أوشكت المقابلة بين القائدين على الانتهاء ، طلب طونزند من خليل باشا أن يتفضل عليه بأن يرسل كلبه « سبوت » الى صديق له في البصرة لكي يوصله هذا الى انكلترا • وقد وصف طونزند كلبه بأنه

---

(58) Russell Braddon (op. cit.) — p. 257—258.
(59) Ibid, p. 258.

(٦٠) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣١ •
(٦١) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٩٦ •

كان أميناً في خدمته ، ورافقه في المعارك ، وقتل قططاً كثيرة اثناء الحصار . فاستجاب خليل باشا لرغبة طونزند وأرسل الكلب الى البصرة . ولما عاد طونزند الى بيته في انكلترا بعد الحرب وجد كلبه هناك سالماً فالتقى به.(٦٢)

نصب الاتراك مشانق موقتة على شاطىء النهر لشنق الاشخاص الذين تعاونوا مع الانكليز أثناء الحصار ، وقد تطوع رجل من أهل الكوت لاخبار الاتراك باسماء أولئك الاشخاص ، فكان أولهم تاجر يهودي اسمه « ساسون » وقد لعب هذا دورا كبيرا اثناء الحصار اذ هو الذي دل الانكليز على مخابيء الاطعمة لدى أهل الكوت ، وعندما سقطت الكوت كان ساسون مختبئاً على سطح احدى الدور ، فلما حاصره الاتراك رمى بنفسه من السطح فانكسرت رجله ، وانهال الاتراك عليه بالضرب المبرح ثم ساقوه الى المشنقة . (٦٣)

وكان رئيس البلدة الحاج عباس العلي قد حاول الفرار من الكوت قبيل سقوطها هو وابنه سعد وابن اخته محمد نجيب ، حيث ركبوا في طوف وعبروا النهر ولكن الاتراك قبضوا عليهم . (٦٤) ثم جاؤوا بهم يسحبونهم في شوارع البلدة ، وقطعوا اليد اليمنى من كل منهم بالساطور ، ثم شنقوهم على شاطىء النهر . وشنق الاتراك كذلك رجالاً آخرين ، ثم ألقوا القبض على مائتين وخمسين رجلاً فساقوهم الى السراي بتهم مختلفة ، وقتلوهم رمياً بالرصاص . (٦٥)

معاملة الاسرى :

كان عدد الاسرى الذين استسلموا للاتراك في الكوت يزيد على ثلاثة عشر ألفاً ، وكانوا في منتهى الجوع والارهاق ، فأركب الضباط منهم في باخرة ، أما الجنود فقد أوعز اليهم بأن يمشوا على أقدامهم الى موضع « شمران » الذي يقع على بعد تسعة أميال من الكوت ليجدوا الطعام فيه.

---

(٦٢) المصدر السابق – ص ٥٠٣ .
(63) Ronald Millar (op. cit.) — p. 282.
(64) Sandes (op. cit.) — p. 272.
(65) Ronald Millar (op. cit.) — p. 282.

ان أول مشكلة واجهها الاسرى هي كيف يمكن أن يأكلوا الخبز التركي اليابس الذي قدم لهم وهو المسمى بـ « القلاطة » • يقول تحسين العسكري انه شاهد الضباط الاسرى فى الباخرة وهم حائرون في أمرهم مرتبكون ، فعقدوا جلسة فيما بينهم للمداولة فى الطريقة التى تكسر بها القلاطة وتؤكل ، فقال بعضهم انها تكسر بالفأس ، وقال آخرون انها تكسر بالرصاص ، ولما طال جدلهم اقترب منهم تحسين العسكري واخذ يشرح لهم طريقة أكلها باللغة الفرنسية حيث قال لهم انها يجب ان توضع فى منديل مبتل بالماء بضع دقائق حتى تلين ، وعندئذ تستطيع الاسنان ان تقضمها، فشكره الضباط على ذلك •(٦٦)

أما الجنود فكانت مصيبتهم بالقلاطة أعظم ، اذ لم يكن هناك من يهتم بتعليمهم كيف يأكلونها ، ولقد جيء لهم بالقلاطة محملة على أباعر فوضعت على الارض أكواماً وخصص لكل فرد منهم ستة منها • فاتثالوا عليها بنهم شديد ، فأخذ بعضهم يقرمط بأسنانه على حافة القلاطة كما تفعل الكلاب بالعظام ، ومنهم من أهوى بحذائه العسكري الثقيل عليها لتحطيمها الى قطع صغيرة يمكن وضعها في الفم ، أما الصبورون منهم فقد نقعوها في الماء بضع ساعات ، واندهشوا حين وجدوا حجمها يتضخم تضخماً كبيرا • وبعد أن تناولوا منها ما استطاعوا ناموا ، غير أنهم استيقظوا في صباح اليوم التالي على أمر عجيب ، اذ انتشر بينهم مرض يشبه التسمم أو الهيضة ، وصار الكثيرون منهم يموتون الواحد بعد الآخر •

جاء الاطباء الاتراك اليهم ليقولوا لهم انهم يجب أن ينقعوا القلاطة بالماء ثم يخبزوها من جديد قبل أكلها والا" فهي تقتلهم • وهنا واجه الاسرى مشكلة اخرى وهي اين يجدون الوقود الذي يخبزون به القلاطة • وقد حاول الكثيرون منهم جمع الاشواك من هنا وهناك مما حولهم من الاراضي• أما الكسالى والضعفاء منهم ففضلوا أن يأكلوا القلاطة كما هي ويموتوا •(٦٧)

كان عدد الاسرى البريطانيين ٢٨٧٠ رجلاً بينما كان عدد الهنود ١٠٤٤٠

---

(٦٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣٢ •

(67) Russell Braddon (op. cit.) — p. 260—261.

رجلاً ، وكانت التقاليد البريطانية قد جرت على التفريق بين الهنود والبريطانيين في الاسكان والجراية والمرتب ، ولكن الاتراك لم يراعوا تلك التقاليد الطبقية بل حشروا الفريقين معاً ، وساووا بينهم ، مما جعل البريطانيين يعترضون ويحتجون • [٦٨]

اعتاد الاتراك أن يفرقوا في معاملة الاسرى بين الضباط والجنود • ولهذا رأيناهم يعاملون الضباط الاسرى ، بريطانيين أو هنودا ، معاملة حسنة نسبياً ، فقد نقلوهم الى الاناضول بوسائل النقل المختلفة كالباخرة والقطار والعربة ، أو على ظهور الدواب ، وأنزلوهم في الاناضول في بيوت الارمن ، وخصصوا لهم جراية ومرتبات كافية ، ولم يقسروهم على أي عمل بل تركوهم يقضون اوقاتهم بالمطالعة أو اللعب كما يشتهون •

ولكن الاتراك فعلوا العكس من ذلك مع الجنود الاسرى ، فقد جعلوهم يمشون على أقدامهم طيلة الطريق بين الكوت والاناضول تحت وطأة القرابيج وكعوب البنادق ، وكان الطعام الذي يقدم لهم شحيحاً ، والمرضى منهم لا يعتنى بهم بل يتركون على جانب الطريق ليموتوا • وعند وصولهم الى الاناضول كلفوا بالعمل الشاق في تعبيد الطرق ومد السكك وحفر الانفاق •

وكان أشد العذاب من نصيب الاسرى الذين سيقوا الى بلدة أفيون قره حصار ، فقد كان حاكم البلدة يتلذذ بالقسوة وذا ميول جنسية شاذة وطماعاً الى أقصى حد • فكان يجمع الاسرى ويجلدهم لاقل سبب ، واذا اشتهى أحداً منهم أمر جلاوزته بحمله الى مقره حيث يلوط به قسراً •[٦٩] ويقال انه كان من رجال أنور باشا الذين كان يستخدمهم في اغتيال خصومه، وقد عينه أنور باشا حاكماً في هذه البلدة مكافأة له على خدماته السابقة • وقد أحيل هذا الرجل الى المحكمة بعد الحرب وحكم عليه بأقصى العقوبة • [٧٠]

---

(68) Sandes (op. cit.) — p. 285—287.

(69) Russell Braddon (op. cit.) — p. 304.

(70) Barker (op. cit.) — p. 295—296.

كانت نسبة الموت بين الجنود الاسرى عالية ، والملاحظ ان نسبة الموت كانت بين البريطانيين أعلى جداً مما كانت بين الهنود ، حيث مات ٧٠ بالمائة من البريطانيين بينما لم يمت من الهنود سوى ٢٧ بالمائة • ويعزى هذا الفرق الى ان الهنود لهم قدرة على تحمل العذاب اكثر من البريطانيين اذ هم نشأوا على المشقة والجوع منذ طفولتهم •

ومما يلفت النظر أن طونزند لم يكترث لما جرى على جنوده من العذاب وكأنه نسيهم ، فهو قد عاش في اسطنبول عيشة الامراء ، وأحاطه الاتراك بكل وسائل الترف ومظاهر التكريم ، وكثيراً ما كانوا يقيمون له الولائم التي يحضرها كبار رجال الدولة ، وكانوا يمدحونه وهو يرد عليهم بمدح أعظم •

أصبح طونزند من جراء ذلك موضع اللوم في نظر الانكليز ، وقيل عنه انه اهتم بنفسه وبكلبه أكثر من اهتمامه بجنوده ، حيث لم يسمع له صوت في الدفاع عنهم أو في لفت نظر الاتراك للتخفيف عنهم •

وعلى النقيض من ذلك كان موقف الجنرال مليس ، فقد كان هذا الرجل منذ بداية أسره يصرخ بالاتراك طالباً منهم العناية بالجنود ، وكان هو نفسه يعتني بمن يعثر عليه منهم أثناء الطريق • وكان الاتراك يحترمون مليس لما قام به من بطولة في معركة الشعيبة ، ولكنهم لم يتأثروا بصراخه من أجل الجنود الاسرى •

الفصل العاشر

فتـــرة الغـرور

مرت بين تسليم الكوت وسقوط بغداد فترة أمدها عشرة أشــهر تقريباً يمكن أن نسميها « فترة الغرور » لان الاتراك شعروا فيها بالغرور بعد النصر العظيم الذي نالوه في الكوت • ومما زاد في تأثير هذا النصر في نفوسهم أنه جاء عقب نصر أعظم منه هو الذي نالوه في الدردنيل ، فأصبحوا عند ذاك على ثقة تامة بأنهم قد اقتربوا من نهاية الحرب ، وان الغلبة ستكون لهم فيها • ولهذا وجدناهم يقومون بأعمال لـم يكونوا يجرأون على القيام بها من قبل ، وصارت الضراوة ديدناً لهم كأنهـم ظنوا أن الوقت قد حان للانتقام من خصومهم ومخالفيهم •

كان خليل باشا من أكثر الاتراك غروراً وفرحاً فـي تلك الفترة ، فقد اجتمعت لديه عوامل مساعدة على الغرور لم تجتمع في أحد غيره : انه كان يومذاك في عنفوان شبابه وسيماً ، وقد حصل على لقب « الباشا » الذي يندر أن يحصل عليه رجل في مثل سنه ، كما صار الحاكم المطلق على العراق وجزء كبير من ايران علاوة على أن انتصار الكوت تم على يده • ويجب أن لا ننسى أيضاً أنه كان عم أنور باشا ، وتلك منقبة أخرى تضاف الى المناقب السابقة ، فمن هو مثله !

مشكلة الانسان الذي يحوز مثل هذه المناقب الباهرة أنه قد يسيطر عليه الغرور بحيث يتصور كأن الدنيا دانت كلها له ، وأن القدر أعـده لتغيير مجرى التاريخ ، وقد يؤدي ذلك به الى الانغماس في اللـذات ثقة منه أنه يستحق هذا التلذذ جزاء تعبه السابق وانتصاره العظيم •

هام خليل باشا بحب غانية مسيحية اسمها « فلم » ، والمعروف عن هذه الغانية انها كانت ذات جاذبية جنسية قوية وقد أوقعت في شراكها بعض ولاة بغداد السابقين وكبار رجالها ، وكان نجم الدين منلا بك الذي تولى حكم بغداد في عام ١٩٠٨ من جملة المتيمين بها • ولمـا جـاء خليـل باشا الى بغداد وقع في شراكها أيضاً ، يقال انه كان يخلع القلبق الهمايوني

من على رأسه ويضعه على رأسها ، كما يعلق أوسمته على صدرها ، فترقص له بها وتغني ، وهو يقول لها : « أنا الحاكم المطلق على هذه البلاد وأنت الحاكمة عليّ » . (١)

قدوم الاسرى :

يعترف الانكليز أن استسلام حامية الكوت كان أبشع كارثة عسكرية حلت بهم منذ زمن طويل ، ولا يشبهها الا استسلامُ حامية سنغافورة في عام ١٩٤٢ . وقد حاول الانكليز التستر على تلك الكارثة في حينها فلم ينشروا عنها في صحفهم شيئاً ، غير أن خصومهم اتخذوها دعاية كبرى في أيديهم فطنطنوا لها ما شاؤوا ونشروا المبالغات حولها في أنحاء العالم ، وكان تقديم الرشوة ورفض أنور باشا لها من أهم النقاط التي ركز عليها الخصوم دعاياتهم المضادة حيث أظهروا للعالم أنها دليل على أن ساعة بريطانيا قد دنت اذ هي لم تستطع أن تنقذ حامية الكوت بالسيف فحاولت انقاذها بالرشوة ، وان ما فعله أنور باشا عندما رفض الرشوة كان عملاً نبيلاً . (٢)

وكانت هذه الدعاية قد تركزت في بغداد بشكل خاص حيث انتشرت معالم الزينة والمهرجانات في كل مكان فيها ، ونظم الشعراء على عادتهم القصائد ابتهاجاً بتلك المناسبة ، فمدحوا الاتراك وذموا الانكليز ، وهم عبدالرحمن البناء ، عطا الخطيب ، كاظم آل نوح ، عبدالمطلب الحلي ، علي البناء ، محمد مهدي البصير ، جميل صدقي الزهاوي ، محمد علي اليعقوبي ، وغيرهم . (٣)

الواقع أن العامة في بغداد لم يصدقوا بخبر النصر في أول الامر ،

---

(١) علمت عند كتابة هذه السطور ان فلم لا تزال حية ، فذهبت أبحث عنها فلم أوفق . وقد حدثني من شاهدها منذ عهد قريب فقال انها عجوز عمياء أو هي على وشك العمى وكانت قبيل ذلك تمتهن القيادة لتعيش. فسبحان الذي يغير ولا يتغير !

(2) Arnold Wilson (Loyalties) — London 1936 — vol. 1, p. 98.

(٣) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٩٨ـ١٠٣ .

واعتبروه من جملة الاكاذيب والمبالغات التي اعتادت الحكومة عليها في بياناتها الرسمية سابقاً ، غير أنهم بدأوا يغيرون رأيهم عندما شاهدوا قوافل الاسرى تصل الى بغداد تدريجاً ، فصاروا يتساءلون مدهوشين وهم بين مصدق ومكذب ، ثم أيقنوا أخيراً ان خبر النصر صحيح وأن الاتراك غلبوا الانكليز حقاً .

كان الجنرال طونزند أول من وصل من الاسرى الى بغداد حيث تم نقله في زورق بخاري سريع ، وكانت معه حاشية فيها خادمه الهندي « بوغيز » وطباخ برتغالي ومرافقين عسكريين ، فأنزل مع حاشيته في دار القنصلية الايطالية التي تقع على النهر قرب الباب الشرقي . وقد أقام له خليل باشا مادبة عشاء لتكريمه ، وبقي المدعوون بعد تناول الطعام حتى ساعة متأخرة من الليل يستمعون الى حديث طونزند وهو يشرح لهم نظرياته في خطط نابليون العسكرية . (٤)

وفي ٩ أيار وصلت الباخرة « برهانية » وهي تحمل عددا من الضباط الاسرى ، وكان معهم الجنرال ديلامين ، فأنزل الجنرال في دار القنصلية الايطالية مع طونزند ، بينما سيق الضباط من خلال الاسواق الى باب المعظم حيث أنزلوا في ثكنة الخيالة التي تقع على بعد مسافة قصيرة خارج الباب .

وظلت الباخرة « برهانية » تذهب وتعود لنقل بقية الضباط ، وكان من بينهم الجنرال مليس فأنزل مع زميليه ديلامين وطونزند في دار القنصلية الايطالية ، بينما أنزل الضباط الكبار الذين هم دونه في الرتبة في فندق بابل . أما الضباط الصغار فقد سيقوا كزملائهم السابقين الى ثكنة الخيالة .

يقول طالب مشتاق في مذكراته ، وكان يومذاك تلميذاً في المدرسة الاعدادية ببغداد ، انه تمكن من الصعود الى الباخرة لمشاهدة الاسرى ، واقترب من أحدهم وكان هزيل الجسم منهوكاً خائر القوى يعرف بعض الكلمات العربية فأخذ يصف ما حل بهم في الكوت حيث قال : « الانكليز

---

(4) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 282.

دم دم آكو لكن خبز ماكو » • يقصد بذلك ان الانكليز كانوا أقويـاء بسلاحهم ومدفعيتهم ولكن الجوع هو الذي اضطرهم الى الاستسلام•[٥]

وفي ١٤ أيار نادى منادي الحكومة في شوارع بغـداد يعلن عن قرب وصول أفواج الاسرى من الجنود وأن على الاهالي أن يخرجوا الى نواحي باب الطلسم والشيخ عمر للتفرج عليهم • وقـد وصل الاسرى بعد قليل وهم في صفوف طويلة جداً تملأ النظر ، ولكنهم في حالة يرثى لها لانهم قطعوا الطريق كله ما بين الكوت وبغداد مشـياً على الاقدام • فسيقوا من خلال أسواق بغداد المسقوفة ، فكان بعض المتفرجين يبصق عليهم ، ومنهم من كان يسبهم ويسب الصليب معهم ، حتى وصلوا الى الجسر فعبروه الى جانب الكرخ حيث احتجزوا في موضع هناك محاط بالاسلاك الشائكة قرب محطة القطار •

أخذ بعض البغداديين يذهبون الى موضع احتجاز الاسـرى فـي جانب الكرخ وهم يحملون معهم أرغفة الخبز والصمون والبيض والتمر والخيار ، وصاروا يقدمون للاسرى عبر الاسلاك مالديهم مـن أطعمـة مقابل ما لدى الاسرى من نقود أو ساعات يدوية أو أحذية أو معـاطف أو غيرها • فكان بعض الاسرى يضحون بكل شيء يملكونه مـن أجـل خيارة واحدة أو بضع تمرات • وقـد جنى بعض النـاس من هـذه المقايضات أرباحاً غير قليلة •

وفي ١٦ أيار صدرت جريدة « صدى الاسلام » وهي تشـير الى وصول قافلة كبيرة من الاسرى وتذكر المعاملة «الكريمة» التي عوملوا بها ، فقالت في ذلك ما نصه : « غير خفي أن العثمانيين قد قاموا بما فطروا عليه من الاخلاق العالية والفضائل السامية تجاه الاسرى الانكليز ، فقد أكرموهم غاية الاكرام واتخذوا لهم جميع معدات الراحة واعتبروهم كضيوف كما هي عادة الامة العثمانية في الاحسان الى مـن أسـاء اليها ••• ان الضباط كانوا يظهرون اعجابهم من هذه الخصال الحميدة التي اتصف بها العثمانيون وكانت تعلو امارات الخجل والفشل على جباه الكثيرين

---

(٥) طالب مشتاق (اوراق أيامي) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ج ١ ص ١٥ •

منهم تجاه ما يرونه من الاحسان واللطف التي امتازت به أمتنا الكريسة » . (٦)

أنور باشا في بغداد :

في الساعة الثامنة من صباح الجمعة ١٩ أيار ١٩١٦ وصل بغداد بقطار خاص وزير الحربية أنور باشا ، وقد جرى له في المحطة استقبال فخم جدا حضره خليل باشا والقواد وكبار الموظفين وأعيان بغداد وعلماؤها ، كما حضره ألوف الاهالي ، وكان تلاميذ المدارس ينشدون الاناشيد الحماسية . وقد أعدت لانور باشا على شاطىء النهر باخرة أقلته مع كبار مستقبليه الى جانب الرصافة حيث نزل في دار الولاية المطلة على النهر .

ومن الجدير بالذكر أن الضابط العراقي تحسين العسكري كان من جملة الذين استقبلوا أنور باشا في محطة القطار ، وكان هذا الضابط يأمل أن ينال من أنور باشا التفاتاً خاصاً بسبب المعرفة الشخصية التي كانت بينهما لانهما قضيا معاً سنة كاملة في حرب طرابلس الغرب عام ١٩١١ ، ولكن انور باشا خيب ظنه فلم يهتم به ولم يعره أي التفات ، ويعلق تحسين العسكري في مذكراته على ذلك قائلاً :

« كان الخليق به أن يتذكر تلك العهود والصداقة وأن يلاطفني ولو بألفاظ ناشفة ولكن الكبرياء والغطرسة قد وصلت بهؤلاء المخاليق الى درجة أصبحوا معها لا يلتفتون الى الاتعاظ بتقلبات الدهر وصروف الغير، على أنه لم يمض على هؤلاء زمن طويل حتى شاهدنا مصارعهم ونالوا ما كانوا يستحقون » . (٧)

ادى أنور باشا صلاة الجمعة ظهر ذلك اليوم في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ثم أهدى للجامع مصحفاً غلافه من الذهب المرصع بالجوهر . وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر جلس أنور باشا في دار

---

(٦) جريدة « صدى الاسلام » ــ في عددها الصادر في ١٣ رجب ١٣٣٤ هـ .

(٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ــ بغداد ١٩٣٦ ــ ج ١ ص ١٣٥ .

الولاية لاستقبال أعيان بغداد ورؤسائها الروحانيين والقناصل • وأثنى أثناء ذلك على غيرة أهل بغداد وحميتهم ووطنيتهم • وفي الساعة الرابعة ركب باخرة لزيارة الاعظمية والكاظمية ، وأهدى لكل من الجامعين فيهما مصحفاً كالمصحف الذي اهداه الى جامع عبدالقادر ، كما أرسل هدايا ثمينة الى كربلا والنجف • (٨)

لم يبق أنور باشا في بغداد سوى ستة أيام كانت مشحونة بالزيارات والمقابلات والجولات التفتيشية • ففي ٢١ أيار زار جبهة الكوت ومكث في الجبهة حتى المساء حيث منح أوسمة الى أعلام الكراديس وأمر باتخاذ بعض الاجراءات ثم قفل عائداً الى بغداد • وفي ٢٤ أيار زار جبهة خانقين وخطب في الضباط هناك فشكرهم على أعمالهم وحثهم على التضحية في سبيل انهاء حرب ايران ، ثم عاد الى بغداد • (٩)

وقد انتهز الشعراء الفرصة فنظموا القصائد «العصماء» في الترحيب بأنور باشا والتغني بمناقبه ومناقب الاتراك ، وذكر مثالب الانكليز ، وقد نشروا قصائدهم هذه في جريدة « صدى الاسلام » كان منها قصيدة عبدالرحمن البناء التي كان مطلعها :

أنار حمى بغداد منذ جاء أنور ... بوجه من الاقمار أبهى وأنور (١٠)

وكانت قصيدة جميل صدقي الزهاوي طويلة بمائة بيت ولم تتمكن الجريدة من نشرها الا في اعداد متتالية ، وهذه بعض أبياتها :

أأنور أنت اليوم درع لامة ... يحاربها ثلثا الانام واكثر
وانك سيف الله يمحو به العدى ... ويخذلهم حتى يموت التجبر
قدمت على رحب لبغداد انها ... لفضلك في هذى الزيارة تشكر
ليهنك ان الفوز في الكوت شامل ... وان فريق البغي أصبح يؤسر
وما هذه في الدهر أول مرة ... رأى الحق فيها الانكليز فأنكروا

---

(٨) جريدة « صدى الاسلام » ـ في عددها الصادر في ١٩ رجب ١٣٣٤هـ.
(٩) محمد امين العمري (تاريخ حرب العراق) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ج ١ ص ١٥٨ ـ ٢٠٠ •
(١٠) جريدة « صدى الاسلام » في عددها الصادر في ١٩ رجب ١٣٣٤ هـ •

بغوا مرة بعـد أخـرى فنالهم   أذى البغي والتاريخ أمـر مكرر

وكان أنور باشا أثناء مكوثه في بغداد قد استعرض الاسرى ، فقدم له بعضهم عرائض يشكون فيها من الجوع والعذاب ، ويقال انه أمر بالترفيه عنهم . وعندما وصل أنور باشا الى الموصل في طريق عودته الى اسطنبول وجد هناك قافلة من أسرى الضباط ، وكانوا آنذاك قد حشروا في ساحة احدى الثكنات استعدادا لنقلهم الى الاناضول ، فأشرف عليهم أنور باشا من الطابق الثاني وأخذ يخطب فيهم بالفرنسية قائلا : انه معجب كل الاعجاب بالضباط الانكليز ، وأنهم ماداموا في أيدي الاتراك سيعاملون كضيوف مكرمين لدى الدولة العثمانية . ثم أضاف الى ذلك قائلاً انه قد تأسف عندما سمع بأن سيوفهم أخذت منهم ، وأنه سيتخذ الاجراءات الكفيلة باعادتها اليهم . (11)

الفتنة في كربلا :

في ٢١ نيسان ١٩١٦ ــ أي قبل استسلام الكوت بثمانية أيام ــ حدثت مشاجرة في كربلا بين الشيخ فخري كمونة وعلي أفندي آمر الدرك أدت الى نشوب فتنة عارمة هلك فيها الكثيرون من الاهالي وجنود الحكومة .

كان سبب المشاجرة ان فريقا من اتباع فخري تجمهروا أمام سراي الحكومة وأخذوا يطلقون النار في الهواء ، فطلب آمر الدرك من فخري منعهم وأخذ أسلحتهم فلم يفعل وخرج من السراي ، فأمر آمر الدرك جنوده باطلاق النار عليه ، فرد عليهم اتباع فخري بالمثل ، وسقط على أثر ذلك من الفريقين ثلاثون قتيلاً أو اكثر ، وساد الرعب في كربلا وانقطع الطريق بينها وبين النجف .

لم يكن في كربلا يومذاك سوى مائة دركي ، فأرسلت الحكومة اليها من بغداد ثمانين جنديا مجهزين بالقنابل اليدوية ، ثم أمدتهم بمفرزة من الجنود كانوا حينذاك في طريقهم الى الديوانية بقيادة الضابط ابراهيم حقي بك ، وبذلك تجمع لدى المتصرف في كربلا زهاء ثلاثمائة جندي مع

(11) Barker (op. cit.) — p. 299.

مدفعين . (١٢)

أرسل الشيخ فخري الى العشائر المجاورة يستنجد بها لمعاونته على حرب الحكومة ،فأنجدته العشائر بعدد كبير من الرجال ، كما جاء اليه من النجف الحاج عطية أبو قلل ومعه نفر من اتباعه المسلحين . واستطاع فخري بما تجمع لديه من أتباع وأعوان أن يحاصر سراي الحكومة ومخافر الشرطة ، ومنع الباعة من بيع الاطعمة للجنود كما منع سقائي الحكومة من أخذ الماء من نهر الحسينية .

وفي ٩ أيار أرسل المتصرف الى فخري انذارا بوجوب الطاعة أمده ثماني وأربعون ساعة . وفي عصر اليوم التالي ــ أي قبل ان تنتهي مدة الانذار ــ أطلق الكربلائيون النار على الجنود ، فرد الجنود عليهم باطلاق المدافع .

كان الجنود قد تحصنوا في القسم الشرقي من البلدة ، بينما كان الاهالي متمركزين في القسم الغربي منها . وفي صباح ١١ أيار هجم الجنود على الدور التي تحصن فيها الاهالي ، فنشبت معركة شديدة في الازقة وشبت النار في بعض الدور بسبب ذلك . وتمكن الجنود أن يحتلوا دار فخري كمونة فلم يجدوا فيها سوى ختمه وبطاقة تشير الى انتمائه الى جمعية الاتحاد والترقي . (١٣)

كان الشيخ فخري قد أرسل الى اخواله آل مسعود القاطنين في جنوب المسيب يطلب منهم احداث كسرة في سدود الفرات ، ففعل هؤلاء ما طلبه منهم ، وانحدر الماء من الفرات وكان فائضاً نحو كربلا ، وفي ١٢ أيار دخل الماء الى البلدة فغمر القسم الشرقي منها وهو القسم الذي تحصن فيه الجنود، وصار هؤلاء بين عدوين : الاهالي من جانب والفيضان من الجانب الآخر.

وكان يوم ١٤ أيار يوماً عصيباً على الجنود اذ اصبحوا مطوقين والرصاص ينهمر عليهم من المنائر وشبابيك الدور وشرفات السور ، فسقط منهم ضابطان جريحان وثلاثة جنود قتلى واربعة جرحى . وغمرت مياه

---

(١٢) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ٢٤٧ .

(١٣) المصدر السابق ــ ج ١ ص ٢٤٧ .

الفيضان جميع البلدة ماعدا المنطقة القديمة منها وهي المنطقة التي تمركز فيها الاهالي ، ولم يكن في مقدور الجنود ادخال المدافع والعجلات فيها لضيق أزقتها . واضطر الجنود أخيراً الى الانسحاب من كربلا بعد أن حملوا معهم موظفي الحكومة ودفاترها وأوراقها . (١٤)

وشاع في كربلا يومذاك ان العباس عليه السلام هو الذي هزم الجنود بسيفه ، وقال بعض الناس انهم شاهدوا العباس راكبا فرسه وهو يطارد الجنود ، وهم يفرون من أمامه مذعورين ويصرخون : «امام عباس كلدى»!

ان هذا النصر الذي ناله الكربلائيون قد بعث فيهم الفخر والفرح بلا شك ، غير أنه كان فرحاً لم يدم طويلاً ، وسرعان ما أدرك الكربلائيون أن محاربتهم الحكومة جاءت في وقت غير مناسب ، وان الحكومة لابد أن تنتقم منهم بعد الانتصار العظيم الذي نالته في الكوت .

ذهب الشيخ محمد علي كمونة الى النجف ليرجو من السيد كاظم اليزدي التوسط في الصلح مع الحكومة ، والظاهر ان النجفيين كانوا قد شعروا حينئذٍ بالخوف من الحكومة أيضا فكلموا اليزدي في ذلك ، فأبرق اليزدي الى أنور باشا الذي كان قد وصل بغداد آنذاك يتشفع عنده لاهل كربلا والنجف ، فأجابه أنور باشا ببرقية هذا نصها :

« مخرجي قوناغ . ادارة تلغراف الحلة ترسله الى سيد محمد كاظم الطباطبائي . نجيبكم عن تلغرافكم المرسل الينا بأن أهالي النجف وكربلا خرجوا على الحكومة وأنهم عاملين مخالفة لرضاء الله ورسوله ، ونظراً لحرصنا على الحالة الاسلامية وحقن الدماء واحترامنا للمجاهدين وعلماء الدين ورأفة الحكومة بفقراء المحلين وشفقتنا عليهم صدر أمرنا لدولة والي الولاية وقائد جيشها بتمام الرفق عند التعقيب وترتيب المجازاة ـ التوقيع : صهر السلطنة ووكيل الخليفة الاعظم في قيادة الجيوش الاسلامية ناظر الحربية أنور » .

ويقال ان أنور باشا عندما اجتمع بالسيد مهدي الحيدري في الكاظمية رجا السيد منه أن يسعى نحو اطفاء الفتنة في كربلا بالطرق السلمية دون

---

(١٤) المصدر السابق ـ ج ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

اللجوء الى القوة العسكرية ، فاستجاب انور باشا لرجائه . واستقر الرأي أخيراً أن يترأس السيد مهدي الحيدري وفدا للذهاب الى كربلا ورتق الفتق فيها .

تألف الوفد بالاضافة الى رئيسه السيد مهدي من ثلاثة من أولاده هم السيد عبدالحميد والسيد أحمد والسيد راضي ، مع الشيخ عبدالكريم الجزائري ، والمرزا محمد رضا الشيرازي ، والشيخ عبدالحميد الكليدار ، واثنين من رجال الحكومة هما حلمي بك وحامد أفندي . فسافروا الى كربلا بالعربات ، فوصلوها في ٣٠ أيار ، وقد خرج أهل كربلا لاستقبالهم ، وقيل ان النساء كن اثناء الاستقبال يتصارخن ويلطمن على رؤوسهن اشعارا بالندم على ما فات وطلباً للغفران . واتفق ان وصول الوفد كان في يوم الاحتفال بذكرى مبعث الرسول في ٢٧ رجب ، فقال أحد الكربلائيين يخاطب السيد مهدي : « كما أن الله قد بعث جدك الاعظم (ص) في هذا اليوم رحمة للعالمين ، فقد بعثك اليوم رحمة لنا » . [١٥]

اجتمع الوفد برؤساء كربلا ، فأظهر هؤلاء الطاعة التامة وقالوا انهم ينتظرون عودة حكومتهم غير مشترطين شرطاً ، واعتذروا عما فات بأن سببه المتصرف حمزة بك والقائد علي افندي ونعمان افندي الاعظمي ، وقالوا انهم يخشون أن يسمم هؤلاء أفكار الحكومة عنهم، فطمأنهم حلمي بك قائلاً ان الوفد سيبقى في كربلا حتى وصول الهيئة الجديدة من الموظفين الى كربلا . [١٦]

عينت الحكومة متصرفاً جديداً اسمه أسعد رؤوف بك ، وقد وصل هذا المتصرف الى كربلا مع موظفيه في شهر تموز . وسارت الامور في كربلا منذ ذلك الحين سيراً اعتيادياً هادئاً ، الى أن وصلت الاخبار بسقوط بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ فعادت الفوضى عند ذاك الى كربلا من جديد — كما سنأتي اليه في الفصل القادم .

---

(١٥) احمد الحسيني (الامام الثائر) — النجف ١٣٨٦ هـ — ص ٦١ .
(١٦) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

الفتوح في ايران :

في الوقت الذي كانت فيه الحكومة مشغولة بقضية كربلا على النحو الذي ذكرناه كان الروس يهددون حدود العراق من نقطتين ، فقد كان هناك جحفل روسي بقيادة الجنرال باراتوف قد وصل الى مقربة من خانقين ، وكان هناك جحفل روسي آخر بقيادة الجنرال جرنازوبوف يزحف نحو العراق من جهة رايات في الشمال وقد تغلغل داخل الحدود العراقية فاحتل راوندوز في ١٣ أيار ١٩١٦ •

حين وصل أنور باشا الى بغداد كان أهم ما يشغل باله هو هذا التهديد الروسي للعراق • وفي صباح ٢٥ أيار انعقد في بغداد مؤتمر عسكري حضره أنور باشا وخليل باشا وعلي احسان بك وقائد ألماني اسمه فون لوسوف • وقد انتهى المؤتمر الى وضع خطة عرفت باسم « أنور ــ فون لوسوف » ، وهي تتضمن الامور التالية :

اولاً : يتقدم الفيلق الثالث عشر بقيادة علي احسان بك لمحاربة الجنرال باراتوف والزحف باتجاه كرمانشاه وهمدان وقزوين •

ثانياً : يتقدم جحفل السليمانية المؤلف من لواء مشاة وفوجي حدود في داخل ايران باتجاه سنه •

ثالثاً : يتقدم جحفل الموصل المؤلف من الفرقة الرابعة لاستعادة راوندوز من الروس والزحف باتجاه بلدة صاوجبلاق ــ التي تعرف الآن باسم « مهاباد » ــ ثم أورميه وتبريز وخوي •

ان القسم الاول من الخطة كان أهم ما فيها وهو الذي يتعلق بتقدم الفيلق الثالث عشر نحو كرمانشاه بقيادة علي احسان بك • وكان هذا الفيلق مؤلفاً من فرقتين ولواء خيالة ، وكان معظم جنوده قد جيء بهم من جبهة الكوت حيث ظنت القيادة التركية أن هذه الجبهة ستكون هادئة خلال اشهر الصيف الحارة وان الجنود ينبغي أن يرسلوا الى جبهة أخرى أكثر نشاطاً منها •

وفي الساعة الرابعة من صباح ٣ حزيران ١٩١٦ نشبت معركة ضارية بين القوات التركية والروسية بالقرب من خانقين وفي بساتينها ، وقد أدار علي احسان بك المعركة ببراعة • وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم

تم النصر للاتراك وانسحب الروس مهزومين ، ولكن القوات التركية لم تتمكن من استثمار النصر الذي أحرزته لعدم استعدادها للتقدم .[١٧]

وأخذت القوات التركية بعد هذا تتوغل في داخل ايران وتحرز الانتصارات الواحد بعد الآخر وقد ساعدها على ذلك تفوقها في المدافع اذ كان لديها أضعاف ما لدى الروس منها . أضف الى ذلك ان الخيالة الروس الذين كانوا من القوزاق المتعودين على البرد لم يستطيعوا تحمل حر الصيف ، وكانت ملابسهم شتائية ثقيلة فانتشرت بينهم الامراض وفقدوا كثيرا من خيولهم .[١٨]

ومما يلفت النظر ان العشائر في تلك المنطقة أخذت تنضم الى القوات التركية على أثر كل انتصار تناله تلك القوات ، وهي تقول انها جاءت للجهاد في سبيل الله . وعند هذا أصدر على أحسان بك أمره بتعيين الضابط ضياء بك قائداً للعشائر العراقية ، والحاج عارف بك قائدا للعشائر الايرانية. وفي ٢٦ حزيران بلغ عدد المجاهدين من العشائر الايرانية نحو ١٥٠٠ راجل و ١٢٥٠ خيال ، وكانوا برئاسة السردار ناصر خان والسردار رشيد والامير أسعد .[١٩]

تم احتلال كرمانشاه في ٣٠ حزيران ، وهمدان في ١٠ آب . وقد استقبل أهل همدان القوات التركية بفرح عظيم وذبحوا لها الذبائح.[٢٠] وعندما وصلت أخبار هذه الانتصارات التركية الى العاصمة طهران سيطر الرعب على الجالية البريطانية فيها وظنوا أن طهران على وشك السقوط في أيدي الاتراك ، واستعدت المفوضية البريطانية في طهران للرحيل عنها ، غير أنها لم ترحل بل اكتفت بارسال النساء الى بلدة « أنزلي » الواقعة

---

(١٧) شكري محمود نديم (الجيش الروسي في حرب العراق) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ٢٤ ــ ٣٠ .

(18) Percy Sykes (A History of Persia) - London 1958 - vol. 2, p. 451—452.

(١٩) محمد امين العمري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ٢٠٩ــ٢١٥ .

(٢٠) المصدر السابق ــ ج ١ ص ٢٣٠ .

على بحر الخزر • [٢١]

وبينما كان الفيلق الثالث عشر يحرز تلك الانتصارات الباهرة كان جحفلا السليمانية والموصل في الشمال يعانيان المشاق دون أن يحرزا أي تقدم يذكر • ويعزى بعض السبب في ذلك الى ان هذين الجحفلين كان اعتمادهما في الغالب على العشائر وكان الجنود النظاميون فيهما قليلين نسبياً، وقد أثبتت الوقائع أن العشائر أقرب الى الطبيعة الغوغائية منهم الى النظام العسكري ، فهم يتحمسون للقتال عندما ينتصر الجيش الذي يحاربون معه، غير أنهم لا يكادون يلمحون أقل بادرة تدل على انكساره حتى يتفرقوا عنه ويعود كل فريق منهم الى موطنه متذرعين بشتى المعاذير والحجج •

ولابد لنا في هذه المناسبة من الاشارة الى الكارثة التي حلت بجحفل الموصل ، فقد كان خليل باشا يلح على هذا الجحفل بأن يزحف عبر الحدود باتجاه صاوجبلاق ، وكان قائد الفيلق غير موافق على هذا الزحف لما كان جنوده يعانونه من نقص في المؤون والمعدات • ففي ١٣ آب كتب هذا القائد يقول : انه في أشد الحاجة الى عتاد وحيوانات ، والى أحذية ومسامير، والى أدوية وضمادات ، والى دراهم ، وانه سبق أن طلب هذه الحاجات الضرورية عدة مرات ولم يصل منها شيء ، ولكنه على أي حال سيبدأ بالزحف غدا وأمره الى الله • وقد زحف الجحفل فعلاً في اليوم المعين ، فاستدرجه الروس الى داخل ايران ، وفي ٢٢ آب شنوا عليه هجوماً شديدا فقطعوا عليه خط الرجعة وأبادوه عن بكرة أبيه • [٢٢]

اوج الغرور :

ان خطة « أنور ــ فون لوسوف » التي أشرنا اليها آنفاً لم تكن من الناحية السوقية صحيحة على الرغم من بريق النصر فيها ، وقد انتقدها الخبراء العسكريون بشدة واعتبروها خطة يغلب عليها التفاؤل المفرط والخيال العاطفي •، فلقد كان الواجب على أنور باشا ومستشاريه أن يركزوا

---

(21) Percy Sykes (op. cit.) — vol. 2, p. 451—452.

(٢٢) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ــ ص ٧٧ــ٧٨ •

اهتمامهم في الدرجة الاولى على ازاحة الخطر الانكليزي الجاثم في جنوب العراق ، والذي كان يهدده في كل لحظة ، قبل أن يفكروا بالفتوح والامجاد العسكرية في جبهة ايران التي تعد ذات أهمية ثانوية بالنسبة الى جبهة العراق .

يقول الناقد العسكري محمد أمين العمري : ان خطة « أنور — فون لوسوف » خطة وطنية شعرية تجعل الشبان القابضين على زمام الامور في تركيا يتخيلون أن تكون ايران وافغانستان جسرا لهم يوصلهم الى بلاد طوران — أي تركستان بلاد جدهم الاكبر جنكيز خان — ومن هناك ينحدرون نحو الهند لتهديد الامبراطورية البريطانية منها . لقد كانت تلك آمالا شعبية اذ يحتاج تحقيقها الى أموال وجيوش لم تكن متوفرة لدى الاتراك يومذاك . ويقول العمري ان دفع الفيلق الثالث عشر الى همدان ضرب من الجنون لا مبرر له من الوجهة السوقية، فان ابتعاد هذا الفيلق عن مركزه في دجلة بما يقارب ثلاثين مرحلة يجعله لا يستفاد منه للدفاع عن العراق ، وكان في نية أنور باشا دفع هذا الفيلق الى قزوين وطهران غير أن الاعتراضات الشديدة التي وجهها قائد الفيلق علي احسان بك من حيث أمور الاعاشة والملابس أرغمت أنور باشا على الموافقة على التوقف في همدان ، أما الخطر الروسي الذي كان يهدد بغداد في شهر أيار ١٩١٦ فكان من الممكن دفعه الى ما وراء ممر بايطاق وابقاء قوة ضئيلة من الفيلق هناك للدفاع عنه ، ثم اعادة بقية الفيلق الى جبهة دجلة للدفاع عنها تجاه الخطر الانكليزي المتوقع . (٢٣)

وعلى أي حال فقد كان علي احسان بك يرسل من مقره في همدان الى خليل باشا في بغداد برقية وراء أخرى يشكو فيها من قلة العتاد والمواد الغذائية لقواته ويبدي رغبته في التوقف عند الحد الذي وصل اليه فلا يتقدم أبعد منه وذلك لابتعاده عن مركز الجيش في بغداد وطول خطوط مواصلاته. ولهذا قرر خليل باشا الذهاب بنفسه الى همدان لدراسة الموقف العسكري فيها .

---

(٢٣) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٤١-٢٤٣ .

غادر خليل باشا بغداد مع حاشيته في تشرين الثاني ١٩١٦ ، وحين وصلوا الى كرمانشاه نزلوا في ضيافة حاكم المنطقة ، وأقام لهم نظام السلطنة مأدبة فاخرة حضرها أعيان البلدة وأحد أمراء الافغان ، فألقى فيها خليل باشا ونظام السلطنة والامير الافغاني خطباً رنانة أعربوا فيها عن وجوب تساند ايران والدولة العثمانية وجميع الشعوب الاسلامية في حرب الكفار حتى الفوز النهائي • وبعد ثلاثة ايام غادر خليل باشا وحاشيته كرمانشاه متجهين الى همدان ، وحين وصلوها نزلوا في ضيافة القائد علي احسان بك وكان يسكن قصرا بديعا • وقد أقام لهم هذا القائد مأدبة فاخرة حضرها بعض كبراء ايران ، ووقف خليل باشا يخطب فيهم حيث قال : انه جاء الى همدان لكي يرجو من علي احسان بك بأن يتوقف في مكانه فلا يستمر في زحفه حتى يتضح الموقف في جبهة رومانيا • ثم أعلن خليل باشا عن ثقته التامة بأن النصر النهائي سيكون للدولة العثمانية وحلفائها وبذلك سينفتح الطريق نحو افغانستان وبلاد طوران •

وفي اليوم التالي تحرك خليل باشا وحاشيته نحو بغداد • يقول محمد أمين العمري وكان من جملة الحاشية : انهم بعد أيام قضوها في الانس والطرب بدار حاكم كرمانشاه عادوا الى بغداد في أواخر تشرين الثاني ، وقد وجدوا في بغداد عدة تقارير عسكرية تؤيد ما كان الطيارون الالمان قد اكتشفوه منذ شهر ايلول عن الاستعدادات العظيمة التي كان الانكليز يعدونها للهجوم في جبهة الكوت ، ولكن قائدنا الهمام خليل باشا ما زال منغمساً في سكره وطربه ولم يهتم بأمر الهجوم الانكليزي المتوقع ، كما لم يهتم بوجوب اعداد خطة الرجعة لجيشه • (٢٤)

عاد خليل باشا الى معشوقته فلم ، وربما ازداد لها عشقاً بعد انتصار قواته في ايران • وصارت قصته مع فلم تنتشر بين العامة على منوال ما حدث لقصة ناظم باشا مع سارة خاتون ، حيث أخذ الناس يتحدثون عنها في المقاهي والدواوين ويحوكون حولها الاساطير والمبالغات،

---

(٢٤) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج ١ ص ١١٧ ـ ١١٩ •

واتهمها بعضهم بأنها جاسوسة تسترق الاسرار العسكرية من خليل باشا وتبعثها الى الانكليز سرا • وكان النصارى من أهل بغداد يحبونها لانها أنقذت الكثيرين منهم من بطش الحكومة • وحدثني رجل كان في تلك الايام جندياً ينقل الرسائل الى خليل باشا : انه شاهده في اليوم الذي سبق سقوط بغداد وكانت بين يديه فلم ترقص له وتغني الاغنية التى كانت شائعة بين الناس في تلك الايام :

ظلام زوجوني هلي بالنوط والوعدة سنة

بين العرب والاتراك :

عندما اندلعت الثورة العربية في الحجاز في ١٠ حزيران ١٩١٦ لم يعلم بخبرها في العراق الا نفر محدود من الناس ، فقد كان الانكليز والاتراك معاً يميلون الى تقليل الحديث عنها استصغارا لشأنها وكراهية لها •

كان للثورة العربية صدى سيء بين المسؤولين البريطانيين في الهند والعراق ، وتمنوا اخفاقها • وقال شلمسفورد نائب الملك في الهند : ان الثورة العربية سوف تثير حنقاً لدى المسلمين في الهند لانهم سوف يعتبرونها دسيسة بريطانية ضد الخلافة الاسلامية ، وهذا يؤثر تأثيراً سيئاً على معنوية الهنود المجندين في الجيوش البريطانية • (٢٥)

أما الاتراك فقد هزتهم الثورة وتألموا منها تألماً عميقاً ، غير أنهم كانوا يستهينون بها ويستصغرون شأنها أمام الناس ، ويزعمون أنهم سيقضون عليها قريباً لتفاهتها • وأخذوا يبثون الدعاية السيئة حول الشريف حسين فجعلوه عميلاً بريطانيا خان أمته وضرب الخلافة الاسلامية من الخلف لقاء دراهم معدودة •

يمكن القول ان الثورة العربية كانت عاملاً اضافيا في زيادة العداء الذي كان قائماً بين العرب والاتراك في العراق • يقول كامل الجادرجي في مذكراته : انه لمس بعض الاتراك للعرب لمساً واقعيا على أثر اندلاع الثورة العربية في الحجاز ، فقد كان في بغداد حينذاك طبيب تركي اسمه فاضل

---

(25) Philip Graves (Sir Percy Cox) — London — p. 205.

بك يلقي المحاضرات على الدورة الصحية التي كان الجادرجي مجندا فيها ، وكان هذا الطبيب يكره العرب كرهاً شديداً وقد بلغت الكراهية به بحيث انه كان كثيرا ما يشذ عن الموضوع في محاضراته لينهال على العرب سباً وشتماً ويتوعدهم بحساب عسير عندما تضع الحرب أوزارها • [٢٦]

أصبحت عبارة « عرب خيانت » على كل لسان في تلك الايام ، واعتبرها الاتراك كأنها حقيقة واضحة لا شك فيها ، وظلوا يرددونها بعد انتهاء الحرب بمدة طويلة • ومن طريف ما يحكى في هذا الشأن ان الوزارة النقيبية الاولى، التي تشكلت في العراق بعد الحرب ، كان من بين أعضائها رجل من بقايا العهد التركي اسمه عزت باشا الكركوكلي ، ولما تداول مجلس الوزراء أمر الضباط العراقيين الذين اشتركوا في الثورة العربية من أجل اعادتهم الى العراق واعتبار عملهم في الثورة خدمة تقاعدية انبرى عزت باشا فتساءل قائلاً : «ألا يكفي أنهم تخلصوا من المشانق حتى نمنحهم هذا الوسام لقاء خياناتهم » • [٢٧] انه يعتبر الاشتراك في الثورة العربية خيانة ، فتأمل !

ومن الجدير بالذكر ان الكثير من الناس ظلوا بعد الحرب يعتقدون ان الثورة العربية كانت السبب الاكبر في زوال الدولة العثمانية حيث كانوا يقولون : « هذه نتيجة الثورة على الدولة العثمانية ، لو لم تقم الثورة لما أتى الاحتلال » • وقد رد عليهم ساطع الحصري بقوله : « مثل هؤلاء الذين يدعون الآن الى الندم على الثورة كمثل من يغادر دارا آيلة للسقوط، ثم عندما يتعرض الى عاصفة هوجاء يقول : (ياليتني كنت باقيا في الدار)، غافلاً أن الدار نفسها تهدمت من جراء تلك العاصفة ، وأنه لو بقي فيها لعرض نفسه الى أخطار أشد وأعظم من التي يجابهها الآن » • [٢٨]

مشكلة « النوط » :

نعني بالنوط النقود الورقية التي أصدرتها الحكومة العثمانية لتحل

---

(٢٦) كامل الجادرجي (من أوراق كامل الجادرجي) ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٤٧ •
(٢٧) خيري العمري (حكايات سياسية) ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٦٩ •
(٢٨) ساطع الحصري (نشوء الفكرة القومية) ــ بيروت ١٩٥٦ ــ ص ٢٤٠ •

محل نقود الذهب والفضة . وكانت الحكومة قد أصدرت خلال الحرب كميات كبيرة جدا من النقود الورقية لسد نفقاتها العسكرية ، وأخذت تفرضها على الناس قسرا مما أدى الى هبوط قيمتها في الاسواق تدريجاً .

نشرت جريدة « صدى الاسلام » في ٢٥ أيار ١٩١٦ خبرا محليا مفاده أن المحكمة العسكرية حكمت بغرامة قدرها خمس عشرة ليرة على محمد بن علي صانع سيد محمد الصراف الكظماوي لامتناعه عن قبول الاوراق النقدية .[٢٩] وفي ١٢ تموز نشرت الجريدة بلاغا صادرا من الحكومة منعت به التعامل بالنقود المعدنية منعاً باتاً وأوجبت على كل من لديه شيء منها أن يذهب الى رئيس لوازم الفيلق لاستبدالها بالنوط ، وانذرت من يخالف ذلك بالعقوبة الصارمة . وقالت الجريدة تعليقا على هذا البلاغ ما نصه :

« فلينتبه الطماعون الذين نسوا الله وأنفسهم لهذا البلاغ الصارم وليعتبروا الاوراق النقدية كالذهب بلا فرق والا فلا يلومون الا أنفسهم ، لان الحكومة أيدها الله ستحارب بكل قوتها من يعرقل تداول الاوراق النقدية أو يخل بقيمتها الحقيقية . ولا شك أن الذي يتصدى لهكذا معاملات رديئة ستضربه الحكومة بمقامع من حديد » .[٣٠]

يبدو أن التشديد في فرض النوط على الناس أدى الى ازدياد هبوط قيمته في الاسواق ، ففي تشرين الثاني بلغت قيمة النوط ربع قيمته الرسمية أو دون ذلك . وأخذ رجال الحكومة يزدادون شدة على الناس كلما ازدادت قيمة النقد هبوطاً . وكان أشدهم في ذلك وكيل الوالي فائق بك ، فقد كان هذا الرجل كما وصفه عباس العزاوي : « سيء السيرة قاسياً على الاهلين لا يبالي بهم ويستهين بأمورهم» .[٣١] وكان يشاركه في ذلك مدير الشرطة سعدالدين بك .

---

(٢٩) جريدة « صدى الاسلام » ــ في عددها الصادر في ٢٣ رجب ١٣٣٤ هـ .
(٣٠) جريدة « صدى الاسلام » ــ في عددها الصادر في ١٢ رمضان ١٣٣٤ هـ .
(٣١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٢٩٩ .

نال اليهود من تلك الشــدة أكبر نصيب لان معظم الصرافين في بغداد كانوا منهم وقد اتهمتهم الحكومة بأنهم كانوا السبب في هبوط قيمة النوط فألقت القبض على عدد منهم وألقت بهم في السجون • يقول يوسف غنيمة في ذلك ما نصه : « قبضت الحكومة قبيل احتلال بغداد على عدد من اليهود ونكلت بهم سرا تنكيلاً شنيعاً وجدعت أنوفهم وقطعت آذانهم وســملت عيونهم ووضعتهم في أكياس والقتهم في دجلة » • [٣٢] ولست أدري مبلغ صحة هذا القول ، وقد سألت بعض الاشخاص الذين عاصروا تلك الاحداث عن ذلك فلم يؤيدوا صحته ، وقال أحدهم : ان التعذيب وقع على اليهــود فعلاً ولكن ليس بهذه الصورة المبالغ فيها •

الواقع أن بلاء النوط قد عم أكثر الناس على درجات شتى ، فكان من المناظر المألوفة في الاسواق حينذاك أن يأتي الضابط أو الجندي الى السوق وبيده ورقة نقدية من فئة الليرة الواحدة ، اذ هو يريد أن يشتري بها ما يشاء من بضاعة على أن يرجع له البائع بقية الورقة حسب قيمتها الرسمية ، ويضطر البائع عند هذا أن يقدم للضابط البضاعة التي يطلبها ثم يعيد له الورقة أيضاً معتذرا بأنه لا يملك بقية لها • وقد شوهد أحد الجنود يفعل هذا مع بائعــة خبز فأخذت تبكي وتستغيث قائلة أنها أرملة وعندها أيتام تعولهم ، فاجتمع المارة حول الجندي يتوسلون اليه أن يرحم تلك المرأة المسكينة ، فرضــخ الجندي لتوسلاتهم مرغماً ومضى في طريقه مدمدماً •

حدثني رجل كان في تلك الايام صبياً يعمل في دكان والده البقــال، فكان والده يسرع الى الاختفاء في داخل الدكان حالما يرى ضابطاً داخــلاً الى السوق ، وينتصب ابنه مكانه في مقدمة الدكان ، فاذا جاء الضابط يريد شراء شي قال له الصبي : « ان والدي غير موجود وأنا لا أعرف البيع » • وكانت تلك حيلة بارعة نجحت في أكثر الاحيان •

وحدثني رجل آخر بقصة وقعت للشقي المشهور حسن كبريت ، فقــد كان هذا الشقي ذات يوم في السوق وقد أخرج كيس نقوده لدفع ثمن شيء

---

(٣٢) يوسف رزق الله غنيمــة (نزهــة المشتاق في تاريخ يهــود العــراق) ــ بغداد ١٩٢٤ ــ ص ١٨١ ــ ١٨٢ •

اشتراه ، وكان الكيس مليئاً بالليرات الذهب ، فلمحه ضابط ومعه جنديان فأمسك بالكيس يريد مصادرته ، ولكن حسن استطاع أن يطرح الضابط أرضاً ويضع رأس خنجره على عنقه مطالباً اياه باعادة الكيس والا فهو سيذبحه • فسلم الضابط له الكيس صاغرا وخرج مهرولاً من السوق مع الجنديين • وقد ارتفعت مكانة حسن في نظر الناس ارتفاعاً عظيماً من جراء هذا العمل « البطولي » !

حاولت الحكومة توفير بعض السلع وبيعها للناس في مخازن عامة حسب السعر الرسمي للنوط•[33] ولكن عملها هذا لم يلق نجاحاً كبيرا لتفسخ الجهاز الاداري اذ لم يستفد منه سوى أولي النفوذ والمناصب العالية ، أما سواد الناس وصغار الجنود فلم يستفيدوا منه شيئاً •

ومما يجدر ذكره ان بعض الموظفين استغلوا مشكلة النوط وجنوا منها أرباحاً غير قليلة ، فاذا جاءهم مراجع وهو يحمل مبلغاً من النوط لدفع ما عليه من ضرائب أو رسوم عرقلوا معاملته ، ولا يسهلونها الا اذا دفع لهم بالذهب • وهم يسجلونها في السجلات الرسمية بالنوط طبعاً •

وقد استغل بعض الاهالي مشكلة النوط كذلك ، فهم اذا كانوا مدينين بمبالغ كبيرة ، أو كانت لهم دور مرهونة ، أسرعوا فسددوا ديونهم بالنوط حسب سعره الرسمي ، ولا يستطيع الدائنون أن يعترضوا على ذلك خوفاً من العقاب • والواقع ان المدينين لم يكونوا كلهم من هذا القبيل ، فقد امتنع البعض منهم عن تسديد ديونهم بالنوط اذ اعتبروا ذلك عملاً محرماً لا يرضى عنه الله !

جادة خليل باشا :

لم تكن بغداد في العهد العثماني تحتوي على شارع ، بل كان فيها أسواق مسقوفة ودروب وأزقة يتصل بعضها ببعض • وكان أول شارع ببغداد هو شارع النهر الذي شقه ناظم باشا في عام ١٩١٠ ، وهو في الواقع لم يكن شارعاً لضيقه وعدم استقامته بل هو بالزقاق أشبه •

---

(٣٣) يوسف غنيمة (تجارة العراق) ــ بغداد ١٩٢٢ ــ ص ١٢٠ •

عزم خليل باشا على أثر انتصاره في الكوت أن يكون أول من يشق شارعاً حقيقياً ببغداد ، وان يكون الشارع ممتدا على طول بغداد من الباب الشرقي الى باب المعظم بموازاة نهر دجلة • والمظنون أن هناك ثلاثة عوامل دفعت خليل باشا الى شق الشارع هي :

(١) العامل العسكري : فقد كانت متطلبات الحرب تقضي بفتح الشارع لتسهيل مرور المدافع والمعدات الحربية من بغداد الى الجبهة ، وكان الطريق يدور حول المدينة ويلاقي الجنود في ذلك مشقة الحر صيفاً ومشقة الوحول شتاءاً • [٣٤]

(٢) العامل المالي : ان شق الشارع في أيام السلم يكلف الحكومة أموالاً طائلة لتعويض أصحاب الدور المهدومة ، أما في أيام الحرب فهو لا يكلف الحكومة الا قليلاً اذ هي تستطيع أن تعوض أصحاب الدور بسندات تدفع بعد الحرب ، ولم يكن في مقدور أحد أن يعترض على ذلك•

(٣) العامل الشخصي : فقد كانت « الموضة » الشائعة بين حكام الولايات العثمانية في تلك الفترة هي التنافس والتباهي بفتح الشوارع ، فكان كل واحد منهم يحب أن يفتح شارعاً في مدينته بحجة اعمار البلاد انما هو في اعماق نفسه يريد ان يطلق اسمه على الشارع الذي يفتحه ويخلد ذكره في التاريخ •

بدأ العمل بشق الشارع في شهر أيار ١٩١٦ ، فاستدعى رئيس البلدية رؤوف بك الجادرجي أصحاب الدور التي سيخترقها الشارع واتفق معهم على أن يدفع لهم مبلغاً يعادل ايجار دورهم لسنة واحدة على أن يفاوضهم لشرائها بعد انتهاء الحرب • [٣٥] وقد دفع لهم المبلغ بالنقود الورقية طبعاً فكان ذلك سبباً لانتشار التذمر الشديد بينهم • يقول كامل الجادرجي في مذكراته وهو أخو رؤوف : « وقد سبب ذلك العمل استياءاً بالغاً لدى أصحاب العلاقة وغيرهم واعتبروا رؤوف مسؤولاً عنه • وكان والدي أيضاً

---

(٣٤) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ــ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ج ٢ ص ١٩١ •

(٣٥) المصدر السابق ــ ج ٢ ص ١٩٢ •

من جملة المستائين وان كان قد استفاد من الوضع الجديد استفادة مادية حيث أصبحت لدارنا جبهة طويلة على الشارع العام » • [٣٦]

وكان هناك سبب آخر لانتشار التذمر بين الناس ، هو أن موظفي البلدية ومهندسيها كانوا كغيرهم من موظفي ذلك الزمان يتأثرون بالمحسوبية والوساطة والرشوة وما أشبه ، فصاروا يغيرون في تخطيط الشارع حسبما توحي به تلك الدوافع • يقول عبدالكريم العلاف وكان قد عاصر الحادث: « ولما شرعوا في فتحه ظلموا كثيرين من الناس وجاروا على الضعيف ، والذين قدروا أن يرشوا من بيده الامر وجد لهم ألف عذر لعدم هدم داره والتعرض لها » • [٣٧]

الواقع ان شق الشارع كان يجري بطريقة عجيبة ، حيث جيء بحبلين طويلين ومدا فوق سطوح الدور لتحديد مساحة الشارع بها • ويقال ان مرور أحد الحبلين فوق احدى الدور كان معناه نزول الكارثة على أهل تلك الدار ، فينبعث العياط والعويل منها ، ويسرع رب الدار الى اصدقائه لكي يرشدوه الى من يساعده على ازاحة الحبل عن داره لقاء رشوة • وكثيرا ما كان الحبل يتحول من دار الى اخرى حسب مبلغ الرشوة التي تدفع أو النفوذ الذي يستخدم • انها كانت مهزلة تدعو الى البكاء والضحك معاً •

ولما وصل شق الشارع الى محلة الحيدرخانة واجه المسؤولون هناك مشكلة مستعصية هي وجود سوق للاوقاف يعترض امتداد الشارع المقرر ، فان هدم هذا السوق قد يؤدي الى غضب رجال الدين ونقمتهم في وقت كانت الحكومة في حاجة الى رضاهم • وعلى أي حال فان رؤوف الجادرجي استطاع في احدى الليالي أن يهدم السوق خلسة حيث حشر له عمالاً كثيرين ظلوا يعملون فيه طول الليل • ولما أشرقت الشمس وجد الناس أنفسهم أمام الامر الواقع ، ولم ينبس رجال الدين ببنت شفة •

تم فتح الشارع في مدة وجيزة ، وجرى افتتاحه في يوم الاحتفال بذكرى اعلان الدستور — أي في ٢٣ تموز ١٩١٦ — وقد أطلق عليه اسم

---

(٣٦) كامل الجادرجي (المصدر السابق) — ص ٥٠ •

(٣٧) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) — بغداد ١٩٦٠ — ص ٢٤١ •

«خليل باشا جادة سي»، وكتب هذا الاسم على قطعة من الكاشي وضعت على جدار جامع السيد سلطان علي . [٣٨]

ومما يلفت النظر أن الشارع ظل حتى يوم سقوط بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ـ أي اكثر من سبعة أشهر ـ وهو مليء بالحفر يعلوه التراب ، فلم يهتم المسؤولون بتسوية أرضه أو تبليطه . وكانت الدور مهدومة على الجانبين وأصحابها لا يزالون يسكنون فيها وقد علقوا بعض العباءات والستائر لحجب أنظار المارة عنهم . ونظم الرصافي قصيدة في وصف حالة الشارع نقتطف منها الابيات التالية :

نكّب الشارع الكبير ببغدا	د ولا تمش فيه الا اضطرارا
تحسب العابرين فيه سكارى	من هواء تنسموه غبارا
هو ان رُشّ جاش وحلاً والا	جاش نقعاً على الوجوه مثارا
واذا ما مشيت في جانبيه	فتجنب رصيفه المنهارا
فجدار عالٍ وفي الجنب منه	متدانٍ تقيسه أشبارا [٣٩]

وعندما كانت بغداد على وشك السقوط غادرها رؤوف الجادرجي حيث سافر الى اسطنبول ومنها الى برلين بحجة الاطلاع على التنظيمات البلدية فيها [٤٠] والظاهر أنه خشي أن ينتقم الناس منه في عهد السقوط لما فعله بهم في العهد البائد .

ولم يكد الانكليز يفتحون بغداد حتى بدأوا يبلطون الشارع لتسهيل نقلياتهم فيه ، وأطلقوا عليه اسم « الشارع الجديد » ، ولكن القطعة التي تحمل اسم خليل باشا بقيت على جدار جامع السيد سلطان علي بضع سنوات حتى رفعتها امانة العاصمة عندما أطلقت على الشارع اسم « شارع الرشيد » وهو الاسم الذي لا يزال باقياً حتى الآن . وقد روى أحد البغداديين أنه زار خليل باشا في اسطنبول في أواخر عمره ، فوجده

---

(٣٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج ٨ ص ٢٩٤ .
(٣٩) معروف الرصافي (ديوان الرصافي) ـ بيروت ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٤٠) كامل الجادرجي (المصدر السابق) ـ ص ٥٠ .

ممتعضاً لحذف اسمه من الشارع وهو يعاتب البغداديين على ذلك ٠

واقعة الحلة الكبرى :

كانت الحكومة التركية عقب انتصارها في الكوت تتحين الفرص للانتقام من أهل الحلة جزاء ما فعلوا بالجنود في العام الماضي من تقتيل ذريع ، ولكي تجعلهم عبرة لغيرهم ٠ فعينت قائمقاماً جديداً للحلة اسمه مصطفى بك المميز ، والظاهر أنها أوصته بأن يعامل أهلها بخشونة ويعمل على تأديبهم ٠

أخذ القائمقام الجديد يتبع مع الحليين طريقة العجرفة ، فكان يهين رؤساءهم وينتهرهم أو يهددهم لاقل سبب ٠ وفي أحد الايام حدثت مشاجرة عنيفة بينه وبين أحد الرؤساء اسمه الحاج علي الحاج حسن ، فخرج الحاج علي من دائرة القائمقام غاضباً ، وفي صباح اليوم التالي أرسل جماعة من أتباعه المسلحين الى القائمقام في داره فأخرجوه منها ، وساروا به في الشوارع أمام الناس ، ومروا به على القشلة ، وعبروا به الجسر نحو الجانب الآخر من النهر ، ثم أركبوه احدى العربات التي كانت تعمل بين الحلة وبغداد ، وأجبروه على مغادرة الحلة حالاً ٠ (٤١)

وحين وصل القائمقام الى بغداد صار يرسل البرقية تلو البرقية الى اسطنبول طالباً الاقتصاص له من أهل الحلة الذين اهانوا الدولة بشخصه ٠ (٤٢) ويبدو ان الحكومة لم تكن بحاجة الى مثل هذا التحريض للانتقام من الحلة ٠ يقول محمد أمين العمري : ان خليل باشا كان في كرمانشاه حين وصله من بغداد نبأ حادث الحلة ، فأصدر أمره برقياً الى الميرألاي عاكف بك بأن يتحرك بأسرع ما يمكن لتأديب الحلة ٠ (٤٣)

غادر عاكف بك بغداد في ٦ تشرين الثاني ١٩١٦ فوصل المسيب

---

(٤١) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج ١ ص ١٦٤ ٠

(٤٢) نقلا عن تعليق لجعفر الخياط على كتاب المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٩٨ ٠

(٤٣) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ٢٥٠ ٠

بعد يومين وأخذ يحشد فيها قواته • وفي ١٣ منه تحرك من المسيب بقواته ومدافعه نحو سدة الهندية ، وكان يصحبه في النهر زورق حربي وفصيل من المشاة يركبون الشختاتير ، وكانت تصحبه كذلك طائرة واحدة •

أراد عاكف بك أن يستعمل الحيلة في مهاجمة الحلة ، فأرسل الى رؤسائها يخبرهم بأنه لا يريد بهم شراً وأنه انما يريد المرور من البلدة في طريقه نحو الجنوب ، وهو يرجو أن يسمحوا له بذلك • فاجتمع رؤساء الحلة في بيت السيد محمد علي القزويني للمداولة في الامر ، واختلفوا في الرأي حيث وافق فريق منهم على مرور القوات التركية من بلدتهم ، بينما رفض الفريق الآخر ذلك • واشتد الخلاف بين الفريقين وساد الهرج والمرج • (٤٤)

كان السيد محمد علي القزويني من الموافقين على المرور ، ووقف يخطب في الحاضرين يحثهم على الطاعة واظهار شعار الخضوع لامر الحكومة ، فأيده أكثرهم ، وألفوا موكباً عظيماً اجتمع فيه معظم سكان الحلة لاستقبال القوات التركية والترحيب بها • فالتقى الموكب بتلك القوات في مشهد الشمس ، وهو موضع قريب من البلدة، وتكلم القزويني مع القائد معتذرا عما فات ، فلم ينطق القائد عاكف بك بشيء وبهت الناس كأنهم شعروا بالخطر • فأحاط الجنود بهم ومنعوهم من العودة ، ثم صاروا يلقون القبض على كبرائهم ، وحين تساءل هؤلاء عن سبب ذلك أجابهم عاكف بك بما معناه : « ان اهل الحلة قوم متمردون على الحكومة وقد عُرفوا قبل اليوم بأنهم عصاة جناة ، واننا نريد الدخول الى المدينة وضبطها وتخريب ملاجيء الاشقياء ، وقد أبقيتكم ودائع عندي حتى ندرك ما نريد ، فان تعرض المفسدون للجنود فما يجري عليهم يجري عليكم بكل شدة » • (٤٥)

ثم أرسل عاكف بك فوجاً من جنوده الى البلدة بصحبة مختاري المحلات ، فاحتل الجنود الثكنة والمخافر ودور الحكومة وجميع المواضع

---

(٤٤) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٦٨ •
(٤٥) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة •

العالية التي تشرف على البلدة . وبعد أن تم له ذلك أعلن للحاضرين في مشهد الشمس قائلا ان أهل الحلة كلهم يستحقون العقوبة ولكن «مرحمة» وردت من الحكومة للعفو عنهم وسوف لا ينال العقوبة الا المذنبون فقط . فرفع الناس أيديهم يلهجون بالدعاء للحكومة ، وسمح لهم بالعودة الى بيوتهم .

وفي يوم ١٦ تشرين الثاني نادى المنادى في الحلة أن لا يخرج أحد من داره ابتداءاً من عصر ذلك اليوم لان المدافع ستصب قنابلها على ثلاث من محلات البلدة هي الطاق وجبران والجامعين ، فأخذ سكان تلك المحلات يسرعون في مغادرتها ملتجئين الى المحلات الاخرى . وأخذت المدافع تطلق قنابلها على المحلات الثلاث طيلة ساعتين . [٤٦] ثم أرسل عاكف بك سرية من الجنود يحملون المعاول والمجارف والقنابل اليدوية ، فشرعوا يفتحون أبواب الدور بالقوة ويحتلونها . [٤٧] ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن بعض الجنود عثروا في احدى الدور على مصحف فأخذوا يتساءلون متعجبين كيف يمكن أن يكون القرآن في بيت أرمني ؟! انهم كانوا يحسبون أهل الحلة من الارمن ثائرين على الاسلام .

استمر تدمير الدور حتى يوم ١٩ تشرين الثاني ، وكان لدى عاكف بك قائمة باسماء عدد كبير من أهل الحلة ، فأمر بالقاء القبض عليهم ، وأرسل مفارز عديدة الى القرى المجاورة للبحث عن الهاربين منهم . ثم أمر بتشكيل محكمة عسكرية لمحاكمتهم ، فحكمت المحكمة بشنق ١٢٧ رجلاً منهم ونفي ٢٣١ آخرين .

ان تنفيذ الشنق كان يجري على دفعات يوماً بعد يوم . ويقال ان عاكف بك أراد أن يشنق نفس العدد الذي قتل من جنوده في العام الماضي حتى أنه شنق شخصاً كان أخرس وأطرش وأعمى اكمالاً للعدد . [٤٨]

كان من بين المشنوقين الحاج علي الشيخ حسن الذي كانت فعلته

---

(٤٦) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٦٩ .
(٤٧) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٥٢ .
(٤٨) كامل الجادرجي (المصدر السابق) — ص ٤٩ .

مع القائمقام السبب المباشر للواقعة ، وكذلك شُنق معه أخوه وهيب • وكان أخوه الثاني محمد سعيد محكوماً عليه بالشنق أيضا فهرب الى الديوانية والتجأ الى المتصرف عزت بك لدالة له عليه ، فأبرق المتصرف الى عاكف بك يسأله عما يفعل بهذا الرجل ، فكان جواب عاكف بك : « بر دقيقة فوت ايتمكسزين صلباً اعدامي » — أي اصلبه حالاً — فشنق المسكين في الثكنة العسكرية ليلاً دون أن يشعر به أحد من أهل الديوانية • (٤٩)

بلغ عدد القتلى من أهل الحلة الذين قتلوا أثناء القتال والمطاردة ألفاً وخمسمائة ، بينما كانت خسائر الجنود خمسة وثلاثين بين قتيل وجريح •وأمهل عاكف بك أهل الحلة مدة أربع وعشرين ساعة لتسليم سلاحهم ، كما أمر بمصادرة أموال المتهمين الذين أدانتهم المحكمة ، فكان مجموع ما صودر من الحبوب نحو ثلاثة آلاف طن • ولم تنته أعمال التنكيل الا في ٢٧ تشرين الثاني حين أصدرت الحكومة عفواً عن بقية المتهمين ، وقبلت دخالة ٦٥١ رجلاً فسيقوا الى أماكن مختلفة • (٥٠)

أما الذين حكمت عليهم المحكمة بالنفي فقد سيقوا مشياً على الاقدام نحو الاناضول ، وكان فيهم عدد من النساء والاطفال ، فمات قسم منهم من الاعياء والجوع • قيل ان أسرة واحدة من أهل الحلة نفي منها واحد وعشرون شخصاً فمات منهم في الطريق سبعة • (٥١)

كانت قافلة المنفيين قد جيء بها الى بغداد في طريقها الى الاناضول ، فأنزلت ليلة واحدة في الكاظمية في خان يدعى « خان قنديل » قرب باب البلدة ، وتجمهر أهل الكاظمية في الساحة التي تقع أمام الخان وهم في دهشة لا يعرفون ماذا جرى • حدثني أحد الذين شهدوا الحادثة فقال : انهم سمعوا امرأة من احدى غرف الخان المطلة على الساحة وهي تستغيث بهم : « يا أهل الغيرة نحن جواعه » ، فتراكض الناس لاغاثتهم وصاروا

---

(٤٩) مصطفى نورالدين الواعظ (الروض الازهر) — الموصل ١٩٤٨ — ص ٤٥٠ •
(٥٠) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٥٢—٢٥٣ •
(٥١) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٧٠ •

يرمون أليهم أرغفة الخبز رمياً ، كما قذفوا بالارغفة من فوق السطوح .

صدى الواقعة :

انتشر الخوف في الفرات الاوسط على أثر واقعة الحلة وصارت كل بلدة تخشى أن يحل بها مثلما حل بالحلة . فالديوانية مثلاً وهي كانت على علاقة حسنة بالحكومة انتشر فيها الرعب أيضاً . يروي مفتي الديوانية اسماعيل الواعظ : ان الحكومة كانت في تلك الآونة تريد مد أسلاك التلغراف الى موضع قريب من السماوة فأحضرت على شاطىء النهر في الديوانية أعمدة خشبية بغية نقلها بالسفن الى ذلك الموضع ، وقد اضطرب أهل الديوانية عند رؤيتهم الاعمدة ظناً منهم أنها جمعت تمهيداً لانزال كارثة بهم تشبه كارثة الحلة ، وذهب المفتي الى المتصرف عزت بك يخبره بالامر ، فاستدعى المتصرف رؤساء البلدة وأوضح لهم الغرض من جمع الاعمدة فهدأ روعهم . (٥٢)

كانت النجف اكثر من غيرها اهتماماً بواقعة الحلة ، وظن أهلها أن دورهم في انتقام الحكومة قد اقترب ، فأرسلوا الى العشائر في الفرات الاوسط والغراف يطلبون منهم الحضور في النجف ، وقد حضر اليها بعض رؤساء الخزاعل وآل فتلة وآل شبل والغزالات ، وعقدوا مؤتمرا للنظر في الاجراءات التي يجب اتخاذها في حالة توجه القوات التركية نحو النجف للانتقام منها . وقام مبدر الفرعون رئيس آل فتلة فألقى خطابا مكتوبا على الحاضرين لتحميسهم على محاربة الحكومة . ننقل فيما يلي جزءاً من الخطاب :

« ... أما بعد يا اخواننا من العرب الذين نمتهم الاعراق ، وتجاذبتهم الانساب الى قحطان ... انظروا الى ما يفعلونه بقضاء الحلة وقتل النفوس المحترمة ، وهتك الاعراض المصونة ، فوالله لبطن الارض خير من ظهرها ان ركنتم لهذه الافاعيل الهمجية . وليعلم كل من ينتمي الى قحطان ان هذه الدولة تريد امحاءكم من وجه البسيطة وتستبدل بكم من عنصرها

---

(٥٢) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٥٠ .

التركي ••• فكونوا أحراراً في دنياكم ولا تركنوا الى الذل والاسترقاق، ألستم أبناء تلك الليوث الضارية التي فتحت الامصار ومدنت المدن ؟ • فما الذي يقعدكم عن المطالبة بحقوقكمْ والدفاع عن اعراضكم وبلادكم ؟•

« اعلموا ان الرجل ليدافع ويقاتل فيقتل على ثلاثة أمور : دينه وعرضه وماله ، أما الدين فان الاتراك أهملوه باستخفافهم بحرمة شهر رمضان ، وما أجروه من ضرب الكعبة بمدافعهم ، وتخريب قبة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام بالمدافع والديناميت••• وأما ما فعلوه من هتك حرمة الاعراض وقتل النفوس المحترمة وسلب الاموال فهذا لغني عن البيان لانكم مطلعون عليه من بعض اعمالهم بالحلة وما فعلوا بها ، وقد أخبرني رجل من الثقاة لا يسعني ذكر اسمه أن مدير البوليس في بغداد يكتب تذكرة لاحد الاشراف : ان امرأتك أو ابنتك متهومة بالفعل القبيح يلزم تسليمها للمحل العمومي ، مع علمه بعفتها ، ولكنه يريد بذلك سلب أمواله ، فيضطر ذلك الرجل لدفع هذا الامر المهم بما يملكه من الثروة •

« فبالله عليكم هل يحسن السكوت أمام هذه الشنائع ؟ وهل يقول أحد ان هذه الدولة الظالمة يجب علينا طاعتها ؟ فوالله كل من ركن لمثل هذه الافاعيل وأطاع هذه الدولة الظالمة فانه خلي من الغيرة العربية ، أما قرأتم جرائدها ؟ انها تنطق بالتفرقة وتحقير العرب ، وها هي طافحة باهانة العرب حتى أنهم يلقبون الكلب الاسود باسم (عرب) ••• » (٥٣)

وقد تحمس الحاضرون عند سماعهم لهذا الخطاب ، واتفقوا على تشكيل قوة عشائرية للتوجه الى الحلة ومحاربة الحكومة قبل أن تبعث الحكومة بقواتها اليهم • والمظنون انهم كانوا قد علموا بالاستعدادات الهائلة التي كان الجيش الانكليزي يقوم بها للزحف على الكوت ، ومن يدري فربما كانت هناك اتصالات سرية تجري بينهم وبين الانكليز في هذا الشأن • ومهما يكن الحال فقد خرجت القوة من النجف ، وانضم اليها في الطريق كثير من أبناء العشائر ، فوصلوا الى مقربة من الحلة في ١٥

---

(٥٣) فريق مزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ج ١ ص ٤٤ ــ ٤٥ •

كانون الاول ، وحصلت مناوشة بالرصاص بينهم وبين الجنود الاتراك وكان الجيش الانكليزي في ذلك الحين قد بدأ هجومه في جبهة الكوت مما شجع النجفيين على التمادي في القتال ، وقيل انهم تمكنوا من الدخول الى الحلة ولكن الجنود ضايقوهم فتركوا اعلامهم وهربوا بعد أن سقط منهم عدد من القتلى والجرحى •

أدت تلك الحادثة الى توتر الوضع في النجف ، وأصبحت العلاقة بين الاهالي والموظفين سيئة مما اضطر الموظفين الى مغادرة النجف والاقامة في الكوفة • وشعرت القيادة التركية بحراجة موقفها على أثر اشتداد الهجوم الانكليزي عليها في جبهة الكوت ، فأرتأت العودة الى سياسة الملاينة والتهدئة من جديد• وفي١٧ كانونالاول أصدر خليل باشا بلاغاً عاماً هذا نصه :

« ٤ كانون ــ بعد أن أجرينا التأديبات للعصاة الذين هم قابلوا اجراءات الحكومة ، تعرض بعض السرسرية للعسكر الذي أراد أن يتوجه الى الناصرية لاجل مقصد عسكري وهم سيلقون جزاءهم اللائق بهم • وأما أهل النجف وكربلا فاننا نعد كأن لم تكن مصادماتهم التي وقعت في السنين السابقة ولا نعاقب من كان يدخل منهم في تلك الوقعات ولا نجري بحقه حركة تأديبية أبداً ، وقد بينت ذلك لوكلائهم الذين زاروني سابقاً وبلغتهم ان قولي هذا عائد الى عفو جميع القباحات السابقة • فمن اليوم وصاعدا كل من اشتغل بشغله من أهل القصبات والعشائر وحافظ صداقته الى الدولة فاني أكرر قولي بأن لا أجري بحقه التأديبات القانونية ولا الحركات العسكرية الا" من تعرض للحكومة والعسكر وتطور بطور يخالف حركاتهم من أهل القصبات والعشائر ، فيعلم أنهم ليسوا لائقين للشفقة وأني أجازيهم باشد صورة ، فينبغي اعلان ذلك رسماً بكل محل ، وقد بلغنا ذلك الي قومندان فرقة الفرات ومتصرفي كربلا والديوانية ومعاوني ولاية بغداد ــ التوقيع خليل قائد الجيش السادس » • (٥٤)

وعمدت الحكومة كذلك الى اتباع سياسة الاسترضاء مع أهل الحلة،

---

(٥٤) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

فسحبت عاكف بك من الحلة وأرسلت بدلاً عنه رجلاً معروفاً بالتسامح والطيبة هو عبدالمجيد بك الذي كان قائمقاماً في الكاظمية ، فأخذ هذا الرجل يعمل على تطييب الخواطر هنالك • ثم أرسلت الحكومة لجنة للتحقيق في الواقعة ومعرفة أسبابها • (٥٥)

يمكن القول على أي حال ان الحكومة التركية أساءت الى نفسها في واقعة الحلة أكثر مما انتفعت • فهي أرادت ان تلقن رعاياها درساً ولكن السمعة السيئة التي لصقت بها من جراء الواقعة كانت أكثر ضررا من منفعة تلقين الدرس • والواقع ان الانكليز وحلفاءهم استغلوا واقعة الحلة في دعايتهم الحربية استغلالاً واسع النطاق ، وكذلك استغلها الشريف حسين في تبرير ثورته على الاتراك ، وقيل انه عندما سمع بها اعتبرها تأييدا من أهل العراق لثورته •

يبدو أن الاتراك كان يدفعهم حب الانتقام من أهل الحلة أكثر من حبهم لمصلحة دولتهم ، أي أنهم كانوا مدفوعين بالعاطفة بدلاً من التفكير المتزن • ويجب أن لا تنسى في هذه المناسبة ان الحاكم لا يجوز له أن يتأثر بالعاطفة في أحكامه ، فاذا تأثر بها انتهى أمره الى الخسران في الامد البعيد • وقد صدق الشاعر العربي حين قال :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب   ولا ينال العلا من طبعه الغضب

قضية الجادرجي :

رفعت بك الجادرجي ـــ الذي هو والد السياسي المعروف كامل الجادرجي ـــ كانت له أملاك وبساتين قريبة من الحلة ، وعندما وقعت واقعة الحلة كان هو فيها ، وقد اتهمه بعض الحليين بأنه هو الذي أقنع رؤساء البلدة بوجوب استقبال القوات التركية ، وقال لهم ان الحكومة لا تريد بهم شراً ، وكان بذلك قد ساعد الحكومة على تمرير الحيلة على أهل الحلة•

وفي وقت لاحق اتخذ خصوم كامل الجادرجي هذه التهمة ذريعة للتهجم عليه ، وكتبوا في ذلك مقالات نشروها في الصحف البغدادية •

---

(٥٥) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـــ ج ٨ ص ٣٠١ •

وحاول كامل تبرئة والده فكتب في مذكراته يقول : ان والده فعل على الضد مما نسب اليه اذ هو أبدى رأيه لأهل الحلة بصراحة مستهيناً بقيمة الوعد الذي قطعه عاكف بك لهم ، وأوضح لهم أنه ليس واثقاً بهذا الوعد ، وقد شاع رأيه في البلدة وتداولته الافواه ففر كثير منهم ممن كانوا يعتقدون بأن الحكومة ستعاقبهم • ويضيف كامل الجادرجي الى ذلك قائلاً ما نصه :

« وقد اعتبرت السلطة والدي مسؤولاً عن حوادث الثورة الى حد ما بالنظر الى الوضع الذي كان قد اتخذه وكيله وعن موقفه من خطة القيادة مما سهلَ هروب الكثيرين ممن كانت تريد السلطة التنكيل بهم ، ولذلك حُجز وأجري التحقيق معه من قبل السلطة العسكرية المحلية• والظن الغالب أن أخي رؤوف الذي كان يشغل منصب رئاسة بلدية بغداد كان له الشأن الاكبر في انقاذ والده اذ كان قد علم بنية الحكومة بحق والدي عن طريق الصدفة وذلك بأن التقى بأحد المقربين الى خليل باشا في وليمة وكان ذلك الشخص ثملاً فخاطب أخي رؤوف قائلاً : سوف تصبح غنياً في القريب العاجل • ففهم أخي من هذه الاشارة ان الخطر يهدد والده • ان هذه الحادثة قد أثرت في والدي تأثيراً سيئاً وجعلته ينسحب من الميدان السياسي ويجاهر بعدائه للاتراك ورغبته في تخليص العراق من الظلم والاضطهاد النازلين به بالرغم من طبيعة التكتم عنده • وقد أتاحت لي هذه الحادثة فرصة للمجاهرة أمامه للمرة الاولى بكرهي للاتراك وتنديدي بسياستهم ، وكنت من قبلُ أتجنب تلك الامور وأتحاشاها بحضرته ولشد ما سرني أني لم ألق منه اعتراضاً » • (٥٦)

يمكن القول ان رفعت الجادرجي كان أثناء واقعة الحلة في موقف دقيق للغاية بحيث اعتبره الاهالي أنه في جانب الحكومة بينما اعتبرته الحكومة أنه في جانب الاهالي • وهذا أمر كثيراً ما يحدث حين يقف شخص بين فريقين متعاديين ، فهو يحاول أن يرضي الفريقين ولكنه يغضبهما معاً حيث يتهمه كل فريق بأنه مع الفريق الآخر •

---

(٥٦) كامل الجادرجي (المصدر السابق) — ص ٤٩ •

الفصل الحادي عشر

سقوط بغداد

بينما كان الاتراك يتنعمون بفترة الغرور على النحو الذي ذكرناه في الفصل الماضي ، كان الانكليز منهمكين كل الانهماك في حشد قواتهم استعداداً لاعادة الكرة على الاتراك وفتح بغداد . انهم كانوا يشعرون بالعار من الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم في الكوت ، فصمموا على أن يستعيدوا هيبتهم التي فقدوها بأي ثمن .

الجنرال مود :

عين الانكليز قائداً جديداً لقواتهم في العراق هو الجنرال ستانلي مود ، وكان هذا الرجل مثالاً نادرا للحزم والمقدرة على العمل الدائب . انه كان الشخص المناسب في المكان المناسب .

كان مود في بداية الحرب يقود لواءاً من الجيش الانكليزي في فرنسا ، فاصيب بجراح خطيرة نقل على أثرها الى المستشفى ، وحين شفي من جراحه ارسل الى معارك الدردنيل بعد أن رقي الى قائد فرقة ، ولما انتهت معارك الدردنيل نقل مود هو وفرقته الى العراق حيث ساهم في حملات الانقاذ التي أرسلت لفك الحصار عن الكوت . وفي ١١ تموز ١٩١٦ رقي مرة ثانية فأصبح قائدا لفيلق دجلة . وبعد ٤٨ يوما رقي مرة ثالثة فصار القائد العام للجيش الانكليزي في العراق حيث حل محل الجنرال ليك .

يمكن القول ان الجنرال مود كان على النقيض من القائد التركي خليل باشا . فبينما كان خليل باشا مغرورا متفائلا يقضي جزءا كبيرا من وقته مع معشوقته فلم ، كان مود منكباً على عمله الى الدرجة القصوى اذ هو يكاد لا يعرف في حياته سوى ما يتصل بشؤون عمله وكيف يقوم به على الوجه الاكمل . وصفته الصحافية الامريكية اليانور ايغان التي زارته في بغداد بعد فتحه لها فقالت : انه يدأب على العمل طيلة الوقت الذي

هو غير نائم فيه ، وهو دقيق كل الدقة في توقيت اعماله ، حيث يستيقظ في الخامسة صباحا فيقضي ساعتين في النظر في أوراقه واملاء البرقيات ، ثم يتناول فطوره في الساعة السابعة ويذهب الى مكتبه في الساعة الثامنة. كان شعاره ان الوقت عنصر في غاية الاهمية في الحرب ، ولهذا فهو ينزعج كل الانزعاج حين يجد أحدا يتأخر دقيقة واحدة عن موعده معه أو يضيع لحظة من وقته الثمين . (١)

وكان مود بالاضافة الى ذلك ذا مقدرة عجيبة على العمل وعلى التركيز فيه ، فهو يكاد لا يتعب ، وقد ساعدته على ذلك قوة بنيته . ولكن هذه المزية في مود تقابلها خصلة فيه تعد من معائبه ، فقد كان يحب أن يجمع الامور كلها في يده ، ولا يفوض امراً الى أحد غيره ، وكان يهتم بالتفاصيل ولا يترك شيئاً يفلت من اشرافه وتدقيقه . (٢) وكانت حجته في ذلك ان القواد قبله كانوا يفوضون الكثير من أمورهم الى مساعديهم، وكان هؤلاء تنقصهم الهمة والنشاط من جراء رداءة المناخ وكثرة العمل ، فأدى ذلك الى فشلهم . (٣) تقول اليانور ايغان في وصف مود : انه لولا تلك الخصلة فيه لكان رجلاً عظيماً بلا حدود . (٤)

وكان مود يختلف عن القواد الذين سبقوه بميله الى استعمال أسرع الوسائل في التنقل لكي يشرف بنفسه على سير المعارك . فبينما كان القواد قبله يجلسون في مكاتبهم ويتصلون بالجبهة بوسائل المواصلات المختلفة ، كان مود يزور الجبهة بنفسه ويستخدم الطائرات او القوارب السريعة في ذلك ، وحين يعترض عليه أحد محذرا اياه من خطر هذه الوسائل السريعة يرد عليه قائلاً : ان صديقاً له سقط من درج واطيء

---

(1) Elanor Egan (The War In The Cradle of The World — London 1918 — p. 243.

(2) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 318.

(3) Moberly (The Campagn In Mesopotamia) — London 1925 — vol. 3, p. 37.

(4) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 243.

فانكسرت رقبته ومات • [٥] يقصد بذلك ان الموت قد يأتي الى الانسان من أتفه الاسباب• وقد صدقت نبوءته هذه عليه حيث رأيناه يموت في بغداد بعد فتحه لها من جراء شربة حليب — كما سنأتي اليه في فصل قادم •

مود يبدا هجومه :

غادر الجنرال مود البصرة في تشرين الثاني ١٩١٦ واتخذ مقره في الجبهة بالقرب من الكوت ، وأخذ يدرس مواقع الاتراك العسكرية تمهيدا لوضع خطة الهجوم عليها •

ان نهر دجلة بالقرب من الكوت يجري من جهـة الغرب الى جهـة الشرق ، وكان الاتراك قد اتخذوا مواقعهم على جانبي النهر وراء الكوت، وكان أهم موقـع لديهم هو موقـع « الفلاحية » الـذي يطلق الانكليز عليه اسم « الصناعيات » ويقع على الجانب الايسر من النهر على بعد خمسة وعشرين ميلاً من الكوت ، وهو عبارة عن برزخ ضيق من الارض يحيط به نهـر دجلـة من الجنوب وهور الشويجة من الشمال ، ويعتبر اعظـم موقع عسكري فيما بين البصرة وبغداد وقد وصفه بعض العسكريين بأنه « دردنيل العراق » •

ويقال ان المارشال غولتز كان أول من اكتشف أهمية هذا الموقـع ولفت انظار الاتراك اليه ، وذلك في بداية حصار الـكوت ، حيث قـال للاتراك : انكم اذا حافظتم على هذا الموقع فلن يستطيع الانكليز أن ينالوا منكم شيئاً • وقد اتبع خليل باشا نصيحة غولتز مما أدى الى استسلام حامية الكوت على ما نحو ما شرحناه في فصل سابق •

الواقع ان الاتراك جعلوا موقع الفلاحية منيعاً الى درجـة يندر لها مثيل • حدثني أحد الضباط الذين حاربوا في ذلك الموقع فقال ان الخنادق المحفورة فيه تشبه أزقة بغداد لكثرتها وتشعبها واتصـال بعضها ببعض ، وكان الجنود يعيشون في تلك الخنادق — يأكلون وينامون ويتنقلون — فلا يستطيع العدو أن يعرف عنهم شيئاً •

---

(5) Barker (op. cit.) — p. 318.

حشد الاتراك في الفلاحية والجانب المقابل لها من النهـر الفيلق الثامن عشر وتعداده عشرة آلاف جندي بقيادة كاظم بك قره بكر • وفي كانون الاول ١٩١٦ عندما ظهرت بوادر الاستعداد العسكري الذي كان يقوم به الجنرال مود أرسل كاظم بك عدة برقيات الى خليل باشا يخبره بأمر هذا الاستعداد ، وذكر له أن القوات الانكليزية تبلغ أربعة أضعاف القوات التي لديه ، وطلب منه امداداً كافياً ، غير أن خليـل باشـا استخف بكلامه ولم يهتم باجابة طلبه • [٦] انه كان واثقاً كل الثقة ان الانكليز لن يقدروا على اختراق الخطوط التركية في الفلاحيـة مهما حاولوا ، وكـان واثقاً أيضاً أن القوات التركية في ايران ستعود بعد انتصارها التام على الروس الى العراق عن طريق بدرة وجصان فتقطع خط الرجعة على الانكليز من ورائهم • يقول باركر : ان الاعتداد بالنفس والافكار الثابتة التي كانت مسيطرة على ذهن خليل باشـا كانت بمثابة فرقـة عسكرية تضـاف الى قوات مود • [٧]

كان لدى مود فيلقان أحدهما على الجانب الايسر من دجلة تجـاه الفلاحية بقيادة الجنرال كوب ، والثاني على الجانب الايمن بقيـادة الجنرال مارشال • وكانت خطة مود في الهجوم مستمدة من القاعدة النابليونية أي توجيه أعظم قوة على أضعف نقطة من مواقع العدو • ولهذا قرر مود أن يتظاهر بالهجوم على موقع الفلاحية المنيع ، فيقصفه بالمدافع قصفاً شديداً، بينما هو يشن هجومه الفعلي على الجانب الآخر من النهر ــ أي الجـانب الايمن ــ حيث تكون خطوط الاتراك أقل مناعة •

وفي اوائل كانون الاول كان مود مستعدا للبـدء بهجومه غير ان القيادة العليا في لندن كانت مترددة في الموافقة على ذلك اذ هي كـانت تخشى أن يكون مصير مود كمصير سلفه طونزند • [٨] ويبدو أنها كـانت

---

(٦) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج ١ ص ١٢٠ •

(7) Barker (op. cit) — p. 323.

(8) George Buchanon (The Tragedy of Mesopotamia) — London 1938 — p. 148.

مثل معضوض الحية الذي يخاف من الحبل • وقد وافقت القيادة العليا أخيراً على البدء بالهجوم غير أنها اشترطت على مود أن لا يعرض قواته لخسائر كبيرة •

كان الجانب الايمن من دجلة مليئاً بالتلول والجداول الجافة التي تحتوي على استحكامات قوية للاتراك ، وكانت خطة مود أن لا يهاجم تلك الاستحكامات بل يدور حولها من جهة الجنوب بقوس بعيد المدى، ثم يعبر نهر الغراف ويحيط بتلك الاستحكامات من ورائها • وفي ١٣ كانون الاول بدأ مود بتنفيذ خطته مستغلاً تفوقه بالمدافع والخيالة ، فشرعت المدافع تقصف موقع الفلاحية بوابل من القنابل ، وكان القصف على درجة من الشدة بحيث ظن الاتراك ان الهجوم الرئيسي موجه على هذا الموقع ، وأسرع كاظم بك فأرسل قسماً من قواته الاحتياطية عبر النهر لتعزيز الموقع هناك تجاه الهجوم المتوقع • (٩)

وعندما جاء الليل تحركت قوة من الخيالة الانكليزية تحت جنح الظلام باتجاه « البسروقية » الواقعة على نهر الغراف على بعد اثنى عشر ميلاً من بلدة الحي ، فاحتلتها في الساعة السادسة صباحاً • واستطاع الانكليز بعدئذ أن ينصبوا جسرين على نهر الغراف ، فعبرت عليهما قوات كبيرة وبدأت تتجه شمالاً على ضفة الغراف اليمنى •

صمود الاتراك :

عند انتهاء عام ١٩١٦ كان الجنرال مود قد تمكن من الاستيلاء على الجانب الايمن من دجلة كله ماعدا موقعين هما : دورة الخضيري وصدر الغراف • فقد كان الاتراك متحصنين في هذين الموقعين تحصناً قوياً • وقد وقف مود تجاهم جامدا اذ هو لا يتمكن من الهجوم عليهم دون أن يكبد قواته خسائر فادحة ، وذلك أمر لا تسمح به القيادة العليا في لندن •

وفي اوائل العام الجديد سمحت القيادة العليا لمود بتكبد الخسائر على شرط أن لا تتجاوز نسبتها الـ ٢٥ بالمائة • فبدأ مود هجومه على دورة

---

(9) Barker (op. cit.) — p. 325.

الخضيري ، ونشبت اذ ذاك معركة تعد من أشد معارك العراق ، وربما أشدها جميعاً ، في كثرة الخسائر التي تكبدها الفريقان ، وفي قوة الصمود الذي أبداه الجنود الاتراك فيها .

ان دورة الخضيري عبارة عن منعطف في نهر دجلة يقابل السكوت ويقع الى الشرق منها ، ويبلغ طول جبهته المواجهة للانكليز زهاء ميلين ، وكان الاتراك قد ملأوه كله بشبكة من الخنادق على شاكلة موقع الفلاحية، وجعلوا طريق تموينه من الخلف عن طريق النهر . وقد أدرك مود مناعة هذا الموقع فسلط عليه عددا ضخما من المدافع والقوات بالرغم من صغر مساحته ، بحيث بلغ مجموع القنابل التي قذفت عليه خلال المعركة أربعين ألفاً ، وبلغ تركيز القوات عليه معدل فوج واحد لكل مائتي ياردة من الجبهة .[١٠]

كان القائد التركي كاظم بك قد صمم على الصمود في ذلك الموقع حتى النفس الاخير ، فكلما هلك فوج من جنوده أرسل عبر النهر فوجاً آخر ليحل محله . وكان الجنود الأتراك يقاتلون بالسلاح الابيض ويموتون دون أن يتراجعوا ، فضربوا بذلك مثلاً رائعاً في البطولة لا نظير له . وقد أرسل كاظم بك الى قائد الموقع رسالة قال فيها : « ان صمود الجنود على الرغم من خسائرهم الفادحة يستحق ثناءاً فوق كل ثناء ، وان قائد الفيلق يقبل عيون كل الجنود ويشكرهم » . ويعلق باركر على هذا فيقول: « لاشك ان الجنود الاتراك يستحقون مثل هذا الثناء على الرغم مما في عباراته من مبالغة » .[١١]

استمرت المعارك في دورة الخضيري ثلاثة أسابيع ، ولكن نهايتها كانت معروفة لان اللحم والدم لابد ان ينالهما الهلاك تجاه الحديد والنار. وقد بلغت خسائر الاتراك في تلك المعارك ثلثي عدد الجنود تقريباً ، وتلك نسبة عالية جداً قلما يستطيع جيش في العالم تحملها . وقد أطلق الاتراك

---

(١٠) شكري محمود نديم (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ١٢٦ .

(11) Barker (op. cit.) — p. 333.

على تل هناك اسم « قرق غازيلر تبه سي » أي تل الاربعين غازياً ، وذلك تذكار لفوج من الاتراك لم يسلم منه في القتال سوى أربعين جندياً. [١٢]

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩١٧ بدأ مود هجومه على الموقع التركي الثاني الذي يقع حول صدر الغراف ، وقد صمد الاتراك في هذا الموقع أيضاً ، واستمرت المعارك فيه اكثر من عشرة أيام . ويتساءل باركر عن سر هذا الصمود الذي أبداه الاتراك وظلوا مستمرين عليه حتى النهاية ، ويصف باركر ذلك بأنه لغز من الالغاز . [١٣] نسي باركر أن الاتراك كانوا يقاتلون بدافع ديني اذ كانوا مؤمنين كل الايمان أنهم اذا ماتوا دخلوا الجنة، وتلك عقيدة لها أثرها في تعزيز روح الفداء لدى الجنود كما لا يخفى .

انتصار مود :

عندما تم للجنرال مود الاستيلاء على الجانب الايمن من نهر دجلة قرر العبور الى الجانب الآخر من النهر فوق الكوت لقطع خط الرجعة على الاتراك المتحصنين في موقع الفلاحية . وقد اختار مود منعطف شمران موضعاً للعبور وهو يقع على بعد سبعة أميال من غرب الكوت . والواقع ان عبور النهر لم يكن بالامر الهين لان الاتراك كانوا قادرين أن يدمروا أي رأس جسر يمكن أن يقيمه الانكليز تمهيداً لعبورهم . واضطر مود الى وضع خطة تحتوي على الخدعة والمباغتة معاً .

بدأ تنفيذ الخطة في الجانب الايسر من دجلة حيث أخذ الجنرال كوب يمطر موقع الفلاحية بوابل من قنابله ، واستمر القصف ثلاثة أيام ، لايهام الاتراك بأن هجوماً كبيراً سيشن على هذا الموقع قريباً . ثم أرسل فوجين من قواته الى حافة هور الشويجة لكي يعسكرا هناك في وضح النهار بشكل متناثر واسع النطاق من أجل خداع الاتراك أيضاً . وفي الساعة العاشرة من صباح ٢٢ شباط شن الجنرال كوب هجوماً على موقع الفلاحية فأزاح

---

(١٢) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٢١ .

(13) Barker (op. cit.) — p. 339.

الاتراك من خطوطهم الامامية ، ولكن الاتراك كروا وأزاحوا المهاجمين من الخطوط التي احتلوها • وظل القتال مستمرا بين الفريقين بين كر و فر • وكان القصد من هذا القتال الضاري هو الهاء الاتراك لكي لا يكتشفوا عملية نصب الجسر التي كانت تجري في الوقت نفسه على مسافة غير بعيدة من ساحة القتال •

كانت عملية نصب الجسر قد بدأت منذ فجر ٢٣ شباط ، وكانت عملية شاقة جدا تكتنفها الاخطار ، وقد سقط فيها من الضحايا كثيرون • وفي فجر اليوم التالي كانت العملية قد نجحت ، وأصبحت القوات التركية في الفلاحية مهددة بقطع خط الرجعة عليها ، فبدأت تنسحب باتجاه بغداد، وأصدر مود أمره الى قواته بمطاردة القوات التركية المنسحبة • (١٤)

قالت ايغان في وصف عملية العبور ما نصه : « ان عبور دجلة في منعطف شمران كان ألمع حادث في تاريخ الحملة البريطانية كلها ، فهو قد حدث بعد شهرين من القتال العنيف ، وبعد طرد الاتراك من جانب دجلة الايمن كله ••• أما الحركات الجانبية التي كان مود يقصد بها خداع العدو والتي قادها الجنرال كوب فقد تحولت الى هجوم قوي ونجحت نجاحاً أذهل الاتراك • فقد كان الاتراك يعتقدون ان موقع الصناعيات — أي الفلاحية — لا يمكن اختراقه ، ولما تم اختراقه أخيراً انهارت معنوياتهم تماماً ولاذوا بالفرار نحو بغداد • وكذلك ذهل الاتراك من عبور النهر الذي لم يكونوا يتوقعونه وكان أمراً مستحيلاً ، وقد منعهم الذهول من القيام بمقاومة فعالة ازاءه • وصرح ضابط تركي أسير قائلا : انهم عندما كانوا يتداولون في احتمال عبور الانكليز للنهر استبعدوه وقالوا : ان العبور لا يقدم عليه الا المجانين • فقد كان النهر فائضاً وبلغ عرضه في موضع العبور ثلاثمائة وأربعين ياردة ، وحين جرى نصب الجسر صب الاتراك على القائمين به نيران الرشاشات وأوقعوا فيهم خسائر فادحة • ووصف الجنرال مود نصب الجسر بأنه نتيجة جرأة وتصميم لا يقهران ••• » (١٥)

---

(14) Ibid, p. 345—355.

(15) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 225 — 226.

ايامهم الاخيرة :

كان أنور باشا قد وصلته أنباء مقلقة عن جبهة الكوت منذ بدء المعارك فيها ، وفي ٢٧ كانون الاول ١٩١٦ وقف على رأس آلة التلغراف ليخابر خليل باشا يستفهم منه عن الحالة ، فأجابه خليل باشا : ان الحالة جيدة وان الفيلق الثامن عشر الموجود في جبهة الكوت يكفي وحده للدفاع عنها فلا حاجة الى سحب الفيلق الثالث عشر من ايران .

وفي أواخر كانون الثاني ١٩١٧ أبرق جمال باشا من الشام الى خليل باشا يستفهم منه عن الحالة أيضاً ، فأجابه خليل باشا : ان جبهة الكوت أقوى وأمتن من ذي قبل ، وذكر له قصة البطولة التي جرت حول تل الاربعين غازياً . يقول محمد أمين العمري فيمذكراته وكان يومذاك فيمعية خليل باشا : « كنت أرى هذا الجواب وقلبي يتلهف على ذلك الحال وأتأسف على تلك الاكاذيب » . [١٦]

لم يدرك خليل باشا خطورة الموقف الا بعد أن تمكنت القوات الانكليزية من عبور دجلة في منعطف شمران . ففي مساء ٢٥ شباط أصدر خليل باشا أمره بانسحاب القوات التركية نحو بغداد ، كما أبرق الى علي احسان بك قائد الفيلق الثالث عشر في همدان يأمره بالاسراع في العودة الى العراق لانقاذ ما يمكن انقاذه فيه .

ويقال ان خليل أصبح منذ ذلك الحين في حالة نفسية سيئة وكأنه فقد اتزانه العقلي ، فكان يصدر أوامر متناقضة الى مرؤوسيه . [١٧] ففي ساعة يأس شديدة قرر الانسحاب الى سامراء رأساً ، ثم بدل رأيه بعد أربع وعشرين ساعة حيث أصدر أمره الى كاظم بك بان يتوقف في العزيزية لمقاتلة الانكليز ، ولكن كاظم بك تجاهل هذا الامر لعدم جدواه واستمر على انسحابه نحو سلمان باك . [١٨]

وفي ٢٧ شباط أصدر خليل باشا أوامر سرية بنقل ما يمكن نقله من

---

(١٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ .

(17) Arnold Wilson (Loyalties) London 1936 — vol. 1, p. 232.

(18) Barker (op. cit.) — p. 363.

مخازن الجيش الى سامراء وتدمير الباقي • فأخذت القطارات والمراكب النهرية تنقل ما تستطيع حمله من الاسلحة والمواد الغذائية والبضائع التي صودرت من التجار ، أما ما بقى منها فقد رمي في النهر أو أحرق•

وحين شاهد الاهالي ذلك أخذ الرعب ينتشر بينهم كما راجت بينهم الاشاعات والاراجيف ، وصاروا يخزنون المواد الغذائية في بيوتهم تحسباً للطوارىء ، كما شرع التجار ينقلون بضائعهم تحت جنح الظلام الى مخازن خفية خوفاً من مصادرة الحكومة لها ، أو خوفاً من نهب الغوغاء في حالة انسحاب الحكومة •

وفي ٦ آذار صدر الامر الى الموظفين بمغادرة بغداد ، فغادرها الكثير منهم • [١٩] يقول طالب مشتاق في مذكراته ، وكان يومذاك تلميذا في السابعة عشرة من عمره :

« في ٩ آذار ١٩١٧ أرسل بطلبي المرحوم فائق بك وكيل والي بغداد وكان صديقاً لوالدي منذ كان قائمقاماً في بعقوبة ، ولما حضرت بين يديه ومعي أخي أكرم المرحوم نظر الينا بتأثر والالم يطفح على وجهه وقال : اننا الآن نخلي بغداد والجيش التركي يتراجع في كل الجبهات ولا يستبعد أنه يدخل الجيش الانكليزي الى بغداد غداً أو بعد غد ، فعليكما أن تسافرا حالاً الى بعقوبة لتكونا مع أفراد عائلتكما هناك ، وقد هيأت لكما عربة، وسيرافقكما شرطي للمحافظة عليكما حتى تصلا الى بعقوبة ••• » [٢٠]

يلاحظ القاريء كيف يبدو فائق بك هنا طيب القلب شفيقاً ذا مروءة ، مع العلم انه هو نفسه الذي فعل الافاعيل باهل بغداد منذ عهد قريب كما أشرنا اليه في الفصل السابق • وليس هذا بالامر الغريب في ضوء ما نعرفه من الطبيعة البشرية ، فالانسان كثيرا ما يكون ظالماً سفاكا تجاه قوم بينما هو رحيم شفيق تجاه آخرين ، ومن النادر أن نجد انسانا يقسو على الناس جميعاً أو يرحمهم جميعاً •

---

(١٩) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٣٠٥ •

(٢٠) طالب مشتاق (اوراق أيامي) ــ بيروت ١٩٦٨ ــ ج ١ ص ١٧ ــ ١٨ •

التقدم نحو بغداد :

في ٢٧ شباط ١٩١٧ كانت القوات الانكليزية قد وصلت الى العزيزية ، فأبرق مود الى القيادة العليا بلندن يقول ان الاتراك انهكتهم الهزيمة وهو يطلب الاذن لانتهاز الفرصة والتقدم نحو بغداد لاحتلالها . فكان جواب القيادة العليا أن من الاسلم له أن ينتظر حتى يصل الروس الى مقربة من بغداد . فرد عليها مود ، وردت هي عليه . انه يريد التقدم نحو بغداد ، وهي تخشى أن يصيب مود ما أصاب سلفه طوزند . وظلت البرقيات تغدو وتروح بين العراق ودلهي ولندن حول هذا الموضوع . وبذا ضاعت بضعة ايام ثمينة . ثم وصل الامر اخيراً في السماح لمود بأن يفعل ما يراه صالحاً على شرط أن يكون حذرا فلا يبالغ في الاندفاع .[٢١]

تحركت القوات الانكليزية من العزيزية في ٥ آذار ، فوصلت الى نهر ديالى في ٧ منه . وفي الساعات الاولى من صباح اليوم التالي حاولت القوات الانكليزية نصب جسر على ديالى فلم تنجح لان الاتراك كانوا قد أحسوا بها فسلطوا عليها نيراناً شديدة بمساعدة نور القمر . وقد أعادت القوات الانكليزية محاولتها للعبور في الليلة الثانية ، وكان نجاحها ضئيلاً اذ لم يتمكن من عبور ديالى سوى مائة جندي ، ولكن هؤلاء الجنود صمدوا في مواضعهم وصدوا الهجمات العنيفة التي قام بها الاتراك عليهم . وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح ١٠ آذار قامت القوات الانكليزية بمحاولة ثالثة للعبور . وفي ظهر ذلك اليوم تم نصب الجسر على ديالى ، وانسحب الاتراك الى خط كرارة — تل محمد .[٢٢]

كان يوم ١٠ آذار شديد النحس على بغداد ، ففي الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم هبت ريح جنوبية هوجاء مليئة بالغبار ، وأخذت تشتد ساعة بعد ساعة حتى صار مجال الرؤية بعد الظهر لا يزيد على خمسين ياردة . وفي الوقت نفسه كانت طلائع القوات الانكليزية تطبق

---

(21) Barker (op. cit.) p. 361—362.

(٢٢) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ١٣٤ — ١٣٥ .

على بغداد من كلا الجانبين ، اذ هي وصلت من الجانب الشرقي الى مقربة من تل محمد ، ومن الجانب الغربي الى مقربة من أم الطبول •

كان القواد الاتراك يومذاك مجتمعين برئاسة خليل باشا في كشك من الخشب قرب جسر الخر الواقع الى الغرب من بغداد ، وكان معهم بعض الضباط الالمان • وعند الغروب عقدوا مؤتمراً عسكرياً للمداولة في الخطة التي يواجهون بها تقدم القوات الانكليزية ، وسرعان ما ظهر خلاف في الرأي بينهم اذ انقسموا الى فريقين ، فكان فريق منهم وعلى رأسه خليل باشا يرى وجوب الصمود في بغداد والدفاع عنها لما لهذه المدينة التاريخية من أهمية معنوية وصيت ذائع، وكان الفريق الآخر وعلى رأسه كاظم بك قائد الفيلق الثامن عشر يرى ضرورة الانسحاب من بغداد عاجلاً قبل أن تتمكن القوات الانكليزية من تطويقهم فيها فيخسروا عندئذٍ الخيط والعصفور معاً • وقد احتدم النقاش بين الفريقين ، [٢٣] فقال خليل باشا ان الربح المعنوي يستحق أن يُضحي في سبيله ببضعة آلاف جندي [٢٤] ، وكان رد كاظم بك عليه : ان الاعتبارات العسكرية في هذا الامر أهم من الاعتبارات المعنوية •

وفي الساعة الثامنة مساءاً خرج خليل باشا من المؤتمر لمدة عشر دقائق حيث اختلى مع رئيس أركان حربه في غرفة مجاورة ، ثم عاد ليعلن أنه وافق على الانسحاب من بغداد • وأسرع كاظم بك عندئذٍ فأوعز الى قواته بالانسحاب شمالاً بمحاذاة سكة الحديد نحو قرية المشاهدة الواقعة على بعد تسعة عشر ميلاً من بغداد • وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة أرسل خليل باشا الى أنور باشا برقية جاء فيها ما يلي :

« لما كان العدو قد قام بهجوم دائب طوال الاشهر الثلاثة الاخيرة وبقوات وعتاد تفوق مالدينا ، وجدتُ الفيلق الثامن عشر في توقف عام ومعنوياته قد انهارت وشمل ذلك كل من فيه من القائد الاعلى حتى أصغر جنديّ ، فلذلك صرت على ثقة من أن أية معركة يشنها جيش العدو كله

---

(23) Barker (op. cit.) — p. 375.

(24) Moberly (op. cit.) — vol. 3, p. 241.

ستؤدي الى ضياع بغداد صباح الغد والى الاستيلاء على كل ما لجيشنا من مدافع • ورغبة مني في تحطيم الاجراء المتخذ وتقوية معنوية الجيش ومعداته سأواجه الضرورة الملزمة : وهي اخلاء بغداد » • [٢٥]

يلاحظ القارىء في هذه البرقية أنها تتضمن اشارة غير حسنة الى كاظم بك قائد الفيلق الثامن عشر حيث يذكر خليل باشا فيها ان كاظم بك قد انهارت معنويته على نمط ما انهارت معنوية أصغر جنوده • وهذا دليل على وجود شيء من النفور بين الرجلين •

يمكن القول ان النفور بين خليل باشا وكاظم بك بدأ منذ ظهور بوادر الاستعدادات الانكليزية لمهاجمة جبهة الكوت ، فقد كان كاظم بك كما أشرنا اليه سابقاً يلح في طلب الامداد لقواته في تلك الجبهة بينما كان خليل باشا واثقاً من مناعة الجبهة وأنها لا تحتاج الى امداد • ومن الجدير بالذكر ان هذين الرجلين يختلفان في تكوين شخصيتهما اختلافاً واضحاً ، وقد اشار الى ذلك لورنس في تقرير له الى وزارة الحرب البريطانية على أثر مقابلته لهما في مفاوضات الكوت • [٢٦] فخليل باشا مجامل ذو شخصية محبوبة لكنه متهور يضجر من سماع التفاصيل ، بينما كاظم بك صارم حذر وذو ثقافة عالية • وعندما يسود التفاهم بينهما يستطيع كاظم بك أن يستكمل الصفات التي تنقص خليل باشا ، أما في حالة الخلاف فان خليل باشا يعمل برأيه وحده •

الليلة الليلاء :

كانت محطة قطار بغداد في مساء ١٠ آذار مهددة بالخطر لاقتراب طلائع القوات الانكليزية منها ، ولهذا لم يستطع الاتراك ركوب القطار منها واضطروا الى الذهاب الى محطة قطار الكاظمية التي تقع على بعد خمسة أميال منها • وقد صارت محطة الكاظمية من جراء ذلك في هرج

---

(٢٥) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ــ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ج ٢ ص ١٩٦ •

(٢٦) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) ــ ترجمة لاوند والعابد ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٥٤ •

ومرج الى أقصى حد حيث تزاحمت فيهـا حشـود الجنـود والجرحى وصنـاديق الاسـلحة والعتـاد والطائرات ، وهي كلها تنتظـر التحميل في القطار بالرغم من شدة العاصفة .

وصف ضابط الركن محمد امين الذي كان في معية خليل باشـا حالة المحطة في ذلك الوقت فقال :

« بعد ما وقع قائد الجيش أمر الانسحاب من مدينة بغداد التـي كانت أضويتها تشاهد من بعيد من خلال ظلام الليل وغبار العاصفة ، ركب سيارته كأنه يريد أن يتهرب من رؤية المنظر ، وذهب الى مقره في الكاظمية. وذهبنا جميعاً معه ، فلما وصلنا اليها كانت العاصفة ما زالت ترمينا بلفحات الغبار ، ولم تعطنا أية راحة حتى في خيامنا . ويبدو أن الطبيعـة كـانت غاضبة علينا لذنوبنا وتريد الانتقام منا ومن الالوف الـذين كانوا فـي جوارنا . وكان وصولنا الى المحطة في منتصف الليل تقريباً ، وكان الظلام حالكاً و كل شيء في ارتباك شديد ... فخصصت عربة ركاب واحـدة من ذوات الدرجة الثالثة مع عربات حمل قليلة للقيادة ، بينما شحنت عربات حمل أخرى بالاعتدة . وقد وصلتنا الاخبار آنذاك بأن زورقاً محمـلاً بالاعتدة قد ترك في شاطيء الكاظمية ... وحين تحرك القطار بنا رأينـا المحطة مليئة بالمواد والمؤون والجرحى والمرضى دون أن نفكر في خطـة يمكن انقاذ تلك المواد والمرضى بها ... وكان هناك في المحطـة قطـار آخر يحتوي على أثنتي عشر عربة حمل وهو مستعد للتحرك بعدنا .. »[٢٧]

لم يَكد القطار يغادر محطة الكاظمية حتى بدأت لمعات الانفجارات تظهر في أفق بغداد ، ذلك لان الاتراك أخذوا ينسفون مخازن الذخيرة فيها وجميع المنشآت العسكرية التي يمكن أن يستفيد العدو منها ، وكـان من جملة ما نسفوه محطة اللاسلكي في الجانب الغربي من بغداد وكان الالمان قد أكملوا انشاءها منذ عهد قريب للاتصال ببرلين مباشرة ، كمـا نسفوا باب الطلسم لوجود مخزن للذخيرة فيـه وهو من أبواب بغـداد القديمة ويعد من كنوزها الاثرية ، وقد هز نسفه مدينة بغداد هزاً عنيفاً .

---

(27) Moberly (op. cit.) — vol. 3. p. 343—344.

وكذلك أحرق الاتراك جسر بغداد ، وظلت النار تشتعل فيه طيلة الليل والنهار التالي •

كان الشاعر المعروف خيري الهنداوي آنذاك هارباً من الاتراك ومختفياً في بيت أحد أقربائه في محلة المهدية ، وقد وصف ما جرى في تلك الليلة بمقالة نشرها في مجلة المقتطف عام ١٩١٧ ، فقال : « اهتزاز في الغرفة شديد وجلبة وضوضاء ووقع أقدام كثيرة في الطريق • انتبهتُ مذعوراً وأرسلت تواً نظري نحو الطريق ، وبالرغم من شدة الريح وتكاثف الظلام رأيت ثلة من الجند التركي قد اجتازت الدار يتخلف عنها اثنان يتهامسان يقول أحدهما لصاحبه : قد أخليت المدينة ؟ وفي هذه الساعة يبرح قائد الشرطة والدرك بغداد • قال له ذلك ومضيا يهرولان خلف رفاقهما ••• نهضتُ فصعدت الى الطابق الاعلى فخيل لي أن ألسنة النار التي كنت أراها مرتفعة في الفضاء ألسنة أولئك الشهداء المظلومين تدعو على الظالمين بالويل والدمار ••• » [٢٨]

وقد انتهز بعض الجنود الفرصة في تلك الليلة ، فصاروا يختفون في الأزقة والخانات وفي بعض البيوت فراراً من الجندية • وكانت القيادة التركية قد أصدرت الامر باطلاق الرصاص على كل من يتخلف في الطريق من الجنود ، [٢٩] ، ولكن ذلك لم يكن له سوى أثر محدود لان شدة العاصفة والظلام وسرعة الانسحاب كانت من العوامل المساعدة للجنود على الفرار •

وقد انتهز السجناء الفرصة في تلك الليلة كذلك ، اذ هم لم يكادوا يسمعون بانسحاب الحكومة حتى أسرعوا الى أبواب سجونهم فحطموها ثم انطلقوا نحو الاسواق والخانات ومحلات اليهود والنصارى يكسرون أقفالها ويعيثون فيها نهباً وتخريباً • وانضم اليهم غوغاء المدينة وضواحيها، وبذا أخذ نطاق النهب يزداد اتساعاً ساعة بعد ساعة •

حدثني محمود حلمي الكتبي : أنه كان في تلك الليلة يسكن في خان

---

(٢٨) يوسف عزالدين (خيري الهنداوي) ــ القاهرة ١٩٦٤ ــ ص ١٧٤-١٧٥ •

(29) Barker (op. cit.) — p. 375.

مطل على شارع الجسر القديم ، فجاء الناهبون وبدأوا يحطمون باب الخان من أجل نهبه ، فاضطر هو أن يصعد الى السطح مع صاحب الخان وبعض ساكنيه ، وصاروا يستلون الطابوق من سياج السطح ويرمون به على رؤوس الناهبين ،وقد استطاعوا بعد جهد جهيد أن ينقذوا أنفسهم والخان من أولئك الاشرار •

وشب الحريق في بعض الخانات والاسواق ، وكان سبب ذلك أن بعض الناهبين أوقدوا أوراقاً وخرقاً للاستضاءة بها أثناء النهب ثم رموها دون أن يهتموا باطفائها ، فامتدت النار منها الى البضائع الموجودة وأخذت تتسع شيئاً فشيئاً دون أن يأتي أحد لاطفائها • فلقد كان الناس ليلتئذٍ كأنهم في يوم الحشر ، كل واحد منهم يهتم بنفسه ولا يبالي بغيره •

واستمر النهب طيلة الليل ، وعند الصباح استفحل النهب واتسع نطاقه لا سيما بعد أن هدأت الريح ، فأخذ الكثير من الاطفال والصبيان يشاركون فيه ، يقول الهنداوي : انه رأى كثيراً من البنادق الالمانية والتركية في أيدي الاطفال والصبيان • [٣٠] وأصبحت دور الحكومة ودوائرها طعمة للغوغاء يعيثون فيها كما يشاؤون فلم يبق فيهاشيء من الكراسي والمناضد والرفوف حتى الاوراق والاضبارات بعثرت ومزقت تمزيقاً ، كما حطمت الابواب والشبابيك لاستخراج الخشب والحديد منها • وكذلك فعل الغوغاء بدكاكين باعة الكتب والقرطاسية في سوق السراي • يقول محمود حلمي الكتبي : انه حين جاء الى دكانه في صباح ذلك اليوم لم يجد فيه سوى أوراق متناثرة على الارض أما الكتب والرفوف فقد نهبت كلها •

الحالة في الكاظمية :

بلدة الكاظمية هي الآن جزء من مدينة بغداد الكبرى ولكنها في أيام الحرب الاولى كانت منفصلة عن بغداد تبعد عنها بخمسة أميال ، وكان عدد سكانها يبلغ الخمسة عشر ألفاً تقريباً •

وصلت الى أحد شواطىء الكاظمية في عصر ١٠ آذار جنيبة نهرية

---

(٣٠) يوسف عزالدين (المصدر السابق) — ص ١٧٥ •

مملوءة بالعتاد والبنادق ، وأراد القائمقام أن يستعين بأهل الكاظمية لنقل ما في الجنيبة الى محطة القطار ، فخرج المنادي الحاج هادي الخوجة ينادي في الاسواق يناشد الاهالي باسم الحمية والاسلام أن يهبوا لمساعدة الحكومة في نقل أسلحتها الى المحطة : ايها الناس هذه دولتكم التي ربتكم، وهي الآن في شدة ، وأنتم أهل الهمة والحمية . ولم يكد الناس يسمعون هذا النداء المؤثر حتى أسرعوا يقفلون دكاكينهم ، وذهبوا الى بيوتهم بدلاً من الذهاب لمساعدة الحكومة .

أدرك أهل الكاظمية ان الحكومة على وشك الانسحاب ففرحوا بذلك لانهم سوف ينجون من مظالمها وويلاتها ، ولكنهم في الوقت نفسه كانو يخافون من غزو العشائر في حالة انسحاب الحكومة . وفي فجر اليوم التالي تبين لهم ان الحكومة قد انسحبت فعلاً ، وجاء دور العشائر ، فهب بعض رؤساء البلدة ومغاويرها كالسيد جعفر عطيفة ، والشيخ حميد الكليدار ، وخليل الاسترابادي ، وغيرهم فحملوا أسلحتهم وأخذوا يتجولون في أطراف البلدة لحراستها ، وشاهد بعضهم نفراً من الاعراب مختبئين في بعض الدروب المؤدية الى البلدة ، كأنهم كانوا طلائع غزو مقبل، فشهر اولئك عليهم السلاح وصرخوا بهم مهددين ، فهربوا ...

ولما لاح نور الصباح خرج الغوغاء الى شاطي النهر لنهب الجنيبة الراسية فيه ، وقد اشترك في النهب النساء والاطفال ، حتى صارت البنادق تشاهد في أيدي الاطفال على نحو ما وقع في بغداد . وانثال الغوغاء بعدئذٍ على السراي والمدرسة الاميرية المجاورة له ، فنهبوا ما فيهما من أثاث ، وانتزعوا منهما الابواب والشبابيك ، وبعثروا كل ما وجدوه في الدوائر من أوراق ومستندات .

وبينما كان الغوغاء منهمكين في نهب السراي والمدرسة مرت قافلة من الاباعر المحملة وهي متجهة شمالاً تريد اللحاق بالقوات التركية المنسحبة ، فانهالوا عليها ينهبونها ، ثم طرحوا الاباعر أرضاً وشرعوا يقطعون لحومها بما كان لديهم من خناجر وسكاكين . وحين شاهدهم أهل البيوت القريبة خرجوا يحملون السكاكين والاطبار للمشاركة في الغنيمة . ويقال انه بعضهم كانوا يقطعون لحم البعير قبل ذبحه ، فكان البعير يرفس برجليه

بين أيديهم للتخلص منهم ولكنــه سرعان ما يموت بعــد تكاثر السكاكين والخناجر والاطبار عليه !

ومن الجدير بالذكر أنه بينما كان الغوغاء مشغولين في شأنهم هذا ، كان آخرون من أهل الكاظمية يحملون مقادير كبيرة من الخبز والتمر الى الصحن لوجود بعض المتخلفين من الجنود الاتراك فيه ، فقد كان هؤلاء الجنود في حالة يرثى لها من الجوع والارهاق ، فهب الكاظميون لاغاثتهم، وساعدوهم بمقدار جهدهم • وكان هناك جندي ألماني قد ضل طريقـه فأخفاه رجل من أهل الكاظمية ثم ألبسه ملابس عربية وهربه الى سامراء •

والملاحظ بوجه عام أن النهب فــي الكاظمية اقتصر مجالــه علــى ممتلكات الحكومة فقط ، فلم يقع في الكاظمية ما وقع في بغداد من نهب واسع للاسواق والخانات • ويمكن تعليل ذلك بأن الكاظمية كانت يومذاك ذات مجتمع صغير متجانس يكاد أفراده يعرف بعضهم بعضــاً ويستحي بعضهم من بعض كأنهم عشيرة واحدة • أما بغداد فكانت على النقيض من ذلك ذات مجتمع واسع مفتوح يحتوي على الاقليات والغرباء من أنمــاط شتى كأنهم من عشائر مختلفة ، ولهذا فان غياب السلطة كثيراً ما يؤدي الى انتشار النهب والفوضى فيها •

دخــول بغــداد :

كان انسحاب الاتراك في مســاء ١٠ آذار ناجحاً الى حــد ما اذ لــم يكتشف الانكليز أمره الا" بعد فوات الاوان • ويقال ان من أسباب ذلك خطأ اقترفه الجنرال مود ، فقد كانت قواته الزاحفة على الجانب الشــرقي من دجلة قد وصلت الكرادة الشرقية في الصباح الباكر وهي على وشــك الدخول الى بغداد ، ولكنه أمرها بالتوقف وأوعز الى القوات التي كــانت على الجانب الغربي بأن يكون لها شرف الدخول الى بغداد قبل غيرهــا • وحين دخلت هذه القوات الى جانب الكرخ ، في الساعة التاسعة صباحاً وجدت الجسر قد أحرقه الاتراك فاضطرت أن تعبر النهر بوساطة القفف ، وكان هذا عملاً" بطيئاً أدى الى ضياع بضع ساعات •، وقد استغلت القوات التركية تلك الفرصة حيث استطاعت ان تبتعد عن بغداد مسافة مكنتها من

لمّ شعثها وانقاذ بقاياها المتأخرة .

كان أول داخل الى بغداد ضابط بريطاني اسمه الكابتن كمب ، وكان دخوله على سبيل الصدفة غير مقصود ، فهو كان تابعاً للقوات الزاحفة على الجانب الشرقي من النهر ، وظل سائراً في طريقه وهو يحسب ان الجنود أمامه ، فدخل بغداد وحده فوجد الشوارع مملوءة بالناس وهم يحيونه بحماس بالغ . (٣١)

وبعد فترة من الزمن دخل من الباب الشرقي الجنرال طومسون الذي عيّن حاكماً عسكرياً لبغداد ، وهو على رأس ثلة من الخيالة ، فكان في استقباله هناك القنصل الامريكي والقنصل الايراني وحاخام اليهود ، وعدد من الاعيان والتجار وهم يحملون عريضة يطلبون فيها الاسراع باحتلال بغداد لانقاذهم من عيث الغوغاء . وأخذ التجار يشكون الى الجنرال طومسون من فداحة الخسائر التي أصابتهم خلال الساعات القليلة الماضية، وقدروها بربع مليون باون ... (٣٢)

وقبيل ظهر ذلك اليوم صعد ضابط بريطاني الى سطح القلعة القريبة من باب المعظم فرفع عليه العلم البريطاني . وبعد خمس واربعين دقيقة نقل العلم الى برج الساعة في ساحة القشلة لانه اكثر ارتفاعاً . وهذا العلم محفوظ الآن في كاتدرائية كانتربري بلندن . (٣٣)

وفي أثناء ذلك كان الجنود يتجولون في الشوارع والاسواق يطاردون الناهبين ويطلقون الرصاص فوق رؤوسهم لارهابهم . يقول ريجارد كوك : ان اللصوص ارتعبوا عند رؤيتهم الشرطة فتركوا ما نهبوه في الطرقات . فصارت الطرقات مملوءة بنفائس الاموال على أنواعها ، وخرج المنهوبون من دورهم يسترجعون ما نهب منهم . واستغل بعض الناس الفرصة فأخذوا ينفسون عن أحقادهم بالوشاية بأعدائهم الى الشرطة، وكان الارمن سباقين في ذلك بوجه خاص . (٣٤)

---

(31) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 234.

(32) Barker (op. cit.) — p. 376—377.

(33) Moberly (op. cit.) — vol. 3, p. 247.

(٣٤) ريجارد كوك (المصدر السابق) — ج ٢ ص ٢٠٠ .

وفي الساعة الرابعة والنصف عصراً وصلت الى بغداد سبعة مراكب حربية تحمل الجنرال مود وحاشيته ، فنزل مود في دار القنصلية البريطانية الواقعة على النهر ، وهي الدار التي نزل فيها قبله المارشال غولتز وخليل باشا . تقول الصحافية الامريكية اليانور ايغان : « أسف الكثيرون ممن يعنيهم الامر لان الجنرال مود دخل بغداد من غير احتفال ، والمعتقد ان دخوله لو كان قد صاحبه استعراض فخم وفخفخة لكان له تأثير قوي على السكان المحليين وساعد على تعزيز النفوذ البريطاني في البلاد . ولكن الجنرال مود كان رجلاً لا يحب الزهو من أي نوع ، وبناءاً على أمره لم يدخل بغداد من بابها الجنوبية الا جنود قليلون ، وقد ارسلت الدوريات في الشوارع حالاً وأوعز مود الى قائد مركبه بأن يرسو عند دار القنصلية، ثم نزل اليها كما ينزل أي مسافر أنهكه التعب في ظروف اعتيادية » . (٣٥)

تقييم مود :

عندما دخل الانكليز بغداد شعروا بخيبة أمل مريرة . فهم كابدوا في سبيلها كل المكابدة ، وكانوا يتخيلونها مليئة بالمغريات وأسباب الرفاهية حسبما ورد وصفها في كتاب ألف ليلة وليلة ، ثم وجدوها على الضد من ذلك وأخذوا يتلاومون اذ قال بعضهم لبعض : هل هذه هي المدينة المشهورة التي قتلنا أنفسنا من أجلها ؟! . وقد وصف ويلسون بغداد آنذاك قائلا :

« ان مدينة بغداد كانت موضع خيبة أمل مريرة للجنود . فلقد كانت القباب الذهبية في الكاظمية ، والقباب المكسوة بالقاشاني في بغداد، وقبر السيدة زبيدة ، وأشجار النخيل الباسقة ، والبساتين الخضراء المليئة بالبرتقال والفواكه ، تبدو من بعيد رائعة ، ولكن المدينة نفسها ليس فيها شيء من الجاذبية ... وكانت معروفة بين المدن التركية بأنها لا تملك وسائل الرفاهية ... » (٣٦)

وعلى كل حال فقد كان لسقوط بغداد وقع أليم في قلوب رجال

---

(35) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 228.

(36) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, p. 239.

الدولة في اسطنبول ، فصمموا على استعادتها بأي ثمن ، وحرصوا على كتمان نبأ سقوطها ، وظل الناس في مختلف أنحاء الدولة العثمانية لا يعرفون عن سقوط بغداد شيئاً • أما في بريطانيا فكان الامر على العكس من ذلك، اذ اهتزت الامبراطورية البريطانية فرحاً بفتح بغداد ، واصبح اسم الجنرال مود مشهورا في العالم وجاءته التهاني ورسائل المديح من كل مكـان ، ومنحته الحكومة البريطانية مختلف الالقاب والاوسمة ، كما منحته فرنسا لقب « قائد جيش الشرف » ، ورقي من رتبة « ميجر جنرال » الى رتبـة « لفتننت جنرال » (٣٧) أي من رتبة لواء الى رتبة فريق • ووقف اللورد كرزن يخطب في مجلس اللوردين قائلا : « يمكن القول ان الجنرال مود استطاع بضربة واحدة ، أو بسلسلة من الضربات ، أن يغير تاريخ العالم• وليس من المعقول ان سكان تلك المناطق الطيبـة الذين أنقذهم مود مـن العبودية يعودون الى العبودية مرة أخرى » • (٣٨)

وقد أختلف النقاد العسكريون في أمر فتح بغداد : هل هو نتيجـة ما أبداه الجنرال مود من كفاءة في القيادة أم هو نتيجـة ما كان لديـه من تفوق في الرجال والسلاح ؟

ذهب فريق من النقاد الى أن الخطة التي وضعها مود لفتح بغداد تعتبر قطعة رائعة من الفن العسكري ، (٣٩) بينما ذهب آخرون الى النقيض من ذلك اذ قالوا ان فتح بغداد لم يكن ناتجاً عن براعة عسكرية بقدرما كان ناتجاً عن تفوق كبير في الرجال والسلاح • (٤٠)

ويميل بعض النقاد الى القول بأن طوزند كان اكثر براعة من مود ولكن الحظ هو الذي جعل هذا ناجحاً وذاك فاشلاً ، ويقصدون بالحظ مجموعة الظروف والمصادفات التي لعبت دورها في حياة كل منهما • فقـد كان لدى طوزند عند زحفه على بغداد فرقة واحدة لا يتجاوز عدد افرادها

---

(37) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 242.

(38) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 228.

(39) Elizabeth Burgoyne (Gertrude Bell) — London 1961 — vol. 2.. p. 68.

(40) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 253.

ثلاثة عشر ألف جندي ، بينما كان لدى مود سبع فرق تقريباً والكثير من الخيالة والمدافع والمراكب وسكك الحديد • كتب طونزند في مذكراته يدافع عن نفسه قائلا ما نصه :

« لو أقدم نابليون أو هنيبال على حملة مثل حملتي بتلك القوة اليسيرة لكان نصيبه منها الخذلان والفشل • واذا علم القارىء أن الفريق مود زحف بعد ذلك للاستيلاء على بغداد بقوة تتألف من ١١٣٫٠٠٠ الى ١٢٠٫٠٠٠ جندي مجهزة بكامل العدة من مدافع وميرة ومراكب بخارية وسكك حديدية وغيرها ــ يقابل ذلك قوتي التي كانت مؤلفة من ١٣٫٠٠٠ جندي ــ قدر شأن الملحوظة التي أبديتها للفريق نكسون حق قدره »•[٤١]

الانسحاب من الفرات الاوسط :

كان للاتراك في الفرات الاوسط قوات مؤلفة من فوجين من المشاة وسرية خيالة وبطرية مدفعية ، وهي بقيادة أحمد بك أوراق وضابط ركنه توفيق بك وهبي ، وكان مقرها في ناحية خضر الدراجي الواقعة في جنوب السماوة • فلما أصبحت بغداد على وشك السقوط وردت الى القائد احمد بك برقية تأمره بالانسحاب مع قواته الى الحلة •

وصلت القوات الى الحلة في مساء ١٠ آذار ــ أي في نفس الليلة التي انسحبت فيها القوات التركية من بغداد ــ فباتت في الحلة وهي لا تعرف ماذا كان يجري في بغداد • وعندما أصبح الصباح وردت اليها برقية تأمرها بالانسحاب نحو سدة الهندية ، ولكنها لم تكد تبدأ بانسحابها حتى صار الرصاص ينهمر عليها من سطوح دور الحلة وشرفاتها ، والظاهر ان أهل الحلة علموا بخبر سقوط بغداد فأرادوا انتهاز الفرصة للانتقام من القوات التركية جزاء ما فعلته بهم في واقعة عاكف • وقد لقيت القوات التركية أثناء سيرها في الطريق الى سدة الهندية مثلما لقيته في بلدة الحلة ، اذ كانت العشائر تطلق عليها الرصاص باستمرار ، وكانت هي تقاتل

---

(٤١) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ــ ترجمة عبدالمسيح وزير ــ بغداد ١٩٢٣ ــ ص ٧ •

يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً .[٤٢]

وحين وصلت القوات الى سدة الهندية وردت اليها برقية من القيادة العامة في سامراء تأمرها بنسف السدة والانسحاب الى الفلوجة . ويدعي تحسين العسكري في مذكراته انه هو الذي كان السبب في عدم نسف السدة وبذلك أنقذ زهاء مليون نسمة من سكان العراق الذين كانت السدة تجلب لهم الخير والبركة . وهو يقول في ذلك مانصه :

« ... فآليت على نفسي أن أحول دون تخريب هذه السدة لانقذ حياة كثيرين من أبنـاء بلادي ، ورحت أبث الخبر بين العشائر ليقاوموا التخريب ، فانتشر بينهم بسرعة البرق ، فقاموا لذلك وقعدوا ، وهوسوا في الحال ، ودنوا من السدة يترصدون المخربين عن كثب ، حتى اذا جاءت سرية الاستحكام (الهندسة) تضع الديناميت تحت قناطر السدة هاجمتها هذه الجموع المحتشدة من العشائر مهددة متوعدة ، فهربت وجاءت تنبيء آمر الجحفل بخبر هذه المناهضة ، فأمرهم بالعدول عن النسف لئلا نصبح أمام مشكلة كنا في غنى عن مجابهتها ولا سيما بعد أن انتشر نبأ احتلال بغداد في تلك الساعة الرهيبة » .[٤٣]

انسحبت القوات التركية بعدئذٍ الى المسيب ، وهناك انضم اليها بعض الموظفين كان من بينهم أسعد رؤوف متصرف كربلا ، وأمين الطرابلسي قائمقام النجف ، وعبدالعزيز القصاب قائمقام الهندية ، وعارف القيماقجي عضو محكمة كربلا . وكان أهل المسيب والعشائر المجاورة قد هاجموا مخزن الجيش وأخذوا ينهبون ما فيه من أطعمة ، فتركتهم القوات التركية يفعلون ما يشاؤون لانها كانت مشغولة بنفسها .

وفي ظهر ١٨ آذار غادرت القوات المسيب ومعها الموظفون متجهـة نحو الفلوجة . فبات الجميع ليلتهم الاولى في منطقة الجنابيين ، وكـانت ليلة شديدة البرد والريح . يروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته قصـة

---

(٤٢) مصطفى نورالـدين الواعظ (الروض الازهـر) ـ الموصـل ١٩٤٨ ـ ص ٤٥١ .

(٤٣) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ بغـداد ١٩٣٦ ـ ج ١ ص ١٥٣ .

طريفة جرت له وللموظفين في تلك الليلة ، خلاصتها أنه ذهب الى القائد أحمد بك يطلب منه خيمة وفراشاً للنوم ، فزوده القائد بخيمة صغيرة ألمانية وقال له : انه لا يملك سوى سرير واحد مع فراش ومخدة فلنتقاسم بها • فأخذ القصاب الفراش وترك السرير والمخدة للقائد ، ولم يكد الموظفون يلمحون خيمة القصاب تنصب حتى تهافتوا عليها يرجون من القصاب السماح لهم بالنوم معه فيها وقالوا له : « نحن ضيوفك وليس لدينا خيمة ولا فراش ولا فراء في هذا البرد القارص » • فرحب بهم القصاب ولكن مشكلتهم أنهم كانوا كثيرين والخيمة صغيرة مساحتها أربعة أمتار لا تتسع الا" لثلاثة أفراد فقط ، فتراكموا فيها قاعدين ظهراً لظهر وصاروا كأنهم كومة واحدة من اللحم • والغريب أنهم أمضوا ثلاث ليال بهذه الصورة حتى وصلوا الى الفلوجة • [٤٤]

وفي ٢١ آذار تحركت القوات التركية نحو الرمادي ، فوصلتها بعد ليلتين • وفي الطريق نسفت القوات التركية ناظم جدول الصقلاوية فانحدرت المياه منها وأخذت تغمر السهول الواقعة بين دجلة والفرات ، ولم تتوقف الا" عند سكة الحديد الممتدة بين بغداد وسامراء • ولحسن الحظ لم يكن فيضان الفرات في تلك السنة عالياً ، ولهذا كانت الاضرار الناجمة عنه غير جسيمة •

بين المدن والعشائر :

عندما انسحبت القوات التركية من منطقة الفرات الاوسط لم يشأ الانكليز ارسال قواتهم الى تلك المنطقة لانشغالهم في حرب الاتراك ، غير أنهم أوعزوا الى رؤساء تلك المنطقة بالمحافظة على الامن بالنيابة عنهم• فظلت المنطقة من غير حكومة بضعة أشهر فكان ذلك سبباً في استمرار حالة الفوضى التي كانت سائدة هناك ، ونشب النزاع آنذاك بين بعض المدن والعشائر المجاورة لها حول أموال الحكومة اذ كانت كل فئة تدعي أنها أولى بتلك الاموال من الفئة الاخرى •

---

(٤٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٥٢ـ١٥٤ •

ففي الحلة مثلاً جاءت عشيرة خفاجة على أثر انسحاب القوات التركية لتشترك مع أهل الحلة في نهب أموال الحكومة . وبعد أن انتهوا من عملهم ، اتثالت عشيرة خفاجة على أسواق الحلة تريد نهبها أيضاً فانبرى لها أهل الحلة يمنعونها من ذلك ، وجرى بين الفريقين قتال سقط فيه عبدالصاحب أحد رؤساء خفاجة قتيلاً . وجاءت عشيرة آل فتلة برئاسة الشيخ سماوي الجلوب لنجدة أهل الحلة ، وتعاونت معهم على طرد خفاجة من البلدة . ولكن خفاجة لم تنس ثأرها من أهل الحلة ، وصارت تقطع طريق النجف عليهم ، ولقي الحليون من ذلك عنتاً شديداً . (٤٥) واستمر الخصام بين الفريقين حتى شهر نيسان ١٩١٧ عندما أرسل الانكليز الى الحلة حاكماً سياسياً اسمه الميجر غولدسمث ، (٤٦) فأدى وجوده في الحلة الى استتباب الامن والنظام فيها .

وقد حدث في الديوانية أمر يشبه ما حدث في الحلة من بعض الوجوه، ذلك أن أهل الديوانية كانوا قد استولوا على المعدات العسكرية التي تركتها القوات التركية عند انسحابها من البلدة ، وقسموها فيما بينهم لتكون قوة لهم في حالة غزو العشائر المجاورة لهم . وأسرعوا فجددوا بناء الاجزاء المتداعية من سور البلدة استعداداً للطوارىء ، وأقاموا عليه ستة « مفاتيل » أي أبراج. فجاءت عشيرة الخزاعل تطالب أهل الديوانية بحصتها من تلك المعدات ، فرفض هؤلاء اعطاءها شيئاً ، وزجروها ، وأظهروا قلة اكتراث بها . وصادف بعد هذا أن ذهب ثمانون رجلاً مسلحاً من أهل الديوانية الى النجف لنقل جنازة لهم اليها ، وفي طريق عودتهم بينما كانوا يريدون عبور هور ابن نجم تصدى لهم جمع من الخزاعل برئاسة سلمان العبطان ، وقاتلوهم وقتلوا منهم ثلاثة رجال وجرحوا واحداً ، ثم سلبوا جميع أسلحتهم ... (٤٧)

ووقعت حادثة شبيهة بهذه بين أهل كربلا والحواتم وهم فخذ من

---

(٤٥) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج ١ ص ١٧٢ .

(46) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 2, p. 373.

(٤٧) وداي العطية (تاريخ الديوانية) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص ١٤١-١٤٢ .

عشيرة بني حسن ، فقد كان الكربلائيون عائدين من زيارة النجف فلما وصلوا الى خان الحماد في منتصف الطريق هاجمهم على غفلة أربعمائة خيال من الحواتم ، ففر الكربلائيون بعد أن قتل منهم نايف البرغش رئيس عشيرة السلالمة . (٤٨) وأبدى عبدالجليل آل عواد من رؤساء كربلا بسالة في الدفاع عن أهل بلدته .

النزاع في كربلا :

عندما غادر المتصرف أسعد رؤوف بك كربلا لكي يلتحق بالقوات التركية المنسحبة أوكل ادارة البلدة الى رؤسائها ، فتسلم هؤلاء دور الحكومة كما استولوا على البنادق والاعتدة الموجودة في المخازن حيث اقتسموها فيما بينهم ، وعينوا موظفين موقتين لجباية الضرائب .

استمرت الحالة على هذا المنوال فترة وجيزة ، ثم بدأ الخلاف يظهر بين الرؤساء وصار يشتد بمرور الايام . وكان سبب ذلك أن الشيخ فخري كمونة أخذ يجبي بوساطة رجاله رسوم البلدية ، كما صار يتعاطى تهريب الاقمشة والمواد الغذائية الى الاتراك في الرمادي ، فكان يحصل على ليرة ذهب أو اكثر من كل بعير محمل يرسله الى الاتراك . (٤٩) فتراكمت لديه الاموال مما أثار عليه حنق الرؤساء الآخرين المنافسين له .

كان اكبر المنافسين لآل كمونة هم آل عواد وعلى رأسهم عبدالكريم، وكان يقف الى جانب آل عواد عشيرة الوزون برئاسة عمر الحاج علوان ، وآل معلة برئاسة الحاج حسن الشهيب . وفي أحد الايام نشب نزاع في دار البلدية بين الشيخ فخري وعبدالرحمن آل عواد ، وكان ذلك ايذاناً بانشقاق أهل كربلا الى فريقين متعاديين ، وأخذ كل فريق يعد نفسه ويستنجد بحلفائه لمحاربة الفريق الآخر ودحره .

وبعد قليل وقعت مناوشة بين الفريقين في سوق العباس ، فأرسل

---

(٤٨) سلمان هادي الطعمة (تراث كربلا) ــ النجف ١٩٦٤ ــ ص ٢٧٨ .

(٤٩) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ١١٤ ــ ١١٥ .

الشيخ فخري انذاراً شديداً الى آل عواد يأمرهم بمغادرة كربلا ، واعطاهم مهلة حتى المساء فاذا لم يستجيبوا لانذاره هدم دورهم وأخرجهم منهـا قهراً ، فتحداه آل عواد وحلفاؤهم وتحصنوا في شرفات الدور وعلى سقوف الاسواق ووضعوا الحراس في رؤوس الطـرق المؤديـة الى محلاتهم • ثم أرسلوا حليفهم السيد عبدالحسين الدده الى عشيرة بني حسن ليستنجد بها على عدوهم ، وجاءت الجموع من تلك العشيرة الى كربلا فدخل بعضهم الى البلدة حيث نزلوا ضيوفاً في دور آل عواد وعمر الحاج علوان والحاج حسن الشهيب ، بينما بقي البعض الآخر خارج البلدة انتظاراً للاشتراك في المعركة التي كانت على وشك الوقوع •

استولى الرعب على البلدة وأدرك العقلاء من أهلها ما سوف يحدث فيها عند دخول العشائر اليها ، فان تجاربهم مع العشائر دلت على أن الفرد العشائري اذا دخل بلدة مقاتلاً فانه لا يقف عند حد في النهب والاباحـة والتقتيـــل •

هب رجال الدين وبعض أعيان كربلا للتوسط بين الفريقين ، فكانوا ذاهبين عائدين بين بيوت آل كمونة وآل عواد سعياً للاصلاح بينهم • وبعد جهد جهيد تم الاتفاق على عقد هدنة على أن تقسم ضرائب كربلا الى ثلاثة أقسام حيث يكون قسم منها لآل كمونة ، وقسم لآل عواد ، أما القسـم الثالث فيكون لعمران الحاج سعدون رئيس بني حسن • (٥٠)

انها على أي حال كانت هدنة موقتة ليس من طبيعتها أن تدوم طويلاً، لان الرؤساء لابد أن يتنازعوا بعدئذ على طريقة التقسيم حيث يدعي كل فريق منهم أنه مغبون فيه • وقد قرر الانكليز انهاء هذا الوضع الشـاذ في كربلا قبل أن تعود الفتنة اليها من جديد • فأرسلوا اليها في ١٥ ايلول ١٩١٧ حاكماً سياسياً اسمه الميجر بولي • (٥١) أما الشيخ فخري كمونـة فقد وجهت اليه تهمة المتاجرة مع العدو ، ونفي الى الهند بصفته من أسرى

---

(٥٠) عبدالرزاق آل الوهاب (كربلا في التاريخ) – بغـــداد ١٩٣٥ – ج ٣ ص ١٥ – ١٧ •

(51) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 2, p. 379.

الحرب . وبعد مدة نفي الى الهند كذلك أخوه الشيخ محمد علي .[٥٢]

حادثة عجيبة في الديوانية :

كان في الديوانية ثلة من الجنود التتر ونفر من الضباط لم يستطيعوا اللحاق بالقوات التركية المنسحبة ، فظلوا في البلدة في خان يقع على النهر قريباً من الجسر يقال له « خان هداوي أغا » ، وكان على رأسهم ضابط برتبة « بكباشي » ــ أي مقدم ــ اسمه حسن بك وهو من أهل غاليبولي .

بقي هؤلاء في الديوانية حتى منتصف شهر حزيران ١٩١٧ وهم على علاقة اعتيادية مع الاهالي دون أن يقع منهم ما يكدر الامن . والظاهر ان الضباط سئموا وضعهم هذا فقرروا الاستسلام للانكليز ، ولكن ضابطاً منهم برتبة ملازم اسمه محمد أغا رفض الانصياع لقرارهم هذا واتفق مع الجنود ورئيسهم اسحق جاووش على أن يقتلوا كل ضابط يريد الاستسلام للانكليز .

وفي الساعة السادسة والنصف من مساء ٢١ حزيران ، اذ كانت الشمس على وشك الغروب ، سمع أهل الديوانية صوت طلقات نارية في داخل الخان ، ثم شاهدوا جثث ثلاثة قتلى وأربعة جرحى تخرج منه ، وفي صباح اليوم التالي شاهد الاهالي جثة الضابط حسن بك معلقة من شرفة الخان ، وكان هذا الضابط معروفاً بين الاهالي بالاخلاق الحسنة والعفة والشجاعة ، فرفعوا أصواتهم يطلبون انزال جثته ليقوموا بدفنها كما ينبغي ، وعلى أثر ذلك قطع الحبل الذي كانت جثة الضابط معلقة به فسقطت على الارض ، وحملها الاهالي وقاموا بواجب غسلها وتكفينها ثم صلوا عليها ودفنوها .

وتطورت الحالة في اليوم الثالث حيث شوهدت نوافذ الخان وهي مسدودة بالطابوق والجص ، وقد تحصن الجنود في الخان من جهاته الاربع استعداداً للمقاومة . وحين علم السربرسي كوكس بالامر أوعز الى رؤساء العشائر المجاورة للديوانية بمحاصرة الخان والقبض على محمد أغا وجنوده

---

(٥٢) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ١١٥ ــ ١١٦ .

المتحصنين فيه . فأحاطت العشائر بالخان ، وأرسل محمد أغا رسولاً من عنده الى رؤساء العشائر لمفاوضتهم ، فقد كان محمد أغا يريد من العشائر أن يتركوه ليستسلم هو للانكليز ، ولكن العشائر لم يقبلوا بهذا الاقتراح، ولعلهم أرادوا القبض عليه وتسليمه بأنفسهم الى الانكليز . وعندما انتهت المفاوضة بالفشل بدأ تبادل الرصاص بين الفريقين ، فسقط من العشائر بعض القتلى والجرحى ، وخليت الشوارع من المارة ، واختبأ الناس في بيوتهم خائفين . (٥٣)

ظل محمد أغا مستمراً على المقاومة في الخان حتى نهاية شهر آب . تقول المس بيل : ان أهل الديوانية كانوا محتارين بين تخوفهم من محمد أفندي وشقاته المسلطين عليهم من جهة ، وخوفهم من العشائر في خارج البلدة من الجهة الاخرى . (٥٤) وقد اضطر الانكليز الى أرسال طائرتين من طائراتهم اليه فألقتا عليه القنابل مما أجبره على الاستسلام مع ثلاثين من جنوده وهم الذين ثبتوا معه في القتال حتى النهاية . يقول كوكس في وصف هذا الرجل العجيب ما نصه :

« عندما وصل هذا الرجل الى بغداد وجيء به اليّ لمواجهتي علمت منه أنه يرغب في الخدمة عندنا أو في الجيش العربي في الحجاز بعدما رأى أن الاتراك خيبوا آماله وهجروه . غير أن طلبه الساذج هذا لم يكن بالامكان قبوله ، وعليه فبصفته من الضباط الاسرى أرسلناه الى منفى في الهند حيث قضى ما تبقى من أيام الحرب في جو أهدأ من الجو الذي يجده الاسير عادة في معسكر للاسرى ، ولقد كان هذا الرجل جريئاً وذا شخصية جذابة واني أثق بأنه قد كتب له حظ سعيد في حياته بعد ذلك » . (٥٥)

---

(٥٣) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .
(٥٤) المس بيل (المصدر السابق) — ص ١١٣ .
(٥٥) برسي كوكس وهنري دوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) — ترجمة بشير فرجو — الموصل — ص ٢٥ .

الفصل الثاني عشر

عهـد السقوط

أطلق البغداديون على عهد الاحتلال الانكليزي اسم « عهد السقوط »، واتخذوه في بعض الاحيان نبزاً لقبوا به الاطفال الذين ولدوا فيه فسموهم « أولاد السقوط » باعتبار أنهم ولدوا في زمان فسدت الاخلاق فيه وضاعت القيم واختلطت الانساب •

الواقع ان عهد الاحتلال كان عهداً غريباً على الناس شهدوا فيه أموراً لم يألفوها من قبل ، فاستنكرها فريق منهم ورحب بها فريق ، وكان ذلك ايذانا باستفحال الصراع بين القديم والجديد ، أو بين المحافظين والمجددين، وهو الصراع الذي لا تزال نعانيه حتى يومنا هذا •

ليس هنا مجال البحث في هذا الصراع الاجتماعي ، وسنحاول دراسته في الاجزاء القادمة بعون الله ، أما في هـذا الفصل فسنقصر البحث على الاوضاع التي نشأت عقب السقوط مباشرة •

المبتهجون بالسقوط :

ذكر خيري الهِنداوي في مقالته التي نشرها في مجلـة المقتطف : ان الاهالي استقبلوا الجنود الذين دخلوا بغـداد في يوم الاحتـلال بالهتاف الشديد والسرور العظيم كأنهم ملائكة أنزلوا من السماء لانقاذهم من أيدي الغادرين الظالمين ، وانصرف الاهالي بعد ذلك الى اعمالهم بهمة ونشـاط يرددون الحمد والشكر لبارىء السماوات اذ نجاهم من الهلكـة ووقاهم شر المحنة وصرف عنهم العذاب • فتراهم على مختلف نحلهم ومللهم فـي الصباح والمساء يقطعون الشوارع فرحين مستبشرين « كأنهم أخرجوا من السجن أو كأنهم في يوم عيد بهيج ، وأي يوم أبهج أو أسعد من يوم فيـه أمن الخائف وفاز الآمل وحررت الرقاب وظهر الحق بأجلى مظاهره تحميـه تلك القوة العظيمة قوة بريطانيا العظمى ••• » (١)

---

(١) يوسف عزالدين (خيري الهنداوي) ــ القاهرة ١٩٦٤ ــ ص ١٧٦ــ١٧٨•

ان هذا الوصف الذي كتبه الهنداوي لا يخلو من مبالغة طبعاً ، فالهنداوي قد فرح بالاحتلال وظن أن الناس كلهم فرحوا مثله . فهو كان قبل الاحتلال هارباً من الاتراك الذين كانوا يريدون قتله ، فجاء الاحتلال بمثابة انقاذ نزل اليه من السماء فجأة .

لا ننكر ان الكثير من الناس فرحوا بالاحتلال الانكليزي ، ذلك لانهم كانوا بالامس قد ذاقوا الامرين من بلايا التجنيد والنوط والمصادرة وغيرها ، ثم وجدوا تلك البلايا تزول عنهم بين عشية وضحاها ، فانطلقوا مبتهجين لا تسعهم الدنيا كأنما أزيح عنهم كابوس ثقيل كان جاثماً على صدورهم . ولكن الناس في الواقع لم يكونوا كلهم من هذا القبيل ، ولابد أن يكون بينهم فئة أصابها الضرر من الاحتلال فشعروا بكراهيته والنفرة منه على أي حال .

أول من كرهوا الاحتلال طبعاً هم أولئك الذين كانت لهم منزلة رفيعة أو مصلحة أو وظيفة في العهد البائد ، فخسروها أو توقعوا أن يخسروها في العهد الجديد ، وهؤلاء كانوا معروفين بين الناس يومذاك بلقب «كليورلر» وهي لفظة تركية معناها «عائدون» ، وسبب تلقيبهم بها أنهم كانوا يكثرون من الحديث في المقاهي والدواوين عن قرب عودة الاتراك الى العراق .[٢] وهناك أشخاص آخرون كانوا ينظرون الى الدولة العثمانية نظرة تقديسية باعتبارها تمثل الخلافة الاسلامية ، ولم يهن عليهم انخذالها اذ يعدون ذلك انخذالاً للاسلام تجاه الكفار .

يمكن القول بوجه عام ان اليهود كانوا اكثر الناس فرحاً بالاحتلال الانكليزي ، فقد كان عددهم في بغداد يومذاك خمسين ألفاً ، وخرج معظمهم يهتفون للجنود ويصفقون لهم ، وأخذوا بعد ذلك يبذلون أقصى جهودهم في خدمة السلطة الانكليزية والتعاون معها ، وشاع بينهم القول المشهور : « ايش ما يقول لك الصاحب قل له يس » : وهم الذين أطلقوا على الانكليز الكنية التي عرفوا بها في بغداد أي « أبو ناجي » ، ولعل اليهود عنوا بهذه الكنية أن الانكليز أنجوهم من ظلم الاتراك .

---

(٢) خيري العمري (حكايات سياسية) ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ ص ٦٨ .

شبه أحد الكتاب الانكليز دخول مود الى بغداد بدخول كورش الى بابل • [٣] فقد شعر اليهود بأن الاحتلال الانكليزي كان لهم كالاحتلال الفارسي الذي أنقذ أسلافهم من الاسر البابلي • حدثني أحد المسنين من أهل بغداد فقال : ان اليهود تغير سلوكهم في عهد الاحتلال عما كان عليه قبله ، فهم كانوا في العهد التركي يظهرون بمظهر الذل والمسكنة ويتحملون الاذى بالصبر ، وكان الاشقياء يفرضون الاتاوة عليهم وهم يدفعونها لهم راضخين. فلماجاء الانكليز رفعاليهود رؤوسهم وأخذوا يتحدّون الاشقياء ويهددونهم قائلين لهم : ذهب زمانكم وهذا زمان الصاحب وسوف نقلع عيونكم !

وقد استغل اليهود الفرصة التي أتاحها الاحتلال لهم فأخذوا ينمون ثرواتهم بالتجارة والمقاولات ، وجنوا من ذلك أرباحاً هائلة عوضوا بها عن الخسائر التي خسروها في العهد التركي أضعافاً • وكان ذلك بداية العهد الذي سيطر اليهود فيه على الحياة الاقتصادية في العراق ، وظلوا مسيطرين عليها حتى عام ١٩٥٠ •

يحدثنا خيري الهنداوي عن تلك الايام فيقول : انه قد ساءه وضع اليهود وخشي أن يتسلموا زمام الامور في هذه المبادأة ، فأعمل الرأي واتصل بالسيد عبدالمجيد الشاوي صديقه وعميد أسرة الشاوي حيث وصف له ما شهده من اليهود وأوضح له رأيه ومغبة ترك الامور تجري بلا توجيه وسيطرة ، واتفقا بعد تبادل وجهات النظر على عقد اجتماع لسماع رأي بقية أرباب الحل والعقد وقادة الرأي ، فعقد الاجتماع في الاعظمية حضره بعض قادة الفكر والتوجيه الاجتماعي وأشراف بغداد وتداولوا في الامر فيما بينهم لمفاتحة السلطة من أجل أخذ المبادأة من اليهود ••• [٤]

لا ندري ما الذي حدث بعدئذٍ وهل استطاع أشراف بغداد وقادة الفكر أن يأخذوا المبادأة من اليهود ، وكيف تم ذلك ؟ ان هذا أمر يحتاج الى كشف وتوضيح ! •

---

(٣) يوسف رزقالله غنيمة (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) ــ بغداد ١٩٢٤ ــ ص ١٨٣ •

(٤) يوسف عزالدين (المصدر السابق) ــ ص ٣٨ــ٣٩ •

سياسة التحبب :

أخذ الانكليز عند دخولهم بغداد يحاولون التحبب الى الناس بشتى الوسائل ولا سيما فيما يخص الامور الدينيـــة كأنهم كانوا يريدون دحض الدعاية السيئة التي كان الاتراك يروجونها عنهم ، فصاروا يحترمون المساجد والمراقد المقدسة والشعائر الدينية ، ويزورون رجال الدين متظاهرين بأنهم يحبون الاسلام وأهله وأنهم وضعوا أنفسهم في خدمته •

اتخذ الانكليز نحو الطائفة السنية سياسة الاهتمام بدائرة الاوقاف وبذلوا جهوداً كبيرة لاغراء علمائهم بقبول الوظائف فيهـا وأغدقوا عليهـم الاموال ــ كما سنذكره فيما بعد • أما نحو طائفة الشيعة فقد اهتم الانكليز برعاية مواكبها وطقوسها الحسينية التي تقام عادة في شهر محرم فأحاطوها بمظاهر الحماية والتكريم وأمدوها بما تحتاج اليه من مواد كانت نادرة فـي تلك الايام كصفائح النفط ونسيج الأكفان • وفيما يلي تنقل اعلاناً نشـرته جريـدة « العـرب » فـي يوم ٨ تشـرين الاول ١٩١٨ م وهـو يوافق ١ محرم ١٣٣٧ هـ :

« بما أن التياترو الواقع بجانب الكرخ هو قـرب قونسلخانة ايران ، وجميع السبايات تمر من هناك • فاحتراماً لهذا الشهر يجب سـد التياترو المذكور أعلاه ثلاثة عشر يوماً ابتداءاً من أول شهر محرم الى نهاية الثالث عشر منه حسب طلب الاهالي ــ التوقيع : حاكم بغـداد العسكري القائمقـام أي• ب• هول » •

وفي ١٧ محرم نشرت الجريدة مكتوباً بعنوان « تشكرات الفرقـة الجعفرية » وذكرت أنه أرسل الى حضرة الحاكم العسكري ، وهذا نصه :

« ان الدولة البريطانية العظمى لجديرة بكل اطراء لرعايتها وعطف نظرها على القواعد الدينية والعوائد الملية ، كيف لا وقد أسعفت فرقتنا الجعفرية منذ العام الماضي بطلبها اقامة المآتم والسبايا لتمثيل الفاجعة العظيمة بقتـل (سيدنا الامام الحسين عليه السلام) في العشرة الاولى من محرم ، فرتبتموها على أعظم احتشام ، وراعيتموها بكل احترام ، وحافظتموها بأحسن نظام • ان حضرتكم قد اقتفى هذا الاثر في هذا العام فنفذتم الامر مـع الاعتنـاء بالتنظيم والاحترام • فللحكومة المنة الكبرى التي تذكر فتشكر بل ان اللسان

ليقصر والقلم ليكل عن اداء واجب التشكر لحضرتكم وجزيل الثناء عليكم وعلى حضرات نائبيكم في الجانب الايمن والايسر وحضرات مدير البوليس ومعاونه لاهتمامهم بالمحافظة والاحترام والتعظيم للمآتم والسبايا الى النهاية. فنحن بالنيابة عن عموم الشيعة نقدم الى حضرتكم هذه العريضة ايضاحاً وتصريحاً عن سامي تشكراتنا العظيمة وممنونيتنا الكثيرة الى الدولة البريطانية العظمى وحضرة القائد العام للحملة العراقية وسائر رجال الدولة ما دامت الايام والليالي. في ١١ محرم سنة ١٣٣٧ الموافق في١٨ تشرين الاول سنة ١٩١٨ » .

وقد ذيل هذا المكتوب بتواقيع بعض علماء الشيعة وأعيانهم وهم : عبدالكريم الحيدري ، شكرالله ، حسين الموسوي ، محمد حسين آل تويج، حسين آل السيد عيسى ، مصطفى بن حسين ، عبدالحسين كبه ، عبدالغني كبه ، محمد السيد محسن ، عبدالرسول كبه ، جعفر حفيد الحاج داود ، كاظم الحاج داود ، عبدالعزيز باقر ، عبدالمجيد حمودي ، عبدالمجيد السيد موسى . وقد نشرت الجريدة في العدد نفسه تشكراً آخر مذيلاً بتواقيع : شكرالله ، الشيخ أحمد الظاهر ، الحاج محمد حسن الجوهر ، حسين الموسوي ، سيد محمد حسين الحلاوي ، سيد صادق السيد سلمان ، وآخرين . وفي ٢٢ محرم نشرت الجريدة تشكراً من أهل النجف للانكليز على اعتنائهم بالسبايا ، وكان التشكر موقعاً من قبل نقيب أشراف النجف الاشرف السيد هادي .

عوامل التنفير :

في الوقت الذي كان فيه الانكليز يتبعون سياسة التحبب الى الناس على النحو الذي ذكرناه كانت هناك عوامل أخرى تعمل على تنفير الناس منهم .

عندما دخل الانكليز بغداد وجدوها على درجة كبيرة من القذارة ، فأرادوا فرض النظافة عليها حرصاً على صحة جنودهم ومنعاً من انتشار الاوبئة بينهم . انهم فرضوا مثلا غرامة قدرها عشر روبيات على كل من يتغوط في الطرقات ، وخمس روبيات على من يبول فيها . وقد نفذوا هذا

الامر بكل شدة ، فظهرت سمات النظافة في بغداد على نطاق واسع ، ولكن الناس صاروا يتذمرون من الشدة التي استخدمت فيها •

وعندما اقترب الصيف وبدأت ثباشير الكوليرا بالظهور في بغداد كدأبها في كل عام ، صدرت الاوامر المشددة بفرض التطعيم الاجباري على الناس ، وبنقل كل مريض مشتبه به الى مستشفى العزل ، ومنع السفر الا لمن يحمل وثيقة تطعيم • وقد ضج الناس من هذه الاجراءات ، فأخذوا يتهربون من التطعيم ، ويتراكضون اذا سمعوا بقدوم رجال التطعيم اليهم • وصارت وثائق التطعيم تباع في السوق السوداء لمن يريد السفر ، واذا مرض أحدهم كتموا أمره لكي لا تنقله السلطة الى مستشفى العزل وتقتله هناك على زعمهم •

واتخذ الانكليز كذلك اجراءات صارمة ضد الاشقياء وحملة السلاح ، فنصبوا المشانق في بعض الساحات العامة ، وأخذوا يلقون القبض على كل من يتجول ليلاً حاملاً سلاحه ، ثم يشنقونه في الصباح التالي • وصار الناس يشاهدون في صباح كل يوم جثثاً جديدة معلقة على المشانق • وأخذ الناس يحاولون التخلص من أسلحتهم برميها في النهر والآبار أو بدفنها تحت الارض • وشاع بين الناس أن الانكليز لديهم قطط قادرة على اكتشاف السلاح المخبوء في البيوت عن طريق الشم ، فكان ذلك بلاءاً جديداً نزل بالاشقياء وحملة السلاح • انهم كانوا بالامس يتباهون بسلاحهم وأصبحوا اليوم يخافون منه •

ومن المشاكل التي واجهها الناس في تلك الآونة أنهم وجدوا الموظفين الجدد يتخذون معهم سلوكاً لم يألفوه من قبل • فقد كان الموظفون الاتراك متكبرين على الناس ولكنهم كانوا متساهلين في تطبيق الانظمة والقوانين تحت تأثير الرشوة او الوساطة ، أما الموظفون الجدد فكانوا صارمين في تطبيقها يكادون لا يراعون فيها أحداً ، وكثيراً ما كانوا يعاملون الناس بالعجرفة والفظاظة على النحو الذي اعتادوا عليه في الهند بغض النظر عن الفرق بين نفسية العراقي والهندي •

يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عن تلك المعاملة فيقول : انهم كانوا يهينون المراجعين بصورة لم يسبق لها مثيل في العهد التركي ، فكانوا

يضربون كل شخص يخالف نظام السير في الشوارع ، وفي الجسر بوجه خاص ، بصورة قاسية جداً ، وكان من بين الذين أصابهم الضرب عبدالرحمن أفندي الجميل اذ كان يمشي في الشارع ببطء فركله ضابط انكليزي على ظهره بشدة . وكذلك ضربوا عبدالقادر باشا الخضيري وغيره من الشخصيات المعروفة . ويصف القصاب كيف جرى الاعتداء على أخيه السيد أمين من قبل ضابط الاعاشة الانكليزي اذ ركله هذا على بطنه وجعله طريح الفراش مدة شهرين . ويذكر القصاب قصة شاهدها بنفسه على الجسر وهي أن قافلة من الزوار الايرانيين كانوا يعبرون الجسر على أقدامهم وهم يقودون خيولهم طاعة للاوامر التي صدرت بمنع الركوب ، ولكن واحداً منهم ظل راكباً لانه كان مقطوع الساقين ، وعندما رآه الجندي الانكليزي أخذ يضربه بعصاه الغليظة بشدة فصاح رفاقه « ناخوشا » أي مريض ، غير أنه لم يكف عن الضرب حتى ألقاه عن ظهر البغلة . واضطر رفاقه أن يحملوه على اكتافهم وعبروا به الجسر . وصار المارة يبدون أسفهم من فعل هذا الجندي الشرس . [٥]

اعتقال ونفي :

عند سقوط بغداد أعلنت السلطة الانكليزية وجوب تسليم الجنود الذين اختفوا في بغداد هاربين من القوات التركية . [٦] وقد ميزت السلطة بين الاتراك والعرب منهم ، حيث اعتقلت الجنود الاتراك وأبعدتهم الى البصرة فالهند ، أما الجنود العرب فقد حققت السلطة معهم وأخذت تعهداً من كل واحد منهم بأنه مستعد للحضور عندالطلب ، وجهزته بوثيقة بهذا المعنى ثم أطلقت سراحه . وفيما يلي نص الوثيقة حسب نسخة احتفظ بها :

« هذه الشهادة تصدق بأنه (فلان بن فلان) عمل اثبات وجود عندي في ١٩ جون ١٩١٧ ، بما أنه قد خدم في الجيش التركي بوظيفة (جاندرمه)،

---

(٥) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٩٨ــ١٩٩ .

(٦) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج ١ ص ١٢٧ .

قد أطلق حراً بقول الشرف لكن يجب أن يحضر في أي وقت وأي مكان كان عند الطلب • واذا التحق بخدمة الحكومة البريطانية فعليه ابراز هـذا العهد الى الضابط الذي يشتغل عنده ـ التوقيع : معاون مدير البوليسية العسكرية الانكليزية » •

وأخذت السلطة أيضاً تلقي القبض على كل من عاون الاتراك أو انتمى الى حزب الاتحاد والترقي ، ولم تستثن منهم الا من أعلن ولاءه للفاتحين، أو شارك في استقبالهم ، أو تزلف اليهم على وجه من الوجوه • وقد لعب الجواسيس دوراً مهماً في هذا الشأن ، كما لعبت الاخباريات دورها كذلك اذ صار بعض الاشخاص يكيدون لخصومهم بارسال الاخباريات السيئة عنهم الى السلطة • يقول الشاعر جميل صدقي الزهاوي وكان في بغـداد يومذاك : ان عدواً له قدم تقريراً الى السلطة الانكليزية ينصح لها بابعادي عن بغداد مع عدد من وجهائها ، ولكنه عندما جيء به الى السلطة أظهـر لها بطاقة تشير الى انه مراسل لجريدة « المقطم » القاهرية الممالئة للانكليز، وبذلك نجا من النفي ، بينما سيق الآخرون أسرى الى الهند • [٧]

ويروي كامل الجادرجي في مذكراته عن والده فيقول ما نصـه : « أما والدي فقد لبث في هـذه الفترة ملازماً داره حتى اعتقلتـه ـ أي السلطة الانكليزية ـ مع عدد من الشخصيات المعروفة بميلها لحزب الاتحاد، فبقي في الاعتقال قرابة أربعين يوماً ثم أفرج عنه عندما تبين للسلطات أنـه لم يكن على صلات طيبة مع الاتحاديين » • [٨]

ومن الجدير بالذكر ان السلطة الانكليزية اعتقلت أعضاء مجلس ادارة مدرسة « الاخوة » الايرانية في الكاظمية ، وبعض وجهاء الكاظمية ، لانهم كانوا من دعاة المشروطية والمؤيدين لحركة الجهاد ، كان منهم : الحاج علي كبر الاهرابي ، السيد عيسى المشاط ، عبدالرؤوف الكاظمي ، الشيخ جواد الزنجاني ، المرزا أحمد اليزدي • وقد أبعدتهم السلطة الى البصرة فالهند• وتمكن اثنان منهم أن يتخلصوا من النفي عاجلاً بشفاعة السيد حسين أفنان

---

(٧) عبدالحميد الرشودي (الزهـاوي) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٢٠ •
(٨) كامل الجادرجي (من أوراق كامل الجادرجي) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٥٠•

الذي كان يعمل في خدمة الانكليز حينذاك . أما الآخرون فقد مكثوا في المنفى ثلاثة وعشرين شهراً .

ومما يلفت النظر أن السلطة الانكليزية لم تتعرض لرجال الدين الذين قادوا حركة الجهاد أو شاركوا فيها ، الا واحداً منهم هو الشيخ نعمان الاعظمي ، ولا أدري لماذا استثنته السلطة منهم . ففي ٣١ أيار ١٩١٧ ألقت القبض عليه وهو في مدرسة الامام الاعظم في الاعظمية ، واعتقلته في خان كبه شهراً واحداً ، وفي معسكر أم العظام شهراً ثانياً ، وفي البصرة شهراً ثالثاً ، ثم أبعدته بعدئذٍ الى معتقل الاسرى في الهند ، فمكث فيه ثلاثة وثلاثين شهراً . وكان أثناء مكوثه في المعتقل قد أشغل نفسه بالقاء بعض الدروس في أصول الفقه والتفسير على جماعة من التتر وجدهم بين الاسرى . (٩)

التضخم النقدي :

كانت العملة التي جاء بها الانكليز الى العراق هي « الروبية » الهندية وكانت تقوم على أساس الفضة وتعادل قيمتها خمسة وسبعين فلساً . ولم يشأ الانكليز أن يفرضوا النقود الورقية على الاهالي فرضاً كما كان الاتراك يفعلون ، بل اتخذوا سياسة نقدية بارعة جعلت الاهالي يطلبون النقود الورقية من تلقاء أنفسهم ويفضلونها على الذهب والفضة . انها كانت سياسة ذات شعبتين : حيث أخذ الانكليز من جهة يبذلون في مشترياتهم الذهب والفضة بكثرة حتى أغرقوا الاسواق بها ، بينما كانوا من الجهة الاخرى لا يقبلون في جباية الضرائب والرسوم الا النقود الورقية . وقد استمروا على ذلك مدة غير قليلة حتى أصبحت النقود الذهبية والفضية فائضة في الاسواق بينما النقود الورقية عزيزة نادرة .

وفتح الانكليز بالقرب من سوق الصرافين فرعاً للمصرف الشرقي « استرن بنك » ، وكان هذا المصرف مستعداً في كل وقت لتبديل النقود

---

(٩) محمد صالح السهروردي (لب الالباب) ـ بغداد ١٣٥١ هـ ج ٢ ص ٣٨٩ .

الورقية بالذهب أو الفضة • وقد وضع أمام انظار الناس تلولاً من الروبيات الفضية لكي تبعث الثقة في قلوبهم • وأيقن الناس ان الحكومة الجديدة ليست كالحكومة الماضية تفرض عليهم النقود الورقية فرضاً من غير رصيد •

وبعد أن اطمأن الانكليز من نجاح سياستهم النقدية هذه ، شرعوا يغمرون الاسواق بالنقود الورقية • وبدأ عند ذلك في بغداد تضخم نقدي هائل لم يشهد الناس له مثيلاً من قبل •

كانت القوات الانكليزية في حاجة الى بناء الثكنات وتعبيد الطرق ومد السكك وتشييد القناطر والمرافىء علاوة على حاجتها الى الاطعمة • وقد أنفقت في ذلك مبالغ طائلة تعد بعشرات الملايين ، وبذا ارتفعت أجور العمال وأسعار البضائع والخدمات ارتفاعاً مفاجئاً عجيباً •

استفاد من هذا التضخم اكثر الناس حيث جنوا أجوراً وارباحاً لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، فقد يكفي الواحد منهم أن يحمل مقداراً من الاطعمة أو البضائع البسيطة على وعاء في يده ويدور به في أماكن تجمع الجنود أو العمال ليحصل من ذلك على الربح الوفير •

وقد نال شيوخ العشائر وأصحاب البساتين والتجار والمتعهدون والمضاربون من ذلك التضخم حصة الاسد ، وظهر بينهم عدد كبير من أغنياء الحرب الذين صاروا يلعبون بالمال لعباً ويبذرونه في شهواتهم تبذيراً يلفت النظر • وكثرت المراقص والحانات ودور القمار والمباغي لتبتلع القسط الاكبر من هذا المال •

يقول يوسف غنيمة في كتابه « تجارة العراق » : « ••• سافر من هذه الحاضرة عدد غير يسير من التجار وعمال التجار الى البصرة ليبتاعوا من هناك البضاعات التي كانت بغداد في حاجة اليها للاهلين وللجيش المحتل ، واصبحت سوق البصرة مجمع التجار أتوها من كل صقع وناد ، واضحت منتدى أرباب الاعمال من كل الصنوف • وكانوا يتألبون في قهوة السيف كل يوم يضاربون ويتاجرون ، لا بل ان التجارة كانت أشبه شيء بالبورصة ومجازفة المقامرين ، ولكنها كلها كانت باديء بدء صفقة رابح ، حتى شاع ذكر قهوة السيف شيوع مربد البصرة في القديم ، وربح الناس أموالاً

طائلة برؤوس أموال قليلة لا يعتد بها » . [١٠]

من الجدير بالذكر أن هذا التضخم النقدي صاحبته شحة في المـواد الغذائية كادت تبلغ لدى بعض الفقراء حد المجاعة . وكان لهذه الشـحة سببان : أولهما مصادرة الاتراك للكثير من المواد الغذائية قبيل انسحابهم من بغداد حيث أتلفوا قسماً منها وحملوا الباقي الى سامراء ، والثاني اقبال الانكليز على شراء المواد الغذائية لاطعام جنودهم فصاروا يدفعون فيها أي ثمن يعرض عليهم ، ولذا ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً .

وقد حاول الانكليز مساعدة الاهالي بأن جلبوا من الهند مقادير كبيرة من الطحين وأخذوا يوزعونه عليهم بالبطاقات . انه كان طحيناً رديئاً غير نقي ولكن الناس تهافتوا على أماكن توزيعه ، وازدحموا وتكالبوا ، وكانت الشرطة تدفعهم وتضربهم بالعصي وهم يتصارخون !

دهشة وتساؤل :

كان البغداديون قد شهدوا قبل الحرب بعض عجائب الحضارة الحديثة ومخترعاتها ، ولكن ذلك كان على نطاق محدود [١١] ، فلما جـاء عهـد الاحتلال بدأوا يشـهدون من تلـك المخترعـات أموراً مذهلـة وعلـى نطـاق واسـع .

تحدثنا جريدة « العرب » في عددها الصادر في ٣ تشرين الثاني ١٩١٧ عن مبلغ الدهشة التي أصابت الناس عند رؤيتهم الاعمدة الكهربائية تنصب في الشارع الجديد وعليها المصابيح تضاء طول الليل . وقد ذكرت الجريدة أنهم صاروا يتجادلون ويتناقشون في تعليل هذه الاعجوبة ، فقال فريق منهم : ان ذلك لابد أن يكون من صنع الجن وان الانكليز الذين أصبحوا سادة البحر والبر قد تمكنوا من تسخير الجن لخدمتهم . وقال فريق آخر : ان النور الكهربائي ينتج كما ينتج النسل عند التقاء الذكر بالانثى فالمصابيح اناث أما الذكور فهي موجودة عنـد الانكليز يطلقونها على الانـاث متى

---

(١٠) يوسـف رزق الله غنيمـة (تجـارة العـراق) ـ بغـداد ١٩٢٢ ـ ص ١٢٦ـ١٢٧ .

(١١) انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ـ الفصل الثامن .

يتساؤون . وقال فريق ثالث : ان النور هو من البرق وقد تمكن الانكليز من اقتناصه بفنونهم وأودعوه في السجن حتى اذا حل المساء أطلقوه في المصابيح. وقال فريق رابع مستمداً رأيه من كتاب « نزهة المشتاق » للادريسي عن وجود طائر في البحار يضيء وقد اقتنصه الانكليز وسخروه لخدمتهم. وفي النهاية تكلم أحدهم وهو تلميذ مدرسة وأخذ يشرح طبيعة الكهرباء وكيف انها تنتج عن التقاء السالب والموجب منها .

ان هذه قصة لا ندري هل حدثت فعلاً أم هي من خيال كاتبها ، انما هي على أي حال غير مستبعدة . والواقع ان الناس كانوا في تلك الايام يكثرون من التعجب والتساؤل عما يشاهدونه من عجائب المخترعات التي جاء بها الانكليز ، وكانوا يحاولون تفسيرها في نطاق معلوماتهم المحدودة ، ويتجادلون في ذلك جدلاً عقيماً على نمط ما ذكرته جريدة « العرب » حول النور الكهربائي ، وقد ظلوا يفعلون ذلك سنوات عديدة .

من طريف ما أذكره من أيام طفولتي أني كنت أتسمع ذات يوم الى جماعة من الرجال يتحدثون في مثل هذا الموضوع ، وكانوا يتساءلون عن السر الذي جعل الاوربيين الكفار قادرين على اختراع هذه المخترعات العجيبة بينما المسلمون عاجزون عن ذلك ، فقال قائل منهم : ان أسرار هذه المخترعات موجودة في القرآن والكتب الاسلامية القديمة غير أن المسلمين غفلوا عنها وأهملوها بينما اهتم بها الاوربيون وانكبوا عليها يدرسونها حتى فهموها واستخرجوا النتائج العملية منها . فانبرى أحد الحاضرين يرد على هذا القول ، وكان رأيه : أن الاوربيين أهل دنيا وأن ابليس لابد أن يعاونهم على دنياهم وهو الذي ألهمهم بسر هذه المخترعات ، أما المسلمون فلهم الآخرة . وانبرى رجل آخر من الحاضرين يفسر الموضوع تفسيراً مختلفاً حيث قال : ان الاوربيين أولاد حرام لان نساءهم يخالطن الرجال ويراقصنهم ويفعلن ما يشأن من غير حدود ، ومن شأن ابن الحرام أنه شيطان شديد الذكاء كما هو معروف . وقد اشتد الجدل بين الحاضرين، كل فريق منهم يحاول تأييد رأيه بالادلة العقلية والنقلية ، ثم انفض الاجتماع دون أن يصلوا الى نتيجة حاسمة .

المس بيل :

كان المستشار السياسي للحملة البريطانية في العراق السر برسي كوكس قد وصل الى بغداد بصحبة الجنرال مود ، فخصصت له دار القنصلية النمساوية لتكون دائرة له وهي تقع على النهر بالقرب من دار القنصلية البريطانية التي نزل فيها مود .

ولم يكن مع كوكس عند وصوله بغداد سوى ضابط واحد يعاونه في عمله ، فاستدعى اليه من البصرة عدداً من الموظفين والضباط الذين لهم خبرة بالبلاد العربية كان من بينهم : جون فيلبي ، بونهام كارتر ، دراور ، غاربيت ، بولارد ، وغيرهم .

وكان في البصرة يومذاك امرأة بريطانية ذات خبرة بالبلاد العربية وتتقن اللغة العربية جيداً هي المس جرترود بيل ، وهي كانت تعمل في معية كوكس بالبصرة وأراد كوكس أن ينقلها اليه في بغداد غير أن مود عارض في نقلها اذ كان يخشى أن يكون مجيئها الى بغداد سابقة غير مناسبة قد تدعو النساء الاخريات للمطالبة بالانتقال أسوة بها . وقد استطاع كوكس أخيراً اقناع مود حيث أكد له بأن وجود المس بيل في دائرته ضروري كما انها سوف تعامل كالرجال بلا تمييز بينها وبين أي رجل يعمل معها في الدائرة . [١٢] وفي ٦ نيسان ١٩١٧ ركبت المس بيل باخرة متجهة الى بغداد، وبعد تسعة أيام وصلت اليها ، فكانت أول امرأة بريطانية تدخل تلك المدينة خلال الحرب .

خصصت لسكنى المس بيل دار من دور بغداد القديمة ، غير أنها لم تتحمل الحياة في تلك الدار اذ وصفتها بأنها كالصندوق . وبعد البحث وجدت داراً تناسبها في وسط بستان مليء بالزهور تقع في موضع محلة السنك الحالية تعود الى موسى جلبي الباججي . وقد أخذ هذا الرجل يعمل بنشاط لتلبية طلبات المس بيل ، فبنى لها في خلال خمسة ايام حماماً في الدار ومطبخاً . ثم جاءت هي بخادم أمين كانت تعرفه منذ زمان طويل ،

---

(١٢) برسي كوكس وهنري دوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) ـ ترجمة بشير فرجو ـ الموصل ـ ص ١٩ ـ ٢٠ .

وتمت بذلك أسباب راحتها • (١٣)

أصبحت المس بيل الساعد الايمن لكوكس في اتصالـه بالاهـالي وبالوفود التي جاءت تهنيء الانكليز بالنصر من مختلف أنحاء العـراق • يقول كوكس : « حالما انتشر خبر احتلالنا لمدينة بغداد أخذت الوفود المختلفة من جهات العراق تتوافد الى بغداد لزيارتي والترحيب بمقدمنا وفي مقدمتهم أشراف المدينة ثم شيوخ القبائل القريبة والبعيدة عن بغـداد ، وكان من بين هؤلاء الشيوخ من لم يسبق له قط أن خضـع للحكم التركي فكانوا غرباء عن بغداد تماماً ••• وكان عليّ أن استقبل جميع الزائرين من الشيوخ وأرحب بهم وأقوم بتأمين ضيافتهم وتقديم بعض الهدايا لهم ، ثم أصرفهم الى مناطقهم بعد أن أوصيهم بوجوب محافظتهم على السلام والهدوء فـي مناطقهم والانصراف الى أعمالهم الزراعية • وهكذا فقد كان القسم الكبير من أوقاتي نهاراً يصرف في قيامي بهذه المواجهات ، وكانت المس بيل تعمل كغربال تقوم بتصفية الزائرين اذ كانت ترسل اليّ كل فرد من الشخصيات المختلفة وبيده ورقة من عندها توضح لي القبيلة التي ينتمي اليها والمنطقـة التي يمثلها ثم غايته من مواجهتي ، وهكذا فبفضل المس بيل تمكنت مـن توفير وقت لا حد له كان علي أن أصرفه للوصول الى هدفي ••• » (١٤)

كانت المس بيل يومذاك في الواحدة والخمسين من عمرها نحيفة جداً لا يروق منظرها العراقيين ولكنها خلبت ألبابهم بما كان لديها من شخصية قوية ولباقة ، فكانوا يلقبونها بـ « الخاتون » ، وصار بيتها مقصداً للكثير من الرؤساء والاعيان والادباء ، وكان من اكثر رؤساء العشائر تردداً عليهـا ثلاثة هم : فهد الهذال شيخ مشايخ عنزة ، وعلي السليمان شـيخ الدليم ، وحسن السهيل شيخ بني تميم • وكان أقرب الناس الى قلبها من الوجهـاء المحليين اثنان هما : الحاج ناجي في الكرادة الشرقية ، والسيد جعفر عطيفة في الكاظمية • فكانت كلما ضاق صدرها خرجت لزيارة أحد هذين الرجلين في بستانه •

---

(13) Elizebeth Burgoyne (Certrude Bell) — London 1961 — vol. 2, p. 57—58.

(١٤) برسي كوكس وهنري دوبس (المصدر السابق) — ص ١٨—١٩ •

أصبحت المس بيل محور أحاديث الناس في المقاهي والدواوين ومجالس النساء • فلم يكن مألوفاً لدى الناس أن تكون امرأة على مثل هذا السلوك أو تملك مثل هذا النفوذ والمقام الرفيع • فهم يرونها تسير سافرة في الشوارع تبتسم للمارة وتزور الرجال في بيوتهم كما يزورونها هم في بيتها • ولهذا صارت أقاويل السوء تنتشر بين الناس عنها دون أن يشفع لها كبر سنها ونحافة بدنها • وقد نظم الشيخ تقي الخالصي قصيدة تهكمية فيها ، وهي قصيدة اشتهرت في حينها وأخذ الناس يتناقلونها بينهم لطرافتها • وهذه بعض أبيات نموذجية منها :

وافت الينا مس بيل راكبة أوتوموبيل
تحكي البدور وجهاً وشعرها يحكي الليل
عرّج علينا نقضي عشية في الأوتيل

الموظفون الاوائل :

كان الانكليز منذ بداية الاحتلال يحاولون اقناع الوجهاء ورجال الدين وأبناء الاسر المعروفة بدخول الوظائف بغية جعلهم واجهة حسنة لحكمهم ، وصاروا يغرونهم بالمرتبات العالية والامتيازات الخاصة ، ولكن أكثرهم لم يستجيبوا لرغبة الانكليز بالرغم من تكرار الالحاح عليهم وارسال الوسطاء اليهم مرة بعد مرة •

يصور لنا اسماعيل الواعظ في مذكراته شدة الالحاح الذي سلطه عليه الانكليز لكي يقبل بوظيفة دينية عقب عودته من الديوانية التي كان مفتياً فيها ، فهو يقول : ان كوكس أرسل اليه يطلب مواجهته ، وحين ذهب اليه رحب به كوكس وأكرمه ولم يدخن بحضوره احتراماً له ، ثم سأله عن أحوال الديوانية وموظفيها وكلفه أن يعود مفتياً فيها كما كان في العهد التركي ، ولكن الواعظ أجابه بالرفض ، فأصر عليه كوكس وقال له : « كن مفتياً ولا تذهب الى الديوانية حتى تأمن الطرقات والبلاد » ، وأصر الواعظ من جانبه على الرفض ثم خرج من عنده • وقد استدعاه كوكس بعد ذلك مرتين لاقناعه بقبول الوظيفة دون جدوى • ثم استدعته المس بيل من أجل ذلك أيضاً وعرضت عليه أن يكون قاضي البصرة بمرتب قدره

٤٥٠ روبية وتخصيص دار له من دور الحكومة مع اعطائه تموينا لحاجاته البيتية . وبعد مدة قليلة أعاد كوكس عليه الكرة وعرض عليه وظيفة القضاء في البصرة أو الحلة أو بعقوبة ، أو رئاسة الجزاء في أي محل يختـاره . ويقول الواعظ انه قابل كل هذه العروض بالرفض ... (١٥)

يمكن تعليل هذا الموقف السلبي الذي اتخذه الكثيرون ازاء الوظيفة في بداية الاحتلال الى الاسباب التالية :

اولاً ــ خوفهم من عودة الاتراك الى البلاد والانتقام منهم على نحو ما فعلوا في الكوت . وقد كان أعوان الاتراك في بغداد يدأبون على نشر الاشاعات القائلة بأن الاتراك لابد عائدون وأنهم قد أعدوا جيشاً عرمرماً في سبيل ذلك ، وقيل أيضاً ان الاتراك سيعودون حتى في حالة خسرانهم الحرب لان ألمانيا وعدتهم بأن تسترجع العراق لهم في مقابل اعادة بلجيكا الى الحلفاء .

ثانياً : كان الكثير من الناس في بغداد لا يزالون تحت تأثير حركـة الجهاد نفسياً فكانوا يعتبرون قبول الوظيفة في أيام الاحتـلال الانكليزي أمراً محرماً من الناحية الشرعية اذ هو بمثابة التعـاون مع الكفار . وقـد صار الناس ينظرون الى من يقبل الوظيفة في تلك الايام نظرة لا تخلـو من تهمـة وارتياب .

ثالثاً : ان الازدهار التجاري الذي عم الاسواق حينذاك جعل الـكثير من الناس يفضلون الكسب الحر على الوظيفة ، فقد انفتحت أبواب الرزق على مصراعيها أمام التجار والزراع وأهل الحرف وغيرهم ، كما أشرنا اليه من قبل . ولو أن الاسواق كانت كاسدة لنسي الناس أمر الحلال والحرام وانثالوا على الوظيفة ينهلون منها نهلاً على نحو ما فعلوا بعد مـدة غـير طويلة من الزمن .

ان أول شخص استجاب لدعوة التوظف في بغداد هو عبدالعـزيز المظفر (١٦) ، حيث عين مترجماً في المحكمة الموقتة التي أقيمت فـي الايام

---

(١٥) مصطفى نور الدين الواعظ (الروض الازهر) ــ الموصل ١٩٤٨ ــ ص٤٥٩ .

(١٦) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ــ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد بغـداد ١٩٦٧ ــ ج ٢ ص ٢٠٢ (الحاشية) .

الاولى من الاحتلال . ثم أخذ أشخاص آخرون يستجيبون للدعوة شيئاً فشيئا . وفيما يلي قائمة بأسماء الاوائل الذين دخلوا الوظائف حسب تسلسلهم الزمني منذ بداية احتلال بغداد حتى انتهاء الحرب ، وقد استخلصتها من القوائم التي نشرها ويلسون في ملاحق الجزء الثاني من كتابه « العراق بين ولائين » : (١٧)

الاســم	الوظيفــة	التاريخ
عبدالمجيد بك الشاوي	مهمة خاصة في الاوقاف	١٩١٧/٤/١
الشيخ ابراهيم الراوي	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٥/١
شمس الدين الآلوسي	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٥/١
أمين افندي الملا رشيد	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٥/١
خيري أفندي الهنداوي	معاون مالي بالعزيزية	١٩١٧/٥/١
صالح أفندي الملي	مهمة خاصة في الاوقاف	١٩١٧/٦/٨
علي علاء الآلوسي	قاضي شرع	١٩١٧/٧/٢
عبدالوهاب افندي	حاكم محكمة الصلح	١٩١٧/٧/٢
قاسم افندي	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٧/٢٨
حميد خان	معاون حاكم سياسي بالنجف	١٩١٧/٨/١
جميل افندي عبدالكريم	رئيس مفتشين في الاوقاف	١٩١٧/١٠/٢٧
سليمان افندي السنوي	معاون قاضي شرع	١٩١٧/١١/١
عبدالجبار الملا ياسين	حاكم	١٩١٧/١٢/١٣
عبدالعزيز سعيد محمد	مهمة خاصة	١٩١٧/١٢/١٣
عبدالجبار جميل زاده	حاكم	١٩١٨/١/١
محمود نديم الطبقجلي	مشاور مالي	١٩١٨/٢/١
الحاج شكرالله	قاضي جعفري	١٩١٨/٢/١٧
السيد أحمد الداود	مدير أوقاف	١٩١٨/٢/٢٢
أحمد علي الصوفي	مهمة خاصة	١٩١٨/٢/٢٧
أحمد السيد صالح	حاكم بداءة بعقوبة	١٩١٨/٥/١٦

(17) Arnold Wilson (Loyalties — Mesopotamia) — London 1936 vol. 2, p. 342—400.

الاســـم	الوظيفـــة	التاريخ
سعيد افندي المفتي	رئيس مجلس التمييز	١٩١٨/٧/١
كاظم افنـــدي	عضو مجلس التمييز	١٩١٨/٧/١
السيد خضر افندي	عضو محكمة التمييزالشرعية	١٩١٨/٧/١
عبدالامير كبه	مهمة خاصة	١٩١٨/٧/١٩
احمد عزت الحجازي	عضو محكمة	١٩١٨/٧/٢٣
عبدالملك الشواف	عضو مجلس التمييزالشرعي	١٩١٨/٨/١
عبداللطيف الراوي	قاضي بيعقوبة	١٩١٨/٨/٢١
حمدي افندي الاعظمي	مفتش اداري في الاوقاف	١٩١٨/٩/١٤
سعدون بك الشاوي	معاون شخصي لمديرالاوقاف	١٩١٨/٩/١٩
يوسف بك عزالدين	معاون مدير المعارف	١٩١٨/١٠/١
عبداللطيف الاطرقجي	معاون مالي بالصويرة	١٩١٨/١٠/١

الواقع ان أشخاصاً كثيرين غير هؤلاء دخلوا سلك الوظيفة بعد اعلان الهدنة ، وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم • فلقد أيقن الناس عند ذاك أن العهد التركي لن يعود ، ولم يبق معنى لرفضهم الوظيفة لا سيما وقد سبقهم اليها الكثيرون • يقول اسماعيل الواعظ : انه رضخ لالحاح الانكليز أخيراً، وذلك في عام ١٩١٩ ، حيث تولى مديرية أيتام بغداد وقام بها خير قيـــام ، وهو يعزو سبب قبوله الوظيفة الى القضاء والقدر • (١٨)

بيــان مــود :

كان الجنرال مود قبيل دخوله بغداد قد وصلته برقية من لندن تأمره بأن لا يذيع أي بيان على الاهالي لان هناك بياناً يصاغ في لندن وسيبرق به بعد قليل • (١٩) وبعد فترة وجيزة وصل البيان برقياً وكان قد صاغـــه السر مارك سايكس من أعضاء المكتب العربي في القاهرة • وفي ١٩ آذار ١٩١٧ نشر البيان باللغتين العربية والانكليزية •

---

(١٨) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٥٩ •

(19) Philip Graves (Sir Prey Cox) — London — p. 218.

لا يسعنا المجال نقل البيان بنصه ، فهو طويل ويمكن وصفه بأنه مليء بالتزلف والتملق للعرب ، فهو يذكر مجد العرب القديم وكيف كان العالم كله يتغذى بألبان علومهم وآدابهم ، وكيف تخرب هذا المجد على أيدي الغرباء الظلمة الذين كان دأبهم الايقاع بين العرب كي يستفيدوا من انشقاقهم ، وان بريطانيا صممت مع حلفائها على أن يسمو العرب الى الصيت والعظمة مرة أخرى • ثم يقول البيان : اننا جئناكم محررين لا فاتحين ، وقد طرد العرب من الحجاز الاتراك والجرمان الذين بغوا عليهم ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم وهو متحالف معنا كما تحالف أشراف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير ، فيا أهل بغداد هيا للتعاون معنا لتحقيق أطماحكم القومية • (٢٠)

اشتهر هذا البيان باسم « بيان مود » لانه كان مذيلاً بتوقيعه ، ولكن الواقع ان مود لم يكن راضياً عنه ، بل هو أصدره مرغماً ، وكان رأيه ان البيان غير ضروري وليس في أوانه وهو سيثير في السكان آمالهم وأطماعهم في الوقت الذي يجب فيه أن تبقى سلطة الجيش هي السائدة لاينازعها أحد • (٢١)

وقد جرى حول البيان نقاش في مجلس العموم البريطاني ، فقال رئيس المجلس يصف البيان بأنه يحتوي على الكثير من الزخارف اللفظية التي اعتاد عليها الشرقيون والتي لا تلائم العقلية الغربية ، وقال أحد النواب من دعاة الحركة الوطنية الايرلندية : ان هذا البيان يليق أن يصدر في ايرلندا • وعلق نائب آخر على ذلك يقول : ان الجنرال مود وهو ايرلندي ربما فكر بوطنه عندما أصدر بيانه في بغداد • (٢٢)

ان بيان مود على أي حال يدل على أن حكومة لندن بدأت تتجه في سياستها العراقية نحو مدرسة القاهرة وتبتعد عن مدرسة الهند • وقد رأينا

---

(٢٠) انظر نص البيان في كتاب «تاريخ العراق السياسي الحديث» لعبدالرزاق الحسني ــ صيدا ١٩٤٨ ــ ج ١ ص ٨٦ ــ ٨٨ •

(٢١) فيليب آيرلند (العراق ــ دراسة في تطور السياسي) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٤٩ ــ ص ٦٦ •

(22) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 383.

كوكس وأعوانه عقب اذاعة البيان يشيدون بذكر الثورة العربية وذكر قائدها الشريف حسين ، وشرع البريد العسكري يوزع في أنحاء العراق جريدة « القبلة » الناطقة بلسان الثورة العربية ، كما شرع يوزع جريدتي « المقطم » و « الكواكب » اللتين كان المكتب العربي في القاهرة يشرف عليهما ويغذيهما بالمقالات الرنانة في تمجيد الثورة • [٢٣] وكان قد صدر في القاهرة كتاب لأسعد داغر عنوانه « ثورة العرب » ، فاستوردت السلطة نسخاً كثيرة منه ووزعتها في أنحاء العراق على وجهاء المدن ورؤساء العشائر • [٢٤]

الخلاف بين مود وكوكس :

بدأ الخلاف بين مود وكوكس في البصرة منذ تولي مود القيادة العامة في ايلول ١٩١٦ ، فقد كان مود ميالاً لان يتولى بنفسه الامور العسكرية والسياسية معاً فلم يترك لكوكس مجالاً يتصرف فيه حسب رأيه • وقد اشتد هذا الخلاف في بغداد عقب اذاعة بيان مود ، فقد كان كوكس متحمساً للسياسة الجديدة في تشجيع القضية العربية حسب الاوامر التي وصلت اليه من لندن بينما كان مود غير متحمس لها وأبدى أرتيابه في فائدة الاستعانة بالعرب • أرسل روبرتسن رئيس أركان الجيش الامبراطوري بلندن الى مود يطلب منه أن يتفاهم مع كوكس في هذا الامر ، كما وجهت وزارة الخارجية البريطانية عليه ضغطاً في هذا الاتجاه ، والظاهر أن مود ظل على فتوره ولم يبدل موقفه تبديلاً كافياً •

عندما وصل السر رونالد ستورز الى بغداد في ٨ أيار ١٩١٧ أخذ كوكس يشكو اليه من تصرفات مود معه ، فوصف مود بأنه محب للتسلط المطلق وليس من الممكن التعاون معه ، وقال ان من الافضل له ولبلاده أن يستقيل من وظيفته ليحل محله كلايتون بصفحة بيضاء • ثم قال كوكس : انه سئم من العمل وكان في نيته الاستقالة من قبل الحرب ، فانه يعيش في الدنيا مرة واحدة وان زوجته لها الحق في شيء من حياة الحضارة

---

(٢٣) روفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ــ ص ٥١ •
(٢٤) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ــ بغداد ١٩٢٣ ــ ص ٧٤ •

والانس وهي التي عانت الحياة معه في الصومال والخليج عدداً من السنين. فأخذ ستورز يهدىء من سورة غضبه ويذكر له حاجة بلاده الى خدماته .(٢٥)

وفي ٢٥ أيار أرسل كوكس برقية مطولة الى لندن والهند قال فيها: ان الجنرال مود قائد بارع بلا شك ولكنه لا يعرف السياسة وليس له خبرة بأخلاق الشرقيين ، وقد وجدته غير متعاطف ولا متسامح في القضايا السياسية ، ولهذا فاني مستعد للاستقالة من وظيفتي اذا رغبت الحكومة في ذلك ، أما اذا كانت الحكومة تريد مني البقاء في الوظيفة فالاحرى بها أن تدعم جانبي وتجعلني في منصب مستقل باسم « مفوض مدني » على أن يكون ذلك بدون زيادة في مرتبي لكي لا يكون أكثر من مرتب الجنرال مود ، ان مجرد منحي الحق في كتابة التقارير الى الحكومة مباشرة هو بمثابة حماية لي وصمام أمن تجاه الجنرال مود ، ولسوف أقدم له نسخاً من التقارير التي أقدمها . واذا فشلت في نيل مثل هذا الحق فاني أفكر بأن الخير لي أن أعفى من الوظيفة .

وفي ١٥ حزيران كتبت المس بيل الى أحد المسؤولين بلندن ، من الذين لها دالة عليهم ، فقالت ما نصه : « ان من الواضح أن وزارة الحربية البريطانية لا تستطيع أن تنقل قائداً ناجحاً كالجنرال مود ، ولهذا أصبح من الواجب علينا أن نستمر في عملنا ، ولكن ذلك ليس سهلاً ، وان أشق مهمة اضطلع بها الآن هو اقناع كوكس بأن لا يستقيل ، فهو يشعر بأنه أصبح لا فائدة منه ، وهو يشعر كذلك بأن كثيراً من الاعمال التي تجري ليست منسجمة مع سياسة الحكومة البريطانية ... » (٢٦)

وبعد مداولات ومراسلات كثيرة تقرر أن يخول كوكس الصلاحيات التي طلبها ، وبذا أصبح مستقلاً في دائرته على أن يقدم نسخاً من تقاريره الى الجنرال مود لكي يبدي هذا رأيه فيها ان وجد ذلك ضرورياً . (٢٧)

---

(25) Ronald Storrs (Orientations) — London 1939 — p. 228.

(26) Philip Graves (op. cit.) — p. 223—227.

(27) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, 264.

جولة ستورز :

ان السر رونالد ستورز من الاعضاء البارزين في المكتب العربي بالقاهرة ، وكان يتقن العربية ويؤمن بقيمة التعاون مع العرب ، وقد قرر المكتب العربي ارساله الى العراق لمباحثة كوكس في السياسة العربية • [٢٨]

وصل ستورز الى البصرة عن طريق البحر ، ومنها ركب باخرة نهرية فوصل بغداد في ٨ أيار ١٩١٧ • وكان في استقباله على ضفة النهر كوكس والمس بيل ، ثم أخذه كوكس بزورق بخاري الى مسكنه لينزل في ضيافته فيه •

وقرر ستورز بعد المداولة مع كوكس أن يقوم بجولة في بغداد والعتبات المقدسة يزور فيها علماء الدين وغيرهم • وقد سجل ستورز تفاصيل جولته ومقابلاته في كتابه « المشرقيات » ، [٢٩] ننقل فيما يلي بعضها كما ورد في الكتاب من غير تعليق :

أول زيارة قام بها ستورز كانت بصحبة المس بيل في الساعة الثانية من بعد ظهر ٩ أيار ، حيث ذهبا الى جامع مرجان فقابلا في غرفة صغيرة منه علي الألوسي ، ويصفه ستورز بأنه رجل جذاب ومثقف على الطريقة القديمة وقد جلس أصحابه حوله على شاكلة الرسوم الفارسية • وهو كان يطمح لمنصب « شيخ الاسلام » ، ويقول ستورز انه جدير بهذا المنصب • ثم ذهبا بعد ذلك لزيارة محمود شكري الألوسي في بيته ، ويصفه ستورز بأنه تقي ذو علم ولكنه نفور •

وفي صباح اليوم التالي قام ستورز والمس بيل بزيارة النقيب عبدالرحمن الكيلاني في بيته القديم الواقع قرب جامع الشيخ عبدالقادر • وقد تبسط النقيب في الحديث معهما وقال لهما : ان من النادر له أن يزور أحداً ولكنه على الرغم من ذلك زار الجنرال مود لانه يعتبره « وكيل جورج » ، ثم وصف النقيب الاتراك بأنهم كانوا يرقصون ليلاً ويحاربون نهاراً وهذا في نظره أمر غير طبيعي ، ثم قال ان طموحه الآن يتركز في زيارة

---

(28) Philip Graves (op. cit.) — p. 222.

(29) Ronald Storrs (op. cit.) — p. 228—248.

مكة والمدينة والقدس والازهر . ويقول ستورز ان المس بيل كانت قد ذكرت له عن النقيب بأنه لا يميل الى الشريف حسين ، ولهذا لم يتطرق أي منهما الى الحديث عنه .

وفي عصر ذلك اليوم ذهب ستورز وحده بالسيارة الى الاعظمية ، وكان الطريق متربا مليئاً بالمطبات ، فاستقبله قرب الجامع جماعة من المعممين المحترمين ودعوه الى بيت كبير يقع تجاه الجامع ، وكان بينهم كليدار الجامع ورئيس البلدية ، فتحدث معهم وشرب الشاي والقهوة ، ثم خرجوا معه لمشاهدة البلدة والجامع من الخارج ، وبعد الساعة الرابعة عاد الى بغداد .

وفي اليوم الرابع ذهب ستورز الى الكاظمية ، فكان في استقباله هناك ثلاثة من وجهاء الكاظمية هم : السيد جعفر عطيفة رئيس البلدية ، والشيخ حميد الكليدار ، والحاج حسين الصراف . ويصف ستورز الشيخ حميد بأنه متعصب قاد أثناء حركة الجهاد ألفاً وخمسمائة مقاتل ضد الانكليز، ثم يصف الحاج حسين الصراف بأنه منكت ذكي مرح يشبه وجهه وجه سقراط . وأخذ الشيخ حميد يطنب في حب الناس للانكليز في كل مكان ولما ذكر له ستورز ما سمعه في القاهرة عن خصومة المجتهدين للانكليز أجابه الشيخ حميد بدون تلكؤ بأنهم فئة صغيرة كانوا مخدوعين ولكنهم غيروا رأيهم حالما شاهدوا الفضائع الحقيقية للسياسة الالمانية .

وبعد أن تجول ستورز في الكاظمية وسار حول الصحن وأخذ بعض الصور ذهب لزيارة السيد مهدي الحيدري ، ثم لزيارة السيد حسن الصدر . ولم يذكر ستورز عن السيد مهدي شيئاً ولكنه ذكر كثيراً عن السيد حسن ، ووصفه بأنه شيخ رائع له لحية بيضاء كبيرة . وحين علم السيد حسن بأن ستورز يعرف اللغة العربية انهال عليه بسيل من فصاحته، فبدأ بالتكلم عن فوائد السفر الخمس ثم أخذ يتحدث عن قضايا السياسة والثقافة وعن جرائد مصر ورجالها ..

وفي الساعة السادسة والنصف من صباح ١٧ أيار غادر ستورز بغداد متوجهاً الى كربلا ، وكان في صحبته غاربيت وغولدسمث والنواب محمد حسين خان وحرس من الكركه تحملهم ثماني سيارات من طراز فورد . وقد تأخرت السيارات في منتصف الطريق من جراء عاصفة ترابية شديدة هبت

عليها • ولم تصل القافلة المسيب الا في الساعة الثالثة والنصف من عصر ذلك اليوم • وكان في استقبالهم هنالك الشيخ محمد علي كمونه ورئيس احدى العشائر القريبة •

اضطرتهم الريح الباردة أن يبيتوا في المسيب وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي تحركت السيارات بهم نحو كربلا • وحين وصلوا الى مشارف البلدة وجدوا جمهوراً من وجهاء البلدة وأشرافها في استقبالهم ، فنزل ستورز للسلام عليهم ، ثم تحرك نحو كربلا يحيط به الوجهاء وهم في عرباتهم أو على ظهور الخيل • وكانت الجماهير واقفة على الجانبين تهتف ، والنساء يزغردن •

وصلوا أخيراً الى قصر آل كمونه وهو فيوسط بستان عامرةبالنخيل والزهور وأشجار الدفلة والمشمش والعنب والبرقوق الاخضر أي«القوجة»• وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر قدم لهم طعام الغداء في مائدة كبيرة صفت عليها عدة صحون مرة واحدة • ويقول ستورز ان « البامية » كانت من جملة المطبوخات التي قدمت على المائدة ، وقد ذاقها لاول مرة في حياته فوجدها لذيذة •

قضى ستورز عصر ذلك اليوم في التجول في أسواق البلدة وحول مزاراتها ، وفي الساعة السابعة مساءاً عاد الى القصر ليستقبل الوجهاء فوجدهم أقل ذكاءاً من وجهاء الكاظمية • وقد استنتج ستورز من محادثاته العديدة في كربلا أن الشيعة كانوا قد استقبلوا ثورة الشريف حسين بالترحاب لانها جاءت ضد الاتراك فضلاً عن كونها مشرفة للعرب •

وفي صباح اليوم التالي ـ ١٩ أيار ـ ذهب ستورز لزيارة المجتهدين، وكان أهمهم حسين المازندراني ، ويصف ستورز هذا الرجل بأنه شيخ ذو صفات جذابة يتقن اللغات العربية والفارسية والهندوستانية وهو رجل نادر من طراز الحكماء القدامى اذ هو مستعد أن يغير الحديث لاقل سبب لكي يتكلم في موضوع المقارنة بين افلاطون وأرسطو • وكان يجلس في مكتبته الصغيرة التي تحتوي على أربعمائة كتاب أكثرها مخطوط ، وكانت له مكتبة أخرى مثل هذا الحجم فتحها ليريها لستورز وهو فخور بها •

وبعد الانتهاء من زيارة المازندراني ذهب ستورز لزيارة المجتهدين

الآخرين ، فوجدهم كلهم يؤيدون ثورة الشريف حسين . وقد رد المجتهدون الزيارة لستورز . ويقول ستورز : ان محمد علي كمونة كان مكروها في كربلا ولهذا لم يزره المجتهدون في قصر هذا الرجل بل زاروه في بيت أبن عم النواب محمد حسين خان . وحين جاء حسين المازندراني للزيارة صاح « يا الله » ثماني مرات قبل صعوده الدرج .

وفي عصر ذلك اليوم غادر ستورز مع رفاقه كربلا متوجهاً الى النجف، فوصلها في الساعة الخامسة والنصف مساءاً . ويقول ستورز ان الاسواق في النجف قد أغلقت لتكريمه وان آلاف الناس خرجوا لاستقباله .

نزل ستورز ورفاقه في دار السيد عباس الكليدار ، وكانت الدار مليئة بالناس الذين كانوا في انتظاره فيها . وفي المساء زاره في الدار أعضاء المجلس البلدي والشيوخ الكبار . وفي صباح اليوم التالي استدعى ستورز اليه تجار الحرير والسجاد ، كما استدعى منجماً مشهوراً في النجف وأخذ هذا المنجم يرسم على ورقة نقاطاً وخطوطاً ثم قال له انه سيعود الى بلاده بعد مدة طويلة عن طريق البحر ، وتبين لستورز أن المنجم ليس قديراً ، وقد نفحه عشر روبيات لانه لا يستحق اكثر من هذا المبلغ .

قرر ستورز الذهاب الى الكوفة ، وعند مروره في السوق الكبير شاهد غزالاً جالساً بهدوء في أحد الدكاكين ، وكان الحاج عطية أبو قلل حينذاك بجانب ستورز فأشار الى صاحب الدكان اشارة خاصة جعلته يقدم الغزال الي ستورز حالاً . ولما وصل ستورز الى محطة الترامواي وجد فيها عربة مليئة بالركاب ، فأراد الحاج عطية أن ينزل الركاب من العربة لكي يركب فيها ستورز مع رفاقه ، ولكن ستورز رفض ذلك وقرر الذهاب الى الكوفة بالسيارات .

وحين وصل ستورز الى الكوفة ذهب لزيارة علوان الحاج سعدون رئيس بني حسن فوجده مع زمرة من اعوانه جالساً في غرفة مطلة على النهر . وقد وجد صعوبة في التحدث اليهم لانه كان يتكلم باللهجة المصرية وهم لا يفهمونها ، فكانوا يجيبونه بلفظة « بلي » مرة بعد مرة بلا فهم مما جعله ينزعج منهم . وبعد محاورة غاضبة معهم اقترح عليهم أن يهاجموا ابن رشيد ويغنموا أباعره التي يبلغ تعدادها عشرة آلاف ، فأجابوه بالموافقة

وأقسموا على أنهم سيفعلون ذلك • وأدرك ستورز بعدئذ أنهم لن يفعلوا ذلك ما لم يدفع لهم رشوة •

عاد ستورز الى النجف عصراً ، وبعد أن استراح قليلاً في سرداب الكليدار استعد لمقابلة السيد كاظم اليزدي • وفي الساعة الخامسة ذهب مع غاريبت الى بيت السيد كاظم وهو يحمل في جيبه رزمة بألف باون بغية تقديمها اليه هدية من الحكومة •، وبعد أن جلسا ينتظران عند باب الحجرة خمس دقائق خرج السيد اليهما فحياهما من بعيد وجلس على الحصيرة وأجلسهما بجانبه •

يصف ستورز السيد كاظم بأنه رجل كبير السن يلبس قفطاناً وعمامة وقد خضب لحيته وأظافره بحنة حمراء لماعة • ويقول ستورز انه أدرك سر نفوذ هذا الرجل وذيوع شهرته ، فهناك سيماء قوة في ملامحه وعينيه، ونبرة سلطة في كلامه الخافت ، لا يوجد لهما مثيل في أي مكان آخر من بلاد المسلمين •

وتقدم ستورز الى السيد كاظم يسأله : هل هناك أي شيء يستطيع الانكليز أن يقدموه له ؟ فأجاب السيد « حافظوا على العتبات الشريفة ، حافظوا على العتبات الشريفة » ، وألح السيد في أن لا يعين في المدن الشيعية سوى موظفين من الشيعة ، ثم طلب كذلك اطلاق سراح رجلين من الشيعة كانا معتقلين في بغداد هما الدكتور مظفر بك وجمال بابا ، وأن يعين المرزا محمد قائمقاماً للنجف • وأخذ السيد كاظم من بعد ذلك يجامل ستورز بشيء من الثناء ثم التفت نحو رجل دين كان حاضراً فقال له بالفارسية ما معناه : لو أن الاتراك كانوا يسلكون مثل هذا السلوك لما فقدوا العرب مطلقاً •

وقال ستورز للسيد انه سينقل نصائحه السامية الى كوكس ، ثم طلب الاختلاء به لمدة ثلاث دقائق بغية تقديم المبلغ له ، ولما قدم ستورز المبلغ أشار الى أنه للفقراء الكثيرين الذين يرجون منه المعونة ، غير أن السيد كاظم رفض المبلغ برفق مقرون بالعزم الاكيد وقال ان الوقت لم يحن لهذا بعد وهو يرجو قبول اعتذاره • ولم يجد ستورز من اللياقة الاصرار عليه ، وأخذ يحدثه عن الشريف حسين فأبدى السيد اعجابه بالشريف وتأييده له •

ولما هم ستورز بتوديع السيد كاظم عرض عليه المبلغ مرة أخرى ، ولكن السيد رفضه بكل مجاملة وأدب . ويعلق ستورز على ذلك قائلاً بأنه على يقين أن السيد لا يعبأ بالمال بل بالعزة التي لا يمكن شراؤها بالمال . ثم يستدرك ستورز فيقول ان السيد لابد أن يرضخ في النهاية بطريقة مناسبة حينما يكون الغرض شيئاً لا مطعن فيه وهذا موقف بعيد كل البعد عما يحدث في مصر والحجاز .

غادر ستورز ورفاقه النجف في صباح اليوم التالي ، وبعد أن مروا في طريقهم بكربلا والمسيب والحلة وبابل وبرج نمرود وصلوا بغداد في ٢٣ أيار . وفي ٢٦ منه استقبل ستورز السيد هبة الدين الشهرستاني لمحادثته في أمر ارسال وفد من علماء الشيعة الى مكة لتهنئة الشريف حسين بثورته. وكان الشهرستاني قد اقترح هذه الفكرة وأيده عليها الاب انستاس ماري الكرملي والمس بيل ، ولكن ستورز لم يتحمس لها لانه كان يريد أن يكون الوفد مؤلفاً من كبار علماء الشيعة بينما لم يقبل بالانضمام اليه سوى بضعة أشخاص من صغار المعممين . ولهذا أهملت الفكرة .

وفي ٢٨ أيار غادر ستورز بغداد بالباخرة متوجهاً الى البصرة ، ومنها ذهب الى نجد لمقابلة ابن سعود .

جريدة العرب :

أراد الانكليز عقب دخولهم بغداد أن يصدروا فيها جريدة تنطق بلسانهم ، وكان رأيهم في أول الامر أن يسموها « الاوقات البغدادية » أسوة بـ « الاوقات البصرية » التي صدرت قبلها ، واستشاروا في ذلك صديقهم الاب انستاس ماري الكرملي ، فاستشار هذا بدوره محمود شكري الآلوسي ، وأشار الآلوسي بأن يسموها جريدة « العرب » . وقد استحسن كوكس هذا الاسم .[٣٠]

وفي ٤ تموز ١٩١٧ صدر العدد الاول من جريدة « العرب » ، وقد كتب تحت العنوان أنها « جريدة سياسية أخبارية تاريخية أدبية عمرانية عربية

---

(٣٠) رفائيل بطي (المصدر السابق) ــ ص ٤٤ ــ ٤٥ .

المبدأ والغرض ينشؤها في بغداد عرب للعرب » • وجاء في افتتاحية العدد مانصه : « أنها ستكون وسيلة لنشر آراء العرب وتعميم علومهم وآدابهم وترقية شؤونهم وعمرانهم • وها نحن أولاء نزف الى أبناء يعرب وقحطان هذه العروس ونأمل أنها تلاقي اقبالاً وحظوة عند كل من يهمه ترقية حالة العرب وتحرير رقابهم من نير الظلم الذي كانوا يئنون تحته اكثر من أربعمائة سنة وعلى الله الاتكال في المبدأ والمآل » •

كان فيلبي يشرف على تحرير الجريدة وادارتها ، وكان يساعده الاب انستاس ماري الكرملي • وفي أوائل تشرين الثاني ١٩١٧ ترك فيلبي العمل في الجريدة فحلت محله المس بيل • وقد ذكرت المس بيل في احدى رسائلها تقول : ان الكرملي كان يأتيها اسبوعياً ليقرأ لها المقالات الرئيسة من أجل رقابتها • (٣١) وكانت هي تأنس بالكرملي وتعتبره ظريفاً • ولكنها تصفه بأنه على الرغم من ملابسه الكهنوتية كان رجلاً ماكراً • (٣٢)

كان الكرملي في الواقع لولب الجريدة والكاتب الاول فيها ، فكان يدبج المقالات الرنانة في تمجيد الثورة العربية • يقول عنه رفائيل بطي : « كان فضله فيها ليس التوجيه السياسي الدولي انما هذه النزعة العربية الحادة التي فاضت بها أنهر صحيفة العرب ، وتلك الفصول الشائقة في تمجيد ثورة الصحراء وزعامة المنقذ الاعظم جلالة الحسين بن علي وبطولة أشباله المقاديم ••• » (٣٣)

وكان يشارك في تحرير جريدة « العرب » نفر من أدباء العراق وشعرائه المعروفين كجميل صدقي الزهاوي وكاظم الدجيلي وعبدالحسين الازري ومحمد مهدي البصير وشكري الفضلي وعطا أمين • وكان هؤلاء اذ ينشرون نتاج أقلامهم في الجريدة لا يعلنون عن أسمائهم بل يكنون عنها بتواقيع مستعارة هي : ابن الفراتين ، ابن ماء السماء ، ابن بابل ، ابن الشيعة ، ابن الاسلام الصادق ، ابن السلام ، ابن العراق ، ابن جلا ، ابن قحطان ، ابن ديك

---

(31) Richmond (Letters of Gertrude Bell) — London 1953 — p. 226.

(32) Elizabeth Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 66.

(٣٣) جورج جبوري (الكرملي الخالد) ــ بغداد ١٩٤٧ ــ ٨٩ •

العرب : ابن الزمن ، ابن الحارث ، ابن الاخباري ، ابن القيصوم ، ابن الشيح ، ابن اليراع ، ابن الرند ، ابن الخضرة ، ابن السليقة ، ابن الحقيقة ، ابن همام، ابن المستطرق ، ابن الشاهد العدل ، ابن الارطي ، ابن الصدق ، ابن بغداد ، ابن الهند ، ابن أبي الكنيتين ، ابن العراقين ، ابن السيارة ، ابن الرثاء .

لم يعلن اسمه في الجريدة سوى جميل صدقي الزهاوي ، أما الباقون فظلوا يكتمون أسماءهم الى يوم انتهاء الحرب ، ثم بدأوا يعلنونها بعدئذٍ . والمظنون أنهم كانوا أثناء الحرب يخشون عودة الاتراك ، فلما انتهت الحرب زال الخوف عنهم .

كانت الجريدة تدفع أجوراً عالية لمن ينشر فيها مقالاً أو قصيدة ، ولهذا أخذت القصائد « العصماء » والمقالات « الرنانة » تنهال على الجريدة وهي تلهج بمدح الانكليز وذم الاتراك وتهيب بالعرب أن ينهضوا لاعادة مجد الاجداد . ننقل فيما يلي نموذجاً من احدى المقالات التي نشرتها الجريدة ، وكانت بتوقيع « ابن الخضرة » :

« ... واذا سألتني كيف بلغ بالبغداديين أن فسدت لغتهم حتى انحطت الى هذه الدركات ؟ قلنا سببه الترك تلك الامة الفاسدة المفسدة التي أخذت على عاتقها أن تفسد كل اصلاح على الارض حتى أن من جملة ما آلت به على نفسها أن تفسد لغة عدنان ، لغة قريش ، لغة هاشم ، لغة أفصح من نطق بالضاد ، لغة دين المسلمين ... وما ان دخل ألانكليز بلدتنا الا وأجبروا الناس على تعلم اللغة العربية وصرحوا بأنهم لا يهمهم تدريس الانكليزية فيها ، وقد قال من عهدت اليه رئاسة المعارف: ان المدارس الاهلية التي لا تدرس اللغة المضرية لا تسعف بالمال ، وكل مدرسة علمت العربية وان كانت لا تدرس لغة من اللغات الاجنبية فانها تسعف مالاً ونفوذاً وجاهاً » (٣٤)

ظاهرة التقلب :

الملاحظ ان أكثر الادباء الذين نشروا قصائدهم أو مقالاتهم في جريدة

---

(٣٤) جريدة العرب – في عددها الصادر في ١٣ تموز ١٩١٧ .

« العرب » كانوا أنفسهم ينشرون القصائد والمقالات في جريدة « صدى الاسلام » العثمانية • يقول الدكتور يوسف عزالدين في ذلك ما نصه :

« يقف الباحث في حيرة من حالة الشعراء ويتساءل متعجباً عن سبب هذا التقلب من مدح الاتراك الى هجائهم • فلو أخذنا (صدى الاسلام) وجريدة (العرب) لوجدنا شيئين متناقضين ، فقد مجد الشعراء رجال الدولة العثمانية وأعمالها في العراق ونظروا اليهم نظرة الاخ لأخيه ثم انقلب هؤلاء الشعراء الى هجوهم وحربهم ولصق كل تهمة بهم وكل بلية جاءت العراق ، فاتهموا بالهزيمة طوراً وبالكفر والشرك مرة وتنصلوا عن أخطائهم وصلاتهم بهم آونة أخرى ••• » (٣٥)

وقد أشارت المس بيل الى مثل هذا في احدى رسائلها حيث قالت : انها حائرة من وضع بعض الادباء الذين هم من أعز أصدقائها الآن ، فهم كانوا في عهد الاتراك يكتبون المقالات العنيفة ضد الانكليز ، وهم الآن يكتبون المقالات العنيفة ضد الاتراك ، وهي لا تجد تفسيراً مقنعاً لذلك • فالكلمات عند الشرقيين هي مجرد ألفاظ لا تعني شيئاً فقد يقولون اليوم شيئاً وينقضونه غداً ، وهم لا يتركون هذه العادة أبداً • (٣٦)

يمكن أن نأتي بالشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي مثالاً واضحاً على هذا التقلب ، فقد كان الزهاوي قبل سقوط بغداد اتحادياً وعضواً في مجلس المبعوثين ، وكانت قصيدته بمناسبة مجيء أنور باشا الى بغداد قاسية في ذم الانكليز حيث وصفهم بأنهم أهل البغي وأنهم اعتادوا على رؤية الحق وانكاره مرة بعد مرة ، ثم رأيناه بعد السقوط يتحول الى النقيض من ذلك تماماً حتى أطلقت عليه المس بيل لقب « شاعرنا » ، اذ هو صار ينشر القصائد والمقطعات الشعرية في مدح الانكليز فوصفهم بأنهم أهل الحق والعدل وأنهم أنقذوا الشعب العراقي وحرروه كما حرروا غيره من الشعوب والامم •

وقد كتب الزهاوي في تلك الآونة ترجمة لنفسه بخط يده ، بناءاً على

---

(٣٥) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ١١٣•

(36) Elizabeth Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 62—63.

طلب من الكرملي ، ذكر فيها أنه كان محباً للعرب والانكليز منذ بداية أمره، وأنه كان ينتقد الاتحاديين في مجلس المبعوثين من أجل العروبة ، وعندما أعلنت الحرب لم يذهب الى اسطنبول لكي لا يصادق على الحرب ضد بريطانيا العظمى ، أما ما صدر منه بخلاف ذلك فهو انما فعله مضطراً ، وكان الاتراك في الايام الاخيرة يريدون قتله لانهم لا يعفون عن شاعر عربي يحث العرب للانضواء الى دولة تحاربهم ، ولم يبق بينه وبين الموت الا زمن بقاء مجلس المبعوثين مفتوحاً ... (٣٧)

من الجدير بالذكر ان الزهاوي وأمثاله من أدباء ذلك الزمان لم يكونوا وحدهم الذين يسلكون مثل هذا السلوك المتقلب ، فقد كان اكثر الناس في الواقع على شاكلتهم ، وقد رأينا رأي العين كيف كان رؤساء العشائر ووجهاء المدن يتزلفون للاتراك ويقولون لهم : « ان الله خلقكم رحمة لنا » ، فلما جاء الانكليز قالوا لهم مثل ذلك . أعرف رجلاً ثرياً كان جاراً لنا فكان من أكثر الناس تأييداً للاتراك وبذلاً لهم ، ولما حدث انتصار الكوت دقت الطبول على باب داره احتفالاً بالنصر ، ولكن هذا الرجل أصبح بعد السقوط صديقاً حميماً للسر برسي كوكس والمس بيل وغيرهما من كبار الانكليز ، فكانوا يزورونه في بيته كثيراً وهو يقف في خدمتهم كأنه لم يكن قد وقف في خدمة الاتراك من قبل .

ان الادباء في الواقع لم يكونوا يختلفون عن غيرهم من الناس من هذه الناحية ، ولكن مشكلتهم أنهم مفضوحون اذ هم يعلنون نتاجهم الادبي على الناس ، فينشرونه في الصحف أو يدونونه في الكتب ، فاذا تقلبوا مع الزمن سجل التاريخ ذلك عليهم . أما غيرهم من الناس فان التاريخ لا يسجل من أعمالهم وأقوالهم الا نادراً واذا ماتوا مات ذكرهم معهم في الغالب .

ذكرت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٤ ايلول ١٩٢٢ تقول : ان ياسين باشا الهاشمي كان يأتي اليها فيمدح الانكليز ويعتبرهم وحدهم المنقذين لبلاده ، ولكنها اكتشفت له رسالة خاصة كان قد أرسلها الى

---

(٣٧) انظر نص الترجمة ماخوذة بالتلغراف في كتاب (الزهاوي) لعبدالحميد الرشودي – بيروت ١٩٦٦ – ص ١٩٧ – ٢٠٤ .

أحد اصدقائه في الوقت نفسه يصف الانكليز فيها بأنهم طغاة ويسأل من الله العون على طردهم من البلاد . وقد تعجبت المس بيل من هـذا السلوك وأبدت تعجبها للملك فيصل الاول ، فكان جواب الملك لها : ان هذا السلوك ليس عجيباً بل هو مألوف لدى أكثر الناس ، حتى أنا ، لأنهم رزحوا تحت وطأة الفاتحين المستعبدين طيلة ستمائة سـنة ، فاضطروا الى اتخـاذ خلق المكر لكي يعيشوا ، ولو أنهم عاشوا كالاوربيين في ظل الحرية زمناً كافياً لتعلموا مثلهم على أخلاق الاحرار . وتقول المس بيل انها اقتنعت بصحـة ما قال الملك . (٣٨)

حفلـة يهودية :

في اوائل تشرين الثاني ١٩١٧ وصلت الى بغداد الصحافية الامريكية المسز اليانور ايغان بعد أن حصلت برقياً على اذن خاص من الجنرال مود ، وكانت هي أول امرأة غربية بعد المس بيل تدخل الى بغـداد منذ اندلاع الحرب . وقد نزلت ايغان في ضيافة مود في داره الواقعة على النهر . ويبدو أن المس بيل لم يرق لها مجيء هذه المرأة الى بغداد في مثل هذا الوقت ، فقد كتبت الى والدها رسالة مؤرخة في ١٥ تشرين الثاني قالت فيها مانصه: « في يوم الثلاثاء تغديت مع القائد العام للالتقاء بالصحافية الامريكيـة المسز ايغان . ان الله يعلم ما هو المقصود من مجيئها ، ولكن يبدو عليها أنها تعرف طريقها في معظم هذا العالم بأسلوب وديع ظريف » . (٣٩)

وفي مساء ١٤ تشرين الثاني أقامت مدرسة الاليانس اليهودية حفلـة لتكريم الجنرال مود ، فذهب اليها مود بصحبة ايغان . وقد سجلت هـي ذكرياتها عن تلك الحفلة فـي كتابها « الحرب في مهـد العالم » نقتطف منهـا ما يلي :

خرج مود من داره ومعه ايغان ومرافق له ، في الساعة الثامنة والنصف مساءاً ، فسارت بهم السيارة في الشارع الجديد تتبعهم سيارة أخرى تحمل

---

(38) Elizabeth Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 297—298.

(39) Ibid, vol. 2, p. 67.

الحرس • ثم دخلت بهم السيارة في أزقة ضيقة وأسواق مسقوفة حتى وصلت بهم الى مدرسة الاليانس • وكانت ساحة المدرسة مزينة بأبهى زينة وهي محتشدة بالناس من مختلف الإقوام والطوائف يدل على ذلك ما يلبسونه على رؤوسهم من طرابيش وكوفيات وعمائم وكلاوات فارسية• وقد لفت نظر ايغان وجود جمع من النساء في وسط الساحة وقد لبسن العباءات الحريرية البراقة وأسفرن عن وجوهن ، وكانت تلك أول مرة تسفر فيها نساء الطبقة الراقية عن وجوههن في محفل عام في العراق • وقال رجل في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية : « نساؤنا لسن في حاجة الى حجاب أبداً تحت الحكم البريطاني » •

كان قد أعد للجنرال مود كرسي خاص مزخرف موضوع على منصة في وسط الصف الاول من الساحة على مقربة من المسرح ، وأعد لايغان كرسي أقل ارتفاعاً منه الى جانبه ، وكانت هناك أمام الكرسي منضدة صغيرة وضع عليها كوبان ووعاء للقهوة وصحن فيه سكر وقارورة حليب • وأخذ مود يشرب القهوة بعد أن صب عليها مقداراً كبيراً من الحليب البارد غير المغلي ، أما ايغان فشربت القهوة من غير حليب •

بدأت الحفلة بظهور فتاة يهودية صغيرة على المسرح حيث القت خطاباً مكتوباً في مدح مود والبريطانيين جميعاً ، وكيف ان بغداد حالفها التوفيق أخيراً لانها صارت تحت هذا الحكم النزيه الشريف • وكان الحاضرون يصفقون بشدة عند كل عبارة تنطق بها تلك الفتاة •

من عادة مود أن يأوي الى فراشه في الساعة العاشرة مساءاً ولكنه في تلك الليلة بقي حتى الساعة الحادية عشرة لمتابعة برنامج الحفلة ، وحين أراد الانصراف تقدم منه مدير المدرسة راجياً منه البقاء قليلاً للاستماع الى نشيد باللغة العربية نظم خصيصاً له • وقد غادر مود الحفلة مع ايغان على أثر انتهاء النشيد ، غير أن الحفلة استمرت بعده ولم تنته الا في الرابعة صباحا • (٤٠)

---

(40) Eleanor Egan (The War In The Cradle of The World) London — p. 281 — 287.

مـوت مـود :

كانت الحفلة اليهودية التي شهدها مود في مساء ١٤ تشرين الثاني قد قربت أجله ، ففي صباح اليوم التالي شعر مود بتوعك في صحته ، ثم اشتد عليه المرض في المساء ، وبعد فحصه من قبل كبير الاطباء الكولونيل ويلكوكس تبين أنه مصاب بنوع حاد من الكوليرا . وفي اليوم الثاني لـم يستطع مود الذهاب الى مكتبه ، واستدعي من بعقوبة الجنرال مارشـال ليتولى القيادة العامة نيابة عنه . وفي مساء ١٨ تشرين الثـاني لفظ مود أنفاسه الاخيرة . وقد دفن في المقبرة الانكليزية خـارج باب المعظم فـي الموضع الـذي يسـمى « الكرنتينة » ، . وما زالت المقبرة فـي محلهـا حتى الآن .

ولم يكد يتم دفن مود حتى شرعت دائرة التحقيقات الجنائية بالتحقيق في سبب موته ، واتضح للمحققين أن رسالة بلا توقيع كانت قد وصلت الى مود قبل موته تهدده بالقتل ، كما وصلت رسالة مثلها الى قائـد آخـر . واستمع المحققون الى شهادتي ايفان وكبير الاطباء الكولونيل ويلكوكس ، وكان رأي ويلكوكس أن مود مات قضاءاً وقدراً وليس لاحد تعمد فيه ، ولكن المحققين لم يأخذوا بهذا الرأي في بداية الامر .

كانت الشبهة تحوم حول اليهود حيث ثبت أن عدوى الكوليرا انمـا انتقلت الى مود من جراء تناوله حليباً غير مغلي في حفلة الاليانس ، ولـكن الانكليز كانوا حريصين كل الحرص على تبرئة اليهود من هذه التهمة ، لانهم كانوا واثقين من اخلاص اليهود لهم ولم يستطيعوا ان يتصوروا يهودياً يريد قتل مود عمداً . وقد كتب الجنرال مارشال الذي حل محل مود في القيادة يقول انه كان متأسفاً لالتصاق مثل هذه الشبهة باليهود ، وكان السر برسي كوكس متأسـفاً مثلـه ، وهو يصف اليهود بأن موقفهم وسلوكهم تجـاه الانكليز كان في كل الاوقات نموذجياً . (٤١)

استمر التحقيق ثلاثة اشهر دون أن يتوصل الى نتيجة حاسمة . وقـد قرر الجنرال مارشال أخيراً نفي المتعهد الذي جهز المشروبات فـي حفلـة

---

(41) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 276.

الاليانس هو ومساعده الى الهند باعتبارهما شخصين غير مرغوب فيهما . فاحتج كوكس على هذا القرار وعده ظلماً في حق شخصين بريئين ، فلم ينفع احتجاجه شيئاً . (٤٢) وكتب الجنرال مارشال يعتذر عن القرار قائلاً : انه قرار ظالم في أرجح الظن ولكن المتعهد قصر في واجبه لانه يعلم بوجود الكوليرا في المدينة وكان الواجب عليه أن يكون في غاية الاحتياط عند تقديم الحليب في تلك الظروف . (٤٣)

وعلى أي حال ، فقد أثار موت مود كثيراً من الاشاعات والهمسات بين الناس في بغداد ، حيث أخذ الناس يتقولون ان مود مات مسموماً وان الحكومة البريطانية هي التي دست له السم في طعامه من جراء نشره بيانه المشهور الذي وعد فيه أهل العراق بالحرية والاستقلال . انهم كانوا يجهلون حقيقة موقف مود من البيان الذي أذيع باسمه ، ولو كانوا يعرفون ذلك لقالوا ان الحكومة انما دست له السم لأنه كان معارضاً لاصدار البيان. أما لو أنهم كانوا يعلمون بالخلاف الشديد بينه وبين كوكس لاتهموا هذا بدس السم له . وتلك كانت عادة العراقيين في ذلك الزمان ، ولا يزال البعض منهم يفعلون ذلك حتى هذه الساعة !

تخليد ذكرى مود :

انتهز بعض الشعراء فرصة موت مود فنظموا القصائد في تأبينه ونشروها في جريدة « العرب » ، وقال أحدهم في وصف مود انه بحر الجود والمكرمات ، وان عين الفخار فاضت لفجيعته دماً ، وتبدد شمل العلا بعدما كان منتظماً . (٤٤)

وفي الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم الجمعة ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٧ اجتمع رهط كبير من وجهاء بغداد في دار الحاكم العسكري من أجل التبرع لانشاء أثر في بغداد يخلد ذكرى مود فيها ، وذكرت جريدة « العرب » في هذه المناسبة تقول : ان البغداديين انما فعلوا ذلك لما عهدوا

---

(42) Loc. cit.

(43) Barker (op. cit.) — p. 432.

(٤٤) جريدة « العرب » في عددها الصادر في ٨ كانون الاول ١٩١٧ .

في الفقيد من مودة لهم وعطف عليهم . [٤٥]

وتألفت لجنة لجمع التبرعات مؤلفة من الذوات التاليـة أسـماؤهم : عبدالقادر الخضيري ، سيد جعفر سيد هاشم ، لطيف عبود ، اسـكندر عزيز عيساوي ، ابراهيم حييم عقيرب ، كريكور اسكندر ، يهودا زلوف . وأخذت جريدة « العرب » تنشر في اعداد متتابعة قوائم بأسماء المتبرعين ومبالغ تبرعهم . والملاحظ ان القوائم تضمنت عدداً من « الاصناف » ـ أي ذوي الحرف المحليـة ـ كالخفافين والحدادين والنجـارين والخيـاطين والساعاتية والحلاقين والبزازين والعلوجية والقصابين والندافين وقندرجية الشورجة وأهل الكلاوات .

وقد أقيم أخيراً تمثال لمود في جانب الكرخ أمام دار المندوب السامي، وجرت حفلة ازاحـة السـتار عنـه فـي ٤ كانون الاول ١٩٢٣ . ومـن الطريف أن نذكر ان الشاعر معروف الرصافي كـان يصـدر آنذاك جريدة اسمها « الأمل » وقد جاء في هـذه الجريدة تعليق على الحفلـة نقتطف منـه ما يلي :

« ونحن هنا لا نريد أن نصف تلك الحفلة ونبحث عن نفسية الذين شهدوها وما كان لها من التأثير في قلوبهم وعلى عواطفهم ، بل نريـد أن نعالج مسألة تاريخية خطيرة تهم العراقيين والبريطانيين على سواء ، وهـو تأثير انقاذ مدينة بغداد على يد الجنرال مود وما لهذا القائد الكبير من المقام الخالد في التاريخ العربي » . ثم قالت الجريدة في وصف مود :

« للجنرال مود ميزتان ترفعانه الى مصـاف أكابر رجـال التاريخ ، وهاتان الميزتان قل من اتصف بهما من عظمـاء التاريخ وأبطالـه ويظهر ان البطون البريطانية أكثر من غيرها تتحف العالم من حين لآخر بمثل هؤلاء الافذاذ الذين تزدان بهم صحائف المجد البريطاني » . [٤٦]

دلل الرصافي بهذا على أنه لا يختلف في سلوكه المتقلب عن الزهاوي أو غيره من أدباء ووجهاء ذلك الزمان !

---

(٤٥) جريدة «العرب» في عددها الصادر في ٣ كانون الاول ١٩١٧ .

(٤٦) قاسم الخطاط ومصطفى السحرتي ومحمد الخفاجي (معروف الرصافي) القاهرة ١٩٧١ ـ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

الفصل الثالث عشر

المعـارك الاخيرة

ان الفترة التي امتدت بين سقوط بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ واعـلان الهدنة في ٣١ تشرين الاول ١٩١٨ شهدت معارك حربية عديدة بين الانكليز والاتراك • وليس هنا مجال التفصيل في ذكر تلك المعـارك ، فذلك مـن اختصاص المؤرخين العسكريين ، وسنكتفي في هذا الفصل بذكر صـورة موجزة لتلك المعارك مع التطرق الى بعض الاحـداث المهمة التي صاحبتها •

جبهة دجلة :

جرت المعارك بعد سقوط بغداد على جبهات ثلاث هي : جبهة دجلة ، وجبهة ديالى ، وجبهة الفرات • ونبدأ بالجبهة الاولى :

كان لدى الاتراك في جبهة دجلة الفيلق الثامن عشر وهو بقيادة كاظم بك قره بكر على نحو ما ذكرناه في الفصل الحادي عشر • ويبدو ان الخلاف الذي لا حظناه سابقاً بين هذا القائد ورئيسه خليل باشا قـد اشتد عقب سقوط بغداد ، فقد كان من رأي كاظم بك ان يستمر الفيلق في انسـحابه شمالاً فلا يتوقف الا في « اصطبلات » القريبة من سامراء ، وذلك لـكي يتجنب الخسائر التي لا فائدة منها ، أما خليل باشا فكان رأيه أن الفيلق يجب أن لا ينسحب أمام الانكليز انسحاباً بعيد المدى بل عليه أن يقاومهم ويحاربهم موضعاً بعد موضع ولا يترك موضعاً الا بعد أن يبـذل فيـه أقصى جهـده •

يقول الناقد العسكري باركر : ان المعارك التي جـرت أثبتت صواب رأي كاظم بك ، فقد تكبد الاتراك فيها خسائر كبيرة دون أن يجنوا منهـا فائدة ، ولو أنهم انسحبوا منذ البداية الى « اصطبلات » لكانت خطوطهم الدفاعية في هذا الموقع قادرة على مقاومة الزحف الانكليزي بشكل أوفى •[1]

---

(1) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 389.

اضطر كاظم بك أن يرضخ لرأي رئيسه خليل باشا حيث اتبع خطته على الرغم من علمه بخطأها • وفي ٢٤ آذار ١٩١٧ ــ أي بعد سقوط بغداد بثلاثة أيام ــ جرت معركة عنيفة بين الانكليز والاتراك في موضع يقال له «المشاهدة » على بعد خمسة وعشرين ميلاً من بغداد ، وكانت خسائر الفريقين فيها فادحة • وقد أدت هذه المعركة الى زيادة الخلاف بين كاظم بك وخليل باشا • وفي ٢٢ آذار قدم كاظم بك استقالته من قيادة الفيلق ، فقبلت الاستقالة ، وصدر الامر اليه من اسطنبول بالذهاب الى جبهة قفقاسيا ، وحل محله في قيادة الفيلق قائد اسمه شوكت بك الغلطلي (نسبة الى محلة غلطة في اسطنبول) •

وفي ٨ نيسان تمكنت القوات الانكليزية من احتلال بلد ، وفي ٢١ منه نشبت معركة شديدة في اصطبلات تكبد فيها كل من الفريقين زهاء ألفين بين قتيل وجريح • وفي ٢٤ منه دخل الانكليز سامراء • وفي ٦ تشرين الثاني استولوا على تكريت غير أنهم انسحبوا منها بعد اربعة اريام •

جبهة ديالى :

كان الفيلق الثالث عشر التركي لا يزال في ايران عند سقوط بغداد وهو بقيادة علي احسان بك ، وقد وصلته الاوامر بالانسحاب نحو العراق لانقاذ ما يمكن انقاذه فيه ، فأسرع بالانسحاب عاجلاً •

المعروف عن علي احسان بك أنه قائد حاذق شديد المراس ، ويعد انسحابه من ايران عملاً عسكرياً رائعاً حيث كان سير الفيلق بمعدل ثلاثة وثلاثين ميلاً في اليوم الواحد وذلك على الرغم من ظروفه الادارية الرديئة وموقفه المحفوف بالمخاطر اذ كان الروس يطاردونه من ورائه • [٢]

وصل الفيلق الى مضيق بايطاق الجبلي في ١٣ آذار ، فترك فيه قوة لتأخير مطاردة الروس له ، ثم استمر في انسحابه حتى وصل الى خانقين في ١٥ آذار • ولم يكن هناك جسر على نهر الوند ، فأوعز القائد الى جنوده باقتلاع الابواب من دور خانقين ليصنع منها جسراً ، وبذلك

---

(٢) شكري محمود نديم (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ١٤٨ •

تم للفيلق عبور النهر •

كان الجنرال مود قد ارسل من بغداد قوة عسكرية كبيرة بقيادة الجنرال كيرى لمقابلة الفيلق التركي ، وكان واثقاً ان هذا الفيلق سيتحطم بسهولة لان الروس يطاردونه من ورائه بينما الجنرال كيرى مستعد له من الامام • فالفيلق التركي أصبح في نظر مود كالجوزة التي تقع بين فكي الكسارة • وفي ١٩ آذار أبرق مود الى لندن يبشرها بقرب تدمير الفيلق التركي ويطلب منها تعيين الحدود التي يجب أن تقوم بينه وبين القوات الروسية القادمة • وسرعان ما تبين للجنرال مود أنه كان متفائلاً أكثر مما ينبغي •

الظاهر أن الجنرال كيري لم يكن كفوءاً للقائد التركي علي احسان بك ، فقد أذهل هذا القائد الانكليز بسرعة تحركه وبراعة خططه ، وقد أطلق الجنود الانكليز عليه لقب « كيس الرمل العتيق » •[3] ففي ٢٥ آذار نشبت معركة عنيفة بين الفريقين بالقرب من جبل حمرين ، بين شهربان وقزلرباط ، تكبد الانكليز فيها خسائر جسيمة تقدر بألف ومائتين بين قتيل وجريح • وقد تمكن الفيلق التركي من الانسحاب بنجاح متجهاً نحو دلتاوة بغية الاتصال بالفيلق الثامن عشر •

جرت بعد ذلك معارك عديدة في المنطقة التي تقع بين ديالى ودجلة وحول نهر العظيم ، وكان النصر فيها للانكليز ولكنه كلفهم غالياً !

جبهة الفرات

عندما حل صيف ١٩١٧ توقفت المعارك في جميع الجبهات في العراق لشدة الحرارة ، ولم يقع حينذاك سوى معركة واحدة هي معركة الرمادي في جبهة الفرات ، وقد ذاق الانكليز فيها الامرين ، فكانت تجربة قاسية لهم قرروا أن لا يعيدوها مرة أخرى •

كان لدى الاتراك في الرمادي قوة يبلغ عدد جنودها ألفاً أو يزيد على الالف قليلاً ، وهي مؤلفة من ثلاثة أفواج بقيادة الضابط البغدادي

(3) Barker (op. cit.) — p. 390.

أحمد بك أوراق ، وقد اتخذت مواقعها الدفاعية على القناة التي تصل نهر الفرات ببحيرة الحبانية وهي تقع الى الشرق من الرمادي ويبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وعمقها أربعة أقدام .

وفي ٧ تموز ١٩١٧ وصلت الى تلول سن الذبان الواقعة على بعد خمسة وعشرين ميلاً من الرمادي قوة بريطانية كبيرة بقيادة الكولونيل هالدن ، وكان معها ١٢٧ سيارة حمل تكفي لنقل ستمائة جندي دفعة واحدة، وكانت تلك أول مرة تستعمل فيها السيارات لنقل الجنود بمثل هذا النطاق الواسع في العراق .

كانت القيادة الانكليزية تتوقع أن الاتراك سيسرعون الى الانسحاب من الرمادي حالما تبدأ القوة الانكليزية بمهاجمتهم ، ثم تبين لها ان توقعها هذا لم يكن قائماً على أساس صحيح .

بدأ الهجوم على مواقع الاتراك في صباح ١١ تموز ، وقد صمد الاتراك للهجوم بضراوة . وفي الساعة التاسعة والنصف هبت ريح عاصفة مشحونة بالرمال عرقلت مواصلات القوة الانكليزية وجعلت مدافعها غير قادرة على تمييز أهدافها مما اضطر الكولونيل هالدن الى وقف الهجوم . وفي ساعة مبكرة من صباح ١٣ تموز انسحبت القوة الانكليزية الى مواقعها في سن الذبان .

كانت خسائر الاتراك ١٥٠ جندياً بين قتيل وجريح ، يضاف اليهم ١٠٠ جندي هربوا والتحقوا بالقوة الانكليزية . [٤] أما خسائر الانكليز فبلغت ٢٥٠ جندياً ، يضاف اليهم ٣٢١ سقطوا من شدة الحر . [٥] فلقد وصلت درجة الحرارة يومذاك الى الخمسين تحت الظل بالمقياس المئوي ، وربما زادت على ذلك ، أما تحت أشعة الشمس فقد نافت على السبعين . ويقال ان العراق لم يشهد مثل تلك الدرجة العالية منذ سنين عديدة . ولم يكن الجنود الانكليز معتادين على ذلك فاصيب بعضهم بالجنون ، وأصيب آخرون منهم بضربة الشمس ، بينما أصيب فريق ثالث

---

(٤) محمد أمين العمري (حرب العراق) — بغداد ١٩٣٥ — ج ٣ ص ٤٧—٤٨ .

(5) Barker (op. cit.) — p. 419.

بالعطش أو التعب المهلك • وقد قررت القيادة الانكليزية بعد هذا تجنب القتال في مثل هذه الحرارة الا عند الضرورة القصوى • [٦]

توصلت الابحاث الطبية مؤخراً الى أن الجسم البشري يفقد عند التعرق الشديد كثيراً من ملحه ، وهذا يؤدي به الى الرهق المضر ، والى الموت أحياناً ، واكتشفوا ان الحيوانات البرية تلجأ في الحر الشديد الى لطع الارض المالحة ، ولذا يتناول العمال الآن في الصيف أقراصاً من الملح للتعويض عما يفقدونه بالعرق • ومن الجدير بالذكر ان القيادة الانكليزية في معركة الرمادي لم يكن لها علم بذلك مما أدى الى جسامة الخسائر التي لحقت بقواتها هنالك •

جيش الصاعقة :

عقب سقوط بغداد سيطرت على ذهن أنور باشا فكرة استعادتها بأي ثمن ، وقد فاتح الالمان بهذه الفكرة فاستجابوا لها بحماس وخصصوا لتحقيقها خمسة ملايين ليرة ذهب •

كان الالمان في ذلك الوقت قد ابتكروا طريقة جديدة في الحرب سموها « حرب الصاعقة » وهي الطريقة التي طبقت على نطاق واسع في الحرب العالمية الثانية والتي تعتمد على سرعة الحركة • وقد تقرر انشاء جيش على هذه الطريقة باسم « يلدريم » ، أي الصاعقة ، يتألف من الجيش السادس الموجود في العراق بالاضافة الى الجيش السابع الذي كان يجري تجميعه في حلب بقيادة مصطفى كمال باشا ، على أنه يلتحق به فيلق ألماني قوي التنظيم والتسليح ليكون العمود الفقري له •

نيطت قيادة جيش الصاعقة بالقائد الالماني المارشال فون فالكنهاين ، وهذا الرجل كان في الواقع قائداً عسكرياً عظيماً ، وكان في بداية الحرب قائداً للجيوش الالمانية كلها ، ولكن عيبه أنه كان جاهلاً بأوضاع البلاد العثمانية ولم يكن يدري أن حرب الصاعقة التي تلائم طبيعة الجيش الالماني هي غير صالحة للجيوش التركية •

وصل فالكنهاين الى اسطنبول في ٧ أيار ١٩١٧ ، وقام بجولة في

(6) Loc. cit.

شمال العراق وسوريا لدراسة الاوضاع العسكرية هناك عن كثب • وتبين له أن أهم مشكلة تواجهه في تشكيل الجيش هي رداءة الطرق وتعرض النقليات العسكرية فيها للاختلاس والنهب ، فالطريق الرئيس بين اسطنبول وحلب كان معرضاً للسرقة من قبل الاهالي والجنود معاً ولابد اذن من حراسته برجال من الالمان • يضاف الى ذلك كثرة عدد الفارين من القوات التركية ، ففي صيف ١٩١٧ بلغ عدد الفارين من تلك القوات مثل عدد الذين بقوا فيها أو ربما زاد عليه فعلاً • (٧)

في ٢٠ حزيران ١٩١٧ عقد في حلب مؤتمر عسكري على مستوى عالي حضره فون فالكنهاين وأنور باشا وخليل باشا وجمال باشا ومصطفى كمال باشا وعزت باشا • وقد تقرر في المؤتمر أن تكون خطة الهجوم في العراق من جهة الفرات لتهديد الجناح الايسر من قوات الجنرال مود وقطع خطوط مواصلاتها • وكان المعارض الوحيد في المؤتمر مصطفى كمال باشا اذ كان موقناً بأن مصير الهجوم هو الفشل الذريع ، ولم يؤيده في رأيه هذا سوى جمال باشا • (٨)

وقد أثار جمال باشا في المؤتمر موضوع الخطر الذي يهدد الجبهة الفلسطينية من سيناء ، وطلب تعزيزها بفرقة واحدة ، ولكن أنور باشا لم يوافقه على رأيه وأصر على وجوب الاهتمام باستعادة بغداد قبل كل شيء وقال : « ان كل جندي يرسل للجبهة الفلسطينية يقلل احتمالات النجاح في استرجاع بغداد » • (٩)

ولم يكد ينفض المؤتمر حتى أخذ العمل يجري في اعداد جيش الصاعقة بكل نشاط وقوة ، ووضع أنور باشا كل ما لديه من حزم في تدعيم العمل وتسريعه ، كما بذل المهندسون الالمان جهدهم ــ بما عرف به الالمان من كفاءة ودأب ــ في اتمام مد السكك الحديدية وشق الانفاق

---

(7) William Yale (The Near East) — Ann Arbor — p. 240—241.

(٨) أرمسترونج (مصطفى كمال) ــ ترجمة دار الهلال ــ القاهرة ص ٧٩ ــ ٨٠ •

(٩) شكري محمود نديم (حرب فلسطين) ــ بيروت ١٩٦٥ ــ ص ٩٣ •

التي تعترض طريقها في الجبال . [10]

وبينما كان العمل سائراً في مجراه حدثت حادثة في اسطنبول كانت بمثابة الكارثة على جيش الصاعقة . ففي ٦ ايلول تمكنت الجاسوسية الانكليزية من نسف محطة حيدر باشا وكانت فيها مقادير هائلة من المعدات الحربية التي كانت على وشك نقلها الى جيش الصاعقة ، فحدث من جراء ذلك انفجار هائل كانت له نتائج خطيرة على حركات ذلك الجيش . [11]

وفي تشرين الثاني ١٩١٧ شن الجنرال اللنبي هجومه الكاسح على الجبهة التركية في فلسطين ، وعند هذا أدرك فون فالكنهاين ان جبهة فلسطين أولى بالعناية من استعادة بغداد ، وحاول اقناع أنور باشا بوجهة نظره هذه غير أن أنور باشا أبى ان يصغي اليه لان فكرة استعادة بغداد كانت لا تزال مسيطرة على ذهنه ، ونشب من جراء ذلك خلاف بين الرجلين . وفي ١١ كانون الاول دخل اللنبي الى القدس فاتحاً ، وصارت قواته تهدد دمشق وبيروت ، فاضطر أنور باشا أن ينسى أمر بغداد مرغماً ويهتم بأمر هذا الخطر الجديد .

معركة الرمادي الثانية :

كان القائد التركي في الرمادي احمد بك أوراق قد تلقى امدادات جديدة ، فصار لديه سبعة أفواج بدلاً من ثلاثة ، فحشد معظمها على قناة الحبانية شرق الرمادي ظناً منه أن الانكليز اذا هاجموه مرة أخرى فسوف يتبعون نفس الخطة التي اتبعوها في المرة السابقة ، وكان ذلك خطأ منه ادى الى هزيمة منكرة .

وكان الجنرال مود من الجانب الآخر قد وصلته أخبار مقلقة عن تشكيل جيش الصاعقة لاستعادة بغداد عن طريق الفرات ، فصمم على احتلال الرمادي لكي لا تكون ركيزة للجيش المذكور . وأعد لذلك فرقة عسكرية كاملة وناط قيادتها بقائد بارع سريع الحركة هو الجنرال بروكنج.

نصب الجنرال بروكنج جسراً على نهر الفرات وقام ببعض الحركات

---

(10) Barker (op. cit.) — p. 414.

(11) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٩٦ .

التظاهرية على الجانب الشرقي من النهر لكي يوهم الاتراك بأن الهجوم سيأتيهم من كلا الجانبين في آن واحد • وفي ٢٧ ايلول ١٩١٧ بدأ بروكنج هجومه كما أرسل لواءاً من الخيالة للقيام بحركة التفاف واسعة النطـاق نحو الغرب هدفها قطع طريق هيت والوصول الى شاطىء الفرات فـوق الرمادي• وقد نجح لواء الخيالة في حركته ، حيث قطع خط الرجعة على القوات التركية ، وصارت تلك القوات مطوقة لا يمكنها الانسحاب الا عن طريق النهر مع العلم انها لم تكن تملك جسـراً على النهـر يمكنها العبـور عليـه •

كان ضابط الركن توفيق وهبي قد أدرك خطورة الموقف في الوقت المناسب ، وأشار على رئيسه أحمـد اوراق ناصحاً بالانسحاب نحو هيت قبل أن يقطع الانكليز خط الرجعة عليهم ، [١٢] ولـكن أحمـد بك كان متردداً قضى وقته بعقد المشاورات واصدار الاوامر المتناقضة ، فأضـاع بذلك وقتاً ثميناً • ويقال أن تردده كان من جراء خوفه من رئيسه خليل باشـا ، [١٣] فأدى ذلك الى ضياع القوات التركية كلها وسقوطها غنيمة باردة في أيدي الانكليز •

وفي ظهر ٢٩ ايلول شوهدت الاعلام البيض ترفرف فوق الرمـادي دلالة على استعداد القوات التركية للاستسلام ، وقـد بلغ عـدد الذين استسلموا للانكليز ٣٤٠٠ جندي و ١٤٥ ضابطاً ، وكان من بينهم القـائد أحمد أوراق • أما ضابط ركنه توفيق وهبي فقد تمكن من الهرب هـو وبضعة أفراد من الجنود اذ رموا بأنفسهم الى النهر فعبروه سباحة ، [١٤] وعند خروجهم الى الضفة الاخرى تلقتهم عشائر الدليم التي كانت من حلفائهم سابقاً فجردتهم من ملابسهم تجريداً تاماً • [١٥] ولم يصلوا الى هيت الا بشـق الانفس •

---

(١٢) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ٦٣ •
(١٣) شكري محمود نديم (حرب العراق) — ص ١٧٤ •
(١٤) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ٥٩ •
(15) Arnold Wilson (Loyalties) — London 1936 — vol. 1, p. 272.

كان خليل باشا يومذاك في تكريت ، ولم تصله أخبار الرمادي فظل قلقاً لا يعرف ماذا جرى فيها . وفي اليوم التالي - أي في ٣٠ أيلول - أرسل طائرة ألمانية لاستطلاع الخبر . وجاءت الطائرة الى الرمادي وكادت تهبط الى الارض بالقرب منها لو لم يفطن الطيار في اللحظة الاخيرة الى ان الوضع في البلدة غير اعتيادي فعاد الى التحليق .[١٦] وقد وصل الطيار الى تكريت مساءاً وأخبر خليل باشا بأمر سقوط الرمادي ،[١٧] فكان الخبر صدمة مزعجة له .

ان سقوط الرمادي أدى الى حدوث تغير في موقف العشائر القاطنة الى الجنوب منها ، فهي كانت قبل ذلك قد اتخذت موقف العداء تجاه الانكليز ، وكانت تظن أن الاتراك عائدون . أما بعد سقوط الرمادي فقد أيقنت تلك العشائر ان الانكليز جاؤوا ليبقوا وأن من الاجدى لها أن تتعاون مع الاسياد الجدد .[١٨]

ماساة خانقين :

في ١ نيسان ١٩١٧ احتلت القوات الروسية خانقين على أثر انسحاب القوات التركية منها . وهذه هي المرة الثانية التي تقع خانقين فيها تحت الاحتلال الروسي خلال الحرب . وقد قاسى أهل خانقين في هذه المرة من البلاء أكثر مما قاسوه في المرة السابقة .

كانت القوات الروسية يتألف معظمها من الخيالة القوزاق وهم مشهورون بقسوتهم وعربدتهم وقلة مبالاتهم بآلام البشر ، ويروى عنهم أنهم كانوا في بعض المدن الايرانية يختطفون النساء من الشوارع ، ويهاجمون حمامات النساء ، ويقترفون أفعالاً لا يستحسن ذكرها .

بلغت الفظائع الروسية في خانقين حداً لا يطاق بحيث صار الاهالي يترحمون على عهد الاتراك ويتمنون عودتهم . فقد أخذ الروس يستحوذون على أموال الناس بالقوة ، وقد يدفعون الثمن أحياناً بـ « المناط » أي

---

(16) Barker (op. cit.) — p. 425.

(١٧) محمد امين العمري (المصدر السابق) - ج ٣ ص ٦٥ .

(18) Barker (op. cit.) — p. 425.

النقود الورقية الروسية ، وهي نقود كانت قد هبطت قيمتها أكثر من هبوط « النوط » التركي ، وقيل انهم قتلوا رجلين من المسلمين وسبعة من اليهود مع امرأتين لأنهم امتنعوا عن تصريف المناط • وشرع أهل خانقين يكتبون العرائض ويرسلونها الى الانكليز في بغداد يشكون اليهم فيها من جور حلفائهم الروس ويطلبون انقاذهم منهم • (١٩)

وفي تلك الآونة بدأت أخبار الثورة الروسية في بطرسبرغ تصل الى الروس في خانقين والمدن الايرانية التي كانت تحت احتلالهم ، فادى ذلك الى انحلال الضبط العسكري بينهم ، حيث صار الجنود لا يطيعون أوامر ضباطهم ولا يحترمونهم ، وبدأوا يتركون مواقعهم ويبيعون أسلحتهم ليشتروا بأثمانها خمراً يعربدون به ، وكانوا أذا مروا ببلدة أو قرية في طريقهم الى بلادهم هدموا دورها لكي يستخرجوا منها الخشب الذي يحتاجون اليه في تدفئة أبدانهم • (٢٠)

كانت الحكومة الايرانية في تلك الايام ضعيفة كل الضعف ولم يكن لديها من القوة ما تحفظ به الامن ، ولهذا صارت المناطق التي كانت تحت احتلال الروس في فوضى شاملة ، وانتشرت العصابات في كل مكان، كما انتشرت المجاعة • وكان نصيب خانقين من تلك الفوضى لا يقل عن نصيب المدن الايرانية •

وفي نهاية حزيران عاد الاتراك الى احتلال خانقين ، وطردوا منها الروس ، ولكنهم أكملوا التدمير الذي بدأه الروس فيها • تقول المس بيل: ان الحقول التي حصدها الروس من قبل جاء الاتراك فنظفوها تنظيفاً تاماً ، وأعدم الاتراك عدداً من الرجال البارزين في خانقين وقزلرباط بتهمة أنهم أخفوا حاصلاتهم الزراعية في الجبال وامتنعوا عن تزويد القوات التركية بها • (٢١)

---

(١٩) المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ١٤٠ ـ ١٤٥ •

(20) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — vol. 2. p. 486—487.

(٢١) المس بيل (المصدر السابق) ـ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ •

وفي نهاية شهر آب اضطر الاتراك الى الانسحاب من خانقين ، غير أن الانكليز لم يدخلوها الا بعد أربعة أشهر ، فوجدوها في حالة من البؤس لا تطاق حيث كانت المجاعة قد اشتدت فيها وتفشت الامراض . وقد عين الانكليز الميجر صون حاكماً فيها ، وكان هذا الرجل ادارياً قديراً يتقن اللغات الكردية والفارسية والتركية ، فأخذ يعمل بحماس لانقاذ خانقين من مأساتها ، وصار الناس ينثالون على خانقين من مختلف الانحاء طلباً للمعونة ، وكانوا جياعاً وقد انتشر بينهم مرض التيفوس ، فأعد الميجر صون لهم مخيمات ومستشفيات موقتة . فاستعاد البعض منهم صحته بينما آثر الآخرون الانتقال الى العالم الآخر . (٢٢)

المجاعة في الموصل :

كان الموسم الزراعي في شمال العراق في أواخر عام ١٩١٧ رديئاً جداً . يقول محمد أمين العمري الذي كان يومذاك ضابط اعاشة في الجيش السادس التركي : انه كتب تقريراً الى القائد خليل باشا أشار فيه الى الخطر الذي سينشأ في ولاية الموصل من جراء قلة الحبوب وضرورة الاستعداد لجلب المؤن اللازمة من اسطنبول قبل فوات الاوان ، فلم يكترث خليل باشا لهذا التحذير وقال ان ولاية الموصل هي مستودع تموين العراق وليست هي في حاجة الى تموين يجلب اليها من الخارج . (٢٣)

بدأت المجاعة تستفحل فيأوائل عام ١٩١٨، وشملت الموصل والمنطقة الواسعة التي تقع الى الشمال منها حتى بحيرة « وان » . وأخذت جموع الجياع تهجر ديارها في الاناضول وتتجه نحو الموصل ، فكان بعضهم يموت في الطريق ، والبعض الآخر يموت في مدينة الموصل نفسها .

يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عما شاهده في الطريق بين حلب والموصل عند قرية « دمير قبو » فيقول : انه رأى جثث البشر ملقاة

---

(٢٢) برسي كوكس وهنري دوبس (تكوين الحكم الوطني فيالعراق) — ترجمة بشير فرجو — الموصل — ص ١٥ .

(٢٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) — بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ١٣٥ .

على جانبي الطريق بكثرة لا يمكن وصفها ، وعند دخوله القرية وجـد الجياع منتشرين فيها وهم لا يتمكنون من الحركة لشدة الجوع بصورة تفتت الاكباد ، وشاهد جثة حيوان وقد اجتمع حولها زهاء خمسين جائعاً وكل واحد منهم يقص شيئاً من لحم الجثة بواسطة القحوف ثم ينسحب ليحل محله جائع آخر •

ولما وصل القصاب الى الموصل وجد المجاعة فيهـا لا تقـل عمـا هي في « دمير قبو » ، فقد كان المهاجرون اليها من « وان » بالاضافة الى جياع الموصل نفسها منتشرين في الشوارع والاسواق بكثرة ، وكان البعض منهم يختفون تحت دكاكين الخبازين والبقالين فاذا جاء أحد لشراء شيء من الطعام خرجوا اليه فجأة واختطفوا الطعام من يده وأكلوه حالاً ، وقد يختطف أحدهم اللقمة من فم صاحبه ليضعها في فمـه بأسـرع من لمح البصـر •

وقد شاهد القصاب مأموري البلدية يتجولون في كل صباح ومساء ومعهم الحمالون ليجمعوا جثث الاموات كأنهم يجمعون الحطب والنفايات، فلقد كانت الجثث يابسة خفيفة الوزن بحيث كان الحمال يضع أربع جثث في سلته ويحملها على ظهره كمثل ما يلتقط الخشبة الصغيرة • (٢٤)

ويعطينا ابراهيم الواعظ صورة أخرى عن المجاعة في الموصل ، اذ كان شاهد عيان فيها ، فيقول : انها بلغت حداً جعل الـكثير من الناس يأكلون لحم الكلاب والقطط ، كما أكلوا دم الذبائح بعد تجميده • وقد شاهد الواعظ بأم عينه هراً يهرب راكضاً من دار الى دار والناس يركضون وراءه حتى أمسكوا به •

وذكر ابراهيم الواعظ عن نفسه أنه كان في ايام المجاعة يأكل أكثر من أكله في الايام الاعتيادية ، وهو يعزو ذلك الى ما أحدثت المجاعة فيه من تأثير نفسي • فقد دخل في صباح أحد الايام مع صديقين له الى دكان بقال في باب الجسر وتناولوا فطورهم من القيمر والعسل والخبز حتـى بلغ ثمن ما أكلوه ثلاثة ليرات ذهب ولكنهم لم يشبعوا • وقد وصل الحال بهم أنهم صاروا يحملون في جيوبهم الى محل عملهم الزبيب واللوز ليأكلوا

---

(٢٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٧١ـ١٧٥ •

منه أثناء عملهم . وكانوا يفعلون مثل ذلك بعد تناولهم طعام الغداء اذ هم كانوا آنذاك يذهبون الى دكاكين البقالين ليأكلوا عندهم الحلوى .(٢٥)

وقد حدثت أثناء المجاعة حادثة عجيبة شاع خبرها في كل مكان وظل الناس يتحدثون عنها زمناً طويلاً ، وهي أن رجلاً من اهل الموصل اسمه عبود كان يصطاد الاطفال بالتعاون مع زوجته ، أو يشتريهم ، فيذبحهم ويصنع من لحومهم طعاماً يسمى « قلية » ويبيعه للناس في دكان له . واستمر على ذلك بضعة أشهر الى أن انكشف أمره أخيراً عن طريق الصدفة . ولما ذهب رجال الشرطة الى بيته وجدوا في حفرة فيه مائة جمجمة وعظاماً كثيرة . وقد سيق عبود وزوجته الى المحكمة ، وهناك انهارت الزوجة واعترفت امام الحاكم بما اقترفت هي وزوجها من الفظائع. وفيما يلي ننقل المحاورة التي جرت بينها وبين الحاكم حسبما ذكرته مجلة « علمدار » التركية في حينه :

الحاكم : كيف أقدمتما على هذا العمل ؟

المرأة : جعنا واحتملنا الجوع الى حد لا يطاق ، فاتفقنا أخيراً على أكل الهررة ، وهكذا كان ، وبقينا نصطادها ونأكلها الى أن نفدت من محلتنا، فبدأنا بالكلاب ونفدت أيضاً ، وكان لحمها أطيب وأشهى من لحم الهررة ، فجربنا أكل لحوم البشر .

الحاكم : بمن بدأتما أولاً ؟

المرأة : بامرأة عجوز خنقناها وطبخناها في حلة كبيرة الا انا قضينا كل تلك الليلة نتقيأ لان لحمها كان دسماً ، ثم ذبحنا ولداً صغيراً فوجدنا لحمه في غاية اللذة والجودة .

الحاكم : وكيف كنتم تصطادون الاولاد ؟

المرأة : بواسطة ولدنا ، كان يأتي كل يوم بواحد بحيلة اللعب معه، فنخنقه ونأكله وندفن عظامه في هوة عميقة حفرناها داخل بيتنا .

الحاكم : كم ولداً أكلتما ؟

المرأة : لا أذكرهم تماماً ولكن يمكن احصاءهم من عدد جماجمهم .(٢٦)

---

(٢٥) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) ــ الموصل ١٩٤٨ ــ ص ٥١٧ــ٥١٨ .

(٢٦) عمر ابو النصر (الحرب العالمية الاولى) ــ بيروت ــ م ٣ ص ١٨٨ .

حكمت المحكمة على عبود وزوجته بالاعدام شنقاً . وفي صباح يوم الاعدام أركبا على حمارين وسيقا الى ميدان باب الطوب حيث نصبت مشنقتان لهما ، وكان الناس في الطريق يبصقون عليهما ويشتمونهما ويضربونهما ، وكان عبود يرد الشتيمة على الناس بمثلها ويضيف عليها شتم الحكومة اذ كان يعتبرها المسؤولة عما حدث . وتجمهر الناس في الميدان ليشهدوا شنقهما . حدثني أحد الذين شهدوا الشنق فقال ان بعض النسوة من اللواتي فقدن أطفالهن كن ينهشن بأسنانهن أقدام عبود وزوجته من شدة الحنق والاسى . ويحكى ان امرأة كانت تنهش أقدامهما وتصرخ قائلة : « لقد أكلا ثلاثة من أولادي » .

لماذا ؟

كان للمجاعة تأثير سيء على وضع الجيش السادس التركي ، فقد اضطرت وحداته الى اهمال واجباتها العسكرية والانهماك في مشكلة الاعاشة ، كما اضطرت القيادة الى ترك أصغر قوة ممكنة في جبهة القتال وسحب القوات الباقية بعيداً الى الوراء لتسهيل أمر اعاشتها .

وفي الشهر الاول من عام ١٩١٨ هبط نصيب الجندي من الخبز في الفيلق الثالث عشر الى ١١٠ غرامات لليوم الواحد ـ أي أقل من صمونة واحدة ـ كما هبط نصيب الحيوان من العلف الى نصف كيلو ، فصار من الصعب اناطة أي واجب بالجنود الذين أنهكهم الجوع . وقد بلغت خسائر الجيش السادس من جراء الجوع أو الامراض الناشئة عن الجوع في كانون الثاني وشباط تسعة آلاف جندي . وفي آذار بلغ عدد الهاربين من الجيش نحو ألفين . أضف الى ذلك ان المجاعة أدت الى اختلال الامن وشيوع الفوضى والنهب في مختلف أنحاء الولاية . فصارت بعض العشائر والعصابات تقطع طرق القوافل ، مما اضطر الجيش الى سوق مفارز عديدة لمطاردتهم والتنكيل بهم . (٢٧)

هنا يواجهنا سؤال مهم : لماذا لم ينتهز الانكليز فرصة هذا الضعف العام الذي أصيب به الجيش التركي آنذاك لكي يهاجموه ويدمروه

---

(٢٧) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ـ ج ٣ ص ١١٣ـ١١٨ .

تدميراً ؟ فلقد كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك فلماذا لم يفعلوه ؟ ! •

يبدو ان هنالك عوامل ثلاثة كان لها أثرها في هذا الشأن :

اولاً : ان الانكليز كانوا آنذاك يمرون بما نسميه « فترة الملل من العراق » ، فمنذ أواخر عام ١٩١٧ بدأ الانكليز يشعرون بأنهم اقترفوا غلطة سوقية بفتح جبهة العراق ، وهي الجبهة التي كلفتهم من الارواح والاموال اكثر مما تستحق ، وقد أدركوا أخيراً ان هذه الجبهة ثانوية ليست لها أهمية كبيرة في تقرير مصير الحرب ، وان ما تكبدوه من الخسائر الهائلة فيها كان تبذيراً لا طائل وراءه ، وان الوقت قد حان لان يكفوا عن التمادي في ذلك • (٢٨)

ثانياً : في أواخر كانون الثاني ١٩١٨ أرسلت وزارة الحرب البريطانية الجنرال سمطس الى مصر مع هيئة منتخبة للمذاكرة مع الجنرال اللنبي حول وضع خطة موحدة لاخراج تركيا من الحرب • وفي أواسط شباط رفع سمطس الى وزارة الحرب تقريراً اقترح فيه التزام موقف الدفاع في جبهة العراق وحشد جميع القوات المتيسرة في جبهة فلسطين لتوجيه الضربة الحاسمة ضد الاتراك هنالك • وكان قد تم قبل هذا نقل فرقة هندية من العراق الى جبهة فلسطين ، فاقترح سمطس بالاضافة الى ذلك نقل فرقتين أخريين مع لواء خيالة • (٢٩)

ثالثاً : ان الجنرال مارشال الذي خلف الجنرال مود في القيادة العامة في العراق كان رجلاً مطواعاً يخضع للأوامر التي تأتيه من لندن دون أن يبدي عليها أي اعتراض حسب مقتضيات الموقف العسكري لديه • فلو كان مود ما زال حياً في تلك الفترة فلربما اتخذ تجاه الضعف الذي طرأ على الجيش السادس التركي موقفاً قوياً ، وربما هاجمه وقضى عليه قبل أن تتدخل وزارة الحرب البريطانية في عمله •

ومهما كان الحال فقد وردت الاوامر من لندن الى الجنرال مارشال تفرض عليه تقصير خطوطه وأن لا يقوم بأي هجوم الا عند الضرورة القصوى • واخذ مارشال يسحب قواته من بعض النقاط الامامية من أجل

---

(28) Barker (op. cit.) — p. 435—436.

(٢٩) شكري محمود نديم (حرب فلسطين) ــ ص ١٨١ــ١٨٢ •

تقصير خطوطه ، ولهذا تم اخلاء قرهتبه وتكريت وغيرهما . يقول محمد أمين العمري في ذلك ما نصه :

« ولم تفهم الاسباب التي جعلت الجيش البريطاني ينسحب الى سامراء وجبل حمرين بعد أن كلف نفسه عناء عدة معارك نجح فيها واحتل بنتيجتها قرهتبه و تكريت ، وبعد أن تكبد في تلك المعارك بضع مئات من القتلى والجرحى ، حتى أننا كنا نعتقد بان الجيش البريطاني لو استمر على زحفه وتقدمه لاحتل كركوك بسهولة ولطرد الاتراك من موضع (الفتحة) بعد عناء قليل . لكن الجنرال مارشال لم يستمر على زحفه وتقدمه انما ترك ساحة واسعة من الاراضي التي احتلها بدماء قطعاته ... وكم استغربنا في حينه من انسحاب الانكليز بعد نجاحهم في هجماتهم هذه ... » .(٣٠)

ويحدثنا العمري كيف أن قائد الفيلق الثامن عشر التركي اعتقد بأن الانكليز قد صمموا على اخلاء العراق كله على نحو ما فعلوا قبل هذا في الدردنيل ، وكان هذا القائد على وشك أن يصدر أوامره الى قواته بمطاردة القوات الانكليزية غير أن رئيس أركانه لم يوافقه على ذلك مما أدى الى وقوع نزاع شديد بينهما ، ولم ينته النزاع الا بعد أن تدخل مقر الجيش السادس حيث أمر بوقف الزحف الذي كان قائد الفيلق عازماً عليه .

معركة خان بغدادي :

على أثر استسلام القوات التركية في الرمادي في ايلول ١٩١٧ قررت القيادة التركية العليا تدعيم جبهة الفرات فأرسلت اليها من حلب فوجين من الجنود الاتراك مع قائد جديد هو شكري نايلي بك الارناؤوطي . وقد وصل هذا القائد مع جنوده بالشخاتير الى هيت في ١٨ تشرين الاول ١٩١٧ .

أحس الجنرال مارشال بما يجري في هيت من استعداد تركي ،

---

(٣٠) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ١١٨—١٢٠ .

وأدرك ما لهذه البلدة من أهمية سوقية وذلك لتشعب الطرق منها ومنابع القير فيها • وفي ١ شباط ١٩١٨ أصدر مارشال أوامره الى قائد فرقة الفرات الجنرال بروكنج بالتقدم نحو هيت واحتلالها في أقرب فرصة ممكنة • وفي ١٨ شباط أرسل بروكنج مفرزة استطلاع قوية نحو هيت، وقد استطاعت هذه المفرزة أن تحتل موضعاً يبعد عشرة أميال عن هيت ، ثم أخذت الطائرات الانكليزية تمطر المواقع التركية في هيت بالقنابل•[٣١]

ونشب آنذاك خلاف شديد في الرأي بين قائد الجبهة نايلي بك وقائد الجيش السادس خليل باشا ، فقد كان رأي نايلي بك ان هيت لا تصلح للدفاع ويجب الانسحاب منها الى خان بغدادي الذي يقع على بعد عشرين ميلاً الى الشمال منها ، وبدأ نايلي بك يسحب قواته من هيت فعلاً مما جعل الانكليز يحتلونها في ٩ آذار • وقد غضب خليل باشا على نايلي بك من جراء ذلك وعزله من القيادة وأرسل بدلاً عنه قائداً آخر اسمه نظمي بك ، وقد وصل هذا بالطائرة الى حديثة في ١٣ آذار •

وفي ٢٦ آذار نشبت معركة عنيفة بين الانكليز والاتراك في خان بغدادي ، وكانت القوة الانكليزية تزيد على خمسة أضعاف القوة التركية، واتبع الجنرال بروكنج نفس الخطة التي اتبعها في معركة الرمادي السابقة حيث أرسل لواء الخيالة للقيام بحركة تطويق واسعة النطاق الى الغرب من مواقع الاتراك ، وبذلك قطع خط الرجعة على القوة التركية • وكانت القيادة التركية من جانبها في حالة ارتباك لان خليل باشا كان يتدخل في شؤونها وهو على بعد مئات الاميال منها • [٣٢]

وفي صباح اليوم التالي استسلمت القوات التركية عن بكرة أبيها ، فكان مجموع الاسرى الذين وقعوا في أيدي الانكليز يزيد على خمسة آلاف • ولم يكن لدى الاتراك وقت كافي لتدمير أسلحتهم ، فغنمها الانكليز وكان فيها ١٢ مدفعاً و٤٧ رشاشاً وكميات كبيرة من الاعتدة والعجلات وأدوات الطبخ • فكانت هزيمة الاتراك في هذه الموقعة أفظع

---

(٣١) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٢٦—١٢٧ •
(٣٢) شكري محمود نديم (حرب العراق) — ٧١٤ •

من هزيمتهم السابقة في الرمادي • [٣٣] وأصبح الجنرال بروكنج كأنه هندنبرغ الانكليز في الفرات • [٣٤]

أعد الانكليز عقب انتهاء المعركة مفرزة مطاردة قوية مؤلفة من لواء خيالة ومائة سيارة تقل مليئة بالجنود • وقد وصلت المفرزة الى عانة في صباح ٢٨ آذار ثم واصلت السير بعدها في طريق حلب ، وأسرت في طريقها رئيس البعثة الالمانية في الفرات الهر بروسر مع أوراقه ، كما غنمت ثمانية عشر ألف ليرة ذهب كانت مرسلة الى الشيخ عجمي باشا السعدون •

الهزيمة الاخيرة :

يبدو أن الانكليز قد عاودتهم نشوة الهجوم عقب انتصارهم في معركة خان بغدادي • ففي اوائل نيسان ١٩١٨ أصدر الجنرال مارشال أوامره الى الجنرال ايكرتن قائد الفيلق الثالث المرابط في خط جبل حمرين بالتقدم باتجاه كفري وطوز خورماتو ، وأخذت القوات الانكليزية بالتقدم في هذا الاتجاه دون أن تلقى مقاومة كبيرة ، واستطاعت أن تعيد احتلال قرة تبة في ٢٦ نيسان ، وبعد يومين احتلت كفري ، وفي اليوم التالي احتلت طوز خورماتو • وقد وقع في أيدي الانكليز نحو ألف وثلاثمائة أسير تركي ، كما غنموا عشرين مدفعاً ، وكان الاسرى في حالة يرثى لها [٣٥] مما يدل على الضعف العام الذي كان الجيش السادس التركي يعانيه في ذلك الحين •

وفي ٧ أيار دخلت القوات الانكليزية مدينة كركوك ، ولكن الجنرال مارشال ارتأى بعدئذ اخلاءها ، فانسحبت القوات الانكليزية منها في ٢٤ أيار • وقد سبب هذا الانسحاب مشكلة كبيرة لبعض سكان كركوك ولا سيما المسيحيين منهم ، فهؤلاء كانوا قد استقبلوا الاحتلال الانكليزي بحماس وتعاونوا معه ، ولذلك كانوا يخشون أن ينتقم الاتراك منهم عند

---

(33) Barker (op. cit.) — p. 444.

(٣٤) محمد امين العمري (المصدر السابق) ـ ج ٣ ص ١٣٩ •

(35) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 2, p. 8.

عودتهم الى كركوك على نحو مافعلوا في الكوت سابقا • فصاروا يهربون من كركوك على عجل ، وكان عددهم نحو ١٦٠٠ شخصاً ، فذهب فريق منهم الى طوز خورماتو ، بينما ذهب آخرون الى بغداد • (٣٦) ولما عاد الاتراك الى كركوك نهبوا بيوت أولئك الهاربين وأراضيهم • (٣٧)

وعندما حل الصيف توقفت الحركات العسكرية في جميع الجبهات في العراق • وفي ٧ تموز أخذ الجنرال مارشال أجازة ليقضيها في الهند• وبعد انتهاء اجازته عاد الى العراق فوصل الى مقره ببغداد في ١ ايلول •

وفي ٢ تشرين الاول أبرقت وزارة الحربية البريطانية الى الجنرال مارشال في بغداد تقول : ان الاتراك على وشك أن يطلبوا الهدنة ولهذا ينبغي أن تتقدم القوات الانكليزية باتجاه الموصل لاحتلال أكبر قدر ممكن من الاراضي • وفي ٥ تشرين الاول عقد مارشال مؤتمراً عسكرياً مع قواده لتنفيذ هذا الامر ، وناط مهمة التقدم نحو الموصل بالجنرال كوب•

كان الفيلق الثامن عشر التركي المقابل لقوات الجنرال كوب معسكراً في الفتحة التي تقع على دجلة بين تكريت وشرقاط ، وكان قائده اسماعيل حقي بك ، ويقال عن هذا القائد انه كان متردداً يخشى تحمل المسؤولية بينما كان الجنرال كوب على النقيض منه قائداً جسوراً لا يحجم عن القيام بالمجازفة عند الحاجة • (٣٨)

نشبت عدة معارك ضارية بين الانكليز والاتراك استمرت من ١٨ تشرين الاول حتى ٢٩ منه • وفي صباح ٣٠ منه استسلم الفيلق التركي كله للانكليز بما فيه قائده اسماعيل حقي بك • فكانت تلك آخر وأفظع هزيمة مني بها الاتراك في العراق ، وقد غنم الانكليز فيها خمسين مدفعاً كما سقط في أيديهم اثنا عشر ألف أسير • (٣٩)

ومما يلفت النظر أنه في اليوم الذي وقعت فيه تلك الهزيمة الكبرى في شمال العراق كانت مفاوضات الهدنة بين الاتراك والحلفاء في جزيرة مودروس على وشك الانتهاء ، وقد تم عقد الهدنة في اليوم التالي • فكانت

---

(٣٦) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ١٨٠ •
(٣٧) المس بيل (المصدر السابق) — ص ١٥٢ •
(٣٨) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٢١١ — ٢١٢ •

(39) Barker (op. cit.) — p. 456.

تلك مصادفة غريبة ، وهي لا تخلو من مضاضة بالنسبة للاتراك لانها أفقدتهم ولاية الموصل . فلو كان الفيلق الثامن عشر قد تمكن من الصمود يوماً واحداً لربما تغير وجه التاريخ في تلك الولاية .

كانت طلائع القوات الانكليزية قد وصلت في وقت عقد الهدنة الى القيارة التي تقع على بعد أربعين ميلاً من مدينة الموصل . وكان المفروض ان تقف عند هذا الحد لا تتعداه ، ولكن الجنرال مارشال أصر على احتلال ولاية الموصل كلها . وقد احتج القائد التركي على ذلك احتجاجاً شديداً فلم ينفعه ذلك شيئاً. وتم للانكليز أخيراً دخول الموصل، وعينوا الكولونيل ليجمن حاكماً عليها ، وأعلن هذا ان حكومته لا تعترف بسيادة تركيا على ولاية الموصل بأية صورة ، وأنذر المسؤولين الاتراك بمغادرة الموصل حالاً .

وفي ١١ تشرين الثاني عقد اجتماع في السراي حضره أعيان الموصل، وقام عبدالغني النقيب فألقى خطبة حمد الله فيها على اخراج أهل الموصل من الظلمات الى النور ، وعلى تبديل خوفهم أمناً وعسرهم يسراً ، وذكر أن أهل الموصل قد ابتهجوا كلهم بقدوم بريطانيا العظمى اليهم الا من كان منهم خائناً أو شقياً حيث سدت عليه أبواب الخيانة أو الشقاوة ، فان قدومها هو كقدوم الطبيب الذي يتم على يديه الشفاء . ثم قام عمانوئيل بطرك الكلدان فألقى خطبة تشبه في معناها خطبة النقيب وأبدى الشكر لممثل بريطانيا العظمى سائلاً الباري عز وجل أن يكلل مساعيه بالنجاح التام بشفاعة الانبياء والاولياء برحمتك يا أرحم الراحمين . (٤٠)

اخطاء الانكليز :

ان العامة في العراق ، وفي أقطار الشرق كلها تقريباً ، ينظرون الى بريطانيا نظرة مبالغاً فيها الى أبعد الحدود . فهم يتصورون كأن بريطانيا تملك دماغاً كبيراً يدبر الخطط ويحوك المؤامرات في العالم دون أن يعتوره الخطأ ، واذا سمع العامة بأية حادثة تحدث في أنحاء الارض أسرعوا الى القول بأن الانكليز لابد أن يكون لهم يد فيها أو مصلحة .

لا حاجة بنا الى القول ان هذا الرأي ساذج لا يثبت أمام النقد العلمي.

---

(٤٠) محمد ظاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٥٣—١٥٤ .

فالانكليز هم كغيرهم من البشر معرضون للخطأ دائماً ، وربما كانت أخطاؤهم أفدح من أخطاء غيرهم لاتساع امبراطوريتهم . يدل على ذلك ما تورطوا به من أخطاء فظيعة في حرب العراق . يقول الناقد العسكري الانكليزي باركر : ان المؤرخين المعاصرين يكادون يجمعون على أن الحرب العالمية الاولى قد أديرت في الغالب بطريقة تخبطية ولكن ادارة حرب العراق كانت أشدها تخبطاً ، فقد كانت بريطانيا تستفيد من أخطائها في الجبهات الاخرى ، أما في جبهة العراق فكانت تتنقل من غلطة الى أخرى . (٤١)

خسرت بريطانيا في حرب العراق نحو مائة ألف رجل بين قتيل وجريح، وعندما انتهت الحرب وقف بونار لو في مجلس العموم البريطاني يقول : « أتمنى لو أننا لم نكن قد ذهبنا الى العراق أصلاً » .

من أهم القواعد العسكرية المتبعة في الحروب الحديثة القاعدة النابليونية المشهورة التي أشرنا اليها في هذا الجزء غير مرة ، وهي وجوب توجيه أعظم قوة على أضعف نقطة من خطوط العدو . وقد رأينا الانكليز يخالفون هذه القاعدة في حرب العراق كما خالفوها في الحروب الاخرى التي شنوها على الدولة العثمانية .

كان في الدولة العثمانية نقطتان ضعيفتان جداً هما : خليج البصرة وخليج الاسكندرونة . ورأينا الانكليز يهاجمون النقطة الاولى بقوة ضعيفة الامر الذي أدى بهم الى كارثة الكوت ، أما النقطة الثانية فالغريب أنهم لم يهاجموها ففاتتهم بذلك فرصة كبرى .

ان خليج الاسكندرونة ذو موقع سوقي في غاية الاهمية ، أضف الى ذلك أن الاتراك لم يضعوا فيه قوة دفاعية كافية . وقد صرح أنور باشا للقائد الالماني فون هندنبرغ قائلاً : « أملي الوحيد هو أن العدو لم يكتشف ضعفنا في هذا الموقع الخطير » . والواقع أن الانكليز لو كانوا قد وجهوا قوتهم الكبرى على هذا الموقع بدلاً من توجيهها على الدردنيل لتمكنوا من ضرب الدولة العثمانية ضربة قاصمة ولربما تغير بها مجرى الحرب كله . (٤٢)

---

(41) Barker (op. cit.) — p. 15.

(42) Ibid, p. 471—474.

خاتمــــة

عبــرة التــاريخ

ان الاحداث التي وقعت في العراق خلال الحرب العالمية الاولى تعطينا دروساً قيمة قد تكشف عن بعض أسرار المجتمع العراقي وقد تساعدنا على فهم مرحلة الانتقال التي نعيشها في الوقت الحاضر .

من الاقوال المأثورة : ان الانسان ينكشف جوهره عند الشدائد . وهذا قول ينطبق على المجتمع العراقي خلال الحرب الاولى ، فان الاحداث الشـديدة التي وقعت حينـذاك كشفت عن طبيعتـه المخبوءة وأظهرتـه علـى حقيقتـه .

أهم صفة بارزة لاحظناها في العراق خلال الحرب هي أنه مجتمـع تسوده القيم البدوية بكلا جانبيها السلبي والايجابي ، حيث رأينا فيـه استفحال قيم العصبية والغزو والنهب والاتاوة والثأر من جانب ، وقيـم الضيافة والنخوة والدخالة والتسيار من الجانب الآخر . وقد ظهرت تلـك القيم بأجلى مظاهرها فيمنطقة الفرات الاوسط اثناء فترة العصيان، ولو أن العصيان كان قد اتسع نطاقه فشمل مناطق أخرى من العراق لظهرت فيهـا القيم البدوية بمثل ذلك الوضوح أيضاً .

ان السلطة الحكومية تعد من أهم معالم الحضارة ، ولهذا فان تضاؤل تلك السلطة في مجتمع متاخم للبداوة يؤدي بطبيعة الحال الى استفحال العصبية القبلية وما يتصل بها من القيم البدوية . وقد لاحظ ابن خلدون هذه الظاهرة في المجتمع المغربي الذي عاش فيه قبل ستمائة سنة ، كمـا لاحظناها في المجتمع العراقي خلال العهد المغولي والتركي .

ان المجتمع العراقي ــ كما أوضحته غير مرة في مؤلفاتي السابقة ــ عاش طيلة العهد المغولي والتركي في فترة « مظلمة » من الناحية الحضارية، حيث كانت الحكومة المركزية لا يهمها سوى جباية الضرائب ، وتركت الناس يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون . فشاعت بينهم المعارك القبلية والغزو والنهب وقطع الطريق والثأر ، واضطر السكان الى التمسك بالعصبية والقيم البدوية

لكي يحافظوا على أرواحهم وأموالهم . ولم يقتصر هذا الامر على العشائر فقط بل شمل أهل المدن كذلك اذ هم صاروا يحملون السلاح للدفاع عن أنفسهم تجاه العشائر المجاورة ، وظهر بينهم رؤساء محليون على شاكلة شيوخ العشائر . وبذا اصبح القانون لا أهمية له في ضبط الامن ، وحل محله العرف العشائري المستمد من القيم البدوية .

ظل العراق يعيش على هذا الوضع حتى منتصف القرن التاسع عشر ، واذ ذاك بدأ تيار حضاري جديد متمثلاً في نمو السلطة الحكومية ، ولكن هذا التيار كان يسير ببطء شديد ، ولما نشبت الحرب في عام ١٩١٤ لم يكن التيار قد أنتج ثمراته المطلوبة ، ولهذا عاد السكان الى ديدنهم القديم حالما وجدوا الظروف مناسبة لهم .

من الجدير بالذكر ان السلطة الحكومية أخذت تنمو بعد الحرب بشكل تصاعدي الى درجة لا مجال لمقارنتها بما كانت عليه قبل الحرب ، وقد ساعدتها على ذلك وسائل السيطرة الحديثة كالطائرات والمصفحات والمدافع المحمولة مما جعل السكان غير قادرين على مجابهة الحكومة أو محاربتها على نحو ما كانوا يفعلون سابقاً ، فكان ذلك ايذاناً بدخول المجتمع العراقي في هذه المرحلة الانتقالية التي نعيش الآن فيها والتي تتميز بشدة الصراع بين قيم البداوة التي ورثناها من آبائنا وقيم الحضارة التي جاءتنا مع التيار الحديث .

الواقع ان هذه المرحلة ذات خطورة غير قليلة من حيث تقرير مصيرنا الاجتماعي ، فنحن نريد السير في طريق الحضارة الحديثة بينما قيمنا الموروثة تعرقل علينا الطريق . وقد أصبح من الواجب علينا في هذه المرحلة أن نكتشف تلك القيم الكامنة في أعماقنا ونسعى لمكافحتها بمقدار جهدنا .

يجب أن لا ننسى ان الكثيرين منا متحضرون ظاهرياً بينما هم في أعماقهم لا يزالون بدواً أو أشباه بدو ، فان قيم البداوة التي تمكنت من أنفسهم على توالي الاجيال ليس من السهل أن تزول عنهم دفعة واحدة بمجرد تقمصهم الازياء الحديثة أو تمشدقهم بالخطب الرنانة .

ان نصف سكان العراق اليوم ريفيون لا يزالون يعيشون على نمط ما كانوا عليه قبل ستين سنة ، ولم تتغير قيمهم الاجتماعية الا قليلاً . أما

النصف الباقي فهم على درجات شتى من حيث تغلغل الحضارة الحديثة فيهم، ولا نجد بينهم من هم متحضرون حقاً الا نسبة ضئيلة تكاد لا تتجاوز العشرة بالمائة أو أقل من ذلك .

يؤسفني أن أجد نفسي أعيد هـذا القول في كتبي مرة بعـد مرة ، ويؤسفني كذلك أن أجد بعض كتابنا ومفكرينا لا يفهمون ذلك ولا يريدون أن يفهموه ، فهم قد تغيروا في قيمهم ويحسبون أن جميع العراقيين قـد تغيروا مثلهم ، وتراهم يحاولون دراسة المجتمع العراقي في ضوء نظريات غريبة عنه اذ يعتبرونها الوسيلة الوحيدة لحل جميع المشاكل التي يشـكو منها ، وحين يفشلون في حل تلك المشاكل يظلون مصرين على رأيهم ويعزون سبب الفشل الى الناس لا الى أنفسهم .

خطـأ الاتـراك :

ان الاتراك الذين كانوا يحكمون العراق ارتكبوا أثناء الحرب خطأً فادحاً أدى الى الضرر بهم وبالبلاد ، فهم كانوا لا يختلفون في ذلك عـن مفكرينا الذين أشرنا اليهم آنفاً . انهم كانوا معتقدين اعتقاداً جازماً بـأن العشائر العراقية قوية جداً ولكن ضعفها ناشيء من تفرقها فاذا اتحـدت بتأثير دعوة الجهاد وفتوى علماء الدين فانها تتمكن حتماً من صـد الغزو الانكليزي ومن رمي الغزاة في البحر .

لقد سيطرت هذه الفكرة على أذهانهم بحيث أهملوا اعداد وسـائل الدفاع عن العراق ، ولما تبين خطأ رأيهم بعدئذ أخذوا يلومون العراقيين ويصفونهم بالخيانة ، بينما هم أولى باللوم من العراقيين .

ان دعوة الجهاد هي كغيرها من الدعوات المثالية لا يمكن أن تنجـح عملياً ما لم تكن منسجمة مع طبيعة الانسان وطبيعة القيم الاجتماعية التـي نشأ عليها . فأبناء العشائر العراقية انما تحمسوا للجهاد في بداية الامـر لانهم كانوا تحت تأثير المبالغ المغرية من الليرات الذهب التي أغدقها الاتراك على رؤسائهم من جهة ، وتأثير الامل بالنصر والفوز بالغنائم الوفيرة من الجهـة الاخرى . أما الدين وفتوى علماء الدين فلم يكن لهما سوى اهمية ثانويـة بالنسبة لهم اذ هم اعتادوا طول حياتهم على غزو بعضهم بعضاً دون أن يعيروا أي اهتمام لتعاليم الدين التي تنهى عن ذلك نهياً قاطعاً .

أشارت هوسات العشائر التي انطلقت ابان حركة الجهاد الى أنهم كانوا يأملون بالجنة نتيجة استشهادهم في الحرب ، ولا ريب أن الامل بالجنة له أثره في حركة الجهاد انما هو لا يكفي وحده في دفع العشائر الى القتال بل يجب أن يصحبه الامل بالنصر والغنائم • فقد دل تاريخ القبائل ــ البدوية والريفية جميعاً ــ على أنها تتهافت على الانضمام الى كل حركة دينية منتصرة ، وان كل نصر جديد تكسبه الحركة يؤدي الى زيادة انضمام القبائل اليها وزيادة تحمسهم لها ، ولكنهم لا يكادون يلمحون بوادر الخيبة والانكسار على الحركة حتى ينفضوا عنهاشيئاً فشيئاً ، فينسون الجنة عند ذلك وما فيها من نعيم مقيم •

ليس هذا ديدن القبائل فقط بل هو ديدن البشر جميعاً ، غير أنهم يختلفون في المظاهر والوسائل من جراء اختلاف القيم التي ينشأون عليها • ان الانسان بوجه عام لا يفهم من الدين سوى الجانب الذي ينتفع منه أو يتصور أنه ينتفع منه ، فهو لا يهتم الا بالامور الاعتقادية والتعبدية من الدين لانها تعطيه السلوى وتسبغ عليه الطمأنينة تجاه أخطار الحياة ومستقبلها الغامض • أما الجانب الاخلاقي من الدين ، وهو الجانب الذي يخص علاقات الناس بعضهم ببعض والتضحية في سبيل الغير ، فالانسان لا يهتم به الا في نطاق ما يلائم مصلحته أو يرفع مكانته بين الناس •

ان الانسان ميال بطبعه الى تفضيل الجزاء العاجل على الجزاء الآجل، وقد خبرنا البشر منذ آلاف السنين فوجدناهم يهتمون بجزاء الدنيا أكثر من اهتمامهم بجزاء الآخرة ، أما الذين يشذون فى سلوكهم عن ذلك فهم قليلون جداً ، وهؤلاء لا يمثلون القاعدة العامة بل يمثلون الاستثناء منها ، ولكل قاعدة شذوذ كما لا يخفى •

قد يحدث أحياناً أن يجتمع في الامر الواحد جزاء الدنيا وجزاء الآخرة معاً ، وعندئذٍ نرى الناس يندفعون فيه اندفاعاً حماسياً شديداً ، فيخيل للناظر البسيط أنهم يريدون بعملهم ثواب الآخرة بينما هم في الواقع يريدون ثواب الدنيا من حيث زيادة الجاه أو نيل المكسب • ولو كانوا يريدون الآخرة حقاً لرأينا أثر ذلك في أخلاقهم وحسن معاملاتهم مع الغير• ان هذا هو الذي جعل الحسين بن علي يقول في كلمة مشهورة له أثناء واقعة

كربلا : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرت معايشهم فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » •

بين التركي والعربي :

نقلنا في صفحة ٢٧٧ من هذا الجزء رأياً لخليل باشا في الجنود العرب، اذ هو اعتبرهم خونة وكان يشتهي أن يراهم معلقين على المشانق • وحين قارن بينهم وبين الجنود الاتراك قال ان الشجعان بين العرب لا تتجاوز نسبتهم الواحد بالمائة ، بينما لا يوجد بين الاتراك سوى جبان واحد من كل عشرة •

ان خليل باشا في رأيه هذا انما كان ينظر الى ظواهر الامور ويغفل عن العوامل الحقيقية التي تكمن وراءها • فالواقع ان العربي لا يقل شجاعة عن التركي ولكن في الحدود التي ترسمها القيم الاجتماعية في المحيط الذي ينشأ فيه • نحن لا ننكر أن الجندي التركي كان مقاتلاً باسلاً ذا صمود في القتال عجيب ، بينما كان العربي ينوي الفرار منذ اللحظة الاولى من تجنيده ، ولكننا يجب أن لا ننسى ان هذا الفرق ليس ناشئا عن كون التركي مخلصاً والعراقي خائناً ، بل هو بالاحرى ناشيء عن سبب آخر أعمق من ذلك •

ان الاتراك عاشوا طيلة خمسة قرون وهم في حالة حرب على من يسمونهم بـ « الكفار » ، من الاوربيين أو غيرهم ، وكانت الحروب الضارية بين الروس والاتراك متتابعة حيناً بعد حين • وجرت العادة في المجتمع التركي على احتقار كل من يفر من قتال الكفار ، واذا مات الفرد في القتال ترحم الناس عليه ومدحوه وبشروا أهله بأنه قد دخل الجنة فلا خوف عليه• فالفرد التركي ينشأ في مثل هذه القيم منذ طفولته ، وهو في كبره لا يعرف غيرها ، ويستنكر مخالفتها •

أما الفرد العربي فهو ينشأ في العراق على قيم أخرى ، انه لم يتعود على حرب « الكفار » بمقدار تعوده على المعارك التي تنشب بين عشيرة وأخرى ، أو بين محلة واخرى ، وكلما كان اكثر شجاعة في تلك المعارك ارتفعت سمعته بين قومه ، وأصبح بطلاً يشار اليه بالبنان ، أما اذا كان

ضعيفاً جباناً فانه يصبح عاراً على أسرته ويعتبره الناس « مخنثاً » لا خير فيه •

وهناك فرق آخر بين المجتمع التركي والعراقي ، فقد كان الفرد التركي ينظر الى الحكومة باعتبارها حكومة السلطان الذي هو ولي الامر وطاعتها مستمدة من طاعة الله ورسوله • أما في العراق فكان العداء مستحكماً بين الاهالي والحكومة وكثيراً ما تنشب المعارك بينهما ، وقد اعتاد الفرد العراقي على مخالفة أوامر الحكومة ونهب اموالها أو تخريبها ، وهو يفتخر بذلك ، واذا جاء الى الاهالي مجرم هارب من الحكومة آووه وحموه باعتباره دخيلاً عليهم ، وضللوا رجال الحكومة عنه ، واذا تعاون أحد منهم مع الحكومة أو أخبر الحكومة عن أمر من أمورهم احتقروه وعدوه جاسوساً •

يحدثنا هدجكوك البريطاني الذي تجول في أهوار العمارة بعد الحرب الاولى عن رجل من أفراد العشائر اسمه « الحاج ركان » أنه فقد أولاده الثلاثة في القتال من أجل دخيل التجأ اليه ، ثم مات هو نفسه أخيراً من جراء معاونته لعشيرته تجاه رجال الحكومة • [1] وليس هذا بالامر النادر أو الشاذ بين العشائر العراقية ، وما اكثر الذين ماتوا من أفراد العشائر استجابة لصيحة امرأة أو استغاثة جار أو هوسة عشائرية •

ولكن الفرد العراقي الذي يرمى بنفسه الى الموت في سبيل هذه الامور، قد يرمى بنفسه كذلك في سبيل أمور تافهة كنهب دجاجة ومحاولة قتل صاحبها • وهو في جميع تلك الامور انما يجري حسبما توحي به القيم الاجتماعية في محيطه العشائري • فالدجاجة وان كانت ضئيلة الشأن في حد ذاتها لكنها ذات قيمة معنوية كبيرة في نظر الناس هنالك اذ هي ترمز الى الغلبة والرجولة وتدل على أن المنهوب « مخنث » لا خير فيه •

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الفرد التركي الذي يرمي بنفسه الى الموت جهاداً في سبيل الله ، فهو قد اعتاد على ذلك في محيطه الاجتماعي ، ولكنه اعتاد أيضاً على أن يقترف الفضائع في الكفار عقب الانتصار عليهم فيقتل أطفالهم وينتهك حرمات نسائهم ويهلكهم جوعاً وتعذيباً • وقد رأينا أمثلة واقعية على ذلك فيما فعله الجنود الاتراك بالارمن ، وما فعلوه بشعوب

---

(١) فلانين (الحاج ركان) — ترجمة جميل سعيد وابراهيم شريف — بغداد ١٩٦٦ — ص ٤١ ، ٢١٦ •

البلقان ، وما فعلوه بأهل الحلة أخيراً • فالتعاليم الدينية تنهى عن ذلك نهياً قاطعاً ، ولكن الفرد التركي اعتاد عليه في محيطه الاجتماعي فلا يجد فيه أمراً مستنكراً ، وهو يؤمن أنه لا بد أن يدخل الجنة أخيراً بشفاعة النبي وأصحابه الاكرمين لانه كان مجاهداً في سبيل الله •

ان هذا دليل على أن البشر مهما اختلفت مظاهرهم هم في أساس طبيعتهم متشابهون •

المجتمع النجفي :

لعبت النجف دوراً هاماً خلال الحرب ، وتقلبت تجاه الحكومة عدة مرات ، فهي تزعمت حركة الجهاد في بداية الحرب ثم تزعمت حركة العصيان بعد زمن قصير ، وحين جاء الانكليز استقبلتهم النجف استقبالاً باهراً ثم كانت أول من ثار عليهم ، وعندما فشلت الثورة النجفية أقيمت في النجف حفلة كبرى لشكر الانكليز على اجهاض الثورة ، ولكن النجف أصبحت بعد سنتين مركزاً لثورة العشرين •

اننا في حاجة الى بحث مسهب لتعليل هذا التقلب الذي حدث في النجف ، وربما تيسر لي ذلك في الجزء القادم ، واكتفي هنا بذكر شيء منه لصلته بهذا الموضوع :

من الجدير بالذكر ان النجف كانت في النصف الاول من القرن الثامن عشر قرية خربة ليس فيها سوى بعض السدنة وقليل من السكان ، وكانت عرضة لغارات الاعراب • غير انها بدأت تنمو منذ منتصف ذلك القرن لاسباب لا مجال هنا لذكرها ، حتى أصبحت في القرن التاسع عشر بلدة مزدهرة عامرة بالسكان •

ومما يلفت النظر أن النجف أثناء نموها نمت فيها فئتان متمايزتان من السكان هما اللتان يطلق عليهما أهل النجف اسم «الملائية» و «المشاهدة»، ويمكن أن نسميهما بـ « المعممين » و « المسلحين » •

ان النجف أصبحت في القرن التاسع عشر ــ وما زالت حتى الآن ــ المركز الديني لطائفة الشيعة ، فكثر فيها تشييد المدارس الداخلية ، وتهافت

عليها الطلبة من جميع أنحاء العالم الشيعي • فكان فيهم العربي والايراني والتركي والهندي والافغاني والتيبتي وغيرهم • فكان الذي يدخل صحن النجف قبيل الغروب يشهد منظراً عجيباً حيث يجده مملوءاً بالمعممين كأنه « مزرعة البصل » على حد تعبير الشاعر النجفي الشيخ علي الشرقي • (٢)

ولكن النجف كانت في الوقت نفسه مملوءة بحملة السلاح الـذين يجيدون القتال ويشاركون في المعارك المحلية ، ومعنى هذا ان النجف لم تكن تضم مجتمعاً واحداً بل تضم مجتمعين مختلفين كل له قيمه وتقاليده وأعرافه الخاصة به •

يقال ان عدد المعممين في النجف بلغ في وقت من الاوقات نحو اثنى عشر ألفاً ، (٣) أما المسلحون فقد بلغ عددهم نحو ستة آلاف • (٤) وربما كان كل من هذين الرقمين لا يخلو من مبالغة انما هو على أي خال كثير جداً بالنسبة لبلدة لم يتجاوز عدد سكانها الاربعين ألفاً • ومن الممكن القـول ان تاريخ البلدان الاسلامية لم يشهد بلدة بمثل هذا التركيب الاجتماعي العجيـــب •

كان المسلحون من سكان النجف منقسمين كما هو مشهور الى فريقين متعاديين هما الزقرت والشمرت ، وقد بدأ العداء بين هذين الفريقين منـــذ بداية النمو في النجف ، فكانت المعارك بينهما متتالية لا تكاد تخمد حتـــى تنشط مرة أخرى ، وقد تعاونت عوامل اجتماعية متنوعة على جعل المعارك المحلية في النجف أكثر وأعنف منها في أية بلدة عراقية أخرى • (٥)

ان المشهدي المسلح لا يختلف في سلوكه كثيراً عن الفـرد القبلـي من سكان البادية أو الريف ، فهو مضياف شهم ذو نخوة ، وهو في الوقت نفسه اعتدائي سفاك ينهب الناس أو يفرض عليهم الاتاوة • يحدثنا الشيخ جعفر محبوبة أنه شهد في طفولته في أوائل رمضان ١٩٢٣ هـ ـــ أي فـــي

---

(٢) جعفر الخليلي (هكذا عرفتهم) ــ بغداد ١٩٦٣ ـــ ج ١ ص ٣١٣ •

(٣) محسن الامين (أعيان الشيعة) ــ دمشق ١٩٤٦ ـــ ج ٢٣ ص ٢٧٢ •

(٤) علي الخاقاني (شعراء الغري) ــ النجف ١٩٥٥ ـــ ج ٧ ص ٣٥٨ •

(٥) انظر في ذلك كتاب المؤلف (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ــ بغداد ١٩٦٥ ـــ ص ١٧٩ ـــ ١٨٠ •

أوائل تشرين الثاني ١٩٠٥ م ـ معركة ضارية بين الزقرت والشمرت وكان من ابطال الشمرت عزيز باقر شام وولداه صكبان ومحمد وقد قتل عزيز أخيراً بعد أن قتل من رجال الزقرت رجالاً مشهورين بالنجدة والشجاعة ، وبمقتله انتهت المعركة بانتصار الزقرت ، وقد رأى الشيخ جعفر الغالبين وهم يحملون الاثاث والفرش الثمينة التي انتهبوها من بيوت المغلوبين • (٦)
ويحدثنا الاستاذ جعفر الخليلي كذلك أنه شهد في طفولته معركة في الصحن من أجل « قران » سقط فيها ثلاثة من القتلى • وشهد معركة أخرى بالقرب من مدرسة الايرواني كان بطلها كاظم صبي ، ورآه يذبح بسيفه أربعة رجال • (٧)

ان هذا السلوك قد يكون أمراً مألوفاً في الريف أو البادية لانه السلوك الذي اعتاد الناس عليه جيلاً بعد جيل دون أن يكون هناك من يعارضهم أو يشجب عملهم • أما في النجف فالامر مختلف لوجود العدد الكبير من المعممين حملة التعاليم الدينية فيها • فهؤلاء بحكم تفكيرهم الديني يحتقرون السلوك المشهدي ويشجبونه ويعتبرون أصحابه من أهل النار • ولهذا كان هناك عداء خفي بين المعممين والمسلحين ، وقد يظهر هذا العداء علناً في بعض الاحيان ويتخذ صوراً شتى •

ان كل واحدة من الفئتين لها محيطها الخاص بها ، وقلما تجتمعان في صعيد واحد ، ولكن المشكلة تكمن في العامة من أهل النجف الذين ليسوا معممين ولا مسلحين ، فهؤلاء يعيشون عادة في حالة ازدواجية عجيبة، اذ هم يخضعون في حياتهم لنظامين متناقضين من القيم الاجتماعية ، فهم تارة متدينون يستمدون قيمهم من المعممين ، وهم تارة أخرى عشائريون يستمدون قيمهم من المسلحين •

نستنتج من هذا ان النجف تحتوي على نوعين من الزعامة : احداهما ملائية دينية ، والاخرى مشهدية محلية • ومشكلة الفرد العامي في النجف أنه ينشأ منذ طفولته على احترام كلا هذين النوعين من الزعامة على الرغم

---

(٦) جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ـ النجف ١٩٥٨ ـ ج ١ ص ٣٣٩ •

(٧) من مقالة مخطوطة لجعفر الخليلي •

من التناقض الواضح بين قيمهما الاجتماعية . ولهذا نجده ميالاً للتقلب في سلوكه حيث يخضع لهذه الزعامة حيناً ، ولتلك حيناً آخر .

كان العامة أثناء حركة الجهاد متحمسين لهـا يدعون الله أن ينصـر الاسلام على الكفر ويتلون دعاء زين العابدين لنصر حماة الثغور ، وهـم في ذلك كانوا تحت تأثير الزعامة الدينية طبعاً . فلما فشلت حركة الجهـاد وحلت محلها حركة العصيان التي تولتها الزعامة المحلية بدّل العامة موقفهم تبعاً لذلك ، فبعدما كانوا يدعون الله لنصر الاسلام أصبحوا يدعونه للانتقام من الاتراك الظالمين ، وصار شعارهم عندئذٍ : « الكفر يـدوم والظلـم لا يـــدوم » .

اهـل الكوفـة :

ان التركيب الاجتماعي الذي شـهدناه في النجف يشـبه من بعض الوجوه تركيب الكوفة في عهد الامام علي بن أبي طالب ، فقد كانت الكوفة كغيرها من الامصار الاسلامية آنذاك مقراً للقبائل البدوية التي كانت قـد جاءت من صحراء العرب لفتح العراق . ولكن الكوفة تميزت بوجود عدد من حملة التعاليم الاسلامية فيها يفوق ما كان في الامصار الاخرى منهم. والسبب في ذلك هو أن علياً عندما خرج من الحجاز قاصداً العراق فـي أوائل خلافته كان في صحبته جماعة كبيرة من المهاجرين والانصار والتابعين لهم حتى قيل ان الانصار كلهم جاؤوا معه الى العراق ولم يتخلف عنه سوى ثلاثة أو أربعة منهم . وقد كتب هو الى معاوية يقول : « وأنا مرقل نحوك بجحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان ... قـد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالـك وجدك وأهلك ، وما هي من الظالمين ببعيد » . (٨)

معنى هذا ان المجتمع الكوفي كان في عهد عليّ خاضعاً لنوعين مـن الزعامة هنا : الزعامة الدينية التي تتمثل في عليّ وأصحابه مـن جهـة ، والزعامة القبلية التي تتمثل في رؤساء القبائل من الجهة الاخرى .

ومما يجدر ذكره ان علياً قبل وصوله الكوفة كان قـد قاتل أصحاب

---

(٨) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) ـ بيروت ـ ج ٣ ص ٤٥٥ .

الجمل في البصرة وانتصر عليهم انتصاراً باهراً فكان هذا الانتصار من أهم الاسباب في التفاف القبائل الكوفية حول عليّ وتحمسهم له، فهم كانوا موقنين أنه سوف ينتصر على معاوية كمثل ما انتصر على أصحاب الجمل . وساروا معه الى صفين يحدوهم الامل بالنصر والفوز بالغنائم الوفيرة .

انتهت معركة صفين بالخيبة بالنسبة لاهل الكوفة ، ولهذا وجدنا فريقاً منهم يخرجون على عليّ وهم الذين اشتهروا في التاريخ باسم «الخوارج»، أما الفريق الآخر وهم الاكثرون فقد بقوا مع عليّ ولكن حماسهم له قد فتر ، فهم كانوا ينظرون الى علي ليس باعتباره اماماً يمثل التعاليم الاسلامية بل باعتباره رئيساً يقودهم الى النصر ، فلما خاب أملهم بالنصر وضعوا اللوم على عليّ وأخذوا يستهينون به .

لا حاجة بنا الى القول ان أصحاب عليّ من المهاجرين والانصار والتابعين لهم ظلوا على ولائهم له لانه كان في نظرهم رمز الحق تجاه الباطل، ولكن هؤلاء لم يكن لهم تأثير على أهل الكوفة الا من حيث النصح والموعظة مع العلم ان الموعظة لا تؤثر على الناس في تلك الظروف الا قليلاً ، ولذا وجدنا أكثر العامة من أهل الكوفة قد ساروا خلف رؤسائهم القبليين وهم لا يعرفون من أمور دينهم ودنياهم غيرما يقوله لهم أولئك الرؤساء .

حين ندرس الايام الاخيرة التي قضاها عليّ في الكوفة قبل مقتله ـ حسبما ورد وصفها في تاريخ الطبري وابن أبي الحديد وغيرهما ـ نرى بوضوح مبلغ الالم والتذمر الذي كان عليّ يشعر به تجاه أهل الكوفة ، فكان يذمهم في خطبه ذماً شديداً ويقول عنهم انهم ملأوا قلبه قيحاً ، اذ هم كانوا يعدونه بالخروج معه لحرب معاوية مرة بعد مرة ، ثم يخلفون الوعد معه في كل مرة . ولما ضربه ابن ملجم بالسيف أخيراً قال « فزت ورب الكعبة » ، وهذا يدل على مبلغ الالم الذي كان يشعر به تجاههم حيث أنجاه الله منهم .

من جملة الخطب التي ألقاها عليّ في ذم أهل الكوفة خطبة معروفة تسمى « القاصعة » ، وهي خطبة طويلة ذات دلالة اجتماعية لا يستهان بها اذ هي تبين لنا بجلاء موضع الخلاف بينه وبينهم ، فهم في سلوكهم العملي

يسيرون حسب قيمهم البدوية التي نشأوا عليها في محيطهم القبلي ، ولكنهم يتظاهرون بالدين شكلياً ، بينما هو يريد منهم ان يكونوا متدينين ظاهراً وباطناً . فهو يقول في تلك الخطبة : « واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون من الاسلام الا باسمه، ولا تعرفون من الايمان الا رسمه . تقولون النار ولا العار كأنكم تريدون أن تكفئوا الاسلام على وجهه ... » (٩)

أهل الكوفة والحسين :

يمكن القول ان سلوك أهل الكوفة مع الحسين كان كمثل سلوكهم مع أبيه . فهم عندما بلغهم خبر موت معاوية في اواخر عام ٦٠ هـ ظنوا ان الدولة الاموية قد انهارت وان الدنيا أصبحت مع الحسين . وهنا اتفق رأي الزعامة الدينية ورأي الزعامة القبلية على استدعاء الحسين : تلك تريد الحسين اماماً ، وهذه تريده رئيساً يقودهم الى النصر .

اجتمع الكثير من زعماء الكوفة وكتبوا الى الحسين يستدعونه ليجعلوه خليفة عليهم ، فأرسل الحسين اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، ولما وصل هذا الرسول الى الكوفة استقبله أهلها بحماس بالغ وبايعه الاكثرون منهم . ولكن هذا الحماس لم يدم طويلاً ، فقد وصل الى الكوفة الوالي الداهية عبيد الله بن زياد ، وأخذ يستخدم وسائل الترغيب والترهيب بطريقة بارعة ، حتى استطاع بعد فترة وجيزة أن يسيطر على الكوفة . والتفت مسلم وراءه فلم يجد من أعوانه أحداً ، فالتجأ الى امرأة أخفته في بيتها ولكن ولدها أحس به فأخبر السلطة عنه ، وانتهى امر مسلم اخيراً نهاية مفجعة كما هو معروف .

وبعد أن تم القضاء على مسلم أعد ابن زياد جيشاً من أهل الكوفة لقتال الحسين بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص . وقد حرص ابن زياد أن لا يضم هذا الجيش أحداً ممن يشك في ولائهم له ، أما الذين كان يشك في ولائهم من أهل الكوفة فقد قتل بعضهم وحبس آخرين منهم ووضع الباقين تحت رقابته الشديدة في الكوفة .

---

(٩) المصدر السابق ــ ج ٣ ص ٢٤٤ .

وقد التقى الجيش الاموي بالحسين في كربلا ولم يكن مع الحسين سوى عدد قليل من الاتباع • وجرت محاورات ومنابزات بين الفريقين قبل البدء بالقتال ، ويظهر من تلك المحاورات أن كلا من الفريقين كان يدعو الى مبدأ مناقض لمبدأ الآخر ، فأتباع الحسين كانوا يدعون الى نصرة الحسين باعتباره أولى بالطاعة من يزيد بن معاوية ، بينما كان خصومهم يدعون الى الوقوف في جانب ولي الامر فهو في نظرهم الامام الواجب الطاعة • وقال عمرو بن الحجاج أحد قواد الجيش الاموي يخاطب أفراد الجيش : « يا أهل الكوفة الزموا طاعتكم وجماعتكم لا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الامام » • فسمعه الحسين و ردّ عليه قائلاً : « يا عمرو ، أعليّ تحرض الناس ؟! أنحن مرقنا من الدين أم أنتم ؟! والله لتعلمن لو قُبضت أرواحكم ومتم على أعمالكم أينا المارق ! » [١٠]

استتب الامر لبني أمية في الكوفة بعد مقتل الحسين ، ولكن ذلك لم يستمر سوى ثلاث سنوات تقريباً ، اذ لم يكد أهل الكوفة يسمعون بخبر موت يزيد في عام ٦٣ هـ حتى انتفضوا من جديد تحت شعار الاخذ بثار الحسين ، فظهرت حركة التوابين وتلتها حركة المختار الثقفي وقد تعقب هذا قتلة الحسين وقتلهم كلهم تقريباً بعد أن مثل بهم وهدم دورهم •

لقد تشوهت سمعة أهل الكوفة ، وما زالت مشوهة حتى يومنا هذا ، من جراء اشتراك بعضهم في مقتل الحسين • غير أنهم في حقيقة أمرهم لم يكونوا سيئين الى تلك الدرجة التي اشتهرت عنهم • فنحن حين نرى فريقاً من أهل الكوفة يخرجون لقتال الحسين يجب أن لا ننسى ان فريقاً آخر منهم قد خرجوا للاخذ بثأره • والواقع ان التوابين الذين خرجوا للاخذ بالثأر ضربوا مثلاً رائعاً في الوفاء والشهامة يندر نظيره • فهم قد صمموا على الموت منذ بداية خروجهم ، ولم يطلبوا من خروجهم أي مكسب دنيوي ، وظلوا مصرين على الموت حتى قتلوا عن آخرهم •

من يقرأ كتاب « أصدق الاخبار في قصة الاخذ بالثار » للسيد محسن الامين العاملي يلاحظ بوضوح أن الاكثرية الساحقة من أهل الكوفة كانوا

---

(١٠) محسن الامين العاملي (لواعج الاشجان) ـ النجف ١٣٧٣ هـ ـ ص١٢٣ •

من المحبين للحسين المطالبين بثأره ، ولم يكن الذين خرجوا لقتال الحسين الا نسبة قليلة منهم . ولذا رأيناهم قد ساعدوا المختار على تتبع قتلةالحسين واحداً بعد الآخر حتى استأصلوهم من الكوفة. ولكن مشكلة هذه الاكثرية من أهل الكوفة أنهم لم يساعدوا المختار ويؤيدوه في حركته الا بعد انتصاره ، أما قبل ذلك فكانوا راضخين للحكم الاموي لا يحركون ساكناً.

ان الفرق بين أهل الكوفة وأهل الامصار الاخرى هو أن لهم نوعين من الزعامة كما قلنا ، حيث كانت احداهما تدفعهم نحو اتجاه مضاد لما تدفعهم اليه الاخرى . أما أهل الامصار فكان لهم نوع واحد من الزعامة واتجاه واحد ، وهم لذلك قد استراحوا وأراحوا !

الداعية والباحث :

ان ما حدث في كربلا قبيل مقتل الحسين من حيث الصراع بين مبدأين حدث مثله في النجف وكربلا أثناء الحرب العالمية الاولى . فقد وصف أنور باشا أهل النجف وكربلا ــ كما ورد في صفحة ٢٩١ من هذا الجزء ــ أنهم بعصيانهم للحكومة خالفوا رضا الله ورسوله . والظاهر ان تلك كانت نظرة جميع المسؤولين الاتراك نحو الذين أعلنوا العصيان عليهم ، فهم كانوا يعتبرون أنفسهم أولياء الامور الذين أوجب الله طاعتهم ، وكل من خالف أمرهم لابد أن يكون مخالفاً لامر الله تعالى ، مع العلم ان خصومهم كانوا ينظرون في الامر نظرة أخرى اذ كانوا يعتبرون الاتراك ظالمين ، وان الثورة على الظلم واجبة بأمر الله تعالى .

الواقع ان التاريخ البشري كله جرى على هذه الوتيرة ، وما زال جارياً عليها ، فكل فريق من البشر اذ ينازع فريقاً آخر لابد أن يستند في نزاعه على مبدأ من المباديء المثالية، دينية أو غير دينية . وهنا يكمن أحد الفروق الرئيسة بين الانسان والحيوان ، فالحيوان يعتمد في نزاعه على القوة المجردة وحدها ، أما الانسان فهو مهما كان جائراً أو لئيماً فلابد أن يتخذ له مبدأً مثالياً يدعمه في نزاعه ضد خصومه ، ولا بد أن يظهر له أعوان يؤيدونه في وجهة نظره ويزوقون له أعماله . وهو لكثرة ما يردده على نفسه ، وما يردده أعوانه معه من الاقوال في تدعيم رايه ، يصبح واثقاً بأن

الحق معه حتماً وأن الباطل مع خصمه •

يوصف التاريخ البشري بأنه سجل الصراع بين الحق والباطل ، ويمكن أن يوصف أيضاً بأنه سجل الصراع بين حق و حق باعتبـار أن كلاً مـن الفريقين المتصارعين يؤمن بأن الحق معه وحده ، • وقد ورد في القـرآن قوله تعالى : « وكل حزب بما لديهم فرحون » •

هنا يواجهنا سؤال مهم هو: أين يقف الباحث العلمي من هذا الصراع؟ هل يجب عليه أن يعين جانب الحق فيه ويؤيده تأييداً مطلقاً ، أم يقف على الحياد بين الجانبين ؟

لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نميز بين وظيفة الداعية ووظيفة الباحث في الحياة ، فالداعية هو الذين يتمسك بعقيدة من العقائد ــ دينيـة أو سياسية ــ ويدعو النـاس اليها ، ولـذا فهـو مضطر أن ينظـر فـي أحداث التاريخ نظرة تقييمية حسب معيار العقيدة التي يدعو اليها • أمـا الباحث فالمفروض فيه أن يدرس أحداث التاريخ دون أن تكون له أيـة فكرة مسبقة تحدد موقفه منها ، واذا كانت لديه مثل هذه الفكرة تحول من كونه باحثاً الى كونه داعية • وليس معنى هذا أننا نفضل أحدهما على الآخر، فكل منهما له وظيفته في الحياة الاجتماعية ، ولا تسـتقيم الحيـاة ما لـم يكن فيها دعاة وباحثون في آن واحد ــ أولئك يحركون التاريخ وهؤلاء يدرسـونه !

يمكن تشبيه الداعية والباحث بالمحامي والقاضي في محكمة التاريخ، فالمفروض في المحامي أن يتحيز الى جانب موكله لان هناك محامياً آخـر يتحيز الى الجانب الثاني • أما القاضي فالمفروض فيه أن يكون محايداً بين الجانبين لكي يستطيع أن يدلي بعدئذٍ بحكمه العادل في القضية المعروضة عليه• فاذا تحيز القاضي كان كالمحامي الذي لا يتحيز الى جانب موكله، فكلاهما يعد مقصراً في أداء واجبه الذي نيط به •

ان بعض كتابنا ومفكرينا يخلطون بين الوظيفتين ويريدون أن يكـون الانسان داعية وباحثاً في آن واحد • وهذا فيما أظن كان من الاسباب التي أدت بنا الى الوقوع في أخطاء التطرف مرة بعـد مرة دون أن ننتفـع من عبرة التاريخ !

الفهرس

تنبيه وشكر

وقعت في هذا الجزء أخطاء مطبعية بالرغم من العناية بالتصحيح ، وهي اخطاء نأمل ان يفطن اليها القارىء ويصححها بنفسه . ولا بد من تسجيل الشكر لمدراء المطبعة وعمالها على ما بذلوه من جهد في طبع هذا الجزء .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٧٨) لسنة ١٩٧٤ (١٠٠٠٠) نسخة

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY

IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME FOUR

Baghdad 1974

كتب المؤلف المطبوعة

(١) شخصية الفرد العراقي ١٩٥١

(٢) خوارق اللاشعور ١٩٥٢

(٣) وعاظ السلاطين ١٩٥٤

(٤) مهزلة العقل البشري ١٩٥٥

(٥) اسطورة الادب الرفيع ١٩٥٧

(٦) الاحلام بين العلم والعقيدة ١٩٥٩

(٧) منطق ابن خلدون ... ١٩٦٢

(٨) طبيعة المجتمع العراقي ١٩٦٥

(٩) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

(الجزء الاول) ١٩٦٩

(الجزء الثاني) ١٩٧١

(الجزء الثالث) ١٩٧٢

(الجزء الرابع) ١٩٧٤

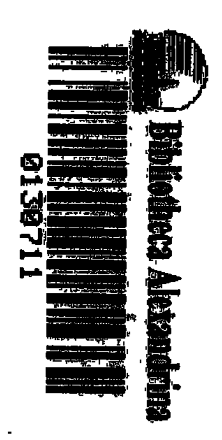
الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الخامس

حول ثورة العشرين

القسم الأول



الدكتور علي الوردي
أستاذ مدرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء الخامس

حول ثورة العشرين

مقـــدمة

ان هذا الجزء يبحث في الثورة العراقية التي حدثت في عام ١٩٢٠ ، وهي التي سميت بـ « ثورة العشرين » • والواقع ان هذه الثورة صدرت حولها دراسات ومؤلفات كثيرة تفوق بكثرتها ما صدر حول أي حدث آخر من تاريخ العراق الحديث ، والملاحظ أن معظم الدارسين لهـــذه الثورة من الكتاب العرب اتخذوا في كتاباتهم اسلوب « التمجيـــد » و « الحماس » ، حيث رأيناهم يميلون الى التأكيد على الجوانب الحسنة من الثورة ، ويبالغون فيها ، بينما هم يغضون النظر عن الجوانب السيئة أو يحاولون تبريرها •

ان المنهج الذي أسير عليه في هذا الجزء هو نفسه الذي سرت عليه في الاجزاء السابقة ، والذي سوف أسير عليه في الاجزاء اللاحقة ، وهو ذكر الاحداث كما وقعت من غير تحيز لها ، أو عليها ، مع الاخذ بنظـر الاعتبار طبيعة المجتمع الذى وقعت فيه تلك الاحداث •

لا أكتم القارىء اني ترددت طويلا في اصدار هذا الجزء لاني أعلم ان هذا المنهج سوف يثير امتعاض الكثيرين من القراء الذين اعتادوا على منهج « التمجيد » و « الحماس » ، فليس من الهين عليهم ان يروا منهجا آخر يُتّبع في دراسة ثورة العشرين ، وربما اتهموني بخيانة الوطن أو التحيز للاستعمار ، وهي تهمة فظيعة كما لايخفى !

لا أنكر ان ثورة العشرين تستحق التمجيد ، وتستحق أن يفتخر بها العراقيون ويطنبوا فى الثناء عليها والتغني بمحاسنها ، ولكني مع ذلك أعتقد أن ليس من المصلحة الوطنية أن نظل نواصل التمجيد للثورة دون ان نقف قليلا لنستخلص مافيها من عبر اجتماعية •

ان ثورة العشرين هي كأي حدث بشري آخر لابد أن تحتوي

على المحاسن والمساوىء معاً • وقد آن الأوان ـ فيما أرى ـ لأن نضع هذه الثورة على منضدة التشريح العلمي فندرسها دراسة موضوعية من مختلف جوانبها الحسنة والسيئة •

اننا أدركنا الكثيرين من رجال الثورة وقادتها ، وخالطنا بعضهم ، وقد صار معظمهم وزراءاً ونواباً وأعياناً وموظفين في العهد الملكي الغابر، فوجدناهم لايختلفون عن غيرهم من العراقيين اختلافا كبيرا • وقد يصح أن أقول انهم كانوا كغيرهم من الناس يسعون وراء مصالحهم في هذه الدنيا ، وتغريهم مغرياتها • وليس من المعقول انهم كانوا في ايام الثورة من طبيعة أخرى •

أرجو من القارىء ان لايعد هذا القول انتقاصا من قيمة رجال الثورة • والواقع ان جميع الذين قاموا بالثورات في تاريخ العالم كانوا أمثالهم في طبيعتهم البشرية ، فلم يحط ذلك من قدرهم • وقد كشفت الدراسات الحديثة عن الكثير من أسرار الثورات وأسرار رجالها ، فوجدناهم بشرا لهم مناقبهم كما أن لهم مثالبهم • ولم يخلق الله بشرا معصوما من النقائص والاخطاء على أي حال !

مناقشة مع ناقد :

قرأت مؤخرا في مجلة « الجامعة » التي تصدرها جامعة الموصل مقالة لأحد النقاد يشجب فيها المنهج الذي أسير عليه في دراسة المجتمع العراقي بوجه عام • فهو يعتبره مضرا بالجماهير اذ هو يؤدي الى تثبيط عزيمتها وفتور همتها • وهو يقول في ذلك مانصه : « ان المواطنين في معظم البلدان يتعصبون لأوطانهم بصورة مبالغ فيها ، بل أن قسما كبيرا منهم يتعصب لوطنه أو لجماعته التي ينتمي اليها حتى وان كانت قضيتهم باطلة » • وبعد أن يأتي الناقد بمثلين على ذلك من الانعزاليين اللبنانيين ومن الصهاينة يقول : « وفي ظروف عصيبة كالتي نعيشها في الفترة الراهنة

وملاحظة التراخي الذي يسود المنطقة العربية امام المؤامرات المتلاحقة للامبريالية ، ألا يتطلب منا ذلك أن نتعصب لحب الوطن الذى يتعرض لابشع أنواع الاستعمار الاستيطاني ؟ فهل سنكون بدويين إن نحن تعصبنا في ردع تلك المؤامرات • ان هذا التعصب ـ وهنا لم يعد من المناسب تسميته بالتعصب ـ سواء كان على شكل كلام أو فعل • انه سوف لا يكون من باب خداع النفس او المغالطة على جماهير الشعب • انه بمثابة المحرك والموقظ لها • ففي كثير من الاحيان تحتاج الجماهير الى من يبادر بتوعيتها • وحينئذٍ تأخذ هي بنفسها زمام المبادرة » •ويستند الناقد في رأيه هذا على ما قاله نديم البيطار عن طبيعة الجماهير وهو : ان « قابلية الادراك في الجماهير محدودة جدا ، والانفتاح الفكري فيها معدوم وهي تتميز بميل الى النسيانالشديد » • ثم يضيف الناقد الى ذلك قائلا : « وان كان هناك نوع من التحدث بصراحة أمام الجماهير فيجب أن لا يكون ذلك على حساب تثبيط عزيمتها وفتور همتها • ان القائد أو المثقف عندما يتحدث بصراحة أمام الجماهير يجب أن لايركز على السلبيات فقط بحيث يبدو الهدف من صراحته هو الطعن أو النيل من شعبه • ان تلك الصراحة المرة تشبه قضية الطبيب الذى يفاجيء مريضه باصابته بمرض مستعص ، فالطبيب فى هذه الحالة يعرض المريض الى انتكاسة نفسية تزيد حالة المريض سوءاً •• »[1]

اني اتفق مع الناقد في اننا يجب أن لانركز على الجانب السلبي في دراستنا الاجتماعية ، ولكن الذى يبدو من مقالته أنه يريد أن نركز على الجانب الايجابي فقط بحيث نترك الجانب السلبي تركا تاماً ، وهذا هو ما أخالفه فيه • فاذا كانت الجماهير كما وصفها البيطار ذات قابلية

---

(١) مؤيد الياس بكر (حول لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) ـ مجلة « الجامعة » ـ في عددها الصادر في تشرين الاول ١٩٧٦ •

محدودة جدا للادراك وانفتاحها الفكري معدوم ، فهل يجوز لنا أن نثير الحماس فيها ثم تتركها لتأخذ بنفسها زمام المبادرة • أعتقد ان ذلك سيؤدي بنا الى أوخم العواقب • ولدينا من تاريخنا القريب شواهد على ذلــك مازالت ذكراها حية في أذهاننا •

اذا جاز للناقد تشبيه منهجي بالطبيب الذى يصارح مريضه بأمـر مرضه المستعصي فيعرضه بذلك الى انتكاسة نفسية تزيد مرضه سوءاً ، فانه قد يجوز لي كذلك تشبيه منهجه « الحماسي » بالطبيب الذي يترك مريضه جاهلا مرضه ويسمح له بالحركة والاكل كما يشاء قائلا لـه : « ان صحتك على خير مايرام » • لا أنكر ان هذا الاسلوب قد ينفـع المريض اذا كان مرضه وهمياً أما اذا كان المـرض حقيقيـاً فان ذلك قد يؤدي به الى الهلاك •

اني لست أدعو الى ترك منهج « الحماس » تركاً مطلقاً ، ولكنـي لا أحب ان يكون هو المنهج الوحيد الذى نتبعه بحيث نهمل المنهج الآخر الذي هو قوام الحياة الحديثة • فكل من هذين المنهجين لـه وظيفته في الحياة • وأود في هذه المناسبة أن أعيد ما كنت قد قلته في الجزء الاول من هذا الكتاب وهذا نصه :

« اننا في هذه المرحلة المتأزمة من تأريخنا فـي أشد الحاجة الـى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخـير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس ! » [٢] •

---

(٢) علي الوردي (لمحات اجتماعية) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ج١ ص ٣١٨ •

الفصل الاول

حــول تعليل الثورة

دأب بعض كتابنا عند شرحهم أسباب ثورة العشرين أن يؤكدوا على أمرين اثنين : أولهما ان الاحتلال الانكليزي كان ظالماً قاسياً الى درجة لاتطاق ، والثاني ان الشعب العراقي شعب أبي لا يقبل الضيم ولا يجب الخضوع لحكم الاجانب • ثم يستنتجون من ذلك ان ثورة العشرين هي اذن محتومة ولابد أن تحدث من جراء تفاعل هذين السببين •

والملاحظ في هؤلاء الكتاب انهم صاروا « يتزايدون » في وصــف الظلم الذي حل بالعراق في عهد الاحتلال ، كل منهم يريد أن يبز الآخر في وصف فظاعة الظلم وتعديد صوره • ولعلي لا أعدو الصواب اذا قلت ان المبالغة في وصف الظلم الانكليزي أصبحت عندهم من امارات الوطنية، فالكاتب الذي يحب وطنه يجب في نظرهم أن يصب اللعنات على الانكليز ويطنب في وصف ظلمهم « الفادح » على العباد ، أما من لا يفعل ذلك فلابد أن يكون من عملاء الاستعمار ــ والعياذ بالله !

نماذج :

أنقل فيما يلي نماذج من هذا النوع من الكتابة اقتطفتها من كتابات رضا الشبيبي وعبدالرزاق الحسني وكاظم المظفر وعبدالشهيد الياسري ، لكي يطلع القارىء على المنهج الذي سار عليه هؤلاء الكتاب في تعيــين أسباب الثورة • واني حين أذكر هؤلاء الاربعة لا أقصد أنهم وحدهــم الذين اتبعوا هذا المنهج ، فالواقع ان معظم الذين كتبوا عن الثورة مــن العرب ساروا عليه قليلا او كثيراً • ولكني انما اقتصرت على ذكر أربعة منهم لأني اعتبرت كتاباتهم نماذج تمثل الآخرين •

يقول الشبيبي :

« ... من رأيي أن الثورة العراقية الكبرى في الثلاثين من حزيران سنة ١٩٢٠ وليدة عاملين خطيرين أولهما الضغط والاستغلال الاقتصادي واستنزاف جهود العاملين في ميدان الزراعة خاصة ـ والعراق قطر زراعي قبل كل شيء ـ والاستيلاء على مواردها بأبخس الاثمان وردها بعد استخدامها في الصناعة الحديثة لتصريفها في أسواق هذه البلاد بأغلى الاثمان ، وهذا هو جوهر الاستعمار الحديث . من هذه الناحية أدرك العراقيون ان حياتهم الاقتصادية مهددة بضرب من الضنك والفقر المدقع والاعواز ، ولهذا تأثرت بهذا العامل طبقة الزراع والفلاحين قبل غيرها حتى حفزها هذا التأثير البليغ لأن تكون في طليعة القائمين بتلك الثورة المجيدة بل كانت في مقدمة من بذل وضحى في سبيل مقاومة ذلك الضغط والاستغلال . ولم يكن لهؤلاء الثوار الريفيين البواسل بدّ من ملاذ يلوذون به ويفزعون اليه في سبيل تسويغ الانتفاضة واقامة الحجة على شرعية هذه الحركة ، فوجدوا ذلك العون والملاذ في عدد غير قليل من العلماء الأعلام المجاهدين وخصوصاً علماء النجف وكربلاء في ذلك الحين وفي مقدمتهم الشيخ المجاهد محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي تغمدهم الله برحمته ، تؤازرهم طبقة مثقفة من شباب الأسر العلمية المعروفة في النجف ، فأفتوهم بضرورة الدفاع عن الشرف والكرامة وعن الحقوق العامة وعن حوزة الفضيلة والدين .

« أما العامل الثاني في اندلاع الثورة فهو ذلك الضغط السياسي أو الحجر على الافكار والحيلولة بين ابناء البلاد وبين التعبير عن آرائهم والمطالبة بحقوقهم في تقرير مصيرهم بأنفسهم واختيار حكامهم وحكوماتهم بملء ارادتهم ، ثم للمحاولات التي بذلتها السلطة لفرض نوع من السيطرة

الاستعمارية المباشرة على العراق • وقد تأثر بهذا العامل الثاني ابنــاء المدن والحواضر أكثر من غيرهم • ولذلك بادر قادة الرأي في جملة من أمهات المدن الى تنسيق جهودهم وتنظيمها لمقارعة الاستعمار في أعقــاب الحرب العالمية الاولى والمطالبة بحقوقهم الطبيعية في تقرير المصير •• »[1]

ويقول الحسني :

« ••• ولما تم للانكليز الاستيلاء على العراق ، وظهرت بــوادر سياستهم الخرقاء ، وأنزلوا بالعراقيين ضروب الظلم والارهاق ، بــث العراقيون شكاواهم من سوء سياسة السلطة المحتلة الى العلماء ، وأشعروهم بأنهم يفضلون الموت على الحياة ، تحت هذا النوع من سيطرة المحتل • وما زالوا يراجعون العلماء ، ويؤكدون لهم على قدرتهم على مكافحــة الجيوش البريطانية ••• حتى اتفق الطرفان وأيد كل منهما الآخر على الشروع في مقاتلة الغاصبين • أضف الى ذلك ان العرب مطبوعون عــلى الاخلاق الكريمة ومن جملتها الشمم والاباء وعدم الصبر على الظلم وعلى تعسف الحكام ، فكانوا يستهونون الموت في ساحة الشرف والنضال على حياة الذل والهوان • فجاءت فتاوي العلماء الاعلام بامتشاق الحسـام في وجه هــذا الظلم ومحــاربة الاستبدداد محفــزاً لهممهم ومهيــجاً لشعورهم ••• »[2] •

ويقول المظفر :

« ••• ما إن استقر المقام بسلطات الاحتلال البريطاني في العراق ، حتى تولت ادارتها السياسية اصدار البيانات والاوامر التي هيمنت بواسطتها على مقدرات البلاد الاقتصادية لتعويض ما فقدته بريطانيا من الخسائر في

---

(١) عبدالله فياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٧٤ ـ ص ٦ ـ ٧ •

(٢) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ٨٧ •

الارض العراقية • فأستنزفت جهود الفلاحين المدقعين ، وهم أكثرية الشعب الكادح ، وأثقلت كواهلهم بأنواع الضرائب والرسوم • ثم استولت على موارد البلاد الزراعية ، وتولت نهبها نهباً حثيثاً جائراً الى الحد الذي بلغت فيه الضرائب ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الاحتلال ••• واحتكرت الادارة الانكليزية في الوقت نفسه أقوات الشعب العراقي فكانت تشتري هذه الاقوات في زمن الموسم بأثمان بخسة ، ثم تعود تبيعها بعد الموسم بأثمان عالية ، الأمر الذي ادى الى حدوث مجاعة عامة • اما احتياجات الجيش الانكليزى المرابط في أرض العراق فكانت سلطات الاحتلال تؤمنها عن طريق المصادرة والسلب في كثير من الاحيان ، أو فرض الاسعار المخفضة ، باستصدار الاعلانات والتشريعات ، وما أهون اصدارها • يضاف الى ذلك أعمال السخرة التي تفرض على جموع الشعب الكادح من أفراد العشائر وسكان المدن البؤساء • وتقوم أعمال السخرة على تنظيف الجداول وحفر الانهار وتعبيد الطرق ومد خطوط السكك الحديد • ومن القيود التي فرضتها الادارة الانكليزية على البلاد الاستيلاء المباشر على وسائط النقل بلا تعويض ، واشغال العقارات ببدل ايجار ضئيل ، أو بلا بدل في بعض الاحيان ، ثم تقييد حريات الناس كمنع السفر وعقد الاجتماعات وأصدار الصحف ونحو ذلك من الحريات العامة • وأخيراً التعديات المتواصلة التي يقوم بها الجنود الانكليز على السكان الآمنين ، وسوء تصرف الحكام السياسيين الذين نصبتهم الادارة البريطانية والسياسة الخرقاء التي تسير عليها هذه الادارة في اشاعة الفرقة بين العشائر من جهة ، واثارة الاحقاد والضغائن بين الطوائف الدينية من الجهة الاخرى ••• واذا أضفنا الى كل هذا سياسة الارهاب والبطش التي سارت عليها الادارة البريطانية ، واستعمال القوة الغاشمة في كل صغيرة وكبيرة ، وامتهان الحكام السياسيين لكرامات الناس ، لم يساورنا

العجب اذا ما رأينا لهيب الثورة يندلع في شتى أنحاء العراق ... » [٣].

ويقول الياسري :

« ... وفي أثناء هذه الحرب دخل الانكليز العراق ، وأعلنوا انهم جاؤوا محررين لا فاتحين ، جاؤوا ليطردوا الاتراك من هذه البلاد ، ويحرروها من سيطرتهم ، ويمنحوها الاستقلال ، ولما ثبتت أقدامهم وتوطدت أركانهم ، وحكموا البلاد حكما تاماً ، قلبوا للعراقيين ظهر المجن ، وعاملوا أحرارهم وزعماءهم بكل قسوة وشدة وفظاظة ، وأخذوا يسلطون عليهم موظفيهم العسكريين المتهورين الجهلة الذين لا يعرفون العراقيين الا أنهم أعداء للانكليز يجب اخضاعهم واذلالهم والازدراء بهم والتنكيل بزعمائهم وقادتهم . فأمعن هؤلاء الحكام المستهترون بالاستهانة بحقوق المواطنين والتلاعب بمقدراتهم وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ، وأصبحوا لا يتورعون من أعمال العنف والبطش، متوخين بذلك أذلال الشعب العراقي واحتقاره وان يستسلم للحكم البريطاني العسوف ، ولكن هذا الشعب لم يطق الاستمرار على هذا الذل، فقد خُلق حراً ، وعاش على حب الحرية ، فضاقت نفسه الابية ذرعاً بهذه الوحشية الانكليزية وراح أبناؤه يقومون بالاتصالات ويعقدون الاجتماعات ، بتوجيه من العلماء والمراجع الدينية ، ولا يخفى ماهم عليه من نفوذ كلمتهم في الاوساط العشائرية واحترامها لفتاواهم ، فأخذ كل واحد منهم حسب امكانياته واختصاصاته يقوم بما يحتمه عليه الواجب الديني والوطني والقومي ، لبث الدعوة للقيام بالثورة وطرد الانكليز الغاصبين من البلاد ، فألهبوا النفوس حماساً وملأوا القلوب على الانكليز حقداً وغيظاً وانتقاماً ، ولم يمض على هذه الحال بضعة أشهر الا والتهبت

---

(٣) كاظم المظفر (ثورة العراق التحررية) ـ النجف ١٩٧٢ ـ ج١ ص ١ ـ ٣ .

أول شرارة للثورة في بطاح الرميثة ... » [٤] .

اسلوب خطابي :

قد يصح القول إن هذا الكلام المذكور آنفاً هو أقرب الى أسلوب الشعر والخطابة منه الى الموضوعية والمنهج العلمي .. اني لا انكر أنه أسلوب حسن اذا كان المقصود منه اثارة الحماس الوطني في أفئدة الناشئة الجديدة ، انما هو لا يصلح ان يكون اسلوباً للبحث العلمي الذي ينبغي أن يكون من نمط آخر .

يستطيع أي كاتب او شاعر اذا امتلك ناصية البيان أن يأتي بالمناقب والمثالب كما يشاء . وهذا ما كان يفعله الكتاب والشعراء عندما يحبون شيئاً أو يبغضونه ، اذ تراهم يقلبون المثلبة الى المنقبة ، أو المنقبة الى مثلبة ، حسبما توحي به عواطفهم الجياشة . ولهذا كان من السهل عليهم تفسير أحداث التاريخ حسب رغبتهم ، اذ هم يختلقون الاسباب او يبالغون فيها بأسلوبهم « الرنان » ويحسبون أنهم جاؤوا بالقول الفصل الذي لا يجوز أن يختلف فيه اثنان .

اني أعجب حقاً حين أقرأ ما كتبه الكتاب عن مظالم الاحتلال الانكليزي ومثالبه ، كالحجر على الافكار وتقييد الحريات العامة والمصادرة والنهب واستنزاف جهود الفلاحين والسخرة واذلال العراقيين واضطهادهم. والواقع اني أدركت في طفولتي عهد الاحتلال ، وكنت أسمع الناس يتحدثون عنه ويقارنون بينه وبين العهد التركي . ولست أدري كيف أوفق بين هذا الذي كنت اسمعه من الناس وما كتبه هؤلاء الكتاب .

لست أريد ان ادافع عن عهد الاحتلال ، فهو لم يكن خالياً من المظالم والمثالب ـ كما سنأتي اليه ـ ولكن الذي أعرفه معرفة وثيقة ان الاتراك هم

---

(٤) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ ـ ص ١١ ـ ١٢ .

الذين لجأوا الى المصادرة والنهب ، أما الانكليز فكانوا على العكس من ذلك يشترون الحبوب وغيرها من المواد المحلية بأسعارها السائدة في السوق ويدفعون أثمانها نقداً ، وقد أدى ذلك الى ظهور تضخم نقدي هائل لم يشهد العراق مثله من قبل ـ كما سنأتي اليه •

أما من حيث الحجر على الافكار وتقييد الحريات العامة فلو قارنا في ذلك بين ما فعله الانكليز وما فعله الاتراك ـ ولا سيما في العهد الحميدي ـ لرأينا فرقاً كبيراً • وهذا أمر معروف لا حاجة بنا الى ذكره أو التوسع فيه •

ان عداءنا للانكليز يجب ان لا يكون سبباً لتشويه الحقائق • فلقد ذهب الانكليز ولكن الحقائق تبقى ، وأصبح من الواجب علينا ان نسجل الحقائق كما هي لكي نستمد منها العبرة • أما اذا بقينا نصطنع الحقائق لأنفسنا كما نشتهي فان ذلك قد يؤدي الى أفدح الضرر في نهاية المطاف •

تعليل آخر :

في الوقت الذي يحاول فيه بعض كتابنا تعليل الثورة بأسلوبهم الخطابي على النحو الذي ذكرناه ، نرى كتاباً آخرين ، وهم في الغالب من خصوم الثورة من البريطانيين وغيرهم ، يحاولون تعليلها بأنها امتداد للمعارك التي كانت العشائر العراقية تقوم بها ضد الحكومة التركية بين كل حين وآخر • فهم يعتبرون الثورة كالمعارك السابقة نوعاً من التمرد على النظام والقانون والحضارة ، فالعشائر العراقية في رأيهم تعادي كل حكومة مهما كان نوعها ، اذ هي بطبيعة تراثها البدوي تميل الى الغزو والنهب وفرض الاتاوة ، وهي حين تجد الحكومة تحول بينها وبين ما تريد لابد أن تشعر بالعداء لها وتحاول التمرد عليها كلما سنحت لها الفرصة بذلك !

عبّر الكابتن لايل عن رأي هؤلاء الكتاب بصراحة حيث قال :

ان الطبيعة الفوضوية المشاغبة التي اتصف بها أهل العراق معروفة تماماً لدى المطلعين على شؤون الشرق الاوسط من الساسة الاوربيين وان عدم رغبة العراقيين فينا ليس بالأمر الجديد فهم لا يحبون أي شكل من أشكال الحكومة يمنعهم من مواصلة غرائزهم الموروثة في التمرد على القانــون واقتراف الجرائم العنيفة (٥) •

في رأيي ان هؤلاء الكتاب الحانقين قد جانبوا الصواب كما جانبه اولئك الكتاب الخطابيون • كل منهما يحاول ان يخرج الثورة من اطارها الطبيعي ليدخلها في اطار من صنعه • وقد ضاعت الحقيقة بـــين هذين الفريقين كما ضاعت لحية الزوج المسكين بين زوجتيه « حانة » و « مانة » ـ كما تقول به القصة الشعبية الشائعة •

لا شك عندي ان التراث البدوي كان عاملا مهماً من عوامل ثورة العشرين على نحو ما كان في المعارك العشائرية السابقة ، وقد يصح أن أقول أن الكثير من العشائر حاربت في أثناء ثورة العشرين بنفس الروح التي كانت تحارب بها الحكومة في العهد التركي • ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى ان ثورة العشرين تميزت بخصائص جعلتها تختلف اختلافاً كبيراً عن المعارك السابقة • وأقصد بذلك أن العامل البدوي لم يكن العامل الوحيد في ثورة العشرين ، على نحو ما يقول به خصوم الثورة ، بل ان هناك عوامل اخرى كان لها أثرها الفعال في تلك الثورة • وفيما يلي أذكر أهم الخصائص التي تميزت بها ثورة العشرين :ـ

اولا : لم يشهد العراق في العهد التركي أية معركة اشترك فيهـــا أهل المدن مع العشائر • فقد كان هناك نوع من النفور أو الاحتقار المتبادل بين العشائر وأهل المدن ، ولكن هذا النفور اختفى في أثناء ثورة العشرين ،

---

(5) Lyell (Ins and Outs of Mesopotamia) - London 1928 - p. 193 - 194.

ولاسيما في الفرات الاوسط ، وقد تعاون الفريقان في الثورة تعاوناً يلفت النظر ـ كما هــو معروف •

ثانيا : لم يكن للمعارك السابقة أية صبغة دينية الا نادرا ، ولم يحدث أن أفتى علماء الدين بتأييد تلك المعارك على وجه من الوجوه • أما في ثورة العشرين فقد أفتى العلماء بتأييدها واعتبروها جهاداً في سبيل الله ، وأنفقوا عليها كثيراً من الحقوق الشرعية التي كانت تردهم • وقد ساهم بعض العلماء في الثورة فعلاً حيث رأيناهم بــين المحاربين في جبهة القتال يحثونهم على الجهاد •

ثالثا : لم تكن مفاهيم « الوطنية » و « الاستقلال » وأمثالها مالوفة لدى العراقيين في الماضي ، غير أنها أصبحت متداولة بينهم في أثناء ثــورة العشرين يلهجون بها ويهتفون لها • ومن الممكن اعتبار ثورة العشرين المدرسة الشعبية الاولى التي علمت العراقيين تلك المفاهيم ، وكانت البداية للوعي الوطني الذي أخذ ينمو بعد ذلك بمرور الايام •

رابعا : لم يحدث لاية معركة من المعارك السابقة ان امتدت في انحاء العراق بمثل ذلك النطاق الواسع الذي امتدت به ثورة العشرين • يقول عنها أمين الريحاني ما نصه : « ••• انه لأعجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال الانكليزي • • هو ذا بلد لاصحافة فيه تذكر، ولا طرق مواصلات حديثة صالحة ، ولا قيادة ، تعمه الثورة فتربط أطرافه بعضها ببعض في أقل من شهر ، ثم تستمر أشهراً وهي تزداد قوة وهولاً • حتى أن العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين(٦) ••• » •

يمكن القول على أي حال ان ثورة العشرين هي أول حدث في تاريخ العراق يشترك فيه العراقيون بمختلف فئاتهم وطبقاتهم ، فقد شوهدت فيها العمامة الى جانب الطربوش ، والكشيدة الى جانب اللفة القلعية ، والعقال الى جانب الكلاو ، وكلهم يهتفون : « يحيى الوطن ! » •

---

(٦) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت ١٩٥١ ـ ج٢ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ •

الفصل الثاني

من اسباب الثورة

يمكن القول ان معظم العراقيين ـ ولا سيما أهـــل المدن منهم ـ استقبلوا الاحتلال الانكليزي عند أول دخوله عليهم بالابتهاج والترحيب ، وذلك لشدة ما عانوه من الحكومة التركية خلال فترة الحرب من مشاق وبلايا وآلام . حدثني أحد المسنين عن تلك الايام فقال : اننا كنـــا في بداية الحرب نجتمع في المساجد ندعو الله ان ينصر المسلمين على الكفار ، فقد كنا حينذاك تحت تأثير حركة الجهاد التي كانت في إبانها ، ولكننـــا في أواخر الحرب صرنا ندعو الله ان يهلك الاتراك وينصر الانكليز عليهم استناداً على القول المأثور : « الكفر يدوم والظلم لا يدوم » .

قد يواجهنا هنا سؤال : اذا كان معظم العراقيين قد استقبلوا الاحتلال الانكليزي بالابتهاج والترحيب ، فكيف تحولوا الى التذمر منه خـــلال فترة قصيرة لا تتجاوز السنتين أو الثلاث حيث قاموا بتلك الثورة الكبرى !؟

لكي نستطيع الجواب على هذا السؤال يجب أن نعلم ان التحول من الابتهاج الى التذمر ليس بالامر النادر في تاريخ الشعوب ، وقد يصح القول انه أمر طبيعي يقع للفرد في حياته اليومية كمثل ما يقع للشعوب . فالانسان قد يشكو أحياناً من وضع هو فيه حتى اذا أتيح له ان ينتقل الى وضع آخر يجد أن الوضع الجديد ليس خالياً من العيوب كما كـــــان يتصوره ، انما هي عيوب من نوع آخر غير النوع الذي كان يعانيـــه في وضعه القديم .

ان هذا هو ما حدث فعلا في العراق في عهد الاحتلال البريطاني . فان الكثيرين من الذين ابتهجوا بالاحتلال في اول أمره أخذوا بمـــرور الايام يدركون ان الحكم الجديد الذي أنقذهم من مظالم الحكم التركي

وأسوائه لا يخلو هو أيضا من مظالم وأسواء خاصة به ، وبذا أخذ التذمر ينتشر بينهم تدريجيا • يقول لونكريك : « ان الاشهر التي تلت الهدنة ساد فيها الارتياح والثقة • وسرعان ما أعقبها تجمع عوامل التذمر والاضطراب، وكان ذلك بشكل خفي في البداية ثم أخذ يظهر علانية » [1] •

مما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الظلم هو كغيره من الظواهر الاجتماعية ليس أمراً مطلقاً بل هو نسبي له ارتباط وثيقٌ بالظروف الاجتماعية والنفسية التي يعيش فيها الناس • فرب عمل يُعتبر في زمن ما عادلا بينما هو في زمن آخر قد يُعتبر ظالماً ، ورب حاكم يعده مجتمعه من أعدل الحكام ، فاذا انتقل الى مجتمع آخر وقام بنفس الاعمال التي اعتاد أن يقوم بها في مجتمعه الاول نفر الناس منه وكرهوه ، وربما ثاروا عليه •

سنحاول في هذا الفصل ، وبعض الفصول التالية ، دراسة العوامل التي ساعدت على نشوء التذمر من الاحتلال الانكليزي ، وعلى نموه وانتشاره تدريجيا ، حتى أدى أخيرا الى نشوب الثورة المسلحة • ولست أدعي ان هذه الدراسة قد أصابت كبد الحقيقة ، بل هي محاولة مني قد تخطيء وتصيب • وكل ما أرجوه هو ان تكون هذه الدراسة حافزاً لدراسات أخرى يقوم بها باحثونا بأسلوب غير الاسلوب الذي عهدناه •

الفرق بين نظامين :

من أهم عوامل التذمر في رأيي هو ان العراقيين شهدوا في عهد الاحتلال نظاماً للحكم لم يكونوا قد تعودوا عليه من قبل فضجروا منه وصار ضجرهم يزداد بمرور الايام •

الواقع اننا لو قارنا بين نظام الحكم التركي ونظام حكم الاحتلال لوجدنا فرقاً كبيراً • فلو استثنينا فترة الحرب ـ وهي فترة قصيرة نسبياً ـ

---

(1) Longrigg (IRAQ, 1900 to 1950) - London 1956 - P. 99.

لوجدنا الحكومة التركية طيلة المدة التي حكمت فيها العراق تسير على أسلوب في الحكم يمكن أن نسميه بـ « الحكم السائب » ، اذ هي اعتادت أن تترك الناس يفعلون ما يشاؤون ولا تتدخل في شؤونهم الا فيما يخص جباية الضرائب ، وكان لسان حالها يقول : « ادفعوا لي الضريبة وافعلوا ما شئتم فلا شان لي بكم » • ولهذا خربت البلاد واندثرت ترع الري وتكررت الاوبئة وشاعت الغزوات والمعارك القبلية كما شاع قطع الطرق وفرض الاتاوات ، مما أدى الى انتشار قيم البداوة بين الناس وذبول الحضارة لديهم •

اعتاد العراقيون على هذه الحياة وألفوها حتى أصبحت في نظرهم كأنها هي الحياة الطبيعية التي لايمكن أن يكون هناك شيء آخر غيرها • فكانوا يحلون مشاكلهم بأنفسهم دون اللجوء الى الحكومة ، فاذا قُتل منهم أحد عمدوا الى الاخذ بثأره على الطريقة البدوية ، واذا تنازع منهم اثنان ذهبا الى مختار المحلة او عالمها الديني لكي يفصل بينهما • وقد وصل الحال بالناس الى درجة أنهم كانوا يستنكفون من الشكوى الى الحكومة عند وقوع اعتداء عليهم ، فالشكوى الى الحكومة تُعتبر في نظرهم دليلا على الضعف ، باعتبار ان القوي الشجاع هو الذي يأخذ ثأره بنفسه ولا يعتمد على غيره فيه • أعرف شخصاً مات عن عمر طويل ناهز التسعين ، وكان قبل موته يفتخر بأنه لم يدخل السراي – أي دار الحكومة – طيلة عمره •

أضف الى ذلك ان الموظفين في العهد التركي كانوا متساهلين في تطبيق الانظمة والقوانين تحت تأثير الرشوة والوساطة ، وكان الناس يحمدون للموظف قبوله للوساطة ويعدون ذلك من مناقبه ، وكثيراً ما كانوا يمدحون موظفاً لأنه أنقذ مجرما من العقاب على أثر رجاء من وسيط • فتلك شهامة تقدر في نظرهم •

فلما جاء عهد الاحتلال شهد الناس فيه نظاما للحكم غير مستساغ • انهم وجدوا فيه صرامة شديدة في تطبيق القوانين والانظمة ، وقل تأثير الرشوة والوساطة وحلت محلهما الخشونة وقلة المبالاة بمشاعر الناس ومكانتهم الاجتماعية • يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عما شاهده في عهد الاحتلال حيث قال : انهم يهينون المراجعين بصورة لم يسبق لها مثيل في العهد التركي ، فكانوا يضربون كل شخص يخالف نظام السير في الشوارع ، وفي الجسر بوجه خاص ، بصورة قاسية جداً • ويذكر القصاب أسماء نفر من أعيان بغداد نالهم ضرب الجنود الانكليز كعبدالرحمن أفندي الجميل وياسين باشا الخضيري وأمين القصاب ، كما يذكر القصاب قصة شاهدها بنفسه على الجسر وهي ان قافلة من الزوار الايرانيين كانوا يعبرون الجسر على أقدامهم وهم يقودون خيولهم اطاعة للاوامر التي صدرت بمنع الركوب ، ولكن واحداً منهم ظل راكباً لأنه كان مقطوع الساقين ، وعندما رآه الجندي الانكليزي أخذ يضربه بعصاه الغليظة بشدة فصاح رفاقه : « ناخوشا » ، أي مريض ، غير أنه لم يكف عن الضرب حتى ألقاه عن ظهر البغلة ، واضطر رفاقه ان يحملوه على اكتافهم وعبروا به الجسر ، وصار المارة يبدون أسفهم من فعل هذا الجندي الشرس(٢) •

وكذلك يحدثنا محمد طاهر العمري عما شاهده في عهد الاحتلال فيقول : ان عهد الاحتلال أحدث انقلاباً عجيباً في الطبقات الاجتماعية حيث أصبح المحترم ذليلا والذليل محترماً ، ذلك ان الانكليز قربوا بعض الاشخاص من العوام فقلدوهم المناصب الحكومية ، وصارت الدوائر غاصة بالهنود والارمن وبعض الأذلاء من الناس • ولما كان العراقيون قد تعودوا منذ زمن بعيد على احترام الاشراف وذوي النسب الرفيع فقد ساءهم

---

(٢) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ١٩٨ — ١٩٩ •

جلوس الأذلاء على الكراسي وتقلدهم المناصب • فأذا أردت ان تراجع الحاكم لحاجة لك يجب أن تنتظر مدة غير قليلة ، وقد لا تسلم آنذاك من اهانة القواسين والشرطة • واذا سُمح لك بالدخول الى غرفة أحد الموظفين الهنود وجدته ينقر بأصابعه على آلة كاتبة لم تشهد مثلها من قبل ، فتقف أمامه دون أن يرفع رأسه ، وهو حين يرفع رأسه لا يفهم كلامك ، فتحتاج الى مترجم ، وقد تحاول افهامه بالاشارات ، فيصرفك بقوله : «گون» • أضف الى ذلك ان حكومة الاحتلال استخدمت زمرة من صعاليك العرب والعجم في أمور الشرطة وألبستهم السراويل القصيرة التي لم يألفها العراقيون ، وأقامتهم في الشوارع والازقة ، كما فرضت على المارة أن يسيروا في الجهة اليسرى من الشارع ، فاذا سار أحد المارة في الجهة اليمنى سهواً فوجىء بلكمة ينزلها عليه شرطي أو بضربة سوط يلفحه بها أحد جنود الانضباط العسكري • وقد يُضرب بالسياط كذلك بعض المراجعين للدوائر من جراء عدم قيامهم عند مرور الحاكم بهم ، أو عدم ادائهم التحية له كما ينبغي • وكثيراً ما يسمع المراجعون شتائم لم يعرفوها من قبل مثل « بلاد فكن » و « بلاد فول » (٣) •

ومن الطرائف التي رواها لي أحد المسنين عن عهد الاحتلال ان الناس اعتقدوا بأن الغرض من القبعة التي يلبسها جنود الاحتلال هو لكي تحجب عنهم السماء ، أما السراويل القصيرة فهي لاشاعة الفحش بين الناس •

نتائج التضخم النقدي :

حدث في عهد الاحتلال ــ وخاصة في بدايته ــ تضخم نقدي عجيب لم يشهد العراق له مثيلا من قبل • وقد نشأ هذا التضخم من جراء ما بذله

---

(٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج ٣ ص ٣ــ٧ •

الانكليز من أموال في شراء ما تحتاجه اليه جيوشهم من أطعمة وفي بناء الثكنات والقناطر وتعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وغير ذلك .

يقول الشيخ رضا الشبيبي : « كان الانكليز كلما تقدموا شبراً في العراق وتغلغلوا فيه تزداد كمية النقود لأن جنودهم وعمالهم ينفقون عن سعة ... هذا فضلا عن ان الانكليز ومستخدميهم السياسيين كانوا ينثرون الاصفر الرنان على قبائل العرب لاغراض معلومة »[٤] .

انتفع من هذا التضخم كثير من الناس حيث جنوا اجوراً وارباحاً لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، فقد كان يكفي أحدهم أن يحمل مقداراً من السلع البسيطة او المواد الغذائية على وعاء في يده ويدور به في أماكن تجمع العمال او الجنود ليحصل من ذلك على الربح الوفير ، وقد نال شيوخ العشائر واصحاب البساتين والتجار والمتعهدون والمضاربون من ذلك حصة الاسد ، وظهر بينهم عدد كبير من أغنياء الحرب الذين صاروا يلعبون بالمال لعباً ويبذرونه في شهواتهم تبذيراً يلفت النظر . وكثرت المراقص والحانات ودور القمار والمباغي لتبتلع القسط الاكبر من هذا المال.

ولكن هذه المنافع التي جناها قسم من الناس تقابلها مضار أصابت القسم الآخر منهم . فقد ارتفعت أسعار الحبوب ارتفاعاً فاحشاً كاد يؤدي الى مجاعة في بغداد . فقد كان سعر طغار الحنطة في الحلة في العهد التركي يتراوح بين ٨ و ١٠ ليرات ، فارتفع في عهد الاحتلال الى مائة ليرة[٥] . وفي بغداد ارتفع سعر الطغار الى ١٢٠ ليرة[٦] . وحدثني أحد شيوخ المشخاب : ان طغار الشلب كان سعره في العهد التركي يتراوح بين الليرة الواحدة والخمس ليرات ، فصار في عهد الاحتلال يتراوح بين ٣٥ و ٥٠ ليرة .

---

(٤) مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد التاسع ـ السنة الخامسة .
(5) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 220.

(٦) مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد التاسع ـ السنة الخامسة .

حاول الانكليز مساعدة الفقراء في بغداد ، ففتحوا ثلاثة مخازن لتوزيع الطحين على الناس بالبطاقات : أحدها في الرصافة ، والثاني في الكرخ ، والثالث في الكاظمية • وكانت تلك أول مرة يشهد الناس فيها نظاما للتموين بالبطاقات • وصار الفقراء يتهافتون على مخازن التوزيع في زحام شديد وتكالب ، وشوهد بعض الاغنياء يتزاحمون معهم • وكانت الشرطة تدفع المتزاحمين لتنظيمهم وتضربهم بالعصا وهم يتصارخون •

كتبت المس بيل فى رسالة لها عقب اعلان الهدنة في شهر تشرين الثاني ١٩١٨ تقول : لست أدري ماذا يفكر أصدقائي المسلمون بعد انتصارنا على الاتراك • أعتقد أنهم يشعرون في أعماق قلوبهم بالارتياح لمراهنتهم على الحصان الرابح ، أما علماء الدين فلابد أنهم يشعرون بالمرارة لما أصاب سيف الاسلام من انكسار ، ولكن الجميع يشاركون في الامل بأننا سوف نعطيهم الرفاه في المستقبل •

ثم تروي المس بيل في هذه المناسبة ماذكره لها البستاني البغدادي الذي يعمل في حديقتها حيث قال لها : « صاحب » في أيام الترك كان هناك رخص في الاسعار ، ولكنا لم يكن لدينا نقود • أما الآن فقد أصبحت الاسعار غالية ، ولكن انظري الى الاجور التي نحصل عليها » • وتعلق المس بيل على كلام هذا الرجل قائلة : « وهكذا أدركوا ان مستوى الاجور قد زاد كثيرا على مستوى تكاليف المعيشة »(٧) •

تظن المس بيل ان ما قاله البستاني لها على سبيل التزلف يمثل رأي الناس جميعا ، وهذا خطأ منها يدل على جهلها بطبيعة البشر ، وبطبيعة العراقيين بوجه خاص • فمن طبيعة الناس انهم اذا نالوا الخير والشر في عهد من العهود تناسوا الخير وركزوا اهتمامهم على الشر وصاروا يجأرون بالشكوى منه • وهذا هو ما حدث فعلا في عهد الاحتلال ، فان اكثر الناس

(7) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 100.

نسوا ضخامة الاجور او الارباح التي صاروا يجنونها وأخذوا يصبون جام غضبهم على الغلاء وعلى من جاء بالغلاء !

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان محصول الضرائب في عهد الاحتلال زاد ثلاثة أضعاف عما كان عليه في العهد التركي كما أشارت اليه جريدة « المانجستر غارديان » البريطانية[٨] • ولا شك ان هذه الزيادة تثير التذمر لدى دافعي الضرائب ، ولا سيما شيوخ العشائر • فهم ينسون الارباح المفرطة التي جنوها بسبب ارتفاع أسعار الحبوب ، بينما هم يتذمرون من زيادة الضرائب عليهم • انهم يعتبرون الارباح رزقا ساقه الله اليهم ، أما الضرائب فهي تؤخذ منهم ظلما واعتسافا •

وهناك ناحية أخرى من التضخم أدت الى زيادة التذمر بين الناس ، هي أن التضخم أغرى التجار أن يزيدوا من استيراد البضائع الاجنبية زيادة مفرطة ظناً منهم ان حالة الازدهار ستدوم لهم • ولما حل عام ١٩٢٠ تبين لهم ان ما استوردوه كان اكثر مما ينبغي، حيث كان السوق متشبعا بالبضائع، كما أن الحكومة أخذت تقلص من نفقاتها على أثر تقليص جيوشها في العراق، فأدى ذلك الى افلاس الكثير من التجار[٩] •

السياسة العشائرية :

ان العداء بين الحكومة والعشائر كان في العهد التركي شديدا وكثيرا ما كانت المعارك الدامية تنشب بينهما ، فيكون النصر للحكومة تارة وللعشائر تارة أخرى • ولهذا سارت الحكومة التركية على سياسة تشجيع النزاع والتنافس بين العشائر لكي لا يتفقوا ضدها ، على طريقة « فرق تسد » • وكان من نتائج هذه السياسة أن كثرت المنازعات والمعارك بين العشائر ،

(٨) هنري فوستر (تكوين العراق) ــ ترجمة عبد المسيح جويدة ــ بغداد ١٩٤٦ ــ ص ١٦٣

(9) Atiyyeh (op. cit.) - P. 222.

واضطرب الأمن ، وشاع قطع الطرق وفرض الاتاوة • ولما قامت الحرب الاولى وتراخت سيطرة الحكومة عن بعض المناطق أصبح المسافرون والتجار مضطرين ان يدفعوا الاتاوة لدى كل مسافة قصيرة يقطعونها والا تعرضوا للنهب أو القتل • ففي منطقة صغيرة على الفرات بالقرب من أم البعرور لايتجاوز طولها العشرين ميلا كانت هناك سبعة مواضع لجباية الاتاوة من السفن(١٠) ، اذ كان كل موضع مخصصا لعشيرة معينة ، وكانت كل عشيرة تفرض الاتاوة لقاء السماح للسفينة بالمرور •

عندما احتل الانكليز العراق ساروا على سياسة أخرى تجاه العشائر، هي سياسة توحيد العشائر بدلا من تشتيتها • وقد اتبعوا في ذلك الطريقة التي اتبعها السر روبرت ساندمان في بلوجستان عام ١٨٧٥ • ومؤدى هذه الطريقة اختيار شيخ واحد في كل منطقة من مناطق العراق ، أو كل عشيرة كبيرة فيه ، وتدعيم هذا الشيخ بالمال وبالنفوذ ، وبالسلاح عند الحاجة ، لكي يكون مسؤولا عن الأمن والنظام في منطقته • وبذا تنشأ منفعة متبادلة بين الانكليز وهذا الشيخ المختار ، فهم من جانبهم يحصرون السلطة في يده ، ويفضلونه على منافسيه في المعاملة ويخففون عنه عبء الضرائب ، وهو من جانبه يقوم بتنفيذ ما يأمرونه به ويحمي مصالحهم(١١) •

ان هذه السياسة العشائرية أفادت الانكليز من ناحية وأضرت بهم من ناحية أخرى • فهي وطدت سيطرتهم على الريف العراقي ، وزادت من الانتاج الزراعي ، انما هي من الناحية الاخرى جعلتهم مكروهين من قبل عدد كبير من شيوخ العشائر • فهم قد أرضوا بهذه السياسة شيخا واحدا في كل منطقة ، بينما هم أغضبوا الكثيرين فيها • فليس من الهين على شيوخ

---

(10) Lyell (Ins and Outs of Mesopotamia) - London 1923 - P. 221 - 222.

(١١) زكي صالح (مقدمة في دراسة العراق المعاصر) ـ بغداد ١٩٥٣ ـ ص ١٥ •

المنطقة أن يروا واحدا منهم قد أصبح السيد المطلق فيها يأمر وينهى من غير رادع • ولا بد لهم من أن يتساءلوا ممتعضين : لماذا فُضّل هذا الرجـــل عليهم ، وبأي شيء هو أحسن منهم ؟!

ومما زاد في الأمر سوءاً ان الانكليز في اختيارهم بعض الشيوخ لـم يراعوا القواعد المتعارف عليها في وراثة المشيخة • فالرئاسة العامة في العشيرة الكبيرة تنحصر حسب العرف العشائري في سـلالة الرئيس الاكبر ، ولا تذهب الى أخوته أو أبنائهم الا نادرا ، ولكن الانكليز اختاروا للرئاسة العامة من أبدى لهم امارات الصداقة والولاء ، أو كانت له سابقة اتصال بهم في العهد التركي ، بغض النظر عن مقامه الحقيقي في عشيرته •

ولقد اتضح للانكليز ضرر سياستهم هذه عند اندلاع ثورة العشرين• يقول آيرلاند : ان الكثيرين من الشيوخ الذين شاركوا في الثورة كانـت خصومتهم موجهة نحو الشيوخ المقربين الى الانكليز أكثر مما كانت موجهة نحو الانكليز أنفسهم ، فهم قد وجدوا في الثورة أملا يرفع عنهم كابوس أولئك الشيوخ وكابوس الحكومة التي تؤيدهم[١٢] •

العدالة المكروهة :

كان بعض الحكام البريطانيين يفتخرون بأنهم يتوخون العدالة والمساواة في أحكامهم فلا يفرقون بين الصغير والكبير أو بين الرئيس والمرؤوس • يقول الكابتن مان الذى كان معاون حاكم سياسي في أم البعرور في رسالة إلى صديقة له مؤرخة في ١٨ حزيران ١٩٢٠ : ان الادارة البريطانية أضعفت تعسف الشيوخ الى حد كبير جدا ، فأن أفقر فرد في العشيرة يستطيع الآن ان يقدم عريضة ضد شيخه لقاء فلوس قليلة وهو واثق ان شكواه سيُنظر

(١٢) آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٩١ •

فيها ، ان الفلاحين لاينظرون الآن الى شيوخهم كما كانوا ينظرون اليهم في الماضي(١٣) .

كان الانكليز يظنون ان هذه السياسة تؤدي الى زيادة حب الناس لهم ، وما دروا أنها قد تؤدي أحيانا الى عكس ما يظنون . وقد أدرك الاتراك ذلك منذ زمن قديم فكانوا يتحيزون في أحكامهم نحو رئيس العشيرة لانهم يعلمون أن رضا رئيس العشيرة عنهم أنفع لهم من رضا أفرادها الصغار . فاذا غضب الرئيس عليهم غضبت العشيرة كلها معه . أما الفرد الصغير فلا يؤثر غضبه الا ضمن نطاق محدود .

يقول محمد طاهر العمري في هذا الشأن : ان الحكام البريطانيين كانوا يعتقدون ان الملاكين يظلمون الفلاحين وأهل القرى الذين يعملون في أراضيهم ، فكانوا يسمعون شكوى الفلاحين دون ان يهتموا بأقوال الملاكين، مع العلم ان الفلاحين كثيرا ما كانوا يظلمون الملاكين ويغصبون حقوقهم . ولهذا صارت طبقة الملاكين في مقدمة المستائين من الحكم الانكليزي ، بينما لانجد أحدا من الفلاحين أو من الطبقتين السفلى والوسطى راضيا عن هذه الاحوال(١٤) .

رعونة بعض الحكام :

ان الحكام السياسيين ومعاونيهم الذين تولوا مناصب الحكم في ألوية العراق وأقضيته كانوا من الضباط الشبان ، فكان معظمهم برتبة « ميجر » او « كابتن » أي رائد او نقيب . ولم يكن سوى القليل منهم من اجتاز الاربعين من عمره ، وكان الكثيرون منهم يقل سنهم عن الثلاثين(١٥) .

---

(18) Mann (Administrator In The Making) - London 1921 - P. 286 - 287.

(١٤) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ٦ـ٧ .
(١٥) آيرلاند (المصدر السابق) — ص ١٩٤ .

لانكر ان بعض هؤلاء الشبان كانوا مؤدبين مجاملين ، ولكن البعض الآخر منهم كانوا على درجة غير قليلة من الرعونة او الفظاظة • ويجب أن لاننسى أن بعضهم كانوا قبل مجيئهم الى العراق يعملون فى الهند وقــد اعتادوا هناك على اسلوب في معاملة الرعية يلائم طبيعة المجتمع الهندي انماهو لا يلائم طبيعة المجتمع العراقي • ومن يقرأ ما كتبه أحدهم وهو الكابتن لايل يجد واضحا أنه وأمثاله كانوا يؤمنون بما يسمونه « رسالة الرجل الابيض » في تمدين الشعوب ، فالعراقيون في نظرهم متوحشون وهم في حاجة الى أن يحكمهم البريطانيون مائة سنة على الاقل لكي يتعلموا كيف يحــكمون انفسهم(١٦) •

تروى عن هؤلاء الحكام قصتان متشابهتان لهما دلالة في هذا الشأن ، احداهما حدثت في بعقوبة والثانية في عفك • وخلاصة القصة الاولى كمـا رواها طالب مشتاق في مذكراته : أن أحد شيوخ العشائر كان جالسا ذات يوم عند الحاكم السياسي في بعقوبة ، وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث دخل كلب الحاكم الى الغرفة واقترب من الشيخ وأخذ يتشمم طرف عباءته ، فوثب الشيخ مذعورا وصاح : « عوذة ، عوذة ! » فاستغرب الحاكم من ذلك وسأل الشيخ : « ماذا جرى ؟ لماذا جفلت ؟ انه كلب مؤدب لايؤذي أحدا بحضوري » • فأجابه الشيخ : « أنا لست بخائف منه ، ولكنه نجس ياحضرة الصاحب ••• » • فازداد استغراب الحاكم وصاح في وجه الشيخ : « لا ، لا ، هذا ليس نجس ، أنه أنظف منك ••• »(١٧) •

أما القصة الثانية فقد رواها لي عبود الهيمص ، وخلاصتها ان صگبان أبو جاسم رئيس عشيرة البدير كان جالسا في أحد الايام عند الكابتن ويب

---

(16) Lyell (op. cit.).

(١٧) طالب مشتاق (أوراق أيامي) ـ بيروت ١٩٦٨ ـ ج١ ص ٩١ •

حاكم عفك ، فدخل الى الغرفة كلب ويب واقترب من صگبان وصار يتشمم طرف عباءته ، فانتهره صگبان وأبعده بخشونة ولما سأله ويب عن سبب هذه الخشونة أجابه : « انه نجس » ، فرد ويب عليه قائلا « انه أنظف منك لاني أغسله بالصابون في كل يوم مرتين » • فغضب صگبان من هذا القول غضبا شديدا ونهض يريد الخروج وهم يشتم ويب قائلا : « ألعن أبوك وأبو الانكريز كلهم ! تريد تمسيجر بجعبي ! » • ولم يتحمل ويب هذه الاهانة منه وأمر بتوقيفه • ولكن القصة أصبحت من بعد ذلك متداولة على افواه الناس ، واتخذها خصوم صگبان نبزاً له ، وقال شاعرهم في ذمه بيتاً اشتهر بين العشائر هو : « خل چلبه ويب تلگك شبيه » •

يبدو ان بعض الحكام البريطانيين لم يكونوا يدركون مغبة بعض العبارات التي يخاطبون بها شيوخ العشائر ، أو لعلهم كانوا لطيشهم لايهتمون بذلك • فالكلب لديهم حيوان عزيز مدلل ، وهم لايدرون ان من ابشع الشتائم التى تُوجه الى الفرد العراقي أن يقال له « كلب » أو « ابن كلب »•

ان الفرد العراقي بوجه عام ، والفرد العشائري بوجه خاص ، يعتز بكرامته الشخصية اعتزازا مفرطا ، وهو لايتردد ان يجازف بحياته ويتعرض للموت ثأرا لكرامته • وتلك احدى القيم التي ورثها الفرد العراقي من البداوة • وقد كان الحكام الاتراك يعرفون ذلك فيه ويدارونه ، خصوصا في معاملة شيوخ العشائر • فهم كانوا يعلمون ان الشيخ قد يعلن العصيان عليهم لمجرد اهانة تُوجه اليه • ان الاهانة في المجتمع العشائري تصم بالعار الرجل وأولاده من بعده كما تصم عشيرته أيضا •

الميجر ديلي :

في رأي الجنرال هالدين ان المعاملة الفظة التى كان الحكام البريطانيون يعاملون بها العشائر ، وقلة الخبرة في الحكم لديهم ، كانت من أهم أسباب

ثورة العشرين[١٨] . ولكن المس بيل لاتوافق هالدين على رأيه هـــذا ، وهي تقول ان هذا الرأي لايصدق الا على اثنين من الحـــكام فقط[١٩] ، أحدهما الميجر ديلي الذي كان يحكم الديوانية ، والثاني الكولونيل ليجمن الذي كان يحكم الموصل ثم تحول الى الرمادي .

تعترف المس بيل ان الميجر ديلي قد ساعد بمعاملته الفظة على اشعال نار الثورة[٢٠] . وقد أيد ويلسون هذا الرأي في ديلي من بعض الوجوه ، فقد كتب في رسالة له مؤرخة في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ يقول مانصه : « ان ديلي يسبب لي بعض القلق ، فهو قدير للغاية ولكنه صلب وصلابته أكثر ممـا يتحملها العرب الذين هم في حاجة الى معاملة أقل عدالة واكثر وداً »[٢١].

الواقع ان القصص التي تروى عن فظاظة ديلي كثيرة ، وهي لاتخلو من مبالغة طبعا ، غير أنها لاتخلو من حق أيضا . يروي فريق المزهر الفرعون : ان ديلي أصدر أوامره بأن كل خيال يأتي الى الديوانية يجب أن يترجل عن ظهر حصانه قبل وصوله الى البلدة بخمسمائة متر ، وان يخلع عقاله ويسير مشيا على الاقدام . وقد غضب ديلي مرة على أحد رؤساء عفك فحكم عليه بغرامة مقدارها ٢٥ كيلو من الروبيات ، فاضطر الرجل أن يذهب الى السوق ويأتي بكيس الروبيات يحمله على كتفه . وكان ديلي اذا استدعى اليـــه بعض رؤساء العشائر الكبار لامر من الامور تركهم ينتظرون مقابلته يوما او عدة أيام ، واذا سمح لاحدهم أخيرا بالدخول عليه تركه واقفا بينما هـــو ينظر في الاوراق التي بين يديه ، ثم يرفع عينه متسائلا : « انت شاسمك ؟

---

(18) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 - P. 20 - 21.

(19) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 168.

(20) Loc. cit.

(21) Atiyyah (op. cit.) - P. 348.

لويش جاي ؟» (٢٢) •

اتبع ديلي في ادارة منطقته نظاما شديدا جدا لم يكن الناس قد ألفوه من قبل • فهو مثلا قد منع التبول والتغوط في طرقات الديوانية ، وفرض الغرامة على من يخالف أمره • حدثني مكي السيد جاسم : ان رجلا معمما من الذين يحترفون قراءة التعزية الحسينية كان يعيش في الديوانية في تلك الايام اسمه الشيخ هادي ، وكانت له حديقة صغيرة ملاصقة لبيته لها سياج منخفض • وحدث في أحد الايام ان ديلي مر بالقرب من الحديقة راكبا حصانه ، فشاهد الشيخ هادى يتبول في الحديقة ، فلما عاد الى دائرته أرسل حاجبه يستدعي اليه الشيخ هادي ، ولما دخل الشيخ عليه قال له معنفا : « أنت شيخ هادى ليش تصير شيخ مطي » ، ثم فرض عليه غرامة قدرها عشر روبيات ، فدفع الشيخ الغرامة صاغرا •

ومن الجدير بالذكر ان الميجر ديلي نُقل بعد انتهاء الثورة الـى البحرين ، ولكنه لم يترك عادته القديمة حيث صار يعامل الناس هناك بمثل ماكان يعاملهم في العراق • وقد زار أمين الريحاني البحرين في عام ١٩٢٢، بعد زيارته للعراق ، فكتب يصف ديلي بأنه من الذين يسودون صحيفة بريطانيا في الشرق، ومن الضباط الذين لايصلحون لغير الخدمة العسكرية، اذ هم لا يفهمون العرب ولا يحبونهم ولا يعطفون أقـل العطف على قضيتهم • ويذكر الريحاني أنه عندما كان في العراق حدثه أحد الموظفين البريطانيين عن ديلي وسوء طريقته ، فلما ذهب الى البحرين تحققت لديه صحة ما قاله هذا الموظف البريطاني ، حيث سمع الناس يتحدثون عنـه ، بما فيهم الوطني والاجنبي والصغير والكبير ، وكلهم مجمعون على أن ديلي كان يقاوم كل فكرة اصلاح في البحرين غير التى تكون له فيها الكلمـة

---

(٢٢) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغـداد ١٩٥٢ ـ ص ٤٥٥ •

الاولى والاخيرة ، ولا يرى حقا في غير القوة ولا عدلا في غير سياسة العسف والاستبداد[٢٣] . ومما يلفت النظر ان الريحاني كان قد ذكر اسم ديلي صراحة في الطبعة الاولى من كتابه « ملوك العرب » ، ولكنه حذف الاسم في الطبعة الثانية معتذرا بان الحكومة البريطانية قد عينت رجلا آخر في البحرين بدلا عنه ، فانتفى الغرض من ذكر اسمه .

الكولونيل ليجمن :

لايقل الكولونيل ليجمن عن زميله ديلي في الفظاظة ، وربما زاد عليه في حدة الطبع وسرعة الغضب . يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عن اول مقابلة له مع ليجمن وذلك في ١٢ كانون الاول ١٩١٨ ، وكان القصاب يومذاك قائمقاما منّ قبل الاتراك في قضاء الزيبار . وقد وصل ليجمن الى مركز القضاء ومعه ١٥ خيالا من الجنود الانكليز ، ولما ترجل عن حصانه قال للقصاب : « امسك حصاني » . فرفض القصاب أن يفعل ذلك ، فوكزه ليجمن بالعصا على ظهره وقال له : « ياخائن » . فصاح القصاب في وجهه : « اني لست خائنا ، اني القائمقام » . فقال ليجمن : « كلكم خونة » . ويقول القصاب : ان ليجمن عند اجتماعه به في المرة الثانية اعتذر له عما بدر منه وكلفه بأن يبقى قائمقاما في القضاء[٢٤] .

تصف المس بيل ليجمن بان الناس كانوا يبغضونه بعمق ، وتروي عن صديقها « فتوح » أنه كان متأكدا من ان ليجمن سوف يُقتل ، وهي قد أخبرت ويلسون بذلك[٢٥] .

لقد قُتل ليجمن في ١٢ آب ١٩٢٠ على نحو ما تنبأ به فتوح ، فقد

---

(٢٣) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت ١٩٥١ ـ ج٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢٤) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) ـ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(25) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 168.

وجه الى ضاري شيخ زوبع اهانة لم يتحملها فأوما الى ابنه أن يقتله ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم •

وتذكر المس بيل ان ليجمن كان قد وجه الاهانة كذلك الى عجيل الياور شيخ شمر ، مما دفع الشيخ عجيل أن ينضم الى الثورة على الانكليز بعد ماكان مواليا لهم • كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢١ آب ١٩٢١ ـ اي بعد مرور سنة على الثورة ـ تقول : ان عجيل الياور زارها عدة مرات ، وقد سألته ذات مرة عن السبب الذي جعله ينضم الى الثورة ، فكان جوابه ان السبب هو اهانة ليجمن له ، وذكر لها كيف ان ليجمن استدعاه الى دائرته في الموصل ، ولما اراد الكلام أمره ليجمن بالسكوت وقال له انه يشبه المرأة ، وانه ـ أي ليجمن ـ سوف لايعترف له بأية رئاسة في عشيرته • ثم قال عجيل للمس بيل : « خاتون ، انا شيخ عرب ، وقد عدتُ الى عشيرتي ، وماذا يمكن ان أفعل غير ذلك ؟ » • وتعلق المس بيل على هذا الجواب قائلة : « اني صدّقت بما قال ، وهذا هو الكولونيل ليجمن بالضبط »[٢٦] •

(26) Ibid vol. 2, P. 237.

الفصل الثالث

دور الموجهين

ان للموجهين تأثيرا كبيرا جدا على الجماهير من الناحية السياسية ، ففي مقدورهم اثارة الجماهير على السلطة ، وفى مقدورهم تهدئتهم نحوها. ونقصد بالموجهين اولئك الذين يملكون زمام توعية الجماهير وتلقينهم عن طريق وسائل الاعلام المختلفة ، او عن طريق الاشاعات وأحاديث المجالس وغيرها ، ويمكن أن نعد منهم : رجال الدين والوعاظ والخطباء والشعراء والمؤلفين والكتاب والمعلمين والقصاصين والمنكتين وكل ذي مقدرة على تنميق الكلام . وقد أدرك السلاطين القدامى أهمية الموجهين ، ولاسيما رجال الدين والشعراء والمؤلفين ، فكانوا يقربونهم ويبذلون لهم العطاء والجوائز المغرية ، فنشأت بذلك منفعة متبادلة بين الفريقين : أولئك يبذلون الاموال ، وهؤلاء يدعون للسلطان بدوام البقاء ، ويعدونه ظل الله في الارض ، وينشدون فى مدحه القصائد « العصماء » !

عندما احتل الانكليز بغداد في آذار ١٩١٧ حاولوا بكل جهدهم اجتذاب الموجهين اليهم ، وبذلوا لهم الاموال . فنجحوا في بعضهم وأخفقوا في البعض الآخر . فمن أوائل الاعمال التي قاموا بها في هذا السبيل أنهم أصدروا جريدة « العرب » وناطوا تحريرها بالباحث اللغوي المعروف الأب انستاس ماري الكرملي ، وخصصوا الاجور المغرية لكل شاعر أو كاتب ينشر فيها شيئاً . فأقبل الشعراء والكتاب المعروفون ينظمون وينشرون لها ، ولكنهم كانوا ينشرون نتاج قرائحهم بتواقيع مستعارة لأنهم كانوا يخشون من عودة الاتراك الى بغداد فينتقمون منهم . كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٧ تموز ١٩١٧ تقول : انها حائرة من وضع الادباء الذين هم الآن من أعز أصدقائها ، فهم كانوا في عهد الاتراك يكتبون

المقالات العنيفة ضد الانكليز ، وهم الآن يكتبون المقالات العنيفة ضد الاتراك، وهي لاتجد تفسيرا مقنعا لذلك ، فالكلمات عند الشرقيين هي مجرد ألفاظ لاتعني شيئا ، فقد يقولون اليوم شيئاً وينقضونه غدا ، وهم لايتركون هـذه العادة أبداً •[1]

المشكلة التي واجهها الانكليز في عهد الاحتلال هي أنهم لم يتمكنوا من اجتذاب فئتين من الموجهين هما : الملائية والافندية • وهؤلاء كانـوا أقدر على اثارة الجماهير من الشعراء والكتاب •

الافنديـة :

نعني بالافندية الاشخاص الذين كانوا موظفين أو ضباطا في العهـد التركي •فهم في الغالب فقدوا مناصبهم في عهد الاحتلال ، وصـار الكثير منهم بلا مورد ، واضطروا الى رهن بيوتهم أو بيع ما يملكون ، كما أصبحوا من رواد المقاهي يبثون فيها الدعايات والاشاعات المناوئة للاحتلال ويبشرون الناس بقرب عودة الاتراك الى العراق •

أعطتنا المس بيل وصفا للافندية في عهد الاحتلال حيث قالت مانصه : « ••• كانت شروط الهدنة التي عُقدت مع القائد التركي تنص على ان جميع الاشخاص الذين ولدوا في البلاد العربية وكانوا فى خدمة الدولة العثمانية ، سواء أكانوا مدنيين أم عسكريين ، يجب أن يُسمح لهم بالعودة الى أوطانهم • وكان عدد من هؤلاء رجالا رافقوا الاتراك عند تقهقرهم أمام جيوش الجنرال مود المظفرة بمحض اختيارهم، وكان المفروض أن لايحمل هؤلاء شعورا ميالا الى استمرار السيطرة البريطانية مهما كان مقـــدار التساهل الذي تبديه في الحكم » • يضاف الى ذلك أن جهاز الادارة التركي كان مبنياً على تعدد الوظائف الصغيرة التى كانت تستوعب جماعة كبيرة من الموظفين الصغار نسبيا الذين لا يليقون لها مطلقا • وكان عدد من هؤلاء

---

(1) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 62-63.

قد فر مع الجيش التركي بعد احتلال بغداد ، فاعطوا وظائف من دون عمل في ولاية الموصل ريثما يتم استرداد العاصمة • ولذلك وجدنا الدوائر العامة في الموصل مشحونة بأشخاص يتقاضون رواتب حكومية من غير أن تكون لهم وظائف معروفة • وعندما ظلوا عاطلين عن العمل ، واكثرهم غير لائق للوظيفة ، عادوا الى بغداد فكوّنوا نواة للتذمر والعداء »[٢] •

الواقع ان الافندية كانت لهم مقدرة غير قليلة على اثارة الناس واشاعة التذمر فيهم ، فهم كانوا يطالعون الصحف ولهم اطلاع سابق على شؤون السياسة العالمية وعلى بعض المعلومات الجغرافية والتاريخية • لاشك ان معلوماتهم كانت سطحية محدودة ولكنها كانت تُعد في ذلك الزمان علماً عظيماً بالمقارنة الى ما كانت عليه جماهير الناس من أمية مستفحلة • ولهذا كان الناس يفتحون أفواههم اعجابا عندما يتحدث الافندي اليهم عن الثورة الفرنسية ونابليون ، أو عن جبال الألب ونهر الدانوب ، أو غير ذلك من المعلومات الحديثة • وقد استغل الافندية هذه الميزة التي يملكونها فأخذوا يصولون ويجولون في بث الدعاية المناوئة للاحتلال وفي تحريض الناس على الثورة •

كان الانكليز يعلمون بما يجري في المقاهي من نشاط للافندية معادي لهم • ومن يقرأ رسائل المس بيل يجد أنها كانت كثيرة الاهتمام بأحاديث المقاهي ، فقد كان لها صديق « عربنجي » من أهل حلب اسمه « فتوح » يرتاد المقاهي وينقل للمس بيل مايدور فيها من أحاديث مثيرة •

يبدو على أي حال ان الانكليز لم يكونوا يدركون مبلغ الضرر الذي سيصيبهم على أيدي الافندية ، فهم كانوا ينظرون الى الافندية نظرة ازدراء واستخفاف ، ولهذا تركوهم يفعلون ما يشاؤون • ولم يكتشف

---

(٢) المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ •

الانكليز مغبة خطئهم هذا الا بعد انتهاء الثورة ، حيث صاروا يغدقون عليهم الوظائف ، فاسكتوهم • لقد كان الواجب عليهم أن يفعلوا ذلك منذ بداية الاحتلال ، ولو فعلوه لازالوا به عاملا مهما من عوامل الثورة •

الملائية :

نعني بالملائية رجال الدين ، وهم فريقان : شيعة وسنيون • وقد أشرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب الى بعض الفروق الاجتماعية بين هذين الفريقين ، فالملائي السني يشبه أن يكون موظفا حكوميا اذ هو يعتمد في معاشه على الحكومة ، ويُنقل من مكان الى آخر بأمر منها ، وقد تُزاد وظائفه ومخصصاته أو تقلل حسب رغبة الحكام أو مبلغ رضائهم عنه • أما الملائي الشيعي فهو يستمد معاشه من جماهير الناس ، وكلما ازداد اقبال الناس عليه واعجابهم به ازدادت بذلك موارده • وهو لذلك يكون وثيق الصلة بالعامة يتحسس بأحاسيسهم ويميل الى الوقوف الى جانبهم ضد حكامهم • انه قد يضطر الى مجاراة العامة في خرافاتهم وعاداتهم الموروثة ولكنه في الوقت نفسه لايسمح بوقوع الظلم عليهم[٣] •

حاول الانكليز في عهد الاحتلال اجتذاب الملائية اليهم بكل وسيلة ممكنة ، فنجحوا مع السنيين نجاحا غير قليل ، ولكنهم اخفقوا مع الشيعة • يعزو ويلسون في مذكراته عداء الملائية الشيعة للانكليز الى نفورهم من أية حكومة منظمة ، فهو يقول في ذلك : « ان ملائية كربلا والنجف والكاظمية هم باستثناء البعض منهم يعادون جهرا أية حكومة دنيوية منظمة مهما كان نوعها ••• انهم يدركون بجلاء أن وجود ادارة قديرة ومنظمة تنظيما جيدا يؤدي الى تحسين معيشة الجماهير ، وان هذا التحسين مع التربية الحرة سوف يؤدي خلال مدة غير طويلة الى هدم نفوذهم والى تهديد ما يحلمون به من اقامة حكومة دينية• فهم لا يملكون من النظر البعيد ما يجعلهم يدركون

---

(٣) علي الوردي (لمحات اجتماعية) ــ بغداد ١٩٧٢ ــ ج٣ ص ٨١ •

ان هذا هو الاتجاه العام الذي يشمل العالم كله والذي لا مفر منه. انهم حالفوا الحركة الوطنية في أشد صورها رجعية ، وأيدوها بنفوذهم في أوساط الجماهير الجاهلة . فقد وجدوا فرصتهم في الضرب على أوتار التعصب الديني .... »[٤] .

اني أخالف ويلسون في رأيه هذا ، فالملائي الشيعي لايملك مثل هذا التفكير المستقبلي الذي ينسبه ويلسون اليه . ان الملائي هو كغيره من الناس صنيعة الظروف التي يعيش فيها ، وهو لاينظر في الأمور الا من خلال المفاهيم والقيم السائدة في محيطه .

حاول الانكليز اجتذاب الملائية اليهم عن طريق التحبب اليهم ومنحهم مبالغ كبيرة من المال سرا ، ولكنهم وجدوا ان معظم الملائية رفضوا قبول تلك المبالغ ، ولم يقبلها منهم سوى نفر قليل هم الذين كان العامة يحتقرونهم ويطلقون عليهم اسم « علماء الحفيز »[٥] .

يقول الشيخ رضا الشبيبي في مذكراته حول مجيء السر رونالد ستورز وأصحابه الى النجف في أيار ١٩١٧ ما نصه : « وقد حمل هؤلاء قدرا جسيما من الدراهم ناوين توزيعه على جماعة المعممين المتصدرين في النجف ، ولكنهم كانوا يرسلون بعض أعوانهم الى القوم طالبين بالحاح أن يزورهم المعممون ، ولو بأن يتنازل الانكليز الى زيارتهم أولا ، فما أجاب أحد من المعممين الى ذلك ، ولا وصل اليهم أحد ... وكانت معهم أوراق أرادوا ختمها من المعممين الذين يصطنعونهم ، بعضها في الاوقاف وتعيين الولي عليها وغير هذا ، فلم يتهيأ لهم ما أرادوا... »[٦] .

(4) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, p. 258.

(٥) ان لفظة الحفيز مأخوذة من لفظة أوفيس الانكليزية التي تعني الدائرة الحكومية . وكان العامة يشيرون بهذه اللفظة الى الصلة الوثيقة بين علماء الحفيز والحكومة ، أي أنهم كانوا يعتبرونهم عملاء للحكومة أو جواسيس لها .

(٦) مجلة البلاغ الكاظمية ـ العدد التاسع ـ السنة الخامسة .

ان الملائي يعلم علم اليقين ان قبوله أي مبلغ من الانكليز سوف يؤدي الى هبوط سمعته بين الناس ، ومعنى هذا ان خسارته في الامد البعيد ستكون اكثر جدا من الربح العاجل الذي يجنيه من الانكليز • ومن الجدير بالذكر ان التضخم النقدى الذى حدث في تلك الايام جعل الاموال تنصب بغزارة على الملائية ، فأصبحوا بذلك في غنى عن الاموال «الخبيثة» التي تأتي من الانكليز •

الواقع ان الملائي كان في تلك الايام يشعر بأنه كلما ازداد في ابتعاده عن الانكليز وفي اعلان بغضه لهم ازدادت مكانته بين الناس ارتفاعا وكثر المعجبون به والمقلدون له • ان الاحتقار الذي كان العامة يكنونه لعلماء « الحفيز » جعل معظم الملائية يتجنبون كل ما يُشم منه رائحة التقرب الى الانكليز أو التعاون معهم • ولعلني لا أغالي اذا قلت ان بعض الملائية صاروا يتظاهرون بشدة العداء للانكليز لكي يثبتوا للناس أنهم بعيدون كل البعد عن « الحفيز » ، وأنهم علماء دين حقيقيون لاتغريهم الدنيا بمغرياتها •

ومما يلفت النظر في هذا الصدد ان العامة في الوقت الذي كانوا فيه يحتقرون علماء « الحفيز » كانوا لايحتقرون الرؤساء والوجهاء الذين يتقربون الى الانكليز ، وربما ازدادوا لهم احتراما • فالعامة كانوا يميزون بين رجل الدين وغيره من الناس ، اذكانوا يفترضون في رجل الدين أن يكون منهمكا في أمور دينه وعبادته فلا يدنس نفسه بأقذار الدنيا ، أما غيره من الناس فله حكم آخر •

مما أذكر من أيام طفولتي في الكاظمية أن رئيس بلديتها السيد جعفر عطيفة كان شديد الولاء للانكليز قوي الصلة بهم ، وكثيراً ما كانت المس بيل تزوره في بيته أو في بستانه كما أشارت اليه في رسائلها • وقد لوحظ أن مكانته الاجتماعية كانت تزداد ارتفاعا كلما ازدادت صلته بالانكليز وثوقا • ولكن الناس كانوا فى الوقت نفسه ينبذون أي عالم

ديني يسمعون أن له صلة بالانكليز ولو كانت بريئة • ففي ١٣ آذار ١٩٢٠ قامت المس بيل بزيارة للمجتهد المعروف السيد حسن الصدر في بيت ابنه السيد محمد في الكاظمية ، وكانت زيارة مجاملة جرت فيها أحاديث عابرة عن المكتبات والبلشفية ومناخ سامراء كما ذكرته المس بيل في احدى رسائلها(٧) • ولكن الناس ما كادوا يسمعون بتلك الزيارة حتى صاروا يتقولون عنها الاقاويل ، وانتشرت الاشاعات تقول بان السيد حسن قبض من الانكليز أموالا طائلة • وانتهز الخصوم الفرصة فأطنبوا في ذلك وبالغوا كما هو ديدن الخصوم دائما • وندم السيد حسن على قبوله لتلك الزيارة المنحوسة !

تعاون الافندية والملائية :

حصل في عهد الاحتلال تعاون وثيق بين الافندية والملائية ، وكان لهذا التعاون أثره الكبير في التقارب الطائفي الذي ظهر بوضوح في أيام الثورة • فقد كان من الظواهر الاجتماعية المألوفة في عهد الاحتلال حضور الافندية الى مجالس الملائية ، وتقبيل أيديهم ، والجلوس بين أيديهم باحترام وخشوع • ان الافندية أدركوا ما للملائية من نفوذ قوي وكلمة مسموعة في أوساط العامة ، وشعروا بأنهم يجب أن يتعاونوا مع الملائية لكي تكون دعايتهم المناوئة للاحتلال أشد تأثيرا وأوسع نطاقا •

يحدثنا علي البازركان ــ وهو من أفندية بغداد ــ عن صلاته الوثيقة بعلماء الكاظمية وكثرة زياراته لهم ، فيقول : « والحقيقة انني في تلك الايام كنت كثير التردد على قصبة الكاظمية لزيارة بعض الاخوان أمثال السيد محمد مهدي الصدر نجل حجة الاسلام السيد اسماعيل الصدر وبقية اخوانه الحجة الشيخ عبدالحسين آل ياسين وأنجاله الفضلاء وغيرهم من العلماء والفضلاء • وفي ذات يوم قال لي السيد محمد مهدي

---

(7) Bel' (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - P. 393-394.

الصدر ـ اثر كلمة لي في مجلسهم أحثهم فيه على المطالبة في انهاء الاحتلال وتأسيس حكومة وطنية ـ أن الشيخ محمد رضا نجل المرزا تقي الشيرازي جاء من سامراء أمس الى الكاظمية للاطلاع على الحركة الوطنية في بغداد والكاظمية وقد زاره بعض اخواني فكاشفهم برغبته في الاتصال بزعماء الحركة ودعاتها والقائمين بها والمشرفين على نشاطها ، فقلت للسيد الصدر : سأحاول زيارته غدا . وفي اليوم الثاني استصحبت معي السيد باقر السيد احمد سركشك وذهبنا الى الشيخ محمد رضا نجل آية الله الشيرازي لزيارته ولتزويده بالمعلومات التي جاء من اجلها لمعرفة نواياه فعلمت منه أنه جاء للاطلاع على أعمال البغداديين الوطنية وهي الاجتماعات والقاء الخطب والمطالبة بالاستقلال وانه سيعود الى سامراء ليخبر والده بالأمر . وبعد عشرة أيام قدم الى الكرخ السيد محمد علي بحر العلوم فذهبت لزيارته وقد زودته بمعلومات كافية حول نشاط أهل بغداد ... »[٨]

كان الافندية يلتقطون الاخبار السياسية من الصحف العراقية والخارجية ، أو من بعض المصادر الاخرى التي هم أقدر على الاتصال بها، فيوصلون تلك الأخبار الى الملائية ، ويقوم الملائية من جانبهم بنشرها في اوساط الجماهير بغية اثارتهم على الانكليز .

وهنا يجب أن نذكر أن هذا التعاون بين الافندية والملائية لم يدم بعد الثورة طويلا . فلما تأسست الحكومة العراقية جاء الافندية الى الملائية يرجون منهم أن يتركوا النضال قائلين ان الغاية من النضال قد حصلت وزال السبب الذى كانوا يناضلون من أجله ، ولكن الملائية أبوا ان يستجيبوا لرجاء الافندية . ومن هنا بدأ الخلاف بين الفريقين ، وهو الخلاف الذى انتهى بنفي المجتهدين من العراق في عام ١٩٢٣ ـ كما سنأتي اليه بتفصيل في الجزء القادم من هذا الكتاب .

---

(٨) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

تاثير الوعود البريطانية :

المعروف عن السياسة البريطانية انها أغدقت الوعود الخلابـة على العرب خلال الحرب ، وكان من أشهر تلك الوعود بيان « مود » الذى صدر عقب احتلال بغداد والذى تضمن العبارة المشهورة : « اننا جئناكم محررين لافاتحين » • والواقع ان هذه الوعود لم تكن الا اسلوبا مـــن أساليب الدعاية السياسية التى استخدمتها بريطانيا في الحرب قاصدة بهـا اجتذاب العرب الى جانبها وتنفيرهم من الاتراك • وما درت أن هذه الوعود ستُستخدم سلاحا ضدها بعد الحرب •

كان بعض السياسيين والعسكريين البريطانيين قد أدركوا ما ينتج عن تلك الوعود من عواقبسيئة لهم ، وعارضوا اعلانها، ولكن معارضتهم لم تلق آذانا صاغية ، لان الحكومة البريطانية كانت في أثناء الحرب تريد أن تكسب النصر بأي ثمن ، أي انها كانت كالغريق الذي يتشبث بأي شيء يتيسر له من أجل النجاة ولا يبالي بما يحدث بعد ذلك •

آخر تلك الوعود هو التصريح البريطاني الفرنسي الذي صدر في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ ـ أي بعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة ـ وفيه العبارة التالية : « ان الغاية التي ترمي اليها كل من فرنسا وبريطانيا العظمى في خوض غمار الحرب في الشرق من جراء أطماع المانيا هي تحرير الشعوب التي طالما رزحت تحت أعباء استعباد الاتراك تحريراً تاماً نهائياً ، وتأسيس حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة السكان الاصليين ومحض اختيارهم ••• » •

كان هناك هدفان سياسيان من اصدار هذا التصريح ، أولهما تهدئة السوريين الذين امتعضوا من حركات فرنسا في بيروت ، والثاني احـداث تأثير على الوفـد الامريكي في مؤتمر الصلـح وخاصـة الرئيس ودرو ويلسون(٩) • ومعنى هذا ان بريطانيا عند اصدارها التصريح كانت مهتمة

(9) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 178.

بأمور بعيدة عما يجري في العراق ، وهي بذلك غفلت عما يمكن ان يكون للتصريح من تأثير في داخل العراق •

كتبت المس بيل حول تأثير التصريح على الرأي العام العراقي تقول :

« ان نشر التصريح البريطاني الفرنسي ، مهما يمكن ان تكون له من أهمية سياسية في خارج العراق ، كان ضرورة يؤسف لها في العراق • فمع أنه جاء مكررا للنوايا التي كانت قد اذيعت على العراقيين عند احتلال بغداد فانه تميز عنها بميزة هامة واحدة ، هي أن البيان الاول جاء في وقت كانت مصائر الحرب محفوفة بالشك الى الدرجة القصوى ، ولهذا فقد اعتبره الناس حيلة عسكرية • أما هذا التصريح فقد جاء بعد انتصار الحلفاء ، مما أدى الى تصديق الناس به • لقد كان العراقيون قبل نشر التصريح قد أيقنوا بأن البلاد ستبقى خاضعة للسيطرة البريطانية المباشرة ، وكانوا بوجه عام قانعين بما يمليه عليهم حكم السيف بعد أن شهدوا نجاحنا في الحرب • ولكن التصريح كشف لهم عن احتمالات اخرى كان يُنظر اليها في كل مكان تقريباً بقلق وتلهف ، وأتاح للعناصر التي هي أقل استقرارا من غيرها واكثر تعصبا فرصة للدس السياسي ••• » •

وتعترف المس بيل ان التأثير الذى أحدثه التصريح في الرأي العام العراقي قد حصل بواسطة الافندية • فهي تقول : ان تأثير الافندية المباشر كان فيما يبدو منحصرا في بغداد والكاظمية • غير أن المتطرفين منهم قصدوا بعقوبة والنجف ومنطقة الشامية فكان لهم بعض التأثير فيها • وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : ان تأثير التصريح ازداد شدة حينما نشرت وكالة رويتر أن الشريف فيصل ذهب الى مؤتمر الصلح ممثلا عن الدول العربية(١٠) •

---

(10) Wilson (op. cit.) - vol 2, P. 330.

انا نتفق مع المس بيل في أهمية الدور الذى قام به الافندية في اثارة الجماهير ، ولكن أمرا واحدا غفلت عنه المس بيل في هذا الشأن وكان الاولى بها أن لاتغفل عنه ، هو ان الافندية ماكان في مقدورهم التأثير في الجماهير لو لم يؤيدهم الملائية في ذلك ويعاونوهم فيه • فمن الواضح ان الملائية كانوا أقوى نفوذا في أوساط العامة من الافندية ، ولو كان الافندية يعملون وحدهم في هذا المجال لما كان لهم ذلك التأثير الواسع النطاق •

تقلب الشعراء :

كان بعض الشعراء قد ايدوا الاحتلال الانكليزي في بدايته وأطنبوا في مدحه ، كما أشرنا اليه ، غير أنهم لم يستمروا على ذلك طويلا ، فان اتجاه الرأي العام الذي صار ينمو ضد الاحتلال جعلهم يرون مصلحتهم في مسايرة هذا التيار • فقد وجدوا ان الاجور التي يحصلون عليها من جريدة « العرب » لاتكفي للتعويض عن الخسارة المعنوية التى تصيبهم من جراء مدحهم للاحتلال • ولهذا أخذوا ينظمون القصائد في مدح « الوطن » وفي الشكوى من ظلم الانكليز •

كان الشاعر المشهور جميل صدقي الزهاوي قد ضرب الرقم القياسي في هذا التقلب • فهو كان قد مدح الانكليز قبل الحرب ، وعندما قامت الحرب أخذ يذمهم ويمدح الاتراك ، وفي عهد الاحتلال صار يذم الاتراك ويمدح الانكليز ، ولما نشبت الثورة نظم قصيدة في رثاء شهداء الرميثة ، ولكنه عند مجيء كوكس الى العراق نظم قصيدة يرحب به فيها ويذم الثورة ذماً قبيحاً[١١] •

---

(١١) يصح القول ان معروف الرصافي لم يكن أقل من زميله الزهاوي تقلبا، غير أنه كان في تلك الايام خارج العراق • ولما عاد الى العراق سار في تقلبه سيرة زميله • وسنأتي الى ذلك بتفصيل في جزء قادم من هذا الكتاب •

ليس هذا بالامر العجيب ، فهو ديدن الشعراء منذ بداية أمرهم • ان الشاعر كصاحب أية مهنة يريد أن يكسب رزقه بها او ينال المكانـــــة الاجتماعية • ولا لوم عليه في ذلك اذ هو بشر يريد أن يعيش • وليس من الانصاف أن تتوقع منه خلاف ما تتوقعه من غيره من البشر • فالناس جميعا يركضون وراء الدنيا ، ولا يُلام الشاعر حين يركض معهم • ولكن الذي يستحق اللوم هم اولئك المتحذلقون الذين يصفون الشاعر بأنه شمعـــة تحترق لكي ينير السبيل للناس ، أو أنه الانسان المثالي الذى يذوب في سبيل الحق والحقيقة •

وهنا يجب أن لاننسى ان الشعراء على الرغم من تقلبهم لهم أثرهم الذي لايستهان به في أحداث التاريخ سلبا وايجابا • فهم في عهد السلاطين يخدّرون الشـعوب بقصائدهم ، وهـم في عهـد الشعوب يثيرونهـا على السلاطين • وقد رأينا ذلك واضحا في ثورة العشرين اذ ان الشعراء ساهموا فيها مساهمة فعالة ، فالقصائد الثورية التي أُلقيت في أيام الثورة كانـت كأنها القنابل موجهة على الانكليز ــ كما سنأتي اليه في حينه •

الفصل الرابع

دعايات من الخارج

في الوقت الذى كان فيه الافندية والملائية دائبين في بث الدعاية المناوئة للانكليز كانت هناك دعايات مناوئة أخرى تأتي الى العراق من الخارج فتتلاقح معها وينمي بعضها بعضاً •

من الجدير بالذكر أن الاقطار المجاورة للعراق كانت في تلك الفترة زاخرة بالثورات أو الاحداث المثيرة ، ولهذا كانت منبع دعايات مناوئة تأتي الى العراق عن طريق الصحف والمنشورات المهربة ، او المسافرين والزوار ، أو الدعاة المتسللين أو غيرهم •

الدعاية من سوريا :

أهم تلك الاحداث من حيث تأثيرها على العراق هي التي حدثت في سوريا ، فقد كانت في سوريا حينذاك حكومة عربية يرأسها الامير فيصل بن الحسين ويتولى العراقيون الكثير من مناصبها العالية • وكان هؤلاء العراقيون يشعرون ان ليس لهم مستقبل في سوريا لان السوريين بدأوا ينادون بمبدأ « سوريا للسوريين » فأخذ العراقيون يوجهون أنظارهم نحو وطنهم العراق يسعون للحصول على استقلاله ونيل المناصب فيه ، وكان فيصل يؤيدهم في مسعاهم هذا ويساعدهم بالمال •

صارت جهود العراقيين في سوريا تتسلل الى العراق بوسائل وصور مختلفة ، وكان الكثير من الافندية في العراق يعاونونهم في ذلك • وأخذت الاشاعات تنتشر في العراق وهي تؤكد على قوة العرب في الحجاز وسوريا، وضخامة الجيوش التي لديهم ، وأنهم قادرون على اخراج الانكليز من العراق والحصول على استقلاله •

ومما يلفت النظر ان هذه الاشاعات كانت تركز على دور الولايات المتحدة ورئيسها ودرو ويلسون في مساعدة العرب في مؤتمر الصلح ، وتصف الرئيس ويلسون بانه نصير الشعوب المستعبدة[1] . ولما ذهب فيصل الى مؤتمر الصلح في فرساي ، أخذت الاشاعات تؤكد على ان الرئيس ويلسون سوف يقف الى جانب فيصل في المؤتمر ، وأنه اكبر نصير له على تحقيق مطاليب العرب العادلة . ونشطت في العراق من جراء ذلك حركة سرية لتنظيم المضابط وارسالها الى فيصل تخوله المطالبة بحقوق العراق نيابة عنهم[2] .

كان حزب العهد في سوريا يصدر جريدة اسمها « العقاب » تتميز باسلوبها الحماسي المثير ومبالغاتها في أخبار العرب وانتصاراتهم ، وكانت هذه الجريدة تُهرب الى العراق مع بعض الجرائد السورية ، فتسد حاجة العراقيين الى الاخبار المثيرة .

لم يكن في العراق آنذاك سوى بعض الجرائد التي تصدرها السلطة، ولهذا كان العراقيون لايميلون الى قراءتها ، بل يميلون الى قراءة جريدة « العقاب » والجرائد السورية الاخرى . واصبحت قراءة تلك الجرائد في المجالس والمضائف من الامور المألوفة لدى الناس ، لاسيما في الفرات الاوسط ، حيث يقوم « الملاّ » بقراءة الجريدة فيصغي اليه الحاضرون ويعلقون عليها .

ذكرت التقارير البريطانية السرية : ان الرسائل كانت متبادلة بين العراقيين في سوريا وزعماء العتبات المقدسة ، وان الجرائد والمنشورات كانت تُهرب بانتظام من سوريا الى العراق عن طريق النجف ، كما وصلت

---

(١) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج٣ ص ٩٨ .

(٢) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٧٦ .

رسائل من حلب الى الشيخ مهدي الخالصي والسيد محمد مهدي الصدر[٣].

وحينما نشبت الثورة المصرية في آذار ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول جاءت جريدة « العقاب » من سوريا وهي طافحة بأخبار تلك الثورة وأخبار زعيمها وكيف جرى فيها تخريب السكك الحديدية والمحطات ، وكيف كان المصريون يهاجمون مدافع الانكليز بالعصا والحجارة . فصارت هذه الاخبار متداولة بين الناس يلهجون بها في كل مكان . يقول مهدي البصير: ان أخبار سعد زغلول والشعب المصري من جهة ، وأخبار الملك حسين وأنجاله في الحجاز وسوريا من الجهة الاخرى ، كانت حديث الخاص والعام في العراق وقلما خلا مجلس من ذكرها[٤] .

بلغت الدعاية الآتية من سوريا قمتها في آذار ١٩٢٠ . ففي ٨ من هذا الشهر بويع فيصل في دمشق ملكا على سوريا ، وقد انتهز العراقيون الذين كانوا فى دمشق تلك الفرصة فاجتمعوا وأعلنوا استقلال العراق وبايعوا الامير عبدالله ملكا عليه . ثم أرسلوا مع سعاة من البدو رسائل الى علماء الفرات الاوسط وشيوخ عشائره يخبرونهم بهذا النبأ . كما أرسلوا اليهم العلم ذا الالوان الاربعة الذى اتخذوه شعارا للعراق المستقل ، فكتب هؤلاء العلماء والشيوخ أجوبة لتلك الرسائل فيها تهنئة لفيصل وعبدالله على انتخابهما، وفيها ترحيب بعبدالله من رعاياه الموالين ، ولكن هذه الاجوبة وقعت فى يد السلطة[٥] .

يعتقد أمين الريحاني ان الدعاية المناوئة للانكليز التى جـاءت الى العراق من سوريا كان يؤيدها الضباط الانكليز الذين كانوا مستخدمين

(8) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1978 - P. 329.

(٤) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ص ٧٧ .

(٥) آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ٢٠١ .

لدى الحكومة السورية ، كما انها كانت مدعومة بالاموال الانكليزية •
فهو يقول حول ما جرى في العراق في عام ١٩٢٠ : « فقد قام العراقيون •••
ينادون بالاستقلال ويطالبون به ، وكان يحرضهم على ذلك الضباط
العراقيون فى الجيش العربي في سوريا ، ومن عاونهم من الموظفين الانكليز
في الحكومة السورية ، أولئك الذين كانوا ناقمين على اخوانهم في العراق
« خطتهم الهندية » في ادارة شؤون البلاد • فالضباط العراقيون اذن ،
والموظفون الانكليز في الشام ، شجعوا العراقيين في نهضتهم ، وبثوا تلك
الدعاية ••• وقد كانت هذه الدعاية من الوجهة الانكليزية جد محزنة ،
اذ أن الفريق الواحد من سياسيي الانكليز لم يكن يعلم بما يفعل الفريق
الآخر • بل كانوا فى حقيقة الحال يحملون بعضهم على بعض ، وكان
العرب وحدهم الغانمين • ومن فواجع الانكليز ، وبعضها يضحك ، ان
الحكومة السورية ، التى كانت تستمد قوتها المالية من لندن ، أمدت
الوطنيين العراقيين بالمال • أجل ، قد استخدم « الخيال الانكليزي » ـ يقصد
الباون الانكليزي ـ لطرد الانكليز من العراق »[٦] •

الدعاية من تركيا :

كانت الدعاية الآتية من تركيا تلي الدعاية السورية فى قوتها واتساع
نطاقها • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان العراق كان فيه كثيرون
يحبون الاتراك ويتمنون عودتهم ويبثون الاشاعات المؤيدة لهم ، وهم الذين
أُطلق عليهم لقب « كليورلر » أي عائدون • وقد حدث في النصف الثاني
من عام ١٩١٩ أن قام مصطفى كمال باشا بحركة انقاذ فى تركيا ردا على
الهزيمة العسكرية التى حلت بها ، فأنعشت هذه الحركة الآمال لدى
الاتراك ولدى العراقيين المحبين لهم • وتسلل بعض الدعاة من تركيا الى
العراق يبشرون الناس بان تركيا حية لن تموت وانها قادمة الى العراق

---

(٦) أمين الريحاني (فيصل الاول) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ص ٧٣ •

قريبا لانقاذه من ايدى « الكفار » وقد لقيت هذه الدعاية رواجا في العـراق تحت تأثير التذمر العام الذى انتشر بين العراقيين آنذاك •

كانت الدعاية العثمانية خلال الحرب وقبلها تحارب الدعوة القومية وتعتبرها دسيسة من الكفار لهدم الخلافة الاسلامية والتفريق بين المسلمين، ولكنها الآن أصبحت تتعاون معها ، ولهذا رأينا دعاة الاتراك يعملون جنبا الى جنب مع دعاة الاستقلال والعروبة واعادة مجد الاجداد ، على أساس انهم جميعا يحاربون في جبهة واحدة ضد عدو مشترك •

زار النجف وكربلا في آذار ١٩٢٠ أحد الوجهاء العراقيين من الذين كانوا يتعاونون مع الاستخبارات البريطانية ، وعند عودته الى بغداد كتب تقريرا سريا عما شاهده في زيارته ، حيث قال : « خلال زيارتي لكربلاء قمت بزيارة العلماء الكبار والوجهاء فيها ، فكان معظم حديثهم يدور حول عودة الاتراك القريبة الى العراق ، ولكن ليس على الطريقة القديمة ، بل أن يكونوا مستشارين لحكم عربي حقيقي • ان كل العلمـــاء والوجهاء مشغولون الآن في بث الدعاية المؤيدة للاتراك والعروبة معا »[٧] •

كان العراقيون في أواخر العهد التركي قد أبغضوا ذلك العهد بغضا شديدا وتمنوا زواله ـ كما رأينا من قبل ـ ولكنهم الآن صاروا يبغضون العهد الجديد ويتمنون أن يأتي الاتراك لانقاذهم منه •

الدعاية من ايران :

ان حركة الجهاد المناوئة للانكليز التى قامت في العراق خلال الحرب كان لها أثرها البالغ في ايران ، فان الفتـاوى التي أصدرهـا المجتهـدون للجهاد لابد أن ينتقل تأثيرها الى ايران ، وقد بذل الالمان من جانبهم جهودا واموالا طائلة لترويج دعوة الجهاد فى تلك البلاد ، وأشاعوا بين الايرانيين

(7) Atiyyah (op. cit.) - P. 330.

ان الشعب الالماني كله اعتنق الاسلام وان قيصر المانيا قد اعتنق الاسلام أيضا وسمى نفسه « الحاج وليم »(٨) • وظهر في ايران حينذاك مغامر الماني اسمه (فاسموس) قام بدور فيها يشبه الدور الذى قام به لورنس في البلاد العربية(٩) •

ولما انتهت الحرب ظل العداء لبريطانيا قائما في ايران ، وحل البلاشفة محل الالمان في العمل على تنمية ذلك العداء • وقد اشتد العداء لبريطانيا عندما ألغى البلاشفة في كانون الثاني ١٩١٨ الامتيازات القيصرية التي كانت لهم في ايران ، اذ ان ذلك جعل الايرانيين يطالبون بريطانيا بأن تفعل مثلما فعله البلاشفة من الغاء امتيازاتهم ، غير أن بريطانيا رفضت ان تفعل ذلك مما ادى الى سقوط الوزارة الايرانية في تموز ١٩١٨ ، فحلت محلها وزارة جديدة برئاسة رجل معروف بصداقته لبريطانيا هو « وثوق الدولة » ، وأخذ هذا الرجل يعمل جاهدا لتدعيم الروابط بين بريطانيا وايران مما جعل الشعب الايراني يتذمر منه ومن بريطانيا تذمرا شديداً(١٠) •

عند انتهاء الحرب فتحت الحدود التى كانت مغلقة بين العراق وايران، فانثال الزوار الايرانيون يفدون الى العراق بأعداد كبيرة كأنهم ارادوا التعويض بذلك عن الحرمان الذى عانوه طيلة سنوات الحرب • ولا حاجة بنا الى القول ان الدعاية المناوئة لبريطانيا أخذت تأتي معهم الى العراق • ورد في تقرير للاستخبارات البريطانية في العراق مؤرخ في ٧ آذار ١٩٢٠ ما يلي : ان اخبار الازمة فى ايران كانت تصل الى العتبات المقدسة عن طريق المطبوعات أو طريق الافواه ، وفى الحقيقة ان الاشاعات حول المقاومة

---

(8) Sykes (History of Persia) London 1958 - vol. 2, P. 448.

(٩) صدر في بريطانيا في عام ١٩٣٦ كتاب عنوانه « فاسموس لورنس الالمان » لمؤلفه كريستوفر سايكس ، لم اعثر عليه مع الاسف •

(10) Banani (Modernization of IRAN) - Stanford 1961 - P 85.

الوطنية في ايران كانت تروج في مختلف مناطق العراق(١١) •

الدعاية البلشفية :

في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ قامت الثورة البلشفية في روسيا بقيادة لنين• وكان من جملة الاهداف الرئيسة التى ركز البلاشفة جهودهم عليها هو محاربة الاستعمار ، فصاروا يساعدون كل حركة مناوئة للاستعمار فى كل قطر في العالم ولا سيما في الاقطار المجاورة لهم • ولهذا رأيناهم يساعدون الحركة الكمالية فى تركيا ، كما ساعدوا الحركة المعادية لبريطانيا فـي ايران ، وأخذوا يرسلون دعاتهم ومنشوراتهم الى العراق وسوريا والحجاز وغيرها من الاقطار العربية والاسلامية •

جاء دعاة البلشفية الى العراق في زى زوار وطلبة ايرانيين • فقـد ورد فى تقرير للاستخبارات الانكليزية فى العراق : ان اخبار البلاشـفة ومنشوراتهم متداولة فى العتبات المقدسة من بينها كتاب « مبادىء البلشفية » المطبوع في حلب ، وهي تلقى لدى السكان عطفا وتأييدا لما فيها من عـداء لبريطانيا • وأشار التقرير كذلك الى ان المجتهد الكبير المرزا محمد تقي الشيرازي أصدر فتوى مفادها ان البلاشفة يجب اعتبارهم أصـدقاء الاسلام(١٢) •

وكتب حاكم السليمانية الميجر صون في أوائل ١٩٢٠ يقول : ان اسم البلشفية ومبادءها أصبحت معروفة لسوء الحظ في منطقته ، وان جريدة كركوك هي أهم من يروج لهذه المبادىء(١٣) • وقد ورد فى تقريـر للشرطة مؤرخ في ٢٠ آذار ١٩٢٠ : ان جمعية تأسست في العراق باسـم « الجمعية البلشفية »(١٤) • وتقول المس بيل : « هناك أدلة تبرهن على أنه

---

(11) Atiyyah (op. cit.) - 328 - 329.

(12) Atiyyah (op. cit.) - 329.

(13) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 155.

(14) Atiyyah (op. cit.) - P. 311.

كانت هناك جمعية متآمرة ، أسسها البلشفيك بالتعاون مع الوطنيين الاتراك ، وكانت منذ مدة طويلة تتصل بالجمعيات العراقية السياسية المتطرفة لاستغلال الرابطة الدينية المشتركة بين الاتراك والعرب واحراج وضع البريطانيين في الشرق الاوسط » .(١٥)

ومن الجدير بالذكر ان ربيع ١٩٢٠ شهد احداثا ساعدت على رواج الدعاية البلشفية في العراق . ففي نهاية نيسان من ذلك العام استطاعت القوات البلشفية أن تدخل المدينة النفطية المهمة « باكو » ، وطردت الانكليز منها . وفي منتصف أيار احتلت القوات البلشفية ميناء « انزلي » الايراني الواقع على بحر الخزر . فكانت هذه الانتصارات في نظر العراقيين دليلا على ضعف الانكليز تجاه البلاشفة(١٦) .

وفي الوقت نفسه انتشرت في أقطار الشرق الاوسط نسخ من « البيان البلشفي » وهو يتضمن نداءاً الى العرب بأن ينهضوا باسم الاسلام ، وفيه كذلك اشارة الى ان روسيا تعمل بكل طاقتها لمساعدة سكان الشرق من أجل ان يستعيدوا تقاليدهم الدينية وحريتهم . وقد جاء في البيان مانصه : « فيا ايها المسلمون في الشرق أتراكا وعربا وهنودا وايرانيين ، يجب أن تساعدوا روسيا ، كما هي تساعدكم ، لكي يكون في مقدورها الحصول على حقوقكم »(١٧) .

اضف الى ذلك ان مجموعة من العصابات ظهرت في تركيا آنذاك وهي خليط مؤلف من القرويين والمجرمين والجنود الفارين والوطنيين المتحمسين ، بقيادة رجل اسمه « أدهم » كان قد اتخذ مقره في كوتاهيه

---

(١٥) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٣٩ .

(16) Atiyyah (op. cit.) - P. 311.

(17) Ibid, P. 311 - 312.

واصدر جريدة مشحونة بالافكار البلشفية غير المهضومة[١٨] • وصارت هذه العصابات تشن الغارات المتلاحقة على الجيوش اليونانية التى تغلغلت في تركيا حينذاك ، كما اخذت تهاجم الانكليز في العراق عبر الحدود الشمالية ، وقد أطلق الانكليز عليها اسم « البلشفيك » نبزاً لها •

دور الموصل :

لعبت مدينة الموصل دورا بالغ الاهمية في تلك الفترة ، وذلك للاسباب التالية :

اولا : كانت الموصل تضم بين سكانها نسبة عالية من الافندية ، وذلك لكثرة ماكان فيها من المدارس في العهد التركي ، فهي تأتي من حيث كثرة الافندية فيها بعد بغداد مباشرة •

ثانيا : ان موقع الموصل القريب من تركيا جعلها زاخرة بالدعاية التركية ، كما انها كانت تضم جماعة كبيرة من محبي الاتراك ، وقد تأسست في الموصل جمعية سرية تعمل لحساب الاتراك كان من مؤيديها مصطفى الصابونجي الذى اشترى خمسمائة قطعة من السلاح استعدادا ليوم الثورة على الانكليز[١٩] •

ثالثا : كانت الصلات بين الموصل والعراقيين في سوريا قوية جدا لان كثيرا من اولئك العراقيين كانوا من أصل موصلي • وفى ٢٤ أيار ١٩١٩ ظهر فى الموصل فرع لحزب العهد برئاسة رؤوف الغلامي ، وصار هذا الفرع واسطة فعالة بين العراق وسوريا ، فكانت جريدة « العقاب » وبعض الجرائد الاخرى تتسلل اليه عبر منطقة الجزيرة ، ومن هناك تهرب الى بغداد وبعض مناطق العراق الاخرى •

يمكن القول على اي حال ان الموصل كانت في تلك الآونة ملتقى

---

(١٨) ارمسترونج (مصطفى كمال) ـ القاهرة ـ ص ١٤٣ •

(١٩) قحطان أحمد عبوش التلعفري (ثورة تلعفر) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ٢٧٤ •

ثلاثة انواع من الدعاية هي الدعايات التركية والعربية والبلشفية، وقد اخذت هذه الدعايات تتعاون فيما بينها لمحاربة العدو المشترك • ونستطيع أن نتبين هذا التعاون بين هذه الدعايات فيما كتبه رؤوف الغلامي معتمد حزب العهد في الموصل الى مركز الحزب في دمشق في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٩ • والى القارىء نبذة مما قال :

« ••• والذي نتصوره ان لاخلاص للعرب خاصة ولا للاسلام عامة بعد ان كشف الحلفاء عن مكنوناتهم ••• الا باتفاق العرب والترك مع البلشفيك والمانيا والنمسا ••• وعند وقوع حرب عامة في المستقبل فتُشكل حينذاك من اتحاد العرب والترك قوة لايستهان بها تحيي الامل في قلوب كافة المسلمين ••• ولا يخطر ببالنا ••• واسطة أخرى لحياة العرب والاسلام الا ما نتصوره من الاتحاد الاسلامي البلشفي الجرمني • ولا نقصد بالاتحاد مع البلشفيك قبول أصولهم وتطبيقها في محيطنا فاننا نعده مضرا ببلادنا ولكننا نقصد بذلك الاستمداد من قوة الروس والاستفادة من هذا الاسم الجديد وتهديد الناكثين للعهود ••• »[٢٠] •

تقول المس بيل : في ٢١ نيسان ١٩٢٠ وصل الى الموصل أول دفعة من العراقيين الذين كانوا في سوريا ، فدشن وصولهم حلول فترة مليئة بالشغب والفتن في الموصل ، فقد عقدت الاجتماعات الوطنية وعلقت على الجدران في الليل الاعلانات المناوئة للبريطانيين وهي تحمل ختم جمعية العهد العراقية ، كما ازدادت الغارات على خطوط مواصلاتنا •••[٢١]•

---

(٢٠) جريدة « صدى الاحرار » ــ في عددها الصادر في ٣ نيسان ١٩٥٣ •
(٢١) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ٤١٨ •

الفصل الخامس

ثلاث شخصيات

بينما كانت العوامل التي أسلفنا ذكرها تعمل عملها في زيادة التذمر من الانكليز واثارة الناس عليهم حدثت أمور ثلاثة يمكن اعتبارها عوامل اضافية في هذا السبيل ، هي : (١) انتقال كوكس الى طهران وحلول آرنولد ويلسون محله في ادارة الحكم في العراق ، (٢) انتقال الجنرال ماكمون الى الهند وحلول الجنرال هالدين محله في قيادة القوات الانكليزية في العراق ، (٣) موت السيد كاظم اليزدي وحلول المرزا محمد تقي الشيرازي محله في المرجعية الدينية لدى الشيعة .

ويلسون يخلف كوكس :

كان السر برسي كوكس يتولى منصب الحاكم السياسي العام في بداية الاحتلال ، ولكنه نُقل الى طهران في شهر نيسان ١٩١٨ ليكون وزيرا مفوضا لبريطانيا هناك ، فقام مقامه بالوكالة آرنولد ويلسون .

كان ويلسون حينذاك ضابطا في الرابعة والثلاثين من عمره ، وقد تساءل الناس في حينه : لماذا اختار الانكليز هذا الضابط الشاب ليخلف كوكس في حكم العراق مع وجود من هو أكبر سنا منه وأعلى رتبة بين الضباط البريطانيين في العراق ؟ !

يمكن القول ان ويلسون كان رجلا فذا من حيث نزاهته واخلاصه ودأبه على العمل ، ولما تولى الحكم في العراق صار يعمل ليل نهار لايبالي بحياة الترف[1] . وفي خلال سنتين استطاع ان يؤسس في العراق جهازا

---

(1) Mann (Administrator In The Making) - London 1921 - P. 148.

اداريا يُعد أفضل من الجهاز التركي من وجوه عديدة • ولكن عيب ويلسون أنه لم يفهم المجتمع العراقي كما فهمه كوكس ، كما انه لم يفهم روح الزمن الذى عاش فيه •

قد يصح القول ان ويلسون عاش في غير زمانه ، فهو لوعاش في القرن التاسع عشر حين كانت الامبراطورية البريطانية في أوج عزها لربما صار من أبطالها العظام ولكنه لسوء حظه عاش في وقت كانت فيه الحرب الاولى قد هزت العالم وقلبت الكثير من مفاهيمه الفكرية والسياسية • ومشكلة ويلسون انه لم يتمكن من ادراك طبيعة هذا التحول بل ظل قابعا في قوقعته الذهنية التى نشأ عليها ، وأصر على البقاء فيها لا يريد أن يخرج منها •

كان ويلسون قد تخرج من الكلية العسكرية في عام ١٩٠٣ ، فعين موظفا سياسيا في الهند ، وهناك شاهد الفرق الشاسع بين الهنود والانكليز من حيث المستوى الثقافي والحضاري وصار يؤمن ايمانا قويا بما يسمى بـ « رسالة الرجل الابيض » في تمدين الشعوب • انه أصبح متحمسا لمبدا « ملتون » الذى يقول « لا تدع بريطانيا تنسى رسالتها في تعليم الامم كيف تعيش » • وعندما تولى الحكم في العراق صمم أن يكون ممدنا لهذا البلد ومنقذا له حسب وجهة نظره • فهو كان يطمح ان يكون فى العراق كما كان اللورد كرومر في مصر(٢) وهو الرجل الذي كان ويلسون يعتبره مؤسس الجهاز الادارى الحديث في مصر ومنقذها من الديون والتفسخ •

كان ويلسون يشمئز من سياسة الوعود والتملق التي اتبعتها بريطانيا مع العرب ، ويستهين بدعاتها من أمثال لورنس اذ يعتبرهم من المثاليين الذين يغلب عليهم الخيال والعاطفة ولا يفهمون الواقع • ان العرب في رأي ويلسون : « عندهم الشعر بلا ريب وليس عندهم العمل »(٣) •

---

(2) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 170 - 171.

(٣) أمين الريحاني (ملوك العرب) ــ بيروت ١٩٥١ ــ ج ٢ ص ٣٦٨ •

رأي ويلسون في العراقيين انهم كغيرهم من الشعوب المتخلفة غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم ، ولهذا وجب تدريبهم على حياة الحرية قبل منحهم اياها[٤] . ان من الافضل للعراق في نظر ويلسون أن تؤسس فيه ادارة بريطانية حازمة من طراز الادارة القائمة في الهند ، ولا يُسمح لاهل البلاد بالاشتراك في الحكم الا بتدرج بطيء جدا يستغرق سنوات عديدة . أما اذا تسلم أهل البلاد زمام الحكم بأيديهم حالا فان ذلك يعني شيوع الفوضى وانهيار نظام الحكم في البلاد[٥] .

كان ويلسون في بداية الامر يعتقد أن حكومته في لندن توافقه على آرائه هذه وتؤيده عليها ، بينما الواقع ان حكومته كانت حائرة في أمرها لاتدري ما تصنع اذ كان يتقاذفها اتجاهان أحدهما يدفعها نحو تحقيق الوعود للعرب ، والآخر يدفعها الى العكس من ذلك .

ولما وصل الى ويلسون التصريح البريطاني الفرنسي في تشرين الثاني ١٩١٨ أصابه الرعب منه واعتبره اساسا غير صالح لنظام الحكم في العراق[٦] . وفي ١٦ منه أبرق ويلسون الى لندن ينتقد التصريح ويهاجمه حيث ذكر ان التصريح سيورطهم في مشاكل جسيمة كالمشاكل التي سببتها وعود مكماهون الى الشريف حسين ، ووصف التصريح بأنه نوع من الرياء السياسي الذى سيضع سلاحا ماضيا في أيدي الذين هم أقل الناس لياقة للسيطرة على مصائر شعب من الشعوب[٧] .

وفي الوقت الذى كان فيه ويلسون يعمل في العراق على هذا الاساس كان لورنس في لندن يعمل على أساس مناقض له اذ كان يدعو الى انشاء

---

(4) Wilson (Loyalties) - London 1935 - vol. 2, P. 193 - 194.

(٥) آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ٩٨ ـ ١٠٣ .

(6) Longrigg (IRAQ, 1900 to 1950) - London 1956 - P. 116.

(7) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 104.

ثلاثة دول عربية هي : (١) العراق الجنوبي برئاسة الامــــير عبدالله ، (٢) العراق الشمالي برئاسة الامير زيد ، (٣) سوريا برئاسة الامير فيصل، على أن يكون لابيهم الملك حسين مركز معنوي في هذه الدول حيث يدعى باسمه في المساجد • وقد ابرقت الحكومة البريطانية بهذا الاقتراح الـــى ويلسون تسأله عن رأيه فيه • فأجاب ويلسون في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٨ ببرقية ذكر فيها : أن شيوخ ووجهاء الديوانية والرميثة والناصرية وقلعة سكر والحي والكوت كلهم قد أبدوا رغبتهم في الحكم البريطاني المباشر لايريدون غيره • وفي اليوم نفسه ارسل ويلسون برقية أخرى قال فيها : أن تتويج أبناء الشريف ليس في مصلحة بريطانيا ولا مصلحة أهل العراق، وان تقسيم العراق الى قسمين جنوبي وشمالي لا تبرره الاحـوال السياسية والاقتصادية • ثم ختم برقيته بقوله : ان الحكومة البريطانية اذا كانـــت ترغب في رفاه أهل العراق وتقـدر الروحية التي ينطوي عليهـا التصريح البريطاني الفرنسي فاني استحثها أن تستثني العراق ، تماما والى الابد ، من أي مشروع شريفي أو أي مشروع آخر يتصل به ..[٨] •

في صيف ١٩١٩ بدأت الحكومة البريطانية تشعر ان ويلسون لم يعد يصلح لحكم العراق ، وأخذت تفكر باعادة كوكس الى العراق ، ولـكن كوكس لم يكن في ذلك الوقت قد انتهى من اداء مهمته في طهران فأرجأت الحكومة نقله الى فرصة اخرى • وقد أحس ويلسون من جانبه ان حكومته غير راضية عنه ، ففي ١٥ ايلول كتب الى صديق له في لندن يقول : « يجب أن أعلم الآن اني غير محبوب لدى المسؤولين ، وان نظرتهم لي ستكون قريبا اكثر سوءاً ، ويبدو انهم مصممون على الانحطاط بهذه البلاد عـن طريق بعض الترتيبات السياسية ، واني لا أنوي أن اتركهم يفعلون ذلك بكل وسيلة ممكنة »[٩] •

---

(٨) آيرلاند (المصدر السابق) ـ ص ١١٦ •

(9) Atiyyah (op. cit.) - P. 171.

ومن الجدير بالذكر ان المس بيل التى كانت تتولى انذاك منصب السكرتير الشرقي لويلسون كانت تخالفه في آرائه هذه وتميل الى تأييد الدعوة الشريفية • وقد أدى هذا الخلاف بينهما الى شيء من التوتـر والشجار • كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ١٤ حزيران ١٩٢٠ تقول : ان ويلسون غضب عليها في الاسبوع الماضي لانها أعطت بعض المعلومات الى أحد اصدقائها العرب ، ولم تكن تلك المعلومات مهمة ولكن ويلسون انفجر غاضبا وقال لها : ان حماقتها لايمكن احتمالها ، وانها يجب أن لا تنظر في أية ورقة في الدائرة بعد الآن • فاعتذرت المس بيل مما فعلت، غير انه واصل انتهارها : « ان ضررك يفوق ضرر أي شخص آخر في هذه الدائرة • واني لو لم يكن قد تقرر نقلي من العراق لطلبت اخراجك من الدائرة منذ شهور ـ أنت وأميرك ! » وتقول المس بيل ان ويلسون عندما وصل الى هذه النقطة اختنق صوته من شدة الغضب(١٠) •

هالدين يخلف ماكمون :

كان القائد العام للقوات الانكليزية في العراق في عام ١٩١٩ هو الجنرال ماكمون ، غير أنه نُقل الى الهند في أواخر العام ، وعين في محله الجنرال هالدين ، وقد وصل هالدين الى بغداد في ٢٥ آذار ١٩٢٠ ـ أي قبل اندلاع الثورة المسلحة بثلاثة أشهر تقريبا •

كتب هالدين بعد انتهاء الثورة كتابا حاول فيه أن يضع اللوم في اندلاعها على ويلسون وموظفيه • فهو يقول : انه عند مجيئه الى العراق لم يقدم له ويلسون واعوانه من الحكام السياسيين صورة حقيقية عن الوضع في العراق ، وأنهم كثيرا ما أعطوه تقارير متناقضة • ويقول هالدين أيضا : ان معظم الحكام السياسيين كانوا صغارا في السن ومن ذوي الخبرة القليلة مما ادى الى تذمر الناس منهم ، وكان ذلك من أهم اسباب ثورة

(10) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. P. 140.

العشرين[11] •

ويتهم هالدين ويلسون بأنه كان ضعيفا متسامحا مع المهيجين ، ففي رأي هالدين ان الاجراءات التي اتخذها ويلسون تجاه المهيجين لم تكن صارمة بدرجة كافية ، وهي أيضا جاءت بعد فوات الاوان ، فلو ان قـادة الحركة كانوا قد أُلقي القبض عليهم في اللحظة الحاسمة وأعدموا لمـا قامت الثورة • ويروي هالدين ان شيخا كبيرا من شيوخ العشائر أكد له والدمع يترقرق في عينيه قائلا : ان الأجراءات الرادعة لو كانت قد اتُخذت في الوقت المناسب لما اضطر هو الى حمل السلاح بوجه الحكومة تحت تأثير عشيرته • ويعلق هالدين على كلام هذا الشيخ فيقول : « اني أعطف على رجال يضطرون الى ركوب المركب الخشن والوقوع في مثل هذه المآزق الحرجة ، وقد عمدت فعلا الى معاملتهم بالحسنى أخيرا »[12] •

لم يسكت ويلسون تجاه هذا الاتهام من هالدين ، فانه حين كتب مذكراته ملأها بانتقاد هالدين وكال له الصاع صاعين • فهو يصف هالدين بأنه كان عند مجيئه الى العراق في الثامنة والخمسين من عمره ، وان صحته لم تكن على ما يرام ، وانه كان قبل تعيينه في العراق على وشك أن يحال على التقاعد بنصف الراتب ولكن صديقه تشرشل اختاره لقيادة العـراق لما له من فضل سابق عليه • ثم يقول ويلسون : انه وضع في متنـاول يـد هالدين كل الرسائل والتقارير التى لها صلة بالوضع من الناحية السياسية والعسكرية ، غير أنه لم ينتفع من الخبرة المتجمعة له من أسـلافـه ، ولـم يستطع أن يقابل سوى عدد قليل من الحكام السياسيين في المراكز النائية ، وكانت مقابلاته معهم لاتستغرق سوى دقائق •

---

(11) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 - P. 21.

(12) Ibid, P. 58.

ويشير ويلسون الى ما فعله هالدين من تقليص قوة الجيش في العراق حيث سمح للكثيرين من الجنود والضباط بالسفر مع عائلاتهم الى مصيف كرند في ايران تاركا العراق في فراغ نسبي بينما كان العراق في أشـــد الحاجة الى قوات عسكرية كبيرة • ويقول ويلسون انه أعطى هالديـــن تقريرا عن الوضع السيء في العراق ، فلم يأخذ هو بهذا التقرير واعتبره متشائما أكثر ممـا ينبغي • فهـو كان غـير راغـب في البقاء في بغداد خلال فصل الصيف لشدة الحر ، ولهذا غادر بغداد الى كرندفي ٢٤ أيار ١٩٢٠ ، أي قبل نشوب الثورة بستة أيام (٣١) •

حين ندرس هذا الاتهام المتبادل بين ويلسون وهالدين نستطيع أن نقول ان كلاً منهما كان محقا في اتهامه لصاحبه الى حد ما • فان كلاً منهما يقع عليه جزء من مسؤولية التقصير تجاه قيام الثـورة من وجهة النظـــر البريطانية •

والواقع ان ويلسون كان ليناً متساهلا تجاه قادة الحركة في بداية الامر مما أدى الى تماديهم في الحركة ، وقد اعترف هو بذلك واعتبره خطأ كبيرا منه • أما هالدين فكان متفائلا اكثر مما ينبغي تجاه هدوء الوضع في العراق ، ولهذا أرسل جزءا كبيرا من قواته للاصطياف في ايران ظنا منه ان الجزء الباقي قادر على قمع أية ثورة عشائرية عند قيامها • وقد تبين له اخيرا أنه كان مخطئاً في تفاؤله هذا •

كتبت المس بيل في ٧ حزيران ١٩٢٠ الى أمها تقول : « أخبرك الآن بأمر هائل ، فمنذ أيام بعدما وصلتنا أخبار تلعفر غادرنا هالدين الى طهران ومعه الجنرال ستيوارت والجنرال هامبرو • وبعد زيارتهم لطهران سوف يقيمون في كرند ، ولا يعودون الى بغداد الا في تشرين الاول ••• لقد تغديت مع هالدين في اليوم الذى سافر فيه ••• وعندما افترقت عنه قلت

---

(18) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 271 - 277.

له : اعتقد انك لوسمعت لدى وصولك الى كرند نبأ استيلاء العشائر على بغداد ، فسوف تغادر كرند الى كرمانشاه • فكان جوابه لها : آه ، انسي لا أشعر بأية مسؤولية عن ما يجري في غيابي »[١٤] •

ويقول أمين الريحاني ان ويلسون أبرق الى لندن يشكو من هالدين فجاءت برقية من وزارة الحربية تسأل هالدين : « ماذا يعمل في جبال العجم » ، أجل ماذا يعمل في الجبال ونيران الثورة تشتعل في السهول ؟[١٥] •

وقد نشر أحد الضباط البريطانيين قصيدة في هذه المناسبة يتهكم فيها على هالدين ، كان مطلعها :

نصف «لك» نصف «لك» من المال لايعود

والقيادة تنزه في الجبال والجنود[١٦]

الشيرازي يخلف اليزدي :

كانت المرجعية الشيعية في عهد الاحتلال قد استقرت في السيد كاظم اليزدي والمعروف عن هذا الرجل ان علاقته بالانكليز كانت حسنة ، وقد وردت عنه في تقرير بريطاني سري هذه العبارة : « اننا نستطيع ان نعتمد على مساعدته دائما بشرط أن لانذكر اسمه رسميا »[١٧] •

كان المرزا محمد تقي الشيرازي يلي اليزدي في المكانة الدينية • وكان يسكن سامراء ، غير انه انتقل الى كربلا في ٢٣ شباط ١٩١٨ • ويقال ان خصوم اليزدي هم الذين شجعوا الشيرازي على الانتقال الى كربلاء لكي يجعلوه ندا لليزدي ومنافسا له • وقد كانت نيتهم في بداية الامر ان

---

(14) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 189.

(١٥) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣٦٥ •

(١٦) فؤاد جميل (ثورة العراق) ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ٧٥ (حاشية)

(17) Atiyyah (op. cit.) - P. 288.

ينتقل الشيرازي الى النجف ، ولكنهم غيروا رأيهم في اللحظة الاخيــرة وفضلوا له السكنى في كربلاء ٠

كان يوم وصول الشيرازي الى كربلاء يوما مشهودا ، حيث خرج أهل البلدة لاستقباله مرحبين به ، واشترك في ذلك الرجال والنساء[١٨] ٠ وكان الشيرازي يومذاك في الثمانين من عمره ، والمعروف عنه انه كان قبلئذ يتجنب السياسة ويؤثر العزلة غير أنه أصبح بعد انتقاله الى كربلاء ذا نشاط سياسي ، واتخذ تجاه الانكليز خطة مخالفة لخطة اليزدي ٠ وفى منتصف ١٩١٩ استدعى الشيرازي اليه من الكاظمية الشيخ مهدى الخالصي ليستعين به في بعض الامور الدينية ، والمعروف عن الخالصي انه كان شديد العداء للانكليز ٠ وقد مكث الخالصي في كربلاء حتى أواخر حزيـــران ١٩٢٠ حيث عاد الى الكاظمية ٠

في ٣٠ نيسان ١٩١٩ مات اليزدي ، وقد تألم الانكليز لموته ، فقد ورد في تقرير بريطاني سري عنه : « ان نفوذه كان يستخدم بلا انقطـــاع في مصلحتنا ، وموته خسارة جدية لنا »[١٩] ٠

كان الانكليز يعلمون ان الشيرازي سوف لايكون كسلفه اليزدي من حيث علاقته معهم ٠ ففي ٥ أيار ـ أي بعد خمسة ايام من موت اليزدي ـ كتب نائب ويلسون الكولونيل هاول رسالة الى الشيرازي يعزيه فيها بوفاة اليزدي ويذكر بعض التلميحات ذات المغزى ، وهذا نص الرسالة :

الى حضرة آية الله العالم العلامة الحبر الفهامة الميرزا محمد تقي الشيرازي دام ظله العالي ٠

تحية وسلاما وبعد ٠ نعت الينا الاخبار بمزيد الاسف انتقال المرحوم الطيب الذكر حضرة آية الله السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي فأكبرنا المصيبة وتغلب علينا الحزن لفقدان ركن من أهم أركان حضرات العلماء

---

(١٨) عبدالرزاق الوهاب (كربلاء في التاريخ) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ج٣ ص ٢٤ ٠

(19) Atiyyah (op. cit.) - P- 880.

الاعلام وحجج الاسلام دامت بركاتهم فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وانا لله وانا اليه راجعون ، هذا قضاء الله لامرد له .

نعم ان الرزء أليم والخطب جسيم ولا سيما وان الراحل الكريم كان تقيا ورعا ، عالما علامة ، وحبرا فهامة ، مطاع الامر والنهي في كل ماله تعلق بالامور الدينية والدنيوية ، محبا للخير والوطن ، عاملا على تسكين الخواطر ، ناصحا عاقلا ، رشيدا حكيما ، حازما هماما ، محرضا للناس على التزام جانب السكينة ، هاديا لهم الى طريق الخير والصلاح ، ناهيا لهم عن ارتكاب الهفوات والغلطات ، على أن لنا في أشخاص حضرات آيات الله العلماء الاعلام وحجج الاسلام دامت بركاتهم اكبر معزي عن فقده ، ولنا في تحليهم بصفاته واتباعهم خطاه الحكيمة خير سلوان يخفف عنا وطأة فراقه . فنسأل الله ان يتغمد الراحل الكريم برضوانه ، ويسكنه فسيح جنانه ، وان يعوضنا بكم خيرا . ونطلب من المولى أن يطيل بقاءكم ، ويسعد أيامكم ، ويعلي من قدركم بين الانام ، بما انتم أهل له من رفعة المقام - آمين .

وقد أوفدنا من جانبنا حضرة النواب محمد حسين خان (البوليتكل أتاشيه) لدولة الحاكم الملكي العام بالعراق الى كربلاء المعلى والنجف الاشرف لتقديم واجب التعزية الى حضرات أنجال وأعضاء عائلة الراحل الكريم ، والى حضرات العلماء الاعلام وحجج الاسلام دامت بركاتهم ، فنرجوكم أن تشملوه بعناية خاصة . هذا واسمحوا لنا بالتعبير لكم عن تقدير الحكومة البريطانية العظمى لخدمات حضرات العلماء الاعلام دامت بركاتهم ، واستعدادها لقضاء ماترونه فيه خير العباد ، ولكم منا السلام أولا واخيرا .

آ . ب . هاول

القائمقام القائم بأعمال الحاكم الملكي العام في العراق[٢٠]

---

(٢٠) عبدالرزاق الوهاب (المصدر السابق) - ص ٥٧ - ٥٨ .

وفي شهر حزيران ١٩١٩ ذهب ويلسون بنفسه الى كربلاء لـزيارة الشيرازي في بيته • وكان ويلسون يتقن اللغة الفارسية فأخذ يتحدث اليه بها • وكان أول موضوع تطرق اليه هو منصب كليدار سامراء ، وقد طلب ويلسون من الشيرازي ترشيح رجل من الشيعة ليحل محل الكليدار الحالي الذي هو سني ، وكأنه أراد بذلك استرضاء الشيرازي ولكن الشيرازي فوت عليه الفرصة حيث أجابه بقوله : « لافرق عندي بين السني والشيعي ، وان الكليدار الموجود رجل طيب ولا أوافق على عزله » • فانتقل ويلسون الى موضوع آخر هو موضوع المعاهدة التى كان كوكس في طهران يسعى لعقدها بين بريطانيا وايران ، وأخذ ويلسون يذكر فوائد المعاهدة لايران راجيا من الشيرازي أن يساعد على تصديقها ، فقال الشيرازي له : « نحن الآن في العراق وتتكلم عن العراق وان حكومة ايران وشعبها أعـــرف بشؤونهم منا فلا يحق لنا والحالة هذه التدخل في أمور لاتعنينا ولا نعرف عنها شيئاً » • ثم تطرق ويلسون الى مايجرى فى جنوب ايران من قتال بين القوات الانكليزية وبعض القبائل الايرانية ، وطلب مـن الشيرازي الافتاء بالكف عن القتال حقنا للدماء ، فأجابه الشيرازي : « لايسوغ لي الافتاء بشيء لاعلم لي به سيما وان لتلك القبائل حكومة فحكومتهم أعرف بذلك المحيط وما تقتضيه » • وعند هذا خرج ويلسون من عند الشيرازي وهو يجرجر أذيال الخيبة[٢١] •

أدرك الانكليز أنهم غير قادرين على التأثير على الشيرازي بأيـــة وسيلة • ولهذا أبغضوه وذموه ذما قبيحا • يصف ويلسون الشيرازي فـي مذكراته بانه مثل البابا ليو التاسع قديس بسيط ذي مزاج ميال لتضليـــل نفسه والعالم ، وأنه كثيرا ما يفعل باسم التقوى والدين افعالا بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين[٢٢] • وأرسل ويلسون في ١١ حزيران ١٩١٩

---

(٢١) المصدر السابق ــ ص ٥٩ ــ ٦٠ •
(22) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 299.

سالة الى لندن يصف فيها الشيرازي بقوله : «ان المجتهد الرئيس في كربلاء مرزا محمد تقي الشيرازي في سن الخرف ومحاط بعصابة من طلاب المال الذين ليس لديهم ضمير والذين يأملون ان يكسبوا الثروات قبل موته ... وهم يعملون ضد الانكليز»[٢٣] .

وقد سارت المس بيل حذو ويلسون فى ذم الشيرازي ، فهي تصفه بأنه عجوز واقع تحت سيطرة ابنه الاكبر المرزا محمد رضا في كل الامور، وهي تصف المرزا محمد رضا بأنه يقبض المال من الاتراك وأنه ليس له أية منزلة دينية ولكن نفوذه عند ابيه هو الذى جعله مرجعا أعلى للرأي . وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : ان اسم ابن الشيرازي ورد في برقيـة صدرت من البلاشفة في رشت تذكر عنه بانه يشتغل للدعوة البلشفيـة في كربلاء[٢٤] .

---

(23) Atiyyah (op. cit.) - P. 336 - 337.

(٢٤) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفـر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٣ .

الفصل السادس

الاستفتاء

في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ وصلت الى ويلسون برقية من لندن ورد فيها ما يلي : « ان القصد من التصريح البريطاني الفرنسي هو في الدرجة الاولى لازالة الريبة التي أثيرت لدى سكان سوريا تجاه نيات فرنسا ، وليكن معلوما للجميع ان مؤتمر الصلح سوف يبت في مصير البلاد العربية . وان المطلوب من التصريح ان تساعد بريطانيا من جانبها على تأسيس حكم محلي في المناطق التي حررتها دون ان تفرض على السكان حكومة لايرتضونها ... ونحن نرغب بوجه خاص أن تزودونا ببيان موثوق يعرب فيه سكان العراق عن رأيهم في هذه النقاط الثلاث : (١) هل يفضلون دولة عربية واحدة تحت ارشاد بريطانيا تمتد من حدود ولاية الموصل الشمالية الى الخليج ، (٢) وهل يرغبون في أن يرأس هذه الدولة رجل عربي من أولي الشرف ، (٣) ومن هو هذا الرئيس الذى يريدونه ». وقد جاءت في ختام البرقية هذه العبارة : « في رأينا ان من المهم جدا أن يكون التعبير عن آراء السكان حقيقيا بحيث يمكن اعلانه للعالم بصفته التعبير النزيه عن رأي أهل العراق »[1] .

يُلاحظ هنا أنَ الحكومة البريطانية أرادت من ويلسون أن يكون التعبير عن آراء السكان حقيقيا نزيها ، ولكن ويلسون لم يطع أمرها بل أراد أن ينتهز فرصة الاستفتاء لكي يثبت لحكومته صحة رأيه في الحكم الملائم للعراق ، كما اراد أن يثبت لها ان العراقيين يرغبون من تلقاء أنفسهم في الحكم البريطاني المباشر .

---

(1) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 110 - 111.

أبرق ويلسون الى الحكام السياسيين في الالوية نص البرقية التي وصلته من حكومته مع تعليمات منه اليهم يذكر فيها كيف يمكنهم ان يحصلوا من سكان مناطقهم على الآراء المطلوبة . وكان فحوى تعليماته لهم ان كل واحد منهم يجب أن يتداول في الموضوع مع الشخصيات البارزة في منطقته بصورة سرية لكي يتأكد منهم ما قد يكون عليه اتجاه الرأي العام في تلك المنطقة فاذا ظهر له ان الاتجاه سيكون ملائما عقد اجتماعا كبيرا يضم جميع الوجهاء والرؤساء في المنطقة ، وعليه عند ذاك أن يجمع منهم أكبر عدد من التواقيع ، أما اذا ظهر ان الرأي العام في المنطقة منقسم أو انه ذو اتجاه غير مرغوب فيه ، فيجب عليه أن يؤجل عقد الاجتماع ثم يتصل ببغداد لأخذ التعليمات المناسبة(٢) .

الاستفتاء في النجف :

كان العراق في تلك الآونة مقسوما الى تسع مناطق أو ألوية ، وكانت النجف تابعة لما يسمى بـ « منطقة الشامية والنجف » التي كان يحكمها الميجر نوربري . وقد كان الانكليز يظنون ان الاستفتاء في هذه المنطقة سيجري حسب رغبتهم لسببين : أولهما وجود السيد كاظم اليزدي فيها وهو الذي كان مواليا لهم ، والثاني ما جرى في النجف في ربيع ١٩١٨ من ثورة فاشلة على الانكليز وما اعقبها من انزال عقوبات رادعة بالقائمين بها ، وقد ظن الانكليز ان هذه العقوبات قد أرهبت أهل النجف ومن جاورها من العشائر وانهم سوف لا يجرأون على القيام بأية حركة معارضة للانكليز بعد ذلك .

ارتأى ويلسون ان يجعل هذه المنطقة من أولى المناطق التي يجري فيها الاستفتاء لكي تكون النتيجة المعلنة عنها قدوة للمناطق الاخرى . وأخذ

---

(٢) آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٢٠ .

الميجر نوربري ينشــط للعمــل وفــق التعليمات التــي أرســلها ويلسون اليه ، فاجتمع سرا بالوجهاء والرؤساء الذين يثق بهم ، وقد أكد له هؤلاء ان الاستفتاء سيجري على المرام بلا معارضة •

كان يعمل في دائرة الميجر نوربري في ذلك الحين رجل بيروتي من أولي الشعور القومي اسمه مصطفى أفندي خرمه(٣) • ولما علم هــذا الرجل بما كان يفعله نوربري من الاستعداد للاستفتاء أســرع هــو الى بعض معارفه من النجفيين يخبرهم بالامر ، وطلب منهم الاستعداد له من جانبهم •

تقرر ان يجري الاستفتاء في النجف في ١٣ كانون الاول ١٩١٨ • وقد وصل ويلسون الى النجف بالطائرة في عصر ١١ منه • وفي صــباح اليوم التالي ذهب ويلسون لزيارة السيد كاظم اليزدي في بيته في الكوفة ، واختلى به ، ودار الحديث بينهما بالفارسية التي يتقنها ويلسون • وقــد ذكر ويلسون ، في تقرير سري له ان السيد كاظم قال : « أني أتكلم بالنيابة عن اولئك الذين لايستطيعون أن يتكلموا عن أنفسهم • ان الحــكومة مهما فعلت فانها ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار مصالح الشيعة وخصوصــا الجماهير التي لاتحسن التعبير عن نفسها والتي لامعين لها • فهؤلاء الناس ليسوا متمدنين ، واذا نُصب عليهم موظفون عرب أدى ذلك الى الفوضى • انهم لم يتعلموا النزاهة بعد ، والى أن يحين الوقت الذي يتعلمون فيــه النزاهة يجب أن يظلوا تحت سلطة الحكومة • وليس هناك رجل يمكن أن يقبل به الناس أميرا »(٤) •

وفي اليوم المحدد للاستفتاء ـ أي ١٣ كانون الاول ـ تم عقد اجتماع

---

(٣) محمد علي كمال الدين (معلومات ومشاهدات) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ١٠٥ •

(4) Atiyyah (Iraq) - Beirut 1973 - P. 273.

في دار الحكومة خارج سور النجف حضره ويلسون ونوربري وعبدالكريم الجزائري ومحمد جواد الجواهري ومحمد رضا الصافي وعبدالرضـــا الشيخ راضي ورضا الشبيبي وباقر الشبيبي وعباس الكليدار وهادي النقيب وهادي زوين ومحسن أبو طبيخ ونور الياسري وعلوان الياسري ومجبـل الفرعون وعبدالواحد الحاج سكر ومحمد العبطان وشملان الجبر وعبادى الحسين وعلوان الحاج سعدون ولفتة الشمخي ومرزوق العواد وسرتيب المزهر وفريق المزهر وغيرهم •

افتتح ويلسون الجلسة بذكر قصة أراد أن يثبت بها ان بريطانيـــا معروفة في العالم بأنها دولة العدل والانصاف ، وخلاصة القصة أن رجلين كانا يسيران في طريق ايران في اثناء الحرب ، فقال أحدهما ان خصائص الدول في الحرب ثلاث : الشجاعة في تركيا ، والاستعداد الحربي في المانيا، والعدل والانصاف في بريطانيا ، فاذا انتصرت احدى هذه الدول دل ذلك على ان الصفة التى اختصت بها تلك الدولة هي العنصر الفعال في الحرب وان الصفتين الأخريين لا اهمية لهما ولا معول عليهما • ثم ختم ويلســون القصة بقوله : لما كانت هذه هي صفات بريطانيا المعروفة في العالم اجمع ، فهي بعد بذلها الاموال والنفوس في الحرب ، ودحر الاتراك ، تريد أن تسألكم : هل ترغبون في حكمها أم تريدون حكومة وطنية عربية ؟ عرفونا رأيكم النهائي [٥] •

انبرى السيد هادي النقيب للجواب على سؤال ويلسون اذ قال : « نحن لانريد ولا نرضى بسوى بريطانيا لانها عادلة ومنصفة وقد كثرت الفلوس عندنا » • فرد عليه عبدالواحد الحاج سكر قائلا : « بل نريد حكومة عربية وطنية » • فوجه ويلسون سؤالا الى عبدالواحد : « هل هذا

---

(٥) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ــص٧٥ •

رأيك أم رأي الجميع ؟ »• فأجابه عبدالواحد : أنه رأيه الشخصي ولابد أن اكثر الحاضرين يؤيدونه • فأيده في ذلك الشيخ رضا الشبيبي قائلا :«أن العراقيين يرون من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالا تاما ، وليس فينا من يفكر في اختيار حاكم اجنبي » • فظهرت امارات الغضب على وجه ويلسون ، والظاهر أنه فوجيء بهذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه، فالتفت نحو الحاضرين يسألهم عن رأيهم ، فتكلم السيد علوان الياسري قائلا : « لما كان المدعوون غير مسبوقين بالموضوع فهم يرجون امهالهم الى الغد لدرس الاسئلة الثلاثة وتوحيد الاجوبة عليها ، وذلك بعد الاتصال بالعلماء وبقية الرؤساء » • فوافق ويلسون على رأي الياسري ، وقال لهم انه مزمع على العودة الى بغداد ، وطلب منهم ان يرسلوا جوابهم اليـــــه بواسطة الميجر نوربري •

على أثر انفضاض الجلسة ذهب عبدالكريم الجزائري ومحمد جواد الجواهري وعبدالواحد الحاج سكر وعلوان الياسري الى السيد كاظـم اليزدي في الكوفة يطلبون منه الرأي • ولما كلموه في الموضوع قال لهم : « عجيب ، لقد كان عصر أمس عندي ــ يقصد ويلسون ــ ولكنه ما كلمني بهذه الصراحة ، وعلى كل حال فالقضية مهمة ، ولكل عراقي حق فيها ، فيجب أن تعقدوا اجتماعا عاما يحضره الجميع من جميع الطبقات »[٦] • وذكر لهم ان كل فرد له الحق في ابداء الرأي سواءاً أكان تاجرا أم بقالا ، زعيما أم حمالا[٧] •

وبناءا على أقتراح اليزدي عُقد اجتماع عام في بيت الشيخ محمد جواد الجواهري حضره أكبر عدد ممكن من الناس بمختلف طبقاتهم ،

---

(٦) المصدر السابق ــ ص ٧٦ •

(٧) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ــ صيدا ١٩٧٢ ــ ص ٤٣ •

وقام الجواهري فتكلم قائلا : ان الحاكم العام ألقى عليهم ثلاثة اسئلة ـ وقرأ الاسئلة عليهم ـ وانهم قالوا له بأنهم يجب أن يسألوا حجة الاسلام السيد كاظم اليزدي قبل اعطائهم الجواب ، ولما قابلوا السيد اليزدي أمرهم بعقد هذا الاجتماع العام • فما هو رأيكم ؟ فلم يكد الحاضرون يسمعون هـذا السؤال حتى نشب الاختلاف والجدال بينهم ، وانقسموا الى فئات شتى كل فئة تطالب بما ترى فيه مصلحة لها ، فقد طالبت فئة منهم بالالتحاق بايران ، وطالبت فئة ثانية بأمير غير عربي ، وطالبت فئة ثالثة بالجمهورية، وطالبت فئة رابعة بأمير عربي ، وطالبت فئة خامسة بالحكم البريطـــاني المباشر •

وعند انتهاء هذا الاجتماع ذهب نفر منهم الى اليزدي يسألونه عن رأيه ليكون الحكم الفصل في هذا الاختلاف ، فاعتذر اليزدي عن ابداء أي رأي وقال : « انا رجل لا أعرف السياسة ، بل أعرف هذا حلال وهـــذا حرام » • وبعد الالحاح عليه قال لهم : « اختـــاروا مافيه صـــــلاح للمسلمين »[٨] •

ويبدو أن موقف اليزدي هذا أيد موقف الموالين للحكومة • وقـد تمكن السيد هادي النقيب من تنظيم مضبطة تحمل ٢١ توقيعا من وجهاء النجف وتجارها ، بالاضافة الى توقيعه ، يطلبون فيها الحكم البريطانـــي المباشر • ولكن المعارضين للحكومة استطاعوا بعدئذ أن ينظموا مضبطـــة ثانية تحمل تواقيع عشرة اشخاص يطلبون فيها اقامة حكومة مستقلة تحت رئاسة أمير عربي[٩] •

---

(٨) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٧٨ •

(9) Atiyyah (op.cit.) - P. 272 - 273.

قصة الدجيلي :

حدثت للشيخ كاظم الدجيلي في أثناء استفتاء النجف قصة جديرة بالذكر في هذه المناسبة • فهذا الرجل كان قد ذهب الى النجف قبيل الاستفتاء بغية تحريض الناس على رفض الحكم البريطاني ، ونزل في دار عبدالمحسن شلاش ، وقد احترمه عبدالمحسن وأحسن ضيافته ، ولكنه تغير عليه فجأة على أثر سماع شيء عنه يدعو الى الريبة • ويروي الدجيلي قصته على النحو التالي حيث يقول مانصه :

« علمتُ من الحاج محسن شلاش أن اجتماعاً سرياً سيعقد في بيته في تلك الليلة للمذاكرة في بعض الشؤون ، وانه من الخير ان يشارك الدجيلي في هذا الاجتماع ، وخرجتُ عصرا الى الحرم الشريف ، وصليت في الحرم صلاة المغرب والعشاء وعدت الى بيت الحاج محسن شلاش ، هذا والبيت مفتوح الباب على مصراعيه للزوار والضيوف على الدوام ، ولكني وجدته مقفلا فطرقت الباب ففتح لي الحاج رؤوف شلاش الاخ الاصغر للحاج محسن • لقد فتح الباب نصف فتحة وسألني : « ما الذى تريد ؟ » قلت : « أنا ضيفكم وأنا على موعد مع أخيك الحاج محسن » • قال : « ليس لاخي موعد مع أحد واننا لن نقبلك ضيفا ! » • قلت : « لكنك على علم بذلك ، ولقد كنت حاضرا ماجرى بيني وبين أخيك عصر هذا اليوم وقبيل خروجي الى الحرم » • قال « لنكن صريحين ياشيخ كاظم •• ان الجماعة يتهمونك بالتجسس لحساب الانكليز فليس لك بعد هذا عندنا مقام » • قلتُ : « ومن هم هؤلاء الجماعة ؟» • قال : «يكفي أن يكون الشيخ باقر الشبيبي واحدا منهم » • قلت : « دعني أراه وأرى أخاك الحاج محسن !» • وهنا أغلق الحاج رؤوف الباب في وجهي وطردني ، فحرتُ في أين أقضي سواد هذه الليلة ، وأين يجب أن اتوجه•• ورحت أجر أذيال الخيبة • ولكني ماكدت أخرج من شارع آل شلاش

حتى قبض علي (الشبانات) وهم جلاوزة السلطة ، وأودعت السجن • وفي اليوم التالي ساروا بي مخفورا الى بغداد وأنا أضحك من سخرية القدر التي تصورني جاسوسا وطنيا على الانكليز وجاسوسا انكليزيا على الوطنيين ••• »[١٠] •

أشارت المس بيل في تقرير لها الى السبب الذي جعل الانكليز يلقون القبض على كاظم الدجيلي ، فهي تقول : ان الذين حضروا الاجتماع مع ويلسون في النجف كانوا كلهم مجمعين على تحبيذ استمرار الحماية البريطانية على العراق ، ولكن أحد الشبان الشيعة من بغداد ـ وتقصد به الذجيلي ـ زار النجف بعد يومين بحجة الاشغال الخاصة وشرع بتنفيذ خطة مقصودة هدفها اقناع اهالي النجف والشامية بالعدول عن التوقيع على المضبطة المتفق عليها ، وذلك باللعب على شعورهم الديني وعلى كرامة بعض الشيوخ الشخصية • وتصف المس بيل الدجيلي بانه ذو شهرة لايستهان بها ككاتب وأديب ، وانه كان مستخدما لدى الانكليز في دائرة الشرطة فأخرج بسبب خشونته قبل مايقارب السنة الواحدة[١١] •

وعلى أي حال فقد اعتقل الدجيلي في خان دلة ببغداد نحو أربعين يوما ، نظم خلالها ست قصائد[١٢] ، ثم أفرج عنه بلا محاكمة • وأصبح من بعد ذلك صديقا مقربا للمس بيل ، ويقال انه هو الذى اقنع السيد حسن الصدر في الكاظمية بقبول زيارة المس بيل له بعد ان كان السيد حسن قد رفض محاولاتها المتكررة لزيارته[١٣] •

---

(١٠) جعفر الخليلي (هكذا عرفتهم) ـ بيروت ـ ج٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ •
(١١) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٦٢ •
(١٢) انظر بعض هذه القصائد في كتاب : رفائيل بطي (الادب العصري) ـ القاهرة ١٩٢٣ ـ ج١ ص ١٩٨ ـ ٢٠٦ •
(١٣) جعفر الخليلي (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ١٦٤ •

الاستفتاء في كربلاء :

كانت كربلاء آنذاك تابعة للحلة ، وكان يحكمها معاون حاكم سياسي اسمه الميجر بوفل ، وقد استعد هذا الحاكم لاجراء الاستفتاء فدعا عددا كبيرا من وجهاء كربلاء ورؤساء عشائرها الى اجتماع يُعقد في السراي في ١٦ كانون الاول ١٩١٨ . وفي الوقت المعين تم عقد الاجتماع وحضره من الحلة الحاكم السياسي للمنطقة الميجر تيلر . وتكلم الميجر تيلر فقال للحاضرين مامعناه : ان بريطانيا قررت أن تبر بوعدها للعرب ولهذا فهي تريد أن تتعرف الى رأيكم في نوع الحكم الذى ترغبون فيه وفي الشخص الذى تختارونه للامارة عليكم . فانبرى السيد عبدالوهاب الوهاب يتكلم بالنيابة عن الحاضرين حيث طلب مهلة ثلاثة أيام لكي يتداولوا في الامر مع غيرهم من أهل كربلاء . فوافق الميجر تيلر على ذلك وغادر كربلاء عائدا الى مقره في الحلة .

عُقد اجتماع آخر في دار السيد محمد صادق الطباطبائي للتداول في الامر ، ثم عُقد بعدئذ اجتماع ثالث في دار المرزا الشيرازي ، وقد حصل جدال واختلاف بين الحاضرين على نحو ما حصل في اجتماعات النجف، حيث اقترح بعضهم اختيار أحد أفراد الاسرة القاجارية أميرا للعراق ، واقترح آخرون اختيار أمير عثماني . ولكن الاكثرية منهم أعلنوا عن رغبتهم في اختيار عبدالله أو زيد من أنجال الشريف حسين . وقد استقر الرأي أخيرا على ذلك ، ونظموا مضبطة وقعها أكثر الحاضرين ، هذا نصها :

بمنّه تعالى

حسب تبليغ حضرة حاكم الحلة لنا عن الدولة المفخمة البريطانية العظمى انها قد تفضلت على العراقيين بطلب انتخاب أي أمير يختارونه وقد أُمرنا ان نجتمع ونتداول الرأي في ذلك ثم نقدم النتيجة الى حاكم كربلاء

فتلقينا أمره بتمام الرغبة ... وقد اجتمعنا نحن أهالي كربلا امتثالا لامركم وبعد مداولة الآراء وملاحظة الاصول الاسلامية وطبقا لها تقرر رأينا على أن نستظل بظل راية عربية اسلامية فانتخبنا أحد انجال سيدنا الشريف ليكون ملكا علينا مقيدا بمجلس منتخب من أهالي العراق لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الامة وما تقتضيه شؤنها . تحريرا فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الاول سنة ١٣٣٧ هـ .

لم يهن على بعض الاشخاص الموالين للانكليز تنظيم هذه المضبطة ، فنظموا مضبطة مضادة لها طلبوا فيها الحكم البريطاني المباشر . وهـــذا نصهـــا :

لحضرة الاجل الاكرم الحاكم الملكي بكربلاء المحترم

معروضات عموم أهالي كربلاء المقدسة هو أنه حسب الامر الصادر علينا من حكومتنا العادلة البريطانية العظمى دامت عدالتها بالانتخـــاب بأختيارنا أميرا للعراق من خليج فارس الى موصل فأطعنا الامر المذكور وقد اجتمعت أفكارنا عموما وصار نظرنا على مافيه صلاح العموم بأن نكون تحت ظل حكومتنا العطوفة الرؤوفة البريطانية العظمى مدة من الزمان لترقي العراق خصوصا ممالكنا وتعمير بلادنا ويكون بذلك مصلحة العموم والامر لمن بيده الامر – ٢١ ربيع الاول ١٣٣٧ هـ .

ولما قُدمت المضبطة الاولى الى الميجر بوفل رفض تسلمها بحجة انها لم تقدم في الوقت المعين . أما المضبطة الثانية فاحتفظ بها ، ولكنه اعادها بعد يومين الى السيد عبدالحسين الددة وقال له : " لاحاجة لي بها افعل بها ما شئت "(١٤) .

---

(١٤) عبدالرزاق الوهاب (كربلاء في التاريخ) – بغداد ١٩٣٥ – ج٣ ص ٥٣ .

الاستفتاء في الكاظمية :

اختصت الكاظمية بصفتين رئيستين اولاهما كونها بلدة مقدسة تضم عددا كبيرا من رجال الدين ، والثانية قربها من بغداد[١٥] • وقد كان لهاتين الصفتين أثرهما في تدعيم المعارضة للانكليز في أثناء الاستفتاء •

عندما تقرر اجراء الاستفتاء في الكاظمية نشط بعض افندية بغداد للعمل وصاروا يترددون على الكاظمية للتعاون مع رجال الدين على معارضة الانكليز • وكان رجال الدين من جانبهم مستعدين لهذا التعاون ، وكان في مقدمتهم السيد محمد مهدي الصدر ، والمعروف عن هذا الرجل انه كان ذا جرأة أدبية ولباقة في المنطق •

عُقد اجتماع الاستفتاء في ٨ كانون الثاني ١٩١٩ في دار أغا حسن النواب ، حضره الكولونيل بلفور من الجانب الانكليزي ، وحضره علماء الكاظمية ووجهاؤها من الجانب العراقي • وقد أعطانا الشيخ محمد الخالصي صورة لما جرى في الاجتماع حيث قال مانصه :

« ••• جاء بلفور الحاكم العسكري الى الكاظمية ليحمل الاهلين على ما يطلب الانكليز ، فأُعد له مجلس كان مشحونا بأهل الكاظمية ، وكان آية الله ــ يقصد والده الشيخ مهدي الخالصي ــ حاضرا بنفسه ذلك المجلس • فأظهر بلفور ان العراقيين يرغبون في بقاء الانكليز حكاما للعراق، وكان الى جانب آية الله الخالصي السيد محمد مهدي نجل المرحوم السيد اسماعيل الصدر فقال آية الله الخالصي له : قل لبلفور اذا كان الامر كما تقول فكف عن منع مخابراتنا مع العراقيين لنرى رأيهم • وكان الانكليز قد منعوا المخابرات البرقية والمكاتبات في العراق لئلا يعلم العراقيون بكذب الانكليز ، وكانوا يذيعون في كل مكان ان العراقيين صمموا في جميع

---

(١٥) سنحاول دراسة المجتمع الكاظمي على شيء من التفصيل في جزء قادم من هذا الكتاب •

البلدان على انتخاب الانكليز يريدون اغراء كل بلد بهذه الدسيسة على اختيارهم ، ولذلك منعوا المكاتبات والمخابرات . ولما سمع بلفور هـذا الاقتراح تلجلج ولم يستطع الكلام . فصرخ من كان في المجلس اننا لانريد الانكليز ولا نرغب الا في حكومة وطنية لاترتبط بالأجانب . فخرج بلفور من ذلك المجلس مغضبا ... »[١٦]

وعلى أثر خروج بلفور من الاجتماع اتفق أكثر الحاضرين على تنظيم مضبطة يطالبون فيها بتشكيل حكومة عربية اسلامية يرأسها أحـد أنجال الملك حسين على ان يكون مقيدا بمجلس تشريعي . وحين بدأ العمل بتنظيم المضبطة أعلن رئيس البلدية السيد جعفر عطيفة مخالفته لها ، وأيده في ذلك حسن السهيل من رؤساء بني تميم ، وعمه محمد سهيل ، والحاج حسين الصراف ، ثم خرج السيد جعفر ومعه الثلاثة الذين أيدوه احتجاجا على تنظيم المضبطة .

تم تنظيم المضبطة وكان في مقدمة الموقعين عليها : الشيـخ مهدي الخالصي والسيد حسن الصدر والسيد محمد مهدي الصدر والشيـخ عبدالحسين آل ياسين والسيد أحمد الحيدري والمرزا ابراهيم السلماسي والحاج عبدالحسين الجلبي . ثم حملت المضبطة بعدئذ الى الصحـن الشريف لملئها بالتواقيع فبلغ عدد التواقيع عليها أخيرا ١٤٣ توقيعاً .

وحين رأى السيد جعفر عطيفة تنظيم هذه المضبطة المناوئـة للانكليز أخذ يسعى لتنظيم مضبطة مضادة لها ، وتمكن من جمع تواقيع عدد غـير قليل من وجهاء البلدة وتجارها ورؤساء محلاتها .

تعلق المس بيل على ماجرى في الكاظمية فتقول : « وقد وصلت قصص مبالغ فيها عما كان يجري في النجف وكربلاء الى اهالي الكاظمية

---

(١٦) نقلا عن كتاب (بطل الاسلام) المخطوط للشيخ محمد الخالصي .

المدينة الشيعية المقدسة الثالثة حيث كان الشعور الوطني آخذاً في الطغيان• وهناك أدلة تثبت ان الكاظمية كان يشتغل فيها وكلاء من اسطنبول بعد أن وجدوا فيها مادة تناسب أغراضهم • وعلى هذا عندما طُلب الى بلـــدة الكاظمية أن تعطي رأيها حول النقاط الثلاث التي مر ذكرها هدد العلماء أي شخص يصوت للاحتلال البريطاني بالمروق من الدين والطرد مـــن الجوامع • وبالرغم من التحريم الوشيك صمد عدد من المواطنين البارزين والشيوخ المحليين ، ولم تكن شجاعتهم تلك شيئاً هينا • وقد أخذت المضبطة المناوئة للبريطانيين الى الجامع الاكبر في الليل فكُسب عدد من المحجمين عنها ، لكن الفصاحة والبيان المتناهي لم يغيرا من رأي رئيس البلدية ، وهو أبرز تجار البلدة في الوقت نفسه ، ولم يحولا دون اشتغاله في تهيئة مضبطة مقابلة في صالح الحكم البريطاني • فقد استحصل لها تواقيع التجار الآخرين ومعظم الشيوخ المحليين ورعايا الهند البريطانيين • وينتمي الأخيرون الى أسر كانت تقيم في الكاظمية منذ مدة طويلة وتتمتع بسمعة طيبة • واذا أُعتبر هؤلاء من الاجانب بالنسبة لوجهة النظر العراقية فان العـــلماء الايرانيين الذين أصدروا الفتوى لايمكن ان يتملصوا من نقد كهـــذا أيضا »[١٧] •

الاستفتاء في بغداد :

كان ويلسون يعتبر بغداد أهم مركز للمعارضة في العراق ، وذلـك لكثرة الافندية فيها من جهة وكثرة المتعلمين الواعين فيها من الجهـــة الاخرى • يقول آيرلاند : ان المشكلة التي واجهت ويلسون في بغداد أعظم مشكلة واجهها في العراق كله ، ولهذا أجل اجراء الاستفتاء في بغداد الى ما بعد الانتهاء من المناطق الاخرى اذ كان يأمل أن يحدث ظهور النتائج

---

(١٧) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ •

المرضية في تلك المناطق أثرا حسنا في الرأي العام البغدادى ، ولكن سرعان ماتبين له ان سكان بغداد ليس من السهل التأثير عليهم أو ضبطهم على منوال ماجرى في المدن الاخرى أو في المناطق العشائرية(١٨) •

في ٩ كانون الثاني ١٩١٩ أوعز ويلسون الى النقيب عبدالرحمن الكيلاني ، والى القاضي الجعفرى الشيخ شكر ، أن يختار كل منهما خمسة وعشرين مندوبا من أبناء طائفته لتوجيه اسئلة الاستفتاء اليهم • وكذلك أوعز ويلسون الى الحاخام الاكبر ان يختار عشرين مندوبا عن اليهود ، والى رؤساء الطوائف المسيحية أن يختاروا عشرة من المسيحيين •

رفض النقيب تلبية الطلب ، واقترح أن يقوم مقامه القاضي السني الشيخ علي الآلوسي • وكانت تلك اول خيبة واجهها ويلسون فى بغداد • وتعلل المس بيل رفض النقيب بأنه فعل ذلك جريا على عادته التى لايمكن أن يشذ عنها في الامتناع عن التدخل في الشؤون السياسية العامة(١٩) •

وقد واجه ويلسون خيبة اخرى حين امتنع القاضيان الجعفري والسني عن القيام باختيار المندوبين بأنفسهما ، ولعلهما لم يشاءا أن يتحملا هذه المسؤولية تجاه الرأي العام ، فوجه كل منهما الدعوة الى وجهاء طائفته طالبا منهم الاجتماع لاختيار المندوبين عنهم • وقد جرى اجتماع أهل السنة في التكية الخالدية ، واجتماع الشيعة في المدرسة الجعفرية • وكان الجو مشحونا بروح المعارضة في كلا الاجتماعين ، وأُلقيت فيهما الخطب الحماسية • وقد ابدى جعفر ابو التمن وحمدى الباججي نشاطا ملحوظا في تشجيع روح المعارضة فيهما •

وعندما تم انتخاب المندوبين من كل طائفة استقال سبعة من المندوبين

---

(١٨) آيرلاند (المصدر السابق) ـ ص ١٢٦ ـ ١٢٧ •
(١٩) المس بيل (المصادر السابق) ـ ص ٤٦٥ •

السنيين وواحد شيعي . وليس لدينا معرفة بأسماء المستقيلين السنيين غير ان المس بيل أشارت في مذكرتها السرية الى ان موسى الباججي كان احدهم ، كما اشارت الى أن اثنين منهم كانا من أسرة النقيب واثنين من أسرة جميل زاده[٢٠] . أما الذي استقال من الشيعة فهو الحاج ملا رضا كما ورد اسمه في أحد المصادر الانكليزية [٢١] ، وتصفه المس بيل بأنه من الملاكين المعروفين في بغداد وأنه كان يعتبر تأسيس حكومة وطنية في العراق وتسليمها بأيدي العرب أمرا سخيفا وقد ذكر للحاكم العسكرى أنه قرر الانسحاب دون أن يعطي تفسيرا لعمله هذا لانه لم يكن يستطيع مجابهة التعنيف الديني [٢٢] .

اختار الشيخ علي الآلوسي خمسة مندوبين من أهل السنة ليحلوا محل السبعة المستقيلين . أما الشيخ شكر فلم يختر أحدا . ولهذا أصبح عدد المندوبين السنيين ثلاثة وعشرين ، والمندوبين الشيعة أربعة وعشرين . وهذه هي أسماؤهم :

المندوبون السنيون : سعيد النقشبندي ، ابراهيم الراوي ، أحمد الشواف ، عبدالرحمن الحيدري ، عبدالوهاب النائب ، اسماعيل الواعظ ، عبدالله الشاوي ، طاهر محمد سليم ، سليمان السنوي ، عبدالله سليم الحيدري ، ملا قاسم ، مزاحم محمد نوري باشا ، خالد الشابندر ، ظافر الزهاوي ، أحمد منير ، محمد صالح الباججي ، محمد مصطفى الخليل ، عبدالباقي الاعظمي ، محمد ياغلمجي بن سلطان أغا ، محمد نافع الاورفلي ، عبداللطيف المدلل ، علي البازركان ، حمدى الباججي .

---

(٢٠) المصدر السابق — ص ٤٦٦ .

(21) Atiyyah (op. cit.) - P. 244.

(٢٢) المس بيل (المصدر السابق) — ص ٤٦٦ .

المندوبون الشيعة : عبدالكريم الحيدري ، جواد المسيباوي ، أحمد الظاهر الحاج عباس ، مهدي الخناق ، كاظم الحاج داود ، محمد حسين ، عبدالوهاب السيد يحيى ، حسين السيد عيسى ، عبدالامير الحيدري ، عبدالحسين كبة ، صادق السيد جعفر ، أحمد الجرچفچي ، محمد حسن الجوهر ، عبدالرضا يحيى ، عبدالغني كبه ، جعفر أبو التمن ، حميد بن عبدالرضا ، حميد بن موسى ، محمد رشيد السيد عيسى ، علي السيد حسين شكاره ، محمد السيد حسين ، درويش علي حيدر ، حسين الحاج علاوي ، عبدالحسين البحراني(٢٣) .

عين موعد اجتماع المندوبين في صباح الاربعاء ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩ ومحله في الحديقة العامة « ملت باغجه‌سي » التي كانت على شاطئ النهر في جانب الرصافة قرب المربعة . ولما كان الوقت شتاءا فقد أعدت باخرة بحذاء الشاطئ ليجتمع فيها المندوبون . ويحدثنا علي البازركان ، وهو احد المندوبين ، عما جرى آنذاك فيقول :

« ... بعد أن وصلنا صباح يوم الاربعاء في الساعة التاسعة الى محل الاجتماع في حديقة الملة (ملت باغجه‌سي) شاهدت في الباب أربعة عمالقة من الانكليز يرتدون لباس الشرطة ويحمل كل منهم مسدسا في جنبه وفي يده رزمة من البطاقات ، وهم يوزعونها على الداخلين . وقد أعطوني عدة بطاقات منها حينما دخلت . ولما أخذت مقعدي قرأت البطاقات المذكورة فاذا هي تحتوي على أجوبة اهالي النجف والبصرة والشامية والمنتفك والحلة والموصل وكربلاء بخصوص الاسئلة الثلاثة التي وجهها الحكام السياسيون ومضمونها جميعا هو ابقاء الحكم البريطاني في العراق مع بيان محاسن الادارة البريطانية وان يكون ملك العراق هو السر برسي كوكس ... »(٢٤)

---

(23) Atiyyah (op. cit.) - P. 888 - 889.

(٢٤) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) - بغداد ١٩٥٤ - ص ٦٦ .

حضر الاجتماع الكولونيل بلفور يصحبه المستشرق المعروف مرغليوث ، وكان هذا المستشرق حينذاك في بغداد لمساعدة القيادة العامة في بعض الامور[٢٥] . وقد افتتح بلفور الاجتماع بأن قدم للحاضرين مرغليوث ، وقام هذا فأخذ يخطب فيهم باللغة العربية ، ومن جملة ماقاله لهم : « ان العراق قد تعود على حكم الاجانب منذ القديم ، فقد حكمه المغول ، وحكمه الاتراك وحكمه الايرانيون ، وهو لايستطيع أن يحكم نفسه . وعلى هذا يجب على العراقيين أن يختاروا الانكليز أوصياء عليهم أو تحت انتدابهم أو حمايتهم »[٢٦] .

ولما انتهى مرغليوث من خطبته قال بلفور انه سيخرج هو ومرغليوث من الاجتماع ، وطلب منهم أن يسجلوا اجوبتهم ويأتوا بها اليه فيما بعد . والظاهر انه كان يظن ان الإجوبة ستكون حسب رغبته ، ولكنه لم يكد يخرج من قاعة الاجتماع حتى أسرع المندوبون فأخرجوا مضبطة كانت معدة سابقا وأخذوا يوقعون عليها . وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

لما عُلم ان الغاية التي ترمي اليها كل من دولتي بريطانيا العظمى وفرنسا في الشرق هي تحرير الشعوب وانشاء حكومات وادارات وطنية وتأسيسها تأسيسا فعليا بكل من سوريا والعراق حسبما يختار السكان الوطنيون ، فاننا ممثلو الاسلام من الشيعة والسنة من سكان مدينة بغداد وضواحيها بما أننا أمة عربية واسلامية قد اخترنا ان تكون لبلاد العراق الممتدة من شمالي الموصل الى خليج العجم دولة واحدة عربية يرأسها

---

(25) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 108

(٢٦) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ٦٧ .

ملك عربي مسلم هو أحد انجال سيدنا الشريف حسين مقيـــدا بمجلس تشريعي وطني مقره عاصمة العراق بغداد • حرر يوم الاربعاء ١٩ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩[٢٧] •

وبعد ان تم التوقيع على المضبطة حملها اثنان ، أحدهما يمثل السنة هو عبدالرحمن باشا الحيدري ، والثاني يمثل الشيعة هو جعفر ابو التمن ، وذهبا بهاالى بلفور،وحين دخلاعليه سألهما «من اخترتم؟» فأجابهأبو التمن: « أخترنا حليفكم ! »[٢٨] ـ يقصد بذلك انهم اختاروا أحد انجال الملك حسين الذى كان حليفا لبريطانيا في الحرب • وكان جوابا مسكتا •

نزاع في بغداد :

لم يشارك مندوبو اليهود والنصارى في التوقيع على المضبطة الآنفة الذكر بل نظموا في السر مضبطة خاصة بهم طالبوا فيها بالحكم البريطـاني المباشر ، أو بالحماية البريطانية في حالة تأسيس الحكم الذاتي • ويعزى سبب ذلك الى اشاعات راجت بينهم مفادها ان المسلمين يريدون تكويـن حكومة اسلامية بحتة وابعاد اليهود والنصارى عن العراق • والمظنون ان عملاء الانكليز كانت لهم يد في ترويج هذه الاشاعات بينهم •

ولم يقتصر الامر على اليهود والنصارى فقط بل أخذ بعض المسلمين يفعلون مثلهم حيث صاروا ينظمون مضابط يطالبون فيها بالحكم البريطاني، وكانت النتيجة ظهور ثلاث مضابط في هذا الاتجاه اثنتان منها سنيتان وواحدة شيعية •

يروي علي البازركان أنه شاهد قاسم الخضيري واقفا عند رأس الجسر في جانب الكرخ وهو يحمل بيده مضبطة تطالب بان يكون العراق

---

(٢٧) محمد مهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٨٦ •

(٢٨) المصدر السابق ـ ص ٨٦ •

تحت حماية بريطانيا وان يكون كوكس ملكا عليه ، وهو يصيح : « من يريد الحرية فليوقع هنا » . فسأله البازركان عن السبب الذى دفعه الى ذلك ، فأجابه الخضيري « أما تعرف ان الاتراك كيف عاملوني وأنت الذى أطلقت سراحي من السجن » . فقال البازركان له : « ان الاتراك قد ذهبوا وهذا عملك لايمس الاتراك مطلقا ولكن يضر في مصالحنا نحن العراقيين » . ثم انصرف عنه(٢٩) .

الواقع ان الاستفتاء في بغداد لم يقف عند حد تنظيم المضابط المتضادة بل تعداه الى أبعد من ذلك . فقد أثار الاستفتاء في المجتمع البغدادي جوا من التوتر والصراع حيث انقسم البغداديون الى فريقين يشتم كل منهما الآخر ويوجه اليه التهم القبيحة .

كانت مقاهي بغداد بؤرة لمعارضة الحكومة ، بينما كانت دواوين بعض الاسر البغدادية المعروفة بؤرة للتذمر من المعارضة وللدعوة الى تأييد الحكومة . تقول المس بيل ان أحاديث المقاهي كانت تُنقل الى الحكومة من قبل الاهالي انفسهم بلا حاجة الى جواسيس . وتنقل المس بيل في هذه المناسبة قولا للنقيب هو : « ان الحومة البريطانية تستطيع أن تستغني عن الجواسيس في هذه البلاد لان طبيعة كل عربي أن ينقل الى السلطات ما يفعله جميع العرب الآخرين »(٣٠) .

وتقول المس بيل أيضا ان سبعة من اشراف بغداد وهم الذين وقعوا على احدى المضابط الموالية قابلوا ويلسون وذكروا له ان دعاية عنيفة مازالت تُبث في المقاهي من قبل الجماعة المناوئة للبريطانيين ، واسترحموا منه تسفير بعض زعماء تلك الجماعة لانهم خطر على استقرار العراق وعلى

---

(٢٩) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ٦٩ .

(٣٠) المس بيل (المصدر السابق) ـ ص ٤٦٧ .

الحكومة البريطانية في آن واحد ، وقد استجاب ويلسون لرغبتهم فأوقف عدداً من المناوئين [٣١] • ان المس بيل لم تذكر اسماء الاشراف السبعة الذين قابلوا ويلسون ، ولكن أسماءهم وردت في احدى الوثائق البريطانية السرية وهم : عبدالرحمن جميل زادة ، فخر الدين جميل زادة ، جميل صدقي الزهاوي ، عبدالمجيد الشاوي ، ، موسى الباچچي ، صالح الملي ، عبدالكريم چلبي[٣٢] •

الاستفتاء عموما :

اقتصرت المعارضة في الاستفتاء على المدن الاربع التى ذكرناها فقط ، أي النجف وكربلاء والكاظمية وبغداد • أما فى المدن الاخرى فقد جرى الاستفتاء عموما وفق ما أراده ويلسون واعوانه ، ولم يقع فيها أي خلاف او ضجة ، وقد اجمع الوجهاء والرؤساء في المدن كلها على المطالبة بالحكم البريطاني المباشر ، ومنهم من طلب أن يكون كوكس حاكما عليهم • وليس هذا بالامر الغريب بالنظر الى ما اعتاد عليه الوجهاء والرؤساء من موافقة السلطة على كل ماتريده منهم •

حين نطلع على التقارير السرية التى كتبها الحكام السياسيون حول الاستفتاء في مناطقهم نجد فيها كثيرا من الامور الطريفة ، فقد ذكر الحكام في تقاريرهم آراء بعض الوجهاء والرؤساء الذين تكلموا معهم على انفراد في شأن الاستفتاء ، وهي آراء تدل بوضوح على ما اعتاد عليه اولئك الوجهاء الرؤساء من تزلف ومصانعة •

ففي حديث أدلى به أحمد باشا الصانع الى حاكم البصرة السياسي قال مانصه : « أنا لا أريد سوى الحكم البريطاني البحت •• وارجو

---

(٣١) المصدر السابق ـ ص ٤٧٠ •

(32) Atiyyah (op. cit.) - P. 309.

أن لاتتركوا البلاد بل أحكموها بأنفسكم بيد قوية ولكن عادلـــة • ولا تعقدوا اجتماعا لتوجهوا السؤال الى الناس فان الناس ربما صوتوا لكـــم بدافع الخوف ولكن من المحتمل ان يتفقوا ويقولوا : نحن لانريدكم ، اتركوا البلاد • ان فلانا يسعى لكي يكون اميرا في العراق ـ يقصد الشيخ خزعل ـ وقد أرسل لي رسلا وقال انه يعد مضبطة لهذا الغرض • انـه صديق كبير لي ، ولكنه ليس الرجل الملائم لنا • ان ما أقوله لكم أمـــر سري بالطبع ، ولو اني سئلت فياجتماع عام عن هذا الرجل : هل يليق لامارة العراق ؟ لقلت : نعم ! »•

وقال وجيه آخر هو الحاج محمود باشا لحاكم البصرة السياسي : « نحن العرب كما تعلمون منشقون وانانيون ، ننظر لمصالحنا الخاصـــة أولا ، واذا اعطيتمونا الحرية وتركتمونا نفعل ما نشاء فان ذلك سيؤدي بنا الى الافلاس • ان الحكم البريطانى يجب أن يبقى على وضعه الحالي ، وان من الحكمة ان تسألوا كل شخص عن رأيه على انفراد وبصورة سرية • صدقوني انكم اذا عقدتم مجلسا كبيرا فلن تحصلوا من أي شخص على رأيه الحقيقي • انكم ايها الانكليز لاتفهمون أوضاعنا • فحين يقوم شخص كبير في مجلس ويقترح أمراً من الامور نشعر أننا ملـــزمون بالموافقة على اقتراحه تحت تأثير نوع من المجاملة مع شيء من الخوف • وبسبب الخجل الطبيعي لا يستطيع سوى القليلين أن يجرأوا على ابداء آرائهم »[٣٣] •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الاستفتاء كان في نظر العامة مفاجأة غير مفهومة ، اذ هو كان أول مرة في تاريخ العراق يسأل الحكام فيها رعاياهم : ماهو نوع الحكم الذى ترغبون فيه ، ومن هو الحاكم الذي

---

(33) Ibid, P. 270 - 271.

تريدونه ؟ فهم لم يستطيعوا ان يصدقوا آذانهم عندما قيل لهم ان حكومة فتحت بلادهم بحد السيف تتنازل لهم لتسألهم : ماذا تريدون ؟! وقدأخذت الاشاعات تنتشر بينهم مضمونها ان الحكومة انما قامت بالاستفتاء لكي تختبر به الناس وتعلم من هم اصدقاؤها ومن هم أعداؤها فتثيب هؤلاء وتعاقب اولئك(٣٤) . وكان لهذه الاشاعات تأثيرها في الناس ولهذا وجدنا الكثيرين من الرؤساء والوجهاء يتهافتون على تنظيم المضابط الموالية لكي يثبتوا للحكومة أنهم من أصدقائها .

ورد في أحد التقارير الانكليزية قول تفوه به أحد السادة المحترمين هو السيد محمد بركات يخاطب به الحاكم السياسي حيث قال : « في رأيي ان سؤالكم لنا وأنتم الحكومة : ماهو نوع الحكم الذي نريده ، يدل على شيء غير اعتيادي ، وهو أمر لم نسمع به من قبل . فما شأني أنا في هذا الموضوع ، فأنتم لو عينتم علينا حاكما نصرانيا او يهوديا او عبدا زنجيا ، كان ذلك بالنسبة لي حكومة على حد سواء »(٣٥) .

ان هذا القول الذى فاه به هذا الرجل يمثل لنا مستوى التفكير السياسي لدى اكثر الناس في تلك الايام . ونحن اذ نريد ان ندرس احداث تلك الايام لا يجوز لنا أن ننظر فيها بمنظار ايامنا الراهنة . ومن المؤسف أن نرى الكثير من كتابنا ومؤرخينا يتجاهلون هذه الحقيقة حيث نجدهم يدرسون أحداث الماضي ويقيمونها كما لو كانت قد حدثت في زمانهم .

راي النقيب :

فرح ويلسون بنتائج الاستفتاء وظن انها ستدعم موقفه في لندن ، وقرر ان يرسل المس بيل الى لندن لكي تشرح للمسؤولين فيها وضع

---

(٣٤) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ص ٨١ .

(35) Atiyyah (op. cit.) - P. 272.

العراق ونتائج الاستفتاء بالتفصيل • وتقرر أن تغادر المس بيل الى لندن في ٨ شباط ١٩١٩ •

رغبت المس بيل أن تقابل النقيب الكيلاني قبل مغادرتها بغداد لكي تتعرف على رأيه في الاستفتاء وفي وضع العراق بوجه عام • فذهبت اليه في داره في محلة باب الشيخ في ٦ شباط • وقد كتبت فيما بعد مذكرة ضمنتها ماجرى بينها وبينه من أحاديث متنوعة • وفيما يلي ننقل نبذا من أقوال النقيب كما روتها المس بيل في مذكرتها •

كان رأي النقيب في الاستفتاء أنه حماقة وسبب للاضطراب والقلاقل، فهو يقول : ان كوكس لو كان موجودا في العراق لما كانت هناك حاجة الى استفتاء الناس عن رأيهم في مستقبل البلاد • ويطنب النقيب في مدح كوكس ويلوم الحكومة البريطانية لتعيينها اياه سفيرا لها في طهران ، اذ يقول : « خاتون ، هناك ألف ومائة رجل في انكلترا بوسعهم أن يشغلوا منصب السفارة في ايران ، لكنه ليس هناك من يليق للعراق سوى السر برسي كوكس ، فهو معروف ومحبوب وموضع ثقة أهالي العراق ، كما انه رجل حنكته السنون ••• أضف الى ذلك ، انه رجل ذو اعتبار كبير في لندن ، وسيكون محامينا المتكلم باسمنا فاذا أرادت الحكومة هناك أن تعرف أفكارنا سيكون بوسعه تزويدها بالمعلومات الضرورية وستكون كلمته مقبولة ••• » •

ويشرح النقيب رأيه في الاستفتاء فيقول : « انه كان سبباً للاضطراب والقلاقل ولم تخمد سورة الفتن في المدينة بعد • وأنت تعلمين أني لم اشترك فيما جرى ، وقد منعت افراد أسرتي من التدخل فيما لايعنيهم من هذه الامور • فكان ولدي السيد محمود أول من استقال من مندوبية المجلس ، فقد أشرتُ عليه أن يبتعد عن هذا الامر • لكن الكثيرين من الناس جاؤوا الي طالبين مشورتي وملحين عليّ بقبول وجهة نظرهم •

فأجبتهم ان الانكليز فتحوا هذه البلاد وبذلوا ثروتهم من أجلها كما أراقوا دماءهم في تربتها ، حيث ان دماء الانكليز والاستراليين والكنديين ومسلمي الهند وعبدة الاصنام قد خضبت تراب العراق ولذلك فلا بد لهم من التمتع بما فازوا به • ان الفاتحين الآخرين فتحوا البلاد وتنعموا بها • وكما وقعت البلاد فريسة بيدهم كذلك وقعت بأيدى الانكليز وسوف يوطدون حكمهم فيها • خاتون ، ان أمتكم أمة عظيمة وثرية قوية ، فاين قوتنا نحن ؟ وانني اذ أقول مثل هذا القول أريد أن يدوم حكم الانكليز ، فاذا امتنع الانكليز عن حكمنا فكيف أجبرهم على ذلك ؟ واذا مارغبت في حكم أمة أخرى وقرر الانكليز البقاء فكيف أخرجهم منه ؟وانني أعترف بانتصاراتكم، وانتم الحكام وانا المحكوم ، وعندما أُسأل عن رأيي في استمرار الحكم البريطاني أجيب أني من رعايا المنتصر • انكم ، أيتها الخاتون ، تفهمون صناعة الحكم ••• » •

ثم قال النقيب للمس بيل : انك حين تذهبين الى لندن يجب ان تذكري للمسؤولين فيها بوجوب عودة كوكس الى العراق وأننا نرغب في أن يحكمنا السر برسي كوكس • ثم أضاف الى ذلك بدهاء قائلا لها : « انك يجب أن لاتقولي انك قد اصبحت بغدادية وان تفكيرك منصرف بكليته الى سعادة العراق ورفاهيته ، فان ذلك مع صحته سيقلل من اهمية ماتقولينه في لندن وسوف تقل فائدته لنا » •

ثم عاد النقيب الى موضوع الاستفتاء فقال : ان الذين عارضوا الانكليز فيه هم رجال لاسمعة لهم ولا شرف ، وأشار الى احدهم فوصفه بأنه مجنون وليس له من المكانة الاجتماعية الا قليلا ، كما أشار الى رجل آخر منهم فوصفه بأنه لايمت الى اشراف البلد بصلة • ثم تطرق الى الشيعة فأخذ يذمهم ذما قبيحا اذ قال : ان ابرز صفة تميزهم هي الخفة ، فهم انفسهم قتلوا الحسين الذى يعبدونه الآن كما يعبدون الله • فالتقلب

والوثنية تجتمعان فيهم ، فاياك ان تعتمدي عليهم[٣٦] .

وذكرت المس بيل للنقيب : ان لديها قائمة كاملة باسماء الذين قادوا التحريكات المناوئة للانكليز ، وقالت ان ستة او سبعة منهم تقرر اعتقالهم . فرغب النقيب في رؤية القائمة فأخرجت المس بيل مسودة اولية غير كاملة لها ، لانها لم تكن في تلك الساعة تحمل القائمة النهائية . وكان في مقدمة الاسماء أربعة هم : سعيد النقشبندي وعبدالوهاب النائب وجعفر ابو التمن وحمدى الباججي[٣٧] . وأشارت المس بيل الى اثنين منهم هما النقشبندى والنائب ، فوصفتهما بانهما أشد ضررا من غيرهما لانهما من ذوي السمعة الكبيرة ، ولهذا تقرر أن يكونا من جملة المعتقلين . وقد وافق النقيب على اعتقال الجميع ماعدا هذين الرجلين حيث قال للمس بيل : « كلا ، لا يمكنكم حبسهما ولا نفيهما لأن الفضيحة ستكون بالغة الاثر . لكني لو كنت متيقنا من تأييد الكولونيل ويلسون لعملي لبعثت عليهما وأعربت لهما عن استنكاري لسيرهما ، اني على علم بأنهما مندفعان بدوافع دينيـة ، وان الاعتبارات الدينية هي التى ستكون أسس حججهما ، واني كما لايخفى أتكلم عن جميع ماله علاقة بالدين بثقة وحجة » .

وتقول المس بيل ان أحد المناوئين للانكليز لم يكن اسمه داخلا في القائمة ، فذكره النقيب وأكد على انه محتال وماكر ، وطلب من المس بيل أن تخبر ويلسون عن لسانه بأنه لا يسمح لهذا الرجل بالبقاء في بغـداد .

استغرق الحديث بين النقيب والمس بيل سـاعة ونصف ، وحين استأذنت للخروج أعرب عن مودته الشخصية لها وذكرها بصداقتـه القديمة لها التى ترجع الى ما قبل الحرب بعدة سنوات ، ولما شكرته على ذلك طلب منها أن تعتبره بمنزلة الوالد[٣٨] .

---

(٣٦) المس بيل (المصدر السابق) ـ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٨ .

(37) Atiyyah (op. cit.) - P. 275.

(٣٨) المس بيل (المصدر السابق) ـ ص ٤٧٩ ـ ٤٨١ .

الفصل السابع

نشأة الحركة الوطنية في بغـداد

يمكن القول ان الاستفتاء كان حافزا لنشوء مانسميه بـ « الحركة الوطنية » في العراق ، وهي الحركة التى تبناها المعارضون للحكم البريطاني واتخذوا فكرة « الاستقلال » لهم شعارا • ان الجهود التي بذلها ويلسون واعوانه في اثناء الاستفتاء لجعل العراقيين يطالبون بالحكم البريطاني المباشر أنتج رد فعل لدى المعارضين جعلهم يطالبون بالاستقلال ، كما أن المقاومة التي أبداها ويلسون وأعوانه ضد أختيار أحد انجال الشريف حسـين جعل المعارضين يصرون على هذا الاختيار ويعتبرونه رمزا لحركتهم •

مما يلفت النظر ان الافندية والملائية الذين تزعموا حركة المعارضة كانوا قبلئذ يذمون الشريف حسين وانجاله ويعدونهم مارقين عن الاسلام، غير أنهم تحولوا الى العكس من ذلك في اثناء الاستفتاءحيث صاروا من اكثر الناس حرصا على اختيار أحد انجال الشريف لعرش العراق • ان هذا يعدُّ من جملة الاغلاط السياسية التي اقترفها ويلسون في العراق • فهـو قد غفل عن المبدأ القائل : « ان المرء حريص على ما منع » • ومن الجديـر بالذكر ان كوكس الذي عاد الى العراق في خريف ١٩٢٠ أدرك أهميـة هذا المبدأ وطبقه تطبيقاً بارعاً ـ كما سنأتي اليه بتفصيل في الجزء القادم من هـذا الكتـاب •

ان بوادر الحركة الوطنية ظهرت في بداية الامر في بغداد وكربلاء ، أولاهما بتأثير الافندية ، والثانية بتأثير الشيرازي وحاشيته ولا سيما ابنه المرزا محمد رضا • ثم سرت عدوى الحركة بعدئذ الى المدن والمناطق الاخرى •

نحاول في هذا الفصل دراسة البوادر التي ظهرت في بغداد ، على أن

ندرس تلك التي ظهرت في كربلاء في الفصل التالي •

بداية غير موفقة :

من الجدير بالذكر انتنظيم المضابط المطالبة بالاستقلاللم يتوقف في بغداد عند انتهاء الاستفتاء ، بل ظل مستمرا ، وكان الغرض من هذه المضابط ارسالها الى سوريا لكي يطلع عليها فيصل وتنشر في الصحف الاجنبية • وقد أرسلت تلك المضابط الى سوريا فعلا بيد اثنين من الافندية هما حسن فهمي وصبيح نجيب ، كما قدمت نسخ منها الى القنصليات الامريكية والفرنسية والايرانية في بغداد[1] •

ولم يكتف الوطنيون بذلك بل حاول بعضهم دعوة الجمهور الى الاجتماع في أحد المساجد الكبيرة للاستماع الى بعض الخطب الوطنية ولاختيار مندوبين عنهم للذهاب الى سوريا أو الى اوربا ، ولكن هذا الاجتماع لم يتم عقده لان السلطة أحست به قبل وقوعه فطوقت المسجد ومنعت الدخول فيه ، كما القت القبض على ثلاثة من الافندية هم : محمود السنوي ورشيد الشبلاوي ومحمود البعقوبي ، ونفتهم الى الهند ثم الى اسطنبول[2] •

شعر الوطنيون بضرورةتنظيم أنفسهمتنظيما سريا • وفي أواخرشباط ١٩١٩ تم تنظيم حزب سري باسم « حرس الاستقلال » ، وكان المؤسسون له : جلال بابان وشاكر محمود ومحمود رامز وعارف حكمت وحسين شلال وسعيد حقي وعبدالمجيد يوسف وعبداللطيف حميد ومحي الدين السهروردي [3] •

وفي الوقت نفسه تأسس حزب سري آخر هو فرع من حزب العهد،

---

(١) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ــ بغداد ١٩٥٤ ــ ص ٨٦ ــ٨٧ •
(٢) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ــ بغداد ١٩٢٣ ــ ص ١٣٦ •
(٣) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ــ صيدا ١٩٧٢ ــ ص ٥٩ •

وقد ترأسه الشيخ سعيد النقشبندي ، وكان من أعضائه المؤسسين : أحمد عزت الاعظمي وحسن رضا وبهاء الدين سعيد ونوري فتاح وعلاء الدين النائب وأمين زكي • وكان نوري فتاح صلة الوصل بين هذا الفرع ومركز الحزب في دمشق •

لم تمر على تأسيس هذين الحزبين سوى فترة وجيزة حتى بدأ الخلاف والتنازع يظهر بينهما • يقول مهدي البصير : ان العلاقات بين الحزبين كانت سيئة جدا فطالما تبادل رجال الحزبين الشتائم حتى صار الطعن في الاخلاق والمبادىء أمرا اعتياديا عندهم ، وأخذ بعضهم يتهم الآخر بالمروق من الوطنية والخيانة للوطن ...(٤) •

اختلفت الاقوال في تعليل هذا النزاع بين الحزبين ، فهناك من يقول ان النزاع بينهما كان مبعثه بعض القضايا الشخصية(٥) • وهناك من يقول ان سبب النزاع فقرة وردت في منهاج حزب العهد في دمشق تنص على قبول مساعدة بريطانيا الفنية والاقتصادية للحصول على استقلال العراق ، وقد اعترض حزب الحرس على هذه الفقرة اذ هو يعتبر بريطانيا ذات مطامع استعمارية في العراق وهو يفضل في موضوع المساعدة أية دولة أخرى على بريطانيا(٦) •

كان العهديون يتهمون الحرسيين بأنهم من عملاء الاتراك ، بينما كان الحرسيون يتهمون العهديين بأنهم من عملاء الانكليز • وحين علم مركز حزب العهد في دمشق بهذا النزاع أرسل الى بغداد وفدا مؤلفا من جميل المدفعي وابراهيم كمال وأحمد جلميران ، وقد وصل الوفد الى بغداد في ٢ تموز ١٩١٩ ، ونزل في بيت علي البازركان • وحاول المدفعي الاصلاح

---

(٤) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ص ١٤٥ •

(٥) جريدة (صدى الاحرار) الموصلية ـ في عددها الصادر في ١٩ ايار ١٩٥٣ •

(٦) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج ٣ ص ٥٧ ـ ٥٨ •

بين الحزبين ووزع على البعض منهم سبعمائة باون[٧] ، غير انه لم يوفق في مهمته اذ هو لم يكد يغادر بغداد حتى عاد الحزبان الى التشاتم والنزاع من جديد • وانتهى الامر بكليهما الى الانحلال •

بذرة جديدة :

في ١٠ آب ١٩١٩ قدم علي البازركان وحسن رضا وابراهيم العثمان طلبا الى نظارة المعارف لفتح ثانوية أهلية • وذهب البازركان الى الكابتن بيز ناظر المعارف وقدم اليه الطلب ، فسأله بيز : « لماذا تطلب مدرسة أهلية ومدارس الحكومة كثيرة ؟ » فأجابه البازركان : « ان المدارس الحكومية هي مدارس ابتدائية ولا يوجد بينها مدرسة ثانوية أو اعدادية، واكثر الشباب العراقي انقطع عن الدراسة وأخذ يتسكع في الطرقات بعد أن اغلقت المدارس الثانوية التركية ، وهم الآن يترحمون على أيام العثمانيين ويودون عودتهم الى البلاد ، فاذا ما حصلت على اجازة بفتح مدرسة ثانوية استطيع أن أنقذهم من مستقبل مظلم ، هذا بالاضافة الى أن لليهود والنصارى مدارس أهلية كثيرة تجمع شبابهم »[٨].

وافقت نظارة المعارف على تأسيس المدرسة ، ونشر علي البازركان في جريدة « العرب » بيانا هذا نصه :

شكر وبشرى

سمحت لنا الحكومة البريطانية المعظمة بفتح مدرسة ثانوية تلقب بـ (المدرسة الاهلية) ، غايتها تعليم وتربية أبنائنا • فنشكر الحكومة على عواطفها ونتمنى من جميع الاهلين المعاونة على انجاز هذا المشروع • والله خير موفق ومعين •

آل بازركان

علي[٩]

---

(٧) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ١٦٠ ، ١٨٢ •
(٨) المصدر السابق ـ ص ٩٢ •
(٩) جريدة (العرب) ـ في عددها الصادر في ١١ ايلول ١٩١٩ •

استؤجرت للمدرسة دار تعود الى رشيد باشا الزهاوي وهي تقع خلف جامع الوزير في محلة جديد حسن باشا واختير علي البازركان مديرا لها • وفي ٢١ تشرين الثاني أُقيمت حفلة الافتتاح شارك فيها علي البازركان ومحمد حسن كبه ومنير افندى خطيب الاعظمية وجعفر الشبيبي وكاظم الدجيلي وجميل صدقي الزهاوى وأحمد الشيخ داود وغيرهم • وفي ختام الحفلة جرى انتخاب أعضاء مجلس الادارة ، فانتخب عبدالوهاب النائب وحسن رضا وخالد الشابندر وجلال بابان وبهجت زينل وسليمان فيضي[10] •

بلغ عدد طلاب المدرسة سبعين ، وكان عدد مدرسيها عشرة ، وهم : صائب شوكت وعلي مظلوم وأمين زكي وجلال بابان ومكي الاورفلي ويوسف الكبير وعبدالرزاق الهاشمي وعبدالكريم الهاشمي وعبدالمجيد المبصر وطه البدري[11] •

أخذت المدرسة الاهلية تعقد في دارها اجتماعات عامة ، في عصر كل اثنين وخميس ، وكان ظاهر الاجتماعات أدبيا هدفه الاستماع الى الخطب والقصائد في الحث على العلم وحب الوطن ، ولكنها في حقيقتها كانت سياسية وقد أُلقيت فيها قصائد حماسية تدعو الى المطالبة بحقوق الشعب والكفاح في سبيلها « بحد السيف » • وصارت المدرسة كذلك تلقن تلاميذها بعض الاناشيد الوطنية الحماسية ، فكان التلاميذ يخرجون أحيانا في جولات في شوارع بغداد أو ضواحيها وهم ينشدون تلك الاناشيد ، وكانت تلك أول مرة يسمع الجمهور فيها أناشيد حماسية مناوئة للسلطة•

---

(١٠) سليمان فيضى (في غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٢٤١ •

(١١) عبدالرزاق الهلالي (تاريخ التعليم في العراق) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ص ٢١٧ •

لم يعر الانكليز أي اهتمام لنشاط المدرسة في أول الامر ، بل تركوها حرة تفعل ما تشاء ، ثم تبين بعد مرور فترة من الزمن أنهم كانوا في ذلك مخطئين . تقول المس بيل عن المدرسة مانصه : « ... كان مستواها أرفع بقليل من مستوى مدارس الحكومة الابتدائية لكنها بالنسبة لسيرها كانت شيئا لا اعتراض عليه ، ولذلك لم تجد الحكومة بأسا من مدها بمنحة مالية عندما طلبت لها بعد ذلك . لكن أهميتها السياسية سرعان ما أصبحت اكثر من أهميتها التعليمية ، وما حل الربيع حتى كانت مقرا للوطنيين المتطرفين »[12] .

اعادة تاسيس الحرس :

ان النشاط الوطني الذي نما في أحضان المدرسة الاهلية شجع القائمين بها على اعادة تأسيس حزب « حرس الاستقلال » من جديد . وقد تأسس الحزب فعلا في أواخر ١٩١٩ ، وأصبحت المدرسة مقرا له ، وصار يعقد جلساته السرية فيها .

الملاحظ ان الحزب كان في طور تأسيسه الاول مؤلفا من الافندية وحدهم ، ولكنه عند تأسيسه في المرة الثانية أصبح ذا طابع شعبي عام حيث فتح بابه على مصراعيها لكل من يريد الدخول فيه من التجار ورجال الدين والكسبة ، ولا سيما من الشيعة . وكان من بين الذين انتموا اليه السيد محمد الصدر وهو من ملائية الكاظمية ، والشيخ باقر الشبيبي وهو من أدباء النجف ، وكان لهذين الرجلين أثرهما في توثيق العلاقة بين الحزب وطائفة الشيعة . وفي أوائل ١٩٢٠ عاد جعفر أبو التمن من ايران، وكان قد سافر اليها في صيف ١٩١٩ ، فانتمى الى حزب الحرس . وكان انتماؤه ذا أهمية في توثيق علاقة الحزب بأسواق بغداد لما له من نفوذ فيها .

---

(١٢) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٢٤ .

وصادف في ذلك الحين أن تأسست في بغداد جمعية ثقافية باسم « جمعية الشبيبة الجعفرية » ، كان من أعضائها : محمد حسن كبه وصادق البصام وصادق حبه ومحمد الشماع وكاظم الشماع ومحمد مرزا وباقر سركشيك وعبدالرزاق الازري وعبدالعزيز القطان وصادق الشهربانلي وجعفر حمندي وذيبان الغبان ورؤوف البحراني وسليم الحريري[١٣] . وقد استطاع حزب الحرس أن يجتذب اليه أعضاء هذه الجمعية ، فانضموا الى الحزب حيث ألفوا فيه جناح الشباب ، وأخذ هذا الجناح ينمو بانضمام شبان آخرين اليه كسامي خونده وقاسم العلوي وغيرهما . وقد صار لهؤلاء الشبان دور ملحوظ في أحداث رمضان التي سنأتي الى ذكرها في فصل قادم اذ كانوا يطبعون منشورات الحزب بالجيلاتين ويلصقونها على الجدران ، كما كانوا يندسون بين الناس في المقاهي والاسواق والمجالس يبثون بينهم الاشاعات المطلوبة ويحرضونهم على التجمع عند الحاجة .

بين بغداد والفرات

في أوائل آذار ١٩٢٠ انتمى السيد هادي زوين ، وهو من وجهاء الجعارة وسادتها ، الى حزب الحرس . ومنذ ذلك الحين أخذ هذا الرجل يتردد بين بغداد والنجف حيث صار واسطة الاتصال بين حزب الحرس والفرات الاوسط علاوة على باقر الشبيبي .

وفي شهر نيسان ١٩٢٠ كانت الحركة الوطنية قد نضجت في الفرات الاوسط ، وجرى الاستعداد من قبل الكثيرين من رؤساء العشائر لحضور زيارة منتصف شعبان في كربلاء للاتفاق على خطة للعمل . وجاء السيد

---

(١٣) نقلا عن رسالة غير مطبوعة لعبدالرزاق الدراجي نال بها شهادة الماجستير من قسم التاريخ في كلية الآداب ، وموضوعها : (جعفر ابو التمن) ، وهي رسالة قيمة ومن المؤسف أن صاحبها مات بعد نيله الشهادة بمدة وجيزة . نرجو من وزارة الاعلام طبع هذه الرسالة لاهميتها .

هادي زوين الى بغداد لدعوة البغداديين لارسال مندوب عنهم الى كربلا[١٤] • وفي ٢٢ نيسان عُقد في دار حمدي باشا بابان اجتماع حضره السيد هادي زوين وجعفر أبو التمن والسيد محمد الصدر ويوسف السويدي ورفعت الجادرجي وفؤاد الدفتري وأحمد الشيخ داود وسعيد النقشبندي وعبدالوهاب النائب ، كما حضره من الشبيبة جلال بابان وصادق حبه وصادق الشهربانلي • وقد بسط السيد هادي في الاجتماع حالة الفرات الاوسط واستعداد الرؤساء والعلماء للعمل ، وطلب من البغداديين تحديد موقفهم من ذلك ، فأجابه جعفر أبو التمن بأن البغداديين مستعدون للعمل بمقدار ما يبديه علماء الفرات ورؤساؤه من معاضدتهم ، ثم أردف يقول انه عازم على السفر الى كربلاء لحضور زيارة منتصف شعبان • فوافق الحاضرون على رأيه وقرروا أن يكون مندوبا عنهم للاتفاق مع الشيرازي والرؤساء •

وفي ٢ أيار سافر أبو التمن الى كربلا بصحبة السيد هادي زوين ، فقابل الشيرازي كما حضر الاجتماع الكبير الذي ُعقد هناك • وبعد انفضاض الاجتماع سافر أبو التمن مع السيد هادي الى النجف فقابل فيها بعض العلماء والرؤساء ، ثم عاد الى بغداد •

كان «الانتداب» قد أُعلن في بغداد في أثناء غياب أبو التمن عنها ، ولما عاد أبو التمن اليها وجد فيها الاستياء من « الانتداب » شديداً • وفي ٩ أيار عُقد اجتماع ثاني في بيت حمدي بابان حضره الذين حضروا الاجتماع الأول ، وقد تحدث أبو التمن فيه عما وجده من تصميم على العمل لدى العلماء والرؤساء في الفرات الأوسط • فقرر الحاضرون المباشرة بنشر الدعوة في بغداد الى انشاء الحكومة الوطنية • وفي اليوم التالي عقدت الهيئة

---

(١٤) نقلا عن أوراق علي البازركان • واني اشكر حسان علي البازركان على اعارته اياي تلك الاوراق •

التنفيذية لحزب الحرس اجتماعاً قررت فيه استغلال شهر رمضان الذي كان قريباً للقيام بتظاهرات سياسية تحت ستار الحفلات الدينية (١٥) .

وفي ١٣ أيار عقد اجتماع آخر في بيت فؤاد الدفترى حضره بعض البغداديين من ذوى الميول التركية ،وهم : فتاح باشا وأحمد أوراق وعبدالله صبري والحاج دلي البيمباشي ونجيب أفندي وفؤاد أفندي مدير السنية ومراد بك سليمان وصالح بك قائمقام الرديف ومصطفى بك الاطرش ومدحت بك وقاسم راجي وغيرهم. وقد قرروا في الاجتماع رفض الانتداب البريطاني وطلب الانتداب التركي أو الاستقلال التام . واقترحوا تنظيم أنفسهم في جمعية سموها " فداء الوطن " (١٦) . ولكن هذا الاجتماع لم يكد ينفض حتى وصل خبره الى الاستخبارات البريطانية ، والظاهر أن أحد الحاضرين كان عيناً للانكليز فيه فقدم لهم تقريراً بأسماء الحاضرين وما جرى في الاجتماع من مداولات .

اعلان الانتداب :

كانت مقررات سان ريمو قد أعلنت في أوربا في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ ، حيث قضت بأن يكون العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . وقد وصلت هذه المقررات الى ويلسون في ١ أيار ، فأوعز ويلسون بنشرها في العراق كما أصدر معها بلاغاً عاماً يشرح للناس فيه معنى الانتداب ويحببه الى قلوبهم .

لايسعنا المجال نقل البلاغ كله ، ونكتفي بنقل الجزء المهم منه . فقد أشار البلاغ في البداية الى الغاية « النبيلة » التي تسعى نحوها بريطانيا في انتدابها على العراق ، وذكر ماقاساه العراق من الظلم وسوء الادارة في القرون الماضية ، وكيف أن بريطانيا انما قبلت أن تقوم بمهمة الوصاية

---

(١٥) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) — ص ١٤٢ — ١٤٤ .
(16) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 315 - 316.

عليه من أجل أن ترشده الى ما فيه نفعه وخيره • ثم قال البلاغ ما نصه :

« لبلوغ هذه الغاية لاينبغي أن تقتصر مساعي الوصي على الاعتناء بترقية البلاد الموصى بها ترقية مادية فقط ، بل انه يترتب على الدولة الوصية أن تجعل نفسها ذلك الحارس العاقل النبيه ، البعيد النظر ، الساهر على مصلحة البلاد ، فيأخذ بيد شعبها ويسير به نحو الرقي ، ويدربه تدريباً يجعله صالحاً للجلوس في مصاف شعوب العالم ••• بيد أن الاصلاح والتجديد ، وان كانا لا يتمان بيوم واحد ، فانه لا يعسر القيام بهما مع شعب ذكي كالشعب العراقي السريع الادراك والتعلم ، الغيور على السعي وراء الانتفاع من نتائج العلم • فقد بدت علائم الانتعاش والنهوض في كل مكان ، واستتب الأمن مكان الاضطراب ، وتحولت الاراضي المقفرة الى صروح خصبة زاهية ، وأصبح الفقير آمنا جور القوي وبغيه ، وأمسى الغني يتنعم بسلم وطمأنينة بثروته ••• وكما يستبشر الوصي ويفرح بنمو القاصر الموصى به حين يبلغ سن الرشد ويصبح رجلاً حراً مستقلاً ، كذلك تستبشر الدولة الوصية وتبتهج عندما ترى المعاهد السياسية آخذة بالرقي والتقدم حتى تصبح حرة مستقلة قوية الدعائم ثابتة الاركان • وهنالك الدليل الواضح على نجاح العمل الذي شرع به ، وهو الاساس الثابت الذي يبنى عليه الاعتماد المتبادل والصداقة الدائمة »[١٧] •

كان ويلسون يظن أنه بمثل هذا الكلام المعسول سيقنع العراقيين بنفع الانتداب لهم ، وهذا يدل على جهله بالطبيعة البشرية • فان الكلام مهما كان معسولاً لايمكن أن يؤثر في العقل البشري الا اذا كان العقل مستعداً للتأثر به ، أما اذا كان العقل غير مستعد فان الكلام قد يؤدي الى عكس المطلوب منه • وهذا هو ما حدث فعلاً عند نشر البلاغ في جريدة

---

(١٧) جريدة (العرب) ــ في عددها الصادر في ١٣ أيار ١٩٢٠ •

« العرب » ، فان الناس أخذوا يعلنون تذمرهم واستياءهم من الانتـداب قائلين : « هل نحن أطفال لكي نحتاج الى وصي يرعى شؤوننا » • وانتشر بين التلاميذ في المدارس نشيد يتضمن البيتين التاليين :

الحمايـة والوصايـة كلها معنى الأسـر
وعلى العيش بـذل أبـداً لانصطبـر

يعلل ويلسون هذا الاستياء من الانتداب بأنه موحى به من قبل فئة صغيرة من الطموحين الميالين الى الانتقاد ، وان هذه الفئة قد تلقت تشجيعاً على ذلك من بعض الضباط البريطانيين العاملين في حكومة دمشق • ثـم يقول ويلسون : ان لفظة « الانتداب » لم تكن مستحسنة في نظر العرب لانها تعني السيطرة أو ما يشبه ذلك ، ولو استعمل تعبير « الائتمان » بدلاً عنها لأمكـن تحاشي بعض اعتراضات العرب (١٨) •

يحسب ويلسون ان استبدال كلمة بأخرى يكفي لجعـل الناس يرضون بالانتداب • وما درى ان الامر أعمق من ذلك • فلو جيء بأجمل الكلمات وأروعها لما تغيرت نظرة الناس الىالانتداب شيئاً ، فما دامت عقولهم مشحونة بالعداء للانكليز فلابد أن يرتابوا وينفروا من أي شيء يصـدر عنهم مهما كان اسمه أو شكله • وقد صدق الشاعر العربي حين قال :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السـخط تبدي المساويا

(18) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 252.

الفصل الثامن

نشأة الحركة الوطنية في كربلاء

نشأت الحركة الوطنية في كربلاء ، مثلما نشأت في بغداد ، على أثر الاستفتاء • وكان لولبها وقطب رحاها المرزا محمد رضا ، وكان أبوه يؤيده في ذلك •

أسس المرزا محمد رضا في كربلا جمعية سرية بأسم « الجمعية الاسلامية » انتمى اليها عدد من رؤساء كربلا وسادتها كان من بينهم : هبة الدين الشهرستاني وحسين القزويني وعبدالوهاب الوهاب وعبدالكريم العواد وعمر العلوان وعثمان العلوان وطليفح الحسون وعبدالمهدي القنبر ومحمد علي أبو الحب (١) • وكان هدف الجمعية رفض الحكم الانكليزي والمطالبة باستقلال العراق واختيار ملك مسلم له • وقد أصدر الشيرازي فتواه المشهورة لتأييد هذه الجمعية وهذا نصها : « ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للامارة والسلطنة على المسلمين » (٢) •

كان أهل كربلاء كأهل بغداد منقسمين الى فريقين : موالين للسلطة ومناوئين لها • وكان علماء كربلا منقسمين كذلك ولكن الموالين منهم لم يعلنوا ولاءهم جهاراً خشية سوء السمعة • فقد ورد في أحد التقارير الانكليزية السرية التي كتبت بعدئذ أن عدداً كبيراً من علماء كربلا أعربوا للحاكم السياسي عن نفورهم من حركات المرزا محمد رضا ورفضهم

---

(١) عبدالرزاق الوهاب (كربلاء في التاريخ) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ج٣ ص ٢٥ •

(٢) الغريب ان كل المؤلفين الذين كتبوا عن ثورة العشرين أجمعوا على ان هذه الفتوى صدرت بمناسبة الاستفتاء ، وهذا خطأ واضح لا ادري كيف غفلوا عنه مع العلم ان تاريخ الفتوى مسجل عليها بخط الشيرازي نفسه وهو ٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ ـ وهو يوافق ٢٣ كانون الثاني ١٩١٩ م ـ أي أنها صدرت بعد انتهاء الاستفتاء •

الاشتراك فيها [٣] .

لما صدرت فتوى الشيرازي أيدها سبعة عشر من علماء كربلاء ووضعوا أختامهم عليها ، ثم أُرسلت نسخ منها الى بعض مدن وعشائر الفرات الاوسط [٤] وكان الغرض من ذلك ترويج الدعاية للجمعية الاسلامية ومنع الناس من قبول الحكم البريطاني وحثهم على المطالبة بالاستقلال .

من الممكن القول ان فتوى الشيرازي كانت عاملاً مهماً في تطوير الوعي السياسي في العراق ، فهي قد جعلت الدين والوطنية في اطار واحد ، وهذا أمر جديد لم يكن الناس يألفونه من قبل . وبذا أصبح الوطني متديناً والمتدين وطنياً . وانتشر بين الناس الحديث المنسوب الى النبي وهو « حب الوطن من الايمان » ، وصار شعاراً للحركة الوطنية الجديدة .

الشكوى الى امريكا :

في ١٣ شباط ١٩١٩ ـ أي بعد صدور الفتوى بعشرين يوماً ـ كتب الشيرازي كتابا بالفارسية يشكو فيه من تعسف السلطة الانكليزية في العراق ، وأرسله سراً الى ايران لتقديمه الى الوزير المفوض الامريكي في طهران . وفيما يلي ترجمته العربية :

تحظى بخدمة جناب الأجل سفير دولة أمريكا المتحدة في طهران المحترم .

بعد الاحترام اللائق لزمنا ان نحرر لكم في هذه الآونة على سبيل الايجاز وذلك نظراً الى ما أملته حكومة الولايات المتحدة من الشروط المعروفة التي قدمها رئيس جمهوريتها لاحقاق الحقوق وتقرير المصاير قد رأينا أن نراجع حكومة الولايات المتحدة بتوسطكم ونستعين بها في تأييد حقوقنا بتشكيل دولة عربية ، ولا يخفاكم ان كل أمة مطوقة بالقوات العسكرية

---

(3) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 336.

(٤) عبدالرزاق الوهاب (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٤٥ ـ ٤٧ .

المحتلة من كل الجوانب لاتجد امامها مجالا حرا للتعبير عن ارائها في الحرية والاستقلال ، أما حرية الرأي المزعومة في هذا العهد فلا يطمئن اليها الناس لهذا خشي اكثر الاهالي أن يعلنوا رغائبهم ويكشفوا عما في ضمائرهم ، واذا ظهر منهم خلاف ذلك فانه لاشك منبعث عن الظروف القاسية المحيطة بهذه البلاد ، لذلك رأى الشعب أن يستعين بحكومة الولايات المتحدة على المطالبة بحقوقه وانجازها • ١٢ جمادى الاول سنة ١٣٣٧ •

محمد تقي الحائري الشيرازي

وفي الوقت نفسه كتب الشيرازي بالتضامن مع الشيخ فتح الله الاصفهاني، الذي يليه في المنزلة الدينية ، كتاباً موجهاً الى الرئيس الامريكي ودرو ويلسون • وفيما يلي ترجمته العربية •

الى حضرة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية •

ابتهجت الشعوب جميعها بالغاية المقصودة من الاشتراك في هذه الحروب الاوربية من منح الأمم المظلومةحقوقها وافساح المجال لاستمتاعها بالاستقلال حسب الشروط المذاعة عنكم • وبما أنكم كنتم صاحب المبدأ في هذا المشروع ، مشروع السعادة والسلام العام ، فلا بد أن تكونوا الملجأ في رفع الموانع عنه ، وحيث وجد مانع قوي يمنع من اظهار رغائب كثير من العراقيينعلى حقيقتها بالرغم مما أظهرته الدولة البريطانية من رغبتها في ابداء آرائهم ، فرغبة العراقيين جميعهم والرأي السائد بما أنهم أمة مسلمة أن تكون حرية قانونية واختيار دولة جديدة عربية مستقلة اسلامية وملك مسلم مقيد بمجلس وطني • وأما الكلام في أمر الحماية فان رفضها او الموافقة عليها يعود الى رأي المجلس الوطني بعد الانتهاء من مؤتمر الصلح ، فالأمل منا حيث أننا مسؤولون عن العراقيين في بث آمالهم وازالة الموانع عن اظهار رغائبهم بما يكون كافياً ليطلع الرأي العام على حقيقة الغاية التي طلبتموها في الحرية التامة ويكون لكم الذكر الخالد في التاريخ ومدنيته الحديثة •

شيخ الشريعة الاصفهاني   محمد تقي الحائري الشيرازي

نفـي واعـادة :

ان نشاط المرزا محمد رضا وأعوانه في كـــربلا أخاف الســـلطة الانكليزية مما دفعها الى القيام باجراء حسبته رادعاً • ففي ٢ آب ١٩١٩ القت القبض على ستة أشخاص من أهل كربلا وسفرتهم الى بغداد بغية نفيهم الى الهند ، وهم : عمر العلوان وعبدالكريم العواد وطليفح الحسون ومحمد علي أبو الحب والسيد محمد مهدي المولوي والســـيد محـــمد علي الطباطبـائي •

أرسل الشيرازي الى ويلسون في ٥ آب كتاباً يحتج فيه على تسفيرهم ويطلب منه اخلاء سبيلهم حيث وصفهم بأنهم لم يفعلوا شيئاً سوى القيام بالمطالبة السلمية بحقوق البلاد المشروعة • فأجابه ويلسون بكتاب هذانصه :

حضرة آية الله العظمى حجة الاسلام المرزة محمد تقي الحائري الشيرازي دامت بركاته •

لي الشرف أن أعرض لكم أنه وصلنا كتابكم المؤرخ ٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ تذكرون بكل أسف أن الاعمال التي أقدمت عليها حكومة بريطانيا العظمى لاجراء واجبات وظائفها ، ولحفظ أحكام القوانين والانظمة، أوجبت استياء وتشويش العلماء الاعلام دامت بركاتهم في كربلا • وكنت أعتقد ان تجاريب الاربع سنوات الماضية قد أثبتت لدى حضرتكم ومتعلقيكم بان الحكومة البريطانية اعتنت بصيانة وسلامة العتبات المقدسة اكثر من أية دولة أخرى •

كانت كربلا منذ مدة طويلة بؤرة للاغتشاشات والثورات بين الاهالي والحكومة ، وكما لايخفاكم بأن هذه الثورات كانت تحدث اضراراً وخسائر وتلفيات كثيرة من قبل الجنود التركية على الاهالي والمدينة ، ولا سيما ان شرف العلم والعلماء كان غير مصون في تلك العصور مما أدى الى تيقـظ الحكومة البريطانية واهتمامها بمثـــل هذه الاحوال المخالفة للعـــادات البريطانيــة •

لقد حصلت لنا اطلاعات كافية في مدة الاثنى عشر شهراً الماضيــة تثبت ان بعض الاشخاص في كربلا يقومون بتشويش الاذهان ، وينشرون اخباراً غير مرضية ، وغايتهم من ذلك تشويش أفكار الناس ضد الحكومة البريطانية . وكنت منتظراً من مدة طويلة انتهاء هذه الاشاعات الغير مرضية بعد اعلان الصلح ولكني ألاحظ ان الأمر قد انعكس وان بعض الجاهلين قد زادت جسارتهم وكثر سعيهم في تشويش الناس . فلذا لاحظت أن من الواجب القبض على بعض الافراد . وان الاشخاص الذين قبض عليهم هم أربعة من أهالي المدينة الذين لم تكن لهم أية علاقة معكم ولا مع العلماء الاعلام والروضات المطهرة . والاثنان اللذان هما من السادة ، وان لـم يكونا من ذوي الاهمية ، الا انهما كانا ينشران الاشاعات الكاذبة ضـــد الانكليز ، وهو باعث لتشويش أفكار الأهالي . ونظراً لاقداماتكم فقـد عزمنا على تسريح السيد محمد علي الطباطبائي وارساله الى سامراء على أن يسكن هناك ولا يخرج منها بدون اجازة منا . فنرجوكم اشعاره بهذا الأمر تحريرياً عند وصول كتابنا هذا اليكم مع اخباره بان يبقى هناك ساكتاً وان لا يتدخل في أمور الناس ، واذا تخلف عن التقيد بهذا الامر فأننا بكمال حريتنا ننفيه عن هذه المملكة الى محل لايتمكن فيه من احداث أي تشويش . أما السيد محمد مهدي المولوي فان له اليد الطولى في تشويش أفكار العموم، وبما أنه هندي الاصل فقد استحسنا ارساله الى وطنه الاصلي حيث يعيش بكمال الحرية لأنه لايمكن ابقاؤه في كربلا حيث وجوده موجب لعـدم استراحة الناس فيها .

لنا وثيق الرجاء ان بعض الاشخاص في كربلا قد انتبهوا واحترزوا من بعض أعمالهم التي توجب عليهم المسؤولية . ان حكومة بريطانيا ترغب في اعطاء جميع الناس الرفاهية التامة ، لكنهـا لاتود أن يســتعمل بعض الاشخاص هذه الحرية والرفاهية لاغراض تولد الاغتشاشات والتشويشات بين الناس . وقد قدمت هذه الرسالة بواسطة النواب محمد حسين خان ،

المعروف بالخدمة لدينا ، وفي الحقيقة أنه الرجل الوحيد الذي نعتمد عليه، وقد زودته ببعض معلومات شفهية ليعرضها على حضرتكم والسلام •

لفتننت كولونيل اي • تي • ولسن

القائم بأعمال الحاكم الملكي العام في العراق(٥)

عندما وصل هذا الكتاب الى الشيرازي تألم كثيراً وأعلن عن عزمه على الهجرة الى ايران لكي يفتي من هناك بالجهاد ضد الانكليز • ولما انتشر خبر عزمه على الهجرة أخذت الرسائل ترد اليه من الكاظمية والنجف وغيرهما يبدي أصحابها عزمهم على الهجرة معه • وفيما يلي ننقل احدى تلك الرسائل :

الى مقامكم الروحاني المقدس نرفع خلوصنا ونقدم واجب احترامنا •

ياآية الله الكبرى ان حادث كربلاء المقدسة أقام قيامة العلماء وكدر خواطر الفقهاء ، أدمى القلوب وأبكى العيون ، كيف لا وانه اعتداء على مقام الاسلام ، وتوهين بمنازل العلماء الاعلام ، ومس لكرامة أهل البيت عليهم السلام ، واستهانة بالشريعة ، وتحقير للشيعة • ياحجة الاسلام ، لم يبلغنا خبر هجرتكم الا" وصممنا على اتباعكم والسير على منهاجكم فلا تطيب لنا بعدكم دار ولا يكون لكافة أهل العلم قرار ، فآمرونا فاننا ممتثلون طوع أمركم ورهن اشارتكم ، فقد حرم والله علينا البقاء في هذه الديار التي أكلها الظلم ، فكبر علينا أن نرى أنفسنا أذلاء تحت رحمة الاستبداد وسلطة الاستعباد ، فالهجرة أولى والحركة الى مواطن العمل أحرى •

التواقيع :

سعيد كمال الدين ، محمد باقر الشبيبي ،محمد الشيخ يوسف ،
سيد حسين كمال الدين ، عبدالرضا السوداني ، سيد أحمد الصافي ،
سيد سعد جريو (٦) •

لم يطل الأمر بالمبعدين سوى أربعة أشهر • فقد وجد ويلسون ان

---

(٥) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ٩٠ ـ ٩٢ •

(٦) عبدالرزاق الوهاب (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٨٥ •

من المصلحة استرضاء الشيرازي فأوعز باعادتهم ، كما أنه أرسل مبلغاً كبيراً من المال الى الشيرازي بيد معتمده محمد حسين خان الكابولي • وقد رفض الشيرازي قبول المبلغ غير أنه كتب الى ويلسون رسالة مجاملة ، فأجابه ويلسون برسالة شكره فيها وأشار الى التقدم المادي الذي حصل في العراق خلال السنتين او الثلاث الماضية ، وشمول الهدوء والسكينة في أنحاء البلاد بصورة لم يسبق لها مثيل • وطلب منه ان يساعد الحكومة في ذلك (٧) •

كانت عودة المبعدين الى كربلا في يوم ٢ كانون الأول ١٩١٩ ، فاستقبلوا فيها استقبالاً رائعاً • وقد ظن ويلسون أنه هدأ الوضع باعادتهم ، وما درى انه زاده اشتعالاً • فانهم أصبحوا في نظر الناس أبطالاً وطنيين يشار اليهم بالبنان ، وبهذا صاروا قدوة لغيرهم اذ أخذ كل شخص يحاول أن يكون وطنياً مثلهم لكي ينال السمعة التي حصلوا عليها • تقول المس بيل في ذلك ما نصه : « ولكن أولئك المشبوهين أطلق سراحهم بكفالة المرزا محمد تقي نفسه ، فعادوا في الحال الى سيرتهم الاولى • وبذا فقد شجع الحادث حبك الدسائس بدلاً من ايقافها عند حدها » •وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : « وفي أوائل آذار ١٩٢٠ قيل ان المرزا محمد تقي الشيرازي أصدر فتوى يحرم فيها توظف المسلمين في الادارة البريطانية • وكتب الحاكم السياسي في الديوانية يقول ان جثة أحد أفراد الشبانة لم يسمح بدفنها حسب الاصول الشيعية المتبعة ، وان الاستقالات من خدمة الحكومة تزداد يوماً بعد يوم ••• » (٨) •

المعاهدة البريطانية الايرانية :

كان كوكس منذ أواخر ١٩١٨ يسعى في طهران لعقد معاهدة بين بريطانيا وايران ، وقد استمرت مفاوضاته من أجلها تسعة أشهر ، وكان

---

(٧) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ص ٩٢ ـ ٩٣ •
(٨) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٤١ •

رئيس الوزارة الايرانية « وثوق الدولة » ميالا لعقدها بينما كان الشعب الايراني معادياً لها ومتذمراً منها ٠

كان من الطبيعي أن يسرى عدوى التذمر من المعاهدة الى كربلا ، وذلك لسببين أولهما : ان كربلا كانت تضم جالية ايرانية كبيرة ، ولابد أن تتحسس هذه الجالية بأحداث ايران وتتأثر بها ٠ والثاني : ان انتقـــال المرجعية الدينية الى الشيرازي وهو يسكن كربلا جعل هذه البلدة مقصداً للكثير من الزوار والطلبة الايرانيين ،وهذا يؤدي طبعاً الى ازدياد تأثرها بأحداث ايران ٠

في نيسان ١٩١٩ دعا الشيرازي الشيخ فتح الله الاصفهاني والســـيد اسماعيل الصدر الى اجتماع في بيته للمداولة في أمر المعاهدة ٠ وقد عُقد الاجتماع في ١١ منه ، وبعد المداولة قرر الثلاثة ارسال برقية الى وثوق الدولة يطلبون منه الامتناع عن عقد المعاهدة ٠ وفي ما يلي ترجمة البرقية :

مقام منيع رئاسة الوزراء العظام دام تأييدهم ٠

بعد تقديم الأدعية الخالصة نعلمكم أن الكتب العديدة التي وردت من ايران تنبيء عن أنكم عقدتم مع الانكليز معاهدة خشي منها من راعى العواقب ذهاب استقلال ايران ، فأوجب ذلك اضطرابنا نحن خدام الشريعة المطهرة ٠ ونحن من جهة لا نتصور أن عاقبة هذا الأمر تخفى على جنابكم العالي ، أو أنكم والعياذ بالله رضيتم بان تكونوا في عهد رئاستكم للوزارة خاتمة لاستقلال ايران ، ومن جهة أخرى نرى أن هذه المعاهدة صريحة في محو استقلال ايران ٠ ان رجال ايران في الماضي كان لهم أشد المحافظة والاحتياط على استقلال البلاد الاسلامية ويتحرزون من كل ما يشم منه رائحة تمس شرف الممالك الايرانية ٠ فان كنتم قد اتخذتم وسيلة لدرء تلك العواقب فلا بد أن تطلعونا عليها ليطمئن بالنا ويهدأ جميع المسلمـين الذين هم في اضطراب شديد ، والاّ تصدينا للتخلص من هذه المعاهـدة المشؤومة بكل ما يمكننا من القوي حتى يظهر للعالم بأسره أن المسلمين يستطيعون أن يكسروا طوق العبودية والرقيـــة ولا يصبرون على الذل

والهوان • والأمل انكم لاترضون بعبودية المسلمين للأجانب وتسعون لما نسعى نحن اليه والسلام •

التواقيع : شيخ الشريعة اصفهاني غروي ، الاحقر اسماعيل الصدر ، الاحقر محمد تقي الشيرازي [٩] •

تولى الشيخ محمد الخالصي مهمة ارسال البرقية الى طهران سراً حيث كلف بها أحد تجار الكاظمية وهو الشيخ هاشم پوستفروش فحملها هذا الى كرمانشاه ومن هناك أبرقها الى طهران • ولكن البرقية لم تؤثر في رئيس الوزارة الايرانية شيئا •• فقد تم عقد المعاهدة في ٩ آب ١٩١٩ ، وفي مساء ٢٠ منه أقامت بلدية كربلا حفلة فخمة في ساحة الميدان ابتهاجاً بعقد المعاهدة أنفقت عليها نحو ألف روبية ، وخطب فيها رجل مصري كان موظفا لدى الانكليز اسمه حماد خيري [١٠] •

اشتدت نقمة الايرانيين على المعاهدة بعد عقدها ، وكان ابن الشيرازي من اكثر الناس نقمة عليها • واضطر وثوق الدولة الى الاستقالة في ربيع ١٩٢٠ ، وقد ألغيت المعاهدة بعدئذٍ •

المرزا محمد البوشهري :

قرر ويلسون في ايلول ١٩١٩ نقل الميجر بوفل من كربلا الى طويريج وعين بدلا عنه في كربلا رجلا من أصل ايراني اسمه المرزا محمد البوشهري [١١] • وقد باشر هذا الرجل في وظيفته الجديدة في ١٤ أيلول•

---

(٩) نقلا عن كتاب (بطل الاسلام) المخطوط للشيخ محمد الخالصي •

(١٠) عبدالرزاق الوهاب (المصدر السابق) – ص ٦٠ •

(١١) ان هذا الرجل هو الذي عرف فيما بعد باسم محمد أحمد المحامي ، وكان قبل الحرب موظفا في القنصلية البريطانية في بوشهر ، وفي أثناء الحرب عين في سلك القضاء في البصرة ، ومنها نقل الى كربلاء ، وقد منحه الانكليز لقب « خان بهادور » ، فصار اسمه : « المرزا محمد خان بهادور » •

كان ويلسون يقصد من تعيين البوشهري كسب رضا الشيرازي وأهل كربلا ، ولكن النتيجة الفعلية كانت على العكس مما أراد • حدثني البوشهري ـ وكنت قد زرته في البصرة قبيل وفاته في ربيع ١٩٧٢ ـ فقال انه انجز في أثناء حكمه في كربلاء كثيراً من المشاريع العمرانية والثقافية ، فكانت هذه المشاريع سبباً لاغضاب الكثيرين من أهل كربلا • وروى لي البوشهري أنه زار الشيرازي في أحد الايام فأخذ الشيرازي يلومه على أعماله وقال له : ان الانكليز انما عينوك حاكماً في كربلا لكونك شيعياً اذ أرادوا بذلك استرضاء الناس ، ولكن تبين أخيراً ان الناس غير راضين عنك • ثم أخذ الشيرازي يعدد مساوءه وهي أربعة :

(١) انه جلب الماء الى البلدة بالأنابيب ، (٢) انه فتح مدارس لتعليم اللغة الانكليزية ، (٣) انه فتح مدارس للبنات ، (٤) وأخيراً جاء بالكهرباء وهي مغلفة بشحم الخنزير •

لست واثقاً من صحة هذه الرواية التي حدثني البوشهري بها ، واعتقد ان الشيرازي كان أرفع شأناً واكثر تعقلا من أن يتفوه بمثل هذه الاقوال التي نسبها البوشهري اليه • ولكني مع ذلك لا أستبعد ان تثير أعمال البوشهري غضب الكثيرين من الناس في كربلا ، فتلك عادة الناس دائماً حين يأتيهم أمر جديد لم يألفوه من قبل ، فهم لابد أن يستنكروه ويتقولوا عليه الاقاويل ، وربما قاوموه وحاربوه •

ومن الطريف أن اذكر هنا ان أحد الكربلائيين عندما سألته عن البوشهري أخذ يقدح فيه وقال عنه انه كان يتظاهر بالتشيع بينما هو في حقيقته عدو للشيعة ، انه عوضي أي من العوضية الذين يسكنون في جنوب ايران وهم من الخوارج « لعنهم الله » !

الفصل التاسع

الفرات الاوسط

وفكرة الثـورة المسـلحة

ان رجال الحركة الوطنية في بغداد وكربلا لم يكونوا في بداية أمرهم يفكرون في القيام بثورة مسلحة على الانكليز ، بل كان تفكيرهم متجهاً الى المطالبة السلمية بتحقيق ما وعدهم به الانكليز من الحرية والاستقلال • الواقع ان فكرة الثورة المسلحة لم تظهر الا لدى بعض سادة العشـائر ورؤسائها في الفرات الاوسط ، وخاصة في المشخاب ، فهم أول من نادوا بها ، ثم صارت دعوتهم تنتشر في المناطق الأخرى شيئاً فشيئاً مما أدى أخيراً الى اندلاع شرارة الثورة في الرميثة •

خصائص الفرات الاوسط :

تتميز عشائر الفرات الأوسط بخصائص يندر أن نراها مجتمعة في عشائر العراق الأخرى ، وفي رأيي ان هذه الخصائص هي التي جعلت تلك العشائر تتبنى فكرة الثورة المسلحة قبل الآخرين ، كما أنها هي التي جعلتها تضطلع بالعبء الاكبر للثورة بعدئذ • وسنحاول فيما يلي ذكر أهم تلك الخصائص بايجاز :

اولا : ان الفرات الاوسط هو « المدخل » الثاني للعراق بعد منطقة الجزيرة بالنسبة للقبائل البدوية القادمة من الصحراء ، ولهذا فان عشائره لا تزال تحافظ على الكثير من القيم البدوية من حيث الاعتزاز بالنسب والكرامة الشخصية وشدة التمسك بالعصبية القبلية والدخالة والاباء والثأر وما أشبه [1] •

---

(١) علي الوردي (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ـ بغداد ١٩٦٥ ـ ص ١٦٠ •

ثانيا : ان الفرات الاوسط كان منذ صدر الاسلام ، ومازال حتى الآن ، مركز التشيع في العالم الاسلامي • فقد كانت الكوفة المركز الاول للتشيع كما هو معروف ،ثم انتقل المركز الى بغداد لفترة قصيرة عاد بعدها الى النجف في القرن الخامس الهجري ، وفي العهد المغولي أصبحت الحلة مركز التشيع ، ثم انتقل منها الى كربلاء، وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي انتقل الى النجف مرة أخرى وبقي فيها • ويجب أن لا ننسى ما في التراث الشيعي من نزعة قوية الى التفلسف والجدل والنقد السياسي • ولهذا أصبح رؤساء الفرات الأوسط اكثر من غيرهم ثقافة ومقدرة على الجدل وانهماكاً في السياسة • فهم لكثرة ترددهم على العتبات المقدسة والأوساط الدينية لابد أن يقتبسوا منها تلك النزعة قليلا أو كثيراً •

ثالثا : في اواخر القرن الثامن عشر حدث في الفرات الاوسط تغير جغرافي كان له أثره الكبير في حياته الاجتماعية ، هو شق نهر الهندية ، فقد تحولت مياه الفرات من مجراها القديم المار بالحلة والديوانية الى المجرى الجديد ، ولهذا اضطرت العشائر القاطنة على المجرى القديم الى الهجرة عنه والانتقال الى الاراضي التي توفرت فيها المياه أخيراً • وقد أدى هذا الانتقال الى حدوث نزاع هائل بين العشائر حول الاراضي ، فصارت كل عشيرة تحاول الاستحواذ على الاراضي الجيدة بقوة سلاحها ، فكان ذلك سبباً اضافياً لتدعيم القيم البدوية في تلك العشائر وتنمية مقدرتها على القتال •

رابعا : ان منطقة من الاراضي الجديدة التي تحول اليها الفرات مؤخراً اختصت بزراعة الرز ، وصارت من جراء ذلك من أغنى المناطق الزراعية في الدولة العثمانية كلها [٢] • وتشمل هذه المنطقة الاراضي التي تقع الى الجنوب من النجف والى الشرق منها أو ما يسمى الآن بالمشخاب والشامية • وقد ورد ذكر هذه المنطقة في أحد التقارير البريطانية لعام

---

(٢) آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ١٨٤ •

١٩١٨ حيث وصفها التقرير بانها « حديقة العراق »[٣] • فهي تنتج نحو أربعين بالمائة من مجموع انتاج الرز في العراق • ومن الجدير بالذكـــر ان للرز اهمية خاصة بالمقارنة الى غيره من الحبوب اذ هو ذو قيمة نقدية كبيرة ، وقد أدى ذلك الى ظهور عدد غير قليل من الرؤساء في هذه المنطقة يملكون ثروات كبيرة مما جعلهم قادرين على التفكير في السياسة وعلى الاشتغال فيها • والواقع ان كثيرا من هؤلاء الرؤساء كانوا قبل الحرب من انصار الحركة القومية التي اضطلع بها السيد طالب النقيب في البصرة[٤] •

خامسا : تعيش بين عشائر الفرات الاوسط عائلات علوية مشهورة تلقب بـ « السادة » وهي تجمع بين الرئاسة والقدسية • ان السادة فـــي الواقع موجودون في جميع الارياف الشيعية في العراق ، وهم مقدسون في نظر العشائر ولهم وظيفتهم الاجتماعية[٥] ، ولكن الفرات الاوسط يتميز بكثرة السادة فيه وبأن بعضهم يملكون الاراضي الواسعة والثروات الكبيرة علاوة على مكانتهم الاجتماعية العالية • والظاهر ا ن السبب في كثرة السادة في الفرات الاوسط هو ما حدث فيه من نزاع هائل على الاراضي ، فان هذا النزاع يجعل المجتمع في حاجة شديدة الى السادة لكي يقوموا بوظيفتهم في ايقاف القتال والتوسط في الصلح بين العشائر المتحاربة • فان مـــن وظائف السيد في الريف أنه يقف بين الصفوف عندما ينشب القتال بين العشائر ، رافعا يده ، فتضطر العشائر الى وقف القتال احتراما له ، ويحاول السيد بعدئذ أن يتوسط في الصلح بين الفريقين ، وتكون لكلمته وزنها في هذا الشأن •

سنرى عند قيام الثورة ان السادة كان لهم دور فعال فيها ، وقد اشترك

---

(٣) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغـــداد ١٩٧٤ ـ ص ٣٠٧ (حاشية) •

(٤) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغـــداد ١٩٥٢ ـ ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ •

(٥) علي الوردي (المصدر السابق) ـ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •

فيها عدد كبير منهم • فهم لما لهم من مكانة دينية مضطرون أن يستجيبوا قبل غيرهم لدعوة الجهاد في سبيل الله ، والا فانهم يفقدون مكانتهم الدينية في نظر العشائر •

بداية الدعوة :

اتفقت الآراء على أن أول من نادى بالثورة المسلحة في الفرات الاوسط هو السيد علوان الياسري ، وان أول من أيده في ذلك هو السيد محمد رضا الصافي • ويحدثنا جعفر الخليلي عن ذلك فيقول ما نصه :

« لقد لقي المرحوم السيد محمد رضا الصافي المرحوم السيد علوان الياسري في أبو صخير ، وكان الصافي يتردد عليها لمعالجة شؤون بستان له هناك ، فألفى السيد علون غاضباً يكاد ينفجر من الغيظ ، ولم يكن السبب غير ان السيد علوان قد شهد بعينيه كيف أهان حاكم أبو صخير الانكليزي العسكري رجلا من الوجوه حين طرده من أمامه ذليلا [٦] ، فخرج السيد علوان وهو أشد ما يكون انفعالا • وقد أفاض للسيد محمد رضا بأسباب انفعاله وأسمعه الشيء الكثير من كرهه للانكليز وحكومتهم ، فبادله السيد محمد رضا الرأي ، وتحدثا طويلا ، وتطرقا في أحاديثهما الى ان الخلاص من الانكليز لايتم الا بالعمل وان الاهتداء الى كيفية النهوض بالعمل لايتم في هذا الموقف على قارعة الطريق • وافترقا على أن يجتمعا في النجف وعلى أن يتذاكرا مليا مع الجماعة الآخرين لايجاد المنفذ الذي يلجون منه للحرية ويتخلصون من هذا الكابوس الجاثم على صدورهم••• »[٧].

لدينا رواية أخرى عن هذا الالتقاء الذى جرى في أبو صخير بين

---

(٦) كان حاكم أبو صخير حينذاك هو الكابتن لايل ، ويقال ان الاهانة كانت موجهة الى السيد علوان نفسه ، ولكن عبدالحميد الياسري وهو ابن السيد علوان ينكر ذلك انكاراً باتاً •

(٧) فراتي — (على هامش الثورة العراقية الكبرى) — بغداد ١٩٥٢ — ص ١٠١ — ١٠٢ •

السيد علوان الياسري والسيد محمد رضا الصافي ، وجدتها في مذكرات السيد محمد أمين الصافي ـ وهو أخو السيد محمد رضا الصافي ـ ولابد أنه سمعها من أخيه ، وهذا نصها :

« حينما اشتد ضغط الانكليز في أيام الاحتلال ، وكان السيد محمد رضا تضطره أملاكه الى الاتصال بالحكومة في أبي صخير والديوانية ، وكان يلتقي هناك بمعظم زعماء الفرات الاوسط والكل منهم متأثر من الوضع السيء والمعاملة الخشنة التي تعاملهم بها حكومة الاحتلال مما لم يألفها العرب • وكان ممن اجتمع به في أبي صخير السيد علوان الياسرى ، وكان كلاهما متأثرين أشد التأثر من الوضع السيء الذي أهان كرامة الزعماء ••• وقد ذكر السيد محمد رضا للسيد علوان ان الوقت قد حان للعمل والتضحية لاستخلاص البلاد من الانكليز ، فراقت الفكرة للسيد علوان • وتضامنا هناك على العمل • وبعدها جاء السيد علوان الى النجف وقصد السيد محمد رضا في داره ، وبعد لقائهما اتفقا على توسعة الفكرة ونشر الحركة واقناع من يجدون فيه اللياقة ، وأول من وقع عليه اختيارهم الحجة الشيخ عبدالكريم الجزائري فدُعي الى دار السيد محمد رضا واجتمع اليهم سوية ، وبعد مناقشة الأمر من جميع نواحيه اتفق معهم الشيخ عبدالكريم • وهكذا نبتت الفكرة وأحكمت الدعاية ، فابتدأت المطالبة السلمية ثم الدموية والثورة ، الى آخره ••• (٨) » •

لاندري على وجه اليقين متى حدث الالتقاء بين الياسري والصافي ، ويرجع في ظني أنه حدث في ربيع ١٩١٩ • وقد أخذ الياسري منذ ذلك الحين يبث دعوته الثورية بين شيوخ العشائر ، والمعروف عنه أنه كان ذا دهاء ومقدرة على الكلام المقنع • وصارت الدعوة تنمو بمرور الايام !

---

(٨) نقلا عن مذكرات السيد محمد أمين الصافي المخطوطة • واني اشكر السيد محمود الصافي لاعارته اياي جزءا من هذه المذكرات •

السيد قاطع العوادي :

يقول جعفر الخليلي ان أول من انضم الى دعوة الياسري رجــلان أحدهما من السادة هو قاطع العوادي ، والثاني من الشيوخ هو شعلان الجبر رئيس آل ابراهيم . فالعوادي كان لديه استعداد كبير لقبول فكرة العمــل ضد الانكليز وقد ظل يحارب الانكليز الى جانب الاتراك الى آخر مرحلة من مراحل الحرب . أما شعلان الجبر فكانت له علاقة قويةمع الياسري(٩).

ويحدثنا قاطع العوادي عن بداية انضمامه الى الدعوة فيقــول : « لما وضعت الحرب أوزارها بواسطة الهدنة اجتمعت شخصياً مع المرحوم حجة الاسلام المرزا محمد تقي الشيرازي ، وكان ذلك بعد توفر العلائق القوية معه ، فحصلت معه مفاوضة بشأن ايجاد حركة ثورية ضد حكومة الاحتلال ، وسافرت الى النجف الأشرف للاطلاع على الرأي العــام هناك ، واجتمعت مع الشيخ جواد الجواهري والشيخ عبدالكريم الجزائري، فوجدت الفكرة الثورية سائدة في أذهان العموم ، وقد دُعيت الى مأدبــة في بيت السيد ابراهيم الجصاني وصادفت عنده السيد سعيد كمال الدين ، ونوه عنه السيد ابراهيم بكلمة هي : ان هذا السيد نظـيرك في الوطنية . فقرت نفسي لديه وتفاوضت معه في شيء من المذاكرات ، وقد ذكر لي ان في النجف جماعة من المشايخ يشتغلون لتلك الغاية ، وسألت عنهم فأجاب أنهم السيد نور الياسري والسيد علوان والسيد محسن أبو طبيخ والشيخ عبدالواحد الحاج سكر ، ولما اجتمعت بهم وجدت فكرة الثورة ضد حكومة الاحتلال لغاية استقلال العراق في الحكم الذاتي محققاً عند الجميع ، والكل عامل لها ... (١٠) » .

السيد نور الياسري :

كان السيد نور الياسري من أوائل الذين انضموا الى دعوة الثورة ،

---

(٩) فراتي (المصدر السابق) ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(١٠) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩ .

وهو ابن عم السيد علوان الياسري ولكنه اكبر منه سنا . والمعروف عنه انه كان ذا قدسية لدى العشائر قلما نالها أحد غيره ، قيل أن سفنه كانت اذا مرت بالجبايش هرع الناس اليها للتبرك بها ، وقد ينذرون لها النذور أو يطلونها بالحناء كما يفعلون بالمراقد المقدسة . وقيل كذلك ان الملاحين اعتادوا ان يردفوا اسم السيد نور مع اسم الله عندما تتعرض سفنهم للخطر حيث يهزجون قائلين : « جدمنا الله ونور عليها ! » . وقد سمى بعض أهل المشخاب أولادهم باسم « عبد نور » تيمناً به [١١] .

وفي الوقت الذي كانت فيه العشائر تقدس السيد نور كان الانكليز ينظرون اليه نظرة ازدراء وانتقاص . كتب عنه الكابتن لايل حيث اعترف بأنه اكثر من غيره من السادة قدسية لدى العشائر ، ولكنه مع ذلك يذمه ذماً قبيحاً اذ يصفه قائلا : « ... انه صبي قصير سمين ، يناهز السبعين من عمره،برميل فارغ ، تستقر النظارات على أنفه بشكل مائل ، ينطق بسيماء الحكمة الغامضة حيث يأتي بالتفاهات طيلة ساعة ، تلك التفاهات التي يعتبرها أتباعه دليلاً على التفكير العميق » . ثم يذكر لايل قصة ذات مغزى عن السيد نور هي : أنه كان في أحد الأيام جالساً في مضيفه يحيط به كثير من الشيوخ الكبار والمتملقين الاذلاء ، وهو يبقبق عليهم بتفاهاته التي يعجبون بها ، فدخل الى المضيف طفل في الرابعة من عمره ، وتقدم نحو السيد نور واضعاً ذراعيه حول رقبته ، فتوفز السيد غاضباً وقال بحدة : « من أنت ؟ » ، فأجابه الطفل وهو يلثغ : « ابنك » ، وأسرع خادم المضيف الى ازاحة الطفل عن السيد نور حالا . ويعلق لايل على هذه القصة قائلاً : ان هذا السيد الكبير الجليل لديه أربع زوجات طبعاً ، وله كذلك كما حدثني به أحد الثقات تسع وثلاثون جارية » [١٢] .

---

(١١) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ــ النجف ١٩٦٦ ــ ص ١٦٨ ــ ١٦٩ ــ (حاشية) .

(12) Lyell (Ins And Outs of Mesopotamia) - London 1923 - P. 143 - 144.

لاحاجة بنا الى القول ان هذا الازدراء الذي كان يكنه لايل وغيره من الانكليز للسيد نور قد أضر بهم ضرراً كبيراً ، فهم يقيسون قيمة الرجل بمقياس ثقافتهم التي جاؤوا بها من بلادهم ، وما دروا ان قيمة الرجل ينبغي أن تقاس بمقياس الثقافة الاجتماعية التي يعيش فيها • فرب رجل هو في نظر قومه من أعظم الناس بينما هو في نظر الآخرين سخيفاً • ولابد أن تؤدي هذه النظرة من الآخرين الى الضرر بهم لأنهم لايستطيعون أن يفهموا بها الناس أو يعرفوا كيف يسوسونهم •

اتضح للانكليز عند قيام الثورة ان هذا السيد الذي ازدروا به كان له أكبر الأثر في حث العشائر على الثورة وفي توحيد كلمتها (١٣) • يُروى ان بعض افراد العشائر كانوا في بداية الثورة يتساءلون قائلين : « هل صحيح ان العلماء والسيد نور يقولون بالجهاد ؟ » • معنى هذا ان العشائر كانوا يعتبرون كلمة السيد نور من حيث قوة تأثيرها عليهم كالفتوى التي يصدرها المجتهدون •

عبدالواحد الحاج سكر :

كان عبدالواحد من أوائل الذين انضموا الى دعوة الثورة أيضاً ، وهو يأتي بعد السيد نور في الاهمية عند قيام الثورة •

يُعد عبدالواحد حسب الاعراف العشائرية المتداولة الرئيس الاكبر لعشيرة آل فتلة ، ذلك لأنه كان الابن الاكبر للحاج سكر الذي كان بدوره الابن الاكبر لفرعون ، وكان فرعون في زمانه هو الرئيس المتفق عليه لآل فتلة •

حدثني أحد المطلعين ان عبدالواحد كان أرفع مكانة في عشيرة آل فتله من أعمامه على الرغم من أنهم اكبر منه سناً • فاذا رفع راية الحرب تابعه آل فتله أكثر مما يتابعون أعمامه ، وقوله هو النافذ لدى العشيرة في معظم الأحيان •

---

(13) Mann (Administrator In the Making) - London 1921 - P. 292.

من الاخطاء التي اقترفها الانكليز في سياستهم العشائرية أنهم لم يراعوا هذه التقاليد في وراثة المشيخة العشائرية ، ولهذا رأيناهم يوثقون علاقتهم بمجبل الفرعون وأخيه مزهر ، ظناً منهم أنهم بذلك يسيطرون على آل فتلة وما دروا ان من الافضل لهم ان يوثقوا علاقتهم بعبدالواحد .

كان عبدالواحد في الواقع قوى الشخصية ذا شجاعة ودهاء ، وكان بالاضافة الى ذلك متديناً كثير التهجد في صلاته ، قيل انه كان يقضي في صلاته أحياناً أربع ساعات . ويقال أيضاً انه كان بالرغم من تهجده وكثرة صلاته لا يتردد أن يأمر بسفك الدماء اذا اقتضت التقاليد العشائرية ذلك . فهو عابد متهجد من جهة ، وشيخ عشائري من الجهة الأخرى ، وليس هناك تناقض في نظره بين الأمرين . فقد كانت تلك هي القيم السائدة في تلك الأيام ، وما زالت باقية لدى الكثيرين حتى يومنا هذا .

كان عبدالواحد يحمل للانكليز بغضاً شديداً ، وظل يبغضهم حتى آخر يوم من حياته . ويعزو السيد علوان الياسري هذا البغض ـ كما رواه عنه وداي العطية ـ الى النزاع الذي حصل بين عبدالواحد وأفراد عشيرته حول الاراضي المسماة « راگ الحصوة » ، وقد وقف الانكليز الى جانب الافراد . ويقول السيد علوان في ذلك : « ان الاراضي المذكورة المتنازع عليها بين الحاج عبدالواحد وأفراد عشيرته قسم منها يعود الى الحاج عبدالواحد والقسم الآخر يعود الى أفراد عشيرته ، الا ان الحاج عبدالواحد أراد الاستيلاء على الجميع فامتنعت عليه عشيرته ، وقد ساعدهم المستر جفرس مستشار لواء الديوانية آنذاك عند خروجه مع هيئة الذرعة في المشخاب ، وقد سجل عموم الاراضي المتنازع عليها باسم أفراد عشيرة آل فتلة وحرم الحاج عبدالواحد منها حتى من حقه الخاص المعروف لدى الجميع ، فلذا ترى الحاج عبدالواحد شديد الكره والبغض للانكليز ... » (١٤) .

---

(١٤) وداي العطية (تاريخ الديوانية) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص ١٦٦ (حاشية) .

من الجدير بالذكر ان المستر جفرس تولى وظيفته في الديوانية عقب انتهاء الثورة ، والمظنون انه انما وقف في تسجيل الاراضي ضد مصلحة عبدالواحد نكاية به وانتقاماً لما قام به عبدالواحد في الثورةمن دور رئيسي• ومهما كان الحال فان النزاع بين عبدالواحد وأفراد عشيرته بدأ منذ عام ١٩١٣ ــ كما أشرنا اليه في الجزء الثالث من هذا الكتاب (١٥) • والمظنون ان الانكليز وقفوا الى جانب الافراد ضد عبدالواحد منذ بداية حكمهم في المشخاب •

ايفاد الشبيبي :

في ظهر يوم من أيام تموز ١٩١٩ اجتمع في سرداب آل شلاش في النجف ثلاثة من أعمدة الدعوة ، وهم السيد علوان الياسري والسيد نور وعبدالواحد الحاج سكر ، وتداولوا في ضرورة ارسال مضابط الى الملك حسين في الحجاز يذكرون فيها أنهم اختاروا أحد أنجاله لعرش العراق ولكن السلطة الانكليزية تعارض في ذلك ، وهم لذلك يطلبون مساعدته في تحقيق هذا الهدف • وبعد أن اتفق رأي الثلاثة على ذلك تساءلوا عن الشخص المناسب الذي يمكن الوثوق به لحمل تلك المضابط الى الملك حسين • وهنا اقترح محسن شلاش اسم الشيخ رضا الشبيبي ، وكان جاراً له ، ووصفه بأنه خير من يقوم بهذه المهمة ، فوافق الثلاثة على هذا الاقتراح ، وتبرع كل منهم بأربعين ليرة لنفقات الشبيبي في رحلته (١٦) •

أُعدت المضابط كما ينبغي ، ووقع عليها بالاضافة الى الذين ذكرناهم أشخاص آخرون من كربلا والنجف وغيرهما ، كما كتب الشيرازي رسالة شخصية منه الى الملك حسين • وقد أُخفيت المضابط في جلد مصحف صنعه عبدالحميد زاهد الكتبي • وغادر الشبيبي النجف في أواخر تموز ،

---

(١٥) علي الوردي (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) ــ بغداد ١٩٧٢ ــ ج٣ ص ١٩٧ •

(١٦) حدثني بذلك عبدالحميد الياسري وكان حاضرا مع ابيه في ذلك الاجتماع السردابي •

فاتجه أولا الى الشطرة اذ كان له فيها أقرباء • وهناك تبرع أحد اثرياء الشطرة بنفقات حج للشيخ ابراهيم الاطيمش ، وهو من أقرباء الشبيبي ، لكي يرافقه في رحلته ويكون مؤنساً له في الطريق •

رحل الشبيبي مع رفيقه الأطيمش من الزبير في أوائل شهر آب ١٩١٩ بصحبة قافلة بدوية • واستغرقت رحلته عبر الصحراء شـــهراً واحداً تقريباً • وعند وصوله الى مكة قابل الملك حسين وقدم له المضابط مع رسالة الشيرازي • ويقول الشبيبي ان الملك كان يتضرم غيرة على العرب وقضيتهم ، وقد بدرت منه بوادر تدل على تزعزع ثقته بالحلفاء الذين انضم اليهم في الحرب وقاتل الاتراك الى جانبهم [١٧] •

أرسل الملك حسين المضابط الى ابنه فيصل الذي كان يومذاك في باريس يحضر مؤتمر الصلح ، وطلب منه الدفاع عن حقوق العراق [١٨] • كما أنه كتب جوابا على رسالة الشيرازي هذا نصه :

الديوان الهاشمي   بسم الله الرحمن الرحيم   الحسين بن علي
الحمد لله وحده   (ختـم)

من الحسين بن علي الى الجهبذ الافضل والحبر الأكمل مـــولانا الشيخ محمد تقي الشيرازي •

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وانه في أهنأ الساعات تلقينـا محرركم الكريم وطيه صور افاداتكم للجنة وعلم مآل الجميـــع • واني بعنايته تعالى سأبذل كل ما في الجهد لحصول رغائبكم وكيف لا أقول ذلك وانها هي احدى أساسات الاعمال التي ارتكبنا من جهتها التهلكة فكونوا مطمأنين بالله سبحانه وتعالى بأننا على ما تؤملون • أما الفوز برغائبكم بل رغائبي فيكم التي هي قرة عيني أو ترك الدينا وما فيها • والله يتولانا بتوفيقه فانه يخلق ما يشاء ويختار • وسلامي عليكم كافة ورحمة الله وبركاته •

---

(١٧) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ٩٤ •

(١٨) مجلة (العربي) الكويتية ـ في عددها الصادر في شباط ١٩٧٢ •

٢٤ ذي الحجة الحرام ١٣٣٧ [١٩] •

مكث الشبيبي في مكة أربعين يوما ، ثم غادرها بالقطار متجهاً الى دمشق •وكانت سكة القطار حينذاك مخربة في كثير من المواضع من جراء الحرب وقد استغرقت رحلة الشبيبي بالقطار نحو خمسة وعشرين يوماً مع العلم أنها كانت قبل الحرب لاتستغرق سوى ثلاثة ايام • وعندما وصل الشبيبي الى دمشق التقى بالعراقيين الذين كانوا هنالك ، كما اجتمع بفيصل على أثر عودته من باريس وقد أبلغه فيصل بوصول المضابط اليه أثناء انعقاد مؤتمر الصلح •

وفي ٨ آذار ١٩٢٠ عندما قرر العراقيون في دمشق اعلان استقلال العراق ومبايعة عبدالله ملكاً عليه ، كان الشبيبي من جملة المشاركين في هذا الأمر • ومن الجدير بالذكر ان الشبيبي كان الشيعي الوحيد بينهم كما أنه كان الوحيد الذي يعرف علماء الفرات الأوسط وشيوخ عشائره معرفة وثيقة • ولهذا تولى مهمة الاتصال بأولئك العلماء والشيوخ لاخبارهم بنبأ استقلال العراق ومبايعة عبدالله • فكتب الرسائل الى بعضهم كما وجه الى بعضهم الآخر بطاقات فيها شعر يحثهم به على الثورة • وقد أُرسلت تلك الرسائل والبطاقات الى الفرات الأوسط بواسطة سعاة من البدو • ويقال ان أحد السادة المعروفين عندما وصلته البطاقة المرسلة اليه أخبر بها الميجر ديلي [٢٠] •

لم يغادر الشبيبي دمشق الا بعد انتهاء الثورة في العراق ، فعاد الى الوطن عن طريق بادية الشام بصحبة بعض الضباط العراقيين العائدين • واستغرقت رحلته خمسة وعشرين يوماً • وعند وصوله الى بغداد ذهب لمقابلة المس بيل ، وقد أشارت المس بيل الى ذلك في رسالة لها الى والدها مؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٢٠ حيث قالت مانصه :

---

(١٩) عبدالرزاق الوهاب (كربلاء في التاريخ) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ص ٧٥ •

(٢٠) وداي العطية (المصدر السابق) ـ ص ١٣٦ •

« جاء لزيارتي رجل ممتع جداً ، هو محمد رضا الشبيبي • انـي عرفته في عام ١٩١٨ ثم ذهب فجأة في نوبة غضب (لا أدري لماذا) الى الحجاز وسوريا ، وهناك كتب في الصحف المحلية مقالات عنيفة ضـد البريطانيين شجب فيها الطريقة التي نحكم بها هذه البلاد • ويخيل لي أنه يشعر بالخيبه الشديدة لما وجده من هدوء السوريين تحت الاحتلال الفرنسي ، فان شجبه للسوريين يعد شهادة حقيقية للنجاح الذي نالـه الفرنسيون هناك وهو أكبر مما كنت أتوقعه • وعلى أي حال فان محمد رضا قد عاد ليقول انه توصل الى قرار بأن ما نعمله هنا هو الصواب • انه رجل مشهور ذو قلم رائع • واذا عمل معنا بنزاهة مجازفاً بسمعته لـدى المتهورين فانه قد يكون ذا قيمة (٢١)» •

اجتماع سري في النجف :

في نيسان ١٩٢٠ انتهز السيد علون الياسري فرصة زيارة المبعث التي تحل في ٢٧ رجب ، وقد وافق ذلك في ١٦ نيسان ، فدعا الى الاجتماع في داره في النجف عدداً من رجال الدين ورؤساء العشائر ، كما دعـا المرزا محمد رضا الشيرازي •

جرى الاجتماع في السر ليلاً ، وقام السيد حسين كمال الدين بارشاد المدعوين الى الدار واحداً بعد الآخر تحت جنح الظلام (٢٢) • ولما اكتمل عقد المدعوين طرحت عليهم فكرة القيام بالثورة المسلحة على الانكليز • وكانت تلك أول مرة تطرح فيها مثل هذه الفكرة على جمع من رجال الدين ورؤساء العشائر ، فجرى حولها نقاش حيث أيدها فريق من الحاضرين ، وعارضها فريق آخر •

كان على رأس المعارضين للثورة خيون العبيـد ، وكان رأيـه ان الثورة يصعب القيام بها في الوقت الحاضر لان العراقيين مختلفون وليسوا على رأي واحد • وضرب خيون على ذلك مثلاً بعشائر المنتفق والغراف

---

(21) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 189.

(٢٢) فراتي (المصدر السابق) ـ ص ٢١ •

الذين هو منهم ، وذكر كيف أن الحزازات والمحاسدات والدسائس أدت بهم الى التنازع والفوضى فصار كل فريق منهم يفوز في حركة لابد أن يثير الحسد في الفريق الآخر ويجعله يفعل المنكرات لكي يجر الفـوز كله أو بعضه اليه (٢٣) .

يبدو أن كلام خيون كان له أثره في الحاضرين . وقد تم الاتفاق بينهم أخيراً على تأجيل القيام بالثورة في الوقت الحاضر ، وعلى العمل في التمهيد لها عن طريق التوعية الوطنية والدينية ، حتى اذا صـار الناس مستعدين للثورة آن الآوان للقيام بها .

يقول الشيخ علي الشرقي ، وكان من جملة الحاضرين في ذلك الاجتماع ، ان الموافقة تمت بينهم بالاجماع على البدء بما يشبه حركـة العصيان المدني ، ولهذا قرروا الأمور التالية :

اولاً : تأسيس جمعية باسم الجامعة الاسلامية مركزها كربلا ولها فروع في كل العراق ويرأسها المرزا محمد تقي الشيرازي .

ثانياً : توزيع منشور بتوقيع الشيرازي يأمر بالوحدة وجمع الشمل والتساند في كل المهام .

ثالثاً : جعل يوم الجمعة يوم الشعب تُعطل فيه المكاسب ويُترك البيع والشراء ، وتُنصب المنابر في الساحات العامة ليتبارى الخطباء فوقها بما يستلزم الاثارة والتحضير (٢٤) .

ليس لدينا علم بما جرى من نتائج هذا الاجتماع ، كل ما نعرفه في هذا الصدد ان الخطيب الحسيني المعروف السيد صالح الحلي أخذ يدعو في الكاظمية وبغداد الى وجوب تعطيل الاشغال في يوم الجمعة ، ولا ندري هل كانت تلك الدعوة من نتائج ذلك الاجتماع أم أن السيد صالح قام بها من تلقاء نفسه .

---

(٢٣) المصدر السابق ــ ص ٢٢ ــ ٢٣ .

(٢٤) علي الشرقي (الاحلام) ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ١٠٨ .

كان السيد صالح قد بدأ بدعوته في اجتماع عام ُعقد في الكاظمية في ١ أيار ــ أي بعد اسبوعين من اجتماع دار الياسري في النجف ــ حيث ألقى خطبة مؤثرة دعا فيها المسلمين الى التمسك بيوم الجمعة على نحو ما يتمسك اليهود بيوم السبت ، والنصارى بيوم الاحد ، وناشدهم لماذا لايفعلون كما يفعل اليهود والنصارى ؟ وأشار الى عادة المسلمين في بغداد على تعطيل أعمالهم يوم السبت ، وقال ان هذا عار عليهم ، وأخذ يذكر فضائل يوم الجمعة وما جاء فيها من أحاديث نبوية •

صار السيد صالح يواصل دعوته في الكاظمية وبغداد ، فتأثر بها الكثير من الناس ، وأخذت الاسواق تعطل أعمالها في يوم الجمعة ، وظلت تفعل ذلك مدة غيرقصيرة •- والمظنون ان هذه الدعوة كانت من العوامل التي حفزت الحركة الوطنية في بغداد الى اقامة الحفلات الدينية التي استفحل أمرها في شهر رمضان وأقلقت الانكليز أقلاقاً غير قليل ــ كما سنأتي اليه في فصل قادم •

موقف الشيرازي :

المعروف عن المرزا محمد تقي الشيرازي انه لم يكن يميل الى الثورة المسلحة بل كان يريد أن تبقى الحركة الوطنية سلمية تكتفي بالمطالبة بحقوق البلاد المشروعة دون اللجوء الى اشهار السلاح • حدثني أحد المتصلين به انه كان غير واثق من مقدرة العشائر على مجابهة دولة قوية كبريطانيا تملك المدافع والطائرات والجيوش الجرارة ، وكان يخشى أن تؤدي الثورة الى اراقة الدماء دون أن تنتج الفائدة المرجوة •

كان علوان الياسري وأصحابه يحاولون من جانبهم اقناع الشيرازي بمقدرة العشائر على محاربة الانكليز • ويبدو ان المرزا محمد رضا كان يؤيدهم في هذا الرأي ويحاول معهم اقناع أبيه به • وقد اتجهت جهودهم أخيراً الى انتهاز فرصة زيارة منتصف شعبان في كربلا لمفاتحة الشيرازي بالأمر •

ُتعد زيارة منتصف شعبان من أهم الزيارات في كربلا ، وتسمى

بزيارة « المحية » ، وهي توافق عند الشيعة ذكرى مولد صاحب الزمان ، وقد حلت هذه الزيارة في عام ١٩٢٠ في ٤ أيار • ولوحظ ان عدداً كبيراً من رؤساء العشائر حضروها ، كما حضرها بعض علماء النجف ، وحضرها من بغداد جعفر أبو التمن كما أشرنا اليه في فصل سابق •

عُقد اجتماع سري ليلا في دار السيد أبو القاسم الكاشاني التي كانت ملاصقة للصحن الحسيني بالقرب من باب السدرة [٢٥] ، حضره السيد نور الياسري وجعفر أبو التمن وعبدالكريم الجزائري وعلوان الياسري وقاطع العوادي ومحسن أبو طبيخ وهادي زوين ومحمد رضا الصافي وعبدالواحد الحاج سكر وشعلان الجبر ومجبل الفرعون وعبادي الحسين ومرزوق العواد وشعلان العطية وسعدون الرسن وعلوان الحاج سعدون وهبة الدين الشهرستاني وعبدالوهاب الوهاب وحسين القزويني وعمر العلوان ومهدي القنبر وطليفح الحسونورشيد المسرهد وعبدالكريم العواد وغيرهم • وقد تداول المجتمعون في أمر القيام بالثورة المسلحة ، نحصل اختلاف في الرأي بينهم ، اذ كان بعضهم يرى ان الوقت لم يحن للقيام بالثورة وان الانكليز قادرون على قمع الثورة بسهولة من غير أن يكون للبلاد منها أي نفع • وقد تم الاتفاق بينهم اخيراً على مفاتحة الشيرازي في هذه القضية وأخذ رأيه فيها • واختاروا خمسة منهم لمقابلة الشيرازي هم : عبدالكريم الجزائري وجعفر أبو التمن ونور الياسري وعلوان الياسري وعبدالواحد الحاج سكر •

ذهب هؤلاء الخمسة الى الشيرازي في داره ، وفاتحوه في الأمر ، فقال لهم : « ان الحمل ثقيل وأخشى ان لا تكون للعشائر قابلية المحاربة مع الجيوش المحتلة » • فأكدوا له أن العشائر لها المقدرة التامة على القيام بالثورة ، فقال لهم « أخشى ان يختل النظام ويُفقد الامن فتكون البلاد في فوضى ، وانتم تعلمون ان حفظ الأمن أهم من الثورة بل أوجب منها »•

---

(٢٥) مجلة (رسالة الشرق) الكربلائية ـ في عددها الصادر في رجب ١٣٧٣ هـ •

فأجابوه بأنهم قادرون على حفظ الأمن والنظام ، وان الثورة لابد منها ، وسوف يبذلون مافي وسعهم لحفظ النظام وتوفير راحة العموم . ولما وجد الشيرازي انهم قد ضايقوه من كل جانب لم ير بدا من القول « اذا كانت هذه نياتكم وهذه تعهداتكم فالله في عونكم » (٢٦) .

عندما خرجوا من عند الشيرازي خرج ابنه المرزا محمد رضا معهم وأقنعهم بان مؤدى قول والده هو افتاء بالثورة على الانكليز (٢٧) . وفي الليلة التالية عقد اجتماع آخر في دار السيد نور الياسري في محلة السلالمة (٢٨) حضره الذين شاركوا في الاجتماع الاول ، وبعد المداولة اتفقوا على الاستمرار في مطالبة الانكليز بالاستقلال بالطريقة السلمية ، فأذا أصر الانكليز على رفض مطاليبهم وعاندوا في ذلك فان العشائر تلجأ عندئذ الى القيام بالثورة المسلحة . ولما انفض الاجتماع ذهبوا جميعا الى ضريح الحسين فأقسموا بالقرآن على انجاز ما اتفقوا عليه ، ومن حنث في يمينه فهو ضال آثم . وقد قام بتحليفهم السيد عبدالوهاب الوهاب واحداً بعد الآخر (٢٩) .

---

(٢٦) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ص ٩٩ ـ ١٠٠ .
(٢٧) حسن الاسدي (ثورة النجف) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ص ٣٨٢ .
(٢٨) مجلة (رسالة الشرق) الكربلائية ـ في عددها الصادر في رجب ١٣٧٣ هـ .
(٢٩) عبدالرزاق الوهاب (المصدر السابق) ـ ص ١٠٢ .

الفصل العاشر

احداث دير الزور

ان اندلاع الثورة المسلحة في الرميثة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ سبقته أمور أربعة يمكن اعتبارها عوامل ممهدة له هي : (١) أحداث دير الزور ، (٢) واقعة تلعفر ، (٣) أحداث رمضان في بغداد ، (٤) نفي ابن الشيرازي • وسندرس في هذا الفصل أحداث دير الزور على أن ندرس الأمور الأخرى في الفصول التالية •

بداية احداث الدير[1]:

كان لواء الدير في أواخر العهد التركي ملحقاً بالعاصمة اسطنبول مباشرة ، ولما انسحب الاتراك منه على أثر عقد الهدنة في ٣١ تشرين الاول ١٩١٨ أصبح خالياً من أية سلطة مدنية ، فنشأت في بلدة الدير سلطة محلية مؤلفة من رؤساء المحلات وصارت تحكم البلدة بمقتضى الاعراف العشائرية • وبعد فترة وجيزة حين سمع رؤساء البلدة بقيام الحكومة العربية في دمشق قرروا الانضام اليها وأرسلوا اليها مضبطة يطلبون بها ذلك ، فاستجابت الحكومة لطلبهم وعينت مرعي باشا الملاح متصرفاً للدير ، وأردفته بالمقدم علي رضا العسكري ، كما أرسلت معه مفرزة هجانة من عقيل بقيادة الشريف علي بن ناصر •

سارت الأمور في أول الامر سيراً حسناً ،ثم أخذ التذمر ينتشر في البلدة شيئاً فشيئاً • وفي رأي طاهر العمري ان هذا التذمر نشأ من سوء سلوك الشريف علي بن ناصر ورجاله في البلدة [2] • والمظنون ان هناك

---

(١) يطلق اسم « الدير » على دير الزور احيانا وسوف نستعمل هذا الاسم في هذا الفصل للاختصار •

(٢) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج٣ ص ٣٣٦ •

سبباً أخر للتدمر أعمق من ذلك هو ما حل بالبلدة آنذاك من ضائقة اقتصادية • ومن الجدير بالذكر ان الدير كانت قبلئذٍ مركزاً تجارياً مهماً لوقوعها على الطريق الرئيس الذي يربط بين العراق وسوريا وتركيا، فلما انتهت الحرب انقطع هذا الطريق وتعطلت الاعمال والحرف المرتبطة به • وفي الوقت نفسه وصلت الى الديريين أخبار مبالغ فيها عما حصل في العراق من ازدهار اقتصادي وتضخم نقدي ، فصار الديريون يقارنون حالهم بما سمعوا من أحوال العراق ، وبدأوا يتذمرون ويعلنون عن رغبتهم في الانفصال عن حكومة سوريا والانضمام الى حكومة العراق •

اجتمع رؤساء البلدة سرا ونظموا مضبطة طالبوا فيها بادخال بلدتهم تحت الحكم البريطاني ثم ارسلوا المضبطة الى حاكم عانه السياسي راجين منه الاسراع في احتلال البلدة من قبل القوات البريطانية • وكذلك أرسلوا رئيس بلديتهم الحاج فاضل آلى بغداد ، وقد زار الحاج فاضل النقيب الكيلاني ، فقال له النقيب : « أي ولدي ، أن أحسن ماتعملونه هو أن تستظلوا بظل الحكومة البريطانية ، لان البريطانيين معروفون في العالم أجمع بالعدل والانصاف •• »[٣] •

وفي أوائل كانون الاول ١٩١٨ أرسل الانكليز الكابتن كارفر ومعه بضع سيارات ومصفحات بغية احتلال الدير • وحين وصل كارفر الى البلدة طلب من المتصرف مرعي باشا تسليمها اليه ، فاستغرب مرعي باشا من هذا الطلب وقال انه لم يتلق من حكومته أمرا بهذا الشأن • وبعد مداولة بسيطة بين الرجلين قررا الذهاب الى حلب للاحتكام الى حاكمها العسكري شكري باشا الايوبي • ولما ذهبا الى حلب وعرضا القضية على شكري باشا قضى هذا بأن ينضم الدير الى منطقة النفوذ البريطاني مؤقتا الى أن يصدر مؤتمر الصلح مقرراته القطعية في هذا الموضوع • وعلى هذا انسحب الموظفون العرب من الدير وحل محلهم الموظفون البريطانيون•

---

(٣) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٧٤ •

استرجاع الدير :

في صيف ١٩١٩ قرر المركز العام لحزب العهد العراقي في دمشق استرجاع الدير من قبضة الانكليز لكي يتخذها منطلقا لايقاد الثورة في العراق • ولهذا سعى المركز لدى حكومة دمشق لتعيين رمضان شلاش حاكما عسكريا في الرقة ، وهي بلدة تقع على الفرات في شمال الدير ، لكي يعمل من هناك على استرجاع الدير • وفي ١٩ ايلول غادر رمضان حلب متوجها الى الرقة لتسلم وظيفته •

كان رمضان ضابطاً متخرجاً من مدرسة العشائر في اسطنبول ، وهو ابن رئيس عشيرة ألبو سراي التي تسكن في شمال الدير • ولما تسلم وظيفته في الرقة أخذ يتنقل بين العشائر المحيطة بالدير يحث رؤساءها على تنظيم مضابط يطلبون فيها الانضمام مرة أخرى الى الحكومة العربية • وقد استطاع رمضان أن يحصل على مضابط بهذا المعنى من رؤساء الدير نفسها ، وأعلن هؤلاء الرؤساء أنهم ندموا على ما فعلوا سابقا في انضمامهم الى منطقة النفوذ البريطاني •

وفي أوائل كانون الاول ١٩١٩ كان رمضان قد انتهى من اعداد خطته لاسترجاع الدير ، فزحف نحوها بقوة عشائرية تقدر بخمسمائة رجل كان بعضهم على ظهور الخيل والبعض الآخر على ظهور الابل • وفي فجر ١١ منه دخلت طلائع القوة الى الدير من الجنوب ، وصاروا ينهبون المستشفى والسراي وكنيسة الارمن ، كما كسروا الخزانة الحديدية واستولوا على مافيها من نقود ، ثم أضرموا النار في مستودع البانزين فانطلق اللهيب منه بشكل هائل أدى الى وقوع نحو تسعين اصابة[٤] • وقد حاول بعض افراد العشائر نهب بيوت البلدة وأسواقها ولكن الرؤساء منعوهم من ذلك[٥] •

كان حاكم الدير يومذاك الكابتن جامير ، وهو الذى حل محل

---

(4) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 231.

(٥) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج٣ ص ٢٤١ •

الكابتن كارفر ، وقد اضطر لقلة ما لديه من قوة أن ينسحب الى الثكنة التي تقع في شمال البلدة ، وتحصن فيها هو وجنوده • وأخذ المهاجمون يطلقون النار على الثكنة حتى تمكنوا من اسكات الرشاشات المنصوبة على سطحها • ثم اجتمع رؤساء البلدة في دار رئيس البلدية ، وأرســـــلوا الى الكابتن جاميير يطلبون منه الحضور اليهم ، فلبى جاميير طلبهم مضطرا لنفاد ما لديه من ماء وطعام • وتقول المس بيل : ان الرؤساء كانوا في حالة هياج شديد وأظهروا له عداءا مفعما بالتعصب ، وأخذوا يهددونه بالقتل هو وأصحابه ، وربما كانوا على وشك قتله مع أصحابه ولكن الذي منعهم من ذلك ظهور طائرتين في الجو • وأخذت الطائرتان تطلقان نيران رشاشاتهما على البلدة • فغير الرؤساء لهجتهم حالا ورجوا من جاميير أن يعمل على ايقاف القصف [٦] •

وفي عصر ذلك اليوم وصل رمضان شلاش مع بقية قواته الى الدير ، فاستدعى اليه جاميير وأبقاه مع أصحابه رهائن عنده وأخذت العشائـــر من بعد ذلك تتهافت على الدير معلنة تأييدها لرمضان وانضمامها الـــى حركته •

شعر رمضان أنه أصبح بما لديه من قوات عشائرية كثيرة قادرا على احتلال البوكمال ، فأرسل اليها قوة بقيادة أخ له ، ولم تجد هذه القوة صعوبة في احتلال البلدة ، اذ ان الانكليز انسحبوا منها حالما سمعوا بتقدم العشائر نحوها • ولكن احتلال البلدة لم يدم طويلا لان أفراد العشائر اسرعوا الى نهب السراي وخزانته حالما دخلوا البلدة ، فادى ذلك الـــى نشوب خصام بينهم • وقد تمكن الانكليز من اعادة الكرة على البو كمال حيث استرجعوها بسهولة ، وكان ذلك في ٢١ كانون الاول ١٩١٩[٧] •

كان الامير فيصل يومذاك في باريس ، وحين علم بما جرى في الدير أرسل الى نائبه الامير زيد في دمشق برقية هذا نصها :

---

(٦) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ٤٠٧ ــ ٤٠٨ •
(٧) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٣٤٤ •

. شاع ان جماعة بأمرة رمضان شلاش مع عجمي السعدون هاجمت دير الزور زاعمة انها تعمل بموجب الاوامر التي تلقتها من الحـــكومة العربية فنحن هنا نصرح بأن هذه الاهانة الموجهة ضد حليفتنا بريطـــانيا العظمى وضد مصلحة الامة العربية هي مخالفة للاتفاق الموقت بين الحلفاء والمعمول به من السنة الماضية وان هذا الاعتداء هو بدون علم الحكومة العربية وموظفيها ، ونصرح أيضا بان المسؤولين عن هذا العمل وكل مـــن يلحق بهم أو ينضم اليهم هم من الثوار وسيجازون جزاء العصاة ، وقـد اتخذت التدابير اللازمة لاعادة النظام وتوقيف المعتدين " .

وفي الوقت نفسه أبرق فيصل الى رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية في لندن يقول بأن الحكومة العربية لاعلم لها بما جرى في دير الزور وانه يعتقد بان الذي جرى كان من صنع عجمي السعدون وجماعته خدمة للاتراك[٨] .

وأرسل جعفر العسكري الذي حل محل شكري الايوبي في منصب الحاكم العسكري لحلب رجلين من عنده الى الدير للتفاهم مع الانكليز هما : مرافقه توفيق الدملوجي ومديـــر شرطـــة حلب رؤوف الكبيسي . وقد وصل هذان الرجلان الى البلدة في ٢١ كانون الأول ١٩١٩ ، وقابلا الكابتن چامبير وسلما اليه كتابا من جعفر العسكري يعرب فيه عن أسفه الشديد لما حدث ويقول ان ذلك جرى بغير علمه أو علم الحكومة العربية بدمشق . وقد ذكر رؤوف الكبيسي للكابتن چامبير بأنه يحمل تعليمات بتنحية رمضان شلاش عن منصبه وارساله موقوفا الى حلب[٩] . ويقـول العمري ان الكبيسي كان يتظاهر بذلك أمام چامبير بينما كان في الســـر يحث رمضان على المثابرة في حركته[١٠] .

وفي ٢٣ منه ألقت الطائرات البريطانية على الدير منشورات تتضمن

---

(٨) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٢ ص ١١٤ .
(9) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 288.
(١٠) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٣٤٦ .

برقية فيصل التي أرسلها الى زيد في شجب حركة رمضان شلاش ، كما تضمن تهديداً بقصف البلدة اذا لم يطلق سراح چامبير وأصحابه في خلال ٤٨ ساعة • وكان لهذا التهديد أثره حيث أطلق سراحهم جميعا في ٢٥ منه ، ووصلوا الى البوكمال سالمين •

استفحال النزاع :

كان العهديون في سوريا تجاه رمضان شلاش فريقين ، فريق لا يرضى بأعماله باعتبار أنها تسيء الى العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين العرب والانكليز ، وفريق يرضى عنها ويشجعها • وربما كان هناك فريق ثالث هو من طراز رؤوف الكيبسي اذ كان يتبرأ منها علناً ويشجعها سراً •

وعلى أي حال فقد ظل رمضان شلاش دائباً على التحرش بالانكليز ومهاجمتهم بكل وسيلة ممكنة كما صار يحرض العشائر على قطع الطرق وأشاعة الفوضى في منطقة النفوذ البريطاني حول عانة والبوكمال • وفي ١١ كانون الثاني ١٩٢٠ هاجمت جماعة من عشيرة العقيدات بلدة البوكمال ، وصاروا ينهبون بيوت الاشخاص المعروفين بولائهم للانكليز ، ثم انسحبوا منها بعد أن قُتل أحد رؤسائهم محمد الدندل • ويزعم الانكليز ان المهاجمين تحرشوا بالنساء وانتهكوا حرمات بعضهن ، وهذا زعم يصعب تصديقه لما عُرف عن العشائر العربية من صيانة لحرمة المرأة •

اضطرت حكومة دمشق الى عزل رمضان شلاش على أثر هذه الواقعة، وعينت مولود مخلص في مكانه • وقد وصل مولود الى الدير في ١٧ كانون الثاني ومعه مرافقه أمين العمري ، كما وصل بعدئذٍ تحسين العسكري ليتولى منصب مدير الشرطة فيها • ومما يلفت النظر ان مولود سار على نفس الخطة التي كان رمضان يسير عليها في معاداة الانكليز واثارة العشائر عليهم ، وهو لم يكتف بذلك بل صار يكاتب العشائر العراقية يحرضها على الثورة ضد الحكم البريطاني • يقول ويلسون في مذكراته : « ••• كان مولود يعمل بكل نشاط في بث الدعاية المعادية لنا على نحو ما فعل سلفه • وصارت رسائله تصل الى شيوخ العشائر في العراق جنوباً حتى العمارة •

والظاهر انه كان مزوداً بمبالغ كبيرة من المال ، وهي المبالغ التي كانت تقدمها الحكومة البريطانية بلا شك ، فصار يوزعها على رؤساء العشائر الذين ظن أنهم قادرون على اثارة الاضطراب في منطقة نفوذنا . وان سكوتنا عن هذه الاعمال أدى الى توهين الولاء لدى أنصارنا اذ هم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا لا تحسم الحكومة البريطانية في الحال مشكلة خصم تافه مثل مولود وحفنة من النهابين من أتباعه ... » (١١) .

كان مؤتمر الصلح في فرساي قد قرر جعل نهر الخابور الحد الفاصل بين العراق وسوريا . وفي ٢٤ كانون الثاني احتلت قوات بريطانية بلدة الصالحية ثم تقدمت نحو الميادين بغية احتلالها بدعوى ان هاتين داخلتان ضمن حدود العراق حسب قرار مؤتمر الصلح . وحين وصل خبر احتلال الصالحية الى الدير اضطرب أهلها والعشائر المحيطة بها ، وجاؤوا الى مولود مخلص يطلبون منه اتخاذ التدابير اللازمة لمنع تقدم الانكليز ، فأظهر مولود لهم انه لا يسلم شبراً واحداً من أراضي اللواء الى الانكليز حتى لو كلفه الأمر تضحية حياته ، وطلب منهم الفداء في سبيل الوطن ، فأجابوه بأنهم مستعدون لتضحية كل غالي في سبيل الوطن وأقسموا على ذلك أيماناً مغلظة(١٢) .

أعلن مولود مخلص « الجهاد » على الكفار . ونظم شاعر دير الزور محمد الفراتي قصيدة طويلة يخاطب بها فيصل ويمدحه ويذم الانكليز ، وهذه بعض أبيات منها :

انهض وروِ العوالي من عداك دما
واستخدم السيف والقرطاس والقلما
يابن الحسين وأنت اليوم ناصره
لم نلق الآك سيفاً صارماً خذما

---

(11) Wilson (. op. cit.) - vol. 2, P. 226 - 227.

(١٢) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج٣ ص ٣٥٩ .

يا فيصل الحق لا تصغي لهم أذناً

فصوتهم يورث المصغي لهم صمما

بعض الطباع لها من جنسها مثل

لا تأمن الذئب كي يرعى لك الغنما

سل الجزيرة سل مصراً وسل عدناً

سل الهنود سل الافغان والعجما

فأنت يا أرض مجي نحوهم ضرماً

ويا سماء أمطري في أرضهم نقما

كان لدى مولود في الدير قوة نظامية من الخيالة تُقدر بـ ٩٠ جندي و ١٠٠ دركي ، ومن المشاة ما بين ٤٠ و ٥٠ دركي ، مع مدفعين صحراويين ورشاشتين من طراز فيكرس • وقد استطاع رؤوساء الدير تجنيد ٤٠٠ محارب من أهل البلدة ، وكان هناك بالاضافة الى ذلك عدد كبير من أفراد العشائر المجاورة جاؤوا للمشاركة في « الجهاد » •

وغادر « المجاهدون » الدير في مساء ٣١ كانون الثاني متجهين نحو بلدة الميادين بغية الدفاع عنها وقد عُين أمين العمري قائداً لجبهة الميادين كما عُين سليم الجراح قائداً عسكرياً للمجاهدين من أهل الدير •

وصارت العشائر تشن الغارات على معسكرات الانكليز في الصالحية والبوكمال ليلاً ، وتغنم منها بعض الخيل والتجهيزات ، كما أخذت تشن الغارات نهاراً على طرق المواصلات بين الصالحية والقائم • وكان أكثرهم حماساً في ذلك مشرف الدندل أحد رؤوساء العقيدات اذ كان يريد الأخذ بثأر أخيه محمد الدندل • وكان يساعده في ذلك البطل المشهور محمد الهامة الذي أبدى في غاراته المتواصلة على المعسكرات الانكليزية شجاعة لا تضاهى • وقد بلغت الجرأة بالعشائر أنهم صاروا يهاجمون المعسكرات الانكليزية في كل ليلة تقريبا ، وربما توغلوا في غاراتهم الى داخل البوكمال فينهبون الاطعمة من المستودعات العسكرية دون أن يظهر أحد

من الحامية لاستخلاصها من أيديهم[١٣] .

نقد صبر الانكليز ازاء هذه التحديات. وفي ٢٠ شباط أبرقت الحكومة البريطانية الى الحكومة العربية في دمشق تقول لها انها تعتبرها مسؤولة عن أي اعتداء يقع على الحدود الموقتة من قبل العشائر أو القوات التابعة لمولود مخلص ، وان المنحة المالية المخصصة للحكومة العربية سيكون دفعها منوطاً بقدرة الحكومة على فرض الأمن في البلاد . وفي الوقت نفسه أرسل القائد البريطاني العام في العراق الى مولود مخلص رسالة تتضمن مزيجاً من الترضية والتهديد ، قال فيها : انه أوعز الى جيشه بعدم مهاجمة الميادين على الرغم من وقوعها في داخل حدود منطقته رغبة في المحافظة على السلم والصداقة بين الحكومتين العربية والبريطانية ، ولكن الميادين ستُهاجم من الجو حالما تقع أية غارة على معسكراتنا أو قوافلنا من قبل العشائر او الجنود التابعين لكم ، واذا أُطلقت النار على أية طائرة بريطانية فانها سترد على هذا العمل العدواني بالنار والقنابل . وتقول المس بيل : ان هذه التهديدات لم يكن لها أي تأثير حيث ظل العرب يهاجموننا على نحو ما كانوا يفعلون من قبـــل[١٤] .

بين مولود ورمضان :

عندما كان النزاع على أشده بين العرب والانكليز في منطقة الدير كتب مولود مخلص الى حزب العهد العراقي في دمشق وحلب يطلب منه ارسال العراقيين الموجودين في سوريا الى الدير ليشاركوا في الجهاد ، واتهم من يرفض ذلك منهم بالخيانة الوطنية[١٥] . فاستجاب لهذا الطلب عدد من العراقيين قدر عدد الضباط منهم بين ٣٠ و ٤٠ ، وعدد الجنود بما يزيد على ٢٥٠ [١٦] .

---

(١٣) المصدر السابق ــ ج٣ ص ٣٦٥ ــ ٣٦٩ .
(١٤) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ٤١٥ .
(١٥) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٣٦٥ .
(١٦) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ــ بغداد ١٩٢٣ ــ ص ١٢٥ .

يقول العمري : ان هذا أول خطأ اقترفه مولود مخلص في أعماله في الدير ، ذلك لأن العراقيين الذين جاؤوا الى دير الزور كانوا يظنون أن مولود لديه كنز من الذهب سينفقه عليهم ، ثم صار اكثرهم حملاً ثقيلاً على مولود دون أن يقوموا بأي عمل ، وشرعوا يقومون ببعض الافعال الشائنة في الدير ، وعمد بعضهم الى نهب المسافرين بحجة أنهم يهربون الذهب ، مما أدى الى نفور الديريين منهم وانتشار الدعاية السيئة ضدهم(١٧) .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان تهريب الذهب من سوريا الى العراق كان يجري في تلك الايام على نطاق واسع ، وكان التجار والمهربون يجنون من ذلك أرباحاً مفرطة . وقد اضطرت حكومة دمشق الى فرض عقوبة على المهربين بتبديل ذهبهم الى الجنيهات المصرية الورقية مع استحصال عشرة بالمائة منهم كغرامة نقدية . وفي ذات يوم من أواخر شباط ١٩٢٠ وصلت الى الدير سيارة قادمة من سوريا وهي تحمل مبلغاً كبيراً من الذهب قُدر بسبعين ألف ليرة عثمانية ، فألقت الشرطة القبض عليها . فكان هذا ايذاناً بنشوب خصام شديد بين مولود مخلص والعشائر ، فقد كانت العشائر تريد توزيع الذهب على « المجاهدين » بينما كان مولود يريد اعادة المبلغ الى اصحابه مع فرض العقوبة عليهم حسب القانون .

وحدث في تلك الآونة أن عاد رمضان شلاش الى الدير بصفته الشخصية ، فانضم الى العشائر في المطالبة بالذهب . ولوحظ ان العراقيين انقسموا اذ ذاك الى فريقين ، أحدهما وقف الى جانب مولود والآخر وقف الى جانب رمضان . ويقول العمري : ان الوقاحة بلغت برمضان ومن تابعه من العراقيين أنهم أرادوا قتل مولود وتنصيب رمضان مكانه ، وكادوا يفعلون ذلك لو لم يتدخل بعض المخلصين من العراقيين ويحولوا دونه(١٨) .

راجع أصحاب الذهب حكومة دمشق ، واستطاعوا أن

---

(١٧) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) - ج٣ ص ٣٦٥-٣٦٦ .
(١٨) المصدر السابق - ج٣ ص ٣٧١ .

يحصلوا منها على اذن باعادة ذهبهم اليهم بعد أخذ الغرامة النقديه منه . وقد اشتد النزاع بين مولود ورمضان على أثر ذلك . وحاول مولـــــود استرضاء رمضان بأن دفع له مبلغ ثلاثة آلاف ليرة ، فلم ينفع فيه . حدث مرة ان رمضان أرسل نفراً من رجاله لتخريب خط التلفون ووســـائل المواصلات بين الدير وجبهة الحرب في الميادين ، فاضطر مولود ان يمنعه مع عشائره من المشاركة في الجبهة ، كما منعه من دخول الدير [١٩] .

يبدو أن رمضان كان حانقاً على مولود لاعتقاده بأنه سلب السلطة منه، ولهذا صار يسعى نحو ازاحة مولود من السلطة والحلول محله فيهـــا . يقول العمري في وصف رمضان : انه ضعيف الثقافة حقود يحب الفخفخة والدسائس وحريص على منفعته الشخصية [٢٠] . ولا حاجة بنا الى القول ان هذا الوصف يمثل وجهة نظر مولود مخلص وأعوانه في رمضـــان شلاش ، ولا شك ان لرمضان وأعوانه وجهة نظر أخرى في مولود ، فكل فريق منهما لابد أن ينسب جميع المحاسن الى نفسه ويلصق المساوىء بخصمه ـ كما هو ديدن البشر دائماً .

وصل علي جودت الأيوبي الى الدير في تلك الآونة ، فوجد الخلاف بين مولود ورمضان كاد يبلغ حداً لا تحمد عقباه . يقول الأيوبي في مذكراته « فبذلنا أقصى الجهد لاصلاح ذات البين فلم ننجح . فارتأينا ابعاد رمضان شلاش عن المنطقة أولا ولكنه كان مصراً على البقاء فيها ، ولا يريد الانفكاك عنها ، فاضطررنا الى الاستعانة بالملك فيصل ، وأعلمناه بالوضع السائد في منطقة دير الزور ، والتمسنا من جلالته باسم المصلحة العامة أن يستدعي رمضان شلاش الى الشام حالاً وأن يبقيه فيها مدة مناسبة ان أمكن ذلـك ، كما اقترحنا على جلالته أن يستدعي مولود مخلص الذي أنجز من الاعمال الوطنية ما يشكر عليها ، وان يعين محله متصرفاً مدنياً لتنظيم الادارة التي

---

(١٩) تحسين العسكري (الثورة العربيـة الكبرى) ـ النجف ١٩٣٨ ـ ج ٢ ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(٢٠) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٣٤٢ .

تحتاج اليها المنطقة ، فأجاب فيصل التماسنا فوراً »[٢١] .

ومن الطرائف التي تُروى في هذا الشأن ان أحد شعراء العشائر نظم أبياتاً من الشعر يتهكم فيها على رمضان شلاش . نذكرها فيما يلي كما رواها لي مالك فتيان الراوي :

لعيون الخشمه من زنده[٢٢]

نحارب من هين للنده

يواعدنا وشي ما عنده

طوب وطيارة ما عنده

غير الكذب وتحريك الشر

حدود جديدة :

في أوائل آذار ١٩٢٠ كتب فيصل الى اللنبي في القاهرة يذكر له ان الحدود الحالية بين العراق وسوريا غير طبيعية لأنها تقسم العشائر الساكنة حولها الى قسمين مما يؤدي الى وقوع القلاقل وسوء التفاهم ، واقترح عليه تأليف لجنة مختلطة من اعضاء عرب وبريطانيين لتعيين حدود أخرى مناسبة . فأبرق اللنبي بهذا الاقتراح الى لندن ، فعاد الجواب اليه يأذن له بالموافقة على الاقتراح . وأبرق اللنبي بالموافقة الى الكولونيل ليجمن الذي كان يومذاك حاكماً عسكرياً على منطقة الفرات الاعلى .

أبرق ليجمن الى مولود مخلص في الدير يطلب منه ارسال وفد عربي لتعيين الحدود الجديدة . وقد تشكل الوفد من علي جودت الأيوبي وتحسين علي . ولم يستطع مولود أن يشترك في الوفد لابتلائه بمرض الزحار . وفي ٥ أيار اجتمع الوفدان العربي والبريطاني في قرية « عشارة » التي تقع على بعد ١٥ ميلاً من مصب الخابور جنوباً ، وبعد

---

(٢١) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ٩٤ .

(٢٢) كان رمضان قد أجريت له عملية تجميل في أنفه فنقلت قطعة من جلد ذراعه الى أنفه . والى هذا يشير الشاعر حين يصف رمضان بأن « خشمه من زنده » .

المداولة قرروا ان تكون الحدود الجديدة عند « كرد درناج » وهـي تقع على الفرات بالقرب من قرية القائم وتبعد عن عانة شمالاً بخمسين ميلاً • وبهذا أصبحت البوكمال والصالحية والميادين ضمن حدود سوريا ، وخرجت من حوزة العراق •

ولما تم تعيين الحدود بهذا الشكل عُين عبدالرزاق منير قائمقاماً لألبوكمال ، كما أُعدت مفرزة من الجيش العربي مؤلفة من سرية خيالة نظامية ومدفع صحراء ورشاشين ، بغية الذهاب الى البوكمال لتسلمها من القوات الانكليزية • وقد وصلت المفرزة الى ألبوكمال في عصر ١١ أيار ، كما وصل اليها في الوقت نفسه قائمقامها الجديد عبدالرزاق منير وعلي جودت الأيوبي وتحسين علي وتحسين العسكري •

كانت المفرزة عند اقترابها من بلدة ألبوكمال رافعة الاعلام العربية وتنشد الاناشيد الوطنية ، وقد خرج أهل البلدة لاستقبالها والترحيب بها ، فاغتاظ من ذلك ليجمن وبعث الى المفرزة يقول انه لا يريد أن يغادر البلدة اذا دخلت المفرزة العربية بهذه الصورة • فذهب اليه علي جودت وتحسين علي واتفقا معه على أن تخرج الحامية الانكليزية أولا ثم تدخل المفرزة العربية بعدئذ[٢٣] • وقد جرى الامر على الطريقة المتفق عليها ، ثم رُفع العلم العربي فوق بناية السراي ، وانطلقت الاهازيج تملأ الفضاء[٢٤] • ولكن الحامية الانكليزية لم تكد تخرج من ألبوكمال حتى هاجمتها بعض العشائر بقيادة مشرف الدندل ، وظلت تهاجمها حتى وصولها الى عانة •

قوبل تعيين الحدود الجديدة بارتياح بالغ في سوريا ، واعتبره العرب نصراً لهم • وكتبت وزارة الخارجية السورية الى اللنبي تعرب عن شكر الامة السورية وأمتنانها ، وتقول ان اخلاء الجنود البريطانيين

---

(٢٣) المصدر السابق ــ ص ٩٥ •

(٢٤) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٨٤ •

لألبوكمال سيعتبره السوريون دليلاً على حسن النية والصداقة لــدى الحكومة البريطانية تجاه العـــرب ٠

فهد البطيخ :

ان فهد البطيخ من رؤساء عشيرة شمر طوقة شبه البدوية التي تسكن على ضفة دجلة اليسرى بـين الصـويرة والعزيزية ، وكان في العهــد التركي مشهوراً بالشجاعة والمقدرة على قطع الطرق ، وظل كذلك في عهد الاحتلال الانكليزي ٠ وقد ألقى الانكليز القبض عليه في أيلول ١٩١٩ واعتقلوه في البصرة نحو ستة أشهر ثم أطلقوا سراحه ٠ وفي شهر آذار ١٩٢٠ استطاع أن يهرب الى الدير ، ومن هناك ذهب الى دمشق برفقــة تحسين العسكري ، فقابلَ الملك فيصل وأنعم عليه الملك برتبة مقدم شرف٠ ثم عاد فهد من بعد ذلك الى الدير ٠

اتفق فهد مع مولود مخلص على تأليف عصابة من أفراد العشائر لشن الغارات على القوافل الانكليزية فيما بين تكريت والموصل ٠ وقــد تألفت العصابة من ثلاثمائة محارب ٠ وانضم اليها محمد فتيان الراوي الذي كان قبلئذٍ اماماً في الجيش العربي في حلب ٠

غادرت العصابة الدير متجهة نحو الشرقاط ، وحين وصلت الى مقربة منها وجدت قطيعاً ضخماً من الغنم لمتعهد عسكري ، فهاجمته وغنمت منه عدداً كبيراً من الغنم قُدر بستة آلاف رأس(٢٥) ٠ ثم اتجهت مـــن بعد ذلك نحو تكريت حيث التحق بها أربعة رجال من أهلها ٠ وفي ٢٤ أيار وصلت العصابة الى محطة البلاليج التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من جنوب الشرقاط ، وهناك شاهد فهد البطيخ بضعة عمال يعملون في تصليح سكة الحديد ، فطلب منهم تحت تهديد السلاح أن يقلعوا مسامير السكة بآلاتهم مع ابقاء السكة على وضعها ٠ وقد قام العمال بما أمرهم به فهد خوفاً منه ٠ وفي الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم وصل قطار

---

(٢٥) المصدر السابق ـ ص ٩٠ ٠

عسكري ، فلما مر على السكة المقلوعة انحرف في سيره ثم تدهور نحو وادي قريب يسمى « وادي أم غربة » ، وعند هذا انطلق فهد ورجاله نحو القطار يمطرونه بوابل من نيران بنادقهم ، فاشتعلت النار في مرجـــل القاطرة ، وصارت القاطرة تجري واللهب مندلع منها .

يدعي الانكليز ان القطار كان خالياً من الركاب تقريباً . أما المصادر العربية فتؤكد على أن القطار كان يحمل عدداً من الضباط والجنود ، وقد قُتلوا جميعا واستحوذ الثوار على أسلحتهم وتجهيزاتهم[٢٦] .

حين علمت الحكومة العربية في دمشق بحادثة القطار كتبـــت الى ويلسون في بغداد تبدي أسفها على ما وقع وتتنصل منه تنصلا تاما وتقول انها ستتخذ كل التدابير الممكنة لمنع وقوع مثل هذه الحركات ، كما أنها استدعت رمضان شلاش الى دمشق[٢٧] .

يبدو ان الحكومة العربية لم تكن قادرة على تحقيق ما وعدت به ويلسون . فان النصر الذي ناله فهد البطيخ ، والغنائم التي كسبها ، جعلت اسمه لامعاً بين العشائر في منطقة الجزيرة كلها ، وصار الكثير مـــن رؤساء العشائر وأفرادها يودون الاقتداء به في شن الغارات على الانكليز ونيل المغانـــم !

نجرس وعاكوب :

ان نجرس الكعود من رؤساء الدليم ، وكان شديد العداء للانكليز حتى وصفه هالدين بقوله : ان نجرس أشد خصومنا في الفرات الأعلى اثارة للمتاعب وأبرعهم في التملص[٢٨] . وهناك قولان في تعليل هـــذا العداء من نجرس للانكليز ، أحدهما انه كان بينه وبين علي السليمان منافسة على رئاسة الدليم ، ولما كان علي موالياً للانكليز صار نجـــرس

---

(٢٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٩١ ، ١٦٢ .
(٢٧) المس بيل المصدر السابق) ـ ص ٤٢١ .
(28) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 P. 44.

بطبيعة الحال معادياً لهم • والثاني ان نجرس كان له ثأر مع الانكليز لأن ليجمن كان قد قتل أخاً له اسمه صبار •

اتفق نجرس مع مشرف الدندل من رؤساء العقيدات ، والمغير بن عفان الشرجي رئيس عشيرة ألبو محل ، وبعض رؤساء ألبونمر والجغايفة، وأخذوا يشنون الغارات على القوافل بين الشرقاط وحمام العليل ، وظفروا ببعض الغنائم منها •

استطاع الانكليز أن يجتذبوا اليهم عاكوب رئيس عشيرة ألبوحمد ، وكان هذا قبلئذ معادياً لهم يشن عليهم الغارات ، ولكنهم منحوه اراضي بخمة في منطقة القيارة ، كما خصصوا له مرتبا شهريا قدره ألفا روبية ، وطلبوا منه لقاء ذلك حراسة الطريق بين القيارة وحمام العليل •

أخذ عاكوب يتصدى لنجرس الكعود وأصحابه ، وتمكن من استعادة بعض الغنائم منهم ، ولما وصل خبر ذلك الى أهل الموصل والى العشائر المعادية للانكليز استاؤوا منه ، وأرسل حزب العهد في الموصل رجلاً اسمه سعيد العبد الله الى عاكوب ليعاتبه على تعاونه مع الانكليز بعدما كان وطنياً ثائراً ، فنفى عاكوب عن نفسه تهمة التعاون مع الانكليز ، ودافع عن نفسه قائلا بأن له عداوة سابقة مع نجرس الكعود ومع الجغايفة والعقيدات ، وان هؤلاء كانوا قد أغاروا عليه من قبل • ورفض عاكوب ان يعيد اليهم الغنائم التي أخذها منهم ولكنه وعد بأن يتعاون مع الثوار في المستقبل(٢٩) •

تأثير الاحداث :

ان احداث الدير والغارات على طريق الموصل التي تحدثنا عنها آنفا ، بالاضافة الى واقعة تلعفر التي سنتحدث عنها في الفصل التالي ، كان لها أثرها البالغ في الرأي العام العراقي وخاصة في الموصل وبغداد والفرات

---

(٢٩) قحطان أحمد عبوش التلعفري (ثورة تلعفر) ـ بغداد ١٩٦٦ ـ ص ١٣٨ ـ ١٤٠ •

الاوسط • فقد أخذت الاخبار المبالغ فيها والاشاعات تروج بين الناس حول قوة العرب وضعف الانكليز تجاههم • وكانت الجرائد ولا سيما جريدة « العقاب » ، تضرب على هذا الوتر الحساس فتثير في الناس الحماس الديني الممزوج بالوطنية والقومية •

تقول المس بيل : « ان استعداد الادارة البريطانية للنزول عند رغبة الحكومة العربية ، والانصياع الى أي مقترح ينبعث منه أمل معقول في تطمين ادعاءاتها في الفرات قد أسقطته من الحساب جمعية العهد العراقية ووكلاؤها حيث لاحظت صعوبتنا الواضحة في المحافظة على خط مواصلاتنا الطويل ضد هجمات القوات غير النظامية عليه • ثم اعتبرت موقفنا الاسترضائي المسالم دليلاً على ضعفنا العسكري ، وعلى هذه الشاكلة كان موقفنا هذا شيئاً محفزاً وليس مهدئا لها • وكانت كتابات الصحافة السورية المحلية عن المناوشات التي جرت معنا ، مهما كانت لهجتها غير معقولة ، تقابل بالتصديق من الجميع • فقد كتبت تقول : ان الجيش البريطاني طُرد من دير الزور ، وان القوات العربية قد أجبرته على اخلاء ألبوكمال ، وانه ينتظر الضربة الأخيرة التي سوف تنزل به في عانة على يد الامير عبدالله وقوته التي لا تقهر • وفي الوقت الذي كانت هذه الاشاعات تردد في مقاهي بغداد بدأ العمل في البادية » (٣٠) •

ويقول هالدين تعليقاً على سقوط دير الزور في أيدي العرب : ان سقوط هذه البلدة أصبح دعاية رائعة بين عشائر الفرات الأوسط ، وقد صار واضحاً في ذهن البعض ان الثورة العراقية آتية لاريب فيها • فان قبيلة مستضعفة كالعقيدات التي لا تتمتع بشهرة حربية كبيرة استطاعت ان تطرد الانكليز من دير الزور فكم يكون من السهل اذن على عشائر الفرات الاوسط التي اشتهرت بقوة الشكيمة أن تقوم بالعمل نفسه • وينقل هالدين عن فهد الهذال انه قال : اذا لم تعيدوا احتلال دير الزور فانكم

---

(٣٠) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ٤١٧ ــ ٤١٨ •

سوف تواجهون في الفرات الاوسط ثورة خلال ستة أشهر »[٣١] .

ويذهب ويلسون الى مثل هذا الرأي حول التأثير الذي أحدثته أحداث الدير على الرأي العام في بغداد ، حيث يقول : ان تقلص حدودنا المستمر في الفرات الاعلى ، والغارات على تلعفر وطريق الموصل ، قوى الاعتقاد السائد لدى الناس بان وضعنا العسكري ليس في مقدوره ضبط العشائر في حالة قيامها بالثورة • ففي أوائل شهر حزيران أعطانا علي السليمان تحذيراً خطيراً ، وهذا الرجل يعد من أكثر مؤيدينا ثباتاً بين شيوخ العشائر بالقرب من بغداد • وفي الوقت نفسه أعطانا مثل هذا التحذير شيخ مشائخ عنزة ، وهو الذي أعطى أذناً صماء للدعاية الثورية الموجهة اليه ، فهو أعلن بجدية اننا اذا لم نحصل على بعض الانتصارات الساحقة فانه لايستطيع ان يعطي جواباً مقنعاً لأفراد عشيرته ... [٣٢] .

---

(31) Haldane (op. cit.) - P. 83-84.

(32) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 254 - 255

الفصل الحادي عشر

واقعة تلعفر

على أثر تتويج فيصل في دمشق في ٨ آذار ١٩٢٠ شعر العراقيون في سوريا أن بقاءهم فيها أصبح غير مرغوب فيه وأنهم يجب أن يقوموا بعمل جدي للعودة الى بلادهم، فاجتمع نفر منهم وقرروا مقابلة الملك فيصل للتداول معه في هذه المشكلة ، واختاروا من بينهم ثلاثة لمقابلة الملك هم : علي جودت الايوبي وجميل المدفعي وثابت عبدالنور .

يروي الأيوبي في مذكراته انهم عند اجتماعهم بالملك قالوا له : اننا التحقنا بثورة الملك حسين في الحجاز فحاربنا وضحينا حتى وصلنا الى سوريا وكانا أمل في أن نحصل على أهدافنا ، ثم تبين لنا مع الأسف ان الحلفاء الذين آزرناهم في أحلك أيامهم قد تنكروا لنا واقتسموا بلادنا ، أما نحن فصرنا لا ملجأ لنا ولا مأوى ، وبدأنا نشعر بأننا غرباء غير مرغوب فيهم . ولهذه الاسباب قررنا الذهاب الى دير الزور لمحاربة الانكليز الذين نكثوا بعهودهم للعرب ، فاما ان ننجح في مسعانا أو نموت دونه . فأخذ الملك فيصل يناقشهم في هذا الأمر حيث ذكر لهم صعوبة قيامهم بمحاربة دولة قوية كبريطانيا ، وطلب منهم التريث لكي لا يضطرهم الموقف الى مواجهة عدوين قويين في آن واحد ، اي بريطانيا وفرنسا . فرد عليه الثلاثة قائلين له ان الروس والاتراك مستعدون لمساعدة أية حركة مناوئة لبريطانيا وان من الممكن الحصول على المال والسلاح منهم ، وطلبوا منه أن يمدهم هو أيضاً بالمال والسلاح وأن يسمح لأخيه زيد بالذهاب معهم ليكون رمزاً للثورة . وبعد أخذ ورد وافق الملك فيصل على امدادهم غير أنه امتنع عن ارسال زيد معهم لأن ذلك يعني اشهار الحرب على الانكليز بينما هو في وضع لايساعده على معاداتهم في الوقت الحاضر[1] .

(١) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ٩٠ـ٩٢ .

قدم لهم فيصل منحة قدرها ثلاثة آلاف جنيه مصري ، وذهبوا هم الى أحد المخازن العسكرية التي كانت تحت حراسة جنودهم ، فأخذوا منها سراً مقداراً كافياً من الاسلحة والعتاد ، وأرسلوها بالعربات الى دير الزور ٠

تجمع في الدير عدد غير قليل من العراقيين علاوة على من كان فيها سابقا ٠ وأخذوا يستعدون لشن هجوم على العراق ٠ وذهب أمين العمري الى ماردين عبر الحدود التركية ٠ فاتصل هناك بأحد القادة الاتراك اسمه كنعان بك ، وكان للعمري معرفة قديمة به ، طالباً منه المعونة ، فأعطاه هذا مائة صندوق من العتاد والاسلحة الخفيفة وخمسمائة قنبلة ٠ وقد طلب العمري من الاتراك مدفعين جبليين ، فوعده الاتراك بهما ولكنهم عدلوا عن وعدهم أخيراً عندما تبين ان العراقيين يريدون الاحتفاظ بالموصل وغير مستعدين لاعطائها الى الاتراك (٢) ٠

اعداد الحملة :

وصل الى الدير في تلك الأيام رجل موصلي اسمه عبدالحميد الدبوني ، وهو من الضباط القدماء وكان قبل قدومه الى الدير موظفاً لدى الانكليز في تلعفر برتبة معاون حاكم سياسي ولكنه اختلف معهم فاستقال من الوظيفة والتجأ الى الدير ٠ وروى لي أحد المطلعين من أهل تلعفر ان سبب استقالة الدبوني من وظيفته هو أن ليجمن اتهمه بالاختلاس وعامله بفضاضته المعهودة ٠

أخذ الدبوني يحرض العراقيين في الدير على مهاجمة تلعفر ، وأوضح لهم سهولة احتلالها لما له من معرفة وثيقة برؤساء تلعفر ، ووصف أولئك الرؤساء بأنهم ميالون كل الميل للثورة على الانكليز ٠ وقد اقتنع العراقيون بهذا الرأي ٠ وفي أوائل أيار ١٩٢٠ بدأ اعداد الحملة لمهاجمة تلعفر ٠ يقول الأيوبي في هذا الشأن ما نصه :

---

(٢) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ النجف ١٩٣٨ ـ ج٢ ص ٩٢ ٠

« ... رأينا الجواسيس الانكليز في دير الـزور يسرحـون ويمرحون ، وقد كثر عددهم ، وكنا نشعر بأنهم في حركة دائمة ونشاط مستمر حريصين على ايصال أخبارنا وحركاتنا الى ضباط الاستخبارات الانكليز في الفرات ، لذلك ولأجل تضليل هؤلاء أظهرنا بأننا نهيـىء أنفسنا للهجوم على عانة ، وقد استأجرنا فعلاً شختاتير (قوارب) ووضعنا فيها بعض الارزاق وقلنا لبعض الجنود والمتطوعين أننا قريباً نتحرك بالقوة بواسطة النهر نحو الجنوب ، وطلبنا أن يكتموا الأمر حتى نفاجيء الانكليز بالحركة . كنا نشيع أمثال هذه الاخبار ليتأكد الجواسيس من أن الحركة متجهة نحو الجنوب . هذا ولم نغفل عن اعداد (مطارات) الماء للجنود بواسطة السمكرية من السوق في دير الزور لأنها كانت ضرورية لهـم في الصحراء ... » [٣] .

وصلت أخبار الحملة الى الانكليز ، وأسرعوا هم من جانبهم الى ابلاغ الملك فيصل بذلك وهددوه وأنذروه بأنه يجب أن يتدخل لايقاف الحملة ، فأرسل الملك الى الايوبي يطلب منه الحضور حالاً الى حلـب لمقابلته . وحين ذهب الايوبي اليه قال له الملك : ان الانكليز مستاؤون من وجودكم في دير الزور ، وهم يهددوننا بوخامة العاقبة اذا لم تكفوا عن هذه الاعمال ، فرد عليه الايوبي قائلاً بأن العراقيين في الدير مصممون على القيام بالحملة ولا يمكن ان يتراجعوا عنها . ولما رأى الملك اصرار الأيوبي على القيام بالحملة وافق عليها مشترطاً ان يقوم العراقيون بها على مسؤوليتهم لكي لايحرجوا موقفه مع الانكليز ، وطلب منهـم أن لا يستعملوا المدافع فيها لان استعمالها يدل على موافقة الحكومة السورية عليها . فأكد الأيوبي له انهم لن يستعملوا المدافع كما أنهم سوف يبذلون جهدهم للتظاهر بان الحكومة السورية لا دخل لها في أعمالهم[٤] .

تحرك الحملة :

أُعدّت للحمله عشرون عربة من عربات النقل التي تجرها الخيول،

---

(٣) علي جودت (المصدر السابق) ـ ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(٤) المصدر السابق ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

وكانت كل عربة تكفي لحمل ثمانية جنود مع معداتهم ، وفي ٢٢ أيـــار تحركت الحملة بقيادة جميل المدفعي ، وكان في مقدمتها جندي يحمــل علم الثورة العربية كُتب عليه عبارة : « الموت أو استقلال العــــراق » • وسارت الحملة في محاذاة نهر الخابور خارج الحدود العراقية ، وقـــد التحقت بها جماعات من عشيرة العقيدات والبكارة وغيرها • وفي ٢٦ منه وصلت الحملة الى الفدغمي ، وهناك تم تنظيم الحملة الى اربع سرايا ، ونيطت قيادتها بالضباط التالية اسماؤهم : فائق حسني الكردي ، محمود أديب البغدادي ، سليم الجراح الموصلي ، محمد علي الموصلي • وتقرر اطلاق اسم « عسكر الشريف » على الحملة ليكون ذلك بمثابة دعاية لها في أوساط العشائر وأهل المدن •

وفي ٢٨ أيار وصلت الحملة الى مضارب عشائر شمر ، وكانـــت هذه العشائر يومذاك تسكن بالقرب من نصيبين داخل الحدود التركية ، وطلب ضباط الحملة من الشيوخ أن ينظموا اليها ، فأبدى بعضهم تردداً في ذلك ، ولكن عجيل الياور انبرى للكلام وأخذ يحاول اقناع الشيوخ بتأييد الحملة حيث قال لهم : « ان هؤلاء الذين اتوا يستنجدون بكم لكل واحد منهم عائلة وله أولاد في العراق ، وهم مصرون أن يمشـــوا الى الانكليز غير خائفين ولا وجلين ، وكل واحد فادى بحياته لاجل تخليص الديار من العدو ، وأنا لا أرى من شيمة العرب أن تتردد في معاونتهم بل الشيمة تدعو الى اسعافهم وانجادهم والمحاربة في صفوفهم لتخليص البلاد ، فأما أنا وعشيرتي فسترونا معهم منذ الغد ، فمن يود الاشتراك معنـــا فليشترك ، والذي يتأخر ولا يريد الاشتراك في هذه الحرب فهو حر في أمـــره » •

وقد أثر هذا الكلام في الشيوخ ، وتم الاتفاق بينهم على أن ينضم عجيل الياور الى الحملة بكل عشيرته وينضم الآخرون كل واحد منهم بعدد معين من عشيرته ، وهم مشهل الفارس وحاجم بن العاصي ومدلول بن العاصـي وبنيان الشـلاش ومبرد بن مناور السـوكي ومحمـد

الغسفيري[٥] .

وبعد أن انضم هؤلاء الى الحمله تحركت نحو الجنوب باتجاه تلعفر . وفي الطريق انضمت اليها جماعات أخرى من الجبور وطي وغيرها .

اجتماع في تلعفر :

في صباح ١ حزيران ١٩٢٠ وصلت الحملة الى موضع خنيزيرة الذي يقع الى الشرق من جبل سنجار وهناك عقد رؤساء العشائر الملتحقون بالحملة مؤتمراً قرروا فيه ارسال وفد منهم الى تلعفر للتأكد من استعداد رؤسائها للتعاون معهم عند الوصول اليها . وقد وقع الاختيار على عبدالحميد الدبوني للذهاب الى تلعفر على أن يصحبه رجلان من العشائر أحدهما شمري والثاني جبوري .

غادر هؤلاء الثلاثة خنيزيرة متوجهين الى تلعفر ، وكانوا يحملون معهم رسالة من رؤساء الحملة معنونة الى رؤساء تلعفر يخبرونهم فيها بأن قوة ثورية من الشريف حسين زعيم الأمة الاسلامية والعربية جاءت لتحرير الموصل من الانكليز وهم يعلنونها حركة ثورية عامة للانقاذ ويرغبون قبل أن يتوغلوا نحو الموصل أن يتأكدوا من موقف تلعفر وعشائرها من الحركة ويأخذوا المواثيق منهم في حالة تأييدهم لها ، وهم ينتظرون الجواب على يد الوفد المرسل اليهم .

وصل الوفد الى تلعفر في ساعة متأخرة من مساء ٢ حزيران — وهو يوافق ١٥ رمضان — فذهب تواً الى بيت السيد عبدالله أغا رئيس عشيرة السادة ، وسلمه الرسالة . فدعا هذا اليه رؤساء البلدة الآخرين ، وكان الرؤساء في تلك الساعة يقظين كعادتهم في ليالي رمضان . وحين حضروا كاشفهم السيد عبدالله أغا بالامر ، ثم تكلم الدبوني معهم طالباً منهم ان يقوموا بالثورة قبل وصول « عسكر الشريف » اليهم ، فان ذلك سيكون شرفاً عظيماً لهم وخير جواب لرؤساء العشائر الذين أوفدوه اليهم .

---

(٥) قحطان أحمد عبوش التلعفري (ثورة تلعفر) — بغداد ١٩٦٩ — ص ١٧١ .

اقترح بعض الرؤساء استشارة الضابط جميل محمد الخليل في الأمر، وكان هذا الرجل مستخدما لدى الانكليز في تلعفر قائداً للدرك وهم يثقون به ، فأرسلو اليه يدعونه اليهم ، وحين حضر اليهم أخذه الدبوني الى جانب من المجلس وكان صديقاً له ، وأخذ يحاول اقناعه بالاشتراك مع رؤساء تلعفر في الثورة على الانكليز ، فاقتنع جميل ووافق على الاشتراك في الثورة(٦) .

وقد روى جميل الخليل فيما بعد قصة انضمامه الى الثورة حيث قال ما نصه : « كنت قائد الدرك عند القوة الانكليزية في تلعفر ، وحينما علمت بمجيء حميد الدبوني بالقرب من قلعة تلعفر ، خرجت وتواجهت معه ، وكلمني عن أن الانكليز قد استولوا على الموصل بغير حق ولا حرب ولا سيما أنهم دخلوها بعد عقد الهدنة ويريد الاتراك استردادها فلم يتمكنوا ، وان السوريين بعد أن استقلوا هيمنوا على جميع وظائف الدولة ونحن بقينا هناك من غير عمل . وفكرنا بأننا يجب أن نتحرك ضد الانكليز لنأخذ استقلالنا ... »(٧) .

الميجر بارلو يتخبط :

لم يكد الاجتماع في بيت السيد عبدالله أغا ينفض حتى وصل خبره الى حاكم تلعفر السياسي الميجر بارلو ، ويقال ان اثنين من الرؤساء الذين حضروه أسرعا باخبار بارلو عنه فور خروجهما منه .

وعند طلوع الشمس علم جميل الخليل بأن الميجر بارلو وصل اليه خبر الاجتماع ، فأدرك انه أصبح في خطر ، وأسرع الى الهرب من تلعفر ، وأرسل في الوقت نفسه دركياً الى الدبوني يطلب منه أن يهرب من البلدة ويلتحق به في قرية قبك التي تقع على بعد عشرة كيلومترات من شمال تلعفر .

---

(٦) المصدر السابق ـ ص ١٩٦ .

(٧) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١٨٥ .

يبدو أن الميجر بارلو لم يصدق خبر الاجتماع ، وربما كان واثقاً من ولاء رؤساء البلدة له واستبعد ان يتآمروا عليه • ومما يدل على ذلك أنه كان لديه ثلاث مصفحات في القلعة ، فأرسلها الى الموصل صباحاً • ثم أرسل يستدعي رؤساء البلدة للحضور عنده في السراي • وحين اجتمعوا عنده في دائرته قال مخاطباً السيد عبدالله أغا : « في هذه الليلة قد جرى اجتماع في دارك وحضر الاجتماع كل من عبدالحميد الدبوني وجميل خليل والاغوات ، وبحسب المعلومات التي وردتني انكم تنوون القيام بالثورة ضد الحكومة البريطانية على حساب الشريف » • فأجابه السيد عبدالله أغا بان الذين أخبروه بهذا الاجتماع لابد أنهم أناس مشاغبون ويريدون جلب عواطفكم تجاههم • فقال بارلو : « لو كنت أصدق أقوال المخبرين لما كنت اجتمع بك لكي أريد أن أسمع رأيك بهذا الخصوص ••• » ، فقال السيد عبدالله : « ان الوضع كما تسمعون عن مجيء الشريف ، ونحن نسمع الأخبار ايضاً ولكن لا نعلم درجة صحتها ••• واذا كنت تعتقد بخطورة الوضع فاطلب قوة من الموصل للدفاع عن تلعفر » • وأخذ بارلو من بعد ذلك يلاطف الرؤساء قائلا: «منذ استلامنا الحكم في هذه المنطقة دائماً نود مساعدتكم ونعتبركم من أخلص أصدقائنا الذين نعتمد عليهم ، والذي أريده منكم مساعدتنا عند الحاجة » • ثم قال أيضا : « والذي أرجوه منكم الآن عند سماعكم أخباراً تمس أمن هذه المنطقة أن تخبروني عنها وعن قوة جميل المدفعي وقوة الشريف » • فأجابه السيد عبدالله أغا : « طالما الأمر كذلك يجب عليك أن تخبرنا وتتصل بنا عن اجراءاتك في الداخل وفي الخارج حتى نكون على علم بها ولكي نتمكن من السير في أمورنا بقوة صحيحة على ضوئها بحيث لا تتصادم أفكارنا ، واذا أردت أن نجلب قوتنا من الخارج الذين هم الآن في القرى مشغولون في الحصاد » • فأجاب بارلو : « اننا الآن لسنا بحاجة أن نعيد قوة عشيرة الاعافرة الى تلعفر ونمنعهم من أشغالهم وحصادهم ويجب علينا أن ننتظر اليوم وغداً لنكون على بصيرة من الأحداث والأخبار ••• » •

وعند انتهاء الجلسة قال بارلو : « سوف نجتمع للمذاكرة عندما يستوجب الوضع ذلك » [٨] .

وفي عصر ذلك اليوم علم بارلو بوجود تجمع عشائري في قبك فأراد التحقق من ذلك بنفسه ، فغادر تلعفر برفقة رجل واحد من الدرك فوصل الى قبك بعد الغروب بساعة ، ونزل في خيمة السيد سليمان أغا ، فوجد هناك أحد رؤساء عشيرة الكركرية فسأله عن سبب وجوده هو وعشيرته في قبك . فأجابه الرئيس : « سمعنا بوجود شريف وثورة ، وجئنا نفتش عنهم ، وليس لدينا عتاد فنرجو يا سيدي تزويدنا بذلك » . فقال له بارلو : « ليس لدي عتاد لأني أرسلته كله الى الموصل ، ولم يبق لدي سوى صندوق واحد وهو قديم ، فأرسل غداً رجلاً لأعطيه عشرين مشطاً » [٩] .

وبعد فترة قصيرة وصل الى قبك رجال من تلعفر ، ولاحظ بارلو من حركاتهم أنهم غير وديين تجاهه وأنهم يضمرون له الشر . فخرج من الخيمة متظاهراً بأنه يريد البحث عن فرسه ، ولم يكد يبتعد بضع خطوات حتى أخذ يجري مسرعاً .. فحاول بعضهم اللحاق به ، فأطلق عليهم رصاصتين من بندقيته واختفى عن الانظار حيث توغل في بعض الأخاديد بين الصخور والادغال .

وحين علم عبدالحميد الدبوني بهرب بارلو أعلن عن جائزة قدرها خمسون ليرة ذهب لمن يأتي به حياً . فقام بالبحث عنه بعض الخيالة دون جدوى ، غير أنهم أدركوا مرافقه الدركي ، فسلبوه ملابسه وفرسه وسلاحه ، وضربوه ، ثم جاؤوا به الى الدبوني وجميل الخليل ، فأوعزا باطلاق سرحه [١٠] .

---

(٨) محمد يونس السيد عبدالله (اهمية تلعفر) - الموصل ١٩٧٧٦ - ص ٢٧ - ٢٩ .
(٩) قحطان احمد عبوش التلعفري (المصدر السابق) - ص ٢٠٩ .
(١٠) المصدر السابق - ص ٢٠٩ - ٢١١ .

احتلال تلعفر :

ان الذى جـرى في قبك كان بمثابة اعلان الثورة على الانكليز • وقد أدركت العشائر في قبك أنهم أصبحوا في موقف لايمكن التراجع عنه وأنهم يجب أن يستمروا في الثورة الى النهاية فعقدوا مؤتمراً حضـــره الدبوني والخليل ، وقرروا احتلال تلعفر ، ثم شرعوا بالزحف نحوها في ضوء القمر بغية الوصول اليها فجراً •

كانت الحامية الانكليزية في تلعفر مؤلفة من ثلاثة جنود بريطانيين وسبعين دركيا محلياً يرأسهم ضابط موصلي برتبة ملازم اسمه محمد علي النعلبند ، وكانوا جميعاً بأمرة ضابط بريطاني برتبة كابتن اسمه ستيوارت • وكانوا متحصنين في « القلعة » وهي هضبة مرتفعة تقع في وسط البلـــدة يحيط بها وادي يفصلها عن محلات البلدة من الجهات الأربع •

وصل الثوار الى تلعفر فجراً وأخذوا يهاجمون القلعة ، فأسرع الجنود البريطانيون الثلاثة الى سطح السراي الواقع في شمال القلعة ، فأحاطوا السطح بأكياس الرمل وصاروا يطلقون الرصاص على الثوار من رشاش كان لديهم • وكذلك التجأ الدرك المحليون الى سطح ثكنة الشرطة التي تقع في الجنوب الغربي من القلعة ، وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم، وكان معهم الملازم محمد علي النعلبند ، ثم انضم اليه الكابتن ستيوارت •

لم يستمر تبادل النار بين الدرك والثوار طويلاً ، ذلك لأن الملازم محمد علي النعلبند استطاع أن يجد غفلة من الكابتن ستيوارت فأطلق عليه النار وقتله حالاً • وعند هذا اعلن الدرك انضمامهم الى الثورة مع النعلبند • ولما شاع الخبر في البلدة أعلن أهلها انضمامهم الى الثـــورة كذلـــك •

ظل الجنود البريطانيون الثلاثة صامدين على سطح السراي يطلقون النار من رشاشهم • ولكن الثوار تمكنوا من الصعود الى القلعة من خلال بعض المنعطفات والدروب التي لم تكن في مجال مرمى الرشاش ، فاحتلوا الأبنية فيها ونهبوها نهباً ذريعاً •

وقد تمكن الثوار من التسلل الى داخل السراي بالرغم من الرشاش المنصوب فوقه . وكانت في احدى غرفه خزانة تحتوي على مبلغ كبير من النقود ، فحطم الثوار باب الغرفة ودخلوها يريدون نهب الخزانة . فأسرع اليهم عبدالحميد الدبوني وأخذ يخاطبهم بالعربية تارة ، وبالتركية تارة ، وبالكردية تارة ، حيث ناشدهم أن يتركوا المال الى حين وصول عسكر الشريف ليتولى انفاقه على الجهاد ، وكذلك جاء اليهم السيد علي أغا وهو من رؤساء البلدة راجيا منهم الابتعاد عن الخزانة ، فلم يسمع كلامهما أحد . وعند هذا انبرى الشيخ صالح أحمد الخضير رئيس الجحيش فصرخ فيهم قائلا ما معناه : « لقد تجمعتم تريدون المال وهو ملك الشريف ، ومن العار عليكم أن تسببوا قتالاً أو جدلاً بينكم ، ولا يزال الرشاش الانكليزي فوق رؤوسنا يطلق الرصاص » . قال هذا ثم لملم عباءته وسحب خنجره وأخذ يصعد الدرج المؤدي الى السطح المنصوب عليه الرشاش قاصداً قتل الجنود ، ولكنه لم يكد يظهر رأسه في أعلى الدرج حتى أصابته رصاصة خر على أثرها مضرجا بدمائه .

لم يردعهم مقتل الشيخ صالح بل ظلوا على تكالبهم يريدون الاستحواذ على الخزانة . فاضطر الدبوني أن يأتي بالعالم الديني السيد سعيد أفندي ، وهو رجل يحترمه الجميع ، فأوقفه عند باب الغرفة لحراستها . وأخذ هذا الرجل يتلو بعض الآيات القرانية والاحاديث النبوية المناسبة ، وطلب من الناس التفرق ، فاستجابوا لطلبه ... (١١) .

وفي تلك الآونة كان بعض الخيالة قادمين من احدى القرى للالتحاق بالثوار في تلعفر ، وحين وصلوا الى بعد ميلين منها أبصروا بالميجر بارلو يمشي متجهاً نحو تلعفر ، فأمسكوا به وأخذوا منه بندقيته ومسدسه وخاتمه ، ثم أركبوه على فرس وساروا به نحو البلدة . وبينما هم في الطريق بلغهم مقتل الشيخ صالح أحمد الخضير . ولما وصلوا الى مقربة من البلدة شاهدوا قافلة من السيارات الانكليزية متوجهة نحوها ، كما

---

(١١) المصدر السابق _ ص ٢٢٢ _ ٢٢٤ .

شاهدوا طائرة في الجو • وأراد بارلوا أن يفر منهم عند رؤيته السيارات والطائرة فقفز من على ظهـــر فرســـه وأسرع نحـــوها ملوحا بيده • فصوب عليه أحدهم بندقيته وهو يقول : «يا لثارات صالح أحمد الخضير» وأرداه قتيلا • ثم سحبوا جثته الى بقعة منخفضة من الارض فتركوهـا هنالك ، وواصلوا سيرهم نحو تلعفر[١٢] •

معركة السيارات :

عندما اقترب الظهر في ذلك اليوم ساد فى تلعفر هدوء يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة ، ولم يكن يسمع آنذاك سوى طلقات الرصاص من الرشاش المنصوب فوق سطح السراي بين الحين والآخر • وبدأ الناس يتهامسون متسائلين : لماذا لم يصل عسكر الشريف حتى الآن ؟ وبدأ بعضهم يتقولون بأن الدبوني خدعهم وأوقعهم في ورطة كبيرة وان قوة انكليزية لابد قادمة الى تلعفر لتنتقم من الاهالي • وأرسل أحـــد الرؤساء الى الدبوني ينصحه بالاختفاء عن الانظار ويحذره من احتمال قيام مؤامرة عليه من قبل بعض الاهالي لاحتجازه • فاضطر الدبوني الى الخروج من تلعفر والالتجاء الى مزار يعرف بـ « مزار ملا جاسم » يقع على تل في طريق سنجار • فجلس هناك منفردا ينتظر وصول عسكر الشريف بفارغ الصبر •

لم يطل انتظار الدبوني على التل ، اذ سرعان ما وصل الى المكان عدد من الخيالة من اتباع عجيل الياور ، ثم وصلت بعد قليل طلائـــع عسكر الشريف ، فانضم الدبوني اليهم ، وساروا جميعا نحو تلعفر • وعندما بلغوها استقبلهم رجال البلدة باطلاق النار وبالتهليل والتكبير ، والنساء بالزغاريد •

أول صعوبة واجهت الثوار عند دخولهم البلدة هي في تحصـــن الجنود البريطانيين الثلاثة فوق سطح السراي ومعهم الرشاش يطلقون

---

(١٢) المصدر السابق ــ ص ٢٣٣ •

منه النار • فتقدم أحد ضباط الحملة ، وكان يحمل معه قنبلتين يدويتين فقذف بهما على سطح السراي ، فانفجرتا هنالك وأحدثتا دويا مرعبـا • وتطايرت أشلاء الجنود الثلاثة في الهواء من شدة الانفجار • ويقال ان فخذ احدهم سقط الى ارض القلعة على مرأى من الحاضرين(١٣) •

وفي هذا الوقت وصلت قافلة السيارات الانكليزية وهي مؤلفة من مصفحتين وبضع حاملات للجنود وسيارة واحدة اعتيادية ، وأخذت تسير في الطريق الضيق الذى يؤدي الى القلعة ، وكان الثوار قد أستعدوا لها ووضعوا الاحجار في الطريق ، ثم أطلقوا رصاصهم على السيارة الاولى فأعطبوها • وبذلك أصبحت القافلة كلها كأنها واقعة في فخ لعدم مقدرتها على الاستدارة في ذلك الطريق الضيق • وصار الرصاص ينهمر عليها من كل مكان كأنه المطر •

نشبت معركة ضارية بين الثوار وجنود القافلـة ، فـكان الثوار يهاجمون السيارات وهم شاهرون خناجرهم ومسدساتهم وبنادقهم • وقد شاركت النساء في المعركة اذ كن يضربن السيارات بالاحجار ويصحن : « لقد ظهر دين محمد ! » ولم ينج من جنود القافلة سوى اثنين كانا من الهنود المسلمين وصارا يستغيثان : « دخيل دخيل مسلمان مسلمان » ، فأمسـك بهما الثوار وأودعوهما في السجن • وعمد احد الجنـود على احراق نفسه حيث صب البنزين على جسمه وأشعل النار فيـه ، والظاهر أنه كان من الهنود الذين يحرقون موتاهم ، وهو قد أحرق نفسه عندما عرف مصيره المحتوم فارتفعت ألسنة اللهب تلتهمه وتلتهـم بعض السيارات القريبة منه(١٤) •

كانت احدى المصفحتين قد تمكنت من الفرار ، فجرى وراءها بعض الخيالة ، وقفز أحدهم من على ظهر فرسه الى سطح المصفحة واستطاع ان يقتل أحد ركابها ، غير أنه سقط الى الارض فأصيب في رجله ، وحمله

---

(١٣) محمد يونس السيد عبدالله (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ •
(١٤) قحطان أحمد عبوش التلعفري (المصدر السابق) ــ ص ٢٣٩ •

أصحابه . وظل الخيالة يطاردونها حتى استطاعوا تعطيلها ، وخرج ركابها وهم شاهرون مسدساتهم يطلقون النار منها ، فقتلوا جميعا، وشوهد عجيل الياور آنذاك وبيده رمح طويل يطعن به كل جندي يخرج من المصفحة ، وذلك أخذاً بثاره من الانكليز[١٥] .

وصول عسكر الشريف :

لم تكد تنتهي معركة السيارات في تلعفر حتى وصل الخبر الى البلدة بقرب وصول عسكر الشريف اليها ، فخرج الناس لاستقباله على طول الطريق المؤدي الى القلعة . وجاء العسكر وهو في عرباته العشرين ، وكان أحد ضباطه وهو عمر الكركوكلي قد لبس عقالا وملابس عربية متظاهرا بانه الامير زيد بن الشريف حسين . وقد صدق أهل تلعفر ذلك . وأخذوا يهتفون له بالتركية قائلين : « پيغمبر قوقسي كاليور ، مكة قوقسي كاليور » ، ومعناه : أنهم يشمون رائحة النبي ورائحة مكة . وصاروا يرشون الماء على العسكر من سطوح دورهم ، وعج الفضاء بطلقات الرصاص وزغردة النساء[١٦] .

أوعز جميل المدفعي بانزال العلم البريطاني من فوق السراي ، وبرفع العلم العربي مكانه ، ثم أمر بتسلم محتوى الخزانة ، فتسلمه محمود السنوي ومحمود أديب . وكان المبلغ نحو ٧٥ ألف روبية و ١٥٠ ليرة ذهب ، وقيل غير ذلك . وقد دفع المدفعي من هذا المبلغ رواتب ضباط الحملة وجنودها ، كما دفع ٣٠٠ روبية لرجل من أهل تلعفر لانه كان قبل الثورة بشهر قد دفع الى الحكومة قسطا بألف روبية لالتزامه سوق الحيوانات . أما باقي المبلغ فقد احتفظ المدفعي به لحكومة دير الزور[١٧] .

وفي صباح اليوم التالي – أي في ٥ حزيران ١٩٢٠ – عقد المدفعي اجتماعا في دار رئيس البلدية الحاج يونس افندي ، حضره ضباط الحملة

---

(١٥) المصدر السابق – ص ٢٤٢ – ٢٤٤ .
(١٦) المصدر السابق – ص ٢٤٧ .
(١٧) المصدر السابق – ص ٢٤٩ .

ورؤساء العشائر • وتقرر في الاجتماع ابقاء الحاج يونس رئيسا للبلدية ، وتعيين جميل الخليل قائمقاما للبلدة • ثم بدأ المجتمعون يتداولون في أمر توسيع نطاق الحملة والهجوم على الموصل ، واتفقوا على الاتصال بحزب العهد في الموصل لاستطلاع رأيه في تعيين الموعد المناسب للهجوم • وكتبوا بهذا المعنى كتابا أرسلوه مع جاسم عجراوي ، كما كتبوا كتابا آخر الى الحاكم السياسي في الموصل الكولونيل نولدر ينذرونه به • وفيما يلي نص الكتاب الاول الموجه الى حزب العهد :

سلام واحترام

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نخبركم ونبشركم بأنه قد دخلنا تلعفر بدون ضائعات من طرفنا ، وأسرنا اثنتي عشر سيارة (أوتومبيل) منهم أربعة مدرعات وثمانية رشاشات ، وأسقطنا طيارة ، وقتلنا ماينوف عن المائة من جنود الانكليز ، وقد اجتمعت واشتركت معنا عشائر شمر والجبور والكركرية والجحيش وأهالي تلعفر ، وستجتمع غدا معنا أغوات وأهالي سنجار • ان شاء الله غدا او بعد غد سندخل الموصل فعليه يلزم عليكم ان تستعدوا لترتيب الامور الداخلية ، ويلزم عليكم أن تقوموا لمدافعة الوطن وطرد الانكليز وتوحدون الحركة معنا وتجرون اللازم مثل ماعملوا أهالي تلعفر والدير وألبو كمال • ثانيا : يلزم احضار محلات لاجل اسكان العسكر والعربات والمجاهدين • ثالثا : تكتبون مكاتيب الى العشائر من العرب والاكراد في طرفي الدجلة من شعبة العهد ومن قبل حاجي محمد النجيفي والشيخ سليم وغيرهم أيضا من أصحاب النفوذ • والنصر من عند الله ، والسلام على الاحرار العاملين •

١٧ رمضان ١٢٢٨ — قائد الجيوش العراقية الشمالية

جميل

اما الكتاب الثاني الموجه الى الكولونيل نولدر فهذا نصه :

نحن باسم جميع أهالي العراق نخطركم بلزوم خروجكم من ديارنا وتسليم العراق لمليكنا صاحب الجلالة عبدالله الاول ابن جلالة الشريف

حسين حسب عهودكم التى كانت أساس التحالف معنا ، وان لم تخرجوا فمع كل الاسف سنخرجكم بحد سيوفنا لاننا لانقبل أن نعيش مستعبدين ، وستكونون أنتم المسببين والمسؤولين عن سفك الدماء بيننا وبينكم ، هـــذا ونؤمل منكم الجواب العاجل بخصوص تخلية بلادنا • • والسلام على من اتبع الهدى •

قائد جيش العراق الملي الشمالي

جميل

عاد الجواب من معتمد حزب العهد في الموصل ومضمونه : أنهـــم مستعدون للثورة ، وانهم سيثورون فى ليلة الاربعاء في الساعة السادسة غروبية — وهي توافق ٨ حزيران — وهم يطلبون من عسكر الشريف أن يهاجم الموصل في تلك الليلة ، وان لايتأخر عنها ، لكي يكون الهجوم على الانكليز من جبهتين •

وكذلك عاد الجواب من الكولونيل نولدر ، وفيه اشارات تهكمية واضحة على النحو التالي : « تعلمون انني حاكم عسكري وليس للعسكريين حق البت في مثل هذه الامور دون مراجعة حكومتهم ، ولهذا السبب فاني سأنقل مضمون خطابكم الى حكومتى فان هي أمرتني بالتخلي عن هـــذه الديار فعلت ، وان لم تأمرني بذلك فسأبقى بانتظاركم ريثما تخرجوننا بقوتكم »(١٨) •

الفرح بالنصر :

المفروض في التحركات العسكرية أن تجرى في منتهى الكتمان لكي تكون مباغتة للعدو • ويبدو ان قادة الحملة والوطنيين في الموصل لم يعملوا بهذه القاعدة • فلقد اشتد الحماس لدى البعض من أهل الموصل حينما بلغتهم أخبار النصر في تلعفر ، وصاروا يتفوهون بعبارات تـــدل على ان الثورة قريبة وان الانكليز سيخرجون من الموصل في خلال يومين ، وقال

---

(١٨) المصدر السابق — ص ٢٦١ — ٢٦٤ •

بعضهم : « انتظروا ما بعد رمضان وسوف ترون ما يقع »[١٩] • أضف الى ذلك أن حزب العهد في الموصل أصدر في ٦ حزيران منشورا ذكر فيه ان الانكليز على وشك الخروج من الموصل وأكد لليهود والنصارى ان ذلك سوف ينفعهم[٢٠] •

كان الكولونيل نولدر على علم بما يجري في البلدة، ولما جاءه الانذار من المدفعي أيقن أن الخطر قريب فأخذ يستعد لمواجهته • انه أصدر أوامره الى الاهالي بوجوب تسليم كل مالديهم من اسلحة الى الحكومة حتى السيف والخنجر ، وأحاط البلدة بالاسلاك الشائكة ، ومنع الدخول الى البلدة او الخروج منها ليلا ، كما أمر باطلاق الرصاص على من يقترب من أسوار البلدة ليلا ، فقُتل من جراء ذلك عدد من رعاة الجاموس والحطابين الذين كانوا يجهلون أمر المنع[٢١] •

وفي ٧ حزيران استدعى الكولونيل نولدر اليه عشرين من وجهاء الموصل وصار يهددهم بضرب البلدة عند حصول أية حركة مخلة بالامن، وطلب منهم أن يخبروه عن أسماء قادة الحركة • فانكر بعض الوجهاء أنهم يعلمون شيئاً عن الحركة وقادتها ، بينما ذكر آخرون أسماء بعض الاشخاص ووصفوهم بـ « المشاغبين » وطلبوا انزال أشد العقوبات بهم بلا هوادة أو رحمة • وبعد خروج الوجهاء من عنده أرسل الشرطة الى عدد من البيوت لتحريها ، وأمر بالقاء القبض على بعض أصحابها والقائهم في السجن •

ومن الجدير بالذكر ان الحماس لم يكن منحصرا في بلدة الموصل وحدها ، بل شمل المنطقة كلها تقريبا • فان النصر الذى ناله الثوار في تلعفر جعل كثيرا من عشائر المنطقة ينضمون الى الثورة تباعا • وأخذ

---

(19) Haldane (Insurruction In Mesopotomia) - Edinburgh 1922 - P. 42 - 43.

(٢٠) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ٢ ص ١٣٣ •
(٢١) قحطان أحمد عبوش التلعفري (المصدر السابق) — ص٢٨٣—٢٨٤•

فريق منهم يهاجم القوافل والمخازن الانكليزية ، كما أن فريقا آخر هاجم القرى اليزيدية والمسيحية • وقد أدى ذلك الى تكاثر الغنائم لدى العشائر الثائرة الامر الذى شجع عشائر أخرى على الانضمام الى الثورة •

هزيمة العشائر :

في صباح ٧ حزيران تحركت الحملة من تلعفر بقيادة جميل المدفعي متجهة الى الموصل ومعها جموع من العشائر قُدر عدد أفرادها بما يزيد على الالف • وقد رافق الحملة أيضا عالم تلعفر الديني محمد سعيد أفندي وهو يحمل علما أبيض اللون ومعه نفر من رجال الدين وهم يحثون الناس على الجهاد في سبيل الله •

كانت العشائر تسير في المقدمة ، وفي صباح ٨ منه وصلت العشائر الى قرية أبو كدور التي تبعد عن الموصل بنحو خمسين كيلومترا • وهناك التقت بطلائع القوات الانكليزية التي كانت مؤلفة من ثمانين خيالا ومدفعين وبعض الرشاشات بقيادة الكابتن كاون • ويقال ان الكابتن كاون حين شاهد جموع العشائر وهي تملأ الأرض هاله الأمر وقرر الاستسلام ، ولكن رجلا من حاشيته اسمه خليل السيفاوي نصحه بالصمود وباستعمال المدافع ضد العشائر اذ قال له : ان العشائر لا تثبت أمام المدافع وانها تهرب عند سماع هديرها • فاتبع كاون نصيحة السيفاوي وأمر باطلاق القنابل ، وصادف في تلك الساعة ظهور طائرتين في الجو أخذتا تمطران العشائر بنيرانها • فأدى ذلك الى شيوع الرعب والذعر في صفوف العشائر ، ولاذوا بأذيال الفرار[٢٢] • وكان في مقدمة الفارين أهل تلعفر حيث أخذ بعضهم يصيح بالتركية : « قاجه ، قاجه » أي انهزم انهزم[٢٣] •

لم يصمد في المعركة سوى نفر من الرؤساء ، وحاول بعضهم الهجوم ولكنهم تراجعوا لشعورهم بعدم الجدوى • وقيل أن السيد عبدالله أغا أخذ يستنجد بقومه وينخوهم مذكراً اياهم بأصحاب الرسول الذين كانوا

---

(٢٢) المصدر السابق ــ ص ٢٩٠ •
(٢٣) علي جودت (المصدر السابق) ــ ص ١٢١ •

يضحون بأرواحهم لاعلاء كلمة الله ، وقال لهم : « نحن من ذريتهم ، وهذا اليوم كيومهم حيث نحارب أعداء ديننا والمقتول منا شهيد » ، ثم تقدم الى الامام فلم يتابعه أحد • وقد نجى هو من الموت باعجوبة(٢٤) •

ولما شاهد جميل المدفعي الهزيمة المنكرة التي حلت بالعشائر أسرع هو من جانبه الى الانسحاب مع قواته النظامية دون أن يباشر قتالا • وأخذ يحث السير باتجاه دير الزور ، وحينما اقترب من تلعفر أرسل اليها عبدالحميد الدبوني مع مفرزة من الجنود لانزال العلم العربي من فوق السراي واحراق مركز القيادة والسيارات الباقية • ويُروى ان بعض الافراد من أهل تلعفر عندما شاهدوا هؤلاء يعودون الى البلدة أخذوا يسخرون منهم ويتهكمون عليهم قائلين : « مكةنن يوخلري كاليور » ، أي أنهم يشمون براز مكة(٢٥) •

مصير تلعفر :

عاد أهل تلعفر الى بلدتهم في ٨ حزيران قاصدين اخلاءها والفرار بأهليهم الى تركيا خوفاً من انتقام الانكليز • وصاروا يخفون أموالهم في الجدران أو تحت الأرض وفي السراديب ، ثم حملوا ما خف حمله وغلا ثمنه وخرجوا من البلدة متوجهين نحو الحدود الشمالية ، وقد امتلأت الطرق بهم وبغيرهم من أبناء العشائر الذين اشتركوا في الحركة • وأخذت الطائرات الانكليزية تلاحقهم حيناً بعد آخر لتلقي عليهم القنابل •

وفي ٩ منه دخلت الى تلعفر طلائع القوات الانكليزية بقيادة الكابتن كاون ، فلم تجد فيها من السكان سوى الموظفين والقاضي أحمد أفندي الديوجي وبعض المسنين من النساء والرجال • وفي اليوم التالي دخلت بقية القوات الانكليزية بقيادة الكولونيل ساريل • وقد أمر ساريل بهدم دور بعض رؤساء البلدة بالديناميت ، كما أباح لجنوده نهب البلدة لمدة

---

(٢٤) محمد يونس السيد عبدالله (المصدر السابق) ـ ص ٥٢ •
(٢٥) حدثني بذلك غير واحد من الرواة •

ثلاثة أيام ، وأخذ هؤلاء يفعلون ما يشاؤون انتقاما ولهوا ، وصاروا يشعلون النار في الدور التي ينهبونها ، فارتفعت السنة اللهب في أنحاء البلدة • وقتل الجنود بعض الابرياء تشفياً من البلدة ، وشوهدت القطط والكلاب تجري في الطرقات مذعورة من الحرائق[٢٦] •

وبعد أيام قليلة استبدل الانكليز قواتهم العسكرية بقوات محلية من الدرك ، ثم أعلنوا الأمان للناس حيث سمحوا لهم بالعودة الى تلعفر ما عدا من اشترك منهم في قتل الضباط والجنود البريطانيين • واشتهر في ذلك الحين رجل اسمه عليوي كان فراشاً في دار الحاكم سابقا وأصبح الآن يهدد العائدين ويأخذ الرشوة منهم لقاء السكوت عنهم ، فكان لا يتردد أن يختلق التهمة لاي شخص لا يرضيه ، وجمع بذلك ثروة ونشأ له نفوذ بين الناس حيث صاروا يطلقون عليه اسم « علي أغا » ويقومون له احتراماً حين يمر بهم أو يدخل مجالسهم •

وكان هناك موظف هندي اسمه « مستر لوب » كان قد جرح في بداية المعركة والتجأ الى دار أحد الرؤساء فأجاره ، فلما عاد الانكليز الى البلدة صار يدلهم على دور الرؤساء الذين ساهموا في الحركة لهدمها وحرقها • وأخذ أيضا يوجه الاهانات الى العائدين ويسخر منهم قائلا : « أين الشريف ؟ » • ومر ذات يوم على جماعة من أهل تلعفر جالسين في الطريق قرب دورهم فلم يقم أحد منهم لاحترامه فاغتاظ من ذلك وتقدم نحو أحدهم وأمره بالقيام ثم وضع طرف عصاه بين عينيه وقال : « لو كان الشريف لنهضت ! » • وفي حفلة غداء أقامها معاون الحاكم السياسي الجديد لرؤساء البلدة قام مستر لوب بتمثيل دور الشريف استهزاءاً به حيث ركب حماراً وعلق على جنبيه بعض الخراطيش وأخذ يزغرد وينادي : « جاء الشريف ••• »[٢٧] •

وفي ٢٠ آب ١٩٢٠ ذكرت جريدة « الموصل » تقول ان الهيئة

---

(٢٦) قحطان احمد عبوش التلعفري (المصدرالسابق) ــ ص ٢١١ــ٢١٢•

(٢٧) المصدر السابق ــ ص ٣٣٢ ــ ص ٣٣٢ ــ ٣٣٦ •

الادارية لقضاء تلعفر اجتمعت في ٩ منه ورفعت مذكرة الى معاون الحاكم السياسي تعرب فيها عن : أولا نفورهم من الطريقة البربرية التي قتل بها حاكمهم المحترم الميجر بارلو ، ثانيا رغبتهم في ابلاغ أقارب الفقيد مشاطرتهم الاسى على فقده ، ثالثا القبول بالاكتتاب الذي سيجمع قريبا وتخصيص المبلغ لاقامة نصب على ضريح الفقيد تنقش عليه عبارات تذكارية من جانب الهيئة الادارية .

وقد وقع على هذه المذكرة ـ حسبما ذكرت الجريدة ـ مدير المال سعيد أفندي والقاضي أحمد أفندي الديوجي . ويقول سعيد الديوجي نقلاً عن أبيه انه لم يعلم بهذه المذكرة وانها نشرت بدون علمه حيث نشرها سليم البنا الذي كان مترجماً لدى معاون الحاكم السياسي(٢٨) .

الوضع في الموصل :

في ٩ حزيران اعتقلت الشرطة بعض الوطنيين ، بينما اختفى البعض الآخر منهم أو فر الى القرى . وساد الموصل من بعد ذلك جو من الارهاب ورفع الموالون للانكليز رؤوسهم عالياً وصاروا يتحدثون عن قوة الانكليز وضعف العرب وكيف أن التلعفريين غرر بهم أفراد قلائل ودفعوهم الى القيام بتلك الحركة الطائشة التي أضرت بهم وجعلتهم عرضة لنقمة الانكليز(٢٩) .

ويعطينا محمد طاهر العمري في كتابه « مقدرات العراق السياسية » نموذجاً للوجهاء الذين اعتادوا على التزلف للسلطة وامدادها بالاخبار في تلك الايام ، وهو يقول عنهم ان فيهم بعض الشخصيات البارزة ، ويصف طريقة تزلفهم بأن أحدهم يذهب الى سكرتير الحاكم البريطاني يرجو منه أن يعرض على الحاكم قبول حضوره ، ثم يجلس في احدى الغرف ينتظر الاذن بالدخول ، فاذا صدر الاذن له دخل على الحاكم وبدأ الحديث معه

---

(٢٨) المصدر السابق ـ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٢٩) علي جودت (المصدر السابق) ـ ص ١٢٥ .

بمقدمة « باردة » ينتقل فيها من موضوع الى اخر ، حتى اذا خلا له الجو مع الحاكم وانفرد معه ، قال له : « يا صاحب ! أنتم غرباء عن هذه البلاد ولم تحتكوا بأهاليها ولم تعرفوها بقدر ما نعرفها نحن أشرافها ، وقد قضينا عمرنا فيها ورأينا انواع الانقلابات والتطورات على عهد الاتراك ، فـاذا أردتم أن ترتاحوا من حركات هؤلاء – يقصد بهم الوطنيين – فأبعدوا فلاناً وفلاناً ، واسجنوا فلاناً وفلاناً ، فان الباقين من رفقائهم وأتباعهم يخشـون العاقبة ولا يحركون ساكناً بعد ذلك. ولكن أتعلم ايها الصاحب ان لبعض أعيان البلدة أيضا يداً بهذه الحركات وان فلاناً من وجوه البلدة كان أمس قد ذهب الى دار فلان وتكلموا كذا وكذا ، وقرروا كذا وكذا وكذا .....»

ويعطينا العمري نموذجاً آخر للوجهاء الموالين للسلطة في تلك الايام، وهم الذين اعتادوا على التصدر في المجالس والتفوه بما يضعف عزيمة الوطنيين ، حيث يقولون لهم : « هل أنتم مجانين ؟ من يستطيع منا أن يقف أمام دولة بريطانيا العظمى فيطالب بحقوق البلاد ؟! أما تعلمون ان بريطانيا العظمى طود من الاطواد لا يستطيع الضعيف مثلنا ان يزعزع ذلك الطود العظيم ! » .

ثم يقول العمري : ان هناك زمرة أخرى من أهل الموصل يمكـن تسميتها بـ « زمرة المساكين » وهي التي تتألف من الاشخاص الذين لانفع لهم ولا ضرر منهم للبلاد ، فديدنهم أن يقولـوا : « يابا ! أنا أش علي ! انا رجل كاسب ومستور ، أروح وأجي بدربي ، ولا أتداخل بكل شيء ، كل من يأخذ أمي أسميه عمي » (٣٠) .

تبادل رسائل :

عندما وصل المدفعي الى الدير مع الحملة أرسل الى حزب العهد في الموصل رسالة يبرر فيها انسحابه من المعركة ويضع اللوم فيها على غيره. وهذا بعض ما ورد فيها :

---

(٣٠) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) – بغداد ١٩٢٥ – ج٣ ص ١١١–١١٧ .

لشعبة العهد العراقي في الموصل :

سلام واحترام : وبعد لابد وانكم سمعتم صورة الحركات التي جرت بأطرافكم ، وأسباب الانسحاب كان عن اهانة أهل تلعفر وابراهيم اليوسف من الجيش وغيرهم من الخائنين الذين خابروا الانكليز عن قوتنا وعن امالتهم لهم ، ولما تعرض الانكليز علينا لم يعاونا أحد من الأعافرة واكثر العشائر الا القليل ، والكثيرون فروا الى بيوتهم . ولما رأينا الحالة هكذا رجعنا من التويم الى تلعفر لندافع هناك ، ولكن لما رأيت في تلعفر أيضا ما بقي ولا فرد وكلهم أخذوا عائلاتهم وفروا . ومن جهة ثانية حمو شرو قطع لنا الطريق من عين الغزال بعد أن دخل علينا وأرسل لنا هيئة ترجو قبول دخالته . اضطرينا ان نترك تلعفر ونرجع الى الفدغمي بعد أن حرقنا المدرعات والاتومبيلات والقشلة وما فيها . وما ندري ماذا جرى عندكم في الليلة الموعودة . ولله الحمد في عودتنا لم يحصل علينا أقل ضرر ، أما عشائر شمر والجبور والكركرية وغيرهم فمع كل الاسف كانوا قد التهوا بالغنائم وبيعها وايصالها لبيوتهم ...

١٨ حزيران ١٩٢٠ قائد الجيش العراقي الشمالي

جميل محمد

وفي الوقت الذي كتب فيه المدفعي هذه الرسالة الى حزب العهد في الموصل كان رؤوف الغلامي معتمد الحزب فيها يكتب من جانبه رسالة الى المركز العام لحزب العهد يبدي فيها تألمه مما حدث ويشير الى الاضرار التي أصابت الموصليين والتلعفريين والكثير من العشائر وأهل القرى ، ويقول ان الموصليين كانوا ينتظرون هجوم الحملة على الموصل في الموعد المحدد الذي اتفقوا عليه لكي يثوروا هم من جانبهم ، وهم كادوا يرون الظفر محققاً ، ويلمسونه لمس اليد ، ولكنهم صدموا بالخيبة حين سمعوا بانسحاب الحملة السريع الى دير الزور . ثم يقول أيضاً : أن قوة الثوار كانت أكثر من قوة الانكليز ولكنها كانت تعوزها المدافع ، وقد كان من الواجب أن تزود

الحملة بالسلاح الكافي قبل مجيئها الى تلعفر لكي لا تؤدي الى الاضرار التي وقعت • وفي الختام طلب الغلامي في رسالته اعداد حملة جديدة للغارة على أطراف الموصل أو على طريق بغداد ، لما في ذلك من فوائد أقلهـــا استعادة الحماس الذي خمد • وطلب كذلك ان يكون حزب العهـــد في الموصل على علم بحركات الحملة الجديدة لكي يكون على بصيرة مـــن أمـــــره •

حين وصلت رسالة الغلامي هذه الى المركز العام أجاب عليها بما مضمونه ان الحملة لم يكن القصد منها احتلال الموصل بل كان هدفها ان تقوم بحرب العصابات لارهاق الحكومة المحتلة وتعجيزها ، وهي قد قامت بمهمتها خير قيام من حيث الاضرار الكبيرة التي أوقعتها بالانكليز في الرجال والمعدات • ثم ذكر المركز : أنهم لا يستطيعون أخبار الموصل بما ينوون فعلـــه في المستقبل حذراً من الوطنيين الكاذبين الذين يتسللون في صفوف العهديين للتجسس عليهم [٣١] •

حملة اخرى :

أعد العراقيون في الدير حملة جديدة بغية الاغـــارة على الشرقاط ونواحيها ، ونيطت قيادتها بجميل الخليل ، واشترك فيها محمد علي النعلبند وداود سلمان الجنابي ورؤوف الشهواني ومحمد علي الحجازي وغيرهم • وقد جهزت الحملة بالرشاشات الثلاثة التي غنمت من تلعفر [٣٢] ، كمـا ذهب محمود نديم السنوي الى اورفة للحصول على اسلحة أخرى مـــن الاتراك ، وعاد ومعه كمية من الاسلحة والعتاد والقنابل اليدوية محملة على الجمال[٣٣] •

تحركت الحملة من الدير في ١ تموز ١٩٢٠ ، وتوجهت نحـــو شمال جبل سنجار، ثم انحدرت الى الجنوب حيث وصلت الى موضع يقع الى

---

(٣١) قحطان احمد عبوش التلعفري (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٨ــ٣٤٤•
(٣٢ المصدر السابق ــ ص ٣٤٧ •
(٣٣) علي جودت (المصدر السابق) ــ ص ١٣١ •

الشرق منه يدعى « عين الشبابيط » ، وهناك وجدت قطيعاً من الغنم يقدر عدده بألف وخمسمائة رأس ، فاستولت عليه ، ولكن تجاراً من الموصل جاؤوا يقولون لقادة الحملة : « هل أنتم أتيتم لسلبنا أم لقتل اعدائنا » • فأجابهم جميل الخليل بأنهم جاؤوا لقتل الاعداء • وعند هذا أقسم التجار بأن الغنم تعود لهم وليس للانكليز أية علاقة بها ، فأمر جميل باعادة الغنم اليهم قائلاً لرجاله : « ايها الاخوان اعطوا أموالهم فنحن لا نريد المال بل نريد خدمة الوطن ! » (٣٤) •

ثم تحركت الحملة من بعد ذلك نحو الشرقاط ، وفي ٢٠ تموز وصلت الجرناف التي تقع في شمالها • وهناك واجهت قوة انكليزية فنشبت معركة بينهما •• وتختلف المصادر العربية عن المصادر الانكليزية في وصف ما جرى في تلك المعركة اختلافاً كبيراً •

تقول المصادر العربية ان القوة الانكليزية كانت مؤلفة من أربع سيارات مصفحة ورتل يبلغ عدد أفراده نحو ألف من المشاة والخيالة ، وقد قاتل العرب هذه القوة قتالاً مستميتاً حتى اضطروها الى التراجع بعد أن كبدوها بعض الخسائر وغنموا منها • ولم يخسروا من جانبهم سوى حصان واحد (٣٥) •

أما المصادر الانكليزية فتقول : ان القوة الانكليزية كانت تتألف من خمسين جندياً فقط وهي بقيادة الكولونيل روبرتسن ، ثم التحق بها بعدئذ عشرون جندياً على رأسهم عريف ، بينما كان العرب يبلغ عددهم ثلاثمائة• وقد اضطرت القوة الانكليزية في بداية الأمر الى الانسحاب البطيء ، ولكنها كرت بمعاونة العريف والعشرين جندياً الذين كانوا معه ، فهزمت العرب وكبدتهم خسائر قدرت بأربعين قتيلاً • أما خسارة القوة الانكليزية فكانت مقتل ضابطين هنديين وتسعة جنود هنود ، وجرح ثلاثة هنود(٣٦) •

---

(٣٤) قحطان احمد عبوش التلعفري (المصدر السابق) — ص ٢٤٩ •
(٣٥) علي جودت (المصدر السابق) — ص ١٢٨ — ١٢٩
(36) Haldane (op. cit.) - P. 44.

الفصل الثاني عشر

احداث رمضان في بغداد

شهدت بغداد في رمضان من عام ١٩٢٠ أحداثاً ذات أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية ، ومن أهم ما تميزت به تلك الاحداث اشتداد التقارب بين السنة والشيعة •

ومن الجدير بالذكر ان بغداد تختلف عن اكثر المدن العراقية بكونها يسكنها السنة والشيعة في محلات متجاورة ، وهي كانت كذلك منذ بداية تأسيسها ، ولهذا كان تاريخها زاخراً بالصراع الطائفي ، وقد ظهر ذلك بوضوح في العهد العباسي حين كانت المعارك الدامية تنشب بين المحلات بين كل حين وآخر •••

أدرك قادة الحركة الوطنية في عام ١٩٢٠ ان حركتهم لن يكتب لها النجاح مالم يتم فيها التقارب والوئام بين الطائفتين على وجه من الوجوه • نجد في منهاج حزب الحرس مادة هذا نصها : « يجب على الجمعية أن تبدأ قبل كل شيء بتوحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم ونحلهم وأن تبذل أقصى ما يمكن من المجهودات للقضاء على كل بواعث الافتراق في الدين والمذهب »(١) •

الواقع ان قادة الحركة الوطنية نجحوا في مسعاهم نجاحا كبيرا ، وقد أشارت المس بيل الى ذلك اذ قالت ما نصه : « فقد وضحت للوطنيين خلال مدة من الزمن الحاجة الى تكوين جبهة متحدة من الطائفتين الاسلاميتين ، وتغلبت المساعي بصورة موقتة على التعصب الشديد الذي يفرق بين الطائفتين السنية والشيعية • ثم ظهرت أول أعراض هذا التقارب في صيف ١٩١٩ عندما حضر السنة اجتماعين دينيين عُقدا لتأبين المجتهد السيد

---

(١) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ١٣٨ •

محمد كاظم اليزدي • لكن الأهمية السياسية لهذا التقارب لم تظهر بصورة جلية الا في شهر رمضان الذي بدأ في ١٩ مايس ١٩٢٠ ... » [٢] •

المولد التعزية :

تميزت أحداث رمضان باقامة حفلات دينية تجمع بين المولد النبوي على الطريقة السنية ومجلس التعزية الحسينية على الطريقة الشيعية، وهي التي يمكن أن نطلق عليها اسم « المولد التعزية » • وكانت هذه الحفلات العجيبة تقام في مساجد السنة والشيعة على التعاقب ـ الأمر الذي لم تشهد بغداد مثيلا له من قبل ! •

يواجهنا هنا سؤال : من هو المبدع لهذه الفكرة ، أي فكرة اقامة « المولد التعزية » ، وأول من نادى بها ؟ •

لدينا في الجواب على هذا السؤال قولان أحدهما للشيخ كاظم الدجيلي ، والثاني للشيخ مهدي البصير • ففي رأي الدجيلي ان هذه الفكرة نشأت على أثر الدعوة التي قام بها السيد صالح الحلي لتعطيل الاعمال في يوم الجمعة على نحو ما ذكرناه في فصل سابق ، فقد أراد السيد صالح أن تكون الدعوة عامة يشارك فيها الشيعة والسنة معاً ، وهو قد أعلن في الاجتماع الذي عُقد في صحن الكاظمية في ١ أيار ١٩٢٠ أنه سيذهب في الجمعة القادمة الى جامع السيد سلطان علي لكي يخطب في أهل السنة مثلما خطب في الشيعة ، وعندما حل يوم الجمعة في ٣ منه هرع الناس من الطائفتين الى ذلك الجامع فامتلأت ساحة الجامع بهم كما امتلأ الطريق المحاذي له حتى كاد ينقطع المرور لشدة الزحام ، ولكن السيد صالح لم يحضر ، وقيل انه خاف من السلطة ، ولما يئس الناس من حضوره تفرقوا خائبين • ويقول الدجيلي تعليقا على ذلك : « بيد أن هذه الفكرة التي غرسها هذا السيد اللبيب أخذت تنمو وتتوسع أسبوعا بعد

---

(٢) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ـ ٤٢٤ ـ ٤٢٥ •

أسبوع لان القوم شرعوا يقيمون في كل جمعة بعد صلاة الظهر في أحد الجوامع مع احتفال التلاوة قصة المولد النبوي ومأتما لقراءة مناقب سبط النبي الامام الحسين بن علي • فكانت هذه الحركة المباركة جامعة للسنة والشيعة بصورة ودية لم تتفق في القرون الاسلامية الماضية »[٣] •

أما الشيخ مهدي البصير فهو ينسب ابتداع فكرة « المولد التعزية » الى نفسه • فهو قد كان في عهد الاحتلال يسكن الحلة ويمتهن قراءة التعزية الحسينية مع أبيه ، وفي ربيع ١٩٢٠ أصيب بمرض من أمراض الحساسية فصارت تعتريه نوبات من العطاس الشديد بين الحين والآخر ، فاضطر الى المجيء الى بغداد للمعالجة بصحبة أخيه عبدالحسين ، وقد وصل الى الكاظمية في مساء ٦ أيار ونزل في ضيافة السيد محمد الصدر الذي كان على معرفة سابقة به • ويقول البصير : انه أخذ يتحدث مع السيد محمد في موضوع اثارة الشعور الوطني بين الناس عن طريق الحفلات الدينية التي تجمع بين المولد والتعزية ، فسأله السيد محمد : « ومن يقوم بذلك ؟ » فأجابه البصير أنه هو الذي يقوم بذلك • فوعده السيد محمد بأنه سيناقش هذا الموضوع مع زملائه في اللجنة التنفيذية لحزب الحرس[٤] •

يبدو لي ان هذين القولين كليهما صحيحان وان أحدهما يكمل الآخر • يجب ان لاننسى ان الشيخ مهدي البصير وصل الى الكاظمية بعد ثلاثة أيام من اجتماع السيد سلطان علي ، ولابد أنه وجد أهل الكاظمية مشغولين بالحديث عنه وعن مشروع السيد صالح بوجه عام ، ومن المحتمل انه استلهم فكرة « المولد التعزية » من الجو الفكري الذي كان سائدا في المجتمع آنذاك •

---

(٣) كاظم الدجيلي (أحداث ثورة العشرين) ـ بغداد ١٩٧٣ ـ ص ١٧ •

(٤) جريدة (اليقظة) ـ في عددها الصادر في ١ تموز ١٩٥٧ • وانظر كذلك : جريدة (الجمهورية) ـ في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٦٩ •

معنى هذا ان السيد صالح الحلي وضع البذرة دون قصد منه ، وجاء الشيخ مهدى البصير على أثره فاهتم بها وربطها بالحركة الوطنية • ولعل من المناسب أن نذكر في هذا الصدد ان كلاً من السيد صالح والشيخ مهدى كان قارئا للتعزية الحسينية ـ أي « روضخون » حسب التعبير الشائع[٥] ـ ومن شأن قارىء التعزية انه قادر على قراءة المولد أيضا •

بداية الحفلات :

أول حفلة من حفلات « المولد التعزية » أقيمت في يوم الجمعة ١٤ أيار ١٩٢٠ ، في جامع القبلانية الذى يقع في سوق البزازين • وقد اجتمع فيها جمهور غفير من السنة والشيعة ، وألقى أحد وعاظ السنة خطبة الجمعة ، ثم أعقبه الشيخ مهدى البصير فتلا المولد النبوي ومقتل الحسين معـــا •

ولما حل شهر رمضان في ١٩ أيار[٦] تقرر أن تقام الحفلات القادمة في المساء عقب فترة الافطار • وقد اقيمت أول حفلة رمضانية في جامع الميدان في مساء الخميس ٢٠ أيار ، وطُبعت لها بطاقات على الشكل التالي التالي :

« ان اهالي محلة الميدان يتقدمون الى حضرتكم بالدعوة للحضور في الحفلة التى يقيمونها ليلة الجمعة القادمة في جامع الميدان للتبرك بتلاوة منقبة المولد النبوي الكريم مشفوعة بذكرى مقتل سيدنا الحسين عليـــه الســــلام »[٧] •

---

(٥) « الروضخون » كلمة فارسية معناها قاريء الروضة ، والمقصـــود بالروضة كتاب قديم في مقتل الحسين اسمه « روضة الشهداء » •

(٦) حل رمضان عند الشيعة في ٢٠ أيار ، فقد جرت العادة أن يشاهد الشيعة هلال الشهر بعد أهل السنة بيوم واحد في الغالب • ولهذا اسباب لا مجال هنا لذكرها ، وقد استعملت في هذا الفصل التاريخ السني لأنه التاريخ المستعمل في الجرائد والوثائق الرسمية ، فأرجو ان يعذرني الشيعة في ذلك •

(٧) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ص ١٤٧ •

كانت حفلة جامع الميدان ناجحة الى حد كبير ، فقد اكتضت ساحة الجامع على سعتها بالناس حتى قُدر عددهم بنحو عشرة آلاف ، وتوالى الخطباء والشعراء على المنبر فذكروا جهاد النبي ومقتل الحسين ودعوا الى وجوب الاتحاد بين المسلمين • فقوطعت خطبهم وقصائدهم بالهتاف والتصفيق الشديد •

وفي مساء الاحد ٢٣ منه أقيمت حفلة ثالثة في جامع الحيدرخانة ، وكانت اكثر حضورا من حفلة الميدان وأشد حماسا وهتافا وخطب فيها جميل رمزى القبطان وعبدالرحمن خضر ومهدى البصير ومصطفى الطرابلسي ، كما ألقى عبدالرحمن البناء قصيدة • وعندما أوشكت الحفلة على الانتهاء نهض من بين الحاضرين شاب كان موظفا في دائرة الاوقاف اسمه عيسى عبدالقادر الريزلي ، ولم يكن اسمه داخلا في منهاج الحفلة ، فألقى قصيدة من أربعة وعشرين بيتا دعا فيها الى الاتحاد بين المسلمين وأشار الى عدم وجود فروق أساسية بين السني والشيعي ، أو بين الزيدى والوهابي وختم قصيدته بالبيتين التاليين :

وبعد أقول للجاسوس منا
تجسس ما استطعت الحاضرينا

وبلغ من تريد فقد بنينا
لاستقلالنا الأس المتينا(٨)

يبدو أن السلطة وجدت في هذه القصيدة اكثر مما يمكن تحمله ، او لعلها أرادت أن تجعل من الشاعر وهو موظف لديها عبرة لغيره ، فأوعزت بالقبض عليه • وقد تم القبض عليه في عصر اليوم التالي ، واحتجز في دائرة الشرطة التى كانت يومذاك في خان دله •

حادث مثير :

عندما بلغ حزب الحرس نبأ القبض على عيسى عبدالقادر الريزلي

---

(٨) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج ٣ ص ٤٢٣ــ٤٢٤ •

أرادوا استغلال الفرصة للقيام بمظاهرة احتجاجية ضد الانكليز • فلم تكد تنتهي فترة الافطار في مساء ذلك اليوم حتى خرج المنادون في الاســـواق والمقاهي يصيحون « شنو گعدتكم وعيسى حبسوه گوموا اجتماع اسلامى عمومي في جامع الحيدرخانه » • فهب الناس عند سماعهم ذلك ، وصاروا يتجهون نحو جامع الحيدرخانه ، وجاءت جماعات من بعض المحـــلات البعيدة وهي تدق طبولها وتهوس قائلة : « الديـــن يامحمد والمـــوت بالجهنم »[٩] • فامتلأت ساحة الجامع بالناس ، وفاضوا الى الشارع العام ، وامتنع المرور في الشارع لشدة الزحام •

خشيت السلطة من مغبة هذا التظاهر ، فأرسلت عددا من الجنـود لحراسة دوائرها ودور قوادها وكبار موظفيها ، كما وجهت أربع سيارات مصفحة لارهاب الجمهور فأوقفت احداها أمام جامع الحيدرخانه وأرسلت الاخريات لحراسة الجسرين •

وحين جاءت السيارة الى مقربة من جامع الحيدرخانه أخذ الجمهور يصفر لها استهزاءا بها ، ويقذفها بالاحجار • وظهر من بين الجمهور رجل أخرس وبيده مطرقة كان يحملها لانه كان نجارا متجولا ، فتقدم نحـو السيارة بغية الهجوم عليها بمطرقته ، فحرك السائق السيارة تحريكا مفاجئا جعل الرجل يسقط على الارض ، فمرت عجلات السيارة على ســاقيه ، فحمله الجمهور الى المستشفى وهو ينزف دما غزيرا ، وقد مات فـــي المستشفى في ساعة متأخرة من الليل •

ظل الجمهور محتشداً في الجامع وفي الشارع المحاذي له ، وارتقى علي البازركان منبر الجامع وطلب من الحاضرين اختيار خمسة عشر مندوباً للسعي لاطلاق سراح الريزلي ، وأخرج قائمة بأسماء المرشحين وأخذ يتلوها على الحاضرين اسماً اسماً ، فصاروا يهتفون لكل اسم دلالة على موافقتهم عليه ، وهم : محمد الصدر ، يوسف السويدي ، أبو القاســم

(٩) كاظم الدجيلي (المصدر السابق) ـ ص ٢٢ •

الكاشاني ، عبدالوهاب النائب ، سعيد النقشبندي ، عبدالكريم الحيدري ، محمد مصطفى الخليل ، عبدالرحمن الحيدرى ، فؤاد الدفتري ، رفعت الجادرجي ، أحمد الشيخ داود ، ياسين الخضيري ، احمد الظاهر ، جعفر أبو التمن ، علي البازركان .

وبعد الانتهاء من التصويت طلب البازركان من الجمهور ان يحضروا صباح الغد للاجتماع بالمندوبين ، كما رجاهم أن يعطلوا أعمالهم مادام الريزلي في الحبس . ولما بدأ الجمهور بالتفرق ظهرت أمامهم في الشارع سيارة تحمل حاكم بغداد العسكري الكولونيل بلفور ، فأخذ الجمهور يقذفها بالاحجار على نحو ما فعل بالسيارة الاولى ، فأصيب بلفور بحجارة في وجهه وسال منه الدم ، فأمر مرافقه بأن يطلق الرشاش في الهواء ارهاباً للجمهور ، ولم تكد أصوات الطلقات تلعلع في الفضاء حتى صار الناس يتراكضون هاربين وقد سادهم الرعب ، فلم يبق في الشارع منهم أحد . يقول كاظم الدجيلي : انهم « خارت قواهم وراحوا يركضون بدون شعور يعثر بعضهم ببعض حتى ان الجادة الجديدة الكبرى على سعتها ضاقت بهم فكنت تراهم يدهدون (أي يدحرجون) الكراسي وتخوت القهوات التي وضعت بلصق الجدران كما يدهدي الصبيان الكرة بعصيهم »[(١٠)] .

حدثني عبدالهادي الظاهر الذي كان من جملة الذين حضروا الحادثة : ان بعض الحاضرين في الجامع قرروا عدم مغادرته مخافة أن تقبض عليهم الشرطة ، وظلوا فيه حتى الصباح ، أما البعض الآخر ، وكان عبدالهادي من بينهم ، فقد جازفوا وخرجوا من الجامع في ساعة متأخرة من الليل ، وساروا متسللين في الطرقات ، حتى وصلوا بيوتهم مرهقين .

شهيد الوطن :

في صباح اليوم التالي انتشر بين الناس خبر موت الاخرس في

---

(١٠) المصدر السابق ــ ص ٢٦ .

المستشفى ، وقد قرر حزب الحرس أن يجعل من تشييع جنازته مظاهرة وطنية كبرى يتحدى بها السلطة • فخرج طه لطفي البدري محاسب المدرسة الأهلية وهو لابس سواداً ويحمل بيده علماً اسود ، وأخذ يطوف في الاسواق والشوارع يدعو الناس الى التجمع في جامع الحيدرخانة [11]، لتشييع جنازة الاخرس الذي أطلق عليه لقب « شهيد الوطن » •

بدأ التشييع عقب صلاة الظهر ، وشارك فيه جمهور كبير قُدّر عدده بما يزيد على الثلاثة آلاف • وسارت الجنازة تحف بها الاعلام السود ويتقدمها موكب على شاكلة المواكب الحسينية وهم يلطمون صدورهم ويهزجون قائلين : « ماج عرش الله وتزلزل ، على الشهيد الماتغسّل » • وتوجه المشيعون نحو جامع الشيخ عبدالقادر ، ثم ساروا بعدئذٍ نحو القنصلية الامريكية الواقعة على النهر قريباً من الجامع ، ثم عبروا جسر مود ، ومروا بعلاوي الحلة وسوق الجديد ومقاهي عقيل ومحلة الجعيفر • ومن هناك اتجهوا نحو مقبرة الشيخ جنيد حيث دفنوا جثمان « الشهيد » فيها [12] •

ومما يلفت النظر ان السلطة لم تتدخل في سير الجنازة ، بل أرسلت كوكبة من الفرسان يسيرون أمام موكب التشييع ، وكذلك حلقت ثلاث طائرات فوق الموكب ، والظاهر ان القصد من ذلك ارهاب الجمهور لكي لا يقوم بعمل من أعمال العنف •

ومن الجدير بالذكر في هذا الشأن ان الرواة اختلفوا في ماهية هذا « الشهيد » فمنهم من قال انه من سكنة محلة الحيدرخانة اسمه عبدالكريم رشيد النجار [13] ، ومنهم من قال انه من أهل الحويزة كان يعمل نجاراً في محلة الفضل واسمه عبدعلي بن عبدالرحيم [14] ، ومنهم

---

(١١) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١١٤ •
(١٢) كاظم الدجيلي (المصدر السابق) ـ ص ٢٦ـ٢٧ •
(١٣) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ١٠٧ •
(١٤) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ٦٥ •

من قال انه من أهل كربلا واسمه عبدعلي بن الحاج رحيم[١٥] ، ومنهم من قال انه من سكنة محلة الست هدية واسمه رشيد الملا شكر[١٦] . وقد تعرفت مؤخراً على سائق سيارة في بغداد يدعي بأنه ابن أخي « الشهيد » وان « الشهيد » اسمه سلمان شكر ومن سكنة محلة الست هدية .

يبدو ان كل جماعة تريد أن تنسب الاخرس اليها فخاراً به ، ولو أنه كان قد مات ميتة شائنة لتبرأ الجميع منه ونسبته كل جماعة الى خصومها. وذلك ديدن الناس في كل زمان ومكان !

مقابلة بلفور :

في صباح اليوم الذي جرى فيه التشييع كان بلفور قد كتب الى جعفر أبو التمن وعلي البازركان وأحمد الشيخ داود ومهدي البصير يطلب منهم الحضور لمقابلته في الساعة الرابعة من بعد الظهر . وفي الساعة المعينة ذهب هؤلاء الأربعة الى مقر بلفور وهو يقع في الجناح الجنوبي من القشلة ، فلما دخلوا عليه وجدوه جالساً خلف منضدة طويلة وقد جلس وراءه عبدالمجيد الشاوي رئيس بلدية بغداد واثنان من الضباط البريطانيين ، وكان أمام بلفور على المنضدة سوط من الجلد وصحن فيه مسحوق أبيض ولفافة من القطن الطبي ، فكان بلفور يأخذ شيئاً من القطن فيغمسه في المسحوق ثم يضعه على جرح في وجهه وهو الجرح الذي أصابه من حجارة الجمهور بالأمس .

أمرهم بلفور بالجلوس على كراسي أمامه وأخذ يخاطبهم قائلاً : « الآن أحضرتكم لأبلغكم عن أعمالنا » . ثم التفت نحو أحمد الشيخ داود فقال له : « أنت ياشيخ أحمد ، الآن أصبحت وطني بعد أن كنت موظفا عندنا في الاوقاف فسرقت أثمان الشموع فطردناك على أثرها ، والآن لسانك أصبح طويلاً علينا . ان لسانك يحتاج الى قطع » . فأجابه أحمد : « أنا لم أعمل أي شيء حتى تقطعوا لساني » ، فصاح به بلفور : « اسكت ! » .

---

(١٥) سلمان هادي الطعمة (تراث كربلا) — النجف ١٩٦٤ — ص ٢٨٨ .
(١٦) جريدة (الجمهورية) — في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٦٩ .

ثم التفت نحو مهدي البصير فقال : « وأنت ايها الأعمى ... من أيـــن أتيت ؟ » ، فأجابه البصير : « جئت من الحلة » . فسأله بلفور : « لأي سبب جئت » . ولما أجابه البصير بأنه جاء لغرض الاستشفاء قال له : « ان هواء بغداد متعفن ، الآن ارجع الى الحلة ، هواءها أنقى من هواء بغداد » . ثم التفت بلفور نحو علي البازركان وقال : « يا علي البازركان ، نحن الآن قررنا نفيك وابعادك الى هنجام ، ولكن السيد عبد الرحمن أفندي تكفلك وتعهد لي على أنك تترك هذه الأعمال المهيجة للافكار والمقلقة لراحـــة الأهلين » . فقال البازركان : انه لا يقبل كفالة النقيب وانه انما يسير على مبدأ بنـاءاً على وعود البريطانيين للعرب ... فانتهره بلفـــور طالبـــاً منه السكوت . ثم أشار اليهم جميعاً بالخروج ، فخرجوا .

وعندما خرجوا من دائرة بلفور لاحظوا باخرة راسيةعندشاطيء النهر، فظن أحمد الشيخ داود ان هذه الباخرة قد أحضرت لنقلهم الى المنفى وقال: « ان الحاكم لم يقل لنا اذهبوا الى دوركم لان الباخرة واقفة امام شاطيء السراي من أجلنا » . فأمسك أبو التمن بذيل جبته وجره قائلا : « أمش يا شيخ ! » .

كان الجمهور قد تجمع في القشلة والشوارع المحيطة بها لتحيـــة الرجال الاربعة عند خروجهم . ولما لمحهم خارجين هتف بحياتهم وحياة الاستقلال ، ثم حملهم على الاعناق حتى أوصلهم الى الشارع العام(١٧) .

رسالة الشيرازي :

كتب جعفر أبو التمن على أثر خروجه من مقابلة بلفور رسالة الى المرزا تقي الشيرازي في كربلاء يستنجد به . وهذا نصها :

من بغداد ٧ رمضان ١٣٣٨ الى كربلاء المشرفة

بسم الله وبه نستعين

سيدي الاعظم حجة الاسلام وآية الله في الأنام شيخنا المرزى محمد تقي الشيرازي دام ظله العالي

---

(١٧) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ١١٥ـ١١٦ .

بعد تقبيل يديكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، هو أنه قبل يومين حدث في بغداد من الشعائر الاسلامية ما أوجب أن تغير منه الحكومة ، فاستمرت المظاهرات الاسلامية هذين اليومين حتى أن الحكومة أرسلت علي الحقير وثلاثة آخرين من المسلمين فهددتنا بأن جعلتنا مسؤولين أمام كل حادثة ، وهذا التهديد في الواقع أوجب بأن أكون غير مطمأن على حياتي ، فحررت هذا المختصر مستغيثا بكم ياغياث المسلمين ، وقد أوفـــدت الآن لحضرتكم الشيخ محمد باقر شبيب ليعرض لحضرتكم كلما يمكن عرضه، وباعتقادي لايقدر غيره أن يحيط ويصف الاقدامات الاسلامية • فغايـــة آمالنا أن تمدوا يد المساعدة والمعونة • ومن الله المعونة لكم ولكافة المسلمين والسلام عليكم وعلى حجة الاسلام الشيخ محمد مهدي وجميع الافاضل والانجال ، ومنا العم والوالد وجميع اخواننا المؤمنين يقبلـــون يديـــكم والسلام •

خادمكم
محمد جعفر أبو التمن[18]

أرسل أبو التمن رسالته مع باقر الشبيبي ، ولما وصلت الى الشيرازي كتب هذا في جوابها رسالتين احداهما موجهة اليه شخصيا ، والثانية موجهة الى العراقيين عموما • وفيما يلي نصهما على التوالي :

الى ولدنا الانجب الاكمل محمد جعفر جلبي أعزه الله تعـــالى وحرسه •

بعد السلام عليكم • لايخفاكم وصلنا كتابك المشتمل على بيـــان الحركة الاسلامية في بغداد وزادها جلاءاً ولدنا الفاضل الأديب الشـــيخ الاديب محمد باقر الشبيبي وفقه الله ، فسرنا اتحاد كلمة الامة البغدادية واندفاع علمائها ووجوها وأعيانها الى المطالبة بحقوق الامة المشـــروعة ومقاصدها المقدسة فشكر الله سعيك ومســـاعي اخوانك واقرانك من

---

(18) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغـــداد ١٩٥٢ ـ ص ١٤٤ـ١٤٥ •

الاشراف وحقق المولى آمالنا وآمال علماء حاضرتكم الذين قاموا بواجباتهم الاسلامية ، هذا واننا نوصيكم ان تراعوا في مجتمعاتكم قواعد الديـــن الحنيف والشرع الشريف فتظهروا أنفسكم دائما بمظهر الامة المتينـــة الجديرة بالاستقلال التام المنزه عن الوصاية الذميمة وأن تحفظوا حقوق مواطنيكم الكتابيين الداخلين في ذمة الاسلام وأن تستمروا على رعايـــة الاجانب الغرباء وتصونوا نفوسهم وأموالهم وأعراضهم محترمين كرامـــة شعائرهم الدينية كما أوصانا بذلك نبينا الاكرم صلى الله عليه وآلـــه ، والسلام عليكم وعلى العلماء والاشراف والاعيان .

محمد تقي الحائري(١٩)

الى اخواني العراقيين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فان اخوانكم في بغداد والكاظمية قد اتفقوا فيما بينهم على الاجتماع والقيام بمظاهرات سلمية ، وقد قامت جماعة كبيرة بتلـــــك المظاهرات مع المحافظة على الأمن طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق ان شاء الله بحكومة اسلامية ، وذلك بأن يرسل كل قطر وناحية الى عاصمة العراق بغداد وفدا للمطالبة بحقه متفقا مع الذين يتوجهون من أنحاء العراق عن قريب الى بغداد . فالواجب عليكم بل على جميع المسلمين الاتفاق مع اخوانكم في هذا المبدأ الشريف واياكم بالاخـــلال بالأمن والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض فان ذلك مضر بمقاصدكم ومضيع لحقوقكم التي صار الآن أوان حصولها بأيديكم . وأوصيكم بالمحافظة على جميع الملل والنحل التي في بلادكم في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ولا تنالوا أحدا منهم بسوء أبداً . وفقكم الله جميعاً لما يرضيه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١٠ رمضان ١٣٣٨ هـ الاحقر محمد تقي الحائري الشيرازي(٢٠)

---

(١٩) عبدالرزاق الوهاب (كربلا في التاريخ) ـ بغـــداد ١٩٣٥ ـ ص ٩٦ـ٩٧ .

(٢٠) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ١١٠ـ١١١ .

عاد الشبيبي الى بغداد وهو يحمل الرسالتين . وكان في صحبته السيد قاطع العوادي . فطبع حزب الحرس من الرسالة العامة نسخا كثيرة ووزعها في بغداد والكاظمية ومختلف انحاء العراق . وتقرر أن تُقرأ هذه الرسالة علانية في صحن الكاظمية عقب فترة الافطار . وفي الموعد المقرر صعد أحد سدنة المرقد الكاظمي السيد باقر سركشيك الى سطح الكشوانية التي تقع بين صحن القبلة وصحن قريش . فقرأ الرسالة بصوته الجهوري ، وأخذ يتنقل من جهة الى جهة على سطح الكشوانية لكي يسمع الرسالة اكبر عدد من الناس .

وفي اليوم التالي جاء الى الكاظمية وفد يمثل اليهود والنصارى من أهل بغداد ، فقابلوا علماء الكاظمية راجين منهم ابلاغ الشكر الى المرزا محمد تقي الشيرازي على وصاياه النبيلة بأهل الكتاب . وفي اليوم الثالث أرسل علماء الكاظمية السيد محمد الصدر ليرد الزيارة الى البطاركة والحاخامين ..(٢١) .

مقابلة ويلسون :

أشرنا من قبل الى اختيار خمسة عشر مندوبا في جامع الحيدرخانه للسعي لاطلاق سراح الشاعر عيسى عبدالقادر الريزلي . والظاهر ان هؤلاء المندوبين نسوا قضية الريزلي واعتبروا أنفسهم ممثلين عن الشعب للمطالبة بحقوقه العامة من الانكليز . ففي ٢٨ أيار ١٩٢٠ قدموا طلبا الى ويلسون يريدون مقابلته . فأجابهم ويلسون انه يرحب باستقبالهم في دائرته الرسمية في ٢ حزيران .

أعد ويلسون قائمة بعشرين وجيها ممن كان يظنهم يؤيدون وجهة نظره لكي يحضروا المقابلة مع المندوبين الخمسة عشر ، وهم : محمود النقيب ، داود النقيب ، عبدالمجيد الشاوي ، ساسون حسقيل ، محمود الشابندر ، جعفر عطيفة ، محمد حسن الجوهر ، عزرا مناحيم دانيل ، جميل

---

(٢١) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ١٤٦ .

صدقي الزهاوي ، عبدالحسين الجلبي ، عبدالجبار الخياط ، يهودا زلوف ، صالح الملي ، الشيخ شكر ، محمود الاطرقجي ، عبدالقادر الخضيري ، خسرو قيومجيان ، محمود الاسترابادي ، عبدالكريم الجلبي ، علي الآلوسي[٢٢] •

حين علم المندوبون باختيار هؤلاء الوجهاء لحضور المقابلة ، دعوهم للاجتماع بهم قبل موعد المقابلة في دار رفعت الجادرجي في محلة الحيدرخانه • ولما تم الاجتماع حصل الاتفاق بين الجميع على أن يكونوا جبهة واحدة وحددوا مطاليبهم التي سيقدمونها الى ويلسون بالنقاط التالية :

اولا : الاسراع في تاليف مؤتمر يمثل الامة العراقية ليعين مصيرها فيقرر شكل ادارتها في الداخل ونوع علاقاتها في الخارج •

ثانيا : منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وأفكاره •

ثالثا : رفع الحواجز الموضوعة على البريد والبرق بين انحاء القطر أولا ، وبينه وبين الاقطار الاخرى ثانيا ، ليتمكن الناس من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم •

وفي صباح ٢ حزيران تقاطر المندوبون الخمسة عشر مع الوجهاء العشرين الى مقر ويلسون في القشلة • ولم يتخلف منهم سوى أبو القاسم الكاشاني حيث أناب عنه عبدالهادي الحاج جواد الجلبي ، كما تخلف علي الآلوسي دون أن ينيب عنه أحداً • وكان الجمهور محتشدا في ساحة القشلة والشارع المؤدي اليها ، وهو يهتف لكل من يمر به من المندوبين • وفي الساعة العاشرة تماما وصل ويلسون يصحبه بلفور وهاول وبونهام كارتر ، فاستقبلهم الجمهور « بالصفير والشتائم » ـ على حد تعبير ويلسون في مذكراته • ويعزو ويلسون هذه الشتائم والصفير الى التلاميذ وموظفي

---

(٢٢) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ص ١٦١ •

الاتراك السابقين ويقول انها كانت أول مظاهرة من نوعها وان المقصود منها أن تكون نوعا من اعلان الحرب(٢٣) •

افتتح ويلسون الجلسة بقوله ان له كلمة سيلقيها بالنيابة عنه السيد حسين أفنان ، وقام السيد حسين فألقى بالعربية كلمة مطولة فحواها : أن الحكومة البريطانية لم تنحرف قيد شبر عن وعودها السابقة ،وانها راغبة في تأسيس حكومة وطنية في العراق ، واني أردت تنفيذ ذلك في أسرع وقت ممكن • ولكن تأخيراً حصل لاسباب لم يكن في وسعنا تلافيها ، وانني أشد الناس أسفا على هذا التأخير • واني أؤكد لحضراتكم ان الافـراد الذين يريدون تأسيس الحكومة الوطنية بصورة مستعجلة فيلجأون الى اسلوب العنف وتهييج أفكار البسطاء انما هم يجنون على وطنهم • وليعلم هؤلاء ان الحكومة قادرة على اتخاذ التدابير الرادعة ، وانها ستستعمل تلك التدابير اذا اقتضت الحالة • واني بصفتي رئيساً وقتيا للحكومة الحاضرة أحذركم ان كل تحريض على العنف سيقابل بالعزم والحزم ، واعلموا ان القوة بجانبنا ، وانني لن اتردد في الاستعانة بالسلطة العسكرية لحفظ النظام في البلاد ، وأملي ان لا أضطر الى اعادة هذه التحذيرات عليكم • انالحكومة البريطانية قد وطدت العزم على وضع نظام للحكومة العراقية المقبلة ، ولكن العراق كان تحت سيطرة حكومة اجنبية مدة مائتي عام فلا يمكن تأسيس حكومة وطنية في لحظة واحدة مهما سلمت النيات ، بل لابد من التدرج في هذا السبيل والا فالفشل مؤكد • واعتقدوا انني وجميع رجال الحكومـة راغبون في تأسيس الحكومة • واعلموا ان مصالحنا موحدة ، وليس هناك خير يرجى من التسرع • ويسرني معرفة اقتراحاتكم وسأرفعها الى الحكومة البريطانية التي هي مهتمة كل الاهتمام بمصير العراق ، وأشـكركم في الختام لاستماعكم أقوالي(٢٤) •

وبعد الانتهاء من القاء البيان جرى نقاش بين ويلسون والحاضرين

(23) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 257.

(24) Ibid - vol. 2, P. 255-257.

استمر زهاء ساعتين وقد شارك في النقاش محمد الصدر ويوسف السويدي من جانب المندوبين ، كما شارك فيه من جانب الوجهاء عبدالمجيد الشاوي وجميل صدقي الزهاوي • يقول مهدي البصير : ان بعض الوجهاء كان لهم رأي آخر يختلف عن رأي المندوبين ولكنهم وجدوا أنفسهم مضطرين الى المجاملة خوفاً من الجماهير التي كانت آنذاك في حالة هياج وتأثر(٢٥) •

فحوى ماقاله الصدر هو أن حركتهم سلمية ولا يقصد بها اثارة القلاقل ، وجل مطلبهم تأسيس حكومة وطنية حسب تصريحات الحلفاء ووعودهم وعملا بمقررات مؤتمر سان ريمو • ثم أشار الصدر الى المذكرة التي أعدوها ، فأخرجها السويدي من جيبه وقدمها الى ويلسون ثم خاطبه قائلا : ان ما ذكرتموه في كلمتكم ينطبق كل الانطباق على مطالبينا ، ولكن لماذا هذا التأخير في تحقيقها فان حياة كل فرد من الامة تتوقف على ذلك والأمن مستتب في البلاد فلا داعي هناك الى التأخير في انشاء الحكومة الوطنية التي هي مطمح أنظار الجميع • وقد أيد عبدالمجيد الشاوي وجميل صدقي الزهاوي ما قاله الصدر والسويدي • وفي الختام قال ويلسون : انه سيرفع مذكرة المندوبين الى حكومته ويحثها على الاسراع في تنفيذ السياسة المقررة للعراق ، ثم قال بان ذلك يحتاج الى مدة شهرين ، فاستكثر المندوبون هذه المدة ، وأخذ السويدي يلح على ويلسون بالاسراع في تأسيس الحكومة الوطنية عملا بمقررات سان ريمو • فرد عليه ويلسون قائلا : ان مؤتمر سان ريمو انما قرر استقلال سوريا والعراق على شرط أن تكون سوريا تحت وصاية فرنسا والعراق تحت وصاية بريطانيا • ولكن السويدي قال : « عليكم ان تشكلوا الحكومة الوطنية الآن أما الوصاية فهذه مسألة بيننا وبينكم لانه لابد وأن يكون لنا فيها رأي »(٢٦) •

وعندما انفض الاجتماع كان الجمهور واقفا ينتظر خروج المندوبين ،

---

(٢٥) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ص ١٧٢ •
(٢٦) المصدر السابق ـ ص ١٧١ـ١٧٢ •

فلما رآهم خارجين أخذ يهتف لهم ، وركز هتافاته في الدرجة الاولى على السويدي والصدر •

ظن ويلسون ان المقابلة مع المندوبين كانت ناجحة وانه تمكن من اقناعهم وتهدئتهم • فاوعز بنشر محضر المناقشة التي جرت ، ونشرته جريدة « العراق » في عددين متعاقبين(٢٧) • وكتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٧ حزيران تقول : ان المقابلة كانت ذات نتيجة جيدة جداً ، فقد أخذ ويلسون الريح من أشرعتهم بكلمته ، وكان هذا محور الاحاديث التي صار أهل السوق يتحدثون بها كما أخبرني به صديقي « فتوح » الذي يرتاد المقاهي كل يوم(٢٨) •

كانت المس بيل واهمة في قولها هذا ، وربما كان صديقها « فتوح » قد اعتاد على الاتيان بالاخبار التي تسرها ، أو أن جلاس المقهى عرفوه وصاروا يتكلمون وفق هواه • فالواقع ان الرأي العام البغدادي لم يتأثر بالمناقشة التي جرت أو لعله ازداد هياجا وحماسا، وأخذ الناس يلومون محمد الصدر ويوسف السويدى لاستنادهما في المناقشة على مقررات سان ريمو، فهذه المقررات أقرت نظام الانتداب والوصاية على العراق ، وكيف يجوز لهذين المندوبين أن يستندا عليها ؟!! وقد اضطر محمد الصدر ان يكتب الى جريدة « العراق » ينفي مانسبته اليه من الاستناد على تلك المقررات ويحتج على الجريدة لنشرها ذلك •

تكاثر الحفلات :

كان ويلسون قد قرر عقب مقتل الاخرس ان يسمح للناس باقامة حفلات « المولد التعزية » بلا تحديد • فهو يقول في مذكراته : انه بعد المذاكرة مع بريسكوت مدير الشرطة ومع بلفور حاكم بغداد ، قرر عدم اتخاذ التدابير القمعية ضد الوطنيين • ويبرر ويلسون قراره هذا بقوله : « كنت أعلم اننا على وشك أن نبدأ بتشكيل حكومة محلية ، ولهذا كنت

---

(٢٧) جريدة (العراق) ـ في عدديها الصادرين في ٣ و ٤ حزيران ١٩٢٠ •
(28) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 188.

كثير الاحجام عن حبس أو نفي أناس قد ندعو بعضهم خلال أشهر معدودة الى التعاون معنا في تشكيل الحكومة » • ولكن ويلسون يعترف في الوقت نفسه أنه اقترف بهذا القرار غلطة كبيرة(٢٩) •

أدى قرار ويلسون الى تكاثر اقامة الحفلات بشكل عجيب ، وصارت تلك الحفلات تتوالى ، تارة في جامع للسنة ، وأخرى في جامع للشيعة • ومن أهم الجوامع التي أقيمت فيها علاوة على جامع الحيدرخانه : جامع الكاظمية والاعظمية والشيخ عبدالقادر والسيد سلطان علي والاحمدي والخلاني (٣٠) •

كان حزب الحرس يشرف على تنظيم تلك الحفلات ، فاذا تقرر اقامة واحدة منها في أحد الجوامع خرج اثنان من شباب الحرس هما صادق حبه وعبدالرحمن خضر ، وركبا عربة وسارا بها في شوارع بغداد وأسواقها وهما يناديان : « هذه الليلة اجتماع عمومي في الجامع الفلاني » •

وقام عبدالمجيد كنه بدور بالغ الاهمية في هذا الشأن ، فهو قد ألف عصابة سرية من بعض مغاوير بغداد وأشقيائها هدفها حماية الحفلات ومنع اعوان السلطة من التدخل فيها •حدثني عبدالهادي الظاهر : ان عبدالمجيد كان يقف مع نفر من أعوانه في ركن مظلم من الحفلة ليراقب سيرها ولكي لايندس فيها جاسوس أو عميل يفسدها ، وكان لحضوره أثر بالغ في انتظام الحفلة لما هو معروف عنه من عنفوان وجرأة •

اشتهر من خطباء تلك الحفلات وشعرائها مهدي البصير وعبدالرزاق الهاشمي وتوفيق المختار وعثمان الموصلي وعبدالرحمن البناء ومحمد عبدالحسين(٣١) • وقد أُطلق على مهدي البصير لقب « ميرابو العراق » لشدة تأثيره على الناس • واشتهر معه ايضا شاعر شعبي من أهل الكاظمية

(29) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 254.

(٣٠) نقلا عن أوراق علي البازركان •

(٣١) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ٥٦ • •

اسمه محمد حسن الحداد ، فقد كان هذا الرجل بارعا في نظم الشعـــر باللهجة العامية ، وألقى في حفلات رمضان قصائد هزت الجمهور هزاً •

وقد سرت عدوى هذه الحفلات الى النجف عن طريق السيد قاطع العوادي ، فهو عندما عاد الى النجف في أواخر رمضان اتفق مع الســـيد علوان الياسري والشيخ عبدالكريم الجزائري على اقامة اجتماع سياسي تحت ستار التعزية الحسينية ،وطلبوا من السيد محمد الباقر الحلي ان ينظم قصيدة لهذه المناسبة[٣٢] • وقد أقيم الاجتماع في جامع الهندي • واكتظت ساحة الجامع على سعتها بالناس • واختير الشيـــخ محمد علي قسام ليكون قارىء التعزية فيه ، وقد صعد الحلي الى المنبر قبله لكي يقوم بتلاوة المقدمة حسبما جرت عليه العادة في مجالس التعزية ، ولكنه بدلا من أن يلقي قصيدة حزينة في رثاء الحسين ألقى قصيدة سياسية من نظمه ، ننقل منها الابيات التالية :

ياشعب كيف حمـــى علاك ُيرام
وبنوك بعـــد العز كيف تُضـــام
هـذي الذئاب لهـــن فيك مســارح
فليحـــم منـك عرينه الضـرغام
هم يطلبـــون على العراق وصاية
عجباً فهـــل ابنـــاؤه أيتـــام
حتى اليهـــود ُيوقرون وحقهـــم
يرعى وحق المســـلمين يُضام
فليحي عبداللـــه فهـــو لشـعبنا
ملك ووالـــده الشـــريف امام
وعلى الرجـــال العاملـــين تحية
وعلى حماة المسلمـين سـلام[٣٣]

---

(٣٢) جريدة (اليقظة) ــ في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٥٧ •
(٣٣) ابراهيم الوائلي (ثورة العشرين في الشعر العراقي) ــ بغـــداد ١٩٦٨ ــ ص ٦٢ •

يقال ان الحاضرين نسوا أنفسهم عند سماعهم هذه القصيدة ، فأخذوا يصفقون لها ، مع العلم ان التصفيق غير جائز في مجالس التعزية الحسينية كما هو معروف •

استفحال التقارب الطائفي :

استفحل التقارب الطائفي في النصف الثاني من رمضان بشكل لـم يشهد العراق له مثيلا من قبل • وقد اتضح ذلك بوجه عام عند مجيء وفد الكاظمية لحضور حفلات بغداد اذ كان الوفد يأتي الى بغداد بعربـات الترامواي وعلى رأسه السيد محمد الصدر ، فاذا قاربت العربات أول الدور من بغداد خرج لاستقبالها أهالي الجعيفر والسوامرة والتكارتة وغـيرهم وهم يحملون الشموع ويهللون ويكبرون • واذا وصلت العربات الى المحطة كان في استقبالها جمهور غفير من أهل بغداد وفي مقدمتهم أحمد الشيخ داود أو غيره من علماء السنة ، فيتعانق الشيخ والسيد عناقا أخويا كرمز للتآخي بين الطائفتين ، وعند هذا يعج الجمهور بالصلاة على محمد وآل محمد !

ويحدث مثل هذا حين كان يذهب وفد الاعظمية الى الكاظمية ، أو يذهب وفد الكاظمية الى الاعظمية • وانتشر بين الناس آنذاك قول مفاده أن أبا حنيفة كان تلميذا لجعفر الصادق ونسب الناس الى أبي حنيفة قوله : « لولا السنتان لهلك النعمان » ، أي لولا السنتان اللتان قضاهما أبو حنيفة في التلمذة على جعفر الصادق لكان من الهالكين ، وهو قول لم تثبت صحته تاريخيا ولكن الناس صدقوا به لانسجامه مع روح التقارب الطائفي الذى كان سائدا •

وقد قام الملا عثمان الموصلي بدور مهم في تلك الايام ، اذ كان يتنقل بين حفلات بغداد والاعظمية والكاظمية ، فيترنم فيها بأماديح النبي وأهل بيته ، والمعروف عنه أنه كان شديد الحب لاهل البيت ينظم الشعر في مدحهم ، وكانت ترتيلاته الشجية في صحن الكاظمية من الامور التي ظل

الناس يذكرونها ويلهجون بها مدة طويلة من الزمن(٣٤) •

وحين حلت ذكرى وفاة الامام علي في ٢١ رمضان ذهب موكب من أهل الاعظمية الى الكاظمية لمشاركة أهلها في العزاء ، وأخذ الموكب الاعظمي يسير في صحن الكاظمية وهو يهزج قائلا :

ابو بكر وعمر حزنانين	عالوصي حيدر
وملائكة السما وجبرائيل	لاجله تكدّر

وقد حدث مثل هذا في الكرخ حيث تألف موكب للطم من محلتي السوامرة والتكارتة ، وذهب الى محلة الشيخ بشار لمشاركة تلك المحلة في العزاء • ويقال ان بعض اللاطمين أصيبوا في اليوم التالي بألم في صدورهم لانهم لم يتعودا على لطم الصدور من قبل •

واستمر التقارب من هذا القبيل بعد رمضان بمدة غير قصيرة ، فلما حل شهر محرم ذهب موكب من الاعظمية الى الكاظمية على منوال ما حدث في شهر رمضان ، وكانت أهزوجة الموكب في هذه المرة كما يلي :

جيت أناشدكم يا شيعة
صدگ زينب سلّبوها
إي وحگ جدها وأبوها
حتى الخيام حرگوها

وكتبت جريدة « الاستقلال » في هذه المناسبة تقول : ان المآتم الحسينية اشترك فيها في هذه السنة جميع المسلمين ، فكنت تشاهد فوجا من الشيعة ومعه أفواج من أهل السنة ، كما تشاهد مشعلا للشيعة ومعه أضعافه لاهل

---

(٣٤) لم تخل حفلات صحن الكاظمية من حادث مثير يشبه ذلك الذي وقع في جامع الحيدرخانة حين سيطر الذعر على الجمهور • وكان سبب الذعر في صحن الكاظمية حدوث ازيز في احد المصابيح الغازية فظن الناس أنه أزيز طائرة فانطلقوا هاربين حتى خلي الصحن منهم ، وقال الملا عثمان متهكما : « لا والله حصلنا استقلال ! » •

السنة . وفي اليوم العاشر من محرم ذهب الجميع الى الكاظمية للاشتراك في الواقعة[٣٥] .

قصيدة ذات دلالة :

كان السيد حبيب العبيدي الموصلي قد نظم قبل رمضان قصيدة شجب فيها مبدأ الانتداب والوصاية وتطرق من ذلك الى مدح أهل البيت وذكر أسماء الائمة الاثنى عشر واحدا بعد الآخر . وقد أصبح لهذه القصيدة أهمية كبيرة جدا في رمضان . وهي قصيدة طويلة ذات مقاطع ننقل فيما يلي بعض المقاطع منها :

ايها الغرب جئت شيئاً فـــريا   ما علمنا غير الوصـــي وصيا
قسماً بالقرآن والانجيـــل   ليس نرضى وصاية لقبيل
أو تسيل الدماء مثل السيول   أفبعد الوصي زوج البتول
نحن نرضى بالانكليز وصيا
دون ملك العراق بين الطلول   لأبـي عبدالله نجل البتول
قد أريقت دماء خـير قتيـل   أفبعد الحسين سبط الرسول
نحن نرضى بالانكليز وصيا
كم امام من آل طـــه تردى   دون ملك العراققد مات وجدا
وشهيدا قضى وما نال قصـدا   أفبعد الرضا وموسى المفـدى
نحن نرضى بالانكليز وصيا
يامحبي آل النبي الـكرام   أيكون العراق مُلك اللئام
وهو ميراث آل خير الانام   أفبعـــد الائمـة الاعـــلام
نحن نرضى بالانكليز وصيا
ما عسى أن نقول يوم الجزاء   لنبي الهدى أبي الزهـراء

---

(٣٥) جريدة (الاستقلال) - في عددها الصادر في ٢٨ ايلول ١٩٢٠ .

والشهيد المظلوم في كربلاء وامام الهدى في سـامراء
ان رضينا بالانكليز وصـيا

أنت أعمى ياغرب أم تتعامى نحن لسنا أراملا أو يتامى
لنعاني وصاية أو فطامـاً لا فقهنـا للكائنـات نظـاماً
ان رضينا بالانكليز وصـيا

ما تركنا اخـواننا الاتراكا وخذلنـاهمـو وآزرناكـا
شغفاً يا ابن لندن بهـواكا بل لنيل استقلالنـا بـولاكا
فلماذا تكون فينا وصـيا

لاتقـل جعفرية حنفيـة لاتقـل شـافعية زيديـة
جمعتنا الشريعة الاحمديـة وهي تأبى الوصاية الغربية
فلماذا تكون فينا وصـيا

قد سئمنا سياسة التفريـق واهتدينـا الى سـواء الطريق
يا عدواً لنا بثـوب صديـق انت بين الوصي والصدّيق
لست الاّ مزوّراً أجنبيـا
فلماذا تكون فينا وصيا(٣٦)

فرح الشيعة بهذه القصيدة كثيرا وأخذوا يتداولونها ويقرأونها في مجالسهم اذ اعتبروها اعترافا من أهل السنة بوصاية علي ابن ابي طالب • وشاع بين الناس يومذاك قول من قال : « ان عمر وعلي تصالحا ولم يبق بينهما أي اختلاف »(٣٧) •

وجهة نظر الانكليز :

كتب ويلسون في مذكراته حول حفلات رمضان يقول : ان العربي شديد التأثر بالكلام البليغ ، وقد صارت جماهير بغـداد تستمع في تلك

(٣٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج ٣ ص ٢١٩ـ٢٢٢ •
(٣٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ـ النجف ١٩٣٨ ـ ج ٢ ص ١٠٠ •

الحفلات الى خطابات حماسية ونداءات حارة يمتزج فيها الدين بالوطنية وهي موجهة الى الامير عبدالله تطلب أن يسرع بالقدوم الى مملكته المقدسة ، وكانت هذه الخطابات والنداءات تثير في الجماهير أشد حالات الحماس . ويقول ويلسون انه عندما سمح لتلك الحفلات بالاستمرار لم يكن يدري ماتؤدي اليه من تأثير في عشائر الفرات الاوسط . ويشير ويلسون الى أحداث دير الزور وتلعفر وطريق الموصل ، ويقول انها أعطت للناس دليلا محسوسا على ضعف قواتنا العسكرية تجاه قوة العشائر . فقد صار معلموا المدرسة الاهلية في بغداد ينشرون الشائعات المثيرة بين الناس ، مما أدى الى وقوع الاضطراب في المدينة وتعاقب اغلاق الاسواق مرة بعد مرة(٣٨) .

وقد سجلت المس بيل كذلك وجهة نظرها في هذا الشأن ، فهي تقول في رسالة لها الى ابيها مؤرخة في ١ حزيران ١٩٢٠ مانصه : « نحن في خضم هياج عنيف ، ونحن نشعر بالقلق . وليس هذا القلق لخوفنا على سلامتنا ــ فلا تفكر في هذا لحظة ــ ولكننا قلقون إذ لاندري هل نستطيع أن نخرج من رمضان من غير أن يقع اضطراب... ان المتطرفين اتخذوا خطة من الصعب مقاومتها : وهي الاتحاد بين الشيعة والسنة ، أي وحدة الاسلام، وهم يستغلون ذلك الى أقصى الحدود . فهناك اجتماعان او ثلاثة اجتماعات تقام في كل اسبوع في المساجد للاحتفال بهذا الحدث الذى لامثيل له . فهي تقام في مساجد الشيعة أحيانا وفي مساجد السنة أحيانا أخرى ويحضرها أناس من الطائفتين معا . انها في الواقع سياسية وليست دينية ، ولا أعلم أن أحدا يعتقد بان هذا الاتحاد الزاهي سيكون دائميا . انها زاخرة بالقاء القصائد والخطب التي تمزج بين الدين والسياسة ، وكلها تدور حول فكرة العداء للكفار ...»(٣٩) .

---

(38) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 253 - 254.

(39) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 137.

ومن الجدير بالذكر ان كثيرا من وجهاء بغداد ومثقفيها كانوا غير راضين في قلوبهم عن تلك الحفلات ، ولكنهم كانوا مضطرين الى حضورها والى التبرع لها خوفا من غضب الجماهير . فهم كانوا يأتون الى ويلسون او المس بيل أو غيرهما ليعربوا عن استنكارهم لتلك الحفلات وليعتذروا عن التظاهر بمناصرتها لانهم اذا امتنعوا عن ذلك اتهمهم الناس بأنهم كفار وخونة . وذكرت المس بيل في أحد تقاريرها السرية اسم واحد من هؤلاء هو سليمان فيضي . فقد قال لها هذا الرجل مانصه :

« أنتم لايمكن ان تتركوا الامور تجري على هذا المنـــوال الذى تجري عليه الآن . فان الهياج قد وصل الى درجة الخطر . وأنا أخشى كثيرا من وقوع اضطراب علني ، ليس في بغداد وحدها ، بل ربمـــا في الالوية ،لان العشائر كلها قد تأثرت به . واني أرغب كل الرغبة في تجنب ذلك من أجل مصلحتنا ومصلحتكم معاً . اني انظر الى الاجتماعات في المساجد بمقت شديد ، واعتبر بشكل خاص هذا المزج بين الدين والسياسة خطرا ، لان من المستحيل تقريبا عليّ وعلى غيري أن نقف ضده . واني وان كنت أبغض تلك الحفلات بغضا شديدا أجد نفسي مضطرا الى حضورها فلست أجرأ على الغياب عنها لوجود الضغط المسلط عليّ . وتأكدي ان هذا هو حال الكثيرين غيري . وكان من الافضل للناس أن يعقدوا اجتماعات مماثلة أو يؤسسوا نوادي للمداولة في فصل الدين عن السياسة بقـــدر الامكان . ويمكن أن أقول استطرادا ان هذا الاتحاد المتباهى به بـــين الشيعة والسنة هو من أبغض الامور الى نفسي ، ويجب أن أعتبر سيطرة الشيعة كارثة لايمكن تصورها »[٤٠] .

---

(40) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1978 - P. 284.

الفصل الثالث عشر

نشاط ابن الشيرازي ونفيه

عندما كانت بغداد في رمضان تعج بالاحداث على النحو الذي ذكرناه في الفصل الماضي ، كان المرزا محمد رضا ابن الشيرازي ناشطا من جانبه في تأييد تلك الاحداث وبث الدعاية لها في أوساط العشائر • يقــول ويلسون في مذكراته : انه ذهب الى الحلة بالطائرة في صباح ٣ حزيران ١٩٢٠ ، فجاء لمقابلته في دار البلدية وفد محترم من شيوخ العشائر ومن الملاكين والتجار ، وأخبروه ان ابن الشيرازي قد بذل جهودا غير قليلة لاثارة الشعور العام ضد الانتداب ، كما أن الضباط العراقيين في سوريا قد أرسلوا مكاتيب يحرضون فيها العشائر وأهل النجف على أن يحذوا حذو بغداد فيثوروا في وجه البريطانيين • ويذكر ويلسون ان كبار الشيوخ حذروه بجد قائلين ان حركات من نوع الحركات القائمة في بغداد لابد أن تنتشر اذا لم توقف عند حدها ويعاقب المحرضون عليها بشدة ••• [(١)]

لدينا وثيقة تدل بوضوح على مبلغ ما كان يبديه المرزا محمد رضا من نشاط وطني في رمضان ، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة كان قــد أرسلها اليه أحد رؤساء الغراف يعاتبه فيها لعدم اشراكه في الحــركة الوطنية ، وهذا هو نصها :

حضرة الفاضل نجل آية الله المرزا محمد تقي دام ظله •

بعد عرض ما يجب لكم اهدائه وابدائه من التحيات الصميميــة الخالصة من كل شائبة اعلم حفظك الله وأخذ بناصرك ان الذى أنتم عليه من السعي المتواصل وراء جمع كلمة المسلمين ولم شعثهم وانذارهم بالخطر المحدق بهم مما يسر كل موحد ، ولا حاجة الى المدح والتقريض والتشجيع

---

(1) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 258.

لان ذلك من واجباتكم الدينية نظرا لمقامكم ، ولكن مع الاسف الى الآن لم تراجعونا بشيء من ذلك اذ الغاية واحدة والمنفعة مشتركة ولكنا عذرناكم لكثرة مشغوليتكم بهذا العبء الثقيل الذي أُلقي على عاتقكم لهذا حررنا لكم هذا الكتاب قياما بالواجب • مولاي بالاختصار أقول لك ان قطرنا أعني (الغراف) قد صفق تصفيقة واحدة لنصرتكم مهما كلفه ذلك من بذل نفوس ونفيس ، فقط يوجد بطرفنا بعض من أهل اليبوسة الذين لاتنهضهم الى مساعدتنا والانضمام الينا الا الصراحة من والدك سلمه الله بذلك • لذلك قدمنا اليك معتمدنا الشيخ مهدي الغريباوي لهذه الغاية وعليه التفصيل • هذا ونقبل أيادي مولانا آية الله على الاسلام والمسلمين • ودمتم موفقين •

٢٢ رمضان سنة ١٣٣٨ •

الداعي	الداعي
محمد صالح شكارة	عبدالمحسن نجل محمدالياسين[٢]

قصـة مفتعلة :

كان الانكليز يعتقدون ان الشيرازي لم يكن راضيا عن أعمال ابنه وان الكثير من علماء كربلاء لم يكونوا راضين عنها أيضا ولكنهم لم يجرأوا على الجهر بمعارضتهم لها خوفا من الجماهير • كتب معـاون الحاكم السياسي في كربلا المرزا محمد البوشهري الى رئيسه في الحلة الميجر بولي يقول: أن كثيراً منعلماء كربلاء كالشيخ محمد حسين المازندراني والسيد حسن الطباطبائي والسيد عبدالحسين الطباطبائي والسيد محمد مهدي الطباطبائي أعربوا له عن نفورهم من حركات المرزا محمد رضا ورفضهم الاشتراك فيها[٣].

---

(٢) عبدالرزاق الوهاب (كربلا في التاريخ) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ج ص ٣٨ـ٣٩ •

(3) Atiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 336.

ويقول ويلسون في مذكراته : ان منشورات عديدة كانت متداولة بين العشائر وهي تحمل تواقيع مزورة للمرزا محمد تقي الشيرازي ـ يقصد ان ابنه هو الذي زورها عليه ـ وقد حاولت غير مرة أن أحصل مـــن الشيرازي على اعلان يتبرأ بها من تلك المنشورات ولكنه لم يكن يملك الشجاعة أو ربما القناعة لان يفعل ذلك(٤) .

وكان الانكليز بالاضافة الى ذلك يعتقدون بان الشيرازي لم يكن راضيا عما كان يجري في بغداد من مظاهر التقارب بين السنة والشيعة . وقد ذكر المرزا محمد البوشهري قصة لتأييد ذلك نقلها عنه الكابتن لايل، وخلاصتها : ان اثنين من علماء كربلاء ذهبا الى بغداد في رمضان للمشاركة في حفلات التقارب ، فدخلا الى جوامع السنة واستُقبلا فيها بالاحترام البالغ وقد قبّل الناس أيديهما ، ولما وصل خبرهما الى الشيرازي في كـربلاء أرسل اليهما يستدعيهما اليهّ ، وعند حضورهما في مجلس الشيرازي كانا يظنان أنه سيهنؤهما على عملهما ، فصارا يتحدثان باسهاب عما شاهداه في بغداد من مظاهر التقارب الطائفي ، وعن جهودهما في تأييد هذا التقارب. وكان الشيرازي يستمع اليهما وهو ساكت متظاهرا بالرضا عنهمـــا لكي يتماديا في الحديث ، حتى اذا انتهيا من حديثهما تغيرت سحنته ، وانقلب من الرضا الى السخط فجأة ، ثم قال لهما معنفاً : « انتم المسلمون الحقيقيون لم تكتفوا بمعاشرة أولئك السنيين أولاد الكلاب بل دخلتم مساجدهم أيضا. وفوق ذلك انتم من البلدة المقدسة كربلاء ، ومعروفون بذلك ، فقـــد جلبتم العار على مرقدي العباس والحسين . ان كل واحد منكما سينال ثلاثمائة جلدة ، وهذا علاوة على الندم الذى سيحل بكما » . ويقول المرزا محمد البوشهرى ان الشيرازي أمر فعلا بجلدهما في المجلس على مشهد من الحاضرين(٥) .

---

(4) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 290.

(5) Lyell (Ins and Outs of Mesopotamia) - London 1923 - P. 105-106.

الواقع اني استبعد حدوث مثل هذه القصة ، ويخيل لي ان المرزا محمد اختلقها تحببا للانكليز • وقد سألت الكثيرين ممن عرفوا الشيرازي وخالطوه فأجمعوا على تكذيب القصة وقالوا ان الشيرازي كان من أشد الناس تأييداً للتقارب الطائفي الذي حصل في بغداد وقد دلت على ذلك رسائله وتوجيهاته التي أرسلها الى مختلف أنحاء العراق في ذلك الحين •

ابن الشيرازي والقومية العربية :

كان ابن الشيرازي علاوة على نشاطه الوطني مؤيدا للقومية العربية• ولم يكن هذا بالامر الغريب لان القوميين والمتدينين كانوا في تلك الايام يشعرون بأنهم جبهة واحدة تجاه عدو مشترك ـ كما اشرنا اليه في فصل سابق •

ننقل فيما يلي نص رسالتين بهذا المعنى ، احداهما كتبها الشيرازي الى الامير فيصل في سوريا ، والاخرى كتبها ابن الشيرازي الى الامير علي في الحجاز :

الى حضرة صاحب السمو الامير فيصل نجل جلالة ملك العرب خلد الله ذكره وملكه •

بعد الدعاء لدوام عزكم وبقاء مجدكم نبدي لكم اننا لازلنا نسمع انباء تفاديكم العظيم في سبيل احياء الجامعة العربية التى هي عنوان المجد الاسلامى ذلك المجد الرفيع الذى رفع قواعده أجدادك الطاهرون وحمى حوزته أسلافك الماضون ، فحيا الله نخوتكم الهاشمية وغيرتكم الاسلامية وأدامكم ملكاً تقر به عيون المسلمين وتفتخر به أئمة الدين • هذا ولايخفاكم ما تكابده الامة العراقية المظلومة في كل لحظة من أنواع الظلم الفاحش وألوان الحكم الغاشم مضافا الى الاستهانة بمكانتها التاريخية والازدراء بتقاليدها الاسلامية ومازالت تئن من التحكم الباطل والاعتداء على حقوقها المشروعة ، وقد بلغ الظلم مبلغا لايجوز معه الصبر ، وحيث ان هذا المحيط العراقي مضغوط عليه كل الضغط من كل الجهات حتى انه لايمكنه رفع صوته مباشرة الى الامم التي ترأف بالضعيف وتشفق عليه رحمة ، فقد

اعتمدنا الشيخ محمد باقر الشبيبي ليوقفكم على الاعمال القاسية الجارية في العراق ويكشف لكم عن المظالم التي مازالت تستعملها حكومة الاحتلال ، فترفعوها الى الصحافة الحرة في كل انحاء العالم وتظهروها صريحة الى الحكومات الاوربية والاميركانية حتى تتمكن بواسطتها من تحصيل مقاصدنا العالية وتيقنوا ان السكوت عن الضيم أمر لايستطيع العراقيون تحمله ، فساعدوا اخوانكم الذين اعتمدوكم للمطالبة باستقلال بلادهم ولا تجعلوا سبيلا للتشبث الاجنبي كيفما كان وامتداد نفوذهم الى هذه الديار الاسلامية. ودوموا مؤيدين ظافرين .

٧ رمضان ١٣٣٨ — محمد تقي الحائري الشيرازي(٦)

الى حضرة صاحب السمو الملكي الامير علي ولي عهد السلطنة العربية حفظه الله .

بعد الثناء على ذاتكم الكريمة المحترمة والدعاء لبقاء العرش الهاشمي واستمرار حياته فانه أصل حياة الامة العربية ومادة وجودها ، نبدي الى سموكم اننا مازلنا ولم نزل نتوسل الى الله تعالى أن يعيد شرف الامة الاسلامية الى نصابه الاول على ايدي رجال النهضة الحديثة الذين كونوا في هذه الظروف الحرجة دولة أصبحت موضع اعجاب الدول الكبرى ومحط آمال الشعوب العربية التي ما فتئت تنظر الى ماضيها السعيد وتتشوق الى حضارتها القديمة .

ياسمو ولي العهد ، لاشك انكم جاهدتم في سبيل الامة العربية جهادا قدّره حق قدره كل عربي صميم ، فالشعب العربي في كل انحاء المعمورة مدين لكم بتفاديكم العجيب لانقاذكم اياه من أشراك الظلم والاستعباد ومخالب العتو والاستبعاد . ياسمو ولي العهد ، ان القطر العراقي كسائر الاقطار العربية التي بايعت جلالة الملك أبيكم ، وأزيدكم أنه اكثر تحمسا في سبيل الاستقلال التام ، وأشد نعرة قومية ، واقرب الى الوحدة العربية ،

---

(٦) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ٩٢ .

وذلك لانه مسكون بشعب عربي بحت ليس فيه دخيل يُخشى شره ، وها هو اليوم ينتظر بفروغ الصبر أن يسمع صدى دفاعكم عنه ، فقد أكله الظلم ، ونخر عظامه الاستبداد • ولا يخفى على سموكم ما لاقاه العراقيون منذ بدء الاحتلال الى هذا اليوم من المصائب العظيمة والخطوب الجسيمة ، وتحملوا من المظالم والاعتسافات في سبيل انتخاب أحد أخويكم الاميرين عبدالله وزيد ما لايمكن سرده لكم ، ولا ريب في أنكم تدركون ان موقف العراقيين إزاء الحكومة المحتلة ملؤه المخاوف والاخطار ، لذلك يصعب عليهم مباشرة رفع أصواتهم الى مؤتمر الصلح وعصبة الامم والى الصحافة الحـــرة والحكومات الديمقراطية ، ومن أجل ذلك كله فقد انتدب أبي والعلماء والزعماء حضرة الفاضل الشيخ محمد باقر الشبيبي ليفيدكم شفاها عمـــا ينبغي عمله بالفعل لانقاذ هذه البلاد الطاهرة التي عاث فيها اعداء الاسلام فسادا وضيقوا الخناق على اخوانكم الذين أبكاهم التحكم الغريب والظلم العجيب • ومن جراء أفاعيل حكومة الاحتلال ، التي اعتدت ظلما وعدوانا على الاماكن المقدسة مقامات أجدادكم الطاهرين وأهانت مراكز العلماء الروحانيين ، صمم جماعة العلماء الاعلام على مغادرة هذه البلاد الى بلاد فارس ،فقد كبر عليهم أن يروا تحقير المسلمين وازدراءهم من أعدائهم ، نعم كبر عليهم أن يروا الاعلام الصليبية تخفق على البلاد العربية • فالله الله في العراق وانتشاله من مهاوي الحيف والجور • والسلام عليـــكم ودوموا مؤيدين •

٧ رمضان ١٣٣٨ — محمد رضا نجل آية الله الحائري(٧)

حمل الشيخ باقر الشبيبي هاتين الرسالتين ، وسافر بهما الى النجف بغية التوجه منها الى الحجاز وسوريا ، كما فعل أخوه الشيخ رضا في العام السابق • ويبدو ان نشوب الثورة في الفرات الاوسط جعله يفضل البقاء في النجف وعدم السفر • وظلت الرسالتان بلا ارسال •

---

(٧) المصدر السابق — ص ٩٣ — ٩٤ •

اختيار مندوبين :

في ٣ حزيران ١٩٢٠ ـ وهو يوافق ١٦ رمضان ١٣٣٨ هـ ـ اجتمع عدد كبير من وجهاء كربلاء ورؤسائها وقرروا ان يفعلوا مثلما فعل أهل بغداد من اختيار مندوبين عنهم لمقابلة السلطة • وبعد المداولة تم الاتفاق على اختيار سبعة مندوبين هم : المرزا عبدالحسين الشيرازي والشيخ محمد الخالصي والسيد محمد علي الطباطبائي والشيخ صدر الدين المازندراني والسيد عبدالوهاب الوهاب والشيخ محمد حسن أبو المحاسن وعمر العلوان• ونظم الحاضرون مضبطة في ذلك وقعوا عليها ، وكتب عليها الشيرازي هذه العبارة : « صحيح نافع مفيد ان شاء الله تعالى »[(٨)] •

وفي ٥ منه عقد اجتماع مثل هذا في النجف حضره وجهاء النجف ورؤساؤها كما حضره رؤساء العشائر القريبة ، وتم اختيار ستة مندوبين هم : الشيخ جواد الجواهري والشيخ عبدالكريم الجزائري والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي والسيد نور الياسري والسيد علوان الياسري ومحسن شلاش • وحين بلغ الشيرازي أمر هذا الاختيار كتب الى كل من هؤلاء المندوبين الستة رسالة يشجعهم بها على المطالبة بحقوق البلاد • وفيما يلي نموذج من تلك الرسائل وهي التي أرسلها الشيرازي الى السيد نور الياسري :

بسم الله ولله الحمد

جناب نخبة الاشراف الاماجد السيد نور آل المرحوم السيد عزيز نصره الله وأيده وأرشده وسدده آمين •

بعد السلام عليك وعلى كافة من حولك من اخواننا المؤمنين • لايخفى بلغنا مع كمال السرور انتخاب أهل قطرك لك لتكون عنهم مندوبا للمطالبة بحقوقهم المشروعة في بغداد وهذا انتخاب في محله واطمئنان في أهله لان شرفك وديانتك واسلاميتك يقتضي لك ذلك فاللازم عليك أن تجيب الى ذلك بأسرع وقت لعل الله ببركة الاسلام وشرف اجدادك الطاهرين أن يجعل

---

(٨) المصدر السابق ـ ص ١١٠ •

الفرج بناصيتك انشاء الله ودم مؤيدا • حرر يوم ١٥ رمضان •

الاحقر محمد تقي الحائري[(٩)]

لانعرف ماذا فعل مندوبو كربلاء بعدما تم اختيارهم ، أما مندوبو النجف فقد اجتمعوا في ٧ حزيران ، ثم اجتمعوا مرة أخرى في ٩ منه ، وكتبوا مذكرة الى حاكم الشامية السياسي الميجر نوربري يطلبون فيها مقابلته كما ذكروا فيها أنهم يطالبون بتحقيق الوعود التى أعطاها الحلفاء لهم ولا سيما الحكومة البريطانية المعظمة ، وقالوا ان الامة العراقية قد طال انتظارها لتحقيق تلك الوعود ورأت أن السكوت عن المطالبة بحقوقها الصريحة لايجوز بوجه من الوجوه ولا يحسن بالامة التى عرفت في نفسها الكفاءة على تسلم أزمة البلاد وادارة شؤونها السياسية والاقتصادية أن تغض النظر عن المجاهرة بمقاصدها الغالية ورغائبها السامية •

حمل السيد علوان الياسري هذه المذكرة الى الميجر نوربري ، وقابله في الكوفة ، فحدد نوربري موعداً لمقابلة المندوبين في ١٤ حزيران في الساعة الثانية والنصف صباحا حسب التوقيت الغروبي • ولكنه قبل أن يحين موعد المقابلة كتب اليهم يقول انه متأسف لالغاء الموعد ، وذكر انه قد أرسل مطاليبهم الى فخامة الحاكم العام ـ أي الى ويلسون ـ ببغداد وسوف يخبرهم بجوابه عند وصوله •

ساء المندوبين هذا الالغاء واعتبروه نوعا من المماطلة والتسويف ، وكتبوا الى نوربري رسالة قالوا فيها ما نصه : « بهذا الجواب ومثله لانستطيع رفع سوء التفاهم الواقع بين الشعب والحكومة ، فنأمل من حضرتكم أن تجعلوا كتابنا مستمسكا للمطالبة بالجواب حتى يحسن ظن الامة بالحكومة فان الشعب ينتظر منكم الجواب » •

وصل جواب ويلسون أخيرا ، وهو مؤرخ في ١٦ حزيران ، يقول فيه : ان الحكومة البريطانية قررت تكليف السر برسي كوكس بتشكيل

---

(٩) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ ـ ص ١٤٤ ـ ١٤٦ •

حكومة وطنية في العراق وان كوكس سيأتي الى العراق في الخريف ويعمل على اقامة مجلس شورى برئاسة رجل عربي وعلى اقامة مؤتمر عراقي يمثل جميع أهالي العراق ويُنتخب اعضاؤه باختيارهم . وذكر ويلسون في جوابه ان بيانا بهذا المعنى سينشر قريبا(١٠) .

خطاب مثير في كربلا :

في مساء ٢٥ رمضان عقد اجتماع كبير في صحن الحسين ألقى فيه الشيخ محسن أبو الحب قصيدة وطنية من نظم الشاعر محمد حسن أبو المحاسن كان مطلعها :

وثق العراق بزاهر استقباله   والشعب متفــق على استقلالـه

وأعقبه عمر العلوان بخطاب حماسي شديد(١١) . وفي مساء اليوم التالي عقد اجتماع آخر في صحن العباس ألقى فيه الشيخ محمد الخالصي خطابا مثيرا تحدى به الانكليز وكان له دوي في كربلاء . وهو خطاب طويل نقتطف منه ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ولاتهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ... ايها السادة ان الله قد وصفكم بكتابه بصفتين بأنكم الاعلون .... وحكم على من هذه صفته أن لايهن ولا يحزن ، كذلك انتم في كتاب الله ، وقد جاءتكم بريطانيا بخيلها ورجلها وعزمها وشكيمتها تقول : انتم الادنون ونحن الاعلون لذلك يجب أن نكون قيمـــين على شؤونكم وادارتكم وأموالكم وانفسكم ... هكذا أرادت بكم تلك الدولة القاسية التي لاترى غيرها في العالم وتحسب صنوف البشر عبيدا أرقـــاء مذللين ... وانتم واقفون بين بريطانيا وبين خالقها : خالقها يصفكم بصفة الاعلين ، والمخلوق يصفكم بصفة الادنين ، فان قبلتم صفة المخلوقين ذللتم وخزيتم وأصابتكم الدناءة واشتريتم بعد ذلك مرضاة المخلوق بســـخط

(١٠) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ١١٥ـ١١٧ .
(١١) مجلة (رسالة الشرق) الكربلائية ـ في عددها الصادر في ١٥ شعبان ١٣٧٣ هـ .

الخالق ... تُنصب بريطانيا عليكم قيماً دوليا وهي الولي وهي القيم ، فهل أنتم مجانين حتى تفتقروا الى الولي والى القيم ؟! (هتافات وصراخات عالية : لا ، لا ، لسنا مجانين ، لانريد بريطانيا قيماً ولا ولياً) ... المـــوت أدنى لك يابريطانيا من أن نذل لك ونخزى .. فالله الله ، مصارعنا أهون علينا من ذلنا وخضوعنا لسلطان القاهر الملك الجبار . ان صاحب القبر هو سيد أهل الاباء الذي علّم شيعته ومواليه كيف يموتون تحت ظـــلال السيوف في سبيل العز والشرف ... نحن لانريد حرباً مع بريطانيا ولا مع أحد غيرها من الناس ، ولكن الدولة التي تعتدي علينا نقاومها بأرواحنا ونفوسنا . واذا كانت بريطانيا وخيلها وخيلاؤها بلغت من القـــوة مالا نستطيع اخضاعها فان لنا من الشيمة وثبات الجأش وطلب الشرف والسؤدد عزما يسوقنا الى ازهاق نفوسنا والتخلص من سلطان الطغاة .. اذا لـــم نغلب بريطانيا فسوف لاتغلبنا ونحن أحياء بل ستدوس على أجداثنا ونحن مستشهدون في سبيل الله والعز والشرف (هتافات : الله اكبر ، الى ساحات العز والجهاد ايها المسلمون والموت للانكليز) ... فتمسكوا يا اخواني بعرى الايمان وانصروا الله ينصركم ، فانتم بين اثنتين : بين أن تعيشوا عبيدا أذلاء أو تموتوا أحرارا أعزاء ، فاي الحالين تختارون ؟! (صراخ : لانختار الا العز والموت !) .. سادتي ، مهلا مهلا ، ثبتكم الله وقوى عزمكم وأخضع لكم عدوكم الجبار ، أن امامنا عقبات لايذللها الا العزم الصـــادق والايمان الصريح فهل أنتم على ذلك ؟! (أصوات : نعم ، نعم !) ... ان أضعفكم جسما واكبركم سنا وأقواكم عزما وأصرحكم ايمانا هما الامامان المتبعان المرزا وأبي وهما قد بذلا أنفسهما بعزم راسخ وايمان صادق ، فهل تبخلون بأنفسكم بعدهما ؟! (هتافات متتالية : نفديهما بأنفسنا ، نفديهما بأنفسنا وأموالنا وأولادنا) . جزاكم الله عن انفسكم خيرا وثبت عزمكم وأبقى بأيديكم بلادكم ودفع عنكم عدوكم الذى يريد بكم السوء . وانني من فوق هذا المنبر أصرخ ببريطانيا قائلا : أحسني ولا تبغي بنا ســـوءاً وايأسي من أن نذل لك وارجعي من حيث أتيت ، فان لم يكن لنا ســـلاح فصدورنا ورؤوسنا تستقبل جميع ما لديك من معدات . أدام الله حياة الامة

العراقية وقادتها وعلماءها العاملين والأبيين الشيرازي والخالصي • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » •

يقول الشيخ محمد الخالصي في مذكراته : ان الحماس اشتـــد بالحاضرين وكثر البكاء بينهم وعلت الضجة وقطع بعض الرؤساء وبـاط عقالهم بسيفه ايذانا بأنه مستميت في سبيل الدفاع عن العراق ، ثم انفض الاجتماع والرؤساء جميعا متأهبون مستعدون للحرب عازمون على الموت في سبيل حفظ حقوق العراق ان أصر الانكليز على غصبها[١٢] •

على أثر انتهاء هذا الاجتماع عُقد اجتماع في دار الشيرازي حضره الشيرازي وحاشيته من العلماء ، فجرى بينهم نقاش واختلاف في الرأي ، اذ كان فريق منهم لايوافقون على هذه الشدة التى استعملها الشيخ محمد الخالصي في خطابه ، وكان في مقدمة هؤلاء السيد هبة الدين الشهرستاني، فقد كان يخشى أن يفور الدم الانكليزي فيقضي على الحركة الوطنيـة وهي في مهدها ، وكان رأيه ان العراقيين ليس لديهم من القوة ما يقابلون به الجيوش الانكليزية وأسلحتها • فرد عليه الشيخ محمد الخالصي قائلا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » •••

حادث في الحلة :

في اليوم الاخير من شهر رمضان ظهرت على الجدران في سوق الحلة اعلانات تدعو الناس الى القيام في وجه الحكومة وتحمل حملة شعواء على جميع المتصلين بالانكليز[١٣] • وفي اليوم الثاني من عيد الفطر ــ وهو بوافق ١٩ حزيران ١٩٢٠ ــ خرج منادي ينادي في طرقات الحلة وأسواقها قائلا : « في هذه الليلة اجتماع عمومي في الجامع الكبير لسماع مكتوب آية الله الشيرازي » • وقد حصل الاجتماع في الوقت المعـين ، وارتقى المنبـر الشيخ محمد الشهيب وأخذ يتلو رسالة وردت اليه من الشيرازي وهـي

---

(١٢) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة •

(١٣) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ــ ترجمة جعفر الخياط ص ٤٤٢ •

تدعو العراقيين الى المطالبة بحقوقهم المشروعة بالطرق السلمية[١٤] • ولما أتم الشيخ محمد تلاوة الرسالة تتابع على المنبر محمد الشيخ عبدالحسين ورؤوف الامين وخطيب السنة عبدالسلام الحافظ ، فألقوا كلمات حماسية طالبوا فيها باستقلال العراق ونادوا بالامير عبدالله ملكا عليه •

حين بلغ الميجر بولي خبر الاجتماع في الجامع أوعز الى خيري الهنداوي ، الذى كان حينذاك موظفاً في الادارة الانكليزية فى الحلة ، بأن يذهب الى الجامع ويتكلم مع المجتمعين لتهدئتهم • ولكن هذا الرجل عند وصوله الى الجامع نسي نفسه والمهمة التى كلفه الميجر بولي بها — ويقال انه كان في ذلك الوقت ثملاً —[١٥] فألقى على الحاضرين خطاباً وطنياً أثارهم وزاد من حماسهم •

أمر بولي بالقاء القبض على مدبري الاجتماع ، وعلى الهنداوي معهم، وهم : رؤوف الامين وعبدالسلام الحافظ وأحمد السالم وجبار علي الحساني وعلي الحمادي • وأُرسلوا جميعا بالقطار مخفورين الى البصرة ، ومنها أرسلوا بالباخرة الى جزيرة هنجام • وظلوا معتقلين في الجزيرة خمسة أشهر ، وقد مات أحدهم فيها وهو أحمد السالم[١٦] •

تقول المس بيل : ان ابعاد هؤلاء الاشخاص أدى الى زوال التوتر في منطقة الحلة ، وقد ذهب عمران الحاج سعدون ، وهو أهم رئيس من رؤساء بني حسن الساكنين في تلك المنطقة ، الى الحاكم البريطاني وهو يحمل التعهد الذى كان قد وقعه بالاكراه ، فمزقه أمام الحاكم[١٧] •

---

(١٤) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ — ج ١ ص ١٧٤ •

(١٥) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) — صيدا ١٩٧٢ — ص ١٠٧ •

(١٦) المصدر السابق — ص ١٠٧ •

(١٧) المس بيل (المصدر السابق) — ص ٤٤٤ •

اعتقال ابن الشيرازي :

اتضح لويلسون ان ابن الشيرازي هو منبع جميع الحركات المناوئة في منطقة الفرات الاوسط ، فقرر اعتقاله مع أعوانه ، وأصدر أوامره الى الميجر بولي بتنفيذ ذلك •

وفي ٢١ حزيران توجه الميجر بولي على رأس قوة كبيرة نحو كربلاء فوصلها مساءاً ، وصار يوزع القوة على مداخل البلدة وطرقاتها • ولما أصبح الصباح في اليوم التالي شوهدت اعلانات على الجدران مفادها : ان الغرض من جلب القوة العسكرية هو القبض على بعض الاشرار الذين يتجاوزون على الفقراء والضعفاء ، وهي لاتتعرض لاهل التقوى والصلاح، فكونوا مطمئنين • وأرسل بولي الى الشيرازي كتابا هذا نصه :

حضرة العلامة المجتهد الاكبر آية الله المرزه محمد تقي الشيرازي دام علاه •

بعد تقديم مراسيم التحية والسلام نعرض لحضرتكم ان قسما من قواتنا قد وردت الى هذه الانحاء لاجل حفظ الامن والقاء القبض على عدد من الاشرار الذين يقصدون الافساد ونهب الاموال والقاء الرعب في قلوب الاهلين ، وان قواتنا لم تتعرض للصلحاء الابرار ، فنرجو أن تطلعوا على هذه المسألة لكي يرتفع الرعب والاضطراب عنكم • وفي الختام نقدم لحضرتكم فائق الاحترام •

الميجر بولي
حاكم سياسي الحلة

عندما وصل هذا الكتاب الى الشيرازي جمع حاشيته لمشاورتهم في الامر ، وكان فيهم الشيخ مهدى الخالصي وابنه الشيخ محمد ، وبعد المداولة أوعز الشيرازي الى الشيخ محمد الخالصي بكتابة الجواب الى بولي، فكتبه الشيخ محمد • وهذا نصه :

الى حاكم سياسي الحلة الميجر بولي هداه الله •

قرأنا كتابكم وتعجبنا غاية العجب من مضمونه حيث ان جلبالعساكر

لمقابلة الاشخاص المطالبين بحقوقهم المشروعة الضرورية لحياتهم من الامور غير المعقولة ولا تطابق أصول العدل والمنطق بوجه من الوجوه ، ويحتمل ان يكون الاشخاص الذين يقصدون الافادة من ايجاد الخلاف بين اهالي العراق والانكليز هم الذين غشوكم لينالوا بواسطته مقاصدهم . وفي الليلة الماضية أردت مقابلتكم لرفع الشبهة من نفوسكم كي لاتغفلوا عن هذه النكتة ولكنكم امتنعتم عن ذلك ، وان نظرياتنا في أمور المملكة أصلح وأنفع من سوق الجيوش واستعمال القوة الجبرية . وأدعوكم عجالة لابلغكم أن توسلكم بالقوة في قبال مطالب البلاد واستدعاءاتها مخالف للعدل ولادارة البلاد ، واذا امتنعتم عن المجيء في هذه المرة أيضا فتصبح وصيتي للامة بخصوص مراعاة السلم ملغاة من ذاتها ، وأترك الامة وشأنها ، وبهذه الصورة تقع مسؤولية كل نتائج السوء عليك وعلى اصحابك . وفي الختام لي الامل أن تؤثر فيك هذه النصيحة كي لايقع ما يفسد النظام والامن وكي لاتكونوا سببا لاراقة دماء الابرياء .

الاحقر

محمد تقي الحائري الشيرازي

وبعد أن انتهى الشيخ محمد الخالصي من كتابة هذا الكتاب وقرأه على الشيرازي أمر الشيرازي أن تحذف لفظة « الاحقر » من التوقيع ، وهي اللفظة التي اعتاد الشيرازي وغيره من العلماء على كتابتها قبل ذكر الاسم ، فان هذه اللفظة تُشعر بالضعف بينما هو الآن في موطن الجدال مع الخصم(١٨) .

وقبل أن ينفض المجلس وصلت الى الشيرازي من الميجر بولي أوراق استدعاء يطلب فيها حضور المرزا محمد رضا وبضعة عشر رجلا معه للمذاكرة معهم . وفي الوقت نفسه حلقت ثلاث طائرات في الجو لارهاب الاهالي . فاستشار الشيرازي حاشيته فيما يجب أن يفعل ، فانقسموا في

---

(١٨) نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه « بطل الاسلام » .

الرأي • وعند هذا قام الشيرازي وخرج من المجلس بعد ان اوصاهم بالامتثال لرأي الشيخ مهدى الخالصي ، ولكن الخالصي قام بدوره أيضا وخرج دون أن يبدى رأياً •

قرر الشيخ محمد الخالصي ، وكان من جملة المطلوبين ، ان يمتنع عن تسليم نفسه حيث قال : « لا أعطي بيدي اعطاء الذليل ••• » ونزل الى السرداب فاختفى فيه • أما المرزا محمد رضا فقرر الاستجابة لطلب بولي ، وحين ذهب اليه تم اعتقاله ، كما اُعتقل معه آخرون ، فأرسلوا جميعا الى جزيرة هنجام ، وهم : هادي كمونه ، محمد شاه ، عبدالكريم عواد ، عمر العلوان ، عثمان العلوان ، عبدالمهدي القنبر ، أحمد القنبر ، محمد علي الطباطبائي ، كاظم أبو أذان ، ابراهيم أبو والدة ، أحمد البير •

لم يمكث المرزا محمد رضا في هنجام سوى شهر واحد تقريبا ، فقد تشفع له شاه ايران وطلب من الانكليز أن يسمحوا له بالمجيء الى ايران، فلبى الانكليز طلب الشاه ، وسلموا المرزا الى حاكم بندر عباس في ٢٨ تموز[١٩] • ومن هناك ذهب الى طهران حيث عاش بقية حياته • أما الآخرون فقد ظلوا في هنجام الى أن صدر العفو العام في العراق في ٣٠ أيار ١٩٢١ •

غافلـون :

كان نفي ابن الشيرازي واصحابه من أهم العوامل في اندلاع الثورة ـ كما سنأتي اليه في الفصل القادم • ولكن الانكليز كانوا غافلين يظنون انهم بهذا العمل « الصارم » قد قضوا على الثورة في مهدها •

قد يصح القول ان الانكليز كانوا في تلك الايام يعيشون في داخل قوقعتهم الذهنية لايعرفون ماذا يجري في خارجها • فمن يقرأ مذكرات ويلسون أو غيره من رجال الحكم في العراق يحس بوضوح بما كانوا عليه حينذاك من تفكير قوقعي • يقول ويلسون في مذكراته : « كنت

---

(١٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٣١ تموز ١٩٢٠ •

خلال شهرى نيسان وأيار – من عام ١٩٢٠ – قد قمت بجولات متكررة بطريق الجو الى كل مركز ادارى في العراق • وقد حصلت لي محادثات طويلة مع أشخاص يمثلون كل فئة أو طائفة ، وكل قبيلة كبيرة تقريبا ، وكل لون من ألوان الرأي السياسي • فكانت الآراء التي أبديت لي في هذه اللقاءات الشخصية والجماعية معا ، والتى جرت في مراكز متباعدة كل التباعد ، تخالف بالاجماع فكرة التعجيل في تأسيس نظام دستوري •• وكانت التقارير التي ظلت ترد بعدئذ من مختلف الحكام السياسيين حتى بداية حزيران تنطق بنفس المضمون •• »[٢٠] •

ان ويلسون حين كان يجتمع بالوجهاء والرؤساء في المراكز التي زارها ، ويسألهم عن آرائهم ، لابد أن يحصل منهم على الاجوبة التي يرغب بها • فهو يعتقد أنها آراءهم الحقيقية ولا يدري انها آراء اصطنعوها لارضائه على منوال ما اعتادوا مع الحكام منذ قديم الزمان •

كتب الكابتن مان معاون الحاكم السياسي في أم البعرور رسالة الى صديقة له مؤرخة في ١٨ حزيران ١٩٢٠ أشار فيها الى انتشار الدعوة الثورية في الفرات الاوسط ، ثم استدرك يقول ان هذه الدعوة لاداعي للخوف منها لانها لايمكن أن تؤثر الا على افراد قليلين من المتذمرين • ويذكر الكابتن مان ان عشائر منطقته لم تتأثر بتلك الدعوة الا قليلا ثم يأتي بأسباب ثلاثة ليبرهن بها على ان العشائر راضية عن الحكم البريطاني ومحبة له • وهي كما يلي :

اولا : ان العشائر اصبحت تحت الحكم البريطاني اوفر انتاجا ، وان المعارك القبلية قد زالت ، وان العشائر تدرك بان انسحابنا من العراق سيعيد الوضع الى الفوضى التى كانت سائدة في العهد التركي •

ثانيا : ان الادارة البريطانية وفرت للناس طرقا صالحة وسككا حديدية ، وأعادت الخصوبة الى الكثير من الاراضي • وان الناس كلهم يعلمون ان بقاء الانتداب عليهم يؤدي الى استمرار هذا التقدم •

---

(20) Wilson (op. cit.) vol. 2, P. 259.

ثالثا : ان الادارة البريطانية أضعفت تعسف الشيوخ الى حد كبير فان أفقر فرد في العشيرة يستطيع الآن أن يقدم عريضة ضد شيخه لقاء فلوس قليلة ، وهو واثق ان شكواه سينظر فيها • ان الفلاحين لاينظرون الى شيوخهم الآن كما كانوا ينظرون اليهم في الماضي(٢١) •

مشكلة الكابتن هي كمشكلة رئيسه ويلسون اذ هو ينظر الى الدنيا من خلال قوقعته الذهنية لا يعرف غيرها • وحين نقرأ رسائله التي كتبها الى أهله وأصدقائه نجدها لاتختلف كثيرا عن تقارير ويلسون • فان شيوخ منطقته كانوا يأتون اليه يمدحونه ويمدحون بريطانيا العظمى ، وهو يفرح بما يقولون ويصدق به ، ولايدري انهم قالوا مثل ذلك في العهد التركي مئات المرات ، فهي ألفاظ اعتادوا على تكرارها دون أن تكون لها أية أهمية عملية في نظرهم •

يروي الكابتن مان في رسالة له الى امه كتبها في ١٥ كانون الاول ١٩١٩: ان شابا من يهود بغداد يعمل في الاستخبارات الانكليزية زاره في أم البعرور ، وصار يتحدث اليه عن العلاقة الموجودة بين الشعب والحكومة في تلك الايام ، فقال : ان الفرد العراقي قد يدخل الى دائرة حكومية في حاجة له فتراه يطنب في الثناء على الحكومة البريطانية حيث يصفها بأنها أعظم وأفضل حكومة في العالم ، ويأتي بالكلمات المعسولة يظهر بها اخلاصه المتفاني للحكومة وطاعته لها ، ولكنه لايكاد يخرج من باب الدائرة حتى يقول : « متى يارب تنقذنا من جور هؤلاء الكفار » • ويعلق الشاب اليهودى على ذلك قائلا : ان الكلمات ليست ذات أهمية كبيرة لدى هؤلاء الناس المداحين ، فهي تغدو وتروح على أفواههم بلا مبالاة(٢٢) •

---

(21) MANN (Administrator In The Making) - London 1921 - P. 286-287.

(22) Ibid, P. 183-184.

حين يروي الكابتن مان كلام هذا الشاب اليهودي يقول انه من الصعب جدا فهمه . ولعله يقصد من ذلك انه لايحب أن يصدق بهذا الكلام لان التصديق به يؤدي الى انهيار جميع القصور الزاهية التى بناها في الخيال عن حب الشعب لهم .

ومما يلفت النظر ان الشاب بعد أن انتهى من كلامه أخذ يتملق للكابتن مان على شاكلة الذين انتقدهم ، حيث قال له : اني عربي وطني بالرغم من كوني يهوديا ، واني انما أخدم الانكليز لانني أعلم ـ كما يعلم كل انسان ـ ان اقامة حكومة عربية في هذه البلاد أمر مستحيل يستحق السخرية[٢٣] . وقد صدق الكابتن مان بهذا الكلام طبعا !

من طبيعة الانسان بوجه عام انه ميال الى تصديق كل مايلائم رغبته او مصلحته . أما اذا سمع ما يخالف ذلك فانه يحاول التقليل من قيمته او يفسره بالشكل الملائم له . ان النادر من الناس هو الذي يفهم الدنيا كما هي على حقيقتها .

---

(23) Ibid, P. 184.

الفصل الرابع عشر

انطلاق شرارة الثورة

أحدث نفي ابن الشيرازي ضجة كبرى في الفرات الاوسط ، وصار محور حديث المجالس والمضائف والدواوين والمقاهي • وكتب الميرزا عبدالحسين – وهو الابن الثاني للشيرازي – رسائل الى رؤساء العشائر يحثهم فيها على العمل لانقاذ أخيه وأصحابه ، وقال لهم عن لسان أبيه : « هذا اليوم يومكم ! » •

اجتماع عشائري :

قرر السيد علوان الياسري وعبدالواحد الحاج سكر وأصحابهما عقد اجتماع عام يحضره رؤساء الفرات الاوسط للمداولة في الامر ، ووقع اختيارهم على مضيف السيد محسن أبو طبيخ ليكون محل الاجتماع ، وأرسلوا اليه يطلبون منه اعداد طعام العشاء للذين سيحضرون الاجتماع ولكن السيد محسن رفض تلبية الطلب وقال : « ان مضائف المشخاب كثيرة فلماذا يختار رؤساء آل فتلة مضيفه دون غيره ؟ أيريدون أن يكفروه مع السلطة لتصب عليه جام غضبها ؟ لهذا فانه يرفض عقد الاجتماع في محله »[1] •

تقرر أخيرا عقد الاجتماع في مضيف عبدالكاظم الحاج سكر في المشخاب • وفي ١١ شوال ١٣٣٨ هـ – الموافق لـ ٢٨ حزيران ١٩٢٠ م – تم عقد الاجتماع هنالك ، وحضره من الرؤساء : علوان الياسري وعبدالواحد الحاج سكر ومحسن أبو طبيخ وعبد زيد ومحمد العبطان وهنين الحنون وهادي المقوطر وعلوان الحاج سعدون وشعلان الجبر وهادي زوين ومرزوق العواد و وداي العطية وسلمان الظاهر ولفتة

---

(١) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) – صيدا ١٩٧٢ – ص ١١٧ •

الشمخي ومجبل الفرعون وجري المريع ، وغيرهم ، كما حضره عبدالرحمن خضر من بغداد ، والسيد محمد الباقر من الحلة .

افتتح الاجتماع عبدالرحمن خضر حيث صعد المنبر وأخذ يتحدث للحاضرين عما يعانيه الوطنيون في بغداد من مظالم الانكليز . وعندما انتهى من حديثه صعد المنبر مكانه السيد محمد الباقر وألقى قصيدة حماسية من نظمه مؤلفة من ستة ابيات ، ننقل منها الابيات الثلاثة الاولى :

بني يعرب لاتأمنوا للعدى مكراً
خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة
ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا
أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا

ثم التفت السيد محمد نحو رؤساء الخزاعل وخاطبهم قائلا : يامعشر خزاعة ان لمحمد عليكم دينا يوم قال « لا نصرني ربي ان لم أنصر خزاعة » فهل تفون اليوم دينه ؟! وعند هذا قام سلمان العبطان وجرد سيفه وهزه قائلا : « عند وجهك ، أنا أخو فاطمة ! » .

وبعد هذا كتب المجتمعون عريضة موجهة الى الميجر نوربري يحتجون فيها على نفي ابن الشيرازي وأصحابه ، ويقولون :

اذا أرادت الحكومة أن تحترم عواطف العراقيين وتهدىء خواطرهم الهائجة فلتعجل باطلاقهم ، وبذلك تراعي نواميس العدل وحقوق الشعب ولا تلجئه الى الخروج من دور المطالبة السلمية الى غيره .

ثم كتب المجتمعون بالاضافة الى ذلك رسائل الى شعلان ابو الجون وغيره من رؤوساء بني حجيم في الرميثة يشرحون فيها اعمال الانكليز الجائرة واستهانتهم بحقوق العراقيين ويذكرون وجوب الثورة عليهم للتخلص من ظلمهم . وقد حمل هذه الرسائل السيد محسن الياسري ،

ولكنه وصل الى الرميثة في يوم ١ تموز - أي في اليوم الثاني من اندلاع شرارة الثورة فيها(٢) .

محاولة نوربري :

أرسل نوربري الى مجبل الفرعون يطلب منه ان يجمع رؤساء آل فتله في مضيفه في ١ تموز للاجتماع بهم . فأجتمع الرؤساء في الموعد المعين وهم لم يكونوا يعلمون بانطلاق شرارة الثورة في اليوم السابق ، وقد حضر الاجتماع من الجانب البريطاني أربعة حكام هم : الميجر نوربري والميجر نيچول والكابتن هوبكنز والكابتن مان .

لدينا روايتان عما جرى في الاجتماع احداهما من مصدر بريطاني وهي موجزة ، والاخرى من مصدر عراقي وهي مفصلة . فقد جاء في الرواية البريطانية : ان الاجتماع لم يحضره سوى قليل من رؤساء آل فتلة ، وان عبدالواحد ألقى فيه كلمة مثيرة وجهها الى الرؤساء بدلا من توجيهها الى البريطانيين ، وان البريطانيين عندما خرجوا على أثر انتهاء الاجتماع قوبلوا من أبناء العشيرة بأصوات الاستهزاء ثم قُذف زورقهم البخاري بالاحجار . وتؤكد الرواية البريطانية ان هذه الاهانة لم تكن تلقائية بل كانت مدبرة(٣) .

أما الرواية العراقية فقد رواها فريق المزهر الفرعون وهو ابن أخ مجبل ، وكان من جملة الحاضرين في الاجتماع . وملخص ما ذكره في هذا الشأن هو أن الميجر نوربري حاول اغواء مجبل الفرعون فأخذه الى خارج المضيف منفردا وأخذ يكلمه قائلا ان الحكومة البريطانية قوية جدا وتريد توطيد الأمن لكي يتسنى لها خدمة الشعب العراقي وتدريبه على الحكم ، وهي ستخرج من البلاد حالما يتم تدريب هذا الشعب ، ثم قال له :

---

(٢) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) - النجف ١٩٦٦ - ص ١٧١ .

(3) MANN (Administrator In The Making) - London 1921 - P. 291 - 292.

اني آتيت اليك بأمر من الحاكم العام لتعاهدنا بأن تكون معنا فتنال بذلك الجاه العظيم وتكون أول صديق لهذه الحكومة المعظمة • فأجابه مجبل : ان تاريخ آل فتلة أبيض ناصع ليس فيه خيانة واني لا أستطيع أن أخون بلادي واخواني وديني • وحين فشل نوربري في اقناع مجبل الفرعون عاد الى الرؤساء المجتمعين فتكلم معهم بمثل ما تكلم مع مجبل ، فرد عليه عبدالواحد ناطقا بلسانهم قائلا : ان لنا غاية نسعى اليها وهي الاستقلال التام • فأجابه نوربري : ان هذا سيتم بعد أن تتدربوا على الحكم الذاتي تدريجيا • فرد عليه عبدالواحد : هل التدريب هو نفي العلماء والزعماء ، فاذا كنتم صادقين في قولكم فأطلقوا سراح المرزا محمد رضا نجل آية الله الشيرازي والآخرين من أحرار كربلاء ، وثانيا أجلوا الحكام السياسيين عن الفرات واجمعوهم في بغداد ونحن نرسل مندوبين عنا للمفاوضة معكم ، وعند ذلك نصدق بوعودكم ، أما الاقوال وحدها بالجمل المعسولة والوعود الخلابة فهي ليست سوى هواء في شبك • فكان جواب نوربري له : « طيب •• سننتظر »، ثم نهض للخروج هو ومن معه • وقد حاول نوربري أخذ مجبل الفرعون معه في زورقه البخاري ، ولكن مجبل أبى • وعند هذا هوّس أفراد العشيرة الذين كانوا واقفين خارج المضيف : « هج ما حصلني ورد خالي » ، و « يا عراگ لبابك فكينا »[٤].

محاولة ديلي :

أراد الميجر ديلي أن يعمل لتهدئة الوضع في منطقته كما فعل نوربري ــ ولكن بطريقته الخاصة • أرسل الى الحاج مخيف كبير رؤساء عفك يستدعيه اليه فلما وصل اليه أمر باعتقاله وابعاده الى البصرة • واستدعى اليه كذلك شعلان العطية من كبار رؤساء الاقرع ، وأودعه السجن • وكذلك فرض ديلي الاقامة الجبرية على بعض الرؤساء كان من بينهم السيد محسن أبو طبيخ • يقول السيد محسن في مذكراته

---

(٤) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٦٣ ــ ١٦٤ •

المخطوطة : ان الكابتن مان هو الذي ابلغه بأمر الاقامة الجبرية ولكنه أبدى امتعاضه من هذا الأمر ووعده بأنه سيبذل جهده لاقناع ديلي بالغائه • ويصف السيد محسن الكابتن مان بأنه « لين العريكة ومعتدل في سياسته وغير راضي عن سياسة الميجر ديلي » •

ويقول السيد محسن ان ديلي أراد في تلك الأيام أن يلهي العشائر ويشغلها فأمر بحفر جدول بين هور بن نجم ونهر الفرات ، وهو الجدول الذي تم حفره أخيرا وعُرف باسم « الجدول » ، ففرض على كل شيخ أن يحضر للحفر مع عدد من أفراد عشيرته • ولكن اجتماع الشيوخ في مكان واحد من أجل الحفر أدى الى عكس ما أراده ديلي ، لانهم صاروا يتداولون فيما بينهم للاتفاق وتوحيد الكلمة ، وبدأت الهوسات المثيرة تنتشر بينهم ، فلما سمع ديلي بذلك أمر بترك الحفر وبأعادة العشائر الى مواطنها(٥) •

لجأ ديلي الى طريقة أخرى ، وهي أنه استدعى اليه خمسين من شيوخ منطقة الديوانية ، وطلب منهم تنظيم مضبطة يتبرأون فيها من الحركة الوطنية ويعلنون رغبتهم في الوصاية البريطانية • فنظم الشيوخ المضبطة وفق طلبه ، ووقعوا عليها ، وأرسلوها الى ويلسون ببغداد ، وهذا نصها :

« نحن الموقعين أدناه رؤساء قبائل العراق نظراً لما نراه من العطف من الحكومة البريطانية المعظمة على العراق ، وسيرها به الى التمدن والعمران ، وبثها روح المعارف ، هذا فضلا عن مساعدتها المالية للزراع والمعوزين ، واحترامها المعابد والمساجد والاديان ، واعطائها الحرية التامة الى الشعب العراقي لابداء رأيه ، ونحن بناء على ذلك كله ، فاننا نطلب أن تبقى أدارة العراق تحت ادارة بريطانية كما هو موجود الآن ، وعندما ينضج وتكون به حكومة فاننا نرغب أن تكون تحت الوصاية الانكليزية الى

---

(٥) نقلا عن مذكرات السيد محسن ابو طبيخ المخطوطة • واني اشكر السيد جميل ابو طبيخ لاعارته تلك المذكرات لي •

أن تتم الحكومة العراقية وتكون مقتدرة لادارة شؤونها بنفسها ، وذلـك باعتراف حكومة بريطانيا . أما المشاغبون من بعض العراقيين فاننا نطلب من الحكومة المعظمة التنكيل بهم ليتخلص العراق من أراجيفهم وحركاتهم الغير مرضية بنظر العموم »[٦] .

ومما يلفت النظر ان هذه المضبطة مؤرخة في ١٥ شوال ١٣٣٨ هـ ، وهو يوافق ٢ تموز ١٩٢٠م ، أي أن تنظيمها حدث بعد يومين من اندلاع الثورة في الرميثة . ولم يكن الرؤساء الموقعون على المضبطة يعلمون بالحادثة ، أما ديلي فكان يعلم بها ولكنه يحسبها بسيطة سيُقضى عليها خلال وقت قصير ، ولم يكن يدري انها الشرارة التي ستؤدي الى اشعال نار كبـرى .

كيف انطلقت الشرارة :

يقول هالدين : ان الميجر ديلي سمع في ٢٥ حزيران ان عشيرة الظوالم وهي فرع من بني حجيم رفعت راياتها مظهرة انها في حرب مع الحكومة ، وفي اليوم نفسه أخبره الملازم هيات معاون الحاكم السياسي في الرميثة بأن رئيس الظوالم شعلان ابو الجون عليه دين للحكومة مضت عليه مدة طويلة وأصبح من الواجب استحصاله وقدره ثمانمائة روبية ، فأوعز ديلي باعتقال شعلان وبارساله اليه في الديوانية[٧] .

وفي ٣٠ منه أرسل هيات الى شعلان يستدعيه للحضور الى سراي الرميثة ، فلبى شعلان الطلب وحضر الى السراي في ظهر ذلك اليـوم . تقول المس بيل : ان شعلان أبدى كثيراً من الشراسة في مقابلة هيات بحيث اضطر هيات الى حجزه وتوقيفه في السراي بقصد ارساله الى الديوانية[٨].

---

(٦) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٥١ .

(7) Haldane (Insurrection In Mesopotomia) - Edinburgh 1922 - P. 73 - 74.

(٨) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ .

ولكن فريق المزهر الفرعون يذكر العكس من ذلك اذ يقول : ان هيات استقبل شعلان بالعنف والتوبيخ وأسمعه كلاماً مراً لايمكن لزعيم الظوالم أن يسمعه مهما كانت العاقبة سيئة ، فقابله شعلان بشراسة وصلابة أشد اذ قال له : « ان هذه السياسة التي تسير عليها أنت وحكومتك ستجر الدولة البريطانية الى عاقبة سيئة لاسيما وان العراقيين تتغلغل النيران في قلوبهم وتنبه عواطفهم ، فأعلم بانك في العراق لا في هندستان وان العراقيين غير الهنود »(٩) .

الواقع ـ فيما يبدو ـ ان هيات هو الذي بدأ بابداء الخشونة تجاه شعلان فرد عليه شعلان بخشونة أشد ـ على نحو ما يجري في العراق عادة . وعلى أي حال فان هيات أمر بحبس شعلان لكي يرسله الى الديوانية بقطار الليل . وعند هذا التفت شعلان نحو تابعه الذي جاء معه طالباً منه أن يخبر ابن عمه غثيث الحرجان بأنه في حاجة الى عشر ليرات عثمانية وانها يجب أن تُرسل اليه قبل موعد القطار . ولما وصل الخبر الى غثيث عرف ان شعلان في حاجة الى عشرة رجال من شجعان العشيرة بدلاً من الليرات العشر . فبعثهم حالاً ، وأسرع هؤلاء الرجال الى السراي ولم يكن فيه سوى أربعة أفراد من الشرطة ، فقتلوا اثنين منهم ، وفر الآخران، ثم فتحوا باب السجن وأخرجوا شعلان منه وعادوا به الى عشيرتهم وهم يهوسون !

كان هيات في البداية يظن ان الأمر هين ، فتناول مسدسين محشوين وأسرع صاعداً الى سطح السراي بغية مصاولة المهاجمين بهما ، ولكنه وجد الأمر اكبر مما كان يظن ، ولاحظ أن الجمهور خارج السراي في حالة تجمع وهياج ، ولمح بين المتجمهرين حول السراي رجلين يحرضان الجمهور على مهاجمة السراي ، أحدهما اسمه السيد عباس البقال اذ كان يصرخ في من حوله قائلا : « اهجموا على السراي » والثاني اسمه سامي

---

(٩) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨ .

أفندي كان موظفاً عند الانكليز سابقاً وفصلوه فاشترك مع المهاجمين في اطلاق النار على السراي • وأدرك هيات ان الأمر خرج عن نطاق قدرته ، فنزل من السطح وأبرق الى الميجر ديلي في الديوانية يخبره بما جرى •

أما شعلان فهو عندما عاد الى عشيرته سالماً أيقن ان العلاقة بينه وبين الحكومة قد انقطعت نهائياً وأنه قد أعلن الحرب عليها ويجب أن يواصل الحرب حتى النهاية • فجمع أفراد عشيرته وخاطبهم قائلاً : هل انكم تقبلون خدمة العدو الكافر الذي يبغض العرب والاسلام ؟! فأجابوه : الله اكبر ! أبداً لانرضى ! وعند هذا طلب شعلان منهم أن يقتلعوا أخشاب سكة الحديد التي تمر بأراضيهم وأعلن انه مستعد أن يدفع ليرة ذهب عن كل خشبة يؤتى بها اليه • فانثال أفراد العشيرة رجالاً ونساءا على أخشاب السكة يقتلعونها ، وجاؤوا بها الى مضيف شعلان •••

تلك هي بداية اندلاع الثورة • وقد قال أحد الشعراء الشعبيين في الفرات الاوسط مفاخراً بها :

الدولة تعرف عندهم خوش رسميات
مايدري العراگ شبيه زلم آفات
من راحن فجر يمشن سبع تفگات
فكّـوه وتمـدد ناطـوره[١٠]

ومن الجدير بالذكر ان الكتّاب العراقيين اختلفوا حول علاقة شعلان أبو الجون بالحركة الوطنية ، كل منهم يود أن ينسبه الى جهة دون أخرى على نحو ما فعلوا مع « الشهيد » الاخرس • ففريق منهم يحاول ربط شعلان بحزب الحرس ببغداد ويقول انه كان يحضر اجتماعات الحرس وهذا هو السبب الذي جعل الميجر ديلي يغضب عليه ويأمر باعتقاله[١١] • ويذهب فريق ثاني الى القول بأن شعلان كان من جملة الرؤساء الذين

---

(١٠) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٧٤ ـ ص ٢٩١ ، ٢٩٩ •

(١١) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١٤٦ •

حضروا زيارة منتصف شعبان في كربلاء ، وان القرار قد تم بين الرؤساء هنالك أن يقوم كل منهم بالثورة في منطقته فكان من نصيب شعلان وابن عمه غثيث أن يقوما بالثورة في منطقة السماوة[١٢] . ويذهب فريق ثالث الى أن شعلان وغثيث أو غيرهما من رؤساء بني حجيم لم يحضروا زيارة منتصف شعبان ، ولكنهم حضروا بعدئذٍ في النجف ، واتصل بهم عبدالواحد الحاج سكر هنالك[١٣] . وهنالك فريق رابع يرى رأياً لايرضى عنه الاكثرون ، وهو ان شعلان أبو الجون لم يقم بحركته عن سابق تصميم أو اتفاق مع أحد ، بل هو قام بها من تلقاء نفسه بدافع ظروفه الخاصة ثم انتشرت الثورة بعد ذلك بتأثير عوامل مختلفة . ويمثل هذا الرأي الشيخ علي الشرقي أبداه في مقالات نشرها في جريدة «الهاتف» النجفية . وفيما يلي نبذة مما قال في هذا الصدد :

« ... كانت الخطة في العراق أن تكون ثورة سلمية طويلة الامد ذات عناد وصلابة ، ومفاوضات ومراوغات ، بدون قتال ... ولم يرسم القادة من العراقيين خططاً حربية ولا رتبوا مراكز للدفاع او الهجوم ، ولكن تعسف الحكام السياسيين من الانكليز وتعنتهم جرّ الى اطلاق رصاصة الرميثة بدون سابقة من المشتغلين في القضية من أهل الحل والعقد في الحواضر والارياف المهمة . عند ذلك وقف المخلصون تجاه الأمر الواقع إذ لايمكن ترك ابطال الرميثة يصطلون بنار العدو منعزلين عن اخوانهم ، بل لابد من الاشتباك والاشتراك ... »[١٤] .

حادثة البو حسان :

استطاع الانكليز أن يجمعوا في الرميثة قوة بلغ مجموع أفرادها ٥٢٧ رجل ، وناطوا قيادتها بالكابتن براك لانه كان أرفع الضباط

---

(١٢) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ص ١٠٠ .
(١٣) عبدالشهيد الياسري (المصدر السابق) ـ ص ١٣٨ .
(١٤) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ١٦ .

الموجودين رتبة • وحين تسلم براك زمام القيادة وجد أن السراي لايكفي لايواء جنوده كلهم ، فأمر باحتلال خانين مجاورين وأنزل بعضهم فيهما •

يقول هالدين : ان هيات بلغه في ٤ تموز أن البوحسان الذين يسكنون في قرية تبعد ميلاً ونصف الميل عن الرميثة أغاروا على سوق الرميثة فنهبوه وأرهبوا السكان ، فتقرر ارسال مفرزة مؤلفة من فصيلين من الجنود الى القرية لغرض الاستكشاف • ونيطت قيادتها بالملازم ماريوت وذهب معه الملازم هيات • وقد نصح هيات صاحبه ماريوت بأن لايتقيد بالأوامر الصادرة اليه حرفياً بل عليه أن يحرق القرية قبل أن يعود الى مقره • فكلفت هذه النصيحة الطائشة ثمناً غالياً لأن احراق القرية أدى الى تأخير عودة المفرزة ، فأتاح ذلك للثوار أن يتجمعوا من كل ناحية ، حتى بلغ عددهم ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ محارب ، وهاجموا المفرزة من كل جانب وكبدوها خسائر فادحة ، إذ بلغ عدد المفقودين منها ٤٣ ، وبلغ عدد الجرحى ١٦ • ويقول هالدين : ان هذه النكسة وان كانت صغيرة أنتجت نتيجتها المعتادة إذ صارت العشائر وأهل الرميثة يعلنون عداءهم للحكومة بشكل سافر ، وأخذت النيران تُوجه نحو الخانين من جميع محلات البلدة حتى قُتل من الجنود ستة وجُرح أربعة عشر • واضطر الكابتن براك من جراء ذلك الى سحب الجنود من الخانين واعادتهم الى السراي[١٥] •

وجدتُ في مذكرات السيد محسن أبو طبيخ ما يؤيد هذا الذي ذكره هالدين حول حادثة ألبوحسان ، فهو يقول : ان العشائر المحيطة بالرميثة هاجمت البلدة ليلاً واحتلتها وضربت حصاراً على الحامية الانكليزية ، وفي صباح اليوم التالي خرجت من الرميثة قوة انكليزية الى أحدى قرى ألبوحسان وضربتها بدون سبب وبدون انذار ، فتجمعت العشائر على القوة الانكليزية والتحمت معها في معركة ضارية وأرغمتها على الانسحاب تاركة وراءها كثيراً من القتلى والجرحى ، وكثيراً من

---

(15) Haldane (op. cit.) - P. 76 - 77.

الاسلحة والعتاد . ويصف السيد محسن أبو طبيخ الملازم هيات الـذي اقترف هذا الخطأ بأنه كان معروفاً بين العشائر بخفة عقله حتى أنهم كانوا يسمونه « أبو الططو » اشارة الى قلة رزانته .

الواقع ان هذه الحادثة قوت معنوية الثوار ، وجعلتهم يثقون بمقدرتهم على قتال الانكليز . وبعد ثلاثة أيام وقعت حادثة أخرى كانت أشد أثراً في تقوية معنوية الثوار : ففي مساء ٦ تموز وصلت الى العارضيات التـي تبعد بستة اميال عن شمال الرميثة قوة انكليزية بقيادة الكولونيل مفيـان قاصدة انجاد حامية الرميثة . فواجهت قوة من العشائر يقدر عددها بيـن الثلاثة آلاف والخمسة آلاف محارب ، وكان هؤلاء كامنين لها في جداول جافة تعترض الطريق . وفي صباح اليوم التالي وقعت بين الطرفين معركة ضارية تكبدت القوة الانكليزية فيها خسائر كبيرة . وفي الساعة الحاديـة عشرة قبل الظهر هبت عاصفة ترابية ، فانتهز الكولونيل مفيـان فرصـة العاصفة وتمكن من الانسحاب نحو الشمال . ولكن العشائر ظلت تطارده طيلة النهار . وفي اليوم التالي استطاعت القوة الانكليزية أن تصل الى قرية الحمزة التي تبعد عن الرميثة بثمانية عشر ميلاً . وقد بلغ عدد قتلاها ٤٨، والجرحى ١٦٧ ، وكانت تلك خسارة كبيرة بالنسبة الى مجموع القوة[16] .

كان هالدين حين وقعت هاتان الحادثتان في « ساري ميل » التي تقـع بالقرب من كرمنشاه في ايران . فتوجه حالاً الى بغداد لكـي يشـرف على ادارة المعارك عن كثب . وهو يقول في كتابه : انه كان يعلم بأن أية نكسة مهما كانت صغيرة تصبح لدى العشائر ضخمة بشكل مبالغ فيه ، ولهذا فانه أبرق في ٨ تموز الى وزارة الحرب في لندن ، والى قيـادة الجيش في الهند ، يطلب منهم النجدة العاجلة ، ولكن الجواب عاد اليه

(16) Ibid - P. 77 - 78.

بالخبر المؤسف هو أن النجدة لايمكن ارسالها اليه قبل نهاية تموز[١٧] •

أضطر هالدين أن يجري بعض التنقلات العسكرية في داخـــل العراق لكي يوفر جزءاً من قواته لأجل الرميثة • وتمكن أخيراً من أن يعد في الديوانية رتلا قويا ناط قيادته بالجنرال كوننغهام •

نشاط حامية الرميثة :

أبدت حامية الرميثة صموداً غير قليل تجاه الحصار الذي فرضـه الثوار عليها في داخل السراي • فقد كان السراي واقعاً على ضفة النهر ، وكان الثوار يطلقون النار على الجنود الذين ينزلون الى النهر للاستقاء منه • وقد قتل من جراء ذلك ثلاثة جنود ، فاضطر قائد الحامية الكابتن براك الى حفر ثلاثة آبار في ساحة السراي لتجهيز الحامية بالماء منهـا • وأخذ براك بالاضافة الى ذلك يوجه مفارز من جنوده بين آونة واخـرى للاغارة على سوق البلدة وخاناتها من أجل الحصول على بعض المقـادير من الطعام •

وفي ٨ تموز جاءت طائرة الى الرميثة والقت فـوق السراي ثلاث صناديق من العتاد ، فلم يسقط في داخل السراي سوى واحد منها ، وأدى ذلك الى قتل أسير عربي كان موجودا هنالك ، كما جرح عريف هندي • وقد سقط الصندوق الثاني في النهر ، اما الصندوق الثالث فقد سقط في احدى البساتين ، وقد أمكن الحصول على الصندوقين بعد بذل جهـود شـاقة[١٨] •

أبرقت الحامية الى السماوة بواسطة الراقم الشمسي تخبرها بـأن الطعام لديها قليل وأنه لايكفيها الا لمدة أقصاها ١٢ تموز • فأبرقت السماوة

---

(17) Ibid - P. 79.

(18) Ibid - P. 76 - 77.

بذلك الى بغداد • وتقرر وضع خطة للحصول على الطعام من بلدة الرميثة بشكل واسع النطاق • وبناءاً على هذه الخطة توجهت من بغداد في ١٣ تموز تسع طائرات قاصفة • وكان الغرض منها قصف الرميثة بالقنابل لكي ينشغل السكان بالقصف فيتمكن جنود الحامية من الخروج الى البلدة والاستحواذ على المقادير الكافية من الطعام منها •

لقد كان ذلك اليوم في الواقع يوماً فظيعاً على سكان الرميثة ، فحينما بدأت الطائرات بالقصف عليها خرج من السراي عدد كبير من الجنود وهم يحملون الاكياس والصفائح والبطانيات ، وصاروا يملأونها بما يقــع في أيديهم من مختلف أنوعا الطعام • وكان يغطيهــم في ذلك فصيــلان من الجنود • وقد تم الاستحواذ على نصف طن من الحبوب وعلى عدد مــن الدجاج والغنم ، وذلك يكفي لاطعام الحامية مدة اثني عشر يوماً • ويقول هالدين : ان هذا العمل أنقذ الموقف وأتاح وقتــا كافيا لرتل كوننهام لانقاذ الحاميـــــة [١٩] •

وقعت في أثناء هذا النهب العام مذبحة للاهالي بشمة ، وكان سببها ان عدداً كبيراً من سكان البلدة بينهم النساء والاطفال التجأوا الى دار للحاج عبود سلهابة بغية الاحتماء بها من قصف الطائرات ، والظاهر ان الدار كانت تتميز عن غيرها من دور البلدة بمتانتها ، فجاء اليهم الجنود ووجهوا عليهم نيران بنادقهم ورشاشاتهم ، وقتلوا منهم نحو عشرين ، حتى سالت الدماء الى خارج الدار [٢٠] •

والغريب ان هالدين حين يشير الى هذه المذبحة في كتابه يعتبرها من مظاهر النجاح الذى نالته الحامية في ذلك اليوم • فهو يقول : ان جنود

---

(19) Ibid - P. 77 - 81.

(٢٠) عبدالشهيد الياسري (المصدر السابق) ــ ص ٣٢١ •

التغطية نجحوا في عملهم كنجاح الذين جمعوا الطعام اذ هم قتلوا من سكان البلدة عشرين دون ان يتكبدوا من جانبهم أية خسارة[٢١] .

وساطة فاشلة :

اجتمع وجهاء الرميثة على أثر ما جرى في يوم ١٣ تموز وقرروا الاتصال بالانكليز وبالثوار لانقاذ بلدتهم من هذه المحنة ، وبعد المداولة وقع اختيارهم على السيد محمد السيد محمود ، وهو من السادة المحترمين في البلدة ، وطلبوا منه الذهاب الى الانكليز والى العشائر للمباحثة معهم في ذلـــك .

وافق السيد محمد على القيام بهذه المهمة ، واختار أن يصحبه عند ذهابه الى الانكليز سامي أفندي والسيد عباس البقال ، ولم يكن يدري أن الملازم هيات حاقد عليهما حقداً شديداً لما قاما به في يوم الهجـــوم على السراي .

توجه السيد محمد الى السراي بصحبة هذين الرجلين ، وهو يحمل علماً ابيض ، فأدخلوهم الى السراي عن طريق نفق تحت الارض بعد أن وضعوا عصابة على أعينهم . ولم يكد هيات يقع بصره على الرجلين حتى أصدر أمره بقتلهما حالا ، ولكنه استدرك على عجل فألغى أمر القتـــل والتفت نحو السيد محمد ، وكان يعرفه شخصياً ، سائلا اياه عن سبب مجيئه ؟ فأخذ السيد محمد يشكو اليه مما حل ببلدة الرميثة من نكبات ، وذكر له بوجه خاص حادثة الدار التي قُتل فيها عشرون شخصاً فيهـــم النساء والاطفال ، فأبدى هيات أسفه واعتذاره وقال انه لا يعلم بها ووعد بعدم تكرارها . وبعد حديث قصير قال هيات للسيد محمد : « اني ارغب أن تكون وسيطا بين الحكومة والعشائر لاجراء مفاوضات من أجل ايقاف

---

(21) Haldane (op. cit.) - P. 77.

القتال • فوافق السيد محمد على القيام بهذه الوساطة • وتم الاتفاق بينهما على أن يذهب السيد محمد الى رؤساء العشائر الثائرة فاذا وافقوا على ايقاف القتال ذهب هو بصـــحبة ضابطين بريطانيين الى الجنـــرال كوننغهام في الديوانية لعرض الامر عليه (٢٢) •

كان رتل الجنرال كوننغهام في ذلك الوقت في طريقه الى الرميثة قادما من الديوانية ، وفي ١٨ تموز كان معسكرا على الفـــرات على بعد ١٦ ميلا من الرميثة • وهناك وصل اليه السيد محمد السيد محمود يسعى للتوسط بين العشائر الثائرة والانكليز •

لدينا روايتان عما جرى في هذا الشأن ، احدهما من السيد محمد السيد محمود ، والثانية وردت في كتاب الجنرال هالدين • فالسيد محمـد يروي انه عند مقابلته للقائد كوننغهام قال له القائد انه مستعد للتفاوض مع العشائر وسمح له بالذهاب اليهم للتكلم معهم ، فذهب السيد محمد اليهم واجتمع بهم ، وكان من بينهم شعلان أبو الجون وغثيث الحرجان وساجت الثويني وعبدالعباس الفرهود وناصر الحسين ومطلق الجياد • وقد حضر الاجتماع كذلك السيد جعفر أبو طبيخ والسيد عبدالعزيز أبو طبيخ • وتم الاتفاق على أن يكتب الرؤساء عريضة يضمنونها مطاليبهم وهي جلاء القوات الانكليزية ومنح العراق الاستقلال • وحمل السيد محمد العريضة الى كوننغهام • ويقول السيد محمد : ان كوننغهام حين استمع الى فحوى العريضة من المترجم أخذها من يده ورمى بها الى الأرض وداسها بحذائه ، وقال للمترجم : « أخبر السيد محمد بأني لست مأمور استقلال وانما أنا مأمور حرب • واني سأطحنهم طحناً » ، ومسح احدى يديه بالاخرى • ثم أمر بابقاء السيد محمد في المعسكر • وفي اليوم التالي أرسله الى رؤساء العشائر ليخبرهم بأن الجيش لا يريد التعرض لهم بل هو يريد الوصول

---

(٢٢) عبدالشهيد الياسري (المصدر السابق) ـ ص ٣٣١ ـ ٣٣٤ •

الى الرميثة ، وسوف تجري المفاوضة معهم هنالك • وحين وصل السيد محمد الى الرؤساء وأبلغهم بما قال كوننغهام أجابوه : « اننا سنحاربه والموعد معه في العارضيات »[٢٣] •

اما هالدين فيروي الحادثة كما يلي :

« بدا لنا خلال وقت قصير كأن العشائر القريبة من الرميثة تسعى نحو الصلح ، وذلك من جراء التقدم الذي أحرزه رتل النجدة ، وقصف الطائرات ، ونشاط الحامية • ففي ١٧ تموز سمع معاون الحاكم السياسي الملازم هيات ان رؤساء العشائر يرغبون في الاجتماع به ، وقد حصل الاجتماع فعلا حيث حضره شعلان ورئيس آخر • وكان من الواضح أنهما كانا يرغبان في الصلح ، وقيل لهما ان كل من يقاوم القوات الزاحفة نحو الرميثة سوف يُسحق • فأدى ذلك الى الاتفاق مع الملازم هيات على أنه في حالة اتباعهما نصيحته سيزور الحاكم السياسي للواء ويبذل جهده لتخفيف عقوبتهما • وقد دل عمل هيات طول الوقت على الحكمة والشجاعة • وفي اليوم التالي ذهب هيات بصحبة حارس عربي الى الجنرال كوننغهام قائد الرتل ، فوافق القائد على مقابلة الرئيسين ان هما رغبا في ذلك ، ووعد بالمحافظة على سلامتهما • ولكن المقابلة لم يمكن تدبيرها مع الاسف ، وواصل الرتل سيره »[٢٤] •

ان هاتين الروايتين مختلفتان من بعض الوجوه ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نجد بعض أوجه التشابه بينهما • فمن طبيعة الرواة للحوادث ان كل واحد منهم يهمل بعض التفاصيل في روايته بينما هو يؤكد أو يبالغ في تفاصيل أخرى حسبما تملي عليه عواطفه أو ميوله اللاشعورية • ولكن

---

(٢٣) المصدر السابق ــ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٦ •

(24) Haldane (op. cit.) - P. 84.

الباحث المحايد يستطيع أن يستشف شيئاً من الحقيقة من خلال الروايات المختلفة •

معركة العارضيات الثانية :

تحرك رتل الجنرال كوننغهام من موقعه الذى كان فيه متجها نحو الرميثة ، يصحبه قطار طويل تسحبه ثلاث قاطرات وهو يحمل المؤون والعتاد والمواد الطبية • وكان سير الرتل على الجانب الايمن من نهر الفرات ، أي الجانب الغربي ، فوصل الى العارضيات في ١٩ تموز ، وهي تقع على بعد ستة أميال من الرميثة كما أسلفنا •

كانت العشائر قد أستعدت لمقاومة الرتل في العارضيات وقد بلغ عددهم نحو ٥٧٠٠ محارب ، وهم من بني زريج وألبوحسان وبني عارض والظوالم والاعاجيب[٢٥] • وقد ذهل الانكليز لما وجدوا في العشائر من استعدادات حربية متقنة • ويقول هالدين : ان هذه الاستعدادات لابد أن تكون من تدبير ضباط محترفين من بقايا الجيش العثماني ، ولا بد ان يكون هؤلاء موجودين بين العشائر يوجهونها[٢٦] • نسي هالدين ان العشائر تمارس الحروب منذ زمن بعيد ، وكثيرا ما أشتبكت في معارك ضارية مع القوات التركية ، وهي ليست اذن في حاجة الى من يعلمها فنون الحرب •

وفي الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، بدأ الرتل يطلق مدافعه على الثوار ، ثم تقدم المشاة ولكنهم منوا بخسائر من جراء النيران التي وُجهت اليهم من الجانب الايسر • وبعد ثلاث ساعات ونصف بدأ الهجوم من قبل فوجين ، أحدهما مؤلف من السيك ، والثاني

---

(٢٥) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٤٦٨ •
(26) Haldane (op. cit.) - P. 85.

من المهراتا ، ولكن الهجوم لم يؤثر في الثوار شيئاً لانهم صمدوا في مواقعهم[٢٧] .

وبعد نصف ساعة من بدء الهجوم وصلت الى الرتل نجدة مؤلفة من الكركة كان هالدين قد ارسلها على عجل من الفرات الاعلى ، وهي بقيادة الكولونيل سكوت ، وكان وصول هذه النجدة في وقت مناسب جدا بالنسبة للرتل أنقذه من وضع حرج . وقد صدرت الاوامر الى الكولونيل سكوت أن يزحزح الثوار من ضفة النهر ويعبر الى الضفة الاخرى .

حل الليل دون ان يتمكن الرتل من كسب أي نصر ، واشتد القلق بالقائد كوننهام لنفاد الماء والعتاد لديه وكثرة الجرحى ، فأبرق الى الديوانية يطلب منها قطارا محملا بالماء والعتاد والمواد الطبية . فوصل القطار في اليوم التالي .

وفي فجر اليوم الذى تلاه ـ أي ٢٠ تموز ـ عبرت ثلاث فصائل من الكركة نهر الفرات الى الجهة اليسرى منه تحت حماية الرشاشات والمدافع. يقول السيد محسن ابو طبيخ في مذكراته : ان هذا العبور هدد العشائر بالالتفاف من ورائها مما اضطرها الى الانسحاب من مواقعها تحت جنح الظلام . أما فريق المزهر الفرعون فيعزو انسحاب العشائر الى سببين : أولهما نفاد عتادهم وكثرة قتلاهم وجرحاهم ، والثاني انهم رأوا من التدبير الحربي أن يفسحوا المجال للرتل لكي يصل الى الرميثة ثم يقطعون عليه بعدئذ خط الرجعة[٢٨] .

في الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر ٢٠ تموز دخلت الخيالة الانكليزية بلدة الرميثة . ثم دخل الرتل اليها بعد ذلك ، ولكنه

---

(27) Ibid - P. 86.

(٢٨) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٤٧٠ .

لم يمكث فيها سوى مدة قصيرة • ففي الساعة الخامسة والنصف من صباح ٢٢ تموز غادر الرتل الرميثة متجها نحو الديوانية • وكانت الحامية قد أخلت الرميثة في اليوم السابق • وقد أغارت العشائر على الرتل في الطريق ولكنها لم تنجح في غاراتها الا قليلا •

يقول هالدين : ان النصر الذي ناله كونتفهام في العارضيات أزاح عن نفسي حملا ثقيلا ، وان الهزيمة التي حلت بالثوار هنالك وقد بلغ عددهم خمسة وثلاثين ألفاً أعطتنا مهلة للتنفس كما دعمت موقف الشيوخ الذين كانوا يحاولون ضبط عشائرهم الثائرة • ويقول هالدين في تعليل اخلاء الرميثة : ان الاحتفاظ بهذه البلدة يحتاج الى قوة كبيرة مع العلم ان القوات المتوفرة لدى القيادة العامة حينذاك كانت قليلة ، ولهذا كان من الضروري سحب القوات البعيدة عن العاصمة الى مقربة منها لكي يكون في الامكان ادارتها بأمن وطمأنينة[٢٩] •

بلغت خسائر الثوار حسب رواية الثوار انفسهم خمسمائة قتيل • أما خسائر الانكليز حسب رواية الثوار فقد كانت اكثر من ثلاثة آلاف بينهم ستون ضابطا[٣٠] • أما هالدين فيقدر خسائر الانكليز بـ ٣٥ قتيلا بينهم ثلاثة ضباط بريطانيين ، و ١٥٢ جريحا بينهم ضابطان بريطانيان[٣١] •

موقف الشيرازي :

مما يجدر ذكره ان عشائر الرميثة ظلت تقاتل الانكليز وحدها نحو اسبوعين دون ان تسرع الى نجدتها أو تخفيف الضغط عنها أية عشيرة أخرى من عشائر الفرات الاوسط •وقدكان ذلك مثار ألمشديد للشيرازي في كربلاء وللمجتهدين الآخرين في النجف •

---

(29) Haldane (op. cit.) - P. 88 - 89.

(٣٠) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) — ص ٤٧١ •

(31) Haldane (op. cit.) - 87 - 88.

يقال ان الشيرازي عندما بلغته كثرة الجنائز المنقولة من الرميثة الى النجف أخذ يعلن تذمره من تقاعس العشائر الاخرى عن نجدة عشائر الرميثة ، وقد قال ذات مرة أمام بعض الرؤساء الذين زاروه في ذلك الحين : « ان مثلكم مثل جماعة وقفوا على الساحل ، فألقى أحدهم بنفسه في اليم أفلا يجب على أصحابه إلقاء أنفسهم معه لاخراجه وانقاذه ؟ ... يجب انقاذ الغريق قبل ان يبتلعه اليم . وبما ان الذين تصادموا مع القوة غرقوا فيلزم انقاذهم أو تغرقوا معهم »(٣٢) .

قرر الشيرازي بعد مشاورة أصحابه أن يرسل وفدا عنه الى ويلسون في بغداد لمفاوضته في أمر ايقاف القتال حقناً للدماء . وقد اختار لهذا الغرض رجلين هما السيد هبةالدين الشهرستاني والمرزا أحمد الخراساني، وأرسل معهما رسالة الى ويلسون يعرض فيها بعض الشروط من أجل ايقاف القتال عند حده قبل أن تنضم العشائر الاخرى اليه ، وهي : سحب القوات الانكليزية من منطقة القتال واعلان العفو العام واعادة المنفيين . فذهب الرجلان الى بغداد وهما يحملان رسالة الشيرازي ، واتصلا بالقنصل الايراني العام ليكون وسيطا لهما عند ويلسون ومترجما . وقد اهتم القنصل بالامر وذهب الى ويلسون طالبا منه تعيين موعد لمقابلة الرجلين المرسلين من قبل الشيرازي . غير ان ويلسون رفض مقابلتهما وقال للقنصل : اني لا أصدق برسالة الشيرازي لانه هو الذي بذر هذه البذرة وهذا يوم حصادها ، كما اني لا أوافق على اطلاق سراح ابنه . فعاد الرجلان الى كربلاء خائبين(٣٣) .

---

(٣٢) عبدالشهيد الياسري (المصدر السابق) ــ ص ١٩٣

(٣٣) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٣٤٧ .
وعبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ــ ص ١٢٠ .

المشهور عن الشيرازي أن له فتوى أجاز بها الثورة المسلحة تسمى بـ « الفتوى الدفاعية » ، وهذا نصها : « مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والامن ، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية اذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبيهم » •

مما يلفت النظر في هذه الفتوى انها غير مؤرخة على الرغم من أهميتها ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، فمنهم من يقول انها صدرت قبل نفي ابن الشيرازي الذى جرى في ٢٢ حزيران ١٩٢٠[٣٤] ، ومنهم من يقول انها صدرت بعد نفيه[٣٥] ، وهناك قول ثالث هو انها صدرت على أثر اندلاع الثورة في الرميثة في ٣٠ حزيران[٣٦] ، وقول رابع هو أنها صدرت في ٢٩ تموز[٣٧] ، وتشير بعض المصادر البريطانية الى أنها صدرت في ٦ آب[٣٨] •

يرجح في ظني ان الشيرازي أصدر فتواه بعدما اشتدت المعارك في الرميثة وفشلت محاولته في المفاوضة مع ويلسون • فقد أدرك حينذاك ان الافتاء بالثورة المسلحة ضروري لتشجيع العشائر على مساعدة عشائر الرميثة في القتال •

عثرت في كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي ـ الذي كان حينذاك بمثابة الكاتب للشيرازي ـ ما يلقي شيئاً من الضوء على هذا الموضوع • وهذا نص ما قاله الخالصي :

« ••• وكانت ترد كتب رؤساء القبائل الى آية الله الشيرازي فكان

---

(٣٤) عبدالله الفياض (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٦ •
(٣٥) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ص ١٠٦ •
(٣٦) علي البازركان (المصدر السابق) ـ ص ١٤٠ •
(٣٧) مصطفى أسد خان (سيرة آل اسد خان) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ٧٧ •
(٣٨) فيليب آيرلاند (العراق) ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ص ٢٠٨ •

مواضبا على اتخاذ خطة السلم واخماد نار الفتنة في أجوبته ، حتى أن بعض رؤساء القبائل كتب اليه بعد القبض على ولده : ان اعمال الانكليز في القبض على ولدك قد بلغت الغاية من القسوة والظلم وهتك الحرمات فمرنا أن ندافع عن أنفسنا بالسلاح • فأرسل لي الكتاب وأمرني أن اكتب في جوابه ما ملخصه : ان ابني ومن معه أبعدوا في سبيل القضية العراقية ، فلا ينسيكم ابعادهم قضيتكم ، ولا تشتغلوا بطلب عودتهم عن المطالبة بحقوقكم ، ولا تجعلوا القبض عليهم سببا لحمل السلاح ، فتلهيكم القضايا الشخصية عن المطالب العامة ، واياكم ان تجردوا سيفا ولو رأيتموني بيد الانكليز الا أن يسوق الانكليز جيشا لمحاربتكم بسبب اصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب ، فهناك يجب الدفاع ، ولا تذكروا في دفاعكم الا القضية العراقية والاستقلال الناجز التام • فكتبت هذا بأمره وما زلت أكتب في أجوبة المكاتيب التي ترد من رؤساء القبائل ما يقرب من هذا ، فيوقعه ويأمرنا بارساله ، الى ان وردت عدة كتب من عدة من رؤساء القبائل يخبرون فيها بأن الانكليز ساقوا جيشا للقبض عليهم وتواروا هم عن الجيش والامر دائر بين الاستسلام للانكليز او الحرب • فأمرني أن أكتب ما ملخصه : اني قد فديت استقلال العراق بولدي ومن عزّ علي وأنا مستعد بأن افديه بنفسي وهي قصارى ما أملك ، أما انتم فان أصر الانكليز على غصبكم حقكم وقابلوا التماسكم بالحرب فيجب عليكم الدفاع بجميع قواكم ويحرم الرضوخ لهم والاستسلام • ولما وصلت كتبه هذه الى رؤساء القبائل صادفت ورود جيوش الانكليز الى الكوفة والحلة والهندية للتنكيل بالقبائل التي كانت تطالب الانكليز بعهودهم ووعودهم في استقلال العراق ، فالتحمت تلك القوى بالقبائل ، وانتشرت كتب آية الله الشيرازي ، ونشبت لظى الحرب بين الفريقين ووقع ما كنا نحذر ... »[٣٩]

---

(٣٩) نقلا عن كتاب « بطل الاسلام » المخطوط •

محاولة الاصفهاني :

قام الشيخ فتح الله الاصفهاني في النجف بمحاولة آخرى للتوسط لايقاف القتال . ففي ٨ تموز كتب الاصفهاني رسالتين احداهما موجهة الى العشائر يطلب منهم ايقاف القتال وترك محاربة الحكومة ، والثانية موجهة الى ويلسون يطلب منه اعادة المنفيين واستعمال اللين مع العشائر الثائرة . وفيما يلي نص الرسالة الاولى :

بسم الله الرحمن الرحـــيم

السلام على اخواننا المؤمنين ورؤساء العشائر وزعماء القبائل ورحمة الله وبركاته .

أبدي لكم أنه بعد ما بلغنا خبر بعض المشاغبات وبعض المضادات مع الحكومة رأيناه على خلاف المصلحـة الحاضرة فاشتغلنا بمذاكرة الحكومة على التأمين التام حتى على من عُلم منه بعض التشويشات وعلى ارجاع المنفيين وعلى اصلاح ذات البين ونرجو التوفيق في ذلك . الا ان اللازم فعلا السكون وترك مضادة الحكومة وسلوك الطريق السلمية والاقتصار على مطالبة الحقوق الشرعية من غير ثورة ولا فتنة حتى نقدر على استدعاء المواد السابقة الذكر من الحكومة . واياكم ان تقابلوا الحكومة بقول أو فعل ينافي مطلوبنا ومطلوبكم وأرجو من جميعكم عدم الخروج عن هـذه الخطة انشاء الله .

٢١ شوال ١٣٣٨   شيخ الشريعة الاصفهاني[٤٠]

أما الرسالة الثانية الموجهة الى ويلسون فهي طويلة لايسع المجـــال نقلها بكاملها ، بل نكتفي بنقل جزء منها كما يلي :

---

(٤٠) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ١١٧ .

عن النجف الاشرف

٢١ شوال سنة ١٣٣٨ الموافق ٨ تموز ١٩٢٠

حضرة صاحب الفخامة قام مقام الحاكم الملكي العام في العراق دامت معدلته ٠

أخذنا كتابكم المؤرخ ٢ يوليو سنة ١٩٢٠ وفهمنا مقاصدكم وما يريده القائد العام لجيوش الاحتلال ٠ وقد أظهرت لكم سابقا ما يجب في لزوم اتخاذ التدابير السلمية وارجاع المنفيين واظهار الشفقة على سواد الناس من الحاضر والبادي قبل تفاقم الامر وقبل أن ينجر الى ما يخرج علاجه من مقدرتنا ٠٠٠ وفي هذه المدة الطويلة قد عرفتم مسلكي : اني أطلب دائما راحة العباد وتأمين البلاد والروابط الودية بين الحكومة المعظمة والامة العراقية ٠ والذي أقوله صداقة للحكومة وأراه طريقا وحيدا في تسكين التشويشات وحفظ الامن العام واعادة الاحوال الى سابقها أن تساعدونا وتقبلوا شفاعتنا في اطلاق سراح المنفيين واستعمال المودة مع المتظاهرين الذين نسبت اليهم التشويشات - يقصد الثائرين - لكي يسعنا التسكين ومكاتبة الجميع بالانقياد والطاعة وموافاة الحكومة متى أرادت مواجهتهم ، فاذا رأوا من الحكومة احترام الحقوق الامية ومعاملة العراقيين معاملة مودة وشفقة صار لنا كل الامل بقدرتنا على اعادة الاحوال الى سابقها وتسكين الناس من الهياج والله المستعان ٠

شيخ الشريعة(٤١)

لم تؤد جهود الاصفهاني الى نتيجة ٠ فقد امتنع ويلسون عن الاجابة على رسالته كما أن العشائر الثائرة لم تتوقف عن القتال ٠ وسارت ماكنة الزمن في سيلها لا تلوي على شيء !

---

(٤١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ١١٢ - ١١٣ ٠

الفصل الخامس عشر

محـــــاولات ومــــكايدات

أشرنا في الفصل الماضي الى أن عشائر الرميثة ظلت تقاتل الانكليز وحدها زهاء اسبوعين دون أن تسرع الى نجدتها أية عشيرة أخرى من عشائر الفرات الاوسط • ويمكن أن نعزو سبب ذلك الى ما كان بـين عشائر الفرات الاوسط من عداوات قديمة وأحقاد وثارات ، فكانت كل عشيرة تخشى أن تشارك في الثورة فينتهز خصومها الفرصة ويتآمروا مع الانكليز للانتقام منها • وكان الحكام الانكليز يدركون ذلك فأخـــذوا يستغلونه بشتى الوسائل ، وبذلوا فيه الاموال الطائلة •

يقول ويلسون في مذكراته : « كانت المشكلة هي في ابقاء بني حسن منعزلين عن عشيرة آل فتلة المناوئة لنا ، وفي العمل على جعل الخزاعل محايدين هم وحلفاؤهم آل شبل • وقد تحقق الهدف الثاني عن طريق اجتماع عقد في أم البعرور في ٦ تموز حضره الميجر نوربري والكابتن مان وثلاثة من شيوخ الخزاعل ، حيث تعهـد هؤلاء الشيوخ الثلاثة بالوقوف الى جانب الانكليز مقابل وعدهم بالحصول على الاراضي التي أُعطيت الى آل فتلة ظلما في أيام الاتراك »(١) •

دور الكابتن مان :

لعب معاون الحاكم السياسي في أم البعرور الكابتن مان دورا بالغ الاهمية في التفريق بين العشائر وفي عرقلة انتشار الدعوة الثورية فيها • يصف محمد علي كمال الدين هذا الحاكم بما نصه : « كـــان حـــاكم الشامية(٢) الكابتن مين يمثل الاستعمار الانكليزي خير تمثيل بما يحمل

---

(1) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 296.

(٢) ان البلدة التي تسمى اليوم بـ « الشامية » كانت يومذاك تسمى « أم البعرور » ، بينما كان اسم « الشامية » يطلق على المنطقـــة كلهـــا •

من صفات الثعلب الماكر الذى يجيد الخداع والمراوغة ، ويلبس لكل حالة لبوسها . وها نحن نستعرض تلك الاعمال العجيبة التى قام بها في المنطقة ومحاولاته اليائسة لضرب القبائل بعضها بالبعض الآخر . فكان يذهب تارة الى الخزاعل وأخرى الى اراضي مرزوق العواد ، وطورا الى هور الدخن ، حيث يحرض الشيخ خادم الغازي على القيام ضد الشيخ علوان الحاج سعدون الرئيس العمومي لقبائل بني حسن ، وكاد يفوز بمهمته لما بذله من الاموال الطائلة . وقد تمكن بمسعاه من ايقاف قبائل الشامية عن اعلان الثورة ... فكان على اتصال تام بالشيخ مرزوق العواد ، ويراجعه بصورة دائمة ، ولكن الشيخ مرزوق كان يذهب كل ليلة الى الشيخ علوان الحاج سعدون بصورة سرية ويطلعه على تحركات هذا الحاكم وأعماله ، فمثل دور الوسيط بين الطرفين ، ولولا دهاء الشيخ علوان وعظيم نفوذه على الشيخ مرزوق لكان من الجائز ان يتمكن هذا الحاكم الداهية في أقل الفروض من اقناعه على التزام جانب الحياد ... »[٣] .

ويعطينا الميجر نوربرى في تقرير له وصفا آخر للكابتن مان من وجهة النظر البريطانية ، فهو يمدحه كل المدح لما أبداه من براعة في حكم منطقته وفي توثيق علاقاته مع شيوخها . ويذكر نوربرى في تقريره من اولئك الشيوخ بوجه خاص رؤساء الخزاعل سلمان الظاهر وسلمان العبطان ومحمد العبطان ، وهو يقول عن عشيرة الخزاعل بأنها فقدت مكانتها في العهد التركي ، وان ويلسون وافق على اعادتها الى مكانتها القديمة عندما تسنح الفرصة . ويذكر نوربري أيضا مرزوق العواد رئيس العوابد ويصفه بالشجاعة وبالمزاج الحاد ويقول ان صداقته مع الكابتن مان لاتقدر بثمن فقد حماه في وقت الخطر وساعده مساعدة كبيرة . وكذلك يذكر

---

(٣) محمد علي كمال الدين (معلومات ومشاهدات) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

نوربري الحاج حمود والحاج جاسم من رؤساء الحميدات ، ويشير الى الصلات الوثيقة التي كانت قائمة بينهما وبين الكابتن مان • ويقول نوربري: ان الثورة عندما اندلعت في الرميثة أخذت عدواها تسرب الى منطقة ام البعرور وعند هذا صار الكابتن مان يبذل جهود الابطال لمنع تسرب الثورة الى المنطقة ، فكان يتجول بين العشائر ليلا ونهارا ، لايهدأ ولا يستريح ولا يبالي بالخطر المحدق به ، وكان صديقه مرزوق العواد يرافقه في جولاته ، وكانا في أول الامر يتجولان بلا حماية ثم جاء له مرزوق أخيرا بحراس مسلحين من عشيرته لحمايته(٤) •

اجتماع فاشل :

كان الميجر نوربري قد طلب من بعض الرؤساء الاجتماع بهم في موضع يختارونه للنظر في مطاليبهم ، فاختاروا مضيف مرزوق العواد القريب من أم البعرور • وقد حصل الاجتماع فيه في ٥ تموز ، وحضره من الرؤساء عبدالواحد الحاج سكر وعلوان الياسري ونور الياسري ومحسن ابو طبيخ وعلوان الحاج سعدون ورايح العطية وسلمان الظاهر وسلمان العبطان ومحمد العبطان وعبادي الحسين وشعلان الجبر وهنين الحنون ومجبل الفرعون وفريق المزهر الفرعون • كما حضره من الجانب البريطاني الكابتن مان وحده ، وقد اعتذر عن غياب نوربرى وقال انه جاء لحضور الاجتماع بالنيابة عنه •

لوحظ ان رؤساء آل فتلة كان معهم عند قدومهم الى الاجتماع نحو مائتي مسلح من اتباعهم ، كما ان الكابتن مان كان معه ما بين أربعين وخمسين مسلحا من الشبانة والشرطة • ويشير مصدر بريطاني الى ان النية كانت متجهة الى اعتقال عبدالواحد وعلوان الياسري غير أن وجود الاتباع المسلحين

---

(4) MANN (Administrator In The Making) - London 1921 - P. 312 - 318.

منع من اعتقالهما[٥] • ويروي محمد علي كمال الدين ان الرؤساء كانوا على علم بتلك النية وان الذى أخبرهم عنها أحد الموظفين الذين كانوا مستخدمين لدى الانكليز وأحد وجهاء الشامية[٦] •

اختلفت الروايات حول ماجرى من نقاش بين الكابتن مان والرؤساء الحاضرين • ففريق المزهر الفرعون الذى كان من جملة الحاضرين يروي ان مان قال لهم : « أمـا تخافون من حكومة بريطانيا ، بريطانيا التي أخافت العالم كله وانتم تريدون الاستقلال بوقت لايساوي فيه عددكم واحدا من ألف من عدد أهالي هندستان » • فرد عليه عبدالواحد قائلا : نعم ان العراق قليل بسكانه ولكنه كثير بعزائم أهله وقوة بأس زعمائه وأحقية مطالبيه ، فالعرب ليسوا كالهنود ، وان العربي أبي الضيم اذا اعتدي عليه أصبح شعاره أما الموت أو استعادة حقه المغصوب ••• فنحن لا نخاف من بريطانيا وان قوتنا أعظم من قوتها الا وهي قوة الايمان بالله •••[٧] •

ولكن هذه الرواية التى رواها فريق المزهر الفرعون لم يؤيدها بعض الذين حضروا الاجتماع واعتبروها من الاحاديث الملفقة ، وقالوا ان الذى تكلم في الاجتماع هو السيد علوان الياسري وليس عبدالواحد الحاج سكر[٨] •

أما الكابتن مان فهو يروي عن هذا الاجتماع حديثا واحدا هو أن السيد علوان الياسري خاطبه في اثناء الاجتماع قائلا : نحن عشنا قبل هذا مئات السنين في وضع بعيد جدا عن الاستقلال ولكنكم جئتم الينا أخيرا

---

(5) Ibid, P. 292.

(٦) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ـ ص ١٠٢ •

(٧) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٢٠٠ •

(٨) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٥٢ •

فأعطيتمونا وعودا بالاستقلال • فأنتم عرضتم علينا فكرة الاستقلال في وقت نحن لم نطلبه منكم ، ولم نكن نحلم به حتى جئتم فوضعتم الفكرة في رؤوسنا والآن في كل مرة نطالبكم بالاستقلال تسجنوننا(٩) •

وعلى أي حال فقد قدم الرؤساء أخيرا مطاليبهم الى مان حيث قالوا له حسب رواية فريق المزهر الفرعون : انهم تلبية لاوامر المجتهدين وعلى رأسهم آية الله الشيرازي يحرصون على محافظة الامن والنظام ولايرغبون في سفك قطرة واحدة من الدم الا اذا ارغموا على ذلك ، فاذا كانت الحكومة ترغب في السلم مثلنا فلتحقق هذه المطاليب ، وهي : (١) منح العراق الاستقلال التام ، (٢) ايقاف القتال في الرميثة حالا ، (٣) جلاء الحكام البريطانيين عن الفرات والبدء بالمفاوضات بين الحكومة وزعماء العراق في جو هادىء ، (٤) اطلاق سراح ابن الشيرازي وجميع الاحرار المسجونين والمنفيين بلا استثناء وبدون قيد أو شرط •

وحين تسلم الكابتن هذه المطاليب قال عن الاول والثاني منها انهما معقولان نوعا ما ، أما الثالث والرابع فهما غير معقولين ، ومع ذلك فهو سوف يعرض المطاليب على الميجر نوربرى • ثم طلب منهم الذهاب معه الى النجف أو الكوفة لمقابلة نوربري ، فرفضوا الذهاب خوفا من الاعتقال وطلبوا أن يأتي نوربري نفسه اليهم • وانتهى الاجتماع أخيرا من غير اتفاق على رأي معين(١٠) •

وعندما أوشك الاجتماع على الانتهاء حدث حادث يلفت النظر ، هو ان الكابتن مان مد رجليه أمام الحاضرين فزجره السيد علوان قائلا له : « تأدب واعرف من هم الجالسون امامك » فجمع مان رجليه ولم يقل شيئاً • ويقال ان السيد علوان انما فعل ذلك لانه علم بان الكابتن كان قد وزع مبالغ

---

(9) MANN (op. cit.) - P. 292.

(١٠) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ •

كبيرة على بعض الشيوخ قبل حضورهم ، فاراد احباط مقصده عن طريق زجره واهانته[11] .

ومن الطريف أن نذكر : ان الكابتن مان عندما خرج من الاجتماع تلقاه الجمهور الذي كان واقفا عند باب المضيف وهوّس في وجهه قائلا : « بس لايتعلگك بأمريكا »[12] .

اعلان الثورة في المشخاب :

استقر رأي السيد علوان الياسري وعبدالواحد الحاج سكر وأصحابهما على أن يعلنوا الثورة من جانبهم لكي يضعوا العشائر الاخرى أمام الامر الواقع فتضطر هي الى اعلان الثورة تحت ضغط الرأي العام . واتفقوا فيما بينهم على ان يجمعوا مبالغ من المال لتوزيعها على العشائر المترددة ردا على ماكان يبذله الكابتن مان في هذا السبيل ، فتبرع كل من عبدالواحد الحاج سكر ونور الياسري ومحسن ابو طبيخ بستمائة ليرة ذهب ، وتبرع عبادي الحسين بثلاثمائة ، كما تبرع علوان الياسري ومجبل الفرعون بمبلغين آخرين .

يقول ويلسون في مذكراته : ان آل فتلة قدموا الى علوان الحاج سعدون رئيس بني حسن رشوة قدرها ألف ليرة[13] . فان صح ذلك فلابد ان تكون هذه « الرشوة » جزءا من المبلغ الذى جمعوه .

وفي ١١ تموز ١٩٢٠ اجتمع رؤساء المشخاب في مضيف عبدالواحد الحاج سكر وقرروا البدء باعلان الثورة على أن تكون أول راية ترفع للثورة راية السيد نور ، وذلك لما فيها من تأثير معنوي في أوساط العشائر . وفي اليوم التالي رُفعت الراية وانطلقت الهوسات ولعلعة الرصاص تملأ

---

(١١) حدثني بذلك عبدالحميد ابن السيد علوان الياسري .
(١٢) فراتي (المصدر السابق) ـ ص ٥٢ .
(13) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 296.

الفضاء في أنحاء المشخاب ، وتقدمت جموع العشائر نحو أبو صخير لمحاصرتها .

بدأ حصار أبو صخير في ١٣ تموز ، واشتركت فيه عشائر آل فتلة والغزالات وآل شبل وآل ابراهيم . وفي اليوم التالي أرسل نوربري الى حامية أبو صخير زورقا بخاريا يحمل عددا من الجنود وبعض مواد التموين، وكانت الباخرة الحربية « فاير فلاي » تسير وراء الزورق لحمايته ، فحاولت العشائر الاستيلاء عليه ، وجرى تبادل شديد بالنيران بين الباخرة والعشائر أدى الى اصابة عدد كبير منهم . وقد وصف فريق المزهر الفرعون المعركة بقوله : « وكان أول انتصار في المشخاب أحرزه المجاهدون لنصرة دين الله وعز المسلمين هو انتصارهم على هذه الباخرة الحربية حيث هجموا عليها هجمة فراتية عربية واحدة ، فاضطرت الى الانسحاب خائفة منكسرة الى الكوفة بتاريخ ٢٥ او ٢٦ شوال حسبما أتخطر ، بعدما خسرت ٢٢ قتيلا ، وقد استشهد في هذه الموقعة ٢٢ شهيدا بارا من الغزالات و١١ شهيدا بارا من آل ابراهيم وجرح ٢٤ باسلا مجاهدا »[(١٤)] .

بدء الثورة في الشامية :

كان الميجر نوربري قد طار الى بغداد في ١٠ تموز بغية الحصول على بعض الامدادات لقواته . وقد ألح الحاحا شديدا في طلب الامدادات ، وأيده ويلسون في ذلك ، ولكن هالدين لم يلب طلبه لقلة القوات المتوافرة لديه . وعاد نوربري الى مقره في الكوفة خائبا .

أرسل نوربري الى رؤساء بني حسن يطلب أن يجتمع بهم في ١٣ تموز في موضع يقع في جنوب أبو شورة[(١٥)] . وفي الوقت المحدد ذهب نوربري الى الموعد وفي صحبته الكابتن أوكونر والكابتن مان ومرزوق

(١٤) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٤ .
(١٥) ان ابو شوره تعرف الآن باسم « العباسية » .

العواد . وكانت الثورة قد أعلنت في المشخاب في ذلك اليوم كما ذكرنا ، ولاحظ مرزوق العواد ان الوضع حوله لايدعو الى الطمأنينة وان هنـــاك تجمعات عشائرية قريبة تنذر بالخطر ، فهمس في اذن الكابتن مان ينصحه بان يغادر نوربري وأوكونر المكان على عجل . فنقل مان النصيحة الـــى صاحبيه ، فأسرع هذان الى ركوب زورقهما البخاري وسار بهما الزورق الى أبو شورة ، وحين وصلا اليها وجدا كيسين من النقود في كل واحد منهما ألف باون ذهب ، وكان هذا المبلغ قد جاء به أفراد من الشرطة لغرض اعطائه الى آل شبل عن طريق الخزاعل . فشعر نوربرى أن الوضع لايسمح بتسليم المبلغ الى الخزاعل فأرسله في الزورق البخاري الى مان بحراسـة الشرطة ، وركب هو وصاحبه أوكونر في سيارة ، واتجها بسرعة نحـــو الكوفة ، وكانت يد كل منهما على مسدسه تحسبا للطوارىء[١٦] .

أرسل عبادي الحسين رئيس آل فتلة في المهناوية الى عبدالواحـــد والسيد علوان الياسري يخبرهما ان الكابتن مان تمكن من تثبيط عزائم بعض العشائر بالاموال التي بذلها ، فأسرع هذان الى دار مرزوق العواد بغيـــة الاجتماع به ، فلم يجداه في داره ، وقيل لهما انه في أم البعرور ، فكتبا اليه يطلبان حضوره ، فلم يحضر .

عُقد اجتماع في التاجية التى تقع على بعد اربعة اميال من جنوب أم البعرور حضره عبدالواحد وعلوان الياسري ومعظم رؤساء الشامية . وبعد المداولة قرر الحاضرون اخراج الكابتن مان من أم البعرور طوعا أو كرها. فعارض رؤساء الخزاعل هذا القرار وقالوا انهم لا يوافقون على ذلك مهما كلفهم الامر . وعند هذا نهض خادم الغازي من رؤساء بني حسن فأعلن بجرأة قائلا : « اننا تعاهدنا وتحالفنا أمام آية الله الشيرازي وفى مرقد الامام

---

(16) Mann (op. cit.) - P. 293 - 294 ' 316.

الحسين عليه السلام أن نبذل كل ما في وسعنا في سبيل قضية بلادنا وأن يكاتف بعضنا البعض ويشد بعضنا أزر الآخر ، وأن لايخون أحدنا رفيقه ، وبما أني أرى هذه أول بادرة بدرت للخيانة من بعضنا فاذا غضينا النظر عنها فمعنى ذلك القضاء على قضيتنا أولا ، وعلى نفوسنا وأموالنا وعشـائرنا والعروبة ثانيا . فعليه ان الكابتن مين يجب أن يخرج من الشامية من رضاه أو بالقوة ، وأنا أول واحد يحاربه منذ الساعة ان لم يخرج »[١٧] .

وعلى أثر انتهاء الاجتماع أسرع خادم الغازي مع نفر من أتباعه الى أبو شورة ، فاستولى على مخفرها ونهب مافيه بعد أن جرد حراسه من اسلحتهم. وكانت تلك أول بادرة جدية للثورة في منطقة الشامية شجعت الآخرين على الاقتداء بها .

جهود مان الاخيرة :

أرسل نوربرى الى الكابتن مان يطلب منه الانسحاب من أم البعرور والمجيء الى الكوفة خوفا على حياته ، ولكن مان أصر على البقـاء في أم البعرور اعتقادا منه أن بقاءه قد يساعد على منع الثورة من الانتشار في تلك المنطقة . أبرق نوربري الى ويلسون يطلب منه أصدار الامـر الى مان بالانسحاب من أم البعرور ، فعاد الجواب من ويلسون قائلا : ان القائد العام يرغب في بقاء مان في أم البعرور بالرغم من وجود الخطر على حياته لان لبقائه تأثيرا قويا في المنطقة[١٨] .

ظل مان يواصل جهوده بالتعاون مع أصدقائه الشيوخ في مقاومـة انتشار الثورة الى منطقته ، وعندما أخفق في ذلك عمد أخيرا الى القيام بعمل من أجل انقاذ حامية أبو صخير التي كانت محاصرة من قبل الثوار ، يقول نوربرى في هذا الصدد مانصه :

---

(١٧) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .
(18) MANN (op. cit.) - P. 816.

« نأتي الآن الى آخر عمل عظيم قام به مان في حياته • ففي ١٦ تموز كان موظفو أبو صخير وحاميتها قد مضى عليهم ثلاثة أيام وهم في حالة حصار ، وقد نفدت مؤونتهم • واتضح لي بعدئذ أنهم فقدوا الامل بالنجاة وأيقنوا أن ليست هناك فرصة لهم لاختراق الحصار والوصول الى الكوفة • وفي الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم ، بينما كنت جالسا في الكوفة أجتر همومي تعيسا حول هذا المصير القاتم ، سمعت صوتا مألوفا لي من ضفة النهر الاخرى ، هو صوت مان • فعبرت النهر اليه بزورق بخاري (لاننا كنا قد قطعنا الجسر آنذاك) ، وقد فرحت كثيراً حينما رأيت مان مصحوبا بمرزوق العواد • وأخبرني مان أنه جاء ببعض الشروط لعقد هدنة • فبأية طاقة وبراعة استطاع مان أن يصل الى هذه النتيجة ؟ لست أدري ! يكفي أن أقول أن العرب وافقوا على ايقاف القتال لمدة أربعة ايام بشرطين : أولهما رفع بعض المطاليب لعقد الصلح الى الحاكم العام ، والثاني سحب حامية أبو صخير الى الكوفة » •

ويعلق نوربري على هذه النتيجة قائلا : انها في الواقع معجزة واضحة ، فان حامية الرميثة قد مضى عليها ثلاثة أسابيع وهي محاصرة ، وتعاني القوات الانكليزية أشد العناء لفك الحصار عنها ، ومازال أمامها أربعة ايام لكي تنجز ذلك • بينما أمكن عن طريق الدبلوماسية انقاذ حامية أبو صخير التي كنت قبل ساعات قليلة قد فقدت الامل في انقاذها • ان هذا اكثر مما يمكن تصديقه ![19]

مؤتمر الكوفة :

حصل اتفاق بين نوربري والثوار أن تجري المفاوضات لعقد الهدنة بحضور مندوبين من علماء النجف• وذهب نوربري مع رايح العطية الى النجف لاحضار مندوبي العلماء • ولما وصلا الى مدخل النجف توقف

---

(19) Ibid - P. 816 - 817.

نوربري في محطة الترامواي بينما واصل رايح العطية سيره الى بيت الشيخ فتح الله الاصفهاني • وعندما عرض رايح العطية الامر على الاصفهاني وافق هذا على ما اتفق عليه ، واختار الشيخ عبدالكريم الجزائري والشيخ جواد الجواهري ليكونا مندوبين عنه في المفاوضات •

وصل الجزائري والجواهري الى الكوفة في ظهر ١٧ تموز ، فالتقيا هناك بنوربري وكان معه الكابتن مان وحميد خان • ثم انتقلوا جميعا الى الجانب الآخر من النهر حيث اجتمعوا مع رؤساء العشائر وجرت المفاوضات التي انتهت بعقد الهدنة •

ذكر نوربري في تقريره ماجرى في المفاوضات باقتضاب ، ويبدو مما ذكره ان رؤساء العشائر لم يكونوا متحدين في الرأي اثناء المفاوضات ، فكان فريق منهم ميالا للانكليز بينما كان الفريق الآخر على الضد من ذلك• ويقول نوربري عن نتيجة المفاوضات : ان اصدقاء مان هم الذين انتصروا فيها ، وان المتطرفين اندحروا • ثم يذكر نوربري بعد هذا.ان من جملة الشروط التى فرضها عليه الرؤساء لقاء ضمان سلامة حامية أبو صخير هو أن يبقى مان في الكوفة فلا يعود الى مقره في أم البعرور...(٢٠) •

لدينا رواية تفصيلية عن ماجريات المفاوضات التى جرت في الكوفة رواها محمدعلي كمالالدين في كتابه ، وهو يدعي انه نقلها عن الشيخ باقر الشبيبي الذى كان حاضرا وقد سجل محضر المفاوضات بنفسه • فهو يقول : ان الجزائري والجواهرى عند بداية وصولهما الى الكوفة قال لهما الميجر نوربري ان الكابتن مان سيشرح لهما الموضوع ، وعند هذا جرت محاورة على النحو التالي :

مان : « عندما كنت في الشامية وعدت الزعماء بالتوسط لدى الميجر

---

(20) Ibid - P. 817 - 818.

بعقد هدنة ، وقد وافق الميجر على ان تكون مدتها أربعة أيام ، كما اننا سنسعى في طلب العفو العمومي عن الثائرين وارجاع بعض المنفيين » .

الجزائري : « ما هي هذه الهدنة وما صورتها ؟ ان هؤلاء الذين طالبوا بالهدنة يكذبون عليكم ولا يزالون مصرين على أعمالهم الحربية » .

مان : « هم أعطوني قرار الهدنة ولكنهم أحبوا حضوركم » .

الجزائري : « ليس لهؤلاء معكم قرار ثابت وسيخونون عهدكم ولا يمكن تأمين هدنة معهم ! » .

نوربري (بانفعال) : « نحن لا نريد منكم تأمين الهدنة بل هي قائمة فعلا ولكن الزعماء أرادوا حضوركم كشهود ».

الجزائري (بغضب) : « أنا أبين لكم الحقيقة ، وحميد خان يفسر لكم كلامي ، ان بعض هؤلاء الذين وعدوكم بالهدنة كان عندي صباحا وقد أخبرني انهم لايتركون أعمالهم ، ولو أنهم وعدوكم حقا فلا تغتروا بوعودهم » .

مان : « نحن لانريد منكم غير الحضور ، فان مطاليبنا تامة وعلى أحسن مايرام ، وحضرة الميجر يريد منكم أن تتفضلوا للاجتماع بالرؤساء » .

الجواهري : « لايمكن عقد الاجتماع الآن لشدة الحرارة ، لاسيما ونحن لم نسترح بعد من عناء السفر » .

افترقوا على أن يجتمعوا عصرا مع رؤساء العشائر في احدى البساتين على الضفة الاخرى المقابلة للكوفة . وفي الوقت المعين تم عقد الاجتماع ، وقد جرى فيه نقاش طويل على النحو التالي :

مرزوق العواد : « الحكام الانكليز يريدون هدنة بضعة أيام حتى يتمكنوا من اخراج جندهم من أبو صخير » .

علوان الياسري : « نحن لم نتعمد محاربة الحكومة البريطانية ولكنها

ألجأتنا الى هذا السبيل بعد أن رأت منا الاصرار على المطالبة بحقوقنـــا المشروعة واستقلالنا الكامل • لقد أطلقت بريطانيا أيدي موظفيها فـــي استعمال الشدة والارهاب مع العراقيين ليرضخوا لوصايتها ويقبلـــوا باحتلالها ••• علاوة على كبرياء حكامها واستبدادهم وسحقهم لمقدسات العرب • وهم مع ذلك يجهلون أخلاقنا وطبائعنا » •

نوربري : « بيّنوا لنا مطاليبكم لنراجع بها الحاكم العام ، والحكومة سوف لاتقصر معكم » •

علوان الياسري : « نحن ممنونون من بريطانيا وليس لنا من قصد غير مفاتحتها في أمر مطاليبنا ولكننا رأينا منها الاعراض وعدم تقبلها لمطاليبنا ، ونحن الآن نقبل المذاكرة معها بشرط أن لاتتحرك قوتكم ياحضرة الميجر اثناء المذاكرة واثناء الهدنة ، لا من بغداد الى الحلة ، ولا منها الى الديوانية والرميثة ، ولا الى لواء الشامية ، بل تسكن الحركات منا جميعا ، ويتفاوض معكم مندوبونا • ولو لم نشاهد الحكومة تقوم ببعض الحركات التى تريد بواسطتها الوقيعة بالشعب العراقي وافسادمطاليبه لما اضطررنا الى هـذا العمل والى ما ترون » •

نوربري : « بينوا مطاليبكم بصورة تامة ، ونحن نخابر بها الحــاكم العام » •

الجزائري (يخاطب الرؤساء) : « الحكومة لاتريد الا الخير ، وليس لها قصد سيء معكم ، فلا داعي لكلامكم هذا ، وأنتم لاقدرة لكم على مقابلة الحكومة البريطانية » •

علوان الياسري : « ولكننا لانرضخ لاقل ذل ولا نقبل بأية حركة تمس بشرفنا •••• ولقد جبلنا نحن العرب على العز ، وهم مخطئون اذا كان في نيتهم اذلالنا ، فأننا نأبى الذل ونفضل الموت عليه » •

وربري (مقاطعا الياسري) : « بينوا أموركم بغير كثرة ولا تشويش. وأنا ممنون اذ أخابر الحاكم العام » .

الجزائري (يخاطب الياسري) : « ايها السيد لماذا أنتم لاتصغون تماما والحال ان مطاليبكم موقوفة الآن على كلام الميجر ، فاسمعوا مايقول ، فان قوله عبارة عن شرف بريطانيا فوق انه معروف بالتعقل والروية » .

علوان الياسري (يواصل الكلام) : « وسيرون - يقصد الانكليز - ان شاء الله عزة العرب وأنفتهم . وأما نحن فنعرف ما تقوله يامولانا - - يقصد الجزائري - من أن الميجر صاحب شرف ، ولكننا رأينا الحكومة البريطانية لا تثبت على كلام واحد ولا تلتزم بأي قول . نعم نقبل بسفراء بعض الدول الاجنبية ، كسفير امريكا وغيره ، في التوسط بيننا وبينهم وحل المسألة العراقية واعطائنا ما نريده من المطاليب » .

الجزائرى : « لاتتكلموا مثل هذا الكلام فان الحكومة الانكليزية معظمة وهي صاحبة قول ومعرفة وتدبير » .

الجواهري : « نعم ما يقول الشيخ الجزائري ، خصوصا الميجر فهو من ذوي الشرف ، فاشرحوا الآن مطاليبكم » .

عبدالواحد : « مطالبينا معروفة ، وهذه المسألة يقوم بها المندوبون ».

علوان الياسري : « نعم ترجع هذه المسألة الى المندوبين . ولكن يجب على الحكومة مذاكرتهم ولا تعرقل مساعيهم . والا فلماذا حجزت الحاج مخيف والشيخ شعلان العطية ، هل صنعوا شيئاً غير المطالبة بحقوقهم ؟! »

علوان الحاج سعدون : « لماذا يجبر الانكليز الناس على التوقيع على ورقتهم - يقصد مضبطة طلب الوصاية - » .

الجزائرى : « انتم سادات الشامية ورؤساؤها فلا ينبغي منكم أن

تشوشوا كلامكم بالاكثار لان ارادة الحاكم منكم ان يكون كلامكم واحدا ونهائيا » .

علوان الياسري : « نحن نريد من حكومة بريطانيا تشكيل مؤتمر عراقي حر ، ونريد منها أيضا أن لاتقف دون أعمال أعضائه كما صنعت مع المندوبين والمرشحين للانتداب ، ولماذا يقبض ديلي ممثل بريطانيا على الذين لايرضون بالتوقيع على ورقة الوصاية ويجبر الناس على ذلك . أيليق بحكومة بريطانيا أن تعمل هذه الاعمال ؟ أم هل يليق بها أن تطلق يد رجل مثل ديلي هذا الذى أذل الناس وحقرهم أشد التحقير وعمل معهم أعمالا يأنف منها كل انسان ، حتى اضطرهم الى اعلان الثورة . نعم نحن لازلنا نشكر حضرة الميجر حاكم الشامية فانه لم يضيق علينا بل أطلق لنا الحرية في المطالبة بحقوقنا ، ولكن الحكومة بشكل عام وقفت أمام مطاليب كل العراقيين . ونحن مرة قلنا لك ياحضرة الحاكم اعطونا حقوقنا ولا تلجئونا » .

الجزائري (مقاطعا) : « انتم أوقعتمونا بورطة ، وتظنون انكم أكرمتمونا في أنكم أنطتم بنا مطاليبكم ، ونحن على هذا سنكون الملتزمين بالمطالبة بحقوقكم . فالواجب يقضي أن نتوثق منكم فى القبول بكل ما نعمل بهذا الخصوص . فهلموا نجتمع معا على جانب لنعرف قبولكم بجميع ما يصدر منا من القرارات المتعلقة بمطاليبكم » .

وعند هذا اجتمعوا فى جانب واتفقوا على شروط الهدنة ثم عادوا الى الميجر نوربري ، وقال الجزائرى يخاطبه : « انتم حكومة واصحاب شرف ، فيجدر بكم ان تكونوا صادقين وأن يكون وعدكم ناجزا ، ولا ينبغي لمثلكم ان توقعوا المندوبين بمثل هذه الورطة ، وان شئتم ان تتخلى عنكم وعن العشائر ولا تتدخل بخصوص هذه الامور ، فالمرجو أن تعطونا قول الشرف في مخابرة الحاكم العام على هذه المطاليب بسرعة وتعينونا على انجازها » .

أجابه نوربري قائلا : «نحن نعطيكم قولا جازما في أن كل اعمالنا هذه صادقة ، ونحن نأنف من الكذب » •

تم الاتفاق بين الفريقين أخيرا على ان تكون الهدنة لمدة اربعة أيام ابتداء من اليوم الاول من ذي القعدة ١٣٣٨ وهو يوافق ١٧ تموز – حيث تنسحب خلالها حامية أبو صخير الى الكوفة دون أن يصيبها أذى • وقد تعهد نوربري بمراجعة الحاكم العام ببغداد حول مطاليب الثوار وهي : (١) العفو العام عن جميع العراقيين بمن فيهم أهل الرميثة والشامية والدغارة ، (٢) توقف جميع الحركات العسكرية واصلاح سكة الحديد ونقل القوات العسكرية من مكان الى آخر ، (٣) اطلاق سراح جميع المعتقلين والمنفيين خصوصا ابن الشيرازي ، (٤) تشكيل المؤتمر العراقي[٢١] •

نقض الهدنة :

كانت حامية أبو صخير مؤلفة من مائتي رجل تقريبا • وتضم معاون الحاكم السياسي هوبكنز وموظفيه بالاضافة الى الضباط والجنود • وقد ناط الرؤساء حراسة الحامية عند انسحابها الى الكوفة بأحد رؤساء آل فتلة مزهر الفرعون • ويقال ان الرؤساء انما اختاروا هذا الرجل لحراسة الحامية لانه كان موضع اطمئنان الانكليز[٢٢] • وقد قام الرجل بالمهمة في الواقع خير قيام فكان هو واتباعه يحرسون الحامية أثناء سيرها ويكفون عنها العشائر حتى أوصلوها الى الكوفة بسلام[٢٣] • ويروى ان اتباعه هوّسوا في الطريق قائلين « يطشر هبكن بحمانا »[٢٤] ، ومعنى ذلك ان هوبكنز يستطيع أن يعمل مايشاء مادمنا نحن حماته والمدافعين عنه •

---

(٢١) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) – ص ١٠٩ – ١١٤ •

(٢٢) فراتي (المصدر السابق) – ص ٦٤ •

(٢٣) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق – ص ٢١٧ •

(٢٤) فراتي (المصدر السابق) – ص ٦٥ •

يمكن القول على أي حال ان الثوار ندموا فيما بعد على موافقتهم على انسحاب الحامية • فهي غنيمة ضخمة كان من الممكن الاستحواذ عليهـــا بسهولة • أضف الى ذلك انهم لم يجنوا من السماح بانسحابها أية فائدة تعوضهم عنها • يقول محمدعلي كمالالدين « ندم الثوار كثيرا على اعطاء هذه الهدنة وتخليص حامية أبو صخير من الحصار ، بعد أن كثر عليهم النقد والتجريح من مختلف الجهات الوطنية »(٢٥) •

ومما يلفت النظر ان الهدنة لم تستمر الى نهايتها ، بل هي خُرقت من الجانبين في اليوم الثالث من انعقادها ، أي قبل يوم واحد من انتهاء أمدها • ففي ذلك اليوم شوهدت خمسة شخاتير قادمة من الكفل وهي مشحونـــة بالمؤونة والعتاد لغرض امداد حامية الكوفة ، وكان يحرسها ثمانية عشـــر جنديا معهم رشاشان • فهاجمها الثوار واستولوا عليها ونهبوها • وفـــي الوقت نفسه هاجم نفر من أهل الكوفة سراي الكوفة واستولوا عليه ، وكان فيه تسعة أفراد من الشرطة ، ففر هؤلاء لاجئين الى الحامية التى كانت قـد تمركزت في الخانات الواقعة على ضفة النهر(٢٦) •

يمكن اعتبار ١٩ تموز ــ وهو اليوم الذى نقضت فيه الهدنة ــ بداية الحرب الجدية بين الثوار والانكليز في هذه المنطقة • فقد أيقن الثوار أنهم أصبحوا في موقف لامجال للتراجع فيه • وانطلقت صيحة الحرب فـــى مختلف أنحاء المنطقة ، واضطر الرؤساء المترددون أن ينظموا الى الثورة تحت ضغط الرأي العام الذى كان يعد كل من لاينضم الى الثورة كافـرا نصرانيا •

---

(٢٥) محمد علي كمالالدين (المصدر السابق) ــ ص ١١٦ •
(٢٦) المصدر السابق ــ ص ١١٦ •

الفصل السادس عشر

انتشار الثورة في الفرات الاوسط

على أثر نقض الهدنة في الكوفة انقسمت العشائر الثائرة الى قسمين ، أحدهما نيط به محاصرة حامية الكوفة وكان مؤلفا من عشائر الغزالات وآل شبل وآل ابراهيم واتباع آل ياسر وفريق من بني حسن ، أما القسم الثاني فقد تحرك شمالا باتجاه الكفل بغية احتلالها وكان مؤلفا من آل فتلة والعوابد والحميدات •

لم يجد الثوار صعوبة في احتلال الكفل ، فقد انسحب منها الانكليز حالما رأوا الثوار مقبلين عليها ، ودخلها الثوار في ٢٢ تموز ، فأبقوا فيها مائة خيال لحفظ الامن ، ثم غادروها متجهين نحو طويريج •

علوان وعمران :

ان علوان الحاج سعدون وأخاه عمران كانا قد اقتسما الرئاسة العامة لعشيرة بني حسن ، فكان علوان رئيسا لافخاذ بني حسن الساكنين بالقرب من الكوفة ، أما عمران فكان رئيسا للافخاذ الساكنين بالقرب من طويريج •

كان علوان قد انضم الى الثورة على أثر نقض الهدنة في الكوفة في ١٩ تموز ، وربما فعل ذلك تحت تأثير الالف ليرة التي قدمت اليه من قبل الثوار • أما عمران فظل بعيدا عن الثورة ، وكان رأيه ان العشائر العراقية لاطاقة لها بمحاربة الحكومة البريطانية التي تملك الطائرات والمدافع والجيوش الجرارة • ولما سمع عمران بأن الشيرازي أفتى بجواز الثورة المسلحة ذهب الى كربلاء لمقابلته ، وحين اجتمع به قال له ان العشائر ضعيفة تجاه الانكليز وان في مقدور الانكليز سحق كل ثورة تقوم بها

العشائر عاجلا او آجلا ، فقال له الشيرازي ان الرؤساء الآخرين أخبروه بخلاف ذلك وقالوا انهم قادرون على محاربة الانكليز والانتصار عليهم ، فأصر عمران على وجهة نظره وكرر قوله السابق حول ضعف العشائر تجاه الانكليز • وعند هذا قال له الشيرازي : « في حالة عدم القدرة على قتال الانكليز يصبح القتال محرما من الناحية الشرعية »[١] •

عندما عاد عمران من كربلاء صمم على الحيلولة دون امتداد الثورة الى منطقته • وقيل انه أخذ يتجول بين العشائر بصحبة الكابتن جاردين لتثبيطها عن الانضمام الى الثورة[٢] ـ على نحو مافعل مرزوق العواد قبله •

وعندما سقطت الكفل في أيدي الثوار في ٢٢ تموز أرسل عمران الى الثوار رسولا من السادة يخبرهم بأنهم لايجوز لهم ان يخترقوا منطقة عشيرته ليحاربوا الانكليز فيها ، وهددهم انهم ان فعلوا ذلك فهو سيتعاون مع الانكليز في مقاومتهم ، ولهذا يجب عليهم أن يعودوا الى مناطقهم ليحاربوا الانكليز فيها • فلما قابل الرسول عبدالواحد الحاج سكر رد هذا عليه قائلا : اننا نحارب الانكليز استنادا على فتوى من العلماء • وقدم له صورة من الفتوى لكي يحملها الى عمران ، ثم قال : اذا كان عمران مسلما شيعيا فهذه الفتوى أمامه ومن الواجب عليه طاعتها ، أضف الى ذلك أن اكثر عشائر بني حسن قد انضمت الينا فلماذا يتخلف هو ، أما اذا بقي مصرا على محاربتنا فان جيوشنا توكلت على الله وأعلنت الحرب على حكومة بريطانيا وهي اذن لاتخاف من عشيرة او قبيلة[٣] •

---

(١) حدثني بذلك جعفر الخليلي وكان بصحبة عمران عند اجتماعه بالشيرازي •

(٢) محمد علي كمال الدين (معلومات ومشاهدات) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ١٣٣ •

(٣) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ •

معركة الوارنجيه :

أدرك الانكليز ان انسحاباتهم المتتالية في الفرات الاوسط تؤدي الى تشجيع العشائر المترددة على الالتحاق بالثورة ، وارتأى حاكم الحلة الميجر بولي ان الموقف في حاجة الى تظاهر بالقوة ، وأخذ يلح على قائد قوات الحلة الكولونيل لوكن لكي يرسل رتلا الى الكفل لهذا الغرض • وكان الحاح بولي شديدا مما اضطر الكولونيل لوكن الى الاستجابة لطلبه(٤) •

أعد الكولونيل لوكن رتلا سمي بـ « رتل مانجستر » بلغ عدد أفراده نحو ثمانمائة • وقد تحرك هذا الرتل من الحلة في ٢٣ تموز سيرا على الاقدام • وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي وصل الرتل الى قناة الرستمية في اراضي الرارنجية التي تبعد عن الكفل بثمانية أميال• وقرر طبيب الرتل ان الجنود في حاجة الى راحة امدها أربع وعشرون ساعة • فعسكر الرتل هناك للاستراحة •

كان ابراهيم السماوي رئيس خفاجة قد صحب الرتل ليكون دليلا له وعونا ، ولكن ضميره استيقظ في اللحظة الاخيرة ، فانتهز فرصة تمكن فيها من التغيب عن الرتل ساعتين وذهب الى عشيرته خلسة ، فاستدعى اليه رجلا من اتباعه يعتمد عليه اسمه « راضي الابقع » وأرسله مع ثلاثة رجال آخرين الى الثوار ليخبرهم بأمر الرتل ويحذرهم منه •

وصل راضي وأصحابه الى قرية بني مسلم التي تقع قرب النهر الى الغرب من الرارنجية • فوجد هناك عبدالواحد مع قوة كبيرة من الثوار ، وحين أخبره بالامر أرسل عبدالواحد الى الكفل على عجل رجلا من السادة اسمه السيد حسن العذاري لكي يطلب النجدة من الثوار المتجمعين فيها ، ولما وصل السيد حسن الى الكفل نادى بأعلى صوته : « أولاد ناصر » وهي نخوة لآل فتلة يُنادى بها عند الاستنجاد ، فهب القوم

(4) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinbugh 1922 - P. 98.

يستجيبون للنجدة ، وتحركت جموعهم نحو الرارنجيه ، وهم يهوسون : « رد مالك ملعب ويانا »[٥] .

كان الرتل معسكرا عند القناة مطمئنا لايدري ماذا يخبيء له القدر . وقبيل غروب الشمس في ٢٤ تموز فوجيء بالهجوم عليه من جهات ثلاث : جنوبا وشرقا وغربا . وكان مرزوق العواد قد أبدى في الهجوم بطولة نادرة اذ هو قام بحركة التفاف بارعة أربكت الرتل الانكليزي وأذهلته . فاضطر قائد الرتل الى الايعاز الى جنوده بالانسحاب نحو الحلة في خلال نصف ساعة . وحين بدأ الجنود بالانسحاب جفلت حيوانات الجر مما أدى الى حدوث فوضى عامة في الرتل وصارت العجلات تمرق بين الصفوف فتمزقها تمزيقا[٦] . ونشبت عند ذاك معركة ضارية بالسلاح الابيض استعمل الثوار فيها اسلحتهم التقليدية كالفالة والمكوار والخنجر ، وأبدوا فيها استبسالا وشجاعة تذكرنا بما فعل اسلافهم في صدر الاسلام .

استمرت المعركة نحو ست ساعات ، وكان القمر يومذاك في ليلته التاسعة فساعد نوره على اضاءة ساحة المعركة الى حدما . ولم يستطع النجاة من رجال الرتل الا أقل من نصفهم[٧] .

كانت غنائم الثوار كثيرة جدا من بينها ٥٢ رشاشا وعدد لايحصى من الحيوانات ومقادير كبيرة من الاعتدة والنقود والاطعمة . وصار عبدالواحد يدفع عن كل رشاش يؤتى به اليه خمس عشرة ليرة ذهب ، فتجمع لديه اربعون رشاشا . وكان بين الغنائم أيضا مدفع من عيار ١٨ رطل ، وقد قدّر لهذا المدفع أن تكون له أهمية كبيرة بعدئذ ـ كما سنأتي اليه .

يصف هالدين معركة الرارنجية بـ « الكارثة » ، ويقدر خسائرها بـ ٢٠ قتيلا و ٦٠ جريحا و ٣١٨ مفقودا[٨] . وهذه خسارة كبيرة جدا

---

(٥) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .
(6) Haldane (op. cit.) - P. 101.
(7) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 279.
(8) Haldane (op. cit.) - P. 102.

بالنسبة لقوات نظامية حديثة تجاه قوات عشائرية • وكانت خسائر الثوار قليلة نسبيا ، قدرها فريق المزهر الفرعون بـ ٨٤ قتيلاً و ١٥٨ جريحا[٩] •

يعزو هالدين سبب « الكارثة » بالدرجة الاولى الى تدخل العامل السياسي في الامور العسكرية ، مشيرا بذلك الى الاصرار الذى أبداه الميجر بولي لارسال الرتل بقصد ارهاب العشائر • فهو يقول ان الرجل العسكري قد ينسى القواعد العسكرية أو يتناساها بمجرد دخوله في الخدمة المدنية ، اذ هو يبعثر قواته معتقدا بان ليس هناك ضرر من جعل قواته ضعيفة في كل مكان ، وينسى ان القوات المعزولة تحتاج الى قوات كبيرة لانقاذها في حالة وقوع الحصار عليها[١٠] •

ويعطينا الخبير العسكري العراقي عبدالمطلب الامين تحليلا لمعركة الرارنجية يشبه من بعض الوجوه ماذكره هالدين ، فهو يقول مانصه : « تغلبت العوامل السياسية والادارية على العوامل العسكرية فكان الالحاح في ارسال هذا الرتل دون استكمال أسباب تنظيمه عاملا مهما في القضاء عليه ، وقد غادر معسكره قرب الحلة متأخرا الامر الذى أدى بـه الى دخول معسكر لم يحسن اختياره عند المساء ودون اتخاذ تدابير حماية كافية • والشرط الاساسي في حرب العشائر ان يتم دخول القوات الـى معسكراتها ، ومن ضمن ذلك طبعا اكمال ترتيبات الحماية كافة ، قبـل الظلام وكان الجنود في حالة شديدة من التعب والانهاك الى درجة ان القوة بكاملها منحت استراحة ٢٤ ساعة بالوقت الذى كان قائد الرتل وضباطه مترددين في اصدار الامر بالعودة الى الحلة • وكشف الرتل عن وجوده (وهو في المنخفض غير الصالح للتعسكر) ، بنزق قيادته ، فتكاثرت عليه الجموع من كل جانب ، فحدث فزع شديد بين الجنود فكانوا لايميزون بين عدو وصديق ••• وكانت النتيجة ماكانت »[١١] •

---

(٩) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) — ص ٢٣٤ •
(10) Haldane (op. cit.) - P. 92.

(١١) هالدين (ثورة العراق) — ترجمة فؤاد جميل — بغداد ١٩٦٥ — ص ٣٣٦ •

نتائج اجتماعية :

أن معركة الرارنجية يمكن اعتبارها نقطة تحول في ثورة العشرين وأعظم معاركها على الاطلاق ، فان الكارثة التي حلت بالانكليز فيها ، ووفرة الغنائم التي وقعت في أيدي العشائر ، أصبحت محور دعاية كبرى للثورة ، وكان من الطبيعي أن تشيع أخبارها بين الناس بشكل مبالغ فيه • وانتشرت من جراء ذلك موجة من الحماس الشديد جعلت العشائر المترددة تندفع نحو الانضمام الى الثورة واحدة بعد الاخرى • وصار من العسير على الشيخ الميال للانكليز أن يبقى ميالا تجاه الحماس المسيطر على افـــراد عشيرته •

كان عمران الحاج سعدون في الحلة عندما وقعت معركة الرارنجية، فأرسله الانكليز الى طويريج لتهدئة الحالة فيها • وحين وصل الى البلدة وجدها في غليان شديد ، وصار الناس يتوافدون الى بيته وهم يهوسون ويصرخون مطالبين اياه بالانضمام الى الثورة • ولم يجد عمران مناصا من الاستجابة لطلبهم • فلقد رأى انه لا يستطيع أن يحتفظ بسمعته ومكانتـه اذا ظل بعيدا عن الثورة ، فأعلن انضمامه اليها •

وكان رئيس الشبانة في طويريج يومذاك رجل من اقرباء عمران اسمه عبدالمحسن من آل عباس وكان موضع ثقة الانكليز • ولكنه انقلب عليهم حالما وصلته اشارة من عمران • وقد أبقاه عمران رئيسا للشبانة وناط به أمر المحافظة على الامن والنظام في البلدة ، فقام بها خـــــير قيام(١٢) •

وبلغ الحماس بمرزوق العواد في تأييد الثورة مبلغا عظيما ، فان البطولة التي أبداها في معركة الرارنجيــة جعلت اسـمه على الأفـواه في كل مكان • والمعروف عن مرزوق انه كان ذا شجاعة نادرة ، كما كان ذا مقدرة على اطلاق الهوسـات ، فاندفع ينصر الثورة بشجاعته وهوساتـه

---

(١٢) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٠٩ •

الى الدرجة القصوى • لقد انقلب مرزوق العواد في خلال وقت قصير من عدو المثورة الى واحد من أعظم أبطالها ـ وليس هذا بالأمر النادر في تاريخ الثورات والحركات الاجتماعية •

ومما زاد في شدة الحماس العام ان نفرا من السادة ورجال الدين أخذوا يتنقلون بين مضائف الشيوخ يحثونهم على الانضمام للثورة ويثيرون النخوة فيهم • حدثني السيد ابو القاسم الكاشاني ـ اثناء زيارتي له في طهران في صيف ١٩٥٧ ـ : انه كان يدخل على الشيخ في مضيفه فيثير نخوته على الطريقة البدوية ، فيقول له : « أليس من العار عليكم ان أدافع عن بلادكم وأنا من تبعة ايران ، بينما انتم من ابناء البلاد لاتدافعون عنها »• وكان كثيرا ما يستعمل في كلامه مع الشيوخ الفاظا بذيئة وشتائم عامية كأن يقول لهم مثلا : ان الانكليز سيفعلون بنسائكم كذا ، وان الرجل منكم ديوث لاغيرة له اذا لم ينهض لمقاتلة الانكليز دفاعا عن عرضه • ويقول الكاشاني ان شتائمه كثيرا ما كانت تثير النخوة فيهم وتحرك همتهم ، فيضطرون الى رفع راية القتال وتنطلق الهوسات عندئذ وبذلك يصعب عليهم التراجع لو أرادوا •

كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢ آب تقول عن نتائج معركة الرارنجية : « لا أستطيع التكهن بما سوف يحدث • فان واقعة اخرى كواقعة رجال مانجستر ستجلب عشائر دجلة الى مشارف بغداد الجنوبية مباشرة • نحن الآن نعيش من اليد الى الفم ، أنا اعرف ، وان الوضع خطير ، وربما صار اكثر خطورة اذا حدث أقل تمرجح في الكفة »(١٣) •

الثورة في شرق الديوانية :

يجري في شرق الديوانية نهر صغير يسمى (شط الدغارة) ، وهو يتفرع من نهر الفرات على بعد ٤٢ كيلومترا من شمال الديوانية • وتقطن حول هذا النهر ثلاث عشائر كبار هي : الاقرع وعفك والبدير •

---

(13) Lady Bell (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - P. 401.

ان أول من ناوأ الانكليز في هذه المنطقة هو سعدون الرسن رئيس آل حمد من عشيرة الاقرع • ويقال ان هذا الرجل كان هو الرئيس الاكبر لعشيرة الاقرع أو هو كان يطمح الى ذلك ، ولكن الانكليز لم يعترفوا له بذلك بل فضلوا عليه غيره من رؤساء الاقرع • أضف الى ذلك ان سعدون كان له عداء قديم مع علوان الجحالي رئيس آل زياد ، وكان علوان هذا صديقا مقربا للميجر ديلي وموضع ثقته • فكان ذلك يسوء سعدون ويغضبه •

كان ديلي قبيل اندلاع الثورة في الرميثة قد ارسل الى سعدون يستدعيه لمقابلته في سراي الديوانية ، فلما حضر سعدون تناول ديلي ورقتين احداهما سوداء والاخرى بيضاء وقال له : « ان سلوكك مع الحكومة يشبه كثيرا هذه الورقة ـ وأشار الى الورقة السوداء ـ في حين ان سياسة الحكومة معك تشبه هذه الورقة ـ واشار الى البيضاء ـ » • فرد عليه سعدون : « ليس هذا لباسنا ياحضرة الحاكم » • فقال له ديلي : « انك تسعى لتقع في الحفرة التي يحفرها لأنفسهم بعض الرؤساء ، وأنا أريد أن أريك شيئا من بطش السلطة ». فأجابه سعدون بما فحواه : « لو كنا نريد أن نجرب بطش السلطة فينا لما هدمنا الثلاثمائة والخمسين قلعة من قلاعنا في أطراف الدغارة ، ولما سلمنا الحكومة زهاء ثلاثين ألف بندقية ، ولما أعطينا الاموال الاميرية عن طيبة خاطر » • فسمح ديلي له بالخروج على ان يعود اليه بعد ثلاثة ايام(١٤) •

حينما خرج سعدون الرسن من سراي الديوانية أخذ يتنقل بين العشائر يستنهض هممها ، ثم ذهب بعدئذ الى منطقة الرميثة ، وقد وقعت حادثة الرميثة أثناء وجوده هناك • أما علوان الجحالي فقد انتهز الفرصة وجاء الى ديلي ليحذره من حركات سعدون ويحرضه على ضربه • فاستجاب ديلي لتحريض علوان وأرسل الى بيت سعدون قوة من الشبانة

---

(١٤) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣ •

مؤلفة من مائتي خيال ، وقد نهب هؤلاء الخيالة بيت سعدون واستولوا على حلي زوجته التي تقدر قيمتها بنحو خمسة آلاف ليرة كما أحرقوا مضيفه وعند هذا هب آل حمد للاخذ بالثأر فذهب سبعة عشر رجلا منهم الى بيت علوان الجحالي فأحرقوه وقتلوا علوان • ولما علم ديلي بالامر أرسل قوة تأديبية مؤلفة من أربعمائة خيال للانتقام من آل حمد ، فتصدى لهم آل حمد وقاتلوهم قتالا شديدا سقط فيه عدد غير قليل من الجرحى والقتلى من الفريقين •

كان هذا ايذانا باندلاع الثورة في هذه المنطقة ، غير أنها كانت في البداية محصورة في نطاق آل حمد وحدهم • وعندما عاد سعدون الرسن من الرميثة عبأ عشيرته وهاجم بهم بلدة الدغارة فاستولى على المخفر وعلى مافيه من سلاح وعتاد • وكان حاكم الدغارة الكابتن ايفانز قد تمكن من الفرار من البلدة مع من كان معه من الشبانة ، غير انه لم يستطع الوصول الى الديوانية سالما اذ قتله في الطريق جماعة من العشائر بالقرب من محطة خان الجدول •

ظل آل حمد متحملين وحدهم عبء الثورة في تلك المنطقة زهاء عشرين يوما ، ولكن الفرج جاءهم على أثر معركة الرارنجية حينما أخذ الكثير من الشيوخ ينضمون الى الثورة • وكان أول شيخ ينهض لنصرتهم هو صلال الفاضل الملقب بـ (الموح) ، وهو من شيوخ عفك وابن أخت الحاج مخيف ، فقد جمع زملاءه شيوخ عفك وقال لهم : « ان من العار علينا ترك عشيرة الاقرع وحدها تنفرد بمحاربة الاعداء » ، وصار يذكرهم بايام السلطان عبدالمجيد حينما كانت عشيرة عفك تحارب الحكومة فجاءت الاقرع لمساعدتها وحاربت الحكومة معها • ثم ختم صلال كلامه معهم بقوله « ليس من الانصاف أن نترك الاقرع وحدهم يحاربون ... »[١٥] •

كان كلام صلال الفاضل مؤثرا فيهم فأعلنوا الثورة وهاجموا بلدة عفك واستولوا على السراي وما فيه • وقد تمكن حاكم عفك الكابتن ويب

---

(١٥) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٥٦٤ •

من الانسحاب خلسة بعد ان تفرق عنه حراسه الشبانة ، واستطاع الوصول الى الديوانية بصحبة دليل اسمه دحبوش القولچي .

لم يسكت الميجر ديلي تجاه ذلك ، فأخرج شعلان العطية من السجن، وعرض عليه أن يطلق سراحه على شرط أن يعمل لتهدئة عشيرة الاقرع. وقد وافق شعلان على ذلك ووضع ابنه موجد وأخاه جبل رهينتين لدى ديلي ضمانا لانجاز وعده . ثم أسرع الى مقر عشيرته وأخذ يسعى لاقناعهم بترك الثورة ، ونجح في ذلك الى حد غير قليل حتى ان سعدون الرسن ترك الثورة بالرغم من انه كان البادىء بها . وقد أشار الى ذلك صلال الفاضل في مذكرة له جوابية حيث قال ما نصه :

« ... ذهبتُ الى الدغارة حيث ثوار الاكرع في الجدول ، فوجدت سعدون قد رجع من الحرب ـ يقصد أنه أنسحب من الثورة ـ وقد واجهني عند السيد عبدالحسين السيد روضان ، فقلت له : لماذا تركتم الحرب ونحن أخذنا عفك كما انتم أخذتم الدغارة . فقال لي : ان الحاج شعلان وضع ولده موجد وأخاه جبل رهينة في السجن فأطلقوا سراحه وهو في المضيف ومن أجل هذا سحبنا الثوار . فأجبته : بأنني لا اتمكن من الرجوع عن محاربة الانكليز . وفي هذا الاثناء جاءتنا رسالة من الحاج مخيف يقول فيها : اتركوا حرب الانكليز حتى نكون في رفاهية . فأرجعت الرسالة مع الحاج مشـير والحاج مهدي الى القلعة . وركبت أنا وسعدون الى شعلان لنعلم رأيه . وعندما وصلنا اليه قال لي : هل تريد ياصلال أن تبقى تحارب الانكليز ؟ فأجبته : نعم لانني لم آخذ بعد حقي من حربهم . فقال لي : مثل ما تركتم أنتم الحاج مخيف فأنا أيضا أترك ولدى وأخي فتوكلوا على الله »[16] .

وبهذا اعلن شعلان العطية تضامنه مع عشيرة عفك في الثورة ، كما جاءت عشيرة السعيد فانضمت اليهم . وحين علم ديلي بذلك ارسل اليهم بعض السادة من أهل الديوانية ليقنعوهم بعدم الاشتراك بالثورة . وجـاء

(١٦) المصدر السابق ـ ص ٥٦٥ .

السادة اليهم يقولون : « ان الحاكم يقول بأنه يعطيكم ما تريدون اذا تركتم الحرب » . فكان جوابهم : « لانريد غير خروج الانكليز من بلادنا » .

معارك القطار :

بعد انضمام عشائر عفك والاقرع الى الثورة أصبح وضع حامية الديوانية في غاية الخطورة ، فأبرق هالدين من بغداد الى الجنرال كوننغهام قائد حامية الديوانية يأمره بالانسحاب مع الحامية الى الحلة بواسطة القطار .

كان في الديوانية يومذاك ٦ قاطرات و ٢٥١ عربة فجمعت كلها في قطار واحد بلغ طوله ميلا ، وحمل فيه كل مالدى الانكليز هناك من جنود وعمال ومدافع وطعام وعتاد . وأخذ الميجر ديلي معه في القطار رهينتيه موجد الشعلان وجبل العطية ، كما أخذ معه صكبان أبو جاسم رئيس البدير .

تحرك القطار من محطة الديوانية فى الساعة السادسة والنصف من صباح ٣٠ تموز . وليس فى مقدورنا وصف ما جرى من صراع ضاري بين الثوار ورتل القطار في الطريق بين الديوانية والحلة ، فذلك موضوع يحتاج الى كتاب قائم بذاته . يكفي لاعطاء صورة مجملة عنه أن نقول ان القطار استغرق في قطعه الطريق أحد عشر يوما ، علما بان الطريق طوله ٨٥ كيلو مترا ، ومعنى هذا ان سير القطار كان بمعدل ٨ كيلومترات في اليوم الواحد تقريبا .

كان الثوار يعمدون الى اقتلاع قضبان السكة قبل مجيء القطار الى موضع من المواضع ، فيضطر القطار الى التوقف عند وصوله الى ذلك الموضع ، ويسرع عماله ومهندسوه الى اقتلاع القضبان التى هى وراء القطار لينصبوها من جديد أمامه . ولكن الثوار لايتركونهم يفعلون ذلك بهدوء بل يتابعون الهجوم عليهم المرة بعد المرة ، وقد تقع من جراء ذلك معركة دامية يسقط فيها الكثير من الجرحى والقتلى من الفريقين .

كان لدى الانكليز مزية امتلاكهم للمدافع كما كانت الطائرات تأتي اليهم من بغداد فتقصف جموع الثوار قصفا فظيعا • وقد يعمد الانكليز في بعض الاحيان الى ارسال مفرزة من جنودهم الى القرى القريبة لاحراقها • يقول هالدين : ان الرتل أرسل في اثناء توقفه عند خان علي الواقع على بعد تسعة اميال من الديوانية جنودا الىالقرى الواقعة في جوار السكة فأحرقوها، وذلك بعد ما بلغنا ان أهل تلك القرى هم المسؤولون عما لحق بالسكة من اضرار ، أما القرى الاخرى فقد أصليناها بوابل من قذائف المدفعية(١٧) •

شارك في معارك القطار عشائر عفك والاقرع وخفاجة وآل شبـــل والجبور وألبو سلطان من اتباع شخير الهيمص • وكان للسيد قاطـــع العوادي دور كبير في تلك المعارك اذ كان يتجول بين العشائر يحثها على جهاد الكفار ويثير فيهم النخوة العربية •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان تقاليد البداوة في النخوة كان لها أثرها في تلك المعارك • ففي الزرفية التي تبعد عن الديوانية بنحو ٤٥ كيلومترا كان الثوار قد اصيبوا بهزيمة تجاه الانكليز ، وعند هذا ظهرت امرأة « عمارية » ، هي زوجة ثعبان المهدي من رؤساء الجبور ، فحسرت القناع عن رأسها ، ودخلت بين فلول العشائر المنهزمة وصارت تثير فيهم النخوة على الطريقة البدوية ، ثم تقدمت الى الامام وبيدها فأس ، فانتفضت النخوة في نفوس العشائر وكروا على الانكليز باستماتة فأجلوهم عـــن مواقعهم • وقد أصيبت المرأة في اثناء ذلك بقذيفة أودت بحياتها •

وحدثت حادثة أخرى مثلها في الهاشمية حين انكسر الثوار ، وكانت البطلة في هذه المرة أم جبل العطية ، واسمها (صافية) ، وقد حسرت قناعها عن رأسها كما فعلت البطلة الاولى ، وأخذت تثير النخوة في العشائر • ولكنها لم توفق في نخوتها لان القوة الانكليزية كانت اقوى من العشائر وكانت الطائرات تسندها(١٨) •

---

(17) Haldane (op. cit.) - P. 182-183.

(١٨) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) — ص ٢٦٠ — ٢٦٣ •

وهناك ناحية اخرى جديرة بالذكر أيضا هي ان الهنود المسلمين الذين كانوا من ضمن الرتل الانكليزى كانوا يعطفون سرا على الثوار ويحاولون مساعدتهم بمقدار جهدهم • وقد لقي موجد الشعلان وجبل العطية منهم رعاية لايستهان بها •

وعلى أي حال فان مدة الاحد عشر يوما التى قضاها الرتل في طريقه الى الحلة كانت مبعث قلق شديد للقائد العام الجنرال هالدين ، فهو يقول انه باشر المعارك في فرنسا طيلة سنوات الحرب العامة ولكنه لم يعان فيها من الرهق الفكرى مثل ما عاناه خلال المدة التى كان الرتل فيها يسير في طريقه الى الحلة ، فهي كانت عليه كأنها سنوات طويلة[١٩] • ويبدو ان هالدين كان يخشى ان يحل به في بغداد مثلما حل بزميله غوردون في الخرطوم في عام ١٨٨٥ عندما هاجمه الثوار السودانيون من اتباع المهدي وقتلوه شر قتلة • فهو يقول : ان مناظر الخرطوم كانت تتراءى لي في تلك الفترة حيناً بعد حين[٢٠] •

كان ويلسون يشعر بمثل هذا القلق أيضا حيث قال في مذكراته : « لم يكن قلقي أنا أقل من قلق هالدين » • ولكن ويلسون كان ينظر الى الامر من زاوية أخرى ، فلقد كان فكره مشغولا بوضع الحكام البريطانيين المنتشرين في انحاء العراق دون أن تكون لديهم قوة كافية ، وكان يخشى ان يكون مصيرهم كمصير زملائهم الذين قتلوا في تلعفر • وهو يقول عنهم : ان صمودهم هو الذى جعلنا نعتقد أن في مقدورنا الحيلولة دون قيام ثورة عامة في البلاد ، فكل واحد منهم كان يعادل فوجا من الجيش في حالـة تمكنه من الثبات في تلك الايام العصيبة[٢١] •

صكبان ابو جاسم :

كان صكبان أبو جاسم رئيسا عاما لعشيرة البدير ، وكان عند قيام

(19) Haldane (op. cit.) - P. 189.

(20) Loc cit.

(21) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 281.

الثورة كبير السن ، والمعروف عنه انه وقف الى جانب الانكليز في اثناء الثورة . وهناك في تعليل ذلك قولان : احدهما أن صكبان كان له خصم في عشيره البدير ينافسه على الرئاسة العامة للعشيرة هو شعلان الشهد رئيس الفراهنة ، ولما رأى صكبان ان شعلان قد انضم الى الثورة اضطر هو من جانبه الى الوقوف الى جانب الانكليز[22] . أما القول الثاني فهو ان الحاج مخيف رئيس عفك كانت له سطوة على عشيرة البدير ، ولم يجد صكبان حماية من تعسفه الا في ظل الادارة الانكليزية[23] .

أشرنا في فصل سابق الى قصة صكبان مع كلب الكابتن ويب ، ولكن فريق المزهر الفرعون يروي قصة مشابهة لها جرت مع كلب الميجر ديلي ، وهي ان جماعة من رؤساء العشائر كانوا جالسين ذات يوم على شاطىء النهر في الديوانية يتحدثون ، وكان صكبان أبو جاسم أحدهم . وصادف أن مر بهم الميجر ديلي ومعه كلبه ، فرمى ديلي عصاه الى الماء وأشار الى الكلب بأن يأتي بها ، فأسرع الكلب الى النهر وعاد يحمل العصا بأسنانه . فالتفت ديلي الى صكبان وقال له : « انظر ياحاج صكبان ، ان كلبي أفهم منك وأحسن ... » . فنظر صكبان الى أصحابه والدموع ترقرق بين جفونه[24] .

لست أدري مبلغ الصحة في هذه القصة ، وربما كانت من مبالغات الرواة ، ولكني مع ذلك استطيع ان أقول أن صكبان لم يكن محبا للانكليز من صميم قلبه ، فهو كان يداريهم لارتباط مصلحته بهم ولكنه كان يحمل الحقد عليهم . حدثني مكي السيد جاسم عن السبب الذى جعل الميجر ديلي يأخذ صكبان معه في القطار عند انسحابه من الديوانية ، هو انه كان لايأمن من صكبان أن ينقلب على الانكليز عقب انسحاب الحامية من الديوانية ،

---

(٢٢) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ــ ص ١٤٥ .

(٢٣) المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٤٤٧ .

(٢٤) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٢ .

فهو عندما اركبه معه في القطار قال له : انك عندي تعادل فرقتين من الجيش •

نكسة الحلة :

كان الثوار بعد النصر العظيم الذى نالوه في الرارنجية قد بلغ التفاؤل لديهم مبلغاً كبيرا ، وكانوا واثقين انهم سوف يحتلون الحلة بسهولة ويأسرون القائد الانكليزي فيها ويحصلون على الغنائم التى لاتحصى • ومن الطرائف التي تروى فى هذا الصدد أن أحد أفراد العشائر الذين شاركوا في الزحف نحو الحلة قال يخاطب أصحابه : « ياجماعة لا تقولون • ان حصان القائد وزوجته لي »[٢٥] •

أما الانكليز فانهم بعد الهزيمة التى حلت بهم في الرارنجية أخذوا يستعدون للدفاع عن الحلة بأقصى مالديهم من جهد ، فأعلنوا الاحكام العرفية في البلدة ، ومنعوا التجول فيها ليلا ، كما منعوا الاهالي من حيازة السلاح ، وجعلوا عقوبة ذلك الاعدام • ومنعوا من تطيير الطيارات الورقية التى يلعب بها الصبيان فوق سطوح الدور ، فقد كانوا يخشون أن تكون هذه الطيارات وسيلة مخابرة بين الاهالي والثوار[٢٦] •

وفي ٣١ تموز ١٩٢٠ بدأ هجوم الثوار على الحلة من الجهة الغربية والجنوبية ، وكان هجوما ضاريا أبدى فيه الثوار بسالة مذهلة ، وقدموا فيه من التضحيات الشىء الكثير • وقد اشتهرت في هذا الهجوم عشيرة طفيل لما أبدت فيه من استماتة منقطعة النظير ، ويقال ان السبب في ذلك هو ان هذه العشيرة كانت قبل ذلك ذات سمعة حربية واطئة لما ابدته من ضعف عندما غزتها عشيرة العوابد ، فهي تريد الآن أن تسترد سمعتها ، ولهذا كانت في مقدمة المهاجمين للحلة ، وصارت تحتل شارعا شارعا وبيتا

---

(٢٥) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ ـ ص ٢١٥ •

(26) Sinderson (Ten Thousands and One nights) - London 1978 - P. 54 - 56.

بيتا وترفع اعلامها فوق سطوح الدور ، وظلت تقاتل بضراوة حتى بعد انسحاب العشائر الاخرى من البلدة[٢٧] .

أخفق الهجوم اخفاقا تاما ، وتراجع الثوار عن الحلة . وتقدر المصادر العراقية خسائرهم بـ ٧١ قتيلا و ١٢٠ جريحا و ٢٠ أسيرا ، وكان الاسرى من عشيرة طفيل اذ هم كانوا يواصلون القتال في داخل احدى الدور فحاصرهم الانكليز وأرغموهم على الاستسلام[٢٨] .

أما المصادر الانكليزية فتقدر خسائر الثوار باكثر من ذلك ، فهي تقول ان الثوار تركوا وراءهم ١٤٩ قتيلا وهم الذين وجدت جثثهم في داخل الحلة ، وتدعي المصادر الانكليزية بالاضافة الى ذلك ان الثوار كانوا قد نقلوا تحت جنح الظلام عددا كبيرا من قتلاهم وجرحاهم . أما خسائر الانكليز فهي حسب مصادرهم طفيفة نسبيا اذ لم تتجاوز تسعة قتلى وأقل من عشرين جريحا[٢٩] .

ولم تقتصر خسائر الثوار على ما ذكرناه . فانهم عندما انسحبوا من الحلة وتوقفوا في الطهمازية ، وهي ارض مكشوفة ، فاجأتهم طائرة فأمطرتهم بالقنابل مما أدى الى قتل اثنين وعشرين رجلا منهم وجرح ثلاثين[٣٠] .

حينما بلغ الشيرازي في كربلاء خبر نكسة الثوار في الحلة اوعز الى السيد هبة الدين الشهرستاني بأن يكتب الى السيد علوان الياسري يستفسر منه عنها . فأجابه السيد علوان برسالة حاول فيها أن يخفف من فداحة النكسة ، وهذا نصها :

بعد تقبيل أيادي جناب مولانا وملاذنا آية الله الميرزا محمد تقي

---

(٢٧) فراتي (المصدر السابق) ـ ص ١١٢ .
(٢٨) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٧١ ـ ٢٢٧ .
(٢٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٥ آب ١٩٢٠ .
(٣٠) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٧٣ .

الشيرازي ، جناب عمدة الصالحين وقدوة المرشدين الذى هو اسمه وفقا لمسماه هبة الدين الشهرستانى دام بقاه •

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وردنا مشرفكم المعلن ما انطوت عليه عقيدتكم من انتصار المجاهدين وحماية ثغور المسلمين ، ذلك منوط بدعائكم والارشاد بهداكم ، والذى علينا تمام الجد وبذل الجهد ومن الله نستمد التوفيق • أما حالتنا الحاضرة فكما يحب الله وتحبون ، وان مصادمة الجيش العربى مع القوة المعادية في الحلة ليست أخبارها كما بلغتكم ، وما آفة الاخبار الا رواتها وهاك حقيقتها :

مولاي • وردتنا مكاتيب من ألبو سلطان تريد الهجوم على الحلة في تلك الليلة كما ذكرتم وهي ليلة الاحد المصادف ١٥ ذي القعدة ١٣٣٨ ، وطبق خطتهم يكون هجومهم مما يليهم ويكون هجومنا مما يلينا حتى يكون الهجوم عموميا والظفر من الله • بعد هذا الترتيب نحن حشدنا للهجوم ولكن ويا للاسف ان الوضعية من ألبو سلطان تغيرت من دون أشعارنا حيث أنهم قد منعهم خبر وصول قوة الديوانية اليهم ـ يقصد حامية الديوانية التى انسحبت بالقطار ـ فتأخروا لملاقاته لسوء التفاهم الذى حصل بينهم وبين المخبر الذى اخبرهم ان القوة صارت قريبة منهم ، والامر بعكس ما جرى •

أما القوة العائدة لنا فقد هجمت هجوما عربيا وأزالت القوة العسكرية من مراكزها حتى دخلت الحلة ، الى أن أصبح الصباح واتضح لنا عدم هجوم ألبو سلطان امرنا بسحب قواتنا منصورين مؤيدين • وأما ما أشرتم اليه من الصواب من أن تأخذ القوات خلف أقدام الجيش البرى ، هذا مضر كما أشرتم ، ولكن لم تتخلف قوة عسكرية الا وهى على رمق من الحياة ، حيث ان الجيش قد أحاطت به قوة عربية تبلغ ستة عشر ألف مقاتل والآن على وشك الاضمحلال • أما قوة الديوانية ـ يقصد حامية الديوانية المنسحبة بالقطار ـ التى سارت العشائر معها ، فانها لم تجر ميلا الا وفقدت ألف قتيل ، ومن المحال أن يصل منها الى الحلة مخبر • وكذلك

الحلة عند الفراغ من تلك القوة فهي بنظر السقوط طبقا لقوة مرابطيها من العشائر المجاهدين الذين لايهمهم الا خدمة شريعة سيد المرسلين وحماية ثغور المسلمين •

عبدالواحد الحاج سكر وعبادى ومرزوك يقبلون اياديكم • وكذلك شعلان الجبر يقبل اياديكم • ودمتم مؤيدين •

٢٠ ذي القعدة ١٣٣٨ السيد علوان السيد عباس[٣١]

الجريان والزنبور :

كان عداي الجريان رئيس ألبو سلطان وعمران الزنبور رئيس بني عجيل من الرؤساء الموالين للانكليز في منطقة الحلة ، وقد اشار الى ذلك الدكتور سندرسن الذى كان طبيبا عسكريا في الحلة اثناء الثورة • فهو يقول عنهما في مذكراته : انهما كانا يزورانه كل يوم تقريبا قبل معركة الرارنجية ، في بيته تارة وفى المستشفى تارة اخرى ، ليكلماه عن الوضع المتأزم الذى كان سائدا آنذاك ، وكانا يطلبان منه ان يبلغ كلامهما الى حاكم الحلة السياسى الميجر بولي ، فهما لايحبان الذهاب بنفسيهما الى بولي لكي لاتلتصق بهما تهمة التعاون مع الانكليز ، وهما ينصحان بولي أن لاينخدع بالمظاهر الزائفة التى كان بعض الرؤساء يتظاهرون بها ليأخذوا الاسلحة منه ، فان هذه الاسلحة سوف يستخدمها الرؤساء في محاربة الانكليز • ويقول سندرسن في مذكراته أنه سأل عداي وعمران عن اسماء هؤلاء الرؤساء المخادعين ، فذكراها له ، وقام سندرسن بابلاغ بولي بتلك الاسماء[٣٢] •

كان لعداي الجريان خصم ينافسه في رئاسة البوسلطان هو شخير الهيمص ، وقد انضم شخير الى الثورة وأخلص لها • وعندما أعد الثوار خطة الهجوم على الحلة نيطت بشخير مهاجمة الحلة من الجانب الشرقي ،

---

(٣١) المصدر السابق ــ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ •
(32) Sinderson (op. cit.) - P. 47 - 48.

ولكنه لم يوفق في هجومه لان عداي الجريان وعمران الزنبور وقفا حجر عثرة في طريقه[٣٣] .

ومن الطريف ان ننقل في هذه المناسبة ما ذكره صلال الفاضل في مذكرته الجوابية عن عمران الزنبور ، وهذا نصه :

« بينما نحن فى حصار الحلة اذ جاءتنا رسالة من الشيخ عجيل السمرمد رئيس عشائر زبيد في الصويرة موجهة الي يقول فيها : اذا خرجت الى دار عمران الزنبور اياك أن تأكل شيئاً أو تشرب عندهم ماء او قهوة او لبنا حيث قد أرسل اليك عمران سما مع أحد جماعته الى وكيله ملا كاظم الذى في محله ليدسه لك . وبعد أن أطلع ابناء العشائر التى معنا على هذه الرسالة هجموا على منازل عمران فأحرقوا مضيفه وداره أما هو فكان مع الانكليز في مدينة الحلة »[٣٤] .

ما بعد الحلة :

توجهت جموع الثوار بعد معركة الحلة نحو سدة الهندية فاحتلتها بلا مقاومة في ٥ آب ، ثم توجهت بعد ذلك نحو بلدة المسيب فاحتلتها كذلك. وقد اهتم هالدين كثيرا لاحتلال هذين الموقعين المهمين من قبل الثوار ، فهو يقول فى كتابه : ان الخطر اصبح يهدد بغداد التى لم تكن آنذاك قد تم تحصينها ، وبدأ الثوار يشنون هجماتهم على سكة الحديد التى تربط الحلة بالعاصمة[٣٥] .

كانت حامية الديوانية التي انسحبت بالقطار قد وصلت الى الحلة في ٩ آب ، وكانت عند وصولها في أشد الحاجة الى الراحة ، ولكن هالدين وجد من الضروري تحريكها بسرعة لاسترداد المسيب والسدة ، فان الوضع لايسمح بالتأخير . ففي عصر اليوم نفسه تحرك من الحلة رتل بقيادة

---

(٣٣) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٢٧١ .
(٣٤) المصدر السابق ــ ص ٥٦٦ .
(35) Haldane (op. cit.) - P. 142.

الجنرال ووكر متوجها نحو المسيب ، وفي اليوم التالي تحرك رتل آخر بقيادة الكولونيل سكوت .

دافع أهل المسيب عن بلدتهم ببسالة ، وعاونهم في ذلك فريق من العشائر ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود تجاه الرتل الانكليزي . وقد تمكن الرتل من اعادة احتلال المسيب في ١٢ آب ، ثم توجه بعدئذ نحو السدة وجرت بينه وبين الثوار معركة ضارية انتهت بهزيمة الثوار بعد ان تكبدوا خمسين قتيلا واكثر من ثمانين جريحا(٣٦) .

بعد استرداد السدة زحفت قوة انكليزية باتجاه كربلاء ، ولكنها عند وصولها الى مقربة من نهر الحسينية تصدى لها جمع من الثوار بقيادة مرزوق العواد ، وجاءت الى الثوار نجدة من العشائر المرابطة في طويريج بقيادة عبدالكاظم الحاج سكر . وجرت معركة ضارية تكبد الفريقان فيها خسائر فادحة . وقد اضطرت القوة الانكليزية الى الانسحاب .

وقعت هذه المعركة في ١٤ آب . ولا يعيرها هالدين اهمية كبيرة في كتابه ، فهو يقول عنها : ان رتلا انكليزيا صغيرا كان يتحرك على ضفتي نهر الحسينية ، فتصدى له عدد كبير من الثوار ، ولكنهم مُنوا بخسائر فادحة جعلتهم لايتدخلون بعدئذ في حركات الرتلين(٣٧) .

اما الثوار فقد اعتبروا تلك المعركة نصرا عظيما لهم ، ومن هوساتهم التي أطلقوها استبشارا بالنصر قولهم : « بالسيك مبربع واويهـا » و « ياللا يتگابل رديته »(٣٨) . ويروى ان امرأة من عشيرة العوابد حين رأت كثرة القتلى من رجالها في ساحة المعركة أخذت تولول وتبكي وقالت تخاطب رئيس العشيرة مرزوق العواد « انكتلت رجالي يامرزوك » ، فانتهرها على بكائها وقال لها : « هلهلي والله اذا بقيت على قيد الحياة فلن تبقى عابدية ذات زوج الا وهي ارملة » . فانبرت امرأة اخرى من العشيرة نفسهـا

---

(٣٦) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٢٧٧ .
(37) Haldane (op. cit.) - P. 147.

(٣٨) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٢٧٧ ــ ٢٧٨ .

وهوست مجاراة لرئيسها حيث قالت : « يا موت اطحن وانا الهي لك »[٣٩]. ويقال ان مرزوق العواد هو الذى اطلق هذه الهوسة[٤٠] .

جبهة الوند :

يطلق اسم « الوند » على المقاطعة الواقعة فى منتصف الطريق بين المسيب وكربلاء ، ويوجد فيها قصر او قلعة قديمة . وقد تجمع الثوار فى هذه المقاطعة بعد معركة الحسينية والسدة ، حيث جعلوها معسكرا لهم يبعثون منه الجماعة تلو الاخرى لمناوشة الانكليز في السدة وحول ناظم الحسينية .

يمكن القول أنه لم تقع أية معركة مهمة في جبهة الوند طيلة الايام الباقية من الثورة . يقول علي البازركان : « لقد مكثت في كربلا مدة طويلة من الزمن وكنت أتردد حينئذ على طويريج ونهر الوند الذى رابطت فيه العشائر المحاربة ، فلم أر أي حركات حربية مهمة اللهم الا الهوسات والاهازيج ليلا ونهارا »[٤١]. ويروي البازركان انه التقى بالسيد قاطع العوادي الذى كان يكثر من التنقل بين المحاربين في جبهات القتال ، وسأله عما شاهده فيها ، فأخذ السيد قاطع ينتقد رؤساء العشائر القائمين بالحرب في تلك الجبهات ، وقال ان كل اعمالهم هي الهوسات والدبكات واجتماعات « البصيرة » اى الاجتماعات التى يعقدها الرؤساء للمذاكرة ...[٤٢] .

يبدو ان العشائر قد أنهكتها المعارك السابقة في الرارنجية والحلة والمسيب والسدة والحسينية ، ولعلها وجدت ان قيامها بمعارك جديدة لا تنتج سوى زيادة في الضحايا ، فركنت الى الراحة ، ولكنها بقيت تتظاهر بتصميمها على القتال عن طريق الهوسات والدبكات .

---

(٣٩) تحسين العسكري (مذكراتي) ــ النجف ١٩٣٨ ــ ج ٢ ــ ص ١٨٣ .
(٤٠) فراتي (المصدر السابق) ــ ص ١٣٢ .
(٤١) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ــ بغداد ١٩٥٤ ــ ص ١٦٢ .
(٤٢) المصدر السابق ــ ص ١٥٧ ــ ١٥٨ .

الفصل السابع عشر

عشائر بني حجيم تواصل القتال

يطلق اسم « بني حجيم » على مجموعة كبيرة من العشائر تقطن في منطقة السماوة ، او ما يسمى الآن بـ « محافظة المثنى » ، وهي تشمل عشائر الرميثة التي انطلقت منها شرارة الثورة في ٣٠ حزيران ، كما تشمل العشائر التى تقطن الى الجنوب منها حول بلدة السماوة والخضر .

تميز عشائر بني حجيم عن عشائر المشخاب والشامية وغيرها من عشائر الفرات الاوسط بأنها أقرب الى البداوة واكثر تمسكا بالتقاليد القبلية الموروثة وبعدا عن نعومة الحضارة وترفها . فهى تعيش على البساطة والكفاف والخشونة ، ومعظم أفرادها يعيشون على تربية الابل والغنم[١] .

تقول المس بيل في وصف بني حجيم مانصه :

« فقد كانت مجموعة قبائل بني حجيم الممتدة من الرميثة الى السماوة، وعلى طول الفرات الى الدراجي ، غير خاضعة بالمرة لاية سلطة مدنية . وعندما استولينا على السماوة في كانون الاول ١٩١٧ كانت هذه المجموعة مثالا للتفكك القبائلي . ولم تكن معظم هذه الجماعات متخاصمة بعضها مع بعض فقط بل كانت متجزئة الى أقسام يحارب بعضها بعضاً . وكانت تتحدى السلطات العثمانية مدة سنين عديدة قبل الحرب ، واذا كنا قد نجحنا فى فرض بعض التهدئة هناك فان الامن لم يستتب استتبابا تاما . ومع أن جباية الواردات الحكومية كانت بمقياس أخف هنا بالنسبة لنواحي الديوانية الاخرى فان عملية تخمين الحاصلات وقياسها كانت تقاوم ، وكثيرا ما كانت تتراكم بقايا الديون الحكومية في هذه الجهات ... »[٢]

---

(١) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ ـ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

(٢) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٤٤ .

في الوقت الذى كانت فيه جبهات الوند وطويريج والكوفة هادئـة على نحو ما أشرنا اليه في الفصل السابق كانت عشائر بني حجيم تواصل القتال بلا هوادة ، وقد ظلت كذلك حتى بعد استسلام العشائر الاخرى ، وهي لم تلق سلاحها الابشروط فرضتها على الانكليز ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

معركة الخضر :

الخضر قرية عشائرية صغيرة تقع على ضفة الفرات اليسرى على بعد عشرين ميلا من جنوب السماوة ، وكان فيها محطة للقطار ذات اهمية خاصة لانها كانت المحطة الوحيدة التى تجهز القطار بالماء فيما بين السماوة والناصرية ، وكانت المحطة تضم بالاضافة الى موظفيها وعمالها حامية مؤلفة من ٧٥ رجل من الشبانة بقيادة الملازم سمبسون .

كانت العشائر القاطنة بين الرميثة والسماوة قد بدأت تتحفز للانضمام للثورة منذ ٣ تموز ، أما منطقة الخضر فكانت هادئة نسبيا ، وكان مدير المحطة قد تمتع هو وموظفوه بحماية عشيرة ألبوريشه القاطنة بالقـــرب من المحطة وهي فخذ من الجوابر[٣] .

في ٣٠ تموز وصل الى منطقة الخضر السيد هادي المقوطر قادما من النجف وأخذ يدعو العشائر الى قتـال الكفار والجهاد في سبيل الله[٤] . ومنذ ذلك الحين أخذت العشائر تخرب السكة الحـــديدية وخطوط التلغراف مما اضطر الانكليز الى ارسال البواخر الحـــربية والقطارات المدرعة لحماية السكة والخطوط .

وفي ١٠ آب بينما كانت الباخرة الحربية « غرين فلاي » تمخر النهر قادمة من السماوة جنحت في الطين على بعد خمسة اميال من الخضر .

---

(3) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 - P. 194 - 195.

(٤) آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيـــروت ١٩٤٩ ـ ص ٢٠٨ .

فتوقفت عن السير • وقد بذل الانكليز جهودا مضنية لانقاذها دون جدوى• واتهزت العشائر تلك الفرصة وصارت ترمي الباخرة بوابل من نيران بنادقها بلا توقف • ثم عطفت العشائر نحو المحطة وأخذت ترميها بنيران بنادقها كذلك •

أبرق الجنرال نيبان من الناصرية الى هالدين في بغداد يخبره بأن العشائر التى تجمعت حول محطة الخضر يبلغ مجموع أفرادها الالفين ، وهو يستفهم منه هل ينجد الحامية ويساعدها على الصمود أم يأمرهـــا بالانسحاب الى الناصرية • وكان الحاكم السياسي في المنطقة ينصح بانجاد الحامية وتقويتها ، لانه يعتقد ان انسحاب الحامية يجعل حامية السماوة في عزلة كما انه قد يؤدي الى تهديد الناصرية والى تشجيع عشائر المنتفق على الثورة • ولكن هالدين لم يصغ لنصيحته وأصدر أمره بانسحاب الحامية الى الناصرية بلا تردد(٥) •

كان في محطة الخضر آنذاك قطار عادى وقطاران مدرعان ، وكانت خطة الانسحاب أن يتحرك القطار العادى في المقدمة وهو يحمل رجال الحامية مع الموظفين والعمال على ان يتلوه القطاران المدرعان لحمايته من الخلف • وفى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر ١٣ آب تحرك القطار من المحطة ، وكان الثوار قد اقتربوا منه يرمونه بنيران بنادقهم • يقول هالدين : « بعد دقائق قليلة ، ولسبب غير معروف اندفع القطار المدرع الاول بقوة نحو القطار العادى الذى كان أمامه فأدى ذلك الى خـــروج بعض عرباته عن السكة ••• وحدث من جراء ذلك اضطراب عظيم ••• فان العربات التى خرجت عن السكة وقفت حائلا دون سير القطارين المدرعين، واصبح من الضروري تركهما في المحطة • وازدحم الجنود والعمـــال والموظفون كلهم في عربات القطار العادي الذي غادر المحطـة وحـــده • وقد وصل هذا القطار الى محطة اور سالما فى الساعة التاسعة والنصـــف مساءاً »(٦) •

---

(5) Haldane (op. cit.) - P. 196.

(6) Ibid. P. 198.

كان في احدى العربات المتروكة سبعة عشر رجلا من جنود الكركة، وكان قد أوعز اليهم بالوثوب منها للحاق برجال الحامية في القطار العادي ، غير أنهم لم ينجحوا في وثوبهم فوقعوا في أيدي الثوار وقد وجدت جماجمهم بعدئذ مرتبة في صف واحد في القرية(٧) .

حصل الثوار على غنائم كثيرة عند استيلائهم على المحطة والقطارين المدرعين ، وكان من اهم تلك الغنائم مدفع من عيار ١٣ رطل ، ولكنهم وجدوا ابرته مفقودة لان أحد الجنود أخذها معه وفر هاربا . وقد استطاع شاب من الثوار ان يظفر بالجندي ، فقتله واسترد الابرة منه ، وجاء بها الى الشيخ عزاره المعجون ، فمنحه الشيخ مكافأة نقدية(٨) .

رسالة وجوابها :

على أثر انتهاء معركة الخضر كتب اثنان من رؤساء الثوار الى الشيخ فتح الله الاصفهاني في النجف رسالة يصفان فيها انتصارهم في المعركة .

وهذا نصها :

جناب مولانا وملاذنا حضرة شيخنا حجة الاسلام شيخ الشريعة دامت بركاته على كافة الانام .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أعلم حضرتكم وأبشركم من خصوص قوة العدو شرق السماوة المتحكمة في محطة سيدنا الخضر البالغة قوتها ٣٠٠ نفر بيادة فقد وقعت المصادمة من قبل بني احكيم وفرقة آل زياد يوم الخميس ويوم الجمعة رغما عن قوته المذكورة الراجلة واربعة مراكب اثنان منها أبو سلة واثنان ماطورات حربية . وأما ماطورات أبو سلة فقد أسقطنا واحد واخذنا مافيه من الجبخانة والطواب والاسلحة والثاني خربنا آلته برمي الرصاص وبقي متوسط الماء لايغرب ولا ينحدر ،

---

(7) Loc. cit.

(٨) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ٤٧٨ ٤٧٩ .

ولنا الامل بالله عزوجل أنه يسقط • ومن الريلات اثنين واحد رجع فارا الى الناصرية والثاني مدرع ألقيناه مجندل على الارض وقد أخذنا ما فيه غنائم لاتحصى من اسلحة وجبخانة ورشاشات وطوب دان واحد مع جبخانة كافية • ورأينا ابرة المدفع مخفية ، وبموجب الاخبار الموثوقة ان الابرة التقت عند عشيرة من عشيرة العبس يقال لها ألبو حاوللى ان شاء الله تعالى يكون جيد الى الاستعمال • بعد هذا نعرف حضرتكم عن ما يكون من استعمال المدافع الصالح منها والخراب • وأرسلنا ٥٠٠ خيال مع سكة الريل الى محل يقال له المكير ، فمن الخضر الى المكير جميع النقاط أخذت ، واليوم موجود الاسرى بلغ خمس وثلاثون ماعدا القتلى الذين لاحساب لهم ، وما بقي عندنا سوى قوة السماوة بقيت تحت المحاصرة ان شاء الله تعالى عن قريب نبشركم عن اتلافها • هذا ماوجب عرضه لحضرتكم ونرجو دعائكم عند مولانا امير المؤمنين عليه السلام • والسلام عليكم وعلى جميع علمائنا الكرام • وننتظر بشائركم بموفقيت اخواننا المجاهدين عشائر النجف واهاليها ونحن في غاية التأسف لعدم الموفقية التى جعلت القوة المحصورة فى اراضي الكوفة انها باقية الى هذا اليوم مع هذا نسأل الله تعالى ان يوفق اخواننا المجاهدين على اتلاف العدو ودمتم مؤيدين الى الخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته • حرر يوم السبت ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ •

خادمكم رئيس آل زياد فرقة الدراوشة — رئيس آل زياد

هداد المجرم — جديع المرزوك[٩]

وبعد أيام من ارسال هذه الرسالة وصلت من الاصفهاني الى السيد هادي المقوطر الرسالة التالية :

بسم لله وله الحمد

جناب السيد الماجد الناصر المجاهد السيد هادي آل مكوطر لا زال محروسا •

بعد السلام عليك وعلى جميع المشائخ المحترمين المجاهدين المدافعين

---

(٩) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ١٦١ •

معك ورحمة الله وبركاته • لا يخفاك أنه وردنا من ناحيتكم كتاب بامضاء مشايخ آل زياد حرسهم الله بحفظه • وفيه ذكر المصادمة الواقعة بينهم وبين عدو الاسلام والمسلمين شرقي السماوة والبشارة بانكسار قوته وانتصار المسلمين عليه • فسرنا والله ذلك وسئلنا الله لكم دوام النصر شرق السماوة وغربها وفي كل مكان توجهتم اليه نصراً عزيزاً في القريب العاجل انه ولي ذلك والقادر عليه • هذا وان من أهم وصاياي لك أولا أن تبذل غاية جهدك في تأليف المسلمين وجمع كلمتهم حتى تحصل المعاونة والمعاضدة وتتحقق القوة وكيف لا يتساعدوا وهم في الحقيقة أعضاء جسم واحد واني لا أرضى الا أن يكونوا كما قال الله تعالى اشداء على الكفار رحماء بينهم • وثانيا أن تحتفظ بآلات الحرب التي لا توجد عند العشائر كمدافع الدان وجبخانتها والقذائف والمكائن والقنابل اليدوية والفلك ذوات الماكينة والعربايين وما يتعلق بها ونحو ذلك من أسباب سرعة النقل وشدة التدبير فان ذلك أنفع للمسلمين من كل غنيمة لانه يجر غنائم كثيرة وتتبعه فتوح كبيرة وأنتم بذلك أعرف • ثم ان هذه مكاتيب ستة تصلك لفاً توصلها وتدفعها الى مشايخ آل زياد واني آمل ان كل طائفة تقوم بالدفاع الفعلي وتتأيد بمثل ذلك النصر الباهر أن تعرفني هي بنفسها عما قامت به من الاعمال المشكورة لتختص منا بالدعاء ومزيد العناية من رب السماء وليزداد سروري وسرور جميع المسلمين فانهم يرتلون على الدوام آيات الثناء والدعاء لمشايخ الدهلة والعشائر المشايعة لهم في وقائع الأبيّض فشكر الله سعي الجميع وجزاهم عن الاسلام وأهله خير الجزاء • وحيث طلبتم البشائر بموفقية اخوانكم المجاهدين لدينا فستأتيكم انشاء الله جميع المنشورات المطبوعة في أفعالهم لتزيدكم سروراً وفرحاً • وأما الأرض المقدسة فقريباً تطهر من الارجاس انشاء الله • وأما أهل النجف فهم بين واقف في خطط الحرب وبين متهيء للحوق بالمحاربين ولا يبقى على الظاهر غير المعذورين والقائمين بمصالح المسلمين • هذا واني عازم أن ارسل اليك العالمين العاملين السيد محمد الخلخالي والشيخ الميرزا محمد

رضا الايرواني ليعيناك على تعميم الدعوة وتبليغ النصح وهما من العلماء الاخيار الثقات عندنا المعتمدين لدينا وعلى كل حال يكون طريقهما عليك فان شئت فاستبقهما عندك ينتفع بهما جند الاسلام بالصلاة والمسئلة والفتوى وان شئت وجهتهما الى أي مكان تريد واني تركت سبيلهما وسهلت لهما الطريق الى ما يريدان • وفي الختام أعيد سلامي لك ولجميع المجاهدين واسئل الله جل شأنه أن يؤيدهم بعونه وتوفيقه آمين بمحمد وآله الطاهرين • في ٤ ذي الحجة ١٣٣٨ • حرر عن الجاني شيخ الشريعة الاصفهاني[١٠] •

معركة البواخر :

كانت حامية السماوة مؤلفة من قسمين ، أحدهما وهو الرئيسي كان بقيادة الكولونيل هاي وقد عسكر على النهر في موضع يسمى « شاطي حسيجة » يبعد عن بلدة السماوة بنحو ميل ونصف الميل شمالا ، أما القسم الثاني فكان بقيادة الكابتن رسل وقد عسكر حول محطة القطار التي تبعد عن سور البلدة بنحو ١٨٠ مترا •

وكان الانكليز قد أخلوا بلدة السماوة ، ولهذا صارت تحكم نفسها بنفسها على الطريقة العشائرية ، فكان القسم الغربي منها يحكمه الشيخ رباط السلمان ، بينما القسم الشرقي يحكمه السيد طفار ، ويقال عن السيد طفار انه كان مؤيدا للانكليز في قلبه ولكنه كان يتظاهر بتأييد الثورة تحت تأثير الرأي العام •

عندما انسحب الانكليز من محطة الخضر في ١٣ آب أصبحت حامية السماوة بكلا قسميها مطوقة ومعزولة ، وأخذ الثوار يضيقون عليها الحصار يوما بعد يوم ، فاضطرت القيادة الانكليزية الى وضع خطة لامداد الحامية بالمؤن والاعتدة •

أعدت في الناصرية خمس بواخر لامداد الحامية المحصورة كانت

---

(١٠) عبدالله فياض (الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٧٤ ـ ص ٣٤٨ •

ثلاث منها حربية هي : « غري فلاي » و « سو فلاي » و « ستون فلاي »[١١] ، واثنتان عاديتان تسحب كل منهما جنيبتين • وقد تحركت هذه القافلة النهرية من الناصرية في ٢٦ آب ١٩٢٠ متجهة نحو السماوة ، وكانت بقيادة الكابتن سفولك •

سارت القافلة بسلام حتى وصلت الى مقربة من الخضر ، وهناك بدأ الرصاص ينهمر عليها من الضفتين انهماراً شديداً • ولم تكد تجتاز الخضر حتى اندلعت النار في محرك احدى الباخرتين العاديتين مما اضطرها الى الجنوح الى الشاطيء • وعند هذا صعد الثوار الى الباخرة المعطوبة ، فجرى بينهم وبين جنودها قتال عنيف انتهى بقتل أكثرهم ، وكانت خسارة الثوار نحو مائة قتيل • وبعد انتهاء القتال نهب الثوار الباخرة والجنيبتين ثم أضرموا النار فيها[١٢] •

وفي صباح اليوم التالي انسحبت الباخرة « ستون فلاي » عائدة الى الناصرية ، أما بقية القافلة فقد واصلت السير نحو السماوة تحت وابل من نيران الثوار • وحين وصلت القافلة الى بعد ميلين من السماوة أصيبت أحدى الجنيبتين الباقيتين بعطب ، فاضطرت القافلة الى تركها طعمة للثوار ، وظلت هي تواصل السير حتى تمكنت من الوصول الى الحامية • وكان وصولها على الرغم من خسائرها الكبيرة سببا في تقوية عزائم الحامية • وقد منح الكابتن سفولك فيما بعد وسام الصليب العسكرى مكافأة له[١٣] •

ننقل فيما يلي نص رسالة بعث بها الثوار الى الشيخ فتح الله الاصفهاني يصفون فيها معركة البواخر :

لحضرة آية الله شيخ الشريعة سلمه الله تعالى •

بعد تقبيل أيادي مولانا حجة الاسلام ومرجع الخاص والعام شيخ

---

(١١) معناها على التوالي : الذبابة الشهباء والذبابة المنشارية وذبابة الحجر •

(١٢) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ــ ص ٤٨٨ •

(13) Haldane (op. cit.) - P. 202.

الشريعة دام ظله • ثم مولانا لا يخفاكم نبشركم بشارة عظيمة يوم الجمعة الموافق ١٢ ذي الحجة جاءتنا خمسة مراكب كبار أمهات السلة من الناصرية فاستقبلهن الاسلام وهم عشائر الجوابر جميعا وأهل الخضر الى شرقي الخضر في مكان يقال له الصافي ، فصاروا له صوبين على الفرات وثار عليهن التفك من الاسلام المذكورين والمراكب يضربن بالطواب الكبار والرشاشات ، والاسلام غير مبالين ثابتين حتى اختطفوا منهن مركبا كبيرا فيه مدافع ورشاشات وتفك وذخائر ، وقتلوا الاغلب وأسروا الباقي، والاربعة الباقيات وقف منهن واحد والعشائر محاصرته ، وحسب الظاهر تريد الى المسكر المحاصر بالسماوة • وان شاء الله هذه الواقعة تحرك كل من لم يقم من العشائر الساكنة • بشروا المسلمين الذين عندكم • والمركب المأسور أحرقناه في النار لمّ يبقى له أثر والسلام• ١٢ ذي الحجة ١٣٣٨•

الاحقر	رئيس الجوابر	رئيس الجوابر
عبد علي الشيخ حيدر	حاج صفر المجيرب	حاج مهدي المجيرب(١٤)

معركة المحطة :

أخذ الثوار عقب معركة البواخر يشددون الحصار على حامية المحطة ، وبدأت النيران تنهمر عليها بكثافة من فوق سور السماوة ، فأصيبت صهاريج الماء بعطب مما جعل الحامية في مأزق حرج لانقطاع الماء عنها •

أوعز آمر الحامية بحفر بئر في داخل المحطة ، ولكن ماء البئر ظهر مالحاً لا يصلح للشرب ، فأرسل الآمر الى رئيسه الكولونيل هاي في شاطي حسيجة يخبره بأنه مضطر الى اخلاء المحطة اذا استمر حصاره أكثر من أربعة أيام • فتم الاتفاق بينهما على وضع خطة لانسحاب الحامية من المحطة في ٣ ايلول بالتعاون مع طائرات تأتي من بغداد •

وفي اليوم المعين شُرع بتنفيذ الخطة ، وجمع كل مافي المحطة من

(١٤) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٤٨٩ •

رجال واسلحة في قطار مدرع ، ثم تحرك القطار متجها نحو المعسكر الرئيسي في حسيجة ، غير أنه لم يكد يسير قليلا حتى توقفت القاطرة عن الحركة لعطل أصابها ، أو لعطل أصاب المحولة ، من جراء النيران الكثيفة التي كان الثوار يوجهونها عليهما • وعند هذا هجم الثوار على القطار ، فبدأت معركة تعد أشد معارك الثورة ضراوة وأكثرها خسائر من الفريقين •

أبدى الثوار استبسالا في هذه المعركة منقطع النظير ، فكانوا يهجمون على القطار غير مكترثين للموت ، واشتهر فى ذلك آل حاچم الذين كانوا يتساقطون تحت النيران المنهمرة عليهم واحداً بعد الآخر[١٥] • وقد قدر عدد القتلى من الثوار بأربعمائة كان فيهم عدد من الرؤساء • أما الجرحى فلم يعرف عددهم ، ويقال ان ماء الفرات القريب من المعركة صار مصبوغا بالدم بحيث تعذر الشرب منه بضع ساعات[١٦] •

كان في القطار طبيب عسكري اسمه الكابتن ييجين ، وقد قام هذا الطبيب في أثناء المعركة بمكيدة أدت الى مقتل عدد كبير من الثوار ، وهى أنه ألقى من القطار نقودا ورقية من فئة العشر روبيات ، ولما تهافت الثوار على النقود لالتقاطها قذف عليهم قنابل يدوية مزقتهم تمزيقا[١٧] •

كانت حامية المحطة تضم حسب تقدير هالدين نحو مائة وخمسين رجلا[١٨] ، غير ان الثوار كانوا يقدرونها بما يزيد على الالفين[١٩] • وعلى أي حال فان أفراد الحامية هلكوا جميعا ولم ينج منهم سوى رجلين وقعا أسيرين في أيدي الثوار • وكانت غنائم الثوار جسيمة بينها قطار

---

(١٥) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ١٣٧ •

(١٦) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٤٧٦ـ٤٧٧ •

(17) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 294.

(18) Haldane (op. cit.) - P. 208.

(١٩) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٤٧٥ •

مدرع[٢٠] •

أرسل السيد هادي المقوطر الى الكولونيل هاي ثلاث رسائل يدعوه الى الاستسلام ويتعهد له بعدم مس الحامية الرئيسية التي تحت أمرته بأذى • فلم يرسل هاي اليه جوابا ، وصمم على الصمود الى النهاية ، وأمر بتخفيض جراية الطعام اليومية المخصصة لجنوده الى النصف • وقد دام حصار الحامية نحو شهرين ، الى أن تم انقاذها في ١٤ تشرين الثاني — كما سنأتي اليه في حينه •

سامي النقشلي :

مما يجدر ذكره في هذا الشأن ان عددا من الضباط العراقيين من بقايا الجيش العثماني قد تطوعوا لخدمة الثورة ، فذهب واحد منهم الى ديالى هو شاكر محمود قنبر علي وكان في صحبته سامي خوندة ، أما الآخرون فقد ذهبوا الى الفرات الاوسط وهم : حسين علوان الدوري وشاكر القرغولي ومحمود رامز واسماعيل حقي الاغا ومحمود سامي وسعيد حقي وفؤاد المدفعي وطالب الجدة وابراهيم مهدي وسامي النقشلي وزكي أمين الكردي •

اشتهر من هؤلاء الضباط اثنان لما قاما به من اعمال باهرة في الثورة ، أحدهما حسين علوان الدوري وكان مقره في الكوفة وسنأتي الى ذكر ما قام به من اعمال في حينه ، والثاني هو سامي النقشلي وقد التحق بثوار بني حجيم في منطقة السماوة والخضر •

ان سامي النقشلي ضابط بغدادي من أصل تركي ، وكان في أثناء الحرب الاولى ضابط رشاش وقد شارك في معركة جناق قلعة المشهورة ، وحين تطوع في الثورة انتحل لنفسه اسم « محمود التركي » خوفا من أن ينتقم الانكليز من أهله في بغداد[٢١] • وقد اخلص للثورة وبذل فيها جهودا كبيرة ظل الثوار في منطقة السماوة يلهجون بها مدة غير قصيرة •

---

(٢٠) جريدة (العراق) — في عددها الصادر في ٦ ايلول ١٩٢٠ •
(٢١) عبدالله فياض (المصدر السابق) — ص ٢٩٥ •

كان من جملة غنائم الثوار في منطقة السماوة مدفعان وعدد كبير من القنابل اليدوية وقنابل المدفعية • وقد تمكن النقشلي ان ينصب أحد المدفعين فوق كورة تقع في شمال بلدة السماوة لضرب المعسكر الانكليــزي في شاطيء حسيجة ، ونصب المدفع الثاني في الجانب الآخر من النهر للغرض نفسه •

ويروي النقشلي قصة جاسوس من أصل ايراني اسمه رضا كان الانكليز قد أرسلوه ليلا مع زميل له لتخريب أحد المدفعين • وقد تمكن النقشلي من القبض عليه فعثر في حوزته على رسالة باللغة الانكليزية عليها توقيع سيد من رؤساء السماوة • لم يذكر النقشلي اسم هذا السيد ، ولكنه يقول بأن الرسالة مكتوبة بخط رجل يهودي كان موظفا في القطار ثم التجأ دخيلا الى السيد عند قيام الثورة • ولما اطلع السيد هادي المقوطر على الرسالة ارتأى أن من المصلحة العامة كتمان اسم السيد واسم اليهودي الملتجيء عنده ، على أن ينالا عقابهما في وقت آخر • أما الجاســـوس المقبوض عليه فقد تقرر قتله ، وعند هذا تناولته الايدي بالضرب حتى مات فسحبت جثته في طرقات الســـماوة لكي يكون عبرة لغـــيره مـــن الجواسيس[٢٢] •

وجد النقشلي صعوبة في تدريب أبناء العشائر على استعمال القنابل اليدوية التي كانت من جملة الغنائم ، وكانت كثيرة لديهم ، فهم كانوا يكرهون القنبلة اليدوية ويسمونها « العقرب » ويرفضون اســتعمالها • والتجأ النقشلي أخيرا الى حيلة من أجل ترغيبهم بها ، وهي باســتعمال القنابل في صيد السمك ، فأخذ يقذف بها الى النهر واحدة بعد الاخـرى مما ادى الى حصولهم على سمك كثير • وعند هذا أقبلوا على اســتعمال القنابل بشوق كبير ، واستطاع النقشلي أن يؤلف منهم فصيلا لقذف القنابل اليدوية على الانكليز[٢٣] •

---

(٢٢) محمد علي كمال‌الدين (معلومات ومشاهدات) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ •

(٢٣) المصدر السابق ـ ص ٢٦٦ •

مصير « غرين فلاي » :

ان الباخرة « غرين فلاي » التي جنحت في الطين في ١٠ آب ظل بحارتها صامدين تجاه الحصار الشديد الذي سلطه الثوار عليهم • وقد حاول الانكليز تموينها بواسطة الطائرات في بعض الأحيان ، فكانت الطائرات ترمي اليهم اكياس الطعام والحاجات الاخرى ، فيسقط بعض الأكياس على الباخرة بينما يسقط البعض الآخر في الماء •

كان الثوار يواصلون رمي الباخرة بنيران بنادقهم ، كما كانوا يقذفونها بالقنابل اليدوية التي دربهم عليها سامي النقشلي • وفي ٢٢ آب تمكن احد الثوار من اسقاط احدى الطائرات التي كانت تلقي أكياس المؤن على الباخرة • وشوهد سائق الطائرة وراصدها يخوضان النهر متجهين نحو الشاطيء[٢٤] ، ولكنهما عند وصولهما اليه قبض الثوار عليهما وقتلوهما[٢٥] •

في ٣٠ أيلول كتب ربان الباخرة الملازم هدجر الى حاكم الناصرية رسالة يصف فيها حالته وحالة البحارة جاء فيها قوله : « ان الطعام قضيتنا الكبرى في الباخرة ، واني آمل ان تتمكن من الصمود في حالة نجاح تدبيركم • وفي الحقيقة ان حالة البحارة حسنة جداً اذا أخذنا بنظر الاعتبار ما نعانيه جميعاً من شحة قاسية في الطعام • ان معنوياتنا ما زالت عالية وان كنا نشعر بالاكتئاب في بعض الاحيان • ان تسلم رسالتكم والاطلاع على الاحداث ساعدنا جميعاً في الواقع • قد فقدنا هندياً واحداً وأصيب بريطاني بجرح بليغ • يضاف الى ذلك وجود هندي جريح وثلاثة أو أربعة مرضى من شدة الجوع • ومنذ وجودي على ظهر الباخرة لم استطع الحصول الا على أربعة اكياس من المؤون وعلبتين من البسكيت رمتها الطائرات علينا • وهذا هو كل طعامنا طيلة الأربعة والثلاثين يوماً ، وقد حصلنا عليها

---

(٢٤) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٣ ايلول ١٩٢٠ •
(25) Wilson (op. cit.) - vol. 2, P. 294.

والرصاص ينهمر علينا ، والفضل كله يعود الى الجنود الشجعان الذين تطوعوا للاتيان بها على ضئالتها • ان الرمي من الضفة اليسرى كان مستمراً طيلة هذه المدة • ولكننا في اليومين الأخيرين لم نسمع أية اطلاقة ••• أرسلوا التموين الينا بالطائرات ، وليكن كثيراً بقدر الامكان ، وان كنا لانحصل الا على ربع ما يلقى الينا • وأود أن اذكر ان المؤن يجب أن تُلقى على مؤخرة الباخرة لكي تطفو الينا منحدرة مع تيار الماء ••• لست أدري ان كان عملاؤكم ناشطين الآن ، ولكني استطعت الاتصال برجل من العشائر ، فجاء لي بقليل من الطعام ، وأعطيته بخشيشاً كثيراً ••• أود أن أكرر رغبتنا في الصمود ، ولدينا الحافز الروحي على ذلك حتى النهاية على الرغم من اننا ربما لانملك المقدرة على الصمود في الوقت الحاضر ••• »[26] •

كان في الباخرة علاوة على ربانها البريطاني أربعة جنود بريطانيين وثلاثون هندياً ، وكان هؤلاء الهنود مسلمين ما عدا واحداً منهم كان من السيك • والظاهر ان الهنود نفد صبرهم أخيراً فقرروا الاستسلام للثوار آملين أن يعاملهم الثوار معاملة حسنة لكونهم مسلمين • ففي ٣ تشرين الاول خرج أحد الهنود من الباخرة وهو يحمل علماً أبيض • فقابله سامي النقشلي ، وبعد المداولة معه حصل الاتفاق على أن يستسلم الهنود كلهم الى الثوار وان يحفظ الثوار حياتهم بشرط أن يقتلوا هم من جانبهم الربان والجنود البريطانيين الاربعة • فعاد الهندي الى الباخرة وأخبر رفاقه بما تم الاتفاق عليه ، فوافقوا عليه • وتمكنوا من قتل الربان والجنود الاربعه • والمظنون انهم دسوا لهم السم في الطعام • ثم خرجوا الى الثوار مستسلمين • وقد تسلمهم السيد هادي المقوطر فأرسل بعضهم الى النجف وأبقى البعض الآخر عنده • أما الباخرة فقد نهبها الثوار ثم خربوها[27] •

---

(26) Haldane (op. cit.) - P. 326 - 327.

(٢٧) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ـ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ •

لم يمض على استسلام الهنود سوى ثلاثة أيام حتى وصلت الى الموقع قوة انكليزية كبيرة قادمة من الناصرية • وتمكنت القوة أن تستعيد سبعة عشر أسيراً • ثم ألف الانكليز لجنة خاصة للتحقيق عما جرى على الباخرة في أيامها الاخيرة •

لم يكن الانكليز يعلمون شيئاً عن مؤامرة الهنود واستسلامهم ، وظلوا جاهلين ذلك الى النهاية ، ولكنهم اكتشفوا في الباخرة أمراً غريباً حاروا في تفسيره هو ان الباخرة لم يظهر عليها أي أثر يدل على وقوع قتال فيها ، وقد واجههم هنا سؤال مهم : لماذا قُتل البريطانيون وحدهم بينما سلم الهنود ولم ينلهم أي اذى ؟

استجوبت اللجنة كثيراً من الشهود للتوصل الى الحقيقة دون جدوى• فالهنود لم يكشفوا عن السر مخافة العقوبة ، كما أن أفراد العشائر انكروا أنهم يعرفون شيئا • يقول هالدين : « ان هناك اشاعة قوية تشير الى وجود خيانة في الحادث ولكننا بعد مرور سنة لم نعثر على أي دليل يؤيد وجود الخيانة »(٢٨) •

يبدو ان السر لم يكن يعرفه سوى شخص واحد هو سامي النقشلي ، وقد حرص هذا الرجل على كتمان السر مدة طويلة حذراً من العقوبة • ولكنه أفشاه في أواخر أيامه ، ونقله عنه محمد علي كمال الدين في كتابه • وأظن ان الانكليز ما زالوا يجهلونه !

---

(28) Haldane (op. cit.) - P. 225 - 226.

الفصل الثامن عشر

أحداث كربلاء في عهد الثورة

أصبحت كربلاء في عهد الثورة ذات أهمية خاصة لسببين ، أولهما وجود المرزا محمد تقي الشيرازي فيها وهو الذي كان يتولى المرجعية الدينية الكبرى لدى الشيعة آنذاك كما أسلفنا ، والثاني قربها من جبهة القتال في الوند وطويريج ولهذا كان رؤساء العشائر المشاركون في الثورة يعقدون اجتماعاتهم فيها في كثير من الاحيان • ومن الممكن القول ان كربلا أصبحت خلال فترة من الزمن بمثابة العاصمة لحكومة الثورة ، وهي الحكومة التي كانت سلطتها المعنوية تشمل جميع المدن والارياف التي دخلت في حوزة الثورة ، والتي كانت تمتد من كربلاء شمالا الى الخضر جنوباً •

يجب أن لا ننسى ان المدن والارياف التي دخلت في حوزة الثورة كانت تحكم نفسها بنفسها بواسطة رؤسائها المحليين على الطريقة العشائرية ، ولكن السلطة النهائية في الامور العامة كانت في يد الشيرازي وحاشيته في كربلا ، ثم تحولت بعد وفاته الى الشيخ فتح الله الاصفهاني في النجف ـ كما سنأتي اليه •

ولابد لنا من أن نذكر هنا بأن عهد الثورة ـ سواء في طوره الكربلائي أو طوره النجفي ـ قد تميز بظاهرة اجتماعية تستحق التقدير هي استتباب الامن والنظام ، فلم يظهر في هذا العهد أي أثر للغزو أو قطع الطرق أو المعارك العشائرية ، كما لم يقع فيه نهب لدور الحكومة أو دور الاهالي ، وهي الامور التي تجري في العراق عادة عندما تضعف سلطة الحكومة المركزية • وكانت في بعض المدن أقليات دينية من اليهود وغيرهم ، وقد لقيت تلك الاقليات رعاية وأمناً طيلة أيام الثورة •

حدثت حادثة استثنائية واحدة ، وقد جرت في المسيب ، حيث نُهبت فيها بعض دور الأهالي • ويقال ان أحد الثوار ـ وكان نجفياً ـ غنم من احدى الدور صندوقاً مليئاً بالاحجار الكريمة ، وكان هذا الصندوق سبباً في بدء ثروته التي نمت أخيراً •

اعلان الثورة في كربلاء :

ظلت كربلا هادئة طيلة الشطر الاكبر من شهر تموز لم تحرك ساكناً ، وكان حاكمها المرزا محمد مستمراً في أداء وظيفته على نحو ما كان يفعل في الأيام الماضية • ولكن كربلا لم تكد تصلها أخبار معركة الرارنجية في ٢٥ تموز حتى قررت الانضمام الى الثورة •

يروي خليل عزمي قصة اعلان الثورة في كربلا ، وكان يومذاك كاتباً في بلديتها ، فيقول : ان رؤساء البلدة اجتمعوا في دائرة البلدية واستدعوا اليهم معاون الحاكم السياسي المرزا محمد ، فلما حضر المرزا خاطبه الملا خضر أبو شويلية أحد رؤساء النصاروة قائلاً : « انك تعلم بأن كل البلاد المجاورة لكربلا اختل نظامها وانقطعت بيننا وبينهم وسائط المخابرة فلا يسع أهالي كربلاء أن تبقى السلطة بيدك لأنها لا تريد أن تبقى متخلفة عن الواجبات الوطنية المفروضة عليها • لذلك يجب أن تعطي مشتملات دوائر الحكومة كافة لهيئة وطنية تنتخبها بلا تردد » • فلما سمع المرزا محمد هذا الكلام طلب منهم بكل رجاء أن يمهلوه يومين فقط ، فوافقوا على امهاله •

كان المرزا محمد يقصد من طلب هذه المهلة أن يجتمع بمحمد أمين مدير الشرطة ليستعلم منه هل هو قادر على الصمود في مركز الشرطة بمن معه من أفراد الشرطة الى أن تأتي النجدة اليه من بغداد • وقد كان مدير الشرطة شديد الاخلاص للانكليز فلما استعلم منه المرزا محمد أجابه بأنه قادر على الصمود عشرين يوماً • وعند هذا اتفق الرجلان على رفض طلب الرؤساء ، وبدأ المدير يهيىء مركز الشرطة للتحصن فيه ، فأحضر أكياس الرمل كما خزن مقادير كافية من الطعام • وأمر بحفر بئر في ساحة

المركز للاستقاء منه في حالة الحصار • ثم وقف بين أفراد الشرطة يخطب فيهم مشجعاً لهم على الصمود ، ومنّاهم بالمستقبل الباهر والمكافآت العظيمة• ولكنه لم يكد ينتهي من كلامه حتى انبرى له أحد أفراد الشرطة يتحداه بهذه الهوسة : « ما نطيعك ، ما نطيعك ، يا عبد السوجر ما نطيعك » • وأخذ الباقون يرددون الهوسة معه ، ثم اندفعوا نحو باب المركز هاربـــين الى بيوتهم • وحين رأى الاهالي ذلك هاجموا دار الحكومة ونهبوها •

التجأ مدير الشرطة والمرزا محمد ، وكان معهما عريف بريطاني اسمه فورد ، الى دار محمد رشيد جلبي الصافي التى كانت مجاورة لدار الحكومة • وتطوع فخري كمونة بحماية هؤلاء الثلاثة ، وأركبهم احـدى العربات برفقة ابن اخيه حميد كمونة ، وسارت بهم العربة حتى أوصلتهم الى عشيرة المسعود ، فأوصلتهم هذه العشيرة الى القوات الانكليزية التى كانت مرابطة في المسيب[1] • وقد وصلوا أخيرا الى بغداد سالمين •

كان يوم اعلان الثورة فى كربلاء يوما عجيبا صاخبا ، فقد خرج الكثير من سكان البلدة من بيوتهم وهم يحملون بنادقهم وأسلحتهم الاخرى، وامتلأ الفضاء بأصوات الهوسات واطلاق الرصاص • وفى صباح اليــوم التالي ــ أي في ٢٦ تموز ــ اجتمع رؤساء البلدة ووجهاؤها عند الشيرازي في داره ، وبعد مداولة طويلة تقرر تشكيل مجلسين لادارة البلدة همـا « المجلس العلمي » و « المجلس الملي » • وكانت مهمة أولهما ترويــج الدعاية الدينية للثورة والنظر فى القضايا المتنازع عليها التى تقع في داخل البلدة أو بين العشائر ، وقد تألف هذا المجلس من خمسة أعضاء هم : السيد هبة الدين الشهرستاني والسيد أبو القاسم الكاشاني والمرزا أحمـد الخراساني والسيد حسين القزويني والمرزا عبدالحسين الشيرازي •

أما المجلس الملي فكانت مهمته الاشراف على ادارة البلدة من حيث جباية الضرائب وتعيين الموظفين والشرطة وتأمين الطرق وما أشبه • وقد

---

(١) تحسين العسكري (مذكراتي) ــ النجف ١٩٣٨ ــ ج٢ ص ١٧٩ ــ ١٨١ •

تألف هذا المجلس من سبعة عشر عضوا كان ثمانية منهم من السادة وهم : عبدالوهاب الوهاب ، أحمد الوهاب ، حسن نصر الله ، أحمد ضـــياء ، عبدالحسين الددة ، ابراهيم الشهرستاني ، محمد علي ثابت ، محمد حسن آل طعمة الروضخون • أما الباقون فكانوا من رؤساء المحلات وهم : عبد النبي العواد ، هادي الحسون ، علوان جار الله ، محمد الشهيب ، قمر النايف ، عبدعلي الحميري ، عبدالعزيز آل هر ، علي الحمد المنكوشي ، عزيز علوان الزنكي • وكان الشاعر محمد حسن أبو المحاســن ممثل الشيرازي في المجلس • وقد عُين خليل عزمي سكرتيرا للمجلس ، كما عين مهدي السامرائي محاسبا له ، ومحمد علي أبو الحب أمينا للصندوق ، وعبدالرزاق أفندي كاتبا •

وباشر المجلس الملي أعماله بتعيين موظفي البلدية والحراس والجباة ، كما شكل قوة من الشرطة تضم مائة من المشاة وثلاثين خيالا ، وعــين سمرمد الهتيمي آمرا للشرطة الخيالة بمرتب شهري قدره مائة روبية ، وعبدالرحمن العواد آمرا للمشاة بمرتب مماثل[٢] •

رسول الدير الى الفرات :

في الوقت الذى كانت فيه الثورة تستفحل في الفـــرات الاوسط وتنتشر ، كان العراقيون في دير الزور يعانون الضيق الشديد على أثر سقوط حكومة دمشق في ٢٥ تموز[٣] • وقد اضطرهم الضيق ان يكتبوا الى قادة الثورة في الفرات الاوسط يطلبون منهم المعونة • فكتبوا رسالتين احداهما معنونة الى علي البازركان ، وكان يومذاك لاجئاً في النجف ، والثانية معنونة الى «السيد ميرزا الكاشاني » ولعلهم كانوا يقصدون بــه الشيرازي لانهم لم يكونوا يعرفون اسمه على وجه الدقة •

---

(٢) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ٢٤٩ •

(٣) من المفارقات العجيبة أن تقع معركة ميسلون التي سقطت بها حكومة سوريا العربية بعد يوم واحد من معركة الرارنجية التى انتصر بها ثوار العراق •

يقول علي البازركان حول الرسالة التي وصلته : انها كانت مرسله من علي جودت الايوبي وكانت مكتوبة بحبر مائي ومضمونها أنه يريد مني أن أبعث اليه بعشرة آلاف ليرة ذهب لكي يأتي هو بجنوده من دير الزور وهم مزودون بالرشاشات والمدافع والعتاد(٤) • اما الرسالة الثانية فهذا نصها :

دير الزور في ١٧ – ٨ – ١٩٢٠ •

لحضرة المجتهد الاكبر والوطني الغضنفر العالم الهمام والسيد الضرغام حجة الاسلام السيد ميرزا الكاشاني المحترم مد ظله •

سلام واحترام • وبعد نوجه لحضرتكم العلية فائق الاحترامات وأزكى التحيات لازلتم ذخرا للامة وحرزا لها منيعا يحق لنا العرب عامة والعراقيون خاصة ان نفتخر بكم أيها السادة الامجاد ، فانتم الرجال العظام أصحاب النفوس العالية الابية الذين سيطري التاريخ أعمالهم بمداد الذهب ويزيد ذكرهم الجميل بألسنة الامة مدى الازمان • ان المظاهرات التي قمتم فيها تجاه الانكليز في الوقت الذي قامت به الثورة قد أنتجت تاريخا حسنا في أوربا ، وان اخوتكم قد سمعت باذنيها ووعت له ، ولنا الامل القوي بالفوز والنجاح • وكان عرضت لكم من قبل من خصوص عن الوضعية الحاضرة وعن حراجة موقف سوريا ولذلك فان حركاتنا لاتدوم لان قلة المال وانقطاع الواردات من سوريا تمنعنا عن القيام بادنى عمل وانتم تقدرون مالاعمالنا من الفائدة العظيمة تجاه الامة ، ولو وجد المال لتقربنا الى جهتكم بحول الله وقوته ، وان خمود الثورة من المحقق أن تعود على الامة بالخسران • وكان حررنا لحضرتكم بأن يلزم جمع مبلغ من المال لاجل ادامة الحركات ، ولنا أمل عظيم من همتكم العلية ان لابد لحد الآن جمع قسم من هذا المال ، وقد ارسلنا لطرفكم سليمان أفندي الجنابي فهو يخبركم عن وضعيتنا الحاضرة تماما وعن جميع الاخبار فهو

---

(٤) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١٦١ •

من اخواننا النشيطين الغيورين نرجو أن تعتمدوا عليه • وبالختام أسأل الله تعالى أن يشد أزر الامة ويؤيدكم ويوفقكم لخدمة الامة والبلاد • واقبلوا فائق الاحترام سيدى الافخم •

قيادة جيش العراق

الحق يعلو(٥)

أرسلت الرسالتان مع سلمان الجنابي ، فغادر سلمان دير الزور بصحبة فهد البطيخ متجها الى كربلاء عن طريق البادية • وحين وصلا الى مقربة من كربلاء خرج أهل البلدة لاستقبالهما ، وكانا يلبسان ملابس الضباط في الجيش العربي ، فقوبلا بالهوسات والاهازيج • فتوجها الى دار الشيرازي فاختليا به وسلما اليه الرسالة الخاصة به •

أحال الشيرازي الرسالة بعدئذ الى قادة الثورة ، واجتمع هؤلاء للمداولة في أمر جمع المال وارساله الى دير الزور ، وأعلن نفر منهم عن استعدادهم للتبرع بقسط من المال المطلوب • وتطوع جعفر أبو التمن وقاطع العوادي وجدوع أبو زيد لحمل المبلغ الى الدير • وأبدى محمود رامز وعارف حكمت رغبتهما في مرافقتهم • وكانوا كلهم لاجئين في كربلا في ذلك الحين • وقد بدأ جمع التبرعات فعلا ، وحين وصل الدور الى السيد محسن ابو طبيخ أبدى اعتراضه على الفكرة كلها حيث قال ما يلي :ـ

« أنا خسرت في هذه الثورة أموالا كثيرة غير متأسف عليها ، وأنا مستعد أن أنفق آخر فلس مما ادخره وأموالي وأملاكي ، ثم أعود لانفق أثاث داري ، أنفق كل هذا وأنا فخور ومرتاح الضمير ، غير أني لست واثقا من أخلاص أهل دير الزور لانهم من بقايا خدام العثمانيين وفضلاتهم التي تركوها عندنا ، وان الاكثر منهم اذا صح عملهم فانهم ماقاموا بهذا العمل والاشتراك مع المجاهدين الثوار الا طلبا للوظائف ، وأنا لا أشك

---

(٥) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ •

بأن الانكليز اذا طلبوهم للتوظيف لايتخلفون ناسين كل ما يمت الى الوطنية والجهاد بصلة ، وربما يحدث هذا عند وصول دراهمكم هذه اليهم فتذهب أموالكم التى تفيد الثوار المخلصين في الفرات هواء فى شبك ، وبعد هذا فأني غير واثق بنجاح دير الزور او تلعفر حسبما يدعون للاسباب التى شرحتها لكم ، ولأجل هذا لايسعني أن أقدم شيئاً من مالي لأناس لا أعترف بصدق وطنيتهم فى العمل ولا أومن باخلاصهم لاني لا أعرفهم ولم ازاملهم » • ثم أضاف أبو طبيخ قائلا : « آمروني أن أقدم أي مبلغ تريدون ،ولاي جهة تقصدون ، فانا حاضر ومستعد أن ألبي الطلب بكل شرف وفخر ، أما لهؤلاء المرتزقة فانا غير مستعد أن أقدم فلسا واحدا »[٦] •

كان لكلام السيد محسن اثره في احباط المشروع • وقد غادر سلمان الجنابي بعد هذا الى النجف حاملا معه الرسالة الموجهة الى علي البازركان • ويقول البازركان : انه عندما تسلم الرسالة من الجنابي ذهب بها الى الشيخ فتح الله الاصفهاني ، وكان حاضرا في مجلسه آنذاك السيد نور الياسري والسيد هادي زوين والسيد محمد علي بحر العلوم والشيخ جواد الجواهري • وقد أجمع الحاضرون على استحالة جمع المبلغ الذى طلبه علي جودت الايوبي ، ولكنهم قالوا : « اذا كان مرسل هذا الكتاب على جانب من الوطنية فأنه سيأتي مع جنوده للاشتراك في ثورتنا من غير أن نرسل له نقودا نحن أحوج ما نكون اليها ، ولكنه اذا جاء مع قوته نكفل اعاشتهم فقط »[٧] •

وفاة الشيرازي :

كان الشيرازي برغم شيخوختة يولي الثورة اهتماما بالغا ، وكان يرسل اليها كل ما يصله من الحقوق الشرعية ولا يبقي له منها شيئاً • حدثني أحد المطلعين أنه في بعض الاحيان كانت تتوافر لديه أكوام من

---

(٦) المصدر السابق ــ ص ٢٨٥ •

(٧) علي البازركان (المصدر السابق) ــ ص ١٦١ •

النقود مما يرسله اليه المقلدون من مختلف الجهات ، وكان أهل بيته يطلبون منه أن يبقى شيئاً لحاجات البيت فكان هو يرفض ذلك رفضا باتاً ويصر على حمل النقود كلها الى جبهات القتال .

أثرت نكسة الحلة والنكسات الاخرى التى أعقبتها على صحة الشيرازي . يروي السيد هبة الدين الشهرستاني الذى كان من المقربين اليه : ان الشيرازي دخل ذات مرة الى صحن الحسين لاداء الصلاة فيه فشهد عددا كبيرا من الجنائز التي جيء بها من جبهة القتال ، فراعه ذلك ، وظهر الألم على وجهه واضحا . وكان ذلك آخر يوم يخرج فيه الى الصلاة ، اذ انهارت صحته بعدئذ ، ولزم فراشه ، ثم مات بعد ايام قليلة[٨] .

توفى الشيرازي عند غروب الشمس في ١٧ آب ١٩٢٠ . وقد أصدر السيد هبة الدين الشهرستاني بهذه المناسبة بيانا موجها الى قادة الثورة هذا نصه :

« نعزيكم وعامة العالم الاسلامي بوفاة حجة الاسلام ورئيس العلماء الاعلام ركن النهضة العربية وروح الحركة الاسلامية الشيخ مرزا محمد تقي الشيرازي قدس الله روحه ونور ضريحه ، فقد أفلت شمس حياته القدسية عند أفول شمس الثلاثاء ثالث ذي الحجة ١٣٣٨ (ليلة الثالثة منه) بعد ماحوى ثلاثين درجة من فلك عمره الشريف في احياء العلم والدين ، وامحاء كيد الكافرين ، بيد أن الذي تتسلى به قلوب نادبيه ، قوة مباديه ، واشتداد العموم على ماكان فيه ، ولا ريب ان الاسلام حي بمن يقفي بعده ، ممن ينهجون مسلكه من صحبه وجنده ، ولم نزل ولا نزال ننتظر اخباركم المنيفة وارجاعاتكم الشريفة . ٣ ذى الحجة ١٣٣٨ - خادم العلم والدين محمد علي الشهرستاني »[٩] .

---

(٨) حدثني بذلك السيد جواد الشهرستاني نقلا عن أبيه السيد هبة الدين .

(٩) فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) - ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

كان لموت الشيرازي صدى بالغ في العراق وايران ، فخرجت المواكب في كربلاء تلطم عليه ، وأقيمت مجالس الفاتحة له في كل مكان • وانتشرت الاشاعات بين الناس أنه لم يمت موتا طبيعيا بل من جراء سم دسه له أحد عملاء الانكليز ، وقد صدق الكثيرون بهذه الاشاعات طبعا كما هي عادتهم في مثل هذه الظروف •

ابو طبيخ متصرفا :

انحل المجلس الملي على أثر وفاة الشيرازي(١٠) ، فأدى ذلك الى انتشار الفوضى في كربلاء • والظاهر ان الاحقاد والمنافسات بين رؤساء كربلاء كانت قد خمدت في حياة الشيرازي ، فلما مات استيقظت من جديد • ولهذا ظهرت الحاجة الى تعيين رجل محترم برتبة « متصرف » لكي يشرف على شؤون الامن والنظام في كربلاء •

يقول جعفر الخليلي : « لما توفى الميرزا الشيرازي بدأ الحس بظهور الفوضى يتجسم في كربلاء بسبب تنافر بعض العناصر فيها ••• وبسبب من افراد العشائر الذين كانوا في ذهاب واياب مستمر متخذين من كربلاء ممرا بين مناطق سكناهم وساحات الحرب • فكانت تقع بعض المحاذير مابين بعض هؤلاء الثوار أو بينهم وبين سكان المدينة نفسها ، فظهرت الحاجة محسوسة الى وجود شخص ينبغي أن يعترف الجميع باحترامه ••• »(١١) •

استقر رأي الجميع على اختيار السيد محسن أبو طبيخ لمتصرفية كربلاء • ويقول السيد محسن في مذكراته المخطوطة : « لما وفق الله سبحانه وأخلي الفرات من الانكليز مدنه وقراه ، من السماوة الى المسيب، اجتمع الرؤساء في معسكر الحسينية وقرروا تشكيل حكومة وطنية موقتة

---

(١٠) مجلة (رسالة الشرق) الكربلائية ــ في عددها الخامس الصادر في ١٧ شوال ١٣٧٣ هـ •

(١١) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ١٢٥ ــ ١٢٦ •

في كربلاء ورفع العلم العراقي • وقد اختاروني من بينهم للقيام بهذه المهمة وبالرغم من رغبتي في البقاء بين اخواني في ميادين القتال ، ولكنني نزولا على رغبتهم قبلت ورجعت الى كربلاء ، وشكلت الحكومة الوطنيـــــة الموقتة ... ،[١٢] •

جرى تنصيب السيد محسن أبو طبيخ في ٦ تشرين الاول ١٩٢٠ ، وأقيم احتفال كبير في دار البلدية الواقعة في ساحة الميدان • وقد احتشد في الساحة جمهور غفير من الناس فيهم نحو ألف رجل من حملة البنادق • وحضر الاحتفال عدد من الرؤساء والوجهاء كان من بينهم رجال الحركة الوطنية في بغداد الذين التجأوا الى كربلاء كيوسف السويدى ومحمد الصدر وجعفر أبو التمن وعلي البازركان ومحمود رامز وجميل قبطان وعارف حكمت وطه البدرى ، كما حضر ضاري الظاهر شيخ زوبع ، والمرزا أحمد الخراساني الذى كان مرسلا من الشيـــخ فتح الله الاصفهاني ليمثله في الاحتفال •

وحين وصل السيد محسن الى مكان الاحتفال قوبـــل بالهتافات والزغاريد واطلاق الرصاص • وصعد علي البازركان الى سـ ح دار البلدية حيث رفع العلم العراقي عليه ، وألقى من بعد ذلك خطبة حماسيـــة • ثم أعقبه جميل قبطان بخطبة مثلها • ثم القى خليل عزمي قصيدة من نظمه تحية للعلم كان هذا مطلعها :

بشـــراك ياكربلا قومي انظري العلما

على ربـــوعك خفاقـــا ومبتسمـــا

وانطلقت الهوسات تحيي العلم ، وهذه بعضها :

هي بـيرغنـــا هي بـيرغنـــا شـــمحلاك ترفرف بيرغنـــا

ظـــل عالي ظـــل عالي لاتهـــاب طوابه ظل عالي

شرخيصـــــة شرخيصـــــة دونك روحي شـــرخيصة

---

(١٢) نقلا عن مذكرات السيد محسن أبو طبيخ المخطوطة •

دلّينــــا دلّينــــا شتآمــر طوعك دلّينا[١٣]

ومن الطرائف التي تروى حول تنصيب أبو طبيخ ان رجــلا من الايرانيين الساكنين في كربلاء لم يفهم فحوى ما جرى ، فهو تارة يشهـد احتفالا بقدوم فهد ابن بطيخ الى كربلاء ، وتارة أخرى يشهد احتفــالا بتنصيب محسن أبو طبيخ ، فقال متهكما : « مرة ابن بتيخ ومرة أبو تبيخ ، وما هصلنا لا بتيخ ولا تبيخ » .

لم تدم حكومة أبو طبيخ سوى ايام معدودة فبعد ستة أيام من تنصيبه متصرفا سقطت طويريج بأيدي الانكليز فأرسلت كربلا وفدا الى الانكليز تعرض خضوعها لهم واضطر أبو طبيخ الى الفرار من كربلاء .

قطع الماء عن كربلاء :

يقول هالدين : « لما كانت كربلاء مسؤولة الى حد غير قليل عن قيام الثورة فانى رغبت في الاستيلاء على ناظم الحسينية الذى كان يبعد عــن الفرات بمائتي ياردة لكي أجعل سكان البلدة يشعرون بعذاب الحــرمان من الماء ... »[١٤] .

لم تتوفر لدى هالدين القوة الكافية التي تمكنه من السيطرة على ناظم الحسينية الا في منتصف شهر ايلول ، وعند هذا أوعز بقطع الماء عن نهر الحسينية الذى يجهز كربلاء وبساتينها بالماء . وهو يقول في ذلك ما نصه : « تحريت أخيرا عن تأثير هذا الاجراء على السكان فعلمت أنهم عمدوا الى حفر الآبار في قاع النهر ، وتمكنوا من الحصول على ماء فيه شيء مــن الملوحة ولكنهم ضاقوا به ذرعا وقل منتوج الخضر عندهم . ان الذي اخبرني بذلك حاول أن يبالغ في وصف نتائج هذا العمل الذى قمت به ، ولــكن

---

(١٣) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ١٨٥ .

(14) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) — Edinburgh 1922. PP. 147.

هناك أسبابا قوية تحملني على الاعتقاد بأن تأثير قطع الماء عن كربلاء كان أضعف مما كنت أتوقعه • ولو طرحنا جانبا المشقات التي عاناها السكان ، فالضغط المعنوي الذى نتج عن اظهار مقدرتي على حرمانهم معين الحياة كان بلا شك عظيما ••• »[١٥] •

ان ويلسون يخالف هالدين في هذا الرأي حول أهمية قطع الماء عن كربلاء ، فهو يقول في مذكراته : ان قطع الماء لم يسبب سوى القليل من المصاعب لسكان البلدة ، وليس هناك أي دليل على صحة ما قال هالدين في هذا الصدد • وينتهز ويلسون هذه المناسبة ليوجه النقد المر الى هالدين على نحو ما فعل في المناسبات الاخرى • وهو يصف هالدين بأنه يتخبط دائما في تسجيل تأثير الاحداث العسكرية على السكان المدنيين[١٦] •

---

(15) Loc. cit.

(16) Wilson (Loyalties) - London 1936 - Vol. 2, P. 301.

الفصل التاسع عشر

احداث النجف في عهد الثورة

يجب أن لاننسى ان النجف كانت اول بلدة عراقية تعلن الثورة على الانكليز ، وذلك في ربيع ١٩١٨ عندما هاجمت جماعة من النجفيين دار الحكومة وقتلت الحاكم البريطاني الكابتن مارشال ، ولكن الانكليز تمكنوا بعد حصار للنجف دام نحو اربعين يوما من القبض على معظم الذين شاركوا في الثورة ، فأعدموا أحد عشر رجلا منهم وأبعدوا الآخرين الى الهند .

يعتقد الانكليز ان العقوبة الشديدة التي أنزلت بالنجف من جراء ثورتها جعلت النجفيين غير متحمسين في تأييد ثورة العشرين عند قيامها . يقول الميجر نوربري في تقرير له : ان التجربة القاسية التى عانتها النجف في ثورتها جعلتها لاتؤيد ثورة العشرين عند قيامها ، فان أثر تلك التجربة ظل باقيا في النفوس ،ولكن عشائر المشخاب أخذت تؤثر على النجف وجذبتها الى الثورة[1] .

اعلان الثورة في النجف :

لدينا روايتان مختلفتان حول بدء اعلان الثورة في النجف في ١٩٢٠ ، احداهما لحسن الاسدي والثانية لمحمد علي كمال الدين ، وكلاهما نجفيان .

مضمون الرواية الاولى : انه لما وصلت اخبار الثورة في الرميثة الى النجف تجمهر الناس في الصحن الشريف ورفعوا الاعلام العربية ، وارتقى المنبر الشيخ محمد علي القسام الذى كان أبرز خطباء المنبر الحسيني يومذاك فألقى خطابا حماسيا أثار به الجماهير ، فتنادوا للجهاد وأنذروا الانكليز بالخروج من النجف والا اخرجوهم بالقوة ، وعند هذا جلت

---

(1) Mann (Administrator In The Making) - London 1721 - P. 317 — 318.

القوة الانكليزية عن النجف وذهبت الى الكوفة ، فتعقبها النجفيون الى الكوفة وحاصروها هنالك ... »[٢] .

أما الرواية الثانية فمضمونها : ان الانكليز انسحبوا من النجف في ليلة ٢٨ شوال ١٣٣٨ هـ ـ وهو يوافق ١٥ تموز ١٩٢٠ م ـ وذلك على أثر احساسهم بغليان الثورة في مناطق الفرات الاوسط ، فلم يبق من الحامية الانكليزية في البلدة سوى قوة رمزية مؤلفة من بضعة أفراد من الشرطة الايرانيين ومعهم حميد خان . وعلى أثر ذلك اشتد الحماس بأنصار الثورة في النجف وارادوا اعلان الثورة باحتلال دور الحكومة وطرد الموظفين منها ، ولكن رؤساء البلدة منعوا هؤلاء المتحمسين من ذلك وكبحوا جماحهم انتظارا للفرصة المناسبة فهدأ المتحمسون ولكنهم لم يستقروا كليا ، ففي ليلة ٤ ذي القعدة ذهب نفر منهم الى السراي متسللين تحت جنح الظلام فتسلقوا جدار السراي وسحبوا العلم البريطاني المرفوع فوقه فمزقوه . ولما جاء حميد خان الى السراي في صباح اليوم التالي ورأى ماجرى على العلم ، أمر برفع علم جديد في مكانه . ولكن هذا العلم الجديد جرى عليه في الليلة التالية مثلما جرى على سلفه . وفي صباح ٥ ذى القعدة ـ وهو يوافق ٢١ تموز ـ حدث في النجف حادث ادى الى اعلان الثورة فيها ، خلاصته أن احد أفراد الشرطة قتل رئيسه على مشهد من الاهالي وأعلن أنه قتله بدافع الوطنية والذود عن حرمة الاسلام . وعند هذا أسرع الصبيان والاطفال الى جثة القتيل فسحبوها متجهين بها نحو المقبرة في خارج البلدة وهم يصرخون ويهزجون . وانتهز الاهالي هذه الفرصة فانثالوا على السراي ينهبونه ، واستحوذوا على مائتي بندقية وزعوها على محلات النجف الاربع ، واستولوا كذلك على دور الحكومة وأموالها ، غير أنهم احتفظوا بما وجدوه من السجلات كما حافظوا على أثاث المدرسة . وكذلك حافظوا على

---

(٢) حسن الاسدي (ثورة النجف) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .

المستشفى • واكرموا الطبيب الهندي الذى كان يعمل فيه[٣] •

يبدو ان الرواية الثانية اقرب الى الواقع من الرواية الاولى وادعى الى التصديق بها ، لانها تخلو من نزعة التمجيد والمبالغة التى اتصفت بهـا الرواية الاولى •

حكومة موقتة :

صارت النجف على اثر اعلانها الثورة تحكم نفسها بنفسها على الطريقة العشائرية • والظاهر ان النجفيين وجدوا من الضروري بالاضافة الى ذلك انشاء حكومة موقتة للنظر في الشؤون العامة التى تتصل بالثورة • يقـول محمدعلي كمالالدين : ان الحاجـة دعت الى تشكيل حكومة موقتـة في النجف لتدرأ عنها مفاسد الفوضى ، فتنادى النجفيون الى ضرورة قيـام مجلسين أحدهما تشريعي والآخر تنفيذي • وقد تشكلت لجنة لهذا الغرض مؤلفة من عبدالكريم الجزائرى وجواد الجواهرى وآل النقيب ومهدي الآخوند الخراساني ومحسن شلاش وغيرهم ، وقررت اللجنة ان يكون اعضاء المجلس التنفيذي أربعة هم رؤساء المحلات الاربع في النجف ، وان يكون اعضاء المجلس التشريعي ثمانية على أن يجري انتخابهم من المحلات، من كل محلة اثنان • وقد جرى الانتخاب فعلا في ١٠ ذى الحجة ١٣٣٨ هـ ـ وهو يوافق ٢٥ آب ١٩٢٠ م ـ حيث وضعت صناديق الانتخاب في رؤوس الاسواق لكي يضع الناس فيها أوراقهم • وعند فرز الاوراق ظهر فوز سعيد كمال الدين وضياء الخرسان عن محلة الحويش ، وعباس النقيب وعلوان الخرسان عن محلة العمارة ، وعبدالجليل ناجي ومحمد جـواد عجينة عن محلة البراق ، وحمود شبيل وعباس شمسة عن محلة المشراق • ويقول محمد علي : ان المجلس التشـريعي لم يسـتمر فى عملـه طويلا لوقوع الخلاف بينأعضائه من جهة ، ولعرقلة المجلس التنفيـذى لاعماله من الجهة الاخرى • ففي ٢٥ ذي الحجة استقال سعيد كمال الدين

---

(٣) محمد علي كمال الدين (معلومات ومشاهدات) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ٨٢ ـ ٨٤ •

من عضوية المجلس ، وبعد قليل من استقالته انحل المجلس تماما ولم يبق له أي نشاط يذكر[٤] •

في صباح ١٢ آب ظهرت طائرتان في سماء النجف وألقتا عليها مناشير تدعو النجفيين الى عدم الانضمام الى العشائر الثائرة ، وتذكر ان الحكومة البريطانية تعرف المفسدين وهي قادرة على معاقبتهم وانها ليست كالحكومة التركية التى أفسدت البلاد وأشاعت الظلم بين الاهالي بل هي حكومة عادلة رحيمة ولا تعمل الا لما فيه مصلحة البلاد •

كان جواب الاهالي على المناشير أنهم وجهوا نيران بنادقهم على الطائرتين • وفي اليوم التالي تم تجهيز ثلاثمائة متطوع للالتحاق بجبهة الحرب ، وكان في مقدمتهم كاظم آل السيد سلمان وغازي آل شربة • وقد عقد اجتماع كبير في الصحن احتفاءا بهم ثم خرج الناس لتوديعهم ومعهم الاعلام وهم يهللون ويكبرون ويطلقون الرصاص • وقد تعاقبت من بعد ذلك قوافل المتطوعين تخرج من النجف للانضمام الى الثورة واحدة بعد الاخرى[٥] •

مصير حميد خان :

ان حميد خان هو ابن خال أغا خان الثالث وينتمي الى اسرة تسكن النجف ذات جاه وثراء • وقد عينه الانكليز معاون حاكم سياسي في النجف منذ ١ آب ١٩١٧ ، وظل في وظيفته الى أن أعلنت الثورة في النجف في ٢١ تموز ١٩٢٠ ، فانسحب من السراي بهدوء وقبع في بيته لا يخرج منه •

كان لحميد خان صلات حسنة مع الكثيرين من علماء النجف ووجهائها، ويبدو ان هؤلاء كانوا يحمونه ويدرأون عنه الأذى ، ولكن هذه الحماية لا يمكن أن تدوم طويلا تجاه الحماس الشعبي الذى كان مسيطرا على النجف آنذاك • ففي أواخر تموز قرر حميد خان مغادرة النجف الى كربلاء خلسة ، فأوعز بأن تعد له عربة خاصة لنقله • وبينما كان يهم بركوب العربة

---

(٤) المصدر السابق ــ ٨٨ ــ ٨٩ •
(٥) المصدر السابق ــ ص ٨٢ ــ ٨٧ •

شاهد صادق الكتبي قادما اليه يطالبه بدين له عليه • حاول حميد خان اقناعه بارجاء المطالبة الى وقت آخر ، ولكن الكتبي أصر على تسلم مبلغ الدين نقدا في تلك اللحظة ، ولم يقبل في ذلك أي عذر • ولم يكف عن اصراره الا بعد ان جاء اليه أحد أصدقاء حميد خان ودفع مبلغ الدين عنه •

ان هذا التأخير الذي حصل لحميد خان في مغادرة النجف أدى الى تسرب خبره الى الناس في البلدة ، وشاع بينهم ان حميد خان ذاهب الى الانكليز ليعاونهم على قتال الوطنيين • وأسرع بعض المتحمسين الى العربة وأدركوها ، قبيل تحركها ، وأمسكوا بحميد خان ، وكادوا يعتدون عليه لولا أن أسرع بعض الوجهاء اليه فانقذوه من أيدي المتحمسين •

سيق حميد خان أخيرا الى طويريج ليكون تحت رقابة عمران الحاج سعدون ، فأنزله هذا في دار خاصة ومعه خادم وحارس • ولكن المتحمسين من أهل النجف لم يشاؤوا أن يتركوه ، فقد ذهب رجل منهم الى طويريج بغية قتله • ويحدثنا جعفر الخليلي عن قصة هذا الرجل عندما ذهب الى دار حميد خان في طويريج ، فهو لم يكن قد رأى حميد خان من قبل أو سبقت له معرفة به ، انما هو أراد أن يقتله تقربا الى الله وفي سبيل الوطن • فطرق الباب عليه ، وخرج حميد خان اليه يسأله عما يريد ، فأجاب الرجل : « أرني حميد خان وسترى » ، ثم اندفع الى داخل الدار شاهرا سلاحه يبحث عن حميد خان وهو لايدري انه هو الذي فتح الباب له • ولكن الحارس والخادم تمكنا من القبض عليه ، فانتزعا السلاح منه وساقاه الى عمران الحاج سعدون[٦] •

ان قصة حميد خان هذه تعطينا مثالا حيا على ماكان يجري في المجتمع النجفي يومذاك من صراع نفسي واجتماعي • فقد اشتهر عن حميد خان أثناء توليه الحكم في النجف انه كان كثير السخاء والحلم والمروءة ، وكان هناك كثيرون يحمدون فيه هذه المناقب ويكنون له التقدير البالغ[٧] •

---

(٦) جعفر الخليلي (هكذا عرفتهم) – بغداد ١٩٦٣ – ج١ ص ٤٩–٥٠ •
(٧) المصدر السابق – ج١ ص ٤٧ •

ولكن حميد خان كان في الوقت نفسه موضع ثقة الانكليز واحد اعوانهم المخلصين في العراق • ولهذا كان أهل النجف منشقين تجاهه الى فريقين : فريق يحبه لمناقبه الشخصية ، وآخر يبغضه لعلاقته الوثيقة بالانكليز • ومن الممكن القول ان هناك فريقا ثالثا هم الذين كانوا يحبون حميـــد خان ويبغضونه في آن واحد ، فهم كانوا يعانون صراعا نفسيا لايدرون مايفعلون •

الواقع أن هذا الصراع لم يكن مقتصرا على النجف وحدها ، بل كان عاما في مختلف مناطق العراق آنذاك • فان التقاليد القديمة كانت تتضمن مقاييس معينة في تقدير الرجال ، ثم جاء عهد الثورة يحمل مقاييس أخرى • ولابد ان يظهر التفاوت والتناقض بين هذه المقاييس وتلك • وقد ظل هذا التناقض قائما في الفترة التي تلت الثورة ، وهو أحد معالم مرحلة الانتقال التي مر بها المجتمع العراقي في حياته الجديدة •

مبايعة الاصفهاني :

على أثر موت الشيرازي في ١٧ آب ١٩٢٠ استقر الرأي في النجف على مبايعة الشيخ فتح الله الاصفهاني ليكون خليفته في الاشراف على الثورة• فعقد اجتماع كبير في صحن النجف ، حتى امتلأ الصحن بالناس ، وجيء بالاصفهاني محمولا لكبر سنه ، فأصعد على المنبر ، ووقف الى جانبه الشيخ جواد الجواهري والسيد محمد علي بحر العلوم والسيد محمد رضا الصافي لينقلوا كلامه الى الجماهير المحتشدة • فكان الجواهري ينقل كلامه الى بحر العلوم ، وهذا بدوره ينقله الى الصافي ، وكان الصافي يعلن الكلام للناس لانه كان جهوري الصوت[٨] •

كان مما قاله الاصفهاني في خطابه : ان الشيرازي انتقل الى رحمة الله ولكن فتواه بقتال المشركين باقية فجاهدوا واجتهدوا في حفظ وطنكم العزيز وأخذ استقلالكم[٩] • ثم قال الاصفهاني : انه لعجزه عن الذهاب الى ساحة

---

(٨) نقلا عن كتاب مخطوط لعبدالرحيم محمد علي عنوانه « السيد أبو الحسن الموسوي الاصفهاني » •

(٩) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ٢٣٤ •

القتال فقد أناب عنه السيد أبو الحسن الاصفهاني ليقوم مقامه فيها • وعند هذا تسلم السيد أبو الحسن الراية وتوجه الى المرقد العلوي لاداء الزيارة ، ثم غادر النجف عصرا قاصدا جبهة الوند ، وكان في صحبته السيد مصطفى الكاشاني وابنه السيد أبو القاسم والسيد محمد رضا الصافي..(١٠) .

يروي عبدالرزاق الحسني ان الشيخ فتح الله الاصفهاني كان قد افتتح كلامه في صحن النجف بالكلمة المعروفة التي نطق بها أبو بكر عند وفاة النبي ، وهي : « ايها الناس من كان يعبد منكم محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لايموت »(١١) .

وقد سألت بعض المطلعين من أهل النجف عن صحة هذه الرواية ، فاستغربوا منها واستبعدوا وقوعها ، وكان رأيهم أن ليس من المعقول أن يتمثل مجتهد شيعي في صحن النجف بكلمة منسوبة الى أبي بكر الصديق • ولكنني أرى ان ذلك أمر محتمل الوقوع في تلك الايام ، وهو دليل على قوة التقارب الطائفي الذي كان سائدا في الناس آنذاك •

معاملة الاسرى :

ان الاسرى الذين وقعوا في ايدي الثوار عقب معركة الرارنجية سيقوا الى الكفل مشيا على الاقدام تحت اشراف سرتيب المزهر الفرعون ، فوصلوا الكفل في مساء ٢٥ تموز وباتوا فيها تلك الليلة ، ثم تحركوا صباحا نحو النجف فوصلوها عصرا • وقد صدر في النجف منشور مؤرخ في ١٢ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ - وهو يوافق ٢٨ تموز ١٩٢٠ م - جاء فيه ما نصه :

« لقد جيء قبل أمس بالاسرى من الكفل الى النجف والكوفة ، وكان عددهم ١٤٤ منهم ٨٠ بريطانيا فيهم ضابطان و٦٦ هنديا بين مسلم ووثني وسيك • فخرج الناس لاستقبالهم • ووكل العلماء والنواب والاشراف والرؤساء بهم من يتعهدهم ويقضي حوائجهم • فزار المسلمون منهم حرم الامام ، ثم سيروا مع رفاقهم الى الكوفة في العربات ، تحرسهم ثلة من رجال

---

(١٠) نقلا عن كتاب عبدالرحيم محمد علي المخطوط •

(١١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ص ١٢١ •

الخفر الوطني • فوصلوا الى الكوفة ، واجتمعوا مع اخوانهم ، وقدمت لهم موائد الطعام ، فأكلوا وزال وجلهم وظهر سرورهم • ثم أُرسلوا الى أبي صخير (مقر الاسرى) بتمام الهدوء • فحافظ العرب على نظام الاســـر وقوانينه ، وبالغوا في اكرامهم واحترامهم ، ووزعوا عليهم مبلغا من النقود ، وهيأوا لهم علب السجاير والمواد الغذائية الاوربية ، وغير ذلك مما لم يكن مباحا للاسرى في الحرب عند الدول والحكومات •.فرعى الله رجال الامة الساهرين على أحترام القوانين وحرسهم للامة والوطن » •

أودع الاسرى أخيرا في خان كبير في الجعارة يعود للسيد هادي زوين• وكان محسن شلاش يتولى الاشراف والانفاق عليهم ، وجاء الى الجعارة للنظر في أمورهم ، وقد كلف السيد عبدالوهاب الصافي للاشراف عليهـــم بالنيابة عنه • وقد حدثني الصافي عما جرى لهم في الجعارة فقال : انهم كانوا في بداية أمرهم يبدو عليهم الرعب اذ كانوا يظنون ان الثوار سيعذبونهم أو يقتلونهم ، ولكن المعاملة الحسنة التى عوملوا بها جعلتهم يغيرون رأيهم ، فقد جـْهزوا بقدور ضخمة من تلك التى تستعمل في الضيافات العشائرية والمآتم الحسينية ، كما جُهزوا بكميات كافية من اللحم والرز والسمن والحطب • فصاروا يطبخون طعامهم بأنفسهم ، ويعيشون في الخان كما يشاؤون •

ويروي السيد عبدالوهاب الصافي انه وقف يخطب في الاســـرى ، وكان يترجم كلامه لهم رجل يعرف الانكليزية اسمه السيد جعفر حبل المتين ، فأخذ يشرح لهم الاسباب التى دفعت العراقيين الى الثورة ، وكيف ان الانكليز وعدوهم بالاستقلال ثم نكثوا بوعودهم ، فالعراقيون لايريدون شرا بأحد وليس لهم قصد سوى نيل حقوقهم المشروعة • وأكد للاسرى انهم سيعاملون معاملة حسنة تبعا لمـا يأمر به الاسلام ، وان العراقيين ليس لهم عداوة شخصية معهم ، وان المسؤولية في أسرهم تقع على عاتق الحكام الذين خدعوهم وساقوهم الى قتال الوطنيين • ويقول الصافي : انه عندما انتهى من خطابه نهض أحد الجنود البريطانيين فهتف بالانكليزية ، فردد البريطانيون هتافه ، ثم نهض نفر من الهنود فهتفوا كذلك واحدا بعد الآخر وردد أصحابهم هتافهم • ولم يكن الصافي يومذاك قد اعتاد على الهتافات

او سمع غنها ، فظن ان هتاف الأسرى يُقصد به التهديد ، ولـكنه عندما ترجم له المترجم معنى الهتافات اتضح له انهم كانوا يهتفون بحياة العراق وبحياة شعبه •

لم يبق الاسرى في الجعارة سوى ثلاثة ايام ، ثم نقلوا الى النجف فأنزلوا في بناية كبيرة تقع قرب مدخل البلدة تسمى « الشيلان »(١٢) • وقد أُلحق بهم بعدئذ الاسرى الذين وقعوا في أيدي الثوار في منطقة السماوة وغيرها ، فبلغ مجموعهم ١٦٧ أسيرا • ولم يمت منهم طيلة مدة الاسر سوى رجل واحد وكان بريطانيا •

يصف محمد علي كمال الدين العناية بالاسرى في بناية الشيلان ، فيقول مانصه : « كان طعام الاسرى الضروري يتكون من الخبز والتمر والخيار ، أما الطعام الكمالي فيتكون من السكر والشاي ولفافات التبغ والكبريت ، ويُقدم لهم اللحم كلما تيسر وجوده في الاسواق ، كما كانت تقدم لهم قطع من الصابون كل يوم ••• وكان الحراس يتولون اخراجهم في اغلب الايام الى ظاهر النجف ليرتاضوا في الهواء الطلق ويرجعون متى أحبوا الرجوع ••• ومن ألوان المعاملة الطيبة التي كان يلقاها هؤلاء الاسرى احضار مايلزمهم من الاوراق والظروف ليكتبوا اسبوعيا الى أهليهم بأخبارهم، وبعد فحص رسائلهم تُبعث الى بغداد فانكلترا • وقد وردت الأجوبة الى بعضهم من بلادهم » • ثم يقول كمال الدين : « وأثناء ذلك سعى بعض الوطنيين الى اطلاق سراح الهنود المسلمين من بين الاسرى بصفة خاصة ، ولكن الاستاذ عبدالرزاق عدوة أبى ذلك متخوفا من رمي الثورة بالتعصب الديني في حين أنها ثورة قومية وقد عرف الانكليز ذلك فشكروا الاستاذ

---

(١٢) زرتُ هذه البناية منذ عهد قريب وشاهدت على جدران بعض غرفها ما خطّه الاسرى عليها من رسوم وأسماء وعبارات مختلفة • وقد أخبرني عبدالرحيم محمد علي فيما بعد انه أخذ صوراً فوتوغرافية لها • ونحن نرجو من المسؤولين المحافظة على هذه البناية باعتبارها أثراً تاريخياً له أهميته •

عدوة على هذه العاطفة »[١٣] .

ان المعاملة الحسنة التي عومل بها الأسرى لم ترق في أعـــين بعض المتزمتين واعتبروها نوعا من الكفر والالحاد . أضف الى ذلك ان بعض التهم صارت تُوجه الى محسنن شلاش لانفاقه على الاسرى ، فقد شاع بين الناس انه انما ينفق على الاسرى بعد اتفاق جرى بينه وبين الانكليز وهو سيتقاضى منهم أضعاف ما أنفقه على أسراهم . وقد حدت هذه الاقاويل بمحسن شلاش الى الامتناع عن الانفاق على الاسرى ، وأصبحوا هم فى حالة يرثى لها من الجوع ، وأخذوا يستجدون المارة حيث يدلون صفائحهم بالحبال من نوافذ البناية وشرفاتها ، وصار بعض الناس يشفقون عليهـــم فيضعون فى الصفائح ما تيسر من الخبز والتمر والفاكهة[١٤] . يقول علي البازركان : « عندما جئت النجف شاهدت اسرى الرارنجية من الانكليز والهنود ، وهم لايتجاوزون الثمانين شخصا ، وكانوا بحالة تعسة وسيئة للغاية ، فقد كانت سراويلهم بالية وقمصانهم ممزقة ، وكانوا يستجدون المارين بهم في خان الشيلان ليأخذوا سيجارة أو شايا ، فواجهتُ من اجل ذلك شيخ الشريعة والتمست منه أن يعمل على تحسين أحوالهم ، فأرسل في طلب الحاج محسن شلاش وكلمه حول تحسين أحوالهم ، وقد اجابه الحاج محسن ان أخاه رؤوف شلاش في بغداد وسيكتب له ليواجه السلطة البريطانية كي ترسل لهم المؤونة ...»[١٥] .

وجه الشيخ فتح الله الاصفهاني الى محسن شلاش كتابا يحضه على العناية بالاسرى والانفاق عليهم ، هذا نصه :

بســـم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك وثناء على اخلاصك ، وبعد فغير خفي على نباهتك ان للاسرى في الشريعة الاسلامية مكانة عالية ، فالعناية بهم فرض ، والتوجه

(١٣) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ــ ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

(١٤) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ٨٩ .

(١٥) علي البازر كان (الوقائع الحقيقية) ــ بغداد ١٩٥٤ ــ ص ١٥٤ .

الى اكرامهم حتم • واني أوصيك أطال الله حياتك بتعهدهم على الاتصال ، وتفقد احوال صحتهم ومعاشهم ، ما داموا وديعة مقدسة ، وامانة محترمة ، فيلزمك البذل لهم ، والتوفير عليهم ، ويجب تصديك لتحقيق راحتهم اكثر من الايام الماضية ، واني قوي الامل بانك تنشط الى هذا التكليف لانه شرعي مدني انساني ، فواظب على الانفاق عليهم حتى يتعين الى نفقاتهم مورد خاص، فقد اعتمدتك وأوكلت ذلك الى عهدتك وألزمتك به ، ولا عذر لك ودم مؤيدا •

شيخ الشريعة الاصفهاني

وعند هذا عاد محسن شلاش الى الانفاق على الاسرى من جديد •

صحافة الثورة :

كانت تصدر في النجف في عهد الثورة منشورات صغيرة تتضمن أخبار معارك الثورة وانتشارها والانتصارات التي نالها الثوار • وكانت تلك المنشورات تطبع في احدى مطابع النجف ويشرف على أصدارها الشيخ باقر الشبيبي • والملاحظ انها كانت يغلب عليها طابع المبالغة والافراط ، فهي كانت تحاول وصف المعارك والانتصارات بشكل يُقصد به تقوية عزائم الثوار وتشجيع المترددين على الالتحاق بهم • ولهذا قد نجد فيها أخبارا ملفقة أو مضخمة الى حد بعيد • ننقل فيما يلي نماذج من تلك الاخبار •

ففي منشور صدر في ٥ آب نجد الخبر التالي حول معارك الحلة : « ••• ان هجمات جيش الدفاع العربي في الحلة لم تزل متتابعة بشدة فائقة جدا ، وان عدد التلفيات مجهولة الى الآن والعسكر في تعب شديد وليس له طاقة المقاومة ••• وأكدت لنا مصادر أخرى ان الميجر بولي حاكم لواء الحلة قد انتحر بعد أن امتلأ يأسا ، وذلك حين رأى فوز العرب وانتصارهم وخسائر الجند الانكليزي وانكساره ، وحوكم قائد الحركات العسكرية في بغداد وأسندت اليه القيادة العامة أغلاطا حربية وألقت على عاتقه المسؤولية فانتحر أيضا » •

وفي هذا المنشور نفسه نجد خبرا آخر حول الحالة في بغداد هذا

نصه : « تدل الأنباء ان بغداد هائجه مائجه ويؤمل سقوطها بالعوامــــل الداخلية بمجرد الفراغ من الحلة ، وقد بدأ الانكليز يرتبون آثار الحصار فيها ، وان حالة السكان في قلق واضطراب ، وقد عجز الانكليز عن حفظ الامن ، ونصبوا المدافع والرشاشات في شوارعها وطرقها خلافا للقوانــين الحربية • وعقدت حكومة الاحتلال في بغداد مجلسا حضره الحـــكام العسكريون والسياسيون ، واشتد النزاع فيما بينهم وعلت أصواتهم حتى أدى ذلك الى تضاربهم بالكراسي ، ولم تعلم نتيجة المخاصمات » •

ولم تقتصر المنشورات على اخبار الثورة بل تعدتها الى اصطناع أخبار عالمية لا أساس لها من الصحة بتاتا • ففي منشور صادر في ٣١ تموز ورد هذا الخبر : « اتصل بنا أن المانيا حشدت في وادي رهر مليون جنــدي ، وان حكومة الاستانة الملية أعلنت الحرب على الانكليز وأعلنت بلغاريـــا الحرب على اليونان • وان ايطاليا موقفها الحياد » • ثم ورد في المنشـــور الصادر في ٥ آب خبر آخر له صلة بالخبر السابق ، وهذا نصه : « أفادت الاخبار الاخيرة ان موقف الانكليز في الشمال حرج جدا فقد زحفت قوات مصطفى كمال باشا لمساعدة القوة العربية واسقطت الموصل وتل اعفر ، وكانت المحاربات شديدة للغاية » •

تقرر في أوائل آب أن تصدر بالاضافة الى تلك المنشورات جريدة اسبوعية لتكون الجريدة الناطقة بلسان الثورة • وفي ٦ منه صدر العدد الاول من الجريدة باسم « الفرات » وكان يحررها الشيخ باقر الشبيبي • والواقع ان هذه الجريدة لم تكن تختلف من حيث اسلوبها عن المنشورات ، اذ هي كانت مليئة بالمبالغات علاوة على المقالات النارية التى تلهب الحماس وتثير المشاعر •

ومن الطريف ان نذكر ان جريدة « الفرات » اشارت في عددهـــا الصادر فى ٢٠ آب الى أن البلاشفة أنزلوا جيوشا كبيرة فى بلدة انزلـــي الواقعة على الساحل الجنوبى لبحر الخزر ، وان القوات البريطانية المرابطة في شمالي ايران قد تقهقرت أمامهم بدون محاربة ، ثم قالت الجريدة : أن الجيوش البلشفية ستصل الى العراق قريبا وستنسحب القوات البريطانية من

أمامها هنا أيضا حيث تترك البلاد حبلها على غاربها . واستخلصت الجريدة من ذلك : ان العراق أصبح في موقف حرج ، وصار من واجب المراقبين أن يقرروا خطتهم من الآن لتأمين مستقبلهم ، فهم بين أمرين : أما ان يتعاونوا مع البلاشفة على حرب الانكليز ، أو يتعاونوا مع الانكليز بعد أن يأخذوا منهم الضمانات الكافية للاستقلال ...

لم يصدر من جريدة « الفرات » سوى أربعة اعداد ، ثم توقفت عن الصدور . ولكنها في ١٧ ايلول عادت الى الصدور مرة واحدة حيث نشرت مقالة شديدة اللهجة في الرد على ويلسون سنأتي اليها فيما بعد ، وذكرت الجريدة انها تعود الى الصدور بأيجاب من الهيئة العلمية وزعماء النهضة العربية وهي تأمل بمساعدتهم انها ستكون اكبر حجما وستصدر مرتين في الاسبوع . غير انها لم تصدر بعد ذلك .

جريدة « الاستقلال » :

بعد احتجاب جريدة « الفرات » ظلت النجف من غير جريدة حتى ١ شرين الاول ١٩٢٠ حين صدرت جريدة جديدة باسم « الاستقلال » . وكان صاحبها ورئيس تحريرها محمد عبدالحسين سركشيك الكاظمي ، ومدير شؤونها عبدالرزاق الحسني . وقد اشترك في تحريرها محمد علي كمال الدين غير أنه أغفل اسمه لاعتبارات عائلية . ويقول كمال الدين عن الجريدة : انها قامت بدراهم شاب كان لاجئا للثوار لم استطع معرفته(١٦) .

اتضح منذ البداية ان هذه الجريدة تختلف عن جريدة « الفرات » السابقة لها اختلافا كبيرا من حيث اسلوبها واتجاهها السياسي . ننقل فيما يلي نبذة مما كتبته هذه الجريدة في عددها الاول كنموذج على اسلوبها ، وكان تحت عنوان « قدوم كوكس وسياسة انكلتره في العراق » ، حيث قالت ما نصه :

« غادر كوكس العراق قبل أربعة اشهر قاصدا لندن لحل المشكلتين

---

(١٦) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ .

السياسيتين هما معاهدة ايران واستقلال العراق ••• وصل كوكس لندن والنزاع قائم بين حزبي اسكويث القائل بتخلية بغداد والانسحاب نحو البصرة ، ولويد جورج الذى يرى لزوم استعمال القوة لاخماد ثورة العراقيين الاستقلالية ••• فجاء وصوله هناك بلية كبرى على لويد جورج وأنصاره لما أذاعه من أنباء العراق وحوادثه الجديدة وقوة الحركة الوطنية فيه مما عزز جانب اسكويث المعارض وجعل آماله أقرب للتحقيق • وها قد قفل كوكس راجعا من لندن وسيصل قريبا البصرة (وربما وصلها) فما عساه حاملا للعراقيين ؟ وما هي البضاعة التي انتقاها لاهل العراق ؟ فان كانت مما يستطيع العراقيون أن يصنعوا منها ثوب الاستقلال ورداء الحرية ، فلا شك أنه قد جاء بتجارة رابحة ورفع بشخصه الى مصاف الرجال العظام وانزل بين الامة العراقية منزّلا رفيعا وحل عندهم كضيف كريم ، وان كان قد أخطأ فجاء متخذا سياسة الاستبداد وخطة الاستعباد ليرغمهم على اكتساء ثوب الوصاية ذلك الثوب المرقع الخلق الذى أعده لهم لويد جورج وانصاره، فلا بأس فان الامة العراقية قد اعتمدت في نهضتها على نفسها •• ولا تقابله الا بما قابلت به سلفه ولسن • ولكن حنكته السياسية ودهاءه المعروف يقضي باتباع خطة اسكويث وتحقيق أمانيه بتخلية عاصمة البلاد بغداد والانسحاب نحو البصرة مما يفسح مجال المداولة مع الوطنيين الناهضين في تشكيل الحكومة الوطنية العراقية المطلوبة • ومن ينعم النظر في التبديلات التي حصلت حديثا في الادارة الملكية في بغداد كعزل ولسن واستلام كوكس ازمة الحكومة في البصرة واستبدال الموظفين الانكليز الملكيين بموظفين عراقيين وجعل اللغة العربية لغة الحكومة الرسمية يتوسم الخير في سياسة كوكس التجديدة ويرى من خلالها حسن العاقبة ••• » •

حين نقارن هذا الاسلوب الذى خرجت به جريدة « الاستقلال » بأسلوب باقر الشبيبي في جريدة «الفرات» نلاحظ انهما كانا على طرفي نقيض ، فبينما كان باقر الشبيبي يوجه الى الانكليز الشتائم المقذعة ويعدهم أظلم الامم وألعنها ويدعو الى طردهم من البلاد ، نرى جريدة « الاستقلال » تصنّف الانكليز الى حزبين أحدهما سيء والآخر حسن، وهي تعرب عن

أملها بأن يكون كوكس من الحزب الحسن وتتوسم في سياسته الجديدة حسن العاقبة •

ان هذا الاسلوب لابد أن يثير الريبة فى قلوب الناس حول الجريدة وصاحبها • فقد اعتاد الناس أن يجعلوا الحماس مرادفا للوطنية ، امـــا الاعتدال فهو في نظرهم دليل على العمالة للاجنبي • ولهذا صار بعض الناس في النجف يتهامسون حول صاحب الجريدة متهمين اياه بأنه يعمـل فـي التجسس(١٧) •

أضف الى ذلك ان الجريدة نشرت في عددها الثالث الصادر في ٥ تشرين الاول مقالا تحت عنوان : « الشتاء على الابواب ـ ماذا أعددنا لتطمين حاجة الثوار في ميدان القتال ؟ » طالبت فيه بوجوب الاستعداد لتمويـــن الثوار بالالبسة التى تقيهم من البرد • فلما اطلع متصرف كربلاء السيد محسن أبو طبيخ على هذا المقال وجه الى صاحب الجريدة انذارا قال فيه مانصه : « ان مقالكم المنشور فى جريدتكم تحت عنوان (الشتاء على الابواب) مما يثبط عزم المجاهدين ويقلل من معنويتهم ، كما يعطي للعدو احساســا بضعف الثوار ، وعليه ننذركم بهذا بلزوم عدم نشر كل ما يوحي بالضعف او يدل على ذلك • التوقيع متصرف لواء كربلاء السيد محســـن ابو طبيخ »(١٨) •

وعلى أي حال ، فان الجريدة لم يصدر منها سوى ثمانية اعداد ، وقد هرب صاحبها من النجف عندما اقتربت القوات الانكليزية منها ، فذهب الى البصرة وعمل هناك في جريدة « الاوقات البصرية » •

---

(١٧) جعفر الشيخ باقر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) ـ النجـف ١٩٥٨ ـ ج١ ص ١٨٠ •

(١٨) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ •

الفصل العشرون

احداث الكوفة في عهد الثورة

كانت للكوفة أهمية كبيرة في عهد الثورة ، وذلك لسببين : أولهما قرب الكوفة من النجف اذ هي لاتبعد عن النجف سوى تسعة كيلومترات ، وكان بينهما خط للترامواي يشبه الذى كان بين بغداد والكاظمية • والثاني وجود حامية انكليزية كبيرة محصورة في الكوفة •

حصار الحامية :

كانت الحامية المحصورة في الكوفة تضم نحو ٧٥٠ رجلا وهي مؤلفة من الجنود والشبانة والشرطة والموظفين ، يرأسهم الميجر نوربري • وقد بدأ الثوار بحصار الحامية في ٢١ تموز ، وناطوا أمره بعلوان الحاج سعدون رئيس بني حسن لقرب الكوفة من منطقة عشيرته •

وكان نوربري قد استعد للحصار قبل الشروع به ، فاشترى مقادير كبيرة من الحبوب والتمر والسكر والشاي والسمن والاغنام[١] • وقد ساعده على ذلك اثنان من اهل الكوفة هما سعيد حاج عمران الشكرى ومحمد جواد الدلال الحدراوي، كما ساعده أيضا علوان الحاج سعدون[٢]• وكان عذر هؤلاء أنهم لم يكونوا يعلمون بان الثورة ستمتد الى الكوفة وان حصاراً سيقع فيها • وقد أثنى هالدين على الميجر نوربري لبعد نظره في ادخار الاطعمة التى تكفي الحامية مدة طويلة[٣] •

---

(١) محمد علي كمال الدين (معلومات ومشاهدات) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ١١٥ •

(٢) عبدالرسول تويج (صفحات من ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٧٥ ـ ص ١٦ ، ١٩ •

(3) Haldane (Insurrenction In Mesopotamia) - Ediburgh 1922 - P. 141.

كانت الحامية قد تحصنت في الخانات المشرفة على النهر ، وهى خان اليزدي الكبير والخانات المجاورة له • ثم استولت الحاميـــة على الدور والاسواق المجاورة بعد أن أخرجت أصحابها منها • وكانت الباخرة الحربية « فاير فلاي » قد رست في النهر تجاه الحامية لحمايتها وهي مجهزة بمدفعين من العيار المتوسط واثنى عشر رشاشا •

وكان الثوار من جانبهم قد استعدوا للتضييق على الحامية وشـــن الغارات عليها بين الحين والآخر ، فوضعوا اكياس الرمل في الطـــرقات وشرفات الدور المقابلة للحامية ، كما نقبوا الدور بعضها على بعض لـكي يتمكنوا من التنقل بينها • وكان يساعدهم في ذلك عدد من الضباط الذين قدموا من بغداد تطوعا لخدمة الثورة ، وقد استأجروا لهم دارا في الكوفة وسكنوها •

استمر الحصار ثلاثة أشهر ، وقد نفد القمح واللحم لدى الحامية في الاسابيع الثلاثة الاخيرة من الحصار ، فصاروا يقتاتون على الرز ولحـم الخيل[٤] • اما التمور فكانت وافرة ولكن طعمها تغير • وقد بذل الانكليز خلال مدة الحصار عدة محاولات لامداد الحامية بالادوية وغيرها بواسطة الطائرات ، ولكن كثيرا من الرزم التى ألقتها الطائرات وقع في أيدى الثوار، او سقط في النهر •

صراع نفسي :

كان من ضمن الحامية المحصورة ١١٥ رجلا من العرب والايرانيين ، وهم الذين كانوا يؤلفون قوة الشبانة والشرطة • وكان العرب منهم يعانون صراعا نفسيا هو الذى سماه ويلسون بـ « الصراع بين ولائين » ، اى ولائهم لقومهم من جهة ، وولائهم للانكليز من الجهة الاخرى •

الواقع ان ابناء العشائر الذين دخلوا سلك الشبانة كانوا يعانون من هذا الصراع منذ بداية الثورة ، وربما قبلها • فقد كانت عشائرهم تتبرأ

(4) Wilson (Loyalties) - London 1936 - Vol. 2, P. 297.

منهم لاستمرارهم في خدمة الانكليز • وقد وصف لنا ويلسون وسائل الضغط المسلط عليهم من الرأي العام ، اذ كان الناس يشتمونهم في الاسواق ويصفونهم بـ « الكفار » ، ويكسرون الاوعية التي يشربون بها في المقاهي علنا ، وحُرم على الذين ماتوا منهم من الدفن على الطريقة الاسلامية ، كما كان اطفالهم يُضربون في الشوارع ، وأهينت نساؤهم أو أُعدن الى اهلهن• ويقول ويلسون ان ذلك كله لم يؤثر الا على القليلين منهم ، بينما ظل معظمهم على ولائهم للانكليز[٥] •

يبدو أن بعض أفراد الشبانة الذين كانوا محصورين ضمن الحامية في الكوفة بلغ بهم الصراع النفسي حدا لم يستطيعوا تحمله وقد حدث هذا بوجه خاص عندما حل شهر محرم وأخذوا يسمعون أصوات النوح واللطم على الحسين تأتيهم في هدوء الليل من بعض أنحاء الكوفة ، فصاروا يحنون الى حضور مجالس التعزية والمواكب الحسينية • وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم السابع من محرم ـ وهو يوافق ١ ايلول ١٩٢٠ ـ استطاع ستة عشر رجلا منهم أن يهربوا من الخان الذى كانوا محصورين فيه ، وذلك بالنزول من فوق سطحه بواسطة الحبال • وقد نجحوا في ذلك ماعدا الاخير منهم اذ انقطع به الحبل فسقط على الارض وانكسر ظهره ، وحمله رفاقه • وبينما هم يسيرون بغية الالتحاق بالثوار فوجئوا برجل من الثوار يطلق عليهم الرصاص ظنا منه أنهم من الأعداء ، فقتل واحدا منهم ، ولكنهم رفعوا أيديهم مستسلمين • فسيقوا الى مسجد الكوفة • وبعد خمسة أيام أُطلق سراحهم[٦] • ويقول علي البازركان : انه شاهد بعضهم يحضرون مجالس التعزية[٧] •

اخفاق الحصار :

بذل الثوار أقصى جهدهم في شن الغارات على الحامية ، وقد اشترك

---

(5) Ibid, Vol. 2, P. 70 , 297 - 298.

(٦) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ـ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ •

(٧) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١٤٤ •

معهم في ذلك نفر من أهل الكوفة كان في مقدمتهم أمين كرماشه ومحمد أبو شبع وعبدالرسول تويج • ولكن تحصن الحامية في الخانات العالية وما كان لديها من قيادة موحدة وأسلحة متفوقة جعل الثوار يقفون في غاراتهم عند حد معين لايستطيعون اجتيازه •

تمكن أحد الضباط المتطوعين أن يصنع لغما بطريقة بدائية مبتكرة ، وذلك أنه جاء بجزة صوف ووضع فيها كمية كبيرة من البارود مع عدد من القنابل التي كان الثوار قد غنموها من الانكليز ، ثم لف الجميع لفا محكما ، ووضع اللفة في أساس دار ملاصقة لاحد الخانات • وفي صباح ٢ آب أشعل الضابط الفتيل فانفجر اللغم العجيب ، وانكشف به جانب من الحامية ، وأخذ الثوار يمطرونها بوابل من الرصاص[٨] •

وفي يوم آخر استطاع أحد الحدادين من أهل الكوفة اسمه محمد خلف الحداد ، بالتعاون مع زملاء له ، أن يصنع قذيفة من المسامير • ثم تقدم هو وزملاؤه نحو الحامية ، ورموا قذيفتهم على احد الخانات فأحدثوا فيه بعض التخريب ، ولكن الحامية وجهت عليهم نيران الرشاشات فقتل من جراء ذلك محمد خلف ، وجرح بعض زملائه ، بينما فر الآخرون ونجوا[٩] •

وُجه اللوم على الثوار باعتبار أنهم لم يقوموا بمهاجمة الحامية كما ينبغي • وقد قال السيد قاطع العوادي على أثر زيارته للكوفة : ان الثوار لم يهاجموا الحامية المحصورة في خان اليزدي ، فقد « ردّت الاوادم » ــ يقصد تراجع الرجال ــ ولو أنهم هاجموها لانتصروا عليها[١٠] •

نال علوان الحاج سعدون النصيب الاوفى من هذا اللوم • فقد كان لهذا الرجل خصوم كثيرون يأتي في مقدمتهم أهل النجف لما كان بينهم

---

(٨) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ــ ص ١٢٦ •

(٩) كامل سلمان الجبوري (الكوفة في ثورة العشرين) ــ النجف ١٩٧٢ ــ ص ١٠٦ ــ ١٠٧ •

(١٠) علي البازركان (المصدر السابق) ــ ص ١٥٧ ــ ١٥٨ •

وبين بني حسن من معارك دامية في فترة العصيان[١١] ، وقد انتهز هؤلاء الخصوم اخفاق الهجوم على الحامية فصاروا يتقولون ما شاؤوا على علوان وعشيرته ، وألصقوا به تهمة التفاهم مع الانكليز ، وانه يقبض المال منهم سرا لكي يكيد للثورة • وقد شاعت عنه هذه التهمة بين بعض العشائر لاسيما تلك التي لها عداء سابق مع بني حسن • واشتهر آنذاك بيتان من الشعر نظمته شاعرة من عشيرة العوابد تندد فيه بعلوان وتقارنه برئيسها مرزوق العواد ، همـــــا :

يا اللي تصل علـوان گل لـه	تحسب الرياسـة بيـع جـلـة
مرزوگنا يسـرط الـسگلــــة	يمسي الكفـل يصبـح الحلـة

ومن الجدير بالذكر ان هذه التهمة التي أُلصقت بعلوان الحـــاج سعدون ظلت حديث المجالس في النجف حتى عهد متأخر • وقد حدث ذات يوم في مجلس آل شلاش أن أثير هذا الموضوع من جديد ، وكثر النقاش والجدال حوله • وكان السيد علوان الياسري حاضرا فقال حسما للجدال : « لم لا اختصر لكم الكلام وأكفيكم مؤونة الاختلاف وانا اعرف أدق شؤون الثورة العراقية ، ان الثورة العراقية لم تكن تتم على الاطلاق لولا اشتراك علوان الحاج سعدون بها واخلاصه لها ، ولم يكن بوسع أحد أن يخطو شبرا واحدا في مناطق قبائل بني حسن لو لم يكن رؤساء هذه القبائل قـد اشتركوا في الثورة وعملوا لها مخلصين »[١٢] •

قصف جامع الكوفة :

كانت الطائرات الانكليزية توالي قصف الثوار في الكوفة وحواليهـا طيلة مدة الحصار • وفي ٢٤ تموز ألقت احدى الطائرات ثلاث قنابل على جامع الكوفة الكبير ، وكان مزدحما بالناس فقتلت عدداً غير قليل منهم •

---

(١١) انظر تفصيل ذلك في الجزء الرابع من هذا الكتاب ــ الفصل السابع •

(١٢) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ص ٦١ •

سقطت القنبلة الاولى على دكة في داخل الجامع تعرف بـ « دكة القضاء» وهي قد سميت بذلك لان الناس يعتقدون بانها الدكة التى كان الامام علي يجلس عليها للقضاء بين الناس ، ولذلك فهم يتجمعون حولها ويتبركون بها، فسقطت القنبلة عليهم فأصابت ٢٣ شخصا منهم كان من بينهم النساء والاطفال. أما القنبلة الثانية فقد سقطت على ركن من السور الخارجي ، ومدمت جزءاً منه غير أنها لم تصب أحدا(١٣) . أما القنبلة الثالثة فسقطت خارج الجامع في أول الطريق المتجه الى مسجد السهلة فأصابت امرأتين كانتا تسيران في طريقهما ، ومزقتهما تمزيقا(١٤) .

نشر قادة الثورة في جريدة « الفرات » بيانا موجهاً الى العالم يشجبون فيه هذا الفعل البربري . وأرسلوا صورا من هذا البيان الى قناصل الدول الاجنبية في بغداد ، والى سفاراتها في طهران . وقد شعر الانكليز بشناعة ما فعلوا فنشروا في جريدة « العراق » بيانا رسميا هذا نصه :

« وافت الانباء منذ بضعة ايام من مصدر ذي شأن يُعتمد عليه ان جامع علي في الكوفة يستعمله الشيوخ العصاة مركزا لاعمالهم ، وبينما كانت الطيارات محلقة فوق الكوفة أُطلقت عليها النار من الجامع ، فقابلتها الطيارات بالمثل غير عالمة انه جامع ، وألقت قنابلها في جواره . ومع ذلك ، وان كان هذا الجامع وغيره من الجوامع قد استعمله العصاة لاغراض عسكرية ، فقد صدرت الاوامر بان لاتلقى عليها القنابل حتى وان كانت مستعملة بمثابة مواقع لاطلاق النار منها على جنودنا وعلى طياراتنا »(١٥) .

تجربة المدفع :

كان من جملة الغنائم التي وقعت في أيدي الثوار عقب معركة الرارنجية مدفع من عيار ١٨ رطل . فهو كان قد سقط في قناة عميقة ، وحاول الانكليز انتشاله منها فلم يوفقوا ، فتركوه بعدما نزعوا عنه ابرته ومغلاقه

---

(١٣) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق)ـ ص ١٢٥ ــ ١٢٦ .
(١٤) كامل سلمان الجبوري (المصدر السابق) ـ ص ١١٢ .
(١٥) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٧ آب ١٩٢٠ .

الخلفي • وقد عثر الثوار عليه فيما بعد فاستولوا عليه •

حدثني من شاهد المدفع فقال انه كان كبيرا يبلغ طوله اكثر من ثلاثة أمتار • وقد شده الثوار بالحبال الى بغال أحضروها لسحبه ، وصاروا يسحبونه متوجهين به الى الكفل وهم يهوسون : « الطوب أحسن لو مكواري » • ثم واصلوا سحبه من الكفل حتى أوصلوه الى مقربة من الكوفة، فوضعوه في موضع قريب من ضفة النهر اليسرى يقع مقابل شريعة أم التبن التى تبعد عن الكوفة بنحو ميلين •

كان من بين الضباط المتطوعين ثلاثة مختصون بالمدفعية هم : حسين علوان الدورى ومحمود سامي وزكي أمين الكردي • وقد كُلف هؤلاء بفحص المدفع بغية اعادة استعماله لقصف حامية الكوفة • وعند الفحص وجد الضباط أن المدفع ينقصه بالاضافة الى المغلاق والابرة شيء ثالث هو عتلة الرمي التى تساعد على ضرب الابرة عند اطلاق المدفع • وكانت هذه العتلة قد كسرها بعض افراد العشائر واستحوذوا عليها ظنا منهم أنها مصنوعة من الذهب لانها كانت صفراء لامعة •

كان رأي الضابط حسين علوان الدوري ان من الممكن صنع المغلاق محليا ، وكذلك من الممكن الاستغناء عن العتلة بمطرقة كبيرة من مطارق الحدادين • أما الابرة فهي تصنع عادة من معدن خاص ولا توجد الا في مخازن الجيش الانكليزي في بغداد ولا بد من الاتيان بها من هناك بطريقة من الطرق • ولهذا تقرر ارسال شخص موثوق الى بغداد من أجل الحصول عليها • وقد تبرع محسن شلاش بمبلغ من الليرات لهذا الغرض •

سافر الرسول من الكوفة الى بغداد ، واتصل هناك برجال الحركة الوطنية كجعفر ابو التمن وعلي البازركان وسامى خوندة • وأخذ هؤلاء يبحثون عن رجل يساعدهم ، وتمكنوا بعد لأي من التعرف على هندى مسلم يعمل في المعسكر الانكليزي في الهنيدي اسمه « غلام شهيد » ، وكان هذا الرجل كمعظم الهنود المسلمين الذين كانوا يعملون فى خدمة الانكليز يعطفون على الثورة ويودون مساعدتها • وقد استطاع هذا الرجل أن يحصل

على الابرة اذ اختلسها من أحد مخازن الجيش الانكليزي • ونفحه علي البازركان بثلاث ليرات ذهب مكافأة له[١٦] •

كُلف بنقل الابرة الى النجف رجل له خبرة بالميكانيك واصلاح الاسلحة اسمه السيد داود السامرائي • وقد روى هذا الرجل قصة نقله الابرة في حديث له مع محرر احدى الصحف البغدادية حيث قال : « جاءني رجل يسألني : هل أنت السيد داود السامرائي ؟ فقلت : نعم • فقال : ان الوطن يحتاج الى خدماتك • فقلت : اني في خدمة الوطن حتى الموت ! فأخذني الرجل الى دار خربة في منطقة الحيدرخانه ونحن نحاذر أن يلمحنا جنود الاحتلال • وهناك كان اربعة من رجال الثورة يجلسون ، فطلبوا مني أن اقسم بالقرآن الكريم أن أخدم وطني بشرف حتى الموت فأقسمت • ثم تناولنا الطعام على الطريقة البغدادية « الخبز والملح » •••

ثم ذكر السامرائي كيف أنه وضع الابرة في داخل زجاجة واخفى الزجاجة بين لفات كثيرة من الاقمشة ، ثم وضعها في عربة مليئة بالقش ، وخرج في صحبة عربات اخرى كانت مليئة بالتبن والشعير • فوصل الى كربلاء عصرا ثم سار منها الى النجف فوصلها في منتصف الليل فوجد الجميع ينتظرونه على أحر من الجمر[١٧] •

كان حسين علوان الدوري قد أشرف على اعداد المدفع قبل وصول الابرة اليه ، وقد عاونه في ذلك حداد من أهل النجف له خبرة طويلة باصلاح البنادق اسمه « اسطه كديمي » • وقد تمكن هذا الرجل من صنع مغلاق يصلح أن يكون بديلا للمغلاق الاصلي • وعندما وصلت الابرة قام الدورى بتجربة المدفع بمحضر من الشيخ عبدالكريم الجزائرى والسيد أبو القاسم الكاشاني وعلوان الحاج سعدون • وكانت التجربة لاتخلو من مجازفة لعدم وجود عتلة الرمي • وقد اضطر الدوري أن يمسك الابرة

---

(١٦) علي البازركان (المصدر السابق) ــ ص ١٥٢ •

(١٧) جريدة (كل شيء) البغدادية ــ في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٦٩ •

باحدى يديه ويمسك باليد الاخرى مطرقة كبيرة من مطارق الحدادين ، وحين أهوى بالمطرقة على الابرة انطلقت النار من المدفع دليلا على نجاح التجربة • فارتفعت اصوات الحاضرين بالصلاة على محمد وآل محمد ، وتقدم علوان الحاج سعدون نحو الدوري يهنؤه على عمله ، واغرورقت عيون الجزائرى والكاشاني بدموع الفرح[١٨] •

حين انتشر خبر نجاح المدفع صارت النجف تموج بالهوسات ، وأخذت البشائر تنتقل من مجلس الى مجلس مفادها أن الضباط قد نجحوا في أستخدام المدفع وان الحامية الانكليزية المحصورة في الكوفة ستغدو شذر مذر في خلال ساعات معدودة •

أعد قادة الثورة انذارا طويلا لارساله الى قائد الحامية الميجر توربري يصفون فيه الانتصارات التى نالها الثوار فى معركة الرارنجية وغيرها ، ويهددونه بالمدافع الضخمة التي يملكونها ، ويطلبون اليه التسليم ، ويتعهدون له ولافراد حاميته بحسن المعاملة حسبما أمر به الدين الاسلامى • وقد وقع هذا الانذار السيد نور وعلوان الحاج سعدون ومحسن شلاش[١٩] • وحمله الى الحامية رجل يحمل علماً أبيض ولكنه لم يلق من الحامية جواباً فعاد خائباً[٢٠] •

اشاعات وهمسات :

لم تكد تمر فترة قصيرة على تجربة المدفع حتى بدأ الناس يستبطأون وقوع النصر العظيم الذي كانوا يتوقعونه من المدفع ، وأخذت الشكوك تساور نفوسهم ، وانطلقت الاشاعات تتهم الضباط بأنهم جواسيس أرسلهم الانكليز من بغداد لكي يتعاونوا مع علوان الحاج سعدون في تفشيل خطة الهجوم على حامية الكوفة • وصار الناس يتهامسون متسائلين : ما هو السر في وضع

---

(١٨) فراتي (المصدر السابق) — ص ٨٣ •
(١٩) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) — بغداد ١٩٥٢ — ص ٢٤١ — ٢٤٢ •
(20) Haldane (op. cit.) - P. 188 - 189.

المدفع على بعد ميلين من حامية الكوفة ؟ ! ولماذا لم يوضع المدفع قريبا من الحامية على ضفة النهر المقابلة لها لكي ينسفها نسفا ؟!

اضطر الشيخ فتح الله الاصفهاني تجاه ضغط الرأي العام أن يرسل الى الكوفة الشيخ جواد الجواهري والحاج محسن شلاش لدراسة الامر • وقد قابل هذان الرجلان علوان الحاج سعدون وطلبا منه نقل المدفع من موضعه البعيد الى ضفة النهر المقابلة للحامية • فاعتذر علوان عن اجابة الطلب وقال ان المسألة فنية وان الضباط هم المسؤولون عنها باعتبارهم خبراء في فن المدفعية ، وبعد المداولة قرروا استدعاء الضباط الى مسجد الكوفة للاستماع الى اقوالهم • وقد أدلى الضباط بأقوالهم ومفادها ان المدفع يجب ان يكون بعيدا عن هدفه بمسافة معينة لان القنبلة التى تنطلق منه يكون مسارها على شكل قوس لاتستوعبه المسافة القصيرة ، يُضاف الى ذلك أن نقل المدفع الى الضفة المقابلة للحامية يجعله هدفا لنيران رشاشاتها كما يجعله عرضة لغارات مفارز فدائية من جنود الحامية تعبر النهر اليه خلسة لمهاجمته وتحطيمه •

كان محمود سامي أشد الضباط معارضة لنقل المدفع حتى قيل أنه بكى وقال : « اذا كنتم قد صممتم على نقل المدفع فاني أفضل أن تقتلوني قبل أن تأمروا بتقريب المدفع الى هدفه » • والظاهر ان معارضته لم تؤثر شيئا ، واضطر علوان الحاج سعدون الى الموافقة على نقل المدفع تحت ضغط الرأي العام[٢١] •

تقرر ان ينقل المدفع الى موضعه الجديد في مساء ١٧ آب • وفي صباح ذلك اليوم قام حسين علوان الدوري بتجربة للمدفع وهو في موضعه القديم• ولعله اراد ان يثبت بذلك صحة رأيه ورأي زملائه في أن هذا الموضع أفضل للمدفع من الموضع الجديد الذى سينقل اليه •

جرت التجربة بحضور نفر من وجهاء الكوفة وعلماء النجف والضباط ، فاطلق الدورى ثلاث قنابل ، وشاء القدر ان تسقط القنبلة الاولى

---

(٢١) فراتي (المصدر السابق) — ص ٩٦ — ٩٧ •

في وسط الباخرة « فاير فلاي » التي كانت راسية بالقرب من الحامية ، فاندلع منها لهيب شديد مما جعل بحارتها يلقون بأنفسهم الى النهر طلباً للنجاة • وقد أشار هالدين الى ذلك في كتابه حيث قال : « في ١٧ آب أطلق المدفع قنابله على الباخرة فلاير فلاي • فسقطت القنبلة الاولى عليها وجعلتها تحترق بشدة الى درجة خيف من حدوث انفجار في مخزن الوقود فيها وما ينتج عنه من الحاق الضرر بالحامية لقرب الباخرة منها • ولهذا جرى اغراق الباخرة برشاشات لويس عن طريق احداث ثقوب في صفائحها • وكان قائدها الباسل قد جرح قبل ذلك ، ثم اصيب بحروق ، ومات بعد يومين • كما قتل واحد من بحارة الباخرة وجرح آخر »[٢٢] •

ومن الجدير بالذكر ان الدوري نفسه قد أصيب بجراح عند اطلاق القنابل ، وذلك من جراء استخدامه كلتا يديه ، وكانت اصابته في رأسه فسال منه دم غزير ، وأسرع السيد أبو القاسم الكاشاني لاسعافه إذ أخرج من جيبه منديلاً حريرياً من المناديل اليزدية التي كان استعمالها شائعاً في تلك الايام ، وربط به رأس الدوري • وقد احتفظ الدوري فيما بعد بذلك المنديل للذكرى ، واعتاد أن يريه للناس في بعض المناسبات افتخاراً به وتدليلاً على صدق وطنيته[٢٣] •

مصير المدفع :

تم نقل المدفع الى الضفة المقابلة للحامية تحت جنح الظلام ، وكان قد أقيم له جدار لحمايته من نيران الحامية ، وفُتح في الجدار ثقب لكي تخرج منه فوهة المدفع • ونيطت حراسة المدفع بآل عيسى وهم فخذ من بني حسن مشهورون بالشجاعة •

لم يكد يتم نصب المدفع حتى بدأت الحامية تسلط عليه الانوار الكشافة ، ثم صارت تقذفه بوابل من رصاص رشاشاتها • وهب آل عيسى يدافعون عنه برصاص بنادقهم فلم ينفع ذلك شيئاً ، وصاروا يتساقطون

(22) Haldane (op. cit.) - P. 189.

(٢٣) فراتي (المصدر السابق) — ص ٩٣ •

حوله صرعى واحداً بعد الآخر(٢٤) .

المظنون ان الانكليز كان لديهم جواسيس بين الثوار يخبرونهم بأمر المدفع ، ولا نستبعد ان يكون هؤلاء الجواسيس هم الذين اطلقوا الاشاعات وهيجوا الرأي العام من أجل نقل المدفع الى موضعه الجديد . وهذا أمر لا يندر وقوعه في الثورات والانتفاضات الشعبية .

أصبح المدفع بعد انهيال الرصاص الكثير عليه عاطلا عن العمل حيث امتلأت فوهته بالرصاص وصار في حاجة الى اصلاح يستغرق عدة أيام . وأتضح للجمهور عند ذلك صواب رأي الضباط ، وارتفعت منزلتهم في نظر الناس مرة أخرى .

نُقل المدفع الى موضع بعيد ، وانكب عليه لاصلاحه السيد داود السامرائي بالتعاون مع الاسطة كديمي وآخرين . وقد تمكن هؤلاء من اصلاحه ، كما استطاعوا أن يصنعوا له عتلة بدلاً عن عتلته المفقودة . وفي ٢٨ آب كان المدفع جاهزاً للاستعمال ، فأُطلقت منه على الحامية ثلاث قنابل ، وفي اليوم التالي أُطلقت سبع قنابل ، وفي اليوم الثالث أُطلقت ٣١ قنبلة ـ بعضها صباحاً والبعض الآخر عصراً .

ونُقل الى الكوفة مدفع آخر كان في النجف من بقايا العهد التركي ، وهو صغير . وفي ٦ أيلول أخذ المدفعان يطلقان قنابلهما على الحامية معاً ، فأطلق الكبير اثنتي عشرة قنبلة والصغير أربع . وبعد يومين أطلق الكبير ثماني عشرة قنبلة والصغير ست(٢٥) .

يعترف هالدين ان مجموع ما قذف على الحامية من القنابل كان تسعين قنبلة ، وانها سببت للحامية رهقاً شديداً(٢٦) . وفي ١٧ تشرين الاول تم انقاذ الحامية على يد الرتل الانكليزي القادم من الكفل . وكانت خسائر الحامية طيلة مدة الحصار ٢٥ قتيلاً و ٢٧ جريحاً ، وتبين ان الكابتن مان كان من جملة القتلى ، وقد أسف لمقتله هالدين وجميع القادة البريطانيين .

---

(٢٤) المصدر السابق ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢٥) محمد علي كمال الدين (المصدر السابق) ـ ص ١٣٠ .

(26) Haldane (op. cit.) - P. 189 , 192.

الفصل الحادي والعشرون

ويلسون يعرض الصلح

انتهز ويلسون فرصة وفاة الشيرازي وانتقال المرجعية الدينية الى الشيخ فتح الله الاصفهاني فقام بمحاولة لعرض الصلح عليه • ولا ندري هل كانت محاولته هذه جدية أم كانت مكيدة منه استهدف بها شق صفوف الثوار على طريقة رفع المصاحف في صفين •

جاءت المحاولة بصورة رسالة موجهة من ويلسون الى الاصفهاني ، وهي مؤرخة في ٢٧ آب ١٩٢٠ ، وقد طبعت الحكومة نسخاً كثيرة منها وألقتها من الطائرات على مختلف مناطق الثورة ، كما نشرتها في الجرائد التابعة لها في بغداد والموصل والبصرة •

وفيما يلي فحواها :

افتتح ويلسون الرسالة بتهنئة الاصفهاني على تقلده المرجعية بعد وفاة الشيرازي ، ولكنه قال بأنه جدير بالتعزية بدلاً من التهنئة نظراً للمصائب التي حلت بالعراق بسبب آراء المرحوم الشيرازي • ثم أشار ويلسون الى أن الشيرازي كان قد أوضح في مفاوضاته الأخيرة أنه يريد الصلح وتجنب سفك الدماء ، وقال ان خليفته لابد أن يشعر بمثل هذا الشعور الذي كان يحمله المرحوم • وأخذ ويلسون يطنب في مدح الحكومة البريطانية وذكر انها اعتمدت في حكمها دائماً على الاركان الثلاثة وهي الرحمة والعدل والتسامح الديني ، وان أهل العراق استقبلوا دخول الانكليز الى بلادهم بسرور ، وكانوا كذلك مسرورين من بقاء الجيوش الانكليزية فيها ، ولكن بعض المفسدين والمغرضين حين رأوا تنقيص جيوشها على أثر انتهاء الحرب قاموا يشوّشون الاذهان ويخدشون الافكار ، فأدى ذلك الى الحالة الحاضرة • ثم أشار ويلسون الى فقر العشائر القائمة بالثورة وعدم وجود مصانع لديها لصنع الآلات الحربية ، وأنها اذا لم ترجع الى زراعتها

ماتت جوعاً ، بينما قوة الانكليز في ازدياد لان المراكب المحملة بالعساكر والمدافع والبنادق والرشاشات ترد كل يوم الى البصرة • وطلب ويلسون من الاصفهاني ايفاد مندوب عنه الى بغداد ليشهد بعينه وصول هذه الامدادات اليها ، وتعهد باعادة المندوب الى النجف سالماً • وتساءل ويلسون : لماذا يدوم سفك الدماء ؟! ثم قال : ان الحكومة ستعاقب بعض الرؤساء الذين ضللوا الناس وأسماؤهم معروفة ، أما غيرهم من الناس فلا خوف عليهم ومن الممكن أن يعودوا الى مواطنهم سالمين • ثم ختم ويلسون رسالته بقوله انه أناب عنه الكولونيل هاول ، ويرجو من الاصفهاني أن ينيب مندوباً عنه ، لكي يتباحث المندوبان في هذه المسائل المهمة ، « وفي الختام نبلغكم احتراماتنا الوافرة وتحياتنا الصميمية والسلام »[1] •

رفض العرض :

عندما وصلت رسالة ويلسون الى الاصفهاني استدعى اليه حاشيته ومستشاريه للمداولة في الأمر • ولما اجتمع هؤلاء عنده وعرض عليهم الرسالة انقسموا حولها الى فريقين : فريق يستحسن المفاوضة مع الانكليز ويرى ان الثوار قد نفد ما لديهم من ذخيرة وان الايمان وحده لا يكفي تجاه الجيوش الانكليزية الجرارة • أما الفريق الآخر فكان رأيه ان مفاوضة الانكليز لا فائدة منها ، وأنهم قد جربوها من قبل فلم تسفر عن نتيجة ، وان من الأفضل ان تخفق الثورة ويعرف الناس انها أخفقت بسبب نفاد السلاح والذخيرة ، وتسمع الدول احتجاجات الثوار ، فذلك خير من الرضوخ والاستسلام[2] •

كان من جملة الموافقين على المفاوضة الشيخ عبدالكريم الجزائري والشيخ جواد الجواهري والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي ومحسن شلاش • أما الرافضون فكان في مقدمتهم الشيخ علي المانع ويؤيده الشيخ

---

(١) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٣١ آب ١٩٢٠ •

(٢) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ١٢٣ •

باقر الشبيبي الذي اتخذ موقف الحماس الشديد وأخذ ينادي بمبدأ « لا مفاوضة قبل الجلاء » ، ويقصد به ان الانكليز اذا أرادوا المفاوضة فعليهم أن يجلوا عن العراق ويذهبوا الى الفاو ومن هناك يرسلون الينا مندوبهم للمفاوضة معنا .

اشتد الجدال بين الفريقين ، وكانت الغلبة أخيراً في جانب الرافضين . ويقال ان الشيخ علي المانع كانت له دالة قوية على الاصفهاني ، وكان الاصفهاني يصغي اليه ويتأثر بأقواله ، فكان ذلك من اسباب رجحان رأي الرافضين على رأي الموافقين .

استقر الرأي ان يكون الرد على ويلسون بشكلين ، أحدهما بشكل رسالة موجهة اليه من الاصفهاني وهي تعلن الرفض باسلوب معتدل يناسب مقام الاصفهاني ، والثاني بشكل بيان عام مكتوب باسلوب شديد اللهجة . وفيما يلي ملخص الرسالة الموجهة من الاصفهاني الى ويلسون :

يقول الاصفهاني في رسالته : انه قد استاء كثيراً من قول ويلسون بان المصائب التي حلت بالعراق كانت بسبب آراء المرحوم الشيرازي ، مع العلم ان المرحوم قد كتب مراراً الى عموم الناس يطلب منهم التزام الهدوء وبالمطالبة السلمية بالحقوق المشروعة . وعبر الاصفهاني عن استيائه بقوله يخاطب ويلسون : « فجرحتم بتلك النسبة عاطفتي خصوصاً ، وعواطف المسلمين عموماً ، وجئتم بها نكراء بلغ سيلها الزبى ، وضاقت لها حلقتا البطان » . ثم قال الاصفهاني : إنه حذّر ويلسون قبل هذا وأنذره بوجوب تدارك الأمر قبل خروج علاجه من مقدرتنا ولكن ويلسون وضع أصابعه في آذانه حذراً من الاستماع الى ذلك ، ولجأ الى استعمال الشدة بدلاً من الاستجابة للمطاليب المشروعة . ثم ذكر الاصفهاني الاركان الثلاثة التي تعتمد عليها الحكومة البريطانية حسب قول ويلسون ، وهي الرحمة والعدل والتسامح الديني ، ففنّدها واحداً بعد الآخر ، وأشار الى القتل والنفي والحرق وهتك الاعراض وقصف المساجد ومنع مأتم عزاء الحسين الاّ بالحصول على « باص » ، وغير ذلك مما لو أريد شرحه لطال . وختم الاصفهاني الرسالة بما نصه : « والأعجب انكم تطلبون

التئام هذا الصدع الذي لايجبر كسره وتقولون نحن لا نريد ان نجازي العراقيين كلهم وانما نجازي من أسماؤهم عندنا وعندكم معلومة بزعم أنهم مفسدون ، فكأن تعريف الفساد عندكم هو المطالبة بالحق ، ونحن لانعرف من أحوالهم الا انهم طالبوا بحق فمنعتموهم وأدرتم عليهم رحى الحرب الطاحنة ، فدافعوكم عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو تركتموهم وحقهم ما سالت منكم ولا منهم قطرة دم • ولكنكم أنتم فتقتم هذا الفتق الذي لا يخيط بالخيوط ولا بالابر ، فانتم السبب وعليكم التبعة ، ورأينا في الأمر أن يُمنح العراقيون استقلالهم التام خالياً من كل شائبة ، عارياً عن كل قيد • أما أمر المفاوضة فلم تتضح لي غايته ، ولم أثق بحسن نهايته ، وعلى كل فهو أمر دقيق يحتاج الى جلاء فكر وتأمل • ومن الله نسأل حسن الختام »[٣] •

أما البيان العام فهو يشبه في فحواه ما جاء في رسالة الاصفهاني ، غير أنه أطول ويتميز باسلوب خطابي عنيف • والمظنون انه مكتوب بقلم الشيخ باقر الشبيبي • وفيما يلي ننقل نبذة منه كنموذج لأسلوبه ، وهذا نصها :

« ان العرب لايهمهم ملاقاة الحر والبرد ولا يبالون بجوع ولا يضطربون من قصف المدافع وصفير البنادق وصدى قنابل الطيارات • فهم مثابرون يدافعون عن حقوقهم المشروعة وأوطانهم المقدسة ونفوسهم البريئة حتى بالسلاح الاسود المعلوم ـ أي المقوار ـ يتنادبون بالمدافعة لحفظ كيانهم بثبات وحزم ، ليس معهما ملل ، ولا يتخللهما خلل ، فأن عجزت الشيوخ نابتهم الكهول ، وان فنيت الكهول أعقبتهم الشبان والصبيان ، بل وحتى النساء والاطفال ، فهم يريقون آخر قطرة من دمائهم في سبيل المحافظة على حقوقهم المشروعة الا وهو الاستقلال التام »[٤] •

---

(٣) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ١٣١ •

(٤) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ •

وقد ا لصقت نسخ من هذا البيان على أبواب الصحن وأبواب المسجد لهندي والمحلات العامة • فأثار حماساً عاماً في الناس بحيث أصبح المخالف غير قادر على الجهر برأيه(٥) •

عريضة الى الدول :

عندما وصل خبر قرار رفض الصلح الذي اتخذ في النجف الى الرؤساء الذين كانوا في جبهات القتال انقسموا بدورهم الى فريقين ، فريق رضي به وأيده تأييداً قوياً ، ويتألف هذا الفريق من الرؤساء الذين كانوا أول من دعا الى الثورة المسلحه وحرّض الناس عليها ، فقد تأكد لديهم انهم هم المقصودون بـ « المفسدين » الذين ذكرهم ويلسون في رسالته ، وهم الذين سيتحملون الجزاء الذي هدد به ، ولهذا وجدوا من مصلحتهم أن تستمر الثورة سائرة في سبيلها ـ وليكن بعدئذٍ مايكون !

أما الفريق الثاني فقد امتعضوا من كون قرار الصلح قد اتخذه الاصفهاني وحاشيته في النجف دون أن يرجعوا اليهم يستشيرونهم ، فهم يرون أنفسهم يعانون ضراوة القتال ويتكبدون خسائره بينما الاصفهاني وحاشيته جالسون على منادرهم في النجف يتجادلون فيما بينهم على منوال ما يفعلون في مسائلهم الفقهية المعهودة •

حصل شيء من التلاوم والاختلاف بين هذين الفريقين ، ولكنهم اتفقوا أخيراً على تنظيم مضبطة يوقعون عليها جميعاً ويوجهونها الى الدول الحرة يشرحون فيها حالهم ويضعون اللوم في اندلاع الثورة على ضباط الانكليز ويؤكدون على أنهم لا يطلبون غير الاستقلال والحرية وهم يرجون من الدول الحرة مساعدتهم في ذلك • وقد تم تنظيم المضبطة في ١ محرم ١٣٣٩ هـ الموافق لـ ١٥ ايلول ١٩٢٠ م • وقد وقع عليها ٧٣ رئيسا وكتب عليها الاصفهاني العبارة التالية : « بسم الله الرحمن الرحيم • هذه الورقة كتبت باملاء زعماء العراق ومشائخ عشائره ، وهم الموقعون عليها باسمائهم في ١ محرم سنة ١٣٣٩ • حرر عن الجاني شيخ الشريعة الاصفهاني » •

---

(٥) فراتي (المصدر السابق) ـ ص ١٢٣ •

ننقل فيما يلي نص المضبطة كاملة لأهميتها ، نقلاً عن نسخة كانت موجهة الى المفوضية الهولندية في طهران ، ولم نحذف منها سوى كلمات قليلة لم نستطع قراءتها فوضعنا مكانها نقاطاً :

الى الحكومة الهولندية المفخمة بتوسط سفارتها في طهران .

نحن الأمة العراقية كنا قبل الحرب العامة ننتظر الفرصة لأن ننال حريتنا باستقلالنا التام وحكمنا الذاتي بطريق سلمي واحتجاجات أدبية حتى احتلت العراق جيوش الدولة البريطانية فاطمئنينا اليهم بكمال السلم والمودة آملين بنجاح مقاصدنا كما أعلن بذلك أمراء الجيش ، ولما سكنت الحرب اعلنت الدول بعزمهم على تعزية الانسانية وجبران كسرها وتمهيد السلم العام بمبدأ حرية الشعوب وعصبة الأمم ، ابتدأتنا بالبشرى في المنشورات دولتا بريطانية وفرانسة وبتصميمهما على مساعدتنا في نيلنا استقلالنا التام وحكمنا الذاتي والحرية التامة النهائية ، فبقينا منتظرين ذلك حافظين لنظام السلم والأمن وإن أجحفت بنا الاضرار المالية وغيرها بما لم نعهده من قبل ، وإذ طال علينا الانتظار وشاهدنا من أمراء الجيش سعيهم ضد استقلالنا وحريتنا توجهنا الى المطالبة بحقوقنا الطبيعية المشروعة ومواعيد الدولتين مطالبة أدبية قانونية فاستقبلتنا الاضطهادات المغلظة من ضباط الاحتلال بلا سبب سوى ابطال مساعينا في طلب الحقوق المشروعة ، وصاروا يسعون في تضييع حقوقنا وحريتنا بأنواع السعي ومن ذلك أنهم أبرزوا لجماعة من الأعراب أوراقاً بالخط الانكليزي زعموا أنها أوراق مالية زراعية وطلبوا توقيع الاعراب فيها فظهر بعد ذلك انها اعتراف بالوصاية للانكليز على العراق وضايقوا جماعة منا بالصراحة على هذا الاعتراف ، وانتشرت اضطهادات الضباط فينا فحبست جماعة بالحبس القاسي وسوقوا جماعات من ساداتنا وعلمائنا وأشرافنا ورؤساء قبائلنا تسويقاً قاسياً لايعرف فيه أثرهم وهجموا على منازل بعض مشائخ قبائلنا وأحرقوها وما فيها فقتلوا بعض الرجال والخيل وحيوانات كثيرة مع أن أصحاب المنازل كانوا غائبين عنها وما السبب في ذلك سوى فكرتنا في المطالبة بحقوقنا ، والبلاد والوجدان يشهدان بأن هؤلاء المنكوبين هم من ألزم الناس لخطة السكون

والمحافظة على الأمن العام ، ثم التفت الضباط الى كل من أحسوا منــــه المطالبة بحقوق الأمة فهددوه بأشد انواع التهديد وقاموا في تعقيب ذلــك بسوق القوة العسكرية فلم يكن لنا ملجأ في حفظ دمائنا وشرفنا ونواميسنا الا أن نكون يداً واحدة في دفع الاضطهاد العسكري مع محافظتنا على السلم والتباعد عنهم مهما أمكن ولكنهم لا يتركوننا فها نحن نبعد عنهم فيتبعوننـا تجول في آثارنا جيوشهم ومدافعهم وطياراتهم ، نطلب منهم تجديد السـلم وعموم الأمن وتخلية سبيلنا في المطالبة بحقوقنا بالمطالبة الأدبية فلا يجيبون، نجيبهم الى الهدنة وشروطها لعلهم يهتدون فيغدرون ، نخلي سبيلهم مــع أسلحتهم وقواهم فيأخذوننا على الغفلة ، وقد جرى في خلال ذلك مــن كثرة القتل في نسائنا وأطفالنا وقذف القنابل في معابدنا ما يبكي الانسانيـة والمدنية والنواميس الدينية ، كل ذلك مع سدهم علينا باب المخــابرات والشكايات الى الحكومات حتى الى حكومة لندن ، وقد بلغنا قريباً انه يمكن وصول شكاياتنا وتظلمنا الى الدول وعصبة الأمم ، فها نحن نهتف بالشكاية والتظلم الى جمعية عصبة الأمم وكل الدول التي نهضت لفك الانسانية من أسر الاستعباد القاسي وانقادها من عداء الظلم الوحشي والتي صممت على تعميم العدل في البشر وتمهيد السلم والامن العام وضمنت دفع الخطر عن الأمم المطالبة بحقوقها ، فان الأمل أكيد بأن مبادىء العدل الحميدة التـي تكفلت بها الدول المتمدنة لا تسمح أن تهضم حقوق الأمة العراقية مــع كفايتها في الوقوف بنفسها في معترك هذه الحياة بما لديها من الثروة التجارية والزراعية والاستعداد للعمران وما لديها من المنعة والشعور الأدبي والتهيؤ لزيادة الرقي ومع حيازتها لما فوق كفايتها في الادارة ومن الرجال الذيـن جربهم الامتحان القانوني من الاطباء والضباط والكتـاب والمأموريـن والمهندسين ... ويشهد على ذلك ان الادارات الملكية الحالية كلها تدار ادارة كافية ببعض رجال العراقيين ، وفيمن لم يدخل الوظائف أضعاف ممن هم أحسن من الموظفين . فالأمل تداركنا عاجلاً بالأمن من الاضطهــاد العسكري وتخلية سبيلنا ونيلنا استقلالنا الحر وتنظيمنا لأمورنا تنظيمـاً

سالماً من الدسائس ...[٦]

كُتبت عدة نسخ من هذه المضبطة لكي ترسل الى ايران حيث تقدم الى سفارات روسيا وأمريكا وفرنسا وهولندا وتركيا والمانيا . وكلف الشيخ محمد رضا الايرواني بحملها الى ايران . وقد سافر الشيخ محمد رضا الى ايران فعلاً ولكنه عند وصوله الى قصر شيرين خاف منها فأخفاها عند رجل يعتمد عليه هنالك . وبقيت العريضة لدى هذا الرجل الى ما بعد انتهاء الثورة . وقد تمكن السيد قاطع عند لجوئه الى ايران ان يستعيدها منه ، وقدمها الى السفارات المعنية[٧] ـ ولكن بعد فوات الأوان .

مقالة شديدة اللهجة :

في ١٧ ايلول ـ أي بعد يومين من كتابة العريضة ـ صدرت جريدة « الفرات » بعد ما كانت محتجبة وفيها مقالة شديدة اللهجة للرد على ويلسون بقلم الشيخ باقر الشبيبي . وهي مقالة طويلة جداً نكتفي بذكر بعض المقتطفات منها ، وهذا نصها :

« هون عليك يا ممثل الدولة الانكليزية ، ان الامة التي ناصبتها العداء وحكّمت فيها السيف ، فأرقت دماءها وأزهقت أرواحها ، عداءاً محضاً ، وتحكما صرفاً ، بلا خوف من الحق ، ولا وجل من العدل ، ستقف واياك امام محكمة التاريخ ليعلم من هو المجرم الذي أتلف النفوس وجنى على البشرية بلا رحمة ولا عطف فالويل لمن صبغ الارض بدماء الابرياء ...

« ياممثل الحكومة الانكليزية ، أنت بسياستك الرشيدة ! بسلوكك العجيب ! بحزمك الغريب ! بحصافة رأيك ! برصانة عقلك ! أنت بتدبيرك الحكيم ! أفسدت على حكومتك سياسة أجيال في الشرق كله لا في العراق وحده ، فانت وحدك المسؤول أمام الله وأمام العدل والقانون عن الجرائم التي ارتكبتها في العراق ، وعن المظالم التي أنزلتها بالامة ، حتى امتلأت

(٦) انظر صورة الوثيقة بالزنكغراف في كتاب فريق المزهر الفرعون (المصدر السابق) ـ مقابل ص ٣٨٤ .
(٧) المصدر السابق ـ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

فيها دوائر ظلمك ، وغصت بها زوايا جورك ... فيا مسبب مصائب العراق، يا سفاح الانكليز ، لقد جنيت على حكومتك الموقرة جناية ما روى التاريخ نظيرها لسفاح مثلك ...

« يا ممثل الدولة الانكليزية ، أتعزي المقام الروحاني ومنك الرزية ... ان ما نزل بالامة فمن المصائب التي هيأت أنت أسبابها . فالامة بريئة وأنت المذنب ، ألست الذي سحقت الحقوق ودست القانون ... الله يا حضرة الحاكم العام ! كيف تطاولت الى ذلك المقام فتحاملت على عصمته وتجاوزت على كرامته غاضاً طرفك عما تركته في مهج المسلمين وأحشاء العراقيين من الجروح التي هيهات أن تلتام ... فويل لكم يا ضباط الاحتلال . أما الرحمة وأينها منكم يا قساة ، الرحمة فضيلة تنحت عن قلوبكم ، وابتعدت عن ضمائركم . الرحمة احدى مميزات الانسانية التي لاتعرفون معناها . هي اسم عندكم ومسماها ليس عندكم ، وتشهد على ذلك قلوبكم بالقسوة ، ونياتكم بطحن العالم ... هلم نقابل بين رحمتنا ورحمتكم فهي عندكم تبعيد الابرياء من العلماء وأولاد الفقراء والزعماء ، وتعذيب المنفيين والاسرى يئنون تحت القيود الثقيلة والاغلال المؤثرة ، قيود لا تصبر عليها أعناق الفهود ، أما عندنا فلطف بالأسير وبرّ به ، ونظر الى الاجنبي ملؤه العطف ، تتفقد شؤونه ونرعى أحواله ... أخلاق أخذناها من شريعتنا ، وفضائل تلقيناها من مدنيتنا . فاين مدنيتكم يا أدعياء التمدن ...

« وأما عدلكم فقد تبيناه منذ تسلمتم أزمة البلاد التي أصبحت تئن من ظلمكم . فيا حضرة الحاكم العام ، لقد هدمتم هذا الركن بمقالع من السياسة التي اهلكت الحرث والنسل ، وأتت على الاخضر واليابس ، فتراب كل منطقة يشهد بأنكم سلبتم الحب حتى من منقار الطائر ، واستخرجتم المخ من العظام ، وضاعفتم الخراج أضعافاً على الزراع ، فأصبحوا يسألون الناس إلحافاً ، وأنتم تسألون فوق الجهد ، وتكلفون فوق الوسع . أهذا عدلكم ؟ ! نعم ان السجون والمنافي والديوان العرفي شهود على عدلكم ، وبراهين على صدقكم ، فاين العدل الذي تزعمون ؟

أوفيتم بوعد ؟ أو ثبتم على عهد ؟ اين البيانات الرسمية ؟ ايـن القطـــوع الدولية ؟ ...

« فيا أيها الحاكم أن الأمة قد اعتمدت في دفاعها على ثلاثة أركان : القومية والوطنية والشريعة الاسلامية . فعندها الثبات ازاء اختراع الآلات، والعناية الآلهية بدل المساعدة الخارجية ، والقناعة عوض الزراعة ، فالأمة صابرة على النزال حتى تنزلوا على حكم الحق ، مستمرة على النضـال حتى تسترد الحاكمية ... ان العرب لم يبذلوا الى الآن عشر ما أعدوه ، ولم يعملوا بعض ما يريدون أن يعملون . فقوتهم في زيادة ، وأعمالهـم في نشاط . ها قد جاء الخريف وانتهى موسم الحصاد ، وفرغ العرب من المشاغل الزراعية ، وأقبلوا على الحرب الدفاعية ، بشوق عجيب وميـــل قوي ، فازدادت جموعهم أضعاف ما كانت ... فيا أيها الحاكم ان الأمـــة عملاً بقواعدها الانسانية واعتماداً على أصول المدنية لا تمتنع عن المفاوضات الدولية ، لكنها لاتدخل في المفاوضة معكم الا على الشروط التالية : (١) سحب الجيش من البلاد ، (٢) ارجاع المنفيين ، (٣) حضور قناصل الدول في مجلس المفاوضة . وخلاصة القول ان الامة لاتريد الا الاستقلال التام للعراق بحدوده المعروفة ، وهي لاتدخل في المفاوضـة الا علـى تلـــك الشروط »[٨] .

---

(٨) المصدر السابق ـ ص ٣٦٤ ـ ٣٧٤ .

خاتمـة القسم الاول

بين عوامل الانتشار والانهيـار

لو ألقينا نظرة عامة على ثورة العشرين لوجدنا أنها مرت في مسيرتها عبر مراحل ثلاث : أولاها تتمثل في الأحداث التي مهدت للثورة وهـي الاحداث التي جرت في بغداد وكربلاء ودير الزور وتلعفر والموصـل ، والثانية تمثل في الثورة المسلحة التي انطلقت في الرميثة في الثلاثين من حزيران ١٩٢٠ ثم عمت منطقة الفرات الأوسط • أما الثالثة فتتمثـل في انتشار الثورة في مناطق العراق الاخرى كديالى والغراف وغيرهما •

تُعد الثورة في منطقة الفرات الأوسط بمثابة العمود الفقري لثـورة العشرين كلها • ففي هذه المنطقة حصلت الانتصارات الكبرى للثورة ، كما أن هذه المنطقة هي التي تحملت العبء الاكبر من التضحيات في الأنفس والأموال ، وصمدت للقتال فترة طويلة نسبياً • أما المناطق الأخرى التي انتشرت الثورة فيها بعدئذٍ ، فلم تكن ثورتها سوى صدى لثورة الفـرات الأوسط • وقد تمكن الانكليز من القضاء عليها بسهولة وفي خلال وقـت قصير ــ كما سنأتي اليه في فصول قادمة •

كان شهر تموز ١٩٢٠ شهر اندلاع الثورة المسلحة وانتشارهـا في الفرات الاوسط ، أما شهر آب الذي تلاه فهو الذي انتشرت فيه الثـورة الى المناطق الاخرى • وقد يصح القول ان آب كان شهر النحس علـى الانكليز في العراق إذ هم وجدوا ان الثورة فيه كادت تعم العراق باسره • ولولا وقوف بعض الشيوخ الكبار الى جانبهم في ساعة المحنة ، لربما صـار مصيرهم في العراق كمصيرهم في السودان في اثناء ثورة المهدي المعروفة •

عوامل الانتشار :

الواقع ان انتشار الثورة في آب على ذلك النطاق الواسع كان ظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة ، ومن المؤسف أن نرى الكتاب الذين درسوا ثورة العشرين لم يعيروا تلك الظاهرة الاهتمام الكافي • فقـد ذهبـوا في

تفسيرها الى أنها حدثت من جراء « وطنية » الشعب العراقي وبغضه للاستعمار ، واكتفوا بذلك • وهذا تفسير قد يصلح في مجال التوجيه للناشئة الجديدة انما هو لا يصلح في مجال البحث العلمي •

تطرقنا في الفصول السابقة بشكل متفرق الى ذكر العوامل التي أدت الى انتشار الثورة ، ونحاول الآن اعادة ذكر تلك العوامل بشكل ترتيبي موجز ، لكي تكون في ذهن القارىء صورة عامة عنها ، وهي كما يلي :

أولاً : عند اندلاع الثورة كانت القوات الانكليزية في العراق ضعيفة ومبعثرة من جراء خطأ اقترفه القائد العام الجنرال هالدين ، فادى ذلك الى تمكن الثوار من نيل انتصارات باهرة على القوات الانكليزية في بداية الأمر ، ثم صار كل نصر تناله العشائر الثائرة سبباً في تشجيع عشائر اخرى على الالتحاق بالثورة •

يجب أن لاننسى في هذا الصدد ما كان للعشائر من تراث عريق في ممارسة الحروب ، وقد دهشت القيادة الانكليزية لما وجدت فيهم من مقدرة على القتال وبراعة في وضع الخطط الحربية • يقول هالدين في تعليقه على معارك الرميثة : « من الواضح ان عقولاً بارعة كانت تدير حركاتهم ، انها عقول تعرف جيداً استعمال البندقية ، كما تعرف نقاط الضعف في جيوشنا الحديثة • وهناك قرائن تدل على حذقهم العظيم في اختيار الزمان والمكان لتهديد تجهيزات الماء لدينا وسكة الحديد وطريق السير • ومن حسن الحظ ان عتادهم كان محدوداً ، ولما كانت الاطلاقة الواحدة تكلفهم غالياً فانهم لا يعمدون الى التصويب على هدف ما لم يتيقنوا من سداد التصويب • انهم كغيرهم من أشباه البدائيين أظهروا جرأة عند تعقيبهم أية قوة منسحبة ، وقد أبدوا مهارة فائقة في اغتنام أية غلطة تقع في ترتيباتنا الحربية »[1] •

---

(1) Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 - P. 89.

ثانياً : كانت العشائر العراقية تملك من البنادق والاسلحة الأخرى مقادير كبيرة جداً حصلوا عليها في الحرب الاولى من جراء ما وقع فيها من كرّ وفر بين الجيوش المتحاربة طيلة أربع سنوات • يقول ويلسون في مذكراته : « ان سكان العراق بوجه عام تمكنوا من تجهيز أنفسهم بمقادير كبيرة من الاسلحة الحديثة وأعتدتها بحيث انخفض سعر البندقية من طراز (موزر) أو (لي أنفيلد) الى خمس باونات أو أقل من ذلك ، مع العلم أنه كان قبل الحرب يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ باون • ان البنادق التركية والانكليزية كانت تُلتقط بالآلاف من ميادين القتال ، أو تُسرق من خطوط المواصلات • وقد تراكمت الأعتدة عندهم الى حد لم يحلموا به من قبل • وأبدى أفراد العشائر شجاعة ومكراً ومثابرة في الاستحواذ على الأسلحة ••• فمن معسكر انكليزي واحد سرقوا أكثر من سبعين صندوقاً ، يحتوي كل صندوق منها على ألف خرطوشة • وقد فعلوا ذلك تحت أنوف الحراس »(٢) •

أضف الى ذلك ان النقود توافرت لدى العشائر كمثل ما توافرت الاسلحة ، وذلك من جراء التضخم النقدي وارتفاع أسعار الحبوب في عهد الاحتلال • والمعروف عن بعض قادة الثورة كالسيد نور الياسري وعبدالواحد الحاج سكر أنهم كانوا يملكون أموالا طائلة عند اندلاع الثورة ، وقد مكنهم ذلك من البذل على الثورة ومن توفير السلاح والطعام للمقاتلين من اتباعهم فترة غير قصيرة من الزمن •

ثالثا : ان الانتصارات التي نالها الثوار في الفرات الاوسط وصلت أخبارها الى مختلف أنحاء العراق بشكل مضخم مبالغ فيه • وهذا أمر طبيعي في مثل تلك الظروف • فصارت الاشاعات تنتشر بين الناس حول جسامة الغنائم التي فاز بها الثوار ، وألوف الاسرى الذين وقعوا في أيديهم • وأمست هذه الاشاعات حديث المجالس والمقاهي والدواوين والمضايف في كل مكان •

---

(2) Wilson (Loyalties) - London 1936 - Vol. 1, P. 559.

وقد صاحبت هذه الاشاعات اشاعات أخرى مفادها ان جيوشا جرارة قادمة الى العراق لنجدة الثوار ولطرد الانكليز من العراق ، وهي مؤلفة من قوات تركية بقيادة مصطفى كمال باشا ، وقوات عربية بقيادة الشريف عبدالله ، وقوات بلشفية بقيادة الجنرال « فلانسوف » • وكان الناس يصدقون بهذه الاشاعات طبعا ، وكثيرا ما تنطلق الهوسات بين الناس على أثر سماعهم اياها • ففي شهربان مثلا وصل اليها فارس مساءاً وهو مسرع ويصرخ قائلا : « بغداد سقطت » • ولم يكد هذا النبأ ينتشر في البلدة حتى انطلقت الهوسات والزغاريد واطلاقات الرصاص تملأ الفضاء ، وسهرت البلدة في تلك الليلة وهي في حالة من الهياج والابتهاج لاحد لهما[٣] • وحدث مثل هذا في طويريج حين وصل خبر مفاده ان المحمودية سقطت في أيدى الاتراك ، وان القوات الشريفية تتقدم من الرمادي[٤] • وحدثني أحد المسنين من أهل الكاظمية : أن اشاعة انتشرت في البلدة مؤداها أن جيوش الثورة قد احتلت المحمودية وهي قادمة في طريقها الى بغداد ، فخرج الناس الى باب البلدة لاستقبالها وهم يهزجون ويهوسون ، وظلوا كذلك برهة من الوقت حتى ملوا ، ثم عادوا الى بيوتهم آملين أن تأتي الجيوش الفاتحة في اليوم التالي أو بعده •

وكانت هناك اشاعات اخرى راجت بين الناس هي ان الانكليز سيجلون عن العراق قريبا بضغط من عصبة الامم أو امريكا والدول الاخرى وقد بلغت هذه الاشاعات من القوة في بعض الاحيان بحيث اضطرت الحكومة الى اصدار بيانات رسمية لتكذيبها • ولكن الناس لم يصدقوا ببيانات الحكومة ، وذلك من جراء ما اعتادوا عليه فى حياتهم الماضية من الارتياب في كل أمر يصدر من الحكومة • وقد يفسرونه بخلاف مقصود الحكومة منه •

رابعا : كانت بعض العشائر عند انضمامها الى الثورة تبتغي الفوز

---

(3) Buchanan (In The Hands of The Arabs) - London - P. 160.
(4) Haldane (op. cit.) - P. 185.

بالغنائم والفرهود أكثر من المطالبة بالحرية والاستقلال • وهذا أمر طبيعي لاداعي للعجب منه ، فان العشائر التي اعتادت على النهب والسلب خلال مئات السنين يصعب عليها أن تترك هذه العادة تحت تأثير حب « الوطن » • ومن الممكن القول ان الاشاعات التي راجت عن وفرة غنائم الثــوار في الفرات الاوسط شجعت عشائر المناطق الاخرى على الاقتداء بهم في الثورة لكي تفوز بمثل ما فازوا به من الغنائم • ولهذا رأينا بعض العشائر تعمد الى نهب البلدة التي تدخلها في اثناء الثورة • وقد حصل هذا بوجه خاص في منطقة ديالى • ولذا أطلق سكان ديالى على ايام الثورة اسم «جهجهون» ويعنون به الفوضى • ويُروى عن السيد نور الياسري انه عندما بلغته أخبار النهب الذي قامت به عشائر ديالى كتب الى رؤسائهم يؤنبهم على ذلك قائلا : ان الثورة جهاد في سبيل الله وليست ذريعة للنهب(٥) •

خامسا : كان العامل الديني من أهم العوامل في انتشار الثورة ، ان لم يكن اهمها جميعا • ونقصد بهذا العامل اتجاه الناس الى اتهام كل من لا يؤيد الثورة بأنه كافر نصراني ، والواقع ان عددا غير قليل من الشيوخ التحقوا بالثورة تحت تأثير هذا العامل اذ هم كانوا يخشــون أن تهبط منزلتهم الاجتماعية من جراء اتهام الناس لهم بالكفر والنصرانية •

ومن الجدير بالذكر ان الانسان بوجه عام لايهتم بالدين كثيرا في حياته اليومية ، فهو قد اعتاد أن يخالف أوامر الدين ونواهيه في كل يوم ولا يبالي • وقد لاحظنا ذلك بشكل واضح لدى العشائر اذ أن معظــم قيمهم الاجتماعية مخالفة لتعاليم الدين ، كالعصبية القبلية والثأر والغزو والنهب وفرض الاتاوة وغسل العار والنهوة وما أشبه • ولكنهم ســرعان ما يستجيبون لنداء الدين حين يكون هذا النداء منسجما مع قيمهــم ، أو تكون مخالفته مؤدية الى الحط من سمعتهم ومكانتهم الاجتماعية • فالقضية اذن ليست قضية دينية بحتة بقدر ماهي قضية اجتماعية • وتلك طبيعــة البشر في كل زمان ومكان !

---

(5) Atiyyah (Iraq) - Beirut 1973 - P. 346.

عوامل الانهيار :

في الوقت الذى كانت فيه عوامل الانتشار تعمل عملها في نشر الثورة في مختلف أنحاء العراق ـ على نحو ما ذكرناه آنفا ـ كانت هناك عوامل أخرى مضادة تعمل على اضعاف الثورة وتفكيك صفوفها ، ولا سيما في الفرات الاوسط ، حتى أدت أخيراً الى انهيارها ، وفيما يلي نذكر أهم تلك العوامل :

أولاً : كان انضمام العشائر الى الثورة طوعياً كما لا يخفى ، ولم تكن هناك قيادة موحدة من شأنها تنظيم العشائر الثائرة في خطة حربية عامة . ومن الممكن القول ان التنافس الموجود طبيعياً بين رؤساء العشائر كان مانعا من قيام القيادة الموحدة بينهم فهم لايرتضون أن يكون واحدا منهم رئيسا عليهم يأمرهم وينهاهم .

اعتادت العشائر في حروبها السابقة أن يكون لها مايسمى بـ «البصيرة» وهي ان يجتمع رؤساؤهم في مجلس ، فيتبادلون الرأي حول خطة الحرب أو ما ينشأ عنها من مشاكل طارئة . وهم قد يتوصلون الى رأي موحد فيها ، أو يتنازعون ويتجادلون . ولاحاجة بنا الى القول ان « البصيرة » لم تكن في أيام الثورة كافية لمواجهة قوات منظمة لها قيادة تسير في خططها على أحدث ما ابتكره علم الحرب من قواعد .

أشار بعض الكتاب الى وجود ما يسمى بـ « المجلس الحربي الاعلى » للثورة . وأظن ان هذا من المبالغات التى اعتاد الكتاب أن يأتوا بها لاعلاء شأن الثورة . وقد ذهب كتاب آخرون الى القول بأن المرجع الديني وحاشيته يمكن اعتبارهم المجلس الحربي الاعلى للثورة ، اذ المعروف عن الشيرازي في بداية الثورة ، ثم الاصفهاني أخيرا ، انه كان يجمع حاشيته للنظر في قضايا الثورة ومشاكلها . ولكننا يجب أن لاننسى أن حاشية المرجع الديني مؤلفة في الغالب من ملائية لايعرفون من فن الحرب شيئا ، ولعل الرجل منهم لم يمسك أي سلاح في يده طيلة حياته . ولهذا فانهم لايفهمون من الحرب سوى ما قرأوه في كتبهم القديمة عن حرب

بدر وأُحد ، أو حرب الجمل وصفين • يقال ان حاشية الشيرازي اجتمعوا عقب سماعهم خبر اندحار الثوار في الحلة وأخذوا يتداولون في الامر ، ثم وضعوا خطة حربية ظنوا انها الخطة المثلى للانتصار فى معركة الحلة، ولما أرسلوها الى الثوار وجدها هؤلاء غير معقولة • فالثوار كانوا يجابهون الموت في جبهة القتال بينما كان أصحاب الخطة جالسين على منادرهم يتأملون !

ثانيا : ان الاموال الوفيرة التى كانت لدى بعض رؤساء العشائر لم تبق على حالها طبعا ، فهي لابد أن تتناقص شيئاً فشيئاً بمرور الايام • ولم يكن هناك مصدر خارجي يمدهم بالاموال كما اتضح أخيرا • والواقع ان بعض الرؤساء نفد لديهم المال الى حد لم يستطيعوا اطعام المحاربين من اتباعهم • ولكي يتصور القارىء حالة هؤلاء الرؤساء ننقل فيما يلي رسالة لاحدهم بعثها الى السيد هبةالدين الشهرستاني في كربلاء يشكو فيها حاله ويطلب منه المساعدة او الاذن بالانسحاب من القتال • وهذا هو نص الرسالة :

لحضرة هبة الدين السيد محمد علي الشهرستاني دام ظله العالي •

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • المبدي نعرض لخدمتكم من خصوص السيد عباس السيد علوان قد أرسلناه لطرفكم وهو طارش من طرفنا نرجو من احسانكم ومن مساعدتكم ومن همتكم أن تلاحظون المساعي وتدفعون لنا اكراما ومساعدة مصرفا لأجل المجاهدين أو تعطون لنا رخصة بارجاع الوطن ـ يقصد العودة الى قريته ـ بحيث لنا ثلاثة أشهر بالحربية مشغولين والآن قد خلصت خرجيتنا واذا أردنا نستقرض من الناس ما يقرضونا وبقينا من غير مصارف لايخفى عليكم ويصير معلوم •

شعلان الجبر
رئيس عشيرة آل ابراهيم[٦]

---

(٦) فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٤٠٣ •

عندما انتهت الثورة وجاء فصل الى العراق ذكر لبعض قادة الثورة أنه حينما كان ملكا في سوريا أرسل مبلغا كبيرا من المال لمساعدة الثوار . وقد اختلف الرواة في تحديد المبلغ الذى ذكره فيصل ، فالسيد علوان الياسري يقول انه سبعون ألف ليرة ، وعبدالواحد الحاج سكر يقول انه ثلاثون ألف ، والسيد محسن أبو طبيخ يقول انه عشرون ألف . ولكنهم أجمعوا على ان المبلغ لم يصل الى الثوار لان الاشخاص الذين كُلفوا بايصال المبلغ وضعوه في جيوبهم . ويقول عبدالواحد انه يعرف أسماءهم غير أنه لم يجد حاجة الى ذكرها(٧) .

ثالثا : نفدت أسلحة الثوار وأعتدتهم كمثل مانفدت أموالهم . وقد نشط تهريب الاسلحة الى الثوار من الكويت ومن مناطق العراق التي لم تشترك في الثورة ، ولكن أسعارها كانت عالية جدا . ولم يتمكن بعض الثوار من الحصول عليها لقلة مالديهم من نقود . يقول الشيخ محمد الخالصي في مذكراته : انهم كانوا في الايام الاخيرة من الثورة يشترون الخرطوشة من الرصاص بروبية واحدة في بعض الاحيان . وذكر أيضا : ان المحاربين في جبهة القتال لم يكن يصيب الواحد منهم في اليوم كله سوى رغيف واحد من الخبز وقليل من التمر(٨) .

كان في النجف والكوفة وكربلاء صياقلة لديهم معامل صغيرة يتعاطون فيها اصلاح الاسلحة النارية وملء الخراطيش ، أشهرهم « اسطه كديمي » . وكان هؤلاء في أيام الثورة يعملون فوق طاقاتهم لاصلاح بنادق الثوار وملء خراطيشهم ، ولكنهم لم يكن في مقدورهم مهما بذلوا من جهود أن يسدوا حاجة الثوار الى الاسلحة والاعتدة تجاه القوات الانكليزية التي لاتنفد أسلحتها وأعتدتها .

رابعا ـ كانت مناطق الثورة مفتوحة لاعوان الانكليز وجواسيسهم يجولون فيها بلا رقابة . ويصدق هذا بوجه خاص على منطقة الفرات

---

(٧) المصدر السابق ـ ص ٤٠٧ ، ٥٥٦ ، ٥٨٧ .
(٨) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

الاوسط لوجود العتبات المقدسة فيها ، فقد كان الاعوان والجواسيس يأتون اليها بحجة « الزيارة » • يقول علي البازركان : أنه رأى في النجف أناسا جاؤوا اليها باسم الزيارة ولكن قصدهم كان لاخذ المعلومات عن أحوال الثورة(٩) •

ولم يكن الاعوان والجواسيس يكتفون بنقل المعلومات عن الثورة الى الانكليز ، بل كانوا علاوة على ذلك يبثون الاشاعات الانهزامية في صفوف الثوار ، حيث يبالغون مثلا بذكر ضخامة الجيوش التى يعدها الانكليز لسحق الثورة ، أو يهمسون في آذان بعض المترددين من رؤساء العشائر يحثونهم على النجاة قبل فوات الأوان !

خامسا : كانت خسائر الثوار في الرجال كثيرة جدا يصعب تحملها مدة طويلة • قدّر الجنرال هالدين خسائر الثوار عقب انتهاء الثورة بـ ٨٤٥٠ رجل بين قتيل وجريح ، وذكر هالدين انه استند في تقديره هذا على عدد القتلى الذين عُثر على جثثهم ، وعلى التقارير الواردة من مختلف المصادر ، وعلى سجلات الدفن في كربلاء والنجف(١٠) •

لاحاجة بنا الى القول ان معظم هذه الخسائر كانت من نصيب الفرات الاوسط ، ومن نصيب عشائره بوجه خاص • وهي في الواقع تمثل نسبة عالية من مجموع أفراد العشائر • يروي شاهد عيان انه مر باحدى القرى القريبة من الحلة عقب المعركة التى جرت هنالك فوجد أكثر أهلها قد لبسوا السواد حزنا على من فقدوا في المعركة من أقاربهم وأهليهم • ويمكن أن نقول مثل هذا عن الكثير من القرى التى شارك أهلها في الثورة في الفرات الاوسط •

سادسا : كان بعض رؤساء العشائر الذين التحقوا بالثورة انما فعلوا ذلك مرغمين تحت تأثير ضغط الرأي العام ، إذ هم كانوا يخشون أن

---

(٩) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٢٠٠ •

(10) Haldane (op. cit.) - P. 331.

تلصق بهم تهمة « الكفر » كما رأينا • وقد ظل هؤلاء الى جانب الثورة في مرحلة انتصارها وانتشارها ، وربما أبدوا من الحماس في تأييدها اكثر من غيرهم • غير انهم ما كادوا يلمحون فيها بوادر الضعف والانكسار حتى بدأوا يبدلون موقفهم ويدعون الى « الحكمة » و « التعقل » والى القاء السلاح قبل فوات الاوان •

وقد اشتد نشاط هؤلاء عقب المحاولة التي قام بها ويلسون في عرض الصلح على الثوار ، فقد أخذوا يعلنون انتقادهم لموقف الرفض الذي اتخذه الاصفهاني وحاشيته ، وأعربوا عن رأيهم بأنها فرصة يجب اغتنامها لانقاذ الثورة من هزيمة محققة ، وان سد الباب نهائياً تجاه المفاوضة مع الانكليز أمر بعيد عن الحكمة ، وقالوا ان الرافضين المتكئين على وسائدهم في النجف لا يجوز لهم أن يبتوا في أمور الذين يعانون ضراوة القتال ويتكبدون الخسائر الفادحة فيه • وقد كان لنشاط هؤلاء الانهزاميين أثره في تثبيط همم الثوار وفي شق صفوفهم •

* * *

● الملاحظ بوجه عام أن ثورة العشرين صعدت بسرعة ثم هبطت بسرعة • وسبب ذلك أنها لم تلجأ الى حرب العصابات على نحو ما فعلت أخواتها في الجزائر وكوبا وفيتنام ، بل هي اعتمدت في حربها على المجابهة العسكرية المباشرة ، وقد ساعدتها الظروف في البداية على الانتصار ، ولكنه انتصار لم يدم طويلاً ، وليس من طبيعته أن يدوم طويلاً •

● ان العشائر في هذا العصر لايمكن أن تنجح في حرب طويلة تجاه جيش منظم لديه المدافع والمصفحات والطائرات ، فان هي نجحت مرة على سبيل الصدفة فليس في مقدورها ان تنجح في كل مرة • ولهذا فان القوات الانكليزية لم تكد تصل اليها النجدات من الهند حتى بدأت تنزل الضربات القاصمة بالثورة ، وتمكنت من القضاء عليها في خلال وقت قصير •

● يواجهنا هنا سؤال : هل كان في مقدور ثورة العشرين أن تلجأ الى حرب العصابات ؟ لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نعلـــم أن هناك شروطاً يجب توفرها في حرب العصابات لكي تنجح ، أهمها اثنان : أولهما وجود مكامن للثوار يصعب على العدو الوصول اليها كالجبال أو الغابات ، والثاني ورود مساعدات متواصلة الى الثوار من مصادر خارجية او داخلية • يبدو أن ثورة العشرين لم يكن فى استطاعتها توفير هذين الشرطين •

● من الاقوال المنسوبة الى نابليون : « الهزيمة يتيمة أما النصر فله ألف أب » • وهذا قول يصدق على ثورة العشرين كما يصدق على غيرها من احداث التاريخ • فان كل فريق من الذين ساهموا في الثورة حاول أن ينسب الفضل في انتصارها الى نفسه ، أما هزيمتها فقد حاول كل منهم أن يتنصل من مسؤوليتها وأن يضع اللوم فيها على غيره •

● الواقع ان ثورة العشرين في انتصارها وهزيمتها لم تخضـع لارادة أحد من البشر ، بل هي جرت تبعاً للظروف التي أحاطت بها • ان الانسان في معظم أحداث التاريخ يجري وفق ما تملي عليه ظروفه كأنه الريشة في مهب الريح بينما هو يحسب انه كان في ذلك حراً مختارا •

● انتهى القسم الأول من الجزء الخامس ، ويليه القسم الثـاني قريباً ــ « ان شاء الله » !

فهرس القسم الاول

* * *

وقعت في هذا القسم بعض الاخطاء المطبعية التي نامل من القارئ ان يصححها بنفسه .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٤٢٧ لسنة ١٩٧٧

عدد النسخ = ١٢٠٠٠ نسخة

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME FIVE

PART ONE

Baghdad 1977

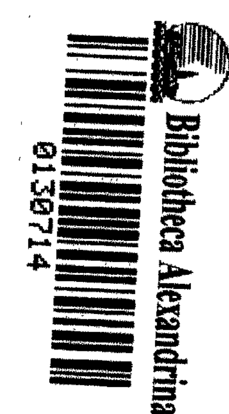
لضخامة الجزء الخامس جعلناه قسمين ، فالقسم الاول وهو الذى بين يدي القارىء يبحث في ممهدات الثورة ثم اندلاعها في الفرات الاوسط ، اما القسم الثاني الذي نأمل ان يصدر قريبا فهو يبحث في انتشار الثورة في مناطق ديالى وكردستان والغراف وغيرها ، ثم انهيارها اخيرا ، مع بعض المناقشات والملاحق .

الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء السادس

من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٤



الدكتور علي الوردي
أستاذ مساعد
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

الجزء السادس

من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٤

المقدمة

يشمل هذا الجزء أربعة أعوام مابين ١٩٢٠ و ١٩٢٤ ، وتلك فترة ذات اهمية بالغة في تاريخ العراق الحديث ، لانها الفترة التي تأسست فيها الحكومة العراقية ، واستقرت قواعد الحكم فيها على نمط معين • وأود أن أعيد هنا ماكنت قد ذكرته في مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب ، هو أني لست مؤرخا وان قصدي من سرد الحوادث التاريخيـــة ان اكشف من ورائها خصائص المرحلة الاجتماعية التي مر بها العراق • ولهذا قد يلاحظ القارىء في هذا الجزء ،كما لاحظ في الاجزاء السابقة ،كثيرا من التفاصيل الجزئية والطرائف التى لايهتم بذكرها المؤرخون عادة ، غير انها مـــن الناحية الاجتماعية ذات اهمية لا يستهان بها لانها تكشف عـن طبيعـة القيم والعادات السائدة فيفترة معينة من الزمن ، وعن مستوى التفكير الذى كان عليه الناس حينذاك •

ولابد لي هنا من أن اتحدث باختصار عن المصادر التى اعتمدت عليها في دراسة تلك الفترة • فقد اعتمدت في الدرجة الاولى على بحـــــوث المؤرخين ، ولكنني اعتمدت على مصادر أخرى أذكرها كما يلي :

(١) **الوثائق البريطانية :** وهي تتضمن المراسلات السرية التـي كانت تجري بين الحكومة البريطانية ومعتمديها في الخارج كالسفـــراء والقناصل والمندوبين والمقيمين وغيرهم • وكانت الحكومة البريطانية لاتسمح نشر تلك الوثائق الا بعد انقضاء خمسين سنة عليها ، ثم خفضت المـــدة مؤخرا الى ثلاثين سنة • وقد وضعتها في دائرة خاصة بها في لندن مفتوحة للباحثين اسمها « دائرة الوثائق العامة » • وكنت قد زرت هذه الدائرة في صيف ١٩٧٣ واطلعت على الكثير من اضابيرها ، كما استحصلت على نسخ من البعض منها• ولا اكتم القارىء اني وجدت فيها من الاسرار ماجعلني

أغير رأيي في كثير من القضايا التي كنت واثقا من صحة رأيي فيها قبلئذ •

(٢) **رسائل المس بيل :** فقد كانت هذه الآنسة تتولى منصب السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي في العراق ، واعتادت ان تسجل ذكرياتها في رسائل تبعثها الى أمها أو ابيها او احد أقربائها واصدقائها • وقد نشر قسم من رسائلها في عام ١٩٢٧ — على أثر وفاتها — ثم تبين ان هناك قسماً آخر من رسائلها بقي مكتوماً غير مسموح له بالنشر ، وظل هذا القسم طي الكتمان حتى عام ١٩٦١ ، حيث نشر في جزئين كبيرين • والواقع ان هذا القسم المنشور أخيرا يحتوى على اسرار لاتقل اهمية او غرابة عن اسرار الوثائق البريطانية • واني افضل رسائل المس بيل على الوثائق البريطانية من بعض الوجوه واعتبرها أصدق تصويرا للواقع ، فالوثائق تكون عادة ذات أسلوب رسمي جاف ولا تمس الاحداث الا من جانبها الشكلي • أما رسائل المس بيل فهي حية مليئة بالحرارة وتعطينا كثيرا من الصور النفسية والاجتماعية التي يندر أن نجد لها مثيلا في الوثائق • وهذا هو السبب الذى جعلني كثير الاعتماد على رسائل المس بيل والاقتباس منها في هذا الجزء •

(٣) **الرسائل الجامعية :** وهي الاطروحات التي قدمها بعض طلبة الدراسات العليا في جامعة بغداد وغيرها للحصول على شهادة الماجستير أو الدكتوراه في التاريخ • واعترف ان هذه الرسائل افادتني في تأليف هذا الجزء فوائد لاتثمن ، وخاصة رسائل قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد •

(٤) **مذكرات الساسة العراقيين :** وهي كثيرة اذ هم تفوقوا فيها على زملائهم في الاقطار العربية الاخرى • وهذه المذكرات قد تتناقض في ذكر الاحداث ولكن تناقضها يعطينا وجهات نظر مختلفة حول الاحداث، وقديساعدنا على فهم بعض خفاياها• ويجب ان لاننسى ان بعض البريطانيين

الذين شاركوا في احداث تلك الفترة قد سجلوا مذكراتهم ايضا ، واعطونا بذلك وجهات نظر اخرى •

(٥) **احاديث المسنين الذين عاصروا تلك الفترة :** وهم كثيرون ولكنهم مع الاسف يتناقصون بمرور الايام • والواقع ان احاديث هؤلاء لايستغنى عنها لفهم الاحداث الماضية والكشف عن بعض الزوايا المهملة منها • وفي رأيي أن احاديث المسنين الاميين قد تكون انفع للباحث من احاديث المتعلمين احيانا • فالمتعلم قد يحاول ان يصور الاحداث بالصورة التي تلائم اتجاهاته الفكرية أو تحزبه السياسي، أما الامي فهو حين يتكلم عن الاحداث يأتي بها كما شاهدها من غير تزويق ، وان روايته قد تكون سطحية ساذجة انما هي قد تكشف عن بعض النواحي الخفية من الاحداث ـ تلك النواحي التي لايهتم بذكرها المتعلمون عادة •

(٦) **الجرائد المحلية القديمة :** ولا حاجة بنا الى ذكر اهمية هذه الجرائد في دراسة الاحداث الماضية ، ولهذا حرصت البلاد الراقية على حفظ مجموعات جميع الجرائد القديمة وتمكين الباحثين من الاطلاع عليها بسهولة ، ومن المؤسف اننا لم نهتم بحفظ الجرائد الا مؤخرا • وقد بذلت بعض مؤسساتنا الثقافية ـ كمكتبة المتحف والمجمع العلمي والمكتبة المركزية والمركز الوطني للوثائق والمكتبة الوطنية ـ جهودا كبيرة في شراء مجموعات الجرائد المتيسرة لدى بعض الاشخاص ، ودفعت فيها اثمانا باهضة ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تستطع الحصول عليها كاملة • وقد يجد الباحث الآن صعوبة في العثور على الجريدة التي يطلبها في بعض الاحيان •

الوثائق العراقية : فلدينا الآن دائرة للوثائق العامة باسم « المركز الوطني للوثائق » ، ولكن هذه الدائرة جديدة اذ لم يبدأ بتأسيسها الا في عام ١٩٦٣ ، وهي تضم نحو نصف مليون اضبارة جمعت من مختلف دوائر

الدولة ، وأهمها أضابير البلاط الملكي • ولكن هذه الدائرة تعاني مع الاسف نقصا شديدا في الاختصاصيين والموظفين ، وقد تكومت فيها الاضابير في غرف غير مناسبة بحيث يخشى عليها من التلف ، وقد تلف الكثير منها فعلا • لاننكر انها الآن في وضع افضل جدا من وضعها القديم• وعلمت مؤخرا ان الحكومة خصصت ثلاثةملايين دينار لبناء مجمع وثائقي ، ونحن نرجو أن يتم البناء في وقت قريب • فالوثائق ثروة علمية لاتثمن • وقد أتيح لي أن اطلع على بعض اضابير البلاط الملكي ، ولا سيما تلك الاضابير التى تخص الفترة التي أبحث فيها ، فوجدت فيها من الامور ما يذهل • ولو أن جميع الوثائق العراقية أصبحت ميسورة للباحثين لانكشفت بذلك صفحات مجهولة ذات اهمية كبرى من تاريخ العراق الحديث •

حول قواعد النحو :

كنت في مقدمة الجزء الرابع من هذا الكتاب قد انتقدت النحو العربى وطالبت بتقليص قواعده لانها كثيرة لافائدة فيها • وقد أحدث هذا الانتقاد رد فعل لدى الكثيرين من القراء • ولا بد لي هنا من توضيح موقفي من النحو مرة أخرى •

أرجو ان يعلم القارىء اني لست الوحيد في المطالبة بتقليص قواعد النحو ، فهي في الواقع ضرورة حضارية ملحة شعر بها الكثيرون • وقد أشارت الى ذلك جريدة « العلم » المغربية في ٣٠ آذار ١٩٧٤ حيث قالت ما نصه « النحو لازال رغم جهود اكثر من نصف قرن غير ميسر ولا زال حتى الآن موضوع أخذ ورد ، لذلك وجه اتحاد المجامع اللغوية العربية الدعوة الى كل من مصر وسوريا والعراق لعقد ندوة في القاهرة خلال العام الحالي لمناقشة موضوع تيسير النحو » •

لست أدرى ماذا حل بهذه الدعوة ، وهل تم عقد الندوة أم لا • واني على أي حال أعتقد اعتقادا جازما بان بقاء النحو على حاله مضر كل الضرر

بسيرتنا الحضارية ويؤدي الى كثير من التبذير في جهودنا الفكرية دون ان ينفعنا شيئاً • وقد قال لي أحد المختصين بالنحو ان ثلاثة ارباع القواعد النحوية التي تدرس الآن في المدارس يمكن ان تلغى من غير ان ينتج عن ذلك أي ضرر • والواقع اني لا أفهم لماذا هذا التعصب للنحو عند بعض مثقفينا مع العلم ان معظم القواعد النحوية انما اختلقها النحاة المرتزقة في العصر العباسي وما بعده لكي يجعلوها أداة للتمايز الطبقي ، أي لكي تتمكن الطبقة المترفة من التحذلق في لغتها بحيث يصعب على السوقة مجاراتهم فيها[1] •

لا انكر ان القواعد النحوية موجودة في جميع لغات العالم ، وليس في العالم لغة من غير نحو ، انما تتفاوت اللغات فيما بينها في مبلغ مافي نحوها من سهولة او صعوبة • واني في زيارتي لبولندا مؤخرا وجدت لغتها تتميز بقواعد نحوية في غاية الكثرة والتعقيد ، ولكن الذي لاحظته ان البولنديين لايشعرون بصعوبة كبيرة فيها اذ هي قواعد مطبقة في اللغة الدارجة التي يتكلم بها الناس في حياتهم اليومية ، وينشأ عليها الطفل فيتعود عليها وتصبح عنده بمرور الزمن كأنها طبيعية • وهنا منشأ الفرق بينها وبين قواعد نحونا ، فان الطفل عندنا لاينشأ عليها بل هو يتعلمها في المدرسة فقط ، وهو بعد اداء الامتحان فيها ينساها ، ولهذا لانجد بين متعلمينا من يستطيع الخطابة ارتجالا مع المراعاة التامة لقواعد النحو الا نادرا • واذا ظهر مثل هذا الشخص فانه يشعر كأنه يملك موهبة ثمينة جدا ، وهو قد يسرع الى الصعود الى منصة الخطابة في كل مناسبة ، او بغير مناسبة احيانا ، لكي يظهر « عبقريته الفذة » للناس •

اني ــ كما يعلم القارىء ــ كنت قد صممت على مخالفة قاعدتين من

(١) بحثت هذا الموضوع باسهاب في كتابي « اسطورة الأدب الرفيع » المطبوع في عام ١٩٥٧ ، فليراجع •

قواعد النحو التي تدرس في مدارسنا وهما : (١) اعراب اسماء الاعلام الحديثة كفيصل وأبو الحسن ومحمد علي ، (٢) حذف الياء من الاسماء المنقوصة كسامي وكافي وراضي وساري ، والغريب ان بعض النحويين جاؤوني يقولون ان هاتين القاعدتين قد أجاز النحاة القدامى مخالفتهما وانك لم تأت بشيء جديد • فكان جوابي لهم : اذا كان ماتقولونه صحيحا فلماذا اذن تدرس هاتان القاعدتان في المدارس ؟ ولماذا يرسب التلميذ اذا خالفهما ؟ ان هذا معناه ان النحاة الحديثين أكثر تزمتا وتعصبا من القدامى • ولست أدري متى ينقذ الله الامة من هذه المحنة ؟!

شكر :

لابد لي في هذه المناسبة من ابداء الشكر للذين اعانوني في تأليف هذا الجزء ، وقد فاتني أن اشكرهم في الاجزاء السابقة ، وأخص بالذكر منهم القائمين بشؤون مكتبة كلية الآداب ، والمكتبة المركزية ، ومكتبة المتحف، والمركز الوطني للوثائق ، والمكتبة الوطنية ، ومكتبة المجمع العلمي،ومكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ، ومكتبة قسم الاجتماع في كلية الآداب • كما أشكر الشيخ مهدي الخالصي الصغير على اعارته اياي جميع الوثائق والمذكرات المخطوطة التي في حوزته • وأشكر السادة الافاضل : سلمان الصفواني وسامي خوندة وعبدالرزاق الفضلي واحمد الراوي وعبدالحميد الياسري وصائب شوكت وعبدالهادي الظاهر ، والمرحومين احمد زكي الخياط ومهدي البصير ، على السماح لي بالاطلاع على مذكراتهم او التحدث الي عن بعض الاحداث التي شهدوها • فالى هؤلاء جميعا ، والى غيرهم ممن لاتحضرني أسماؤهم في هذه الساعة ، أقدم شكري الجزيل •

الفصـــل الاول

انشاء الحكومة العراقية

أشرنا في الجزء الخامس من هذا الكتاب[1] الى ان الســر برسي كوكس قد استدعي الى لندن في ٦ حزيران ١٩٢٠ ـ وكان يومذاك وزيرا مفوضا لبريطانيا في طهران ـ للتشاور معه حول انشاء ادارة موقتــة في العراق • وبينما كان كوكس في طريقه الى لندن نشبت الثورة في العراق• وحين وصل الى لندن وجد فيها ضجة حول الثورة • يقول كوكس في تقرير له :

« عند وصولي الى لندن بعد بضعة ايام وجدت الرأى العام البريطانى قد اضطرب كثيرا من الوضع الذى وصلت اليه الامور في العراق ، وحصل هياج شديد لدى فريق من الصحف البريطانية اذ هي أخذت تطالــب الحكومة بوجوب الجلاء عن العراق وايقاف الخسائر التى تتكبدها هناك • وكانت الحكومة البريطانية نفسها مضطربة جدا من جراء البرقيات المقلقة التى كانت ترد اليها من بغداد ، وكان هناك خلاف كبير في الرأى حول الخطة المثلى التى يجب اتباعها وعلى أي حال فقد كان واضحا ان الثورة يجب ان تقمع قبل اتخاذ اية خطة في العراق • وأصبح السؤال الــذى يشغل البال هو ماذا نفعل بعد عودة الاستقرار الى العراق، هل نوقف خسائرنا ونترك الانتداب ونجلو عن العراق أم ننصب حكومة وطنية ـ اذا كان في الامكان نجاح مثل هذه الحكومة ؟ ولما سئلت عن رأيي في الموضوع بصفتى الضابط الموجود في الموضع الذى تجرى فيه الاحداث ، كان جوابى ان الجلاء عن العراق لايمكن التفكير به ، اذ ان ذلك لايؤدى فقط الى التخلي

(١) تأجل طبع الجزء الخامس لعدم استكمال البحث فيه ، وسوف يصدر قريبا ـ ان شاء الله •

عن العراق وعن سبعة او ثمانية ملايين باون من رؤوس الاموال المستخدمة من قبلنا في العراق ، انما يعد في الوقت نفسه خرقا كبيرا لجميع التعهدات التي قطعناها على انفسنا للعرب اثناء الحرب العالمية ، كما ان البلاد ستعود الى الفوضى والى الحكم التركي حالما نترك العراق • واخيرا فان جلاءنا عن العراق سوف يثير الكراهية النشطة ضدنا لدى السكان الذين غدرنا بهم ، وسوف نحتاج عندئذٍ الى فرقة عسكرية اخرى لتأمين جلائنا من البلاد • اما عن السؤال حول احتمال النجاح في نصب حكومة وطنية فكان جوابي ان الامر يستحق المجازفة فيما اذا اعتبرناه الخيار الوحيد بدلا عن الجلاء ، ولو اني لست واثقا من ذلك كل الثقة • وبعد مناقشات طويلة سئلت هل انا مستعد لتحمل عبء انشاء الحكومة الوطنية في العراق فيما اذا استقر الرأي على ذلك ، فأجبتهم بالايجاب ...»[٢] •

توديع واستقبال :-

وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح كوكس واناطت به مهمة انشاء حكومة وطنية في العراق • وفي ٢٠ آب ١٩٢٠ غادر كوكس بريطانيا بحرا ترافقه زوجته وثلاثة رجال لمساعدته في مهمته كان فيلبي احدهم •

وبينما كان كوكس في طريقه الى العراق كان السر أرنولد ويلسون الذي كان يشغل منصب الحاكم السياسي العام فيه بالوكالة يستعد لمغادرته• وفي ١٩ ايلول اقام السيد طالب النقيب ببغداد حفلة توديعية لويلسون ألقى فيها جميل صدقي الزهاوي كلمة اطرى فيها على خدمات ويلسون للعراق وذم الثورة والثوار ، كما ألقى السيد طالب كلمة أخرى بمثل هذا المعنى• وقام ويلسون أخيرا فشكر صاحب الدعوة والحاضرين وأبدى اسفه على عدم تمكنه من اتمام خدمته للعراق •

---

(2) Lady Bell (The Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - P 426-427.

وفي اليوم التالي أقيمت حفلة اخرى في دائرة السكك الحديدية ألقى فيها ويلسون كلمة طويلة سجل نصها في مذكراته وفيها نسب سبب الثورة اولا الى السياسة البريطانية التى شجعت القومية في العراق دون ان ترسل أوامر محددة لانشاء حكومة محلية في الوقت المناسب ، وثانيا الى زعماء المعارضة الذين وصفهم بقلة التبصر والتعصب والفوضوية(٣) •

وفي ٢٤ ايلول غادر ويلسون بغداد بالقطار الى البصرة ، ثم غادرها بعده السيد طالب من اجل استقبال كوكس • وفي مساء ١ تشرين الاول وصل كوكس وحاشيته الى البصرة ، وكان في استقبالهم حشد كبير من الناس وفي مقدمتهم ويلسون والسيد طالب• وفي اليوم التالي اقيمت حفلة كبرى في حدائق البصرة احتفاءا بكوكس حضرها الشيخ خزعل • وفى مساء اليوم نفسه اقام السيد طالب وليمة فخمة في قصره المطل على شط العرب في السبيليات • وفى تلك الوليمة اهدى اعيان البصرة سيف شرف لويلسون بمناسبة مغادرته العراق ، كما خطب عبداللطيف المنديل ومزاحم الباچچى في الثناء على الخدمات التى اسداها ويلسون فى العراق • وقد سجل ويلسون في مذكراته جزءا من خطاب الباجچى ننقل فيما يلي نبذة منه :

« ويؤسفني جدا أن تؤدي حماقات الافراد العرب الى ازعاج الامة البريطانية في مهمتها المشرفة • لقد ارتكبت هذه الاعمال بسبب أحلام لايمكن تحقيقها من جهة ، ولمصالح شخصية من جهة اخرى • ان الحركة الحالية ــ يقصد الثورة ــ ليست عربية خالصة ، انما هي حركة يختلط بها عنصر اجنبي كان مع الاسف الشديد ناجحا في استغلال الشهرة والثروة والدماء العربية لمنفعته الخاصة من اجل اضعاف مركز بريطانيا العظمى في بلاد اخرى • فلا تغتروا بالمظاهر التى هى خداعة في الغالب

(3) Wilson (Loyalties) - London 1932 - vol. 2, P. 318-320.

ولا سيما في الشرق • ولا تعتبروا الثورة الحالية التى تقوم بها بعض القبائل البدوية ثورة وطنية حقة تنشد الاستقلال اذ لايمكن ان تعتبر مثل هـذه الحركة ممثلة لشعور المجتمع كله • ان الاسر المتنفذة في بغداد لاتعطف على حركة خربت بلادها • ان هذه هي مشاعر الناس الذين لآرائهم وزنها ، وهم يتلهفون الى نقل ما يفكرون ويشعرون به الى اولئك الذين يطالبون في بريطانيا بالانسحاب من هذه البلاد • فهم لايستطيعون ان يدركوا ان الانسحاب لايعني أقل من انتهاك حرمة القانون وتدمير الشعب وما يعقب ذلك من انتشار الفوضى في انحاء البلاد الامر الذى قد ينطوى على نشوب حرب آسيوية لايمكن لبريطانيا ان تقف في معزل عنها»[٤] •

وفى صباح اليوم التالى اصطف حرس الشرف على رصيف الميناء لتوديع ويلسون • يقول فيلبي في مذكراته عن ويلسون : « وقد جـرى لي حديث معه قبل الرحيل فوجدته مستاءا استياءا مرا من سير الامور بوجه عام ، ومن نظام الحكم الجديد المقترح على الاخص ، حيث ان ذلك كان يعني انتهاء احلامه المزوقة عن العراق كدرة لامعة في التاج البريطانى •وفي الاخير كان الاسف يغمرني عندما رأيته يرحل ، حيث ان مزاياه العظيمة التى لامناقشة فيها قد تبددت من اجل انحراف بالى في الرأى ، وان البناء الذى حاول تشييده قد انهار فأصبح انقاضا بالية على مسمع منه • والخيبة من هذا القبيل لاسبيل الى الرحمة فيها ••••»[٥] •

بين فيلبي والسيد طالب :

مكث كوكس في البصرة بضعة ايام ، وذهب بالطائرة الى الناصرية والعمارة والقرنة وقلعة صالح ، حيث تداول مع وجهاء المدن ورؤســاء

---

(4) Ibid - vol. 2, p. 321.

(٥) جون فيلبي (ايام فيلبي في العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ٩٥٠ ـ ص ٣٨ـ٣٩ •

العشائر حول المهمة التى جاء من أجلها • وبعد ان اتم مداولاته غـادر البصرة مع حاشيته بباخرة نهرية متوجها الى بغداد ، وكان فى صحبتـه بالباخرة السيد طالب النقيب •

جرى في الباخرة التقاء وحديث خاص بين فيلبي والسيد طالـب ، وكان فيلبي قد تعرف على السيد طالب قبل هذا في الاسكندرية بمصر ، وعندما التقيا الآن في الباخرة اخذ السيد طالب يبوح له بسره وهو انـه يطمع ان يكون ملكا على العراق تحت الرعاية البريطانية • وقد احتفظ فيلبي بهذا السر فلم يبح به لاحد حتى لرئيسه كوكس •

ويخيل لي ان فيلبي كان في ذلك الحين يريد ان يقوم بدور كالدور الذى قام به لورنس في الحجاز اثناء الحرب • ولعل فيلبي كان يبحث عن شخصية عراقية تساعده في اداء هذا الدور على نحو مافعل فيصل مـع لورنس • ومن الممكن القول ان فيلبي وجد ضالته في شخصية السيـد طالب • ان فيلبي بعبارة اخرى ربما كان يطمح ان ينال شهرة عالمية من طراز الشهرة التى نالها لورنس في مغامراته في البلاد العربية • تتبين هذا مما كتبه فيلبي في مذكراته في وصف السيد طالب على اثر اجتماعه بـه في الباخرة ، فهو يقول في ذلك ما يلي :

« والحقيقة هى انني كان لي أمل كبير في مستقبله ، حيث كان من الواضح أنه ابرز شخصية في العراق في الذكاء وقوة الشخصية ، لكنه كان على جانب كبير من الطيش والغرور ولذا كان مرهوب الجانب عنـد الناس ومكروها من معظمهم • واذا كان في الامكان الاستفادة من مزاياه الحميدة واستخدامها استخداما تاما فاني كنت اتكهن له ان دوره سيكون ادارة مصائر العراق المستقل لعدة سنوات تأتي في ارجح المناصب التـى تحتمهـا الظـروف والاحـوال ـ كمنصب رئيس وزارة مثلا أو رئيس جمهورية • ومنذ ذلك الحين أخذت أدربه على الاضطلاع باحد هذين

الدورين ويجب علي ان اعترف هنا انه كان تلميذا ذا اهلية وقابلية بشرط ان تكون اليد التي تدربه فيها شيء قليل من الود والصداقة . وربما كنا قد نجحنا معه لولا ان تقف في سبيل ذلك بعض الظروف الخاصة..»(٦)

والغريب انه في الوقت الذى كان فيه فيلبي قد اكتشف السيد طالب وصمم على تدريبه ، كانت المس بيل في بغداد قد بدأت تتخوف من السيد طالب وتحاول تهديمه . والمظنون ان ساسون حسقيل هو الذى جعلها تخوف من السيد طالب ، فقد كان هذا الرجل يمقت السيد طالب كل المقت، وكانت المس بيل من جانبها شديدة الاعجاب بساسون حسقيل وتأثر بآرائه .

كتبت المس بيل في ١٠ تشرين الاول تقول انها اجتمعت بساسون حسقيل قبل بضعة ايام وجرى بينهما حديث لطيف حول السيد طالب حيث قال لها بصراحة : ان الناس يكرهون السيد طالب ولكنهم يتظاهرون بحبه خوفا منه ، ولهذا فهم اذا علموا بان الانكليز يؤيدونه وافقوا على ذلك ظاهرا بغض النظر عما يكنونه في قلوبهم نحوه . ويروى ساسون لها قصة شاهدها بنفسه عندما كان هو والسيد طالب عائدين الى البصرة بباخرة واحدة في أواخر العهد العثماني فيقول : صدقيني ياخاتون ان اهل البصرة خرجوا كلهم الى المحمرة لاستقبال السيد طالب ، وقد كانوا كلهم بلا استثناء يبغضونه ويرهبونه ، فكان اشدهم بغضا له اكثرهم اظهارا للود له، فلقد كانوا يومذاك خائفين منه ، وسيكونون كذلك في هذا اليوم(٧) .

لم تحب المس بيل ان يصل السيد طالب الى بغداد وهو في صحبة كوكس ، ذلك لان السيد طالب عند وصوله مع كوكس سيبذل جهده لكي

---

(٦) المصدر السابق ــ ص ٣٩ ــ ٤٠ .

(7) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2. P. 170-171.

يظهر كأنه يتملقه ويقدمه الى الجمهور تحت رعايته • ولهذا ابرقت المس بيل الى كوكس تقترح عليه أن يرسل السيد طالب الى بغداد قبله • وقد فعل كوكس ما اقترحته عليه المس بيل حيث مكث هو وحاشيته في الكوت يوما واحدا وارسل السيد طالب الى بغداد بالقطار • وكان القطار يومذاك موجودا بين الكوت وبغداد •

وصول كوكس :

وصل كوكس وحاشيته بالقطار في ١١ تشرين الاول ، في الساعة الخامسة والنصف مساءاً، وقد أعد لهاستقبال فخم في محطة باب الشيخ ، وكان على رأس المستقبلين السيد طالب والجنرال هالدين • فاطلقت المدافع سبعة عشر طلقة وعزفت الموسيقى العسكرية مقطوعة « يحمي الله الملك » والمقصود بها الملك جورج الخامس طبعا •

وبعدما تم تقديم المستقبلين الى كوكس تقدم الشاعر جميل صدقي الزهاوى فألقى قصيدة من ثلاثة واربعين بيتا مدح فيها الانكليز وذم الثورة• وهذه ابيات نموذجية منها :

عد للعـــراق واصلح منـــــه ما افسـدا
وابثث بـــه العدل وامنح أهلـــه الرغدا

ان العـــــــراق لمســـعود برؤيتـــــه
أبــاً له من بــلاد العــدل قد وردا

ارأف بشــعب بغـاة الشــر قـد قصـدوا
اثارة الشـــــر فيـــه وهو ما قصــــدا

ظنـــوا الهدى في الذى جاؤوه من عمل
وقـــد يكون ضلالا ما يعـــد هـــدى

قالوا عســـــى أن تنيل الشعب ثورتـــه
ســـعادة غير أن الشـــعب ما ســـعدا

فيـــالها فتنـــة عميـــاء ثائـــرة
قد عذبت من بنيهـــا الروح والجســـدا
احـــــزم بناس رأوا في أرضهـــم فتناً
فلم يكونوا لمن قاموا بها ســـنداً[8]

وبعد ان انتهى الزهاوى من قصيدته ألقى كلمة في ذم الثورة ، وكان من جملة ما قاله : « ... قد زال ايها الاب المشفق بعدك الامن الـــذى وطدته في ربوع العراق وأخذت الفتن والاضطرابات والمخاوف وياللاسف تحل مكانه فتعبث بالراحة التامة ... »[9] .

ولمـــا انتهى الزهاوى من كلمته تكلم كوكس فقال : « ياجميـــل أفندي ، ويا ايها المندوبين . ان دولة انكلترا ارسلتني للمساعدة والاتفاق مع اشراف ورؤساء العراق لتحصل على الغاية المطلوبة للطرفين ، وتأليف الحكومة العربية حكومة مستقلة بنظارة دولة انكلترا ، ولقد جئت لهـــذا المقصد ، ولكن مازال الاغتشاش مستمرا ، طبعا لايمكن العمل ، وانا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا شيء بيدكم »[10] .

يبدو ان الاستقبال لم يجر على ما يرام ، وقد أشارت المس بيل الى ذلك في احدى رسائلها حيث قالت ان حفلة الاستقبال التى جرت فـــي المحطة أغضبت الكثيرين من وجهاء بغداد ورؤساء العشائر الذين كانوا مدعوين اليها ، فقد جاء بعض هؤلاء اليها في دائرتها فى اليوم التالي يشكون اليها من الاهانة التى لحقت بهم هناك اذ لم يسمح لدخول المحطة الا لعدد

---

(٨) ابراهيم الوائلي (ثورة العشرين في الشعر العراقي) ـ بغداد ١٩٦٨ ـ ص ١٥٣ ـ ١٥٨ .

(٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ١٢ تشرين الاول ١٩٢٠ .

(١٠) عبدالرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) ـ صيدا ١٩٧٢ ـ ص ٢٥٢ .

قليل من المدعوين ، أما اكثرهم فقد حشروا خارج السياج في الغبار فلم يتمكنوا من مصافحة السر برسي كوكس . وقد قال لها شيخ محترم من رؤساء العشائر وهو في اشد الغضب : « اننا جئنا حباً وطاعة ولكننا عندما حاولنا الاقتراب من صاحب الفخامة دفعونا بعيدا » . وقد حصل هذا حتى لاخوة النقيب[11] . وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : « ومما زاد في الطين بلة ان الشخص الذى فعل هذا بالمدعوين هو الميجر ديلي أى نفس الرجل الذي اعتبره الجميع المسؤول شخصيا عن ثورة الفرات العشائرية »[12] .

الانكليز الغاضبون :

أصبح كوكس منذ وصوله الى بغداد يلقب بـ « المندوب السامى » وكان قبلئذٍ يلقب بـ « الحاكم السياسى العام » . وكان القصد من ذلك الاشارة الى انه لم يعد حاكما على العراق بل اصبح مندوبا عن بريطانيا لانشاء حكومة وطنية فيه .

عين كوكس المس بيل في وظيفة « السكرتيرة الشرقية » له . وأخذت المس بيل بالتعاون مع فيلبي تعمل على اعداد قائمة تضم اسماء مائة من الوجهاء لمقابلة كوكس ، كما اعدت قائمة اخرى بأسماء بعض الخاصة الذين يجب ان يتداول كوكس معهم تداولا شخصيا حول نظام الحكم المنوى اقامته في العراق . وقد أشارت جريدة « العراق » الى الاجتماع الذى عقده كوكس مع الخاصة ، وكان قد جرى في صباح ١٣ تشرين الاول ، حيث تكلم فيه كوكس حول تشكيل حكومة مؤقتة ، فقام السيد ابراهيم الراوى فتكلم في وجوب معاونة الحكومة البريطانية ، ثم قام الشيخ كاظم الدجيلي فألقى كلمة مطولة شرح فيها سبب القلاقل الحالية ــ يقصد أحداث الثورة ــ وقال انها نشأت من جراء عدم التفاهم الذى أحدثه

(11) Lady Bell (op. cit.) - P. 455-456.

(12) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 173.

المتطرفون من الجهتين ، فلو ان الفريقين تساهلا وتفاهما لكان في ذلك سعادة العراق ..[١٣].

بينما كان كوكس يقوم بمداولاته كانت هناك فئة كبيرة من الموظفين الانكليز في العراق غير راضية عن هذه المداولات وعن السياسة الجديدة التى شرعت الحكومة البريطانية بانتهاجها في العراق • يقول آيرلاند في هذا الصدد : ان كثيرا من الموظفين الاداريين كانوا يرتابون من تشكيل حكومة عربية حتى انهم كانوا لايخفون مشاعرهم في معارضتها ، فقد كان أكثرهم مؤيدين وموالين لويلسن ولرأيه في الدور الذى يجب أن تقوم به بريطانيا في العراق ولم يكن في وسعهم قبول وجهة النظر الجديدة التي جاء بها كوكس[١٤] •

لقد كان هؤلاء الانكليز المعارضون لخطة كوكس متشبعين بما يسمى برسالة الرجل الابيض في تمدين الشعوب ، فقد كان رأيهم ان العراقيين لو اتيح لهم الاستقلال التام في حكم انفسهم لاكل بعضهم بعضا ، ولهذا أصبح من واجب بريطانيا أن تستمر فى حكم العراق مدة كافية الى ان يتعود العراقيون على الحياة المدنية الحديثة ويتركوا عاداتهم القبلية القديمة في الغزو والثأر وسفك الدماء •

صدر في لندن فى عام ١٩٢٣ كتاب يمثل وجهة النظر هذه لمؤلف اسمه توماس ليل كان موظفا في العراق في تلك الايام ، فهذا الرجل لايكتفي بالقول ان العراقيين غير اكفاء للحكم بل يعمم القول على المسلمين كلهم ، وعلى الشيعة منهم بوجه خاص • فهو يقول في مقدمة كتابه ما نصه : « انى مقتنع اقتناعا قويا نتيجة اطلاع شخصي دقيق ان الدين

(١٣) جريدة « العراق » ـ في عددها الصادر في ١٧ تشرين الاول ١٩٢٠ •
(١٤) فيليب آيرلاند (العراق ـ دراسة في تطوره السياسي) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ٩٤٩ ـ ص ٢١٧ •

الاسلامي ليس تقدميا ، وانه ذو أثر مضعف للشخصية ومخرب لكل نزعة في المواطنة او التماسك الاجتماعي او الطموح القومي . وقد دفعني هذا الاقتناع الى القول بان الرجل المسلم ، وخاصة الرجل الشيعي ، لابد ان يبقى لسنوات عديدة غير لائق تماما للحكم الذاتي ، وهو انما يطلب الحكم الذاتي لانه يجد فيه فرصة لكي يتخلص من القانون والنظام »(١٥) .

ويوجه ليل اللوم الى كوكس واعوانه الذين اخذوا يشوهون سمعة ويلسون ويعدون سياسته السبب الاكبر في الثورة . ان ليل يعتبر ويلسون رجلا عظيما ، ويعزو سبب الثورة الى ان العشائر هي في ثورة دائمة ضد كل حكومة ، وانها قد وجدت نفسها في عهد ويلسون تخضع للنظام لاول مرة في تاريخها . ويقول ليل ان الثورة كان المفروض ان تحدث قبل الوقت الذي حدثت فيه فعلا وان سبب تأخرها يعود كله الى الجهود الدائبة التي بذلها ويلسون . ثم يقول ليل : « ليس هناك رجل يستحق التأييد الصميمي من ابناء بلاده كالسر ارنولد ويلسون ، ولكنهم مع ذلك تخلوا عنه مرة بعد اخرى . فافترى عليه أولئك الذين هم في انكلترا ، وحتى أولئك الذين كانوا يعملون سابقا تحت رئاسته .. ان من سوء الحظ ان تشجع الهيئة الجديدة ـ يقصد بهم كوكس واعوانه ـ مشاعر الناس ضد ادارة السر أرنولد ويلسون . فكان من اول اعمال هذه الهيئة استدعاء السويدي الملوث ... واصدار العفو عن الذين عاقبهم ويلسون . أما الذين هربوا خوفا من العقاب فقد طلب منهم العودة . وخففت الضرائب على الجميع ، فأخذ العرب يلهجون عاليا بمديح الحكومة » . ويقول ليل ان هذه السياسة الجديدة في تخفيف الضرائب ، ولا سيما على الشيوخ الذين قادوا الثورة ، سوف يكون لها أثرها على دافع

(15) Thomas Lyell (The Ins and Outs of Mesopotamia) - London 1923- P. 7.

الضريبة البريطاني دون ان يكون وراءها أي مبرر • ثم أبدى لييل ألمه مما قام به احد المتحمسين من اعوان كوكس حين تكلم امام جمع من البغداديين فانتقد ويلسون بشكل طائش من غير ان يتوقف لحظة ليفكر في تأثير هذا الكلام على الاذهان الشرقية(١٦) •

استمر كوكس سائرا في طريقه غير مكترث بمعارضة هؤلاء • فقد كان يعلم مالا يعلمون • يقول آيرلاند : « لما كان السر برسى كوكس مقتنعا بان الحالة تتطلب اما تأسيس حكومة عربية او اخلاء البريطانيين للبلاد فقد مشى في طريقه برغم المناقشة التى اثيرت في الدوائر لرسمية »(١٧) •

اختيار رئيس الوزارة :

استقر رأى كوكس على ان يعمل في أول الامر على تشكيل وزارة موقتة ، أما موضوع اختياز الامير او الملك للبلاد فقد أجله الى ما بعد ذلك •

أن المشكلة الاولى التى واجهت كوكس في هذا الشأن هى : من الذى ينبغي أن يتولى رئاسة الوزارة الموقتة المنوى تشكيلها ؟ • وقد اتجه تفكير كوكس في البداية الى ترشيح السيد طالب لرئاسة الوزارة ولكن المشاورات التى أجراها مع مستشاريه جعلته يغير رأيه(١٨) •

كان من رأي كوكس ومستشاريه ان أفضل من يمكن ان يتولى رئاسة الوزارة هو نقيب اشراف بغداد عبدالرحمن الكيلانى ، ولكن المشكلة هل يقبل النقيب ان يفعل ذلك ؟

---

(16) Ibid (op. cit.) - P. 204-210.

(١٧) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ـ ص ٢١٧ •

(١٨) المصدر السابق ـ ص ٢١٨ •

كان النقيب يومذاك في الثامنة والسبعين من عمره ومصابا بداء المفاصل ، وكان فوق ذلك زاهدا بالدنيا ومناصبها ، وقد اعتاد ان يصف نفسه بـ « الدرويش » ، اضف الى ذلك انه كان يعتبر قبوله المناصب في ظل الحكم البريطاني مما يحط من مكانته الدينية في نظر اتباعه المنتشرين في العالم . وقد ذكرت المس بيل في تقرير لها كتبته في عام ١٩١٩ انها عرضت عليه امارة العراق عامئذٍ فرفض ذلك بشدة . فهى تقول فى هذا التقرير : انها زارته في بيته في ٦ شباط ١٩١٩ وبعد حديث طويل معه وجهت اليه هذا السؤال : « اذا اقتضت الضرورة لاسباب سياسية لايمكن التكهن بها مقدما ، أن ينصب على رأس الدولة العراقية أمير من الامراء فهل يسعكم قبول هذه المسؤولية بمعونتنا وتعضيدنا لكي نتجنب انتخاب احد الامراء من الحجاز ؟ » فكان جوابه وهو مصحوب بتأكيد شديد : « كيف يمكنك القاء مثل هذا السؤال عليّ ؟ أنا درويش فهلا تعصمنى عادتى هذه ؟» وأخذ يؤشر بالاشارة المعروفة بتحريك جبته السوداء ، ثم استمر قائلا : « ان صيروتى رئيسا سياسيا للدولة هى ضد أشد مبادىء عقيدتي تأصلا ، ففي أيام جدى عبدالقادر اعتاد الخلفاء العباسيون استشارته كما تطلبين أنت وزملاؤك مشورتى الآن ، لكنه لم يكن يوافق على الاشتراك في الشؤون العامة . وسوف لا اوافق أنا ولا أي احد من احفاده على ان نفعل ذلك . هذا جوابي من الوجهة الدينية ، لكنى سأعطيك جوابا يستند على اسباب شخصية . فانني متقدم في السن . وأرغب في أن اقضي الخمس او الست سنوات التى بقيت من حياتى في الدرس والتأمل ، حيث انهما مشغوليتى المستديمة » . وبعد سكوت قليل قال رافعا صوته : « سوف لأتراجع عما قلته الآن حتى اذا كان فى ذلك انقاذ العراق من الدمار التام »[١٩] .

---

(١٩) مس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٤٨٠ـ٤٨٠ .

مهما كان الحال فقد قرر كوكس ان يجرب حظه وان يذهب الى النقيب بنفسه يعرض عليه رئاسة الوزارة • وقد ذهب اليه فعلا في يوم ٢٣ تشرين الاول • تقول المس بيل : انها بينما كانت جالسة في دائرتها مع فيلبي في ذلك اليوم اذ دخل عليها السر برسي كوكس وهو يلهث من التهيج وهتف قائلا : « نعم ، لقد قبلها !» ، وتعلق المس بيل على ذلك قائلة :« وهكذا حصل اول نجاح ، ولم يكن هناك غير السر برسي قادرا على القيام به ، والحق ان اقناع النقيب بان يشارك في الامور العامة شيء قريب من المعجزة • ان فرح السر برسي بهذا النجاح كان مساويا لفرحنا نحن ، فبقينا نصف ساعة نتطاير من الفرح ونمجد النقيب كما نمجد المندوب السامي »[٢٠] •

يواجهنا هنا سؤال مهم : كيف تمكن كوكس من اقناع النقيب بتحمل مسؤولية رئاسة الوزارة • أو بعبارة اخرى ماهو السبب الذي جعل النقيب يرضى بتولي رئاسة الوزارة في عام ١٩٢٠ بينما كان في العام الماضي يرفض امارة العراق رفضا باتا ؟

اننا لانجد في جميع المصادر التي بين ايدينا ما يكشف لنا عن سر هذا التحول العجيب في موقف النقيب ، وهو سر جدير بالباحثين أن يدرسوه ويميطوا اللثام عنه •

تشير بعض القرائن الى ان كوكس انما استطاع اقناع النقيب عن طريق ضربه على بعض الاوتار الحساسة في قلبه • فالمعروف عن النقيب انه كان يمقت الثورة والقائمين بها مقتا شديدا كما كان يمقت المجتهدين الذين ايدوا الثورة بفتاويهم • وكان كذلك يشمئز من وضع مقاليد الحكم في ايدي كل من هب ودب من الناس بل يرى وضعها في ايدي الاشراف

---

(20) Lady Bell (op. cit.) - P. 460.

من ابناء الاسر وذوي النسب والحسب • والمظنون ان كوكس عندما ذهب الى النقيب يحادثه في أمر تشكيل الوزارة اخذ يضرب على مثل هذه الاوتار الحساسة ، وربما ذكر له ان قيامه بتولي المسؤولية أمر واجب عليه يفرضه الشرع والعرف وانه أذا لم يفعل كان مقصرا في واجبه نحو بلاده ومعتقده الديني• ويخيل لي ان كوكس قال له محذرا انه اذا لم يقبل تولي المسؤولية فسيضطر هو الى وضعها في أيدى اناس من الفئة التى يمقتها مقتا شديدا ، وسيكون في ذلك خراب البلاد • يقول آيرلاند : ان كوكس ناشد النقيب بواجبه نحو البلاد وألمح له عن المطامح الشخصية لدى الآخرين ومدى الضرر الذى سوف يقع من جرائها اذا لم يتول هو تشكيل الوزارة[٢١] :

اختيار الوزراء :

بعد أن رضي النقيب بتولى رئاسة الوزارة ظهرت مشكلة اخرى هي اختيار اعضائها ، ولم تكن تلك بالمشكلة الهينة في تلك الظروف • فقد كان بعض الرجال المعروفين لايقبلون بالاشتراك بالوزارة لاعتقادهم انها تحط من سمعتهم في نظر الناس ، كما ان رجالا آخرين كانت لهم أسباب اخرى تمنعهم من دخول الوزارة • وتحدثنا المس بيل في رسائلها عن الصعوبة التي جابهتها في اقناع بعض الرجال المرشحين • فهي تقول مثلا عن جعفر العسكرى الذي رشح لوزارة الدفاع ، وكان قد عاد من سوريا منذ ايام قليلة ، انه جاء اليها يسألها عن رأيها فيما اذا كان اشتراكه في الوزارة سيحطم سمعته الوطنية لان الوزارة سيعتبرها الناس لعبة انكليزية ، فقامت اليه المس بيل تلومه بشدة على هذا القول ، وظلت تحاوره حتى اقنعته بالقبول[٢٢] •

وبعد جعفر العسكرى جاء دور السيد طالب فهو قد رشح لوزارة

---

(٢١) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ــ ص ٢١٩ •
(22) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 175.

الداخلية ، ولكنه كان ممتعظا يشعر ان ذلك اهانة له لانه لايستطيع ان يكون ذا مرتبة ثانوية حتى ولو بالنسبة للنقيب نفسه ، فحاولت المس بيل بالتعاون مع فيلبي اقناعه ، ولم يقتنع الا بعد ان طلب منهم ان يعلنوا انه يأتي بعد النقيب في المرتبة مباشرة ، فاذا تمرض النقيب او مات حل محله ، وعلى اى حال فهو يريد ان تمنح له ارفع التشريفات ويحاط بحرس شخصي كبير[٢٣] . ويقول فيلبي في مذكراته : انه كان في ذلك الوقت على اتصال دائم بالسيد طالب حيث اشار عليه بالصبر واوصاه بالاذعان لخطط كوكس من اجل ان يتم تشكيل الحكومة الموقتة[٢٤] .

وعندما تم اقناع السيد طالب اعلن ساسون حسقيل الذى كان مرشحا لوزارة المالية امتناعه عن القبول . فقد كان هذا الرجل لايحب ان يكون وزيرا مع السيد طالب في وزارة واحدة . وتصف المس بيل الجهود التي بذلتها هى وفيلبى وكلايتون لاقناعه ، فهي تقول فى ذلك مانصه : « جاءني الميجر ييتس لتناول الشاي عصرا ومعه المستر تود وزوجته ، ففاجأنا المستر تود بقوله انه عندما ذهب لتهنئة ساسون افندى بوزارة المالية وجده هو وحمدى باشا بابان (الذى عرض عليه منصب وزارة بلا حقيبة) كليهما في حالة رفض ... فتركت فنجان الشاى دون ان اشربه واسرعت عائدة الى الدائرة لاخبار المستر فيلبي . انه لم يكن هناك ولكنني لمحت نورا في غرفة السر برسى ، فذهبت اليه واخبرته . فأمرني بان اذهب حالا الى ساسون افندى وكلفني بمحاولة تغيير رأيه . فذهبت الى ساسون وانا اشعر كأني احمل مستقبل العراق كله على يدى وحين وصلت الى بيت ساسون شعرت بالارتياح لاني وجدت المستر فيلبي والكابتن كلايتون هناك . ذلك لان النقيب عندما تسلم رسالة ساسون بالرفض ارسلهما اليه على وجه السرعة ، وقد وصلت انا فى الوقت المناسب ، فانهما قد بذلا كل جهدهما

---

(23) Ibid - vol. 2. p. 177.

(٢٤) جون فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٤٦ .

لاقناعه دون جدوى . واعتقد ان قلقي الشديد لابد قد اوحى لي شيئاً لاقناعه لانه تأثر تأثرا محسوسا بعد ساعة من المجادلة المركزة معه على الرغم من ان اخاه شاؤول (الذي احترمه واعجب به ايضا) قد جاء وبذل جهده ضدنا ... وقد استطعنا اخيرا ان نجعل ساسون افندى يوافق على مراجعة فكره والاجتماع بالسر برسى غدا . اني كنت على يقين في قلبي بان اللعبة قد كسبناها ولم انم تلك الليلة كثيرا ، فقد كنت أقلب في عقلي الادلة التي جادلته بها وتساءلت هل كان في مقدوري الاتيان بافضل منها . وفي الصباح التالي ، يوم الخميس ، جاء ساسون افندى في الساعة العاشرة ، فأخذته فورا الى السر برسي وتركته معه . وبعد نصف ساعة خرج واخبرني بانه وافق...»(٢٥) .

أعلن تشكيل الوزارة في ٢٥ تشرين الاول وكان اعضاؤها صنفين : صنف يتألف من وزراء عاملين وعددهم تسعة ، اما الصنف الآخر فعددهم اثنا عشر وهم الذين وضفوا بانهم وزراء بلا مناصب وزارية ، او هم حسب التعبير الفرنسي « وزراء بلا حقائب » .

كان الوزراء العاملون هم : السيد طالب للداخلية ، وساسون حسقيل للمالية ، وجعفر العسكرى للدفاع ، وحسن الباچچي للعدلية ، وعزت الكركوكلي للمعارف والصحة ، ومصطفى الآلوسى للاوقاف ، وعبداللطيف المنديل للتجارة ، ومحمد علي فاضل للنافعة . وقد اعتذر حسن الباچچي عن الاشتراك في الوزارة فحل محله فيوزارة العدلية مصطفى الآلوسي ، وحل محل الآلوسى في وزارة الاوقاف محمد علي فاضل . وبقيت وزارة النافعة شاغرة حتى ٢٩ كانون الثانى ١٩٢١ ـ كما سنأتي اليه .

أما الوزراء بلا مناصب وزارية فهم : حمدى بابان ، عبدالجبار الخياط ، عبدالغني كبه ، عبدالمجيد الشاوى ، عبدالرحمن الحيدرى ، فخرى الجميل ، محمد الصيهود ، عجيل السمرمد ، احمد الصانع، سالم الخيون،

(25) Lady Bell (op. cit.) - P. 460.

هادى القزوينى ، داود اليوسفانى • وقد اعتذر حمدى بابان وهـــادى القزويني عن الاشتراك في الوزارة فحل محلهما ضارى السعدون ونجم البدراوى •

يقال ان تعيين هؤلاء الوزراء غير العاملين كان من بنات افكار النقيب لانه كان يريد ان يجمع في وزارته اكبر عدد ممكن من ابناء الاسر القديمة• ومن طريف مايروى عنه في هذا الصدد انه عندما رشح فخرى الجميل ليكون احد هؤلاء الوزراء تردد كوكس في قبوله فقال له النقيب : « مولاى، انه ابن فلان ، وجده فلان ، فبأى وجه اقابل اجداده في العالم الآخر اذا لم ادخله الوزارة »[٢٦]

وقد عين لكل وزير عامل مستشار بريطاني يسيره ويوجهه ، وتقرر ان يعرض الوزير جميع الاعمال الرسمية على مجلس الوزراء عن طريق المستشار ، وأن تنقل جميع مقــررات المجلس الى الوزير عن طريـــق المستشار ايضا • وللمستشار الحق في حضور جلسات مجلس الوزراء حين يجرى البحث فيها حول أعمال الدائرة المختصة به ، وان يشارك في المناقشة دون ان يكون له حق التصويت[٢٧] •

كان المستشار فى الواقع هو الحاكم الفعلي في كل وزارة تقريبا ، ولم يكن للوزير من أمر ونهي الا في نطاق محدود جدا •وقد أخذ بعض الوزراء يتذمرون من ذلك بينما سكت الآخرون وأطاعوا • وادرك الاهالى حقيقة النظام الجديد فصاروا يفضلون ان يراجعوا فى معاملاتهم المستشار بدلا من الوزير ، اذ انهم كانوا واثقين من أن حاجاتهم لاتقضى الا عن هذا الطريق • يروى ساطع الحصرى عن احد الوزراء وهو عزت الكركوكلي الذى كان في العهد العثمانى قائدا عسكريا انه قال له : « أنا فى كـــل الوظائف التى توليتها قبلا كنت آمرا مطلقا • ولكن بعد ان صرت وزيرا

---

(٢٦) خيرى العمرى (حكايات سياسية) ـ القاهرة ٩٦٩ ـ ص ٤٣ •
(٢٧) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ـ ص ٢٢٢ •

هنا صار امري لايتعدى حدود هذا البارافان»[٢٨] .

وقد نظم معروف الرصافي في هذا الموضوع بيتين من الشعر بعنوان «حمام الوزارة» تناقلتها الافواه في ذلك الحين هما :

الا بلغـــوا عنـــي الوزيـــر مقالـــة
لـــه بينها لو كان يخجـل توبيـــخ

أراك بحمــــــام الوزارة نـــورة
وأمـا جنـاب المستشـار فزرنيـخ[٢٩]

وقد اشار الى مثل هذا المعنى باقر الشبيبي حيث قال في قصيدة لـــه نظمها بعدئذ :

المستشار هو الذى شـــرب الطـلا
فعلام يـــا هــذا الوزيـر تعربـــد

مفارقات البداية :

وقع الاختيار على القشلة لكي تكون مقر الوزارات ، غير انها كانت في ذلك الحين مشغولة من قبل الجيش الانكليزى ، وقد طلب كوكس من الجنرال هامبرو اخلاءها ولكن الجنرال تلكأ في ذلك وماطل ، ولم يتـــم اخلاءها الا بعد فترة غير قصيرة .

وعندما انتقلت الوزارات الى القشلة استحوذ السيد طالب على افضل الاجنحة فيها ليكون مقرا لوزارته ، وهو الجناح الذى يقع فوق البـــاب الوسطى . وقد خصص السيد طالب غرفة واسعة بجانب غرفته لفيلبي الذى كان قد عين مستشارا له ، كما خصص غرفة واسعة اخرى لتكون ديوانا له يستضيف فيها زواره ويقدم لهم الطعام عندما يحين وقت الغداء . وكان السيد طالب يسكن يومذاك في دار قريبة من القشلة في محلة جديد حسن

---

(٢٨) ساطع الحصرى (مذكراتي في العراق) - بيروت ١٩٦٧ - ج١ - ص ٥١ .

(٢٩) معروف الرصافي (ديوان الرصافي) - بيروت - ص ٥١٤ .

باشا ، فكان الطعام الفاخر يجلب من داره كل يوم الى غرفة الديوان لـــه ولضيوفه •

والغريب ان أردأ اجنحة القشلة خصص لوزارة الدفاع ، فامتعض من ذلك وزير الدفاع جعفر العسكرى كل الامتعاض • يقول فيلبي فـــي مذكراته : « جاءني جعفر باشا يشكو ، والدموع في عيونه لانه كان رجلا حساسا شديد العصبية ، من حشره هو ومستشاره الكولونيل ايدي فـــي غرفة تشابه الاصطبل ليس فيها الاثاث الذى يليق بالمكتب • ألم يكن هو وزيرا للدفاع مع لاشيء يدافع به ولا شيء يدافع عنه ••• »(٣٠)

خصص لرئيس الوزراء راتب شهرى قدره سبعة آلاف روبية ، كما خصص لكل من الوزراء والمستشارين ثلاثة آلاف روبية • والواقع ان هذا الراتب كان يعد ضخما جدا في تلك الايام • ولم يكن من المألوف في العهد العثماني ان ينال احد مثل هذا الراتب الا نادرا • ويروى ان وزير العدلية مصطفى الآلوسي حين ذهب الى المصرف العثماني لقبض راتبـــه الاول وشاهد الرزمة الكبيرة من النقود الورقية التي قدمها المحاسب له ، سأل قائلا : « أهذه الرزمة كلها لي ؟ » ولما أجابه المحاسب بالايجاب رفـــع يده الى السماء بلا شعور وقال : « اللهم انصر الدين والدولة ! »(٣١) •

وعلى أي حال فان السيد طالب لم يهن عليه ان يكون راتبه مثـــل راتب بقية الوزراء ، فذلك يخالف الشرط الذى اشترطه على الانكليز عند قبوله الاشتراك في الوزارة • وفي ٢٢ شباط ١٩٢١ أرسل المندوب السامى الى مجلس الوزراء اقتراحا بجعل راتب وزير الداخلية خمسة آلاف روبية اسوة براتب وزير الداخلية في اسطنبول • وفى ٢٧ منه اجتمع مجلس الوزراء للنظر في الاقتراح فقرر بالاجماع قبوله مع اضافة ألف روبيـــة

---

(٣٠) جون فيلبي (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ــ٤٩ •
(٣١) خيري العمري (المصدر السابق) ــ ص ٤٥ •

اليه ، وبهذا صار راتب السيد طالب ستة آلاف روبية[٣٢] ـ أي ضعف راتب الوزراء ، ولا يعلوه سوى راتب النقيب .

وتروى في هذا الصدد قصة طريفة جدا هى ان الوزراء كانوا قد اتفقوا فيما بينهم قبل انعقاد المجلس على معارضة الاقتراح عند تقديمه اليهم ، واخذ يشجع بعضهم بعضا على الصمود تجاه السيد طالب . ولكنهم عندما انعقد المجلس تخاذلوا تجاه نظرات السيد طالب المرعبة ، وكان اول المتخاذلين ساسون حسقيل حيث سارع الى القول « موافق » ، ثم أخذ الوزراء يقتدون به واحدا بعد الآخر حتى وصل الدور الى عبدالمجيد الشاوى وكان معروفا بحسن النكتة ، فهو بدلا من أن يقول « موافق » قال « منافق »[٣٣] . وكان فى ذلك اصدقهم جميعا !

ومن الجدير بالذكر ان مجلس الوزراء كان ينعقد في دار النقيب الواقعة على شاطىء النهر بجوار بناية المصرف الزراعى الحالية ، وسبب ذلك ان النقيب لم يكن قادرا على الخروج من داره لابتلائه بداء المفاصل. وكان المجلس ينعقد مرتين في الاسبوع ، في يومى السبت والاثنين ، فيتوجه الوزراء اليه بعد صلاة الظهر ، حيث يأتي فريق منهم راكبا بالسيارة ، وفريق بالعربة ، وآخرون على ظهور الخيل ، حتى اذا انتظم عقدهم وشربوا القهوة اشار النقيب الى سكرتير المجلس السيد حسين افنان قائلا له « اقرأ ياولدى » . فيباشر السيد حسين بتلاوة الكتب الواردة وبعد ان يتم المجلس مداولاته يدعوهم النقيب لتناول طعام الغداء عنده ، ولا يقبل معذرة احد منهم . فاذا فرغوا من تناول الطعام وارادوا الخروج وقف السيد محمود الكيلاني ، وهو ابن النقيب الاكبر ، عند الباب على طريقة الولائم التقليدية : فهم يقولون عند الخروج « سفرة دائمة وبيت عامر » ، وهو يرد عليهم بالعبارات المناسبة[٣٤] .

---

(٣٢) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ـ صيدا ١٩٦٥ ـ ج١ ص ٢١ـ٢٢ .

(٣٣) خيري العمري (المصدر السابق) ـ ص ٤٥ـ٤٦ .

(٣٤) المصدر السابق ـ ص ٤٣ـ٤٦ .

بحر العلوم الطباطبائي :

كان كوكس راغبا منذ البداية في اسناد وزارة ذات حقيبة الى رجل من الشيعة ، وقد وقفت تجاه رغبته هذه عقبتان : اولاهما ان النقيب وبعض الوزراء المتنفذين لم يكونوا يوافقون على ذلك • والثانية هي ان الشيعة أنفسهم كانوا يحتقرون أي رجل منهم يقبل الاشتراك في الوزارة ، فاذا تجرأ أحد منهم ودخل في الوزارة نبذوه اجتماعيا وربما اهانوه • واذا كان هذا الرجل من رجال الدين اطلقوا عليه لقب « عالم الحفيز » اى صديق الانكليز او عميلهم •

تمكن كوكس اخيرا من اقناع النقيب والوزراء المتنفذين بالموافقة على اسناد وزارة ذات حقيبة الى رجل من الشيعة • ففي ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ كتبت المس بيل تقول : المظنون ان الوزارة سوف يعاد توزيع المناصب فيها من اجل ادخال رجل شيعى فيها[٣٥] • ومما يلفت النظر ان هذا الذى ذكرته المس بيل حول اعادة توزيع المناصب الوزارية لم يتحقق الا بعد مرور اكثر من شهرين ، والظاهر ان هذا التأخر نشأ من جراء صعوبة العثور على رجل من الشيعة له مكانته الاجتماعية ويرضى بالاشتراك في الوزارة •

تم العثور اخيرا على رجل من اهل كربلاء يرضى بذلك اسمه السيد محمد مهدى بحر العلوم الطباطبائي • فأرسل اليه النقيب في ٢٤ كانون الثانى رسالة يذكر فيها اسناد وزارة المعارف والصحة اليه ، وفى ٤ شباط أجابه الطباطبائي برسالة مليئة بالعبارات التقليدية الطنانة ، وهذا نصها :

حضور جناب الاكمل الافضل حضرة رئيس الوزراء نقيب الاشراف والعظيم من صفوة آل عبد مناف دام ظله وعلاه •

بعد السلام عليكم وعلى من يحظى شرفا بخدمتكم ورحمة الله

---

(35) Lady Bell (op. cit.) - P. 464.

وبركاته • لقد تشرفت اناملي اليوم باستلام أمركم الصادر علي المؤرخ ١٤ جمادى الاولى ١٣٣٩ مبتهجا به حيث أنابني عن توجيه ألطافكم على مخلصكم واني لافتخر بخدمة الوطن والملة التى اصبحت زعيمها وعظيمها ولو لم يكن بها من الشرف الا امتثال أوامركم لكفاني فخرا وها أنـي مترقب اجراء أمركم السامي سعيا على العين لاسعيا على القدم •

٢٥ جمادى الاولى ١٣٣٩ بحر العلوم زادة : محمد مهدي[٣٦]

كان عزت الكركوكلي يتولى حينذاك وزارة المعارف والصحة ، فجرى نقله الى وزارة النافعة بعد تبديل اسمها الى « وزارة الاشغال والمواصلات » • وفي ٢٢ شباط تم اسناد وزارة الصحة والمعارف الى الطباطبائي •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الطباطبائي كانت له خدمة سابقة في وظائف الحكومة في بداية الاحتلال ، حيث ورد اسمه في القوائم التى ذكرها ويلسون في ملاحق مذكراته ، فقد عينه الانكليز معاون حاكم سياسي في كربلاء في ١ شباط ١٩١٨[٣٧] • ومعنى هذا ان الطباطبائي كان من « علماء الحفيز » •

ازمة وزارية :

في أواخر تشرين الثاني ١٩٢٠ حدثت ازمة فى الوزارة تعد اول ازمة وزارية في تاريخ العراق الحديث ، وكان مثيرها السيد طالب • وتعلل المس بيل سبب الازمة بان السيد طالب حين يئس من مساعدة الانكليز له على نيل التاج العراقي أخذ يتظاهر بالوطنية وأعلن استقالته من الوزارة • تقول المس بيل في رسالة الى والدها مؤرخة في ٢٩ تشرين الثاني مانصه :

« نحن الآن في أوج أزمة وزارية • فان السيد طالب استقال وطلب

---

(٣٦) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) — ج١ ص ٩٠

(37) Wilson (op. cit.) vol. 2, p. 388.

أن نسمح له بالذهاب الى لندن هو وأولاده ، وقدم لاستقالته حججا واهية جدا • أما دوافعه الحقيقية فهى كما اعتقد انه أدرك اننا لاننوى فرضه على الناس ضد رغبتهم فأراد أن يجتذب اليه المتطرفـين وحتى الوطنيـين الحقيقيين • ولهذا ألقى في مجلس الوزراء خطبة طويلة طلب فيها اعلان العفو العام • انه كان يتوقع من النقيب ان يرفض هـذا الطلب ، وعندئذ سيظهر نفسه للناس بأنه وطني حقيقي وانه كان على استعداد للعمل مع الانكليز ولكنه وجد ذلك مستحيلا • وعلى اى حـال فان النقيب وعـدة وزراء كانوا قد علموا بالامر مقدما ، وان جعفـر وساسون قضيا معظم الصباح في الحديث معي • واتخيل انهم سوف يتبنون منهج السيد طالب مع بعض التعديل ، وبذا يأخذون الريح من أشرعته • وقد اتفقنا فـي الرأي على ان استقالته تدعو الى الاسف ، اذ هي تؤدي الى هـز الوزارة التي هي في وضع غير مريح • وفي الوقت نفسه اذا أصر السيد طالب على الاستقالة فاننا يجب ان نواجه ذلك بصلابة • فاننا اذا استطعنا الصمود تجاه هـذه الضجة فسيكون تخلصنا من السيد طالب ذا فائـدة كبيرة لنا بـلا ريب •••»[٣٨] •

ولم يكتف السيد طالب باعلان استقالته بل اتصل بجريدة «الاستقلال» التى كانت في ذلك الوقت تنطق بلسان الوطنيين ، وقد نشرت له الجريدة حديثا قالت انه جرى بينه وبين احد محرريها • فقد سأله المحرر يستوضح منه خبر استقالته ، فأجابه السيد طالب قائلا بان الرأى العام ضد الـوزارة الحاضرة ، وهو يعتقد ان الحكومة اذا لم يعاضدها شعبها فانها لايمكن ان تنجح في مهمتها • وذكر السيد طالب في حديثه انه قدم مطاليب مشروعة ومعتدلة من أجل نفع الامة والوطن ولكن هذه المطاليب حصل بعض التردد في قبولها ، فاضطر هو الى الاستقالة لكي تبقى صحيفته بيضاء كما كانت في أول امرها • ولما سأله المحرر عن ماهية تلك المطاليب ، أجاب : ان ذلك

(38) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 185-186.

سر لايمكن افشاؤه ولكن الرأى العام سيطلع عليه في الوقت المناسب • ثم قال ان اكثرية الوزراء يقفون الى جانبه • فسأله المحرر : هل ان استقالته نهائية ؟ فأجاب : ان استقالته ليست نهائية وهو يمكن ان يرجع عنها حين يتأكد من قبول مطاليبه[٣٩] •

وفي ٤ كانون الاول كتبت المس بيل الى والدها رسالة اخرى ذكرت فيها شيئاً عن استقالة السيد طالب وأثرها في الرأي العام ، فهي تقول :

« ان بهلوانيات السيد طالب تثير معظم اهتمامنا • وقد اخبرتك عن استقالة السيد طالب وسحبها • فان هدفه الوحيد هو التملق للوطنيين • وقد أوضح موقفه بجلاء في حديث له مع محرر جريدة الاستقلال المتطرفة التي ظهرت بعد سحب استقالته ، حيث قال بأنه كان قد راقب الرأي العام بدقة فوجده ضد الوزارة الحالية ، وهو من جانبه قد قدم سلسلة من المطاليب التي يجب أن يعرضها مجلس الوزراء على السر برسي كوكس ، وكان من جملة هذه المطاليب عودة المنفيين واللاجئين ، ومنح حرية اكبر للوزراء في ممارسة اعمالهم الخ ••• ولكن هذه المطاليب لم ينظر اليها زملاؤه الوزراء بعين القبول ، ولهذا وجد من واجبه كوطني ان يستقيل وهو يأمل من زملائه أن يقتدوا به في الاستقالة اذا كانوا يحبون وطنهم ، ثم ألمح بغموض الى انه سيعيد النظر في موقفه في حالة موافقة المجلس على مطاليبه• وفي الحقيقة ان مناورات السيد طالب قد دعمت موقفه بين الشباب العرب الذين كانوا يمقتونه من قبل » •

وأضافت المس بيل الى ذلك قائلة : ان ساسون حسقيل وعبدالمجيد الشاوى كانا الوحيدين اللذين وقفا حقا ضد السيد طالب في المجلس ، أما جعفر العسكرى فقد وافقه على لعبته • وهى تعلل ذلك بان العسكرى انما فعل ذلك لكى يجد له طريقا فيما بعد ولا سيما عند عودة العراقيين من

---

(٣٩) جريدة « الاستقلال » في عددها الصادر في ١ كانون الاول ١٩٢٠ •

سوريا • وتنقل المس بيل قولا قاله حسين افنان في وصف لعبة السيد طالب هو : « ان السيد طالب قضى ثلاثين سنة قبل هذا في مكايدة أدهى الموظفين الاتراك وعرف كل صغيرة وكبيرة من فن اللعبة »(٤٠) •

وعلى أي حال فان السيد طالب لم يستمر في لعبته طويلا • ففي ١٨ كانون الاول كتبت المس بيل تقول : « جاءني السيد طالب اليوم ، وهو يوم الاحد ، ويجب ان اعترف انه احدث انطباعا حسنا لدي • فانه اخبرني بصراحة بأنه يرغب في ان يكون امير العراق • واخذنا نتداول حـــول وضعه بتفصيل ، وظننت انه ابدى حكمة وتعقلا • وبعد هذا بدأنا نتحدث عن الجريدة الوطنية العنيفة ـ تقصد جريدة الاستقلال ـ التى اصبحت الآن بلشفية تماما ومن المحتمل انها تقبض المساعدات المالية • فانه يفكر اننا يجب ان نغلقها ، واعتقد ان رأيه هذا صحيح وسوف أنقله الى السر برسى غدا •• »(٤١) •

جريدة الاستقلال :

ان جريدة « الاستقلال » ـ كما أشرنا اليه آنفا ـ كانت تنطق بلسان الوطنيين • والواقع ان هذه الجريدة لم تكن جريدة اعتيادية بل كانت شبه منظمة سياسية يجتمع في دارها الوطنيون ويساهمون في كتابتها • انها كانت أول جريدة معارضة للسياسة البريطانية في العراق •

صاحب الجريدة هو عبدالغفور البدري،وكان في اثناء الحرب ضابطا وانضم اخيرا الى الثورة العربية • وهو لم يستطع الحصول على امتيـــاز الجريدة الا بعد تردد ومماطلة من المسؤولين • وقد صدر العدد الاول منها في ٢٨ ايلول ١٩٢٠ • وكانت ادارتها على شاطئ النهر في جانب الرصافة قرب المحكمة الشرعية الحالية •

لم يكن عبدالغفور البدرى يتقن الكتابة ، او لعله لاقـــدرة له على

(40) Ibid - vol. 2. p. 188-189.

(41) Ibid - vol. 2. p. 129.

الكتابة كما قيل ، ولكنه كان رجلا ذا حزم ورأي واستطاع ان يجمع حوله عددا من الكتاب ليساهموا في تحرير جريدته ، وكان من جانبه يتحمل تبعة ما يكتبون ويحميهم • وكان رئيس تحرير الجريدة فى اول امرها قاسم العلوي ، ويساعده فى التحرير كثيرون منهم علي محمود الشيخ علي وطالب مشتاق ومهدى البصير وسامي خونده ورشيد الصوفى وعونى بكر صدقى وحسين الرحال ومصطفى علي وباقر الشبيبي وسلمان الشيخ داود واحمد جمال الدين وفهمى المدرس وعبداللطيف حبيب وخيرى حماد الفلسطيني وغيرهم • ويقول رفائيل بطي في وصف هذه الجريدة : « كان المرء يحس وهو في ادارة هذه الجريدة انها مؤسسة شعبية وطنية ونادى سياسي مكتظ بالمكافحين ، حركة نشيطة يشترك فيها جماعات من الاهلين من طبقات الشعب ، هذا يتبرع بالمال ، وذاك يكتب ، وآخرون يتبرعون بتسيير ادارة الجريدة ، وذلك يبدى الافكار ويوجه • وتلف الجميع حماسة جارفة ••• حتى ان (لافتة) الجريدة على باب الادارة كتبت بالالوان المربعة (الابيض والاسود والاخضر والاحمر) وهى ألوان العلم العربى الذى حمل ابان الثورة فى الحجاز ، قبل أن يرفرف في سماء العراق علم عراقي » • ويضيف رفائيل بطي الى ذلك قائلا : « وهناك حقيقة يحسن تسجيلها هي ان صدر حكومة الاحتلال الانجليزية كان رحباً ازاء ما تكتبه جريدة الاستقلال ، فأفسحت مجالا لا بأس به من حرية الصحافة مما لم نجده بعد ذلك مُراعى دائما في عهد الاستقلال »(٤٢) •

وقد أعطتنا المس بيل في احدى رسائلها وصفاً عجيباً للجماعة التي كانت تلتف حول جريدة « الاستقلال » حيث قالت : « ان القوميين التقدميين هنا ، وهم الذين لا يريدون الاتراك ولكنهم غير راضين عن وضعهم الحاضر ، يستعملون اسطورة البعبع التركي على أمل ان يأتي الاتراك لاخراجنا من البلاد ثم يأتون هم بدورهم ليخرجوا الاتراك منهاه

(٤٢) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ٩٥٥ ـ ص ٦٠ •

ان الذين يفكرون بمثل هذا التفكير هم جماعة صغيرة ولكنها ذات صخب ، وعندهم جريدة تنطق بلسانهم تسمى « الاستقلال » وان معظم كتابها وأتباعهم أشخاص لا تستطيع أية حكومة استخدامهم ، ولو أننا خرجنا من البلاد لصاروا ضد الذين يأتون بعدنا ... »(٤٣)

كانت جريدة «الاستقلال» تكثر من ترديد اسم الامير فيصل على صفحاتها ، وتطنب في مدحه وتبدي تألمها لما جرى على سوريا عقب اخراجه منها . وكانت فوق ذلك تشير بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى ان فيصل هو المرشح اللائق لعرش العراق . وقد نشرت في ١١ آب ١٩٢٠ برقية مصدرها لندن فحواها ان فيصل في طريقه الى سويسرا لمقابلة رئيس الوزارة البريطانية الموجودة هنالك للمداولة في شأن اجلاسه على عرش العراق . ولا حاجة بنا الى القول بان هذا الالحاح من الجريدة على ذكر فيصل كان يستفز السيد طالب ويغضبه. يروي طالب مشتاق في مذكراته : ان السيد طالب عرض على عبدالغفور البدري اثنى عشر ألف روبية لقاء الامتناع عن ذكر فيصل ، فرفض البدري ذلك(٤٤) .

ويروي سلمان الشيخ داود الذى كان من محرري الجريدة كما أسلفنا : ان السيد طالب عندما قدم استقالته استدعاه وعرض عليه اوراقا تضمن استقالته وشكواه من تدخل المستشارين وقال له ان فيلبي والمس بيل راجعاه واقنعاه لسحب الاستقالة وأنه وعدهم بذلك . ثم طلب السيد طالب من سلمان أن يكتب في الجريدة مقالا في مدحه وفي الاشادة بوطنيته، ولكن سلمان لم يفعل ما طلبه منه السيد طالب بل فعل العكس من ذلك(٤٥) . فقد ظهرت الجريدة في اليوم التالي تحمل مقالا بعنوان

---

(43) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 205.

(٤٤) طالب مشتاق (اوراق أيامي) ــ بيروت ١٩٦٨ ج١ ص ٩٦ .

(٤٥) خيري العمري (شخصيات عراقية) ــ بغداد ١٩٥٥ ــ ج١ ص ٣٨ .

« أريد حياته ويريد موتي » وكان مقالا يتضمن هجوماً شديداً على السيد طالب من دون ذكر اسمه انما يشير اليه اشارة تدل عليه بوضوح[٤٦] .

صار السيد طالب يتحين الفرصة للايقاع بجريدة « الاستقلال » ومحرريها . وقد واتته الفرصة أخيراً في ٩ شباط ١٩٢١ ، ففي ذلك اليوم كان بعض المنفيين في جزيرة « هنجام » قد عادوا الى بغداد بعد اطلاق سراحهم وكان من بينهم أحمد الشيخ داود وجعفر الشبيبي وعارف السويدي ومحمد مصطفى الخليل ونوري فتاح وغيرهم . فأصدرت الجريدة عدداً خاصاً بتلك المناسبة كتبت في صدره عنواناً مثيراً بالخط العريض هذا نصه « نهنىء الامة العراقية بقدوم بعض منفيينا الكرام ونطلب ارجاع جميع المنفيين بلا استثناء كما اننا نواصل الطلب في تنفيذ سائر المواد السبعة » . ثم ذكرت الجريدة تحت هذا العنوان منهاجاً للكفاح السياسي يتضمن سبع مواد منها اطلاق حرية الصحافة والاجتماعات ، واصدار العفو العام ، والغاء الادارة العرفية . ولم يكد هذا العدد ينتشر بين الناس حتى صدر الامر من وزارة الداخلية باغلاق الجريدة وتوقيف صاحبها مع أحد عشر رجلاً من أعوانه .

لم يمكث الموقوفون في الحبس مدة طويلة ، فقد توسط مستشار العدلية بونهام كارتر في أمرهم ، واستطاع أن يطلق سراح سبعة منهم . ثم أبعدت الحكومة اثنين آخرين منهم ، أما الثلاثة الباقون وهم عبدالغفور البدري ومهدي البصير وقاسم العلوي فقد سيقوا الى المحكمة ، وتعتبر محاكمتهم أول محاكمة صحافية في تاريخ العراق الحديث . وقد حكمت المحكمة على البدري بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة سنة واحدة ، وعلى البصير لمدة تسعة أشهر ، وعلى العلوي لمدة ستة أشهر . كما قررت المحكمة تعطيل جريدة « الاستقلال » لمدة سنة كاملة .

---

(٤٦) جريدة « الاستقلال » في عددها الصادر في ٢٢ كانون الاول ١٩٢٠ .

يحكى ان السيد طالب مر على عبدالغفور البدري وهو يعمل في في تكسير الاحجار في الشارع مع السجناء العاديين ، فقال له : « أيعجبك هذا ياعبدالغفور ؟ » فاجابه البدري : « ليس أحب اليّ من التعذيب في سبيل وطني وشعبي ، امضوا في تعذيبكم ما شاء لكم الهوى ، والويل لكم من الشعب ! »[47] .

العائدون :

كان في سوريا عدد كبير من الضباط والموظفين العراقيين الذين كانوا في خدمة الحكومة الفيصلية فلما سقطت تلك الحكومة على أثر معركة ميسلون فقدوا وظائفهم وصار الكثير منهم في ضيق معاشي شديد.

كان جعفر العسكري أول من عاد منهم الى العراق ، وقد وصل في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٠ حيث تولى وزارة الدفاع - كما ذكرنا من قبل. وصار العسكري يلح في مجلس الوزراء لكي تبذل الحكومة مساعدتها في تعجيل عودة الباقين بالنظر لحالتهم المعاشية السيئة من جهة ولحاجة العراق الى خدماتهم من الجهة الاخرى[48] .

استحصلت الحكومة من القنصل الفرنسي ببغداد قائمة تحتوي على ٢٤٠ اسماً من أسماء الضباط العراقيين الموجودين في سوريا . وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ أبرق كوكس الى لندن يطلب الاذن بتسهيل عودتهم. وفي منتصف شباط ١٩٢١ وصلت الى بغداد أول جماعة منهم كان في مقدمتهم نوري السعيد الذي عين وكيلاً لوزير الدفاع جعفر العسكري . ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان نوري وجعفر كانا متصاهرين اذ كان كل منهما متزوجاً من أخت الآخر .

كتبت المس بيل في ٢٤ شباط تقول : « شهد الاسبوع الماضي الوصول

(٤٧) فائق بطي (اعلام في صحافة العراق) - بغداد ١٩٧١ - ص ١٧٣.
(٤٨) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) - ص ٢٢٥ .

الاول لعناصر جديدة هم الضباط العراقيون الذين كانوا في سوريا وبدأوا يعودون • وكان أول من جاء منهم نوري باشا زوج أخت جعفر •••

وفي اليوم التالي لوصوله تلفن لي جعفر يسألني متى يستطيع نورى لقاء السر برسي • فطلب السر برسي منهما المجيء حالاً وتناول طعام الغداء عنده • فجاءا في الساعة الثانية عشرة وجلسا ساعة معي • وقد دعوت الكابتن كلايتون الذى كان يعرف نوري ويحبه • وجاء الميجر موراي ، وجرى بينهما حديث مهم جداً ••• »(٤٩) • وأخذت المس بيل تقارن في رسالتها بين جعفر العسكري ونوري السعيد ، فقالت : « ان جعفر رجل طيب تحفزه أرفع المثل ، وتعوزه القوة • انه في طبيعته رجل متسامح، بدين جداً ، مع ابتسامة مشرقة ، وهو يستجيب فورا للصداقة والتعاطف، ويمنحك في الحال ثقته • ومن العجيب ان رجلاً بمثل هذه المميزات البدنية والذهنية يكون متحمساً في اعتقاداته السياسية • ولكنه ليس لديه ما يجعله معروفا بذلك لدى الجمهور • فهو لم ينجح في اجتذاب المتطرفين الشبان في بغداد وفي اقناعهم بنزاهتنا على نحو ما هو مقتنع بها • أما صهره نوري فهو يختلف عنه تماماً ، ففي اللحظة التي رأيته فيها ••• أدركت أننا نواجه طاقة قوية ومرنة وان علينا اما ان نتعاون معه او ندخل معه في صراع شاق ـ شاق جداً للانتصار عليه »(٥٠) •

أخذ جعفر ونوري يعملان معاً لتسهيل عودة العراقيين من سوريا وايجاد الوظائف المناسبة لهم • وفي ٦ آذار وصل عن طريق البحر ١١١ ضابطا عراقياً مع افراد عائلاتهم • وفي ١٤ منه وصل عن طريق الصحراء ناجي السويدي مع خمسة عشر شخصاً • وفي ٣ تشرين الثاني وصل توفيق السويدي • وفي

(49) Lady Bell (op. cit.) p. 476.

(50) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P 209-210.

٣١ منه قرر مجلس الوزراء تخصيص ٧٥ ألف روبية لاعادة بقية الضباط العراقيين الذين ظلوا في سوريا لعدم توفر نفقات السفر لديهم •

وفي الوقت نفسه أخذ العراقيـون الذين كانوا موجودين في تركيـا يعودون الى العراق[٥١] ، وهم من الموظفين السابقين او الضباط او التجار أو الطلاب • وكانت قد وصلت قبلئذٍ أول دفعة من الاطباء العراقيين الذين درسوا الطـب في اسطنبول ، وهـم : هاشم الوتري وفائق شاكر وسامي شوكت وشاكر السـويدي واسماعيل الصفـار وصائب شوكت وشوكت الزهاوي وغيرهم[٥٢] •

ملء الوظائف :

كانت الوظائف الحكومية في بداية الاحتلال البريطاني يشغلها موظفون بريطانيون وهنود في الغالب • وكان قليل منهم عراقيين • وعند تشـكيل الوزارة النقيبية المؤقتة بدأت السياسة تتجه نحو تقليص عدد البريطانيين والهنود ، وتكثير العراقيين • يقول فيلبي في مذكراته : انـه عندمـا تولى منصب مستشار وزارة الداخلية وجد عدد الضباط البريطانيين الاداريـين يبلغ ١٣٠ فعمل على تخفيضه الى ٤٠ ، وقد منح الذين أخرجوا من وظائفهم اكراميات سخية لكي يتسنى لهم تدبير شؤونهم حتى يمكن لهم الحصول على وظائف اخرى[٥٣] •

وفي ٦ كانون الثاني ١٩٢١ تأسست قيادة للجيش العراقي في مقـر وزارة الدفاع من عشرة ضباط ، وأخـذ الجيش ينمو منذ ذلك الحـين بمناصبه وتشكيلاته ، وصار الضباط العـائدون مـن سـوريـا يمـلأون

---

(51) Report on Iraq Administration - October 1920 - March 1922 - P. 7.

(٥٢) هاشم الوترى ومعمر خالد الشابندر (تاريخ الطب في العراق) — بغداد ١٩٣٩ — ص ٥٠ •

(٥٣) جون فيلبي (المصدر السابق) — ص ٤٦—٤٧ •

تلك المناصب شيئاً فشيئاً • وفي الوقت نفسه أخذ مجلس الوزراء يصـدر التعيينات المتعاقبة لملء الوظائف الادارية في الالوية • وقـــد كتبت المس بيل في ٧ شباط تقول : « ان المجلس قرر عدداً من التعيينات في المناصب الادارية في الالوية ـ متصرفين وقائمقامين • وكان الكثير منهم صالحين الى حد ما • وان السر برسي يوافق على التعيينات عندما يصر النقيب ، وأظن انه مصيب في ذلك • فاننا يجب أن نجلس ونرى كيف يرتكبون الاخطاء• ان كل التعيينات تصدر من وزارة الداخلية(٥٤) » •

وفي ٢٧ شباط وافق مجلس الوزراء على الاستغناء عن الموظفين الهنود تدريجاً وتعيين موظفين عراقيين بدلاً عنهم(٥٥) • وبهذا أصبحت أبواب الوظائف مفتوحة للعراقيين ، فأسرع لاغتنامها العائدون من سوريا وتركيا، كما أسرع اليها الموظفون السابقون الذين فقدوا وظائفهم على اثر انسحاب الاتراك من العراق• وذكرت المس بيل ان السيد طالب حدثها عن الحاجة الفورية لسد افواه رواد المقاهي من الموظفين القدامى والضباط ، وقال عنهم انهم الان في فقر مدقع ولا بد من اسكاتهم بتعيينهم في وظائف حكومية • وقد وافقت المس بيل على رأيه هذا موافقة تامة(٥٦) •

والملاحظ بوجه عام ان العائدين من سوريا حصلوا على حصة الاسد من الوظائف العالية مما أثار عليهم حنق أبناء الأسر المعروفة الذين كان يحتكرون كثيراً من تلك الوظائف في العهد التركي • فلقد كان العائدون في الغالب من اسر متوسطة او فقيرة ، وقد حدث صراع خفي بينهم وبين ابناء الاسر المعروفة واستمر هذا الصراع مدة طويلة ، كما سنأتي اليه في حينـــه •

---

(54) Lady Bell (op. cit.) - P. 474.

(٥٥) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج ص ٢١ •

(56) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 192.

ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان اليهود استطاعوا ان يحصلوا على حصة كبيرة من الوظائف في ذلك الحين • ويُعزى ذلك الى سببين، اولهما : ان اليهود كانت لديهم مدارس خاصة بهم ذات مستوى تعليمي لا بأس به حيث تعلموا فيها اللغات الاجنبية ومسك الدفاتر وغيرها من المواضيع التي كانت يومذاك من الامور النادرة في العراق ، ولهذا فقد اعتبرتهم الحكومة أكفاء لتولي الوظائف التي تحتاج الى خبرة في تلك المواضيع • والسبب الثاني هو ان الانكليز كانوا يعتبرون اليهود من انصارهم والمؤيدين لحكمهم في العراق ، فساعدوهم على دخول الوظائف • ويمكن أن نضيف الى ذلك سبباً ثالثاً هو شخصية زعيمهم ساسون حسقيل الذى تولى وزارة المالية وكان الانكليز يحترمونه كثيراً ، فقد دأب هذا الرجل على ملء الكثير من وظائف وزارته وغيرها بأفراد من قومه اليهود • يقول ساطع الحصري في وصف ساسون : « لا شك أنه كان أذكى الوزراء، وأعرفهم في شؤون الحكم •• ولكن ابعدهم عن التفكير في مصالح البلاد• فان مصلحة طائفته الاسرائيلية كانت تشغل الموقع الاول في تفكيره وفي عمله[٥٧] • وحدثني رجل اثق به أنه شهد مرة مشادة عنيفة بين ساسون وعبدالمحسن السعدون حول تعيين اليهود في الوظائف ، اذ كان السعدون في أشد حالة من الحنق والغيظ تجاه الحاح ساسون وتوسطاته المتنوعة في هذا الشأن •

المرجعية الشيعية :

عند نشوب ثورة العشرين كانت المرجعية الدينية لدى الشيعة قد انحصرت في المرزا تقي الشيرازي الذى كان يسكن كربلاء • وقد ساعد هذا الرجل على قيام الثورة وقيادتها مساعدة فعالة كما هو معروف • وقد

(٥٧) ساطع الحصرى (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٥٢ •

مات في ١٧ آب ١٩٢٠ عندما كانت الثورة في عنفوانها • فانتقلت المرجعية الى الشيخ فتح الله الاصفهاني الملقب بـ « شيخ الشريعة » وكان يسكن النجف • واستمر هذا على مساعدة الثورة والاشراف عليها حتى آخر أيامها • غير انه لم يبق بعدها الا قليلا ، حيث مات في ١٨ كانون الاول من العام نفسه •

كان هناك ثلاثة مجتهدين مرشحين للمرجعية عند موت شيخ الشريعة : اثنان منهم يسكنان النجف هما السيد ابو الحسن الاصفهانى والمرزا حسين النايينى ، وواحد يسكن الكاظمية هو الشيخ مهدى الخالصي• وقد كان الخالصى اكبر الثلاثة سنا ، وكان زميلاه يعترفان بمكانته فيهم ويحترمان رأيه في كثير من الاحيان • وكان هو يمتاز عليهما بكونه عربيا من اسرة عراقية عريقة ، غير انه حصل على الجنسية الايرانية في العهد العثماني من اجل التخلص من الجندية ، على نحو ما فعل الكثيرون ، بينما ظل في ملبسه ومسلكه ولهجته عربيا عراقيا •

ويمتاز الخالصي ايضا بانه كان شديد الاهتمام بالسياسة ويعدها جزءا لايتجزأ من الدين • انه كان يعتبر الدين له ظاهر وباطن ، فظاهره العبادات والشعائر ، أما الباطن فينحصر في السعي لتخليص البلاد الاسلامية من تسلط الكفار • وقد كان يفضل حكم الاتراك على حكم الانكليز ، فاولئك مسلمون وهؤلاء كفار ، والحاكم المسلم في نظره ولو كان ظالما خير من الكافر العادل • فالخالصى بهذا يخالف رأي ابن طاووس الذى افتى به قديما وهو ان الكافر العادل خير من المسلم الظالم •

وعندما فتحت ابواب الوظائف للعراقيين فى الشهر الاول من عام ١٩٢١ أفتى الخالصي بحرمة الدخول فيها حيث اعتبرها بمثابة التعاون مع الكفار • ومن الجدير بالذكر ان فتوى الخالصى في حرمة الوظيفة لقيت

رواجا واسعا في اوساط الشيعة فصار الكثيرون منهم يرفضون الوظائف التي عرضت عليهم • ومن الممكن القول ان الانتعاش الاقتصادي الذي كان سائدا في البلاد يومذاك ساعد على تدعيم تلك الفتوى وترويجها ، اذ كان الرجل الشيعي يفضل ان يكسب المال « الحلال » في السوق على ما تدره عليه الوظيفة من مال « حرام » •

كان كوكس حريصا على ادخال الشيعة في الوظائف ، وخاصة في منطقة الفرات الاوسط والعتبات المقدسة ، ولكنه وجد امامه عقبتين تعرقلان عليه سبيله اولاهما فتوى الخالصي ، والاخرى امتناع النقيب وبعض الوزراء من قبول الشيعة في الوظائف •وقد استطاع كوكس اخيرا ان يقنع النقيب والوزراء بتوظيف عدد محدود من الشيعة ، ولكنه لم يستطع ان يقنع الخالصي بالتنازل عن فتواه •

حدثني من اثق به أن كوكس طلب من السيد جعفر عطيفه رئيس بلدية الكاظمية أن يدبر له لقاءا مع الخالصي للكلام معه ، فارتأى السيد جعفر ان من الممكن الالتقاء بالخالصي عند مجيئه الى الصحن للصلاة ، وتم الاتفاق بين كوكس والسيد جعفر على ذلك ، ووقفا معا عند باب الصحن الصغيرة التي اعتاد الخالصي ان يدخل منها الى الصحن لاداء الصلاة • ولما جاء الخالصي تقدم منه السيد جعفر قائلا : « ياجناب الشيخ ، ان جناب المندوب السامي يحب السلام عليك » • ولم يكد الخالصي يسمع باسم المندوب السامي حتى وضع عباءته على رأسه وأسرع بدخول الصحن دون ان ينبس بكلمة • ولم يستطع كوكس ان يدخل وراءه الى الصحن طبعا • وهكذا اخفقت المحاولة !

الفصل الثاني

طبخــة الملكيـــة

بعد أن أتم كوكس تشكيل أول وزارة في العراق على النحو الذى أسلفنا ذكره في الفصل الماضى أخذ يفكر في البحث عن ملك للعراق يكون ملائماً للمصالح البريطانية من جهة ويرضى به الشعب العراقي من الجهـــة الأخرى •

لقد كان العراقيون العائدون من سوريا ، وعلى رأسـهم جعفـــر العسكري ونوري السعيد ، يبثون الدعاية للأمير فيصل بـن الحســين ويعتبرونه أفضل مرشح لعرش العراق ، وكانت المس بيل تؤيدهم في ذلك وتشجعهم عليه بصورة غير مباشرة •

ومما يجدر ذكره في هذا الصـدد أن ويلسون كان أول مســؤول بريطاني يفكر بلياقة فيصل لعرش العراق • ففى ٣١ تموز ١٩٢٠ ــ أي على أثر خروج فيصل من سوريا مطروداً ــ أبرق ويلسون الى لندن يقترح عليها عرض امارة العراق على فيصل ، وينوه بمواهبه ، ويشير ضمناً الى أن خيبة فيصل في سوريا ستكون ذات أثر في نفسه يجعله اكثر ادراكاً للواقع واكثر تعقلا في معالجة الأمور(١) • وقد لقي هذا الاقتراح قبولا في لندن غير ان الساسة البريطانيين كانوا يخشون من معارضة فرنسا له •

وفي ٨ آب ١٩٢٠ فاتح وزير الخارجية البريطانية اللــورد كرزن الحكومة الفرنسية يسألها هل لديها اعتراض على تنصيب فيصل في العراق ، فردت الحكومة الفرنسية تقول انها تعترض على ذلك كل الاعتراض • وأخذ الفرنسيون يشوهون سمعة فيصل لدى لانكليز لكي ينفروهم منه ، فاتهموه

(1) Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, P. 305-306.

بأنه ذو وجهين ، وقالوا للانكليز : لا تأمنوا من فيصل فانه كان يفاوضنا سراً من وراء ظهركم في أثناء حكمه في سوريا للتعاون معنا ضد السلطة البريطانية في العراق(٢). وقال وزير الخارجية الفرنسية لرئيس الوزارة البريطانية : ان فيصل ذو اخلاق ضعيفة وانه خطر. فرد عليه رئيس الوزارة البريطانية قائلا : ان فيصل كما تصفه ولكن شيوخ العراق يريدونه ، واذا وافقت الحكومة الفرنسية على تنصيبه في العراق فان في مقدورنا الاستغناء عن السبعين ألف جندي الذين يضبطون الأمن في العراق الآن (٣) .

وفي ١١ تشرين الثاني حينما كان فيصل معتكفاً في شمال ايطاليا وصلته رسالة من اللورد كرزن يدعوه فيها لزيارة لندن ، وفي أواخر الشهر توجه فيصل الى لندن . ويروي فيصل نفسه : انه في اليوم التالي لوصوله الى لندن قام بزيارة للورد كرزن فلاحظ هذا عليه انه لم يرتد العباءة العربية التي اعتاد على ارتدائها من قبل ، فسأله : « اين هي عباءتك الحلوة ؟ » فأجابه فيصل : « انهم شلحوني بلادي يا حضرة اللورد ، فشلحت عباءتي » . فقال كرزن : « بل ستلبس أحسن منها » . ففهم فيصل من هذه العبارة انهم سيعوضوه عن عرش سوريا بعرش العراق(٤) ...

يمكن القول على أي حال ان الحكومة البريطانية ظلت مترددة في أمر فيصل خشية من غضب فرنسا عليها ، فكانت تقدم خطوة وتؤخر أخرى . وفي ٢٦ كانون الاول وصلتها من كوكس في بغداد برقية يقول فيها ان فيصل أليق شخص لحكم العراق ، وأن اعتراض فرنسا عليه يمكن ان يعالج على وجه من الوجوه(٥) . وقد أثرت هذه البرقية على الحكومة البريطانية وكانت

(٢) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ بيروت ١٩٧٠ ــ ص ٥٧٥ .
(3) Elie Kedourie (Chatham House Version) - London 1970 - P. 240 .

(٤) خيرية قاسمية (عونى عبدالهادي) ــ بيروت ١٩٧٤ ــ ص ٥١ .
(5) Ghassan Atiyyah (Iraq) - Beirut 1973 - P. 364.

عاملا اضافيا زاد في ميل الحكومة نحو فيصل •

وفي ٧ كانون الثاني ١٩٢١ أرسل كرزن الميجر كورنواليس الى فيصل لمفاتحته في الأمر بصورة غير رسمية • وكان كورنواليس على صلة وثيقة بفيصل في الشام حيث نشأت بينهما منذ ذلك الحين صداقة شخصية • وقد أوصاه كرزن ان يكون حديثه مع فيصل متضمناً شرطين ، أولا أن يقبل فيصل بالانتداب البريطاني ، وثانياً أن يتجنب أي عمل عدائي ضد فرنسا في في سوريا • وكذلك أوصاه كرزن بان يوضح لفيصل بأنه يجب أن يتظاهر أمام الناس بأنه مستقل وليس ألعوبة بيد الحكومة البريطانية (٦) •

تمت المقابلة بين كورنواليس وفيصل في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل على أثر عودته من دار التمثيل ، واستمرت ساعتين (٧) ، والظاهر أنها لم تكن ناجحة • فقد قال فيصل ان أباه الملك حسين لا يقبل بترشيحه لعرش العراق بل يريد ابنه الآخر الأمير عبدالله ، وأنه ــ أي فيصل ــ لو قبل بعرش العراق لظنه والده وظنه الناس جميعا بانه أناني يسعى لمصلحته الخاصة بالتعاون مع بريطانيا ، وأنه يطلب عرشاً على حساب أخيه • وقد كتب كورنواليس تقريره عن المقابلة وقال في ختامه ان هناك طريقين مفتوحين لحل مشكلة العراق هما : أن يذهب عبدالله الى العراق ، أو يسعى كوكس نحو جعل العراقيين ينتخبون فيصل بشكل هادىء غير ظاهر • ويقول كورنواليس ان الطريق الأول أسهل ، ولكن الطريق الثاني أنفع لان فيصل أفضل من أخيه عبدالله كثيراً وأنه سوف يخدمنا باخلاص وكفاءة (٨) •

كلف لويد جورج اللورد ونترتون بمحاولة أخرى لاقناع فيصل ، وكان ونترتون صديقاً شخصياً لفيصل ، فدعاه الى بيته ودعا معه جبرائيل

(6) Ibid, P. 365.

(٧) فيليب آيرلاند (العراق) ــ بيروت ١٩٤٩ ــ ص. ٢٤١ •

(8) Ghassan Atiyyah (op. cit.) - P. 363 - 366.

حداد باشا ممثل الملك حسين في لندن ، كما دعا لورنس وآخرين • وتداول هؤلاء الحديث مع فيصل ساعات طويلة بغية اقناعه ، واستمرت الجلسة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل • وقد انتهز فيصل الفرصة فأخذ يوجه نقدا مرآ على المعاملة الغاشمة التي عامله بها الفرنسيون والبريطانيون معاً ، وبدرت منه ملاحظات جارحة عن أخلاق البريطانيين بوجه عام (٩) • وأخيراً رضي فيصل بقبول عرش العراق على شرط اقناع أخيه عبدالله بالتنازل عن حقه في ذلك العرش •

وفي ١٤ شباط ١٩٢١ انتقل تشرتشل من وزارة الحرب الى وزارة المستعمرات ، فأصبح بذلك مسؤولا عن حل مشاكل الشرق الأوسط • وقد أسس تشرتشل في وزارته الجديدة دائرة خاصة بالشرق الاوسط وجعل صديقه لورنس مستشارا له فيها • ثم قرر تشرتشل عقد مؤتمر في القاهرة للنظر في قضايا الشرق الاوسط بوجه عام ، وقضية العراق بوجه خاص • وسافر تشرتشل الى القاهرة لحضور المؤتمر مستصحبا معه لورنس • وقد بدأ المؤتمر في ١١ آذار وحضره من العراق السر برسي كوكس والجنرال هالدين والمس بيل وجعفر العسكري وساسون حسقيل وثلاثة من المستشارين البريطانيين هم سليتر وايدي واتكنسن • وتم الاتفاق في المؤتمر على نفس الرأي الذى كان قد تقرر في لندن من قبل وهو أن فيصل هو الشخص الملائم لعرش العراق واقترح لورنس أن يتولى سلاح الطيران زمام السيطرة على البلاد بدلا من جيش الاحتلال الذي هو كثير النفقات ، فوافق المؤتمر على ذلك •

وفي ١٦ منه ـ بينما كان المؤتمر لايزال منعقداً ـ وصلت برقية الى تشرشل من لويد جورج يذكره فيها بموقف فيصل من عرش العراق وكيف أنه لايقبل به الا بعد تنازل أخيه عبدالله عنه (١٠) • فتعهد تشرشل بأنــه

---

(٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٨٠ •
(١٠) المصدر السابق ـ ص ٥٩٤ •

سيذهب بنفسه ومعه لورنس لاقناع عبدالله بالتنازل •

اقناع عبدالله :

كان الأمير عبدالله قد وصل الى منطقة شرق الاردن في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ قادماً من الحجاز ومعه قوة صغيرة من البدو وثلاثة ضباط عراقيين [١١] ، وأعلن أنه جاء استجابة لصرخات الاستغاثة التي أرسلها زعماء سوريا الى أبيه وانه عازم على تحرير سوريا وانقاذها من الفرنسيين المعتدين والأخذ بثأر أخيه منهم • وأخذ الكثير من رجال سوريا وزعمائها الذين هربوا منها يتوافدون عليه ، وصار في نيته ان يؤلف منهم حكومة منفى ، ثم نشر بياناً الى السوريين عموماً قال فيه : « كيف ترضون ان تكون العاصمة الأموية مستعمرة فرنسية ؟ ان رضيتم بذلك فالجزيرة لاترضى وستأتيكم غضبي ، وان غايتنا الوحيدة هي كما يعلم الله نصرتكم واجلاء المعتدين عنكم ، وها انا أقول ولا حرج بانني قبلت تجديد بيعة مليككم فيصل الاول عن الاكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة على يدى ••• » [١٢] •

كانت منطقة شرق الاردن في ذلك الحين لايتجاوز عدد سكانها ثلث المليون ، ولم تكن فيها حكومة مركزية بل كان فيها بضع حكومات محلية صغيرة على النمط العشائرى ، وكان لكل واحدة منها مستشار انكليزي • ولم يفعل المستشارون شيئاً تجاه حركات عبدالله مما جعل الناس يظنون ان بريطانيا راضية عنها او هي من تدبيرها •

وفي آذار ١٩٢١ كان الأمير عبدالله قد استقر في عمان • فبلغه ان الحكومة البريطانية تنوي نصب أخيه فيصل ملكا على العراق فانزعج من ذلك وغضب • يقول عوني عبدالهادى الذي كان من حاشية الامير عبدالله

---

(١١) ان الضباط العراقيين الثلاثة هم حامد الوادي ورؤوف الشهـواني وسعيد الكلاك •

(١٢) خير الدين الزركلي (عامان في عمان) ـ القاهرة ١٩٢٥ ـ ص ١٦ •

في ذلك الحين : « فهاج الامير عبدالله وماج ، وفتح صدره لجميع زائريه ومن في معيته ، وقذف الشرر والنار على فيصل الذي وافق على الترشيح لعرش العراق ، وأصر على أن يناقش هذا الموضوع مع المستر تشرشل لان العرش عرشه ولا يسمح بالتنازل عنه » ويضيف عوني على هذا قائلا : « وقد ألححت على سموه أن لا يبحث موضوع عرش العراق مع الوزير البريطاني • وكان سموه يثور ويغضب ويردد من حين الى حين : كيف يمكنني السكوت على ضياع عرش أقرته لي الامة العربية »[١٣] •

ويروى خيرالدين الزركلي : ان الامير عبدالله استدعاه في تلك الايام ، وقال له انه غير واثق من أن أخاه فيصل سيقبل عرش العراق ، ثم أورد أدلة على انه صاحب العرش الشرعي ، وان من يتعرض له لا يكون الا غاصباً ، ثم قال وهو هائج : « الا تكتب لنا سلسلة مقالات في الموضوع ياخيرالدين» • ويقول الزركلي انه أصبح في موقف حرج وأخذ يسأل نفسه: هل يمكن أن تعود في العراق قضية الامين والمأمون مرة أخرى ، وهل نأتي الى الناس باضحوكة جديدة هي تزاحم الاخوين على عرش مصنوع في لندن[١٤] ؟

وبعد أيام قليلة استدعي الامير عبدالله الى القدس لمقابلة تشرتشل ، وعندما كان الأمير ماراً ببلدة السلط في طريقه الى القدس استقبله لورنس ، فباتا معاً هنالك ، وأخذ لورنس يحدث الامير لاقناعه بالتنازل عن عرش العراق ، حيث قال له : انك معروف بتضحية مطامحك الشخصية من أجل الامة ، ولهذا يجب عليك ان تبقى في شرق الاردن لتؤسس فيها ادارة مدنية سالمة من أي عنف في مراميها السياسية ، واذا نجحت في ذلك فانك ستظفر بعد ستة أشهر بوحدة سوريا ان شاء الله ،

---

(١٣) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص٤٤ •
(١٤) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ص ٤٦ •

وسوف نزورك عند ذاك في دمشق لتقديم التهاني لك[١٥] .

وفي ٢٩ آذار تم اللقاء في القدس بين الامير عبدالله وتشرتشل ، وحضره لورنس ، وعوني عبدالهادي ، والمندوب السامي لفلسطين السر هربرت صموئيل ، وسكرتيره وندهام ديدس . وقد أعطانا عوني عبدالهادي في مذكراته صورة مفصلة عن ذلك اللقاء نقتطف منه مايلي :

بعد ان رحب تشرتشل بالامير تحدث فوراً بحديث تظهر عليه الشدة حيث قال : « انه عند وصوله الى القاهرة فوجيء بوجود الامير في عمان ، وقد استولت عليه الدهشة حين بلغه أن الامير يريد ان يسترد بقوة السلاح المناطق التي كان يحكمها فيصل ، مع أن الامير لا يجهل ان فرنسا هي حليفة بريطانيا وان أي اعتداء على فرنسا يعتبر اعتداءا على بريطانيا نفسها . ثم ارتفع صوت تشرتشل واشتدت لهجته قائلا : « انه لايريد أن يتصور أن يقع مثل هذا الاعتداء من بعض آل هاشم حلفاء بريطانيا .. ويسر الحكومة البريطانية أن تعمل بتفاهم تام مع آل هاشم في جميع المجالات السياسية والدولية ، غير انها تريد أن تعمل معهم جميعهم وليس مع بعضهم . واني سأكون صريحا مع سموكم الى أبعد حدود الصراحة ، فقد صممت الحكومة البريطانية أن تعمل مع آل هاشم جميعهم أو لا تعمل مع أحد منهم » . ثم قال تشرتشل بلهجة حازمة : « ان فيصل أبحر من لندن وهو الآن في طريقه الى القاهرة وسيذهب بعد زيارته لوالده الى بغداد حيث ينصب ملكا على العراق ، واني أعرف أن فيصل سيلاقي مشاغبين يعملون ضد انتخابه للعرش ولكن فيصل سيجلس على عرش العراق ، وان هذين الكتفين ــ وأشار بيديه الى كتفيه اليمنى واليسرى ــ سيتحديان هؤلاء المشاغبين » .

---

(15) Suleiman Mousa (Lawrence) - London 1967 - p. 240.

وقعت هذه الكلمة على الأمير وقع الصاعقة ، وأراد أن يغير موضوع الحديث فقال : « ولكن ياسعادة الوزير ان الامر الذي يهم العرب قبل كل شيء هو فلسطين ، فقد علمت ان اليهود طامعون فى اقامة دولتهم اليهودية فى هذه البقعة العربية الغالية وطرد العرب منها ، والعرب كما أشرتم حلفاء بريطانيا العظمى ، فهل تعتبر الحكومة البريطانية العرب فى فلسطين بمثابة أشجار يجوز قطعها » • وهنا اقترب صموئيل من تشرتشل وهمس فى اذنه يستأذنه فى جواب الامير ثم قال : « ليس من سياسة الحكومة البريطانية يا سمو الامير قطع أشجار فلسطين ولكن بالعكس انها مصممة على زيادة أشجارها بأنواع اخرى تزيد من قيمتها » •

وهنا نظر الأمير الى تشرتشل بنظرات العتاب ، ثم أخذ يتكلم عن مساعيه الماضية فى عقد الحلف بين بريطانيا والعرب ، اذ هو كان صاحب الفكرة وأول من سعى لتحقيقها ، وهو كان كذلك الوسيط بين لورنس وفيصل ، ثم كانت النتيجة ان فضلت الحكومة البريطانية غيره لتولي عرش العراق ، ولو كان هذا الغير أخوه فيصل • ثم قال الأمير : « لقد حز هذا الايثار في نفسي ولاسيما ان العراقيين الذين مثلوا العراق في المؤتمر السوري المعقود في سنة ١٩٢٠ هم الذين نادوا بي ملكا على العراق ، ولقد أدهشني ياسعادة الوزير قولكم بأن أخي فيصل قد أبحر من لندن في طريقه الى العراق ليعتلي العرش وقلتم ان بعضهم سيقوم بمشاكسته وان كتفيك سيتحملان تلك المشاكسة ، وربما حسبتموني في عداد هذا البعض• واني معاذ الله أن اعمل ما لا يتفق مع سياسة الحكومة البريطانية ••»

وعند هذا أخذ تشرتشل يلطف من حدته ، واعترف بما قام به الامير من خدمات في أثناء الحرب ثم قال : « واذا كانت الظروف الحاضرة قد اقتضت أن يعتلي أخوك عرش العراق فقد لا تكون بعيداً أن تعتلي أنت — وربما كان ذلك قريبا — عرش سوريا ، ومن الجائز خلال هذه السنة •

واني سأبذل كل جهودي لازالة سوء التفاهم الآن بينكم وبين فرنسا ، الأمر الذي يساعد على اعادة المياه الى مجاريها بينها وبينكم ، ولما كانت فرنسا لا ترغب في ايجاد أية علاقة مع فيصل فان الطريق تصبح ممهدة لسموكم في هذه الحالة • واني احذر سموكم من السماح لأي شخص أو هيئة بالاعتداء على سوريا من حدود المنطقة التي أرغب في أن تتولى سموكم الحكم فيها مؤقتاً ••• أقول حكم سموكم المؤقت ، لانه لابد من موافقة حكومتي على السياسة التي ستطبق في هذه المنطقة وكذلك موافقة شعوب المنطقة عليها ، مما يقتضي التريث حتى يتم الاتفاق النهائي خلال الشهور الستة القادمة »[١٦] •••

وافق الأمير عبدالله على خطة تشرتشل ، وهو يقول في مذكراته ان تشرتشل هدده قائلا : « انكم ان لم تفعلوا هذا ستضيعون كل شيء ، وان في امكان ابن سعود أن يصل الى مكة في ثلاثة أيام ، وان انكلترا عملت ما تستطيع ••• » • ثم يقول الأمير انه شاور الزعماء السوريين الذين كانوا معه في هذا الموضوع فوافقوا عليه بالاجماع • ولهذا تم الاتفاق على أن يزور السر هربرت صموئيل عمان لوضع الاساس للادارة المدنية المطلوبة[١٧] •

حسرات عبدالله :

كان فيصل قد غادر لندن بحرا في ٣١ آذار ١٩٢١ متوجهاً الى الحجاز ، فمر في طريقه بالقاهرة ومكث فيها بضعة أيام حيث نزل في فندق شبرد • فأرسل اليه عبدالله من عمان عوني عبدالهادي يحمل رسالتين احداهما له والاخرى لوالده • ويقول عوني في مذكراته : ان فيصل بعد أن قرأ الرسالتين علق عليهما قائلا : « يعتقد أخي اني اغتصبت منه عرش العراق •

---

(١٦) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٤٦ ـ ٤٨

(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ـ ص ١٨٠ ـ ١٨٢

واني مزقت القرار الذي أصدره العراقيون في المؤتمر السوري ، ولقد بلغني كل ما كان يقوله عني ، وكنت أقول دائماً سامحه الله ...» . وأخذ فيصل يحدث عوني كيف ان البريطانيين أرادوا اسناد عرش العراق اليه وكيف انه لم يوافق على ذلك وأراد العرش لاخيه عبدالله ، ولكن البريطانيين أصروا عليه اصراراً . ثم يقول عوني : انه عند عودته الى عمان حاول اقناع عبدالله بالرضا بما تم من أمر اسناد عرش العراق الى فيصل ، فكان جوابه : « اني أعرف أخي يا عوني ، فلقد سبق أن اعتلى عرش سوريا فأصبح رأساً لدولة ، ولا يحلو له في الحياة بعد ذلك غير اعتلاء العروش . ان أخي فيصل لا يختلف عن بقية رؤساء الدول في هذا الشأن ، فلقد علمنا التاريخ ان كل من أصبح من العرب رأساً لدولة أصر على بقائه رأساً ولو كان في ذلك هلاكه . ولهذا فضل أخي اعتلاء عرش العراق ولو كان هذا العرش من حق أخيه وليس لي هنا الا أن أطلب له السماح من الله » .

ويقول عوني : انه حين ذهب الى القاهرة مرة اخرى وأبلغ فيصل تحيات أخيه قال له فيصل : « ... انى أعرف أخي عبدالله واني أشعر بما يعانيه من ألم لفقد عرش العراق ، واني متأكد من أنه لن ينسى ضياع هذا العرش منه ، وان حقده عليّ من أجل هذا العرش لن يزول بسهولة ... وقد أشار الى ذلك اشارات واضحة تضمنه خطابه الذي حملته اليّ وقرأته عليك ... »[18] .

ظل عبدالله متألماً لضياع عرش العراق منه . وقد اشتد ألمه عندما اتضح له عجز الانكليز عن تحقيق وعدهم له بعرش سوريا . ويروى ساطع الحصري قصة طريفة في هذا الصدد هي : ان أربعة من الضباط العراقيين الذين خرجوا من سوريا ذهبوا الى عمان ومكثوا فيها فترة من

---

(١٨) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٥٠ ـ ٥٣ .

الزمن • فكانوا اذا حضروا مجلس الامير عبدالله كان هو يتكلم فى كل مناسبة عن حقه فى عرش العراق ويقول « والدي طلب مني أن اتنازل عن حقي ، ولكني لم ألب طلبه ، لم أتنازل ، ولن اتنازل ، عن حقي في عرش العراق • سأحتفظ بحقى ولو للتاريخ » ، وكثيرا ما يكرر عبارة « للتاريخ•• للتاريخ » • وكان يطلب من الضباط العراقيين بعض التفاصيل عن العراق، وكلما سمع منهم مدحا للعراق كان يزداد تحسرا وتأوها ، ويعاود الحديث عن حقه في عرش العراق ، ويصرح بعزمه على عدم التخلي عن حقه هذا والتمسك به ، ولو للتاريخ • وقد دفعت كثرة تحسره على العراق أحد الزعماء السوريين الذين كانوا موجودين هناك أن يقول للضباط العراقيين: « جوزوا بقى عن مدح العراق ، خلوا الرجل يشتغل هنا ••• » ، ويقول ساطع الحصري : ان احاديث عبدالله عن حقه في عرش العراق شاعت كثيرا حتى انعكست على صفحات الجرائد ، وحتى ان احدى الجرائد التركية اتخذت ذلك ذريعة للطعن بالثورة العربية[١٩] •

والغريب ان عبدالله لم ينس حقه في عرش العراق حتى بعد موت فيصل • يحكى انه حضر الى العراق بعد موت فيصل فأقيمت له حفلة وانشد فيها أحد الشعراء قصيدة في مدحه كان منها هذا البيت :

تنازل عن عرش العراق تكرماً
وأكرم من عرش العراق تنازله

فلما سمع عبدالله هذا البيت ظهر عليه الغضب وقاطع الشاعر قائلا : « اخسأ لم اتنازل ولن اتنازل » •

---

(١٩) ساطع الحصري (مذكراتي فى العراق) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ج١ ص ٢٤ ـ ٢٥ •

نشاط السيد طالب :

كان السيد طالب في بغداد قد أحسّ بأن الرياح تمشى ضده وان الانكليز لايريدونه • وقد ازداد احساسه هذا عند تشكيل الوفد الـذى سافر الى مؤتمر القاهرة ، فهو لم يدع للاشتراك في الوفد بينما اشترك فيه ساسون خضورى وجعفر العسكرى والمس بيل وهم غير ميالين اليه • كتبت المس بيل فى رسالة لها مؤرخة في ٢٤ شباط ١٩٢١ ـ على اثر مغادرتهـا بغداد مع الوفد في باخرة نهرية ـ فقالت مانصه :

« نحن مغادرون ••• جعفر وساسون افندى سعيدان لاشتراكهما فى الوفد • ولكن السيد طالب من الجهة الاخرى ممتعضا كل الامتعاض لعدم اشتراكه في الوفد • وقد تناولنا معه طعام العشاء في الليلة التى غادرنا بغداد في صباحها ، وكنت جالسة بجانبه واخذت اشجعه على الكلام • وعندما دارت كؤوس الويسكى همس في أذني بنبرة ثملة حزينة حيث قال انه كان دائما يعتبرني بمثابة اخته ، ويطيع نصيحتي ، وهـــو الآن يعدني معتمده الوحيد ومستنده » • وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : « ولما كنت أشعر بعمق ان مطامحه سوف لا ولن تتحقق ، فقد صرت أتمتم له ببعض العبارات الودية التى لا لون لها »[٢٠] •

انتهز السيد طالب فرصة غياب كوكس عن العراق أثناء اشتراكه في مؤتمر القاهرة ، فصار يبذل جهودا كبيرة وينفق أموالا طائلة للدعوة الى نفسه ، وكان شعاره في ذلك : «العراق للعراقيين»• ذكر سليمان فيضى في مذكراته ، وكان يومذاك حاكما في بغداد ، ان السيد طالب زاره في المحكمة وطلب محادثته على انفراد وقا له : « انى عزمت على ترشيح نفسي لعرش العراق ، ونظرا لما اعهده فيك من محبة لي أرجو ان تبث لي الدعاية في الاوساط القضائية وتحمل الحكام والمحامين وطلاب الحقوق وموظفي وزارة العدلية على التصويت بجانبي » • ولما ذكر له سليمان ان مسعاه ســيبوء

(20) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol 2, P. 209.

بالفشل قال السيد طالب: «انك واهم فالمستر فيلبي في جانبي، وقد تعهد لي ببذل أعظم الجهود • انه وعدني باقناع السر برسي كوكس الذى لايزال متردداً في أمر الملك الجديد ، وبحمل المس بيل على التخفيف من تحمسها للامير فيصل ، ثم انه كتب الى الحكام السياسيين فى الالوية الجنوبية يوصيهم ببذل المساعدة لي • لذلك عزمت على الطواف فى تلك الالوية ، والقيام بدعاية انتخابية واسعة هناك • فأرجو منك ان تقوم بالدعاية في الميدان الذى اخالك متنفذا ومحبوبا فيه » •• ولما يئس السيد طالب من اقناع سليمان فيضي خرج من عنده غاضبا[٢١] •

ويروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته : انه بينما كان جالسا في مجلس عبدالعزيز الزئبق في عصر احد الايام اذ دخل المجلس السيد ابراهيم الشواف وأخوه علي وبيدهما مضبطة تتضمن الطلب من المندوب السامي بتعيين السيد طالب حاكما على العراق ، وقد اعترض القصاب على المضبطة ، ثم تداولها الحاضرون دون ان يوقعوا عليها • وضرب القهواتي رأسه بيده ثم قال متهكما « ليش هذا تعيين مختار محلة » • فضحك الحاضرون »[٢٢] •••

وفي ٨ آذار بدأ السيد طالب جولته في الالوية الجنوبية التى استغرقت ثلاثة عشر يوما • وكان يصحبه فيها زمرة من اصحابه المؤيدين له كسالم الخيون وعبدالرزاق المير وعبود الملاك واحمد الراوى وشاكر النعمة واحمد السالم • وقد بذل السيد طالب فى جولته مبالغ طائلة من المال ، وكان انصاره يقيمون له فى كل بلدة استقبالا فخما وولائم كثيرة ، وكان هو يخطب في الناس يحبب نفسه اليهم ويبشر بالمبادىء التى توافق معتقداتهم

---

(٢١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص٢٦٢ ـ ٢٦٣ •

(٢٢) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص٢٠٧ ـ ٢٠٨ •

وميولهم . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ان بعض العشائر اطلقت هوسة في استقباله هي :

ثلـث لله وثلثـين لطالـب
وثلث الله يطالب به طالب

وفي خلال جولته أخذ السيد طالب يعلن للناس انه سيبذل كل جهده لاطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين الذين ساهموا في ثورة العشرين . وعندما مر بالحلة زار المعتقلين فيها وطمأنهم بقرب الافراج عنهم . وكانت خطبته في النجف نموذجية في هذا الشأن حيث ضرب بها على اوتار القلوب ننقل فيما يلي نبذة مما قاله هناك :

« ... رأيت من الواجب عليّ أن استمد من افكار وآراء الرجـال الخيرين والعلماء المجتهدين .. عما يلزم العمـل به لاحياء مآثر الدين القويم والتماس سبل الحضارة والتقدم لوطننا المشترك ولا سيما النجف الاشرف وكربلاء .. وانى قد سعيت بادىء الامر بتأدية اول واجب عليّ قبل الامور التمهيدية وهو اعادة المنفيين جميعا والعفو عن المجرمين واعادة اخوانى العراقيين المهاجرين فى سوريا والبلاد الاخرى غير أن أملي الوطيد يجعلنى حسن الاعتقاد بحضرات مؤيدى الشريعة الغراء وهممهم العالية .. وادعو الله بحرمة اجدادى الطاهرين ولا سيما جدى الاعظم سيدى ومولاى امير المؤمنين عليه السلام الذى اعاهدكم على تحقيق آمالكم امام حضرته المقدسة .. واني قد عينت لكم متصرفا عاقلا اديبا حازما وقائممقاما ذا خبرة وتجارب فيسرنى إذا كاشفتموهما فى جميع ما يهمكم ليرفعا لي عما يجب العمل به في مختلف الشؤون . وأبشركم أن حضـرة رئيس الوزارة الحاضرة صاحب السمو حضـرة نقيب اشـراف بغداد سيدى السيد عبدالرحمن افندى اعرب لي عظيم اعتماده عليكم وثقته العظيمة بذواتكـم وقد كلفني بابلاغ عطفه وتوجيهاته نحوكم جميعا بصورة خاصة»[٢٣] .

---

(٢٣) حسين هاذي شيلاه (طالب النقيب) ـ رسالة جامعية غير مطبوعة ـ ص٢٥٨ ـ ٢٦٠ .

استدعاء الرصافي :

كان الرأى العام في بغداد آنذاك منقسما الى فريقين : أحدهما يدعو الى مبدأ «العراق للعراقيين» وزعيمه السيد طالب كما اسلفنا ، والثانى يدعو الى أختيار احد ابناء الملك حسين لعرش العراق • وكان هذا الفريق الثانى يُطلق عليه اسم « الحزب الشريفي » •

كان الفريق الاول يضم في الغالب ابناء الاسر العريقة والمبالين للاتراك، وهم الذين يُطلق عليهم في أيامنا اسم « الرجعيين » • أما الفريق الثانى ، اي الحزب الشريفي ، فكان يضم معظم الذين شاركوا في ثورة العشرين، ودعاة القومية العربية • وكانت القومية تعتبر في تلك الايام حركة تقدمية• تقول المس بيل في رسالة كتبتها بعد عودتها من مؤتمر القاهرة :

« أن الاعيان المتعالين بانتمائهم الطبقى الرفيع كرهوا ان يروا الشبان الذين حكموا سوريا تحت رئاسة فيصل ــ وهم في الغالب ممن لاينتمون الى عائلات معروفة ــ قد يحكمون العراق أيضا • فأن تفكير الاعيان لاينطبق مع تفكير هؤلاء الشبان الذين هم تقدميون جدا ولهم استعداد للتحدث علنا وباستمرار في وجوب التخلص من الرجعيين الشيوخ وادخال افكار جديدة ••• »(٢٤)

ومن الجدير بالذكر ان النقيب عبدالرحمن الكيلانى كان يؤيد الفريق الاول • فهو بحكم تفكيره الطبقي يمقت الشبان الثوريين الذين ظهروا للوجود وهم من أسر غير عريقة • وكان بالاضافة الى ذلك يمقت الاسرة الهاشمية • وقد أعلن عن رأيه هذا بصراحة الى المس بيل في عام ١٩١٩ حين قال لها : « أفضل ألف مرة عودة الترك الى بغداد على ان ارى الشريف أو ابناءه ينصب احدهم هنا »(٢٥) •

---

(24) Burgoyne (op. cit.) - Vol. 2, P. 212

(٢٥) المس بيل (من تاريخ العراق القريب) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص٤٨٠ •

وفي يوم من تلك الايام اجتمع زعماء الفـــريق الاول ، وكان على رأسهم النقيب والسيد طالب وحكمت سليمان وتوفيق الخالدى ، وقرروا اصدار جريدة تنطق بلسانهم على ان يكون الشاعر معروف الرصافى رئيسا لتحريرها • وقد كان الرصافي يومذاك في مدينة القدس يدرس آداب اللغة العربية في دار المعلمين فيها ، فأبرق حكمت سليمان اليه يستدعيه الى بغداد، كما ابرقت الوزارة الى المندوب الســـامى فى فلسطين تطلب منه تسفير الرصافي على حسابها • وعلى هذا سافر الرصافي الى القاهرة فى انتظار باخرة تنقله من السويس • وقد التقى الرصافي ببعض اعضاء الوفد الذين حضروا مؤتمر القاهرة • وحين علم كوكس بان الرصافى ذاهب الى بغداد اقترح عليه ان يسافر معهم في نفس الباخرة • ولم يكن كوكس يدرى ان الرصافى ذاهب الى بغداد من أجل هدف معاكس للهدف الذى تقرر فـي مؤتمر القاهرة •

يقول الرصافي في مذكرات له : « ولما وصلت الى بغداد وواجهـت النقيب عبدالرحمن افندى علمت بعد ذلك انهم يريدون معارضة فيصـل باعتبار (العراق للعراقيين) » ، ثم اجتمعنا عند النقيب مع السـيد طـالب، وأنا كنت من جملة المؤيدين لهذه الفكرة ، وقد اقترحت عليهم ـ بعـد أن تداولنا في الموضوع مليا ـ أن هذا العمل واقصد عمل الدعاية لايمكن ان يقوم الا على المال ، فقلت لهم ان ذلك لا يمكن أن يكون بأقل من مائة ألف ليرة عثمانية • فاستعظم النقيب هذا المبلغ ثم قال طالب باشا انه مستعد لوضع ضعف المبلغ الذى يضعه النقيب • ولم يسفر الاجتماع عن اتفاق في الرأي وانقضى على ان نجتمع مرة أخرى ، فاتصلت بتوفيق الخالدى ـ الذى كان حاضرا في الاجتماع ـ وقال لي اننا سوف نذهب سوية بباخرة صغيرة أنا وانت وطالب باشا وهناك نتذاكر في الموضوع • ولكن قبل ان يحصل هذا الاجتماع نفى الانكليز السيد طالب باشا ••• »[٢٦]

---

(٢٦) مجلة « الثقافة الجديدة » في عددها الصادر في نيسان عام ١٩٥٤•

وصل كوكس الى بغداد في ٩ نيسان ، غير أنه لم يعلن عما تقرر في مؤتمر القاهرة من اختيار فيصل، بل ترك الناس يتجادلون ويتناقشون حول المرشحين المتنافسين على العرش ، وظل هو يتفرج عليهم كأنه لاشأن له في الامر • وفي ١٢ نيسان اذاع كوكس بيانا حول الامور التي بحثها مؤتمر القاهرة فأشار الى مسألة تقليص النفقات العسكرية ، ومســـائل الامن الداخلي ، وحماية الحدود ، واصدار العفو العام ، ولكنه لم يتطرق اطلاقا الى موضوع اختيار فيصل الذى كان في الواقع أهم مابحثه المؤتمر مــن أمور •

كان فيلبي قد كتب قبل وصول كوكس مذكرة يحتج فيها على ما اشيع من اختيار فيصل في مؤتمر القاهرة ، ويذكر اضطراره الى الاستقالة من منصبه اذا صحت تلك الاشاعة ، لان ذلك في نظره يخالف الوعــود البريطانية السابقة في ترك العراقيين أحرارا يختارون لانفسهم من يشاؤون• وقد قدم فيلبي هذه المذكرة الى بونهام كارتر الذى كان يتولى منصــب المندوب السامي بالوكالة • فأيده بونهام كارتر على وجهة نظره • ولمــا وصل كوكس عرض عليه كارتر المذكرة ، ثم جاء فيلبي لمواجهته ، فكان جواب كوكس له : " ان الحكومة البريطانية لاتنوى النكول عن وعودهـا لاهل العراق "(٢٧) • والظاهر ان فيلبي اقتنع بهذا الجواب وخرج مطمئنا لايدري ماذا يخبىء له ولصاحبه القدر !

ترك كوكس فيلبي حرا في نشاطه للدعوة الى السيد طالب، كماترك المس بيل من الجانب الآخر حرة في نشاطها للدعوة الشريفية • ووقـف كوكس بين الاثنين موقفا قريبا من الحياد ، او كما وصفه هو بـ « الحياد

---

(٢٧) جون فيلبي (أيام فيلبي في العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٥٠ ـ ص ٥١ •

الودى » • فكان اذا جاء اليه الناس يسألونه عن رأيه قال لهم : ان الحكومة البريطانية تؤيد ترشيح أمير شريفي للعراق ولكن الناس احرار في قبوله او رفضه • وفي الوقت نفسه أبرق كوكس الى حكومته يحذرها من فرض فيصل على العراقيين ناصحا لها ان تترك فيصل يتولى بنفسه اقناع العراقيين عند وصوله اليهم بأنه هو الرجل الذى يليق بعرشهم(٢٨) •

يمكن القول من الناحية الاجتماعية ان كوكس كان فى موقفه هذا داهية من الطراز الاول ، فلو انه أعلن للناس رغبة الحكومة البريطانية باختيار فيصل لحصل من جراء ذلك رد فعل في أوساط الوطنيين وربما أدى ذلك الى اضعاف الحزب الشريفي أو تحطيمه •

يجب ان لاننسى ان الوطنيين كانوا قبل قيام الثورة ، وفي أثنائها ، يطالبون باختيار أمير شريفي لعرش العراق ، وهم انما فعلوا ذلك تحديا للسلطة الانكليزية التى كانت يومذاك غير راغبة في ذلك ، ولو انالسلطة كانت راغبة في هذا الاختيار وتدعو اليه لكان جواب الوطنيين على الضد من ذلك طبعا •

ان هذا سر من اسرار المجتمع العراقى والظاهر ان كوكس أدرك فحوى هذا السر ، واراد ان يتجنب الغلطة التى وقع فيها سلفه ويلسون • ولهذا وجدناه يتظاهر بالحياد مع العلم انه كان مأمورا من حكومته على نصب فيصل ملكا ، على اي حال •

السيد طالب يهدد :

كان السيد طالب قد اعتاد فى ايامه الاولى في العهد التركى انيستخدم اللطف والتملق في نيل مطالبه فاذا وجد ذلك غير مجدي لجأ الى التهديد، وقد يلجأ احيانا الى الفتك وسفك الدماء عندما يفشل التهديد • وقد نجح

(28) Graves (Sir Percy Cox) - London, second impression - p.287.

السيد طالب في طريقته هذه نجاحا كبيرا • ويبدو انه أراد ان يتبع الطريقة نفسها مع الانكليز ناسيا ان الانكليز غير الاتراك وان كوكس يختلف عن الوالي التركي اختلافا كبيرا •.

في شهر نيسان ١٩٢١ وصل الى بغداد السر برسيفال لاندون المندوب الخاص لجريدة الديلي تلغراف اللندنية ، وكان هذا الرجل يعرف العربية، فقرر السيد طالب انتهاز الفرصة لالقاء كلمة تهديد للانكليز ، فأقام وليمة عشاء فخمة فى بيته احتفاء بلاندون •

اقيمت الوليمة في مساء ١٣ نيسان ، وحضرها القنصل الفرنسي ، والقنصل الايراني ، وآرثر تود مدير شركة لنج وزوجته ، والشيخ محمد الامير رئيس عشيرة ربيعة ، والشيخ سالم الخيون رئيس عشيرة بنى اسد في الجبائش ، وآخرون • وقد اعتذر فيلبي عن حضور الوليمة كأنه ادرك بأنها ستكون ذات خطورة من الناحية السياسية ولم يحب ان يتورط فيها • أما حسين أفنان فقد حضر الوليمة ليترجم الكلمة التى سوف يلقيها السيد طالب الى الانكليزية •

لدينا تقريران عما جرى فى الوليمة أحدهما ورد فى مذكرات فيلبي والاخر ورد فى كتاب غريفز الذى سجل فيه سيرة حياة كوكس • ولعل من المجدي ان نستعرض فيما يلي شيئاً من كلا التقريرين •

يقول فيلبي في وصف الوليمة : « فكان الحديث سياسيا في الحقيقة ، وقد سالت الخمرة خلاله كما يسيل الماء وفي ضمنها أفخر انواع الشمبانيا، كما كان صاحب الدعوة مرحا مثل أي مدعو آخر ، وربما كان اكثر مرحا من غيره • وفي نهاية الدعوة نهض ليخفف عن قلبه شيئاً من العبء السياسى الذى كان اكثر مما يتمكن تحمله • وكان فحوى حديثه ان شائعات تعيين فيصل ملكاً في العراق اخذت تملأ الاندية والمحافل وهو يود ان يوضح للحاضرين وللحكومة البريطانية أن اهالي العراق لايريدون فيصلا ولا

يتساهلون في فرضه عليهم • واذا كنتم تشككون في حديثي فبيننا على هذه المائدة هنا الشيخ محمد أمير ربيعة عنده أربعون ألفا من اشداء الرجال ، و الشيخ فلان وفلان على رأس قبيلة تعد ثلاثين ألف رجل ، اسألوهم ليجيبوكم عما يفكر فيه الناس في هذا الشأن • وان الحكومة البريطانية كانت قد وعدت بأننا سننتخب شكل الحكومة الذى نريده بحرية ، وانني احتج ضد أى تغيير يطرأ على ذلك الوعد »(٢٩) •

أما غريفز فكان تقريره أكثر توضيحا وتفصيلا ، فهو يقول : ان كلمة السيد طالب لم تكن عفو الخاطر بل كانت كأنها معدة اعدادا متقنا من قبل ، وقد بدأها السيد طالب بتكراره القول انه راضي عن موقف المندوب السامي ومعتقد بان الحكومة البريطانية تنوي البقاء على الحياد تماما ، ثم التفت نحو لاندون يطلب منه التأكيد على ذلك فأجابه لاندون : ان هذا هو ما يعتقده أيضا • فسأله السيد طالب : " هل أنت واثق من ذلك تماما ؟" • فشعر لاندون بشيء من الامتعاض تجاه هذا السؤال ثم أجاب بانه قدحصل في ذلك على تأكيد من المندوب السامي • فاستمر السيد طالب في كلامه قائلا : ان بعض الموظفين البريطانيين فى حاشية المندوب السامي متحيزون نحو الشريف وهم يحاولون ممارسة نفوذهم فى هذا الاتجاه بشكل غير مناسب • ثم وجه السيد طالب سؤالاً الى لاندون يقول فيه : هل ينصحه لاندون بأن يرفع شكواه الى الملك جورج أو الى المندوب السامي ضد هؤلاء الموظفين من أجل نقلهم من مراكزهم ؟ فاجابه لاندون مشيراً الى ان هناك بعض الموظفين البريطانيين معروفون بتحيزهم نحو النقيب ، ولهذا فان نقل الموظفين المتحيزين الى جانب معين يجب أن يصحبه نقل الموظفين المتحيزين الى الجانب الآخر • وهنا همس حسين أفنان في اذن السيد طالب مشيراً الى دقة هذه النقطة وما تؤدي اليه من عواقب ، فزمجر

---

(٢٩) جون فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٥٢ •

السيد طالب قليلا ثم ترك النقطة متحولا في كلامه الى نقطة أخرى حيث التفت الى الشيخ محمد الأمير طالباً منه التأييد وقال : ان أهل العراق مصممون على أن تكون الحكومة البريطانية وفية بوعودها واذا لم تفعل فان هناك محمد الامير لديه ثلاثون ألف بندقية يريد أن يعرف السبب في ذلك ، كما أن هناك شيخ الجبايش بجميع أفراد عشيرته • ثم واصل السيد طالب حديثه بانه اذا بدرت أقل اشارة من الحكومة البريطانية بالتحيز نحو أحد الجانبين فان النقيب مستعد ان يرفع شكواه الى العالم الاسلامي ، الى الهند والقاهرة واسطنبول ، والى باريس ايضاً ،(٣٠) •

لم تكد الوليمة تنتهي حتى أسرع آرثر تود الى بيت المس بيل في محلة السنك ليخبرها بما جرى ، وتلاه لاندون واخبرها بذلك أيضاً • فأرسلت المس بيل الى كوكس تقريراً مفصلا بما سمعت ، وضمنت تقريرها تحذيرا الى كوكس تخبره بان السيد طالب قد جمع حوله رجال العصابة الذين كان يستعين بهم في البصرة لارهاب الناس ومنهم الرجل الذى قتل القائد التركي قبيل الحرب ، وقالت المس بيل في تقريرها أيضا ان السيد طالب قد يحاول قتل فيصل عند قدومه الى العراق(٣١) •

نفي السيد طالب :

كان السيد طالب عندما ألقى كلمته التهديدية يريد أن يسمع بها كوكس عن طريق تود ، وكان يظن لغروره أن كوكس سوف يشعر بالخوف من تهديده ، غير أن كوكس كان على العكس من ذلك(٣٢) ، فقد اعتبر كلمة السيد طالب بمثابة تهديد باعلان الثورة ، او اعلان الجهاد، فاذا هو سكت عنها وشاع أمرها بين الناس كان ذلك في نظر الناس دليلاً

(30) Graves (Op. cit.) - P. 288 - 289.

(31) Burgoyne (op. cit.) - Vol. 2, P. 214.

(32) Monroe (Philby of Arabia) - London 1973 - P. 108.

على ان السيد طالب أصبح قوياً يتحدى بريطانيا ويفعل ما يشاء بلا رادع[٣٣] .

قرر كوكس اعتقال السيد طالب ونفيه في أقرب وقت ممكن ، وأبرق بذلك الى لندن . ولم يشأ كوكس ان يكلف الشرطة بأمر الاعتقال خشية الفشل ، بل اتصل بالجنرال هالدين قائد القوات العسكرية طالباً منه اعتقال السيد طالب بقواته .

وفي صباح ١٥ نيسان عقد هالدين اجتماعا عسكريا مستعجلا في مقر قيادته لوضع خطة الاعتقال . وبعد المداولة قرر تكليف الميجر بوفيل بمهمة الاعتقال ذلك لان بوفيل كان صديقا للسيد طالب ويعرفه معرفة جيدة فلا يخطىء في تشخيصه عند القاء القبض عليه . وقد احتج بوفيل واعترض على تكليفه بهذه المهمة قائلاً : ان السيد طالب صديقي الشخصي، وطالما تمتعت بضيافته وأكلت من طعامه فلا يجوز لي أن أكون انا الذى يلقي القبض عليه . واقترح بوفيل ان تناط المهمة برجال الشرطة . فرد عليه هالدين قائلا بأن التجارب السابقة أثبتت ان رجال الشرطة لا يعتمد عليهم ، أضف الى ذلك انهم سوف يترددون في اعتقال السيد طالب الذى هو رئيسهم المحترم . ثم قال هالدين يخاطب بوفيل : يجب عليك ان تنسى عواطفك الشخصية وتقوم بالمهمة باعتبارها واجباً عسكريا .

وضع هالدين خطته على أن يتم الاعتقال في عصر ذلك اليوم ــ أي في عصر ١٥ نيسان . وسبب ذلك ان السيد طالب كان على موعد في ذلك الوقت مع زوجة كوكس لزيارتها في دارها وتناول الشاي عندها . فاذا خرج من الدار تم اعتقاله فوراً . وقد اعترض بوفيل على هذا ايضا قائلا بأن الامر قد يساء فهمه من قبل الناس حيث يعتبرونه خرقاً لآداب الضيافة

(33) Graves (op. cit.) - P. 289.

وتكون زوجة كوكس ملومة في ذلك • ولكن هالدين أصر على رأيه لانه لم يكن يحب ان يكون هناك أي احتمال للفشل في تنفيذ الخطة •

كان كوكس وزوجته يسكنان في نفس الدار المشهورة التي أصبحت فيما بعد مقر السفارة البريطانية ببغداد ، وكانا قد انتقلا اليها منذ عهد قريب بعد اكمال بنائها، وهي تقع على شاطىء النهر في محلة الكريمات في جانب الكرخ • وقد استعدت زوجة كوكس لاستقبال السيد طالب في حديقة تلك الدار وهي لا تعرف شيئاً عن خطة اعتقاله ، وكانت قد استدعت المس بيل لتكون مترجمة بينها وبين السيد طالب • أما كوكس نفسه فلم يحضر الدعوة بل ذهب الى ساحة السباق ليتفرج على ركض الخيول !

وصل السيد طالب الى الدار بسيارته في الساعة الرابعة والنصف ، فجلس في الحديقة يتناول الشاي مع زوجة كوكس والمس بيل • وجاء بعد قليل الميجر بوفيل يصحبه ضابط شاب اسمه الكابتن كوكس ، فتناولا الشاي ثم خرجا • وبعد عشر دقائق نهض السيد طالب مودعا لأنه كان مدعوا لتناول العشاء عند السيد جعفر عطيفة في الكاظمية • فقامت المس بيل تمشي معه الى الباب لتوديعه • وركب السيد طالب سيارته فتحركت به متجهة نحو الجسر ، ولكن السيارة لم تكد تسير به قليلا حتى فوجئت بسيارة حمل كبيرة وهي واقفة في منتصف الطريق كأن عطلاً أصابها ، وكانت هناك سيارة حمل أخرى محملة بالجنود تسير خلف سيارة السيد طالب • ولما همّ السيد طالب بالاعتراض والتساؤل عن سبب وقوف السيارة ظهر الميجر بوفيل والكابتن كوكس فجأة ، فاعتذرا عن انسداد الطريق ، وطلبا منه أن يعتبر نفسه سجيناً عندهما • ثم أخذاه الى شاطىء النهر حيث كان الزورق البخاري الخاص بالقائد العام واقفاً بالانتظار • وتحرك الزورق يحمل السيد طالب نحو الجنوب •••

كان هالدين لشدة حرصه على نجاح الخطة قد أمر بقطع تلفون

فيلبي ، ولهذا فان فيلبي لم يعلم بالحادث في حينه[٣٤] . وهو يقول في مذكراته : انه لم يعلم بالحادث الا في المساء عندما ذهب وزوجته الى نادي العلوية لتناول العشاء فيه بناء على دعوة سابقة من الكابتن كوكس ، ولما وصل الى النادي وجد الكابتن كوكس غائباً وكان هناك ضابط آخر ينوب عنه في الضيافة ، وقد حدثه الضابط بما جرى على السيد طالب فاشتد غضب فيلبي عند سماعه القصة ، كما انزعجت زوجته . وفى الصباح ذهب فيلبي لمقابلة كوكس وهو مزمع على تقديم استقالته فى الحال . ولكن كوكس أخذ يهدئه ويعتذر اليه عن عدم اخباره بالامر في وقته مخافة ان يعرف السيد طالب بأمر اعتقاله فتفشل الخطة . وأكد كوكس له مرة اخرى بان ليس في النية فرض فيصل على الناس . ثم أخبره بانه قد عين وزيرا للداخلية بدلا من السيد طالب ، فخرج فيلبي من عنده راضيا[٣٥] .

وفي ١٩ نيسان اذيع بيان من المندوب السامى في تبرير نفي السيد طالب خلاصته ان الحكومة البريطانية لاتزال عند وعدها في ضمان الحرية التامة للعراقيين للاعراب عن رغبتهم بشأن نوع الحكومة التى يطلبونها ، ولكن السيد طالب تفوه بكلام ينم عن تهديد شائن باشهار السلاح في وجه الحكومة البريطانية ، وهذا امر لا يمكن ان يتسامح به المندوب السامي لاسيما وهو يصدر من رجل يشغل منصبا خطيرا كالسيد طالب[٣٦] .

لم يحدث نفي السيد طالب أي تأثير في بغداد ، حيث قابله الناس بهدوء كأنه أمرا اعتياديا . وعندما فاتح بعض الوزراء النقيب بالامر اكتفى

---

(34) Monroe (op. cit.) - P. 109.

(٣٥) جون فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٥٣ ـ ٥٥ .

(٣٦) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ـ صيدا ١٩٦٥ ـ ج١ ص٢٩ ـ ٣٠ .

النقيب بقوله : « أوصيت ان يعاملوه باحترام وأدب »[٣٧] • أما في لندن فكان الامر على خلاف ذلك اذ ان الصحافة نشرت القصة واخذت تدعو الى التخلي عن الانتداب في العراق وتصفه بـ « الكابوس »[٣٨] • وكتب الى كوكس أحد اصدقائه في لندن يقول : ان زوجته لم تتمالك نفسها من البكاء على المسكين السيد طالب[٣٩] •

مصير السيد طالب :

لعل من المناسب هنا ان نتحدث باختصار عن مصير السيد طالب بعد القاء القبض عليه في بغداد • فقد سار به الزورق البخاري حتى اوصله الى الكوت ، ومن هناك اركب باخرة نهرية سارت به الى الفاو ، وفي الفاو أركب باخرة بحرية ابحرت به الى جزيرة سيلان ، فأودع فيها رهن الاعتقال • وقد خصصت له الحكومة البريطانية راتبا شهريا قدره ٢٥٠٠ روبية •

ظل السيد طالب معتقلا في سيلان حتى تم تتويج فيصل ، فأطلق سراحه • وعندما هاجم ابن سعود الحجاز في عام ١٩٢٤ ذهب السيد طالب الى جدة للمشاركة في التوسط بين الفريقين ، وهناك التقى بالكاتب اللبناني أمين الريحاني • وقد كتب الريحاني في وصف التقائه بالسيد طالب فقال مانصه : « واني لاذكر اجتماعنا في جدة في خريف ١٩٢٤ وأذكر من الاحاديث حديثا عن العراق • فقد قص علينا بعض وقائع أيامه تلك ، ونحن نشرب الويسكي والصودا ، ثم وضع الكأس على المائدة ، ورفع يده الى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته قائلا : ان ها هنا شيئاً لايغلب ـ

---

(٣٧) خيري العمري (حكايات سياسية) ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ ص ٤٨ •

(38) Monroe (op. cit.) - p. 109.

(39) Graves (op. cit.) - P. 308.

لا يغلب • وكان يفكر بالعودة الى العراق والى السياسة • كان لايزال يحلم الاحلام الذهبية • فقال يستأنف الحديث : الامور مرهونة بأوقاتهـــا ، وستسمعون عندما اعود مايدهش ويسر أن شاء الله • وسأطلبك يا استاذ واعينك وزير المعارف»[٤٠] •

يبدو ان السيد طالب فقد كل أمل له بعد انتهاء حرب الحجاز فأخذ يسعى نحو العودة الى العراق وقد عثرت بين وثائق البلاط الملكي على رسائل منه الى الملك فيصل يتوسل اليه أن يسمح له بالعودة • وأخذ فيلبي من جانبه يسعى لدى حكومة لندن لرفع ما اصابه من ضيم[٤١] • فسمح له اخيرا بالعودة • وفي ١ أيار ١٩٢٥ وصل السيد طالب بالباخـــرة الى البصرة وكان في استقباله على الرصيف جمهور من البصريين يقدر عددهم بثلاثة آلاف[٤٢] •

اعتكف السيد طالب في داره في « السبيليات » الواقعة على ضفة شط العرب قرب البصرة ، واخذ يكثر من تعاطي الويسكي ويتجنب مواجهة الناس او حضور الحفلات • وكان اذا ذهب الى البصرة سلك طرقاً خالية هرباً من نظرات المارة[٤٣] •و الظاهر انه أصيب بعقدة نفسية شديدة من جراء انهيار آماله• لقد كانت شخصيته قائمة على أساس حب الامرة والمجد العريض ، ومن الصعب على رجل مثله ان يكون شخصاً عاديـاً كسائـر النـاس •

وفي ربيع ١٩٢٥ جاء السيد طالب الى بغداد بغية مقابلة الملك فيصل بعد أن توسط له عبدالله المضايفي في ذلك • وقد أقيمت له في بغداد عدة

---

(٤٠) أمين الريحاني (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ٨٤ •

(41) Monroe (op. cit.) - P. 109.

(٤٢) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٥ أيار ١٩٢٥

(٤٣) خيري أمين العمري (شخصيات عراقيـــة) ــ بغداد ١٩٥٥ ــ ج١ ص ٤٠ •

ولائم احتفاءًا به كان آخرها وليمة النقيب الكيلاني • وعندما دخل السيد طالب على النقيب قام هذا مرحباً به واصفاً اياه بـ « ولده » و « حبيبه » و « قرة عينه » • وأخـذ السيد طالب يعاتب النقيب على عدم مساعدتـه له عند القاء القبض عليه ، ثم أهوى على يده فقبلها(٤٤) •

لم يمكث السيد طالب في بغداد سوى اسبوع واحد عاد بعدهـا الى داره في « السبيليات » • وفي عام ١٩٢٩ أصيب بمرض خطير ، فسافر الى ميونيخ للمعالجة في احدى مستشفياتها • وفي ١٦ حزيران لفظ أنفاسـه الاخيرة ، فنقل جثمانه الى البصرة •

جرى لجنازة السيد طالب في البصرة تشييع منقطع النظير ، فاغلقت الاسواق حداداً عليه وعج الجمهور بالبكاء حوله • لقـد انقلب السـيد طالب عقب موته الى زعيم شعبي محبوب • وليس ذلك بالأمر الغريب !

نجاح الدعوة الشريفية :

كان نفي السيد طالب من بغـداد في نيسان ١٩٢١ سـبباً في تدعيم الحزب الشريفي ، وضربة مهلكة لخصومه • وقد أخذ جعفر العسكري ونوري السعيد وغيرهما من رجال الحزب الشريفي يضاعفون جهودهم ، يؤيدهم العائدون من سوريا من جهة ، وتؤيدهم المس بيل من الجهـة الأخـرى •

وبعد أيام قليلة من نفي السيد طالب حدث حادث آخـر أدى الى زيادة تدعيم الحزب الشريفي ، هو أن جماعة من رجال الدين ورؤساء العشائر اجتمعوا في الكاظمية برئاسة المجتهد الكبير الشيخ مهدي الخالصي، وقرروا أن يبرقوا الى الشريف حسين في مكة يطلبون منه ارسال ابنـه فيصل ليكون ملكاً في العراق مقيداً بمجلس نيابي • ولكنهم عندما أرسلوا

---

(٤٤) المصدر السابق ــ ص ٤٣ ــ ٤٥ •

برقيتهم الى دائرة البرق امتنع الموظف المسؤول عن قبولها متذرعاً ببعض الاعـذار والحجج •

لاندري ما هو السبب الذى جعل الموظف المسؤول يمتنع عن قبول البرقية ، ولكن هذا الامتناع على أية حال أدى الى حماس الناس واصرارهم على ابراق البرقية • فقد اعتبروا امتناع الموظف تحدياً لرغبتهم الوطنية ، وظنوا ان هناك لعبة انكليزية تدبر ضدهم •

عاد رجال الدين ورؤساء العشائر الى الاجتماع عند الخالصى مـرة أخرى وقرروا تنظيم احتجاج يرفعونـه الى المنـدوب السامي ، غير ان الخالصى أوصاهم بالتريث ، وأرسل رسالة الى نوري السعيد يطلب فيها منه ان يساعدهم في ابراق البرقية الى الشريف حسين • وهذا هو نـص الرسـالة •

لحضرة الماجد نوري باشا السعيد المحترم

بعد الدعاء لك بالتوفيق ، ان الانكليز أبوا أن يعطوا الحرية للعراقين بكل شيء حتى باختيارهم ملكهم الذين ضحوا في سبيله النفس والنفيس وذلك أن أوعزوا الى مأموري البرق أن لا يقبلوا البرقيـات المعنونـة الى الملك حسين بن علي التي يطلبون بها ارسال أحد أنجاله ليكون ملكاً على العراق ، وهذا أمر لا شك وان عاقبته غير مرضية ، لذلك أرى من الواجب تدخلكم بصورة رسمية أو خصوصية لرفع هذا القبد واعطاء العراقيـين الحرية التامة بهذا الخصوص ، أما غير هذا فذلك مما يعود لهم ، والسلام•

١٠ شعبان ١٩٣٩ — عن مهدي الخالصى

أرسل الخالصى رسالته هذه بيد رسول خاص ليوصلها الى نوري السعيد في وزارة الدفاع • وحين أوصل الرسول الرسالة الى نوري قال له هذا : انه سيقوم بالتحري ويبعث الجواب بالسرعة الممكنة • وأضاف الى ذلك قائلاً : انه يعتقد بأن هذه اللعبة لا علم لحكومة بريطانيا في لندن

بها ، بل هي لعبة بعض موظفي الانكليز في بغداد مع زمرة من العراقيين الذين لا يرغبون بتتويج أحد أنجال الملك حسين ملكاً على العراق ٠

وفي اليوم التالي وصلت الى الخالصي رسالة من نوري السعيد كان هذا نصهـــا :

وزارة الدفاع   ١١ شعبان ١٣٣٩

لحضرة العلامة الكبـير والمجتهد الاعظـم صاحب السماحة الشيخ محمد مهدي الخالصي متع الله الامة بدوام بقائه ٠

سلام الله تعالى عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فاني أعرض لمولاي الاستاذ انني ذاكرت من يتعلق بهم الأمر من رجال الحكومة البريطانيـة (بصورة رسمية) بخصوص التلغرافات التي يراد ارسالها الى جلالة الملك حسين بطلب ارسال أحد انجاله الكرام ، فأجابوني بأنه لا يوجد أدنى مانع من ذلك ، وقدأحببت أن اكتب الى مولاي بهذا الأمر ، واذا كان سماحته يرى انتظار منشور المندوب السامي فلا بأس بذلك ، وان دوائر البرق مستعدة في كل وقت لقبول البرقيات التي هي من هذا النوع ٠ وتفضلوا في الختام بقبول فائق احترامي وتعظيمي سيدي ٠(٤٥)

المخلص

نوري السعيد

وعند وصول هذا الجواب الى الخالصي أعلن شكره لنوري السعيد وأوصى الناس بارسال برقياتهم الى الشريف حسين كما يرغبون ٠ وكان لهذا الاعلان رنة فرح بين الناس ، حيث شعروا بأنهم انتصروا في مطاليبهم الوطنية ٠ وأخذ الناس في مختلف انحاء العراق يتهافتون على دوائر البرق

---

(٤٥) فريق المزهر آل فرعون (الحقائق الناصعة) ــ بغداد ١٩٥٢ ــ ج٢ ص ٥١٧ ــ ٢١٨ ٠

ليبرقوا الى الشريف حسين بارسال ولده فيصل • وصارت البرقيات تصل الى مكة تباعاً بشكل لم يسبق له مثيل •

كتبت المس بيل في ١٢ حزيران تعلق على ذلك قائلة مانصه :

« يوجد في أعماق عقلي يقين ثابت أن ليس هناك شعب يجب أن يكون محكوماً بصفة دائمة من قبل شعب آخر • ففي السنة الماضية عندما كانوا كلهم يهتفون باسم عبدالله لم يكونوا يريدونه لانه كان الرجل الامثل ، او لأنهم كانوا تحت تأثير الحماس الوطني ، بل لأنهم كانوا يعتبرون الهتاف باسمه هو خلاف رغبة الانكليز ••• ولقد كان من القصور في النظر السياسي أننا تركنا الفكرة تتبلور عندهم في أن الوطنية مضادة للانكليز • والآن نحن نحاول أن نغذي الوطنية ولكنني أعترف بان الوطنية التي هي ليست ضد الاجانب قد تنمو ضعيفة • ان فيصل حين يأتي ويسير معنا جنباً الى جنب سوف لا يكون شخصاً محبوباً كما لو كان يقود حركة جهاد ضدنا • انه سوف لايقود حركة جهاد،وليس هذامن مزاجه• فهل نستطيع أن نمده بالروح التي تجعله قادراً على الهام دولة عربية الهاماً حقيقياً ••• ان هذا أمر يعتمد على شخصيته ، وان من حكمة السر برسى كوكس ان يظل مختفياً يعمل من وراء ستار »(٤٦) •

موقف الصحف البغدادية :

على أثر اغلاق جريدة « الاستقلال » في ٩ شباط ١٩٢١ لم يبق من الجرائد العربية في بغداد سوى جريدة «العراق» لصاحبها رزوق غنام، وكانت هذه الجريدة تؤيد السياسة الانكليزية في العراق • وعندما صار الحزب الشريفي ينشط للدعاية للأمير فيصل ، اتخذت جريدة «العراق» نفس الموقف الذى اتخذه كوكس ، أي موقف « الحياد الودي » •

(46) Burgoyne (op. cit.) - Vol. 2, P. 220.

ففي ٥ أيار نشرت جريدة «العراق» مقالة لمعروف الرصافي بتوقيع مستعار هو « عراقي مفكر » ، يدعوا فيها الى مبدأ « العراق للعراقيين » . ويرد على الذين يدعون الى اختيار أمير شريفي للعراق . وهذه نبذة من تلك المقالة حيث يقول كاتبها : «... أما ما تفضل به أحد اخواننا العراقيين من أن النهضة العربية الاخيرة قد بزغت شمسها في القطر الحجازي وخصوصاً في بيت الشريف ملك الحجاز ولذلك يلزم أن يجلس على اريكة الملك أحدهم فانه لم يصب بذلك كبد الحقيقة لان في النهضة المذكورة اشترك كثير من أبناء العراق وسوريا وفادوا بالنفيس وجاهدوا حق الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال ، لذلك فيمكننا أن نقول ان النهضة عينها ما قامت كما ينبغي الا بهؤلاء العراقيين وأمثالهم من العرب وليس بالحجازيين فقط ، فلهذا ليس لأمراء الحجاز هذا الحق .. »

وحين ظهرت هذه المقالة انبرى لها الشريفيون يردون عليها ، وقد فتحت جريدة « العراق » صدرها لردودهم ، وكأنها كانت تشجعهم على ذلك من طرف خفي كما تقتضيه السياسة الانكليزية يومذاك . فنشرت رداً لعبدالله الدليمي في ١١ أيار ، ورداً آخر لرشيد الهاشمي في ١٢ منه، ورداً ثالثاً لسليمان الزهير في ١٣ منه .

وفي ٢٠ حزيران ظهرت جريدة جديدة باسم « الفلاح » لصاحبها عبداللطيف الفلاحي ، وهو من خريجي الكلية العسكرية في اسطنبول ، وأخذ يجاهر بالدعوة الى اختيار فيصل . فقد كتب في العدد الاول منها يقول: ان الامة حين جاهرت بدعوتها للاميرفيصل لانها ترامجامعا للصفات التي تؤهله أن يكون ملكاً عليها وتعترف بما قدم للامة العربية من الايادي الطائلة ، بالاضافة الى ما اكتسبه من التجارب السياسية لطول احتكاكه بساسة الغرب وما حصل عليه من المكانة الرفيعة عند أهل الحل والعقد .

وفي ٢٣ حزيران ظهرت جريدة ثالثة هي « لسان العرب » لصاحبها

ابراهيم حلمي العمر . وكان هذا الرجل قبلئذٍ يصدر الجريدة نفسها في دمشق ، واشتهر هناك بالتحول السريع من حال الى حال . وقد أعلن ابراهيم عن موقفه السياسي في أول عدد أصدره من الجريدة في بغداد حيث قال انها يجب أن لا ينتظر الناس منها ميلاً الى حزب دون آخر . والمظنون انه اتخذ هذا الموقف تجاوباً مع موقف «الحياد الودي» الذى اتخذه كوكس .

وفي ٢٥ حزيران ظهرت جريدة رابعة باسم « دجلة » لصاحبها داود السعدي ، وأخذت تتجه اتجاهاً معارضاً للحزب الشريفي بشكل غير مباشر . وقيل ان لفيلبي ضلعاً في هذه الجريدة(٤٧) . وقد اخذت هذه الجريدة تنوع في أحاديثها بغية توهين الاتجاه الشريفي في العراق ، فكانت تارة تشير الى ما ينطوي عليه النظام الملكي من استبداد وجور ، وتارة أخرى تحث العراقيين على التمسك ببيعة عبدالله التي تم الاتفاق عليها في الشام سابقا(٤٨) .

ومما يلفت النظر ان الرأي العام صار ينظر الى جريدة « دجلة » نظرة لاتخلو من ريبة واتهام ويعتبرها جريدة تنطق بلسان الانكليز أو الممالئين لهم ، وأخذ النقد الشديد يوجّه على الجريدة من كل جانب حتى بلغ الأمر بصاحب الجريدة ذات يوم الى أن يكتب مقالاً افتتاحيا يرد به على ناقديه بعنوان : « الحر ممتحن بأولاد الزنا »(٤٩) .

خزعل يرشح نفسه :

كان الشيخ خزعل أمير المحمرة يطمع بامارة العراق منذ انتهاء الحرب ، فهو قد خدم الانكليز خلال الحرب خدمة عظيمة وكان يأمل منهم ان ينصبوه أميرا على العراق مكافأة له على خدمته . ففي ٢٢ كانون

---

(٤٧) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص٨٦ .
(٤٨) خيري العمري (حكايات سياسية) ـ ص ٧٣ .
(٤٩) رفائيل بطي (المصدر السابق) ـ ص ٨٦ .

الاول ١٩١٨ كتب الشيخ خزعل الى كوكس مانصه :

« يظهر ان الحكومة البريطانية تبحث عن أمير للعراق • وليس هناك مرشح لائق في متناول اليـد • ان تسعة أعشار العراق هم شيعة ، والامير يجب ان يكون شيعيا أيضا واني مواطن عراقي • وقد ولدت وترعرعت على شط العرب • وبرهنت على اخلاصي •• وسوف أعمل في كل الامور وفق رغبات المندوب السامي وأوامره ، كما كنت في الماضي •• »

ان كوكس لم يؤيد الشيخ خزعل على طلبه هذا • فقد كان رأي كوكس ان اختيار خزعل لامارة العراق سيكون ذا تأثير سيء على السنيين الذين كانوا ذوي النفوذ الاعظم في العراق(٥٠) •

لم ييأس الشيخ خزعل بل ظل يتحين الفرصة للمطالبة من جديد بعرش العراق • وأخذ يقوي علاقاته بالعراقيين بشتى الوسائل ، ولا سيما بعلماء الشيعة وشعرائهم وخطبائهم ، وصار يغدق عليهم الاموال ويتحبب اليهم • وفي عام ١٩٢٠ أمر بطبع كتاب في مصر يتضمن تاريخ الامام علي وقصيدة طويلة جدا في مدحه بقلم عبدالمسيح الانطاكي صاحب جريـدة « العمران » القاهرية • وقد انتهى طبع الكتاب في ٣٠ نيسان فأرسلـت نسخه الى المحمرة ومن هناك ارسلت الى العراق لتوزيعها على الناس مجانا في سبيل الدعاية لخزعل ، ولكن السلطة البريطانية لم تسمح بنشره ،فبقيت نسخ الكتاب مخزونة في بيوت الذين كلفوا بتوزيعه ، ولم ينشر الا بعد سنوات ــ أي بعد فوات الآوان !

وفي أوائل ١٩٢١ عندما كان الانكليز يبحثون عن مرشح ملائم لعرش العراق استعاد خزعل نشاطه في هذا السبيل ، فأرسل أحد رجال الدين الى النجف ومعه مبلغ ضخم من المال قدر بعشرين ألف ليرة ذهب لكـــي

---

(50) Gassan Atiyyah (op. cit.) - p. 368.

يوزعها هناك من اجل الدعاية له ، كما أرسل مزاحم الباچچي الى بغداد لهذا الغرض ايضا .

لم يوزع رجل الدين من المال شيئاً بل احتفظ بالمبلغ كله لنفسه ، وقيل انه اخفاه في احد جدران بيته وبنى عليه ، ولم يفتحه الا قبيل وفاته . أما مزاحم الباججي فقد باءت مساعيه في بغداد بالفشل . وقد كتب الى خزعل رسالة مؤرخة في ٩ آذار ١٩٢١ نقتطف منها ما يلي :

حضرة مولاي السردار

بعد التشرف بلثم أناملكم الشريفة أعرض انني وفقا لامركم ذهبت الى بغداد وحكيت مع المعلومين فوجدتهم كما سبق مني التنبؤ بحقهم ، ورأيت الاحوال متغيرة للغاية ، وأقناع أحد بالمطلوب من أصعب الامور بل يكاد يكون مستحيلا ... انني اختبرت الحالة جيدا وعرفت بواطنها وظواهرها ، وصدقي مع سموكم يجبرنى ان اقول ذات القول الذى قلت قبل شهر وهو ان المسألة منتهية والسعي فيها لا أرى فيه أقل نفع اذا لم يكن فيه بعض الضرر ، ولا يبعد ان يكون هذا الضرر على مثلي اذا حاول تبديل ماوقع عليه الاتفاق وفاه به أهل الحل والعقد ... هذا وانى لا ازال ذلك العبد المخلص الصادق لسموكم أطال الله بقاءكم ومتعنا بعمركم وجعلكم لي فخرا وذخرا .

الداعي
مزاحم الامين الباچچي(٥١)

أدرك خزعل ان الدعاية وبذل الاموال لاجدوى منهما تجاه ارادة القوى الخفية العاملة من وراء الستار ، ولهذا آثر الانسحاب في الوقت المناسب بدلا من العناد . وفي ١٤ حزيران نشرت جريدة « العراق » بيانا تحت عنوان «حول عرش العراق» وقدمته بقولها « جاءنا ما يأتي من مصدر ثقة في البصرة » . وهذا هو نصه :

---

(٥١) خيري العمري (المصدر السابق) ـ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

« اجتمع السردار اقدس صاحب السمو الشيخ خزعل خان امير المحمرة بلفيف من اشراف البصرة واعيانها منهم حضرات اصحاب السعادة أحمد باشا الصانع وعبداللطيف باشا المنديل وعبدالكريم بك السعدون ومزاحم بك الامين الباچچي وبلغهم صريحا ما يأتي : « انني عندما طرحت مسألة عرش العراق على بساط البحث ورأيت أن الذين رشحوا انفسهم لذلك العرش هم دوني في المنزلة والكفاءة والمقدرة وفي جميع المزايا والصفات التي يجب أن يتصف بها ملك أو امير ، كنت رشحت نفسي لذلك العرش لانني رأيت أنني احق واجدر من جميع الذين رشحوا انفسهم له . أما الآن وقد بلغني ترشيح سمو الامير فيصل لهذا العرش ، فانني اتنازل عن ترشيح نفسي لانني ارى في شخص سمو الامير فيصل جميع الصفات والمواهب التي تؤهله لان يتولى ذلك العرش ، واني اقابل ترشيح سمو الامير فيصل بكل ابتهاج وأؤيده كل التأييد وأرجو من جميع اصدقائي ومواطني أن يؤازروه بكل قواهم . »

أثبت الشيخ خزعل بهذا انه اكثر حنكة من السيد طالب وأبصر منه بحقائق الامور !

ماذا في مكة :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد مشغولة بأمرها كانت مكة مشغولة أيضا . فقد كان فيها عدد غير قليل من رجال الثورة الفارين من العراق وهم لاجئون عند الملك حسين وفي ضيافته، وكانوا فريقين : فريق البغداديين وهم : جعفر ابو التمن وعلي البازركان ومحمود رامز وشاكر القرغولي واسماعيل كنة وامين زكي وعبدالرزاق الهاشمي . اما الفريق الآخر فيتألف من سادة الفرات الاوسط ورؤساء عشائرها وهم : نور الياسري وهادي المقوطر وعلوان الياسري ومحسن ابو طبيخ ثم مرزوق العواد وصلال الموح ومهدي الفاضل وشعلان الجبر ورايح العطية .

وصل فيصل الى مكة في ٢٥ نيسان ، وكانت البرقيات يومذاك قد بدأت ترد تباعا من العراق الى الملك حسين • يروى علي البازركان : انه كان ذات ليلة في مجلس الملك حسين على سطح قصره في مكة ، فمد الملك يده تحت فراشه وأخرج ورقة قال انها برقية من اهل العراق ، وناولها الى البازركان قائلا : « خذها ياشيخ واقرأها » • وكان هذا نص البرقية : « نرجو ارسال نجلكم الملك فيصل الى العراق ليكون ملكا دستوريا • منتظرين تشريفه » • وكانت موقعة من قبل محمد مهدى الصدر ونورى السعيد وحمدي الباچچي ومحيي الدين السهروردى وبهجت زينل • وسأل الملك حسين عن هوية أصحاب البرقية فأجابه البازركان يمدحهم ، وسأل الملك مرة اخرى : « ان العراقيين طالبوا بالامير عبدالله في بادىء الامر ليكون ملكا دستوريا عليهم فما الذى دعاهم الى تغيير وجهة نظرهم ؟» فأجابه البازركان : بانهم طلبوا عبدالله حين كان فيصل ملكا في سوريا وهم يطلبون الآن فيصل لانه بلا شغل• فقال الملك: « ولكني أخشى ياشيخ ان يعامل اهل العراق فيصل كما عاملوا جده الحسين (ع) من قبل » • فأجابه البازركان قائلا : « سيدى لقد تغير الزمن وان اهل العراق ليسوا كاسلافهم في زمن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهما السلام ، فهم الآن يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم » • وعند هذا ضرب الملك كفا بكف وصاح بلهجته الحجازية : « ياعيال نادوا فيصل »[٥٢] •

وبعد هذا اجتمع العراقيون الذين كانوا فى مكة عند الملك حسين وابلغوه رغبة اهل العراق فى تتويج ابنه فيصل ملكا عليهم ، فقال لهم : « انني اوقفت نفسي ومن يتبعها لخدمة الامةالعربية، وقد وردتني كثير من الرسائل والبرقيات حول هذا الطلب وبينها الشيء الكثير من العلماء وزعماء

---

(٥٢) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ •

القضية العربية في الفرات • وقد أمرت فيصل ان يتوجه الى العراق وهو وديعتي عند العراقيين ، قوموا واذهبوا معه ، وارجو ان لايحدث معه في العراق مثل ماحدث في سوريا » • فقام محسن أبو طبيخ وقال : « ان العراق غير سوريا ، وان العراقيين راغبون في سموه • وها انني انني أول من يبايع الامير فيصل ملكا على العراق » • ومد يده نحو فيصل يبايعه ، فحذا حذوه في المبايعة بقية العراقيين[٥٣] • ويقال ان الملك حسين التفت نحو السيد نور الياسري يخاطبه باعتباره اكبر الحاضرين سنا وقال له : « ياسيد نور انى اعتبرك كأخي الاكبر وانى قد أودعت ولدى فيصل عند جدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ثم اودعته عندكم » • فأجابه السيد نور : « اننا سنرحب بفيصل وسيكون موضع احترامنا ومحبتنا ونضحي في سبيله كل ما نملك[٥٤] •

فيصل يتوجه الى العراق :

في ٣٠ أيار ١٩٢١ صدر في بغداد بيان العفو العام عن جميع الذين شاركوا في ثورة العشرين حيث لم يستثن منهم سوى افراد معينين • وكان القصد من هذا البيان ان يكون رجال الثورة الذين فروا من العراق في صحبة فيصل عند وصوله الى العراق • وفي ١ حزيران ابرقت حكومة لندن الى فيصل تأذن له بالتحرك نحو العراق[٥٥] •

وفي ٣ حزيران ابرق فيصل الى محمد الصدر ويوسف السويدى وعلي جودت الايوبى الذين كانوا فى دمشق بالتوجه الى القاهرة ، ومنها الى الحجاز • وفي ٦ حزيران سافر هؤلاء الثلاثة من دمشق بسيارة حمل، وعند وصولهم القاهرة وجدوا فيها رستم حيدر وابراهيم كمال وصبيح نجيب

---

(٥٣) فريق المزهر آل فرعون (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥•
(٥٤) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ـ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ •
(55) Graves (op. cit.) - p. 293.

ومكي الشربتي • فسافروا من القاهرة جميعا الى جدة بعد ان انضم اليهم الميجر كورنواليس وكان هذا قد طلبه فيصل ليكون مستشارا له ووسيطا بينه وبين المندوب السامي في العراق •

واعدت الحكومة البريطانية طرادا حربيا اسمه « نورث بروك » لنقل فيصل وحاشيته الى العراق •وفي ١٢ حزيران أبحر الطراد من جدة وكان يحمل علاوة على اولئك الذين جاؤوا من القاهرة جميع الذين كانوا في الحجاز من رجال الثورة ماعدا أربعة منهم ، وهم : جعفر ابو التمن ومحسن ابو طبيخ ومرزوق العواد ورايح العطية • فقد امتنع هؤلاء عن مرافقة فيصل معتذرين برغبتهم في اداء فريضة الحج الذى كان موسمه قريبا • ويقال ان أبو التمن قال بانه لايحب ان يشترك في هذه « الزفة » •

أول برقية وصلت الى بغداد عن ابحار فيصل من جدة كانت مرسلة من جعفر ابو التمن الى بعض الوطنيين فى بغداد ، وكان هذا نصها : « سمو الشريف فيصل أبحر اليوم الى البصرة ، اعدوا الاستقبال اللائق » • وقد وصلت نسخة من هذه البرقية الى يد النقيب • يقول فيلبي في مذكراته عن هذا الموضوع ما يلي :

« وفي احد الايام بعد انتهاء جلسة طويلة من جلسات مجلس الوزراء طلب اليّ النقيب الشيخ ان أتأخر لانه كان يريد التحدث اليّ شخصيا • وعندئذٍ بادرني قائلا : هل تعرف شيئاً عن هذا ؟ ووضع في يدي برقية بعد ان ترك الجميع الغرفة • وكانت البرقية قد وردت من جدة بتوقيع جعفر ابو التمن ••• فأجبت قائلا : « كلا ، لا أعرف شيئاً ، ولكن هل في وسعي أن احتفظ بالبرقية ؟ سوف اذهب لمواجهة كوكس في الحال ثم اعود لاخبركم بما يقول » • ثم ذهبت فورا الى المقيمية حيث وجدت كوكس غير مشغول ، وبادرته قائلا : « ان الاسواق ملأى بالشائعات بان فيصلا قد ابحر من جدة متجها الى البصرة ، فهل ذلك صحيح ؟ » الا انه اجابني : « أؤكد

لك يافيلبي ، لا أعرف شيئا عن ذلك ، حيث أني لم تصلني مثل هـــذه الاخبار » . وعند ذلك ابرزت البرقية قائلا : « أذن قد يهمك ان تقرأ هذه» . فكرر تأكيداته السابقة بانه لايعرف شيئاً عنها ، ثم خرجت لموافاة النقيـب بالنتيجة »[٥٦] .

وفي ١٤ حزيران ألقى تشرتشل بيانا مطولا حول العراق في مجلس العموم البريطانى قال فيه ما يلي : « ... ليس فى النية اكراه الشعب على قبول حاكم مخصوص ، وستطلق الحرية التامة في البحث والافصاح عن الرأي ، سواء كان ذلك في انتخاب الحاكم او انتخاب الجمعية العمومية... وقد أبلغت حكومة صاحب الجلالة البريطانية الامير فيصل انها لاتعارض في ترشيحه ، وانه اذا تم انتخابه فالحكومة البريطانية تؤيده . وهو الآن في طريقه الى البصرة ، ولا شك في انه اذا انتخب فيصل نكون قد توصلنا الى حل فيه مستقبل ناجح سعيد »[٥٧] .

نشرت جريدة « الاوقات البغدادية » بيان تشرتشل في اليوم التالي . فاستاء منه فيلبى كل الاستياء ولكنه كتم استياءه لانه كان يعد حفلة عشـاء ورقص فخمة في مساء ذلك اليوم في نادية العلوية . وقد حضر الحفلة عدد كبير من المدعويين كان من بينهم كوكس وزوجته والمس بيل . ورقص فيلبى فى البداية مع زوجة كوكس التى كانت منشرحة جدا ، ثم رقص مع المس بيل وغيرها . ويقول فيلبي في مذكراته : انه شرب كثيرا ليغرق أحزانه واتراحه ، ولما رقص رقصتهالاخيرة مع المس بيل كان ثملا جـدا، فناقشها أثناء الرقص مناقشة حادة ، وهو لم يشعر بما فعل لشدة سكره ، غير أن زوجته أخبرته به فى صباح اليوم التالي ...[٥٨] .

---

(٥٦) جون فيلبي (المصدر لسابق) ـ ص ٥٦ .
(٥٧) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج ١ص ٣٣ .
(٥٨) جون فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

وبعد ثلاثة ايام وصلت الى النقيب برقية من الملك حسين كان هـذا نصها :

فرع الدوحة النبوية فضيلة السيد الاجل حضرة النقيب • ضروري بلغكم توجه ابني فيصل الى طرفكم بناءا على طلبات الاهالي المتعـددة ، ولامتزاج عائلتنا بكم ، فلا احتاج ان ابحث عما يجب لسعيكم جميعا فيما يستلزم راحة البلاد ومضاعفة الرغبة وتأمين مستقبل الكل • هذا ما انتظره من همم نجابتكم والحسية الدينية والقومية • والله يتولانا واياكم بالتوفيق •

عن مكة المكرمة في ١٧ حزيران ١٩٢١ م

حسين

فأسرع النقيب يجيب الملك حسين ببرقية هذا نصها :

لحضرة صاحب الشوكة والعظمة جلالة الملك حسين سلطان الحجاز أيد الله شوكته • لقد أخذت بيد التكريم والاجلال برقية جلالتكم المشعرة بتوجه سمو الامير ذى القدر الخطير الامير فيصل حفظه الله الى العـراق وقد ابتهجنا سرورا من هذا البشارة ودعونا له بالسلامة وصرنا ننتظر قدومه ساعة فساعة شوقا للقياه • فبمنه تعالى عند قدوم سموه نبادر الى القيـام بالواجب علينا من خدمته حيث اتحاد النسب والحسب القديمين يقضيان بذلك على الداعي • وأما الامر السامي الملوكى لهذا الداعي بالسعي جميعا فيما يستلزم راحة البلاد فهو واجب الامتثال على كل حال لاقتضاء الحس الوطني ونسأل الله التوفيق •

عن بغداد ١٩ حزيران ١٩٢١ م • التوقيع : نقـيب اشـــراف بغداد[٥٩] •

---

(٥٩) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٣ ٣ـ ٣٤ •

وفد الاستقبال :

أخذت البرقيات تتوالى الى بغداد عن قرب وصول فيصل ووجــوب الاستعداد اليه ، وكان من بين تلك البرقيات واحدة من السيد محمد الصدر الى ابيه السيد حسن ، واخرى من يوسف السويدى الى ابنه ناجى • وقد اهتم ناجى السويدى بالامر فارسل بطاقات الدعوة الى اعيان بغداد وأولي الرأي يدعوهم الى اجتماع يعقد في سينما رويال في صباح الجمعــة ١٧ حزيران للنظر في منهاج استقبال الامير فيصل • وعندما تم عقد الاجتماع في الموعد المعين قام ناجي فشكر الحاضرين واخبرهم بوصول البرقيات عــن قرب قدوم الامير ، وقال انه سيكون ضيف العراقيين وانهم يجب ان يقوموا بما يجب عليهم في هذا الشان طبقا لما اشتهر عنهم من الكرم والضيافة • ثم اضاف قائلا : بان الحكومة والبلدية ستقومان بما يجب عليهما ، ولكن هذه الدعوة موجهة اليكم يا ابناء الشعب ، فانتم الداعون وانتم المدعوون ، وان الامير سوف يصل الى البصرة في ٢٣ منه ، ومن اراد منكم الاشتراك فــي الوفد الشعبي لاستقباله فليسجل اسمه ، وسيمر عليكم بعض الاصــدقاء لتسجيل اسماء الراغبين ، وسيسافر الوفد الى البصرة مساء الاحد القادم • ثم اوضح ناجي السويدى ان كل واحد من اعضاء الوفد سيتكلف نفقات سفره ••[٦٠] •

سافر الوفد الشعبي بالقطار مساء الاحد ١٩ حزيران حسب الموعــد المقرر • ولوحظ ان اثنين من الوزراء رافقاه في سفرته هما فيلبي وزيــر الداخلية وجعفر العسكرى وزير الدفاع • ومن الممكن القول ان سفــر هذين الوزيرين كان جزءا من الخطة التى وضعها كوكس لكي يثبت بها حياده امام الناس • فلقد كان فيلبي يبذل كل جهده في مقاومة ترشــيح فيصل كما رأينا ، بينما كان العسكرى على العكس منه • وتلك لعبة من

---

(٦٠) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١٨ حزيران ١٩٢١ •

ألاعيب السياسة التى انطلت على الناس !

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان فيلبي أبدى نشاطا غريبا في جميع المحطات التى مر بها القطار حتى وصوله الى البصرة • ففي كل محطة كان حاكم المنطقة يأتي لاستقباله مع جمهور كبير من الاهالي وهم يسألونه عما يجب عليهم ان يفعلوه في استقبال الامير فيصل ، فكان فيلبي يجيبهم بأن ليس هناك أوامر رسمية في هذا الشأن وان الامير قد جاء مرشحا وليس ملكا ، وأنهم أحرار فيما يفعلون تجاهه • وقد أوصى فيلبى حكام المناطق كلا على حدة بانهم يجب ان يستقبلوا القطار الذى يحمل الامير دون أن ينظموا مظاهرة، فان ذلك متروك للاهالي أنفسهم، وان الاستقبال حتى في بغداد والبصرة ينظم بصورة غير رسمية[٦١] •

وصول فيصل :

وصل الطراد الذى يحمل فيصل وحاشيته الى ميناء البصرة في الساعة الخامسة والنصف من عصر ٢٣ حزيران • وكانت البصرة قد استعدت لاستقباله فنصبت له اقواس النصر فى الشارع العام ، وخرجت في الشط بعض الزوارق البخارية والبواخر النهرية وهى مزدانة بالاعلام العربية ، كما تجمع على ضفاف الشط عدد كبير من الريفيين وهم يهزجون ترحيبا به[٦٢] •

فوجىء فيصل عند نزوله من الطراد بلوحة مرفوعة على مدخل العشار مكتوب عليها : « لتحي الجامعة العراقية » ، ولوحة اخرى عند مدخل البصرة مكتوب عليها :« لتحى البصرة جزءا من العراق » • وقد تبين له بعدئذ ان عريضة تحمل ٤٥٠٠ توقيع من اهل البصرة كانت قد

(٦١) جون فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٦٠ •
(٦٢) محمد عبدالحسين (ذكر فيصل الاول) ـ بغداد ١٩٣٣ ـ ص ١٥ ـ ١٧ •

قدمت قبل فترة قصيرة الى المندوب السامى وهى تتضمن طلبا بفصل البصرة عن العراق ، ولكنها لم تنل موافقة جميع اهل البصرة اذ قاومها فريــق كبير منهم[٦٣] ، كما ان المندوب السامى ردها بشدة[٦٤] .

نزل فيصل في دار متصرف البصرة أحمد باشا الصانع ، وتوزعـت حاشيته في دور بعض وجهاء البصرة • وفى صباح اليوم التالى اقيمت حفلة في دار المتصرف حضرها أعيان البصرة والوفود ، وألقيت الخطب الترحيبية والقصائد من قبل محمد زكى المحامي وعطا امــــين وكاظم الدجيــلى وعبدالرحمن خضر ومحمد عبدالحسين وعبدالحافظ طه واحمد حمدى ملا حسين ومهران مهونيان ثم ارتجل فيصل في الختام كلمة طويلة ننقل منها النبذة التالية :

« ••• واني لأصرح لكم بالنبي وآله ، ليس لي أي طمع شخصى وانما اعمل طمعا في خدمة هذه البلاد ابتغاء لوجه الله تعالى ، واني لأرغب أن أرى في المقامات العالية غيرى من تجمع عليه الامة ، وانى اقسم بشـرفي وتربة اجدادى وبقبر جدنا الرسول (ص) انني اول من يبايع الرجل الذى تتفق عليه الامة جمعاء ، فاذا اردتم أن تولوا عليكم شخصا انصحكم بان تخلصوا في القول واذا قال احدكم كلمة لايحيد عما قال ••»[٦٥] .

لم يبق فيصل في البصرة سوى يوم واحد اذ غادرها بالقطار في مساء اليوم الثاني من وصوله ، متوجها الى الحلة • وكان استقباله في المحطات بين البصرة والحلة فاترا جدا من جراء التعليمات التى اصدرها فيلبي الى الحكام • وقد اغتاظ فيصل من ذلك • ويقول فيلبي في مذكراته :

« وقد قضيت انا وكورنواليس معظم الطريق في قاطرته ــ اى عربة

---

(٦٣) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٣ •
(٦٤) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٦ (حاشية)
(٦٥ فريق مزهر آل فرعون (المصدر السابق) ــ ص ٥٢٨ •

فيصل ـ نبحث الوضع ونتناول الويسكي والصودا • وقد أوضح فيصل انه لم يأت الى العراق الا بدعوة من الحكومة البريطانية ، وانه يتوقـــع أن يؤازره الموظفون البريطانيون مؤازرة فعالة في ترشيحه للعرش • فـكنت صريحا معه صراحة تامة : كما كان واضحا ان الحكومة البريطانية تريده ملكا في العراق ••• لكن الانتخاب يجب ان يكون انتخابا حرا ، حيث ان التعليمات صدرت بهذا المآل الى جميع الموظفين البريطانيين في البلاد • وقد اضفت الى ذلك انه اذا كان يريد كسب اصوات الاهالي في الـــبلاد على اساس انه مرشح بريطانيا العظمى فان امله في النجاح سيكون ضعيفا»(٦٦)•

امتعض فيصل من هذا الكلام امتعاضا شديدا ، وتبين له ان الطريق امامه سوف لايكون سهلا كما كان يتصور سابقا • ولما وصل القطار الـى الحلة ازداد فيصل امتعاضا اذ لم يجد في استقباله في محطة الحلة سـوى رجلين • وقد وصف علي جودت الايوبي في مذكراته ماجرى حيثقال :

« وعند وصولنا الى الحلة لم نجد في المحطة الا معاون المفتش الاداري برترام توماس ورئيس البلدية عبدالرزاق شريف ، وهناك انفجر المرحوم جعفر العسكري معاتبا رئيس البلدية لعدم اهتمامه باعداد الاستقبال كمـــا يجب ان يكون • فكان اعتذار رئيس البلدية الذي كان يتلقى أوامره من الحاكم السياسي الانكليزي ان جعفر لم يبرق اليه بمقدم فيصل وانما ابرق الى الوطنيين فقط(٦٧) •

ولم تقف الحالة عند هذا الحد ، فان برترام توماس دخل على فيصل بحضور الايوبي والمرافق صبيح نجيب ووجه اليه بكل وقاحة هذا السؤال: « ليش جنابك جيت الى العراق ؟ » فرد عليه فيصل قائلا: « لماذا تسألني؟ » فقال توماس : « لان الاهالي لايريدونك » • فرد عليه فيصل : « ولمـــاذا

---

(٦٦) جون فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٦٢ •

(٦٧) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ١٤٤ •

تريد ان تتدخل انت بيني وبين الاهالي ؟» فقال توماس : « حتى أخبرك ». فكان رد فيصل الاخير عليه : « لست بحاجة الى خبرك وسوف ترى ما اذا كانوا يريدونني أم لا » . وعند هذا خرج توماس(٦٨) .

في النجف وكربلاء :

غادر فيصل وحاشيته الحلة في صباح اليوم التالي حيث ركبوا السيارات متوجهين الى النجف وقد تعمد فيلبي وكورنواليس الابتعاد عنه في النجف . وكان منظره وهو بملابسه العربية ويحف به رجال الثورة موحيا للناس بان الهدف الذي طالبت به الثورة قد تحقق الآن .

اول عمل قام به فيصل في النجف هو زيارته لمرقد الامام علي ، ثم زار بعض العلماء ، وحل اخيرا في بيت السيد هادي النقيب حيث كان اجتماع كبير فألقى فيه فيصل كلمة شكر فيها النجفيين ومدح الثورة العراقية والثورة الحجازية . ثم نهض باقر الشبيبي فألقى كلمة بالنيابة عن الحاضرين قال فيها : « اننا كنا نتطلع بشوق الى هذه الزيارة الميمونة من ضيف العراق الكبير الامير فيصل الى موطن الثورة التي نرجو ان تستكمل نتائجها المطلوبة كما نرجو من الله ان يحقق أهداف جلالة الملك حسين باستقلال البلاد العربية وجمع شمل العرب وتحقيق أهداف الثورة العربية ثورة التحرر والانعتاق ... »

وفي المساء اقام السيد عباس الكليدار مأدبة عشاء فخمة فألقى فيها فيصل كلمة قال فيها انه سيقوم بكل حزم لاصلاح البلاد وتعميرها ، واعقبه باقر الشبيبي بكلمة حماسية شديدة حيث قال : « ان الثورة العراقية هي وليدة افكار تحررية قديمة من زمن الاتراك ، واننا قد ضحينا بكل غالي ورخيص ، فلا يمكن ان نسلم ثمرة جهودنا الطويلة واتعابنا المريرة الا بيد امينة مخلصة تحرص على استقلال بلادنا ومصالحنا واهدافنا القومية

---

(٦٨) المصدر السابق ــ ص ٤٤ ١ــ ١٤٥

والوطنية » . ويقال ان فيصل اعتبر هذه الكلمة موجهة ضـــده وامتعض منها ...[٦٩] .

وفي صـــباح ٢٧ حزيران توجه فيصل وحاشيته الى كربلاء وكـان المتصرف في كربلاء يومذاك حميد خان . ويقول غريفز : ان استقبال فيصل في كربلاء لم يكن حماسيا لان المتصرف لم يكن راغبا في استقباله ، وقـد ذهب هذا المتصرف الى بغداد في اليوم السابق ، وبعد أن قابل المنـــدوب السامي عاد الى كربلا مسرعا ، ولهذا كان الاستعداد لاستقبال فيصــــل مستعجلا[٧٠] .

قضى فيصل في كربلا يوما واحدا زار فيه مرقدى الحسين والعباس عليهما السلام ، وبات ليلته في ضيافة خليل الاسترابادى . وفي صباح اليوم التالى ــ ٢٨ حزيران ــ غادر كربلا الى طويريج ، فمكث فيهـا خمس ساعات في ضيافه السيد هادى القزويني[٧١] ، ثم توجه نحو الحلة .

ومما يلفت النظر ان الاستقبال في الحلة كان في هذه المرة بخلاف ماكان عليه في المرة الاولى ، ويبدو ان اهل الحلة شعروا بتقصيرهم تجاه فيصل ومن معه من رجال الثورة ، فخرجوا في هذه المرة لاستقباله بجموع غفيرة اشترك فيها النساء والصبيان وتلامذة المدارس[٧٢] ، واخذوا يهزجون بقولهم : « حي الله الملك فيصل » . وعند وصول فيصل الى الحلة نزل في بيت محمد علي القزويني ، وتهافت أهل الحلة للسلام عليه هنالك ، وألقى عدد من الشعراء قصائد في مدحه والترحيب به .

---

(٦٩) عبدالشهيد الياسرى (المصدر السابق) ــ ص ٣٥٠ .

(70) Graves (op. cit.) - 296.

(٧١) علي جودت (المصدر السابق) ــ ص ١٤٦ .

(٧٢) ملحق جريدة « دجلة » الصادر في ٢٩ حزيران ١٩٢١ .

وصوله الى بغداد :

أذيع بيان في بغداد بان الامير فيصل سوف يصل بالقطار في الساعة السابعة من صباح ٢٩ حزيران • وكانت بلدية بغداد قد خصصت خمسين ألف روبية لاستقباله فنصبت اقواس النصر في عدة مواضع من المدينة • وزينت الشوارع بالاعلام العربية وسعف النخيل واكتضت ارصفة الشوارع وشرفات المنازل بالمتفرجين ، كما خرج المستقبلون الى محطة القطار في الكرخ وكان في مقدمتهم كوكس والجنرال هالدين والمس بيل والوزراء •

وبينما هم في الانتظار وصلتهم برقية مفادها ان عطلا اصاب سكة الحديد ، وان الامير قادم بالسيارة والمأمول ان يصل في الوقت المحدد • وظلوا ينتظرون حتى الساعة الثامنة • ثم وصلتهم برقية أخرى مفادها ان السكة اصلحت وان الامير قادم بالقطار وسوف يصل بغداد ظهرا • وعند هذا ارتأى كوكس ان الاستقبال في وقت الظهر سيكون شاقا لاشتداد الحر فيه ، وقرر ان يبقى الامير في القطار عند وصوله حتى الساعة السادسة لكي يجرى الاستقبال عند المساء • فعاد المستقبلون الى بيوتهم(٧٣) • وأذاعت البلدية بيانا قالت فيه ان وصول الامير سيكون في الساعة العاشرة حسب التوقيت العربي(٧٤) •

لاندرى هل كان هذا التأخير متعمدا ام انه جرى على رسله • غير أنه على اى حال كان مفيدا للدعاية الشريفية حيث أخذ الناس يتقولون بأن التأخير سببه الانكليز لانهم لايريدون ان يجرى للامير مثل هذا الاستقبال الشعبي العظيم • واخذت الاشاعات المختلفة تروج بين الناس في هذا الشأن مما ادى الى ارتفاع مكانة الامير فيصل في نظر الناس •

جرى الاستقبال في الساعة السادسة حسبما قرره كوكس • وقد

---

(73) Lady Bell (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - p 489.

(٧٤) ملحق جريدة « دجلة » الصادر في ٢٩ حزيران ١٩٢١ •

قوبل الامير بحماس بالغ حيث هتفت له الجماهير في الشوارع التى مر بها، وكان هو يحييها بيده مبتسما • حتى وصل الى الدار التى اعدت له في داخل القشلة ، وهى الدار التى كانت مقرا للوالي فى العهد العثمانى وتقع على شاطئ دجلة ، وقد اخذت الجرائد البغدادية تسميها ب « دار الامارة »•

كان الامير مسرورا للاستقبال العظيم الذى جرى له ولكنه كان في الوقت نفسه مغموما لموقف فيلبى والحكام السياسيين في الالوية تجاهه • فقد قيل له ان اولئك الحكام كانوا قادرين ان يجمعوا الناس لاستقباله في المحطات ، ولكنهم لم يفعلوا ، وأخذ يتسأل : هل ان المندوب السامى يقف الى جانبه ، واذا كان الامر كذلك فلماذا اتخذ الحكام السياسيون موقفا مغايرا لموقف رئيسهم؟[٧٥] •

زارته المس بيل في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، فرحب بها وشكر جهودها التى بذلتها في سبيله ، وقد اكدت هى له اثناء الحديث ان المندوب السامى منحاز الى جانبه انحيازا مطلقا • وعند خروج المس بيل من عند الامير بدأت جموع المهنئين يفدون للسلام عليه ، وكان فيهم وفود الألوية • وألقيت بين يديه القصائد الشعرية كانت اولاها قصيدة الزهاوى • وتقول المس بيل ان احمد الشيخ داود اتخذ له مقعدا عندالباب وظل كذلك في الايام التالية ، فكان ينهض كلما جاء وفد للتهنئة ليعلن مبايعته للامير فيصل بصفته ممثل الشعب • وقد فعل ذلك خمسين مرة • وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : ان احمد الشيخ داود أصبح اضحوكة الجميع بما يقوم به من افعال سخيفة ، وان فيصل والآخرين لايعيرونه اقل اهتمام[٧٦] •

حرص فيصل ان يزور الكاظمية فى اليوم التالى لوصوله • ففي

---

(75) Lady Bell (op. cit.) - 489

(76) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 223 - 228.

الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، بينما كانت الوفود لاتزال تفد للسلام عليه في القشلة ، تحرك موكبه متوجها الى الكاظمية عن طريق الكرخ • وقد جرى له في الكاظمية استقبال عظيم ، ونحرت تحت قدميه الذبائح • وبعد ان ادى زيارة المرقد المقدس خرج لزيارة السيد محمد الصدر في داره ، ثم ذهب بعدئذ لزيارة الحاج عبدالحسين الجلبي • وقد ألقيت بين يديه القصائد في كلتا الدارين[٧٧] •

وفي صباح اليوم التالي ـ وكان يوم جمعة ـ ذهب فيصل لزيارة جامع الامام أبي حنيفة في الاعظمية ، وقد جرى له من الاستقبال فيها مثلما جرى في الكاظمية • ثم ذهب بعدئذ لزيارة جامع الشيخ عبدالقادر في بغداد واداء صلاة الجمعة فيه • وكانت محلة باب الشيخ قد استعدت لاستقباله ، فنحروا الذبائح ، ونثروا الزهور ، ورشوا ماء الورد • وبعد ان ادى صلاة الجمعة توجه لزيارة دار النقيب ، فاستقبله فيها ابن النقيب الاكبر السيد محمود ، وقال يخاطبه : « أن اسرة النقيب ياسمو الامير يدك اليمنى تستعملها اينما شئت في سبيل مصلحة البلاد » • ثم تقدم تلميذ صغير فتلا قصيدة الفرزدق المشهورة : « هذا الذى تعرف البطحاء وطأته •••»[٧٨]

مصير فيلبي :

عندما كان فيلبي في رفقة الامير فيصل في الطريق بين النجف وكربلا اصيب بنوبة شديدة من الملاريا ، فنقل الى الحلة حيث مكث فيها بضعة ايام تحت المعالجة ، وجاءت اليه زوجته من بغداد لتمريضه • وفي مساء ٣ تموز عندما تم شفاؤه عاد الى بغداد • وفي صباح اليوم التالى ذهب فيلبي لمقابلة كوكس فجرت بينهما المحاورة التالية :

قال كوكس : يبدو انك لم تتماش مع فيصل جيدا ، فقد كان متذمرا

---

(٧٧) جريدة « دجلة » في عددها الصادر في ٢ تموز ١٩٢١ •

(٧٨) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٤ تموز ١٩٢١ •

بمرارة من موقفك خلال السفرة الى هنا ، وقد صرح انه سوف لايبقى في العراق مالم يطمئن من موقف جميع الموظفين البريطانيين وتأييدهم له تأييدا فعالا .

قال فيلبي : لايمكنني ان افهم كيف تتوقع ذلك مني بالنظر للاوامر الرسمية التي هي أوامرك انت ، والتي هي لاتزال قائمة من غير تبديل ، في شأن حرية الانتخاب . وانني كثيرا ماكنت اطمّن النقيب وغيره بأننا عازمون على البر بوعودنا التي وعدناهم بها . وان فيصل قد أدرك بطبيعة الحال ان نجاحه سيكون ضعيفا اذا سار الانتخاب سيرا حرا . وقد أوضحت له ذلك بصراحة .

قال كوكس : انني اعرف انك قلت له ذلك ، لكنك تعلم الآن بصورة اكيدة ما الذي تريده الحكومة البريطانية .

قال فيلبي : انني أعرف ذلك طبعا ، كما انني ادركت ذلك منذ مدة طويلة برغم جميع التأكيدات التي بذلتها لي بخلاف ذلك . غير ان الذي لا اتمكن من فهمه هو ان الحكومة البريطانية اذا كانت تريد وتعتزم ان يكون فيصل ملكا فلماذا لاتعينه بصورة مباشرة لا التواء فيها بدلا من اصرارها على مهزلة الانتخاب . وعلى اى حال فانني أشعر بانى صرت متورطا تمام التورط بالتأكيدات التي بذلتها الى الجميع لكي يساهموا في معالجة شؤون الانتخاب .

قال كوكس : انني على علم بذلك ، لكنني لا استطيع أن افهم كيف يمكنك التوفيق بين موقفك هذا وبقائك في منصبك .

قال فيلبي : اذا كان المتوقع مني ان ادير شؤون الانتخاب فانني لست راغبا في ان ابقى في منصبي ، واذا كان في وسعك ان تعين خلفا لي فسأذهب من هنا واسلمه المنصب في الحال .

قال كوكس : شكرا فيلبي ، انني آسف ، سوف لايسعك ان تستمر على التعاون معنا •

أدرك فيلبي ان كوكس يريد منه ان يقدم استقالته • فقدمها فعلا • واختار كوكس رجلا آخر ليحل محله هو طومسون الذى كان يومئذ مستشارا لوزارة المالية(٧٩) •

وفي عصر ٥ تموز ذهبت المس بيل لزيارة فيلبي في بيته فجرت بينها وبين زوجة فيلبي محاورة حانقة • وقد قدم لنا كل من فيلبى والمس بيل وصفا لتلك المحاورة يختلف عن الوصف الآخر من بعض الوجوه • يقول فيلبي في مذكراته : ان المس بيل دخلت عليه عندما كان يتناول الشاى مع زوجته ، فقالت له : « جاك ، انني آسفة لسماع النبأ » ، وكانت تقصد من ذلك سماع نبأ استقالته ، فبادرتها زوجته بفظاظة قائلة وهى تخرج متعدية اياها الى خارج الغرفة : « كلا ، أنت غير آسفة » • وعند هذا تقدم فيلبى من المس بيل فقدم لها كوبا من الشاى ، وطيب خاطرها ، وتحدث اليها عن سروره لابتعاده عن هذا الدس القبيح(٨٠) •

اما المس بيل فتروي القصة على النحو التالي حيث قالت : « في يوم الثلاثاء ذهبت لزيارة فيلبي وزوجته لابداء اسفي عما جرى ، فحدثت محاورة مؤلمة جدا فان زوجة فيلبي انفجرت بالبكاء واتهمتني بانى انا السبب في عزل زوجها ، ثم خرجت من الغرفة • وعندهذا ذكرته بصداقتنا الطويلة ورجوته ان يعتقد اني بذلت كل جهدى لاقناعه بان اى موظف حكومى لايمكن ان ينتفع من مخالفة أوامر حكومته • فان احتضانه لقضية السيد طالب الماكر لايمكن تصديقها ، ولكنه جعل نفسه هو والسيد طالب شيئاً واحدا »(٨١) •

---

(٧٩) جون فيلبي (المصدر السابق) — ص ٦٣ — ٦٥ •
(٨٠) المصدر السابق — ص ٦٥ •
(81) Burgoyne (op cit.) - vol. 2, p. 224.

قضى فيلبى بعد هذا ثلاثة اشهر يتجول فى ايران ، وعند عودته الى بغداد عرض عليه كوكس منصب المعتمد البريطانى في شرق الاردن بدلا من لورنس • فقبلها وسافر جوا الى عمان • ولكن فيلبي لم يغير عادته ، حيث رأيناه يختلف في الرأي مع المندوب السامى فى فلسطين على منوال ما اختلف مع المندوب السامى في العراق ، وقد ادى ذلك به الى تقديم استقالته نهائيا من خدمة الحكومة البريطانية •

ذهب فيلبى بعدئذ الى جدة وفتح فيها وكالة لاستيراد السيارات وغيرها • وصار صديقا للملك عبدالعزيز بن سعود ومستشارا شخصيا له • وفي ١٩٣٠ اعلن اسلامه واطلق على نفسه اسم « الحاج عبدالله فيلبي »• غير أنه بعد موت الملك عبدالعزيز اختلف مع ابنه سعود ، وخرج من المملكة السعودية شبه مطرود • وفى ١ تشرين الاول ١٩٦٠ مات فيلبى في بيروت وهو منبوذ من الحكومة السعودية والحكومة البريطانية معا •

لم يخلف فيلبي ثروة مع قدرته على كسب الملايين ولكنه خلف كتبا رائعة في وصف رحلاته العظيمة التى قام بها في جزيرة العرب والربع الخالي • ومن الممكن القول انه كان ذا شخصية شاذة لاتخلو من عبقرية• انه أراد أن ينافس لورنس في الشهرة فتفوق عليه من بعض الوجوه !

وليمة النقيب :

في مساء ٧ تموز اقام النقيب وليمة كبرى اعتبرت في حينها بمثابة وليمة صلح بينه وبين الامير فيصل • وقد اقيمت الوليمة في دار آل النقيب المقابلة لجامع الشيخ • وكان الجامع والشوارع المؤدية اليه قد انيرت بالاضوية الزاهية ، كما ازدحم الجمهور فيها للترحيب بالامير والهتاف له• ولما وصل الامير الى الدار استقبله النقيب في رأس السلم متكئا على ساعد طبيبه الخاص ، فتعانقا على الطريقة المألوفة يمينا ويسارا ، ثم سارا متماسكين بالايدى نحو صدر القاعة حيث جلس فيصل بين المندوب السامي والنقيب •

كان اهم ماجرى فى تلك الوليمة قصيدة ألقاها معروف الرصافـــى مؤلفة من اربعة مقاطع تشيد باجتماع النقيب والامير، ننقل فيما يلي المقطع الرابع منها :

مد النقيب الى الامـــير يـــد المعاضـــد والنصير
فليخـز كل مشـــاغب في القـوم يلهج بالشرور
وليحي مولانا النقيـــب حيـــاة مولانا الامـــير

وبعد القاء هذه القصيدة استمر الرصافي يتكلم حيث قال : « أجل ايها السادة، ماذا يريد القوم بعد اقتران هذين النيرين الكبيرين حيث طلعا بالوفاق متعانقين في سماء العراق، متصافحين على ضفاف الرافدين • أنـا أيها السادة لا اعلم رجلا اجدر من مولانا النقيب بان يمثل في أفعاله أهل العراق كافة • كيف لا وهو من قتل الدهر خُبراً بتجاربه، وارتدى العز ضافيا بعلمه وأدبه، وارتقى سماء السؤدد والمجد بنسبه ونشبه •• فيا ايها الامير ياصاحب السمو الملكي انما تصافحك من مولانا النقيب يد العراقيين كلهم، وانما تضمك في هذه الليلة من هذه الدار العامرة بلاد العراق كلها•• وانت ايها النقيب المفخم سوف ترتل لك الايام شكرا جزيلا على مابذلت في سبيل مصلحتنا من المساعي الغر لجمع كلمة القوم ولم شعث الامة • فليحي صاحب السمو الملكي الامير فيصل المعظم، وليحى مولانا النقيب المفخم، وليحى العراقيون، وليحى العرب » • وكانت قصيدة الرصافى وكلمتـه تقاطع بالتصفيق الحار مرة بعد مرة(٨٢) •

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة ان الرصافي كان صدر أمـر تعيينه وكيلاً لرئيس لجنة ترقية العلوم في وزارة المعارف قبل الوليمـــة بأربعة أيام •

وفي ١١ تموز عندما انعقد مجلس الوزراء قـدم النقيب اقتراحـاً

---

(٨٢) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٩ تموز ١٩٢١ •

يطلب فيه المناداة فوراً بفيصل ملكاً على العراق بشرط أن تكون حكومته دستورية نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون . وقد وافق المجلس على هذا القـــرار .

وقد كتبت المس بيل فيما بعد تصف التبدل الذي حدث في موقف النقيب تجاه فيصل ، حيث تحول من موقف المبغض المعادي الى موقـف المحب المناصر ، فذكرت انها زارت النقيب في بيتـه فوجدته في غايـــة الانشراح ومسروراً جداً بموقفه الجديد من فيصل . وقد تحدث اليها قائلاً : « خاتون ، انت ابنتي ، أريد أن أخبرك بكل ما يجول في خاطري . فأنا منذ مجيء السر برسي كوكس لم أفعل بخلاف نصيحته أو رغبـة الحكومة البريطانية . واني حين علمت بأن فيصل يصلح لأن يكون ملكاً، وان الحكومة العظيمة تؤيده ، صممت أن أتجنب كل الاقاويل والاشاعات وأقوم بنفسي لأعلن ملكيته في مجلس الوزراء . فقد تساءلت في نفسي : هل استشير السر برسي كوكس ؟ فأجابني عقلي باني قد أصدرت قراري واذا خالفني السر برسي فيه فاني لا أستطيع تغييره . فانا رجل عجوز ، وليس مسؤولا الا أمام الله . ولهذا لم استشر أحداً »[٨٣] .

والملاحظ ان النقيب لم يكتف بتبديل موقفـه من فيصل بل بـدل موقفه من الديمقراطية أيضا اذ صار يدعو اليها بعدمـا كان ينفر منهـا ويكرهها . وقد أشارت المس بيل الى ذلك في رسالة لها مؤرخة في ٢١ آب ، حيث قالت ان النقيب أصبح في هذه الايـام يدعو للديمقراطيـة . وتبدي المس بيل دهشتها من ذلك وتساءل : كيف ان النقيب الارستقراطي الاصيل يدعو للديمقراطية ؟ ! ثم تروي المس بيل في هذه المناسبة قصة طريفة جرت للنقيب في تلك الايام وخلاصتها ان شيخاً من شيوخ قبيلة

---

(83) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 231.

شمر زار النقيب في بيته فسأله النقيب : « هل أنت ديمقراطي ؟ » فكان جواب الشيخ : « لا والله ، أنا مو مغراطي » • ثم تساءل الشيخ عنها ما هي ؟ فقال النقيب : « زين ، أنا شيخ الديمقراطية » • • فاستدرك الشيخ ظناً منه انه كان مخطئاً في جوابه حيث قال : « دخيل الله ! اذا أنت شيخ المغراطية فانا واحد منهم ، أنا خادمك ، بس هيه شنهي ؟ » فشرح لـه النقيب الديمقراطية قائلاً : انها تعني المساواة بين الناس فليس فيها صغير أو كبير • فلم يعجب الشيخ هذا القول اذ أدرك أن الديمقراطية تعني زوال مشيختة القبلية فقال ما معنـاه : اذا كانت هذه هي المغراطية فالله يشهد اني لست منها(٨٤) •

أهم الحفلات :

ان المدة التي قضاها فيصل في العراق قبل تويجه بلغت شهريـن ـ أي منذ ٢٣ حزيران الى ٢٣ آب ـ وقد أقيمت له خلالها حفـلات تكريمية عديدة لا يسعنا المجال استقصاءها ، انما نذكر شيئاً عن أربع منها لما لها من دلالات اجتماعية وتاريخية •

أولى تلك الحفلات هى التى أقامتها بلدية بغداد في حدائق مود التي كانت تقع في الصالحية بجانب الكرخ ، وقد جرت في مساء ٣٠ حزيران ـ أي في اليوم التالي لوصول الامير الى بغداد ـ وحضرها كوكس وزوجته والجنرال هالدين والمس بيل وكثيرون من كبار العراقيين والبريطانيين • ولوحظ ان معظم القصائد والخطب التي القيت فيها تضمنت الاشارة الى الامير فيصل باعتباره ملك العراق ومنقذه •

افتتح الحفلة عبدالمجيد الشاوي بكلمة ترحيبية ثم استأذن من الامير في تقديم ما أعده الادباء لهذه المناسبة من منظوم ومنثور • ثم وقف خليل أمين آل المفتي حيث ألقى قصيدة ختمها بالبيت التالي :

---

(84) Lady Bell (op. cit.) - j. 499.

قد دعوناك علينا ملكاً   ليس نرضى عنك يوماً بدلاً

فصفق الحاضرون لهذا البيت واستعادوه ثلاث مرات ، وارتفعت الاصوات من بينهم قائلة : « قد بايعناك بالملوكية »[(٨٥)] . وبعد هذا قام الزهاوي فألقى قصيدته التي مطلعها :

انا محيوك فاسلم ايها الملك

ومصطفوك لعرش شاءه الفلك

وتلاه الشيخ مطلق القطيفي فالقى قصيدة كان لها تأثير خاص على المدعوين ، فهو كان من خطباء المنبر الحسيني وله صوت جهوري ونغمة موسيقية . وقد وصفت المس بيل قصيدته بقولها : انها كانت طويلة جداً لم أفهم منها كلمة واحدة ولكنها مع ذلك كانت رائعة ، فقد كان الرجل يتلوها بتنغيم ، ويرفع يده الى الاعلى بين كل فترة واخرى ، وكان الظلام المخيم بين الاشجار حول الحاضرين يؤثر عليهم بما يشبه تأثير التنويم المغناطيسي[(٨٦)] .

ثم ألقى محمد حسن كبة قصيدة وكلمة وصف فيها فيصل بأنه « نابليون العدنانيين » و « بسمارك القحطانيين » ، وأعقبه محمد باقر الحلي بقصيدة كان مطلعها :

الشعب قاصيه معاً والداني

بقدومك الميمون مبتشران

وفي الختام ارتجل الامير كلمة شكر فيها الشعراء على قصائدهم غير أنه انتقدهم على غلوهم في مدحه ومدح أبيه باعتبار ان أباه لم يقم بثورته إلا من باب القيام بالواجب وقال لهم انه لا يرغب بعد الآن إلا في سماع كلام

---

(٨٥) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ٢ تموز ١٩٢١ .

(86) Lady Bell (op. cit.) - p. 490.

التشجيع على العلم والأدب ونهضة الفنون ، فقوبلت كلمته بالهتاف والتصفيق حسب العادة .

أما الحفلة الثانية التي تلت تلك في الاهمية فهي الحفلة التى اقامتها المدرسة الجعفرية في صباح ٩ تموز في دارها الواقعة في محلة سوق الغزل، وشارك فيها الزهاوى وكاظم الدجيلي وعبدالحسين الازرى وباقر الشبيبي وابراهيم ناجي المحامى . وقد ارتجل الامير في الختام كلمة شكر فيها الحاضرين واعاد فيها ماقاله في مناسبات سابقة حيث قال :

« أقول ، والله ، والله ، والله ، ماقمت بحركة مؤملا غاية دنيوية او راجيا شيئاً ماديا ، ولا عملت طلبا لفخر او مقام و مركز ، كلا لم اقم أنا ولم يقم والدى ولا احد من افراد اسرتي بعمل من اعمال النهضة ولهم مطمع في شيء ، بل انما قمنا بأعمالنا ابتغاء لوجه الله الكريم ليس الا .. أقسم بشرفي وتربة اجدادى لولا الالحاح من اكثر اصدقائي ومجموع الامة العراقية لما خطر ببالي أن آتي العراق ... ».

وعند هذا قام احمد الشيخ داود فقال يخاطب الامير : « انت الرئيس المفدى الذى التفت حوله القلوب ، ولا نرضى بغيرك » . ثم التفت نحو الواقفين وخاطبهم : « أتبايعون رجلا بالملوكية غير سمو الامير فيصل المعظم ؟ » فأجابوه بأصوات عالية : « كلا ثم كلا ، لقد بايعنا فيصل بالملوكية ولا نريد غيره » . وانطلقت عندئذ عشرات الهتافات ..[٨٧] .

ومن الجدير بالذكر انه بعد مرور يومين على هذه الحفلة خرجت جريدة « دجلة » وهى تتهكم على موقف احمد الشيخ داود فيها ، حيث قالت عنه أنه صرخ في الحاضرين يسألهم : هل تريدون غير سمو الامير ملكا على العراق ، ثم التفت نحو الامير قائلا : « انهم بايعوك »[٨٨] . وكانت

(٨٧) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١١ تموز ١٩٢١
(٨٨) جريدة « دجلة » في عددها الصادر في ١١ تموز ١٩٢١ .

الجريدة تقصد من ذلك أن الحاضرين لم يجيبوا بشيء على سؤاله بل هو الذى اجاب بالموافقة من تلقاء نفسه • وقد نشر سلمان الشيخ داود في جريدة « العراق » ينتقد جريدة « دجلة » على ذلك ويقول انها خالفت الحقيقة فيما ذكرته عن ابيه ورجا منها ان تكون اكثر تبصرا فيما تنشر • وعلقت جريدة « العراق » على ذلك قائلة : بأن رسائل استياء عديدة وصلتها حول هذا الموضوع[٨٩] •

أما الحفلة الثالثة فهي الحفلة التى اقامها اليهود ببغداد فى صباح ١٨ تموز ، وقد قدم فيها رئيس الحاخامين الى الامير نسخة مذهبة من التوراة ومعها لوح ثمين كتبت عليه عبارة من التوراة هى : « بارك يارب قوته ، وارتضى بعمل يديه ، وحطم متون مقاوميه ومبغضيه حتى لايقوموا » • فتسلم الامير النسخة وقبلها وشكر مقدمها • ثم ألقى سليم افندى معاون رئيس الحاخامين كلمة ترحيبية ، وقام بعده فتى اسمه أنور شاؤول فألقى قصيدة • ثم نهض الزهاوي فألقى أبياتا وكلمة فلسفية في ضرورة الاتحاد بين البشر • وبعد هذا أخرجت التوراة الاصلية من موضعها وهى لاتخرج الا للملوك والعظماء • وفى الختام ارتجل الامير كلمة قال فيها : انى لاأريد ان اسمع كلمة مسلمين ومسيحين واسرائيلين ، فالعراق وطن القومية ، وليس فيه سوى أمر واحد هو أن يقال عراقيون فقط[٩٠] •

ولم تسكت جريدة « دجلة » عن هذا القول الذى فاه به فيصل في وجوب عدم التمييز بين المسلمين وغيرهم ، فقد نشرتها بشكل مثير للرأى العام مما أدى الى استياء بعض القراء على نحو ما حدث حول حفلة الجعفرية • والظاهر ان هذه الجريدة ظلت مثابرة على طريقتها في الاساءة الى الامير فيصل وانصاره ، فكانت تتحين الفرص لها بكل وسيلة ممكنة •

---

(٨٩) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١٣ تموز ١٩٢١ •
(٩٠) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١٦ تموز ١٩٢١ •

أما الحفلة الرابعة فهى التى اقامها علي السليمان شيخ مشايخ الدليم في ٢٥ تموز على الشاطىء الايمن من الفرات بين الفلوجة والرمادى • وكانت هذه الحفلة ذات دلالة خاصة لانها كانت ذات طابع بدوى الى حدما، ويقال ان الانكليز هم الذين دبروها لكي يثبتوا للامير انهم حلقة الوصل بينه وبين القبائل(٩١) •

أعطتنا المس بيل وصفا لتلك الحفلة في احدى رسائلها ، وكانت هى قد حضرتها بصحبة فخرى الجميل ، فقالت ان علي السليمان نصب خيمة كبيرة بلغ طولها نحو مائتي قدم ، وأعد منصة في طرف منها فوقها منضدة وكراسي ، فجلس الامير بملابسه العربية على كرسى وراء المنضدة وجلس فهد الهذال شيخ مشايخ عنزة على يمينه ، بينما جلس مابين اربعمائة وخمسمائة رجل من افراد القبائل في صفوف متراصة على الارض• وأخذ الامير يخاطب الحاضرين بلهجته الحجازية ، فقال لهم : انه منذ أربع سنوات لم يجد نفسه في مكان مثل هذا المكان أو صحبة مثل هذه الصحبة • ثم تكلم عن مستقبل العراق وكيف انه سينهض بجهودهم تحت رئاسته ، وسألهم : « ايها العربان ، هل انتم متسالمون فيما بينكم ؟ » فأجابوه بصوت مرتفع : « نعم ، نعم ، نحن متسالمون » • وعند هذا قال فيصل : « ابتداء من هذا اليوم » وتوقف لحظة ليسأل عن تاريخ اليوم والساعة ولما أجابه أحد الحاضرين به حسب التقويم الهجرى والساعة الغروبية استأنف كلامه : « من هذا اليوم ، ١٩ ذي القعدة ، ومن هذه الساعة ، الرابعة صباحاً، ان أي رجل يرفع يده على رجل آخر هو مسؤول أمامى فانى سوف أقضي بينكم في مجالس يحضرها شيوخكم ، وهذا حقي عليكم أنا ولي أمركم »• وهنا قاطعه رجل منهم كبير السن قائلا « وحقوقنا ، أليس لنا حقوق ؟ » • فأجابه فيصل : « نعم لكم حقوقكم كرعية ومن واجبى أن أحافظ عليها » • وهكذا استمر فيصل في كلامه ، وكان الحاضرون يؤيدون على مايقول :

---

(٩١) أمين الريحانى (المصدر السابق) ــ ص ٩١ــ٩٣ •

« نعم ، نعم ، نوافق ، نعم ، والله » . وعندما انتهى من كلامه قـام علي السليمان وفهد الهذال كل من جانب وقالا له : « نحن نبايعك لان الحكومة البريطانية قبلت بك » ، ففوجىء فيصل بهذا القول ، والتفت نحو المس بيل مبتسما ثم قال : « ان علاقتى مع الانكليز معروفة لاشك فيها . ولكننا يجب أن نسوي أمورنا فيما بيننا » . والتفت فيصل نحو المس بيل مرة اخرى ، فرفعت هي يديها مضموتين الواحدة على الاخرى دلالة على الاتحاد بين العرب والحكومة البريطانية...[٩٢]

التنافس على الولائم :

أصبح الامير فيصل فى تلك المدة التى قضاها قبل تتويجه غارقا فـي طوفان عارم من الاماديح والتزلفات التى لانهاية لها . فقد انثال الناس عليه من كل جانب ، كل منهم يطلب الحظوة لديه بما يتفوه به من معسـول الكلام . وكان للشعراء القدح المعلى في ذلك كما هو شأنهم في مثل هذه المناسبات . ولعلني لااغالي اذا قلت ان السيد طالب لو كان هو المرشـح لعرش العراق بدلا من فيصل لاقبل الناس يتزلفون اليه على نحو ما يفعلون الآن مع فيصل .

كان من مظاهر هذا الطوفان اقامة الولائم الخاصة من قبل وجهاء المدن ورؤساء العشائر ، فكان كل واحد منهم يحب أن ينال الجاه بدعـوة الامير الى بيته ، وقد صار الامـير لهذا في حيرة من أمـره لايدري مـاذا يفعل ، فاذا قبل دعوة احد منهم غضب الآخرون عليه . وكانت تلك مشكلة اقضت مضجعه .

لكي يطلع القارىء على صورة من هذه المشكلة أذكر له قصة وليمة من تلك الولائم الكثيرة التى اقيمت لفيصل ، وهى وليمة السيد جعفر عطيفة رئيس بلدية الكاظمية . فقدكان هذا الرجل قوي الصلة بالانكليز منـذ بداية احتلالهم بغداد ، وكان يكثر من الاحتفاء بهم واقامة الولائم لهـم

---

(92) Lady Bell (op. cit.) - p. 405 - 407.

ويقف في خدمتهم كلما جاؤوا الى الكاظمية • • وكانت له في الوقت نفسه منافسة على رئاسة البلدة مع الحاج عبدالحسين الجلبي ، وقد ساءه أن يذهب الامير فيصل الى بيت الجلبي دون ان يأتي الى بيته •

تقول المس بيل في رسالة لها : ان السيد جعفر عطيفة جاء يشكو اليها قائلا بان شرفه قد أنكسر لأن الامير زار الكاظمية مرتين دون ان يقترب من بيته • وتصف المس بيل في رسالتها السيد جعفر بأنه خدم الانكليز ووقف الى جانبهم بشجاعة حتى صار عرضة لعداء المتعصبين ، ولهذا فانها قالت له عندما جاءها شاكيا : « ولا يهمك ، اذهب الى فيصل وادعه لتناول الشاى في بيتك وانا سوف أدعو المندوب السامى والقائد العام ••»[٩٣]

استعد السيد جعفر لإقامة الدعوة بكل مايقدر عليه ، وكان رجلا واسع الثراء ، وقيل انه انفق عليها ما يقارب الستين ألف روبية وهو مبلغ عظيم في تلك الايام • وقد كلف رجلا ارمنيا مشهورا بصنع الحلوى ببغداد ان يصنع له من الحلويات مالا مثيل له ، وكان مقدار مادفعه للارمني فى ذلك ثلاثة آلاف روبية • وتصف المس بيل في رسالتها المائدة التى اعدت في ذلك اليوم فقالت : انها لم تشهد في حياتها مائدة تحتوى على مثل هـذه الكثرة من الحلويات والفواكه[٩٤] •

جرت الدعوة في عصر الثلاثاء ١٦ آب ، وعند انتهاء المدعوين من تناول الشاى قدم السيد جعفر الى الامير هدايا لاتقـدر بثمن كان من بينها سجادتان عليها رسم أحمد شاه ، وساعة أثرية مذهبة ذات اربـع عقارب ، وخاتم ذو فص من الزبرجد النادر، وجبتان مبطنتان بالفرو الثمين• ولم ينس السيد جعفر ان يقدم الى كوكس وهالدين والمس بيل هدايا ثمينة • وقـد اشيع فى حينه ان السيد جعفر انما فعل كل ذلك نكايـة بالجلبي •

(93) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 286.
(94) Loc. cit.

الفصل الثالث

فيصل ملكاً

قبل وصول فيصل الى العراق كان الانكليز لايدرون هل سينجح في نيل رضا العراقيين أم لا • انهم كانوا كالوالد الذى يرسل ابنه الى الامتحان وهو يرقبه عن كثب ليرى هل سينجح في الامتحان ام يرسب •

ولم تمض أيام قليلة على وصول فيصل الى العراق حتى تأكد الانكليز من نجاحه • قالت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٧ تموز : « ان شخصية فيصل اجتازت ثلاثة ارباع الطريق »[1] • ويذكر غريفز الاسباب التى ساعدت فيصل على النجاح وهي : انه كان حسن الصورة مهذبا وقورا ، وكانت خطبه تثير الاعجاب في الشكل والمحتوى ، كما كانت انجازاتـــه وسلوكه في الحرب دليلا على شجاعته وقوة عزمه[2] •

والواقع ان فيصل كانت له قدرة على اجتذاب قلوب الناس اليه ، وكانت له لهجة في الحديث حجازية وهي لهجة محببة الى العراقيين • واذا تكلم فى اجتماع كان كلامه مباشرا لاحذلقة فيه ولا تصنع • أضف الى ذلك انه كان يحدث كل فئة من الناس بما يلائمها ، وقد ظن الكثير من الشيعة انه منهم لكثرة ماكان يشير في خطبه الى مناقب الائمة من اهل البيت ويصفهم بأنهم أجداده ويقسم بتربتهم • يروي توماس ليل انـه سـأل عبدالواحد الحاج سكر : كيف جاز له وهو الرجل الشيعى المتدين ان يطالب بفيصل ملكا مع أنه سني • فأجابه عبدالواحد قائلا : « ولكنه في أعماق قلبه شيعى »[3] • ويحكى ان جماعة من شيوخ الفرات الاوسط

---

(1) Lady Bell (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - p. 491.
(2) Graves (Sir Percy Cox) - London, Second Impression - p. 209.
(3) Thomas Lyell (Ins And outs of Mesopotamia) London 1923 - p. 206.

كانوا في زيارة لفيصل فسأله أحدهم : « يرحم أبوك يامحفوظ ، هل أنت شيعي أم سني ؟ » فأطرق فيصل قليلا وأخذ يتحسس لحيته بيده ثم قائلا : « هل يجوز للانسان أن يترك أمه ويلزم زوجة أبيه » .

يقول امين الريحانى : ان فيصل كان يخص كل فريق من الناس وكل وفد من الوفود بكلمة توجيها اليه تقاليدهم ونزعاتهم السياسية والدينية ، فكان يناشد الشيعة بوحدة الاسلام والاخاء الاسلامى ، ويتلو على اهل السنة من صفحات العباسيين الذهبية ، ويذكرهم بالرشيد والمأمون ، وما كان للعرب من فضل على الاوربيين ، وكان يصرح ويؤكد للاقليات أنه مقيم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الرعية على اختلاف المذاهب الدينة...[4] .

فيصل والخالصي :

أهم نجاح حققه فيصل في هذا السبيل حصوله على بيعة المجتهد الكبير الشيخ مهدى الخالصي في الكاظمية . فقد كان الشيخ مهدى الخالصى يمقت العائلة الهاشمية لوقوفها في الحرب الى جانب الانكليز الكفار . وكان ولده الاكبر الشيخ محمد أكثر مقتا للعائلة الهاشمية منه . وحين جاء فيصل الى العراق أخذ يبذل جهده في التقرب الى الشيخ مهدى والتحبب اليه . ولكن الشيخ محمد كان يبذل جهده من جانبه في مقاومة هذا التقرب والتحبب بين فيصل وأبيه . وقد استطاع فيصل أخيرا ان ينال رضا الشيخ مهدى ويحصل على بيعته . ننقل فيما يلي شيئاً مما كتبه الشيخ محمد فى مذكراته عن هذا الموضوع . وهذا نصه :

« ... كان فيصل قد علم أنه لاتتم له بيعة في العراق مالم يبايعه أبي. ومن يعرف فيصلا يعلم أنه مجسمة الخداع والتزوير غير محسود عليهما

(٤) امين الريحانى (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ٩٠ .

ولا محمود بهاتين الصفتين . فتظاهر بمظهر ديني ملؤه الاخلاص للاسلام والمسلمين وزار والدى مرارا فى مدرستنا فى الكاظمية بزي عرب الحجاز يحمل قطعة من ستار الكعبة مكتوبا عليها آية الكرسى بالذهب ، مظهرا أنه لاغاية له الا نشر تعاليم القرآن وتأييد الكعبة وتخليص البلاد الاسلامية من تسلط الاجانب ، وأهدى تلك القطعة الى أبي ، وخلا به في احدى زياراته له وأظهر أنه انما جاء العراق لينقذه من الانكليز وان عمله لايتم الابموافقة أبي وبيعته له ، فان بايع والاّ اضطر فيصل الى الرجوع من حيث أتى . فقال له أبي : يمكن ان نبايعك على ان تكون ملكا على العراق مستقلا منقطعا عن أي سلطة اجنبية بأي اسم كان بحيث لايشوب استقلال العراق أي شائبة مهما كانت ، فان تم ذلك بقيت في العراق ملكا والاّ انصرفت وتركت العراقيين والانكليز حتى يأخذوا حقهم ويبلغوا غايتهم . فقال فيصل لأبى: اني أبايعك على هذا الشرط . فأحضر القرآن الكريم بينهما تيمنا وتبركا ، وبايع فيصل أبي على أن يطيع أمره في انقاذ العراقيين من الانكليز وتحصيل الاستقلال التام الناجز الذى لاتشوبه أي شائبة مهما كان اسمها ورسمها ، فاذا لم يستطع ذلك فارق العراق لاول اشارة تصدر من أبي، وترك العراقيين وشأنهم . بايع فيصل هذه البيعة واشهد الله تعالى على ذلك ، وبايعه أبي على هذا الشرط . هذا ماكان بينهما سرا . ولما أراد الانصراف أخذ بيدى وقال : هلم لنعمل معاً ونسعى متفقين في استنقاذ العراق وحفظ استقلاله واني مستعد لاجراء اى عمل ينفع البلاد فما يمنعك من الموافقة ؟ فلم أجبه بشيء لأني ماكنت أحب أن أفاجئه بما يكره في دارنا ، وما كنت لأقره بغير الحق . فانصرف وشايعته الى باب المدرسة كارها ، وعدت الى والدى وقلت له : ان هذا الرجل أول من شق عصا المسلمين وأعان عليهم اعداءهم ... فكيف يصح قبوله والبيعة له بالامارة ؟ وما هى وسيلة الاطمئنان من هذا الرجل مع سوابق السوء منه ضد المسلمين وان اشترط ألف شرط في ذلك،

وبماذا نلزمه بالوفاء اذا تخلف عن هذه الشرائط بعد أن يتسلط على العراق ؟ ولقد أخبرني بعض خاصته (مولود باشا مخلص) انه كان في سوريا يخذل السوريين ويسعى في اخضاعهم للفرنسويين بكل ما يتمكن ، لكن السوريين لم يطيعوه ، فعلم الفرنسيون انه لايفيدهم شيئاً في سوريا ولا يستطيع التأثير على السوريين واسكاتهم ، فطردوه بعد يأسهم من فائدته ... وان هذا الرجل صنيعة الانكليز وعاملهم وأجيرهم ضد المسلمين من أول الحرب العالمية الى هذا اليوم فكيف يصح الاعتماد عليه وتسليم العراق له ؟ فلما سمع أبي ذلك تلا قوله تعالى : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً) ، وقال يجوز أن يكون الانكليز قد اتخذوا آل الشريف لمصالحهم فيجعل الله من آل الشريف أنصاراً للمسلمين اعداءا للانكليز . فقلت في نفسي : (والذي خبث لا يخرج الا نكدا) . ولم أكن أجرأ على مكالمة والدي اكثر من ذلك ، ولما انفض الاجتماع دعاني أبي الى الدار وقال: أتحسب أنك تعلم مالم أعلمه انا !؟ ان فيصلا فوق ماذكرت ولكني خشيت أن يبايعه الناس بيعة مجملة ولا قوة لنا على طرده فيذهب حق العراقيين بامضائهم صك العبودية جهلا ولو باسم فيصل ، فأردت أن اعلم الناس كيف يبايعون ليبقى حق العراق محفوظا متى طالب العراقيون به ...»(٥)

ويضيف الشيخ محمد الى ذلك : ان فهمي المدرس جاء الى والده مرسلا من فيصل يطلب منه أن يكتب بيعته لتنشر على الناس . وقد عارض الشيخ محمد كتابة البيعة ولكن والده أصر على كتابتها . وبعد الانتهاء منها أخذها فهمي المدرس ، فنشرت في الجرائد في اليوم التالي كما نشرت على حدة في منشور خاص . وفيما يلي نص البيعة نقلا عن جريدة العراق :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نقتي .

الحمد لله الذي نشر لواء الحق على رؤوس الخلق ، فأيدهم بالنصر

---

(٥) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

برئاسة من حاز الشرف والفخر ، الملك المطاع ، الواجب له علينا الاتباع ، الملك المبجل ، عظمة مليكنا فيصل الاول دامت شوكته ، نجل جلالة الملك حسين الاول دامت دولته ، فاحكموا بيعته ، وأبرموا طاعته ، واهتفوا باسمه، مذعنين لحكمه ، ونحن ممن قد اقتفى هذا الأثر ، وبايعه في السر والجهر، على ان نكون ملكا على العراق ، مقيدا بمجلس نيابي ، منقطعا عن سلطة الغير ، مستقلا معه بالامر والنهي ، ولله الأمر .

٧ ذى القعدة ١٣٣٩

الراجي عفو ربه
محمد مهدي الكاظمي
عفي عنه(٦)

بيعة أهل الاعظمية :

من الجدير بالذكر ان أول بيعة مسجلة اعلنت في العراق لفيصل هى بيعة أهل الاعظمية ، وهى جرت في ١١ تموز ، وذلك قبل بيعة الخالصى بيومين . وقد نشرت جريدة العراق تفصيلا عنها نقلا عن مكاتبها في الاعظمية بالعنوان التالي : « مبايعة أهل الاعظمية لسمو الامير فيصل بملوكية العراق ـ أول بيعة صدرت » .

ذكرت الجريدة ان اجتماعا كبيرا عقد هناك من اجل البيعة في قصر ناجي الخضيري بناء على دعوة من رئيس البلدية علي ظريف الاعظمي وحضره وجهاء البلدة ورؤساء العشائر المحيطة بها ، وهم بني ركاب والسواكن والبومفرج وبني عمير وألبو محلة وعشيرة الهيب والجلاعطة والنداوات . وقد افتتح الاجتماع بتلاوة آى من الذكر الحكيم ، ثم قام عبدالهادى الاعظمي وقال ان سباقا يجري بين الناس لمبايعة الامير فيصل بالملوكية ويجب ان يكون أهل الاعظمية السابقين لغيرهم في هذه المبايعة ، وختم كلمته بالهتاف بحياة الملك فيصل الاول وحياة الاستقلال ، فردد

(٦) جريدة « العراق » في عددها الصادر في ١٦ تموز ١٩٢١ .

الحاضرون هتافه • ثم قام رئيس البلدية يسألهم في أمر البيعة فأجابه الحاضرون بالموافقة وأنهم لا يتخلف منهم أحد ، وناداهم : « هل بايعتم ؟ » فأجابوه بصوت واحد : « نعم بايعنا » وناداهم مرة أخرى : « هل فيكم مخالف ؟ » فقالوا : « كلا ثم كلا ثم كلا ! » • وقرر الحاضرون توقيع ثلاث مضابط أنابوا فيها رئيس البلدية للذهاب الى الامير فيصل ومبايعته عنهم • وعند هذا تلا المقرىء قوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله • يد الله فوق ايديهم • فمن نكث فانما ينكث على نفسه • ومن عاهد الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » • وألقى الملا نعمان الاعظمي دعاءاً تضرع فيه الى الله ان يؤيد الأمة بتوفيقاته الصمدانية • وهتف الجميع « فليحي سلطان العراق فيصل المعظم ، فليعش الاستقلال » •

وفي مساء اليوم التالي عقد اليهود الساكنون في الاعظمية اجتماعا خاصا بهم في قصر يعقوب الجوهري ، وجرى في هذا الاجتماع مثلما جرى بالامس في اجتماع المسلمين ، ونادوا جميعا بمبايعة الامير فيصل ، ونظموا مضبطة أنابوا فيها يعقوب الجوهري ونسيم يامين للذهاب الى الامير مع رئيس البلدية لاجل مبايعته عنهم[٧] •

الطريقة المضمونة :

كان لدى بعض الوطنيين المتحمسين رغبة في ان يعلنوا الامير فيصل ملكا في الحال دون حاجة الى استفتاء الشعب • ولكن فيصل لم يكن راغبا في ذلك ، كما كان كوكس غير راغب أيضا • يقول غريفز : « ان كوكس وفيصل كانا معا يعارضان أية محاولة من الوطنيين المتطرفين في استعجال التتويج فقد كان كل منهما يشعر بأن ملك العراق يجب أن لايكون مدينا في عرشه الى عملية استحواذ غير دستورية من قبل حزب معين ، بل يجب أن يكون تتويجه بارادة من الشعب وبطريقة دستورية • وقد شعر كل

---

(٧) جريدة العراق في عددها الصادر في ١٣ تموز ١٩٢١ •

منهما أن تتويج ملك عن طريق حزب معين يجعله عرضة لان يكون اسيرا سياسيا بين يدي ذلك الحزب الذى ساعده في سرعة الوصول. وكان كوكس يشعر بالاضافة الى ذلك أن الحكومة البريطانية التى سهلت الامور لفيصل تستحق ان تتمتع ببعض ثمرات نجاحها »(٨) .

كان الاتجاه السائد في ذلك الحين ان يقوم مجلس تأسيسى منتخب بترشيح فيصل وتتويجه على منوال ما جرى فى سوريا . ولكن ذلـــك يستغرق وقتا طويلا ، وهو مع ذلك غير مضمون ، وقد كانت التجربة التى وقعت في سوريا غير مشجعة لما اعتورها من حماس واندفاع شـــعبي متطرف .

اهتدى كوكس اخيرا الى الطريقة الملائمة وهى طـــريقة تنظيـم « المضابط » وتوقيع الناس عليها . ويقال ان ناجي السويدى هو الذى هداه اليهـــا(٩) . وليس من المستبعد ان يكون السويدى قد استوحى الفكرة من أهل الاعظمية وهم الذين نظموا اول مضبطة في بيعة فيصل على نحو مـــا ذكرناه آنفا .

وفحوى هذه الطريقة ان يدعى الوجهاء والرؤساء في كل ناحية من نواحي العراق ، او مدينة ، الى اجتماع في مكان معين ، فاذا تم الاجتماع نهض احد المسؤولين ليتكلم عن الغرض من الاجتماع ويذكر مناقب الامير فيصل وأهليته لتولي الملك ، ثم يسأل الحاضرين : هل من معـــارض ؟ فيجيبونه : لا ، لا . ثم يسألهم : هل توافقون ؟ فيقولون : نعـــم ، نعم . وعند هذا يعرض عليهم ورقة المضبطة ، وهى مطبوعة ومعدة سلفا ، فيوقعون عليها . وينتهى الاجتماع حسب المرام إذ يعتبر ذلك بيعة من جميع السكان للامير فيصل بالملك .

---

(8) Graves (op. cit.) - p. 299 - 300.

(٩) خيري العمري (حكايات سياسية) ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ ص ٨٥ .

بدأت عملية تنظيم المضابط والتوقيع عليها في أواخر تموز ، وانتهت في ٦ آب • وجرت في الغالب حسبما كان متوقعا لها ، حيث أقبل الرؤساء والوجهاء في معظم مناطق العراق على توقيع المضابط التى قدمت لهم بلا معارضة • ولم يشذ عن ذلك سوى قليل منهم ـ كما سنأتي اليه •

وتروى في هذا الصدد قصة طريفة لها دلالتها ، هي ان مدير ناحية طاووق من لواء كركوك كان قد تلقى أمراً بتنظيم مضبطة لبيعة فيصل ولكنه سمع بعد قليل ان الانكليز عدلوا عن ترشيح فيصل ، فاحتار المدير في أمره، ولم تكن وسائل المخابرات البرقية والتلفونية يومئذ ميسورة ، فلجـأ الى تنظيم مضبطتين احداهما بقبول فيصل ، والثانية برفضه • وقد وقع الاهالي على المضبطتين معا ، وذهب بهما المدير الى مستشار اللواء الكابتن مئر • وحين سأله المستشار « اين المضبطة ؟ » أجابه : « ايهما تريد ؟ » وعرض عليه المضبطتين ، فأخذهما المستشار كلتيهما[١٠] •

الواقع ان هذه القصة ليست غريبة في عرف تلك الايام بالنظر الى ما اعتاد عليه الوجهاء والرؤساء في العراق من فعل اى شيء يريده الحكام منهم • ومن الطريف أن ننقل هنا ما ذكره غريفز عن جماعة من شيوخ العمارة انهم حين سألهم كوكس عقب مؤتمر القاهرة عن نوع الحكم الذى يطلبونه أجابوا قائلين : « الله والينا ، محمد نبينا ، كوكس حاكمنا »[١١] •

حركة للمعارضة :

جرت عملية تنظيم المضابط في العراق حسب المرام ـ كما اشرنا اليه آنفا • ولم يقع ما يخالف المرام فيها الا في بغداد • ويقول غريفز ان فتوى الخالصي كان لها بعض الأثر في اثارة روح المعارضة هنالك[١٢] •

---

(١٠) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ـ صيدا ١٩٦٥ ـ ج١ ص ٤٣ •

(11) Graves (op. cit.) - p. 301.

(12) Ibid, p. 300.

كان اجتماع بغداد قد جرى في سينما رويال في ٢٨ تموز • وحين قام متصرف بغداد رشيد الخوجة يطلب من الحاضرين الموافقة على المناداة بفيصل ملكا انبرى له أحدهم قائلا : « اننا موافقون متفقون على المناداة بسمو الامير فيصل ملكا على العراق الا انا نريد أن نضع بعض الشروط » وعند هذا ارتفعت الاصوات من انحاء القاعة : نعم ، نعم • وضجت القاعة بالتصفيق • وبعد المداولة تقرر اضافة بعض العبارات على صيغة المضبطة وهي ان تكون الحكومة « مستقلة مجردة من كل قيد ومنقطعة عن سلطة الغير » ، وأن يكون أول عمل يقوم به الملك فيصل هو « تأليف وجمع المؤتمر العام الذي يسن القوانين والدستور خلال ثلاثة أشهر من حين تسلمه زمام الامور »[١٣] • ويقال ان هذه العبارات أثارت غضب كوكس وجعلته يحقد على رشيد الخوجة ، وقد أدت أخيرا الى اقالته من منصبه[١٤] •

ومن الجدير بالذكر ان السيد محمد الصدر قد حاول القيام بمثل هذه الحركة في الكاظمية ولكن فيصل منعه منها • فقد دعا الصدر الى بيته في احدى الليالي عددا كبيرا من الوجهاء ورجال الدين بغية التوقيع على مضبطة يبايعون فيها فيصل مع النص على رفض الانتداب البريطاني • وبينما كان المدعوون مجتمعين في بيت الصدر ، ذهب رجل معروف من أهل الكاظمية الى فيصل ، فأيقظه من نومه ، وأخبره ان مؤامرة تحاك ضده في الكاظمية• فأرسل الملك أحد مرافقيه الى الصدر يستدعيه اليه • وهنا نترك المس بيل تحدثنا عما جرى من حديث بينهما حسبما ذكرته في رسالة لها مؤرخة في ٢٧ تموز ، فهي تقول في ذلك ما نصه :

---

(١٣) حسين جميل (من التراث الديمقراطي في العراق) ـ مجلة «الهلال» ـ في عددها الصادر في شهر كانون الاول ١٩٦٦ •

(١٤) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج١ ص٥١ •

« ان جماعة المتطرفين بذلوا جهدا يائسا لاستبدال الصيغة الرسمية للبيعة بصيغة اخرى تتضمن الرفض التام للتحكم البريطاني فأستدعى فيصل محمد الصدر الذي كان أساس الحركة وأعطاه انذارا واضحا قائلا له : انه الآن الملك من الناحية العملية وأنه لايتحمل أي عمل سخيف ، وان كل من يقلق الرأى العام سوف يلقى جزاءه ....»[١٥] .

ان حركة المعارضة هذه التى جرت في بغداد والكاظمية اثارت انزعاج كوكس وجعلته يوعز الى المسؤولين في الالوية بأن يشجعوا الأهالى على اضافة فقرات على المضابط يطلبون فيها الانتداب البريطاني . فقد عثرت من بين وثائق البلاط الملكي على رسالة شخصية مؤرخة في يوم ٢٥ ذى القعدة ١٣٣٩ هـ - وهو يوافق ٣١ تموز ١٩٢١ م - مرسلة من الديوانية من رجل اسمه عبدالمجيد فؤاد زادة الى يوسف السويدى ، يقول فيها : ان الوطنيين في الديوانية يريدون الاقتداء ببيعة حجة الاسلام الخالصى ولكن المستشار البريطانى وأعوانه من الوجهاء والرؤساء يبذلون كل جهدهم لتبديل المضابط ولاشتراط الوصاية البريطانية فيها . وقد ذكر صاحب الرسالة نص البيعة التى حاول هؤلاء فرضها على الاهالي وهى : « ابايع الامير فيصل بان يكون ملكا على العراق تحت وصاية الانكليز » . ويقول ان هذه الفقرة يجب ان يكتبها كل شخص فوق توقيعه والا طردوه[١٦] .

نتائج المضابط :

في ١٩ آب كانت جميع الالوية قد ارسلت الى بغداد مضابطها التى تم التوقيع عليها ما عدا لواءالمنتفك . وفيما يلي خلاصة لما ورد فى تلك المضابط حسب الالوية .

لواء بغداد : صدرت منه ١٥٧ مضبطة وهى كلها تبايع الامير فيصل ،

(15) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 230.

(١٦) من وثائق البلاط الملكي - رقم الاضبارة ك/١١ ، رقم الوثيقة ١٦٥ .

ولكن ٦٨ منها تطالب ان يكون منقطعا عن سلطة الغير ، وان ينعقد المؤتمر الوطني الذي يمثل الشعب خلال ثلاثة اشهر •

لواء البصرة : صدرت منه ٤٧ مضبطة كلها تبايع فيصل . ولكن معظم الموقعين عليها رفضوا في البداية التوقيع قبل أن يعرفوا مصير فكرة الانفصال التي دعوا اليها من قبل ويتأكدوا من استمرار الانتداب البريطاني•

لواء الموصل : صدرت منه ٦٨ مضبطة حتى الآن وهي كلها مؤيدة لفيصل ، ولكن ٦ منها اصرت على حماية حقوق الاكراد والاقليات الاخرى، و ٧ منها اشترطت استمرار الانتداب البريطاني بالاضافة الى حماية حقوق الاقليات ، و ١٠ منها ذكرت شروطا اخرى بخصوص اللغة الكردية وغيرها • ولا تزال هناك مضابط أخرى في الطريق •

لواء كركوك : صدرت منه ٢٠ مضبطة مؤيدة لفيصل . و ٢١ رافضة له • وان المضابط المؤيدة جاءت كلها من منطقة أربيل التي كانت تابعة للواء كركوك في ذلك الحين • وهناك مضابط أخرى لم تصل بعد •

لواء الدليم : صدرت منه ٣٦ مضبطة كلها تبايع فيصل ، ولكن ١٦ منها تشترط عليه ان يقبل بالاشراف البريطاني •

لواء الحلة : صدرت منه ٤١ مضبطة كلها تبايع فيصل ، ولكن ١٣ منها تعلن بصراحة انه مقبول على شرط استمرار الانتداب البريطاني •

لواء كربلاء : صدرت منه ٢٨ مضبطة وهي كلها تبايع فيصل وخالية من اى شرط •

لواء ديالي : صدرت منه ٤١ مضبطة وهي كلها تبايع فيصل وخالية من أي شرط[١٧] •

التتويج :

في أواسط شهر آب بعد ان اطمأن فيصل من نتائج المضابط وايقن ان تتويجه سيتم قريبا عمد الى استئجار دار لسكناه خاصة به • وقد وجد

(17) Atiyyah (IRAQ) — Beirut 1973 - p. 392.

دارا مناسبة تعود لرجل يهودى اسمه شعشوع ، وتقع على شاطى النهر في منتصف الطريق بين بغداد والاعظمية ، وهى التى عرفت بين الناس باسم « قصر شعشوع » • فانتقل اليها فيصل مع الاحتفاظ بمقره الرسمى في القشلة[18] •

تقول المس بيل : انها زارت فيصل في داره الجديدة عند الغروب في ١٥ آب ، فكان هو ومرافقوه جالسين على سطح الدار ، وكان منظر النهر والبساتين خلفه رائعا فتسبط الملك معها وقال لها : « انت عراقية ، انت بدوية•• »[19] •

لم يستمر انشراح فيصل واطمئنانه ، فبعد فترة قصيرة جدا وردت برقية من تشرتشل يقول فيها ان فيصل يجب ان يعلن في خطبة التتويج ان السلطة النهائية هي بيد المندوب السامي • فاحتج فيصل مصرحا بان الاتفاق الذى تم معه في لندن لا يتضمن ذلك ، وان من الواجب أن تصان كرامته ويظهر أمام الناس بمظهر الملك المستقل ، والا فأنه لايستطيع ان يكسب الى جانبه الوطنيين المتطرفين[20] • وقد أظهر كوكس شيئا من التردد تجاه هذا الموقف ولكن المس بيل اقنعته قائلة ان ليس من الاهمية طلب سلطة لايمكن فرضها بالقوة[21] • فابرق كوكس الى تشرتشل يذكر له الأثر السيء الذى سيحدثه البيان المطلوب عند التتويج ، وقال ان سلطة كافية يمكن فرضها على البلاد بأساليب أقل وضوحا[22] • فوافق تشرتشل على هذا الرأي في اللحظة الاخيرة •

---

(١٨) انهار هذا المقر في السنة التالية حيث جرفه تيار النهر ، فشيد للملك بلاط جديد في بستان تعود للاوقاف في منتصف الطريق بين بغداد والاعظمية بالقرب من قصر شعشوع ، وهو لايزال قائما •

(19) Lady Bell (op. cit) - p. 499 - 500.

(٢٠) فيليب آيرلاند (العراق) — بيروت ١٩٤٩ — ص ٢٦٢ •

(21) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 238.

(٢٢) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) — ص٢٦٢ •

تقرر أن يكون التتويج في يوم ٢٣ آب ، وقد اختار فيصل بنفسه هذا اليوم لانه يوافق يوم ١٨ ذي الحجة حسب التقويم الهجري ، وهو اليوم الذى يعتبره الشيعة عيدا لهم يسمونه « عيد الغدير » ويعتقدون ان النبي نصب فيه علياً للخلافة من بعده . وقد أراد فيصل بأختياره هذا اليوم تذكير الشيعة بأنه من سلالة الامام علي وأن تتويجه يجرى في نفس اليوم الذى نصب فيه جده للخلافة .

وقد جرى التتويج في ساحة القشلة قرب برج الساعة حيث نصبت منصة لجلوس الملك وحاشيته ، وخصص للملك كرسى متميز له ظهر مرتفع ، كما صفت الكراسي تجاه المنصة لجلوس المدعوين ، وأحضر عدد من الجنود البريطانيين لأداء التحية باعتبارهم حرس الشرف ، وجوق موسيقى لعزف النشيد الملكى . وفى الساعة السادسة صباحا خرج فيصل من مقره الرسمي على النهر ، يحف به السر برسي كوكس والجنرال هالدين ويتبعه كورنواليس وحسين افنان واثنان من المرافقين هما تحسين قدرى وأمين الكسباني . واتجهوا جميعا نحو المنصة على طريق مفروش بالسجاد . فجلس فيصل على كرسيه الخاص بينما جلس كوكس عن يمينه وهالدين عن يساره . وجلس السيد محمود النقيب الى يسار هالدين. وتقول المس بيل : « ان فيصل كان وقورا ولكنه متوتر جداً ، فهى كانت لحظة مثيرة ، وأخذ ينظر الى الصف الامامى فوقع نظره علي ، فأعطيته تحية صغيرة[٢٣] للتشجيع »[٢٤] .

بدأ كوكس الحفلة بأن ناول حسين افنان بلاغا لقراءته ، فقرأه حسين وفحواه : ان الامير فيصل قد تم انتخابه ملكا على العراق بأكثرية ٩٦ بالمائة من السكان ، ثم هتف قائلا « يحي الملك » . ونهض محمود النقيب فألقى دعاءاً بالمناسبة ، وعند هذا رفع العلم العراقى ، وعزف الجوق الموسيقي

(23) Lady Bell (op. cit.) - p.500.

(24) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 239.

النشيد الملكى البريطانى لعدم وجود نشيد عراقى • ثم أطلقت المدافع احدى وعشرين طلقة •

ثم نهض الملك فألقى خطبة طويلة ننقل منها بعض الفقرات فيما يلي:

« أتقدم الى الشعب العراقى الكريم بالشكر الخالص على مبايعته أياي مبايعة حرة دلت على محبته لي وثقته بي •• وهنا واجب آخر يدعونى لان أرتل آيات الشكر للامة البريطانية اذ أخذت بناصر العـــرب في أوقات المحرب الحرجة ، فجادت بأموالها ، وضحت بأبنائها ، في سبيل تحريرهم واستقلالهم ••• وقد صرحت مرارا بأن ما تحتاج اليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها ، وبما أن الامة البريطانية أقرب الامم لنا ، وأكثرها غيرة على مصالحنا ، فاننا سنستمد منها ونستعين بها وحدها على الوصول الى غايتنا المنشودة فى اسرع وقت • ولا يغرب عن الاذهان انه اذا كان الناس على دين ملوكهم فالملوك على دين شعوبهم ، فعلى قدر التضامن يكون النهوض ••• واني لاآلو جهداً بأن استعين برجال الامة على اختلاف مواهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم فالكل عندى سواء ••• والامة بمجموعها هى حزبي ، لاحزب لي سواها ••• وان اول عمل أقوم به هو مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسى ••• فالى الاتحاد والتضامن ، الى الروية والتبصر ، الى العلم والعمل ، أدعو أمتي ، والله الموفق والمعين »[٢٥].

لم تستغرق الحفلة وقتا طويلا ، وتقول المس بيل انها عند انتهاء الحفلة ذهبت الى دائرتها ، وأخذ الزوار يتقاطرون اليها وهم في الغالب من المدعوين الذين حضروا الحفلة ، وكان علي السليمان أحدهم فصار يحدثها عـــن انطباعاته في الحفلة ، وقال لها : « والله ، لقد كان السر برســي كوكس

---

(٢٥) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) ـج١ ص ٤٧ •

كالقمر بينهم ، وكان وجهه كالجنة...»[٢٦] .

كان السيدمحمد الصدر قد أرسل الى الملك رسالة يهنؤه فيها بتسنم العرش ويقترح عليه أن يزور الكاظمية بغية التيمن بمشهد الامام الكاظم[٢٧] . وقد استجاب الملك لهذا الاقتراح وحضر الى الكاظمية في صباح ٢٥ آب ، حيث اقيمت له حفلة في الصحن الشريف . وقد افتتح الحفلة محمد عبدالحسين ، ثم قام السيد محمد الصدر وقدم للملك سيفاً ذا غمد مذهب وارتجل كلمة طلب فيها تحقيق أماني الشعب ، فأجابه الملك بأنه سيبذل جهده في هذا السبيل . وعند هذا حدثت مفاجأة لم يكن أصحاب الحفلة على علم مسبق بها ، وهي ان الشاعر رشيد الهاشمي نهض وألقى قصيدة تائية لاتخلو من غمز بالملك . وفيما يلي بعض ابياتها :

يالابس التاج في بغداد هُنّيتا
به اذا كنت لاستقلاله جيتا

فزنه بالعلم والعدل الأعم ولا
ترصع لزينته دراً وياقوتا

واستعمل الحزم وانقذ أمة نصبت
من بعد نهضتها للذل طاعوتا

ياقائد الشعب لاتفسد قيادته
ولا يرى لك حبل العهد مبتوتا

واهجم على الشام واركز عند هامته
رمح العراق وجاورها بتكريتا

ماذا أقول لقوم بننا نقضوا
عهداً رأيناه عند الضيق مثبوتا

---

(26) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 239.

(٢٧) عن وثائق البلاط الملكي – رقم الاضبارة ك/١١ ، رقم الوثيقة ٣٠٨.

يا أمــــة نقضـت بالشــــام حلفتنــــا
لقد عطست فهل أســـمعت تسميتا[٢٨]

حدثني سامي خوندة وكان حاضرا في الحفلة : انه لاحظ امتعاضا بدا على الملك من هذه القصيدة ، فخشي على رشيد الهاشمي ان تعتقلـه الشرطة من جرائها ، فخرج معه قبل انتهاء الحفلة وذهب به الى بيت السيد محمد الصدر للاحتماء به من الاعتقال •

والغريب ان جريدة « دجلة » حين وصفت الحفلة في اليوم التالي لم تذكر هذه القصيدة بل ذكرت قصيدة أخرى فيها مدح للملك عظيم[٢٩] • ويبدو ان الشاعر كان قد أعد في تلك المناسبة قصيدتين فأنشد احداهما في الحفلة وأعطى الثانية الى الجريدة •

الوزارة الجديدة :

لم يكد الملك ينتهي من مشاكل التتويج حتى بدأ يواجـه مشـاكل الدولة ، وكانت اولى تلك المشاكل حول تشكيل الوزارة الجديدة • فقـد استقالت الوزارة النقيبية حسب الاصول ، وكان كوكس يريد اسناد رئاسة الوزارة الى النقيب مرة أخرى بينما كان الملك يريد اسنادها الى رجل غير متهم بالتعاون مع الانكليز •

أرسل الملك عبدالواحد الحاج سكر الى النجف ليطلب من رجال الدين فيها التعاون معه في تشكيل الوزارة • وقـــد ذهب عبدالواحد الى النجف ، وبعد المداولة مع بعض رجال الدين فيها أرسل الى الملك رسالة هذا نصها :

(٢٨) عبدالله الجبوري (ديوان رشيد الهاشمي) ـ بغداد ١٩٦٤ ـ ص ٦٩ ـ ٧٠ •

(٢٩) جريدة « دجلة » ـ في عددها الصادر في ٢٦ آب ١٩٢١ •

بسمه تعالى

لاعتاب جلالة حضرة مليكنا المعظم

لايخفى على جلالتكم أني اجتمعت في النجف بخدمة حضرات العلماء الاعلام حجتي الاسلام حضرة الشيخ شيخ جواد صاحب الجواهر وحضرة الشيخ شيخ عبدالكريم الجزائرى وبقية العلماء العظام • وبينت لهم حسن نواياك الاسلامية • وكثير ظهر منهم التشكر التام لجلالتك • وقد أمروني أن أكتب لجلالتك عنهم مزيد امتنانهم منك وتبريكهم لحضرتك بتبوء عرش العراق الذى هو من أهم الثغور الاسلامية ويدعون للموكيتك بالتسديد ولشخصك بالتوفيق للخدمات الاسلامية وطول البقاء • وقد أمروني أيضا أن أعرض لحضرتك أنهم بعد أن ائتمنوك على ملوكية العراق فهم يأتمنوك أيضا على تعيين الوزراء بنظرك العالي • ولا يقبل كل فرد منهم أن يكون شاغلا لأحد هذه المناصب قطعيا • ولا يمكن ذلك • سوى أنهم يأملون من جلالتك أن لاتجعل فى هذه المناصب الا المتدين المسلم الوطني خصوصا رئاسة الوزارة وأخص منها وزارة الداخلية فان عليها المعول بعد الله حيث يترتب عليها أمور مهمة تخص تشكيل المؤتمر المطلوب من حضرتكم تشكيله بالوقت العاجل على الوجه الكامل • وينتظرون من جلالتك سرعة التلبس بما يرجونه من جلالتكم • وفي هذه المدة يراقبون ويترقبون من جلالتك وعدك لهم بحسن الاحوال وتحصيل الامانى • وأهم ما عندهم فعلا سرعة اقدامك في تعيين وزير للداخلية متدين عارف بتعيين المأمورين الذين بسببهم يصلح تشكيل المؤتمر أو يفسد والله الموفق والمعين •

٢٥ ذى الحجة ١٣٣٩ — عبدالواحد حاج سكر (٣٠)

---

(٣٠) عن وثائق البلاط الملكى ـ رقم الاضبارة ك/١١ ، رقم الوثيقة ٢٦٤ •

رضخ الملك أخيرا لمشيئة كوكس في اسناد رئاسة الوزارة الى النقيب، ولكن مشكلة أخرى واجهته حول من يتولى وزارة الداخلية . تقول المس بيل في رسالة مؤرخة في ٤ ايلول : ان الاسبوع الماضي كان كله مشغولا بمشكلة تشكيل الوزارة الجديدة ، وقد أرسل الملك يستدعيني في يوم الاربعاء ، ولما ذهبت اليه أخذ يحدثني بجدية حول الوزارة ، وكانت بؤرة المشكلة وزارة الداخلية التي ظلت شاغرة منذ ابعادالسيد طالب . فالملك يعتقد ان هذه الوزارة هي المقياس الذي سيقيسه الناس بها ، فاذا عيّن فيها رجلا إمعة معروفاً بخضوعه للانكليز حكم الناس على الوزارة كلها بأنها مهزلة ، وحكموا على الملك بأنه ألعوبة بيد الانكليز(٣١) .

صار الاتجاه أخيرا الى تعيين ناجي السويدي لوزارة الداخلية ، ولكن كوكس لم يوافق على هذا التعيين . وتعلق المس بيل على ذلك قائلة : ان كوكس مصيب لأن ناجي السويدي على الرغم من أنه ذكي وحسن النية لكنه لايوثق به ، فاذا تولى وزارة الداخلية كان من الواجب علينا مراقبته مراقبة دقيقة لكي لاينحرف عن الطريق المرسوم . وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : انها ذهبت هي وكورنواليس الى كوكس لاقناعه بالموافقة على تعيين السويدي غير أنه أصر على رفضه(٣٢) .

وقع اختيار كوكس على توفيق الخالدي غير ان الملك لم يوافق على ذلك . فقد كان الملك يتهم الخالدي بميله الى الاتراك . وكان الاتــراك يومذاك يبثون دعايتهم في العراق ضد فيصل والانكليز ، وقد جاءوا بالسيد أحمد السنوسي الى مقربة من حدود العراق الشمالية لاعلان الجهــاد ، واشيع ان الفرنسيين في سوريا ارسلوا الى السنوسي مبلغا قدره عشرون ألف باون لمساعدته في الجهاد .

(31) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 242.

(32) Loc. cit.

ذهب جعفر العسكري الى المس بيل وقال لها : ان تعيين الخالدي في مثل هذه الظروف أمر مهلك لانه يدعم الميالين للاتراك في العراق ويعرقل عمله في وزارة الدفاع • وهو لذلك يرغب في الاستقالة • وذهب نورى السميد بعدئذ الى المس بيل وقال لها مثل ذلك وأخذ يحذرها من الميالين للاتراك الموجودين فى العراق • وقد اعترضت المس بيل على نورىالسعيد قائلة له : ان الخطر لايكمن في هؤلاء المؤيدين للاتراك وحدهم بل هـــو يكمن أيضا في جنون أصحابه المتطرفين • فرد عليها نوري قائلا :ان المتطرفين ليسوا خطرين الى هذا الحد مادامو يحملون الشعور العربى ، وان سيدى فيصل يعرف كيف يتعامل معهم ، وهم سوف يختفون[٣٣] •

استمر الخلاف والجدال في هذا الشأن ثلاثة أسابيع تقريبا ، وأخذ الملك يهدد بأنه يريد الذهاب الى لندن ليضع القضية بين يدي المسؤولين هناك • وذهب كورنواليس اليه بصحبة الكولونيل جويس ، كما ذهبت اليه المس بيل ، وصاروا يحاولون اقناعه بعدم الذهاب الى لنـــدن فى الوقت الحاضر ، حيث قالوا له بأن الناس سيفسرون ذهابه بانه نتيجة نزاعه مـع كوكس حول تشكيل الوزارة ، وهذا أمر مضر بهما معا • وتقول المس بيل : « أعتقد أننا استطعنا أن نقنعه ، ولكننا لم نتقدم أية خطوة فى طريق تشكيل الوزارة »[٣٤] •

تم الاتفاق أخيرا على اسناد وزارة الداخلية الى ضابط غير معروف كان رئيسا للتجنيد اسمه الحاج رمزى ، اما ناجي السويدى فقد عين وزيرا للعدلية • وقد اجري تغيير على وزارة المعارف والصحـة حيـث جعلـت وزارتين منفصلتين فأسندت وزارة المعارف الى الشيخ عبدالكريم الجزائرى ، أما وزارة الصحة فاسندت الى طبيب مسيحي من الموصل اسمه حنا خياط •

(33) Ibid. vol. 2, p. 242 - 245.
(34) Ibid. vol. 2.p. 242.

وتقول المس بيل : انها هي التي عينت حنا خياط في الوزارة اذ قدمته الى كوكس واقترحت عليه فصل وزارة الصحة عن وزارة المعارف ، فكان لها ما أرادت(٣٥) .

وأعلن تشكيل الوزاوة الجديدة في ١٢ ايلول ١٩٢١ ، فكان فيهـا النقيب رئيسا للوزراء ، والحاج رمزي وزيرا للداخلية ، وناجي السويدى للعدلية ، وجعفر العسكرى للدفاع ، وعـزت الكركوكلي للاشـغال والمواصلات ، وعبداللطيف المنديل للتجارة ، ومحمد علي فاضل للاوقاف، وحنا خياط للصحة ، وعبدالكريم الجزائرى للمعارف .

ولم يكد يعلن تشكيل الوزارة حتى ارسل عبدالكريم الجزائرى من النجف اعتذارهعن الاشتراك فيها، وهنا بدأ التداول والجدالمن جديدحول من يتولى وزارة المعارف على شرط أن يكون شيعيا . وتم الاتفاق أخيرا على اختيار السيد هبة الدين الشهرستانى من كربلاء وجاء الى بغداد لتولى الوزارة .

الشيعة ومدرسة الحقوق :

بعد انتهاء الملك من مشكلة الوزارة الجديدة ، بدأ يواجه مشـكلة أخرى هى ضرورة ادخال شبان من الشيعة في الوظائف الحكومية ، غـير انه لم يجد بين الشيعة عددا كافيا من ذوى التعليم الحديث الذين يصلحون لاشغال تلك الوظائف . وبعد المداولة مع مستشاريه ، ولا سيما سكرتيره رستم حيدر ، استقر رأيه على تشجيع الاذكياء من شبان الشيعة من ذوي التعليم القديم على الدخول فى مدرسة الحقوق التى كانت قد أعيد فتحها في خريف السنة الماضية .

كان توفيق السويدى قد عين مديرا لمدرسة الحقوق في تشرين الثاني

(35) Ibid vol. 2, p. 244.

١٩٢١ خلفا لمديرها السابق الكولونيل بيل • وقد أشار السويدي في مذكراته الى المشكلة التي حدثت آنذاك حول قبول الشبان الشيعة في المدرسة فقال مانصه :

« ومما أذكر انه حدث في يوم من الايام ان أتاني البعض من طلاب الدخول ، بأيديهم أوراق ممضاة من قبل الشيخ شكر مدير المدرسة الجعفرية يشهد فيها ان الطالب حاملها هو من خريجي الثانوية ، مع علمي بان المدرسة لم تصل الى الدرجة الثانوية لا في عهد الاتراك ولا في عهد الاحتلال • فأفهمت الطالب المتقدم بأن عليه ان يصدق شهادته من وزارة المعارف أو يدخل امتحان الفحص لاثبات كفاءته الثانوية • ثم اعقبه عدة شبان يدعون أنهم متخرجون من المدرسة الجعفرية ويحملون مثل هذه الورقة الغريبة • ويحضرني من أسمائهم : عبدالرزاق الازرى ، وعباس مهدى ، ومحمد حسن كبة ، وأحمد زكي الخياط ، ومحمد الشماع ، وعبدالحميد مهدى ، وعبدالهادى الظاهر ، وسعد صالح ، وجعفر حمندى ، وغيرهم • فرفضت قبولهم والاعتماد على الاوراق التى فى ايديهم • عندئذ راجعوا الحكومة وراجعوا البلاط • وفي ذات يوم أتاني المرحوم محمد رستم حيدر قائلا لي : ان جلالة الملك يرغب في مساعدة هؤلاء وقبولهم في الكلية! فأفهمته وضعهم القانوني•••ولما أصر علي رستم بأن أبذل جهدي لمساعدتهم قائلا : ان جلالة الملك يرغب أكيدا بان يقبل هؤلاء فى الكلية ، أجبته : بأن دخول الطلاب للمدارس العالية بارادات ملكية قد مضى دوره ، وهذه أمور كانت تقع في زمان السلطان عبدالحميد ••• ولهذا فاني آسف لعدم تمكني من أن أعمل شيئاً لهم اذا لم يحققوا ماطلبته منهم • فذهب غاضبا ولم يرجع ثانية ••• »(٣٦) •

لم تنته المشكلة عند هذا الحد ، فقد كان الملك مصرا على ادخال

(٣٦) توفيق السويدى (مذكراتي) – بيروت ١٩٦٩ – ص ٧٦–٧٧

اولئك الشبان في مدرسة الحقوق ، وقد اضطر توفيق السويدى أخيرا الى قبولهم • ويدعي السويدى ان الملك أرغم ساطع الحصرى الذى كان مديرا عاما للمعارف آنذاك على المصادقة على شهاداتهم ، ثم أتوا اليـــه بعدئذ فقبلهم في المدرسة « وأمره الى الله »[٣٧] •

مما يجدر ذكره ان هذا الذي ذكره توفيق السويدي في مذكراته لم يؤيده ساطع الحصري عليه • فقد ذكر الحصرى فى مذكراته انه لم يصادق على شهادات الشبان الشيعة ولكن السويدى هو الذى تساهل فى قبولها • ويعطينا الحصرى تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع تسيء الى مكانة السويدى إذ يقول بأن السويدى انتهز الفرصة وأخذ يتساهل في قبول شهادات الارمن واليهود بالاضافة الى شهادات الشيعة ، حتى بلغ الأمـر بمدير مدرسة الاليانس أنه أخذ يعطي الشهادة المزورة لمن يرغب فيها لقاء خمسين روبية ، وكذلك فعل آرتين كيدوريان مدير مدرسة الأرمن لقـــاء ثلاثين روبية • أما الشيخ شكر فكان يعطي الشهادة مجانا « لوجه الله » • ويقول الحصري : انه لما واجه السويدى بهذه الحقيقة أجابه السويدى قائلا : « مولانا ، هل تظن أنا ماكنت أعرف الحقيقة ، ان الملك طلب أن نتساهل في قبول الجعفرية ، وأنا تســـاهلت في قبول الجعفرية وغـــير الجعفرية »[٣٨] •

ويضيف الحصرى الى ذلك قائلا : انه راجع الملك في هذه القضية وبين له الاضرار التى تنتج عنها فأجابه الملك : « أنا ماقلت لهم أن يقبلوا أيا كان ، ولا أن يقبلوا شهادات مزورة • كل مافى الامر أني خلال حديثي مع الوزراء قلت لهم نحن امام مشكلة • الجعفرية يشكون من قلة الموظفين من مذهبهم • وتعرف ان السبب الاصلي في ذلك هو قلة حملة الشهادات

---

(٣٧) المصدر السابق ـ ص ٧٧

(٣٨) ساطع الحصرى (مذكراتى في العراق) ـ بـــيروت ١٩٦٧ ـ ج١ ص ٤٠٨ •

منهم • والحكومة تضطر الى تعيين أشخاص ناقصي الدراسة ، الا يمكن أن يجدوا طريقة لحل هذا الاشكال ، وضمان دراسة الشبان الجعفرية الذين فات عليهم وقت الدراسة سابقا » • وقد اقترح الحصري على الملك لحل المشكلة أن يفتح ثانوية مسائية يستطيع الكسبة والموظفون ان يدرسوا فيها لكي يتمكنوا بعدها من دخول المعاهد العالية • وقد أعجب الملك بهـــــذا الاقتراح وأسست الثانوية المسائية على الفور[٣٩] •

الملك في محـــــرم :

حل شهر محرم عامذاك في ٤ ايلول ، وهو الشهر الدى يعلن الشيعة فيه حدادهم على مقتل الحسين بن علي • وقد اهتم الملك فيصل بهذا الشهر على نحو مافعل الانكليز عقب احتلالهم بغداد ، حيث ساعد المواكب الحسينية بمبالغ من المال وأهدى صفائح النفط لمشاعل المواكب الليلة ، كما اوعز ان يقام باسمه وعلى نفقته الخاصة مجالس تعزية في صحن الكاظمية فـــي العشرة الثانية من محرم • وحضر الملك بنفسه مجلس التعزية غير مرة ، وجلس في أحد اواوين الصحن بين رجال الدين •

وفي اليوم العاشر من محرم وهو اليوم الذي تقام فيه تمثيلية مقتــل الحسين في صحن الكاظمية ، حضر الملك الى الصحن مع حاشيته ، وكانت قد أعدت له المقصورة الكبيرة التى تقع فوق باب القبلة ، فجلس فيهـــا وأخذت المواكب تمر من أمامه ، وأمر باهداء الخلع الى النواحين في المواكب والى القائمين بتمثيل المقتل •

ومما لفت الانظار في ذلك اليوم وجودالعلم العراقى الجـــديد ذى الالوان الاربعة بين اعلام المواكب ، وكانت تلك اول مرة يرفع فيها العلم العراقى في المواكب الحسينية • والظاهر ان بعض القائمين بشؤون المواكب امتعضوا من وجود هذا العلم بين الأعلام في ذلك اليوم ، فهو في نظرهـــم

(٣٩) المصدر السابق ـ ج١ ص ٤٠٩ •

العلم الذى رفعه الشريف حسين عند تحالفه مع الانكليز الكفار ضد الدولة العثمانية المسلمة بينما كان المجتهدون فى العراق يرفعون علم الجهاد لنصر الدولة العثمانية . ولهذا رأينا حامل العلم يسير في أثناء التمثيل الى جانب ممثل عمر بن سعد وليس الى جانب ممثل الحسين أو أخيه العباس أو غيرهما من أهل البيت .

كان ساطع الحصرى حينذاك جالسا في المقصورة الصغيرة المجاورة لمقصورة الملك . وقد لفت نظره هذا المنظر ، كما أشار الى ذلك في مذكراته . فهو يقول فيها : انه لاحظ العلم العراقى محمولا الى جانب ممثل عمر بن سعد وهو قائد الجيش الاموي المعادى للحسين ، فكان العلم يسير معه اينما سار ، وكانت اللعنات تطلق من حناجر الناس ــ ومن النساء بوجه خاص ــ كلما ظهر ممثل عمر بن سعد . ومعنى هذا ان العلم العراقى كان يسير في موكب القائد الذى يلعنه الناس .

أخذ الحصرى يفكر بالمحاذير العظيمة التي تنجم عن ذلك ، فالتفت الى الخلف فرأى بين المرافقين صبيح نجيب ، وهو يعرفه من ايام دمشق لانه كان مرافقا للامير زيد ، فقال له : ان حامل العلم يجب ان يسير الى جانب ممثل الحسين وليس الى جانب ممثل عمر بن سعد . فنزل صبيح نجيب من المقصورة ليعطي التعليمات للمسؤولين عن تنظيم الاحتفال . وقد أطاع حامل العلم ما أمر به فصار يتباعد عن ممثل عمر ، ويتوجه نحو ممثل الحسين . ولكنه لم يكد يقترب من ممثل الحسين حتى أخذ الممثل يدفعه بشدة ، وكلما حاول حامل العلم السير بجانبه كان هو يكرر الدفع له ، ويظهر علائم الغضب والتأنيب . وجاء صبيح نجيب الى الحصرى يسأله : « ما العمل ؟ » فقال الحصري : « أحسن طريقة ، الآن ، أن ينسحب حامل العلم من الميدان بهدوء ، دون أن يلفت أنظار الناس . والمهم أن لايسير بجانب الفارس الذى يمثل عمر » . وهكذا تم انسحاب حامل العلم من الصحن الشريف .

ويقول الحصري : انه بعد العودة الى بغداد روى القصة الى الملك ، فاستغرب الملك منها وقال « ان ذهني كان مشغولا بسماع بعض الشروح وتتبع حركات المواكب وأصوات الجماهير ، فلم انتبه الى اوضاع العلم » وقد استصوب الملك الطريقة التى عالج الحصرى بها ذلك الامر(٤٠) .

قائممقام سامراء :

كان الشيخ مهدي الخالصي يريد ان يكون لسامراء قائممقام يداري زوار الشيعة ويدرأ الأذى عنهم ، وقد وقع اختياره على رجل من أهل الكاظمية يحمل الجنسية الهندية اسمه أغا محمد . وكتب بذلك كتابا أرسله الى الملك فيصل . وحين تلقى الملك رسالة الخالصي صادف أن دخل عليه علي البازركان فأخذ يشكو اليه من هذا الطلب الذى يريده الخالصي ومن صعوبة تحقيقه . يقول علي البازركان في ذلك مانصه :

« ... ذهبت في ذات يوم لزيارة جلالة الملك فيصل الاول في قصر شعشوع ، وكنت أدخل عليه بلا استئذان ، فشاهدته في غرفته وهو يتناول الشاي فلما رآني قال لي : أنظر ياعلي ، وأعطاني رسالة واذا بها من الامام الشيخ مهدى الخالصي الى الملك فيصل يطلب فيها أن يعين المرزا محمد الهندى معاون حاكم الكاظميةالسياسى قائممقاما لقضاء سامراء لخدماته التى قدمها للمسلمين . ثم علق جلالته على تلك الرسالة : ماذا سيقول الناس عني اذا عينت هنديا في هذا المنصب ، ولماذا قمتم انتم بثورتكم ضد الانكليز ألاجل ان اعين لكم الهنود في مناصب الدولة ، وهل ليس فى العراق من يصلح لهذه المناصب ؟ فقلت له : سيدى ، اننى سأعمل لك عملا يرضيك في هذه المشكلة . فأبتسم جلالته وقال لي : إن استطعت ان تعدل الشيخ مهدى الخالصي عن تعيين هذا الهندى فستجعلنى ممنونا لك »(٤١).

---

(٤٠) المصدر السابق ـ ج١ ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٤١) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ١٧٧ .

وأخذ البازركان من جانبه يعمل لاقناع الخالصي بالعدول عن رأيه . فذهب اولا لمقابلة الحاج كاظم ابو التمن في محله في السوق ، ثم ذهبا معاً الى الكاظمية لمقابلة الشيخ مهدى الخالصى . ولما تحدثا الى الخالصى في الموضوع قال لهما : « نعم أنا الذى طلبت تعيين المرزا محمد من الملك فيصل الاول لانه من الاخيار » . فقال له البازركان : « وهل خلا العراق من الاخيار والمخلصين حتى نطلب تعيين الهنود ؟ » فقال الخالصي : « انني لا أعرف رجلا يصلح لهذا المنصب غيره » ، فقال البازركان : « أنا اعرف شخصا وأظنه سيكون عند حسن ظنكم » ولما تساءل الخالصي عن هذا الرجل من هو ، أجابه البازركان بأنه جلال بابان .

وفي اليوم التالي جاء علي البازركان الى الخالصي وبصحبته جلال بابان لتقديمه اليه فأمر الخالصي ابنه الشيخ محمد بأن يحرر كتابا الى الملك يطلب فيه تعيين جلال بابان بدلا من أغا محمد . وأسرع البازركان فأخذ الكتاب وذهب به الى الملك . وحين تسلم الملك الكتاب قال يخاطب البازركان : « بارك الله فيك ياعلي انقذتني » . ثم تناول الملك قلما وأحال الكتاب الى وزير الداخلية حيث كتب عليه : « انني منتظر القرار كما جاء في هذا الكتاب » . وقد حمل البازركان الكتاب الى وزير الداخلية، فلما قرأه الوزير قال : « ياعلي انك لم تنقذ جلالة الملك من هذه المشكلة فقط بل أنقذتنا جميعا »[٤٢] .

وفي ٤ كانون الاول ١٩٢١ باشر جلال بابان بوظيفته في سامراء[٤٣]، وأخذ يبذل جهده في مداراة الزوار ودرأ الاذى عنهم .

---

(٤٢) المصدر السابق ـ ص ١٧٧ ـ ١٧٩ .

(٤٣) يونس ابراهيم السامرائي (تاريخ مدينة سامراء) ـ بغداد ١٩٧٣ ـ ج٣ ص ٨٢ .

غارة « الاخوان » :

بينما كان الملك فيصل يتقرب الى الشيعة ويتحبب اليهم على النحو الذي ذكرناه وقعت حادثة كانت بمثابة القنبلة هزت المجتمع العراقي وكانت سبباً في ازدياد التقرب بين الملك والشيعة .

ففي ١١ آذار ١٩٢٢ بينما كانت بعض العشائر العراقية ترعى مواشيها في موقع جنوب الناصرية على بعد ثلاثين ميلا من سكة الحديد أغارت عليها قوة كبيرة من « الاخوان » الوهابيين التابعين لابن سعود بقيادة فيصل الدويش ، فأوغلت فيها نهبا وتقتيلا . وقد قدرت المصادر العراقية عدد القتلى بما يقارب السبعمائة ، كما قدرت المنهوبات بـ ١٣٠ فرسا ، و ٢٥٣٠ بعيرا ، و ٣٨١١ حمارا ، ٤٣٠١٠ شاة ، و ٧٨١ بيتاً[٤٤] .

أثارت الحادثة رعبا شديدا في العراق ولا سيما بين عشائر الفرات الاسفل والاوسط ، وظن الكثيرون أنها مقدمة لهجوم وهابي عام على العراق وان الاخوان سيذبحون البشر كما يذبحون الغنم وسيهدمون العتبات المقدسة وينتهكون حرمات النساء ويهلكون الحرث والنسل . ومما يجدر ذكره ان العراق كان قد عانى في الماضي من غارات الوهابين وشهد مافي تلك الغارات من نهب وسفك . أضف الى ذلك ان العشائر العراقية وصلتها أخبار مبالغ فيها عن ضراوة « الاخوان » وشدة ميلهم الى النهب وسفك الدماء . فأدى ذلك الى انتشار موجة من الذعر بين الناس وساد الهلع .

يجب أن لاننسى ماكان بين العائلتين الهاشمية والسعودية من عداء قديم ، وعندما حدثت غارة « الاخوان » تألم الملك فيصل منها ألما شديدا ، وقد زاد في ألمه ما وجد لدى كوكس من فتور وتردد في اتخاذ التدابير الرادعة ضد « الاخوان » .

---

(٤٤) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ــ ج١ ص ٥٩ .

الواقع ان الانكليز كانوا قد أرسلوا طائرة استطلاع الى موضع الغارة حال سماعهم بها ، فأطلق « الاخوان » الرصاص عليها وأصابوها مما ادى بالانكليز الى توجيه أربع طائرات أخرى اليهم ، فقذفتهم تلك الطائرات بعدد من القنابل ووجهت عليهم رصاص الرشاشات • وقد اصيبت أحدى الطائرات أثناء ذلك وسقطت على الارض غير ان الطيار ومساعده نجيا وتمكنا من الوصول الى سكة الحديد بعد سير على الاقدام لمسافة خمسة وعشرين ميلا • وفى صباح اليوم التالي أرسل الانكليز أربع طائرات أخرى ، فلحقت « الاخوان » وأمطرتهم بالقنابل والرصاص ، وقد أصيبت طائرتان منها ، ولكنها عادتا سالمتين •

كان الشائع في العراق آنذاك ان غارة « الاخوان » جرت بايعاز من الانكليز ، او برضا منهم على الاقل ، على أساس ان الصداقة التى تربط بين كوكس وابن سعود وثيقة جدا وليس من المعقول أن يفعل ابن سعود ما يغضب صديقه كوكس • وقد حاول كوكس ان يدرأ هذه التهمة عنه فكتب الى الملك رسالة يخبره فيها بما اتخذته القوة الجوية البريطانية من اجراءات ضد « الاخوان » • فأرسل الملك اليه جوابا يبدى فيه شكره على ما فعلت الطائرات البريطانية ولكنه أعلن عن رأيه في ضرورة اتخاذ اجراءات أشد ، وأشار الى ان الحكومة العراقية لاتملك السلطة او الصلاحية الكافية للدفاع عن حدود البلاد وان العشائر أصبحت غير واثقة من مقدرة الحكومة على حمايتها وهذا يؤدي الى افدح الضرر بالدولة العراقية الناشئة(٤٥) •

كان الملك يريد من كوكس أن يكون مثله متحمسا في تأديب «الاخوان» ، غير أن كوكس كان ينظر في الامر نظرة أخرى ، وأخذ يعتذر بأنه ينتظر وصول التعليمات اليه من لندن كما ينتظر جواب ابن

---

(٤٥) عن وثائق البلاط الملكى ـ رقم الاضبارة ة/٤/٢٥ ، رقم الوثيقة ٤٥،

سعود على برقيته التى ارسلها اليه . وتقول المس بيل ان جواب ابن سعود تأخر عدة ايام لان ابن سعود يرسل برقياته عادة على بعير الى البحريـن لتبرق من هناك الى بغداد ، وهذا يحتاج الى وقت[٤٦] .

ازمة وزارية :

عندما استيأس الملك من مساعدة كوكس له فى أمر الدفاع عن العراق تجاه « الاخوان » أخذ يفكر في خطة أخرى هى استنفار العشائر العراقية وتجهيزها بالسلاح من جهة ، وتقوية الجيش العراقى من الجهة الاخرى . ولكن هذه الخطة لم تنل قبولا من كوكس ، ولعله خاف منها إذ كان يعتقد ان تجهيز العشائر بالسلاح ـ ولا سيما تلك العشـائر التى قامت بثورة العشرين ـ يعني تشجيعها على القيام بثورة أخرى .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الملك كان في ذلك الحـين يحف به عدد من رؤساء العشائر الذين شاركوا في ثورة العشرين من أمثال عبدالواحد الحاج سكر وشعلان أبو الجون ومحسـن ابو طبيخ وعلوان الياسري وقاطع العوادى . وكان هؤلاء يؤكدون للملك ان العشائر العراقية قادرة على محاربة «الاخوان» وكسرهم لو كان لديها السلاح الكافى ،وكانوا يشجعون الملك على الصمود تجاه كوكس وعلى اعلان الجهـاد على « الاخوان » .

أرسل الملك في ٢٧ آذار الى مجلس الوزراء يطلب منـه الموافقـة على زيادة حصة وزارة الدفاع من الميزانية لتقوية وسائل الدفاع عن العراق تجاه تجاوزات اتباع ابن سعود . ولما عرض هذا الطلب على المجلس انبرى له ناجي السويدي يعارضه ، حيث أشار الى أن غارة « الاخوان » هي نتاج العداء التقليدي بين العائلتين الهاشمية والسعودية ، وان الدفاع عن العراق

(46) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 266.

موكول الى بريطانيا إذ هى التى أخذت على عاتقها صيانة الامن الداخلي في العراق مع درء الاخطار التى تهدده من الخارج • وقد رد جعفر العسكرى على السويدى قائلا : بأن الاتفاق قد حصل سابقا بين الملك والمندوب السامى على ان تكون الحكومة البريطانية مسؤولة عن الدفاع عن جانب دجلة الأيسر وعن العمارة والبصرة ، أما الحكومة العراقية فتكون مسؤولة عن جانب دجلة الايمن وعن جانبي الفرات الايمن والايسر ، بشرط أن تؤازرها قوة الطيران الانكليزية ، وعلى هذا فان الدفاع عن حدود العراق تجاه « الاخوان » يقع على عاتق الحكومة العراقية •

كانت معارضة ناجي السويدى مفاجأة غير سارة للملك ، إذ كان ناجي معدودا من انصار الملك ومؤيديه ، فما هو السبب الذى جعله يغير موقفه الآن • ومما زاد في استياء الملك ان أربعة وزراء أيدوا ناجي السويدى في معارضته هم : عزت الكركوكلي وحنا خياط وعبداللطيف المنديل والحاج سرى • وكان رئيس الوزراء يؤيدهم من طرف خفي كما ان ساسون حسقيل تفوه بما يشبه التأييد لهم(٤٧) •

أرسل الملك يستدعي اليه الوزراء المعارضين وأعلن لهم أنه فقد ثقته فيهم وأنهم يجب أن يستقيلوا • وقد ذهب كوكس وكورنواليس الى الملك في محاولة لتهدئة غضبه دون جدوى(٤٨) • وبعد هذا أرسل سكرتير الملك الى رئيس الوزراء كتابا شديد اللهجة ننقل منه ما يلي :

« كان أمل صاحب الجلالة ان يتخذ المجلس الموقر في جلسته المنعقدة في ٢٧ آذار ١٩٢٢ قرارا جليا يكفل العمل به صيانة حدود العراق ورعاياه من تجاوزات قبائل البادية • ولقد آسفه رأى وزير العدلية ومن أخذ مأخذه من حضرات الوزراء بعد أن أوضح لهم وزير الدفاع حراجة الموقف في

---

(٤٧) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) — ج١ ص ٦١ـ٦٤ •
(48) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 266.

وادى الفرات وان مسؤولية الدفاع عنه واقعة على الحكومة العراقيـــة ، ولاجل ذلك ينبغي أن تقام مخافر ومحارس في مواضع معينة لمراقبة القبائل المناوئة وصد اعتداءاتها من أية جهة جاءت ... فبناء على ما تقدم أُمرت أن أعبر لفخامتكم عن أسف صاحب الجلالة على ما ارتآه وزير العدلية وبعض زملائه »(٤٩) .

وصل جواب ابن سعود الى كوكس في ٢٩ آذار ، وقد أعرب فيه ابن سعود عن أسفه لما حدث وقال ان فيصل الدويش فعل ما فعل بغير اذن منه ، وسوف ينال المذنب عقابه . فعرض كوكس الجواب على الملك وعلى رئيس الوزراء كما اوعز بنشره في الجرائد بغية تهدئة الرأي العام، ولكن الرأي العام لم يهدأ بل ازداد هياجا . يقول غريفز : « وعلى الرغم من ابداء ابن سعود لأسفه فان البلاد كانت غاضبة وفي هيـــاج ، وكانت الاشاعة القائلة بأن الانكليز هم المسؤولون عن الحادثة قد نالت رواجا بين السكان الجهلة ، فأستخدمها المهيجون لاثارة المشاعر ضد الانكليز . وانتهز علماء الشيعة الفرصة للمزايدة من أجل السلطة السياسية تحت دعـــوى الوطنية ... »(٥٠) .

استفحال الازمة :

كان مجلس الوزراء قد قرر في ١٨ آذار ارسال لجنة الى الناصرية للتحقيق في غارة « الاخوان » مؤلفة من نوري السعيد ممثلا عن وزارة الداخلية ، وداود الحيدرى ممثلا عن وزارة العدليـــة ، والرئيس الاول الحاج رمضان ممثلا عن وزارة الدفاع ، على أن ينضم اليهم الميجر ييتس

---

(٤٩) عن وثائق البلاط الملكى ــ رقم الاضبارة ة/٤/٥ آ ، رقم الوثيقـة ٦٠ .

(50) Graves (op. cit.) - p. 310.

مستشار لواء المنتفق • وفي ٢٩ منه عادت اللجنة الى بغداد وقدمت تقريرها الى مجلس الوزراء ، وقد تضمن التقرير تقديرا للخسائر « الفظيعة » التى تكبدتها العشائر العراقية من جراء غارة « الاخوان » ، كما اشار التقرير الى ان الحكومة العراقية مسؤولة عن وقوع الحادثة لان متصرفية المنتفق كانت قد شعرت بقرب وقوع الخطر في حينه وطلبت النجدة من الحكومة غير أن الحكومة لم تنجدها(٥١) •

وفي صباح اليوم التالي ـ أي ٣٠ آذار ـ طلعت جريدة « العراق » وفي صدرها مقالة افتتاحية بعنوان « حول اعتداء الاخوان على عشائر المنتفق » أشارت فيها الى ان صاحب الجريدة قابل نورى السعيد على أثر عودته معزملائه اعضاء اللجنة من الناصرية ووجه اليه عدة أسئلة • وقد نشرت الجريدة أجوبة نوري وكان فيها تهجم شديد على الوهابيين مع انتقاد لاذع للوزراء الذين لم يوافقوا على تقوية الجيش العراقى • وقد ذكر نورى السعيد بصراحة انه عند عودته وجد بعض كبار الموظفين لايميلون الى توسيع الجيش بحجة قلة الموارد المالية ، وأعلن ان ذلك أمر مؤسف ، وسببه أنهم لم يطلعوا على حراجة الوضع ولو انهم اطلعوا عليه حقا لغيروا رأيهم(٥٢) •

وفى اليوم نفسه صدرت جريدة « الاستقلال » وفى صدرها مقالة افتتاحية عنيفة جدا مذيلة بتوقيع « العلوى » وعنوانها : « الدفاع ! الدفاع! » وتحته البيت التالى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لايتقى الشتم يشتم

---

(٥١) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٦٠ـ٦١ •
(٥٢) جريدة «العراق» ـ في عددها الصادر في ٣٠ آذار ١٩٢٢ •

وقد حملت المقالة حملة شعواء على ابن سعود واتباعه وعلى الذين يؤيدونه في العراق، وأطلقت على ابن سعود لقب « زعيم بلشفيك الجزيرة» و « لنين نجد ؟؟!! » ، وقالت ان هناك أشخاصا لاعلاقة لهم بهذا القطر يبثون اشاعات مؤداها ان غارة « الاخوان » بسيطة وذلك لكي تبقى الامة غافلة فتؤخذ على حين غرة مع العلم ان الغارة كانت هجوما كبيرا سفكت فيه الدماء الغزيرة وترملت النساء وتشرد الاطفال ، فهل تقبل ذلك أمة كالأمة العراقية المعروفة بشدة ابائها وأنفتها ...(٥٣) .

ان هاتين المقالتين وما فيهما من تهجم ضمني على الوزراء المعارضين كان لهما أثر شديد على مجلس الوزراء الذي انعقد في ذلك اليوم . فلما انتهى سكرتير المجلس من تلاوة تقرير اللجنة اسرع ناجى السويدى فقدم استقالته ، وتبعه في ذلك الحاج رمزي وعبداللطيف المنديل وعزت الكركوكلي وحنا خياط . وأسرع الملك فأصدر ارادته فى اليوم التالى بقبول استقالتهم ، وبتعيين توفيق الخالدى وزيرا للداخلية ، وصبيح نشأت وزيرا للاشغال والمواصلات . وكان ساسون حسقيل قد قدم استقالته أيضا تضامنا مع الوزراء الخمسة الذين استقالوا غير أن رئيس الوزراء رفض استقالته بايعاز من كوكس .

غضب كوكس على الملك لانه لم يستشره فى قبول استقالة الوزراء الخمسة ، كما غضب على نوري السعيد وعلى جريدة « الاستقلال » . أرسل كوكس الى رئيس الوزراء كتابا يلفت نظره فيه الى تصريحات نورى السعيد في جريدة « العراق » ويعتبرها خرقا خطيرا للآداب الرسمية إذ كيف يمكن ان يتصدى موظف في الحكومة لانتقاد الوزراء بتلك الصورة . وطلب كوكس من رئيس الوزراء وضع قوانين تمنع من ذلك في

---

(٥٣) جريدة « الاستقلال » ـ في عددها الصادر في ٣٠ آذار ١٩٢٢ .

المستقبل(٥٤) . وكذلك أرسل كوكس كتابا آخـــر الى رئيس الوزراء يقول فيه عن مقالة « الاستقلال » بأنها في غاية الخطورة وانها تؤدى الـى ارباك الحكومة وعرقلة أعمالها بالنظر الى ما ورد فى جواب ابن ســعود من لهجة معتدلة . وطلب كوكس تبليغ جريدة « الاستقلال » بوجوب نشر مقالة تعلن فيها عن اسفها عن مقالتها السابقة وتشير الى موقف ابن سعود السلمي تجاه العراق . وأرســل كوكس نسخة الى الملك من كل من الكتابين(٥٥) .

وفي ١ نيسان أرسل كوكس الى تشرتشل في لندن برقية يشـــكو فيها من تصرفات الملك فيصل وقال فيها ما يلى :

« ان هذا الاجراء المتهور الذى اتخذه في سورة من التهيج ، دون استشارتي أنا أو أي شخص آخر ، كان مؤسفاً جدا ، ولا سيما بالنسبة للمنديل حيث سيتأثر رأي البصرة بشكل سلبي باستقالته الاجبارية ... وفي الوقت الذى أسفت بشدة لتصرف الملك المتهور فقد نصحته عند سماع ماحدث بأنه سيكون من الاكثر ملائمة فى الظروف الراهنة أن يقدم النقيب استقالة الوزارة كلها وان يدعى فورا الى تشكيل وزارة جديدة . الا ان الملك فضل المطالبة باستقالة خمسة وزراء في القضية ، ومن سوء الطالع ان يتبع هذا استقالة ساسون التى لم تقبل على أية حال » .

رد تشرتشل على كوكس قائلا : « ... انني مندهش من أن يكون فيصل قد طرد أربعة وزراء دون استشارتك ، ومن المؤكد ان هذا التصرف لم يكن منطبقا مع روح تعهداته الشخصية بأخذ نصيحتك في المسائل الهامة. وسأكون آسفا جدا اذا أصر ساسون أفندى على الاستقالة . ان بامكانك اذا شئت أن تخبره بأنني أبرقت شخصيا بشأنه » .

---

(٥٤) عن وثائق البلاط الملكي ـ رقم الاضبارة ة/٤/آ٥ ، رقم الوثيقة ٦٦٠
(٥٥) عن وثائق البلاط الملكي ـ رقم الاضبارة ة/٥/آ٥ ، رقم الوثيقة٦٣٠

الظاهر أن الملك أحس بضرورة الاعتدال في موقفه تجاه كوكس ، فأخذ يخفف من شدته . نلاحظ ذلك في البرقية التي ابرقها كوكس الى تشرتشل جوابا على برقيته السابقة . حيث قال مانصه :

« ... يبدو الآن ان فيصل يدرك أنه كان متهورا جدا ، ويميل الى السعي وراء ايجاد وسائل لتمكين واحد أو اثنين من العودة بعد فترة قصيرة اذا كان يستطيع ذلك دون ان يفقد كرامته . واعتقد ان من الافضل ان تكون رسالتك اليه بصدد تلك المسألة رسالة شخصية معبرة عن خيبة ظنك من انه قد سلك هذا الطريق المقلق دون تشاوره معي أو مع مستشاريه الطبيعيين .. ان وجهة نظري هي أنه ليس من سياسة حكومة صاحب الجلالة البريطانية ولا اتجاهي الشخصي أن تدمر مكانته كملك وأن يجبر على التنازل عن طريق اضطراره الى ابطال تصرفات متهورة او منصوح بها على نحو سيء كان قد اقدم عليها دون تشاور .. ولكن اذا أظهر ميلا مفرطا في ذلك الاتجاه فان علاجي هو طلب اعفائه وان يعلن سبب ذلك »(٥٦) .

الدعوة الى مؤتمر كربلاء :

بينما كانت الازمة في بغداد على اشدها كان الفرات الاوسط يتمخض عن حركة قوية أريد بها جمع العشائر واثارتها للدفاع عن العراق تجاه هجمات « الاخوان » . وكان وراء هذه الحركة بعض رؤساء العشائر كعبد الواحد الحاج سكر وعلوان الياسري وقاطع العوادي .

وقد عقد علماء النجف عدة اجتماعات للتداول في هذا الموضوع كان على رأسهم السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النائيني . وقرروا أخيراً عقد مؤتمر في كربلاء يحضره رؤساء العشائر ووجهاء المدن للمباحثة في

---

(٥٦) صالح جواد كاظم (محاولة استجلاء جديدة) ـ مجلة «المثقف العربي» ـ في عددها الصادر في شهر حزيران ١٩٧٤ .

وضع خطة للدفاع عن البلاد . ثم ارسلوا الى الشيخ مهدى الخالصي في الكاظمية البرقية التالية وهى مذيلة بتوقيع السيد أبو الحسن والمرزا حسين :

« جناب حجة الاسلام محمد مهدى الخالصي دامت بركاته . انه لاينبغي الاتكال على وعد السلطة البريطانية فى دفع شر الخوارج الاخوان عن المسلمين فبناء عليه نأمل حضوركم فى كربلاء قبل الزيارة بأيام وتأمرون رؤساء العشائر كالسيد نور وأمير ربيعة وسائر الرؤساء بعد ابلاغهم سلامنا بالحضور كما اننا نحضر مع من فى طرفنا من الرؤساء لاجل المذاكرة فى شأنهم ان شاء الله »[٥٧] .

تقرر أن يكون عقد المؤتمر من ١٠ الى ١٥ شعبان ، ويوافق ذلك من ٨ الى ١٣ نيسان . وقد اختير هذا الوقت بمناسبة زيارة « المحيه » التى تقع في منتصف شعبان . وأرسل الشيخ مهدى الخالصي ولده الشيخ محمد الى الملك يدعوه لحضور المؤتمر فلبى الملك الدعوة وقال انه سيحضر الى كربلاء في يوم ١٤ شعبان . وكذلك أرسل الخالصي الى مائة وخمسين رئيسا من رؤساء العشائر برقية هذا نصها :

« بمناسبة تجاوز الاخوان على حدود العراق تقرر ان يحضر العلماء وجميع رؤساء القبائل فى اليوم العاشر من شهر شعبان المعظم فيلزم حضوركم في اليوم المذكور الى كربلاء » .

وفي أوائل نيسان تألفت فى الكاظمية بايعاز من الشيخ مهدى الخالصي لجنة للاشراف على المؤتمر وتنظيم السفر اليه ، وكان أعضاؤها : نور الياسري وكاظم ابو التمن وقاطع العوادى وعلوان الياسرى وباقر الشبيبي

---

(٥٧) محمد مهدى البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ج٢ ص ٣٩١ـ٣٩٢ .

وعبدالحسين الجلبي • وقد اجتمعت اللجنة ووضعت منهاجا من ثلاث عشرة مادة طبعته في احدى مطابع بغداد ، وكان أهم ماورد في المنهاج اختيار أربع لجان فرعية هي كما يلي :

اللجنة الاولى تؤلف من محمد الخالصي وعبدالحسين الجلبي وأبو طالب الاصفهاني ومهمتها بث النصح فيوجوب المحافظة على الراحة التامة والسكينة في الاجتماعات • وتسافر اللجنة الى كربلاء عن طريق الحلة والنجف •

اللجنة الثانية تؤلف من صادق الاسترابادي وحمدي الباچچي وعبدالرسول كبة وادريس الكاظمي وعبدالهادي الجلبي ، ويكون كاظم ابو التمن المسؤول عنها والموكول بادارة شؤونها ، ومهمتها اعداد العدة لسفر الشيخ مهدي الخالصي ومن معه من أهل الكاظمية وبغداد الى الحلة فكربلاء •

اللجنة الثالثة تؤلف في كربلاء من محمد حسن ابو المحاسن وعيسى البزاز وخليل الاسترابادي وهاشم شاه ومحمد الكشميري ومحمد رضا نصر الله وعمر العلوان وعبدالكريم عواد ومهمتها تنظيم الاجتماعات في كربلاء •

اللجنة الرابعة تؤلف من رؤساء وخدام العتبات المقدسة في كربلاء ، ومهمتها التعرف على القادمين وتعيين محل سكناهم وتمهيد طريق ايصالهم الى الاجتماعات •

وفي صباح ٥ نيسان غادر الكاظمية حسب الموعد المعين أعضاء اللجنة الاولى وهم محمد الخالصي وعبدالحسين الجلبي وأبو طالب الاصفهاني فذهبوا الى النجف حيث اتصلوا بالسيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النايني من أجل تعجيل سفرهما الى كربلاء • وقد استجاب الاصفهاني لطلبهم حالا ، أما النايني فقد امتنع عن السفر • ويحدثنا الشيخ محمد الخالصي في مذكراته عن امتناع النايني فيقول مانصه :

« ... ولاقيت المرزا النايينى فامتنع من الحضور معتذرا بأنه بلغه أننا رتبنا منهاجا لهذا الاجتماع . وهو لايوافق على ذلك لان المنهاج من أعمال دعاة المشروطية على ما يقول ، فعجبت من ذلك اشد العجب لان المرزا النايينى كان من أصلب دعاة المشروطية وهو الذى كتب كتاب تنبيه الامة يدعو فيه الى المشروطية والقانون الاساسي والتجدد ، في حين أننا كنا ننكره عليه ولم نزل ننكر ذلك بالمعنى الذى كان النايينى يقصده منه ، على ان المنهاج لاربط له بالمشروطية بوجه . وكان ذلك الرجل الحازم يتجاهل ويتبلّه ، فلم أزل أناظره ويصر على امتناعه حتى قلت له انك أنت الذى أبرقت بذلك فما وجه امتناعك وكيف نجيب الناس اذا سألوا عن سبب عدم حضورك وما هو العذر عنه ، فلم يؤثر عليه ذلك ولم يزل يزداد اصرارا على عدم الاشتراك في الاجتماع وعدم المضي الى كربلاء . فلما يئست منه فارقته منكرا عليه أخلاقه وأعماله ... » وأخذ الشيخ محمد بعد ذلك يذم المرزا النايينى ذماً قبيحاً لامجال لذكره هنا[٥٨] .

وفي ضحى الجمعة ٧ نيسان تحرك موكب الشيخ مهدى الخالصي من الكاظمية . وخرج أهل الكاظمية لتوديعه ، فامتلأت ساحة باب الدروازة بالناس وهم يهتفون بالصلاة على محمد وآل محمد . فاتجه الموكب نحو جانب الكرخ حيث التحق به الكثيرون من أهل بغداد ، وعند وصوله الى الحلة جرى له فيها استقبال عظيم ، وأغلقت الاسواق له . وبات الخالصى في الحلة فى بيت الشيخ محمد سماكه ، ثم غادرها صباحا متوجهـا الى كربلاء . وكان رؤساء كربلاء قد خرجوا لاستقباله الى طويريج في أربعة عشر سيارة ، وكان معهم من النجفيين الشيخ عبدالكريم الجزائرى والشيخ عبدالرضا الشيخ راضي والشيخ باقر الشبيبي . كما خرج لاستقباله أربعمائة فارس من عشيرة المسعود وغيرهم . وعند وصوله الى كربلاء أدى الزيارة ثم نزل فيدار المرحوم المرزا محمد تقى الشيرازي[٥٩] .

---

(٥٨) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصى المخطوطة .

(٥٩) جريدة « الرافدان » ـ في عددها الصادر في ١٢ نيسان ١٩٢٢ .

مشاركة اهل السنة :

كان الشيخ عبدالوهاب النائب قد وجه الدعوة الى عـــدد من علماء السنة ببغداد لحضور اجتماع يعقد في تكية الخالدية للتداول في أمـــر « الاخوان » وهل يجوز حربهم • وفي صباح ٥ نيسان تم عقد الاجتماع وحضره اكثر المدعوين بينما تخلف البعض منهم ، وكان من بين المتخلفين محمود شكري الآلوسي وعبدالحليم الحافاتي ويوسف العطـــا وحمدي الاعظمي وسليمان السنوي وقاسم المفتي •

افتتح عبدالوهاب النائب الاجتماع ، وأخذ يذكر الفظائع التي اقترفها الوهابيون في المسلمين العراقيين ، ثم تساءل قائلا « ما تقولون في هذه الطائفة المسماة بالاخوان ، هل ترون وجوب قتالهم وردعهـــم عن امثال هـــذه التجاوزات نظرا لكونهم هتكوا حرمات المسلمين واستباحوا دماءهم وأموالهم بغير ذنب وتأويل ؟ » ثم استشهد بما فعل أبو بكر بأهل الردة ، وما فعله الامام علي بالخوارج الذين كانوا اكثر من هؤلاء صلاة وصياما • واقترح ان يُقرأ الفصل الخاص بالوهابية في كتاب ابن عابدين • فقرأ أحـــد الحاضرين فقرة من الكتاب مفادها ان من يستبيح دماء المسلمين كافر تجب مقاتلته ، فوافق الحاضرون على ذلك واجمعوا رأيهم على وجوب الدفـــاع العام • ثم نهض احمد الشيخ داود فتكلم بما يؤيد ذلك • وحصلت محاورة فقهية بين عبدالوهاب النائب وأحمد الشيخ داود في هذا الشأن ، إذ سأل النائب : « ماذا نسمي هؤلاء أبغاة أم خوارج ؟ » فقال أحمد : « انهـــم الخوارج بعينهم » • واشار النائب الى مافعل الامام علي بالخوارج وهو ابن عم المصطفى • فقال الحاضرون : « وأنعم به قدوة » • وذكر أحمد كيف انهم سبوا النساء ووطأوهن مع أنهن من نساء المسلمين • فقال أمجـــــد الزهاوي : « يجب تأديبهم بكل صورة » • وعند هذا قال النائب : « ان اخواننا الجعفرية قد صمموا على الاجتماع واعطاء القرار بهذا الخصوص ولما لم يكن بيننا وبينهم خلاف في أي شيء فكلمتنا واحـــــدة » • فقال الحاضرون : « لاشك في ذلك » •

استقر رأي الحاضرين على انتخاب وفد منهم لحضور مؤتمر كربلاء فأختير النائب رئيسا للوفد ، واختير احمد الشيخ داود وابراهيم الراوى وعبدالجليل الجميل اعضاء • وباشروا بكتابة الفتوى ، وهذا نصها « ماقول علماء المسلمين الاعلام فيمن يدعى الاسلام ويحكم بشرك من خالف معتقدهم من جماعات المسلمين مستحلين قتالهم ودماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم بغير سبب وقد هجموا على بلاد المسلمين عداءاً وبداءاً فهل يجب قتالهم ودفاعهم أم لا ؟ افتونا مأجورين ! الجواب والله سبحانه وتعالى أعلم: نعم يجب قتالهم والحالة هذه » • وقد وقع على هذه الفتوى عبدالوهاب النائب وعبدالملك الشواف وابراهيم الراوى وخضر القاضي ومنير القاضي وعبدالجليل الجميل وطه الراوى ونعمان الاعظمى وعلي القرداغي وأمجد الزهاوى ومحمد رشيد الشيخ داود وخليل حسن النقي وبهاء الدين النقشبندي وأحمد الراوي ومحمد رؤوف[٦٠] •

وفي الساعة الثامنة من صباح ١٠ نيسان خرج موكب علماء السنة من جامع الفضل ببغداد يتقدمهم عبدالوهاب النائب وابراهيم الراوى وأحمد الشيخ داود وعبدالجليل الجميل ، ومعهم عدد من الشباب المثقف • وخرج الجمهور لتوديعهم بأعلامهم وطبولهم • وساروا حتى وصلوا الجسر فعبروه متوجهين الى مقربة من محطة القطار في الكرخ ، ومن هناك ركبوا السيارات متوجهين الى كربلاء حيث وصلوها في الساعة الرابعة بعد الظهر • وبعد أن اجتمعوا بالخالصي في دار الشيرازي توجهوا الى دار قاسم الرشدى فنزلوا عليه ضيوفاً •

وفي مساء ذلك اليوم نفسه وصل الى كربلاء وفدمن الموصل مؤلف من مولود مخلص وسعيد الحاج ثابت وأيوب عبدالواحد وعبدالله النعمة وثابت عبدالنور وعبدالله آل رئيس العلماء وعجيل الياور ومحمد أغا رئيس

---

(٦٠) جريدة « الاستقلال » ـ في عددها الصادر في ٦ نيسان ١٩٢٢ •

الكركرية . ونزلوا في دار عمر العلوان .

ووصلت الى الخالصي برقية من أهل تكريت وشرقاط يذكرون فيها انهم انتدبوا مولود مخلص ليمثلهم في المؤتمر وأنهم مستعدون لتنفيذ أى قرار يصدر منه بأموالهم وأنفسهم(٦١) . ثم وصلت الى الخالصي من تكريت مضبطة بهذا المعنى وهى تحمل التواقيع التالية : النقيب السيد أحمد، رئيس عشيرة تكريت محمد عرب ، رئيس عشيرة تكريت مصطفى الحاج حسن ، رئيس عشيرة البيگات أحمد الخطاب ، رئيس عشيرة البيگات ندا الحسين ، رئيس عشيرة تكريت زيدان الخلف ، رئيس عشيرة الحديثيين مقيم ، رئيس عشيرة الحديثيين سلمان الحاج حميد(٦٢) .

لم يهن على البعض قيام هذا التضامن الطائفي فى كربلاء فأخذوا يتقولون عليه وينشرون عنه اشاعات غير حسنة . وقد أشارت الى ذلك جريدة « الاستقلال » حيث قالت : ان بعض المغرضين هالهم مارأوا من تضامن الأمة ووقوفها صفا واحدا تجاه الوهابيين فأخذوا ينفثون سمومهم ، وقد انتهزوا فرصة اتفاق الزعماء على الاجتماع في كربلاء فأخذوا ينشرون الاشاعات الباطلة ويختلقون الاحتمالات التى لاتخطر ببال عاقل(٦٣) . ولم تتحمل وزارة الداخلية هذا الكلام فأصدرت أمرها باغلاق جريدة «الاستقلال» ثلاثة أسابيع بتهمة أنها تنشر أخبارا مشوشة للاذهان(٦٤) .

انعقاد المؤتمر :

اعتذر الملك عن حضور المؤتمر تحت ضغط من كوكس ، ووافق على أن يمثله في المؤتمر وزير الداخلية توفيق الخالدى(٦٥) . ولم يكن

---

(٦١) جريدة « دجلة » ــ في عددها الصادر في ١٣ نيسان ١٩٢٢ .
(٦٢) جريدة « الرافدان » ــ في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٢٢ .
(٦٣) جريدة « الاستقلال »ــ في عددها الصادر في ٦ نيسان ١٩٢٢ .
(٦٤) جريدة « الاستقلال » ــ في عددها الصادر في ٥ أيار ١٩٢٢ .
(٦٥) عن وثائق دائرة الوثائق العامة بلندن ــ رقم (اف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ٧٧٧٠) .

الملك يطمئن الى الخالدى ، كما رأينا ، ولهذا أرسل الى كربلاء نـــوري السعيد لكي يمثله بصفة شخصية • وحين وصل نوري الى كربلاء خلع لباسه الرسمى ولبس النعال وأخذ يتصل بالوطنيين من أمثال عثمان العلوان واخيه عمر وقاطع العوادى وقاسم الرشدى • وكان يعاونه فى ذلك مدير شرطة كربلاء هاشم العلوي(٦٦) •

بلغ زوار كربلاء حنيذاك زهاء مائتي ألف ، ولم يسبق أن شهدت كربلاء مثل هذا الازدحام في زيارة « المحية » • وقد ارسلت الحكومة الى كربلاء قوة من الجند للمحافظة على الامن مؤلفة من ٢٠٠ جندي من المشاة و ٣٠٠ من الخيالة ، بقيادة محي الدين السهروردى • وذهب الشـــيخ محمد الخالصي لزيارة الجنود في مقرهم بصحبة محمد حسن أبو المحاسن ، وألقى عليهم كلمة أشار فيها الى مطاليب العراق وحذرهم من أن يخدعهم الانكليز فيستعملوا السلاح ضد اخوانهم المسلمين • وقد رد أحد الضباط عليه بكلمة حماسية أشعرته بان الجيش سيقف الى جانب الوطنيين اذا قامت الحرب بينهم وبين الانكليز(٦٧) •

وفي صباح ٩ نيسان افتتح المؤتمر باجتماع تمهيدى حضره الشـــيخ مهدي الخالصي والسيد أبو الحسن الاصفهانى وتوفيق الخالدى وكبـــار المدعوين • وقد تقرر في ذلك الاجتماع تنظيم مضابط يوقعها الرؤســـاء والوجهاء وتتضمن مبادىء الشعب ومقاصده الاساسية المتعلقة بقضـــية « الاخوان » • وفي الاجتماعات التى عقدت في الايام التالية جرى تنظيـــم المضابط والتوقيع عليها • وهذه صورة لواحدة منها :

بسم الله الرحمن الرحيـــم

نحن الموقعين ادناه سادات وزعماء ورؤساء قبائل العراق أصالة عن

---

(٦٦) صالح جواد كاظم (المصدر السابق) ـ ص ١٧٨ •
(٦٧) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصى المخطوطة •

انفسنا وتمثيلا عن افراد قبائلنا تلبية لدعوة حجج الاسلام دامت بركاتهم الذين يجب علينا اطاعتهم وهى فرض دياناتنا اللازمة في اعناقنا كل وقت وحين ، قد حضرنا كربلاء المشرفة فى اليوم الثانى عشر من شهر شعبان ١٣٤٠ وبارشاد رؤساء الدين العلماء وبناءاً علىّ ما أوقعه الخوارج الاخوان بأخواننا المسلمين من الافعال الوحشية من القتل والسلب والنهب ، فقد تعاهدنا وتعاقدنا واتفقت كلمتنا بحيث لايخالف بعضنا بعضا فيما تقتضيه مصلحة بلادنا وحفظ المشاهد المقدسة وقبور الاولياء فقررنا مدافعة الخوارج الاخوان ومقاتلتهم بمعاضدة جيش مليكنا النظامى بكل ما فى وسعنا واستطاعتنا واتخاذ التدابير اللازمة ، وبناءاً على تعلقنا بعرش جلالة مليكنا المعظم فيصل الاول دامت شوكته فأمر كيفية دفاع الخوارج الاخوان ومقاتلتهم وعدد المدافعين من القبائل وسلاحهم واعاشتهم ومكانهم وزمانهم وتنظيمهم عائد لارادة صاحب الجلالة مليكنا وتدبيره الصائب غير أننا نطلب استرداد الاموال المنهوبة وتأدية ديات قتلانا التى سفكت دمائها ظلما وعدوانا . وقد نظمنا بذلك نسختين قدمنا واحدة لعرضها لاعتاب صاحب الجلالة والثانية تبقى تحت اشراف العلماء الاعلام والله المستعان(٦٨) .

وفي صباح ١٣ نيسان ، وهو يوافق منتصف شعبان ، انعقد الاجتماع النهائي في دار الشيرازي ، وكان اجتماعا عاما كبيرا . فأفتتحه جعفر أبو التمن حيث قرأ برقية وصلت من الملك في شكر القائمين بالمؤتمر ، فوقف الحاضرون احتراما لها . ثم ألقى أبو التمن خطابا أثنى فيه على علماء الدين لعنايتهم بأمر سلامة البلاد وبسط فيه الفظائع التى اقترفها الاخوان في الحجاز والعراق ، وختم خطابه بالدعاء للملك ولعلماء الدين والثناء على أعضاء المؤتمر . ثم انفض المؤتمر قبيل الظهر(٦٩) .

---

(٦٨) جريدة « العراق » ـ في عددها الصادر في ١٥ نيسان ١٩٢٢ .
(٦٩) محمد المهدى البصير (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨ .

ومما يلفت النظر انه في الوقت الذي كان فيه المؤتمر منعقدا خرجت جريدة « العراق » وفيها خبر مفاده ان جعفر أبو التمن مرشح لوزارة التجارة(٧٠) • وفي ١٥ نيسان صدرت الارادة الملكية باسناد الوزارة الى أبو التمن فعلا • ويعلق غريفز على ذلك قائلا : إن تعيين أبو التمن كان بمثابة ترضية من النقيب للمتطرفين(٧١) •

ولكننا يجب ان لاننسى في هذا الصدد ان دخول أبو التمن في الوزارة أعقبه بعد تسعة ايام دخول رجل آخر يعد مناقضا له في موقفه السياسي ، هو عبدالمحسن السعدون • فقد أسندت الى السعدون وزارة العدلية • وقد لعب هذا الرجل فيما بعد دورا مهما جدا في السياسة العراقية المؤيدة للانكليز ـ كما سنأتي اليه بتفصيل في الفصل القادم •

الرؤساء المنشقون :

كان مؤتمر كربلاء في ظاهره هادئا غير أنه في الحقيقة لم يكن كما يبدو في الظاهر ، فقد حصل انشقاق بين رؤساء العشائر في أثناء المؤتمر حيث امتنع بعضهم عن توقيع المضابط وكان على رأسهم عداي الجريان رئيس ألبو سلطان ، ورشيد العنيزان رئيس عشيرة اليسار ، وعمران الزنبور رئيس بني عجيل ، وشمران الجلوب رئيس آل فتلة الهندية ، ومراد الخليل رئيس الجبور(٧٢) •

وقد اجتمع هؤلاء المنشقون في الحلة عقب انفضاض مؤتمر كربلاء ، وقرروا تنظيم مضبطة مضادة لمضابط المؤتمر يحتجون فيها على تدخل علماء الدين في أمور السياسية ويعلنون تمسكهم بالانتداب البريطاني •وقد اتصل ثلاثة منهم بعلي السليمان رئيس الدليم ، فقال لهم انه سوف يذهب

---

(٧٠) جريدة « العراق » ـ في عددها الصادر في ١٢ نيسان ١٩٢٢ •

(71) Graves (op. cit.) - p. 310.

(٧٢) جريدة « العراق » ـ في عددها الصادر في ١٧ نيسان ١٩٢٢ •

الى بغداد لمقابلة كوكس والحصول على رأيه في هذا الموضوع وطلب منهم ملاقاته في بغداد •

وفي ١٩ نيسان وصل علي السليمان الى بغداد وقابل كوكس ليسأله عن رأيه في أمر تنظيم العريضة المضـــادة ، فنصحـــه كوكس بأن لا يفعلوا ذلك حيث قال ان أية مضبطة تصدر منهم بعد التشاور معـــه سيعتبرها الناس دسيسة بريطانية وتكون اذن بلا فائدة • وأرتاى كوكس أن من الافضل لهم أن يذهبوا لمقابلة الملك ويوضحوا له الاخطار التـــي يقوده المتطرفون اليها ويقودون البلاد معه •

وفي ٢٣ نيسان ذهب علي السليمان ومعه أربعون من رؤساء العشائر لمقابلة الملك • وأخذوا يتحدثون اليه بما أوصاهم به كوكس فذكروا له بعبارات واضحة انهم لم يقسموا بالولاء له الا بشرط أن يصغي للنصائح البريطانية • وفي اليوم التالي ذهبوا جميعا لمقابلة النقيب ، وقد حبذ لهـم النقيب تنظيم المضبطة المضادة وشجعهم عليها • فقرروا الأخذ برأيـــه ، ونظموا مضبطة طويلة ملأوها بالشتائم على المؤتمر وعلى القائمين بـــه • وهذا نصها :

« كنا قد دعينا الى الاجتماع في كربلا المشرفة الذي كان ميعاده من يوم ١١ الى ١٤ شعبان ١٣٤٠ فلبينا الدعوة • وبعد أن اجتمعنا بحجـــة الاسلام الشيخ مهدي الخالصي واطلعنا على الورقة التي يراد توقيعهـــا فوجدنا ان تلك المطاليب المدرجة فيها لا فائدة منها للحكومة والبلاد ولمحنا من وراء الستار أن نوايا الذين وقعوا تلك الورقة هي نوايا مضرة بمصالح الحكومة العراقية وجالبة للويلات والمصائب على هذه البلاد كما جربنا ذلك من قبل • ومن حيث اننا في باديء الأمر كنا بايعنا سيدنا المفدى جلالـــة الملك فيصل الاول بصورة معروفة وشرائط معلومة مما لا يتزلزل أبديا لذلك رفضنا الاشتراك بتوقيع تلك الورقة حفظا لهذه البلاد وشـــرف

الحكومة العراقية من القلاقل والمشاغب التي تؤول الى الخراب والدمار •
ولقد اجتمعنا نحن الموقعين أدناه رؤساء قبائل العراق وبحثنا فيما يسعد هذا الوطن ويدعم أركان حكومته ويجلب الخير والرّفاه والاطمئنان لاهل البلاد والبادية من سكانه فرأينا ذلك منحصرا في المواد الآتية :

(١) من حيث ان حكومتنا العراقية هي الان في الدور الابتدائي ومحتاجة الى من يمد اليها يد المساعدة ماديا وأدبيا فالى أن تبلغ درجة الكمال والاستغناء عن الغير يجب أن يطلب من حكومة بريطانيا المنتدبة من قبل عصبة الأمم على العراق كل المساعدات المطلوبة والتي يتوقف عليها توطيد أركان حكومة العراق كحفظ النظام وتوطيد الامن واعمار البلاد ويجب أن يعتمد عليها كصديق مخلص للبلاد وأهل البلاد •

(٢) من حيث أن أغلب رجال هيئة الحكومة الحاضرة ليسوا من العرب الخلص الذين تشكل منهم اكثرية العراق الساحقة وليس لهم تجربة ولا علم في شؤون البلاد وأحوال العباد بل هم لفيف من عناصر مختلفة لا يمكن أن تثق العشائر بهم أو تضع اعتمادها فيهم يجب أن يستبدلوا برجال البلاد المعروفين الذين يمكن أن يوثق بهم ويعتمد عليهم وتخولهم في هذه البلاد مراكز اجتماعية خاصة بين العشائر •

(٣) اذا تم تشكيل هيئة الحكومة العراقية من الذين مر وصفهم في المادة الثانية يجب تشكيل مؤتمر عراقي يبت شكل الحكومة ونوع الادارة في هذه البلاد •

بناء عليه نسترحم الاسراع في تطبيق هذه المواد الثلاثة لتهدأ الافكار وتطمئن القلوب والله الموفق للاصلاح[٧٣] •

---

(٧٣) عثرت على هذه الوثيقة من بين وثائق البلاط الملكي وهى مكتوبة على ورقة مفردة خالية من التاريخ والتواقيع • ومن الواضح انها ليست المضبطة الأصلية بل هى نسخة عنها كتبت لتحفظ في وثائق البلاط في حينه •

وبعد تنظيم هذه المضبطة عرضوها على كوكس فنصحهم بعدم تقديمها على أساس ان موقفهم معروف وقد حقق الاثر المطلوب • وكان كوكس يخشى أن يؤدي تقديم هذه المضبطة الى تنظيم مضابط مضادة من قبل خصومهم • والواقع ان ما كان يخشاه كوكس قد حصل فعلا • فان أفراد بعض العشائر التابعين لاصحاب المضبطة بدأوا ينظمون مضابط يعلنون فيها أنهم لايعترفون برؤسائهم الحاليين وانهم يريدون اختيار رؤساء غيرهم • وأرسل هؤلاء الافراد مضابطهم الى الخالصي بنسختين لكي يحتفظ الخالصي بنسخة منها ويقدم الاخرى الى الحكومة(٧٤) •

وفي الوقت نفسه وصل الى الحلة السيد جعفر أبو طبيخ ومعه عدد من رؤساء الخزاعل للتوقيع على المضبطة الاولى المعادية للمؤتمر • وصرح السيد جعفر ان جميع عشائر الشامية يقفون وراءهم باستثناء السيد نور الياسري وابن عمه السيد علوان وعبدالواحد الحاج سكر ، وان سالم الخيون وخيون العبيد وبعض رؤساء المنتفق يؤيدونهم أيضا • ثم عقدوا اجتماعا كبيرا في الحلة حضره مستشار اللواء حيث أبلغوه ان الفرات كله متكتل بحزم لمقاومة أي تدخل ضد الانتداب البريطاني(٧٥) •

بين كوكس وفيصل :

ان الوثائق السرية التي أمكن الحصول عليها مؤخرا تدل دلالة واضحة على ان صراعا شديدا حدث بين كوكس والملك فيصل حول مؤتمر كربلاء ، فقد كان الملك يؤيد المؤتمر كما لاحظنا، بينما كان كوكس يرتاب من المؤتمر ويخشى من عواقبه ويعتبره دسيسة من البلاشفة والاتراك لاثارة العراقيين ضد الانكليز • ففي ٤ نيسان ــ أي قبل انعقاد المؤتمر بخمسة ايام ــ كتب كوكس الى سكرتير الملك رسالة مكتومة طويلة قال فيها ما يلي :

---

(٧٤) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ــ ج ٢ ص ٣٩٨ •
(٧٥) صالح جواد كاظم (المصدر السابق) ــ ص ١٨٣ •

« ان السلطات العسكرية لديها معلومات محددة مفادها ان البلاشفة والكماليين ينسقون الخطط لخلق المصاعب للحكومة العراقية وللسياسة البريطانية في العراق ... وقد تسلمت قبل أيام قليلة من الوزير المفوض البريطاني في طهران نسخة من نداء موجه من النجف في ١٥ ربيع الاول - تشرين الثاني ١٩٢١ - الى الوزير المفوض الروسي وهو يتضمن تهجما على السياسة البريطانية في العراق وعلى الملك فيصل ... ان الخطط التركية البلشفية كما يعلم جلالة الملك لا تزال مستمرة وهي تجري في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الحركة المنبعثة من النجف بسبب غارة الاخوان على العشائر العراقية والتي استغلت التذمر العام الناتج عن تلك الغارة ... وقد وصلتني أخبار من مصدر أعتقد أنه حسن الاطلاع مفادها أن الدفاع ضد هجمات الاخوان ليس سوى حجة ظاهرية وأنه ليس السبب الحقيقي للاجتماع الذي سيحضره الشيوخ والعلماء في كربلاء ، والمظنون ان هذه الحركة هي في الواقع نتيجة ما دار في الاوساط المطلعة عن وجود تعثر في مفاوضات المعاهدة حول موضوع الانتداب ، وان في النية ترغيب الملك لحضور الاجتماع في كربلا لكي يجبروه على طلب الاستقلال التام فورا من الحكومة البريطانية . وفي حالة عدم اجابة الطلب فان المتطرفين في بغداد يؤيدهم شيوخ الفرات الذين شاركوا في ثورة العشرين سوف يقومون بتجمع وطني لارغام الحكومة البريطانية على ما يريدون . ومن أجل الوصول الى اهدافهم فانهم سيحاولون في البداية الحصول على الاسلحة من السلطات البريطانية بحجة الدفاع ضد الاخوان ... » . ويختتم كوكس رسالته بقوله : « ان المعلومات التي تضمنتها هذه الرسالة بالاضافة الى الاتجاه العام للاستخبارات العسكرية ربما أعطت جلالة الملك وحكومته مادة للتأمل الجدي النشيط ، وخاصة بالنظر لما ذكرته الجرائد من ان ضغطا سلط على جلالة الملك لدفعه الى حضور المؤتمر الذي سيعقد في كربلا تحت رعاية الشيخ مهدي

الخالصي » • ثم يقول كوكس : « ان مقصد هذه الرسالة ومحتوياتها من الضروري ان تعامل بسرية ، ولكني مع ذلك لا أمانع من ايصالها بصورة مكتومة الى الوزارة والى صاحب الفخامة رئيس الوزراء » •

وبعد يومين من كتابة هذه الرسالة أرسل كوكس برقية الى لندن كرر فيها ما ذكره في تلك الرسالة من كون المؤتمر من تدبير البلاشفة والاتراك ، ولكنه أضاف الى ذلك ما يدل على أنه متذمر من سلوك الملك حيث قال ما نصه :

« ان كل المعلومات التي في حوزتي وحوزة المقر العام في هذا الشأن قد قدمتها الى الملك والى النقيب ، غير أن الملك ظل متمسكا برأيه في أن اهداف المؤتمر غير مضرة وانه قادر على السيطرة على المؤتمر • أما النقيب فهو مضطرب بشكل لا يقل جدية عما أنا عليه من احتمال سقوط الملك في أيدي المتطرفين والشيعة • وقد بذلنا أنا وكورنواليس جهدنا لاقناع الملك بأن حضور المؤتمر سيكون خطأ كبيرا منه ، فوعد بأنه سيراقب التطورات في الايام القليلة القادمة قبل أن يتخذ قراره النهائي • ان خوفا حقيقيا من التطورات يوجد لدى المعتدلين • ويعزو الكثيرون الحركة كلها الى الملك نفسه باعتبار أنه ينتهز الذعر من الاخوان (وهو الذعر الذي يجري استغلاله الى أقصى حد) للحصول أولا على دعم شعبي له في موقفه من الانتداب ، وثانيا لارغام وزرائه على الموافقة على توسيع الجيش وتوفير ما يلزم لذلك من أموال • ان الملك يعترف بقيام المجتهدين بتوجيه دعوات الى شيوخ العراق • وهو لم يستشرني أو يستشر كورنوالس ناهيك عن النقيب قبل أن يساعد الحركة • واعتقادي انه فعل ذلك من غير ان يدرك نذر الحركة او احتمالاتها الكاملة » •

وفي ١٩ نيسان أرسل كوكس الى لندن برقية أخرى هذا نصها :
« ان الاجتماع في كربلاء قد انفض والزوار غادروا البلدة • وقد اخبرتكم

قبل هذا بالنتائج السياسية للمؤتمر ، ولكن من الواضح ان المؤتمر تضمن بالاضافة الى اجتماعاته الشكلية شيئا كثيرا من النقاش الحاد • وعندي معلومات وافية عن هذا النقاش بالنسبة الى طبيعة الحزبين اللذين حصل بينهما النقاش • ان المتطرفين والعلماء قد شعروا بالخيبة والحنق لفشلهم في انتاج الهياج الذى أرادوه من جراء ما أبداه الشيوخ من تعقل وما فرضته السلطة من قيود رسمية • ومن الناحية الاخرى كان هناك تجمع يمثل الشيوخ الذين كرهوا أن يجرهم العلماء الى السياسة مرة أخرى • يضاف الى ذلك أن هناك كثيرا من الشيوخ كانوا أقوياء بدرجة استطاعوا بها أن يعربوا عن رأيهم بقوة في هذا الموضوع ويمتنعوا عن المشاركة فيه • ان جزءا كبيرا من «الهواء الساخن» يصل الينا الآن من كلا الحزبين وسوف لا يزول الا بعد مضي بعض الوقت • وتدعي جرائد المتطرفين ان المؤتمر قد دعم موقف الملك كثيرا في مفاوضاته مع الانكليز حول المعاهدة على أساس رفض الانتداب والحماية والحصول على الاستقلال التام • وفي الحقيقة ان هذا هو ما كان يأمله المتطرفون ، ولكنهم لم يحصلوا عليه • ومن الناحية الأخرى هناك علامات تدل على ان من نتائج مؤتمر كربلا هبوط سمعة الملك وأعوانه في نظر اولئك الذين يريدون ابقاء الانتداب » • وينهي كوكس برقيته بقوله : « ظهرت عدة نظريات لتعليل هدف مؤتمر كربلا وكيف انبعثت فكرته تعليلا دقيقا ، حيث عزيت دوافعه الى البلاشفة او الملك حسين أو مصطفى كمال أو غيرهم ، غير أنه ليس من الصواب الاطمئنان الى أية نظرية من هذه النظريات الا بعد أن يهدأ الوضع ويستقر » •

يبدو ان الملك لم يشأ ان يستمر في صراعه مع كوكس ، ولعله خاف من العواقب ، فأخذ يظهر شيئا من التراجع تجاه كوكس • فقد كتب كوكس في ٢٥ نيسان برقية الى لندن هذا نصها :

« ان فيصل قد تأثر كما اعتقد باتجاه الرأي العام الذي ظهر منذ مؤتمر كربلا وبموقف عدد من الشيوخ الذين تجمعوا هنا ، فاستدعاني اليوم بصورة مستعجلة لبحث الوضع العام ، وكان كورنواليس حاضرا ، وتحدث باسهاب كبير قائلا انه يشعر بان علاقاته معنا في الشهر الماضي كانت تتخللها الشكوك ، وبأن الوضع الناجم مقلق وليس مرضيا ، وأنه يشعر بأن من الضروري تصفية الجو وأكد تعلقه ببريطانيا الذي لاينفصم • وأضاف قائلا انه يدرك انه ربما ارتكب بعض الاخطاء غير أنه لم يفعل ما فعل الا وهو معتقد بأنه يسعى لانجاح السياسة التي جاء من أجلها الى العراق بدعوة منا • وقال ان عليه ان يتذكر دائما بأننا أعربنا عن عجزنا عن مساعدته بالأموال والقوات خارج نطاق برنامج التخفيض ، وان عليه أن يعتمد على جهوده الخاصة قدر الامكان » •

وفي ٢٩ نيسان أبرق كوكس الى لندن مرة أخرى يقول : «لاشك أن الاحداث الأخيرة كان لها تأثير ممتاز في المعتدلين وفي تأديب فيصل معاً، فقد جاء الملك اليوم لرؤيتي راجيا ان لا يحصل لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية انطباع بأنه يعمل ضدها أو يعارض سياستها في أي حال من الاحوال ، واذا وجد أنه قد أخذ على عاتقه مهمة ليس في مقدوره انجاحها فانه سيعتزل الحياة في بريطانيا ، غير أنه لن يخسر صداقتنا ••• انه أخذ يدرك الآن قوة العناصر المعتدلة ••• وان هذا تقدم كبير ، واعتقد انه جدير بأن أبلغك به بلا تأخير »[٧٦] •

الاتفاق مع ابن سعود :

يعتبر مؤتمر كربلا فاشلا بوجه عام ولكنه مع ذلك لم يكن خاليا من بعض الفوائد للعراق • ومن هذه الفوائد أنه جعل كوكس يبذل جهده

(٧٦) نقلنا هذه البرقية وما قبلها عن وثائق دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (اف• او• ٣٧١ـ٧٧٧٠)

لتسوية النزاع بين العراق وابن سعود بشكل ينسجم مع مصلحة العراق الى حد غير قليل •

في أيار ١٩٢٢ ـ أي بعد مرور نصف شهر على مؤتمر كربلا ـ عقد في المحمرة مؤتمر بتدبير من كوكس حضره وزير المواصلات والاشغال صبيح نشأت مندوبا عن العراق ، وأحمد بن ثنيان مندوبا عن ابن سعود ،كما حضره الميجر بورديلون سكرتيركوكس مندوبا عنه • وفي ٥ أيار تم التوقيع على معاهدة لتحديد الحدود بين الدولتين السعودية والعراقية ، وهي المعاهدة التي عرفت باسم «معاهدة المحمرة» •

لم يكد ابن سعود يطلع على معاهدة المحمرة حتى ثار بـه الغضب وأعلن أنه يرفض توقيع المعاهدة بحجة أن مندوبه في مؤتمر المحمرة كان متساهلا وأنه خرج عن نطاق توصياته التي أوصاه بها • وأخذ ابن سعود يعلن تذمره من الانكليز بدعوى أنهم صاروا يميلون الى العائلة الهاشمية ضدا له •

كان الكاتب اللبناني المعروف أمين الريحاني في زيارة لابن سعود في تلك الايام ، وأخذ ابن سعود يتحدث له عن الانكليز وعلاقته بهـم حيث قال : « يظن الناس أننا نقبض من الانكليز مبالغ كبيرة من المال • والحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها • ونحن لا نخلف معهم قبل أن يخلفوا معنا • بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في أنفسنا ومصالحنا •• الانكليز مديونون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار أن نطالبهم • ولكن ما هي سياستهم الآن ، تراهم يغزلون ويغزلون • تراهم يدسـون الدسائس علي ـ علي أنا صديقهم ابن سعود ـ أحاطوني بالاعـداء • أقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من أعدائي ملوكا ، وهم يمدونهم دائمـا بالمساعدات المالية والسياسية• الشريف فيالحجاز ، وابنه عبدالله في شرق

الاردن ، وابنه فيصل في العراق .. ما القصد من هذه الاعمال ؟ وما الداعي اليها ؟ أنا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملوني معاملة العدو ... من هو ابن سعود في نظر الشريف وأولاده هو الجلف الكافر الخارجي . ترى الصحيح يا حضرة الاستاذ . قد قالوا ذلك . بل قالوا اكثر من ذلك . وهم مع ذلك يطلبون مني أن أحمل على الفرنسيين في سوريا لاخرجهم منها . ترى الصحيح » . وعند وصول ابن سعود في كلامه الى هذه النقطة نادى أحد كتابه وأمره أن يحضر بعض أعداد جريدة «القبلة» التي كان الملك حسين يصدرها في مكة يومذاك ، وكانت تحتوي على مقالات كلها مطاعن في ابن سعود وتطلق عليه لقب بـ «الجلف الخارجي» ... ثم عاد ابن سعود الى الكلام فقال : « لا نسلم بذرة من حقوقنا ، ولكننا لا نقول في أعدائنا ما يقولون فينا ، ولا نطلب غير ماكان لآبائنا واجدادنا من قبلنا . ليعلم ذلك الانكليز ... وليعلم ذلك الشريف واولاده ... »[(٧٧)] .

طلب كوكس من ابن سعود الاجتماع للنظر من جديد في معاهدة المحمرة ، وتقرر أن يكون الاجتماع في «العقير» وهو موضع للكمرك على ساحل الخليج العربي مقابل البحرين . وقد وصل كوكس الى هناك في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٢ ومعه حاشية مؤلفة من صبيح نشأت وزير المواصلات والاشغال ، وفهد الهذال رئيس عشيرة عنزة ، والميجر مور القنصل البريطاني في الكويت ، والميجر ديكسون الوكيل السياسي البريطاني في البحرين .

بدأت المفاوضات بين الفريقين في اليوم التالي ، واستمرت ستة أيام ، وكان ابن سعود يصر على أن تكون حدوده عند نهر الفرات ، بينما كان صبيح نشأت يريد أن يجعل الحدود على بعد مائتي ميل الى الجنوب

---

(٧٧) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت ١٩٥١ ـ ج١ ص ٦١ـ٦٢ .

من الفرات • وحاول كوكس ان يوفق بين المطلبين غير أن ابن سعود كان متصلبا في موقفه لا يتزحزح • وفي اليوم الاخير من المفاوضات نفد صبر كوكس من تصلب ابن سعود وظهر الغضب عليه ، وحين رأي ابن سعود ذلك غير موقفه فجأة ووافق على ما كان يريده كوكس منه • يروي الميجر ديكسون ما جرى في اليوم الاخير من المفاوضات فقال ما نصه :

« وفي النتيجة عندما حصل الاجتماع الاخير لم يكن حاضرا سوى كوكس وابن سعود والميجر مور وأنا • وقد اشتد غضب كوكس على ابن سعود واصفا موقفه بالطفولي ، فشاهدنا منظرا عجيبا من ابن سعود حين وبخه كوكس • ان ابن سعود كاد ينهار وأخذ يتكلم بشكل مثير للشفقة قائلا : ان كوكس هو الذي خلقه ورفعه الى هذه المكانة التي هو فيها ، وانه سوف يتنازل عن نصف مملكته اذا أمر كوكس بذلك • وعند هذا تم الاتفاق على الحدود الموجودة حاليا • انها الحدود التي قام برسمها فعلا السر برسي كوكس نفسه ••• »[٧٨] •

كانت الحدود التي اتفقوا عليها تتضمن بقعة حددت بشكل معين ، كأنها قطعة لوزينج أو بقلاوة ، وتبلغ مساحتها ما يزيد على سبعة الاف كيلومتر مربع قليلا ، وقد عرفت فيما بعد دوليا باسم «البقلاوة» ويقال ان صبيح نشأت هو الذي أطلق عليها هذا الاسم • وهي بقعة ذات أهمية كبيرة للقبائل العراقية والنجدية لانها تضم آبارا جيدة ، فكان الاتفاق عليها أن تكون محايدة حيث يجوز للقبائل من كلا الجانبين ارتيادها[٧٩] • فأصبحت بذلك «قطعة بقلاوة للجميع» ـ على حد تعبير أمين الريحاني[٨٠] •

---

(78) Graves (op. cit.) - p. 322 - 323.

(٧٩) صادق حسن السوداني (العلاقات العراقية السعودية) ـ رسالة جامعية غير مطبوعة ـ ص ١٢٥ •

(٨٠) أمين الريحاني (نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٣١٣ •

وبهذا حُلت مشكلة كانت تعتبر من أهم الاسباب التي تثير النزاع على الحدود بين الدولتين .

ويروى ان تحديد الحدود بتلك الصورة ترك شعورا مريرا في قلب ابن سعود ، فطلب مقابلة كوكس على انفراد ، فجاء كوكس اليه ومعه ديكسون ، وأخذ ابن سعود يخاطبه بصوت كئيب قائلا : « لقد وثقت بك ولكنك حرمتني من نصف مملكتي ، والافضل أن تأخذها كلها وتدعني أذهب الى المنفى » . وحين كان ابن سعود يتكلم كان الدمع يكاد ينفجر من عينيه . فتأثر كوكس من هذا المنظر وأمسك بيد ابن سعود وقال له : « اني أدرك مدى تأثرك ، ولهذا السبب أعطيتك ثلثي مساحة الكويت ، ولست أدري كيف سيتلقى ابن صباح هذه الصدمة »[٨١] ...

معنى هذا ان كوكس أخذ من ابن سعود ليعطي العراق ، ثم أخذ من الكويت ليعطي ابن سعود . ويقال أن امير الكويت عاتب كوكس بعدئذ على مافعل معه ، فأجابه كوكس : «انه في تلك المناسبة السيئة كان السيف أقوى من القلم وأنه لو لم يسلم تلك الاراضي لابن سعود لكان بكل تأكيد أخذها وربما أخذ اكثر منها بقوة السلاح ، واني قد ارضيت جارك القوى وزرعت في نفسه شعورا وديا تجاه الكويت » . فقال له أمير الكويت : « اذا كان الامر كذلك فاذا توفي ابن سعود في يوم من الايام وأصبحت انا قويا كجدي مبارك فهل تمانع الحكومة البريطانية اذا رفضت خط الحدود هذا غير العادل واستعدت الاراضي التى فقدتها ؟ » فضحك كوكس وقال: « كلا وليبارك الله جهودك »[٨٢] .

---

(٨١) حسين خلف الشيخ خزعل (تاريخ الكويت السياسى) ــ بيروت ١٩٧٠ ــ ج٥ ــ ص ١٤٤ .
(٨٢) المصدر السابق ــ جـ٥ ص١٤٦ .

الفصل الرابع

الصراع بين كوكس وفيصل

رأينا في الفصل الماضي بعض مظاهر الصراع بين كوكس والملك فيصل حول تشكيل الوزارة وحول غارة «الاخوان» ومؤتمر كربلا والواقع ان الصراع بين الرجلين لم يقف عند حد معين بل كان مستمرا يخمد تارة ويلتهب تارة أخرى . وكانت هناك اسباب متعددة تعمل على اثارته من جديد كلما مال الى الخمود .

لوحظ هذا الصراع بوضوح في منطقة الفرات الاوسط ، فقد كانت هذه المنطقة ذات أهمية خاصة بالنسبة للملك وللانكليز في آن واحد . فهي موطن ثورة العشرين وكانت عشائرها منقسمة الى فريقين متعادين : موالية للانكليز ومعارضة لهم . وكان الملك يتحبب للعشائر المعارضة ويقرب رؤساءها اليه ويجعلهم من مستشاريه وأعوانه . فكان ذلك يغيظ كوكس ويجعله دائم التذمر من الملك .

كان الملك حريصا على تعيين موظفين في الفرات الاوسط يسيرون على خطته في تقريب العشائر المعارضة ومساعدتهم . ففي منتصف تشرين الاول ١٩٢١ تمكن من تعيين علي جودت الايوبي متصرفا للواء الحلة ، وكان هذا الرجل من الضباط الذين حاربوا مع فيصل في الحجاز وسوريا ، وحين تسلم وظيفته في الحلة أخذ يسير في ادارة اللواء سيرة ترضى الملك وتغضب الانكليز[١] ، حيث أخذ يحابي الرؤساء الذين شاركوا في ثورة العشرين كما عين في الاقضية التابعة له قائمقامين يسيرون على خطته . وذكر الايوبي في مذكراته ان الشيخ مهدي الخالصي كان راضيا عنه وعن سلوكه في

(١) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ـ ١٩٦٥ ـ ج١ ص ١٨٠ .

ادارة اللواء حتى أنه كتب له كتابا يشكره فيه • وقد نشر الايوبي في مذكراته صورة زنكغرافية لكتاب الخالصي للتدليل على أنه كان في ذلك الوقت من الوطنيين •[٢]

وقد حاول الملك أن يعين للواء كربلا متصرفا من طراز الايوبي ولكنه لم يوفق • فقد كان حميد خان يومذاك متصرفا في كربلا ، وهو رجل يحبه الانكليز ، فعزله الملك وعين في مكانه رجلا من أعوانه اسمه الحاج سليم • ولكن هذا الرجل لم يكد يصل الى كربلاء حتى لحق به رجل مرسل من كوكس وأعاده الى بغداد • فأحدث ذلك توترا شديدا بين الملك وكوكس • وقد توسط النقيب بينهما فاقترح حلا وسطا هو تعيين عبدالعزيز القصاب في كربلا بدلا من حميد خان أو الحاج سليم[٣] • وكان القصاب حينذاك متصرفا في الكوت فانتقل الى كربلا ووصلها في أوائل شباط ١٩٢٢ وسار فيها سيرة حيادية قيل عنها انها لا ترضي الملك ولا تغضب المندوب السامي •

مشكلة المعاهدة :

كانت المعاهدة اكبر سبب للصراع بين فيصل وكوكس ، ومن الممكن القول انها كانت وراء جميع مظاهر الصراع بين الرجلين على وجه من الوجوه •

أشار كوكس في مذكرة له نشرت فيما بعد الى مشكلة المعاهدة وكيف بدأ الخلاف حولها بينه وبين الملك ، فهو يقول انه هو الذي اقترح على الحكومة البريطانية ان تقوم العلاقة بينها وبين العراق على أساس معاهدة بدلا من الانتداب ، وذكر ان السبب الذي دعاه الى ذلك هو أنه وجد العراقيين ينفرون من فكرة «الانتداب» ويفسرونها بمعنى « الانقياد للسلطة المنتدبة » ،

---

(٢) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ١٥٥ •
(٣) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٢١٧ •

وقد وافقت الحكومة البريطانية على رأيه غير أنها كانت تريد معاهدة فـي حدود المقصود من الانتداب ، بينما كان الملك فيصل يريد الغاء الانتـداب الغاءا تاما والتعويض عنه بمعاهدة تحالف بسيطة[(٤)] .

أما الملك فقد أوضح موقفه من المعاهدة في حديث له مع أمين الريحاني في وقت لاحق اذ قال له ما نصه :

« وعدني المستر تشرتشل وعدين : أن يلغي الانتداب ، وان يعترف بأستقلال العراق . وقد جاءنا الآن بمعاهدة طافحة بذكر الانتداب وعصبة الامم . فاذا كان الانتداب فما الفائدة من المعاهدة وما الغرض منها ؟ واذا كانت المعاهدة فما الحاجة الى الانتداب ؟ غني عن البيان أن أحد الصكين غير لازم وغير مفيد . اننا مصرون على ما وعدنا به المستر تشرتشل ، وهو ما يطلبه العراقيون ، المعتدلون منهم والمتطرفون . واني لازال أعتقد وآمل أنه يبر بوعده . والا فالموقف حرج ، يا أخي ، حرج جدا »[(٥)] .

بدأت المفاوضات حول المعاهدة في ٢٩ ايلول ١٩٢١ ـ أي بعد مرور ٣٨ يوما على تتويج الملك ـ وذلك حين قدم كوكس الى الملك مسـودة معاهدة وصفها بأنها مسودة ليست نهائية بل هي مجرد محاولة تجريبية من أجل البدء بالمفاوضة . وفي ١٥ تشرين الاول وصل الى بغداد الميجر يونغ ـ وهو الذى عرف فيما بعد باسم السر هربرت يونغ ـ وكان مرسلا من قبل الحكومة البريطانية لكي يساعد كوكس في المفاوضة . وأخذت مسـودة المعاهدة منذ ذلك الحين تنتقل مرة بعد مرة بين دار الاعتماد البريطانـي ومجلس الوزراء والبلاط ، وكان الملك يحاول في كل مرة أن يجـري تعديلا على المسودة فيرجعها الى مجلس الوزراء لترجع من جديد الى دار الاعتماد .

---

(٤) كوكس ودوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) ـ ترجمة بشـير فرجو ـ الموصل ـ ص ٥٦ ـ ٥٨ .

(٥) امين الريحاني (فيصل الاول) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ص ١٢٦ .

ظلت المفاوضات تجري في الخفاء دون ان يعلم الرأي العام عنها شيئا حتى أواخر أيار ١٩٢٢ • ففي ٢٣ منه أعلن تشرتشل في مجلس العموم البريطاني جوابا على سؤال وجه اليه اذ قال : « ان الملك فيصل وحكومته لم يخبرا بريطانيا عن رفض الشعب العراقي للانتداب » • وحين نشر هذا التصريح في جرائد بغداد حدثت ضجة كبرى في الرأي العام ، وأخذت المعارضة تتحفز للعمل •

كان الوقت آنذاك في أواخر شهر رمضان ، وقد انتظرت المعارضة حلول العيد • وفي صباح ٢٨ أيار ، وهو اليوم الاول من عيد الفطر ، عقد اجتماع عام في جامع الوزير المقابل للقشلة ، فألقيت فيه الخطب الحماسية للاحتجاج على تصريح تشرتشل • ثم تقرر عقد اجتماع آخر كبير في جامع الحيدرخانه عصرا • وأصدرت جريدة «الاستقلال» منشورا تدعو الجماهير فيه الى حضور الاجتماع • وفي الوقت المعين من عصر ذلك اليوم تم عقد الاجتماع ، وخطب فيه محمد باقر الحلي وأحمد الشيخ داود ومهدي البصير • وعند انتهاء الخطباء من القاء كلماتهم جرى انتداب ستة أشخاص لينوبوا عن الشعب في الاحتجاج ضد تصريح تشرتشل وهم : محمد الصدر ومحمد الخالصي وأحمد الشيخ داود ومهدي البصير وحمدي الباچچي وياسين الهاشمي •

خرج المندوبون الستة من جامع الحيدرخانة وساروا متجهين نحو القشلة بغية مقابلة الملك ، وكانت الجماهير تسير خلفهم • وحين وصلوا الى القشلة لم يجدوا الملك في مقره الرسمي • فحضر اليهم وزير الداخلية وقابلهم بلطف وبشاشة ، ثم اتصل بالملك في قصر شعشوع طالبا تعيين موعد لمقابلة المندوبين ، فاجابه سكرتير الملك بان الملك مستعد لمقابلتهم في قصره غدا[٦] •••

(٦) منشور جريدة « الاستقلال » الصادر في ٤ شوال ١٩٤٠ •

عقد المندوبون اجتماعا تمهيديا في صباح اليوم التالي في بيت أحمد الشيخ داود ، ولم يتخلف عنهم سوى ياسين الهاشمي اذ أرسل اليهم مذكرة صغيرة قال فيها : انه مضطر بكل أسف لاخبار زملائه بأنه لا يستطيع الاشتراك معهم في مذكراتهم وسائر مساعيهم الا انه غير مخالف لهم برأيه ومعتقده[٧] • ومن الجدير بالذكر ان الهاشمي كان يومذاك قريب العهد بالعودة من سوريا اذ كان وصوله الى بغداد في اليوم التاسع من الشهر نفسه ، وكان قبل ذلك ممنوعا من العودة ولم يسمح له بها الا بعد أن ضمنته القنصلية البريطانية بدمشق بأنه سيكون أمينا مخلصا[٨] • ولهذا فهو لم يحب أن يورط نفسه في مشكلة مع الانكليز ، ولعله آثر الابتعاد عن النشاط السياسي موقتا حتى ينجلي الموقف •

وفي الموعد المحدد ذهب المندوبون ـ بعد أن أصبح عددهم خمسة ـ لمقابلة الملك فجرى بينهم حديث طويل لا نعرف عنه سوى ما ذكره اثنان من المندوبين هما مهدي البصير ومحمد الخالصي • وقد أعطانا كل منهما صورة عن المقابلة تختلف عما أعطاه الآخر • ففي رواية البصير : ان الملك قال انه يود أن يعلم الشعب بأنه لم يحدث حتى الآن شيء يضر بمصالح العراق وانه ساهر كل السهر على صيانة منافع البلاد ومصالحها ، وعليه فانه يود أن يطمئن بال الشعب[٩] • أما محمد الخالصي فيقول : اننا طلبنا من الملك التصريح بان العراق مستقل لا يشوبه أي تدخل أجنبي بأي اسم كان ، فأخذ يخادعنا على عادته بمهارة تفوق الحد ولكنها لم تؤثر علينا لمعرفتنا بأساليب خداعه ، وقد وافق بعد الالحاح على أن نعلن رفض

---

(٧) محمد المهدى البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ٢ ص ٤٦٢ •

(٨) سامي عبدالحافظ القيسي (ياسين الهاشمي) ـ رسالة جامعية غير مطبوعة ـ ص ٨٧ ـ ٩١ •

(٩) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٤٦٣ •

الانتداب ونعلم عصبة الامم بذلك برقيا[١٠] ...

وعند خروج المندوبين من عند الملك أذاعوا بيانا نشرته جريدة «الاستقلال» قالوا فيه ان الملك لم يعمل ضد رغائب الشعب وانه ساهر على مصلحة البلاد وان الامور جارية على أحسن ما يرام ، وانهم سيباشرون بارسال البرقيات في رفض الانتداب الى المراكز الحرة في العالم المتمدن[١١]. ثم كتب المندوبون صورة البرقية ، وهذا نصها :

« لقد أثبت العراقيون رغبتهم الاكيدة فى الاستقلال التام ورفضهم أى أنتداب كان رفضا باتاً . وحركتهم الخطيرة سنة ١٩٢٠ أعظم شاهد على ذلك . وبمناسبة تصريح المستر تشرتشل في البرلمان الانكليزى بشأن مسألة الانتداب في العراق أقام الشعب العراقي مظاهرة سلمية فوضنا فيها أن نعلن أمام مجلسكم الموقر ولدى البرلمانات الاخرى عن رأيه في رفض الانتداب . وعليه فاننا نرفض كل انتداب ونحتج على كل قرار يعارض الاستقلال التام للعراق .
التواقيع : محمد الخالصي ، السيد أحمد الداود ، السيد محمد الصدر ، حمدي بك الباججي ، محمد المهدي البصير »[١٢] .

حمل المندوبون هذه البرقية وذهبوا بها الى دائرة البرق لابراقها الى عصبة الامم والمجالس النيابية في امريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا ، ودفعوا ١٥٠٠ روبية اجرة لابراقها ، ولكن الرقابة أخرت ابراقها واتصلت بالملك تسأله هل يأذن بابراقها أم لا . وهنا شعر الملك بأنه اصبح في موقف حرج لا يدري كيف يخرج منه ، فهل يسمح بابراق البرقية وفي ذلك اغضاب للانكليز ، أو يمنعها وفي ذلك أغضاب للوطنيين .

كتبت المس بيل في ٦ حزيران تقول : ان البرقيات لا تزال نائمة

(١٠) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .
(١١) منشور جريدة « الاستقلال » الصادر في ٤ شوال ١٩٤٠ .
(١٢) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) – ج٢ ص ٤٦٤ .

في صندوق دائرة البرق ، والملك يحاول محاورة المندوبين حولها • ثم تعلق على ذلك قائلة : « آه من الملك ، الملك ! ياليته كان اكثر حزما وصلابة ! انه يضيع الآن فرصة العمر - ولكن ماذا في وسع الانسان أن يصنع ؟ » • ثم كتبت بعد يومين تقول : « اني أشعر الآن بكثير من السرور ، فلقد وافق الملك على منع البرقيات المذكورة نهائيا • ولما استأجر الحمير الخمسة - تقصد المندوبين - سيارة لارسال البرقيات الى ايران بغية ابراقها من هناك أخبرهم الملك أن عملهم هذا سيؤدي الى أفدح الضرر • فتوقفوا »(١٣) •

مشكلة المنتفق :

في الوقت الذي كان فيه الصراع يشتد حول المعاهدة كان لواء المنتفق - الذي يسمى الآن بمحافظة ذي قار - في حالة شديدة من الاضطراب والفوضى ، وقد كان ذلك عاملا اضافيا في استفحال الخلاف بين فيصل وكوكس •

وصف التقرير البريطاني المرفوع الى عصبة الامم حالة لواء المنتفق بقوله : « كانت قبائلة تحتفظ بالسلاح الذي كان لديها ، وأخذت علاوة على ذلك تبذل جهدها للحصول على المزيد منه ، بحيث أصبح هذا اللواء اليوم ربما من اكثر مناطق العراق تسليحا • ولهذا أخذت القبائل تشعر بأن في مقدورها تحدي الحكومة وهو الامر الذي كانت هذه القبائل مشهورة به في العهد العثماني ، وكذلك اقتنعت القبائل ان الحكومة العربية الجديدة من الممكن تحديها دون أن ينتج عن ذلك أي خطر • ان الحكومة في عهد الاحتلال كانت قد اتبعت طريقة في الادارة المدنية لقمع الفوضى الموروثة من العهد العثماني هي في إعادة السلطة الى شيوخ العشائر وتدعيمها بالنفوذ البريطاني من أجل تنفيذ أوامر السلطة العليا • ولكن ثورة

(13) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vil. 2; p 273-274.

ملكنا المفدى بارسال البطل الضرغام السيد ياسين باشا الهاشمى متصرفا لنا لهلكنا عن آخرنا • فنسأل الله ان يوفقنا لرضائه ورضاء العلماء وطاعة ملكنا وسيدنا دامت شوكته •••   الاحقر محمد حسن الشيخ حيدر[١٨]

لم يستطع الهاشمي البقاء في لواء المنتفق طويلا ، فقد اخذت العشائر الموالية للانكليز لاسيما الازيرج والغزي والحسينيات يشتمونه سرا وعلنا ويطلبون اليه ترك اللواء والعودة الى بغداد • فاضطر الهاشمى ان يغادر الناصرية ليلا بعد ان أوكل امور اللواء الى قائممقام سوق الشيوخ رؤوف الكبيسي[١٩] •

وعلى أثر مغادرة الهاشمي لواء المنتفق أرسل الميجر يتس الطائرات لقصف بعض العشائر المعارضة ، كما أمر بالقاء القبض على عبدالمهدى المنتفقي وباقر الشبيبي متهما اياهما بتدبير المظاهرات ضد سياسته • ومكث هذا الرجلان في السجن بضعة أيام أرسلا خلالها عدة برقيات الى جرائد بغداد يحتجان فيها على اعتقالهما ، فأصدرت وزارة الداخلية أمرها بالافراج عنهمـــا[٢٠] •

لم يقف الامر عند هذا الحد ، بل اشتد النزاع من جديد بين الميجر يتس ورؤوف الكبيسي مما أدى بالحكومة الى استدعاء الكبيسى الى بغداد وعزله عن وظيفته[٢١] وقد نفد صبر الملك مما وصلت اليه الاحوال في المنتفق فأرسل الى لندن جبرائيل حداد باشا ليبلغ الحكومة البريطانية شكواه بشأن الميجر يتس وبشأن القضية الكردية ايضا[٢٢] •

---

(١٨) عن وثائق البلاط الملكي ـ رقم الاضبارة ك/١١ ، رقم الوثيقة ١٦٧ •

(١٩) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) ـ ص٢٣١ ـ ٢٣٢ •

(٢٠) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ج٢ ص٤٦٦ ـ ٤٦٧ •

(٢١) المصدر السابق ـ ج٢ ص٤٦٧ •

(22) Graves (Sir Percy Cox) - London , second impression - p. 312

المس بيل تتكلم :

في اوائل حزيران ١٩٢٢ كتبت المس بيل رسالة طويلة بثماني عشرة صفحة الى والدها تخبره عن الوضع في العراق وموقف الملك منه • وهذه الرسالة ذات اهمية تأريخية غير قليلة لانها تمثل رأي الانكليز في الملك فيصل آنذاك • فقد كشفت الرسالة عن مبلغ الالم الشديد الذي كانت تشعر به المس بيل تجاه الملك فيصل ، فهي بعدما احبته وساعدته على تبوء عرش العراق وجدته أخيرا يؤيد زعماء المعارضة الذين هم على حد تعبيرها أشد المتطرفين دناءة • وقد شبهت المس بيل في رسالتها الملك فيصل بالتمثال الرائع من الثلج يذوب امام بصرها • ننقل فيما يلي جزءا من تلك الرسالة المهمة ، فهي تقول :

« في الساعة الرابعة والنصف ذهبت لتناول الشاي عند الملك ، وصممت ان أفصح له للمرة الاخيرة عن كل ما يجول بخاطرى تجاهه ••• وقد بدأت الحديث معه بسؤالي له عما اذا كان هو واثقا من اخلاصي وحبي الشديد له ، فكان جوابه أنه ليس لديه شك في ذلك لانه يعرف ماذا فعلت من أجله في السنة الماضية • فقلت له اني اذن استطيع ان اتكلم معه بحرية تامة واني في غاية التعاسة ، فقد كنت قد كونت تمثالا من الثلج جميلا فاتنا ومنحته ولائي ثم رأيت التمثال يذوب امام عيني ، وقبل أن تختفي ملامحه النبيلة فضلت أن أذهب • فأني بالرغم من حبي للامة العربية وشعورى بالمسؤولية عن مستقبلها لا استطيع ان أتحمل رؤية احلامي تتبخر وهي الاحلام التي كنت اهتدى بها يوما بعد يوم • فقد كنت أعتقد انه لايسير الا في هدى أسمى المبادىء ولكني رأيته أصبح ضحية لانواع شتى من الاشاعات الخبيثة ، فهو يصغي لاقوال أناس كانوا خلال الحرب قد خانوا العرب الذين تعاونوا مع الانكليز وهم غدا عندما يعود الاتراك الى العراق سيخونون الذين تعاونوا مع فيصل • وجئت له بمسألة الناصرية كمثال على ذلك وقلت له انه على خطأ في حكمه على تلك المسألة من أولها

ملكنا المفدى بارسال البطل الضرغام السيد ياسين باشا الهاشمي متصرفا لنا لهلكنا عن آخرنا • فنسأل الله ان يوفقنا لرضائه ورضاء العلماء وطاعة ملكنا وسيدنا دامت شوكته ••• الاحقر محمد حسن الشيخ حيدر[18]

لم يستطع الهاشمي البقاء في لواء المنتفق طويلا ، فقد اخذت العشائر الموالية للانكليز لاسيما الازيرج والغزي والحسينيات يشتمونه سرا وعلنا ويطلبون اليه ترك اللواء والعودة الى بغداد • فاضطر الهاشمي ان يغادر الناصرية ليلا بعد ان أوكل امور اللواء الى قائممقام سوق الشيوخ رؤوف الكبيسي[19] •

وعلى أثر مغادرة الهاشمي لواء المنتفق أرسل الميجر ييتس الطائرات لقصف بعض العشائر المعارضة ، كما أمر بالقاء القبض على عبدالمهدى المنتفقي وباقر الشبيبي متهما اياهما بتدبير المظاهرات ضد سياسته • ومكث هذا الرجلان في السجن بضعة أيام أرسلا خلالها عدة برقيات الى جرائد بغداد يحتجان فيها على اعتقالهما ، فأصدرت وزارة الداخلية أمرها بالافراج عنهما[20] •

لم يقف الامر عند هذا الحد ، بل اشتد النزاع من جديد بين الميجر ييتس ورؤوف الكبيسي مما أدى بالحكومة الى استدعاء الكبيسى الى بغداد وعزله عن وظيفته[21] وقد نفد صبر الملك مما وصلت اليه الاحوال في المنتفق فأرسل الى لندن جبرائيل حداد باشا ليبلغ الحكومة البريطانية شكواه بشأن الميجر ييتس وبشأن القضية الكردية ايضا[22] •

---

(١٨) عن وثائق البلاط الملكي ـ رقم الاضبارة ك/١١ ، رقم الوثيقة ١٦٧ •
(١٩) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) ـ ص٢٣١ ـ ٢٣٢ •
(٢٠) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ج٢ ص٤٦٦ ـ ٤٦٧ •
(٢١) المصدر السابق ـ ج٢ ص٤٦٧ •
(22) Graves (Sir Percy Cox) - London , second impression - p. 312

المس بيل تتكلم :

في اوائل حزيران ١٩٢٢ كتبت المس بيل رسالة طويلة بثماني عشرة صفحة الى والدها تخبره عن الوضع في العراق وموقف الملك منه • وهذه الرسالة ذات اهمية تأريخية غير قليلة لانها تمثل رأي الانكليز في الملك فيصل آنذاك • فقد كشفت الرسالة عن مبلغ الالم الشديد الذي كانت تشعر به المس بيل تجاه الملك فيصل ، فهي بعدما احبته وساعدته على تبوء عرش العراق وجدته أخيرا يؤيد زعماء المعارضة الذين هم على حد تعبيرها أشد المتطرفين دناءة • وقد شبهت المس بيل في رسالتها الملك فيصل بالتمثال الرائع من الثلج يذوب امام بصرها • ننقل فيما يلي جزءا من تلك الرسالة المهمة ، فهي تقول :

« في الساعة الرابعة والنصف ذهبت لتناول الشاي عند الملك ، وصممت ان أفصح له للمرة الاخيرة عن كل ما يجول بخاطري تجاهه ••• وقد بدأت الحديث معه بسؤالي له عما اذا كان هو واثقا من اخلاصي وحبي الشديد له ، فكان جوابه أنه ليس لديه شك في ذلك لانه يعرف ماذا فعلت من أجله في السنة الماضية • فقلت له اني اذن استطيع ان اتكلم معه بحرية تامة واني في غاية التعاسة ، فقد كنت قد كونت تمثالا من الثلج جميلا فاتنا ومنحته ولائي ثم رأيت التمثال يذوب امام عيني ، وقبل أن تختفي ملامحه النبيلة فضلت أن أذهب • فأني بالرغم من حبي للامة العربية وشعوري بالمسؤولية عن مستقبلها لا استطيع ان أتحمل رؤية احلامي تتبخر وهي الاحلام التي كنت اهتدي بها يوما بعد يوم • فقد كنت أعتقد انه لايسير الا في هدى أسمى المبادىء ولكني رأيته أصبح ضحية لانواع شتى من الاشاعات الخبيثة ، فهو يصغي لاقوال أناس كانوا خلال الحرب قد خانوا العرب الذين تعاونوا مع الانكليز وهم غدا عندما يعود الاتراك الى العراق سيخونون الذين تعاونوا مع فيصل • وجئت له بمسألة الناصرية كمثال على ذلك وقلت له انه على خطأ في حكمه على تلك المسألة من أولها

الى آخرها . فالميجر ييتس كان أحد الرجال الثلاثة الذين وقفوا الى جانبي ضد ويلسون أثناء تأييدى للقضية العربية ... وقد تنبأت للملك بأن الميجر ييتس سوف يستقيل من وظيفته من جراء الشكوك السيئة التى يحيطه الملك بها ، وانى سوف استقيل فى اليوم نفسه لانى سوف لاأنتظر ان يقوم الانذال الذين وضع الملك ثقته فيهم بتسويد سمعتى فى عينه . وقد احتدت المحاورة بيني وبينه حول هذه المسألة ، وأخذ هو يقبل يدي مرة بعد أخرى مما أدى الى ارتباكي الشديد . ثم قال ان واجبه يقضي عليه أن يطمّن الوطنيين المتطرفين الذين رفضتم انتم الاعتراف بهم مرة بعد مرة .فأجبته ان هذا ليس بصحيح فنحن لم نرفض سوى أولئك الذين يعملون لخدمة أنفسهم ، اما الذى يعمل منهم بأخلاص في سبيل الحكومة الوطنية فنحن قبلناه ورحبنا به أيضا...خذ مثلا جعفر ابو التمن الذي كان من زعماء ثورة العشرين هو اليوم وزير، ونحن بوجه عام ، وأنا بوجه خاص ، على صلة ودية معه . وليس من المعقول انا سوف لانجد طريقة للعمل معهم بشرط ان الملك فيصل يؤيدنا فى ذلك . وفى نهاية المقابلة حصلت على اذن منه لنشر تكذيب رسمى لما كانت الجرائد تنشره من تقارير ... ولما أردت الخروج حاولت تقبيل يده فاحتضنني هو بحرارة ...» .

وتختم المس بيل رسالتها قائلة : ان الملك فيصل هو من أحب الناس الى القلب انما تعوزه قوة الخلق بشكل يدعو الى الدهشة . فهو في أعماق نفسه يثق بنا على الرغم من كثرة الانحرافات التى تحرفه عن الطريق[٢٣] .

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذى كانت فيه المس بيل تشعر بخيبة أمل في الملك فيصل كان الكثير من زعماء المعارضة الوطنيين يشعرون بخيبة أمل فيه كذلك . يقول أمين الريحاني في ذلك : لقد أساء الناس فهم موقف

(23) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 272 - 273.

الملك فيصل في تلك الايام ، فلم ينصفه الانكليز ولا أنصفه العراقيون ، إذ قال الانكليز عنه انه انقلب عليهم بعد التتويج ، وقال المتطرفون من الوطنيين انه يخدم مصالح الانكليز ويعمل بأمرهم • وفي الحقيقة ان الملك فيصل لاهذا ولا ذلك ، فقد كان يريد ان يحفظ عرشه من جهة ويريد ان يحمل الانكليز على الوفاء بوعدهم دون ان يعاديهم من الجهة الاخرى(٢٤)•

الوزراء والمعاهدة :

في مساء ٢٢ حزيران قدمت الصيغة النهائية للمعاهدة الى مجلس الوزراء للمصادقة عليها ، فحدثت حولها مناقشة وجدال حاد • وانتهت الجلسة قبيل الساعة الثامنة مساءا دون الوصول الى قرار فيها • واسرع سكرتير المجلس حسين افنان الى المس بيل في دارها في محلة السنك ليخبرها بما جرى في الجلسة • وقد سجلت المس بيل في رسالة لها ماذكره حسين أفنان لها • وفيما يلي نذكر ماورد في الرسالة حول تلك الجلسة•

كان أول المتكلمين في الجلسة عبدالمحسن السعدون ، وقد حض على قبول المعاهدة ، فانبرى توفيق الخالدي يقول ان ٩٥ بالمائة من الشعب العراقي لايقبل بمعاهدة تتضمن مبدأ الانتداب • فوجه رئيس الوزراء الى جعفر العسكري سؤالا عن الجيش هل هو قادر على قمع الاضطرابات في البلاد في حالة حدوثها ، فأجاب العسكري ان ليس هناك عربي يحارب عربيا آخر • وكان جعفر ابو التمن أثناء ذلك ساكتا وكأنه كان رقيبا على زملائه الوزراء لكي ينقل اخبارهم الى رؤسائه علماء الشيعة ولهذا كان كل واحد من الوزراء ينظر اليه بطرف عينه خوفا منه ماعدا عبدالمحسن السعدون وساسون حسقيل • وقد تكلم أبو التمن أخيرا فقال ان مجلس الوزراء لايمكنه النظر في المعاهدة إذ هي قضية يجب ان ينظر فيها المجلس التأسيسي ، وان السادة المقدسين وأقطاب الاسلام كلهم يعارضون المعاهدة

---

(٢٤) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص١٢٥ •

فخالفه في ذلك ساسون حسقيل قائلا ان انتخاب المجلس التأسيسي يحتاج الى عدة اشهر ، واقترح ان يوافق مجلس الوزراء على المعاهدة ثم ترفع بعدئذ الى المجلس التأسيسي للمصادقة عليها . ودامت المناقشة حول هذه النقطة ساعتين ، ثم تقرر تأجيل الجلسة الى يوم ٢٤ حزيران . ويقول السيد حسين افنان ان رئيس الوزراء النقيب لم يكن قادرا على اتخاذ أي قرار ، فقد كان مصابا بشلل ذهني...(٢٥) .

كان يوم ٢٤ حزيران يوما صاخبا في بغداد ، فقد شاع بين الناس ان المعاهدة على وشك التصديق دون ان يكون فيها ذكر لالغاء الانتداب ، ولهذا أغلقت الاسواق وتشكلت وفود تمثل المهن المختلفة كالبزازين والحدادين والنحاسين والبقالين وغيرهم(٢٦) ، وساروا بمظاهرة فى شارع الرشيد متجهين نحو دار النقيب الواقعة على النهر قرب الباب الشرقى ، وقد أشار التقرير البريطانى الى ان المظاهرة كلها كانت من تدبير الشيخ مهدى الخالصي(٢٧) .

وعند وصول الوفود المهنية الى دار النقيب طلب بعضهم مقابلته ، فاذن لهم بذلك واخذوا يتكلمون امامه مظهرين احتجاجهم على المعاهدة . والظاهر انه لم يتحمل رؤية جماعة من العوام يتدخلون فى شؤون السياسة والحكم ، فهذا أمر لم يتعود عليه ولم يكن يتصور انه سيقع فى يوم من الايام ، فسألهم : « باسم من تحتجون ؟ » فأجابوه « بأسم البلاد » . وعند هذا لم يطق النقيب صبرا فنهض من على مقعده وهز عصاه في وجوههم غاضبا منتهرا حيث قال لهم : « ومن أنتم لتحتجوا باسم البلاد ؟ أنا صاحب البلاد ، وأنا أعلم منكم بحاجات البلاد وأغراضها . عودوا الى بيوتكم

---

(25) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 276.

(٢٦) جريدة «الاستقلال» ــ في عددها الصادر في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ .

(27) Report on The Administration of Iraq - 1922 - 1923 - p. 13.

واشغالكم » فخرجوا من عنده ساكتين[٢٨] .

وعند الظهر وصل الى دار النقيب وفد خاص مرسل من الشيخ مهدي الخالصي ويتألف من محمد الخالصي وعبدالحسين الچلبي ورجلين آخرين . فدعاهم النقيب الى الجلوس وصار يتبسط معهم في الحديث . وانبرى محمد الخالصي يتكلم معه حول المعاهدة وأخذ يحذره من سوء عاقبتها كما حذره من عذاب يوم القيامة ، فأجابه النقيب قائلا : « ان رجلي قد تدلتا الى قبري ، واني على وشك الموت ، ولم يبق لي من بدني عضو يلتذ بلذة من شدة الضعف ، وهيهات أن أضيع آخرتي لايام قلائل أعيشها في الدنيا غير ملتذ بشيء ، فليثق الشيخ أبوك وليعلم كل احد اني لا أمكر للاسلام ولا اكيد له » . وبعد ذلك دعاهم الى تناول طعام الغداء معه .
يقول محمد الخالصي في مذكراته : انهم حين تناولوا الطعام على مائدة النقيب لاحظوا ان النقيب أكل برغم شيخوخته اكثر مما أكلوا هم الاربعة ، وانه عندما أحضر له التفاح بعد انتهاء الطعام أكل منه أكلا ذريعا يفوق مايمكن ان يأكله الاربعة في حالة الجوع . ويعلق محمد الخالصي على ذلك قائلا : « علمت ان الرجل يكذب في أقواله إذ ان من كان هذا اكله فهو في شغل شاغل عن الاسلام وخدمته »[٢٩] .

وعلى أي حال فقد صادق مجلس الوزراء على المعاهدة في جلسته المنعقدة في ٢٥ حزيران . ومن الانصاف ان نذكر ان النقيب ادرج في صلب المعاهدة عبارة تقضي بوجوب تصديقها من قبل المجلس التأسيسي . وقد حاول كوكس صرف النقيب عن ادراج هذه العبارة في المعاهدة غير ان النقيب اصر عليها وقال يخاطب كوكس : « هذا رأيي ورأي بلدي في

(٢٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص١٣٨ .
أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت ١٩٥١ ـ جـ٢ ص٣٨٥ .
(٢٩) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة .

المسألة ، فليس بيني وبينكم الا الصداقة في سبيل الواجب ، ولقد قبلت ان أتحمل المسؤولية في سني هذه ، فأذا أصررتم على وجهة نظركم فسأترك المقام وأدخل الى هنا ـ وأشار الى غرفة خاصة تؤدى بابها الى المكتبة ـ ولا يراني أحد بعد »(٣٠) .

كان جعفر أبو التمن غائبا عن الجلسة التي صودق فيها على المعاهدة ، ثم حضر في اليوم التالي فأبدى اعتراضا على مقدمة المعاهدة وبعض موادها لاحتوائها على ما يتضمن مبدأ الانتداب . ثم قدم استقالته وخرج . وقد حاول الملك بعدئذ اقناع النقيب بتأجيل قبول الاستقالة . ولكن النقيب اصر على قبولها . وفي ٢٩ حزيران أرسل النقيب حسين افنان الى أبو التمن وهو يحمل اليه رسالة مقتضبة يقول فيها انه قبل استقالته .

اشتداد التوتر :

في يوم ٢٦ حزيران ـ وهو اليوم الذى قدم أبو التمن استقالته فيه ـ اجتمع عدد كبير من رؤساء العشائر وزعماء المعارضة عند الشيخ مهدى الخالصي في الكاظمية . وقد أعلن الخالصي في اثناء الاجتماع ـ حسبما روته المس بيل في احدى رسائلها ـ قائلا : ان بيعتهم للملك فيصل اصبحت لاغية لانه أخل بالشروط التى تعهد بها اثناء البيعة والتى تنص على المحافظة على استقلال البلاد(٣١) .

وفي اليوم التالي توتر الوضع فى بغداد والكاظمية ، وبلغ كوكس ان زعماء المعارضة عازمين على القيام بمظاهرة كبيرة ، ودعاه ذلك الى ارسال برقية الى بو شهر يسأل فيها عن بناية السجن فى جزيرة هنجام وهل هى في حالة استعداد لايواء معتقلين . وقد تعمد كوكس أن يجعل خبر البرقية معروفا لكي يسمع بها الناس فتبعث الخوف فى قلوبهم...(٣٢) .

---

(٣٠) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ جـ١ ص٢٠ .
(31) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, 275 - 277.
(32) Ibid - vol. 2, p. 277.

لم تقع في ذلك اليوم اية مظاهرة مما جعل كوكس يظن ان برقيته أخافت الناس ، غير ان صحف المعارضة اشتدت في حملاتها واخذت تنشر العرائض المعادية للانتداب . وقد بلغ الانكليز ان الملك فيصل كان يدعم تلك الصحف وان اربعة من أعوانه ذهبوا الى النجف لجمع التواقيع ضد الانتداب . يضاف الى ذلك ان الملك امتنع عن تصديق المعاهدة وطالب ببعض التعديل في صيغتها العربية ، وأخذ يتصل بالوزراء سرا يحثهم على التعديل .

تقول المس بيل في رسائلها التي كتبتها في تلك الآونة : ان دمها صار يغلي من جراء هذا السلوك المزدوج الذي يسير عليه الملك فيصل ، وان كوكس كان ممتعضا كذلك ويشعر بالخيبة الشديدة من الملك . ولم تطق المس بيل صبرا فقررت قطع علاقتها بالملك نهائيا ، وأخبرت نوري السعيد بذلك ، فذهب نوري بالخبر الى الملك ، فارسل الملك اليها يدعوها لتناول الشاي معه ، ولكن المس بيل رفضت دعوته ، ثم قبلتها أخيرا بعد الحاح شديد من كورنواليس . وحين وصلت اليه استقبلها بحماس وأخذ يتحدث اليها محاولا اقناعها بحراجة موقفه ، ولكنها جابهته بقولها انها لاتصدق كلمة واحدة مما يقول . وقد استمرت المحادثة بينهما ساعتين أنهاها الملك بان احتضنها بحرارة شديدة ـ على حد تعبيرها . وهي تقول انها خرجت من عنده وهي متفقة معه عاطفيا ومختلفة سياسيا . ثم تقول أخيرا : انه اذا لم يسلك الطريق الصحيح في المستقبل فسيفقد عرشه للمرة الثانية ، ولست أدري اين يجد له عرشا ثالثا(٣٣) .

هدأ الوضع نسبيا خلال شهر تموز ، ولكنه عاد الى التوتر من جديد في أواخر ذلك الشهر . ففي ٣٠ منه كتبت المس بيل تقول ما نصه :

« كان الملك في هذا الاسبوع متعبا لنا جدا ، فان الدعاية المضادة

---

(33) Ibid - vol. 2, p. 276 - 280

للانتداب التي تجري فى لواء الحلة بموافقة ضمنية من الملك جعلت الفرات الاوسط قريبا من آذاننا الى أقصى حد • وقد قتل احد الشيوخ الموالين لنا هناك لاسباب سياسية ، ولما اراد المستر كورنواليس اتخاذ الاجراءات اللازمة للقبض على القاتل اتهمه الملك بحضور السر برسي كوكس بأنه يقف دائما الى جانب اعدائه • وقد ابدى السر برسى دهشته من هذا القول إذ كيف يجوز لفيصل وهو ملك دستورى ان يتدخل في امور ادارية كالقبض على قتلة• فأفحم الملك وأجاب بغضب انه سيترك الديوان ويذهب الى بيته• ولكنه لم يفعل ، بل بقي في الديوان مستمرا على استقبال كل الاوغـــاد والمسيئين ، وقد أنتج سلوكه هذا رد فعل لدى الشيوخ المؤيدين للانتداب ، حيث جاؤوا الى دائرتي وملأوها ، وكان علي السليمان أحدهم ، وصاروا يحلفون على ان الملك يعمل على اسقاطهم • وكان الملك يتدخل أيضا فى تعيينات الشرطة الى درجة كادت تؤدي الى استقالة الضباط الكبـــار منهم ـ العرب والانكليز معا ـ وجاء هؤلاء الى دائرتي لينضموا الى الشيـوخ المتذمرين » •

وتضيف المس بيل الى ذلك شيئاً يتعلق بنوري السعيد فتقول : « يبدو أن نوري السعيد كان وراء تعيينات الشرطة الاخيرة ، ولهذا دعوته لتناول طعام الغداء معي وطلبت منه توضيحا لما جرى • وقد استطاع نوري أن يبرىء نفسه من الامر ، فأخبرته عن سلوك الملك المتعب وقلت له ان الملك اذا ظل على سلوكه هذا فليس هناك أي ضابط بريطاني يقبل أن يخـدم تحت امرته • وقال نوري انه مستعد أن يغادر العراق غدا اذا كان ذلك نافعا • ان نوري يعلم بأن العراق لا يمكن ان يكون دولة بغير مساعدتنا ، واذا لم يكن هو مستحقا لذلك فان ابنه او ابن ابنه سوف يرى العمل منجزا• وهذا هو الامل الذى يجعله مطمئناً » • ثم تقول المس بيل : « انى لاأحب أحدا من بين جميع العراقيين ـ من الملك فنازلا ـ مثلما أحب نوري • انه

ابن موظف عراقي فكيف استطاع ان يكتسب هذه البصيرة المدهشة ؟ فهو قادر أن يفهم من نصف كلمة . انه ادرك وجهة نظرنا ومشاعرنا حول الحقيقة والشرف ، وجعلها أمام نظره هدفا ومثالا نهائيا ، وهو أمر ربما كان من المستحيل تحقيقه في الشرق ... ان ثقته المطلقة باستقامتنا وحكمتنا تجعلني أحمر خجلا على الدوام ... »[٣٤] .

اجتماع في النجف :

كانت منطقة الفرات الاوسط شديدة الحساسية لما يجري في بغداد من صراع بين الانكليز والمعارضة . فكان كل حدث يقع في بغداد يجد له صدى في تلك المنطقة على وجه من الوجوه .

وفي شهر آب عندما بلغ الصراع اشده أخذ رؤساء الفرات الاوسط الذين شاركوا في ثورة العشرين يتحفزون للقيام بثورة أخرى . يقول كوكس : « ان منطقة الفرات على وشك القيام بثورة كانت معالمها تدل على أنها لن تكون أقل خطورة من تلك التي كانت هذه العناصر المتطرفة نفسها قد أثارتها سنة ١٩٢٠ »[٣٥] .

وفي ١٢ آب حلت زيارة عيد الغدير في النجف ، والظاهر ان رؤساء العشائر ارادوا استغلال تلك الزيارة ، وقد لوحظ ان ازدحام الزوار في النجف آنذاك بلغ حدا لم تشهد البلدة مثيلا له من قبل ، حتى اضطر الكثير من الزوار الى النوم في الصحن الشريف ، وفي الطرقات والساحات العامة ، وقيل ان عدد الزوار آنذاك بلغ الثلاثمائة ألف[٣٦] .

وكانت وزارة الداخلية قد أحست بخطورة الامر فحشدت في النجف قوة كبيرة من الشرطة ، كما أوعزت الى عبدالعزيز القصاب متصرف

---

(34) Ibid - vol. 2, p. 285 - 286.

(٣٥) كوكس ودوبس (المصدر السابق) ـ ص٥٩ .
(٣٦) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) ـ ص٢٢١ .

كربلاء بالذهاب بنفسه الى النجف لمراقبة الحالة . وقد ذهب المتصرف الى النجف قبل الزيارة بثلاثة ايام ، ونزل فى دار البلدية الواقعة عند مدخل البلدة . وفى اليوم التالي وصل النجف متصـــرف الحلة علي جـودت الايوبي ومعه قائممقام الشامية وقائممقام أبو صخير وبعض موظفي لـــواء الحلة ورؤساء عشائرها . وتبين فيما بعد أن الملك أوعز له بذلك . وقـد نزل الايوبي في دار عبدالمحسن شلاش ..

ولم يكد أهل النجف يسمعون بوصول الايوبي حتى هبوا للترحيب به ، وقررت هيئة مدرسة الغري أن تقيم له حفلة تكريمية في المدرسة ، وقد عارض متصرف كربلاء اقامة تلك الحفلة خشية حدوث تجمع يهدد الامن، ثم وافق أخيرا . وأقيمت الحفلة فى وقتها المعين وألقيت فيهـا خطـب وقصائد حماسية ضد الانتداب وفي المطالبة بالاستقلال التام الناجز . وفـي ختام الحفلة ألقى الايوبي خطابا حماسيا . وبعد مرور بضع ساعات على انتهاء الحفلة وصلت الى الايوبي برقية من وزارة الداخلية تأمره بالعـــودة الى الحلة فوراً ...(٣٧) .

وفي ليلة يوم الغدير ـ أي في مساء ١١ آب ـ اجتمع في دار السيد أبو الحسن الاصفهاني عدد كبير من رؤساء العشائر كان منهم عبدالواحد الحاج سكر ومحسن أبو طبيخ وعبادي الحسين وعلوان الياسري وشعلان ابـو الجون وقاطع العوادى . وأرسل الاصفهاني الى متصرف كربلاء يرجو منه الحضور الى داره . وحين حضر المتصرف وجدهم جالسين فوق ســطح الدار . وتكلم الاصفهاني قائلا : ان السيد محسن ابو طبيخ لديه أمور يود عرضها عليكم . ثم تكلم أبو طبيخ فقال ما يلي :

« كنتُ في بغداد وقد قابلت مستشار الداخلية كورنواليس وذكرت

---

(٣٧) على جودت (المصدر السابق) ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

له أعمال المستشارين الانكليز في الالوية وضغطهم على الناس وتجبرهم وتعسفهم وطلبت منه رفعهم من الالوية . وبعد الكلام الطويل معه وعدني بأنه سيزيح هؤلاء المستشارين عن مراكزهم . وقد مضت مدة فلم ينفذ وعده فأطلب من المتصرف أن يطلب الى الداخلية تنفيذ هذا الامر حالا . واذا لم يتحقق ذلك فنحن في حل مما يحدث في البلاد » .

وعند انتهاء أبو طبيخ من كلامه التفت الاصفهانى نحو المتصرف يسأله : « ماذا تقول في هذا الطلب ؟ » ، فأجاب المتصرف : « انـي لا أعلم بهذا الوعد ولكن عليّ شيء واحد هو السؤال من الوزارة عن هذا الموضوع وتبليغكم جوابها عن ذلك » . فطلب الحاضرون ان يكون الجواب غدا وانهمّ ينتظرونه بصورة مستعجلة حتى يعملوا اللازم . وهنا التفت المتصرف نجو الاصفهانى شارحا له خطورة الوضع في النجف لكثرة الزوار فيها من جهة ولكثرة الشرطة من الجهة الاخرى، وأبدى خشيته أن يحصل احتكاك يؤدي الى سفك الدماء ، ولهذا فهو يرجو من الاصفهاني اصدار فتوى بتحريم التجمعات في داخل البلدة اثناء الزيارة. وحين سمع الاصفاني هذا القول التفت الى الشيخ عبدالكريم الجزائرى الذى كان جالسا بجانبه وأخذ يكلمه بالفارسية ، ثم أعلن الاصفهانى موافقته على رأي المتصرف وأوعز الى الجزائري بكتابة الفتوى . وبعد ان تمت كتابتها وضع الاصفهاني عليها توقيعه وناولها الى المتصرف ، فأخذها هذا وغادر الاجتماع مسرعا لكي يعلن الفتوى على الناس بواسطة المناديـن المحليين . وقد انتجت الفتوى ثمرتها فورا حيث لم يقع بعدئذ في النجف أي تجمع يخل بالامن .

وأبرق المتصرف الى وزارة الداخلية يستفسر منها عما قاله محسن أبو طبيخ في شأن المستشارين ، فعاد اليه الجـواب من الوزارة ومن كورنواليس ، وكلاهما ينفيان صدور أي وعد حول سحب المستشارين ، وطلبت الوزارة من المتصرف تكذيب الخبر حالا .

وجد المتصرف نفسه في موقف دقيق للغاية ، إذ هو كان يخشى ان يؤدي تكذيب الخبر الى هياج الناس والقاء الخطب والقصائد المثيرة ، وقد رأى من الحكمة ان يتريث في الامر . وعندما جاء اليه بعض الرؤساء في دار البلدية يطلبون منه الجواب قال لهم : انه سيبلغهم الجواب قريبا . فانصرفوا . ولكنهم لم يكادوا يخرجون من عنده حتى شاع بينهم أن المتصرف عازم على القاء القبض عليهم ، فأسرعوا الى مغادرة النجف حيث ذهبوا الى أبو صخير ومن هناك أبرقوا الى وزارة الداخلية يشكون فيها من المتصرف ويتهمونه بأنه اراد القبض عليهم من غير أن يكونوا قد قاموا بأي عمل يخل بالامن[٣٨] ، ثم ذكروا في برقيتهم أنهم عازمون عزما أكيدا على مقاطعة الحكومة اذا لم تنفذ مطاليبهم حالا...[٣٩] .

يقول عبدالعزيز القصاب في مذكراته : انه في الواقع لم يقصد القاء القبض عليهم كما تخيلوا ، بل كان ينوي زيارتهم لتوضيح الامر لهم. وقد أرسل أحد الخدم ليستعلم عن أماكن سكناهم من أجل زيارتهم ، ولكنهم حين سمعوا ان الخادم يسأل عنهم ظنوا خطأ ان ذلك من اجل اعتقالهم فركبوا سياراتهم وخيولهم وغادروا النجف مسرعين[٤٠] .

استقالة الوزارة :

انتشر الاضطراب في بعض انحاء الفرات الاوسط ، لا سيما في منطقة أبو صخير والشامية . وشعر توفيق الخالدى وزير الداخلية بعجزه عن معالجة الموقف مادام الملك يؤيد القائمين بالاضطراب . وفي ٣ آب قدم الخالدي استقالته من الوزارة . وحين انعقد مجلس الوزراء في ٩ آب تكلم الخالدي شارحا سبب استقالته فقال : ان الاضطراب يعم البلاد منذ

(٣٨) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) ـ ص٢٢٦ .
(٣٩) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ـ صيدا ١٩٦٥ ـ جـ١ ص٦٨ .
(٤٠) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) ـ ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

عشرة ايام وان ذلك قد أدى الى مشاغبة المتطرفين واستفحال الحركة ضد سياسة الحكومة • ثم عرض الخالدي على المجلس برقيــة مـن متصرف كربلاء وكتابا من قائممقام أبو صخير فيهما ذكر مايجري في النجف وعشائر الشامية من الخلل والارتباك مما أدى الى ظهور الوهن في المملكة(٤١) • ثم ذكر الخالدى ان المتطرفين يدّعون ان الملك يؤيدهـم في مهاجمــة الحكومة(٤٢) ، ولهذا فهو يرى ان الملك يجــب ان يعلن على الناس معاضدته للوزارة وثقته بها • وقد تكلم رئيس الوزراء مؤيدا رأى الخالدي• وبعد المداولة قرر مجلس الوزراء باتفاق الآراء رفع الطلب التالي الى الملك :

«بناء على ما سُمع من الاشاعات التي نشرها بعض المتطرفين في العاصمة والالوية ، والتى سببت قلقا وارتباكا في بعض الاماكن ، وما يخشى مــن تفاقم الامر اذا دامت الحالة على ماهي عليه الآن ، يطلب مجلس الوزراء من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم أن يؤازر حكومته المجدة فى تمشية الامور على مايرومه جلالته ويرضاه ، ليظهر للشعب ان حكومة جلالته مستندة على مؤازرة جلالته»(٤٣) •

في ١٢ آب أرسل الملك جوابه على طلب المجلس قائلا انه لا يجد مبررا لتبديل خطته الحاضرة • وقد دل هذا الجواب على ان الملك كان راغبا شخصيا فى سقوط الوزارة على خلاف رغبة الســر برســي كوكس(٤٤) • وعندما تلي جواب الملك في مجلس الوزراء شعر الوزراء بأنهم يجب ان يقدموا استقالاتهم ، فقدموها كلهم ماعدا واحدا منهم هــو محمد علي فاضل وزير الاوقاف •

(٤١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ جـ١ ص٨٧ •
(42) Graves (op. cit.) - p. 315.
(٤٣) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ جـ١ ص٨٧ •
(٤٤) فيليب آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص٢٨٠ •

كتب النقيب الى الملك يقول له بانه امتنع عن قبول استقالة الوزراء راجيا منه تأييده في موقفه هذا واعلان ثقته به وبهم • واسرع كوكس الى الملك يحثه على دعم موقف النقيب في رفض استقالة الوزراء ، وقد وافق الملك في اول الامر على ما طلبه كوكس ثم غير رأيه بعد قليل طالبا استقالة النقيب بدعوى أن بقاءه في الحكم غير دستوري بعد استقالة اكثر وزرائه(٤٥) • وقد اضطر النقيب عند هذا الى تقديم استقالته •

أصبح الوضع في غاية الدقة ، ومما زاد في دقته ان الملك أرسل الى كوكس رسالة شخصية تحتوي على ما يشبه التهديد حيث قال فيها : بالنظر الى عدم الاستقرار الموجود حاليا ، وعدم تحديد المسؤولية بينه وبين المندوب السامي في شؤون الادارة الداخلية ، فهو مضطر ان يبين للمندوب السامي وللحكومة البريطانية بأنه في حالة وقوع ثورة فى البلاد ، وهو أمر متوقع حدوثه حسب معلوماته السرية على حد تعبيره ، فأنه غير مسؤول عما يترتب عليها من مسؤولية • وطلب الملك فى رسالته من المندوب السامى أن يأخذ الحكم على عاتقه ، أو يفسح له المجال فى ادارة شؤون البلاد بالطريقة التى يراها مناسبة •

كان هذا بالنسبة الى كوكس فوق مايمكن تحمله • فسوّد جوابا الى الملك شديد اللهجة ألقى فيه مسؤولية الاضطراب الراهن على عاتق الملك• ولكن كوكس لم يرسل هذا الجواب الى الملك ، بل أوقف اصداره لكى لا يحدث تأثيرا سيئاً على الاحتفال بيوم التتويج الذى كان قريبا(٤٦) •

تقول المس بيل : ان نوري السعيد ذهب الى الملك وأخبره بأنه فقد ثقة الانكليز وأنه سائر نحو الدمار ، ولكن الملك ظل سائرا في طريقه لايرعوي حيث يلعب دور الطفل الوقح الذى لاينفع فيه اي اقناع(٤٧) •

---

(45) Graves (op. cit.) - p. 315.

(٤٦) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ــ ص٢٨٠ •

(47) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 291.

تاسيس الاحـزاب :

في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ كان مجلس الوزراء قد أصدر قانونا أجاز فيه تأسيس الاحزاب ووضع عقوبات صارمة على اى تجمع لم تصدر بـــه اجازة رسمية • والمظنون ان هناك ثلاثة أسباب دعت الحكومة الى اصدار مثل هذا القانون ، وهى :

اولا : كانت الحكومة تخشى ان تتطور الحالة في صيف ١٩٢٢ الى مثل ما تطورت اليه في صيف ١٩٢٠ من حيث اقامة المظاهرات السياسيـــة باسم « المواليد » النبوية و « التعازي » الحسينية ، فأرادت منع ذلك عـــن طريق القانون •

ثانيا : كانت الحكومة تعتقد ان مؤيديها في العراق اكثر من المعارضين لها انما هم غير منظمين ، وهم بعد صدور القانون قد يتمكنون من تشكيل حزب أو أحزاب خاصة بهم يغلبون بها المعارضين او يفحمونهـــم على الاقـــل •

ثالثا : كان وزير المالية ساسون حسقيل قد أبدى رأيا في مجلـــس الوزراء هو ان الحكومة اذا منعت الناس من تأسيس الاحزاب فأنهـــم يلجأون الى تشكيل احزاب سرية • والظاهر ان الوزراء ، والانكليز من ورائهم ، قد اقتنعوا بصحة هذا الرأي لاسيما وأنه صادر من ساسون الذى كان موضع ثقة الانكليز واعجابهم •

وعلى أي حال فقد تأسست في شهر آب ١٩٢٢ ثلاثة أحزاب كان اثنان منها معارضين هما جزب النهضة والحزب الوطني ، والثالث مؤيد للسلطة هو الحزب الحر •

تأسس حزب النهضة في الكاظمية في ٢ آب ، وكان اعضاء لجنتـــه التنفيذية امين الجرجفچي وأحمد الظاهر وعبدالرسول كبة وآصف قاسم أغا وعبدالرزاق الازري ومهدي البير ومحمد حسن كبة • اما الحـــزب

الوطني فقد تأسس في بغداد في ١٩ منه وكان أعضاء لجنته التنفيذية : جعفر أبوالتمن واحمد الشيخ داود وحمدي الباچچي ومولود مخلص وعبدالغفور البدري ومهدي البصير وبهجت زينل • وقد لوحظ في حينه ان حزب النهضة كان مدعوما من السيد محمد الصدر بينما كان الحزب الوطنى مدعوما من الشيخ مهدي الخالصي(٤٨) • ويقال ان التنافس التقليدى بين آل الصدر وآل الخالصي كان له أثره فى تكوين ذينك الحزبين ، ولولا ذلك لكان الحزبان حزبا واحدا •

أما الحزب الحر فقد تأسس في بغداد بتأييد من النقيب ، وكان ابنه الاكبر السيد محمود رئيسا له بينما أعضاء لجنته التنفيذية هم : جميل صدقي الزهاوى وعبدالمجيد الشاوي وفخري الجميل وحسن غصيبه وداود النقيب • وقد كتبت المس بيل في ١٥ آب تقول : « ان ابن النقيب ، السيد محمود ، قد أصبح رئيسا لحزب معتدل بعد الشيء الكثير من الدفع والحث • أما القوة المحركة الحقيقية فهي شيخ علي السليمان • وقد شكل المتطرفون حزبا لهم أيضا ولكنه حسبما سمعت عنه لم يحصل على تقدم كبير • وقد جاءني علي السليمان ومعه كل شيوخ العشائر الكبار حيث جعلهم يوقعون على الانتماء لحزب السيد محمود • انهم ملأوا دائرتي بالأمس فوق طاقتها وأوضحوا لي أنهم مستعدون لتنظيم البلاد كلها في سبيل تأييد العلاقات الانتدابية مع بريطانيا العظمى • انه كان شيئا مدهشا هذا الفوران التلقائي في الألوية من أجلنا ، ولكن هناك الحزب المعارض في مقدوره أن يسبب اساءة واضحة ، وربما أنتج ثورة ، ما لم نحث الملك على ضبطهم » • وأضافت المس بيل في اليوم التالي الى ذلك تقول : « عاد شيوخ العشائر الى مواطنهم لتنظيم الفروع الحزبية في الألوية ، وانني سوف أرسل علي السليمان طائرا الى الرمادي • ان رجال القوة الجوية

---

(٤٨) محمد المهدي البصير (المصدر السابق) ـ ج٢ ص٤٥٠ ـ ٤٥١ •

الطيبين جهزوا طائرة خاصة لهذا الغرض لاني ذكرت لهم ان ذلك سوف يزيده مهابة وأن ذلك يوافق مصلحتنا ••• ان المتطرفين يبذلون كل ما في وسعهم لاثارة الفرات الاوسط ••• »[٤٩]

حادثة مثيرة :

عندما قدم الوزراء استقالتهم في ١٤ آب اعتبر الوطنيون ذلك نصرا لهم وأخذوا يجاهرون أمام الناس بأن وزارة وطنية سوف تخلف الوزارة النقيبية قريبا برئاسة محمد الصدر وان جعفر أبو التمن وحمدي الباچچي ومولود مخلص سيدخلون فيها • وفي ١٩ آب نشرت جريدة «المفيد» بيانا من محمد الصدر يحث الناس فيه على المثابرة في المطالبة بالاستقلال التام ورفض الانتداب بكل الوسائل المشروعة •

وفي ٢٠ آب عقد الحزبان المعارضان جلسة مشتركة برئاسة محمد الصدر ، وتلتها جلسة أخرى في اليوم التالي ، حيث قرر الحزبان المعارضان تدبير مظاهرة عامة في يوم التتويج وتقديم عريضة الى الملك تتضمن مطاليب الشعب في الاستقلال التام وتأليف وزارة وطنية من الاكفاء المخلصين •

وفي ٢٣ آب حل يوم التتويج ، فجرى الاحتفال به في مقر الملك المطل على النهر في القشلة حيث كان الملك يستقبل المهنئين فيه • وعند هذا جاءت المظاهرة التي دبرها الحزبان المعارضان ، وكانت كبيرة قدر عدد المشاركين فيها بنحو عشرة آلاف • فامتلأت ساحة القشلة بهم وأخذوا يهتفون بسقوط الانتداب والاستعمار • ثم وقف مهدي البصير على الشرفة المطلة على الساحة فألقى خطبة حماسية باسم الحزب الوطني ، ثم أعقبه محمد حسن كبه بخطبة أخرى باسم حزب النهضة •

وفي الوقت الذي كان فيه البصير يلقي خطبته وصل كوكس ومعه المس بيل وأفراد حاشيته ، وحين أخذ كوكس يصعد الدرج المؤدي الى

---

(49) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 289-290.

قاعة استقبال الملك هتف رجل من بين المتظاهرين اسمه حسون أبـــو الجبن[٥٠] قائلا : « تسقط بريطانيا ! يسقط الاستعمار ! » ، وقـد ردد المتظاهرون هذا الهتاف ، فظهرت علامات الارتباك على وجه كوكـــس وحاشيته غير أنهم استمروا في صعودهم الدرج ، ثم أدوا مراسيم التهنئة كما ينبغي وعادوا من حيث أتوا •

اعتبر كوكس هذه الحادثة اهانة شديدة موجهة اليه والى دولته ، وظن انها لم تكن قد جرت مصادفة بل كانت مدبرة من قبل أمناء الملـك وخاصة رئيسهم فهمي المدرس • ويقول كوكس في تقريره الذي أرسله الى لندن عن الحادثة : أن امناء الملك تعمدوا تعيين موعد لزعماء المعارضة لكي يحضروا لتهنئة الملك قبيل حضوري ، وكذلك تعمدوا اطالة بقاءهم هناك ، فلما وصلت أخذ مهدي البصير الذي كان من مهيجي ثورة العشرين يلقي خطبة نارية في اهانة الانكليز ، وهو قد فعل ذلك بتوجيه أو باذن من فهمي المدرس[٥١] •

ومن الجدير بالذكر ان أمين الريحاني روى الحادثة بشكل آخــر، فهو يقول في ذلك مانصه : « جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وفد الحزبين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر ، فطلب الزعماء من الملك أن يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطب هناك • فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه • فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني ، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير ، فهيج في رئيس الامناء الشجون فانتصب خطيبا • وحق له الكلام إذ كان الملك أنابه عنه ،

---

(٥٠) كان هذا الرجل بقالا له دكان في سوق السراي واشتهر بحماسه في المظاهرات ، قيل انه كان يلبس في بعض الاحيان كفنا على منوال ما يفعل أهل التطبير في المواكب الحسينية للتدليل على أنه فدائي فـــي سبيل الوطن •

(51) Elie Kedourie (Chatham House Version) - London 1970 - p. 243.

وحق له أيضا ان يبرهن على حماسة ـ وقيل حماقة ـ فيه أنسته انه موظف فى البلاط ، وأن المندوب السامى لبريطانيا العظمى قادم في تلك الساعة ليهنىء جلالة الملك بعيد الجلوس ، وان عليه واجب الاستقبال والترحيب . وقد اتفق انه بينما كان حضرة الاستاذ رئيس الامناء يخطب ضد الانتداب أقبل المندوب السامى السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانية لاداء التبريك فاستقبلهم الجمع صارخا : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز ! »[٥٢] .

الواقع ان رواية الريحاني هذه لم تؤيدها الوثائق البريطانية والعراقية، وقد كذبها مهدي البصير نفسه[٥٣] . ومهما كان الحال فقد أرسل سكرتير المندوب السامى في صباح اليوم التالي رسالة الى الملك شديدة هذا نصها :

سعادة رئيس الديوان الملكي المحترم

نرجو أن تخبروا جلالة الملك بان فخامة المعتمد يحتج بعنف ضد ما لقيه من المعاملة ، في وقت كان فخامته يمثل حكومة ملك بريطانيا العظمى ، مارا بباب غرفة الاستقبال ليؤدي مراسيم التبريك ، وان فخامته أخبر لندن بهذه الحادثة ويطلب أن يعتذر اليه وان يعزل فهمي أفندي المدرس اذا كان هو المسؤول رسميا ، ويطلب فخامته بيانا عن الاجراءات التى ينوى جلالة الملك اتخاذها ضد الخطيبين اللذين حقرا مقام الملك بالقائهما خطبا مهيجة .

٢٤ أوكست سنة ١٩٢٢ م التوقيع : جانين بيرسي[٥٤]

---

(٥٢) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ جـ٢ ص٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٥٣) خيري العمري (فهمي المدرس) ـ في مجلة «الاقلام» ـ في عددها الصادر في كانون الاول ١٩٦٤ ـ ص٧٩ .

(٥٤) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ جـ١ ص٩٥ .

وعندما وصلت هذه الرسالة الى الملك أمر حالا بعزل فهمي المدرس من منصبه ، كما أمر سكرتيره رستم حيدر بكتابة جواب الى المنـــدوب السامي يبدي فيه أسفه العظيم على ما حدث ويتعهد بانه سيعمل اللازم حسب رغبات المندوب السامي ، ويرجو أن لايبقى أي أثر للحادث في ذاكرته •

تشير بعض القرائن الى ان فهمي المدرس كان منذ بداية تعيينه فـــي البلاط يمسّ سرا في تأييد المعارضة ، وقد أحس الانكليز بذلك ، ولـــذا رأينا كوكس ينتهز فرصة المظاهرة وما جرى فيهـــا لكي يتخلص منه • وكان فهمي المدرس يعتقد من جانبه أن رستم حيدر يختفي وراء هذه المناورة ، وظل هذا الشعور يسيطر عليه فترة من الزمن[٥٥] •

مقابلة عجيبة :

في صباح ٢٤ آب ـ أي في اليوم التالي ليوم التتويج ـ شعر الملـــك بألم شديد في بطنه • فاستدعي بعض الاطباء لفحصه كان من بينهم أمين معلوف وسندرسن وصائب شوكت ، فاختلفوا في تشخيص مرضه • يقول سندرسن في مذكراته : انه شخّص المرض بالتهاب الزائدة الدودية بينما شخصه أمين معلوف بأنه مرض بسيط سيخف بعد قليل[٥٦] • وقد حدثني صائب شوكت قائلا بانه هو الذى شخص المرض بالتهاب الزائدة بينمـــا شخصه سندرسن بانه ملاريا •

وبعد اجراء التحليلات المختبرية تحقق تشخيص المرض بانه التهاب الزائدة ، وتقرر اجراء عملية جراحية للملك في قصره في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي على ان يقوم بها كبير الجراحين في المستشفى الملكـــي الدكتور ابراهام • وحين علم كوكس بقرار اجراء العملية للملك طلب من

---

(٥٥) خيري العمري (المصدر السابق) ـ ص٧٩ •

(56) Sinderson (Ten Thousand and one Nights) - London 1973 - p 66 - 67.

سندرسن قائلا : « يجب ان ارى الملك قبل العملية ، أرجوك أن تخبره انى سأكون في القصر فى الساعة السابعة والنصف » .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي حضر الى القصر ابراهام ومعه جراح آخر أصغر منه اسمه وودمان لكي يعاونه على اجراء العملية . وقد عُهد الى سندرسن بمهمة التخدير . ثم جاء حنا خياط مدير الصحة العام ليشهد العملية ممثلا عن الحكومة العراقية ، كما جاء عدد من الاطبـــاء العراقيين ليشهدوا العملية . ويقــول سندرسن : ان ســتة من عبيــد الملك المسلحين كانوا واقفين في الشرفة المطلة على النهر . ثم يعلق على ذلك قائلا : لو حدث للملك شيء لكانت فرصتنا في النجاة بعيدة جدا(٥٧) .

وفى الساعة السابعة والنصف وصل كوكس ومعه كورنواليس ، ودخل على الملك فخرج الاطباء البريطانيون الثلاثة من الغرفة ووقفوا فى الشرفة ينتظرون . وهنا يواجهنا سؤال مهم : ماذا كان قصد كوكس مــن مقابلته للملك في تلك الساعة الحرجة ، وماذا جرى فيها ؟

لدينا روايتان حول تلك المقابلة ، احداهما رواها أمين الريحاني نقلا عن الملك نفسه ، والاخرى رواها المؤرخ البريطانى غريفز نقلا عــن كورنواليس . وفيما يلي ننقل كلتا الروايتين لكي يتمكن القارىء من المقارنة بينهما :

يقول الريحانى : « في صباح اليوم التالي لعيد الجلوس ، عندما كان الملك فيصل محاطا بالاطباء والممرضات ، وقد أعــدوا المباضع والادوات للجراحة ، وصل المندوب السامى السر برسي كوكس ، فسلم وأخرج من جيبه أمرا قدمه للملك ليوقعه ، وهو أمر بأعتقال سبعة من الزعماء الوطنيين ونفيهم من العراق ، قرأه الملك مكمودا وهز برأسه . فأفصح السر برسي عما يبرر العمل ، فما أجاب الملك بكلمة . ولكن احد اطباء الانكليز تقدم

(57) Ibid, p. 68.

وخاطبه قائلا : « ليس هذا الوقت ، ياحصرة المندوب لمثل هذه المسائل ».
فقال السر برسي : « المسألة ضرورية لحفظ الامن . ان البلاد في خطر ».
فقال الطبيب : « أجلها الى أن تتم الجراحة ، وهي ألزم لحياة جلالة الملك»
فيجب أن نباشرها حالا » . فقال الملك والامر بيده يخاطب السر برسي :
« بعد دقائق قليلة اكون بين ايدي هؤلاء الاطباء ، وقد لا اعود من غيبوبتي
الى الحياة . فهل تطلب مني ، يا سربرسي ، ان يكون هذا الامر آخر
أعمالي في الدنيا ؟ هل تنتظر مني أن أنفي هؤلاء الناس ، أهل البلاد ، من
بلادهم قبل موتي ؟ لا والله . انه غير ممكن ، غير ممكن » . قال هذا ودفع
الامر الى المندوب السامي ، فوضعه في جيبه ، وخرج من القاعة دون ان
يفوه بكلمة واحدة »[٥٨] .

أما رواية غريفز فهذا نصها : « في ٢٥ آب كان فيصل طريح الفراش
لاصابته بالتهاب الزائدة الدودية الحاد . فقرر أطباؤه اجراء عملية له في
اليوم نفسه . وقبل اجراء العملية بقليل زاره كوكس مع كورنواليس
بعد استئذان اطبائه . وشرحا له ان الموقف دقيق ، وانهم وصلوا الى مفترق
الطريق معه . وحضه كوكس ان يترك المتطرفين ويلتزم جانب البريطانيين ،
والا فعليه أن يواجه العواقب من تحالفه مع الاقلية الهدامة التي تسعى وراء
مصالحها . وضغط كوكس على فيصل لكي يأمر بالقاء القبض على سبعة
من قادة المهيجين . فرفض فيصل ... وقال انه واثق بان هذا الاجراء سوف
يؤدي الى قيام ثورة عامة وانه ليس في مقدوره أن يموت مع وجود هذه
المسؤولية في ضميره . وقد استمر الملك وكوكس يتجادلان في الموضوع
الى أن جاء الجراح وأصر على نقل الملك الى منصة الجراحة . ولقد كان
ذلك منظرا متأزما مع وجود حشد من العبيد والخدم خارج القاعة وهم
مسلحون متريبون ووجود ستة اطباء عراقيين داخل القاعة وهم يراقبون

---

(٥٨) أمين الريحاني (فيصل الاول) ـ ص١١٨ ـ ١١٩ .

مبضع الجراحة لئلا يساء استعماله . وظل الملك متمسكا بموقفه الى آخر نفس ضد الامر الذى كان يعده مأساة »[٥٩] .

قد يلاحظ القارىء ان هناك تشابها بين هاتين الروايتين ، ومن الممكن ان نستنتج في ضوء هاتين الروايتين ان كوكس اراد انتهاز وقت العمليـــة لكي يحصل من الملك على الموافقة على ضرب زعماء المعارضة والقضاء على حركتهم ، غير ان الملك فوّت عليه تلك الفرصة .

ومما يلفت النظر ان كوكس لم يتطرق فى تقاريره الرسمية الى ذكر ما فعله مع فيصل ، وكذلك لم تتطرق المس بيل اليه في رسائلها ، وكأنهما أدركا ما فى ذلك الفعل من وضاعة فكتما ذكره . ويعلق الريحاني على ذلك قائلا ان كوكس عمل بالكلمة العربية المعروفة وهى « ان الكريم من ستر اهانته » ، ولهذا فانه لم يذكر تلك الحادثة في تقاريره[٦٠] .

وعلى أي حال فان ابراهام أسرع الى اجراء العملية حال خروج كوكس من الغرفة ، وقام بها بما عرف عنه من دقة وبراعة . ويقول غريفز: ان حالة الزائدة كانت في وقت اجراء العملية على حافة الخطر إذ كانت اذ ذاك مثقوبة وكان أي تأخير في اجراء العملية ربما يؤدى الى الوفاة[٦١].

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الناس كانوا في تلك الآونة جاهلين بما يجرى ، وقد انتشرت الاشاعات المختلفة بينهم حول مرض الملك، فمنهم من قال ان الملك ليس مريضا ولكن الانكليز قد اضطروه الى التظاهر بالمرض ، وقال آخرون ان الاطباء اوصوا باجراء العملية بأيعـــاز من الانكليز[٦٢] . وكتب محمد الخالصي يقول عن الملك : « انه تمارض ولزم فراشه وأظهر انه على شرف الموت ، وكنت أحس من وراء ذلك الشـــر

(59) Graves (op. cit.) - p. 317.

(٦٠) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص١١٨ .

(61) Graves (op. cit.) - p. 317.

(٦٢) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ جـ١ ص٩٦ .

وأعتقد ان فيصل مريض الديـن والوجـدان والحميـة لامريض البدن ... »[٦٣] .

ضـرب المعارضة :

حين وجد كوكس ان الملك لايوافقه على ضرب المعارضة قرر ان يأخذ على عاتقه مسؤولية ذلك . وفي ٢٦ آب نشر كوكس بيانا طويـلا موجها الى « عموم اهالي العراق » ملأه بالتهديد والوعيد ، وأعقب ذلـك اغلاق الحزبين المعارضين وتعطيل جريدتي « المفيد » و « الرافدان » . ولما ذهب جعفر أبو التمن وحمدي الباچچي الى دائرة التحقيقات الجنائيـة للاحتجاج على هذه الاعمال التعسفية كانت الشرطة في انتظارهما وألقت القبض عليهما حالا . وكذلك ألقت القبض على مهدي البصير وأمـين الجرچفچي وعبدالرسول كبة وسامى خونده . وأبعدوا جميعا الى جزيرة هنجام . ثم أبعد من بعدهم حبيب الخيزران . ولم يفلت من الاعتقال من رجال المعارضة سوى ثلاثة هم : أحمد الشيخ داود وعبدالغفور البدرى وابراهيم حلمي العمر ، فقد اختفى الاول والثانى منهم فلم تنلهما يـد الشرطة ، أما الثالث فقد هرب الى ايران .

وأصدر كوكس أمره بعزل متصرف الحلة علي جودت الايوبي ، وعزل القائممقامين من اعوانه كخيرى الهنداوى وشاكر الملا حمادى ، كما أرسل الطائرات لقصف بعض العشائر كعشيرة آل فتلة في المهناوية، وعشيرة الاقرع في عفك ، وعشيرة خفاجة في الشطرة ، وعشيرة العـزة فـي المنصورية[٦٤] .

وفي ٢٨ آب أرسل كوكس رجلا هنديا من موظفيه اسمه محمد حسين خان الكابولي الى الشيخ مهدى الخالصي والسيد حسن الصـدر

---

(٦٣) نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه «بطل الاسلام».
(٦٤) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ جـ١ ص٩٦ ـ ٩٩ .

في الكاظمية ينذرهما بوجوب سفر ولديهما الشيخ محمد والسيد محمد الى خارج العراق في خلال ٢٤ ساعة ، واذا لم يفعلا ذلك فسيضطر المندوب السامي الى اتخاذ اجراءات ضدهما لاتتناسب مع احترام رجال الدين • فاضطر الرجلان الى الاستجابة لهذا الانذار • وقد غادر المحمدان ـ الخالصي والصدر ـ بغداد في اليوم التالي متوجهين الى ايران • وخرج الكثير من أهالي الكاظمية وبغداد لتوديعهما في محطة القطار •

وصفت المس بيل في احدى رسائلها ماقام به كوكس من ضرب المعارضة بأنه عمل جريء وانه أنقذ الموقف ، ثم قالت : ان المتطرفين قد انهارت حركتهم ، أما المعتدلون فقد رفعوا رؤوسهم عاليا ، وأخذ حزب السيد محمود الكيلاني يتضخم بشكل ملحوظ ، وهذا معناه أن مرض الملك كان مصادفة حسنة جاءت في أوانها • وتشير المس بيل بعد هذا الى ان ناجي السويدي جاء اليها وقد أعد خطة ممتازة لجمع التواقيع في أنحاء البلاد من أجل توثيق العلاقات البريطانية العراقية ...(٦٥) •

موقف ياسين الهاشمي :

في الوقت الذى كان فيه الملك لايزال طريح الفراش عقب العملية الجراحية التى اجريت له ذهب ياسين الهاشمى الى المس بيل في دائرتها ليتحدث اليها حول الوضع العام ، وأخذ الهاشمى يذم الملك على سلوكه المتقلب ويضع اللوم على الانكليز لانهم لم يستطيعوا السيطرة عليه •

كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٣١ آب حول زيارة الهاشمي لها فقالت : أنه أبدى قلقه حول مصير البلاد ، فهو قد قرأ صيغة المعاهدة وكان رأيه ان العراق لايستطيع ان يتوقع شروطا اكثر تسامحا منها ، وتساءل الهاشمي : لماذا لم يقبلها الملك ؟ ثم قال يخاطب المس بيل : « انه ذنبكم ، لماذا لم تسيطروا عليه ، ولماذا سمحتم له بان يكون تحت تأثير أُناس

(65) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 293.

يريدون أن يسيروا بنا وبه نحو الخراب » • فأخذت المس بيل تشـــرح للهاشمي كيف أنها هي وكورنواليس وكلايتون كانوا يتملقون الملك في محاولة لاقناعه بلا جدوى • ثم تساءلت المس بيل : كيف يمكن العمل مع الملك حين يكون في القضايا الحيوية متفقا مع كوكس وكورنواليس ولكنه سرعان ما يغير رأيه حال خروج ذينك الرجلين من عنده ؟ فأجابها الهاشمي: « نعم أنا أعرف ، يأتي اليه احد الناس ، رجل من السوق ، وبكلمة واحدة يجعله يغير مقصده » • ثم قال الهاشمي : « انه الملك ، ولكن البلاد تأتي قبله » • وتأخذ المس بيل بالثناء على ياسين الهاشمي وعلى قوة شخصيته وذكائه ، إذ تقول مانصه :

« اني اعتقد ان ياسين هو رجل القدر • فهو يملك من الذكاءوالنشاط اكثر من اى عربي آخر اعرفه ـ ربما ليس أقوى خلقا من علي السليمان ولكنه أوسع منه معرفة بالامور • ان الملك يعرف قوته ، ويخشاها ، ولكنه لغروره الكبير يحسب ان في مقدوره ان يخضع ياسين ويستعمله • واني اعتقد ان ياسين سوف ينال الحظوة لدى الملك عن طريق التظاهر بالرضوخ له ولكنه عندما يتمكن من الموقف بصورة مؤكدة سوف يمسك الملك من رقبته ويجبره على اتخاذ السياسة التي يريدها وعند هذا سيتلوى الملك كما تتلوى الحية ، وسوف يتقرر مصير العراق على هذا الاساس ، حيث يعيد التاريخ نفسه في العراق ، فيصبح ياسين الحاكم الفعلي ويكون الملك مجرد رئيس رمزي • ويؤسفني اني مضطرة الى الاعتقاد بأن هذا هو المصير الذي يليق بالملك ، فهو مغرور وضعيف وجبان ، ولن تنضج مثله الرائعـــــة أبدا »(٦٦) •

يبدو من هذا القول ان المس بيل اكتشفت في ياسين الهاشمي الرجل الذي كان الانكليز يبحثون عنه والذي يستطيع ان يقف في وجه فيصل

(66) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 295 - 296.

ويجبره على الرضوخ للسياسة التى يريدونها في العراق • فالانكليز كانوا في تلك الايام قد نفد صبرهم من فيصل ، وكأنهم أصبحوا فيه بين خيارين : أما أن يعزلوه ، أو يشلوه بوضع رجل قوي أمامه يتحداه ويتغلب عليه • ولعلهم وجدوا فى الخيار الثانى ما يريحهم دون ان يثير عليهم ضجة ، وها هو ياسين الهاشمى قد جاء اليهم مستعدا للقيام بالدور المطلوب منه •

ومن غرائب الصدف انه لم تمض سوى ايام قليلة على زيارة الهاشمي للمس بيل حتى وصلت الى يدها رسالة كان الهاشمى قد ارسلها اثناء وجوده في الناصرية الى صديق له ببغداد يشتم الانكليز فيها ويصفهم بـ «الجائرين» ويدعو من الله التوفيق لطردهم من البلاد • وقد سلم الصديق هذه الرسالة الى مدير الامن العام ، وسلمها هذا الى المس بيل • وعند هذا شعرت المس بيل ان اكتشافها لم يكن صائبا وان الهاشمي ليس بالرجل الذى يمكن الوثوق به ..[٦٧] •

الملك يغير موقفه :

في ١٠ ايلول ١٩٢٢ ، على أثر شفاء الملك من مرضه جاء اليه كوكس يهنيه بالشفاء وأخذ يتحدث اليه بصراحة قائلا له ان الحكومة البريطانية سوف لاتتحمل بعد الآن اتصاله بأية حركة وطنية ولا تتساهل في أي تأخير قد يحدث في شأن تصديق المعاهدة ، وكذلك طلب منه أن يكون ملكا دستوريا ـ أي من طراز ملك بريطانيا ـ فيكف عن التدخل غير الضرورى في شؤون الادارة والموظفين • وقيل ان كوكس خيّر الملك بين أمرين : أما ان يعتذر عما فعل سابقا او يستقيل ، وقد فضل الملك الاعتذار[٦٨] • وقيل ايضا ان الملك اعتذر عن افعاله السابقة بأنه انما قام بها لعدم وجود الدستور ولان الوزارة كانت غير متجانسة ، وانه حالما يحصل على الدستور

---

(67) Ibid, vol. 2, p. 298.

(68) Gassan Attiyyah (IRAQ) - Beirut 1973 - p. 378.

والمعاهدة سوف يقوم بتنفيذ ما يطلب منه بطيبة خاطر[٦٩] .

وقدم كوكس الى الملك مسودة كتاب يصادق فيه على الاجـــراءات القمعية التى قام بها كوكس اثناء مرضه ويشكره عليها ، وقد فعل الملك ما أراد كوكس وهذا هو نص الكتاب :

عزيزى السر برسي

الآن وقد تم شفائي بحمد الله تعالى ، وسمح لي اطبائي ان استأنف أشغالي في الدولة ، أرى من واجبي قبل ان أتولى هذه التبعة أن اقدم الى فخامتكم تشكراتى القلبية ، وان أعبر لكم عن إعجابي الشديد للسياســة الحازمة والتدابير الضرورية التى اتخذها فخامتكم ، بصفتكم ممثلا لحكومة صاحب الجلالة ، لصيانة المصالح العامة والمحافظة على النظام والامن ، اثناء مرضي المفاجىء الذى صدف وقوعه بغتة في المدة التي تنقضي عادة بين استقالة الوزارة وتأليف وزارة غيرها . وختاما أكرر تشكراتى الخالصة لفخامتكم على مساعدتكم الثمينة .

بغداد ١١ ايلول ١٩٢٢ م صديقكم المخلص : فيصل[٧٠]

اصبحت العلاقة بين الملك وكوكس بعد هـــذا ودية كما يقـــول غريفز[٧١] . ولما حان وقت النظر فى أمر تشكيل وزارة جديدة كان رأي كوكس أن يعيد النقيب تشكليها للمرة الثالثة وان يكون اكثر أعضائهـا من الذين كانوا فى الوزارة النقيبية السابقة . فوافق الملك على جميـــع ماطلبه كوكس منه .

وفي ٣٠ ايلول تم تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة النقيب ، وكان

---

(٦٩) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ــ ص٢٨٣ .
(٧٠) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ــ جـ١ ص٩٧ .
(71) Graves (op. cit.) - p. 323.

فيها عبدالمحسن السعدون وزيرا للداخلية ، وساسون حسقيل وزيـــرا للمالية ، وتوفيق الخالدي وزيرا للعدلية ، وجعفر العسكري وزيرا للدفاع، وصبيح نشأت وزيرا للمواصلات والاشغال ، ومحمد علي فاضل وزيرا للاوقاف . وفي ١٧ تشرين الاول صدرت الارادة الملكية بتعيين عبدالمحسن شلاش النجفي وزيرا للمعارف ، غير انه اعتذر عن قبول الوزارة بكثرة أشغاله التجارية . ولهذا بقيت وزارة المعارف شاغرة[٧٢] .

وفي ١٣ تشرين الاول نشرت المعاهدة في بغداد وهي مذيلة بتوقيع الملك . وقد أذاع الملك بلاغا للشعب مدح فيه المعاهدة حيث وصفها بأنها بنيت على اسس المصالح المتبادلة بين العراق وبريطانيا العظمى ، وان الشعب سيقدر أهميتها بلا شك وسيزداد تمسكا بصداقة حليفتنا الكبرى على اعتبار ان صداقتها ضرورية لصيانة استقلال هذه المملكة وتأمين تقدمها الاقتصادي والعمراني[٧٣] .

يروي أمين الريحاني عن تلك الايام العصيبة التي مرت بالملك ويذكر ان الملك حدثه عنها حيث قال : ان الناس كانوا قبل مرضه يأتون اليـــه متحمسين ويقولون له : « ارفع العلم ، ونحن رجالك ، نفديك بأرواحنا ». وذكر فيصل على سبيل المثال واحدا من هؤلاء الفدائيين وكان من كبار زعماء المعارضة وأشدهمَ تحمسا ، غير أنه اختفى قبل أن ينفذ كوكس أمره بنفي الزعماء ، ثم عاد بعدئذ ليهنىء الملك بشفائه ، فسأله الملك : « وماذا فعلتم بالانكليز ؟ هل عدلتم عن اخراجهم من البلاد ؟ » فأجاب الرجـــل فورا من غير ارتباك: «قالوا لنا انكم انتم أُخرجتم من البلاد ، فسكتنا»[٧٤].

لعل من المناسب ان نذكر محاورة طريفة جرت بين الملك والمس

(٧٢) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ــ جـ١ ص١٠١ .
(٧٣) جريدة «العراق» ــ في عددها الصادر في ١٤ تشرين الاول ١٩٢٢ .
(٧٤) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص١٢٢ ــ ١٢٣ .

بيل حول ياسين الهاشمي في تلك الايام . فقد كان الهاشمي مرشحا لوزارة الداخلية في الوزارة الجديدة ، وكان الملك راغبا في ذلك غير ان المس بيل لم توافق عليه . وقد ذهبت المس بيل الى الملك لاقناعه بعدم لياقة الهاشـــمي للوزارة ، فعرضت عليه الرسالة التى شتم الهاشمى بها الانكليز ، ثم قالت للملك مانصه : « نحن لانبالي اذا قال لنا أحد : انتم جائرون وأوغاد . وربما أجبناه : والله ! الله اعلم . ولكنه حين يقول كما فعل الهاشمي : انتم الوسيلة الوحيدة لانقاذ بلادي ، ثم يكتب في الوقت نفسه يصفنا بالجور ويدعو من الله التوفيق لطردنا من البلاد ، فهذا أمر لايمكن غفرانه » . وقد حاول الملك تبرير سلوك الهاشمى فقال للمس بيل : ان مافعلــــه الهاشمي أمر اعتيادى في الحياة الشرقية ، فالاستعباد الذى عاناه الشعب على مدى ستة قرون جعل الفرد مضطرا ان ينافق ويلعب على الحبلين لــكي يحمي نفسه عن طريق المكر . حتى أنا أفعل ذلك . فنحن لم نتعود على حياة الحرية لكي نكون فى سلوكنا احرارا، ومن يريد أن يسوس الشرقيين يجب ان ينظر بمنظارهم . وتقول المس بيل انها اقتنعت بصحة ما قال الملك في الدفاع عن الهاشمي غير أنها ظلت مصرة على عدم اسناد أية وزارة الى الهاشمي فى الوقت الحاضر . وكان رأيها ان من الجائز له ان يكون وزيرا فيما بعد ، وهى تظن انه في النهاية سوف يصل الى القمة(٧٥) .

يخيل لي ان الملك فى دفاعه عن سلوك الهاشمي انما كان يدافع عن سلوكه هو . والظاهر ان المس بيل أدركت ذلك ، ولهذا قالت بان الهاشمي سـوف يصــل في النهاية الى القمة ، وكأنها أرادت ان تقــول للملك انه سيصل الى القمة كما وصلت انت اليها .

---

(75) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 298.

الفصل الخامس

نفي الشيخ مهدي الخالصي

في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٢ أصدر عبدالمحسن السعدون بصفته وزير الداخلية أوامره الى المتصرفين بالشروع باجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي • وفي ٢٤ منه أعلن السعدون بلاغاً عاماً ورد في ختامه ما نصه :

« وهنا اكرر القول وألتمس من أفراد شعبنا النجيب أن لا يحفلوا بالتمويهات والأباطيل ، التي ربما يتجاسر عليها بعض من لا تهمهم مصلحة الشعب الحقيقية ، ويوحدوا آراءهم ، ويضعوا ثقتهم بمن يتوقعون منه السعي لتحقيق رغباتهم ••• ان القول الفصل هو للمجلس التاسيسي الذي يباشر الآن بانتخابه ، وفق الله الجميع لما فيه خير البلاد • »[1]

المعارضة الجديدة :

كان الانكليز والملك يظنون ان المعارضة قد انتهى أمرها وان الانتخابات ستجري حسب الخطة المرسومة • ثم تبين لهم في خلال أيام معدودة ان ظنهم هذا كان خاطئاً • فلقد انبعثت المعارضة من جديد وبزخم شديد ، وكانت في هذه المرة بزعامة المجتهدين في الكاظمية والنجف وفي مقدمتهم الشيخ مهدي الخالصي •

ظهرت أولى بوادر المعارضة بشكل استفتاء موجه الى المجتهدين في ١٥ ربيع الاول ١٣٤١هـ ، وهو يوافق ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ ، وهذا نصه :

« حضرات علمائنا الأعلام وحجج الاسلام متعنا الله تعالى بظلهم مدى الأيام ، بلغنا أنكم بمقتضى وظيفتكم الدينية ورئاستكم الروحانية حرمتم على

---

(١) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ــ صيدا ١٩٦٥ ــ ج ١ ص ١١٢ •

كافة الامة العراقية المداخلة في هذا الانتخاب وحرمتم المساعدة فيه بكل وجه وجعلتم المساعدة فيه محادة لله ولرسوله فنسترحم أن تبينوا صحة ذلك حتى نمتثل أوامركم التي أمر الله تعالى بامتثالها أدام الله ظلكم » .

وقد ذيل هذا الاستفتاء بأجوبة المجتهدين الثلاثة الكبار وهي كما يلي:

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ نعم قد صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو غير خفي على كل باد وحاضر فمن دخل فيه أو ساعد عليه فهو كمن حارب الله ورسوله وأوليائه صلوات الله عليهم أجمعين ـ الأحقر أبو الحسن الموسوي الاصفهاني »

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ نعم حكمنا بحرمة الانتخاب وحرمة الدخول فيه على كافة الامة العراقية وان من دخل في هذا الأمر أو ساعد عليه أدنى مساعدة فقد حاد الله ورسوله والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين أعاذ الله الجميع عن ذلك ـ الأحقر محمد حسين الغروي النايني » .

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ نعم قد صدر منا الحكم بتحريم الانتخاب على كافة الامة العراقية فمن دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حاد الله ورسوله وقد قال عز من قائل في كتابه المجيد ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم أعاذ الله الجميع من ذلك ـ الراجي محمد مهدي الكاظمي الخراساني الخالصي عفى عنه »(٢) .

ولم يقف الأمر عند هذا الأمر بل صارت الفتاوى يتوالى صدورها حيناً بعد حين ، وكانت هناك عصبة من الشباب المتحمس كرسوا جهودهم على متابعة ذلك ، فكانوا يكتبون صيغة الاستفتاء ويقدمونها الى المجتهدين ليحصلوا منهم على الفتاوى المطلوبة . يقول محمد مهدي كبة في مذكراته :

---

(٢) من وثائق البلاط الملكي ـ رقم الاضبارة ٣ ، رقم الوثيقة ٧٠ .

« كنت وجماعة من شباب الكاظمية ، ومن طلاب مدرسة الخالصي ، دائبين على العمل في كتابة صيغ الاستفتاءات ومواجهة علماء الدين واستصدار الفتاوى منهم ، وانتداب بعض الشبان لكتابتها على الاوراق والكاربون وتوزيعها بين الناس ، وارسالها الى بغداد وغيرها من أنحاء البلاد »[٣] .

وصار المجتهدون من جانبهم يشتدون في تحريمهم للانتخاب . فالسيد أبو الحسن الاصفهاني مثلا قال في فتوى صدرت له مؤخراً ما نصه : « الى اخواننا المسلمين ان هذا الانتخاب يميت الامة الاسلامية فمن انتخب بعدما علم بحرمة الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته ولا يجوز رد السلام عليه ولا يدخل حمام المسلمين . هذا ما أدى اليه رأينا والله العالم بالصواب » . وأصدر الشيخ مهدي الخالصي فتوى فيها اشارة واضحة الى ما فعله كوكس من نفي وتشريد وقصف بالطيارات ، والى تأييد حزب النقيب له ، وهذا نصها :

« لما كانت الانتخابات مبنية على أساس مخالف لرغائب الامة العراقية بواسطة السلطة العسكرية والحزب الحر المعتدل الذي أسس بالقهر والقوة وسد الاحزاب الموافقة لرغائب الامة وتسويق أهلها وتشتيت جمعها واصابة المتخلف عن حزب الحر بالطيارات حتى قتل بقنابلها الاطفال والعجزة والابرياء والنساء وغير ذلك مما لو مات المسلم دونه أسفاً لما كان عندي ملوماً بل كان به جديراً . ان المداخلة بالانتخابات وكل ما يبتني على هذا الاساس المضر بمستقبل العراق بل بجميع شؤونه محرمة شرعاً باجماع المسلمين ونحكم بخروجه عن ربقة المسلمين . ومن الله التوفيق وهو حسبنا وهو نعم الوكيل »[٤] .

---

(٣) محمد مهدي كبه (مذكراتي في صميم الاحداث) ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ص ٢٧ .

(٤) من وثائق البلاط الملكي ـ رقم التسلسل ١١٥ ، رقم الوثيقة ١ .

والملاحظ ان أكثر علماء الكاظمية ، أو كلهم تقريباً ، أيدوا الخالصي في تحريم الانتخاب • فهم قد تناسوا خلافاتهم الشخصية ومنافساتهم المحلية وصاروا جميعا في صف واحد تجاه الحكومة • وقد وجدنا تواقيعهم على الفتاوي التي صدرت ، وهم السيد حسن الصدر والشيخ عبدالحسين آل ياسين والسيد محمد مهدي الصدر والشيخ مهدي المراياتي والشيخ مهدي جرموقة والسيد مهدي الخراساني والمرزا ابراهيم السلماسي والشيخ اسماعيل الأسدي والشيخ راضي الخالصي والشيخ محمد الاسدي والسيد أسدالله الحيدري • وهذا دليل على قوة المعارضة التي ظهرت آنذاك •

وأخذ الشيخ مهدي الخالصي يجاهر بذم الملك ، ويشجب موقفه من المعاهدة ، ويصفه ناكثاً بوعده الذي وعد به في بداية قدومه الى العراق • وذكر محمد مهدي كبة في مذكراته ان الخالصي أعلن في جمع حاشد في مدرسته قائلا : « بايعنا فيصل ليكون ملكا على العراق بشروط ، وقد أخل بتلك الشروط ، فلم تعد له في أعناقنا وأعناق الشعب العراقي أية بيعة » • فكان لهذا التصريح من الخالصي دوي في الاوساط المختلفة ، وبلغ مسامع الملك فاستاء منه أشد الاستياء وأضمر له الحقد[٥] •

السعدون يخلف النقيب :

ضاق النقيب ذرعاً بهذه المعارضة الشديدة التي يتزعمها المجتهدون ويصولون فيها بفتاويهم • وكانت بعض منشورات المعارضة تهاجم النقيب شخصياً وتصفه بأنه مرتد عن الاسلام • ونظم الشاعر الشعبي المعروف عبود الكرخي قصيدة في ذم النقيب تداولتها الافواه ولاسيما هذين البيتين منها :

يانقيب ويانقيب عجب ماعندك صحيب
من عفت جدك محمد صار لك كوكس حبيب

(٥) محمد مهدي كبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٦ •

ويروي أمين الريحاني انه زار النقيب في تلك الفترة فوجده غاضباً مضطرباً ، وقد قال له النقيب مانصه : « في البلاد وطنيون كثيرون ، وكلهم رجال سياسة ، ولكن ليس في رؤوسهم عيون تريهم ماهم فيه . أين هم من البلاد ، وأين البلاد منهم ؟ كانوا بالأمس تحت أقدام الترك ، واليوم يبيعون البلاد الى الترك بفلس لينتقموا ممن يظنونهم أعداءهم . نحن أخذنا الأمر على عاتقنا ، ولانسأل التوفيق من غير الله ، ولانتوكل الا عليه سبحانه وتعالى . أما اجتمعت بالوطنيين ياأفندي وسمعتهم يتبجحون ؟ غداً تجتمع بكبارهم في كربلا والنجف . نصف هذا الاجتهاد جهل ، ونصفه عناد ... عند الانكليز العلم ، وعندهم المال ، وعندهم الحكمة . أما الوطنيون فأي شيء عندهم ؟ هل هم يحبون البلاد أكثر منا وهي بلادنا قبل أن تكون بلادهم ؟ وأكثرهم لايزالون من الأجانب ... »[6] .

كان النقيب حريصاً على البقاء في الحكم ، وقد كتبت عنه المس بيل ذات يوم تقول : « ان هناك أمراً واحداً هو ان النقيب لن يتخلى عن رئاسة الوزارة الا اذا حمل حملاً ورجلاه الى الامام »[7]. هذا ولكن الانكليز بدأوا يشعرون بأنه لم يعد يصلح لهم ، فالموقف السياسي أصبح في حاجة الى رجل قوي حازم من طراز غير طراز النقيب . ومن الممكن القول ان النقيب انما كان مناسباً لرئاسة الوزارة في بداية تشكيل الحكومة عندما كان الانكليز يريدون لها رجلاً ذا قدسية أو مهابة اجتماعية . أما الآن بعد أن أشهر المجتهدون فتاويهم الصارمة فان الموقف يحتاج الى رجل حازم وليس الى رجل ذي مهابة .

كان الملك غير مرتاح من النقيب ويريد تبديله برجل من أعوانه هو

---

(٦) أمين الريحاني (ملوك العرب) – بيروت ١٩٥١ – ج٢ ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .

(7) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - Vol. 2, P. 289.

جعفر العسكري ، ولكن الانكليز كانوا يعتبرون العسكرى ضعيفاً غير قادر على معالجة الموقف ، وربما كانوا يعدونه آلة بيد الملك • وقد أخذ الانكليز في تلك الآونة ينظرون الى عبدالمحسن السعدون باعتباره الرجل الامثل ، وصاروا يمهدون له الطريق لكى يخلف النقيب على رئاسة الوزارة في أقرب فرصة ممكنة •

كان الانكليز ـ كما رأينا سابقاً ـ يبحثون عن رجل قادر على الوقوف في وجه الملك وقد عثروا على هذا الرجل في شخص ياسين الهاشمي غير أنهم سرعان ما اكتشفوا خطأهم فيه • والظاهر ان الانكليز وجدوا أخيراً في السعدون الرجل المناسب الذي يبحثون عنه •

والواقع ان السعدون يختلف عن الهاشمي من حيث كونه صريحاً لا يداجي ولا يميل الى المداراة والرياء ، وقد جاءه ذلك من تراثه البدوي الذي نشأ عليه في طفولته • وكان علاوة على ذلك قوى الشخصية مهيباً ذا صلابة وثبات فاذا أبرم أمراً سار فيه قدماً لايبالي أرضي الناس عنه أم غضبوا •

ومن الجدير بالذكر ان السعدون كان معتقداً ان مفهوم الوطنية لم يتبلور بعد في العراق ، وأن اهل العراق ليسوا شعباً واحداً بل شعوباً متباينة(٨)، كما أن العراق محاط بالاعداء من كل جانب كابن سعود والاتراك والايرانيين والفرنسيين ، ولهذا فان مصلحة العراق في رأي السعدون مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتعاون مع الانكليز ، فليس من الحكمة أن يواجه العراق اولئك الاعداد بمفرده مع العلم أنه لايملك من القوة ما يساعده على الصمود أمامهم ، فلو أن الانكليز انسحبوا من العراق لأكله أعداؤه المحيطون به خلال زمن قصير • وقد كان السعدون يبدي آراءه هذه علناً بلا مداجاة بخلاف بعض الساسة الذين اعتادوا ان يعلنوا أمام الناس غير

---

(٨) نقلا عن كتاب مخطوط لخيري العمري •

ما يضمرونه في قلوبهم • أضف الى ذلك انه كان لايشعر بالضعف أمام الملك وكثيراً ما كان يقف منه موقف الند للند يعارضه أويتحداه • كتبت المس بيل في ١ تشرين الثاني ١٩٢٢ تقول : ان السعدون أحد الذين أحبهم أكثر من غيرهم فهو رجل جريء لا يخاف وليس عنده أقل ميل للتردد في أن يقف في وجه الملك حين يخالفه في الرأي ، وكثيراً ما كان يفعل ذلك(٩) •

في ٦ تشرين الثاني قدم السعدون استقالته من وزارة الداخلية وذكر في تعليل استقالته ان زملاءه الوزراء لم يوافقوه على خطته في استعمال الشدة في اجراء الانتخابات والضرب على أيدي مقاطعيها • ولم يمض على استقالته سوى عشرة أيام حتى قدم النقيب استقالة الوزارة كلها • وقد قبل الملك استقالة النقيب حالا وبعد يومين عهد الملك الى السعدون بتشكيل وزارة جديدة •

ويعلق أمين الريحاني على استقالة النقيب حيث أشار الى ان الانكليز سكتوا عنها ولم يكترثوا لها ، وذكر أن الناس أخذوا يتساءلون قائلين : « وأين وفاء الانكليز ؟ » وقال البغدادي بلهجته العريضة : « يسخرونه ، ويضجرونه ، ويهجرونه »(١٠)• أي ان الانكليز بعد ان استغلوا النقيب نبذوه !

الوزارة الجديدة :

تألفت الوزارة السعدونية من السعدون رئيساً ووزيراً للعدلية بالوكالة ، وناجي السويدي للداخلية ، وساسون حسقيل للمالية ، وياسين الهاشمي للاشغال والمواصلات ، وعبداللطيف المنديل للاوقاف ، وعبدالحسين الجلبي للمعارف ، ونوري السعيد وكيلاً للدفاع •

---

(9) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 303.

(١٠) امين الريحاني (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ١٤٣ •

والملاحظ ان السعدون كان في أول الأمــر يريد اسنــاد وزارة الاشغال والمواصلات الى عبدالمحسن شلاش ، وقد أبرق اليه بذلك في ١٧ تشرين الثاني ، ولكن شلاش اعتذر عن قبول المنصب • والمظنون انه كان يخشى من نقمة المجتهدين والرأي العام عليه ، وبعد هذا أسند السعدون تلك الوزارة الى ياسين الهاشمي •

وقد قوبل استيزار عبدالحسين الجلبي بالاستنكار الشديد في الكاظمية وأخذ الناس يشتمونه ويذمونه ذماً قبيحاً • فهم كانوا يعدونه من أعــوان الخالصي ومريديه ثم وجدوه ينقلب فجأ فيصبح من رجال الحكومة • وفي ذات يوم وقفت له جماعة من أهل الكاظمية عند باب الصحن الشريف ، وكان على رأسهم الشيخ حسن بن الشيخ مهدي الخالصي ، وحين جــاء الجلبي يريد الدخول الى الصحن بغية المرور منه الى بيته كعادته في كل يوم تصدى له أولئك بدعوى أنه كافر لا يجوز له دخول المساجد • فانبرى رجلان من أعوانه للدفاع عنه ، وكادت تقع فتنة لولا أنه واجــه الأمــر بالاناة والحلم وذهب الى بيته عن طريق الازقة المجاورة للصحن • وقد آثر أخيراً أن يسكن خارج الكاظمية في قصر « الأيل »

صمم السعدون على القيام بالانتخابات على الرغم من صدور الفتاوى بتحريمها • وحين شرع الموظفون باجراء التدابير التمهيدية لها جوبهــوا بمقاطعة شديدة في بعض أنحاء البلاد ولاسيما في العتبات المقدسة •

ولم تقتصر المقاطعة على المناطق الشيعية وحدها بل تجاوزتها الى بعض المناطق الأخرى • ففي الموصل مثلاً الصقت اعلانات تدعو الى المقاطعــة كما أخذت الشتائم توجــه من الجمهور الى القائمين بشؤون الانتخاب • وقد شارك بعض المسيحيين في هذه المقاطعة حيث ظهــر اعــلان ملصق على باب دار البلدية مفاده ان رجال الدين المسيحيين أفتوا بمقاطعة الانتخابات ومؤازرة المسلمين فيها تمسكاً بالجامعة الوطنيــة وحفظاً للمصالح المشتركة

والتآلف القديم . وفي ٢٨ كانون الاول كتب متصرف الموصل الى وزارة الداخلية يقول بان الهيئة التفتيشية في الموصل لم تعد ترغب في مواصلة العمل وبدأت تخشى من عاقبة الفتاوي ، وان حركة المقاطعة ليست منبثقة من داخل اللواء بل هي آتية من العاصمة ، وان بطء حركة الانتخابات في الألوية وما يرد منها من الاخبار من اكبر الدواعي لتشويش الاذهان في الموصل[١١] .

ومن الطريف ان نذكر ان حزب النقيب المسمى بالحزب الحر قد وقف موقف المعارض للحكومة اثناء الانتخابات ، فكانت جريدة « العاصمة » الناطقة بلسان هذا الحزب تنتقد سير الانتخابات . والظاهر ان حزب النقيب انما وقف هذا الموقف لكي يظهر عجز الوزارة السعدونية عن القيام بالعمل الذي كان السعدون قبل هذا يتهم الوزارة النقيبية بأنها عاجزة فيه[١٢] .

قرر السعدون أن يتولى وزارة الداخلية لكي يشرف بنفسه على سير الانتخابات . كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ١٦ كانون الثاني ١٩٢٣ تقول : « ... جاءني رئيس الوزراء وناجي السويدي وعبداللطيف المنديل لتناول طعام الغداء عندي . وأعلن رئيس الوزراء عند وصوله أنه يخشى ان تكون لديه قشعريرة . فأجبته بان براندي الكرز علاج ممتاز ، وكان عندي لحسن الحظ شيء منه من بقايا وليمة سابقة . فاحتوشوا كلهم نصيباً كبيراً منه حتى من كان منهم لاقشعريرة لديه . وبعد هذا تناولنا غداءاً ودياً للغاية . وقد أسروا لي أنهم يفكرون باحداث تغيير في المناصب الوزارية حيث يتحول ناجي بك الى وزارة العدلية ، ويعطى وزارة الداخلية الى رئيس الوزراء . ورجوني أن أهيء ذهن المندوب السامي لهذا التغيير ، فوافقت على ذلك حالاً ، لأن محسن بك سيكون أفضل جداً من ناجي لوزارة الداخلية ، اذ هو أقل

---

(١١) محمد مظفر الأدهمي (المجلس التأسيسي العراقي) ـ رسالة جامعية غير مطبوعة ـ ج١ ص ٣٥٧ـ٣٥٨ .

(١٢) المصدر السابق ـ ج١ ص ٣٥٦ـ٣٥٧ .

حساسية تجاه التأثيرات السياسية منه • ان السربرسي وافق على ذلك ، وقد تم الآن اجراء التعيينات ••• »(١٣)

تغيير في السياسة :

كان المتوقع عندما تولى السعدون وزارة الداخلية أن يتخذ الاجراءات الشديدة لاتمام الانتخابات والضرب على ايدى مقاطعيها • ولكن الذى حدث فعلاً كان على النقيض من ذلك • ففي أواخر كانون الثاني لوحظ ان الانتخابات توقف سيرها في جميع أنحاء العراق ، ولم تفعل الحكومة شيئاً ازاء ذلك بل سكتت عنه كأنها كانت راضية عنه •

أضف الى ذلك ان بعض رجال المعارضة الذين كانوا معتقلين في هنجام أطلق سراحهم ، وفي ١٩ شباط وصل بغداد أربعة منهم وهم : أمين الجرجفجي وحبيب الخيزران وعبدالرسول كبة وسامي خوندة • ثم وصل بعد ذلك ثلاثة آخرون هم حمدى الباججي وجعفر أبو التمن ومهدى البصير •

وكذلك قررت الحكومة معالجة التذمر الموجود في لواء المنتفق من سياسة الميجر ييتس ، فنقلت الى اللواء عبدالعزيز القصاب الذى كان متصرفاً في كربلا • وفي منتصف آذار ذهب كورنواليس الى المنتفق ليبحث الأمور بنفسه ، ووافق على الحلول التى قدمها القصاب لمشاكل اللواء • وعند عودة كورنواليس الى بغداد صدر الأمر بعزل الميجر ييتس وتعيين رجل آخر مكانه • ويصف القصاب المستشار الجديد بأنه صريح طيب القلب(١٤)•

يدل هذا كله على ان الوزارة السعدونية غيرت سياستها وأخذت تتبع طريقة اللين والتسامح تجاه المعارضة • وهنا يواجهنا سؤال : ما هو السبب الذي جعل الوزارة تغير سياستها مع العلم ان السعدون انما

---

(13) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 307.

(١٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ٢٣١ـ٢٣٥ •

استقال من الوزارة السابقة احتجاجاً على اتباعها سياسة اللين ؟

يمكن أن نعزو هذا التغير الى سببين : اولهما استفحال التهديد التركي لحدود العراق الشمالية في ذلك الحين ، وكان تهديداً في غاية الخطورة كما سنأتي اليه • ويمكن القول ان الوزارة السعدونية وجدت من الضروري استرضاء المعارضة من أجل توحيد الصفوف تجاه ذلك الخطر •

أما السبب الثاني فهو حدوث تغير في السياسة البريطانية تجاه العراق آنذاك • ففى ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٢ استقالت وزارة لويد جورج ، وقد امتنعت الوزارة البريطانية الجديدة عن تصديق المعاهدة المعقودة مع العراق • ثم ظهرت في بريطانيا حملة قوية ضد الحكومة لانفاقها المبالغ الطائلة على العراق ، وطالب بعض النواب بالانسحاب من العراق في أول فرصة ، مما دعا الوزارة البريطانية الجديدة الى استدعاء كوكس لمشاورته في الأمر • وقد طار كوكس الى لندن في ١٩ كانون الثاني ١٩٢٣وخلفه في منصبه بالوكالة السر هنرى دوبس[١٥]• والظاهر ان الوزارة السعدونية لم تجد في هذه الظروف مايبرر اصرارها على الاستمرار في الانتخابات ، وربما فضلت الانتظار الى حين استقرار الرأي في بريطانيا حول المعاهدة •

استفحال التهديد التركي :

كان مصطفى كمال باشا قد انتصر على اليونانيين انتصار ساحقاً في ايلول ١٩٢٢ ، فكان لانتصاره هذا صدى عظيما في بعض الأوساط العراقية خاصة بين اولئك الذين كانوا يحنون للعهد التركي ويتمنون عودته • وقد اعتز الاتراك بهذا الانتصار فأخذوا يحشدون قواتهم على حدود العراق الشمالية بغية استرجاع الموصل وربما استرجاع العراق كله •

---

(١٥) كوكس ودوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) ــ الموصل ــ ص ٦٤ ، ٦٧ •

ففي تشرين الاول ١٩٢٢ وصلت الى كوكس تقارير سرية مفادها ان التجنيد قائم على نطاق واسع في جزيرة ابن عمر وسيرت وماردين[١٦] •

وفي كانون الاول وصلت الى كوكس برقية من القنصل البريطاني في حلب مفادها ان قوات تركية بقيادة يوزدمير علي شفيق بك قد هاجمت ليلاً المعسكر الانكليزي عند الحدود الشمالية ومحطة الطيران في زاخو ، وان السلطات التركية في مديات وضعت يدها على سبعمائة وخمسين ألف كيلو من الحنطة ، ووضعت بالمناقصة شراء ألفي قربة لاستعمالها في صنع الاكلاك ، كما أنها عبأت جميع السكان لتعبيد الطرق وبناء التحصينات[١٧] •

وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٢٣ وصلت الى بغداد أنباء تفيد أن أربعة افواج تركية مع ملحقاتها وصلت الى جزيرة ابن عمر ، فدعا ذلك القيادة الانكليزية في بغداد الى توجيه بعض قواتها الى الموصل ، أما الجيش العراقي فقد عهد اليه المحافظة على خطوط المواصلات • وفي ٢٨ كانون الثاني ذهب الأمير زيد الى الموصل للاشراف على شؤون الدفاع عن الحدود الشمالية ، وقد لحق به بعدئذ الكابتن كلايتون • وأخذ الاتراك يرسلون عملاءهم ودعاتهم الى العراق سراً ليتصلوا ببعض رؤساء العشائر العراقية ، ولاسيما الكردية منها ، وببعض زعماء المعارضة والمجتهدين • وقد وقع الكثير من رسائلهم في ايدي الانكليز[١٨]•

كتبت المس بيل في ٣٠ كانون الثاني الى عائلتها تقول : « هل نحن معرضون للغزو أم لا ؟ واذا كنا معرضين للغزو فهل سُنترك وحدنا ندافع حسب امكانياتنا ••• واذا لم يرسل الاتراك فيلقاً آخر أو فيلقين فنحن بخير ، اما اذا أرسلوا ذلك فالأمر يختلف • وبالرغم من مفاخرات عصمت

---

(١٦) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ــ رقم (أف • أو • ٣٧١ــ٧٧٨١) •

(١٧) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ــ٩٠٠٢) •

(18) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, P. 308-309.

باشا فانهم لا يبدأون بالهجوم ، لان في نيتهم أن تكون القبائل المحلية هـي البادئة ، غير ان تلك القبائل مترددة في الاستجابـة للضغط • وقصارى القول : انه اذا كان الاتراك يخادعون فنحن نخادع مثلهم ، أما اذا كانـوا جادين فنحن نمسك يداً خاسرة » • ثم تقول المس بيل : « وفي هذا اليوم دعاني الملك لتناول الشاى ، وكان قلقاً يريد أن يعرف هل نحن مستعدون في النهاية للدفاع عن البلاد أم أننا نريد ترك الأمر له • وأخبرني أنه عند الضرورة قد يقبل باجراء استفتاء على شرط أن يشمل هذا الاستفتاء المناطق التركية التي معظم سكانها من العرب كنصيبين وماردين ، وان تنسحب منها القوات المسلحة لكلا الطرفين ، وأن تشرف على الاستفتاء دولة محايدة • ولكنه أيضاً سوف يطلب منا أن نقوي جانبه بالغاء الانتداب • واذا لم نقبل بهذا الاقتراح ، أو اذا كانت القوات الانكليزية في الموصل في خطر ، أو اذا ترك العرب لوحدهم ليدافعوا عن بلادهم ، فانه سيذهب بنفسه الى الحدود ليقضي فيها حياته صامداً الى النهاية » • وتعلق المس بيل على هذه الكلمة الاخيرة من فيصل فتقول : « وبروحي فانى لا أطلب شيئاً أفضل مـن الذهاب معه »(١٩)•

كانت الدعاية التركية في العراق آنذاك تستمد قوتها من الدين بدعوى ان الاتراك مسلمون وان الانكليز كفار ، ولهذا فالواجب على العراق شرعاً ان يكون تحت حكم الاتراك بدلاً من حكم الانكليز • وقد لقيت هـذه الدعاية في العراق رواجاً كبيراً ، وتبناها المجتهدون بوجه خاص لانهـم بطبيعـة مهنتهم لا يعترفون بالحدود القوميـة أو السياسية التي تفـرق بين المسلمين ، فالمسلمون في نظرهم أمة واحدة لا فرق فيهـا بين التركـي أو العربي او الفارسي ، والمسلم أولى من الكافر على أي حال •

كتبت المس بيل في ١٢ نيسان تقول : « ان المجتهدين أصـدروا

(19) Loc. cit.

فتوى في تحريم الدفاع عن العراق ضد الاتـراك ، وألصقت الفتوى على باب صحن الكاظمية ، وقد وصلتني نسخة منها مبكراً في هـذا الصباح •
والسؤال هو : ماذا سوف تصنع الحكومة العراقية في هذا الشأن ؟ ففي رأي المستر كورنواليس ان المجتهدين الموقعين على الفتوى يجب نفيهم الى ايران باعتبارهم رعايا ايرانيين ، ولكن هذا قرار خطير • فلو أن الملك تـرك الأمور تسير على رسلها ، فان الأيام القليلة القادمة ربما ستكون ذات خطورة بالغة نظراً لاقتراب شهر رمضان وما يثيره من هياج ديني ••• «[٢٠] •

كان الشيخ مهدي الخالصي شديد الميل الى الاتراك ، كما أشرنا اليه من قبل • ويقال انه كان في تلك الآونة يتراسل معهم سراً • وقد انتشرت في الكاظمية قصة جديرة بالذكر في هذا الصدد هي ان رجلاً من أصـل تركي اسمه رفعت افندي كان يعمل في الاستخبارات البريطانية ، فكان يأتي الى الخالصي بعد غياب طويل وهو يحمل اليه رسائل مدعياً انها مرسلة من مصطفى كمال باشا • فكان الخالصي يصدق بذلك ويكتب أجوبـة الرسائل ثم يعطيها الى رفعت أفندي لكي يوصلهـا الى مصطفى كمال باشا ، ولكن رفعت أفندي كان يوصلها الى المندوب السامي •

ان هذه قصة لاندري مبلغ صحتها ، ولم نجد في الوثائق البريطانية او رسائل المس بيل ما يؤيدها ، وربما كانت من مبالغات الخصوم ، انمـا هي على أي حال غير مستبعدة بالنظر الى ما نعرفه في الشيخ مهدي الخالصي من ميل شديد الى الاتراك •

وهناك قصة اخرى حدثني بها رجل من أهل الكاظمية أثق به ، وهي ان الشيخ مهدي الخالصي تسلم في ذلك الحين رسالة من الاتراك فوضعها تحت الفراش الذي يجلس عليه على عادة الناس في تلك الايام ، وكان من بين رواد مجلسه رجل يعمل في الاستخبارات البريطانية اسمه

---

(2) Ibid , vol. 2, P. 313.

« ش ... » فاراد أن يحصل على الرسالة فذهب الى السيد محمد رضا الحيدري وعرض عليه مبلغ خمسمائة روبيه لقاء مساعدته في الحصول على الرسالة من تحت فراش الخالصي ، ولكن السيد محمد رضا طرد الرجل ووبخه ، فذهب الرجل ثم عاد بعد فترة من الزمن وهو يقول انه تمكن من الحصول على الرسالة ومعها رسائل أخرى لقاء مائة روبية فقط لا غير .

العودة الى التحريم :

في ٣١ آذار ١٩٢٣ عاد كوكس الى بغداد وهو يحمل ملحقاً للمعاهدة باسم « بروتكول » يتضمن موافقة الحكومة البريطانية على تخفيض مدة المعاهدة من عشرين سنة الى أربع سنوات . وقد استبشر الملك والوزراء بهذا « البروتكول » . وفي ٣٠ نيسان اذاع الملك الى الشعب بياناً افتتحه بهذه العبارة : « بعناية الله جل وعلا ، وروحانية نبيه المصطفى (ص) تمكنت حكومتنا بأن تخطو خطوة كبيرة أخرى في سبيل تحقيق اماني الأمة وذلك بعقدها الملحق الجديد للمعاهدة العراقية البريطانية »[٢١] . ولم يكد هذا البيان ينشر في الجرائد حتى بدأت البرقيات تنهال على بغداد من مختلف أنحاء العراق لتهنئة الملك والوزارة بهذه « الخطوة المباركة » .

وصادف في تلك الآونة ان القوات البريطانية تمكنت من طرد القوات التركية من راوندوز وبعض المناطق الشمالية ، فخف بذلك التهديد التركي وتقلصت الدعاية التركية الى حد كبير . وعند هذا شعر الملك ورئيس الوزراء ان الظروف ملائمة للعودة الى موضوع الانتخاب والشروع به من جديد .

استدعى الملك اليه عدداً من شيوخ الفرات الاوسط كان من بينهم

---

(٢١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) - ج١ ص ١٢٤ .

عبدالواحد الحاج سكر ومحسن أبو طبيخ وعلوان الياسري وقاطع العوادي وشعلان أبو الجون • وأقنعهم بان « البروتكول » كسب للعراق وان الشروع بالانتخاب ضروري ، فوافق الرؤساء على رأيه ماعدا أبو طبيخ حيث صرح بأنه غير قادر على مخالفة علماء الدين الذين أفتوا بحرمة الانتخاب ولكنه يبذل جهده للتوفيق بين ارادة العلماء وسياسة الحكومة(٢٢) •

أرسل الملك علوان الياسري وقاطع العوادي الى الشيخ مهدي الخالصي في محاولة لاقناعه بسحب فتوى تحريم الانتخاب • ولكنهما لم يوفقا في محاولتهما ، وقيل ان الخالصي اتهمها بالكفر • وتروى في هذا الصدد قصة جرت للياسري هي أنه بعد أن فشل في اقناع الخالصي ذهب لزيارة مرقد الامام الكاظم ، وحين وصل الى باب المرقد رأى الخالصي خارجاً من المرقد تحف به حاشيته ، فقال الخالصي له : « كيف يجوز لك أن تأتي لزيارة الامام وأنت كافر ؟ » • فرد الياسري عليه بكلمة جارحة ، وهنا صاح أحد الحاشية بصوت مرتفع ليسمعه الجمهور : « اخرج يا كافر » ، فاضطر الياسري أن يهرب من المرقد بلا حذاء خوفاً من غضب الجمهور •

أخذ الشيخ مهدى الخالصى يعد العدة لاعادة اعلان فتاوى التحريم التي كانت قد أعلنت سابقاً • ففي ١٦ آيار أخبرت التحقيقات الجنائية وزارة الداخلية بان رسالة وصلت من النجف الى الكاظمية بخصوص التحريم ، وان الشيخ مهدي الخالصي تداول حوله مع علماء الكاظمية وأنهم وافقوا عليه جميعاً • وفي مساء ١٧ أيار ظهرت اعلانات ملصقة على أبواب الصحن في الكاظمية تذكر الناس بتحريم المجتهدين للانتخاب وتقول : ان

---

(٢٢) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ج٢ ص ٥٠١ •

الحكومة تحاول الآن خداع الشعب بملحق المعاهدة وانها تبذل جهدها لاجراء الانتخاب ضاربة بفتاوى المجتهدين عرض الحائط « فانتبهوا ياقوم ولاتنخدعوا بزخارف القول ، وعوا وابصروا ياأولى الألباب »(٢٣).

وفي ٣٠ أيار تقدم أحد المؤمنين باستفتاء موجه الى المجتهدين هذا نصه :

« حجج الاسلام وآيات الله في الأنام أعز الله بكم الدين وحماية الشريعة . هل تجوز المداخلة ببعض الوجوه في انتخاب المجلس التأسيسي العراقي أو لا تجوز لكل أحد من العراقيين ؟ أفتونا أدام الله ظلكم على العالمين » . فكتب المجتهدون تحت هذا الاستفتاء فتاويهم حيث ذكروا فيها ان حكمهم السابق في تحريم الانتخاب لايزال ثابتاً لم يتغير ، وهم : أبو الحسن الاصفهاني وحسين النايني وحسن الصدر ومحمد مهدي الصدر وعلي الشيرازي ومهدي المراياتي وابراهيم السلماسي ومحمد الأسدي ومحمد مهدي الخراساني وصادق الخالصي وابراهيم الاعرجي وراضي الخالصي وأسد الله الحيدري واسماعيل الأسدى . وقد كتب في آخرهم الشيخ مهدي الخالصي يقول ما نصه : « نعم ما حكم به حجج الاسلام وآيات الملك العلام ماضي نافذ والراد عليهم راد على الله وهو على حد الشرك بالله»(٢٤).

وأخذت الفتاوي من هذا النمط يتوالى صدورها ، فتلصق على الجدران وأبواب المساجد ، وترسل نسخ منها الى الألوية . وكان بعض الشبان المتحمسين يتطوعون لالصاقها على الجدران حيث يختارون الساعات المبكرة من الصباح فيتظاهرون انهم خارجون لاداء صلاة الفجر في المساجد وحين يجدون الشوارع خالية يسرعون الى الصاق الفتاوي ثم يختفون .

نفد صبر الانكليز كما نفد صبر الملك وعبدالمحسن السعدون ، غير أنهم اختلفوا في طريقة العلاج ، فكان من رأي السعدون استعمال الشدة

(٢٣) محمد مظفر الأدهمي (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٤٠٥ .
(٢٤) المصدر السابق ـ الملحق رقم ١٦ .

مع المجتهدين بلا خشية أو تردد بينما كان الانكليز يتخوفون من اتباع هذه السياسة ويعتقدون انها قد تؤدي الى ثورة عشائرية واضطراب الأمن • أما الملك فكان لا يزال يأمل أنه قادر على التفاهم مع المجتهدين واقناعهم على وجه من الوجوه •

مما يجدر ذكره أن اكثر المجتهدين كانوا يحملون الجنسية الايرانية ، فمنهم من كان من أصل ايراني فعلاً ومنهم من اتخذ الجنسية الايرانية في العهد العثماني تهرباً من التجنيد الاجباري • وقد وجد السعدون في هذا ثغرة يمكن أن ينفذ منها اليهم • فكان رأيه ان المجتهدين عجم وهم اذن غرباء عن العراق وليس لهم حق بالتدخل في سياسة هذا البلد ، أما اذا أرادوا العمل في السياسة فالواجب يقضي عليهم أن يتجنسوا بالجنسية العراقية ، والا فان الحكومة يجوز لها أن تبعدهم عن البلاد •

صمم السعدون على تنفيذ رأيه هذا • ففي ٩ حزيران صدر تعديل لقانون العقوبات البغدادي ، وبهذا التعديل أصبح للحكومة الحق في نفي الاجانب بسبب الجنح التي يرتكبونها • وفي ١٧ حزيران عقد مجلس الوزراء جلسة خاصة قرر فيها الشروع بالانتخابات واستعمال الشدة مع الذين يقاومونها عن طريق نفي الاجانب منهم الى خارج البلاد واحالة العراقيين منهم الى المحاكم •

وفي تلك الآونة كتبت جريدة «العاصمة» تدعو الى محاربة الدخلاء الذين لا ارتباط لهم بالعراق ، وتطلب من الحكومة أن تكف يد كل من ليس بعراقي ولا عربي عن التدخل في شؤون الأمة[٢٥] •

تمهيد :

كان محسن أبو طبيخ ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ قد خالف ما اتفق عليه زملاؤه من شيوخ الفرات الأوسط في أمر الشروع بالانتخاب • ويقال ان

---

(٢٥) جريدة « العاصمة » ـ في عددها الصادر في ١٤ حزيران ١٩٢٣ •

الملك امتعض من موقفه هذا وطلب منه مغادرة العراق أياما الى أن يهــدأ الوضع فيعود • وقرر أبو طبيخ أن يغادر الى سوريا في ١٤ حزيران •

أراد الشيخ مهدي الخالصي أن يجعل من توديع أبو طبيخ مظاهــرة سياسية تحدياً للملك والحكومة • ففي صباح اليوم المعين لسفر أبو طبيخ حصل اجتماع كبير في صحن الكاظمية حتى غص الصحن على سعتــه بالناس ، وحضره الخالصي وكثير من رؤساء العشائر ورجال المعارضة • ونهض سلمان القطيفي(٢٦) فألقى كلمة حماسية مؤثرة ، وأخذ الحاضرون يهتفون بسقوط الحكومة وحياة المجاهدين ، وعند انتهاء الحفلة ســارت الجماهير تحف بأبو طبيخ متوجهة نحو محطة القطار في جانب الكــرخ ، فركب فريق منهم عربات الترامواي ، وركب آخرون السيارات ، بينما مشى الباقون على اقدامهم • وحين وصلوا الى علاوي الحلة في الكرخ طلــب الكرخيون من سلمان القطيفي اعادة القاء الكلمة التي ألقاها في صحــن الكاظمية ، فاستجاب لهم وصعد على منصة صنعت من تخوت المقاهي القريبة ، كما صعد الى جانبه أبو طبيخ • ولم يكد القطيفي يبدأ بالالقاء حتى تقـدم نحوه معاون الشرطة عبدالرزاق الفضلي وقال له بصوت مرتفع « اني باسم الحكومة والقانون أمنعك من القاء الخطاب وعند عدم الكف عن القائــه سأستعمل القوة » • فحصلت مشادة بين القطيفي والفضلي ، فتدخل أبــو طبيخ راجياً من القطيفي العدول عن القاء الكلمة حذراً من اراقة الدماء • وهاجت الجماهير عندئذ ، وتدافعت مع الشرطة ، وانطلق الرصاص من هنا وهناك دون أن يصاب به أحد من الناس • وقد استطاعت الشرطــة أن تختطف أبو طبيخ بسيارة وأخذته الى محطة القطار ، كما استطاع رجــال من أهل الكاظمية اختطاف القطيفي وأخذوه الى الكاظمية حيث اختفــى فيها(٢٧) •

---

(٢٦) هو الذي عرف فيما بعد باسم « سلمان الصفواني » وكان يومذاك من تلاميذ الخالصي ومن المقربين اليه •

(٢٧) نقلا عن مذكرات مخطوطة لسلمان الصفواني وهي مذكرات مهمة نرجو أن تنشر •

كانت هذه الحادثة للحكومة بمثابة القشة التي تقصم ظهر البعير ، وقد اعتبرتها الحكومة تحدياً لها وجرأة لا يجوز الصبر عليها ، فعقدت النية على نفي الشيخ مهدي الخالصي ، وأصدرت أوامرها السرية الى معاون الشرطة عبدالرزاق الفضلي بالاستعداد لالقاء القبض عليه في أقرب فرصة .

كان لدى الفضلي يومذاك عشرون شرطيا من المشاة وعشرون من الخيالة ، فسألته الحكومة هل هو في حاجة الى مزيد من القوة فكان جوابه ان ما لديه منها يكفيه وهو لا يريد مزيداً لكي لا يلفت أنظار الأهالي اليه فيستعدوا للمقاومة . وقد حدثني الفضلي عن تلك الأيام فقال : انه أخذ يتهيأ لالقاء القبض على الخالصي ويترقب الوقت المناسب له ، وكان مما فعله في هذا السبيل انه أرسل بعض أفراد الشرطة السرية بملابسهم المدنية ليختلطوا بالناس في الصحن وخارجه ، وجعل بعضهم يتقمصون هيئة الشحاذين ويجلسون عند أبواب الصحن يتظاهرون بالاستجداء حتى اذا جاء أحد أعوان الخالصي يريد الصاق الفتاوى او الاعلانات على أبواب الصحن أمسكوا به أو أشاروا الى افراد الشرطة القريبين منهم للامساك به .

وفي عصر ٢١ حزيران جاء شاب من آل الخالصي اسمه علي نقي ، وهو حفيد أخ الخالصي ، يروم الصاق اعلان على احدى ابواب الصحن . فلمحه اثنان من أفراد الشرطة السرية ، وحاولا القاء القبض عليه ، فأسرع بعض الأهالي لمساعدته على الهرب ، ثم جاء شرطي ثالث لمعاونة زميليه . وتمكن الثلاثة أخيرا من الامساك به ، فذهبوا به الى مركز الشرطة في السراي . وعند التحقيق معه في المركز أعترف ، قائلاً بأن واجبه هو الصاق الفتاوي التي تصدر من المجتهدين ، وذكر أسماء بعضهم ، كما اعترف بأنه لا يعمل وحده بل يعاونه سلمان القطيفي واثنان من أولاد الخالصي هما حسن وعلي .

وفي الوقت الذي كان فيه علي نقي يدلي باعترافاته في مركز الشرطة

ذهب حسن الخالصي الى الصحن يريد الصاق اعلان على باب القبلة منه • وحين حاول أحد افراد الشرطة القاء القبض عليه أخذ يصيح في النـــاس قائلا : « اقتلوا هذا الرجل انه كافر يهودي » • وعند هذا انثال الناس على الشرطي فأمسكوا به وأدخلوه الى الصحن وطرحوه أرضاً ، وأخرج حسن سكينة من جيبه وقال له : « سوف أقتلك » • ولكن الشرطي استطاع التملص من أيدي الناس بصعوبة ، وعاد الى مركز الشرطة وهو حافي القدمين مصفر الوجه • وأسرعت ثلة من الشرطة بقيادة المعاون عبدالرزاق الفضلـــي ، فتوجهت الى الصحن بغية القاء القبض على الذين هاجموا الشرطي ، فلم تجد أحداً منهم • وأخذت الشرطة بعد هذا تبحث عن حسن الخالصي وأخيه علي وعن سلمان القطيفي ، وحين عثرت عليهم أرسلتهم مع علي نقي مخفورين الى بغداد • وهناك أودع الأربعة رهن الاعتقال في السراي[٢٨] •

القبض على الخالصي :

كان القبض على أولاد الخالصي بمثابة جس النبض ، فلمـــا رأت الحكومة ان القبض عليهم لم ينتـج الاضطراب الذي كانت تخشاه قـــررت القبض عليه بالذات ، وتعين مساء ٢٦ حزيران للقيام بذلك •

تشير بعض القرائن الى ان الملك كان يومذاك على شيء من الحـــيرة والتردد ، فهو في أعماق نفسه يمقت الخالصي ويحب نفيه عن العـــراق ولكنه يخشى العواقب • أما عبدالمحسن السعدون فكان قد صمم على نفـــي الخالصي وكان واثقا من عدم حدوث أي خطر من ذلك • ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان السر هنري دوبس كان قد تولى منصب المندوب السامي بالاصالة منذ اوائل أيار الماضي ، وكان هو كسلفه كوكس يتخوف من أمر نفي الخالصي ولكن السعدون تعهد له بأنه قادر على القيام بالأمر دون أن يثير أية اضطراب في الأمن ، وقد اطمأن دوبس من قوله وترك له الأمر ليقوم به على مسؤوليته •

---

(٢٨) محمد مظفر الأدهمي (المصدر السابق) ج١ ص ٤١٨ـ٤١٩ •

أراد الملك أن يبتعد عن بغداد عند نفي الخالصي ، فقرر القيام بجولة الى البصرة • وقد اتفق مع السعدون على ان يبرق اليه من البصرة في حالة موافقته النهائية على نفي الخالصي وان يكون الرمز بينها «الدجاجة» ويعنى بها الخالصي •

وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر ١٨ حزيران غادر الملك بغداد على باخرة نهريه من بواخر عبدالقادر الخضيري ، وكانت حاشيته مؤلفة من رستم حيدر وناجي السويدي وصفوت العوا وعبدالله المضايفي وناصر الدين النقيب والمرافقين تحسين قدري وتوفيق الدملوجي • والمظنون ان الملك كان منذ مغادرته بغداد حتى وصوله البصرة مشغول البال في أمر الخالصي لا يدري هل من الصواب أن يسمح بنفيه أم لا • ويبدو انه عندما وصل البصرة استقر رأيه على عدم نفي الخالصي ، ولهذا أوعز الى ناجي السويدي بأن يبرق الى السعدون ينصحه « أن يترك الدجاجة »[٢٩]• ولكن السعدون رفض أن يصغي لنصيحة الملك ، وأبرق اليه يخبره بضرورة نفي الخالصي وان الحكومة لا يمكنها أن تستمر في الصبر عليه مدة أطول• وهذا هو نص برقية السعدون :

« عرضنا في برقيتنا السابقة أن حاول بعضهم الصاق فتاوي في الكاظمية بمنع الانتخاب • الذي ألصقها حفيد الخالصي الشيخ علي ، فألقت الشرطة القبض عليه في الحال ، وبعد قليل حاول الشيخ حسن بن الشيخ مهدي الصاق فتوى أخرى ، فمنعه الشرطي الذي كان واقفاً باللباس الرسمي ، فلم يمتنع بل حث الناس على الهجوم على الشرطي وهجم هو معهم وبيده سكين فضرب بها الشرطي ، فألقي القبض عليه أيضاً • وعند استجواب الشيخ علي اعترف بأن جميع هذه الأعمال هي بأمر الخالصي وولديه

---

(٢٩) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج١ ص ٥٢ •

الشيخ علي والشيخ حسن وشريكهما الشيخ سلمان القطيفي • الشيخ مهدي يحرك الناس جهراً على القيام في بغداد والكاظمية ، وعلى كل حال لا يمكن للحكومة أن تصبر على أفعاله ، فأرى من الضروري ابعاده عاجلاً هو وأولاده والقطيفي والشيخ علي حفيد الخالصي • المعتمد السامي يوافق على ابعادهم بشرط ان لا يكون ذلك الى ايران ، فاذا توافقون يرسلوا الى البصرة ومنها الى جدة بحراً • لم يصلني خبر بعد من محسن شلاش » •

فأجاب الملك ببرقية قال فيها : « اذا كان العمل ضرورياً تجاه الشيخ مهدي فأرغب أن يكون بكل احترام وبصورة لا تخل بكرامته الشخصية وان لا تعجز عائلته ولا تخوف • » • ثم أعقبها الملك ببرقية أخرى قال فيها : « لكم الصلاحية المطلقة فيما ترونه مناسباً في الكاظمية وبغداد لحفظ الأمن وشرف الحكومة ويجب اتخاذ خطة حازمة • بعد الكاظمية أخبروا مجتهدي النجف بواسطة المتصرف بكل ما جرى مع الخالصي واتباعه وطمنوهم بأن يداوموا محافظين على السكينة وقائمين بواجباتهم الدينية مع ابلاغهم أسف الحكومة على اضطرارها الى اتخاذ هذه الاجراءات رغماً عن الوسائل السلمية التي أتبعتها حتى الآن • أعلنوا ذلك في الصحف بصورة مناسبة » •

وفي ٢٥ حزيران أصدرت الحكومة بياناً رسمياً ذمت فيه المجتهدين ذماً قبيحاً حيث وصفتهم بأنهم دخلاء لا علاقة لهم بالقضية العربية ولا تهمهم مصالح الشعب الحقيقية ، وانهم يختلقون أقوالاً يزعمون انها مستنبطة من الشرائع الدينية غير أنهم لا يقصدون منها سوى الاخلال بسير الانتخابات وتضليل الرأي العام وعرقلة وصول الشعب الى السلطة • ويقول البيان أيضاً : ان ما أظهرته الحكومة من الحلم والاناة شجع هؤلاء الغرباء المتهوسين على التمادي في التضليل حتى أنهم تجاوزوا مؤخراً على حرمة المراقد المقدسة بحركات تخالف الآداب الدينية كل المخالفة ويتحاشاها

أهل التقوى والدين أي تحاشي وذلك بالصاقهم على أضرحة الائمة عليهم السلام وجدران الحرم نشريات مفسدة ومهيجة تحت ستار الدين وباسمه مما يهتك حرمة العتبات المقدسة ويجعلها معرضاً لتلك الغايات المضلة التي لم تبن الا على سوء النية والاضرار بمنافع الشعب • وفي الختام يقول البيان: « وبهذه المناسبة يجب ان يعلم ان الحكومة لا يمكنها أن تتهاون في مثل هذه الأعمال وستعاقب كل من يتصدى للعبث بحقوق الشعب المشروعة »[٣٠] •

وقد علقت جريدة «العاصمة» على هذا البيان قائلة : ان مقاطعة الانتخاب أكبر مظهر من مظاهر الفكرة الأعجمية تلك الفكرة الدخيلة التي لا تخلص للقومية العربية واستقلال العراق • وطلبت الجريدة من الحكومة الضرب بشدة على الأيدي الأثيمة التي تدس السم بالدسم لتتمكن من القضاء على القومية العربية في ربوع العراق[٣١] •

وفي ساعة متأخرة من مساء ٢٦ حزيران جرى القاء القبض على الخالصي ، وتم كل شيء بهدوء !

كيف جرى القاء القبض :

كان الخالصي قد اعتاد في كل ليلة ان يذهب الى مدرسته بعد انتهائه من اداء صلاة المغرب والعشاء ، وكانت مدرسته ملاصقة لبيته ، فيلقي فيها بعض الدروس على طلبة المدرسة ثم يأوي بعدئذ الى بيته • وقد وضع عبدالرزاق الفضلي خطته في أن يكون القبض على الخالصي في ساعة متأخرة من الليل حين تخلو الشوارع من المارة •

وفي تلك الليلة التي تقرر فيها القبض على الخالصي ، كلف الفضلي احد رجال الشرطة السرية بمراقبة المدرسة واخباره متى يغادرها الخالصي الى البيت • وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً عندما تأكد الفضلي من وجود

---

(٣٠) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) — ج١ ص ١٣٠—١٣٣ •
(٣١) جريدة « العاصمة » في عددها الصادر في ٢٥ حزيران ٩٢٣ •

الخالصي في بيته أسرع اليه بسيارتين يصحبه مفوض واحد وخمسة أفراد من الشرطة مع مختار محلة الشيوخ •

لدينا روايتان مختلفتان عن كيفية القاء القبض على الخالصي ، احداهما يرويها عبدالرزاق الفضلي ، والأخرى يرويها سلمان الصفواني • وفيما يلي نذكر كلتا الروايتين نقلاً عن مذكراتهما المخطوطة •

يقول الفضلي : « ••• أما كيف جرى أخذه ـ يقصد الخالصي ـ فقد ذهبت لبيته بعد العاشرة مساءً وبعد عودته من مدرسته • وطرقت بابه ، فكلمني هو من الطابق الثاني من البيت وسألني : ماذا تريد ؟ قلت : تفضل أفتح الباب لابلغك الأمر الذي تلقيته الآن من الحكومة • فنزل الرجل ، فقلت له : ان مجلس الوزراء ملتئم في البلاط ويطلبون حضورك فأرجو أن تتفضل لأنهم أرسلوا لك سيارة خاصة • فقال : انني رجل ديني ولا يجوز خروجي من بيتي بعد المساء • فأجبته : يا سيدي انك سياسي لانك تداخلت بأمور ليس لك حق بالمداخلة فيها ولذلك يجب أن تذهب معي حالاً • فقال : دعني إدخل الى بيت الماء ثم أتوضأ وأذهب معك • فوافقت ، ولكنه أراد أن يغلق الباب فحلت دون مقصده • وفعلاً دخل الى الخلاء وأنا واقف بالباب ، وانتظرته حوالي نصف ساعة ولم يخرج ، فاضطررت ان أرسل المفوض الافغاني سيد حسن الى الخلاء ليرى ماذا حل بالخالصي ، ولما دخل عليه وجد أن أعصابه قد تقلصت ولا يستطيع السير • وبما ان الوقت الذي يجب ان يصل به الخالصي الى القطار على وشك الانتهاء فقد اركبته بالسيارة وتوجهت به الى محطة القطار ••• » •

أما الرواية الثانية فيرويها الصفواني نقلاً عن الخالصي نفسه اذ قال ما نصه : « كنت نائما على سطح داري وأيقظني طرق الباب المتوالي بعنف. فنهضت من فراشي وأطللت براسي على جهة الباب فاذا بي أرى الدار مطوقة بالقوات المسلحة وكذلك الطرق المؤدية اليها • وسألت من فوق السطح

من الطارق ، فطلب اليّ النزول وفتح الباب بسرعة • فأدركت ان هــذه القوة الكبيرة قد جيء بها للقبض عليّ لا محالة • وفكرت في أن أمثل دور الصقر أم دور العصفور ؟ ان العصفور حينما يقع في يد الصياد يحاول أن يقاوم ليتخلص ويطير ، ويستعمل منقاره ومخالبه وأجنحته وهــي كــل أسلحته في المقاومة ، ولكن حصيلة ذلك أن ينتف ريشه وتتكسر سيقانه ويتعرض للموت • أما الصقر فانه يخلد الى الهدوء حينما يقع في يــد الصياد ويستسلم للقضاء والقدر في انتظار الفرصة المؤاتية للنجاة • لقد كان بامكاني أن أستغيث وأستنجد بأهالي الكاظمية فيهبون سراعاً لنجدتي والدفاع عني ، ولكن ما هي النتيجة غير اراقة الدماء ثم ينتهي الأمر بالقبض علــيّ ذليلاً مهاناً • فاخترت على عجل وبهدوء ان أكون صقراً وأوصيت أهــل بيتي ان لا يرفعوا صوتاً ، وارتديت ملابسي بسرعة وفتحت الباب حيــث اختطفت بسرعة أيضا في سيارة الى القطار » •

كانت محطة القطار عند وصول الخالصي اليها في ظلام دامس ، وقــد أحيطت بقوة كبيرة من الجيش والشرطة • وكان قد أعد فيها قطار خاص مؤلف من قاطرة وثلاث عربات ، فخصصت احدى العربات لنقل الخالصي وهي من الدرجة الاولى • أما العربتان الاخريان فكانت من الدرجة الثالثة وخصصتا لنقل القوة المكلفة بحراسة القطار في الطريق •

وجيء بالأربعة الذين كانوا معتقلين في السراي ببغداد ، فاركبوا في العربة التي كان الخالصي فيها • وكان الظلام شديداً فلم يعرفوا ان الخالصي في العربة معهم • يقول سلمان الصفواتي في مذكراته : « كنت وحــدي المدخن بين رفاقي فأشعلت عوداً من الثقاب لأرى ، ويا لهول ما رأيــت ، رأيت الامام الخالصي حاسر الرأس وقد جلس في زاوية من المقطــورة واضعاً رأسه بين يديه ، وكان مطرقا تبدو عليه علامات الكآبة والاعياء ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ، وقبلت يديه ، وهكذا فعل رفاقي ، وجلست الى

جنبه في صمت مطبق وأنا غير مصدق أفي يقظة أنا أم في منام ... »[٣٢] .

تحرك القطار بهم متوجهاً نحو البصرة . وفي صباح اليوم التالي نشرت الجرائد في بغداد بلاغاً رسمياً هذا نصه :

« لقد توفرت الادلة المقنعة بان الشيخ مهدي الخالصي وولديه والشيخ سلمان القطيفي والشيخ علي نقي هم الذين أتوا بما ورد في البيان السابق ، وعليه أخرجوا من البلاد العراقية . والحكومة تود أن تعلن مرة أخرى بأنها عازمة على تسليم السلطة القانونية الى ممثلي الشعب الحقيقيين و لايمكنها أن تتساهل ازاء تلاعب الأهواء الأجنبية تحت ستار السلطة الدينية في الأمور الحيوية المتعلقة بحقوق الأمة »[٣٣] .

حركة المجتهدين :

عندما انتشر الخبر في الكاظمية صباحاً امتنع الناس عن فتح دكاكينهم احتجاجاً ، وأخذوا يتجمهرون في الصحن . وقد أبدى عبدالرزاق الفضلي شاطاً ملحوظاً في تفريق المتجمهرين وبث جواً من الارهاب في البلدة ، فأرسل المنادين ينادون في الاسواق يهددون من يستمر على اغلاق دكانه بالعقوبات الصارمة ، كما أرسل افراداً من الشرطة ليسجلوا أسماء أصحاب الدكاكين المغلقة والبحث عنهم . وقد أثمرت جهوده في هذا السبيل فصار الناس يفتحون دكاكينهم شيئاً فشيئاً ، ولم يكد ينتصف النهار حتى كانت البلدة قد عادت الى حالتها الاعتيادية ، ولم يبق فيها سوى بعض الاشاعات يتهامس بها الناس هنا وهناك وهم يتلفتون مخافة أن يراهم أحد .

وقد جرى مثل هذا في بغداد حيث انتشر الاضراب في بعض الاسواق ، لاسيما في سوق الصفافير وبعض الأسواق المجاورة ، ولكن التدابير الشديدة التي اتخذتها الحكومة جعلت الناس يسرعون الى فتح دكاكينهم على نحو ما فعل اخوانهم في الكاظمية .

(٣٢) جريدة «الحوادث» ــ في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٣٠ .
(٣٣) جريدة «العراق» ــ في عددها الصادر في ٢٧ حزيران ١٩٢٣ .

وقد حاول فريق من رجال الدين في الكاظمية أن يقوموا بحركة يعلنون بها تضامنهم مع الخالصي واحتجاجهم على نفيه ، فاجتمعوا في دار الشيخ مهدي المراياتي في محلة التل ، وأرسلوا الى رجال الدين الآخرين يطلبون منهم الانضمام الى حركتهم ، فاعتذر هؤلاء ولم يؤيدوهم • وقيل ان أحد المجتهدين الكبار لم يكتف بعدم التأييد بل تفوه بكلمة شديدة ذم بها الشيخ مهدي الخالصي لتدخله في السياسة وقال انه طالما نصحه فلم يرتدع • وبهذا ماتت الحركة في مهدها وتفرق أصحابها •

ولكن الأمر في النجف جرى على خلاف ماجرى في الكاظمية ، اذ لم يكد الخبر يصل الى النجف في صباح ٢٧ حزيران حتى عم الاضراب الاسواق ، وتجمهر الناس ، وأعلن المجتهدون انهم متضامنون مع الخالصي وأن نفيه اهانة للدين وأهله ، وصمموا على الهجرة من العراق احتجاجاً •

وفي عصر ذلك اليوم غادر عدد من المجتهدين النجف ، وكان في مقدمتهم السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النائيني ، فذهبوا الى مسجد « السهلة » للاعتكاف فيه ليلة واحدة كما جرت عليه العادة ، فزارهم هناك جمهور من أهل الكوفة • وفي صباح اليوم التالى توجه المجتهدون الى الكوفة ، ومن هناك استقلوا الزوارق البخارية متوجهين الى طويريج • ومن طويريج ركبوا السيارات الى كربلاء •

كانت الحكومة قد استعدت للأمر مقدماً • ففي ٢٦ حزيران وصل الى كربلاء مولود مخلص بعد أن صدرت الارادة الملكية بتعيينه متصرفاً للواء • وقد شرع هذا المتصرف باتخاذ الاجراءات الشديدة فور وصوله الى كربلا ، فأبرق الى قائمقام النجف يقول له : « يجب أن لا تأذنوا لاحد بالسفر الى ايران مع العلماء الايرانيين • يجب أيضاً أن لا تأذنوا لأحد بالخروج من النجف الا باذن من الحكومة • امنعوا الوسائط النقلية عن نقلها ركاب بدون إذن من دائرة الشرطة الى صدور أمر آخر • بلغوا بذلك دائرة الشرطة » •

وقد أجابه القائمقام قائلاً : « لم يسافر أحد من أهالي النجف الى ايران مع العلماء الايرانيين ، بل سافروا الى كربلاء ... وكلهم اليوم في كربلاء ، ولم يبق هنا من لم يلتحق . وأما منع جميع الركاب والمسافرين مطلقاً الى كربلاء وغيرها يوجب الحرج والقيل والقال ، والحال ـ والحمد لله ـ في القضاء في كمال الهدوء والسكينة . فاسترحم التصريح من يجب منعه ومن لم يجب . منتظرون أمركم »(٣٤) .

حين وصل المجتهدون الى كربلاء أعدت لهم خيمة خاصة للنزول فيها، ومنع الأهالي من الاتصال بهم . وقد انضم اليهم عدد من المجتهدين الكربلائيين . وحاول المتصرف التفاهم معهم غير أنهم أصروا على مغادرة العراق . فأبرقت الحكومة الى المتصرف تأمره بتسهيل سفر الذين يحملون الجنسية الايرانية منهم ، أما الباقون فيجب ابقاؤهم في العراق ووضعهم تحت مراقبة الشرطة .

وفي ١ تموز تولى صالح حمام مدير شرطة كربلاء تسفير المجتهدين الذين يحملون الجنسية الإيرانية ، وكانوا تسعة وهم : أبو الحسن الاصفهاني وحسين النايني وجواد الجواهري وعلي الشهرستاني وعبدالحسين الشيرازي وأحمد الخراساني ومهدى الخراساني وحسن الطباطبائي وعبدالحسين الطباطبائي . وكان يصحبهم ٢٥ رجلاً من أتباعهم . وقد أركبوا جميعاً في سيارات تحت حراسة قوية من الشرطة . ولما وصلوا الى الخر قرباً من بغداد سير بهم الى منعطف الدورة حيث عبروا دجلة من هناك ، وكان القصد من ذلك ابعادهم عن أنظار الناس لكي لايعلم بوصولهم أحد . وفي صباح ٢ تموز سار بهم قطار خاص الى خانقين ، ثم نقلوا الى ماوراء الحدود .

وفي ٣ تموز نشرت جريدة « العراق » خبراً بعنوان « سفر بعض العلماء الى ايران » هذا نصه :

---

(٣٤) عبدالرحيم محمد علي (النجف والمجلس التأسيسي) ــ في مجلة « الرابطة » النجفية ــ في عددها الصادر في ايلول ١٩٧٥ .

« لقد شاع في العاصمة ان بعض العلماء المجتهدين في النجف الأشرف قد عقدوا النية على مغادرة البلاد العراقية وقد استقصينا الأمر من مديرية المطبوعات فأخبرتنا بصورة رسمية ان البعض من حضرات العلماء الايرانيين على أثر نشر بلاغ الحكومة بشأن تدخل الاجانب بشؤون البلاد السياسية قد أظهروا رغبتهم في الرجوع الى وطنهم ايران • وقد قابلهم سعادة متصرف كربلاء باسم الحكومة العراقية وأفهمهم ان الحكومة لاتضمر عليهم أي سوء وانهم لايزالون موضع الحفاوة والاحترام ما داموا مواظبين على الخدمة الدينية بارشاد الناس الى أمور دينهم • فأظهر العلماء شديد رغبتهم في الرجوع الى أوطانهم• ولذلك قامت الحكومة بكل التسهيلات المقتضية لتوفيراستراحتهم في سفرهم ••• »

وفي اليوم نفسه ـ أي في ٣تموز ـ كتب جلال الدين خان كيهان القنصل الايراني العام ببغداد الى المندوب السامي يحتج على تسفير المجتهدين ، وقد ذكر في كتابه ان المجتهدين عوملوا معاملة خشنة كما يعامل المجرمون ، وان هذا يعد اهانة لا يمكن تبريرها تجاه ممثلي الدين الاسلامي بوجه عام ، والطائفة الشيعية بوجه خاص • فأجاب المندوب السامي عليه بكتاب قال فيه ان الشيخ مهدي الخالصي انما أبعدته الحكومة العراقية بموجب قانون الاقامة لانه تدخل في سير الانتخاب بصورة غير قانونية وأصدر فتوى بتكفير الذين يشاركون فيها ، أما المجتهدون الآخرون فان الحكومة لم تبعدهم وان متصرف كربلاء حاول اقناعهم بأنهم سيبقون موضع احترام الحكومة اذا حصروا جهودهم في المسائل الدينية وحدها ، غير أنهم أصروا على العودة الى وطهم ايران ، وقد وفرت الحكومة العراقية لهم كل أسباب الراحة أثناء السفر وأعدت لهم قطاراً خاصاً على الرغم من أنهم حاولوا اثارة المظاهرات ضد الحكومة في طريقهم من النجف الى كربلاء • وينتهي كتاب المندوب السامي بابداء الاعتذار عن التأخر في ارسال الجواب باعتبار ان هذا التأخر كان ضرورياً لقيام المندوب السامي بالتحقيق في

الشكاوي التي ذكرها القنصل الايراني العام[٣٥].

حادثة في الحلة :

حين جرى تسفير المجتهدين من كربلاء في ١ تموز أخذت الحلة تتحفز لاعلان احتجاجها على هذا العمل . وكان العالم الديني في الحلة يومذاك هو الشيخ محمد سماكة اذ كان وكيلا لاحد المجتهدين الكبار في النجف ، وقد صار هذا الرجل يحرض الناس على التظاهر تأييداً للمجتهدين واحتجاجاً على تسفيرهم . ولم يهن ذلك على متصرف اللواء ناجي شوكت فاوعز الى مدير الشرطة بابعاد الرجل الى بغداد .

جرى ابعاد الشيخ محمد سماكة في مساء ٢ تموز ويحدثنا ناجي شوكت في مذكراته عن كيفية القاء القبض عليه فيقول ما نصه :

« ... فطلبت الى مدير الشرطة أن يزور الرجل في داره بعد عودته من صلاته في المسجد مساءاً ويستصحبه الى محطة القطار ... وكان من عادة الرجل بعد أن يؤدي الفريضة في المسجد القريب من داره أن يسهر بعض الوقتمع من يأتون بهفي صلاتهثم يعود الى داره. والظاهران مدير الشرطة كان حديث عهد بالاجراءات والاحتياطات في مثل هذه الظروف فقام بعمل طائش كاد يوقعنا في ورطة ، فقد اصطحب ثلة من الشرطة وأحاط بالمسجد المذكور وأكره وكيل المجتهد على أن يتجه الى محطة القطار . وهكذا استله من بين جماعته ومريديه وذهب به الى المحطة ، واذا بهؤلاء المريدين يخرجون الى الشارع على شكل مظاهرات صاخبة ، وكانت حوالي العاشرة ليلاً . وبينما أنا انتظر نتائج الابعاد اذا بخادمي يقول انالاهلين بدأوايحيطون بداري وان عددهم آخذ بالازدياد . وكنت أسكن في الدار وحدي ولم يكن معي فيها غير الخادم المذكور ، فأطفأت الانوار في غرفتي المطلة على الشارع ، وصرت أتطلع الى مايجري في الشارع ومسدسي بيدي ، واذا بالخادم يقول

---

(٣٥) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (اف ٠ أو ٠ ٣٧١ ـ ٩٠٤٧)

ان المتجمهرين يطلبون اليه ان يفتح باب الدار ليدخلوها ويقابلوني فيها . فكان الوضع في منتهى الحراجة ، وزاد في حراجته اني لم أتلق من مدير الشرطة شيئاً عما جرى وتم ، ورأيت من المصلحة أن لا أقابل الناس لئلا يطلبون أمراً قد لا أرضاه مثل العدول عن ابعاد وكيل المجتهد . لذا طلبت من خادمي أن يتسلق سطح الدار ويتسلل الى معاون مدير الشرطة ، وهو في داره القريبة من داري ، ويستدعيه الى مقابلتي فوراً بعد أن يتخذ التدابير التي يراها مناسبة لابعاد المتجمهرين حول الدار . وكان المعاون المذكور عند حسن الظن به ، فقد استطاع أن يشتت الجموع المحتشدة في الشوارع . وفي الساعة الحادية عشرة بدأ الوضع يتحسن والازدحام يخف ... »(٣٦)

ويقول ناجى شوكت ان المستشار البريطاني في اللواء ، وهو الميجر لونكريك الذى اشتهر فيما بعد بمؤلفاته عن العراق ، زاره في بيته في الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة واخذ يستفسر منه عن الاسباب التي حملته على ابعاد الشيخ دون أخذ رأيه باعتباره مستشار اللواء ، وألمح الى أنه لايستطيع تحمل مسؤولية تردي الوضع العام ، ونصحه بأن يلغي قرار الابعاد ويطلق سراح الشيخ فوراً . فأجابه المتصرف بأنه مستعد لتحمل كل مسؤولية عما سيحدث من جراء العمل الذي قام به ، وأنه سيخبر الوزارة ببغداد بأنه اتخذ قرار الابعاد دون استشارة المستشار . ثم طلب المتصرف من المستشار أن لايتقبل مراجعة أي شخص في هذا الشأن على أساس أنه ـ أي المتصرف ـ قام به على مسؤوليته .

كانت بلدة الحلة في صباح اليوم التالي هادئة ، وحين وصل المتصرف الى دائرته لمزاولة عمله كالمعتاد زاره سلمان البراك وطلب منه الاذن لوفد من الاهالي يريدون مقابلة . وكان الوفد مؤلفاً من عشرين شخصاً . وحين دخلوا على المتصرف أخذوا يرجون أن يساعدهم في اعادة الشيخ المبعد ،

---

(٣٦) ناجي شوكت (سيرة وذكريات) ـ بيروت ٩٧٥ ـ ص ٦٩ . .

فقال المتصرف لهم : « اذا تعهدتم لي بانهاء مقاطعة الانتخابات وتأمين جريانها بحسب الاصول ، فاني أعدكم بارجاعه بعد اسبوع واحد » . فاظهروا استعدادهم للتعاون مع الحكومة في هذا الشأن . فابرق المتصرف الى وزارة الداخلية يطلب منها رفع الرقابة عن الشيخ والسماح له بالعودة لزوال الاسباب التي أدت الى ابعاده . وقد زار لونكريك المتصرف بعد هذا وقال له : لقد نجحت في خطتك نجاحاً ملحوظاً واني كنت اخشى العواقب من هذا الابعاد(٣٧) .

الملك في الفرات الأوسط :

قلنا ان الملك أراد أن يبتعد عن بغداد عند القاء القبض على الخالصي فذهب الى البصرة . ولم يغادر الملك البصرة الا بعد ان اطمأن من القاء القبض على الخالصي وان كل شيء سار على مايرام . وفي مساء **٢٧** حزيران غادر الملك مع حاشيتة البصرة . ومن مفارقات القدر ان يصل قطار الخالصي الى محطة البصرة في نفس الوقت الذى كان فيه قطار الملك يغادر المحطة . يقول سلمان الصفواني : « وقفت القاطرة في محطة البصرة التي التقينا فيها بقطار صاحب الجلالة الخاص خارجاً من البصرة . فكان من فيه يطل علينا من نوافذ المركبات المتألقة بالانوار الكهربائية » (٣٨) .

وفي **٢٨** حزيران جرى للملك في الديوانية احتفال عظيم حضره الكثير من رؤساء عشائر الفرات الأوسط . وقد أطنبت جرائد بغداد في وصف ذلك الاحتفال ووصفت الحاضرين فيه بأنهم أبطال ثورة العشرين . وفيما يلي نص مانشرته جريدة « العراق » في هذا الصدد نقلاً عن مندوبها في الديوانية :

« اجتمع شيوخ الشامية ورؤساؤها وزعماء قبائلها منها الظوالم

(٣٧) المصدر السابق — ص٦٩ — ٧١ .
(٣٨) جريدة «الحوادث» — في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٣٠ .

والبو حسان والصفران والأعاجيب وبني زريج والاكـرع والبحاحشـه وعفج والبدير والدغارة والخزاعل والشبل والفتلـة وبني حسن والسعيد وغيرهم في سرادق كبير عصراً بجلالة الملك .وأقسموا لجلالته بالايمـان المغلظة انهم متفانون في اتباع سياسة جلالته وامتثال أوامره وهم متأهبون لقتل كل فكرة أو دسيسة تمس مصالح البلاد الرئيسية والقومية العربيـة وسحق كل مروج لذلك وهم لايصبرون على تأخير الانتخابات يوماً واحداً •ومما قاله الزعيم الشيخ شعلان أبو الجون : اننا يد جلالتك القويـة في تحقيق استقلال الأمة المطلق بالطرق التي ترجحونها وطوع ارادتك اليوم وغداً كما بالأمس • فأجابهم جلالته بأن الحكم اليوم للامة وما أنا الا كبير خدامهـا العامل على تحقيق أمانيها الحرة • انى سررت كثيراً بشعوركم الوطني في ضرورة قبض الأمة على مقاليد أمورها وان هذه البـلاد التي حررت نفسها والتي لو عصرنا ترابها لقطر دم الاجداد منه لايمكن أن تستسلم لدعـوة أجنبية أو تعرض كيانها للخطر • الأمة بحاجة الى دستور يصنعه ممثلوهـا طبق ارادتها وتقاليدها وشرائعها • فاشتدت الحماسـة وأمن الجميع على كلمات جلالته وزادوا بأن قبائلنا بأسرها سيفك القاطع في تأييد سياسـتك الرشيدة ، هذا عهدنا أمام الله والعالم »[٣٩]•

ان هذا الذى نشرته الجرائد البغدادية كان المقصود به طبعاً ان يعلم الرأي العام بأن عشائر الفرات الاوسط ، ولاسـيما تلك التي سـاهمت في ثورة العشرين ، تقف الى جانب الملك وتؤيده على ما فعل من نفى الخالصي وتسفير المجتهدين • ومن الجدير بالذكر أن الجرائد لم تكتف بما نشرته بل أخذت بعد ذلك تنشر المقالات الطويلة في ذم المجتهدين بصـورة غـير مباشرة وتصفهم بأنهم أجانب وأنهم يملكون ذهنية محدودة ويريدون هدم كيان الدولة التي أقيمت على جماجم الألوف من الشهداء •

---

(٣٩) جريدة «العراق» ــ في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٢٣ •

كانت أعنف المقالات التي نشرت في ذم المجتهدين تلك التي كتبها سلمان الشيخ داود بتوقيع (س • د •) • وفيما يلي نموذج من احدى مقالاته وهي بعنوان « الجبن الادبي » حيث قال فيها :

« مع ان هؤلاء المتذبذبين قد عاشوا متظللين بسماء العراق العربي واستنشقوا هواء هذه البلاد فانهم لم يفتأوا عن محاربتها والايقاع بها تحت ستار مزركش يأخذ لمعانه بأبصار السذج من أبناء البلاد ألا وهو ستار الديانة والوحدة الدينية وغيرها التي لايمكن تحقيقها نظراً الى انتشار مبدأ القومية • وأنا على يقين من أنهم لم يقصدوا سوى الفت في ساعد الحركة العربية المباركة ، فهم بذلك يخونون البلاد التي يتنعمون تحت ظلها الوارف بقصد خدمة شعب أجنبي كان من اكبر عوامل القضاء على دولة العرب وابادة مدنيتهم الزاهرة • ومع ما انطوى عليه هؤلاء الافراد من روح العداء للبلاد فانهم يظهرون اذا جوبهوا كل جبن وخضوع ••• »[٤٠]

وفي مقالة أخرى بعنوان « العقلية البسيطة » هاجم سلمان الشيخ داود المجتهدين حيث وصفهم بأنهم يعملون في السياسة دون أن يكون لديهم أي المام بالعلوم العصرية التي هي ضرورية لكل من يعمل في السياسة ، فهم لايعرفون تاريخ الشعوب ونفسيتها ، بل لايعرفون حتى حدود بلادهم ، ولايعرفون من تاريخ قومهم الا صفحة مليئة بالخزعبلات والخرافات •••[٤١]

المجتهدون في ايران :

كان المجتهدون عندما أخرجوا من العراق من جهة خانقين توجهوا نحو كرمانشاه فوصلوها في ٧ تموز ، وقد جرى لهم في تلك البلدة استقبال عظيم اشترك فيه الأهالي والحكومة • ومكثوا في كرمانشاه شهراً • وقد

(٤٠) جريدة «العراق» ـ في عددها الصادر في ٥ تموز ١٩٢٣ •
(٤١) جريدة «العراق» ـ في عددها الصادر في ١٠ تموز ١٩٢٣ •

أبرق القنصل البريطاني في تلك البلدة في ١٧ تموز الى السر برسي لورين الوزير المفوض البريطاني في طهران يذكر له ماجرى في البلدة أثناء مكوثهم فيها ، حيث قال : ان المجتهدين كان حنقهم موجهاً ضد الحكومة العراقية وانهم ذكروا على ملأ من الناس أنهم لن يعودوا الى العراق الا بشروط منها عزل الملك فيصل وأن لديهم رسائل من رؤساء العشائر الكبار في العراق يؤيدونهم في مطلبهم هذا • ويشير القنصل البريطاني في برقيته الى ظاهرة طريفة هي ان الحزب الشيوعي في كرمانشاه أصبح فجأة شديد التدين وأعلن أعضاؤه تعلقهم بأحد المجتهدين وهو السيد علي الشهرستاني وأخذوا يحضرون المسجد من أجله كل يوم ، وصار رئيس الحزب بمثابة الناطق باسمه • ويقول القنصل ان هذه الظاهرة ربما أدت الى عواقب خطيرة وأتاحت مجالاً للبلاشفة لينفذوا منه ، وقد ذهب القنصل الروسي بصحبة ترجمانه المرزا ابراهيم خان لزيارة المجتهدين الثلاثة : السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النائيني والسيد علي الشهرستاني ، غير أن الاصفهاني والنائيني لم يكلماه ، أما الشهرستاني فكان لقاؤه معه ودياً • ثم ذكر القنصل البريطاني في برقيته ان المرزا ابراهيم خان نجح قبل بضعة ايام في تحريض الاهالي ضد بريطانيا ، فاغلقت الاسواق وخرجت مظاهرة غير أن السلطة العسكرية منعتها بايعاز من السيد علي الشهرستاني ...(٤٢)

غادر المجتهدون كرمانشاه متوجهين نحو بلدة قم • وقد جرى لهم في المدن والقرى التي مروا بها استقبال هائل لامثيل له حتى ان بعض الناس كانوا يرمون بأنفسهم أمام سيارات المجتهدين لاظهار فدائيتهم لهم • وفي ١٧ آب وصل المجتهدون الى قم فاستقروا فيها • وهي بلدة مقدسة تضم ضريحاً فخماً لاحدى بنات الامام الكاظم كما تضم حوزة للعلوم الدينية كبيرة •

---

(٤٢) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧ ـ ٩٠٤٧) •

اخذت الحركة المعادية لبريطانيا تستفحل في مختلف أنحاء ايران ، ولاسيما في العاصمة طهران • وقام الحزب الشيوعي بدور مهم في هـذا السبيل • وحين حل شهر محرم في ١٤ آب صار خطباء التعزية والوعاظ يثيرون الناس ضد الانكليز ويدعونهم الى اقامة المظاهـرات ومقاطعة البضائع البريطانية •

كان الشيخ محمد الخالصي قد أبعد الى ايران في السنة الماضية ، كما أشرنا اليه في الفصل السابق • وقد استقر في طهران • وحين حدث تسفير المجتهدين انتهز الشيخ محمد الفرصة ، وهو خطيب مفوه ، فأخـذ يشن الحملات الشعواء على بريطانيا والمؤيدين لها • وقد ذكر السربرسي لورين في برقية له الى لندن : ان الشيخ محمد الخالصي يعد المهيج الرئيس ضـد الانكليز في طهران وانه على اتصال وثيق بالمفوضية الروسية • وذكر أيضاً ان الموظفين السوفياتيين في ايران استغلوا حادث تسفير المجتهدين واتخذوه سلاحاً بأيديهم لاثارة الناس ضد بريطانيا[٤٣] •

اضطر السربرسي لوزين أن يذهب الى بغداد بطائرة عسكرية أرسلت اليه من بغداد لكي يحادث المسؤولين العراقيين بغيـة اقناعهم في اعـادة المجتهدين الى العراق • ولكنه عاد من غير نتيجة • وفي ٣٠ آب أرسل الى اللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية برقية طويلة شـرح فيها الموقف المتأزم في ايران من جراء تسفير المجتهدين • وفيما يلي ننقل جزءا من تلك البرقية •

« سيدي اللورد ــ ان حادثـة خروج المجتهدين من العراق ونتائج وصولهم الى هذه البلاد كانت موضـوع سلسلة من البرقيات التى أرى من الضروري عرضها عليكم • ان ظروف خروجهم والطريقة التي عوملوا بهـا أظهرت خلافاً في الرأي بين هذه المفوضية والمندوب السامي في بغـداد •

(٤٣) عن دائرة الوثائق بلندن ــ رقم (أف٠أوه ٣٧١ ــ ٩٠٤٧) •

فمن وجهة نظر السياسة البريطانية في ايران لا يمكن أن يكون هناك أمر أشد سوءاً من هذه الحادثة • فبعد مدة طويلة من العلاقات غير المرضية مع الحكومة الايرانية أخذ العداء لبريطانيا يضعف بينما هبطت سمعة الفوضية السوفياتية ونفوذها الى الحضيض ، وأصبح الطريق مفتوحاً لاعادة العلاقات الودية بين بريطانيا وايران على أساس ان بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي تمكن وتود ان تساعد ايران في طريق التقدم الاداري والتنمية الاقتصادية لما لها من عواطف تقليدية في هذا الشأن • ولكن نفي الشيخ مهدي الخالصي وما أعقبه من خروج المجتهدين الكبار مع ستة وعشرين رجلاً من أتباعهم احتجاجاً على ذلك أنتج ضجة كبرى في ايران بدعوى ان هؤلاء الاشخاص المقدسين قد طردوا بالقوة من العراق بواسطة الانكليز ، وان الانكليز قد وجهوا بذلك أفظع اهانة الى العقيدة الشيعية ، وكشفوا القناع عما كانوا يدعونه من حبهم للاسلام وأظهروا أنفسهم بأنهم أعداء الألداء • وليس ضرورياً أن أضيف الى ذلك ان البلاشفة استغلوا ذلك تمام الاستغلال حيث أصبح في يدهم سلاح للدعاية لم يتوقعوه ، فاستخدموه بكل طاقتهم لاثارة العداء ضد بريطانيا والنقمة عليها ••• اني عند وصولي الى بغداد وتبادل الرأي مع السر هنري دوبس والمسؤولين البريطانيين الآخرين في العراق وجدت الموضوع اكثر دقة مما كنت أتصوره فأن المسؤولين العراقيين قد اتخذوا اجراءات النفي من تلقاء أنفسهم وعلى مسؤوليتهم ، وانهم مسرورون جداً من النتائج ولم يكونوا راضين عن قدومي الى بغداد ، فانهم يخشون أن يؤدي الضغط البريطاني عليهم ان يعودوا الى ما كانوا فيه ويضحون ما يعتقدون أنه في مصلحتهم ••• والواقع ان وضعهم يجعلهم مضطرين الى الاستقالة في حالة الضغط عليهم ، وهم يؤكدون ان ليس هناك أية حكومة أخرى يمكن أن تحل محلهم ، واذا حدث هذا فان السلطة البريطانية ستجد من الضروري العودة الى الادارة المباشرة الأمر الذي لاترضاه حكومة صاحب الجلالة البريطانية • ومن

الناحية الأخرى فان الحكومة العراقية ليس لديها أية نية أو رغبة في عودة المجتهدين الى العراق خلال أية مدة محددة ... وعلى هذا فقد شعرت بأن اصراري على وجهة نظري ، وهي الوجهة التي تبررها الظروف في ايران حسب فهمي لها ، لا تؤدي الا الى الفشل التام في الحصول على طريقة وسطي للحل ... »

وأشار السربرسي لورين في برقيته الى أنه في أثناء مكوثه في بغداد قابل الملك فيصل بحضور السر هنري دوبس وعبدالمحسن السعدون وكورنواليس ، فوجد السعدون متصلباً جداً تجاه عودة المجتهدين بينما كان الملك ميالاً للنظر فيما يهديء الوضع الخطير في ايران . وقد اتفقوا أخيراً على النظر في أمر عودة المجتهدين بعد الانتهاء من انتخابات المجلس التأسيسي والمصادقة على المعاهدة وملحقها . وذكر لورين انه بعد عودته الى طهران قابل الشاه كما قابل الوزراء وحادثهم في الموضوع الذي كان يشغل بالهم وقال لهم : « ان مصلحة الحكومة الايرانية والحكومة العراقية في هذا الموضوع واحدة ، ذلك أن تركز السلطة الدينية في أيدى المجتهدين الكبار في ايران بحيث جعلهم فوق سلطة الحكومة المدنية أمر شاذ لايمكن لأية حكومة حديثة أن تتسامح به مدة طويلة ، ولهذا كان من الطبيعي أن تقاوم الحكومة العراقية مثل هذا التسلط بكل ما تملك من طاقة » . ويقول لورين ان هذا الكلام كان له أثره في الشاه ووزرائه[٤٤] .

الخالصي في البصرة :

ان القطار الذى نقل الشيخ مهدي الخالصي ورفاقه الاربعة من بغداد قد وصل الى محطة البصرة في مساء ٢٧ حزيران كما أشرنا اليه من قبل . وقد نقلوا من المحطة رأساً الى قصر يقع على شط العرب تجاه السراجى يسمى « قصر أغا جعفر » . وادعت الحكومة في حينه انها انما اسكنتهم في

---

(٤٤) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ـ ٩٠٤٨) .

هذا القصر لكي توفر لهم أسباب الراحة والترف باعتبار ان هذا القصر كان يعتبر من أفخم قصور البصرة في تلك الايام • ولكن سلمان الصفواني ينفي صحة ما ادعته الحكومة حيث قال : صحيح انها اسكنتنا في ذلك القصر الفخم غير أنها وضعتنا في غرفة تحتانية منه ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب الاليم(٤٥)• ويصف الصفواني ما جرى عليهم في تلك الغرفة فيقول مانصه :

« لم يكن في هذه الغرفة حتى حصير نجلس عليه ، فنمنا جلوساً في تلك الليلة مستندين الى نوافذ الغرفة ، وكان الحر شديداً ، وكان البعوض بأحجام كبيرة وأسراب كثيرة يهاجمنا بلارحمة ، فلم تغمض لنا عين ، مضافاً الى أننا لم نتناول طعاماً منذ الليلة التي قبض فيها على الامام الخالصي ، والجائع لاينام • وكان الواحد منا اذا ذهب الى المرافق الصحية رافقه جندي هندي مسلح • وكان هؤلاء الجنود شرسين جداً • وفي الصباح جيء لنا ببضعة أرغفة من الخبز العادي وقطعة من الجبن الابيض المتحجر مع الخيار التعروزي • فلم نستطع تناول شيء من هذا الطعام • وجيء لنا ظهراً ومساءاً بمثل ذلك فلم نتناول منه شيئاً ، وقررنا الاضراب عن الطعام • ودام اضرابنا ثلاثة أيام ظهر علينا خلالها الاعياء التام • وفي اليوم الثالث من اضرابنا جاءنا مفتش شرطة بريطاني وألقى نظرة على الغرفة التي نحن فيها فشم رائحة كريهة تنبعث من زاوية الغرفة مما يلي الباب فدنا منها حيث رأى كمية من الخبز والجبن والخيار قد وضع بعضه على بعض من دون أن تمسه يد حتى تعفن ، ورأى أن الغرفة خالية حتى من الحصران وأن لا شيء ننام عليه • فبدت عليه علائم الاستياء وخرج من الغرفة من دون أن ينبس ببنت شفة • وبعد بضع ساعات عاد المفتش الينا ، وكان قد ذهب الى البصرة بزورق بخاري ، فاذا بالجنود ينقلون الينا أثاث بيت كامل من سجاد وفرش وقنبات وكراسي ومناضد وأواني ومواد التموين والطعام

---

(٤٥) جريدة «الحوادث» ــ في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٣٠ •

على اختلافها ، بسخاء عجيب • وقيل لنا ان الحكومة قد عينت لنا طباخاً ليطهو الطعام لنا حسب ذوقنا • ولما كنت المدخن الوحيد بين رفاقي فقد تقرر تزويدي بـ (٤٠٠٠) سيكارة في الشهر من السكاير العراقية ذات العقب• وقد أفادتنا أعقاب هذه السكاير اذ لم يكن لدينا ورق نكتب عليه ، فكنت أحتفظ بعقب كل سيكارة لتدوين يومياتي الموجزة عليها في غفلة عن أعين الرقباء ••• »(٤٦) •

مكث الخالصي ورفاقه في ذلك القصر «الفخم» حتى يوم ٣٠ حزيران • وفي مساء ذلك اليوم طلب اليهم أن يتهيأوا للانتقال الى مكان آخر ، وأعد لهم زورق بخاري لنقلهم ، وكان الزورق مليئاً بأكياس الرز والسكر والشاي وصفائح السمن بالاضافة الى قطيع من الغنم ، وهي كلها مخصصة لطعامهم • ثم تحرك الزورق بهم نحو باخرة اسمها «فاسنا» كانت راسية في موضع بعيد في شط العرب • فصعدوا الى الباخرة حيث خصص لهم فيها جناح من الدرجة الاولى ، كما دفعت لكل واحد منهم نفقات جيب مقدارها ٥٠٠ روبية(٤٧) •

وقبل أن تبحر الباخرة بهم اقترب منها زورق بخاري آخر وهو يحمل أحمد الراوي الذي كان يومذاك مديرا لشرطة المنتفق ومعه عبدان من عبيد الملك هما سالم وبرجس • فصعد الراوي ومعه العبدان الى الباخرة، وقدم نفسه الى الخالصي قائلاً له : انه من بيت علم ودين وانه ابن العلامة السيد ابراهيم الراوي وقد انتدبه الملك لمرافقتهم كما بعث معه أثنين من عبيده للتدليل على تكريمه لهم ورعايته •

من الجدير بالذكر ان أحمد الراوي انما كان مرسلاً من الملك في البداية لجلب الأمير غازي وأمه واخواته من الحجاز ، ولكن الملك

---

(٤٦) نقلا عن مذكرات سلمان الصفواني المخطوطة •

(٤٧) سلمان آل ابراهيم الصفواني (محكوميتي) ــ صيدا ١٩٥٢ ــ ص٢٤ •

كلفه بمهمة اضافية حين علم انه سيركب في نفس الباخرة التي يركب فيها الخالصي • وقد حدثني الراوي فقال ان الملك أوصاه بالخالصي خيراً وأمره بان يوفر له جميع اسباب الراحة • والواقع ان الراوي لم يقصر بشيء في خدمة الخالصي ورعايته ، وقد بذل في سبيل ذلك أقصى جهده •

الخالصي حاجا :

حينما وصلت الباخرة «ڤاسنا» الى بومبي نقل منها الخالصي ورفاقه الى باخرة أخرى اكبر منها وهي من البواخر التي تحمل الركاب بين الهند ولندن • وقد خصص لهم فيها جناح من الدرجة الاولى كما دفع لكل واحد منهم نفقات جيب للمرة الثانية مقدارها ٤١ جنيها انكليزيا[٤٨] •

وبينما كانت الباخرة في طريقها الى عدن أرسل الشيخ خزعل أمير المحمرة الى الملك فيصل يطلب منه ان يكون الخالصي في ضيافته • فاجابه الملك معتذراً ، وهذا هو نص الرسالة التي أرسلها الملك الى خزعل :

الى عظمة السردار أقدس الشيخ خزعل خان حاكم المحمرة

أخي العزيز

تلقيت في أهنأ ساعة كتابكم الكريم الذى تنوهون به عن رغبتكم في ابقاء حضرة الشيخ مهدي في ضيافتكم فشكرت لعظمتكم شعوركم النبيل نحوي ونحو الشيخ المشار اليه الا انه ويااللاسف كان حضرة الشيخ قد سافر من بومبى متجها نحو الحج قبل وصول كتابكم الكريم • اني وأيم الله لشديد الأسف على ما حصل ولكنه مراد الله واقتضت المسؤولية المتوجهة علي للوطن ومنفعته أن يغادر حضرة الشيخ القطر في هذه الآونة بسبب معارضته الشديدة لانتخابات المجلس التأسيسي ومع ذلك فاني مقدر وجاهة دعوتكم وسأعمل كل ما يمكن لتحقيق رغبتكم بشأنه وفي الختام أرجوكم أن تثقوا بدوام مودتي واحترامي لشخصكم الكريم •

٢٨ تموز ١٩٢٣ أخوكم فيصل[٤٩]

---

(٤٨) المصدر السابق ـ ص٢٤ •

(٤٩) عن وثائق البلاط الملكي ـ تسلسل ٣ ، رقم ٦٩ •

وصلت الباخرة الى عدن في ١٦ تموز ، فنزلوا منها الى الميناء ، وأخذ أحمد الراوي يبحث لهم عن فندق اسلامي لينزلوا فيه فلم يجد، لان الفنادق التي في الميناء كانت كلها افرنجية • ولكن الحظ ساعدهم في الوقت المناسب اذ رآهم تاجر كبير من تجار عدن كان من سكنة الكاظمية سابقاً اسمه حسن علي ، فتعرف عليهم وأخذهم الى محله ووفر لهم أسباب الراحة •

وصلت الى الخالصي عن طريق حاكم عدن برقية من الحكومة الايرانية تدعوه هو وأولاده الى بلادها • غير ان الخالصي رفض الاستجابة للدعوة وقال ان موسم الحج قريب وانه يجب أن يذهب لاداء فريضة الحج اولاً ثم ينظر في أمر الدعوة بعدئذ •

كان من الصعب جداً في ذلك الوقت الحصول على وسيلة للوصول الى مكة قبل بدء الحج ، فلم يكن هناك سوى باخرة واحدة ذاهبة الى الحجاز وهي آخر بواخر الحجاج ، وكانت بالاضافة الى ذلك مزدحمة بركابها وليس فيها أي محل شاغر • ولكن حاكم عدن استطاع أن يهيء للخالصي ورفاقه محلاً في جناح قائد الباخرة ، وبذلك تم لهم الوصول الى جدة في الوقت المناسب •

عندما اقتربت الباخرة من جدة خرج لاستقبالها في زورق بخاري قائمقام جدة مع مدير الكمرك ووزير الصحة ، فاستقبلوا الخالصي بالنيابة عن الملك حسين وأعلنوا له أنه هو ورفاقه سيكونون في ضيافة الملك طيلة مكوثهم في الحجاز •

لم يمكث الخالصي في جدة سوى بضع ساعات ، فقد كان على عجل يريد الوصول الى مكة قبل فوات أوان الحج • فأعدت له ولرفاقه حمير حساوية نقلتهم الى مكة حيث وصلوها بعد رحلة متعبة استغرقت تسع ساعات • وعلى أثر خروج الخالصي من جدة وصلت الى القنصل

البريطاني في جدة برقية من السر برسي لورين في طهران هذا نصها :

« أرجو ان تجعلوا الشيخ مهدي الخالصي يرسل برقية الى رئيس الوزارة الايرانية يعرب فيها عن امتنانه للحكومة الايرانية لاهتمامها بأمره ويصرح فيها ان الحكومة البريطانية عرضت عليه أن ترسله الى ايران ولكنه فضل اغتنام الفرصة لاداء الحج • ان من المهم جداً أن تجعلوا الخالصي يرسل مثل هذه البرقية لكي يهدأ الهياج الذي يشتد هنا في أوساط رجال الدين » •

فأجاب القنصل على هذه البرقية قائلاً : انه يأسف لعدم امكانه أن يقوم بما طلب منه كما ينبغي ، لأن الخالصي لم يبق في جدة سوى ساعات قليلة حيث وصل اليها ضحى وغادرها عصرا ، ولهذا كان من المستحيل على القنصل زيارة الخالصي فكلف السيد أحمد الراوي بذلك ، وقد ذكر الراوي ان الخالصي كثير الريبة والتملص ولا يفعل شيئاً قبل استشارة القنصل الايراني ، وقد تمكن الراوي أخيراً أن يحصل من الخالصي على ورقة موقعة منه ولكنها فيما يبدو لا تنفع الحكومة البريطانية كثيرا • ثم يختم القنصل برقيته بمدح أحمد الراوي قائلاً انه يستحق التقدير على الجهد الذي بذله في الحصول على الورقة ، وهو لذلك يلفت نظر المندوب السامي ببغداد الى كفاءة هذا الرجل ويرجو منه اذا وجد ذلك مناسباً أن يلفت نظر الحكومة العراقية الى ذلك ايضا[٥٠] •

عند وصول الخالصي الى مكة لم يقم بزيارة الملك حسين كما تقضي به التقاليد الرسمية • فقد كان رأي الخالصي ان العلماء لايجوز لهم زيارة الملوك ، بل ان الملوك هم الذين يجب ان يقوموا بزيارة العلماء • ويقول الراوى انه استطاع فى منى ان يقنع الخالصي بحضور السرادق الملكي الذى اعد لاستعراض الجيش • وهناك التقى الخالصي بالملك وتعانقا ،

---

(٥٠) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (اف٠أو٠ ٣٧١ ـ ٩٠٤٧) •

وابدى الملك نحو الخالصي احتراما كبيرا وكان يخاطبه دائما بلقب « مولانا الشيخ » .

ويروي سلمان الصفواني قصة طريفة جرت في أثناء جلوس الخالصي ورفاقه الى جانب الملك حسين في السرادق الملكي ، وهي انهم شاهدوا الامير غازي يتطلع عليهم من وراء ستار وكان يومذاك صبيا في الحادية عشرة من عمره ، فناداه الملك باسم « عون » وقال له : « تعال ياعون سلم على اعمامك الذين استدعوا أباك الى العراق » . ثم أخذ الملك يتحدث اليهم عن السبب الذي جعله ينادي الامير غازي باسم « عون » ، فقال : « عندما كانت أمه حاملة به ظهر لي عمنا الحسين عليه السلام في المنام وقال انها ستلد غلاما ذكرا فأطلق عليه اسم عون . ولما ولد الغلام أرادت الاسرة ان تسميه باسم غازي لان والده كان حينذاك في العسير غازيا ، وأصرت على هذه التسمية، فقلت لهم : سموه ماتشاؤون ولكنني لا أسميه الا عون استجابة لطلب عمنا الحسين » .

الخالصي في قم :

بعد اتمام فريضة الحج وزيارة قبر النبي قرر الخالصي تلبية دعوة الحكومة الايرانية . فركب باخرة أقلته مع رفاقه الى بوشهر . وقد افترق عنهم سلمان الصفواني حيث ذهب الى البصرة ومنها الى بغداد في قصة طويلة لامجال هنا لذكرها .

عند وصول الخالصي الى بوشهر جرى له فيها استقبال عظيم جدا اذ خرج أهل البلدة كلهم لاستقباله ، كما جاءت وفود كثيرة من المناطق المجاورة لهذا الغرض . وقد حدثت في اثناء الاستقبال حادثة عجيبة يصعب تعليلها : هي أن رجلا انكليزيا كان يعمل في شركة النفط بعبادان اخترق جمهور المستقبلين وتعلق بسيارة الخالصي ثم أطلق عليه رصاصة من مسدسه أخطأته . وقد انثال الجمهور على الرجل يريدون قتله ، غير ان الجنود

أسرعوا لاستخلاصه منهم • وحين علم السر أرنولد ويلسون بالأمر ، وكان يومذاك مديرا لشركة النفط ، أرسل الى الخالصي يبدي أسفه لما جرى ويعتذر بان الرجل كان أثناء الحادث سكران لايعي وانه قد عزله من وظيفته واعاده الى لندن • ولما وصل الخبر الى طهران حدث هياج بين الناس وكادت تقع فتنة غير أن الحكومة عمدت الى تهدئة الناس حيث أكدت لهم بان الخالصي لم يصب بسوء وان الرجل قد غلبت على عقله الخمرة ولم يتعمد ذلك العمل ، فسكن الناس(٥١) •

وبعد أن مكث الخالصي في بوشهر قليلا غادرها الى شيراز ، ومنها الى أصفهان ، ومنها الى قم • وقد جرت له استقبالات عظيمة في جميع المدن والقرى التي مر بها • وكان وصوله الى قم في أواخر تشرين الاول ١٩٢٣، وفيها التقى بالمجتهدين الذين كانوا قد وصلوا اليها قبله •

ولم يكد الخالصي يستقر في قم حتى نشب الخلاف بينه وبين المجتهدين فقد كان هؤلاء يرغبون في العودة الى العراق ، وكانوا قد أرسلوا الى الملك فيصل رسولين منهم لمفاوضته في الامر هما المرزا مهدي الخراساني والشيخ جواد الجواهري • وحين علم الخالصي بارسال هذين الرسولين تأثر أشد التأثر ، وقيل ان عدة مشاجرات حصلت بينه وبين المجتهدين • وقد أشار الشيخ محمد الخالصي الى ذلك في مذكراته حيث قال مانصه :

« لما ورد أبي الى قم ورأى ما أصاب العلماء من الوهن والخوف بمراجعتهم لفيصل وعزمهم على العودة الى العراق لامهم أشد اللوم ، وبيّن لهم ان التكليف الشرعي والأمر الالهي لايساعدان على هذا العمل ، وانه يجب البقاء في ايران والسعي في اصلاحها ثم اصلاح العراق وسائر البلاد الاسلامية بواسطتها ، لأنها اذا صلحت تكون مركز الحركات الاصلاحية في جميع البلاد الاسلامية لموقعها الجغرافي واستقلالها التام ، وانه يحرم التسليم

(٥١) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة •

الى الانكليز وفيصلهم ولا سيما بعد ما أقدموا عليه من نفي العلماء جميعهم وعدم رعايتهم حرمة أحد منهم ، وبيّن لهم أن رضوخهم الى الضيم واستسلامهم الى الذل برجوعهم الى العراق يوجب يأس العالم الاسلامي واستسلام سائر الطبقات من المسلمين الى مثل ما استسلم اليه العلماء ، وفي هذا هلاك المسلمين عامة والعراق وايران خاصة ، وان ذلك من أشد المحرمات الشرعية ولايقدم على مثله أبيّ للضيم أو عاقل عرف قدر الحياة ومنزلتها . ولم يزل أبي ينصح العلماء ويرشدهم فلا ينفع ذلك حتى يئس منهم وقال : ليتكم لا جئتم الى ايران ولا اشتركتم معي ، وتركتموني وحدي والانكليز ، واليوم إذ صممتم على ما يخالف مصلحة الاسلام وأقدمتم على أمر أراه من أشد المحرمات فلابد لي من مفارقتكم والبقاء في ايران حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . وفارقهم مغضبا وقصد خراسان ، وبقي العلماء في قم يستعدون للرجوع الى العراق مستسلمين لأمر الانكليز راضين بالذل والهوان منتظرين لصدور الاذن من فيصل والانكليز بالرجوع الى العراق . وحسابهم في ذلك على ربهم وهو أعلم بحالهم »[٥٢] .

يعزو الشيخ محمد الخالصي رغبة المجتهدين في العودة الى العراق الى اسباب ثلاثة هي :

أولا : ان المجتهدين كانوا سيئي الظن بالايرانيين ، ولا سيما السيد أبو الحسن الاصفهاني إذ هو لم يكن يذكر ايران بخير .

ثانيا : ان المجتهدين كانوا يظنون ان الرئاسة لا تتم الا في النجف ، وقد علموا ان السيد محمد الفيروزآبادي بدأ يعمل للانفراد بالرئاسة فيها وصار يكتب الرسائل الى ايران ينتقص فيها من شأن المجتهدين المبعدين ويذكر ان الحوزة العلمية في النجف مشغولة بالبحث والدرس وان العلماء فيها على أحسن حال .

---

(٥٢) المصدر السابق .

ثالثا : ان الشيخ عبدالكريم اليزدي الذى كان كبير المجتهدين في قم لايرغب في بقاء المجتهدين فيها لانهم يزاحمونه في الرئاسة ، فهو كان يعارضهم من وراء ستار[٥٣] .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان السر برسي لورين أشار الى مثل هذا التعليل في رسالته الى اللورد كرزن المؤرخة في ٣٠ آب ١٩٢٣ حيث قال : ان المجهتدين يملكون في العراق دورا واملاكا واموالا خيرية للتوزيع كثيرة ، ولهذا فان من مصلحتهم العودة الى « مراتعهم » بأسرع ما يمكن ، يضاف الى ذلك ان كبار المجتهدين في ايران وان كانوا مضطرين للترحيب بالمجتهدين المنفيين واحترامهم غير أنهم يعتبرونهم متطفلين عليهم يزاحمونهم على مقاماتهم وامتيازاتهم[٥٤] .

الخالصي في خراسان :

قرر الخالصي الانفصال عن المجتهدين ، والذهاب الى خراسان . وفي منتصف كانون الاول ١٩٢٣ غادر قم . وعند وصوله الى بلدة الشاه عبد العظيم التى تقع الى الجنوب من طهران جاءت اليه الجماهير من طهران للسلام عليه وتقبيل يديه ، كما جاء رضا خان الذى كان قد تولى رئاسة الوزارة منذ عهد قريب واختلى به اكثر من ساعتين .

وصل الخالصي الى خراسان فى اوائل عام ١٩٢٤ وبعد ان أتم زيارة مرقد الرضا نوى الاستقرار في البلدة واستخار الله بالقرآن فخرج قوله تعالى « بلدة طيبة ورب غفور » . وبهذا عقد العزم على سكناها[٥٥] .

أول عمل قام به الخالصي في خراسان هو تأسيس جمعية سماها « جمعية استخلاص الحرمين وبين النهرين » . وفى ٢٦ كانون الثاني

---

(٥٣) نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه «بطل الاسلام» .
(٥٤) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (اف٠أو٠ ٣٧١ ـ ٩٠٤٨) .
(٥٥) نقلا عن كتاب الخالصي السابق .

أصدر بلاغا باللغة العربية دعا فيه المسلمين في جميع البلاد الاسلامية للانتساب الى الجمعية وحثهم على السعي لتطهير الاماكن المقدسة في الحجاز والعراق من لوث الكفار . وقد تُرجم هذا البلاغ الى اللغات الفارسية والتركية والبشتو والاوردو ، وطبع في كتاب صغير نشر بين الناس كما أرسل عن طريق التهريب الى الهند .

واهتم الخالصي بتقوية الحكومة الايرانية وتنمية قواتها المسلحة ليجعلها ركيزة للمسلمين في محاربة الكفار . فهو عندما كان في شيراز في طريقه الى قم أصدر فتواه بتفويض الحكومة الايرانية بجباية اموال الزكاة والخمس من المسلمين وانفاقها على القوات المسلحة المكلفة بحماية الثغور(٥٦) . ولما استقر في خراسان أصدر فتوى ثانية في انفاق واردات أوقاف الرضا لسد العجز المالي الذى كانت الحكومة الايرانية تعاني منه في تلك الايام(٥٧) .

لاحاجة بنا الى القول ان اصدار هاتين الفتويين خلق للخالصي خصوما كثيرين لاسيما بين رجال الدين . فقد كان هناك عدد كبير من رجال الدين وغيرهم ينتفعون من أموال الخمس والزكاة وواردات أوقاف الرضا ، ولم يهن عليهم ان تتصرف الحكومة بتلك الاموال دون ان يكون لهم نصيب منها . أضف الى ذلك ان كثيرا من رجال الدين ، ولا سيما في خراسان ، وجدوا في الخالصي منافسا لهم يهدد مقامهم الديني في أوساط العامة ويتفوق عليهم بانجذاب القلوب اليه .

أخذ خصوم الخالصي يتحينون الفرصة للكيد له والايقاع به . وقد واتتهم الفرصة في ٢٣ شباط ١٩٢٤ حين أصدر الخالصي فتوى بجعل عيد النيروز يوم حداد ديني . ففي ذلك اليوم أخرجت جريدة « شرقي ايران » التي كانت تصدر في خراسان عددا خاصا كتبت في مقدمته بحروف بارزة

---

(56) Report On The Administration of IRAQ - 1923 - 1924 - London 1925 - p. 13.

(٥٧) عبدالرزاق أمين (ذكرى الخالصي) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج ١ ص ١٣ .

هذه العبارة : « عيد قومي ـ أو يوم حداد اسلامي » • وذكرت الجريدة استفتاءا موجها الى الخالصي هو : هل يجوز الاحتفال بعيد النيروز القادم في الوقت الذى تكون فيه مكة والمدينة والنجف وكربلاء والكاظمية وسامراء تحت حكم اعداء الاسلام وتدوس تربتها المقدسة خيول الاجانب ؟ ثم اوردت الجريدة جواب الخالصي إذ يقول فيه : ان الاحتفال بعيد النيروز في هذه السنة يجب أن يكون كما لو كان قد حل في شهر محرم وفي يوم مقتل الامام الحسين وأخيه أبي الفضل العباس •

لايخفى ان عيد النيروز كان ولا يزال يعتبر عيدا قوميا عظيما في ايران، وهم يروون فيه الاحاديث والمأثورات الدينية • ومن غرائب الصدف ان كان النيروز في تلك السنة موافقا ليوم منتصف شعبان وهو اليوم الذى يحتفل فيه الشيعة بميلاد صاحب الزمان ، وكان كذلك موافقا لليوم الذى يحتفل فيه البهائيون بذكرى وفاة عباس افندى • فأخذ خصوم الخالصي يشيعون بين الناس أن الخالصي بهائي وأنه يريد أن يقلب العيد مأتما حزنا على عباس أفندى • وقد راجت هذه التهمة بين كثير من الناس خصوصا بين أولئك الذين كانوا يمقتون الخالصي لفتاويه الجريئة •

انشق أهل خراسان الى فريقين متعادين ، فريق مع الخالصي وآخر عليه • ومما زاد في العداء بين الفريقين ان القنصلية الروسية كانت تؤيد الخالصي بينما كانت القنصلية البريطانية تؤيد خصومه •

وعندما اقترب يوم النيروز في ٢١ آذار جاء الى الخالصي بعض مقلديه يطلبون منه الاجازة للاحتفال بميلاد صاحب الزمان ، فاجاز لهم ذلك على أن يكون الاحتفال في اليوم التالى ليوم النيروز • وقد اقيم الاحتفال في اليوم التالي فعلا حيث جرى مساء في مسجد گوهر شاه وحضره الحاكم العام وكبار الموظفين واعيان البلدة • وحينذاك جاءت مظاهرة معادية تحمل تماثيل عباس افندى وعلي محمد الباب فاقتربت من مكان الاحتفال وأخذت تحيي عيد النيروز وتشتم البهائية • ثم توجهت نحو بيت الخالصي وصارت

تهتف ضده ، وأطلقت بعض المفرقعات • وانطلقت بعدئذ تتجول في بعض شوارع البلدة ، واعتدت على افراد من البهائيين ، ثم تفرقت بعد ان اشعلت النار في التماثيل التى كانت تحملها •

لم يسكت أتباع الخالصي عن هذه الاهانة فاخرجوا فى اليوم التالى مظاهرة لتأييد الخالصي وأخذ المتظاهرون يهتفون ضد البهائية وضد فكرة الجمهورية ، ذلك لان الخالصي كان يومئذ يحارب فكرة الجمهورية التى كان بعض الايرانيين ينادون بها ، وكان يعدها مكيدة للقضاء على الاسلام • ومرت المظاهرة بصحن الرضا وبعض الشوارع الرئيسية ، واعتدت على بعض البهائيين على نحو ما فعلت المظاهرة السابقة • فاستدعيت قوة مــن الجيش لتفريق المظاهرة ، وحصل تدافع بالايدى بين الجنود والمتظاهرين، وأطلق الجنود النار فى الهواء• ثم تفرقت المظاهرة بعد ما تم القاء القبض على عدد كبير منهم ، ولكنهم افرج عنهم في اليوم التالي[٥٨] •

سئم الخالصي من خراسان وأهلها ، وقرر مغادرة البلدة الى طهران ، وصرح أن الخراسانيين أهانوه اكثر من اهانة الانكليز له • وحين شــاع خبر عزمه على الرحيل جاء اليه الكثير من الخراسانيين يعلنون ندمهم على ما فعلوا ويصرون عليه بالبقاء • وذكر التقرير البريطاني السري ان القنصل الروسي كان له دور فى اقناع الخالصي بالبقاء فى خراسان[٥٩] •

وفاة الخالصي :

توفي الشيخ مهدى الخالصي بالسكتة القلبية فى مساء ١١ رمضان ١٣٤٣ هـ ـ الموافق لـ ٥ نيسان ١٩٢٥ م • وقد جرى لجنازته في خراسان تشييع لم تشهد له البلدة مثيلا من قبل • وعطلت الاســواق والدوائــر الرسمية أعمالها في ذلك اليوم ، كما أعلنت **القنصليتان** الروسية والافغانية الحداد •

---

(٥٨) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (أف٠أو٠ ١٣٧١ ـ ١٠١٤٠)
(٥٩) المصدر السابق ٠

وفي مساء ٧ نيسان وصلت الى الكاظمية برقية من خراسـان تنبيء بوفاة الخالصي ، فارتجت البلدة لهذا النبأ وارتفع صوت البكاء والعويل فيها. وفي اليوم التالي اغلقت الاسواق حدادا وخرجت مواكب اللطم من المحلات المختلفة قاصدة مدرسة الخالصي وهي تنوح وتلطم الصدور . وجاء موكب الاعظمية لمشاركة أهل الكاظمية في العزاء ، وكانت هذه أهزوجتهم :

ياعمود الاسلام حامي الشريعة يتمت هاالمخلوق سنة وشيعة

كنت يومذاك صبيا في الثانية عشرة من عمري ومن طريف ما أذكره أن الناس حين كانوا يتحدثون عن نفي الخالصي وموته يشبهون ذلك بمقتل الحسين ، فكانوا يقولون ان يزيد بن معاوية هو اليوم جورج الخـامس ، وعبيد الله بن زياد هو فيصل ، وعمر بن سعد هو عبدالمحسن السعدون ، أما شمر بن ذي الجوشن فهو عبدالرزاق الفضلي. ونسي الناس أن يذكروا أنهم هم أنفسهم أهل الكوفة .

أقيمت مجالس الفاتحة على الخالصي في اكثر المدن العراقية وظلت تتوالى مدة طويلة ، كما أقيمت حفلات التأبين وكانت اولاهـا حفلة حزب النهضة التي جرت في مساء ٩ نيسان وشارك فيها عبدالرزاق الرويشدي وجميل صدقي الزهاوي ونعمان الاعظمي وعبودالكرخي ومحمد عبدالحسين وابراهيم حلمي العمر وحسون القزويني وخميس آل تويج. وفي مساء ٢٠ نيسان أقام نادي الاصلاح ببغداد حفلة ثانية شارك فيها جعفر الشبيبي ومهدي البصير وعبدالحسين الازري وقاسم العلوي ومعروف الرصافي .

أصبحت مدرسة الخالصي في الكاظمية كأنها سوق عكاظ لكثرة الشعراء الذين أخذوا يتوافدون عليها لالقاء قصائدهم من على منبرها . ولم تتخذ الحكومة أي اجراء لمنع الشعراء من القاء قصائدهم هناك ، بل تركتهم يفعلون مايشاؤون كأنها أدركت ان ليس هناك اي خطر منهم .

والملاحظ ان الشعراء لم يخرجوا في نظمهم عن الاطار التقليدي الذي اعتادوا عليه في الرثاء منذ قديم الزمان . فقد كانت قصائدهم كلها تقريبا متشابهة في معانيها تدور حول عظمة الفقيد ومناقبه ، وكيف انهد ركن الدين

واظلمت الدنيا بموته ، وكيف أصبح الناس من بعده حيارى لايدرون اين يتوجهون ، وغير ذلك من المفاهيم التى تتكرر عند موت أي شخص عظيم• ولكن الفرق بين شاعر وآخر هو في صياغة الالفاظ الرنانة التى يعبرون بها عن تلك المفاهيم والمبالغات التى يصورونها بها •

وقد انشغل الادباء والمتعلمين فى تلك الايام بالمفاضلة بين القصائد ، ونسوا الهدف الذى مات الخالصي من أجله ، فاذا أجتمعوا كان معظم حديثهم يدور حول الشعراء الذين ألقوا قصائدهم في ذلك اليوم وماهى الابيات التى نالت استحسانا أكثر ، وربما تجادلوا فى ذلك واختلفوا وارتفعت أصواتهم على نحو ما كان يجرى في العصور « الذهبية » الاولى •

ومما اذكره في هذا الصدد ان شاعرا نجفيا اسمه السيد صادق الهندى ألقى قصيدة في رثاء الخالصيّ ظلت مدة طويلة محور حديث الناس واعجابهم • وفيما يلي بعض أبيات نموذجية منها ليطلع القارىء بها على المستوى الفكرى الذى كان الناس يعيشون فيه حينذاك :

هل أنت يا أعجوبة الاكوان ملك تجلبب صورة الانسان
أم أنت مثلك الجليل لكي ترى فيك الانام حقيقة الايمان
أم هل لهذا العصر غيرك آخر قد حاز فى الدارين سبق رهان
أبقيت سيرتك الحميدة فى الورى يتلونها كتلاوة القرآن
يانوح هذا العصر كيف تركتنا من لجة الأخطار في طوفان
وخليل هذا القطر نمرود الأسى أصلى القلوب عليك بالنيران
وكليم هذا المصر الا انه للصبر وجّه آية الثعبان
أحييت ميت شعبنا فكأنما عيسى أعيد بهذه الازمان[٦٠]

الواقع أن هذا ديدن الشعر العربي منذ عصوره الاولى ، إذ كان الناس ينشغلون به عما حولهم من المشاكل والمآسي ، ولهذا كان السلاطين يشجعونه ويجزلون له العطاء ، فقد وجدوا فيه خير وسيلة يلهون به الشعب ويخدرونه • وربما صح قول من قال : « الشعر أفيون العرب » •

(٦٠) عبدالرزاق أمين (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥ •

الفصل السادس

الـوزارة العسـكرية

كان نجاح عبدالمحسن السعدون في نفي الخالصي وتسفير المجتهدين قد رفع من مكانته عند الانكليز وجعله في نظرهم الرجـل الذى يمكن الاعتماد عليه في تمشية سياستهم من جهة وفي مقاومة مناورات الملك فيصل من الجهة الاخرى • وقد أحس الملك بالخطر الناجم من ذلك وبدأ يشعر بالغيرة من ارتفاع مكانة السعدون لدى الانكليز •

ومما زاد في قلق الملك ان المندوب السامى الجديد السـر هنري دوبس كان شديد الاعجاب بالسعدون ويرى فيه الرجل الذى يتمثل فيه نبل البداوة وبساطتها[1] • ولهذا أخذ الملك وأعوانه يبثون الاشاعات السيئـة ضد السعدون ، ويحاولون الانتقاص من شأنه في الاوساط الوطنية ويخلقون له المصاعب[2] •

ظل الملك طيلة صيف ١٩٢٣ يتحين الفرص لاسقاط وزارة السعدون• وفي أواخر تشرين الاول أثار أزمة وزارية بغية اسقاطها • كتبت المس بيل في ٣١ منه تقول : « ان الملك أثار في هذا اليوم أزمة وزارية كما هي عادته بين حين وآخر • ان الوزارة بوجه عام من أفضل ما يمكن الحصول عليه ، أما شكاوي الملك منها فهي في الغالب غير معقولة ••• »[3]

نشأت الازمة الوزارية من كتاب أرسله رستم حيدر باسم الملك الى مجلس الوزراء يقول فيه : ان الوزارة السعدونية قد تعهدت في بداية أمرها

---

(١) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) ـ بغداد ١٩٥٥ ـ ج١، ص ٤٩ ـ ٥٠ •

(٢) خيري العمري (حكايات سياسـية) ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ١٩٩ •

(3) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 319.

بأنها ستعالج الضائقة الاقتصادية المسيطرة على البلاد ولكنها لم تفعل شيئاً سوى زيادة عبء الضرائب على عاتق الامة ، ولهذا فان جلالة الملك يطلب من الوزارة موافاته بأسرع ما يمكن من الوقت بالايضاح عما فكرت به أو قامت به من الاعمال لدرء خطر الحالة الاقتصادية . وقد امتعض السعدون من هذا الكتاب واعتبره لوما من الملك على تقصير الوزارة في القيام بواجباتها ، فأرسل جوابا الى الملك يقول فيه : اذا كان جلالة الملك يعتبر الوزارة مقصرة في القيام بواجباتها فهي اذن لايسعها سوى تقديم استقالتها ، اما اذا كان الملك يريد الاستفهام حقا عما قامت به الوزارة لحل الازمة الاقتصادية فنسترحم من جلالته توقيف الكتاب المذكور وارسال كتاب آخر بدلا عنه . وعند وصول هذا الجواب الى الملك تراجع وأرسل الى السعدون يقول له معتذرا بأنه لم يقصد اللوم على تقصير الوزارة في اعمالها كما تبادر الى ذهن فخامتكم بل أراد لفت نظرها الى شدة الضائقة الاقتصادية ووجوب مضاعفة الجهد في سبيل معالجتها[٤] .

لم يكد يمر على انتهاء الازمة الوزارية سوى اسبوعين حتى عادت من جديد ، وأخذ الملك يتصيد الاسباب لاسقاط الوزارة . تقول المس بيل في ١٤ تشرين الثاني : « في يوم الاثنين ذهبت لرؤية لعبة البولو للجيش العربي ، وكان الملك هناك فركبت في سيارته وحاولت اقناعه بعدم اسقاط الوزارة دون جدوى »[٥] .

اضطر السعدون الى تقديم استقالته في ١٥ تشرين الثاني . وأسرع الملك الى تكليف أحد رجاله الذين يعتمد عليهم – وهو جعفر العسكرى – بتشكيل وزارة جديدة . وقد كان العسكرى يومذاك متصرفا في الموصل ولم يكن قد مضى على تعيينه هناك سوى مدة قصيرة ، فوصلت اليه برقية من الملك تأمره بالعودة الى بغداد حالا .

---

(٤) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) – صيدا ١٩٦٥ – ج١ ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(5) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 320.

تشكلت الوزارة العسكرية في ٢٦ تشرين الثاني ، فكان فيها علي جودت الايوبي وزيرا للداخلية ، ونوري السعيد وزيرا للدفاع ، وعبدالمحسن شلاش وزيرا للمالية ، وأحمد الفخري وزيرا للعدلية ، وصبيح نشأت وزيرا للمواصلات والاشغال • وفي نفس اليوم صدرت الارادة الملكية باسناد وزارة الاوقاف الى صالح باش اعيان • ولكن وزارة المعارف بقيت شاغرة • فقد كانت النية متجهة نحو اسنادها الى رجل شيعي لكي يكون في الوزارة وزيران شيعيان بدلا من واحد • وبدأ البحث عن هذا الرجل •

يروي ساطع الحصري : ان الآراء كانت متضاربة حول الرجل الذى يتولى وزارة المعارف ، فاقترح علي جودت الايوبي اسم رجل من كربلاء يعرفه منذ كان فيها متصرفا هو محمد حسن أبو المحاسن ، ووصفه بأنه « فقير » أي انه مطواع لايميل الى مخالفة زملائه • وفي ٣ كانون الاول صدرت الارادة الملكية بتعيين أبو المحاسن وزيرا للمعارف • وقد تبين فيما بعد ان هذا الرجل ليس « فقيرا » كما كانوا يتصورنه بل كان من أكثر الوزراء اعتراضا ومخالفة(٦) •

يقول التقرير البريطاني المقدم الى عصبة الامم عن الوزارة العسكرية مانصه : « ان تشكيل الوزارة الجديدة أعطى للطائفة الشيعية فرصة للمصالحة كانت تتوق اليها سرا • وعندما اتضح ان الوزارة تضم وزيرين شيعيين ، أحدهما لوزارة المالية ، ذهب وفد من رؤساء الشيعة لمقابلة الملك وقدموا له بيانا أعربوا فيه عن يقينهم بأن الشيعة كانوا على خطأ في معارضة السياسة البريطانية وأنهم مصممون على تغيير جذري لموقفهم منها »(٧) •

---

(٦) ساطع الحصري (مذكراتي في العراق) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ج١ ص ٣٧١ ـ ٣٨٤ •

(7) Report on The Administration of IRAQ - 1923 - 1924 - p. 17.

لاحاجة بنا الى القول ان هذا الوفد الذى أشار اليه التقرير البريطاني لم يكن يمثل الشيعة حقا ، بل كان مؤلفا من اولئك الوجهاء والرؤساء الذين اعتادوا على مقابلة الحكام وعلى التفوه بما يرغب فيه الحكام من معسول الكلام • وهم كانوا كثيرين في تلك الايام ـ ومازالوا !

المفاوضة مع المجتهدين :

كان السعدون ـ كما رأينا ـ شديد التصلب ضد المجتهدين لا يريد أن يتسامح في أمر عودتهم من ايران ، وكان الانكليز يؤيدونه فى ذلك ، بينما كان الملك على العكس منهم يريد الاتصال بالمجتهدين ومفاوضتهم من أجل اعادتهم ، ولعله انما أراد ذلك نكاية بالسعدون وتحديا له •

كتب السر برسي لورين من طهران في برقية منه الى لندن بتاريخ ٣٠ آب ١٩٢٣ يقول مانصه :

« سمعت الآن من مصادر ايرانية موثوقة ان قضية المجتهدين من المحتمل ان تسوى قريبا عن طريق محادثة مباشرة بينهم وبين رسولين أرسلهما الملك اليهم في قم •• وقد حاول بعض الايرانيين بصورة غير مباشرة جرّي للاشتراك في المحادثة حول الشروط التى يمكن ان تتم بها عودة المجتهدين ، ولكني رفضت ان أفعل شيئا في هذا الخصوص وقلت للشخص الذى جاء لمقابلتي اني لا أملك أي تخويل من الحكومة العراقية التي هي المسؤولة الرئيسة في هذا الامر للاشتراك في اية مفاوضة »(٨)•

وفى اواسط تشرين الثاني ـ أي قبيل سقوط الوزارة السعدونية ـ وقعت في يد الانكليز رسائل كان المجتهدون قد أرسلوها الى وكلائهم فى العراق يقولون فيها ان الملك فيصل وعدهم بأمور هى : (١) اسقاط الوزارة السعدونية ، (٢) تشكيل وزارة شيعية برئاسة رجل شيعي ، (٣) اعادة جميع المجتهدين المنفيين الى العراق ، (٤) رفض المعاهدة

---

(٨) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ٩٠٤٨)٠

وقال المجتهدون فى رسائلهم انهم بالرغم من عدم ثقتهم بوعود الملك قد ارسلوا طي رسائلهم فتوى موقعة من قبلهم ومختومة يعلنون فيها رفـــع التحريم عن الانتخاب فى حالة تحقيق الملك لوعوده • وعندما اطلع السر هنرى دوبس على هذه الرسائل ذهب الى الملك وقال له : ان لعبته مـــع المجتهدين لاتخلو من خطر وقد يستعملونها سلاحا ضده • وتقول المس بيل : ان الملك أخذ الامر بمرح وقال لدوبس ان المجتهدين قد بالغوا فى مطاليبهم وان من الممكن تركهم الآن يطهون حساءهم ببطء وانه سيقطع مفاوضاته معهم[9] •

قطع الملك مفاوضاته مع المجتهدين حسبما تعهد به لدوبس ، غير أنه أخذ يحرك على عادته بعض الجهات الوطنية للمطالبة باعادة المجتهدين لكي يتخذ ذلك ذريعة لفتح الموضوع من جديد مع دوبس • ففي ٦ كانون الاول ذكرت جريدة «الاستقلال» تقول ان فريقا من منوري العاصمـــة ومفكريها راجعوها فأبدوا شكرهم للحكومة الحاضرة لعزمها على اعـادة الشيخ مهدى الخالصي وزملائه المجتهدين ، كما أظهروا استبشارهم بحسن نوايا الحكومة ، وهم ينتظرون تأييد أقوالها بالافعال • وفي ١٠ منه عادت الجريدة فذكرت ان عدة رسائل وردتها من الحلة والنجف وكربلاء وفيها يشكر اصحابها الوزارة الجديدة على عزمها على اعادة حجة الاســـلام الخالصي وبقية العلماء الاعلام ، وهم يأملون أن تتحقق هذه الآمال •

وعلى اى حال فقد استطاع الملك فى اوائل شباط ١٩٢٤ أن يتفاهم مع دوبس حول اعادة المجتهدين على اساس ان الانتخابات اوشكت على الانتهاء ولم يبق هناك أي سبب للتصلب ضد عودتهم • وقد ورد في التقرير البريطانى المقدم الى عصبة الامم حول هذا الموضوع ما نصه :

« تقرر في شباط ١٩٢٤ بعد موافقة المندوب السامى ان ليس هناك

---

(9) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 321 .

ما يمنع عودة المجتهدين ، ماعدا الشيخ مهدى ، بشرط أن يتعهدوا للملك بأنهم سوف يتجنبون التدخل في السياسة . فان نفيهم وان كان باختيارهم قد أدى الى حصول نفور شديد بين الحكومتين الايرانية والعراقية ، وان سيل الطلبة والزوار من ايران قد توقف ، فأنتج ذلك ضائقة مالية في العتبات المقدسة ، وفي جهاز السكك الحديدية أيضا . وهناك علاوة على ذلك شعور بأن قدرة المجتهدين على الشر قد اقتلعت من جذورها من جراء عملهم الاحمق في الاحتجاج وما تلاه من ندم ... ان الحكومة العراقية تستحق التهنئة على موقفها الصلب الذى انتهى بانتصارها على رجال الدين الايرانيين المشاغبين ...»(١٠) .

اجتمع الملك مع دوبس في ٩ شباط للتفاهم حول الخطة التى يجب اتباعها لاعادة المجتهدين . فقد كان دوبس يخشى ان يعود المجتهدون الى العراق ، او يكونوا عند الحدود ، قبل افتتاح المجلس التأسيسي الذى كان مقررا في أواسط شهر آذار . ولهذا حصل الاتفاق بينهما على ان يرسل الملك الى المجتهدين يخبرهم بأنهم يجب ان لايغادروا قم قبل وصول رسالة من الملك تأذن لهم بدخول العراق ، أما اذا وصلوا الى الحدود قبل وصول الاذن لهم فسوف ترفض الحكومة العراقية دخولهم . وقد قدّر الملك مع دوبس طول المدة التى يستغرقها وصول الرسالة وعودة جوابها ، بالاضافة الى تدقيق التعهد الذى يقدمه المجتهدون ، فوجدوا ان ذلك لايقل عن ستة أسابيع وهى مدة كافية لان يكون المجلس التأسيسى قد تم افتتاحه قبل وصولهم(١١) .

وبعد ان تم الاتفاق بين الملك والمندوب السامى على ذلك حصل ما ادى الى عرقلة المفاوضات مع المجتهدين ، فقد كان المجتهدون يريدون ان

---

(10) Report on The Administration of IRAQ - 1923 - 1924 - p. 13.

(١١) محمد مظفر الأدهمي (المجلس التأسيسي العراقي) ـ رسالة جامعية غير مطبوعة ـ ج٢ ص ٥٦١ .

يعود الخالصي معهم بينما كان الملك والمندوب السامي يخشيان من عودة الخالصي ويصران على عدم السماح بها على اى حال • وقد ورد في تقرير للاستخبارات العراقية مؤرخ في ٥ آذار مانصه :

« ان الاتصال مع المجتهدين في ايران حول الشروط التى يمكنهم العودة بها الى العراق ••• قد أصابه التأخر • وقد وصلت منهم رسائل يحتجون فيها حيث يقولون ان من العار عليهم أن يعودوا من غير ان يكون الشيخ الخالصى معهم ، وقد خوطب الملك في هذا الموضوع ولكنه ظل ثابتا • وأرسلت برقية الى المجتهدين في هذا الشأن كما ان الشيخ جواد الجواهرى كتب الى المرزا حسين النايينى يرجو منه ومن زملائه أن يغتنموا هذه الفرصة والا فانهم سيفقدون مكانتهم فى العراق تلك المكانة التى أخذ مجتهدون آخرون يستحوذون عليها سريعا • ومن ناحية أخرى كان آل الخالصي يضغطون على المجتهدين لاقناعهم بأن لا يعودوا بدون الشيخ مهدى • ويقول الملك ان رضا خان أبرق اليه برغبته فى عودة المجتهدين بالشروط المعروضة عليهم ، وان الشيخ جواد والمرزا مهدي سيغادران بغداد الى قم في ١ آذار يصحبهما السيد باقر واحد العين مندوبا عن الملك • وسيحمل هذا معه مسودة التعهد التى يجب أن يوقع عليها المجتهدون ، ثم يأتي بها معه أو يرسلها الى بغداد عندما يعين الملك اليوم الذي يعود المجتهدون فيه الى العراق »[١٢] •

وفي ١ آذار سافر الى ايران الشيخ جواد الجواهري والمرزا مهدي الخراساني ومعهما السيد باقر واحد العين[١٣] • وقد بذل هؤلاء جهدا كبيرا في اقناع المجتهدين بالعودة الى العراق بدون الخالصى ونجحوا في ذلك • والمظنون ان رضا خان كان يؤيدهم فى مسعاهم ، فقد اشارت إحدى الوثائق البريطانية السرية الى ان رضا خان كان ينصح المجتهدين

---

(١٢) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ــ رقم (أف• آو• ٣٧١ ــ ١٠١٤٧)•

(١٣) ان السيد باقر هذا هو الذى عرف فيما بعد بلقب « سركشيك » • وكان قبلئذ يلقب باللقب المذكور في الوثائق ، أي « واحد العين » ، وهو لقب والده •

بالعودة دون أن يهتموا بالخالصي وكان يقول لهم ان الخالصي رجـــل سخيف خالي من التعقل وأنه آلة بيد ابنه الشيخ محمد(١٤) •

عودة المجتهدين :

كتب المجتهدون تعهدا يذكرون فيه أنهم لن يتدخلوا في السياسـة العراقية بعد الآن • وقد عثرت في وثائق البلاط الملكي على اربع رسائل موجهة الى الملك وهي بتوقيع كل من السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرزا حسين النايني والسيد عبدالحسين الطباطبائي والسيد حسن الطباطبائي • وهي كلها بنص واحد تقريبا ، والمظنون انها تضمنت التعهد المطلوب منهم • نكتفي هنا بنقل رسالة الاصفهاني فقط ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيـم

حضرة جلالة ملك العراق أيد الله ملكه وسلطانه

بعد السلام عليكم والسؤال عن أحوالكم ورحمة الله وبركاته نعرض ان كتابكم المؤرخ ٢٦ رجب المرسل مع حجتي الاسلام جناب الشيخ جواد صاحب الجواهر وجناب ميرزا مهدى آية الله زاده دامت بركاتهما أخذته بكمال الاحترام وكما ذكرتموه فيه وأودعتموه في مطاويه صار معلوم لدينا ولقد أفادا بما دار بينكم من الشؤون وبيان الاسباب الموجبة الى تأخـير حركتنا وطلب جلالتكم المؤازرة وكذلك المحروس السيد باقر سركشيك أقام بواجبه وبلغ خطاباته الشفاهية هذا وان كنا قد أخذنا على عاتقنا عدم المداخلة في الامور السياسية والاعتزال عن كلما يطلبه العراقيون ولسنـا بمسؤولين عن ذلك ، وانما المسؤل عن مقتضيات الشعب وسياسته جلالتكم لكن المؤازرة للملوكية الهاشمية حسبما تقتضيه الديانة الاسلامية ذلك من مبدئنا الاسلامي وأما ما أمرتم من توحيد الكلمة وتوطيد عرى الصداقة بين

---

(١٤) عن دائرة الوثائق العامة بلندن ـ رقم (آف• آو• ٣٧١ ـ ١٠١٤٧) •

ايران والعراق فذلك من وظائفنا الدينية وحينما دخلنا ايران لن نزل نبذل الجهد في ذلك وسوف تظهر نتيجة اعمالنا المبرورة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

٢١ شعبان سنة ١٣٤٢ — الاحقر أبو الحسن الموسوى الاصفهاني(١٥)

(المهر)

وفي ٥ نيسان كتب الشيخ جواد الجواهري والمرزا مهدى الخراساني رسالة الى الملك يعلنان فيها نجاح مهمتهما • وهذا نصها :

بسم الله تعـــالى

حضرة جلالة ملك العراق أيده الله تعالى وخلد ملكه وسلطانه •

بعد السلام عليكم والسؤال عن أحوالكم ورحمة الله وبركاته نعرض أنا في كمال الشوق الى تلك الشمائل الحسينية حفظها وأيدها رب البرية • ثم نعرض ان الاخ السيد باقر بعد الوصول الى قم مضى الى طهران وقابل حضرة رئيس الوزراء دام اقباله وأفاد في البلوغ وأجاد في المحاورة وعقـد المودة بين الحكومة العربية والايرانية وكثير أظهر رئيس الوزراء الامتنان من جلالتكم واحترم السيد باقر من أجل نسبته الى جلالتكم ومن أجـــل لياقته وحسن تأديبه لما أمرتموه به ولازم يعرض لجلالتكم التفصيل • ثم سيدى نعرض ابلاغ سلام الآيتين السيد والميرزا دام ظلهما لمقامكم السامى وتفصيل جوابهما بعد أن عرضنا لخدمتهما ان صاحب الجلالة يقول اكبر هدية ارغب اليها اعتراف حكومة ايران برسمية الحكومة العربية قالا دام ظلهما اننا قبل مجيئكما تكلمنا بهذا المطلب وكان النبأ بعد انعقاد المجلس يعطى القرار بذلك وقد أوعز الى اغلب الوكلاء بذلك ••• وحيث اننـــا نفتخر بالحكومة العربية ولا سيما ملكها المؤيد من الدوحة الهاشمية ونرى ان العراق وطننا وحكومته حكومتنا وملكها ملكنا نأمل الزيادة في الحكومة

---

(١٥) عن وثائق البلاط الملكي — رقم التسلسل ٣ ، رقم الوثيقة ٥٩ •

العراقية وبذلك ترتفع رؤوسنا وجلالتكم سيد العارفين ثم ان مدير الأمن العام الايراني الذي هو الآن بخدمة العلماء العظام ارسل لمقابلتكم وهـو يحمل الوداد من قبل رئيس الحكومة الايرانية لجلالتكم ويكون مع العلماء الى النجف الاشرف وانشاء الله تعالى نتوفق للتشرف بخدمتكم ونعـرض التفاصيل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

٢٩ شعبان ١٣٤٣

الداعي مهدي الخراساني (الخاتم)

جواد نجل المرحوم صاحب الجواهر قدس سره[١٦] (الخاتم)

وفي صباح ٢١ نيسان وصل المجتهدون الى خانقين يرافقهم السردار رفعت مدير الأمن العام الايراني • وكانت البلدة قد استعدت لاستقبالهم فزينت شوارعها بالاعلام العربية وسعف النخيل • وكان في استقبالهـم الشيخ محمد حسن أبو المحاسن وزير المعارف، وتحسين العسكري نيابة عن وزير الداخلية ، وحسام الدين جمعة ممثلا عن الشرطة لمرافقة السردار رفعت • وبات المجتهدون تلك الليلة في خانقين ثم ركبوا القطار في الصباح التالي متوجهين الى بغداد • وحينما وصلوا الى محطة بعقوبة نزلوا للصلاة وكان في استقبالهم هناك عبدالمحسن شلاش وزير المالية والشيخ جـواد الشبيبي وآخرون •

اجتمع عند محطة القطار في باب المعظم ببغداد جمهور كبير مـن أهالي بغداد والكاظمية ووفود من الالوية • وقد نصبت الخيام هنالـك استعدادا لاستقبال المجتهدين عند وصولهم بالقطار • وحين اقترب القطار من الجمهور ارتفعت اصواتهم بالتهليل والتكبير وأخذوا يتطلعون الى القطار توقعا لوقوفه • ولكنهم فوجئوا بأن القطار لم يتوقف بل ظل مستمرا في

---

(١٦) عن وثائق البلاط الملكي ـ رقم التسلسل ٣ ، رقم الوثيقة ٥٥ •

سيره • ولم يتوقف القطار الا عند شاطىء النهر على مقربة من بيت رئيس الوزراء ، وكان هناك الوزراء في استقباله كما كان مندوب الملك صفوت العوا وغيرهم[١٧] • ومن هناك عبر القطار نهر دجلة بواسطة « العبارة » ثم سار بهم الى كربلاء •••

عودة المحمدين :

كان السيد محمد الصدر والشيخ محمد الخالصي قد نفيا الى ايران في آب ١٩٢٢ على نحو ماذكرناه في الفصل الرابع • والمعروف عن هذين الرجلين انهما غير متحابين ، ولهذا لم يكونا على وفاق عند وصولهما الى طهران ، وقد جرت بينهما أمور ليس هنا مجال ذكرها •

كان الشيخ محمد الخالصي فى طهران كثير الدأب على محاربة الانكليز ، وقيل انه اتصل بالبلاشفة للتعاون معهم على ذلك • أما السيد محمد الصدر فتشير بعض القرائن الى أنه أخذ يتصل بالملك فيصل بغية تسهيل عودته الى العراق •

أخذت جريدة « الاستقلال » منذ أواخر ١٩٢٣ تشير الى ان السيد محمد الصدر قد تردت صحته في طهران لعدم ملائمة المناخ له • وفي ٣٠ كانون الاول ١٩٢٣ ذكرت الجريدة ان وفدا من شبيبة العاصمة قابلوا الملك وعرضوا عليه حالة الصدر الصحية ، وان الملك أبدى أسفه وأعلن عن رغبته في عودة الصدر الى العراق ولكنه قال ان الصدر تماهل في اعطاء التعهد الذى يؤخذ عادة من المنفيين ، وهذا هو سبب تأخر عودته ، ولولا ذلك لعاد منذ مدة • وفى ٩ آذار ١٩٢٤ نشرت الجريدة خبرا تحت عنوان : « قدوم زعيم خطير ـ السيد محمد صدر الدين » قالت فيه : « امتلأت الافئدة سرورا وعلا البشر وجوه الوطنيين عامة ، واهالى الكاظمية خاصة ، حينما ذاع خبر عودة الزعيم الكبير من ايران الى وطنه العراق » • وفي ٢٦ منه نشرت الجريدة تقول : ان السيد محمد الصدر قد تضررت

(١٧) جريدة « العالم العربى » ـ في عددها الصادر في ٢٤ نيسان ١٩٢٤•

صحته كثيرا فى الشتاء المنصرم ، وان الاطباء في طهران حظروا عليه البقاء فيها ، ولهذا فقد صمم على العودة الى العراق نهائيا ، وان الحكومة العراقية لاتعارض في ذلك فالبشرى للوطنيين ولوالده الجليل الامام العلامة .

وفى ٢٩ أيار ذكرت جريدة « العالم العربى » ان السيد محمد الصدر سوف يصل الى بغداد في صباح الغد ، وان لجنة قد تشكلت لاستقباله . ونشرت الجريدة منهاج الاستقبال الذى وضعته اللجنة حيث تقرر أن يذهب محمد حسن حبة الى خانقين لاستقباله باسم اللجنة ، وان يذهب عبدالحميد كنة الى بعقوبة ، وأن يصطف تلاميذ المدارس الاهلية لتحيته عند وصوله الى محطة باب المعظم ، ويلقي عبدالمجيد زيدان بين يديه كلمة ترحيبية بالنيابة عن اللجنة .

وصل الصدر الى بغداد في الوقت المحدد وجرى له في المحطة استقبال كبير . ولما وصل الى داره في الكاظمية غصت الدار بالمهنئين ، وألقى بعض الشعراء قصائد في مدحه والترحيب به كان من بينها قصيدة الشيخ راضي آل ياسين ، وهذا مطلعها :

أزعيم العراق طال الفراق ولكم مل من نواك العراق

لوحظ ان الصدر اخذ بعد عودته الى العراق يسلك طريقاً في السياسة يختلف عن الطريق الذي كان يسلكه من قبل . انه طريق «الايجاب» بدلاً من طريق «السلب» — على حد تعبير كاتب سيرته عباس علي . فقد قال الكاتب في ذلك ما نصه : « عاد سماحته بعد المدة التي قضاها في طهران ليتبوأ مكانه في قيادة الجبهة الوطنية بمواهبه الملهمة وعقله النفاذ ، وكان في هذه المرحلة أقرب الى سياسة الايجاب منه الى سياسة السلب لأنه رآها بعدئذ أنجح في الوصول الى ما يريد لهذا الوطن من العزة والسيادة والاستقلال »(١٨) .

وعلى أي حال فقد قوبل هذا التحول في سلوك الصدر بامتعاض وانتقاد شديد من قبل الكثيرين في الكاظمية وغيرها . انهم اعتادوا ان يجعلوا

---

(١٨) عباس علي (زعيم الثورة العراقية) — بغداد ١٩٥٠ — ص ١٦٨ .

المعارضة مرادفة للوطنية ، فالمعارض هو الوطني عندهم واذا ترك المعارضة أصبح في نظرهم خائناً •

تلك هي قصة السيد محمد الصدر ، أما الشيخ محمد الخالصي فله قصة أخرى • فهو قد عاد الى الكاظمية فجأة في مساء ١٦ نيسان ١٩٣٢ ، والظاهر انه دخل العراق على غفلة من الحكومة • ولم يكد ينتشر خبر وصوله في الكاظمية في صباح اليوم التالي حتى صار الناس يتهافتون على مدرسة الخالصي للسلام عليه ، فكانوا يمرون عليه صفوفاً ، وهو واقف يستقبلهم عند باب الفناء الداخلي للمدرسة ، فيقبل كل واحد منهم يده ويمشي ليفسح المجال للذي يليه •

ولكن الشيخ محمد لم يبق في الكاظمية سوى ثلاثة أيام • ففي ظهر ١٩ نيسان ، عندما كان عائداً الى بيته بعد اداء صلاة الظهر في الجامع الصفوي ، اعترض طريقه مفوض من الشرطة وقال له ان وزير الداخلية ومدير الشرطة ومتصرف بغداد يريدون مقابلته الآن في بغداد للمداولة معه في أمر مهم • فطلب الشيخ من المفوض مهلة صغيرة لكي يتناول طعام الغداء في بيته ، فسمح المفوض له بذلك ، ولكنه عندما وجده قد تأخر في البيت دخل عليه وطلب منه الاسراع في الخروج معه • ثم سار به الى مركز السراي ببغداد • وقد ذهب وراءه جمع من أهل الكاظمية كما انضم اليهم في بغداد جمع آخر من البغداديين • وبعد اجراء التحقيق معه أركب سيارة برفقة مفوض واثنين من أفراد الشرطة المسلحين ، وسارت به السيارة باتجاه بعقوبة فخانقين • وقد حاول بعض الأهالي التجمهر لمنع السيارة من الحركة ، فقاومتهم الشرطة ، وصاح بهم أحد الضباط منتهراً ثم أخذ يضربهم بالعصا ، فتفرقوا •(١٩)

وعندما وصل الشيخ محمد الى الحدود الايرانية أعيد اليه جواز سفره ومعه كتاب رسمي صادر من وزارة الداخلية هذا نصه : « بما أن الشخص الاجنبي المسمى الشيخ محمد بن الشيخ مهدي الخالصي والمثبتة صفاته أدناه ينطبق عليه منطوق الفقرة (ج) من المادة الحادية عشرة من

---

(١٩) نقلا عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة •

قانون الاقامة العراقي لسنة ١٩٢٣ ، وبما أنه لا يُرغب في بقاء الشخص المذكور في القطر العراقي ، فعليه نحن وزير الداخلية عملاً بالصلاحية التي تخولنا اياها المادة المذكورة من قانون الاقامة العراقي لسنة ١٩٢٣ نأمر بابعاد الشخص المذكور الى ما وراء الحدود العراقية وان يبقى خارجا عنها ما لم يصدر من لدينا أمر يخالفه ـ صدر عن ديوان وزارة الداخلية في ٢٠ نيسان ١٩٣٢ ـ التوقيع : ناجي شوكت » ٠

ظل الشيخ محمد الخالصي في ايران حتى عام ١٩٤٩ ٠ وقد لقي هناك من حكومة رضا شاه اضطهادا وعنتا وابعادا ٠ ثم اقتضت السياسة في العراق أخيراً السماح بعودته ، فعاد الى العراق ، واستقبل من الحدود استقبالاً رسمياً وشعبياً ٠ وقد تهافت الناس عليه في أول مجيئه وأحبوه وأعجبوا به ، ولكنهم أخذوا ينفضون عنه شيئاً فشيئاً ٠ وسوف نتحدث عن قصة تهافتهم عليه ثم انفضاضهم عنه في جزء قادم من هذا الكتاب ٠

سير الانتخابات :

كانت الوزارة السعدونية قد شرعت باجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي منذ ١٢ تموز ١٩٢٣ ، وظلت عملية الانتخابات مستمرة في عهد الوزارة العسكرية ٠ والملاحظ ان الفتاوى التي كان المجتهدون قد أصدروها سابقاً في تحريم الانتخاب احدثت بعض الاثر في عدد من المدن كالنجف وكربلاء والحلة والكاظمية والحي ٠ وكان أكبر أثر لها قد حصل في النجف حيث عقد اجتماع سري حضره الكثير من النجفيين كان على رأسهم عبدالكريم الجزائري وجواد الجواهري ومحمد علي بحر العلوم ومحسن شلاش وعباس الكليدار وهادي النقيب ، وقرروا مقاطعة الانتخابات ، ووقعوا مضبطة في ذلك ، ولم يمتنع عن التوقيع منهم سوى الكليدار[٢٠] ٠ وفي ٢٨ تموز أرسل قائمقام النجف الى متصرف كربلا كتابا يذكر فيه العوامل التي أدت الى عرقلة سير الانتخاب في النجف وهي :

اولا : شرود البعض من المرشحين للهيئة التفتيشية الى الخارج وترك

---

(٢٠) محمد مظفر الادهمي (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ ٠

رفاقهم في موقع حرج لم يستيطعوا أن يقتحموه خوفاً من انفعال الرأي العام منهم ومؤاخذته أياهم •

ثانيا : انتظارهم للنتائج التي تحصل في المواقع التابعة للمذهب الجعفري من أمر الانتخابات كي لا يكونوا هم المباشرون ابتدائياً لهذا الأمر ويلاموا بعدئذ عليه •

ثالثا : مجاهرة قسم من المرشحين للهيئة التفتيشية بالمخالفة للأنتخابات واخلالهم لافكار البسطاء الذين يخشون سوء العواقب ، واذكر من هؤلاء المجاهرين بالمخالفة خاصة السيد حسين كمال الدين مدير مدرسة الغري فان هذا الرجل على جانب من التطرف حقاً في معاكسته لآمال الحكومة ومضاد لغاياتها • ولو لم يقصد لهذه الاعمال لكانت الانتخابات قد خطت خطوة مهمة في سبيل سيرها ، ولهذا أرجو أن تسمحوا بجلب المومى اليه، وابقائه في مركز اللواء ريثما تكمل الانتخابات على شرط أن يمنع اختلاطه مع أي كان خوفا من أن يذيع أفكاره الضارة بين ذوى الافكار الضعيفة ويؤثر عليهم •••[٢١]

أرادت الحكومة ارسال قوة عسكرية الى النجف ولكن مولود مخلص أبرق اليها في ٥ آب ينصحها بعدم ارسال القوة لان ذلك من شأنه اثارة الانتباه • وفي ٩ آب ذهب مولود مخلص بنفسه الى النجف واستطاع أن يذلل الصعوبات المعرقلة لسير الانتخابات[٢٢] •

ومما يلفت النظر انه بينما كان الصراع ناشبا فى النجف على نحو ما ذكرناه ، كان هناك صراع من نوع آخر بين الملك والمندوب السامي حول سير الانتخابات في بعض المناطق ولا سيما في بغداد والموصل وبعض نواحي الدليم • فقد بلغ المندوب السامي ان الملك يشجع في تلك المناطق من طرف خفي بعض المرشحين المعروفين لعدائهم للانكليز • وفي ٣١ آب أرسل المندوب السامي الى كورنواليس كتاباً جاء فيه ما نصه :

---

(٢١) عبدالرحيم محمد علي (النجف والمجلس التأسيسي) ــ في مجلة « الرابطة » النجفية ــ في عددها الصادر في ايلول ١٩٧٥ •

(٢٢) محمد مظفر الادهمي (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٤٨١ ــ ٤٨٣ •

« ••• اني أسمع من منابع مختلفة بأن الرأي السائد هو أن جلالة الملك يرغب في اكثرية للمتطرفين في المجلس ، وان مثل هذه الاكثرية سترفض تصديق المعاهدة • فاذا كانت هذه النتيجة تظهر فعلاً للوجود فانها طبعاً ستؤدي الى المصائب ، واني أرى من واجبي أن أنذر حكومة جلالة الملك فيصل رسمياً عما أعتقد حدوثه محتملاً ، هذا اذا لم يتغير جريان الأحوال في الاسبوع القادم » •

كان هذا بمثابة انذار للملك • وحين اطلع الملك عليه أجاب عليه موجهاً كلامه الى كورنواليس حيث قال :

« ••• أنت يا عزيزي لاشك عالم تمام العلم بالجهود العظيمة التي بذلتها في سبيل نجاح الانتخابات ، وواقفاً تماماً على الأعمال التي قمت بها في جميع الامكنة والاندية التي زرتها مؤخراً للغاية نفسها ، والله أعلم انه لم يكن لي غاية من وراء المساعي التي بذلتها في سبيل تشجيع الانتخابات الا أن تكون المعاهدة في النتيجة مؤيدة بأغلبية سكان البلاد الساحقة ، ولقد اعترضتني مصاعب جمة في هذا السبيل فلم أحفل بها لأنني كنت ولا أزال معتقداً بأن التصديق على المعاهدة قوام لهذه المملكة ، وان أعمالي انما ترمي الى تحقيق واجب مقدس يهون دونه كل عسير ، ومن أجل هذا الواجب أبعدنا العلماء ، وفي سبيله تحملت ما تحملت من المشاق وقمت بسياحات عديدة لم تكن نتائجها سيئة على ما أعتقد بل أدت الى اقدام أهل الموصل على الانتخابات بعد أن كان قسم منهم مقاطعا لها وقسم آخر متردد في أمرها ، ثم الى التحاق قسم من شيعة المدن ، ويمكنني أن أقول جميع قبائلهم ، بالانتخابات رغم الفتاوي المعلومة • ولابد أنك تذكر قولي لك قبل مدة أنه يجب أن نستوثق بكل عضو من أعضاء المجلس قبل أن يُنتخب وذلك لكي نكون في مأمن تام عند تصديق المعاهدة ، وان كل من يرشح شخصاً منا يجب عليه أن يكون أميناً منه ومسؤولاً عن رأيه في المجلس ••• » • ثم اختتم الملك رسالته بقوله : انه متألم جداً أن يتسرب الى ذهن فخامة المندوب السامي أقل شبهة باخلاصي لبلادي ولصديقتي بريطانيا ، أو أني اسعى لنقض عهد اعتبره قوام الحياة لمملكتي المهددة من جميع أطرافها •

حين اطلع المندوب السامي على هذا الجواب كتب يعرب عن أسفه لأن الملك أساء فهمه ، وقال انه ليس لديه ريب في نوايا الملك تجاه المعاهدة ولكن هناك جمهوراً كبيراً من العامة يعتقدون ان الملك يؤيد المرشحين المعارضين للمعاهدة ، ولابد ان هذا الاعتقاد سيزول منهم سريعاً اذا اطلعوا على رغبة الحكومة الحقيقية بصورة دائمة[٢٣] .

افتتاح المجلس التأسيسي :

بعد ان انتهت الانتخابات تقرر أن يكون افتتاح المجلس التأسيسي في يوم ٢٧ آذار ١٩٢٤ . وقد اختلفت الآراء في أول الأمر حول مقر المجلس ، فارتأى بعضهم أن يكون المقر في بناية مدرسة الصنائع التي بناها مدحت باشا في ١٨٧٠ والتي تقع على دجلة قرب نادي الضباط بين القلعة والقشلة ، ولكن مجلس الوزراء لم يوافق على هذا الرأي . واقترح وزير الداخلية أن تكون بناية سينما رويال الواقعة في محلة باب الأغا مقراً للمجلس ، فلم يلق اقتراحه هذا قبولاً . واستقر الرأي أخيراً على بناية « مستشفى الغرباء » التي بناها مدحت باشا على شاطىء دجلة في جانب الكرخ ، فأجريت عليها الترميمات والاضافات اللازمة استعداداً ليوم الافتتاح .

وقد اعتبر يوم افتتاح المجلس عطلة رسمية ، وأمرت وزارة الداخلية جميع متصرفي الألوية باقامة المهرجانات احتفاءاً به ، كما طلب مجلس الوزراء من امانة العاصمة تزيين مدينة بغداد ليلاً ونهاراً . وخفضت محكوميات المسجونين وأطلق سراح بعضهم .

وقبل يوم الافتتاح أقام الملك مأدبة غداء في قصره دعا اليها أعضاء المجلس ، وقد أقسم الاعضاء بالولاء للملك وللبلاد . وكانت هناك مشكلة تقلق بالهم هي انتخاب رئيس المجلس فقد كان الانكليز يريدون أن يكون عبدالمحسن السعدون رئيساً ، بينما كان الملك يريد ياسين الهاشمي . كتبت المس بيل في مساء ٢٦ آذار – أي في الليلة التي سبقت افتتاح المجلس – تقول ما نصه :

---

(٢٣) المصدر السابق – ج٢ ص ٥٣٠ – ٥٣٤ .

« اكتب هذا في منتصف الليل ، وأنا غير قادرة على النوم • ففي يوم الاثنين كان هناك دعوة للغداء في قصر الملك ، وقد جلست بجانب الملك فوجدته متألقاً • انه أنجز عملاً رائعاً مع أعضاء المجلس اذ هم أقسموا بالولاء له وللبلاد في ذلك اليوم • وغداً سوف يفتتح المجلس في الساعة العاشرة ، وقد كان لدينا يوم مليء بالانزعاجات والتحركات حول قضية رئاسة المجلس • فاذا لم ينتخبوا محسن بك فلن يكون ذلك حسناً ، ولكن جعفر يغير فكره مرة كل ربع ساعة ويؤثر على الملك • وقد أخبرت الجميع بأنهم يجب أن ينتخبوا محسن ، أما البقية فهي في عهدة الآلهة • انها مثل لعبة القناني الخشبية ، فانت تشغل نفسك بطرف واحد من الترتيب ثم تلتفت لترى أن الطرف الآخر قد انهار » •[٢٤]

وفي صباح اليوم المعين للافتتاح اصطف عدد من الجنود في الشارع المؤدي الى المجلس لاداء التحية للملك عند قدومه ، كما اصطف تلاميذ المدارس • وازدحمت الجماهير على الجانبين كما هي عادتهم بغية التفرج • وفي الساعة التاسعة بدأ اعضاء المجلس يتوافدون تباعاً • وعندما اقتربت الساعة العاشرة وصل قائد القوات البريطانية بصحبة المندوب السامي • وفي العاشرة تماما وصل الموكب الملكي وكان الملك ممتطيا سيارته الحمراء المكشوفة وهو بلباسه العربي متقلداً سيفاً من ذهب وفي حزامه خنجر من ذهب أيضاً ، فعجت الجماهير بالتصفيق ، كما عزفت موسيقى الجيش تحية له وأطلقت المدافع •

وحين دخل الملك الى قاعة المجلس وقف الاعضاء له احتراماً ، ثم ألقى الملك خطاب العرش عبّر فيه عن غبطته لافتتاح أول مجلس شورى في العراق وقال ان هناك ثلاثة أمور جوهرية على المجلس أن يبت فيها وهي : (١) تصديق المعاهدة (٢) سن الدستور (٣) سن قانون الانتخاب

(24) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 336.

للمجلس النيابي • ودعا الملك في خطابه أعضاء المجلس الى تصديق المعاهدة لان عليها يتوقف حل المسائل الحيوية لبلادنا بمعونة الحكومة البريطانية وعصبة الأمم • ثم أشار بعد ذلك الى الدستور حيث وصفه قائلا :

« أن أحكام الاسلام مؤسسة على الشورى ، وأعظم ما ارتكبته الطوائف الاسلامية من الخطيئات حيادها عن قوله تعالى : وأمرهم شورى بينهم • فعلى كل مسلم يعلم ما يأمر به دينه أن يؤيد هذا الحكم الآلهي ، وكل تكاسل عنه مخالفة لأمر الله ، فاتباعاً لهذا الأمر الجليل ، واقتداءاً بالامم العريقة في الحضارة ، وعملاً برغبات الأمة العراقية ، ندعوكم أيها النواب الكرام الى سن هذا القانون ، ووضع نظام الانتخاب للمجلس النيابي ••• »(٢٥) •

وحين انتهى الملك من القاء خطابه غادر القاعة ، فترأس جعفر العسكري الجلسة موقتاً من أجل انتخاب رئيس المجلس • وعند فرز الاصوات تبين ان السعدون قد حصل على خمسين صوتاً بينما حصل الهاشمي على ثلاثة وعشرين صوتاً ، وحصل ابراهيم الحيدري على ثمانية أصوات • فصعد السعدون على منصة الرئاسة وشكر أعضاء المجلس على ثقتهم به كما شكر بريطانيا لوفائها بعهدها في تسهيل اجتماع المجلس •

كانت المس بيل قد حضرت حفلة الافتتاح ، وكتبت بعد ذلك تصف ما جرى فيها فقالت : ان الملك القى خطاباً رائعاً ولكنه كان عند القائه عصبياً جداً • ثم وصفت اللحظة التي تم فيها انتخاب السعدون بأنها لحظة مثيرة ، وأشارت الى ظاهرة طريفة حدثت في أثناء الانتخاب اذ قالت : ان بعض شيوخ العشائر الذين كانوا جالسين أمامنا حملوا أوراق تصويتهم وهي موجهة نحونا قبل أن يلقوها في صندوق الانتخاب وذلك لكي يظهروا لنا أنهم كتبوا اسم السعدون عليها •(٢٦)

---

(٢٥) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٦٨ ــ ١٦٩ •
(26) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 336.

المعارضة من جديد :

تقرر أن ينظر المجلس في أمر تصديق المعاهدة قبل النظر في سن الدستور • وقد لوحظ ان هذا أمر لا ينسجم مع الأصول الدستورية في البلاد الديمقراطية اذ لا يصح النظر في تصديق معاهدة مع دولة أجنبية قبل تحديد وضع البلاد من حيث شكل الحكومة فيها وتحديد سلطاتها المختلفة •وعلى أي حال فقد تم الاتفاق بين الملك والانكليز على تقديم أمر المعاهدة لاهميتها بالنسبة لوضع العراق الخاص •

ومن الجدير بالذكر ان الانكليز كانوا متفائلين من ناحية المعاهدة يحسبون ان المجلس سوف يصادق عليها بسرعة وان ليس هناك معارضة بعد الذي جرى من تسفير المجتهدين في عهد الوزارة السابقة[٢٧] • اضف الى ذلك ان معظم أعضاء المجلس كانوا موضع اطمئنان الانكليز ، ولا سيما شيوخ العشائر الذين يبلغ عددهم في المجلس أربعين ، اذ هم كانوا قد اجتمعوا قبل افتتاح المجلس وتعاهدوا فيما بينهم على تأييد المعاهدة وعلى أن لا يقوم أي منهم بعمل مخالف من دون موافقة الجميع[٢٨] •

ادرك الانكليز بعد قليل انهم كانوا في تفاؤلهم واهمين ، فقد تبين لهم ان المعارضة قادرة أن تنهض من جديد وبقوة اكبر ، وان الكثيرين من الأعضاء الذين كانوا موضع اطمئنانهم سيكونون من زعماء المعارضة او المشجعين لها على الاقل •

ظهرت أولى بوادر المعارضة على لسان ناجي السويدي وذلك على أثر تقديم المعاهدة الى المجلس في ٢ نيسان ، فقد قدم السويدي حينذاك اقتراحاً قال فيه : ان المعاهدة يجب أن تعلن على الشعب الذي هو الواسطة الوحيدة للبت فيها ، وان النواب لا يجوز لهم ان ينظروا في المعاهدة الا

---

(27) Elie Kedourie (Chatham House Version) - London 1970 · p. 265.

(٢٨) فيليب آيرلاند (العراق) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٤٩ ــ ص ٣١٠ •

بعد أن يطلعوا على رأي الشعب لأنهم مجبورون على العمل برأي الشعب وطبق أمانيه ورغباته • وحين عرض اقتراح السويدي هذا في التصويت قبله المجلس(٢٩) •

يمكن القول ان هذا الاقتراح قد حكم على المعاهدة منذ البداية بالرفض • فالمعاهدة اذا عرضت على الشعب حسبما اقترحه السويدي فان ذلك بطبيعته لابد أن يثير في أوساط المثقفين حركة مضادة للمعاهدة ، وهؤلاء سيحركون الجماهير ، وعند هذا لابد أن تنتقل عدوى المعارضة الى داخل المجلس ، فيأخذ بعض النواب بانتقاد المعاهدة طمعاً بهتاف الجماهير ، ويقوم نواب آخرون بمباراتهم في ذلك ، وبذا ينقسم النواب في نظر الجماهير الى فريقين متضادين : وطنيين وخونة • وقد ينتهي الأمر الى رفض المعاهدة باكثرية الاصوات •

ان هذا الذي ذكرناه قد حصل فعلاً • ففي ٦ نيسان ـ أي بعد أربعة ايام من ادلاء ناجي السويدي باقتراحه ـ نشرت جريدة «الاستقلال» مقالاً افتتاحاً بعنوان « الى المحامين من أبناء الرافدين » وهو مذيل بتوقيع «س» والمظنون انه المحامي داود السعدي ، وقد أشار فيه الى ما لوحظ من هدوء المحامين في هذه الأيام التاريخية التي يبت فيها مجلس الأمة في مصير الوطن ، كما أشار الى ان المحامين في كل بلاد العالم لهم القدح المعلى في الكفاح في سبيل أوطانهم • ثم قال يخاطب المحامين : ان الوطن يلفظ آخر نفس له ، وعليكم أن تقوموا بواجبكم المقدس وان تشاركوا أعضاء المجلس في السراء والضراء ، فالشعب يرقب جهودكم بفارغ الصبر •

وفي ٩ نيسان تقدم داود السعدي ورشيد رشدي بطلب الى متصرف بغداد لعقد اجتماع في فندق الهلال الواقع في محلة الميدان من أجل تكريم النواب والاستماع الى كلمات بعض المحامين حول السياسة العامة للبلاد • وقد وافق المتصرف على الطلب في أول الأمر ثم سحب موافقته بعدئذ على

---

(٢٩) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٧١ •

أثر ايعاز صدر اليه من وزارة الداخلية • وفي اليوم التالي أثار النائب عبدالرزاق الرويشدي هذا الموضوع في المجلس وطلب من الحكومة السماح بعقد الاجتماع للاطلاع على رأي المحامين الذين هم اختصاصيون في القانون ولهم وقوف تام على مواد المعاهدة • فقام نوري السعيد طالباً غلق الموضوع لأن النظر في المعاهدة من شأن أعضاء المجلس وحدهم وليس لأحد غيرهم حق الاشتراك فيه • فقام النائب صالح شكارة يرد على نوري السعيد قائلا ان المعاهدة تخص الشعب بأجمعه وان من الواجب على المجلس أن يتفاهم مع الشعب على صفحات الجرائد وفي الاجتماعات • وبعد مناقشة حادة بين النواب في هذا الموضوع تقرر احالته الى رئاسة المجلس للتحقيق فيه • وفي الجلسة التالية أعلن ياسين الهاشمي ان التحقيق أظهر ان الحكومة لم تمنع الاجتماع بل طلبت تأجيله • ثم أعلن السعدون بصفته رئيس المجلس ان المسألة انتهت وأنه لا مانع للمحامين من دعوة النواب والاجتماع بهم •

قرر المحامون عقد الاجتماع في ١٧ نيسان في سينما رويال بدلاً من فندق الهلال ، وأن يكون في الساعة الثانية بعد غروب الشمس لأن الوقت كان في شهر رمضان • وفي صباح ذلك اليوم طلعت جريدة « العراق » وفيها حديث لنوري السعيد اعترف فيه بمساوىء المعاهده ولكنه قال أن تصديق المعاهدة بالرغم من ذلك سيؤدي الى تثبيت كيان العراق السياسي، أما رفضها فسيقذف بالبلاد في هوة يعلم كل منا حق العلم ما وراءها من خيبة آمالنا القومية وضياع جميع الجهود العظيمة التي بذلتها أمتنا حتى اليوم • وكان نوري السعيد يقصد من ذلك أن رفض المعاهدة يؤدي الى ضياع منطقة الموصل التي تطالب بها تركيا وغير ذلك من الأخطار التي تهدد البلاد من جميع جوانبها •

وقد تم عقد الاجتماع في الوقت المحدد ، وحضره أعضاء المجلس وعدد كبير من المحامين والوجهاء والمثقفين ، حتى غصت بهم قاعة السينما • وافتتحت الحفلة بنشيد حماسي من تلامذة مدرسة «التفيض» الاهلية ، ثم قام داود السعدي فألقي كلمة رحب فيها بالمدعويين وشرح الوضع السياسى

ثم قال : ايها النواب اعتقدوا ان الأمة العراقية واقفة أمامكم موقف المتهم بجريمة كبرى وهو في الواقع بريء ، وهي تنتظر منكم القرار أما بموتها أو ببراءتها • فقوبلت كلمته ـ حسبما روته جريدة « العالم العربي » ـ بتصفيق حاد وضجة عظيمة وهتاف عالي • ثم أعقبه المحامي شفيق نوري السعيدي فتلا بصوت حماسي عالي بياناً للمحامين يتضمن انتقاداً شديداً للمعاهدة وتظلماً من بعض بنودها • ثم نهض ياسين الهاشمي ليتكلم بالنيابة عن أعضاء المجلس ، وقال يخاطب المحامين : بالله عليكم كثروا من مثل هذا الاجتماع في كل وقت عصيب ، ثم قال : « أقسمنا على الصدق والاخلاص لمملكتنا وملكنا مهما كانت القيود والتهديدات الشديدة » • فقوبلت كلمته بالتصفيق العجاج والهتاف(٣٠) •

وصفت المس بيل في احدى رسائلها الاجتماع الذي عقد في سينما رويال فقالت ما نصه : « ان جماعة من المحامين الأوغاد الذين لا ممارسة لهم أقاموا حفلة دعوا فيها النواب ، وألقى اثنان من هؤلاء الحمير الصغار خطباً عنيفة ضد الانكليز بوجه عام ، وضد المعاهدة بوجه خاص ، ووصفوا المعاهدة بما ليس فيها مثل ان الفرد الانكليزي لا يمكن توقيفه في العراق في حالة خرقه للقانون • وأخذ الحاضرون يضربون صدورهم عند هذا • وتكلم ياسين الهاشمي فشكر المحامين على دعوتهم ثم أضاف قائلاً اننا يجب أن لا ننسى ان بريطانيا هي الصديقة الوحيدة للعراق • ولكن هذا القول لا ينفع الهاشمي شيئاً لأنه كان المحرك لاقامة هذه الحفلة في البداية، وهو الآن يريد تهدئتها ، لكي يكون له قدم في كلا الجانبين(٣١) » •

اسلوب المعارضة :

ان المعارضة الجديدة تختلف عن سابقتها بالاسلوب • ففي عهد المعارضة السابقة كان يكفي للمجتهدين أن يصدروا فتاويهم في تحريم

---

(٣٠) جريدة « العالم العربي » ـ في عددها الصادر في ٢٠ نيسان ١٩٢٤•
(31) Burgoyne (op. cit.) vol. 2, p. 340

أمر من أمور السياسة ، وكانت تلك الفتاوي ذات تأثير كبير على الناس لان المخالف لها ينال نبذاً واحتقاراً اجتماعياً بالاضافة الى ما ينتظره في الآخرة من عذاب مقيم ، أما الآن فقد صارت المعارضة الجديدة تستعمل أسلوباً آخر مستمد من طبيعة الدنيا وليس للآخرة فيه نصيب ، اذ هي لجأت الى الارهاب تارة والى النخوة العشائرية تارة أخرى •

يقول توفيق الفكيكي في مذكراته ، وكان يومذاك طالباً في الحقوق : انه كان وزملاؤه الطلاب يذهبون الى بيوت بعض النواب البارزين يستعملون معهم طرق النخوة المعروفة لدى العشائر ، كعقد الكوفية او الامتناع عن شرب القهوة ، وقد فعلوا ذلك مع سالم الخيون وزامل المناع وسلمان الظاهر • ويروى الفكيكي عن سالم الخيون ان الملك فيصل سأله فيما بعد : « ما الذي حملك على رفض المعاهدة بعد ما آنست منك الموافقة ؟ » فأجاب سالم الخيون : « سيدي أحرجني طالب قصير من طلاب الحقوق يدعى توفيق الفكيكي ، حيث امتنع هو ورفقاؤه من شرب قهوتي، ولم يكتف بذلك بل عقد كفيتي على الطريقة العشائرية فاضطررت أن أتعهد له برفض المعاهدة • ويظهر ان هذا الطالب عليم بتقاليد العرب »[٣٢] •

وأخذت المعارضة تستخدم النساء والصبيان للتأثير على النواب • حدثني عبدالهادي الظاهر : أن عبدالغفور البدري كان يأتي بالنساء الاعرابيات من ذوات الشخصية القوية ، يجمعهن من بعض المحلات كالبوشبل والدوزيين ، ويرسلهن الى بيوت الشيوخ من النواب ، فاذا دخلت احداهن على الشيخ صرخت في وجهه على الطريقة العشائرية : « على بختك يا أبو فلان ، تبيعونا للصوجر ، ألف وسفة عليكم » • وكثيراً ما كانت هذه الطريقة تؤثر في الشيوخ لأنها تمس أوتار قلوبهم البدوية •

كتبت المس بيل في ٤ حزيران تقول ان عجيل الياور جاء لرؤيتها في هذا الصباح وقال لها : « خاتون ، جئتك لأخبرك بأن ليس على وجه

---

(٣٢) عبدالله الجبوري (توفيق الفكيكي) ـ بغداد ١٩٧١ ـ ص ٣٨ـ٣٩ •

الارض قوة قادرة على جعل المجلس يصادق على المعاهدة • فأنت لا تدرين ماذا يجري في المدينة ، فهناك أمام بيتي يقف ليلاً ونهاراً شخص من أهل السوق • انه ليس كبيرا في السن بل صبي رث الملابس • وفي كل مرة أدخل الى البيت أو أخرج منه يتلقاني هذا الصبي فيمسك بيدي لتقبيلها ، أو يقبل عباءتي أو طرف قبائي ، ثم يبكي قائلا : ايها الشيخ ، يا والدى ، أرفض المعاهدة ، لا تبيعنا الى الانكليز • انه لا يعرف محتوى المعاهدة • وقد استؤجر لكي يقف عند باب بيتي ويقول ما يقول ••• » ثم يختتم عجيل الياور كلامه بقوله : « اذا كان أمام بيتي واحد ، فان هناك ثلاثة أو أربعة أمام بيت كل عضو من أعضاء المجلس » •[٣٣]

محاولة اغتيال :

كتبت المس بيل في رسالة لها تقول : ان كورنواليس تلفن لها في صباح ١٨ نيسان وأخبرها ان شيوخ العشائر المؤيدين للمعاهدة نقص عددهم الى ستة فقط ، وهم حاضرون عنده الآن ويريدون اصدار تصريح يؤيدون به المعاهدة بلا مبالاة بما يفعله الشيوخ الآخرون الاشرار • ثم قال كورنواليس وهو متضجر : ان الأمور يجب أن نبدأ بها من جديد ، ويجب أن نؤلف حزباً من شيوخ العشائر تكون نواته من هؤلاء الستة[٣٤] •

لم نعرف من هؤلاء الستة الذين كانوا يؤيدون المعاهدة سوى اثنين هما عداي الجريان وسلمان البراك • وقد كان هذا الرجلان في الواقع جريئين في اعلان تأييدهما للمعاهدة لا يخافان أحداً أو يكترثان للرأي العام •

والظاهر ان المعارضة صممت على ارهاب هذين الشيخين لتجعل منهما عبرة لغيرهما • ففي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ٢٠ نيسان بينما كان الشيخان يسيران معاً عائدين الى بيتهما المشترك ـ الواقع في محلة باب الأغا قرب سينما رويال ـ أطلق شخصان مجهولان النار

---

(33) Burgoyne (op. cit.) vol. 2, p. 343

(34) Ibid. - vol. 2, p. 340.

عليهما ، فأصيب عداي في ذراعه ، وسلمان في ساقه ، ولكن اصابتهما لم تكن خطرة ، ونقلا حالاً الى المستشفى • وقد تأجلت جلسة المجلس في اليوم التالي استياءاً من الحادثة • وعلقت المس بيل على الحادثة تقول : « من مزايا سياستنا في العراق انهم حين يختلفون فيما بينهم يطلقون النار بعضهم على بعض ، وليس علينا ، والا كنت أنا المصابة بدلاً من عداي»(٣٥) •

أسرعت الشرطة فألقت القبض على واحد وعشرين شخصاً من رجال المعارضة كان من بينهم : داود السعدي وشفيق نوري السعيدي ورشيد رشدي وعلي محمود الشيخ علي وعوني النقشلي وأنور النقشلي وسامي النقشلي ومحمد عبدالحسين وعبدالرزاق الحسني ورشيد الصوفي وعبدالهادي الظاهر وتوفيق الفكيكي وصادق حبه ونصرت الفارسي وفخري الطبقجلي وعبدالرحمن خضر وطالب مشتاق ومحي الدين أبو الخطاب وهاشم السعدي وعبدالمجيد زيدان وقاسم العلوي وغيرهم • كما أمرت وزارة الداخلية باغلاق جريدتي « الاستقلال » و « الشعب » •

عرض المقبوض عليهم على عداي الجريان وسلمان البراك لكي يتعرفا من بينهم على الشخصين اللذين أطلقا النار عليهما • فأشار سلمان الى علي محمود الشيخ علي وقال انه أحد الشخصين ، ثم أشار الى عوني النقشلي وقال انه الثاني ولكنه قال انه غير متأكد منه • وقد تحقق فيما بعد ان سلمان كان مخطئاً في تشخيصه • وقيل في حينه ان الفاعلين الحقيقيين هما شاكر القرغولي وعبدالله سرية ، وكانا قبل هذا بشهرين قد اغتالا توفيق الخالدي كما هو معروف •

وفي ٢٣ نيسان أطلق حاكم التحقيق سراح اثني عشر من المقبوض عليهم • وفي ٢٥ منه أطلق سراح رجل آخر منهم هو عبدالرحمن خضر • أما الباقون فلم يطلق سراحهم الا في ٢ أيار • وقد حدثني عبدالهادي

---

(35) Ibid, vol. 2, p. 340 - 341.

الظاهر بان شاكر القرغولي وعبدالله سرية أرسلا الى المقبوض عليهم قبل اطلاق سراحهم يقولان لهم : لا تخافوا فنحن مستعدان للاعتراف عند اللزوم بأننا نحن اللذان أطلقنا الرصاص على عداي الجريان وسلمان البراك •

وعلى أي حال فان تلك الحادثة أدت الى انتشار الرعب بين النواب ، وصار بعضهم يخشى أن يأتي دوره بعد سلمان البراك وعداي الجريان • ولهذا أخذ عدد النواب الذين يحضرون المجلس يتناقص بمرور الأيام حتى بلغ عدد الحاضرين في جلسة ١٠ أيار ثلاثة وخمسين فقط مع العلم ان عدد النواب كلهم يبلغ المائة ، كما أخذ بعض النواب يقدمون استقالاتهم من عضوية المجلس ، وصرح أحدهم أنه يريد الاستقالة بسبب التهديدات المستمرة من الرسائل غير الموقعة والاعلانات التي كانت تلصق في الاسواق[٣٦] •

كتبت المس بيل في ٢١ أيار حول صديقها الحاج ناجي وهو أحد النواب المعروفين بتأييدهم للمعاهدة ، فقالت : « ذهبت لزيارة عزيزي العجوز فوجدته في هياج مكبوت • انه كان متأكداً بأن دوره هو التالي ويقول ان كل انسان يظن ذلك • فان بيته البعيد وتنقلاته الرتيبة تجعل الاعتداء عليه سهلاً • واني حاولت تسليته ولكني عند عودتي كنت قلقة عليه جداً • فاتصلت بكورنواليس لكي يحيطه بحماية من الشرطة ، واذا لم يفعل ذلك فأني سأذهب الى الحاج ناجي وأسكن معه فترة من الزمن ولا أسمح له بالمجيء الى بغداد الا معي • واتفقنا في الرأي على أنهم لا يطلقون عليه النار ما دمت أنا معه في أرجح الظن »[٣٧] •

سلوك الهاشمي :

كان سلوك الهاشمي في تلك الآونة يصح أن نصفه بالازدواج ، فهو

(٣٦) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ــ ص ٣١١ •
(37) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 342.

في الظاهر كان معارضاً للمعاهدة وكان حين يجتمع بالمحامين الذين تزعموا المعارضة يشجعهم ويبارك عملهم ، ولكنه عندما يختلي بالملك أو بالانكليز أو ببعض اصحابه الذين يطمئن منهم يحمد المعاهدة وربما وصفها بأنها خير ما يمكن الحصول عليه(٣٨) •

هناك في تفسير هذا السلوك المزدوج من الهاشمي رأيان ، أحدهما يقول بان الهاشمي انما فعل ذلك بالتفاهم مع الملك وذلك للاستفادة من المعارضة فى تخفيف وطأة بعض المواد فى المعاهدة وتعديلها لمصلحة البلاد(٣٩) • والرأي الثانى يقول بأن الهاشمى كان يريد بمعارضته الوصول الى الحكم •

يبدو ان جعفر العسكرى كان يذهب الى الرأي الثانى فى تفسير سلوك الهاشمي • فهو كان يشعر بان المعارضة خرجت عن حدها واصبحت لاتطاق ، وانها تستهدف ابعاده عن الحكم لكي يتولاه الهاشمي • وقد أيد هذا الشعور لديه ان الهاشمي طالما أعلن أمام الملك والمندوب السامى ان الوزارة العسكرية غير مسيطرة على المجلس كأنه يعني بذلك انه وحده القادر على اقناع المجلس بتصديق المعاهدة •

وفى أوائل أيار بادر جعفر العسكرى بتقديم استقالته الى الملك ، وبعد أن استشار الملك المندوب السامى استدعى اليه الهاشمي وكلفه بتشكيل وزارة جديدة • فطلب الهاشمي مهلة أربع وعشرين ساعة لدراسةالوضع، واتصل خلال هذه المهلة بالمندوب السامى طالبا منه تعديل بعض مواد المعاهدة من أجل تسهيل تصديقها في المجلس ، ولكن المندوب السامى رفض طلبه • واضطر الهاشمي اخيرا الى الاعتذار عن تشكيل وزارةجديدة غير أنه أعطى وعدا للملك بان لجنة تدقيق المعاهدة التي يرأسها سوف تقدم تقريرا الى المجلس فى صالح المعاهدة • فاقتنع العسكرى بالاستمرار

---

(٣٨) خيري أمين العمري (شخصيات عراقية) ـ ج١ ص ١٠٩ •
(٣٩) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ١٧٢ •

في رئاسة الوزارة حتى يتم تصديق المعاهدة(٤٠) .

ومما يلفت النظر ان الهاشمى كان فى تلك الآونة يتحبب الى المس بيل بغية اكتساب ثقتها من جديد بعد ما فقد تلك الثقة على نحو ماذكرناه سابقا . كتبت المس بيل في ٢١ أيار تقول فى وصف الهاشمى مانصه :

« ان لديه وصمات داكنة ولكني مع ذلك أحبه . انه يملك جاذبية ويعطي الانسان احساسا بالقوة . وقد ذهبت لزيارته في بيته قبل اسبوعين بمناسبة العيد ، فرحب بي ترحيبا لم اجده في اي بيت آخر ، واصر على مصاحبتي لرؤية زوجته وبناته الصغيرات الثلاث . ان حياته العائلية جميلة ، وإني أظن ان من النادر أن نجد في بغداد رجلا يتمتع بمثل هذه الحياة العائلية »(٤١) .

المعروف عن الهاشمى ان حياته العائلية لم تكن كما تصورتها المس بيل ، فقد كانت المناقرة بينه وبين زوجته متصلة ، وكان هو دائم التذمر منها . والمظنون أنه أظهر حياته العائلية للمس بيل بتلك الصورة الجميله لكي يؤثر عليها نفسيا ويجعلها تميل اليه . ويبدو انه نجح في ذلك نجاحا غير قليل .

في ٢٠ أيار قدم الهاشمى تقرير اللجنة المكلفة بتدقيق المعاهدة الى المجلس ، وقال يصف المعاهدة : « وجدنا فيها ما يمس بسيادتنا ويخل بحقوقنا ويضعف استقلالنا » ، وطلب من المجلس رفضها اذا لم تجر عليها التعديلات المطلوبة . فكانت تلك مفاجأة غير متوقعة للملك وللمندوب السامي وللوزارة(٤٢) . ولكن المس بيل حين قدمت تقريرها الى المندوب السامي حول ماجرى فى المجلس قالت : انهم سيشهدون منظرا عجيبا حين

---

(٤٠) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ـ ص ٣١٢ .
(41) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 342.

(٤٢) سامي عبدالحافظ القيسي (ياسين الهاشمي) ـ رسالة جامعية غير مطبوعة ـ ص ١٣٢ ، ١٣٥

يتم تصديق المعاهدة على يد ياسين الهاشمي[٤٣] .

تفاقم الازمة :

أجمع رأي المعارضة فى داخل المجلس وخارجه على وجوب تعديل المعاهدة قبل تصديقها . وفى ٢٦ أيار قدم المندوب السامى الى الملك شبه انذار يقول فيه ان موعد الجلسة القادمة لمجلس عصبة الامم هو ١١ حزيران ، واذا لم تصدق المعاهدة قبل ذلك فان الحكومة البريطانية تفكر في أن تعرض على مجلس العصبة ترتيبا آخر عوضا عن المعاهدة[٤٤] .

وفي ٢٧ أيار قدم وزير المعارف محمد حسن أبو المحاسن استقالته من الوزارة بسبب اختلافه مع زملائه الوزراء حول وجوب تعديل المعاهدة قبل عرضها على المجلس . ويروي ساطع الحصري طريفة فى هذا الصدد هى ان رئيس الوزراء قال للوزير ابو المحاسن قبل استقالته : « انك تكثر من مخالفتنا .. والعادة ان الوزير الذى لايتفق مع زملائه ينسحب ويستقيل .. فأرى انه يجب عليك أن تستقيل .. » فرد أبو المحاسن عليه قائلا : « أنا لا استقيل ـ أنت استقيل ..»[٤٥] .

كان يوم ٢٩ أيار يوما صاخبا فى بغداد ، فقد كان المقرر ان يقوم المجلس في ذلك اليوم بالنظر في أمر المعاهدة نهائيا أما أن يصادق عليها او يرفضها . وقد استعدت المعارضة لهذا اليوم وعبأت الرأى العام له وأعدت الجماهير .

ولما طلع النهار فى ذلك اليوم عم الاضراب في الكثير من الاسواق ، وتجمهر الناس في جانب الكرخ حول بناية المجلس وهم يهتفون : « ليحيى سالم الخيون » ، « ليحيى رجال الوطن » ، « ليحيى الاستقلال » ، « لاتمهروا المعاهدة لاتمضوها » .. وقد حاول رجال الشرطة اسكاتهم وتهدئتهم ولكنهم

---

(43) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 342.

(٤٤) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٨٣ .
(٤٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٣٨٤ .

ازدادوا صراخا وهتافا[٤٦] • ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان صبيح نشأت وزير المواصلات والاشغال كان قادما بسيارته الى المجلس فأحاط بسيارته الجمهور وازدحموا عليه ومنعوا سيارته من السير وهم يهتفون « تسقط المعاهدة » • فأخذ يهتف معهم بسقوط المعاهدة ليتخلص منهم ، فطلبوا منه قول شرف بأنه سوف لايصدق المعاهدة ، فصاح مؤيدا لهم : « لعنة على أمه وأبوه كل من يصدق المعاهدة ! » ولم يتخلص منهم الا بجهد جهيد •

وعندما اشتد الهياج خارج المجلس خرج بعض النواب يرجون من الجمهور الهدوء ، كما خرج رئيس المجلس يرجوهم كذلك ، فلم يؤثر ذلك فيهم شيئاً • ولما اراد الشرطة تفريقهم أخذوا يقذفون الشرطة بالحجارة ، وحاول بعضهم الدخول الى قاعة المجلس ، فاستدعى نوري السعيد قوة من الجنود الخيالة لمساعدة الشرطة في تفريق المتجمهرين ، وأطلق هؤلاء النار في الهواء في أول الأمر ثم اضطروا الى اطلاق النار على المتجمهرين فأحدثت فيهم بعض الاصابات الخفيفة • ودخل بعض الجنود وهم يحملون الرشاشات الى داخل المجلس وكاد يحدث تصادم بينهم وبين الرجال المسلحين الذين كانوا قد جاؤوا بصحبة سالم الخيون وغيره من رؤساء العشائر •

وكانت مناقشات المجلس في ذلك اليوم لاتخلو من حماس ، وقد برز فيها سالم الخيون بخطبته المثيرة للنخوة على الطريقة العشائرية ، كما برز رايح العطية وغيره • ثم تأجلت الجلسة الى يوم ٣١ أيار •

وعندما أريد عقد الجلسة في ٣١ أيار تبين ان كثيرا من النواب غائبون• وتأخر جرس البدء بالجلسة ساعة كاملة • وحين دق الجرس أخيرا ظهر ان النصاب غير مكتمل إذ كان عدد الحاضرين تسعة وأربعين فقط مما اضطر الرئيس الى تأجيل الجلسة الى ٢ حزيران •

---

(٤٦) محمد مظفر الادهمي (المصدر السابق) – ج٢ ص ٦٤٣ •

وبينما كان النواب يهمون بالخروج من قاعة المجلس شاهدوا المندوب السامى قادما ومعه كورنواليس ، فكانت تلك مفاجأة لهم • وذهبوا جميعا الى غرفة الاستراحة وأخذ دوبس يتحدث اليهم محاولا اقناعهم بقبــول المعاهدة فأشار الى محادثات السر برسي كوكس في اسطنبول حول قضية الموصل وقال ان الاتراك كانوا متساهلين فيها ولكنهم عندما بلغهم ما جرى في المجلس تغيروا وأخذوا يطالبون بولاية الموصل • ثم قـال دوبس ان التعديل الذى يطلبه النواب للمعاهدة ممكن ولكن بعد تصديقها ، ثم تناول ورقة وكتب عليها هذه العبارة : « ان الحكومة البريطانية مستعدة للنظـر في تعديل الاتفاقيتين المالية والعسكرية بما يتفق والسخاء المعروف عن الشعب الانكليزي ، ما دامت المادة الثامنة عشرة من المعاهدة نفسها جوزت هــذا التعديل على أن يكون بعد الابرام » • وبعد ان انتهى دوبس من كتابة الورقة سلمها الى رئيس المجلس، ثم خرج مع صاحبه كورنواليس..(٤٧).

مباراة خطابية :

ظن دوبس انه عندما تحدث الى النواب أقنعهم وانهم سيسرعون الى تصديق المعاهدة بلا تردد • واتضح فيما بعد انهم ازدادوا اصرارا على وجوب تعديل المعاهدة وصاروا يشتدون في خطبهم الحماسية في المجلس يوما بعد يوم •

من يطلع على محاضر جلسات المجلس التى عقدت بعد ٣١ أيار يجد نفسه كأنه في مباراة خطابية حيث كان كل واحد من النـواب يحاول أن يتفوق على زملائه بما يظهر من حماسة وطنية وجرأة فى الكلام • لقـد كان أكثر النواب في تلك الايام واقعين تحت تأثير الحماسة العامة التى كانت مشحونة بالنقمة على المعاهدة وتعد تصديقها خيانة للوطن • فكان النائب الذى يتحمس في شجب المعاهدة تحيطه الجماهير بهالة من التقدير ويصبح فى نظرهم وطنيا غيورا ويجري ذكره الطيب على كل لسان • وكانــت شرفات المستمعين فى المجلس تغص عادة بروادها ، وهؤلاء كانوا يراقبون

(٤٧) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٨٠ •

النواب ليبدوا اعجابهم بمن يعارض المعاهدة منهم ويلعنوا المؤيد لها • وكان النائب الذى يتكلم لايبالي الا بصدى كلامه بين المستمعين وما سوف ينقله المستمعون الى الجماهير خارج المجلس من أقاويل المدح والذم •

عندما عقد المجلس التأسيسي جلسته في ٢ حزيران ، تكلم رؤوف الجادرجي وعمر العلوان وعبدالرزاق منير وصالح شكارة ومحمد حسن حيدر وأحمد الشيخ داود ، فهاجموا المعاهدة هجوما عنيفا وهاجم بعضهم بريطانيا معها • فقد قال محمد حسن حيدر مثلاً : ان اعطاء زمام البلاد لأجنبي هي خيانة وان الخيانة تعني خسران الدين والشرف والعيش الحر • وقال أحمد الشيخ داود يصف المعاهدة بأنها « ضربة قاضية على استقلالنا مميتة لشعبنا مهدمة لكياننا السياسي » ، ثم ختم كلامه قائلا : « ان ما أملي علينا في هذه المعاهدة لا يمكن أن يطلق عليه تعبير تعاهد دولي بل هو صك استعباد واستعمار (تصفيق) ، فعليه أطلب من اخواني أن يقوموا ويصوتوا برد المعاهدة الى الحكومة• قوموا سألتكم بالله »• وكان يقصد من ذلك ان تنتهي الجلسة ويترك النواب القاعة ، فاعترض رئيس المجلس على ذلك قائلاً ان انتهاء الجلسة يجب أن لا يكون الا بعد التصويت ، فرد سالم الخيون عليه بأن الاكثرية قد حصلت بخصوص اعادة المعاهدة الى الحكومة• وحدث من جراء ذلك جدال انتهى بتأجيل الجلسة الى اليوم التالي •

وفي اليوم التالي كان الحماس أشد مما كان بالأمس ، وكان من أوائل المتكلمين عبدالرزاق الرويشدي وشعلان أبو الجون وسالم الخيون• وكانت كلمة سالم عاطفية مليئة بالاشعار ، وقال يصف نفسه وزملاءه شيوخ العشائر انهم يمثلون الاكثرية في البلاد وأنهم أهل الحل والعقد وهم الذين ضحوا بأنفسهم واشتروا البلاد بدمائهم ودماء آبائهم ، « فهيهات أن نقبل المعاهدة التي جاءت لتستعبدنا (تصفيق) ، فأصرح بأن المعاهدة مردودة الى الحكومة » ، ثم قال انه يعتبر التراجع عن مطلب تعديل المعاهدة عاراً • وكان يشير بذلك الى ناجي السويدي الذى انشق عن المعارضة في ذلك الوقت بعدما كان هو البادىء بها •

كان نوري السعيد الوحيد من بين النواب الذي أبدى رأيه علناً في تأييد المعاهدة دون أن يخشى نقمة الجمهور عليه • والظاهر أن له جمهوراً آخر يهتم به غير الجمهور الذي كان يهتم به بقية النواب • فقد قام يدافع عن المعاهدة قائلاً : اني اعترف بأنها تؤدي الى تقييد استقلال البلاد ولكن ذلك لا يعني عدم الاستقلال ، فان السلاح الحديث تملكه الدول الكبرى ، والسعي للاستقلال بدون سلاح غير ممكن • فقام حسن الشبوط يرد عليه قائلاً : ان الاتفاقية المالية تقيد استقلال العراق فكيف له أن يتسلح وليس لديه مال !؟

وعند هذا قدم بعض نواب الشمال تقريراً قرأه عنهم محمد شريف بك نائب أربيل مفاده انهم يستنكفون من ابداء رأيهم في المعاهدة اذا لم تؤجل المذاكرة فيها الى حين حسم قضية الموصل • وقال محمد شريف بك انه علم بان الاتراك يلحون في طلب الحاق الموصل بهم حتى جبال حمرين ، وهو لذلك يرجو من الملك والمندوب السامي أن يهتما بابقاء منطقة الموصل مع العراق والا فالمنطقة تصبح في خطر • فقام أحمد الشيخ داود مؤكداً أن لا علاقة بين المعاهدة وقضية الموصل الا اذا أرادت بريطانيا أن تشدد على المجلس وتؤثر عليه عن طريق هذه القضية • وقام زامل المناع فأخذ يتحمس قائلاً ان العراق لا خوف عليه في حالة رفض بريطانية مساعدته، فهو قادر على منازلة ابن سعود ، والايرانيون يهابون العرب ، أما الاتراك فهم مقيدون بقيود دولية وهم اذا أصروا على معاداة العرب فإن العرب قادرون على صدهم • ولهذا فهو يصر على تعديل المعاهدة •

ثم تكلم عمر العلوان وآصف قاسم أغا وعبدالواحد الحاج سكر ومحمد حسن حيدر وحبيب الخيزران ، ضاربين على هذا الوتر • ومما قاله محمد حسن حيدر : « أقسم بالله لو صدقت هذه المعاهدة فلن تكون هناك صداقة » • وأخذ حبيب الخيزران يهدد بقيام ثورة في حالة اصرار بريطانيا على عدم تعديل المعاهدة ، ثم قال ان بريطانيا لن تتخلى عن الموصل

لانها منبع النفط الثمين ، وان المنافع التي تتوخى بريطانيا الحصول عليها من العراق مرتبطة بدفاعها عنه •

وقد استمرت المناقشات على هذا المنوال في الجلسات التالية التي عقدت في ٥ و ٧ و ٩ حزيران • ولوحظ ان عبدالمحسن السعدون كان في رئاسته للمجلس يشجع النواب المعارضين من طرف خفي ، ويسمح لهم بابداء الحماس كما يحبون • والمظنون انه فعل ذلك نكاية بالملك وصاحبه جعفر العسكري •

كتبت المس بيل تعلق على ما يجري في المجلس قائلة : « اتفقت مع كورنواليس في الرأي على اننا اقترفنا غلطة • وقد أدركنا ان من العبث أن نطلب من أناس غير مثقفين سياسيا ان يتخذوا قرارا حيوياً عن طريق نوابهم في أمر يخص مستقبلهم • فان عوامل الجهل والطمع الشخصي والعداء الأعمى سيكون لها أثرها المباشر في القرار ، وتكون القضية عند ذلك على درجة من الغموض بحيث لا يستطيع صاحبها أن يرى طريقه »(٤٨) •

حملة الجرائد الموالية :

كان في بغداد يومذاك ثلاث جرائد موالية للانكليز ، أولها جريدة « الاوقات البغدادية » وهي التي كان الانكليز يصدرونها ، والثانية جريدة «العراق» لصاحبها رزوق غنام الذي كان عضواً في المجلس التأسيسي ومعروفاً بتأييده للسلطة ، أما الثالثة فهي جريدة «المفيد» لصاحبها ابراهيم حلمي العمر ، وكان هذا من قبل معدودا من الصحافيين المعارضين ولكنه بدّل موقفه أخيراً •

كانت هذه الجرائد تدعو الى تصديق المعاهدة قبل تعديلها • ففي ٢٦ أيار نشرت جريدة «المفيد» مقالاً بعنوان « الوطن في خطر ، اين المنقذون » ، طالبت فيه بتحكيم العقل قبل العاطفة ، ووازنت بين خطر رفض

(48) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 343

المعاهدة وضرر ابرامها وأوضحت ان الخطر الذي ينتج عن رفض المعاهدة جسيم من جراء جلاء الانكليز عن العراق وحرمان العراق من معاضدتهم في قضية الموصل وخلو البلاد من الكثير من المقومات لحياة الدولة الحديثة. أما الضرر الذي ينتج عن ابرام المعاهدة فلا يستمر سوى أربع سنوات وهي مدة المعاهدة كما ورد في ملحقها . وهاجمت الجريدة أولئك الذين يقولون ان بريطانيا لن تتخلى عن العراق ولن تجلو عنه في حالة رفض المجلس للمعاهدة .

وفي ٣ حزيران نشرت «المفيد» مقالاً بعنوان « الموقف الغامض » حذرت فيه من خطر رفض المعاهدة فيما يتعلق بقضية الموصل وقالت :

« ونحن اذا بذلنا النصح في هذا الشأن فليس لاننا لا نعترف بما في المعاهدة وذيولها من القيود الثقيلة بل لاننا نعتقد أن خطر الرفض أعظم بكثير من خطر الابرام ولاننا لا نريد أن نختار أهون السبيلين ، وعلى الذين يخالفوننا في هذه العقيدة ان يذكروا أن جسد الوطن على طاولة التشريح في مؤتمر الاستانة ... فماذا نحن فاعلون ؟! »

وقد سارت جريدة «العراق» على هذا المنوال الذي سارت عليه جريدة «المفيد» ، ومن الطريف انها نشرت في ٩ حزيران تحت عنوان « الشعب يحاسب نوابه » برقية من بعض الناخبين الثانويين في الشطرة يعلنون فيها انتزاعهم الثقة من سالم الخيون .

أما جريدة «الاوقات البغدادية» فقد سارت على منوال آخر اذ هي اتخذت اسلوب التهديد بدلاً من اسلوب الاقناع العقلي . وفيما يلي نموذج من أسلوبها نقلاً عن مقال لها نشرته في ٢٢ أيار :

« كاد ينقضي شهران على المجلس التأسيسي وهو ينظر في المعاهدة العراقية البريطانية ، ونسمع الآن باعداد تقارير ضافية الذيول وبمناقشات طويلة عريضة في أمر رفض المعاهدة أو تعديلها أو قبولها بشروط ترمي الى تعديلها في المستقبل . ولكن ما فائدة هذا الكلام كله فقد وضح لأقل الناس ادراكاً وضوح الشمس في رائعة النهار ان البلاد لا تريد المعاهدة

على ما تفسرها ذيولها وعليه فليقدم أعضاء المجلس التأسيسي على ابـداء آرائهم ويرفضوا المعاهدة ويقضوا عليها القضاء المبرم ، وليعلمـوا ان البريطانيين أنفسهم لا يريدون المعاهدة . فلو أتيح لهم المكث في البـلاد وهم مشمولون بالصداقة والمحبة بغية معاونتها في السير في سبيل النجـاح لرضوا بالبقاء عن طيب خاطر ولكن ذلك الحلم قد انقضى ، فقد حـل الشك محل الصداقة ، فلماذا اذن يبقى البريطانيون في هذه البلاد . فان الاوفق لسياسـة بريطانيا في تركيا وفارس والهند ان يخرج البريطانيون من العراق من غير قيل وقال ، وبذلك يزيلون عنهم بالكلية ظنون المطامـع الامبراطورية . والذي نتساءل عنه الآن : هل يخرج البريطانيون مـن العراق اذا ما قلب لهم أهلوه ظهر المجن كما يبدو على موقفهم الحالي ؟ ان التجارة في العراق لا يعبأ بها ، وقمح العراق وجلده وصوفه أردأ قمـح وجلد وصوف في الدنيا ، والشركات البريطانية في العراق لا تربح شيئاً ، ويحتمل أن يزرع القطـن هنـا في المستقبل ولكنه أردأ من القطـن الـذي يـزرع في السـودان والمستعمرات الافريقيـة ، ويحتمـل كذلك أن تعثر الشـركات على النفط ولكننا نستطيع الحصول عليـه في بلدان أخرى من غير أن نخاطر برؤوس أموالنا ، فلا فائدة لامبراطوريتنا من البقاء في العراق . فليتشجع أعضاء المجلس التأسيسي ويسرعوا فـي التصويت طبق رغبة الشعب ، فقـد آن لنا أن نتخلص مـن الدسائس والمراوغات . فاذا كان العراقيون غير قابلين بالمعاهدة وذيولها فليصرحـوا بذلك وليخرج البريطانيون من هذه البلاد ، ونقول قولاً اكيداً أن ما أمة مثل الأمة البريطانية يسرها التخلص من مشاكل بلاد منحطة وشعـب يستحيل ارضاؤه بشيء » .

وفي ٢ حزيران كتبت الجريدة نفسها تقول : ان المسـألة الرئيسية للعراق اليوم ليس الاستقلال بل الدفاع عن الموصل ضد الاتراك وانـه يجب ان يفهم الجميع اليوم وكل يوم انهم اذا لم يصادقوا على المعاهـدة فمن المحتمل أن يضيعوا الموصل ، واذا صادقوا عليها فبريطانيا تبذل كل ما في جهدها لابقاء ولاية الموصل جزءاً من العراق ، ولن تدافع بريطانيا عن

هذه الولاية في حالة عدم تصديق المعاهدة مع العلم ان العراق في وضعه الحاضر لا يمكنه الدفاع عنها •

وفي ٧ حزيران كتبت تقول : « وفي الاخير نريد ان نقول شيئا لاهالي العراق فان بعضا من النواب الذين يصرخون ضد المعاهدة هم حقيقة يصرخون ضد الحكومة لماذا ؟ لانهم يريدون أن يكونوا وزراء ••• اذا كان المجلس لا يزال راغباً بعدم ابرام المعاهدة وبعدم الثقة ببريطانيا العظمى فلا نؤمل من الحكومة البريطانية ان تساعد العراق أو تضع فيه ثقتها ، فتكون بريطانيا حينئذٍ حرة بعملها كما تشاء » •

وفي ٩ حزيران نشرت الجريدة مقالاً بعناوين مثيرة هي : «الدسائس التركية في بغداد ، بيانات مدهشة ، لم يبق سوى ٤٨ ساعة لانقاذ الموصل ، على البلاد أن تنتخب اما استبداد تركيا أو حرية بمساعدة البريطانيين ، كيف أضل الاتراك النواب والاهلين ، رفض المعاهدة يقضي على القضية العربية واستقلال العرب » • وقد أشارت الجريدة في مقالها هذا الى ما يفعله أشياع الاتراك في العراق من ترويج للاكاذيب في شأن المعاهدة والانكليز ، وكيف أن دعاة الوطنية الذين كانوا ناقمين على الانتداب في صيف ١٩٢٢ كانوا يسعون سراً لبيع الموصل للاتراك • وكذلك أشارت الجريدة الى ان الاتراك هم الذين دبروا حادثة كركوك وهي الحادثة التي قتل فيها الكثير من أهل كركوك على أيدي الجنود الاثوريين كما سنأتي اليه في الجزء القادم ، وقالت الجريدة : « كنا نظن الشعب العراقي شعباً عاقلاً مدركاً ولكننا بتنا نعتقد اليوم أنه قد عمي عن الحقائق أوجهلها بتاتاً فلم يعد يفرق بين الأخبار الباطلة والحقة ، ولم يبق لنا الا أن ننصح له عن الحقيقة الجارحة المؤلمة ••• »

وفي ١٠ حزيران نشرت الجريدة آخر مقالة تهديدية لها • ففي ذلك اليوم ينتهي أمد الانذار الذي قدمه المندوب السامي الى الملك • وكانت المقالة بعناوين مثيرة هي : « القرار العظيم ، أما أن يربح العراق حريته والعرب قوميتهم أو يخسروها في هذا اليوم » • وقد أكدت الجريدة في مقالتها دعواها السابقة بوجود علاقة بين المعارضين للمعاهدة وبين الاتراك

الذين يريدون احتلال العراق ، وتساءلت : لماذا لا يطرد الاتراك من بغداد ؟! ثم اشارت الى ان الشروط الثقيلة الموجودة في المعاهدة هي بمثابة الثمن الذي تناله بريطانيا جزاء صرفها المبالغ الطائلة من الأموال وبذلها الكثير من ارواح الجنود البريطانيين من أجل المحافظة على العراق ، فلبريطانيا الحق اذن في اصرارها على تلك الشروط مقابل هذه التضحيات.
ثم ختمت الجريدة المقالة بما يلي :

« اذا رفض المجلس ابرام المعاهدة اليوم فيكون العراقيون من عرب واكراد قد رفضوا تقدمة بريطانيا ، ويكونون قد نقضوا وعد الجنرال مود بأنفسهم . وتكون بريطانيا حرة وغير مجبرة في الدفاع عن الموصل ، فعلى النواب واجب محتم عليهم أداؤه عن الاهالي والبلاد ، ولهم أن ينتخبوا بين بناء مملكة العراق أو خرابها ، فكل فرد منهم يكون مسؤولاً أمام الشعب العراقي والأمم الأخرى للقرار النهائي الذي يصدرونه ، وذلك القرار يجب أن يكون اليوم لان بريطانيا تسحب تقدمتها حالما تدق الساعة الثانية عشرة من ليلة هذا اليوم ، وتحال مسألة ومستقبل العراق لقرار أوربا فأما أن يفوز المجلس التأسيسي بعمله اليوم ويخرج مظفراً لصالح البلاد أو يقضي على حياة شعب حديث ربما الى الابد » .

دوبس يغضب :

كان الملك في ورطة لا يحسد عليها . ففي منتصف الليل من يوم ١٠ حزيران ينتهي أمد الانذار الذي قدمه دوبس . وكان الملك يخشى أن يمتنع المجلس عن تصديق المعاهدة في ذلك اليوم ، وهو لا يدري ماذا سوف تكون العاقبة .

دعا الملك أعضاء المجلس للاجتماع به في قصره في الساعة الرابعة والنصف من عصر يوم ٩ حزيران ، وعندما اكتمل عددهم وقف يحدثهم حديثاً طويلاً بغية اقناعهم بتصديق المعاهدة . ننقل فيما يلي الجزء الأخير من حديثه لأهميته :

« لما قرأت المعاهدة وإتفاقياتها شعرت ما شعر به المجلس وشعرت به

الأمة الا اني لا أخفي عنكم شيئاً ولا أريد أن اكتم ما يكنه صدري • أرى ان موقف البلاد في خطر فلا يجب ان نسير وراء العواطف بل يجب أن نحكم العقل ••• وأنتم المسؤولون فانا أرفع عني المسؤولية وألقيها عليكم •• أنا لا اقول لكم اقبلوا المعاهدة أو ارفضوها ، انما اقول اعملوا ما ترونه الأنفع لمصلحة البلاد فان أردتم رفضها فلا تتركوا فيصلاً معلقاً بين السماء والارض ، بل أوجدوا لنا طريقاً غير المعاهدة ، وأنتم ترون اننا في حاجة الى مال ورجال لنحارب الاتراك ونقاوم الانتداب البريطاني ونقف ازاء الايرانيين وغيرهم فانا أمامكم في ميدان الحرب والسياسية ، وماضيي معلوم ، فلا تضيعوا مافي يدكم • اني أشكر للمجلس وقفته وللجنة مساعيها ، فاننا بذلك حصلنا على تحفظات وايضاحات في مصلحة العراق وعلى وعد صريح من المعتمد السامي بتعديل الاتفاقية المالية ودخولنا في المفاوضات حالاً بعد الابرام لتعديل بقية المواد وذلك اذا وافقتم على ابرامها وحسم المعضلة »(٤٩) •

يبدو ان حديث الملك هذا لم يكن ذا تأثير كبير على النواب • فقد كان المفروض أن يعقد المجلس جلسته التالية في الساعة التاسعة صباحاً ، وحين حلت تلك الساعة لم يظهر على النواب أنهم مستعدون للحضور • ومضت ساعتان بلا جدوى اذ كان النواب يدخلون ويخرجون كأنهم مترددون في الحضور • وانطلقت اذ ذاك مجادلة عنيفة مع صراخ وضجة فى البهو المؤدي الى المجلس ، وشوهد سالم الخيون على رأس عدد من النواب وهم يهمون بالخروج من المجلس ، وجاء نواب آخرون يدعونهم للعودة ويلحون عليهم حتى استطاعوا ارجاعهم • وفي الساعة الحادية عشرة والنصف اكتمل النصاب في القاعة غير أن أحد النواب طلب تأجيل الجلسة قليلاً من الوقت فوافق الرئيس على تأجيلها نصف ساعة •

وعندما بدأت الجلسة في الساعة الثانية عشرة والنصف حصلت مجادلة بين فريقين من النواب احدهما يؤيد اقتراح نواب الشمال في تأجيل

---

(٤٩) جريدة « العالم العربى » — في عددها الصادر في ١٠ حزيران ١٩٢٤•

تصديق المعاهدة الى ما بعد حسم قضية الموصل ، والآخـــر يؤيد اقتراح الهاشمي وجماعته في وجوب تعديل المعاهدة قبل تصديقها • وقد امتعض رئيس الوزراء من ذلك كل الامتعاض ، ذلك لانه كان يأمل من النــواب أن ينظروا في أمر تصديق المعاهدة بوضعها الحالي ولكنه وجدهم مختلفين حول اقتراحين لا يؤدي أي منهما الى المطلوب • وخرج رئيس الــوزراء من القاعة حيث اتصل بالملك تلفونياً وأخبره بأن الحالة سيئة ، ثم عاد الى القاعة طالبا من رئيس المجلـــس تأجيل الجلسة الى الغد ، فوافق الرئيـــس على ذلك حالاً • وانطلق النواب خارجين كما ينطلق الطير على حد تعبير الكابتن هولت الذي كان حاضراً آنذاك في شرفة المستمعين(٥٠) •

حين علم دوبس بما جرى في المجلس انفجر غاضباً بشكل غير مألوف في الخلق البريطاني • ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان دوبس معروف بشدة غضبه ، وتروى عنه في ذلك أقاصيص غريبة ، فقد شاع عنه انه اذا غضب على موظف لديه قذف بالمحبرة في وجهه • وقد قذف ذات مـــرة أصيصاً للزهور على الأرض وحطمه لانه لم تعجبه الطريقة التي زرعــت الزهور فيها •(٥١)

وقد تحدثت المس بيل في رسالة لها عن غضب دوبس عند سماعـه بما جرى في المجلس فقالت : « أسرعت باخبار كورنواليس بالأمر تلفونيا فهتف قائلا : يا الهي ! • ثم ذهبت الى السر هنري لاخبره فكان على درجة من الغضب لم أشهد مثلها في أحد غيره • وبينما كنا نتداول الحديث رن جرس التلفون وكان من الملك وهو يطلب مهلة يوم واحد • فأجابه السر هنري دوبس بالرفض وقال له انه سيزوره ليطلب منه حل المجلس فـي منتصف الليل اذا لم يكن في الامكان جمعه عصراً ••• » • وتضيف المس بيل الى ذلك قائلة : « ان السر هنري أخذ يزداد غضباً لحظة بعد أخرى ،

---

(50) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 345.
(51) Sinderson (Ten Thourand and One Nights) - London 1973 - p. 77.

معتبراً الأمر من تدبير الملك ، ولكن هذا غير صحيح • وصار يسب هذا ويسب ذاك ، الى أن اقترحت عليه أن نذهب لتناول طعام الغـداء • ان السر هنري المثير للشفقة أخذ يهدأ غضبه تحت تأثير كأس من البـيرة المثلجة •(٥٢)

ليلة ليلاء :

في الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم ذهب جعفر العسكري ومعه ياسين الهاشمي الى دار الاعتماد البريطاني في الكرخ لمقابلة دوبس • وحين وصلا الى الدار وجدا دوبس يهم بالخروج منها ، وقد نظر اليهما شزراً وقال انه ذاهب الى الملك فيصل ليطلب منه حل المجلس التأسيسي فوراً اذ لا يرجى من وجود المجلس أي خير للعلاقات بين بريطانيا والعراق(٥٣) •

عاد العسكري الى مقره عاجلا وأخذ يسعى لجمع النواب أملاً بأن يجتمع المجلس مساءاً ويصادق على المعاهدة قبل انتهاء أمد الانذار • أما دوبس فقد وصل الى قصر الملك في الساعة الرابعة ، وحين دخل عليـه وجد كورنواليس جالساً عنده ، فقدم الى الملك ورقة تتضمن انذاراً يطلب فيه حل المجلس اعتباراً من منتصف تلك الليلة واصدار التعليمات الـى وزارة الداخلية لغلق بناية المجلس فوراً واحاطتها بقوة من الشرطة تكفي لتنفيذ هذا الامر • وقد أذعن الملك لهذا الانذار ، واستدعى مستشار وزارة العدلية البريطاني الى القصر لاعداد لائحة قانون لحل المجلس • .

كان جعفر العسكري في اثناء ذلك منهمكاً في محاولاته لجمع النواب، واستطاع أن يأتـي بعـدد منهـم الى بناية المجلـس ، ولكن سالم الخيون وجماعته وقفوا عند باب المجلس يحرضون النواب على عدم الدخـول • وفي الساعة الثامنة اتصل العسكري بالملك تلفونياً يخبره بأنه لم يتمكن من جمع العدد الكافي من النواب وهو يرجو منحه مهلة يوم واحد ، فرفض دوبس منحه هذه المهلة • وكانت لائحة قانون حل المجلس قد تم اعدادها

---

(52) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 344 - 345.

(٥٣) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٨٥ •

حينئذٍ وضعت بين يدي الملك لتصديقها[٥٤] .

عاد جعفر العسكري الى السعي من جديد لجمع النواب ، وصار يبذل اقصى جهده في هذا السبيل كأنه أدرك بان مصيره السياسي معلق بنجاحه فيه . وقد عاونه في ذلك اخوه تحسين العسكري الذي كان يومذاك مديراً عاما للشرطة ، واستنفر هذا جهاز الشرطة كله للبحث عن النواب في كل مكان والاتيان بهم الى المجلس . وكان الملك قد أرسل مرافقه تحسين قدري لمعاونتهم .

استعملت شتى الوسائل من أجل جلب النواب الى المجلس ، حيث استعمل الرجاء والتضرع أحياناً ، والالحاح الشديد أحياناً أخرى ، وربما استعمل التهديد أو العنف مع البعض منهم . قال الحاج ناجي الكرادي في حديث له مع المس بيل عن تلك الليلة : « ان الشرطة سحبوه من فراشه ووضعوه في سيارة وكان لا يدري هل سيأخذونه الى المقصلة أم الى مكان آخر »[٥٥] .

وفي العاشرة والنصف من تلك الليلة أمكن جمع ثمانية وستين نائباً . فحشروا في قاعة المجلس وبدأت الجلسة يسودها التوتر الشديد .

لقد كانت تلك جلسة يندر أن يكون لها مثيل في تاريخ المجالس النيابية في العالم ، فقد كان كل نائب في القاعة يشعر كأن الدنيا كلها تراقبه وستحاسبه على ما يفعل في هذه الجلسة . وكانت شرفات المستمعين غاصة بالمحامين وغيرهم وقد شخصت أبصارهم نحو القاعة وألسنتهم مستعدة لصب اللعنات على آباء الذين سيوافقون على المعاهدة . أما الوزراء فقد تركوا مقاعدهم الخاصة بهم على يمين منصة الرئاسة واندسوا بين النواب يتوسلون اليهم ان يوافقوا على المعاهدة : « يا معودين ، البلاد في خطر ، حكموا العقل » . وكان ياسين الهاشمي يلعب لعبته المعروفة في اثناء ذلك اذ كان يعارض المعاهدة ظاهراً ويدعو الى تصديقها سراً ، كما كان

---

(٥٤) فيليب آيرلاند (المصدر السابق) ــ ص ٣١٦ .

(55) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, 348.

السعدون يلعب لعبته ايضاً في عرقلة تصديق المعاهدة تشفياً بالملك وبصاحبه جعفر العسكري ٠

كان هناك بين يدي السعدون تقريران هما تقرير المعارضة الذي يدعو الى تعديل المعاهدة قبل تصديقها ، والثاني تقرير الحكومة الذي يدعو الى تصديق المعاهدة أولاً ثم الدخول بعدئذٍ في المفاوضة لتعديلها ٠ فقدم السعدون تقرير المعارضة أولاً ، وطلب من كل نائب أن يقف عند ابداء رأيه ، وكان قصد السعدون من ذلك تخويف المؤيدين للمعاهدة من ابداء آرائهم تحت أنظار الجالسين في شرفات المستمعين(٥٦) ٠ ولكن خطته فشلت اذ لم يؤيد تقرير المعارضة سوى ثلاثة وعشرين نائبا فقط ، أما تقرير الحكومة فقد أيده ٣٧ نائباً ٠ وقد استنكف عن التصويت ثمانية(٥٧) ٠

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ان أحد النواب كان قد وعد المس بيل باعطاء رأيه في تأييد المعاهدة ، ولكنه عند التصويت أخرج مسبحته من جيبه فاستخار الله بها وكانت نتيجة «الخيرة» سلبية ، وأصيبت المس بيل بخيبة أمل فيه أخيراً ٠

وكان الحاج ناجي الكرادي من جملة المستنكفين الثمانية ٠ وقد جاء الى المس بيل بعدئذٍ وهو خجلان وأخذ يعتذر اليها عن عدم تأييده للمعاهدة ، وبرّر ذلك بما جرى له عندما سحبوه من فراشه ليلا ٠ فقبلت المس بيل عذره وأخذت تسليه ووعدته بزيارته في بيته لتناول طعام العشاء معه فوق السطح تحت أشعة البدر(٥٨) ٠

عندما انتهت الجلسة على أثر تصديق المعاهدة أبدى بعض النواب المؤيدين لها تردداً في الخروج من المجلس مخافة أن يغتالهم أحد ، ولهذا وجب تجهيز كل منهم بشرطي واحد او اثنين لحمايته ٠ ولكن الخوف لم يتطرق الى نوري السعيد ، فهو كان يحمل في جيبه قنبلة يدوية ، وحين

(56) Ibid, vol. 2, p. 346.

(٥٧) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٨٧ ــ ١٨٩ ٠

(58) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 348.

خرج من المجلس استصحب معه بسيارته احد النواب المؤيدين للمعاهدة وهو مظهر الحاج صكب، وأخرج نوري القنبلة من جيبه وقال لمظهر: ان هذه في مقدورها أن تقتل مائتي شخص مرة واحدة • وتقول المس بيل في تعليقها على ذلك : ان وجود القنبلة كان ذا تأثير مهدىء على مظهر الحاج صكب ولكنها ليست كذلك معي حين أركب سيارة شديدة الاهتزاز(٥٩) •

خرجت جريدة « الاوقات البغدادية » في ١٢ حزيران تقول : « استقبل تصديق المعاهدة بصورة عامة بعدم المبالاة ، ولم يكن هناك مظهر من مظاهر التحبيب او الفرح التى كنا نتوقعها ، فلم نسمع شيئاً من هذا بينما كنا نسير في الشوارع بعد ان تم انجاز الحادث الهام في المجلس التأسيسي ، كما لم نشاهد او نلاحظ أياً من زمر الشباب المسلحين بالعصي والسكاكين والمسدسات والذين جعلوا أنفسهم بارزين الى درجة كبيرة خلال فترة مناقشات المجلس » •

وفي ١٨ حزيران كتبت المس بيل تقول : « ان السر هنرى عندما أبرق بالمعاهدة الى لندن في ١١ حزيران طالبا اخباره هل هى مقبولة ، لم نحصل على جواب • ان من الصعب أن تتصور ذلك ولكننا لم نحصل على جواب الا في ١٧ منه • انه أمر غير لائق للغاية • فالجرائد المحلية بدأت تظهر شكوكها حول رفض الحكومة البريطانية للمعاهدة • وأخذ النواب الذين أيدوا المعاهدة يتوافدون علي قلقين ، ولم استطع الا أن أعطيهم جوابا غير قابل للتصديق تقريبا هو ان الحكومة البريطانية كلها ذهبت فى عطلة ولم تنظر في المعاهدة بعد • ولما وصل الجواب اخيرا لم يكن فيه سوى خبر مجرد هو أن الحكومة البريطانية قبلت القرار ـ دون أن تكون فيه كلمة واحدة لشكر السر هنري أو تهنئته وهو الذى كان عليه ان يتخذ القرارات الخطيرة والذي اتخذ فعلا القرارات الصحيحة التي أدت بالسياسة البريطانية الى هذه النتيجة السعيدة • أن السر هنري متألم جدا »(٦٠) •

---

(59) Ibid, vol. 2, p. 346.
(60) Ibid, vol. 2, p. 347 - 348.

الهاشمي من السلب الى الايجاب :

في ١٣ حزيران كتبت جريدة « المفيد » تهاجم الهاشمي وتندد بسلوكه المزدوج ، إذ قالت تخاطبه : « انكم كما علمنا من مصادر موثوقة يعول عليها قد صرحتم مرارا عديدة لبعض الساسة البريطانيين ولاصدقائكم من الوزراء الحاليين وغيرهم بأن الأفيد للعراق هو ابرام المعاهدة وحرضتم الكثير من النواب بمثل هذه الاساليب على تصديقها ، وهذا شيء لايمكن نكرانه لاننا لانعجز عن اثباته بالبراهين الكثيرة ، فاذا كان الامر كذلك فما هو الذي حدا بكم الى المعارضة عند التصويت بعد أن زودتم كثيرا من زملائكم بالنصائح في تأييد المعاهدة »•

وفي ١٨ حزيران كتبت المس بيل تقول : « اني اتوقع ان جعفر سوف يضطر الى ادخال ياسين في الوزارة ـ اذا اراد هو الدخول فيها • انه قوة وان قوته مستمدة من تأييد المتطرفين له ، ومع ذلك فهو أقل خطرا في الوزارة منه في خارجها • انه كان منذ اسبوع تقريبا ينوى تبديل موقفه وتأييد المعاهدة وأخذ يعمل في هذا الاتجاه ، ولكنه وجد أنه غير قادر على الاحتفاظ بحزبه ، وأنه سيفقد اعتباره بينهم ، وعلى الرغم من يقينه بان ذلك قد يؤدي الى كارثة فانه رفض المعاهدة • يجب أن نذكر انهم كانوا جميعا غير مصدقين بأننا سوف نخرج من البلاد ، ولهذا فان رفض المعاهدة لم يكن في نظرهم بهذه الخطورة »[٦١] •

وفي ٩ تموز كتبت المس بيل تقول : « ان وزارة جعفر العسكرى تترنح سائرة نحو قبرها ، وآخر عمل قام به السر هنرى هو الاستمداد لمولد وزارة جديدة • ان ياسين باشا هو الذى اختير لتشكيل الوزارة • انه اقدر انسان هنا من ناحية الذكاء ولكني انظر الى أمر تسنمه منصب رئاسة الوزارة بعين الريبة • غير أني أسلي نفسي بالتفكير بان السر هنري يعرف الامور أكثر مني وأنه قد اتخذ الحل الافضل »[٦٢] •

من الجدير بالذكر ان وزارة العسكرى لم تسقط في تلك الفترة

(61) Ibid, vol. 2, p. 847 - 848.
(62) Ibid, vol. 2, p. 248 - 249.

كما تنبأت المس بيل ، بل ظلت قائمة حتى أنهى المجلس التأسيسي تصديق الدستور وقانون انتخاب النواب • وفى ٢ آب انفض المجلس التأسيسى بعد أن اكمل عمله • وفى اليوم نفسه قدم العسكرى استقالة وزارته ، فقبلها الملك واستدعى اليه ياسين الهاشمي لتشكيل وزارة جديدة •

تولى الهاشمي وزارة الدفاع وكالة بالاضافة الى رئاسة الوزراء ، وتولى السعدون وزارة الداخلية ، وساسون حسقيل وزارة المالية ، ورشيد عالي الكيلاني وزارة العدلية ، ومزاحم الباججي وزارة الاشغال والمواصلات ، وابراهيم الحيدري وزارة الاوقاف ، ورضا الشبيبي وزارة المعارف •

كان الملك يريد اسناد وزارة الدفاع الى نوري السعيد ، ولكنه لم يوفق • انه كان يريد ابعاد الهاشمي عن أن يكون ذا اتصال مباشر بالجيش ، ولهذا طلب ايجاد منصب جديد في وزارة الدفاع هو منصب وكيل القائد العام ـ باعتبار ان الملك نفسه هو القائد العام ـ واسناد المنصب الى نوري لكي تذهب أمور الجيش عن طريقه الى الهاشمي • وقد أجيب الملك الى طلبه هذا •

وفي ٥ آب كتبت المس بيل تقول : « ان ياسين وساسون جاءا لزيارتي في يوم الاثنين • وعندما صافحني ياسين قال : اننا نريد مساعدتك ، مساعدتك انت بصفة خاصة • فقلت لهما ان كل وزارة تُعيّن من قبل الملك ويوافق عليها المندوب السامى لها الحق بأن تطلب مساعدتى • ولما أرادا الخروج كرر ياسين قوله الاول بجدية تامة • فكتبت اليه أقول إنه سوف يحصل طبعا على مساعدتي كاملة ، ولكني لم أضف الى ذلك شيئاً• فان لي ملاحظة دقيقة جدا هي ان جريدة « الاستقلال » التى كان جعفر قد اغلقها في وقت الاضطرابات اثناء مناقشة المعاهدة قفزت أمس الى عالم الوجود وهي تشتم وزارة جعفر متهمة اياها بالطغيان • ان محرر الجريدة وكاتبها الرئيسي كليهما الآن في جيب ياسين ، وأنا متأكدة الى حد كبير ان كل شيء يظهر في جريدة « الاستقلال » أما ان يكون من وحي ياسين أو يكون هو قد وافق عليه على أقل تقدير »[٦٣] •

(63) Ibid, vol. 2, p. 349 - 350.

خاتمـــة

نمو الوعي السياسي في العراق الحديث

قد يلاحظ القارىء من مطالعته هذا الجزء ظهور الوعي السياسي في العراق بشكل واضح قوى • ومن الجدير بالذكر ان هذا الوعي لم يكن موجودا في العراق في بداية هذا القرن ، اذ كان الوعي الديني حينذاك هو الذى يقوم مقامه في اذهان الناس • والواقع ان هذا التحول الذى يشـــبه الطفرة في الوعي السياسي ظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة ، ومن المؤسف أن نراها غير مدروسةمن قبل كتابنا وباحثينا بالرغم من أهميتها لفهم حياتنا الحاضرة • واني أقدم فيما يلي دراسة موجزة لتلك الظاهرة عسى أن يكون في ذلك تشجيع لغيري للتوسع فيها •

المعروف عن العامة في العهد العثماني انهم كانوا لايحبون التدخل في السياسة وكانوا يعتبرونها أمرا خارجا عن مجال اهتمامهم ، لانها خطرة عليهم من جهة ، ولانها لاتعطيهم « خبزا » من الجهة الاخرى • فاذا تحدثت الى أحد منهم فى السياسة قال لك : « عمي هذا موشغلي ، أنا أريد شغل ينطيني خبز » • وتروى في ذلك قصة حدثت في الحرب الاولى ، خلاصتها : ان شابا من أهل الكاظمية كان مولعا بقراءة الجرائد وتتبع أخبار الحرب ، وكان أبوه ينصحه ويردعه دون جدوى ، وفي أحد الايام جاء هذا الشاب الى بيته وهو يهتف : « سقطت وارشو ! » • فقد قرأ ذلك في الجرائد وفرح به ، فاراد أبوه أن يلقنه درسا يردعه عن الاشتغال بمثل هذه الامور التى لافائدة منها ، فأخذ بيده وجاء به الى بائعة شوك في السوق حيث قال لها : « هل تبيعين باقة الشوك بسقوط وارشو ؟ » • فلم ترض المرأة بذلك طبعا وسخرت منه ، وعند هذا التفت الاب نحو ابنه قائلا « انظر الى هذا الخبر الذي جئت به فهو لايسوى باقة شوك !» •

وكان العامة بالاضافة الى ذلك يحرصون على احترام رجال الحكم والتزلف اليهم درءاً لشرهم • وقد اتضح هذا في امثالهم الدارجة : « كل من يأخذ أمي أسميه عمي » ، «انا عبد اللي يخلي بالسكلة ركي » « أذا صارت حاجتك عند الكلب سميه حاج كليب » ، « جيب نقش وكل عوافي »، « اليد التى ماتقدر تقطعها بوسها » ، « أنا شعليه » ، « ياهي مالتي » ، « الحاكم حكيم » ، « لان ماكان الله ينصر السلطان » ، وغيرها •

تمثلت هذه العادة بوضوح لدى الرؤساء والوجهاء إذ هم اعتادوا على التزلف الى رجال الحكم ، ووضع اختامهم على كل « مضبطة » يطلبونها منهم ، والدعاء اليه تعالى ان ينصر الدين والدولة « آمين ! » • وقد اعتاد العامة ان يتزلفوا الى هؤلاء الوجهاء بمقدار ما يتزلف الوجهاء الى الحكام • فهي كانت حلقة متصلة الحلقات ، يتزلف الواطي فيها الى العالي درجة فوق درجة • والملاحظ ان كلاً منهم إذ يحترم الذى فوقه ظاهرا يبغضه باطنا ويدعو الله أن يهلكه « آمين ! » •

هذا هو ما كان الناس عليه حتى بداية القرن العشرين ، أو بعبارة أدق : حتى عام ١٩٠٦ • ومنذ هذا العام أخذت الاحداث تتوالى على العراق من النوع الذى يحرك الاذهان ويثير الجدل • وقد استطاعت تلك الاحداث في خلال بضع عشرة سنة ان تحول الشعب العراقي من طور اللاوعي في السياسة الى طور الوعي الشديد •

لقد تطرقنا في هذا الجزء وبعض الاجزاء السابقة الى ذكر تلك الاحداث بتفصيل • وسنحاول اعادة ذكرها باختصار مع بعض الاضافات اليها ، وقد جعلناها مرقمة حسب تسلسها الزمني لكي يستطيع القارىء أن يأخذ عنها صورة عامة موحدة •

اولا : ان اول حدث نبه أذهان العراقيين الى السياسة هو ما يسمى بحركة « المشروطة » أي حركة المطالبة بالدستور ، وذلك في عام ١٩٠٦

حين وصلت الى النجف أنباء النزاع الذى استفحل في ايران بين انصار المشروطة وانصار الاستبداد • وسرعان ما انتقلت عدوى النزاع الى النجف، فتبنى الملا كاظم الخراساني مبدأ المشروطة ، والسيد كاظم اليزدي مبدأ الاستبداد • وانقسم الناس الى فريقين متخاصمين ، وصار كل منهما يتهم الآخر بالكفر وبالمروق عن الاسلام •

يجب أن لاننسى ان النجف لها تراث جدلي قديم ، ولكن الجدل فيها كان فى الماضي يدور حول قضايا اعتقادية وكلامية لاصلة لها بالواقع الراهن ، كقضية الخلافة مثلا ومن هو أحق الناس بها بعد النبي : علي أم أبو بكر • فلما جاءت حركة المشروطة خرج الجدل بها من اطاره القديم وصار واقعيا له مساس بمصالح الناس ومشكلات حياتهم • وأخذ الوعاظ والروضخونية يتحدثون عن السياسة كمثل ماكانوا قبلئذ يتحدثون عن علي وأبي بكر ، وربما ربطوا بين الحاضر والماضي ليخرجوا من ذلك بالنتيجة التى يريدونها •

لقد كان اكثر العامة من انصار الاستبداد • أما انصار المشروطة فكانوا في الغالب من الفئة التى يطلق عليها اسم « المتنورين » ، وقد أخذ هؤلاء يدعون الى بعض المبادىء والمفاهيم الحديثة كفتح المدارس ومطالعة الجرائد وتعلم اللغات الافرنجية وتحرير المرأة وغيرها من الامور التىكان العامة يعدونها من الامور المستنكرة أو المحرمة • حدثني أحدهم: ان الجرائد كانت تأتي اليهم خلسة فيجتمعون في بيت أحدهم سرا لمطالعتها ، فاذا خرجوا من البيت أخفوها تحت عباءاتهم مخافة أن يراها أحد من العامة أو مؤيديهم من رجال الدين فيتهمهم بالتفرنج أو الماسونية •

لاحاجة بنا الى القول ان هذا الصراع الذى حدث في النجف لابد أن ينتقل أثره الى المدن الشيعية الاخرى ، ولا سيما العتبات المقدسة • وصار الكثير من الناس هنالك لاحديث لهم فى مجالسهم ومقاهيهم سوى حديث الاستبداد والمشروطة ، والنزاع بين الخراسانى واليزدي •

ثانيا : في عام ١٩٠٨ حدث حادث له صلة وثيقة بالحادث الآنف الذكر ، ففي ٢٤ تموز من ذلك العام وصل الى بغداد نبأ انتصار جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول ،وهي الجمعية التى كانت تدعو الى الدستور في البلاد العثمانية • وقد اهتز العراق لهذا النبأ وانتشرت معالم الزينة والفرح في كل مكان ، وظهر على الجدران شعار الجمعية المؤلف من أربع كلمات هي : « حريت عدالت مساوات اخوت » • وبدأت فروع الجمعية تفتح في بغداد والمدن الاخرى حيث انتمى اليها الافندية والوجهاء والرؤساء، وظهرت جرائد عديدة وهي تلعن العهد البائد وتبشر الناس بعهد زاهر جديد تسود فيه الحرية ويتساوى الناس أمام القانون بمختلف أديانهم وطبقاتهم •

ان هذه الموجة من الفرح والتفاؤل لابد ان تثير رد فعل لدى المحافظين، فهم اعتبروا العهد الجديد مخالفا للشريعة الاسلامية لانه يساوي بين المسلمين والنصارى واليهود ، ولانه يستمد دستوره من الافرنج بينما الواجب أن يستمده من كلام الله • وقد تأسست في بغداد جمعية باسم « المشور » للدفاع عن الشريعة المحمدية ومقاومة الافكار اللادينية • وفي ١٣ تشرين الثاني حدث حادث كان بمثابة الشرارة التي تشعل النار خلاصته: ان اثنين من الاتحاديين هما معروف الرصافي وعبداللطيف ثنيان ذهبا الى جامع الوزير المقابل للسراي ، وكان معهما بعض انصارهما • وصادف آنذاك ان كان أحد الوعاظ على المنبر يعظ الناس ، فأنزله الرصافي من على المنبر وصعد مكانه وأخذ يقرأ بيانا حزبيا ، ثم ألقى خطبة حماسية أشاد فيها بمبادىء جمعية الاتحاد والترقي من حيث منحها الحرية والمساواة للناس على مختلف أديانهم وطبقاتهم • ولم يكد الرصافي ينتهي من خطبته ويخرج من الجامع مع اصحابه حتى انطلقت اشاعة في الاسواق مفادها ان الاتحاديين أهانوا الدين الاسلامي • فاجتمع أعضاء جمعية « المشور » في احد الجوامع وأصدر احدهم فتوى باعدام الرصافي واصحابه شنقا ، ثم خرجت من الجامع مظاهرة وهي تهتف : « الدين يامحمدا »• واتجهت نحو دار الوالي القريبة

من الباب الشرقي ، وأغلقت الاسواق مخافة النهب • وعندما وصل المتظاهرون الى دار الوالي ارتفعت أصواتهم بشتم الكفرة المارقين ، وطالبوا بشنقهم ، واضطر الوالي أن يوعز الى الشرطة بالقاء القبض على معروف الرصافي وعبداللطيف ثنيان ، فقضى هذان الرجلان في الحبس بضعة أيام ثم أطلق سراحهما بعد أن هدأ الناس •

ثالثا : في أواخر ١٩١١ تأسس في اسطنبول حزب معارض لحزب « الاتحاد والترقي » هو « الحرية والائتلاف » • وبدأ منذ ذلك الحين صراع عنيف بين الحزبين انتقلت عدواه الى العراق ، وظهرت آثاره على صفحات الجرائد ، وفي دوائر الحكومة ، والانتخابات• وصار الافندية في بغداد فريقين متخاصمين : هذا اتحادى وذاك ائتلافي •

وقد لعب السيد طالب النقيب دورا مهما في هذه المرحلة • فهو في أول الامر فتح فرعا لحزب الائتلاف في البصرة ، ولكنه في أوائل **١٩١٣** حوّل ذلك الفرع الى حزب قائم بذاته سماه « الجمعية الاصلاحية » ، وأخذ ينادى بالعروبة والقومية العربية ويوثق علاقاته مع دعاة العروبة في لبنان والجمعية اللامركزية في مصر • وقد اشتد النزاع من جراء ذلك بين السيد طالب والاتحاديين ، وأخذ هؤلاء يكيدون له ، فأرسلوا الى البصرة قائدا صارما اسمه فريد بك للقضاء عليه ، ولكن السيد طالب أرسل اليه من اغتاله في ٢٠ حزيران ١٩١٣ • ولم يستطع الاتحاديون ان يفعلوا شيئا للانتقام من السيد طالب أو كبح جماحه •

كان السيد طالب يملك الشخصية التى تثير اعجاب العراقيين وهي الشخصية التى تستمد جذورها من قيم البداوة ، إذ كان « سبعا كريما » أو بعبارة أخرى : نهابا وهابا • وعندما تمكن من اغتيال القائد التركي فريد بك ارتفعت سمعته بين العراقيين الى القمة ، وأصبح اسمه على الافواه في كل مكان ، وسمي بـ « عميد العراق » ، وقصده الشعراء ليلقوا بين يديه قصائد المديح على طريقة السلاطين القدامى، وكان هو من جانبه يبذل لهم الجوائز•

إنه كان يفرض الاتاوات على الاغنياء من جهة ، ويغدق الامـــوال على الشعراء وغيرهم من الجهة الاخرى •

لم يكن لدى الاتحاديين من سلاح تجاه السيد طالب سوى سـلاح الدين ، فقد كانت الدعوة القومية تعتبر في تلك الايام دسيسة من الكفار للتفريق بين المسلمين وهدم كيان الدولة العثمانية • يقول سليمان فيضـــي الذي كان آنذاك سكرتير السيد طالب : انه عندما ذهب الى الموصل في عام ١٩١٣ لم يجد فيها من المؤمنين بالقضية العربية الا أفرادا قلائل جدا ، ذلك لأن النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل وقفت حائلا بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصبغة الاسلامية والخلافة المقدسة • ولهذا راجت في الموصل حول سليمان فيضي اشاعات واراجيف مؤادهـا انه يبشر بنبذ التقاليد الدينية وعصيان خليفة رسول الله[١] •

رابعا : في اوائل تشرين الثاني ١٩١٤ بدأ الانكليز هجومهم على العراق من ناحية الفاو ، وعند هذا انطلقت البرقيات المثيرة من البصرة موجهة الى سكان العراق قائلة : ان الكفار يهددون البصرة ، وان بلاد الاسلام في خطر ، ساعدونا ! فقرأت هذه البرقيات على الناس في المساجد ونادى المنادون بها في الاسواق ، وأخذ الوعاظ والخطباء يلهبون مشاعر الناس بخطبهم الحماسية يؤكدون فيها على ان الانكليز اذا احتلوا العراق فسيهدمون مساجده وعتباته المقدسة ويحرقون القرآن وينتهكون حرمات النساء ويذبحون الاطفال • وقد صدق الناس بهذه الاقوال ، وانتشر الرعب بينهم ، واصدر رجال الدين فتاويهم بوجوب الدفاع عن البلاد الاسلامية واعلان الجهاد على الكفار ، وأخذ الكثير منهم يستعدون للذهاب الى جهة الحرب للقيام بهذا الواجب الذي يحتمه الشرع عليهم •

الواقع ان العامة كانوا يبغضون الحكومة التركية بغضـا شـــديدا ويتمنون زوالها لما أنزلته بهم من ويلات التجنيد والنقود الورقية والمصادرات

---

(١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ١٢١ •

وغيرها ، فلما أعلن الجهاد صاروا في حيرة من امرهم ، فان الدين يأمرهم بالدفاع عن الحكومة من جهة ، بينما ظروفهم الواقعية تدفعهم نحو عصيان الحكومة من الجهة الاخرى • وهذا هو الذى جعل الكثيرين منهم يتحولون من موقف الجهاد الى موقف العصيان خلال فترة قصيرة ، وقد اتضح هذا في النجف بشكل محسوس إذ رأيناها مركزا لحركة الجهاد في أول الامر ثم أصبحت بعد قليل مركزا لحركة العصيان • وكذلك رأينا العشائر تذهب الى جبهة الحرب اطاعة لامر رجال الدين ، غير أنها لم تكد ترى الجيش التركي مهزوما حتى انثالت عليه نهبا وتقتيلا •

خامسا : كان الانكليز قبيل الحرب وفي أثنائها قد اتخذوا مع العرب سياسة تشجيع المبادىء القومية والاستقلالية والتحررية وما أشبه ، وذلك لغرض اضعاف الدولة العثمانية وتفتيتها • ولما احتل الانكليز العراق صاروا يضربون على هذه الاوتار ، وكان مما أعلنوه في ذلك عبارتهم المشهورة : « اننا جئناكم محررين لا فاتحين » • ومن الجدير بالذكر ان العسكريين البريطانيين فى العراق لم يكونوا راضين عن هذه السياسة اعتقادا منهم أنها تفتح عيون العراقيين وتجعلهم يتطلعون الى الحرية والاستقلال ويطالبون بهما مما يسبب لهم المشاكل في المستقبل • ولكن حكومة لندن أصرت على التمسك بهذه السياسة تحت تأثير بعض الدوافع السياسية والدولية •

كان يتولى حكم العراق في فترة الاحتلال ضابط شاب هو الكولونيل ويلسون ، وكان هذا الضابط معتقدا اعتقادا جازما بخطأ سياسة حكومته في اغداق الوعود للعراقيين ، ففي رأيه ان العراقيين جهلة لايصلحون للحكم الذاتي ، وان من مصلحتهم ان يظلوا تحت الحكم البريطانى المباشر الى ان يتعلموا فن الحكم • وقد اشتد الخلاف بين ويلسون وحكومته حول هذا الموضوع ، فكانت لندن تريد انشاء حكومة وطنية في العراق ذات مظهر عربي وباطن انكليزي بينما كان ويلسون يريد انشاء حكومة انكليزية قلباً وقالباً • وقد أدى هذا الاختلاف في السياسة الى ظهور وضع متوتر في

العراق أشار اليه السيد علوان الياسري ، وهو من قادة ثورة العشرين ، إذ قال مخاطباً أحد الحكام البريطانيين : « نحن عشنا قبل هذا مئات السنين في وضع بعيدا جدا عن الاستقلال ، ولكنكم جئتم الينا أخيرا فاعطيتمونا وعودا بالاستقلال . انكم عرضتم علينا فكرة الاستقلال في وقت نحن لم نطلبه منكم. ولم نكن نحلم به حتى جئتم فوضعتم الفكرة فى رؤسنا ، والآن في كل مرة نطالبكم بالاستقلال تسجنوننا »[٢] .

سادسا : في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ أبرقت حكومة لندن الى ويلسون تطلب منه القيام باستفتاء عام في العراق بغية التعرف على نوع الحكم الذى يرغب فيه السكان والشخص الذى يريدونه أميرا عليهم . وقد أكدت البرقية على ويلسون أن يكون تعبير السكان عن آرائهم حقيقيا ، ولكن ويلسون وجد فى هذا الأمر ما لاينسجم مع رأيه فلم يتبعه حرفيا وحاول المراوغة فيه . انه أصدر أوامره السرية الى الحكام السياسيين فى الالوية يؤكد عليهم أن يستحصلوا من السكان الآراء المؤيدة لاستمرار الحكم البريطانى وان لايسمحوا للآراء المخالفة بالظهور . وقد أطاع الحكام أمره، ولهذا كانت نتيجة الاستفتاء ان اكثر السكان طلبوا بقاء الحكم البريطانى في العراق ، ولم يشذ عنهم في ذلك سوى فئة قليلة ـ فى بغداد والكاظمية وكربلاء والنجف ـ إذ هي طلبت حكما عربيا برئاسة أحد أنجال الشريف حسين .

الواقع ان الاستفتاء كان مفاجأة غير مفهومة في نظر أكثر العراقيين ، اذ هو كان اول مرة في تاريخ العراق تسأل الحكومة رعاياها : ماهو نوع الحكم الذي يرغبون فيه . انهم لم يستطيعوا أن يصدقوا آذانهم عندما قيل لهم ان الدولة التي فتحت بلادهم بحد السيف ، وبذلت فيها الكثير من الاموال والارواح توجه اليهم مثل هذا السؤال حقا . فهذا أمر لم يكونوا يفهمونه أو أنه خطر

---

(2) Mann (An Administrator In The Making) - London 1921 P. 292.

بالهم • وعندما وجدوا الامر اصبح جديا وان الحكام استدعوهم ليسألوهم «ماذا تريدون» أخـذوا يتساءلون فيما بينهم : ما هـو الغرض من هـذا السؤال ، ولابد أن يكون وراءه سر لايفهمونه •

ان أحد الوجهاء أعلن ذلك بصراحة حين قال يخاطب الحاكم الذى وجه اليه السؤال : « ان سؤالكم لنا وانتم الحكومة ماهو نوع الحكم الذى نريده يدل على شيء غير اعتيادي، وهو أمر لم نسمع به من قبل • فما شأني أنا في هذا الموضوع • فانتم لو عينتم علينا حاكما نصرانياً أو يهوديا أو عبداً حبشياً كان ذلك بالنسبة لي حكومة على أي حال »(٣) • ويقول مهدي البصير الذى عاصر الاستفتاء وشهد بعض احداثـه : ان وقت الاستفتـاء كان وقت عجائب وغرائب واشاعات وأراجيف ، وقد أشيع في البداية ان غرض الحكومة من الاستفتاء هو أنها تريد ان تسبر غور الناس لكي تعلم من هم أصدقاؤها ومن هم أعداؤها فتثيب هؤلاء وتعاقب اولئك بما تقتضيـه مصلحتهـا(٤) •

وعلى أي حال فان ويلسون فرح بنتيجة الاستفتاء وأبرق الى حكومته يعلمها بالنبأ السار هو ان اكـثر العراقيين يرغبـون في استمرار الحـكم البريطاني المباشر • والملاحظ ان ويلسون في تقاريـره التي أرسلهـا الى حكومته بعد ذلك يؤكد على هذه النقطة ، فهو قد تجول في أنحاء العراق واجتمع بالوجهاء والرؤساء واستمع الى آرائهم ، فوجدهم جميعا يدعون الله أن يديم عليهم ظل الدولة البريطانية «العادلة» ـ «آمين !» • فصدق بما كانوا يقولون وكتب به التقارير الى حكومته ـ ثم نام مطمئناً !

سابعا : ان الفئة القليلة التى طالبت بالحكم العربي في اثناء الاستفتاء تعتبر البذرة التي انبثقت منها ثورة العشرين • فهى أخـذت تنمو بمـرور الايام وصار ينضم اليها كل متذمر من الانكليز •

---

(3) Atiyah (IRAQ) - Beirut 1973 - P. 272.

(٤) محمد البصير (تاريخ القضية العراقية) ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٨١ •

أطلق الناس على هذه الفئة اسم « الوطنيين » ، اما المخالفون لهما فكانوا في نظر الناس حونة وموالين للكفار • وصار الشعراء ينظمون القصائد الحماسية في الأمير عبدالله باعتباره مرشح الوطنيين لعرش العراق، فيهتف الناس عند سماع اسمه ويصفقون له طويلاً • والواقع انهم لم يفعلوا ذلك الا نكاية بالانكليز وتحديا لهم • فلو أن الانكليز كانوا يرغبون فيه لكان هتافهم ضده طبعاً حسب المبدأ القائل « المرء حريص على ما منع » • وقد فطنت المس بيل الى ذلك ، ولكن بعد فوات الاوان • فهي كتبت في ١٢ حزيران ١٩٢١ ـ أي بعد مضي بضعة اشهر على الثورة ـ تقول : انهم عندما كانوا في السنة الماضية يهتفون باسم عبدالله ليس لانه كان الرجل الامثل في نظرهم بل لانهم كانوا يعدون الهتاف باسمه خلاف رغبة الانكليز (٥) •

يمكن اعتبار ثورة العشرين على أي حال من أهم الاحداث في تاريخ العراق الحديث من حيث أثرها في تنمية الوعي السياسي • انها كانت بمثابة مدرسة شعبية تعلم العامة فيها بعض المبادىء والمفاهيم التي كانوا يستهجنونها من قبل كـ « الحرية » و « الاستقلال » و « القومية » و « الوطنية » وما أشبه • فقد كانت هذه المفاهيم محصورة سابقاً في نطاق الافندية ومن لف لفهم ، بينما كان العامة يعدونها من الامور التي لا تعطي خبزاً • فلما قامت الثورة تغير الحال تغيراً مذهلاً حيث صارت تلك المفاهيم محور اهتمام العامة ، وأخذوا يلهجون بها ويهتفون لها يوماً بعد يوم •

ثامنا : كان تنصيب فيصل ملكا في عام ١٩٢١ قد استبشر به الوطنيون والانكليز في آن واحد • فالوطنيون اعتبروه كأنه جاء تلبية لرغبتهم التي أعلنوها من قبل في اختيار أحد انجال الشريف حسين ملكاً• أما الانكليز فكانوا يحسبون أن فيصل سيكون آلة طيعة في أيديهم على نمط

---

(5) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, P. 220.

الأمراء الذين نصبوهم في ممتلكاتهم الاخرى • ولكن هذا الاستبشار من الفريقين لم يدم طويلاً ، وسرعان ما تبين لكل منهما انه كان مخطئاً في ظنه وان فيصل ليس كما تخيلوه سابقاً •

ان فيصل قد حاول بكل جهده ان يكون عند حسن ظن الفريقين ، فأخذ يبدي لكل منهما أنه مخلص له ، ولكن هذا أمر صعب للغاية او لعله مستحيل ، فليس في مقدور انسان أن يوفق بين اتجاهين متعاكسين ، وان هو تمكن من ذلك فترة من الزمن فليس في مقدوره أن يستمر فيه الى النهاية • يقول آيرلاند : ان فيصل وجد نفسه نقطة التوازن بين البريطانيين والوطنيين ، فقد كان مديناً بعرشه للبريطانيين من جهة بينما كان من الجهة الاخرى يحتاج الى مؤازرة الوطنيين له لكي يتمكن من الحصول على الاستقلال الحقيقي من الحكومة البريطانية(٦) •

الى أي مدى استطاع فيصل أن يوفق بين هذين الاتجاهين المتعاكسين؟ ان هذا سؤال من الصعب الاجابة عليه ، وربما عدنا اليه في جزء قادم عند الحديث عن موت فيصل والمقارنة بينه وبين ابنه غازي • وقد يكفي هنا أن نقول ان فيصل حاول في السنة الأولى من حكمه أن يكون أقرب الى الوطنيين منه الى الانكليز ، وهذا هو الذي جعل الانكليز يضمرون له الحقد الشديد ويفكرون في عزله • فقد اعتبروه خائناً لهم كافرا بنعمتهم • وشاء القدر ان يصاب فيصل بالتهاب الزائدة الدودية في هذا الوقت بالذات ، فانتهز المندوب السامي الفرصة وتسلم الزمام بيده وأخذ يضرب الحركة الوطنية ضرباً شديداً حتى أسكتها وشرد رجالها • ولما شفي فيصل من مرضه وجد ان الحركة التي كان يعتمد عليها قد تفتتت • وجاء اليه أحد زعماء الحركة ليهنئه بالشفاء ، فسأله فيصل : « وماذا فعلتم بالانكليز ؟ هل عدلتم

---

(٦) فيليب آيرلاند (العراق) ـ ترجمة جعفر خياط ـ بيروت ١٩٤٩ ـ ص ٢٧٩ •

عن اخراجهم من البلاد ؟ » فأجابه الرجل فوراً : « قالوا لنا انكم انتم أخرجتم من البلاد ، فسكتنا »[٧] •

كان هذا بداية تبدل واضح في سلوك فيصل ، فقد أصبح منذ ذلك الحين أقرب الى الانكليز منه الى الوطنيين ، غير أنه لم يترك عادته القديمة تركا تاماً ، حيث وجدناه يعود الى الاتصال بالوطنيين حينا بعد حين كلما وجد في الانكليز تصلباً تجاهه •

تاسعا : عندما صار فيصل يتقرب للانكليز درءاً للمشكلة ظهرت أمامه من الجانب الآخر مشكلة ثانية ، هي مشكلة ارضاء الوطنيين وفي مقدمتهم المجتهدين • لقد كانت علاقته في السنة الاولى حسنة مع المجتهدين سيئة مع الانكليز ، فانقلبت الآن الى العكس من ذلك حيث اصبحت حسنة مع الانكليز سيئة مع المجتهدين • وقد بذل فيصل جهده لاقناع المجتهدين بأن يراعوا ظروفه ، ويرحموا حاله ، دون جدوى • وصار المجتهدون ، ولاسيما الشيخ مهدي الخالصي ، يعدونه ناكثا بعهده لهم وانه باع نفسه للشيطان واصبح العوبة بيد الانكليز • وقال الخالصي على ملأ من الناس « خلعت فيصل كما خلعت خاتمي هذا ! » •

وفي تلك الآونة عاد الى العراق من اسطنبول شخص يعد رجل دولة من الطراز الاول ــ هو عبدالمحسن السعدون • وسرعان ما اكتشف الانكليز فيه الرجل القوي الذى يستطيع أن يحل لهم مشكلة المجتهدين ومشكلة فيصل في آن واحد ، فسلموه زمام الأمور ، ودعموه ، وقالوا له : افعل ما شئت فنحن وراءك !

كان رأي السعدون ان معالجة مشكلة المجتهدين لا تتم الا على طريقة الاسكندر المقدوني ، أي بقطع العقدة بدلاً من حلها • انه صمم على نفي المجتهدين الى ايران للتخلص من معارضتهم الدائمة وفتاويهم

---

(٧) أمين الريحاني (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ١٢٣ •

تخلصا نهائيا • وقد ابدى فيصل تخوفه من هذا العمل الجريء ، كما تخوف منه الانكليز ، وظنوا ان ثورة أشد من ثورة العشرين ستحدث في العراق من جراء نفي المجتهدين • ولكن السعدون أصر على موقفه وأكد للمتخوفين أنه قادر على القيام بالعمل دون أن يقع أي محذور • وقد أظهرت الحوادث أنه كان في رأيه مصيبا •

كان العامة قد أيدوا المجتهدين في معارضتهم وأبدوا في تأييدهم كل حماس ، ولكنهم ما كادوا يرون المجتهدين قد أبعدوا خارج الحدود حتى عادوا هم الى شعارهم القديم : « أنا شعليه » • انهم قد تعلموا الوعي السياسي حديثاً ولكنهم لم يستطيعوا ان ينسوا عادتهم القديمة ، وهم لذلك يتحمسون تارة ويخمدون تارة أخرى • وتلك احدى ظواهر التناشر الاجتماعي فيهم •

* * *

خلاصة القول ان هذه الاحداث التي ذكرناها آنفا ـ والتي بدأت منذ عام ١٩٠٦ ـ أثارت في العراق تنازعا وجدلا لا عهد له بهما من قبل • اننا لا ننكر ان العراق شهد قبل ذلك أحداثاً أعظم من هذه الاحداث وأدعى الى التنازع ، انما هي كانت من نوع آخر غير النوع الذى شهدناه في هذه الفترة •

كان تنازع العراقيين فيما مضى تقليدياً ينشأ الفرد عليه منذ طفولته الباكرة ويظل عليه في كبره ، كالتنازع الذي يقع بين الطوائف الدينية أو بين القبائل والمدن والمحلات • فقد كان الفرد آنذاك يتعصب لطائفته أو قبيلته أو بلدته او محلته ، وينصرها على أعدائها ، بحكم تراثه الاجتماعي الذى نشأ عليه في بيئته • وكان من العار عليه أن يخرج على هذا التراث او يخالفه • أما الاحداث الجديدة فقد صارت تثير في الناس تنازعا مبدأياً غير مرتبط بالانتماءات التقليدية المألوفة • وبهذا بدأنا نشهد نزاعاً وجدلاً شديداً بين أبناء الطائفة الواحدة ، او المحلة الواحدة ، وربما حدث النزاع بين الاخوة في البيت الواحد : هذا مشروطي وذاك استبدادى، أو هذا قومي وذاك عثماني ، أو هذا جهادي وذاك فراري ، او هذا وطني وذاك حكومي ، الخ •••

فترة تدريب :

ان الفترة التي تحدثنا عنها ـ والتي امتدت مابين عام ١٩٠٦ وعام ١٩٢٣ ـ لها أهميتها في تطور الوعي السياسي في العراق . يجب أن لا ننسى ان الوعي السياسي حين بدأت بوادره في ١٩٠٦ كانت تحت حضانة الدين ورعايته ، أي انه نما من خلال الوعي الديني ولم يكن قائماً بذاته . فالناس حين كانوا يتجادلون في قضية من قضايا السياسة كالدستور مثلاً لم يكونوا يريدون أن يعرفوا هل الدستور نافع للشعب أو ضار به ، بل كانوا يريدون أن يعرفوا بالاحرى هل هو حلال أو حرام ، وهل هو موافق للشريعة الاسلامية أو مخالف لها . وقد ظلّ الناس كذلك طيلة الفترة التي كان فيها رجال الدين يشتغلون بالسياسة في العراق .

والواقع انها كانت فترة شاذة تميزت ببعض الظواهر الاجتماعية الخاصة بها ، ومن تلك الظواهر ان كثيرا من الكسبة وأصحاب الدكاكين الذين لم يكونوا قبل هذا يهتمون بالسياسة أصبحوا يهتمون بها ويتحمسون لها . خذ مثلاً حسون أبو الجبن الذي كان بقالاً في سوق السراي ببغداد ، فهو في صباه كان مثل أبيه يتجنب السياسة ويعتبرها لا تعطي خبزاً ، ولكننا رأيناه ينقلب فجأة الى متحمس سياسي من الطراز الاول يلبس الكفن ويشترك في المظاهرات ويهتف بأعلا صوته : « لتسقط بريطانيا العظمى ! » . ولا حاجة بنا الى القول ان السبب في تبدل هذا الرجل وأمثاله هو الدين وفتاوي رجال الدين . ولولا ذلك لظل هذا الرجل باقياً على سنة الآباء والاجداد : « أنا شعليه » .

يبدو ان هذه الفترة كانت ضرورية لنمو الوعي السياسي في العراق ، ولعلها كانت بمثابة تدريب وتعويد للعامة على الاهتمام بالسياسة . فلما انتهت هذه الفترة بنفي المجتهدين كان العامة قد تم تدريبهم ولم يعودوا بحاجة الى فتاوى رجال الدين . ولهذا رأيناهم في عام ١٩٢٤ ، عندما جرى النقاش حول المعاهدة ، يتظاهرون ويتحمسون بالقرب من المجلس التأسيسي على نحو ما كانوا يفعلون في جامع الحيدرخانة في عام ١٩٢٠. انهم خرجوا من قوقعتهم القديمة ، ولن يعودوا اليها !

بين الافندية والملائية :

يمكن القول أن نفي المجتهدين الذى جرى في عام ١٩٢٣ هو أحد مظاهر الصراع بين الملائية والافندية ، أو بعبارة أخرى : بين رجال الدين ورجال الدولة • وهذا الصراع ليس جديدا اذ تمتد جذوره الى القرن الثامن عشر حينما بدأت بواكير الحضارة الحديثة تصل الى البلاد الاسلامية ، فقد قاوم رجال الدين تلك الحضارة واعتبروها مخالفةللشريعة الاسلامية ، بينما أولع بها رجال الدولة واعتبروها ضرورية لأمتهم لكي تتمكن بها من البقاء في معترك الحياة الحديثة •

من الجدير بالذكر ان الافندية والملائية في العراق كانوا متحالفين في أثناء ثورة العشرين وفي الفترة القصيرة التي تلتها ، ولكن هذا التحالف كان موقتا وليس من طبيعته أن يدوم طويلاً ، فان كلا من هاتين الفئتين لها اتجاه ذهني معاكس لاتجاه الاخرى • فالملائية يريدون تطبيق الشريعة الاسلامية على أمور السياسة بينما الافندية يريدون ابعاد الدين عن السياسة• وهم حين تحالفوا واتفقوا فترة قصيرة من الزمن كان ذلك من جراء وجود مصلحة مشتركة بينهم ، ولم تكد تلك المصلحة تتفاوت عندما نال الافندية المناصب التي يطلبونها حتى بدأ الاختلاف يظهر بين الفئتين وصار يشتد يوماً بعد يوم •

ان بعض الافندية من أولي النظر البعيد ادركوا منذ وقت مبكر سعة الفجوة التي تفصل بين تفكيرهم وتفكير الملائية • ذكرت المس بيل في رسالة لها في ٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ رأياً أدلى به عبدالمجيد الشاوي في هذا الشأن ، حيث قالت ما يلي :

« ان مشكلة الشيعة ربما كانت أعظم المشاكل في هذه البلاد ، وقد تناقشنا حول هذه المشكلة ليلة أمس في اثناء مأدبة أقمتها في بيتي • فقد قال عبدالمجيد بك : ماذا سوف تصنعون اذا أصدر المجتهد الأكبر فتواه بأنه لا يجوز للفرد الشيعي أن يكون عضواً في المجلس التشريعي ما دامت

الحكومة تحت الانتداب البريطاني ، علماً ان المجتهد يعتبر كلامه من كلام الله . أو افرضوا أن المجلس أخذ يتناقش لسن أحد القوانين فينبري المجتهد لاصدار فتوى مفادها ان القانون مخالف للشريعة ويجب رفضه من غير اهتمام بأي اعتبار آخر ؟ تصوروا ان البابا يمارس في ايطاليا سلطة دنيوية ويعرقل الحكومة في كل عمل تقوم به فماذا يكون الوضع . ان العلاج يكون بمرور الزمان على النحو الذى حصل في ايطاليا ، حيث صاروا هناك ينظرون الى البابا كما ينظرون الى عجوز سخيف .ولكننا هنا لم نصل بعد الى هذه المرحلة ... »[٨] .

قد يسأل سائل : لماذا انفرد رجال الدين الشيعة بمعارضة الحكومة في تلك الايام بينما سكت زملاؤهم السنيون ؟ للجواب على هذا نرجع الى ما ذكرناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب حول نظام الاجتهاد الشيعي ، ذلك ان المجتهد الشيعي يعتمد في رزقه على ما يقدمه اليه مقلدوه من حقوق شرعية ، ولهذا فهو مضطر بدافع الحفاظ على رزقه ومكانته ان يكون وثيق الصلة بجماهير الشعب يتحسس بأحاسيسهم ويقف الى جانبهم ضد حكامهم. أما رجل الدين السني فهو يشبه أن يكون موظفا حكوميا يعتمد في رزقه على مرتبه الذى يتسلمه في رأس كل شهر ، ولهذا فهو مضطر في الغالب أن يكون مؤيدا للحكومة في أعمالها .

نقطة تحول :

كان نفي المجتهدين في عام ١٩٢٣ بمثابة نقطة تحول في الوعي السياسي في العراق . فان اعتزال المجهتدين للسياسة جعل الميدان خالياً للافندية يصولون فيه ويجولون ، حيث تولى فريق منهم زمام الحكم ، بينما تولى الفريق الآخر زمام المعارضة ، وأخذوا يتداولون الأمر بينهم على طريقة دولاب الهواء الذى يلعب به الاطفال في العيد ـ صاعداً نازلاً .

(8) Burgoyne (op. cit) - vol. 2, p. 168 - 169

هناك فرق كبير بين معارضة المجتهدين ومعارضة الافندية • فالافندي انما يسلك سبيل المعارضة لكي يصل بها الى الحكم • أما الملائي فانه لا يفكر في الوصول الىالحكم ولا يريده ، وهو انما يسلك سبيل المعارضة لكي يرفع بها مكانته الدينية بين الجماهير ، وهو يعلم انه اذا تولى منصباً من مناصب الحكم فقد تلك المكانة حالاً وأخذ الناس يذمونه ويقولون عنه : « انه باع دينه بدنياه » • انه يصبح في نظر الناس عندئذ افندياً على الرغم من احتفاظه بعمامته السوداء أو البيضاء !

معنى هذا ان الملائية كانوا يتخذون المعارضة غاية لذاتها لانها ترفع من مكانتهم الاجتماعية في نظر الناس ، أما الافندية فكانوا يتخذونها وسيلة لغاية أخرى هي الوصول الى الحكم • ان الافندي يدرك انه اذا بقي خارج الحكم مدة طويلة من الزمن خسر مكانته الاجتماعية وأصبح من رواد مقهى المتقاعدين •

الملاحظ ان الافندية في العهد الملكي كانوا يتقلبون في مواقفهم السياسية مرة بعد مرة • فاذا كانوا خارج الحكم صاروا معارضين متحمسين ينادون بالحرية والاستقلال التام ويتهمون الحكام بالظلم وخيانة الوطن، غير أنهم لا يكادون يتسنمون كراسي الحكم حتى ينسوا ما قالوه ويسيروا سيرة من كانوا ينتقدونهم بالأمس •

وكان بعض الافندية لا يترددون عند المعارضة ان يستخدموا أية وسيلة توصلهم الى هدفهم بغض النظر عما قد ينجم عنها من عواقب وخيمة • ظهر هذا للعيان واضحاً بعد موت فيصل حين تولى العرش ابنه الغر الضعيف ، فقد رأينا فريقاً منهم يلجأ الى اثارة العشائر ، وفريقاً آخر يلجأ الى اثارة الجيش ، وفريقاً ثالثاً يلجأ الى المكايدات والدسائس • وكانوا في كل ذلك يدعون انهم يريدون انقاذ البلاد من الظلم والتفسخ ، حتى اذا وصلوا الى الحكم لم يجد الناس في عهدهم اختلافاً عن عهد من كان قبلهم •

ان هذا أدى الى كثرة تبدل الوزارات في العهد الملكي فى العراق ، وتلك بدورها أدت الى تضخم الوعي السياسي فيه • فان كل انقلاب او تبدل وزارى عنيف لابد أن يثير الاهتمام في اوساط العامة ويفتح عيونهم الى قضايا السياسة ويبعث فيهم الجدال والتنازع حولها •

اعتراض وجيه :

نقف عند هذا الحد فى الدراسة على أن نحاول تكملتها في جزء قادم من هذا الكتاب • وهنا لا بد من الاشارة الى اعتراض وجيه أظن ان بعض القراء قد يوجهونه على هذه الدراسة •

فالقاريء ربما يعجب ويتساءل حين يراني أتحدث عن صراع الافندية والملائيـة مثلا بينما المفكرون اليـوم مشغولون بموضوع الصـراع بين البرجوازية والبروليتارية ، أو بين الرجعية والتقدمية ، أو غير ذلك من مظاهر الصراع التي يكثر الحديث حولها على صفحات الجرائد والكتب في هذه الايام •

الواقع اني لا أختلف في الرأي مع هؤلاء الذين يتحدثون في مثل هذه المواضيع ، ولكني أرى اننا لا يجوز أن ننسى فى الوقت نفسه طبيعة مجتمعنا وظروفه وتركيبه الطبقي • أذكر اني كنت ذات يوم في مجلس يضم بعض الاساتذة ، وكان النقاش يدور حول المجتمع العراقى وتركيبه الطبقي ، فأشرت في معرض حديثي عنه الى « الافندية » باعتبار انهم كانوا يؤلفون في بداية هذا القرن طبقة متميزة تتعالى على العامة ولها تقاليدهـا وعصبيتها الخاصة بها • فاعترض احد الحاضرين منكرا اطلاق مصـطلح الطبقة على الافندية • وقد لاحظت ان سبب إعتراضه ناشيء من أنه لم يجد في المؤلفات الاجنبية التي اطلع عليها ما يشير الى ذلك أو يبحث فيه •

قد يصح القول ان كثيرا من كتابنا ومفكرينا هم من هذا الطراز ، فهم يملكون في اذهانهم « مساطر » جاهزة استمدوها من المصادر الاجنبية ،

فاتخذوها قوالب فكرية جامدة ، وصاروا يطبقونها على مجتمعهم وتاريخه بغض النظر عن الفروق الكثيرة بين هذا المجتمع والمجتمعات الاخرى •

نلاحظ هذا واضحا في بعض الدراسات التى ظهرت حــول ثورة العشرين ، ولا سيما تلك التى قام بها الباحث الروسي كوتلوف مؤخرا[٩]. فهذا المؤلف لديه في ذهنه « مسطرة » يريد تطبيقها على المجتمع العراقــي بوجه عام ، وثورة العشرين بوجه خاص • وصار يسعى جاهدا للتنقيب عن المعلومات التى توافق مسطرته ، مع غض النظر عن المعلومات المخالفة لها • وقد استطاع أخيرا أن يأتي لنا بدراسة عن مجتمعنا جملته كأنه ليس كهذا المجتمع الذى نعيش فيه •

يريد كوتلوف في دراسته ان يثبت اولا ان المجتمع العراقي كان قبل ثورة العشرين يسيطر عليه النظام الاقطاعي ، وان الذين قاموا بالثورة هم جماهير الفلاحين والبدو والعمال والحرفيين ، ثم يستدرك فيقول ان قيادة الثورة كانت في يد شيوخ العشائر ورجال الدين والبرجوازية الوطنية •

لو ان ثورة العشرين قامت فى بلاد بعيدة عنا لربما جاز لنا ان نؤمن بصحة ماقاله كوتلوف ، لاننا لانعرف عن تلك البلاد شيئا • ولكن الثورة قامت في بلادنا ، وقد ادركنا الكثيرين ممن شاركوا فيها ، وعرفنا بعضهــم وخالطناهم • ولست أدري كيف يمكن أن تكون الثورة قامت ضد الاقطاع بينما شيوخ العشائر ورجال الدين هم الذين تولوا قيادتها •

ليس هنا مجال التبسط في هذا الموضوع ، فقد اشبعناه بحثا في الجــزء الخامس من هذا الكتاب الذي نأمل ان يصدر قريبا • وعلى أي حال فان الذى ندعو اليه هو أن تكون دراستنا الاجتماعية نابعة من واقع حياتنا ، ولكن هذا لايعني أن نغلق اذهاننا عما يجري في العالم من دراسات مختلفــة • فالمفروض اننا نستنير بتلك الدراسات لا أن نتقيد بها •

---

(٩) انظر كتابه (ثورة العشرين) ــ ترجمة عبدالواحد كرم •

الفهرس

حول الاخطاء المطبعية

وقعت في هذا الجزء أخطاء مطبعية كثيرة على الرغم من شدة العناية بالتصحيح • وهي أخطاء نأمل ان يفطن لها القارىء ويصححها بنفسه •

حول الجـزء الخامس

ان الجزء الخامس يبحث في ثورة العشرين ، وهو قد تأجل طبعه لحاجته الى مزيد من البحث عن الوثائق والمراجع الخاصة به •

والآن بعد ان تم الحصول على معظم تلك الوثائق والمراجع تقرر أن يباشر بطبعه في أقرب فرصة ممكنة • فمعذرة الى القراء •

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ١٣١ لسنة ١٩٧٦

SOCIAL ASPECTS Of IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. ALI WARDI
EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME SIX

SECOND EDITION

1992

كتب المؤلف المطبوعة

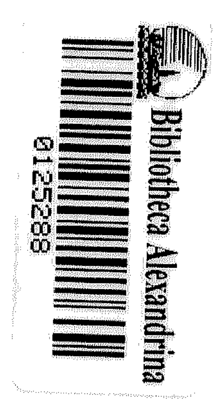
(١) شخصية الفرد العراقي ١٩٥١
(٢) خوارق اللاشعور ١٩٥٢
(٣) وعاظ السلاطين ١٩٥٤
(٤) مهزلة العقل البشري ١٩٥٥
(٥) اسطورة الادب الرفيع ١٩٥٧
(٦) الاحلام بين العلم والعقيدة ١٩٥٩
(٧) منطق ابن خلدون ... ١٩٦٢
(٨) طبيعة المجتمع العراقي ١٩٦٥
(٩) لمحات اجتماعية ...
(الجزء الاول) ١٩٦٩
(الجزء الثاني) ١٩٧١
(الجزء الثالث) ١٩٧٢
(الجزء الرابع) ١٩٧٤
(الجزء السادس) ١٩٧٦

الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

ملحق الجزء السادس

(قصة الاشراف وابن سعود)



الدكتور علي الوردي
أستاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

ملحق الجزء السادس

(قصة الاشراف وابن سعود)

المقدمة

ان هذا البحث قد وضعته ملحقا للجزء السادس من كتابي « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث » ، ولكنه في الواقع يصلح أن يكون ملحقا لجميع أجزاء الكتاب ـ السابقة واللاحقة معا . انه بحث في أحداث وقعت في الحجاز ونجد وسوريا ، وهي كلها ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي وأحداثه ابتداءاً من النزاع الصفوي العثماني حتى ثورة الرابع عشر من تموز . وقد يصح أن أقول ان تلك الاحداث تلقي ضوءا غير قليل على أحداث العراق وتساعد على فهمها ، كما انها قد تساعد القارىء على فهم بعض خفايا الطبيعة البشرية وعقدها ومشاكلها بوجه عام .

نزاع الحسين وابن سعود :

يضم هذا الملحق تفاصيل مسهبة عن النزاع بين الحسين بن علي وعبدالعزيز بن سعود ، وهو نزاع يمكن اعتباره نموذجاً لما يجري بين البشر من تنازع على البقاء حيث يعتقد كل فريق منهم أن الحق معه وحده ، وان الباطل مع خصمه . ونحن اذ ندرسه الآن دراسة موضوعية حيادية نجد ان كلاً من الفريقين انما يأخذ من الحقيقة الجانب الذى يعجبه وينبذ الجانب الآخر .

اني أدركت في صباي الزمن الذي كان فيه الصراع محتدما بين الحسين وابن سعود ، ورأيت الناس في العراق منقسمين الى فريقين : أحدهما هاشمي الهوى والآخر سعودى . وكنت كغيري من الناس مندفعاً بما تمليه عليّ بيئتي الاجتماعية ، فكنت أتعصب لما يتعصبون له ، وأنطق كما ينطقون . ولكنني بعدما مرت بي تجارب الحياة واطلعت على اسرار

التاريخ أدركت أني كنت أنظر الى الحقيقة من جانب واحد ، وان هناك جانباً آخر ينبغي النظر اليه أيضاً •

ان نزاع الحسين وابن سعود يمثل صراعاً بين شخصيتين متضادتين ـ على نحو ما صوّره برنارد شو في مسرحياته • فاحداهما مثالية مليئة بالاحلام والمبادىء ، والثانية واقعية لاتميل الى الاحلام والمثل بل تريد النجاح في الدنيا ولا تبالي بغيره • ومشكلة هذه الدنيا ان الشخصية الاولى كثيراً ما تخفق فيها وتتألم ، وان الثانية كثيرا ما تنجح وتزهو • ومن الممكن القول ان كُلاًّ من هاتين الشخصيتين لها دورها في مسيرة التاريخ، ولا بد للتاريخ من وجود عاملين يتفاعلان عليه أحدهما مثالي والآخر واقعي •

احداث سوريا :

ان الفصل الخاص بأحداث سوريا هو أكبر الفصول في هذا الملحق ، ولا أكتم القارىء ان هذا الفصل أجهدني كثيراً ، ولعله أكثر الفصول اجهاداً لي في جميع الكتب التي ألفتها •

يبحث هذا الفصل في الفترة التي تولى فيها فيصل بن الحسين الحكم في سوريا ، وهى فترة امتدت نحو سنتين ، فيما بين تشرين الاول ١٩١٨ وتموز ١٩٢٠ ، وكانت فترة صاخبة مليئة بالعبر ، ومن الجدير بكل قارىء عربي أن يطلع على أحداثها ويعتبر بها •

ان سوريا كانت في خلال تلك الفترة القصيرة أول دولة عربية في العصر الحديث تنال استقلالها وتحكم نفسها على الطريقة الديمقراطية الغربية • ولم يكن فيصل آنذاك قد تعلم فن السياسة جيدا ، وقد حاول أن يكون حاكماً شعبياً ، فكان لايبت في أمر قبل أن يستشير الشعب فيه • ولكن التجارب القاسية التي عاناها في تلك الفترة علمته دروساً لم يستطع

نسيانها طيلة حياته • وحين أصبح ملكاً في العراق بعدئذ كانت الدروس التى تعلمها في سوريا نصب عينيه دائماً • ولهذا رأيناه يتبع في العـــراق سياسة مزدوجة ، اذ كان يداري الشعب تارة ويداري الانكليز تارة أخرى، وقد قاسى من جراء ذلك ما قاسى ، وكان ذلك من أسباب موتـــــه المبكر •

ان كثيرا من العراقيين قد تولوا المناصب العالية في سوريا خـــلال تلك الفترة ، ولـمـــا عادوا الى العراق بعدئذ كان لهم النصيب الاكبر من المناصب العالية فيه • ولكن الدروس التى تعلموها في سوريا كانت متفاوتة الاثر فيهم • فمنهم من تعلم كثيرا ، ومنهم من تعلم قليلا ، ومنهم من لـــم يتعلم شيئاً • وحاول فيصل أن يكون فيهم كقائد الاركسترا ينظم عزفهم • وقد نجح في ذلك الى حد غير قليل • ولكنه لم يكد يموت في عام ١٩٣٣ حتى صاروايتكالبون على الحكم تكالباً عجيباً ، ومرت فترة أمدها ثماني سنوات كانت أبشع فترة في تاريخ العراق المعاصر • يقول الامير زيد : « بعد فيصل الاول ابتعد حكام العراق عن الشعب • صاروا لايعرفون مـا يريد الشعب • حذرت ونبهت ولكن لم يسمع مني أحد »[١] •

الاشراف والمجتمع :

حاولت في الفصلين الاول والثاني من هذا الملحق دراسة جانب من تاريخ أشراف مكة • ولعل من النافع أن أتطرق في هذه المقدمة الى دراسة ظاهرة الاشراف بوجه عام لـمـا لها من أهمية اجتماعية وتاريخية ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي •

ان الاشراف في الواقع يمثلون ظاهرة اجتماعية نلاحظها في جميـــع البلاد الاسلامية ، وهي ظاهرة تقديس الافراد الذين ينتمون بالنسب الى

---

(١) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ عمان ١٩٧٦ ــ ص ٢٠٤ •

النبي واعتبارهم طبقه عاليه متميزة عن غيرهم من الناس[٢] ٠

تُطلق على الفرد من هذه الطبقة ألقاب مختلفة في البلاد المختلفة ٠ ففي العراق وايران واليمن وحضرموت وماليزيا وأندونوسيا يُطلق عليه لقب «السيد» ، وفي مصر والمغرب لقب «الشريف» ، وفي بعض أنحاء الهند وتركيا لقب « المير » ، وفى أفريقيا الشرقية والجنوبية « مولى » ٠ أما في الحجاز فيُطلق على الحسني لقب « الشريف » ، وعلى الحسيني لقب « السيد » ٠

أن بداية ظهور الطبقة المتميزة في المجتمع الاسلامى كانت في العهد الاموي تحت اسم « قريش » ، أما قبل ذلك فكان المسلمون كلهم طبقة واحدة لاتفريق بينهم ٠ وقد ظلت قريش تتميز على الناس حتى جاء العهد العباسي ، وعند ذلك تقلص نطاق تلك الطبقة حيث أصبحت مقصورة على الهاشميين وحدهم ، وهم فئتان : العباسيون والطالبيون ٠ وكانت لكل فئة منهما نقابة خاصة بها ترعى أفرادها وتنظر في أمورهم ودعاواهم ٠ ولما دالت دولة العباسيين أصبحت الطبقة مقصورة على الطالبيين وحدهم ، وقد تقلصت هي أيضا فصارت تشمل العلويين من أولاد فاطمة فقط ٠ وظلت كذلك حتى يومنا هذا ٠

ومما يلفت النظر ان هذه الطبقة لها أحكام خاصة بها في الفقه الاسلامي ٠ يقول حسن النجار في كتابه « الاشراف » ما نصه :

« ذكر العلامة الاجهوري في مشارق الانوار رواية عن مالك أنه يجوز أن يأخذ الاشراف صدقة الفرض وهي الزكاة السنوية ٠٠ ويُمنع أن يأخذوا من صدقة التطوع لأن في الثانية ذلا دون الاولى ٠ ولكن المشهور عند اكثر الحنفية والشافعية وأحمد جواز أخذهم من صدقة

---

(٢) انظر فيما يخص مكانة « السادة » في المجتمع العراقي كتاب المؤلف « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » ـ الفصل التاسع ٠

التطوع دون صدقة الفرض ... وقال بعض الباحثين في حكمة التشريع ان سبب تحريم الصدقة عليهم أنها أوساخ الناس فهم أرفع قدرا وأعظم منزلة من ان تكون يدهم سفلى . وقال البعض أن سبب التحريم أنه قد كان لهم قديماً خمس الخمس من الغنيمة والفيء المأخوذين من الاعداء في الجهاد ، فلما مُنع عنهم هذا الحق الآن جاز لهم أخذ الصدقة سواء كانت فرضاً أو نفلاً . وهذا السبب الاخير وجيه مقبول وعليه الفتوى الآن . غير أنه ينبغي للمتصدق عليهم أن يتأدب معهم حين يعطيهم فلا ينوي بذلك التصدق بل ينوي الهدية والتقرب الى رسول الله بواسطتهم ...»[٣].

هذه هي وجهة نظر الفقه السني في الاشراف ، أما الفقه الشيعي فهو قد جعل للاشراف مكانة أعلى ونصيباً اكبر من الخمس اذ خصص لهم نصف الخمس بدلا من خمسه . وهناك فرق آخر بين الفقهين في هذا الشأن هو أن الفقه السني فرض الخمس على الفيء والغنائم فقط ، بينما الفقه الشيعي فرض الخمس على جميع المكاسب والارباح بالاضافة الى الفيء والغنائم .

ومن الجدير في الذكر في هذا الصدد أن بعض الفقهاء لم يعترفوا بهذا التمييز الطبقي للاشراف ، وحجتهم في ذلك ان الاسلام جاء لمحاربة الطبقات والاعتزاز بالنسب ، وليس من المعقول أن تنشأ فيه طبقة جديدة محل الطبقات التى زالت . وهؤلاء الفقهاء يفسرون « آل محمد » بأن المقصود بهم أمة محمد لاعترته ، ولهم في ذلك ادلة كثيرة لامجال هنا لذكرها[٤] . ولكن هذا الرأي لايقول به الا قلة من المسلمين ، أما الجمهور الغالب منهم فهم يرون خلافه ، ويروون في ذلك أحاديث نبوية

---

(٣) حسن النجار (الاشراف) ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) انظر في هذا الموضوع كتاب « الاسلام الصحيح » لمحمد اسعاف النشاشيبي . وانظر في الرد عليه كتاب « الايمان الصحيح » لمحمد الكاظمي القزويني .

كثيرة وقد جمع هذه الاحاديث ابن حجر الهيتمي في كتابه « الصواعق المحرقة في الرد على اهل البدع والزندقة » .

العمامة الخضراء :

أصبحت العمامة الخضراء في العصور المتأخرة هي العلامة التى تميز الأشراف عن غيرهم . وتنسب بدايتها الى الخليفة العباسي المأمون ، فهو عندما عيّن الامام العلوي علي الرضا ولي عهد له في عام ٢٠١ هـ خلع السواد الذي كان شعار العباسيين ولبس الخضرة بدلا عنه . ولكن ذلك لم يدم طويلا اذ سرعان ماعاد المأمون الى السواد بعد موت علي الرضا . وقد نُسي اللون الاخضر بعد ذلك الى أن أعاده في مصر الملك الاشرف شعبان في عام ٧٧٣هـ ، حيث أمر بأن يضع الاشراف في عمائمهم علامة خضراء تميزهم . يقول المقريزي : ان هذا السلطان ألزم الاشراف بأن يتميزوا بعلامة خضراء في عمائم الرجال وأزر النساء ، فعملوا ذلك واستمر..[٥]

ظل الاشراف يتميزون بعلامة خضراء في عمائمهم حتى عام ١٠٠٤ هـ عندما أمر حاكم مصر بأن تكون عمامة الاشراف كلها خضراء[٦] . ومنذ ذلك الحين انتشرت العمامة الخضراء في كثير من البلاد الاسلامية كعلامة تميز الاشراف عن غيرهم .

الواقع أن الاشراف لم يلتزموا كلهم بالعمامة الخضراء ، فمنهم من ظل محافظاً على العمامة البيضاء كما هو الحال في أشراف الحجاز واليمن ، ومنهم من لم يرغب أن يميز نفسه بأية علامة مهما كانت . والملاحظ بين شيعة العراق وايران ان السيد فيهم اذا كان من رجال الدين أو كان موسويا أي من سلالة موسى الكاظم لبس العمامة السوداء . والمظنون ان

---

(٥) تقي الدين المقريزي (كتاب السلوك) ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ ج٣ ، ق١ ، ص ١٩٩ .

(6) Encyclopaedia of Islam, art Sherif.

هذه العمامة من بقايا العهد العباسي ، ولعل الشريف الرضي أول من بدأ بها • فالمعروف عن الرضي انه عندما تولى نقابة الطالبين في عام ٤٠٣ هـ اتخذ السواد له شعارا على زي العباسيين(٧) •

وعلى أي حال فان بعض الاشراف اتخذوا العمامة الخضراء وسيلة للاستجداء المقنع ، كما أن بعض الذين هم ليسوا بأشراف اتخذوها وسيلة لرفع مكانتهم الاجتماعية وللاستجداء أيضاً • يحدثنا حسن النجار عن بعض الحيل التي يلجأ اليها المشعوذون في مصر في القرن العشرين فيقول ما نصه :

« يلبس بعض من لا اتصال لهم بآل البيت عمامة خضراء بحجة أنه نقيب أحد الاسياد ، أو ليجلس بجوار مقام أحدهم ، مدعياً أنه شريف منكود الحظ فقير الحال وأنه يريد كذا وكذا على قبول جده الحسين والسيدة مع أنه لايمت اليهما بصلة القرابة • وفي نظري ان مثل هذا الدجال الممقوت مع أنه أثم بلبس العمامة الخضراء التي أفتى العلماء بأختصاص الاشراف بها ، هو فوق ذلك خداع غشاش يبتز أموال الناس بالحيل ويأكلها بالباطل • ومن الدجل بالعمامة الخضراء أيضاً ما فعله رجل من اقصى الصعيد ، فلقد خطب بنتاً شريفة بالقاهرة مدعياً أنه شريف ، فلما رأوا على رأسه علامة الشرف صدقوه • ثم لم يكد يعقد عليها حتى علم أبوها من أحد أقاربه أنهم بالصراحة ليسوا من الاشراف•••»(٨) •

دعامة الاحلام :

ان المكانة العالية التى يتمتع بها الاشراف في المجتمع الاسلامي

---

(٧) آدم متز (الحضارة الاسلامية) ترجمة أبو ريدة — بيروت ١٩٦٧ — ج١ ، ص ٢٩٠ •

(٨) حسن النجار (المصدر السابق) — ص ٤٧ — ٤٨ •

وجدت لها دعامتان تسندانها ، أولاهما كثرة الاحاديث التي تنسب الى النبي في الحث على رعاية ذريته واحترامهم ، والثانية رؤية المسلمين للنبي او أبنته فاطمة في المنام وهما يحثانهم على رعاية ذريتهما •

من العقائد التي راجت بين المسلمين أنهم اذا رأوا النبي في منامهم يحسبون أنهم قد رأوه حقاً ، لان الشيطان حسب أعتقادهم لايمكن أن يتشبه بالنبي في المنام • وقد أدت هذه العقيدة الى ظهور كثير من الاساطير والتقاليد غير الصالحة في المجتمع الاسلامي ـ كما شرحت ذلك بتفصيل في كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » •

ان كثيرا من الاحلام التي تحث على احترام الاشراف قد رويت في الحجاز • وسبب ذلك ان الاشراف حكموا الحجاز مدة طويلة جدا وكانوا كغيرهم من حكام العصور السالفة يظلمون الناس ويعتدون عليهم ، كما ان بعض الاشراف كانوا بدواً يقطعون الطرق على الحجاج • ولذا كان الناس يتذمرون منهم ويلعنونهم طبعاً ، وعند هذا يظهر النبي او ابنته فاطمة لهم في المنام ليوبخاهم على تذمرهم ولعنهم •

روى ابن حجر الهيتمي وغيره كثيرا من هذه الاحلام واستدلوا بها على كرامة الاشراف وعلى وجوب رعايتهم والتجاوز عن سيئاتهم بحكم الشرع • وفيما يلي ننقل مجموعة من هذه الاحلام اخترناها من مختلف المصادر :

(١) كان احد الاشراف في المدينة ، واسمه مطير ، يلعب بالحمام ـ أي (مطيرچي) حسب تعبيرنا في العراق ـ ولما مات امتنع أحد الفقهاء من الصلاة عليه ، ولكن هذا الفقيه رأى النبي في منامه ومعه فاطمة الزهراء وقد أعرضت فاطمة عنه ، فأخذ الفقيه يستعطفها حتى أقبلت عليه وعاتبته قائلة : « أما يسع جاهنا مطيراً » • وقد أصبح الفقيه منذ ذلك الحين يبالغ في تعظيم الاشراف[٩] •

---

(٩) ابن حجر الهيتمي (الصواعق المحرقة) ـ القاهرة ـ ص ٢٤٠ •

(٢) كان الشيخ العابد محمد الفارسي يبغض اشراف المدينه من سلالة الحسين لتظاهرهم بالرفض ، ثم نام ذات يوم تجاه قبر النبي فرأى النبي في نومه وهو يقول له : يافلان مالي أراك تبغض أولادي ؟ • فقال له الشيخ : « حاشا لله ما أكرههم وانما كرهت ما رأيت من تعصبهم على اهل السنة » • فسأله النبي : « أليس الولد العاق يلحق بالنسب ؟ » • فأجابه الشيخ : « بلى يارسول الله » • فقال النبي : « هذا ولد عاق » • ولما استيقظ الشيخ من نومه صار لايلقى أحدا من بني الحسين الا بالغ في اكرامه[١٠] •

(٣) حج رجل من أهل اليمن مع عياله عن طريق البحر ، ولما وصل الى جدة فتشه المكاسون كما فتشوا النساء تحت ثيابهن • فتألم الرجل من ذلك وأخذ يدعو الله على شريف مكة الحاكم يومذاك وهو محمد بن بركات • ثم رأى في منامه النبي وهو معرض عنه • فسأله الرجل عن سبب اعراضه فأجابه النبي قائلا : « أما رأيت في الظلمة من هو أظلم من ابني هذا ؟! » • فانتبه الرجل من نومه مرعوباً وتاب الى الله أن يتعرض بعد هذا لاحد من الاشراف وان فعل مافعل[١١] •

(٤) عندما مات شريف مكة أبو نمي الاول امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي من الصلاة عليه • ولكن الشيخ رأى في منامه في تلك الليلة فاطمة الزهراء وهي واقفة عند الكعبة والناس يسلمون عليها ، فلما جاء الشيخ للسلام عليها أعرضت عنه ثلاث مرات • وقد تحامل الشيخ فسألها عن سبب اعراضها فأجابته : « يموت ولدي ولم تصل عليه ! » • فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ[١٢] •

---

(١٠) المصدر السابق — ص ٢٤٠ •
(١١) المصدر السابق — ص ٢٤٣ •
(١٢) عبدالملك العصامي (سمط النجوم العوالي) — القاهرة — ج٤ ، ص ٢٢٧ •

(٥) كان الشاعر ابن عنين الدمشقي قد حج الى مكة فقطع الطريق عليه بعض الاشراف ، ونهبوا ماكان معه وجرحوه . فنظم الشاعر قصيدة ذم بها الاشراف ذماً قبيحاً . ولما نام تلك الليلة رأى في أحلامه فاطمة الزهراء وهي تطوف بالبيت ، فسلّم عليها فلم تجبه ، فتضرع اليها وتذلل، وسألها عن ذنبه ، فأجابته بقصيدة تشبه قصيدته في الوزن والقافية ذكرت فيها أن اولادها حاشا أن يفعلوا الافعال التى وصفها في قصيدته انما هي الايام غدرت بهم وأساءت اليهم ، وهو يجب ان يتوب الى الله . فانتبه الشاعر من نومه مرعوباً فزعاً ، وقد شفاه الله من جراحه ، فنظم قصيدة جديدة تاب فيها الى الله من قصيدته الاولى وتعهد بأنه سيعتبر كل مايفعله الاشراف به حسناً حتى ولو قطعوه بالسيف أو الرمح[١٣] .

(٦) يروي الصوفي المشهور محي الدين بن عربي أن رجلا من أهل الحجاز حدثه قائلا : « كنت أكره ماتفعله الشرفاء بمكة في الناس ، فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله وهي معرضة عني ، فسلمت عليها وسألتها عن اعراضها . فقالت : انك تقع في الشرفاء . فقلت لها : ياستي ، الا ترين ما يفعلون في الناس ؟ فقالت : أليس هم بنيّ ؟ فقلت لها : من الآن . وتبت فاقبلت عليّ . وإستيقظت »[١٤] .

ان هذه القصص التي ذكرناها آنفاً هي قليل من كثير ، ومن السهل العثور على أمثالها في مختلف البلاد الاسلامية . ولا حاجة بنا الى القول ان اشراف مكة استفادوا منها فائدة كبيرة في تدعيم حكمهم حيث استمروا يحكمون الحجاز نحو عشرة قرون ـ كما سنأتي اليه .

---

(١٣) احمد الداودي (عمدة الطالب) ـ بيروت ـ ص ١٠٦ـ١٠٧ .

(١٤) محمد اسعاف النشاشيبي (الأسلام الصحيح) ـ القدس ١٣٥٤هـ ـ ص ١٦٤ .

الفصل الاول

أشـــــراف مكة

ان اشراف الحجاز ، لاسيما في عصورهم المتأخرة ، كانوا كثيرين جدا • ولعل نسبتهم العدديه الى مجموع السكان تقرب من نسبة السـادة الى مجموع السكان في العراق • وهم كانوا من حيث مكانتهم الاجتماعيـة متفاوتين على درجات شتى • فهناك في الدرجة الاولى كان الاشراف الذين ينتمون الى اسرة الشريف الحاكم ، حيث كانت لهم مكانة تقرب من مكانة الامراء من أقرباء الملك في الدول الملكية ، ولكل واحد منهم قصوره وحشمه وعبيده • أما الباقون من الاشراف فكانوا يتفاوتون في المكانة حسـب كفاءاتهم الشخصية أو عصبية أسرهم • ومنهم من كان بدويا وصار يقطع الطرق على الحجاج كغيره من البدو ، كما أن منهم من احترف الحـرف الوضيعة • يحدثنا ابن جبير الذى زار الحجاز في القرن السادس الهجري عن الحالة المزرية التى كان بعض الاشراف يعيشون فيها فيقول مانصه :

« واكثر سكان البلدة ـ يقصد بلدة جدة ـ مع ما فيها من الصحراء والجبال أشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون رضى الله عن سلفهم الكريم • وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقاً ، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن ، من اكراء جمال ان كان لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، أو غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه ، وربما تناولوا ذلك نساءهم الشريفات بأنفسهن • فسبحانه المقدر لما يشاء • ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب الرجس عنهم وطهرهم تطهيرا »[1] •

(١) محمد بن جبير (رحلة ابن جبير) ـ بغداد ١٩٣٧ ـ ص ٤٢ •

تأسيس شرافة مكة :

ظل أشراف الحجاز حتى منتصف القرن الرابع الهجري ليس لهم شيء من الحكم ، ولم يكن لديهم ما يميزهم عن بقية السكان سوى مكانتهم العالية الناشئة عن انتسابهم الى النبي • وفي عام ٣٥٨ هـ ـ الموافق لعـــام ٩٦٩ م ـ استطاع أحد الاشراف الحسنيين ، وهو جعفر بن الحسن من سلالة موسى الجون ، أن يؤسس له نوعاً من الامارة في مكة أُطلق عليها اســم « شرافة مكة » ، وهي الشرافة التي استمرت لهم حتى عام ١٩٢٥ م عندما قضى عليها ابن سعود ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم •

كانت الظروف مساعدة لجعفر بن الحسن في تأسيس الشرافة • فقد كان الحجاز حينذاك تابعاً للدولة الاخشيدية في مصر ، وكانت تلك الدولة في أواخر ايامها ، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الفاطميين • وحين أستتب الحكم للمعز الفاطمي في مصر كتب الى جعفر بن الحسن يعينه والياً على الحجاز باسم الدولة الفاطمية • وعند هذا قطع جعفر الدعاء للخلفاء العباسيين ـ وهو الدعاء الذي كان جارياً في العهد الاخشيدي ـ وصـــــار يدعو للفاطميين بدلا من العباسيين ، كما أدخل عبارة « حي على خير العمل » في الاذان ، وهي العبارة التي يتميز بها أذان الشيعة عن أذان أهل السنة •

كان الاشراف الحسينيون يسكنون المدينة وحواليها ، ولهم نفوذ فيها • وقد انتهزوا الفرصة بدورهم ، فأعلنوا استقلالهم في المدينة في عام ٣٦٠ هـ ـ أي بعد سنتين من تأسيس أبناء عمهم الحسنيين لشرافة مكة ـ وأخذوا يدعون مثلهم للفاطميين ، كما أدخلوا في الأذان عبارة « حي على خيـــر العمـــل » •

عندما وصل خبر ذلك الى العباسيين في بغداد أرسلوا الى مكة نقيب الطالبيين الحسين بن موسى الموسوي والد الشريف الرضي ، حيث عينوه أميرا للحج العراقي • وقد استطاع هذا النقيب ان يقنع جعفر بن الحسن

بقطع الدعاء للفاطميين ، وباعادته للعباسيين • والظاهر أن جعفرا لم يستمر على ذلك طويلا ، بل عاد الى الدعاء للفاطميين ، وربما عاد مرة اخرى للعباسيين...[٢] •

ابو الفتوح :

مات المؤسس جعفر بن الحسن في عام ٣٧٠ هـ فخلفه على شرافة مكة ابنه عيسى ، وحين مات عيسى في عام ٣٨٤ هـ خلفه أخوه الحسن وهو المعروف بلقب « أبي الفتوح » ، وكان من أعظم الاشراف شخصية وأقواهم بدناً ، قيل انه كان يمسك الدرهم فيفركه بيده ويمحو رسمه[٣] ، وكان بالاضافة الى ذلك شاعرا فصيحاً[٤] •

أمضى أبو الفتوح سنوات حكمه الاولى بالحروب ، حيث قاتل أبناء عمه الحسينيين في المدينة ، كما قاتل أبناء عمه الحسنيين في اليمن[٥] • ويبدو انه كان شديد الطموح يريد الخلافة لنفسه ، فهو قد رأى في العالم الاسلامي ثلاثة خلفاء يتنازعون عليها هم : الخليفة العباسي في بغداد ، والخليفة الفاطمي في مصر ، والخليفة الأموي في الاندلس • ولعله وجد نفسه أجدر منهم بها •

كان ابو الفتوح كغيره من الاشراف الحسنيين شيعيا من أتباع المذهب الزيدي • والمعروف عن المذهب الزيدي أنه يتميز عن المذاهب الشيعية الاخرى بكونه يترضى على الشيخين ويعتبرهما امامين عادلين، بينما المذاهب الاخرى تطعن فيهما وتتبرأ منهما • وفي عام ٤٠١ هـ وصل الى أبي الفتوح

---

(٢) أحمد السباعي (تاريخ مكة) ـ مكة ١٣٧٢ هـ ـ ص ٢٩ •
(٣) المصدر السابق ـ ص ١٣٣ •
(٤) أحمد الداودي (عمدة الطالب) ـ بيروت ـ ١٠٩ •
(٥) فؤاد حمزة (قلب جزيرة العرب) ـ الرياض ١٩٦٨ ـ ص ٣١٤ •

من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كتاب يأمره فيه بالبراءة من الشيخين وباعلان ذلك في الخطبة في الكعبة • فاستنكر أبو الفتوح هذا الامر ، وأراد أن ينتهزها فرصة للانفصال عن الفاطميين واعلان الخلافة لنفسه •

أوعز أبو الفتوح باعلان أمر الحاكم على المنبر في الكعبة ، فأدى ذلك الى ضجة وهياج لدى الحجاج وسكان الحجاز ، وتجمع الناس يريدون كسر المنبر على صاحبه • وعند هذا أعلن أبو الفتوح عصيانه على الفاطميين، وأعقب ذلك اعلانه الخلافة لنفسه باسم « الراشد بالله » ، وشرع يتلقى البيعة من أهل مكه والمدينة ، ثم بايعته بعدئذ قبائل البدو كبني سليم وبني هلال وبني عوف وبني عامر • واستحوذ أبو الفتوح على ما فى الكعبة من أموال وتحف ، كما استولى على أموال بعض التجار في جدة ، وحمل سيفاً ادعى أنه سيف ذي الفقار ، كما حمل قضيباً ادعى أنه قضيب رسول الله[٦] •

وتوجه أبو الفتوح بعدئذ نحو الشام بقوة عظيمة مؤلفة من القبائل البدوية التى تابعته وغيرها ، وصار كلما مر بموضع جاء اليه سكانه طائعين مبايعين ــ كما هى عادة الناس تجاه من تقبل الدنيا عليه •

لم يقف الحاكم بأمر الله تجاه ذلك ساكناً ، بل أخذ يبذل الاموال لتفريق الناس عن ابي الفتوح ، وشجع أحد الاشراف من أقرباء أبي الفتوح على احتلال مكة واعلان الشرافة لنفسه ، كما قطع الميرة عن الحجاز مما أدى الى تضايق الحجازيين وتذمرهم • وأدرك أبو الفتوح ضرورة المصالحة مع الحاكم • فأرسل اليه يعلن التوبة اليه ، وأعاد الدعاء له في الكعبة ، فعفا عنه الحاكم وأبقاه على شرافة مكة •

---

(٦) عبدالملك العصامي (سمط النجوم العوالي) ــ القاهرة ــ ج٤ ــ ص ١٩٦ •

ومن الجدير بالذكر أن حادثة غريبة حدثت في عهد أبي الفتوح ، ودلك في عام ٤١٣ ، خلاصتها أن رجلا من الحجاج المصريين اقترب من الحجر الاسود وفي يده دبوس ، وضرب الحجر بالدبوس ثلاث ضربات حتى سقطت منه ثلاث قطع صغيرة وقال وهو يرتعد : « الى متى يُعبد هذا الحجر الى متى يُقبّل ؟! ولا محمد ولا علي فيمنعني من ذلك ، فاني أهدم اليوم هذا البيت ! » • وكان الرجل طويلا جسيماً وله أعوان قد وقفوا في باب المسجد للدفاع عنه • فتحاماه الناس وابتعدوا عنه ، ولكن رجلا من أهل اليمن اندفع نحوه فوجأه بخنجره • وعند هذا تكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه اربا وأحرقوه ، ثم تبعوا أعوانه فقتلوا بعضهم وإنثال أهل مكة على الحجاج المصريين فنهبوهم ، وانتشر النهب الى غيرهم • ولما هدأت الحالة جاء سدنة الكعبة من بني شيبة فأخذوا القطع التى سقطت من الحجر الاسود وعجنوها بالمسك واللاذن والعلك ، وأعادوها الى مواضعها • ولا تزال الشقوق حولها ظاهرة[٧] •

الهواشم :

مات أبو الفتوح في عام ٤٣٠ هـ ، فخلفه على الشرافة ابنه شكر ، وكان قويا مثله ، وجرت بينه وبين الحسينيين في المدينة حروب انتهت بتغلبه عليهم ، واصبحت المدينة منذ ذلك الحين خاضعة لشرافة مكة بعدما كانت مستقلة •

مات شكر في عام ٤٥٢ هـ ، ولم يخلف ولدا ذكرا ، بل كانت له بنت واحدة • وكان ذلك سببا للتنازع والحرب بين أسرتين من الاشراف هما : السليمانيون والهواشم • واستمرت الحروب بينهما مدة طويلة الى أن تمكن الهواشم من التغلب على خصومهم ، وعند هذا تولى شرافة مكة رئيسهم محمد وهو الذي اشتهر بكنيته « أبو هاشم » •

---

(٧) المصدر السابق ـ ج ٤ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ •

ظلت أسرة الهواشم تحكم مكة حتى عام ٥٩٨ هـ ، والمعروف عنها انها كانت تتقلب في ولائها السياسي بين العباسيين والفاطميين ، فكانت تدعو لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى ـ تبعا لمن يدفع لها أكثر[٨] .

بدأ بهذا التقلب أبو هاشم نفسه ، فهو كان في السنوات الاولى من حكمه يدعو للفاطميين في الخطبة ويؤذن بأذانهم . ولكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان أرسل اليه من العراق نقيب الطالبيين نور الهدى الزينبي ، وقد تمكن النقيب في ٤٥٨هـ من اقناع ابي هاشم بقطع الخطبة للفاطميين والدعاء للعباسيين بدلا عنهم . وحين وصل الخبر الى الفاطميين غضبوا عليه وقطعوا الميرة عن الحجاز نكاية به ، فاضطر أبو هاشم الى رد الخطبة الى الفاطميين. وفي عام ٤٦٣ هـ أرسل ألب ارسلان اليه النقيب مرة اخرى وهو يحمل له خلعاً نفيسة وثلاثين ألف دينار مع تعهد بمرتب سنوي قدره عشرة آلاف دينار . وكان في صحبة النقيب عسكر ضخم . فقطع أبو هاشم الدعاء للفاطميين وأخذ يدعو للعباسيين ، وقال في خطبته : « الحمد لله الذى هدانا أهل بيته الى الرأي المصيب ، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب ، وأمال قلوبنا الى الطاعة ، ومتابعة امام الجماعة »[٩] .

والغريب أن ابا هاشم ظل محافظاً على اذان الشيعة بالرغم من دعائه للعباسيين ، فأرسل اليه العباسيون الشريف أبا طالب لاقناعه بترك أذان الشيعة . وقد حاوره أبو طالب في ذلك كثيرا ، فقال له أبو هاشم : « هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » . فرد عليه أبو طالب قائلا : «ان ذلك لم يصح عنه وانما فعله ابن عمر في بعض أسفاره ، فما أنت وابن عمر ؟! » . فاقتنع أبو هاشم بهذا وأسقط أذان الشيعة وعاد الى أذان أهل السنة[١٠] .

---

(8) Shorter Encyclopaedia of Islam - art. Mecca.

(٩) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ، ص ٢٠٠ .
(١٠) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ١٣٥ .

لم يستمر أبو هاشم على الدعاء للعباسيين طويلا والواقع انه كان يتحول بين العباسيين والفاطميين تبعاً لضغط الظروف او اغراء النقود . واضطر العباسيون في عام ٤٨٤ أن يعاملوه بسياسة العنف ، حيث وجهوا اليه قوة من الاتراك ، وجرى بينه وبين الاتراك قتال شديد . وكان ذلك بداية الفتن الطائفية في مكة ، اذ اصبحت مواسم الحج في السنوات التالية موضع تنافس وخصام بين أتباع العباسيين والفاطميين ، كل فريق منهم يريد الدعاء والأذان له في الكعبة .

قتادة :

في عام ٥٩٨ هـ انتهت امارة الهواشم على يد خصم لهم من الاشراف اسمه قتادة بن ادريس . فقد كان هذا الرجل في بداية أمره يسكن مع قومه بالقرب من ينبع في حالة شبه بدوية . وكان يطمح للحصول على شرافة مكة . وفي ٢٧ رجب ٥٩٨ هـ بينما كان أهل مكة مشغولين باحتفال لهم فاجأهم قتادة بهجوم صاعق ، واستطاع بسهولة ان يستولي على مكة وان يطرد الهواشم منها .

أخذ قتادة يدعو للخليفة العباسي الناصر لدين الله . وفي عام ٦٠٠ هـ أرسل اليه الخليفة الناصر يستدعيه الى بغداد ، ووعده ومنّاه ، فاستجاب قتادة له ، ورحل متوجها الى العراق . وعندما وصل الى مقربة من النجف ، وكان قد خرج لاستقباله جمع غفير من الناس ، شاهد بينهم درويشا وهو يقود أسدا بسلسلة . فتشاءم قتادة من هذا المنظر وقال : « لا أدخل بلادا تذل فيها الأسود » . ثم عاد من فوره الى الحجاز ، وكتب الى الخليفة الناصر خمسة أبيات ننقل منها البيتين الاول والاخير ، وهما :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
وما أنا الاّ المسك في غير أرضكم أضوع وأما عندكم فأضيع[11]

(١١) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص ١١٥ ـ ١١٦ .

غضب الناصر من هذه الابيات غضبا شديدا ، وكتب الى قتادة يهدده قائلا : « أما بعد ، فاذا نزع الشتاء جلبابه ، ولبس الربيع اثوابه ، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها ، ولنخرجنكم منها أذلة وانتم صاغرون » • ثم أعد الناصر كتيبة من الجند وأرسلها الى مكة لتأديب قتادة •

استعد قتادة لقتال الكتيبة الناصرية ، وأرسل الى ابناء عمه الحسينيين في المدينة يستنجد بهم وكتب لهم هذه الابيات :

بني عمنا من آل موسى وجعفر　　وآل حسين كيف صبركم عنا
بني عمنا انّـا كأفنان دوحـــة　　فلا تركونا يتخذنا الفنـا فنـا
اذا ما أخ خلّى أخـــاه لآكـل　　بـدا بأخيـه الأكل ثم به ثنّى

وقد استجاب الحسينيون لاستنجاد قتادة ، فجاؤوا بجمعهم الى مكة ، وحين وصلت الكتيبة الناصرية اليها قابلها الحسنيون والحسينيون معـاً فهزموها وبددوا شملها[١٢] •

لم يمض على هذه الحادثة سوى سنة واحدة تقريبا حتى نشبـت الحرب بين الحسنيين والحسينيين ، ووقع قتال شديد بينهما في موضع يقال له « ذو الحليفة » ، انتصر فيه قتادة ، وقال في ذلك بيتا من الشعر هو :

مصارع آل المصطفى عـدت مثلما　　بدأت ولكن صرت بين الاقـارب

وقد اتجه قتادة بعد انتصاره نحو المدينة فحاصرها وكان الحسينيون في المدينة بقيادة رجل منهم اسمه سالم بن قاسم • وقد تمكن هذ االرجل من فـك الحصار عن المدينة ، ثم أخذ يطارد قتادة حتى وصل الى مكة وحاصرها ، وأرسل الى قتادة يقول له : « حصر بحصر يا ابن عم » • ولم يستطع سالم الاستمرار فيالحصار لان بعض أصحابه تفرقوا عنه باغراء من قتادة ، فعاد الى المدينة[١٣] •

---

(١٢) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ، ص ٢٠٩ •
(١٣) المصدر السابق ـ ج٤ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ •

دام حكم قتادة نحو عشرين سنة ، قضى معظمها في الحروب ، وفي نهب الحجاج . وقد وصفه صاحب كتاب عمدة الطالب بقوله : « كان قتادة جبارا فاتكا فيه قسوة وتشدد وحزم »(١٤) . ووصفه شاهد عيان بقوله : « رأيته يطوف بالبيت ويدعو بتضرع وخشوع ، والريّس على زمزم يدعو له ، وهو كالاسد شجاعة ، والقطب خشوعا وتضرعا ، والبدر كمالا وبهاءاً »(١٥) .

كان قتادة يقول : « أنا أحق من الناصر العباسي بالخلافة » . وهو قد أعاد الى الاذان عبارة « حي على خير العمل » . وفي عام ٦١٨ قتله ابنه حسن ، وقيل قتله خنقا ، ثم تولى الشرافة بعده . ويقول عبدالملك العصامي ـ وهو من أهل مكة ـ في التعليق على ذلك ما نصه : « ثم زاد ظلم قتادة في الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم ، وأظهر التعدي حتى ضج الناس ، وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسي ، فارتفعت الايدي بالدعاء عليه ، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة ... »(١٦) .

حميضة بن أبي نمي :

في عام ٦٥١ هـ تولى شرافة مكة رجل يُعد من مشاهير الاشراف وصلحائهم هو أبو نميَ الاول . وهو من سلالة قتادة ، وطالت مدة شرافته نحو خمسين عاما . ويقول عنه المقريزي : « كان يقال لولا أنه زيدي لصلح للخلافة لحسن صفاته »(١٧) .

مات أبو نمي في عام ٧٠١ هـ . وقد كان له ثلاثون ولدا ذكرا واثنتا

---

(١٤) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص ١١٥ .
(١٥) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ص ٢١٢ .
(١٦) المصدر السابق ـ ج٤ ، ص ٢١٣ .
(١٧) تقي الدين المقريزي (كتاب السلوك) ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ ج١ ، ق٣ ، ص ٩٢٧ .

عشرة بنتا • فحصل تنافس عنيف بين أولاده على شرافة مكة استمر سنوات عديدة ، وجرت من جراء ذلك خطوب وأهوال •

كان التنافس على أشده بين أربعة من الاخوة هم : حميضة وأبو الغيث ورميثة وعطيفة • وكانوا يستمدون العون في تنافسهم من العراق أو مصر • وفي عام ٧١٥ هـ أرسل حميضة أحد عبيده الى أخيه ابي الغيث الذى كان ينافسه على الشرافة • فذبحه على مشهد من الناس ، ثم دعا اخوته الآخرين الى وليمة ، وقدم لهم رأس أخيهم القتيل مطبوخا في جفنة ، كما أقام على رأس كل واحد منهم غلامين أسودين شاهرين السيوف ، بغية أخذ البيعة له منهم • فأذعنوا له قهرا[١٨] •

هرب رميثة الى مصر مستغيثا بالملك الناصر بن قلاوون ، وذكر له ان حميضة قطع اسمه من الخطبة في الكعبة وخطب لصاحب اليمن • فجهز الناصر رميثة بقوة كبيرة • وعاد رميثة بتلك القوة الى مكة ، وتغلب على حميضة واسره ، ولكن حميضة تمكن من الهرب والتجأ الى العراق مستنجدا بالسلطان المغولي خدابندة بن أرغون بن أباقا بن هولاكو • فتلقاه خدابندة لقاءاً حسناً وأكرمه ، وأقام حميضة عنده مدة غير قصيرة •

ومن الجدير بالذكر ان خدابندة كان قد اعتنق مذهب التشيع الاثنى عشري منذ عهد قريب بتأثير العالم الشيعي المعروف بـ « العلامة الحلي » • فتمكن حميضة من التأثير في خدابندة عن طريق تعصبه المذهبي الجديد ، وحرضه على أن يرسل معه جيشا من المغول لاحتلال مكة والخطبة له على منابرها[١٩] • ويقال ان حميضة زين لخدابندة أيضا أن يذهب بالجيش

---

(١٨) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ •

(١٩) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ج٢ ، ق١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ •

الى المدينة عقب احتلال مكة لنبش قبر الشيخين ونقل رفاتهما الى خارج الحرم النبوي[٢٠] .

استجاب خدابندة لتحريض حميضة وجهزه بجيش كبير من المغول . وسار حميضة بهذا الجيش نحو الحجاز عن طريق الصحراء ، وانضم اليه في الطريق كثير من القبائل ، وخاصة قبيلة خفاجة برئاسة محمد بن عيسى بن مهنا . وحين وصل حميضة بجموعه الى موضع في الصحراء بين البصرة والقطيف ، بالقرب من موقع الكويت الحالية ، وصلهم نبأ موت خدابندة بالهيضة . فادى هذا النبأ الى تفرق الجيش . وانتهزت القبائل الفرصة ، ولا سيما قبيلة خفاجة ، فانثالت على الجيش نهبا وتقتيلا ، وكان رئيس خفاجة يهتف باسم الملك الناصر سلطان مصر[٢١] . وقد أبدى حميضة في تلك الواقعة شجاعة نادرة حيث قاتل قتالا لم يُسمع بمثله. وصفه احد الذين شاهدوه في القتال فقال : « مازلت أسمع بحملات علي بن أبي طالب حتى رأيتها من السيد حميضة معاينة »[٢٢] .

كانت تلك الواقعة قد وقعت في أواخر ذي الحجة من عام ٧١٦ هـ . وقد تكبد فيها حميضة خسائر فادحة اذ فقد معظم رجاله ، كما نُهب كل ما كان لديه من حريم وأموال وخيول . ولما وصل خبر الواقعة الى الملك الناصر في مصر سُرّ به سرورا عظيما ، وأرسل يستدعي اليه رئيس خفاجة محمد بن عيسى ، ومنحه مكافأة جسيمة[٢٣] .

يقول النويري في التعليق على تلك الواقعة ما نصه : « وكان خربندا ـ يقصد خدابندة احتقارا له ـ قبل موته بسبعة أيام قد أمر باشهار النداء أن لايذكر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعزم على تجريد ثلاثة آلاف

(٢٠) عباس العزاوي (العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٣٥ ، ج١ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ ، ٤٤٥ .
(٢١) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ ج٢ ، ق١ ، ص ١٤٨ .
(٢٢) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص ١١٨ .
(٢٣) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ ج٢ ، ق١ ، ص ١٤٨ .

فارس الى المدينه النبوية لينقل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من مدفنهما ، فعجل الله بهلاكه »[٢٤] .

استطاع حميضة أن يصل بمن نجا معه الى مكة ، وتمكن بعد جهود ومحاولات شتى أن يستعيد الشرافة له وأن يطرد منها أخاه رميثة . وقطع الخطبة للملك الناصر ، وصار يدعو للسلطان أبي سعيد بن خدابندة . فذهب رميثة الى مصر ، وجهزه الملك الناصر بقوة عاد بها الى مكة . ولم يكد حميضة يسمع بمجيء أخيه رميثة حتى فر من مكة ، والتجأ الى اليمن ، ثم عاد منها بجيش لاستعادة مكة ، ولكن القدر لم يمهله اذ وثب عليه أحد غلمانه فقتله وهو نائم[٢٥] ، وكان ذلك في عام ٧٢٠ هـ ، فاستراح وأراح !

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان حميضة عندما كان في العراق تزوج من امرأة عراقية فأنجبت له ولدا اسمه « محمد » . وقد بقي هذا الولد في العراق لدى أخواله ، وصارت له ذرية كبيرة ، واشتهر من نسله عطيفة الذى توفي في عام ٩٣٤ هـ الموافق لعام ١٥٢٨ م . فقد نال هذا الرجل حظوة كبيرة لدى الشاه اسماعيل الصفوي عند فتحه بغداد في عام ٩١٤ هـ ، حيث أقطعه الشاه الاراضي المعروفه باسمه على شاطيء دجلة الايمن بين بغداد والكاظمية ، كما عينه أميرا للحج ونقيبا للروضة الكاظمية وسادنها. وينتمي الى عطيفة هذا كثير من الاسر المعروفة في العراق الآن ، كآل الحبوبي وآل زيني في النجف ، وآلبو نيسان في سامراء ، وآل الحسني وآل حمندي وآل العطار وآل الراضي وآل الهادي في بغداد ، وآل عطيفة وآل سركشيك وآل الحيدري في الكاظمية . وينتمي الى عطيفة أيضا كثير من خدام الروضة الكاظمية .

---

(٢٤) نقلا عن عباس العزاوي (المصدر السابق) - ج١ ، ص ٤٤٥ .
(٢٥) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) - ج٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

أبو نمي الثاني :

في عام ٩٣١ هـ تولى شرافة مكة رجل يدعى « أبو نمى » ويُلقب بـ « الثاني » تمييزا له عن أبي نمي الاول • وقد نال هذا الرجل حظـوة كبيرة لدى السلطان العثماني سليمان القانوني اذ أرسل اليه في اسطنبول ابنه أحمد وهو يحمل كثيرا من هدايا جزيرة العرب كالخيول والصقور والاقمشة والاطياب • وكان أحمد جميل الوجه ، وحين دخل على السلطان وهو لابس الملابس الخاصة بالاشراف الحسنية قام السلطان له تعظيما ، وهو أمر لم يقع لاحد سواه ، وخلع عليه الخلع الكثيرة • وكذلك فعلت زوجة السلطان وأعلنت للناس أنها تعتبر الشريف أحمد في مقام ولـدها(٢٦) •

نال أبو نمي الثاني على أثر ذلك غاية المجد والنفوذ ، ودانت له الدنيا في الحجاز ، ومدحه الشعراء بقصائد « عصماء » • وقد دامت شرافة أبي نمي مدة تزيد على الستين عاما ، اذ هو مات في عام ٩٩٢ هـ • ولعله كان أطول الاشراف حكما •

يُعتبر أبو نمي الثاني المؤسس الحقيقي للشرافة ، وهو جد الاسرة التي ظلت محتفظة بالشرافة الى أن قضى عليها ابن سعود في عام ١٩٢٥ • والمعروف عن أبي نمي انه كان شديد الاعتزاز بالنسب وقد اعتاد في حياته على التمييز بين الناس حسب أنسابهم وبيوتاتهم ، مستندا في ذلك على حديث للنبي هو: «أُمرت ان انزل الناس منازلهم » • وكان رأيه ان العرق دساس فمن كان رفيع النسب كان رفيع الخلق أيضا ، أما الصعاليك من الناس فهم في نظر أبي نمي لئام واذا نالوا المنازل العالية في المجتمع فربما حصل من ذلك الضرر(٢٧) •

يبدو أن الدولة العثمانية كانت تؤيد أبا نمي في هذا الرأي ، وهو في

---

(٢٦) المصدر السابق ـ ج٤ ، ص ٣٢٦ •
(٢٧) المصدر السابق ـ ج٤ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ •

الواقع رأي كان شائعا بين الناس يؤمن به الكثيرون ـ ومازال البعض منهم مؤمنا به حتى يومنا هذا • وقد حدا هذا الرأي بأبي نمي الى وضع قواعد عرفت باسم « قانون أبي نمي » قصد بها تمييز الاشراف عن غيرهم رسميا • ومن الجدير بالذكر ان هذه القواعد ظلت مكتومة عن الناس لا يعرفها سوى عدد محدود من الاشراف ، وهم يتداولونها بينهم ولا يسمحون لاحد غيرهم بالاطلاع عليها • ويدعي صاحب كتاب « تاريخ الحجاز » انه أطلع على بعض تلك القواعد وقد ذكرها في كتابه على النحو التالي :

(١) الشرافة وراثية في الاسرة الهاشمية •

(٢) لايجوز لاي شريف أن يشتغل في أية مهنة او صنعة ما عدا القراشة ـ اي الحطب والفحم ـ والجمال والزرع •

(٣) اذا قُتل الشريف أُخذ من أهل القاتل أو قريته أربعة حيث يُقتلون قصاصا له •

(٤) صافع الشريف تُقطع يده •

(٥) شاتم الشريف يُقطع لسانه •

(٦) الشريف لايُحاكم في مجلس خصمه •

(٧) اذا هم الشريف بقتل شريف أو رفع عليه السلاح يُنفى من البلاد •

(٨) لايُقتل الشريف اذا قتل غير الشريف •

(٩) للشريف الحاكم ثلث دية القتيل(٢٨) •

يبدو ان هذا القانون لم ينفذ حرفيا لما فيه من شدة بالغة ومخالفة للشرع ، ولكنه على أي حال قد ساعد على صيانة مكانة الاشراف.وجعلهم نوعا من الطبقة المغلقة في الحجاز •

---

(٢٨) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ ـ ج١ ، ص ١٧ ـ ١٨ •

الطائفية في الحجاز :

ان النزاع الصفوي العثماني الذى حدث في العراق منذ القرن العاشر الهجري كان له أثره في الحجاز • ففي موسم الحج من عام ١٠٤٢ هـ ورد الى مكة أمر من السلطان العثماني في اسطنبول بمنع العجم من الحج والزيارة ، وقد نودي بهذا الامر في أسواق مكة لتبليغ العجم بذلك وهم يبلغونه اخوانهم اذا عادوا الى بلادهم(٢٩) •

كان يتولى شرافة مكة في ذلك الحين رجل اسمه زيد بن محسن ، وقد أعلن هذا الرجل تحوله من المذهب الزيدي الى المذهب الحنفي ـ وهو المذهب الذى كانت الدولة العثمانية تعتنقه • يقول صاحب كتاب « تاريخ مكة » عن هذا الرجل ما نصه : « كان يعتقد اعتقاد أهل بيته من الزيدية ، ثم باينهم ورجع الى معتقد أهل السُنة ، وتمذهب بمذهب الامام أبي حنيفة • وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة ومنعهم من اظهار معتقداتهم »(٣٠) •

وانتشرت بين سكان مكة في ذلك الحين اشاعة مفادها ان الشيعة لايتم حجهم في مذهبهم الا اذا لوثوا الكعبة بالنجاسة • وقد صدق الكثير من الناس بهذه الاشاعة كما هي عادة الناس عند استفحال التعصب الطائفي لديهم • وفي ٨ شوال ١٠٨٨ هـ ـ وهو يوافق ٤ كانون الاول ١٦٧٧ م ـ وقعت فتنة طائفية في مكة من جراء تلك الاشاعة • ننقل فيما يلي وصفا لتلك الحادثة كما رواها رجل من أهل مكة شاهدها بنفسه ، حيث قال ما نصه :

« وفي سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها وقع حادث غريب ، وكارث عجيب ، هو أنه وقع في ليلته أن لُوّث الحجر

---

(٢٩) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٢٥٧ •
(٣٠) المصدر السابق ـ ص ٢٥٨ •

الاسود وباب الكعبة ومصلى الجمعة وأستار البيت الشريف بشيء يشبه العذره في النتن والخبث ، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه ويداه ، ففزعت الناس من ذلك ، وضجت الاتراك واجتمعت ، وغُسل الحجر والباب والاستار بالماء ، وبقي الاتراك والحجاج والمجاورون في أمر عظيم • وكان اذ ذاك رجل من فضلاء الاروام يلقب درس عام ، فكان يرى جماعة من الارفاض بالمسجد الحرام ، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام ، فيتحرف لذلك ويتأوه • فلما وقع هذا الواقع قال : ليس هذا الا فعل هؤلاء الارفاض اللئام ، الذين يلازمون المسجد الحرام • وكان حينئذ مع قضاء الملك العلام ، السيد محمد مؤمن الرضوي قاعدا خلف المقام ، يتلو كتاب الله ذي الجلال والاكرام ، فأتوا اليه ، وأُخذت الختمة من يديه ، وضُرب على رأسه ، وسُحب حتى أُخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة ، فطُرح خارج الباب ، وضُرب بالحجارة والكسارات حتى زهق ومات • وفي حال مسكهم اياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يُسمى السيد شمس الدين ، فعدوا عليه وألحقوه به ، فضُرب حتى مات وجُرّ • ثم أصابوا آخر فضربوه وأخرجوه وقتلوه ، وعلى من قبله طرحوه • ثم فعلوا ذلك برابع ، ثم بخامس • ولقد رأيتهم مطروحين ، وبقي بعضهم على بعض ، الآتي والذاهب يوسعهم السب والركل • ولقد رأيت ذلك الشيء وتأملته فاذا هو ليس من القاذورات ، وانما هو من انواع الخضروات ، عجين بعدس ممخخ وادهان معفنات ، فصار ريحه ريح النجاسات • وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور ، ولم يُعلم الفاعل لذلك • وغلب على بعض الظنون ان ذلك جُعل عمدا وسيلة الى قتل أولئك • والله اعلم بالسرائر ، وهو متولي الباطن والظاهر »[٣١] •

---

(٣١) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) — ج٤ ، ص ٥٢٩ •

ومما يلفت النظر ان حادثة أخرى تشبه هذه الحادثة وقعت في عام ١١٤٣ هـ ، خلاصتها ان قافلة من حجاج الشيعة وصلت الى مكة متأخرة عن موسم الحج ، فاقام الشيعة في مكة بغية اداء الحج في الموسم القادم . وعند هذا انطلقت في مكة اشاعة بين العامة مفادها ان الشيعة وضعوا نجاسة في الكعبة . وثار الجمهور ، كما ثار العسكر معهم ، وذهبوا جميعا الى القاضي، ولكن القاضي هرب منهم خوفا من فتنتهم . فتوجهوا الى المفتي وأخرجوه من بيته كما أخرجوا معه عددا من الفقهاء ، وذهبوا بهم الى وزير الشريف وتمكنوا ان ينتزعوا من الوزير أمرا بابعاد الشيعة عن مكة ، ثم خرجوا الى الاسواق ينادون بطرد الشيعة من مكة ونهب بيوتهم .

كان شريف مكة يومذاك اسمه محمد بن عبدالله ، ولم يكن راضيا عما وقع . فذهب الجمهور في اليوم التالي الى القاضي يطلبون منه التوسط لدى الشريف للتصديق على قرار الوزير بطرد الشيعة . فامتنع الشريف عن تصديق القرار أول الامر ، ثم اضطر أخيراً الى مجاراة الجمهور درءاً للفتنة العامة . فخرج الشيعة من مكة ، حيث ذهب بعضهم الى الطائف ، والبعض الآخر الى جدة . وعندما هدأت الفتنة تمكن الشريف من القبض على دعاتها ، ثم ارسل الى الشيعة يطلب منهم العودة الى مكة فعادوا[٣٢] .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان تهمة تلويث الكعبة بالنجاسة أثيرت مرة أخرى حدينا في عام ١٩٤٢ حيث اتهم بها رجل ايراني اسمه « سيد أبو طالب اليزدي » ، وقد صدر الحكم عليه بالاعدام ، ونفذ الحكم فيه على مشهد من الناس بين الصفا والمروة . وأحدث اعدامه ضجة كبرى في ايران ، وقيل ان الملك عبدالعزيز بن سعود دفع تعويضا لعائلة الرجل قدره مائة الف ريال .

---

(٣٢) أحمد السباعي (المصدر السابق) — ص ٢٩٦ .

من ذيول مؤتمر النجف :

في عام ١١٥٦ هـ ـ الموافق لعام ١٧٤٣ م ـ عقد نادر شاه مؤتمره المشهور في النجف بغية التوحيد بين الشيعة وأهل السنة ، وكان قد أحضر اليه عددا كبيرا من علماء الفريقين ، من ايران وافغانستان وتركستان ، كما حضره من بغداد الشيخ عبدالله السويدي الذى كان كبير علماء السنة في العراق ، وحضره من كربلاء السيد نصر الله الحائرى الذى كان كبير علماء الشيعة فيه • وبعد مناقشات طويلة بين الفريقين تم الاتفاق بينهما على شروط كان أهمها اثنان : اولهما أن يترك الشيعة سب الصحابة ، والثاني أن يعترف السنيون بالتشيع مذهباً خامساً يسمى بـ « المذهب الجعفري » نسبة الى الامام جعفر الصادق • وكان من جملة الشروط أيضا أن يُسمح للشيعة بالصلاة والخطبة في الركن الشامي من الكعبة عند موسم الحج ، وذلك بعد فراغ الامام المختص به من صلاته[٣٣] •

وبعد انتهاء المؤتمر أرسل نادر شاه السيد نصرالله الحائري الى مكة لكي يقوم بالصلاة في الركن الشامي حسب قرار المؤتمر ، وأرسل معه نسخة من محضر المؤتمر ، كما أرسل كُتبا الى شريف مكة مسعود بن سعيد ، والى قاضيها ومفتيها ، يخبرهم بأنه مرسل اليهم امام المذهب الجعفري لتنفيذ قرارات المؤتمر •

حين وصل الحائري الى مكة استقبله الشريف مسعود باللطف والترحاب ، وسمح له بالصلاة والخطبة في الركن الشامي • ولكن العامة لم يهن عليهم ذلك ، فهاجوا وماجوا ، علما بأن قصة تلويث الكعبة الثانية لم يكن قد مر عليها سوى ثلاثة عشر عاما • وتدل بعض القرائن على ان

---

(٣٣) انظر تفاصيل المؤتمر وقراراته في الجزء الاول من هذا الكتاب ـ الفصل الخامس •

الشيخ عبدالله السويدي الذي جاء الى الحج في تلك السنة كانت له يد في اثارة العامة •

أرسل الوزير التركي في جدة الى الشريف مسعود يطلب منه تسليم الحائري اليه ليقتله • فامتنع الشريف عن تسليمه وقال : « اني سأحافظ عليه الى أن اكتب الى دار الخلافة وأتلقى جوابها فيما تأمر »(٣٤) • فلم يرض الوزير التركي عن هذا الجواب ، واتهم الشريف بالميل الى المذهب الجعفري •

أسرع الشريف فكتب الى السلطان في اسطنبول يخبره بالامر ، ويطلب منه الرأي • فوصله الجواب من السلطان خلال مدة قصيرة يأمره بالقاء القبض على الحائري وتسليمه الى أمير الحج الشامي أسعد باشا العظم • ففعل الشريف ما أمره السلطان به • وحمل الحائري مخفورا مع أسعد باشا الى الشام ، وسجن هناك في قلعة دمشق • وبعد مدة يسيرة طلب الحائري الى اسطنبول فحمل مخفورا اليها • ويروى انه مات مسموما ، غير ان جنازته شيعت تشييعا رسميا ودفن في قبر لائق به ، وما زال قبره قائما(٣٥) •

يبدو ان الشريف مسعود شعر بحراجة مركزه عقب هذه الحادثة ، وربما بلغه ما أشيع عنه من الميل الى المذهب الجعفري ، فأمر بلعن الرافضة على المنابر(٣٦) درءاً للتهمة عنه •

الحرب مع الوهابيين :

في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي بدأت الدعوة الوهابية بالظهور في نجد • وبعد سنوات قليلة من ظهورها أرسل الوهابيون ثلاثين من علمائهم

---

(٣٤) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٠ •
(٣٥) علي الوردي (لمحات اجتماعية) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ج١ ، ص ١٤١ •
(٣٦) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٠ •

الى مكة لمناظرة علمائها . تقـــول دحلان صـــاحب كتاب « خلاصـــة الكلام في أمراء البلد الحرام » : ان الشريف مسعود أمر علماء الحرمين أن يناظروا علماء الوهابية ، فناظروهم ، فوجـــدوا عقائدهم فاسدة ، وكتب قاضي الشرع حجة بكفرهم وحبسهم . فسجن الشريف مسعود بعضهـم وفر الباقون(٣٧) .

أمر الشريف مسعود بمنع الوهابيين من الحج ، وظل المنع ساريا في عهد خلفائه . وفي عام ١٧٨٨ م تولى شرافة مكة غالب بن مساعد ، وكان داهية جبارا . وكانت الدعوة الوهابية قد تنامت في زمانه وانضمت اليها قبائل كثيرة . فصمم الشريف غالب على محاربتها والقضاء عليها .

وجه غالب حملات عديدة الى نجد لم ينجح فيها ، واضطر في عـام ١٧٩٨ م الى عقد الصلح مع الوهابيين وسمح لهم بالحج . وقد انتهـــز الوهابيون فرصة توقف القتال مع غالب ، فصاروا يوجهون غاراتهم على العراق . وفي عام ١٨٠٢ م قاموا بفعلتهم المشهورة في كربلاء حيث اقتحموها بغتة وقتلوا كثيرا من سكانها ونهبوها كما نهبوا خزانة المرقد الحسيني ـ على نحو ما ذكرناه بتفصيل في الجزء الاول من هذا الكتاب .

انتقض الصلح بين الوهابيين والشريف غالب في عام ١٨٠٢ . وقـــد التحق بالوهابيين عثمان المضائفي وكان وزير الشريف غالب وزوج اخته ، فتقوى الوهابيون به . وعاد المضائفي على رأس جيش كبير من القبائـل الوهابية ، فحاصر الطائف وفتحها . وقام الوهابيون في الطائف بمذبحـــة فظيعة ، ونهبوها نهبا ، على عادتهم في كل بلدة يفتحونها ، اذ هم يعتبرون سكانها مشركين يجوز سفك دمائهم ونهب أموالهم .

كان الامير سعود بن عبدالعزيز عند فتح الطائف متوجها نحو غزو

---

(٣٧) محسن الامين (كشف الارتياب) ـ ط ٣ ـ ص ٧ .

العراق ، فلما وصل اليه خبر فتح الطائف على يد قوات عثمان المضائفي سرّ به سرورا عظيما وترك غزو العراق وتوجه نحو الحجاز . وقد تمكن الامير سعود من فتح مكة بلا قتال ، ذلك لان الشريف كان قد انسحب منها قبيل ذلك وذهب الى جدة فتحصن فيها .

في ٨ محرم عام ١٢١٨ هـ – وهو يوافق ٣٠ نيسان ١٨٠٣ م – دخل الامير سعود مكة محرماً ، فطاف وسعى ونحر نحو مائة بعير . وفى اليوم التالي نادى مناديه يأمر الناس بالاجتماع ضحى الغد . وعندما تم اجتماع الناس في الوقت المحدد صعد الامير سعود على درج الصفا ، وكان المفتي عن يمينه والقاضي عن يساره ، وخطب تقليدا للنبي عند فتحه مكة ، حيث قال ما نصه :

« الله اكبر ، الله اكبر ، لا آله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأنجزوعده ، وأعز جنده ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون ، الحمد الذي صدقنا وعده . ياأهل مكة انتم جيران بيته آمنون بأمنه وسكنى حرمه ، وانتم في خير بقعة . اعلموا ان مكة حرام ما فيها ، لايُختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يعضد شجرها ، وانما أحلت ساعة من نهار . انّا كنا أضعف العرب ، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا اليه وكل يهزأ بنا ويقاتلنا عليه وينهب مواشينا ونشتريها منه . ولم نزل ندعو الناس للاسلام وجميع من تراه عيونكم ومن تسمعون به من القبائل انما أسلموا بهذا السيف – ورفع سيفه تجاه الكعبة – وقد كنتُ في هذا العام غازيا نحو العراق فلما سمعت ما وقع من المسلمين بغزوة الطائف ، وأقبلوا عليكم يغزونكم ، خفت عليكم من العربان والبادية . فاحمدوا الله الذى هداكم للاسلام وانقذكم من الشرك، وانا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذى كنتم عليه ، وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله ، وتوالون من والاه ، وتعادون من عاداه ، في السراء والضراء ، والسمع والطاعة » .

وبعد أن انتهى الامير سعود من خطبته جلس ، وتهافت الناس عليه يبايعونه وكان في مقدمتهم المفتى والقاضي والشريف عبدالمعين أخو الشريف غالب • ثم أمر الامير سعود أهل مكة بهدم جميع القبب والقبور التي فيها حتى لايكون هناك معبود غير الله •

وفي الصباح التالي بادر الوهابيون ومعهم الكثيرون من أهل مكة ، ومعهم المساحي ، فهدموا القبب القائمة في المصلى ، ثم هدموا قبة مولد النبي ومولد ابي بكر ومولد علي بن ابي طالب وقبة السيدة خديجة ، وظلوا كذلك حتى لم يبق في مكة أثر من قبة • وكانوا في أثناء الهدم يرتجزون ويضربون الطبول ويشتمون القبور ويقولون : « ما هي الا أسماء سميتموها » • ويقال ان أحدهم بال على قبر السيد المحجوب(٣٨) •

وأمر الامير سعود باحراق النارجيلات وآلات اللهو ، ومنع من تدخين التتن والتنباك ، كما منع الاستغاثة بالمخلوقين وبناء القبب على القبور وتقبيل الاعتاب • وكذلك منع كل عبارة تضاف الى الاذان كالصلاة على النبي ، أو قول المؤذن « يا أرحم الراحمين » ، أو الترضي عن الصحابة ، فقد اعتبرها من قبيل الشرك • ثم أمر بتدريس كتاب محمد بن عبدالوهاب المسمى بـ « كشف الشبهات » في المسجد في حلقة عامة يحضرها العلماء والاهالي ، ففعلوا ذلك •

وبعد أن مكث الامير سعود في مكة نحو أربعة وعشرين يوما توجه بجيوشه نحو جدة بغية فتحها • وكان الشريف غالب قد تحصن وراء أسوار جدة مستعدا لقتاله • فدام القتال بين الفريقين ثمانية ايام دون ان يفلح سعود في فتح جدة • وقد اضطر سعود الى العودة الى نجد على أثر خبر مقلق وصله منه • وتمكن الشريف غالب من العودة الى مكة •

---

(٣٨) المصدر السابق ــ ص ٢١ ــ ٢٣ •

ظلت الحروب متصلة بين الشريف غالب والوهابيين • واستطاع الوهابيون في عام ١٨٠٤ أن يشددوا الحصار على مكة وقطع المؤون عنها • فاستفحلت المجاعة فيها واستمرت حتى السنة التالية ، واضطر بعض الناس الى أكل الجلود والنوى وبزر الخشخاش ، والمهررة والكلاب[٣٩] وكل حيوان ، وشربوا الدم ، وأكلوا نباتا يسمى « الاخريط » كان يسبب فيهم ورما ، وشوهد الاطفال موتى في الازقة[٤٠] •

اضطر الشريف غالب في شباط ١٨٠٦ الى عقد الصلح مع الوهابيين، وتم الصلح بينهما على أن يكون الحجاز خاضعا للوهابيين وان يبقى الشريف غالب على امارته تابعا لهم •

وحين حل موسم الحج في السنة التالية قال الامير سعود لاميري الحج الشامي والمصري : « ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها !؟ » مشيرا الى المحامل ، فأجاباه بأن هذه المحامل اشارة لأجتماع الناس وهي عادة قديمة • فقال لهم : « لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام ، وان أتيتم بها فاني أكسرها » • وكذلك اشترط عليهما أن لايأتيا بطبول وزمور •

وفي موسم الحج التالي حين وصل أمير الحج الشامي الى مقربة من المدينة أرسل اليه الامير سعود يقول : « لاتدخل الحجاز الا على الشرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي » • فعاد أمير الحج مع من كان معه من الحجاج الى بلادهم • ويُروى أن سعود أمر باحراق المحمل المصري في تلك السنة • كما أمر مناديه بأن ينادي في الناس : « لا يأتي الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن » • ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون

---

(٣٩) احمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٥١ •

(٤٠) محسن الامين (المصدر السابق) ـ ص ٣٢ •

والشاميون عن الحج[٤١] ، كما انقطع العراقيون[٤٢] .

وأمر سعود بهدم جميع القبب التى كانت في البقيع وفي المدينة ، ما عدا قبة المسجد النبوي ، كما استحوذ على جميع التحف والجواهر المخزونة في الحجرة النبوية كان من بينها أربع شمعدانات من الزمرد في كل واحد منها قطعة من الماس تضيء بدلا من الشمعة[٤٣] .

الحملة المصرية :

أوعز السلطان العثماني محمود الثاني الى محمد علي باشا والي مصر بارسال الجيوش الى الحجاز لطرد الوهابيين منه . فجهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الاكبر طوسون باشا ، وفي عام ١٨١١ عبرت الحملة البحر الاحمر بالسفن الى ينبع فاحتلت البلدة بعد قتال شديد ، ونهب الجنود البلدة كما سبوا نساءها على رواية الجبرتي[٤٤] . ولكن الحملة حين تقدمت نحو المدينة ووصلت الى مقربة من بدر باغتها الوهابيون وهزموها شر هزيمة ، مما اضطرها الى الانسحاب الى ينبع .

جهز محمد علي باشا حملة أخرى ، واستطاعت هذه الحملة أن تستميل اليها القبائل بما اغدقت عليها من الاموال الطائلة . وتمكنت أخيرا من فتح المدينة وجدة ومكة . وقد أيدها الشريف غالب وتعاون معها . وتوجه الشريف على رأس قوة كبيرة نحو الطائف وفتحها . وقد وقع عثمان المضائفي في أسره ، فأمر الشريف بوضع سلسلة من الحديد في عنقه وارساله الى مصر .

---

(٤١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٦ .

(٤٢) محسن الامين (المصدر السابق) ــ ص ٣٥ .

(٤٣) المصدر السابق ــ ص ٣٥ .

(٤٤) نقلا عن المصدر السابق ــ ص ٣٧ .

حين وصل الى محمد علي باشا خبر الانتصارات التى نالتها جيوشه في الحجاز جاء بنفسه اليه وعند وصوله الى جدة حضر الشريف غالب لمقابلته فيها ، ثم جاء اليه أيضا وفد من الامير سعود يطلب الصلح كما يطلب الافراج عن عثمان المضائفي ، وقدم فدية عنه قدرها مائة ألف ريال فرنسي ، فقال محمد علي للوفد : « أما المضائفي فأُرسل الى اسلامبول ، وأما الصلح فلا نأباه بشرط دفع كل ما صرفناه على العساكر من ابتداء الحرب الى اليوم وارجاع ما أخذه من ذخائر الحجرة النبوية ... » . فعاد الوفد خائبا ، كما ان المضايفي أُرسل الى اسطنبول فطيف به في أسواقها مع زميل له اسمه ابن مضيان ، ثم قُتلا(٤٥) .

غادر محمد علي باشا جدة متوجها الى مكة ، وعند وصوله اليها احتفى به الشريف غالب احتفاءاً عظيما وبالغ في ضيافته . وكان محمد علي من جانبه يبالغ في احترام الشريف ويقبل يده أمام الناس . وقد تعاهد الرجلان في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة .

كان السلطان العثماني غاضبا على الشريف غالب لما سبق له من صلح مع الوهابيين ، فكتب الى محمد علي يأمره باعتقال الشريف وارساله الى اسطنبول . وقد شعر محمد علي بالحيرة لتنفيذ هذا الأمر السلطاني بعد ما تعاهد مع الشريف في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة . وقد وجد محمد علي أخيرا حيلة شرعية تمكنه من تنفيذ الامر حيث كلف أبنه طوسون باشا به ، ولم يقم هو به بنفسه تخلصا من نكث العهد بزعمه . وقد قام طوسون باشا بالامر ، فأمر باعتقال الشريف غالب بعد تقبيل يده .

أُرسل الشريف غالب الى مصر مع ولديه عبدالله وحسين وأربعة من عبيده . ثم صودرت أمواله وأملاكه واستولي على جميع ما في داره ، وأخرج حرمه وجواريه من الدار بعد تفتيشهن تفتيشا فاحشا . ولكنه عند

---

(٤٥) المصدر السابق - ص ٤١ .

وصوله مصر استقبل باحتفاء كبير وأطلقت له المدافع ، وسُمح لحريمه بالالتحاق به • ثم أُرسل بعد ذلك الى سالونيك مع حريمه وولديه وعبيده • وأمر السلطان باعادة كل ما صودر منه ، ومنحه المرتبات الكافية له • وقضى الشريف غالب بقية عمره في سالونيك ، وقد توفى بمرض الطاعون في عام ١٨١٦[٤٦] •

ظلت الحروب مستمرة بين الحملة المصرية والوهابيين • وقد اضطر محمد علي باشا الى العودة الى مصر في عام ١٨١٥ تاركا قيادة الحملة الى ابنه طوسون • وفي أواخر ١٨١٦ مات طوسون من جراء حمى اصابته ، فعين محمد علي ابنه الثاني ابراهيم باشا قائدا للحملة • وقد استطاع ابراهيم أن يغلب الوهابيين وان يطاردهم حتى وصل في عام ١٨١٨ الى عاصمتهم الدرعية • وبعد أن حاصر الدرعية طيلة ستة أشهر استسلمت له • فقتل ابراهيم علماءها ثم أرسل عبدالله بن سعود ، الذى كان قد خلف أباه في امارة الوهابيين ، الى اسطنبول حيث نُفذ فيه حكم الاعدام بأمر من السلطان • وفي حزيران ١٨١٩ وصل الى ابراهيم باشا أمر من أبيه محمد علي بتدمير الدرعية تدميرا تاما ، فقام ابراهيم بما أُمر به ، واصبحت الدرعية مجموعة من الاطلال[٤٧] •

بين عون وزيد :

دام الحكم المصري في الحجاز نحو ثلاثين سنة اذ لم ينسحب الجيش المصري من الحجاز الا في عام ١٨٤٠ م • وكانت تلك الفترة ذات أثر كبير في منصب الشرافة ، فقد كان شريف مكة قبل ذلك يحكم الحجاز

---

(٤٦) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت ـ ص ١٣٩ •

(٤٧) المصدر السابق ـ ص ١٦١ •

حكما مطلقا وتكاد سيادة الدولة العثمانية عليه تكون اسمية[٤٨] • أما بعد ذلك فقد أصبح الشريف يشاركه في الحكم والي تركي ومعه قوات نظامية تخضع لامره • وقد بدأ منذ ذلك الحين صراع بين الوالي والشريف يشتد تارة ويخف تارة أخرى • فالوالي يريد أن يفرض سيادة الدولة في الحجاز ، بينما الشريف يريد أن يستعيد مجد اجداده في الحكم المطلق •

ومن الممكن القول ان الصراع بين الاشراف أنفسهم قد دخل فيه من جراء ذلك عامل جديد لم يكن موجودا من قبل ، هو نفوذ الدولة وأمر السلطان • فبعد ما كان الصراع بين الاسر المتنافسة محصورا في داخل الحجاز ويعتمد على القوة وحدها ، أصبح الان يدور بالاضافة الى ذلك في أروقة أسطنبول حيث تحاول كل أسرة نيل الحظوة لدى السلطان وتشويه سمعة غريمتها لديه •

شهدت فترة الحكم المصري في الحجاز بداية الصراع المشهور بين أسرتين من الاشراف هما : اسرة ذوي زيد واسرة ذوي عون • وهو الصراع الذى استمر حتى عهد ما بعد الحرب العالمية الاولى وكان له أثره في تاريخ الاشراف القريب •

كان عبدالمطلب بن غالب هو زعيم ذوي زيد ، وقد تولى الشرافة في عام ١٨٢٧ ، ولكن عهده لم يدم طويلا اذ كان ينافسه على الشرافة محمد بن عبدالمعين زعيم ذوي عون • ويدعي ذوو زيد أن محمد بن عبدالمعين لم يكن شريفا بل هو مجهول النسب كان يعمل خادما عند الشريفة حزيمة أخت عبدالمطلب ولكن محمد علي باشا أراد أن يجعل منه ندا لعبدالمطلب نكاية به ولكي يشق الاشراف ويضعفهم •

---

(٤٨) سليمان موسى (الحركة العربية) - بيروت ١٩٧٠ - ص ٤٤ •

وفي أوائل عام ١٨٢٨ م حدثت معركة شديدة في الطائف بين قوات عبدالمطلب وقوات محمد بن عبدالمعين ، وقد ساعدت القوات المصرية محمدا ، فانتصر على خصمه . فطلب عبدالمطلب منه الامان ، وغادر الحجاز ذاهبا الى اسطنبول . وقد احتفى به السلطان محمود عند وصوله وأكرمه وأبقاه عنده في اسطنبول .

استمرت شرافة محمد حتى عام ١٨٥١ عندما صدر أمر السلطان بعزله لسبب غير معروف ، وقد عينت الدولة عبدالمطلب في الشرافة مكانه. وقد ذهب محمد الى اسطنبول فعاش هو واولاده في كنف السلطان مكرما على نحو ما عاش خصمه عبدالمطلب من قبل .

لم تدم شرافة عبدالمطلب في هذه المرة سوى اربع سنوات تقريبا ، ففي عام ١٨٥٤ حدث حادث أدى الى عزله . وخلاصة الحادث ان الوالي التركي كامل باشا قد وصله أمر من السلطان بمنع بيع الرقيق علنا في الاسواق تنفيذا لمعاهدة عُقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا . وقد استدعى كامل باشا دلالي الرقيق وأبلغهم الامر ، ولم يكد ينتشر الخبر في مكة حتى هاج الناس وتنادوا بالجهاد ، واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء وطلبوا منه أن لايرضخ لهذا الامر الذى هو مخالف للشرع في نظرهم ، كما طلبوا منه أن يذهب معهم الى دار القاضي ليمنع من صدور الامر . فاستجاب رئيس العلماء لطلبهم وسار معهم متجها الى دار القاضي، وانضم الجمهور اليهم في الطريق وهم ينادون بالثورة ، واشتبكوا مع الحامية التركية في قتال عنيف امتد الى المسجد الحرام ، وسقط فيه عدة قتلى من الفريقين .

كان الشريف عبدالمطلب يومذاك في الطائف ، ولما علم بالامر قرر أن يقف الى جانب الاهالي ضد الحامية التركية ، وجمع اتباعه وتوجه بهم نحو مكة . وأسرعت الحامية التركية بالانسحاب الى جدة ، فتحصنت فيها . وأعلن الوالي ان أمر السلطان قد وصله بعزل عبدالمطلب من الشرافة واعادة محمد بن عبدالمعين اليها .

وفي ٢٦ نيسان ١٨٥٥ وصلت باخرة الى جدة وهي تحمل محمد بن عبدالمعين ، فأقيمت الزينات في جدة احتفاءا بمقدمه . وسار محمد على رأس قوات كبيرة نحو الطائف التى كان عبدالمطلب متحصنا فيها . ثم هاجم الطائف هجوما شديدا واقتحمها وأسر عبدالمطلب ، وأرسله مخفورا الى اسطنبول ، فعفا عنه السلطان وأقامه في أحد القصور مكرما(٤٩) .

في ٢٩ آذار ١٨٥٨ مات محمد بن عبدالمعين على أثر مرض لم يسهله الا اياما ، فتولى الشرافة من بعده ابنه عبدالله . وظل عبدالله فى منصب الشرافة الى أن حل عهد الدستور الاول في الدولة العثمانية على يد مدحت باشا في عام ١٨٧٧ ، فعُزل عبدالله وعُين مكانه اخوه الحسين بن محمد الذي كان من المؤيدين لمدحت باشا والدستور .

دامت شرافة الحسين بن محمد سنتين وبضعة أشهر ، ففي عام ١٨٨٠ قتل الحسين في جدة على يد درويش افغاني اذ طعنه بخنجر مسموم . وقد اختلفت الاقاويل في سبب قتله ، وقيل ان السلطان عبدالحميد هو الذى دبر أمر اغتياله بعد الغاء الدستور ونفي مدحت باشا .

أُعيد عبدالمطلب الى منصب الشرافة وقد نقلته من اسطنبول الى الحجاز باخرة سلطانية خاصة . فوصل الى مكة في ٢٨ أيار ١٨٨٠ م ، فاستقبل فيها استقبالا عظيما ، وكان حينذاك كبير السن ، وأخذ يقسو على اتباع ذوي عون وعلى أنصار الدستور . وفي عام ١٨٨١ م عندما جيء بمدحت باشا وأصحابه الى مكة في طريقهم الى سجن الطائف كان عبدالمطلب يطل عليهم من نافذة قصره وهو يقول : « نصحتك يامدحت فلم تقبل »(٥٠) .

لم تبق أسرة ذوي عون ساكتة تجاه حكم عبدالمطلب ، فقد ذهب

---

(٤٩) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .
(٥٠) المصدر السابق ـ ص ٣٨٤ .

وفد منهم الى اسطنبول وابرزوا للسلطان عبدالحميد وثائق تثبت اتصال عبدالمطلب بالانكليز • ويدعي ذوو زيد أن الوثائق كانت مزورة(٥١) • والظاهر انها أثرت على السلطان فأصدر أمـــــره في عام **١٨٨٢** **بعزل** عبدالمطلب من الشرافة ، وعين مكانه رجلا من ذوي **عون هو عون بن محمد** ابن عبدالمعين ــ وهو المشهور باسم « عون الرفيق » • **وقد اعتقل عبدالمطلب** على أثر ذلك وظل رهن الاعتقال حتى مات في **أوائل عام ١٨٨٦ م عن** عمر يناهز المائة •

عون الرفيق :

تولى عون الرفيق شرافة مكة ثلاثا وعشرين سنة من عام **١٨٨٢ الى ١٩٠٥** والواقع أنه يستحق أن يكتب عنه كتاب قائم بذاته لما اشتهر بـــه من غرابة الاطوار وما دار حوله من أقاويل مختلفة وأساطير •

وصفه أحد المؤرخين بقوله ان شرافة مكة بلغت في عهده « منتهى ضعفها وغاية هبوطها »(٥٢) ، بينما وصفه مؤرخ آخر بأنه « مأمون عصره ورشيد مصره »(٥٣) • وقد أعطانا مؤلف « تاريخ مكة » صورة عنه لعلها أقرب الى الواقع من غيرها ، فهو يقول فيه ما نصه :

« ويبدو أن الشريف عون كان ••• غريب الاطوار متناقض الاعمال، يقدس بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحبته للخير العام وتبسطه في مجالسه الخاصة وتودده للمسالمين • وينعى عليه غيرهم تبذله بين ندمائه ، وقسوته في معاملة الحجاج ، وامعانه في عقوبة مخالفيه ، واصطناعـــــه

---

(٥١) انيس صـايغ (الهاشـــميون والثورة العربية الكبرى) ، بيروت ١٩٦٦ ــ ص ٣٥ •

(٥٢) فؤاد حمزة (المصدر السابق) ــ ص ٣٢٣ •

(٥٣) نقلا عن كتاب مخطوط للسيد هبةالدين الشهرستاني عنوانـــه « ذكرى جلالة الحسين » • واني أشكر السيد جواد الشهرستاني على اعارته اياي هذا الكتاب •

(الخزناوية) الذين كانوا يضطهدون الشعب » • ويضف مؤلف « تاريخ مكة » الخزناوية بأنهم رجال اتخذهم الشريف عون كحرس خاص لخدمته فصاروا يتسلطون على الاهالي ويستغلون نفوذهم في اضطهاد من يضطهدونه أو يطمعون في أمواله فكان لايجرأ أحد على الشكوى منهم • وقيل ان الشريف عون كان يختارهم من طبقات العامة ويخولهم من النفوذ ما يستطيعون به اذلال الخاصة نكاية بهم[٥٤] •

من الامور التى اشتهر بها الشريف عون الرفيق تقريبه لرجل من المجاذيب اسمه « علي بو » ، فقد كان هذا الرجل قبلئذ يذرع الشوارع بجسمه العاري وهو مطرق لايكلم الناس ، فاذا حادثه أحد المارة وألح عليه في الحديث أجابه بعبارة واحدة اعتاد عليها ولا يجيب بغيرها ، وهي : « مقضية ، مقضية ، ان شاء الله » • ويقال في سبب تقريب الشريف عون له أنه تنبأ له بنبوءة صحت فيما بعد ، فآمن عون بقدسيته ، وبنى له قصرا فخما وألبسه الملابس الفاخرة ، واتخذه أنيسا له ، وجعل أعيان مكة يقبلون يده ويحترمونه • وقد ظل هذا الرجل على هذه المنزلة العالية الى ان مات عون الرفيق في عام ١٩٠٥ ، فعاد الى الشوارع يذرعها من جديد[٥٥] •

ومما اشتهر به الشريف عون أيضا انه كان يحب العدل ، أو كان يريد الاشتهار به ، الى درجة عجيبة • قيل أنه كان أحيانا يأمر بحبس الحيوانات والجمادات اذا كانت سببا في وقوع جناية على أحد ، فاذا وقعت صخرة على انسان فجرحته أمر بضرب تلك الصخرة او اعدامها لكي يفهم الناس أنه لايفوته قصاص مجرم ولو كان جمادا لاتكليف عليه • وحدث مرة أن سقط ديك على أخشاب تعود لامرأة شامية ، وسببت

---

(٥٤) أحمد السباعي (المصدر السابق) – ص ٣٩٠ •
(٥٥) المصدر السابق – ص ٣٩٠ – ٣٩١ •

الاخشاب له جرحا ، فأمر الشريف بحبس الاخشاب ، ولم يطلق سراحها الا بعد أن قدمت له المرأة عريضة بذلك(٥٦) .

من التهم التى اتهم بها الشريف عون أنه كان يميل الى العقيدة الوهابية ، وسبب هذه التهمة أنه أمر بهدم بعض القبور المقدسة كقبر عبدالله بن الزبير في مكة ، وقبر حواء في جدة . ويروي أمين الريحاني أن قناصل الدول الاجنبية اعترضوا على الشريف عون عندما أمر بهدم قبر حواء ، وقالوا له : « لك ماتشاء في الاولياء ، ولكن حواء أم الناس أجمعين ، ونحن نحتج على هدم مقامها » . فاقتنع الشريف عون بما قالوا وترك هدم ذلك القبر(٥٧) .

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه خصومه يتهمونه بالوهابية كان الشيعة يظنون انه منهم . فقد كان الشيخ باقر التستري ، وهو من علماء الشيعة ، مقربا الى الشريف عون يفد عليه ويقضي الاعوام عنده ، وكان هذا الشيخ واثقا من تشيع الشريف عون .

ويستدل الشيعة على تشيع الشريف عون بعدة أمور منها : انه أبطل مظاهر الفرح الذى اعتاد عليها اهل الحجاز في يوم عاشوراء اعتقادا منهم أنه اليوم الذى استوت فيه سفينة نوح على الجودي ، فقال الشريف عون لهم : « اننا أمة محمد ، وسفينة آل الرسول صادفت هذا اليوم بلاءها المشهور – يقصد مقتل الحسين في كربلا – فلا بد أن يحزن فيه الرسول وتحزن أمته »(٥٨) .

ومنها أنه نظم قصيدة طويلة في رثاء فاطمة الزهراء وذم من آذاها ، وألقاها بنفسه على الحجاج في الكعبة عام ١٩٠٤ . والواقع ان هذه القصيدة

---

(٥٦) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني .
(٥٧) أمين الريحاني (ملوك العرب) – بيروت ١٩٥١ – ج١ ، ص ٦٣ .
(٥٨) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني .

اشتهرت لدى الشيعة في العراق ، ومازال قراء التعزية يتلونها في مجالسهم الحسينية ، وهم يرددون منها البيت التالي بوجه خاص :

بنت من ؟ أم من ؟ حليلة من ؟ ويل لمن سن ظلمها وأذاهـــا

يمكن القول على أي حال ان الشريف عون لم يكن وهابيا ولا شيعيا، بل كان مذهبا قائما بذاته . يصفه أحد الذين خالطوه وعرفوه بقوله : « انه كان يجاري كل طائفة باكمل ما عندهم حتى يستطلع ما في خواطرهم ، وينفذ فيهم سياسته وارادته ، ويستجمع من كل ذلك قلوب الطوائف الاسلامية قريبها والبعيد ... وكان الشريف عون عالما بارعا في الفنون متضلعا في أكثر العلوم لايدخل عليه عالم الا ويخرج معتقدا ان علمه دون علم الشريف ... وكانت كل طائفة من المسلمين تحتج وتعتقد ان امير الحرمين أحد أفراد طائفتها... »(٥٩) .

ان هذه السياسة الغريبة التي سار عليها الشريف عون لابد أن يرضى عنها قوم ويغضب منها آخرون . والظاهر ان العامة كانوا في الغالب راضين عنها ومعجبين بها ، أما الخاصة فكانوا ناقمين عليها . فقد كان في مقدمة الناقمين على الشريف عون الوالي نوري باشا وأعيان مكة وعلماؤها ، وكتبوا عليه المضابط الى السلطان عبدالحميد يشكونه ويذمونه . فأرسل السلطان الى مكة لجنة للتحقيق برئاسة راتب باشا . وحين وصلت اللجنة الى جدة كان في استقبالها رسول من الشريف عون وهو يحمل صرة فيها ستة آلاف ليرة ذهب هدية الى راتب باشا(٦٠) ولما حققت اللجنة في الشكاوي بعدئذ وجدت أنها لاصحة لها وبرأت الشريف عون من التهم التي أُلصقت به « زوراً وبهتاناً » . وبعد مدة قصيرة أمر السلطان بعزل نوري باشا من الولاية وتعيين راتب باشا مكانه .

---

(٥٩) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني .

(٦٠) سليمان موسى (المصدر السابق) ـص ٤٥ .

وفي عام ١٩٠٤ نظم الشاعر المعروف أحمد شوقي قصيدة طويلة ذم فيها الشريف عون ذما مقذعا وحث السلطان على عزله • وقد رفع القصيدة الى السلطان • وفيما يلي ننقل أبياتا نموذجية منها :

ضج الحجاز وضج البيت والحـــرم ... واستصرخت ربها في مكة الامـــم

قد مسها في حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله أنت السيد الحـــكم

لك الربوع التي ريع الحجيج بها ... أللشريف عليها أم لك العـــلم

أ'هين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... إن أنت لـم تنتقم فالله منتقـــم

أفي الضحى وعيون الجند ناظـرة ... 'تسبى النساء ويؤذي الاهل والحشم

ويُسفك الدم في أرض مقدســـة ... وتُستباح بها الاعراض والحـــرم

يد الشريف على أيدي الولاة علت ... ونعله دون ركن البيت تُســـتلم

نيرون ان قيس في باب الطغاة به ... مبالغ فيه والحَجّاج متهـــــم

أدّبه أدّب أمير المؤمنـــين فمـــا ... في العفو عن فاسق فضل ولا كرم

لاترج فيه وقاراً للرســول فمـــا ... بين البغاة وبين المصطفى رحـــم

ابن الرسول فتى فيــــه شمائله ... وفيه نخوتــه والعهـــــد والشمم

ماكان طه لرهط الفاسقـــين أبـاً ... آل النبي بأعـلام الهدى ختمــوا

محمد رُوّعت في القبّر أعظمــه ... وبات مســتأمنا في قومه الصنـــم

وخان عون الرفيق العهد في بلـد ... منه العهود أتت للناس والذمم[٦١]

لم تؤثر هذه القصيدة على بلاغتها في السلطان شيئاً • ولعل الصرر التي كان الوالي يتسلمها من الشريف عون كانت اكثر بلاغة من القصيدة •

وعلى أي حال فقد مات عون في السنة التالية ، فتولى الشرافة مـن بعده ابن اخيه علي بن عبدالله ولكنه عزل في عام ١٩٠٨ ، وتولى الشرافة من بعده الحسين بن علي •

---

(٦١) أحمد شوقي (الشوقيات) ـ بيروت ـ ج١ ـ ص ٢١١ ـ ٢١٣ •

الفصل الثاني

الحسين بن علي

ان الحسين بن علي هو اشهر من تولى شرافة مكة في جميع العصور • فهو قد وصل بالشرافه الى القمة ولكنها سرعان ما انهارت على يده • وهو فوق ذلك ذو أهمية كبرى في تاريخ العرب المعاصر وتاريخ القومية العربية• وسنحاول في هذا الفصل ذكر شيء من حياته حتى قيامه بالثورة على الاتراك ، على أن نعود لدراسة بقية حياته في فصول تالية •

بداية حياته :

هو الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين من ذوي عون • ولد في اسطنبول في عام ١٨٥٣ من أم شركسية اسمها « وسيلة خانم » • وكان جده وابوه واعمامه يعيشون يومذاك في اسطنبول عندما كانت الشرافة في يد خصمهم عبدالمطلب من ذوي زيد •

وفي عام ١٨٥٥ عندما تولى الشرافة محمد بن عبدالمعين ـ على أثر عزل عبدالمطلب منها ـ غادر اسطنبول الى مكة مع أولاده وأهل بيته ، وكان من بينهم حفيده الصغير الحسين • وفي عام ١٨٥٨ حين مات محمد تولى الشرافة من بعده ابنه عبدالله • وقد عاد علي والد الحسين الى اسطنبول حيث توفي فيها عام ١٨٧٠ • أما ولده الحسين فقد بقي في كنف عمه عبدالله في مكة • وفي عام ١٨٧٥ تزوج الحسين عابدية خانم ، وهي ابنة عمه عبدالله ، فولدت له اربعة أولاد هم : الحسن وعلي وعبدالله وفيصل • وقد مات الاول منهم في صباه ، ثم ماتت الام أيضا في عام ١٨٨٩ •

ظهرت أولى بوادر نشاطه السياسي في عام ١٨٨٠ حين تولى الشرافة

عبدالمطلب من ذوي زيد للمرة الثانية • فقد كان الحسين من جملة اعضاء الوفد العوني الذى ذهب الى اسطنبول لتحريض السلطان على عـــزل عبدالمطلب • ويدعي ذوو زيد أن الحسين كان من انشط اعضاء الوفد ، وأنه هو الذى قام بتزوير الوثائق ضد عبدالمطلب ، كما اتهموه بأنه اتصل بالسفير البريطاني في اسطنبول طالبا منه مساعدته ضد ذوي زيد ، وحثه على الاعتماد على ذوي عون دون غيرهم(١) •

ولما تم عزل عبدالمطلب من الشرافة في عام ١٨٨٢ ، وتولى عـــون الرفيق الشرافة من بعده ، كانت العلاقة بين الحسين وعمه عون حسنة جداء فقد كان عون يكثر من زيارة الحسين في بيته ويلاطف أهله ويلاعـــب اولاده حتى أنه كان يضع اللجام في فم عبدالله بن الحسين ويأمره بالجري كالفرس ليأنس به(٢) •

ويروي عبدالله في مذكراته حادثة طريفة جرت له في تلك الايام ، خلاصتها أنه واخوته كان لهم معلم يعلمهم الخط اسمه الشيخ عثمان اليمني، وكان هذا المعلم ذا لثة دامية وفم كريه ، وقد اعتاد أن يضع القلم في فمـه ثم يغمسه في الدواة فيختلط فيها الحبر بالدم • واراد عبدالله أن يعمل له مقلبا فجاء بشيء من الفلفل القوي ووضعه في محبرة أخيه فيصل • ولمـــا وضع الشيخ القلم في فمه بعد غمسه في المحبرة ، أحسّ بلذع الفلفل ، ثم اشتد به الالم وتورم فمه ، وقرر معاقبة فيصل ظناً منه أنه الفاعل ، ووضع قدمي فيصل في الفلقة ، وصار فيصل يصرخ ويقسم أنه بريء • وانتهى الحادث بصرف المعلم بعد الاعتذار اليه ومنحه نقودا وكسوة • ولما وصل الخبر الى الشريف عون الرفيق استدعى اليه عبدالله ، وصار يضحـــك

---

(١) انيس صائغ (الهاشميون والثورة العربيـــة الكبرى) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٣٤ ـ ٣٥ •

(٢) نقلا عن الكتاب المخطوط للسيد هبةالدين الشهرستاني •

ويتعجب من عمله ويقول : « فطنة عجيبة غريبة » • ثم أمر باحضار المعلم كما أمر باحضار طبيب الاسنان ، وقال للمعلم : « يا عثمان ، تريد ان تعلم أبناءنا الخط وهم علموك كيف تكون النظافة » ، ثم نادى طبيب الاسنان وأمره بأن يخلع أسنان المعلم ، فأخذ المعلم يصيح ويستغيث • فأمر الشريف عون بالكف عنه وباعطائه ألفا وخمسمائة ريال وأوصاه بأن يتداوى[٣] •

لم تبق العلاقة الحسنة بين الحسين وعمه الشريف عون طويلا ، بل صارت تسوء شيئاً فشيئاً بمرور الايام • فقد أخذ الشريف عون يتهـم الحسين بأنه يؤلب الناس عليه ويحرضهم على التذمر منـه ، وطلب من السلطان عبدالحميد استدعاءه الى اسطنبول ليتخلص منه • فورد الامر من السلطان بأن يأتي الحسين اليه • فرحل الحسين الى اسطنبول في عام ١٨٩٣ واستقبله السلطان بلطف ، وعينه عضوا في مجلس شورى الدولة • وأمر بأن تُعد له دار مؤثثة على البوسفور •

عندما استقر الحسين في داره في اسطنبول استدعى اليه اولاده وأهل بيته ، فوصل هؤلاء اليها في أوائل آذار ١٨٩٤ • وبعد وصولهم بخمسة عشر يوما صدرت الارادة السلطانية بتعيين صفوت أفندي العوا ــ وهـو ضابط شامي ــ لتعليمَ اولاد الحسين بعض الدروس كالحساب والتاريـخ والجغرافية واللغة التركية • ويروي أمين الريحاني ان عبدالله كان دؤوبا على الدرس بينما كان فيصل كسولا متأخرا في دروسه دائما ، وقد ذهب صفوت العوا الى الحسين يشكو اليه من كسل فيصل وتأخره ، فقال لـه الحسين : « اضربه يا ابني ولا تخف ••• »[٤] •

تزوج الحسين في اسطنبول فتاة شركسية ولدت له ابنته صالحة ، وقد ماتت الزوجة بعد فترة قصيرة ، فتزوج الحسين بعدها عادلة هانم وهـي

---

(٣) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ــ القدس ١٩٤٥ ــ ص ١١ ــ ١٣•
(٤) أمين الريحاني (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ١٢ •

حفيدة رشيد باشا السياسي التركي المشهور ، فولدت له ولده زيد وبنتين هما : فاطمة وسارة[٥] •

تروي المس بيل في احدى رسائلها نقلا عن نوري السعيد : ان عبدالله كان الولد المفضل لابيه ، بينما كان فيصل غير مقرب اليه • أما علي فكثيرا ماكان الخصام يحصل بينه وبين زوجة أبيه عادلة هانم على ادارة البيت ، ولهذا كان علي يكره ابنها زيد ، بينما كان فيصل يحبه[٦] •

طال بقاء الحسين في اسطنبول نحو سبعة عشر عاما • ولم تكن حياته فيها مرفهة بالدرجة المناسبة لمركزه • تروي المسز أرنسكين عن فيصل انه قال في وصف حياتهم في اسطنبول : « انها كانت ضيقة شاقة ، فلم يكن يتوفر لنا اللحم فيها الا مرة واحدة في الاسبوع الواحد »[٧] • ويقول عبدالله في مذكراته : « اما اقامتنا في اسطنبول فكانت اقامة جبر واكراه ، واقامة تعلم وعبر •••»[٨] •

تعيين الحسين شريفا :

عند اعلان الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ كانت شرافة مكة في يد علي بن عبدالله ، وهو ابن عم الحسين وأخو زوجته الاولى • وقد تباطأ في تأييد الدستور فصدر الامر بعزله وبتعيين عمه عبد الآله بن محمد بدلا عنه • وكان عبدالآله مقيما في اسطنبول ، وكان كبير السن مريضا • وقد

---

(٥) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ـ عمان ١٩٧٦ ـ ص ١٤ ، ٢١٣ •

(6) Burgoyne (Gertrude Bell) London 1961 – vol. 2, P. 245.

(٧) ارسكين (فيصل ملك العراق) ـ ترجمة عمر أبو النصر ـ بيروت ـ ١٩٣٤ ـ ص ٣٣ •

(٨) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ١٧ •

مات فجأة بعد يومين من صدور أمر تعيينه . وقيل انه مات من شدة الفرح[٩] ، كما قيل انه مات مسموما[١٠] .

قدّم الحسين الى السلطان عبدالحميد ـ وكان لايزال في الحكم ـ عريضة طلب فيها تعيينه للشرافة لكونه « أسن العائلة الهاشمية وأحقها بمقام الآباء » . وحمل العريضة ابنه عبدالله حيث ذهب بها الى الصدر الاعظم كامل باشا . وفي ١ تشرين الثاني استدعى السلطان عبدالحميد اليه الحسين وعينه شريفا لمكة كما منحه رتبة الوزارة .

اختلفت الاقوال في السبب الذى حدا بالحكومة العثمانية الى تعيين الحسين لشرافة مكة . فمنهم من يقول : ان الاتحاديين هم الذين اختاروا الحسين للشرافة بينما كان السلطان معارضا لهذا الاختيار[١١] . ومنهم من يقول : ان الاتحاديين كانوا يرغبون في تعيين علي حيدر ، وهو حفيد عبدالمطلب من ذوي زيد ، ولكن السفير البريطاني ضغط عليهم من أجل تعيين الحسين[١٢] . ويقال أيضاً أن السفير البريطاني كان له نفوذ لدى الصدر الاعظم كامل باشا ، وقد أصر هذا الرجل على تعيين الحسين بخلاف رأي السلطان اذ كان السلطان يعتقد أن الحسين رجل خطر ، وانه سوف لا يكتفي بالشرافة بل سيطمح الى اكثر منها ، وربما هدد عرش السلطنة العثمانية[١٣] .

ان عبدالله يروي في مذكراته رواية تدل على النقيض ، مما ذكرنا ، حيث يقول ان أباه الحسين عندما أراد مغادرة اسطنبول للتوجه الى مكة

---

(٩) أنيس صائغ (المصدر السابق) ـ ص ٣٦ ـ ٣٧ .
(١٠) أحمد السباعي (تاريخ مكة) ـ القاهرة ١٣٧٢ هـ ـ ص ٣٩٦ .
(١١) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٧٨ .
(١٢) أنيس صائغ (المصدر السابق) ـ ص ٣٧ .
(١٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج١ ، ص ١٧٧ .

قابل السلطان عبدالحميد لتوديعه ، واختلى به أكثر من ساعة ونصف ، فقال له السلطان : « أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية . واني لست بالامين على الدولة من هذه الفئة المتغلبة ». فقال له الحسين : اذا ضاقت بك الدنيا فالجأ الينا وسوف تجبي لك الاموال وتخضع لك رقاب العصاة . فاغرورقت عينا السلطان بالدموع وقال : أشكرك ، أشكرك ، بارك الله فيك ، ولكن الوقت لم يحن بعد ...[١٤].

وصوله الى مكة :

غادر الحسين وأهله اسطنبول في تشرين الثاني ١٩٠٨ في باخرة من بواخر الشركة الخديوية. وكان في توديعه كثيرون، في مقدمتهم كامل باشا. وفي ٣ كانون الاول وصلت الباخرة الى جدة ، وكان استقباله فيها فخما يحدثنا عنه رجل من أهلها حيث يقول ما نصه :

« ... كان رصيف الميناء مكتظا بالمستقبلين وعلى رأسهم عدد كبير من الاشراف ، فحيوه أحسن تحية ، واظهروا له عظيم السرور بتوليته امارة مكة ، وتلك عادة الناس جميعا وبالاخص الحجازيين ، أن يظهروا السرور بكل وال وأمير وان كانت قلوبهم غير راضية . ونزل في جدة ضيفا على والدي الشيخ محمد نصيف ، وحياه الحاج محمد علي زينل ... بخطبة مسهبة حوت من غرر المديح ودرر الثناء شيئاً كثيرا ، وأجابه الحسين بالتأثر الذى أسال عبراته من مآقيه ... »[١٥] .

كانت قد حضرت الى جدة وفود كثيرة من مختلف مدن الحجاز وقبائله للترحيب بالحسين . وكان من جملة تلك الوفود وفد يمثل حزب الاتحاد والترقي . وقام رئيس الوفد يخطب مرحبا بالحسين واصفا اياه ب

---

(١٤) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٢٧ .

(١٥) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ ـ ج١ ، ص ٧ .

• الامير الدستوري » ، وأعرب عن أمله بأنه سوف يعمل بمقتضى روح العصر والتجدد • فرد الحسين على هذا الخطاب بعنف مشيرا الـــى انه لايعرف هذه الامور الجديدة ، وان الحجاز هي بلاد الله لاتقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فليذهب كل منكم الى عمله : المأمور في وظيفته ، والتاجر في تجارته ، والصانع فـــي حرفته • واياكم من قال وقيل وما يقولون ، فهذه بلاد الله ليست بملك أحد ، وان السلطان الذى أمر بالدستور يفتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين • ان دستور بلاد الله شريعة الله وسنة نبيه ! فخرج أعضاء الوفد من عند الحسين وهم يتعثرون ، وكتبوا الى اسطنبول يقولون : ان عبدالحميد بعث الينا رجلا لايعبأ بأحد ولا يقر بدستور ولا بتجدد[١٦] •

مكث الحسين في جدة ثلاثة ايام ، ثم غادرها الى مكة ، فوصلها في ٧ كانون الاول • وكان فى استقباله أخوه الشريف ناصر ، والمشير كاظم باشا ، وقاضي مكة ، وسادن الكعبة عبدالقادر الشيبي ، وكثيرون غيرهم •

وفي اليوم الثالث من وصوله الى مكة أرسل ابنه عبدالله الى الطائف لاحضار خاله الشريف المعزول علي بن عبدالله الذى كان فيها • يروي عبدالله في مذكراته انه عندما وصل الى الطائف وقابل الشريف المعزول مختليا به جرت بينهما المحاورة التالية :

علي : « ما الذي ستفعلونه بي ؟ » •

عبدالله : « الخير كله ان شاء الله » •

علي : « هل ترضى يا عبدالله بسفري الى اسطنبول فيفعل بي سفهاء الاتحاد والترقي ما فعلوه بوزرائهم ؟ » •

عبدالله : « لايكون ذلك ان شاء الله » •

---

(١٦) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٢٤ ـ ٢٥ •

علي : « كيف ؟ » .

عبدالله : « الذي تحب ، ان رأيت البقاء فأنت في بلادك بعد أن تتفاهم مع ابن عمك ، وان اردت الخروج فابق بمصر ولا تسافر الى اسطنبول من هنا الا بعد أن تطمئن » .

علي : « أتضمن لي هذا ؟ » .

عبدالله : « أسعى ان شاء الله » .

علي : « ألست خالك ؟ » .

عبدالله : « بلى والله » .

علي : « أترضى لي الاهانة ؟ » .

عبدالله : « حاشا لله ، ولكن عليّ عهد الله لك في انني ان عجزت عن تنفيذ مرغوبك ان لا افارقك حيث تسير » .

علي : « رضيت الآن » . ثم دمعت عيناه وقبّل عبدالله[١٧] .

وعندما وصل علي الى مكة بصحبة ابن اخته عبدالله توجه لمقابلة الحسين ، فاستقبله الحسين من باب البهو ، ثم أجلسه على سريره ، واختلى به ساعة من الزمن . وفي اليوم التالي عقد الحسين مجلسا خاصا لتقرير مصير الشريف المعزول ، فاختلفوا في امره ، وأصرّ عبدالله على السماح له بالذهاب الى مصر قائلا : « انني تعهدت له بأنه اذا سيق الى اسطنبول فانني أسافر معه يصيبني ما يصيبه » . وتم القرار أخيرا على السماح له بالسفر الى مصر[١٨] . ويقال انه عند رحيله الى مصر حمل معه كثيرا من الاموال ، فاشترى بها أملاكا وعقارا وقصرا بديعا في حدائق القبة التي كانت يومذاك من ضواحي القاهرة ، وعاش هناك عيشة رضية مرفهة[١٩] .

---

(١٧) المصدر السابق ـ ص ٣٨ .
(١٨) المصدر السابق ـ ص ٣٩ .
(١٩) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ص ٥ .

نشاط الحسين :

كان التقليد المتبع في الحجاز منذ انتهاء الحملة المصرية في عام ١٨٤٠م أن يتولى الشريف شؤون البدو والقبائل بينما يتولى الوالي التركي شؤون الادارة في المدن • ولكن الحسين لم يخضع لهذا التقليد بل حاول الخروج عليه ، وصار ينازع الوالي سلطاته ، ولم يترك أحدا من الاهالي يتقاضى الا عنده ، سواء في ذلك الاحوال الشخصية او الحقوق المدنية • واخـــذ الحسين يوطد علاقاته مع اعيان الحجاز عن طريق التواضع والتحبب لهم ، ويحرضهم على رفع الشكاوى على الوالي الى اسطنبول[٢٠] • وتمكن بهذه الوسيلة من عزل خمسة ولاة خلال ثمانية اعوام •

في خريف ١٩٠٨ جرت انتخابات المبعوثين ، ففاز بالنيابة عن مكة اثنان هما : عبدالله بن الحسين ، والشيخ حسن الشيبي وهو ابن ســـادن الكعبة • وقد سافر الرجلان الى اسطنبول عن طريق البحر لحضور جلسات مجلس المبعوثين • ولكنهما عند وصولهما أخبرهما رئيس المجلس بورود برقيات من مكة تعترض على انتخابهما قائلة بان عبدالله لايليق بالنيـــابة لان عمره دون السن القانونية ، وان الشيخ حسن الشيبي أمي لايقرأ ولا يكتب • ولمـــا عرضت تلك البرقيات على المجلس قام أحد النواب محتجا عليها حيث قال : « ومن تريدون ؟ أتبعث اليكم مكة أفضل من ابن الشريف وابن فاتح بيت الله ؟! » • فصاح المجلس كله : « لا اعتراض ، لااعتراض» • وعند هذا أُدخل عبدالله وصاحبه الى قاعة المجلس[٢١] •

ولمـــا جرت انتخابات المبعوثين للمرة الثانية ، في ربيع ١٩١٢ م ، اعيد أنتخاب عبدالله عن مكة ، وانتخب أخوه فيصل عن جدة • وقد اعتاد عبدالله واخوه أن يقضيا فترة انعقاد المجلس في اسطنبول ثم يعودا الى الحجاز في الصيف •

---

(٢٠) المصدر السابق - ج١ ص ٨ •

(٢١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ٥٣ •

والمعروف عن عبدالله انه كان لبق الحديث مرحا وله جاذبية شخصية ومقدرة على المعاشرة ، ولهذا كان هو الممثل الفعلي لابيه في أوساط اسطنبول السياسية • أما اخوه فيصل فكان على النقيض منه قليل الكلام يميل الى الجد وذا مزاج عصبي ، ولم يعرف عنه أنه قام في اسطنبول بأي نشاط ملحوظ في داخل المجلس او خارجه •

مع ابن سعود :

في عام ١٩١٠ م ظهرت اولى بوادر الصراع بين الحسين وابن سعود ، وهو الصراع الذى استمر نحو خمسة عشر سنة ، يخمد تارة ويفور تارة أخرى ، حتى انتهى أخيرا الى انتصار ابن سعود وزوال حكم الاشراف في الحجاز ـ كما سنأتي اليه في فصول قادمة •

كان ابن سعود في عام ١٩١٠ تحيط به ظروف سيئة ، كما حل به عسر مالي شديد بسبب انحباس المطر • والظاهر ان الدولة العثمانية أرادت انتهاز الفرصة لفرض سيادتها عليه فأوعزت الى الحسين بالزحف عليه • وفي شهر تموز تحرك الحسين بقواته نحو نجد • وحين وصل الى « الشعرا » التي هي أولى قرى نجد من جهة الحجاز وقع في يده سعد أخو ابن سعود اسيرا • وكتب الحسين الى ابن سعود يقول له : « اذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام وعدنا بأخيك سعد الى مكة فيبقى عندنا الى ان تطلب الصلح » •

قام بالتوسط في الصلح بين الفريقين خالد بن لؤي أمير الخرمة ، وهو من الاشراف غير أنه كان ميالا الى ابن سعود والوهابية • وذهب الى ابن سعود وقال له بلهجته البدوية : « اسمع يا عبدالعزيز أنا أعلّمك • لاغاية للشريف سيئة معك لا والله • ولكنه يبي ـ يقصد يبغي ـ يبيّض وجهه مع الترك • فاكتب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرك • وأنا أتكفل برجوع سعد ، واتكفل ان الشريف لايتدخل في أمور نجد ، هذا اذا

كنت لاتتجاوز الحدود • اما اذا هو اعتدى عليك فانا خالد بن لؤي أعاهدك عهد الله عليه • فاكون معك والله كما كان آبائي مع آبائك وكمـــا كان اجدادي مع أجدادك » • فاقتنع ابن سعود بما قال خالد وكتب له ورقة تعهد فيها أن يدفع للدولة ستة آلاف مجيدي في كل سنة(٢٢) •

أطلق الحسين سراح سعد • وفي ٢٣ ايلول أرسل ابن سعود ابن عم له اسمه عبدالعزيز بن عبدالله الى الحسين ومعه ثلاث أفراس أصيلة هدية له مع رسالة مليئة بالتزلف والتحبب هذا نصها :

حضرة جناب الاجل الافخم بهي الشيم أميـــــر مكة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا بن السيد علي دام مجده وعلاه أمين •

بعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام ، مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر • لازلتم بكمال الصحة والســـرور حائزين الاوصاف الحميدة • أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وانتم مسرورون • ثم نعرض لدولتكـــم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو همتكم وانظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز عبدالله السعود لموجب خدمتكم وأحبينا المصاوغة ــ يقصد المهاداة ــ معكم لموجب التبرك بأقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمـــــداني وكحيلان ، ولا والله ما قصدنا في ارسالها لانكم بحاجتها ، ولا شك في غايتنا نبي ــ يقصد نبغي ــ نقرب أنفسنا منكم • فاننا هنا حاسبين أنفسنا مــــن خدامكم ، والفضل لله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رؤوسنا وما تحت أيدينا ، ولكنها هي صوغة ــ يقصد هدية ــ للاولاد الكرام • وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم ، والا امركم علينا تام على كل حال ، ومهما تفعلونه معنا وتبسطون أنظاركم علينا تجدونه ان شاء

---

(٢٢) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ــ بيروت ١٩٥٤ ، ص ١٩٢ ــ ١٩٣ •

الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة • هذا ما لزم تعريفه • والولد برسم الخدمة مع ابلاغ السلام حضرات الاخوان السادات الكرام علي وفيصل وزيد ، ومن عندنا اولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ، ودمتم محروسين •

خادم الدولة والملة والوطن

١٨ رمضان سنة ١٣٢٨ هـ أمير نجد ورؤساء عشائرها

عبدالعزيز السعود(٢٣)

كتب الحسين بعد هذا الى ابن سعود يذكر له ما بلغه عنه من أنه يعد العدة للهجوم على الحجاز ، وأن بعض القبائل القاطنة على الحدود تشكو من اعتداءاته عليها • وأجاب ابن سعود برسالة فيها من التزلف والتحبب أكثر مما في الرسالة الاولى وهي طويلة نقتطف منها ما يلي :

« ••• فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ــ يقصد نفسه ــ سامع ومطيع لله ثم لحضرتكم ••• فكما تأمرون أفعل امتثالا لامر الله ثم امركم•• فان كنت المجرم فانا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم ••• وانا والله وبالله وتالله ان رضاكم وامتثال خدمتكم عندي أعز من رضا عبدالرحمن ــ يقصد والده ــ وخدمته • ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله اني ولد لك سامع مطيع ما أخالف شورتك في جميع أمر ، وانا تحت أمركم تريدون المقابلة بيني وبين المزوّرين في أي وقت تبغونه أحضر ، فان كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم، وانما لايزوّرون على حضرتكم انى مستغزي أهل نجد قصد محاربتكم او مكابرتكم ، لاوالله ، لا والله ، لا والله • اني ما استغزيتهم الا لموجب

(٢٣) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ • وانظر كذلك : أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ، بيروت ، ج٢ ، ص ٥١ ــ ٥٢ •

تجافينا وبعض الفساد اللي لا يخفى جنابكم • ولا يقطع عقلكم ان قدومي بها المحل قصدي محاربة أو أمر يغضب خواطركم ، الا انما هو تقرب لخدمتكم ••• واجبنا تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز • ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الامر • هذا ما لزم • والرجا ابلاغ سلامنا الاخوان السادات الكرام • ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين — ١٥ شوال ١٣٢٨ »(٢٤)•

لاحاجة بنا الى القول ان هذا التخضع الذى أبداه ابن سعود نحو الحسين انما هو من مظاهر الدهاء الذى أشتهر ابن سعود به • فهو كان في تلك الآونة مشغولا بمشاكله الداخلية ، ولم يكن يرى من المصلحة أن يتورط في مشكلة أخرى مع الحسين ، فآثر أن يترضاه ويتحبب اليه مؤقتا الى ان ينتهي من حل مشاكله الداخلية • والظاهر ان الحسين لم يفهم ذلك ، ولعله اغتر بما أبداه ابن سعود له من التزلف والتخضع ، وظن انه ضعيف وسيبقى ضعيفا دائما • وقد ظل الحسين ينظر الى ابن سعود طيلة السنوات التالية بمثل هذه النظرة ويعامله على أساسها • وتلك غلطة من الحسين كانت من أهم العوامل التي أدت الى نهايته المؤسفة أخيرا •

حملة عسير :

ان منطقة عسير جزء من اليمن تقع الى الجنوب من الحجاز ، وكانت في تلك الايام متصرفية تابعة للدولة العثمانية مركزها بلدة « أبها » ، وكان متصرفها سليمان شفيق باشا • وفي عام ١٩١٠ م ثار السيد محمد الادريسي على الدولة ، وكان له نفوذ وقدسية في تلك المنطقة ، فنال نجاحا في ثورته، وكان الايطاليون يساعدونه فيها • وفي أواخر ذلك العام استطاع الادريسي ان يحاصر « أبها » ، وكانت فيها قوات تركية كبيرة ، ودام الحصار نحو عشرة أشهر عاني السكان منه الويلات ، وأكلوا القطط والكلاب ، ومات

---

(٢٤) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٣٣٨ — ٣٣٩ •

منهم اكثر من خمسة آلاف شخص جوعا[٢٥] .

استعانت الدولة العثمانية بالحسين لاخماد ثورة الادريسي . فأعد الحسين حملة لها ، واستدعى اليه ابنه عبدالله من اسطنبول ليكون معه في الحملة ، كما استصحب معه ابنه الاخر فيصل . وفي ١٦ نيسان ١٩١١ تحركت الحملة من مكة وهي تضم بالاضافة الى القوات المحلية ثلاثة أفواج تركية يبلغ عدد رجالها ثلاثة آلاف .

حين تغلغلت الحملة في أراضي عسير أخذت القوات الادريسية تشن الغارات عليها مرة بعد مرة ، وكبدتها خسائر فادحة[٢٦] . وفي ١٦ تموز وصلت الحملة الى « ابها » وتمكنت من فك الحصار عنها ودخولها .

حل عيد الدستور في ٢٤ تموز ـ أي بعد أيام قليلة من دخول الحسين الى « أبها » ـ وصادف ان كان ذلك اليوم نفسه يوم ذكرى مبعث النبي حسب التقويم القمري . فأقيم احتفال في « أبها » بهذه المناسبة ، وألقى فيه الحسين خطبة مدح فيها الدولة العثمانية ، وذم الادريسي ذما قبيحا متهما اياه بأنه يخدم الدول الاجنبية لاغراضه الشخصية وفيما يلي نص الخطبة :

« أيها الاخوان اعلموا علم اليقين انه لولا وجود هذه الدولة العثمانية وشدة اعتناء خلفائها بالامة الاسلامية خصوصا مولانا أمير المؤمنين الحالي ـ يقصد السلطان رشاد ـ لاختطفتكم الدول الاجنبية اختطاف الذئب للغنم المنفردة ، فان جميع الدول ساعية من زمن بعيد في اضمحلال الشريعة المحمدية بواسطة هؤلاء المغرورين الذين يخدمونها لاغراضهم الشخصية . اخواني هل يرضيكم أفعال هؤلاء القوم الساعين في تخريب بلادكم باسم الحق . لاأدري كيف اغتررتم لهؤلاء وأمثالهم وأنتم أولو العقول الراجحة

---

(٢٥) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ص ٥٤ .
(٢٦) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٦١ .

والنخوة العربية الاصيلة • آباؤكم الأولون كانوا عز العرب وعنهم ورثتم الهمم العالية • ألستم أبناء التبابعة ؟! ألستم الذين قال فيكم جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم : العلم يماني والحكمة يمانية ؟! ألستم أنتم أبناء اسلافكم الكرام الذين اشتهروا بالذكاء الفطري والمجد المؤثل ؟! فالله الله يا أمناء الامة العربية في دينكم لاتضيعوه ، بل احفظوه ، واستظلوا بظل الراية العثمانية التي هي شعار الاسلام ، ولا تغتروا بأقوال المفسدين الساعين في تنفيذ أغراض المحركين لهم أعداء الدين الاسلامي ، وانتم لطيب عنصركم وعدم معرفتكم بالسياسة الاجنبية تظنون أنهم انما يخدمون الدين مع انهم والله عن الدين بمعزل لايخدمون الا أغراضهم الشخصية مستترين باسم الدين • فأحذركم ان لاتغتروا بمثل هؤلاء الأوغاد المارقين عن الدين ، بل كونوا مطيعين لامير المؤمنين • ولتعلموا أن من خالفه فقد خالف الله ورسوله ، ومن خالفه فقد باء بغضب من الله وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين »[٢٧] •

بداية الخلاف مع الاتراك :

كانت خطبة الحسين في « أبها » تمثل قمة الانسجام بينه وبين الاتراك، ولكن هذا الانسجام لم يدم طويلا وسرعان ما أخذ يتلاشى ، وحل العداء محله تدريجيا •

بدأ الخلاف بين الحسين والاتراك في « أبها » عقب القاء الخطبة ، فقد لاحظ متصرف عسير ان الحسين لم يكن خالص النية في حملته في عسير بل كان يقصد منها تقوية نفوذه • وكان المتصرف مقتنعا بان الحسين لايقل في عدائه للدولة العثمانية عن الادريسي ، وقد وصفه بقوله : « انه ادريسي مجهز بالبنادق والمدافع »[٢٨] •

---

(٢٧) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٢١ •

(٢٨) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) ـ ترجمة نجيب الارمنازي ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٨٧ •

ومما زاد في شدة الخلاف بين الحسين والاتراك ـ حسبما رواه عبدالله في مذكراته ـ ان الحسين شاهد بعض مناظر الفضائع التى اقترفها الجنود الاتراك في أتباع الادريسي ، فقد عُرضت عليه أربع مرات جثث شويت على النار شياً وأُدخلت أعمدة الخيام من أدبارها حتى خرجت من افواهها، كما عُرضت عليه ستة رؤوس مقطوعة وقد وضع قضيب كل رجل منهم في فمه . ولما شاهد الحسين ذلك قال لنظيف بك أحد قواد الترك : « هذا لا يليق ! » فأجابه نظيف بك : « أليسوا قد حرقوا قلوبنا ؟! »[٢٩] .

قرر الحسين العودة الى الحجاز مع قواته قبل الانتهاء من حرب الادريسي . فغادر « أبها » في ٣١ تموز ١٩١١ . ويروي عبدالله في مذكراته قصة لها دلالتها في هذا الصدد ، هي ان الحسين عندما وصل الى الطائف كان في استقباله والي الحجاز حازم بك ومعه الشريف ناصر بن محسن من ذوي زيد ، وكان الحسين قد علم قبل وصوله بان الشريف ناصر نشر الاشاعات السيئة عن حملة عسير كما أشاع أن الحسين نفسه قُتل فيها . ولم يكد الحسين يراه بين المستقبلين الى جانب الوالي حتى أمر باخراجه اخراجا عنيفا ، فاحتج الوالي على ذلك قائلا : « عفوا يا سيدي فانه قد جاء معي » . فأجاب الحسين : « وان كان قد جاء معك ؟! » . فقال الوالي : « أنا ممثل السلطان ، وهذه المعاملة تحقير للسلطان نفسه » . فأجابه الحسين : « هل تركتم ناحية من السلطان لم تحقروها ؟! أنا ممثل السلطان هنا لا أنتم »[٣٠] .

أبرق الوالي الى اسطنبول بما جرى ، فوردت من الصدر الاعظم ابراهيم حقي باشا الى الحسين البرقية التالية : « لقد بلغت المسامع السنية المعاملة الشديدة التى وقعت من ذاتكم الهاشمية على الشريف ناصر بن

---

(٢٩) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٦٦ .
(٣٠) المصدر السابق ـ ص ٦٨ .

محسن الذى هرع لاستقبالكم مع عطوفة حازم بك والي الحجاز ، وان الرغبة السلطانية منصرفة الى استدعاء الشريف المومى اليه الى مقامكم السامي وتلطيفه وارضائه » •

فأجاب الحسين بالبرقية التالية : « بما ان الاسباب الموجبة لما نال الشريف ناصر بن محسن من زجر واخراج لاتتعلق بي شخصيا ، فانا لاأرى اظهار الندم على ما فعلت ، وان ما اشاعه المومى اليه من اخبار اضمحلال القوى التى كانت معي وابادتنا لم يقصد منه الا ايجاد حركة ثورية هنا أيضا ، فهو يستحق ما وقع عليه • وقد بلغني الخبر من مكتوبي الولاية ، ثم جاء به الوالي وهو يعرف ذلك وما في هذا من المداهنة والفساد ليس من خلقي » •

عاد الجواب فورا من الصدر الاعظم يقول : « ان الباب العالي لا يستطيع غض النظر عن ما في كسر الرغبة السنية التى تبلغتموها بالبرقية السابقة التى نؤيدها بهذه ، مردفين انتظار السلطان النتيجة » •

فأجاب الحسين بما يلي : « انني ، مع كرامتي لنفسي ، الرجل الذى يعتبر قاعدة الثاني بعد ولي العهد في المكانة ، ولا أظن ان الرغبة السنية تقصد الحط من هذا المركز القديم • والباب العالي ، الذى لايستطيع غض النظر عن نفوذ الذات السنية ، كيف يوجه هذه التهمة الشائنة الى رجل لم ينفض بعدُ بغبار السفر عن رجله في مجد السلطان ؟! وان الباب العالي حر في ما يحب أن يفعله » •

لم يرد الصدر الاعظم على هذه البرقية • والظاهر ان الحكومة التركية شُغلت بأمر جديد ألهاها عن مشكلة الحسين ، هو قرب اندلاع الحرب بينها وبين ايطاليا ، ولعلها رغبت في المصالحة معه من جراء ذلك • ففي ليلة عيد الفطر الذى حل في ٢٥ ايلول ١٩١١ ، جاء عثمان بك قائد الجندرمة الى الحسين وذكر له ان برقية وردت من الباب العالي الى الوالي

تطلب منه أن يزور الحسين معتذرا وقال : « هل يقبله سيدنا ؟ » • فأبدى الحسين ترحيبه به ، وتمت الزيارة في صباح اليوم التالي عند صلاة العيد ![٣١] •

لم يمض على المصالحة سوى اربعة ايام حتى اندلعت الحرب مع ايطاليا • وقد تشجع الادريسي بهذه الحرب فعاود الهجوم على القوات التركية في عسير ، وأمدته ايطاليا بالاسلحة كما قامت المدمرات الايطالية بقصف الحاميات التركية في ساحل البحر الاحمر •

استعانت الدولة العثمانية بالحسين مرة اخرى • وأرسل الحسين قواته الى عسير في ربيع ١٩١٢ بقيادة ابنه فيصل • ولم يستطع فيصل ان يفعل شيئاً ذا أهمية ، فقد أنهك الحر والملاريا قواته ، واصيب فيصل نفسه بالملاريا • وأشيع في مكة أن فيصل مات من شدة الحمى • ويقال ان بنتا لفيصل انتابها الذعر عند سماعها خبر موت ابيها ، فسقطت على رأسها ، وأصيبت من جراء ذلك بشلل أقعدها • وعاد فيصل اخيرا وهو محمولا على كرسي من شدة الوهن[٣٢] •

بداية الاتصال بالانكليز :

في الاسبوع الاول من شباط ١٩١٤ كان عبدالله بن الحسين في طريقه من مكة الى اسطنبول وقد نزل في القاهرة ضيفا على الخديوي عباس حلمي في قصر عابدين • وانتهز عبدالله الفرصة فقابل كتشنر المعتمد البريطاني في مصر بحضور سكرتيره الشرقي رونالد ستورز ، وأخذ يحدثه عن العلاقات المتوترة بين الاتراك ووالده الحسين ، وألمح الى ان الاتراك ربما عزلوا والده عن الشرافة ، وسأله بصورة غير مباشرة عن موقف الحكومة البريطانية من ذلك وهل من المحتمل أن تساعد والده اذا

---

(٣١) المصدر السابق — ص ٧٠ •
(٣٢) أمين الريحاني (فيصل الاول) — ص ١٣ — ١٤ •

اعلن الثورة على الاتراك • فأجابه كتشنر جواباً مطاطاً غامضاً مشيراً الى الصداقة التقليدية القائمة بين بريطانيا وتركيا وأن ليس من المحتمل ان تتدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية • وقابل عبدالله بعد هذا ستورز منفردا ، وبسط فى الحديث معه فى الموضوع نفسه ، فكان جواب ستورز لايختلف عن جواب رئيسه كتشنر(٣٣) •

عند عودة عبدالله من اسطنبول في نيسان عام ١٩١٤ مر بالقاهرة ونزل في قصر عابدين كدلك ، فزاره ستورز هنالك ، وجرى بينهما حديث طويل • ويقول ستورز في مذكراته عن هذا الحديث ما يلي :

« ••• اني زرته في قصر عابدين ، وجلست طيلة ساعتين تحت تأثير سحر حديثه ••• حيث أخذ يرتل لي المعلقات السبع وهي القصائد الرائعة من الشعر الجاهلي ويقص لي عن أمجاد ومناحات عنتر بن شداد ، ولابد أننا تناولنا اثناء ذلك مقادير كبيرة من القهوة الخديوية الممتازة ••• ثم سألني بشكل مطلق : هل بوسع بريطانيا العظمى تجهيز أبيه الشريف باثني عشر رشاشا ، أو حتى بستة رشاشات ؟ ولما سألته عن الغرض من هذه الرشاشات ، أجابني بجواب كل طالب للسلاح : انها للدفاع • ثم أضاف الى ذلك : انها للدفاع تجاه هجوم الاتراك • وشعرت بأني لست في حاجة الى تعليمات من رؤسائي لاقول له : اننا لايخطر لنا ببال أن نقدم سلاحا يُشهر في وجه دولة صديقة ــ يقصد الدولة العثمانية ــ ولم يكن لعبدالله ان ينتظر مني غير هذا الجواب ، غير اننا افترقنا على خير ما يكون من الصداقة والود »(٣٤) •

شعر عبدالله بالخيبة من اجتماعه بستورز ولكن شيئاً واحدا استفاده من

---

(٣٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٦ •

(34) Storrs (Orientations) – London 1939 – P. 129 – 130.

هذا الاجتماع هو نشوء صداقة متينة بينه وبين ستورز • فقد كان كلاهما مولعين بالشطرنج وبالادب العربي القديم ، وصار من عادة عبدالله انــه كلما مر بالقاهرة التقى بصديقه ستورز ، ويجرى التقاؤهما عادة في غرفة خلفية في بناية جريدة المقطم(٣٥) • ويقول ستورز في مذكراته : ان العلاقة بينه وبين عبدالله صارت تنمو بمرور الزمن(٣٦) •

علي أصغر البزاز :

عندما أُعلنت الحرب العامة في أوربا في آب ١٩١٤ ، كان كتشنر في اجازة في بريطانيا فعُين وزيرا للحربية فيها • وكتب اليه ستورز من القاهرة قائلا : « هل لك أن تفوضني في التأكد من عبدالله عن الاتجاه الذى سيسير فيه العرب اذا دخلت تركيا الحرب ، اذ أن من الواضح ان انحيازهم الى جانبنا ، فضلا عن الاعتبارات الاخرى ، سيقوي من موقفنا العسكري»(٣٧) •

فوصل الرد فى ٢٤ ايلول الى القائم باعمال دار الاعتماد البريطاني فـــي القاهرة على النحو التالي :

« اطلب من ستورز ان يرسل من قبلي رسولا سريا يجري اختياره بحذر الى الشريف عبدالله للتأكد هل سيقف هو ووالده وعرب الحجاز الى جانبنا أو سيكون ضدنا فيما اذا تمكن النفوذ الالماني المسلح في اسطنبول من ارغام السلطان رغم ارادته ، وارغام الباب العالي ، للقيام باعمال عدوانية وحربية معادية لبريطانيا العظمى »(٣٨) •

أخذ ستورز بناءا على هذه الاوامر التى تلقاها يبحث عن رسول أمين

---

(٣٥) زين نور الدين زين (الصراع الدولي في الشرق الاوسط) — بيروت ١٩٧١ — ص ٢٠٥ •

(36) Storrs (Op. cit) p. 120.

(٣٧) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ٢٠٩ — ٢١٠ •

(38) Storrs (Op. cit.) — P. 157.

ليرسله الى مكة • وقد وقع اختياره أخيرا على رجل بهائي يعمل بزازا في حي الجمالية في القاهرة اسمه علي أصغر ، وكان سبب اختيار هذا الرجل هو أنه والد زوجة حسين روحي أفندي المترجم في دار الاعتماد • ولم يشأ ستورز أن يذكر اسم هذا الرجل في مذكراته بل أطلق عليه حرف «اكس» للتستر عليه •

غادر علي أصغر القاهرة وهو يحمل معه هدية من ستورز الى عبدالله مع رسالة يذكر فيها ان الحكومة التركية عازمة على اعلان الحرب على بريطانيا ولذا فان الحكومة البريطانية مستعدة لتقديم المساعدات اللازمة للحسين المدفاع عن حقوق العرب • وقد وصل الى جدة في ٨ تشرين الاول ، ومنها استكرى حمارا لينقله الى مكة • وعند وصوله الى مكة لم يجد فيها الحسين وأولاده اذ هم كانوا يصطافون في الطائف كعادتهم في كل عام • وكان ينوب عن الحسين في مكة احد أقربائه هو الشريف شرف ، ويقول علي أصغر عن الشريف شرف : انه كان مثل المصريين يعتقد بأن الالمان سينتصرون في الحرب •

أرسل علي أصغر الى الطائف رسولا خاصا لكي يخبر الحسين بأمره • وانتهز الفرصة فقام بالطواف حول الكعبة • وهو يصف الطواف بأنه سخيف جدا ولكنه نوع من الرياضة البدنية الجيدة[٣٩] •

وبعد أيام قليلة وصل الحسين واولاده الى مكة • وحين قرأ الحسين رسالة ستورز استشار ولديه عبدالله وفيصل فيما يجيب به على ستورز ، فاختلف الولدان في الرأي ، اذ كان من رأي عبدالله القيام بالثورة على الاتراك وبالتعاون مع بريطانيا ، أما فيصل فكان رأيه : أن العرب ليس لهم الاستعداد الكافي للثورة ، وهو يخشى أن تنتهي الثورة بالفشل ، ويرى

---

(39) Loc. cit.

من الافضل ان يقف العرب الى جانب تركيا في ساعة محنتها فيكسبوا بذلك عرفانها .

كان كل من عبدالله وفيصل مصرا على رأيه لايتزحزح عنه . وبعد التفكير توصل الحسين الى قرار وسط هو أن يكتب عبدالله الى ستورز يخبره بأنه راغب في الوصول الى تفاهم مع بريطانيا ولكن مركزه الديني يمنعه من تغيير موقف الحياد الذى هو عليه ، وانه مع ذلك قد يعلن الثورة على الاتراك اذا اضطروه الى ذلك على شرط ان تتعهد له بريطانيا بتقديم مساعدة فعالة (٤٠) .

عاد علي أصغر بالجواب الى القاهرة ، فوصلها في ٣١ تشرين الاول. وكانت الحرب قد أُعلنت بين بريطانيا وتركيا في ذلك اليوم . وقد أبرقت دار الاعتماد بجواب عبدالله الى كتشنر فورا ، فجاء الجواب منه فى اليوم نفسه ، وهذا نصه :

« سلامات الى الشريف عبدالله . لقد تمكنت المانيا الآن من شراء الحكومة التركية بالذهب بالرغم من أن بريطانيا وفرنسا وروسيا قد تكفلت بالحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية اذا بقيت تركيا على الحياد في هذه الحرب . ان الحكومة التركية قامت ، على غير رغبة السلطان وبسبب الضغط الالماني ، بارتكاب أعمال حربية بغزوها حدود مصر بعصابات مسلحة يتبعها جنود أتراك يتجمعون الآن في العقبة لغزو مصر . فاذا ساعدت الامة العربية بريطانيا في هذه الحرب فان بريطانيا ستضمن عدم وقوع تدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان اجنبي خارجي . ومن الممكن ان يتولى الخلافة في مكة او المدينة شخص من العنصر العربي العريق ، ويمكن ان يحدث خير باذن الله من

---

(٤٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٢١١ ــ ٢١٢ .

هذه الشرور الواقعة الان »[٤١] .

أعد ستورز رسالة الى عبدالله وفق هذه البرقية التى وصلته من كتشنر ، وحمل علي أصغر الرسالة الى مكة ، وعاد منها الى القاهرة في ١٠ كانون الاول . فكتبت دار الاعتماد في القاهرة الى وزارة الخارجية البريطانية في لندن البرقية التالية :

« عاد الرسول من رحلته الثانية يحمل رسالة ثانية من الشريف عبدالله والرسالة مكتوبة بعبارات ودية وتؤكد مرة ثانية مشاعره الودية تجـــاه بريطانيا العظمى وتنص بصراحة على أن والده لاينوى اتباع سياسة معادية لمصالحنا . وأكد شريف مكة في حديث شفوي مراراً علىان صداقته أقوى كثيرا مما تعبر عنه رسائته ولكنه أشار الى ان مركزه في العالم الاسلامي والوضع السياسي الراهن في الحجاز يجعلان من المستحيل عليه قطع علاقته حالا مع تركيا ولكنه بانتظار الفرصة المواتية . وقد أخبر الرسول بأن الاتراك يستغلون بين العرب قطعنا المزعوم للمؤون عن الاماكن المقدسة »[٤٢] .

بعثة فيصل :

لم يكن الاتراك يعرفون ما يجري من اتصال خفي بين الحســـين والانكليز . ولما أعلنوا دعوة « الجهاد » أرسلوا الى الحسين يطلبون منه تأييد الدعوة ، فأجابهم قائلا : انه يؤيد الدعوة من صميم قلبه وهو يضرع الى الله ان يكللها بالنجاح ولكنه يخشى أن يشارك في الجهاد فينتقم الانكليز منه بقصف موانيه وقطع المواد الغذائية عن الحجاز فتنشأ المجاعة فيه وتثور القبائل .

أدرك الاتراك ان الشريف يتمحل الاعذار لكي يتقاعس عن نصرتهم،

---

(٤١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف ٠ أو ٣٧١ ـ ٢١٣٩) .
(٤٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ـ٢١٣٩) .

فعزموا على التخلص منه • وفى احد الايام من شهر شباط ١٩١٥ بينما كان الوالي التركي وهيب باشا مسافرا من مكه الى المدينة سقطت حقيبة من امتعة أحد حاشيته ، فعثر عليها أعرابي وسلمها الى الشريف علي ، وارسلها علي بدوره الى ابيه • وتبين ان الحقيبة تضم وثائق فيها دليل على ان الاتراك يدبرون مؤامرة ضد الحسين •

قرر الحسين ارسال ولده فيصل الى اسطنبول ، وكان السبب الظاهر لذلك هو ان يعرض على السلطان وعلى الصدر الاعظم شكواه من الوالي وهيب باشا ، أما السبب الحقيقي فهو الاتصال بالزعماء العرب في دمشق ومعرفة موقفهم من عروض كتشنر ومدى تحمسهم لها واستعدادهم لتنفيذها •

وصل فيصل الى دمشق في ٢٦ آذار ١٩١٥ ، فاستقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب ودعاه للاقامة فى مقر القيادة العامة ، ولكن فيصل اعتذر عن قبول الدعوة بحجة أنه كان قد وعد آل البكري بالنزول عندهم • وقد قضى فيصل في ضيافة آل البكري أربعة اسابيع اجتمع فيها سرا بالاعضاء البارزين من جمعية « العربية الفتاة » ، وانضم الى جمعيتهم بعد أن حلف اليمين ، كما اجتمع بالضباط العرب من اعضاء جمعية « العهد » ، وبعض الزعماء الدمشقيين كرضا باشا الركابي رئيس البلدية ، والشيخ بدرالدين الحسيني كبير علماء الشام • وكانت محادثات فيصل معهم تجري في غاية الحذر والكتمان ، فكانوا يأتونه الى دار آل البكري حوالي منتصف الليل خوفا من الرقباء والجواسيس • وقد أخبرهم فيصل بعروض كتشنر على والده ، وعن تردد والده تجاهها ، وطلب منهم ابداء رأيهم فيها ، واعطاهم مهلة للتفكير الى حين عودته من اسطنبول •

غادر فيصل دمشق الى اسطنبول فوصلها في ٢٣ نيسان ، فاستقبل فيها بحفاوة • وقابل السلطان وكبار رجال الدولة وعرض عليهم الوثائق التى

تتضمن المؤامرة على والده • فطيبوا خاطره وأصدروا الامر بنقل وهيب باشا من الحجاز وعينوا مكانه غالب باشا وهو رجل مسالم طيب القلب وأوصوه أن يحسن علاقته مع الحسين[٤٣] • ويُعزى سبب هذا اللين الذى أبداه رجال الدولة تجاه الحسين الى اشتداد حملة الدردنيل في تلك الآونة • فقد كانت الدولة العثمانية آنذاك في أحرج اوقاتها ، وكادت اسطنبول تسقط في أيدى الحلفاء • ولهذا وجد رجال الدولة ان من المصلحة مداراة الحسين الى أن تنقشع عنهم غمة الدردنيل •

عاد فيصل الى دمشق فوصلها في ٢٣ أيار فوجد زعماءها قد استقر رأيهم على تأييد الثورة عند قيامها ، وكتبوا فى ذلك ميثاقا يتضمن خارطة للبلاد العربية التي يجب على بريطانيا الاعتراف باستقلالها لقاء قيام العرب بمؤازرتها اثناء الحرب • واختلى فيصل بياسين الهاشمي زمنا غير قصير ، وكان هذا الرجل له اهمية في الشام يومذاك اذ كان رئيس اركان حرب الفيلق الثاني عشر الذى كان مقره في دمشق ويتألف معظم جنوده من العرب • فسأله فيصل عن نوع المساعدة التي يمكن ان تقدمها الحجاز الى سوريا من اجل المشاركة في الثورة ، فأجابه الهاشمي : « لانطلب شيئاً ولا نحتاج الى شيء وما عليك الا ان تقودنا وتسير في الطليعة »[٤٤] •

أقسم ستة من زعماء دمشق يمين الولاء وتعاهدوا على ان يعتبروا الشريف حسين ممثل الشعب العربي ، وعلى ان تهب الفرق العربية المرابطة في الشام هبة رجل واحد في حالة موافقة بريطانيا على الشروط الواردة في الميثاق • وتأكيدا لهذا العهد أعطى الشيخ بدرالدين الحسيني خاتمه الى فيصل ليسلمه الى والده رمزا لثقة اهل الشام به[٤٥] •

---

(٤٣) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج١ ، ص ١٠٦•

(٤٤) المصدر السابق ـ ج١ ص ١٠٩ •

(٤٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٢٤٥•

تبرع فيصل لجمعيه « الفتاة » بمبلغ ألف ليرة ذهب لمساعدتها في اعمالها ، وأمر بأن تكتب نسخة من الميثاق بخط صغير جدا ، وأعطاها لاحد اتباعه فوضعها في حذائه وخاط عليها بطانة الحذاء • بغية ايصالها سرا الى الحسين في مكة •

وجد فيصل أنه لايستطيع العودة الى الحجاز قبل أن يقابل جمال باشا ويستأذنه بالسفر ، وكان جمال باشا يومذاك في القدس ، فسافر فيصل اليه بالقطار • وعند وصوله انتهز الفرصة لزيارة معسكر الجيش المعد لحملة سيناء الثانية ، فأقيمت له حفلة لتكريمه ، وخطب هوفيالحفلة فقال:«يجب على الامة العربية أن تشترك في الجهاد ، وانا ذاهب الى الحجاز لاعود على رأس جيش كبير من المتطوعين فيشترك في الحملة الثانية »(٤٦) •.

عاد فيصل الى مكة فوصلها في ٢٠ حزيران ١٩١٥ وقدم لوالده تقريرا مفصلا عن مهمته وشرح له كيف تغير هو في رأيه فبعد ما كان معارضا للثورة على الاتراك أصبح مؤيدا لها •

مراسلات مكماهون :

استقر رأي الحسين أخيرا على مفاوضة الانكليز تمهيدا لاعلان الثورة ، فأرسل في منتصف تموز رجلا يثق به الى المعتمد البريطاني في القاهرة السر هنري مكماهون • وبدأت منذ ذلك الحين المراسلات المشهورة بين الرجلين وهي التى عُرفت باسم « مراسلات الحسين ــ مكماهون » •

كانت المراسلات تجري باللغة العربية وقد بلغ عددها عشر رسائل ، خمس منها مرسلة من الحسين الى مكماهون ، والاخرى اجوبة عليها • والملاحظ ان الحسين كتب رسائله على طريقة النثر الفني الذى اعتاد العرب عليه قديما ، حيث ملأها بالجمل المعترضة والتضمينات والاستطرادات

---

(٤٦) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج١ ، ص ١٠٧ •

والامثال والحكم المأثورة والعبارات الرنانة الجوفاء • والظاهر ان مكماهون استغل ذلك فكان يرد على تلك الرسائل بعبارات مطاطة يخيل لقارئها انها تتعهد بكل شيء بينما هي في الواقع لاتتعهد بشيء • ولم يفت مكماهون أن يبدأ رسائله بعبارات التحية التقليدية المليئة بالمدائح المفرطة كقوله يخاطب الشريف : « الى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الاشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الاحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل ، دولتلو الشريف حسين ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ، ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركاته الناس أجمعين ••• »(٤٧) •

مشكلة الحسين أنه بدلا من أن يعقد مع الانكليز معاهدة واضحة العبارة دقيقة الدلالة ، اعتمد على مثل هذه المراسلات التى يمكن تفسيرها حسب اختلاف وجهات النظر • ولما نصحه بعض مستشاريه بأن يطلب من الانكليز وضع اتفاقية يصادق عليها البرلمان البريطاني أجابهم بان الذين اتفقوا معه هم الحكومة نفسها ، ثم أشار الى جيبه وقال : « وعودهم هنا »(٤٨) •

يعتقد بعض الكتاب البريطانيين ان الغموض في مراسلات مكماهون كان متعمدا ، وهم يعزونه الى سكرتيره ستورز الذى كان يعرف اللغة العربية جيدا • فقد كان الانكليز حينذاك يفاوضون فرنسا حول سوريا ، وكان اتجاه المفاوضات يناقض الوعود التى قدموها للحسين • ولكي يتخلص

---

(٤٧) انظر صورتها بالزنكغراف في : زين نورالدين زين (المصدر السابق) — ص ٢٨٣ •

(٤٨) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) — القاهرة ١٩٧١ — ص ٢٩ •

الانكليز من هذا المأزق تعمدوا جعل مراسلاتهم مع الحسين مليئة بالغموض والعبارات الرنانة(٤٩) .

بين الباطن والظاهر :

في أوائل عام ١٩١٦ قرر الحسين ارسال ابنه فيصل الى دمشق مرة اخرى ليدرس الوضع فيها ومبلغ استعداد الشاميين لتأييد الثورة عند قيامها . وقد سافر فيصل الى دمشق ومعه خمسون فارسا بدعوى أنهم طلائع قوات المجاهدين التي يجري اعدادها في الحجاز للاشتراك في حملة سيناء الثانية .

نزل فيصل كالعادة في ضيافة آل البكري بينما نزل فرسانه في مزرعة لآل البكري تقع في القابون على بعد خمسة اميال من دمشق . وبعد دراسة الحالة وجد فيصل ان دمشق تختلف عما كانت عليه في زيارته الاولى ، فقد كان جمال باشا قد بدأ منذ الصيف الماضي يشن حملة ارهاب على دعاة العروبة في الشام ، فشنق عددا منهم في ٢١ آب ١٩١٥ ، بينما كان عدد آخر منهم تجري محاكمتهم بقسوة في عالية ، وتم نقل الضباط العرب مع جنودهم الى اماكن نائية وجيء بقوات تركية صميمية لتحل محلهم في الشام ، كما تم نفي الكثير من الوجهاء مع عائلاتهم الى بلاد الاناضول . اضف الى ذلك أن المجاعة قد بدأت تظهر في بلاد الشام ، واستفحلت بشكل خاص في لبنان، فانشغل الناس بها عن الثورة وقضايا القومية .

وفي شهر شباط جاء وزير الحربية التركية أنور باشا الى دمشق ومنها سافر بالقطار الى المدينة بصحبة جمال باشا وفيصل . وقد دُعي الحسين الى المدينة للاجتماع بالوزيرين ولكنه اعتذر عن ذلك وأرسل لكل منهما سيفا مرصعا .

---

(49) Eiizabeth Monrce (Britain's Monent In the Middle East) — London 1963 — P. 31 — 32.

جرى في المدينة استعراض للقوة التي كان الحسين يعدها للثورة باطنا ويتظاهر بأنها معدة للاشتراك في حملة سيناء • وقد وجه أنور باشا الى فيصل سؤالا : هل ان هذه القوة كلها قد أعدت لحرب اعداء الاسلام ؟ فأجاب فيصل : نعم(٥٠) •

عاد أنور وجمال الى دمشق ومعهما فيصل • وفي أوائل شهر آذار عندما عاد أنور باشا الى اسطنبول ابرق الى الحسين يكرر الطلب عليه باعلان الجهاد المقدس • وكان الحسين حينذاك قد نفذ صبره وأراد أن يكشف عن بعض نيته تجاه الاتراك ، فأرسل في ١٦ آذار برقية الى الصدر الاعظم وانور باشا قال فيها : انه لايعلن الجهاد الا بشروط هي : اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، ومنح سوريا والعراق مايطلبانه من نظام لامركزي ، وجعل امارة مكة وراثية في أولادي ، واذا لم تُقبل هذه المطاليب فأرجوكم أن لاتنتظروا مني الاشتراك في حرب كنت قد نصحت بأن لاتدخلوا فيها ، وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر •

كانت هذه البرقية ذات وقع شديد على الصدر الاعظم وانور باشا ، فأبرقا الى الحسين بجواب عنيف أشارا فيه الى ان فيصل سيبقى في دمشق ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب • وانكم اذا لم ترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق فان النتيجة بحقكم سوف لاتكون سارة • فأجابهما الحسين قائلا : انه عندما بعث فيصل الى دمشق كان يعتقد انه سوف لايراه مرة اخرى ، فافعلوا ما شئتم •

يبدو ان الصدر الاعظم وجد ان هذا العنف تجاه الحسين قد يورطهم في مشكلة هم في غنى عنها ، فأبرق اليه بعد يومين برقية فيها ما يشبه الاعتذار فأجابه الحسين بالشكر ووعده بأنه سيرسل المجاهدين حال وصول فيصل الى المدينة(٥١) •

---

(٥٠) أرسكين (المصدر السابق) ــ ص ٤٩ ــ ٥٠ •
(٥١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ــ ص ١٠٥ ــ ١٠٧ •

فيصل ممثلا :

مكث فيصل في دمشق مع فرسانه الخمسين زهاء خمسة أشهر ، وقد برزت آنذاك مواهبه السياسية اذ كان بارعا في مداهنته لجمال باشا وازالة الريبة من قلبه في الوقت الذى كان ابوه بعد العدة للثورة على الاتراك .

يقول جمال باشا في مذكراته : انه استدعى اليه فيصل في أوائل نسان ١٩١٦ بحضور رئيس أركان حربه علي فؤاد بك ، وأخذ يعاتبه عتابا شديدا على سلوك ابيه في مكة وسلوك أخيه علي في المدينة ، وقال له : « أني أريد ان تدرك انكم ان اردتم ان تظلوا أصدقاءنا فعليكم مراعاة قوانين الصداقة ، أما اذا كنتم ذوي غايات أخرى فالاولى ان تلجأوا الى السلاح وتجنحوا الى ثورتكم في الحال وبذلك ننتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدوا للآخر ظاهر العداوة ، وحينئذ يصبح الامر بيد الله ... » . فامتقع لون فيصل من تأثير هذا الكلام ــ حسب رواية جمال باشا ــ وعلا وجهه الاصفرار ، ثم قام من مقعده والتفت نحو جمال باشا ويده على صدره وقال: « عفوا ياصاحب السعادة ! كيف يخطر لك ان تعزو الينا أمثال هذه التهم؟ وكيف يليق بنا ان نكون خونة ونحن تلك الاسرة التى هي من سلالة الرسول والتي ترى من أكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين الموالين للخليفة ! فأبي وأخي وأنا لسنا خائنين للشعب او الحكومة ، بل نحن الخدم الاوفياء الامناء لسلطاننا الامجد الذى طالما غمرنا بانعاماته ، فلتكن موقنا بأني سأسوي الخلاف القائم بين أخي والحاكم بصري باشا ، وسأكلفه بالحضور لتقبيل يديك ! » . ويقول جمال باشا : ان فيصل بعد أن خرج من عنده ذهب الى دار علي فؤاد بك وهو في حالة تهيج وبكى بكاءا مرا . ثم يقول جمال باشا تعليقا على ذلك : اني وايم الله لو كنت أعلم بأمر المراسلات التى كانت تجري يومذاك بين مكماهون والشريف حسين لامرت حالا بالقبض على فيصل في دمشق وعلى اخيه علي في المدينة ، ولارسلت

فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين في مكة ، فأقضي بذلك على تلك الثورة المشؤومة في مهدها[٥٢] .

كان فيصل في تلك الفترة يسعى للحصول من جمال باشا على عفو عن المتهمين الذين تجري محاكمتهم في عالية ، فكان يتشفع لهم عنده ويحرض اعيان دمشق على التشفع لهم ايضا . وفي يوم جمعة أقام فيصل وليمة لجمال باشا وضباطه في مزرعة آل البكري في القابون ، وحاول بعد الفراغ من الطعام ان يدير الحديث الى قضية المتهمين واستحسان العفو عنهم ، فقال له جمال باشا : « لو عرفت التفاصيل لاسفت أشد الاسف على توسطك بالصفح عنهم » .

وفي فجر ٦ أيار تم شنق سبعة من المتهمين في ساحة المرجة في دمشق، واربعة عشر في ساحة البرج في بيروت . وكان فيصل يومذاك مقيما في مزرعة القابون ، وبينما كان يتناول طعام الافطار مع مضيفيه من آل البكري وصلهم رسول من دمشق يحمل اليهم العدد الخاص من جريدة «الشرق» الذي كان يتضمن قصة الشنق واسماء المشنوقين فخيم الوجوم على الحاضرين ، وقرأ بعضهم الفاتحة ، غير ان فيصل قفز واقفا كمن أصابه مس مفاجيء ، فانتزع الكوفية من على رأسه ، ورمى بها على الارض ، وداسها بعنف ، وصاح : « طاب الموت ياعرب »[٥٣] .

أسرع فيصل ذاهبا الى دمشق حيث قابل جمال باشا وقد حدثه جمال باشا عن الاسباب التي حملته على شنق المتهمين وشرح له « خيانتهم » وكيف أنهم اتصلوا بالدول الاجنبية . ويروي جمال باشا في مذكراته : ان فيصل قال له : « قسما بحرمة الاجداد لو علمت أن جريمة الجناة كانت بهذه

---

(٥٢) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) ــ ترجمة علي أحمد شكري ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

(٥٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٥٨٤ ــ ٢٨٥ .

الشناعة لما أحجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت ان تمزق أوصالهم ليطول عذابهم • الا لعنه الله عليهم »[54] •

تمثيلية اخرى :

وصلت الى فيصل في منتصف أيار رسالة سرية من أبيه يخبره فيها بقرب اندلاع الثورة • فأخذ فيصل يبحث عن حيلة يستطيع بها مغادرة دمشق الى مكة دون ان يثير ريبة جمال باشا •

ذهب فيصل لمقابلة جمال باشا وقال له : ان المجاهدين قد تم حشدهم في المدينة وانهم على استعداد للمجيء الى دمشق للإشتراك في حملة سيناء• وتساءل فيصل : الا يرى الباشا ان مما يزيد من مهابة وصولهم ان يبعث والده بأحد أبنائه ليكون في مقدمتهم ؟ • فأنطلت الحيلة على جمال باشا ، واقترح على فيصل ان يكون هو في مقدمة المجاهدين • فأظهر فيصل تمنعاً وقال ان له أخوين اكبر منه سنا ويجب ان يكون لهما الحق في التقدم عليه• فأجابه الباشا قائلا : « ومع ذلك فانى ارجوك أن تذهب ، وليأت أحد أخويك أيضا اذا استطاع ، ولكن من الضروري ان تذهب الى المدينة لتستعجل اتمام الاعدادات ، ولتصحبك حاشيتك الخاصة »[55] •

يدعي جمال باشا في مذكراته انه فطن الى حيلة فيصل وانه انما سمح له بمغادرة دمشق لانه كان قد أعد خطة لضرب ثورة الحسين عند قيامها• وفيما يلي نص ماقول جمال باشا في مذكراته في هذا الموضوع :

« وفي ذات يوم حوالي منتصف مايس جاءني الشريف فيصل وأخبرني ان اخاه قد تلقى الاوامر من أبيه بالانضمام الى جيش سيناء وانه هو – أي فيصل – يرغب بعد استئذاني في الذهاب الى المدينة ليجيء بأخيه

---

(٥٤) جمال باشا (المصدر السابق) – ص ٢٤٢ •
(٥٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) – ص ٢٨٨ •

الى القدس • واكد ليّ ان ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيرا حسنا • ولما كنتُ قد تعودت الخديعة من الشريف حسين واولاده آثرت أن أكون انا الغالب ففكرت قليلا ثم قلت : (حسنا جدا ، لقد صرحت لك • فاغد الى المتطوعين في المدينة واستقبلهم باسمي ثم ائتني بهم هنا • وسآمر مصلحة السكك الحديدية بنقل الجنود ، وأرسل معك بعض العلماء من دمشق ليكونوا في ركابك ، وبذلك تستطيع ان تؤلف وفدا خاصا لاستقبال المجاهدين) • وما كدت أفرغ من هذه الكلمات حتى أبرقت أسارير وجهه وكاد فؤاده يطير فرحا • فتجلت لي الحقيقة وتكشفت ، حتى لقد التفتُ الى علي فؤاد بك رئيس اركان حربي قائلا : (انني موقن بأن الثورة سيشب ضرامها في الحجز في القريب العاجل ، فاني قد رأيت الشريف فيصل قد فرح أشد الفرح لخديعتي حتى أنه لم يستطع اخفاء شعوره) • وكان علي فؤاد بك يرى رأيي وقد وافق على الخطة التي سلكتها نظرا لتقرر اتخاذ خطة اخرى ••• »(٥٦) •

ويقول جمال باشا انه لم يكد فيصل يغادر دمشق بالقطار حتى أرسل وراءه قائدا معروفا بوطنيته وثباته هو فخري باشا لكي يتسلم القيادة في الحجاز عند اول قيام الثورة • وكانت هناك قوة تركية مؤلفة من ألفين او ثلاثة آلاف جندي قد أرسلت من اسطنبول الى اليمن ، فأمر جمال باشا بأن تبقى في المدينة وان يتم تسليحها بالبنادق التي كان في النية ارسالها الى رجال الشريف • والظاهر ان جمال كان واثقا من ان هذه الاجراءات كافية للقضاء على الثورة في مهدها(٥٧) •

اعلان الثورة :

في صيف ١٩١٦ كان غالب باشا يتولى قيادة الجيش في الحجاز بالاضافة

---

(٥٦) جمال باشا (المصدر السابق) — ص ٢٤٤ — ٢٤٥ •

(٥٧) المصدر السابق — ص ٢٤٦ — ٢٤٧ •

الى منصب الوالي ، وهو كما اشرنا اليه من قبل رجل مسالم طيب القلب . وكان يشكو من مرض الكليه ، فغادر مكة مع القسم الاكبر من جنوده الى الطائف لقضاء فصل الصيف فيها غافلا عما يخبئه القدر له .

لم يكن قد بقي في مكة من الجيش سوى ألف ومائتي جندي . وفي صباح ١٠ حزيران ١٩١٦ م - الموافق ليوم ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ - بينما كان الجنود يتدربون خارج ثكنتهم بلا سلاح فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم ، فأسرع قائدهم درويش بك الى التلفون وسأل الحسين عن سبب هـــذا الرصاص ؟ فكان جواب الحسين له : « ان العرب لاترضاكم حكاما عليهم وانتم في ديارهم قد أهنتموهم وعاديتموهم » . وعند هذا لجأ درويش بك الى الحيلة فتظاهر بأنه مستعد للاستسلام هو وجنوده ولكنه لم يكد يدخل الثكنة حتى أوعز الى جنوده بتناول اسلحتهم . وبذا بدأ القتال الشديد بينهم وبين البدو المحاصرين لهم[٥٨] .

كان الاتراك يملكون مزية لم يكن العرب يملكونها في بداية الثورة هي المدافع ، وكانت لديهم في مكة ثكنتان هى « جياد » التى تقع على بعد ثلاثمائة متر من قصر الحسين ، وثكنة « جرول » التى كانت على بعد ألفي متر منه . وقد أخذت مدافع هاتين الثكنتين توجه قنابلها على القصر ، وظلت تواصل قصفه يوما بعد يوم . وقد ابدى الحسين شجاعة فائقة في اثناء ذلك، فكان يثابر على الجلوس في مكتبه يوميا وهو ثابت لم يغير مكان جلوسه . وقد دخلت احدى القنابل غرفته ومرت على قيد شبر منه واخترقت اساس الغرفة وهو لايعبأ بها . وظلت فرقته الموسيقية تعزف أمام القصر على عادتها في كل يوم . وحدث ان سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم خائفين ، ولكن الحسين أمرهم أن يواصلوا العزف ولو ماتوا كلهم ، فعادوا الى العزف تحت خطر القنابل[٥٩] .

---

(٥٨) محمد طاهر العمري (المصدر السابق)- ج١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٧٦ .

ليس هنا مجال الحديث عن الثورة العربية ، وهو حديث طويل متشعب[٦٠] ، يكفي أن نذكر هنا أن اول حامية تركية استسلمت للثورة هي حامية جدة وذلك في ١٦ حزيران ـ اي بعد ستة ايام من اعلان الثورة ـ وقد ساعد الاسطول البريطاني على اخضاعها • وفي ٦ تموز تم الاستيلاء على ثكنتي حياد وجرول • وفي ٢٢ ايلول استسلمت حامية الطائف • ولم يصمد في القتال سوى فخري باشا قائد حامية المدينة ، فقد كان هذا الرجل شديد المراس صارما مؤمنا بعثمانيته وصوفيا من اتباع الطريقة البكتاشية • وصار يرتقي منبر الحرم النبوي مرة بعد مرة فيسب العرب ويسب الحسين وجميع الاشراف ويصفهم بأنهم قد تآمروا مع الكفار على الخلافة الاسلامية •

لم تتمكن الثورة من احتلال المدينة ، واكتفت أخيرا بتطويقها بقسم من قواتها بينما وجهت القسم الآخر نحو الشمال • وكانت القوات التي توجهت نحو الشمال بقيادة فيصل بن الحسين يعاونه عدد من الضباط العراقيين والسوريين ، ومعهم الضابط البريطاني المعروف لورنس • وقد احتلت هذه القوات ميناء « الوجه » في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ ، والعقبة في ٦ تموز ، ثم وصلت الى دمشق في ١ تشرين الاول ١٩١٨ •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الحسين بويع بالملك في مكة في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ • ويقول عبدالله في مذكراته : ان الحسين لم يكن راغبا في ذلك وأنه أصر على رفض البيعة ، ولكن رجال الدولة وقواد الثورة ومن كان في مكة من كبار حجاج العراق والشام ألحوا عليه في قبول البيعة وقالوا له : « لسنا جميعا على استعداد لخدمة الثورة الا على شرط قبول ما عرضناه ••• » ، فرضي الحسين •••[٦١] •

---

(٦٠) راجع الجزء الرابع من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني •
(٦١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ •

الفصل الثالث

الحكم الشريفي في سوريا

في صيف ١٩١٨ كانت قوات الامير فيصل بن الحسين المعسكرة في شرقي الاردن تمثل الجناح الايمن للقوات الانكليزية المحتشدة في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي • وفي ١٩ ايلول بدأ الجنرال اللنبي بشن هجومه الكبير على القوات التركية ، وفي خلال ثلاثة أيام استطاع بخطة بارعة أن ينزل بالقوات التركية ضربات ماحقة مزقتها تمزيقا • وعند هذا صارت القوات العربية تسابق مع القوات الانكليزية في سبيل الوصول الى دمشق• وفي ٣٠ منه وصلت طلائع الفريقين الى مقربة منها ، وقد اضطر الاتراك الى الانسحاب من دمشق على عجل ، ونسفوا قبيل انسحابهم مخازن العتاد فيها على نحو ما فعلوا في بغداد عند انسحابهم منها •

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي - أي ١ تشرين الاول - دخلت الى دمشق الخيالة الاسترالية من الجهة الغربية ، بينما دخلت اليها القوات العربية من الجهة الجنوبية • وقيل ان الجنرال اللنبي كان يرغب في أن يدخل العرب الى دمشق مع قواته جنبا الى جنب لكي يجعل لجيشه في أذهان الاهالي صورة الحليف لا صورة الفاتح •

كان الشريف ناصر على رأس القوات العربية الداخلة الى دمشق ممثلا للامير فيصل • وكان معه عودة أبو تايه شيخ عشيرة الحويطات ، ونوري الشعلان شيخ عشيرة الرولة ، وسلطان الاطرش شيخ الدروز ، كما كان معه لورنس ونوري السعيد• وقد قابل سكان دمشق القوات العربية والانكليزية بحماس منقطع النظير ، فكانت الشوارع مزدحمة بالجماهير الى حد يكاد يتعذر المرور فيها ، والهتافات تشق عنان السماء • وقد

وصف صبحي العمري ما شاهده في دمشق عند دخوله اليها ، وكان ضابطا نظامياً في القوات العربية ، فقال :

« ••• وعند مدخل حي الميدان شاهدنا الالوف من الخلق التي جاءت ترحب بنا • وسرنا في طريق الميدان فوجدنا الناس متجمعين على الطريق اعتبارا من بوابة الله حتى المرجة بالالوف ، في الشوارع وعلى السطوح ، نساءاً ورجالا وشباباً وشيباً • لقد كان الجميع يرحبون بنا بمختلف الوسائل ، بالتصفيق والنداءات والاناشيد والزغاريد ونثر الازهار • وكان في يد بعض الرجال قماقم ماء الورد والزهر يرشونه علينا ، وهي عادة دمشقية للترحيب ••• »(١) •

كان ذلك ايذاناً ببدء الحكم الشريفي في سوريا ، وهو الحكم الذى دام سنتين وكان مليئاً بالاحداث المثيرة والدروس الاجتماعية • وسنحاول في هذا الفصل دراسة تلك الاحداث والدروس بايجاز •

اول الاحداث :

أول حادث مثير شهدته دمشق في العهد الشريفى هو حادث الاميرين الجزائريين سعيد وعبدالقادر • فهذان الاميران هما حفيدا الثائر الجزائرى المشهور عبدالقادر الجزائري • وكانا يسكنان دمشق ولهما فيها عدد كبير من الاتباع يعرفون بـ « المغاربة » • والواقع أنهما أنقذا دمشق من النهب والفوضى عند إنسحاب الاتراك منها في ٣٠ ايلول ، فقد وزعا اتباعهما المغاربة في مختلف أحياء المدينة ، وصار هؤلاء الاتباع يجولون على خيولهم في أحياء المدينة وخاصة في أحياء اليهود والنصارى ، وكان لهم أثر فعال في نشر الامن والطمأنينة بين السكان •

كان آخر من انسحب من الاتراك هو وكيل الوالي الميرألاي بهجت بك ، وقد اجتمع قبيل انسحابه بشكري باشا الايوبي وسلمه ادارة المدينة•

---

(١) صبحي العمري (لورنس كما عرفته) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٢٢٧•

ولكن الايوبي وجد ان الامير سعيد الجزائري قد تولى الادارة في المدينة فعلا فلم يشأ أن ينازعه عليها • وكان الامير سعيد قد رفع العلم العربي على بناية السراي ، وأعلن قيام حكومة مؤقتة برئاسته باسم الملك حسين ، وأبرق بذلك الى مختلف أنحاء سوريا •

وفي صباح اليوم التالي عندما دخلت القوات العربية الى دمشق ، كان الأميران سعيد وعبدالقادر مجتمعين مع شكري الايوبي والشريف ناصر في السراي ، فدخل عليهم آنذاك لورنس ومعه نوري السعيد • وكان لورنس له معرفة سابقة بالامير عبدالقادر ويحمل له حقداً ويتهمه بالميل الى الاتراك وخيانة العرب • ولم يكد الامير سعيد يلمح لورنس داخلا حتى وقف في وجهه وأخذ يخاطبه بلهجة تنم عن التحدي حيث قال له : « لقد ألّفنا بالامس أنا وأخي عبدالقادر أحفاد عبدالقادر الجزائري مع شكري باشا الايوبي سليل صلاح‌الدين حكومة وطنية ونادينا بالحسين ملكا على العرب على مسمع ومرأى من الاتراك والالمان المدحورين »[٢] •

غضب لورنس من هذا الكلام غضبا شديدا وهمّ بالرد عليه ، غير أنه سمع صوت مشاجرة في القاعة المجاورة ، فأسرع ليرى ماحدث ، وهناك وجد عودة أبو تايه وسلطان الاطرش قد شهر كل منهما سلاحه في وجه الآخر ، كما شهر أتباعهما أسلحتهم ، وكاد الرصاص ينطلق لو لم يلق بعض الحاضرين أنفسهم بين المتخاصمين ، ويمنعونهم من اطلاق الرصاص[٣] •

حين عاد لورنس الى القاعة الاولى وجد الاميرين الجزائريين قد غادراها الى البيت • فأرسل يستدعيهما اليه • وبعد قليل وصل الاميران

(٢) لورنس (اعمدة الحكمة السبعة) ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٤٣٧ •
(٣) نقلا عن سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ـ عمان ١٩٧٦ ـ ص ١٦٦ •

الى السراي ومعهما حرسهما الخاص والشرر يتطاير من عيونهما • فأعلن لورنس على مشهد من الحاضرين قائلا : انه بصفته مندوباً عن الامير فيصل يعزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الامير سعيد الجـــزائري وأخوه ويعين بدلا عنها حكومة جديدة برئاسة رضا باشا الركابي على أن ينوب عنه الى حين حضوره شكري باشا الايوبي ، ويكون نوري السعيد قائدا عاماً للقوات المسلحة •

كان لهذا الكلام وقع شديد جداً على الاميرين ، وأخذ سعيد يسب لورنس وينعته بأنه نصراني انكليزي ، واستنجد بالشريف ناصر عليـه باعتباره ابن دينه وعنصره • ثم قام عبدالقادر وهو شاهر خنجره ، وانقض على لورنس شاتماً له وفمه يرتجف من شدة الغضب ، غير ان عودة أبو تايه سارع لمساعدة لورنس وانقض على عبدالقادر حائلا دون وصوله الى لورنس ، وتدخل نوري الشعلان معلناً أن قبيلة رولة القوية تقف الى جانب لورنس[٤] • فانسحب الاميران من السراي وهما يهددان ويتوعدان بالانتقام من لورنس لكونه نصرانياً كافراً[٥] •

صمم لورنس على قتل عبدالقادر ، وكلف نوري السعيد بذلك ، وقد كلف نوري بدوره صبحي العمري • يقول صبحي العمري في ذلك ما نصه :

« ففي اليوم الاول او الثاني من دخول دمشق ، وكنت مسؤولا عن أمن المنطقة الوسطى من المدينة ، ومقري قرب مقر القيادة التى كانت في فندق فيكتوريا ، طلبني نوري السعيد الى المقر المذكور وكان لورنس جالساً بقربه وقال لي : « ان الامير عبدالقادر يشتغل ضد الحكم العربي

(٤) لورنس (المصدر السابق) ــ ص ٤٣٩ ــ ٤٤٠ •
(٥) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) ــ ترجمـــة لاوند والعابد ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٩٦ •

ويعمل لحساب الفرنسيين وهو يسعى الى الاخلال بالامن فاريــدك أن تصحب عدداً من جنود سريتك وتقتله »• فدُهشت من هذا الامــر ، وبعد تفكير قليل قلت له : « افهم من أمرك ياسيدي انك تطلب منـي احضاره ، فاذا عصى الامر وقاوم فاننا نجلبه حياً أو ميتاً » • فغرق نوري في تفكير قصير وراح يتبادل النظرات مع لورنس ثم قال : « طيب ، افعل »• ثم قال : « اذهب الى مدير الشرطة واطلب منه بصورة سرية شخصاً يدلك على بيت عبدالقادر » • وذهبت الى مدير الشرطة وبلغته الامـر فأرسل اليّ الشخص ، وما كدت أصل الى مقري حتى جاءني رســول يبلغني طلب نوري السعيد حضوري • فلما دخلت عليه وجدت لورنس لايزال عنده • قال لي : « صرفنا النظر عن الامر » • وخرجت••• »[٦]•

ظل عبدالقادر مطلق السراح حتى ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ ، ففي صباح ذلك اليوم جاء أفراد من الشرطة اليه في بيته لاعتقاله هو وأخيـه سعيد • وقد تمكنت الشرطة من اعتقال أخيه ، أما هو فقد قاوم الشرطة وصار يشتم رئيس الحكومة رضا الركابي ، ثم أسرع الى فرسه وانطلق بها نحو طريق الصالحية ، ولما وصل الى جسر الصالحية أطلقت عليـه الشرطة النار وأردته قتيلا •

أُودع سعيد في سجن المزة عشرة أيام ، ثم نُقل الى حيفا ووضـع فيها تحت الرقابة • وفي منتصف ١٩١٩ أُطلق سراحه وسُمح له بالاقامة في بيروت • وهناك انضم الى الفريق الممالىء لفرنسا والمعادي لحكومة دمشق العربية ، وأخذ ينفق الاموال في الدعاية لنفسه ولفرنسا ، وأقبـل عليه الكثيرون من اللبنانيين يؤيدونه ، وشرعت الصحف الميالة الى فرنسا تكيل له الثناء وتنشر أخباره بشكل يلفت الانظار اليه ويرفع من شأنه•••

---

(٦) صبحي العمري (المصدر السابق) ــ ص ٢٣٣ •

النهب في دمشق :

في اليوم التالي لدخول القوات العربية دمشق وقعت فيها بعض حوادث النهب ، ويعزوها لورنس الى الامير عبدالقادر الجزائري حيث يقول : « في صباح اليوم التالي جاء لايقاظي مواطن يرتجف من الخوف . وأبلغني بأن عبدالقادر قد أعلن الثورة على الحكم الذى أقمناه في الامس . فاستدعيت نورى السعيد على جناح السرعة موقناً بأن هذا الجزائري الاحمق انما يحفر قبره بيده . وكان هذا قد حشد رجاله وخطب فيهم معلنا بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانيا ودعا الى القضاء على حكمهم في المهد خدمة للدين والخلافة . وبما أن أنصاره كانوا معتادين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلاً وهبوا لمحاربتنا . والدروز الذين كنت في الامس قد رفضت اغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة أدوها الينا ، تبع عدد منهم عبدالقادر ، ليس حباً به ، أو غيرة على الدين والخلافة ، أو ولاءاً للاتراك المقهورين ، بل حباً بالسلب والنهب طالما ان الفرصة مؤاتية . ويثبت صحة ذلك انهم انقضوا على الحوانيت المفتوحة لسلب ما فيها عوضاً عن التوجه الينا لمحاربتنا ... »[٧] .

ان صبحي العمري لايوافق لورنس على قوله هذا ، فهو يذكر الحادثة على النحو التالي حيث يقول : « : ... أصبح الأمن مستتباً ولم يعكر صفوه سوى حادثة واحدة كانت آخر الحوادث الفردية البسيطة التي كان لابد من وقوعها في مثل هذه الاحوال . وهذه الحادثة هي أن افراداً من بدو الشعلان والدروز أرادوا الاستفادة من هذه الحالة لينهبوا ما يمكن أن تصل اليه أيديهم ، فذهب عدد منهم الى بعض البيوت شمالي المزة من جهة زقاق الصخر ، وعدد آخر الى قرب الربوة ، فنهبوا بعض المساكن وتوجهوا من هناك نحو دمشق . فأُعلمت بذلك وصدر لي الامر بضربهم والقبض على من يمكن القبض عليه » .

---

(٧) لورنس (المصدر السابق) ــ ص ٤٤١ .

ويصف العمري كيف ضرب الناهبين بالرشاشات فيقول : « نصبنا الرشاشات في المكان الذى شُيِّد عليه فندق سميراميس اليوم وانتظرت وصولهم . ولم تمر دقائق قليلة حتى رأيناهم مقبلين من جهات الربوة ، وكانوا نحو مائة بين خيال وهجان . لم يكن على الشارع سوى بناية واحدة مقابل الجسر الحالي القائم بجانب التكية . وكانوا يحملون على رواحلهم ما كانوا نهبوه من الدور ، كما كانوا يتقدمون وهم يحدون . تركتهم حتى وصلت مقدمتهم الى قرب الجسر الذى يقابلنا ، وعندها أمرت بفتح النار عليهم اعتبارا من مؤخرتهم حتى مقدمتهم في آن واحد . وبدأوا يتساقطون عن رواحلهم : فالمتقدمون القريبون منا اندفعوا منهزمين من فوق الجسر باتجاه محطة الحجاز ، فحصدهم الجنود برصاص بنادقهم ، والآخرون منهم من فرّ على الطريق نحو بوابة الصالحية ، ومنهم من فرّ على طريق الربوة . وانتهت القضية خلال عشر دقائق . وامتلأ الشارع من مقابل التكية الى محطة الحجاز باثنين وعشرين قتيلا ونحو من ثلاثين جريحا . بعد ذلك ارسلت الجنود نحوهم ، فجمعوا من سلم منهم كما جمعوا السلاح والابل والخيل في اصطبلات الشرطة تحت الحراسة . أما القتلى والجرحى فتركتهم كُلاًّ في مكانه للعبرة . وبعد مرور ساعة وردني أمر باطلاق سراحهم وتسليمهم رواحلهم وجرحاهم وبنادقهم على أن يبارحوا المدينة . وهكذا كان ولم يقع غير هذه الحادثة المهمة ... »[8] .

بين فيصل واللنبي :

في الساعة الواحدة بعد ظهر ٣ تشرين الاول دخل الى دمشق الجنرال اللنبي وهو راكب سيارة مكشوفة . فنزل في فندق فكتوريا . ويقال انه كان عند وصوله مضطرب البال قلقاً لانه تسلم قبل قليل برقية تأمره بأنه عند استيلائه على دمشق يجب ان يعمل طبقاً لاتفاقية سايكس

---

(٨) صبحي العمري (المصدر السابق) ــ ص ٢٢٩ .

بيكو[٩] ، وهي الاتفاقية التي تجعل سوريا تحت نفوذ فرنسا • ويقال أيضاً ان برقيات أخرى كانت قد وصلته من دوائر بريطانية وفرنسية فحواها « اخنقوا حركة فيصل ولورنس في مهدها ، أوقفوا السيل العربي• تذكروا اتفاقية سايكس بيكو »[١٠] • فأسرع اللنبي يستدعي اليه قائد الخيالة الاسترالي الجنرال شوفيل وطلب منه أن يبعث بسيارة ليأتي بفيصل الى فندق فكتوريا حالاً •

كان فيصل عند وصول أمر اللنبي اليه قد وصل بالقطار الى مقربة من دمشق ، وكانت جماهير المدينة قد تجمعت على ارصفة الشوارع وشرفات الدور استعداداً لاستقباله • ويبدو أن فيصل وجد نفسه في موقف حرج لايدري كيف يخرج منه : هل يستجيب لامر القائد فيخيب ظن الجماهير ، أم يستجيب للجماهير فيعصي أمر القائد ؟!

قرر فيصل الاستجابة للجماهير على أن يذهب لمقابلة القائد بعدئذ • ولهذا ترك السيارة التي جاء بها شوفيل وامتطى جواداً عربياً ، وسار في شوارع دمشق في موكب حافل يحيط به ألف وخمسمائة فارس من البدو بأيديهم السيوف والرماح • فاستقبله الاهالي بهتاف يصم الآذان ، ونثروا عليه الزهور والرياحين • ولم يتمالك فيصل نفسه من البكاء[١١] •

اتجه فيصل في مسيرته نحو فندق فكتوريا ، وحين دخل قاعة الاستقبال وجد اللنبي واقفا ينتظره مع حاشيته • وكانت تلك اول مقابلة بينهما • يقول ويفل : ان الرجلين كانا على طرفي نقيض ، فقد كان اللنبي الرجل البريطاني الضخم البنية الواثق من نفسه المعتاد على اصدار الأوامر

(٩) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) ــ ص ٩١ •
(١٠) زين نورالدين زين (الصراع الدولي في الشرق الاوسط) ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٧٩•
(١١) أرسكين (فيصل ملك العراق) ــ ترجمة عمر ابو النصر ــ بيروت ١٩٣٤ ــ ص ١١٢ •

بينما كان فيصل يمثل العربي النحيل البسيط الزاهد ولكن تبدو عليه سيماء الامارة ... [١٢] .

يروي شوفيل في تقرير له نُشر مؤخرا : ان اللنبي بدأ يتكلم موجهاً كلامه الى فيصل ، بينما كان لورنس يترجم بينهما ، فقال ما معناه ان فيصل سيتولى حكم سوريا بالنيابة عن والده تحت حماية فرنسا وباشرافها ودعمها المالي ، وان هذا الحكم سيشمل سوريا الداخلية فقط ولا علاقة لـه بلبنان وفلسطين . فرد فيصل على هذا الكلام قائلا : انه لايعترف لفرنسا بأي شأن وأنه على استعداد لتلقي المساعدة البريطانية دون سواها ، ولن يقبل ببلد لامنفذ له على البحر . وهنا التفت اللنبي نحو لورنس يسأله : « ألم تخبره بأن سوريا ستكون تحت وصاية فرنسا ؟ » . فأجاب لورنس : « لا ياسيدي ، كنت أجهل ذلك » . فقال اللنبي له : « ولكنك كنت تعلم علم اليقين بأنه لن يكون لفيصل علاقة بلبنان » . فأجـاب لورنس : « لا ياسيدي كنت أجهل ذلك أيضاً » .

ختم اللنبي المحاورة أخيراً بأن صرح قائلاً : « أنا السر أدموند اللنبي القائد العام ، وأنت فيصل جنرال تحت امرتي ، وعليك أن تطيع أوامري وتقبل بالوضع الحاضر الى أن تتم تسوية الامور بعد أن تضـع الحرب أوزارها » . فانصاع فيصل لهذا القرار وانصرف مع حاشيتـه خارجاً [١٣] .

وعلى أثر خروج فيصل طلب لورنس من اللنبي أن يعفيـه من الخدمة ، وذكر له ان وقت اجازته قد حان وانه يرغب في العودة الـى بريطانيا . فأجابه اللنبي : « نعم من الافضـل ان تسافر » . فانصرف

---

(١٢) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(١٣) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) ـ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

لورنس ، وفي ٤ تشرين الاول غادر دمشق متوجها الى لندن • وفي ٣٠ منه قابل لورنس الملك جورج الخامس لكي يتسلم منه الوسام الذى مُنح له تقديراً لاعماله الباهرة في الثورة العربية • ويروي أحد الذين حضروا المقابلة ان لورنس رفض قبول الوسام من الملك معتذرا بأنه قد ارتبط بعهد مع فيصل بينما هو يرى الحكومة البريطانية الآن على وشك التخلي عن العرب حسب اتفاقية سايكس بيكو • وأضاف لورنس الى ذلك قائلا : انه كان أميراً بين العرب وهو الآن ينوي أن يلتزم جانبهم في السراء والضراء ، وقد يحارب فرنسا اذا اقتضت الضرورة من أجل انقاذ سوريا• ثم أنهى لورنس حديثه مع الملك طالباً منه المغفرة لرفضه الوسام منه(١٤)•

حادثة في حلب :

كان الفرنسيون يبذلون أقصى جهدهم لتدعيم نفوذهم في لبنان ، وجاؤوا بمبلغ ضخم من الجنيهات المصرية يُقدر بخمسة ملايين ونصف بغية توزيعه على الانصار والدعاة • واتخذوا من بيروت مركزاً لدعايتهم• يروي اسكندر الرياشي أن الضابط الفرنسي كولوندر استدعى اليه الزعيم اللبناني حبيب السعد وقال له بحضور الرياشي : « الحكاية أصبحت بعد دخول الانكليز بجيشهم الكبير حكاية تزاحم بيننا وبينهم على هذه البلاد ، فهم أخذوا ينكرون علينا معاهدة سايكس بيكو ويتمسكون بحق الفتح اعتباراً ان جيشهم هو الذى فتحها »• ويقول الرياشي ان كولوندر قال له : اذا كان الانكليز قد ملأوا سوريا ولبنان بجيوشهم فان فرنسا ماتزال تملك وسائل أخرى لمنافستهم(١٥) •

(14) Stewart (T. E. Lawrence) London 1977 – P. 218

(١٥) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) – بيروت ١٩٦١ – ص ٢١٦ •

وفي الوقت الذي كان فيه لبنان يعج بالدعاية لفرنسا ، كانت سوريا على العكس من ذلك تعج بالدعاية ضد فرنسا • واتخذت الدعاية في كلا البلدين صبغة دينية وصارت تضرب على الاوتار الطائفية مما أدى الى حادثة مؤسفة في حلب •

كان سبب الحادثة ان اشاعة انتشرت في حلب في أواخر شباط ١٩١٩ مفادها أن الجنود الارمن امتطوعين في القوات الفرنسية اعتدوا على العرب القاطنين في أطنه وما حولها ، فهاج المسلمون في حلب وقرروا القيام بمظاهرة استنكارية في يوم ٢٨ شباط ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة •

كان شكري الايوبي يومذاك حاكماً عسكرياً لولاية حلب ، بينما كان علي جودت الايوبي حاكماً عسكرياً لمدينة حلب • ويقول علي جودت في مذكراته : انه حين بلغه قرار المظاهرة اقترح على شكري باشا منعها لما يمكن أن ينتج عنها من محذور ولكن شكري باشا لم يوافق على اقتراحه • وبينما كان علي جودت في داره في صباح الجمعة يستقبل زائريه كالعادة اذ بجرس التلفون يرن ، واذا بشكري باشا يخبره أن مذبحة وقعت بين المسلمين والارمن في سوق الجمعة فأسرع علي جودت ممتطيا حصانه وذهب الى مقر جنوده ليوجههم الى محل الحادثة • وفي خلال ساعة واحدة تقريبا انتهت الحادثة بعد أن سقط عدد من القتلى والجرحى قدره البعض بأكثر من مائة[١٦] •

قام الفرنسيون للحادثة وقعدوا ، واعتبروها دليلا على صحة مايدعونه من ان العرب لايصلحون للحكم الذاتي ، وأخذوا ينشرون الدعاية السيئة حولها في أوربا[١٧] • وأخذت جمعية الصليب الاحمر الامريكية تبذل

---

(١٦) علي جودت (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ص ٧٥ ـ ٧٦ •

(١٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج٣ ، ص ١٤٢ •

المساعدة لمن شاء من الارمن للهجرة من حلب ، فأوصلتهم الى بيروت وأمنت سفرهم بحراً الى البلاد التي اختاروها[١٨] ٠

أُستدعي شكري الايوبي الى دمشق وحل محله جعفر العسكري ، كما عُين ناجي السويدي معاوناً له[١٩] ٠ ودعا ناجي السويدي وجهاء الارمن والمسلمين الى اجتماع عام من أجل تصفية القلوب ٠ وعلى أثر ذلك أقام وجهاء الارمن حفلة شاي في المنتم الارمني دعوا اليها وجهاء الحلبيين من جميع الطوائف ، فتبادلوا عواطف الود والاخاء وأبرق وجهاء الارمن الى المفوضية الفرنسية العليا في بيروت يرجون منهم عدم استخدام متطوعي الارمن ضد سوريا والسوريين[٢٠] ٠

فيصل في فرنسا :

في ٨ تشرين الثاني أرسل لورنس الى الحسين في مكة البرقية التالية :

« أعتقد ان محادثات ستجري بين الحلفاء في باريس خلال خمسة عشر يوما حول قضية العرب ٠ ان الجنرال اللنبي قد أبرق بأنك ترغب في أن يكون لك مندوب هنالك ٠ فاذا كان الامر كذلك ، فاني آمل أنك سوف ترسل فيصل لإن انتصاراته الباهرة قد جعلت له سمعة شخصية في اوربا ٠٠٠ فاذا وافقت على ارساله أرجو أن تبرق اليه لكي يكون مستعدا أن يغادر سوريا حالاً ، ولمدة شهر واحد تقريباً ، كما أرجو أن تطلب من الجنرال اللنبي لكي يعد سفينة لنقله الى فرنسا ٠ انك يجب أن تبرق الى حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا

---

(١٨) يوسف الحكيم (سوريا والعهد الفيصلي) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٦١ ٠

(١٩) علي جودت (المصدر السابق) ـ ص ٧٨ ٠

(٢٠) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ٦١ ٠

تخبرهم ان ابنك ذاهب الى باريس مندوباً عنك »[٢١] .

وعلى أثر تسلم الحسين هذه البرقية أبرق الى ابنه فيصل برقية كان هذا نصها :

« حليفتنا بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب ، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود او الادارة مما هو معلوم لدبك في مجتمع سيعقد في باريس في ٢٤ نوفمبر الجاري ، فانفاذاً لرأي عظمتها توجه بكل سرعة ممكنة لباريس ... وحيث ان رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها ونوابها الاماجد ان كانوا زملاءك في المجتمع او معتمديها السياسيين ، وما يكلفونك به من قول أو عمل ان كان في المجتمع أو سواه تعمل به ، وتجنب كل ما سوى ذلك . هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع وخير الاهالي بالمصلحة والقصد والله يتولاك »[٢٢] .

وفي ١٦ منه أبرق لورنس الى فيصل عن طريق وزارة الخارجية البريطانية يطلب منه أن يأتي الى أوربا بملابسه العربية وان يصحبه ضابط عراقي واحد ، هو نوري السعيد ان امكن ، كما يصحبه أيضاً اثنان من أعوانه السوريين الرئيسيين[٢٣] .

كان فيصل عند وصول برقية أبيه في حلب ، فأسرع متوجهاً الى بيروت عن طريق حمص وطرابلس . ولما وصل الى بيروت استقبله المسلمون فيها استقبالا حماسيا عظيماً ، وقد أوقف بعض الشبان عربة

(21) Mousa (T. E. Lawrence) — London 1967 — P. 216.

(٢٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) — القاهرة ١٩٦٧ — ص ١٧٤ .

(23) Mousa (Op. cit.) — P. 217.

فيصل وحلوا رباط جيادها وأخذوا يجرونها في شوارع بيروت وهــم ينادون : « ما بنرضى غيرك سلطان » و « لا نرضى الا بالعرب »[٢٤] • والظاهر أنهم أرادوا بذلك تحدي الفرنسيين وأعوانهم المارونيين •

انزعج الفرنسيون من هذه الزيارة حتى أنهم كادوا يتجاهلونها ، واعتبروها جزءاً من المخطط البريطاني الرامي الى تشجيع الفئات اللبنانية الموالية لبريطانيا ولفيصل ، وكذلك اعتبروها جزءاً من جهود فيصل فــي سبيل ضم لبنان الى حكومة دمشق[٢٥] •

غادر فيصل بيروت في ٢٠ تشرين الثاني على ظهر طراد بريطاني ومعه حاشية مؤلفة من نوري السعيد ورستم حيدر وفائز الغصين وتحسين قدري وأخيه الطبيب أحمد قدري • فوصل الى مارسليا في ٢٥ منه ، وهناك وجد لورنس في استقباله وهو بملابسه العسكرية ولكنه كان واضعاً العقال على رأسه بدلا من القبعة العسكرية •

كان في استقبال فيصل من الجانب الفرنسي الكولونيل بريموند ، وهو الضابط الذى عاش في المغرب عدة سنوات واتقن اللغة العربية • وكان استقباله مزيجاً من الجفاء والمجاملة ، وقد أخبر بريموند فيصـــل بأن الحكومة الفرنسية ترحب به ضيفاً كريماً ولكنها لاتعترف له بأي مركـز دبلوماسي ، أي انها لاتعتبره مندوباً للملك حسين في مؤتمر الصلح • ثم التفت بريموند نحو لورنس قائلا له : ان الحكومة الفرنسية ترحب بــه كضابط بريطاني يلبس الملابس المناسبة لرتبته العسكرية انما هي لاترحب به اذا ظل متنكراً بزي العرب • وقد غضب لورنس من ذلك وقال : « انكم تطردونني وسأسافر في هذا المساء » • وغادر لورنس فرنسا فعلاً بعد أن أعاد للفرنسيين الوسام الذى كانوا قد منحوه اياه خلال الحرب •

---

(٢٤) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ بيروت ١٩٧٠ ــ ٤١٧ •
(٢٥) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ــ ص ٩٢ •

كان الفرنسيون يعتقدون أن لورنس يعمــل ضد مصالحهم وأنه يحرض فيصل على مقاومة مطامحهم في سوريا • وكانوا كذلك يعتقدون ان دعوة الملك حسين لارسال مندوب عنه في مؤتمر الصلح هي من تدبير لورنس[٢٦] •

نظمت الحكومة الفرنسية لفيصل منهجاً طويلا قصدت به أن يزور مواقع المعارك التي جرت خلال الحرب ، وقد أحاطته بكل مظاهر التكريم والتبجيل بغية التأثير عليه نفسياً • وفطن فيصل الى أنها تريد ابعاده عن باريس وعن الاشتراك في مؤتمر الصلح عند افتتاحه[٢٧] •

لم يتحمل فيصل هذه المكايدات الفرنسية ، فأمسك بيد بريمــوند وأخذه الى جانب وقال له : « نحن حاربنا معاً جنباً الى جنب ، ومعنى ذلك اننا اخوة في السلاح • اخبرني بصراحة ماهي الحقيقة ؟ وكذلك أخبرني بلا مواربة هل أن الحكومة الفرنسية ترغب في حضوري الى باريس أم لا ؟ لقد تركت أخي زيد في دمشق نائباً عني ، وهو شاب ، ولما كانـت الامور غير مستقرة هنالك فان من الافضل لي أن اعود الى دمشق بدلا من اضاعة الوقت هنا »[٢٨]

أثرت هذه الكلمة فى بريموند فاتصل بحكومته يقترح عليها دعوة فيصل لمقابلة رئيس الجمهورية • وأخذت الحكومة بهذا الاقتراح ، وفي ٧ كانون الاول قابل فيصل هنري بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية ، وكان المترجم بينهما قدور بن غبريط التونسي • ولم تدم المقابلة سوى دقائق ، ولم يتجاوز الحديث فيها عبارات المجاملات المألوفة[٢٩] •

---

(26) Mousa (Op. cit.) — P. 218.

(٢٧) احمد قدري (مذكراتى عن الثورة العربية الكبرى) ـ دمشق ١٩٥٦ ـ ص ٩٤ •

(28) Mousa (Op. cit.) — P. 219.

(٢٩) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادى) ـ بيروت ١٩٧٤ ـ ص ٢١ •

فيصل في بريطانيا :

في ٩ كانون الاول غادر فيصل مع حاشيته باريس متوجهاً الى لندن ، فجرى له فيها استقبال حافل ، ونزل ضيفاً على الحكومة البريطانية فـي فندق « كارلتون » الذى كان أفخم فنادق لندن في تلك الايام • وقد مكث فيصل في بريطانيا شهراً واحداً ، وكان لورنس يلازمه كظله ساعياً لتلبية طلباته ، ويخاطبه بكلمة « سيدي » •

وفي ١٢ منه قابل فيصل الملك جورج الخامس ، وكان لورنس معه بصفته مترجماً وقد لبس الملابس العربية كاملة • وقد أثارت هذه الملابس امتعاض أحد رجال حاشية الملك ، وأخذ يوبخ لورنس قائلا : « هل من الصواب ، يا كولونيل لورنس ، أن يأتي أحد رعايا الملك ، وهو ضابط علاوة على ذلك ، لابساً ملابس أجنبية ؟ » • فأجابه لورنس بهدوء : « اذا كان الانسان يخدم سيدين وقد تحتم عليه أن يغيظ أحدهما فمن الافضل أن يغيظ اقواهما • • اني جئت لاكون مترجماً للامير فيصل وهذا هو زيه »(٣٠) •

قدم الملك جورج قلادة فكتوريا الى فيصل وقال : انه يقدمها تذكاراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والانكليز في ساحات القتال جنباً الـى جنب ، وانه يؤمل أن يكون الود بينهما دائماً الى ما لا نهاية له • وتكلم فيصل فقال : انه جاء مندوباً عن والده لتقديم الشكر على ما لقيه مـن مساعدة من الملك جورج وحكومته وأن والده يتمنى أن تبقى محبتكم نحونا مدى الايام • فأجاب الملك جورج : اننا لاتتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً وأطمنكم انكم ستجدون بريطانيا معكم ...(٣١) •

كان فيصل طيلة المدة التي قضاها في لندن موضع احترام وتكريم ،

---

(30) Hart (T. E. Lawrence) – London 1965 – P. 386.

(٣١) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٢٥ •

اذ كان كبار الشخصيات البريطانية يتسابقون للقائه واقامة المآدب الفخمة له في قصورهم • ويقول عوني عبدالهادي الذي كان أحد أفراد حاشيته : « ان هذه الايام القليلة التى قضاها الامير فيصل في لندن كانت كافية لتطور سموه تطوراً كبيراً ، نقلته من أمير عربي عـــريق في البداوة الى امير متحضر »(٣٢) •

اتفاقية وايزمن فيصل :

انتهز وايزمن ـ الزعيم الصهيوني المعروف ـ فرصة وجود فيصـل في لندن فطلب منه موعداً لمقابلته بغية اقناعه بالموافقة على وعد بلفور • وفي ١١ كانون الاول ١٩١٨ جرت أول مقابلة بينهما في فندق كارلتون ، وحضر المقابلة لورنس بصفته مترجماً •

المظنون أن وايزمن استغل حالة القلق التى كانت مستحـــوذة على فيصل تجاه مطامع الفرنسيين في سوريا وميل البريطانيين للمساومة معهم على حساب العرب ، فأخذ يشرح لفيصل كيف أن اليهود يمكن ان يكونوا السند الوحيد للعرب في هذه المحنة : فاليهود لديهم المال الكثير والخبرة الاقتصادية ، كما ان لهم نفوذهم الكبير فى مختلف الدول الكبرى ولاسيما في أمريكا ، فاذا اتفق العرب معهم ، وهم أبناء عم ، فليس هناك قوة فـي الارض تستطيع أن تهضم لهم حقاً • وذكر وايزمن لفيصل ان اليهود ليس لهم أية مطامع سياسية في فلسطين ، فهم تجار وأصحاب أموال ، وليس لديهم سلاح يقاتلون به او يستحوذون به على البلاد ، كل غرضهم هو تعمير البلاد العربية بأموالهم وعقولهم ، فالاراضي العربيـــة كثيرة غير معمورة بينما اليهود على استعداد لتقديم يد العون للعرب كأصـــدقاء مخلصين ••• (٣٣) •

---

(٣٢) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٢٣ •
(٣٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ •

ظل وايزمن يردد على فيصل هذه الاقوال وأمثالها • ومن الجدير بالذكر ان هذه الاقوال لم تكن جديدة ، فطالما كان الصهاينة يرددونها على زعماء العرب منذ عهد ما قبل الحرب ، وقد صدق بها بعضهم ، ولا سيما بعض أقطاب حزب اللامركزية في مصر[٣٤] ، كما صدق بها الحسين نفسه[٣٥] • أضف الى ذلك ان لورنس كان يرى مثل هذا الرأي في اليهود وقد بذل جهده في اقناع فيصل بصحته •

يمكن القول على أي حال ان وايزمن استطاع بمعونة لورنس أن يؤثر على فيصل تأثيراً بليغاً ، وأن يقنعه بصحة ما قال له عن اخلاص اليهود للعرب ومدى الفائدة التى سيجنيها العرب منهم • فلما انتهى وايزمن من كلامه مع فيصل ، تكلم فيصل قائلا : « ان العرب سيقبلون مطلوب اليهود اذا لمسوا منهم الاخلاص والنفع ، فالعرب بحاجة الى الاموال لاصلاح مافسد في بلادهم ، ويطلبون منكم المعاونة السياسية عند الامم وخصوصاً أمريكا »• وعند هذا مد وايزمن يده وقال لفيصل انه يعاهده باسم اليهود « بأننا نموت سواء ونحيا سواء » • فقال فيصل : « ان وفيت بقولك هذا فاني موفي لك بقولي المملكة العربية لاتتجزأ »[٣٦] •

تم الاتفاق بين فيصل ووايزمن أخيرا على توقيع اتفاقية تتضمن تسع مواد تنص على القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود ، وعلى ضرورة التعاون بينهما ، وتقديم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور ، وتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وحرية ممارسة العقيدة الدينية •

---

(٣٤) عبدالعزيز محمد عوض (الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودى) ــ في مجلة (شؤون فلسطينية) ــ في عددها الصادر في آب ١٩٧٤ •

(٣٥) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٤٢٨ •

(٣٦) المصدر السابق ــ ص ٤٣ •

يبدو أن فيصل حين رأى الصيغة النهائية للاتفاقية مكتوبة على الآلة الطابعة ومعدة للتوقيع عليها أدرك مغبة ما فعل ، ولهذا وجدناه يمسك القلم ويكتب في ذيلها التحفظ التالي :

« اذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ ٤ كانون ثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية بريطانيا العظمى فانني موافق على ما ذكر بنطاق هذه المواد وان حصل أدنا تغير أو تبديل فلا أكون ملزوماً ومربوطاً بأي كلمت كانت بل تُعد هذه المقاولة لاشيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أطالب بأي صورت كانت »(٣٧) .

لاشك ان هذه العبارة التي كتبها فيصل كانت ضربة سياسية بارعة جعلت الاتفاقية لاقيمة لها من الناحية العملية ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن لورنس حين ترجم العبارة الى اللغة الانكليزية أجرى عليها بعض التحريف بحيث شوه المقصد منها . فقد كانت ترجمتها على النحو التالي :

« اذا تأسس العرب كما طلبناه في تقريرنا المقدم الى وزارة الخارجية البريطانية فأنني سأنفذ ماكُتب في هذه الاتفاقية . واذا حدثت تغييرات فانني غير مسؤول عن فشل تنفيذ هذه الاتفاقية »(٣٨) .

يواجهنا هنا سؤال : هل كان لورنس في تأييده للصهيونية عميلا لها مأجوراً ، أم كان ينفذ تعليمات بلفور وزير الخارجية البريطانية ، أم كان غير ذلك ؟ .

في رأي المؤرخ البريطاني المعروف توينبي ان لورنس انما كان في محاولته التقريب بين العرب واليهود يعمل بدافع من اجتهاده الشخصي .

---

(٣٧) انظر صورة التحفظ بالزنكغراف كما كتبه فيصل بخطه في مجلة (آفاق عربية) ـ في عددها الصادر في حزيران ١٩٧٧ ـ ص ١١٧ .

(٣٨) المصدر السابق ـ ص ١١٩ .

يقول توينبي في هذا الصدد ما نصه : « ••• ان لورنس كان رجلا مستقل الرأي • وفيما أعلم فان لورنس نصح فيصلاً بأنه لايستطيع أن يحارب على جبهتين في وقت واحد : فرنسا والصهيونية ، وان خطر فرنسا ماثل للعيان وهى تريد القضاء على سوريا بينما مشاريع الصهاينة ما تزال في نطاق النظريات ، وان الحكمة تقضي عليه الآن أن يستعين باليهود لمقاومة فرنسا ، وفيما بعد يكون لكل حادث حديث »(٣٩) •

ان عوني عبدالهادي الذي كان من حاشية فيصل في لندن له رأي آخر في لورنس ، فهو يقول : «لقد كان لورنس يلعب على الحبلين، كان يتظاهر للعرب بأنه عربي صميم وانه صديق العرب الحميم ، فيما كان يعمل لمصلحة العرب مرة ويعمل لمصلحة اليهود مرة أخرى • ولورنس هو انجليزي وليس عربياً ولا يهودياً • وليس من يجهل الدور الذي لعبه في اقنـــاع سمو الامير بتوقيع الاتفاقية المعروفة باتفاقية فيصل ـ وايزمان »(٤٠) •

ولا بد لنا في هذه المناسبة من أن ننقل رأي وايزمن نفسه في لورنس• فهو يقول عنه في مذكراته ما نصه « ينبغي في هذه النقطة أن أظهر تقديري للخدمات التي قدمها لورنس لقضيتنا ، وأن أضيف شيئاً في وصف شخصيته الرائعة ••• ان علاقته بالحركة الصهيونية كانت ايجابية جداً ، على الرغم من كونه شديد الميل للعرب وما وصف به خطأً من كونه معادي للصهيونية• لقد كان رأي لورنس ، كما كان رأي فيصل ، ان اليهود يمكن أن يقدموا مساعدة عظيمة للعرب ، وان العالم العربى سيجني نفعاً كثيراً من انشاء وطن لليهود في فلسطين ••• »(٤١) •

---

(٣٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٣٤ (حاشية) •

(٤٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٢٥ •

(41) Weizmann (Trial and Error) – New York 1949 – P. 236.

عودته الى باريس :

عاد فيصل مع حاشيته الى باريس في ٩ كانون الثاني ١٩١٩ ، فنزل في قصر الكونتيسة تونير ضيفاً على الحكومة الفرنسية • وكتب فيصل الى الحكومة الفرنسية يطلب السماح له بحضور مؤتمر الصلح ممثلا للبلاد العربية • فجاء الجواب منها مفاده أن الحكومة الفرنسية تأسف لعدم تمكنها من حجز مقعد له في المؤتمر • وكان هذا الجواب صدمة عنيفة لفيصل • وأسرع لورنس لمقابلة لويد جورج واللورد كرزن اللذين كانا نازلين فى فندق « استوريا » • وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل عاد لورنس الى فيصل ، وكان فيصل مازال ساهراً وهو يتمشى في غرفته نهب الحيرة والقلق ، فبادره لورنس قائلا : « سيدي ، لويد جورج يهديك سلامه ويقول لك لقد خصص لك مقعدان في المؤتمر بدلا من واحد »(٤٢) • فابتهج فيصل بذلك كثيراً وارتفع اعتبار لورنس في نظره(٤٣) •

افتتح مؤتمر الصلح في ضاحية فرساي في ١٨ منه • وقد مثل العرب فيه فيصل ورستم حيدر ، وكان يساعدهما نوري السعيد وعوني عبدالهادي ولورنس • وكان لورنس يضع العقال على رأسه ، فكان ذلك يزعج الفرنسيين •

يمكن القول بوجه عام ان وجود فيصل في مؤتمر الصلح قد أكسب العرب شيئاً من السمعة وزاد من عدد أنصارهم • فهو قد بهر الانظار ـ ولا سيما انظار النساء ـ بوسامته وعباءته البيضاء الفضفاضة وعقاله المذهب • ودأبت الصحف على نشر صوره والحديث عنه • ولم يكن الاوربيون يومذاك قد اعتادوا على رؤية شيوخ العرب كما اعتادوا عليها في أيامنا هذه •

(٤٢) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ٩٥ •

(٤٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٦٥ •

وقد تذكروا عند رؤيته مباهج ألف ليلة وليلة • يقول عنه أحد الامريكيين الذين حضروا المؤتمر وهو المحامي روبرت لانسنغ : « ان صوته يبدو كأنه ينفث رائحة البخور ويدل على وجود سجادات باذخة وعمائم خضر تلمع بالذهب والجواهر » • ويصف هذا المحامي شخصية فيصل بقوله : « انه مع حداثة سنه قد أبدى نضوجاً في التفكير قلما يشاهد في الشباب ، وكان يبدو في مظهره ولباسه كأحد الانبياء الاقدمين الذين ينوؤون تحت المعرفة الثقيلة »(٤٤) •

وكان من بين الذين انجذبوا الى فيصل الاديب الفرنسي أناتول فرانس • فقد كان هذا الاديب يسكن في شارع الشانزليزيه قريباً من القصر الذي نزل فيه فيصل ، وكثيراً ما كان يتردد على فيصل ويتناول الطعام على مائدته(٤٥) ، كما كان يدعو فيصل الى مائدته ومعه رؤساء تحرير الصحف الفرنسية (٤٦) •

وكذلك انجذبت الى فيصل زوجة الرئيس الامريكي ويلسون ، فهي وصفت فيصل بأن وجهه يشبه صورة المسيح • وكتبت اليه فيما بعد عدة رسائل • والمظنون انها كانت ذات تأثير على زوجها في مصلحة العرب(٤٧) •

ومن الجدير بالذكر ان الانكليز كان لهم ضلع في ترويج الدعاية لفيصل في اروقة المؤتمر وعلى اعمدة الصحف • والمظنون انهم كانوا يريدون أن يجعلوا من فيصل ورقة رابحة في أيديهم عند مساومتهم مع الفرنسيين في بعض القضايا المتنازع عليها ولا سيما قضية الموصل ـ كما سنأتي اليه •

---

(44) Lansing (The Big Four and Others of The Peace Cnsference) – London 1922 – P.

(٤٥) ابراهيم سليم نجار (الملك فيصل الاول) ـ بيروت ـ ص ٦٧ (حاشية) •

(٤٦) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادي) ـ ص ٢٧ •

(47) Mousa (Op. Cit.) – P. 226.

وقد أدرك الفرنسيون ما وراء هذه اللعبة البريطانية من سر ، وصاروا ينظرون الى فيصل نظرتهم الى عميل بريطاني ، وأخذت الصحف فيما بعد تضرب على هذا الوتر وتحاول الحط من شأن فيصل وترويج الدعاية السيئة ضده •

ماذا جرى في المؤتمر :

تقرر أن يكون يوم ٦ شباط موعداً لالقاء فيصل خطابه في مؤتمر الصلح • وقد أمضى فيصل الليلة السابقة في اعداد الخطاب بمساعدة رستم حيدر وعوني عبدالهادي ، وأعد لورنس ترجمة الخطاب الى اللغة الانكليزية بمساعدتهما أيضاً •

وعندما ألقى فيصل خطابه في الموعد المحدد كان اسلوبه هادئاً رصيناً فيه صراحة مزيجة بالتهذيب ، وقد استهجن بلطف اتفاقية سايكس بيكو وبسط مطاليب العرب في الوحدة والاستقلال ، وذكر كيف ان العرب انضموا الى الحلفاء في الحرب في أحرج الاوقات وبلغت ضحاياهم عشرين ألف قتيل • وحين قاطعه أحد الحاضرين مشيراً الى أن العرب من الشعوب غير المتقدمة حضارياً ، رد عليه فيصل بصوت جهوري حاد قائلا : « انني انتمي الى شعب تمتع بالحضارة عندما كانت جميع البلاد الاخرى التي يجلس ممثلوها في هذه القاعة مسكونة بالبرابرة » • وقد حاول أورلاندو ممثل ايطاليا الرد عليه مشيراً الى اقدمية روما في الحضارة ، فقاطعه فيصل بشدة قائلا : « نعم ، هكذا كان الامر قبل تأسيس روما »(٤٨) •

وقف رجل واحد في المؤتمر يؤيد فيصل بقوة ، كما وقف رجل آخر يعارضه بقوة أيضاً • أما الرجل المؤيد فهو الدكتور هوارد بلس رئيس

(48) Lloyd George (The Truth about the Peace Treaties) — London 1938 — vol 2, P. 1039 .

الكلية البروتستانيه السوريه التي تسمى اليوم بـ « جامعة بيروت الامريكية » • ويفسر اسكندر الرياشي التأييد الذي أبداه الدكتور بلس نحو العرب بانه من جراء المنافسة الشديدة التى كانت موجودة في بيروت بين الكلية البروتستانية الامريكية والكلية اليسوعية الفرنسية ، فان الفرنسيين حين دخلوا بيروت في تشرين الاول ١٩١٨ شرعوا يملأون الدوائر الحكومية بالمتخرجين من الكلية اليسوعية والمعاهد الكاثوليكية الاخرى ، فغضب الدكتور بلس من ذلك وحمل حقيبته راحلا الى باريس لمقابلة الرئيس ويلسون ، وكانت بينهما علاقة وثيقة ، فأنزله ويلسون منزلة الرفيق وأخذ يصغي اليه[٤٩] •

وعلى أي حال فقد ألقى الدكتور بلس في ١٣ شباط خطاباً في المؤتمر طالب فيه بارسال لجنة حيادية الى سوريا للتعرف على رغبة السكان حسب مبدأ تقرير المصير الذى يدعو اليه الرئيس ويلسون • وقد تأثر ويلسون بهذا الخطاب الى حد كبير •

أما الرجل الذى وقف يعارض فيصل في المؤتمر فهو شكري غانم وهو لبناني الاصل غير أنه كان يقيم في فرنسا منذ خمس وثلاثين سنة ، وله شهرة ككاتب مسرحي ، ويتولى تحرير جريدة « المستقبل » العربية التى كانت تصدر في باريس خلال الحرب •

دخل هذا الرجل الى قاعة المؤتمر على أثر انتهاء الدكتور بلس من ألقاء خطابه ، وهو على رأس وفد يسمي نفسه « الوفد السوري » ، فقدم كلمنصو الوفد الى المؤتمر ثم طلب من شكري غانم أن يلقي خطابه • فألقى شكري خطاباً طويلا منمق العبارة تحدى به فيصل تحدياً مثيراً حيث قال ما معناه : ان فيصل يمثل الحجاز ولا يحق له التكلم باسم جميع العرب ولا

---

(٤٩) اسكندر الرياشي (المصدر السابق) ـ ص ٢١٨ ـ ٢٢١ •

سيما السوريين ، فان دمشق تبعد عن مكة بما لايقل عن ألف وخمسمائة كيلو متر ، فاية صلات روحية وتقارب ذهني تربط بين الحجازي والسورى أو بين البدو والحضر ؟ فان ضم سوريا الى الجزيرة العربية هو افتئات صارخ على قدسية الارض الذى أنبتت الشعب السوري وتاريخه • ثم استطرد شكري الى موضوع استفتاء الشعب السورى فقال انه لايوصي به في الوقت الحاضر وان من الافضل منطقياً ان تعين الدول الكبرى دولة من بينها لمعونة هذا البلد الصغير لكي ينهض بنفسه ، ثم قال شكري راجياً من الدول ان تكون فرنسا هي التى تُوكل اليها هذه المهمة النبيلة ، اذ هى الدولة الوحيدة المؤهلة لانجاز ما يصبو اليه السوريون • ثم انهى شكري خطابه ببيت من الشعر العربى القديم وهو :

رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

ثم قال : « ايها السادة هل ستتركوننا نبكي على ماضينا المفجع وانتم أملنا الوحيد ، أنتم الذين نعتبركم ممثلي العدالة والحق والرحمة الانسانية »(٥٠) •

لوحظ على أثر شروع شكري غانم بالقاء خطابه أن أحد أعضاء الوفد الامريكي دفع الى الرئيس ويلسون قصاصة ورق ذكر فيها ان شكري قضى معظم حياته في فرنسا • فأدى ذلك بويلسون الى عدم المبالاة بخطابه ، ثم نهض ويلسون بعد قليل وأخذ يتمشى نحو الجانب الآخر من القاعة حتى وصل الى النافذة وصار ينظر من خلالها الى الخارج وهو واضع يديه في جيوب معطفه ، فادى ذلك الى ارباك الفرنسيين وازعاجهم • ومال كلمنصو نحو وزير خارجيته بيشون ليؤنبه على الاتيان بشكري غانم الى المؤتمر ، حيث همس في اذنه بخشونة قائلا : « لماذا جئت بهذا الرجل الى هنا ؟ »

(٥٠) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ص ١٠٤ ـ ١٠٥ •

فمد بيشون يديه بصورة احتجاج يائس وقال : « لم أكن أعلم انه سيعالج الامر على هذا المنوال ! »(٥١)

تعيين لجنة تحقيق :

في صباح ٢٠ آذار جرى اجتماع سري حضره رؤساء الدول الاربع الكبرى في شقة لويد جورج بباريس ، وجرى فيه نقاش حاد حول العرب والقضية السورية • وقد فتح النقاش وزير الخارجية الفرنسي بيشون فأشار الى الاتفاق المبدأي الذي حصل بين كلمنصو ولويد جورج في لندن قبل المؤتمر ، فأجابه لويد جورج انه لايحيد عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو الا بالنسبة للموصل وفلسطين ، واذا كانت فرنسا تعتزم احتلال دمشق بجيوش فرنسية فانه يعتبر ذلك انتهاكاً صارخاً لمعاهدتنا مع العرب ، فرد عليه بيشون : أن ليس هناك أية معاهدة بين فرنسا والعرب • فقال لويد جورج : ان اتفاقية سايكس بيكو ترتكز برمتها على رسالة بعثها مكماهون الى الملك حسين ، وهي الرسالة المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ • وقرأ لويد جورج منها مقتطفات تؤيد وجهة نظره ، ثم أخذ يطنب في ذكر المساعدة التي قدمها الملك حسين والعرب للحلفاء في أثناء الحرب ، حيث قال ان بريطانيا جندت حوالي مليون جندي ضد الاتراك ، وأن جنودهم هم الذين احتلوا سوريا بمساعدة العرب الذين كانت مساعدتهم « جوهرية » ، وان الملك حسين وضع جميع موارده في ميدان القتال وقدم بذلك مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب • وأيده الجنرال اللنبي على قوله هذا حيث قال : « ان مساعدة العرب لاتُقدر بثمن »•

وعند هذا تدخل الرئيس ويلسون في الجدال وقال : ان الولايات المتحدة لاتهمها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لاي شعب الا اذا كان

(٥١) المصدر السابق ـ ص ١٠٤ ـ ١٠٦ •

الاهلون يريدونهما ، ولذلك فان السبيل الوحيد لمعالجة القضية هو اكتشاف رغبة أهالي تلك المناطق • فوافق الحاضرون على اقتراح ويلسون ، ولكن كلمنصو قال ان التحقيق يجب أن يشمل فلسطين والعراق وأرمينيا ، فأجاب لويد جورج انه لايعترض على ذلك •

وعلى أي حال فقد انتهى الاجتماع والقلوب متنافرة ، حتى أن ويلسون خرج من قاعة الاجتماع وهو يلعن كل واحد وكل شيء قائلا انه لم يفعل طيلة ثماني وأربعين ساعة سوى الكلام وانه مشمئز من الموضوع كله(٥٢).

وفي اجتماع آخر عقده الاربعة الكبار في ٢٥ آذار تمت الموافقة رسمياً على تعيين لجنة من أعضاء فرنسيين وبريطانيين وايطاليين وأمريكيين وارسالها الى سوريا والى المناطق المجاورة لها ان دعت الحاجة الى ذلك ، لكي تستطلع الحقائق وتكتب عنها تقريرا الى مؤتمر الصلح •

كان هذا القرار مبعث سرور عظيم لفيصل • يحكى أنه حين سمع به أخذ يشرب الشمبانيا ــ لاول مرة ــ عباً كأنه يشرب الماء ، ثم ركب عربته ومر بها على مقر الوفدين الامريكي والبريطاني ، فأخذ يقذف مبنى الكريون وفندق الماجستيك ووزارة الخارجية الفرنسية بالحشايا والوسائد ، قائلا انه لايستطيع أن يعبر عن مشاعره الا بتلك الطريقة مادام لايملك القنابل(٥٣).

بين فيصل وفرانكفورتر :

في ١ آذار ١٩١٩ نشرت جريدة « الماتان » الفرنسية تصريحاً لفيصل قال فيه : « يسرنا بحكم الانسانية والمروءة أن نرى اليهود التاعسين يهاجرون الى فلسطين فيقيمون على الرحب عاملين بمقتضى الواجبات الوطنية على

(٥٢) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٤٧٢ ــ ٤٧٣ •

(٥٣) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ــ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ٤٠٠ •

شرط أن يكونوا تحت سلطة اسلامية او تحت سلطة نصرانية تتلقى وكالتها من قبل عصبة الامم ».

يقول وايزمن في مذكراته : ان هذا التصريح الذى نشرته جريدة « الماتان » للامير فيصل كان صريح العداء لنا ، وقد أسرع سكرتير الامير الى تكذيبه(٥٤) . أما عوني عبدالهادي الذى كان حينذاك سكرتير فيصل فقد أنكر تكذيبه للتصريح(٥٥) .

ومهما كان الحال فقد اهتم الصهاينة لهذا التصريح ، واتصلوا بصديقهم لورنس لكي يعمل بما يخفف من تأثيره او يلغيه ، فدبر لورنس اجتماعا بين فيصل والمستر فليكس فرانكفورتر عضو الوفد الصهيوني الامريكي في مؤتمر الصلح . وتم الاتفاق بين الرجلين على أن يتبادلا رسالتين تتضمنان فحوى مادار بينهما من حديث . ويقال ان لورنس وفرانكفورتر اجتمعا بعدئذ فكتب فرانكفورتر الرسالة التى سيوجهها باسمه الى فيصل ، وكتب لورنس الرسالة التى سيجيب فيصل بها عليه(٥٦) . ثم ذهب لورنس الى فيصل ، وعاد وهو يحمل الرسالة وعليها توقيع فيصل . وفيما يلي نص الرسالة مترجمة عن مذكرات وايزمن :

وفد الحجاز ــ باريس

٣ آذار ١٩١٩

عزيزي المستر فرانكفورتر

أود انتهاز هذه الفرصة لاول اتصال لي بالصهيونيين الامريكيين لاخبرك بما كنت أقوله للدكتور وايزمن في الجزيرة العربية وأوربا .

---

(54) Weizmann (op. cit.) — P. 245.

(٥٥) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادي) ــ ص ٢٥ .

(٥٦) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ ص ٤٤٤ .

فنحن نشعر بأن العرب واليهود أبناء عم ، وانهم يعانون نفس الاضطهاد من دول أقوى منهم • ومن حسن الصدف أنهم تمكنوا من ان يخطوا الخطوة الاولى للتعاون في سبيل تحقيق أهدافهم القومية معاً • نحن العرب ، وخاصة المثقفين منا ، ننظر الى الحركة الصهيونية بعطف عميق جداً • ان وفدنا في باريس مطلع كل الاطلاع على المقترحات التى قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر الصلح ، ونحن نعتبر هذه المقترحات معتدلة ومناسبة • وسوف نبذل أقصى جهدنا ، في القدر المتعلق بنا ، للعمل على تحقيقها ، كما نرحب باليهود القادمين الى الوطن ترحيباً قلبياً صميمياً • لقد كانت لدينا أوثق الصلات مع زعماء حركتكم ، لاسيما الدكتور وايزمن ، وهى مازالت مستمرة • انه كان اكبر مساعد لقضيتنا ، وأنا آمل أن العرب قد يصبحون في وقت قريب قادرين على مكافأة اليهود على جميلهم • اننا نعمل معاً في سبيل اصلاح الشرق الاوسط وانعاشه ، وان حركتنا وحركتكم تكمل احداهما الاخرى • ان الحركة اليهودية قومية وليست استعمارية ، وكذلك حركتنا قومية ليست استعمارية ، وهناك مجال في سوريا لكلتيهما • أنا اعتقد في الواقع ان اية حركة منهما لايمكن ان تنال نجاحاً حقيقياً بدون الاخرى • ان الذين هم أقل اطلاعا ومسؤولية من زعمائنا يتناسون ضرورة التعاون بين العرب واليهود ، وأخذوا يستغلون الخلافات المحلية التى لابد ان تنشأ في فلسطين في المراحل الاولى من الحركة • وأخشى ان بعض هؤلاء قد شوه أهدافكم لدى الفلاحين العرب ، كما شوه أهدافنا لدى الفلاحين اليهود ، وكانت النتيجة ان استفاد اولو المصالح من هذه الخلافات المصطنعة • اني أود أن أعبر لك عن اعتقادى الجازم بان هذه الخلافات ليست خلافات مبدأية ، انما هي مسائل تتعلق بالتفاصيل ، كشأن الخلافات التى لابد أن تنشأ بين الاقوام المتجاورة ، والتي يسهل حلها عن طريق حسن النية المتبادل • والواقع ان كل هذه الخلافات تقريباً سوف تزول حين تتضح الحقائق

وضوحاً أكمل • انني وشعبي نتطلع الى اليـــوم الذى سوف نعاونكم وتعاونوننا فيه ، حتى تستعيد البلاد التي يهمنا ويهمكم أمرها مكانها اللائق بين شعوب العالم المتمدن •

المخلص لـكم

فيصل[٥٧]

اهتم الصهاينة بهذه الرسالة واستندوا عليها أكثر مما فعلوا مـع اتفاقية وايزمن فيصل • فالتذييل الذى كتبه فيصل في اتفاقيتـه مع وايزمن افقدها قيمتها ، أما هذه الرسالة فقد اعتبروها وثيقة مهمة في أيديهـم يستندون عليها في نزاعهم مع العرب • يقول وايزمن في مذكراته : « ان هذه الرسالة الرائعة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل النقاد الذين يتهموننا بأننا بدأنا عملنا الصهيوني في فلسطين من غير اهتمام برغبات العالم العربي أو رفاهه • يجب ان لايغرب عن البال ان الآراء التى تضمنتها هذه الرسالة هي من قائد العرب المعترف به ، وحامل آمالهم ، وانها كانت نتيجة مداولات عديدة ••• »[٥٨] •

في عام ١٩٢٩ عندما جاءت لجنة شو البريطانية الى فلسطين أبـرز الصهاينة هذه الرسالة للجنة مستندين عليها • وقد اضطر عوني عبدالهادي الذي كان يومذاك في فلسطين أن يبرق الى فيصل في بغداد يسأله مستوضحاً عنها • فأجابه رئيس الديوان الملكي رستم حيدر قائلا : « ان جلالته لايذكر أنه كتب شيئاً مثل هذا بعلم منه »[٥٩] • ويعلق عوني عبدالهادي على ذلك قائلا : « أستطيع ان أؤكد أن فيصل لم يكتب مطلقا تلك الرسالة • فاذا كانت

(57) Weizmann (op. cit.) – P. 245 – 246.

(58) Ibid., P. 246.

(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٤٥ •

تلك الرسالة حقيقية فلماذا عجز الصهاينة عن ابراز نسختها الاصلية التى تحمل توقيع فيصل ؟ ان كل ما أبرزوه منها نسخة ثانية مطبوعة بالآلةالطابعة مع كلمة « فيصل » في زاوية منها • ولما نظرت اليها تبينت حالا انها مزورة•• ومن المحتمل ان لورنس هو الذى اوسل الرسالة بدون علم من فيصل »(٦٠) •

عودة فيصل :

عندما قرر الاربعة الكبار في ٢٥ آذار ١٩١٩ ارسال لجنة للتحقيق الى سوريا قرر فيصل العودة الى سوريا لكي يعمل على تهيئة الرأي العام فيها لاستقبال اللجنة • فأناب عنه في مؤتمر الصلح عوني عبدالهادي ورستم حيدر ، وغادر باريس متوجهاً الى سوريا •

وصل فيصل الى بيروت في ٣٠ نيسان ، فجرى له فيها استقبال عظيم اشتركت فيه وفود من مختلف المناطق السورية وقد غادر فيصل بيروت ترافقه تلك الوفود متجهاً نحو دمشق ، فوصلها في ٣ أيار ، وكان استقباله فيها منقطع النظير حيث نصبت له أقواس النصر وركب هو عربة تجرها ثمانية جياد على طريقة ملوك بريطانيا •

كان فيصل عند وصوله منتشياً متفائلا يظن أن الدنيا اصبحت في قبضة يده ، وكان قد وضع كل أمله في لجنة التحقيق القادمة ، وكان واثقا أن اللجنة ستتعرف الى رغبة السكان في الاستقلال ولا بد ان تستجيب الدول لتلك الرغبة وينتهي الامر حسب المرام ! •

وبعد يومين من وصوله الى دمشق استدعى الوفود التى جاءت معه من بيروت الى اجتماع عام يعقد مساءاً فى بهو دار الحكومة • وحين التأم جمعهم ألقى فيصل خطابا طويلا استعرض فيه الثورة التي قام بها أبوه في

---

(60) Mousa (op. cit.) – P. 230.

الحجاز ، ومساعيه هو في اوربا ومؤتمر الصلح ، والصعوبات التى واجهها هناك ومبلغ نجاحه في تذليلها • والملاحظ ان فيصل أخذ في خطابه يضرب على وتر جديد لم يكن معروفاً من قبل ، حيث تحول عن المطالبة بالوحدة العربية التي تشمل الاقطار العربية كلها الى المطالبة باستقلال كل قطر عربي على حدة ، وعلل ذلك بأن الاقطار العربية يختلف بعضها عن بعض من حيث مستوى التعليم والثقافة ، ولهذا فان الظروف الحالية ليست كافية لتجعل العرب أمة واحدة • ثم ختم فيصل خطابه بقوله : « فالموقف اليوم هو بيدكم • ان التسويات الخارجية قد تمت بفضل الباري سبحانه وتعالى وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام التي لايمكنني أن أفرق بين الواحدة والاخرى في حسن النية وهم قد قبلوا مانشرت بين أيديهم من أقوال » •

كان فيصل يقصد من كلامه هذا اعلان استقلال سوريا عن الحجاز فلا تبقى تابعة له • والتفت نحو الحاضرين يسألهم : هل هم يوافقونه في هذا الاتجاه ؟ وهل هم يعتمدون عليه ؟ وهل يستطيع أن يواصل السير على ذلك برضاهم ؟ فكان جوابهم : نعم ، نعم ، نعم ، كل الرضا وفوق الرضا • ثم صاروا يهتفون له ويصفقون مرة بعد مرة •

وفي الختام طلب فيصل من الحاضرين أن يبدي كل واحد منهم رأيه بكل حرية وصراحة • فقاموا واحداً بعد الآخر يتكلمون على النحو التالي :

سعد الدين الخليل : « ان حوران تقدم لسموه ما يطلب » •

أحد اعضاء الوفد الفلسطيني : « ان دماء الفلسطينيين وأموالهم للامير ! •» •

أحد اعضاء الوفد العامري : « اننا قد لبسنا للحرب عدتها ، نحن وجميع العرب • من لم يقتل فليمت ! » •

نوري الشعلان : « حنا كلنا عرب الرولة أطوع لك من يمينك ، ومن لا يكون مثلنا ليس من دين الاسلام ! » .

نسيب الاطرش : « نحن جميع عشائر سوريا العربان والدروز نضحي حياتنا تجاه خدمتك وخدمة الامة العربية ، والحائد عن ذلك يكون خائن الناموس والشرف والعرب ! » .

عبدالحسين صادق : « انني باسم جبل عامل أبايعك على الموت ! » .

محمد فوزي العظم ومحمد عابدين وأسعد الصاجب : « نحن رهينو أمرك نفديك ونعتمدك ! » .

بطريرك الروم الكاثوليك : « كما تأمرون سموكم فآمروا بما تشاؤون ! » .

بطريرك الروم الارثودكس : « بيننا وبين سموكم اتفاق في هذه القاعة على شرائط معدودة لاتبرح من ذاكرتكم الشفافة ، فنحن عليه راسخون ! » .

مطران السريان الكاثوليك : « اني اعتمد نفس الاعتماد الذي اعتمده بطريرك الروم الارثودكس ! » .

مطران السريان القديم : « أقول بلسان أمة السريان في سوريا انهم طوع أمرك ، نبايعك بقلوبنا ونعتمد عليك ! » .

رئيس حاخامي اليهود : « ان اموالنا ونفوسنا بين يديك يا سمو الامير ! » .

سعيد سليمان : « عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك ، مئات وألوف رهن اشارتك ! » .

عمر الاتاسي : « قدمت من حمص وما ودعت الحمصيين الا بعد أن اعتمدوني وهم يسلمونك دماءهم وأرواحهم ! » .

ابراهيم الخطيب : « فوضناك ان تكون سلطاناً ، جبل لبنان جزء متمم لسوريا لاينفك عنها ! »•

مطران الارمن (باللغة التركية) : « أشـكر مالقبه مهاجرو الارمن من عطف العرب وانسانيتهم خلال سني الحرب الاربع • ان تاريخنا سيكتب اسم العرب بمداد من ذهب ، فانا أبارك لكم وأشكركم ! » •

وبعد ما اسهوا من كلماتهم استأنف فيصل الخطاب ، فأقسم بشرف آبائه وأجداده أن ينظر الى السوريين نظرة واحدة بلا تفريق حسب أديانهم او انتسابهم العائلي والطبقي ، فالكفاءة الشخصية هي الاساس ، والرجل قد يكون من عائلة رفيعة الشأن ولكنه غير قادر على ادارة وظيفة، فليعلم كل انسان اني لاأتحزب لشخص لانه من أسرة ذات شأن وقوة بل أنظر الى اقتداره الشخصي•••(٦١) •

المؤتمر السوري :

أهم ماكان يشغل بال فيصل آنذاك هو كيف يمكن تعبئة الرأي العام السوري لمواجهة لجنة التحقيق بالرأي المطلوب • وبعد المداولة مع مستشاريه استقر رأيه على انتخاب مجلس نيابي لكي يضع اللجنة أمام الامر الواقع باعتبار ان هذا المجلس يمثل الشعب السوري حسب الطريقة الديمقراطية المتعارف عليها في البلاد المتمدنة •

كان الظن السائد ان اللجنة سوف تصل قريباً ، ولهذا أوعز فيصل باجراء الانتخابات على عجل • وقد جرت الانتخابات في سوريا وفقاً لقانون الانتخاب العثماني ، أما في لبنان وفلسطين فقد جرى الانتخاب على طريقة المضابط •

وبينما كان فيصل مشغولا بالانتخابات وصلته من رستم حيدر من

---

(٦١) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج ، ص ٢٥ ــ ٣٤ •

باريس برقية مفادها : ان فرنسا عارضت الاشتراك في اللجنة وان بريطانيا تابعتها على ذلك ولكن الرئيس ويلسون أصر على ارسال اللجنة على ان تكون أمريكية بحتة ، وسوف تصل اللجنة الى سوريا قريباً •

أصيب فيصل بخيبة أمل من هذا الخبر ولكنه مع ذلك ظل يعمل مع اعوانه لتحضير الرأي العام لمواجهة اللجنة الاميريكية عند وصولها ، وأخذ الدعاة ينتشرون في مختلف انحاء البلاد يوصون الناس بأن يكونوا على رأي موحد أمام اللجنة حيث يطالبون بوحدة سوريا الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين ، وباستقلالها ، على أن تكون تحت انتداب امريكا ، او انتداب بريطانيا في حالة امتناع امريكا عن قبول الانتداب ، أما فرنسا فلا يمكن قبول انتدابها أبداً •

وبعد أن تمت الانتخابات جرى افتتاح المجلس في ٣ حزيران باسم « المؤتمر السوري » ، وحضره مائة واربعة اعضاء ، بينما تغيب ستة عشر عضواً وهم من نواب لبنان اذ منعتهم السلطة الفرنسية من الحضور • وقد انتخب هاشم الاتاسي بالاجماع رئيساً للمؤتمر •

ومما يلفت النظر ان جدالا عنيفاً وقع في الجلسة الثانية من المؤتمر ، وذلك عندما تُليت العريضة التى قدمت لشكر الامير فيصل على جهوده في خدمة سوريا ، فقد لاحظ رجال الدين المسلمون ان العريضة خالية من البسملة ، واعترضوا على ذلك • فرد عليهم بعض النواب من الشبان ، اذ كان رأيهم ان الامة تتطلع الى فجر جديد وحكومة تتفق مع روح العصر ، ولهذا يجب ان تبقى الاديان على حرمتها وقداستها بعيدة عن السياسة كما هو الحال في أوربا وأمريكا • فثار رجال الدين على هذا الرأي ، واحتدم الجدال بين الفريقين حتى كاد يصل الى درجة الانقسام والتشاحن• وعند هذا قام النائب المسيحي يوسف الحكيم فاقترح حلا وسطاً للتوفيق بين الفريقين هو أن تُكتب في اعلى العريضة كلمتان فقط هما : « باسم

الله ، فصفق النواب جميعاً لهذا الرأي ووافقوا عليه(٦٢) .

حرب دعائية :

في ١٠ حزيران وصلت لجنة التحقيق الامريكية الى يافا وهي برئاسة المستر تشارلس كراين ومعه الدكتور هنري كنغ . واخذت تتنقل في أنحاء البلاد حيث قضت اثنين وأربعين يوماً زارت خلالها ٣٦ مدينة واستقبلت ١٥٢٠ وفداً وتلقت ١٨٦٣ عريضة .

وجدت اللجنة في جميع المناطق ـ باستثناء لبنان ـ ان اكثر الناس متفقون على الرأي الذى يريده فيصل ، اى المطالبة باستقلال البلاد السورية كلها مع انتداب امريكا او بريطانيا عليها . أما في لبنان ، ولا سيما في الاوساط المارونية ، فكان الامر على النقيض من ذلك حيث كان الناس يطالبون بالانتداب الفرنسي .

كان في لبنان عاملان لهما أثرهما في توجيه الناس نحو المطالبة بالانتداب الفرنسي ، هما جهود القساوسة المارونيين من جهة والاموال الفرنسية من الجهة الاخرى .

كان القساوسة المارونيون ينظرون الى القضية كأنها قضية دينية مذهبية ، فقد اعتبروا اللجنة الامريكية ذات ميول بروتستانية وطلبوا من أتباعهم أن يقاوموها ويتضافروا عليها(٦٣) . أما الاموال الفرنسية فهي بطبيعتها أقوى أثراً من الدعاية الدينية وقد أثارت في الناس موجة من التظاهرات المؤيدة لفرنسا بشكل أذهل اللجنة الامريكية .

كان الصحافي اللبناني اسكندر الرياشي من جملة الذين كلفهم الفرنسيون بتوزيع الاموال في تلك الايام ، وهو يصف ذلك في كتابين من

---

(٦٢) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ٩٥ ـ ٩٦ .
(٦٣) أمين الريحاني (فيصل الاول) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ص ٤٨ .

كتبه وصفاً طريفاً . فهو يقول : ان الفرنسيين استخدموا في دعايتهم جميع الوسائل التي وقعت في أيديهم وجميع الرجال الذين استطاعوا استخدامهم ، وقد داخ المستر كراين رئيس اللجنة منذ الساعة الاولى اذ احتشد حول مكتبه الالوف وهم يهزجون بالاغنية الجديدة التي ملأت قرى لبنان يومذاك وهي : « فرنسا أم الدنيا عموم – اعتزوا يالبنانية » . وكان القبضايات – أي اشقياء بيروت –من بين الذين استخدمهم الفرنسيون لهذا الغرض ، فقد أخذوا يطوفون على الناس بعرائض يطالبون بها بالانتداب الفرنسي ، وجعلوهم يوقعونها قسراً . وقد تسلم أحد الاشقياء عرائض بهذا المعنى ، ثم أعادها بعد ثلاثة أيام وهي تحمل عشرة آلاف توقيع ، وكان جزاؤه ليرة ذهب عن كل توقيع(٦٤) . وكان بعضهم يصنع آلاف الاختام ليملأ بها العرائض(٦٥) .

كان المستر كراين قد علم سابقاً بأن المسلمين والدروز لايريدون فرنسا ، ولكنه فوجىء بأكداس العرائض تطالب بانتداب فرنسا وهي مملوءة بأسماء محمد ومحمود وعلي وحسين . وشهدت بيروت بالاضافة الى ذلك فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة ، ويحملون السيوف المعكوفة وقد كحلوا أعينهم بدائرة وسيعة من كحل الصحراء ، وهم يأتون يومياً بمواكب وهاجة هازجة مهللة . وقد بلغت مصاريف هذه المواكب ما يزيد على المليون ونصف المليون ليرة ذهب ، اذ ان كل فارس درزي لابد أن يحصل على تعويض عن ثمن مجيئه الى بيروت من الشوف او من جبل الدروز ، ورب فارس يأتي عدة مرات بعد أن يبدل ملابسه واسمه ، وفي كل مرة يحصل على حق تعبه(٦٦) .

---

(٦٤) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) – بيروت ١٩٥٣ – ص ٣٠ .
(٦٥) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) – ص ٢٢٦ .
(٦٦) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) – ص ٣٥ .

أصبحت البلاد السورية كأنها في معمعة حرب دعائية وصراع شديد بين دمشق وبيروت ، احداهما تدعو الى الانتداب الفرنسي والاخرى تدعو الى الانتداب الامريكي او البريطاني • وصار كل من يدعو الى الانتداب الفرنسي في سوريا يُعد خائنا للوطن • أما في لبنان فكانت وصمة الخيانة من نصيب من يدعو الى الانتداب الامريكي او البريطاني •

يقول يوسف الحكيم في مذكراته : ان سوريا كانت تضم فئة صغيرة من الناس تدعو الى الانتداب الفرنسي غير أنها لم تكن تجرأ على الاعلان عن صوتها مخافة احتقار الجماهير لها ، فكانت ساكتة على مضض ولاتتكلم الا همسا مع من تثق به • ويروي الحكيم قصة زعيم دمشقي عرض عليه صديق له أن يأخذ من الفرنسيين ألف ليرة ذهب لكي يدعو الى الانتداب الفرنسي ، فرفض الزعيم ذلك رفضاً باتاً ، فوجه الصديق اليه سؤالا : « هل ترى الانتداب البريطاني أفضل من الانتداب الفرنسي ؟! » • فكان جواب الزعيم : انه لايفضل أحدهما على الآخر ولكنه لايرى من الحكمة أن تقوم الاقلية الصغيرة بمقاومة الاكثرية في فكرتها[٦٧] •

عادت اللجنة الامريكية الى باريس بعـــد انجاز عملها ، وقدمت تقريرها الى الوفد الامريكي في مؤتمر الصلح • وقد تضمن التقرير تحبيذ نظام الانتداب لمدة محدودة على سوريا والعراق ، على ان تكون الولايات المتحدة الامريكية منتدبة على سوريا ، وتكون بريطانيا منتدبة على العراق ، واذا رفضت الولايات المتحدة قبول الانتداب على سوريا فانــــه يُمنح لبريطانيا • أما اذا أصرت فرنسا على التشبث بمصالحها في سوريا فيمكن منحها الوصاية على لبنان الصغير فقط • وقد تضمن التقرير كذلك تحديد الهجرة اليهودية ونبذ فكرة جعل فلسطين دولة يهودية[٦٨] •

---

(٦٧) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ٨٨ •
(٦٨) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٤٩٣ ــ ٤٩٤ •

لم يجد التقرير من يهتم به في مؤتمر الصلح ، فقد تكاتفت فرنسا وبريطانيا على قتله في مهده • وشاء القدرأن يبتلى الرئيس ويلسون بمرض خطر في تلك الآونة • ولهذا أُلقي التقرير في زوايا الاهمال • ولم يُنشر الا في الشهر الاخير من ١٩٢٢ ، وذلك بعد فوات الاوان ! •

يمكن القول على أي حال ان الاستفتاء الذى أجرته اللجنة في سوريا قد أغضب فرنسا دون أن ينتفع منه العرب ، فقد أخذت الصحف الفرنسية تهاجم بريطانيا مهاجمة شديدة وتتهمها بأنها هي التي حرضت السوريين على معاداة فرنسا بغية التملص من الالتزامات التى تفرضها اتفاقية سايكس بيكو، او المساومة على تعديلها • ولم تسكت الصحف البريطانية عن هذا الاتهام فأخذت تكيل للصحف الفرنسية بصاعها(٦٩) •

اتفاق فرنسا وبريطانيا :

كان المقرر حسب اتفاقية سايكس بيكو أن تكون سوريا كلها تحت اشراف فرنسا علاوة على منطقة الموصل الغنية بالنفط • والظاهر ان بريطانيا ندمت على تنازلها لفرنسا عن منطقة الموصل ، فأُخذت تسعى لاستعادتها من فرنسا وضمها الى العراق •

يقول لويد جورج في مذكراته : « عندما جاء كلمنصو الى لندن بعد الحرب رافقته الى السفارة الفرنسية • ولما وصلنا السفارة سألني ماذا أريد الحصول عليه بوجه خاص من فرنسا ؟ فأجبته حالا انني أريد ضم الموصل الى العراق وان تكون فلسطين من دان حتى بئر سبع تحت السيطرة البريطانية • فوافق كلمنصو على ذلك بلا تردد »(٧٠) •

من الطبيعي ان تكون موافقة كلمنصو على التنازل عن منطقة الموصل

---

(٦٩) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٤١١ •
(70) Lloyd George (op. cit.) — vol. 2, 1038.

لقاء عوض ، وكان هذا العوض ان تكون سوريا كلها تحت الانتـــــداب الفرنسي[٧١] • وقد تم الاتفاق النهائي بين بريطانيا وفرنسا على ذلك في ١٥ ايلول ١٩١٩ حيث تقرر سحب الحاميات الانكليزية من سوريا وكليكيا، وأن تكون سوريا مع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وذلك لقاء أن تكون فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني • ويقال ان الاتفاق تضمن كذلك أن تتخلى بريطانيا عن فيصل وان تطلق يد فرنسا في معالجته كمـــــا تشاء[٧٢] •

كان لويد جورج قد ارسل قبل توقيعه الاتفاق برقية الى فيصل يطلب منه المجيء سريعاً • فبادر فيصل الى مغادرة دمشق بعد ست ساعات من وصول البرقية اليه ، حيث سافر بالقطار الى حيفا ومنها ركب مدمـــــرة بريطانية أوصلته الى مرسيليا في١٧ ايلول، وهناك قرأ في الصحف تفاصيل الاتفاق الذى تم بين لويد جورج وكلمنصو ، فسيطر عليه الغم[٧٣] •

وصل فيصل الى لندن في مساء ١٨ ايلول ، فذهب لمقابلة لويد جورج بصحبة اللنبي ، وقد جامله لويد جورج وعمل على تطييب خاطره ولكنه أفهمه بصراحة ان عليه أن يتفق مع فرنسا[٧٤] ، وقال له : « لايمكننا أن نتخلى عن حليفتنا بعد أن وعدت بالمحافظة على استقلال سوريا ، فعليكم أن تتفاهموا مع مسيو كليمنصو »[٧٥] • ووعده لويد جورج أن يسعـــى لتأييد وجهة نظره لدى كلمنصو •

شعر فيصل كأن الانكليز الذين كانوا حلفاءه بالامس قد باعوه الى خصومه الفرنسيين ، فاعترض واحتج بلا جدوى • وكان قبل هذا قد وضع

---

(71) Mousa (op. cit.) — P. 220.

(٧٢) أمين سعيد (الوطن العربي) ــ القاهرة ــ ص ٣٠ •
(٧٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٠٦ •
(٧٤) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ١٣٨ •
(٧٥) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ١١٣ •

أمله في امريكا فخاب أمله فيها كذلك . وقد أدرك انه امام طريقين لاثالث لهما : اما التفاهم مع فرنسا او اعلان القطيعه مع بريطانيا وفرنسا معا . وقرر أخيراً أن يذهب الى فرنسا ويحاول الوصول الى اتفاق معها بالتي هـــي أحسن وأمره الى الله .

مشروع معاهدة :

وصل فيصل الى باريس في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٩ ، ومكث فيها مدة تزيد على الشهرين قضاها في المفاوضات مع المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية تحت اشراف كلمنصو . وكان يساعد فيصل في المفاوضات رستم حيدر وعوني عبدالهادي . وكانت المفاوضات صعبة اعتورتها العراقيل بين الحين والآخر .

تم الاتفاق أخيراً بين الفريقين على مسودة معاهدة قال عنها عونـــي عبدالهادي أنها كانت أحسن ما يمكن الوصول اليه في تلك الظروف باعتبار ان السياسي الماهر يجب أن يفرق بين الممكن وغير الممكن(٧٦) . ومـــن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن كلمنصو كان يختلف عن الســـاسة التقليديين في معالجته للقضايا الاستعمارية اذ كان مرنا متساهلا ، وكـان هؤلاء الساسة يتهمونه بالتقدمية ويخشون منه . يقول الباحث السويدي لونروث : ان الاوساط المالية والعسكرية في فرنسا كانت تتهم كلمنصـــو بانه متساهل اكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا(٧٧) . ويروي ابراهيم نجار الذي كان من حاشية فيصل حينذاك : ان كلمنصو قال لفيصل وهو يشير الى شعر رأسه : « ان هذا الشعر الذى تراه في رأسي قد ابيض من معاناة السياسة في هذه البلاد . أنا غير استعماري ولا أعتقد بالاستعمار . وأنــا

---

(٧٦) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ــ ص ١٦٠ .

(77) Lonnroth (Lawrence of Arabia) — Trans by Lewis — P. 77.

أعرض عليك معاهدة لاتجد سياسياً فرنسياً غيري يجرأ على عرضها عليك وتوقيعها • ففكر ملياً واعطني جوابك »(٧٨) •

نصت المعاهدة على أن تحترم فرنسا من جانبها استقلال الدولـــــة العربية في دمشق ، وان على هذه الدولة أن تحترم احتلال فرنسا للبنان والساحل حتى الاسكندرونة ، وان تستمد كل معونة تحتاجها من فرنسا • وقد أشارت المعاهدة الى أن هذه تدابير موقتة ريثما تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح •

كان فيصل في قرارة نفسه يميل الى تصديق المعاهـــدة ، كما أن مستشاريه وافقوا عليها ما عدا الدكتور أحمد قدري • وقد كتب فيصل الى أبيه الحسين رسالة أشار فيها الى موقفه الحرج واضطراره الى الاتفاق مع فرنسا ، حيث قال في رسالته : قد توافرت القناعة عندي بأن بريطانيـــا استخدمتنا لمصالحها وتركتنا ، وان أمريكا تخلت عنا بعد أن أضرت بنـــا وكانت السبب في وقوعنا في هذا المأزق الحـــرج ، وان من الصعب على السوريين ان ينتصروا على الفرنسيين لعدم وجود الوسائط والآلات الحربية وعدم وجود التربية الملية التي تدفع الامة ، ولهذا فقد رأيت لدى وصولي الى باريس أن أتوصل الى نوع من التفاهم مع الفرنسيين أخرج بـه عن المجرى القديم القائم على التزام جانب الانكليز التزاماً تاماً(٧٩) •

كان الحسين في تلك الآونة غاضباً على ابنه فيصل لاعلانه استقلال سوريا عن الحجاز ، ولمـــا وصلته رسالة فيصل لم يوافق على ما ورد فيها، وأرسل طبيبه الخاص الدكتور ثابت نعمان الى باريس وهو يحمل رسـالة الى فيصل يأمره فيها بعدم التوقيع على أية معاهدة مخالفة للوعود البريطانية السابقة له • وقد وصل الدكتور ثابت الى باريس قبل توقيع المعاهدة • ولهذا

---

(٧٨) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص ٦٨ •
(٧٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ •

اضطر فيصل الى الاعتذار عن توقيع المعاهدة ووعد كلمنصو بأنه سيعرض مشروع المعاهدة على السوريين ويحثهم على قبولها(٨٠) •

غادر فيصل فرنسا الى سوريا ، وتشير القرائن الى أنه كان ينوي أن يقنع السوريين بقبول المعاهدة وبذلك يضع أباه أمام الامر الواقع بحجة أن أهل البلاد هم الذين وافقوا على المعاهدة وأنه لاشأن له في الامر •

الحماس في سوريا :

ان الفترة التي غاب فيها فيصل عن سوريا ـ وهي التى دامت زهاء أربعة اشهر ـ تميزت بظهور الحماس الشعبي واستفحاله • فقد كان الامير زيد ينوب عن أخيه فيصل في الحكم ، وكان شاباً قليل الخبرة ، فاندفع مع الحماس الشعبي وصار يؤيده علناً أحياناً ، وسراً أحيانا اخرى •

بدأ الحماس الشعبي منذ غادر فيصل دمشق الى أوربا في ١٢ ايلول• ويقال انه هو الذي بذر بذرته الاولى لانه اجتمع قبيل سفره ببعض الزعماء وقال لهم : انه ينتظر منهم أن يقوموا بحركة شعبية لتحويل الامة الى أمة مسلحة وتحويل الوطن الى ثكنة عسكرية(٨١) • ولعل فيصل أراد بذلك تدعيم موقفه في المفاوضات المقبلة مع ساسة بريطانيا وفرنسا ، ولم يدر ان الحماس الشعبي اذا انطلق هادراً فلن يستطيع أحد ايقافه عند حد معين •

حين وصلت الاخبار الى دمشق عن الاتفاق الذى حصل بين فيصل وكلمنصو هاج الناس وأخذوا يعلنون تذمرهم من بريطانيا ويقولون عنها أنها باعت سوريا للفرنسيين لقاءنفط الموصل• ولما بدأت القوات البريطانية تنسحب من سوريا وفقاً للاتفاق ازداد هياج الناس وقرروا تأسيس جيش سوري لسد الفراغ الذى تركه انسحاب القوات البريطانية • فاتصل سكان محلات

---

(٨٠) المصدر السابق ـ ص ٥٣٤ •

(٨١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٤٤ •

دمشق بعضهم ببعض واتفقوا على انتداب أربعة رجال من كل محلة ليجتمعوا ويقرروا ما يرونه لازما للدفاع عن الوطن • وأخذ المندوبون يجتمعون كل مساء في محلة من المحلات ، حيث أصبح اجتماعهم كأنه برلمان شعبي محلي تُلقى فيه الخطب والقصائد الحماسية(٨٢) •

وفي ١٠ تشرين الثاني خرجت في دمشق مظاهرة كبرى وتوجهت الى دار الحكومة وقدمت الى الامير زيد برقية احتجاج على فكرة تجزئة البلاد لارسالها الى فيصل بباريس • وفي اليوم التالي تلقى زيد من فيصل برقية يقول فيها : « لاتزال المخابرات جارية مع الحلفاء ، أوصوا الشعب بالتروي والتعقل مع المحافظة على الامن والسكينة بانتظار جوابي »(٨٣) • فلم تؤثر هذه البرقية في الشعب شيئاً ، ولعله ازداد بها حماساً وهياجاً •

ظهرت في تلك الآونة مواهب زعيم شعبي قادر على اثارة الجماهير بخطبه الحماسية هو الشيخ كامل القصاب ، وكان معمماً من رجال الدين • وفي ٢٧ تشرين الثاني انعقد اجتماع كبير في دار آل البارودي في حي القنوات حضره مشائخ الدروز ، وقام الشيخ كامل فخطب بأسلوبه المثير مشيدا بالغيرة الوطنية التي تجلت في الامة العربية والضحايا التي قدمتها في سبيل حريتها واستقلالها ، وندد بما شاع عن رغبة الامير فيصل في التفاهم مع الفرنسيين « أعداء الامس واليوم والغد » • وفي نهاية خطابه طلب تشكيل لجنة باسم « اللجنة الوطنية العليا » لاعداد المقاومة ضد الفرنسيين وتنظيم المتطوعين للتجنيد وجمع التبرعات للمجهود الحربي • فصفق الحاضرون له طويلا وأجابوه على طلبه لتشكيل اللجنة وانتخبوه رئيسا لها بالاجماع(٨٤) •

---

(٨٢) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٢ ص ١٠٢ •
(٨٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١١٦ •
(٨٤) المصدر السابق ـ ص ١٢٢ •

قررت اللجنة الوطنية العليا تأليف لجان فرعية لجمع المال اللازم للحركة الوطنية بنسبة اثنين في المائة من ثروة كل فرد من أفراد الامة ، ومن شاء أن يزيد فله الفضل • كما قررت اللجنة تأليف كتيبة من المتطوعين يبلغ تعدادها ألف رجل وتتولى هي تجهيزها وارسالها الى ميدان القتال • وفي ١٠ كانون الاول أعلن الشيخ كامل القصاب في اجتماع للجنة : أنه قابل رجال الحكومة ووجدهم على وفاق مع الشعب فما يريده يريدونه ، ثم قال : ان الامة قررت الدفاع وان رجالا من محلة الميدان قد تطوعوا فعلا وسينصبون خيامهم غداً في المزة[٨٥] •

وفي ٢١ منه أقر الامير زيد مشروع قانون للتجنيد الاجباري يقضي بتجنيد من أكمل العشرين الى الاربعين ، وجعل مدة الخدمة ستة أشهر والبدل النقدي ثلاثين جنيهاً مع استثناء وحيد والديه •

وفي تلك الآونة ظهرت عصابات لمحاربة الفرنسيين في جبال العلويين، وفي تل كلخ قرب حماة ، وفي البقاع وجبل عامل ومرتفعات الجولان ، وكانت حكومة دمشق تشجع تلك العصابات سراً وتمدها بالمال والسلاح •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان القوات الفرنسية كانت حينذاك مشغولة بمحاربة القوات التركية في منطقة كليكيا • وكان السوريون يشعرون بالتعاطف مع الاتراك نكاية بالفرنسيين ، وأخذت مناشير الدعاية التركية تنتشر في حلب بتشجيع من بعض الضباط السوريين والعراقيين ، وكانت تلك المناشير مذيلة بتوقيع مصطفى كمال باشا • ننقل فيما يلي فقرة من احداها وهي موجهة الى الشعب السوري :

« بصفتي مسلما أتوسل اليكم الا تكترثوا بما بيننا من خلاف أدى بنا الى القطيعة • ينبغي لنا أن نزيل كل سوء تفاهم وقع بيننا ولنوجه جميعنا

---

(٨٥) أمين سعيد (المصدر السابق) — ج٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ •

سلاحنا ضد الاحزاب الخائنة التي ترغب في تجزئة بلادنا...ان المجاهدين الذين يؤمنون بالحق سيقومون قريباً بزيارة اخوانهم العرب ، وسوف يمزقون شمل الاعداء ، فلنعش اخوة في الدين ، والموت لاعدائنا »(٨٦) .

الجنرال غورو :

عينت فرنسا الجنرال غورو مفوضا سامياً لها في بيروت ، وكان هذا الجنرال من قواد حملة الدردنيل وكانت له شهرة فيها وقد فقد فيها أحد ذراعيه. والظاهر ان فرنسا قصدت من تعيين هذا الرجل أن تحسم قضية سوريا التي أقلقتها طويلا عن طريق الحل العسكري .

وصل غورو الى بيروت في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٩ ، فجرى له فيها استقبال فخم الى أبعد الحدود . والمعروف عنه أنه كان رجلا فخوراً يحب الزهو ، ولهذا احاط نفسه منذ قدومه بمظاهر الفخفخة . يقول عنه بشارة الخوري في مذكراته : « أراد هذا الجنرال أن يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه ، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرساً وطنياً لمواكبته على الخيول العربية في تنقله في أسواق المدينة ، وقد فرض أن يكون جميع أفراد الحرس من جبل الدروز . وقد ظنهم كذلك ، ولكن بعض الفرسان جيء بهم من قرى لبنان وكحلت عيونهم ليوهموا السلطة أنهم من جبل الدروز ، وأخذ أحد السياسيين جعالة على تطوعهم لابأس بقيمتها ، وهكذا كلّف ذلك الحرس مالا وفيراً »(٨٧) .

أهم مشكلة واجهها غورو عقب وصوله الى بيروت هي أشتداد الحرب بين القوات التركية والفرنسية في منطقة كليكيا ، فعندما انسحبت القوات البريطانية من تلك المنطقة انفردت القوات الفرنسية وحدها بمواجهة

---

(٨٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص ١٤٠ ، ٢٤٦ .
(٨٧) بشارة خليل الخوري (حقائق لبنانية) ـ بيروت ـ ص ٩٨ـ٩٩ .

القوات التركية ، وكان مصطفى كمال باشا قد أعد هناك جيشاً نظامياً كبيراً كما سلح عصابات من الفلاحين أخذت تقتحم القرى ، وقد نال الارمن القاطنين في تلك القرى من البلاء شيئاً كثيراً •

وجه غورو الى كليكيا فرقتين كبيرتين ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في تموين الفرقتين وامدادها ، ذلك لان حكومة دمشق منعته من استعمال القطار السوري لنقل المؤون ، فاضطر من جراء ذلك الى نقلها عن طريق البحر الى الاسكندرونة ، وهذا يتطلب مدة خمسة عشر يوما بينما كان طريق القطار يتطلب أربعة أيام فقط(٨٨)• ولاحاجة الى القول ان هذا العمل من حكومة دمشق جعل غورو يضمر الحقد الشديد عليها ويصمم على القضاء عليها •

خبر مثير :

كان فيصل قبل عودته الى سوريا قد اتفق مع كلمنصو على أن تبقى المعاهدة طي الكتمان لكي يتمكن عند وصوله الى دمشق من اقناع السوريين بها في جو هاديء خالي من الانفعالات • والغريب انه لم يكد يغادر مرسيليا في ٧ كانون الثاني ١٩٢٠ حتى نشرت جريدة « الطان » الفرنسية خبراً عن المعاهدة قالت فيه : « وافق الامير فيصل منسجماً مع فرنسا على انتدابها على سوريا كافة ، ولقاء ذلك فان فرنسا رضيت بقيام منطقة عربية تشمل المدن الاربع ، دمشق وحمص وحماة وحلب ، على ان تكون تحت حكمه بمساعدة المستشارين الفرنسيين والمفتشين ••• وكذلك فان الامير وافق على التعاون مع فرنسا دون غيرها في الشؤون الاقتصادية والمالية » • وقد بادرت وزارة الخارجية الفرنسية الى نفي

---

(٨٨) اندرياو (تاريخ الدروز وتمرد دمشق) ـ ترجمة حافظ أبو مصلح ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٢٩ •

الخبر غير أن الجريدة أكدت على صحته مع أضافة تفصيلات أخرى اليه في مقالات تالية(٨٩) •

هنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان نشر الخبر من قبيل السبق الصحفي الذي استطاع أحد محرري الجريدة أن يحصل عليه بجهوده أم أن نشره كان مدبراً من قبل بعض الساسة الفرنسيين لغرض معين قصدوا اليه ؟!

أرجح الظن ان نشر الخبر كان مدبراً ومتعمداً ، فان الاوساط المحافظة والساسة التقليديين ، من خصوم كلمنصو في فرنسا ، لم يهن عليهم عقد مثل تلك المعاهدة التي هي في نظرهم مضرة بمصالح فرنسا • انهم كانوا ـ كما رأينا آنفاً ـ يتهمون كلمنصو بأنه متساهل أكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا • وليس من المستبعد أنهم هم الذين تعمدوا نشر الخبر بتلك الصورة لكي يحرضوا السوريين على رفض المعاهدة • وهذا أمر كثيراً ما يقع في عالم السياسة ، وقد جرى مثل ذلك في العراق في عام ١٩٤٨ ـ كما سنأتي اليه في جزء قادم من هذا الكتاب ان شاء الله !

وعلى أي حال فقد كان لنشر خبر المعاهدة في جريدة « الطان » أثر بالغ في الرأي العام السوري • انه كان كالشرارة التي تلهب النار ، فانطلق الجمهور يلعن المعاهدة ويلعن كل من يؤيدها كائناً من كان •

عودة فيصل .

وصل فيصل الى بيروت في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٠ ، وكان قبل وصوله قد تلقى برقية من كلمنصو يخبره بأن حكومته قد صادقت على المعاهدة بشرط أن يتخذ الامير الوسائل الفعالة لاحلال السكينة في الشعب السوري ويكسب رضاهم بسياسته • وقد عرض فيصل هذه البرقية على

---

(٨٩) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ـ ١٦٠ ـ ١٦١ •

الجنرال غورو عند اجتماعه به في بيروت . وقيل ان غورو سأله : هل في مقدورك وقف القلاقل في سوريا ؟ فأجابه فيصل : ان من السهل عليه وقف القلاقل لانه هو نفسه كان يثيرها لخلق المشاكل أمام فرنسا(٩٠) .

غادر فيصل بيروت بعد يومين من وصوله اليها . وحين وصل دمشق كان استقبال الجماهير له فاتراً نسبياً(٩١) . وشعر فيصل ان الجو ملغوم ضده وضد المعاهدة ، واخذ يتحدث الى زواره شارحاً لهم الموقف واوصاهم بكتمانه عن العامة . وفي اليوم التالي من وصوله الى دمشق خرجت فيها مظاهرة كبرى ، وجاءت الى قصره وهي تهتف ، فأطل عليها من الشرفة يحييها . ووقف الشيخ كامل القصاب خطيباً في المتظاهرين وقال موجهاً كلامه الى فيصل : « اني واثق أنك لن ترضى ، وحاشاك ان ترضى ، أن تكون أميراً على بلاد يظللك فيها علم أجنبي(٩٢) » . فتكلم فيصل يشكر المتظاهرين على اخلاصهم وغيرتهم الوطنية وطمأنهم بأن قضية البلاد لم يبت في أمرها بعد ، ودعاهم الى الهدوء والاعتماد على حق الامة الصريح بعد الاتكال عليه سبحانه وتعالى(٩٣) .

وفي مساء ٢٢ كانون الثاني أقام النادي العربي حفلة كبيرة لتكريم الامير فيصل بمناسبة عودته من أوربا وحضر الحفلة كثير من الاعيان والمسؤولين وقادة الجماهير . وتوالى على منصة الخطابة عدد من الخطباء وكانوا كلهم يحاولون شجب المعاهدة عن طريق التلميح والكناية ، ويطالبون بالاستقلال التام الذى لاتشوبه حماية او وصاية وبوجوب الدفاع عن هذا الاستقلال بكل غالي ورخيص .

(٩٠) المصدر السابق — ص ١٦٢ .

(٩١) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ٤١٧ .

(٩٢) خيرية قاسمية (المصدر السابق) — ص ١٥٩ .

(٩٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) — ص ١٢٧ .

كان الطبيب عبدالرحمن الشهبندر من جملة الخطباء ومن أشدهم حماساً ، فقد انتقد الحكومة القائمة ووصف نفسه بأنه من الشعب وأنه بحكم مهنته يدخل بيوت الناس ويعرف أفكارهم[٩٤] . ثم أخرج سماعته الطبية وقال انها توصل الى سمعه يومياً دقات قلوب الشعب القلقة على مصيره شاكية ضعف النشاط السياسي[٩٥] .

وعند انتهاء الخطباء من خطبهم وقف فيصل وأخذ يتكلم كلاماً طويلا يدل على ما كان يشعر به من ألم عميق . فقد بدأ خطابه بشكر الشبيبة التي أقامت الحفلة ، وأشار الى انه في العام الماضي كان يلاحظ في النادي قطعة مكتوب عليها « ممنوع التكلم في السياسة » ولكنه الآن لايراها، وعلل ذلك بالاحوال السياسية الحاضرة التي قضت على النشأ الجديد أن يهملوا دروسهم وكتبهم ويهتموا بالسياسة حيث أعتقدوا أن الدفاع عن الوطن فوق كل شيء وان العلم يأتي في الدرجة الثانية . ثم قال : « ربما لاحظتم اني أتلعثم في القول ، فانا لست بخطيب ولم أعتد أن اقول كثيرا لانني ألفت الصمت ، ومن عرفني قديماً يعرف ذلك عني ، ولذلك أرغب ان تكون الامة صامتة مثلي .تعمل كثيراً وتقول قليلا ... لنا سنة ونصف ونحن نقول . كفانا خطباً ، كفانا أقوالا ، نحن في أيام العمل لافي أيام القول . ان الاقوال لاتأتي بفائدة ولكن الافعال تفيد كثيراً . اني غبت عن البلاد أربعة أشهر ولا أشك بأن التاريخ يحفظ ما فعلته بالغرب سواء أكان جيداً أو رديئاً ، قليلا او كثيراً ، ولا أنزه نفسي عن الخطيئات لاني كنت أقول ما يلهمني ضميري . ولما عدت الى هنا رأيت الامة بأشد الحماس ، ولكنه حماس لايتعدى القول ، وحبذا لو قرن هذا الحماس بالعمل ، أنا أدعو الامة الى ذلك اذ لاحياة لها الا اذا فعلت كما اقول » .

---

(٩٤) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ١٦٧ .
(٩٥) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ٨٣ .

ثم تطرق فيصل الى خطاب عبدالرحمن الشهبندر فدافع عن الحكومة وقال : انها قائمة برأي من اعتمدته الامة وهو أنا ، فالحكومة هي شخصي ، ولا أسمح لشخص أو جماعة ان يقول ان الحكومة هي كذا وكذا ، أو يطلب ابدال حاكم بحاكم ، لانني أنا المسؤول الى ان ينعقد مجلس الامة وعندئذ أتنصل عن المسؤولية • ثم أشار فيصل الى سماعة الشهبندر وكيف انه يعرف بها دقات قلوب الشعب ، وقال : ان أول عمل يجب أن يعمل له الدكتور الشهبندر هو ترقية الفن المختص به ، فاذا عمل كل فرد منا بما يجب عليه في مجال اختصاصه تنتظم حركة الامة بأجمعها ، « فالجندي يحارب ، والزعيم يقود الجنود ، والسياسي يدير الامور بما تستدعيه الظروف ، والطبيب يداوي المرضى ، فلا يتجاوز أحد حدود اختصاصه الى مهمة غيره ولا يتداخل فيما يخرج عن نطاق اختباراته وعما وقف نفسه عليه » • ثم عاد فيصل الى موضوعه الاساسي فقال : « أعود فأؤكد لكم يا اخواني بانني عامل على ما انتم تطالبون به وهو الاستقلال التام ••• ولكنني في الوقت نفسه أقول أن بينكم وبين الامم الغربية صلات تصلكم ولا تقدرون أن تستغنوا عنها ، لان وسائط النقل الحديثة جعلت أوربا في بطن سوريا ، واذا قلتم انكم تستغنون عنها عرفت انكم لاتريدون الحياة ••• نحن اليوم في موقف حرج يجب أن لانحتقر فيه الامم لاننا باحتقارنا لاحداها نكون قد احتقرنا أنفسنا • أمامنا دول كبار وأمم عظام • يجب علينا أن نحترم كل أمة وكل حكومة متى احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا »(٩٦) •

عند انتهاء فيصل من كلامه كان يظن ان الحاضرين اقتنعوا بصحة ما قال • وهذا وهم كثيراً ما يسيطر على الساسة الذين لايعرفون طبيعة البشر • ان الادلة التي أوردها فيصل في خطابه كانت قوية مقنعة في نظره،

(٩٦) انظر : المصدر السابق ــ ص ٨٧ • وكذلك : أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ١٦٧ ــ ١٦٨ •

وكان يحسب انها مادامت كذلك فلابد أن تكون قوية ومقنعة في نظـر الآخرين أيضا • لم يدر أن الحماس المسيطر على الرأي العام جعل الناس في عالم آخر غير العالم الذي هو فيه • انه كان ينظر الى الامور في ضوء المبدأ القائل « السياسة هي فن الممكن » ، بينما هم كانوا ينظرون اليها في ضوء « ارادة الشعب » و « الموت في سبيل الوطن » • وشتان ما بـين النظرتين !•

محاولة اخرى :

اراد فيصل أن يقوم بمحاولة أخرى لاقناع الشعب بقبول المعاهدة ، فطلب عقد اجتماع سري مع الهيئة الادارية لجمعية « العربية الفتاة » ، وهي الجمعية التى كان لها تأثير كبير في الرأي العام السوري حينذاك • وتم عقد الاجتماع في بيت الدكتور أحمد قدري في ٦ شباط ، وعـرض فيصل على الحاضرين مشروع المعاهدة التى اتفق عليها مع كلمنصو ، ودافع عنها وقال انها أقصى ما يمكن الحصول عليه ، ورجا منهم أن يكونوا واقعيين في معالجتهم لامور السياسة • غير انهم لم يستجيبوا لرجائـه ، ورفضوا المعاهدة وأصروا على الرفض • فقال لهم فيصل : ان رفـض المعاهدة معناه اعلان الحرب على فرنسا • فكان جوابهم : « اننا مستعدون لاعلان الحرب على فرنسا وانكلترا معاً »(٩٧) •

وفي اليوم التالي استدعى فيصل اليه اعضاء الهيئة الادارية واحداً بعد الآخر على انفراد بغية اقناعهم فلم ينجح فأشار عليه رضـا الركابي باقالة الهيئة وابدالها بهيئة أخرى ، فوافق فيصل على هذا الرأي • واجتمع خمسون من أعضاء الجمعية في بيت الركابي برئاسة الامير زيد • وافتتح الشيخ كامل القصاب الجلسة بخطبة من خطبه النارية حمل فيها على الهيئة

---

(٩٧) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج٢ ص ١٢٥ •

الادارية واتهمها بالتفريط في مصلحة البلاد وطالب باقالتها • ثم تعاقب الخطباء على مثل هذا القول • وقام أحد أعضاء الهيئة يقول : « اننا فعلنا ما استطعنا فعله فجربوا أنتم أنفسكم » • ثم جرى الانتخاب ففاز بها أعضاء جدد كان من بينهم الركابي[٩٨] •

ولم يكتف فيصل بهذا بل أخذ بشجع الناس على تأسيس حزب جديد للوقوف تجاه جمعية « العربية الفتاة » والحد من قوتها • وقد تأسس الحزب فعلا باسم « الحزب الوطني السوري » ، وانضم اليه الاعيان من أصحاب الوجاهات التقليدية ، وكتب بيان الحزب محمد كرد علي فنمقه تنميقاً[٩٩] •

لاحاجة بنا الى القول ان هذه المحاولة لابد أن تبوء بالفشل عاجلا او آجلا • فان أي حزب سياسي انما يكسب قوته من التفاف الجماهير حوله ، والجماهير بطبيعتها لاتحب الاعتدال لان الشيء في نظرها اما أسود أو أبيض ولا يمكن أن يكون هناك وسط بينهما • ومن يريد ان ينال المكانة لدى الجماهير يجب عليه أن يسير معهم ويتحمس بحماسهم ، والا فهم يحتقرونه ويعدونه خائناً للوطن •

أصبحت الجماهير في دمشق ترتاب في وطنية كل رجل يُشاع عنه أنه يؤيد المعاهدة ، ولهذا صار الناس يتهمون نوري السعيد بالخيانة ويهتفون ضده في الشوارع ، كما انتشر بين الناس منشور سري موجه ضد الركابي[١٠٠] •

أدرك فيصل أخيراً أن اقناع الجماهير بالموافقة على المعاهدة أمر في منتهى الصعوبة او هو يكاد يكون مستحيلا • وهو لذلك أصبح في حيرة

---

(٩٨) المصدر السابق — ج٢ ، ص ١٢٦ •
(٩٩) أحمد قدري (المصدر السابق) — ص ١٧٢—١٧٤ •
(١٠٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) — ص ١٦١ •

من أمره لايدري أينسجم مع الجماهير فيخسر السياسة ، أم ينسجم مع السياسة فيخسر الجماهير • ان الجماهير لايمكن أن تكون عاملا ايجابياً في السياسة الا اذا كانت لها قيادة حكيمة تعرف كيف توجهها • يقول أحد المفكرين السياسيين : « ان قادة الجماهير يجب أن يسيروا أمامها لا وراءها » ، ويقصد بذلك ان القادة يجب أن يكونوا هم الموجهين للجماهير لا ان تكون هي الموجهة لهم •

يبدو أن جماهير دمشق في ذلك الحين لم تتوفر لديها مثل هذه القيادة الحكيمة ، اذ كان قادتها من طراز كامل القصاب يسيرون وراء الجماهير ويهتفون بهتافها دون أن يكون لهم رأيهم المستقل الذي يستطيعون به توجيه الجماهير • ولهذا أصبح فيصل في وضع نفسي لايحسد عليه وكأنه بين حجري الرحى •

زار دمشق في تلك الفترة برسيفال فيلبس مراسل جريدة « الديلي اكسبريس » البريطانية ، وقابل فيصل ثم كتب الى جريدته يصف الحالة النفسية التي كان فيها فيصل حيث قال : « ترك الامير فيصل في نفسي عند مقابلتي الاخيرة له أنه رجل على حافة الانهيار التام من جراء اليأس الذي يشعر به ، وذلك لان كل شخص هنا يشك فيه • والفرنسيون لايثقون به •• وملك الحجاز أبوه لايثق به ظناً منه ان فيصل قد أسلم أمره وبلاده للتبعية عن طريق المعاهدة التي لاتعرف مكة عن أمرها شيئاً »(١٠١) •

تتويج فيصل :

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠ سقطت وزارة كلمنصو ، وحلت محلها وزارة جديدة برئاسة ميليران • والمعروف عن الرئيس الجديد أنه كان

(101) Daily Express - 24 Feb. 1920.

على النقيض من كلمنصو لايميل الى التساهل في القضية السورية ويبغي حلها عن طريق القوة العسكرية •

أعلن ميليران أمام البرلمان الفرنسي على أثر تسنمه الحكم ان احتلال سوريا يحتاج الى قوة عسكرية كبيرة ، وطالب البرلمان بالموافقة على تخصيص المبالغ اللازمة لذلك وقال : « لكي تجلب فرنسا لاهل سوريا تحت رايتها نعمة الحكم الجيد كما فعلت ذلك في المغرب »(١٠٢) •

ان هذا التبدل في السياسة الفرنسية جعل فيصل يشعر بضرورة مجاراة الحماس الشعبي• ولعله خشي أن يخسر المشيتين ، أي خشي أن يخسر الجماهير والسياسة معاً • ففي أوائل آذار ١٩٢٠ تم الاتفاق بينه وبين زعماء الاحزاب السورية على أن يضعوا فرنسا أمام الامر الواقع وذلك باعلان استقلال سوريا ومبايعة فيصل ملكاً عليها ، وتقرر ان يكون ذلك في ٨ منه •

ويقال ان مشكلة عائلية واجهت فيصل آنذاك اذ هو لايجوز له حسب تقاليد العائلة الهاشمية ان يتقدم على أخيه عبدالله الذى هو أكبر منه سناً • وبعد المداولة مع زعماء الاحزاب تم الوصول الى حل هو ان يعلن العراقيون الموجودون في سوريا استقلال العراق ومبايعة عبدالله ملكاً عليه في نفس اليوم الذى تم فيه بيعة فيصل(١٠٣) •

أُستدعي المؤتمر السوري على عجل ، كما استدعي العراقيون الموجودون في سوريا لانتخاب مؤتمر خاص بهم • وفى عصر ٦ آذار اجتمع المؤتمر السوري فقرر استقلال سوريا استقلالا تاماً بحدودها الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين وان يكون فيصل ملكاً عليها كلها • وفي

---

(١٠٢) مجلة (آفاق عربية) ـ في عددها الصادر في أيار ١٩٧٧ ـ ص١١٩
(١٠٣) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ١٨٩ •

الوقت نفسه اجتمع العراقيون في بيت نوري السعيد في حي الشهداء وانتخبوا من بينهم الاشخاص التالية اسماؤهم من أجل اعلان استقلال العراق ، وهم : جعفر العسكري ، سعيد الشيخلي ، علي جودت الايوبي ، عبدالله الدليمي ، جميل المدفعي ، تحسين علي ، اسماعيل نامق ، سامي الاورفلي ، فرج عمارة ، رشيد الهاشمي ، رضا الشبيبي ، صبيح نجيب ، محمود أديب ، ناجي السويدي ، توفيق السويدي ، ابراهيم كمال ، يونس وهبي ، حمدي صدرالدين ، أحمد رفيق ، نوري القاضي ، مكي الشربتي ، ثابت عبدالنور ، ابراهيم توحلة ، عزت الكرخي ، عبداللطيف الفلاحي ، توفيق الهاشمي ، محمد البسام ، أسعد صاحب ، محمد خيرو •

وفي اليوم المعين ــ أي ٨ آذار ــ أُعد احتفال فخم في دار البلدية في المرجة حضره رؤساء الطوائف الدينية والاعيان وممثلو الدول • ولوحظ تغيب البريطانيين عن حضور الاحتفال ، بينما حضره الفرنسيون وعلائم الابتهاج بادية على وجوههم الامر الذى لفت اليه الانظار • ومن طريف ما وقع في بداية الاحتفال ان نوري الشعلان رئيس عشيرة الرولة جاء ومعه عشرة من اتباعه المسلحين فأشغلوا صدر القاعة ، فتقدم نحوه أحد القائمين بالتشريفات راجياً منه بلطف أن يأمر أتباعه بالوقوف مع الاعيان المدعوين ، ولكن الشيخ رفض ذلك اذ شهر سيفه وصاح بالرجل : « ارجع مكانك » • فعاد الرجل خائباً •

وصل فيصل الى محل الاحتفال وهو راكب جوادا فهتفت له الجماهير المحتشدة في ساحة المرجة ، وبعد قليل خرج الى الشرفة المطلة على الجماهير محمد عزة دروزة سكرتير المؤتمر السورى فتلا قرار المؤتمر باعلان استقلال سوريا واختيار فيصل ملكاً عليها • وتلاه توفيق السويدي فتلا قرار المؤتمر العراقي باعلان استقلال العراق واختيار عبدالله

ملكاً عليه • ثم تقدم رئيس بلدية دمشق غالب الزالق يحمل علم سوريا الجديد ، وهو نفس العلم الحجازي مع اضافة نجمة واحدة اليـــــه ، فتسلمه المرافق فخري البارودي ورفعه فوق السارية ، فضجت الجماهير بالهتاف • ورُفعت لوحة مكتوب عليها : «ليحيى جلالة الملك فيصل»• وكانت المدافع تطلق آنئذٍ مائة طلقة وطلقة •

ضجة في بيروت :

قوبل اعلان الملكية بالسخط من قبل فرنسا وبريطانيا • ففي ٩ آذار أرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن برقية الى فيصل تتضمن احتجاجاً عنيفاً ، وقال له : ان المؤتمر السوري ليس له صفة شرعية وان بريطانيا لاتعترف بحق أية فئة في دمشق تتكلم نيابة عن فلسطـــــين والعراق[١٠٤] • وفي ١ نيسان أبرق اللورد كرزن الى الحسين وابنـــه عبدالله يقول لهما : ان بريطانيا لاتعتبر العراقيين التسعة والعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين للعراق وان مؤتمر الصلح هو وحده الذى سيقرر مستقبل العراق بعد التحقق من رغبات الاهلين • فرد عليه الحسين قائلا : انه لاعلاقة له بمؤتمر الصلح وان علاقته منحصرة ببريطانيا وحدها وهو انما قام بالثورة وجازف بكل شيء وواجه الاخطار والكوارث اعتماداً على تلك العلاقة وثقة منه بشرف بريطانيا العظمى التى اشتهرت بالمحافظة على عهودها[١٠٥] •

وفي بيروت بدأت عرائض الاحتجاج تصل الى مقر البطريركيـة المارونية من كل مكان في لبنان معبرة عن رفض موقعيها لضم لبنـان الى دولة فيصل الجديدة دون استشارة أهله • وفي ١٢ آذار أعد مجلس ادارة

(١٠٤) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ــ ص ١٥١ •

(١٠٥) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٤٤ •

لبنان قراراً رفعه الى مؤتمر الصلح بواسطة الجنرال غورو احتج فيه على قرار المؤتمر السوري وقال ان المؤتمر ليس له حق في التدخل في شؤون لبنان وادارته • وفي ٢٢ آذار عقد اجتماع حاشد في بعبدا حضره أعضاء مجلس الادارة وجمهور من اعيان لبنان وممثلي طوائفه المسيحية وتم فيه اعلان استقلال لبنان ، ثم رُفع العلم اللبناني على سراي بعبدا فمرت به كتائب من الجيش اللبناني تؤدي له التحية(١٠٦) •

وحصل من جراء ذلك شيء من التوتر الطائفي بين المسلمين والمسيحيين في بيروت ، فقد أخذ خطباء المساجد يخطبون باسم الملك فيصل، فصدرت اليهم الاوامر من السلطة الفرنسية بأن يخطبوا باسم الخليفة العثماني محمد وحيد الدين فرفض الخطباء ذلك وانكروا تدخل السلطة في الشؤون الدينية ، وكان أشدهم في ذلك الشيخ محيالدين المكاوي خطيب جامع المجيدية ، فاعتقلته السلطة في ٥ نيسان وأبعدته الى جزيرة أرواد ، فثارت ثائرة المسلمين ، وخرجت مظاهرة في دمشق احتجاجاً على ابعاده • وأرسل الملك فيصل الى الجنرال غورو والجنرال اللنبي والحكومة الفرنسية يحتج فيها على ما أصاب الديانة الاسلامية من اهانة لتدخل السلطة العسكرية في الامور الدينية ومنع الخطب في الجوامع من الدعاء حسب رغبة السكان(١٠٧) •

اضطرت السلطة الفرنسية الى اطلاق سراح الشيخ محي الدين ، وأصدرت بياناً انكرت فيه أنها تتدخل في الامور الدينية ، وذكرت أن فرنسا تحترم جميع الاديان على السواء انما هي لاترضى ان يتخذ الدعاء باسم جلالة الملك فيصل حجة لاثارة الخلافات السياسية(١٠٨) •

---

(١٠٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص ١٥٣ ـ ١٥ •
(١٠٧) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٩٠ •
(١٠٨) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ١٤٢ •

الوزارة الركابية :

في ٩ آذار ـ أي في اليوم التالي لتتويج فيصل ـ صـــــدرت الارادة الملكية بتشكيل الوزارة السورية الاولى ، فكانت مؤلفة من رضا الركابي رئيساً ، وعلاء الدين الدروبي لرئاسة مجلس الشورى ، ورضا الصـــلح للداخلية ، وعبدالحميد القلطقجي للحربية ، وجلال الدين زهدي للحقانية، وسعيد الحسيني للخارجية ، وفارس الخوري للمالية ، وساطع الحصري للمعارف ، ويوسف الحكيم للنافعة .

كان معظم هؤلاء الوزراء من الكهول المالين للاعتدال في السياسة ، ولهذا صار الوطنيون المتحمسون يتهمونها بالضعف وبقلة الاهتمام بالدفاع عن الوطن. وقد اشتد الانتقاد لها علىأثر اعلانمقررات سان ريمو في ٢٥ نيسان ، وهي المقررات التي جعلت سوريا تحت انتداب فرنسا ، والعراق وفلسطين تحت انتداب بريطانيا . فقد ثارت ثائرة الاحزاب والجماهير على تلك المقررات ، واخذوا يتهجمـــون على الوزارة ، ووصفـــوها بأنهـا لاتشاركهم العزم على محاربة فرنسا حتى النهاية(١٠٩) .

كان يتزعم هذه المعارضة ضابط شاب في السادسة والثلاثين من عمره اسمه يوسف العظمة ، وكان يومذاك يتولى منصب مساعد وزير الحربية ، وهو برتبة مقدم ولكن فيصل قد منحه رتبة عقيد فخرية تقديرا له . وكان يؤيد هذا الضابط في المعارضة احسان الجابرى رئيس الديوان الملـــكي ، وساطع الحصري وزير المعارف.

كانت القوات التركية في تلك الايام تكيل الضربات القوية للفرنسيين في كليكيا حتى وصلت في زحفها الى مقربة من الحدود السورية وأخذت تهددها . وكان رأي الركابي أن يتعاون مع الفرنسيين للدفاع عن حدود

---

(١٠٩) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٧٨ .

سوريا الشمالية[110] . ولكن يوسف العظمة كان يخالفه في هذا الرأي اذ كان يميل الى الاتفاق مع الاتراك ضد الفرنسيين . وقد حدثت في أحد الايام مشادة بين الركابي ويوسف العظمة بحضور الملك ، فقد قال يوسف للملك : « لو سمحت جلالتك لامكننا أن نرمي الفرنسيين الى البحر بقدمي هذه » . فسأله الركابي عن مقدار القوة العسكرية التي يملكها لمحاربة فرنسا ، فأجابه يوسف العظمة : ٤٠٠٠ جندي و ١٢ مدفعاً و٣٦ قنبلة . فرد عليه الركابي قائلا : « أخشى أن تثقب قدمك قبل أن تلقي الفرنسيين في البحر »[111] .

عقد خصوم الوزارة الركابية أخيرا اجتماعات سرية في بيت احسان الجابري قرروا فيها اسقاط الوزارة . وقد انحاز الملك الى جانبهم . وفي ٢ أيار ١٩٢٠ ضجر الركابي من المؤامرة التي تحاك ضده فغادر مكتبه وذهب الى بيته عازماً على الاستقالة ، فأرسل الملك اليه احسان الجابري يطيب خاطره ويوصيه بالتريث ، فأجابه الركابي : « لايسعني الصبر على ما أشاهده في العاصمة ، وفي المؤتمر السوري خاصة ، من تهور وافراط في المطاليب مما قد يؤدي الى فقد النظام والى الاضطراب على الحدود وينذر بسوء المصير »[112] . ثم كتب الركابي استقالته حيث قال فيها انه يستقيل بناءاً على اسباب صحية ، وناولها الى الجابري .

الوزارة الأتاسية :

في اليوم التالي لاستقالة الركابي كلف الملك فيصل هاشم الاتاسي بتشكيل وزارة جديدة . فشكلها الأتاسي على النحو التالي : رضا الصلح لرئاسة مجلس الشورى ، وعلاء الدين الدروبي للداخلية ، وعبدالرحمن

---

(١١٠) سليمان موسى (المصدر السابق) — ص ٥٥٣ .
(١١١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) — ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(١١٢) يوسف الحكيم (المصدر السابق) — ص ١٥٧ .

الشهبندر للخارجية ، ويوسف العظمة للحربية ، وفارس الخوري للمالية، وجلال الدين زهدي للحقانية ، وساطع الحصري للمعارف ، ويوسف الحكيم للنافعة ٠

الملاحظ ان خمسة من اعضاء الوزارة الجديدة كانوا في الوزارة المستقيلة ، ولم تضم الوزارة الجديدة سوى وزيرين جديدين هما : يوسف العظمة وعبدالرحمن الشهبندر ، وكانا يتشابهان بكونهما شابين ومن أشد الناس حماساً واندفاعاً ٠ ومما يجدر ذكره أن الملك كان قبل هذا يكره الشهبندر ويعتبره عدواً له وقال عنه ذات مرة : « انني لما عرفت الشهبندر احتقرت جميع أهل الشام ٠٠٠ »[113] ٠ والظاهر ان الملك انما أدخله في الوزارة لكي يجتذبه اليه ويخفف من حماسه ٠

عندما مثلت الوزارة الاتاسية أمام المؤتمر السوري وألقت بيانها أعترض المؤتمر عليها لخلو البيان من التصريح عن الدفاع ووسائله٠ فاختلت الوزارة في غرفة جانبية ، ثم خرج الشهبندر بعدئذ الى المؤتمر وقال : « تسألوننا ايها السادة عن الدفاع ، ونحن نقول لكم اننا ماخُلقنا الا من الدفاع والى الدفاع » ٠ فصفق اعضاء المؤتمر لهذا التصريح ومنحوا الوزارة ثقتهم[114] ٠

أخذت الوزارة الاتاسية تعمل بكل جهدها في اعداد وسائل الدفاع عن البلاد ، وكان أول ما قامت به في هذا الشأن انها أعادت النظر في قانون التجنيد الاجباري الذى أهملته الوزارة السابقة ، وجعلت مدة الخدمة سنة واحدة بدلا من ستة أشهر ، وكذلك أصدرت سندات قرض وطني بمبلغ نصف مليون دينار بفائدة ستة بالمائة مقابل رهن مليون دونم من اراضي الدولة ٠ وبدأت مناشير الدعاية لهذا القرض توزع على الناس وهي

---

(١١٣) يوسف ايبش (رحلات الامام محمد رشيد رضا) — بيروت ١٩٧١ — ص ٣٠٠ ٠

(١١٤) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج٣، ص ٢١٥ ٠

تتضمن العبارات التالية : « هل أنت شرقي ...؟ هل أنت عربي ...؟ هل تريد الحياة الحرة ...؟ هل تريد الاستقلال التام ...؟ اشترك بالقرض السوري .. لاحياة الا بالاستقلال ولا استقلال الا بالمال »(١١٥) .

وقد بذل يوسف العظمة جهداً كبيراً في اعداد الجيش السوري وتسليحه . ثم ذهب الى حلب بحجة النظر في تعزيز وسائل الدفاع عن الحدود الشمالية ، غير أنه كان في الحقيقة يقصد التفاهم مع مصطفى كمال باشا ، وقد اتصل هناك بمندوبين عنه وباحثهم في انشاء تعاون عسكري بين العرب والاتراك . ويبدو ان الانكليز علموا بهذا الاتصال ، فقد صرح شرشل في مجلس العموم البريطاني قائلا : ان العرب يحاولون الآن لاول مرة التفاهم مع الاتراك لايجاد قضية مشتركة بينهما ، وذلك بعدما كانت سياستنا قد نجحت في التفريق بينهما(١١٦) .

أدرك الفرنسيون انهم في هذه الظروف غير قادرين على الاحتفاظ بسوريا وكليكيا معاً ، ولا بد لهم من أن يتخلو عن احداهما ليحافظوا على الاخرى . وقد صرح أحد مفكريهم السياسيين قائلا : « لو كان يتحتم على فرنسا أن تتخذ قرارها مستندة على المنافع والحسابات وحدها لوجب عليها أن ترجح كليكيا على سوريا ، ولكن لفرنسا تقاليد وروابط معنوية كثيرة تربطها بسوريا منذ قرون عديدة ، فعليها أذن ان تتمسك بتلك الروابط والتقاليد ، وان تتنازل عن كليكيا في سبيل الاحتفاظ بسوريا اذا اقتضى الحال »(١١٧) .

ولهذا عقد الجنرال غورو هدنة مع مصطفى كمال باشا في ٣٠ أيار

---

(١١٥) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٧٩ .
(١١٦) المصدر السابق ـ ص ١٨٦ .
(١١٧) ساطع الحصري (ميسلون) ـ بيروت ـ ص ٨ .

١٩٢٠ ، ثم أخذ يسحب قواته من كليكيا ويحشدها تجاه حكومة دمشق[١١٨] .

مذبحة في جبل عامل :

يقع جبل عامل في جنوب لبنان يحده البحر الابيض غرباً ومرتفعات الجولان شرقاً ، ومعظم سكانه من الشيعة الاثنى عشرية ويطلق عليهم اسم « المتاولة » ومعناه الذين يتولون علياً . وكان الجبل يضم بالاضافة الى الشيعة أقلية مسيحية اكثرها من الموارنة . وقد نشأت بين الفريقين في تلك الفترة احتكاكات طائفية تهدأ تارة وتثور تارة أخرى . يقول محمد عزة دروزة : « لقد كانت الدعايات والتحريضات قد أدت في منطقتي الجولان وجبل عامل المتجاورتين ... الى بعض الاحتكاكات العدائية بين المسلمين والنصارى فيهما ، فلم تلبث بعد اعلان الاستقلال والملكية أن أخذت تتسع ويبدو على مسرحها بعض صور حرب العصابات من الجانبين : نصرانية مسلحة بالسلاح الافرنسي ومدبرة باليد الافرنسية تحت ستار الدفاع عن النفس ورد العدوان ، واسلامية مسلحة بالسلاح العربي ومدبرة باليد العربية بقصد احباط دسائس الفرنسيين وتحريضاتهم وعرقلة أهدافهم ... »[١١٩] .

وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ عقد الشيعة مؤتمراً لهم في وادي الحجير الواقع على بعد خمسة عشر ميلا من جنوب النبطية ، حضره علماء الشيعة وأعيانها وعلى رأسهم كامل بك الاسعد والمجتهد المعروف السيد عبدالحسين شرف الدين ، وقرروا بالاجماع الانضمام الى حكومة فيصل العربية ورفض الخضوع للحكم الفرنسي[١٢٠] .

(١١٨) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٥٥ .
(١١٩) محمد عزة دروزة (الحركة العربية الحديثة) ـ صيدا ١٩٥٠ ـ ج١ ، ص ١٢٤ .
(١٢٠) محمد جابر آل صفا (تاريخ جبل عامل) ـ بيروت ـ ص ٢٢٦ .

أدى هذا المؤتمر الى تفاقم التوتر الطائفي في المنطقة ، وبدأت الاشاعات تنتشر بين السكان تثير كل طائفة منهم على الاخرى • حدثني أحد المسنين من العامليين قائلا : ان اشاعة انتشرت بين الشيعة مفادها أن النصارى أحرقوا القرآن كما افتضوا بكارة سبع فتيات شيعيات • وهو يعزو هذه الاشاعة الى دسائس الفرنسيين ، وكانت نتيجتها أن ثارت ثائرة الشيعة فهاجموا قرية مسيحية قريبة من الحدود الفلسطينية تدعى « عين ابل » ، وقتلوا عـــدداً كبيراً من سكانها •

يتهم النصارى أحد علماء الشيعة الذين حضروا مؤتمر الحجير بأنه كان السبب في وقوع المذبحة اذ هو ـ على حد قولهم ـ استخار اللـــه بالمسبحة على ذبح النصارى(١٢١) • ولكن الشيعة يعزون السبب الـــى الفرنسيين ، يقول أحد مؤلفيهم في ذلك : ان الفرنسيين سلحوا النصارى بالبنادق واغروهم بالتحرش بجيرانهم ، وأذكوا فيهم نار التعصب ، وأخذ هؤلاء النصارى يعتدون على ابناء السبيل والفقراء من الشيعة مما جعـــل الشيعة يردون عليهم بالمثل ، فوقعت الفاجعة التي عكرت صفو الولاء بـين الطائفتين وأسف له العقلاء(١٢٢) •

حين بلغ الجنرال غورو خبر المذبحة صمم على الانتقام من الشيعة • وفي ٥ أيار ١٩٢٠ تحركت من بيروت حملة فرنسية مؤلفـــة من أربعـة آلاف جندي بقيادة الكولونيل نياجر • وسارت الحملة في طريق الساحل حتى وصلت الى صور ، وهناك أحرقت بيت المجتهد عبدالحسين شرف‌الدين، وكانت فيه مكتبة نفيسة ، ثم تحولت بعدئذ نحو الداخل ، وشرعت تحرق الكثير من القرى والضياع ، وأعدمت نحو ثلاثين رجلا بتهمة مساهمتهم في مذبحة النصارى •

---

(١٢١) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٥٣ •
(١٢٢) محمد جابر آل صفا (المصدر السابق) ـ ص ٢٢٧ •

ولما تمت السيطرة على جبل عامل كله دعت السلطة الفرنسية عدداً كبيراً من أعيان الشيعة والدروز والمسيحيين الى اجتماع في صيدا • وانعقد الاجتماع في ٥ حزيران ، ووقف الكولونيل نياجر فألقى خطاباً شديد اللهجة موجهاً الى الشيعة وقرأ الاحكام القاسية التي صدرت عليهم حيث حكم بالاعدام على بعضهم وبالنفي المؤبد على آخرين منهم ، وكان من بين المنفيين عبدالحسين شرفالدين وكامل الاسعد وراشد عسيران ومحمد سعيد البزي • وقال نياجر في ختام خطابه ان الحكومة الفرنسية يسوءها الحكم على اعيان الشيعة بهذه الاحكام الصارمة ولكنهم هم الجناة على انفسهم •

ثم ذكر نياجر شروطاً قال ان الحملة لن تترك المنطقة الا بعد تنفيذها، وهي : دفع غرامة قدرها مائة ألف جنيه مصري ، واعادة المنهوبات إلى أهلها ، واعطاء تعهد خطي بالمحافظة على المسيحيين ، وتسليم الأسلحة ، وتسليم المجرمين ، وتحمل المسؤولية عن كل حادثة جديدة • فوافق الشيعة على هذه الشروط ما عدا الاخير منها حيث قالوا بأنهم لايستطيعون ان يتحملوا المسؤولية عن كل حادثة جديدة لانهم غير قادرين ان يكونوا في كل مكان في وقت واحد ، غير أنهم تعهدوا أن يبذلوا جهدهم بكل قواهم لمنع الحوادث •

وقد تألفت لجنة لجمع الغرامة المفروضة • واستغل أعضاء اللجنة الفرصة فأخذوا يجمعون لانفسهم أكثر مما جمعوه للمتضررين • يقول أمين الريحاني نقلا عن بعض المطلعين : ان اعضاء اللجنة جبوا بمهارتهم ٤٨٥ ألف ليرة ، فدفعوا للمتضررين ٥٠ ألف ليرة ، ووضعوا الباقي في جيوبهم[١٢٣] •

وعلى أي حال فقد حل البؤس والخراب بجبل عامل على أثر تلك الواقعة • واضطر الكثير من العامليين الى بيع ما يملكون من أجل دفع

---

(١٢٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٢٨ •

الغرامه • وقد حاول الملك فيصل التخفيف عنهم فأرسل احتجاجاً الى الجنرال غورو ، كما أرسل الى لويد جورج يطلب منه التوسط باسم الانسانية ، وأشار الى ان تسليح الفرنسيين للمسيحيين يؤدي الى تعصب ديني ويقضي على جهوده الرامية الى ايجاد قومية اسلامية مسيحية موحدة(١٢٤) •

انذار غورو :

في ١٠ تموز ١٩٢٠ حدثت في بيروت حادثة أدت الى غضب غورو وازدياد حنقه على حكومة دمشق ، خلاصتها أن أشخاصاً جاؤوا من دمشق واتصلوا سراً ببعض أعضاء مجلس ادارة لبنان ، وقدموا لهم رشوة كبيرة قدرتها المصادر الفرنسية باثنين وأربعين ألف جنيه ، وتمكنوا بهذه الرشوة أن يقنعوا سبعة أعضاء منهم بحيث جعلوهم يوقعون على عريضة يطالبون فيها باستقلال لبنان وباقامة تعاون أقتصادي بينه وبين حكومة دمشق • وقد قرر هؤلاء الاعضاء السبعة أن يسافروا الى باريس لتقـــديم العريضة الى مؤتمر الصلح ، ولكن السلطة الفرنسية كانت على علم مسبق بما قرروه عن طريق جاسوس كان مدسوساً بينهم ، فألقت القبض عليهم عندما كانوا يغادرون بيروت ، ثم حكمت عليهم بالنفي وبغرامة جسيمة •

كان فيصل في ذلك الحين ينوي السفر الى فرنسا لاعادة النظر في المعاهدة ، وقد أرسل نوري السعيد الى بيروت لمفاتحة غورو في أمر هذا السفر • وصادف وصول نوري السعيد الى بيروت في نفس الوقت الذي تم فيه القاء القبض على الاعضاء السبعة • ولما بدأ نوري الكلام مع غورو قال له غورو : ان لديه بعض المطاليب لتقديمها الى فيصل ، وانه لن يوافق على سفر فيصل الا اذا قبل بتلك المطاليب • ثم قدم غورو خلاصة لتلك

---

(١٢٤) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ١٩٣ •

المطاليب وهي : (١) وضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي ، (٢) الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين ، (٣) قبـــول الانتداب الفرنسي بلا قيد او شرط ، (٤) معاقبة المتهمين بمعاداة فرنسا ، (٥) قبول أوراق النقد التي أصدرها الفرنسيون •

عاد نوري السعيد الى الملك فيصل يخبره بالامر ، وفي ١٤ تموز وصل الى دمشق الكولونيل نياجر وهو يحمل أنذاراً رسمياً يتضمن تلك المطاليب الخمسة ومعها مهلة أمدها أربعة ايام تنتهي في ليلة ١٨-١٩ تموز ، فاذا لم تُقبل المطاليب خلال تلك المهلة فان الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة التصرف في عملها تجاه حكومة فيصل •

كان لانـذار غـورو وقـع شـديد على فيصل ووزرائه ، واجتمعوا يتدارسون الموقف للنظر في حل له وكيف الخروج منه ، وكان الوجوم سائداً عليهم جميعاً ماعدا يوسف العظمة اذ كان متفائلا • يقول ســـاطع الحصري : « كان يوسف العظمة يعمل بنشاط ، ويظهر تفاؤلا كبيراً فــي جميع الاعمال ، حتى أنه اراد ان يشرع باصدار بلاغات رسمية عن الحركات العسكرية ، غير اننا اعترضنا عليه وأوصيناه بالتريث لكيلا يظهر للعالم بأننا نحن البادئون بالعدوان ••• »[(١٢٥)] •

أستدعي ياسين الهاشمي للاستفادة من خبرته العسكرية وعُين قائداً لجبهة مجدل عنجر التي كانت أهم الجبهات لوقوعها في طريق دمشـــق بيروت • يقول الحصري انه زار الهاشمي في بيته فقال الهاشمي له بصراحة تامة وبلهجة الحازم المتأكد : « ان الجيش الموجود لايستطيع أن يدافع عن البلاد ••• انه لايستطيع أن يصمد أمام العدو أكثر من ساعتين على أعظم تقدير » • وأضاف الهاشمي الى ذلك يقول : « ان المدافع التي مرت

---

(١٢٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٢١ •

أمامكم في الاستعراضات ليس لها الا عدد قليل جداً من القذائف ، وهـي لاتكفي لحرب تستمر أكثر من ساعة واحدة • واستطيع ان اقول انالجيش اذا اشتبك في حرب نظامية يبقى بعد ساعتين بلا عتاد »(١٢٦) •

خرج الحصري من بيت الهاشمي وهو في اضـطراب وحيرة شديدة ، وذهب الى الوزراء واخبرهم بما سمع من الهاشمي • وكان الملك قــد بلغه رأي الهاشمي فاستدعى اليه الوزراء ، وتم عقد جلسة منهم بحضوره، وبدأوا يتدارسون الوضع العسكري في ضوء ما ابداه الهاشمي • وحـين سأل الوزراء يوسف العظمة عن مقدار الاسلحة والاعتدة المتوافرة لـدى الجيش أجابهم : « لدى الجيش من العتاد ما يكفي لمقاومة الفرنسيين مدة من الزمن وربما لدحرهم على اعقابهم اذا أداروا ظهورهم في أول ملحمة »• ولمـا طلب الوزراء منه تقديم بيان خطي بذلك أجابهم غاضبا : « الا تثقون بكلامي وأنا زميلكم المسؤول عن امور الجيش »(١٢٧) •

استدعى الملك فيصل كبار القادة العسكريين لابداء رأيهم في الامر • وفي الساعة الثالثة من عصر ١٦ تموز حضر القادة كما حضر الهاشمي ، وأخذوا يدلون بآرائهم كل باسلوبه وحسب اجتهاده • فالح الملك عليهم أن يقدموا رأياً موحداً حاسماً • فانسحب القــادة الى غرفة جانبية واختلوا فيها ، ثم خرجوا بعد قليل وهم يحملون رأياً موحداً خلاصته : أنــه اذا كانت الحرب غير جدية فان في مقدور الجيش ان يقاوم بضع ساعات ، اما اذا حمي وطيس القتال فان مقاومة الجيش لاتـــدوم أكثر من خمس دقائق(١٢٨) •

---

(١٢٦) المصدر السابق ـ ص ١٢٢ •

(١٢٧) يوسف الحكيم (المصدر السابق ـ ص ١٨١ •

(١٢٨) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ، ص ١٨٠ •

وعند هذا التفت الملك نحو الهاشمي يسأله عن رأيه ، فتكلم الهاشمي موجهاً انتقاده الى يوسف العظمة وأبدى رأيه بأن الحرب لاضرورة لها ، ثم قال : لو كان في الامكان صد الفرنسيين على خط دمشق فما العمل لو انقضت على الجيش العربي الفرقة الفرنسية من حلب • فاعترض عليه بعض القادة بقولهم : « المسألة مسألة شرف يا باشا » • فرد عليهم : «الشرف يعود للوزراء لا للجنود »[١٢٩] •

انتهى الاجتماع بلا نتيجة حاسمة ، واراد الملك أن يقف على رأي الانكليز قبل أن يبت في الامر ، فأرسل نوري السعيد وعادل أرسلان الى حيفا لاستشارة الجنرال اللنبي • فعاد الرجلان من حيفا يقولان بأن اللنبي أشار عليهما بقبول الانذار سريعاً بلا تردد ، وقد كتب اللنبي الى فيصل كتاباً أصر فيه على ضرورة قبول الانذار وذلك تفويتاً للغرض الذى كان غورو يسعى اليه وهو دخول دمشق دخول الغزاة الفاتحين[١٣٠] •

استقر رأي الملك ووزرائه على قبول الانذار ، ولكن مشكلة أخرى كانت تواجههم هي أن الجنرال غورو ألمح في كتابه المرفق بالانذار الى ضرورة تبديل الوزارة اذ وصفها بأنها كانت قد بذلت جهدها في جر البلاد الى الحرب وأن بقاءها في الحكم ينطوي على معنى العداء لفرنسا •

وقد اتجه فكر الملك وبعض وزرائه الى تكليف رضا الركابي بتأليف وزارة جديدة ، ولكن الركابي حين حضر أبدى أعتذاره وقال موجهاً كلامه للملك : « طالما قلت لك يا سيدي أن هؤلاء الاولاد سيهوروننا وعليهم أن يتحملوا تبعة ما بدأوه » • وكان الركابي يشير بنظراته الى يوسف العظمة[١٣١] •

---

(١٢٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٣٠ •
(١٣٠) احسان الهندي (معركة ميسلون) ـ دمشق ١٩٦٧ ـ ص ٥٥ •
(١٣١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٢٠١ •

وبعد أن يئس الملك من الركابي بتأليف الوزارة اتجه نحو ياسين الهاشمي ، ولكن الهاشمي اعتذر ايضا • وحدثت آنذاك مشادة عنيفة بين يوسف العظمة والهاشمي • فقد كان يوسف العظمة يفسر موقف الهاشمي بالغيرة منه[١٣٢] • وأخذ يوجه الى الهاشمي كلاماً قاسياً حيث قال له : « أنت يا باشا بلبلت الافكار وفضحت أسرار الجيش بما نقلته الى بعض الوزراء عن عتاده ، مع أنك أنت المسؤول عن تموينه فلا يليق بك التهرب من الحكم بعد أن أوصلتنا ببياناتك الى الازمة الحاضرة » • فرد عليه الهاشمي قائلا : « اني أوقفت الوزارة على حقيقة ميرة الجيش لكي لاتنخدع بأقوالك وتسوق البلاد الى حرب لا أمل لها في كسبها • أما مسؤولية التقصير فتقع على عاتق الذين خلفوني في رئاسة الميرة وتولوا شؤون الدفاع » • وهنا تدخل الملك وقال موجهاً كلامه الى الهاشمي : « ولكنك يا ياسين كنت رئيساً للميرة مدة عشرة أشهر ، فلماذا لم تعمل على تدارك الاسلحة اللازمة ؟! »[١٣٣] •

وهنا تقدم يوسف العظمة بحماسته المعروفة وأدى التحية العسكرية للملك وقال : « اني مستعد ياصاحب الجلالة للدفاع عن الوطن بكل قواي حتى النفس الاخير اذا أوليتموني ثقتكم » • فشكره الملك ودعا له بالتوفيق وعينه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة أي نائباً للملك الذي هو القائد العام[١٣٤] •

وعاد يوسف العظمة الى الكلام فخاطب الهاشمي قائلا : « يا باشا تريد ان تجعلنا سلماً حتى تصعد علينا ثم تكون رئيس الوزراء » •

---

(١٣٢) أحمد قدري (المصدر السابق ـ ص ٢٤٠ ٠

(١٣٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١٩٢ •

(١٣٤) المصدر السابق ـ ص ١٩٣ ٠

فرد عليه الهاشمي بشدة قائلا : « اذا احتجتُ الى سلّم فاني أبحث عن سلم متين »(١٣٥) •

عاد الملك ووزراؤه بعد ذلك الى المداولة في أمر الانذار فقر قرارهم بالاجماع على قبوله ، ووقع الملك برقية بهذا المعنى وسلمها الى الكولونيل تولا معاون ضابط الارتباط الفرنسي ، فأبرق تولا بها الى الجنرال غورو •

انتفاضة الجماهير .

في الوقت الذى كان فيه المسؤولون يتدارسون الموقف على النحو الذى ذكرناه آنفاً ، كانت الجماهير ومعها المؤتمر السوري في هياج شديد، وخرجت المظاهرات الى الشارع وهي تنادي : « الى الحرب الى الحرب !» وأصبح الملك فيصل بين هؤلاء واولئك في مأزق عجيب ! •

في ١٥ تموز ـ أي في اليوم التالي لورود الانذار ـ عقد المؤتمر السوري جلسة للنظر في الامر ، وكانت جلسة حماسية تعاقب فيها الخطباء واحداً بعد الآخر وكلهم ينادون بالحرب ويوجهون التقريع الى الوزارة الاتاسية متهمين اياها بالضعف والميل الى الاستسلام • وكانت الجماهير في أثناء ذلك قد احاطوا بمقر المؤتمر وهم يهتفون له ، واندفع أفراد منهم فاقتحموا الابواب ودخلوا الى القاعة صارخين يطالبون بالحرب • وعند هذا تقدم خمسة واربعون من أعضاء المؤتمر باقتراح مفاده أن المؤتمر السورى الذي هو ممثل للامة السورية لايعترف بأية معاهدة او اتفاقية تتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق عليها المؤتمر • وقد وافق المؤتمر على هذا الاقتراح وقرروا نشره على الجمهور •

استدعى الملك فيصل اعضاء المؤتمر الى اجتماع في حديقة قصره في الساعة الرابعة والنصف من عصر ١٧ تموز ، وقد نصب سرادق في الحديقة

(١٣٥) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٣٠ •

لهذا الغرض ، وحين وصل الاعضاء قابلهم الملك ببشاشـة وأخذ يحاول اقناعهم حيث شرح لهم كيف أن الجيش السوري لايكفي للدفاع تجـاه القوات الفرنسية المجهزة بأحدث الآلات الحربية ، وذكر أن الواجب يقضي عليهم بمعالجة الامور بالتؤدة والحكمة عن طريق المفاوضات السلمية مع الجنرال غورو • وقد كان بين الحاضرين فريق كبير يميلون الى مثل رأي الملك في المسالة ولكنهم لم يجرأوا على الجهر برأيهم وظلوا ساكتين ، فأخذ المتحمسون زمام الكلام وصاروا يجادلون الملك بقوة ، وخاطبه أحدهم بلهجة شديدة غير أن الملك كتم غيظه ولم يرد عليه •

وفي ختام الاجتماع عندما يئس الملك من اقناعهم قدم لهم اقتراحا ظنه نافعاً هو أن يكتب كل واحد منهم عند عودته الى بيته مكتوباً خاصا يبدي فيه رأيه كما هو معتقد به أمام الله ، ثم يرسله الى الملك • ووعدهم الملك أنه سيعمل حسبما تؤدي اليه اكثرية الآراء التي تصله[١٣٦] • لقد كان الملك يظن ان الآراء التي تُعطى بهذه الصورة سوف تكون واقعية لايؤثر فيها ايحاء او ارهاب[١٣٧] • ولكن اعضاء المؤتمر أدركوا ما ينطوي عليه اقتراح الملك من خطورة ، فتفاهموا فيما بينهم على رفضه •

وفي صباح اليوم التالي ــ أي ١٨ تموز ــ عقد المؤتمر السورى جلسة فوق العادة ، وجاءت المظاهرات اليه ، وكان المتظاهرون يحملون الخناجر والسيوف وينشدون الاناشيد الحماسية ، ثم صاروا يهتفون بسقوط الجبناء ذوي النفوس الضعيفة • وفي عصر ذلك اليوم عقد المؤتمر جلسة أخرى قرر فيها استدعاء الوزارة الاتاسية للاستفسار منها عن الخطة التى قررت السير عليها في مواجهة الانذار الذي كان أمده ينتهي في منتصف تلـك الليلة[١٣٨] •

(١٣٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٢٤٦ •
(١٣٧) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ١٨٥ •
(١٣٨) رفيق التميمي (الايام السود) ــ بغداد ١٩٣٣ ــ ص ١٣ •

وفي صباح ١٩ تموز انتشر بين الناس خبر قبول الوزارة للانذار ، فانتفضت دمشق لهذا الخبر ، واحتشد الالوف منهـــم في ساحة المرجة يهتفون ، وقام الشيخ كامل القصاب خطيباً فحرضهم على امتشاق الحسام للذود عن الوطن المهدد وندد برجال الحكومة وهددهم • وأخذ الخطباء يتعاقبون واحداً بعد الآخر يحثون الناس على المقاومة مهما كلفهـــم الامـــر (١٣٩) •

وفي الوقت نفسه عقد المؤتمر السوري جلســة لمواجهة الوزارة والاستفسار منها عن خطتها • ولكن رئيس المؤتمر الشيخ رشيد رضا أعلن أن رئيس الوزارة ابلغه بعدم قدرتها على الحضور امام المؤتمر لانهـا في انتظار عودة الرسول الذى ذهب الى بيروت للمفاوضة • وهنا قام أحـد الاعضاء وتقدم باقتراح مفاده : أن الحكومة تصبح غير شرعية في حـالة تصديقها على صك يخالف قرار المؤتمر ، وان الوزراء يتحملون تبعة ذلك تجاه الوطن • وقد وافق اعضاء المؤتمر بالاجماع على هذا الاقتراح وأوعزوا بطبعه ونشره في جريدة « العاصمة » ، كما اختاروا من بينهم وفداً برئاسة رشيد رضا لمقابلة الملك وتقديم الاقتراح اليه •

تصاعد الانتفاضة :

بيما كانت الجماهير والمؤتمر السوري في أوج الحماس وصلت برقية من غورو يقول فيها أنه لايكتفي بقبول الانذار بل يريد تنفيذ شروطه حالاً، وهو يمدد مهله الانذار يومين آخرين حيث تنتهي في منتصف ليلة ٢٠ـ٢١ تمـــوز •

كانت تلك صدمة حديدة للملك ووزرائه • وفي مساء ذلك اليوم بينما كان الملك غارقاً في حيرته لايدري ماذا يصنع جاءه طلب من وفد المؤتمـر

(١٣٩) المصدر السابق ــ ص ١٤ •

يريدون مقابلته • ولما أذن لهم ودخلوا عليه جرت بينه وبينهم مناقشة حادة ، ولم يملك الملك أعصابه فقال لهم غاضباً : « من أنتم ••؟ أنا خلقت سوريا •••! »•• فرد عليه رشيد رضا قائلا : « أأنت خلقت سوريا ؟! لقد خُلقت سوريا قبل أن تُخلق أنت ! »[١٤٠] •

قرر الملك تعطيل جلسات المؤتمر السوري لمدة شهرين • وفي صباح اليوم التالي ذهب وزير الحربية يوسف العظمه الى المؤتمر وقرأ عليه قرار التعطيل ، فحاول بعض الاعضاء الصعود على منصة الخطابة للاحتجاج على ذلك ، ولكن وزير الحربية صرخ بهم مهدداً وأشار اليهم بالانصراف، فانصرفوا[١٤١] •

وفي عصر ٢٠ تموز اجتمع الوزراء بحضور الملك وقرروا الاستجابة لانذار غورو الاخير اى تنفيذ شروطه حالا بما فيها تسريح الجيش • وتسلم الكولونيل تولا القرار ثم أبرق به الى الجنرال غورو في الساعة السابعة والنصف مساءاً •

لم يكد الخبر ينتشر بين الناس في صباح اليوم التالي حتى انطلقت المظاهرات في الشوارع وهي تنادي بالويل والثبور ، وكان على رأسها الشيخ كامل القصاب • وأخذ فريق من المتظاهرين يهتفون بسقوط الوزارة وباحالتها الى المحكمة العليا بتهمة الخيانة الوطنية[١٤٢] ، كما أخذ فريق آخر يهتف ضد الملك مطالباً بسقوطه مع الوزارة[١٤٣] • وانتشرت في بعض الاوساط فكرة تنحية الملك فيصل ومبايعة الامير زيد مكانه[١٤٤] •

ووقعت آنذاك مذبحة قرب قلعة دمشق كان سببها أن بعض الجنود

---

(١٤٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٢ •
(١٤١) احسان الهندي (المصدر السابق) ــ ص ٥٨ ــ ٥٩ •
(١٤٢) المصدر السابق ــ ص ٥٩ •
(١٤٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ــ ص ١٢٧ •
(١٤٤) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ١٩٣ •

الذين سرحوا من الجيش انطلقوا بتحريض من بعض زعماء الاحـــزاب يريدون الهجوم على القلعة والاستيلاء على السلاح المخزون فيها من أجل الدفاع عن الوطن ، وكان في مقدمتهم عثمان قاسم من أعضاء « العـــربية الفتاة » اذ كان يطلق الرصاص من مسدسه في الهواء تشجيعاً لهم(١٤٥) . وقد انضم اليهم الكثير من الرعاع فكسروا أبواب السجن في القلعة ، وبدأ النهب ينتشر في الاسواق القريبة . وأسرع الامير زيد ومعه مدير الامن طه الهاشمي على رأس قوة مسلحة بالرشاشات ، فأطلقـــوا النار على المتظاهرين ، فسقط منهم عدد كبير من القتلى والجرحى(١٤٦) .

ويحدثنا طه الهاشمي في مذكراته عن تلك الواقعة فيقول ما نصه :

« ... خرج عدة جنود من ثكنة البرامكة شاهرين الســـلاح بدعوى ان الحكومة استسلمت للفرنسيين . مرّوا بشارع النصر ومروا بحرس الموقع فبدلا من أن يصدوهم عن عملهم التحقوا بهم . شوّقهم المشاغبون فزاد التجمهر . هجموا على القلعة . دافع الدرك . هجموا على مستـــودع السلاح . صادروه وأخرجوا المساجين . بدأ اطلاق الرصاص في البلدة واستمر الى منتصف الليل . نهبت بعض الدكاكين . قُتل ٢٥ وجُـــرح ٣٥ شخصاً »(١٤٧) .

وبينما كانت هذه المظاهرة الدامية تجري قرب القلعة كانت هنـــاك مظاهرة أخرى تقترب من قصر الملك هاتفة هائجة ، وتقدم وفد منها يمثل الاحزاب الوطنية طالباً مقابلة الملك . وكان الملك في تلك الساعة لايزال مجتمعاً مع وزرائه عقب الانتهاء من قبول انذار غورو الاخير . فاذن الملك

---

(١٤٥) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ٢٤٨ .

(١٤٦) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٦٣ .

(١٤٧) خلدون ساطع الحصري (مذكرات طه الهاشمي)ــ بيروت ١٩٦٧ــ ج١ ص ٦١ ــ ٦٢ .

للوفد بمقابلته وانسحب الوزراء الى غرفة مجاورة • وكانت مقابلة الوفد للملك لاتخلو من غلظة وجرأة مما أثار غضب الملك بحيث لم يستطع السيطرة على أعصابه •

اختلفت الروايات في وصف تلك المقابلة وما جرى فيها • يقول يوسف الحكيم ـ وهو كان من جملة الوزراء الذين انسحبوا الى الغرفة المجاورة ـ ان أحد أعضاء الوفد دفعته الحماقة الى مخاطبة الملك بقوله : « يا صاحب الجلالة ، ان الامة لن ترضى عن التفاهم مع الفرنسيين وستحاسب المسؤولين عنه حساباً قاسياً » ، فغضب الملك من هذا القول وقال بصوت عالي سمعه الوزراء في الغرفة المجاورة : « أنا لا أُهدَّد ! أنا اقدر منكم على خدمة بلادي التي هي بلادكم ! أتريدون الحرب مع دولة قوية وليس لديكم قوة تقف في وجهها »[١٤٨] •

وهناك رواية أخرى يرويها خيرالدين الزركلي هي ان الوفد ألح للملك بوجوب مغادرة البلاد ، فصرخ الملك في وجوههم قائلا : « لقد دخلت البلاد فاتحاً ولن أخرج منها الا بالقوة • فاذا كانت لديكم القوة الكافية لاخراجي افعلوا ذلك ، ودمي ودماؤكم في الشارع »[١٤٩] •

وعلى أثر مغادرة الوفد للقصر بلغ الملك ان المتظاهرين قادمون نحو القصر وهم يهتفون بسقوطه • فأبدى اشارة خفية الى كبير حجابه ، وهو رجل حجازي أسود اللون ، فأسرعت ثلة من فرسان البدو يبلغ عددهم المائتين بالخروج الى الشارع ، وأخذوا يصنولون ويجولون على طول الشارع الكبير الممتد بين القصر وساحة المرجة وهم يهزجون[١٥٠] •

---

(١٤٨) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١٩٣ •

(١٤٩) نقلا عن : أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٥٣ •

(١٥٠) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ •

يقول ساطع الحصري : « بقينا في القصر الى ما بعد منتصف الليـل نسعى لتهدئة أعصاب الملك من جهة ، واتخاذ التدابير اللازمة لتسكين هياج الجماهير من جهة أخرى • ولم أعد الى الدار الا قبيل الفجر • واستلقيت على الفراش وأنا في غاية التعب »[١٥١] •

التحول الى الحرب :

أصبحت دمشق في ٢١ تموز هادئة بعد تلك الليلة الليلاء التي قضتها ، ولكن سرعان ما ورد خبر مفاجيء الى الملك هو أن القوات الفرنسية تزحف باتجاه دمشق • فذهل الملك من ذلك واستدعى اليه ضـــابط الارتباط الفرنسي الكولونيل كوس ليستفسر منه عن جلية الخبر • وأظهر كوس حيرة شديدة ووعد بالسفر حالا للتحقيق في الامر • ثم أنطلق خارجاً • وفي عصر ذلك اليوم عاد كوس ليقول ان سبب زحف القوات الفرنسية هو أن برقية قبول الانذار التي أرسلها الملك بالامس لم تصـــل الى الجنرال غورو في الوقت المحدد بل تأخرت نصف ساعة من جراء قطع العصابات خطوط التلغراف • واقترح كوس ايفاد أحد الوزراء الى غورو للتفاهـــم معـــــه •

وقع الاختيار على ساطع الحصري للسفر الى عالية للتفاهم مع غورو • وركب الحصري سيارة مكشوفة يصحبه مرافق الملك جميل الالشـــــي والكولونيل تولا • وكان الطريق مزدحماً بالسيارات وقوافل البغال والاباعر وبقطعات الجنود • ولم يصل الحصري الى عالية الا في صباح اليوم التالي ـ أي في ٢٢ تموز ـ وقد جرت بينه وبين غورو محاورة طويلة ، وتبين للحصري أن غورو مصمم على احتلال سوريا بأية حجة وعلى أي حال • فقد قال غورو للحصري : « انا لم نعد نثق بكم ••• ومن واجبنا أن نطلب

---

(١٥١) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٢٧ •

منكم ضمانات جديدة » ، ثم أخرج من ادراج مكتبه مذكرة تتضمن ضمانات ثمانية وبدأ يقرأها على الحصري • ولم يجد الحصري أمامه سوى أن يطلب من غورو تأجيل الزحف قليلا لكي يتمكن من العودة الى دمشق ومباحثة الملك بشأن الضمانات الجديدة • ولم يوافق غورو على التأجيل الا بعد تمنع وتردد •

وجد الحصري صعوبة في العودة الى دمشق بالسرعة المطلوبة ، ولعل الفرنسيين عرقلوا عودته لغاية في أنفسهم • ولم يصل الحصري الى دمشق الا في ساعة متأخرة من الليل • وفي الصباح التالي عقد الوزراء اجتماعاً بحضور الملك للنظر فيما جاء به الحصري من أخبار • وبينما كان الوزراء مجتمعين وصل الكولونيل كوس ومعه برقية مستعجلة من غورو مؤرخة في الساعة العاشرة من صباح ٢٢ تموز يقول فيها ان القوات الفرنسية مضطرة لاعتبارات عسكرية أن تستمر في زحفها حتى تصل الى خان ميسلون • وهنا ادرك الملك ووزراءه أن ليس أمامهم سوى طريق الحرب •

وانطلقت صيحة الحرب في شوارع دمشق وساحاتها • واستدعى الملك الشيخ كامل القصاب وقال له : لقد قررنا الدفاع كما أردتم فأرنا همتك ونشاطك وجئنا بالقوى الوطنية التي تقول انها مستعدة للقتال • فأجابه القصاب قائلا : ما دمت قد قررت الدفاع فأنا أعدك بتجنيد عشرة آلاف رجل يحمل البندقية حتى المساء • ثم خرج القصاب يجوب محلات دمشق وينادي بالبدار الى الحرب • وبعد فترة قصيرة عاد القصاب وهو يحمل في ذيل جبته كمية من خراطيش البنادق والمسدسات من انواع مختلفة ، وقدمها الى الملك يقول : « اشتريت هذه الرصاصات من أحد الدكاكين في المدينة • من قال لكم انه ليس في البلاد ذخيرة ؟ » • فضحك ياسين الهاشمي الذي كان حاضراً وقال بمرارة : « أبمثل هذا العتاد وهؤلاء المتطوعين الذين يظنون الحرب كالمظاهرات والنزهات يمكننا أن نصد

الجيش الفرنسي سيما وحـــرب العصابات تختلـــف عن الحـــرب النظامية »[١٥٢] ٠

وذهب الملك الى الجامع الاموي فارتقى المنبر وخطب في الناس قائلا : « اردت أن أرد عنكم زحف جيش الاعداء باجابة مطالبهم فلم يرتدوا ٠ فان كنتم في حاجة الى بلدكم فاخرجوا للدفاع عنه »[١٥٣] ٠

وأعدت ادارة السكك قطارات يتحرك واحد منها في كل ساعة لحمل المتطوعين الى الجبهة في خان ميسلون ٠ وتهافت المتطوعون الى القطار وهم يحملون ما لديهم من بنادق او سيوف او مسدسات أو عصي ، كما تطوع عدد من النساء لخدمة الجرحى ولبس بعضهن الملابس العسكرية وكانت في طليعتهن الآنسة نازك العابد التي كانت برتبة رئيس فخـري فـي الجيش العربي ٠

يقول جميل بيهم : ان المتطوعين انضموا الى الجيش بدافع الحماس والواجب الوطني غير أن اكثرهم كانوا لايحسبون حساب الحرب وأهوالها ، فكان يكفي أحدهم ان يتجهز بالبندقية ليشعر اعتماداً على شجاعته بأنـه سيكون من الابطال ٠ فهم كانوا يتصورون كأنهم في نزهة عسكرية ممـا حمل بعضهم من المولعين بالنارجيـــلة أن يصحبوها معهـــم الى تلك النزهة[١٥٤] ٠

قرر يوسف العظمة الخروج بنفسه الى الجبهة ٠ وذهب لتوديـــع الوزراء ، وانتحى بساطع الحصري في زاوية من القاعة وكلمه بالتركيـــة قائلا « أنا ذاهب ! اني اترك ليلى ـ يقصد ابنته ـ أمانة لديكم أرجوكم

---

(١٥٢) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص ٢٥٢ ٠

(١٥٣) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(١٥٤) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ـ ص ١٦٧ ٠

لاتنسوها » • وتبين من كلامه أنه كان مصمماً على ان لايعود من الجبهة حيـــاً •

وذهب يوسف العظمة لتوديع الملك ، وجرى بينهما حوار له مغزاه البعيد ننقله هنا بنصه عن أحمد قدري الذى كان حاضراً الحوار :

يوسف : أتيت لتلقّي أوامر جلالتكم •

فيصل : بارك الله فيك ، اذن أنت مسافر لميسلون ؟

يوسف : نعم يامولاي اذا كنتم لاتودون قبول الانذار الاخير •

فيصل : ولماذا كنت تصر على الدفاع بشدة ؟

يوسف : لانني لم أكن أعتقد بان الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والانسانية ويقدمون على احتلال دمشق ، وكنت أتظاهر بالمناورة للمقابلة بالمثل •

فيصل : وهل يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الـــدم •

يوسف : اذن فهل يأذن لي جلالة الملك بأن أموت ؟

فيصل : بعد أن انتهت الامور الى هذا الحد يجب ان نموت جميعاً شرفاء ، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً •

يوسف : اذن فأنا أترك ابنتي الوحيدة ليلى لدى جلالتكم[١٥٥] •

معركة ميسلون :

بدأت المعركة في ميسلون حوالي الساعة الخامسة مـــن صباح ٢٤ تموز واستمرت حتى الظهر ، ويُقدر عدد الذين اشتركوا فيها من العرب بنحو ثلاثة آلاف ، بعضهم من الجنود النظاميين والباقي من المتطوعين • وهي في الواقع لم تكن معركة ، بل كانت بالمذبحة أشبه • فقد كان لدى القوات الفرنسية عشر طائرات والكثير من الدبابات والمدافع[١٥٦] بينما لم يكن

---

(١٥٥) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٣ •

(١٥٦) احسان الهندي (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٠ •

لدى العرب الا القليل من المدافع ولم يكن العتاد الذي وزع عليهم من عيار الاسلحة التي في أيديهم(١٥٧) .

أبدى العرب صموداً في القتال لايستهان به . وقُتل منهم أربعمائة رجل عدا الجرحى وتلك نسبة عالية في جيش مقاتل . وكان من بين القتلى عدد غير قليل من رجال الدين الذين اعتبروا القتال في ميسلون جهاداً في سبيل الله .

كان المفروض في يوسف العظمة بصفته وزيرا للحربية أن يكون بعيدا عن ساحة القتال ، ولكنه آثر المشاركة الفعلية فيه لانه كان يريد أن يموت . وفي الساعة العاشرة والنصف أصابته صلية رشاش من دبابة فرنسية فسقط على الارض يتخبط بدمائه .

أثبت هذا الرجل بموته أنه يختلف عن بعض الناس الذين يتحمسون عند الامان غير أنهم في ساعة الخطر يهربون او يستسلمون . ومن الجدير بالذكر هنا ان فيصل خصص فيما بعد راتباً شهرياً لابنة يوسف العظمة ، وظلت البنت تسلم الراتب باستمرار حتى وفاة فيصل في ١٩٣٣.(١٥٨).

عندما انتشر خبر مقتل يوسف العظمة بين الجنود انتشرت فيهم روح الهزيمة ، فبدأوا ينسحبون سريعا نحو دمشق . ومما يحز في النفس أن أهل القرى الواقعة بين ميسلون والمزة انثالوا على الجنود المنسحبين ينهبونهم .

دخل الجيش الفرنسي دمشق في الساعة الخامسة من عصر ٢٥ تموز، وكان في مقدمته قائد الجبهة الجنرال غوابيه وهو راكب جواده . وكانت أسواق دمشق حينذاك مقفلة ، وقد وقف الناس على أرصفة الشوارع يرقبون مسيرة الجيش بصمت ووجوم . وفي ١ آب وصل غورو الى

(١٥٧) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص ٢٦٦ .
(١٥٨) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٥٩ (حاشية) .

دمشق حيث دخلها في موكب عظيم • ويقال انه توجه خالا الى قبر صلاح الدين الايوبي • فوقف على القبر يقول : « ياصلاح الدين انت قلت لنا في ابان حروبك الصليبية انكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا اليه وها أننا قد عدنا ، فانهض لترانا هنا في سوريا »(١٥٩) •

أبدى بعض مشايخ البدو شيئاً من الخسة عقب المعركة • فأحدهم كان قد تسلم من خزينة الجيش العربي قبيل معركة ميسلون خمسمائة جنيه لكي يستعين بها على قتال الفرنسيين ، ولكنه لم يكد يلمح الجيش العربي مهزوماً حتى انثال هو وأتباعه على الجنود المنسحبين يسلبونهم سلاحهم ومتاعهم(١٦٠) وقد فعل مثل هذا نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة ، فهو قد تسلم من فيصل في شهر آب ١٩١٨ ثلاثين ألف ليرة ذهب(١٦١) ، ولكنه عند دخول غورو الى دمشق خرج لاستقباله وانضم الى موكبه مع رجاله ، وشوهد في الموكب وهو شاهر سيفه(١٦٢) •

طرد الملك :

كان الملك فيصل أثناء معركة ميسلون في مقر القيادة العسكرية في الهامة ، وحين علم بنتيجة المعركة انسحب هو وحاشيته الى الكسوة وهي محطة للسكة الحديدية تقع على بعد اثني عشر ميلا الى الجنوب الشرقي من دمشق •

أرسل فيصل يستدعي الوزراء اليه في الكسوة ، فوصلوا كلهم ماعدا اثنين هما علاءالدين الدروبي وفارس الخوري ، كما وصل اليها نحو خمسين شخصاً من زعماء المظاهرات كالشيخ كامل القصاب وعثمان قاسم

(١٥٩) احسان الهندي (المصدر السابق) ــ ص ٢٠١ •
(١٦٠) المصدر السابق ــ ص ٢٠٩ •
(١٦١) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ ص ٢٠١ •
(١٦٢) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ ص ٦٥٨ •

وشكري القوتلي • واتخذ الجميع عربات القطار مسكناً لهم ، ولكن بعضهم لم يتحملوا البقاء في الكسوة فركبوا قطاراً كان على أهبة السفر الى درعا فحيفا ، وكان من بينهم عبدالرحمن الشهبندر وكامل القصاب •

كان المتوقع من فيصل في تلك الظروف ان يخرج من سوريا نهائيا ليعلن للعالم ما حل به من ظلم على يد فرنسا التي تدعي أنها أم الحرية وحقوق الانسان ، ولكن فيصل لم يفعل ذلك بل آثر أن يعود الى دمشق ليتفق مع الفرنسيين ويرضخ لارادتهم • يقول ساطع في وصف حالة الملك النفسية في الكسوة ما نصه :

« وصل الملك فيصل مع حاشيته بالسيارات مساءاً قبل غروب الشمس، وقد كان في حالة شاذة تختلف عن حالاته المعتادة اختلافاً كبيراً ، فجميع حركاته وسكناته كانت تدل على أنه في حالة تردد شديد وقلق عظيم • ولاح لي من تتبع هذه الحركات أنه كان مشغول اللب بشيء يميل الى اخفائه عنا • فقلت لنفسي : ربما كان لايزال يأمل في التفاهم مع الفرنسيين وينتظر ورود بعض الاخبار التي تساعد على تحقيق هذا التفاهم • وقد تبين لي بعد قليل أن ظني كان مطابقاً للحقيقة والواقع • انه كان قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين وأرجأ جميع قراراته الى حين وصول أخبار هذه المقابلة • ولهذا كان ينتظر هذه الاخبار بفارغ الصبر ، ويتجنب التكلم وابداء الرأي في أي موضوع كان »(١٦٣) •

في مساء ٢٥ تموز وصلت الى الملك برقية من نوري السعيد تبشره بحصول اتفاق موقت مع الفرنسيين ، فتفاءل الملك بها واسترسل في تفائله استرسالا غريباً(١٦٤) • وفي اليوم التالي وردت اليه أخبار شفهية تؤيد مضمون البرقية ، فزاد ذلك من تفاؤله وقرر اقالة الوزارة الأتاسية وتشكيل

---

(١٦٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ •
(١٦٤) المصدر السابق ـ ص ١٦٥ •

وزارة جديدة من وزراء معروفين بتأييدهم للانتداب الفرنسي • وقد اوعز بتشكيل هذه الوزارة فعلا ، فتألفت من علاءالدين الدروبي رئيساً ، وعبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى ، وعطاء الايوبي وزيرا للداخلية، وبديع المؤيد للمعارف ، وجميل الالشي للحربية ، وجلال الدين زهدي للعدلية ، وفارس الخوري للمالية ، ويوسف الحكيم للنافعة •

عاد الملك الى دمشق فوصلها قبيل منتصف الليل • وكان لايـــزال متفائلا يظن ان الفرنسيين سيرحبون به ويرضون بالتعاون معه • ولكنـــه فوجىء في الصباح بأنهم لايريدونه وانهم يعتبرونه المسؤول الاول عما جرى من اضطرابات دموية • وقد طلبوا منه بكل صلافة أن يغادر دمشق في خلال يومين ، ووضعوا تحت تصرفه قطاراً خاصاً لنقله الى درعا • احتج الملك على ذلك احتجاجاً شديداً دون أن يجد لاحتجاجه أي صدى • فاضطر الى ركوب القطار ، وقد تحرك القطار به في الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تمـــوز •

لم يكن في وداع الملك في محطة دمشق سوى عدد قليل من الناس ، وقد صحبه في القطار ساطع الحصري وعوني عبدالهادي واحسان الجابري وتحسين قدري وأحمد قدري • وحين وصلوا الى درعا اتخذوا عربـــات القطار مسكناً لهم على نحو مافعلوا في الكسوة •

وجاء رؤساء العشائر الحورانية للترحيب بالملك ، وأخذ هو يحرضهم على حرب الفرنسيين فكان جوابهم له : انهم مستعدون لحرب الفرنسيين على شرط الحصول على تأييد من الانكليز(١٦٥) •

وفي اليوم التالي ــ أي في ٢٩ تموز ــ وصلت الى الملك برقية مـــن علاء الدين الدروبي يسترحم منه أن يغادر درعا حفظاً لبلاد حوران مـــن

---

(١٦٥) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ •

المصائب والخراب • وفي الوقت نفسه ألقت طائرة فرنسية منشوراً موجهاً الى عشائر حوران يتضمن انذاراً لهم أمده عشر ساعات بأن يكلفوا فيصل بمغادرة درعا ، واذا امتنع عن ذلك يجب ارجاع القطار به الى دمشق ، والا فان بلادهم ستصبح هدفاً للقنابل • فاضطر الملك الى مغادرة البلاد متوجهاً مع حاشيته الى حيفا •

بعد الطرد :

كان فيصل عند مغادرته سوريا في حالة نفسية وصحية سيئة للغاية • يقول ابراهيم نجار : « كان فيصل ضعيف البنية من صغره حتى أنهم كانوا يقولون عنه بأنه كان مصدوراً ، وكثيراً ماخشوا عليه هذا الداء • فلما صدم هذه الصدمة العنيفة الهائلة في دمشق أثرت في نفسه ورئتيه تأثيرا عظيماً جدا ، حتى أن الذي كان يرى فيصلا بعد مبارحته العاصمة السورية كان يعتقد أنه ينظر الى تمثال من شمع • فلو أن طبيباً فصده في كل عروقه لما نزلت منه نقطة دم ••• »(١٦٦) •

وصل فيصل الى حيفا في ١ آب ١٩٢٠ • يقول المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل في مذكراته : « قررت أن استقبل فيصل على الاراضي الفلسطينية لا كلاجيء مغلوب على أمره بل كصديق محترم• ولذا أمرت فصيلة من الجند لاخذ التحية له في المحطة عند وصوله ثم تقدمت مع السر رونالد ستورز لاستقباله • وقد قيل لي بعد ذلك ان الملك فيصل بعد تلك الايام العصيبة التى مرت به لم يدر هل كان أولئك الجنود قد جاؤوا لالقاء القبض عليه أم لتكريمه • وحين علم بأنهم جاؤوا لاستقباله استقبالا عسكرياً زال القلق عنه »(١٦٧) •

---

(١٦٦) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ •
(167) Samuel (Memoirs) London 1945 – P. 158 – 159.

نزل فيصل في منزل المس نيوتن وهي سيدة بريطانية معروفة بعطفها على العرب • وأبرق الى أبيه في مكة يطلب منه مالا ليتمكن من السفر الى أوربا ، فأرسل اليه الحسين حوالة على المصرف العثماني بخمسة وعشرين ألف جنيه •

وفي ٩ آب كتب فيصل من حيفا الى ابيه رسالة بخط يده يشرح له فيها أسباب الكارثة التى حلت به ويبرر عمله في فصل سوريا عن الحجاز ، حيث قال : اني كنت أعتقد ان الواجب يقضي علينا بالتساهل مع الدول بالنظر الى اطماعها وضعفنا ولكن الذي حال دون ذلك مبدأه ـ يقصد مبدأ والده الحسين ـ القائم على استقلال البلاد العربية من غير قيد أو شرط، ومعارضة شبان العرب لكل تساهل ، وقد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكنني لم أقدم على ذلك خشية « اللوم التاريخي » ، وزاد الوضع سوءاً ان الاحزاب لم تكن تدرك حقيقة ضعف البلاد وقوة الاعداء ، ثم تأزم الوضع وحشد العدو قواته بينما الامة واقفة تنظر اليه بعينيها وهي جامدة كأنها لاعلاقة لها بما يجري • والذى يوجب الاسف ان الامة قوالة غير فعالة ، فأهل البلاد لم يقفوا موقفاً ايجابياً من التجنيد الاجباري فكان الفارون من التجنيد أكثر من المتطوعين ، ولم يقبل الاهالي على دفع المال لصندوق الحكومة لكي تتمكن من العمل ، فكان الاقبال على دفع المال وعلى التجنيد بحكم العدم • ولهذا قبلنا بشروط غورو ولكن بعض الاحزاب المتهوسة قامت وحرضت الناس على الثورة في حين كان العدو يتربص بنا الدوائر••(١٦٨) •

زار صموئيل فيصل في منزل المس نيوتن وأبلغه برقية وصلته من وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول فيها : « ان بريطانيا تأمل أن

(١٦٨) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨ •

تلوح الفرصة في المستقبل كي تظهر له أن موقفه الودي تجاهها لن يُقابل بالنسيان » •

كان صموئيل قد اقترح على فيصل العودة الى الحجاز ، ولكن فيصل أصر على السفر الى سويسرا لمراجعة عصبة الامم • وفي صباح ١٨ آب غادر حيفا بالقطار متجهاً الى مصر • وحين وصل الى محطة القنطرة الواقعة على ضفة قناة السويس لم يجد أحداً في استقباله من قبل الجنرال اللنبي أو الحكومة المصرية ، فاضطر ان يجلس على أمتعته في انتظار تحويل القطار على نحو ما يفعل أي مسافر عادي(١٦٩) • وهناك جاء اليه عبدالملك الخطيب معتمد أبيه الحسين في مصر ، فأبلغه تعليمات أبيه ووصاياه ، كما أبلغه لوم أبيه على ما فعل في سوريا من فصلها عن الحجاز • فرد عليه فيصل قائلا : انه مازال يرجو أن يتوصل الى ترتيب مع الفرنسيين(١٧٠) •

غادر فيصل بور سعيد في ٢٠ آب على باخرة تجارية قاصدا ايطاليا ، وكان معه نوري السعيد وساطع الحصري واحسان الجابري وتحسين قدري والامير زيد • فوصل الى نابولي في ٢٥ منه • ومن هناك سافر الى الشمال بغية الذهاب الى سويسرا • وحين وصل الى حدود سويسرا جاء اليه حداد باشا معتمد أبيه في لندن فأبلغه رسالة شفهية من لويد جورج يقول فيها : اني الآن في سويسرا مشغول باجتماعات مهمة ، وحضورك يربكني ، فأرجوك أن تبقى في ايطاليا • فاضطر فيصل الى البقاء في شمال ايطاليا حيث نزل في فندق قريب من بحيرة كومو •

مكث فيصل في ايطاليا زهاء ثلاثة أشهر ، وقد التحق به هناك عادل أرسلان ورياض الصلح ، وأخذ هو وحاشيته يبذل الجهود والاموال في سبيل عرض القضية السورية على الرأي العام الاوربي • ويقال أنهم دفعوا

---

(169) Storrs (Orientations) — London 1939 — P. 448.

(١٧٠) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٧١ •

مائة ليرة ذهب الى موسوليني لكي يساند القضية السورية ، وكان موسوليني يومذاك صحافياً يصدر جريدة اسمها « شعب ايطاليا »[١٧١] .

وأخذ فيصل يسعى للاتصال بالاتراك بغية التعاون معهم ، فأوفد ساطع الحصري الى اسطنبول سراً لهذا الغرض . وقد بذل الحصري جهوداً كثيرة للتفاهم مع الكماليين دون جدوى[١٧٢] .

وبينما كان فيصل وحاشيته يبذلون جهودهم في كل ناحية لعلهم يجدون مخرجاً لوضعهم اليأس ، وصلت اليه في ١١ تشرين الثاني برقية من اللورد كرزن تدعوه الى زيارة لندن ، فكانت تلك الدعوة له بمثابة الفرج بعد الشدة . وقد تم الاتفاق معه في لندن على تنصيبه ملكاً على العراق ـ كما ذكرناه في الجزء السادس من هذا الكتاب . ويدعي فيلبي استناداً على بعض الوثائق أن عرش العراق انما قُدم لفيصل كجزء من المكافأة على موافقته على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[١٧٣] . ولا ندري مبلغ هذا الادعاء من الصحة ! .

رأي غريب :

للصحافي اللبناني اسكندر الرياشي رأي غريب في احداث سوريا التي سبقت معركة ميسلون ، وهو رأي يصعب علينا تصديقه انما هو على اي حال جدير بأن يطلع القاريء عليه .

كان الرياشي حينذاك يعمل في الاستخبارات الفرنسية ـ كما اعترف هو بذلك . وهو يقول عن تلك الاحداث أنها كانت مؤامرة فرنسية وقد دُبرت بأموال فرنسية من أجل الاطاحة بفيصل . ويذكر الرياشي ان

---

(١٧١) اندرياو (المصدر السابق) ـ ص ٢٠ .
(١٧٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٧٨ ـ ١٩٤ .
(١٧٣) جريدة (الاهرام) المصرية ـ في عددها الصادر في ١٨ حزيران ١٩٦٨ .

الفرنسيين كانوا في بداية الامر قد عرضوا على فيصل رشوة كبيرة مقدارها نصف مليون ليرة ذهب ، كما عرضوا على صاحبه نوري السعيد مائة الف ليرة ، ولكنهما رفضا الرشوة • واضطر الفرنسيون أن يبحثوا في دمشق عن أشخاص مستعدين لقبض الرشوة من بين الرجال الذين كانوا يملكون زعامة الشارع ويحمسون الجماهير ، وأسرع هؤلاء ينادون بالحـــرب ويثيرون رجل الشارع لوطنيته وكرامته ، فهبّت على سوريا تحت تأثيرهم روح الاستشهاد والفداء ، وأخذت الحماسة تطغى على كل حساب ، حتى صار أكثر الناس تعقلا ينادون بالحرب متجاهلين ما كانوا يعرفونه من أن هذه الحرب ستنتهي بكارثة وان القائلين بها يحققون ما يتمناه الفرنسيون • ويقول الرياشي أيضاً ان فيصل وأعوانه كانوا يسعون حتى آخر ساعة لتجنب المعركة مع الفرنسيين وهم يعرفون حق المعرفة انها اذا وقعت فسوف يخسرونها لتفاوت القوى بين الجانبين تفاوتاً لايمكن تجاهله ، ولكن المؤامرة الفرنسية غلبتهم •

يقول الرياشي : « كنا في المكتب الثاني للقائد الفرنسي نراقب نجاح هذه المؤامرة على الشريف وعرشه وعلى استقلال سوريا ، ونعرف أنــه سيضطر الى حشد جيوشه ومتطوعيه ، فيكون هو البادىء المعتدي ويكون الفرنسيون في حالة الدفاع عن النفس ، يساعدهم على ذلك اولئك الساسة الذين ملأوا جيوبهم من ذلك الذهب الذى كان الجنرال لاموت قد أعده »•

ويصنّف الرياشي الزعماء الذين أثاروا الجماهير في دمشق الـى فريقين : فريق مخلص كان يدعو الى الحرب عن استشهاد وطني وفدائية مدهشة ، من أمثال يوسف العظمة ، ولكنهم كانوا قليلين بالنسبة الى الفريق الثاني الذى يعمل بالتواطوء مع الفرنسيين(١٧٤) •

---

(١٧٤) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦•

فجوة الشعب والحكومة :

كانت الفجوة بين الشعب والحكومة في سوريا في العهد العثماني كبيرة جداً على نحو ما كانت في جميع البلاد الشرقية • ولكن هذه الفجوة اختفت فجأة في بداية العهد الشريفي ، وهو العهد الذى اشتد فيه الحماس الشعبي وأخذ الحكام ـ وفي مقدمتهم فيصل ـ يحاولون التقـــرب من الشعب والاختلاط به والاستماع الى صوته •

يجب أن لاننسى ان تلك فترة لايمكن ان تدوم طويلا ، ولا بد أن تعود الفجوة الى الظهور عاجلا أو آجلا • ان المرحلة الاجتماعية التى كان يعيش فيها الشعب السوري لاتسمح ببقاء تلك الفترة طويلا • فهناك عوامل كثيرة من شأنها بعث التذمر في أوساط الشعب تجاه الحكومة • وفيما يلي نذكر أهم تلك العوامل :

أولا : ان التجنيد الاجباري الذي فرضته الحكومة على المواطنين كان من أهم عوامل التذمر طبعاً • فقدكان الناس في العهد العثماني ينفرون من التجنيد نفرة لا حَدَّ لها ويحاولون الفرار منه بكل وسيلة تيسر لهـم ، وكان أكبر أسباب فرحهم بزوال الحكم العثماني أنهم تخلصوا من بـــلاء التجنيد ، ولكنهم وجدوا بعد فترة قصيرة ان ذلك البلاء قد عاد اليهم من جديد • ليس من السهل على الناس ان يتحولوا من بغض التجنيد الى حبه بمجرد سماعهم للاناشيد والخطابات الحماسية •

يُروى أن مظاهرة جاءت الى قصر الملك فيصل وهي تنادي : « الى الحرب ، الى الحرب » • فأمر الملك مرافقه بأن يأخذ المتظاهرين الى الثكنة لتجنيدهم وتدريبهم على القتال ، غير أنهم لم يكادوا يسيرون في طريقهم نحو الثكنة حتى صاروا يتسللون الى بيوتهم • ولما وصل المرافق الى الثكنة لم يجد معه منهم سوى نفر محدود •

ثانياً : لم تكد تمر مدة قصيرة على بداية الحكم الشريفي حتى بدأت المحسوبية والشفاعة والوساطة تلعب دورها في اختيار الموظفين على نحو ما اعتاد الناس عليه في العهد العثماني • وهذا أمر طبيعي في مجتمع تسوده قيم القبلية والقرابة والجيرة والشهامة وما أشبه ، يقول الشيخ رشيد رضا رئيس المؤتمر السوري : « ••• وما أبرىء الحكومة من عيب محاباة الكبراء وقبول شفاعتهم في طلاب وظائفها بدءاً وترقية ، وكان أكبر الضعف في الوزراء والرؤساء بازاء الملك فيصل وعشيرته والمقربين منه ، فان هؤلاء قد اعتادوا في عهد سلطتهم العسكرية المطلقة أن يتصرفوا في الاعمال والاموال بما شاؤوا وكيف شاؤوا ، فصعب عليهم بعد اعلان الاستقلال ان يتقيدوا بقانون ونظام ، ولم يكن للوزراء من الشجاعة الادبية والتكافل ما يؤهلهم لتقييدهم وتعويدهم الوقوف عند حدود سلطتهم الرسمية ، اذ كانوا هم قد اعتادوا في عهد الترك أن يميلوا مع أهواء الرؤساء والكبراء ، ومع هذا أمكن لحكومة الاستقلال ان تقيد الملك براتب محدود لم يكن راضياً به على كثرته ، وكان يستهلك راتب كل شهر في أوله وقبل بدء هلاله ، ويطلب من وزارة المالية سلفة بعد سلفة فلا ينال كل ما يطلب ولا أكثره بسهولة • وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها••»(١٧٥)

ثالثاً : كان الاعيان والوجهاء قبل تتويج فيصل قد اعتادوا أن يقابلوه ويتحدثوا اليه متى وكيف يشاؤون ، وكان هو يزورهم في بيوتهم ويحادثهم كما يحادث الرجل أصحابه • فلما تم تتويجه عيّن احسان الجابري رئيساً للديوان الملكي باسم « رئيس امناء الملك » ، وكان هذا الرجل موظفا في البلاط العثماني سابقاً فشرع يعمل على تطبيق قواعد التشريفات السلطانية على بلاط الملك فيصل ، ووضع القيود على مقابلاته تنفيذا للقاعدة الدستورية التي تجعل السلطة التنفيذية في يد الحكومة ، فاحدث ذلك كثيرا من القيل

---

(١٧٥) يوسف ايبش (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٨ •

والقال[١٧٦] . فان من طبيعة البشر آن كل فرد منهم يحسب نفسه أولى بالتشريف من أقرانه ، ورأيه أفضل الآراء ، ولو سمح للناس جميعا بمقابلة الملك بلا قيود لاصيب الملك بالانهيار العصبي لكثرة الزحام عليه والصراخ من حوله . ولكنهم حين يُمنعون من مقابلة الملك يتذمرون . وهذا أمر يصدق على صغار المسؤولين كما يصدق على الملك .

رابعاً : كان تعيين ساطع الحصري وزيراً للمعارف من أسباب التذمر في أوساط العامة ورجال الدين ، فهؤلاء كانوا يكثرون من الطعن على الحصري ويزعمون انه يريد اضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات على التهتك . يقول الشيخ رشيد رضا : ان رجال الدين طالما راجعوه قبل اعلان الاستقلال وبعده متوسلين به الى السعي معهم لدى فيصل بعزله ، وكان هو ينصح لهم بالتأني لانه لايحب ان يتعود الاهالي على الافتيات عاى الحكومة ولا سيما الطامعون في مناصبها[١٧٧] .

خامساً : كان فيصل يعطف على العراقيين عطفا خاصا لان كثيرين منهم قاتلوا تحت رايته في الثورة العربية ، ولهذا عينهم في مختلف وظائف الدولة ومناصبها العالية . قيل ان مجموع العراقيين الذين كانوا في خدمة الحكومة آنذاك بلغ نحو اربعمائة موظف وضابط . وهذا لابد أن يؤدي الى انتشار التذمر بين السوريين ، ولا سيما الذين لم يحصلوا على الوظائف التي يطمحون اليها ، وصاروا ينادون بمبدأ « سوريا للسوريين » . يقول محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » : ان الناس في الشام تأففوا من السياسة التى سار عليها فيصل في الاعتماد على الغرباء ـ يقصد العراقيين ـ ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكريها ، وأخذوا ينصحون له سراً بالعدول عن هذه السياسة[١٧٨] .

---

(١٧٦) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص ١٨٨ .
(١٧٧) يوسف ايبش (المصدر السابق) ـ ص ٣٠١ .
(١٧٨) محمد كرد علي (خطط الشام) ـ دمشق ١٩٢٥ ـ ج٣ ـ ص ١٧٠ .

ويذهب الى مثل هذا القول أحد العراقيين الذين كانوا في سوريا حينذاك حيث يقول ما نصه : « ومما هو جدير بالذكر ان البعض من السوريين كانوا قد بثوا في سوريا روح الامتعاض من العراقيين لاشغال بعض رجال العراق مناصب كبيرة في الحكومة السورية ، وكانت قد بلغت الوقاحة بهؤلاء المفسدين الى درجة جعلتهم يصرحون بوجوب تنحي العراقيين عن الوظائف في سوريا الامر الذي أوجب شيئا من التباغض والنفاق بين السوريين والعراقيين »(١٧٩) .

تقييم فيصل :

ان السياسة التي سار عليها فيصل أثناء حكمه في سوريا لقيت انتقادات شديدة من بعض الرجال الذين خالطوه وعرفوه . وفيما يلي نستعرض أقوال أربعة منهم هم : محمد كرد علي وجميل بيهم وعبدالرحمن الشهبندر وابراهيم سليم نجار :

(١) يقول محمد كرد علي عن فيصل : « انه لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين لما وقعت ميسلون »(١٨٠)

(٢) يقول جميل بيهم : انه كان قليل الخبرة بالسياسة مترددا يتأثر بحاشيته ، ويداري الاحزاب ولو تطرفت ، ويتحاشى الرأي العام ، ولذلك فقد مشى مع التيار بدلا من ان يوجهه على ما يريد شأن الحاكم القوي . ثم يقارن جميل بيهم بين سياسة فيصل في سوريا وسياسته في العراق فيقول: « أما في العراق حيث كان الزمان قد علمه ما لم يعلم فانه كان على خلاف ذلك : كان ملكا حازماً موجهاً ، واذا اضطر لمماشاة الرأي العام فقد كان يلتزم السكينة عند اشتداد العاصفة ثم يمضي قدماً بعد سكونها غير مبال ولا

---

(١٧٩) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .
(١٨٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ٢٦٤ .

متردد • وكان هنالك يتمتع بهيبة قوية وبكلمة نافذة على الرغم من صلابة عود العراقيين وقوة شكيمتهم ، وعلى الرغم من انهم قريبي الانفعال لايرضون بالموجود ، واذا غضبوا انتفضوا ، وجنحوا الى الثورة اذا استطاعوا اليهـــا سبيلا »(١٨١) •

(٣) يقول عبدالرحمن الشهبندر : « ولكن دعاية شنيعة بُثّت على فيصل عند عودته من باريس ، فتراجع من غير نظام لانه كان حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة • ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين انصارا يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه »(١٨٢) •

(٤) يقول ابراهيم سليم النجار : « فلقد ملأ المغرضون البلاد اشاعات قبل وصوله بأن فيصلا طمعاً بالعرش باع سوريا الى الفرنسويين (هكذا) • وكان المتطرفون من السوريين ، وخصوصاً من أهل الشام ، هم الذيـــن أشاعوها ، فلم تسهل مهمة الرجل الذى كان رطب العود في السياســـة • والظاهر أنه خشي أن تؤثر هذه الاشاعات فى سمعته ، فبدلا من أن يضرب بها عرض الحائط أو ينفيها بحزم وقوة ، وان يقنع السوريين بأن ما حصل عليه هو أعظم ما كان في الامكان بلوغه وانه ليس في وسع أحد أن ينال أعظم منه ، أخذ في خطبه يجهر بوطنيته ويغالي بالاستقلال الذى (يُؤخذ ولا يُعطى) ، ويجاري المتطرفين ظناً منه أنه يقدر أن يرضيهم بهذه المجاراة فأدخل بعضاً منهم في الحكومة اسكاتاً لهم مرغما على هذا الادخال • ثم فكر هؤلاء أنهم يقدرون ان يضعوا فرنسا والدول أمام الامر الواقع فقـــرروا اعلان ملكيته في ٩ آذار من تلك السنة دون أن يكون في الحوادث ما يوجب

---

(١٨١) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) — ص ١٨١ •

(١٨٢) مجلة (المقتطف) — في عددها الصادر في تشرين الاول ١٩٣٣ •

أو يدعو الى اعلان هذه الملكية ، أو تستشار بها دولة من الدولتين الانكليزية أو الفرنسوية ».

ويقول ابراهيم سليم النجار أيضاً : « لقد كان يجب على الامير فيصل في بدء سنة ١٩٢٠ أن يعرف جيداً ما يريده . فاما انه كان يريد حرب الاستقلال فيستعد لها استعداداً حقيقياً ينيله مراده منه ، واما أنه يريد العمل السلمي بالاتفاق مع الحكومة المنتدبة فيلجأ الى الحزم مع المتطرفين ، ويظهر بمظهر الحاكم الذى يعرف ما يريده ويعرف السبيل الذى يسلكه للوصول اليه » .

ويقارن النجار بين ما فعله المتطرفون في سوريا وما أرادوا أن يفعلوه في شرقي الاردن عندما لجأوا اليه عقب معركة ميسلون ، فيقول انهم حاولوا دفع الامير عبدالله الى مثل ما دفعوا اليه أخاه فيصل من قبل ، ولكنه وقف تجاههم موقفاً حازماً ، وكان ذلك اكبر سبب في بقائه في عمان[١٨٣] .

* * *

انا حين نفحص هذه الاقوال في ضوء ما نعرفه من طبيعة الانسان والمجتمع البشري نجد انهم نظروا الى جانب من الحقيقة وأهملوا الجانب الآخر . ان فيصل لو كان في سوريا صارماً عنيفاً تجاه الجماهير يضربهم بالرصاص ويسلط عليهم سيف الارهاب ، على نحو ما يفعل العتاة من رجال السياسة ، لصار لعنة في الافواه ، ولاتهمه الناس بالعمالة للاستعمار وخيانة الوطن ، ولرأينا هؤلاء الذين انتقدوه على لينه ينتقدونه على شدته ويلعنونه . وقد فطن فيصل الى ذلك حين قال في رسالته الى أبيه : « قد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكنني لم اقدم على ذلك خشية اللوم التاريخي » .

لقد فشل فيصل في سياسته ولكنه نجح من ناحية أخرى ، حيث صارت

---

(١٨٣) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) – ص ٧٣ – ٧٥ .

فترة السنتين التي حكم فيها سوريا فترة مضيئة في تاريخ سوريا الحديثة يلهج السوريون بمناقبها ويتغنون بها • يقول سعيد الافغاني في ذكر تلك الفترة وهو قد ادركها في صباه •

« أما في حساب الزمن فقد كانت كالحلم الخاطف ، لم يعمر سوى سنتين ، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة ، وعاشته ساعة ساعة ، بل لحظة لحظة • انه عهد احياء ونشور ، كان فيه الافراد والجماعات تتظافر في بناء حياة وبعث لغة وتأسيس كيان ، وأما في حساب النتائج والثمرات ، فما أُسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار الى ايامنا هذه ، وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة ، تتقدم على رغم ما عرا السير من توقف حيناً ونكسة حيناً • ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبّت على الحديد والنار وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط ماكرة حلوة المظهر فتاكة المخبر مدة خمسة وعشرين سنة من الاحتلال العسكري ••• »(١٨٤) •

لاننكر ان فيصل أخطأ خطأً فظيعاً حين حاول الرضوخ للفرنسيين عقب معركة ميسلون ، فقد كانت تلك نقطة سوداء في تاريخه ، وكان الاحرى به أن يتجنب الوقوع في ذلك الخطأ لكي يخرج من سوريا مرفوع الجبين كما يفعل الابطال الاباة • ان يوسف العظمة كان أفضل منه اذ هو آثر أن يموت شهيداً بدلا من تحمل الاهانة ، وضرب بذلك مثلا عالياً تذكره له الاجيال القادمة •

ان التاريخ لايحركه العتاة السفاكون وحدهم ، بل يحركه الشهداء أيضاً • كل منهما له دوره في مسيرة التاريخ ! •

---

(١٨٤) سعيد الافغاني (حاضر اللغة العربية في الشام) ـ القاهرة ١٩٦١ ـ ص ٥٧ •

الفصل الرابع

الحسين ملكاً

تحدثنا في الفصل الثاني عن سيرة الحسين بن علي منذ بداية حياته حتى اعلانه الثورة على الاتراك في ١٩١٦ • وسنتحدث في هذا الفصل عن سيرة الحسين في الفترة الاخيرة من حكمه ، وهي الفترة التى كان فيها ملكاً يحكم الحجاز بأمره لاينازعه السلطة أحد •

شخصية الحسين :

لابد لنا في البداية من اعطاء صورة موجزة عن شخصية الحسين ، اذ هي تلقي ضوءاً على طبيعة الاعمال التي قام بها والاحداث التى ساهم فيها •

المعروف عن الحسين انه كان متدينا ورعاً بعيداً عن مواطن الشبهات ، يحترم نفسه ويترفع عن الدنايا ، ولم يُعرف عنه انغماسه في الملذات على نحو ما عُرف عن الملوك غالباً • فكان اذا انتابه الغم لجأ الى ضب فوضعه تحت جبته ثم استدعى اليه رجلا من وزرائه معروفاً بشدة الخوف من الضب ، فاذا جاء الرجل وجلس غافله الحسين وألقى الضب في حجره ، فيصرخ الرجل ويقفز مذعوراً جارياً الى الباب ، وعند هذا يقهقه الحسين حتى يكاد يستلقي على قفاه[١] •

كان الحسين يريد من رعاياه أن يقتدوا به في تجنب الملاهي والملذات المحرمة • يُروى أن جدة كانت في العهد العثماني كغيرها من الموانىء تضم

---

(١) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت ١٩٥١ ـ ج١ ص ٣٥ ـ ٣٧ •

كثيرا من محلات البغاء وشرب الخمر • ولما انفرد الحسين بالحكم عقب زوال ذلك العهد عمد الى تطهير البلدة ، فأمر بالقاء القبض على كل من يتعاطى الدعارة فيها ، كما رمى بالخمر وأوعيته في البحر[٢] • يقول أمين الريحاني الذي زار جدة في ١٩٢٢ : انه وجد بعض سكانها يتعاطون الخمر سراً ، كما يتعاطون الغناء والطرب ولعب القمار ، غير انهم كانوا يتركون ذلك عندما يزور الحسين جدة ، ثم يعودون الى عادتهم عندما يغادرها • وينقل الريحاني في هذا الصدد كلمة قالها له احد سكان جدة ، وهي :

« عجيب يا استاذ أمر الناس في هذا البلد • لاتستغرب قولي ان في جدة خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر ـ يقصد الحسين ـ عندما يشرّف البلدة كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيّدون ، فيخرجون من الصنادق الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل مسترسلا في التهليل ••• »•

وينقل الريحاني أيضاً كلمة أخرى قيلت له في جدة هي : ان الحسين في ساعات الغضب مخيف هائل فاذا استدعى أحداً منهم الى مكة ، بريئاً كان أو مذنباً ، كتب الرجل وصيته قبل أن يخرج من بيته[٣] •

من الجدير بالذكر ان لشخصية الحسين جانباً آخر اشتهر به ، هو أنه كان شديد الاعتداد برأيه لا يتنازل عنه بسهولة ، وقد لايتنازل عنه في بعض الاحيان أبداً • انه كان يتصور الدنيا كما يرغب أن تكون لاكما هي في الواقع • يقول فؤاد الخطيب الذى كان وزيرا للخارجية لدى الحسين : انه لم تكن لديه أية سلطة في منصبه كوزير للخارجية ، ولم يباشر أي عمل من الاعمال التي تدخل في دائرة اختصاصه ، بل كان تجاه الحسين كالملائكة

---

(٢) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ ـ ج١ ص ١١٥ ـ ١١٧ •

(٣) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٥٥ ، ٥٧ •

تجاه الله يسبح بحمده ويقدس له ، وكثيراً ما تصدر المذكرات بتوقيعه دون أن يطلع عليها أو يعرف عنها شيئاً ، واذا اطلع على مذكرة منها صدفة واجرى عليها بعض التصليحات النحوية واللغوية أمر الحسين باعادة كتابتها لكي ترجع كما كانت سابقاً[٤] .

يقول أمين الريحاني في وصف الحسين من هذه الناحية ما نصه :

« كان الشريف حسين الكل في الكل حتى في تحرير جريدة «القبلة» ، فقد كان يظن ان مقالاته الافتتاحية تترجم الى اللغات الاوربية فيطالعها ويهتم بها الوزراء ، وأن آراءه في سياسة العالم وسياسة الحياة ، من أصغر الجزيئات الى أكبر النظريات ، هي وحي منزل ، وأن تفسيره لبعض آيات القرآن هو أصح من تفسير الائمة الكبار ، وانه في الفصاحة والبيان مثله في العلم أمير أقرانه وفريد زمانه ، وأنه اذا استصرخ العرب يجيئونه من أقصى الجزيرة سامعين لامعين ، وانه يستطيع وهو في « المخلوان » ـ يقصد ديوانه الخاص ـ أن ينقذ البلاد ويؤسس الدولة العربية ، بل كان يظن ان العالم الاسلامي بأجمعه يبتسم لابتسامته ويغضب لغضبه وان الذين يخدمونه يخدمون العرب والاسلام ولا يبغون أجراً غير رضاه »[٥] .

كان الحسين معتقداً بأن العرب كلهم يحبونه ويفدونه بأرواحهم ، والمظنون ان هذا الاعتقاد نما لديه من جراء ما يقوله له المتزلفون من الحجاج في كل عام ، وما ينشده الشعراء بين يديه من القصائد الرنانة . فكان يحسب ان العرب سيثورون جميعاً ثورة واحدة حالما يعلمون انه تنازل عن الملك . ولهذا كان يهدد الانكليز دائماً بانه عازم على التنازل . وقد حدث ذات مرة ان تشرشل حينما كان وزيراً للمستعمرات نفد صبره من تهديد

---

(٤) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج٢ ـ ص ١٥١ .

(٥) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٣٤٤ .

الحسين فأراد أن يكتب اليه رسالة يقول فيها ان الحكومة البريطانية تطلب منه أن يذكر اسم الشخص الذى سيخلفه على العرش في حالة تنازله • وكان رأي تشرشل ان مثل هذه الرسالة قد تجعل الحسين يكف عن التهديد بالتنازل عن الملك[٦] •

من تراث الاسرة :

كان الحسين يحمل في عقله الباطن بقية من تراث اسرته القديم ، وهى التي يسميها الصحافي المصري المعروف محمد حسنين هيكل بـ « عقدة الاضطهاد » • فقد كان الحسين يذكر دائما ما حل بأجداده العلويين من مآسي وآلام ، وكان يردد هذه العبارة : « كذلك نحن آل البيت ، هـذا قدرنا المكتوب » • وكان أبناؤه يرددونها أيضاً ، ولا سيما ابنه عبدالله[٧] •

وكان لهذه العقدة أثرها الفعال في سلوك الحسين وتفكيره ، فكان ينظر في أحوال الحاضر بنفس المنظار الذى ينظر به في احوال الماضي • انه كان مثلا ينظر الى أهل العراق في عصره على نحو ما ينظر اليهم في العصر الذي وقعت فيه فاجعة كربلا •

يروي علي البازركان انه كان في ضيافة الحسين في مكة في عام ١٩٢١ عندما وصلته برقية من بعض رؤساء العراق يطلبون منه ابنه فيصل ليكون ملكاً عليهم ، فقال الحسين : « ولكني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلا كما عاملوا جده الحسين من قبل » • فرد عليه البازركان قائلا : « سيدي لقد تغير الزمن وان أهل العراق اليوم ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، فهم الآن يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم » • وعند هذا ضرب الحسين كفاً بكف وصاح بلهجته الحجازية : « ياعيال نادوا فيصل »[٨] •

---

(٦) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ عمان ١٩٧٧ ـ ص ٩٣ •
(٧) محمد حسنين هيكل (العقد النفسية التي تحكم الشرق الاوسط) ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ١٠١ ـ ١٠٥ •
(٨) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٢٣٠ •

وحدثني أحمد الراوي بقصة تشبه هذه القصة خلاصتها : أنه كان في عام ١٩٢٣ مدير شـــرطة المنتفق فأرســـله الملك فيصل الى مكة لـكي يأتي بعائلته وابنه غازي منها ، ولكنه عند وصوله الى مكة لم يسمح لـــه الحسين بأخذ العائلة • يقول الراوي : انه كان يكرر الطلب على الحسين مرة بعد أخرى ، وكان الحسين يعده بتلبية الطلب في كل مرة ثم يغير رأيه بعدئذٍ • وقد نفد صبر الراوي أخيراً واضطر الى مجابهة الحسين بشيء من الصراحة حيث قال ما معناه : ان منع الزوجة من الالتحاق بزوجهـا يخالف أمر الله ورسوله • فرد الحسين قائلا : « أخاف منكم يا أهـــل العراق أن تفعلوا بعائلة الحسين مثلما فعلتم بعائلة الحسين من قبل » • وقد ظل الحسين مصراً على موقفه هذا مما اضطر الراوي الى العودة الى العراق خائباً •

ولما زار الحسين عمان في كانون الثاني ١٩٢٤ قام الملك فيصل بمحاولة أخرى لاستدعاء عائلته من مكة ، فأرسل وفداً الى عمان برئاسة نـــوري السعيد • وغادر الوفد بغداد في ٧ شباط ، وقابل الحسين راجياً منه الاذن للعائلة المالكة بالقدوم الى العراق • وقد أبدى الحسين موافقته المبدأية على تلبية الرجاء ، وقال انه سيرسل العائلة عند عودته الى مكة • ولكنه عنـــد عودته غير رأيه على نحو ما فعل قبل هذا مع أحمد الراوي •

وفي ٢٠ آب وصلت برقية الى الملك فيصل تخبره بأن أباه قد سمح للامير غازي بمغادرة مكة الى عمان • تقول المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٠ آب : « ان الملك متهيّج كثيراً لان الملك حسين قـد أطلق سراح ابنه الوحيد غازي الذى كان حتى الآن محفوظاً في مكة • ان الصبـــي – تقصد الامير غازي – في الثانية عشرة من عمره ، وهو الآن في عمان ، وسيرسل الملك محسن بك للاتيان به »[٩] • وقد وصل الامير أخيراً الى

---

(9) Burgoyne (.Gertrude Bell) — London 1961 — vol. 2, P. 351.

بغداد في ٥ تشرين الاول ١٩٢٤[١٠] ٠

ان الحسين حين أطلق سراح الامير غازي لم يطلق معه سـراح أمه واخواته ٠ والظاهر أنه كان يخشى عليهن من السبي كما جرى على نساء آل البيت في كربلا ٠ وقد ظلت الام والاخوات في مكة حتى تشرين الاول ١٩٢٤ ، حيث غادرن الحجاز الى العقبة مع الحسين على أثر تنازله عن العرش ــ كما سنأتي اليه في الفصل القادم ٠ وقد انتقلن من بعد ذلك الى عمان ومنها الى بغداد ، وكان وصولهن الى بغداد في ١٦ كانون الاول ١٩٢٤[١١] ٠

تمرد البدو :

مرت على الحسين في السنوات الاخيرة من حكمه أوقات عسيرة جداً من الناحية المالية ، ذلك لان بريطانيا أخذت تخفض معونتها المالية الشهرية له ابتداءاً من انتهاء الحرب ، ثم قطعتها نهائياً في نيسان ١٩٢٠ ٠ فاضطـر الحسين الى الحصول على المال بطرق شتى منها فرض القروض الاجبارية التي لا تُسدد على التجار[١٢] ، ومنها المشاركة في تجارة الغنم واجـور المطوفين والخبازين والجمالة وغيرهم[١٣] ، وكذلك اضطر الحسين الى قطع المعونات التي اعتادت القبائل البدوية أن تأخذها منه ٠ وقد أدى ذلك الى انتشار التذمر العام في الحجاز وفي اوساط الحجاج ، كما ادى الـى تمرد القبائل البدوية فصارت تقطع الطرق على الحجاج ، ولا سيما الطريق الرئيسي الذى يربط المدينة بمكة ٠

---

(١٠) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٦ تشرين الاول ١٩٢٤ ٠

(11) Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 359.

(١٢) طالب محمد وهيم (مملكة الحجاز) ــ اطروحة ماجستير غير منشورة ــ ص ٢٠١ ٠

(١٣) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ــ ص ٣٤٧ ٠

اعتاد البدو منذ قديم الزمان على قطع الطرق وفرض الاتاوة على المسافرين ، وهم يعتبرون ذلك حقاً مشروعاً لهم يرتزقون منه ، ولا يتركونه الا اذا أخذوا عوضا عنه مبالغ سنوية من الحكومة ، فاذا امتنعت الحكومة عن الدفع عادوا الى قطع الطريق . وهذا ما وقع في الحجاز على أثر قطع الحسين دفع المعونات الى القبائل البدوية .

يحدثنا السيد محسن أبو طبيخ في مذكراته المخطوطة انه عندما لجأ الى الحجاز هو وزملاؤه من رجال ثورة العشرين ، عقب انهيار الثورة ، خرجت عليهم قبيلة حرب على مقربة من المدينة ، فحصرتهم في وادي ضيق وقطعت عليهم الطريق . ولما أخبروها بأنهم ضيوف الملك حسين كان جوابها : اننا نريد قتلكم لانكم ضيوف الملك حسين . ولم يتخلصوا منها الا بعد ان دفعوا لها أتاوة قدرها خمسمائة ليرة ذهب(١٤) .

وفي صيف ١٩٢١ ذهب الشيخ علي الشرقي الى الحج في معية الشيخ خيون العبيد ، وهو يحدثنا في كتابه « الاحلام » حديثاً مستفيضاً عما كابدته قافلته في مسيرتها بين مكة والمدينة من خسائر في الارواح والاموال . ننقل فيما يلي موجزاً له :

كان الحسين قد أرسل مع القافلة حرساً مؤلفاً من خمسمائة رجل مع قائد لهم ، ولكن ذلك لم ينفع القافلة بل أضر بها . ففي الليلة الاولى من مسيرتها فقدت شخصين قتلا وهما في محملهما . وفي الليلة الثانية فقدت القافلة ستة عشر رجلا أصبحوا قتلى في محاملهم . وعند هذا قررت القافلة العودة الى مكة وترك زيارة المدينة . ولكن القائد طلب من الشيخ علي الشرقي الاجتماع به منفرداً وقال له : اني أودعك سراً في افشائه اراقة دمي ، ان هذه القبائل لاحساب لها معكم ، ان حسابها مع الملك الذى بخسهم

---

(١٤) نقلا عن مذكرات السيد محسن أبو طبيخ المخطوطة .

حقهم وليس له قوة على ردعهم ، وما هذه الفواجع التي نزلت بكم الا من بيرقنا الذى يرافقكم ، فاذا انطوى هذا البيرق أمكنكم التفاهم معهم بسهولة فتسيرون بسلامة واطمئنان . وطلب القائد من الشرقي أن يكتب الى الملك كتاباً يشكره فيه لكي يحمله القائد ويعود الى مكة مع بيرقه .

يقول الشرقي : انهم فعلوا ما اوصاهم به القائد ، وجمعوا مبلغا من المال دفعوه الى قبيلة حرب . ثم ساروا مطمئنين نحو المدينة . غير أنهم لم يكادوا يقتربون منها ويشاهدون أضوية الحرم النبوي حتى فاجأهم بنو سليم ، وهم فخذ من حرب يسكنون بالقرب من المدينة ، فأمطروهم بنيران بنادقهم وقتلوا منهم اربعين شخصاً كان من بينهم أربع نساء عراقيات، وذلك ماعدا الجرحى ، ثم نهبوا القافلة .

وعند وصول القافلة الى المدينة قدم رجالها شكواهم الى الحكومة . وذهب الشرقي باعتباره الناطق بلسان القافلة الى السراي لمقابلة الحاكم السياسي الشريف شحاذ ، وحين قابله حضر عنده رؤساء بني سليم وكان كل رجل منهم يستند على بندقيته والخراطيش مصفوفة على صدره . فأخذ الحاكم يخاطب الرؤساء معاتباً موبخاً لما فعلوه بوفد الله ووفد رسوله - يقصد القافلة - ثم سألهم أن يدلوه على الفاعل ، فانبرى له شاب وسيم اسمه محمد بن نهار وقال « انا الفاعل » . وتبين أنه رئيس بني سليم . فجرت بينه وبين الحاكم محاورة على النمط التالي :

الحاكم : لماذا ؟

الرئيس : حتى أعرّف الشريف حسين أن عند بني سليم بارود ، وليس البارود عند غيرهم فقط .

الحاكم : ذلك أمر بينكم وبين الملك ، وما شأن هؤلاء الضيوف . حسبكم ما وقع ودعوني أخرجهم بسلام يا ابن نهار .

الرئيس : لاتخرجهم ولا هم يخرجون حتى يصفّي الشـــــريف حسابنا .

الحاكم (غاضبا) : يا ابن نهار أخرجهم بهذا (واشار بابهامه الـــى خرطوشة من الخراطيش المصفوفة على صدره) .

الرئيس : تخسأ ياحمّار ياخمّار ، وعيش عاش فيه رسول الله لأن أخرجتهم لاذبحنك وأذبحهم معك ، هيا يا معشر حــرب . (وخـــرجوا جميعاً) .

قرر رجال القافلة أخيراً أن يجمعوا الاتاوة المعتادة لبني ســـليم ، ومقدارها ستة آلاف ليرة ، لكي يتمكنوا من العودة الى مكة سالمين . وقد بلغ الحسين ذلك وقرر ان يشتري سمعة حكمه بأن يدفع المبلغ من ماله ، فأوعز الى وكيله في المدينة السيد عمران الحبوبي بأن يدفع المبلغ الى بني سليم ويسجله على الحساب . وقد فعل السيد عمران ذلك ، وعادت القافلة الى مكة بسلام(١٥) .

اعتاد الحسين ان يذيع بياناً على الحجاج فحواه ان الحكومة مُلزمة بدفع التعويض عن جميع ما تنهبه القبائل منهم ، فعلى من يُنهب منه شيء ان يقدم للحكومة عريضة يذكر فيها مقدار ما نُهب منه ويحلف بالكعبة على ذلك . يروي الشرقي نقلا عن قائمقام جدة الحاج محمد علي نمازي : ان بعض الحجاج يصدقون بهذا البيان فيقدمون عرائضهم الى الحكومـــة ويبقون في الحجاز منتظرين دفع التعويض الى أن تتحرك آخر باخرة من بواخر الحجاج فينقطع بهم الطريق ويموتون جوعاً(١٦) .

واقعة تربة :

ان تربة والخرمة واحتان حجازيتان تقعان الى الشرق من الطائف

---

(١٥) علي الشرقي (الاحلام) ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ص ١٢٩ ـ ١٣١ .
(١٦) المصدر السابق ـ ص ١٣٢ .

وكان يحكمها الشريف خالد بن لؤي وهو من اقرباء الحسين • وفي عام ١٩١٨ حنق خالد من الحسين ومن ابنه عبدالله ، وقيل ان مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عبدالله فضربه عبدالله على فمه بالنعال ، فذهب خالد غاضباً الى ابن سعود في الرياض ، وهناك أعلن « تدينه » ـ أي اعتنق المذهب الوهابي ـ ونال وعداً من ابن سعود بمساعدته ، ثم عاد الى منطقته معلناً عصيانه على الحسين ومتحديا له •

أرسل الحسين قوة لقتال خالد واعادته الى الطاعة ، فردها خالد مدحورة ، وأرسل الحسين قوة ثانية وثالثة ، فكان مصيرهما كالاولى • وصمم الحسين أخيراً ان يرسل الى خالد قوة كبرى تنتصر عليه ثم تتوجه بعدئذ الى الرياض لتأديب ابن سعود نفسه •

وجد الحسين فرصته في كانون الثاني ١٩١٩ حين استسلم له فخرى باشا مع قواته في المدينة ، فقد استولى الحسين على ماكان لدى فخري باشا من مدافع ورشاشات واعتدة كثيرة ، وظن انه قادر بهذه المعدات وبما لديه من جيش نظامي ان يضرب خالد بن لؤي ضربة ماحقة •

أوعز الحسين الى ابنه عبدالله أن يتحرك بقواته نحو خالد • يقول عبدالله في مذكراته انه اعترض على ابيه في هذا الامر وشرح له حالة جنوده الذين سئموا من القتال بعد تلك المدة الطويلة التي قضوها في حصار المدينة ، وذكر له انهم يرغبون في العودة الى أوطانهم بعدما أثروا وامتلأت جيوبهم بالاموال • ولكن الحسين أصر على تنفيذ امره ، واضطر عبدالله الى الطاعة[17] •

كانت حملة عبدالله مؤلفة من ٨٥٠ جندياً نظامياً ، ونحو ١٥٠٠ محارب غير نظامي ، وكان معها عشرة مدافع ونحو عشرين رشاشا ثقيلا وعشرين رشاشا خفيفا • ومن الجدير بالذكر ان معظم ضباط الحملة كانوا

(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ص ١٥٤ [illegible]

من العراقيين كمحمد حلمي الحاج ذياب وصبري العزاوي وابراهيم الراوي وحامد الوادي وعباس العاني وسامي صبري ورشيد خماس وجمال علي وخضير مخلص .

عندما وصلت الحملة الى موضع يدعى « عشيرة » يقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من شرق الطائف ، جاء اليها الحسين بنفسه لاستعراضها . وحين جرى استعراضها ابتهج بها الحسين وخيل له انها قادرة على فتح جزيرة العرب كلها . وقد حاول عبدالله اقناعه بوجوب التريث ، ولكن الحسين كان مصراً على مواصلة الزحف وقال له : « يجب عليك ان تتوجه الى الخرمة للقضاء على هذه الحركة الفسادية ، وان معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلبت عليهم »[(١٨)] .

وصل الى « عشيرة » لمقابلة الحسين حسين روحي افندي الذي كان يومذاك يعمل سكرتيرا للقنصل البريطاني في جدة . وكان هذا الرجل يحمل للحسين كتاباً من القنصل ينصحه بالاعتدال وبحل النزاع بينه وبين ابن سعود سلماً . فلما قرأ الحسين الكتاب قال بصوت عالي يخاطب حسين روحي على مسمع من الحاضرين : « اذهب وقل لهم انهم لاحق لهم بالتدخل في شؤوننا الداخلية ، فنحن احرار نفعل ما نريد »[(١٩)] .

عاد الحسين الى مكة ، وواصلت الحملة سيرها نحو تربة التي كانت تبعد عن الطائف شرقاً بسبعين كيلو متراً ، فاحتلتها بسهولة . وكان ابن سعود قد أرسل الى عبدالله يحذره من مهاجمة تربة والخرمة ، فرد عليه عبدالله ينذره ويتوعده . وقد أمر ابن سعود بالتعبئة العامة في نجد وسار على رأس جيش قُدر عدده باثنى عشر ألف رجل متوجهاً نحو الحجاز ،

---

(١٨) المصدر السابق ــ ص ١٥٦ .

(١٩) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٨٤ .

وأرسل أمامه طلائع من رجاله الفدائيين ـ وهم الذين عُرفوا باسم « الاخوان » ـ يقدر عددهم بألف وخمسمائة رجل بقيادة خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد •

وصل الاخوان الى الخرمة واجتازوها متوجهين نحو تربة • وفي عصر ٢٤ أيار ١٩١٩ وصل الى تربة رجل بدوي وقال للامير عبدالله : « تحذر ياشريف • المتدينة ـ يقصد الاخوان ـ في الخرمة هاجمون عليكم» • فغضب الامير منه وأمر بقطع رقبته • وقيل في رواية أخرى ان الامير أمر كبير عبيده بضرب الرجل ، فضربه العبد حتى مات[٢٠] • وقال الامير أمام الحاضرين لتبرير عمله : « انهم أرادوا من ارساله الينا أن يوهنوا في أعصابنا »[٢١] •

تحرك الاخوان نحو تربة في مساء ٢٤ أيار ، وهم يهتفون : « هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها ! » • واقتربوا من تربة في فجر اليوم التالي ، ثم هاجموها هجوماً مفاجئاً صاعقا • واستمرت المعركة بين الفريقين نحو ساعتين انتصر فيها الاخوان انتصاراً ساحقاً •

كان ابراهيم الراوى من المشاركين في المعركة وقد أعطانا وصفاً لها في مذكراته حيث قال : « ••• هجموا علينا مع أذان الفجر ، ومع أننا كنا على علم بأننا في هذه الليلة سنُهاجم ، وكنا اتخذنا للامر عدته ، ولكن شدة الهجوم النابع من رغبة صادقة وعزيمة لاتقهر ••• وكانت تحت امرتي بطرية جبلية سريعة عيار ٥ـ٧سم جرمنية ، وبطرية اخرى سريعة (قدرتلي) شيكوسلوفاكية ، ومدفعان هاون • فعند سماعي خبر الهجوم تهيأت للذهاب للبطرية التى كان آمرها السيد عباس ، وكان بيني وبين موضع البطرية حوالي مائة متر ، وكنت نائما ببزتي العسكرية ، وفيما كنت متوجها بدأت

---

(٢٠) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٢٥٤ •
(٢١) امين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٩٠ •

المدافع والرشاشات توجه نيرانها ، والمشاة ترمي ببنادقها وقنابرها اليدوية تسمع في كل الجهات ، ومع كل هذا كان البعض من الاخوان قد تسرب الى داخل المعسكر وتم التلاحم حتى بالمسدسات والخناجر ••• وقد منّ الله عليّ بلطفه فوصلت المدافع سالما ورأيت آمرها السيد عباس يوجه مدافعه نحو الاخوان ويصليهم ناراً حامية • وبعد مرور بضع دقائق واذا بالملازم خضر •• وهو يبكي ويقول : ان الاخوان استولوا على رشاشاتنا • وبعد بضع دقائق وصل الاخوان الى المدافع التى كنا عندها ، وأخذوا يستولون عليهـــا ، ويقتلون كل مرتبانها ، فابتعدت عنهم لاركب حصاني واذهب الى البطرية الاخرى التى كانت في موضع آخر ، فأتيت الى من كان ممسكاً بحصاني وهممت بالركوب ، ولما ادخلت رجلي بالركاب ••• استهدفنا أربعة مـن الاخوان •• لم اتمكن من ركب الحصان فقد قتل الاخوان الجندي وأخذوا الحصان ، فذهبت الى اسطبل بطرية جبلية قريبة مني فأخذت منها بغلا، ثم بعدت ، واذا بحصـــان آخر هو لي ، فأتيت فامتطيته • وقبل ان أضع الاعنة في يدي وجدت الاخوان بالقرب مني ، فحدجا فيّ ، ورماني أحدهم بطلقة نارية والمسافة بيني وبينه مترا واحدا ، فابتعدت بعدما قضوا على جميع الذين كانوا معي عدا اثنين من الفرسان •• وعند ذاك كانت الشمس توشك ان تشرق وكانت المعركة في نهايتها ، فابتعدت عن القرية والدماء تنزف من ذراعي ••• »[٢٢] •

خسرت الحملة كل ما كان لديها من مدافع وسلاح ومتاع ، كمـــا فقدت معظم ضباطها وجنودها ، ولم ينج من قواتها النظامية سوى سبعـــة ضـــباط ومـائة وخمســـين جنديا • يقـــول ابراهيم الراوي : انه كان في حوزته ألف ليرة ذهب ، وسيف مذهب ثمين ، وحصانان وذلول

(٢٢) ابراهيم الراوي (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٨•

وبعض الاثاث ، وقد فقدها كلها في المعركة ، وهو يحمد الله على نجاته على أي حال ![23] .

كانت نجاة عبدالله من المعركة بأعجوبة ، اذ استطاع ابن عمه الشريف شاكر بن زيد أن يردفه على فرسه ويفر به على عجل . وقد تحدث عبدالله فيما بعد عن هذه الواقعة حيث قال : « مازال يرن في سمعي صوت المغيرين ليلة تربة : الجنة ، الجنة ، الجنة ...»[24] .

وصل ابن سعود الى ساحة المعركة بعد انتهائها . وهناك ورد اليه انذار من الحكومة البريطانية يقول : « ترجوكم حكومة صاحب جلالة الملك ان تعودوا الى نجد عند وصول هذا الكتاب الى يدكم ، وتتركوا تربة والخرمة منطقة حرة وغير مملوكة لاحد حتى عقد الصلح وتحديدالحدود. واذا لم تعودوا فان حكومة بريطانيا تعد كل اتفاق بينكم وبينها ملغيا وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية . وهي تأسف كل الاسف لما حصل بين أصدقائها وكانت ترجو الا يقع »[25] .

وفي الوقت الذي وصل هذا الانذار الى ابن سعود كان الاخوان يطالبونه بالزحف على الطائف ، وصاروا يصيحون : « الى الطائف ، رخص لنا بالطائف ! » . فمنعهم ابن سعود من ذلك وقال : « كفى الباغي جزاء بغيه »[26] .

ازمة في لندن :

ان واقعة تربة أدت الى حصول ازمة حادة في وزارة الخارجية

---

(٢٣) المصدر السابق ــ ص ١٤٠ ــ ١٤٣ .
(٢٤) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ــ بيروت ١٩٧٧ ــ ج١ ص ٣٢٢ .
(٢٥) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٩٣ .
(٢٦) امين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٧ .

البريطانية • فقد كانت بريطانيا حينذاك تقف الى جانب الحسين وتؤيده من كل ناحية ، كما كانت واثقة كل الثقة من قوته ومن انـــه قادر على دحـــر ابن سعود وتحطيمه • وكان رأي الخبراء البريطانيين أن « تلك الحثالات من الوهابيين المتعصبين » لاتستطيع ان تصمد صمودا جدياً تجاه قـــوات الحجاز النظامية التي تدربها بريطانيا وتجهزها بالاسلحة والمعدات •

كان فيلبي يومذاك في لندن ، فاستُدعي لحضور المؤتمر الذي عقده وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن لدراسة هذا الموضوع • وكان رأي فيلبي على النقيض من رأي الخبراء الذين حضروا المؤتمر ، ولكن الخبراء استهجنوا رأيه واستهزأوا به • ويقول فيلبي في مذكراته : انه عندما وقعت واقعة تربة ، وانتصر فيها ابن سعود ، عقد اللورد كرزن مؤتمرا ثانيا ، وحين حضر الخبراء رآهم فيلبي مطأطيء الرؤوس وقال احدهم : « يبدو اننا راهنا على الجواد الخاسر »[٢٧] •

كان اللورد كرزن قد تلقى برقية من القنصل البريطاني في جـــدة يقول فيها ان جدة اكتظت باللاجئين الذين فروا من الطائف ومكة خوفا من الوهابيين ، وفيهم نحو أحد عشر ألف هندي من رعايا بريطانيا ، وأصبح من المتوقع انتشار الاوبئة بينهم • وطلب القنصل في برقيته عددا من البواخر لنقل اللاجئين •

عندما تداول المؤتمر في أمر هذه البرقية تبين أن البحرية البريطانية غير قادرة على توفير أية باخرة لنقل اللاجئين • فالتفت كرزن نحو القادة العسكريين الحاضرين في المؤتمر وقال : « ماذا في وسع وزارة الحرب أن تفعل ؟ فليس في وسعنا ان نترك هؤلاء الناس يُذبحون ذبح النعاج على أيدي الوهابيين » فرد أحد القادة عليه قائلا : « أخشى يا سيدي اننا لانستطيع

---

(٢٧) خيري حماد (عبدالله فيليبي) ــ بيروت ١٩١١ ــ ص ٧٤ ــ ٨١ •

ان نعمل شيئاً • ان وزارة الحرب مصممة على عدم اقحام نفسها في أيـــة مغامرة حربية في الصحراء العربية فقد كفانا ما مررنا به حتى الآن ».

أبدى فيلبي رأيه حيث قال : ان بريطانيا لو وافقت على احتفاظ ابن سعود بواحتي تربة والخرمة ، فانه سيرضى بذلك ويتوقف عن الزحف • وتعهد فيلبي أن يذهب بنفسه الى ابن سعود لاقناعه بذلك • فوافق المؤتمر على رايه ، وأُعدت له طائرة خاصة لنقله الى الحجاز على عجل • وغادر فيلبي لندن بالطائرة ، ولكنه عند وصوله الى القاهرة علم بأن ابن سعود قد أوقف الزحف وعاد الى الرياض ، ولم يبق هناك من خطر على اللاجئين في جدة •

كانت بريطانيا قد ارسلت الى جدة ست طائرات مشحونة في صناديق بغية الدفاع عن الحجاز تجاه هجوم الوهابيين • وكان المندوب السامي فى القاهرة الجنرال اللنبي عازماً على استخدام تلك الطائرات فعلا ، غير ان فيلبي نصحه بأن لايفعل اذ قال له : « ان الطائرات التى أرسلت الى جـــدة اذا استخدمت وهبطت احداها في ارض وهابية فسيقطع الوهابيون رقاب طياريها » • فأصدر الجنرال أوامره بان تظل الطائرات في صناديقها(٢٨) •

عقدة الحسين :

كانت واقعة تربة ذات أثر كبير على الحسين نفسياً وصحياً • يقول عبدالله في مذكراته : « فلقد وجدته بعد رجوعي الى المركز ، أي بعد واقعة تربة وفتح المدينة ، على غير علمي بجلالته ، وكان مرضه الذى توفاه الله بـه ـ يقصد مرض تصلب الشرايين ـ ابتدأه منذ ذلك الحين ، فكان كثير الصلف ، كثير النسيان ، كثير التردد ، قليل الاعتماد على من كان يعتمد عليه •• وللمسألة خطورتها »(٢٩) •

---

(٢٨) المصدر السابق ـ ص ٨١ •
(٢٩) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ١٦٣ •

أصبحت واقعة تربة بمثابة العقدة النفسية للحسين فلم يكن يهن عليه أن ينتصر عليه رجل كان يعتبره من أمراء الدرجة الخامسة • وكان يلقي اللوم في هزيمة تربة على ابنه عبدالله اذ اعتبره المسؤول الاول عنها • ومعنى ذلك انه جعل عبدالله كبش الفداء • وظل الحسين دائم التفكير في الانتقام من ابن سعود وفي استعادة تربة والخرمة منه •

اصبح الحسين كغيره من ذوي العقد النفسية يرتاح لمن يدغدغ عقدته ويداريها • ولهذا حف به بعض المتزلفين وصاروا يصورون له الدنيا كما يشتهي • يروي أمين الريحاني قصة رجل من هؤلاء المتزلفين هي أنه كان متفنناً في اختلاق أخبار السوء عن نجد وابن سعود ، وكان الحسين يقرب اليه هذا الرجل ويرتاح لحديثه • جاءه الرجل ذات يوم وجرت بينهما محاورة على النحو التالي :

الرجل : « السنة سنة جدب في نجد • وقد جفت الآبار ، وهلك الالوف من البل » •

الحسين : « صحيح ! سبحان الله • أنت يابني أعلم الناس بأحوال نجد » •

الرجل : « ابن سعود مصخن سيدي ، مضروب بالرئة ، يقولون : السل • وهذا الداء لا يعيش صاحبه » •

الحسين : « صحيح ؟ صحيح ؟ ــ سبحان الله ! لايصدقني الخبر غيرك » •

الرجل : « وقد خرجت عليه قبائل الحسا ، وهم يقولون انهم لايبغون غير الملك حسين » •

الحسين : « هذا الذى أقوله دائما يا ابني • ستخرج عليه القبائل كلها • وكلها تجيئنا ان شاء الله »[٣٠] •

---

(٣٠) امين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٤٦ •

مفاوضات لورنس :

في صيف ١٩٢١ قررت الحكومة البريطانية عقد معاهدة مع الحسين فهي كانت تظن ان الحسين يحمد لها ما فعلت له حيث عينت أحد أولاده ملكاً على العراق ، والثاني أميراً على شرقي الاردن ، وذلك بالاضافة الى كونه هو قد صار ملكاً في الحجاز . فأرسلت اليه صديقه لورنس ليكون ممثلها في التفاوض معه لعقد المعاهدة .

وصل لورنس جدة في ٢٩ تموز وكان معه جبرائيل حداد باشا . وفي اليوم التالي عقد أول اجتماع له مع الحسين ، وكان مع الحسين ابناه علي وزيد ووزير خارجيته فؤاد الخطيب . فافتتح لورنس الحديث قائلا : « ان هناك ديناً يُراد توفيته ولا يتيسر دفعه الآن برمته ، ولكن يُدفع منه قسط قليل على أن ينظر في تسديد الباقي في المستقبل . ثم قدم لورنس مسودة لمعاهدة كانت قد أعدت في لندن سابقاً ، فقال الحسين يخاطب لورنس: « انت شرفت ، ولا بد من البحث والمناقشة واهلا وسهلا »(٣١) .

دامت المفاوضات خمسة اسابيع ، وقد اتبع الحسين فيها طريق المماطلة والمراوغة ، فكان يجامل لورنس في اثناء المفاوضة ويمدح بريطانيا العظمى ولكنه في النهاية لايوافق على شيء . وقد أبرق لورنس في ٢ آب الى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول له : « اجتمعت بالملك عدة مرات ، وقد أعلن لي عن تخليه عن موقفه المبني على اساس رسائل مكماهون ، ولكنه يثير أفكارا عميقة جديدة كل يوم . انه عجوز أحمق لاحدود لغروره وأطماعه ، ولكنه يبدي الكثير من الود ويؤكد أنه صديق مخلص لنا »(٣٢) .

---

(٣١) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٣ ـ ص ١٥٨ .

(٣٢) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) ـ ترجمة لاوند والعابد ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ١٥٣ .

توتر الوضع بين لورنس والحسين على أثر ذلك • فقد طلب لورنس من الحسين أن يتكلم بصراحة ماذا يريد ، فقدم الحسين أربعة مطاليب هي: (١) الاعتراف بأن يكون العراق وفلسطين تابعين له ، (٢) أن تُضم عسير والحديدة الى الحجاز ، (٣) أن يكون هو مقدماً على جميع أمراء العرب ، (٤) أن يعود امراء العرب الى حدودهم القديمة ، والمقصود من ذلك انسحاب ابن سعود من تربة والخرمة •

اثارت هذه المطاليب امتعاض لورنس ، فرد على الحسين بشدة واتهمه بالطمع ، وأوضح له مدى امكانياته وأوقفه على واقع الامور قاصداً من ذلك الاشارة الى ضعفه وأن في مقدور ابن سعود الوصول الى مكة في مدى ثلاثة أيام • فظهر التأثر الشديد على الحسين من هذا الكلام وغادر الاجتماع غاضبا دون ان يتلفظ بكلمة وداع • وأرسل لورنس الى اللورد كرزن برقية وصف فيها ما جرى وختمها بقوله : « ان الملك أضعف مما كنت أظن ، وأرى أنه يمكن الضغط عليه حتى يستسلم استسلاماً نهائياً ، واذا تمكنا من التغلب عليه الآن ، فان التفاوض معه سيكون اكثر سهولة في المرة القادمة »[٣٣] •

حل موسم الحج في منتصف شهر آب ، فاضطر الحسين الى العودة الى مكة للمشاركة في الموسم والاشراف عليه ، وذهب لورنس بدوره الى عدن حيث قضى فيها اسبوعين ، ثم عاد الى جدة في ٢٩ آب ، كما عاد اليها الحسين في ٢ ايلول • فاستؤنفت المفاوضات من جديد •

حاول الحسين في هذه المرة التخفيف من مطاليبه السابقة ، حيث طلب : أن تعود جميع الامارات العربية الى الحدود التي كانت لها قبل انتهاء الحرب ، وأن يكون له حق تعيين جميع رجال القضاء والافتاء في الجزيرة العربية والعراق وفلسطين ، وان يُعترف له بالسيادة فوق جميع

---

(٣٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٦٩ ــ ٧٠ •

الحكام والأمراء العرب في جميع الاقطار • فرد لورنس على هذه المطاليب رداً أشد مما فعل في المرة الاولى • ويقول لورنس في برقية الى اللورد كرزن : ان الحسين عند سماعه لهذا الرد طلب خنجرا وحلف يميناً انه يتخلى عن العَرش او يقتل نفسه • فقال له لورنس « ان الحكومة البريطانية سوف ستأنف المفاوضات مع الرجل الذى سيخلفه »(٣٤) •

لم ييأس لورنس من النجاح في عقد المعاهدة ، وظل يعيد الكرّة في مفاوضاته كلما أخفق فيها • وفي ٢٢ ايلول أبرق الى حكومته يقول ان الحسين صادق على جميع مواد المعاهدة وأعلن على رؤوس الاشهاد أنه سيوقعها عما قريب ، ولكنه عندما قدم الامير علي اليه نص المعاهدة لكي يصادق عليها صرخ في وجهه ورماها عليه • ويقول لورنس في برقيته : ان الامير عليّ وصف أباه بالجنون ، وأنه اتفق مع أخيه الامير زيد على العمل على اقالته • ويبدي لورنس تفاؤله من تعاون عليّ وزيد معه في المفاوضة ، ويقول عنهما : انهما يتصرفان بطريقة مدهشة وقد يغيران الامور في الاسابيع القليلة القادمة(٣٥) •

وافق لورنس على اضافة مادة على المعاهدة ينُص فيها أن المعاهدة لاتنقض أي عهد او وعد قُطع للعرب في أثناء الحرب • وكان لورنس يتوقع ان هذه المادة سوف ترضى الحسين ، ولكن الحسين لم يرضه شيء • وأخذ أفراد عائلته وحاشيته يلحون عليه لكي يوافق على المعاهدة بلا جدوى • ويقال ان زوجته أم زيد اشتركت في الالحاح عليه • ولما ضايقوه بالحاحهم صعد الى سطح الدار واتجه نحو الكعبة وأقسم بربها على أنه لايوقع أية معاهدة لاتحقق الوعود التي وُعد بها سابقا ، ثم نزل عن السطح وانزوى وحده لايكلم أحداً • ولما رأى أفراد عائلته ذلك منه كفوا عن التكلم حول المعاهدة معه ، ثم اتفقوا مع لورنس على أن يزور الامير عبدالله

---

(٣٤) المصدر السابق — ص ٧٣ •

(٣٥) طالب محمد وهيم (المصدر السابق) — ص ٢٢١ •

في عمان لكي يوقع الامير المعاهدة باسم والده ، ثم يرسلها اليه لاقرارها[٣٦] .

غادر لورنس جدة في ٢٢ ايلول متوجهاً الى عمان ، وحين وصل اليها أكب هو والامير عبدالله على تمحيص المعاهدة للتوصل الى صيغة تنال موافقة الفريقين . وفي ٢٩ تشرين الثاني أبرق لورنس الى اللورد كرزن يقول انه توصل الى نص معدل للمعاهدة حظي بموافقة الامير عبدالله ، وان الامير على ثقة من أن أباه سوف يصادق على النص الجديد. وقد تم التوقيع على المعاهدة في عمان في ١٨ كانون الاول من قبل لورنس والامير عبدالله .

وفي ٢٧ منه وصلت صيغة المعاهدة الجديدة الى الحسين ، ولكنه بدلا من المصادقة عليها أبرق الى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يقترح ارسال ابنه عبدالله الى لندن من أجل اعادة النظر في صيغة المعاهدة وتنقيحها . فعاد الجواب من لويد جورج عن طريق القنصل البريطاني في جدة بالصورة التالية ، حيث يقول القنصل ما نصه : « كلفتني حكومة جلالة الملك البريطانية بمناسبة برقية جلالتكم بتاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩٢١ للمستر لويد جورج ، أن أذكر جلالتكم بأن مسألة تنقيح المعاهدة شيء خارج عن الموضوع ، وأنه يقتضي اما قبولها او رفضها كما هي . وتضيف على ذلك ان زيارة سمو الامير عبدالله لانجلترا يجب اعتبارها أنها تأجلت في الوقت الحاضر . واذا أردتم جلالتكم بعد التصديق على المعاهدة فتح باب موضوعات أخرى لتبادل الحديث فيها وتفويض الامير عبدالله لهذا الغرض فان زيارة سموه لانجلترا تكون عندئذ فرصة لتقديم تلك المعروضات لحكومة جلالة الملك البريطانية » .

تألم الحسين من هذا الجواب كثيراً ، وكتب الى القنصل البريطاني

(٣٦) أمين سعيد (المصدر السابق) — ج٣ ص ١٥٨ .

في جدة يشرح له الاسباب التى دعته الى اقتراح ايفاد عبدالله الى لندن ، ثم قال انه لايفهم أسباب التحدي والتحامل اللذين ظهرا في الجواب ، وانه لايريد جواباً على مطالعاته الا قول « لا » او « نعم » ، وانه سيجد نفسه مضطراً لاتخاذ موقف ما اذا لم يحصل من بريطانيا على احدى الكلمتين « لا » أو « نعم » .

وفي اليوم التالي كتب الحسين الى القنصل رسالة أخرى بالمعنى ذاته وقال فيها : ان رفض الحكومة البريطانية لزيارة عبدالله الى لندن يؤيد الاشاعة القائلة بان بريطانيا تريد التبرؤ مني ، وان هذا كله يدفعني الى القول بانني اذا لم يأتني الجواب بـ « نعم » أو « لا » حتى نهاية الشهر الجاري ـ أي في ٢٧ شباط ـ فانني مضطر الى اعلان تنازلي .

وبعد يومين كتب الحسين الى القنصل رسالة ثالثة ذكر فيها أن مواد المعاهدة التى يُراد منه المصادقة عليها تقوم على « ماليس له أصل ولاوجود» ، يشير بذلك الى ما ورد في المعاهدة في شأن احترام الصلات والحدود المتفق عليها بين أقطار الجزيرة العربية . فهو يعتبر تلك الحدود ولا سيما تلك التى هي بين الحجاز ونجد لم يتم حولها اى اتفاق ، وهو يريد اعادة الحدود الى ما كانت عليه قبل نهاية الحرب .

بلغ التوتر في علاقة الحسين مع بريطانيا أقصاه في ١٤ شباط ١٩٢٢ ، فقد كتب القنصل البريطانى في جدة رسالة الى الحسين لاتخلو من اهانة حيث ذكر له ان الحكومة البريطانية أخذت علماً بعزمه على التنازل عن العرش في ٢٧ شباط ، وانها وهي تذكر تعاونه المخلص وعلاقاته الودية معها سابقاً تتأسف لاضطراره الى التنازل ، ولكنها تدرك أنها لاشأن لها في هذه القضية ، اذ هى قضية تخص أبناء شعبه وهو يجب أن يسويها معهم . فرد الحسين على القنصل برسالة أعرب فيها عن خيبة أمله وقال انه تحمل

المخاطر اعتماداً على عهود بريطانيا دون الرجوع الى الشعب ، ولهذا فان الشعب لاشأن له في قضية تنازله عن العرش[٣٧] •

الدكتور ناجي الاصيل :

ناجي الاصيل شاب بغدادي درس الطب في جامعة بيروت الامريكية، وعند تخرجه منها التحق بالجيش العربي طبيباً برتبة نقيب ، ولما انتهت الحرب حصل على وظيفة في شركة تُدعى « الشركة الانكليزية الفرنسية للاعمار في الشرق الاوسط » ، وقد أرسلته هذه الشركة الى الحجاز في حزيران ١٩٢٢ لانشاء بعض المشاريع فيه • وهناك وجد فرصة للاجتماع بالحسين والتحدث اليه •

تشير بعض القرائن الى ان ناجي الاصيل استطاع أن يؤثر في الحسين نفسياً وينال ثقته ، فقد ذكر له الاصيل أنه يعرف بعض الشخصيات المتنفذة في السياسة البريطانية وانه لذلك قادر على عقد معاهدة ترضي الحسين • وقد بلغ تأثير الاصيل في الحسين الى درجة ان الحسين عينه مندوبا عنه في لندن وخوله التفاوض باسمه مع الحكومة البريطانية •

غادر الاصيل الى لندن وهو يحمل صيغة معدلة للمعاهدة ، كما حمل معه رسالة من الحسين الى لويد جورج يقول فيها ان عدم موافقته على المعاهدة سابقاً ناشيء من عدم وجود من نحسن التفاهم معه • وفي أواخر ايلول ١٩٢٢ وصل الاصيل الى لندن وعرض الصيغة المعدلة على وزارة الخارجية ، وحين درسها خبراء الوزارة وجدوا أن التعديلات التي ادخلها الحسين في المعاهدة مقبولة ماعدا اسقاطه مادة واحدة وهي المادة السابعة عشرة التي تنص على الاعتراف بالمركز الخاص لبريطانيا في فلسطين •

عادت المفاوضات من جديد بين وزارة الخارجية وناجي الاصيل •

---

(٣٧) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٩٦ •

وفي ١٦ نيسان ١٩٢٣ تم وضع صيغة جديدة للمعاهدة حيث وضع اللورد كرزن والدكتور الاصيل عليها الحروف الاولى من اسميهما • وفي اليوم التالي غادر الاصيل لندن متوجهاً الى جدة وهو واثق بأن الحسين سوف يوافق على الصيغة الجديدة •

وصل الاصيل الى جدة في ٣٠ نيسان ، وحين درس الحسين الصيغة الجديدة للمعاهدة أجرى عليها بعض التعديلات ، وأرسل القنصل البريطاني تلك التعديلات الى لندن للموافقة عليها • وفي ١٠ أيار وصل الجواب من وزارة الخارجية البريطانية وفيه بعض التحفظات والاقتراحات• فاتصل القنصل البريطاني بالاصيل يبلغه بالجواب ، فظن الاصيل ان الحكومة البريطانية وافقت على التعديلات الجديدة وذهب الى الحسين يبلغه الخبر • وقد ابتهج الحسين بذلك ابتهاجاً لاحد له ، ولم يكن يدري أن الخبر لا أساس له من الصحة وانه من توهمات ناجي الاصيل •

وعندما حل عيد الفطر في ١٧ أيار اعلن الحسين لوفود المهنئين ان بريطانيا وافقت على مطاليب العرب وعلى الاعتراف باستقلالهم ، وقال : « لا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان : عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم • واني أعلن ذلك للامة العربية حاضرها وباديها » • ثم القى رئيس الديوان الهاشمي بياناً قال فيه : ان الحكومة البريطانية تعترف باستقلال العرب وتتعهد بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل البلاد العربية ما عدا عدن ، ثم ختم البيان قائلا : « فنأمر أن يُعتبر هذا اليوم عيد الاعتراف باستقلال الامة العربية ، والله ولي التوفيق » • وبعد هذا ألقى الاصيل خطبة أشار فيها الى بداية الانقلاب الكبير في حياة الامة العربية الذي قام به الحسين فحطم به سلاسل الاغلال القديمة وجاء اليوم بالاستقلال والاتحاد ، فالأمة العربية مدينة لكم يامولاي• ثم أشار الاصيل الى نفسه وكيف أنه قام بواجب الوطن يوم لبى النداء

فترك الجيش التركي والتحق بالجيش العربي للاشتراك في الدفاع عـــن استقلال بلادي العربية في تلك المعركة الكبرى •••

لم تمض على ذلك سوى ايام معدودة حتى تبين للناس ان الفرح كان قائماً على وهم • وفي ٥ حزيران نشرت حكومة فلسطين في صحف القدس ملخصاً للمعاهدة ، واتضح مما نُشر أن بريطانيا لم تتخل عن سياسة انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين • فثارت ثائرة العرب فيها ، وأبرق موسى كاظم الحسيني الى الحسين يلفت نظره الى ذلك • فأجابه الحسين قائلا : « مولانا أؤكد لكم بهذا أيضاً أن عزمنا الاساسي المؤملين تأييده بقدرة الله لايمكن ان تتأخر عن واجباته مقدار شعرة • واعلموا انها حركة عليها نحيا وعليها نموت • والحقائق كما ذكرت تصلكم عقبه • فكونوا واثقين بأنه لايعترينا فتور أو كسل في سبيل تلك الغاية الشريفة التى لانريد بها الا خدمة بلادنا وابنائها اخواننا »[٣٨] •

وفي ٢٧ ايلول نشرت جريدة « القبلة » تقول : ان جلالة الملـــك الحسين رفض التصديق على المعاهدة بالرغم من كل تهديد ، وبالرغم من كل ما أقيم في سبيله من العقبات والعراقيل ، كل ذلك حرصاً من جلالته على حقوق العرب ومحافظة على بلادهم •

عاد ناجي الاصيل الى لندن ، وظل يسعى آملا أن يعقد معاهدة ترضي الحسين وبريطانيا في آن واحد ، وكان في ذلك كمن يطلب المستحيل • كتب القنصل البريطاني في جدة تقريراً سرياً الى حكومته قال فيه : « اني لاأعتقد ان الدكتور ناجي يمكن تبرئته من كونه خادماً سيئاً جداً لحكومة الحجاز • ويبدو انه بذل جهداً كبيرا لتنمية عقدة العظمة لدى الحســـين في بادىء الامر ••• فقد كان ناجي يحث الحسين على أن لايوقع المعاهدة ، وأن يصمد في موقفه حتى ينال ما يريد ويكون حاكماً على جميع البلاد العربية

---

(٣٨) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ١٧٠ •

وكل شيء • ان هذه التأكيدات من ناجي ربما كانت ناشئة عن غروره ، ولكن المكر وحده هو الذى جعله يخبر الحسين بأن وزارة الخارجيـــة البريطانية قد أكدت له أن وعد بلفور لايعني شيئاً وانه سيلغى قريباً ، وهذا هو الذى أدى الى الاعلان المشهور في مكة في ربيع ١٩٢٣ • ومنذ ذلك الحين أخذ ناجي يحاول الاحتفاظ بمنصبه عن طريق تمسكه بالآمال بين حين وآخر حول التوقيع على المعاهدة »(٣٩) •

في تلك الآونة وصل من العراق الى لندن جعفر العسكري في مهمـة رسمية ومعه توفيق السويدى • فالتقيا بالاصيل ، وجرى بين الســـويدي والاصيل جدال ومشاجرة شخصية • يقول السويدي في مذكراتـــه : ان الاصيل كان يتمتع في لندن بمركز يؤمن له كل ما ينفقه عن سعة اذ كان يتقاضى مبلغا لايقل عن ستمائة باون في الشهر ، وكان يبدي نحونا استعلاءاً وتكلفاً في معاملاته وحركاته ، وقد ابدى غطرسة حتى في معاملته مع جعفر العسكري الذى كان آمره في جيش الثورة العربية ، فقد كان يريد أن يُقدم في التشريفات بمنزلة أرفع من جعفر العسكري باعتبار انه يمثل الملك حسين بينما العسكري يمثل ابنه الملك فيصل • ويذكر السويدي ان الاصيل كان مدفوعاً بشعور يجعله يعتقد ان في امكانه تحقيق اهداف القضية العربية ، فكان يمثل تماماً حماسة الملك حسين فيما يبذله من جهود زائدة لحمـــل الحكومة البريطانية على تنفيذ وعودها المعهودة • ويروي السويدي أنـــه كان يتحدث ذات مرة على المائدة بحضور الاصيل وجعفر العسكري ، فتطرق في حديثه الى الملك حسين وذكره باسم « الشريف حســـين » ، فغضب الاصيل من هذه التسمية وصار يؤنب السويدي على ذلك • فرد عليه السويدي بما فحواه ان لقب « الشريف » أعظم قدراً وأدعى للفخار من لقب « الملك » • ثم انتهز السويدي الفرصة لينتقد الاصيل على غطرسته

---

(٣٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (اف• او• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٨) •

حيث قال : « انني أخشى على الدكتور الاصيل من الزلل ولست أطمئن على مستقبله لانني أعلم ان الملك حسين طالما بقي متحمساً في مطالبه فانه ينتدبه كممثل له لتسهيل غاياته ، الا ان هذه الغاية ويالالاسف من الصعب أن تتحقق وسيمل الملك حسين من المطالبة كما يمل من دفع النفقـــات المستمرة الباهظة الى الدكتور على المنوال الحاضر ، ويقطعها • وسيبقـــى الدكتور يبذل مالديه الى أن يصيبه العوز فيضطر الى قطع العلاقة مــــع الملك حسين والرجوع الى العراق ، وعندما يصل اليه سيطلب وظيفة في الحكومة لايزيد راتبها على ٢٥ ديناراً• وهكذا تنتهي مهمة الدكتـور ولا يبقى أثر لهذه العنجهية »•(٤٠)

الحسين وأبناؤه :

كان أبناء الحسين يخالفون أباهم في رأيه ومسلكه السياســـي ، ويضيقون به ذرعاً ، ولكنهم كانوا مضطرين الى اظهار الطاعة له مهابة له • وكان هو من جانبه يتذمر منهم ويشكو من مخالفتهم له المرة بعد المرة •

كان فيصل أكثر اخوته اختلافاً مع أبيه • انه كان يؤمن بان السياسة هي فن الممكن ولهذا اتبع تجاه الانكليز في العراق مبدأ « خذ وطالب » ، بينما كان أبوه على العكس من ذلك يتبع مبدأ « الكل واما لاشيء » ، ولهذا كان يطالب الانكليز بتحقيق جميع وعودهم التي قطعوها له ، وأعلن أنه لن يتنازل عنها قيد شعرة •

غضب الحسين على فيصل عندما بويع هذا بالملك في سوريا عام ١٩٢٠، فقد اعتبر الحسين ذلك خيانة من فيصل وعقوقاً ، لان سوريا جزء لايتجزأ من المملكة العربية الكبرى التي يجب أن يكون ملكها الحسين لاغيره • ولما طرد فيصل من سوريا قال الحسين : هذا جزاء من لايسمع كلامي ، ولو

---

(٤٠) توفيق السويدي (مذكراتي) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٨٧ــ٨٩ •

كانت سوريا قد بقيت تابعة للحجاز لما تجرأ الفرنسيون على احتلالها •
ومن الجدير بالذكر ان الحسين فعل مثل ذلك مع ابنه الآخر عبدالله عندما
أصبحت امارة شرقي الاردن خاضعة للانتداب البريطاني وانفصلت ادارياً
عن الحجاز •

يروي محمد نصيف كبير أعيان جدة : انه كان في توديع فيصل عند
ركوبه الباخرة متوجها الى العراق في عام ١٩٢١ وقال له : « اننا نرجو ان
نراك قريباً بيننا في موسم الحج القادم » ، فأجابه فيصل : « كلا لن اعود الى
الحجاز مادام والدي فيه » ، ثم استطرد فيصل قائلا : « لقد أساء الينا ،
وأحرج مركزنا وعادى أصدقاءنا ولم يبق لنا صديق • حتى أنت نفسك
ـ يقصد محمد نصيف ـ وقد كنت أعز صديق لنا وساندتنا ووقفت الى
جانبنا في جميع المواقف ، فقد عاداك وحاربك • لا• لا• لن أعود الى
الحجاز مادام على قيد الحياة »•

ويروي محمد نصيف أيضاً : ان الامير زيد اتفق مع أخويه فيصل
وعبدالله على خلع والدهم واجلاس ابنه الاكبر الامير علي مكانه ، ولكن
الامير علي لم يوافقهم على ذلك وقال لهم : « الناس لايعرفون الحقائق ،
فاذا ثرنا عليه وأنزلناه عن العرش ، قالوا اننا تآمرنا عليه وأنزلناه عن العرش،
لنجلس مكانه قبل الاوان • يجب علينا أن نحترم شيخوخته ومقامه ولا
نسيء اليه في أواخر أيامه ، ويجب علينا أن نصبر عليه وان نتحمل النتائج
التي تنتج عن اعماله مهما كانت فان ذلك أليق بنا أمام الناس »(٤١) •

ويروي سليمان موسى : انه قابل الامير زيد في لندن عام ١٩٦٨
فجرت بينهما أحاديث شتى كان من بينها حديث أبيه الحسين ، فقال زيد
يصف أباه : « كان الحسين شديد التصلب في آرائه • انه لم يكن انساناً

(٤١) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ ج٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ •

هيناً ليناً . ولكنه كان دون شك صاحب مبدأ وعقيدة . وغير صحيح أنـي كنت أحث الحسين على القبول بالمعاهدة التى عرضتها بريطانيا على يـد لورنس لان الحسين كان لايصغي لاحد ، ولا يسمع من أحد ، ولم يكن يؤثر أحد عليه »[٤٢] .

الحسين في شرقي الاردن :

في أوائل كانون الاول ١٩٢٣ أعلن الحسين عن عزمه على زيارة شرقي الاردن دون ان يذكر السبب في ذلك . وقد انتشرت الشائعات في شـرقي الاردن أن الحسين يعتزم خلع عبدالله عن الامارة وتعيين ولده الاكبر علي خلفاً له فيها[٤٣] .

في ٩ كانون الثاني ١٩٢٤ وصل الحسين الى العقبة ولم يكن فيها مدافع لاطلاق التحية له ، فأوعز هو الى الباخرة التي حملته باطلاق مدافعهـا تحية له . ويعلق المؤلف البريطاني جارفز على ذلك قائلا : ان الحسين اتبع المبدأ الياباني الذى يجعل الانسان يصافح نفسه بنفسه[٤٤] .

كان في استقبال الحسين في العقبة جمهور غفير من اعيان البلاد . وقد أعدت له ولحاشيته سيارات عديدة لنقلهم الى محطة سكة الحديد في معان ، ولكن الحسين رفض ركوب السيارات ، بل ركب بغلا كان قد جاء بـه معه في الباخرة[٤٥] . فاضطر المستقبلون والحاشية جميعاً الى الاقتداء به ، فأحضرت لهم الدواب من كل صنف مما يمكن العثور عليه في العقبة من الجمال والخيل والبغال . ولوحظ أن بعضهم لم يكن معتادا على ركوب الدواب وصاروا من جراء ذلك في حالة تستدعي الشفقة ، أما الحسين فكان

---

(٤٢) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ عمان ١٩٧٦ ــ ص ٢٠١ .
(٤٣) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٣٩ .
(44) Jarvis (Arab Command) London 1942 – P. 110.
(٤٥) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٤٠ .

على الرغم من عمره الذي تجاوز السبعين متماسكاً قوياً فوق ظهر البغل ، وقد قطع المسافة بين العقبة والقويرة ـ وهي مسافة تزيد على الخمسة والثلاثين ميلا ـ دون ان يلتفت يمنة ويسرة ، أو تظهر عليه أية امارة للتعب[٤٦] .

كان فيلبي حينذاك معتمد بريطانيا في شرقي الاردن ، وكان من جملة المستقبلين للحسين . وهو يقول في مذكراته : انه عندما وصل مع المستقبلين الى القويرة استدعاه الحسين الى خيمته وصار يحدثه حديثاً كله عذوبة ورقة ، ثم قال له : « اسمع ، ليس هناك من خلاف بيني وبين ابن سعود . ألسنا جميعاً من العرب ؟ انني اعتبره واحداً من أولادي ، وأنت صديقه وصديقي ، في وسعك أن تكون رسولي اليه . وانني لأقبل أية تسوية ترضاها أنت » . ويعلق فيلبي على هذا الكلام مبدياً استغرابه من الاتجاه الجديد الذي لاحظه في الحسين بالمقارنة الى ماكان عليه قبلئذ . ويعلل فيلبي هذا التغير بأن الحسين ربما اتجه حقده من ابن سعود الى أولاده الذين خانوه وتنكروا لقضيته ولا سيما فيصل[٤٧] . وفي رأيي ان فيلبي قد أخطأ التعليل ، والمظنون ان الحسين لم يتجه حقده نحو أولاده بمقدار ما اتجه نحو الانكليز الذين نكثوا بوعودهم له في اعتقاده .

كان استقبال الحسين في عمان فخماً رائعاً شارك فيه وفود من سوريا وفلسطين ومن مختلف القبائل البدوية ، كما حضره صحافيون من مصر والقدس وبيروت ودمشق . ولما أطل الحسين عليهم من نافذة القطار ارتفعت الهتافات مدوية : « ليحيى ملك العرب ، ليحيى المنقذ الاعظم ! » . وأخذ فرسان البدو يجولون على خيولهم ويهزجون ، ورفع تلاميذ المدارس أصواتهم بالهتاف والاناشيد . وكانت الطائرات الانكليزية آنذاك تغمغم في الفضاء مشاركة في الترحيب .

(46) Jarvis (op. cit.) — P. 110.

(٤٧) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص ١٤٠ .

أعدت للحسين دار تجاه الملعب الروماني ، فأطل الحسين على جموع المستقبلين من شرفة الدار . وأخذ الخطباء والشعراء يلقون ما جادت بـــه « قرائحهم الفياضة » ، فحيوا المنقذ الاعظم والنهضة العربية ، ولعنوا الاستعمار والمستعمرين ، وهددوا بريطانيا وفرنسا . وجاءت الوفود بعد ذلك لمصافحة الحسين فتكلم فيهم قائلا : « انه لايتنازل عن مبدأ واحد من المبادىء التى هي أركان النهضة ، لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد . لا أقبل الا ان نكون فلسطين لاهلها العرب ، أقول لاهلها العرب . لا أقبل بالتجزئة ، ولا أقبل بالانتدابات ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحـــكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التى قطعتها للعرب . اذا رفضت الحـــــكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فأني أرفض المعاهدة كلها . لا أوقع المعاهدة قبل أن آخذ رأي الامة . اني عامل دائما في سبيل الاتفاق مع أمـــراء العرب . اني عامل دائماً في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام ، أقول الاستقلال التام للاقطار العربية كلها . ولا فرق عندي اذا كان مركز الحكومة العربية في الحجاز ، او في سورية ، او في العراق ، أو في نجد »[٤٨] .

مكث الحسين في شرقي الاردن نحو شهرين ونصف . ولوحظ انه كان طيلة تلك المدة يتصرف كأنه ملك البلاد . يقول جارفز : ان الحسين كان طيلة مكوثه في شرقي الاردن يتصرف كأنه الآمر الناهي في البلاد بينما كان الامير عبدالله يتخذ له مقعداً خلفياً ، وقد سبب ذلك حرجاً للمسؤولين البريطانيين ، اذ هم كانوا يفترضون في الامير عبدالله أن يكون الحـــاكم الفعلي للبلاد لا أن يكون نائباً عن ابيه في حكمها ، كما كانوا يفترضون أن يكون الحسين ضيفاً مكرماً في البلاد لا آمراً ناهيا فيها . ولم يستطع هؤلاء المسؤولون أن ينبهوا الحسين الى ذلك بل تحملوه على **مضض...**[٤٩] .

---

(٤٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٢٤ــ٣٢٥ .

(49) Jarvis (op. cit.) — P. 111.

جاء لزيارة الحسين في عمان السكرتير العام لحكومة فلسطين السر جلبرت كلايتون ، وبعد عودته الى القدس كتب الى حكومته في لندن تقريرا قال فيه : ان الحسين كرر بياناته المعتادة حول الوضع الصعب الذى يجد نفسه فيه أمام المسلمين عموماً بسبب تحالفه مع بريطانيا اولا ، ولعدم وفاء بريطانيا بالعهود التي قطعتها له ثانيا • ثم يقول كلايتون : انه فهم من محادثاته مع الحسين ان الصعوبة التي يشكو منها تتعلق بفلسطين ، وقد أكد الحسين له أنه على أتم الاستعداد لمساعدة الحكومة البريطانية في أية وسيلة ممكنة غير أنه لايستطيع أن يضع نفسه في وضع يعرضه لنقد المسلمين • واختتم كلايتون تقريره مقترحاً اسقاط مادة واحدة من المعاهدة وهي المادة التي تتعلق بسياسة بريطانيا في فلسطين ، لان موافقة الحسين على هذه السياسة ستعرضه الى نقد شديد وستدمر نفوذه عند عرب فلسطين الدين سيتخلون عنه في الحال ويعلنون انه تخلى عن قضيتهم[٥٠] •

الحسين خليفة :

في ١ آذار ١٩٢٤ أعلن مصطفى كمال باشا الغاء الخلافة في تركيا، وكان الحسين لايزال مقيماً في عمان ، فأخذ ابنه عبدالله يحثه على انتهاز الفرصة واعلان الخلافة لنفسه • يقول المؤرخ الالماني فون ميكوش : « ولما أُعلن قرار أنقرة بالتخلي عن الخلافة استبدت بالامير عبدالله فكرة استغلال ذلك الحدث لمجد الاسرة الهاشمية واعلاء شأنها ، وهو الذى يذهب بطموحه أبعد كثيراً من حدود امارة شرقي الاردن الصغيرة التي لايملك فيها أمر ، ويهدف الى تسنم قمة المجد درجة بعد أخرى • فمضى يقنع والده باهتبال الفرصة ، ويستعمل لذلك وسائل الترغيب التي استعملها في اقناعه باعلان الثورة ضد العثمانيين ، مهيبا بالحسين أن يعلن نفسه خليفة للمسلمين•••»

ويقول فون ميكوش : ان الحسين تردد في الاخذ برأي ابنه عبدالله ، ذلك لان الخيبات المتكررة التي مُني بها على أيدي الانكليز جعلته مضطرباً

(٥٠) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ ص ١٧١ ـ ١٧٢ •

ضعيف الثقة بنفسه ، وربما انتابه شعور مبهم بأن خطوة من هذا النوع قد تفضي به الى كارثة . ولكن عبدالله ظل يواصل الالحاح عليه ، وأخذ يذكّره بأن الانكليز خلال مفاوضاته الاولى معهم قبيل اعلان الثورة صدر منهم ما يدل على أنهم يرحبون بخلافته على المسلمين(٥١) .

وافق الحسين أخيراً على رأي عبدالله ، وتقرر أن تكون البيعة بالخلافة في ٥ آذار في قرية « الشونة » التي تقع على مقربة من عمان وهي مشتى للامير عبدالله . وقد جاءت الى تلك القرية وفود للبيعة من سوريا ولبنان وفلسطين بالاضافة الى وفود شرقي الاردن ، كما جاء اليها بعض المصريين . فقام الامير عبدالله يبايع أباه ، ثم بايعه من بعده أمين الحسيني باسم فلسطين ، ثم بقية الوفود . وبعد اتمام البيعة ألقى الحسين خطبة طويلة ذكر فيها أنه قبل البيعة بالخلافة حرصا على أقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين ، وبناءا على الحاح أهل الرأي والحل والعقد من علماء الدين في الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى وما جاورهما من البلدان والامصار(٥٢) .

أخذت البرقيات تتوالى على الحسين من مختلف الاقطار الاسلامية لتهنئته ومبايعته بالخلافة . ولا حاجة بنا الى القول ان العراق كان من اكثر الاقطار ، ان لم يكن اكثرها ، اهتماماً بخلافة الحسين وتقديم البيعة له . فقد أخذت الجرائد العراقية تنشر البرقيات التي تردها من مختلف مدن العراق وعشائره وهي تعلن بيعتها للحسين بالاجماع . واجتمع اعضاء المجلس التأسيسي في القصر الملكي وعرضوا بيعتهم للحسين بن علي أمام الملك فيصل ، ونهض أحمد الشيخ داود فألقى خطبة ضمنها الدعاء « لمولانا الخليفة الاعظم » . وفي يوم الجمعة ١٤ آذار ١٩٢٤ أدى الملك فيصل

---

(٥١) صلاح الدين المختار (تاريخ العربية السعودية) - بيروت - ج٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥٢) أمين سعيد (اسرار الثورة العربية الكبرى) - بيروت - ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

صلاة الجمعه في جامع السراي وتليت الخطبة فيه باسم الخليفة الحسين بن علي • ونشرت جريدة « العراق » خبراً بعنوان « خلافة الملك حسين ومبايعة الجعفرية لجلالته » قالت فيه : انعلماء الجعفرية خفوا لمبايعة الحسين مع العلم أنهم امتنعوا من قبل عن مبايعة سلاطين آل عثمان ، وذلك لانهم وجدوا الشروط المطلوبة للخلافه متوفرة فيه ، فهو عربي قريشي علوي امامي • كما نشرت الجريدة برقية وردتها من عبدالرزاق الوهاب في كربلاء يقول فيها : ان ثلاثمائة ألف زائر في صحن الحسين ، وهم الذين جاؤوا للزيارة بمناسبة منتصف شعبان ، يبايعون الحسين بالخلافة • وكذلك شرت الجريدة برقية كان قد أرسلها الى الحسين السيد هبة الدين الشهرستاني رئس مجلس التمييز الجعفري ، وهذا نصها :

« لأعتاب صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين المنقذ الاعظم أرواحنا فداه • أتشرف بلثم تلك اليد الطاهرة معترفاً بالخلافة الاسلامية الكبرى لذلك الامام الهاشمي الفاطمي معتقداً في عزماته الحسنى على جمع شمل الموحدين وتعظيم شعائر الدين وحماية حوزة المسلمين نصرهم الله تعالى تحت لوائه آمين »(٥٣) •

عاد الحسين الى مكة فوصلها في ٣٠ آذار ، وكانت الزينات قد أقيمت له في كل مكان ، وأخذت جريدة (القبلة) تنشر البرقيات التي وردتها من انحاء العالم لتهنئة الحسين بالخلافة • ويعلق المؤلف البريطاني هوارث على ذلك قائلا : لاندري كم هو الصحيح من تلك البرقيات لان الحسين نفسه كان يحرر الجريدة(٥٤) •

---

(٥٣) انظر جريدة العراق ــ في أعدادها الصادرة في ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، من شهر آذار ١٩٢٤ •

(54) David Howarth (The Desert King) – London 1964– P. 141.

الفصل الخامس

عبدالعزيز بن سعود

من سوء حظ الحسين وأسرته أن يظهر من بين خصومه رجل يُعد من دهاة التاريخ وجبابرته ، هو عبدالعزيز بن سعود • فلولا ظهور هـذا الرجل لكان التاريخ المعاصر للجزيرة العربية غير ما عهدناه ، ولربما بقي الحسين واسرته يحكمون الحجاز حتى يومنا هذا •

سنحاول في هذا الفصل دراسة سيرة هذا الرجل منذ بداية حياته حتى فتحه مكة ، وسوف تتم دراسة سيرته في فصل آخر •

بداية حياته :

هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي من أسرة آل سعود المشهورة •ولد في الرياض في أوائل عام ١٨٧٧ [١] ، وحين كان صبياً لجأ مع أبيه وأخيه الاصغر محمد وابن عمه جلوي الى قبيلة بني مرة وهي قبيلة بدوية موغلة في البداوة تعيش على حافة الربع الخالي • فنشأ ابن سعود في تلك البيئة البدوية الخشنة وتعلم منها قيمها وثقافتها الاجتماعية[٢] •

كان عبدالرحمن والد ابن سعود شديد التدين ، ولم تعجبه الحياة في بني مرة لانه وجدهم متساهلين في دينهم غير طاهرين • فتركهم ولجأ الى الكويت مع عائلته ، وكان ذلك في أواخر عام ١٨٩٢ ، وسكن في بيت صغير بجوار الميناء مؤلف من طابق واحد يضم ثلاث غرف •

كانت الحكومة العثمانية قد خصصت لعبدالرحمن راتباً شهرياً قدره

---

(١) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ص ٥٨ •

(2) Armstrong (Lord of Arabia) – London 1938 – P. 33–32.

ستون ليرة ، اذ كانت تأمل أن تستفيد منه في يوم من الايام • وكان هذا الراتب ذا قوة شرائية لابأس بها يومذاك ، ولكن مشكلته أنه لم يكن يُدفع بانتظام كما جرت عليه العادة في الدولة العثمانية • وقد عانى عبدالرحمن من جراء ذلك كثيرا من الضيق ، واضطر في بعض الاحيان الى الاستدانة من الاصدقاء وأصحاب الدكاكين •

كان الصبي عبدالعزيز بن عبدالرحمن في بداية حياته في الكويت يلعب مع أقرانه في الازقة ، كما هو ديدن الصبيان فى الاحياء الفقيرة • وقد لوحظ عليه في تلك الفترة انه كان يتميز عن اقرانه بقوة الشخصية والميل الى الزعامة • يروي حافظ وهبة عن بعض المسنين من أهل الكويت الذين رافقوا عبدالعزيز في صباه : انه كان يفوق الصبيان من أقرانه نشاطاً وذكاءاً ، وكان يتزعمهم في اللعب • ولوحظ عليه أيضاً انه كان يحب الاستماع الى ما يتحدث به المسنون عن مجد جده فيصل بن تركي وعن مغامراته في سبيل اعادة مجد أسرته[٣] •

ويروي أرمسترونج : أن ابن سعود حين بلغ طور الشباب كان يتفاخر أمام أقرانه بأنه الوارث لدولة الرياض ونجد ، وانه لابد في يوم من الايام أن يطرد ابن رشيد منها ويعيد مجد الاجداد • فكان أقرانه يضحكون عليه ويسخرون منه ، وكان هو يغضب منهم ، غير أنه بالرغم من ذلك لم يكن يفقد ثقته بنفسه[٤] •

في أواخر ١٩٠١ قرر ابن سعود أن يقوم بمغامرة خطرة آملا أن يعيد بها مجد اسرته أو يموت دونه • فقد خرج من الكويت ومعه أربعون فارساً من اقربائه وأعوانه ، ونحو عشرين من اتباعهم ، فتوجه بهم نحو الرياض

(٣) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٢٧ •

(4) Armstrong (op. cit.) P. 40

بغية استخلاصها من حكم ابن رشيد أمير حائل • وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٠٢ استطاع بضربة بارعة أن يحتل الرياض • فكان ذلك بداية صعود نجم هذا الشاب الطموح •

يقول الباحث البريطاني ترويلر : « ان قصة احتلال ابن سعود للرياض صارت اسطورة في التراث الشعبي البدوي ، فقد أثبت ابن سعود بها أنــه يملك الصفات التي تؤهله للمشيخة وهي الشجاعة والزعامة والحظ ، ويجب أن نذكر ان الجرأة التي أبداها ابن سعود في تلك المغامرة استهوت خيال سكان المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية ••• »(٥) •

توالت انتصارات ابن سعود بعد تلك المغامرة ، كما توالت هزائمه أيضا • ولكن الهزائم لم تكن لتثنيه عن عزمه ، ولعله كان يزداد مضـــاءاً وعزيمة عندما تحل به الهزيمة ـ وتلك صفة لا يملكها الا القليــل من البشر !•

عوامل النجاح :

هناك عدة عوامل ساعدت ابن سعود على النجاح نذكر فيمـــا يلي أهمهـــا :

أولا : انه كان ذا دهاء فطري يدرك أن السياسة هي فن الممكن • ويقال انه تلقى دروساً عملية في السياسة من مبارك الصباح شيخ الكويت المشهور• والمعروف عن مبارك انه كان يحب ابن سعودويشركه فيمجالسه ومؤتمراته• يقول ارمسترونج : ان مبارك علم ابن سعود كثيراً من فن الحكم ، وقد تعلم ابن سعود منه بسرعة واستعداد ، فعندما كان يحضر مجالس مبـــــارك ومؤتمراته كان يجلس في الزاوية متربعاً وبيده مسبحة من الكهرب ويصغي الى ما يقال ويتعلم(٦) •

---

(5) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) – London 1976–P.21.

(6) Armstrong (op. cit.) – P. 40–41.

ثانيا : اجتذب ابن سعود اليه بعض المستشارين من البلاد العربية المختلفة ، لكي يطلع عن طريقهم على أحابيل السياسة العالمية • ولكنه لم يكن يقبل كل ما يقوله له المستشارون ، بل كان يستمع الى كل واحد منهم، ويوازن بين اقوالهم ، ثم يصدر حكمه النهائي بعد التروي • ولوحظ انه لم يكن يحب من مستشاريه أن يؤيدوه في كل ما يقول ، بل كان يريد منهم أن يصارحوه الرأي(٧) • ان ابن سعود يختلف في هذا عن بعض رجال الحكم الذين اعتادوا على تقريب المداحين والمتزلفين فضاعت بذلك عليهم حقائق الحياة •

ثالثا : كان ابن سعود كثير السخاء ينفق الاموال التى تتوافر لديه على الأعوان وعلى من يريد اجتذاب قلوبهم • انه كان يسير في ذلك على المبدأ البدوي القائل : « اصرف ما في اليد يأتيك ما في الغد » • وكان في ذلك على النقيض من خصمه الحسين الذى كان يتبع المبدأ الحضري القائل: « القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود » • كان شعار الحسين « ان المال يفسد الرجال »(٨) ، بينما كان شعار ابن سعود : « ان المال يجذب الرجال» • والواقع ان الشعار الثاني أدعى للنجاح في هذه الحياة من الشعار الاول •

رابعا : كان ابن سعود يملك موهبة نفسية تجعله قادرا على التأثير في من يقابله وعلى اجتذابه ، وهي الموهبة التى تسمى في علم الاجتماع بـ « الكارسما » • يقول ترويلر في وصف ابن سعود : ان معظم المؤرخين اتفقوا على أنه يملك « الكارسما » ، فهو طويل عريض المنكبين وسيم يمثل الرجولة العربية ، وله جاذبية لاحظها كثيرمن الذين قابلوه •••(٩)

---

(٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٤٨ •

(٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٣٤٧ •

(9) Troeller (op. cit.) – P. 21.

خامسا : من الممكن القول ان ابن سعود كان يملك موهبة التمثيل وهي الموهبة التي يحتاج اليها رجل السياسة في كثير من الاحيان • فابن سعود قد يقابل عدواً له تقتضي السياسة أن يبدي له الحب ، وتراه عند ذلك يقوم بدور المحب الذي لاشك في اخلاصه • وهو قد يتظاهر بالبكاء وتنهمر دموعه فعلا اذا وجد من المصلحة أن يفعل ذلك • ويقال ان الملك فيصل الاول كان يشبه ابن سعود في موهبة التمثيل هذه الى حد غير قليل •

سادسا : المظنون ان سعود كان يملك ما يسميه العوام ب « الحظ » • ومن الجدير بالذكر ان موضوع « الحظ » موضوع شائك معقد لامجال للحديث عنه هنا ، يكفي أن نقول ان البحوث « البارالوجية » الحديثة بدأت تكتشف وجود قوى خفية في بعض الافراد يستطيعون بها السيطرة على الصدف وتوجيهها نحو مصلحتهم قليلا او كثيرا • ان العلم لايعرف كنه تلك القوى ، ولكنه اكتشف بعض مظاهرها وتأثيراتها • ومن يدري فلعل العلم يكتشف كنهها في المستقبل(١٠) • ومهما يكن الحال فاننا نستطيع أن نضع ابن سعود في قائمة اولئك الذين يملكون قسطاً غير قليل من تلك القوى • وقد خصص خيرالدين الزركلي في كتابه عن ابن سعود فصلا ذكر فيه الحوادث التي تدل على وجود موهبة « الحظ » لديه ، وهو يسميه بـ « التوفيق » (١١) •

نشأة الاخوان :

كان جيش ابن سعود في أول أمره مؤلفاً من البدو في الغالب ، وكان

---

(١٠) انظر في موضوع علم « البارالوجيا » كتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) للمؤلف ــ ج٥ ق٢ م٤ •

(١١) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٥٨١ ــ ٥٨٥ •

نعلم ان البدو ليس لهم قيمه حربيه كبيرة لانهم يحبون الغزو والنهب ، وهم لذلك ينضمون الى اية حركة جديدة حين يتوقعون الغنيمـــة فيها ، وسرعان ما يتركونها عندما يلمحون فيها بوادر الانكسار • يقول حافظ وهبة : « ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ••• وكثيرا ما كان البدو شـراً على الامير المصاحبين له ، فان ذلك الامير اذا بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ، ويحتجون بأنهم أولى من الاعداء المحاربين ••• ولكن البادية لاتعرف غير النهب والسلب وعندها الغنيمه مقدمة على كل شيء ••• والبدوي اذا لم يجد سلطة تردعه او تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويُخضـــع غيره بها ••• »[١٢] •

فكر ابن سعود وأطال التفكير ، لايجاد حل لهذه المشكلة • انه يريد جنودا يطيعونه في السراء والضراء لكي يبني بهم دولته العتيـــدة ويعيد مجد الآباء • وقد تفتق ذهنه أخيراً عن حل مستمد من تاريخ الاسلام ، وهو ما كان يسمى بـ « الهجرة » • فقد كان المسلمون في عهد الرسول فريقين : اعراب ومهاجرين • وكان المقصود بالاعراب البدو ، وقد ذمهم القرآن ووصفهم بأنهم « أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله»[١٣] • ولهذا كان المفروض فيمن يريد أن يكون مسلما حقيقيا أن يترك البداوة وينظم الى زمرة المهاجرين في المدينة • وقد اعتاد المسلمون أن ينظروا الى المسلم الذي يعود الى البادية بعد اسلامه نظرة اســـتنكار شديد ، ويقولون عنه انه « تعرب » ، أي صار اعـــراباً وارتـد الـى عقبيه[١٤] • والواقع ان « الهجرة » كان لها أثرها في تغيير شخصية البدوي

---

(١٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص ١٠ •

(١٣) القرآن ، سورة التوبة ، آية ٩٨ •

(١٤) علي الوردي (منطق بن خلدون في ضوء حضارته وشـــخصيته) ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ ص ١٠١ ــ ١٠٢ •

قليلا او كثيراً ، فان البدوي حين ينضم الى البيئة الجديدة التى خلقها الاسلام في المدينة يجد نفسه مضطراً الى ترك قيمه القديمة والى اتخاذ القيم الجديدة التى جاء بها الاسلام •

شجع ابن سعود قيام قرى ثابتة في نجد لكي يهاجر اليها البدو ويستقروا فيها • وقد أطلق على تلك القرى اسم « الهجر » ، وكانت أول هجرة ظهرت للوجود في عام ١٩١١ في موضع يدعى « الارطاوية » يقع في منتصف الطريق بين الكويت والقصيم • وتلا ذلك ظهور هجر أخرى تدريجياً حتى بلغ عددها بعد ثمانية عشر عاماً ١٢٢ هجرة ، وبلغ عدد رجالها ٧٦٫٥٠٠ رجلا •

أرسل ابن سعود الى الهجر « المطوعين » ـ أي الوعاظ ـ كما جهزها بما تحتاج اليه من مواد وأموال لتكون قرى زراعية ناجحة • وقد سادت الهجر حياة جديدة لم يعهدها البدو من قبل ، فهم قد باعوا ابلهم واحترفوا الزراعة والتجارة كما تركوا سكنى الخيام وسكنوا بيوتاً مبنية من اللبن ، ولبسوا العمامة البيضاء بدلا من العقال ، وأطلقوا على انفسهم اسم «الاخوان» باعتبار أن المؤمنين أخوة ، وانصرفوا الى الصلاة والعبادة وتدارس السيرة النبوية • وكانت كل هجرة تضم مسجداً في وسطها ، وكان المسجد يغص بالمصلين والدارسين في معظم الاوقات •

أراد الاخوان أن يتشبهوا بالمسلمين الاولين في كل شيء ، وهذا أمر لابد أن يؤدي بهم الى التطرف لعدم وجود قائد حكيم بينهم من طراز محمد يردهم الى جادة الاعتدال • وقد أعطانا حافظ وهبة صورة لبعض مظاهر التطرف الذى انتشر بينهم فيقول : « لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادىء والتعاليم الناقصة حتى اعتقدوا انها هي الدين وما سواها ضلالة ••• وكان كثير منهم يعتقد ان لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة ، مهما كان عليه من الاسلام ، وترك شرور البادية وعوائدها ، فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء

بسلام ، ولا يردون عليهم السلام ، ولا يأكلون ذبائحهم . وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكنى الهجرة . وكان من عوائد الاخوان اذا قدموا زائرين قاموا في المسجد وقالوا : السلام عليكم يا الاخوان اخواننا يسلمون عليكم . وكانوا يعتقدون ان الحضر ضالون وغزو المجاورين واجب وأنه أُلقي عليهم هذا الواجب من قبل الله ، فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو ... الى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل مالا يتفق وهواهم . وان سريان هذه الروح المتمردة يرجع الى هؤلاء الجهلة انصاف المتعلمين الذين انتشروا في قرى الاخوان باسم العلم ولقنوهم هذه التعاليم وحببوا اليهم التعصب الذميم »[١٥] .

صار الاخوان يعتبرون حياة البادية هي حياة الجاهلية بعينها ، واعتقدوا ان الاسلام الحقيقي هو في التخلص من كل ما يُشم منه رائحة الجاهلية ، والتمسك بسنة النبي وأصحابه . فالعقال مثلا أصبح في نظرهم من البدع المنكرة ، وغالى بعضهم فجعله من لباس الكفار وأوجب مقاطعة لابسيه . واعتبروا أن السنة في لبس العمامة البيضاء بدلا من العقال . وكانوا يخاطبون الرجل الذي ظل على بداوته : « أنت يابدوي مشرك ... أنت يا أبو العقال من الكفار ، أنا أخو من طاع الله ، وأنت أخو من طاع الشيطان»[١٦] . واعتبروا الشارب الطويل والثوب الطويل مخالفين للسنة ، وكان بعضهم يحملون المقص معهم فاذا وجدوا رجلا طويل الشارب أو طويل الثوب عمدوا الى قصها بالمقص[١٧] .

يجب أن لاننسى ان هذا التطرف الذي صاحب حركة الاخوان كان على الرغم من جوانبه السلبية له جانب ايجابي هو أنه خلق من الاخوان

---

(١٥) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٢٩٠ .
(١٦) أمين الريحاني (المصدر السابق) — ص ٢٦٥ .
(١٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

جنودا فدائيين يرمون بأنفسهم الى الموت وهم واثقون أنهم ذاهبون الى الجنة • يقول حافظ وهبه : « أصبح الاخوان لايهابون الموت بل يندفعون فيه اندفاعاً طلباً للشهادة ولقاء الله ، وأصبحت الام حينما تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات : « جمعنا الله واياك في الجنه » ، وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب : « هبت هبوب الجنة ويـن انت يا باغيها » ، وكلماتهم عند الهجوم : « اياك نعبد واياك نستعين » • ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية فوجدتهم يقذفون بأنفسهم الى الموت قذفاً ويتقدمون الى أعدائهم صفاً صفاً ، ولا يفكر أحدهم في شيء الا هزيمة العدو وقتله • والاخوان على العموم لاتعرف قلوبهم الرحمة على الاعداء ، ولا يفلت من تحت يدهم أحد ، فهم رسل الموت اينما رحلوا »(١٨) •

ويروي حافظ وهبة قصة رجل من الاخوان جاء الى أحد شيوخ الدين يسأله عن النفاق وعن الخوف في الحرب ، وأخذ يشكو اليه من أن في قلبه نفاقاً حيث قال له : « انني حينما كنت أهجم وجدت في نفسي شيئاً من التردد بسبب أزيز الرصاص ، ولابد ان يكون النفاق في جنبي • أخـــرج النفاق بعصاك أيها الاخ » • فقال له الشيخ : ان هذا ليس من النفاق او الفرار من الزحف ، وأفهمه : انه اذا لم يعط العدو ظهره فلا يسمى ذلك نفاقاً أو فراراً • فقال الرجل : لا ، ان شاء الله لاأعطي العدو ظهري ، ان هذا كفر يا شيخ !

ويروي حافظ وهبة قصة أخرى هو ان رجلا من الاخوان وجد صرة فيها نقود ذهبية عقب احدى المعارك الحربية التى خاضها الاخوان ، فجـاء بها الى أحد شيوخ الدين يسأله : هل هي حلال له ؟ فقال الشيخ له : انها من الغنيمة ولا يحل له من الغنيمة الا ما يصيبه بعد القسمة • فأسرع الرجل

---

(١٨) المصدر السابق ـ ص ٢٩١ •

الى متولي الغنيمة فسلم الصرة اليه قائلا : « لا والله لااستحقها »[١٩] .

ان هذه الروح الفدائية التي سيطرت على الاخوان جعلت منهم قـوة حربية كبرى في يد ابن سعود أخذ يهدد بها الاقطار المجاورة . وقد صار الاخوان ابتداءاً من عام ١٩١٩ يشنون الغارات على الكويت والعـراق والاردن والحجاز ، فأثاروا الرعب في تلك الاقطار . وقد رأينا نموذجاً من أفعالهم في واقعة تربة .

الفرصة المؤاتية :

كان ابن سعود بعد أن تنامت لديه قوة الاخوان يطمح لغزو الحجاز . ان آل سعود قد فتحوا الحجاز في حركتهم الاولى ، وهو يريد ان يسير على أثرهم ، ولكنه كان يخشى أن يمنعه الانكليز من ذلك ، وهو لم يكن يحب أن يصطدم بالانكليز على أي حال .

ظل ابن سعود يترقب الفرصة للقيام بحركته تجاه الحجاز . وقـد جاءته الفرصة أخيرا في ٥ آذار ١٩٢٤ عندما أعلن الحسـين الخلافة في عمان . فقد أدى هذا الاعلان الى غضب بعض الاوساط الاسلامية في الهند ومصر وغيرها . أضف الى ذلك ان الانكليز قاموا في ٣٠ منه بقطـع المعونة المالية التي كانوا يدفعونها لابن سعود ، فكان ذلك عاملا أضافياً جعل ابن سعود يصمم على غزو الحجاز . يقول الباحث ترويلر : ان حادثـين حدثا في شهر آذار ١٩٢٤ كان لهما بلا شك أثرهما القوي في دفع أبـن سعود الى مهاجمة الحجاز : أولهما انتحال الحسين الخلافة في ٥ منه ، والثاني قطع بريطانيا في ٣٠ منه للمعونة المالية التي كانت تدفعها لابن سعود ، وقد شعر ابن سعود على اثر ذلك انه سوف لايخسر كثيراً لو غضبت عليه

---

(١٩) المصدر السابق ـ ص ٢٩٢ .

بريطانيا ، ولم يبق لديه مانع قوي يمنعه من اطلاق اتباعه المتحمسين على الحجاز[٢٠] .

وقد أشار حافظ وهبة الى مثل ذلك في مذكراته ، فهو يقول : ان الظروف كانت حينذاك ملائمة لاطلاق سيوف الاسلام ـ ويقصد بهم الاخوان ـ على الحجاز ، فان اعلان الحسين الخلافة أغضب عليه اكثرية العالم الاسلامي ، كما أن موقف الحسين من فلسطين أغضب عليه الانكليز ، فلم يبق لدى الحسين من يعتمد عليه سوى أخيلة لم تحققها الايام . ويضيف حافظ وهبة الى ذلك قائلا : ان ابن سعود كان متهيباً من القيام بغزو الحجاز لانه لم ينس انذار بريطانيا له في عام ١٩١٩ عقب واقعة تربة ، ولكنه ـ أي حافظ ـ أوضح له ان الظروف تختلف عنها في أيام تربة ، وذكر له كيف أن الحسين كان في أيام تربة حليفا مطواعا لبريطانيا أما الآن فقداصبح مناوئاً لها . وأخذ يؤكد له أنها فرصة ثمينة يجب انتهازها وقال ان الفرص لايجود بها الزمن الا مرة واحدة[٢١] .

تأجيل الغزو :

في الوقت الذى صمم فيه ابن سعود على غزو الحجاز أصيب بمرض غريب جعله يؤجل الغزو فترة من الزمن .

بدأ المرض بورم في الوجه عقب ليلة قضاها ابن سعود مع احدى زوجاته . وكانت امرأة شمرية من آل الرشيد . وأخذ الورم يشتد عليه ، وتسمم بدنه وارتفعت درجة حرارته ارتفاعاً خطراً[٢٢] . وانتشرت الاشاعات عنه أنه مات ، غير ان المرض خف عنه تدريجياً بمرور الايام .

---

(20) Troeller (op. cit.) — P. 216.

(٢١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(22) Armstrong (op. cit.) — P. 159.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان عبدالرحمن والد ابن سعود كان معتقداً بان المرض نشأ من البخور الذي تبخر ابنه به في تلك الليلة ، واتهم الزوجة الشمرية بأنها قد وضعت السم في البخور لكي تنتقم لقومها منه • وأمر ابنه بأن يطلقها • فطلقها ابن سعود طاعة لامر أبيه على الرغم من اعتقاده ببراءتها • ويُروى عن ابن سعود انه قال عن تطليقـــه لتلك الزوجة : « لقد طلقتها وهي تبكي وأنا أبكي ، لاني كنت واثقاً بأن التورم حصل صدفة وانها بريئة من اى سوء نية او سوء قصد ، ولكنني نزولا عند أوامر والدي طلقتها » • وقد ظل ابن سعود بعد ذلك يزور تلك المرأة لانه كان يحترمها ويودها كثيرا[٢٣] •

والغريب أنه بعد مرور أربعة أشهر على هذا المرض ظهرت بوادر الرمد على عينه اليسرى ، والمظنون انه الرمـد الصـديدي • فجيء لـه بأطباء شعبيين فلم ينفعوه شيئاً وأخذ الرمد يشتد عليه ، وظهرت على عينه لطخة بيضاء أفقدته البصر فيها • فجيء له بطبيب سوري استطاع أن يخفف من التهاب العين ، ولكن اللطخة البيضاء ظلت باقية • وفي كانون الثانـي ١٩٢٦ عندما تم لابن سعود فتح الحجاز استُدعي له من مصر بعض أطباء العيون المعروفين كان من بينهم سالم الهنداوي وجلال أبو السعود ، فأجروا له عملية جراحية تمكنوا بها من اعادة شيء من البصر الى عينه المصابة عن طريق فتحة صغيرة في القرنية ينفذ منها الضوء • أما اللطخة فلم يتمكنوا من ازالتها •

مؤتمر الرياض :

عندما شعر ابن سعود بان صحته تمكنه من القيام بغزو الحجاز آوعز بعقد مؤتمر في الرياض يحضره رجال الدين وزعماء الاخوان للمداوله في

---

(٢٣) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ •

الامر • وقد انعقد المؤتمر في ٤ حزيران ١٩٢٤ برئاسة عبدالرحمن والد ابن سعود •

افتتح عبدالرحمن المؤتمر فذكر كيف ان الحسين منع الاخوان من الحج ، وقال ان كتبا عديدة وردته من الاخوان وهم يبغون الحج ، وأنه ارسل تلك الكتب الى ولده عبدالعزيز ، وها هو عبدالعزيز أمامكم فاسألوه عما تريدون • وعند هذا قام ابن سعود وقال للحاضرين : ان كتبهم وصلته وان الامور مرهونة بأوقاتها وان لكل شيء نهاية • فقام سلطان بن بجاد أحد زعماء الاخوان الاقوياء وقال بلهجته النجدية : « يا الامام حنا نبغي الحج ولا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من اركان الاسلام مع قدرتنا عليه • ليست مكة ملكاً لاحد ، ولا يحق لاحد أن يمنع المسلمين أو يصد المؤمنين عن أداء فريضة الحج • نريد أن نحج يا عبدالعزيز ، فاذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة • واذا كنتم ترون من المصلحة تأجيل الحج في هذا العام فلابد من غزو الحجاز لنخلص البيت الحرام من أيدي الظالمين المفسدين » •

علق ابن سعود على هذا الكلام قائلا بأن مسألة الحج هي من المسائل التي يرجع الفصل فيها الى علماء الدين ، وها هم العلماء حاضرون فليتكلموا فتكلم أحدهم وهو الشيخ سعد بن عتيق ، فذكر ان من أصول الشريعة النظر الى المصالح والمفاسد ، واذا كان الحج يؤدي الى ضرر او مفسدة وجب تأجيله ، وهذا أمر يعود الفصل فيه الى الواقفين على السياسة ، وهو ما نريد أن نسألهم عنه • وعند هذا تكلم ابن سعود فقال ما يلي :

« نحن لانود أن نحارب من يسالمنا ، ولا نمتنع عن موالاة من يوالينا • ولكن شريف مكة كان دائما كما تعلمون يزرع بذور الشقاق بين عشائرنا ، وهو الوارث من أسلافه بغضنا • ومع ذلك فقد بذلت كل مافي وسعي لحل

المشاكل التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن • وكنت كلما دنوت من الحسين تباعد ، وكلما لنت له تجافى ، أي ورب الكعبة ! ولست أرى في تطور الامور ما ينعش الامل ، بل أرى الامور تزداد شدة وارتباكاً • ولا يحسن الاستمرار في خطة لاتعزز حقوقنا ومصالحنا » •

لم يكد ابن سعود يتوقف عن الكلام حتى هتف الجميع توكلنا على الله ! الى الحجاز ! الى الحجاز ![٢٤] •

غارة الاردن :

أعد ابن سعود رتلين : أحدهما وهو الرئيسي وجهه الى الحجاز ، والثاني وجهه الى شرقي الاردن • والظاهر ان الرتل الثاني كان المقصود منه صرف الاذهان عن حركة الرتل الاول •

وصل الرتل الثاني الى مقربة من عمان في ١٤ آب ١٩٢٤ • وفي صباح ذلك اليوم بينما كان الكولونيل بيك قائد القوات الاردنية يتجول على فرسه بالقرب من عمان فوجىء بمجموعة من النساء قادمات نحوه وهن يصرخن : « اخوان •• اخوان ! » ، ولما سألهن بيك عن الخبر قلن له ان الاخوان هاجموا قرية طنب وذبحوا معظم سكانها وهم متوجهون الآن نحو عمان • فأسرع الكولونيل بيك الى ثكنات الجنود وأمرهم بالتحرك بمصفحاتهم لقتال الاخوان ، كما ذهب الى مقر القوة الجوية طالباً اعداد الطائرات لقصفهم • ثم ركب بيك طائرة استكشافية لكي يشرف على المعركة من الجو •

بوغت الاخوان بالنيران تنصب عليهم من المصفحات والطائرات معاً ، فتكبدوا من جراء ذلك خسائر فادحة ، وفروا لايلوون على شيء بعد أن تركوا وراءهم خمسمائة قتيل ونحو ستمائة أسير كان كثير منهم جرحى •

---

(٢٤) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ •

انها في الواقع لم تكن معركة بل كانت بالمذبحة أشبه • وقد انتقد بعض الكتاب في بريطانيا هذه القسوة البالغة في مواجهة الاخـــوان ، ووصفوها بأنها كانت أكثر مما ينبغي • فرد عليهم الميجر جارفز قائلا : ان هذه القسوة كانت ضرورية لانقاذ سكان الاردن من الرعب الذى كان مسيطرا عليهم لان الاخوان في غاراتهم لايرحمون حتى النساء والاطفال• ويقول جارفز : ان الانسان حين يواجه عدواً اعتدائياً سفاكاً يجب أن يأخذ بعين الاعتبار كيف سيعامله العدو لو انتصر عليه(٢٥) •

كان الامير عبدالله في تلك الآونة في الحجاز ، وقد عاد الى عمان في ١٩ آب ـ أي بعد وقوع المذبحة بخمسة أيام ـ فقدم له الكولونيل بيك أربع من الرايات الخمس التي كان قد غنمها من الاخوان • فسأله الامير عن مصير الراية الخامسة ، فأجابه بيك أنه أخذها لنفسه اذ هـي حصته من الغنائم • فضحـــك الامير وقال : احتفـــظ بها فأنت تستحقها(٢٦) •

أرسل ابن سعود الى بريطانيا احتجاجاً على ما فعلت قواتها بالاخوان، وكانت حجته ان القبائل الاردنية هي التي بدأت بالعدوان • فردت عليه بريطانيا ببرقية أرسلتها عن طريق قنصلها في بوشــهر ، حيث قالت للقنصل ما يلي :

« يجب أن تخبر ابن سعود بأن الحكومة البريطانية قد تسلمت احتجاجه بكل دهشة • انها تعتبر نفسها هي صاحبة الحق في الاحتجاج على ما جرى في شهر آب الماضي حين قام جمع من القبائل الوهابية بغارة مسلحة على منطقة تقع تحت الانتداب البريطاني • ان الحكومة البريطانية ملزمة بأن تصد مثل هذه الغارة بكل وسيلة تقع في يدها • ان ابن سعود

(25) Jarvis (Arab Command) London 1924 — P. 115—118.

(26) Ibid. P. 118.

يمكن أن يكون واثقا من أن الحكومة البريطانية ستفعل تجاه أية غارة أخرى بمثل ما فعلت تجاه الغارة الاولى ••• انه يجب ان يفهم بوضوح ، ان الحكومة البريطانية لن تتسامح تجاه أي هجوم على منطقة تقع تحت مسؤوليتها • أما بالنظر الى شكواه حول البادىء بالعدوان فيجب أن تذكره بالرسالة المرسلة ببرقيتنا في الاول من آب الماضي • فالوهابيون بدلا من أن يطالبوا بالتحقيق حول الغارة التي زعموا انها شنت عليهم من شرقي الاردن اختاروا أن يأخذوا القانون بأيديهم • انهم يجب أن لايلوموا غير أنفسهم لما قاموا به من عمل عدواني سيء التوجيه أدى بهم الى الاصطدام مع القوات البريطانية ••• »(٢٧) •

واقعة الطائف :

حين بلغ الحسين خبر المذبحة التى حلت بالاخوان في شرقي الاردن استبشر بها كثيراً • انه لم يكن يدري ان ابن سعود يعد العدة له وهو على وشك مهاجمته • لقد كان الحسين واثقاً ان الاخوان لو هاجموه سيحل بهم مثلما حل بهم في شرقي الاردن • يقول أمين الريحاني : ان الحسين كان حينذاك في قصره متوسداً وسادة الخلافة مطمئن البال واثقاً بما تضمره الايام وهو يدبج المقالات لجريدة « القبلة » ، حيث يقول : « نحن نشكر كمالات حكومة بريطانيا العظمى على ما أظهرته من الحمية في الشرق العربي ــ يقصد شرقي الاردن ــ ولكننا مع ذلك لانتنازل عن حق من حقوقنا •• ان سوريا جزء من البلاد العربية وان فلسطين للعرب• ولا نوقع معاهدة فيها ما ينفي هذا القول بل هذا الحق ••• ومن أعرف منا بالبدو وبالمتدينة ــ يقصد الاخوان ــ ان قبلة من مدفع تبددهم ، وطيارة واحدة تشتت شملهم • والبرهان في الشرق العربي »(٢٨) •

---

(٢٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• او• ٣٧١ ــ ١٠٠١٣) •
(٢٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٠ •

كان الاخوان يتجمعون في تربة وقد بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف ، وكانوا برئاسة الشريف خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد • وفي أواخر شهر آب ١٩٢٤ تحركوا نحو الطائف فاجتازوا حدود الحجاز ، وفي اليوم الاول من ايلول وصلت طلائعهم قرية « الحوية » التي تبعد بضعة أميال عن الطائف • وهناك جوبهوا بقوة نظامية كانت قد أرسلت من الطائف ، فنشبت بين الفريقين معركة دامت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخوان •

انسحبت القوة النظامية نحو الطائف ، ورابطت في الهضاب الغربية منها ، وقد انضم اليها عدد من البدو • وفي مساء ٥ ايلول وصل الى الطائف الامير علي ومعه سرية من الخيالة وأخرى من الهجانة • ولكنه لم يمكث فيها طويلا ، بل خرج منها في عصر اليوم التالي وعسكر في موضع يدعى « الهدا » قريب منها •

وفي ظهر ٧ ايلول اقترب الاخوان من الطائف وصار رصاصهم يقع داخل السور • فساد الذعر في البلدة ، وأخذ بعض سكانها والمصطافون فيها يفرون منها ، كما انسحب منها وزير الحربية صبري باشا مع جنوده حيث التحقوا بالامير علي في الهدا ، وانسحب كذلك أمير الطائف الشريف شرف مع موظفيه •

وعلى أثر ذلك دخل الاخوان الى البلدة كالسيل الجارف وهم يكبرون ويطلقون بنادقهم في الفضاء ، ثم أخذوا يطوفون في اسواق البلدة وأزقتها وهم يطلقون النيران على كل من يشاهدونه في طريقهم • ثم تطور الحال بعدئذ فصار الاخوان يحطمون أبواب البيوت ويدخلونها قهراً ، فينهبون ويقتلون • انهم يعتبرون جميع الناس غيرهم كفارا حلال دماؤهم وأموالهم • وكان من جملة قتلاهم الشيخ الزواوي مفتي الشافعية وأبناء الشيخ عبدالقادر الشيبي سادن الكعبة • ويروي أمين الريحاني

أنهم ظفروا بالشيبي نفسه وأرادوا قتله ، ولكنه نجا منهم بحيلة ، فهو عندما وقع في أيديهم واستل أحدهم سيفه عليه ليقتله أخذ يبكي ، فسأله الاخواني : « وليش تبكي يا كافر » • فأجابه الشيخ : « أبكي والله من شدة الفرح • أبكي يا أخوان لاني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله أن أموت الا مؤمناً موحداً • الله اكبر ! لا اله الا الله ! ».• وقد أثر هذا الكلام في الاخوان وبكوا لبكاء الشيخ ، ثم صاروا يقبلونه ويهنئونه بالاسلام(٢٩) •

كان الامير علي ومن معه قد انسحبوا الى عرفات ، وحين علم الحسين بذلك غضب على الامير غضباً شديداً ، وأمره بالعودة لاسترجاع الطائف • وفي ٢٦ ايلول التقى الفريقان في الهدا فوقعت معركة عنيفة استمرت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخوان •

الحسين يتنازل :

عندما وصل الى مكة خبر الهزيمة التى حلت بجيش الحسين في الهدا انتشر الرعب والذعر بين الاهالى اذ كانوا يخشون ان تحل بهم مذبحة كمذبحة الطائف ، وأخذوا يفرون الى جدة ، وسار الكثير منهم على الاقدام لكثرة الفارين وقلة وسائل النقل • فاكتظت بهم جدة •

كان الحسين يظن ان الانكليز سيتدخلون لانقاذه على نحو مافعلوا في شرقي الاردن في الشهر الماضي • فأرسل في ٢٦ ايلول برقية الى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة ذكر فيها : ان الحالة حرجة ، وان علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود لتجنب ما وقع في الطائف ، وهو يأمل منها النظر في طلبه بأسرع ما يمكن• فأبرق القنصل بهذا الطلب الى حكومته في لندن ، فعاد الجواب منها في

---

(٢٩) المصدر السابق _ ص ٣٣٣ •

٢٨ مايس ١٩١٩ : ان الحكومة البريطانية متمسكة بسياستها التقليدية في عدم التدخل في الامور الدينية ، وهي لذلك لاتريد أن تتدخل في أي نزاع بشأن امتلاك الاماكن المقدسة في الاسلام(٣٠) .

وفي الوقت نفسه كتب الدكتور ناجي الاصيل مندوب الحسين في لندن الى وزارة الخارجية البريطانية يقول لها : ان صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية طبقاً لروح المعاهدة التي هي تحت المفاوضة أن تتدخل لوضع حد للاعتداء الوحشي الذي يقوم به الوهابيون ضد الاماكن المقدسة واخراجهم من الطائف . فأجابته وزارة الخارجية البريطانية قائلة : ان الحكومة البريطانية لاتريد أن تتورط في النزاع القائم بين أمراء عرب مستقلين حول امتلاك الاماكن المقدسة في الاسلام . وقد ألقى رئيس الوزارة البريطانية بياناً بهذا المعنى في مجلس العموم البريطاني .

رد الاصيل على جواب وزارة الخارجية في ٢ تشرين الاول أشار فيه الى ماقام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى في تأييد بريطانيا في الحرب العامة ، وهو لذلك يتوقع من بريطانيا مساعدته في انقاذ مكة من ويلات الحرب . وذكر الاصيل كذلك ان العالم الاسلامي لا يرضى أن تقع الاماكن المقدسة ، ولو لفترة قصيرة جداً ، في أيدي طائفة كالوهابية ، وهو ينظر بعين الخشية الى احتمال غزو مكة من قبل سلطان نجد واتباعه(٣١) .

والغريب انه بينما كان الحسين يناشد بريطانيا لانقاذه من الوهابيين ، كان بعض الاهالي في جدة يناشدونها لانقاذهم من الحسين نفسه . يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره السري الى حكومته : أن اثنين من

(٣٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١٠٠١٤)
(٣١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١٠٠١٤)

كبار تجار جدة جاءا اليه مطالبين بان يكون الحجاز تحت حماية بريطانيا أو انتدابها ، فرفض القنصل تلبية طلبهما . ثم يقول القنصل : أن الرأي السائد بين أهالي جدة هو أنهم كانوا في العهد التركي مرتاحين على الرغم من تعسف الاتراك ، اذ كان لديهم شيء من الحرية في ممارسة حرفتهم لاستغلال الحجاج ، ولم يكن لديهم أي اهتمام فيما يخص شؤون الدفاع عن البلاد ، ثم جاءت بريطانيا أخيراً فطردت الاتراك من البلاد وأقامت فيها حكماً أشد تعسفاً من الاتراك كما وضعت مسؤولية الدفاع عنها على اهلها . ان الاهالي يريدون الآن من بريطانيا أن تدافع عنهم بعد أن تحطمت وسائل دفاعهم ، وأن تنقذهم من حكم الحسين الذى كان السبب المباشر لهجوم الوهابيين[٣٢] .

وفي ٣ تشرين الاول وصل الى جدة الامير علي مرسلا من أبيه فدعا اليه أعيان جدة وأعيان مكة الذين لجأوا اليها . وقال لهم: ان الموقف يدعو الى اليأس وان أباه مستعد للتنازل عن العرش اذا كان ذلك يؤدي الى تحسين الموقف . فطلب الاعيان مهلة ساعة للتداول في الامر ، وبعد المداولة قرروا قبول تنازل الحسين عن العرش وتولية ابنه علي مكانه . وقد رفض الامير علي قبول العرش ، فأصروا عليه ، وأبرقوا حالا الى الحسين يطلبون منه التنازل لابنه علي وذلك لانقاذ الحرمين الشريفين من الكارثة وانقاذ الشعب من الفوضى . فأجابهم الحسين بهذه البرقية : « مع الممنونية والشكر . وهذا اساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة والى تاريخه . وقد صرحت قبله بدقائق اني مستعد لذلك بكل ارتياح اذا عينتم غير علي . واني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح ـ حسين » .

كان الاعيان لايزالون مجتمعين عندما وصلتهم البرقية . فقرروا الاتصال به مباشرة بالتلفون . فتناول أحدهم التلفون وأخذ يخاطب

---

(٣٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف· أو· ٣٧١ ـ ١٠٠١٥)

الحسين ، ولكن الحسين رفض التكلم معه قائلا له : « انت من رجال حكومتي فليكلمني غيرك » . ولما تناول رجل آخر منهم التلفون رفض الحسين التكلم معه كذلك . وعند هذا تناول التلفون طاهر الدباغ فجرت بينهما المحاورة التالية :

الدباغ : « مولاي بناءاً على المركز الحرج الذى وصلت اليه البلاد قررت الامة تنازل جلالتكم لسمو الامير علي ... » .

الحسين (مقاطعاً) : « أنا وابني شيء واحد . واذا كنت أنا قد صرت عندكم بطّال فلا بأس . ولكن لاأفهم ما القصد من هذا . لايهمني أمر الملك في أي شخص كان . ولكني لا أتنازل لولدي علي أبداً . لاني أذا كنت أنا بطّال فولدي بطال ».

الدباغ : « كلا يامولاي . لاننسب لجلالتكم شيئاً من ذلك . وانما نريد أن نسلك سياسة غير السياسة التى سرتم عليها ، عسى أن نتمكن من تخليص البلاد من مأزقها الحرج . والامة قد أجمعت على طلب ذلك من جلالتكم ، ونرجو اجابة رغبتها » .

الحسين : « يا ابني لكم ان تفعلوا ما تشاؤون . أما أنا فلا اتنازل لولدي أبدا . عندكم الشريف علي أمير مكة السابق ، وأخي ناصر ، وعندكم خديوي مصر عباس حلمي ، وعندكم الاشراف كثيرون . اختاروا اى واحد تشاؤون ، وأنا مستعد للتنازل له . أما ولدي فلا يمكن لاني أنا وهو شيء واحد . خيره وشره عائدان لي ».

الدباغ : « قد أجمعت الامة يامولاي على اختيار الامير علي ولا ترغب ... » .

الحسين (مقاطعاً) : « لا يمكن أن اتنازل لولدي أقول لايمكن قطعاً » .

الدباغ : « سأخبر الهيئه ثم نعلم جلالتكم »[٣٣] .

كان الامير علي في اثناء ذلك قد زار القنصل البريطاني وسأله هل في مقدوره الاعتماد على مساعدة الحكومة البريطانية في حالة قبوله العرش ، فكان جواب القنصل له بالنفي . وعاد الامير علي الى هيئة الاعيان وأعلن لهم انه لن يقبل العرش لان الوضع لا أمل فيه وانه لايرغب أن يكون ملكاً لمدة يومين أو ثلاثة . وعند هذا قرر الاعيان انتداب اربعة منهم لمقابلة القنصل البريطاني ، وكان الوقت آنذاك في ساعة متأخرة من الليل فسار المندوبون الاربعة نحو القنصلية وخلفهم جمهور غفير من الناس . وحين اجتمعوا بالقنصل ذكروا له أن الامير علي رفض قبول العرش ، وأنهم لهذا لايملكون وسيلة سوى طلب الرحمة من بريطانيا ، وعرضوا على القنصل : اما ان تضع بريطانيا الحجاز تحت حمايتها او انتدابها ، أو تتدخل لمنع ابن سعود من احتلال مكة ، أو تؤيد الاعيان في مفاوضاتهم مع الوهابيين لكي يمتنعوا عن المذابح ، أو تقوم بأي عمل ينقذهم « باسم الانسانية » . فأجابهم القنصل انه غير مخول من قبل حكومته أن يفعل أي شيء مما ذكروه[٣٤] .

عاد المندوبون الاربعة من القنصلية خائبين ، واضطروا الى الالحاح من جديد على الامير عَلي لكي يقبل العرش . فوافق الامير أخيرا على طلبهم . وأرسلوا الى الحسين في مكة برقية تتضمن ما يشبه الانذار له ، وهذا نصها : « الحالة حرجة جداً ، وليس الوقت وقت مفاوضات . فاذا كنتم لاتتنازلون للامير علي فنسترحم بلسان الانسانية أن تتنازلوا جلالتكم لتتمكن الامة من تشكيل حكومة موقتة . واذا تأخرتم عن اجابة هذا الطلب فدماء المسلمون ملقاة على عاتقكم » .

---

(٣٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .
(٣٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف· أو· ٣٧١ ـ ١٠٠١٥)

حل الاعيان ساهرين في تلك الليلة ينتظرون الجواب • وفي الساعة الرابعه من صباح ٤ تشرين الاول وصل الجواب وفيه يقول الحسين : انه قبل التنازل بكل ارتياح ، واذا قبل الامر علي فيجب أن تعنوه رأساً ، فالحاله تقتضي السرعة واذا تأخرتم فانتم المسؤولون ![٣٥]

سقوط مكة :

جرى الاحتفال في جدة بمبايعه الامير علي ملكاً للحجاز ، وكان الاحتفال بسيطاً للغاية ، وقد تقرر فيه أن يكون علي ملكاً دستوريا يتنزل على رأي الامة في تحقيق آمالها ورغباتها ، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي ينتخب أعضاؤه من جميع أنحاء الحجاز بموجب قانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جاري في البلاد المتمدنة •

وأوعز الملك علي بتأليف وزارة على الطريقة الدستورية ، فجرى تأليفها بالشكل التالي : عبدالله سراج رئيساً • تحسين الفقير وزيرا للحربية ، طاهر الدباغ وزيراً للمالية ، خالد الخطيب وزيرا للصحة ، محمد طويل وزيرا للرسوم ، عبدالقادر غزاوي وزيرا للمواصلات عارف الأدلبي وزيرا للبحرية ، محمد بن منصور وزيرا للداخلية ، فؤاد الخطيب وزيرا للخارجية[٣٦] •

غادر الملك علي الى مكة على أثر تأليف الوزارة ، لاعداد قواته للدفاع عنها • أما أبوه الحسين فكان قد قرر مغادرة البلاد ، ولهذا أرسل في مقدمته قافلة من الجمال تحمل أمتعته وامواله بحراسة عدد من عبيده المخلصين ، وقيل انها كانت تحمل مائة وستين ألف ليرة ذهب موضوعة

---

(٣٥) أمين الريحاني (المصدر لسابق) — ص ٣٣٩ •

(٣٦) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) — بيروت — ج٢ ص ٣٠٤ •

في أربعين صفيحة من صفائح النفط[٣٧] • وحين خرجت القافله من مكه أخذ بعض الغوغاء يودعونها بكلمات نابية[٣٨]•

وفي ٩ تشرين الاول غادر الحسين مع حرمه وعبيده الى جدة ، ومكث فيها ستة أيام معتزلا الناس لم يقابل أحداً منهم • وعند انتهاء الايام الستة أرسل الى رئيس الوزارة الحديثة بلاغا احتج فيه على الحكومة الدستورية قائلا : « أما الحكومة الدستورية ، سيما في الحرمين الشريفين، فالعمل فيها ينبذ أحكام كتاب الله وسنة رسوله • ان العمل في البلاد المقدسة بالقوانين البشرية لما تأباه شعائر الاسلام وفرائض الدين والاخلاق الشريفه مادة ومعنى »•

وفي مساء ١٥ منه غادر الحسين جدة على ظهر باخرة له تدعى الرقمتين » ، وهي باخرة صغيرة شبيهة باليخت كان قد أشتراها من اليونان منذ وقت ليس ببعيد • يُروى انه عندما شاهدها لاول مرة عقب شرائها أعجب بها وقال : سوف نسافر بها في يوم من الايام سفرة بعيدة[٣٩] • وقد تحققت نبوءته ••

لم يبق الملك علي في مكة سوى اسبوع واحد • انه أدرك ان القوات التى لديه في مكة لاتكفي للدفاع عنها فقرر الانسحاب منها الى جدة • وفي مساء ١٤ تشرين الاول غادر مكة مع قواته التى لم تكن سوى مائتين من من الجنود ومثلهم من الشرطة •

كان قائد الجيش الهاشمي رجل عراقي هو صبري باشا العزاوي وقد اختلفت الاقوال في مصيره • فمنهم من يقول انه انسحب مع الحسين، ولكن فيلبي يخالف ذلك حيث يقول : « لقد ذاب جيش الملك حسين في

---

(٣٧) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٤٠ •
(٣٨) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٣٠٦ •
(٣٩) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٤٠ ــ ٣٤١ •

الهواء منذ المعركة الاولى وكان قائده السابق صبري باشا البغدادي الاصل أول من فر من الميدان »[٤٠] • ويقول القنصل البريطاني في تقريره : ان صبري باشا كان مكلفاً بتعطيل المدافع الموجودة في مكة لكي لا يستفيد منها العدو ، غير أنه تركها من غير تعطيل وهرب ، وقد وقعت المدافع بعدئذ غنيمة باردة في أيدي الاخوان فاستفادوا منها فائدة كبرى[٤١].

حين علم الاخوان بانسحاب الملك علي من مكة ، أرسلو اليها أربعة رجال منهم وهم عزل من السلاح • ولما وصل هؤلاء الاربعة الى مكة وجدوا شوارعها خالية ، وقد سدت مداخلها بالحواجز ، كما وجدوا الحوانيت مقفلة • فأخذوا يطوفون البلدة على خيولهم وهم ينادون « الامان ــ الامان ! » • وفي ١٦ تشرين الاول دخل الاخوان الى مكة وهم بلباس الاحرام ، فطافوا حول البيت وسعوا بين الصفا والمروة • فاستقبلهم أهل مكة بالحفاوة والترحيب ![٤٢]

عين خالد بن لؤي حاكماً على مكة ، وانطلق الاخوان الى دور الحكومة والأشراف فنهبوها وعرضوها للبيع • وجاء بعض أهل مكة اليهم يدلونهم على دور أخرى كان أصحابها قد فروا من مكة ، فصار الاخوان ينهبونها ويعرضونها للبيع أيضاً[٤٣] •

ثم انطلق الاخوان الى القباب المقدسة فهدموها ، كالقبة المقامة على قبر خديجة ودار النبي • وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم ، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوي ، وزيارة القبور ، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه ، وربما ساقوه الى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة • وحين نصب الجاويون

---

(٤٠) خيري حماد (عبدالله فيلبي) ــ بيروت ١٩٦١ ــ ص ١٦٠ •
(٤١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)
(٤٢) صلاح‌الدين المختار (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٣١٠ •
(٤٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٧٠ •

سرادق لتلاوة المولد النبوي كعادتهم في كل عام ، جاء الاخوان اليهم فطردوهم ونعتوهم بـ « المشركين » ، وهدموا السرادق • وحين ذهب اثنان من الهنود لزيارة قبر خديجة ألقي القبض عليهما وأودعا الحبس ، ولم يُطلق سراحهما الا بعد أن جاء المنشي احسان الله كاتب القنصلية البريطانية في جدة فدفع غرامة خمسة دولارات عن كل واحد منهما ، فأطلق سراحهما(٤٤) •

ابن سعود يتردد :

كان ابن سعود في الرياض عندما وصلته اخبار سقوط الطائف في أيدي الاخوان • وفي ١١ تشرين الثاني ١٩٢٤ غادر الرياض متوجهاً الى الحجاز على رأس جيش يبلغ تعداده خمسة آلاف رجل ، ولكنه كان قلقاً متردداً ، اذ كان يخشى أن يأتيه انذار من بريطانيا على نحو ما حدث في عام ١٩١٩ عقب واقعة تربة • انه لم يكن يرغب في محاربة الانكليز على أي حال ، لانهم يملكون الطائرات والمصفحات بينما هو لا يملكها ، وربما جرى عليه في الحجاز مثلما جرى على الاخوان في شرقي الاردن•

وبينما كان ابن سعود في طريقه الى الحجاز وصلته صحف من العراق وفيها خبر بسقوط وزارة العمال في إنكلترا ، وتشكيل وزارة جديدة من المحافظين • فأسرع أحد مستشاريه ــ والمظنون أنه يوسف ياسين ــ فاختلى به وذكر له أن وزارة المحافظين الجديدة سوف تتبع تجاه القضايا العربية سياسة جديدة تختلف عن سياسة الوزارة العمالية السابقة ، وأن أول أعمالها سيكون المحافظة على حكم الاشراف في الحجاز•

اضطرب ابن سعود عند سماعه هذا القول ، وأرسل يستدعي اليه مستشاريه الآخرين اللذين كانا يرافقانه في الحملة وهما : حافظ وهبة

---

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٨)

المصري وعبدالله الدملوجي العراقي • وحين دخل عليه هذان الرجلان وجداه واجماً مغموماً فسألهما عن الاخبار ثم قال : « هل للمحافظين تأثير في موقفنا ؟ هل يؤيدون الاشراف ؟ » • فأجابه حافظ وهبة : ان السياسة الخارجية الانكليزية ثابتة تقريبا لان الذين يصنعونها موظفون دائميون وان الاحزاب الانكليزية على اختلافها تنفذ ما يصنعه أولئك الموظفون وقلما تغيره تغييراً تاماً • لم يقتنع ابن سعود بصحة هذا القول وبدت عليه امارات الشك والتردد ، وسأل حافظ وهبة : « هل انت متحقق مما تقول ؟ » ، فأجابه حافظ بأنه متحقق كل التحقق •

وأخذ حافظ يحاول اقناع ابن سعود بأن لا يتردد في عزمه وان يواصل الزحف نحو الحجاز ، حيث قال له : « اذا كنت في شك من من أمرك فخير لك أن ترجع الى بلدك ، وان كنت واثقاً بالله الذي وعد المؤمنين بالظفر والتأييد فسر في طريقك ولا تتردد • لا تشغل بالك يا مولاي بهذه الشكوك • ان بريطانيا لا يهمها الا المحافظة على رعاياها ومصالحها ، وسيان عندها الشريف حسين أو ابن سعود • لقد كانت لها آمال كبيرة في الملك حسين ، فأنذرتك في سنة ١٩١٩ ، أما الآن فقد تغيرت الحال ، وخابت جميع آمالها فيه ، فسر على بركة الله ولا تتردد ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » • فقال ابن سعود : « توكلنا على الله ، ولعنة الله على فلان ـ يقصد المستشار الاول ـ الذي بلبل أفكاري ، وأسلمني الى الشك والتردد » •

وبعد مرور أربعة ايام من ذلك وصل الى ابن سعود بريد الحجاز وهو يحمل كتباً من جميع قناصل الدول في جدة يعلنون فيها حياد دولهم في الحرب القائمة في الحجاز ويحمّلون الفريقين مسؤولية ما يقع على رعاياهم من ضرر او اعتداء • فكان لهذه الكتب وقع حسن لدى ابن سعود وبشارة خير للمستقبل(٤٥) •

---

(٤٥) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٦١ ـ ٦٣ •

علماء مكة يوافقون :

وصل ابن سعود مع جيشه الى مكة في ٤ كانون الاول ١٩٢٤ . وفي اليوم التالي استعرض الجيش ، ثم جاء الاخوان لتحيته فقبلوا أنفه وجبينه على عادتهم ، وجاء من بعدهم أعيان مكة وتجارها وأرادوا تقبيل يده على عادتهم فمنعهم من ذلك وقال : « المصافحة من عادات العرب ، أما عادة التقبيل فقد جاءتنا من الاجانب ونحن لا نقبلها »(٤٦) .

وبعد أن انتهى ابن سعود من النظر في مشاكله الآنية ، استدعى اليه الشيخ عبدالقادر الشيبي وطلب منه دعوة علماء مكة للاجتماع به . فاجتمع العلماء به في اليوم التالي وألقى ابن سعود عليهم كلمة قال في ختامها ما يلي :

« والآن أنا بذمتكم وأنتم بذمتي . ان الدين نصيحة . وأنا منكم وأنتم مني . وهذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم . فان كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه ، وسلونا عما يشكل عليكم فيها . والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنه ... انا لم نطع ابن عبدالوهاب وغيره الا في ما أيدوه بقول من كتاب الله وسنة رسوله . أما أحكامنا فهي طبق اجتهاد الامام أحمد بن حنبل . اذا كان هذا مقبولاً عندكم تعالوا نتبايع على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

حين انتهى ابن سعود من كلامه صاح بعض الحاضرين : « كلنا نبايع » . فرد عليهم ابن سعود : « قولوا لنا بصريح القول ما عندكم » . فقالوا « ما عندنا غير هذا » . فقال ابن سعود : « أعيذكم بالله من التقيّة ، فلا تكتموا علينا شيئاً » . فقال أحد الحاضرين : « اجمعنا بعلماء نجد بحضرة الامام فنتباحث واياهم في الأصول والفروع ونقرر ما نتفق عليه

(٤٦) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٧٣ .

ان شاء الله » • فوافق ابن سعود على هذا الرأي وقال : « زين » قريباً تجتمعــون » •

وفي ٨ كانون الاول اجتمع خمسة عشر من علماء مكة ، وسبعة من علماء نجد ، وبعد المناقشة والمباحثة فيما بينهم اتفقوا على صحة المذهب الوهابي • ثم أصدر علماء مكة بياناً ورد فيه ما نصه :

« قد حصل الاتفاق بيننا وبين علماء نجد في مسائل أصولية ، منها : من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع او دفع ضرّ ، فهذا كافر يستتاب ثلاثاً فان تاب والاّ قُتل • ومنها : من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً • في هذه المسائل تباحثنا واتفقنا فاتفقت بذلك العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين اخواننا علماء نجد »(٤٧) •

ان هذا الاتفاق الذي حصل في مكة يشبه من بعض الوجوه ذلك الاتفاق الذي حصل بين علماء الشيعة والسنة في مؤتمر النجف عـــام ١٧٤٣ • فكلاهما قد حصل وفقاً لرغبة سلطان قاهر ، ولولا رغبة السلطان لاختلف العلماء فيما بينهم وتنازعوا وكفّر بعضهم بعضاً • ان الانسان لا يتنازل عن رأي او عقيدة تحت تأثير الجدل والدليل المنطقي وحده • فالدليل المنطقي لا يقنع الاّ صاحبه ، أما في نظر خصمه فهو دليل تافــه سخيف(٤٨) •

(٤٧) المصدر السابق ـ ص ٣٧٢ ـ ٤٧٤ •
(٤٨) أنظر الجزء الاول مـن هذا الكتاب ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٧ •

الفصل السادس

أيام الملك عليّ

استغرق حكم الملك عليّ في الحجاز نحو خمسة عشر شهراً ، وهو يمثل فترة عجيبة من الزمن مليئة بالعبر والدروس الاجتماعية وسنحاول في هذا الفصل ذكر بعض هذه الدروس بايجاز .

خطط الدفاع :

يذهب الخبراء العسكريون الى القول بأن الاخوان لو كانوا قد زحفوا على جدة عقب احتلالهم مكة لاستولوا عليها بكل سهولة ، ولسقطت حكومة الملك عليّ وتم الأمر لابن سعود في الحجاز كله ، ولكن الاخوان توقفوا عن الزحف بناءاً على الأوامر التي وصلتهم من ابن سعود . فقد كان ابن سعود يخشى أن تقع مذبحة في جدة كالتي وقعت في الطائف وربما أدى ذلك الى تدخل الدول الاجنبية وانتكاس الأمر عليه . يقول حافظ وهبة في مذكراته : « وعندما وصلت الينا الاخبار عن دخول الاخوان مكة ، وقد كان دخول مكة خارجاً عن الخطة المرسومة لهم ، أخبرت الملك عبدالعزيز ان الواجب يقضي عليه أولاً بمنع الاخوان من الهجوم على جدة خشية أن يقع في جدة ما وقع في الطائف فتكون العاقبة وخيمة ، وان الواجب يقضي عليه ثانياً بأن يسافر حالاً الى الحجاز ليشرف بنفسه على الحالة هنالك ، وليعرف الناس بنفسه ، وليطمئن الحجازيين ، ويزيل من نفوسهم الاثر السيء من مأساة الطائف »[1] .

كان توقف الاخوان عن الزحف على جدة فرصة ثمينة للملك عليّ لكي يحصن بها جدة ويقوى وسائل الدفاع فيها . والواقع ان الملك عليّ

(١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٦٠ .

استغل تلك الفرصة بأقصى جهده ، وقد ساعده في ذلك رجلان ، أولهما تحسين باشا الفقير وزير الحربية ، وهو ضابط شامي أرسله الامير عبدالله لمساعدة أخيه ، وكان من ضباط الجيش العثماني وقد قاتل في خط « شطالجة » لحماية اسطنبول في حرب البلقان ، ولما وصل الى جدة أخذ يبذل جهده لانشاء خط دفاعي حولها على شاكلة خط « شطالجة » . أما الرجل الثاني فهو نورس بك ، وهو مهندس عسكري تركي ، وقد أبدى براعة ودأباً في اقامة الخط الدفاعي ، واعتبر في حينه « دماغ الجيش المفكر » .

تم اعداد الخط الدفاعي على شكل قوس يبتديء من ساحل البحر في شمال جدة . وينتهي اليه في جنوبها . وقد بلغ طوله ستة أميال ، يحرسه عشرون مدفعاً وما يزيد على الثلاثين رشاشا . ونصبت الاسلاك الشائكة أمامه على أعمدة قصيرة تحيط بها الالغام المدفونة ،كما وضعت فوقها الانوار الكشافة .

كان الجيش الهاشمي في جدة خليطاً من فئات شتى ، فكان فيه حجازيون من البدو ومن بعض القرى ،كما كان فيه يمانيون وهم من سكنة الحجاز ولكنهم من أصل يماني . وأخذ الامير عبدالله يرسل الى جدة المتطوعين الذين جمعهم في شرقي الاردن . فوصلوا على دفعات ، وكان معظمهم من الفلسطينيين والسوريين والاردنيين ، وقليل منهم مصريون وهم من بقايا فرقة العمل الذين خدموا الجيش البريطاني خلال الحرب وبقوا في فلسطين بعدها . وقد انضم الى هؤلاء بعدئذ عدد من الصعاليك من سكان جدة وهم من السودانيين والصوماليين والزنوج . وقد بلغ مجموع أفراد الجيش الهاشمي في جدة ــ حسب تقدير خير الدين الزركلي ــ نحو ١٦٥٠ رجلا(٢) .

---

(٢) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ــ ــ بيروت ١٩٧٧ ــ ج١ ص ٣٤٥ .

كان الاخوان يحيطون بجدة من جهاتها البرية الثلاث • وكان عددهم بين خمسة وستة آلاف • وجاء ابن سعود لكي يشرف بنفسه على سير القتال ، فخيم في شمال الرغامة التي تبعد عن جدة بخمس وعشرين دقيقة •

لم يجلب ابن سعود معه مدافعه من الرياض ، ولكنه انتفع من المدافع التي استحوذ عليها في مكة ، وكانت عشرين مدفعاً وذات مدى أبعد من مدافع جدة وقد استخدم لتشغيلها الضباط الذين كانوا في خدمة الجيش الهاشمي سابقا[٣] • فوجهها على جدة وصار يقصفها وبقصف الخنادق المحيطة بها • وقد سقطت احدى القنابل على دار القنصل البريطاني فاخترقت حدار غرفه نومه ، ودخلت أخرى الى مكتبه ، وأصابت ثالثة دار القنصل السوفيتي وكسرت العلم المنصوب فوقها[٤] •

اعتاد الاخوان أن يهاجموا الخط الدفاعي في الليالي المظلمة ، وذلك لغرضين : ليلقوا الرعب والذعر في قلوب الاهالي بغية اثارتهم على الحكومة أولا ، وليحملوا الجنود على الاسراف بالذخيرة ثانيا • وكان بعض الاخوان حين يقتربون في هجومهم من الخط ينادون حراسه قائلين : « يا اخوانا يا أهل الشام ، وياشمر ، ويا حرب ، ويا عقيلات ، اخرجوا من الخط وانتم في وجه الله ووجه ابن سعود • لاتخافوا • والله ما نريد لكم الا الخير ، تعالوا الينا ونحن أخوانكم ، والله والله »[٥] •

كان الملك علي في بداية الامر متفائلا وواثقاً من أنه بما لديه من طائرات ومصفحات قادر على قهر الاخوان وطردهم من الحجاز • وكان وزير حربيته تحسين باشا أكثر تفاؤلا وثقة منه • يروي أمين الريحاني قصة شهدها بنفسه في أوائل كانون الثاني ١٩٢٥ حين بدأت طلائع الاخوان

(٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧)•
(٤) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٤٠٩ •
(٥) المصدر السابق ـ ص ٤٠٧ •

تقترب من جدة ، فقد دخل تحسين باشا ومعه زميله وزير البحرية عارف باشا الادلبي على الملك علي ، وكانت سيماء الغضب والاضطراب تبدو على وجهيهما ، فقال أحدهما : « علمنا ان الاخوان مشوا من بحرة وقريباً يصلون الى الرغامة » • وقال الآخر : « يجب ان نرسل عليهم الطيارات ، لعنهم الله ولعن أجدادهم »• ثم قالا معاً : « غدا صباحاً نرسل الطيارات كلها عليهم فتمطرهم النار والرصاص وتفنيهم ان شاء الله » • ثم أخذ الوزيران ينتقدان بشدة محاولات الصلح التي كان الريحاني وغيره يقومون بها • فقال تحسين باشا : « هذه المساعي السلمية تحول دون تنفيذ خطتنا العسكرية » • وقال عارف باشا يخاطب الملك : « بل أفسدت علينا خطتنا وأضرت بمصلحة جلالتكم ومصالح البلاد »(٦) •

كان في معية الملك علي ضابط عراقي كبير هو جميل باشا الراوي ، وهو ابن عم ابراهيم الراوي الذي تحدثنا عنه في واقعة تربة • والمعروف عن هذا الضابط انه كان يختلف عن تحسين باشا الفقير بكونه اكثر واقعية منه ، وكان كثيراً ما ينصح الملك علي بخلاف ما ينصحه به تحسين باشا • يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته حول هذا الموضوع ما يلي : « كانت القيادة الحجازية العسكرية مؤلفة من ثلاثة أشخاص بصورة رئيسية هم : تحسين باشا السوري الذي كان وزيراً للحربية وقائداً للجيش ، وجميل باشا القائد البغدادي الذى كان ملحقاً بالملك علي ، والملك نفسه • والظاهر أنه ليس هناك اي بغدادي يوافق اي سوري • وكان الملك يتمايل من جانب الى آخر يمثل السرعة والانتظام الذى يتحرك به بندول الساعة ، ولهذا كان هناك ضعف في الانسجام والهدف لدى القيادة »(٧) •

صدرت في مكة جريدة باسم « أم القرى » بدلا عن جريدة « القبلة »

---

(٦) المصدر السابق ــ ص ٣٩٣ •

(٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•

التي كانت تصدر في عهد الحسين • وكان يحررها يوسف ياسين ، والغرض منها الدعاية لابن سعود وتشويه سمعة الاشراف وذكر مثالبهم ومثالب الحسين بوجه خاص • وفي كانون الاول ١٩٢٤ أصدرت الحكومة الهاشمية في جدة جريدة باسم « بريد الحجاز » لكي ترد على جريدة « أم القرى » وتكيل لها بصاعها • وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥ نشرت جريدة « بريد الحجاز » بياناً طويلا من الملك علي ذكر فيه أنه موشك على الزحف على مكة لتحريرها ، وطلب من أهل مكة الصبر قليلا وتحمل مشقة الحصار الذى ستفرضه الحكومة الهاشمية عليهم[٨] •

الاصيل مثابرا :

ان الدكتور ناجي الاصيل ظل يمثل الحجاز في لندن فى عهد الملك علي ، كما ظل يواصل السعي لعقد المعاهدة مع بريطانيا ويطلب منها انجاد الحكومة الهاشمية ضد ابن سعود • كتب القنصل البريطاني في جدة الى حكومته يقول : ان الملك علي لم يكن يحمل انطباعاً حسناً عن ناجي الاصيل، وكان يعتقد أن لا فائدة منه في لندن ولكن لابأس من بقائه فيها الى ان ينفد المال الذى أخذه من الحسين[٩] • ويقول القنصل : ان مجموع ما أخذه الاصيل من الحسين بلغ خمسة عشر ألف باون ، وهو مبلغ ضخم يكفيه نحو ثلاث سنوات[١٠] •

في ١٣ تشرين الاول ١٩٢٤ كتبت وزارة الخارجية البريطانية الى ناجي الاصيل كتاباً تقول فيه : ان الحكومة البريطانية ليست مستعدة للدخول في مفاوضات جديدة مع الحكومة الهاشمية حول تعديل مسودة المعاهدة • فأجابها الاصيل في كتاب قال فيه انه مخول بسلطة تامة للتوقيع على المعاهدة التي أراد الملك السابق ادخال تعديلات عليها ، وذكر الاصيل ان تعديلات

---

(٨) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•
(٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٨)•
(١٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•

الملك السابق أصبحت الآن لا أهمية لها ، وان الملك علي غير ملزم بها ، ولذلك فهو يرجو من الحكومة البريطانية ان تتدخل لانهاء النزاع القائم الآن بين الحجاز ونجد ، وانه يرجو أن يحصل على الجواب بالسرعة الممكنة(١١) .

وبعد خمسة أيام من كتابة هذا الكتاب كتب الاصيل كتاباً آخر أطول منه الى وزارة الخارجية البريطانية ذكر فيه أن الملك علي خوله لكي يرجو من الحكومة البريطانية التدخل لردع الوهابيين حسب روح المعاهدة . واشار الاصيل الى ان المعاهدة التي جرى التفاوض حولها أصبحت ملزمة وان لم يتم التوقيع عليها ، كما أشار الى الحلف الذى قام سابقاً بين بريطانيا ومؤسس البيت الهاشمي ، وكيف تعهدت فيه بريطانيا باحترام استقلال العرب وتأييده . وذكر الاصيل كيف أن بريطانيا أعلنت الحرب على ألمانيا في عام ١٩١٤ لمجرد ان المانيا انتهكت معاهدة كانت بريطانيا قد وقعت عليها ، فهي انما قامت بهذا العمل العظيم في سبيل الشرف والعدالة . ثم تطرق الاصيل الى الحجة التي تذرعت بها بريطانيا لعدم التدخل في النزاع القائم في الحجاز باعتبار أنه نزاع حول قضايا دينية ، فقال ان النزاع في الواقع ليس دينياً ، فليس هناك دين على وجه الارض يسمح بسفك الدماء البريئة وقطع الطرق والقيام بالمذابح الجماعية . ان الوهابية هي حركة سياسية وليست دينية ، انها بلشفية في أبشع صورها ، وغريبة عن الاسلام في كل وجه من الوجوه . ثم ذكر الاصيل أن الملك علي انما انسحب من مكة ليس من جراء هزيمة حلت بجيشه بل انه أراد حقن الدماء في تلك البلدة المقدسة ، ولهذا فهو يناشد الحكومة البريطانية بحقوق المعاهدة التي بينه وبينها ، والمواعيد السابقة التي أعطيت لصاحب الجلالة الهاشمية ، أن تتخذ الاجراءات العاجلة لانقاذ أرواح الآلاف من الانفس البريئة ، ولضمان انسحاب الوهابيين من مكة والطائف(١٢) .

(١١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١٠٠١٤).
(١٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١٠٠١٥).

لم تثمر هذه الجهود التي بذلها ناجي الاصيل شيئاً ، وظلت الحكومة البريطانية متمسكة بموقفها الحيادي تجاه النزاع القائم في الحجاز لم تتزحزح عنه • وقد أصبح موقف الاصيل حرجاً ، فهو لايستطيع أن يؤثر في الحكومة البريطانية من جهة ، وهو لم يتسلم من الملك علي أي مبلغ من المال من الجهة الاخرى • وفي شهر نيسان ١٩٢٥ أبرق الى الملك علي يقول : « أتوسل الى جلالتكم أن ترسلوا لي من النقود ما تقدرون عليه • ان المصير السياسي للبلاد في يد جلالتكم »[١٣] • فلم يرسل الملك اليه شيئاً ، والواقع أنه لم يكن لديه فضل من المال يرسله اليه • وفي شهر أيار أعلن الاصيل في لندن أنه سوف يحتكم الى عصبة الامم لانهاء النزاع القائم الآن في الحجاز ، كما اعلن انه سيذهب بنفسه الى جدة ليستعمل نفوذه الشخصي في هذا السبيل • وقد فوجئت الحكومة الهاشمية في جدة بهذا الاعلان الذي نشرته وكالة رويتر ، فأذاعت بياناً ذكرت فيه أنها لم توعز الى الاصيل باتخاذ هذه الخطوة وان الاصيل انما قام بها من تلقاء نفسه • وعند هذا أبرق الاصل الى جدة مقدما استقالته ، فقبلت الحكومة الهاشمية استقالته فوراً •

وفي شهر تموز ١٩٢٥ أراد الملك علي تعيين رجل مصري ــ هو المحامي حسن صبري ــ ليكون ممثلا له في لندن بدلا من الاصيل • ولكنه عندما استفسر من الحكومة البريطانية حول هذا الامر أجابته بأنها غير مستعدة في الظروف الحالية لقبول اي ممثل له في لندن رسمي أو غير رسمي[١٤] •

أما ناجي الاصيل فقد بقي في لندن حتى نفد ما لديه من مال ، وصار في حالة يُرثى لها[١٥] • وقد اضطر الى العودة الى بغداد في عام ١٩٢٨ ،

---

(١٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•
(١٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩)•
(١٥) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ١٠ أيار ١٩٢٥ •

وكان توفيق السويدي حينذاك قد تولي وزارة المعارف ، وهو يشير في مذكراته الى أن نبوءته التي كان قد تنبأ بها في عام ١٩٢٢ عن ناجي الاصيل قد تحققت . فقد جاء اليه الاصيل يطلب منه الحصول على وظيفة ، فعينه في وظيفة لايزيد راتبها على خمسة وعشرين دينارا . ويعلق السويدي على ذلك قائلا : « فما أعجب الصدف والاقدار »(١٦) .

فيلبي يتوسط :

جاء الى جدة ثلاثة رجال للتوسط في الصلح باعتبار أنهم اصدقاء للفريقين ، وهم : فيلبي وأمين الريحاني والسيد طالب النقيب . ولكل واحد من هؤلاء في توسطه قصة جديرة بالذكر هنا .

كان فيلبي أول القادمين الى جدة ، وهو قد جاء بصفته الشخصية ولم تكن له أية صفة رسمية ، وقد أعلن الملك علي عن مجيئه قبل وصوله، فأحدث ذلك ابتهاجاً بين أهل جدة ظناً منهم انه مكلف من حكومته للصلح بين الفريقين المتحاربين . ذهب القنصل البريطاني الى الملك علي ليخبره بأن فيلبي ليست له أية صفة رسمية تخوله التوسط او التفاوض باسم الحكومة البريطانية ، ولكن الاهالي ظلوا بالرغم من ذلك يبنون الآمال على وجود فيلبي في جدة وعلى نتائج مسعاه في الصلح .

كان وصول فيلبي الى جدة في ٢٨ تشرين الاول ١٩٢٤ ، وكانت طريقة وصوله غريبة مما قوى الاشاعة المنتشرة حوله بين الاهالي من أنه جاء بمهمة رسمية . فهو عندما كان في السويس فاتته باخرة البريد فاضطر الى ركوب زورق شحن بغية الاسراع . وحين وصل الى مياه جدة أرسل اليه الملك علي زورقاً بخارياً لنقله الى الشاطيء(١٧) . وقد قابله الملك فور وصوله ، وكان استقباله له وديا وحاراً .

---

(١٦) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(١٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. ٣٧١ ـ ١٠٠١٥).

يقول فيلبي في مذكراته : « كان من المنتظر أن اقوم بدور رئيسي في المسرحية ، ولكن متاعبي سرعان ما بدأت بعد وصولي بساعات قليلة ، فقد تلقيت من المستر بولارد قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانيـــة ومعتمدها الرسالة التالية : « أرجو ان ابلغك ياسيدي ان حكومة جلالته عندما نما الى علمها خبر مجيئك الى جدة قد أمرتني بابلاغك أنه بالنسبة الـى الاوضاع المضطربة في أواسط الجزيرة العربية فانها لايسعها أن تسمح لك بالدخول الى داخل الجزيرة • أكون ممتناً اذا اشعرتني بوصول هذا الكتاب اليك »[١٨] •

ومن الجدير بالذكر ان الصحف في بعض البلاد الاسلامية أخذت تهاجم فيلبي لذهابه الى جدة وتتهمه بأنه عميل بريطاني متستر • وفـي الوقت نفسه أخذت بعض الصحف البريطانية تصف فيلبي بالانتهازي الذي يحاول الدخول الى المسرح الذي خرجت منه بريطانيا قانطة يائسة[١٩] •

أرسل فيلبي رسالتين احداهما موجهة الى خالد بن لؤي حاكم مكة، والثانية موجهة الى ابن سعود الذي كان حينذاك في الرياض • وقد وصل اليه الجواب من خالد فحواه انه يريد ازاحة علي بن الحسين من جدة • ثم وصل اليه بعدئذ جواب ابن سعود وهو يقول فيه : « ان الموضوع من أوله الى آخره متوقف على رأي العالم الاسلامي الذي يقف كله معارضاً معارضة قوية لابناء الحسين ••• سنصل بمشيئة الله قريباً الى مكة ، وسنجتمع بك بكل تأكيد ان شاء الله لتبادل الرأي • نرجو لك العافيـــة والسلام »[٢٠] •

انتظر فيلبي وصول ابن سعود الى مكة • وقد ابتلي أثناء ذلـــك بالزحار كما ابتلي به فيما بعد زميلاه الآخران • وعندما وصل ابن سعود

---

(١٨) خيري حماد (عبدالله فيلبي) — بيروت ١٩٦١ — ص ١٥٧ •
(١٩) المصدر السابق — ص ١٥٨ •
(٢٠) المصدر السابق — ص ١٧٤ •

الى مكة في ٥ كانون الاول كتب اليه فيلبي وزميلاه يطلبون منه السماح بمقابلتهم • وفي ٢٢ منه وصل الجواب الى كل منهم على حدة • وكان جواب ابن سعود الى فيلبي على النحو التالي :

« الى الصديق العزيز المستر فيلبي • اذا كنتم حضرتم لمقابلتنا ومباحثتنا في بعض الشؤون الخاصة بنا فعلى الرحب والسعة ، وسنسهل الطريق للاجتماع بكم خارج الحرم • أما اذا كنتم تنوون التدخل في مسائل الحجاز فلا أرى في البحث فائدة ••• وانه ليس من مصلحتي الخاصة ومصلحتك يا صديقنا جعلكم وسيطاً في هذه المسألة الاسلامية المحضة »(٢١) •

اتضح لفيلبي خلال مكوثه في جدة ان انتصار ابن سعود محتوم لابد منه • فهو يقول في مذكراته ان موضوع الصلح أو اية تسوية سلمية أصبح أمراً مستحيلا ، فقد تقرر مصير عرش الهاشميين في الحجاز ، ولم يكن في وسع أية قوة بشرية انقاذه ، ولكن وزير الحربية تحسين باشا الفقير كان على الرغم من ذلك يتصور انه قادر على انقاذ عرش مولاه • ويقول فيلبي في وصف تحسين باشا : « كان هذا القائد العسكري مغتراً بالدور الذي لعبه في معركة شطالجة في البلقان ••• وخيل اليه أن في وسعه أن يصمد أمام الجيوش الوهابية البالية السلاح على حد تعبيره ، فطاف بي بالمراكز الدفاعية التي أقامها بالاشتراك مع رئيس مهندسيه التركي الاصل نورس بك حول المدينة »(٢٢) •

كان في نية فيلبي مغادرة جدة في أواخر كانون الاول ١٩٢٤ ولكن الملك علي أصر عليه في البقاء • ويقول القنصل البريطاني في تقرير الى حكومته : ان سبب هذا الاصرار من الملك هو ان القيادة العسكرية كانت

---

(٢١) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٨١ •
(٢٢) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص ١٥٩ •

تخشى أن يذهب فيلبي الى ابن سعود بعد مغادرته جدة ويطلعه على أسرار خط الدفاع عنها ، علماً ان فيلبي كان قد ساعد الضابط التركي في وضع خطة الخنادق(٢٣) •

غادر فيلبي جدة أخيرا في ٣ كانون الثاني ١٩٢٥ متوجها الى عدن• وكان لايزال مريضاً بالزحار ، وكان يأمل أن ينال علاجه على أيدي الاطباء فيها •

وساطة السيد طالب :

كان السيد طالب النقيب في الاسكندرية عندما وصل فيلبي الى جدة، فأبرق اليه الملك علي يخبره بوجود فيلبي في جدة ويدعوه للمجيء اليها• وحين تسلم السيد طالب برقية الملك علي أبرق الى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة يطلب منه الرأي ، فكتب الية القنصل جواباً بالبريد يقول فيه : أن ليس في وسعه ابداء أي رأي وان فيلبي ليس مخولا رسمياً للتوسط في الصلح(٢٤) •

قرر السيد طالب الذهاب الى جدة على اي حال ، وقد وصلها في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٤ • والظاهر انه لم يكن مهتماً بأمر الوساطة بقدر اهتمامه بنفسه ، فهو ـ كما عرفناه من قبل ـ رجل شديد الطموح يريد الوصول الى العُلا بأية وسيلة وفي أي طريق •

كان ابن سعود يعرف السيد طالب معرفة شخصية جيدة ، ولما كتب اليه السيد طالب يطلب مقابلته للتوسط في الصلح أجابه قائلا : ان التوسط لافائدة فيه ، واذا كان الشريف علي يريد حقن الدماء فعليه أن يتخلى عن جدة ، أما اذا قبله العالم الاسلامي واختاره حاكماً للحجاز فمحله غير مجهول(٢٥) •

---

(٢٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧)•
(٢٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٠١٥)•
(٢٥) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ •

أمضى السيد طالب في جدة سبعة وثلاثين يوماً كان يلتقى فيها بزميليه فيلبي وأمين الريحاني ، وكان كثيراً ما يقضي المساء مع فيلبي تارة ، ومع الريحاني تارة أخرى • والمعروف انه كان مولعاً بشرب الويسكي ، فاذا تناول منه كثيراً انطلق يكشف عن خفايا نفسه • يصف الريحاني اجتماعه بالسيد طالب في جدة ، ويشير الى شيء من ملامح شخصيته ، حيث يقول ما نصـــه :

« الا في سبيل المجد ما أنا فاعل ــ وفي سبيل الوطن • فقد كان السيد طالب مغواراً في وطنيته ، جباراً في أعماله ، طيارا في آرائه ، وكان شديد الايمان حتى في ساعات شربه بما حواه ذلك الرأس القائم بين كتفيـــه كبرج العاج • اني لاذكر اجتماعنا في جدة في خريف ١٩٢٤ ، وأذكر من الاحاديث حديثاً عن العراق • فقد قص علينا بعض وقائع أيامه تلك ، ونحن نشرب الويسكي والصودا ، ثـم وضع الكأس على المائدة ورفع يده الى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته : « ان ها هنا شيئاً لايغلب ــ لايغلب » • وكان يفكر بالعودة الى العراق والى السياسة • كان لايزال يحلم الاحلام الذهبية • فقال يستأنف الحديث : « الامور مرهونة بأوقاتها، وستسمعون عندما أعود ما يدهش ويسر ان شاء الله • وسأطلبك يومئذ يا استاذ وأعينك وزير المعارف ••• »[(٢٦)] •

وقد تطرق فيلبي في مذكراته الى السيد طالب كذلك • فهو يقول : ان السيد طالب صارحه عن سبب قدومه الى جدة ، فهو لم يأت في الواقع من أجل التوسط في الصلح ، بل من أجل الاتصال بابن سعود لكي يساعده هذا في نيل امارة شرقي الاردن • ان السيد طالب كان قد علم قبل قدومه الى جدة بأن الانكليز غير راضين عن الامير عبدالله ويريدون استبداله بغيره • وذكر السيد طالب لفيلبي ان ابن سعود لايستطيع التسامح بوجود عدوه عبدالله في شرقي الاردن ، وطلب من فيلبي أن يقابل ابن سعود

(٢٦) أمين الريحاني (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ٨٤ •

لكي يقنعه بجدارته لامارة شرقي الاردن • وتعهد السيد طالب انه اذا تولى تلك الامارة فسوف يتخلى لابن سعود عن وادي السرحان وقريات الملح • ثم قال لفيلبي انه في حالة توليه الامارة سيطلبه ليكون المعتمد البريطاني فيها ... [27] •

في ٣١ كانون الاول ١٩٢٤ غادر السيد طالب جدة الى مصر وهو خالي الوفاض من نيل العُلا ــ مع الاسف الشديد !•

وساطة الريحاني :

وصل امين الريحاني الى جدة في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٤ بناءاً على دعوة تلقاها من وزير الخارجية فؤاد الخطيب • ولما كتب الى ابن سعود يطلب منه مقابلته من أجل الصلح كان جواب ابن سعود له يختلف عن جوابه لزميليه اذ هو لم يقطع في وجهه الامل بل ترك له باباً مفتوحة يمكن الولوج منها الى المفاوضة • وقد استند الريحاني على هذا الجواب فأرسل الى ابن سعود رسولا يحمل رسالة منه • فغادر الرسول جدة في مساء ٢٢ كانون الاول ، وفي ٢٥ منه عاد الرسول وهو يحمل جواب ابن سعود •

كان الريحاني في مجلس الملك علي عند عودة الرسول حاملا جواب ابن سعود • ولما قرأ الملك الجواب بدت على وجهه علامات الفرح ، وقال: « قضي الامر • وما تبقى غير الجزئيات • بارك الله فيك ياحسين ــ يقصد الرسول ــ وبارك الله فيك يا أمين » • وقبّل الملك أمين الريحاني كما قبّل الرسول لشدة فرحه • ثم نزع العقال والكوفية عن رأسه ونادى : « هاتوا شاي ... يشهد الله أني لا أحب أن تهرق نقطة دم واحدة من دم العرب » ...[28] •

---

(٢٧) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٧٣ •
(٢٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ــ ص ٣٨٧ •

لم تدم هذه الفرحة طويلا ، ذلك ان طائرة هاشمية حلقت فوق مكة في نفس الوقت الذى كان الرسول فيه يغادرها حاملا جواب ابن سعود ، فألقت منشورات تؤكد لاهل مكة ان الاستعداد قد تم لضرب العدو المغتصب وتطهير البلاد منه ، وتتعهد لهم بأن الطائرات سوف تبدأ بقصف العدو ، وتطلب منهم منع العدو من الفرار • ومن الجدير بالذكر ان هذه المنشورات كانت قد أعدت من قبل ، وكان الملك قد أوعز بتأجيل القائها فوق مكة الى حين ظهور نتيجة التوسط • ولكن بعض العسكريين الذين لم يكونوا راغبين في التوسط أرسلوا الطائرة بغير علم الملك •

انزعج الريحاني مما وقع ، وذهب الى الملك ليستوضح الامر منه ، وقد دهش حين وجد الملك ووزراءه لايعلمون عن الامر شيئاً • ولما أخبر الريحاني الملك بما وقع ، قرع الملك الجرس الموضوع امامه على المنضدة وطلب حضور تحسين باشا وزير الحربية حالا • ولما حضر وزير الحربية وواجهه الملك بالخبر أخذ يعتذر ببعض المعاذير ، فقال له الريحاني وفي صدره غضب مكموم : « لا أظن ياباشا ان هذا السبب كاف لتبرير التجاوز ، وأنت أدرى بنتيجة المخالفة للاوامر العالية في أيام الحرب »• فقال وزير الحربية : « ما هو بالامر المهم » • فرد عليه الريحاني قائلا : « كل أمر ملكي مهم ياباشا » • وعند هذا أخذ الملك يتكلم مع وزير الحربية بالتركية ، ثم نهض مسلـّماً وخرج • وفى اليوم التالي عندما قابل الريحاني الملك وشرح له تأثير المنشورات على ابن سعود ، قال له الملك: « اني اميل الى حسن الظن بالناس ، ولا أسيء الظن الا بعد التثبت والتحقيق • وقد تحققت أشياء ، تحققتها يا أمين ، وسيسافر فلان وفلان وفلان في الباخرة القادمة • وسأوبخ تحسين باشا ، ولكني أفضل أن يكون ذلك في مجلس خاص له »[٢٩] •

---

(٢٩) المصدر السابق ـ ص ٣٩٠ •

نشاط القنصل السوفياتي :

ان العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والحكومة الهاشمية بدأت منذ أواخر عهد الحسين ، فقد تم الاتفاق بينهما في نيسان ١٩٢٤ على أن يكون للاتحاد السوفياتي في الحجاز ممثلية وقنصلية عامة ، وان يكون للحجاز بالمقابل بعثة رسمية في الاتحاد السوفياتي •

عين الحسين حبيب لطف الله مبعوثاً له في موسكو ، وقد وصل هذا الرجل اليها في بداية تشرين الاول • أما الاتحاد السوفياتي فقد عين لتمثيله في الحجاز رجلا مسلماً اسمه « كريم عبدالغفور حكيموف » ، وقد وصل هذا الرجل الى جدة في شهر آب ١٩٢٤ ، وكان معه نحو أربعة عشر رجلا كلهم مسلمون ماعدا واحدا • واستأجر دارا له في جدة لتكون مقراً له ولموظفيه • ويقال انه أخذ منذ بداية وصوله الى جدة يبدي نشاطاً ملحوظاً في الدعاية للشيوعية ، وكان الحسين يغض النظر عن نشاطه نكاية بالانكليز •

ولما تولى الملك علي الحكم بعد تنازل أبيه اتخذ تجاه الشيوعية موقفاً مغايراً لموقف أبيه ، ولعله فعل ذلك تقرباً للانكليز • وقد نشرت جريدة « المفيد » البغدادية في عددها الصادر في ١٧ حزيران ١٩٢٥ صورة الملك علي وكتبت تحتها العبارة التالية : « صاحب الجلالة الملك علي المعظم ننشر رسمه لمناسبة تصريحه ضد الشيوعية التي قيل انها انتشرت في الحجاز »•

عندما حل شهر رمضان في ٢٦ آذار ١٩٢٥ عزم القنصل السوفياتي كريم حكيموف على الذهاب الى مكة للقيام بشعائر العمرة • وقد رافقه في ذلك القنصل الايراني بالوكالة أحمد لاري ، ونائب القنصل الهولندي الشيخ برافيره الجاوي • ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء القناصل الثلاثة كانوا أول جماعة من الاجانب يدخلون مكة بعد احتلال الاخوان لها • فصار الاخوان ينظرون اليهم بعين الريبة ويحسبونهم كفاراً جاؤوا يدنسون البلد المقدس • يقول حافظ وهبة : ان الاخوان حاولوا قتلهم على

الرغم من أنهم كانوا يحملون الاذن من ابن سعود ، ولكن عناية الله هي التي أنقذتهم من موت محقق(٣٠) .

كان ذهاب القنصل السوفياتي الى مكة قد أثار اهتمام القنصل البريطاني ، ولهذا نجده يكتب في تقريره السري الى حكومته قائلا : « ان حكيموف الوكيل السوفياتي في جدة يقوم بزيارة الى مكة بصفته مسلماً يرغب في أداء الحج الصغير . انه يسخر علانية من الدين الاسلامي ، ولهذا نفترض ان زيارته لمكة لم تكن بدافع التقوى . انه أخذ معه شاباً ايرانياً هو ابن تاجر يقوم حاليا بادارة المصالح الايرانية . وهذا الشاب هو في جيب حكيموف ويردد العبارات البلشفية في أن ايران قد انقذتها الحكومة السوفياتية النبيلة من مخالب الامبريالية البريطانية »(٣١) .

ويقول القنصل البريطاني في تقرير آخر له : « ان حكيموف استُقبل من ابن سعود بصفته الشخصية ، وكان ابن سعود يسميه « الشيخ كريم » ، ولم ينل هناك احتراماً كبيراً . فان عبدالله الدملوجي ، وهو من رجال ابن سعود الرئيسيين ، سأل الشيخ برافيره على مسمع من الناس : كيف يسمح لنفسه بمرافقة شخص قاصر يدعي انه قنصل عام . وكان الدملوجي يتكلم بصوت عالي بحيث كان في مقدور حكيموف أن يسمعه . أما من الناحية السياسية فقد أقام ابن سعود وليمة للقناصل الثلاثة وتطرق فى كلامه اثناء الوليمة بطريقة تأكيدية الى الكلام عن نفسه وقال انه ليست له أية خصومة مع الدول الاوربية وهي الدول التى يفكر هو ان يتعلم منها كثيراً » .

ويقول القنصل البريطاني في هذا التقرير أيضاً : ان هناك دليلا قوياً على أن حكيموف كان في مكة مشغولا بالدعاية العلنية العنيفة ضد

---

(٣٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص ٢٨٣ .

(٣١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف . أو . ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) .

الحكومات الامبريالية ، ولا سيما الحكومة البريطانية • ويذكر القنصل : ان حكيموف قضى في مكة خمسة او ستة ايام ، ولما عاد الى جدة انهمك في تعاطي الخمرة لمدة اربع وعشرين ساعة ، وذلك بمثابة رد فعل شديد للتقوى المصطنعة التي أظهرها في مكة ، وظل ثماني واربعين ساعة بعد ذلك غير واعي قليلا او كثيراً[٣٢] •

لم يكن القنصل البريطاني قادراً أن يذهب الى مكة لكونه غير مسلم ، ولعله شعر ان من الضروري له أن يرسل من ينوب عنه الى مكة لازالة الاثر الذى ربما احدثه حكيموف فيها • وقد اختار القنصل البريطاني للقيام بهذه المهمة كاتبه الهندي المنشي احسان الله • ويصف القنصل هذا الكاتب بأنه كان تاجراً في المدينة قبل الحرب العامة ، وكانت له فيها سمعة عالية ، ولكن الحرب حطمت تجارته وأصبح منذ ذلك الحين موظفا في القنصلية البريطانية • ويقول القنصل عنه : أنه خبير بشعائر الحج كما أنه موثوق كمصدر للاستخبارات ، فهو متصل بمختلف الطبقات ويعرف الاشخاص المهمين في مكة ، يضاف الى ذلك انه يجمع بين عقيدته الاسلامية القوية واخلاصه للحكومة البريطانية اذ هو يعتبرها أفضل حارسة لحقوق ومصالح المسلمين في الهند •

سافر المنشي الى مكة وقام بالمهمة التى كلفه القنصل بها • ويقول القنصل في تقريره الى حكومته : ان المنشي قابل ابن سعود ، وأخذ ابن سعود يتحدث اليه عن علاقته بالحكومة البريطانية ، وتطرق الى موضوع العلاقة التى قامت بين بريطانيا والحسين أثناء الحرب العامة ، وصار يشكو من الاعتماد الذى وضعته بريطانيا على الحسين ، وهو الاعتماد الذى لامبرر له في نظره ، ثم قال ابن سعود : انه كان قادرا ان يفعل أكثر جداً مما فعله الحسين لقاء نصف المبالغ التى دفعتها بريطانيا للحسين[٣٣] •

---

(٣٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف • أو • ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •
(٣٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف • أو • ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •

قصة الطائرات :

ذكرنا من قبل ان الحكومة الهاشمية في جدة كانت معتزة بما لديها من طائرات ومصفحات ، وكانت واثقة من قهر الاخوان بها وطردهم من البلاد . والواقع ان هذه الطائرات والمصفحات لم تكن في حالة يمكن الاعتماد عليها في قتال جدي . ومن الممكن القول ان الحكومة الهاشمية وقعت من هذه الناحية في مثل الورطة التى تقع فيها الشعوب النامية عادة حين تشتري الآلات التكنولوجية الحديثة اعتقاداً منها انها تستطيع أن ترتفع فوراً الى مستوى الشعوب المتقدمة . انها تنسى ان تلك الآلات لا أهمية لها في ذاتها بل في الايدي الفنية التى تحركها وتشرف عليها .

كان لدى الحسين قبل بدء القتال في الحجاز ست طائرات ايطالية لم يكن يصلح للطيران منها سوى اثنتين ، وكان لديه طياران روسيان من بقايا العهد القيصري . وقد سقطت احدى الطائرتين الصالحتين بين الاخوان اثناء معركة الطائف فذبح الاخوان طيارها . ولم يبق لدى الحسين سوى طيار واحد اسمه شيركوف . وقد ترك هذا الطيار الحجاز على أثر تنازل الحسين عن الملك ، وذهب الى مصر .

وفي تشرين الثاني ١٩٢٤ استطاع مندوب الملك علي في مصر اقناع شيركوف بالعودة الى الحجاز ، فعاد ومعه أربعة ميكانيكيين روس . وقد اشترط شيركوف لقاء عودته أن يُعطى قنينة ويسكي في كل يوم مع راتب شهري قدره ستون ليرة ذهب . فوافقوا على شرطه هذا .

وفي ٢٢ منه وصلت الى جدة الباخرة « نور » وهي تحمل على ظهرها ثلاث طائرات اشتريت من انكلترا ، وكانت طائرات قديمة من بقايا الحرب . وفي ٢ كانون الاول قام شيركوف بتجربة احداها ، وعند هبوطه بها ارتطم جناحها بشجرة فتعطلت عن العمل وظهر فيما بعد ان طائرة أخرى من الطائرات الثلاث لاتصلح للطيران . أما الثالثة فكانت صالحة الى حد ما .

أخذ شيركوف يقوم بتحليقات استطلاعية على مواقع العدو في كل يوم صباحاً ومساءاً • ويقول القنصل البريطاني في تقريره الى حكومته : ان نتائج استطلاعات شيركوف لم تكن ذات قيمة كبيرة لانه كان يرفض التحليق على ارتفاع يقل عن تسعة آلاف قدم ، كما ان المراقب الذي يصحبه في الطائرة كان أعور وكان يلبس النظارات الداكنة دائماً [٣٤] •

كان وزير الحربية تحسين باشا يصر على شيركوف أن يقذف بالقنابل على تجمعات العدو ، ولكن شيركوف كان يرفض ذلك لسبب وجيه هو عدم وجود قنابل جوية لديهم • فطلب تحسين باشا منه أن يستعمل القنابل اليدوية في القصف ، فأوضح له شيركوف ان هذه القنابل قد تنفجر قبل وصولها الى الارض وربما نسفت الطائرة بمن فيها • اقترح تحسين باشا استعمال قنابل المدافع ، وجربها بنفسه مرتين فلم ينجح فى التجربة[٣٥] •

كانت قد اقيمت في جدة ورشة عسكرية لتصليح الاسلحة • واخذت هذه الورشة بايعاز من تحسين باشا تعمل على تحويل قنابل المدافع الى قنابل جوية ، فصنعت نوعاً من القنابل توقد بعود الثقاب • وارتأى تحسين باشا قصف تجمعات العدو قرب مكة بتلك القنابل • ولكن شيركوف أظهر للملك علي خطأ هذا الرأي ، لان قصف مكة بالقنابل على يد طيار «كافر» سيتخذه ابن سعود دعاية قوية له في العالم الاسلامي ضد العائلة الهاشمية• والظاهر ان الملك علي كان متردداً لايدري الى أي جانب يميل ، جانب تحسين باشا او جانب شيركوف •

في أوائل كانون الاول ١٩٢٤ وصل الى جدة طياران جديدان ، وميكانيكيان ، وكلهم روس • فأصبح لدى الحكومة الهاشمية ثلاثة طيارين وستة ميكانيكيين ، مع طائرتين صالحتين•وأخذت الطائرتان تطيران بين آونة

---

(٣٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •
(٣٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •

وأخرى فتسقط بعض القنابل على تجمعات العدو بالقرب من جدة وفي منتصف الطريق بين جدة ومكة •

في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥ حدثت خادثة مؤسفة انفجرت فيهـا احدى الطائرتين وقُتل شيركوف • وخلاصة الحادثة : أن شابا سوريا اسمه عمر شاكر كان لاجئا في الحجاز منذ عهد الحسين ، وحين اشتدت الحرب حول جدة أصبح هذا الشاب متحمساً في بغضه لابن سـعود والاخوان وكان يتمنى أن يرميهم من الجو ولو بقنبلة واحدة • وفي ذلك اليوم صدر الامر الى شيركوف بالتحليق لقصف تجمعات الاخوان فـي الرغامة • فانتهز عمر الفرصة وحشر نفسه في الطائرة مع المراقب ، وكان يحمل معه قنبلتين من تلك القنابل التى توقد بعود الثقاب ، وسمعه أحد الحاضرين يقول : « سألقيها على رأس عبدالعزيز » • ولما وصلـت الطائرة فوق الرغامة ، وكانت على ارتفاع ألفي قدم ، شاهد من فيهـا معسكر الاخوان وهو يضم الخيمة التى كان ابن سعود يجلس فيها • وكان من السهل القاء القنبلتين على ابن سعود وقتله ، ولكن عمر لم يكد يوقد عود الثقاب لتفجير احدى القنبلتين حتى انفجرت القنبلة في يـده ، وانفجرت الطائرة في الجو ، ثم هوت الى الارض مشتعلة أمام خيمة ابن سعود • ويعد خيرالدين الزركلي هذه الحادثة من جملة الحوادث التى تدل على وجود موهبة « الحظ » لدى ابن سعود[٣٦] •

في شهر تموز ١٩٢٥ وصل الى جدة من مصر أربـع طيارين ألمان[٣٧] • ثم وصلت بعد ذلك ستة طائرات ألمانية وكانت طائرات جديدة مجهزة بالرشاشات ومعها قنابلها الخاصة بها • وكان من الممكن ان يكون لهذه الطائرات أثرها الحاسم في الحرب ، غير أنها جوبهت بمشكلتـين ، احداهما ان الحكومة الهاشمية لم يكن لديها مايكفيها من البنزين[٣٨] ،

---

(٣٦) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ــ ج ٢ص ٥٨٤ ــ ٥٨٥ •
(٣٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) •
(٣٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ •

والثانية ان الطيارين امتنعوا عن التحليق بها لانقطاع الراتب عنهم ، وغادروا جدة • وبقيت الطائرات عاطلة عن العمل الى أن سقطت جدة في كانون الاول ١٩٢٥ ، فاستحوذ عليها ابن سعود غنيمة باردة(٣٩) •

قصة المصفحات :

لم تكن حالة المصفحات بأفضل من حالة الطائرات • ففي ٣١ كانون الثاني ١٩٢٥ وصلت من المانيا خمس سيارات لوري ، ولكنها كانت قديمة وفي حالة سيئة ، وقد وصفها أحد الميكانيكيين الروس بأنها ربما كانت من مخلفات الجيش الامريكي بيعت في المانيا على شكل خردة بسعر خمسة باونات لكل واحدة منها(٤٠)

وصلت مع السيارات أربعة عشر صندوقاً تضم صفائح من الحديد • وصار عمال الورشة يعملون في تصفيح السيارات بها ، واستمروا على ذلك شهرا • وعندما تم تصفيح السيارات تبين أنها تحتاج الى الماء كثيراً ، اذ هي تكاد لاتسير ساعتين حتى يظهر عليها العطش(٤١) • أضف الى ذلك ان محركات السيارات لم تكن قادرة على السير كثيراً لثقل الصفائح عليها • وقد جُربت واحدة منها على طرق جدة فكانت تسير بسرعة ثمانية الى عشرة اميال في الساعة(٤٢) • وشوهدت احدى السيارات وقد تعطلت عن السير ، فاضطروا الى سحبها بواسطة الاباعر(٤٣) •

في ٢٥ كانون الاول وصل الى جدة ستة ألمان مختصين بسياقة السيارات المصفحة ، وكانوا مرسلين من الامير عبدالله • ولكنهم لم يبقوا في جدة طويلا ، والظاهر ان عبدالله كان قد وعدهم برواتب ضخمة أكثر

---

(٣٩) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩ ـ ج١ ص ١٩٨ •
(٤٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) •
(٤١) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٤٠٢ •
(٤٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) •
(٤٣) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٩٨ (حاشية)•

مما تستطيع حكومة جدة توفيرها لهم • ولهذا تركوا جدة في ٩ كانـون الثاني ١٩٢٥[٤٤] •

في ٨ آذار ١٩٢٥ عم الابتهاج والتفاؤل جدة حين وصلت اليها باخرة ايطالية وهى تحمل سيارتين مصفحتين وألف بندقية ونحو سبعمائة صندوق من العتاد • يقول القنصل البريطاني في تقريره الى حكومته : ان هذه الشحنة قد أضافت قوة كبيرة الى الجيش الهاشمي ، وكانت للسيارتين المصفحتين أهمية خاصة فهما لم تكونا زائفتين كالسيارات الخمس التي وصلت من المانيا قبل ذلك ، انهما كانتا صغيرتان ولكنهما سريعتان وخفيفتان وكل منهما مجهزة بثلاثة رشاشات ، اثنان في المؤخرة وواحد في المقدمة • وقد وصل من مصر ثلاثة سواق لسياقة هاتين السيارتين والمظنون أنهم سوريون[٤٥] •

كان لهاتين المصفحتين دور لايستهان به في المعركة التى نشبت حول جدة في ١٤ آذار ، ولكنهما مع ذلك لم يكن لهما أثر حاسم فيها •

معركة ١٤ آذار :

كانت معركة ١٤ آذار ١٩٢٥ اكبر معركة خاضها الجيش الهاشمي حول جدة • وكانت الحكومة الهاشمية قد استعدت لها كثيراً ، وكانت متفائلة من نتائجها ، اذ كانت تظن أنها ستنزل بالاخوان ضربة ساحقة ، وستعيد احتلال مكة والطائف قريباً •

وصلت الى جدة من المدينة عن طريق معان والعقبة أربعة مدافع كبيرة • وأخذت هذه المدافع تقصف مواقع الاخوان طيلة اليوم السابق للمعركة • وفي الساعة العاشرة من صباح يوم المعركة خرجت من جدة أربعة أرتال من الجنود في جبهة عرضها ميلان ، وكان في صحبتها خمس

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) •
(٤٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) •

مصفحات من ضمنها المصفحتان الجديدتان[٤٦] ، فنشب بينها وبين قوات الاخوان قتال استمر نحو خمس ساعات •

كان الاخوان يقاتلون بالروح الفدائية التي عُرفوا بها ، وصار بعضهم يدورون حول المصفحات وهم يطلقون نيران بنادقهم غير مبالين برصاص الرشاشات الذى كان ينهال عليهم كالمطر • وشوهد أحدهم ، وهو زنجي من العبيد ، يصعد على احدى المصفحات وهو يطلق النار من مسدسه ، فأصابته رصاصة اسقطته على الارض[٤٧] •

كانت المعركة تُشاهد من فوق سطوح الدور فى جدة ، وكان من بين الذين شاهدوها القنصل البريطانى وأمين الريحاني ، وكذلك كان الملك علي يراقبها بناظوره • وقد انتهت المعركة في الثالثة بعد الظهر ، بعد أن سقط من الفريقين نحو ثلاثمائة قتيل • وتراجعت المصفحات الى داخل الاسلاك الشائكة وقد تمزقت وتكسرت جوانب بعضها ، واصيب اثنان من سواقها بجروح بليغة[٤٨] •

كتب القنصل البريطاني الى حكومته في وصف المعركة يقول : ان الوهابيين حاربوا بكل ضراوة ، أما جنود الحكومة الهاشمية فلم يكونوا مقبلين على المعركة بكل قلوبهم ، وقد دل على ذلك ان نسبة عالية من جروحهم كانت في ظهورهم وأردافهم • وكانت اكثر الخسائر في الجنود الحجازيين واليمانيين وهم من بقايا جيش الحسين القديم • أما الفلسطينيون وهم من المتطوعين الجدد وكانوا مدعومين بالمصفحات فكانوا يقاتلون بحذر شديد • ويقول القنصل عن نتيجة المعركة بوجه عام : انها أوهنت عزيمة القيادة الهاشمية وقوت عزيمة القيادة السعودية ، فهي كانت ضربة قوية على القيادة الهاشمية ، والظاهر ان هذه القيادة أدركت أنها بحاجة الى

---

(٤٦) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •
(٤٧) امين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤١١ •
(٤٨) المصدر السابق ــ ص ٤١١ •

ءوات أكبر وأفضل لكي تتمكن من طرد الوهابيين من البلاد[٤٩] .

خمدت حدة القتال بعد معركة ١٤ آذار . وعندما حل شهر رمضان في ٢٦ منه حصل فيه ما يشبه الهدنة . وقد أشيع في جدة ان المعركة الفاصلة ستكون في شوال ، ولكن شوال جاء ولم يقع فيه شيء[٥٠] . وحين اقترب موسم الحج في أواخر حزيران أخذ الاخوان الذين كانوا يحاصرون جدة يغادرون مواضعهم بغية الذهاب الى الحج ، فظنت الحكومة الهاشمية ان الاخوان انسحبوا من القتال نهائياً . وأرسل الملك علي الى اخيه فيصل في بغداد برقية مؤرخة في ٢١ حزيران يقول فيها : ان ابن سعود اضطر الى اخلاء مواقعه من حول جدة وانه انسحب الى أطراف مكة . فكان لهذه البرقية تأثير سار على الملك فيصل ، وأصدرت الحكومة العراقية بياناً رسمياً تبشر الامة بهذا النصر . وعلقت جريدة « العراق » على هذا البيان قائلة : « فالعراق ترفع التهاني للامة العربية بهذا الفوز المبين وتبتهل الى الله أن يكلل هذا الفوز باخراج العدو من جميع البلاد الحجازية وينصر الجيش الهاشمي على خصوم الوحدة العربية واعدائها »[٥١] .

تبين أخيراً أن بشارة النصر كانت قائمة على اساس من الوهم ، فقد عاد الاخوان الى مواضعهم السابقة بعد انتهاء موسم الحج .

حالة السكان :

عانى سكان جدة كثيراً من المشقة والضيق والاذى خلال أشهر الحرب . وكان نصيب الفقراء من ذلك أكبر جداً من نصيب غيرهم ـ كما هو حظ الفقراء دائما . فقد ارتفعت أسعار الاغذية في البلدة ، ولاسيما أسعار الخضروات والفواكه ، وانتشرت بين السكان الملاريا والزحار

---

(٤٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) .
(٥٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٤١٠ ـ ٤١٢ .
(٥١) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٢٥ .

وأمراض نقص الفيتامين كالاسقربوط والبريبري • وصار عدد الوفيات في البلدة يزداد يوما بعد يوم •

تعتمد جدة في ماء شربها على ماكنة لتقطير الماء تسمى عندهم بـ « الكونداسة » • وصارت هذه الماكنة تعمل خلال الحرب فوق طاقتها ، وكان معظم انتاجها يخصص لحاجات الجيش ، وبدأ العطل ينتابها بين فترة واخرى • وأخذ الناس يعانون من العطش مثلما عانوا من الجوع • وبيعت صفيحة الماء بعشرة قروش ، وهذا سعر يصعب على الفقير تحمله[٥٢] • يقول فيلبي في التعليق على ذلك : « ان سياسة الحيادالمطلق التي اتبعتها بريطانيا قد كلفت مدينة جدة غاليا اذ فُقد فيها ما يربو على الخمسة والعشرين ألفا ، ذهبوا ضحية المرض والجوع والشقاء في سنة كاملة من الحصار ، انتهت وقد ركع أهل المدينة يتوسلون طالبين الماء وباحثين عن الشعير والعلف ليأكلوه بدلا من طعام الانسان »[٥٣] •

وظهرت في جدة مشكلة اخرى بالاضافة الى مشاكل الجوع والعطش ، هي مشكلة العبيد • فقد كان في جدة كما في غيرها من مدن الجزيرة العربية كثير من العبيد ، وكان بعض هؤلاء العبيد في الايام الماضية يهربون من اسيادهم ويلجأون الى القنصلية البريطانية لتسفرهم الى مواطنهم في أفريقيا • وعندما اشتدت المجاعة في جدة ازداد عدد اللاجئين الى القنصلية ، ففي شهر تموز سفرت القنصلية ستة وعشرين عبداً كان معظمهم سودانيين ، وفيهم بعض الاحباش • وقد غضب اهالي جدة من ذلك وذهب وفد منهم الى وزير الخارجية الهاشمية فؤاد الخطيب يحتجون على مافعلته القنصلية ، وكانت حجتهم أن العبيد الهاربين سارقون ويجب أن ينفذ حكم الشرع فيهم • واضطر الملك علي أن يتدخل في الامر فطلب من القنصلية أن تكف عن تسفير العبيد متذرعاً بحالة التذمر

---

(٥٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) •
(٥٣) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٥٨ •

العام الموجود في جدة ، فان هذا العمل قد يزيد من تذمر الاهالي وربما أدى الى ثورتهم • فاستجاب القنصل لرجاء الملك موقتا[٥٤] •

أعيان جـدة :

كان اعيان جدة خلال أشهر الحرب فريقين ، أحدهما هاشمي الهوى والاخر سعودي الهوى • وكان بينهما صراع مكتوم •

كان على رأس الفريق الهاشمي رجل اسمه محمد طويل ، وكان في الواقع شديد الولاء للملك علي وللبيت الهاشمي ، وقد انفق معظم ثروته في مساعدة الملك علي في اثناء الحرب • ويفسر خصومه هذا الولاء منه بأن البيت الهاشمي كان سبب ثروته[٥٥]• ومهما كان السبب فان ثبات هذا الرجل في ولائه يدل على وفائه ، ومن النادر أن يكون الانسان وفياً في مثل تلك الظروف •

أما الفريق ذو الهوى السعودي فكان على رأسه قاسم زينل ، وكان هذا الرجل يعلن مرارا ان مصلحة جدة تقضي بأن تستسلم لابن سعود وان يغادرها الملك علي • وقد وصل الى علم الملك علي ان هذا الرجل مع أعوان له أربعة على اتصال بابن سعود وانهم يمدونه بالاسرار ، فأوعز الملك الى وزير الحربية باحالتهم الى محكمة عسكرية ، فحكمت عليهم المحكمة بالسجن • وفي ٧ تشرين الثاني ١٩٢٤ أعادت المحكمة محاكمتهم وحكمت عليهم بالاعدام • وقد أصر وزير الحربية على تنفيذ الحكم فيهم، غير أن الملك دعاهم الى قصره في ١٤ منه وأعلن عفوه عنهم بعد أن نصحهم بعدم التعرض للحكومة أو التكلم في السياسة[٥٦] • ويقول فيلبي : ان المتهمين دفعوا للملك علي ثمناً للعفو عنهم ، حيث تبرع كل واحد منهم بألفي جنيه لمشروع الدفاع عن جدة[٥٧] •

(٥٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) •
(٥٥) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٦٣ •
(٥٦) المصدر السابق ــ ص ١٦٧ •
(٥٧) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٦٣ •

لم يمض على ذلك سوى شهر ، أو اقل منه ، حتى بدأ قاسم زينل يجهر برأيه المعارض للحكومة الهاشمية مرة اخرى ، واخذ يدعو الى وجوب اخراج الملك علي من جدة • والظاهر ان هذا الرجل كان واثقا من طيبة قلب الملك علي وتسامحه ، فصار يتجرأ عليه • يقول فيلبي في وصف الملك علي : انه كان سليم الطوية الى الحد الذى يصل الى درجة السذاجة(٥٨) •

مشكلة البشر أنهم يكونون اجرياء في مجابهة الطيب المتسامح ، ولا يكادون يلقون القوي الصارم حتى يستخذوا له • وهذا أمر لاحظناه واضحاً في التلاميذ تجاه معلميهم ، وهو أوضح في عامة الناس تجاه حكامهم •

قصة الجنود :

حين نقارن بين جنود ابن سعود وجنود الملك علي نجد فرقاً واضحاً• فأولئك كانوا مستميتين في القتال ـ كما ذكرناه من قبل ـ يعتقدون أنهم اذا قُتلوا دخلوا الجنة ، بينما هؤلاء كانوا مرتزقة متنابذين • وقد وصفهم القنصل البريطاني في تقريره السرى الى حكومته بقوله : انهم باستثناء عدد قليل منهم ليسوا سوى زمرة من المرتزقة السفاكين ، كل فئة منهم ترتاب من الفئة الاخرى ، وهم بوجه عام يتحدون في الشغب ولكنهم في النفع متفرقون(٥٩) •

كان أكثر فئات الجنود شغباً واثارة للمشاكل هم الفلسطينيون،ويليهم السوريون وهم من الدروز في الغالب • وقد بدأ الفلسطينيون يعلنون تذمرهم بعد فترة قصيرة من وصولهم الى جدة ، وصاروا يذهبون الى القنصل البريطاني يشكون اليه من سوء حالهم ورداءة لباسهم وطعامهم ،

---

(٥٨) المصدر السابق ـ ص ١٦٢ •

(٥٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١١٤٣٢) •

وادعوا انهم لم يتطوعوا للقتال بل للعمل في سكة حديد معان غير انهم نقلوا الى جدة رغم ارادتهم • وقد بدأ تذمرهم يزداد عندما عجزت الحكومة الهاشمية عن دفع رواتبهم منذ أواخر عام ١٩٢٤ • وفي ١٥ شباط أضربت جماعة من الفلسطينين بلغ عددهم مائة وخمسين ، وأعلنوا رفضهم طاعة الاوامر الى ان تدفع لهم الحكومة رواتبهم المتأخرة • فجاء اليهم بعض ضباطهم ليتكلموا معهم ، فرفضوا الكلام معهم وأخذوا يوجهون نيران بنادقهم فوق رؤوس الضباط • ثم جاء الملك علي اليهم ووعدهم بدفع رواتبهم خلال خمسة او ستة ايام • فعادوا الى الطاعة ، وتم دفع الرواتب لهم في الوقت المحدد(٦٠) •

تفاقمت المشكلة من جديد في شهر نيسان ١٩٢٥ حين أعلن الفلسطينيون والمصريون تذمرهم لتأخر دفع رواتبهم ، وطالبوا بتسفيرهم الى بلادهم • وقد اضطرت الحكومة الى تسفير خمسة وثلاثين رجلا منهم • وأدى هذا التسفير الى تشجيع آخرين لاعلان التذمر والمطالبة بالتسفير ، وذهب بعضهم الى القنصلية البريطانية طالبين تدخلها • وذعرت الحكومة ، وخشيت أن ينهار نظام جيشها ، فاعتقلت عدة جنود من الذين ذهبوا الى القنصلية ، وجلدتهم وابعدتهم الى ينبع والوجه • وقد احتج القنصل لدى الملك على ذلك ، فأكد له الملك ان الجلد لم يكن بعلمه وانه أصدر أوامر مشددة بعدم جلد الجنود في المستقبل(٦١) •

تحسنت الحاله في شهر أيار ، وذلك على أثر وصول عشرين ألف ليرة من الحسين في العقبة • وقد وصل من العراق أيضا مبلغ خمسة عشر ألف روبيه ، وهو المبلغ الذي أرسله الملك فيصل من واردات الاوقاف النبويه • فتمكن الملك علي بهذين المبلغين من دفع رواتب شهر واحد للجنود ، فهدأوا أملاً بالحصول على جميع رواتبهم المتأخرة بعدئذ •

---

(٦٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) •
(٦١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٨) •

في أواخر تموز استدعى قائمقام جـدة كبار التجـار الى اجتمـاع ، وطلب منهم قرضاً للحكومة قدره عشرون ألف ليرة ، فرفضوا طلبـه . وبعد مجادلات معهم أُنزل المبلـغ الى أربعة آلاف ليرة ، فدفعوه . وفي شهر آب باع الملك علي عدداً من الدكاكين العائدة له في جدة بمبلغ خمسة آلاف ليرة ، وقد اشتراها منه سليمان قابيل أحد تجار جدة الاغنياء[٦٢] . واضطر الملك أخيراً الى رهن أطيانه الخاصة في مصر لقاء قرض قـدره خمسة عشر ألف جنيه[٦٣] . وقيل انه اضطر أيضا الى بيع بعض مقتنيات عائلته الشخصية حتى حلي زوجته وجواهرها[٦٤] .

ان هذه المبالغ التي حصلت عليها الحكومة لم تكن تكفي لسد طلبات الجنود المتزايدة . فاضطرت الحكومة في **١٢** آب الى تسفير **٤٧٥** جندي من الفلسطينيين حيث أرسلتهم الى العقبة على الباخرة « طويل »[٦٥] . وأخذ الجنود الباقون يتخذون شتى الوسائل للحصول على المال . يقول حسين محمد نصيف وهو من أهل جدة : ان بعض الجنود أخذوا ينهبون ما يجدونه أمامهم ، وعمد فريق آخر منهم الى اقتحام بعض الدور الخالية فهدموها وانتزعوا أخشابها وباعوها ، وقد بلغ قيمة ما خربوه بهذه الطريقة عشرين ألف جنيه . ولجأ بعض الجنود الى الاستجداء في الشوارع[٦٦].

اشتدت الازمة في عصر **٢٨** تشرين الثاني ، وذلك حين اجتمع الجنود وقرروا نهب البلدة في اليوم التالي . فعلم الملك بالخبر في منتصف الليل ، وأرسل يستدعي اليه شيوخ القبائل الحجازية واليمانية التي ينتمي اليهـا فريق من الجنود ، ورجا منهم أن يمنعوا أتباعهم من الاشتراك في التمرد . فاستجاب الشيوخ له ومنعوا أتباعهم . أما الفلسطينيون والسوريون فظلوا

---

(٦٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. ٣٧١ ـ ١٠٩٠٩) .
(٦٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٤٠١ .
(٦٤) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج٢ ص ١٧٧.
(٦٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. ٣٧١ ـ ١٠٨٠٩) .
(٦٦) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٩٩ .

مصرين على موقفهم[٦٧] • وفي صباح اليوم التالي تظاهر نحو ٢٢٠ رجل منهم ، فخرجوا يسيرون في الاسواق وهم يطلقون الرصاص ، حتى انتهوا الى المسجد الكبير ، فدخلوه وتحصنوا فيه ، وأخرجوا فوهات بنادقهم من منافذه ، مهددين كل من يقترب منهم بالقتل • وجاء اليهم وزير الحربية فهددوه بالقتل فعاد من حيث أتى[٦٨] •

أحاط بالمسجد حرس الملك وعبيده المسلحون وتدخل القنصل البريطاني في الأمر ، يؤيده القنصل الايطالي الذي كان في ذلك الحين نائباً عن القنصل الفرنسي ، وطلبا الكف عن الفلسطينيين والسوريين بحجة أنهم رعايا بلاد واقعة تحت انتداب حكومتيهما • فانسحب الحرس والعبيد من حول المسجد •

تم الاتفاق مع الجنود المتمردين على تسفيرهم بعد عشرة أيام ودفع ليرة واحدة لكل واحد منهم مع تموين يكفيهم خمسة عشر يوماً • وفي ١٢ كانون الاول جرى تسفيرهم على الباخرة الصغيرة « رشدي » الى العقبة[٦٩] • ولكن المشكلة لم تقف عند هذا الحد ، لأن الجنود الباقين شعروا بأنهم حرموا من العطاء لسكوتهم وطاعتهم ، وبدأ التذمر ينتشر بينهم، وخيف على البلدة من النهب[٧٠] •

اصبح الوضع في جدة خطراً ، وأدرك الملك علي أنه في موقف يائس لا أمل فيه • ومما زاد في يأسه وصول الخبر اليه بسقوط المدينة المنورة في أيدي القوات السعودية منذ ٦ كانون الاول • واتضح لديه ان ابن سعود ربما تمكن من نقل مدافعه من المدينة الى ما حول جدة في وقت قريب • وعند هذا قرر الملك علي التسليم لابن سعود ومغادرة البلاد ـ لكي يريح ويستريح !

---

(٦٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) •
(٦٨) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج١ ص ١٩٩ •
(٦٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١١٤٤٣) •
(٧٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) •

كيف جرى التسليم :

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : « زارني الملك علي برفقة وزير خارجيته فؤاد في مساء ٩ كانون الاول ، وذلك بعد أيام من وصول الخبر اليه بسقوط المدينة ، وأخذ يتحدث في شؤون شتى • ولكنه قبل مغادرته القنصلية طلب مني النصيحة حول ما ينبغي أن يفعل في الأيام القادمة • فأخبرته اني غير قادر على اعطائه أية نصيحة بالنظر للموقف الحيادي الشديد الذي اتخذته حكومة صاحب الجلالة • فغادر الملك القنصلية ، وفي صباح اليوم التالي طلب مني مقابلته ، فذهبت اليه ، وسألني نفس السؤال وأعدت عليه نفس الجواب • وفي مساء ١٣ منه ، عندما ازداد الوضع تأزماً ، طلب مني الملك عليّ شفهياً أن أتوسط لتسليم البلدة • فأخبرته اني سوف اتصل بحكومتي في هذا الشأن وأبلغه بالنتيجة حال وصول جوابها • انه طلب مني أيضاً السماح بالاقامة في فلسطين أو شرقي الاردن أو العراق ، وقال انه عربي ويرغب أن يعيش في بلاد عربية ان امكن وبالقرب من أحد اخويه فيصل أو عبدالله • وفي صباح اليوم التالي أكد الملك عليّ طلبه الشفهي السابق بطلب تحريري ، وقدم لي قائمة بالشروط التي يمكن أن تكون أساساً للتوسط ••• »(٧١)

أبرق القنصل البريطاني الى حكومته يطلب منها الاذن بالتوسط ، فوصل الجواب منها في صباح الاربعاء ١٦ منه تسمح له بذلك • فأسرع القنصل فكتب كتاباً الى ابن سعود يطلب منه التفضل بمقابلته في الرغامة في ضحى اليوم التالي ، وأرسل الكتاب مع كاتبه الهندي المنشي احسان‌الله • وغادرت سيارة القنصلية جدة تحمل الكاتب الهندي ويرفرف فوقها علم أبيض • والتقت السيارة بموكب ابن سعود بالقرب من بحرة ، وقدم الكاتب له كتاب القنصل • فلما قرأ ابن سعود الكتاب قال للكاتب : انك جئت في اللحظة المناسبة لانك لو كنت قد تأخرت يوماً واحداً لكان الوقت قد فات •

(٧١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١١٤٣٢) •

وأخبره ابن سعود بأنه كان متوجهاً الى الرغامة لتوجيه الهجوم على جدة بناء على طلب أهالي جدة الذين وعدوه بالمساعدة عند الهجوم .

يروي خيرالدين الزركلي : أن ابن سعود كان في ذلك الوقت الذي جاء فيه كاتب القنصل في ساعة من أحرج ساعات حياته ، ذلك ان رؤساء الاخوان كانوا آنذاك قد سئموا المقام في حصار جدة وصاروا يجادلون ابن سعود جدالاً عنيفاً حيث خيّروه بين أمرين : اما ان يأذن لهم في فتح جدة عنوة ، أو يرحلوا عنها الى ديارهم في نجد . فأجابهم ابن سعود قائـلا : « لن أدخل جـدة في قتـال ، وسأبقى على أبوابهـا ، ولكم أن تقيموا أو ترحلوا » . وبينما كان الاخوان يتهيأون للرحيل وصل الخبر الى ابـن سعود بعزم الملك علي على التسليم . وفي رأي الزركلي ان هذا الحادث هو دليل آخر على وجود موهبة « الحظ » لدى ابن سعود(٧٢) .

وافق ابن سعود على مقابلـة القنصل البريطاني في اليـوم التالـي الخميس . وفي الساعة العاشرة من صباح الخميس التقى القنصل بابـن سعود في الرغامة ، وكانت تلـك أول مقابلة له معه . وكتـب القنصل في تقريره الى حكومته يبدي اعجابه بما شاهد في ابن سعود من جاذبية في الخلق وتسامح كريم في ساعة النصر . وذكر القنصل ان ابن سعود وافق على معظم الشروط التي طلبها الملك عليّ ، وكان ذلك عملاً كريمـاً منـه(٧٣) .

كانت الشروط مؤلفة من سبعة عشر مادة ملخصها أن ابن سـعود يجب أن يعفـو عن جميـع من عاون الملك علي من الموظفـين والضـباط والأعيان ، ويضمن سلامتهم وسلامة عائلاتهم وأموالهم ، وأن يوزع على الضباط والجنود مبلغ خمسة آلاف جنيه ، ويتعهد بترحيل من يرغب منهم الى أوطانهم مع ابقاء من يجد الكفاءة فيهم من الموظفين ، ويمنح عائلـة

---

(٧٢) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٥٨٥ .
(٧٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١١٤٣٢) .

آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية التي ورثوها من آبائهم ، ويمنح الملك علي الحق في أن يأخذ معه عند خروجه جميع أمتعته الشخصية بما فيها سيارته الخاصة وسجاداته وخيوله . ويتعهد الملك علي من جانبه بتسليم جميع الاسلحة والرشاشات والطائرات والمدافع والمصفحات سالمة من غير تخريب ، وكذلك تسليم البواخر الحجازية الاربعة وهي «طويل» و «رشدي» و «الرقمتين» و «رضوى» ، مع السماح للملك علي باستعمال الباخرة «الرقمتين» لنقل أمتعته الشخصية ثم تعود بعد ذلك[٧٤] .

عاد القنصل الى جدة بعد الغروب في اليوم نفسه ، وقابل الملك عليّ بعد العشاء . وقد اعترض الملك بمرارة على التعديلات التي أجراها ابن سعود على شروطه . ولكنه وافق عليها أخيراً ووقّعها . وأخذ الملك عليّ بعدئذٍ يستعد لمغادرة جدة في أقرب وقت ممكن .

وفي صباح ٢٢ منه غادر الملك عليّ جدة على ظهر البارجة البريطانية « كورن فلاور » . وقد اعتق قبل مغادرته واحداً وعشرين عبداً من عبيده ، وسلمهم الى القنصلية البريطانية لكي تسفرهم الى مواطنهم في أفريقيا[٧٥] . ويقال انه أخذ معه عند مغادرته جدة جميع ما كان في دوائرها من طوابع البريد[٧٦] .

أبحرت البارجة بالملك عليّ وحاشيته متجهة بهم نحو عدن ، وعند وصولهم اليها نزلوا فيها . وقد حاول المقيم البريطاني في عدن الحصول على باخرة تنقلهم الى البصرة ، فلم يجد . فاضطر الى حجز أماكن لهم في باخرة تحملهم الى بومبي . وقد غادروا عدن في ٢٧ منه . وحين وصلوا الى بومبي لم يتمكنوا من النزول فيها لعدم وجود جوازات سفر لديهم ،

---

(٧٤) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ــ القاهرة ــ ج٣ ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .

(٧٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٤٢) .

(٧٦) أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ــ بيروت ١٩٦٦ ــ ص ٢٤٦ .

فنُقلوا الى باخرة أخرى حملتهم الى البصرة[٧٧] • ومن هناك ركبوا القطار الى بغداد فوصلوها في ٨ كانون الثاني ١٩٢٦ ، وكان في استقبالهم في المحطة الملك فيصل وابنه غازي[٧٨] •

دخول ابن سعود جدة :

كانت قد تشكلت في جدة حكومة موقتة للمحافظة على الأمن خلال الفترة بين الحكمين • وعلى أثر مغادرة الملك عليّ جدة توجه القنصل البريطاني الى الرغامة ومعه رئيس الحكومة الموقتة ، فقدمه الى ابن سعود • ثم أخذ القنصل يشكر ابن سعود على قبوله وساطته في الصلح ، وذكر له أن حكومته انما سمحت له بالتوسط من أجل حقن الدماء في البلاد المقدسة، وجلب السلام والرخاء لها ، وتأمين سلامة ملايين الحجاج الذين هم من رعايا صاحب الجلالة البريطانية المفخمة • فأجابه ابن سعود قائلاً أمام الحاضرين : انه يشكر الحكومة البريطانية بحرارة على ذلك بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن قومه وجميع العالم الاسلامي • وذكر أنه يعتبر بريطانيا الصديقة الوحيدة المخلصة له في العالم ، وأنه ليس له أية علاقة صغيرة أو كبيرة مع غيرها من الدول • ويقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : ان ابن سعود أعاد هذا الكلام عدة مرات وبكل حماس واخلاص ، وكان يدعم كلامه باشارة من يده اذ كان يحرك قبضة يده مع كل كلمة يفوه بها • وقد واصل ابن سعود كلامه مع القنصل فقال : انه بناءاً على قدسية الكلمة وما يأمر به دينه وعقيدته ملتزم ومنفذ للمعاهدة المعقودة بينه وبين بريطانيا العظمى ، وانه على تمام الوفاق مع صديقته وحليفته الامة البريطانية ، فسياستها هي سياسته ما دامت لا تعرض لأمرين هما أعز عليه من حياته وهو مستعد أن يريق آخر قطرة من دمه في سبيلهما

---

(٧٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٣٣) •
(٧٨) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٩ كانون الثاني ١٩٢٦ •

هما : دينه وشرفه . ان اوثق روابط الصداقة موجودة دائما بين شعبه وبريطانيا العظمى « ان شاء الله ! »[٧٩] .

تحرك ابن سعود في صباح اليوم التالي من الرغامة في موكب كبير متوجهاً الى جدة . ولما وصل الى الكندرة نزل في دار الضيافة فيها . وكان قد رفع العلم النجدي فوق الدار كما أطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة. وجاء القناصل والاعيان والضباط يسلمون على ابن سعود ، وتقدم القنصل الايطالي نحوه فتكلم باللغة العربية قائلاً : « نظراً لكوني كبير القناصل سناً أتقدم بالنيابة عن نفسي وبالوكالة عن رفاقي بتقديم تهنئتنا لعظمتكم بدخولكم جدة في هذه الطريقة السلمية التي حقنت بها الدماء ، ونتمنى لعظمتكم التوفيق الدائم والسعادة » . فأجابه ابن سعود قائلاً : انه لم يتباطأ في الأعمال الحربية الا لهذه النتائج السليمة . ثم أبدى ابن سعود شكره للمعتمد البريطاني على مسعاه ، كما شكر جميع القناصل[٨٠] .

أقام ابن سعود يوماً واحداً في الكندرة ، وفي صباح اليوم التالي انتقل الى داخل جدة ، فنزل في دار الشيخ محمد أفندي نصيف ، وجاء الاهالي بمختلف طبقاتهم يسلمون عليه ، كما ألقى الشعراء بين يديه القصائد الرنانة ــ كما هو ديدنهم في هذه المناسبات !

---

(٧٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف ٠ أو ٠ ٣٧١ ــ ١١٤٣٢) .
(٨٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦ .

الفصل السابع

الحسين في سنواته الاخيرة

ان الحسين بعد مغادرته جدة في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٤ ذهب الى العقبة ، فأمضى فيها ثمانية أشهر ، ثم أجبره الانكليز على مغادرتها الى قبرص • وقد ظل الحسين في قبرص حتى تشرين الثاني ١٩٣٠ عندما أصيب بشلل نصفي ، فنقل الى عمان حيث مات في ٤ حزيران ١٩٣١ • وسنحاول في هذا الفصل ذكر ما جرى له خلال تلك الفترة بمقدار ما حصلنا عليه من معلومات •

أين يقيم :

لم يكد الحسين يغادر جدة متوجهاً الى العقبة حتى صارت البرقيات تتوالى بين لندن وبغداد والقدس للبحث عن المكان المناسب الذي يجب أن يقيم فيه الحسين • تقول المس بيل في رسالة لها في ١٥ تشرين الاول : « هناك تنافس شديد بيننا وبين حكومة فلسطين كل يحاول أن يبعد عنه الحسين • لاشك ان الحسين سيكون ثقيل الظل في فلسطين غير أنه لايقدر أن يسيء كثيرا في البلد الذي ليس ابنه حاكماً فيه • اني أسلي نفسي في أنه مهما فعل من استفزازاته المعهودة في هذا الكون فهو لن يفعل ذلك بصفته ملك الحجاز وخليفة المسلمين »[1] •

وصل الحسين الى العقبة في ١٨ منه ، وقبل وصوله بيوم واحد ذهب المعتمد البريطاني في عمان المستر كركبرايد لمقابلة الامير عبدالله ، وأخبره بأن الحكومة البريطانية قررت السماح لابيه الحسين بالبقاء في العقبة موقتاً الى أن تجد له مقراً آخر • وحين وصل الحسين الى العقبة ذهب اليه

---

(1) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 356.

المستر كر كبرايد وأخبره بقرار الحكومة البريطانية على نحو ما أخبر به ابنه عبدالله بالأمس • ثم كتب كركبرايد بعدئذ تقريراً سرياً الى حكومته في لندن حول مقابلته للحسين وابنه ، ننقل فيما يلي أهم ما ورد فيه :

« تحدثت مع سمو الامير عبدالله في الساعة الثانية بعد الظهر في ١٧ تشرين الاول ، وأخبرته بقرار الحكومة البريطانية ، فتأثر الامير من هذا القرار تأثراً شديداً ، ومن الواضح أنه كان راغباً في مجيء أبيه الى عمان قبل أن تتخذ الحكومة البريطانية قرارها • وأخذ الامير يتكلم بمرارة حول الحكومة البريطانية وكيف خذلت أصدقاءها العرب ، وأبدى ندمه (ربما بصورة غير رسمية) لانهم لم يبقوا على ولائهم للاتراك • فطلبت من الامير أن يبلغ أباه الحسين في العقبة بقرار الحكومة البريطانية على وجه السرعة • فأرسل الامير برقية في مساء ذلك اليوم يخبره بالقرار ويخبره أيضا أنه قادم الى العقبة •••

« توجهت الى العقبة في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من صباح ١٨ منه ، فوصلت اليها في اليوم التالي في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين بعد الظهر ••• فنزل الحسين من الباخرة في الساعة الثالثة والنصف ، وأخبرته حالا بقرار الحكومة البريطانية ••• فقال الحسين ان ابنه عبدالله قد أخبره به بالأمس ، وأنه يأسف لان الحكومة البريطانية لم يبق لديها سوى ثقة قليلة به ، وهي لذلك تخشى أن يبقى في بلد أراق العرب دماءهم من أجله في سبيل القضية المشتركة بينهم وبين بريطانيا • أوضحت له أن مصلحة الجميع تقتضي بأن لا يتسرع في أفعاله ، وأن الحكومة البريطانية مشغولة للعثور على مقر له في المستقبل ، وأنها بالتأكيد سوف تعمل جهدها لحل القضية بأسرع ما يمكن •

« تكلم الملك السابق الحسين باسهاب في موضوع علاقته ببريطانيا منذ بداية الثورة العربية ضد الاتراك ، وأشار الى الاتفاق القديم والوعود ، والى الدواعي التي جعلته يرفض المعاهدة التي قدمتها بريطانيا ، كما أشار بشيء كثير من التأكيد الى المؤامرات التي قام بها ضده القنصل البريطاني

الخالي في جدة واتهمه بأنه كان يسعى متعمداً لاسقاطه • وذكر الحسين بشكل محدد أن السبب الوحيد الذي جعله يترك مملكته هو ادراكه ان الحكومة البريطانية غير راضية عنه ، وقد تأكد لديه أنها ستكون مسرورة للتخلص منه • انه يعتقد بان الحكومة البريطانيـة انما انقلبت عليه سعياً لترضية الاتراك والهنود والمصريين • ولما كانت عواطف الصـداقة منـه لبريطانيا لم تتغير ، فانه ارتأى ان من الأصلح له أن ينسحب •

« وصل الامير عبدالله الى العقبة في صباح اليوم التالي مبكراً • أخبرته بان الملك السابق وافق على رغبة الحكومة البريطانية ، وأعربت له عن أملي بأن لا يقول له شيئاً يغير من رأيه • أظهر الامير بروداً حول هذه القضية كلها ، وأظن أنه يشعر بأن كرامته قد جرحت لعدم تمكنه من دعوة أبيه للاقامة في بلاده •

« في الساعة السابعة والنصف من ذلك الصباح رافقت الامير فـي الصعود الى الباخرة « الرقمتين » فقابلنا الملك السابق فيها ، وأخذ الملك يتحدث مرة أخرى بتفصيل عن ماضيه ، وكان يؤيد حديثه بوثائق موقعة من مكماهون وآخرين • والظاهر أنه يحمل معه كثيراً من الوثائـق الرسمية • ولعل من الممل أن أكتب في تقريري جميع ما قاله الملك السابق بالتفصيل • فان معظم حججه قديمة ، وهي لابد معروفة لحكومة صاحب الجلالة ، ولكن في مقدوري تقديم تقرير منفصل عنها عند الحاجه • وقـد قال الملك السابق في ختام حديثه انه راغب كل الرغبة في مقابلة الســر جلبرت كلايتون ويبحث الامور معه ••• »(٢)

تم الاتفاق بين العراق وبريطانيا أخيراً على أن يكون مقر الحسين في البصـرة ، واشترطت بريطانيا أن لا يتدخل اثناء اقامته فيها في الامـور السياسية • كتبت المس بيل في رسالة لها في ٢٢ تشـرين الاول تقـول : « ••• اننا مقبلون على تحمل مسؤولية الملك الحسين • انه سيقيم فـي

---

(٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٠١٦) •

البصرة ويبقى ساكناً لا يتدخل في السياسة • وهل في مقدور البرغوث أن يبقى ساكناً ... »[3]

أبرق الملك فيصل الى أبيه يدعوه للاقامة في العراق باسم الشعب والحكومة • وفي ١٠ تشرين الثاني وصل الى العقبة المستر كركبرايد وقابل الحسين ، ثم كتب الى حكومته التقرير التالي :

« في العاشر من الشهر الجاري قابلت الملك السابق الحسين في العقبة وأخبرته ان الحكومة البريطانية ليس لديها مانع لقبوله دعوة العراق بشرط أن يوافق على الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية من حيث محل اقامته وأن لا يتدخل في السياسة • وأخبرته أيضا ان الحكومة البريطانية ترغب في أن يذهب عن طريق البحر الى البصرة • ثم سألته هل تسلم الدعوة مع تفاصيل الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية •

« أجاب الملك السابق أنه تسلم رسالة من الملك فيصل يخبره بأن العراق حكومة وشعباً سيكون مسروراً باقامته فيه ، ولكن الرسالة لم تتضمن أية شروط من هذه التي ذكرتها ، غير أنه سمع من مصادر أخرى بأن الحكومة العراقية تخشى من تدخله في الامور السياسية والدينية ، وهي لذلك ترغب منه أن يعطي تعهداً محدداً في أنه لن يتدخل في هذه الامور • انه أكد لي أنه سوف لا يقبل الدعوة على أي حال في الوقت الحاضر • لانه مرتاح في العقبة وليس لديه رغبة في القيام برحلة غير ضرورية قد تؤدي الى اتعاب عائلته ، وانه حتى لو كان قد قبل الدعوة فان عدم ثقة الحكومة العراقية به قد مس كرامته مما يجعله يرفض الذهاب الى هناك • انه يدرك أن ليس من اللائق به أن يتدخل في السياسة عندما يقيم في العراق ضيفاً على حكومته ، واذا كانوا لا يستطيعون الوثوق به من غير تعهد مسبق فانه يفضل أن لا يذهب •••

« دعاني الحسين لمقابلته في صباح اليوم التالي ، ولكنه لم يكن لديه

(3) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, pi 357.

ما يقوله سوى تكرار ما كان قد قاله من قبل ، وأعرب عن رأيه في أن الوقت قد حان لكي تتدخل الحكومة البريطانية من أجل وقف اراقة الدماء في البلاد العربية ... »[٤]

ارسال المساعدات :

كانت الحرب حول جدة في بدايتها عند وصول الحسين الى العقبة ، فأرسل الى ابنه علي في جدة يحثه على الصمود ويتعهد له بارسال المعونة له نقداً ومعدات حربية . وقد حقق الحسين لابنه ما تعهد به . ففتح صفائح النقود التي حملها معه من مكة ، وأخذ يرسل مبالغ منها الى جدة على دفعات ، كما أرسل مبالغ منها الى عبدالله لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات ويستأجر المتطوعين .

بذل عبد الله جهوداً كثيرة في جمع المتطوعين وشراء المعدات والاسلحة . ولكن الذي يؤسف له ان كثيراً من الذين كلفوا بالقيام بذلك كانوا ممن نشأوا في العهد العثماني وتشبعوا بقيمه وعاداته ، ولهذا رأيناهم ينتهزون الفرصة للاثراء السريع ، وضاعت من جراء ذلك معظم أموال الحسين عبثاً . يقول صلاح الدين المختار الذي كان شاهد عيان لما جرى :

« لقد تلقى الامير عبدالله بن الحسين من والده في العقبة أربعين ألف ليرة ذهباً لقاء ارسال المتطوعين وشراء بعض الاسلحة الآلية والطيارات في طرد ابن سعود من الحجاز ... ولكني أقرر هنا ... أن جل هذا المبلغ قد تسرب الى جيوب المنافقين والمستغلين واللصوص ومدخولي الضمير . ولن أقرر هذه الحقيقة اعتباطا ، فلقد تحركت من عمان الى معان على رأس ١٤٥ جندياً دون أن نستلم قرشاً واحداً باستثناء كمية من الخبز والمواد الغذائية الاخرى التي لابد منها فلا نهلك جوعاً بين عمان ومعان ! »[٥] .

(٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) .

(٥) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) ــ بيروت ــ ج٢ ص ٣١٣ .

ويقول صلاح الدين المختار أيضاً : ان المستودعات العسكرية في معان كانت مليئة بالسلاح والعتاد ، كما كان فيها ثلاثة مدافع . فجاء الامير عبدالله بنفسه الى معان وأمر بنقل المدافع والاسلحة الى جدة ، وتقرر دفع عشرة ريالات مجيديه أجرة لكل جمل يعمل في نقل الاسلحة الى العقبة . وقد اتضح فيما بعد أن قسماً كبيراً من الاسلحة بيع للعشائر القريبة . وشاهد المختار بنفسه أحد المدافع الثلاثة ، وكان أضخمها ، ملقى في قعر أحد الوديان بين معان والعقبة(٦) .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الحسين لم يترك عادته القديمة في تقريب المتزلفين والمداحين ، وفي تصديق أقوالهم . وقد حف به في العقبة نفر منهم(٧) يشبهون أولئك الذين كانوا يحفون به في مكة ، وصاروا يختلقون له الاخبار التي يرغب فيها ، وكان هو من جانبه يقدم لهم المبالغ الكبيرة لجمع المتطوعين وشراء السلاح ، فيضعون معظمها أو كلها في جيوبهم .

يروي أمين الريحاني : ان الحسين أعطى قبل خروجه من مكة لرجل من هؤلاء المتزلفين عشرة آلاف ليرة لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات من أوربا ، ولكن الرجل ذهب الى مصر واشترى بالمبلغ عقارات لنفسه . ويروي الريحاني أيضاً : ان ثلاث طائرات قديمة اشتريت من انكلترا بسبعة آلاف باون ، وأرسلت الى جدة ، فتبين أنها لا تسوى غير ألف وخمسمائة باون ، أما الباقي فقد ذهب الى جيوب السماسرة والوكلاء(٨).

مشكلة العقبة :

كانت منطقة العقبة ومعان قبل الحرب ضمن حدود ولاية الشام ، ولكن الحسين ضمها الى الحجاز بعد الحرب . ولما نشبت الحرب في

---

(٦) المصدر السابق — ج٢ ص ٣١٨ .

(7) Storrs (Orientations) - London 1939 - p. 518.

(٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) — بيروت ١٩٥٤ — ص ٢٤٦ ، ٤٠١ .

الحجاز شعر الانكليز بوجوب اخراج هذه المنطقة من حدود الحجاز وضمها الى شرقي الاردن • فقد كان الانكليز يعتبرونها ذات موقع استراتيجي مهم ، ولهذا أرادوا الحاقها بشرقي الاردن لكي تكون تحت انتدابهم فلا تقع في يد ابن سعود(٩) •

وفي منتصف شهر أيار ١٩٢٥ أرسل ابن سعود كتابا الى الحكومة البريطانية يخبرها بأنه مرسل قوة لمهاجمة العقبة ليقينه بان اقامة الحسين فيها هو السبب الرئيسي لاطالة الحرب في الحجاز ، لان الحسين يمد جدة بالمال والسلاح والجنود(١٠) • وقد أثار هذا الكتاب عند وصوله ازمة في الوزارة البريطانية ، فقد ارتأى وزير المستعمرات المستر ايمري وجوب توجيه انذار الى ابن سعود بعدم مهاجمة العقبه ، ولكن وزير الخارجية المستر تشامبرلن خالفه في الرأي ودافع عن ابن سعود قائلاً ان هجومه على العقبة له ما يبرره لوجود الحسين فيها ولهذا يجب اخراج الحسين منها باللطف أو بالقوة وبأقصى سرعه ممكنة • وكان من رأي تشامبرلن ان الحسين لا يستحق أن تدخل بريطانيا في حرب مع ابن سعود من أجله(١١) •

قررت الحكومة البريطانية أخيراً بأن تحسم المشكلة بضم العقبة ومعان الى شرقي الاردن وبنقل الحسين الى قبرص • وأخبرت ابن سعود بذلك عن طريق قنصلها في جدة • وأنذرته بأن العقبة أصبحت تحت مسؤوليتها • وفي ٢٨ أيار وصلت الى مياه العقبة البارجة البريطانية « كورن فلاور » ، وقدم ربانها الى الحسين انذاراً من الحكومة البريطانية تطلب منه مغادرة العقبة في خلال ثلاثة أسابيع • ولما تسلم الحسين الانذار خاطب الربان قائلاً : « أنا لا أذهب من هنا ولو هلكت أنا وعائلتي بقنابل

---

(9) Jarvis (Arab Command) - London 1942 - p. 119.

(١٠) دائرة الوثائق العامة في لندن — رقم (أف• أو• ٣٧١ — ١٠٨٠٩) •

(11) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) - London 1976 - p. 225.

حليفتي بالأمس » • فرد عليه الربان قائلاً ما معناه أنه رسول مخلص بالتبليغ فقط وأنه سيعود في صباح الغد لتسلم الجواب • ثم خرج دون أن يجلس • وعندما عاد الربان في الموعد المعين سلمه الحسين كتاباً طويلاً يتضمن رفضه للانذار • وفيما يلي ننقل جزءاً كبيراً منه :

« انني منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وأنا مخلص في ولائي لحكومة جلالة ملك بريطانيا ، ثابت على مبدأي اعتماداً على شرفها وبناءاً على عهودها ومواثيقها الرسميه ••• واني ضحيت بكل شيء وتخليت عن الملك وغادرت وطني حباً بالسلم وحقن الدماء ، وأتيت العقبة لابرهن للعالم أجمع بأن لا مطمح لي سوى اسعاد أقوامي وتحرير بلادي بعد أن قمت بواجباتي ••• وها اني اليوم مقيم في احدى قرى الحجاز معتزلاً عن العالم ومبتعداً عن كل ما من شأنه أن يوجب الشغب وسوء التفاهم • ولما كان هذا الاعتزال والابتعاد لم يخلصني من أمثال هذه الشوائب فلا شك بأنني أينما ذهبت لا يخلو الامر من حدوث شيء كما في التبليغات الاخيرة • وربما كانت أسد هولاً من موقفي الحالي اذ لا أضمن هياج الشعب العربي وقتئذٍ وحدوث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها • ولهذا فاني لا أرى مندوحة عن بقائي في مكاني ، وان شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بي الى عالم المريخ فاني مستعد لانفاذ رأيها في هذه البعثة في أول دقيقة التبليغ ، أو أنها اذا نسبت ورأت عظمتها أن تبعث احدى وسائطها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلاص الجميع من هذه الغوائل فلتفعل لاني آليت على نفسي بأن لا أحجم عن مساعدة أبناء وطني وقومي • واني أفتخر أمامكم بكوني ما زلت ولن أزال أساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي ادخرته لمستقبلي المجهول ، لأن من لا خير فيه لوطنه لا يرجى منه خير لحلفائه واصدقائه • ولي الشرف أيضا بكوني ثبت على مبدأي وأخلصت في عملي وقمت بواجباتي ، فما عليّ من غيري فيما اذا لم يف بوعده ولم يقم بانجاز عهده ، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته وبرؤوس حرابه ، فهناك يكون الحكم لمن غلب ••• وفضلاً عن ذلك فاني لم أعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه ، وما زلت احتج على الحكومة البريطانية التي

جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وشمالي سوريا تحت الانتداب ومأوى للأرمن • واني لأعجب من تغافل الحكومة البريطانية عما حل بالحجاز بل بمكة المكرمة من السحق والمحق في الاموال والانفس ، والدمار الـــذي لا يمكن تلافيه الا بعد عشرات من السنين ، ثم اهتمامهـــا بمحافظة معان والعقبة الامر الذي لا يبقي محل لا طالة البحث فيه ، لان ذلك كاف لاقل تأمل ••• اني لا أبرح العقبة مهما كانت النتيجة ولو أدى الامر لهلاكي ومحو عائلتي من الوجود • واني لا أقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها ، وانما هو في سبيل انقاذ وطني وبني قومي • وكلما تفعله بي الحكومـــة البريطانية لمما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي وأقوامي، حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله • وفي هذا بلاغ »[١٢] •

يبدو ان هذا الرد الشديد من الحسين وضع الحكومة البريطانيـــة في موقف دقيق ، فقد كان مـــن الصعب عليها تنفيذ انذارها الى الحســين بالقوة لان ذلك سيكون سبباً في تشويه سمعتها امام الرأي العام العالمي ، فماذا تفعل ؟

لجأت الحكومة البريطانية الى الامير عبدالله طالبة منه أن يقنع أباه بمغادرة العقبة الى قبرص • وذهب الامير الى العقبة ، فدخل على أبيـــه مقبلاً يديه وقال : « يا ولي النعم ، ان سياسة العنف والشدة لا تفيد تجاه القوة • الآن وقد قمتم بواجباتكم تجاه أمتكم وأديتم رسالتكم فعلى الامـــة العربية أن تقوم بواجباتها »[١٣] • ويقال ان عبدالله ذكر لابيه أن عرشه في شرقي الاردن وعرش فيصل في العراق مهددان بالزوال اذا ظل هـــو مصراً على الرفض[١٤] • فاضطر الحسين تجاه توسلات عبدالله الـــى الاستجابة للانذار البريطاني •

---

(١٢) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ •

(١٣) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ عمان ١٩٧٧ ـ ص ١٩٣ •

(١٤) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣١٥ •

وصلت الى مياه العقبة بارجة ثانية تدعى « دلهي » وانضمت الى البارجة الاولى . وفي الساعة الخامسة من عصر الخميس ١٨ حزيران نزل الحسين مع حاشيته وحرمه وعبيده الى زورق البارجة « دلهي » . ويروي أحد الذين شاهدوه عند ركوبه أنه أخذ يتمتم قائلاً : « لا وفقك الله يا عبدالله »[١٥] . ويروى أيضا أنه كان طيلة المدة التي قضاها في البارجة بين العقبة وقبرص يردد مع نفسه البيت التالي :

مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها[١٦]

وفي ٢٤ حزيران ــ أي بعد أسبوع واحد من مغادرة الحسين العقبة ــ أصدر الامير عبدالله بيانا رسميا أعلن فيه انضمام العقبة ومعان الى شرقي الاردن وانفصالها عن الحجاز ، وذكر البيان ان ذلك جرى « نظراً لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية علي المعظم ملك البلاد الحجازية أيده الله وأدام نصره »[١٧] . وفي اليوم التالي جرى في معان احتفال رسمي فخم لرفع علم الامارة فيها حضره الامير عبدالله ومعه رئيس وزرائه رضا باشا الركابي[١٨] .

كان لانضمام العقبة ومعان الى شرقي الاردن وقع سيء على حكومة جدة ، لانه يؤدي الى قطع الامداد عن المدينة المنورة ، وقد يؤدي بالتالي الى سقوطها في ايدي القوات السعودية . أما الملك علي فكان تأثير الخبر عليه مزدوجاً . يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره الى حكومته : « ان الملك علي أعرب عن سروره لابتعاد أبيه عن طريقه ، ولكن سروره كان مختلطاً لان ابتعاد أبيه يؤدي الى توقف المعونة المالية عن جدة . فهو يحب مال أبيه دون أبيه طبعاً ، ولكنه بالتأكيد يفضل بقاء أبيه مع المال على خسارته للمال »[١٩] .

---

(١٥) المصدر السابق ــ ج٢ ص ٣١٥ .
(١٦) أمين سعيد (أسرار الثورة العربية الكبرى) ــ بيروت ــ ص ٢٨٥ .
(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ــ القدس ١٩٤٥ ــ ص ٢٠٥ .
(١٨) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ــ القاهرة ١٣٤٩هـ ــ ص١٨٥ .
(١٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) .

الحسين في قبرص :

في الساعة السابعة من صباح الاثنين ٢٢ حزيران ١٩٢٥ وصلت البارجه « دلهي » الى ميناء « لارناكا » في قبرص ، وهي تحمل الحسين ومن معه ، وكان في استقباله هناك مدير الشرطة الميجر نورنكوت • وقد نزل الحسين الى رصيف الميناء في الساعة الحادية عشرة ، وكان معه ١٩٢ بالة كبيرة مع سيارات ثيات ليموزين كبيرة ، كما كانت ترافقه زوجته الملكة عادلة هانم وابنتاه ، وسكرتيره الخاص صالح ، ومرافقه العسكري كامل باشا ، ونحو ٢٥ عبداً وعبدة[٢٠] •

أقام الحسين في أول الامر في فندق في نيقوسيا يدعى «بلاس هوتيل» ، ثم استأجر له بعدئذ دارا في نيقوسيا سكن فيها • وكانت الدار مؤلفة من بنايتين بينهما حديقة ، فخصص احداهما للحرم والاخرى لاعماله وزواره • وفي ١٩٢٨ التحق به ولده الاصغر الامير زيد للعناية به في شيخوخته ، وقد بذل زيد في الواقع جهداً مشكوراً في خدمة أبيه ، وظل معه حتى آخر أيامه في قبرص • وقد ماتت أمه عادلة هانم في قبرص ، ودفنت فيها •

عندما كان الحسين في العقبة ـ قبل نقله الى قبرص ـ كان لديه بقية من الامل في أن تأتي بريطانيا لنجدته وطرد ابن سعود من الحجاز • فهو لم يكن يتصور أن بريطانيا تتنكر لصداقتها معه بمثل هذه السهولة • ولم يكتشف خطأه الا عندما حملته بريطانيا قسراً على مغادرة العقبة والانتقال الى قبرص • يروى عنه أنه صرح لاحد الذين رافقوه في البارجة بعد مغادرته العقبة قائلاً : انه كان مخطئا وانه لم يكن يعرف أخلاق الاوربيين وما ينطوون عليه[٢١] ••••

حدثت للحسين في قبرص حادثتان جعلته يفقد أمله من بريطانيا

---

(٢٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٩) •
(٢١) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ ج٣ ص ٢١١ •

نهائياً ويحقد عليها حقداً شديداً ، أولاهما أن الصحف البريطانية دأبت على الاستهانة به ووصفه بالاوصاف المستهجنة • وقد غضب الحسين حين وجد جريدة « التايمس » المعروفة باتزانها تسلك مسلك الصحف الاخرى فتنتقده انتقاداً لاذعاً وتتهكم عليه • وفي ٢٤ آب ١٩٢٦ كتب رسالة الى وزير الخارجية البريطانية يشكو اليه من نقدات الصحف ويقول انها أهانت شرفه وعزته واحترامه الذاتي ، وذكر الحسين في رسالته كيف انه اعتمد على بريطانيا وسعى للحفاظ على شرفها وتقدمها ، وخاطر بنفسه حين دخل الحرب العظمى من أجلها في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مهددة بالاخطار في الكوت والدردنيل وباريس • ثم قال ان هذا الهجوم من الصحف البريطانية عليه سيعتبره الجميع دليلاً على أن بريطانيا أصبحت ضده وأنها تساعد خصومه عليه • وأشار الحسين في ختام رسالته الى ما ورد في أحد المراجع البريطانية التاريخية حول الحركة الصهيونية من أن وعد مكماهون للحسين جرى تفسيره خطأ ، وقد رد الحسين على ذلك طالباً من وزير الخارجية الرجوع الى رسالة مكماهون المؤرخة في ١٥ آب ١٩١٥[٢٢] •

أما الحادثة الثانية التي أثارت حقد الحسين على بريطانيا فهي حادثة الدار التي سكن فيها في نيقوسيا ، فهو بعد ان أقام فيها ثمانية أشهر أراد الانتقال منها الى دار أخرى ، ولكن صاحب الدار حاول ابتزازه وأقام عليه الدعوى في المحكمة وأظهر عقداً كتبه الحسين له يتعهد فيه بدفع تسعة آلاف باون في حالة تركه للدار • ولما عرضت القضية في المحكمة طلبت المحكمة حضور زوجة الحسين أمامها للشهادة • فغضب الحسين من ذلك غضباً شديداً ولم يسمح لزوجته بحضور المحكمة •

وكتب الحسين في ٢٧ ايلول ١٩٢٦ رسالة الى رئيس الوزراء البريطانية يشكو اليه من معاملة المحكمة له ، وذكر أنه يعتبر نفسه ضيفاً على الملك جورج الخامس وهو يتوقع معاملة تتناسب مع شرف جلالته وعزته •

(٢٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف • أو • ٣٧١ ــ ١١٤٥٠) •

فلم يجب عليه رئيس الوزراء بشيء • وفي أواخر تشرين الاول وصل كتاب الى حاكم قبرص من وزير الخارجية البريطانية فحواه أن الحسين ليست له أية حقوق وامتيازات قانونية تميزه عن غيره من الاجانب في قبرص ، وهو انما أعطي حق اللجوء في قبرص لحمايته من أعدائه ، ولكن وزير الخارجية مع ذلك يوصي الحاكم قائلاً بأنه بالاتفاق مع وزير المستعمرات يرى أن مقتضيات المجاملة والانسانية تفرض عليه أن يعامل الحسين بشيء من المرونة على قدر الامكان من حيث وساوسه الدينية أو غيرها في حضور المحكمة(٢٣) •

الشكوى الى عصبة الامم :

بلغ حقد الحسين على بريطانيا أوجه في تشرين الثاني **١٩٢٦** ، مما دفعه الى أن يكتب الى رئيس عصبة الأمم في جنيف كتاباً يستغيث به ويشكو اليه من بريطانيا • وهو كتاب طويل ننقل صورة مختزلة عنه فيما يلي :

يا صاحب الرئاسة

انني أنا الموقع بذيله أدناه الملك حسين بن علي ملك الحجاز وعضو مؤسس في جميعة الامم وحليف الحلفاء في الحرب الكبرى أبين لجنابكم ما يأتي :

اولا ــ ان جمعية الامم لم تخلق الا لامر واحد وهو منع تعدي أية دولة مستقلة على أخرى • ومن الغريب المدهش ان هذا القانون الاساسي لم يطبق في مسألتي مع الوهابيين الذين اجتاحوا بلادي وبلاد آبائي وأجدادي حتى محمد بن عبدالله النبي العربي الهاشمي صلى عليه وعلى آله وسلم • ولذلك فاني احتج أشد الاحتجاج أولاً على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين ، وثانياً على الجمعية لعدم معاملتي بموجب قانونها الاساسي • واني اطلب بالحاح من الجمعية الموقرة اخراج الوهابيين من بلادي بقوة الدول أعضاء جمعية الامم •

(٢٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠٠أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٥٠) •

ثانياً ـ تتذكر جمعية الامم ان قادة الوهابيين كانوا قبل ذلك قد دخلوا امارة الكويت مما حمل الدولة البريطانية على ارسال الجنود الانكليزية المقيمة في العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة الى الكويت وارجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم •

ثالثاً ـ اقتحمت عصابات الوهابيين بعدئذ مملكة شرق الاردن فوقف في وجههم ولدي الامير عبدالله بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الاشداء ، وانضمت اليه فرق من الجنود الانكليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة ، فتغلب على هذه العصابات وردها • وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم ، وهم شهود عدول ، أن الوهابيين بعد فرارهم كانوا اذا وجدوا جريحاً ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه •

رابعاً ـ أما أنا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جمعية الامم وحليف المنتصرين في الحرب الكبرى فلم أعن بشأن هذه العصابات عناية الخائف من تعديها على ملكي لاني كنت أدري بأننا لسنا اليوم في العصور الوسطى ، ولانني كنت على أكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر أن تهاجم بلاداً يقدسها ثلاثمائة مليون من المسلمين الموحدين ، وتضمن استقلالها جمعية الامم ، وتحمي وتحترم استقلالها جميع دول الحلفاء • وما كنت لأظن أن واحدة من هذه الدول العظمى ـ يقصد بريطانيا ـ توعز الى رجال هذه العصابات بواسطة بعض ساستها الاغبياء ، فيدخلون الاراضي المقدسة ويدمرون الاضرحة والمعابد والمشاعر الدينية • أجل ما كنت لأتصور ان الحليفة الكبرى تأتي من وراء اكبر حليف لها في الشرق ، وأعظم ساعد لها في الحرب الكبرى ، فتطعنه في ظهره دون أن يكون لها ضمير يوبخها أو مروءة ووفاء يمنعانها عن هذا العمل الفظيع الظالم • أما الحليفة الكبرى فانها شعرت بفظاعة عملها هذا على الأخص عندما رأت اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء ، ومن حرمان الانكليز من حليف شريف ، وملك عريق في الحسب والنسب ، ومسالم لم يفكر قط في الاضرار بالآخرين • أجل ان رجال الحكومة

الانكليزية الذين أتوا بهذا الغلط الفاضح وهذا الخطأ الفادح يقفون مطأطيء الرؤوس خافضي العيون أمام الرأي العام الانكليزي النبيل الذي سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الانكليزي •••

خامساً ــ اني أطلب من جمعية الامم الموقرة اخلاء البلاد المقدسة من الوهابيين واستفتاء اهاليها ، لكي ترى ان ما فوق التسعين في المائة من هؤلاء الاهالي يصوتون ضدهم • انني أطلب اطلاق يدي في العمل لاعادة ملكي وملك آبائي واجدادي المنتصب ، ورفع حكم رجال الحكومة الانكليزية الجائر عني • انني أطلب ابلاغ صوتي الشاكي من منفاي في جزيرة قبرص الى جميع رجال الدول ، وعلى الاخص كافة الشعب الانكليزي النبيل لافهمهم الحقيقة بكل صدق وصراحة بأن سياسة حكومتهم غير الشريفة لا تثمر غير الضغائن والبغضاء بين الانكليز والمسلمين الأصحاء ــ أقول المسلمين الأصحاء أي عامة المسلمين الذين يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله ، ولا عبرة بأفراد لا يعدون الا القليل من المسلمين الذين هم جهلة أغبياء يضللهم المضالمون وعمال السوء فلا يعلمون من دينهم شيئاً ولايسيرون على النهج الذي أوصاهم به الكتاب العظيم ، فهم مسلمون بالاسم فقط ، ولو كانوا أصحاء الاسلام لاحترموا آل نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقد أوصاهم بهم خيراً ، ولوقفوا جميعا وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن الجنان كبير العائلة العلوية الكريمة في مصر وباقي أركان الدولة المصرية عندما بعث بأولاده ثم ذهب بالذات الى الحجاز لقتال الوهابيين واخراجهم من الاراضي المقدسة الحجازية من بدعهم في الدين •

انني اكتب هذا الاحتجاج الشديد لرئاسة جمعيتكم لكي تعلم الدول كافة ، ويعلم الشعب الانكليزي النبيل خاصة ، ان أعمال رجال حكومته في الحجاز غير العادلة وغير الحقة تحط من مقامها ومن مقامه السامي في أعين عامة المسلمين الأصحاء ، خصوصاً في الهند وفي جميع المستعمرات البريطانية والدولية أيضا ، لان هؤلاء يريدون بكل قواهم المحافظة على

شعائرهم الدينية في أراضيهم المقدسة • نعم فليعلم الشعب الانكليزي النبيل هذه الحقائق وليتحرك من جموده وليقف موقف المنقذ العادل الشريف ، ليضع حداً بين الظالم والمظلوم ، فيرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم • وعندئذ فقط يجوز أن نقول بأن الشعب الانكليزي هو نبيل عادل ويحب العدالة والحق ، وان الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائرهم الدينية •

مغتنماً هذه المناسبة يا جناب الرئيس لتقديم احتراماتي الفائقة الحد لشخصكم المحترم ودمتم •

الحسين بن علي(٢٤)

أقوال ستورز :

لم تمض سوى أيام معدودة على كتابة الحسين كتابه الآنف الذكر الى عصبة الامم حتى عينت الحكومة البريطانية السر رونالد ستورز حاكماً على قبرص • ولا ندري هل كان ذلك مجرد مصادفة أم كان أمراً مبيتاً • ومهما يكن الحال فقد لوحظ ان ستورز أخذ يعامل الحسين معاملة لا تخلو من لؤم • يقول الامير زيد : « ••• وفي قبرص أظهر ستورس الكثير من قلة الوفاء بعد أن كنا نعتقد أنه صديق لنا ولسيدي عبدالله خاصة »(٢٥) •

تطرق ستورز في مذكراته الى ذكر حياة الحسين في قبرص ، وحاول أن يكون موضوعياً في كتابته عنه ، ولكننا نحس مما كتب أنه كان لا يميل اليه قلبياً • انه يقول عنه ما نصه : « لم يكن ــ في قبرص ــ معروفاً من أحد أو يعرفه أحد • وكان بالنسبة للموظفين الكبار في الجزيرة بمثابة سجين ، وللموظفين الصغار نكرة • وجدته يسكن في دارة صغيرة يحيطه ابنه الاصغر زيد باخلاص بنوي • وكان منظراً مؤثرا أن أشاهد هذا الامير الشاب ، وهو الذي قاد الكتائب في الحرب وأمضى سنة في

(٢٤) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٢١٣ ــ ٢١٧ •
(٢٥) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ عمان ١٩٧٦ ــ ص ٢٠١ •

كلية باليول ، يقرأ لابيه بصوت مرتفع التعليقات المملة لصالح البخاري على القرآن ـ يقصد صحيح البخاري ـ ويخدمه ليلاً نهاراً » •

ويقول ستورز : ان المسرة الوحيدة التي بقيت لدى الحسين ! قبرص انحصرت في ثلاث من المهرات العربية الاصيلة ، وكانت أجملها وألطفها تدعى « زهرة » ، فهي تصعد برشاقة الدرجات الموصلة بين الحديقة وقاعة الضيوف ، وكان الحسين يهتف لها قائلاً : « أهلاً » ، « ماشاء الله » ، « الله اكبر » ، « قربي يا بنت العم » • وكان الحسين يدعو هذه المهرة « قرة العين » ، وكان يقدم لها التمر فتأكله ببطء ثم تلفظ النوى في الصحن • ولكن مسرة الحسين هذه انتهت بخاتمة محزنة ، فان سائس هذه المهرات طرده الحسين من خدمته ، فانتقم السائس منه بأن بقر بطونها • ويقول ستورز : بينما كنت في صباح أحد الايام في مقري الرسمي جاء الحسين طالباً الاذن بالدخول عليّ حالاً ، ولما دخل رمى بنفسه بين ذراعي ودموعه تنهمر •

ويذكر ستورز ان الحكومة البريطانية كانت قد منحت الحسين عندما كان حليفاً لها في الحرب وسام الصليب الاكبر مع وشاح ، ولكن الوسام وصل متأخراً حينما كان الحسين مبعدا في قبرص ، وقد قدمه ستورز اليه عند افتتاح مكتبة قبرص العامة • ويعلق ستورز على ذلك قائلاً : اني رأيت وعرفت كثيراً من تقلبات الزمان ولكني لم أعرف مثل هذا الحدث المليء بسخرية القدر ، وذلك حين قدمت اليه الوسام الذي يتمناه السفراء والقواد العظام وملوك أوربا • لقد كان الحسين حينئذٍ عجوزا مطرودا غير أنسه مازال مهيبا !

ويشير ستورز الى الاشاعات التي راجت بين الناس حول ما لدى الحسين من مئات الالوف من جينهات الذهب موضوعة في صفائح النفط ، وهي الجنيهات التي أعطتها بريطانيا له عند قيامه بالثورة على الاتراك ، فيقول ان الباقي منها الآن أقل مما ذكرته الاشاعات التي هي من شأنها المبالغة في مثل هذه الامور • ويذكر ستورز ان الفلسطينيين الذين

أحاطوا بالحسين في العقبة استطاعوا أن يستخلصوا منه قسطاً كبيرا من تلك الجنيهات لانهم في ذلك خبراء حاذقون • وكذلك فعل معه بعض التجار الماكرين في قبرص ، ولهذا كان الحسين يأتي اليه ـ أي الى ستورز ـ يريد منه أن يتدخل في المحاكم لمصلحته على طريقة مكة • ويذكر ستورز : ان أبناء الحسين كانوا يأتون الى الحسين يطلبون منه بعض المبالغ ولكنه كان يخيب ظنهم قبل أن يفاتحوه وذلك بأن يطالبهم بتقديم قرض له • ويقول ستورز : ان الملك فيصل اشتكى اليه من ذلك عندما كان يلعب معه « الروكيت » في جبل « ترودوس »(٢٦) •

ومن الجدير بالذكر ان هذا الذي ذكره ستورز عن أموال الحسين لا يؤيده فيه الأمير زيد • يقول زيد : « عندما وصل الحسين الى قبرص كنا نعتقد أنه يملك مالاً كثيراً ، ولكنه تبين أنه لم يكن يملك سوى أربعة آلاف ليرة • وبعد ذلك أخذ سيدي عبدالله وسيدي فيصل يرسلان له مبالغ محدودة ، ولكن حتى هذه لم تكن تصل بانتظام ••• »(٢٧) •

أيامه الاخيرة :

كان الحسين مصاباً بمرض تصلب الشرايين ، وقد بدأ به المرض في عام ١٩١٩ على أثر واقعة تربة ـ كما أشرنا اليه في حينه • وفي تشرين الثاني ١٩٣٠ حدث له نزيف خفيف في المخ أدى الى اصابته بشلل نصفي ، وقد حصل له هذا النزيف عقب اهانة وجهها اليه ستورز • وفيما يلي أذكر ملخصاً للحادثة كما رواها لي رجل أثق به نقلاً عن الأمير زيد :

كان الحسين قد نفد ما لديه من مال في أيامه الاخيرة ، ولهذا كان ابنه الملك فيصل يرسل اليه من العراق في كل شهر حوالة بمبلغ مائة باون • ولسبب غير معروف تأخرت هذه الحوالة في شهر آب ١٩٣٠ ، واستمر التأخر اكثر من شهرين ، فأبرقوا الى بغداد يستوضحون عن سبب التأخر،

---

(26) Storrs (op. cit.) — p. 518 — 519 .

(٢٧) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٢٠١ •

فلم يصلهم من بغداد أي جواب • ويعزو الأمير زيد ذلك الى كيد الانكليز ورغبتهم في ايذاء ابيه • وقد أدى تأخر الحوالة الى امتناع البقال المجاور لهم عن تزويدهم بمواد المعيشة التي اعتاد أن يزودهم بها من قبل • واضطر الحسين أن يذهب بصحبة ابنه زيد الى ستورز آملاً أن يجد له حلاً للمشكلة •

يقول زيد : انهما حين دخلا على ستورز في مكتبه لم يقم لهما بما ينبغي من مقتضيات المجاملة ، ولم يطلب منهما الجلوس • فجلس الحسين على أحد المقاعد من غير اذن ، وتابعه في ذلك زيد • وأخذ الحسين يحدث ستورز عن مشكلته ثم طلب منه قرضاً الى أن تأتي الحوالة اليه من بغداد • فجابهه ستورز بوقاحة قائلاً : « ما هو الضمان لهذا القرض ؟ » • فقدّم الحسين خنجره المحلّى بالذهب الى ستورز وقال له : « هذا هو الضمان »• وكان ستورز ممسكاً في يده بقلم رصاص ، فحرك الخنجر بقلمه مع شيء من الاستهانة كأنه يقول ان هذا لاينفع • ثم استدعى كاتبه وأمره أن يقدم للحسين القرض الذي طلبه • ولكن الحسين لم يتحمل تلك الاهانة ، وصارت يده ترتجف من شدة التأثر ، ثم غادر مكتب ستورز حالاً • ولم يكد يصل الى البيت حتى أصيب بالنزيف في المخ •

في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٠ غادر الملك فيصل بغداد الى قبرص بالطائرة • وتمكن فيصل من الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على نقل أبيه الى عمان ، وبعد نقله عاد الى بغداد • وتألفت في عمان لجنة طبية لفحص الحسين من خمسة أطباء هم : جميل التوتونجي وحسام الدين أبو السعود وتوفيق كنعان وعزت طنوس وولخ • وبعد الفحص كتبوا التقرير التالي :

« لقد تشرفنا باجراء الكشف الطبي على حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين بن علي في قصر رغدان بعمان ، فوجدنا ان جلالته نظراً لتقدم سنه مصاب بتصلب الشرايين ، ومن ذلك حصل له قبل شهر تقريباً نزيف خفيف في الدماغ ، الا ان صحته العمومية تحسنت بواسطة

التدابير الصحية التي اتخذت له ولا يزال التحسن مستمراً ، والذي يزيد في اطمئناننا اننا وجدنا جميع أجهزة الجسم بحالة حسنة »[٢٨] .

وفي ١٥ كانون الاول وافق مجلس النواب العراقي على ارسال وفد الى عمان باسم الحكومة العراقية لتحية الحسين ودعوته للاقامة في بغداد . وكان الوفد مألفاً من السيد محمد الصدر رئيساً ومن علي الامام ورؤوف اللوس عضوين . وسافر الوفد الى عمان في ٢٩ منه . وقد شكرهم الحسين على الدعوة ووعد بتلبيتها عند تحسن صحته . ولكن صحته لم تحسن . وفي ٤ حزيران لفظ أنفاسه الاخيرة . فنُقل جثمانه الى القدس ودفن في ساحة الحرم الشريف بالقرب من المسجد الأقصى .

الواقع أن الحسين أخفق في أمور كثيرة ، ولكنه نجح في أمر واحد هو أنه جعل من حياته دعاية صارخة ضد بريطانيا . فلقد كان في مقدور بريطانيا أن تداري الحسين في سنواته الاخيرة ، وتراعي شيخوخته ــ لغرض الدعاية على الاقل . ولكنها لم تفعل . ودلت بذلك على أنها لا تعرف مصلحتها أحياناً !

الشعراء يهيمون :

أقيمت لتأبين الحسين حفلتان كبيرتان ، احداهما في القدس في ١٢ تموز ١٩٣١ ، والاخرى في الاعظمية في ١٤ آب . وقد ساهم في هاتين الحفلتين كثير من الشعراء والخطباء ، ففي الاولى ساهم أحمد شوقي وخليل مطران وشبلي ملاط وعبدالحميد الرافعي وشفيق جبري وفؤاد الخطيب ومحمد علي الحوماني ومصطفى الغلاييني وسليمان الظاهر وغيرهم . وفي الثانية ساهم معروف الرصافي ورضا الشبيبي وحبيب العبيدي وعبدالحسين الازري وكاظم الدجيلي وغيرهم . ولا حاجة بنا الى القول ان هؤلاء الشعراء لم يخرجوا في قصائدهم عن القوالب التقليدية في الرثاء حيث أصبحت الدنيا ــ حسب قولهم ــ في ظلام دامس ، وضاع العرب ،

---

(٢٨) نقلاً عن الكتاب المخطوط للسيد هبةالدين الشهرستاني .

وانهد ركن الاسلام ، وما شاكل ذلك • ولم يكن من فرق بينهم الا في صياغة الالفاظ والتفنن في الأخيلة •

كانت قصيدة الرصافي في حفله الاعظمية ملفتة للنظر لأنها جاءت على النقيض من قصيدته المشهورة التي نظمها في هجاء الحسين في عام ١٩١٦ على أثر اعلان الحسين ثورته على الاتراك • نعرض فيما يلي أبياتاً نموذجية من كلتا القصيدتين لكي يقارن القارىء بينهما • فقد ورد في قصيدة الرثاء الابيات التالية :

بدا وجه العروبة في حلوك — غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى متنازلاً بعد اعتلاء — كذاك الشمس تجنح للدلوك
قضى في المجد ليس بذي نظير — وفي العزمات ليس بذي شريك
وقد سلك الطريق الى المعالي — الى أن مات محمود السلوك
وجدد للعروبة عرش مجد — قديم كان كالعذق التريك
وأحدث نهضة في العرب هزت — جنوب الأرض كالريح السهوك
وأثبت بالسيوف لهم حقوقاً — مؤيدة بكل دم سفيك
قرين القبلتين عليك نبكي — وما بالدمع من طرف مسيك
فقدنا منك خير زعيم قوم — وخير نضيج تجربة حنيك
فقد ناح العراق عليك حزناً — وضج من الخليج الى دهوك
وناح المسجد الأقصى جميعاً — الى أرض الشآم الى تبوك
لقد نُزّهتَ من غمز ولمز — كما نُزّهتُ من شعر ركيك(٢٩)

أما قصيدة الهجاء التي نظمها الرصافي في عام ١٩١٦ فقد وردت فيها الأبيات التالية :

قد كنت أحسب أن اللؤم أجمعه
على الحسينين في مصر قد انقسما

(٢٩) مصطفى علي (ديوان الرصافي) ـ بغداد ـ ج١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٤ •

حتى بدت مخزيات اللوم مشركة
من الحجاز حسيناً ثالثاً بهما
لكنما ذاك قد أربت جريمته
عليهما فهو أخزى جارم جرما
فذان قد أخجل الاهرام بغيهما
وبغي هذاك أبكى البيت والحرما
هذا الذي منه تنشق السماء أسى
والارض ترتج حتى تقذف الحمما
فانت يا قدرة الله التي عظمت
خذي حسيناً بذنب منه قد عظما
وانت يا أرض مجّي نحوه ضرماً
ويا سماء عليه امطري نقما
بغى ففرق شملاً كان مجتمعاً
للمسلمين وشعباً كان ملتئما
قالوا الشريف ولو صحت شرافته
لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما
وكيف لا وهو الذي بانت خيانته
فصرحت عن طباع تخجل الكرما
لم تكفه في مجال البغي فتنته
حتى غدا بعدو الله معتصما
اذ راح بالانكليز اليوم ممتنعاً
فضاعف الشر فيما جر واجترما[30]

(٣٠) مصطفى علي (المصدر السابق) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ج٣ ص ٦٠ـ٦٢ .

الفصل الثامن

ابن سعود يعاني المشاكل

في الوقت الذي كان فيه الحسين يجتر همومه في قبرص كان خصمه ابن سعود يعاني مشاكل الحكم ، وهي المشاكل التي أقضّت مضجعه وأشقته كثيراً .

من طبيعة الانسان أنه يفضل أن يعاني المشاكل وهو في صعود على ان يكون خالياً منها وهو في توقف أو نزول . وهذا دليل على أن طبيعة الانسان حركية تميل الى الارتفاع ، وان السكون المريح لا يلائمها .

سنحاول في هذا الفصل استعراض بعض المشاكل التي واجهها ابن سعود في وضعه الجديد عقب احتلاله الحجاز ، وهي مشاكل قد يجد القارىء فيها دروساً اجتماعية غير قليلة .

مبايعة ابن سعود :

كان ابن سعود منذ بداية الحرب في الحجاز قد أعلن مراراً بأنه لا يطمع في ملك الحجاز بل سيجعل أمره شورى بين المسلمين ، وأنه سينزل على ما يقرره ذلك المؤتمر[1] .

وحين تم لابن سعود احتلال الحجاز كله وجد نفسه ملزماً بانجاز ما وعد به ، وكانت بعض الوفود الاسلامية قد بدأت تصل الى الحجاز تلبية للدعوة التي أرسلت اليها من قبل ، كان من بينها وفد يمثل جمعية الخلافة الاسلامية في الهند ، ووفود تمثل سوريا ولبنان وشمالي أفريقيا وجاوة وسومطرة . ولوحظ أن وفد الخلافة الاسلامية كان متحمساً لانشاء حكم جمهوري في الحجاز يشارك فيه المسلمون جميعا على أساس ان الحجاز

---

(١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ .

بلد يهم المسلمين كلهم ولا يجوز أن ينفرد بالحكم فيه فريق دون فريق •
وصار هذا الوفد يدعو لهذا الرأي ويسعى لتحقيقه •

شعر ابن سعود بأنه أصبح في ورطة لا يدري كيف يخرج منها •
وأخذ رجاله ينشطون لايجاد حل لها • وقد وجدوا الحل أخيراً ، حيث
تألفت لجنة من أعيان مكة وجدة ، وقررت هذه اللجنة مبايعة ابن سعود
ملكاً على الحجاز • وعرضوا الأمر على ابن سعود فوافق عليه ، ونشر هو
بياناً أعلن فيه الغاء المؤتمر الاسلامي الذي وعد به ، وذكر انه استجاب
لطلب أهل الحجاز في منح الحرية التي وعدهم بها لتقرير مصيرهم •

جرى الاحتفال بالبيعة عند باب الصفا في المسجد الحرام عقب صلاة الجمعة
في ٧ كانون الثاني ١٩٢٦ ، وتقدم عبدالله الدملوجي فتلا صيغة البيعة
وفحواها انهم يبايعون عظمة السلطان عبدالعزيز آل سعود ملكاً للحجاز
على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح
والأئمة الأربعة ، وأن أهله هم الذين يقومون بادارة شؤونه • فتقدم
الحاضرون يبايعون ابن سعود طبقة بعد طبقة ، وكانت المدافع تطلق طلقات
التحية المعتادة •

وبعد انتهاء البيعة سار ابن سعود نحو الكعبة ، فطاف حولها سبعاً ،
وصلى في المقام ، ثم انتقل الى سرادق كبير لاستقبال المهنئين • وقام
الخطباء يمجدون ابن سعود ، فقال أحدهم : « ما أعطاك الله هذا العطاء
يا عبدالعزيز الا لأنك سائر في مرضاته » • وقال آخر كلمة أخرى •
فتكلم ابن سعود وقال : « اسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا
كذا وكذا • فاعلموا ان ما من رجل ، مهما بلغ من المنازل العالية ، يستطيع
أن يكون له أثر وأن يقوم بعمل جيد اذا كان لا يخشى الله • واني
أحذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا ، واحثكم على
الصراحة والصدق في القول ، وعلى ترك الرياء والملق في الحديث • لم
يفسد المُلك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء المملقون وأعوانهم •••

اني أنصح لكم كما أنصح لنفسي وأولادي » • فهتف الحاضرون : « جزاك الله خيراً •• جزاك الله خيراً ! »[٢]

أثارت بيعة ابن سعود استياءاً في مصر والهند وبعض الاقطار الاسلامية الاخرى ، حيث عدوا ذلك نكثاً من ابن سعود بوعوده الكثيرة التي أعلنها من قبل في شأن المؤتمر الاسلامي والانصياع لقراراته • يقول حافظ وهبة في مذكراته : انه كان في مصر عند مبايعة ابن سعود وقد شعر بحرج عظيم حين بلغه الخبر ، فأبرق الى ابن سعود يطلب منه التفاصيل ، كما كتب اليه كتاباً قال فيه ما نصه : « ••• ان روتر اليوم نشر بأنكم ناديتم بأنفسكم ملكاً على الحجاز ، فان كان هذا الأمر صحيحاً فقد غشكم من أشار عليكم بذلك لأن هذه المسألة أثارت الرأي العام في الخارج ضدكم • هذا من جهة، ومن الجهةالاخرى أنه لاينطبق معالعهود التي قطعتموها على أنفسكم أمام العالم الاسلامي وملوك المسلمين في تشكيل حكومة الحجاز ، ولو تريثتم قليلاً لحين انعقاد المؤتمر الاسلامي وتقريره مصير البلاد لكان خيراً وأبقى ، والنتيجة كانت لكم على كل حال • ويظهر ان هناك ايدياً أثيمة حسنت في نظركم هذا الأمر حتى تقضي على فكرة المؤتمر الاسلامي وتقضي في الوقت نفسه على سمعتكم في الخارج ••• » • فكتب ابن سعود الى حافظ وهبة جواباً قال فيه ما معناه : انه انما قبل البيعة بهذه السرعة اضطراراً لأن أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد ليلزموه بذلك ، كما قامت قيامة أهل نجد ، وكلما طلب منهم التريث أبوا • وختم ابن سعود جوابه قائلاً : « فازاء هذا الموقف الحرج الذي يتوقف عليه أمن الحجاز الحاضر واستقرار الأمر فيه لم أجد بداً من تلبية البيعة متوكلاً على الله • واني لا أزال على عهدي من رعاية ما للمسلمين من الحقوق المشروعة في هذه الديار المقدسة »[٣] •

---

(٢) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٤٢٧ ـ ٤٣٠ •

(٣) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ •

أما في الهند فقد أعلنت بعض الجمعيات الاسلامية استنكارها لبيعة ابن سعود . وكان أشد تلك الجمعيات استنكاراً جمعية خدام الحرمين ، ويليها في ذلك جمعية الخلافة الاسلامية . وأعلن شوكت علي رئيس جمعية الخلافة استنكاره للبيعة وقال : لا يجوز لبضعة عشر حجازياً من أعداء الشريف حسين أن يقرروا مصير الحجاز الذي يجب أن يقرره العالم الاسلامي كله[٤] .

قررت كل من جمعية الخلافة وجمعية خدام الحرمين ارسال وفد منها الى الحجاز للتحقيق حول ما أشيع من هدم القبور المقدسة فيه . وقد وصل الوفدان الى جدة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٦ . فقوبلا فيها ببرود . واتخذ وفد جمعية خدام الحرمين موقفاً انتقادياً صلباً تجاه ابن سعود والاخوان ، وحاول ابن سعود مجاملتهم والتلطف معهم دون جدوى . انهم قدموا لابن سعود أسئلة في بعض الامور الدينية ، وكانت أجوبته غير مرضية أو مقنعة لهم . وطلبوا منه رجلاً للمناظرة معه ، كما طلبوا منه شخصياً أن يصلي أمامهم خلف امام من أحد المذاهب الأربعة لكي تزول شكوكهم حوله . فلم يلب ابن سعود طلبهم[٥] .

نفد صبر ابن سعود أخيراً من هذا الموقف الانتقادي الشديد الذي اتخذه الوفد ، فأمر باخراجه من الحجاز بدعوى أنه من دعاة الفتنة . وفي ٣ آذار ١٩٢٦ ، غادر الوفد جدة متوجهاً الى مصر[٦] .

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٢٦ عُقد مؤتمر اسلامي في لكنو في الهند تحت اشراف جمعية خدام الحرمين ، واتخذ قرارات مضادة لابن سعود كما أوصى بعدم تشجيع الحج ما دام الحكم الوهابي قائماً في الحجاز . وقد هاجمت جريدة « أم القرى » هذا المؤتمر وانتقدت قراراته ، ووصفت

---

(٤) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ١٧ شباط ١٩٢٦ .
(٥) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٢٦ .
(٦) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٢٦ .

جمعية خدام الحرمين بأنها جمعية أعداء الحرمين(٧) .

المجتمع الجديد :

يتميز العهد الجديد في الحجاز عن العهد الهاشمي البائد بأمور كثيرة نذكر أهمها فيما يلي :

اولاً : هبوط مكانة الاشراف بحيث صاروا لا يتميزون عن غيرهم بشيء ، وربما عمد بعض العامة الى اهانتهم انتقاماً لما سلف منهم . يروي حافظ وهبة قصة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن أحد الاشراف أعطى ناظوراً له الى رجل ساعاتي في مكة لاصلاحه ، ثم ادعى بعدئذ ان الساعاتي لم يصلح الناظور طبق الشرط ، وأقام عليه الدعوى لدى قاضي مكة . ولما جرت المحاكمة كان حاكم مكة خالد بن لؤي حاضراً فيها ، وأراد الشريف ان يجلس الى جانبه فانتهره القاضي وأمره أن يقف أمامه مع خصمه . وقال الساعاتي يخاطب خصمه : « ان وقوفي معك جنباً الى جنب أمام القاضي يساوي عندي الدنيا وما فيها . لقد مضى وقت الظلم ، فلقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجرة ، بل لايتنازلون أن يكلمونا ، بل كانوا يضربوننا في بعض الأحيان ، الحمد لله » . فعلق القاضي على هذا الكلام قائلاً : « ان الناس جميعاً أمام الشرع سواء ، وان الاشراف أولى الناس باتباع جدهم سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقول : يافاطمة بنت محمد اني لا أملك لك من الله شيئاً . والله يقول : ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ويقول : فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . وحين كان القاضي يتكلم كان الاخوان الواقفون قريباً منه يؤمنون على كلامه ويسمعون الشريف همساً ما يكره من قوارص الكلم ...(٨) .

---

(٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٤٢) .

(٨) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ ص ١٠٥ــ١٠٦ .

ثانياً : زوال عادة السرقة وقطع الطريق التي كانت شائعة في العهد البائد • ففي أواخر نيسان ١٩٢٦ ألقي القبض في جدة على لص فقطعت احدى يديه طبقاً لحكم الشرع ، ثم غمست في الدهن المغلي ، وطيف بـه بعدئذ في الاسواق ليكون عبرة لغيره[٩] • وفي أحد الايام اعترضت احدى القبائل البدوية قافلة للحجاج فنهبتها وقتلت بعض أفرادها ، فأرسل اليها ابن سعود قوة أحاطت بمقر القبيلة وقتلت كل رجل فيها • وقد استغرب أحد القناصل من هذه القسوة وأبدى استغرابه لابن سعود ، فقال لـه ابن سعود : ان هذه ليست قسوة بل هي رحمة ، فهي الطريقة الوحيدة لمعاملة البدو ، اذ هي ستشيع أخبارها بين القبائل البدوية وسوف يمتنعون عن نهب القوافل بعدئذ[١٠] •

ثالثاً : تشدد الاخوان تجـاه من يخالف السنة في نظرهم كالتدخين أو زيارة القبور والاماكن المقدسة • ففي شهر شباط ١٩٢٦ ذهب أربعـة افغانيين لزيارة غار حراء ، وبينما كانوا يصلون عنده لمحهم بعض الاخوان ورموهم بالرصاص ، فاصيب اثنان منهم بجروح بسيطة • وفي شهر شباط نفسه حدث حادث آخر كان مثيراً خلاصته : ان سائقاً مصرياً كان جالساً في مقهى بالقرب من الكعبة وهو يدخن ، فاقترب منه رجل من الاخوان واختطف السيكارة من فمه وضربه بالعصا • فغضب السائق ونهض واقفاً وانهال على الرجل بلكمات أصابت احداها عينه • وتبين بعدئذ ان هذا الرجل من آل الشيخ أي من سلالة مؤسس المذهب الوهابي ، فسيق السائق الى القاضي فأمر القاضي بجلده ، وقد مات السائق تحت الجلد[١١] •

وفي شهر نيسان ١٩٢٦ عندما اشتط الاخوان في نشاطهم ضـد مـن يخالف السنة في نظرهم اضطر ابن سعود الى اصدار تعليمات لتحديـد

---

(٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ــ١١٤٤٢) •

(10) David Hawarth (The Desert King) - London 1964 - P. 148.

(١١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ــ١١٤٤٢) •

المخالفات وتعيين عقوبة لكل منها . وقد نشرت جريدة « أم القرى » تلك التعليمات ، وهي كما يلي :

(١) كل من لا يحضر صلاة الجماعة عن قصد يُعاقب بالسجن من يوم واحد الى عشرة أيام مع الغرامة .

(٢) كل من يشرب الخمرة يُعاقب طبقاً لحكم الشرع ، ثم يُسجن من شهر الى ستة أشهر مع الغرامة ، واذا عاد الى ذلك مرة أخرى يُنفى من البلد الحرام سنتين .

(٣) كل من يصنع الخمر أو يبيعه أو يهيىء محلاً لشربه يُسجن من ستة أشهر الى سنتين ، كما يُصادر محله . واذا عاد الى ذلك مرة أخرى يُنفى من البلد الحرام من سنتين الى ثلاث سنين .

(٤) ان التدخين أمر سيء ومضر للبدن والمال والعقل ، وقد حرمه بعض العلماء ، ولهذا وجب تطهير الاماكن المقدسة من هذا الشر . فكل من يُدخن علانية يُسجن من يوم واحد الى ثلاثة أيام مع الغرامة .

(٥) كل من يشارك في اجتماع لغرض ترويج الاشاعات الكاذبة ، أو التآمر ضد سياسة الحكومة ، يُسجن من سنتين الى خمس سنين ، أو يُنفى من الحجاز .

(٦) كل من يساعد على اخفاء المجرمين المذكورين في المادة السابقة يُعتبر مثلهم ويعاقب مثل عقوبتهم .

(٧) كل من يشارك في اجتماع مخالف للشرع يُسجن من ثلاثة الى ستة أشهر مع الغرامة .

(٨) كل اجتماع مقصود به الفائدة يجب أن تُخبر به الحكومة وبموضعه للحصول على الاذن منها .

(٩) ان الموظفين المعنيين يجب أن ينفذوا هذه المواد باهتمام بالغ ، ومن يهمل منهم يُعاقب بشدة[١٢] .

---

(١٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٤٢) .

هدم قبور البقيع :

كان البقيع مقبرة المدينة في عهد النبي وما بعده ، ولهذا دُفن فيه العباس عم النبي ، والخليفة عثمان ، وزوجات النبي ، والكثير من الصحابة والتابعين ، كما دُفن فيه أربعة من أئمة أهل البيت هم : الحسن بن علي ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وقد صنع الشيعة لقبور هؤلاء الاربعة ضريحاً باهراً يشبه الاضرحة المعروفة في العراق وايران ، لكن على نطاق أصغر • واعتاد الشيعة أن يزوروا هذا الضريح فيقبلونه ويتبركون به ويصلون عنده على نحو ما يفعلون في أضرحة العراق وايران •

ظلت هذه القبور سليمة في العهد السعودي اكثر من أربعة أشهر دون أن يمسها أحد بسوء ، وقد بدأ التذمر ينتشر بين الاخوان من جراء ذلك ، وصاروا ينتقدون ابن سعود ويتهمونه بالتساهل في تنفيذ أوامر الله[١٣] • فاضطر ابن سعود في أواسط نيسان ١٩٢٦ الى ارسال كبير علماء نجد الشيخ عبدالله بن بليهد الى المدينة للعمل على هدم القبور • وعندما وصل ابن بليهد الى المدينة اجتمع بعلمائها ووجه اليهم الاستفتاء التالي :

« ما قول علماء المدينة زادهم الله فهماً وعلماً في البناء على القبور واتخاذها مساجد ، هل هو جائز أم لا ؟ واذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهياً شديداً ، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟ واذا كان البناء في مسبلة كالبقيع وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليها ، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا ؟ وما يفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع الله والتقرب بالذبح والنذر لها وايقاد السرج عليها ، هل هو جائز أم لا ؟ وما يُفعل عند حجرة النبي (ص) من التوجه اليها عند الدعاء وغيره والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها ، وكذلك ما يُفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين

(١٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٤٢) •

الأذان والاقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة ، هل هو مشروع أم لا ؟ أفتونا مأجورين وبينوا لنا الادلة المستند اليها لا زلتم ملجأً للمستفيدين » .

وافق سبعة عشر رجلاً من الحاضرين على وجوب هدم القبور ، وكتبوا في ذلك فتواهم ووقعوا عليها . وهذا هو نص الفتوى :

« أما البناء على القبور فهو ممنوع اجماعاً لصحة الاحاديث الواردة في منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه مستندين على ذلك بحديث عليّ انه قال لأبي الهياج : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ص) أن لا تدع تمثالاً الاّ طمسته ولا قبراً مشرفاً الاّ سويته » ، رواه مسلم . وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها وايقاد السرج عليها فممنوع لحديث ابن عباس : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » ، رواه أهل السنن . وأما ما يفعله الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب اليها بالذبائح والنذور ودعاء أهلها مع الله فهو حرام ممنوع شرعاً لا يجوز فعله أصلاً . وأما التوجه الى حجرة النبي (ص) عند الدعاء فالأولى منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب ولأن أفضل الجهات جهة القبلة . واما الطواف والتمسح بها وتقبيلها فهو ممنوع مطلقاً . وأما ما يُفعل من التذكير والترحيم والتسليم في الاوقات المذكورة فهو محدث . هذا ما وصل اليه علمنا »[١٤] .

وعلى أثر صدور هذه الفتوى شُرع بهدم قبور البقيع . فأحدث هدمها ضجة في أقطار العالم الاسلامي . وكانت الضجة في الاقطار الشيعية أشد مما في غيرها طبعاً .

صدى الحادث في العراق :

وصلت الى أحد علماء الشيعة في العراق رسالة من رجل شيعي كان في المدينة عند هدم القبور ، وهي مؤرخة في ٨ شوال ١٣٤٤ هـ ، الموافق ليوم ٢١ نيسان ١٩٢٦ ، كان هذا نصها :

(١٤) محسن الأمين (كشف الارتياب) ـ ط ٣ ـ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

« أعرض لكم انّ جميع البلاد الحجازيه مقهورة تحت سيطرة ابن سعود وحكمه المطلق فيها ، ولا يوجد في هذه البلاد من أقصاها الى أدناها فرد واحد سواء من سكان المدن او البوادي بسعه أن يقف دون أوامره وارادته النافذة • ومنذ أيام ورد المدينة قاضي قضاة الوهابيين ـ يقصد الشيخ عبدالله بن بليهد ـ وبينما كان مجلسه غاصاً بعلمائها صرح أمامهم بتحريم زيارة القبور وانها بدعة في الدين وشرك بالله وأنه يلزم تحصيل الاتفاق من جميع علماء المذاهب الاربعة على تخريبها تماماً ومحو آخر أثر من آثارها على وجه الارض • ونظراً لذلك فقد منعت زيارة جميع المراقد المطهرة وأُغلقت أبوابها • ومند عشرين يوماً لم نجرأ على قصد هذه المشاهد المشرفة وزيارتها ، اذ أن جنود الوهابيين (الاخوان) قد رصدوا الحرم المطهر النبوي ومنعوا أي زائر من التشرف بزيارة سيدة نساء العالمين عليها السلام ومن التقرب الى ضريح رسول الله (صلعم) • ثم ان قاضي قضاة الوهابيين لم يتمكن من تحصيل الاتفاق المطلوب من علماء المدينة الا بعد أيام اذ استعمل معهم الوسائل الاخرى المخوفة من القوة ، والبعض الآخر وافق ابتداءاً ، فحكموا جميعا طبق رغبته بتحريم زيارة القبور مطلقاً والتمسح بها الى الله والاستشفاع بها اليه وتلاوة الزيارة فيها • ثم صدر الأمر بهدم وتخريب المراقد الشريفة ، فشرع الجند أولاً بنهب جميع ما تحتويه تلك البنايات المقدسة في البقيع من الفرش والستائر والمعلقات والسرج وغير ذلك • ثم بدأوا يخربون تلك المشاهد المقدسة وفرضوا على جميع بنائي المدينة الاشتراك في التخريب والتهديم • والغرض الآن أن يقف على خبر هذه الفاجعة جميع المؤمنين الذين يأملون بواسطة هؤلاء الائمة الطاهرين الشفاعة والزلفى من الله تعالى ، ويشتركوا جميعاً سواء العربي والفارسي والهندي والتركي ، فيضج كل منهم الى حكومته للتدخل في رفع هذه الغائلة العظمى وتدارك ما وقع • اليوم وهو ثامن شوال وقع التخريب والهدم في القبة المقدسة في البقيع ، ولا حول ولا قوة

الا بالله العلي العظيم • يلزم عليكم أن تبادروا الى اخبار علماء العراق جميعاً بهذه الحادثة الفجيعة »[١٥] •

وفي الوقت نفسه بدأت البرقيات ترد تباعاً الى علماء الشيعة في العراق، ننقل فيما يلي البرقية التي وصلت الى السيد حسن الصدر في الكاظمية وهي : « عظم الله أجوركم في مصيبة الرسول وأهل بيته • الوهابيون خربوا القبور المقدسة » •

قرر علماء الشيعة على أثر تلقيهم هذه الاخبار اعلان الحزن واظهار الحداد وترك التدريس واقامة صلاة الجماعة • وعُقد في صحن الكاظمية اجتماع حضره جمهور كبير من الناس ، وتُليت فيه البرقيات والرسائل الواردة في هذا الشأن ، كما نظمت البرقيات التي تقرر ارسالها الى ملوك وعلماء العالم الاسلامي في أقطارهم المختلفة • وجرى مثل ذلك في كربلا والنجف • ننقل فيما يلي نص البرقية التي أبرقها علماء النجف الى رضا شاه في طهران :

« حسب الأنباء الموثوقة ان الوهابية بعد نهبهم حرم أئمة البقيع حكم قاضي القضاة بهدم وتخريب البقيع الشريف بما فيه من القباب والضرائح المقدسة • وقد بوشر بالعمل في الثامن من شوال • ومن المتيقن ان حفظ نواميس الدين الاسلامي بوجه عام والمذهب الجعفري على الاخص في ذمة الملك الجعفري • وآمال العموم معقودة ومقصورة على غيرة وحمية جلالتكم • ونحن منتظرون بفارغ الصبر قيامكم باكبر الواجبات في أسرع وقت ان شاء الله »[١٦] •

وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب أعماله • فقد كتبت جريدة « العراق » في مقالة افتتاحية لها تقول : « قضي الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة فقام باكبر خدمة لسيده ابن سعود ولم يعلم بأن مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الاسلامي فآلمه أيما

(١٥) جريدة (العراق) — في عددها الصادر في ٢٥ أيار ١٩٢٦ •
(١٦) مجلة (المرشد) — في عددها الصادر في حزيران ١٩٢٦ •

ألم »[١٧] • كما نشرت مقالة أخرى بقلم اسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها « الطاغية الكبرى والاماكن المقدسة في الحجاز » ورد فيها ما نصه : « ايها المسلمون ما هذا السبات وما هذا الجمود الذي أدى بكم الى السكون والى عدمالاكتراث بهذه القضايا المؤلمة والادوار المخزية التي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة ••• »[١٨] •

وفي ٤ حزيران ١٩٢٦ نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلاني نقيب أشراف بغداد أعلن فيه السيد محمود انتقاده لما قام به الوهابيون من هدم قبور البقيع ، وذكر أن بناء القبب على القبور ليس مخالفاً للسنة النبوية لأن النبي نفسه دُفن في حجرة عائشة وهي حجرة ذات جدران وسقف كالقبة • وذكر أيضاً أن تقبيل الاضرحة هو من باب تقبيل المحبوب وهو أمر غير ممنوع في الاسلام •

ونشرت «العراق» بعدئذ ثلاثة أبيات من الشعر طالبة من الشعراء تشطيرها وتخميسها ، وهي :

لعمري ان فاجعة البقيع
يشيب لهولها فود الرضيع
وسوف تكون فاتحة الرزايا
اذا لم نصح من هذا الهجوع
فهل من مسلم لله يرعى
حقوق نبيه الهادي الشفيع

وقد شارك في تشطير هذه الابيات وتخميسها عدد من الشعراء كان من بينهم مصطفى جواد واسماعيل آل ياسين وكمال نصرت وعبدالمهدي الازري ومسلم متفجع من الكاظمية[١٩] •

---

(١٧) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٧ أيار ١٩٢٦ •
(١٨) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٩ أيار ١٩٢٦ •
(١٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢ ايلول ١٩٢٦ ، وعددها الصادر في ١٦ ايلول ١٩٢٦ •

حل شهر محرم عامذاك في ١٢ تموز ، فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيات المواكب الحسينية تدور في معظمها حول « فاجعه » البقيع ، وتناشد الامام الغائب للظهور للانتقام من ابن سعود •

ومن الجدير بالذكر أن يوم ٨ شوال ـ وهو اليوم الذي هُدمت فيه قبور البقيع ـ أصبح يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلا ، حيث تُغلق فيه الاسواق وتخرج مواكب اللطم ، على نحو ما اعتادوا عليه في وفيات الائمة • ويقال ان أهل كربلا ظلوا مستمرين على ذلك بضع سنوات ، وقد أطلقوا على الثامن من شوال اسم « وفاة البقيع » •

ما زال الشيعة حتى الآن يأملون أن تسنح لهم الفرصة لكي يعيدوا بناء قبور البقيع • ولو أتيحت لهم الفرصة لبنوها خيراً مما كانت أضعافاً • حدثني أحد الثقات ان شيعة البهرة في الهند جمعوا الاموال الوفيرة ووضعوا التصاميم لاعادة بناء القبور • وأذكر أني عند زيارتي لجامع الشيعة الاثنى عشرية في كراجي عام ١٩٥٨ شاهدت فيه ضريحاً ذهبياً ثميناً • وحين سألت عنه قيل لي انه ضريح قبور البقيع ، وقد صُنع من تبرعات الشيعة في باكستان والهند بانتظار السماح له بنقله الى المدينة عندما تتاح الفرصة • ولست أدري متى سوف تُتاح هذه الفرصة ؟

في موسم الحج :

في شهر حزيران ١٩٢٦ حل أول موسم للحج في العهد السعودي ، وقد جاء الى الحجاز فيه حجاج كثيرون يقرب عددهم من عدد الذين حجوا في الموسم الأسبق • وقد أدى ذلك الى اصطدامات ومشاحنات كثيرة بين الحجاج والاخوان • فالحجاج كانوا يريدون القيام بشعائرهم حسب عاداتهم القديمة بينما كان الاخوان يعدّون ذلك مخالفاً للسنة ويقاومونه •

كان ابن سعود قد عين حافظ وهبة نائباً عنه في ادارة شؤون مكة للحد من غلواء الاخوان • ويقول حافظ وهبة في كتابه : ان الاخوان كانوا قساة في معاملتهم لمن يرتكب في نظرهم معصية أو يخالف أمراً من

أوامر الله ، اذ كان كل واحد منهم يعتبر نفسه حاكماً تجاه ذلك ، وكانت العصا تعمل عملها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويروي حافظ وهبة : انه في يوم من أواخر شهر ذي القعدة في عام ١٩٢٦ بينما كان في دار الحكومة في مكة حضر الى الدار قنصل مصر ونائب قنصل الهند ونائب قنصل هولندا ومعهم نحو عشرة من الحجاج والدماء تسيل منهم بسبب اعتداء الاخوان عليهم ، فوعدهم حافظ بمعالجة الموضوع واكد لهم أن مثل هذه الأمور لا يخلو منها بلد في العالم ، ولكنهم احتجوا بأن هذا التعدي كان باسم الدين وبتأييد الحكومة وأنه حدث على مرأى من رجال الشرطة ، فأكد لهم حافظ أن الحكومة لا علم لها بأمثال هذه الحوادث وأنها لا تقر هذا التعدي . ويقول حافظ وهبة : انه ذهب الى ابن سعود ليشرح له خطورة الأمر وما سوف تؤدي اليه أعمال الاخوان من الفوضى. فلم يهتم ابن سعود بكلامه مما اضطره الى الاستقالة من منصبه . وقد أدرك ابن سعود فيما بعد مبلغ تطرف الاخوان فكلف رجال حرسه لتأديب الاخوان ، وعين قاضياً للنظر في المشاكل التي تنتج عنهم[٢٠] .

كانت حادثة المحمل المصري أهم ما حدث في ذلك الموسم من نزاع بين الاخوان والحجاج ، وهي كادت تؤدي الى مذبحة عامة . وخلاصة الحادثة : أن الحكومة المصرية اعتادت منذ زمن بعيد أن ترسل في كل موسم محملاً يدعى « المحمل النبوي » ومعه جنود ومدافع وموسيقى عسكرية وقائد يدعى « أمير الحج » . وتلك أمور يستنكرها الاخوان استنكاراً شديداً ، اذ هم يعتبرون المحمل وثنا يُعبد من دون الله ، كما يسمون البوق الذي يتقدمه بـ « صوت الشيطان » .

ولما اقترب موسم الحج في عام ١٩٢٦ كتبت الحكومة السعودية الى الحكومة المصرية تطلب منها الالتزام بثلاثة شروط عند مجيء المحمل والحجاج الى الحجاز ، وهي : (١) عدم مصاحبة الموسيقى للمحمل بعد

(٢٠) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .

جدة ، (٢) عدم التدخين ، (٣) عدم زيارة القبور والطواف حولها • فكتبت الحكومة المصرية الى شيخ الازهر ومفتي الديار المصريه تستفتيهما في ذلك ، فأفتى هذان الرجلان بأن الامور الثلاثة التي ذكرتها الحكومة السعودية ليست مخالفة للكتاب والسنة ، وذكرا الادلة الشرعية التي تؤيد فتواهما[٢١] •

ظهرت أولى بوادر الأزمه عند وصول المحمل الى ساحة الحرم في مكة • فقد أُنزل المحمل في الساحة وجاء اليه بعض الحجاج يتبركون به • فثارت ثائرة الاخوان • فأرسل ابن سعود الى أمير الحج محمود عزمي باشا يرجوه أن يُدخل المحمل في موضع محجوب تجنباً للفتنة ، فلبى الباشا الرجاء بعد الالحاح الشديد من قبل بعض الوسطاء •

وفي عصر ٨ ذي الحجة ١٣٤٤ هـ ، الموافق ليوم ١٩ حزيران ١٩٢٦م، خرج المحمل من مكة متوجهاً الى جبل عرفات ، وفي الساعة السابعةوالنصف من مساء ذلك اليوم حين توقف المحمل بالقرب من منى اقترب منه جمع من الاخوان وأخذوا يسبونه صارخين : « هبل ، هبل » ، وقذفوه بالحصى والاحجار • فأمر محمود عزمي باشا جنوده بالاصطفاف العسكري ، وطلب من الاخوان التفرق ، فلم يأبهوا له • فأمر الباشا جنوده باطلاق القنابل والرصاص في الهواء ارهاباً للاخوان ، فلم يؤثر ذلك فيهم • وقيل ان الاخوان أطلقوا الرصاص على جنوده[٢٢] • وعند هذا أمر الباشا باطلاق القنابل والرصاص على الاخوان مباشرة ، فسقط منهم خمسة وعشرون قتيلاً وعدداً أكبر من الجرحى[٢٣] •

كان قد حج في ذلك العام نحو ستين ألف شخص من نجد ، وكانوا قد خيموا في منى • وحين بلغ هؤلاء ما حل باخوانهم هرعوا الى موضع

---

(٢١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ٢ـ١١٤٤٢) •

(٢٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) •

(23) Armstrong (Lord of Arabia) - London 1938 - P. 193.

الحادثه وهم يحملون بنادقهم • وبلغ ذلك ابن سعود ، وكان مخيماً بالقرب من الموضع ، فجاء يعدو ، ثم وقف بين الفريقين وهو ينادي فيهم : « أنـا عبدالعزيز ! أنا عبدالعزيز ! » • فتوقف اطلاق النار • وأمر ابن سعود جنوده باخفاء المحمل وحمايته ، ثم أرسله بعدئذ الى جدة بحراسة جنود سعوديين تحت قيادة الأمير مشاري بن سعود بن جلوي[٢٤] •

ويروي أرمسترونج : ان ابن سعود اقترب عقب الحادثة من أمير الحج المصري محمود عزمي باشا ، وأخذ يعنّفه على ما فعل ، فرد عليه الباشا قائلاً مع شيء من الزهو والعجرفة : « احتراماً لجلالتكم توقفت عن الضرب ، ولولا ذلك لأفنيت هؤلاء الغوغاء كلهم » • فسيطر ابن سعود على أعصابه وقال له : « ليس هذا وقت التفاخر ، فهنا مكان مقدس أمر الله أن لا يُقتل فيه أحـد ، وأنتم ضيوفنا وتحت حمايتنا ، ولولا ذلـك لعاقبتـك »[٢٥] •

حين وصل الخبر الى الملك فؤاد ، ملك مصر ، اشتد غضبه ، وأمر بالانقطاع عن ارسال كسوة الكعبة التي اعتادت مصر ارسالها في كل عام ، كما أمر بالانقطاع عن ارسال المال الى الحجاز من ريع اوقاف الحرمـين في مصر • وفي ١٣ أيار ١٩٢٧ ـ عندما اقترب موسم الحج التالي ـ نشرت جريدة « الاهرام » المصرية بلاغاً رسمياً ورد فيه : ان الحكومة المصرية قررت العدول عن ارسال المحمل في هذا العام وهي تعلن للحجاج المصريين بأنهم قد يستهدفون لبعض المخاطر عند سفرهم الى الحجاز ، وانها غير مسؤولة عن حمايتهم ، فاذا أرادوا السفر كان ذلك على مسؤوليتهم •

ظلت الحكومة المصرية تتبع هذه السياسة تجاه الحج حتى آخر أيام الملك فؤاد • ويُروى أن الملك فؤاد عندما كان على فراش الموت في عام ١٩٣٦ دخل عليه رئيس ديوانه علي ماهر باشا وقال له : « ألا تجعل في

---

(٢٤) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهـد الملك عبدالعزيز) ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ج ٢ ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤ •

(25) Armstrong (op. cit.) - P. 193

صحيفة عمالك الدخول في مفاوضة مع بلاد الحرمين الشريفين ؟ » • فأشار الملك بما معناه : « لا بأس » •

عادت العلاقات الودية بين مصر والمملكة السعودية بعد موت الملك فؤاد ، وسُمح للمصريين بالحج ، كما عاد ارسال الكسوة الى الكعبة في كل عام • غير أن المحمل ظل ممنوعاً من الدخول الى الحجاز • وصار المصريون يحتفلون بالمحمل في كل سنة لكنهم لا يتجاوزون به مدينة السويس[٢٦] •

عقد المؤتمر الاسلامي :

كانت الرسائل والبرقيات ترد الى ابن سعود من الهند وغيرها تطالبه بعقد المؤتمر الاسلامي الذي وعد به من قبل • وكان حافظ وهبة من جانبه يكرر الحاحه على ابن سعود في سبيل ذلك • وقد وافق ابن سعود أخيراً على عقد المؤتمر بشرط أن لا يتعرض المؤتمر لموضوع نظام الحكم في الحجاز • وفي ٢٦ اذار ١٩٢٦ وجهت الدعوة الى جميع الهيئات والحكومات الاسلامية لحضور المؤتمر الذي سيعقد في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ الموافق ليوم ٢ حزيران ١٩٢٦ •

استجاب للدعوة ممثلون من مختلف الاقطار الاسلامية ما عدا ايران والعراق • ووصل الأخوان محمد علي وشوكت علي لتمثيل جمعية الخلافة الاسلامية ، كما وصل ضياءالدين بن فريدالدين لتمثيل مسلمي الاتحاد السوفياتي • وكان يمثل الجانب السعودي فيه أربعة هم : حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبدالعزيز العتيقي وعبدالله بن بليهد كبير علماء نجد •

جرى افتتاح المؤتمر في مكة في ٧ حزيران • وألقى حافظ وهبة خطبة الافتتاح بالنيابة عن ابن سعود • وقد تضمنت الخطبة الاسباب التي حدت بابن سعود لقبول البيعة بملك الحجاز ، وخلاصتها : ان أهل الحل والعقد في الحجاز ونجد اضطروه الى ذلك ، وهو قد رفض طلبهم في أول الأمر

(٢٦) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) — ج ٢ ص ٦٦٩ •

ثم وافق استجابة لحكم الشرع « لأننا آل سعود لسنا ملوكاً مستبدين ، ولا حكاماً شخصيين ، بل نحن في بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ورأي أهل الحل والعقد ••• واذا أنا خالفتهم بغير حجه شرعية يقبلونها فانهم لا يطيعونني ، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى • وقد بايعني جمهور الحضر ورؤساء قبائل البادية وهؤلاء يُعدّون من أهل الحل والعقد لأن قبائلهم تتبعهم سلماً وحرباً • » • ثم طلب ابن سعود من الحاضرين في المؤتمر أن يتشاوروا في مصالح الحجاز الدينية والعمرانية ، وفي تطهيره من البدع والخرافات والفواحش والمنكرات التي كانت فاشية فيه بدون نكير ، ثم قال لهم : ان لهم الحرية المطلقة فيما يتناقشون فيه الا في أمرين يجب أن يبتعدوا عنهما أحدهما : الخوض في السياسة الدولية ، والثاني : ما بين بعض الشعوب الاسلامية وحكوماتها من خلاف ، فان هذا من المصالح الموضعية الخاصة بتلك الشعوب • وختم ابن سعود الخطبة قائلاً : « ان المسلمين قد أهلكهم التفرق في المذاهب والمشارب ، فائتمروا في التأليف بينهم والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة ، وعدم جعل اختلاف المذاهب والاجناس سبباً للعداوة بينهم ••• »(٢٧) •

استمرت جلسات المؤتمر عشرة أيام • وفي ١٧ حزيران تأجلت جلساته لاتاحة الفرصة للوفود للقيام بشعائر الحج • وفي أثناء ذلك وصل الى مكة وفدا مصر وتركيا ، فاستؤنفت جلسات المؤتمر من جديد في ٢٢ منه ، وقد شهدت الجلسات الاخيرة مجادلات حادة ومشاجرات قام الوفد المصري بالدور الاول فيها •

نشاط الوفد المصري في المؤتمر :

كانت الحكومة المصرية قد تجاهلت دعوة المؤتمر في بداية الأمر ، وذلك حينما كانت وزارة زيور باشا في الحكم ، فلما سقطت تلك الوزارة وتشكلت وزارة جديدة برئاسة عدلي باشا تقرر ارسال وفد يمثل مصر في المؤتمر • فتألف الوفد من الشيخ محمد الظواهري رئيساً ومن محمد

(٢٧) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ ص ١٤٠ـ١٤٤ •

المسيري بك ومحمد توفيق بك عضوين • وقد وجد الوفد مشكلة في الوصول الى مكة لتأخر الوقت وسفر جميع بواخر الحجاج ، فأوعز عدلي باشا باعداد باخرة الحكومة المصرية « عائدة » لنقل الوفد الى الحجاز بالسرعة الممكنة • وقد تمكن الوفد من الوصول الى مكة والاشتراك في الجلسات الاخيرة للمؤتمر ـ كما ذكرناه آنفاً •

يبدو ان الشيخ محمد الظواهري رئيس الوفد المصري انما أرسل الى المؤتمر لغرض معين هو انتقاد تطرف الوهابيين وشجب أعمالهم ، ولذا رأيناه يأتي الى المؤتمر وهو مشحون بالادلة النقلية والعقلية التي تناقض أدلة الوهابيين • فكان أول عمل قام به في المؤتمر هو أنه قدم اقتراحاً مكتوباً وطلب من الوفود تأييده ، وهذا نصه :

« نظراً الى أن الحجاز الشريف مركز ديني عام لأهل القبلة جميعاً يفد عليه المسلمون من كل فج على اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية ليعبدوا ربهم وليقضوا مناسكهم ، يقرر المؤتمر أن يُمكّنوا جميعاً من أن يؤدوا عباداتهم ومناسكهم وفق مذاهبهم المذكورة وأن لا يُمنعوا الا ما يمس كرامة أحد من الأحياء او الأموات او يخالف الاجماع المعتبر عند علماء أصول الفقه ، ويقرر أن الحكم بأن ما يأتي به الحاج موافق للمذهب الذي ينتسب اليه أو غير موافق انما يكون لعلماء ذلك المذهب لا لغيرهم »•

وقد ألقى الشيخ الظواهري كلمة ارتجالية حث بها الوفود على قبول قراره ، حيث قال : « ••• سأقول بصراحة وأرجو أن لا يتألم أحد • كم قال القائلون ان النجديين يكفرونكم في كذا وكذا ، وقد جئنا لنتبين الأمور ولنتآلف ولنتصافى ••• لقد رأيت بعيني هنا أمراً آلم نفسي • فقد كنت بالحرم أمر خلف المقام بعد الطواف فشاهدت جماعة يلتفون حول شخص مصري ويقولون له بعنف شديد وقسوة : « أأنت قلت يا رسول الله » • هنا خاف الشخص في نفسه وأنكر وانكمش وذعر الى درجة أفاضت عيني • وقد جاءني بعد ذلك ومعه كثيرون من المصريين يقولون لي : « أرأيت كيف ينكرون علينا » ، فهدأت روع من جاءني وقلت لهم :

« اطمئنوا ولا تفزعوا واصبروا حتى يتبين الحق انما الهدى هدى الله » .
هذا ايها السادة بعض ما يدعونني الى اقرار هذا الاقتراح الذي أطلب الموافقة عليه . أناشدكم الله ورسوله . واذا قلت « رسوله » فأرجو أن لا يعترض عليّ معترض ، فان هذا اعتقادي الذي أدين الله عليه . أناشدكم الله ورسوله أن تعملوا بالتسامح وسعة الصدر وعسانا نقضي على أسباب هذه الخلافات التي أضرت بالمسلمين ضرراً بليغاً » .

ناقش المؤتمر اقتراح الظواهري ، وبعد مجادلات حوله وافق عليه مما أدى الى امتعاض ابن سعود وحاشيته ، وقد حدا ذلك بابن سعود الى القاء خطاب أوضح فيه موقفه حيث قال : « ... لا أريد أن أتدخل في أعمالكم ولا أقيد حرية المؤتمر في البحث كما وعدت بذلك في خطبة الافتتاح ، ولكني أريد أن ألفت نظركم الى بعض الأمور بصفتي زعيماً من زعماء الاسلام الذين أُلقيت اليهم مقاليد أمور هذه البلاد ... اني لا أريد علواً في الأرض ولا فساداً ، ولكن أريد الرجوع بالمسلمين الى عهدهم الاول عهد السعادة والقوة ، عهد الصحابة ومن تبعهم باحسان ... اننا لا نكره أحداً على اعتناق مذهب معين او السير في طريق معين في الدين ، فذلك موكول أمره لعلماء الدين وحملة الشريعة . ولكني لا أقبل بحال من الاحوال التظاهر بالبدع والخرافات التي لا يعتبرها الشرع وتأباها الفطرة السليمة . لا يُسأل أحد عن مذهبه وعقيدته ، ولكن لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف اجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء بين المسلمين ، وخير لنا أن ننظر الى صالح المسلمين ونترك هذه الامور الجزئية للعلماء فهم أحرص منا على ذلك ... » .

كتب الشيخ الظواهري مذكرة في الرد على خطاب ابن سعود ، وهي مذكرة طويلة ، ننقل فيما يلي بعض المقتطفات منها :

(١) أعرب جلالة الملك عن رغبته في ترك المسائل الدينية للعلماء ، ولكن هذا غير ممكن لانّ العلماء مختلفون فاذا اجتمعوا تجادلوا وأيقظوا بذلك التعصب المذهبي .

(٢) قال جلالته أنه لا يقبل التظاهر بالبدع والخرافات ، وهـذا قول حق اذا كان المراد به ما يقرره جميع علماء المذاهب الاسلاميـة ، لا ما يقرره فريق منهم دون فريق .

(٣) قال جلالته انه لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف اجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء ، ولكن هذا التعبير واسع النطاق غير محدد المعنى وقد يفهم قوم منه أن منع الناس من أمور جائزة في مذهبهم هو الذي يؤدي الى اثارة فتنة عمياء . خذ مثلا منع التدخين ، فان الشيخ ابن بليهد يقول : « نحن لا نمنعه لانه حرام ... وانما نمنعه لان النجديين اذا رأوا من يشربه ذبحوه » . فمن هم الذين يثيرون الفتنة العمياء ؟ هل هم الذين يفعلون ما يبيحه مذهبهم ، أم الذين يذبحونهم ؟ ! .

(٤) قال جلالته : خير لنا أن ننظر الى مصالح المسلمين ونترك هذه الامور الجزئية للعلماء ، وقد كنا نود ان يُراعى هذا المبدأ من أول الأمر فلا تُهدم المآثر وغيرها حتى يرى علماء المذاهب الاسلامية رأيهم فيها ...

شاع أمر هذه المذكرة بين الوفود قبل عرضها على المؤتمر ، واستحسنوها كلهم ما عدا الوفد السعودي . وجاء أعضاء هذا الوفد الى الشيخ الظواهري يرجونه عدم تقديم المذكرة الى المؤتمر ، فقال لهم الظواهري انه يفعل ذلك بشرط أن يسحب الملك خطابه . وقد تم الاتفاق على ذلك ، وسحب الملك خطابه من المؤتمر فعلاً .

كان اليوم الأخير من المؤتمر حافلاً بالمناقشات الحادة . ففي ذلك اليوم طلب شوكت علي المداولة في اقتراح كان قد قدمه سابقاً وهو يتضمن أموراً ثلاثة : (١) اعادة بناء القباب والمآثر المهدومة في أقرب وقت ممكن ، (٢) حفظ وصيانة القبور التي لم تُهدم ، (٣) اناطة أمر بناء القبور التي هُدمت الى لجنة علماء المذاهب السنية والشيعية ، ويكون رأي هذه اللجنة نهائياً .

تكلم الشيخ محمد الظواهري حول هذا الاقتراح قائلاً : « اليوم آخر يوم من أيام المؤتمر ونريد أن ننصرف على سلام وصفاء ، وأرى

حركة من جانب اخواننا الهنود تدل على شيء من الامتعاض ، كما أرى حركة تقابلها من الجانب الحكومي تدل على شيء من الشدة ، فأرجو ان لا يكون ذلك • فلينظر الاقتراح الخاص بالقبور والمآثر » • فانبرى للرد عليه يوسف ياسين حيث قال : « اذا كنتم لا تريدون خلافاً وتودون أن ينتهي الأمر بسلام فارجو أن لا يُنظر في هذا الاقتراح لانه هو نفسه يفتح باباً للشقاق والخلاف » • فقال الظواهري رداً عليه : « اننا نريد ازالة سوء التفاهم ، أما السكوت على ما نحن عليه فضارّ ونريد أن يصل الصفاء الى قرارات القلوب • والحق حق مشاع بين الجميع • ومن الحق ما هو حق مرّ ويجب تلطيفه • وأنتم أدرى وأبصر بعواقب اغضاء القلوب • فاطلب عرض الاقتراح وقراءته » • وهنا قام سكرتير المؤتمر فتلا نص الاقتراح ، وتكلم شوكت علي في شرحه ، ثم وافق المؤتمر على أن يحال الاقتراح على هيئة من العلماء ليروا رأيهم فيه • فقام الشيخ عبدالعزيز العتيقي وقال : « أريد التنبيه الى أننا لا نوافق على اتخاذ القبور أوثاناً ، وان الذي جرى ما مسّ رفاتاً وانما كان المساس بالاحجار » • فرد عليه الظواهري قائلاً : « معاذ الله أن يقول أحد أن المسلمين اتخذوا القبور أوثاناً ، ونريد أن لا يتشدد قوماً منا ويتغالون فيما لا فائدة فيه » •

انتهى المؤتمر دون أن يتوصل المشاركون فيه الى نتيجة حاسمة • وفي مساء اليوم الاخير من المؤتمر أقام ابن سعود وليمة للوفود ، وقد انتهز الظواهري الفرصة فألقى فيها كلمة طالب فيها باعادة بناء المآثر التي هُدمت باعتبار انها كانت مساجد بينما هي الآن تبول فيها الكلاب • وحين سمع ابن سعود هذا الكلام نهض وغادر المكان ...(٢٨)

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : المظنون ان المؤتمر كلف ابن سعود ما لا يقل عن العشرين ألف جنيه كان بعضها نفقات للوفود والبعض الآخر رشوات لهم • وذكر القنصل أن أعضاء

(٢٨) فخرالدين الظواهري (السياسة والازهر) ـ القاهرة ١٩٤٥ ـ ص ٢٤٠ ـ ٢٥٠ •

الوفود باستثناء القليل منهم قبضوا الرشوات من ابن سعود كل حسب أهميته • فالشيخ رشيد رضا مثلاً قبض ألفي جنيه ، وأمين الحسيني قبض ألفاً ، وأبو العزائم قبض ثلاثمائة • وكان قصد ابن سعود من ذلك أن يجتذب قلوبهم ويضمن دعاية حسنة له في بلادهم[٢٩] •

مأزق ابن سعود :

رأينا ابن سعود في المؤتمر يدافع عن الاخوان ويبرر أعمالهم ، ولكنه في أعماق نفسه لم يكن راضياً عنهم • ومن الممكن القول ان ابن سعود كان تجاه الاخوان في مأزق ذي حدين ، وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي بالـ (Dilemma) ، أي الوقوف بين خيارين كلاهما سيء • انه كان من جهة مديناً للاخوان بما قدموه له من تضحيات وما خاضوا في سبيله من حروب ، ولكنه كان من الجهة الاخرى رجل سياسة يسير وفق ما يمليه عليه فن الممكن ، وهو لذلك كان يرى في الاخوان حركة تعصبية تثير المشاكل وتعرقل نمو الدولة • وقد يصح أن نقول بعبارة أخرى : ان ابن سعود كان يعاني صراعاً نفسياً تجاه الاخوان ، فهو لا يستطيع أن يتحمل تعصبهم من جهة ، ولا يستطيع أن يستغني عنهم من الجهة الاخرى •

قلنا ان ابن سعود لم يكن في أعماق نفسه راضياً عن الاخوان • والواقع أنهم هم أيضاً لم يكونوا راضين عنه • انهم كانوا منذ بداية حركتهم ينتقدون ابن سعود لكونه يلبس العقال بدلاً من العمامة ويطيل شاربه وملابسه • وكانوا كذلك ينتقدون المشايخ ـ أي علماء الدين النجديين ـ حيث يتهمونهم بأنهم مقصرون في دينهم يداهنون ابن سعود ويكتمون الحق عنه •

اتبع ابن سعود مع الاخوان في البداية مبدأ التسامح والتساهل ، فكان يقول دائماً : « ان الاخوان يجب احتمالهم • ومهما فعلوا فحالتهم الآن

---

(٢٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) •

خير من حالتهم الاولى . وأما العصبية والشدة فالزمن كفيل بتخفيف حدتها » . وحين نصحه بعض أصحابه بوجوب الحد من غلو الاخوان قال لهم : « هؤلاء أولادي وواجبي احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم، وبذل النصح لهم ، واني لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنو النية وسينكشف الحق لهم »(٣٠) .

كان ابن سعود يظن ان الاخوان سيخف تطرفهم بمرور الزمن ، ولكنه وجد أخيراً ان تطرفهم قد اشتد بدلاً من أن يخف . وفي عام ١٩١٤ اضطر ابن سعود الى عقد اجتماع لعلماء نجد للبحث في هذا الأمر . وقد اجتمع العلماء في ٣٠ ايلول ، وبعد المناقشة أصدروا منشوراً ينصحون الاخوان فيه بالاعتدال . وقد تضمن المنشور الأمور التي جرت المناقشة حولها ، والتي اعتاد الاخوان تكفير الناس بها ، وهي خمسة نذكرها فيما يلي :

الاول : هل يطلق الكفر على بدو المسلمين الثابتين على دينهم القائمين بأوامر الله ونواهيه ؟ أم لا ؟

الثاني : هل من فرق بين لابس العقال ولابس العمامة اذا كان معتقدهما واحداً ؟ أم لا ؟

الثالث : هل في الحضر الأولين وفي المهاجرين الآخرين فرق ؟ أم لا ؟

الرابع : هل في ذبيحة البدوي الذي هو في ولاية المسلمين ، ودربه دربهم ، ومعتقده معتقدهم ، وفي ذبيحة الحضر الأولين أو المهاجرين فرق حلال أو حرام ؟ أم لا ؟

الخامس : هل للمهاجرين أمر أو رخصة في اعتدائهم على الذين لم يهاجروا ، فيضربونهم أو يؤدبونهم أو يهددونهم أو يلزمونهم بالهجرة ؟ أم لا ؟ وهل لأحد أن يهجر أحداً ، بدوياً كان أو حضرياً ، بغير أمر

---

(٣٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ ص ٢٩٣ــ٢٩٤ .

واضح أو كفر صريح أو شيء من الأعمال التي يجب هجره عليها بغير اذن من ولي الأمر أو الحاكم الشرعي ؟

وجاء في ختام المنشور ان العلماء أفتوا بما نصه : « ان كل هذه الأمور مخالفة للشرع وما أمرت به الشريعة ، وان الذي يفعلها يُنهى عنها وينزجر ، فان تاب وأقر بخطأه فيُعفى عنه ، وان استمر على أمره وعاند فيجب عليه تأديب ظاهر بين المسلمين ، وان لا يعادي ولا يصادق الا على ما أمرت به الولاية أو حكم به حاكم الشرع . والذي يفعل ما يخالف ذلك فطريقته غير طريق المسلمين . وهذا الذي ندين به ونشهد الله عليه ، ونرجو أن يوفقنا واياكم للخير ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ـ سنة ١٣٣٧ ـ الامضاءات والاختام »(٣١) .

وزع هذا المنشور في قرى الاخوان ، كما وزع معه منشور آخر موقع من ابن سعود ينصحهم باتباع ما افتى به علماء الدين باعتبارهم أعلم بالشريعة منهم . والظاهر ان هذين المنشورين لم يكن لهما أي تأثير جدي في الاخوان . وعلى أي حال فان الاخوان قد ازداد تطرفهم عند فتح الحجاز . يقول حافظ وهبة : ان تطرف الاخوان قد ازداد بعد فتح جدة واستسلام الحجاز كله ، وكثيراً ما كان ابن سعود يشتد عليهم ويتبرأ من غلوائهم ولكن تعديهم لم ينقطع وقسوتهم كانت مستمرة(٣٢) .

والواقع ان الاخوان لم يقفوا عند حد التدخل في شؤون الناس ، بل صاروا يتدخلون في شؤون ابن سعود نفسه . ففي شهر تشرين الاول ١٩٢٥ عندما كان السر جلبرت كلايتون يفاوض ابن سعود في بحرة بالقرب من جدة خرج مساعدوه يتمشون خارج المخيم ، وكان هناك جماعة من الاخوان يصلون ، فانبرى لهم رئيسهم وأخذ يهددهم ، وقال لهم انهم قد نجسوا الارض المقدسة التي كانوا يصلون عليها . ولما بلغ ابن سعود ذلك استدعى اليه رئيس الجماعة وأخذ يعنفه قائلا : « بأي حق تكلم ضيوفي بهذه

(٣١) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .
(٣٢) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٣٢٧ ـ ٣٠٨ .

الطريقة ، وبأي حق تحتكر الارض المقدسة لك ولاصحابك • أيها الكلب ، ان الارض كلها لله ، وكلها للصلاة » • ثم أمر بجلد الرجل ليكون عبرة لغيره [٣٣] •

وعندما بدأ ابن سعود يستعمل بعض المخترعات الحديثة في مكة ، كالتلفون والدراجة الهوائية استنكر الاخوان منه ذلك • فالدراجة في نظرهم تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب اذا نزل عنها لا تقف ، وهم يسمونها بـ « عربة الشيطان » أو « عربة ابليس » • وحدث مرة ان خادماً لابن سعود كان راكباً دراجة في حاجة له فأعترضه أحد الاخوان وضربه •

وحين أمر ابن سعود بمد أسلاك التلفون بين مكة ومعسكره خارجها أخذ الاخوان يقطعون الاسلاك بحجة أنها منكر يجب ازالته[٣٤] • وقد اضطر ابن سعود الى تأجيل مد الاسلاك بضعة أسابيع ، وظل يعمل في اقناعهم بأن التلفون ليس من عمل الشيطان بدليل انه ينقل آيات القرآن حين تتلى فيه مع العلم أن الشيطان يفر من تلاوة القرآن حسب معتقدهم • وقد اقتنعوا أخيرا بصحة ما قال ، وتم مد الاسلاك [٣٥] •

فيصل الدويش :

ان فيصل الدويش رئيس قبيلة المطير كان من أكثر الاخوان تطرفاً وتعصباً ، وكان أول من أعلن التذمر من ابن سعود حيث اعتبره متساهلا في دينه ليناً مع الكفار • وقد ظهرت أولى بوادر تذمره في عيد الفطر من عام ١٣٤٣ هـ ، ويوافق ٢٥ نيسان ١٩٢٥ م • يقول حافظ وهبة : انه ذهب في ذلك اليوم هو وعبدالله الدملوجي لمعايدة حاكم مكة خالد بن لؤي ، فوجد عنده فيصل الدويش وجماعة من الاخوان ، وأخذ فيصل يتكلم كلاماً فيه معنى الانذار حيث قال : « نحمد الله يا خالد ويا الاخوان

(33) Armstrong (op. cit.) - P. 199 - 200.

(٣٤) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٢٩٣ •

(٣٥) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) — ج ٢ ص ٧٤٢ •

على نعمته ، فقد دخلنا بلد الله الحرام وطردنا الشريف من هذا البيت • اننا جند الله وخدام لدينه ، لا نريد الا أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر ، ولا نريد الا رفع المظالم وازالة البدع والمنكرات • وان هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريق الشريف ويعمل عمله » • فأمّن الاخوان على كلامه(٣٦) •••

كان فيصل الدويش قد نيط به أمر حصار المدينة • فهاجم قرية « العوالي » القريبة من المدينة ، وأخذ يقتل سكانها وينهبهم على عادته في كل بلدة يفتحها • ويقال انه كان عازماً على هدم قبة النبي في المدينة حيث وجه عليها مدافعه ، فقد كان يعتقد بأن هذه القبة لا تختلف عن غيرها من القباب المقدسة ويجب هدمها • وهو كاد يفعل ذلك لو لم يتدارك أمره ابن سعود ، فأوعز اليه بترك المدينة والعودة الى قريته « الارطاوية » • ثم ناط أمر حصار المدينة بابنه محمد •

عاد فيصل الى الارطاوية وهو حانق حاقد على ابن سعود ، وصار يبث الاشاعات في قرى الاخوان متهماً ابن سعود بأنه باع نفسه الى الانكليز الكفار • وأخذ يلتف حوله الكثير من الاخوان المتذمرين مثله • وفي خريف ١٩٢٦ عقد الاخوان المتذمرون في الارطاوية مؤتمراً لهم تعهدوا فيه بنصرة دين الله والجهاد في سبيله ، وأعلنوا استنكارهم للأعمال التي قام بها ابن سعود والتي هي في نظرهم مناقضة لدين الله ، وكانت سبعة هي : (١) ارسال ولده سعود الى مصر • (٢) ارسال ولده الثاني فيصل الى لندن بلد الشرك • (٣) استخدام السيارات والتلغرافات والتليفونات • (٤) فرض الضرائب في نجد والحجاز • (٥) اذنه لعشائر العراق وشرقي الأردن بالرعي في أراضي المسلمين • (٦) منع المتاجرة مع الكويت ، فاذا كان أهل الكويت كفاراً حوربوا واذا كانوا مسلمين فلماذا مقاطعتهم • (٧) التساهل مع روافض الاحساء والقطيف وعدم اجبارهم على الدخول في دين أهل السنة والجماعة •

---

(٣٦) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ •

كان ابن سعود في مكة حين وصلته أخبار مؤتمر الارطاوية ،فأسرع عائداً الى الرياض ، واستدعى اليه رؤساء الاخوان لعقد مؤتمر يجتمعون فيه مع علماء الدين • وقد انعقد المؤتمر في ٧ كانون الثاني ١٩٢٧ وحضره فيصل الدويش وجميع المتذمرين ما عدا واحداً منهم هو سلطان بن بجاد رئيس قبيلة عتيبة • وتكلم ابن سعود فقال عـن نفسه انه مازال خادمـــاً للشريعة يحافظ عليها كل المحافظة ، وأنه لم يتغير عما كان عليه من قبل كما يتوهم بعض الناس • وانتهى المؤتمر بفتوى أصدرها العلماء يجيبون فيها على المسائل التي أثارها الاخوان • ننقل فيما يلي أهم جزء من الفتوى :

« أما مسألة البرقي ـ يقصدون التلغراف ـ فهو أمر حادث في آخر الزمان ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيـه كلاماً لأحد مـن أهل العلـم ، فتوقفنا في مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزم بالاباحة والتحريم يحتاج الى الوقوف على حقيقته • وأمـا مسجد حمزة وأبـي رشيد فأفتينا الامام ، وفقه لله ، بهدمهما على الفور • وأما القوانين فان كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً ولا يحكم الا بالشرع المطهر ••• وأما الرافضة فافتينا الامام ان يلزمهم البيعة على الاسلام ويمنعهم مـــن اظهار شعائر دينهم الباطل ، وعلى الامام أيضاً أن يلزم نائبه على الاحساء ان يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم ، وعلى ترك سائر البدع مـــن اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به مذهبهم الباطل ، ويمنعون من زيارة المشاهد ، وكذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد ، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون من أهل السنة ، ويلزمون بتعليم ثلاثة الاصول ، وكذلك ان كان لهم محال مبنية لاقامة البدع تهدم ، ويمنعون من اقامة البدع في المساجد وغيرها • ومن أبى قبول ما ذكـــر ينفى من بلاد المسلمين ••• وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فافتينا الامام بكفهم عـن الدخول في مراعي المسلمـــين وأرضهم • وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة فان تركهـــا فهو الواجب عليه وان امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج

عن طاعته من أجلها • وأما الجهاد فهو محول الى نظر الامام وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للاسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء • ونسأل الله لنا وله ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم • حرر في ٨ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ » (٣٧) •

حاول ابن سعود تنفيذ هذه الفتوى ترضية للاخوان ، وكان من جملة ما فعله من أجل ذلك انه أمر بهدم مسجد حمزة الواقع عند جبل أحد بالقرب من المدينة وهو مشيد على قبر حمزة عم النبي • وكذلك أمر بالتضييق على شيعة الاحساء والقطيف ، فهم كانوا قبلئذ يقومون بشعائرهم الحسينية في داخل دورهم وحسينياتهم ، فمنعوا من ذلك منعاً باتاً وأغلقت حسينياتهم • وقد شمل هذا المنع أيضاً الشيعة الذين يسكنون في حارة النخاولة في المدينة •

الاخوان يهاجمون العراق :

في عام ١٩٢٧ قررت الحكومة العراقية بالتفاهم مع الحكومة البريطانية اقامة مخافر للشرطة مجهزة باللاسلكي والسيارات المصفحة بالقرب من الحدود النجدية للاشراف على تنقلات البدو ومنع الغزو • وفي تشرين الاول بدأ ببناء أول مخفر في موضع يدعى « البصية » يقع على بعد ١٢٥ كيلو متراً من حدود نجد • وحين بلغ ابن سعود ذلك تخوف منه ، وظن أن الملك فيصل انما يبني تلك المخافر بالتفاهم مع الانكليز ليجعلها حصوناً أمامية في الصحراء تمهيداً لغزو بلاده في المستقبل •

وفي مساء ٥ تشرين الثاني هاجمت جماعة من الاخوان مخفر « البصية » وكان لا يزال قيد الانشاء ، فقتلوا عدداً من العمال والشرطة الذين كانوا فيه ، ثم عادوا من حيث أتوا • وتقدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشرين كان من بينهم امرأة واحدة (٣٨) •

---

(٣٧) المصدر السابق ــ ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ •
(38) Report on Iraq Administration, 1927, London 1928, P. 57.

ضج الرأي العام العراقي لهذا الاعتداء ، واضطربت الحكومة العراقية • وأرسل المندوب السامي السر هنري دوبس احتجاجاً الى ابن سعود ، فأجاب ابن سعود يقول بأن غزو الإخوان سببه « القصر المشؤوم » ـ يقصد به مخفر البصية ـ فهو لم يشيد الا لايقاد الفتنة وايجاد الشرور ، وقد أدى تشييده الى اثارة الاخوان بحيث أصبح من الصعب السيطرة عليهم وكبح جماحهم • وأبدى ابن سعود أسفه لما وقع ووعد بمنع الغزو بكل الوسائل المتيسرة لديه ، ولكنه طالب بهدم المخفر وقال : ان أهل نجد يفضلون أن يغزوهم أهل العراق كل صباح ومساء ولا يرضون ببناء « قصر » واحد (٣٩) •••

صار الاخوان يشنون غاراتهم على العشائر العراقية ، ويعيثون فيها نهباً وتقتيلاً • وغضب السر هنري دوبس ، وهو المعروف بسرعة الغضب، فأبرق الى حكومته في لندن يطلب منها فرض الحصار على ابن سعود لكي يقوم بتأديب المعتدين ودفع التعويضات عن القتلى • ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا الاقتراح • فقدم اليها دوبس اقتراحاً آخراً هو أن تقوم الطائرات بالقاء المنشورات على البادية تنذر الاخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة اربعمائة ميل ، فاذا رفضوا الانصياع لهذا الطلب فان الطائرات تقصفهم بالقنابل • وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح •

وفي منتصف كانون الثاني ١٩٢٨ بدأت الطائرات الانكليزية تلقي المنشورات على البادية ، فلم يعرها الاخوان أي اهتمام ، أو لعلهم لم يفهموها • وفي شهر شباط بدأت الطائرات بقصف تجمعات الاخوان وقراهم • وقد أحدث هذا القصف جدالا في مجلس العموم البريطاني حيث وجهت الاسئلة الى وزير المستعمرات عن الاسباب التي دعت الى قصف الطائرات للاراضي السعودية ، فرد الوزير قائلا ان ابن سعود قد

---

(٣٩) صادق حسن السوداني (العلاقات العراقية السعودية) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ص ٢٧١ •

أعلن بأنه لم يعد يسيطر على رعاياه [٤٠] ...

يقول حافظ وهبه : انه كان حينداك في مصر فأبرق اليه ابن سعود في ٢٤ شباط ١٩٢٨ قائلا : « الحالة في نجد مضطربة لأن العهود نقضت من قبل العراق • الطائرات ضربت الحدود في الشرق والغرب ، الانسانية لم تحترم ، الحالة خطرة جداً ، والهمة مبذولة لتسكين الاحوال ، والنتيجة مجهولة [٤١] » •

نلاحظ هنا ان ابن سعود يقول : « الانسانية لم تحترم » ، فهو ينسى ما فعل الاخوان من تقتيل ونهب بينما هو يذكر ما فعلت الطائرات بهم من قصف • وهذا هو ديدن البشر دائماً حين يتخاصمون ، اذ هم ينسون الاعتداء الذي وقع منهم بينما هم يبالغون في ذكر الاعتداء الذي وقع عليهم •

مؤتمر الرياض :

ان قصف الطائرات وضع ابن سعود بين نارين : نار الانكليز ونار الاخوان • أولئك يطلبون منه ردع الاخوان ومنعهم من الغزو ، وهؤلاء يطلبون منه اعلان الجهاد على الكفار • وقد وجد ابن سعود أخيراً أن من الافضل له أن يتفاوض مع الانكليز بدلا من محاربتهم • وبعد مخابرات معهم تم الاتفاق على التفاوض معهم في جدة في أيار ١٩٢٨ •

ارتأى ابن سعود أن يجتمع برؤساء الاخوان قبل التفاوض مع بريطانيا لطمأنتهم وتهدئتهم • فاجتمع بهم في شهر نيسان في بلدة بريدة وأفهمهم أنه يشاركهم في السخط على بناء المخافر على الحدود ولكنه يفضل حل المشكلة عن طريق المفاوضات • وأخبرهم أنه مسافر الى جدة للالتقاء بالمفاوض البريطاني ، ووعدهم بالاجتماع بهم مرة أخرى في الرياض بعد عودته من جدة لاطلاعهم على نتيجة المفاوضات [٤٢] •

---

(٤٠) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ــ ترجمة عمر الديراوي ــ بيروت ــ ص ٣٥٩ •

(٤١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ــ ص ٩١ •

(٤٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ ص ٢٩٧ •

جرت المفاوضات في جدة مرتين ، أولاهما في أيار والثانية في آب . وكان يمثل الجانب البريطاني فيها السر جلبرت كلايتون . وقد شارك فيها في المرة الثانية توفيق السويدي وبهاء الدين نوري ومعهما أحمد حامد الصراف بصفته كاتباً . وكان مصير المفاوضات في المرتين فاشلا .

غادر ابن سعود جدة بعد هذا الى الرياض لكي يجتمع بالاخوان حسب وعده لهم . وحين وصلها دعى الاخوان الى مؤتمر يحضرونه مع المشايخ أي علماء الدين . وقد انعقد المؤتمر في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٨ ، وحضره نحو ثمانمائة شخص ، ولكن ثلاثة من رؤساء الاخوان لم يحضروه هم فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثيلين ، غير أنهم أرسلوا بعض أبناءهم وأقرباءهم ليحضروه بالنيابة عنهم .

افتتح ابن سعود المؤتمر قائلاً : « لا يخطرن ببال أحد منكم أن الخوف منكم هو الذي حملني على عقد هذا الاجتماع . اسمعوا ، لقد بنيت ملكي بعون الله وقوة ساعدي ، وهو جلت قدرته قد منحني النصر ، وان خوفي منه وحده هو الذي حملني على جمعكم هنا لاستنير بآرائكم ونقضي أمره بيننا بالشورى ، فلا يتملكني ما يتملك بني البشر من غرور وصلف » . ثم أخذ ابن سعود يتحدث عن فضله عليهم اذ هم كانوا متفرقين يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم من بعض ، فوحّدهم وجعل منهم أمة عظيمة قوية . ثم قال : ان الكثيرين منهم غير راضين عنه ، وأنه قد بلغه عنهم شكاوي كثيرة ، ولكنه ليس من الذين يتنازلون عن ملكهم تحت الضغط والاكراه وهو كذلك لا يرغب في حكم رعية غير راضية عنه . وهو لذلك يعرض عليهم ان يختاروا أي واحد من أفراد أسرته ليكون ملكاً عليهم ، وهو يتعهد أمام الله أن يحمل هذا الرجل الى العرش، ويخدمه بأمانة واخلاص. وعند هذا ارتفعت الاصوات من الحاضرين : « لا .. لا .. لا نريد ملكاً سواك يا عبدالعزيز ! »[٤٣] .

---

(٤٣) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) - بيروت - ج ٢ ص ٤٤٢ .

وبعد هذا عرض عليهم أن يتكلموا بصراحة عن كل ما يشكون منه ، وتعهد لهم بأنه سوف لا يلوم أو يعاقب أحداً على ما يقول • فبدأوا يعرضون شكاويهم ، وذكروا منها علاقته بالكفار وصداقته مع الانكليز واستعمال مخترعاتهم الشيطانية كالسيارات و « الأتيال » ـ أي التلفون والتلغراف ـ وتساهله تجاه المخافر التي ببنيها الكفار على الحدود ومنع المسلمين من الجهاد لاعلاء كلمة الله ونصر دينه •

رد ابن سعود على شكاويهم بالتروي وعلى قدر عقولهم ، وذكر لهم أنه لا يحب الكفار أو النصارى أو الانكليز ولكنه وجد في صداقتهم مصلحة للمسلمين ، وكانت سياسته معهم أن يستحصل منهم كل ما هو ممكن من فائدة للمسلمين الحقيقيين ، فهو يستعمل معهم سياسة « خذ واعط » ولكن فيصل الدويش هو الذي أربك الوضع عليه(٤٤) • •

ثم تطرق ابن سعود الى « الأتيال » فقال : ان الشريعة الاسلامية ليس فيها ما يمنع استعمالها ، وانها ليست من السحر أو عمل الشيطان • والتفت الى المشايخ الحاضرين سائلاً لهم : هل تجدون في أقوال النبي ما يعارض الانتفاع بهذه المخترعات الحديثة ؟ فأجاب المشايخ : كلا(٤٥) •

وحين جرى النقاش حول المخافر قال ابن سعود انها انما بُنيت لمنع التعديات التي قام بها فيصل الدويش على العراق فان فيصل هو السبب وعليه تقع التبعة • فأعلن الحاضرون براءتهم من فيصل الدويش ، وذكروا أنهم قطعوا علاقتهم بـه ، ولكنهم ظلوا مصرين على وجوب هدم المخافر • وقد أيدهم المشايخ في ذلك وأفتوا أن المخافر مضرة بالمسلمين والعرب وخاصة بسكان نجد ، وأن هدمها هو من باب دفاع المسلم عن ماله ودينه • فقال ابن سعود : ان ما أفتى به المشايخ هو حق ، وأنه هو نفسه يعتقد بأن المخافر خطر على المسلمين ، ولكنه يرغب في أن تكون المناقشة حول

---

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١٣٧١٣) •
(٤٥) عمر ابو النصر (ابن سعود) ـ بيروت ١٩٣٥ ـ ص ١٠٥ •

هذا الموضوع وحول موضوع الجهاد في اجتماع خاص ، وطلب منهم ان يختاروا خمسين رجلاً منهم لكي يوضح لهم الأمور كلها فوافق الحاضرون على ذلك ، وجددوا البيعة له[٤٦] .

وعلى أثر انفضاض المؤتمر عُقد اجتماع خاص مساءاً بعد صلاة العشاء ، حضره الخمسون الذين اختيروا للمداولة مع ابن سعود . واستمرت المداولة من الساعة الثانية بعد الغروب حتى السادسة. ولا نعرف ما جرى فيها ، والمظنون ان ابن سعود استطاع أن يقنعهم بأن جهاد الكفار لا يجوز ان يكون مطلقاً بل يجب ان يكون ضمن حدود الطاقة والمقدرة لدى المسلمين والا حلت بهم الكارثة . فخرجوا من عنده راضين .

ثورة الاخوان :

ان النتيجة التي انتهى اليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها رؤساء الاخوان الثلاثة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثيلين ، فصاروا ينشرون الاشاعات السيئة في قرى الاخوان ضد ابن سعود متهمين اياه بهدم الدين وموالاة الكفار وطلب الملك ، وأخذوا يقطعون الطرق على القوافل ويفرضون الاتاوة على القرى ويهاجمون عشائر العراق ونجد .

كان عدد الاخوان الثائرين نحو خمسة آلاف رجل ، فأعد ابن سعود جيشاً كبيراً لقتالهم بلغ عدد رجاله خمسة عشر ألف . وتقابل الفريقان في موضع يدعى « السبلة » يقع قريباً من الزلفي الى الشرق من بريدة . وقبل أن يبدأ القتال بينهما أرسل الاخوان الى ابن سعود رسولاً اسمه ماجد بن خثيلة ومعه كتاب . وحين دخل الرسول على ابن سعود لم يسلم عليه ، فغضب ابن سعود من هذه الاهانة ، وقال للرسول مؤنباً : « من أنت ؟ ألست ماجد بن خثيلة ... » ، ثم أخذ يسرد عليه تاريخه مع التقريع ، ثم قال له : « أتدخل عليّ ولا تسلم ؟ ! اذهب من فورك الى

---

(٤٦) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١٣٧١٣) .

من أرسلك وأخبره أننا قادمون للهجوم عليهم غداً ، فاذا أرادوا أن يحقنوا دماءهم فليستسلموا بلا قيد ولا شرط ، والشريعة هي الحكم بيني وبينهم ، وهؤلاء العلماء حاضرون • قم واذهب الى رفيقك » •

عاد الرسول الى الاخوان ينصحهم بتقديم خضوعهم الى ابن سعود قبل فوات الاوان • فارتأى فيصل الدويش أن يذهب بنفسه الى ابن سعود ليرى مبلغ قوته • وحين دخل فيصل على ابن سعود أخذ يتملقه وأظهر استعداده للتسليم وانه سيقضي الليلة عنده ، ولكن ابن سعود قال لـه : « قم فنم عند قومك وموعدكم غداً بعد شروق الشمس ••• » • وعـاد فيصل الى أصحابه ، فلما سأله بعضهم عما رأى من قوة ابن سعود أجابهم قائلاً : « ماذا رأيت ! رأيت حضرياً ترتعد فرائصه من الخوف ، وليس حوله الا طبابيخ لا يعرفون الا النوم على الدواشج • ابشروا يا اخوان ، لقد وجدت لديهم حلالاً كبيراً وأموالاً عظيمة • فابشـروا بالكسـب والغنيمة • وسنقهر هذا الطاغوت غداً ونستولي على ماله »[٤٧] •

وقعت المعركة بين الفريقين في صباح اليوم التالي ـ ٣٠ آذار ١٩٢٩ ـ واستمرت بضع ساعات ، وانتهت بهزيمة الاخوان • ويبدو أن من عوامل هزيمتهم هو وجود علماء الدين الى جانب ابن سعود ، فهذا لابد أن يؤدي الى الوهن في عزيمة الاخوان ويقلل من فدائيتهم وحماسهم الديني •

كان فيصل الدويش قد أصيب بجروح شديدة في المعركة ، فجيء بـه الى ابن سعود محمولاً على نقالة من سعف النخيل وكانت تحيط بـه زوجته وبناته وهن يبكين ويستشفعن فيه • فتأثر ابن سعود من هذا المنظر وعفا عنه ، وأوعز بنقله الى بيته في الأرطاوية ، كما بعث طبيبه الخـاص مدحت شيخ الأرض لمعالجته •

وبعد ثلاثة أيام استسلم سلطان بن بجاد الى ابن سعود ، فأمر ابن

---

(٤٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ •

سعود بتقديمه الى محكمة مؤلفة من قضاة الشرع ، فحكمت عليه بالسجن المؤبد في قلعة الرياض • أما ضيدان بن حثيلين فقد تمكن من الفرار الى الكويت •

القضاء على الاخوان :

سافر ابن سعود الى الحجاز لحضور موسم الحج الذي حل في شهر أيار ولكن اقامته في الحجاز لم تطل كثيراً ، فقد بلغه ان فيصل الدويش شفي من جراحه وأعلن الثورة من جديد • فعاد ابن سعود مسرعاً الى الرياض في شهر تموز وهناك أعد قواته وكان فيها سيارات مجهزة بالرشاشات • وتوجه بها نحو فيصل الدويش •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان فيصل الدويش كتب في ١٥ كانون الاول ١٩٢٩ الى الملك فيصل في بغداد يخاطبه بلقب « سلطان المسلمين » ويدعوه للتعاون معه في محاربة ابن سعود • وكذلك كتب الى الكابتن كلوب مفتش البادية الجنوبية في العراق مبدياً رغبته في أن يكون من رعايا الحكومة العراقية وتحت تصرفها(٤٨) •

في أوائل كانون الثاني ١٩٣٠ وقعت المعركة الفاصلة بين ابن سعود وفيصل الدويش في موقع قريب من الحدود الكويتية العراقية • وحلت الهزيمة بفيصل ففر مع بعض أصحابه الى داخل حدود العراق ، واستسلموا للانكليز • فنقلهم الانكليز الى الشعيبة • وبعد مفاوضات جرت بين ابن سعود والانكليز قرر الانكليز تسليم فيصل الدويش وأصحابه الى ابن سعود على شرط أن يبقي على حياتهم وأن يتعهد بتسليم المنهوبات التي نهبوها من أهل الكويت والعراق(٤٩) •

وفي ٢٨ كانون الثاني نُقل فيصل الدويش وأصحابه بطائرة الى ابن سعود الذي كان مخيماً في موضع يدعى « خباري وضحة » على بعد مائة

(٤٨) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ــ ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ •
(٤٩) حافظ وهبة (المصدر السابق) ــ ص ٣٠٣ •

ميل من جنوب الكويت • وجيء بفيصل في سيارة الى خيمة ابن سعود ، وكانت اللعنات تنصب عليه من الجانبين أثناء نقله • فشكر ابن سعود الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه ، كما شكر الحكومة البريطانية على صداقتها ومودتها ، وقال : « انها في كل يوم تقيم له برهانا جديداً على مودتهـــا الوطيـدة » •

وبعد أن انصرف الضباط تقدم فيصل الدويش نحو ابن سعود وهو ذليل ، فخاطبه ابن سعود قائلاً : « أنت تعلم يا فيصل ما عملت معك في الماضي ، ما قصرت في شيء نحوكم ، لقد كنت في حرب دائمة مع أهل نجد من أجلكم ، فهل هذا جزائي منكم ؟ هل كنتم تريدون الملك ؟ لقد كنتم ملوكاً في الجهات التي كنتم فيها • من منكم له الفضل عليّ ؟ الفضل لله وحده • من منكم لم آخذه بسيفي ؟ ليس منكم الاّ من قتلت أباه أو أخاه ، ولم أخضعكم الاّ بالله ثم بالسيف • قد كنت أنفذ رغائبكم ، فكنت أشقى لأجلكم ، وأواصل الليل والنهار لراحتكم وسعادتكم • ألا تخاف الله حينما تكتب لجلوب ـ يقصد الكابتن كلوب ـ أنك تريد الهجرة للعراق وأنك تحب أن تكون تابعاً له ؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى من منزلتك التي كنت عندي فيها ؟ » •

أجابه فيصل : « يعلم الله يا عبدالعزيز أنك لم تقصر معنا وقد فعلت كل ما يبيض وجهك ، وقد قابلنا معروفك بالاساءة ، لقد فررنا من وجهك الى الكفار ، فحملونا اليك في طيارة من طياراتهم • ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الاخوان بعد مـا كنت عزيـزاً محترماً • قاتـل الله الشيطان ، لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا فأوصلنا الى ما أصبحنا فيـه الآن »(٥٠) •

نُقل فيصل الى الرياض في سيارة ، وقدم الى محكمة شرعية كصاحبه سلطان بن بجاد ، فحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد في قلعة

(٥٠) المصدر السابق ـ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ •

الرياض • وبعد بضعه أشهر مات فيصل في سجنه ، كما مات صاحبه ابن بجـاد •

كان ذلك ايذاناً بانتهاء حركة الاخوان ، تلك الحركة التي أثارت دهشة الناس بأمرين : بفدائيتها في الحرب وتعصبها الشديد في السلم • يقول فيلبي « لقد كان خلق ابن سعود لحركة الاخوان في سـنة ١٩١٢ ضربة معلم عبقري لا يوازيها غير تصفيته لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاماً حينما ثبت لديه أنها لم تعد الا عقبة كأداء في سبيل استقرار الاوضاع التي بناها بطول صبره وجهده • فلقد كان يمكن لهذه الحركة التي أوجدها ابن سعود من العدم أن تدمره وتنهكـه لو لـم يبـادر هو الى تدميرهـا بنفسـه »(٥١) •

دل التاريخ على أن معظم بناة الدول يقتلون من ساعدهم على بنائها ، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا الباني في ثمـرة بنائه ، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة ، فينشب النزاع بينهم ، وقد ينتهي النزاع الى القضاء على اولئك المساعدين • وقد صدق من قال : « السياسة لا قلب لها » •

مشكلة المشايخ :

بعد الانتهاء من القضاء على حركة الاخوان قال ابن سعود معبراً عن ابتهاجه : « من اليوم سنحيا حيـاة جديدة » • انـه في الواقع بـدأ حيـاة جديدة ، حيث صار يفتح المدارس الحديثة في بلاده ، وأنشأ جيشاً نظامياً من الحضر تحت اشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني ، كما استورد السيارات وأجهزة اللاسلكي لربط أنحاء مملكته الواسعة • وقد عاونه في ذلك فيلبي معاونة كبيرة •

ان هذه الحركة التجديدية التي قام بها ابن سعود جوبهت بمعارضة

---

(٥١) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ •

من المشايخ أي علماء الدين النجديين • فهو قد تخلص من معارضةالاخوان ليبتلي من جديد بمعارضة المشايخ • ولكن معارضة المشايخ تختلف عن معارضة الاخوان بكونها هادئـة تخلو من العنـف أو التدخل في شؤون النـاس •

أول بادرة من معارضة المشايخ ظهرت في حزيران ١٩٢٨ ، وذلك عندما فتح ابن سعود بعض المدارس الابتدائية في الحجاز • فقد قامت ضجة بين المشايخ من جراء ذلك ، وعقدوا اجتماعاً لهم في مكة وضعوا فيه قراراً يحتجون فيه على فتح تلك المدارس لما يجري فيها من تعليم الرسم أولاً ، وتعليم اللغات الاجنبية ثانياً ، وتعليم الجغرافيا ثالثاً •

أرسل ابن سعود اليهم حافظ وهبـة لكي يباحثهم في الموضوع • وحين اجتمع بهم حافظ أخذوا يذكرون له الاسباب التي دعتهم الى تحريم الرسم واللغات الاجنبية والجغرافيا ، حيث قالوا : « ••• لقد بيّنا للامام عبدالعزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على هذه العلوم • أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً • وأما اللغات فانها ذريعة للوقوف على عقائـد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفي ذلك ما فيه الخطر على عقائدنا وعلى اخلاق أبنائنـا • وأما الجغرافية ففيها كروية الارض ودورانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » •

أخذ حافظ وهبة يجادلهم في هذا الموضوع ويذكر لهم الأدلة التي تجيز تعليم الرسم واللغات والجغرافيا • ولمـا رأى المشايخ أن الجدال قد طال قالوا : « لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه الى الامام ، ولسنا في حاجة الى الجدل المنهي عنه شرعاً • فان قبل الامام ما رأينا فالحمد لله ، وان خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها »[٥٢] •

وبعد أن انتهت مشكلة المدارس بدأت مشكلة اللاسلكي • فقد اعترض

---

(٥٢) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ •

المشايخ على هذا الاختراع اعتقاداً منهم أنه لابد أن يكون من السحر وعمل الشيطان ، ودليلهم في ذلك ان اللاسلكي ينقل الخبر بين مكة والرياض في لحظة واحدة مع العلم أن الابل تقطع المسافة بينهما في عشرين يوماً . وهذا عمل لا يمكن أن يقوم به البشر الا بمعونة الشيطان ، وهم لابد أن يقدموا للشيطان قرباناً لقاء خدمته لهم .

عندما أُنشأت أول محطة للاسلكي في الرياض ، أخذ بعض المشايخ يذهبون الى المحطة ويسألون العامل فيها عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض ، وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الاخبار ؟ وكان بعض المشايخ يغرون العامل بالنقود ويتعهدون له بكتمان السر اذا أفشاه لهم .

ويحدثنا حافظ وهبة عن محاورة جرت بينه وبين أحد المشايخ حول اللاسلكي في المدينة ، فقال الشيخ : « لا شك ان هذه الاشياء ناشئة عن استخدام الجن ، وقد أخبرني ثقة ان التلغراف اللاسلكي لا يتحرك الا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ويذكر عليها اسم الشيطان ». ثم أخذ الشيخ يذكر بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان .وقد حاول حافظ وهبة اقناعه بان اللاسلكي اختراع فيزيائي لا صلة له بالجن والشيطان ، ولكنه لم ينجح في اقناع الشيخ ، بل سكت الشيخ على مضض ...(٥٣) .

ظل المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة التي ترد الى البلاد ، فاستنكروا الحاكي والسينما والانوار الكشافة والطائرات . فهم يعتقدون في الطائرات مثلا ان ركابها يتحدون ربهم بها (٥٤) . وحين بدأ الامريكيون ينقبون عن النفط في منطقة الظهران قال المشايخ لابن سعود . « لا يجوز دخول الكفار الى داخل البلاد لانهم يفسدون الرجال والنساء ويدخلون

---

(٥٣) المصدر السابق — ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٥٤) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) — ص ٣٥٦ .

الخمر والفونوغراف وما شاكل ذلك من الامور الشيطانية الى داخل البلاد[٥٥] » •

كان ابن سعود يداريهم أحيانا ويتغافل عنهم أحيانا أخرى • اعترضوا عليه في ١٩٣٠ لانه أذن باقامة الاحتفالات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز اذ اعتبروها مخالفة للسنة ، فنزل ابن سعود عند رأيهم وألغى الاحتفالات[٥٦] • وحدث مثل هذا في عام ١٩٥٠ عندما قررت الحكومة السعودية الاحتفال بمناسبة مرور خمسين سنة على فتح الرياض ، فقد صدر بيان من وزارة الخارجية السعودية هذا نصه : « كانت الحكومة قد قررت الاحتفال بالذكرى الذهبية لدخول جلالة الملك الى الرياض منذ ٥٠ سنة ، وقد استفتي علماء الدين مؤخرا في ذلك ، فافتوا بأنه ليس من سنن المسلمين ولا يجوز أن يتخذ المسلمون عيداً الا في عيدي الفطر والاضحى • ونزولا من جلالته على حكم الشريعة أمر بالغاء المراسيم والترتيبات[٥٧] » •

ويروى أن أحد المشايخ دخل على ابن سعود في قصره في الرياض ، وهو يتمشى وعليه ثوب طويل يمس الارض ، فقال له : « الله الله ياعبد العزيز ! لقد دخلك الكبر ، وصرت تجر ذيلك وراءك ! » • فالتفت ابن سعود نحو الخدم وقال : « هاتوا المقص ! » • فلما جاؤوا به أعطاه الى الشيخ وقال له : « قص ما تراه مخالفا للدين[٥٨] » • ويروي أرمسترونج قصة مشابهة مفادها ان أحد المشايخ جابه ابن سعود ذات يوم على مشهد من الناس قائلا له : ان شواربك طويلة أكثر مما تجيزها السنة • فتقبل ابن

---

(٥٥) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٢٢٩ •
(٥٦) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٤ •
(٥٧) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٤٤ •
(٥٨) المصدر السابق ـ ج ٢ ص ٧٤٤ •

سعود ذلك برحابة صدر ، وطلب مقصا ثم قص شواربه في الحال[٥٩] .

يبدو أن ابن سعود كان يصبر على انتقادات المشايخ له حين تكون تلك الانتقادات شخصية بسيطة حيث يجد من اللباقة السياسية أن يستجيب لها لتحسين سمعته بين الناس . انما هو لا يصبر عليها حين يراها تضر بمصلحة الدولة ومستقبلها . يروي حافظ وهبة : أن بعض كبار المشايخ اجتمعوا ذات يوم في عام ١٩٣١ بابن سعود وأخذوا يلومونه على ادخاله اللاسلكي في بلاده حيث قالوا له : « يا طويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وادخاله الى بلادنا ، وان فيلبي سيجر علينا المصائب ونخشى أن يسلم بلادنا للانجليز » . فرد عليهم ابن سعود قائلا : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد ، ولست ـ ولله الحمد ـ بضعيف العقل ، أو قصير النظر ، لاخدع بخداع المخادعين ، وما فيلبي الا تاجر وكان وسيطا في هذه الصفقة ، وان بلادنا عزيزة علينا لا نسلمها لاحد الا بالثمن الذي استلمناها به . اخواني المشايخ ، انتم الآن فوق رأسي ، تماسكوا بعضكم ببعض لا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو اكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الارض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيها كلام أحد لظهور فائدتها لي ولبلادي ، وليس هناك من دليل من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله وسلم يمنع من احداث اللاسلكي والسيارات[٦٠] » .

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان جماعة من البريطانيين زاروا ابن سعود في قصره في الرياض ، وبينما هم في القصر حل وقت الصلاة ، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف امام لهم . فقرأ الامام في الركعة الاولى هذه الآية : « ولا تركنوا الى الذين كفروا فتمسكم النار » . ثم أعاد قراءة الآية في الركعة الثانية ، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود

---

(59) Armstrong (op. cit.) - P. 203.

(٦٠) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٧ .

من مكانه نحو الامام وأشبعه وخزا وركلا وهو يؤنبه قائلا : « مالك بالسياسة يا خبيث ، وما الذي تقصده من ترديد هذه الآية في كل ركعة ؟ أفلا توجد آيات غيرها ؟ »(٦١) .

اجتماع لوبن :

على أثر القضاء على حركة الاخوان أخذ المندوب السامي الجديد في بغداد السر فرنسيس همفريز يبذل جهده للجمع بين فيصل بن الحسين وابن سعود واحلال الصفاء بينهما بدلا من الخصام . وبعد مخابرات كثيرة تم الاتفاق على أن يجتمع الملكان على ظهر بارجة بريطانية في مياه الخليج العربـي .

غادر الملك فيصل بغداد بقطار خاص في ٢٠ شباط ١٩٣٠ تصحبه حاشية مؤلفة من ناجي السويدي وكورنواليس ورستم حيدر وعبدالله المضايفي وخليل اسماعيل والكابتن كلوب والدكتور سندرسن مع مرافقين وكاتب ومصور . وكان في صحبته أيضا أربعة صحفيين هم : رفائيل بطي عن جريدة «البلاد» ، والمستر كرمي عن جريدة « الاوقات العراقية » ، وسليم حسون عن جريدة « العالم العربي » ، وعبدالرزاق الحسني عن جريدة « الاهرام » المصرية .

كانت البارجة البريطانية « لوبن » راسية في مياه الخليج على بعد خمسة عشر ميلا من الفاو ، وفيها السر فرنسيس همفريز مع حاشيته . وبعد قليل اقتربت منها باخرتان احداهما تحمل فيصل ، والاخرى تحمل ابن سعود . وكانت حاشية ابن سعود مؤلفة من حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبدالعزيز القصيبي والدكتور مدحت شيخ الارض والكاتبين محمد المانع وابراهيم المعمر . ولوحظ وجود مائة وخمسين رجلا مسلحا مع ابن سعود لحمايته(٦٢) .

---

(٦١) أمين المميز (المصدر السابق) ــ ص ٦٠٩ .
(٦٢) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ .

كان ابن سعود قد اشترط لاجتماعه بفيصل شرطين ، أولهما : ان يكون الحديث بينهما قاصرا على تصفية الجو ، وابداء المودة والصداقة ، دون التطرق الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • والثاني : أن يكون الاجتماع خاليا من الموسيقى ومن التدخين • وكانت الحكومة السعودية قد أبلغت هذين الشرطين الى المندوب السامي في بغداد السر فرنسيس همفريز ، والى رئيس الوزارة العراقية ناجي السويدي • ولكن ابن سعود حين اجتمع بفيصل على البارجة « لوبن » وجده يتطرق في حديثه الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • فصبر ابن سعود حتى انتهى فيصل من حديثه ، وعند هذا أشار ابن سعود الى ما كان له من شرط مسبق في عدم التطرق الى مثل تلك المسائل • فتكلم المندوب السامي قائلا بأنه يأسف لانه لم يخبر الملك فيصل بهذا الشرط • وكذلك تكلم ناجي السويدي فقال انه رأى المصلحة تقضي باجتماع الملكين وان لا مانع من التطرق الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • فالتفت الملك فيصل نحو ناجي السويدي وأخذ يؤنبه على ما فعل • واستدرك ابن سعود الامر حيث قال : ان الامر متروك لجلالة الملك فيصل ان شاء بحث مسائل الخلاف وان شاء تركها • فكان جواب فيصل انه يرى احالة تلك المسائل الى مندوبي الحكومتين للتداول فيها • وعند هذا انسحب المندوبون الى جانب من الباخرة وصاروا يتداولون في الموضوع[٦٣] •••

عاد الملكان بعد هذا الى الحديث الخاص بينهما ، وكان حديثاً مليئاً بالمجاملة ، فكان يخاطب أحدهما الآخر ب «أخي» أو «خوي»[٦٤] • وقد اوضح ابن سعود كيف بدأت العداوة بينه وبين الحسين ، وذكر أن السبب فيها لم يكن منه • وهنا لم يتردد فيصل في توجيه بعض اللوم الى أبيه ، كما أشار الى أن المحرض الاول له كان خالد بن لؤي[٦٥] •••

(٦٣) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٥١٠ ـ ٥١٢ •
(٦٤) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص ٣٣٦ •
(٦٥) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٥١٣ •

والواقع أن هذا الاجتماع بين الملكين كان فاتحة عهد جديد في العلاقات بين الدولتين ، فلم يقع بعده ما يعكر صفو العلاقات بينهما • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان كلا الرجلين كانا من أولي السياسة الواقعية ، وقد رأيا أن من المصلحة أن تناسيا الاحقاد ، فمن شأن الحقد انه لا يؤذي الا صاحبه •

حرب اليمن :

كان هناك خلاف بين ابن سعود وامام اليمن يحيى حميد الدين حول منطقة نجران التي تقع بين اليمن ونجد ، كل منهما يدعي أنه أحق بها من الآخر • وقد جرت مفاوضات بين الفريقين مدة طويلة دون جدوى • وفي شهر آذار ١٩٣٤ نفد صبر ابن سعود ، فأنذر الامام يحيى • وفي ٢١ منه أعلن ابن سعود الحرب على اليمن ، وزحفت قواته عبر الحدود اليمانية •

كانت القوات السعودية تعتمد على السيارات في تنقلها ، وكانت مؤلفة من رتلين : أحدهما زحف بمحاذاة الساحل تحمله نحو ثمانمائة سيارة بقيادة الامير فيصل بن عبدالعزيز ، والثاني زحف باتجاه العاصمة صنعاء عن طريق صعدة بقيادة الامير سعود بن عبدالعزيز • ولم يلق الرتل الاول أية مقاومة في زحفه ، فقد كانت خطة الامام يحيى أن تنسحب قواته من الساحل وتتحصن في الجبال • وفي ٦ أيار تمكن الرتل من احتلال ميناء الحديدة من غير مقاومة • أما الرتل الثاني فكان زحفه بطيئاً جداً ولم يستطع ان يحقق أهدافه لوعورة الطريق وكثرة الجبال والوديان فيه •

أثارت هذه الحرب اهتماما كبيرا في البلاد العربية واوربا ، وألف المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين وفداً للتوسط في الصلح بين الفريقين من الحاج أمين الحسيني رئيسا ، والامير شكيب أرسلان ومحمد علي علوبة باشا وهاشم بك الاتاسي أعضاء ، وعلي افندي رشدي سكرتيرا • وكان المتوقع أن ينضم الى الوفد ياسين الهاشمي ونوري

السعيد ، ولكن موانع حالت دون ذلك • وفي ١٣ نيسان غادر الوفـــد السويس متوجهاً الى مكة ، وحين وصلها قابل ابن سعود ، ثم سافروا جميعاً الى الطائف •

وصلت الى ابن سعود البرقية التالية من الامام يحيى : « يكفي ما قد كان ، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالاسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم • بلاد يام تحت حكمكم وقد أمرنا برفع جندنا من بلاد نجران • وتفضلوا بطلب السيد عبدالله بن الوزير الى حضرتكم لاستكمال المعاهدة الاخوية ، عافاكم الله • وقد كان سحب هذه البرقية بواسطة أسمرة لاختلاط طائر الهواء لدينا — يقصد جهاز اللاسلكي — ويجري العمل على اصلاحه • فتفضلوا بالجواب عن طريق أسمرة »(٦٦) •

رد ابن سعود على برقية الامام يحيى مبدياً استعداده للصلح على شروط معينة • فأبرق الامام قبوله للشروط • وفي ١ أيار وصل الى الطائف عبدالله بن الوزير مندوب الامام يحيى • وقد بذل أعضاء وفد المجلس الاسلامي جهوداً لايستهان بها في التوفيق بين الفريقين • وفي ٢١ أيار تم التوقيع على معاهدة الصلح ، وانتهت الحرب •

أثار هذا الصلح السريع انتباه الرأي العام العالمي واستغرابه ، لان ابن سعود وافق بهذا الصلح على انسحاب قواته من الاراضي اليمانية لقاء شروط اعتبرت بسيطة جداً هي : (١) جلاء القوات اليمانية عن نجران ، (٢) تسليم الادارسة اللاجئين في اليمن الى ابن سعود ، (٣) اطلاق سراح الرهائن المعتقلين عند الامام يحيى •

المظنون أن هناك سببين رئيسيين دفعا ابن سعود الى الصلح هما :

أولاً : كان ابن سعود يخشى من تدخل الدول الأجنبية في اليمن ، والظاهر أنه كان يخشى بوجه خاص من ايطاليا ، اذ المعروف عن هـــذه

---

(٦٦) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) — بيروت — ج ٢ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ •

الدولة انها كانت ترنو بعين الطمع الى اليمن • ولما احتلت القوات السعودية ميناء الحديدة في ٦ أيار وصلت ثلاث سفن حربية ايطالية الى الميناء بحجة المحافظة على الرعايا الايطاليين ، وحاول القائد الايطالي انزال بعض جنوده الى البر ولكن القوات السعودية منعته من ذلك • ويقال ان وزارة الخارجية الايطالية أعلنت في ذلك الحين ان ايطاليا لن توافق على انتقال اليمن الى حكومة غير يمانية[٦٧] •

ثانياً : كانت القوات السعودية ليس لها تمرس في حرب الجبال ، بينما كانت القوات اليمانية على النقيض منها قد اعتادت على حروب الجبال زماناً طويلاً • وقد أذاعت بعض وكالات الانباء من القاهرة ان رتل الامير سعود تكبد في بعض معاركه الجبليه خسائر فادحة[٦٨] • ومن الممكن القول ان ابن سعود كان يخشى أن تحل بقواته في الجبال هزيمة ساحقة لا يعلم مغبتها الا الله •

يروى أن ابن سعود صرح لاحد الاشخاص الذين يثق بهم عن السبب الذي حدا به الى الصلح قائلاً : « كثيرون في بلدي وفي غيرها من بلاد العرب والمسلمين هم الذين أشاروا علي بحماس وايمان بمتابعة العمل العسكري في اليمن وضمه الى المملكة لاقامة الدولة العربية الموحدة في شبه الجزيرة العربية ، ولكني لم أصغ لكل هذه المشورات والنصائح ، لاني عندما كنت أجيل النظر في شواطيء شبه الجزيرة في الجنوب العربي كنت أرى ان بريطانيا قد احتلت كل هذه المناطق عسكريا وفرضت حمايتها عليها ، في حين أنها لم تجرب احتلال اليمن عسكريا لتفرض حمايتها عليه • ومن الواضح ان الحكومة البريطانية لم تعف عن اليمن زهداً فيه ، وانما فعلت ذلك لانها تعرف اليمنيين معرفتها لليمن وطبيعته • ولذلك فقد كان من خطل الرأي أن أقدم على انجاز خطوة ابتعدت عنها بريطانيا وهي

---

(٦٧) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ص ٢٧٨ ــ ٣٧٩ •

(٦٨) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ١٠ أيار ١٩٣٤ •

في أوج قوتها العسكرية والسياسية والمالية ، وأن أعرض نفسي وبلدي الناشيء لمغامرة تهيبتها بريطانيا وهي امبراطورية عظمى ، بالاضافة الى الخلاف الاساسي بين أهدافي العربية الاسلامية والاهداف البريطانية »(٦٩) .

ان هذا القول يفصح عن طبيعة ابن سعود في تجنب المغامرات ، فهو لا يقدم على خطوة الا بعد تمحيص وتروي ، وكأنه كان يخشى أن يحل به ما حل بأسلافه حين غامروا وتوسعوا في الفتح من غير توقف ، وكان مصيرهم الاسر والقتل وضياع المملكة .

صدى الحرب في العراق :

كان الشيعة في العراق اكثر الناس تحمساً بحرب اليمن واهتماماً بها . فهم قد تحمسوا في تأييد الامام يحيى تحمساً عظيماً ، وكانوا يأملون منه أن يفتح الحجاز ويعيد تعمير قبور البقيع . وصادف أن حل شهر محرم في نفس الوقت الذي كانت فيه الحرب ناشبة في اليمن ، فصارت نوحيات المواكب الحسينية وأهازيجها تدور حول تأييد الامام يحيى والدعاء له بالنصر المبين .

ومما يلفت النظر ان الجرائد العراقية أخذت تنشر الاخبار المثيرة حول انتصارات القوات السعودية ، وأصدرت بعض الجرائد عقب احتلال الحديدة في ٦ أيار ملاحق خاصة ذكرت فيها أن ثورة قامت في اليمن على الامام يحيى ، وهجمت الجماهير على قصره في صنعاء ، واضطر هو الى التنازل عن العرش لابنه . وذكرت الجرائد أيضا أن القوات السعودية احتلت صنعاء ونودي بالامير فيصل بن عبدالعزيز ملكا على اليمن الخ ...

ولم يهن على الشيعة قبول هذه الاخبار ، فصاروا من جانبهم يختلقون الاخبار المضادة . وانتشرت الاشاعات بينهم عن ضخامة الجيوش اليمانية وكيف أنها سوف تصل الى مكة قريبا وتسحق الجيوش السعودية وتفنيها

---

(٦٩) أحمد عسه (معجزة فوق الرمال) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٢٣ .

عن بكرة أبيها • وأبرق بعضهم الى الامام يحيى يعربون عن تأييدهم له ، فأجابهم شاكرا بواسطة « طائر الهواء » •

مشكلة أخبار حرب اليمن أنها كانت من مصدر واحد تقريباً ، هو المصدر السعودي • فقد كان لابن سعود وكلاء وأعوان منتشرون في البلاد العربية وبعض البلاد الاخرى ، وكانوا ينشرون الاخبار المبالغ فيها حول انتصارات الجيوش السعودية • أضف الى ذلك ان الصحف الاوربية كانت تجد في تلك الاخبار ما يجذب القراء خاصة فيما يتعلق بابن سعود وصعود نجمه وشخصيته البدوية الرومانتيكية • أما امام اليمن فكان قد اتخذ سياسة العزلة عن العالم ، ولم يكن له في العالم معجبون أو دعاة • ولهذا اتخذت وكالات الانباء العالمية موقف التحيز الى جانب ابن سعود وأهملت جانب الامام يحيى • ولكنها عقب اعلان الصلح صارت تنفي كثيرا من الاخبار التي نشرتها من قبل •

محاولة اغتيال ابن سعود :

بعد مرور عشرة أشهر على توقيع معاهدة الصلح جرت في مكة محاولة لاغتيال ابن سعود قام بها ثلاثة يمانيون • وخلاصة الحادثة : ان ابن سعود بينما كان يطوف حول الكعبة في اليوم الاول من عيد الاضحى من عام ١٣٥٣ هـ ـ الموافق ليوم ١٦ آذار ١٩٣٥ م ـ خرج اليه من حجر اسماعيل رجل يماني وهو شاهر خنجره ويصيح : « الله اكبر ، الله اكبر » ، فاعترضه أحد رجال الشرطة ، ولكن اليماني تغلب عليه حيث طعنه بالخنجر وأرداه قتيلا ، وعند هذا أسرع اليه أحد عبيد ابن سعود فصوّب نحوه بندقيته وقتله • وفي الوقت نفسه ظهر رجل يماني آخر وبيده خنجر ، فاقترب من ابن سعود ، ولكن الامير سعود الذي كان يطوف خلف أبيه وقاه بجسمه ، وقد أصيب الامير من جراء ذلك بطعنة في أسفل كتفه اليسرى • وأسرع اليه أحد عبيده فأطلق على اليماني رصاصة من الخلف أردته قتيلا • وكان هناك رجل يماني ثالث كامناً في حجر اسماعيل ، وقد

خرج جارياً يريد الفرار بعد مارأى مصير صاحبيه ، فأطلق عليه أحد رجال الشرطة النار من بندقيته ، فأصابه • وقد ألقي عليه القبض وفيه رمق من الحياة ، ولكنه مات قبل أن يصلوا به الى المخفر •

كان في مكة يومذاك كثير من الحجاج اليمانيين ، وقد خيف عليهم أن يهاجمهم النجديون للانتقام منهم ، ولكن ابن سعود أصدر أمره بعدم التعرض لأحد منهم ، وأنذر بالعقوبة الرادعة كل من يعتدي عليهم •

وأصدرت جريدة « أم القرى » ملحقاً خاصاً طبعت منه كميات كبيرة ووزعته بين الحجاج مجاناً لتهدئة الخواطر وتسكين الاعصاب(٧٠) •

وكان في مكة أيضا وفد كشافي عراقي مؤلف من المعلمين والطلاب برئاسة يوسف عزالدين الناصري • وقد ذهب هذا الوفد مع الوفود الاخرى لتهنئة ابن سعود بنجاته ولمعايدته ، وهتف بحياته وحياة مملكته عدة مرات • ثم ذهب الوفد لتهنئة الامير سعود ، وألقى عبدالهادي الشماع من أعضاء الوفد قصيدة لتحية ابن سعود باسم الشعب العراقي ، كما ألقى عضو آخر هو يحيى قاف كلمة قصيرة •

دعي الوفد العراقي مع غيره من الوفود والشخصيات البارزة لحضور استعراض الجيش السعودي • وحدث آنذاك حادث كاد يؤدي الى قتل أحد أعضاء الوفد • وخلاصة الحادث ان عبدالكريم عسيران ، وهو من أعضاء الوفد ، حاول أن يأخذ صورة فوتوغرافية لابن سعود عند قدومه الى الاستعراض • فظن أحد عبيد ابن سعود المرافقين له ان آلة التصوير نوع من السلاح يراد قتل سيده به ، فصوب بندقيته نحو عبدالكريم بغية قتله ، ولكن ابن سعود صاح بالعبد : « حلي ! حلي ! » • ونجا عبدالكريم(٧١) •

---

(٧٠) نعمان الامين العاني (في المملكة العربية السعودية) ـ بغداد ١٩٣٧ ـ ص ٧٨ •

(٧١) مجلة (التربية البدنية والكشافة) البغدادية ـ في عددها الخامس في ١٥ أيار ١٩٣٥ •

تولى التحقيق في حادثة محاولة الاغتيال مدير الأمن العام ، وهـــو عراقي الاصل اسمه « مهدي بك » • وبعد جهد عنيف استمر ثلاثة أيام اتضح له أن اليمانيين الثلاثة ينتمون الى قرية بيت حاضر في اليمن ، وهم علي بن علي ، وأخوه صالح ، ومبخوت بن مبخوت • وقد أرسل الامام يحيى الى ابن سعود برقية يستنكر فيها الحادث ويستفضعه ويبرأ الـــى الله منه(٧٢) • وصرح ابن سعود قائلاً : « والذي اعتقده في الامام أنــه رجل شـريف ولا يمكنني مطلقاً أن اتهمه بأن له يداً في هــــــذه المؤامرة •• »(٧٣) •وقد دار التهامس بين الناس في مكة مؤداه أن سيف الاسلام أحمــد كبير أبناء الامــام يحيى له ضــلع في تدبير المؤامرة(٧٤) والله أعلم !

من الشدة الى الرخاء :

كانت سنة ١٩٣٠ وما بعدها سنوات منحوسة على ابن سعود وعلى سكان الحجاز بوجه عام • ففيها كانت الازمة الاقتصادية الكبرى قد خيمت بكابوسها على معظم أقطار العالم ، وبذا قل مجيء الحجاج الى الحجاز • فبعدما كان معدل عدد الحجاج في السنوات السابقة يقدر بمائة ألـــف ، انخفض الى أربعين ألف في عام ١٩٣١ ، والى ثلاثين ألف في عام ١٩٣٢ ، والى عشرين ألف في ١٩٣٣(٧٥) • فســاد البؤس والحرمان في أنحـاء الحجاز ، وأصبح الكثير من سكانه على حافة المجاعة ، وصار الحجاج أينما ساروا يحيط بهم المتسولون والاطفال من كل جانب يلحفون عليهم فــي الاستجداء ، واذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكـه تهافت عليها الاطفال متكالبين من شدة الجوع •

وانخفضت عائدات الحكومة السعودية في عام ١٩٣٠ من خمسة ملايين

---

(٧٢) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ــ ج ٢ ص ٦٢١ •
(٧٣) نعمان الامين العاني (المصدر السابق) ــ ص ١٣٤ ــ ١٣٥ •
(٧٤) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ــ ج ٢ ص ٦٢١ •
(75) Monroe (Philly of Arabia) London 1973 - P. 173.

جنيه الى مليونين[٧٦] • وقد عانى وزير المالية السعودي عبدالله السليمان من ذلك أشد العناء فهو أصبح بين نارين : طلبات ابن سعود التي لايمكن ردها من جهة ، وشحة الموارد من الجهة الاخرى • ويقال انه أبدى حذقاً عجيباً في اجتياز تلك الازمة •

وقد تحمل الموظفون من ذوي الرواتب القليلة قسطاً غير قليل من هذا العناء • فقد فرض عليهم أن يساهموا في قرض كبير للحكومة ، ومرت فترة تأخر فيها دفع الرواتب للموظفين ثمانية أشهر • واضطر الموظفون أن يشركوا أصحاب الدكاكين في مصيبتهم اذ كانوا يبتاعون منهم ضروريات الحياة على الحساب واعدين اياهم أن يدفعوا لهم عند تسلم رواتبهم[٧٧] •

كان فيلبي يومذاك قوي الصلة بابن سعود ، وهو يحدثنا في مذكراته عن الحالة النفسية السيئة التي سيطرت على ابن سعود في عام **١٩٣٠** حيث يقول : « بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز ، وبدأت أرى معالم اليأس تتسلط على نفسه فتضعف من حيويته ومن تفاؤله • وكنت في ذات يوم أستقل السيارة الملكية في معيته في جولة قمنا بها بعد الظهيرة ، عندما انطلق يتحدث عن آمال بلاده وأوضاعها ، فأعرب عن قلقه بأن ضعف موسم الحج في السنة التالية سيؤدي الى كارثة اقتصادية تحل بالبلاد ، بالنظر الى عدم وجود موارد أخرى لها » • ويقول فيلبي انه انتهز الفرصة وقال لابن سعود : « ليس ثمة من داع لليأس شريطة أن تكون على استعداد للسعي بدلاً من الاتكال على مشيئة الله لانقاذك ، اذ أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم • فأنت تنام على كنوز مدفونة في الارض ثم تشكو من الفقر بينما لا تحاول القيام بأي عمل لاستغلالها » • فسأله ابن سعود : « ماذا تعني ؟ » ، فأجابه فيلبي : « أعني أن بلادك ملأى بالكنوز

---

(٧٦) خيري حماد (عبدالله فيلبي) ـ بيروت ١٩٦١ ـ ص ٢٠٨ •
(٧٧) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) ـ ص ٣٦٩ •

الدفينة من نفط وذهب وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك ولا تسمح في الوقت نفسه للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك » • فقال ابن سعود وقد بدا عليه الجهد : « اسمع يا فيلبي ، لو وجدت من يدفع لي مليون جنيه الآن فانني سأمنحه كل ما يريده من امتيازات في بلادي » • فقال له فيلبي : « ان هذه الامتيازات تساوي أكثر من هذا المبلغ بكثير ، واذا كنت تعني حقاً ما تقول فأنا أعرف رجلاً يستطيع أن يساعدك • لقد جاء لزيارتك قبل عدة سنوات ولكنك رفضت أن تقابله • وهذا الرجل موجود في القاهرة الآن ، واذا حددت لي الموعد الذي ستكون فيه في جدة فسأبرق اليه ، وأنا أضمن لك أنه سيجيء • انه على استعداد للتضحية باحدى عينيه في سبيل لقائك »(٧٨) •

ان الرجل الذي أشار اليه فيلبي هو الثري الامريكي المستر كرين الذي ترأس لجنة الاستفتاء في سوريا عام ١٩٢٠ ـ كما ذكرناه في الفصل الثالث • فكتب اليه ابن سعود يدعوه لزيارته في جدة • فجاء الرجل في أيار ١٩٣١ ، وتعهد لابن سعود بأن يستدعي على نفقته الخاصة المهندس الجيولوجي المشهور كارل تويتشل للبحث عن امكانيات البلاد المعدنية • وقد أنجز المستر كرين وعده ، فوصل المهندس تويتشل الى جدة في صيف ١٩٣١ ، وتجول في أنحاء المملكة السعودية بحثاً عن مكامن الثروات الارضية فيها • وفي ربيع ١٩٣٢ قدم لابن سعود تقريراً ذكر فيه أن هناك علامات تدل على وجود النفط في منطقة الظهران بالقرب من الخليج العربي •

وعلى أثر تقديم هذا التقرير حصل تنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في الاراضي السعودية بين شركتين : احداهما أمريكية والاخرى بريطانية • وقد تمكنت الشركة الامريكية أخيرا من الحصول على الامتياز • وفي ٢٩ أيار ١٩٣٣ وقعت الاتفاقية في جدة من قبل

---

(٧٨) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ •

المستر هاملتون ممثل الشركة الامريكية والشيخ عبدالله السليمان ممثل الحكومة السعودية •

بدأت الشركة الامريكية تبحث عن النفط في المنطقة التي عينهـــا تويتشل ، غير أنها لم تعثر على شيء • وظلت الشركة دائبة في البحث طيلة أربع سنوات دون جدوى ، حتى أدركها اليأس ، وكادت تحـــزم أمتعتها وتعود الى بلادها خالية الوفاض • وفي شهر آذار من عام ١٩٣٨ بينما كان مهندسو الشركة يقومون بمحاولتهم الاخيرة ، وهم بين اليأس والرجاء ، انبثق النفط بين أيديهم بشكل أثار دهشتهم وفرحهــــــم العظيم (٧٩) •

أخذ انتاج النفط في المملكة السعودية يزداد عاماً بعد عام ، وقـد تحولت هذه المملكة به من دولة فقيرة الى دولة تعد من أغنى الدول في العالم • انها الآن المصدرة الاولى للنفط في العالم ، والمنتجة الثالثة للنفط بعد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية ، وهي تحتل الآن المرتبة الأولى في العالم من حيث كمية النفط الكامن تحت أرضها ، اد تقدر هذه الكمية بنحو عشرين مليار طن •

زوجاته وأولاده :

كان ابن سعود مزواجاً الى درجة يندر أن يكون له مثيل فـــــي عصرنا • فقد كان يتزوج ويطلق مرة بعد مرة على أن لا يزيد عدد زوجاته على الاربع ، وهو العدد الأقصى الذي تجيزه الشريعة الاسلامية • انـه كان يحتفظ دائماً بثلاث زوجات ليكون قادراً على الزواج بالرابعة عند الحاجة ، وقد سأله أحد البريطانيين في عام ١٩١٧ عن مجموع زوجاتـه بما فيهن المطلقات فأجاب : انهن مائة وسوف أتزوج اكثر ان شاء الله (٨٠) •

---

(79) Howarth (op. cit) - P. 195.

(80) Armstrong (op. cit.) - P. 137.

والمعروف عنه أنه يتزوج ويطلق عدة مرات في السنة الواحدة ، ولكنه قرر في عام ١٩٣٠ أن لا يتزوج اكثر من زوجتين جديدتين في السنة الواحدة[٨١] .

ان كثرة الزواج هذه قد أدت الى كثرة النسل طبعاً . يروي توفيق السويدي في مذكراته : انه عندما قابل ابن سعود في جدة في عام ١٩٢٨ بصحبة السرجلبرت كلايتون ، وجه كلايتون الى ابن سعود سؤالاً عن عدد أولاده الذكور ، فأجابه ابن سعود : « انهم ثمانية عشر » . وهنا اعترض عليه أخوه محمد الذي كان معه قائلاً : « يا محفوظ ، هم أكثر ، والبركة فيهم » . فتناول ابن سعود مسبحته وصار يعد أولاده بها ، وتبين انهم واحد وعشرون . فضحك الحاضرون وضحك ابن سعود معهم[٨٢] .

بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً ، مات منهم عشرة وبقي خمسة وثلاثون . أما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً . وكان آخر ولد لابن سعود ولد في عام ١٩٤٧ عندما كان هو في الواحد والسبعين من عمره . ومما يذكر أن عدد أولاده وأحفاده ، بما فيهم البنات ، بلغ عند موته أكثر من ثلاثمائة[٨٣] .

ومن الجدير بالذكر ان ابن سعود لم يكن وحده محباً لكثرة الانسال ، بل كان يشبهه في ذلك بعض أبنائه واخوته وابناء عمه . ولهذا تكاثر عدد أفراد الاسرة السعودية بشكل يثير الدهشة ، حتى قيل ان عدد الامراء والاميرات من آل سعود بلغ مؤخراً نحو خمسة الآف .

ان هذا العدد الكبير من الامراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير في المملكة السعودية . فهم صاروا طبقة متميزة تعيش فوق القانون . وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد

---

(81) Monroe (op. cit.) - P. 171.

(٨٢) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٢٧ .
(٨٣) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٣ ص ٩٥٧ ، ١٠٠٢ ، ج ٤ ص ١٤٠٠ .

لا يحصى • ولا حاجة بنا الى القول ان اجتماع هذين العاملين ـ أي التميز الطبقي وتوافر المال ـ لابد أن يؤدي بطبيعته الى الترف الباذخ والانهماك في الشهوات بلا حدود •

أعطانا المؤلف البريطاني هوارث في كتابه « ملك الصحراء » صورة عجيبة تكاد لا تصدق عن الترف والتبذير اللذين ابتلى بهما الامـــراء السعوديون • وهو يذكر أن ابن سعود لم يكن يعرف عما كان يفعلـــه أبناؤه الا قليلاً ، وكان اذا بلغه شيء عنهم يتملكه الغضب وقد يضربهم بالعصا • ولهذا كان في أواخر ايامه بشعر بالتعاسة العميقة(٨٤) •

يقول فيلبي في هذا الشأن ما نصه :

« كانت المشكلة الكبرى التي واجهها الملك ـ يقصد ابن سعود ـ في هذا التضخم الذي طرأ على الاسرة المالكة التي غدت تكوّن بمفردها طبقة خاصة قائمة بنفسها • وكانت لدى رجال الأمن أوامر شفوية بعدم التعرض للامراء أو المساس بهم مخافة أن تنتشر أخبارهم بين الناس ••• أما المشكلة الثانية التي ازدادت نتائجها مع الايام فهي اغراق الملك فـــي سخائه وعطاياه ، وهو كرم عُرف عنه منذ أيامه الاولى ••• ولكن مـع تكاثر الاموال والموارد وتوقع استمرارها في المستقبل أخــذ سخاء الملك يفوق كل حدود الحكمة والعقل ، ويبذر بذور الفساد في طريقه • وكان أول المنتفعين من هذا السخاء حتماً نساء الحريم والامراء ، ويتلوهم رجال البلاط والحاشية والموظفون • واشتدت الشهوة عند هؤلاء في الحصول على المال كلما زاد الملك اغداقاً عليهم في عطاياه ، وبلغت الهبات حداً لم تعرفه أي بلاد في العصر الحديث • ولكن الملك نفسه لم يبدل طريقته البسيطة في الحياة ، فقد ظلت ملابسه على ما كانت عليه ، وقـد ظل على غرامه بانجاب الاطفال حتى اللحظة الاخيرة في حياته ، وان كان آخر أولاده قد ولد في عام ١٩٤٧ »(٨٥) •

---

(84) Howarth (op-cit.) - P 212 - 229.

(٨٥) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص ٢٣٦ •

كان الامراء السعوديون يخشون أباهم في حياته ، ولهذا كانوا يتكتمون في أفعالهم بمقدار جهدهم • فلما مات أبوهم في عام ١٩٥٣ انطلقوا في الملذات ينهلون منها كما يشتهون • فلقد ذهب بموته الرادع الذي كانوا يخشونه أو يستحون منه •

يتداول الناس في المملكة السعودية قصصاً مذهلة عن مبلغ الانهماك في الشهوات الذي ابتلى به الامراء بعد موت أبيهم • وربما كان في هذه القصص قسط من المبالغة أو التزويق ، كما هي عادة الرواة في مثل هذه الامور ، انما هي على أي حال قد لا تخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيرا • ان الانهماك في الشهوات أمر طبيعي في الانسان حين يغيب عنه الرادع • ولا يشذ عن ذلك الا القليل النادر من الناس •

فيلبي :

لا بد لنا في ختام هذا الفصل من القاء شيء من الضوء على حياة فيلبي ، وهو الرجل الذي ارتبطت حياته بابن سعود ارتباطاً وثيقاً • والواقع ان هذا الرجل عاش غريباً ومات غريباً ، وعده الكثيرون لغزاً من الألغاز •

ولد فيلبي في جزيرة سيلان عام ١٨٨٥ من أبوين بريطانيين • ويروي فيلبي في مذكراته حادثة غريبة وقعت له في طفولته خلاصتها : انه ضاع من أمه وهو رضيع ، وبعد البحث عنه وجدوا امرأة غجرية تحمل رضيعين في عمر واحد وبينهما تشابه عجيب كان هو أحدهما ، فاسترجعوه من الغجرية • ويتساءل فيلبي في مذكراته : هل كان هو الذي استرجعوه ، أم استرجعوا ابن الغجرية ؟ !

في عام ١٩٠٤ دخل فيلبي في جامعة كمبردج ، وأخذ يتجه في حياته الجامعية نحو الاشتراكية والحرية الفكرية • وحين تخرج من الجامعة في ١٩٠٧ دخل في خدمة الحكومة الهندية • وفي ١٩١٠ تزوج من فتاة بريطانية اسمها « دورا » • وفي ١٩١٥ انضم الى الحملة البريطانية في العراق ، وعمل في البصرة والعمارة وبغداد حيث تعلم اللغة العربية •

وفي عام ١٩١٧ سافر فيلبي في بعثة سياسية الى الرياض ، فوصلها

في ٣٠ تشرين الثاني ، وقابل ابن سعود ، ثم عبر الصحراء بملابس عربية قاصداً جدة ، فوصلها في ٣١ كانون الاول ، وقابل الحسين فيها • وكانت سفرته تلك ذات أثر قوي في حياته اذ هو شعر بالتعاطف مع ابن سعود وأحب الصحراء والتغلغل في مجاهلها •

عند عودة فيلبي الى العراق أوعز اليه بالسفر الى الرياض مرة أخرى ، فقابل ابن سعود للمرة الثانية ، وقد سرّ به ابن سعود سروراً كبيراً ، أو تظاهر له بذلك • وقد انتهز فيلبي الفرصة فتجول في الصحاري الجنوبية لاكتشاف مجاهلها وكان معه حرس مؤلف من عشرين رجلاً جهزه بهم ابن سعود • ثم عاد فيلبي من بعد ذلك الى العراق •

في أواخر ١٩١٨ مُنح فيلبي اجازة يقضيها في بلاده ، فوصل الى انكلترا بعد غياب عنها اكثر من عشر سنوات • وبعد انتهاء اجازته قام ببعض المهام التي كلفته بها حكومته • وفي آب ١٩٢٠ أُمر بالعودة الى العراق في معية المندوب السامي السر برسي كوكس ، ولكنه لم يمكث في العراق طويلاً لأنه اختلف مع كوكس حول السياسة التي انتهجها في العراق ، فقد كان فيلبي يدعو الى انشاء النظام الجمهوري فيه بينما كان كوكس مأموراً بتنصيب فيصل ملكاً • وقد اضطر كوكس أخيراً الى نقل فيلبي الى شرقي الاردن(٨٦) •

أمضى فيلبي سنتين ونصف في وظيفته في شرقي الاردن ، وقد اختلف مع السر هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين على نحو ما اختلف قبل ذلك مع السر برسي كوكس • فاستقال من وظيفته ، وكتب الى صديق له يذكر سبب استقالته حيث قال : « اني استقلت من هذا العمل لاسباب كثيرة جداً وفي مقدمتها اني لا أقدر أن أواصل العمل مع المندوب السامي الحالي الذي هو يهودي صهيوني والذي لا يستطيع أن يحفظ التوازن بين المصالح الصهيونية والعربية • أضف الى ذلك ان

(٨٦) انظر تفاصيل ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني •

عبدالله قد خذلني باسرافه الذي وصل الى حد أدى الى تدخل الحكومة البريطانية ، وهذا معناه تدخل النفوذ الصهيوني • ولهذا خرجت »(٨٧) •

وفي نيسان ١٩٢٤ مُنح فيلبي اجازة طويلة كمقدمة للاستقالة ، فغادر عمان في ١٧ منه ، وبعد أن تجول في تركيا ذهب الى انكلترا • وفي ٢٨ تشرين الاول وصل الى جدة للتوسط في الصلح بين الملك علي وابن سعود ـ على نحو ما ذكرناه في الفصل السادس •

بعد استيلاء ابن سعود على جدة عاد فيلبي اليها ، وفتح محلاً تجارياً فيها • وقد حصل على وكالة فورد للسيارات ، كما استورد آلات المسح وأدوات الهندسة والمراوح التي تعمل بالنفط • وفي الوقت نفسه صار فيلبي مستشاراً لابن سعود وصديقاً ، وكان ابن سعود يثق به ويستمع الى نصيحته •

ان التقارير السرية التي كتبها القنصل البريطاني في جدة الى حكومته في تلك الفترة تدل على أن فيلبي كان يبدي نشاطاً ملحوظاً في بث الدعاية المضادة لبريطانيا وفي عرقلة مصالحها • ففي أحد تقاريره يقول القنصل : « ان فيلبي متمسك بكل عناد بديانته التي هي ديانة ثنوية تمثل بريطانيا فيها آله الظلام »(٨٨) • وفي تقرير آخر يقول : « انني أعتقد أن وجود فيلبي في جدة لن يؤدي الى تحسين العلاقات بين بريطانيا وابن سعود »(٨٩) • وفي تقرير ثالث يقول : « ان نشاط المستر فيلبي مستمر • ويبدو أنه لا يضيع أية فرصة لخلق المصاعب لحكومة صاحب الجلالة البريطانية • ولست أدري ما هو قصده من ذلك ، هل هو لتملق المسؤولين هنا من أجل الحصول على امتيازات معينة ، أم من جراء كونه موظفاً سابقاً متذمراً يريد الانتقام من حكومته ••• »(٩٠) •

(87) Monroe (op. cit.) - P. 132 .

(٨٨) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١٠٨٠٧) •

(٨٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٣١) •

(٩٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٤٢) •

وفي شهر آب ١٩٣٠ أعلن فيلبي اعتناقه للاسلام ، وسمى نفسه « عبدالله » • وقد اختلفت الاقوال في السبب الذي حدا به الى ذلك ، فمنهم من قال ان مناخ جدة لم يلائم فيلبي ، وقد أغمى عليه فيها صيفاً ، فأراد الانتقال منها الى بعض المدن السعودية الاخرى • كما أنه كان يطمح الى تحقيق هدفه الاكبر وهو أن يكون أول من يخترق منطقة الربع الخالي ، وقد وجد ان اعتناقه الاسلام يسهل عليه ذلك (٩١) • وهناك من يقول ان سبب اعتناق فيلبي للاسلام هو حبه للنساء ، ولا سيما الشابات منهن ، وقد وجد في الاسلام وسيلة سهلة للتزوج بهن كما يشتهي •

أما فيلبي فيكذب هذه الاقوال كلها ويقول انه انما اعتنق الاسلام عن اقتناع واخلاص • وقد أشار الى ذلك في مذكراته حيث قال ما نصه :

« لقد اجتذبني الاسلام منذ أيامي الاولى في الهند ، اذ تأثرت بما فيه من بساطة في تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها • وكنت قد توقفت منذ أمد طويل عن أكون مسيحياً وأصبحت فيلسوفاً أتطلع الى الحياة بنظرة فلسفية عميقة دون أن تكون لي أية معتقدات أو مشاعر دينية ، على الرغم من اعترافي بان الديانة تؤلف لغالبية الناس ضرورة لا مناص منها • ومع ذلك فقد بدا لي ان الاسلام في الهند قد أصبح محاطاً بسلسلة من الطقوس والمظاهر الغريبة عنه ، وهي طقوس ومظاهر لا يمكن للانسان أن يتقبلها الا بعد تمحيص دقيق • وعندما انتقلت الى العراق وجدت طائفتها السنية كثيرة التملق بالرسميات والمظاهر في أداء الفروض الدينية ، بينما وجدت من الصعب أن أؤمن بالنظرية الشيعية التي تستند الى الائمة والأولياء • وعندما مضيت الى السعودية اتصلت بما بدا لي الفكرة المبسطة عن الاسلام تستمد وحيها والهامها من القرآن الكريم

---

(91) Howarth (op. cit .) - P. 179 .

وسنه الرسول الأعظم ، وتبتعد عن النظريات والعقائديات الدينية المتشابكة والمعقدة . وبدا لي أن المذهب الوهابي هو الدين المثالي ، ولم أجد في تعصب أتباعه ما يسوءني أو ينفرني ، ورأيت أن مذهبهم يتفق مع حاجات الحياة البشرية والمجتمع في أبسط صورهما . واعتقدت ان الاسلام على هذه الطريقة هو المذهب الذي يستطيع الانسان أن يتقبله قبولاً حسناً ويؤمن به ايماناً صادقاً كوكيل موجه للحياة والسلوك ، وان مقاييسه الدينية تنسجم مع الحاجات الاساسية للبشرية أكثر من أي دين آخر . واذا كانت فيه بعض الخشونة فانه من الناحية الاخرى يرفض كل زيف وخداع ، كما أنه يرى في تعدد الزوجات خير سبيل لمنع العهر والدعارة من سبيل الوصايا العشر »(٩٢) .

مهما كان الحال فقد أصبح اسلام فيلبي خبراً مثيراً في البلاد العربية والعالم ، وكان معظم الناس في البلاد العربية يظنون ان اسلامه مصطنع لغرض التجسس أو الدس . وقد كتب اليه السر برسي كوكس يقول له : انه قام بحركة سيئة . كما انتقده السر آرنولد ويلسون في جريدة « الاوقات البغدادية » . أما زوجته « دورا » التي كانت حينذاك في انكلترا فقد انزعجت من اسلامه خشية أن يتزوج عليها امرأة اخرى ، ولكنها تظاهرت أمام الناس بالرضا وقالت لهم : « أظن أنكم تعلمون انني الآن مسز عبدالله »(٩٣) .

ومن الجدير بالذكر ان ما كانت تخشاه « دورا » قد حصل فعلاً . فبعد مدة قصيرة من اعتناق فيلبي للاسلام كان جالساً في مجلس ابن سعود ، فتحدث ابن سعود عن عزمه أن لا يتزوج بعد الآن أكثر من زوجتين جديدتين في كل سنة ، فقال له فيلبي معاتباً : « لا تنس أني ليست

---

(٩٢) خيري حماد (المصدر السابق ــ ص ٢٥٣ــ٢٥٤ .
(93) Monroe (op. cit.) - P. 169 .

لي سوى زوجة واحدة طيلة حياتي » • فرد عليه ابن سعود قائلاً : « انك الآن بعد دخولك الاسلام سوف تستفيد من حرية اكبر في هذا الشأن » • وعلى أثر ذلك أهدى ابن سعود الى فيلبي جارية صغيرة اسمها « مريم بنت عبدالله الحسن » • وقد كتب فيلبي الى زوجته « دورا » يصف تلك الجارية بقوله : « انها ليست جميلة على أية حال ، ولكنها شابة وحلوة الى درجة كافية »(٩٤) •

مرت بفيلبي خلال الحرب العالمية الثانية فترة عسيرة جداً • فقد اتهمته حكومته بالميل الى المانيا النازية ، وحين ذهب الى الهند اعتقلته ونقلته الى بريطانيا ، وظل هناك طيلة الحرب • ويدّعي فيلبي ان نوري السعيد هو الذي وشى به الى الحكومة البريطانية(٩٥) • ولما عاد فيلبي الى المملكة السعودية بعد اطلاق سراحه أهداه ابن سعود جارية جديدة من أصل بلوشي أو فارسي اسمها « روزي العبد العزيز » • وكانت هذه الجارية نحيلة قصيرة في السادسة عشرة من عمرها ولكنها جميلة(٩٦) • أما جاريته الاولى فلا ندري ماذا صنع الدهر بها ، وربما أعتقها فيلبي أو أهداها ــ والله أعلم !

كانت لفيلبي داران متواضعتان أهداهما له ابن سعود ، احداهما في الرياض والاخرى في مكة • وصار فيلبي يقيم في الرياض تارة وفي مكة تارة أخرى • وقد أنجبت له جاريته الجديدة أربعة أولاد مات اثنان منهم ، وبقي اثنان هما : خالد وفارس • وكان فيلبي حريصاً على تربية هذين الولدين تربية عربية اسلامية •

يحدثنا أمين المميز : انه زار فيلبي في ٢٤ كانون الاول ١٩٥٤ ، في

---

(94) Ibid , P. 171 .

(٩٥) أمين المميز (المصدر السابق ــ ص ٢٧٧ •

(96) Monroe (op. cit.) - P. 244 .

داره التي في مكة وكانت مجاورة للحرم ، فوجد الدار بسيطة مكونة من طابق واحد ، وكانت غرفة الاستقبال مؤثثة بأبسط الاثاث . وقد جاء اليه ولداه الصغيران خالد وفارس ، فطلب فيلبي من خالد أن يذهب الى أمه يدعوها للسلام على الضيف ، فذهب خالد الى أمه ثم عاد مكسور الخاطر وهو يقول بلهجة نجدية : « ما تبغي تجي » . ويقول المميز انه صحب فيلبي بعد ذلك للصلاة في الحرم ، فرآه يؤدي الصلاة بكل خشوع ويتلو الادعية والآيات القرآنية من أعماق قلبه . ويعلق المميز على ذلك قائلاً : « فهو ، والحق أشهد ، مسلم مؤمن بكل معنى الكلمة »(٩٧) ...

ظلت علاقة فيلبي بابن سعود حسنة حتى النهاية ، ولما مات ابن سعود أخذت علاقته مع ابنه الملك سعود تسوء تدريجاً . وسبب ذلك ان فيلبي بدأ ينتقد الترف والتفسخ اللذين سادا المملكة في العهد الجديد ، وكتب بعض المقالات حول ذلك في الصحف الاجنبية مما أغضب عليه الملك سعود وحاشيته . وفي أواخر نيسان ١٩٥٥ أُخرج فيلبي من البلاد .

ذكرت الحكومة السعودية للقائم بأعمال السفارة البريطانية في جدة الاسباب التي دعتها لاخراج فيلبي من البلاد ، وهي : (١) نشره للشيوعية في داخل المملكة السعودية ، (٢) عمالته للصهيونية ودعوته لليهود ، (٣) دأبه في كتاباته على الانتقاص من منزلة الملك سعود بالمقارنة الى أبيه ، (٤) استمراره على نشر المقالات في الصحف الاجنبية في انتقاد المملكة السعودية وسياستها ، (٥) القائه أخيراً سلسلة من المحاضرات على موظفي شركة أرامكو في الظهران تتضمن الطعن بالمملكة ورجالاتها(٩٨) .

اتخذ فيلبي بعد نفيه بيتاً له في قرية عجلتون في لبنان ، واستدعى

---

(٩٧) أمين المميز (المصدر السابق) ـ ص ٢٧٦ .
(٩٨) المصدر السابق ـ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

اليه من الرياض زوجته الجديدة وولديه خالد وفارس • وفي ٧ ايلول ١٩٥٥ وصلت الزوجة والولدان الى مطار بيروت ، فطلب منها فيلبي أن تسفر عن وجهها حالاً[٩٩] ، فأطاعت أمره مرغمة •

أصبح اخراج فيلبي من المملكة السعودية محوراً لدعاية سيئة ضدها، وأخذت بعض الصحف البريطانية تنشر المقالات حول ما يجري في المملكة السعودية من تفسخ وتبذير • وقد ساهمت اذاعة بغداد في هذه الحملة مما أدى الى توتر شديد في العلاقة بين العراق والمملكة السعودية • واضطر الملك سعود أخيراً الى مصالحة فيلبي والى السماح له بالعودة الى الرياض •

وفي صباح ٣٠ ايلول ١٩٦٠ ، عندما كان فيلبي في بيروت في زيارة عابرة لها ، أصيب بهبوط بالقلب ، فنقل الى مستشفى الجامعة الامريكية • وفي غروب ذلك اليوم لفظ فيلبي أنفاسه الاخيرة ، وكانت آخر كلمة نطق بها هي : « أنا سئمت » • وفي ظهر اليوم التالي نقل جثمانه الى مقبرة « الباشورة » الاسلامية في حي البسطة • ولم يكن في تشييع جنازته سوى عشرة أشخاص كان فيهم ولده الاكبر « كيم » • وقد أمر « كيم » أن ينقش على قبر أبيه هذه العبارة : « أعظم مكتشفي جزيرة العرب »[١٠٠] •

مهما اختلفت الآراء في فيلبي وأهدافه في الحياة ، فهناك اتفاق بين الباحثين على أنه كان نزيهاً مترفعاً عن الدنايا ، وقد كان في مقدوره أن يكسب الملايين من ابن سعود أو من ابنه سعود ، كما فعل الكثيرون ، ولكنه مات ولم يملك من حطام الدنيا الا القليل • والواقع أنه أفضل من أولئك الذين جمعوا الملايين ، اذ هم تركوها لغيرهم يتنعمون بها وتحملوا هم أوزارها •

---

(99) Monroe (op. cit.) - P. 284 .

(100) Ibid ' P. 295 .

خاتمـــة

دروس من التاريـــخ

عند صدور الاجزاء الاولى من هذا الكتاب أخذ بعض النقـــاد ينتقدونني على أنـي أصبحت مؤرخاً وأهملت الجانب الاجتماعـــي من التاريخ . مشكلة هؤلاء النقاد أنهم يفهمون علم الاجتماع فهمـاً محدوداً ، أو مغلوطاً من بعض الوجوه . ان الحقيقة التي أود أن يعرفها هؤلاء النقاد هي أنه لا يوجد فاصل حدي يفصل بين التاريخ والاجتماع . فكلا الأمرين مترابطان ، أو هما وجهان لشيء واحد .

قبل ربع قرن تقريباً كان بعض علماء الاجتماع يسيرون فـــي دراساتهم على الطريقة التي يريدها هؤلاء النقاد ، اذ هم كانوا اذا أرادوا دراسة مجتمع انكبوا على دراسة حاضره دون الاهتمام بدراسة ماضيه . وقد شاعت هذه الطريقة في الولايات المتحدة شيوعاً كبيراً ، حيث كان العلماء يريدون أن يجعلوا من الاجتماع علماً كعلوم الطبيعة ، ولهـــذا صاروا يستندون في دراستهم علـى مناهج الاحصـــاء والاستبيان ومـــا أشبه . وقد تبين للكثيرين منهم مؤخراً ان طريقتهم هذه ناقصة وقـــد لا تصل بهم الى نتيجة مجدية . أنقل فيما يلي قولاً في هذا الشأن لعالم مشهور من علماء الاجتماع الامريكيين ، هو الأستاذ روبرت نيسبت ، ذكره في كتاب له صدر في عام ١٩٧٠ ، حيث قال :

« ان الفجوة بين علم الاجتماع والتاريخ أخذت في السنوات الاخيرة تتقلص باستمرار ، وهي الفجوة التي كانت موجودة لمدة طويلة ولا سيما في الولايات المتحدة الامريكية . ففي السنوات العشر أو العشرين الاخيرة صار المؤرخون ينتفعون من مفاهيم علم الاجتماع تدريجاً ، وكذلك صار الاجتماعيون ينتفعون من المعلومات التاريخية ... ان اكبر منفعة جناها الاجتماعيون من التاريخ هي في موضوع التغير الاجتماعي ... »[1] .

(1) Robert Nisbet (The Social Bond) — New york 1970 — P. 344—345 .

بين الماضي والحاضر :

الواقع ان الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروساً لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدها من التجول في أنحاء المجتمع • وبعبارة أخرى : ان تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعاً عن تجوله في المكان ، كلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الانسان •

خذ مثلاً حركة « الاخوان » التي استفحلت في نجد عقب الحرب العالمية الاولى ، والتي درسناها على شيء من التفصيل في فصول سابقة • فان هذه الحركة قد تعطينا دروساً اجتماعية لا تقل قيمة عن تلك التي نستمدها من دراسة ظاهرة اجتماعية معاصرة •

ان القارىء حين يرى مظاهر التعصب المفرط لدى الاخوان كتحريمهم للتلفون والتلغراف ، أو للدراجة والطائرة ، قد تتملكه الدهشة اذ هو لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للعقل البشري أن يهبط الى مثل هذا المنحدر العجيب • ان القارىء لا يدري أن عقله لا يختلف عن عقل الاخوان في شيء ، فكلاهما من طبيعة واحدة ، ولكن الظروف التي ينشأ فيها العقل هي التي تجعله يفكر على هذا النمط أو ذاك • ولو أن القاريء كان قد نشأ في مثل تلك البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الاخوان لكان مثلهم في تفكيره وسلوكه ، ولربما رأيناه يحمل السيف ليقتل به أمثال كاتب هذه السطور !

اني أدركت في صباي أناساً في العراق كانوا يحرمون قراءة الجريدة ودخول المدرسة وتعلم اللغة الانكليزية ولبس القبعة وحلق اللحية واستعمال الملعقة في الأكل • وفي عام ١٩٢٤ صدر في النجف كتاب مطبوع لأحد رجال الدين هو الشيخ عبدالله المامقاني كان عنوانه : « السيف البتار في الرد على من يقول ان الغيم من البخار » • وشهدت في تلك الآونة رجلاً من العامة يعتدي على آخر لأنه سمعه يقول بأن

المطر من البخار • وقد يعجب القاريء اذا علم أن خمسة كتب صدرت في العراق في موضوع تحريم حلق اللحية وهي : (١) « ارشاد أهل الحجى في حرمه حلق اللحى » لمحمد حسن كبة ، (٢) « تحريم حلق اللحية » لقاسم الجليلي ، (٣) « التفتيش في حلق الريش » لهبة الدين الشهرستاني ، (٤) « ذكرى ذوي النهى في حرمة حلق اللحى » لحسن الصدر ، (٥) « زينة الرجال ـ رسالة في اثبات حرمة حلق اللحية » لمحمد حسين الأديب • وربما كانت هناك كتب أخرى في هذا الموضوع لا نعرفها •

لا يجوز أن نلوم هؤلاء على ما قالوا أو فعلوا ، فهم ليسوا الا نتاج بيئتهم وظروفهم • ومن يدرس تاريخ الشعوب الاوربية يجد أنها لم تكن تختلف عنا من هذه الناحية عندما كانت ظروفها تماثل ظروفنا •

ان العقل البشري يخضع في تفكيره للقوالب التي تصبها البيئة الاجتماعية فيه • فلو أن انسانا نشأ في بيئة مليئة بالخرافات ، وظل يعيش في تلك البيئة لا يعرف غيرها ، لرأيناه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن تلك الخرافات حقائق واضحة ، وهو يعجب حين يجدنا لا نوافقه على معتقداته ، وقد يحقد علينا ويضمر لنا الشر •

رأيت ذات مرة رجلاً يتحمس لعقيدته التي نشأ عليها تحمساً شديداً ، فسألته : لو أنه كان قد نشأ في البلدة الفلانية ، وهي بلدة مخالفة في عقيدتها لبلدته ، فهل كان يتحمس لتلك العقيدة مثل هذا الحماس ؟ فكان جوابه : « نعم بكل تأكيد لان الحق واضح وضوح الشمس ! » • انه لا يدري انه لو كان قد نشأ في البلدة الاخرى لوجد الحق واضحاً في الجانب الآخر •

طبيعة الانسان :

اني حين أدرس أحداث التاريخ أشعر كأني أنظر الى أحداث تجري في أيامنا • لا أنكر أن هناك فروقاً كثيرة بين أحداث الماضي والحاضر ،

ولكننا يجب أن لا ننسى ان هذه الفروق ظاهرية ، أما الجوهر فهو واحد لا يتغير ، وأقصد به هذا الحيوان العاقل الذي يُدعى « الانسان » •

ان الانسان قد تغير كثيراً في عاداته وأزيائه ، وفي قيمه ومعتقداته ، حسب تغير الزمان والمكان ، انما هو في أساس طبيعته لم يتغير ، حيث بقي هو هو ذلك الحيوان المتعصب الذي عرفناه منذ قديم الزمان • وأرجح الظن أنه سيبقى كذلك الى ما شاء الله •

اتفق الفلاسفه على أن أهم فرق بين الانسان والحيوان هو العقل ، ولكنهم اختلفوا في تعريف كنه هذا العقل وفي تحديد مجاله • فقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون ان العقل البشري قادر أن يدرك الحقيقة كاملة اذا تخلص من التعصب والانانية والعاطفة وغيرها من معوقات التفكير الصحيح ، وكانوا يتصورون ان التخلص من هذه المعوقات أمر يسير وأنه في مقدور أي انسان أن يفعله اذا أراد •

قيل لهؤلاء الفلاسفة : اذا كان في مقدور الانسان أن يتخلص من معوقات التفكير الصحيح كما تزعمون ، فلماذا لم تتخلصوا أنتم منها ؟ ! فنحن نراكم تختلفون فيما بينكم وتتنازعون كما يختلف العوام ويتنازعون • وهذا معناه أن عقولكم في أساس طبيعتها لا تختلف كثيراً عن عقول العوام •

أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان العقل البشري متحيز ومحدود بطبيعته ، وان معوقات التفكير الصحيح كالتعصب والانانية والعاطفة ليست طارئة عليه بل هي دوافع أصيلة فيه •

ان الانسان قادر أن يكون منصفاً وموضوعياً في حكمه على أمر من الأمور اذا كان ذلك الأمر خارجاً عن نطاق تعصبه الاجتماعي أو مصلحته الخاصة أو عاطفته • ولا يكاد الأمر يدخل في نطاق هذه الدوافع ، كلها أو بعضها ، حتى نجد الانصاف والموضوعية بدأتا تختفيان من ذهن الانسان ، وعند هذا يصبح الانسان كغيره من الناس ظالماً وهو يظن أنه عادل •

تمكن الانسان الحديث من الصعود الى القمر ، ولكنه في الوقت نفسه ظل كما كان أسلافه منذ آلاف السنين يشن الحروب ويقترف الفظائع

ويمارس التمييز العنصري والطائفي • فهو قد تقدم تقدماً عظيماً من ناحية ، انما هو من الناحية الاخرى ظل يراوح في مكانه •

رأينا الاخوان النجديين يقترفون الفظائع المنكرة وهم يحسبون أنهم سائرون على سنة الله ورسوله ، فاعتبرنا ذلك منهم همجية تنافي الحضارة ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بعدئذٍ فرأينا بعض المتحضرين لا يقلون همجية عن الاخوان ، وربما تفوقوا عليهم من بعض الوجوه • فان ما فعلوه في معسكرات الاعتقال وغرف الغاز والمذابح الجماعية ما يمكن أن يستنكره حتى الاخوان • يجب أن لا ننسى ان الاخوان كانوا يتيحون فرصة لمن يقع في أيديهم في أن يتوب من كفره ويستغفر الله عنه ، وهم عند ذلك يعفون عنه ويقبلونه ويهنئونه بالايمان • أما المتحضرون فلم يكونوا يقبلون توبة ولا استغفاراً !

ان الانسان بوجه عام يكون طيباً بشوشاً نحوك حين تكون منسجماً مع دوافعه التي ذكرناها • انما هو لا يكاد يراك معارضاً له فيها أو منافساً له عليها حتى تنقلب ابتسامته الى تكشيرة ، والويل لك حين يسلّطه الله عليك •

نلاحظ هذا في الطفل البشري منذ سنواته الباكرة ، فهو لطيف جداً معك لانه يجد نفسه ضعيفاً تجاهك وهو يتوقع منك المنفعة والرعاية • غير أنه لا يكاد يلمح طفلاً أضعف منه وبيده لعبة يلهو بها حتى يسرع الى مهاجمته ، ويلطمه وينتزع اللعبة منه قسراً ، ثم يتركه يبكي دون أن يشعر بأيه شفقة عليه •

* * *

اني اعتذر للقارىء لتكرار هذه الاقوال في كتبي مرة بعد مرة • فهي في نظري تتضمن حقيقة كبرى يجب علينا استيعابها لكي نفهم بها أحداث التاريخ وظواهر المجتمع •

ان الذي أردت قوله في هذه الخاتمة هو أن الدنيا سارت ، وما زالت تسير ، على وتيرة واحدة لا تتغير ، ومن يريد أن ينجح فيها ينبغي أن يفهمها كما هي في الواقع لا كما يجب أن تكون •

فهرس المحتـويات

حول الاخطاء المطبعية

وقعت أخطـاء مطبعيــة في هذا الملحق على الرغم من شـدة العنايــة بالتصحيح ، وهي أخطاء نأمل أن يفطن القارىء اليها ويصححها بنفسه .

* * *

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٩٥٢ لسنة ١٩٧٩

٣٥٧ / ١٢٠٠٠

٢٣/ ١/ ١٩٨٠

كتب المؤلف

(١)	شخصية الفرد العراقي	بغداد	١٩٥١
(٢)	خوارق اللاشعور	بغداد	١٩٥٢
(٣)	وعاظ السلاطين	بغداد	١٩٥٤
	(ترجم الى الفارسية في عام ١٩٥٥)		
(٤)	مهزلة العقل البشري	بغداد	١٩٥٥
(٥)	اسطورة الأدب الرفيع	بغداد	١٩٥٧
(٦)	الاحلام بين العلم والعقيدة	بغداد	١٩٥٩
(٧)	منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته	القاهرة	١٩٦٢
	(صدرت طبعته الثانية في تونس عام ١٩٧٧)		
(٨)	دراسة في طبيعة المجتمع العراقي	بغداد	١٩٦٥
	(ترجم الى الألمانية في عام ١٩٧٢)		
(٩)	لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث		
	الجزء الاول	بغداد	١٩٦٩
	الجزء الثاني	بغداد	١٩٧١
	الجزء الثالث	بغداد	١٩٧٢
	الجزء الرابع	بغداد	١٩٧٤
	الجزء الخامس (القسم الاول)	بغداد	١٩٧٧
	الجزء الخامس (القسم الثاني)	بغداد	١٩٧٨
	الجزء السادس	بغداد	١٩٧٦
	الجزء السادس (ملحق)	بغداد	١٩٧٩
	الجزء السابع	بغداد	

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME SIX — SUPPLEMENT

SECOND EDITION